هدية العدد
الأزهر والشيعة
بقلم لفيف من العلماء
دراسة وتقديم أ.د/ محمد عمارة

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
المحرم ١٤٣٤ هـ - ديسمبر ٢٠١٢ م الجزء "١" السنة "٨٦"


أ. د. محمد عبد الله دراز


العلامة الفيلسوف- علي عزت بيجوفيتش


العلامة الإمام: البشير الإبراهيمي

الافتتاحية

الإسلاموفوبيا
أ.د. محمد عمارة

المانوية الجديدة وقتل الآخر
أ.د. طه عبد الرحمن

نحو مشروع تجديدي حضاري للفقه الإسلامي
أ.د. وصفي عاشور أبو زيد

ما يتجلى لنا فى وجه النبوة
العلامة: فتح الله كولن

١١
٢٠٠٠٥
دوريات

AlAZHAR MAGAZINE

في العدد القادم

الافتتاحية

مؤشرات حول المسيحية والإسلام فى الغرب
أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن
لفضيلة الإمام محمد عبده

المسلمون وأهل الكتاب
أ.د. محمد سليم العوا

فتاوى لها تاريخ
لفضيلة الشيخ: محمود شلتوت

خالد محمد خالد: مفكر مسلم شجاع
أ.د. حلمي محمد القاعود

هدية عدد صفر

تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب
تقديم : أ.د. محمد عمارة

www.AlazharMag.com

السعر جنيه


facebook.com/AlAzharMag

١١ ع ٢٢٢٥ دوريات

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

مكتبة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير عام التحرير
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود القشتي

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com



الإسلاموفوبيا

معالم فى المشهد الغربى الراهن إزاء الإسلام



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

١ ـ فى ثمانينيات القرن العشرين، دعا الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣ ـ ١٩٩٤م) ـ فى كتابه ـ (الفرصة السانحة) ـ دعا أمريكا وأوروبا وموسكو إلى الاتحاد فى مواجهة الأصولية الإسلامية ـ التى تريد:

ـ «بعث الحضارة الإسلامية».

ـ «وتطبيق الشريعة الإسلامية».

ـ «واتخاذ الإسلام دينا ودولة».

ودعا نيكسون ـ إلى دفع العالم الإسلامى فى طريق «كمال أتاتورك» (١٨٨١ ـ ١٩٣٨م) طريق العلمانية، وربط العالم الإسلامى بالحضارة الغربية.

٢ ـ وفور سقوط الاتحاد السوفيتى والنظم الشيوعية ـ أوائل سنة ١٩٩١م ـ كشفت مجلة (شئون دولية) ـ التى تصدر فى «كمبردج» بإنجلترا ـ عن السر فى اتخاذ الغرب الإسلام عدوا ـ أحله محل الخطر الأحمر ـ وقالت إن السر هو استعصاء الإسلام والمجتمعات الإسلامية على العلمنة، ومن ثم على التبعية للنموذج الغربى ـ العلمانى ـ فى التحديث، الأمر الذى جعله يمثل ـ كما قالت ـ «تحديا للثقافة الغربية».

٣ ـ وفى يوليو سنة ١٩٩٠م صرح «جيانى ديميكليس» ـ رئيس المجلس الوزارى الأوروبى ـ بأن المواجهة مع الشيوعية قد انتهت، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين الغرب وبين العالم الإسلامى.. وذلك هو مبرر بقاء حلف الأطلنطى، رغم إلغاء حلف وارسو.

٤ ـ وفى أكتوبر سنة ١٩٩١م، صرح الكاردينال «بول بوبار» ـ مساعد بابا الفاتيكان ـ «بأن الإسلام يشكل تحديا لأوروبا وللغرب عموما.. وأن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف.. وأن الإسلام يفتح

أوروبا فتحا جديدا».

٥ ـ وفى سنة ١٩٩٣م كشف «صموئيل هنتنجتون» (١٩٢٧ ـ ٢٠٠٨م) ـ المفكر الاستراتيجى الأمريكى الشهير ـ عن موقف الغرب وفلسفته فى صراع الحضارات.. وأشار على صانع القرار الأمريكى أن يبدأ بتحييد الحضارات العالمية، حتى يفرغ من صراعه مع الحضارة الإسلامية.. ثم الحضارة الكونفوشيوسية.. ثم يستدير ـ بعد ذلك ـ للانفراد بالهيمنة على العالم.

٦ ـ وكتب المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فوكوياما» يقول: إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة المستعصية على قبول الحداثة الغربية.. وعلى المبدأ الأساسى فى هذه الحداثة، وهو العلمنة وفصل الدين عن الدولة.. وقال: إن المسألة ليست حربا على الإرهاب، وإنما هى حرب على العقيدة الأصولية الإسلامية ـ الرافضة للحداثة الغربية ـ وأن هذه العقيدة الأصولية الإسلامية هى أخطر من الفاشية والشيوعية.

٧ ـ وفى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥م، قرر الكونجرس الأمريكى اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، لأنها ـ كما قال ـ «الوطن الروحى لليهودية».. وشرعت الحكومة الأمريكية فى بناء سفارتها ـ بالقدس ـ على أرض مملوكة للوقف الخيرى الإسلامى.

٨ ـ وفى أبريل سنة ١٩٩٩م، وسع حلف الأطلنطى ـ فى مؤتمر الذكرى الخمسين لتأسيسه ـ والذى عقد بأمريكا ـ وسع نطاق تدخله العسكرى من «أراضى الدول المشتركة فيه» إلى «مصالح الدول المشتركة فيه»، وذلك إعلانا عن جعل العالم الإسلامى ميدانا لتدخله العسكرى ـ وفق هذا التعديل.

٩ ـ وفى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وقبل بدء التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر ـ أعلن الرئيس الأمريكى «بوش الصغير» «الحملة الصليبية» على العالم الإسلامى.. ورغم الكلام عن أن هذه العبارة إنما كانت «زلة لسان» فإن الوقائع قد شهدت على أنها حقيقة مقصودة.. وعلى أن أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م كانت «الفرصة السانحة» ـ التى جعلها «نيكسون» عنوانا لكتابه!


برلسكونى


تونى بلير

١٠ ـ وفى ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، أعلن «تونى بلير» ـ رئيس وزراء إنجلترا ـ أن هذه الحملة هى «حرب المدنية والحضارة (فى الغرب) على البربرية فى الشرق».

١١ ـ وفى ٢٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م أعلن «سلفيو برلسكونى» ـ رئيس وزراء إيطاليا ـ «أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية، ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذى يجب أن يهزم.. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب».

١٢ ـ وأعلن السيناتور الأمريكى «جوزيف ليبرمان» ـ وهو مرشح سابق لمنصب نائب الرئيس ـ «بأنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى تراها ضرورية.. فشعارات أمريكا لا تنتهى عند حدودها، بل تتعداها إلى الدول الأخرى».

١٣ ـ وأعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «مادلين أولبرايت»: «إننا معشر الأمريكيين أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب».

١٤ ـ وفى أكتوبر سنة ٢٠٠١م عقد بالقاهرة ـ بفندق شيراتون هيليوبوليس ـ مؤتمر لحوار الأديان.. وفى ختامه رفض مندوب الفاتيكان ـ القس خالد أكشة ـ ومندوب مجلس الكنائس العالمى ـ دكتور طارق مترى ـ التوقيع على البيان الختامى، لتضمنه عبارة «الديانات السماوية، والقيم الربانية».. وقالا: نحن لا نعترف بالإسلام دينا سماويا، ولا بالقيم الإسلامية قيما ربانية».

١٥ ـ وفى أكتوبر سنة ٢٠٠١م، بدأت أمريكا وحلف الأطلنطى غزو أفغانستان.

١٦ ـ وفى نوفمبر سنة ٢٠٠١م، كتب الكاتب الصهيونى الأمريكى «توماس فريدمان»: «إن الحرب الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس.. ويجب علينا

عندما نعود من جبهة القتال، أن نكون مسلحين بالكتب المدرسية، لتكوين جيل جديد يقبل سياساتنا كما يحب شطائرنا.. وإلى أن يحدث ذلك لن نجد لنا أصدقاء هناك».


هنتنجتون

١٧ ـ وكتب الكاتب «ستانلى. أ. فايس» ـ فى «الهيرالد تريبيون» الدولية: «إن حقيقة الحرب على الإرهاب تكمن فى: هل ستقوم الدول الإسلامية باتباع النموذج الاجتماعى ـ السياسى لتركيا ـ كدولة حديثة علمانية؟.. أو نموذج الأصولية الإسلامية؟.. وإن على رئيس باكستان ـ «برويز مشرف» ـ أن يحذو حذو «أتاتورك» الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها».

١٨ ـ واعتمدت أمريكا ٢٠٠ مليون دولار «لتحديث وعلمنة» التعليم الدينى فى باكستان.. وأجبرت العديد من الدول العربية والإسلامية على تعديل مناهج تعليمها الدينى.. وعلى اختزال هذا التعليم.. وعلى وقف تمويل المدارس الدينية، الرافضة للعلمنة والتحديث.

١٩ ـ ولقد خفضت اليمن ـ فى العام الدراسى ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢م ساعات تدريس القرآن الكريم، اعتبارا من الصف الخامس الأساسى حتى المرحلة الثانوية، بنسب تتراوح من ٢٥٪ إلى ٥٠٪ عما كانت عليه، وخفضت حصص التربية الدينية فى المرحلة الثانوية بنسبة ٢٥٪.. وصرح الرئيس اليمنى بأنه «علينا أن نحلق رؤوسنا بدلا من أن يحلقوها لنا».

٢٠ ـ وصرحت «مارجريت تاتشر» ـ رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق ـ بأن «المسلمين الذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب، هم أعداء أمريكا وأعداؤنا.. وإن هذه الأصولية الإسلامية هى مثل البولشفية ـ فى الماضى ـ أيديولوجية عدائية.. تتطلب تبنى استراتيجية طويلة المدى ليتسنى هزيمتها».

٢١ ـ وفى يناير سنة ٢٠٠٢م، كتب المستشرق الصهيونى الشهير «برنارد لويس»: «إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب.. فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة الغربية ـ المسيحية / اليهودية ـ وإن آيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وهذه الحرب هى حرب بين الأديان».

٢٢ ـ وكتب الروائى الفرنسى «ميشيل هويلبيك»: «إن قراءة القرآن مثيرة للتقزز.. وإن الإسلام دين عدوانى، لا متسامح يجعل الناس أشقياء تعساء».

٢٣ ـ وفى نوفمبر سنة ٢٠٠١م، كتب «صموئيل هنتنجتون»: «نريد حربا داخل

الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى فصل الدين عن الدولة».


بوش

٢٤ - وفى فبراير سنة ٢٠٠٢م، صرح وزير العدل الأمريكى «جون أشكروفت» «بأن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله».

٢٥ - وخطب الجنرال الأمريكى «وليام. ج. بوكين» - نائب وزير الدفاع الأمريكى - خطب فى إحدى الكنائس - وهو بزيه العسكرى - فى أكتوبر سنة ٢٠٠٣م - فقال: «إن إلهنا أكبر من إله المسلمين. إن إلهنا إله حقيقى، وإله المسلمين صنم. وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه أمة مسيحية/ يهودية. وحربنا معهم هى حرب على الشيطان. وإن دين الإسلام هو دين شيطانى شرير. ومحمد هو الشيطان نفسه».

ولقد رفض وزير الدفاع الأمريكى «رامسفيلد» الاعتذار عن هذه الخطبة، وقال إنها حرية رأى وتعبير.. ولقد تولى الجنرال «بوكين» قيادة فرقة الاغتيالات بالعراق - بعد غزوه - وهى فرقة قام بتدريبها الإسرائيليون.

٢٦ - وفى مارس سنة ٢٠٠٢م، صرح وزير الداخلية الألمانى «أوتوشيلى»: «بأن عقيدة الإسلام هى هرطقة وضلال».

٢٧ - وفى مارس سنة ٢٠٠٣م زحفت الجيوش الأمريكية والبريطانية على العراق.. فاحتلته.. ودمرته.. وقال الرئيس الأمريكى «بوش الصغير» عن هذه الحرب: إنها حرب عادلة بالمقاييس المسيحية التى حددها القديس «أوغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠م) - والقديس «توما الإكوينى» (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) - و«مارتن لوثر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م).

٢٨ - وفى أبريل سنة ٢٠٠٤م أعطى الرئيس الأمريكى «بوش الصغير» لرئيس وزراء إسرائيل «أريل شارون» «وعد بوش»، فى «رسالة الضمانات» التى تتعهد فيها أمريكا ببقاء الكتل الاستيطانية الكبرى - بالقدس والضفة الغربية - تابعة لإسرائيل عند التسوية النهائية للصراع العربى - الصهيونى.

٢٩ - وفى سنة ٢٠٠٦م نشر الكاردينال «جوزيف راتزينجر» - البابا بنديكتس السادس عشر - بعد ذلك - نشر كتابا - فى نيويورك - عنوانه: «بلا جذور.. الغرب. النسبية. المسيحية. الإسلام» - مارس فيه تخويف الغرب من الإسلام.. وأعلن «أنه يخشى أن تصبح أوروبا جزءا من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين».

٣٠ - وفى سبتمبر سنة ٢٠٠٥م، نشرت الرسوم الدانماركية المسيئة لرسول الإسلام ﷺ والتى تصوره إرهابيا، يضع على رأسه عمامة هى قنبلة موقوتة!

٣١ - وفى يوليو سنة ٢٠٠٦م شنت إسرائيل حربا على لبنان، استخدمت فيها الكثير من الأسلحة المحرمة دوليا.

٣٢ - وفى ١٨ - ٤ - ٢٠٠٦م، نشرت صحيفة «لوموند» - الفرنسية - قول بابا الفاتيكان «بنديكتس السادس عشر»: «إن الإسلام ليس دين توحيد على نمط اليهودية والمسيحية، ولا ينتمى إلى الوحى نفسه الذى تنتمى إليه اليهودية والمسيحية».

٣٣ - وفى ١٢ سبتمبر سنة ٢٠٠٦م، ألقى بابا الفاتيكان «بنديكتس السادس عشر» محاضرته الشهيرة بجامعة «ريجنسبورج» الألمانية.. والتى اتهم فيها الإيمان الإسلامى بأنه «وثنى.. لا عقلانى..» وقال - فيها - عن رسول الإسلام ﷺ: «إنه لم يأت بخير.. وأنه قد أمر بنشر دينه بالعنف».. وقال: إن القرآن قد أضيفت إليه «تعليمات أوامر الشام» التى تحض على الإكراه فى الدين.

٣٤ - وفى أغسطس سنة ٢٠٠٧م، اعتمد الكونجرس الأمريكى ميزانية لتمويل ٤٠ منظمة قبطية مصرية.. ولمساعدة القرى المصرية ذات النسبة العالية من السكان المسيحيين.. وتوجيه أغلب المعونات الأمريكية التى تقدم للقطاع الخاص إلى رجال أعمال مسيحيين.. وذلك «لخلق جيل من رجال الأعمال المسيحيين.. وتطوير جالية من المسيحيين المصريين».

٣٥ - وفى سبتمبر سنة ٢٠٠٧م، بدأت فى أوروبا مظاهرات ضد أسلمة أوروبا.. شاركت فيها الأحزاب الفاشية واليمينية.. وباركتها الكنائس الأوروبية.

٣٦ - وفى سنة ٢٠٠٧م، منحت ملكة إنجلترا «وسام الفارس» للكاتب «سلمان رشدى»، الذى احترف الإساءة إلى الإسلام.. ورسوله ﷺ وإلى بيت النبوة.

٣٧ - وفى نوفمبر سنة ٢٠٠٧م، صدر فى إنجلترا تقرير أعدته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء فى الإعلام، جاء فيه: أن الصورة السائدة عن الإسلام فى الغرب هو أنه يماثل النازية والفاشية والشيوعية.. وأن ازدراء الإسلام، وتشبيهه بالشيطان ليس مقصورا على الصحافة الصغيرة والشعبية.. بل إن صورته هذه هى السائدة فى الصحف الكبرى.. وفى الكتب.. والمحاضرات الجامعية.

٣٨ - وفى صيف سنة ٢٠٠٧م، أرسل ١٣٨ عالمًا مسلمًا - من مؤسسة آل البيت - بالأردن رسالة إلى الفاتيكان، يطلبون الحوار للوصول إلى كلمة سواء.. فكان جواب المتحدث باسم الفاتيكان: «إن الحوار مع المسلمين صعب، لأنهم يؤمنون أن القرآن من عند الله».



ساركوزى

٣٩ - وفى يناير سنة ٢٠٠٨م، منح الرئيس الفرنسى «نيكولاى ساركوزى» جائزة «سيمون دى بوفوار» (١٩٠٨ - ١٩٨٦م) للكاتبة البنجلاديشية «تسليمة نسرين» - التى اشتهرت واحترفت التهجم على الإسلام.

٤٠ - وفى سنة ٢٠٠٨م، عرضت - فى هولندا - الأفلام المسيئة للإسلام ولرسوله وللقرآن: - «فيلم: فتنة القرآن»، و«فيلم: هتلر» - .

٤١ - وفى فبراير سنة ٢٠٠٨م، دعا وزير الداخلية الألمانى إلى إعادة نشر الرسوم الدانماركية، المسيئة لرسول الإسلام فى صحافة دول الاتحاد الأوروبى.

٤٢ - وفى مارس سنة ٢٠٠٨م، قام بابا الفاتيكان - فى احتفالات عيد الفصح، التى تنقلها الفضائيات العالمية على الهواء - بتعميد صحفى مصرى يدعى «مجدى علام».. وقطعت محطات التلفاز الغربية إرسالها لتذيع هذا «الحدث»!

٤٣ - وفى مايو سنة ٢٠٠٨م - فى الذكرى الستين لقيام إسرائيل - خطب الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» بالكنيست الإسرائيلى - وأعلن أن أمريكا هى جزء متمم لإسرائيل.

٤٤ - وفى ديسمبر سنة ٢٠٠٨م شنت إسرائيل حربا على غزة استخدمت فيها العديد من الأسلحة المحرمة دوليا.

٤٥ - وفى سنة ٢٠٠٩م، أنتج القمص القبطى مرقس خليل عزيز - راعى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة - فيلم «فتنة محمد» ووضعه على شبكة المعلومات العالمية.. وكتب - على موقع الهيئة القبطية الكندية باسم «الأب يوتا» أبشع ألوان الازدراء لرسول الله ﷺ حتى أنه قال: «إننى شخصيا، أربأ بالشيطان أن يتمثل بمحمد، لأن الشيطان لم يفعل ما فعله محمد»!

٤٦ - وفى أبريل سنة ٢٠٠٩م، أعيد نشر الرسوم الدانماركية المسيئة لرسول الإسلام، من قبل مؤسسة حرية الصحافة فى الاتحاد الأوروبى.

٤٧ - وفى مايو سنة ٢٠٠٩م، عقدت بأوروبا عدة مؤتمرات ضد أسلمة أوروبا.

٤٨ - وفى مايو سنة ٢٠٠٩ - زار بابا الفاتيكان الأراضى المقدسة.. ودعا - فى الأردن - إلى علمنة الإسلام، وفصله عن الدولة والسياسة.. ودعا فى إسرائيل إلى تعميق المصالحة: بين الكاثوليكية والأخوة الكبار - اليهود.. وزار أسرة الجندى الإسرائيلى «جلعاد شاليط».. ولم يقل كلمة واحدة عن إنهاء الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين.. ولا عن تهويد القدس.. أو اللاجئين الفلسطينيين.. أو الأسرى الفلسطينيين فى سجون إسرائيل.

٤٩ - وفى ٢٩ نوفمبر سنة ٢٠٠٩م، تم الاستفتاء السويسرى على حظر بناء المآذن للمساجد - بنسبة ٥٧٪ - وصورت المآذن فى حملة هذا الاستفتاء فى صورة الحراب والصواريخ - !

٥٠ - وفى ٣ ديسمبر سنة ٢٠٠٩م، تم استطلاع رأى فى فرنسا حول المآذن والمساجد.. فصوت ٤٨٪ ضد بناء المآذن.. وصوت ٤١٪ ضد بناء المساجد.

٥١ - وفى مايو سنة ٢٠١٠م، صدر التشريع الفرنسى بتحريم ارتداء النقاب.. ومن قبله كان قد تم تحريم ارتداء الحجاب بالمدارس والمؤسسات الحكومية.

٥٢ - وفى مايو سنة ٢٠١٠م، عقدت - بالدانمارك - مسابقة جديدة، يتبارى فيها الرسامون فى رسم الصور المسيئة لرسول الإسلام ﷺ كمظهر من مظاهر حرية التعبير - وذلك بمناسبة مرور خمس سنوات على ممارسة هذا اللون من ازدراء الإسلام فى الدانمارك!

٥٣ - وفى ٨ سبتمبر سنة ٢٠١٠م، منحت ألمانيا - فى حضور المستشارة الألمانية أنجيلا ميركيل - «جائزة حرية الصحافة» للرسام الدانماركى - صاحب الرسوم المسيئة لرسول الإسلام ﷺ بمناسبة مرور خمس سنوات على تلك الرسوم.

٥٤ - وفى ١١ سبتمبر سنة ٢٠١٠م، أعلنت إحدى الكنائس الأمريكية عن الدعوة لجعل ذلك اليوم «اليوم العالمى لإحراق القرآن».. ثم تراجعت هذه الكنيسة عن التنفيذ، بناء على طلب الإدارة الأمريكية، ليس احتراما للقرآن، وإنما خوفا على أرواح الجنود الأمريكيين فى أفغانستان والعراق من انتقام المسلمين!

ولقد استبدلت الكنيسة تمزيق بعض صفحات المصحف بحرقه!

٥٥ - وفى سبتمبر سنة ٢٠١٠م، أعيد - فى الدانمارك - نشر الكتاب الذى يضم الصور المسيئة لرسول الإسلام ﷺ.

٥٦ - وفى أكتوبر سنة ٢٠١٠م، واصل المستوطنون الصهاينة مسلسل إحراق المساجد فى الضفة الغربية - مع ما بها من مصاحف - وذلك بإحراق مسجد فى بلدة جنوبى مدينة بيت لحم، بما فيه من المصاحف.. وكان ذلك رابع مسجد يحرق فى ذات العام.

٥٧ - وفى سنة ٢٠١٠م، ضمت إسرائيل عدداً من المقدسات الإسلامية إلى «التراث اليهودى» - منها الحرم الإبراهيمى بمدينة الخليل.. ومسجد بلال فى مدينة بيت لحم - وذلك رغم اعتراضات اليونسكو.

٥٨ - وفى ١٦ أكتوبر سنة ٢٠١٠م، أعلنت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركيل عن:

(أ) فشل تجربة التنوع الثقافى فى أوروبا.

(ب) وضرورة التزام المهاجرين فى ألمانيا بالقيم المسيحية.

٥٩ - وفى نوفمبر سنة ٢٠١٠م، هدمت إسرائيل أحد المساجد فى إحدى قرى النقب، بدعوى أنه غير مرخص ببنائه - وهى تمنع رخص البناء للعرب - فى النقب - بشكل كلى وعام - وتكرر ذلك - فى نفس الشهر - عندما هدمت إحدى القرى الفلسطينية فى غور الأردن.

٦٠ - وفى سنة ٢٠١٠م، زادت وتيرة التهويد للقدس.. والحفريات التى تهدد المسجد الأقصى بالانهيار.. وابتلاع إسرائيل - بالجدار العنصرى العازل.. وبالمستوطنات أغلب مساحة الضفة الغربية فى فلسطين.

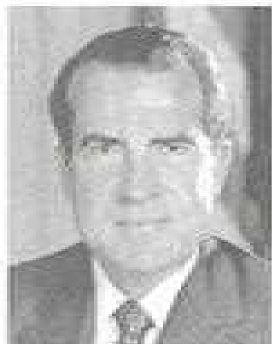
٦١ - وفى سنة ٢٠١٠م، أعلن رئيس وزراء إسرائيل «بنيامين نتنياهو» أن الأردن هو الوطن البديل للفلسطينيين.

٦٢ - وفى سنة ٢٠١٠م، اغتالت إسرائيل - فى المياه الدولية - النشطاء الذين سعوا لكسر الحصار عن قطاع غزة - فى أسطول الحرية - وتمت حماية جريمتها - دوليا - بالفيتو الأمريكى.

٦٣ - ومضى - بانتهاء سنة ٢٠١٠م - على احتلال العراق سنة ٢٠٠٣م - ثمانى سنوات.. تم فيها تدمير أهم بلدان المشرق العربى - تدمير الدولة - وتدمير النسيج الاجتماعى - بالطائفية والعنصرية - ومطاردة العلماء والخبراء واغتيالهم - وتدمير المساجد وتدنيس المقدسات - حتى لقد دمر الأمريكيون - كمثال - فى أبريل سنة ٢٠٠٤م ببلدة الفالوجة ٤٠ مسجدا من مساجدها السبعين!.. مستخدمين الأسلحة المحرمة دوليا، التى أثمرت - فى تشويه الأجنة - ما هو أسوأ من فعل القنابل الذرية فى «هيروشيما» و«نجازاكى» باليابان سنة ١٩٤٥م!.. كما تفجرت - فى مأساة العراق - فضائح التعذيب الوحشى فى سجن أبوغريب.. وغيره - الأمر الذى جعل مأساة العراق هى مأساة القرن الواحد والعشرين.. كما كانت مأساة فلسطين هى جريمة القرن العشرين.. فالشهداء.. واليتامى.. والأرامل.. واللاجئون قد قاربوا عشرة ملايين - أى ثلث العراقيين -!!

٦٤ - كما مضى - بانتهاء سنة ٢٠١٠م - ما يقرب من عشر سنوات على احتلال أمريكا وحلف الأطلنطى لأفغانستان - فى أكتوبر سنة ٢٠٠١م - تم فيها تدمير هذا البلد المسلم.. وامتد التدمير منه إلى باكستان - وذلك فى حروب رآها اليمين الدينى الأمريكى - يمين المسيحية الصهيونية - «حروبا عادلة» بمقاييس القديس أوغسطين.. وتوما الإكوينى.. ومارتن لوثر»!!

حروبا يشنها الغرب على الأصولية الإسلامية، لا لشيء إلا لأنها كما يقول الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» تريد:


نيكسون

- بعث الحضارة الإسلامية.
- وتطبيق الشريعة الإسلامية.
- واتخاذ الإسلام دينا ودولة.
- ورفض الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية!

٦٥ - وأطل العام الهجرى سنة ١٤٣٢هـ والميلادى سنة ٢٠١١م - والمقاومة الإسلامية - على أرض العراق.. وأفغانستان.. وباكستان.. والصومال.. وفلسطين صامدة.. تجاهد لدفن الغزاة الأمريكيين - وحلفائهم - فى أرض الإسلام.. سائرة على طريق أسلافها المجاهدين الذين دفنوا - فى الأرض الإسلامية - خلال القرن العشرين - الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية التى فاخرت يوما بأن الشمس لا تغيب عن حدودها!!

٦٦ - وتتواصل - فى الغرب - أعمال الازدراء للإسلام والإساءة لرسوله ﷺ ومقدساته.. فيتم فى سبتمبر سنة ٢٠١٢م - بأمريكا - الإنتاج والعرض لفيلم «براءة المسلمين» الذى يسيء إلى رسول الإسلام ودين الإسلام.. والذى شارك فى إنتاجه - علنا - ولأول مرة أحد كبار رجالات الكهنوت بالكنيسة الأرثوذكسية المصرية - القمص مرقص عزيز خليل - (الأب يوتا) - كاهن الكنيسة المعلقة بمصر القديمة - ومعه من أقباط المهجر: موريس صادق، وعصمت زقلمة، ونبيل بسادة، وإيهاب يعقوب، وجاك عطا الله، وناهد متولى - مساعدة القمص زكريا بطرس - وإيليا باسيلى، وعادل رياض.. ومعهم القس الأمريكى تيرى جونز.

٦٧ - وفى ١٢ سبتمبر سنة ٢٠١٢م تنشر المجلة الفرنسية الساخرة «تشارلى إيدو» رسوما مسيئة لرسول الإسلام ﷺ وتتوالى التصريحات - الفرنسية والغربية - عن أن هذه الأعمال إنما تتم تحت مظلة حرية التعبير!

٦٨ - وفى نفس الشهر - سبتمبر سنة ٢٠١٢م - تقرر الصهيونية تقسيم الحرم القدسى بين اليهود والمسلمين، على غرار ما سبق وصنعت بالحرم الإبراهيمى بمدينة الخليل.

٦٩ - ويعلن قطاع من أقباط المهجر عن تنظيم مظاهرة معادية لرئيس جمهورية مصر العربية - الدكتور محمد مرسى - عند زيارته نيويورك للمشاركة فى افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة - أواخر سبتمبر سنة ٢٠١٢م.

٧٠ - وينظم أقباط المهجر - بالتعاون مع اللوبى الصهيونى واليمين الدينى الأمريكى - ما أسموه «اليوم العالمى لإحراق القرآن» فى ٦ أكتوبر سنة ٢٠١٢م.. مع الإعلان عن قيام الدولة القبطية فى مصر!

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣١-٣٤)

تقدم فى بيان الخليفة أن علم الملائكة وعملهم محدودان، وأن علم الإنسان وعمله غير محدودين. وبهذه الخاصة التى فطر الله الناس عليها، كان الإنسان أجدر بالخلافة من الملائكة. وهذه هى حجة الله البالغة على الملائكة التى بينها لهم، بعدما نبههم إلى علمه المحيط بما لا يعلمون، فقال:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

أى أودع فى نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين. فالمراد بالأسماء المسميات، عبر عن المدلول بالدليل لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر. والعلم الحقيقى إنما هو إدراك المعلومات أنفسها، والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح، فهى تتغير وتختلف، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف.

ثم إن الاسم قد يطلق إطلاقا صحيحا على ما يصل إلى الذهن من المعلوم، أى صورة المعلوم فى الذهن، وبعبارة أخرى: ما به يعلم الشيء عند العالم. فاسم الله مثلا، هو ما به عرفناه فى أذهاننا بحيث يقال إننا نؤمن بوجوده، تسند إليه صفاته.

فالأسماء هى ما به تعلم الأشياء، وهى العلوم المطابقة للحقائق. والإسم بهذا الإطلاق، هو الذى جرى الخلاف فى أنه عين المسمى أو غيره. وقد كان اليونانيون يطلقون على ما فى الذهن من المعلوم لفظ الاسم. والخلاف فى أن ما فى الذهن من الحقائق هو عينها أو صورتها مشهور كالخلاف فى أن العلم عين المعلوم أو غير

المعلوم. وأما الخلاف فى أن الاسم الذى هو اللفظ عين المسمى أو غيره، فهو ما أخطأ فيه الناظرون لعدم الدقة فى التمييز بين الإطلاقات لبداهة أن اللفظ غير معناه بالضرورة. والاسم بذلك الإطلاق الذى ذكرناه يتقدس ويتبارك ويتعالى:

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾
(الأعلى: ١)

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾
(الرحمن: ٧٨)

فاسمه جل شأنه ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته، وما يشرق فى أنفسنا من بهائه وجلاله، ولا مانع من أن تريد من الأسماء هذا المعنى، وهو لا يختلف فى التأويل عما قالوه من إرادة المسميات ولكنه على ما نقول أظهر وأبين.

علم الله آدم كل شيء، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون له هذا العلم فى آن واحد أو فى آنات متعددة، والله قادر على كل شيء. ثم إن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمى كله، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم، فيكفى فى ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال.

علم الله آدم الأسماء على نحو ما بينا:

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾

أى أطلعهم اطلاعا إجماليا بالإلهام الذى يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء، ولو عرضت على نفوسهم عرضا تفصيليا لعلموها ولم يكن علمهم محدودا. والحال أنه عرضهم عليهم، وسألهم عنها سؤال تعجيز:

﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾

المسميات. والغرض من الإنباء بأسمائها الإبانة عن معرفتها. ومعنى:

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

أى إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة فى الأرض من البشر، وكان ما طرق نفوسكم وطرأ على أذهانكم أولا حالا محله، ومصيبا غرضه، ولما تعرفوا حقيقة ما يمتاز به الخليفة، فأنبئونى بأسماء ما عرضته عليكم.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾

أى تنزيها لك. فلفظ سبحان مصدر قلما يستعمل إلا مضافا كمعاذ الله، وهو منصوب بفعل مقدر، والمعنى: نقدسك وننزهك أن يكون علمك قاصرا، فتخلق الخليفة عبثا، أو تسألنا شيئا نقيده وأنت تعلم أننا لا نحيط بعلمه، ولا نقدر على الإنباء به. وكلمة: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تهدى إلى هذا، فكأنها جملة وحدها. وهذه هى البلاغة مضروب سرادقها، مثمرة حدائقها، متجلية حقائقها. على أن القصة وردت مورد التمثيل، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وبعد تنزيه البارى، تبرءوا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته، فقالوا:

﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾

وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ ﴾

يخلقك ﴿ الحكيم ﴾ في صنعك.

إن هذه التأكيدات تشعر بأن سؤال الاستغراب الأول كان يتنسم منه شيء، وكذلك الجواب عن ﴿ أنبئوني ﴾ بقولهم:

﴿ لا علم لنا ﴾، ولذلك ختموا الجواب بالتبرؤ من كل شيء، والثناء على الله تعالى بالعلم الثابت الواجب لذاته العلية، والحكمة البالغة اللازمة له. فقد تقدم في تفسير الفاتحة أن صيغة «فعيل» تدل غالبا على الصفات الراسخة اللازمة. فكان جواب الملائكة بهذا مؤذنًا بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب أن لا يغفل مثلهم عنه، وهو التسليم لسعة علم الله وحكمته حتى يبلغ الكتاب أجله.

﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾

فكان الإنباء كما أراد الله تعالى وذكره، لأجل ترتيب الحكم عليه بقوله:

﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ﴾

تعالى للملائكة:

﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾

ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئا سدى ولا يجعل الخليفة في الأرض عبثا.

﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾

والذي يبدونه هو ما يظهر أثره في نفوسهم، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوي عليه طبائعهم.

وقد علم مما تقدم، أن كل هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات يفوض السلف الأمر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها، وقد تقدم بيان ذلك. وأما الخلف، فيلجأون إلى التأويل، وأمثل طرقه في هذا المقام التمثيل، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية، في قوالب العبارة اللفظية ويجلي لنا المعارف المعقولة، بالصور المحسوسة، تقريبا للأفهام، وتسهيلا للإعلام. ومن ذلك، أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا، وما أودعته فطرتنا، مما تمتاز به على غيرنا من المخلوقات. فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا، ومعنى سجودهم لأصلنا:

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾

(الحشر: ٢١)

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾

(البقرة: ٣٤)

بعدما عرف الله الملائكة بمكانة آدم، ووجه جعله خليفة في الأرض، أمرهم بالخضوع له، وعبر عن ذلك بالسجود، فقال:

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾

وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة، إذ لا يعبد إلا الله تعالى. والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد، وأعظم مظاهره

الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب. وكان عند بعض القدماء من تحية الناس للملوك والعظماء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليه السلام.

والسجود لله تعالى قسمان: سجود العقلاء المكلفين له تعبدا على الوجه المشروع، وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته فيها. قال تعالى:

﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها ﴾

(الرعد: ١٥)

وقال:

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾

(الرحمن: ٦)

وفي معناهما آيات.

﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾

أي سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس، وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة، إلا آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن:

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

(الكهف: ٥٠)

وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر، وإنما هو اختلاف أصناف، عندما تختلف أوصاف، كما ترشد إليه الآيات.

فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى:

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾

(الصافات: ١٥٨)

وعلى الشياطين في آخر سورة الناس، وعلى كل حال، فجميع هؤلاء المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها، ولا نبحث عنها، ولا نقول بنسبة شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم ﷺ.

وصف الله تعالى إبليس، بأنه ﴿ أبى ﴾ السجود والانقياد، ﴿ واستكبر ﴾ فلم يمتثل أمر الحق ترفعا عنه، وزعما بأنه خير من الخليفة عنصرا، وأزكى جوهرا، كما حكى الله تعالى عنه في غير هذه السورة:

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

(الأعراف: ١٢)

والاستكبار يعني التكبر، وهو الظهور بصفة الكبرياء التي من آثارها الترفع عن الحق. وكان السين والتاء للإشعار بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس، ولكنه مستعد له. ثم قال تعالى بعد وصفه بالإباء والاستكبار:

﴿ وكان من الكافرين ﴾

قال بعض المفسرين كان من حق الترتيب أن يقال كان من الكافرين واستكبر وأبى؛ لأن الكفر عنده سبب الاستكبار، والاستكبار سبب الإباء، ومثل هذا المفسر يعلل مخالفة الترتيب الطبيعي في النظم برعاية الفاصلة.. ولكن نظم الآية جاء على

مقتضى الطبيعة في الذكر، فإنه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولا؛ لأنه المقصود بالذات، وهو الإباء، ثم يذكر سببه وعلته وهو الاستكبار، ثم يأتى بالأصل فى العلة والمعلول والسبب المسبب وهو الكفر.

تقدم أن الملائكة خلق غيبى لا نعرف حقيقته، وإنما نؤمن به بإخبار الله تعالى، الذى نقف عنده ولا نزيد عليه. وتقدم أن القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف. لكل صنف وظيفة وعمل، ونقول الآن إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء فى لسان صاحب الوحى ﷺ، وقد أسند إلى هذه العوالم الغيبية. وخواطر الخير التى تسمى إلهاما، وخواطر الخير التى تسمى إلهاما وخواطر الشر التى تسمى وسوسة، كل منهما محله الروح. فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا؛ لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا، فإنما تتصل بها من طرق أجسامنا، ونحن لا نحس بشىء يتصل بأبداننا، لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعى الخير من النفس. فإذن هى من عالم غير عالم الأبدان قطعا، والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية الإيمان بمضمونها من التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل، ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة.

وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان. فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكا. ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة. والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا، وزعم أنه دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا؛ لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع، فالحقيقة واحدة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات؛ وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، والذى لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها. ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، وكل يقر بوجود شىء غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه. وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدره قدره، فيتفق مع المؤمنين بالغيب، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى، ويحظى بما يحظى به المؤمنون؟!

يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن فى نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذاك يدفع، واحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين. فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ونسميه قوة وفكرا -وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها- لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكا، أو يسمى أسبابه ملائكة، أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع؟

فإذا صح الجرى على هذا التفسير، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به، خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه؛ لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهى القوى التى، لزها[1] الله بهذا العالم لزا، وهى التى تميل بالمستعد للكمال أو بالكمال أو بالكامل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم، أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود إلى الفناء أو التى تعارض فى اتباع الحق، وتصد عن عمل الخير، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعدا للوصول إليها، تلك القوة التى ضللت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم إلها يسمى إله الشر وما هى بإله ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو.

ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل، لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب، وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق.

ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين فى الدين، إذ ينفرون من هذه المعانى كما ينفر المرضى أو المخدجون[2] من جيد الأطعمة التى لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام، ويزيد السقام. لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك، وما الذى يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة، أليس الروح فى الآدمى مثلا هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان

١- ألصقها وشدها بهذا العالم وألزمها به.

٢- الناقصون

والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له، فإذا سمى الروح لظهور أثره قوة، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا، فهل يضر ذلك بالدين، أو ينقص معتقده شيئًا من اليقين؟

ألا لا يسمى الإيمان إيمانًا، حتى يكون إذعانًا. ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان وتخشع الأركان لذلك السلطان الذى تعلق به الإيمان. ولا يكون كذلك حتى يلقى الوهم سلاحه، ويبلغ العقل فلاحه، وهل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكنه فهمه، ولا يعلم ما يتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحق أهله، ولا يضل سبله، ولا يعرف أهل الغفلة، لو أن مسكينًا من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانًا أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل، ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نورانية الأجسام، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبابة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل، وهل يمكن للشىء الواحد أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع فى حيرة؟ ولو سئل عما يعتقده من ذلك، ألا يحدث فى لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليست مثل هذه الحيرة تعد شكًا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه، وكلف نفسه علم ما لا تعلمه. فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانًا صحيحًا، واطمأنت بإيمانه نفسه، وأذعن له قلبه، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله، كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح.

فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت بالخارف، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة، هؤلاء لم يشرق فى نفوسهم ذلك السر الذى يعبر عنه بالنور الإلهى، والضياء الملكوتى، واللألاء القدسى، أو ما يماثل ذلك من العبارات، لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق، ولو علموا أن العالم بأسره فان فى نفسه، وأن ليس فى الكون باق كان أو يكون إلا وجهه الكريم، وأن ما كثف من الكون وما لطف، وما ظهر منه وما بطن، إنما هو فيض من جوده ونسبة إلى وجوده، وليس الشريف منه إلا ما أعلى بذكره منزلته، ولا الخسيس إلا ما بين لنا بالنظر إلى الأول نسبته، فإن كل مظهر من مظاهر الوجود فى نفسه واقع موقعه، ليس شىء أعلى ولا أحط منه؛ فإن كان كذلك - ولابد أن يكون كما قدره - لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول فى تلك الشئون حتى تصل إلى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شىء من وساوس الوهم، ولا تجد طائفا من الخوف، ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ.

هذه القوى التى ترى آثارها فى كل شىء يقع تحت حواسنا، وقد خفيت حقائقها عنا، ولم يصل أدق الباحثين فى بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت، وتقل بل تضمحل إذا حجبت، وهى التى يدور عليها كمال الوجود، وبها ينشأ الناشىء، وبها ينتهى إلى غايته الكامل، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل، أليست أشعة من ضياء الحق؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا؟ ألا تراها توافى بأسرارها، من ينظر فى آثارها، ويوفيها حق النظر فى نظامها؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شئونها، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها؟

أليس الوجود الإلهى الأعلى من عالم الغيب وآثاره فى خلقه من عالم الشهادة؟ أليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها، وقدر لها آثارها؟ لم لا تقول أيها الغافل: إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة؟ ولما قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفى حيوان مثلك؟ مع أنك سئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا، ولا لفعله تصريفا؟ لم لا تقول كما قال الله وبه نقول:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الإسراء: ٤٤)

أفلا تزعم أن لله ملائكة فى السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ وهل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، والعبارة التى تلقفتها عنهم، كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئًا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول:

﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾

(آل عمران: ٧)

فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته، وهم فى إيمانهم أعلى منك كعبا، وأرضى منك بربهم نفسا. ألا إن مؤمنا لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه كما قلنا، كان من دينه فى ثقة، ومن فضل ربه فى سعة.

أما سلطان تلك القوة فى الفناء وقطع حركة الوجود إلى الصعود، فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل، ولا يقاوم نفوذه عامل، وإنما ذلك لله وحده وهذا حكمها فى الكائنات، إلى أن تبدل الأرض والسماوات، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وأن يعيذنا من الشيطان الرجيم.

«يتبع»

أقسام السنة عند الشيخ العلامة عبدالجليل عيسى «٤»

رأى القاضى عياض

قال القاضى عياض فى "الشفاء"[١]

١- "وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد ﷺ الشيء منها على وجه ويظهر خلافه، (أى يظهر أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر[٢]". ثم ذكر حديث تأبير النخل المروى عن مسلم والذى سيأتى تفصيل الكلام فيه وفى آخره قال ﷺ: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فإنما أنا بشر.

قال شارح "الشفاء"، أى قد أرى الرأى فى أمور الدنيا والأمر بخلافه، فلا يجب اتباعه. ثم ذكر رواية مسلم الأخرى التى فيها: (إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن).

– ويحكى عن ابن رشد أنه فى كتاب "التحصيل والبيان" يذكر أن هذا الحديث– يشير لحديث مسلم فى تأبير النخل –روى بألفاظ مختلفة، متقاربة معنى، كقوله ﷺ: (ما أنا بزارع ولا صاحب نخل)، ويعلق أبو الوليد[٣] بقوله: إنه ﷺ بين أنه لا تأثير فى الصلاح والفساد لغير الله تعالى، إلا أن الله تعالى قد يجرى العادة بأسباب تعلم بالتجربة، كالتأبير، وهو ﷺ لم يسبق له تجربة فيه، وفى رواية أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر، فما حدثتكم عن الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسى فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب» .

والخفاجى –شارح الشفاء– بعد أن ذكر حادثة نزول المسلمين بأدنى مياه بدر التى سيأتى شرحها، ومعارضة الحباب بن المنذر وقوله: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ؟أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: (بل هو الحرب والرأى.. إلخ)، فأشار الحباب بمنزل آخر، فقال: (أشرت بالرأى الصائب) وفعل ما قاله الحباب – علق بقوله: إن العرب أدرى بالحروب لأنهم جربوها وقاسوا شدائدها.

ويستطرد – القاضى عياض –فى ذكر أحواله ﷺ فى أمور الدنيا، فيروى حادثة عزمه ﷺ على مصالحة أعدائه يوم الخندق على ثمر المدينة[٤] فلما استشار ﷺ الأنصار وعارضوا رأيه رجع عنه، ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله: فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التى لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها، كل هذه يجوز عليه ﷺ فيها ما ذكرناه من اعتقاد شيء على وجه فيظهر على خلافه. إذ ليس فى هذا نقيصة، إنما هى أمور اعتيادية يعرفها من جربها وشغل نفسه بها، وهو ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية.

٢– ويتنقل بعد ذلك إلى الحديث بما يعتقده ﷺ فى أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل والمصلح من المفسد، ويحكم بأن كل ذلك على السبيل فى أمور الدنيا التى قد يظهر له منها ما الأمر على خلافه أحيانا.[٥]

ويؤيد حكمه هذا بذكر حديث الشيخين وأبى داود واللفظ لأبى داود – قال ﷺ "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من نار"[٦]

رأى ابن خلدون

وأما ابن خلدون فيتعرض –فى مقدمته[٧] عند الحديث عن طب البادية لما كان يراه الرسول ﷺ فى أمر العلل وعلاجها ويذكر أن رأيه فى ذلك لا يتصل بالوحى.. بل يعد من الأحوال التى هى عادة وجبلة له وعبارته: "وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحى وعجائزه، وربما يصح منه بعضه، إلا أنه ليس على قانون طبعى ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون: كالحارث ابن كلدة[٨] وغيره.

والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحى فى شيء، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال

١– ج ٢من ص ٢٦٥ طبع المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٧هـ.
٢– تعليق شهاب الدين الخفاجى.
٣– لقب ابن رشد.

٤– سيأتى الحديث عنه.
٥– ويعلله الخفاجى صاحب الشرح عليه بأن الله اختار له ذلك لئلا يضل به بعض أمته لتوهمهم أنه يعلم الغيب فيقعون فيما وقع فيه النصارى ويقول صاحب "المنار" فى هذا المعنى وكان من حكمة الله فى تربية رسوله ﷺ وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده الشخصى البشرى فيها لتكون أوقع فى نفسه ونفس اتباعه وأيضاً لتكون نذيرا قائماً دائما لئلا تحدثه نفسه بما وقعت فيه النصارى مع عيسى عليه السلام فتكون حداً فاصلا واضحا بين صفات خالق البشر وصفات الحادث الذى يتلقى عن غيره ما يكمله وبين صفات القديم الذى يفيض من فيض علمه على من يختار من عباده سبحان هو وحده الذى ليس كمثله شيء.
قال شارح الشفاء فى تعليقه على هذا: لما أمر الله تعالى بالاقتداء به واتباعه فى قضاياه وأحكامه كان حكمه على هذا النحو، وإلا لم يكن لأمته سبيل للاقتداء به فى شيء من ذلك وليقتدى به حكام أمته ويستوثقوا بما يؤثر عنه وينضبط قانون شريعته.
٧– طبع المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٦ص ٤٦٧.
٨– كلدة بفتحتين وكان ﷺ يأمر بعض أصحابه بالرجوع إليه لخبرته فى الطب انظر ذلك فى "زاد المعاد فى هدى خير العباد" لابن القيم جزء ٣ صفحة ٩٤.

النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات. وقد وقع له في شأن تأبير النخل ما وقع، فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل، والله الهادي إلى الصواب. لا رب سواه".

رأى الكمال بن الهمام

والكمال بن الهمام في كتابه "التحرير" يذكر أن أكثر الأقوال الفقهية ترى أنه ﷺ مأمور بالاجتهاد مطلقًا في الأحكام الشرعية، والحروب، والأمور الدينية من غير تقييد بشيء منها، ويشير إلى أن ذلك مذهب عامة الأصوليين، مالك والشافعي، وأحمد وعامة أهل الحديث[٩] كذلك. ثم يسوق قوله تعالى:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾

ويعلق عليها بقوله: ولا عتب فيما هو وحي من عند الله ويرد ما قاله الكرماني من أنه عتاب على ترك الأولى، بأن ظاهر الآية يخالفه[١٠]. ثم يذكر أنه قد جاء في الحديث الصحيح: "أنه بعد أن مال ﷺ إلى رأى أبي بكر وأخذ الفداء، وخالف بذلك رأى عمر القائل بالقتل، نزلت الآية الكريمة السابقة:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾

بكى ﷺ وبكى معه أبو بكر، قال عمر فسألت رسول الله ﷺ عن سبب بكائه.

٩- وجاء في التحرير وشرحه أيضاً:
"وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة لا يصح أن يكون ﷺ مأموراً بالاجتهاد في الأحكام الشرعية وقال بعد ذلك وقيل كان له الاجتهاد في الأمور الدينية والحروب دون الأحكام وقيل كان له الاجتهاد في الحروب فقط وهو محكي عن القاضي والجبائي.
وقال القرافي في "شرح تنقيح الفصول" قال الشافعي و أبو يوسف وقع منه ﷺ الاجتهاد وقال أبو علي وأبو هاشم لم يكن متعبداً به لقوله تعالى:
﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ وقال بعضهم كان له ﷺ أن يجتهد في الحروب والآراء دون الأحكام وتوقف أكثر المحققين
وقال ابن الحاجب وشارحه العضد المختار وقوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ عاتبه على حكمه ومثل ذلك لا يكون فيما علم بالوحي
وقال ﷺ لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي وسوق الهدي حكم شرعي أي لو علمت أولاً ما علمت آخراً لما فعلت
ومثل ذلك لا يستقيم إلا فيما عمل بالرأي، قال السعد في الحاشية: قوله عاتبه على حكمه الذي هو الإذن بالتخلف عن غزوة لمن علم نفاقهم، وهذا يقوم حجة على من منع اجتهاده مطلقاً، أما من جوزه في الحروب وأمور الدنيا دون الأحكام الشرعية التي تتعلق به فالحجة عليه قوله ﷺ لو استقبلت من أمري... الحديث، ولذا صرح بأن سوق الهدي حكم شرعي، وقال العطار في حاشيته شرح الجلال المحلي: والغالب على الظن أنه ﷺ كان لا يجتهد في قواعد أصول الفقه، كما سيأتي وكان يجتهد في الفروع.
١٠- قال شارح مسلم الثبوت وقد يقال هذا لا يدل على كون أخذ الفداء بالرأي فإنه يجوز أن يكون ﷺ مخيراً بين الفداء والقتل ويكون القتل أولى والعتاب لترك الأولى ولا يخفى أن هذا بعيد فإن مثل هذا الوعيد الشديد لا يكون على خلاف الأولى.

فقال ﷺ: أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عرض لي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، وقال: ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر" ويستنتج منه: أنه يدل على أن أخذ الفداء كان باجتهاد، وكان خطأ عظيماً، ويعلل ذلك بقوله: لأن العذاب لا يكون لترك الأولى، ثم يستطرد فيقول: فإن قلت: كيف هذا وقد تقرر أن المخطئ في الاجتهاد له أجر واحد ؟، قلت الأجر على تقدير أن لا يكون خلاف ما أدى إليه الاجتهاد ظاهراً، فأما إذا كان ظاهراً، فلا، بل يستحق المجتهد العذاب، ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين، فحيث كان خلاف رأيهم ظاهراً استحقوا العذاب، قال ﷺ: "كلهم في النار إلا واحدة" فإن قلت: إذا كانت الحكمة في عدم تعذيب المخطئ أنه بذل وسعه في طلب الصواب فلا يفترق الحال في كون المجتهد فيه عملياً أو اعتقادياً، فلم حكمتم بعدم نجاة المبتدعة وهم مجتهدون في العقيدة؟ قلت: في الاعتقاد لم يكن المحل صالحاً للاجتهاد، لوجود النص المفيد للقطع، والشارع قد منع الخوض في ذلك، ثم قال: وقد ثبت اجتهاده ﷺ في الشرعيات، فقال: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، فعلم أنه لم يسق بوحي، وإلا لم يقل ذلك وأيضاً لو كان سائقاً بالوحي لكان علمه بالمصلحة كعدم علمه بها[١١] وسوق الهدي مندوب -فقد اجتهد في حكم شرعي، ثم قال: إلا أنه ﷺ إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ، ثم قال: ولا يبعد أن يقال: إن في جواز الخطأ في اجتهاده ﷺ إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ، بخلاف الوحي، ثم قال: وقول من أنكر وقوع الخطأ في اجتهاده ﷺ وتأول مثل آية:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾

وآية:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾

على خلاف ظاهرهما على وجه يخل بكمال بلاغة القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه، قول لا ينبغي أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم في علو شأن الأنبياء. لأن خطأهم في الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم، أي بخلاف الإخلال ببلاغة القرآن فإنه شديد الخطر، لا يقدم على سببه مسلم ثم قال: وكان الخطأ في مسألة الأسرى أنه ﷺ ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب لإسلامهم، وفداءهم يتقوى به على الجهاد وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام، وأرهب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم، ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لمخالفته الأولى، كما قال الكرماني، لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى، ثم قال: واتفقوا على أنه ﷺ لا يقر على الخطأ.

ثم ينتقل - الكمال بن الهمام - لمعالجة نقطة أخرى وهي الاجتهاد في الأحكام الفقهية، فيقول: وأما الأحكام الفقهية

١١- أي يصح منه ﷺ الندم على سوق الهدي.

فمنكر الضرورى منها - وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة، والزكاة والصوم والحج وحرمة الزنا والخمر، وقتل النفس المحرمة والسرقة -كافر" لأن إنكار ماهو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إنكارها باجتهاد باطل، لانتفاء شرط الاجتهاد وهو كون المجتهد فيه نظريا بأن لا يكون خلافه بدهيا.[١٢]

ومنكر غير الضرورى من القواعد الأصلية [١٣]ككون الإجماع حجة وخبر الواحد حجة، والقياس حجة آثم ومنكر غير الأصلية وهى الأحكام الفرعية الاجتهادية فالقطع على أنه لا إثم فيها على المخطئ بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون فى مقابله دليل قاطع من نص أو إجماع، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأثيم المخطئ فيها، إذ شاع اختلافهم فى المسائل الاجتهادية ولابد من خطأ واحد من المتناقضين ولم ينقل تأثيم واحد لغيره ولو وجد لشاع لأنه أمر خطير، وعدد وقائع الخلاف من زمن الصحابة إلى انقراض المجتهدين أكثر من أن يحصى، ويستطرد فيقول: وقال الجاحظ :لا إثم على مجتهد أى مجتهد كان ولو كان الخطأ منه واقعا فى نفى الإسلام وكان الاجتهاد من غير المسلم وتجرى على النافى المذكور أحكام الكفار، لأنه لا سبيل إلى إجراء أحكام المسلمين لعدم الإسلام ولا واسطة وما قاله الجاحظ من نفى الاثم هو مراد العنبرى[١٤] بقوله: المجتهد فى العقليات مصيب وجميع المسلمين على خلاف رأيهما.

-ثم ينقل عنهما فيحكى أنهما يقولان تكليف مجتهدى الكفار بنقيض مجتهدهم تكليف بما لا يطاق فلم يكلف إلا بما فى وسعه من الاجتهاد وقد فعل ويذكر أنه أجيب بمنع أنه فعل ما كلف به إذ لا شك أن على هذا المطلوب الذى كلف بالوصول إليه وهو الإسلام أدلة قطعية ظاهرة بحيث لو وقع نظره فى موادها الموجودة فى النفس والآفاق المنادية بلسان الحال، إن الطريق هكذالا يتغير لظهوره كالشمس - لوصل قطعا، فإذا نظر ولم يصل للحق مع ذلك علم أنه فقد شرطا من شروط النظر لتقصيره وعدم التفاته إلى ما يرشده لانهماكه فى مطمورة التقليد للآباء".

١٢- روى البخارى (ج ١٢ ص١٦٢ فى الديات) عن الله بن مسعود قال ﷺ : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزانى والمفارق لدينه التارك للجماعة، قال الحافظ ابن حجر قال ابن دقيق العيد قد يؤخذ من قوله «المفارق لدينه التارك للجماعة» أن المراد المخالف لأهل الإجماع فيكون متمسكا لمن يقول مخالف الإجماع كافر وقد نسب ذلك لبعض الناس وليس ذلك بالهين فإن المسائل الإجماعية تارة يصحبها التواتر بالنقل عن صاحب الشرع كوجوب الصلاة مثلا وتارة لا يصحبها التواتر فالأول يكفر جاحده لمخالفته التواتر لا لمخالفته الإجماع والثانى لا يكفر به قال شيخنا فى شرح الترمذى الصحيح فى تكفير منكر الاجماع تقييده بإنكار ما يعلم وجوبه من الدين بالضرورة كالصلوات الخمس ومنهم من عبر بإنكار ما علم وجوبه بالتواتر.

١٣- هى التى ينبنى عليها الفروع

١٤- هو عبد الله بن الحسين العنبرى من المعتزلة -(كذا قال الآمدى فى الأحكام)

نهاية المسيئين للرسول صلى الله عليه وسلم



بقلم: أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء ورئيس جامعة الأزهر الأسبق

لقد وضح القرآن الكريم نهاية المسيئين للرسول ﷺ ومؤاخذة الله لهم فى الدنيا قبل الآخرى، كما حدث للرسل السابقين، إن الله يمهلهم ويملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد: ٣٢)

فبين الله تعالى أن الرسل السابقين لما استهزأ بهم بعض المسيئين أمهلهم رب العزة سبحانه وأجلهم ثم أخذهم وعاقبهم وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخارى ومسلم. وقال الله سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

(هود: ١٠٢)

لقد جرى للرسل السابقين مثل ما جرى مع خاتم الأنبياء والمرسلين، فعندما استهزأ الكفار بالرسل وسخروا منهم حلّ بهم العذاب كما قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(الأنبياء: ٤١)

فلينتظر أولئك المسيئون الظالمون ما ينزل بهم عاجلا أو آجلا فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

(إبراهيم: ٤٢)

ولقد قرر القرآن الكريم نهاية الذين كفروا واتخذوا آيات الله ورسله هزوا، فاستهزءوا بدين الله وآياته ورسله فكانت جهنم مأواهم وجزاءهم بسبب كفرهم واستهزائهم.

إن هذا النمط من المستهزئين وصفهم الله تعالى بالأخسرين أعمالا ثم فسر وصفهم حيث قال سبحانه:

نهاية المسيئين للرسول ﷺ

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

(الكهف: ١٠٣-١٠٦)

وقد توعد الله تعالى كل من يبغض رسول الله ﷺ بأنه الأبتر والمقطوع دنيا وأخرى، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

(الكوثر ١: ٣)

أى أن مبغضك هو الأبتر والمقطوع، أما رسول الله ﷺ فذكره باق وخالد، واقترن اسمه باسم رب العزة سبحانه وتعالى فى كل أذان وفى كل تشهد، نشهد لله بالوحدانية ونشهد لسيدنا محمد ﷺ بالرسالة.

وإن وعيد الله للمستهزئين برسول الله ﷺ سوف يتحقق وقد أخبر القرآن الكريم عن هذا الوعيد للذين كذبوا بالحق لما جاءهم، وأنهم سيحل بهم ما أخبر الله به من عقاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة حيث قال الله تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

(الأنعام: ٥)

وقد رد القرآن الكريم على الظالمين المستهزئين، موضحا أن الله تعالى سيكشف ما فى قلوبهم ووضح الوعيد الشديد لهم فالرسول ﷺ إن سألهم عن سبب طعنهم واستهزائهم ـ قديما ـ لقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب ولو سألناهم نحن ـ اليوم لقالوا: حرية الرأى والتعبير وقد رد عليهم الخالق سبحانه آمرا رسوله ﷺ أن يقول لهم:

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾

(التوبة: ٦٥)

وهكذا حمل القرآن الكريم التقريع لأولئك المسيئين الظالمين على إساءتهم واستهزائهم قال الله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

(التوبة ٦٥-٦٦)

وإن واجبنا ـ كما أمر القرآن الكريم ـ ألا نتخذ من هؤلاء المسيئين أصدقاء ولا أحباء ولا نتعاون معهم بل علينا مقاطعتهم قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(المائدة: ٥٧)

وإذا كان الله تعالى قد تولى حفظ رسوله كما قال:

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(المائدة: ٦٧)

وكما قال تعالى:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

(الحجر: ٩٥)

وإن الله تعالى سيتنزل بمن آذوا رسوله ﷺ العقاب إذا كان الله قد تولى ذلك، فإنه سبحانه أمرنا ألا نتخذ من المستهزئين أهل مودة وأن نتقى الله تعالى فى قوله:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

أى أن من لا يستجيب للتوجيه الربانى لا يكون متقيا لله، وهذا شأن المؤمنين الصادقين، أن يكونوا متقين.

ونهاية المستهزئين فى الدنيا أليمة، وعاقبتهم وخيمة، وعقابهم فى الآخرة أشد.

وكما وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم الذى نزل دستورا سماويا وحفظه فعلا، تكفل بحفظ رسوله ومصطفاه، وأمر بالتأدب معه، وعدم رفع الصوت فوق صوته هذا فى حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لا يرفع أحد صوته على صوت حديثه وسنته، ومنهاجه ودعوته، قال الله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

(الحجرات: ٢)

وبين رب العزة سبحانه أن الذين يؤذون رسول الله ﷺ لهم عذاب أليم حيث قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦١)

إن الذين يحادون الله ورسوله ويعادونهما لهم الوعيد الشديد ويلقون العقاب مثل ما لقى من قبلهم من الأمم السابقة، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(المجادلة: ٥)

وقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾

(المجادلة: ٢٠)

والوعيد الشديد لمن يوادون من حاد الله ورسوله حيث قال الله تعالى:

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(المجادلة: ٢٢)

فنفى الله الإيمان بالله واليوم الآخر عمن تكون بينه وبين المعادين لله ولرسوله موادة، وجاء التعبير القرآنى «يوادون» بصيغة المفاعلة لينبه على تحريم التواد والتعامل مع الذين يحادون الله ورسوله.

والآية السابقة عليها وضحت النهى عن موالاة الذين يحادون الله ورسوله ولو كانوا من الأقربين.

والوعيد الشديد لمن يقدم شيئا من شئون الدنيا على محبة الله ورسوله والجهاد فى سبيله حيث قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(التوبة: ٢٤)

ألا فليعلم الذين أساءوا إلى رسول الله ﷺ أنه سيبوءون بالخزى والعقاب دنيا وأخرى وليحذر الناس أن تكون بينهم وبين المسيئين مودة لأنهم فى ضلال مبين. فليحذروهم وليجتنبوا موادتهم ومعاملتهم.

واجب المثقفين نحو الأمة (*)



للإمام: محمد البشير الإبراهيمى

رغب إلىّ جماعة من إخوانى الأساتذة الذين يعز علىّ رد رغبتهم أن أحدثكم فى هذه الليلة المباركة فى هذا النادى العامر، وما عهد نجد عندنا بذميم، ولكنهم حددوا لى موضوع الحديث فى جملة صاغها أخى الأستاذ العامل عبد السلام مزيان بلفظه وهى (كيف يؤدى المثقفون واجبهم نحو الأمة؟!) وزعم الأخ الأستاذ سامحه الله أنه لا يضطلع بتفصيل هذا الموضوع وإعطائه حقه غيرى، ولولا حسن ظنى بالأخ الأستاذ ومتانة ثقتى بأخوته لقلت إن اختيار هذا الموضوع توريط لى زينه بذلك الزعم المغرى، ولكن يشفع عندى للأستاذ مواقفه التى أذكرها فأشكرها فى التقريب بين ألوان الثقافات الرائجة بهذا الوطن وفى التأليف بين أفراد المثقفين المتنافرين بطبيعة الحال لا بل أغنم فأعد الأستاذ من أمثلة القاسم المشترك عند علماء الرياضة إذ هو من الأفذاذ الذين تذوقوا ثقافتين تصطرعان بهذه الديار وعملوا للتوفيق بينهما للخير العام.

وإذا خرجنا من الدعابة للأستاذ إلى الجد معه فإن هذا الموضوع أثار اهتمام الأمة بطرفيها فى هذه السنة وكثر خوض الخائضين فيه وهب فى الرأى العام تيار شديد من المعانى المتصلة بهذا الموضوع عبرت عليها الأفعال قبل الأقوال وغمرت المجالس والمجتمعات سحب المناظرة والجدال، والجواب والسؤال، وكثر التحكك بين الطرفين المقصودين فيه وهما الأمة والمثقفون من أبنائها.

وأنا أزعم أنى من المشتغلين بمراقبة هذه الحركات فى الأمة والمعتنين بتسجيلها لأنها متعلقة بأعمالى الفكرية والتعليمية والإرشادية، ولأنى متصل بالطرفين اتصالاً وثيقًا وعالم بما لكل منهما على الآخر من واجبات، وعامل بجهدى فى تقريب ما بينهما من مسافة وإزالة ما بينهما من تنافر.

* من محاضرة ألقاها الإمام فى أحد نوادى تلمسان ١٩٤٣، ووجدت مسودتها بين أوراقه.

فحكمى على هذا الشعور الجديد فى هذه الأمة أنه وليد التطورات والحوادث الفاجئة التى تعمل فى تكوين العالم كله تكوينًا جديدًا، وأن أول ما تفعله الحوادث طبع الأفكار والعقليات طبعًا جديدًا.

وإن الأمم إذا اضطرم شعورها بالحاجة إلى الشىء اتجهت أنظارها إلى قادتها وتحركت ألسنتها بالتساؤل عن رجالها، فإذا كانت سعيدة مهيأة للخير لبّاها رجالها من أول دعوة ووجدت قادتها فى مقدمة الصفوف، وإذا كانت شقية مقدرًا لها الذل والخذلان وجدتهم لاهين لاعبين أو متنابذين مضطربين منعزلين فى أخريات القوافل منتشرين على هوامش ركب الحياة قانعين بالدار الضيق الذى يدورون فيه مثقلين بالقيود المرهقة التى قيدتهم المعيشة بسلاسلها وأغلالها. فتفوت الفرص ويفوز السابقون المبكرون وتقسم مغانم الحياة وتبدل الأرض غير الأرض، والأمة ورجالها متباعدون مع قرب الدار، متقاطعون مع حرمة الجوار، يتصامون والألم شامل ويتعامون والبلاء محيط، ويتمارون والنذير عريان ويمارون فى الشمس وهى طالعة ثم يصبحون وقد فات العمل وخاب الأمل وحقت الكلمة، وهذه حالتنا وحالة أمتنا معنا والأمر لله.

إن هذا الموضوع الذى أرغمت على التحدث فيه موضوع شائك لا يجرى اللسان فيه إلا على أطراف محددة وحثث ممددة وعوائق مما يقف بين الخلق واللسان، وعوائر مما يفصل بين الإنسان والإنسان وإن الإنصاف فينا لقليل.

إن الحديث فى هذا الموضوع يؤدى إلى تحريك أوتار طال العهد بسكونها، وإلى نفض غبار اطمأنت النفوس إلى ركوده، وإلى نقد خصال من الضعف والفسولة والخور عششت فى نفوسنا حتى ألفناها وركنّا إليها وأصبح الفطام عنها صعبًا، وألبسناها خلاف لبوسها من الأوصاف والنتائج حتى أصبح الدخول فى خلافها دخولاً فيما لا يعنى والتلبس بها إلقاء بالنفس إلى التهلكة. ونحلناها ما لا تستحق من الأسماء حتى أصبح المتصف بها يسمى بيننا حكيمًا وعاقلاً وخبيرًا ومسالمًا ومداريًا ومتجنبًا للشبهات من الخمول والانكماش.

ولقد كانت هذه الخصال موجودة فى طائفة من سلفنا وكانت محمودة فى عرفهم ولغة عصرهم لأنها كانت من الكماليات فى حياة الأمة، لأن كلمة الأمة إذ ذاك مجموعة وجانبها عزيز ومقوماتها ثابتة ومكانتها محترمة ومقامها بين الأمم مرفوع وميادينها عامرة بالرجال وخزائنها زاخرة بالأموال. فماذا عسى يضيرها بعد ذلك إذا جاءت منها طائفة مسالمة وطائفة متجنبة للشبهات وطائفة متصوفة وطائفة متقشفة وطائفة متزهدة وطائفة متعبدة وطائفة تسكن الخلوات وطائفة تعمر حلق الذكر. كان المأمون فى عصره قائمًا بعز الخلافة وفى عزها عزّ الإسلام وكانت يده تفيض بالعطاء للناقلين والمترجمين لثمرات العقل البشرى فماذا يضير الإسلام فى زمنه أن يكون فى الأمة طائفة آثرت الخمول والانزواء والتستر والانكماش؟ وماذا يضر السفينة إذا كان

ربانها ماهراً ساهراً أن ينام جميع الركاب؟

وكان أحمد بن حنبل وطبقته في عصرهم يحملون الشريعة ويقومون بتحقيقها وفلسفتها ونشرها، وكان البُخاري وطبقته يقومون بالرحلة لجمعها وتحريرها وتصفيتها.

وكان طاهر بن الحسين وأمثاله من القواد يقومون بحماية الثغور وتنظيم القوة، وكان الحسن بن سهل وأمثاله يقومون بتدبير المصالح العامة وجباية الأموال، وكان أبو يوسف وأحمد بن أبى دؤاد يقومون بتنفيذ القضاء وإقامة الحدود.

وكان ثمامة بن أشرس وأضرابه يقومون ببيت الحكمة في الأمة وتكوين الفضائل.

وكان الأصمعي ويونس وأبو عبيدة وأضرابهم يقومون بتدوين اللغة وحفظها، وكان الخليل وسيبويه وابن جنى وأمثالهم يقومون بتفريعها وتخطيط مقاييسها، وكان الجاحظ وأضرابه يقومون بجلاء البيان العربى وترويضه للمعارف العقلية والنقلية، وكان النظام وواصل وبشر بن المعتمر وأضرابهم يقومون بتوسيع المدارك العقلية وتلقيحها بلقاح المنصف وتربيتها على أفانين الجدل والحجاج والاستدلال. وكان الآلاف من غيرهم يقومون بشعب الحياة الأخر ويعمرون ميادينها المتشعبة؛ فهل يضر الأمة أن تختار طائفة منها ما تستحقه من خمول وانكماش وغيرهما مما هى أمراض المثقفين اليوم من هذه الأمة؟

على أن الواقع الذى يجهله الناس وأنا أعرّفكم به لأننى أعرفكم به، هو أن تلك الطوائف التى شذت واعتزلت الحياة العامة فى أيام عز الإسلام ليست إلا طوائف لا تستحق الحياة وأنها لم تجد فى ميدان الحياة متسعاً لأن تلك الميادين كانت عامرة بالأصلح، فتلك الطوائف لم تعتزل الحياة عن طوع واختيار بل عن قهر واضطرار هى طوائف اعتزلتها الحياة وليست هى التى اعتزلت الحياة، هى طوائف منفية من الحياة لا منتفية منها.

يوجد رجل من الدجالين فى عصرنا هذا ولكنه حاذق فى معاريض الكلام جاءه مريد من مريديه فقال له: إنى طلقت الدنيا لأنقطع إليك وإلى خدمتك، فقال له الشيخ: وماذا طلقت من الدنيا هل لك غنم؟ قال: لا، قال: هل لك تجارة هجرتها لأجلى؟ قال: لا، قال: هل لك فلاحة تركتها لأجلى؟ قال: لا، قال: هل لك زوجة وأولاد؟ قال: لا، قال: إذن فالدنيا هى التى طلقتك وأنت المطلق لا هى. وكذلك حال تلك الطوائف التى ورثنا من آثارها السيئة هذا الخمول وهذا الانكماش وهذا الجهل بحقيقة الحياة، وبئس الميراث وبئس الوارثون.

طاف الإمام أبو إسحاق الأسفرايينى فى بدء انحطاط الإسلام جبل لبنان وكان عامراً بالعباد المنقطعين عن الدنيا، فقال يخاطبهم: يا أكلة الحشيش تهربون ها هنا وتتركون أمة محمد تعبث بدينها المبتدعة، وإن اقتصاره على ذكر الدين يدل على أن دنيا الأمة كانت محفوظة، ولو بعث فى مثل زماننا لأضاف الدنيا إلى الدين فقد ضاع كلاهما بخمول المثقفين.

هذه مقدمة كالمفتاح للكلام فى المقصود وهى متصلة به معدودة من تمهيداته مشيرة إلى كثير من أصوله مرشدة إلى ما فيه الأسوة من المحدثين بالقدماء، وإذا طالت فعذرى إليكم أن المرتجل لا يستطيع ضبط لسانه كما يستطيع الكاتب ضبط قلمه فلتحول هذا اللسان عن مجراه، ولتحاول حمله على الجرى فى المقصود ومن حقكم على هذا اللسان أن ينطق بالحق ولو على نفسه: وإذا كان الحق يغضب أقواماً فحسبه أن يرضى الحقيقة، وما وقفت بينكم موقف القائل ووقفتم منى موقف المستمعين إلا وقد أخذ الحق علينا عهداً أن يكون الخطاب من الضمير للضمير وأن لا نؤثر العواطف على العقول وأن لا نتقارض الثناء المكذوب، وأن لا نخون الفضيلة فى اسمها، إننا مرضى ومن بلاء المريض رفق الطبيب به، إن رفق الطبيب خيانة لفنه وقدح فى أمانته وزيادة فى البلاء على مريضه، وما خير رفق ساعة يتجرع المريض بسببه آلام السنين.

أعيد الموضوع على أذهانكم وهو كيف يؤدى المثقفون واجبهم نحو الأمة؟ كلمة المثقف آتية من تثقيف الرمح وهو تقويم قناته بغمزها وتشذيب زوائدها الناتئة وإزالة الاعوجاج من كعوبها، ويقولون للغلام المتدرب على اللعب بالسلاح وعلى الرمى بالحراب والتلاعب بالرماح، غلام مثاقف وهو وصف قريب الصلة بكلمة التثقيف، ولم تكن العرب تستعمل كلمة مثقف بالمعنى الذى نعرفه الآن. وإنما كانوا يقولون فى مثله رجل لقن وزكن ويقولون فى معنى الثقافة عندنا اللقانة والزكانة، ولما جاءت نهضتنا الحاضرة اختارت للدلالة على هذا المعنى كلمة الثقافة وجعلتها ترجمة لكلمة افرنجية.

فالمثقف هو الرجل المُهذّب المستنير الفكر المجوهر العقل المستقل الفكر فى الحكم على الأشياء، الجارى فى تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطلع على ما يمكن من شئون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معارف عصره.

وقد تتسع الثقافة بوفرة الحظ من الأخلاق وكثرة المعلومات وقد تضيق بقلتهما وقد تنقسم باعتبارات جنسية أو لغوية أو دينية. فيقال: الثقافة العربية أو الفرنسية ويقال الثقافة الإسلامية أو المسيحية مثلاً، وإنى محدثكم عنها على حسب ما أتذوقه من روح الكلمة فى مدلولها العربى وعلى ما أعلم من تطبيقها فى العرف الشرقى الراقى فى نهضته الفكرية الحالية، فإن رأيتم فى كلامى بعض المخالفة لمعناها الإفرنجى فعذرى أنى لا أعلم مدى ما يراد منها فى ذلك الاصطلاح، وإنما أنبهكم إلى أن معنى الكلمة فى الذوق العربى يرمى إلى أن أساس الثقافة هو حسن التربية وصحة الإدراك والتقدير للأشياء، وسلامة التفكير والاستنتاج العقلى واستقامة السلوك فى معاملة الناس، ويرمى كذلك إلى اعتبار الأخلاق الفاضلة قبل كثرة المعلومات، ولعل هذه النقطة الأخيرة هى التى يختلف فيها النظران الشرقى والأوروبى.

منزلة المثقفين فى الأمم الحية

والمثقفون فى الأمم الحية هم خيارها

واجب المثقفين نحو الأمة

وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها. تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير، وما زالت عامة الأمم، من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأى والبصيرة فيها، تحتاج إليهم فى أيام الأمن وفى أيام الخوف. تحتاج إليهم فى أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة فى الحياة، ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال، وتحتاج إليهم فى أيام الخوف ليحلوا لها المشكلات المعقدة ويخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة.

والمثقفون هم حفظة التوازن فى الأمم وهم القومة على الحدود أن تهدم وعلى الحرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حدّ نفسه، يراهم العامى المقصر فوقه فيتقاصر عن التسامى لما فوق منزلته، ويراهم الطاغى المتجبر عيونًا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد. إذا كانوا متبوعين فمن حق غيرهم أن يكون تابعًا، أو كانوا فى المرتبة الأولى فمن حق غيرهم أن يكون فى الثانية، ولا أضر على الأمم من الفوضى فى الأخلاق والفوضى فى مراتب الناس، ولكن هل عندنا مثقفون بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة؟ وما دام حديثنا فى دائرة محدودة وهى الأمة الجزائرية بصفتها الحاضرة، وتفصيلنا للقول إنما هو على مقدارها فلنقل مخلصين: هل فينا مثقفون بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة؟ ولنكن صرحاء إلى أبعد حدّ.

الحق أنه يوجد فى الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها وعلى حسب حظها من الإقبال على العلم وعلى مقدار الوسائل التى تهيأت لها فى ذلك- ولكن المثقفين منا قليل جدًا لا فى الكمّ والعدد ولا فى الكيف والحالة، ولا نطمع فى زيادة عدد المثقفين إلا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف، وتهيأت أسبابه أكثر مما هى متهيئة الآن- ولا نطمع فى زيادة الكيفية إلا إذا توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة فى دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوماتها، واتحدت الأهواء المتعاكسة واتفقت المشارب المختلفة فى الأمة وصحت نظرتها للحياة وصح اختيارها لطرقها المناسبة لوجودها.

ولكن آفة الآفات وعلة العلل فى ثقافتنا على ما هى عليه من النقص فى العدد وفى الحالة أن عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان الأمة من أمام ومن خلف:

- إحداهما ثقافة إسلامية أساسها دين الأمة وقوامها اللسان العربى تقوم بها طائفة.

- والثانية ثقافة أوروبية أساسها اطّراح الأديان وقوامها اللسان الفرنسى تقوم بها أخرى.

وبين الثقافتين تفاوت يكاد يصيرنا أمتين لا أمة واحدة، ولو اشترك الفريقان فى اللسان المعبر لهان الأمر ولحصلت بعض الثمار المطلوبة من الثقافة، ولكن فى كلا الفريقين عيوبًا وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهل مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهل فاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وبتاريخ الأمة وهو مصباحها المضىء، وبلسانها وهو ترجمانها الصادق. ونشأ عن اختلاف الثقافتين ما لا يحصى من المضار والمفاسد التى صيّرت الثقافة فينا عديمة الفائدة، ومن أكبر مفاسدها الاختلاف فى وجهات النظر فتختلف الآراء فى المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين وفى المفسدة الواحدة كذلك، وهنالك تنقلب الحقيقة ويصير المثقفون بلاء على الأمة ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها. وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها، ولا مخرج لنا من هذا إلا بالجمع بين الثقافتين فى معين واحد.

وقد كانت الحالة قبل أعوام أدهى وأمر مما هى الآن، إذ كان أمر الدين فى الأمة موكولاً إلى طائفة من الفقهاء الجامدين لا يفهمون من حقائق الدين ولا من أسراره شيئًا ولا يعلمون من لغته إلا قشورًا، فكانوا يسيئون الظن بالمثقفين ثقافة أوروبية ويحكمون عليهم بالخروج من الدين ويشوهون سمعتهم عند الأمة. يتولد من ذلك فى نفوس جمهور الأمة نفور مستحكم منهم وسوء ظن بأعمالهم، وذهب خيرهم فى شرهم وحقهم فى باطلهم، فلا يرضون على أعمالهم ولو كانت صالحة لقيام التهمة، ولا يثقون بأقوالهم ولو كانت سديدة لعروض الشبهة. ولكن منذ قامت الحركة الإصلاحية على أيدى رجال مثقفين ثقافة إسلامية حقيقية عالية عارفين بمقتضيات الحياة فى كل عصر، قادرين على تطبيق الدين مع الاجتماع مع الحضارة عارفين بأقدار الرجال وقيم معارفهم، مطلعين على أسباب التقدم والانحطاط، مشاركين فى معارف العصر، وناهيكم بإمام النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - فمنذ ذلك الحين خفت تلك النزعة البغيضة بخذلان الداعين إليها وتولد فى الأمة شعور جديد بقيمة المثقفين بالثقافة الأوروبية وبأنهم من أبناء الأمة وأن الواجب الانتفاع من آرائهم والاستفادة من مواهبهم.

كيف يؤدى المثقفون واجبهم نحو الأمة؟!

أما إذا صارحناكم بما نعتقده الحق فى قيمة ثقافتنا ومثقفينا وفى مقدار انتشار الثقافة بيننا وفى آفات الثقافة والمثقفين منا ونقائصها ونقائصهم وعيوبها وعيوبهم فإننا نصارحكم برأينا فى كيفية أداء المثقفين لواجبهم.

إن أول واجب على المثقفين إصلاح أنفسهم قبل كل شىء، كل واحد فى حد ذاته، إذ لا يصلح غيره من لم يصلح نفسه، ثم إكمال نقائصهم العلمية واستكمال مؤهلاتهم التثقيفية حتى يصلحوا لتثقيف غيرهم، إذ ما كل مثقف يكون أهلاً لأن يثقف، وإذا كان المثقفون قبل اليوم فى حالة إهمال فحالتهم إذا هيأوا أنفسهم لتأدية الواجب تستلزم اهتمامًا آخر واستعدادًا جديدًا، وثانى واجب هو إصلاح مجتمعهم كل طائفة مع كل طائفة بالتعارف أولاً وبالتقارب فى الأفكار ثانيًا، ومن طبيعة الاجتماع أنه يحذف الفضول واللغو، وبالتفاهم فى

إدراك الحياة وتصحيح وجوه النظر إليها ثالثا، وبالاتفاق على تصحيح المقياس الذى تقاس به درجة الثقافة رابعا.

وهذه النقطة الأخيرة من ألزم اللوازم فإن التباعد بين المثقفين وخصوصا بين أهل الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، أدّى إلى فتح الباب وكثرة المتطفلين، فأنا من جهتى لا أرضى بحال أن أحشر فى زمرة المثقفين كل من يكتب بالعربية الصحيحة مقالة فى جريدة ولا كل من يستطيع أن يخطب فى مجتمع، وهو مع ذلك عارٍ من الأخلاق أو لا يحسن الضروريات من المعارف العصرية، وما أكثر هذا الصنف فينا، وهم يعدون فى نظر الناس وفى نظر أنفسهم من المثقفين، وأنا أشهد الله أن هذا ظلم للثقافة ما بعده ظلم، كما أنه يوجد فى قراء الفرنسية عدد كثير من حملة الشهادات يزعمون لأنفسهم أو يزعم لهم الناس أو يزعم لهم العرف الخاطئ أنهم من المثقفين، وهذا كذلك ظلم للثقافة لا أرضاه. وإن أمثال هؤلاء من الطرفين ما دخلوا فى عمل إلا أفسدوه لنقص معلوماتهم أو فساد أخلاقهم وقصر أنظارهم وجهلهم بالتطبيق، ولا نستريح من هؤلاء إلا إذا جاء وقت العمل فإن القافلة إذا سارت وشدت الرّحال تخلف العاطل وظهر الحق من الباطل.

ولعل بعض السامعين يتشوف إلى معرفة السّر فى هذا التفاوت بين طبقات المثقفين منا، وأنا أشرح لكم بعض السبب وهو أن قراء العربية لم يخرجهم معهد واحد ولا معاهد متحدة التعليم موحدة البرامج مرتبة الدرجات منظمة الشهادات على التحصيل، وإنما هم متخرجون من معاهد مختلفة لا تجمع بينها جامعة إلا كونها عربية ومعظمها غير منظم ولا مرتب ومعظمهم تلقى تعليمه كيف ما اتفق ولم يكمل دراسته ولا أتم تحصيله، أما تربيتهم فجاءت ملونة بألوان تلك المعاهد.

ثم ألقى بهم الدهر إلى أمة متعطشة فى أول عهدها باليقظة فهى لا تفرق بين صفو وكدر فكانت استفادتها منهم قليلة وربما ضروا أكثر مما نفعوا.

كذلك نعلم أن للثقافة الفرنسية فى وطننا ثلاثة معاهد متباعدة الغايات متفاوتة الدرجات: الأولى الكليات الجامعة وما يوصل إليها، الثانية دار المعلمين، الثالثة المدارس الثلاث [1].

ومن المؤسف حقًّا أن أبناءنا فى التعليم الجامعى اتكلوا على الجانب المادى أكثر من الروحى والأخلاقى، فتخرج فى جيلين بضع عشرات تناهز المائة من الأطباء والصيادلة ومثلها من المحامين، ودون العشرة من المهندسين، وإلى جانب ذلك كله دون العشرة فى الآداب، ولم نر إلى جنب هذا العدد واحدًا تخصص فى الفلسفة أو فى علم النفس أو فى الأخلاق أو فى فلسفة الاجتماع والتشريع، وتعليل هذا الاتجاه معقول من روح الأمة وحالتها المادية وليس من المناسب شرحه فى هذه المحاضرة، وإنما نقول إن للتقليد أثرًا كبيرًا

(١) هى المدارس التى أنشأتها فرنسا فى الجزائر سنة ١٨٤٧ فى تلمسان وقسنطينة والجزائر العاصمة لتخريج القضاة والمترجمين والأئمة.

فى هذا الاتجاه شأن الأمم التى تكون فى درجتنا من الانحطاط.

وإنى أذكر لكم على سبيل العبرة حكاية اتفقت لى: مرض والدى رحمه الله مرض الموت فى دمشق وتسامع أصدقاؤه فزاره فى بضعة أيام نحو عشرين طبيبًا فسهرت ليلة عند صديقى الدكتور عزت أفندى شموط وهو شاب أديب مع براعته فى فنه فأكبرت دمشق إذ كان فيها فوق المائتين من الأطباء من أبنائها ومن اللاجئين إليها أيام الحرب فقال صديقى الدكتور شموط: إن كثرة الأطباء فى بلدة تدل على كثرة الأمراض والأوساخ فيها، وأنا أختار بلدة فيها عشرة مرشدين دينيين وعشرة أدباء وعشرة أطباء على بلدة فيها ثلاثمئة طبيب، لأن الأدباء يرققون عواطفها فتميل إلى الروحيات فتقل الأمراض، والمرشدون يعلمونها القصد فى الأكل واللذات ويحضرونها على النظافة، فهؤلاء أطباء ولكنهم يداوون المرض قبل وقوعه فإذا أفلت واحد، داواه الأطباء المعروفون، فأكبرت كلامه إذ كنت لا أنكره بذوقى.

ومن المؤسف أيضًا أن دار المعلمين تهيئ خريجيها لأعمال خصوصية محدودة مقيدة بدور العلم فيها طول عمره فلا يجد الوقت لتوسيع ثقافته بالمطالعة والكتابة والتطبيق، وكذلك القول فى خريجى المدارس الثلاث وهذه القيود تشل الثقافة وتحصرها فى المدار الضيق.

وإذا تمت الإصلاحات الأربعة جاء الخامس والأخير وهو الامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها والتحبب إليها ومشاركتها فى شئونها الاجتماعية والدخول فى مجتمعاتها ومعابدها ومشاركتها فى عاداتها وفى الصالح من عوائدها، فبذلك تحصل الثقة منها وتنقاد لكل ما نريده منها، وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه، وثقة الأمة بالمثقفين هى رأس المال فى هذا الباب.

أما الواجب فى حدّ ذاته فهو فى الجملة إيصال النفع والخير إلى الأمة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معانى الخير والرحمة والإحسان لجميع الخلق.

هذه أمهات المعانى التى تجهلها الأمة أو تغلط فى فهمها، وواجب المثقفين- بعد أن يستوثقوا منها بالمخالطة- أن يرفعوا عنها الجهل بها أو الغلط فيها. وكيف يكون ذلك؟ يكون بتنزل المثقف فى مخاطبة العامى واستدراجه فى كل اجتماع إلى بيان ما يجهله أو يغلط فيه، ويتخير لذلك المناسبات وأوقات الفراغ، وقد شاهدنا المثقفين إذا اجتمعوا بعوام الأمة وسمعوا سخافاتهم يقابلونهم بالضحك أو بالاحتقار، وهذه نقطة من نقط تضييع الواجب حيث يجب أداؤه. فما ضرهم- سامحهم الله- لو عملوا بما ذكرناه؟

إذا لقاموا بالواجب وأوصلوا للعامى خيرًا ما بعده خير وأحسنوا إليه إحسانا يستحقه.

نظرات فى الإسلام

مع التشريع الإسلامى



الدكتور محمد عبدالله دراز

لا جدال فى أن التشريع الإسلامى، إنما يقوم على أسس سليمة متينة لا تضعف ولا تتزعزع، فهو تشريع مرن يتطور بتطور الحياة، ويتجاوب مع مصالح الناس وحاجياتهم، دون أن يفرض عليهم عنتا أو حرجا.

وهو فوق هذا غنى بثروته التى لا تنفد، هذه الثروة التى تلمسها بنفسك فى العقائد والأخلاق والقيم الإنسانية، وفى أصول القوانين والدساتير والنظم السياسية والاجتماعية.

هناك عنصران يكونان التشريع الإسلامى:

أولهما عنصر العبادات، وهى التى تتمثل فى العبادات بأنواعها: العقلية والروحية والبدنية.

والعقيدة هى الإشعاع الذى يمد هذه العبادات بالضوء، فتدب فيها الحركة والحياة، وتتجاوب مع العقيدة، فتؤدى كاملة غير منقوصة وتؤدى هى وظيفتها أيضا كاملة غير منقوصة، فى تهذيب النفس والروح والقلب، والمسلم حين لا يؤدى هذه العبادات المفروضة ليس معناه ألا عقيدة له، إن له عقيدة ولكنها أشبه ما تكون بالآلة المعطلة، ويوم يقدر لهذه الآلة أن تتحرك، ستؤدى واجبها كما ينبغى، فى تسليط إشعاعها على العقل والجسد، لتتعاون معا.

والعنصر الثانى، عنصر المعاملات، فالناس فى حياتهم مضطرون إلى التعامل، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما إليهما، بل هى شاملة تمتد إلى العلاقات بشتى ألوانها والروابط فى مختلف أنواعها.

والتشريع الإسلامى فى جميع مراحله وأطواره، وفى جميع وسائله واتجاهاته، إنما يهدف إلى الإصلاح الخلقى والنفسى والفكرى، والإصلاح الاجتماعى والسياسى والقانونى، وليس من شك فى أن غاياته إنما تلتقى عند إيجاد مجتمع سليم تطبيقى وشعب ناهض قوى، وإخاء عالمى يقوم على أساس من الحب والعدل والمساواة والسلام.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

فى العقيدة

إذا تكلمنا بلغة العلوم الرياضية تستطيع أن تضع هذه المتساوية:

إيمان + إسلام = دين. فالدين حقيقة مركبة من عنصرين، عنصر نظرى هو الاعتقاد، وهذا هو الإيمان وعنصر عملى هو ثمرة الاعتقاد وذلك هو الإسلام.

وإذا تكلمنا بلسان الصناعات التركيبية، نقول: إن الدين يمثل بناء شامخا أساسه الإيمان والطبقات القائمة على هذا الأساس هى الإسلام.

وإذا تكلمنا بلسان علم الحياة نقول إن الدين فى جملته يشبه شجرة مباركة جذرها مستقر فى أعماق القلوب وهذا هو الإيمان ثم تمتد فروعها فى القلب، حتى تظهر على اللسان والجوارح وهذا هو الإسلام.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾

(إبراهيم: ٢٤)

فهذا هو الإسلام والإيمان، وهو الدين فى جملته.

أما الإيمان بدون إسلام فهو كنواة جافة لا حياة فيها، وأما الإسلام بدون إيمان فهو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ولنبدأ بالبحث عن العنصر الأول وهو الإيمان متسائلين: هل الإيمان وظيفة العقل والفكر؟ أم وظيفة القلب والوجدان؟ أم يلزم أن يشترك فيه العقل والقلب معا؟

الواقع أننا إذا نظرنا فى القرآن الكريم نجده يجعل أساس العقيدة عملا عقليا لا يتسع العاطفة ولا المنفعة الفردية ولا الاجتماعية.

هكذا نراه ينعى على الإمعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة السادة والكبراء كما نراه ينعى على الذين يتجرون بعقائدهم وعباداتهم جريا وراء الأرباح والمغانم وانضماما إلى الصف الذى يجر لهم منفعة عاجلة أو يدفع عنهم مخافة عاجلة:

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾

(القصص: ٥٧)

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾

(المائدة: ٥٢)

ولكنه يدعونا دائما إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل، والتفكير الحر فى الآيات والأدلة:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(يونس: ١٠١)

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ۞ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

ثم تراه يصف دعوته إجمالا بأنها دعوة مستنيرة قائمة على النور والبصيرة:

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾

(يوسف: ١٠٨)

بل تراه يلخص وصاياه لطالبي الوصول إلى الحق في وصية واحدة رئيسية:

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ﴾

(سبأ: ٤٦)

من هذا كله يتبين أن أساس الإيمان في نظر القرآن هو المعرفة العقلية، ولكننا نرى في الوقت نفسه أن القرآن لا يكتفي بهذه المعرفة العقلية حتى ولو بلغت درجة اليقين ما لم يركن القلب ويطمئن لها الوجدان ويتجاوب صداها في أعماق الضمير، فالذي يعرف الحقيقية معرفة عقلية ولكنه يعدها حقيقة تفهة لا طعم لها أو يجدها حقيقة مرة يمجها ذوقه ويكاد يشرق بها مثل هذا كمثل الذي يتصور معنى الجوع والعطش في الوقت الذي لا يشعر فيه بجوع ولا عطش أو كالذي يدرك معنى الحب والشوق وليس محبا ولا مشتاقا أو كالذي يعرف عنك صفة من صفات الفضل ولكنه يحسدك عليها ويتمنى زوالك أو زوالها عنك، كل هؤلاء في نظر القرآن معرفتهم ليست من الإيمان في قليل ولا كثير هكذا يقول في قوم رأوا الآيات مبصرة فقالوا: هذا سحر مبين.

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾

(النمل: ١٤)

ويقول:

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ (البقرة: ١٠٩)

الإيمان إذا معرفة تتغذى بها النفس وتهضمها وتتمثلها وتعدها جزءا من كيانها معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج ولا تجد النفس فيها أثرا من الضيق أو التبرم:

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾

(النساء: ٦٥)

إنه لابد في الإيمان من عمل العقل والقلب جميعا.

ولكن لا يفوتنا أن عنصر العلم والمعرفة العقلية يكون أولا ويكون ركون القلب بعد ذلك على بصيرة وعلى هدى من نور العلم والمعرفة وهذا الترتيب تجده صريحا في كتاب الله عز وجل:

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

(فاطر: ٢٨)

فجعل العلم بالحق أولا.

ولقائل أن يقول: إذا كان النظر العقلي هو أساس الإيمان فما قيمة إيمان العوام ألا تحكم عليه بأنه غير سليم ولا مقبول عند الله؟ لأنه لا يبنى على نظر واستدلال!؟

ونحن نعتقد أنه ليس من صواب الرأى أن تصدر هذا الحكم القاسي بصفة عامة ولا بصفة أكثرية؟ بل بالعكس، نرجو أن يكون إيمان أكثر العوام مجزيا ومنجيا؛ لأنه ليس من شرط صحة النظر والفكر أن يكون في مقدمات مرتبة ولا في أوضاع منطقية أو لغوية سليمة بل ليس من اللازم أن يترجم في عبارة فليس كل من عجز عن التعبير محروما من حسن التفكير وبحسب المرء أن يصل إلى المعرفة من أقرب باب من أبوابها الموصلة وما أكثر هذه الأبواب المفتوحة أمام النظر في الأنفس والآفاق والعقيدة الإسلامية عقيدة سهلة واضحة لا تعقيد فيها فطرية لا تصنع فيها، يستوى العامي والمتعلم في الوصول إليها بأيسر نظرة وأقرب لفتة.

﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾

(الروم: ٣٠)

وعنصر الدين الآخر هو الإسلام وللإسلام أنواع العمل التي تكون عنصره والتي تعد مظهرا للإيمان ودليلا عليه وتثبيتا له في الوقت نفسه.

وللشجرة المباركة التي قلنا إنها تمثل الدين بعنصريه: الإيمان والإسلام الشعيرات الرفيعة التي تنبت من النواة في باطن الأرض قبل أن تبرز ساقها إلى سطح الأرض أريد أن أقول لك إن الفروع العملية التي تمثل الإسلام ليست كلها أعمالا ظاهرة يدركها الحس، بل إن الإيمان يثمر أخلاقا كريمة قبل أن يثمر أعمالا مستقيمة فأول ما ينبت منه في النفس فضائل معنوية كالإخلاص ومحبة الرسول أشد مما سواهما، وإرادة الخير للغير، والرحمة وغير ذلك ثم تظهر ثمرات هذه الأخلاق والفضائل النفسية على اللسان والجوارح.

فإذا ما برزت هذه النبتة إلى الخارج وأخذت مظهرها على اللسان والجوارح فإنها تتفرع إلى ثلاث شعب رئيسية:

الشعبة الأولى: إعلان هذه العقدة، والاعتراف بها، فإن من امتلأت نفسه بعقيدة اندفع إلى التعبير عنها وهذه هي الشهادة.

الشعبة الثانية: العمل بما تمليه هذه العقيدة: بامتثال أوامر الله، واجتناب محارمه والتزام المرء ذلك في سره وعلانيته: في سيرته الشخصية، وفي عبادته، وفي معاملته، وفي قضائله وأحكامه.

الشعبة الثالثة: نشر هذه العقيدة والدعوة إليها والأمر بما تعرفه من معروف والنهي عما تنكره من منكر.

هذه الشعب الثلاث تجدها مجموعة واضحة في كتاب الله عز وجل:

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾

(فصلت: ٣٣)

﴿ والعصر ۞ إن الإنسان لفي خسر ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

نزعة الإلحاد

إذا كانت العقيدة الإسلامية إلى هذا الحد من السهولة واليسر والاتساق مع الفطرة، فكيف نفسر نزعة الشك والجحود التى أخذت الدعوة إليها تنمو وتزداد عندنا فى هذا الوقت؟

ونحن نعتقد أيضًا أن نزعة الشك البريئة لا تكون إلا وليدة الغفلة والذهول فالرجل الذى استغرقت مشاغل الحياة ومشاكلها كل همه، ولا تترك له فراغا من الوقت ولا من البال يرفع فيه رأسه ليفكر فى الحقيقة العليا هذا لو سألته عن هذه الحقيقة لكان من شأنه أن يقول لك: لا أدرى، لأنه عنها فى شغل، وهو عنها غافل ذاهل، والقرآن يعالج هذه النفوس الغافلة بدوام قرع الأجراس لإيقاظها ولفتها إلى الآيات المنشورة فى كل مكان، كيلا يقول الناس بعد ذلك:

﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

أما نزعة الجحود فإنها فى الغالب وليدة الغرور: الغرور بنوع من العلم يظن صاحبه أنه أحاط بكل شيء علما:

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾

(غافر: ٨٣)

أو الغرور بنوع من القوة، حتى يقول الأقوياء:

﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

(فصلت: ١٥)

وهكذا يظن الإنسان الذى أوتى شيئا من العلم أو من القدرة أنه أصبح مستغنيا عن كل شيء.. وعن الله.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾

(العلق: ٦-٧)

هذا الغرور بنوعيه يجد له مجالا فى عصور الحضارات المادية على أثر اكتشاف علمى جديد أو اختراع صناعى مبتكر.

ولكنه لا يجد له مجالا حتى فى هذه العصور نفسها إلا فى عقول أدعياء العلم أو أنصاف المتعلمين الذين يسارعون إلى إنكار كل ما لم يكتشفه العلم بالفعل ويزعمون أن كل ما خرج عن نطاق هذه العلوم الجزئية لا وجود له، كلمة لا يجرؤ أن يقولها عالم راسخ، لأنه يعرف أن كل ما كشفته العلوم منذ القدم لا يبلغ قطرة من محيط من حقائق الكون ويعرف أن هذا التقدم العلمى المتزايد نفسه يشير إلى مدى غير محدود من المجهولات ولا متناه فكما لا يجوز أن ينكر فرع من العلم أو الصناعة ما أثبته فرع آخر منها، كذلك هذه العلوم والصناعات جملة لا يجوز أن تنكر ما لم تحط بعد من أسرار الكون الحاضر فضلا عن بدايته ونهايته فضلا عن أن تنكر الحقيقة الكبرى التى ليست من موضوع هذه العلوم ولكنها من موضوع العلم الكلى الأعلى حقيقة تستند كل الحقائق الجزئية إليها ولا يمكن عقلا أن نفسر هذه الحقائق الجزئية إلا بتلك الحقيقة الكلية.

هذا الغرور الإنسانى بشعاع من العلم يظنه كل العلم أو بنسمة من القدرة يظنها كل القدرة هو الذى يثير فى الإنسان غالبا نزعة الجحود والإنكار ويجعله يكاد يؤله نفسه.

ولم يقف القرآن مكتوف اليدين بل أخذ يتحدى هذا الغرور بنوعيه تحديا يرغم له أنف كل علم وتضمحل أمامه كل قوة فهو يتحدى العلماء جميعا بمفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله: علم الساعة وعلم وقت الغيث، وعلم ما فى الأرحام وعلم ما فى غد إلى آخره ثم يتحدى الأقوياء جميعا أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له أو أن يستنقذوا منه ما سلبه منهم ويتحداهم أن يدرءوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين ويتحداهم أن يبدلوا سنة الله فيأتوا بالشمس من المغرب أو يجعلوا النهار سرمدا إلى يوم القيامة أو الليل سرمدا إلى يوم القيامة.

هناك عامل آخر من عوامل الشك والجحود معا هو عامل خفى غير مباشر ولكنه سبب قوى فعال ذلك هو سلطان الهوى على النفوس وحب إرضاء الغرائز الدنيا، والرغبة فى النزول على حكم الشهوات والتحرر من كل القيود والمسئوليات.

هذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسع نطاق إلا فى جو من الإلحاد ينكر القوانين السماوية ويسخر من كلمة الأديان ويرفع من القلب شعور الاستحياء من الله لأن الذى يريد أن يعطى لنفسه هذه الحرية الخلقية المطلقة لا يمكنه أن يتجنب وخز ضميره، ما دام يقظا واعيا وما دامت فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية فى هذا الضمير فلابد إذا أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس لإخفاء هذه الصورة المرسومة فى لوحة ضميره ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق النوافذ التى يرى منها نور الله والتى يسمع منها داعى الله ثم لا يكفيه هذا لأنه لا يرضى أن يكون كالنعامة تخفى رأسها فى التراب فتظن أن الصائد لا يراها ما دامت هى لا تراه فلابد أن يتقدم خطوة أخرى. لا لإخفاء الصورة عن عينيه فحسب بل لينتزعها من نفسه فيأخذ فى الاستماع لكلمات التشكيك فى وجود الله ثم كلمات الإنكار لوجود الله وهكذا يتقلص إيمانه وينزوى شيئا فشيئا حتى يكفر - لا حبا - فى الكفر، ولا اقتناعا به من أول الأمر ولكن لإخلاء الطريق أمام غرائزه ومشتهياته.

إنه يكفر ليفجر، ينكر الإله، ليتخذ إلهه هواه..!

هذه هى النزعات الخفية التى يستغلها اليوم أعداؤنا فى دعواتهم الهدامة المدمرة، فإنهم لكى يخرجوا فينا جيلا منهارا، مستعبدا لشهواته فاقدا لشخصيته ولقوميته ولمقدساته يرسلون فى طليعة دعوتهم روادا من دعاة الإلحاد والكفر، يتسللون فى غفلة أو تغافل من الرقباء ليمهدوا لهم الطريق إلى القضاء النهائى على معنوية شبابنا البرىء الطاهر.

ولو أن هذا الشباب ترك على فطرته الساذجة ومنعت عنه دعايات السوء ما استبدل الكفر بالإيمان ولا الفجور بالطهر والعفة والحياء..!

التفانى فى العقيدة

إن الذى بدون عقيدة، لا يساوى شيئا فالعقيدة أساس له ولا يستقر بناؤه لحظة بدونه والعقيدة القوية هى التى تحمل صاحبها على التفانى فيها.. والتضحية من أجلها.

وآثار العقيدة فى حياة الأفراد والأمم مظاهر يدركها كل ذى عينين.. ولكنها تختلف ضعفا وقوة وضيقا وسعة، تبعا لحال العقيدة

ذاتها ومدى سلطانها على النفوس.

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة ضئيلة هزيلة، زاحمتها شئون الحياة اليومية. فألجأتها إلى حاشية من حواشى النفس وتركتها عاطلة لا عمل لها، هامدة لا حراك بها، إلا فى فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق.. تلك وأسفاه هى حال العقيدة فى نفوس الكثرة الكاثرة منا أفرادا وجماعات. أليس أكثر الناس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون؟ ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية وهم ضعاف متثاقلون؟ ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاء حريصون على الحياة. مثلهم فى ذلك كله مثل المريض الذى يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همته عن تناوله.. فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التى لا توقظ نائما ولا تحرك ساكنا؟؟

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه مثال ذلك أننا نرى فريقا من الناس يحسنون معاملة الخلق ولا يحسنون معاملة الخالق يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة أو لا يشهد الزور أو لا يجور فى الحكم ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعى الصلة بالله الذى خلقهم ورزقهم لا يوجهون وجههم إليه ولا يعتمدون فى شئونهم عليه ولا يذكرونه إلا قليلا.. وترى فريقا على العكس من ذلك تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات ونوافل الطاعات أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى فى أحكامهم وأن تنطوى على الحقد والحسد قلوبهم وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه وتراهم وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار اجتلابا لعرض من أعراض الدنيا أو استبقاء لما فى أيديهم منه.. هؤلاء وأولئك إن كانت لهم عقيدة فهى عقيدة مصابة بشلل نصفى ويوشك أن يسرى الشلل إلى نصفها الآخر..

وأخيرا هناك عقيدة سوية قوية حية نامية يقظة واعية مسفرة مشرقة يغمر ضوؤها جوانب النفس، ويسرى ماؤها فى أغوار القلب فهى للضمير مناره الذى يهديه سواء السبيل وهى للإرادة قوتها النازعة الوازعة عن أمرها يصدر صاحبها فى حركاته وسكناته ونحو أهدافها يتوجه فى أقواله وأعماله يتلقى دائما وحيها ويستلهمه ويتوخى إرشادها ويترسمه.

فإذا أصبح ذلك دأبه وديدنه صغرت فى عينه الدنيا وزينتها وتضاءلت فى نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة فلا يفكر فى مطالب شخصه إلا لماما ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا استجماما.. على أنه حين يلم بشىء من ذلك فإنما يتناوله باسم العقيدة والمبدأ وعلى النحو الذى ترسمه له العقيدة والمبدأ استعانة على الحق وتقويا على الجد.

أولئك حقا هم أصحاب العقائد والمبادئ الذين فنيت أشخاصهم فى عقائدهم وامحت أهواؤهم فى مبادئهم وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة ومبادئ ماثلة تمشى فى الناس.. أولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم لأنهم باعوها لله بيعا رابحا أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. أولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة.

وهم بعد على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة على قدر التبعات التى يحملونها وفى مستوى الآفاق التى يمتد إليها نشاطهم فليست مهمة الجندى كمهمة القائد، وليست فضيلة الرشاد وحدها كفضيلة الرشاد والإرشاد مجتمعين وليس إصلاح المنزل والأسرة كإصلاح القبيلة أو المدينة ولا قيادة الأمة والشعب كقيادة الأمم والشعوب ولا هداية العصر كهداية العصور والأجيال.

كل ذى عقيدة حية فعالة يعرف من تجربته فى نفسه أنه قد ينوء بحمل الواجبات المتنوعة التى تفرضها عليه عقيدته هذا وهو جندى لا يسأل إلا عن نفسه فكيف إذا أصبح مسئولا عن نفسه وعن غيره معا وألقى عليه عبء الهداية والإصلاح فوق عبء الاستقامة والصلاح؟ ثم كيف تزداد مسئوليته صعوبة وتعقيدا كلما ترقى سلم الزعامة والقيادة؟ وأخيرا كيف تبلغ هذه المسئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهى إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة؟؟

نعم. أى بصيرة تلك التى تنفذ من وراء الحجب فى هذا الأفق الأعلى؟ وأى قلب يتسع لهذه المهمات الجلى؟ وأى كاهل يقوم بهذه الرسالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز؟

إن الذين ضربوا المثل الأعلى فى التضحية والتفانى من أجل العقيدة هم الذين أسسوا تلك الدعوات الإصلاحية وفى مقدمتهم أولو العزم من الرسل الذين حملوا تلك الرسالات السماوية ولا سيما خاتم النبيين وجامع كلمتهم ومتمم بنائهم، محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلقد كان كل نبى منهم يدعو وينادى: يا قوم! يا قوم! يا قوم إنى لكم نذير مبين.. يا يقوم إنى لكم ناصح أمين.. حتى جاء محمد فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة وجعل ينادى: أيها الناس! هذا نذير للبشر، بل أيها الثقلان. يا معشر الجن والإنس. هذا ذكر للعالمين.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا
الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾

(الأنعام: ١٩)

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

ألا من سره أن ينظر إلى أعظم وأدوم وأعم رسالة إصلاحية عرفتها أو يمكن أن تعرفها البشرية وسره أن يرى كيف وهبها صاحبها قلبه ولبه وكيف ملكها ناصيته وجوارحه وكيف قام وهو فى سن الأربعين أو زهاءها واقفا وحده فى صف والعالم كله فى صف فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت والقلوب النافرة الجامحة حتى لانت وألفت وما زال يثابر ويصابر ويكافح وينافح حتى أمضى رسالته وأنفذها من ألفها إلى يائها ـ على الرغم من جدتها وغرابتها وسموها ومثاليتها وحتى ربى جيلا يحملها من بعده وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ثم اسمه.

من سره أن ينظر إلى هذه الصورة العجيبة فلينظر إلى نبى الإسلام وهو يؤسس دعوة الإسلام دعوة ترد عليه أول الأمر من الأقربين إليه فيلتمس قبولها عند الأبعدين عنه من بين

مواطنيه ثم تلاقى من هؤلاء الصدود والسخرية فيخرج من بلده محاولا نشرها فيما حول مكة ثم يكون جوابها عند هؤلاء الازدراء والإيذاء فيعرضها على القبائل الوافدة في المواسم.. ثلاثة عشر عاما وهو في هذا الشغل الشاغل والهم الناصب ولا يجد حوله بارقة أمل في انتشار دعوته واستقرارها بل يجد من قومه في أثناء إقامته بينهم تألبا وتحزبا ومناصبة للعداوة السافرة حتى أنهم حاصروه هو وعشيرته بضع سنوات في شعب من شعاب مكة لا يعاملونهم ولا يكلمونهم.. فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضيا في الإلحاح والمثابرة، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالا للصعاب واستعذابا للعذاب.. ألم تستمع إليه حين رجع من الطائف وقد رده أهلها أسوأ رد وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته فلم يكن في شكواه حرف واحد ينم على شيء من الوهن واليأس.. بل إنه ختمها بأروع كلمة يعرفها أرباب المثل العليا إذ جعل يقول في مناجاته لربه:

«إن لم تكن ساخطا على فلا أبالي...؟!»

كل ما يعنيه إذا في جهاده هو إرضاء ربه وضميره، أما ما وراء ذلك، أما ما يصيبه في سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدري.

أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة؟

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التي تناقلتها السير وسارت بها الأمثال في إجابته لعمه أبي طالب حين رغب إليه أن يشفق على نفسه وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة فما كان جوابه إلا أن قال:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

فيالها من عزيمة مصممة لا تقبل مراودة ولا مساومة، ويالها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من ملك الدنيا وملك الشمس والقمر!!

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة وعلى التجعة في طلب التربة الخصبة لها في أي بقعة يجدها من أرض الله الواسعة؟

هذا النبي المهاجر -صلوات الله عليه- لم يخرج إذا إلى المدينة لحماية شخصه ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوته ولم يكن خروجه هربا من ميدان الجهاد ولكن استنادا إلى قلعة الجهاد إنه جزء من خطة ثنائية مرسومة في السماء فالجهاد كر وفر وقد أحسن الفر ليحسن الكر، وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد، وأول النصر العزيز، ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام.

هكذا نرى العقيدة والمبدأ هما هدف النشاط النبوي ومحوره، في أول الأمر وآخره بل هما كل شيء في حياة الرسول ﷺ لهما يتحرك ويسكن ومن أجلهما يرضى ويغضب وفيهما يحب ويبغض بل فيهما يموت ويحيا:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٢-١٦٣)

الديـــن والثـــورة



للفيلسوف المسلم علي عزت بيجوفيتش

لم تكن الثورة حدثًا قاصراً على ميادين الحضارة أو الاقتصاد أو المجتمع أو السياسة، فكل ثورة حقيقية هي عضو في أسرة كبيرة تتميز بسمات الإيمان، والشعور المتضخم بالقوة والأهمية، والعدوان، والرغبة العارمة، والتضحية والموت - هذه المشاعر التي هي أبعد ما تكون عن نطاق المصلحة والوجود، وأي شخص كان له دور في ثورة أو تابع تطورها عن قرب، يستطيع أن يؤكد وجود هذه الملامح الأخلاقية، إنه يرى الثورة كقصيدة ملحمية وليس فقط مجرد تدمير آلي أو تغيير بسيط في الآلة الحاكمة.

وهذا يفسر لنا عجز العمال في الدول الرأسمالية عن الثورة، كما يفسر من ناحية أخرى حماس الشعراء والفنانين والمتدينين للثورة، التي قد تبدو ملحدة عند إعلانها، ولكن، إذا نظرنا إلى الثورة من الداخل - لا باعتبارها عملية ولكن كجزء من الحياة - فستبدو لنا كالدراما التي تؤثر في الناس تأثير الأديان، أما إذا نظر إليها من الخارج، أي من وجهة النظر السياسية الواقعية، فيمكن أن تتخذ صفة مختلفة وهدفا مختلفا.

إن المجتمع الذي تسيطر عليه مشاعر التضامن والتضحية والمصير المشترك يعتبر في (حالة دينية)، هذا هو مناخ (الحرارة العاطفية العالية) الذي يظهر في حالات الطوارئ وفي الاحتفالات الدينية عندما يجمع الناس شعور الأخوة والصداقة.

إن المجتمع العاجز عن التدين، هو أيضًا عاجز عن الثورة، والبلاد التي تمارس الحماس الثوري تمارس نوعا من المشاعر الدينية الحية، إن مشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هي مشاعر دينية في صميم جوهرها، وإنما هي موّجهة في ثورة لتحقيق العدالة والجنة على هذه الأرض.

إن كلاً من الدين والثورة يولدان في مخاض من الألم والمعاناة ويحتضران في الرخاء والرفاهية والترف، حياة الدين والثورة تدوم بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحققا، يبدأ الموت يتسرب إليهما، ففي مرحلة التحقق في الواقع العملي ينتجان مؤسسات وأبنية، وهذه المؤسسات نفسها هي التي تقضي عليهما في نهاية الأمر، فالمؤسسات الرسمية لا هي ثورية ولا هي دينية.

فإذا وجدنا خصومًا للثورة في نطاق الدين، فهم خصوم ينتمون إلى الدين الرسمي فقط، أي إلى الكنيسة ونظامها الإداري الهرمي، أو الدين المؤسسي الزائف، وعلى العكس، فإن الثورة الزائفة أي الثورة التي تحولت إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية، تجد دائما حليفها في الدين الذي تحوّل هو أيضا إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية، فما أن تبدأ الثورة تكذب وتخدع نفسها حتى تمضي مع الدين المزيف يدا بيد.

المانوية الجديدة وقتل الآخر



أ.د. طه عبد الرحمن

لقد درج تعبير "محاربة الإرهاب" على لسان أفراد من الحكومة الأمريكية عقب أحداث ١١/٩/٢٠٠١م وصيغته الإنجليزية هى war on terror وقد بادر الإعلاميون العرب إلى نقله إلى لغتهم على صورته الأصلية، فقالوا: "الحرب على الإرهاب"، وهو تعبير لا يستقيم، نظراً إلى أن فعل (حرب) لا تقع تعديته فى العربية بحرف (على) إلا أن يكون هذا التعبير مستعملاً بتقدير الفعل (شن)، كما لو كانت بنيته الأصلية هى "شنّ الحرب على الإرهاب" وما لبث هذا التعبير الإنجليزى الجديد أن ارتقى إلى رتبة المفهوم الإجرائى، إذ تولى النظر فيه أهل السياسة وأهل الفكر من مختلف أقطار العالم، فاجتهد كثير منهم فى تأسيسه أو تحليله أو تبريره، وقليل منهم اجتهد فى نقده وتقويمه.

وليس قصدنا هنا أن ننظر فى هذه الاجتهادات المختلفة على أهميتها، وإنما أن نبين كيف أن هذا المفهوم الجديد يستمد مكونات مدلوله من سياقه الأصلى وهذا السياق هو على وجه التعيين خطابات رئيس الولايات المتحدة بعد أحداث ١١/٩/٢٠٠١ وقد بدا فيها متأثراً بالآراء السياسية للمحافظين الجدد وبالمواقف الدينية للأصوليين المسيحيين وواقعاً تحت ضغوط رجال المال وأرباب النفط وصناع السلاح. ونحن إذا تأملنا الخطاب الذى وجهه إلى الكونجرس فى ٢٠/٩/٢٠٠١ وجدنا أن أحد المكونات الدلالية لمفهوم (محاربة الإرهاب) هو (النزعة المانوية)، أو إن شئت قلت (النزعة الإثنينية)، ومعلوم أن هذه النزعة فى صورتها العامة تذهب إلى القول بوجود تصارع فى العالم بين مبدأين أصليين لا ثالث لهما أحدهما مبدأ إيجابى ينبغى العمل على جلبه، والآخر يعد سلبيا ينبغى العمل على دفعه.

وتجلت هذه النزعة فى هذا الخطاب عند الجواب عن سؤال الأمريكيين "كيف يمكننا أن نخوض الحرب وننتصر فيها؟".

إذ يقول صاحبه ما نصه: "يجب على كل بلد فى جهة (من العالم) أن يتخذ الآن قراراً، إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين، ومن الآن فصاعداً وكل بلد يستمر فى إيواء الإرهابيين ستعده الولايات المتحدة نظاما معاديا".

فواضح أن هذا القول يقابل بين "الكون مع الأمريكيين" و"الكون مع الإرهابين" والمقصود هنا بأن تكون مع هؤلاء أو أولئك هو بالذات أن تكون منهم بحيث يصبح تفسير، وجود الإنسان فى العالم كله مردودا إلى المقابلة التالية إما "أن تكون من الأمريكيين" أو "تكون من الإرهابيين"، ويصبح طرفا هذه المقابلة فى نهاية المطاف بمنزلة نقيضين هما "الذات الأمريكية" و"الآخر الإرهابى" وحينئذ، لا عجب أن يرفع بعض الأوروبيين شعار "كلنا أمريكيون" إذ ليس لهم خيار آخر إلا "كلنا إرهابيون" وكهذا، يظهر أن المانوية التى يتأسس عليها مفهوم (محاربة الإرهاب) تأخذ بالتقابل بين مبدأين هما: (مبدأ النسبة إلى الذات الأمريكية) و(مبدأ النسبة إلى الآخر الإرهابى)، ولنسمها بـ"المانوية الجديدة" ويبنى فيها التقابل بين النسبتين المذكورتين على أركان ثلاثة فلننظر فيها الآن واحدا واحدا.

أركان المانوية الجديدة

الركن الدينى للمانوية الجديدة:

معلوم أن المانوية تشتق اسمها من مؤسسها "مانى" الملقب بـ"البابلى" والذى عاش فى القرن الثالث الميلادى (٢١٦-٢٧٦)، وقد ابتدع مذهبا دينيا بناه على تعاليم مأخوذة من الديانات الثلاث النصرانية والزردشتية والبوذية وأشهر هذه التعاليم أن الكون يتأسس على مبدأين أزليين متصارعين هما: (الخير المطلق) وسيده الرحمن و(الشر المطلق)، وسيده الشيطان، وهذا التقابل بين (الخير المطلق) و(الشر المطلق) هو عينه الذى نجده فى المانوية الجديدة ذلك أنها تعتقد أن الذين قاموا بأحداث سبتمبر يجسدون الشر المطلق بحجة أنهم أرادوا أن يحملوا الأمريكيين على ترك نمطهم فى الحياة ونبذ النظام الحر الذى ينبنى عليه. يلزم من ذلك أن الذين يجسدون الخير المطلق إنما هم الأمريكيون أنفسهم، بل إن هذه النزعة ذهبت إلى أبعد من ذلك فقسمت العالم إلى محورين اثنين: (محور الخير)، و(محور الشر)، وجعلت محور الشر يشمل لا فئة واحدة وإنما فئات ثلاث وهى "فئة مرتكبى هذه الأحداث" و"فئة البلدان التى تؤوى الإرهابيين" و"فئة الدول النامية التى يحتمل أن تمتلك أسلحة الدمار الشامل" كما ورد ذلك فى خطاب ٢٩ يناير ٢٠٠٢ ولما كانت المانوية الجديد تنبنى على المقولتين الدينيتين "الخير المطلق" و"الشر المطلق" ترتبت على ذلك النتائج التالية:

أ- لابد لمحاربة الإرهاب الذى تأسس على هذه المانوية أن تكون فى حقيقتها حربا دينية وخير شاهد على ذلك أن دعاة هذه الحرب لم يترددوا فى وصفها بـ"الحرب الصليبية" وفى وصف طورها الأول بكونه "عملية العدل اللامتناهى" ولا ينفع بعضهم مطلقا اعتذارهم عن هذه التسمية بقولهم إنهم أساءوا التعبير عن مقصودهم.

ب -لابد لها أن تكون حربا منتشرة فى المكان وممدودة فى الزمان فما من بلد من البلدان إلا ويصطلى بنارها، ولا وقت من الأوقات إلا ويشهد فصلاً من فصولها فقد طلب من كل الدول أن تدخل فى هذه الحرب مع المتحالفين، وإلا أصابها ما يصيب الإرهابيين كما أنه قيل لها إن هذه الحرب ستكون طويلة بل قيل لها إنه لا نهاية لها؛ لأن حقيقتها أنها حروب متتالية وليست حربا واحدة.

ج- لابد أن تُستخدم فيها كل الوسائل الممكنة فقد وقع الغلو فى استعمال ما هو موجود من الوسائل بما أفضى إلى إجراءات تعسفية كالحد من الحريات المدنية - واشتد السعى إلى إنشاء ما هو غير موجود منها كإقامة مؤسسات أمنية واستخباراتية جديدة، كما أنه لم يكتف باستخدام ما هو مشروع من الوسائل، بل وقع

الالتجاء إلى ما ليس مشروعًا مع العمل على إيجاد المشروعية له شأن التضليل الإعلامي والتهديد بالعقوبات وممارسة الابتزاز.

الركن السياسي للمانوية الجديدة

لا ينبني التقابل بين الأمريكي والإرهابي في المانوية الجديدة على التقابل بين الخير والشر فحسب، بل ينبني أيضًا على تقابل ثان وهو التقابل بين الصداقة والعداوة، فمعلوم أن بعض علماء السياسة جعلوا من هذا التقابل الأصل في وجود مجال السياسة، كما يكون التقابل بين الخير والشر الأصل في وجود مجال الأخلاق ويكون التقابل بين الحسن والقبح الأصل في وجود مجال الجمال وهكذا فإن المانويين الجدد يقسمون مجموع دول العالم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما قسم الدول «الصديقة» وقسم الدول «العدوة» معتبرين الدولة الصديقة دولة خيرة يجب التحالف معها والدولة العدوة دولة شريرة تجب محاربتها، بل إنهم يضفون على الدولة العدوة من أوصاف الشر ما يجعلها تبدو خارج القانون، بل خارج الإنسانية، بل تبدو شيطانًا ماردًا، حتى إن خوض الحرب معها يصير بمثابة خوض حرب لحفظ القانون الدولي أو لإنقاذ الإنسانية جمعاء.

ولما كانت المانوية الجديدة تنبني على المقولتين السياسيتين: (الصداقة) و(العداوة) ترتَّبت على ذلك النتائج التالية:

أ- لا بد أن يُنظر إلى الإرهاب لا على أنه عبارة عن أفعال يقوم بها أفراد يُخلون بأمن الناس، بل على أنه عبارة عن أفعال تقوم بها وحدات سياسية أشبه بالدول تستحق أن تعامل معاملتها وهذا يعني أن أفعال هؤلاء الأفراد تصير معدودة في أفعال الحرب والعدوان، بل معدودة في أسوأ منها فإذن ينبغي أن تُدفع بحرب لا هوادة فيها.

ب- لابد أن يتوسع مدلول (الإرهاب) فيصبح مشتملاً على أفعال لم تكن تدخل فيه شأن المظاهرات ضد الحرب أو ضد العولمة بحيث تصبح العداوة على نوعين "عداوة خارجية" و"عداوة داخلية"، كما أن أعداء الخارج من الأجانب يواجهون بالقوة الساحقة والسلاح الماحق فكذلك أعداء الداخل من المواطنين ينبغي قمعهم، وهزمهم بكل شدة.

ج- لا بد أن يضيق النقد إلى حد كبير فالبحث في أسباب الإرهاب يفسر على أنه تبرير لقتل الأبرياء، كما أن المنازعة في أخلاقية محاربة الإرهاب تفسر على أنها خلل في وطنية المنازع متى كانت جنسيته أمريكية أو أنها على الأقل ضعف في روح التضامن متى كانت جنسيته غير أمريكية، وإلا فمنازعته مساندة للإرهابيين.

الركن العسكري للمانوية الجديدة

ينبني التقابل بين الأمريكي والإرهابي في المانوية الجديدة على تقابل ثالث وهو التقابل بين الاستحياء (بمعنى الإحياء) والقتل فقد أصبح السلوك العسكري في نطاق المانوية التي تجعل الناس قسمين أصدقاء أو أعداء، متعلقًا بالصديق قدر تعلقه بالعدو ذلك أن حياة الصديق لا تكون محفوظة ابتداء، وإنما تصير محفوظة بإرادة العسكري، كما تكون حياة العدو مهدرة بإرادته وهكذا فالصديق هو الذي قرر المانويون الجدد أن يستحيوه والعدو هو الذي قرروا أن يميتوه وينهض دليلاً على ذلك كونهم هددوا بلدان العالم كله بالموت والدمار متى لم تتحالف معهم في حربهم الصليبية، بل إنهم بعد الفراغ من حربهم الأولى هددوا هذه البلدان بأنهم سيهاجمون المزيد منها، مع أن بعضها كانت تظن أن صداقتها معهم ليست كمثلها صداقة، فضلا عن أنهم لا يتصورون أن يصادقهم أحد ويخالفهم في ذات الوقت، فالصداقة عندهم لا تجتمع إلا مع الوفاق التام الذي هو أشبه بالتبعية منه بشيء آخر، والصديق التابع، في ساحة الحرب، حياته مرهونة بكون الصديق المتبوع يريد أن يستبقيها، كما أنهم يتصورون أن الإرهاب لا يأتي إلا من الآخرين، والأصدقاء آخرون قد ينقلبون في ظنهم إلى إرهابيين فهم عندهم أعداء بالقوة ولا عجب أن ينقلبوا في صداقتهم لهم بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم فتارة يوادونهم وتارة يحادونهم؛ والصديق الذي لا يأمن أن يحشره صديقه في زمرة الأعداء لا يملك روحه بقدر ما يملكها هذا الصديق المتقلب، إذ هو الذي يقرر متى يزهقها.

ولما كانت المانوية الجديدة تنبني على المقولتين العسكريتين: (الاستحياء) و(القتل)، ترتبت على ذلك النتائج التالية:

أ- لابد لمحاربة الإرهاب التي تنبني على هذه المانوية أن تصرف كل الحلول التي تكون بدائل لشن الحرب العسكرية؛ لذا، ترى أصحابها يرفضون كل تدخل للمؤسسات الدولية والقانونية وكل تفاوض يؤدي إلى إيجاد حل وسط، بل كل تنازل، حتى ولو كان يلبي مطالبهم كاملة، إذا لا يلبثون أن يجدوا طريقًا للقدح فيها أو يردفونها بمطالب، من دونها، أملاً في تعجيز الخصم وإقامة الحجة عليه؛ ولا يكتفون بذلك، بل يعمدون إلى تحميله كل المسئوليات والتبعات، حتى تلك التي تترتب على قراراتهم الظالمة وعقوباتهم القاسية، مصدرين الإنذار تلو الإنذار في آجال لا تتسع إلا لتحريك آلة الحرب.

ب- لابد لمحاربة الإرهاب أن تتحول من مسألة أمنية تتكفل بها مؤسسة الشرطة وتدخل في نطاق مكافحة الجريمة إلى مسألة سياسية تتكفل بها مؤسسة الجيش وتدخل في نطاق المعركة الاستراتيجية؛ وحينئذ، لا غرابة أن تقع عسكرة الشرطة نفسها، ذلك أنها، في مواجهتها للأحداث الأمنية، لا تستعمل القوة الدنيا ضد أفراد تحميهم حقوق مخصوصة كما هو مطلوب منها، وإنما تلجأ إلى القوة القصوى التي يستعملها الجيش لقتل الأعداء التي لا تكاد تحميهم أية حقوق.

جـ- لابد لمحاربة الإرهاب أن تنتقل من قتل المحاربين المسلحين إلى قتل المدنيين المسالمين متى وجدوا في هؤلاء المحاربين صمودًا وصبرًا، حتى يصيبوهم في ذويهم وممتلكاتهم عسى أن يضعفوا عزيمتهم، وذلك بموجب منطقهم الذي يقضي بأن يكون الذي يؤوي الإرهابي إرهابيًا مثله، فيستحق هو الآخر القتل؛ فإذا صح هذا المنطق في حق الدول كما صرحوا بذلك، فهو أحرى أن يصح في حق الأسر، فالإيواء في الأسرة أقوى منه في الدولة؛ إلا أنهم يأبون إلا أن يطلقوا على أفعال القتل هذه اسم «الخسائر الجانبية» ظانين أنهم إن أبدوا أسفهم عنها أو وعدوا بفتح تحقيق فيها، فقد أفرغوا ذمتهم من كل مسئولية بصددها.

● يتضح من خلال تأملنا في الأركان الثلاثة التي تنبني عليها محاربة الإرهاب أن المانوية الجديدة تعد الآخر شرًا مطلقًا وعدوا يجب قتله؛ معلنة عليه حربًا صليبية وهجومية واستراتيجية تتوسل بأقوى أدوات البطش والتدمير؛ ومن ثم، فليس في نزعات التسلط التي تعرضت لها البشرية في تاريخها أكثر منها ظلمًا للآخر، ولا أشد منها تصميمًا على إبادته، ألا ترى كيف أنها تقرر أن الإنسان إما أن يكون أمريكيًا أو لا يكون!

الثقافة العربية والمستقبل



عبد الله ابن الشيخ المحفوظ بن بيه
وزير المصادر البشرية ووزير العدل والشئون الإسلامية والتعليم بموريتانيا
عضو المجلس الأوروبى للإفتاء بدبلن - خبير بالمجمع الفقهى العالمى

إنه موضوع من أهم المواضيع الفكرية التى تطرح على الأمة وبخاصة على المثقفين أسئلتها، وهو موضوع واسع الأرجاء مترامى الأطراف، جلى وغامض واضح ومشكل، حيث إن الصورة العامة لهذه الثقافة مدركة با الحس، وإن كانت معطيات هذه الصورة بعيدة الأغوار مظلمة الجوانب، ولهذا سيكون تعريف بعض المفردات خطوة أولى فى تشرفنا لاكتناه حقيقة.

إن الثقافة بالمعنى الحديث الذى يترجم كلمة culture فإنه مصطلح قد عرف كما يقول (كوبر وكلايكون) بمائة وخمسين تعريفا لعل أبرزها:

● تعريف لاروس الفرنسى حيث يقول:

(إن الثقافة هى مجموع النظم الاجتماعية والمظاهر الفنية والدينية والفكرية التى تتميز بها وتحدد بها مجموعة أو مجتمع بالنسبة للآخر).

● تعريف موسوعة دار الشروق حيث جاء فيه:

(إن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما يصدر عن الإنسان من إبداع أو إنجاز فكرى أو أدبى أو فنى أو علمى).

● تعريف الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى فى كتابه (التنمية الثقافية من منظور إسلامى) حيث قال:

(إنها مجمل النشاط الإنسانى فى حقول الإبداع الفكرى والأدبى والفنى).

● ويرى البعض:

(أنها حصيلة النشاط الاجتماعى فى مجتمع وأساليب الحياة والسلوك وأنماط القيم السائدة فيه).

لكن التعريف الأنثروبولوجى الواسع الباحث عن المعتقدات واللغة والمؤسسات العوائد والتقاليد لكل مجتمع، وعلاقات الكائنات البشرية بعضها ببعض هو التعريف الأولى فى نظرى. إلا أن المهم هنا أن نعرف أن مصطلح الثقافة مصطلح مراوغ أو يزعم الاستئثار بمدلوله، إلا أنه من المؤكد دخول الدين، والتقاليد، واللغة فى أفراد هذا المصطلح.

وسأبدأ بافتراض مسلمات:

● الأولى: افتراض أن الدين الإسلامى، واللغة العربى، والتقاليد العربية، والعادات، هى الثقافة العربية. فهذا الثلاثى هو الذى يشكل المتخيل العربى وخلقية السلوك ومعيار القيم لدى العربى.

هنا أتفق مع إليوت عندما يقول:

(إن الثقافة نتيجة الدين، والدين نتيجة الثقافة حسب الزاوية التى ينظر منها الناظر).

أتفق مع الفقرة الأولى وأعدل الفقرة الثانية لتكون (التدين نتيجة الثقافة).

وإذا كان هذا الدين هو الدين الإسلامى، وهذه الثقافة هى الثقافة العربية، فهما صنوان متلازمان ملازمة اللازم للملزوم والعرض للجرم.

فإلا يكنها أو تكنه فإنه

أخو أرضعته أمه بلبانها

فالإسلام إذن كان ولا يزال هو الآمر الناهى فى حياة العربى بوعى أو بدون وعى.

● المسلمة الثانية: أنه توجد سمات مشتركة بين جميع العرب من معتقدات، وشعائر دينية، ولغة تواصل، وعادات وتقاليد، وحاضر مشترك، وطموح إلى نوع مشترك من المستقبل، وهى سمات تسمح بالحكم بوجود ثقافة عربية واحدة، بالرغم من تفاوت العلاقة بالموروث قربا وبعدا، واختلاف شيات وأطياف التفكير والممارسة بين مكونات الأمة، هذا فيما يتعلق بالجزء الأول من العنوان.

أما الجزء الثانى من العنوان وهو المتعلق بمستقبل الثقافة العربى، فإن المستقبل وإن كان ما يجرى فيه مجهولا لا يعلمه إلا من لا يجرى عليه الزمان جل شأنه، وهو يجرى الزمان، ويمكن للإنسان أن يتعامل معه طبقا للسنن الجارية التى تجعل الحاضر مقدمة للمستقبل؛ ذلك أن حاضرنا هو نتيجة ماضينا، كما يقول الكاتب وليام فولكنر من جنوب أمريكا.

إن الحاضر بدأ منذ عشرة آلاف سنة، فإن حاضر ثقافتنا بدأ منذ حوالى أربعة آلاف سنة، منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ومنذ تزوج إسماعيل من قبيلة جرهم القحطانية وتكلم العربية، حيث أصبح للعرب بيت عبادة محجوج استوجب احترام الأمم أخرى وأثار فى بعض الأحيان غيرتها، فجالت فى جزيرتهم وصالت، التى لا يحسن اجتياب مفاوزها واصطياد مهاها وظبائها سواهم، فأنشأوا الحواضر فى أطرافها جيرانا لأمم الفرس والروم، واحتفظوا بأرومتهم البدوية فى قلبها حيث صقلهم شظف العيش وخشونة الصحراء، فامتطوا صهوات الجياد وذللوا النجائب وناحوا على الأطلال:

ما بكاء الكبير بالأطلال

وسؤالى وما ترد سؤالى

فأنشدوا أجمل القصائد، وحبروا أبدع الخطب فى عكاظ ومجنة وذى المجاز.

لكن خصائص العروبة قد تأكدت، وقيادتها وريادتها قد تأدبت وتأيدت، حين انتشر الضياء من جبال فاران من مكة المكرمة، من الأرض عربة على الدنيا ببعث سيدنا محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة من البارى جل شأنه إلى الناس كافة، حيث حمل القرآن إلى العالم قيم الخير ومبادئ العدل والإحسان وأحسن عادات قيس وعبس وذبيان وتغلب وشيبان، فتفتقت لغة الضاد بأروع بيان، فاهتز وجدان الأمة وتشكل كيانها، ومدت أجنحتها على الشرق والغرب فى صحوة دينية وخلقية وفكرية وإنسانية لم يشهد لها التاريخ مثيلا، فقطفوا ثمار علوم من سبقهم من الأمم من غير خجل ولا وهن، فحققوا ونقدوا واستوعبوا وأضافوا وشادوا وأفادوا، وبذلوا خلاصة ما توصلت إليه الإنسانية فى أدق العلوم من فلك ورياضيات وصناعات إلى الإنسانية جمعاء، فأخذ الغرب منها سجلا كان أساس علومه وتقنياته عن طريق معابر البحر الأبيض

المتوسط والأندلس.

وبعد قرون عدة تحولت الحركة إلى رتابة والإبداع إلى تقليد واتباع، فامتدت يد الزمان إليها، فاستطال الأعداء عليها؛ فأظلم صبحها وقزع سرحها؛ لأسباب معروفة قد يطول شرحها. ذلك هو ماضينا نحمله على كواهلنا بانتصاراته وهزائمه، بأعراسه ومآتمه، بكل تراكماته في حاضرنا.

وإن هذا العنوان (الثقافة العربية والمستقبل) يشير إلى الاهتمام الكبير بهذه القضية التي تعتبر أساسًا للتنمية الاقتصادية، والتطور الاجتماعي، والعلاقات الإنسانية.

وإنه لقلق وإشفاق في محله، وإن الأمر ليس حكرًا علينا، فهذه فرنسا يرفع رئيسها عقيرته جاهرًا بالشكوى أمام مؤتمر هانوي الفرنكفوني قائلا:

(يجب ألا يستقي من نبع ثقافي وحيد، وينبغي أن تحترم الخصائص الثقافية لكل أمة).

وحتى إن البعض يتخوف من الغزو الثقافي الإسلامي، فيكتب ألبرتو في جريدة (بريد المساء) الإيطالية قبل أشهر ليقول: (ماذا لو أصبح نصف إيطاليا فقط مسيحيا والنصف الآخر مسلما؟)

إلا أن قلقنا على مستقبل ثقافتنا مبرر بأكثر من سبب، فهناك عوامل داخلية، أي من داخل ثقافتنا، وعوامل خارجية ترجع إلى تأثير ثقافة الغير في ثقافتنا، لعل أبرز هذه الأسباب:

أولاً: وجود ثقافة عالمية عاتية عيل صبرها من رؤية التعدد الثقافي والحضاري تحاول تجاوز المراحل، واختزال الزمان والمكان؛ لتجعل من العالم قبيلة واحدة تتكلم لغة واحدة. تحاول أن تصهر القيم والأعراف في بوتقة واحدة، يكون القدح المعلى فيها للأندى صوتًا والأكثر عدة وعتادًا وعددًا. إنها عالمية تملك الإدارة والتخطيط والوسائل، وتتقمص الشرعية الإنسانية. ومن يراوده أدنى شك فليراجع وثائق مؤتمر السكان في القاهرة، ومؤتمر المرأة في بكين، وهي عولمة حملت المجلة الفرنسية revue litturair الصادرة في نوفمبر على المطالبة بضرورة تضافر الجهود بين فرنسا وألمانيا لتثبيت الثقافة الأوروبية في مواجهة العولمة.

ثانيًا: العجز عن اقتراح مشروع ثقافي حضاري شامل يتسلم زمام المبادرة التاريخية، يحوز إجماع العرب ويوحد قواهم أمام تحديات القرن القادم. وهذا لا يعني عدم وجود مشروعات حضارية أصيلة وواعدة لدى جهات سوية راشدة من هذه الأمة.

ثالثًا: ردود فعل متباينة ومتضاربة عبّر عنها جسم الأمة تجاه الحالتين السابقتين العالمية من خارج الأمة العجز الخلي. ونعني بجسم الأمة تلك الفعاليات المنتجة للمادة الثقافية أو المعيدة لإنتاجها، وهذه الردود قد تكون دوافعها حسنة، أهدافها خارجة عن نطاق السيطرة، إذ نزع منها مقود الحافلة وقفز الركاب جميعا إلى مقعد السائق كل واحد يريد أن يكون هو قائد الحافلة، فكانت النتيجة أن انقلبت الحافلة... كما يقول مانسفلد واصفًا الديمقراطية في الدول النامية في صورتها النمطية والظواهر المتزامنة مع التحول، لقد غابت روح التسامح وأعلنت حرب داحس والغبراء في بعض الفضاءات العربية.

رابعًا: عقم الجامعات والمراكز العلمية: فلا إنتاج ولا إسهام في اختراع، كما تؤكده دراسة أعدها بعض الخبراء، يقول فيها:

(إنه في كل سنة يعد حوالي مليوني بحث علمي، وتطبع مائة ألف مطبوعة علمية، نسبة إسهام المسلمين جميعًا فيها ٣٪، فكم ستكون نسبة إسهام العرب في تلك النسبة؟).

خامسًا: ضحالة الإنتاج الفكري في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية، وهي ضحالة لم تستثن الآداب شعرا ونثرا والفنون والعمارة.

سادسًا: قصور واضح في الدراسات الإسلامية لاستجلاء الشريعة نصًا وروحًا، وتقدم المنهج الوسطي الذي يحتوي على ثقافة الوئام وإفشاء السلام على من عرفت ومن لاتعرف، وعن تكوين جيل قوي يفهم أمور دينه ودنياه، مما نتج عنه انفصام بين التعليمين الديني والدنيوي.

سابعًا: انكماش الاجتهاد الفقهي، مما نتج عنه عجز الفقهاء عن مواكبة مستجدات العصر في المعاملات وحتى في العبادات.

ثامنًا: فقر مدقع في أكثر البلاد العربية في وسائل الثقافة.

تاسعًا: أضف إلى ذلك التخلف التنموي الذي يجر موكب الفقر والبطالة وانسداد الأفق بالنسبة لملايين الشباب.

وقد نشأت عن هذه السمات أنساق اجتماعية واقتصادية وتربوية غير قادرة على إشباع حاجات الإنسان العربي وإحلال الأمة بمجموعها في مكانتها لتشكل فضاء محترمًا له مميزاته وخصائصه، منفتحا ومتواصلا مع الفضاءات الثقافية الأخرى، مما يشير إلى وجود خلل ما في التمثل السلوكي للتراث في الظرف الراهن في التواصل مع مزيج القيم الذي تقترحه المعاصرة على الذات القابلة.

وهو خلل يشترك فيه عاملان: داخلي وخارجي، تداخل فيه الأثر والتأثر والفعل والانفعال مع ما يعتيه من شطط وغلو واستجداد بشتى السلبيات، إنه خلل في العوالم الثلاثة كما سماها مالك بن نبي: عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء وفي علاقة هذه العوالم فيما بينها.

إن ثقافة هذا حاضرها وذلك ماضيها ماذا سيكون مستقبلها؟ إن الحديث عن مستقبلها إما أن يكون على أساس استشراف المستقبل من خلال مؤشرات الحاضر وتفاعلات العناصر المؤثرة إيجابا وسلبا، وإما أن يكون تمنيا واقتراحا علي المستقبل، وهذا ما آثرناه في هذه المداخلة بحثا عن الحل للأزمة الثقافية.

فما هو الحل؟ وما هي معالمه وخطابه وأسسه ووسائله؟

لقد سمعنا عن وصفات كثيرة للحل، ولسان حال المستهدفين بها يقول:

بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا

على أنّ قرب الدار خير من البعد

على أنّ قرب الدار ليس بنافع

إذا كان من تهواه ليس بذي وُد

لقد افترضت أكثر الحلول راديكالية وجذرية وتطرفا، فمن داع إلى القطيعة مع التراث وما تصرف من مادة (ورث) ولسان حاله يقول مع امرىء القيس:

أبيتي لنا إن الصريمة راحة

من الشك ذي الخلوجة المتلبس

فأدار ظهره للتاريخ وقلب له ظهر المجن وانبهر بكل حديث، ولم ير في الثقافة الأصلية إلا عيوب التخلف الاقتصادي والظلم الاجتماعي، فغنى وشدا بديمقراطية الغرب

وتقدمه التكنولوجي وضماناته الاجتماعي.. إلخ. لقد جربت ذلك إحدى الأمم فلم تكن تجربتها قمة في النجاح.

ومن داعٍ إلى التمسك بالماضي القريب وذكرياته، ولم ير أصحاب هذا الحل في الغرب إلا الانحلال الخلقي والتفكك الأسري وملاجئ الكبار والمسنين آباء وأجدادًا، والتبرّم بالحياة الذي يصل إلى حد محاولة الهروب منها بالقتل، فقد أكدت الإحصائيات في فرنسا أنه في كل سنة تسجل ١٦٥ ألف محاولة انتحار تصل منها اثنا عشرة ألفًا إلى انتهاء الحياة.

إن في كلا الموقفين شططًا وغلوًا، إن القطيعة مع التراث خطيئة والتقوقع فيه خطأ. إن الذي أقترحه هو مقاربة للحل أو تفرع للحل وليس هو الحل النهائي الأبدي كما يحلو للكثيرين منا أن يصفوا حلولهم لمثل هذه القضايا، وإن الحل الذي أقترحه يرفع شعارًا واحدًا هو شعار التجدد.

ومصطلح التجديد ليس غريبًا على ثقافتنا، فقد ورد في الحديث:

(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) [1]

وقد يكون هذا المجدد عالمًا مجتهدًا، كالشافعي مخترع علم أصول الفقه وآليات التعامل مع نصوص الشريعة، وقد يكون ملكًا عادلاً كعمر بن عبد العزيز، وهذا بنص العلماء الأوائل.

وإن مصطلح التجديد كان معروفًا للجاهلية. قال زهير بن أبي سلمى:

هم جددوا أحكام كل مضلة
من العقم لا يلفى لأمثالها فصل


مالك بن نبي

قال الأعلم الشنتمري: يريد بالتجديد أنهم بينوا أمور الحرب، فتجديد تقاليد الحرب والشجاعة هو تجديد الجاهلية.

معالم التجديد

ومعالم هذا التجديد تتمثل في معادلة: التراث والمعاصرة: فما هي معالمه إذن؟

إنه تعامل جديد مع التراث بالتعمق فيه، والاستنجاد بإيجابياته، وتحريره وتأصيله، والتنقيب في أعماقه، وتحليته بكل إمكانيات الإشراق حتى يصبح حيًا، فإن الثقافة الميتة لا يمكن أن تكون إيجابية، ولا يمكن أن تتعامل مع الثقافات الأخرى إلا بخنوع وتبعية.

إنه تعامل جديد كذلك مع التراث يهدف إلى استكشاف فضاءات الالتقاء ومجالات التماس والتقاطع، وتوسيع قنوات التواصل والاندفاع بقوة إلى المعاصرة فكرًا وعلمًا بندية وكفاءة، وذلك باحتكام إلى ثلاث قيم أساسية: (العقلانية - العلم - التسامح).

بناءً على هذه الجدلية بين ثقافة أصيلة حية وثقافة عالية دينامية فإن النتيجة ستكون تسييب المواقف من بعض القيم، ومن بعض الأشياء، ومن بعض الأفكار، وتجسير العلاقة بين الأفكار والأشخاص، فبدلاً من واقع قيم تهاجم

(١) رواه أبو داود، والبيهقي، والحاكم

وقيم تقاوم، سيكون التعاون والتعاضد والتآزر، ولهذا فإن التجديد لن يكون هدمًا للتراث الأصيل بل سيكون عملاً من خلاله، ولن يكون ترميمًا وتلفيقًا بل سيكون دمجًا وأخذًا وعطاء، فالنهر يتجه إلى مصبه ويظل أمينًا لمنبعه، كما يقول فيلسوف غربي.

إنه إحياء لثقافتنا عبر منطلقات جديدة بآليات العصر ووسائله، إن التراث سيكون إطار المرجعية، وإن التجديد هو توسيع وعاء الثوابت لتستوعب الحديث، وقولبة الحديث ليستوعب، إنه انطلاق من عقال الحيرة، وتزحزح عن مفترق الطرق، لسلوك الجادة وولوج الفضاء الرحب في انسجام بين الضمير الجمعي ومتطلبات العصر، إنه مزج الأصالة في أجلى صورها بالمعاصرة في أنجح وسائلها وصيغها. إن الخيار الاستراتيجي للتجديد هو التحرك من خلال التراث إلى المعاصرة ليكون التفاعل بين الاثنين أساس الصيرورة الثقافية.

خطاب التجديد

خطاب التجديد موجّه إلى الجميع، إلى كل من يبحث عن صالح هذه الأمة انطلاقًا من قناعة أن مستقبل الأمة هو ما سيصنعه الجميع.

خطاب التجديد خطاب متأنٍ متّئد حينما يتعلق الأمر بالمقولات والمفاهيم الإنسانية والاجتماعية التي تقترحها المعاصرة، بل إنه يتعامل بشيء من البطء والتروي إلى حد الانتقاء في الوقت الذي يبذل فيه كل جهد لاستيعاب الجانب العلمي والتكنولوجي بأكبر قدر من السرعة المحكمة، مندفعًا للمنافسة في هذا الجانب بكل قوة.

خطاب التجديد خطاب حضاري واعٍ لا يوجه اللوم إلى أحد، إذ يعتبر الجميع بفضائلهم ونقائصهم ومزاياهم ورزاياهم ثمرة ثقافة هذه الحقبة التي نعيشها.

إنه دعوة إلى بناء إنسان جديد فخور بأصالته، متفاعل مع عصره، وهو يهدف إلى تنشئة جيل عربي فاعل وليس مفعولاً به، يستطيع بكفاءته الروحية والخلقية والنفسية والعلمية المنافسة في ميدان الحياة ومواجهة القرن القادم بتحدياته ومجهولاته.

خطاب التجديد يوجّه تحذيرًا واحدًا: هو أن الإشاحة بوجوهنا، والصدوف والعزوف عن التجديد من منطلق استنطاق ثقافتنا ومنطق اليأس منها، وكذلك الانكفاء على الذات ومنطق اليأس من خير المعاصرة سيخلقان ويخلدان التمزق والضياع.

وبالعكس فإن أي خطوة جادة نحو فكر التجديد وممارسته ستنعكس إيجابيًا على الإنسانية ومردود الإدارة والإنتاج وقيمة الوقت والعلاقات الإنسانية والأمن البشري، وسيكون المردود إيجابيًا على العالم كله حيث ستوفر معبرًا إلى رحاب التنوع الثقافي لما لعالمنا من صلات تاريخية بنفس التواصل، ولما لموقعنا الجغرافي بين العالم الأصفر والأبيض وتشابك علاقتنا الثقافية مع هذه العوالم.

فما هي أسس التجديد في مكونات الثقافة الثلاث في تعاملها مع بعد المعاصرة؟

إنه ستكون في الشريعة تجلية قيمها وفضائلها، قيم التسامح والعدل والشورى والتعايش والتواصل والروحانية والوحدة والتعدد في إطار الثوابت وهو تعدد تجلية مرونة الفقه وسعة أفقه وتنوع دلالته وتوسع نطاق أدلته الإجمالية في ضوء الزمان؛ لتحقيق مقولة هي بالتأكيد حق: إن الشريعة صالحة لكل زمان

ومكان، وذلك بتسلط الاجتهاد على الربط التواصل بين الزمان وبين الشريعة نصوصًا ومقاصد وأصولًا وقواعد، انطلاقًا من ميدأين: العقل، والمصلحة. وترجمة لثلاثة مقاصد: الضروري والحاجي والتحسيني. وتطبيقًا لخمس قواعد:

١- إلغاء الشك لليقين.

٢- تحكيم أعراف الزمان.

٣- إزالة الضرر وضرورة الإنسان.

٤- رفع المشقات وإحلال اليسر في التكليف محل العسر.

٥- الجريان في التكليف على المقاصد لا على الصور.

بالإضافة إلى الأدلة التي تستند إلى معقول الشرع كالقياس والاستحسان وسد الذرائع والمصالح المرسلة. أضف إلى ذلك التعامل مع سلم الضرورات والحاجات العامة التي تغير مقتضى الأوامر والنواهي في الشريعة طبقًا لما يسمى بالرخص بأنواعها.

في اللغة: في إحيائها وتعميمها وتفجير معين قواعدها الذي لا ينضب، وغرس شجرتها التي لا تذوي، انطلاقًا من غناها وثرائها في غناها، وثرائها في المفردات والتغير والاشتقاق والأوزان والجموع. فلنا في لغتنا العربية ثلاثون جمعًا يقابلها جمعان في اللغة العبرية التي تعلمت نحوها وصاغت نفسها وأحدثت الشكل والنقط اقتباسًا من العربية في القرن الثامن الميلادي بالأندلس. فهل يغلب جمعان ثلاثين جمعًا؟

في الآداب: بإحيائها نثرًا وشعرًا بمختلف بحوره في أجمل صور وفي شتى مقاصده، يجب أن تصدح النوادي والبيوت بجماله وفنونه، وتشدو طير الحمائل من جديد على أزهارها المونقة في رياض المورقة بأنغامه ولحونه.

في العادات والتقاليد: بإحياء الصناعات والتقليد والفنون الجميلة، وباتخاذ كل الطرق التربوية لاستمرار التماسك الأسري، وحب الأدنى، وبر الوالدين، والشهامة والكرم، وإسعاف الآخرين، والوفاء، والبر، والسماحة، كما قال امرؤ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا

من خاله ومن يزيد ومن حجر

سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا

ونائل ذا إذا (بدا وإذا حضر)

يجب أن نقدم هذه العادات والتقاليد في مقابل الإنسان الأخير، وهو صورة لإنسان الغرب المستقبلي عند فوكوياما اقتباسًا من الفيلسوف نيتشه، حيث يرى أن إنسان الديمقراطية الليبرالية سيكون حرًا بأخلاق العبيد، نذلًا لا قيم له ولا خلق ولا غيرة أناني لا يهتم إلا بمصلحته الشخصية وشهوته المنحطة، سيخلع إنسانيته!(٢).

إننا بهذه التقاليد النبيلة التي هي قيم ديننا وتراثنا سنسهم في تقديم أنموذج بشري سوي. إن هذه المكونات الثلاث متجددة في نفسها، باحثة في أعماقها، ستعيد صياغة ذاتها متفاعلة مع بعد المعاصرة في حيويته ومقولاته الإنسانية وبخاصة في علومه وتقنياته التي تقترح آفاقًا جديدة يجب أن تغزى، وتكتشف أغوارًا عميقة يجب أن تسبر.

(٢) تراجع مقدمة فوكوياما، نهاية التاريخ، الترجمة الفرنسية.

وسائل هذا التجديد

حيث إن خطاب التجديد مسالم، بل متعاطف مع كل فعاليات الأمة، فعلى الجميع حكومات وأفرادًا وجمعيات أن تجد الوسائل الكفيلة بتنفيذه، فالصيغ التنظيمية لا قيمة لها في حد ذاتها إلا بقدر ما تؤديه من وظيفة نافعة، إلا أن العلماء والمفكرين يتحملون عظم مسئوليته، فهم الذين سيقع عليهم عبء ترجمته من سماء النظريات والرؤى الفكرية إلى أرضية التطبيق ليصبح برنامجًا علميًا يصلح للتنفيذ في ظروف الأمة الزمانية والمكانية، وفي ظروف كل جزء منها على حدة.

لهذا فإن الكليات التي أشرنا إليها في الشريعة تلامس جوانب واسعة من جهة، وضبط المسار بثوابت شرعية ليست وظيفتها رفع الحرج عن ضمير الفرد والجماعة حتى يصبح أكثر انسجامًا مع ما تتطلبه مقتضيات العصر فحسب، ولكن ليكون العمل أكثر إيجابية ولصوقًا بالواقع، يصبح وضع الخطط العلمية ضرورة لقيام ورشة أو ورشات عمل لدراسة تلك المبادئ والأصول والقواعد والكليات في ضوء مقترحات المعاصرة، وعلى خلفية تطوير الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، ولا يكفي أن نستنبط من هذه المبادئ بل علينا تكوين عقليات اجتهادية جبارة كأبي حنيفة وأضرابه، وهذه الخطوة وسيلتها المجامع الفقهية والجامعات والمراكز الحكومية والخاصة، كما يجوز لأي كان أن يسهم في وضع مفرداتها وتفصيلاتها.

● كما أن دارسة التاريخ والسير لن تسمح بتجلية العبقريات فقط، ولكن بمحاولة الإفادة من كيفية تعامل هذه العبقريات السياسية والقيادية مع ظروفها التاريخية.

● كما أنه يجب إدماج الدراسات الإنسانية بالدراسات الإسلامية، بخاصة علم النفس الحديث؛ لتكوين الشباب المؤهل نفسيًا لمواجهة التجديد.

● وفي اللغة ستكون المجامع اللغوية خير وسيلة، وكذلك النوادي، وكل الهيئات والجماعات ذات الصلة.

● وإن الصحافة والجامعات والمراكز العلمية يجب أن تكون أكثر نشاطًا وحيوية، ويجب التركيز على البحوث العلمية المتكيفة مع البيئة المحلية.

إنني في النهاية لست متشائمًا، فإن مستقبل ثقافتنا هو ما سنكون، ومستقبلنا هو ما سنكون، وهو ما نريد جميعًا - بإذن الله - إذا تم الاتفاق وإذا اتفقت حكوماتنا على خطوط محددة في بناء الجسور الثقافية وتحديد معالم استراتيجية ثقافية، ووضع خطط زمنية لتنفيذ مراحلها، طال الزمن أم قصر، فإن من شأن ذلك أن يشكل منعطفًا تاريخيًا في غاية الأهمية.

إن الثقافة العربية قوية البناء الداخلي، راسخة الجذور، خبرت أزمات التاريخ فحولت جبابرة المغول والأتراك إلى أتباع وخدام أوفياء. إن أحزمة أمنها منتشرة في العالم الإسلامي.

وفي الختام:

فإن التجديد الذي نريده سيكون انطلاقًا من القوى المعنوية والتاريخية عبر معادلات ومرتكزات جديدة تنشئ فكرًا خلاقًا مسترعيًا ومضيفًا متجاوزًا الاستجابة والتكيف إلى الاحتراف والإبداع، والأخذ والعطاء، والشراكة الحضارية والندية.

من عيون التراث

صيد الخواطر

- تأليف / البغدادي أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي الظفري (٤٣١، ٥١٣هـ).
- جمع وإعداد / أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي.
- الإسكندرية: دار الإيمان (٢٠٠٧م).

التعريف بالمؤلف:

هو الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة علي بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي، ولد سنة (٤٣١ هـ). من شيوخه ابن الشيطي في القراءة، وفي النحو والأدب أبو القاسم ابن برهان، وفي الفقه أبو إسحاق الشيرازي. له مؤلفات كثيرة في أصول الدين، والفقه، والزهد وغير ذلك، من أهم أعماله «الفنون»، و«الفصول في الفقه»، و«الإرشاد في أصول الدين»، و«تهذيب النفس». توفي سنة (٥١٣ هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (١٢٨) صفحة من القطع المتوسط متضمنة الفهارس. يعرض فيها الكاتب لبعض الخواطر التي طرأت له والتي يرى أنه في حالة أن يتبناها الفرد ستتحسن حياته وتصبح أفضل.

- يشير الخاطر الأول إلى شذرة وعظية.
- أما الخاطر الثاني فأشار إلى الحذر من الخلوة والاختلاط.
- أما الثالث ففي المبتدعين الخوارج على الشرائع.
- وعرض الخاطر الرابع للغضب Anger (ص٢٥) وأنه يجب أن يكون بقدر العقوبة وأشار إلى أن الغضب يجب أن يتناسب مع ما أعد له من عقوبة.
- أما الخامس فكان عن محاسن الدنيا ومعايبها.
- ثم جاء السادس في حال الناس مع الصالحين.
- واهتم السابع بأداء النوافل مع الإخلال بأداء الفرائض.
- وكان الثامن في تعظيم الله.
- والتاسع في الصديق أفضل هذه الأمة بعد نبيها.
- وجاء العاشر في أذية الخلق بسوء الرأي.
- وعرض الحادي عشر للتسليم بأمر الله والتحكيم لحكمته.
- ثم تلاه الثاني عشر في التوكل على الله.
- أما الثالث عشر فكان في!

﴿ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ ﴾

(يونس: ٨٧)

- وأعقبه الرابع عشر في:

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(الروم: ٩)

- وجاء الخاطر الخامس عشر في تنافر الناس.

أما السادس عشر في أن المخالطة لبعض الناس دواء ولبعضهم أدواء، وهنا إشارة إلى مفهوم التخفف من الأسى لمن ابتلي بمصيبة Coping with Grief (ص٣٧)، فيرى البعض أنه يجب عليه أن يتشاغل عن حزنه بمن حوله، ويرى آخرون أن الانفراد أفضل، وأشار إلى أن الأفراد يختلفون في ذلك، فمنهم من يجزع على نفسه فيكون من حوله إعانة له، ومنهم من لا يستطيع البقاء بين الناس ويحتاج للبعد عنهم.

- وجاء الخاطر السابع عشر في تجرع مرارة الأدب.
- أما الثامن عشر ففي منازل الأسلاف.
- والتاسع عشر في من لك بأخيك كله، وهنا يشير إلى أن لكل فرد تقلباته المزاجية Mood Swings فيكون شهي المودة، وطيب الأنس في بعض الأحيان، وغاضب ساخط في أحيان أخرى (ص٤٠، ٤١).
- تناول الخاطر العشرون أن من الأحسن أن تكون الفضائل لك، وذكر أن الفرد الذي يجد نفسه تفتقد إلى فضيلة ما عليه أن يكتسبها، وهو ما يمكن أن نشير إليه بأن يكون الفرد مراقبًا لذاته Self - Monitoring (ص٤١)، كما أن عليه أن يتخذ لنفسه قدوة يتعلم منها وهو ما يمثل أحد أساليب التعلم واكتساب السلوك الصحيح والذي يطلق عليه التعلم بالقدوة Modeling (ص٤١).
- يلي ذلك الخاطر الواحد والعشرون في التعلم من الأنبياء وهو أيضا مثال آخر للتعلم بالقدوة (ص٤٢).
- أعقب ذلك الخاطر الثاني والعشرون في أن المخاصمة موازنة.
- والثالث والعشرون في:

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(الأنعام: ١١)

- أما الرابع والعشرون ففي أن الجزاء من جنس العمل.
- تناول الخاطر الخامس والعشرون أن الأمراض مواسم العقلاء.
- تلاه الخاطر السادس والعشرون ألا تعاشر متلونًا ويقصد به الشخص الذي يتغير بتغير المواقف المختلفة عليه.
- أما السابع والعشرون فجاء في العزبة والمعنى بها ترك النكاح.
- وأشار الخاطر الثامن والعشرون إلى مجاهدة النفس.
- أعقبه التاسع والعشرون في أن العمل لهذا الدين أعظم جهاد.
- وكان الثلاثون في نعمة المعرفة.
- يلي ذلك الخاطر الواحد والثلاثون في اغتنام عبادة الله.
- أما الثاني والثلاثون ففي عدم نصح أحد على شرط القبول.
- تناول الخاطر الثالث والثلاثون في أن الشيب مرض الموت.
- أما الرابع والثلاثون ففي قصر الأمل.
- والخامس والثلاثون في أن الاعتماد على الناس إفلاس.
- وأكد الخاطر الذي تلاه السادس والثلاثون:

﴿ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ ﴾

(المنافقون: ٤)

هذه الفكرة في أن على الفرد الاعتماد على ذاته والاستقلال في تفكيره وهو أحد الأساليب المعرفية المعروفة بالاستقلال عن المجال Field - Independence (ص٥٦).

●وجاء السابع والثلاثون في الرضاء بقضاء الله.

●والثامن والثلاثون في:

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(المؤمنون: ٩٦)

●أما التاسع والثلاثون ففي أن الحسد وبال على صاحبه.

●وكان الأربعون في الفرح بطاعة الرب، والفرق بينه وبين الإعجاب.

●وتمثل الخاطر الواحد والأربعون في لطف الله بخلقه.

●تلاه الثاني والأربعون في العمل للناس.

●ثم الثالث والأربعون في أن للإيمان روائح ولوائح.

●ثم كان الرابع والأربعون في اكتشاف أصحاب الملل والنحل.

●أما الخامس والأربعون ففي تعلق القلب بالله.

●وأشار السادس والأربعون إلى أن الطباع الردية أبالسة الإنسان.

●تناولت الخواطر السابعة والثامنة والتاسعة والأربعون والخمسون أن «مذهب العجائز أسلم»، و«الصبر على الأغمار» ويقصد به الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور، و«حال الجهال مع الوقت»، و«اتقاء شر الأشرار».

●اهتم الخاطر الواحد والخمسون ببرودة الدين في القلب.

●والثاني والخمسون برضاء الناس

●أما الثالث والخمسون ففي هجران أهل البدع والمعاصي.

●والرابع والخمسون في أن كمال الأدب في مراقبة النفس Self - Monitoring (ص٦٩، ٧٠) وإزالة كل ما يكره منها ويؤذي عند المخالطة.

●وجاء الخامس والخمسون في الإغضاء عن زلات القرون الثلاثة.

●وتناول الخاطر السادس والخمسون أن المرء مخبوء تحت لسانه.

●والسابع والخمسون في قصور الأعمار مع بلوغ الغايات.

●والثامن والخمسون في أن الحكمة ضالة المؤمن.

●أما التاسع والخمسون في الاستراحة إلى نوع من الشكوى.

●والستون في لطف الله بعبده.

●وعرض الخاطر الواحد والستون إلى عجز العقل عن ملاحظة العواقب.

●أتبعه الخواطر الثانية والثالثة وحتى السبعين في «حال بعض العوام»، و«استقلال البلاء»، و«هجران الدنيا»، و«العز في القناعة»، و«الحياة الطيبة»، و«وكفى بربك وكيلا»، و«ساعة إجابة»، و«الأدب عند تلاوة القرآن»، و«حال بعض الناس عند السماع».

●أما الخواطر من الواحد والسبعين وحتى الثمانين فتناولت «جهال الأطباء»، و«في العشق أسبابه وعلاجه»، و«الخير عادة والشر أصالة»، و«النوح على الدنيا»، و«في أن تأخير الإجابة حكمة ومصلحة»، و«في تمسك الناس بالخرافات»، و«في الانبساط والمداعبة مع الزوجة والولد»، و«عاقبة البخل والشح»، و«في حفظ مودة الإخوان والجيران»، و«في الراحة من تعب الاعتراض».

●ثم جاء الخاطر الواحد والثمانون في إنكار ما يعمل في المساجد والقبور.

●تلاه الثاني والثمانون في أكدار المخالطة.

●ثم مدح النفس بالحق للمصلحة ممثلة للخاطر الثالث والثمانين.

●أما الرابع والثمانون ففي أن لا قرابة لمن لا تؤمن مكايده.

●وتناول الخامس والثمانون أن علماء الكلام يشككون في العقائد.

●والسادس والثمانون في حد الأخوة وأشار هنا إلى الخلال والتي قصد بها السمات Traits (ص٩٦) وكيف أنها تختلف ليس فقط من شخص لآخر، ولكن داخل الفرد نفسه.

●أعقب ذلك السابع والثمانون في نقض العهد.

●ثم الثامن والثمانون في كل محدث فقيه.

●أما التاسع والثمانون ففي تلبيس إبليس على العباد.

●والتسعون فيمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

●وكان الخاطر الواحد والتسعون في علو الهمة.

●والثاني والتسعون في أن الجن يسكنون البيوت المأهولة.

●أعقبه الثالث والتسعون في تقرير البعث والمعاد.

●والرابع والتسعون في تكريم الله لعبده.

●وبذل النفس في ذات الله في الخاطر الخامس والتسعين.

●أما السادس والتسعون ففي فضائل المجتهد.

● ومن السابع والتسعين وحتى المائة فجاءت في «صفة الأرض أيام الربيع»، و«تسلية النفس»، و«فراق الأحباب»، و«السلام على شواب النساء».

● عرض الخاطر الواحد بعد المائة إلى التغافل عن بعض مساوئ الناس.

● أما الثاني بعد المائة ففي التدخل في الأسرار.

● أعقبه الثالث في هلاك المتنطعين.

● ثم الرابع في وصف أصحاب الإمام أحمد.

● أما الخاطر الخامس بعد المائة فجاء في شر الطوائف.

● وعرضت الخواطر السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة بعد المائة لكل من «رعونة الطبع»، و«استعمال القرآن في الأمور الدنيوية»، و«ما جاء في ترقيع الثوب»، و«ما أشار إليه من حيل أهل الإلحاد»، و«أدب الخوف من الله».

● وانتهى الكتاب بالخواطر الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة بعد المائة والتي أشارت إلى «أشد شيء على النفس»، و«كشف وجه المرأة المحرمة»، و«بركات الإخلاص»، و«تقبيل يد السلطان».

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الغضب Anger.
- التخفف من الأسى Coping with Grief.
- التقلبات المزاجية Mood Swings.
- مراقبة الذات Self- Monitoring.
- الاقتداء (التعلم بالقدوة) Modeling.
- الاستقلال عن المجال Independence-Field.
- السمات Traits.

القائم بالعرض

د. نشوة عبدالتواب حسين

قصص الأنبياء

يوسف يتعرف إلى إخوته

لفضيلة العلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

جاء إخوة يوسف وقالوا:

﴿ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾

فقال لهم يوسف مذكرا بما كان منهم من الإساءة:

﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾

إذ فرقتم بينهما وألهبتم صدورهما بنار البعد، ولعله إنما كلمهم بلغتهم لأول مرة، فعرفوا أنه يوسف، لذلك:

﴿ قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ۝ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ۝ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ۝ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾

(يوسف: ٩٠ - ٩٢)

فلما فصلت عيرهم من مصر كانت نفس يعقوب مستشرقة لتغيير ما به من حال ولم يدب اليأس إلى نفسه، بل هو يتوقع الفرج بلقاء يوسف الذى طال حزنه عليه، فقال لمن حوله من جماعته:

﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

(يوسف: ٩٤)

أى لأخبرتكم بأنى أتوقع لقاءه. فقالوا له

﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾

أى خطئك القديم فى اعتقادك أن يوسف باق إلى اليوم! ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه. وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيرا وقرت عينه. وبشر نفسه باللقاء فقال للاحين له:

﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾

(يوسف: ٩٦)

ولا بد أن يعقوب لم يقل هذا القول إلا وقد أعلمه الله بحياة يوسف وأنه سيلاقية.

شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم إلى مصر، فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف

فآوى إليه أبويه أى يعقوب وزوجه- خالة يوسف لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير- وسجد له أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر. وقال لأبيه:

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾

فى هذا الموقف الباهر والإكرام العظيم الذى أكرم الله به يوسف بعد ملاقاة الأهوال التى يلين لها الحجر الصلد، من ائتمار إخوته به، فلطمه، ولكمه، ولكزه، فسلبه ثيابه، فإلقائه فى الجب عاريا فريدا لا أنيس ولا معين، فإخراج السيارة له وبيعه بيع الرقيق فى مصر فمحنته بامرأة العزيز تدبر له الكيد وتمعن فى الإساءة إليه جزاء له على تفويته غايات سافلة لها، فسجنه السنين الطوال.

كل ذلك وهو مستمسك بدينه وبشرفه وكرامته ووفائه وذمته ودائب على الدعاء إلى الله فخروجه من السجن، فتوليته على خزائن الأرض، فقدوم إخوته مستجدين حنانه وهم لا يعرفونه، فمداعبته إياهم، فقدوم والده إليه بعد أن ابيضت عيناه من الحزن عليه وعلى أخيه ولم يزل بياضهما إلا بإلقاء قميص يوسف عليه، وسجود أبيه وأمه وإخوته له.

كل ذلك مر بمخيلة يوسف فجاء يشكر الله تعالى معلنا نعمته عليه وما منحه من علم وملك، داعيا الله تعالى أن يتولاه فى الدنيا والآخرة، وأن يتوفاه مسلما أى مطيعا لله غير عاص ولا آثم، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء.

اقرءوا قوله تعالى:

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾

« يوسف: ١٠١ »

الأخلاق التى تستفاد من قصة يوسف وإخوته

هذه القصة مورد غزير المادة لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة الطاهرة، ويشرح الاستقامة على المبادئ الحقة وأثرها فى النفس، وموضع درس عميق فى علم النفس. ولا يكون العالم النفسى مسرفا إذا وضع فى الأخلاق وعلم النفس: كتابا كبيرا وافيا، مرجعه فيه «سورة يوسف» وجعل أحوال يوسف وما حصل منه وله موضع تطبيقها. وقبل أن ألم إلمامة خفيفة بذلك أذكر مناقشة حصلت بين أحد وزراء المعارف، فى عهد أحد حكام مصر السابقين وبين أحد المشايخ.

ذلك أن الوزير كان من الذين تعلموا فى مصر التعليم الابتدائى والثانوى. ثم ذهب إلى أوروبا فكان نسخة صحيحة من التربية الفرنسية والتفكير الفرنسى.

ذهب الوزير يفتش فى مدرسة المعلمين بالزقازيق: ودخل عند شيخ بدرس الأخلاق، فأعجبه تدريسه وانتهى الدرس، فسأله الوزير: من أى مرجع تستقى فقال: القرآن. فقال متهكما: القرآن! قرآن إيه ياخويا؟ أتعلم الأخلاق من (ولقد همت به وهم بها- وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه

وعلقت الأبواب وقالت هيت لك) ؟.

فقال له الشيخ: ياسعادة الباشا: أن هذه السورة التى لم تعجبك يمكننى أن استخرج منها أمهات الفضائل والأخلاق، فأستخرج منها العفة والفضيلة فى شاب فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات وموجبات الصبوة، فلم يكترث بذلك، واستمسك بمبدأ ولقد لقى الأهوال وعانى الصعوبات فى سبيل استمساكه بالفضيلة، فلم يغير ميدأه السجن والإذلال مع أنه لو أجاب لكان منعما مرفها منظورا إليه بعين الإكبار، وأن الاستمساك بالدين أصل لكل فضيلة فاستمساكه بدينه جعله يستهين بالأخطار. وإن الحق وإن استتر زمنا بثوب من التضليل لابد أن يظهر ولو بعد حين.

ولما انتهى الشيخ إلى هذا الحد قال له الباشا «سى الشيخ امسح وأنا امسح».

وها أنذا أبين بعضا مما يعن لى:

إن طيب الأصل إذا آزره طيب البيئة ووجد الإنسان فى تلكم البيئة زمنا كافيا، فإن ذلك يجعله على أكمل الأوصاف وأروع الخصال، ويصيره خيرا لا شر فيه، والإحساس بالشرف عامل حافز على الاستمساك بالفضيلة:

(١) هذا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم:

وكل إذا عد الرجال مقدم- غذى بدر النبوة وارتضع أفاويق الرسالة نشأه أبوه على التقوى ورشحه بالصلاح وتعهده بالأخلاق النبوية الكريمة فنشأ أصلح نشاه، وأحس من صغره بمجد آبائه وأجداده، وأبوه يذكره بإولئكم الآباء الصالحين المصطفين الأخيار، ويمنية أن يلحق بهم ويسير على قدمهم.

انظروا حين قص يوسف على أبيه رؤياه ماذا قال له؟ قال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾

(يوسف: ٦)

والأصول عليها ينبت الشجر.

أفعال من تلد الكرام كريمة

وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وهكذا يكون الرجل الذى يرشح للنبوة. ويعده الله تعالى لنشر دنيه:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

(٢) إن يوسف عليه السلام قد شب على أكمل الأوصاف عاملا بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء صلوات الله عليهم:

فكفه ذلك عن اتباع الشهوات؛ بل حصر فكره وعمله فى موجبات الفلاح وما يعقب رضا الله تعالى، لا جرم أن الله تعالى زاده علما على علمه وفتح بصيرته وجعله ذا فطنة ثاقبة، وعلمه من تأويل الأحاديث فلا يأتيه أحد يقص عليه رؤياه إلا أناه بتأويلها على وجهه، وذلك من شدة الملاحظة وثقوب الذهن ومعرفة موارد الأمور ومصادرها مع عون الله تعالى له، فإن ذلك كله يوجب النفوذ إلى بواطن الأشياء والتفطن للمناسبات على وجه يجعل الظن يقينا، وذلك هو الألمعية.

(٣) الإيمان بالمبدا ياتى من وراء كل بلاء فى سبيله:

فهو يسهل على صاحبه ملاقاة الصعاب ومواجهة هوج العواصف النفسية والأخطار فى سبيل تأييد ذلك المبدأ الحق.

انظروا إلى يوسف وهو الفتى الغض الإهاب المشتعل جمرة الشباب- الذى يقولون إن الجنون شعبة منه- مع فراغه وارتفاع شأنه فى بيت سيده، ومع الحياة الجدة التى هو فيها، والغنى الوافر الذى يتقلب فى أعطافه ويرغد فى أكنافه، ومعه فى البيت سيدة فى مثل حاله- هى سيدته والحاكمة عليه فى بيئة كلها مغريات بإرضاء الشباب وشفاء غلة النفس، تدعوه إلى نفسها فيعرض، وتلح عليه فيرفض- أرادت قسره على ما فيه السعادة ظاهرا فأبى، ونازعته ثوبه فنبا. استمساكا بمبدأ العفاف والتقوى. وحذرا من أن يكون عار آبائه وأجداده الذين علم عنهم العزوف عن كل ما يشينهم أو يخل بأوامر دينهم ونواهيه، وحفاظا لسيده الذى أكرم مثواه وأحله محل الولد- ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبه ولا دأب أسرته- وهى لا تصغى لعظة ولا تسمع لنصيحة، ولا ترعوى عن غى. كل ذلك ينبئ عن نفس كريمة، وروح طاهرة، وعزيمة صماء، لا تسمع رقى الغواية، ولا تجيب داعى الجهالة.

وهذا من أخلاق أولى العزم المستضئ البصائر، المؤمنين حق الإيمان بالمبدأ الذى اعتنقوه.

(٤) الالتجاء إلى الله عند الابتلاء.

لقد اعتمد يوسف على الله تعالى عند كل ضيقة، والتجأ إليه عند كل معضلة، فإن النساء المصريات حين رأين يوسف وأكبرن حسنه وجماله، وبعد أن كن عاذلات لاحيات لامرأة العزيز عدن عاذرات، وراودنه لها ولأنفسهن. وتوعدته امرأة العزيز قائلة:

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

(يوسف: ٣٢)

لجأ إلى ربه مستغيثا خائفا وجلا قائلا:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(يوسف: ٣٣)

ففرج الله عنه ما نزل به وصرف عنه كيدهن وعملهن لموافقتهن على ما يردن من الفاحشة؛ بأن أبعده عنهن بالسجن وهو أهون الشرين على يوسف. وهذه ضراعة إلى الله لا تهديد.

(٥) عشق يوسف لدينه والدعوة إليه:

إن المؤمن بمبدأ من المبادئ حق الإيمان لا يترك فرصة تمر دون أن يدعو إلى مبدئه الذى تغلغل فى أعماق نفسه ويبشر به. فإن يوسف اهتبل فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة إليه فى تعبير رؤيا كل منهما، فأخذ يدعوهما إلى دينه بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا. ولو كانت الرؤيا عن طعام يرزقانه لنبأهما بتأويلها قبل

أن يأتيهما ذلك الطعام.

وماذا يعيب المرء في مدح نفسه إذا لم يكن في قوله بكذوب؟

ثم أخذ يبين لهما أن ذلك من تعليم إلهه، ومجانبته ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، واتباعه ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم أخذ يبين شناعة ما عليه أهل مصر من تعدد الآلهة، وتكثير الأرباب وأن دينه دين التوحيد هو الدين القيم ولكن الناس في غفلة عنه.

اقرءوا قوله تعالى:

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴿٣٧﴾ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿٣٨﴾ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴿٣٩﴾ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

(يوسف: ٣٧ - ٤٠)

فينبغي لكل واحد منكم أن يكون نهازا للفرص يبث عظاته ونصائحه وإرشاده في أنفس الناس وإذا لم تعرض له فرصة خلقها.

(٦) رزانة يوسف ومحافظته على شرفه:

إن أحداً سوى يوسف إذا كان مظلوماً أو غير مظلوم وجاءه أمر الإفراج والخروج من السجن، لا بد أن يبادر إلى الخروج منه ويغتبط بذلك أيما اغتباط، ولكن يوسف كان عنده خلق الإباء والشمم. شرف نفسه وطهارتها آثر لديه من الخروج من السجن. فلم يشأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن. بل أبى أن يخرج إلا بعد أن يثبت أنه بريء الساحة نقي الصحيفة، فأرسل إلى الملك يبسط ظلامته ويطلب إليه إعادة التحقيق في جريمته. فلما أجرى الملك التحقيق على وجهه وظهرت براءته رضي بالخروج من السجن مرفوع الرأس نقي الصحيفة. والشمم والإباء يحملان المتصف بهما على مجانبة كل ما يمس شرفه أو يدنس نفسه ذلك أن نفس الإنسان أعز الأشياء عليه وآثرها لديه. فهو يحب نفسه حبا جما.

ويقول بعض العلماء: إن الإنسان لا يحب أصدقاءه وخلانه إلا لأنه يجد فيهم لذة نفسه يرتاح إليهم ويجد سلوته بالقرب منهم. فمحبة الأحياء أثر من آثار محبة المرء لنفسه، وإذا كانت نفس إنسان عنده بهذه المنزلة من المحبة والإكبار والإعظام. لا جرم أن غرامه بنفسه يدعوه إذا كان من أهل الكرامة إلى أن يطهرها من الأدناس ويحرص الحرص كله على أن تكون صفحة حياتها متلألئة لامعة لا يشوبها شئ من النقائص والخسائس.

هكذا كان يوسف عليه السلام. وهذا هو الذي حمله على الإباء من مزايلة السجن إلى أن تنجلي عن ساحة شرفه تلك الغمامة التي كانت مخيمة على صفحة كبيرة من صفحات حياته فلما انجلت خرج من السجن خروج السيف جلاه صيقله.

(٧) خلق الصبر:

كان يوسف عليه السلام متحلياً بفضيلة الصبر. والصبر من أعظم الفضائل وأجلها قدرا. ذكر في القرآن الكريم في نيف وسبعين موضعا. وقد رتب الله كثيراً من الخيرات والدرجات العالية على تحلي الإنسان بفضيلة الصبر، حيث لم يجعل له جزاء محدودا ومكافأة معينة. بل جعله منوطا بكرمه الواسع. وجوده العميم بغير وزن ولا معيار. مع أنه حد لكل مزية جزاء معينا:

اقرءوا قوله تعالى:

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾

(السجدة: ٢٤)

﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾

(الأعراف: ١٣٧)

﴿ اصبروا وصابروا ﴾

(آل عمران: ٢٠٠)

﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

(آل عمران: ١٢٥)

﴿ وبشر الصابرين ﴾

(البقرة: ١٥٥)

وقال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»، وسئل عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة» الصبر: هو حبس النفس على ما تكره. وهو من خواص الإنسان التي تميز بها عن سائر الحيوان. فإن البهائم لا تحبس نفسها عن شهوة من الشهوات كالغذاء وغيره ولا تنظر في عواقب شئ من مشتهياتها، بل هي تنظر شهوتها الحاضرة فقط ولا تحبس نفسها عنها أصلا.

الصبر له أسماء تتجدد بالإضافة إلى ما عنه الصبر، فإن كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي «عفة» وإن كان على احتمال مكروه؛ فإن كان في مصيبة سمي «صبرا» وضده الجزع والهلع - وذلك بأن يسترسل في ضرب الخدود وشق الجيوب - وإن كان الصبر في احتمال الغنى بأن يجاوره بالشكر سمي «ضبط النفس» ويقابله البطر. وإن كان الصبر في الحروب وملاقاة الأهوال سمي «شجاعة» ويضادها الجبن. وإن كان الصبر عند موجبات الغضب سمي «حلماً» ويضاده التذمر. وإن كان الصبر عند نائبة مضجرة من نوائب الزمان، سمي «سعة الصدر» ويضاده الضجر وضيق الصدر. وإن كان الصبر بإخفاء كلام يسوء غيره ظهوره سمي «كتمان سر». وإن كان الصبر على القدر اليسير من الحظوظ سمي «قناعة»، وإن كان الصبر عن فضول العيش بأن اقتصر على أقل القوت سمي «زهدا».

اقرءوا هذه الآية الجامعة لكثير من أنواع الصبر:

﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾

(البقرة: ١٧٧)

لقد ضرب يوسف للناس المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر:

يوسف يتعرف إلى إخوته

(١) صبر على ايذاء إخوته له. وتجريدهم إياه من ثوبه. ولطمه ولكزه وإلقائه فى الجب بقصد إهلاكه.

(٢) لا بل صبر على أعظم من هذا حيث اعتبروه شريراً جانياً؛ إذ باعه ملتقطوه بأبخس الأثمان قال تعالى:

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾

(يوسف: ٢٠)

(٣) صبر على نعمة الله فجاوزها بالشكر، وجانب البطر حين تمكن فى بيت سيده وصار صاحب الأمر والنهى. فلم يسئ استعمال المال بصرفه على الشهوات، بل شكر لله ولسيده، ولم يدخر لنفسه من ذلك الغنى ولم ينل منه إلا حاجته، وكف عن الفضول فكان قانعاً.

(٤) صبر على شهوة الفرج وقد هيئت له فى جيش من المغريات يحف به من كل ناحية؛ فالطالبة سيدته وربة نعمته، مع ماهى عليه من جمال ورفاهة ورغبة فيه، وهو شاب ما طر شاربه فى إبان فيضه الحيوى. وأوان التهاب جذوة الشهوة واحتشاد الدواعى الطبيعية، وانتظار الأمال والأمانى الجسام له إذا لبى: فلم يخرج من بين أولئكم المغريات إلا إلى العفة متوجا بتاج الصبر عن الشهوات، وأسقط منازعة دواعى الهوى وقهرها لباعث الدين وكرم النفس والحفاظ والوفاء، ونصر جند الرحمن على جند الشيطان:

أهان الهوى حتى تجنبه الهوى
كما اجتنب الجانى الدم الطالب الدما

(٥) مسه الضراء وألقى فى غيابة السجن فحالف الصبر الجميل، وسعة الصدر.

(٦) خرج من السجن ومكن الله له فى الأرض وجعله على خزائنها، وصار أهل القطر المصرى فى وثاقه، والنفوس بين حبسه وإطلاقه، وعزرائيل بين شفتيه، وكلمته فيها الحياة الطيبة أو الموت الزؤام. وجاء إخوته يمتارون وهم تارة والذين أبدعوا به وأودعوا عنده إساءتهم سلفا. فلم يجز شرهم بمثله، بل صبر وغفر.

﴿قالوا أءنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾

فاظهروا ندمهم واعترفوا بخطئهم قائلين:

﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾

(يوسف: ٩١)

فاسبل ذيل عفوه على إساءتهم. وأجرهم وسن التجاوز وقال لهم:

﴿قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾

(يوسف: ٩٢)

هذا قليل من كثير من المشاهد الصالحات والمواقف الكريمة التى تشهد ليوسف أنه رجل بز الرجال بصفاته الكريمة. وضرب الأمثال العالية بأخلاقه الطاهرة وحكمته:

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾

(البقرة: ٢٦٩)

فضيلة الشكر

كان يوسف متحليا بفضيلة الشكر. والشكر من أخلاق الربوبية، قال الله تعالى:

﴿والله شكور حليم﴾

(التغابن: ١٧)

والشكر: هو معرفة النعمة الحاصلة من النعم والفرح بها والقيام بمقصود النعم والعمل بما يحبه: وهذا الخلق عزيز فى الناس.

اقرءوا قول الله حكاية عن إبليس:

﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾

(الأعراف: ١٦، ١٧)

وهذا وإن كان قولاً لإبليس ولكن الله تعالى صدقه فى قوله:

﴿وقليل من عبادى الشكور﴾

(سبأ: ١٣)

وقد أمر الله به فقال:

﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾

(البقرة: ١٥٢)

وقال تعالى:

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾

(النساء: ١٤٧)

وقد استثنى الله تعالى فى خمسة أشياء ولم يستثن فى الشكر. فاستثنى فى الإغناء. وفى الإجابة. وفى الرزق، وفى المغفرة وفى التوبة، فقال:

﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾

(التوبة: ٢٨)

﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾

(الأنعام: ٤١)

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾

(البقرة: ٢١٢)

﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾

(النساء: ٤٨)

﴿ويتوب الله على من يشاء﴾

(التوبة: ١٥)

وأما الشكر فقال فيه:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾

(إبراهيم: ٧)

ولم يستثن.

وهذا يوسف يتحدث بنعم الله تعالى عليه وعلى آله وهو من الشكر. فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش وخر له أبواه وأخوته سجدا فقال:

﴿يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾

وكان ختام قصته قوله:

﴿رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين﴾

(يوسف: ١٠١)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

خامسا: إرشادهم إلى أن اختلافهم فى الدين سببه البغى والحسد

الشرائع السماوية واحدة فى جوهرها، فكلها منزلة من عند الله لهداية الناس، إلى ما يسعدهم فى دنياهم، وآخرتهم، واختلافها إنما هو فى الفروع وليس في الأصول، وفي الجزئيات وليس فى الكليات، وهذا الاختلاف فى الفروع والجزئيات بين الشرائع هو من رحمة الله تعالى بعباده، حيث شرع لكل أمة ما يناسبها، وما تقتضيه ظروفها وأحوالها.

ولقد جاء محمد ﷺ بالشريعة الخاتمة للشرائع، والمهيمنة عليها، والمصدقة لها فى أصولها، التى تتمثل فى الدعوة إلى توحيد الله، والإيمان برسله، والتحلى بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم.

وكان من الواجب على اليهود أن يسارعوا إلى تصديق هذا الرسول النبى الأمى، الذى قامت الأدلة القاطعة على صدقه فيما يبلغه عن ربه، ولكن الكثيرين منهم عموا وصموا عن الحق، وامتنعوا عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ثم اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا.

ولقد صرح القرآن الكريم كثير من الآيات بأن امتناع أهل الكتاب عن الدخول فى الإسلام، وعن اتباع محمد ﷺ سببه البغى والحسد، لا الدليل والبرهان، ومن الآيات التى صرحت بذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

(آل عمران: ١٩، ٢٠)

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

قال قتادة: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به(١).

ثم بين سبحانه أن اليهود لم يتركوا الإسلام تبعا لدليل عندهم، وإنما تركوه بسبب بغيهم وحسدهم، فقال تعالى:

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣، ص ٢١٢.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

أى: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى شأن دين الإسلام فتركوه وامتنعوا عن الدخول فيه:

﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾

أى: إلا من بعد أن علموا أنه الحق الذى لا محيد عنه، ولم يكن اختلافهم عن جهل، أو شبهة عندهم، بل:

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

أى: ما كان اختلافهم وامتناعهم عن الانصياع للحق إلا من أجل بغيهم، وحسدهم لمحمد ﷺ على ما آتاه الله من فضله، ومن أجل طلبهم للرئاسة، وحظوظ الدنيا، ورذيلة البغى والحسد وحب الدنيا إذا استولت على قلب، نزعت منه نور العلم، وجعلته يجحد الحق وينكره، وينأى عن طريق الإيمان، ويتردى فى الكفر والفسوق والعصيان.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لكل كافر بآياته، فقال تعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

أى: ومن يجحد حجج الله، وأعلامه التى نصبها ذكرى لمن عقل، وأدلة لمن اعتبر، فإن الله تعالى معاقبه ومحاسبه على ذلك حسابا عسيرا؛ لأنه سريع الحساب.

ثم أرشد الله رسوله ﷺ إلى الجواب، الذى يجيبهم به، إذا جادلوه فقال تعالى:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾

أى: فإن حاجك أهل الكتاب- يا محمد- وجادلوك فى شأن دين الإسلام، بعد أن ثبت أنه هو الدين الحق، الذى لا شك فيه، فلا تسر معهم فى لجاجتهم، ولا تهتم بمجادلتهم، بل قل لهم إذا حاجوك:

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾

أى: انقدت لله وحده، بلسانى وجوارحى وقلبى، وأخلصت عبادتى له، دون أن أشرك معه أحدا من خلقه:

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾

أى: ومن اتبعنى كذلك أسلم وجهه لله.

قال صاحب الكشاف: قوله تعالى:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾

أى: فإن جادلوك فى شأن الدين فقل: أسلمت نفسى لله وحده ولم أجعل فيها لغيره شريكا، بأن أعبده وأدعوه إلها معه، يعنى: أن دين التوحيد هو الدين القويم، الذى ثبت عندكم صحته، كما ثبت عندى، وما جئت بشئ بديع تجادلونى فيه، ونحوه قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾

(آل عمران: ٦٤)

فهو دفع للحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين، هو حق اليقين، الذى ليس فيه لبس أو خفاء، فما معنى المحاجة فيه(٢).

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب من أهل الكتاب أن يكونوا مثله فى إخلاص العبادة لله، والخضوع لذاته، فقال تعالى:

(٢) تفسير الكشاف جـ١، ص ٢٩٨.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾

أي: وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وقل كذلك للأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب، قل لهؤلاء جميعا، إذا كنت أنا قد أسلمت وجهي لله، ومن اتبعني كذلك أسلموا وجوههم لله، فهل أنتم مثلي، ومثل أتباعي في ذلك بعد أن علمتم صدقي فيما أبلغه عن ربي؟.

فالاستفهام في الآية الكريمة: للحض على أن يسلموا وجوههم لله، وأن يخلصوا له العبادة كما أخلصها النبي ﷺ وأصحابه، وأن يتركوا المحاجة الباطلة؛ لأنها لا تغني من الحق شيئا، إذ العبرة في طلب الحق ليست بكثرة المجادلات الداحضة، وإنما العبرة في طلبه بإخلاص القلوب، وصفاء النفوس.

ولقد أجاد صاحب الكشاف - رحمه الله - في بيان هذا المعنى إذ قال:

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾

يعني: أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم، وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته، هل فهمتها؟ ومنه قوله تعالى بعدما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام تعبير بالمعاندة، وقلة الإنصاف؛ لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسدادا بينه وبين الإذعان، وكذلك في «هل فهمتها» توبيخ بالبلادة، وفي:

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

توبيخ بالتقاعد عن الانتهاء، والحرص على تعاطي المنهي عنه (٢).

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم إن أسلموا، ومصيرهم إن أعرضوا، فقال تعالى:

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

أي: فإن أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة، فقد أصابوا سبيل الحق، وسلكوا طريق الرشاد، وخرجوا من الضلال إلى الهدى.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾

أعرضوا عما تدعوهم إليه، وأدبروا عن صراط الله المستقيم

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾

أي: عليك تبليغهم ما أمرناك به، وعلينا نحن حسابهم

﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

أي: هو عليم بمن يستحق الهداية وبمن يستحق الضلالة، وهو الذي:

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾
(الأنبياء: ٢٣)

وفي هذا التذييل للآية الكريمة، عزاء للنبي ﷺ عن كفرهم، وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار لهم بسوء مصيرهم إن استمروا في ضلالهم وغيهم.

يتبع

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٩٨.

من فتاوى الحاخامات

عنوان الفتوى: تغطية رأس المرأة داخل المنزل

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il ؛ نوفمبر ٢٠٠٥ فتوى من الحاخام شموئيل الياهو

سؤال:

أ) طالعت في كتاب أسئلة وأجوبة أنه يجوز للمرأة المتزوجة أن تتحرك في منزلها بدون غطاء رأس في وجود غرباء، كما وردت فتوى الجاءون فأينشيتين في الشأن ذاته، وقد سألتني زوجتي الرأي في هذا الموضوع، حيث إنها وأنا نلتزم بفتاوى الحاخام.

ب) وهناك سؤال آخر، قالت حماتي لزوجتي إنه يجب الفصل بين ملابس زوجتي الداخلية وملابسي الداخلية عند غسلها - فهل هذا صحيح؟ وفي منزل والدتي اعتادوا على غسل وتجميع مناشف الأيدي بمعزل عن الأشياء الأخرى - هل هناك مرجعية لذلك في الشريعة؟

جواب:

استعنت بالرب،،

أ) يقول الحاخام إنه يجب على المرأة أن تكون حريصة أيضا في منزلها؛ لأن الجمارا تقول: إن المرأة الملتزمة بعدم كشف شعرها حتى داخل منزلها - تحظى بأبناء صالحين. ويتعلق الأمر هنا بحرص زائد. وإذا لم تكن لهذا الموضوع أهمية فلماذا حظيت المرأة بسببه على هذه المكانة الكبيرة التي ذكرتها الجمارا.

لكن الأصل في الموضوع هو أنه عندما يرى المرء عورة فلا فرق إن كان قد رآها في منزل المرأة أم خارجه بل على العكس - ففي منزلها يُعد الأمر أخطر بكثير.

وما ورد في الجمارا باب «كتوفوت» (١/٧٢) أنه إذا سارت المرأة في فناء منزلها بلا غطاء رأس لا يحق لزوجها أن يطلقها نظراً؛ لأنه قد ينقلت الغطاء من فوق رأسها من آن لآخر في فناء منزلها.

لذلك ورد في «شولحان عاروخ» باب «إيفن هاعيزر» الفصل الحادي والعشرون: «ويحرم سماع صوت المرأة؛ لأنه عورة أو النظر إلى شعرها. والذي يتعمد فعل ذلك يستحق عقوبة الجلد».

ب) ليس هناك أي إلزام بغسل الملابس الداخلية للزوجة والزوج. ومن اعتادوا الفصل بينها - فهو تشدد غير ملزم.

ومن اعتادوا غسل مناشف الأيدي بمفردها فهذا، لأن مياه غسل اليدين غير طاهرة والمناشف تمتص تلك المياه غير الطاهرة ومن ثم غسلوها بمفردها حتى لا ينجسوا كل المناشف.

لكن سبب عدم اتباعهم هذا التحريم هو أن المياه غير الطاهرة من غسل اليدين قد امتصت ولم تعد موجودة بالمياه الطاهرة في المغسلة.

المسلمون وأهل الكتاب
نظرة قرآنية



للأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا

تمهيد

يقوم بناء هذه الدراسة على أصل مقبول لدى المؤمنين بالإسلام كافة هو أن النص القرآني يمثل المرجع الأساسي والمصدر الأول للأحكام والقيم والأخلاق الإسلامية جميعاً، وأنه، لذلك، لا يسع مسلماً أن يقف في مواجهة النص القرآني معارضاً له أو معترضاً عليه أو منكراً حكمه.

١ / ١ – وفي خضم الخلط – الذي ربما يكون غير مسبوق – بين أفكار وآراء ومقولات، قليلها صحيح، وأكثرها فاسد، عن علاقات المسلمين بغير المسلمين، لم أجد مخرجاً يرد الناس إلى جادة الصواب، ويعيدهم إلى أصل المفاهيم الإسلامية في هذا الشأن، إلا النظر فيما قرره القرآن الكريم من أحكام، وما وجه إليه من وسائل التعامل بين المسلمين والكتابيين.

١ / ٢ – ولست بحاجة إلى أن أقرر أن مفهوم الكتابيين، أو أهل الكتاب، يشمل اليهود والمسيحيين (الذين تسميهم نصوص القرآن والسنة، النصارى، نسبة إلى الناصرة – البلدة الفلسطينية المعروفة – أو إلى نصرتهم للسيد المسيح عليه السلام)[١].

١ / ٣ – واستعمال القرآن الكريم لتعبير «أهل الكتاب» استعمال تكريم وتحبيب وتقريب، إذ إنه تعبير يميز بينهم وبين غيرهم ممن لم يؤمنوا بالإسلام، من الوثنيين والمشركين، من العرب وغيرهم، ومن الملحدين والدهريين الذين كانوا – ولا يزالون – يقولون:

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾

(الجاثية: ٢٤)

ويقولون:

(١)- وإنا نستعمل كلمة المسيحيين لأنها اليوم أحب إلى بني أوطاننا منهم من تسميتهم "النصارى" ونحن مأمورون بالبر بهم واستعمال أحسن الأساليب في مجادلتهم فضلاً عن مخاطبتهم أو الحديث عنهم فإذا ارتضوا اسماً وكرهوا آخر فلا يليق بنا أن نستعمل الذي كرهوه ونترك الذي ارتضوه.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

(المؤمنون: ٣٧)

فهؤلاء الدهريون والوثنيون كفروا كفراً صريحاً بإنكار الألوهية والبعث، أو باتخاذ آلهة من دون الله:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

(مريم: ٨١ – ٨٢)

وأولئك الكتابيون آمنوا في الأصل بالله الواحد، وبرسوله الذي أرسله إليهم، موسى عليه السلام بالنسبة لليهود، وعيسى عليه السلام بالنسبة للمسيحيين، وبالكتاب الذي أوتيه كل رسول: التوراة والإنجيل.. وهذا الإيمان بالله، وبرسول من رسله، وبكتابه المنزل عليه، يجعل ثمة فرقاً ظاهراً بين أهله وبين غيرهم ممن لم يؤمنوا أصلاً، أو ممن يؤمنون وهم مشركون، كما قال الله تعالى:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

(يوسف: ١٠٦)

وهذا الفرق يظهر أثره في القواعد الحاكمة للتعامل بين المسلمين وأهل الكتاب سواء أكانوا جزءاً من المواطنين في الدولة المسلمة (من أهل دار الإسلام) أم كانوا غالبية أو أقلية في دولة غير مسلمة.

ماذا نريد؟

المقصود – بداهة – ماذا نريد بهذا البحث وأمثاله من البحوث التي تنحو نحو تبيين حقيقة النظرة الإسلامية، وإن شئت قلت الأحكام الإسلامية، الخاصة بأهل الكتاب، ذلك أن النظرة الإسلامية ليست رأياً مجرداً من السبب والدليل، ولا هي هوى يقع في نفس صاحبه فيقرره ويكرره حتى يظنه الناس رأياً جديراً بالمناقشة، موافقة ومخالفة؛ بل النظرة الإسلامية هي موقف يتخذه الفرد المسلم، والعالم المسلم، والمفكر المسلم، ثم المجتمع المسلم تبعاً لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

والهدف الذي ترنو إليه هذه الدراسة هو محاولة تأصيل النظرة الإسلامية إلى العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب تأصيلاً يمكن، في ديار الإسلام من العيش الواحد بين المسلمين وغيرهم، ويمكن، في غير ديار الإسلام، من العيش المشترك بين أولئك وهؤلاء.

- ففي الحالة الأولى يستهدف ذلك التأصيل تيسير «العيش الواحد» الذي يعني المشاركة في الحياة داخل الوطن، وحمل همومه والسعي في تخليصه منها، والإسهام في تقدمه ونمائه والرضا بما يحققه أبناؤه له من نجاحات في أي مجال، والعمل يداً واحدة على تخليصه من نقائصه وزيادة كمالاته.

وهذا العيش الواحد يعني – فيما يعنيه – أن الصديق صديق لأهل الوطن كافة مسلميهم وغير المسلمين، وأن العدو عدو لهم أجمعين، وأن الخيرات في الوطن حق للجميع، بقدر ما تشمل المعاناة أهله بلا استثناء.

- وفي الحالة الثانية، حالة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وهم ينتمون إلى حضارات شتى وبلاد تعيش ثقافات متنوعة، فإن ذلك التأصيل يكون متجهاً إلى إنشاء مفهوم «العيش المشترك» وترسيخه، والعيش المشترك يعني قبول الطرفين بفكرة اتساع

الدنيا وفضل الله ونعمه فيها خلق الله كافة، وأن التعاون على استثمار خيراتها وإعمارها هو الغاية الجامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

٢ / ١ - والسياسيون، في العالم كله، يستغلون الشعارات الدينية في تحقيق المآرب السياسية، يستوي في ذلك المسلمون وغير المسلمين، والحاكمون والذين يتوقون إلى الحكم، فهم إذا لم يكونوا يتحركون حقا بدوافع دينية، فإنهم لا يتورعون عن استخدام شعارات الدين لتحقيق ما يتطلعون إليه من رضاء الشعوب وتأييد الجماهير. لذلك فإن دور أهل الإيمان بالأديان هو تأكيد البعد بين الدين الحق - في نظر أهله - وبين المآرب السياسية التي تستخدم شعارات دينية لتحقيقها، ونفي الصلة بين التدين وبين ما يشن تحت شعارات دينية من حروب أو أعمال عنف عدوانية. وهذا ما حاولت أن تصنعه - فنجحت إلى حد كبير - القمة الإسلامية / المسيحية الأولى التي انعقدت في رحاب الفاتيكان عقيب أحداث سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية لتطلق كلمة الدينين الكبيرين: إدانة لوصف الحرب الأمريكية على أفغانستان بأنها صليبية، وإدانة لوصف الأعمال العدوانية الإرهابية بأنها إسلامية وهو ما حاولت أن تصنعه القمة الإسلامية المسيحية الثانية التي انعقدت في برشلونة (٥-٧ / ١٠ / ٢٠٠٤).

وإذا كانت كلمة المجتمعين في القمة الأولى لم تستطع الاتفاق على إدانة الإرهاب الصهيوني، وعلى تأييد المقاومة الفلسطينية ونفي صفة العنف الممنوع عنها، فإن الصمت عن هذا الموضوع لم يعن أبدا قبول أي من الطرفين لإرهاب الدولة الذي تمارسه الصهيونية في فلسطين، ولا إدانة المقاومة المشروعة التي يقوم بها الأبطال المسلمون والمسيحيون بالقول والفعل في فلسطين.

ولكن حال القمة الإسلامية / المسيحية، في هذا الشأن، كان كما قال الشاعر:

«في فمي ماء وهل
ينطق من في فيه ماء؟!»[٢]

٣- وأقصر الطرق، وأكثرها أمنًا، لتحقيق ما نريد من هذا التأصيل هو النظر في نصوص القرآن الكريم ورؤية ما تقرره في شأن العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، وهو ما يدور حوله البحث في هذه الدراسة. فإذا استعانت بغير القرآن الكريم، من السنة الصحيحة أو الفقه الإسلامي، فإنما يكون ذلك على سبيل التبيين والتأكيد فحسب.

الأخوة الإنسانية

من سنن الله في الاجتماع البشري أن يتجاور فيه أهل مختلف الملل والنحل كما يتجاور أهل مختلف الألسنة والألوان؛ وهم جميعا أخوة لأب وأم، وإن تباعد بمعاني الأخوة الإنسانية طول الأمد بين الأصول والفروع[٣].

٤ / ١ - وهذا الأخوة الإنسانية هي الأساس الذي تقوم عليه علاقات الناس إذا اختلفت

(٢)- محمد سليم العوا الحوار الإسلامي المسيحي موقع الجزيرة. نت ٥/٦/٢٠٠٤

(٣)- محمد سليم العوا في النظام السياسي للدولة الإسلامية، طبعة دار الشروق بالقاهرة ١٩٨٩، ص٢٤٦.

بهم أو باعدت بينهم روابط الحياة الأخرى من قرابة أو مواطنة أو دين. وليس كل الناس سواء في أثر هذه الأخوة الإنسانية على علاقاتهم: فلا شك أن القريب نسبا أو مصاهرة، مع المخالفة في الدين، يلقى من أقربائه أهل الأديان الأخرى معاملة وصلة تختلف عن الذي يلقاه الجار، والمواطن المخالف في الدين يلقى معاملة من مواطنيه تختلف عن تلك التي يجدها من غيرهم؛ وهكذا تضيف بعض العوامل - عند وجودها - إلى علاقة الأخوة الإنسانية فتقوى أثرها وتزيد من إحكام رابطتها، أو تنتفي تلك العوامل الإضافية فتبقى الأخوة الإنسانية وحدها، وهي كافية لتحقق الحد الأدنى من العلاقة الطيبة بين ذوي الأديان المختلفة. هذا الحد الذي سماه القرآن الكريم «التعارف» فقال ربنا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

٤ / ٢- وليس المقصود «بالتعارف» ذلك المعنى الساذج المتمثل في أن يعرف الواحد اسم الآخر ونسبه، أو يعرف أن هناك أممًا وشعوبًا غير أمته وشعبه، ولكن المقصود به يتسع والله أعلم- ليشمل معنى العيش الواحد في الوطن الواحد بين المختلفين دينا، وليشمل معنى العيش المشترك في الأرض كلها- وإن اختلفت البلدان والأوطان - بين أهل مختلف الأديان، ولو كان الناس لا يتعايشون ولا يتعاملون إلا إذا توافقوا في الدين لما استطاعوا أن يعمروا الأرض ولا أن يمشوا في مناكبها، ولا أن يتبادلوا المنافع والمعارف بين بعضهم وبعض، ولا اختل بذلك ميزان الاجتماع البشري والعمران الكوني.

ولأن الناس لا يستغني بعضهم عن بعض مهما تباينت عقائدهم، واختلفت شعائر عباداتهم، فقد أباحت الأديان السماوية كلها التعامل بين المؤمنين بها وبين غيرهم من الناس، مع وضع النظم التفصيلية التي تكفل المحافظة على الدين وحمايته، وتكفل ما تقتضيه الحاجة البشرية من صور التعامل المختلفة وأنواع العلاقات المتنوعة.

٤ / ٣ - وأهل كل دين يرون غير المؤمنين بدينهم كفارا، بل إن بعض أهل المذاهب والطوائف في الدين الواحد لا يقرون بالإيمان لبعض أهل الطوائف والمذاهب الأخرى داخل الدين نفسه، وهذه خصيصة من خصائص العقائد الدينية، تميع الحدود بين الأديان إذا فقدتها، ويغدو الإيمان بالعقيدة لا معنى له إذا اعتقد صاحبها أن أهل العقائد المغايرة لها على الحق كله، أو على نوع منه، على الرغم مما بينها وبين عقيدته هو من تناقض أو تضاد.

ولا بأس بهذه الخصيصة إذا لم يكن لها أثر سالب على العلاقات الإنسانية بين الناس لاسيما بين أهل الأديان المختلفة من أبناء الوطن الواحد، بل إننا ندعو أبناء كل دين إلى التمسك بعروته والثبات عليه لئلا تجتالهم شياطين الإلحاد العالمي الذي لا تقر عينه إلا إذا كفر الناس جميعًا بأديانهم ومعتقداتهم، وانساقوا وراء ما يزينه لهم من متع زائلة وشهوات رخيصة، ليتمكن سدنته وقادته من السيطرة على مقدرات الكون وثرواته وتوجيهها حيث يشاءون لنفع أنفسهم أفرادًا وجماعات.

٤ / ٤ - والأصل أن أمر الكفر والإيمان موكول إلى الله تعالى وحده، وأن الحساب على الكفر عقابا، وعلى الإيمان ثوابا مؤجل كله إلى يوم القيامة، وأن الحكم بين أهل مختلف الأديان لا يكون في هذه الدنيا ولا هو من اختصاص سلطاتها دينية كانت أم مدنية، وليس لعقيدة الإنسان وإيمانه أنها وحدها الحق وأن ما سواها باطل، أثر إلا في نفسه وفي جماعة المؤمنين معه بهذه العقيدة، وحق الفرد - والجماعة - ألا يفتن في دينه وألا يكره على تغييره حق مصون دائما، وكذلك حقه في ألا يمنع من التعبد وفق شعائر الدين الذي اختار اعتناقه.

وليس لأهل عقيدة دينية أن يجاوزوا هذه الحدود مع أهل العقائد الأخرى ولو على سبيل الدعوة الدينية، فإن الدعوة الدينية لا تكون إلا كما قال القرآن الكريم:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

ولذلك قال الله تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقرة: ٦٢)

وقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(المائدة: ٦٩)

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(الحج: ١٧)

فالفصل، وهو الحكم القطعي النهائي - بين أهل الأديان، بل وبينهم وبين المشركين، يكون يوم القيامة، ويقوم به الله عز وجل وحده؛ ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا - من أهل الأديان - على مقتضى رسالات أنبيائهم فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون، وقول فريق من العلماء: إن شرط ذلك هو الإيمان آخرا بمحمد ﷺ ورسالته[٤] محل نظر، فإن من آمن بمحمد ورسالته يسمى مسلما ولا يسمى يهوديا ولا نصرانيا ولا صابئا، ويؤكد ذلك النص القرآني نفسه في الآيات (١١٣ - ١١٥) من سورة آل عمران التي سيأتي ذكرها.

بين الكفر والإيمان

والإسلام الذي يتضمن كتابه عشرات الآيات التي تتحدث عن كفر المسلمين يجعل الحكم بينهم دائما مؤجلا إلى القيامة:

[٤]- العلامة الدكتور أحمد علي الإمام، مفاتح فهم القرآن، دار القلم بدمشق ٢٠٠٢ في تفسير الآية ٦٢ من سورة البقرة وقارن ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي بيروت ٢٠٠٢ في تفسير الآية نفسها

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

(البقرة: ١١٣)

وفي سياق أكثر من ثلاثين آية من سورة آل عمران تتحدث عن المسلمين وأهل الكتاب نقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(آل عمران: ٨٥)

فمرد الحساب والجزاء في شأن الذين - كفرا أو إيمانا - وميقاته وموضعه هو الآخرة وحدها.

٥ / ١ - والقرآن الكريم الذي يقرر كفر من يبتغ غير الإسلام دينا، كما في الآية السابقة، ويقرر كفر فريق من اليهود، أهل الكتاب، بمثل قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾

(المائدة: ٦١)

وقوله سبحانه:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨ - ٧٩)

والقرآن الكريم الذي يقرر كفر أهل الكتاب الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم؛ وكفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة في قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

(المائدة: ١٧)

وفي قوله سبحانه:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(المائدة: ٧٢ - ٧٣)

٥ / ٢ - هذا القرآن نفسه هو الذي يجعل الكفر وصفا لبعض أهل الكتاب دون بعض؛ فالآيات السابقة تقرر كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح أو إن الله ثالث ثلاثة، مما يعني أن هناك من لم يجعل المسيح إلها ولم يقل إن الله ثالث ثلاثة.

ومعظم الآيات الأخرى تتحدث عن الذين كفروا «من أهل الكتاب» أو عن «كثير من أهل الكتاب»:

المسلمون وأهل الكتاب نظرة قرآنية

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(البقرة:١٠٥)

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة:١٠٩)

وبعض الآيات تذكر صراحة أن «منهم من آمن ومنهم من كفر»:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(البقرة:٢٥٣)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

(آل عمران: ٥٥ - ٥٧)

وبعض الآيات تتحدث عن «طائفة من أهل الكتاب»:

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٩: ٧٢)

«أو عن فريق من الذين أوتوا الكتاب»:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٠٠)

وهؤلاء الكثير أو البعض أو الفريق أو الطائفة إما قوم من أهل الكتاب غير معروفين على وجه التحديد لنا، وإما قوم معينون ذكرهم علماء التفسير فى أسباب نزول تلك الآيات، ولسنا مطالبين بالتحرى عمن ينطبق عليه هذا الوصف، ومن لا ينطبق عليه، من أهل الكتاب المعاصرين لنا، لأن هذا البحث لا ثمرة له، إذ أمر الكفر والإيمان والحساب عليهما متروك ليوم القيامة كما قدمنا، وكل الذى نحن مطالبون به فى الدنيا أن تجرى فى تعاملنا مع الذين يقرون بأنهم أهل كتاب على وفق أحكام القرآن والسنة؛ وهما واضحان فى أن العلاقة بيننا وبينهم تقوم على اعتبار

أصل الإيمان بالله وبرسول من رسله وبكتاب أنزل على ذاك الرسول، لا على اعتبار آخر.

٥/٣- ولذلك يقول ربنا سبحانه:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

فالمسلمون يؤمنون بأن أديان أهل الكتاب صحيحة الأصل، وإن إلههم وإله أهل الكتاب - بل قل: إله الكون كله- واحد لا شريك له، القرآن يأمرنا بالجهر بهذا الإيمان، والاحتجاج به فى المجادلة بالتى هى أحسن، ولذلك لم أوافق العلماء الأجلاء الذين اعترضوا على تعبير أشاع استعماله رأس الكنيسة المصرية القبطية الأرثوذكسية السابق «البابا شنودة الثالث»(*) هو قوله، فى مفتتح كل كلام بينه وبين المسلمين: «باسم الإله الواحد الذى نعبده جميعاً». وعندما ذكرت هذه الآية القرآنية (العنكبوت ٤٦) لبعض أجلاء المعترضين، رحمه الله، رجع عن اعتراضه وقال: «بهذا المعنى: نعم، نحن وهم إلهنا واحد».

٥/٤- فقضية الكفر والإيمان - هى قضية أخروية - لا يترتب عليها عداوة ولا إباحة دم ولا مال ولا عرض، نعم لو حاربنا قوم على الدين - أو على غيره - حاربناهم، ولو غزونا قاومناهم، لا بسبب اختلاف الدين بل بسبب العدوان، وشتان ما بين الأمرين أو الحالين.

٥/٥ - والقرآن الكريم الذى قال إن بعضهم يذهب إلى أن عزيرا ابن الله، وبعضهم يذهب إلى أن عيسى ابن الله، وإن بعضهم يقول بألوهية عيسى عليه السلام، وإن بعضهم يجعل الله ثالث ثلاثة، هذا القرآن الكريم نفسه هو الذى أباح لنا أكل طعامهم وأن ندعوهم إلى طعامنا، وأن نتزوج من نسائهم فيكون بيننا وبينهم من ذلك أنساب ومصاهرة، دون أن يطلب منا الاستفصال عن حقيقة عقيدة من نعاملهم بشئ من ذلك، أو بغيره من المعاملات التى تقتضيها المشاركة فى الدار، أو تبادل المصالح والمنافع، ولو من غير هذه المشاركة.

والطعام والشراب لا يطيب مع البغضاء والشحناء.

والمصاهرة والنسب يولدان مودة ومحبة فطرتين من حرمهما حرم الكثير من الخير.

فكيف يبيح القرآن ذلك كله ويمنع مقتضاه؟!

وكيف يبيح ما يؤدى إلى المودة والمحبة الفطرية ويأمر ببغض من هم أهلها فى وقت واحد، كما يقول بعض أهل التعصب المذموم؟

«يتبع»

(*)- توفى البابا شنودة الثالث يوم ربيع الآخر ١٤٣٣هـ الموافق ١٧/٣/٢٠١٢م.

معاملة المسلمين مع غيرهم
المبادىء والتطبيق





الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الدين الخالص الذى أنزله الله على رسله الكرام يدعو معتنقيه إلى اتباع الحق وإقامة العدل، وإلى رفض الباطل ومنع الظلم، وحمّل العلماء أمانة تبصير الناس بحقائق الدين نقية صافية، خالصة من الشوائب والانحرافات، والالتزام بتنفيذها قولا وعملا، وسلوكا وأخلاقا..

ولو أتبع المتدينون تعاليم وأحكام ومبادىء وتوجيهات دينهم الصحيحة لعاش الناس فى أخوة جامعة، ومحبة خالصة، وسلام دائم.. غير أن بعض النفوس لا تخلو من الأهواء، ولا تسلم من الأسقام.. ومنهم من يؤول النص الصريح على غير وجهه الصحيح، فيحدث الشقاق والتنابذ، والفرقة والانقسام، والبغض والكره.. وقد آن لنا أن ننصاع إلى الحق، وأن نسلم به ونحترمه، وأن نعمل على نشره وتعميمه، وأن نلزم أنفسنا جميعا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن..، وأن نفرق بين النصوص المقدسة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبين سلوك وأفعال بعض من ينتسبون إلى الإسلام التى تخالف أحكام النصوص المقدسة!! وادعاءاتهم كذبا وزورا أنها هى الإسلام!!! والتى أعطت أعداء الإسلام والمسلمين سلاحا يهاجمون به الإسلام..

إن الهجوم على الإسلام من أعدائه شىء تعودناه، والتهم الباطلة التى يوجهونها للإسلام إفك ألفناه.. غير أن شراسة الهجوم على الإسلام والمسلمين بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م - والتى لم يعلم فاعلها على وجه اليقين حتى الآن - بلغت قمة البذاءة والوقاحة، وركزت على وصف الإسلام - كذبا وزورا - بالإرهاب وسفك الدماء، وأنه دين يحض المسلمين على كره وقتال غيرهم، وأنه دين يستبيح للمسلمين أرواح وأموال وأعراض من لا يدينون بالإسلام!! إلخ ما يلفقونه للإسلام من أباطيل.. وتمادوا فى سفاهتهم وبذاءتهم فتطاولوا على رسول الله ﷺ بنشرهم الصور المسيئة له.. وإخراجهم أخيرا الفيلم الحقير الذى يشوه حياته ﷺ..

ونشطت أجهزة الإعلام الغربية بجميع وسائلها التى تمتلكها الصهيونية العالمية والرأسمالية اليهودية لتحض شعوب العالم على العداء للإسلام والمسلمين.. وخلطوا المفاهيم، وألبسوا الحق ثوب الباطل، والباطل ثوب الحق، وأصبح الإرهابى الحقيقى المحتل أرض غيره، المستبيح نفس وعرض ومال وأرض من يحتله أصبح رجل سلام!! وصار المكافح المناضل المجاهد المقاوم للاحتلال والظلم، المدافع عن أرضه وشرفه وعرضه وماله صار إرهابيا...

وأصبح الناس فى حاجة إلى من يرشدهم إلى الصواب، ويعرفهم الحقيقة، ويحدد لهم المفاهيم السليمة..

لقد صار قلب الحقائق سمة للمتعصبين من أعداء الإسلام، وعلامة مميزة لأعداء الحق والدين، ولم تسلم حقائق الدين الإسلامى - الناصعة البياض - فى عقائده ومبادئه، وأركانه وأحكامه، وتعاليمه وأخلاقه من قلبها وتشويهها من هؤلاء!!

إن الدين يدعو إلى الإخاء والوفاق، وإلى التعارف والتعاون، وإلى المحبة والسلام بين الناس جميعا.. فالدين لم يوجد فى الحياة إلا لسعادة البشر جميعا، وحماية الإنسان من الشرور والموبقات، وإرشاده إلى ما يحقق له الخير فى دنياه وأخراه..

علاقة الإسلام بالديانات السماوية السابقة

يخطىء من يعتقد، أو يفكر، أو حتى يظن أن الدين الإسلامى جاء لينكر الديانات السماوية السابقة عليه، أو أنه جاء ليقطع الصلة بينه وبين هذه الديانات، أو أنه جاء ليحارب أتباعها ويقضى عليهم ويستأصل شأفتهم.. إن كل من يعتقد أو يفكر أو حتى يظن ذلك فقد وقع فى خطأ كبير.

فمن أسس عقيدة الدين الإسلامى أنه أمر المسلم بالإيمان بالرسل السابقين، وبما نزل عليهم من كتب سماوية، وذلك لاعترافه بالديانات السماوية السابقة عليه، وبجميع الأنبياء والرسل السابقين الذين أرسلهم الله برسالات سماوية، والذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم على سبيل التحديد والحصر.. وإن كان القرآن الكريم قد أشار إلى رسل سابقين آخرين غير هؤلاء على وجه الإجمال لم يحدد أسماءهم، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(غافر: ٧٨)

وهذا يعنى أن الوحى الإلهى وحدة جامعة.. وإن أى مسلم لا يؤمن بأى رسول من الرسل - عليهم جميعا الصلاة والسلام - أو لا يؤمن بأى كتاب سماوى نزل من عند الله على أى رسول منهم لا يكون مسلما.. يقول الله تعالى:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

لقد أرشد الله - جل شأنه - المؤمنين في هذه الآية الكريمة إلى نبذ التعصب الديني، ودعاهم إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسله الله على الرسل - السابقين - مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم.. وطلب من المسلمين - بصيغة الأمر - أن يقولوا لأتباع الديانات السابقة: إننا نؤمن ونصدق بالله وبالقرآن الكريم الذي نزل على الرسول محمد ﷺ وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، ونؤمن بكل ما آتاه الله لأنبيائه ورسله جميعا تصديقا لهم على نبوتهم ورسالتهم.. ونحن في تصديقنا وإيماننا بالأنبياء والرسل السابقين لا نفرق بين أحد منهم، فلا نؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر، بل نؤمن بهم جميعا، ونحن لربنا مسلمون خاضعون له بالطاعة، مذعنون له بالعبودية..

ويقول الله - عزوجل -:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

(الشورى: ١٣)

أي: شرع الله لكم يا أمة محمد ﷺ من أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة: كإخلاص العبادة له - تعالى -، والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، والتحلي بمكارم الأخلاق: كالصدق والعفاف والحب والتعاون واحترام الآخرين وعدم الاعتداء عليهم. وما شرعه لنوح عليه السلام وما أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ وما أوصى به أنبياءه: إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم جميعا السلام - ومن وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم..

وقد أمر الله - جلا وعلا - المؤمنين بإقامة الدين وذلك بالالتزام بتوحيد الله وطاعته، وبالإيمان برسله وكتبه، وباليوم الآخر، بالالتزام بتنفيذ أوامره ونواهيه في الأصول والأحكام والآداب التي أجمعت عليها الشرائع الإلهية والتي لا تقبل الاختلاف أو التفرق..

وقد شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى وحدانية الله - تعالى -، وإلى ترك ما ألفوه من شرك ومن تقاليد باطلة ورثوها عن آبائهم..

ثم بين الله كمال قدرته ونفاذ مشيئته، فهو سبحانه يصطفي ويختار لرسالته من يشاء من عباده، ويهدي إلى الحق من ينيب ويرجع إليه ويقبل على عبادته وطاعته..

ويقول الله - تعالى -:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

لقد مدح الله - جل شأنه - في هذه الآية الكريمة رسوله محمد ﷺ، ومدح المؤمنين الذين آمنوا به بأن كلا منهما - الرسول والمؤمنون - صدق بما أنزله الله في القرآن الكريم: من عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وأخلاق وفضائل، وسمعيات وغيبيات.. تصديق إقرار وخضوع واطمئنان، وأن كلا منهما آمن إيمانا تاما صادقا بوجود الله - تعالى - ووحدانيته، وكمال صفاته، ووجوب الخضوع والعبادة له، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون:

﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

كما آمنوا بكتب الله التي أنزلها، وبرسله الذين أرسلهم لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأن من صفاتهم - الرسول والمؤمنون - أنهم لا يفرقون بين رسل الله في الإيمان بهم، وبالتصديق برسالة كل رسول أرسله الله، ولا يقولون كما قال غيرهم:

﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾

وفي مدح الله هذا تشريف وتكريم للرسول وللمؤمنين، وإعلاء من شأنهم وأقدارهم ومنازلهم..

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا يوضح ويبين فيه أن الدين الإسلامي أتى مكملا ومتمما للديانات السماوية السابقة عليه، ويؤكد عليه الصلاة والسلام فيه تأكيدا تاما على ما جاء به القرآن الكريم من سلامة أصول الديانات السماوية، واتفاق مصدرها، واتفاق أهدافها وغاياتها، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

إن من يقرأ هذا الحديث النبوي الشريف قراءة متأنية يرى بكل تأكيد أن الديانات السماوية تنسجم فيما بينها انسجاما صحيحا كما تنسجم اللبنات الناهضة في البناء الواحد، وأن كل دين سماوي يجيء إنما يأتي ليكمل ما سبقه من الديانات السماوية الأخرى دون تعارض أو تصادم، حتى إذا ما تهيأت البشرية واشتدت حاجتها إلى استقبال الدين المكمل والمتمم للأديان السماوية السابقة جاءت الديانة الإسلامية خاتمة لهذه الأديان السماوية غير محددة بزمان أو مكان، وغير خاضعة بقوم معينين، بل هي رسالة عامة للناس جميعا في كل زمان ومكان، يقول - سبحانه -:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

(سبأ: ٢٨)

وقد تم بالديانة الإسلامية البناء الرباني الذي أقامه الله ليجمع الناس كلهم على كلمة سواء، وليهديهم إلى طريق الحق والخير الذي يحقق لهم

السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة، يقول الله - تعالى -:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

خصوصية الاختلاف بين الأديان السماوية:

شاءت إرادة الله وحكمته أن يختلف أفراد البشر في وجوه كثيرة: في اللون، والطول والقصر، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في النشاط والخمول، في العادات والتقاليد، في الذكاء والغباء، في اللغة واللهجات، في الخير والشر، في الهداية والضلال، في الإيمان والكفر.. إلخ الاختلافات القائمة بين أفراد البشر، يقول الله - تعالى -:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

بل وجد الاختلاف في سائر مخلوقات الله تعالى - يقول سبحانه -:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾

(فاطر: ٢٧، ٢٨)

غير أن الاختلاف بين الأديان السماوية له خصوصية خاصة مغايرة للاختلافات الأخرى الكائنة في خلق الله - تعالى - على وجه عام، سواء أكانت هذه الاختلافات الواقعة بين البشر «في غير العقيدة الدينية»، أم بين النباتات، أم بين الجمادات، أمن بين الحيوانات، أم بين الطيور، أم بين الليل والنهار، أم بين الكواكب والنجوم، أم بين الماء.. إلخ.

فالأديان السماوية كلها مصدرها واحد، وأصولها واحدة، وأهدافها وغاياتها واحدة، لا يختلف فيها دين عن دين، فكلها متفقة في إثبات وجود الله خالق الكون بمن فيه وما فيه، وعلى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وعلى الإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، وعلى الإيمان بالحساب والجزاء في الآخرة على أعمال الدنيا..

ويؤكد ذلك حديث الرسول ﷺ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة علات - أولاد الرجل من أمهات متفرقة - أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

أما الاختلاف الواقع في شرائع الأديان السماوية فهو فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهي، وببعض وجوه الحلال والحرام، وبغير ذلك من فروع الشريعة..

فقد يحرم الله شيئا على قوم عقوبة لهم، ويحله لقوم آخرين تخفيفا عنهم، كما قال الله - تعالى -:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

(الأنعام: ١٤٦)

وكتحريم صيد السمك في يوم السبت على قوم وحله لغيرهم، كما قال - تعالى -:

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(الأعراف: ١٦٣)

وكما قال الله - تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام:

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(آل عمران: ٥٠)

المبادىء والتطبيق

لا يتسنى لباحث يكتب بحثا أو كاتب يكتب مقالة عن المبادىء والتطبيق في معاملة المسلمين مع غيرهم، أن يحصي المبادئ الإسلامية، التي تحكم معاملة المسلمين مع غيرهم على وجه الحصر والتحديد، وأن يذكر أمثلة عملية لتطبيقها من خلفاء المسلمين وولاتهم وحكامهم على مر الأزمنة والعصور، وعلى وجه التفصيل.. فهذا شيء يتعذر صنعه، ويستحيل عرضه، لأنه يحتاج إلى كتب ومجلدات..

وقد تناول كثير من المؤرخين والكتاب - من المسلمين ومن غير المسلمين - على مر الأزمنة والعصور هذه المبادئ بالكتابة والشرح والتوضيح والتحليل والتعليق.. كلٌ كتب على حسب رؤيته ووجهة نظره، وعلى حسب هواه وعاطفته الدينية، وعلى حسب اتجاهاته العقائدية ونزعته السياسية.. فمنهم من كان منصفا عادلا صادقا مع نفسه ومع الحقيقة، ومنهم من كان مغرضا ظالما غير صادق مع نفسه ومع الحقيقة..

غير أن المتاح والمناسب في هذا المقام هو التعرض إلى ذكر بعض أهم هذه المبادئ، وذكر بعض الأمثلة والنماذج من التطبيق.. وفي ذلك إشارة عامة إلى موقف الإسلام من هذه القضية.. ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، وهي لا تعد ولا تحصى من كثرتها وتنوعها..

إن تعاليم الإسلام واضحة وصريحة في نظام معاملة المسلمين لغيرهم من أصحاب الديانات السماوية الأخرى، بل ومن أصحاب المعتقدات الأخرى غير الديانات السماوية، فقد حددت آيات القرآن الكريم، وشرحت السنة النبوية أسس هذه المعاملات في جميع مجالات الحياة.

وسأكتفي بالحديث عن ثلاثة مبادئ أساسية، لأن كل مبدأ منها يعتبر وحدة عامة تشتمل على كثير من المبادىء الفرعية الأخرى.

وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله

المادة الثانية من الدستور بين الإلهاء والإلهام

أ/ حازم على ماهر
باحث بالمركز العالمى للوسطية - الكويت

ترددت كثيرا فى الكتابة عن المادة الثانية فى الوقت الذى تشهد فيه مصر أعظم ثورة فى تاريخها على الإطلاق، بل فى تاريخ العالم أجمع، غير أننى حسمت ترددى حين وجدت الجدل حول المادة الثانية يتصاعد بشكل عبثى يبدو أنه يسعى إلى تحويلها إلى مصدر إلهاء لأبناء الوطن الذين توحدت دماؤهم فى سبيل الدفاع عنه وحمايته على مدى التاريخ بصفة عامة، وأثناء هذه الثورة بصفة خاصة، بدلا من أن تكون هذه المادة مصدر «إلهام» لهم.

وأبدأ أولاً بإعطاء نبذة عن المادة الثانية والمقصود بها وآثارها، وبعض الإشكاليات التى تحوم حولها، ثم أشير لتصورى عن كيفية جعل المادة الثانية مصدراً لإلهام المصريين فى هذه الظروف المباركة التى نحياها.

المادة الثانية من الدستور تنص على أن: «الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع».

وقد ورد هذا النص فى كافة الدساتير المصرية السابقة على دستور ١٩٧١م، ما عدا دستور ١٩٥٨م (دستور الوحدة مع سوريا)، غير أنه لم يكن يتضمن العبارة الأخيرة التى تنص على أن «مبادئ الشريعة المصدر الرئيسى للتشريع»، والتى أضيفت فى دستور ٧١ دون الألف واللام، ثم أضيفا إليها فى التعديل الأول للدستور عام ١٩٨٠م، فى عهد الرئيس الراحل محمد أنور السادات.

والنصوص الدستورية المتعلقة بالشريعة الإسلامية هى نصوص «كاشفة»، و«مقررة» وليست «منشئة» لمرجعية الشريعة الإسلامية فى مصر؛ حيث كانت الشريعة الإسلامية قبلها هى المصدر الأساسى للتشريع فيها منذ فتحها سنة ٦٤٠م، وحتى إقصاؤها عنوة فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م،

باستثناء قوانين الأحوال الشخصية التى لم تفلح أيا من محاولات عزلها عن مصدرية الشريعة الإسلامية.

المقصود بالمادة الثانية

أما عن المقصود بنص المادة الثانية من الدستور فإنه من المعروف أن هناك اختلافاً كبيراً بين الفقهاء فى تحديد تعريفات جامعة مانعة لما ورد بها من مصطلحات ومفاهيم نتيجة غموض بعضها، ولذا سأورد هنا ما انتهيت إليه من تحديد لمعانيها بشكل مختصر:

«الإسلام دين الدولة» يقصد به أن الدولة تكون ملتزمة فى تصرفاتها المختلفة بمراعاة ما يقرره الدين الإسلامى من قيم ومبادئ ومقاصد وأحكام. ونسبة دين للدولة ليست بدعا بل هى أمر معمول به فى كثير من الدول الأوروبية (كالسويد والدنمارك) وأمريكا اللاتينية (كبوليفيا وبيرو)، أما نسبة الفعل لشخص معنوى كالدولة والمؤسسة والشركة هو أمر متعارف عليه وغير منكر.

وبخصوص النص على أن «اللغة العربية لغتها الرسمية» فهو يعنى التزام الدولة باللغة العربية فى مكاتباتها باعتبار أن هذه اللغة هى الوعاء الذى حفظ به القرآن الكريم والسنة النبوية وتراث الأمة وتاريخها، والتخلى عنها يؤدى إلى الانقطاع عن كل ذلك.

و «مبادئ الشريعة الإسلامية» أى كلياتها التى هى ليست محل خلاف بين الفقهاء، كما عرفها العلامة عبدالرزاق السنهورى، أول من وضع هذا المفهوم فى النظام القانونى المصرى وبالتحديد فى القانون المدنى الذى صدر سنة ١٩٤٧م والذى لازال مطبقاً فى مصر حتى الآن، وأنا أختاره هنا كتعريف أدق من ذلك الذى وضعته المحكمة الدستورية العليا فى أحكامها بأنها الأحكام الشرعية قطعية الثبوت والدلالة باعتبار أن من الشريعة ما يكون مستمداً من طريق الاستقراء التام من طرائق نصوص الشريعة (مثل مقاصد الشريعة الإسلامية).

ومعنى أنها «المصدر الرئيسى للتشريع» أى الأصل الذى يتعين على السلطة التشريعية أن تستمد منه تشريعاتها أو على الأقل ألا تصدر أى تشريع مخالف له.

الآثار العملية

أما عن الآثار العملية لنص المادة الثانية فإنها قد ساهمت إلى حد كبير فى الحفاظ على ركن أساسى للهوية الحضارية والثقافية للشعب المصرى، غير أنه لم يتم تفعيله بصفة شاملة حتى الآن، ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى تبنى المحكمة الدستورية العليا اتجاها وصف من بعض الفقهاء أنه جاء لاعتبارات سياسية وليست قانونية، أدى إلى تحجيم آثار نص المادة الثانية زمنيا وموضوعيا، بأن جعلت إلزاميته قاصرة على التشريعات اللاحقة للتعديل الذى طرأ على النص سنة ١٩٨٠ دون السابقة عليه، وكذلك باتجاهها إلى أن الخطاب فى المادة الثانية موجه للسلطة التشريعية وحدها، دون أن تفعل شيئا حيال امتناع تلك السلطة عن تفعيل هذا النص حتى الآن، وهو ما ساعد على إفراغ النص من مضمونه، وعزله عن الواقع التشريعى إلى حد كبير.

وعلى الرغم مما سبق فإن المادة الثانية من الدستور المصرى الصادر سنة ١٩٧١م، لا

المادة الثانية من الدستور بين الإلهام والإيهام

زالت هي صاحبة النصيب الأكبر من الجدالات والاتهامات عند أي تعديل مزمع للدستور سواء كانت مدرجة ضمن المواد المراد تعديلها أو لم تكن كذلك، وعادة ما تلقى عليها مسئولية التأصيل للدولة الدينية، وإهدار مبدأ المساواة بين أبناء الوطن الواحد من مسلمين ومسيحيين، فضلاً عن كونها مسئولة عن التهديد بتكبيل الحريات العامة والخاصة لاسيما حريات الفكر والعقيدة والرأي، وتلك الحريات المتعلقة بالملبس والمأكل والمشرب!

وعلى الرغم من أنه مرَّ على وجود المادة الثانية في الدستور المصري أربعون عاما دون أن تقوم في مصر دولة دينية، أو توجد حالة واحدة حدثت فيها تفرقة حقيقية بين المسلم والمسيحي استندت بشكل قاطع إلى المادة الثانية ونصها، أو حصل اعتداء منها على حرية الفكر وغيرها من الحقوق والحريات، وأن الواقع المصري ينطق بأن المشكلة الحقيقية التي كان يعاني منها الوطن تكمن في «الدولة البوليسية» التي تغولت فيها السلطة التنفيذية حتى صارت مهيمنة على كافة سلطات الدولة، وتقف حائلا بين الشعب وحريته؛ ولذلك فإنني أذكر باختصار ما يؤكد على براءة المادة الثانية من تلك الجرائم التي تنسب إليها، ثم أتبعه ببيان كيف يتسق وجود المادة الثانية مع أحلام المواطنين جميعا والتي بدأت تتحقق على أرض الواقع بفضل الله ثم ثورة الخامس والعشرين من يناير.

شبهة الدولة الدينية

فبخصوص ما أثير حول أن النص يؤصل للدولة الدينية في مصر، فإنه إذا كان المقصود بذلك أنه يؤدي إلى قيام دولة على النسق الغربي في العصور الوسطى أي دولة كهنوتية يتحكم فيها رجال الدين باعتبارهم واسطة بين الناس ورب الناس، فإنه كما هو معلوم بالضرورة «لا كهنوت في الإسلام»، ومن يدعي أنه وسيط بين الله سبحانه وتعالى فإنه يخالف أصلا من أصول العقيدة الإسلامية، وهو «التوحيد».

وأما إذا أريد به أنها قد تمثل غطاء لاستبداد تيار سياسي معين في حكم الدولة استنادا إلى الدين دون رقيب أو حسيب، فإن هذا تخوف مشروع يتعين أن يكون لدى المسلم وغير المسلم على السواء؛ لأن الاستبداد مدمر للجميع أيا كان سنده، غير أن هناك أمران يمكن أن يحولا دون حدوث ذلك وهما:

● أن الحلال في الإسلام بيِّن والحرام بيِّن، والعلم به متاح للجميع وتقتصر مهمة الحكام على تنفيذ تلك الأحكام تحت رقابة المجتمع الذي أثبتت الثورة مدى نضجه وحنكته.

● والأمر الثاني أن تعود عملية الاجتهاد في الإسلام مستقلة عن الدولة كما كانت كائنة على مدى التاريخ الإسلامي؛ فكان يقوم به علماء متخصصون بذلك مستقلين عضويا وفكريا- عن السلطة الحاكمة في الدولة، ويستمدون شرعيتهم من ثقة الشعب في علمهم وإخلاصهم، غير أنه حين نشأت الدولة الحديثة في مصر في عهد «محمد علي» تغلغلت في كل شئون الحياة حتى هيمنت بالكامل على التشريع، وزاد الأمر سوءا أن وقعت هذه الدولة في تحالف مع الاستعمار الغربي قام بإقصاء الشريعة الإسلامية عن المرجعية التشريعية في مصر عدا قوانين الأحوال الشخصية، وأفضل من يقوم بذلك

الآن هو مؤسسة الأزهر على أن تستكمل استقلالها عن الدولة وأن يتم تمويلها عن طريق الأوقاف الأهلية كما كان الوضع قبل «محمد علي»، وأن يكون شيخ الأزهر منتخبا من علمائه، وهذا سيسهم بالتأكيد في حرمان أي تيار سياسي من استغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية فانية.

المادة الثانية والأقباط

أما عن الموضوع الأكثر إلحاحا وهو المتعلق بالأخوة المسيحيين فإن المادة الثانية لا تمسهم بشيء سوى بتقرير أمر يستند إلى الواقع التاريخي الذي لا يمكن التشكيك فيه وهو أنهم ينتمون إلى الحضارة الإسلامية العربية، أو بتعبير السيد مكرم عبيد هم «مسيحيون ديانة مسلمون وطنا»، فهو بالنسبة لهم يتعلق بهويتهم الثقافية وليس بدياناتهم أو شريعتهم، والتي يقر الإسلام بحقهم في أن يحتكموا إليها مع مراعاة النظام العام في الدولة، ولا إشكال حقيقي يمكن أن يعانون منه في ظل وجود المادة الثانية لاعتبارين أحدهما شرعي والآخر دستوري:

● أما الأول: فإن المادة الثانية تتحدث عن مبادئ الشريعة والتي من ضمنها أنه

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

وأن لغير المسلمين من أهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأن الأصل في معاملتهم البر والقسط وهذه من المبادئ الحاكمة للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب في الدولة المسلمة.

● والثاني: أن الدستور نفسه ينص في المادة ٤٠ منه أن «المواطنين لدى القانون سواء وهم



مكرم عبيد — محمد علي

متساوون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة»، وهذا نص شامل للمواطنين المصريين جميعا، وبما أن نصوص الدستور وفقا لأحكام المحكمة الدستورية العليا لا تتنافر أو تتناقض، فإن نص المادة الثانية يتم تفسيره بصورة لا تتناقض مع المادة ٤٠ من الدستور، ومن ثم لا يترتب على نص المادة الثانية حرمان أي مسيحي من تولي أي وظيفة في الدولة سوى الوظائف ذات الطبيعة الدينية الخاصة، فليس لقسيس، مثلا، أن يتولى منصب شيخ الأزهر، أو لمسلم أن يكون بابا للأرثوذكس.

وإذا كان الواقع فيه بعض التناقض مع ذلك، بأنه لا يوجد مسيحي يتولى بعض المناصب العليا في الدولة، كقيادة الجيش، أو رئاسة الدولة، أو رئاسة الوزراء، فإن ذلك لا علاقة له بنص المادة الثانية بل يتعلق بأمور أخرى، مثل كون المسيحيين أقلية (عددية) في البلاد في حين أن المسلمين أغلبية، والقاعدة هي «حكم الأغلبية وحقوق الأقلية»، وكذلك كون الثقافة الاجتماعية السائدة لا تسيغ تولي غير المسلم بعض الوظائف الحساسة، وهذا أمر تتم معالجته بالعمل الدؤوب لنشر ثقافة المساواة الكاملة

بين المواطنين وعدم تصنيف الناس على أساس دياناتهم إلا فيما يتعلق بالوظائف الدينية بطبيعتها كما سلف، بجانب العمل على اعتماد المؤسسية الكاملة فى كافة الوظائف بما يمنع من هيمنة انفراد شخص واحد بالقرار فى الدولة، الأمر الذى يخفف من الاعتراض على تولى شخص مثل هذه المناصب أيا كانت ديانته أو مذهبه.

أما عن الخشية من تسبب المادة الثانية فى الاعتداء على الحقوق والحريات العامة للمواطنين باسم الدين، فإن هذا الأمر مردود عليه بأن الفهم الحقيقى للمادة الثانية يجعل المناداة بتفعيلها هدفا لجميع المواطنين ومنظمات المجتمع المدنى باعتبارها تجعل من حقوق الناس (فروضا) يتعين على الجميع السعى المشروع للحصول عليها، وهذا أمر تتفوق فيه الشريعة الإسلامية على المواثيق الدولية التى ينادى البعض بتحكيمها عوضا عن مبادئ الشريعة الإسلامية، والتى تجعل كذلك من الحرية مناطا للمسئولية وترفع التكليف عمن لا يتمتع بها، وتجعلها هى الأصل «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

تفسيرات خاطئة

أما عن الانشغال بقضايا ومسائل فرعية، كرغبة البعض فى فرض الحجاب على النساء عن طريق السلطة الحاكمة، فإن إثارة مثلها يدخل ضمن مشاكل كبرى تتعرض لها المادة الثانية، قد نجد تفسيرها فى العناصر الآتية:

١ - عدم التمييز بين الشريعة الإسلامية والفقه الآخذ عنها، سواء كان ذلك ناجما عن جهل أو تجاهل، مما يحسب على الشريعة ما ليس منها، كالاعتماد على اجتهاد يتناسب مع زمنه والسياق الاجتماعى والفكرى المحيط به، ولا يتناسب مع زماننا.

٢ - الخلط بين الشريعة الإسلامية والخطاب الإسلامى، وهذا يؤدى إلى أن يظن الناس أقوال بعض الدعاة هى المعبرة عن الشريعة بينما يعانى خطاب هؤلاء الدعاة من جهل فادح بفقه الواقع، وفقه الموازنات، وفقه المآلات، وفقه الأولويات، وفقه التدرج.. إلخ.

٣ - التوظيف السياسى غير الأمين لقضية تعديل المادة الثانية، وهذا التوظيف يكون فى الغالب - عكس ما هو سائد - عن طريق الدولة، أكثر منه لدى بعض الحركات الإسلامية، ومن أراد أن يجد البرهان على ذلك يبحث كيف ألهى إثارة الموضوع عن إطلاق مدد رئاسة الدولة فى عهد السادات، وكيف شغل الناس عن تعديلات الدستور فى عهد «مبارك» التى استهدفت إطلاق يد الدولة أكثر فى الهيمنة على المجتمع وعلى مؤسساته وحقوقه وحرياته استغلالا لرغبته المشروعة فى أن يُحكم بشريعته، بحيث يرضى بأى تعديل طالما بقيت المادة الثانية فى مكانها، حتى ولو كان التعديل يمهد لتوريث الحكم فى الدولة!

دعوى التعطيل والتعديل

إذا كان الأمر كذلك، وكانت المادة الثانية تُحمَّل ما لا تحتمل، ويُنسب لها ما ليس فيها، وتُستغل فى إلهاء الناس ومنع توحدهم، فما هو منهج التعامل معها، هل نلغيها أم نعدلها أم نتركها معطلة إلا قليلا، أم نفعلها؟

اقتراح الإلغاء طرحه قد يثير من الفتن ما لا قبل لأحد بعلاجها، فضلا عن أنه لا يمكن أن يُطلب من ٩٠٪ من الشعب المصرى - على الأقل - أن يتخلوا عن شريعتهم، أو من الشعب المصرى بمسيحييه ومسلميه أن يتخلى عن هويته الثقافية التى تعبر عنها المادة الثانية أصدق تعبير. ولو حملنا النص جريرة سوء تطبيقه من البعض لجاز لنا أن نلغى غالبية نصوص الدساتير لشيوع التفريط أو الإفراط فى تطبيقها!

وأما خيار التعديل، فإن التعديل لابد أن يستند إلى أسباب منطقية وضرورية، ولا أرى فيما يثار الآن من إضافة ما يتعلق باحترام الشرائع السماوية أو ما يتعلق بأحقية المسيحيين فى الاحتكام لشريعتهم إلا تزيدا لا داعى له باعتبار أن مبادئ الشريعة الإسلامية متضمنة لذلك فعلا، بالإضافة إلى المادة ٤٠ وغيرها من المواد التى ضمن الحقوق والحريات بلا تفرقة بين المصريين دينية أو غير دينية، كالمادة (٤٦) التى تنص على أن:

«تكفل الدولة حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية».

وأما خيار التعطيل فالمادة الثانية معطلة بالفعل إلى حد كبير، واستمرار هذا التعطيل يضر ولا ينفع لأنه يهدر حق غالبية المصريين فى التوائم بين ما يعتقدون وبين ما يخضعون له من قوانين قد تخالف شريعتهم، ولهذا فالحل فى نظرى هو التفعيل لا التعطيل.

والتفعيل لا يحتاج فقط إلى قراءة واعية لنصوص الشرع بل لابد كذلك من فقه عميق للواقع المعيش حتى لا يتعارضا، فالفقيه من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يُلقى العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم» كما يقول الإمام ابن القيم فى كتابه «إعلام الموقعين».

ولهذا أعجب ممن كان حين يُسأل عن تطبيق الشريعة فلا يجد فيها سوى الحدود الشرعية وإلزام المرأة بالحجاب فى مجتمع كان يطغى عليه تحالف عجيب بين الاستبداد والتبعية والفساد، وإذا حدثته عن السعى للقضاء على ذلك الثالوث المخيف الذى أنتج الفقر والمرض والعجز والقهر والظلم بكافة أنواعه، لم ير فى الشريعة سوى أن هذا سيحدث فتنة فى زعمه

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

وأن الإسلام حرم الخروج على الحاكم!

وينسى أن الأولى والأوجب هو السعى إلى تحقيق مقاصد الشريعة من حفظ للنفس، والدين، والعقل، والمال، والنسل، والعمل على تحقيق مبادئ أساسية لأى دولة «مستقلة» ينشدها الإسلام من تحقيق للعدل، والتزام بالشورى (أو قل إن شئت «الديمقراطية» كنظام معزول عن أصوله الفلسفية)، ومساءلة حاسمة وفعالة للحكام (وإلا يتم تقويمهم بسيف تداول السلطة)، وحماية للحقوق والحريات، وإيجاد الآليات الضامنة للتفعيل الجاد لتلك المبادئ، وبعد ذلك يأتى دور الجانب العقابى كسياج يحمى ما حققته الدولة من مكتسبات، وعندئذ تصبح المادة الثانية مصدر إلهام للمصلحين لا إلهاء للمواطنين.

نحو مشروع تجديدى حضارى للفقه الإسلامى



د. وصفى عاشور أبو زيد
متخصص فى مقاصد الشريعة الإسلامية

منذ زمن ليس قصيراً ونحن نسأل أنفسنا: ماذا بعد «فقه السنة» للشيخ السيد سابق؟ وماذا بعد «الدين الخالص» للشيخ السبكى؟ وماذا بعد «الفقه الواضح» للدكتور محمد بكر إسماعيل. رحمهم الله جميعاً ورضى عنهم. لقد قامت مثل هذه المصنفات بتقريب الفقه وتيسيره، حتى دخل الفقه كل بيت، وأصبح ثقافة شعبية لدى كل من رام التعرف على أمور دينه من حلال وحرام وحقوق وواجبات.

إن هذه المحاولات المقدورة حاولت تقديم الفقه بعيداً عن المصطلحات التى يصعب على المثقفين العاديين التعاملُ معها وفهمها واستيعابها، ودون أن تدخل القارئَ فى الخلافات والردود ورد الردود وغير ذلك، فيسرت صعابه، وذللت عقباته، وقدمت الحكم بدليله بشكل يسير، وخلصته مما لا يحسن التعاملَ معه إلا أهلُ العلم، حتى يكون ميسرا مقرِّبا للناس، وهذا مما يقيم الحجة على الأمة كلها.

لكن الفقه الإسلامى - فى تقديرى - يحتاج إلى تناول جديد وفق منهج جديد ورؤية جديدة تستند إلى هذا التراث الفقهى العظيم الذى لم يتح لأمة من الأمم على مر التاريخ أن يكون لها عشر معشاره، وفى الوقت نفسه تراعى هذه الرؤيةُ منطق القرآن الكريم فى عرض الأحكام ولا تهمل مستجدات العصر وحاجاته.

ولهذا يحتاج هذا المشروع أن يراعى فى عرضه للأحكام عدداً من الجوانب والأبعاد نذكر أهمها فى الآتى:

البعد الأول: بعد المقاصد والقيم:

ونعنى به أن تعرض الأحكام الفقهية مقرونة بأدلتها مع مقاصدها ومحاسنها وحكمها وأسرارها وقيمها الأخلاقية والسلوكية والحضارية وآثارها التربوية والإيمانية.

فقد تعودنا من تراثنا الفقهى أن تعرض الأحكام الفقهية مقرونة بأدلتها مع بيان الآراء المختلفة وترجيح الراجح منها وفق آليات الترجيح ومناهجه لدى الأصوليين، وذكر سبب الخلاف فى بعض المصنفات، ولا نكاد نجد حضوراً مُرضياً للأبعاد السابقة فى تراثنا الفقهى العظيم.

ولقد حرص فقهاؤنا العظام على عرض الفقه بهذه الطريقة لبيان الحلال، وبيان الحقوق والواجبات، ووضوح الأمور حالة التقاضى والتحاكم، فهذا كان شاغلهم الأول، وقد وفوا وكفوا، فجزاهم الله خيراً.

وفى عصرنا هذا نريد أن نعرض الفقه الإسلامى مع بيان أسرار أحكامه وحكمها ومحاسنها ومقاصدها وآثارها التربوية وقيمها الحضارية التى تستثمر وتستنتج من الأحكام الفرعية، ولا شك أن هذا يحتاج إلى بحث دقيق، ونظر متأنٍ وتأمل طويل حتى يتم استنباط هذه الأبعاد جميعاً من أحكامها التفصيلية، فنطرح الأحكام مع أدلتها ومقرونة ببيان مقاصدها التى تنضبط بها، وما يستنتج منها من قيم أخلاقية وسلوكية، وقيم حضارية، مثل: النظام والنظافة والمساواة والرحمة والتيسير والرفق والاستيعاب والسعة والمرونة والسماحة والعفو، وغير ذلك من قيم وأخلاق يجدها من تأمل الأحكام المنطلقة من نصوصها الشرعية قرآناً وسنة.. وكذلك بيان ما فى هذه الأحكام من آثار إيمانية وتربوية تعود على الفرد إن أحسن أداءها، وتعود على الأسرة إن أتقنت القيام بها، ويعود آثار هذا كله على المجتمع والأمة جميعا.

ونحن ندرك تمام الإدراك مدى حاجة أمتنا إلى هذا النوع من التناول فى عصرنا، على مستويات عدة: مستوى غير المسلمين، ومستوى المسلمين، ومستوى الجماعات الإسلامية، ومستوى عموم المثقفين، ومستوى المثقفين والمتفقهين والمتعلمين، ومستوى الشباب الصاعد الواعد الذى يأخذ الكتاب بقوة، فضلاً عن حاجة الدعاة إلى مثل هذا المشروع، وحاجة المتخصصين والعلماء والدارسين لهذا النوع من التناول.

إننى أتصور أن الفقه الإسلامى حين يعرض بهذه الطريقة التى تجمع بين الأحكام ومقاصدها، وبين مخاطبة العقل والقلب والروح، وتوفق بين الفرد والمجتمع، وتنظر بعين على الشرع والعين الأخرى على الواقع، وتوازن بين حاجات الجسد وأشواق الروح، وتمزج بين الدنيا والآخرة.. أحسب أن هذا المشروع لو أنجز وتمت ترجمته فلسوف يكون فاتحة خير على الإسلام والمسلمين والأمة والعالم كله.

البعد الثانى: البعد الاجتماعى والجماعى:

ونعنى به أن تعرض الأحكام الفقهية مقرونة بأبعادها الاجتماعية، وجوانبها الجماعية، فمع التركيز على الفرد يتم التركيز على المجتمع والجماعة والأمة، ويتم استثمار الأحكام الفرعية فى بيان آثارها الجماعية والاجتماعية.

فقد عهدنا فقهاءنا - رضى الله عنهم، وجزاهم خيراً - يعرضون الأحكام الشرعية مركزين على الفرد، فإذا تحدثوا عن الطهارة فهى طهارة الفرد، وإذا تحدثوا عن العبادات فهى عبادات الفرد، وإذا تحدثوا عن الكبائر فهى الكبائر التى يرتكبها الفرد، وإذا تحدثوا عن المقاصد وكلياتها من حفظ للدين والنفس والعقل والمال والنسل والعرض، فهى مقاصد الفرد كذلك.

وهذا كان له ما يسوغه لدى فقهائنا الأوائل؛ حيث كانت الدولة مستقرة، والخلافة قائمة، والأمة مهيبة، والجوانب الاجتماعية

قائمة وقوية ومستقرة، فلم يكن ثمة حاجة لإبراز الجوانب الجماعية وآثار الأحكام الاجتماعية، لقوتها واستقرارها.

ونريد فى موسوعة الفقه الإسلامى، بما أنَّ حال أمتنا تغير فى مجمله، فجوانبها الاجتماعية اخترقت، وهيبتها تدهورت، أن نعرض الأحكام الفقهية مقرنة بأبعادها الجماعية والاجتماعية مع البعد الفردى، لمحاولة استيعاب الواقع الذى تغير، وتقديم ما يلى حاجاته، ويعيده إلى سابق عهده، أو إلى ما يريده الإسلام منا.

نريد، كما سبق القول، أن نبرز القيم الحضارية التى تستثمر من الأحكام الفرعية مثل: قيم النظافة، والترتيب، والقوة، الوحدة، والحب، والتماسك، والعدل، والرحمة، والمساواة، والشورى، والحرية، وغير ذلك من قيم مبثوثة وموجودة فى تضاعيف الأحكام الفرعية لمن تأملها، وهذه القيم لها آثارها فى الأمة المسلمة، وتفعل فعلها فى اجتماعهم البشرى بين بعضهم بعضا، وبينهم وبين غيرهم، بما يدنو بهم من مستوى المدينة الفاضلة، ويقترب بهم من حالة المجتمع الإنسانى الذى ينشده الإسلام.

نريد أن نبرز الجوانب الجماعية: سواء فى الجرائم أو الحدود أو الكبائر أو المقاصد أو العبادات، وغيرها من أبواب الفقه الإسلامى، وهى موجودة وجلية يمكن استخراجها من الأحكام الفرعية كذلك.. وهكذا يجب أن يبرز هذا البعد فى التناول الفقهى لأهميته وضرورته فى هذا العصر، وكل عصر.

البعد الثالث: بعد النوازل والمستجدات:

ونعنى به القضايا الجديدة والنوازل المستحدثة التى لم ترد فى فقهنا القديم، وأبرزها تطورُ الزمان والمكان والإنسان، والمجامع الفقهية تقوم بجهد مشكور فى هذا الصدد.

ولكن- حسب علمنا- أن المستجدات والنوازل المعاصرة لم يتوفر لها من يجمعها ويحشدها فى سياق واحد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أكثر أهمية لم تدرس وفق الرؤية السابقة وفى ضوء رعاية البعد المقاصدى والتربوى والبعد الاجتماعى والجماعى.

يضاف لذلك أن المجامع الفقهية بطيئة فى دراستها وإصدار أحكامها؛ بحكم دورية اجتماعاتها، وبُعد بعضها عن بعض، مما قد يؤخر البيان عن وقت الحاجة فى بعض الأحيان.

كما يضاف لذلك أن كثيراً من النوازل والمستجدات لم يتم تناولها ودراستها وبيان أحكامها فى ضوء مناهج وطرائق الاجتهاد المستقرة عندنا.

إن الفقه الإسلامى فى عصرنا يحتاج أن يقدَّم ويُكتب بما يعبر عن (وجبة) متكاملة للعقل والقلب والنفس والروح والوجدان، وهذه طريقة القرآن الكريم فى عرض الأحكام..

وليس هذا- بلا شك- تقليلا مما بذله فقهاؤنا العظام، رضى الله عنهم وأثابهم جزيل الأجر على ما قدموا من فكر وفقه واجتهاد. بقدر ما هو محاولة لرؤية جديدة تعزز عظمة الفقه الإسلامى وتبين مدى مواءمته للفطرة الإنسانية، وتظهر سماحته وأخلاقه وقيمه الإيمانية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والحضارية، وهذا هو المشروع الذى تقوم عليه مؤسسة البناء التى يشرف عليها أستاذنا الدكتور صلاح الدين سلطان، ونسأل الله تعالى أن نراه بين أيدينا قريبا لتنتفع به الأمة والعالم أجمع.

رد الشبهات عن القرآن

أ/ عبد المجيد صبيح

لقد زارنى أستاذان أحدهما أستاذ فى جامعة السربون بباريس والثانى أحد تلاميذه، وكان يصحبهما أحد العاملين بمؤسسة الأستاذ أحمد راتب بالقاهرة، وسلمنى مصورة لما نشر فى أحد المواقع للإنترنت تزعم أن بالقرآن خمسة وعشرين خطأ لغويا ونحويا وبلاغيا وطلب إلى الرد عليها.

وهذه المجادلة بقية لما ترك المستشرقون منذ هزيمة الصليبيين فى حروبهم مع الشرق الإسلامى حيث انقلبوا خاسرين مهزومين، فلاذوا إلى حرب الطعن فى الإسلام وكتابه، ورسوله. وما زالت هذه الحروب، حرب الطعن والتشكيك قائمة على ساقها، تنشرها عدة مواقع، تعضضها الحروب العسكرية على العرب والمسلمين، فى مواقع من الأرض، يبتغى أهلها إذلال العرب والمسلمين، وفرض التبعية عليهم، وإضعاف العقيدة الإسلامية فى نفوسهم.

وليست هذه الحرب الفكرية، بجديدة على الإسلام وأهله، فقد خاض المسلمون على مر تاريخهم معارك فكرية أشد ضراوة من المعارك العسكرية، وخرج الإسلام منها منتصراً نصراً أبقى على الدهر من انتصاره الحربى، وكان من ثمار هذا الانتصار الفكرى ما عرف فى تاريخ الفكر بعنوان: (مقارنات الأديان) الذى كان من مبتكرات المسلمين الفكرية التى تعلمها الغربيون من المسلمين. وحسب القارئ أن يعلم أن أول موسوعة وأكبرها فى موضوع مقارنة الأديان كتاب (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) للإمام (أبى محمد على بن أحمد) والمعروف بابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ. ومن أهمها كتاب (الملل والنحل) للإمام الشهرستانى المولود فى سنة ٤٦٩هـ - (على ما رجحه برو كلمان) فى كتابه تاريخ الأداب العربى- وهو كتاب على صغر حجمه احتل مكانة مرموقة فى علم (مقارنات الأديان) بشهادة الغربيين أنفسهم يقول: (ويل ديورنت) الفيلسوف المؤرخ الأمريكى فى موسوعته (قصة الحضارة جـ ١٣ صـ ٣٤) فى حديثه عن النهضة العلمية فى الحضارة الإسلامية، يقول عن الشهرستانى ما نصه: وحلل محمد الشهرستانى فى كتاب (الملل

والنحل) المشهور من أديان العالم وفلسفاتها وخص تواريخها ولم يكن في مقدور أحد من المسيحيين في ذلك العصر أن يكتب كتابًا يماثله في غزارة مادته ونزاهته.

وأنت تلاحظ أن مولد الشهرستاني متأخر عن وفاة ابن حزم، وكتابه أوسع من كتاب الشهرستاني وإذا كان الشهرستاني قد انتهج في كتابه (منهج التقرير)، إذ يشرح المذهب أو الديانة مقررًا لها كما هي عند أهلها، فإن ابن حزم زاد على (منهج التقرير): النقد والتفنيد والنقض متوسعا في الأدلة القاطعة، دون تجريح أو إسفاف على غير ما نقد أصحاب المذاهب الفقهية في (كتابه الموسوعى المحلى) في فقه الظاهرية، وهذا المنهج كما قال د. محمد على حماية في كتابه (ابن حزم ومنهجه في دراسه الأديان) (ولا شك أن منهج ابن حزم أفضل) أقول: ومنهجه في دراسة الأديان كذلك؛ لأنه يمحص الآراء كذلك والمذاهب والأديان مما يجعل المتدين على بصيرة من دينه وهذا منهج القرآن كما قال تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾

(سورة البقرة: ٢٥٦)

هؤلاء الذين وظفوا أنفسهم للطعن الكاذب، والافتراءات الباطلة؛ لم يربأوا بأنفسهم عن الدنية على حين أن حملة الافتراءات التى بدأت عقب الهزيمة الصليبية منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى واستمرت - كما بين الفيلسوف العلامة والإمام الأكبر مصطفى عبدالرازق فى كتابه (تمهيد لدراسة الفلسفة


عبدالحليم محمود


مصطفى عبدالرازق

الإسلامية) - إلى أوائل القرن العشرين ثم جاء فلاسفة مؤرخون احترموا أنفسهم بالاعتراف للحق وشهدوا للإسلام ولمحمد عليه السلام بما للقرآن ولرسوله ﷺ من نور الحق والآثار الحميدة التى أخرجت العالم كله ومنه أهل الغرب كافة، من ظلمات الجهل والتأخر، إلى نور المعرفة واليقين، وقد ذكر (الشيخ مصطفى عبد الرازق) أسماء الكثيرين من الذين ظلموا أنفسهم بغمط الحق، ثم من الذين علو بأنفسهم على الدنية، ولا سيما الفيلسوف المؤرخ (غستاف لوبون)، ومن هؤلاء من تعلم إحقاق الحق ولو على دينه، ومن هؤلاء - تأثرا بالمنهج الإسلامى - (أندريه كرسون) الفيلسوف الأخلاقى الفرنسى فى الجزء الأول من كتابه (المشكلة الأخلاقية والفلسفة صـ٩٣- ٩٤) الذى ترجمه من الفرنسية أ.د. شيخ الأزهر عبدالحليم محمود وأستاذنا الشيخ أبوبكر ذكرى يقول أندريه كرسون: (فى القرن السابع عشر) ميلادية لأول مرة ثارت شكوك مكينة حول مسألة (قدسية الكتب المقدسة) وقرروا أن نصوص العهد القديم يجب أن تدرس على نفس النمط الذى تدرس به الأسانيد التاريخية فتبين لهم أنها

لا تصمد لذلك الامتحان، فعلينا ألا ندأب فى العهد القديم لطلب شىء من الإلهيات لأمن الناحية النظرية ولا علوم الطبيعيات، والكتاب الذى كتبه سبينوزا- خير مثال لهذا الروح الجديدة والذى يقول فيه: لا شيء أدخل فى باب البطلان من اعتقاد أن كل ما يحويه الكتاب المقدس فى العهد القديم إلهى، «لا علم الإلهيات النظرى، ولا علم الطبيعيات، وقد توهم أن كل ما يحويه الكتاب المقدس هو جميعه منزه عن الخطأ، ولا شيء أدخل من ذلك فى باب البطلان. فلا التوراة المنسوبة لموسى، ولا السفر المنسوب إلى يوشع، ولا سفر القضاة، ولا سفر راعوث، ولا صمويل، ليست صحيحة النسبة إليهم».

قلت: وهذا بعينه قرره (ول ديورنت) فى موسوعته قصة الحضارة السابق ذكرها التى بدأ يتفرغ لكتابته فى سنة ١٩٢٧م. يقول فى الجزء الثانى صـ٣٦٧: متى كتبت التوراة؟ وأين كتبت؟ وكيف كتبت؟ سؤال كتب فيه ٥٠٠٠٠ مجلد وبقى السؤال بلا جواب.

أما المسيحية، وأناجيلها فيقول (ول ديورنت): الفيلسوف المؤرخ المسيحى الأمريكى فى قصة الحضارة ١١ / ٢٠٢ نقلا عن غربيين مسيحيين ما خلاصته هل وجد المسيح حقا؟ أم أن قصة مؤسس المسيحية، وحياته، وآلامه، هى من قصص الخيال مثل قصة أوزوريس وغيرها مما يدور حول الآلهة، لقد التقى نابليون فى سنة ١٨٠٨م بالعالم الألمانى (بفيلاند) فسأله: هل يؤمن بتاريخية المسيح؟. لقد كان من أهم نشاطات العقل فى العصر الحديث النقد الأعلى للكتاب المقدس.. ويقول- على فرض وجود المسيح فلم يكن إلا (متصوفا يهوديا) يهيئ العالم لاستقبال اليوم الآخر - إن المسيح فى أناجيل متى ومرقص ولوقا غيره فى إنجيل يوحنا، بصور لا يمكن التوفيق بينها (صـ٢٠٣) أ.هـ.

أقول: وكيف يمكن التوفيق وثلاثة الأناجيل الأولى لم تصرح بألوهية المسيح بل على أنه إنسان، بينما (فى رؤيا يوحنا) الإصحاح الخامس أنه رأى الله فى السماء خروفا كأنه مذبوح له سبعة أعين، وسبعة قرون!!..

قال ديورنت: أما ما ذكر فى الإنجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية واستمر (ول ديورنت) فى عرض أقوال المفكرين الكبار الغربيين وحسبك أن يكون منهم الفيلسوف الفرنسى (رينان) إلى أن قال: صـ٢٠٧ وترجع أقدم الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث أما النسخ الأصلية فقد كتبت بين عامى ٦٠-١٢٠م ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمن لأخطاء فى النقل، ولعلها تعرضت أيضا لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ، والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئا عن العهد الجديد (الإنجيل) بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم (التوراة).

أما إنجيل يوحنا فإنه يناقض الأناجيل الثلاثة فى كثير من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح (صـ٢٠٩)

أ.هـ. أما موريس بوكاى الطبيب الفيسلوف الفرنسى فى كتابه (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) دراسة نقدية للكتب المقدسة على ضوء العلم الحديث، طبعته الفرنسية سنة ١٩٧٨م فقد انتهج منحًا علميًا تطبيقيًا (وليس نظريا) فى دراسة الكتب الثلاثة وقطع- وهو المسيحى - باستحالة صحة التوراة والإنجيل على ضوء العلوم التجريبية ويبقى القرآن الكريم وحده هو الصحيح على ضوء هذا العلم فهؤلاء الطاعنون فى كتاب الإسلام، وقد تعلموا من أهله (علم مقارنات الأديان لم يشكروا المنعم نعمته بل وظفوها لطعنه:

أعلمـــه الرمـــاية كل يوم
فلمـا اشـتـد ساعـده رمانى
وكم علمـتـــه نظم القـــوافى
فلمـا قـال قـافـيـة هجانى

أما بعد فقد تعمدت أن لا أذكر شيئًا عن العهد القديم والجديد من عندى بل تعمدت أن أنقل بعض أقوال الغربيين أنفسهم، وذلك أخذًا بأدب الإسلام فى عدم التعرض بالتجريح لأديان السابقين، عسى أن يكون ذلك مقنعا للمشككين.

قد يجوز فى حكم العقل وشهادة الواقع، أن يعترى الخطأ مقياسا من مقاييس البحث فيساوى بين الزيادة والنقصان ويستوى لديه المرجوح والراجح أما أن يجعل الناقص هو الزائد والمرجوح هو الراجح فهذا مما يدل على فساد فى الطبع أو ضعف فى الفكر أو عناد يتعامى عن ضوء الشمس فى شباب النهار.

٦- أما القرآن الكريم فهو ذلك الكتاب المعجز فى بيانه وما تضمنه بيانه، وقد بهر أرباب البلاغة الذين نزل القرآن بلغتهم وكان البيان أعظم مفاخرهم فلما سمعوه أيقنوا أنه فى علوه وعلومه فوق أن يكون بشرى النشأة فلما سمعوه شهدوا أنهم يسمعون ويشهدون أمرًا نورانيًا لا يشبه أن يكون مصدره إنسانيا بل هو شيء فصل عن الموكب الإلهى واتصل بالروح الإنسانى فخلع عنه غاشيات الطبيعة الجسدانية وسمى به إلى الملكوت الأعلى و نمى به إلى مشهد النور الأعلى وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس يسمعونه فيسمعون آيات الحكمة تناديهم بإعلاء الكلمة، يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراد ويكشف لهم دقائق خفايا النفوس ويهديهم إلى طريقها المحسوس، ويرتفع بهم فوق كتن الرؤوس، فيسمو بهم إلى أسرار الوجود، كأنها فى الأعين الشيء المعهود، فتشهدوا له على غير إيمان، بأن أسفله مغدق، وأعلاه مثمر، وأنه ليس من كلام البشر، فأذعنوا له وخضعت له قلوبهم، وامتلأت به نفوسهم، حتى كان رؤساؤهم (على كفرهم) يتواعدون ألا يسمعوه.

فهو المشيع بالمسامع إن مضى
وهو المضاعف حسنه إن كرر

حتى إذا حل الليل وقام محمد ﷺ يتهجد به، انطلقوا وهو يتخافتون أن لا يراهم أحد، ثم يتصادمون فى الظلام عند بيت محمد - ثم يتعاهدون، وأقسموا جهد أيمانهم، أن يمتنعوا، ويمنعوا وقالوا:

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(سورة فصلت: ٢٦)

وإذا كانت الكتب المنزلة قبله استحفظ الله أهلها أن يحفظوها فأضاعوها فقد تكفل الله بحفظ القرآن:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر: ٩)

فحفظ منذ أول نزوله فى الصدور والسطور وقام به المسلمون فى صلواتهم الخمس، وكان لهم فى ليلهم به أزيز كأزيز النحل، وتناقلته الأجيال، جيلا بعد جيل، محفوظ النصوص، تنبض به القلوب، وتنطق به السطور واعتنى به علماؤهم، فألفوا فيه ما لم يخطر على بال بشر، فيما يتعلق بكتبهم المقدسة، فألفوا فى :- خطوط المصحف - وكتابها ووصف كل نسخة لكل كاتب، ووصفوا الأقلام التى كتبوا بها، كما ألفوا فى قراءاته، ونزوله، وكيفية نزوله، وأماكن نزوله وجمعه وترتيبه، وأخبار قرائه، والكتب التى ألفوها وفى أمثاله كما ألفوا فى عدد سوره، وعدد آياته بل وعدد حروفه، كما ألفوا فى مواضع الوقف والابتداء عند قراءته، واختلاف معانيه فى الوقف والابتداء، كما ألفوا فى أحكام قراءاته، وألفوا فى غريب ألفاظه، وألفوا فى ما فيه من كلمات استعملها العرب من غير لغتهم، وألفوا فى مشكلاته، وألفوا فى حقيقته ومجازه، وألفوا فى لهجاته، بل وألفوا نقط حروفه وشكلها، بل وألفوا فى (لامات) القرآن، كما ألفوا كتبا فى (وقف التمام)، كما ألفوا كتبا فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه، كما ألفوا كتبًا فى هجائه، وكتبًا فى مقطوعة وموصوله، وفى أجزائه وفضائله، أما كتب أحكامه وتفسيره فعددها بالآلاف.

وقد ذكر ابن النديم فى كتابه (الفهرست)، كثيرًا من عناوين هذه المؤلفات، وذلك ما لم يحصل لأى كتاب عرفته البشرية منذ عرفت الكتب والكتابة.

ووصلنا هذا كله بالسند الموثق الموصول، حيث لم يظفر كتاب بشرى أو مقدس بذلك أو بقريب منه.

فيا عجبًا، والعجائب جمة من قوم، (يتعالمون) بما لا يعلمون، فيزعمون أنهم اكتشفوا أخطاء فى القرآن، وما نوعها؟ فى لغته، ونحوه، وبلاغته، كأنهم وقعوا على ما فات هؤلاء الملايين؟!

ما كنت أحسب أن الدهر يمهلنى
حتى أرى أحداً يهجوه لا أحدُ

وقد كشفت إجاباتى عما زعموه أخطاء عن عمق جهلهم، وبعد ما بينهم وبين أسرار العربية، لغة القرآن.

أهز بالشعر أقوامًا ذوى وسن
فى الجهل، لو ضربوا بالسيف ما شعروا
على نحت القوافى من معادنها
وما علىّ إذا لم تفهم البقر
إذا حسنات التى أدل بها
كانت ذنوبى، فقل لى كيف أعتذر؟!

خالد محمد خالد: مفكر مسلم شجاع

٢


بقلم: أ. د. حلمى محمد القاعود

في كتابه "قصتي مع الحياة" الذى نشر من قبل مسلسلا في جريدة "المسلمون" التي كانت تصدر في لندن، وشكل سيرته الذاتية، تطرق خالد إلى كثير من جوانب حياته بدءا من الحديث عن أبنائه وأصدقائه وأسرته وتعليمه وعمله إلى مواقفه الفكرية والسياسية، وتصوراته لحل مشكلات مصر ومعضلاتها الكبرى.

ولا أظن أن السياق هنا يسمح بتناول هذه التفاصيل وغيرها، ولكن يكفي أن يلم القارئ من الأجيال الجديدة ببعض الملامح البارزة في حياة الرجل ليرى نمطا من الكتاب والمفكرين الذين جاهدوا لبناء الرؤية الإسلامية في العصر الحديث؛ وسط مناخ مضطرب ومتلاطم يصنعه الصراع بين ثقافة إسلامية مستضعفة تعبر عن هوية الأمة، وثقافة أجنبية وافدة مسلحة بالقوة والمال والذكاء والغطرسة والدهاء.

***

ولد خالد محمد خالد يوم الثلاثاء ٢٧ من رمضان سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١٥ من يونيو سنة ١٩٢٠م ميلادية، في قرية "العدوة" بمركز ههيا مديرية (محافظة) الشرقية بمصر، لأسرة ريفية متوسطة الحال تعمل بالزراعة، كان والده متدينا، فألحقه بكتاب القرية، واستطاع الطفل أن يحفظ ربع القرآن، ويتعلم القراءة والكتابة في التاسعة من عمره، وفي طفولته شهد مع والده المظاهرات التي جرت في الزقازيق ضد رئيس الوزراء، وما تم فيها من تنكيل بالمتظاهرين، وفي القاهرة حفظ القرآن الكريم برعاية شقيقه حسين الذى كان قاسيا في تعامله معه شديدا عليه ومع ذلك استطاع أن يحفظ القرآن كله في خمسة أشهر، ويجوده وهو في سن العاشرة، وكان الصبي خالد حين يقرأ القرآن يجذب إليه الأسماع بصوته الجميل العذب.

التحق خالد بالمعهد الابتدائي الأزهري بالزقازيق على مذهب الإمام الشافعي، وقد واجهته صعوبة الدراسة في التعليم الابتدائي بسبب علوم اللغة والشريعة، وبعد حصوله على الابتدائية (تعادل الإعدادية اليوم)؛ التحق بالمعهد الثانوى وهو في الخامسة عشرة من عمره، وفي أثناء هذه المرحلة شارك في مظاهرات الأزهر المطالبة بعودة الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر، ورأى ما حدث لطلاب الأزهر من قمع واضطهاد، وقد واجه صعوبة في دراسة مادة الحساب التي كانت مقررة في المرحلة الثانوية فرسب في الصف الأول بسببها، وقد أدركته عناية الله حين أصدر الشيخ المراغي قرارا بإلغاء هذه المادة، فاستطاع أن يحصل على الشهادة الثانوية ويواصل دراسته بالتعليم العالي، وقد التحق بكلية الشريعة بالأزهر، وهو في العشرين من عمره.

في أثناء دراسته تزوج، وكان هذا أمرا مألوفا في ذلك الحين لبساطة الحياة ويسرها، ولم يتخرج عام ١٩٤٧م إلا وعنده طفلان، مع شهادة تخصص التدريس.

وقد تسبب وباء الكوليرا الذى انتشر في مصر عند تخرجه في تأجيل تعيينه بالتدريس إلى سنة ١٩٤٨م وقد ظل مدرسا في التربية والتعليم حتى سنة ١٩٥٤م. ثم انتقل بأمر من جمال عبد الناصر حاكم مصر آنئذ؛ ليعمل مستشارا بوزارة الثقافة في مشروع الألف كتاب الذى كان يهدف إلى ترجمة ألف كتاب أجنبي في معارف مختلفة إلى اللغة العربية، وقد زامل عددا من الأدباء والمفكرين المشهورين وخاصة بعد تعيينه عضوا بالمجلس الأعلى للفنون في عام ١٩٥٨م، ثم أشرف على لجنة تحقيق التراث في الوزارة. وظل في عمله حتى تفرغ للقراءة والتأليف سنة ١٩٧٦م.

إلى جانب ثقافته الأزهرية التي أكسبته وعيا عاليا بالإسلام واللغة العربية وآدابها، انعكس على أسلوبه البياني الراقي، فقد كان احتكاكه بالحركة السياسية عاملا مهما في تنمية قدراته البيانية من خلال الخطابة، وقد تفوق في الإلقاء وهو في المرحلة الثانوية حين ألقى خطبة أمام النقراشي باشا، وأتبع ذلك بالمشاركة في المناظرات الثقافية التي كانت مزدهرة في ذلك الحين لوجود جمعيات أدبية ونواد ثقافية عديدة، نتيجة لاهتمام الأحزاب والقوى السياسية بالناحية الثقافية والقضايا الأدبية والفنية، فضلا عن مشاركته بالكتابة في الصحف السيارة التي كانت أيضا تهتم بالناحية الثقافية اهتماما ملحوظا في ذلك الحين، وكان الشيخ خالد يشارك بالكتابة في بعض الصحف والمجلات الإسلامية، وكان يكتب في مجلة الاعتصام – رد الله غربتها – وفقا لمبادئ الجمعية الشرعية..


خالد محمد خالد

اطلع خالد على عيون الأدب الأجنبي، فطالع (تاريخ الإنسانية) لويلز بأجزائه الثلاثة، وكتاب (حرية الفكر) لبيورى، و(قصة الحضارة) كاملة لديورانت، وقرأ الروايات المشهورة، مثل: البؤساء، والأم، والحرب والسلام، والأخوة كرامازوف، ومحتقرون ومهانون، والمعطف. ومجموعة من قصص تشيكوف وقرأ (رأس المال) لماركس ترجمة راشد البراوى.

وفي أثناء دراسته بالقاهرة، زار الجمعية الشرعية وأخذ عن شيخها محمود خطاب السبكي؛ الذى وصفه بالعالم الرباني وإمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام، وأنه أعجوبة من أعاجيب الزمان.

كما تعرف في أثناء دراسته الجامعية بالإخوان المسلمين، وتردد على دارهم في

ميدان العتبة الخضراء ثم الحلمية الجديدة واستمع إلى أحاديث الشيخ حسن البنا، وكان يزورهم مع صديقه الشيخ سيد سابق. وهناك تعرف على الشيخ محمد الغزالى والشيخ زكريا الزوكة والشيخ عبد المعز عبد الستار والأستاذ أحمد السكرى والدكتور إبراهيم حسن والأستاذ توفيق أحمد والأستاذ صالح عشماوى والشيخ أحمد حسن الباقورى والشيخ محمد نايل.

وقد تنامى إعجابه بالأستاذ البنا دوما، "فكل ما فيه يدعو للإعجاب به وبالمودة له: علمه، وخلقه، وسمته، وزهده، وتواضعه، وتبتله وجهاده ومثابرته وتفانيه وسحر حديثه وشخصيته كلها الآسرة والمضيئة".

وكانت علاقته بالإخوان مجرد زائر للدار ومستمع للأستاذ دون أن يرتبط معهم بعضوية أو أى التزام... بينما أوغل الشيخ سيد سابق حتى أصبح معلما ومفتيا، والشيخ محمد الغزالى عضوا بالهيئة التأسيسية وواحدا من قادة الإخوان وحملة الدعوة.

ثم حدثت بينه وبين الإخوان خصومة فكرية حول كتابه (من هنا نبدأ)، ووجه إليهم نقدا لاذعا فى نظرتهم للمستقبل وإنشاء النظام الخاص بتكوينه السرى.

ولكنه فى العهد الناصرى رفض المشاركة فى التشهير بهم والحملة عليهم كما سبقت الإشارة، وكما سنوضحه فيما بعد.

وبصفة عامة فقد كان خالد محمد خالد ممن يتميزون بالشهامة والمروءة، حتى مع خصومه، وكان محبا للخير، مسارعا إليه، هذا الخير الذى وصفه فى كتابه "لقاء مع


الغزالى — حسن البنا

الرسول - ﷺ": "... إنه الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنسانا حى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذى يجعل منك ملاذا للآخرين، يأوون إليك كما يأوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير".

لقد كان محبا لله ورسوله وزاهدا فى الدنيا والمال والمناصب ومظاهر الجاه متأثرا بشيخه السبكى الذى كان معجبا به إعجابا كبيرا. ثم إنه كان متسامحا إلى حد كبير، فقد كان ينظر إلى الجانب الحسن فى الشخص الذى أمامه مهما كانت جوانبه الأخرى سلبية، ولذا كان لا يرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد. وكان يحب الحياء لأنه من صفات المؤمنين، ويكره النفاق لأنه صفة عديمى الحياء.

وفى قصته مع الحياة التى تضمنت مذكراته وعلاقاته مع الآخرين، نجده تعامل مع شخصيات متنوعة الفكر والانتماء، دون حساسية أو تحفظ، فقد عرف أناسا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، واستطاع بخلقه الطيب، وروحه المرحة أن يلقى قبولا عند جميع من عرفوه، ولو اختلفوا معه فى

الرأى والتصور، ولنا أن نتأمل مثلا علاقاته مع الجمعية الشرعية والإخوان المسلمين ومحمود النقراشى والمعارضة الوفدية والشيخ المراغى وعبد الله القصيمى ورجال الحقبة الناصرية ثم رجال الحقبة الساداتية، فضلا عن رجال عصر مبارك، وأعنى برجال العصر مثقفيه وسياسييه ممن يتفق أو يختلف معهم... لقد كانت هذه العلاقات تفاعلا إيجابيا يفرض تصور صاحبه، ولا ينبطح أمام الآخرين، ومن ناحية أخرى فإن اهتمامه بقضايا وطنه وأمته كان حاضرا فى فكره وسلوكه، وهو ما عبرت عنه مقالاته ومواقفه، ثم كتبه التى تنوعت لتصب فى دائرة الاهتمام بالمشروع الإسلامى الذى يعد أساس النهضة الوطنية والقومية والإسلامية.

وقد جاءت كتبه التى بلغت ستة وثلاثين كتابا؛ على النحو التالى:

(من هنا نبدأ - مواطنون.. لا رعايا - الديمقراطية أبداً - الدين للشعب - هذا.. أو الطوفان - لكى لا تحرثوا فى البحر - الله والحرية (ثلاثة أجزاء) - معاً على الطريق: محمد والمسيح - إنه الإنسان - أفكار فى القمة - نحن البشر - إنسانيات محمد - الوصايا العشر - فى البدء كان الكلمة - كما تحدث القرآن - .. وجاء أبو بكر - بين يدى عمر - وداعاً عثمان - فى رحاب على - معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز (وهذه الكتب الخمسة الأخيرة طبعت فى مجلد واحد تحت عنوان: خلفاء الرسول) - مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره - كما تحدث الرسول - أزمة الحرية فى عالمنا - رجال حول الرسول ﷺ - أبناء الرسول فى كربلاء - عشرة أيام فى حياة الرسول - والموعد الله - خلفاء الرسول - الدولة فى الإسلام - دفاع عن الديمقراطية - قصتى مع الحياة - لو شهدت حوارهم لقلت - الإسلام ينادى البشر (الجزء الأول: هذا الرسول) - إلى كلمة سواء - أحاديث قلم - لقاء مع الرسول ﷺ.



الدين للجميع.. فالدعوة للجميع



أ.د / أحمد الريسوني

دين الله تعالى هو كرامته ورحمته الموجهة لعباده أجمعين

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سبأ: ٢٨)

لذلك فإن الدعوة إلى هذا الدين ونشر عقائده وأخلاقه وأحكامه، وتربية الناس على ذلك، هي أعمال وجهود يجب أن تتوجه إلى الناس أجمعين وتفتح أبوابها للناس أجمعين بدون تمييز ولا تفضيل.

- فدين الله ودعوته حق للنساء بقدر ما هو حق للرجال.
- وهما حق للصغار مثلما للكبار.
- وهما حق للأميين على حد سواء مع المتعلمين والمثقفين.
- وهما حق لأهل البوادي بقدر ما هما حق لأهل الحواضر.
- وهما حق للفقراء والمساكين وللأثرياء والميسورين بقدر ما هما حق للمتوسطين.
- وهما حق للمنحرفين والمبتلين مثلما هما حق للمصلين المتدينين وللمريدين السالكين.

وبهذا يظهر الغلط الشنيع والخلل الفظيع حينما نجد بعض الدعاة والمهتمين بالدعوة والعاملين في صفوفها، يحصرون أعمالهم وجهودهم في أوساط الرجال دون النساء، أو يركزون على المثقفين والمتعلمين دون العوام والأميين أو يهتمون بالشباب ويهملون أو الشيوخ والأطفال، أو يشتغلون في العالم الحضري وينسون من حوله من أهل العالم القروي ولو كانوا أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم، أو يتوجهون إلى المتدينين ورواد المساجد ويسقطون من حسابهم رواد المقاهي والملاهي ولو كانوا إخوانهم وأقرباءهم وزملاءهم.

وإذا كان الناس من حقهم أن يشتكوا ويقاضوا من ظلموهم وهضموا حقوقهم في الدقيق والماء والكهرباء والعلاج والتشغيل.. فإن حقهم أحق وأعظم في أن يشكوا ممن ظلمهم وصرف عنهم دعوة الله ودينه، وهدايته ورحمته لخلقه، فحرمهم من التعليم والتفقيه، ومن التربية والتزكية، بينما قد صرف ذلك وأتاح وبلغه إلى غيرهم

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾

(النجم: ٢٢)

وقصة رسول الله ﷺ مع عبدالله بن أم مكتوم قد أصبحت قصة خالدة بواقعتها وساطع دلالتها، فقد كان رسول الله ﷺ مشغولاً مع أحد الكبراء يعرض عليه الإسلام ويشرح له دعوته ويرجو استجابته، وفي هذه الأثناء جاءه أحد ضعفة المسلمين.. ابن أم مكتوم الأعمى يسأل عن بعض أمور دينه، فتضايق منه رسول الله ﷺ وأعرض عنه، واستمر في جهده مع الزعيم القبلي رجاء إسلامه الذي كان يفترض أن يكون له أثر كبير ونفع عميم، فأنزل الله هذه الآيات الخالدات يعاتب فيها نبيه ورسوله ﷺ ويصحح له الوجهة الدعوية، ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة عبس:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

(عبس: ١-١٠)

فكانت هذه عبرة بالغة وحكمة باقية، وهي أن دين الله للجميع وأن دعوة لله للجميع، وليس أحد أولى فيها وبها من أحد، إلا بمدى رغبته ومدى إقباله واستعداده.

فهذه هي الوجهة القويمة والسليمة لدعوة الإسلام، تتوجه للجميع وتتاح للجميع، بدءا بالأقرب فالذي يليه:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

(الشعراء: ٢١٤)

ثم:

﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

(الشورى: ٧)

ثم

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

(الفرقان: ١)



ما يتجلى لنا فى وجه النبوة

للعلامة / محمد فتح الله كولن

كما شاء الله تعالى أن تكون الكائنات والأشياء معلما من معالم معرفته والعلم به، كذلك أراد أن يعلم عباده بلسان الوحى: مطالعة الأوامر التكوينية والتنزيلية متداخلة ومتمازجة، وتعزيز المعانى المنسابة من العين إلى القلب بالنفحات القادمة عن طريق الأذن والتى تغشى الروح، وإظهار مفهوم الألوهية باعتبار الذات والصفات والأسماء «من حيث هو»، وبالتالى إشعار العباد مسئولياتهم حيال ذلك، وكيفية نهوضهم بهذه المسئوليات والتكاليف، مع ملاحظة آداب وأركان الطريق التى يمشون أو سيمشون فيها، وما يترتب على الغاية التى سيبلغونها. وكما أن معرفة أمور الغيب المطلق معرفة سليمة وصحيحة تقتضى الوحى، كذلك الوحى يقتضى النبوة بالضرورة. فبناء على هذه الضرورة، شرف الله تعالى كل مرحلة زمنية، و- باعتبار بعض المراحل الزمنية - كل قارة، بوجود نبى من الأنبياء، وبعبارة بديع الزمان النورسى رحمه الله: «إن القدرة الأزلية التى لم تدع النمل بلا أمير، ولا النحل بلا يعسوب، لم تدع البشرية فى أى زمان بلا نبى».

خلق الله تعالى هذه الكائنات بعلمه وإرادته، وألبسها لباس الوجود الخارجى، وجهز كل مخلوق - حى أو ميت، كثيف أو لطيف، أرضى أو سماوى - بأنواع الحكم والمصالح وربطه بغايات معينة ووجهه إلى أهداف معينة. وإنه تعالى من جانب آخر وفى طول موجة تحل آخر لكى يعلم عن ذاته بذاته، وليبنى - فى هذا الصدد - كل أحد بوجوده، وليشعر ذوى الشعور من الموجودات خاصة بغاية خلقهم، ولأى شىء ولأى مكان هم مرشحون، وما هى مسئولياتهم وتكاليفهم.. لهذا كله، أرسل إلى الأقوام رسلاً مجهزين بتجهيزات خاصة لبيان أسرار الألوهية ونظام العبودية.. وكما أراد أن يعلمنا بوجوده بواسطة ألوان مخلوقاته ورقوشها وأدائها وتناغمها ومعناها ومحتواها، فكذلك أراد بواسطة هؤلاء المختارين المصطفين أن يشعر أرواحنا فى بيانه التنزيلى من وراء ستار التنزلات، بأسرار الربوبية وغاية الخلق، ونتيجة الفطرة، وموقع الإنسان على وجه الأرض، وأحوال المعاد.. وذلك حسب مدارك البشر، ودرجة حسهم وشعورهم، مع رعاية التناسب المحكم بين ذاته وصفاته وأسمائه.

إن الحق تعالى - وله حكم كثيرة فى كل شأن، ودائرة ربوبيته تحتوى على حكم ومصالح لا تحصى - لم يخاطب الجميع مباشرة فى أوامره التنزيلية والتشريعية، ولم يكلمهم كلهم عيانا بيانا، بل اصطفى - حصرا - لنيل هذا الأمر المهم غاية الأهمية والخاص جد الخصوصية بعض ذوى السجايا الممتازة المجهزين بجهاز خاص والعائشين فى مقام القلب والروح، فكلمهم. وبواسطة ذوى الاستعدادات السامقة هؤلاء، والفطرات الباهرة، والسجايا السامية، بلغ وجدان البشرية غاية الخلق، وحكمة الوجود، ومعنى ومحتوى الدنيا وما فيها، وكنه «العوالم الأخروية»، وسبل الجنة، التى توصل الإنسان إلى الأبدية فى ذلك العالم. وإذ نبههم إلى ذلك؛ فأحيانا ارتعشت القلوب وارتعدت منها، وأحيانا استشرقت العالم الآخر وفاضت شوقا إليه. وأعلمهم الحق أيضا أن الدنيا من مشارقها إلى مغاربها مشهر براق لعرض تجليات جماله، وأنها موضع حصاد الزروع لحساب الأبديات.. فبكل ذلك أنقذ الإنسان من وحشة الوحدة، وغياب الغاية، والانفلات من الوظيفة، وضياع الهدف، وعلمه بأن هذه الدنيا حجرة انتظار «للآخرة»، وفرح الأرواح اللائمة والمستعدة فبشرهم بأمر فوق الوجود واستشعار الوجود، وهو الأبدية ورؤية جماله تعالى.

ولقد حقق الله سبحانه هذه الغايات والأهداف السامية جميعا بهؤلاء الأخيار المصطفين الذين سماهم «الأنبياء»، وجعلهم ألسنة الوجود والأشياء، ومترجميه ومفسريه، وهداة راشدين للوصول إلى العبادة والاستقامة والإخلاص والدار الآخرة. فهؤلاء الفطرات السامية، ساحوا فى ساحات وظائفهم، وأعلنوا الحق، وأسمعوا تبليغاته للبشر، فأرشدوا الناس الذين فى مجال مسئولياتهم.

إن الأنبياء أجمعين - مع تفاوت درجاتهم وتفاضلهم فيما بينهم - كل منهم هو مثال الفطرة الطاهرة، وأنموذج الأخلاق العالية، وصرح العفة والطهارة، وبطل الأمانة، ومثال الوفاء والصدق. فكل منهم إنسان قدوة يشار إليه بالبنان فى كل عصر وزمان، بشخصيته السامقة، وسلوكه الجاد، وأحواله الموحية بالثقة، واستقامته التى لا تحيد، وصدقه الثابت فى كل الأحوال، ووفائه الذى يعدل وفاء الملائكة، وصبره الراسخ كالجبال، وشعوره العميق كل العمق بالعبودية. هؤلاء هم بمثابة الناطقين باسم عالم الربوبية، والمرايا العاكسة للأوامر والأسرار الربانية فى ستار التنزلات الإلهية.

وذلك بصورهم ومظاهرهم المتكاملة من غير أدنى نقص، وبسيرهم المذكرة بالحق تعالى لكل ذى عين، وبمجرى حياتهم المنفتحة للخوارق دائما، وبجاهزياتهم واستعداداتهم الراقية القادرة على حل المعضلات التى تواجههم بحملة واحدة، سواء الفردية منها أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية.

وبتأثيرهم الخارق على محيطهم، وبيانهم الفصيح الباهر، وبمقاييسهم المتناسبة والمتوازنة فيما بينها حول حقائق الإنسان والكائنات والألوهية، وبما يتمتعون به من الجاهزية الراقية التي تفوق المكتسبات البشرية والتي تؤهلهم لإشباع جميع اللطائف الإنسانية؛ القلبية والروحية والذهنية والفكرية والحسية، وبسلوكياتهم المبصرة والمتوازنة في رعاية المعادلة العامة، والنابعة عن فهمهم الراسخ للانسجام الداخلي والخارجي لعموم الكائنات والوجود.

نعم، إن كل نبي هو مرشد أمين في الطرق الموقية بالإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، وناصح أمين لتحفيز القلوب إلى المحاسن الإلهية، ومرشد كامل في النفوذ إلى أرواح المخاطبين، وذو خبرة ومهارة عالية في نحت أفكار وأحاسيس الذين يتناولهم وتشكيلها وصقلها، ثم ربطها بالغاية والهدف من خلقهم، وهو مرب كامل في انتزاع الخصال السيئة والعادات الفاسدة والطباع الملوثة، وإحلال القيم الإنسانية الرفيعة محلها.. وهو مخلص عزوم غاية العزم وصدوق غاية الصدق، قوي الإيمان، متين الثقة بالله، مطمئن إلى حقانية الرسالة التي يبلغها، يتكلم دائما مطمئنا من غير تذبذب وتردد، لا يصيبه وجل ولا يبالي حيال أعظم الدواهي، ولكنه -في الوقت نفسه- يتحرك بدراية وفطنة. إنه مخلص عظيم لا يخدع ولا يضل من تبعه قط، ولا يندم من تبعه على اتباعه البتة. ذلك بأن الأنبياء هم أغنى الأمناء على أسلم خزائن العلوم اللاهوتية النقية الندية التي تفوق أشواطا وأشواطا ما تناله، أو سننال، عن طريق مشاعرنا وفكرنا ومنطقنا ومحاكمتنا العقلية، وآمن المرشدين في طريق الإيمان والمعرفة والمحبة والعشق والشوق والذوق الروحاني، وأوثق الهداة الموفين المبلغين إلى الحق تعالى. فالمتيقظون للحق تعالى إنما تيقظوا بندائهم، والمترنمون بالمعرفة إنما انحلت عقد ألسنتهم بسقيا كوثرهم، والمتحرون عن رضا الحق تعالى إنما وجدوا ما يتحرون عنه في جوهم وفضائهم، والتواقون إلى أسرار كتاب الكائنات إنما قرءوا طلاسم هذا الكتاب قراءة صحيحة بأبجدياتهم ومعطياتهم.

الأنبياء هم أرباب السمو والارتقاء المادي والمعنوي، ورواد طريق الكمالات العقلية والروحية، وأساتذة كل النظم والترتيبات: الدينية، وكذا الدنيوية، ومهندسوها. فبفضلهم ارتقى الإنسان من مستوى الحياة البيولوجية، فبلغ مرتبة «أحسن تقويم» التي تعد تعبيرا آخر عن «الإنسان الحقيقي»، وبواسطتهم اكتشف ذاته، وفهم موقعه بين الموجودات، وبالاقتداء بهم أحس بالعمق الموجود في مستوى حياة ذوي الهمم العالية، من أمثال الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وتذوق طعمها.. وأيضا، بتعليمهم وإرشادهم وإشعارهم رأى الإنسان الوجه الحقيقي للدنيا، فاعتبرها مختبرا، أو دار كيمياء، أو صيدلية، أو قصرا منيفا، أو متجرا عظيما. وبتعبير الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي إن الله تعالى إذ أمر الناس باتباع الأنبياء، أراد أن يشرفهم بالتعرف على أعماقهم المعنوية لتتفتح طريق الاستفادة من هذا المصدر الفياض.. وزد عليه، أنه أطلع الإنسان على وسائل الارتقاء المادي في المستويات المختلفة لتجليات المعجزات التي هي أمارات صدق الأنبياء وعلاماته، أو -في الأقل- أرسل إشعارات بشأن هذا الموضوع، حرك بها أنظمة الاستقبال في الأرواح الحساسة والمستطلعة، وفتح أبواب التقدم التكنولوجي في خيالها، وهيأ لها الأرضية لإثارة العصف الذهني فيما بينها.

نعم، كل معجزة هي إشارة وإشعار وتذكير وتداع باعتبار الأوامر التكوينية، ودعوة إلى تفحص خصائص هؤلاء المصطفين في مختلف المجالات.. كالسفينة المعجزة المصنوعة في الترسانة النبوية لنوح عليه السلام.. وقميص إبراهيم عليه السلام المخيط في معمل «حسبي الله»، المقاوم للنار، والمذكر «بالأمينت»[1] المتحمل لأعلى درجات الحرارة، بل بما هو أشد مقاومة منه.. وساعة يوسف عليه السلام المجهولة الكنه التي من بها الله عليه بشكل معجز جراء بحثه عن جدول الأوقات والذي احتاج إليه إلى درجة قريبة من حد الاضطرار.. وعصا موسى عليه السلام التي تذكر بمضخات الماء والآبار الارتوازية.. وتليين الحديد لداود عليه السلام بتذويبه وتشكيله وتفريغه في القوالب الذي يصور في الأذهان صناعة الصلب والحديد.. وجلب سليمان عليه السلام لعرش بلقيس برسمه وشكله وصورته، وربما بكل زينته المحيطة به، هذا الذي يجلب معه خيال التليفزيون والإنترنت وما هو أبعد منهما، وأيضا، قطع هذا النبي الجليل مسافة شهرين في يوم واحد المحفز لتكنولوجيا الطائرات الحديثة، وكذلك إجراءاته عليه السلام في عالم ما وراء المادة والفيزياء بتسخير الجن والعفاريت والشياطين له، التي تشير إلى الداخلة في العوالم الميتافيزيقية والتي تضع الحدود النهائية للباحثين في حقل عالم الأرواح. وكذلك تحاوره بـ «منطق الحيوانات» الدال على فن ألسنة الطير والنمل والحيوانات الأخرى وتعلم شفرات التفاهم بينها، بل حثه على ذلك.. ومعجزات عيسى عليه السلام التي تتعدى خيال الإنسان إلى مسافات أبعد مما توصل إليه الطب الحديث وعلم الجينات في يومنا هذا بإضفاء الحياة على ما ليس له روح، وإبرائه للأكمه والأبرص، وإحيائه الأموات، بإذن الله تعالى.. وأخيرا مئات المعجزات لمفخرة الإنسانية ﷺ التي تعدل جميع تلك المعجزات.

النبي، هو قابلية واستعداد وجاهزية متعالية ربانية، لأخذ وفهم العلم الذي هو من جملة العلم الضروري باعتبار وروده من الله تعالى، وذلك باستلامه وفهمه كما هو، ثم نقله إلى الآخرين من غير أن يخلط به أدنى شيء يخالف جوهره ولبه وذاته. فكما أن عملية الحياة والتكاثر بالسوق الإلهي[2] في الإنسان العادي والموجودات الأخرى مهمة وضرورية -وهذا تشبيه من الأدنى- فكذلك تجري وظائف ومسئوليات الأرواح التي حظيت بالنبوة، في إطار طبيعي أشبه بتلك المتنزه عنها. (إضافة إلى

(١) حرير صخري تصنع منه الأردية لعمال إطفاء الحريق.
(٢) السوق الإلهي: الدفع الإلهي بالدوافع المغروزة في كنه الحياة والموجودات. (المترجم)

أهمية وقيمة مشاهدتهم ومراقبتهم، وقيامهم بالتشخيص والتثبيت، واجتهادهم حسب الحاجة، وذلك بوجدانهم الذى هو عبارة عن مزيج من اللطيفة الربانية والحس والشعور والإرادة). فإنهم يتلقون الأوامر من الحق تعالى بجهازهم الداخلى كطرف من طبيعتهم، ويبلغونها كضرورة لفطرتهم.. يبلغونها ولا يفترون، ولا يميلون إلى راحة، بل يتحركون دائمًا كما أمروا. وإذ يتحركون، لا يقعون فى انتظار مأمول، فكأنهم يلبون أية حاجة من حاجاتهم الفطرية.

يفسر الجمهور الأعظم الخدمة والفعالية التى يوفيها الأنبياء العظام والمرتبطة بالاصطفاء الإلهى والتوظيف الربانى والمقترنة بجهازهم الداخلى، بأنها من نوع الأفعال الضرورية لوجدانهم الطاهر. فالنبوة بناء على هذا التفسير عطية وموهبة إلهية منحها الله تعالى للأرواح التى هى كالرشحة فى استعدادها لعرضها ما ينعكس عليها من غير خلل وعطل، كما وهب لهم الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة، إلى جانب «الوجدان» المتوجه بكل ركن من أركانه - باعتبار الجهاز الداخلى - إلى غاية وجوده - ويمكن أن نسميه الوجدان المنفتح تمام الانفتاح - والنبى ممثل خاص لهذه الموهبة والعطية المقدسة.

ولذلك قيل إن النبوة هى فهم ما لا يفهم بالإدراك البشرى والعلم به، ونقله إلى المخاطبين الآخرين من غير خلل أو إنكار. وعند النبى - من هذه الوجهة - نقطة اتحاد المبدأ والمنتهى. فالله تعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

(البقرة: ٢٦٩)

ومعناه أنه تعالى رفع الأنبياء إلى درجات ومناصب رفيعة، ثم أشعر وجدان الآخرين «بأسرار الألوهية» و«أسرار الربوبية» بواسطة هؤلاء المصطفين، فنور عقولهم.

وإنه إكرام من الله تعالى يعدل نعمة خلقنا وحظوتنا بالوجود - بل هو فوق تلك - منَّ به علينا - نحن الذين يمكن أن نتعثر فتنقطع بنا السبل، أو نحتار فنضيع - أن أرسل إلى الإنسانية هذه الشخصيات السامية المصونة المعصومة. نعم، الوجود نعمة، وإيضاح الكائنات والحوادث كلها - بعد الوجود - وتفسيرها ومن ثم إظهار أعماقها الأخروية والإلهية بواسطة الرسل، إنما هو لطف وإكرام آخر. وإن الطبيعة غير الملوثة لكل إنسان نقى، وكل وجدان مبصر، يمكن أن يبلغ - ولو بدرجات مختلفة - بالاستفادة من هذه الإيضاحات والتفاسير أعلى مواقع يغبطها الروحانيون، وقد بلغها من بلغ.. وعلى الضد، فالذين تخبطوا فى كماشة الكبر والظلم والانحراف والتقليد الأعمى كما أنهم لم يحسوا ولم يقدروا حظوة الوجود، كذلك فاتهم إدراك هذه النعمة الثانية، و- بإراداتهم فى مستوى الشرط العادى - تعثروا بعماهم وصممهم وبكمهم، قائلين:

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾

(الفرقان: ٧)

فعصوا وتمردوا وأظلمت آفاقهم تمامًا.

إن إرسال الأنبياء وتعيين المرسلين لهو من الأمور العالية الخاصة بالله تعالى.

وقد تستنبط حكمًا ومصالح مهمة من إرسال الأنبياء من بشر مثلنا، وإحساسهم بما نحس به فى أبعادهم الحياتية، وتلذذهم بما يطيب لنا أيضًا، وتذوقهم عين ما يؤلمنا وما يلذ لنا، وإحساسهم فى أرواحهم بمثل احتياجاتنا وبما نعده ضرورة، وتحملهم المسئوليات والتكاليف من أمثال ما تحمل على أممهم ومخاطبيهم.. فنقول: إنما حصل ذلك ليسهل تقليدهم، بل الأحرى اتباعهم.. وباختصار: ليمثلوا الجانب الأرضى لرسائل الحق تعالى ضمن سماويتها. لكننا نقول معها: «الله وحده عليم ببواطن الأمور»، ونجدد استسلامنا لحقيقة:

﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾

(الأنعام: ١٤٩)

ونعتبر أن أعظم الحكمة هو السكوت أمام «العليم الحكيم»، ونرجح ربط ألسنتنا بقلوبنا والاستغراق فى مراقبة التمكين[٣].

لكن ينبغى ألا يغيب عنا - مع كل هذه الخصوصيات لسادتنا الأنبياء والمرسلين الكرام - أنهم بشر من أمثالنا. نعم، إنهم بشر مثلنا.. بشر، أهم خصالهم الإيمان والعبودية، ووظيفتهم التى اصطفاهم الله من أجلها هى تبليغ الإيمان والعبادة للآخرين، ورفع العوائق بينهم وبين الحق تعالى. وليس من وظائفهم تحويل الجبال والأحجار إلى ذهب، أو تبديل مجرى الأنهار، أو تحويل الصحارى القاحلة إلى جنان خضراء، أو إنزال الطعام من السماء.. صحيح أن القرآن بعينه يورد كثيرًا من أمثال هذه المعجزات الكونية الحاصلة بيد هؤلاء الأنبياء ويربطها بالنبوة؛ لكن كل هذه المعجزات؛ هى من جهة ألطاف ربانية خاصة وأجرة عاجلة لهؤلاء الكمل مقابل عبوديتهم الخالصة وشعورهم بالمسئولية ومواقفهم بين يدى الحق تعالى.. ومن جانب آخر هى توجهات خاصة والتفاتات ربانية حصلت بالمشيئة والإرادة الإلهية لبعث الاطمئنان فى نفوس أممهم.

إن تحويل الحجر والتراب إلى ذهب وتبر، والفحم إلى ألماس على يد الأنبياء، وإحياء الموتى بأنفاسهم، مقترنًا بدعوة النبوة، هو تجلٍ للألطاف الإلهية فى طريق القبول بنبوتهم، ونسيم إحسان لسوق آمالهم إلى اليقين.

هذا، وليست هذه المعجزات بأعجب من أن يجعل الحق تعالى - بعناية خاصة منه - الأرواح المنكرة يشعرون فى وجداناتهم بحقيقة الإيمان، ويلين الطبائع المنغلقة على الكفر، ويجعلهم يشعرون بالله، وينفخ الحياة فى تلك القلوب الميتة.. بعبارة أخرى: هذه المعجزات التى حصلت بخلق الله تعالى هى وقائع ثانوية وتبعية لا تعد فى محور الفلك الأصلى للنبوة، بل هى تأييد وتسلية للأنبياء،

---

(٣) المقصود من التمكين: الحذر والاحتياط والتثبت. (المترجم)

وسيلة إذعان وتسليم للمخاطبين.

وأرى من المفيد تكرار التذكير بأن الوظائف الأصلية للأنبياء هي: تصفية الإنسان من الأخلاق الذميمة والخصال الفاسدة التي تعيق وصوله إلى الله تعالى وتؤدى إلى ابتعاده عنه؛ مثل الكبر والظلم والانحراف وتقليد الآباء والخضوع لمؤثرات النفس والجسمانية، وتحفيز الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة في البشر؛ مثل التواضع والوقوف عند الحد، والتفكير المستقيم والتزام الحق، والتوجه إلى الحياة القلبية والروحية، وتذكيرهم بمواقعهم ومسئولياتهم، وتعليمهم التوقير في علاقتهم مع الخالق والشفقة بالمخلوقات، ولفت أنظار قلوبهم إلى محاسن اللانهاية، لأنهم خلقوا للأبد ولن يروى غليلهم شيء إلا الأبدية، وحجزهم عن الزلل بتلقينهم التمييز بين الأمور التي تهم البشرية جمعاء، مثل الصواب والغلط، والمفيد والمضر، والحسن والقبيح، والحق والباطل، والباقي والفاني، وتفهيمهم إياها بصورة تفقهها العقول المتحررة عن الأحكام المسبقة ويقبلها الوجدان السليم، وتثبيت الهداية والضلالة ووضعهما في الأطر التي وضعها الحق تعالى، وإشعار الأرواح بالمحاسن اللانهائية للوصول إلى الحق تعالى وبالقبائح الرهيبة للانحراف والتيه، وتعليمهم عقيدة الألوهية الربوبية كما يريدها الله تعالى وليس كما يصوره الهوى والرغبات النفسانية، وإرشادهم إلى ربط كل شيء برضا الحق تعالى، وهدايتهم إلى الطرق الموصلة إلى ذلك الأفق، وإخبارهم بعقاب المنكرين وبثواب جنان النعيم للمؤمنين في الأخرى.. وأمثالها من الوظائف إجمالاً.

وإن توقع شيء من الأنبياء خارج وظائفهم جهل بالنبوة واستهجان صريح بالأنبياء. وجواب القرآن واضح عن كل طلب توقع خارج وظائفهم:

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾

(الأنعام: ٥٠)

نعم، إن الأنبياء إنما يتبعون وحي الله تعالى ويسعون بغاية همتهم إلى الهتاف به وتفسيره وتمثله. فما يعلمونه ويقولونه ويعملونه وكل ما يريدون تنفيذه وتحقيقه هو عبارة عن تبليغ وتمثل الرسالة التي حملهم الله العليم الحكيم إياها بأسلوب خاص. وبعبارة أخرى: هم حيال الرسالة الإلهية بمثابة موظف توزيع وتقسيم وتبليغ على مورد الوحي الذي هو «المنهل العذب المورود». ولئن فسروا أو اجتهدوا في مواضع وفقا لمحكمات الوحي، فقد سعوا إلى التعبير عن كل شيء حسب منهج العلم الإلهي المحيط ودائرته، وراعوا المراد الإلهي والمرضيات الإلهية في كل حركاتهم.

الأنبياء يواصلون حياتهم في ظلال الوحي، ولا يبتغون في أي من أعمالهم إلا رضا الحق تعالى، ويسيرون في السبيل التي أرشد إليها الهادي سبحانه، ويفوضون نتائج حركاتهم وفعالياتهم كلها إلى الله عز وجل، ويؤجلون الحصول على ثمار سعيهم وهمتهم إلى آخر محطة في الآخرة. الأنبياء ومن اتبعوهم بإخلاص، لا يتجرفون بحب الدنيا والرغبة في المناصب البتة، ويربطون كل حركاتهم وتصرفاتهم بمشاعر التقوى، ويعدون بصيرة الخضوع للوحي عين الهداية، ويسيرون في هذا الصراط السوي الوضاء بكامل ملكاتهم العقلية والروحية والقلبية والحسية، ويرون السير في هذا السبيل ضمانا للخلاص والتخليص، ويربطون حياتهم كلها بهذه الرؤية وهذا الفهم.

وإن عقل الإنسان ومنطقه ومحاكمته - ويمكن اعتبار كل ذلك شيئًا واحدًا - كلما تقبل النبوة وما يرتجى منها، واستطاع أن يستفيد من هذا النبع الفياض استفادة تامة، فإنه من جانب، سلك - وسيسلك - الطريق الموفي إلى الثغر الحدودي لمساحة ذاته، ومن جانب آخر نجا - وسينجو - من أن يكون وسيلة لإضلال الآخرين.

والأهم قبل كل شيء في مثل هذا السلوك، التسليم للقدرة المطلقة والعلم المحيط الذي يتحكم في كل الوجود والأشياء. ولكم أن تسموا هذا إخضاع ثمرات العقل والمنطق، ومختلف المناهج والبحوث والتجارب المختلفة المستحصلة عن طريق العقل والمنطق، لتمحيص الوحي، من أجل ترقية الأرضيات إلى سماويات، وإضفاء روح الجوهر على الأعراض.

والحقيقة أن الذي خلق العقل هو الله تعالى، والذي هدى العقل إلى طريق التعمق بواسطة الوحي هو الله أيضا. فلقد فتح الله تعالى عيون بني الإنسان بالعقل، وضمن للعقل سلامة النظر والتفكير، بالوحي، فمهد له مجالاً واسعا للمحاكمة، وببيانه المحيط أقام على البشر الحجة الملزمة.

بعبارة أخرى: جعل الله تعالى مؤسسة الوحي - التي تضم الكل معًا - بمثابة مختبر لتوحيد السبل المختلفة في شتى المجالات للعقل والمحاكمة التي لا تفتأ تعرض أحوالاً مبعثرة ومنقطعة عن بعضها، ولتمحيص مستحصلات القياس التي استحصلت، ولتمحيص المقاييس أيضًا.

فبناءً على ما سردناه من مجموع الملاحظات هذه، نؤمن بعدم احتمال السير في أمان، ولا العيش بلا غلط وهدر في هذه الطرق المختلطة المشتبكة، من غير الاتباع للأنبياء العظام - على نبينا وعليهم الصلاة والتسليمات - الذين كل واحد منهم في عصره أمين وخبير وعليم بالخصوصيات المتنوعة للطرق التي يسلكها. وكذلك نؤمن بأن الوحي إكسير يحمي عقل الإنسان من شتى أنواع الهذيان، وبأن الأنبياء أطباء حاذقون يستعملون هذا الإكسير حيثما ينبغي. نعم، إن هؤلاء المصطفين هم مرشدون وضاءون يصونون عقل الإنسان من الانحرافات المختلفة، ويفتحون أمامه آفاقًا مما وراء العالم المادي تعدو أهداف العالم المادي. وإن يد العقل والمنطق والمحاكمة التي تبايع هؤلاء المرشدين، تضمن في الوقت عينه الاستفادة القصوى من طاقاتها. فنحن المؤمنين بالنبوة والوحي، نحترم محصولات العقل والمنطق والملكات العقلية. لكننا نؤمن إيمانًا جازمًا بأنها لا تملأ ما يتركه الوحي من فراغ قطعًا إذا ما أهمل، ولا تحل - أبدًا - محل مبلغي الوحي الصادقين والكاملين.

المال فى النظام الإسلامى



أ. د. صلاح سلطان
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

تقوم شرائع الإسلام على مراعاة مصالح الناس فى الدارين، يقول ابن القيم: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، فهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة.. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه وظله فى أرضه..»(١).

ومن الحقيقة أن نقرر أن التشريع الإسلامى هو التشريع الوحيد الذى يخفف عن الناس آلامهم، ويحفظ عليهم أنفسهم وعقولهم وأعراضهم ونسلهم وأموالهم فى نظام تشريعى متكامل هدفه الأسنى هو قول الله تعالى:

﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾

«النساء: ٢٨»

وقول الله تعالى:

﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما﴾

«النساء: ٢٧»

ولذلك فإننا نجد الشريعة الإسلامية لا تحرم الإنسان من شىء لا يستغنى عنه، مثل الطعام والشراب والزواج والأولاد والأموال، فقال:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾

«الأعراف: ٣١»

وقال تعالى:

﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾

«النور: ٣٢»

وقال تعالى:

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾

«النحل: ٧٢»

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ٣/١، وهو كتاب جدير بالاقتناء والدارسة بين طلاب العلم.

وقال تعالى:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾

«النساء: ٥»

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ بعث إليه فقال: «إنى أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب فى المال رغبة صالحة قال: قلت يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكنى أسلمت رغبة فى الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح»(٢).

وبالطبع لا يكون المال صالحا إلا إذا كان من المال الطيب البعيد عن شبهة الحرام أو الحرام نفسه مثل الربا والاحتكار والرشوة والغش والسرقة والنهب وأكل أموال الناس بالباطل وأكل التراث أكلا لما، بل شدد النبى ﷺ على أى وجه من وجوه الكسب الحرام، من ذلك ما رواه الإمام مالك بسنده عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله تعالى عليه الجنة وأوجب له النار، فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيبا من أراك، وإن كان قضيبا من أراك، وإن كان قضيبا من أراك»(٣).

ولما كان حب المال والاستحواذ عليه شيئا لطيفا بالنفس البشرية؛ لقوله تعالى عن الإنسان:

﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾

«العاديات: ٨»

وقوله تعالى:

﴿وتحبون المال حبا جما﴾

«الفجر: ٢٠»

فقد كان من الأهمية بمكان أن تنص الشريعة الإسلامية على قواعد وأحكام المواريث، ولا تترك هذه القواعد لاجتهاد البشر أو أهواء النفوس التى تأكل المال أكلا لما، فقد جاءت نصوص المواريث والوصية توضح أحد طرق نقل الملكية؛ منعا للظلم، وقطعا لدابر الفتن بين الأقارب والأرحام، فلا يرتد المال إلى الرجال دون النساء، ولا إلى الأقوياء دون الضعفاء، كما كان فى الجاهلية يورث من يقاتل بسيفه، فجاء الإسلام ليحفظ للوليد والحمل حقه، وللمرأة حظها، فى نظام تشريعى منقطع النظير، يسد أبواب التنازع والتناحر.

وإذا كانت نصوص الشريعة من قرآن وسنة قد جاءت لتوضيح أنصباء الورثة وحقوقهم فيجب على المسلمين جميعا أن يرجعوا إليها ولا يحتالون عليها، ولا يصح أن يحابى أب ولدا على آخر

(٢) مسند الإمام أحمد (١٩٧/٤)، مسند عمرو.

(٣) رواه الإمام مالك فى الموطأ - كتاب الأقضية - باب ما جاء فى الحنث على منبر رسول الله ﷺ، رقم (٩٤٠٧)، ورواه الدارمى - كتاب البيوع - باب فيمن اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه والأراك هو السواك.

في الميراث، ولا ذكراً على أنثى ولو كان عاصيا على أحدهم؛ لقوله تعالى:

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾

«المائدة: ٨»

والحق أن من فعل ذلك يجني على نفسه جناية منكرة، ويردي نفسه في وديان جهنم؛ لما رواه البخاري بسنده عن موسى بن عقبة بن سالم عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به إلى سبع أراضين»[1] بل إن هذا الأب المحابي يجني على أولاده من بعده؛ عندما يورثهم العداوة والبغضاء والفتن والأحقاد، وقد يتقاتلون فيفني بعضهم بعضا[2]، أو يعيشون في الحرام الذي يدركه الحق ولو بعد حين، ويكون وبالا على آكله ونكالا على صاحبه.

والواجب على من حاباه أبوه أو غيره أن يرد المال إلى مستحقيه؛ رحمة بمن مات، وإبراء لذمته، وإرضاء لربه سبحانه وتعالى، وإذا كان الأب قد نسي أن التأمين الحقيقي والضمان اليقيني لسعادة الأبناء هو ما قاله الله تعالى في مضامين آيات المواريث:

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾

«النساء: ٩»

فلا يصح للأبناء أن يجلبوا الشقاء على أنفسهم ومن بعدهم.

فإذا أراد المسلم أن يعيش في عافية في دينه ودنياه وآخرته فليرض بحكم الله ورسوله، ويحل الحلال ويحرم الحرام، ويقف عند حدود الله تعالى لا يتعداها فيطيب عيشه، وتقر عينه، ويحفظ الله أهله وذريته، ويكون ماله صدقة جارية له بعد موته، ويلقى الله تعالى وهو عنه راض.

❊❊❊

(1) رواه البخاري، كتاب المظالم - باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (٢٤٥٤).

(2) قد يحابي الرجل زوجته بمال يستحقه آخرون فتكون الزوجة أول من ترتع فيه بعد موته وتجلب عليه الرجال وهكذا يكون الزوج المتوفى قد باع آخرته بدنيا غيره، وهو أكثر الناس خسارة.

الحث على تعلم العلوم الكونية




أ.د/ محمد مختار المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإسلام لا يقصر واجب التعليم على العلوم الشرعية والدينية، بل إنه يدعو إلى تعلم كل ثقافة فيها خير وصلاح للمجتمع.. ذلك أنه يتخذ من العلم وسيلة لكشف أسرار الكون ونواميسه ومجاهيله.

وكلما اكتشف العلم مجهولاً انبهر العقل من دقة الصانع البديع، ولا أدل على ذلك من إشارة القرآن الكريم إلى تحصيل علم الطبيعة والنبات والحيوان وطبقات الأرض.. ثم يعقب على هذه الإشارة بأن العلماء هم الذين يخشون الله.. قال تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ۝ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾

(فاطر: ٢٧-٢٨)

ولكنه مع ذلك يقرر أن الاقتصار على العلم الدنيوي البحت وقوف عند ظاهر الأشياء وسبيل إلى انهيار الحضارات واستخدام الآلات في الحرب والتخريب.. قال تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ۝ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾

(غافر: ٨٢-٨٣)

وعند التأمل في هذه الأدلة يتبين أن الإسلام هو أصل إيجاب التعليم على الدولة للأطفال في سنيهم الأولى بلا مقابل.. فإن الرسول ﷺ يعبر عن طلب العلم بأنه فريضة، وعلى الدولة أن تقيم فريضة الله تعالى.. ولم يطالب الرسول ﷺ آباء الأطفال الذين تعلموا من أسرى بدر عوضاً.

أما التعليم الفني والمهني فإنه فضلاً عن حتمية اختلاف المواهب والاستعدادات الفطرية عند الأطفال، فإن القرآن الكريم يعرض علينا نماذج تتجلى فيها روعة الفن والصناعة، فداود عليه السلام كان صانعاً لأدوات الدفاع:

﴿وألنا له الحديد ۝ أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾

(سبأ: ١٠-١١)

وسليمان عليه السلام كان يصهر المعادن:

﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾

(سبأ: ١٢)

والجن حوله يعملون له بمشيئته وبإذن ربه في صناعة المحاريب والقدور والجفان:

﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾

(سبأ: ١٣)

ويمن الله تعالى على البشر بما في البحر من ثروات مائية ومعدنية، ويثير لديهم شعور الانتفاع بها على أوسع مدى.. وبالثروة النباتية مشيرا إلى بهاء المنتجات الزراعية وجمالها.. وبالثروة المعدنية في جوف الأرض.. ويشير إلى عملية بناء السدود المحكمة في قصة ذي القرنين.

والقرآن الكريم مملوء بهذه المظاهر الحضارية التي تدعو إلى الإبداع والإتقان في مختلف الحرف والفنون.. ولقد شجع الحكم الإسلامي في تاريخه الطويل على ذلك حتى صارت الحضارة الإسلامية منبعا ثريا استقى منه الغرب علومه ومعارفه وحضارته التي يعيشها الآن.

أما الحرص على التعليم الجامعي العالي وتقدير المتعلمين، فإن وصايا الإسلام بمواصلة التعليم حتى آخر رمق في الحياة.. ورفع منزلة العلماء إلى درجات تكاد تقترب من الأنبياء؛ لتعني أن يتعلم المرء من المهد إلى اللحد.. قال تعالى:

﴿وقل رب زدني علما﴾

(طه: ١١٤)

وقال ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[1].

ولقد جعل الإسلام التخصص والتعمق في مختلف العلوم فرض كفاية على المجتمع يقوم به من لديه نبوغ كاف للتبريز في هذه المجالات.

أما مناهج التربية الإسلامية التي تقوم على تهذيب الروح وإيقاظ الحافظة والحث على التفكير والتأمل، وتقوية اللسان، وبعث كل ما طوى في العقل والقلب من ينابيع صالحة، وتلقين مبادىء الدين والخلق.. هذه المناهج كفيلة بتنمية الشخصية الإنسانية وتعويدها احترام الحريات الأساسية والحقوق الإنسانية، وإرادة الخير والازدهار لكل شعوب الأرض التي يجمعها أصل واحد ونسب واحد، وغني عن البيان أن الإسلام يطالب الآباء بتوجيه الأبناء وتربيتهم واختيار ما يصلح لمواهبهم أن تبرز فيه، قال ﷺ: «والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته»[2].

وأما نوع الثقافة التي تسري في شرايين المجتمع، ويباح في جو الإسلام تناولها، والإسهام في تنميتها، والتمتع بآثارها، والاستفادة من نتائجها.. فهي كل ثقافة لا تتعارض مع مبادئ الإسلام، ولا تهدم فضيلة من فضائله، ولا تدعو إلى مذاهب هدامة، أو عقائد فاسدة، أو فلسفات منحرفة.. ذلك أن الجانب النظري من الثقافة محكوم بتراثنا الإلهي الخالد الذي وفر علينا الجهود البشرية المضنية التي بذلتها الأمم التي لا تؤمن بالإسلام، ولم تصل إلى نتيجة مرضية توائم بين العقل والقلب، وتسلك طبائع الإنسان ونوازع الفطرة ودوافع الغريزة في ثوب من التوازن والاتساق كما أسداه إليها هذا الدين العظيم.

واجبات بإزاء الحقوق

إذا كان كثير من الناس يعيش مستنفدا جهده وطاقاته في المطالبة بالحقوق ولا يقنع بما يحصل منها مهما أخذ، فإن الحقوق ليست غايات يسعى الإنسان إليها لذاتها، وإنما هي وسائل فحسب، تمكن الإنسان من أداء واجباته في الحياة، وإذا كان بعض الناس يمضي في تلك الحياة كما تمضي البهائم والأنعام، لا تدري الحياة، بوجوده ولا بموته.. فإن قيمة الإنسان الحقيقية فيما يتركه من آثار وما يجدده في مظاهرة تلك الحياة، وفي إسهامه في خدمة المجتمع وتقدمه دينيا وخلقيا وعلميا وماديا.. ولولا هذا ما امتاز الإنسان على سائر المخلوقات، ولكن وجوده عبثا في الحياة.. قال تعالى:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ۝ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾

(المؤمنون: ١١٥-١١٦)

إن حق الحياة ما منح للإنسان إلا ليستغله في النافع من القول والمفيد من العمل، وليتخذ منها مطية لآخرته يلقى ربه بما قدم أبيض الوجه، ناصع الصحيفة، قوي الحجة، آمنا في وقت الفزع، مكرما في وقت الحساب.

وما أعطى حق الحرية إلا لتنفسح أمامه كل المجالات ليستخدم فيها كل الطاقات، بلا حواجز ولا قيود إلا بمقدار ما يحافظ على حريات الآخرين وحقوق رب العالمين.

وما أعطى حق المساواة إلا ليتمكن من العمل في جو من تكافؤ الفرص والحفاظ على الكرامة الإنسانية، فيبذل كل ما في وسعه لتنتفع الحياة بمواهبه وقواه.. وكذلك حق العدالة والكرامة والإعتقاد والتعليم.. كل حق ما هو إلا وسيلة لأداء واجب، فلا ينبغي أن تحول الوسائل دون الوصول إلى الغايات والأهداف.

إن على الإنسان واجبا نحو نفسه، وواجبا نحو ربه، وواجبا نحو أسرته، ونحو مجتمعه، ونحو دنياه وآخرته.. مما هو مفصل في تعاليم الإسلام.

وإن الشعور بهذه الواجبات هو مشكلة الإنسان في هذا العصر.. إن الإنسان في مختلف الشعوب والأمم إذا شعر بهذه الواجبات.. ذلل ما أمامه من عقبات، وانطلق يرسي دعائم الحقوق المهضومة، ويركز أسس الحقوق القائمة، ويزيل هياكل الظلم والاستعباد.. ويطهر الأرض ممن يدوسون بأقدامهم على حقوق الإنسان وعلى كرامة الإنسان.

وعلى العرب خاصة تقع مسئولية هذا البيان من منطلق أن الله تعالى قد شرفهم بنزول الوحي الخاتم بلغتهم.. قال تعالى:

﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾

(الزخرف: ٤٤)

(١) أخرجه الترمذي - كتاب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة - حديث رقم ٢٨٩٨.

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الأحكام - باب قول الله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ - حديث رقم ٧١٣٨.

فتاوي لها تاريخ

زيارة المقابر



فضيلة الشيخ / محمود شلتوت

تحدث معى أخ كريم فيما تجرى به عادة بعض المسلمين. كلما وافتهم الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان - من كثرة التردد على المقابر والأضرحة لزيارتها، وقد امتد الحديث إلى هذه المظاهر التى ألفها الناس فى المآتم، يظن كثير منهم أنها مما يستحبه الدين، أو يبيحه على الأقل وكان فيما قال: إنه سمع من علماء الحلال والحرام، فيما يختص بزيارة النساء للمقابر، حكمين متعارضين، سمع أنها مباحة، وأن تمكينهن منها حق لهن على الرجال، وسمع أنها محرمة، وأنهن يرجعن منها مأزورات غير مأجورات وأنه كذلك سمع حكمين متعارضين فى زيارة الأضرحة «مقابر الأولياء»: سمع طائفة من أرباب الإرشاد الدينى تقررها، وترى إباحة ما اعتاده الناس فى زيارتها، وسمع طائفة أخرى منها تنكرها أشد الإنكار، وترى أنها من بقايا صور الوثنية التى جاء الإسلام لمحوها والقضاء عليها!!

ويقول صاحبنا: إن اختلاف العلماء هكذا - فى هاتين المسألتين وغيرهما، وفى كثير من المسائل التى ينبغى أن يكون حكمها بيّنًا واضحًا، وأن يكون موقف المسلمين فيها واحدا غير مختلف - مما يوقع الناس فى بلبلة دينية، كثيرا ما تثير بينهم فتنا نحن فى أشد الحاجة إلى البعد عنها، وتطهير المجتمع منها، وتوجيههم إلى ما يحفظ عليهم قيمة الوجود فى الحياة، وخاصة مسألة زيارة الأضرحة، التى تفاقم الاختلاف فيها إلى حد التكفير، والرمى بالشرك، والتسوية بينها وبين عبادة الأصنام فى الجاهلية!! وقد طلب إلىّ بهذه المناسبة أن أتحدث إلى القراء عن حكم الشريعة فى هذه الشئون، داخل إطار النصوص التشريعية الواردة فيها، وعلى ضوء من الحكم المقصودة منها، ويرجو أن تخف بذلك وطأة الاختلاف الذى يلهب نار الفتنة بين المسلمين باسم الدين والدين منها برئ.

وتلبية لهذه الرغبة أجبته بما يلى:

زيارة النساء للمقابر

ينبغى أن يعلم أولا أن زيارة المقابر كانت فى أول الإسلام محرمة على الرجال والنساء، وأنه حينما استقرت عقيدة الإسلام فى القلوب، وعرفت أحكامه وأهدافه أبيحت الزيارة، وجاءت فيها جملة من الأحاديث الصحيحة، تضمنت مشروعيتها وكيفيتها وحكمتها. الحديث القائل: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة»، ومنها أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقال لها عبدالله بن أبى مليكة: «من أين أقبلت يا أم المؤمنين؟ قالت: من قبر أخى عبدالرحمن فقال لها: أليس كان نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها»، وكان منها فى بيان كيفيتها أن الرسول كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»، ومنها أن النبى مر بامرأة عند قبر تبكى على صبى لها، فقال لها: اتقى الله واصبرى، فقالت: وما تبالى بمصيبتى، اذهب عنى - وكأنها لم تعرفه - فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأتت إليه وقالت: لم أعرفك يا رسول الله فقال لها: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»، وعظها بالصبر ولم ينكر زيارة القبر.

والذى يؤخذ من هذه الأحاديث أنه متى قصد بزيارة القبور الإحسان إلى الميت «الدعاء»، وإلى النفس بالعظة والاعتبار، وخلت عن تجديد الأحزان ومظاهر الجزع، وعن التجمعات الساخرة التى نراها فى الأعياد والمواسم، وعن صور اللهو والتسلية ونظم الضيافة، وعن المبيت فى المقابر وانتهازها فرصة لما لا ينبغى - إذا خلت عن كل ذلك وخلصت للدعاء والعظة، واتخذت فيها الآداب الشرعية، كانت مشروعة للرجال والنساء، أما إذا قصد بها تجديد الأحزان، واتخذ فيها ما ينافى العظة والاعتبار، فإنها تكون محرمة على الرجال والنساء وهى حينئذ نوع من المنكر الذى يفسد الأخلاق، ويذهب بالأموال فى غير غرض شريف، ويجب على أولياء الأمر محاربتها والقضاء عليها، حفظًا للكرامة وتطهيراً للمجتمع من وصمات تلتصق به باسم مشروع دينى، هو زيارة القبور، وهذا هو الذى ينبغى أن يصار إليه فى فهم الأحاديث الواردة فى الموضوع، وهو الذى يجب أن يعلمه الناس، وأن يوجهوا إليه.

زيارة الأضرحة

وفى هذه الدائرة أباح الرسول ﷺ لأصحابه وعلمهم زيارة القبور، وزارها، وزاروها رجالا ونساء، ودرج عليها المسلمون الأولون، كما تلقوا عن عهده فى العلم والعمل، درجوا عليها، وفى القبور الصديقون والشهداء والصالحون، ولم يؤثر عن أحد منهم شيء فى زيارة هؤلاء الصالحين وراء ما شرع غيرهم، تذكر وتسليم ودعاء، وإذن فما يفعله كثير منا فى زيارة أصحاب الأضرحة الكاسية المزركشة، ذات المقاصير المفضضة، والقباب المزخرفة - تجاوز للحد المشروع فى زيارة القبور، واقتحام لغير المشروع باسم

المشروع، فوقفة الاستئذان على باب الضريح، واستقباله مع رفع الأكف بالضراعة والمناجاة، والطواف حوله مع تقبيل جوانبه والتمسح بحديدة أو خشبة، وشرح القضايا والمهام، وتقديم العرائض وطلب الفصل فيها، كل ذلك عمل غير مشروع، يأباه الله ويأباه الرسول، ويغضب منه أصحاب الأضرحة أنفسهم.

أولياء الله لا يرضون هذه المنكرات

وأولياء الله وهم - بنص كتاب الله - الذين آمنوا وكانوا يتقون، كانوا في حياتهم لله عبادا مخلصين، لم يتجهوا بقلوبهم إلى غير الله، ولم يقفوا بباب أحد سواه، ولم يرفعوا أكف الضراعة إلا إليه، وأنهم كانوا يدعون الناس إلى هدى الله وشرعه، وهم يحبون من الناس أن يسلكوا سبيلهم، يعبدون الله كما عبدوا، ويتقربون إليه بما تقربوا، فإذا ما سلكنا في زيارتهم ما سلكوا في زيارة أسلافهم طابت نفوسهم واطمأنت أرواحهم، وإذا ما انحرفنا عن طريقهم - فوجهنا وجوهنا في عبادة الله إليهم، واتخذنا قبورهم مطافا كالبيت الحرام، ومستلما كالحجر الأسود، ومصلى كمقام إبراهيم، وخاطبناهم بالدعاء والرجاء - فقد جافينا طريقهم وجفوناهم، وصرنا إلى ما يحزنهم، لا إلى ما يرضيهم.

هذا ما يجب أن يعلمه الناس حتى يعرفوا المشروع فيفعلوه، وغير المشروع فيجتنبوه، ولا ينبغي أن تسكت مجاراة أو مجاملة، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

الدعوة بالتى هى أحسن

وإذا كان الله قد أخذ علينا العهد والميثاق أن نبين للناس فقد أمرنا أن يكون البيان، وأن تكون الدعوة بالتى هى أحسن، تجمع ولا تفرق، وتؤلف ولا تنفر. وإذن، لا ينبغي لنا أن نقسو باسم الدين وباسم الدعوة إليه، فنتخذ الحكم بالشرك وعبادة الأصنام على الزائرين - بهذه الكيفية سبيلا للدعوة، وطريقا للبيان كيف ونحن نعلم أن هؤلاء الزائرين - كما تنطق به أحوالهم - مؤمنون بعقائد الدين كلها، وبفرائضه كلها، ومؤمنون بأن النبى والولى من عباد الله، خلقهما كما خلق العباد وأمدهما بأسباب الحياة كما أمد العباد، وأماتهما كما يميت العباد، وأنه سيبعثهما كما يبعث العباد، وتلك عقيدة الإيمان الحق التى لم يكن يؤمن بها عباد الأصنام!!

نعم، توارث هؤلاء - من غير علم - صورا فى زيارة الأضرحة، غير ما رسم الشرع فى زيارة المقابر والمؤمنون يجدر بهم أن يقفوا فى عباداتهم وما يرجع إلى غيب الله عند حدود الوارد من الله، وخير لنا ولهم - من الحكم عليهم بالشرك، ومن إطلاق كلمة «أصنام» على هذه الأضرحة، وقد يكون فيها «رفات شخصيات» ذات شأن خالد فى خدمة الإسلام والمسلمين - خير لنا جميعا، وحفظا لكرامة هذه الشخصيات، أن نبذل جهودنا فى تعليم من لا يعلم، لا فى تكفيره، ولا فى الإساءة إلى تلك الأرواح الطاهرة ونسأل الله السلامة والتوفيق.

ذكريات خوالد



فضيلة الشيخ - معوض عوض إبراهيم

إن الحديث عن أبى عبد الله الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ، وأحد سيدى شباب أهل الجنة كما قال جده الصادق المصدوق صلوات الله عليه - هو شفاء أنفس المؤمنين وقرة أعينهم، وأيسر ما ينبغي أن يحرص عليه الذين يحبون رسول الله ﷺ لكن الوفاء الحق للرسول وسبطه يذهب بالمؤمن إلى أبعد الغايات فى مجالات المعرفة بالحسين، والعلم بما نهل من علم رسول الله، وعلم على وفاطمة بضعة النبى، ومجالات الاقتداء به والحرص على ما كان يحرص عليه من إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله واقتداء عزة الإسلام بكل شيء حتى الروح كما فعل الحسين رضى الله عنه — بذلك يقضى بعض حق الوفاء للإمام الحسين لا بأقوال تقال ولا باحتفال تقام ولا بأعمال ينكرها العقل ويأباها الإسلام، والاحتفال لا بأس بها ولا مانع منها بل إنها تكون ضرورة ملهمة معلمة إذا كانت ذكرا وعبرا وعظات واستدعاء لفعال أولئك الذين ينبغي أن نذكرهم غادين ورائحين ومصبحين وممسين، والعربى القديم يقول:

وإذا فاتك التفات إلى الماضى
فقد غاب عنك وجه التأسى

نحتفل بذكرى هؤلاء ونكرر ما قالوا وما كتبوا فى نور من صحة العقيدة وكمال الإيمان ورفيع السلوك وحتى يرث الأحفاد عن الأجداد نماذج الخير ومثل الصلاح والإصلاح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

والذكرى تنفع المؤمنين مصداقاً لقول الله تعالى لمصطفاه:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ومازلت أذكر صيفا قضيته فى إحدى قرى جنوب لبنان خلال فترة بعثتى للوعظ والتدريس فى الكلية الشرعية فى بيروت عام ١٩٥٦ وأذكر من بين ذكرياتها التى أرجو أن تتاح فرصة نشرها للفائدة - أننى زرت المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين المجتهد الأكبر للشيعة فى لبنان، ورجوته بمشهد من أنجاله وزواره أن يتدخل لمنع تمثيلية استشهاد الإمام الحسين التى اعتادها القوم يوم عاشوراء كل عام ويخف إلى شهودها من جوانب لبنان الجم الغفير من المسلمين وغيرهم ويختلط فيها الحابل بالنابل، ويرون ما لا يجمل بالحسين ولا يكرم بالمسلمين.. ونضر الله وجه السيد فى جواره فقد كتب إلى القوم حيث كنت أصطاف أن يكفوا عن هذه التمثيلية، فاستجابوا لتوجيهاته.. وقلت من قصيدة طويلة:-

جمعتنا ذكرى الحسين وطابت
ذكريات الحسين، سبط المطاع
فمضينا نشق أغشية الجهل؟؟
بنور اليقين والإقناع
وتجلى مغازى المصطفى للعبرة
لا للنشيد والأسجاع

وازدراق الدموع والضرب بالأسياف

في غفلة ومحض ابتداع

فيقضي «التمثيل» حق حسين

لين قومي من الصحيح القناع

بوركت همة: الألى نصروا الدين

وردوا عنه عوادي الضياع

دعمت جهدنا فنارهم الغر

وشاعت كالشمس ملء البقاع

ورأى الناس من تفاهمنا ما كان

داعي أخوة واجتماع

من يروي غرس الأخوة بالدين

يكن بيننا حميد المساعي

فرقتنا حينا أغاليط قوم

فيدلنا اتحادنا في «جباع»[1]

وذكرى أخرى، فإن الشيخ محمد جواد مغنية رئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا في بيروت كان يزورني كثيرا وربما لقيني على باب الكلية الشرعية أكثر من مرة في الأسبوع وأنزل معه إلى وسط بيروت إلى شارع سوريا المعروف بكثرة المكتبات لنتعرف على الجديد مما كتب القوم عن الإسلام بحق أو بهوى، وكنت أفسح للشيخ صدري طبيعة لا تكلفا، ليعلم أننا أهل السنة لا نضيق ذرعا بالتشيع المتزن، ولقد لقيني مرة ومعه شاب فقال لي يا فلان هذا تلميذ من تلاميذ الشيخ أبو زهرة في كلية الحقوق في القاهرة فرحبت به إعزازا للشيخ أبي زهرة الإمام بحق والعلامة الذي ما ترك وجها من وجوه الإسلام ولا جانبا من جوانب المجتمع المسلم إلا وقد كتب فيه ما ليس يكتبه غيره من المعاصرين، ثم التفت مرة أخرى إلى الشاب وقال له هذا فلان الفلاني أحد إخواننا السنيين الذين يريدون أن يستعبدونا، فتعجبت من قوله وقلت له حتى أنت يا بروتوس[2] فأدرك مسرعا أنه تعجل الحديث فانكشف الخبيء من أسراره وبقيت صلتي بعد ذلك بالشيخ الذي لا أعلم الآن أين هو؟ في جوار الناس أم في جوار الله.

وكان الشيخ أحمد عارف الزين شيعيا يصدر مجلة العرفان في «صيدا» وهي إحدى عواصم جنوب لبنان، وكان أبو نزار ابنه يلح علي أن أكتب لمجلته وكتبت لها عدة كلمات عن الإسلام السمح الذي يكشف القناع عن وجهه بصدق الأزهر الشريف كعبة العلم ومجتمع العلماء الأجلاء الذين يملأون ساحته بكرة وعشيا، وصيفا وشتاء غير مدخرين وسعا في إتاحة كل فرص العلم لطلاب الأزهر ولغيرهم من شداة العلم وعشاق المعرفة الصادقة الواثقة، بارك الله في كعبة الإسلام الثانية كما بارك في كعبته في بيته المحرم.

والإمام الحسين رضوان الله عليه ينبوع فضل ونبل ومروءة وإنسانية، وحسبه أنه والحسن – رضوان الله عليهما – كانا منذ طفولتهما الباكرة موضع رعاية النبي وعنايته يفيض عليهما بره وحنانه وتوجيهاته، فهما ابناه بعد أن استودع الله أبناءه، يقول شداد بن الهاد رضي الله عنه سجد رسول الله ﷺ سجدة أطالها، فقال الناس عند انقضاء الصلاة: يا رسول الله إنك سجدت بين يدي صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه نزل عليك وحي، فقال عليه السلام: «كل ذلك لم يكن ولكن ابني هذا – الحسن أو الحسين – ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

والرسول الذي نزل من فوق المنبر بعد أن رأى الحسن والحسين صغيرين يتعثران في قميصيهما فأصلح من شأنهما وعاد إلى المنبر يحدث المسلمين وهو يقرأ قول الله تعالى:

﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

هو الذي ردهما عن تمرتين أخذاهما من تمر الصدقة، فالصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وما كان النبي ليترك ابنيه يأكلان تمرتين لا تحلان لهما وهو الذي يحذر المسلمين من تناول ما ليس لهم بحق حتى تصح منهم الأجسام وتطهر القلوب وترتفع بطاعتهم إلى الله ملائكته الكرام.

ولقد حفل الفكر الإسلامي بالطيب الغدق من فيض إيمان الحسين أخو الحسن الذي قال:–

«إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجأ الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، في بصره، في لسانه، في جوارحه، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله»[3]

وفي هذا الكلام نبض قلب الحسين وفيض إيمانه، وصادق عرفانه بربه، وصريح فهمه للحياة وما وراء الحياة، وصادق حرصه على مرضاة الله ورجاء ما عنده بالجهاد والصبر والرضا.

ولقد استجاب الإمام الحسين دعوة أهل الكوفة، وخرج إليهم في نساء آل البيت وأطفالهم، ولم يثنه نصح ابن عباس رضوان الله عليهما، ولا رجاء المشفقين عليه وعلى خير من حملت الأرض يومئذ.. ولقيه قبيل كربلاء الفرزدق الشاعر واستخبره الحسين خبر أهل الكوفة فحذره منهم ونهاه أن يقدم عليهم وقال: «قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية، فقال الحسين: «القضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء» وأنشد:–

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة

فإن ثواب الله أعلى وأنبل

وفي هذا الجو المحموم الذي قد يذهل المرء عن نفسه علم أن أحد صحابته قد أسر الديلم ابنه وأنهم لا يطلقون سراحه إلا بمال، وما كان أوفى الحسين وهو يقدم للرجل المال ويرجوه أن يمضي لفكاك ابنه، ولكن الرجل يرتفع على عواطف الآباء ويضرب أروع صور الوفاء وهو يقول للحسين: «عند الله أحتسب ابني ونفسي، والله لا أدعك ثم أسأل الركبان عنك»!!

وحين قال رجل من رجال زياد للحسين «لئن قاتلت لتقتلن» قال رضي الله عنه:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وكان ما كان من استشهاد الإمام وصحبه وبعض أهله..

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

«الأحزاب: ٣٨»

وجزى الله عنا سيدنا محمد ﷺ ما هو أهله وتغمد برحمته وإحسانه آل بيته وحفدته من بعدهم وأصحابه وتابعيهم وتابعي تابعيهم حتى نلقى الله عز وجل وهو عنا راض.

---

(١) قرية في جنوب لبنان يطوفها مقهى يسمونه «الليبي» وفيه ماء معدني تشرب فيه ملء صفيحة القاز ثم ترسلها بعد ذلك لتشرب غيرها، ويخيل لك وأنت جالس في ذلك المكان أنك فوق السحاب وأن دون السحاب قرية «جباع» وأن جبل الشيخ أمامك معمم بالثلج صيفاً وشتاءً ولهذا سموه جبل الشيخ.

(٢) بروتوس أقرب المقربين من يوليوس قيصر لدرجة أنه كان يدعوه بابنه ولكن بروتوس جرى على طبيعة المتآمرين الذين أصروا على اغتيال يوليوس قيصر فالتفت إليه يوليوس وقال له: حتى أنت يا بروتوس!

(٣) كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك، باب الهيب من الخطايا والذنوب.

قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم



أ.د/ عماد الدين خليل

مونتغمري وات

(١) «منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد (ﷺ) في كتابه: (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسبابًا وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ أن عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع. فاتهام محمد (ﷺ) بأنه دجال يثير من المشاكلات أكثر مما يحلّ. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد (ﷺ)، فقد أظهر الكُتّاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد (ﷺ) وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه. ولا يكفي، مع ذلك، في ذكر فضائل محمد أن نكتفي بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك – بصلابة – بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه...»[١].

(٢) «هناك - على العكس - أسباب قوية تؤكد صدق (محمد) (ﷺ) ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين؛ لأن النقاش حول هذه المسألة.. يعتمد على وقائع ولا يمكن أن يتضمن خلافًا في التقدير حول الأخلاقية..»[٢].

(٣) «.. ليس توسع العرب شيئاً محتوماً أو آليًا وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد (ﷺ) لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة في غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد (ﷺ). وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد (ﷺ) بأكمله. لقد أوتي أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربي بفضله، أو بفضل الوحي الذي ينزل عليه حسب رأي المسلمين، أساس فكري (أيديولوجي) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكري يتطلب في نفس الوقت حدسًا ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانهم.. وكان محمد (ﷺ) ثانيًا: رجل دولة حكيمًا. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية.

ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبًا على استراتيجية محمد (ﷺ) السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية ولقد دلّ على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنا. وكان محمد (ﷺ) ثالثًا رجل إدارة بارعا، فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين ينتدبهم للمسائل الإدارية. إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا. وكانت الدولة التي أسسها محمد (ﷺ) عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعا رائعا»[٣].

ولز[٤]

(١) «.. هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقا؟ ذلك أن من عرفوا محمداً (ﷺ) أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة (رضي الله عنها) كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبي بكر (رضي الله عنه) شاهد أفضل وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان يؤمن بالنبي (ﷺ) ومن العسير على أي إنسان يقرأ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر (رضي الله عنه)، وكذلك علي (رضي الله عنه) فإنه خاطر بحياته من أجل النبي (ﷺ) في أحلك أيامه سوادا..»[٥].

(٢) «حجّ محمد (ﷺ) حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها، الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها»[٦].

---

(١) محمد في مكة، ص ٩٤.

(٢) نفسه، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٣) نفسه، ص ٥١٠ - ٥١١.

(٤) هربرت جورج ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) H.G.Wells الكاتب والأديب البريطاني المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨م، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذي يعتمد الخيال العلمي من مثل (آلة الزمن) و(الرجل الخفي)، فضلا عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل (ميكا فيللي الجديد) و(الزواج). ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأنجز عام ١٩٢٠ م (معالم تاريخ الإنسانية) وأعقبه بـ(موجز تاريخ العالم)، وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل في أقصى توتراته) (١٩٤٤ م). ولولز كتاب في السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة في كتابة السيرة الذاتية).

(٥) معالم تاريخ الإنسانية ٣/ ٦٣٩.

(٦) نفسه ٣/ ٦٤٠ - ٦٤١.

تأملات فى السيرة

بنو النضير وطبائع اليهود !!

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

يحكى التاريخ القريب المعاصر أنه لما وقع الرئيس الأسبق أنور السادات اتفاقية السلام مع رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن قال الصحفيون لرئيس الوزراء الإسرائيلى كيف توقع صلحا مع المسلمين ونبيهم يقول سوف يقاتل المسلمون اليهود حتى يقول الحجر والشجر. عندما يختبيء اليهود خلف الشجر والحجر هربا من القتل. يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى تعال فاقتله إلا شجر الغرقد أو كما قال؟! أجاب رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن فقال ليس هؤلاء المسلمون وعندما يأتى المسلمون الذين عناهم النبى سوف أكون أول من يحمل حقيبته ويخرج من إسرائيل.

قال الصحفيون لرئيس الوزراء ومن هم هؤلاء المسلمون الذين عناهم النبى؟

قال: المسلمون حقا الذين يكون عددهم فى صلاة الفجر مثل عددهم فى صلاة الجمعة وعندها سوف آخذ حقيبتى وأرحل من إسرائيل.

أحكى لك هذا أيها القارىء ليس من قبيل تزجية الفراغ، إنما أقصه عليك حتى تعلم أن هذا رجل كأسلافه بنى صهيون فهو يصدق النبى ﷺ ويعلم أنه رسول الله ﷺ وأن كلامه حق تماما مثلما فعل أسلافه بنو النضير. يروى أن حُيى بن خطب قال لما جاء الأمر الى النبى ﷺ وهو إلى جدار من بيوتهم ثم قام ﷺ. فقال حيى: «لقد عجل أبو القاسم كنا نريد أن نقضى حاجته ونقريه» وندمت يهود على ما صنعوا فقال لهم كنانة بن صويراء: «هل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: لا والله ما ندرى. ثم سألوه وما تدرى أنت؟ قال: بلى والتوراة إنى لأدرى قد أخبر محمد ما هممتم به من الغدر. فلا تخدعوا أنفسكم والله إنه لرسول الله. وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم به من الغدر وإنه لآخر الأنبياء كنتم تطمعون أن يكون من بنى هارون فجعله الله حيث شاء، وإن كتبنا والذى درسنا فى التوراة التى لم تغير ولم تبدل أن مولده مكة وأن دار هجرته يثرب وصفته بعينها ما تخالف حرفا مما فى كتابنا وما يأتيكم به أولى به محاربته إياكم ولكأنى أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفا وأموالكم. إنما هى شرفكم فأطيعونى فى خصلتين والثالثة لا خير فيها قالوا ما هما؟ قال: تسلمون وتدخلون مع محمد - ﷺ - فتأمنون على أموالكم وأولادكم وتكونون من عليّة أصحابه وتبقى بأيديكم أموالكم ولا تخرجون من دياركم قالوا: لا نفارق التوراة وعهد موسى قال: فإنه مرسل إليكم. اخرجوا من بلدى فقولوا نعم فإنه لا يستحل لكم دما ولا مالا وتبقى أموالكم. إن شئتم بعتم وإن شئتم أمسكتم قالوا: أما هذه فنعم. قال سلام بن مشكم: قد كنت لما صنعتم كارها وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من دارى. فلا تعقب يا حيى كلامه وأنعم له بالخروج واخرج من بلده قال: أفعل، أنا أخرج». يقول سيدنا أبو بكر وكان ممن ذهب مع النبى ﷺ إلى بنى النضير وجلس إلى جدار الحائط قال: يا رسول الله قمت ولم نشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: همت يهود بالغدر بىَ فأخبرنى الله تعالى فقمت.

وتروى كتب السنة أيضا أن رسول الله ﷺ جاء يوم السبت فصلى فى مسجد قباء ومعه رهط من المهاجرين والأنصار ثم جاء بنى النضير فوجدهم فى ناديهم وكان معه عشرة من أصحابه فجلس رسول الله ﷺ يكلمهم فى أن يعينوه فى دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية فقالوا: «نفعل يا أبا القاسم ما أحببت قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا. اجلس حتى تطعم وترجع لحاجتك ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فى ما جئتنا به» ورسول الله ﷺ مستند إلى بيت من بيوتهم، ثم خلا بعضهم ببعض فتناجوا فقال حيى بن أخطب: يا معشر يهود قد جاءكم محمد مع نفر من أصحابه لا يبلغون عشرة فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذى هو تحته فاقتلوه. ولن تجدوه أخلى منه الساعة فإنه إن قتل تفرق عنه أصحابه فقال عمرو بن جحش: إذن أظهر على البيت فاطرح عليه صخرة. فقال سلام بن مشكم: يا قوم أطيعونى هذه المرة وخالفونى الدهر والله لأن فعلتم ليخبرنَ بأنا قد غدرنا به.

وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ من السماء بأنهم هموا به فنهض مسرعاً.

وشاهدى مما حكيت لك أيها القارىء الكريم أن اليهود كما أخبر القرآن عنهم يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم ويعلمون أنه رسول الله كما جاء ذلك فى كتبهم. يعرف ذلك مناحم بيجن كما يعرفه سلام بن مشكم لكنهم حاقدون على رسول الله ﷺ وذلك الحقد القديم الموروث. والذى أعجب من حقد اليهود أن المسلمين أو أكثرهم لا

يكادون يصدقون قول النبي ﷺ . أو قل إنهم يشكّون في كلامه ووعده. فهل يعلم المسلمون أن إسرائيل اليوم وقادتها تجرم من يقطع شجر الغرقد ولقد ذهبت إلى سيناء بعد حرب أكتوبر وجلاء إسرائيل عن سيناء ووصلت حتى الحدود في نهاية رفح وعرفت أن الإسرائيليين يجرمون من يقطع شجر الغرقد بالحكم عليه بالسجن ستة أشهر وغرامة لا أعرف كم شيكل، فهم يوقنون بأن النبي ﷺ صادق وأن شجر الغرقد لن يبوح بمن خلفه من اليهود وسوف يستره عن عيون المسلمين أرأيت أن اليهود يعلمون أنه رسول الله وأنهم يصدقونه فيما يقول وأنهم يشتركون مع أسلافهم جميعا لأنهم لا أمان لهم ولا عهد فهم لا يوفون العهد والاتفاق إلا إذا كان في صالحهم وهم يهتبلون أي فرصة تحين لهم لتنفيذ أغراضهم ولا يقدّرون أي معاهدة أو اتفاق فكان لا بد أن يعاملوا بما يليق بهم وقد عرفت ما حدث للمسلمين بعد هزيمة أحد وكيف أن العرب بدأت تستهين بالمسلمين وما أقبح وأشد هوانا أن يستهين بك عدوك وعرفت ما جرى للمسلمين في بئر معونة وما حدث قبلها من هزيل مع زيد بن الدثنة ومع خبيب وما حدث من غدر بني النضير وما أرادوه للنبي ﷺ فكان لابد من بطش وقوة ترد هيبة المسلمين وتؤدب يهود حتى تأمن شرهم وما حدث من رسول الله ﷺ هو الذي كان يجب أن يُفعل...

حاصر النبي ﷺ (بني نضير) وقبل الحصار دارت مشاورات فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ . ولم يكن حوارهم مع رسول الله صادقا، حيث كانت تدور بينهم وبين عبدالله بن أبي بن سلول حوارات واتفاقات هدفها التحالف ضد رسول الله ﷺ ، وكانت مناقشاتهم مع رسول الله ﷺ يحكمها ويؤثر فيها مدى التقدم في الاتفاق والاختلاف بينهم وبين ابن أبي ولما لم يصل الأمر بينهم إلى تقدم يذكر دخلوا حصونهم استعدادا لقتال النبي ﷺ مصداقا لقوله تعالى:

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾

(الحشر: ١٤)

فدخلوا حصونهم استعداداً للقتال وحاصرهم رسول الله ﷺ أياماً ورموا جموع المسلمين بالنبل حتى إنهم كادوا أن يصيبوا قبة الرسول الله ﷺ وهو في ساحة المعركة فحول رسول الله ﷺ قبته إلى حيث لا تناله رماحهم،ثم أمر النبي ﷺ بقطع نخل بني النضير، واستعمل أبا ليلى المازني وعبدالله بن سلام وكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبدالله بن سلام يقطع اللون (جنس من التمر) فقيل لهما في ذلك فقال أبو ليلى كانت العجوة أحرق لهم وقال عبدالله بن سلام قد عرفت أن الله سيغنمه أموالهم وكانت العجوة خيراً لهم فلما قطعت العجوة شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل فجعل سلام بن مشكم يقول يا حيي العذق خير من العجوة تغرس فلا يطعم ثلاثين سنة فأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ يقول: إنك كنت تنهى عن الفساد فلم تقطع النخل؟ ووجد بعض المسلمين في أنفسهم من قولهم وخافوا أن يكون فسادا فقال بعضهم: لا تقطعوا. وقال بعضهم: بل نقطعه لنغيظهم بذلك، وأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ يقول له: نحن نعطيك الذي سألت ونخرج من بلادك فقال رسول الله ﷺ :لا أقبله اليوم ولكن اخرجوا ولكم ما حملت الإبل إلا الحلق،.

وبعد فإني أقول لك هؤلاء هم اليهود لا أمان لهم ولا عهد ويزعمون أنهم ينهون عن الفساد وهم كاذبون فأنت تراهم لما رأوا المسلمين يقطعون النخل قالوا لرسول الله ﷺ كنت تنهى عن الفساد فما بالك تقطع النخل؟ حتى إن بعض المسلمين تأثروا بقولهم وقالوا: لا نقطع النخل فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(الحشر: ٥)

فعلموا أن الأمر لله سبحانه وتعالى، ونحاول أن نسأل اليهود إذا كان قطع النخل مُجرم فلماذا عمدتم إلى قتل النفس بعد أن عاهدتم النبي ﷺ بعد أن دخل عليكم وأمنتموه، وهممتم بإلقاء حجر عليه لقتله؟! أيهما أعظم جرما؟..

وبعد أيها القارئ الكريم فأنا أحسب أن هذه الواقعة وهذه المقارنة بين تمسكهم بأن قطع النخل إفساد والغدر بالمعاهد أحسب أن هذه الواقعة ألقت ضوءا على تخصيص بني إسرائيل في قوله تعالى:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

(المائدة: ٣٢)

وذلك بعض عرضه تعالى قصه ابني آدم وذلك في قوله تعالى:

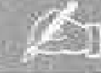
﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾

(المائدة: ٢٧)

فلماذا تخصيص بني إسرائيل؟؟؟ ألا ترى معي أيها القارئ الكريم أن تخصيص بني إسرائيل لأنهم يستهينون بقتل النفس البشريه والله أعلم.

***

من منهاج القرآن في التعامل مع ضعف النفس «سورة التوبة نموذجاً»



د. أيمن الغايش

لاحظت أن الإنســـان ربما يمر بمراحل ثلاث عندما يعتزم فعل الخير، المرحلة الأولي حينما يقدر علي فعل الخير ويملك امكانات ذلك ولكنه لا يريد، وأقصد بالقدرة امتلاك المؤهلات العلمية والشخصية علي العمل وأقصد بالإرادة القوة الداخلية التي تدفع الإنسان إلي العمل، وفي هذه المرحلة يملك الإنســان القدرة ولكنه لا يرغب في العمل وربما يكون ذلك من باب عدم الرغبة في المبادرة أو كسب أكبر مكاسب أو الضن بتقديم أي نوع من التضحيات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

(سورة التوبة: ٣٨)

وفي هذه المرحلة يشعر الإنسان بالثقة والفرح وبرغبة من حوله من أهل الخير في استمالته.

وربما تكون هذه المرحلة شبيهة بمثل ما مر به كعب بن مالك؛ رضي الله عنه عندما بدأ الصحابة الاستعداد لغزوة تبوك مع رسول الله ﷺ، وكان يقول في نفســه إنني أقدر على إعداد أسباب الخروج في أقل وقت، وظل هكذا حتي تحرك الناس وتركوا المدينة وسبقوه؛ وفي أمثلة أخرى قد تراها تشبه هذه المرحلة من القدرة وعدم الرغبة في أدائه مثل من يقول، أنا أقدر علي إعادة الحق لصاحبه ولكنني لا أريد لأنني أريد أن أنتقم منه، أو من يقول أنا أقدر علي مصالحة فلان ولكنني لا أريد حتي يعرف قدري، وهذه الأمثلة كلها مطبقة علي جميع أمور الخير والبر وتسمي هذه المرحلة مرحلة الكسل.

أما المرحلة الثانية فيتحول الإنسان إلي أنه يريد فعل الخير ولكنه لا يقدر عليه، وهذه المرحلة تذكرنا بأمر كعب بن مالك رضي الله عنه عندما قرر أن يلحق بالصحابة في تبوك وأعد العدة لذلك ولكنه فوجئ بأنهم في طريق العودة إلي المدينة فلم يستطع الخروج إليهم فقد فات الأوان وتغيرت الأحوال، وهناك أمثلة أخرى لهذه المرحلة مثل من يقول أريد أن أرد الحق لأصحابه ولكني لا أقدر أو يقول أريد أن أصالح فلانًا ولكني لا أقدر، أو يقول أريد أن أعتذر لفلان ولكني لا أقدر أن أكلمه في ذلك، وفي هذه المرحلة يشعر بالعجز وربما حاول أن ينشغل بأمور جانبية حتي يهرب من الشعور بهذا العجز وعدم القدرة علي فعل ما يريد، وقد يكون سبب عدم القدرة عند الإنسان داخليًا أو خارجيًا، وهذه المرحلة يمكن تداركها بالصدق وسرعة الاعتذار والاعتراف بالتقصير.

فإذا لم يدرك الإنسان نفسه في هذه المرحلة دخل إلي المرحلة الثالثة وهي مرحلة عدم القدرة وعدم الرغبة في فعل الخير وهنا تبدأ مرحلة الكبر بل والاستهزاء بالخير الذي امتنع عنه سابقًا، وهذه المرحلة شبيهة بموقف المنافقين الذين لم يريدوا الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك وفقدوا القدرة والإمكانات للخروج كما فقدوا الرغبة:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

(التوبة: ٤٦)

والأثر السلبي لهؤلاء قد يتعدي إلي المجتمع

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(التوبة: ٤٧)

وإذا كانت المرحلة الأولى من الكسل يشعر الإنسان فيها بالفرح فهو قادر ولكنه غير راغب فهذه القدرة تعطيه الثقة في نفسه وإمكاناته وأنه بمجرد اللحظة التى يرغب فيها فإنه سيسبق الجميع فإن المرحلة التالية حينما يريد ويرغب ثم يكتشف أن قدرته على الفعل قد سلبت فإنه يحزن حزنًا شديدًا ويتذكر المرحلة الأولى ويندم أنها قد فاتته وتضيق نفسه:

﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾

(التوبة: ١١٨)

وعندما ينتقل إلى المرحلة الثالثة يعود فيها إلى الفرح والعجب ولكنه فرح المستكبر الذى باع فعل الخير وزهد عنه:

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ٨١)

وهذه هى المرحلة المهانة عند الله فهو لا قيمة له حتى يريد فعل الخير أو يملك القدرة لكى يقوم به:

﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(الحج: ١٨)

فهو لا يستأهل الرغبة ولا القدرة.

وهذه المراحل الثلاثة: الكسل، ثم العجز، ثم الكبر ليست مراحل حادة فى انفصالها، فربما يحمل الإنسان صفة الكسل فى عمل، والعجز، فى عمل آخر، والكبر فى ثالث.

كما أنها ليست على مستوى واحد، فهناك بدايات للكسل وهناك نهايات للكسل تقترب من بدايات العجز، كما أن نهايات العجز تقترب من الكبر بينما نهايات الكبر تقترب من بداية الكفر، ولا يقصد هنا تمام الكسل أو العجز أو الكبر بل ربما يظهر باعتباره ملمحًا أو جزءًا يسيرًا منه.

وفى بعض الأحيان يعالج الإنسان هذه الآفات بغير دوائها فعلاج الكسل العزيمة والأمل وإدراك قيمة الزمان بينما علاج العجز هو الصدق فى الاعتذار والاعتراف بالخطأ، أما علاج الكبر فهو تمام المذلة لله تعالى، فإذا أردت أن تعالج صاحب الكسل بعلاج العجز وطلبت منه الاعتراف بالخطأ بدلا من بث الأمل والثقة فيه فإنه لن يستجيب إليك، وإذا أردت أن تعالج العجز بغير إيصال الحقائق وتأكيد الصدق ومواجهة المشكلة برجولة فإنك أيضًا لا تفلح فى علاجه، وإذا أردت أن تعالج الكبر ببث العزم والتحميس أو الضغط للاعتراف بالخطأ فإنه لا يزيده إلا كبرًا فليس لهذا الأمر علاجًا إلا المهانة لله تعالى وحده وما أشدها على النفس فليس لها حظ منها على الإطلاق إلا بعونه تعالى.

طرائف.. ومواقف



للشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حب النبي ﷺ

من يدعى حب النبي ولم يفد
من هديه فسفاهة وهراء
الحب أول شرطه وفروضه
إن كان صدقا: طاعة ووفاء

جمع القلوب

جمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال ـ تعالى:

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٦٣)

وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وتشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس، وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة.

(ابن خلدون «المقدمة»)

قالوا...

ليس من خلة هي للغنى مدح إلا هي للفقير عيب: فإن كان شجاعا، سمى أهوج
وإن كان جوادًا سمى مفسدًا
وإن كان حليمًا، سمى ضعيفًا
وإن كان وقورًا، سمى بليدًا
وإن كان لسنًا، سمى مهذارًا
وإن كان صموتًا، سمى عييًا.

أبو تمام والكندى

امتدح أبو تمام الخليفة العباسي أحمد بن المعتصم بقصيدة فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم
من حلم أحنف في ذكاء إياس

قال له الكندى بجرأة وثبات: الأمير فوق من وصفت فأطرق أبو تمام مليا ثم قال:

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شرودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

فسكت الكندى: وأعجبت الفئة الحاضرة لفطنة أبي تمام وأصالة رأيه، وجودة فكره، وسرعة خاطره.

كيف لا أبكى؟

مررت على الفضيلة وهى تبكى
فقلت علام تنتحب الفتاة؟!
فقالت: كيف لا أبكى وأهلى
جميعا دون خلق الله ماتوا؟!

ما خير ما يؤتى المرء

قال رجل لحكيم: ما خير ما يؤتى المرء؟
قال: غريزة عقل
قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلم علم
قال: فإن حرمه؟ قال: صدق اللسان
قال: فإن حرمه؟ قال: سكوت طويل
قال: فإن حرمه؟ قال: ميتة عاجلة

إن لزوجك عليك حقا

كتبت امرأة عمر بن عبدالعزيز إلى عمر، لما اشتغل عنها بالعبادة:

ألا أيها الملك الذى قد
سبى عقلي وهام به فؤادى
أراك وسعت كل الناس عدلا
وجرت على من بين العباد
وأعطيت الرعية كل فضل
وما أعطيتنى غير السهاد

فصرف وجهه إليها.

يتمنون ما نحن فيه

روى سعيد بن بشير عن أبيه أن عبدالملك بن مروان الخليفة الأموى قال حين ثقل، وقد رأى غسالا يلوى ثوبا بيده، «وددت لو كنت غسالا لا أعيش إلا مما أكتسب يوما بيوم».

فذكر ذلك لأبي حازم، فقال:

الحمد لله الذى جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

ففيم كنا

حكم القاضى على رجل كثرت ديونه، فأركبه حمارا وطوف به في البلد، ليحذر الناس من معاملته بعد ذلك، فلما نزل عن الحمار، قال له صاحب الحمار: أدِّ الكراء..

فقال: ففيم كنا يا أبله؟!

دعاء

اللهم إنى استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه.

واستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوف به.

واستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك.

واستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك.



قراءة فى كتاب

تاريخ الجامع الأزهر

محمد عبد الله عنان

بقلم: عادل خفاجة

لا يستطيع أحد أن يمارى فى أهمية الدور الرائد للأزهر الشريف منذ إنشائه حتى يومنا هذا فى مجابهة الظلم والدفاع عن الحق وعن دين الله.

وقد حفظ التاريخ للأزهر مواقفه المشرقة على مر العصور، حيث قاد المقاومة أثناء الاحتلال الفرنسى، إذ يظهر دور الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الأزهر فى هذه الأثناء والشيخ السادات، كما تبرز فى هذه الآونة أسماء مناضلين أزهريين آخرين من أمثال: الشيخ عبدالوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى، فإذا لاحت الثورة العرابية برز زعيمها أحمد عرابى وهو أحد أبناء الأزهر،

كما لا يمكن أن ننسى أن شرارة ثورة ١٩١٩ إنما خرجت من الأزهر.

إن الأزهر ظل دائمًا وسيظل - بإذن الله - القلعة التى ترد كيد الكائدين للوطن والدين.

ولمزيد من إلقاء الضوء على أهمية دور الأزهر كان اختيارنا لهذا الكتاب: تاريخ الجامع الأزهر.

الهدف من الكتاب:

قصد المؤلف بإخراجه هذا الكتاب أن يوجه الأنظار إلى حدث علمى وقومى مهم، ألا وهو بلوغ الجامع الأزهر عمره الألفى وأنه يجب الاحتفال بهذا العيد احتفالاً قوميًا يليق بمكانة الأزهر وكان ذلك فى شهر يونيه سنه ١٩٤٢م جمادى الأولى ١٣٦١هـ

بيد أنه بالرغم مما بدا من اهتمام السلطات بالأمر، ومحاولتها الاستجابة لهذه الدعوة فقد مر العيد الألفى للجامع الأزهر دون احتفال ما.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ حاول المؤلف مرة أخرى أن يلفت أنظار أولى الأمر إلى أن الفرصة ما تزال سانحة للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر، وأنه إذا كان الجامع قد بلغ عمره الألفى فى رمضان ١٣٦١هـ باعتبار تاريخ إنشائه فإنه ما تزال ثمة فرصة أخرى باعتبار بدء حياته الجامعية فى صفر ١٣٦٥هـ، ولكن هذه الدعوة ذهبت كسابقتها سدى.

المؤلف: باحث ومترجم ومؤرخ مصرى مرموق ولد فى يوليو ١٨٩٦ بقرية بشلا مركز ميت غمر، بمحافظة الدقهلية.

حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩١٤ وعمل بالحياة السياسية والحزبية.. إنه الأستاذ الكبير محمد عبدالله عنان، له العديد من المؤلفات نذكر منها:

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية.

نهاية الأندلس.

الدولة العامرية.

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية.

مواقف حاسمة فى التاريخ الإسلامى.

دولة الإسلام فى الأندلس وهى موسوعة ضخمة فى ثمانية أجزاء.

بالإضافة إلى ترجمته لرسالة الدكتوراه التى قدمها طه حسين بعنوان «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد»

ومن تحقيقاته: الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب.

وانتقل إلى رحمة الله تعالى فى يناير سنة ١٩٨٦م.

الكتاب

صدر الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٤٢م ثم طبع طبعة ثانية استجابه لرغبة وزارة الثقافة والإرشاد فخرج فى ثوب جديد.. وقد أضاف له الكاتب عدة فصول ثم صدر أخيراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن إصدارات مكتبة الأسرة.

(٣٢٨ص، ٢٠سم (سلسلة الإنسانيات) برقم إيداع ١٧٦٤/ ٢٠١٢).

وقد قسم المؤلف بحثه إلى كتابين:

الكتاب الأول: الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى

والكتاب الثانى: الجامع الأزهر منذ عصور السلاطين حتى العصر الحاضر، بالإضافة إلى الوثائق والإحصاءات والملاحق.

أما الكتاب الأول فقد قسمه إلى سبعة فصول وهى:

القاهرة المعزية والجامع الأزهر - المعز لدين الله ووزيره جوهر - البداية الجامعية - الأزهر ودار الحكمة - نظم الدراسة والحلقات الجامعية - المواد والكتب والأساتذة - المناسبات الدينية والاجتماعية.

القاهرة المعزية والجامع الأزهر:

وقد تناول المؤلف فى الفصل الأول: القواعد الإسلامية الأولى ونظامها، ويقصد بها الفسطاط ومدينتا العسكر والقطائع، كما تناول إنشاء القاهرة المعزية وحكمة الإنشاء، وسبب التسمية ومعالم الأزهر، والمدينة الفاطمية، وتجديد الأزهر وعمارته فى مختلف العصور.

فيقول فى بيان ذلك : «وكان قيام الأزهر فى نفس الوقت الذى قامت فيه الدولة الفاطمية ذاتها ؛ أنشئ غداة ظفرها بملك مصر ، وغداة قيام القاهرة عاصمتها الجديدة ، وسمى باسمها حينا من الدهر ، ثم خبا نجم الدولة الفاطمية بعد أن سطع مدى قرنين ، وذوى غصنها ، ومحيت آثارها المادية والمعنوية بسرعة ؛ ولكن الأزهر نجا من عواقب المحنة ، واستطاع أن يخرج من غمر الانقلاب بعد فترة من الإعراض والركود سليما قويا ، وأن يتابع حياته الطويلة ، غير حافل بما يعترضه من الصعاب والعثرات .

ارتباط المسجد بالمدينة:

ويلقى المؤلف الضوء على هذه الحقيقة العمرانية الإسلامية إذا يقول :

وقد عرفت مصر قبل قيام القاهرة المعزية ثلاث قواعد أو عواصم إسلامية ؛ أولاها فسطاط مصر التى أنشئت فى سنة ٢١هـ (٦٤١م) عقب الفتح الإسلامى ؛ والثانية مدينة العسكر التى أنشأها الجند العباسيون إلى جانب الفسطاط عقب انتزاعهم مصر من يد الأمويين فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م) ؛ والثالثة مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) لتكون عاصمة الدولة الجديدة ، كذلك عرفت مصر قبل قيام الجامع الأزهر ثلاثة مساجد جامعة ، هى المسجد الجامع أو جامع عمرو ، فجامع العسكر ، ثم جامع ابن طولون ، أو بعبارة أخرى كانت كل قاعدة ، من هذه القواعد الإسلامية المتعاقبة تزود عند قيامها بمسجدها الجامع أو جامعها الرسمى الخاص .

وهذه ظاهرة معروفة فى خطط القواعد الإسلامية الأولى .

ولم يكن اتباعها وليد المصادفة ، بل كان أثرا من آثار السياسة الموضوعة لإنشاء الأمصار الإسلامية فى البلاد المفتوحة ، وهى سياسة ترجع إلى عصر عمر ذاته ؛ كتب بها عمر إلى الولاة ومنهم عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولاتها ، بأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا للجماعة ، واتبعت هذه السياسة فى خطط القواعد الإسلامية الأولى ، مثل : البصرة الكوفة ومدن الشام والفسطاط .

فحيثما تقوم العاصمة الإسلامية الجديدة يقوم فى وسطها المسجد الجامع ، وتقام من حوله خطط القبائل المختلفة ، وكانت هذه المساجد الجامعة تحمل منذ البداية طابعا رسميا ؛ وكما أن العواصم الإسلامية الجديدة كانت تعتبر رمزا لظفر الإسلام ، فكذلك المساجد الجامعة كانت تعتبر رمزا لسيادة الإسلام الروحية ، ومنبرا للدين والرسالة الجديدة .

هكذا كان شأن الفسطاط أول عاصمة للإسلام فى مصر ، فقد كان قيامها رمزا لظفر الإسلام السياسى بافتتاح قطر جديد من أقطار الدولة الرومانية ، وكان مسجدها الجامع رمزا لسيادة الإسلام .

ثم يشير المؤلف إلى أنه بمضى الزمن وظروف العصر غدا المسجد مركز الحلقات العلمية والأدبية ، وكانت المساجد الجامعة تختص بهذه الصفة العلمية فى عصر لم تعرف فيه معاهد الدراسة المنظمة ، التى حفلت بها الأمطار الإسلامية فيما بعد ، وهكذا كان شأن المسجد الجامع ، فقد كان

منذ إنشائه قلب الفسطاط الفكرى ، وكان أهم مركز للدراسة ، وكانت حلقاته إلى جانب الحلقات الخاصة ، أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة .

وعلى هذا النمط الحضارى جاءت القاهرة المعزية تطبيقا لهذه السياسة التقليدية والمغزى الروحى .

تسمية الجامع الأزهر

وعن سبب التسمية يقول المؤلف :

وسمى المسجد الجديد بجامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة .

وأما تسميته بالجامع الأزهر فالظاهر أنها لم تحدث إلا فى تاريخ متأخر . بل هناك ما يدل على أن التسمية الأولى ، أعنى جامع القاهرة ، هى التسمية التى كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمى . ذلك أن معظم مؤرخى هذا العصر ، وفى مقدمتهم المسبحى وابن الطوير وابن المأمون ، يذكرونه دائما باسم جامع القاهرة وقلما يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر ، وحتى فى العصور المتأخرة حتى القرن الثامن الهجرى ، نرى هذا الاسم أى جامع القاهرة يطلق عليه فى كثير من المواطن إلى جانب اسمه الآخر أى الجامع الأزهر .

والظاهر أن الجامع الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمى اسم الجامع الأزهر . وأما أصل التسمية فالظاهر أنها ترجع إلى اسم السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله وزوج أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهى التى يرجع الفاطميون نسبتهم إليها .

على أى حال فقد استمر مسجد القاهرة الجامع ، يعرف بهذين الاسمين حتى عصر متأخر ؛ وحتى فى عصر المقريزى صاحب الخطط أعنى فى أوائل القرن التاسع نراه يعرف بالاسمين ؛ ثم تقلص الاسم القديم أعنى جامع القاهرة شيئا فشيئا وغلب عليه اسم الجامع الأزهر أو جامع الأزهر حتى عصرنا .

المعز لدين الله ووزيره جوهر:

ويخصص المؤلف الفصل الثانى للحديث عن المعز لدين الله ، وطموح الفاطميين إلى فتح مصر ، ثم الحديث عن جوهر وزير المعز وفتحه لمصر وأمانه لأهلها ، ومقدم المعز إلى مصر ، وقيام الخلافة الفاطمية بها ، واتسامه بصفة الإمامة ، والصراع بينه وبين القرامطة ، ووفاته ، وصفات جوهر ووفاته .

ويصف المؤلف قدوم المعز لدين الله إلى مصر بأنه كان يتسم بصفة الإمامة أكثر مما يتصف بسمة الملك ، ويبدو فى مواكبه وشعائره الدينية حريصا على مظاهر الإمامة ورسومها ، وقد سجل الفقيه المؤرخ الحسن بن زولاق المصرى صديق المعز ومؤرخ سيرته كثيرا من المظاهر التى يتشح فيها المعز بثوب الإمامة ، ويبدو إماما دينيا أكثر منه ملكا سياسيا ، فى صلاته وفى خشوعه وفى ركوعه وسجوده وفى خطبه ومواعظه .

بل نجد المعز فى رسالته الشهيرة التى وجهها إلى الحسن الأعظم زعيم القرامطة ،

يتسم بسمة النبوة ويسبغ على الإمامة الفاطمية لونا من القدسية، وينوه بخواصها ودلالاتها المقدسة، ومقدرتها الروحية الخارقة وكونها إمامة الدنيا والدين معا.

البداية الجامعية:

وقد أفرد المؤلف الفصل الثالث للحديث عن البداية الجامعية فتكلم عن أول درس عقد في الأزهر وعن جلوس الوزير ابن كلس بالأزهر، وعن تنظيمه للحلقات الدراسية الأولى، ثم عن الحدث الجامعي واختتم هذا الفصل بالحديث عن حياة ابن كلس وخلاله.

بداية يقرر المؤلف أن الجامع الأزهر لم ينشأ في الأصل ليكون جامعة أو معهداً للدرس، وإنما أنشئ الجامع ليكون مسجداً رسميا للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة.

بيد أن هذه الصفة المذهبية الرسمية التي أسبغت على الجامع الأزهر منذ إنشائه، لم تكن لتحول دون اتسامه فيما بعد بالسمة الجامعية، فإن المدرسة لم تكن قد وجدت بعد في مصر الإسلامية، وكانت المساجد الجامعة تقوم برسالتها العلمية إلى جانب رسالتها الدينية؛ وكان جامع عمرو، أول المساجد الجامعة في مصر، هو أيضا أول معهد قام بمهمة الدروس والقراءة؛ وكانت هذه التقاليد الجامعية قد غدت صفة لازمة للمساجد الجامعة في الشرق وبغداد والأندلس وغيرها تؤدي رسالتها العلمية، ولما أنشئ الأزهر لأول أمره مسجداً جامعا للعاصمة الفاطمية الجديدة، كان الجامع العتيق (جامع عمرو) بحلقاته الدراسية مثلاً قائماً، يمكن أن ينسج على منواله.

على أنه مضت بضعة أعوام قبل أن يطبق الجامع الفاطمي الجديد هذه السنن الجامعية، ويبدأ في القيام برسالته العلمية إلى جانب رسالته الدينية، ثم حدث فجأة أن دُفع الأزهر إلى هذا الطريق العلمي دون سابق قصد ولا ترتيب، والواقع أن فكرة الدراسة بالأزهر، كانت حدثا عارضا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية، وغلبت الحدث العارض شيئاً فشيئاً على صفته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعي الخالد.

ففي صفر سنة ٣٦٥ هـ في أواخر عهد المعز لدين الله، جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر، وقرأ مختصر أبيه في آل البيت (فقه الشيعة) وهو المسمى بكتاب الاختصار في جمع حافل من العلماء والكبراء، وأثبتت أسماء الحاضرين، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر. ثم توالت حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك.

وفي أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حادث جامعي آخر. ففي رمضان سنة ٣٦٩هـ جلس يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلي، متضمناً ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز، وهو المعروف «بالرسالة الوزارية» نسبة إلى مؤلفها العزيز، وكان يجلس لقراءته بنفسه في الناس خاصتهم وعامتهم، ويهرع إلى سماعه سائر الفقهاء وأكابر القصر والدولة؛ وأفتى الناس يومئذ بما فيه؛ وكان ابن كلس كما سنرى شخصية ممتازة تجمع بين السياسة والعلم، وكان نصيرا كبيرا للعلماء والأدباء، وكان يعقد مجالسه تارة بالجامع الأزهر، وتارة بداره الخاصة. فيهرع إليه العلماء والطلاب من كل صوب، وكانت مجالس ابن كلس في الواقع أول مجالس جامعية حقيقية عقدت بالجامع الأزهر، وكانت تمتاز عن مجالس بني النعمان بتحررها من القيود الرسمية واتجاهها نحو الغايات العلمية.

والظاهرة أن الوزير ابن كلس هو أول من فكر في اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة؛ وعلى أي فهو أول من فكر في تنفيذ هذا المشروع الجامعي العظيم. ففي سنة ٣٧٨ هـ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءات والدرس يحضران مجلسه ويلازمونه، ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر.

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامعي حقيقي. فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله، أول فوج من الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة، وباشروا مهمتهم العلمية تحت إشراف الدولة بطريقة منظمة مستقرة؛ وإذا فنحن نستطيع هنا أن نقول إن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة.

الأزهر ودار الحكمة:

وأما الفصل الرابع فقد خصه المؤلف بالحديث عن دار الحكمة أو دار العلم وبواعث إنشائها، ونظمها الدراسية، وعلاقتها بالدعوة المذهبية، والتنافس بينها وبين الأزهر واضطراب الحياة العقلية في مصر الإسلامية.

ويشير المؤلف هنا أيضا إلى أن الأزهر لم ينشأ في الأصل لغاية علمية أو دراسية وأن الاتجاه الدراسي الذي دفع الأزهر إلى طريقه العلمي كان وليد المصادفة والظروف وكان وليد رغبة عارضة خطرت لوزير عالم وأمير مستنير.

لذا يقول المؤلف: بيد أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية لم تقصد في البداية أن توجه الأزهر إلى تلك الغاية الجامعية المحضة، فقد كان في برنامجها مع ذلك أن تحقق هذه الغاية على يد معهد دراسي خاص، وأن تقيم في العاصمة الجديدة جامعة للدرس ونشر المذهب الفاطمي. ولكنها لم تر أن تتخذ من الأزهر، وهو مسجد الدولة الرسمي مقرا لهذه الجامعة، بل أريد أن تكون الجامعة الجديدة معهداً مستقلا بذاته. وعلى ذلك أنشئت دار الحكمة الفاطمية أو دار العلم الشهيرة، أنشأها الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (مارس سنة ١٠٠٥م) أعني لنحو خمسة وثلاثين عاماً من قيام الجامع الأزهر. وكانت تعقد قبل ذلك بالقصر وأحياناً بالأزهر، مجالس تسمى مجالس الحكمة، ينظمها قاضي القضاة وتقرأ فيها علوم آل البيت، ويهرع الناس إلى شهودها،

وتخصص فيها مجالس للخاصة ومجالس للكافة وأخرى للنساء. ولكن الحاكم بأمر الله رأى أن تكون هذه المجالس أوسع مدى، وأن تنظم فى سلك حلقات دينية وعلمية متصلة يجمعها معهد رسمي واحد، فأنشىء المعهد الجديد وأطلق عليه دار الحكمة أو دار العلم.

ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالحرى هذه الجامعة.

نظم الدراسة والحلقات الدراسية:

وفى الفصل الخامس يتناول المؤلف الحلقات الدراسية بمصر الإسلامية ثم يفرد حديثاً عن حلقات الفسطاط والمسجد الجامع ويتبعه بحديث عن مجالس الشعر والأدب ثم نظام الدراسة بالأزهر ومصادر الانفاق عليه ثم حديثا عن كون الأزهر جامعة حرة.

ويخلص المؤلف فى هذا الفصل إلى أن نظام الحلقات العلمية كان وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة فى مصر الإسلامية وفى معظم الأقطار الإسلامية فى قرطبة واشبيلية وبلنسية وغيرها من القواعد الكبرى.

وأن الأزهر حينما أتيح له أن يدخل هذا الميدان الدراسى كان من الطبيعى أن تقوم الدراسة فيه وفقا لهذا النظام التقليدى المتوارث.

ثم يوضح المؤلف أن الأزهر نشأ واستمر طوال العصور حتى عصرنا معهداً حراً يؤمه الطلاب من كل صوب، من مصر ومن سائر أنحاء العالم الإسلامى، لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة أو كلفة. بل كثيراً ما رتبت لهم إلى جانب الدراسة الحرة، أعطية وأرزاق تكفى للإنفاق عليهم فى حياتهم الخاصة. وهذا ما يقوم به الأزهر اليوم بالنسبة للطلاب الوافدين عليه من مختلف الأمم الإسلامية.

والذين ينتظمون فى معهد البعوث الإسلامية وفى مختلف الكليات.

المواد والكتب والأساتذة:

وفى الفصل السادس يبسط المؤلف الحديث عن الأزهر والصبغة المذهبية والعلوم الدينية والمدنية والكتب الدراسية الأولى التى درست فى الأزهر والمكتبة الفاطمية ومكتبة الأزهر وبعض الأساتذة فى العصر الفاطمى وأثر الأزهر فى الحياة العقلية والسياسية.

ويؤكد هنا مرة أخرى على أن الدراسة بالأزهر كان يغلب عليها الصبغة الشيعية وأن ذلك لم يكن بالشىء الغريب فى ظل دولة كالدولة الفاطمية التى تتشح بثوبها المذهبى العميق، غير أن المؤلف يرى أنه بالرغم من ظهور هذه الصبغة المذهبية إلا أنها لم تكن مطلقة بالإضافة إلى أنها لم تلجأ إلى سياسة الإرغام بل اتبعت سياسة الرفق والتسامح وهو ما استشفه من المرسوم الدينى الذى أصدره الحاكم بأمر الله وهو من غلاة الخلفاء الفاطميين – فى سنة ٣٩٨هـ ١٠٠٨م وفيه يقرر بعض الأحكام ويفسرها، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف فى فهمهما ويحاول أن يوفق فى ذلك بين المذاهب المختلفة وقد جاء فيه بعد الديباجة:

«يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون؛ صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده؛ وعنده كتابه وعليه حسابه. ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجله هذا، وبعده قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ويسرد لنا المؤلف عدداً من الكتب الأولى التى تم تدريسها بالأزهر فى عهده الأول ثم يستخلص من ذلك حقيقة مهمة ألا وهى:

إن الكتب الأولى التى قررت للتدريس بالأزهر هى كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية، أعنى من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها، وكان لها صبغة رسمية واضحة، وكان التدريس بالأزهر يجرى يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية، وشدد فى ذلك بادئ ذى بدء حتى أنه فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فى عهد العزيز بالله قبض على رجل وجد عنده كتاب «الموطأ» للإمام مالك، وجلد من أجل إحرازه.

المناسبات الدينية والاجتماعية:

يتناول المؤلف فى هذا الفصل عدة نقاط هى: مهمة المساجد الجامعة، والأزهر مسجد الدوله الفاطمية، وإقامة الصلاة الرسمية فيه، وركوب العزيز إليه، هيئة صلاة الجمعة الخليفية بالأزهر، الأذان الفاطمى، والأزهر مركز المحتسب والاحتفال فيه بالمولد النبوى وعاشوراء، والأزهر فى ليالى الوقود، وعقد مجالس الحكمة فية.

ويستهل المؤلف هذا الفصل – بعد ذكر المساجد الموجودة فى القاهرة – بقوله:

وغدا الجامع الأزهر منذ قيامه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى، وفى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٢هـ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر، عقب مقدمه إلى عاصمة ملكه الجديد بقليل، إلى الجامع الأزهر لصلاة العيد، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس، وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمى بالجامع الأزهر.

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمى فى ظل الدولة الفاطمية زهاء أربعين عاما تقام فيه الجمع الرسمية، ويخطب الخليفة فيه بنفسه فى جمع رمضان وفى الأعياد.

يتبع

المحرم ١٤٣٤هـ
ديسمبر ٢٠١٢م

مكتبة الأزهر



إعداد: أ. محمد شعبان

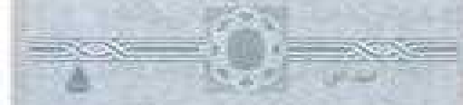
تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يعالج كتاب «حقائق وشبهات حول السنة والشيعة» - للدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي البارز - العديد من القضايا الفكرية والسياسية والتاريخية المثيرة للجدل بين السنة والشيعة. الكتاب الصادر عن دار السلام ينطلق من رؤية تهدف إلى توحيد جهود الأمة بترك النعرات المذهبية والبحث عن المشترك بين المذهبين. وعلى الرغم من نزوع الكتاب لخلق حالة وحدة بين جميع مذاهب الأمة إلا أن ذلك لم يمنع من كشف الأخطاء والخطايا التي وقع فيها الشيعة في الماضي و الحاضر حيث تم استخدامهم أداة لتفكيك واحتلال العالم الإسلامي ويقف الكتاب عند مثالين: «ابن العلقمي» الوزير الشيعي في الدولة العباسية الذي استقدم التتار فسفكوا دماء السنة والشيعة فكان نكالا ووبالا على الحضارة الإسلامية. أما المثال الثاني: فهو السيستاني الذي تحالف مع الأمريكان لغزو العراق. لم يغفل المؤلف مراجعات المفكر الشيعي أحمد الكاتب والذي رصد عن أوجه الخلاف بين المذهبين وكيفية تجاوزها عبر منهج علمي دقيق.



«لم يتنكر العلماء والباحثون المسلمون لتراث مصر القديم كما يفعل السفهاء اليوم بزعم أنه تراث وثني» بهذه الكلمات قدم د. قاسم عبده قاسم كتاب: «الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين» الصادر عن مكتبة الأسرة لمؤلفه د. عمرو عبد العزيز منير ويوضح قاسم في تعريفه للكتاب أن علماء المسلمين ومؤرخيهم أظهروا إعجابهم بالحضارة المصرية القديمة ونسجوا حولها الأساطير التي أضافوها إلى رصيد مصر الثقافي. الكتاب يبحث في المنطقة العميقة بين التاريخ والموروث الشعبي ويحلل بمدققات جادة حول أصل كلمة «مصر» وفضائل مصر والأساطير والحكايات التي تناولت الدفائن والكنوز المصرية القديمة فضلا عن الأساطير التي تناولت نهر النيل وأصول الملة المصرية.



في طبعة جديدة محققة عن الهيئة المصرية للكتاب للمؤلف حاجي خليفة «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» يقدم الدكتور محمد حرب دراسة وتحقيق وتعليق على هذا السفر الضخم والذي يقع في ثلاث مجلدات، مقدما فيها تراجم وافية لأعلام المئات: كالأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والقضاة والفلاسفة والقراء والعلماء والنحاة والشعراء والفلاسفة والأطباء، مولياً عناية خاصة بالعلماء والفقهاء، ويوضح المحقق أن خليفة ترجم لمشاهير الأعلام قبل الإسلام وبعده حتى عصر المؤلف - القرن السابع عشر الميلادي - معتمداً على الترتيب الهجائي. ويقول حرب عن الكتاب: «حرص حاجي خليفة أن يكون كتابه شاملا لتراجم الأعلام من معظم أنحاء العالم الإسلامي وحاول أن يوازن في عدد الأعلام الذين يذكرهم على امتداد المدة الزمنية الطويلة التي استغرقها الكتاب وأن كان أعلام عصره لم يحظوا منه بعناية كبيرة».



يرصد جون غريبين في كتاب «تاريخ العلم.. ١٥٤٣م-٢٠٠١م» الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية قصة العلم التجريبي الحديث والمعاصر خلال القرون الخمسة الماضية بأسلوب سلس ومبسط. يوضح غريبين في مقدمته أن نقطة الاختيار لبداية الكتاب منحازة حيث أنها تبدأ من كوبرنيكس الذي أصدر عام ١٥٤٣م كتاب «عن دوران الأجرام السماوية» موضحا أنه يسلط الضوء على معالم التطور الغربي ابتداء من عصر النهضة وصولا إلى نهاية القرن العشرين لكنه يستطرد قائلا: «معنى هذا أنني سأضع جانبا إنجازات فلاسفة وعلماء قدامى الإغريق والصينيين والإسلاميين الذين أنجزوا الكثير جدا بغية الحفاظ على استمرار حياة البحث من أجل معرفة العالم على مدى الفترة التي يشير إليها الأوربيون بعبارة العصور الوسطى الظلامية» ويمضي الكتاب في جزئيه راصدا الصراعات التي تعرض لها العلم في مسيرته الغربية من تصورات ترفض التجديد وتدعو إلى الجمود.



يسلط كتاب «الأصولية اليهودية في فرنسا وإسرائيل والولايات المتحدة» - الصادر عن الهيئة العامة للكتاب ضمن مشروع الألف كتاب الثاني، وترجمه سعد الطويل - الضوء على نشأة ومعالم الأصولية اليهودية في الغرب. ورغم أن مؤلف الكتاب - إيمانويل هيمان - يهودي إلا أن طبيعته العلمانية جعلته متحررا من قيود التطرف فرصد عبر قراءته النقدية انتشار الرؤية الأصولية اليهودية في بلدان العالم الغربي بالإضافة إلى إسرائيل طبعا موضحا أن هذا التيار المتشدد يعمل على فرض ديانة متوحشة ودموية ومجنونة رافضا مظاهر التغيير والحداثة حيث يقول: «إن الوطنيين المتعصبين على استعداد لفرض حلمهم بالسيطرة على الشعب اليهودي عن طريق صناديق الاقتراع أولاً ولكن أيضا للأكثر تشددا منهم عن طريق القوة إنهم يعتبرون أوامر التوراة أهم من الديموقراطية أو من حقوق الإنسان، هذه الاهتمامات الإنسانية التافهة التي لا تساوي شيئا أمام الخطط الإلهية».

خميلة الشعر

الأستاذ / محمد عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم أوزعنى أن أشكر نعمتك الحمد لله

شاء الله جلَّ فى علاه أن تعود إليكم خميلة الشعر بعد سنوات عديدة من الغياب، وهاهى تطل عليكم من جديد مع الفجر الجديد للعام الهجرى الجديد، الذى نسأل الله عز وجل أن يجعله عام عز وخير وبركة على بنى الإنسان جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها، وأن يعم الحب والسلام كل الدنيا، وأن يوفقنا فى العمل على تقديم ما يرضى ويفيد.. هذا ونبدأ بعون الله وتوفيقه بتقديم بعض من نوادر الشعراء، وبعدها نقدم، شعراء معاصرون، ثم نختتم بعرض كتاب الدر المنضدة من قصائد الوالد والولد

أولاً: من نوادر الشعراء:

قال الشاعر دعبل (*): حججت أنا وأخى رزين وأخذنا كُتبًا إلى المُطَّلب بن عبد الله بن مالك وكان واليا على مصر، فصرنا من مكة إلى مصر، فصحبنا رجل يُعرف بأحمد بن السراج، فما زال يحدثنا ويؤانسنا طول طريقنا، ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والأتباع، ورأيناه حسن الأدب، وكان شاعراً وكتمنا نفسه، وقد علم ما قصدنا له، وعرضنا عليه أن يقول فى المُطَّلب قصيدة ننحله إياها فقال إن شئتم، وأرانا بذلك سرورا وتقبُّلا له، فعملنا قصيدة وقلنا له تنشدها المُطَّلب فإنك تنتفع بها، فقال نعم ووردنا مصر به ودخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبًا كانت معنا، وأنشدناه، فسُرّ بموضعنا، ووصفنا له أحمد السراج هذا، وذكرنا له أمره، فأذن له، فدخل عليه، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التى نحلناها إياه، فلما مثل بين يديه عدل عنها وأنشده:

لمْ آتِ مُطَّلِبًا إلاَّ بمُطَّلَبِ
وهِمَّة بلغَتْ بى غايةَ الرُّتَبِ

أفردتُهُ برجاءٍ أنْ تُشاركَهُ
فىَّ الوسائلُ أو ألقاهُ فى الكُتُبِ

قال دعبل: وأشار إلى كتبى التى أوصلتها إليه وهى بين يديه، فكان ذلك أشدّ من كل شيء مرَّ بى منه علىّ، ثم أنشده:

رَحَلْتُ عَنْسى (1) إلى البيت الحرام على
ما كان من وَصَبٍ فيها ومن تَعَبِ

ألْقى بها وبوجهى كلَّ هاجرة
تكادُ تقدحُ بين الجلْدِ والعصَبِ

حتى إذا ما قضتْ نُسْكى ثنيْتُ لها
عطْفَ الزمام فأمّتْ سيِّدَ العرَبِ

فيمّمتْكَ وقد ذابتْ مفاصلُها
من طول ما تعبٍ لاقتْ ومن نقَبِ (2)

إنى استجرتُ بِإسْتارين (3) مُسْتلِمًا
رُكنين: مُطَّلبًا والبيتَ ذا الحُجُبِ

فذاكَ للآجلِ المأمولِ ألمسُه
وأنت للعاجلِ المرجوِّ والطلَبِ

هذا ثنائى وهذى مصرُ سانحةً
وأنت أنت وقد نابيتُ من كَثَبِ

قال: فصاح مطَّلبٌ: لبيك لبيك ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه وقال: يا غلمان، البدر، فأُحضرت، ثم قال: الخلع، فنُشرت، ثم قال الدواب، فقُيِّدت فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعيننا وصدورنا حسدا عليه، وكان حسدُنا بما اتفق له من القبول وجودة الشعر، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه واحتياله علينا أكثر وأعظم، فخرج بما أُمر له به، وخرجنا صفرا!

مدح دعبل أبا نصير بن حميد الطوسى، فقصّر الطوسى فى أمره ولم يرضه من نفسه، فقال عند ذلك دعبل يهجوه:

أبا نصير تحلحل من مجالستنا
فإن فيك لمن جاراك منتقصا

أنت الحمار حرونا إن وقفت به
وإن قصدت إلى معروفه قمصا

إنى هززتك لا آلوك مجتهدا
لو كنت سيفا ولكنى هززت عصا

فشكاهُ أبو نصير إلى الشاعر أبى تمام الطائى، واستعان به عليه فقال أبو تمام يجيب دعبلا عن قوله هاجيا متوعدا:

أدعبل إن تطاولت الليالى
عليك فإن شعرى سم ساعه

وما وفد المشيبُ عليك إلاَّ
بأخلاق الدناءة والضراعه

ووجهُكَ إن رضيت به نديما
فأنت نسيج وحدك فى الرقاعه

ولو بُدِّلته وجها بوجه
لما صليت يوما فى جماعه

ولكن قد رُزقت به سلاحا
لو استعصيت ما أعطيت طاعه

مناسب طَيِّئٍ قُسِمت فدعها
فليست مثل نسبتك المُشاعه

وروِّح منكبيك فقد أُعيدا
حُطامًا من زحامك فى خُزاعه

يعنى أنك تزاحم خُزاعة، تدّعى أنك منهم ولا يقبلونك.

ومن نوادر الشاعر دعبل أنه قال: كنت جالسا مع بعض أصحابنا ذات يوم فلما قمت سأل رجل -لم يعرفنى- أصحابنا عنّى، فقالوا هذا دعبل، فقال الرجل: قولوا فى جليسكم خيرا، كأنه ظن اللقب شتما!

(*) هو دعبل بن على بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل بن خداش بن خالد بن عبد بن أنس بن خزيمة بن سلامان ابن أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا، ويكنى أبا على، وهو شاعر متقدم مطبوع هجاء بذىء اللسان.

(1) العَنْس هى الناقة الصلبة (2) نقب: حفا (3) إستارين: مثنى إستار وهو من العدد: أربعة

ثانيا: شعراء معاصرون

نستهل قصائد الشعراء المعاصرين بقصيدة جميلة بعنوان إطلالة على إيلات للشاعر المجيد الأستاذ أسامة كامل الخريبى، الذى صاغ قصيدته من بحر البسيط، وأراه شاعرا مطبوعا ومتمكنا من لغته وأدواته، مصورًا ومبدعا، ينتقل من غرض إلى غرض بسلاسة ويسر، بل وتراه ينتقل بالمتلقى من حال إلى حال أخرى فى البيت الواحد فيقول مثلا فى الشطرة الأولى من البيت الأول من القصيدة: يا عازف اللحن فى ليل الأغاريد

هنا يخاطب عازفا للألحان فى ليلة تملؤها الأغاريد والأغنيات والألحان ثم فى الشطرة الثانية من البيت تراه ينتقل بنا من ليل الأغاريد الذى يشدو فيها عازف اللحن، إلى حالته هو النفسية المفعمة بالشجن والأسى فيقول: أضعت شدوك فى بث وتسهيد

ثم يستمر ممسكا بزمام القصيد متوجها لغايته قدما مؤكدا طول نفسه الشعرى وقدرته الوصفية والتصويرية فى رسم لوحة شجية موحية معبراً عما يشعره من أسى من أجل المعشوقة وهى القدس الأسيرة.

إطلالة على إيلات

(من عبارة بخليج العقبة كان عليها مجموعة من المغنين)

للشاعر أسامة كامل الخريبى

يا عازف اللحن فى ليل الأغاريد   أضعت شدوك فى بث وتسهيد
كأنما الموج فى عينيك غانية   راحة مع الصخر فى ضم وتنهيد
أم أن لحنك لا يعنيه حاضرنا   فيستميل قلوب الخُرد الغيد
هلا عزفت على آثار من رحلوا   لحن الشتات وقد غابوا عن العيد
وخلفوا القدس والأوطان عارية   تحت المعاول فى هدم وتهويد
هلا رثيت لما بالشط من أمم   نامت على الضيم وارتاحت لتقييد
كأنما غشيت أبصارهم سدف   فهم قعود على أسوار أخدود
انظر هنالك خلف الشط ما صنعت   أيدى الأباعد من صنع وتشييد
هنا أقاموا لهم فى أرضنا وطنا   ونحن نبحر فى تيه وتشريد
فى كل يوم لهم فى أرضنا قدم   ترسى دعائمها شتى الأسانيد
ونحن نرقب ما شادوه فى بله   وقد نرد بتلميح وتنديد !
انظر هنالك كيف الضوء مؤتلق   وكيف يهطل من فوق العناقيد
انظر هنالك كيف الحسن منبعث   حتى يشم على شك وتفنيد
هذى سواحلنا ما فوقها نسم   وذاك شاطئهم قد ضاق بالغيد
هذى شواطئنا جرداء قاحلة   وذاك شاطئهم غض الأماليد
هذى بوارجهم ضاق العُباب بها   تحوى الفواتك فى كبر لعربيد
تأتى وتذهب فى زهو بما حملت   كأنما قطعت من مارد البيد
حتى كأن مياه البحر ملعبها   فما تبيت على خوف وتهديد
هذا الخليج وهذا البحر كان لنا   فكيف صارا لها من غير تحديد ؟
هم ينحتون من التوراة حاضرهم   ونحن نأنف من ذكر وتوحيد
هم يجعلون صقور الحرب قادتهم   ونحن نلقى إلى الأصفاد بالصيد
هم يبعثون من التلمود أمتهم   ونحن نمحو تواريخ الصناديد
انظر هنالك كم من بيننا ملك   عزى وهنأهم فى الحزن والعيد
وهم يقيمون من أحزاننا لعبا   ويرسمون عليها نجم داود
وهم يبيدون زهر الحب فى حنق   ويهزءون بأنات المواليد
وهم هوايتهم ترويع أمتنا   وملء أيامها بالأعصر السود
وهم أقاموا صروحا من جماجمنا   مشوا عليها وفى بغى المطاريد
فكيف بالله نلقاهم هنا زُمرا   مطوقين بإكليل على الجيد ؟
لكم أسافر فى الأيام يا وطنى   وأنت قلبى وشريانى وتغريدى
وكم أفتش عن أرضى بلا كذب   ولا نفاق وتضليل وتقليد
فما أعود من التجوال يا وطنى   بغير جفن حسير الطرف منكود
وكم أفتش عن لحن بلا ألم   فما ألاقى سوى جرحى وتسهيدى
أتيت من رحم الأيام يا وطنى   وصورة القدس محبوبى ومعهودى
والقدس لحن وفاء لا نظير له   مازال يطرب من إيقاعه عودى
وثبت فى زمن الأهوال يا وطنى   وقصة القدس قاموس لترديدى
القدس جرح بعيد الغور فى كبدى   ومدية كسرت فى قلب غريد
القدس جرح وما للجرح من آس   سوى انتصار من الرحمن موعود

• واللقاء الثانى يكون مع قصيدة (ثورة الشام) للشاعر م/ محمود بكر أبو خميس، عضو رابطة أدباء الحرية بالدقهلية، وهو يدعو أبطال تحرير سوريا من نظام البطش والطغيان للصبر وللجلد من أجل تحرير سوريا الحبيبة وتخليصها من سفاحيها الغاشم وأعوانه

هذا وسترى الشاعر يغير دائما من قافية قصيدته وإن كان ملتزما بميزان الشعر فهو نظم قصيدته من بحر الكامل، وهذا لا ينقص من قدره وقدرته، ولكنه لا يهدف إلا لإبراز أفكاره بدون أن يعوقه عائق القافية الواحدة، وإن كان لا يشفع له أن وضع الياء فى آخر قافية كل بيت.

ثـــورة الشـــام

شعر: م/ محمود بكر ابو خميس

شـــام البـطـولـة والإبـاء تجـلـدى فـالنصـر آت لا مـحـالـة فـاثبتى
إن طـال ليلك ظلمــــة وكــآبـة فـالشمس تشرق والظلام سيـنجلى
صـبـــرا على الأعـداء يأرض الفـدا فلقـد عـهـدتك بالجـهـاد كـأمتى
أرض تربى فى رحـابك فـتـيـة الكل أجـمـع قـائلا لن تركـعى
مـا عـاد تؤلمنى جـروح سـيـاطكم فلقـد علمت بأن نصـرى سـؤددى
ولقــد علمت بأن سـجـنى خلوة بالله تلك مـقـاوزى ومـآربى
عـبق الشـهـادة إن قـتلت فـإنما روحى إلى الجنات حـتـمـا تهـتدى
تلك الرجـال حـقـيـقـة إن رمـتـهم ولى المفـاخـر أن تلك عـصـابتى
هم عـصـبـة للحق قـد رفـعـوا اللوا بل أنشـدوا للذل لحن كـرامـتى
بشار يابن الخـائنين عـرفـتـهم؟! شـمس العـدالة كم أنارت ظلمـتى
أسـد البـرية فى الكريهـة تلقـهم نارا تطيح بكل باغ مـعـتـدى
بشـار مـا بشـراك تلك خـديعـة لن يلبس الشـيطان زى المهـتـدى!
تبـا لذكـرك للإنام بصـيـرة يا قـاتل الأطفـال بغـيك هالنى
البـعث حـزبك كـافـر ومكفـر وأبوك مـات فـمـا بكتـه مساجدى
بالنزور قلتم بالوصـال لأحـمـد ياشـيـعـة الشـيطان تلك براءتى
ولســوف يعلم كلكم هذا الذى يدعى بغـيـر الاسم معـنى كرامـتى
أنا سـورية ولله فـضل كـفـاحـهـا والكل يعلم فى الجـهـاد كـتـائبى
ولم التـعـجب إن فـقـدت أحـبـة إن كـان فى ذات الإله شـهـادتى
فى الشام قـوم قـد تسـاوى عندهم معـنى الحـيـاة مع الممات بساحـتى
تالله مـا سـجـدت جـبـاه رجـالها إلا سـجـودا للمـهـيـمـن خـالقى
صـبـرا فـإن الله نـاصـر جنده فـصحـائف الطاغـيـان حـتـمـا تنطوى

• ونأتى معا إلى قصيدة لواحد من كبار الشعراء المعاصرين، وشاعرنا اليوم هو الشاعر محمد الفيتورى ونقدم اليوم قصيدته:

التراب المقدس

وَسدْ الآنَ رأسَكَ
فَوقَ التُّرابِ المقدَّس
واركعْ طويلاً لَدَى حافَةِ النَّهر
ثمَّةَ من سكَنتْ رُوحُهُ شجرَ النَّيلِ
أوْدَخلتْ فى الدُّجى الأبنوسىّ
أوْخبَّأتْ ذاتَها فى نُقُوشِ التَّضاريس
ثمَّةَ من لامستْ شفتاهُ
القرابينَ قبْلكَ
مَمْلكةُ الزُّرقَةِ الوثنية...
قبْلكَ
عاصفةُ اللَّحظاتِ البطيئة..
قبْلكَ
يا أيُّها الطيفُ مُنفلتاً من عُصُورِ الرتابةِ والمسْخ
ماذا وراءك
فى كتب الرمل؟
ماذا أمامك؟
فى كتب الغيم
إلاّ الشموس التى هبطت فى المحيطات
والكائنات التى انحدرت فى الظَّلام
و امتلأوْك بالدَّمع
حتّى تراكمت تحت تُراب الكلام
XXXX
وسد الآن راسك
متعبة هذه الرأس
مُتعبة..

مثلما اضطربت نجمة فى مداراتها
أمس قد مرّ طاغية من هنا
نافخاً بُوقه تحت أقواسها
وانتهى حيثُ مرّ
كان سقف رصَاصٍ ثقيلاً
تهالك فوق المدينة والنّاس
كان الدّمامة فى الكون
والجوع فى الأرض
والقهر فى النّاس
قد مرّ طاغيةٌ من هُنا ذات ليل
أتى فوق دبّابة
وتسلّق مجدًا
وحاصر شعبًا
غاص فى جسمه
ثم هام بعيدًا
ونصّب من نفسه للفجيعة ربّا
XXXX
وسد الآن رأسك
غيم الحقيقة دَرْبُ ضيائك
رجعُ التّراتيم نَبعُ بُكائك
يا جرس الصّدفات البعيدة
فى حفلة النّوْء
يشتاقك الحرس الواقفون
بأسيافهم وبيارقهم
فوق سور المدينة

والقبة المستديرة في ساحة الشّمس
والغيمةُ الذهبيّةْ
سابحة في الشّتاء الرمادى
والأفق الأرجوانى والأرصفة
ورؤوس ملوك مرصعة بالأساطير
والشعر
والعاصفة

xxx

أمس جئت غريباً
وأمس مضيت غريباً
وها أنتَ ذا حيثما أنت
تأتى غريباً
وتمضى غريباً
تُحدِّق فيك وجوه الدُّخانْ
وتدنو قليلاً
وتنأى قليلاً
وتهوى البروق عليك
وتجمد في فجوات القناع يداك
وتسأل طاحونةُ الرِّيح عنك
كأنك لم تكُ يوماً هناك
كأن لم تكُنْ قطُّ يوماً هنالك

xxx

وسْد الآن رأسك
في البدء كان السُّكُونُ الجليل
وفي الغد كان اشتعالُك
وسد الآن رأسك
كان احتجابُك
كان غيابُك
كان اكتمالُك

xxx

وسد الآن رأسك
هذا هو النهر تغزلُه مرتين
وتنقضه مرتين
وهذا العذاب جمالُك

ونختتم شعراء معاصرون بقصيدتى (ذكرى هجرة الرسول)

ذكرى هجرة الرسول

رأيــــتُ هلالــهُ فهفــا بيانى … وحاصر حقدهم مسرى رسولِ
فـــغــردت اليـــراعــة في بنانى … يودُّ لهم نعـيـمـا في الجنــــان
فـقــد وفــد المُحــرَّمُ في صفــاء … وحــول البيت طافـوا باتضاعِ
لدُنيــــــانا بريـــث واتـــزان … لإلحــاق الأذى بـرفـيـع شــــان
يعـيد إلى الشاعر خير ذكرى … وخــاب الشــرُّ في سنة ونوم
خيـــر الخلق في أسمى المعانى … ومــرَّ المصطفى ثبْتَ الجنــــان
أراد الشـركـون لــهُ هلاكــا … هو المختـــارُ يا بُشــراى يخطو
وشـاء لهم حيـــاةً في أمــــان … بكل اليُــمن، تحدوهُ الأمـانـــى

فلم يرَ ثورةً أحـداثَ سوءٍ … " طلع البدرُ علينا من ثنيّات الوداع "
وباءوا بالمذلة والهـــوان … " وجب الشكر علينا ما دعـا لله داع "
بمقصى من تفرّدَ في سموق … " أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمر المطاع "
فليس له بدنيـا الناس ثـــانِ … " جئت شرّفت المدينة مرحبا يا خير داع "
مضى وخليلهُ للغار يسعى … هى الذكـرى وللذكرى طيوقٌ
على درب الهـداية والأمــــان … يكاد يرى سناها الناظـران
ومن كــان الإلهُ له حفيظا … رأيت بهـا المواكب حـافلات
فلا يخشى الإساءة من جبــان … تموج بفـيض بِشرٍ كلَّ آن
وفى أطراف (يثــرب) رنَّ لحن … فـيهنا في بلاد الشام طفلٌ
بديعٌ فــاق ترجيع الأغـانى … بعــودة أمنه، ويقـرُّ عــان

هذا ويجدر بى أن أختتم خميلة الشعر بأبيات أراها واجبة لحق إنسان كان مفعما بالإنسانية وهى وإن كانت لا تفيه حقه عليّ، إلا أننى أعترف بتقصيرى.

وداعا أديب الإسلام وشاعر العربية، صديق عمرى الراحل الأستاذ / أحمد مصطفى حافظ

كرفيف من السنا … كان بالأمس بيننـا
ينشر الخير والتقى … كيف أضحى مصابنا
نحنُ بالشعر أهلُهُ … دُرَرُ الشعر نسلهُ
شعَّ بالخير قولـهُ … من شذى الحب أصلُهْ
منح الكل بــرّهُ … نشر البــرَّ عطـرهُ
عظَّم اللهُ أجـرهُ … عاش بالــودِّ عمرهُ
رفعة الدين دأبـهُ … مصر في القلب حبُّهُ
عاشق الفكر صبّهُ … فاض بالخير قلبــهُ
عالم الشعر كم هفا … لقصيد لهُ صفـــا
أرهف السمع واحتفى … بالذى عزّ موقفــا
أسرة الشاعر القدير … خطبكم خطبنا الكبير
وعزائى لكم بصبر … بلسم الصبر للصدور

اللهم هيء لنا الخير، واعزم لنا على الرُّشْد، وآتنا من لدُنك رحمة، واكتب لنا السلامة فى الرأى إنك سميع مجيب

الدرُّ المنَضَّدُ

من قصائد الوالد والولد

الحمد لله، الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، الفرد الواحد من غير عدد، وهو الباقى بعد كل أحد، إلى غير نهاية ولا أمد، تعالى أن يكون له شريك فى سلطانه، أو فى وحدانيته نديد، أو فى تدبيره مُعين أو ظهير، لا تحويه الأقطار، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، أما بعد

كتابنا الذى نحن بصدد تقديم دراسة نقدية مختصرة وبسيطة عنه اليوم هو ديوان شعر مشترك بين شاعرين وعالمين كبيرين، هما أب وابنه، الأب هو العلامة الشيخ صالح داملام بن نظام الدين، الملقب بالنظامى، المولود سنة ١٨٩٥ ميلادية؛ أما الابن فهو العلامة الشيخ محمد بن صالح الكاشغرى الأرتوجى المولود سنة ١٩٣٥ ميلادية، وهما من أهالى بلدة آرتوج التى يدين أهلها بالإسلام والتى هى من أقاليم جمهورية الصين الشعبية، والذى عنى بجمعه وترتيب قصائده الأستاذ / إمام حسن عبد القهار.

يبدأ الكتاب أو الديوان بقصائد الوالد التى استهلها بقصيدة (الجامع الميمون) وهى من بحر الطويل ويقول فى بيتها الأول:

لكَ الحمدُ ياذا العرش خالق أكوان
على ما فرغنا عنه من شيد بنيان

وأقول: لك الحمد ياذا العرش، هى عبارة سائغة أما عبارة خالق أكوان فليست كذلك، وتسوغ بعبارة: يا خالق الأكوان، ولكن الوزن وقف حائلا أمام الشاعر، وقوله: على ما فرغنا عنه، كان يجب أن يقول بدلا منها: على ما فرغنا منه، وياحبذا لو أن الشاعر قال البيت الشعرى هكذا:

لك الحمد ياذا العرش فى كل موقف
على ما فرغنا منه، من رفع بنيان

أما فى البيت الثانى فقد قال الشاعر:

حمى طاعة لله بقعة قربة
منارة إسلام وعلم وعرفان

وأقول: إن جملة (حمى طاعة لله) هى جملة جميلة رائقة وتحمل دلالة ومعنى، ولكن كنت أتمنى لو قال الشاعر هذا البيت هكذا:

حمى طاعة لله فى خير بقعة
منارةِ إسلام، وعلم، وعرفان

أما البيت الثالث فقد تفوق فيه الشاعر على نفسه حين قال:

مُصلًى سبى - لَمّا تبدّى - نُهى الورى
برفعة حيطان، وزينة ميدان

يقول معنى البيت: لما ظهر بناء المسجد برفعة حيطانه وزينة ميدانه فقد أسر ألباب الناس ومشاعرهم، أما شاعرنا فقد بدت شاعريته متألقة ورقاقة فى تصرفه الجميل ونظمه البديع حين قال فى الشطر الأول للبيت: مُصلى سبى، ثم اعترض بعبارة، لَمّا تبدّى، وأكمل بجملة، نُهى الورى، ليمتع إحساسنا بشاعريته العربية الموحية

وفى البيت قبل الأخير من نفس القال الشاعر:

ولما أشادوه وراق روائه
وتم بشكل ضاء كالبدر نورانى

فقد وقع الشاعر فى خطأ نحوى فى لفظة روائه وكان عليه أن يقول بدلا منها كلمة رواؤه لأن كلمة رواء هنا تقع فاعلا للفعل راق لذا وجب الرفع .

هذا وقد استوقفتنى فى الديوان قصيدة (يا قرة العين) لما فيها من عواطف جياشة ومشاعر فياضة من أب مشوق إلى ابنه وفلذة كبده الذى غاب عنه، وطال به البعاد حتى تحركت اليراع فى يد الأب الملتاع لينظم هذه القصيدة المتفردة فى غرضها والمتميزة فى مضمونها، والتى يستهلها قائلا:

نوائب الدهر فكّت كل أوصالى
وزلزلت طود صبرى أىّ زلزال

وبعد أبيات يقول:

بنىّ فارجع وبادر نحونا عجلا
إنّ الحشا أحرقتْهُ نار بلبال

تفز هُديتَ ببرّ الوالدين فما
أبهى رضائهما يا فخرىَ العالى

كلاهما كبير الأهرام قد بلغا
فاخفض جناحك وارحم غير مُختال

ولا تقلْ لهُما أفٍ وقُل لهما
قولا كريما تجدهُ خير أعمال

ونحن فى الأبيات السابقة نرى شاعرنا الكبير يحث ولده على العودة إليه وإلى والدته بعد أن عانى الأبوان من مشاعر اللوعة والضنى، ثم نرى الشاعر يذكّر ولده ببر الوالدين، وبأنهما قد صارا مسنين وشبههما بالأهرام، متأولا قول الله عز وجل:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾

(الإسراء: ٢٣-٢٤)

أقول:

فالحمدُ لله يتلوها مُرتِّلُها
وما التشهد فيها والتحيّاتُ

أما فى قصيدة (عجالة غد فى بداهة أحمد) فيستهلها الشاعر بالأبيات الجميلة التالية:

همــزيّةٌ أم غــادةٌ غــيــداءُ
أم روضــةٌ مــخــضــرةٌ غنّــاء

أم دُرّة التـبـيـان فى سلك الـبـهـا
ولهـا أشـعـة أنجم وضـيـاءُ

ولهـا مـعـان كـالبـدور تألّقت
وتعجـبت من سـبكهـا الخطبـاءُ

وبهـاحـة ورشـاقـة وعـذوبـة
علقت بهـا الـنـامـور والحـربـاءُ

وترى فى البـيت الرابع كلمـة وبهاحة، التى لا معنى لها وأظنها خطأ مطبعيا وأرى صحتها هى: (وفصاحة)

ويقول الشاعر بعد ذلك:

سلبت عقول أولي النّهى ببيانها
وتناسُب الألفـاظ فـيـه رواءُ

وتخشحشت من حُسنها وتضاءلت
سـوقـهـا الفـصـحـاء والبلغـاءُ

كلمـة (تخـشـحـشت) لا أعـرف مصدرها، وكلمة سوقها موقعها غير مناسب وإنى أرى جعل البيت بالصورة التالية:

وتراجعت من حسنهـا وتضاءلت
دونهـا الفـصـحـاء والبلغـاء

ثم يواصل شاعرنا قائلا:

فى عـبقرىّ النور فصلُ خطابهـا
قـد تـاهَ والصـوغُ الأنيقُ رداءُ

قد راقنى تشبيهـها ومجازها
والسـجع والتـصريعُ والإيمـاءُ

وشممتُ ريح المسك فى فقراتها
وتـلألأت من شطرها الأضـواءُ

أملى وأنشـأها هزبر فـصـاحـة
بل بُحتُرىُ العصـر بل خنسـاءُ

ثم نرى الشاعر بعد ذلك بأبيات يستمر مجيدا ومترنما فيقول:

يا طُرفة الأشعار يا حسّانها
يا أحـمـد النحـوى يا فـرّاءُ

وانظر معى عزيزى القارئ، كيف بلغت فصاحة الشاعر أوجها، وكيف استعمل مفردات العربية أفضل استعمال فتراه يقول شممت ريح المسك فى فقراتها، فيجعلنا نستخدم حاسة الشم معه لنشم رائحة المسك العبقة، ثم يبهرنا بالأضواء التى تتلألأ فى ثنايا تلك العبارات الرقاقة، وانظر معى حين استخدم عبارة (هزبر فصاحة) وحين أتى بأعلام الشعر العربى كالبحترى والخنساء، ثم أتى بطرفة الشاعر الجاهلى وهو واحد من أصحاب المعلّقات، وذكر حسانا شاعر الرسول الكريم ﷺ، وذكر كذلك الفرّاء، وهو يحيى بن زياد الديلمى (٧٥٧هـ - ٨٢٢هـ) النحوى، الفارسى الأصل، الذى ولد بالكوفة واستقر فى بغداد، وكان فى زمانه أعلم الكوفيين بالنحو، وهذا مما يؤكد المدى البعيد لثقافة الشاعر العربية وتمكنه الواضح من اللغة العربية ومن مفرداتها ونحوها وبلاغتها وأيضا أعلامها.

ويسير الشاعر على نفس درب المديح، فى قصائده الجميلة: (عروس بشرى)، (عليك سلام فاح كالمسك)، (نالنى منه كتاب)، (أنت أولى

معلم)، (يا ما أمر غانية)، (هدية صالح)، (ثقب الرأى ماجد)، ثم بعد ذلك تأتى إلى قصيدة (يا حسرتا) وهذه القصيدة نظمها الشاعر فى غرض الرثاء، قال فيها:

إنما فى القلب داءٌ ليس يمحوهُ دمْ
سائل من مقلتى قد يحتكيه عندمْ

وأرى هنا ضرورة تغيير لفظة يحتكيه لغرابتها، والتى أظن أن الشاعر أراد بها يحاكيه، ولذا أرانى مضطرا لتغيير العبارة بالصورة التالية:

إنما فى القلب داءٌ ليس يمحوه دمْ
سائلٌ من مقلتى قد صار فيه عندمْ

إلا أن هذه القصيدة قد نالها الإقواء فى بعض الأبيات، والإقواء هو عيب من عيوب القافية وذلك بتحريك المجرى بحركتين مختلفتين غير متباعدتين، مثل الكسرة والضمة فى قولك مثلا معابد (بكسر الدال) ومدارسُ (بضم السين)

فقال مثلا:

حسرتا يا حسرتا عبد الكريم المُقتدى
مات يبقى الرزء فينا منه أحلى العلقم

الإمام اللوذعىّ الألمعىّ المهـتـدى الفقيه
الكشغرى الشهدى الأعلـمُ

وبالبيت الأخير من القطعة كلمة (هدرت) والحمامة لا تهدر وإنما تهدل، وكذلك قال الشاعر ورق الحمامة، وكان يجب أن يقول ورق الحمام لأن ورق للجمع من الحمام، ومفردها ورقاء، فيكون البيت بعد تعديله كما يلى:

يارب صُنهُ من الآفات ما هدلت
ورق الحمام على الأغصان بالطرب

هذا ونختتم شعر الوالد بعدة مقطوعات بديعة منها وصية الوالد إلى ولده، ونبدأ الآن بعون الله تعالى فى عرض ونقد أشعار الإبن أو ولد الشاعر وهو العلامة الشيخ محمد بن صالح الكاشغرى الآرتوجى المولود سنة ١٩٣٩م.

قال الشاعر فى قصيدة نشرت بمجلة الأزهر العصماء، بعنوان (تحية المولد الكريم) وهى مديح لرسول الله ﷺ بمناسبة المولد النبوى الشريف:

بسمَ الزمانُ بمولد المُختـار
والكون أشـرق ليلُه كنهـار

إلى أن قال:

فالبعضُ إختار الضلالة خاسرًا
وأصرَّ فى غىٍّ وفى استكبار

ونرى أنّ الشاعر قد خالفه التوفيق حين استخدم همزة القطع بدلا من ألف الوصل فى لفظة اختار، ولتصويب ذلك نقول

فالبعض يختارُ الضلالة خاسرا
ويصـرُّ فى غىٍّ وفى اسـتكبـار

إلى أن يختتم قصيدته قائلا:

فأتيتُ مُشتاقا أحنُّ إليك من
أقصى بلاد الصين من كشغار

عن مُسلمى الصين البعيدة مخلصا
أهدى إليـك تحيّـة الإكبـار

طالت غيبة ابنة الشاعر فالتاع لها وتحير وتبلبلت أفكاره، وبكى فؤاده غياب كريمته الذى طال فقال:

الا للمرء أدهى ما يلاقى
من الحدثان حادثة الفراق

فراقٌ دلَّ طود الصبر منى
وأدمى العين بالدمع المراقى

رحلت فحرتُ فى أمرى كأنى
شربتُ اليوم من كأسٍ دهاق

شوى كبدى ونغّص صفو عيشى
وصيّر ما احتلى مُرَّ المذاق

ثم نراه يقول بعد ذلك:

تركت أباك شيخا وهو يشكو
من الوجد المبرح ما يلاقى

ثم يقول:

قد استصغرتُ أمر البين جهلاً
وها هو فى الفؤاد لظى احتراق

ويقول أيضًا:

الا يا قُرّة العين اخبرينى
متى يأتى لنا يوم اتساق

إلى أن يختم قصيدته بقوله:

فهل من يخبرن بشرى وصال
ويؤذننى متى منا التلاقى

وفى البيت الأخير كنت أتمنى لو قال الشاعر:

فهل من مخبر بشرى وصال
ويؤذننى متى يوم التلاقى

وبعد عدة قصائد ومقطوعات أجد قطعة للشاعر بعنوان (لا زال محترما) يهنئ بها صديقا له عاد من الأراضى المقدسة بعد أدائه فريضة الحج، وقال فيها:

يا حُسن مُنقلبٍ للقلب من طرب
يا روح روح نأى عن كل مضطرب

ويا سعادة أزمان حوت شرفا
بيمن بشرى قدوم البارع الأرب

إلى أن قال:

اتيت بالحج مبرورا وقد غفرت لك
الذنوب بما قاسيت من كُرَب

من بيت ذى العرش بيت طاب منظره
وكان قدما شريفا عالى الرُّتَب

وفى الختام فإننى أحمد الله أن شرفنى وأعاننى على أن أقوم بعمل دراسة عن هذا الديوان الرصين القيّم، لاثنين من أفاضل علماء المسلمين، وهما والد وولده، عمر قلبيهما وحياتيهما الإسلام الحنيف، وقاما بأمانة الدعوة الواعية إلى نوره وهداه سائلا البارى عز وجل أن ينفع به الباحثين وطلاب العلم والمسلمين أجمعين، والله ولى التوفيق.



من معالم شخصية المصطفى «صلى الله عليه وسلم»

«إضاءات.. وبشارات»



بقلم الأستاذ الدكتور/ صابر عبدالدايم يونس
أستاذ الأدب والنقد وعميد كلية اللغة العربية بالزقازيق
جامعة الأزهر

١. الإضاءة الأولى: محمد ﷺ المثل الأعلى فى كل شىء

إن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى فى كل شىء: فى الأخلاق، ونقاء الأصول، والشجاعة، والصدق، والفطانة، والبيان المشرق، والسلوك الأمثل، مصداقًا لقول الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

وقد أفاض العباقرة والفلاسفة والمفكرون والفقهاء فى تبيان عظمة المصطفى - ﷺ - وفى التنقيب عن أسرار البيان النبوى، والكشف عن سمات الشخصية المحمدية.. قولا.. وسلوكا.. وفعلا.. وتقريرا.. وهيئة.. وصفة.

والمفكر الكبير الأستاذ/ عباس محمود العقاد يتوج حياته الخصبة الفياضة بالفكر الموسوعى الإنسانى، بعبقرياته التى رصد فيها جوانب العظمة فى الشخصية الإسلامية.

وفى مقدمة هذه العبقريات.. تأتى عبقرية محمد، لتقدم رؤية عميقة نابعة من جلال الإسلام وجماله وهيبته لشخصية المصطفى ﷺ. ويقول العقاد: «إن علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهى أسباب تمهد لظهورها، وهى أى الرسالة رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها، فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟ وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها، أو تعوض ما نقص منها؟

وقد خلق ابن عبدالله ليكون رسولا مبشرا بدين، وإلا فلأى شىء خلق؟ ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات؟ وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجراً أمينا ناجحا موثوقًا به فى سوق التجار والشراء، ولكن التجارة تشغل بعض صفاته، ومن ثم

تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد، فالذي أعده له زمانه، وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل أعداد[1].

وفي كتاب «حياة محمد» للدكتور/ محمد حسين هيكل، تتجلى الروح العلمية الدقيقة في الدفاع عن رسالة الإسلام، وعن سيرة المصطفى ﷺ ويبدأ مقدمة كتابه بهذا الاستهلال الرائع، وهذا الوصف الدقيق لمكانة المصطفى ﷺ في نفوس البشرية المؤمنة. يقول: «محمد عليه الصلاة والسلام» بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات وهذه الشفاه والقلوب تنطق وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين.

وبهذا الاسم الكريم تنطق الشفاه، وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين، فإذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذن بالناس أن الصلاة خير من النوم، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجلين


هيكل العقاد

في مطلع كل نهار.

وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر، ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء، وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبدالله ونبيه ورسوله في ضراعة وخشية وإنابة، وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تخف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه.

كذلك كانوا وكذلك سيكونون حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين»[2].

ولقد أشاد المفكرون الأجانب والمستشرقون بعظمة الشخصية المحمدية وسمو الرسالة الإسلامية يقول «توماس كارليل»: في كتابه «محمد المثل الأعلى»: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمد خداع ومزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع عن مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة.

١. عبقرية محمد للعقاد، وانظر: مطلع النور للعقاد، المجلد السابع لأعمال العقاد الكاملة، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

٢. حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - د. محمد حسين هيكل ص ٢١.

فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا[3]. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فأستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا.

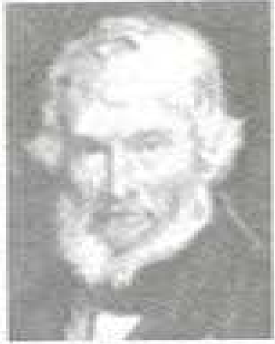
ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق.

فوا أسفاه ما أسوأ هذا الزعم، وما أضعف أهله، وأحقهم بالرثاء والرحمة.

ثم يتابع «توماس كارليل» تفنيد مزاعم المكذبين والجاحدين في أسلوب ساخر ولغة أدبية راقية، إذ يقول: «وبعد.. فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان، ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم.

الرجل الكاذب - لا يستطيع أن يبني بيتا من الطوب، فكيف يوجد لدينا دينا: أي كيف يبلغ دينا عن ربه؟

كلا.. ما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وإنما هو قلعة من الحياة قد تفطر عنها قلب


توماس كارليل

الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، وذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين «ص ١٤»، «محمد المثل الأعلى».

لقد كان محمد - ﷺ - متفردا بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه، وروائقه ومباهره، لم يك هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكان لسانه حال ذلك السر يناجيه «ها أنا ذا»، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس.

وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء، وكل قول جفاء ص٢٨.

الإضاءة الثانية: البشارات والنبوءات بمحمد ﷺ:

إن الدفاع السابق عن المصطفى ﷺ من أديب وفيلسوف ومؤرخ إنجليزي.. يدين بالمسيحية.. ووجدانه متفتح على ما في الإسلام من معالم مضيئة وما في شخصية محمد ﷺ من صفحات مضيئة وصور ناطقة بالمجد والعظمة والخلود.

٣. المسلمون الآن يزيدون على ألف مليون مسلم، فقد زاد في نحو مائتي سنة أكثر من ٨٠٠ مليون مسلم وسبحان الله العظيم.

هذا الدفاع ينطلق من فهم لنصوص الكتاب المقدس.. وابتعاد عن دائرة التعصب.. والانغلاق.. والشيخ «أحمد ديدات» الداعية الإسلامي الكبير، والدارس المتخصص في دراسة «الإنجيل» يقول مؤكدا البشارة بالنبي محمد ﷺ:

«جاء في سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام البشارة بالنبي محمد ﷺ: أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه «سفر التثنية: ١٨: ١٨، ١٩»

وقد استقر رأي الشيخ «ديدات» بعد مناظرة طويلة مع علماء الدين المسيحي واليهودي.. وإقناعهم على أن النبي المراد هنا في هذه النبوءة هو: النبي محمد «ﷺ».

لأن العرب واليهود ينحدران من سلالة إبراهيم عليه السلام، وهما ينسبان إلى «إسماعيل، وإسحاق» وأن أبناء أحدهما هم أخوة لأبناء الآخر، ويقول الكتاب المقدس مؤكدا هذه الحقيقة «وأما جميع إخوته يسكن» سفر التكوين ١٦ / ١٢.

وعند وفاة إسماعيل تقول التوراة: وهذه سنو حياة إسماعيل، مائة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه، وسكنوا من حويله، إلى آشور التي أمام مصر حينما تجيء نحو آشور أمام جميع إخوته نزل «سفر التكوين ٢٥ / ١٧، ١٨».

إن أبناء إسحاق هم إخوة لأبناء إسماعيل، وبنفس النمط فإن محمدا من وسط إخوة بني إسرائيل، ذلك لأنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، هذا بالحقيقة كما تنبئ به النبوءة أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم وهناك.. تذكر النبوءة بوضوح أن النبي الآتي الذي هو مثل موسى والذي سيظهره الله ليس من «أبناء بني إسرائيل» ولا من «بين أنفسهم» ولكن «من وسط إخوتهم» من ثم كان محمداً هو «من وسط إخوتهم».

وإن المراد من (إخوتهم) أبناء العمومة، لقول التوراة، وأوصى الشعب قائلا: «أنتم مارون بتخوم إخوتكم بنو عيسو الساكنين في سعير».

نبوءة أخرى: تبشير باعتكاف المصطفى (ﷺ):

اعتكاف محمد وتعبده في غار حراء المعروف اليوم «بجبل النور» واستجابته لبدء التنزيل وحيا عن طريق جبريل الملاك: إنما هو تحقيق وإنجاز لنبوءة في سفر أشعياء (١٢: ٢٩) هذا نصها:

«أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا فيقول: لا أعرف الكتابة والمراد بالكتابة هنا: هو القرآن..» والترجمة الصحيحة لعبارة لا أعرف الكتابة هي: ما أنا بقارئ.

ومن ألزم اللزوميات أن تعلم أنه لم تكن هناك نسخة عربية من التوراة موجودة في القرن السادس الميلادي عندما عاش محمد ﷺ ودعا إلى سبيل الله.

وكان محمد ﷺ أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وما علمه أحد كلمة. كان معلمه خالقه لقوله سبحانه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ٣، ٥)[4]

ويقول الفيلسوف البريطاني: «برناردشو»: «إني اعتقد أن رجلا مثل محمد لو تسلم بزمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه لتم له النجاح في حكمه، ولقاد العالم بأسره إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة»..

والقرآن الكريم يأتي بهذه البشارات في بيان رائق وأسلوب حكيم فعندما وقف إبراهيم - عليه السلام - وهو يقيم القواعد من البيت رفع يديه إلى السماء وقال:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٩)

واستجاب الله لدعوة إبراهيم - عليه السلام - وبعث النبي الخاتم.

وفي التوراة والإنجيل تأتي البشارة بمحمد ﷺ ويصور القرآن هذه البشارة المعجزة في سورة الأعراف يخاطب موسى عليه السلام:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ﴾[5]

(الأعراف: ١٥٧)

وعيسى - عليه السلام - بشر برسالة محمد، وذلك مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[5]

(الصف: ٦)

وقد ذكرت أوصاف الرسول محمد ﷺ بدقة في التوراة والإنجيل بحيث يمكن لأحبار اليهود ورهبان النصارى بأن يعرفوا رسول الله دون أن يدلهم أحد عليه وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[5]

(البقرة: ١٤٦)

وبعض العلماء قد أفاض الله عليه ووفقه إلى الإتيان بالنبوءات والبشارات بمحمد في جميع الكتب والأسفار الدينية العالمية.

ومن هؤلاء الباحثين العلماء «مولانا عبدالحق قد يارتي» وله كتاب ألفه باللغة الإنجليزية وسماه (محمد في الأسفار الدينية العالمية) واستفاد من مقارناته

٤. ماذا يقول الكتاب المقدس ص-٤، الشيخ أحمد ديدات

٥. محمد رسول الله ص٩ - ١٠، الشيخ محمد متولي الشعراوي

ومناقشاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية، وبعض اللغات الأوروبية. ولم يقتنع فيه بكتب التوراة والإنجيل، بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة. وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة.

ويقول الأستاذ العقاد «ولا نذكر أننا اطلعنا على أقوى منها في روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية.

يقول الأستاذ (عبدالحق): «إن اسم الرسول العربي «أحمد» بلفظه العربي في «الساما فيدا» من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها (إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس)».

وفي مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبي محمد ﷺ مذكور بوصفه الذي يعني «الحمد الكثير والسمعة البعيدة» ومن أسمائه الوصفية اسم «ستشراقا» الذي ورد في كتاب «الآثار فافيدا» حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين».

وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة، وزعماء القبائل الكبار وكلائهم الصغار، كما كانوا يوم قاتلوا النبي - صلوات الله عليه.

وكذلك صنع الأستاذ (عبدالحق) بكتب زاراد شت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية. فاستخرج من كتاب «زندافستا» نبوءة عن رسول يوصف أنه (رحمة للعالمين) «سوشيانت»، ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة «أبا لهب»، ويدعو هذا الرسول إلى إله واحد لم يكن له كفوًا أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم لا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة.

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في القرآن الكريم «أحد صمد ليس مثله شيء، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفئا أحد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

وقد أشار المؤلف نفسه بعد أن أتى بالبشارات والنبوءات في الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال: إن النبي ﷺ هو المقصود بما جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم، وقال: إن الشواهد القديمة جميعها تنبئ عن وجود فاران في مكة.

قد قال المؤرخ «جيروم» واللاهوتي يوسبيوس»:

«إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من آيلة.

وفي الإصحاح الخامس من سفر «أشعيا» تأتي نبوءة وبشارة النبي محمد ﷺ تقول البشارة:

ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون ليس فيهم رازح ولا عاثر، ولا ينعسون ولا ينامون ولا تحل حزم أحقابهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم، وسهامهم مسنونة، وجميع قسيهم ممدودة. حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة وهذه النبوءة عن رجل يأتي من غير أرض فلسطين. ولم تصدق على أحد غير رسول الإسلام محمد ﷺ وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الإصحاح التاسع عشر في سفر «أشعيا» يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر:

«وفي ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها. فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر. لأنهم يصرخون إلى الرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم فيعرف الرب في مصر ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمه وينذرون للرب نذر ويوفون به. ويرب الرب مصر ضاربا فشافيا. فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم. وفي ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى آشور فيجئ الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور. ويعبد المصريون مع الآشوريين. وفي ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثا لمصر، ولآشور بركة في الأرض بها يبرك رب الجنود قائلا: مبارك شعبي مصر وعمل يدي آشور وميراثي إسرائيل».

فالذي حدث من قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى العراق إنما حدث في ظل الدعوة الإسلامية، ولن تتوحد العبادة بينهم من قبل تلك الدعوة وأن النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو إسرائيل، إذ تكون البركة لمصر وآشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقة بكلتا الأمتين، لا حول لها ولا قوة بمشيئة الله سبحانه[٦].

ووقائع التاريخ الإسلامي ومشاهد السيرة النبوية العطرة تترجم هذه النبوءات إلى شواهد صادقة. فقد تعرف «بحيرى» الراهب، على الرسول ﷺ وهو صبي مع عمه أبي طالب في رحلة الشام، وقال لأبي طالب:

«أرجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما عرفت ليبغونه بالشر. إن ابن أخيك هذا سيكون له شأن عظيم».

وحين سأل رسول الله ﷺ اليهود عن ابن سلام قال ما تقولون في ابن سلام؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا الجليل قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله. والله إني لأعرف أن محمداً رسول الله، كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد».

وأن يهود المدينة كانوا يعرفون الزمن الذي سيكلف فيه محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة، ولذلك كانوا يقولون للأوس والخزرج:

«أتى زمن رسول سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم»

٦. انظر: الأعمال الكاملة للأستاذ العقاد المجلد السابع ص ٢٦٨ - ٣٢٤

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

الزكاة

ما هو حكم إخراج الزكاة مبكراً عن وقت وجوبها بأكثر من سنتين؟ وهل هناك خلاف بين العلماء فى ذلك؟ وما الحكمة فى منع ذلك إن كان هناك منع؟

●● الجواب: ذهب جمهور الفقهاء ومنهم الحنفية والشافعية والحنابلة وأبو عبيد وإسحاق إلى أنه يجوز للمزكى تعجيل إخراج زكاة ماله قبل ميعاد وجوبها، لما رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن والدارقطنى والحاكم وصححه، والبيهقى من حديث على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن العباس رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فى تعجيل صدقته قبل أن تحل، فرخص له فى ذلك. قال الحافظ ابن حجر فى «التلخيص الحبير»: ويعضده حديث أبى البخترى عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إنا كنا احتجنا فاستسلفنا العباس صدقة عامين» رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا، وفى بعض ألفاظه: أن النبى ﷺ قال لعمر رضى الله عنه: «إنا كنا تعجلنا صدقة مال العباس عام أول» رواه أبو داود الطيالسى من حديث أبى رافع رضى الله عنه.

قال الإمام الترمذى فى سننه: «وقال أكثر أهل العلم: إن عجلها قبل محلها أجزأت عنه، وبه يقول الشافعى وأحمد وإسحق» ا هـ.

وتوسع الحنفية فأجازوا للمزكى المالك نصابا واحداً أن يعجل زكاة نصب كثيرة، لأن اللاحق تابع للحاصل، حتى قالوا: لو كان له ثلاثمائة درهم، فدفع منها مائة درهم عن المائتين زكاة لعشرين سنة مستقبلة جاز.

إلا أن الشافعية فى الأصح عندهم قالوا: يجوز التعجيل لعام واحد ولا يجوز لعامين، لأن زكاة العام الثانى لم ينعقد حولها، واشترطوا لجواز ذلك أن يكون النصاب موجوداً، فلا يجوز تعجيل الزكاة قبل وجود النصاب بغير خلاف، وذلك لأن النصاب سبب وجوب الزكاة، والحول شرطها، ولا يقدم الواجب قبل سببه ويجوز تقديمه قبل



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـى جمعـة

مفتى جمهورية مصر العربية

شرطه، كإخراج كفارة اليمين بعد الحلف وقبل الحنث، وكفارة القتل بعد الجرح وقبل الزهوق.

وقال الحنابلة: إن ملك نصابا فقدم زكاته وزكاة ما قد يستفيده بعد ذلك فلا يجزئه عندهم.

وقال الحنفية، وهو المعتمد عند الشافعية: إن قدم زكاته وزكاة ما قد ينتج منه أو يربحه منه، أجزأه لأنه تابع لما هو مالكه الآن.

وذهب المالكية إلى أنه إن أخرج زكاة الثمار أو الزروع قبل الوجوب - بأن دفع الزكاة من غيرها - لم يصح ولم تجزئ عنه، وكذا لا تجزئ زكاة الماشية إن قدمها وكان هناك ساع يأتى لقبضها فأخرجها قبل قدومه، أما زكاة العين والماشية التى ليس لها ساع فيجوز تقديمها فى حدود شهر واحد لا أكثر، وهذا على سبيل الرخصة، وهو مع ذلك مكروه والأصل عدم الإجزاء لأنها عبادة موقوتة بالحول.

وقد ذهب كثير من متقدمى الشافعية إلى أنه يصح التعجيل لعامين فأكثر إذا كان الباقى من المال بعد المعجل نصابا فأكثر، وهو مقابل الأصح عند متأخريهم:

قال الإمام النووى فى «المجموع شرح المهذب»: ولو عجل صدقة عامين بعد انعقاد الحول أو أكثر من عامين فوجهان ذكرهما المصنف بدليلهما وهما مشهوران:

أحدهما: يجوز للحديث.

والثانى: لا يجوز. وأجاب البغوى والأصحاب عن الحديث بأن المراد: تسلف دفعتين، فى كل دفعة صدقة عام أو سنة.

واختلفوا فى الأصح من هذين الوجهين:

فصححت طائفة الجواز، وهو قول أبى إسحق المروزى، وممن صححه: البندنيجى، والغزالى فى الوسيط، والجرجانى، والشاشى، والعبدرى.

وصحح البغوى وآخرون المنع، قال الرافعى: صحح الأكثرون المنع.

فإذا قلنا بالجواز فاتفق أصحابنا على أنه لا فرق بين عامين وأكثر، حتى لو عجل عشرة أعوام أو أكثر جاز على هذا الوجه، بشرط أن يبقى بعد المعجل نصاب، فلو كان له خمسون شاة فعجل عشراً منها لعشر سنين جاز، فلو نقص المال بالتعجيل عن النصاب فى الحول الثانى لم يجز التعجيل لغير العام الأول وجها واحدا، هكذا قاله الجمهور، لأن الحول الثانى لا ينعقد على نصاب، وحكى

البغوى والسرخسى وجها شاذًا: أنه يجوز، لأن المعجل كالباقى على ملكه اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمى فى «تحفة المحتاج»: (ولا تعجل لعامين) فأكثر (فى الأصح) وإن نازع فيه الإسنوى وأطال.

قال الشروانى فى حاشيته عليه: (قوله وإن نازع فيه الإسنوى.. إلخ) أى بأن العراقيين وجمهور الخراسانيين إلا البغوى على الإجزاء، ونقله ابن الرفعة وغيره عن النص، وأن الرافعى قد حصل له فى ذلك انعكاس فى النقل حالة التصنيف، قال -أى الإسنوى-: ولم أظفر بأحد صحح المنع إلا البغوى بعد الفحص الشديد. انتهى، وتبعه على ذلك جماعة أسنى. زاد النهاية: ويرد بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ.. اهـ.

وهذا الذى ذكره الإمام الإسنوى ظاهر لمن تأمل عبارات متقدمى الشافعية:

يقول الإمام الماوردى فى «الحاوى الكبير» (٣ / ١٦٠): فإن قيل: فتعجيل زكاة عامين عندكم لا يجوز؟ قلنا: فيه لأصحابنا وجهان:

أحدهما: وهو الأظهر جواز تعجيلها أعوامًا إذا بقى بعد المعجل نصاب، استدلالًا بظاهر هذه الأخبار.

والثانى: لا يجوز تعجيل أكثر من عام واحد. اهـ.

وقال حجة الإسلام الغزالى فى «الوسيط» (٢ / ٤٤٦-٤٤٧): ويجوز تعجيل الزكاة قبل تمام الحول، خلافًا لمالك، لما روى أن العباس استسلف منه رسول الله ﷺ صدقة عامين.

ولا يجوز تعجيله قبل كمال النصاب، ولا قبل السوم، لأن الحول فى حكم أجل ومهلة، فلذلك عجل عليه، ولو ملكه مائة وعشرين شاة واجبه شاة، وهو يرتقب حدوث سخلة فى آخر السنة فعجل شاتين، ففى تعجيل شاتين وجهان مرتبان على الوجهين فى تعجيل صدقة عامين، والصحيح بحكم الخبر جوازه، ووجه المنع: أن النصاب كالمعدوم فى حق الحول الثانى، ومسألة السخلة بالجواز أولى، لأن الحول منعقدة فى حق الشاة الثانية.

قال الإمام ابن الصلاح فى «شرح مشكل الوسيط» المطبوع بهامشه: «هو كمال قال، ويشكل على وجه المنع الجواب عن الخبر» اهـ.

هذا طرف من اختلاف العلماء فى مسألة تعجيل الزكاة، وإنما جاءت الفتوى السابقة بالاقتصار على سنتين وقوفًا مع النص الوارد، وتوسطًا بين القول بالجواز المطلق عند الحنفية ومقابل الأصح عند الشافعية وبين الجواز بمقدار سنة واحدة كما هو الأصح عند الشافعية، وأن هذا القول بالتوسط هو الأوفق بانضباط الموارد المالية السنوية للفقراء، لكن لا مانع من الأخذ بقول الحنفية ومتقدمى الشافعية فى تعجيل الزكاة لسنتين فأكثر عند وجود الحاجة العامة أو الخاصة إلى ذلك، كنقص موارد الزكاة فى سنة بعينها، أو عدم كفاية مقدار زكاة المزكى لسد حاجة فقير محتاج، وغير ذلك مما تقتضيه المنفعة العامة أو الخاصة، وذلك بشرط أن يكون الباقى بعد المعجل بالغا للنصاب.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

مشاركة الزوجة فى نفقات المنزل

هل يجوز لزوجى أن يجبرنى على المساهمة بجزء من راتبى فى النفقات اللازمة للأسرة؟

●● الجواب: من المقرر شرعًا أن الزوجة لا يجوز لها العمل إلا بإذن زوجها، فإن خرجت وعملت بدون إذنه الصريح أو الضمنى كانت عاصية، لأن الحقوق الزوجية متقابلة، إذ عليه الإنفاق وعليها الاحتباس فى منزل الزوجية، وقد قال الله تعالى:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

(النساء: ٣٤)

ولا يقدح هذا فى الحق المقرر للمرأة فى العمل المشروع وأن لها شخصيتها وذمتها المالية متى كانت بالغة عاقلة؛ لأن الزوجة بعقدها للنكاح قد التزمت واجبات شرعية تجاه أسرتها لا يجوز لها التفريط فيها، وقد قدمها الشرع على النوافل حتى جعل من حق الزوج أن يمنع زوجته من صلاة النوافل وصومها مع أنها عبادة مشروعة.

فإذا أذن الزوج لزوجته فى العمل صراحة أو ضمنًا جاز لها ذلك، والإذن الصريح يتمثل فى أن يعلم الزوج زوجته به، والإذن الضمنى أن تعمل دون اعتراض منه أو يتزوجها عالما بعملها.

وكما أن الزوج هو الذى له حق الإذن فى عمل الزوجة خارج البيت، فإن الفقهاء جعلوا له كذلك حق إلغاء هذا الإذن ومنع الزوجة من الاستمرار فى العمل إلا إذا كان هناك التزام عليها فى هذا العمل ألزمت به نفسها قبل الزواج فإن الزوج لا يملك حينئذ منعها منه، وصرح الشافعية والحنابلة بأن للمرأة أن تخرج للإرضاع إن كانت أجرت نفسها له قبل عقد النكاح ثم تزوجت، لصحة الإجارة، ولا يملك الزوج فسخها ولا منعها من الرضاع حتى تنقضى المدة؛ لأن منافعها ملكت بعقد سابق على نكاح الزوج مع علمه بذلك.

وهذا المعنى هو الذى أخذ به القانون عندما قيد هذا الحق للزوج وجعل من إذن الزوج للزوجة بالعمل خارج المنزل إذنًا ملزمًا للزوج يدوم بدوام العلاقة الزوجية بينهما حقا مكفولًا لها، فإذا طلب منها بعد ذلك الامتناع عن العمل فلم تمتثل فإنها لا تعد ناشزًا ولا تسقط نفقتها لأنه رضى بهذه الصورة من الاحتباس وأسقط حقه فيما زاد عليها، إلا إن كان عملها هذا منافيًا لمصلحة أسرتها أو مشوبًا بإساءة استعمال هذا الحق. حيث نصت الفقرة الخامسة من المادة الأولى من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠م المعدلة بالقانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٨٥م، على أنه: «لا يعتبر سببا لسقوط نفقة الزوجة خروجها من مسكن الزوجية -دون إذن زوجها- فى الأحوال التى يباح فيها ذلك بحكم الشرع مما ورد به نص أو جرى به عرف أو قضت به ضرورة، ولا خروجها للعمل المشروع ما لم يظهر أن استعمالها لهذا الحق المشروط مشوب بإساءة استعمال الحق أو مناف لمصلحة الأسرة وطلب منها الزوج الامتناع عنه. اهـ. وهذا الذى استقرت عليه المحاكم الشرعية.

ومن المعلوم أن حكم الحاكم يرفع الخلاف وأن لولى الأمر تقييد المباح، وله أن يتخير فى الأمور الاجتهادية ما يراه محققًا للمصلحة،

والعمل بذلك حينئذ واجب والخروج عنه حرام لأنه من قبيل الافتيات على الإمام.

وبناءً على ذلك وفي واقعة السؤال: فإن كانت الزوجة قد انتظمت في عمل مباح بإذن زوجها الصريح أو الضمني -على ما سبق بيانه- ولم يكن هذا العمل منافياً لمصلحة أسرتها أو مشوباً بإساءة استعمالها لهذا الحق فلا حق له حينئذ في مرتبها وليس له أن يجبرها على المشاركة في مصاريف البيت بغير رضاها، لأن لها شخصيتها وذمتها المالية المستقلة، فإن لم تكن قد عملت ولم يكن قد أذن لها في العمل بعد وأراد أن يجعل إذنه مقابل شيء من دخلها فله ذلك، فإن أبت فله الحق في عدم الإذن لها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

لا يجب طاعة الوالدين في الطلاق

لقد تزوجت وأحسست بالراحة والتوفيق في زواجي، ولكن والدي لم يكن راضيا عن هذا الزواج، وبعد دخولي بزوجتي طلب والدي مني بإلحاح أن أطلق زوجتي، وإلا لن يكون راضيا عني وسيحرمني من الميراث، فماذا أفعل؟

●● الجواب: الذرية من آثار ارتباط الرجل بالمرأة، وهو الزواج، وكذلك الذرية سبب لوجود علاقة جديدة هي الأبوة والأمومة وقد لا يتصور إنسان أنه قد يتعارض أمر الزواج واستمرار الحياة الزوجية وما فيها من خير للبشرية، مع أمر حقوق الوالدين وطاعتهما.

ولكن الواقع شهد من عصر النبوة الأول لأنه حدث تعارض بين حقوق الوالدين، وبين استمرار الحياة الزوجية، عندما أمر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله ابنه عبدالله أن يطلق امرأته التي يحبها، منذ هذا الحين، وفقهاء الشريعة يتناولون الموضوع بالعرض والتحليل، لتعلم ما الذي يجب على المسلم فعله في مثل هذه الأمور؟ وما هو حد البر، وما هو حدُّ العقوق إذا تعلق بإنهاء الحياة الزوجية؟

فنراهم مصرحين بعدم الطاعة إلا أن يكون الأب الآمر من الصالحين والأتقياء، بغير التعرض لمسألة هل يستحب أم لا؟ فلقد ذكر ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» «٥ / ٤٩٠» أن كلام أحمد في وجوب طلاق الزوجة بأمر الأب مقيد بصلاح الأب.

أما ابن تيمية فقد حرم على الابن طاعة أمه في طلاق زوجته، خاصة إن كان له منها أبناء حيث سئل ابن تيمية في رجل متزوج وله أولاد، ووالدته تكره الزوجة وتشير عليه بطلاقها هل يجوز له طلاقها؟ الجواب: «لا يحل له أن يطلقها لقول أمه، بل عليه أن يبر أمه وليس تطليق امرأته من برها، والله أعلم. اهـ. مجموعة الفتاوى «٣ / ٥٧٣».

كما ذهب ابن مفلح في «الفروع» «٥ / ٣٦٣» إلى أنه لا تجب طاعة أبويه في الطلاق، فقال ما نصه: «فإن أمرته أمه فنصه «يعني الإمام أحمد» لا يعجبني طلاقه، ومنعه شيخنا منه، ونص في بيع السرية: إن خفت على نفسك فليس لها ذلك وكذا نص فيما إذا منعاه من التزويج».

وقال في «الآداب الشرعية» (١ / ٥٠٢ - ٥٠٣) أيضا: «قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: إنه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد بنكاح من لا يريد، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقا، وإذا لم يكن لأحد أن يلزمه بأكل ما ينفر منه مع قدرته على أكل ما تشتهيه نفسه، كان النكاح كذلك وأولى، فإن أكل المكروه مرارة ساعة، وعشرة المكروه من الزوجين على طول تؤذي صاحبه ولا يمكنه فراقه. انتهى كلامه».

ثم قال بعد ذلك: «فصل: لا تجب طاعة الوالدين بطلاق امرأته، فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب، ذكره أكثر الأصحاب».

وأيضًا ذهب العلامة المحقق الحنبلي البهوتي إلى أنه لا يجب على الابن أن يطيع الوالدين في طلاق زوجته، فقد قال في «دقائق أولي النهى» في كتاب الطلاق (٣ / ٧٤) ما نصه: «(ولا يجب) على ابن (طاعة أبويه) ولو كانا (عدلين في طلاق) زوجته، لأنه ليس من البر (أو) أي: ولا يجب على ولد طاعة أبويه في (منع من تزويج) نصا لما سبق».

وإلى هذا أيضًا ذهب السفاريني في «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب»، حيث قال (١ / ٣٨٣): (و) كأمر هما له (بتطليق زوجات) له أو بيع أمة له (برأي) أي اعتقاد (مجرد) عن مستند شرعي. قال في القاموس: الرأي: الاعتقاد، جمعه آراء. قال في الآداب الكبرى: فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب. ذكره أكثر الأصحاب. وسأل رجل الإمام رضي الله عنه، فقال: إن أبي يأمرني ان أطلق امرأتي، قال لا تطلقها. قال: أليس عمر أمر ابنه عبدالله أن يطلق امرأته؟ قال: حتى يكون أبوك مثل عمر رضي الله عنه».

من العرض السابق يتبين لنا أنه لا يجب على الابن طاعة والده في أمره بطلاق زوجته، وأن عدم طاعة الوالد في هذا ليست من قبيل العقوق. والله سبحانه وتعالى أعلم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

رد الخطيب على المنبر

هل يجوز رد الخطيب على المنبر إذا اخطأ في الآيات القرآنية وما إلى ذلك؟

●● الجواب: الإنصات للخطيب ممن حضر الجمعة مأمور به شرعًا، لقول النبي ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الولي أبو زرعة العراقي في «طرح التثريب» (٣ / ١٩٣ - ١٩٤): «استدلَّ به على وجوب الإنصات للخطبة وتحريم الكلام فيها، إذ لم تُغتفر هذه الكلمة مع خفتها وكونها أمرا بمعروف محتاج إليه في تلك الحالة، فما عداها أولى بالمنع، وهذا أحد قولي الشافعي، نص عليه في القديم والإملاء، وبه قال مالك وأبو حنيفة، وهو المشهور من مذهب أحمد.. (والقول الثاني) للشافعي أن الإنصات سنة والكلام ليس بحرام، وهو نصه في الجديد، وهو رواية عن أحمد حكاها ابن قدامة».

وقال الشيخ النفراوي المالكي في «الفواكه الدواني» (١ / ٢٦٣): «ووجه الدلالة منه: أنه سمى الأمر بالمعروف فيه لغوا، واللغو: الكلام الذي لا خير فيه، وما نُفي عنه الخير على سبيل الاستغراق نصا أو ظهوراً يقبح التكلم به بل يحرم في هذا المقام».

ولما كانت الجمعة بدلاً عن الظهر وكانت ركعتين فإن خطبتها قائمة مقام

الركعتين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما رواه ابن أبي شيبة (٢ / ٣٦) وعبدالرزاق (٣ / ٢٣٧) في مصنفيهما، ولذلك فقد ذهب السادة الحنفية إلى أن كل ما حرُم في الصلاة حرم في الخطبة: من أكل وشرب وكلام، ولو تسبيحًا أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر لأنها منزلة منزلة ركعتي الظهر، وذلك من وقت خروج الخطيب من خلوته وحتى انتهائه من خطبته، وأنه لا يعترض عليه حتى لو حصل منه لغو بذكر الظلمة، قال الإمام الحصكفي في «الدر المختار»: «وكل ما حرم في الصلاة حرم فيها، أي في الخطبة. خلاصة وغيرها فيحرم أكل وشرب وكلام ولو تسبيحا، أو رد سلام أو أمر بمعروف، بل يجب عليه أن يستمع ويسكت (بلا فرق بين قريب وبعيد) في الأصح. محيط. ولا يرد تحذير من خيف هلاكه، لأنه يجب لحق آدمي وهو محتاج إليه، والإنصات لحق الله تعالى ومبناه على المسامحة».

قال العلامة ابن عابدين في حاشيته «رد المحتار» (١ / ٨٥٨): قوله: (من خيف هلاكه).. قلت: وهذا حيث تعين الكلام، إذ لو أمكن بغمز أو لكز لم يجز الكلام. تأمل».

وقال الإمام الكمال بن الهمام في «فتح القدير» (٢ / ٦٨): «يحرم في الخطبة الكلام وإن كان أمرا بمعروف أو تسبيحا، والأكل والشرب والكتابة، ويكره تشميت العاطس ورد السلام».

وقال العلامة الطحاوي في «حاشيته على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح» (٢٨٢): وفي الخلاصة: كل ما حرم في الصلاة حرم حال الخطبة ولو أمرا بمعروف، وفي السيد: استماع الخطبة من أولها إلى آخرها واجب وإن كان فيها ذكر الولاة، وهو الأصح. والقول بوجوب الإنصات للخطيب حتى لو لغا مروي عن جماعة من السلف أيضًا، فروى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢ / ٣٢ - ٣٣) عن إبراهيم النخعي أنه قيل له: إن الكتب تجيء من قبل قتيبة فيها الباطل والكذب، فأكلم صاحبي أو أنصت؟ قال: لا، بل أنصت، يعني في الجمعة. وعن الحسن البصري أنه كان يكره الكلام والصحف تقرأ، قال الولي العراقي في «طرح التثريب» (٣ / ١٩٣): «فطرد النخعي والحسن منع الكلام في الخطبة وسدا الباب في ذلك».

كما أنه مروي أيضًا عن الإمام مالك، قال ابن بطال في «شرح البخاري»: «وروى ابن وهب وابن قانع وعلي بن زياد عن مالك: أن الإمام إذا لغا وشتم الناس فعلى الناس الإنصات».

وإنما ذهب هؤلاء الأئمة إلى ذلك حفاظًا على قدسية شعائر صلاة الجمعة، وسدا لباب التشويش والهرج واللغط الذي يمكن حدوثه من جراء الرد على الخطيب، وحفظًا لهيبة العلماء في نفوس الناس.

ومع قول الشافعية بأن الإنصات سنة وليس واجبًا في المعتمد عندهم إلا أنهم نصوا مع المالكية (أن الإمام والخطيب لا يفتح عليه الا إذا استفتح (أي طلب الفتح)، وأنه لا يلقن ما دام مترددا حتى

يقف طلبا للفتح، حتى لو خرج من سورة إلى سورة، ما دام لم يخلط آية رحمة بآية عذاب أو يغير تغييرا يقتضي كفرا:

قال الإمام الباجي المالكي في «المنتقى شرح الموطأ» (١ / ١٥٢): «(مسألة): والفتح على الإمام إنما يكون اذا ارتج عليه، وإذا غير قراءته:

فأما من الإرتاج عليه: فهو إذا وقف ينتظر التلقين رواه ابن حبيب عن مالك.

وأما إذا غير القراءة: فلا يفتح عليه إذا خرج من سورة إلى سورة أو من آية إلى أخرى ما لم يخلط آية رحمة بآية عذاب أو يغير تغييرا يقتضي كفرا، فإنه ينبه على الصواب».

وقال الإمام النووي الشافعي في «المجموع شرح المهذب» (٤ / ٤٠١ - ٤٠٢): (الرابعة عشرة): قال الشافعي في المختصر: وإذا حصر الإمام لقن، قال الشيخ أبو حامد والأصحاب: ونص في مواضع أخر أنه لا يلقن. قال القاضي أبو الطيب: قال أصحابنا: ليست على قولين، بل على حالين، فقوله «يلقنه» أراد اذا استطعمه التلقين بحيث سكت ولم ينطق بشيء، وقوله «لا يلقنه» أراد مادام يردد الكلام ويرجو أن ينفتح عليه، فيترك حتى ينفتح عليه، فإن لم ينفتح لقن؛ واتفق الأصحاب على أن مراد الشافعي هذا التفصيل وأنها ليست على قولين».

وهذا المعنى رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١ / ٥٢١) عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «إذا استطعمك الإمامُ فأطعمه».

ونص الشافعية على أنه إن علم من حال الخطيب أنه يدهش من الرد عليه فإنه يترك ولا يرد عليه:

قال الإمام الزركشي في «المنثور في القواعد» (١ / ٤٠١-٤٠٢):

تلقين الإمام يُشرع في موضعين:

(أحدهما) القراءة في الصلاة إذا ارتج عليه، ولا يلقن مادام يتردد بل حتى يقف، قاله المتولي.

(الثاني) في الخطبة إذا حصر، ولا يلقن حتى يسكت، قاله الدارمي في الاستذكار.. قال: ويرد عليه ما يعلم أنه ليس يفتح له، وقال الشاشي في المعتمد فإن ارتج عليه لقن في الخطبة نص عليه وقال في موضع آخر: لا يلقن، والمسألة على اختلاف حالين؛ فحيث قال «يلقن» إذا وقف بحيث لا يمكنه أن يفتح عليه، وحيث قال «لا يلقن» إذا كان تردد ليفتح عليه، قال في الاستقصاء: إن علم من حاله أنه إن فتح عليه انطلق فتح عليه، وإن علم أنه يدهش تركه على حاله».

وقال الشهاب الرملي في حاشيته على «أسنى المطالب» (١ / ٢٥٨):

«(فرع) وإذا أرتج في الخطبة لا يلقن مادام يردد، فإذا سكت يلقن».

وهذا كله لما لمقام الخطابة وارتقاء المنابر من الهيبة في مواجهة الناس والخوف من الزلل وحساسية النفس البشرية من النصح على الملأ، حتى قيل لعبدالملك بن مروان: عجل عليك الشيب؟ فقال: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن، وقال أيضًا: وكيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس

فى كل جمعة مرة أو مرتين ! قال الجاحظ: يعنى خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الأمور.. العقد الفريد لابن عبدربه (٢ / ٣٠٨)، والبيان والتبيين للجاحظ (١ / ٨٥)، وتاريخ دمشق للإمام الحافظ أبى القاسم بن عساكر ٣٧، / ١٣٨ - ١٣٩).

وروى عن الإمام الشافعى أنه قال:

تعمدنى بنصحك فى انفرادى
وجنبنى النصيحة فى الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع
من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتنى وعصيت قولى
فلا تجزع إذا لم تعط طاعه

ولهيبة الخطبة وجلالها فى نفس الخطيب نص الحنابلة على أنه يجوز لمن لا يحسن الخطبة أن يقرأها من صحيفة، قال ابن مفلح فى «الفروع» (٢ / ١١٧): «ولمن لا يحسن الخطبة قراءتها من صحيفة، ذكره أبو المعالى، وابن عقيل، قال: كالقراءة فى الصلاة لمن لا يحسن القراءة فى المصحف، كذا قال، وسبق أن المذهب لا بأس بالقراءة فى المصحف، قال جماعة: كالقراءة من الحفظ، فيتوجه هنا مثله؛ لأن الخطبة شرط كالقراءة، وذكر ابن عبدالبر عن جماعة منهم: عثمان، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، وعبدالملك بن مروان، ومعن بن زائدة، وخالد القسرى، أنهم خطبوا فارتج عليهم، وعن بعضهم قال: هيبة الزلل تورث حصرا، وهيبة العافية تورث جبنا.. وخطب عبدالله بن عامر فى يوم أضحى فارتج عليه، فقال: لا أجمع عليكم لؤما وعيا، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها على، وارتج على معن بن زائدة فقال وضرب برجله المنبر: فتى حروب لا فتى منابر».

فإذا كان فى الرد على الخطيب مصلحة تصحيح خطأ وقع فيه فإنه قد يستتبع مفسدة تلجلجه واضطرابه وتشتت أفكاره بسبب الرد عليه، وقد تؤدى حساسية الموقف إلى أن يفهم الخطيب الأمر على غير وجهه فتأخذه العزة بالإثم، فيضطرب الناس بين الراد والمردود عليه كما هو مشاهد فى بعض الأحيان، ومن المقرر شرعا أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، هذا مع أن فى الإمكان الجمع بين جلب المصلحة ودرء المفسدة بإتمام استماع الخطبة ثم تنبيه الخطيب بعد الصلاة على الخطأ فى أدب وهدوء نابعين من إرادة الخير وصدق النصيحة والإخلاص فى القصد.

وبناء على ذلك فليس لمستمع خطبة الجمعة أن يعجل على الخطيب بالرد أو الفتح عليه، إلا إذا طلب الفتح بلسان حاله أو مقاله، أو وصل خطؤه إلى نحو خلط آية رحمة بآية عذاب أو إدخال أهل الجنة النار وأهل النار الجنة بشرط أن يعلم من حال الخطيب أنه لا يتأثر ولا يتلجلج بالرد عليه، فإن جهل ذلك أو علم خلافه فعلى المستمع السكوت مع الالتزام بتنبيه الخطيب إلى ذلك بعد الصلاة حتى ينبه الحاضرين.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

من تراث الهلال

عصر القمر.. الإسلام والصعود إلى الكواكب

للأستاذ عاطف مصطفى

أطلق الروس فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ قمرا صناعيا فى الفضاء وبعد شهر أطلقوا قمرهم الثانى، واهتمت الصحافة والأوساط العلمية والدينية بهذا الحدث الفريد فى بابه.

وأصدرت مجلة الهلال التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت إميل زيدان وشكرى زيدان أبناء جرجس زيدان مؤسس الهلال عددا خاصا فى يناير ١٩٥٨/١١ جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ بعنوان «عصر القمر»، كانت بعض سطور مقدمة العدد: «عصر القمر أو العصر القمرى، هو عصرنا الجديد الذى أرخ له بعض العلماء يوم ٤ أكتوبر ١٩٥٧ الذى انطلق فيه القمر الروسى الأول، وهو مرحلة جديدة من تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا ريب أن هذا العصر القمرى الجديد سيكون له أثره فى تقدم العلوم والفنون، وفى تطور الحياة الأدبية والاجتماعية.

انتظر الناس رد السماء

كان من أبرز كتاب هذا العدد الخاص من الهلال فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف آنذاك، وكتب مقالا بعنوان «الإسلام والصعود إلى الكواكب» مشيرا إلى أن الإسلام يقول القمر الصناعى قوة من قوى العلم.

يبدأ فضيلته مقاله: أطلق العلماء الروس فى خريف هذا العام قمرين صناعيين، اخترقا فضاء الأرض، وخرجا عن جاذبيتها، إلى حيث أصبحا فى محيط قوة أخرى يدوران بسلطانها، كما تدور الأقمار السماوية حول الأرض.

ولقد أثار هذا الحادث - شأن كل مخترع جديد - ثورة فى مجال التفكير الإنسانى فى كل مكان من هذا العالم.

واتجهت أنظار الناس جميعا إلى السماء يستبينونها خبر هذين الشهابين المنطلقين إلى السماء، وبات كثير من الناس يتوقع رد السماء على هذه الجرأة التى سولت لسكان الأرض أن يطاولوا السماء ويرمونها بالشهب، إنه لعدوان صارخ ربما لاذ بعض الناس منه بالتوبة والاستغفار والندم على هذه الخطيئة التى جدد بها أبناء آدم خطيئة أبيهم التى أخرجته من الجنة.

فإلى أى مساق يساق الناس اليوم، وقد لبستهم خطيئة أشد جرما وأكبر إثما؟!

ويواصل الشيخ الباقورى قائلا: لا شك أن هذه التصورات قد عاش فيها كثير من الناس، ولايزالون يعيشون بها، ولن تنقشع عن أفكارهم هذه التصورات ما لم تنقم السماء، أو تجىء إليهم الأنباء بأن قصة القمرين ليست إلا خرافة ضخمة.

أدعياء العلم

ولعل أكثر الناس حظا من هذه التصورات المريضة عندنا هم أدعياء العلم ممن انتسبوا إليه، وعدوا فى أهله، دون أن يكون لهم فيه نصيب.

فهؤلاء ليسوا من العوام الذين يأخذون دينهم فى غير لجاج ولا جدل، ويتقبلون ظواهر الأمور فى غير شك أو ارتياب، وهم ليسوا أيضا من العلماء الذين يقولون عن علم، ويصدرون عن فهم.

أدعياء العلم هم هؤلاء الذين يجعلون دائما قضايا العلم جرائم فى ساحة الدين.. كل جديد منكر.. وكل مجدد مبتدع، وكل عالم ملحد!


أحمد حسن الباقورى

إن الفهم الخاطىء للدين هو الذى يصور أن العلم عدو له يريد إجلاءه عن دنيا الناس، وويل للعلم يوم يكون حربا على الدين، وويل للناس يوم يكون الدين الذى يدينون به حربا على العلم!

الدين لا يقف فى سبيل العلم

ويؤكد الشيخ الباقورى أن الدين لا يقوم فى النفس مقاما محمودا، ولا يحل من القلب محلا كريما حتى يكون العلم هو الذى جلى حقيقته وكشف جوهره.

وأن العلم لا يكون علما ينفع ونورا يهدى، إلا إذا أشرق عليه الدين بجلاله، فأنار له مناهج الخير ودله عليه.

فالدين الذى لا يستند إلى علم، دين لا يمسك منه صاحبه إلا بأوهى الأسباب، لا يثبت لعواصف الحياة، ولا يقف فى وجه الأزمات التى تعرض للنفوس.

والعلم الذى لا يستظل بدين، إنما هو إعصار عنيف يدوم فى كيان صاحبه حتى يعصف به.

لهذا تستطيع أن نقرر فى يقين أن الدين - أى دين - لا يمكن أن يقف فى

سبيل العلم، ولا أن يأخذ السبيل على الملكات الإنسانية أو يحد من نشاطها فى أى وجه من أوجه النشاط العقلى للإنسان.

القرآن دستور الإسلام

والإسلام كدين - خير شاهد على هذه الحقيقة.. فالقرآن الكريم - وهو دستور هذا الدين - لو لم يكن رسالة دين لكان كتاب علم، وموسوعة حكمة، يضم بين دفتيه ألوان المعرفة الرفيعة والثقافة العالية.

إن أول ما يلفت النظر فى هذا المقام أن كتاب الرسالة الإسلامية عنوانه «القرآن والكتاب» فهو قرآن وهو كتاب. وفى هذا إشارة بليغة إلى قدر القراءة والكتابة، وتحريض قوى عليهما، وعلى أن يكون المتدين بهذا الدين قارئا.. كاتبا.

ولفظ «القرآن» و«الكتاب» يتردد فى كثير من الآيات عشرات المرات، وليس هذا التكرار إلا لتأكيد هذا المعنى الذى أشرنا إليه وهو التحريض على القراءة والكتابة.

العلم والمعرفة الواسعة

ويواصل فضيلة الشيخ الباقورى قائلا: وليست القراءة والكتابة التى افتتح بها الوحى رسالة السماء، والتى نوه القرآن الكريم بهما، هما مجرد قراءة وكتابة، وإنما هما فى شريعة الإسلام سبيل العلم الغزير والمعرفة الواسعة.. العلم الذى لا حدود له، والمعرفة التى لا نهاية لها.

ولهذا نرى مختتم هذا الافتتاح ينتهى لقوله تعالى:

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ٥)

والإنسان مهما علم فإن وراء علمه علماء، والمجهول وراء ناظريه أكثر مما يكشف له حيث يقول جل شأنه:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وفى هذا إغراء بالاستزادة من العلم، وتحريض على كشف المجهول الذى لا ينتهى أبدا، وبذلك يظل العقل الإنسانى متحركا أبدا لا يقف عند غاية.

كلما قطع مرحلة أغراه حب الاستطلاع إلى متابعة السير فى آفاق جديدة يكشفها، ويعرف معالمها.. وليس هذا فحسب هو الذى يرضى به الإسلام ويقف عنده فى مقام العلم.. إنه لا يقنع بأن تكون غريزة حب الاستطلاع فى الإنسان هى الدافع لطلب المزيد من العلم والبحث وراء المجهول، بل إن الإسلام ليغذى هذه الغريزة حتى لتكون من القوة بحيث تصبح عقيدة مستقرة فى القلب، وملكة غالية فى مجال الفكر.

يحث الشيخ الباقورى على أن الإسلام شدد على أهمية العلم، وهذا العلم هو الذى أوصل هؤلاء للصعود بمركباتهم الفضائية إلى القمر.

يقول: وصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ويجعل منازل العلماء فوق منازل الشهداء، حتى إنه

ليجعل المداد الذى يجرى على أسلات أقلامهم فى مقابل دم الشهداء.. فيقول: «يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدم الشهداء».

فأى شهادة أكرم من هذه الشهادة فى حق العلم وأهله؟ وأى تقدير أعظم من هذا التقدير لجهود العلماء والدارسين؟

أين قادة الفكر الآن من المسلمين؟!

إنها لكبيرة فى حق الإسلام وجناية عليه أن يقصر أهله فى أداء هذا الحق، وإقامة المثل الحى له، حيث يتلفت العالم فلا يجد من بينهم أعلم العلماء، وأعظم المخترعين، وقد كان المتوقع منهم ـ لو استجابوا لدعوة دينهم ـ أن يكونوا قادة الفكر وأساتذة العلم فى كل زمان وفى كل مكان!

يؤكد الشيخ: وتستطيع أن تأخذ الدليل القاطع على هذا حين تقلب تاريخ الإسلام فى عصوره الزاهرة، يوم كان المسلمون يعيشون فى ظل الاحساس بالدين، الذى أمدهم بتلك القوى التى أقاموا بها دولة امتدت أطرافها وشمخ بنيانها بهذا الإحساس المعتز بالدين.

طلبوا العلم من كل وجه وتناولوه من كل أفق. فكان منهم أساتذة العالم فى الكيمياء والجغرافيا والاستكشاف والموسيقى وهندسة البناء والفلسفة.

كان منهم جابر بن حيان، وابن بطوطة، والفارابى، وابن سينا. وابن رشد وعشرات ومئات غيرهم من كل علم وفى كل فن!

أسباب التخلف!

يقول الشيخ الباقورى فى مقاله للهلال فى مناسبة انطلاق القمر الروسى الأول فى ٤ أكتوبر ١٩٥٧ موضحا أسباب تخلف المسلمين عن ركب العلم والحضارة: لم يتخلف المسلمون فى هذا الميدان إلا حين تمزقت دولتهم وضعف شأنهم، فضعف مع هذا إحساسهم بدينهم وانتفاعهم به.. والدين دائما بأهله.

إنهم المرآة التى تظهر على صفحتها مبادئه وتعاليمه، فإذا شاهت معالمهم وساءت حالهم، بدا الدين هزيلاً باهتا، لا تتعلق به الآمال، ولا تتجه إليه النفوس.

والذى جعل العلم والدين أمرين مختلفين عند كثير منا هو هذا الضعف الذى عشنا فيه زمنا، فجعلنا نعزل الدين عن الحياة حرصا على أن يصاب ديننا بما أصيبت به دنيانا من تدهور وسوء.

إن هذا الشعور هو الذى يجعلنا نخاف على ديننا كل شىء أيا كان مصدره وأيا كان مورده.. فما اعتدنا فى أيامنا الماضية أن نلقى من الحياة خيرا..

إن أوروبا التى غلبت بالعلم لم يخلص إلينا منها إلا شر محض وبلاء خالص.. لقد رمتنا بالاستعمار والإذلال، فكيف يدخل فى إحساسنا اطمئنان إلى العلم؛ إذا قبلنا نتائجه المرة مضطرين، فهل نقبل أن يكون بين ديننا وبين مثل هذا العلم صلة؟ إن دون ذلك أن تنفطر القلوب وتنشق النفوس!

ولو حسن ظننا بالحياة لما ساء رأينا فى العلم، ولما ارتاب فينا مرتاب بما ينكشف للعلم من عجائب ومعجزات.

فالمسلم الفاقد لدينه الدارس لكتاب الله يرى فى القرآن الكريم من فتوحات العلم ما يبهر العقول، ويزرى بكل علم وصل إليه الناس فى هذا العصر.

فأين سلطان العلم الذى يبلغ بجبروته اليوم شيئا مما أخبر به القرآن من آياته، العلم ومعجزاته فيما سبق من العصور وهناك الكثير من الآيات الدالة على ذلك فى ثنايا القرآن الكريم.

الدين لا يسأل عن الفتوحات في ميادين العلم

يختم فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى مقاله فى الهلال بقوله: يحسن أن نشير إلى أن ما يذكره القرآن الكريم عن سلطان العلم، إنما ليفتح للناس آفاقا عالية للحياة، يستطيع العلم أن يبلغها وأن يحلق فوقها، وما تلك الصور إلا شواهد تثير الخيال، وتغرى أصحاب العزائم بالعمل فى هذا الميدان والسبق فيه واليوم الذى تبلغ فيه مبلغا من العلم، نقيم به حياة قوية عزيزة كريمة، هو اليوم الذى يلتقى فيه ديننا مع كل ما عرفت أو تعرف البشرية من علم ومعرفة.

ويومئذ نتلفت فلا نجد بيننا من يسأل الدين عن الغزو الإنسانى للفضاء بالأقمار الصناعية وغيرها مما يستطيع العلم أن يحققه فى مستقبل الأيام.

فالدين لا يسأل عن حركات العقل البشرى، وعن فتوحاته فى ميادين العلم..



بل إن الدين ليقف موقف المتسائل حين يرى الحياة الإنسانية راكدة والعقول البشرية خامدة ـ لأن الوظيفة الأولى للدين أن ينبه الناس ما أودع الله فيهم من قوى مادية وروحية وعقلية ليعمروا الأرض وليكونوا عليها خلفاء.

وبعد.. فما أحسب أن الإسلام يقول عن انطلاق الأقمار الصناعية إلا أنها قوة من قوى العلم وسلطان من سلطانه، وأنها فتح جديد من فتوحات العقل الإنسانى وثمر طيب من ثمراته.

أما أن نحول هذه القوة إلى مجال التخريب والتدمير فإن ذلك لن يضعف من شأنها، أو ينزل من قدرها، فكل قوة أو نعمة فى يد الإنسان يمكن أن يحولها إلى مجال الشر فيفسد بها ويدمر!

والدين إنما يحاسب الناس على أعمالهم وما ينجم عنها من نفع أو ضر، لا على ما فى طبائع الأشياء من خير أو شر.

فعمل الإنسان هو الذى يتجه بالقوى التى بين يديه إلى أى الأمرين يريد..

إن شراً فشر.. وإن خيراً فخير.

بين الصحف والمجلات


إعداد/ أ. محمد جمعة

مسلمو أثيوبيا

نشرت جريدة «الحرية والعدالة» بعددها الصادر بتاريخ- ٢٩/١٠/٢٠١٢م تقريراً إخبارياً أعده: أ/ محمد وديع جاء فيه:-

ألقت المظاهرات - التي نظمها مسلمو أثيوبيا بعد صلاة عيد الأضحى للاحتجاج على سياسات الحكومة - الضوء على محاولات تهميشهم وفرض أفكار تنافي صحيح الدين الإسلامي عليهم وذلك رغم كونهم أغلبية وأكثرية.

فبحسب دراسة نشرتها - منظمة اتحاد مسلمي أثيوبيا - فإن المسلمين يواجهون ظروفا قاسية للغاية من قتل وتشريد وإبعاد عن التعليم وتحويل قراهم لثكنات عسكرية، إلا أنهم يشهدون حالياً طفرة في كل شيء للارتقاء بمستواهم التعليمي والاقتصادي مستخدمين استراتيجية ترتكز على السلمية والوحدة، وهو ما دفع السلطات لمحاولة إفشالها.

وأبرز أبناء المسلمين في جميع مراحل التعليم حسن الانضباط والتفوق على الآخرين مع الالتزام بتعاليم الإسلام.. وكذلك أثبت الموظفون الإثيوبيون المسلمون تميزاً في العمل من خلال نزاهتهم وترفعهم عن الرشاوى؛ وفي التجارة تمكن تجار المسلمين وخاصة الشباب من إنشاء شركات ومؤسسات تجارية في مجالات الاستيراد والتصدير والتوكيلات التجارية واستطاعوا فتح قنوات مع الشركات العالمية وأصبحوا قوة اقتصادية تسهم في رسم سياسة أثيوبيا الاقتصادية.

كما قام الشباب المسلم وقيادة المسلمين بطرح مشروع الصدقات والوحدة لتوحيد الصف والكلمة وبتوعية تجار المسلمين في البلاد بأهمية المشاركة في هذا البرنامج ودعمه ماديا ومعنويا لإطعام الفقراء والمساكين لرفع المعاناة عن المسلمين الفقراء ولقي هذا البرنامج نجاحا منقطع النظير؛ إضافة إلى المحاضرات والتوعية التي قدمت للمسلمين عن فرقة الأحباش وضلالاتها التكفيرية التي استدعتها الحكومة الإثيوبية من لبنان لضرب الإسلام الصحيح من خلال منهجها الفاسد.

وقدمت القيادة الإسلامية محاضرات أخرى لتوعية المسلمين بدستور البلاد وما فيه من حقوق دستورية كحرية التدين وحرية التعبير... ونجح المسلمون - الذين تبلغ نسبتهم ما بين ٦٥ إلى ٧٠٪ من سكان أثيوبيا البالغين ٩٥ مليون نسمة - في تكوين لجنة تتكون من ١٧ من الحكماء مهامهم الدفاع عن المسلمين ومكتسباتهم.

وبلا شك هناك أياد خارجية معادية للإسلام والمسلمين منزعجة من المستوى الجيد الذي وصل إليه

المسلمون الإثيوبيون خلال العقدين الماضيين وفي مقدمتهم إسرائيل التي سهلت إحضار فرقة الأحباش، وكذلك المخابرات الأمريكية من خلال سفارتها في أديس أبابا والتي لا تخجل من دعم فرقة الأحباش وتشجيعهم على ضرب أهل السنة، وكذلك جمعية الكتاب المقدس وهدفها تحريض الشارع المسيحي ومسئولي الدولة ضد الإسلام والمسلمين.

صهيون وسياسة الذراع الطويلة

تحت هذا العنوان جاء مقال أ.د. عاصم حمدان المنشور بجريدة «المدينة» الصادرة بتاريخ ٣٠/١٠/٢٠١٢م يقول:

* الإرهابي - أريل شارون - قبل وصوله للسلطة، كتب في صحيفة يديعوت أحرونت وبتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٧٣م، مقالاً ذكر فيه، أن إسرائيل - حسب وصفه - دولة عظمى، وأن جميع جيوش الدول الغربية، ودون استثناء أضعف من جيشنا، وأن إسرائيل - وبنبرة متغطرسة - قادرة في غضون أسبوع واحد على التغلب على جميع دول المنطقة، بدءا من الخرطوم، وانتهاء ببغداد والجزائر».

* في «إبريل» ١٩٧٤م، وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م سقطت الحكومة العمالية التي كانت ترأسها جولد مائير، وكان وزير الدفاع فيها «موشي ديان» ليصعد الليكود إلى الحكم بزعامة الإرهابي بيجين، وليشكل الثلاثي (بيجين - شامير - شارون) عصب السياسة الصهيونية المرتكزة على رؤية دينية متشددة وإرهابية.

لم يمض على توقيع معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية، بجهود الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر ١٩٧٩م مدة وجيزة حتى قامت إسرائيل بقصف المفاعل النووي العراقي، وذلك في عام ١٩٨١م.

* وفي عام ١٩٨٢م، وعندما كان شارون يحتل منصب وزير الدفاع، وإسحاق شامير وزارة الخارجية، كان غزو لبنان ١٩٨٢م، وارتكاب حلفاء إسرائيل في لبنان، وبدعم من الإرهابي شارون مجزرة صبرا وشاتيلا، وعندما بدأت الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، لم تتورع إسرائيل عن استباحة الفضاء العربي، وتدمير مقر منظمة التحرير في تونس، وقتل مهندس الانتفاضة «أبوجهاد»، ثم كان مؤتمر السلام (١٩٩٠م)، فتوقفت إسرائيل تكتيكيا عن استخدام سياسة الذراع الطويلة، ولكنها لم تتوقف عن تجويع وتشريد وقتل الشعب الفلسطيني الأعزل، ويأتي ضرب مجمع اليرموك في السودان ليذكر بقصف واشنطن مجمع الشفاء شمال الخرطوم ١٩٩٨م ومع اختلاف البواعث واتفاق الأهداف فإن في سياسة إسرائيل وسلوكها العدواني والإرهابي ما يشي بأنها تريد أن تبعث برسائل مختلفة في وقت واحد، وخصوصا لبعض الدولة العربية التي تسعى لفك الحصار عن شعب غزة، إلا أن الرسالة الأهم هي أن إسرائيل وبدعم أمريكي وغربي تمارس دور شرطي المنطقة، وبأسلوب دموي.

لماذا يسكت مراجع الشيعة عن ما يجرى في سوريا؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عادل الطريفي المنشور بجريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ: ٣١/١٠/٢٠١٢م يقول:-

لطالما كان موضوع تدخل مراجع الشيعة في الشئون السياسية والاجتماعية محل خلاف فقهي

وتاريخي بين الفارسين. فهناك من يؤكد أن المرجعية الإثنى عشرية التقليدية في النجف وكربلاء كانت على الدوام لا تحبذ الدخول في معترك السياسة، وأن ذلك الاستثناء لم يتغير حتى جاءت ثورة آية الله الخميني في إيران (١٩٧٩م)، والتي استعانت بمفهوم «ولاية الفقيه» لتأسيس سلطتها الحاكمة. في عمله الموسوعي «جزيرة الخليج الفارسي» (خمسة مجلدات)، يروي المؤرخ جون لوريمر (١٩١٥م) أن مراجع الشيعة كان لهم دور سياسي واضح في إيران والعراق إبان الدولة العثمانية نهاية القرن التاسع عشر. فحينما أدى التبذير الشخصي لمظفر الدين شاه حاكم الدولة القاجارية إلى الاستدانة من الحكومة الروسية اضطر إلى الاستعانة بمفوضين أوروبيين لإعادة تنظيم الجمارك وفرض رسوم على الخمور مما أغضب المراجع في النجف وكربلاء، حيث استصدروا فتاوى ضد الشاه والطائفة البابية، مما أدى لمذابح واضطرابات في سنة ١٩٠٣م، وعلى أثر ذلك اتهم الشاه المراجع في الشأن الدنيوي.

لسنا هنا لمناقشة التاريخ، بل للحديث عن الأزمة السورية التي حصدت حتى الآن ما يقارب ٣٨ ألف قتيل، وشردت ما يزيد على ٧٠٠ ألف إنسان خارج الحدود، ومثلهم داخل الأراضي السورية. أمام هذه الأزمة الإنسانية والحرب المستعرة ما بين النظام والمتمردين هناك انقسام سياسي وأخلاقي بين المؤيدين لإسقاط النظام وأولئك الذين يقفون إلى جواره مثل النظام الإيراني، وحزب الله في لبنان، وغيرها من الجماعات الأصولية الشيعية.

لا شك أن هناك بعدا طائفيا في الأزمة السورية بين السنة والشيعة، بيد أن هنالك احتقانا يتفاقم بين المتطرفين على الجانبين، وللأسف فإن موقف حكومة الرئيس نوري المالكي وحلافائه من دعم نظام الأسد يصب في خانة التأجيج الطائفي، وفي هذا السياق كتب فؤاد عجمي منتقدا المالكي والآخرين الذين لم يتعلموا من ديكتاتورية صدام ليصل بهم الحال إلى السقوط في أحضان المشروع الإيراني الإقليمي لدعم ديكتاتورية الأسد: «سيكون من السخرية المؤلمة إذا ما كان الشيعة قد تغلبوا على ضعفهم التاريخي فقط ليتخلوا عن ضمائرهم، وإحساسهم القوي بالحق. في هذه الصفقة، التمرد السوري هو اختبار للسلامة الأخلاقية للهوية الشيعية، عندما يصل الضحايا إلى السلطة، يجب أن يحذروا من الظلمات التي قد تغرى بها السلطة» (كيف تعمى الطائفية الشيعة عن أهوال سوريا، مجلة «ذا نيو ريبلك»: ٥أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٢م).

إذا كان هذا التجافي الأخلاقي متوقعا من بعض الساسة الانتهازيين، فماذا عن المراجع الدينيين الذين غالبا ما يصفون أنفسهم بالمدافعين عن الحق؟

للأسف، المتتبع لمواقف المراجع من القضايا السياسية يجد أن البعض منهم لا يتدخل حينما تتعارض مع مصالح مؤسساتهم الدينية، أو تؤثر على جو التوافق السياسي بينهم وبين السلطات الحاكمة، قد يكون منهج الحياد أمرا مقبولا، ولكنه لا يستقيم إذا ما كان يتم إعماله في بعض الحالات، والتنكر له في حالات أخرى. يشير الباحث مهدى خلجي – وهو ابن آية الله محمد تقى خلجي – الذى درس أصول الدين والفقه في الحوزة العلمية في قم (١٩٨٦م – ٢٠٠٠م) إلى أن الأزمة السورية تمثل تحديا أخلاقيا للمرجعية الشيعية في قم والنجف التي لم تعد مستقلة - برأيه – سياسيا أو ماليا عن الولي الفقيه في إيران، ويؤكد أن التفريق في الإعلام الغربي بين مرجعية قم (الفكرية)، والنجف (الصوفية) بزعم أن الأولى متأثرة بولاية الفقيه فيما الأخرى رافضة له غير صحيح. ويدلل على ذلك بأن المرجع آية

الله على السيستاني لا يسعه التصريح برفض ولاية الفقيه علانية أو معارضة سياسة المرشد على خامنئي لا سيما تلك حيال سوريا أو لبنان، ولذا يضطر إلى المهادنة كما فعل مراجع آخرون ممن يخشون آلة السلطة في إيران أو سوريا (صمت القبور: لماذا تسكت المرجعيات الشيعية عن قتل المسلمين في سوريا، مجلة «المجلة»: نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٢م).

ما يجرى في سوريا أزمة إقليمية ولكنها في المقابل أزمة طائفية ولم يتحرك بعض المراجع الكبار لتهدئة الاحتقان الطائفي لسحب البساط من الأطراف المستفيدة من إشعال القتيل الطائفي.

نازحون... من سوريا

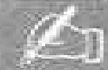
تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عبده وازن المنشور بجريدة الحياة الصادرة بتاريخ- ٢٩/١٠/٢٠١٢م يقول:

عندما هجروا بيوتهم حملوا معهم مفاتيح الأبواب، مع أنهم يعلمون أن ما من أبواب ستبقى ولا بيوت. لكنها عادة النازحين دوما، أو المهجرين، الذين لم يتسن لهم أن يحملوا معهم سوى المفاتيح.. هذا ما فعله الفلسطينيون عندما احتلت إسرائيل أراضيهم وأحياءهم وبيوتهم في ١٩٤٨م عام النكبة.. غادروا، لكن مفاتيح الأبواب ظلت معهم، خبأوها في صدورهم، ظنا منهم أنهم سيعودون يوما.. لكن النازحين السوريين الذين ينتشرون على الحدود، حدود بلادهم، في قرى تركيا وفي سهول الأردن ولبنان، أصروا على حمل مفاتيح أبوابهم معهم، وعلى الحفاظ عليها إنهم يعلمون جيدا أن الجنود النظام دمروا بيوتهم وأن الطائرات أغارت على أحيائهم وجعلتها أنقاضا لكنهم لم يقدروا على التخلي عن مفاتيح أبوابهم إنها كل ما تبقى من حياتهم التي كانت هناك، حتى الأمس القريب، إنها الذكرى التي سيحفظونها في قلوبهم، حتى وإن عادوا ولم يجدوا بيوتهم.. البيوت غالية جدا على قلوب أصحابها، وكذلك الأبواب والمفاتيح، والعتبات والنوافذ، هكذا فعل الفلسطينيون قبلهم ولكن من غير أن يعودوا، وما زالت المفاتيح في أدراجهم وقلوبهم، لم يتخلوا عنها، رغم الصدأ الذى تأكلها، السوريون سيعودون حتما، سيعودون، ولو إلى أطلال منازل وأحياء.

مازال بعض من فلسطيني المخيمات في لبنان والأردن وسوريا، كلما تسنى لهم أن يطلوا على الشاشات الصغيرة، يخرجون ما تبقى معهم من مفاتيح، عندما يتكلمون عن فلسطين المحتلة وعن ذكرياتهم هناك. الآن يفعل السوريون، سوريو المخيمات، مثلهم، عندما يبدءون الكلام عن مأساتهم. والفرق أن مفاتيح النازحين السوريين لا تزال جديدة ولامعة، على خلاف مفاتيح الفلسطينيين.. لكن لحظة الألم هي نفسها ألم النزوح والتشريد والتهجير بل وقد يكون ألم السوريين أشد وقعا، لأن من هجروهم هم بعض من أهلهم.

المشهد هو نفسه تقريبا، لكن النازحين ليسوا فلسطينيين، والعام ليس ١٩٤٨م عام النكبة. إنهم سوريون، والعام هو ٢٠١٢م والقرن هو الحادى والعشرون.. على الحدود التركية، على حدود لبنان والأردن، تنتشر المخيمات السورية بكثرة. لم تبق هناك أمكنة تتسع لهؤلاء الغرباء القادمين من قلب الجحيم، لم تبق خيام ولا فرش ولا ثياب ولا طعام لم يبق ما يكفى من فرق للإعانة والإغاثة.. النزوح لا يتوقف، النزف لا يتوقف.

بين المجلة والقارئ



أ. أحمد السيد تقي الدين

الهجـــرة المفقـــودة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة . قال فيها:

حين تُذكر كلمة (الهجرة) يتجلى لنا مشهدٌ مضى به الدهر مزهواً وسارت به الأيام مفتخرة ؛ ألا وهو مشهد النبي الصابر المجاهد المحتسب ومعه الصديق أبو بكر إلى ما حملته السيرة النبوية المطهرة من أحداث نقرأها ونستمتع بسماعها كلما حلت الذكرى المباركة فنهاجر معها وإليها بقلوبنا وأرواحنا فنحاول أن نقرأ أحداثها محاولا - كل خطيب وداعية - أن يربط الماضي بالحاضر لتقريب معاني الهجرة النبوية الشريفة إلى واقعنا المعاصر .

الهجرة النبوية هي رحلة كبرى ونقلة حضارية صنعت الأحداث الكبيرة التي من أبرزها ولادة الدولة من رحم الدعوة ، وتأسيس الحضارة الإسلامية على أساس لا تعرفه غيرها من الحضارات الأخرى ؛ فهي قامت على أساس من تقوى الله ورضوانه ، لكن وبعد اكتمال أحداث الهجرة الكبرى من مكة إلى المدينة وفوز السابقين إليها بالدرجات العلى ، بقيت هجرات أخرى حاضرة وشاهدة وممتدة في حياة المسلمين عبر الزمان ؛ ومنها ما جاءت به الأحاديث والروايات الصحيحة ، مثل : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) ، ومنها قول النبي ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) ، ومنها - كذلك - قوله عليه الصلاة والسلام : (.. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) فهناك - كما رأينا - أنواع من الهجرات الأخلاقية التي يحتاجها المسلم في كل زمان ومكان ليكون له نصيب من الهجرة وأجرها ومثوبتها بإذن الله تعالى .

وقد يبقى شعور المسلم بضرورة الهجرة قائماً وإن كانت ليس بشكلها الأول ؛ بل بمقصودها ومعانيها ، فما هاجر النبي ﷺ إلا بعدما كثرت الفتن ولم يعد يأمن المسلمون على دينهم وصاروا أكثر عرضة للفتنة من أقوامهم وعدم القدرة على التعامل مع بيئة شاعت فيها مظاهر الانفلات الأمني والنفسي والأخلاقي ؛ ولأن الليلة - أحيانا - تشبه البارحة ، وقد يعود المشهد القديم بظلاله القاتمة على واقع المسلمين ليس - هذه المرة - من كفار قريش ؛ بل من تردي أحوال المسلمين وتغير أحوال الزمان فتظهر الفتن ويشيع القتل وإراقة الدماء بغير حق ، ويصير المسلم الملتزم في حال غربة نفسية ذات وقع شديد على نفسه ودينه ؛ فهنا يأتي معنى آخر للهجرة يبينه النبي الهادى ﷺ في الحديث عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : (العبادة في الهرج - بهاء مفتوحة وراء ساكنة - كهجرة إليّ) - رواه المسلم - . والهرج - كما قال الإمام النووي - رحمه الله : الهرج هو الفتنة وأيام الفتن واختلاط أمور الناس ، كذلك في حال الخوف والذعر ، وفي حال الخفاء والجهالة . فالعبادة بكل أنواعها وعلى رأسها طلب العلم الشرعي من الثقات هو المنقذ من الضلالة في زمن تفرض فيه أحداث كل يوم وليلة على الخائف على دينه وأخلاقه ضرورة الهجرة إلى الله ورسوله .

دروس من الهجرة النبوية

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ أحمد على أحمد الأمير - وكيل وزارة الأوقاف الأسبق بقنا - فرشوط:

يدور الفلك دورته وتمر الأيام والشهور ويحيا المسلمون مع ذكريات الهجرة يأخذون الدرس والعبرة والعظة ونحن فى حاجة ماسة إلى مراجعة هذه الدروس لنصلح العوج ونقوم الفاسد من أمورنا .

الدرس الأول: اليهود يبنون عظمتهم المادية على تفرق العرب قبائل متناحرة يأكل بعضها البعض .. فقد كانوا يبحثون عن (الحزازات) القديمة بين الأوس والخزرج ليشعلوا نار الحرب بينهما ونجحوا فى هذا فتعرضت المدينة المنورة لحرب أهلية طال مداها حتى أكلت الأخضر واليابس - وعاش اليهود موزعين بين الأوس والخزرج يشعلون الفتنة والوقيعة وكان آخرها «حرب بعاث» .

وكان الأوس والخزرج خلالها يتطلعون إلى رجل يأتى من خارج المدينة يقرب بين وجهات النظر ويجمع الصف ويقضى على هذه الفتنة .

فكان محمد ﷺ وكانت الهجرة وكان الإسلام وكانت المؤاخاة وكان المسجد .. فأصبحت المدينة مجتمعاً مثالياً قائده محمد وشريعته الإسلام وهتافه الله أكبر .

وعندها كشر اليهود عن أنيابهم لأنهم أدركوا أن الخطر الحقيقى يكمن فى هذا التجمع الإسلامى ومن هنا ندرك الدرس الأول المطلوب هذه الأيام للأمة المسلمة وهو الالتفاف حول كتاب الله وسنة رسوله ونبذ الخلافات وتوحيد الصف والكلمة وتنمية الموارد والحفاظ عليها وإعداد العدة لهذا العدو الغادر الخائن الذى يريد للأمة الشتات والضياع فهل من صحوة إسلامية لنصل إلى العزة التى كتبها الله عز وجل لنا .

وهل جاء الوقت لتعيد القيادات العربية والإسلامية حساباتها وتتخلص من هيمنة الغرب الذى يريد القضاء على كل ما هو إسلامى .

الدرس الثانى: هو أن أهل الأرض إذا ضاقوا ذرعًا بالحق وأهله وراحوا يسخرون بعقائد الأمة ورسولها الكريم فعلى أهل الحق ألا يخضعوا لجبروت الباطل وأن يبحثوا عن المكان المناسب لنشر دعوتهم ولا يستكينوا أبداً لاتهامات الأعداء التى تشوه الصورة .

لأن اليهود قديمًا قالوا :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

«المائدة : ٦٤»

وقالوا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

«آل عمران : ١٨١»

فتلك طبيعتهم ، والمنافقون قالوا عندما قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء .. والمولى عز وجل يرد عليهم:

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾

«البقرة : ١٣»

فأخذ محمد ﷺ من المدينة مركزاً للدفاع عن الإسلام ضد هذه الهجمات الشرسة من المشركين ومن اليهود ومن المنافقين ـ والصراع بين الحق والباطل قديم وسيبقى؛ لأنهما لا يلتقيان أبدا ونجد هذا الصراع حتى بين الحيوانات وأعجبني قول الشاعر:

تموت الأسد في الغابات جوعاً

ولحم الضأن تأكله الكلاب

فهل آن لثورات الربيع أن تتجمع حول تعاليم القرآن وسيرة نبيهم الخاتم فيحافظوا على ثرواتهم ويتجمعون ولا يتفرقون فالجماعة رحمة والفرقة عذاب والذئب يأكل عادة من الغنم القاصية فاسمعوا وأطيعوا وتجمعوا حول من ولاه الله عليكم واتقوا الله في بلادكم وأوطانكم.. واطلبوا مرضاة ربكم فهو الذي يقول لنبيه وحبيبه محمد ﷺ:

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من
بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾

«البقرة : ١٤٥»

ويقول:

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل
إن هدى الله هو الهدى ﴾

«البقرة : ١٢٠»

الدرس الثالث: أن حب الوطن من الإيمان فإن أرضا ولد عليها الإنسان وفوقها كبر وترعرع وتحت سمائها رأى الخير يتوالى ونعم الله تتابع لابد أن يتعلق بها وأن يكون الانتماء لها قويا.. مهما كانت المحن والشدائد.

نرى ذلك في موقف رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة كارها حين وقف ينظر إليها ويقول: (والله إنك لأحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إلى نفسي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت).

ومن أجل هذا الحب ومن أجل هذا الانتماء.

تقدم البشرية الشهداء بغير عدد من أجل الاستمساك بالأرض والحفاظ على العرض والمال ونحن نعرف أرض المليون شهيد، ونعرف شعوبا تقدم شهداء كل لحظة يحاربون الأعداء بالحجارة ويقفون أمام الصواريخ والدبابات والقذائف وسلاحهم الإيمان والصبر والثقة في موعود الله.

﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾

(الحج: ٤٠)

الدرس الرابع: أن نكون أمناء في كل حال وتحت أي ظرف لا نعشق بغيا ولا نهوى عدوانا على أحد وإنما نطلب الحق لذات الحق لأن الله هو الحق المبين.

فلا يحملنا الشنآن ولا البغض أو حتى الاعتداء والعدوان على الخيانة والظلم ونقض العهد أو نكران حق الغير أو الاستيلاء على موارد الغير عند القدرة لأن الله لا يحب الخائنين ولا الظالمين ولا المعتدين.

ومن هنا ترك محمد ﷺ ليلة الهجرة عليا كرم الله وجهه ليبيت في فراشه متخفيا لتضليل المطاردين ليعيد لأناس أخرجوه من مكة كارها مالهم عنده من ودائع وأمانات لأنه الأمين، اشتهر بهذا الوصف في الجاهلية وقبل الإسلام.

فهل نحيا صادقين أمناء نكره الغش والالتواء وأكل أموال الناس بالباطل والاحتكار والاستغلال والاتجار في أقوات العباد بغير رحمة ولا خوف من الله.

قطوف من الهجرة النبوية

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ أحمد عبد المحسن على محمد. مدرسة الأورمان الثانوية بنين النموذجية. إدارة الدقي التعليمية:

● لم تكن الهجرة النبوية فراراً من أذى المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه فرسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في الفداء والشجاعة لأنه صاحب رسالة إنسانية تدعو إلى نشر راية الأمن والسلام.

● لقد كانت الهجرة نزولا على بيعة أخذت فيها العهود بالدماء والأرواح وبذل المهج دون الإيمان بالله ورسوله وتطهير العالم من الشر فإذا امتزج الإيمان بالقلب ملأه محبة صادقة تدفع إلى التضحية بالأهل والمال والنفس حتى يصير الله ورسوله أحب إلى المؤمن مما سواهما.

● وقد اتضح أثر ذلك في تلك القلة المؤمنة التي قامت على أكتافها الهجرة، فهذا الصحابي الجليل (أبو بكر) في الغار وكيف كان يهتم بسلامة رسول الله ﷺ؛ لأنه يعلم إن هلك رسول الله فقد هلكت الدعوة، وذلك الفدائي الأول سيدنا (على بن أبي طالب) ـ كرم الله وجهه ـ الذي تسجى ببردة رسول الله ﷺ مفترشا مكان نومه، وصاحب مخابرات مكة (عبدالله بن أبي بكر) الذي كان على بصيرة بما يدبره القوم لرسول الله ﷺ، وتلك الفدائية (أسماء بنت أبي بكر) التي عرضت حياتها للخطر حفاظا على سر رسول الله ﷺ وعاونتها في حفظ الأسرار، وإعداد الطعام أختها (عائشة) رضي الله عنهم.

● لقد كان صدق الإيمان وحب رسول الله أهم العناصر التي أدت إلى تحقيق النصر في هجرة رسول الله إلى المدينة المنورة قال تعالى:

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾

(التوبة: ٤٠)

حقا لقد تحقق النصر بيد الله تعالى قال تعالى:

﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

(الروم: ٤٧)

● ولم تكن الهجرة طمعاً في مال أو رغبة في سلطان فقد عرضت الدنيا على رسول الله ﷺ في مكة فلم يفتن بها بل رفض ذلك كله في كرامة وعزة في قولته الشهيرة لعمه (أبي طالب): «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

● إنما كانت الهجرة مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية اتسمت بالتحول إلى الكفاح والنضال الجماعي الذي انطلق بالدعوة الإسلامية من المدينة المنورة إلى آفاق الدنيا كلها.

● والآن أما آن للمسلمين أن يستلهموا كل طاقات العزة والقوة ومعاني البطولة والتضحية من جهاد رسول الله ﷺ في مكة والمدينة، ومن فدائية أصحابه الذين حرصوا على الموت واستهانوا بالحياة دفاعا عن دينهم فكان لهم الفتح المبين، ويوم نطبق هذا قولا وفعلا فإن الله لن يتخلى عن المؤمنين الصادقين قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد: محمود الفشني، عبد الموجود أمين

الأزهر يدعو التعاون الإسلامي لعقد قمة طارئة لوزراء الخارجية لمناقشة أحداث بورما

دعا الأزهر الشريف منظمة التعاون الإسلامي إلى عقد قمة طارئة لوزراء خارجية الدول الإسلامية؛ لمناقشة تداعيات ما يحدث للمسلمين في (ميانمار)، واتخاذ قرارات حاسمة من أجل الضغط على حكومة بورما لإنقاذ مسلمي بورما وحلّ هذه الأزمة.

وطالب الأزهر، في بيان له الثلاثاء ١٤ ذو الحجة ١٤٣٣ هـ الموافق ٣٠ أكتوبر ٢٠١٢ م، مجلس الأمن لعقد جلسة عاجلة لإصدار قرار ملزم لحكومة ميانمار لوقف العنف.

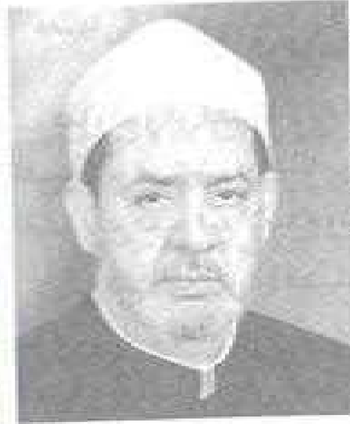
كما دعا البيان حكومة ميانمار إلى ضرورة البدء في عملية إعادة التأهيل والمصالحة في المنطقة، والسعي لإعادة دمج المجتمعين المنفصلين، وإعادة توطين النازحين في منازل جديدة واتخاذ التدابير من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية على المدى الطويل في تلك المنطقة.

وتوجه الأزهر في بيانه برسالة إلى مسلمي العالم قائلا: إنّ إخوانكم في ميانمار بحاجة ماسّة إلى الدعم الذي يرفع عنهم بطش الأكثرية الباغية، وإلى الإغاثة بكل صورها الطبية والغذائية وغيرها من سائر الاحتياجات الضرورية، داعيا المؤسسات الإسلامية الدعوية والخيرية والإغاثية الشعبية والرسمية إلى مد يد العون لإخوانهم المضطهدين في غفلة من ضمير العالم النائم.

وفيما يلي نص البيان:

سبق للأزهر الشريف أن أصدر بيانًا يوم الخميس ٨ من شعبان سنة ١٤٣٣هـ الموافق ٢٨ من يونيو سنة ٢٠١٢م وبيانا يوم ١٧ من شوال سنة ١٤٣٢- الموافق ٤ من سبتمبر سنة ٢٠١٢م، والعديد من النداءات الأخرى، محذّرا فيها من عمليات التطهير العرقي والتهجير القسري لمسلمي بورما.

والأزهر الشريف وهو يُتابع بألم ما تناقلته وسائل الإعلام من أخبار عن المذابح المروّعة التي يتعرض لها مسلمو بورما، ونذكر منه على سبيل الذكر لا الحصر ما أكدته مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، من تدمير أكثر من خمسة آلاف منزل في منطقة (كياو كيبو) بإقليم راخين غرب ميانمار، منذ يوم ٢١ أكتوبر الجاري، وتدمير ثلاثمائة منزل آخر في مدينة (بوكتار) منذ أمس الأول، وهروب أكثر من خمسة آلاف مسلم بالقوارب ما زالوا عالقين بأحد الأنهار على



الحدود مع بنجلاديش دون غذاء، وتشريد أكثر من مائة ألف من المسلمين في معسكرات اللاجئين منذ شهر يوليو الماضي، كل هذا يحدث أمام أعين الشرطة البورمية التي تدعم هذا السلوك القبيح الذي يتنافى مع كل الأعراف والأديان، يُطالب الأزهر المجتمع الدولي بضرورة التدخل الفوري والعاجل وتحمّل المسئولية الكاملة لوقف هذه المذابح والتهجير المتكرر.

ويؤكد الأزهر الشريف أن ما يتعرض له المسلمون في بورما هو من أشد أنواع الاعتداءات الوحشية والأعمال الإرهابية التي تتعارض مع القوانين الدولية والمبادئ الأخلاقية والإنسانية؛ مما يتطلّب وقفها فورا، مشددا على تحمّل حكومة ميانمار مسئوليتها السياسية والقانونية تجاه وقف أعمال العنف والقتل.

والأزهر إذ يستنكر هذا السلوك المنافي للأديان والحضارات الإنسانية الرفيعة، يُناشد المجتمع الدولي بالتدخّل العاجل والفاعل؛ للحفاظ على أمن المواطنين المسلمين وسلامتهم في بورما؛ صيانة لكرامة الإنسان، وحفظًا لحقوقه الإنسانية.

ويدعو الأزهر الشريف منظمة التعاون الإسلامي لعقد قمة طارئة لوزراء خارجية الدول الإسلامية؛ لمناقشة تداعيات ما يحدث للمسلمين في (ميانمار)، واتخاذ قرارات حاسمة من أجل الضغط على حكومة بورما لإنقاذ مسلمي بورما وحلّ هذه الأزمة، كما يدعو مجلس الأمن لعقد جلسة عاجلة لإصدار قرار ملزم لحكومة ميانمار لوقف العنف.

كما يدعو الأزهر حكومة ميانمار إلى ضرورة البدء في عملية إعادة التأهيل والمصالحة في المنطقة، والسعي لإعادة دمج المجتمعين المنفصلين، وإعادة توطين النازحين في منازل جديدة واتخاذ التدابير من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية على المدى الطويل في تلك المنطقة.

ويتوجّه الأزهر برسالة إلى مسلمي العالم: إنّ إخوانكم في ميانمار بحاجة ماسّة إلى الدعم الذي يرفع عنهم بطش الأكثرية الباغية، وإلى الإغاثة بكل صورها الطبية والغذّائية وغيرها من سائر الاحتياجات الضرورية، داعيا المؤسسات الإسلامية الدعوية والخيرية والإغاثية الشعبية والرسمية إلى مد يد العون لإخوانهم المضطهدين في غفلة من ضمير العالم النائم.

اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد.

والله ولي التوفيق،،،

تحريرا في مشيخة الأزهر
١٤ من ذي الحجة ١٤٣٣هـ
٣٠ من أكتوبر ٢٠١٢م

شيخ الأزهر
أ.د. أحمد الطيب

الأزهر يرسل أكثر من ٢٠ قافلة دعوية لدول شرق آسيا

هذا وقد وافق فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر على إرسال قوافل دعوية كبيرة تضم أكثر من عشرين عالمًا من كبار علماء الأزهر، تجوب أنحاء دول شرق آسيا (ماليزيا ـ إندونيسيا ـ تايلند) لتوضيح قيم الإسلام ودوره في تحقيق السلام العالمي، وتحقيق الوحدة والتوافق بين أبناء الشعوب.

يأتي ذلك خلال زيارة فضيلته لتلك الدول، وصرح الدكتور محمد جميعة، مدير عام الإعلام بالأزهر: أنه تم إعداد برنامج حافل لزيارة الإمام الأكبر ولقائه بكل أطياف شعوب تلك الدول، إضافة لمشاركة فضيلته للمسلمين في احتفالات رأس السنة، وإلقاء العديد من المحاضرات والندوات بجامعات ماليزيا وإندونيسيا وتايلاند حول الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا، ودور الأزهر جامعًا وجامعة في تعميق وسطية الإسلام والتمسك بتعاليم الدين الحنيف.

وسيتم منح الإمام الأكبر شهادة الدكتوراه الفخرية من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا؛ تقديرًا لشخصه وعلمه ومنهجه الوسطي المعتدل في الدفاع عن الإسلام وشريعته، وجهوده لإعادة تفعيل دور الأزهر عالميًا ومحليًا، وإصدار وثائق الأزهر لترشيد المجتمعات الإسلامية في الحفاظ على الأصالة الدينية، والأخذ بالمعاصرة التي لا تتنافى مع قيم الإسلام وشريعته.

كما سيتم خلال الزيارة افتتاح الفرع الجديد للرابطة العالمية لخريجي الأزهر بماليزيا وإندونيسيا، وإلقاء كلمة بهذه المناسبة حول الأزهر وتحقيق السلام العالمي.

يشار إلى أن الزيارة هي الأولى من نوعها لفضيلة الإمام الأكبر منذ توليه مهام مشيخة الأزهر، ويرافقه فيها وفد رفيع المستوى من الأزهر الشريف.

كارتر يشيد بدور الأزهر في عملية التحول الديموقراطي بمصر

صرح الدكتور محمود عزب مستشار فضيلة الإمام الأكبر، شيخ الأزهر، الدكتور أحمد الطيب لشئون الحوار، أن الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أبدى إعجابه بعملية التحول الديموقراطي في مصر، وكيفية إدارتها.

جاء ذلك خلال اللقاء الذي جمع فضيلة الإمام مع وفد من لجنة الحكماء يضم الرئيس الأمريكي الأسبق وجو هارم رئيسة وزراء النرويج السابقة، وماري روبنسون رئيسة وزراء أيرلندا السابقة.

ونقل عزب في بيان ألقاه عقب الاجتماع وفي مؤتمر صحفي عالمي بمشيخة الأزهر إشادة الضيف الأمريكي بدور الأزهر في الحوار بين كافة الأطياف السياسية، والذي نتج عنه وثيقة الأزهر، والتي تضمن الحريات الأربعة، من حرية رأي وتعبير وعقيدة وحرية المرأة وحقوق الإنسان.

كما كشف دكتور عزب عن إصدار وثيقة جديدة تضمن حقوق المرأة، معلنًا أن باب الأزهر لا زال مفتوحًا للجميع.

وأكد البيان أن اللقاء تناول المشكلة الفلسطينية، باعتبارها أساس المشاكل في المنطقة، ولا يمكن تحقيق السلام دونها، مؤكدًا على أن المستوطنات هي العقبة الرئيسية في طريق استئناف مفاوضات السلام.

من جهته أشار الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر إلى أهمية دور مصر في المنطقة، ولافتًا إلى تطلعه لحكم ودستور جديدين يحققان التقدم والسلام.

وقال كارتر أحد أعضاء لجنة الحكماء التي قامت بزيارة لمشيخة الأزهر الشريف يوم الثلاثاء ٧ ذو الحجة ١٤٣٣هـ الموافق ٢٣ أكتوبر ٢٠١٢م، للقاء الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر ـ أن لجنة الحكماء تتكون من ١٠ شخصيات سياسية كبيرة برئاسة الزعيم الجنوب أفريقي نيلسون مانديلا، وتسعى لتحقيق السلام والديموقراطية والتنمية لشعوب العالم.

وأضاف: جئت للقاهرة برفقة عضوين آخرين هما جو هارم رئيسة وزراء النرويج السابقة، وماري روبنسون رئيسة وزراء أيرلندا السابقة للقاء الإمام الأكبر، إيمانًا منا بأهمية دور الأزهر في تحقيق تطلعات شعب مصر.

كما ناقشنا القضية الفلسطينية وسبل المصالحة بين حركة حماس والفصائل الفلسطينية الأخرى باعتبارها السبيل المناسب لإحلال السلام في المنطقة من خلال الدين والسياسة بالتوازي.

الطيب: برنامج خاص لطلاب البعوث الإسلامية لنشر وسطية الأزهر

قال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، إن هناك برنامجًا خاصًا يتم إعداده لطلاب بعض البلدان الدارسين بالأزهر، يؤسس لنشر ثقافة التسامح والوسطية والاعتدال، والتي تميز بها الأزهر على مدار تاريخه.

جاء ذلك خلال استقباله لسورا بون، وزير خارجية تايلاند، والوفد المرافق لسيادته.

وأكد الطيب خلال اللقاء أن الطلاب الأجانب الدارسين بالأزهر الشريف بمثابة رسل سلام ونهضة لبلادهم، بما يحملونه من مهمة نشر الإسلام بمفهومه الوسطي وإرساء تعاليمه السمحة، ورفع لواء التسامح والاعتدال بين شعوبهم؛ ليبرزوا عظمة الإسلام وسمو رسالته التي تميز بها؛ والذي مكنه من بناء أعظم حضارة عرفتها البشرية.

من جانبه قال وزير خارجية تايلاند: إن الأزهر يمثل مكانة كبيرة لدى المسلمين في جميع أنحاء العالم وخاصة في تايلاند، وأنني محمل برسالة خاصة من رئيس الوزراء التايلاندي بضرورة تدعيم العلاقات بين مصر وتايلاند، خاصة الأزهر الشريف.

وأضاف: أن المجتمع التايلاندي يحقق مفهوم التعايش السلمي بين مختلف الأديان والثقافات، ولدى الجميع الحرية الكاملة، وكل ديانة تحترم الأخرى، وهذا ما أشاد به فضيلة الإمام الأكبر من ضرورة توافر الاحترام والتقدير الذي ينبغي أن يكون سائدًا في مختلف المجتمعات؛ بما يحقق الأمن والسلم العالمي.

وسلم الوزير الدعوة المقدمة من رئيس وزراء تايلاند لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة تايلاند خلال الزيارة التي سيقوم بها إلى شرق آسيا الشهر المقبل.

وقدم وزير الخارجية شكر حكومته العميق للأزهر الشريف وشيخه على ما يقدمه من رعاية لأبناء تايلاند الدارسين بالأزهر، والبالغ عددهم ألفا طالب، وكذلك تقديمه المنح الدراسية السنوية التي يقدمها الأزهر للطلاب التايلانديين.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

أ.د. محمد عمارة يلتقى بسفير دولة إيران



فى يوم الأحد ٤ / ١١ / ٢٠١٢ زار السيد مجتبى أمانى - رئيس مكتب رعاية مصالح الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالقاهرة - رئيس تحرير مجلة الأزهر - الأستاذ الدكتور محمد عمارة - بمنزل رئيس التحرير .. ودار بينهما حوار مطول حول الكتاب الذى وُزع هدية مع المجلة - عدد ذى الحجة - «الخطوط العريضة لدين الشيعة».

ولقد أوضح رئيس التحرير للسفير الإيرانى أن تصدى مجلة الأزهر للتمدد الشيعى فى المجتمعات السنية، ودفاعها عن رموز الصحابة وفكر أهل السنة والجماعة إنما هو جزء من موقف الأزهر ورسالته فى حراسة صحيح الإسلام والمذاهب المعتبرة لأهل السنة..

وأكد رئيس التحرير ترحيب الأزهر بالحوار مع علماء الشيعة لوقف الصراع المذهبى، ولتنقية كتب - الشيعة والسنة من تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك هو الشرط الأول والضرورى لوحدة الأمة التى هى فريضة إسلامية وضرورة حياتية.

توقع تحول فرنسا لجمهورية إسلامية خلال ٣٩ عاماً

فيلم جديد عن انتشار الإسلام فى أوروبا يثير أزمة فى الفاتيكان

رغم استمرار اشتعال أزمة فيلم «براءة المسلمين» المسىء للإسلام وللرسول الكريم، أثار الكردينال بيتر تركسون من الروم الكاثوليك أزمة جديدة فى المؤتمر الدولى للأساقفة بالفاتيكان عندما عرض مقطع فيديو من موقع «يوتيوب» الإليكترونى يحمل توقعات مثيرة حول انتشار الإسلام فى أوروبا خلال السنوات القليلة القادمة، ويتنبأ لدول مثل فرنسا بأن تصبح جمهورية إسلامية خلال ٣٩ عاماً من الآن.

وتصدر الفيلم الذى لا تتجاوز مدته السبع دقائق ويحمل اسم «التركيبة السكانية للمسلمين» حديث التجمع الدولى للأساقفة فى الفاتيكان بعد يومين من عرض بيترسون له فى فترة مناقشة حرة مثيرا نقاشا حامياً لما يتضمنها من إحصائيات ومقارنات بين أعداد المسيحيين والمسلمين فى العالم يراها البعض مغلوطة وهدفها إثارة الفتن وإشعال الأزمات.

وقال الأب توماس روزيكا للصحفيين عندما وصلنا لحضور الجلسات سئلت عدة مرات من خطط ذلك؟ ومن يقف وراءه؟، مشيراً إلى أن الفيلم أصبح على قمة جدول أعمال المؤتمر الذى استمر ثلاثة أسابيع وحضره ٢٦٢ من الأساقفة، وأضاف أن أحد الأساقفة الحاضرين أكد أنهم سيفندون ما ورد فى الفيديو عبر تقرير يحمل تفاصيل مغايرة.

من جانبه، حذر يحيى بالافشينى - نائب رئيس الطائفة الإسلامية فى إيطاليا مما سماه «حرب أرقام» قائمة على أساليب التخويف من قبل أى طرف.

منظمات دولية حقوقية تطالب حكومة ميانمار بتوفير الحماية لمسلمى الروهينجيا

دعت منظمات دولية لحقوق الإنسان حكومة ميانمار إلى اتخاذ المزيد من الإجراءات لتوفير الحماية لمسلمى الروهينجيا بعد اندلاع موجة جديدة من العنف الطائفى فى البلاد خلال الأيام الماضية.

من جانبها قالت منظمة هيومان رايتس ووتش: إن صوراً التقطت بالأقمار الصناعية أظهرت تدمير أكثر من ٨٠٠ منزل فى مدينة كياوكبيو الساحلية وحدها والتى يقطنها غالبية من مسلمى الروهينجيا.

وفى سياق متصل طالبت منظمة العفو الدولية حكومة ميانمار بوقف موجة العنف والتمييز العنصرى.

من ناحية أخرى ذكر أحد أعضاء مجلس النواب فى ميانمار أن الحكومة يمكن أن تدعو إلى فرض حالة طوارئ فى ولاية راخين إذا استمر العنف الطائفى هناك.

وذكرت الصحف الحكومية فى ميانمار أن أحداث العنف الطائفى التى وقعت خلال الأيام الماضية أسفرت عن مقتل ٦٧ شخصاً.

ويتردد على نطاق واسع أنباء عن قوارب محملة بالروهينجيا الذين يحاولون عبور الحدود البحرية إلى بنجلاديش التى تمنعهم من حق اللجوء السياسى منذ ١٩٩٢م.

وبحسب أربعة مصادر من نازحى الروهينجيا فإن عشرات الزوارق المحملة بالروهينجيا الفارين دون طعام ولا ماء من كياوكبيو حاولت الوصول إلى مخيمات النازحين المكتظة فى سيتوى عاصمة راخين.

وتشير التقديرات إلى أن عدد مسلمى الروهينجيا الذين يعيشون فى ميانمار يبلغ نحو مليون شخص ويعانون اضطهادا منذ عقود حيث ترفض الحكومة منحهم الجنسية وترغب فى ترحيلهم.

منع حمل السلاح فى دارفور خلال العيد

أدان حزب الأمة الفيدرالى السودانى العدوان الإسرائيلى على مجمع «اليرموك» للصناعات العسكرية بالخرطوم.. وندد الحزب فى بيان له بما وصفه بـ«المحاولات الرخيصة» لإضعاف قدرات البلاد الدفاعية والأمنية والاقتصادية وتمكين أعداء السودان للنيل من عزته وكرامته، واستنكر البيان هذا الأسلوب الإجرامى اللاأخلاقى، ودعا الجماهير كافة للاستعداد التام للدفاع عن الوطن وسيادته، وناشد الدول الشقيقة والصديقة والمنظمات الإقليمية والدولية إحكام سلطة القانون على المعتدين.

كما أدانت جماعة أنصار السنة المحمدية العدوان واعتبرته جزءا من مخطط لإضعاف الأمة الإسلامية، بينما قالت نقابة المحامين: إن العدوان يأتى فى إطار السياسة الصهيونية المعلنة لتدمير وعرقلة وإعاقة أى تطوير للقوة الاستراتيجية العربية والإسلامية، كما يأتى منسجما مع موقف معلن لزعزعة استقرار السودان.

ودعت النقابة مؤسسات المجتمع الدولى للقيام بمسئوليتها والتزاماتها تجاه العدوان المخالف للمواثيق والمعاهدات الدولية، ودعت الدول العربية والاتحاد الإفريقى ومجلس الأمن الدولى للقيام بالدور المنوط بهم.

إسرائيل تقوم بهجمة صهيونية جديدة ضد الأقصى

صعدت إسرائيل من حملتها التهويدية لتدمير المسجد الأقصى ومدينة القدس، حيث قامت قواتها باقتحام ساحات المسجد الأقصى المبارك، واعتقال عدد كبير من المصلين، وأطلقت القوات الإسرائيلية قنابل الغاز والقنابل الطاطية لقمع المصلين من أبناء الشعب الفلسطينى وإحكام قبضة اليهود على المسجد الأقصى وتمكين المتطرفين اليهود منه.

وقد أدان العديد من المنظمات والمؤسسات الإسلامية كالأزهر الشريف ومنظمة التعاون الإسلامى والإيسيسكو الهجمة الصهيونية الجديدة ضد المقدسات الإسلامية وطالبت حكومات العالم الإسلامى بالقيام بواجبها لحماية أولى القبلتين مسرى الرسول ﷺ.

كما طالبت الأمم المتحدة باتخاذ التدابير اللازمة لمنع الهجمة الصهيونية ضد الأقصى والمقدسات الإسلامية.

..وتقتلع ألف شجرة زيتون

أعلنت إسرائيل أنها أمرت فلسطينيين فى الضفة الغربية باقتلاع ألف شجرة زيتون مزروعة فى منطقة واقعة تحت السيطرة الإسرائيلية ومصنفة من جانب الدولة العبرية بأنها محمية طبيعية.

وقالت السلطات العسكرية الإسرائيلية التى تدير مناطق الضفة الغربية الخاضعة لسيطرة إسرئيلية: إنه صدر الأمر باقتلاع أشجار الزيتون.

وذكرت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية: إنها أشجار زرعت فى محمية طبيعية بدون تنسيق مع مسئول المنطقة كما يفرض القانون، مضيفة أن المالكين بإمكانهم تقديم اعتراضاتهم إلى السلطات المعنية.

وأكد مزارعون فلسطينيون أن هذا القرار ينتهك حقهم بالملكية وأنهم سيطعنون به أمام القضاء.

أول صلاة جمعة بمسجد «بئر سبع» منذ ٦٤ عاما

شهد مسجد مدينة بئر سبع الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ أداء أول صلاة جمعة للمرة الأولى منذ ٦٤ عاما عندما استولت إسرائيل على المسجد وأغلقته فى وجه المصلين بعد احتلال المدينة عام ١٩٤٨، ألقى خطبة الجمعة الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر، وتحدث للمصلين عقب صلاة الجمعة الشيخ عكرمة صبرى خطيب المسجد الأقصى المبارك ومفتى الديار الفلسطينية السابقة، وطلب الصانع عضو الكنيست الإسرائيلى عن السكان العرب.

أقيم مسجد بئر سبع عام ١٩٠٦م واحتلته إسرائيل عام ١٩٤٨، وهجرت سكان المدينة، وأغلقت المساجد، وهدمت الكنيسة الأرثوذكسية المجاورة له.

أول رئيسة بلدية محجبة فى البوسنة وأوروبا

انتخب سكان مدينة فيسوكو البوسنية قرب سراييفو ومعظمهم من المسلمين، سيدة محجبة رئيسة لبلديتهم وذلك للمرة الأولى في البوسنة وأوروبا أيضا، وفازت عمرة بابيتش ٤٣ سنة، التي ترتدى حجابا بـ٣٠ في المائة من أصوات ناخبى هذه البلدة التى يسكنها أربعون ألف نسمة وتنتمي بابيتش إلى حزب العمل الديمقراطي، وهو أكبر حزب لمسلمي البوسنة وهي متخصصة في الاقتصاد تولت منصب وزيرة المالية في منطقة كانتون رئيسا. وترأست بابيتش التي ترملت خلال حرب البوسنة والهرسك (١٩٩٢ - ١٩٩٥) بعد مقتل زوجها في الجبهة، لسنوات عدة، جمعية عائلات المقاتلين المسلمين الذين سقطوا خلال

الحرب، وهي أم لثلاثة أبناء.

وتعليقًا على انتخابها اعتبرت بابيتش أن خيار ناخبيها يمثل قدوة للغرب ولبلدان العالم الإسلامي على حد سواء.

وقالت: إنه نصر كبير للديمقراطية لقد تبنى مواطني موقفًا منفتحًا لأنهم انتخبوني كامرأة وأيضا كامرأة محجبة لافتة إلى أن الإسلام واضح تماما تجاه المرأة، ويخصص لها مكانة في الحياة العامة، وجميع أولئك الذين يفسرونه بشكل صحيح يعلمون أن الأمر كذلك.

وأشادت رئيسة البلدية المنتخبة بـ«شجاعة» حزبها لترشيحها لمنصب رئيس البلدية في مجتمع بوسني ذكوري بمجموعاته الثلاث الرئيسية، المسلمين والصرب والكروات وأضافت: أعتقد أن حجابي يجب ألا يكون عائقًا على الطريق الأوروبي.

أن أوروبا ستدرك أنها أمام أناس يحترمون هويتهم لكنهم متسامحون بما يكفي لاحترام حقوق الآخرين.

اتفاق تاريخي يمنح مسلمي الفلبين حكماً ذاتياً

وقعت الحكومة الفلبينية وزعماء جبهة مورو الإسلامية اتفاق سلام تاريخيًا يهدف إلى إنهاء حروب استمرت لعقود طويلة في جنوب البلاد المضطرب ويمنح المسلمين حكما ذاتيا.

والاتفاق يمهد الطريق لمنطقة حكم ذاتي جديد على أن تدار من قبل المسلمين في مينداناو، وفقًا للرئيس بنينو أكينو، الذي التقى زعماء الجبهة في القصر الرئاسي في مانيلا، وحضر زعيم جبهة مورو الإسلامية للتحرير، الحاج إبراهيم مراد، توقيع الاتفاق إلى جانب الرئيس أكينو الذي قال: توقع اتفاقًا إطاريًا يمكن أخيرا أن يحقق السلام الدائم في ميندناو.

خاضت جبهة مورو على مدى عقود صراعات من أجل إقامة دولة إسلامية مستقلة في جنوب الفلبين، وألقى باللوم عليها في عدة هجمات في المنطقة وجاء الاتفاق ليوفر إطارا بشأن قضايا مثل هيكل السلطة، والعائدات في المنطقة الجنوبية، كما يعد منعطفًا كبيرا بعد سنوات من المفاوضات للمساعدة في إنهاء صراعات قتل فيها عشرات الآلاف.

وسيطلق اسم «بانجسامورو» على المنطقة المستقلة الجديدة وهو اسم يرمز إلى نضال الأجداد في ميندناو، ويحتفي بالتاريخ والطبيعة في المنطقة.

ويقدر عدد أعضاء جبهة مورو بنحو ١٢ ألفًا، أما ميندانا فهي ثاني أكبر جزر الفلبين ويبلغ تعداد السكان ١٤ مليونا تقريبا، أي خمس سكان الفلبين كلها، ومعظمهم من المسلمين.

أمريكي وألماني يقودان حملة، لنصرة النبي، بمدينة الخبر السعودية

قاد أمريكي وألماني أشهرا إسلامهما مؤخرا بمدينة الخبر حملة لنصرة النبي ﷺ، تنظمها المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات «هداية» بالخبر، ولاقت صدى كبيرا وسط الآلاف من الأجانب الذين حضروا فعاليات هذه الحملة، وصرح مدير المكتب الشيخ أحمد

الشهري أن البرنامج تضمن محاضرات ودروسا داخل المساجد والمراكز الثقافية، ألقاها نخبة من العلماء والمفكرين والمشايخ بينهم الشيخ محمد العريفي، وتابعها حوالي ٨ آلاف شخص بينهم ٣ آلاف طالب.

أضاف: أن فكرة البرنامج جاءت بعد زيارة أمريكي وألماني أعلنا إسلامهما مؤخرا بالمكتب، واستنكرا الفيلم المسيء للنبي محمد ﷺ، وأكدا أن الغالبية العظمى من أبناء بلديهما يرفضون مثل هذه الإساءات التي تثير الفتن والتوتر بين الأديان.

لأول مرة.. تدريس التربية الإسلامية في المدارس الألمانية

اعتمدت وزارة التربية والتعليم الاتحادية الألمانية ووزارات الولايات الألمانية مادة التربية الإسلامية في مدارس كل المقاطعات على قدم المساواة مع المواد المسيحية التي يتم تدريسها.

جاءت هذه الخطوة بعد جهود طويلة ومضنية بذلتها المؤسسات الإسلامية لإقناع الحكومة الألمانية بهذا الحق لأتباع الدين الإسلامي من الإيمان.

وقد كانت السلطات الألمانية ترفض إقرار هذا الحق متعللة بعدم وجود كيان إسلامي موحد في ظل وجود ما أسمته بكيانات مذهبية متنافرة.

بعد اعتذاره عن الفيلم المسيء الإدارة الأمريكية تسحب مستشار سفيرتها بالقاهرة

أعلن مسئولون بوزارة الخارجية الأمريكية سحب مسئول من السفارة الأمريكية بالقاهرة لمسئوليته عن إشعال عاصفة من الجدل بتقديمه اعتذارا عن الفيلم المسيء للإسلام بعد محاولة الاعتداء على السفارة يوم ١١ سبتمبر الماضي.

وقال المسئولون: إن الدبلوماسي لاري شوارتز تم نقله إلى واشنطن بعد أن شغل منصب مستشار خاص للسفيرة آن باترسون، وأضاف المسئولون لصحيفة «وول ستريت جورنال» إن شوارتز كان في مهمة مؤقتة في القاهرة وأعطيت له مهمة جديدة دائمة في واشنطن.

وكان شوارتز قد أصدر بيانا في سبتمبر الماضي جاء فيه إن السفارة الأمريكية تدين جهود بعض الأفراد التي تؤذي المشاعر الدينية لدى المسلمين وتدين الجهود الرامية إلى الإساءة للمؤمنين من جميع الأديان، وكانت إدارة أوباما قد تعرضت لانتقادات عنيفة من الجمهوريين بعد بيان السفارة.



الفهرس السنوى لمجلة الأزهر لعام ١٤٣٣هـ

فهرس المحـــرم

فهرس صفـــــر

فهرس ربيع الأول

فهرس ربيع الآخر

فهرس جمادى الأولى

فهرس جمادى الآخرة

فهرس رجب

فهرس شعبان

فهرس رمضان

فهرس شوال

فهرس ذو القعدة

فهرس ذى الحجة

فهرس ملاحق مجلة الأزهر لعام ١٤٣٣هـ

28- In April, 2004, the US President, George Bush gave the Israeli Prime Minister Ariel Sharon Bush's Promise in the message of letter of guarantees, in which the USA pledges to leave the great settlement masses in Jerusalem and the Western bank in the fast of Israel at the final settlement of the Zionist Arab struggle.

29- In 2006, Cardinal Joseph Ratzinger published Pope Benedict the sixteenth a book in New York entitled: "Without root: relativity, Christianity, and Islam" in March. This book frightens the West of Islam and he declared that he fears that Europe becomes Islamic in the twenty first century.

30- In September, 2005, the Danish caricature abusing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), depicting him as a terrorist, wearing a turban that resemble a bomb, was published.

31- In July 2006, Israel launched war against Lebanon in which it used internationally banned weapons.

32- On the 18th of April, Le Monde Newspaper published the saying of Pope Benedict XVI stating: "Islam is a religion not based on monotheism in the way of Christianity and Judaism, and is not related to the same Revelation of Judaism and Christianity.

33- On the 12th of September 2006, Pope Benedict XVI delivered his famous speech in Resenberg University in Germany and accused the Islamic faith of being pagan and non reasonable. He said about the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) that he did not bring any good and he commanded to spread his religion by violence. Also, he said that Qur'an includes the instructions of villains which urge coercion in religion.

34- In August 2007, the US Congress approved a budget for financing 40 Egyptian Coptic organizations and helping the Egyptian villages inhabited by many Christians. Also, it directed most of the American aid specified for the Christian businessmen to create a generation of the private sector to the Christian businessmen and to develop a community of the Egyptian Christians.

16- In November, 2001, the American Zionist writer, Thomas Friedman, wrote: "The real war in the Islamic region is in the schools, and when we resume fighting, we should be armed with the school books to form a new generation that can accept our policies, and until this comes true, we will not find any friends for us there."

17- The writer, Stanley A. Weiss wrote in the international Herald Tribune: "The reality of war against terrorism lies in the question: Will the Islamic state follow the political social model – of Turkey – as a secularist modern state or the Islamic fundamentalism? Also, the President of Pakistan Pervez Musharraf should follow in the footsteps of Ataturk, who forced Turkey to abandon its history.

18- The USA approved 200 million dollars to modernize and secularize the religious education in Pakistan. Also, it forced many Arab and Islamic countries to amend and reduce their religious curricula and abstained from financing the schools which refuse secularism and modernization.

19- Yemen reduced the hours dedicated to teaching the Qur'an in 2001-2002 starting from the fifth primary grade up to the secondary stage with a percentage ranging from 25% to 50% of the previous hours. Also, it reduced the sessions of religion in the secondary stage by 25%. The Yemeni President said: "We should shave our heads instead of having our heads shaved by them."

20- Margaret Thatcher, the former British Prime Minister, said: "The Muslims who refuse the Western values and their interests contradict with those of the West are enemies of the USA and us. This Islamic fundamentalism is like Bolshevism in the past in its antagonistic ideology, and it needs a long term strategy to be able to conquer it.

21- In January, 2002, the well-known Zionist orientalist, Bernard Lewis said: "Terrorism today is part of long strife between Islam and the West. The moral system on which Islam depends is different from that of the Western civilization

– the Christian and the Jewish – and the Qur'anic verses approve of violence against the non-Muslims. This is called war between religions.

22- The French novelist Michel Hollbeck said: Reciting the Qur'an is irritating and Islam is a hostile religion, which makes people miserable.

23- In November 2001, Samuel Huntington wrote: "We want to launch war inside Islam, so as to accept the Western modernization and secularism as well as the Christian principle of separating the state from the religion."

24- In February, 2002, John Aschroft, the US Attorney General, said: "Christianity is the religion for which our Lord sent his son to die for the sake of the people, while Islam is a religion in which Allah commands a person to die for His sake."

25- The US Deputy Secretary of Defense, General William G. Boykin delivered a speech in one of the churches while wearing the military uniform in October, 2003: "Our Lord is greater than the Muslim's Lord, as our Lord is real, while that of the Muslims is an idol. They hate the USA, as it is a Christian and Jewish nation, and our war with them is over Satan. Islam is an evil and satanic religion and Muhammad is Satan himself.

The US Secretary of Defense, Rumsfeld, refused to apologize for this speech and said that it is freedom of opinion and expression. General Boykin led the assassinations squad in Iraq after its invasion. This squad was trained by the Israelis.

26- In March, 2002, the German Interior Minister, Otto Schily said that the Islamic creed is delusion and heresy.

27- In March, 2003, the British and American troops occupied and destroyed Iraq, and the US President, George Bush said about this war that it is a fair war with respect to all the criteria set by Saint Augustine [354-430], Saint Thomas Aquinas [1225-1274] and Martin Luther [1483-1546].

3- In July, 1990, Gianna Demiles, the President of the European Council of Ministers, said that confrontation with communism ended, but there is another confrontation between the West and the Islamic world, this is the reason for the revival of NATO in spite of the cancellation of Warsaw Pact.

4- In October, 1991, Cardinal Paul Paupard, Assistant Pope, said: "Islam is regarded as a challenge to Europe and the West in general, and the reason behind it being a challenge is that Islam is a religion, culture, society, and life, thinking, and acting style and Islam invades Europe anew."

5- In 1993, Samuel Huntington [1927-2008], the famous American strategic thinker, manifested the stance of the West and its philosophy in the struggle of civilizations. He advised the American decision maker to start to neutralize the world civilizations until he finishes the struggle with the Islamic civilization, then Confucianism, then to dominate the world.

6- The American strategic thinker Fukuyama wrote: "Islam is the only civilization resisting the western modernization and the main principle of this modernization is secularism and separating the religion from politics. He said the issue is not war against terrorism, but it is against the Islamic fundamentalist creed, which refuses the western modernization. He added that this creed is more dangerous than fascism and communism.

7- On 24th of October, 1995 the US Congress decided regarding Jerusalem the eternal capital of Israel, as it is – as he said – the spiritual homeland of Israel. The Israeli Government started to establish its embassy in Jerusalem on a land owned to the Islamic charitable endowment.

8- In April, 1999, NATO in the fiftieth anniversary of its establishment increased the scope of the military interference of the participating countries, declaring the Islamic world as a field of its military interference according to this amendment.

9- On 16th of September, 2001 and before carrying out investigation in the events of the 11th of September, the US President Bosh, the son, declared the

crusade invasion of the Islamic world. Although what he said was a slip of tongue, the events witnessed that it was an intended fact. Nixon announced that the events of the 11th of September were an opportunity, as he entitled his book.

10- On the 17th of September, 2001, Tony Blair, the British Prime Minister, said that it is the war of civilization and civility (in the West) against barbarism in the East.

11- On 26th of September, 2001 Silvio Berliscuni, the Italian Prime Minister, declared that the Western civilization is more superior than the Islamic civilization, and the Western civilization should attain victory over Islam, and the West will generalize its civilization and impose its dominance over the people.

12- The US Senator Joseph Liberman – the former candidate for the position of the vice president said: There is no solution with the Islamic and Arab countries except imposing on them the values, system, and policies, which it considers necessary. The US slogans do not end at its borders but they transcend it to other countries.

13- The former US Secretary of State, Madeleine Albright, said: "We are – the Americans – have superiority over all of the people, and our vision extends beyond all peoples.

14- In October, 2001, the Interfaith Dialogue Conference was held in Cairo in Sheraton Heliopolis Hotel. At the end of this conference, the Vatican delegate, the Priest Khalid Akshah and the delegate of the World Council of Churches, Dr. Tariq Metry refused to sign the closing statement, as it contains the words "the heavenly religions and divine values". They said: "We do not acknowledge Islam as a heavenly religion or its values as divine values."

15- In October, 2001, USA and the NATO launched their invasion to Afghanistan.

It seems that this film is considered as a horrible abuse to Islam and its honorable Prophet, Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) made by foolish people, who consider themselves Egyptian Christians, while they disavowed them. In fact, this piece of work wanted to abuse Islam, and it is not an artistic or creative piece of work. Rather, it is a sort of abuse and offense, aiming at breaking the Egyptian national unity.

In spite of all of this, the Egyptian national unity emphasized that it is strong and deep-rooted in the souls of the Muslims and Christians in Egypt.

The Emirati citizen, Dr. Mohammad al-Awlaki ,thought that the practical response about the abuses directed to the Holy Prophet (PBUH) from time to time, is to prepare a huge unique book about the virtues and morals of the Prophet (PBUH).Many people with different religions, like Christians and Jews, participated in the preparation of this huge unique book as well as Muslims. The weight of this huge book is about 1500 kg, and the width of a single page is eight meters.The huge unique book has been logged in Guinness World Records for its unique design. There are 20 thousand people from United Arab Emirate entered into Islam after presenting the book to the public , some of these persons are tourists as well as visitors who bought the small edition of this book. The book has been printed by the largest printing machine in the world that exist in Germany, in addition to two hundred people have embarked on the preparation of this book.

The book has been written in Arabic and translated into many languages such as English and French languages and into other world languages. Small editions have been printed from this book for the public. 50 thousand copies have been sent to Europe and Britain where it has been showed in latest London Olympics. French Islamic Council has welcomed the presence of the book and held seminars to explain the contents of the book for the French people.

The title of the book is "This is Muhammad". Dr. Mohammed al-Awlaki declared that he would give the Egyptian President Dr. Mohamed Morsi the original Certificate of Guinness World Records. The book will be transferred to all over the world. Eventually, the will be placed at Al-Azhar Al-Sharif in the Arab Republic of Egypt under the auspices of Sheikh Al-Azhar the Grand Imam Prof. Dr. Ahmed El-Tayeb.

Estimated cost of preparing the book is about 11 million dirham.

ISLAMU PHOBIA

or

Phobia from Islam

Some aspects of the current western scenes towards Islam...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

1- In the eighties of the twentieth century, the previous US President Richard Nixon [1913-1994] in his book [The Opportunity] called USA, Europe, and Moscow to be united in confronting the Islamic fundamentalism which wants:

- Reviving the Islamic civilization
- Applying the Islamic Shari`ah
- Regarding Islam as a religion and a way of ruling the state.

Nixon called to push the Islamic world to the way of Kamal Ataturk [1881-1938], which the way to secularism and linking the Islamic world to the western civilization.

2- Soon after the collapse of the Soviet Union and the Communist systems early in 1991, the International Affairs magazine, which is published in Cambridge, England, revealed the secret behind the West regards Islam as an enemy and replaced the Red Danger with it. It said that this secret lies in the fact that the Islam and the Islamic societies resist secularism. Thus, it resists the Western secularist model in modernization and it becomes a challenge for the Western culture.

statements yesterday that Morris Sadik and his companions do not represent Disapora Copts.

Medhat Qeladah, the Head of the Union of Coptic Organizations in Europe, emphasized the renunciation of this film, pointing out that the real producer of this film is the American Priest, Terry Jones, who was accused previously of burning copies of the Honorable Qur'an.

The Egyptian Social Democratic Party denounced the film affirming that it stirs the religious feelings and seditions. Farid Zahran, the Vice President of the Party, said: "We call to respect all of creeds and religions."

Eng. Muhammad Anwar Esmat Al-Sadat, the Head of Reform and Development Party, said that the freedom of creativeness and arts does not mean abusing the religious sanctities and creeds, calling for non displaying this film immediately.

Dr. Safwat Abdul Mughny, the Head of the Political Office of Construction and Development Party emphasized that the producers of the film abusing Islam and the biography of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) work for suspicious authorities and do not represent the Copts neither in Egypt nor abroad. Also, they do not represent Christianity, especially, Disapora Copts.

Nader Shukry, the official speaker of Maspero Youth Union, condemned the film, describing it as a threat for the social peace and it increases enmity among the citizens of the nation. The Equal Human Rights and Anti-Discrimination Center expressed its refusal of this film, affirming that it is an attempt to stir sedition among the people of Egypt.

Mr. Muhammad Gamal- Al-Din wrote in Freedom and Justice Newspaper, issued on 29th of Shawwal, 1433 corresponding to 16th of September, 2012 an article entitled "Is their intention behind this abusive film achieved? He said: All the people who watched shots of this abusive film, whose producer is one of the swindlers, who swindled one of the banks, called Nicola Basily (and he changed his name to Sam Basily) will be completely convinced that the aim of the producers of this film is implanting sedition among the Muslims and Christians of the Arab world.

They understood accurately the stance of the Messenger of Allah in the souls of the Muslims and their sensitivity towards his defamation and abuse; especially that it is not the first time to abuse him. This was preceded by the devilish cartoons and abusive stories and novels. It

is clear that the greater aim is attacking the Arab revolutions by stirring internal chaos continuously, as they know that the remnants of the previous regimes and the people who have interests adopt hostile attitude towards the new revolutionary regime and welcome its devastation and weakening. At this time, the western colonization will interfere to exploit these regimes to carry out its interests.

However, this sedition and plot failed, as we saw the Muslim and Christian religious figures demonstrated with each other against this film in Egypt, presenting evidence on the failure of this plot. Also, we saw our Christian brothers standing in these demonstrations in front of the US Embassy beside the Muslims. They cried loudly against abusing the heavenly religions and sanctities."

The General Attorney, Dr. Abdul Majid Mahmud, agreed to refer the seven accused of Disapora Copts and an American to Cairo Criminal Court. Also, he ordered to arrest them as pre-trial detention after the Public Prosecution finished checking the CDs recording the abusive film, which is produced by the accused and was displayed by the internet. The film included abusive scenes for Islam and Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) as well as some of the institutions of the country.

The Prosecution accused those people of the crimes of prejudice towards the unity and independence of the nation and the safety and integrity of its lands as well as condemning Islam, broadcasting fabricated news and lies, participating in abusing Islam. These crimes are punished according to the Egyptian law with death sentence. This was said by the official speaker of the Public Prosecution, Counselor. Adel Al-Sayyid, the Head of the Technical Office, who revealed that all of the accused are Egyptians except one who is American. They are: Moris Sadek Gergis Abdul Shahid, the founder of the National Coptic Assembly in Washington, Morcos Aziz Khalil, the presenter of religious programs in the USA, Fikry Abdul Masih Zoklumah, known as Esmat Zoklumah, Nabil Mosa, Media Coordinator of the National Coptic Assembly in Washington, Nicola Basily Niqola, Qiby Abdul Masih, Boles Salib, Nadir Fawzy Nicola, Albir Jones, a priest in Florida, who is the only American. The General Attorney put the accused on the watch lists. Also, he informed the Interpol to arrest them as soon as possible and sent an official letter to the concerned judicial authorities in USA to deliver them to Egypt. The Public Prosecution will send the file of the case to the Court of Appeal to determine a quick session to consider this case.

Storm of anger against the film abusing the messenger of Allah and master of mankind, Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him), Allah's Mercy to mankind...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The angry reaction which refused the display of the film abusing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) sparked. This film was produced by some of the Dispora Copts in the United States of America. Al-Azhar, being represented in the Grand imam Dr. Ahmad Al-Tayyib, the Sheikh of Al-Azhar, topped those who denounced the film, describing it as a futile piece of work. Also, he called to abandon disdaining religions and to the necessity of issuing an international law, which incriminates this. The surrounding area of the US Embassy in Cairo witnessed angry demonstrations in which thousands of Muslims and Christians, who were united in solidarity with their brothers, participated against insulting the honorable Messenger. At the same time, some of the demonstrators managed to climb the wall of the Embassy and tear the flag of the US flag. Then, reinforcements from the Armed Forces and the Police were sent to protect the Embassy and to calm down the demonstrators. Whatever anger we feel, we should not attack the embassies located in our countries.

Bishop Pachomius, the deputy of the pope, condemned the Orthodox Church for this film, which is considered an extreme abuse for Islam, its honorable prophet, and the people of the same nation. He said in his statement yesterday: "The Church disavow those who made this film, which is considered as a sort of disdaining religions." Also, he refuses any prejudice towards the creed and feelings of their partners in the nation.

The Evangelical Church renounced this abusive film and described it as a disgraceful piece of work, which contradicts the instructions of Christianity. At the same time, the Coptic organizations in Disapora announced their disavowal of this film, describing it as a sort of disdaining religions. They said that Morris Sadik and his companions do not represent Disapora Copts. Naguib Gabriel, the Head of the Egyptian Federation of Human Rights, said that disdaining religions and their symbols is a matter contradictory with the

instructions of Heavenly religions. The support of a number of Disapora Copt to a film disdaining Islam and its Messenger is included in a bid plan to divide Egypt.

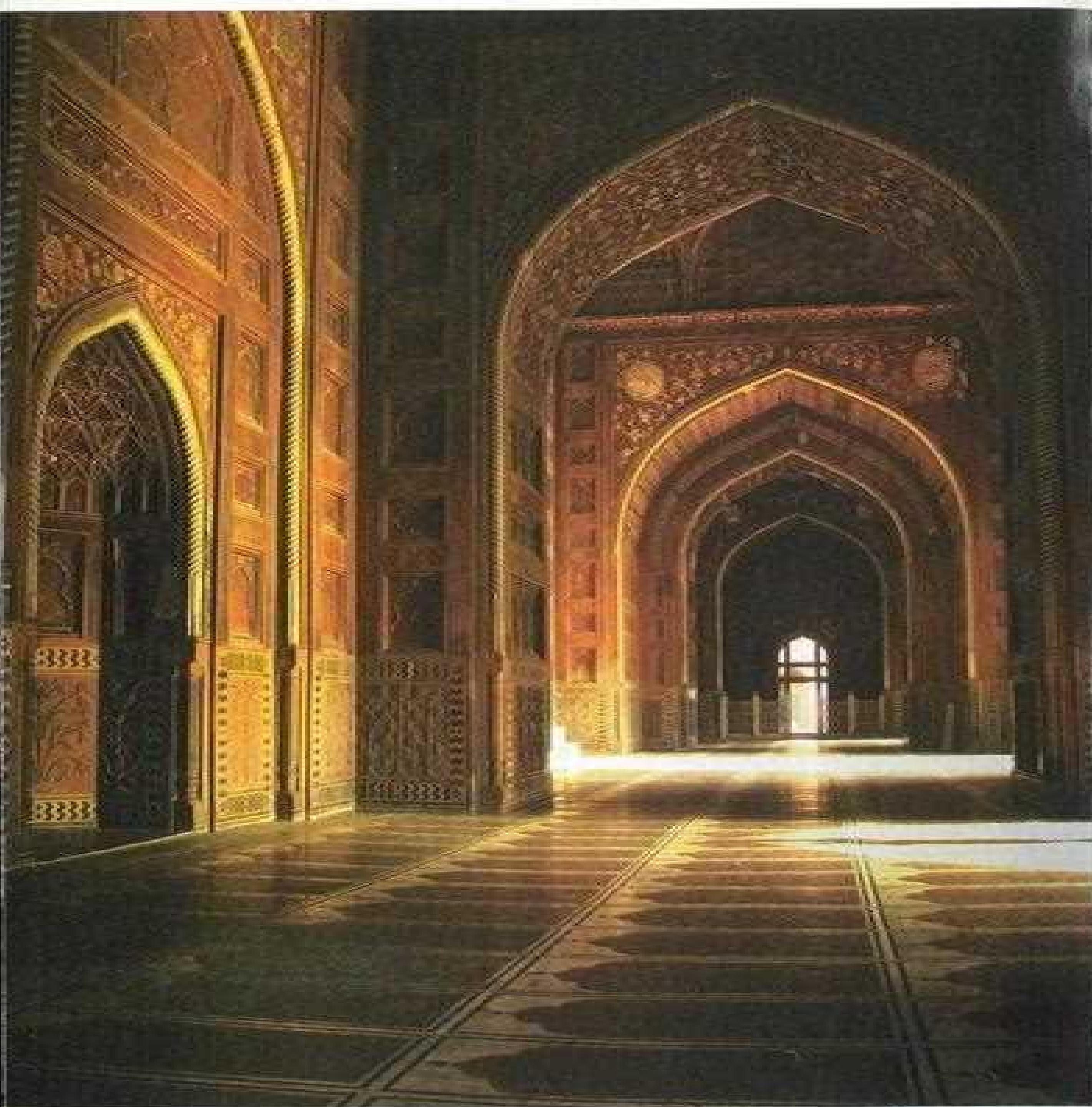
The reactions renouncing the film abusing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), which was produced by Disapora Copts increased. It wad displayed in the USA in the twelfth anniversary of 11th of September events. Islamic and revolutionary parties and movements organized yesterday protest in front of the US Embassy with the participation of some athletes to denounce this film. He pointed out that he refuses any prejudice towards the creeds, feelings, and religious symbols of their partners in this nation.

Dr. Esam Al-Arian, the Muslim Brotherhood leader, denounced the abusive film, emphasizing the necessity of protesting against it, as it is considered as offense for the feelings and creed of the Muslims around the world. Hamdin Sabahy, the former candidate for the Presidency of the Republic, described the film as a crime that has nothing to do with the freedom of creativeness, affirming that Islam and the Messenger of Allah are greater and above the defamation of the film. The 6th of April Movement described this film as mean and aims at stirring sedition among the citizens of this nation. Also, it contradicts the instructions of the eminent religions.

Engy Hamdy said that the producers of this film do not represent all of Disapora Copts. Dr. Talat Afify condemned displaying the film abusing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), emphasizing that freedom of creativeness should be without prejudice to religious creeds. He warned against stirring the Muslims' feelings of hatred. Mahmud Al-Sherif, the Head of *Al-Ashraf* (Muslim descendants from the Prophet's family), called at adopting a decisive stance towards the producers of this film.

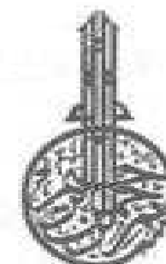
The Association of the Islamic Law of the Cooperation of the Adherents to the Qur'an and the Sunnah denounced the film and Dr. Muhammad Al-Mukhtar Al-Mahdy, the general president of the Assembly, said that this film aims at stirring the Muslims' feelings.

The Evangelican Church condemned the film, describing it as a disgraceful piece of work that contradicts the instructions of Christianity. The Liberal Egyptians Party condemned the film and Ahmad Khairy, the party official speaker, said that producing such films represents immorality. Disapora Coptic organizations disavowed this film and said in their



www.AlazharMag.com

AL-AZHAR MAGAZINE
Al - Muharram, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
November , 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



مكتبة الأزهر الشريف

الأزهر

www.AlazharMag.com
مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
صفر ١٤٣٤ هـ - يناير ٢٠١٣ م - الجزء "٣" - السنة "٨٦"

تقنين الشريعة الإسلامية في مجلس الشعب
تقديم أ.د. محمد عمارة


د. أحمد كمال أبو المجد


د. عصام البشير


أ. منير شفيق



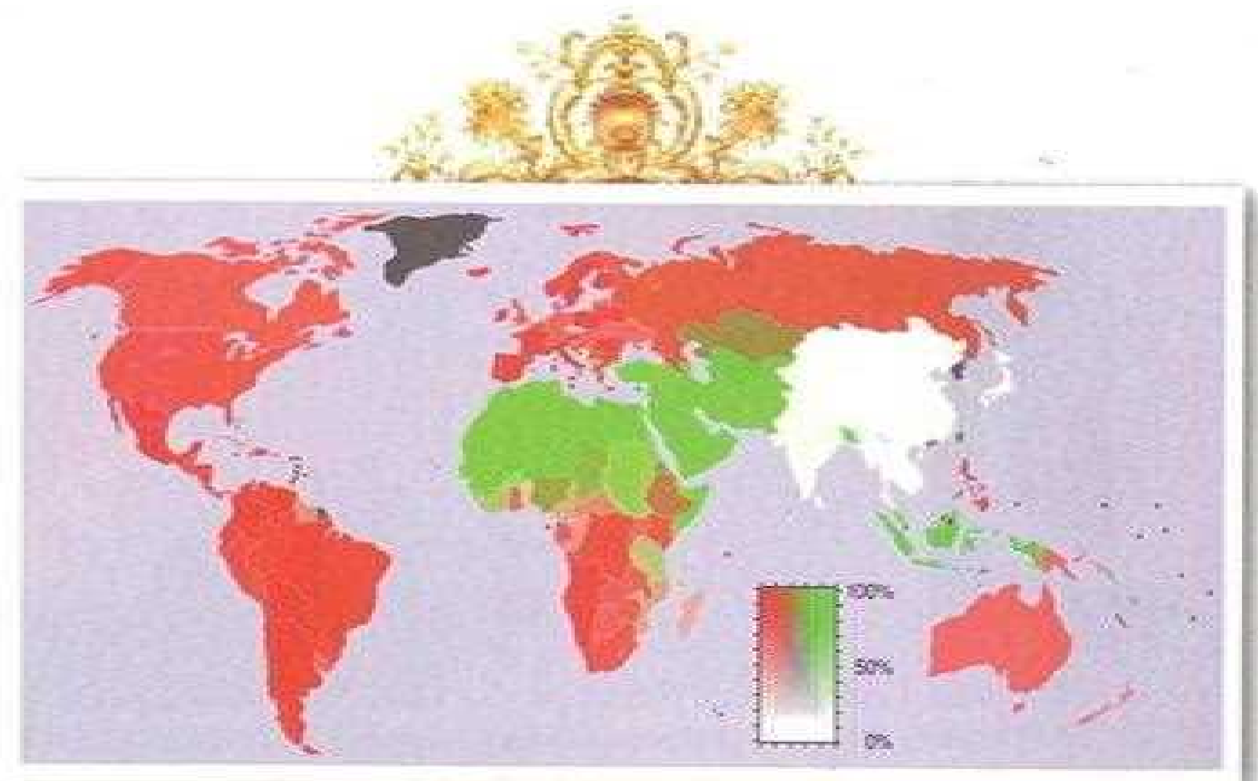


Al AZHAR MAGAZINE

في العدد القادم

السعر جنيهان

www.AlazharMag.com
facebook.com/AlAzharMag



الإسلام والمسيحية في العالم

المصدر: ويكيبيديا

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير عام التحرير
عادل رفاعى خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشنى

الاشتراك السنوى
داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوروبا وأمريكا ٨٠ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب



الافتتاحية

مؤشرات حول حال المسيحية والإسلام فى الغرب



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

يعرّف القس الألمانى ـ عالم الاجتماع ـ «جوتفرايد كوتزلن» ـ أستاذ اللاهوت الإنجيلى والأخلاقيات الاجتماعية بجامعة القوات المسلحة بميونخ يعرف العلمانية بأنها: «الفصل التام والنهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة وسياسة بلا دين».

ويتحدث عن التأثيرات الكارثية التى صنعتها العلمانية بالإنسان الأوروبى، وذلك عندما:

ـ «حولت معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية».

ـ «وقدمت الحداثة باعتبارها ديناً دنيوياً ـ قام على العقل والعلم ـ بدلا من الدين الإلهى».

ـ «ففقدت المسيحية أهميتها فقداناً كاملاً، وزالت أهمية الدين كسلطة عامة تضفى الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس».

ثم تحدث هذا اللاهوتى ـ عالم الاجتماع ـ عن حال الحداثة ـ الدين الطبيعى ـ الذى أصاب المسيحية بالإعياء.. وكيف أن هذه الحداثة:

ـ «قد عجزت عن الإجابة على أسئلة الإنسان التى كان يجيب عنها الدين».

ـ «فدخلت ـ هى الأخرى ـ فى أزمة، بعد أن أصابت المسيحية بالإعياء».

ـ «ففقد الإنسان ـ فى الغرب العلمانى ـ النجم الذى كان يهديه.. نجم الدين.. ونجم الحداثة معاً».

ـ «فأصبحت القناعات العقلية مفتقرة إلى اليقين.. بعد أن ضاعت طمأنينة الإيمان الدينى».

ـ الأمر الذى أفرز إنساناً ذا بُعد واحد ـ لا يدرى شيئاً عن ما وراء ظاهر الحياة الدنيا».

ـ «وأصبح الخبراء بلا روح.. والعلماء بلا قلوب».

ـ «ثم جاءت فلسفة ما بعد الحداثة، ففككت أنساق الحداثة، الأمر الذى قذف

بالإنسان الأوروبى فى هاوية العدمية والفوضوية واللا أدرية».

ثم تحدث عن أن الحاجة الإنسانية للإجابة على التساؤلات الطبيعية لم تزل قائمة.. بل تزايدت.. الأمر الذى دفع الإنسان الغربى للبحث عن طمأنينة الإيمان لدى مختلف المعتقدات ـ من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. إلى الاعتقاد بالأشباح وطقوس الهنود الحمر.. إلى روحانيات الديانات الآسيوية.. وحتى الإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحا متزايدا فى المجتمعات الغربية[1].

● ولقد أعلن بابا الفاتيكان ـ بنديكتس السادس عشر ـ إنطلاقاً من هذا الواقع الذى أفرزته العلمانية فى المجتمعات الأوروبية ـ عن مخاوفه من:

ـ «تحول المسيحية لدى غالبية الأوروبيين إلى مجرد انتماء لأسر كانت مسيحية فى يوم من الأيام».

ـ «وانقراض المسيحيين الأوروبيين، بسبب تفكك الأسرة، والاندفاع إلى حياة اللذة والشهوة التى أفرزتها وعظمتها العلمانية».

ـ «والخوف من أن تصبح أوروبا جزءاً من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»!

● وإذا كانت بشاعة هذه الصورة قد ترشحها للتشكك فيها.. فإن «الحالة الدينية المسيحية» فى الغرب عموماً، وفى أوروبا خصوصاً، تشهد على أن هذه الصورة واقعية تماما.. ودون أدنى مبالغات.

---

(١) جوتفرايد كوتزلن (مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا) ص١٧، ١٨ ـ تقديم وتعليق: دكتور محمد عمارة ـ طبعة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م.

- فالذين يؤمنون بوجود إله - في أوروبا - حتى ولو لم يعبدوه - هم أقل من ١٤٪ من الأوروبيين.. ومع ارتفاع مستويات المعيشة - في أوروبا المسيحية - هناك أعلى مستويات القلق والاكتئاب والانتحار!

- والذين يذهبون إلى القدّاس مرة في الأسبوع - في فرنسا - بنت الكاثوليكية، وأكبر دولها - هم أقل من ٥٪ من السكان - أي أقل من ثلاثة ملايين - أي نصف عدد المسلمين الذين يواظبون على صلاة الجمعة في فرنسا!

- وفي جمهورية التشيك لا يذهب إلى القداس الأسبوعي إلا أقل من ٣٪ من السكان!.

- وفي أمريكا، انخفض حضور قداس الأحد الكاثوليكي بنسبة ٤٠٪ عن خمسينيات القرن العشرين.. وثلثهم هم الذين يواظبون على حضوره أسبوعياً.. وكانوا ضعفي هذا العدد قبل جيل من الزمان!.. وعند الإنجيليين الأمريكان انخفض حضور القداس الأسبوعي ٣٠٪ عن ستينيات القرن العشرين.

- و٧٠٪ من كاثوليك أمريكا يطلبون السماح باستخدام موانع الحمل، على خلاف موقف الكنيسة!

- و٧٠٪ من كاثوليك روما - حيث الفاتيكان - يوافقون على ممارسة الجنس قبل الزواج!

- وكثير من الكنائس الأوروبية وغير الأوروبية تزوج الشواذ - المثليين - وبها قساوسة شواذ.. والقوانين التي تحكم الاتحاد الأوروبي - والتي هي شرط في دخوله - تعتبر الشذوذ الجنسي حقاً أصيلاً من حقوق الإنسان!.. وللشواذ مؤتمرات سنوية ومظاهرات احتفالية تجوب الشوارع والميادين في كثير من المدن الأوروبية!

- ولقد شرعت حكومة بلدية «بوينس أيرس» - عاصمة الأرجنتين الكاثوليكية - زواج المثلين!

- ووافقت حكومات أمريكا اللاتينية على قانون الطلاق.. وعلى دعم اختيار المرأة للإجهاض رغم معارضة الكنيسة.

- وفي استطلاع أجرته مؤسسة «جالوب» في أبريل سنة ٢٠٠٥م ظهر أن ٧٤٪ من الكاثوليك يتصرفون في المسائل الأخلاقية بناء على ضمائرهم، على عكس تعاليم الكنيسة.. ولا يلتزم بتعاليم الكنيسة - في المسائل الأخلاقية سوى ٢٠٪ فقط!

- وفي ألمانيا، توقف القداس في نحو ثلث كنائس إبرشية «أيسن» بسبب قلة الزوار.. وهناك ١٠,٠٠٠، عشرة آلاف كنيسة مرشحة للإغلاق وللبيع لأغراض أخرى!

- وتفقد الكنائس الألمانية - الإنجيلية والكاثوليكية - سنوياً أكثر من ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) من أبنائها.

- وفي - إيطاليا بلد الفاتيكان - تتحول الكنائس إلى مطاعم وملاه.. ولقد غنت «مادونا» في كنيسة تاريخية، بعد أن تحولت إلى مطعم.. وتحول «المذبح» إلى «فرن للبيتزا»!

- وفي كوبنهاجن - عاصمة الدانمارك - عرضت عشر كنائس للبيع.. وصرح «كاي بولمان» - الأمين العام للكنائس في الدانمارك - «أنه إذا لم تستعمل الكنيسة للعبادة، فالأجدر أن تستعمل كاصطبل للخنازير»! - في محاولة لحظر بيعها مساجد للمسلمين الدانماركيين! -

- وفي جمهورية التشيك، الاتجاه إلى بيع نصف كنائسها الـ ١٠,٠٠٠ بسبب قلة الزوار!.. ولقد بيعت كنيسة القديس ميخائيل - في وسط براغ - والتي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر، وتحولت إلى ناد للعراة.. وموسيقى التكنو!.. وبيع ١٥٠,٠٠٠ منزل للقساوسة.

- وفي إنجلترا لا يحضر القداس الأسبوعي سوى مليون فقط!.. ولقد صنفت ١٠٪ من كنائسها رسمياً باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومرشحة للبيع مطاعم وملاهي وحتى علب ليل!.. وأعلن الكاردينال «كورمك ميرفي» رئيس الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا وويلز: «أن المسيحية أوشكت على الانحسار في بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثراً في حياة الناس»!

- وهناك نقص في الرهبان - بسبب العزوف عن العزوبية - حتى أصبح هناك راهب واحد لكل ١,٢٠٠ مسيحي أوروبي - وفي إفريقيا: راهب واحد لكل ٤,٠٠٠.

- وفي أمريكا، يواجه ٣,٠٠٠ قسيس تهم التحرش الجنسي بالأطفال!.. ولقد شاعت الانحرافات الجنسية بين القساوسة والرهبان - وخاصة في الاعتداء على الأطفال! - حتى أفلست الكثير من الإبراشيات بسبب التعويضات التي تدفعها لضحايا هذه الاعتداءات الجنسية!.. وأصبحت مظاهرات ضحايا التحرش الجنسي لازمة من لوازم استقبال البابا في زياراته للبلاد الأوروبية والأمريكية.. حتى لقد طالب البعض بمحاسبته عن هذه الاعتداءات الجنسية على الأطفال!..

ولقد عقد الفاتيكان في نوفمبر سنة ٢٠١٠م مؤتمراً للكرادلة لمناقشة الاعتداءات والفضائح الجنسية!.

● تلك مجرد مؤشرات على «الحالة المسيحية» في أوروبا.. وفي الغرب المسيحي على وجه العموم.



أما الإسلام، عندما ظهر - قبل أربعة عشر قرناً - كان الشرق - يومها - «قلب العالم المسيحي».. والذي سرعان ما أصبح هذا الشرق «قلب العالم الإسلامي» على حين انتقل قلب العالم المسيحي إلى أوروبا.. فإن بابا الفاتيكان - بنديكتس السادس عشر - يقول: «إنه يخشى أن تصبح أوروبا جزءاً من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين»!.

وإذا كانت «المؤشرات الواقعية» التي قدمنا طرفاً منها، قد أعلنت عن إفلاس المسيحية وكنائسها في أوروبا.. فإن «مؤشرات الواقع الإسلامي» - في أوروبا - تؤكد على صدق ما تحدث عنه القس الألماني «جوتفرايد كوتزلن» حول التمدد والنجاحات الإسلامية في أوروبا.. وتؤكد على أن مخاوف بابا الفاتيكان لم تأت من فراغ!

- لقد زادت معدلات الالتفات إلى الإسلام.. ومعدلات الدخول فيه عقب أحداث ١١

سبتمبر سنة ٢٠٠١م.. فأصبح معدل الذين يدخلون الإسلام - في أمريكا - سنوياً أكثر من ٢٠,٠٠٠. وفي أوروبا أكثر من ٢٣,٠٠٠.

- وفي سنة ٢٠٠٧م، أسلم - في فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا - أكثر من ١١٤,٠٠٠ - منهم ٤٠,٠٠٠ في ألمانيا وحدها.

ونسبة المسلمين في ألمانيا إلى مجموع السكان هي ٣٪ لكن مواليدهم يبلغون ١٠٪ من المواليد الألمان في السنوات العشر الأخيرة.. ونسبة وفيات المسيحيين الألمان أعلى من نسبة مواليدهم!!

- وفي سنة ٢٠٠٦م بلغ عدد الذين اعتنقوا الإسلام في ألمانيا ٤,٠٠٠.

- وفي سنة ٢٠٠٥م وسنة ٢٠٠٦م زاد عدد المساجد في ألمانيا من ١٤١ إلى ١٨٧.. وفي ألمانيا ١٥٩ مسجد ذات مآذن و ٢,٦٠٠ مسجد بدون مآذن و١٨٤ مسجداً تحت الإنشاء في الأعوام المقبلة.

- وفي إنجلترا، يبلغ تعداد المسلمين نحو ٢,٥٠٠,٠٠٠ - بزيادة نصف مليون في أربع سنوات (٢٠٠٤-٢٠٠٨م) - أي ٥٪ من السكان - وتقول الإحصاءات: إن عدد المسلمين الملتزمين دينياً - في العقود القادمة - سيفوق نظراءهم الإنجليكانيين!

- وفي إنجلترا سبق اسم «محمد» اسم «جورج» في مواليد سنة ٢٠٠٦م.. واحتل المرتبة الأولى - قبل اسم «جاك» و«هاري» في مواليد سنة ٢٠٠٩م.. فاسم محمد أطلق - في سنة ٢٠٠٩م - على ٧,٥٤٩ طفلاً من جملة المواليد في إنجلترا وويلز البالغ عددهم ٧٠٦,٢٤٨ طفلاً.. وعلى حين زاد عدد المسلمين نصف مليون في الفترة من - (٢٠٠٤-٢٠٠٨م) ونقص عدد المسيحيين - في نفس المدة - مليونين!.. والشريحة الأكبر من المسلمين تتكون من صغار السن، بينما الشريحة الأكبر من المسيحيين فوق سن السبعين.

- وفي فرنسا، يبلغ تعداد المسلمين ٦,٠٠٠,٠٠٠ حسب الإحصاء الرسمي و ٨,٠٠٠,٠٠٠ حسب إحصاءات الجمعيات الإسلامية.. وفيها أكثر من ١,٠٨٠ مسجداً وزاوية.

- ويعتنق الإسلام - سنوياً - أكثر من ٣,٦٠٠ فرنسي.

- وفي هولندا، يبلغ عدد المسلمين ١,٠٠٠,٠٠٠ (مليون) من جملة السكان البالغ عددهم اثني عشر مليوناً.. ولقد نفدت كل نسخ المصاحف الإلكترونية يوم عرض فيلم «فتنة» - المعادي للقرآن الكريم!.. ولقد انتخب عمدة مسلم لمدينة «نوتردام» أكبر الموانى الهولندية.

- وفي بلجيكا - سيشكل المسلمون غالبية سكان «بروكسل» عاصمة بلجيكا.. وعاصمة الاتحاد الأوروبي - بعد عشرين عاماً.

- واسم محمد هو الاسم الأكثر انتشاراً بين المواليد الجدد في بروكسل منذ سنة ٢٠٠١م.

- ولقد تضاعف عدد المسلمين في بلجيكا ما بين سنة ١٩٩٥م وسنة ٢٠٠٥م، فبلغ ٤٥٠,٠٠٠ حيث جملة سكان بلجيكا ١٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرة ملايين).

- وفي كرواتيا، يهجر الشباب الكنيسة بأعداد كبيرة.. ويقبلون على الإسلام.

- وفي روسيا الاتحادية كان عدد المساجد سنة ١٩٩٠م عند سقوط الشيوعية - ٩٨ مسجداً.. فبلغ عددها سنة ٢٠٠٨م ٧,٢٠٠ مسجد.. وهناك توقعات بأن يصبح المسلمون أغلبية في روسيا الاتحادية سنة ٢٠٥٠م.

- وفي أمريكا اللاتينية، اعتنق الإسلام ٢٠٠,٠٠٠ أمريكي لاتيني في سنة ٢٠٠٧م وحدها، حيث يهرب ٤٠٪ من الشباب الكاثوليك من الكنيسة!

• تلك مؤشرات - مجرد مؤشرات - على «الحالة الإسلامية» في الغرب - الذي كان مسيحياً!! مع التنبيه على زيادة وتطور هذه الإحصاءات - ومن ثمّ المؤشرات - في السنوات الأخيرة[1].

وصدق الله العظيم:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾

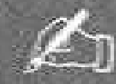
(التوبة: ٣٣)

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾

(الفتح: ٢٨)

(١) انظر في هذه الحقائق والأرقام: مجلة «نيوزويك» عدد ٢٧-٢-٢٠٠٧م وعدد ٢٩-٣-٢٠٠٨م، وصحيفة الدعوة الإسلامية - ليبيا عدد ٦-٨-٢٠٠٢م - وهي تنقل عن صحيفة «ويست فرانس» الفرنسية وصحيفة «الدستور» المصرية عدد ٢٢-٩-٢٠٠٧م - وهي تنقل عن «واشنطن بوست»، وصحيفة «الرسالة» السعودية ملحق «المدينة» عدد ٢٦-١-٢٠٠٧م وعدد ٩-٥-٢٠٠٨م وعدد ٤-٨-٢٠٠٨م - وهي تنقل عن صحيفة «بيلد» الألمانية، وصحيفة «العسكر» الجزائرية عدد ٤-١٢-٢٠٠٦م، وصحيفة «الشرق الأوسط» لندن عدد ٣١-٣-٢٠٠٨م وعدد ٢٢-٩-٢٠٠٨م وعدد ٩-٥-٢٠٠٨م، وصحيفة «الحياة» لندن، عدد ١٩-١٠-٢٠٠٧م وعدد ٢٦-٤-٢٠٠٨م، وصحيفة «الأهرام» عدد ٢٢-٣-٢٠٠٩م، وصحيفة «المصري اليوم» عدد ٦-٥-٢٠٠٩م وعدد ١٨-١٠-٢٠٠٨م، وعدد ٢٩-١-٢٠١٠م، ومجلة «المجتمع» الكويت، عدد ١٩٢٥ في ٣٠-١٠-٢٠١٠م.

الغرب بنى منظومة حقوق الإنسان على قاعدة فاسدة



لفضيلة الإمام الأكبر
الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب

إن علاقة الشرق الإسلامى بالغرب الأوروبى علاقة معقدة، تحتاج إلى قراءة فاحصة للتاريخ واستقراء قوانينه وفلسفته، فما نراه اليوم من حقد على الإسلام وحضارته ليس وليد اللحظة، وإنما هو تراث فى العقل الجمعى للعقل الأوروبى منذ القرون الوسطى حتى أيامنا هذه.

إن الغربيين مرتبطون بالطبيعة الغربية، وهى طبيعة غير قابلة للتدين أصلا، وعندما دخلت المسيحية أوروبا، لم تستطع أن تؤثر فى الأخلاق الغربية، بل حدث العكس، كما قال القاضى عبدالجبار المعتزلى: «ترومت المسيحية ولم يتمسح الروم»، ولذلك لا ينبغى أن نعجب من سلوكيات الغرب البربرية فى جميع فترات التاريخ، القديم منه والحديث، فالتاريخ لا ينسى حروب الفرنجة (الصليبية) واضطهاد ومحاولة إبادة اليهود والمسلمين فى الأندلس، واستعباد الأحرار فى إفريقيا وأمريكا، واستغلال الشعوب وقهرها فى جميع قارات العالم.

إن السياسة الغربية مرتبطة بهذه الطبيعة الشاذة والمتسلطة، والتى تشكلت منذ ظهور الإسلام الحنيف، فقد فاجأ هذا الدين الجديد العالم آنذاك بعدله وقوة حجته، فأنفق القياصرة يومئذ أموالا طائلة للرد على الإسلام وإيقافه ومحاصرته، غير أن الإسلام بتسامحه وعدله انتشر بسرعة هائلة، لم تستطع معها كل القوى الرافضة الوقوف دون انتشاره.

إن جذور الحقد على الإسلام فى الغرب قديمة، ولعل من أوائل من ناصبوا العداء لهذا الدين الحنيف هو يوحنا الدمشقى الذى عاش فى بلاط الأمويين، واستغل سماحة الخلفاء

ليهاجم الإسلام، وكتبه ما زالت مرجعا ملهما لكثير من رجال الدين والمفكرين الأوروبيين إلى يوم الناس هذا. فأغلب كتب المستشرقين تغرف من هذا المستنقع الآسن الذى لا يُراعى أدنى أدوات التفكير المنطقى السليم.

نعم، يُوجد استثناءات هنا وهناك، ولكن ما زالت قليلة جداً، وغالبية الكتب التى تتحدث عن الإسلام وحضارته فى الغرب عبارة عن تحريفات وتمويهات مُلفقة لا تثبت أمام المنطق والتاريخ، وكنا نظن أن العقلية الغربية قد تحررت بفضل تقدم مناهج البحث الحديث ـ على الأقل عند النخبة ـ ولكن للأسف ما زال الأمر على حاله.

إن الغرب بفعل هذه الموروثات الظلامية أصبح يكيل بمكيالين، فإذا تعلق الأمر بالإسلام والمسلمين فإن الميزان يختل فيصبح كله إجحافا وظلما وتعسفا، أما إذا تعلق الأمر بالغرب وبحقوق الرجل الغربى أو الصهيونى، فإن هذا الميزان ذاته يعتدل ويصبح فى غاية الدقة والعدل والإنصاف. إن هذا هو ما بنى عليه النظام العالمى الجديد، الذى يُكرّسُ الهيمنة والتسلط والتمييز، حتى لو وضعت له المسوغات والفلسفات التى لا تُقنع حتى أصحابها، وموقف الغرب من الأفلام المسيئة لنبينا ﷺ ولديننا الحنيف ولشعوبنا يدخل فى هذا الإطار، فالمسئولون فى الغرب تعللوا بحجج واهية وامتنعوا عن إيقاف هذا العبث الكريه، لذلك فالغرب يبنى منظومة الحرية وحقوق الإنسان على قاعدة فاسدة، فحرية التعبير عنده تُصان بسياج من حديد إذا تعدى البعض فى حديثه عن اليهود والهولوكست، أما إذا تعلق الأمر بالإساءة إلى مليار ونصف من البشر، فحرية التعبير مطلقة ومقدسة. فالحرية والديمقراطية والمساواة ـ فى منطق الغربيين كلها مقصورة على الرجل الغربى فقط، وهذا ظاهر لكل ذى عينين.



أحمد الطيب



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة: ٣٥ - ٣٧)

مجمل الآيات السابقة: أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الإنساني، واقتضت الحكمة الإلهية إيجاده واستخلافه في الأرض، آذن الله تعالى الأرواح المبثة في الأشياء لتدبيرها ونظامها بذلك، وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الإنسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء، حتى أعلمها الله تعالى بأن علمها لم يحط بمواقع حكمته، ولا يصل إلى حيث يصل علمه تعالى. ثم أوجد آدم، وفضله بتعليمه الأسماء كلها على أن كل صنف من تلك الأرواح لا يعلم إلا طائفة منها، ولذلك أخضع له تلك الأرواح إلا روحًا واحدًا هو مبعث الشر ومصدر الإغواء، فقد أبى الخضوع، واستكبر عن السجود، لما كان في طبيعته من الاستعداد لذلك. والاستعداد في الشيء إنما يظهر بظهور متعلقه، فلا يقال: إذا كان لكل روح من هذه الأرواح والقوى الغيبية علم محدود، فكيف ظهر من الروح الإبليسي ما لم يسبق له وهو مخالفة الأمر بالسجود لآدم والتصدي لإغوائه؟ لا يقال ذلك؛ لأنه كان مستعدًا لهذا العصيان والإباء، فلما أمر عصى، ولما وجد خلقًا مستعدًا للوسوسة اتصل به ووسوس إليه، كما أن ألوان ورق الشجر والزهور موجودة كامنة في البذرة ولكنها لا تظهر إلا عند الاستعداد لها ببلوغ الطور المحدود من النمو.

ومجمل الآيات اللاحقة: أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها، ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة، وأخبرهما أن قربها ظلم، وأن الشيطان أزلهما عنها، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده. ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله، ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه. وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان الفطرة الإلهية التي فطر عليها الملائكة والبشر، وتسلية النبي «ﷺ» عما يلاقي من الإنكار. وتقدم وجه ذلك في الآيات السابقة. وأما وجهه في هذه الآيات، فظاهر، وهو أن المعصية من شأن البشر، كأنه يقول: فلا تأس يا محمد على القوم الكافرين ولا تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا، فقد كان الضعف في طباعهم ينتهي إليهم من أول سلف لهم، تغلب عليهم الوساوس وتذهب بصبرهم الدسائس، انظر ما وقع لآدم وما كان منه، وسنة الله مع ذلك لا تتبدل، فقد عوقب آدم على خطيئته بإهباطه مما كان فيه، وإن كان قد قبل توبته، وغفر هفوته، فالمعصية دائمًا مجلبة الشقاء، وقد استقر أمر البشر على أن سعاداتهم في اتباع الهداية الإلهية وشقاءهم في الانحراف عن سبلها.

وأما تفسير هذه الآيات فقد اختلف علماء من أهل السنة وغيرهم في ﴿ الْجَنَّةَ ﴾، هل هي البستان أو المكان الذي تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه أهل اللغة، أم هي الدار الموعود بها في الآخرة؟ والمحققون من أهل السنة على الأول. قال الإمام أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها. وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم.

وبهذا التفسير تنحل إشكالات كثيرة وهي:

١- أن الله خلق آدم في الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها؛ فالخلافة مقصودة منهم بالذات فلا يصح أن تكون عقوبة عارضة.

٢- أنه لم يذكر أنه بعد خلقه في الأرض عرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم.

٣- أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المتقون، فكيف دخلها الشيطان الكافر الملعون.

٤- أنها ليست محلاً للتكليف.

٥- أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها.

٦- أنه لا يقع فيها العصيان.

وبالجملة، إن الأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها لا تنطبق على ما كان في جنة آدم، ومنه كون عطائها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك.

قال تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

ولم يقل «ادخل»، ولو انتقل من الأرض التي خلق فيها إلى الجنة لقال هذا أو ما بمعناه مما يشير إلى الانتقال. فقوله: ﴿ اسْكُنْ ﴾ يشير إلى أن الخلقة كانت في تلك الجنة أو بالقرب منها. وقوله:

﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾

إباحة للتمتع بتلك الجنة والتنعم بما فيها، أى كلا منها أكلا رغداً واسعاً هنيئا من أى مكان منها إلا شيئاً واحداً نهاهما عنه بقوله:

لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها. ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة، فلا نقول فى تعيينها شيئا، وإنما نعلم أن ذلك لحكمة اقتضته. ولعل فى خاصية تلك الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال، وربما كان فى الأكل منها ضرر، أو كان النهى ابتلاء وامتحانا منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى الإشراف على كل شىء واختياره، وإن كان فى ذلك معصية يترتب عليه ضرر.

قال تعالى:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾

أى حولهما وزحزحهما عن الجنة، أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة. وقرأ حمزة «فأزالهما». والشيطان إبليس الذى لم يسجد ولم يخضع، وقد وسوس لهما بما ذكر فى سورتى الأعراف وطه حتى أوقعهما فى الزلل، وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا:

﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾

أى من ذلك المكان أو النعيم الذى كانا فيه. فكان الذنب متصلاً بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب.

ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله:

﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ ﴾

يعنى آدم وزوجه وإبليس، فلا حاجة لتقدير إرادة ذرية آدم بالجمع كما فعل مفسرنا «الجلال»، فإن العداوة فى قوله - عز وجل -:

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

تنافى هذا التقدير، فإن العداوة بين الإنسان والشيطان لا بين الإنسان وذريته. والأصل فى الهبوط أن يكون من مكان عال إلى أسفل منه، ولذلك احتج به من قال إن آدم كان فى السماء. وقد يستعمل فى مطلق الانتقال أو مع اعتبار العلو والسفل فى المعنى. وقال الراغب: الهبوط: الانحدار على سبيل القهر. ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطًا أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه، أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله تعالى لبنى إسرائيل:

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾

(البقرة: ٦١)

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

أى أن استقراركم فى الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى زمن محدود، وليسا بدائمين. ففى الكلام فائدتان:

إحداهما - أن الأرض ممهدة ومهيأة للمعيشة فيها والتمتع بها.

والثانية - أن طبيعة الحياة فيها تنافى الخلود والدوام.

فليس الهبوط لأجل الإبادة ومحو الآثار، وليس للخلود كما زعم إبليس بوسوسته إذ سمى الشجرة المنهى عنها بـ:

﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

(طه: ١٢٠)

يعنى أن الله أخرجهم من جنة الراحة إلى أرض العمل لا ليفنيهم، وعبر عن ذلك بالاستقرار فى الأرض، ولا ليعاقبهم بالحرمان من التمتع بخيرات الأرض، وعبر عن ذلك بالمتاع، ولا ليمتعهم بالخلود، وعبر عن ذلك بكون الاستقرار والمتاع إلى حين.

ثم قال:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾

أى ألهمه الله إياها فأناب إليه بها، وهى كما فى سورة الأعراف:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(الأعراف: ٢٣)

تاب آدم بذلك وأناب إلى ربه:

﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أى قبل توبته، وعاد عليه بفضله ورحمته، وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب، أى الذى يقبل التوبة كثيراً، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه، وبأنه هو الرحيم بعباده، مهما يسىء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع إليه فإنه يحفه برحمته.

وكل ما ورد فى هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة، فهو من الإسرائيليات الباطلة.

وأما قوله تعالى فى سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(النساء: ١)

وفى سورة الأعراف:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(الأعراف: ١٨٩)

فقد قال غير واحد من المفسرين: إن المعنى من جنسها، كما قال فى سورة الروم:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(الروم: ٢١)

فإن المعنى هناك على أنه خلق أزواجًا من جنسنا، ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر. فليس فى القرآن نص يلزمنا حمل قوله تعالى:

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

على ذلك، لأجل مطابقة سفر التكوين. فإن القصة لم ترد فى القرآن كما وردت فى التوراة التى فى أيدى أهل الكتاب حكاية تاريخية، وإنما جاء القرآن بموضع العبرة فى خلق آدم واستعداد الكون لأن يتكمل به، وكونه قد أعطى استعدادا فى العلم والعمل لا نهاية لهما، ليظهر حكم الله، ويقيم سننه فى الأرض فيكون خليفة له. وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالوسوسة التى تحمل على المعصية. ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هى تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة لا غير. لذلك لم يبين الزمان والمكان كما جاء فى سفر التكوين، وكان سببًا لرفض الباحثين فى الكون وتاريخ الخليقة دين

النصرانية، لأن العلم المبنى على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ فى التوراة، ووجدت للإنسان آثار فى الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة فى تاريخ تكوينه، فقام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف فى التأويل، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل.

وأما مسألة عصمة آدم، فالجرى على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه كسائر ما ورد فى القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره. ولنا أن نقول إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة، كما قال جل شأنه:

﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

(طه: ١١٥)

إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة. وقد يكون الذى وقع من آدم نسيانا، فسمى، تفخيما لأمره، عصيانا. والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة. فإن جعلنا الكلام كله تمثيلا، فحديث الإخلال بالعصمة مما لا يمر بذهن العاقل.

وأما تفسير الآيات على طريق الخلف فى التمثيل، فيقال فيه: إن القرآن كثيرا ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب، أو بأسلوب الحكاية لما فى ذلك من البيان، والتأثير. فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعانى، كقوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾

(ق: ٣٠)

فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهى تجاوبه، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا. ونحوه قوله عز وجل، بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

(فصلت: ١١)

والمعنى فى التمثيل الظاهر.

وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا: إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا فى العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض. وتعليم آدم الأسماء كلها، بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض وانتفاعه به فى استعمارها. وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته. وسجود الملائكة لآدم، عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له، ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك. وإباء إبليس واستكباره عن السجود، تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم، والتعدى والإفساد فى الأرض. ولولا ذلك، لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى.

هذا ملخص ما تقدم فى سابق آيات القصة.

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها، فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم. فإن من شأن الإنسان، أن يجد فى الجنة التى هى الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرئى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموع، فى ظل ظليل، وهواء عليل، وماء سلسبيل، كما قال تعالى فى القصة من سورة طه:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

(طه: ١١٨، ١١٩)

ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون فى الجنة، وهو مستعمل.

ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان، كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة، فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب، وكان من قريش كذا يعنى القبيلة التى أبوها قريش. وفى كلام العرب كثير من هذا.

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة، كما عبر الله تعالى فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة وفسرت بكلمة التوحيد، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر. وفى الحديث تشبيه المؤمن بشجرة النخل.

ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين، فقد تقدم أن الأمر الإلهى قسمان: أمر تكوين وأمر تكليف، والتكوين هو المراد بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

(يس: ٨٢)

والمعنى على هذا أن الله تعالى كون النوع البشرى على ما نشاهد فى الأطوار التدريجية التى قال فيها سبحانه:

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

(نوح: ١٤)

فأولها طور الطفولية: وهى لا هم فيها ولا كدر، وإنما هى لعب ولهو، كأن الطفل دائما فى جنة ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، جارية الأنهار، متناغية الأطيار. وهذا معنى:

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾

وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمى للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل فى جميع الشئون البشرية. فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين، أى أنه تعالى خلق البشر ذكورا وإناثا هكذا ـ وأمرهما بالأكل حيث شاء عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير ـ والنهى عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وأن الفطرة تهدى إلى قبحه ووجوب اجتنابه. وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان فى الطور الثانى وهو طور التمييز، هما المراد بقوله تعالى:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

(البلد: ١٠)

ووسوسة الشيطان وإزلاله لهما، عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التى تلابس النفوس البشرية فتقوى فيها داعية الشر، أى أن إلهام التقوى والخير أقوى فى فطرة الإنسان أو هو الأصل، ولذلك لا يفعل الشر

إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه. والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطرى. وأما تلقى آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف فى الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التى تعقب الأفعال السيئة، ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق، والتجائه إليه فى الشدة. وتوبة الله تعالى عليه، عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق، والتفلت من شرك البلاء، بعد ذلك الاعتبار والالتجاء. وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتى عيسى ويخلصهم منها، وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ويرده الوحى المحكم المتواتر.

فحاصل القول أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة:

- طور الطفولية وهو طور نعيم وراحة.
- وطور التمييز الناقص وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان.
- وطور الرشد والاستواء وهو الذى يعتبر فيه بنتائج الحوادث، ويلتجئ فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء وإليها يرجع الأمر كله، فالإنسان فى أفراده مثال للإنسان فى مجموعه.

كان تدرج الإنسان فى حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة، قويم الوجهة، مقتصراً فى طلب حاجاته على القصد والعدل، متعاونا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون. وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبى.

- ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه، فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة، وميلا مع خيال اللذة، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم، فثار النزاع، وعظم الخلاف، واستنزل الشقاء. وهذا هو الطور الثانى، وهو معروف فى تاريخ الأمم.

- ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات، ويقف عندها سير الرغبات، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله.

- وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار، وهو منتهى الكمال، وأعنى به طور الدين الإلهى والوحى السماوى الذى به كمال الهداية الإنسانية.



أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى «٥»

بعض أمثلة من اجتهاد الأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ

جاء فى القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم، وصف بعضها بأنه معصية، والبعض الآخر بأنه ذنب، كما وصف نوع ثالث منها بأنه خطيئة.. وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء عن اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحيا، وإلا فلو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم بها لما صح أن يوجه الله إليهم لوما، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضراعة والتوبة.

روى البخارى عن أنس، قال: قال ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون: أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا! فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته ويقول: ائتوا نوحا أول الرسل، وفى رواية فيقول: قد أخرجت بخطيئتى من الجنة رواية: هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ اذهبوا إلى نوح!»، وفى رواية: إنه نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى نفسى!، اذهبوا إلى غيرى! فيأتون نوحا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته ائتوا إبراهيم الذى اتخذه خليلا! وفى رواية، ويذكر سؤال ربه ما ليس له به علم. قال ابن حجر تعليقا على ذلك فخشى أن تكون الشفاعة لأهل الموقف من ذلك.. إلى أن قال فى الحديث: «فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته»، وفى رواية يقول: «إنى قتلت نفسا بغير نفس، وأن يغفر لى اليوم حسبى».. إلخ.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: قال سليمان بن داوود عليهما السلام: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله!، فلم يقل: إن شاء الله!»، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون.

والحافظ ابن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله: قال بعض السلف: نبه ﷺ بهذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض؛ لذلك نسى سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر.. ثم قال: وكان سليمان عليه السلام نسى بعد تذكيره لشىء عرض له فشغله.

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضى الله عنهما تنبئ عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام، كل منهم إما أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى الرأى أو نسيان منه، أو أن ما أخبر به لم

يتحقق، وذلك يدل بالتالي على أن الأنبياء بشر فحسب، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحي الإلهي جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادي، جاز عليهم الخطأ في الاجتهاد، كما يجوز عليهم النسيان، ويتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة، كما يتولد عند الإنسان العادي، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى -جل شأنه- وتزداد شوقًا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادي لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته.

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل، وإلا كان في رسالة الله ما لا يصح أن يكون لله الذي هو الحق منذ الأزل إلى الأبد.

اجتهاد نبينا ﷺ

سنعرض هنا لكثير من الصور التي بدا فيها رأيه ﷺ، وهي كثيرة متنوعة، فمرة بدأ الرأي في صورة الظن، وأخرى في صورة العلم أو الجزم وثالثة في صورة التمني ورابعة في صورة الأمر أو الدعاء.. إلخ.

وسيعلم القارئ من عرضها:

أولاً:

١- أكان قد أذن له ﷺ بالاجتهاد، أو كان لا يصدر عنه فعل ولا قول مثلاً إلا بإذن خاص من الله؟.

٢- وإن كان له أن يجتهد فهل كانت دائرة اجتهاده أمور الدنيا الصرفة، أو معها أمور الدين كذلك؟.

٣- وإن كان له أن يجتهد فيهما فهل وقع منه ﷺ اجتهاد في أبواب العبادات كالصلاة، والحج، والصيام.. وما يتصل بذلك من دعاء واستغفار وغيرهما؟.

٤- ثم هل وقع منه ﷺ اجتهاده في الأمور الغيبية أيضا، أو كان اجتهاده قاصرا على الغيبيات؟.

وثانياً:

١- إن ثبت أنه ﷺ كان يجتهد فهل كان يصيب دائما، أو لا؟.

٢- وإن كان الثاني فهل كان يقع منه ﷺ غير الصواب حتى في الأمور الدينية، أو كان ذلك في أمور الدنيا فقط؟.

وثالثاً:

١- إن كان يقع منه غير الصواب في الجميع فهل يجب أن يوحى إليه ﷺ فورا في كل أنواع اجتهاده أو يجوز أن يتراخى بيان الصواب؟.

٢- وإن كان الثاني فهل ذلك يكون عاما في أمور الدين والدنيا أو في أمور الدنيا فقط؟ أما في أمور الدين فيجب بيان الصواب فورا؟.

ورابعاً:

إذا علمنا أن رؤيا الأنبياء وحي فهل يتناول اجتهاده ﷺ تعبيرها، فيصيب تارة دون أخرى؟.

وخامساً:

هل سكوته على ما يقع بحضرته ﷺ يكون حجة على صحة ما وقع؟.

***

ما بدا من اجتهاده في صورة الظن:

١- عرض ﷺ لمن غضب عليهم الله من بني إسرائيل فمسخهم حيوانات، وظن أن من مسخ منهم يجوز أن ينسل، وأن الفأر والضب كلاهما من نسل الممسوخ، وآية ذلك أن الفأر إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان الشاء شربتها، وتفضيل الثانية على الأولى كان من عادات بني إسرائيل، وكذلك توقف في إباحة أكل الضب والنهي عنه.

أ- يروي في ذلك البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت»[1].

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أيضا بلفظ: قال ﷺ: «الفأر مسخ، وآية ذلك أنه يوضع بين يديها لبن الغنم فتشربه، ويوضع بين يديها لبن الإبل فلا تذوقه».

٢- ويروي مسلم عن جابر بن عبدالله، قال: «أتي النبي ﷺ بضب فأبى أن يأكل منه، وقال: لا أدري!، لعله من القرون التي مسخت».

ويروي أيضا عن أبي سعيد الخدري أن أعرابيًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: «إني في غائط مضبة، وإنه عامة طعام أهلي، قال: فلم يجبه، فقلنا: عاوده!، فعاوده فلم يجبه.. ثلاثًا، ثم ناداه ﷺ في الثالثة فقال: «يا أعرابي! إن الله لعن -أو غضب- على سبط من بني إسرائيل فمسخهم دواب يدبون في الأرض، فلا أدري؟، لعل هذا منها، فلست آكلها ولا أنهى عنها».

٣- ثم يوحى إليه تعالى بأن الممسوخ لا نسل له ولذا يعبر ﷺ عما أوحي إليه في صورة الجزم والقطع.

يروي مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود أنه قال: قالت أم حبيبة -زوج النبي ﷺ- ذكرت عند النبي ﷺ القردة من مسخ، فقال: «إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك».

ويروي أبو داود بسنده عن ابن مسعود أيضا أنه قال سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي من نسل اليهود؟، فقال: «لا، إن الله لم يلعن قوما قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم».

ويقول ابن كثير في تفسيره -نقلاً عن ابن أبي حاتم، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن الذين جعلوا قردة فواقًا[2] ثم هلكوا، ما كان لمسخ نسل!، ويذكر أيضا -نقلا عن الضحاك، عن ابن عباس: بعد جعلهم قردة لم يحيوا إلا ثلاثة أيام، ثم قال: لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينسل.

والحافظ ابن حجر في توفيقه بين هذين الضربين من الأحاديث لم يخرج عما ذكرناه من أنه أبدى رأيه أولاً عن اجتهاد منه ثم كان وحي الله له بعد ذلك، ولذلك يقول: قال الجمهور: إنه ﷺ قال ما قال أولاً قبل أن يوحى إليه بحقيقة الأمر في ذلك، ولذا لم يأت الجزم عنه بشيء من ذلك، بخلاف النفي فإنه جزم به، كما في حديث ابن مسعود المتقدم.

لكن أكان الوحي بحقيقة الأمر في ذلك على الفور أم على التراخي؟، يصعب علينا أن نحدد الفترة الزمنية بين الأمرين، بين إبداء الرأي والوحي.

١- في مسلم عن أبي هريرة مثل هذه الرواية، ونصها: فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته.

٢- الفواق: الزمن اليسير، قدرها بين حلبتي الناقة.

أدب الدعاء! تراثه، ووظائفه، وخصائصه



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

(١) الدعاء: حياة الأرض فى رجاء السماء!

إن الحياة مشمولة بالمعاناة، يدرك ذلك كل من ارتكب شيئا من الحركة على أرض الله تعالى، وهو الأمر الذى يجعل من الاطمئنان إلى وجوده سبحانه مرفأ أمان حقيقى لكل الذين تتردد أنفاسهم على هذه الأرض.

والدعاء فى التصور القرآنى هو: "الرغبة إلى الله تعالى"، فى أى صورة ظهرت. وهذه الرغبة تتشكل فى صورة الطلب منه، وسؤاله، وعبادته، والافتقار إليه، والانكسار بين يديه، والاستعانة به، والاستغاثة به، والاحتماء بجانبه، والركون إلى حماه؛ ومن أجل ذلك وغيره صح أن الدعاء هو العبادة، والدليل على ذلك ما جاء من حديث أبى داود.[1]

وكل هذه الوجوه وردت عند علماء الوجوه والنظائر فى الذكر الحكيم، على ما فى كتاب المجد الفيروزآبادى: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، الذى هو أوسع كتب الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم جميعا.

والله سبحانه أمر عباده بدعائه، والرغبة إليه، فقال تعالى:-

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

(سورة غافر: ٦٠)

ومن جميل ما أورده القرطبى فى تفسيره (١٦ / ٣٢٧) أن الله تعالى أمر بدعائه، ورتب الاستجابة بلا شرط؛ أى أنه لم يطلب إلا الدعاء غير المقترن بأى قيد، ووعد سبحانه بالإجابة.

والله تعالى وافر الرحمة، سابغ الكرم ولا يرد مقبلا عليه، راغبا إليه طامعا فى جنابه، رحيم بالمنكسر بين يديه، رءوف بذوى الضعف الملحين فى عرض ضعفهم، ومن هنا فإن الدعاء بما هو رغبة الخلق إلى الحق هو الطريق لحياة الأرض، وتخفيف معاناة السائرين على ظهرها.

١- محمد النعمان بشير عن النبى ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة». الحديث سنن أبى داود ١٤٧٩، ١٢٦٧.

(٢) تراث أدب الدعاء: حدوده، وأشهر مصنفاته

وقد تنبهت الحركة العلمية فى الأمة منذ زمن بعيد إلى استقلال التصنيف فى هذا الفرع من فروع الحديث النبوى الشريف.

صحيح أن كتب السنة الصحاح أظهرت بعض العناية بجمع أحاديث الدعاء فى أبواب موسعة، توزعت فى الداخل على أبواب مصغرة، تحت عنوانات أو تراجم كاشفة عن بعض ما يستفاد منها، وفيما يلى رصد لما جاء فى هذه الكتب الحديثية المعروفة.

أ- كتاب الدعوات، فى صحيح البخارى، وهو الكتاب الثمانون، وضم تسعة وستين بابا.

ب- كتاب الذكر والدعاء، فى صحيح مسلم، وهو الكتاب الثامن والأربعون، ضم واحدا ومائة باب.

ج- كتاب الدعوات فى سنن الترمذى، وهو الكتاب الخامس والأربعون، وضم اثنين وثلاثين ومائة باب.

د- كتاب الدعاء فى سنن ابن ماجه، وهو الكتاب الرابع والثلاثون وضم اثنين وعشرين بابا.

هـ- كتاب الدعاء للمدينة وأهلها، فى موطأ الإمام مالك، وضم ستة وعشرين بابا وهو الكتاب الخامس والأربعون.

ولم تكن العناية بأحاديث الدعاء الحديثية الكبرى هى الملمح الوحيد لرعاية جمع أحاديث هذا الموضوع المهم، وإنما امتدت ملامح عناية العلماء والمحدثين بأحاديث الدعوات فى مصنفات مستقلة عنيت بجمعها، والترجمة بين يديها؛ أى بوضعها تحت عناوين جامعة، ناتجة عن تأويل لها، واستنباط لما تتضمنه من أحكام، ودلالات، وفوائد.

وقد عرفت هذه المصنفات الحديثية التى جمعت أحاديث الدعاء بأسماء مختلفة، أشهرها ثلاثة عناوين، هى:

أ- مصنفات حملت عنوان: الدعاء، بتصريف متنوع.

ب- مصنفات حملت عنوان: الذكر، بتصريف متنوع.

ج- مصنفات حملت عنوان: عمل اليوم والليلة.

وفيما يلى محاولة لرصد أشهر ما نشر من المصنفات المستقلة الجامعة لأحاديث الدعاء، تحت هذه العنوانات الثلاثة:

٢ / ١-أ كتاب الدعاء؛ للقاضى أبى عبدالله الحسين بن إسماعيل، المحاملى، المتوفى سنة ٣٣٠، حققه ونشره الدكتور سعيد بن عبد الرحمن بن موسى القزقى، بدار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٢م. وفيه أربعة عشر بابا، ضمت ستة وتسعين حديثا شريفا.

٢ / ٢-أ كتاب الدعوات الكبير، لأبى بكر أحمد بن الحسين بن على بن موسى البيهقى، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، وحققه ونشره بدر بن عبدالله بدر، ضمن منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، بدولة الكويت، سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م وفيه خمسة ومائة باب، ضمت

واحدا وثلاثين وخمسمائة حديث شريف.

٢ / ٣-أ كتاب مجابي الدعوة، لابن أبي الدنيا، المتوفى سنة ٢٨٢هـ ونشره مجدى السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٧م، وضم ستة وثلاثين ومائة حديث شريف.

٢ / ب-١- كتاب الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووى، نشره الشيخ خليل الميس، مكتبة المتنبى، القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٢ / ب-٢ كتاب الوسائل الشافعة فى الأذكار النافعة والأوراد الجامعة والثمار اليانعة والحجب المانعة عن النبي ﷺ فى الأذكار والأدعية للأسباب الواقعة لمحمد بن على العلوى الحسيني التريمى، المتوفى سنة ٩٦٠هـ، المكتب المصرى الحديث، القاهرة ١٤٠٥هـ.

٢ / ب-٣- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين كلام سيد المرسلين ﷺ، لمحمد بن على بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، مكتبة المتنبى القاهرة، بلا تاريخ.

وقد ظهرت مصنفات مفردة، بمعنى انفراد عدد من المصنفات الحديثية الجامعة لأحاديث الدعاء بأحاديث الدعاء لمجال حيوى واحد، من مثل:

- كتاب الابتهاج بأذكار المسافر الحاج، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى، المتوفى سنة ٩٠٢هـ، نشره رضوان محمد رضوان، دار الكتاب العربى، القاهرة سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م وهى خاصة بأدعية المسافر الحاج فقط.

٣ / ج-١ . كتاب عمل اليوم والليلة، للإمام أحمد بن شعيب النسائى، المتوفى سنة ٣٠٣هـ، حققه ونشره الدكتور فاروق حمادة، دار السلام، القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م وفيه أربعة وعشرون وثلاثمائة فصل، ضمت واحدا وأربعين ومائة وألف حديث شريف.

٣ / ج-٢ . كتاب عمل اليوم والليلة، لأبي بكر السني، المتوفى سنة ٣٦٤، نشره عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ضم ثمانيةوسبعين وسبعمائة حديث شريف.

٣ / ج-٣ . كتاب عمل اليوم والليلة، للإمام جلال الدين السيوطى، نشره مصطفى عاشور مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٣م.

(٢) أدب الدعاء:

مقال فى الوعى بالله جل جلاله

إن فحص ما ورد إلينا من نصوص نبوية شريفة، اتخذت شكل الأدعية أو الأذكار يقود إلى حقيقة مهمة جدا يمكن التعبير عنها بقولنا: إن لله سبحانه مرادا فى أن نجله جلالا صادرا عن الوعى الكامل به، وبصفاته العلى، وأسمائه الحسنى.

وقضية الوعى هذه ملموسة فى بعض ما ساقه أصحاب مصنفات الدعاء أو الذكر أو عمل اليوم والليلة من المسوغات التى حملتهم على التصنيف فيها، يقول البيهقى فى مقدمة كتابه (الدعوات الكبير ١ / ٣): "سألني بعض إخوانى أن أجمع له ما ورد من الأخبار المأثورة فى الأدعية المرجوة التى دعا بها رسول الله ﷺ فى وقت أو علمها أحدا من صحابته بأسانيدها؛ ليسمعها، ويعيها، ويعلم مراتبها، ومدارجها فى الثواب الموعود عليها، ويحرص على حفظها، واستعمالها، ويفزع فى كل نائبة تنوبه إليها، ويسأل الله تعالى بها".

ومن المهم جدا فى هذا النص تأمل الدوافع التى دفعت البيهقى إلى تصنيف هذا الكتاب، وما أورده الرجل من واجبات نحو أحاديث الدعاء يلمح ظهور أمرين هما الوعى، من جانب، والحرص على حفظها من جانب آخر، مما يؤكد ضرورة الوعى بجلال الله تعالى؛ ذلك أن ذلك أمر مهم متعلق بالعلم به، وهو مدخل مؤثر فى سؤال الله تعالى، والخشوع له، والانكسار بين يديه، وطلب الرحمة من جانبه سبحانه.

والإلحاح على ضرورة توافر الوعى بالله جل جلاله يستمد خطره وأهميته من النظر إلى الدعاء بما هو تعبد، والتعبد يلزمه وعى ظاهر بالمعبود سبحانه، يقول النووى فى مقدمة كتابه (الأذكار) (ص٤): "فشرعت فى جمع هذا الكتاب مختصرا مقاصد ما ذكرته تقريبا للمعتنين.. ولكونه موضوعا للمتعبدين... ولأن المقصود به معرفة الأذكار والعمل بها".

ومن هنا يظهر أن أحاديث الدعاء لما كانت موضوعا للمتعبدين، والمقصود منها العمل بها تطلب الوعى بجلال من نتوجه بها إليه سبحانه من جانب، والحرص على تحصيلها ما أمكن تحقيقا لأمر الاقتداء بالنبى ﷺ والاتباع له الذى هو ركيزة تأسيسية لأى عبادة أو عمل دينى.

وفى هذا السياق يلزم تأمل العنوان المبكر الذى حملته مصنفات أحاديث الدعاء وهو (عمل اليوم والليلة)؛ ذلك أن فحص هذا العنوان ينتج المعانى التالية:

أولا-ظهور النص على أن الدعاء، والذكر عمل وتعبد، وهو ما يلزم حياطته بكل أشكال الوعى بالله تعالى علما به، وتقديسا لمقامه، وإجلالا لشأنه، وتحوطا بالغا فى التوجه إليه، والمبالغة فى الإخبات له، والانكسار بين يديه، وتقدير قدرته، وتعاليه ورحمته وغناه، بما هى معانى الأسماء المرجوة تعيينا عن دعائه سبحانه، والإقبال عليه.

ثانيا - ظهور الوعى بقيومية الله تعالى، وأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تحيط به من أى جانب، ولا بأى درجة أى صورة من صور الغفلة سبحانه وهو الأمر الذى يمكن فحصه من تحليل عبارة (اليوم والليلة) فى عنوانات عدد من مصنفات أحاديث الدعاء؛ ذلك أن الطباق هنا المتمثل فى استعمال الكلمتين المتضادتين (اليوم/ والليلة) يدل على الاستغراق الزمنى؛ بمعنى أن وجود أحاديث نبوية شريفة تحيط بأحوال الإنسان كافة فى ذكره لله تعالى، ودعائه له أمر دال على أن الشريعة تعلم الأمة من خلال مقام النبى الكريم ﷺ أن الله تعالى مهيمن على الوجود كله، وأن هيمنته هذه مستغرقة الزمان كله.

وهو الأمر الذى ينبغى أن يتنبه إليه المسلم ويحقق على إثره ضرورة اللجوء إلى الله تعالى فى كل وقت، وعلى كل حال،

وفى أى أمر، ولأى مطلب، وهو ما تجلى واقعا فى حياة الجيل الأول من المسلمين، وهم الصحابة الكرام وهو الأمر الذى يظهر جليا من وضع هذا العنوان علما على قطاع عريض من المصنفات الجامعة لأحاديث الدعاء والذكر.

(٤) تراث أدب الدعاء:

وظائفه وآفاق استثمارها

تهدف هذه الفقرة من مقالتنا هذه إلى استكشاف عدد من الوظائف التى يمكن استثمارها فى المعرفة والثقافة العربية المعاصرة، ولا سيما أن ثمة ندرة ظاهرة تتعلق بهذا التراث العريق والعريض من جانب دراسته أدبيا وبلاغيا ولغويا بدرجة أساسية.

وفحص هذا التراث العريض لا يغفل انتماءه المعرفى إلى الوحى، وهو الأمر الذى يفرض نفسه بقوة فى استكناه خطاب الوظائف، وفيما يلى محاولة تستكشف عددا من هذه الوظائف، طموحا إلى توسيع آفاق استثمارها:

أولا - الوظيفة الاعتقادية:

ويقصد بها فى هذا السياق أن تراث مصنفات الدعاء والأذكار تدعم تربية الأمة على يقين ثابت فى قدرة الله تعالى على تأمين الإنسانية، وانتشالها من أزماتها، وهو بعض المفهوم من السؤال من الله سبحانه، واللجوء إليه.

ثم إن إشاعة الارتباط بهذا التراث فى أوساط الأمة داعم قوى لتنامى قضية مراقبة الله تعالى، وهو المعنى المستفاد من اتساع أحاديث الدعاء، وشمولها لعمل اليوم والليلة جميعا؛ أى شمولها حال المسلم جميعا.

ولا يقف الأمر عند حدود الاستنباط، والاستكناه، وإنما يتجاوزه إلى واحدة من السمات المركزية للأدعية والأذكار المأثورة وهى امتلاؤها بعدد وافر من التعابير والجمل التى تنزه الله تعالى، وتقدسه، وتمجده، بما أن ذلك غاية أساسية لنصوص الأذكار النبوية الشريفة التى تركها رسول الله ﷺ، واحتفى بها المحدثون فيما صنفوه من تصانيف جامعة مستقلة لأحاديث الدعاء والأذكار.

ومن ذلك ما أخرجه النسائى فى تصنيفه فى (عمل اليوم والليلة) (ص ١٢٦ :حديث٢٧) فى الحديث الصحيح عن أبى عياش الزرقى، قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال إذا أصبح: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير، كان له كعدل رقبة من ولد إسماعيل، وكتب له بها عشر حسنات، وحط عنه بها عشر سيئات، وكان فى حرز من الشيطان حتى يمسى، وإذا أمسى مثل ذلك حتى يصبح".

وفى هذا الحديث استجماع ظاهر لكل ملامح التنزيه الواجب لله تعالى، من إعلان توحيده، والديمومة له، والإقرار له بكونه معبودا مستحقا وحده سبحانه للعبادة، وهو ما يعنى أن النص الشريف، يشير إلى ضرورة تربية الوعى الإسلامى على:

١- الإيمان بالله تعالى إلها، وربا، جليلا فى ذاته، محمودا بغض النظر عما يمكن أن يمتحه خلقه.

٢- الإيمان بقدرة الله تعالى، والإيمان بأن ذلك طريق لاستجلاب الثواب، والترقى فى حيازة أسباب النجاة فى الآخرة.

٣- الإيمان بخطر الذكر والدعاء والثناء على الله تعالى فى صيانة الحياة الإنسانية من المشكلات المعوقة لمسيرتها، والمتسببة فى تعثرها، وهو ما رتبه النص الشريف أثرا ظاهرا من آثار ذكره تعالى من تحقيق حماية الإنسانية بما يوفره من حرز مانع من الشيطان، بما هو فكرة جامعة للشر الخالص.

٤- الإيمان بضرورة استصحاب هذا التنزيه والتقديس فى كل وقت وفى كل حال، وهو المعنى المستفاد من طباق الاستغراق الذى يصنعه استعمال الفعلين (يمسى/ يصبح).

والحق أنه لا يكاد يخلو حديث من أحاديث الدعاء والأذكار من تضمنه عبارة أو أكثر تنزه مقام الله تعالى.

ثانيا - الوظيفة التعبدية:

صح فيما مر بنا أن العلماء فى افتتاح مصنفاتهم الجامعة لأحاديث الذكر والدعاء نصوا على أنها منضوية تحت باب العمل، وهو ما ظهر جليا فى عنوانات قطاع عريض من هذه المصنفات، ألا وهى مصنفات عمل اليوم والليلة؛ وهو ما يعنى أن الدعاء والذكر فى التصور الإسلامى عمل وتعبد، مما يعنى أن الأحكام التكليفية تحيط به، وتتأرجح بين محورين هما:

١- الذكر الواجب، المتعلق بوجوب التشهد، وبوجوب الصلاة على النبى ﷺ، ولو لمرة واحدة فى العمر، وبوجوب الأذكار التى هى من أركان عدد وافر من العبادات كالصلاة والحج، وأحكام المعاملات من عقود وغيرها.

٢- الاستحباب والندب، وهو الأمر الدائر الغالب فى بقية جوانب الحياة الإنسانية، ولعل القول بأن الذكر والدعاء يرقى إجمالا إلى استحقاق حكم السنة المؤكدة بوجه عام، وهذا ليس أمرا جديدا ذلك أن نفرا كبيرا من العلماء جعل الأثر هو الأصل الأول فى الفقه وهذه الوظيفة التعبدية أمر ظاهر من النص عليه فى وعى أصحاب مصنفات أحاديث الذكر والدعاء؛ يقول البيهقى فى الدعوات الكبير (١/ ٣) أن على المسلم أن: يحرص على... استعمالها، ويفزع فى كل نائبة تنوبه إليها، ويسأل الله تعالى بها"، وهذه العبارات جميعا جاءت مجىء التفسير للمراد باستعمالها، وهو البرهان العملى على المستقر فى اليقين القلبى.

ويقول النووى: إن جمع أحاديث الأذكار يستهدف تيسيرها للمتعبدين، ذلك أن المقصود من معرفة الأذكار: "العمل بها" وهو ما لا يكون إلا بعد جمعها، وإيضاح مظانها للمسترشدين.

ولعل مما يقوى هذه الوظيفة احتفال عدد من مصنفات الدعاء والأذكار وعمل اليوم والليلة افتتاحها بفصول قصيرة تتناول فضل الذكر، وأحكامه، وآدابه، وهو ما يعنى تأكيد كون الذكر عملا تعبديا تحيط به الأحكام التكليفية وجوبا وندبا.

ثالثا - الوظيفة التربوية:

يتحدث نفر من الأصوليين المعاصرين الذين اختصروا مقاصد الشريعة في كليات جامعة عن كلية التزكية بما هي ركن من أركان ثلاثة يقوم على رعايتها التصور القرآني والإسلامي، والتزكية بما هي ركن يؤازر ركنين آخرين هما: التوحيد والعمران، وهو مرادنا هنا من هذا الذي سميناه بالوظيفة التربوية.

ذلك أن حفظ أحاديث الدعاء، ووعيها لابد قائد إلى شعور الإنسان الصادق بإنسانيته المفتقرة إلى الركون إلى جناب الله تعالى، وهو الشعور المفضي إلى محاصرة علامات الغرور البشرى، بما هو مدخل مدمر للحياة والحضارة معا.

وهذه الوظيفة التربوية باب واسع يحتاج إلى قدر من العناية المعاصرة، لينزل في الواقع الحي للناس، وهو وظيفة نص عليها غير واحد من المصنفين في هذا المجال، يقول النووي إنه لم يكتف بجمع أحاديث الدعاء والأذكار فحسب، وإنما ضم إليها: "جملا من النفائس من... رياضات النفوس، والآداب التي تتأكد معرفتها على السالكين"

وهذا الذي عبر عنه النووي برياضات النفوس، هو المفهوم المعاصر للوظيفة التربوية التي لا تستهدف ضبط السلوك فحسب، وإنما تسعى إلى مقامات أعلى من التهذيب والترقي الأخلاقي، والوجداني أيضا.

رابعا - الوظيفة النفسية

يعد السواء النفسي مطلبا رئيسيا ومعيارا حاكما للحكم على الإنسان الذي يعيش في جودة من الحياة، ومن المثير للانتباه أن يلي الأمر بالعبادة ذكر تحقيق مطلبين حيويين هما تأمين الحياة الإنسانية بدنيا ونفسيا، يقول تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

(قريش: ٣-٤)

وهو ما يعني في أحد التأويلات أن استكمال إنسانية الإنسان لن يكون إلا بعد انحيازه إلى الإيمان بالله تعالى، وترجمة ذلك تعبدا، وإقبالا.

ولا شك أن شعور الإنسان المسلم بأن له ربا يحميه، ويحوطه، ويرحمه، ويفرح بالطلب منه، والعودة إليه، يسهم إسهاما جيدا ورائعا في تأمين النفس الإنسانية المسلمة، ويحقق لها السواء النفسي المفضي إلى هدوئها، واستجماع أمرها استقرارا، وسعادة.

وهذا الذي نقرره ليس أمرا يحلق في المطلق وإنما هو ملموس معالج، ولا سيما إذا ما عرفنا أن رسول الله ﷺ يعلمنا أن من الأذكار ما يستدفع به المرض، وما يجلب استقرار النفس في مواجهة هموم المخلوقات الأخرى التي تهدد حياة الإنسان وأمنه.

ولعل ما يؤكد وجهة نظرنا هذه ظهور باب جامع لأحاديث الدعاء عند من رتبها ترتيبا موضوعيا، يعبر عنه الصنعاني في تحفة الذاكرين (ص ٢٦٩-٣١٥) بعنوان: (فيما يهم من عوارض وآفات في الحياة إلى الممات) وهو باب له نظائره في غالب مصنفات أحاديث الدعاء والأذكار، وهو ما يعني الوعي التصنيفي بواحدة من أهم وظائف تراث الدعاء في الثقافة الإسلامية ألا وهي استثماره في طرد المخاوف واستدفاع المكدرات، والمنغصات، والأمراض، ولا شك أن الشعور بمحاصرة المخاوف، وحياطة الحياة بالحماية والصيانة من أبلغ أسباب تحقيق السواء النفسي.

ومن هذه الأحاديث بالغة القيمة في هذا السياق، أي سياق استدفاع الكرب والهم والغم والحزن بالدعاء، حديث ابن عباس الذي يقول فيه (ص٢٦٩): "أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم" (والحديث متفق عليه) والذي يلمح الحديث أن هذا الثناء جاء على سبيل التمهيد بين يدي الدعاء، والتهيئة له، وهو ما يعني الوعي النبوي الكريم بجلال الله تعالى الذي لا يرد من تقرب إليه، واستمطره فضله، ولاذ بجنابه، واحتمى بركنه وحماه.

وفي مدونة أحاديث الدعاء والأذكار يعلمنا المصطفى ﷺ أحاديث لدفع الفزع من مثل قوله ﷺ عن عبدالله بن عمرو بن العاص (ص ٢٧٩): "أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون" (وهو حديث صحيح) ويعلم النبي ﷺ الأمة أحاديث دعاء لمحاصرة الغضب، أو لمن أصابته شكايات، أو آلام إلخ.

إن الله تعالى بما هو خالق كل شيء فإن وعي الإنسان المسلم وإدراكه بأن الله تعالى يملك سبحانه دفع الضر، وأنه يسأل فيدفع، من آكد الأمور التي تجعل لتراث مصنفات الأذكار والدعاء أهمية بالغة من الزاوية النفسية

خامسا - الوظيفة الاجتماعية

تلح أدبيات علم الاجتماع في أكثر من فرع، في علم الاجتماع الصناعي، وفي علم اجتماع التنمية، وفي غيرهما من فروع علم الاجتماع أن الاستقرار النفسي، وتأمين الحياة الإنسانية من جهة صيانة البدن من المخاطر التي تتهدده، وحماية النفس من المخاوف التي تتربص بها شرط لازم لعمليات التنمية وخططها.

ومن الممكن استثمار تراث مصنفات الأذكار والدعاء لدعم عمليات الاستقرار الاجتماعي، واعتماده في برامج التنشئة الاجتماعية، ليحقق أغراض بناء أجواء مساعدة لعمليات التنمية المنشودة.

معنى ذلك أن العناية بهذا التراث يمكن أن يمثل مدخلا لدعم خطط التنمية الاجتماعية، والاقتصادية بما توفره هذه العناية من أجواء الترابط والتماسك الاجتماعي من جانب، وبما تخلقه من أجواء الاستقرار والأمن والاطمئنان من جانب آخر.

و في المدونات الحديثية أبواب كاملة لها مدخل في دعم عمليات التنمية المختلفة، من مثل الأذكار المتعلقة بطلب نزول المطر، والدعاء في مجالات طلب الحاجة، والطعام والشراب، وطلب الضائع، وطلب العلم وما إلى ذلك من الأبواب المهمة التي لها عائد تنموي.

سادسا - الوظيفة العلمية:

حرص عدد من المصنفين فى مجال أحاديث الدعاء والذكر أن يورد كثيرا من المعلومات والمعارف المتنوعة على خلفية بيان ما تتضمنه نصوص الأحاديث المشرفة من فوائد ودلالات.

وهذه المعارف موزعة على أنواع كثيرة تستهدف إيضاح النصوص الحديثية فى الأساس وتقريبها لمن يروم العمل بها، وهو أمر منصوص عليه فى مقدمات بعض هذه المصنفات الجامعة لأحاديث الذكر والدعاء، يقول النووى إنه لن يكتفى بجمع الأحاديث فقط وإنما سيضم إليها: "جملا من النفائس من علم الحديث، ودقائق الفقه، ومهمات القواعد، ورياضات النفوس، والآداب التى تتأكد معرفتها على السالكين".

معنى ذلك أنه من الممكن بلا أدنى مبالغة أن نقرر أن مصنفات أحاديث الدعاء والأذكار تعد مصادر غير مباشرة فى الفقه، واللغة، والقواعد، وآداب السلوك ولا سيما فى المسائل المرتبطة بنصوص الأدعية والأذكار.

و فيما يلى مجموعة أمثلة دالة على ما نقرره:

١-يقول النووى (١١٦) فى الحديث الذى أخرجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله، فإنها من المصائب" قلت: الشسع بكسر الشين المعجمة ثم بإسكان السين المهملة، وهو أحد سيور النعل التى تشد إلى زمامها".

وهذا الجزء من النص بداية من قول النووى: "قلت" يتضمن بعضا من المعلومات المعجمية التى تعين على تفهم الحديث، وهذه المعلومات هى:

أ- ضبط بعض الألفاظ المشكلة الضبط.

ب- تفسير بعض الألفاظ الغريبة، تخلصا من الفجوات المانعة من إدراك التصور.

ومن ثم فإن كتب الأحاديث هذه تعد مصادر لغوية فيما يخص غريب الحديث النبوى الشريف بشكل جزئى، وهو ما يعنى إمكان استخراج معجمية لغريب أحاديث الدعاء.

٢-يقول النووى (١٣٥) فيما أخرجه عن عمرو بن حزم رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: "ما مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة" واعلم أن التعزية هى التصبير، وذكر ما يسلى صاحب الميت، ويخفف حزنه ويهون مصيبته، وهى مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وهى داخلة فى قول الله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾

(المائدة: ٢)

وهذا من أحسن ما يقول به فى التعزية" ففى هذا النص معارف كثيرة متنوعة تحيط بما يلى:

أ- لغة النص، حيث فسر التعزية، وذكر معناها بعبارة شارحة أو بتعريف واضح.

ب- فقه النص، حيث ذكر حكم العمل، وأنه من المستحب المندوب.

ج- دليل الحكم، حيث بين أن هذا الحكم

المستخرج معتمد على قاعدة عامة تتعلق بالأمر بالمعروف، وعلى نص قرآنى عام، هو الآية الكريمة المذكورة، ثم بين أن الحديث الشريف دليل فى يد الحكم بسنية التعزية.

والنووى هنا يرسخ لقائمة طويلة جدا من العلماء الذين يؤسسون الفقه على أساس من رعاية الأثر والحديث الشريف.

ومن مجموع هذا يظهر لنا أن الكتب الحديثية الجامعة لأحاديث الذكر والدعاء تمثل فى بعض زوايا النظر إليها مصادر مهمة ولا سيما فيما يتعلق بلغة هذه الأحاديث وفقهها وقواعدها، وآدابها.

(٥) خصائص تراث أدب الدعاء

إن فحص خصائص تراث أدب الدعاء له فوائد عديدة، ولا سيما فى ظل ما هو معروف عن تاريخ التأليف فى الحضارة العربية، ومدى ما وفره الإسلام العظيم لهذا التاريخ من عوامل ترقيه، ونهضته.

ودراسة خصائص تراث بعينه فرع من علم دراسات النصوص، أو ما يعرف فى الدرس الغربى باسم الفيلولوجيا.

وقراءة ما أنجزه المحدثون والعلماء المسلمون من مصنفات فى هذا المجال يعكس عددا كبيرا من الخصائص تصب جميعا فى بيان الوصف العام للفكرة الإسلامية، بما هى فكرة ربانية، وإنسانية وتيسيرية، ونافعة معا.

وفيما يلى محاولة لرصد عدد من الخصائص التى اتسم بها هذا التراث العلمى الذى خلفه لنا المحدثون والعلماء، ووصل إلينا، ونال بعض العناية المعاصرة تحقيقا ونشرا:

أولا - الشمول والاستيعاب:

توصف الفكرة الإسلامية بشمولها، واستيعابها للمادى والروحى جميعا، وهو ما انعكس بشكل ظاهر على ما تضمنته مصنفات أحاديث الدعاء والأذكار من نصوص تتعاطى مع الإنسان فى كل أحواله، وأوقاته.

وقد أشرنا من قبل إلى أهمية عنوان (عمل اليوم والليلة) فى الدلالة على هذا الاستيعاب؛ لقد علمتنا السنة الشريفة حياطة حديث الدعاء لأمر الإنسان من لحظة يقظته إلى لحظة استغراقه فى نومه، وأحاطت به فى حله وترحاله فى سكونه وحركته، فيما يمارسه عملا، ويتمناه ويأمله حلما، وفى استدفاع مخاوفه، واستجلاب منافعه.

وفحص فهارس ما وصل إلينا من هذه المصنفات دال على ذلك الذى نقرره، ونقوله وهو الأمر الذى يشير بنص صريح إلى أن أحاديث الدعاء والأذكار تؤسس لفكرة محورية أساسية يمكن التعبير عنها بقولنا إن الله تعالى فى التصور الإسلامى يحيط بالحياة الإنسانية من جوانبها كافة، ويقوم على أمرها، ويتعهدها بالرعاية، والهداية، والهيمنة، والإصلاح.

ثانيا - البيان والوضوح وإرادة التفهيم

كان مما استقر فى الأصول الإسلامية أن الشريعة مبنية على التفهيم؛ ذلك أن الله تعالى لا يكلف بغامض، أو مستغلق، ومن هنا فإن تراث أدب الدعاء يتسم بسمة مركزية هى الحرص على الوضوح، والبيان،

والتفهيم، وهو أمر ظاهر في النص الذي افتتح به بعض العلماء مصنفاتهم، يقول النووي(ص٤): وأذكر جميع ما أذكره موضحا بحيث يسهل فهمه على العوام؛ ففي هذا النقل ما يدل على حرصه على التوضيح، تيسيرا وتسهيلا على أفهام العوام، والقراء.

وهذه السمة العامة هي التي تفسر حرص عدد من هذه المصنفات الحديثية الجامعة لنصوص الدعاء والأذكار بعدد من المعارف اللغوية والفقهية وغيرها؛ تيسيرا لتفهمها وبيانها، وتقريبا لمعانيها، وإعانة على العمل بها.

وإذا كان عدد من مصنفات تراث أدب الدعاء لم يعلق على جمعه من أحاديث بمعلومات لغوية وفقهية وغيرها من شأنها توضيحها، وبيانها، وتعريف فهمها -فإن ذلك لا يعني غياب سمة البيان والوضوح؛ لأن ثمة طريقا أخرى أسهمت في الاضطلاع بعبء هذه السمة الإيضاحية، ألا وهي صناعة تراجم لأبواب في هذه المصنفات الحديثية المختلفة، والمقصود بتراجم الأبواب والفصول هو عنوانات الأبواب والفصول الداخلية وهي في بعض النظر ناتج فقه الأحاديث المنضوية تحت كل باب أو فصل يحمل ترجمة أو عنوانا، وهذا الفقه صاغه أصحاب هذه المصنفات في صورة العناوين والتراجم.

ثالثا- منهجية البناء والترتيب:

اتسمت مصنفات تراث أدب الدعاء بحرصها على اتباع المنهجية في البناء والترتيب، وهو الأمر الذي بدت ملامحه وعلامات في تطبيق منهجية الترتيب الموضوعي؛ بمعنى أن أصحاب هذه المصنفات جمعوا الأحاديث المترابطة دلاليا في باب يحيط بها؛ فجمعت أحاديث الذكر المتعلقة بالأوقات في حيز يجمعها، وأحاديث الذكر المتعلقة بالعبادات في حيز يجمعها، وأحاديث الذكر المتعلقة بالطعام والشراب في حيز يجمعها، وأحاديث الذكر المتعلقة بالأمور العلوية في حيز يخصها، وأحاديث الذكر المتعلقة بما يهم بالإنسان من عوارض وآفات في حيز مستقل وهكذا إلخ.

وهذه المنهجية ثابتة عامة في جميع ما صنف في هذا الباب، وهي منهجية خادمة للأغراض التعبدية التي تحيط بالمسلم باختلاف الأحوال، والمقامات.

لقد حرص هذا المقال أن يحيط بباب علمي قل من تنبه إلى قيمته، وتأمله، وهو ما دعانا إلى التعريف به، والدلالة على مصادره المتنوعة، وفحص وظائفه التي يمكن أن تسهم في ترقية الحياة الإسلامية ودللنا على بعض خصائصه، بما هو تراث تأليف جامع لمدونة حديثية يجمعها إطار موضوعي.

وقد قاد هذا الفحص والنظر إلى إقرار مجموعة من الحقائق المهمة، وهي أن الفكرة التوحيدية في التصور الإسلامي رحيمة وإيجابية، بمعنى أن الله تعالى يفرح بإقبال عباده عليه، وسؤالهم إياه، والطلب منه، واللجوء إليه، والاحتماء بحماه سبحانه.

و هو بعض الأمر الذي يقود إلى استقرار الإنسان في ذات نفسه، وفي مجتمعه، شريطة أن يحسن المسلمون استثمار هذا التراث الحي في حياتهم جميعا.

من عيون التراث

طبائع النفوس أو «الأكياس والمغترون»

تأليف: الترمذي محمد بن عبدالله (٢٠٥هـ-٣٢٠هـ).
تحقيق: أحمد عبدالرحيم السايح، السيد الجميلي.
القاهرة: المكتب الثقافي للنشر والتوزيع (١٩٨٩م).

التعريف بالمؤلف:

الترمذي أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الملقب بالحكيم (٢٠٥ هـ- ٣٢٠ هـ) وُلد في عائلة تنتمي إلى العرب، كان أبوه من رواة الحديث الذين رحلوا في سبيله، واشتغلوا بروايته. فقد ترجم له الخطيب البغدادي. وذكر أنه نزل ببغداد وحدّث بها. وقد روى الحكيم كثيرًا عن والده في كتبه المتعددة. وكانت أمه أيضًا من أهل الحديث فقد روى عنها، وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث. وثبت أنه أخذ الحديث عن بعض مواطنيه. وكان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ في تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها. والرغبة في الاستزادة من العلم. والاستعداد للرحلة من أجل ذلك وأخذ الحكيم الترمذي عن كثير من شيوخ المحدثين في عصره. ويعد الحكيم الترمذي أول من أورد قصص الصوفية في الخضر، قال أبو عبدالرحمن السلمي: «أخرجوا الحكيم من ترمذ»، وشهدوا عليه بالكفر وذلك بسبب تصنيفه كتاب (ختم الولاية)، وكتاب (علل الشريعة)، وقالوا: إنه يقول إن للأولياء خاتمًا كالأنبياء لهم خاتم، وإنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بحديث: يغبطهم النبيون والشهداء. فقدم بلخ فقبلوه لموافقته لهم في المذهب. وقد عمر مائة وخمسة عشر سنة، وتوفي عام (٣٢٠ هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (١١٤) صفحة. ويتكون من مقدمة وثلاثة عشر فصلاً. ويعد هذا الكتاب نقدًا اجتماعيًا يتناول ظاهرة الرياء التي تدخل في كثير من الأعمال والعبادات: كالزكاة، والحج، وطلب العلم، والكسب، والنكاح، والسياحة، والاحتساب، ومجاورة البيت الحرام، والاعتزال، وتلاوة القرآن، وأداء النوافل، والوعظ والإرشاد، حيث يشرح المؤلف عبر فصول هذا الكتاب كيف يفسد الرياء العمل الصالح في كل ما ذكرناه آنفًا. واهتم بإبراز أصول السلوك. وهي من وجهة نظره تتجسد في الحق والعدل والعمل الصالح، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول، ومنتهى رضا الله عن العبد في عبوديته أن يجتمع فيه هذه الخصال الثلاثة. فإذا افتقد منه الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور، وإذا افتقد

منه الصدق خلفه الكذب، فهذه الثلاثة جند المعرفة، وهذه الثلاثة التي هي أضدادهن جند الهوى. فالنفس كما يرى وعاء الهوى. والمغترون من يقطعون أعمارهم بإصغائهم بآذان قلوبهم إلى نفوسهم، وإلى ما يرد الهوى عليهم من هذه الثلاثة (ص٢١).

ويتناول خصال المغترين والأكياس -عبر فصول الكتاب- ليوضح من خلالها ظاهرة الرياء التي تشوب كثيرا من العبادات.

فتتلخص خصال المغترين وأفعالهم بما يأتي:

١ ـ الوضوء: تجد أحدهم إذا توضأ، ترك أدب الوضوء. أقبل على صب الماء، فأكثر منه يريد بذلك التوفير للتطهير والوفاء لأمر الله ـ عز وجل ـ فهو معتبر بذلك أمر بالغسل، فالغسل أن يبل الجلد والبشرة وأصول الشعر، ويذكر اسم الله – عز وجل في مبتدئه، ويستقبل بوضوئه القبلة. فالمغتر يلهو عن اسم الله، ويلعب بالماء صبا، يرى تطهيره في كثرة الصب، فإذا فعل طابت نفسه، ويرى أنه وفى الله ـ عز وجل ـ (ص٣٧).

٢ ـ الصلاة: إذا قاموا إلى الصلاة سهوا عن حفظ قلوبهم مع الله بين يديه، وسهوا عن حفظ جوارحهم، فالتفتوا ورفعوا بصرهم عن مواضعه، وتثاءبوا وتمطوا، وفرقعوا بأصابعهم، وتمايلوا في صلواتهم كالمترنحين والمتهدين، وعبثوا بأجسادهم وثيابهم، وأشباه هذا. فهم غير مقبلين على صلواتهم. قد أهملوا حفظ قلوبهم من حديث النفس ووساوسها.

٣ ـ الصيام: إذا صاموا تلاهوا ولهوا عن حفظ الجوارح التي ائتمنهم الله تعالى عليها، فتراهم كافين عن الطعام والشراب الذي أحله الله، وآكلين لحوم الموحدين اغتيابا، وناظرين بأعينهم إلى ما حظر عليهم، ونهوا عنه، ومستمعين إلى ما زجروا عنه، وناطقين باللغو، وخفي الكلام (ص٤٠، ٤١).

٤ ـ الزكاة: إذا زكوا أموالهم أقبلوا يتصدقون من مال اكتسبوه وجمعوه من غير حقه، من رياء، وغصب، وظلم، وأبواب المظالم، والشبهة. وإذا جمعوا أموالهم من حقوقهم في الميراث أو من صلة لم يشبها شيء من الشبهة، تصدقوا على العلائق والأسباب التي يجترون بها المنافع، فيهيمون بها في أتباعهم واللائذين بهم، والقائمين لهم في النوائب، من مولى قد أعتقوه، ومتولي خدمتهم، والحامين عنهم فيفرقون في هؤلاء ويدعون أرحامهم وجيرانهم (ص٤٣).

٥ ـ الحج: إذا حجوا أكثروا الطواف والصلاة، ومواترة الحج عاما بعد عام، ولكنهم لا يتنصلون عن ذنوبهم، وصاروا إلى مقام الاعتذار، ولم يهمهم الاعتذار، وكيف يعتذرون ولم يخرجوا من الذنوب إلا بألسنتهم فقط. وهم غاصبون أو قاطعو أرحام أو ظالمين، أو جامعين أموالهم من خبائث، أو عاقين، أو تاركين لحقوق زوجاتهم وأولادهم، أو مصرين على خطاياهم (ص٤٦).

٦ ـ طلب العلم: إذا طلبوا العلم طلبوا النزهة فيه، فخطوا البلدان، وتركوا علماء بلدانهم يريدون أن يغربوا بأسمائهم، لا يريدون العلم لذاته ولكن طلبا للرياسة، ونوال العمر، وشرف المجالس (ص٤٩). فإذا أدركوا مدرك الرياسة، واحتاج الناس إليهم، شمخوا بنفوسهم علوا وذهبوا بنفوسهم ذهابا (ص٤٩).

٧ ـ الوعظ والإرشاد: هم يهدون الناس قولا ولا يهتدون بأنفسهم، وتراهم يخالفون إلى ما ينهون عنه، وليس بهم إصلاح الناس، وإنما دوام عزهم وجاههم (ص٥٠).

٨ ـ طلب العيش: وإذا طلبوا معيشة مكسب، كان مركبهم الحرص، وجمعهم على النهمة، وإمساكهم على النعمة وإنفاقهم على سوء الظن، وبالهوى، والشهوة (ص٥١).

٩ ـ أداء الأمانات: إذا صاروا إلى حد الأمانات ضيعوها، وضيعوا الحدود، فلا يصونون الأعراض ولا الأديان، وإذا جمعوا ضيعوا الحقوق، وقتروا في النفقة، فلا على العدل سعوا، ولا على الفقراء عطفوا، ولا الأرحام وصلوا، ولا في إعطاء نوائب الحقوق بذلوا (ص٥١).

١٠ ـ جمع المال: كلما ازدادوا جمعا ازدادوا حرصا، وشرها، وتكبرا، ومباهاة، وتطاولا على الخلق، وأبغض الناس إليهم من ذكرهم بالموت، وأثقل الناس عليهم من وعظهم في ذلك. قرة أعينهم من الدنيا ما جمعوا (ص٥١).

١١ ـ الزواج: إذا تزوجوا تراهم يقصدون الزواج لغرض الدنيا، فيعمدون إلى من يطمعون أن ينالهم منهم مالا، يضيفونه إلى أموالهم (ص٥٣). ويتسمون كأزواج بسوء الخلق، وسوء العشيرة. وهم خائنون لزوجاتهم يتطلعون إلى نساء المؤمنين، وملاحظتهن بأعينهم الخائنة (ص٥٤).

١٢ ـ الجوار: وإذا جاوروا البيت أظهروا الجوار، وهم هناك طالبون الدنيا (ص٥٦).

١٣ ـ الاعتزال: وإذا اعتزلوا الناس، وطلبوا الخلوة انقبضوا، وضيعوا الحقوق، وذهبت عشرتهم (ص٥٦).

١٤ ـ زيارة الإخوان: وإذا زاروا الإخوان مضوا في زيارتهم على سرور اللقاء، آمنين، مطمئنين، نشطين، غير معتصمين بالله، لا يراعون حرمة الديار (ص٥٧).

١٥ ـ تلاوة القرآن: إذا تلوا القرآن فهمتهم إذا ابتدأوا في السورة انتهاؤها إلى آخرها (ص٥٩).

١٦ ـ بناء المساجد: إذا بنوا المساجد يزخرفونها، ويزوقونها، ويزعمون أنهم يعظمون بيوت الله (ص٦٩).

١٧ ـ الدعوة إلى الله: إذا ساروا في ميدان الدعاة تجدهم يتلمظون بكلام يقرع الآذان، ولكنه لا يصل إلى القلوب (ص٧٢).

١٨ ـ تتبع عيوب الآخرين: فهم قد جعلوا عيوب النفس علمهم وحديثهم، فبقوا مع هذا الحديث، ومع الاستقصاء على أنفسهم في طلب العيوب، واستخراج مكامنها تكايسا، وتحذلقا في الكلام، فوقفوا في ظلمة الاغترار، هذا علمهم، ورأس مالهم (ص٨٠).

١٩ ـ التقوى: إذا ساروا في ميدان المتقين، انقبضوا، واعتزلوا الخلق، ونظروا إليهم بعين الازدراء والاحتقار، مستخفين

بهم، ويحقرونهم، مكفهرين فى وجوههم (ص٨٣).

٢٠ - قبول الهدايا: عند التوسط بين الناس والتحاكم إليهم (ص١٠٤).

وورد فى هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١ - الكيِّس: هو الشخص الذى يستقيم سلوكه وأخلاقه واعتقاده. وقد وصف الرسول ﷺ الكيس بأنه: «من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» (ص٥).

٢ - الكياسة: النظر فى الأمور، وحدة النظر فى دقائق الأمور، ولطائف العوارض، حتى يزن الأمور بعضها ببعض، فينال بذلك وقارة الأمور ويتعرف جواهرها، حتى يضعها مواضعها، ويتحين أوقاتها، فمن كان بهذه قل ما يُغبن، لأنه يستعمل هذه الأشياء فى أعمال الآخرة (ص٥).

٣ - المغتر: هو الذى لا يستقيم له سلوك، أو أخلاق، أو اعتقاد. لا يستقيم له أحد هذه الثلاثة، أو لا تستقيم له جميعا، ويُلبس عليه طريق الحق والدين، ويُزين له طريق الغرور فيراه حسنا. والمغتر هو الذى يلبس عليه طريقه فى أمره ودينه بقدر ما يلبس عليه (ص٥، ٦).

٤ - المتأولون: من يُحمِّلون ظاهر الألفاظ فوق ما تطيق، وكذلك الذين يُعرِّفون - بغير مقتضى أو تجويز أو دليل شرعى - الألفاظ عن ظاهرها إلى معان بعيدة تتعارض مع الأصول الثابتة المتفق عليها (ص٢٦).

٥ - الأحاديث المتواترة: هى ما رواها فى كل عصر منذ عصر الصحابة جمع يصعب تواطؤهم على الكذب، لكثرتهم وتباعد أماكنهم (ص٢٩).

٦ - الشرك: هو التعلق بالشىء، مأخوذ من الشَّرَك وهو الذى يُصاد به (ص٣٦).

٧ - الرهبنة: مشتقة من «الرهبة»، لما فضُل عن المقدار وأفرط فيه (ص ٣٩).

٨ - غمرات: جمع غمرة وهى الشدة، وغمرات الفساد شدته وتفاقم أمره (ص٥٠).

٩ - النهمات: جمع مفرده نهمة وهى مطلوب النفس والشهوة (ص٥١).

١٠ - الحرد بالتحريك: الغضب. والحريد هو المنبوذ وحرد أيضا بمعنى غضب (ص٥٥).

١١ - الكتاب: الحروف المنظومة، والكتب النظام منه سميت الكتبة؛ لأنها تتبع بعضها بعضا (ص٥٩).

١٢ - الستوق: بفتح السين المهملة وضمها: الزيف والبهرجة، وكل ما كان على هذا المثال مفتوح الأول، إلا أربعة أحرف جاءت نوادر وهى: سبوح، وقدوس، وذروح، وستوق، فإنها تضم وتفتح (ص٦٠).

١٣ - التبرم: السآمة. يُقال تبرم به أى سئمه (ص٦٤).

١٤ - التكايس: اصطناع الكياسة عندما لا تكون عالقة بفطرة المغرور (ص٨٠).

١٥ - شره النفس: حدتها وشدة غضبها وثوراتها (ص٨٢).

١٦ - الاكفهرار: الكلوح والعبوس (ص٨٣).

١٧ - التقوى: طهارة القلب، وطهارة الصدر (ص٨٣).

١٨ - المُنيب: من أقبل على الله فى وقت تناولها النعيم (ص٩١).

١٩ - الزيوف: جمع زيف وهو الخداع (ص٩٦).

ويتسم الأكياس وفقا لتصور المؤلف بالخصال والأفعال الآتية:

١ - يقبلون على تعظيم أمر الله (ص٤٠).

٢ - يجتهدون فى أداء الفرائض (ص٤٠).

٣ - يعرضون عن حديث النفس (ص٤٠).

٤ - يقبلون على حفظ الجوارح أثناء الصلاة (ص٤٠).

٥ - يتدبرون آيات القرآن الكريم أثناء تلاوتهم له (ص٤٠).

٦ - الرشد منهم مأمول (ص٦٤).

٧ - الكبر منهم مأمون (ص٦٤).

٨ - لا يتبرمون ممن يطلب الحوائج قبلهم (ص٦٤).

٩ - التواضع إليهم من الشرف (ص٦٤).

١٠ - الذل أحب إليهم من العز (ص٦٤).

١١ - يستقلون كثير المعروف من أنفسهم (ص٦٤).

١٢ - يستكثرون قليل المعروف من غيرهم (ص٦٤).

١٣ - نصيبهم من الدنيا القوت (ص٦٤).

١٤ - لا يسأمون من طلب العلم طوال أعمارهم (ص٦٤).

١٥ - يرون جميع الناس خيرا منهم (ص٦٤).

١٦ - وهم يتسمون بحدة العقل، ومطالعة الفهم، وغزارة العلم (ص٩٢).

خلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الكيس.
- المغتر.
- الكياسة.
- المتأولون.
- الأحاديث المتواترة.
- الرهبنة.
- النهمات.
- الكتاب.
- التبرم.
- شره النفس.
- التقوى.
- الزيوف.
- الشرك.
- غمرات.
- الحرد بالتحريك.
- الستوق بفتح السين المهملة وضمها.
- التكايس.
- الاكفهرار.
- المُنيب.

القائم بالعرض

د. عبير محمد أنور

قصص الأنبياء

« شعيب » عليه السلام

لفضيلة العلامة الشيخ/ عبد الوهاب النجار

قومه ومكانهم

أما قومه فهم شعب مدين بن إبراهيم عليه السلام، ويعبر عنهم في التوراة بمديان.. وأما مكانهم فقد كانوا نزولا في بلاد الحجاز - مما يلي الشام - على خط عرض يوافق خط عرض «قفط» في البر الإفريقي إلى الجنوب من القصير في الجهة المقابلة.

كان أهل مدين في عيش راغد، وهم مع ذلك أهل تجارة.. وكانوا يعبدون غير الله تعالى ويفعلون الشرور ولا يكفون.. فكانوا يطففون المكيال والميزان، ويماكسون الناس في سلعهم إرادة شرائها بثمن بخس.. وكان شعيب ينهاهم عن كل ذلك ويحذرهم بأس الله تعالى فأنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار وهو دائب على نصحهم وهدايتهم.

ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه وبراعته في إقامة الحجة عليهم ودحض حججهم.. وقد جاءهم ببينة من ربه على صدقه فيما يدعو إليه غير أن الله تعالى لم يذكر في الكتاب هذه البينة.. وقد تنوعت أقوال المفسرين فيها بما لا برهان لهم به - فالأولى التسليم لعلم الله تعالى.. وقد كانوا يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين ويعيبون طريقته، ويوعدون من آمن بشعيب.. ويبغون سبيل الله عوجا.. ولعل البينة الطريقة الواضحة المقبولة في العقل وهي شريعة من الله أتاهم بها.

وقد جهدوا جهدهم في إبطال دعوى شعيب فقد كانوا يقولون:

﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾

[هود: ٩١]

ويحتقرون شأنه بقولهم

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾

[هود: ٩١]

ظنا منهم أن القوة ميزان الصدق في القول وهو ضلال منهم ثم يتهددونه بقولهم

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

[هود: ٩١]

تهديد شعيب والمؤمنين بإخراجهم من القرية

ولما أحرج شعيب قومه بدعائهم إلى ما لا يريدون من الإيمان بالله وحسن المعاملة والاستقامة على الجادة.. اجتمع ملأ قومه وهددوه هو والذين آمنوا معه بإخراجهم من القرية إذا لم يدخلوا في دين قومهم.. فراجعهم بقوله: أو لو كنا كارهين؟ أنا نكون قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم ودينكم بعد إذ نجانا الله منها بالهداية إلى أقوم السبل، وأن العود إلى ملتكم ليس بملكنا، ولكن ذلك يكون إذا أراد الله خذلاننا وإبعادنا عما جاءنا به من الحق، وهذا ما لا سبيل لنا إلى علمه وإنما يعلمه الله الذي وسع كل شيء علما وهو الذي نتوكل عليه.

وقال الملأ من قوم شعيب يحذرون الجمهور الوقوع في دين شعيب قائلين:

﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾

[الأعراف: ٩٠]

لأنه يمنعكم التطفيف في الكيل والميزان، وهذا مما يزيد في ثروتكم.. وعجبوا كيف ينهاهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه؟ وكيف يأمرهم بالعدل في الكيل والميزان وينهاهم أن يفعلوا في أموالهم بحسب أهوائهم وما يشتهون؟ وعابوا عليه صلاته التي تأمره بذلك وتهكموا به قائلين:

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

[هود: ٨٧]

وهو في كل ذلك يراجعهم ويقيم الحجة عليهم إلى أن تأذن الله بهلاكهم.. فأخذتهم الرجفة وهي الزلزال فبادوا كأن لم يغنوا فيها.

وبعد أن فرغ الله من أهل مدين ونجى شعيبا والذين آمنوا معه، أرسله إلى أصحاب الأيكة - وهي غيضة تنبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين تسكنها طائفة من عباد الله.. قيل كانوا بادية مدين، وكان شعيب أجنبيا منهم، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين فلما نهاهم عما هم فيه قالوا:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

[الشعراء: ١٨٥، ١٨٦]

ظنا منهم أن الله لا يرسل إلى البشر هداة منهم، جهلا منهم بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى شعيب أن يسقط عليهم كسفا من السماء - أي قطعة منها - إن كان من الصادقين.. ولشدة جهلهم لم يطلبوا الهداية إلى الحق، فأخذهم عذاب يوم الظلة بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا.. وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

[الشعراء: ١٨٩]

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



للإمام الدكتور: محمد سيد طنطاوى

سادساً: إخبارهم بأن القرآن الكريم يقص عليهم الحق فيما اختلفوا فيه:

لم يكتف القرآن الكريم ببيان أن خلاف اليهود فى الدين، مرده إلى البغى والحسد، وأن من الواجب عليهم أن يتركوا هذه الرذائل، ويتبعوا الحق الذى جاءهم به محمد ﷺ، لم يكتف بذلك بل أخبرهم أنه قد بين لهم الحق والصواب فيما تنازعوا فيه، فعليهم أن يفتحوا قلوبهم له، وألا يقفوا فى سبيله، ويصدوا الناس عن اتباعه.

ومن الآيات التى بينت لأهل الكتاب أن القرآن الكريم يقضى بما هو الحق، فيما يتنازعون فيه، قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾

﴿ النمل: ٧٦-٧٩ ﴾

ومعنى الآيات الكريمة: أن هذا القرآن الكريم، الذى أنزله الله على نبيه محمد ﷺ يقص على بنى إسرائيل القصص الحق، والأخبار الصدق فى أكثر الأمور، التى اختلفوا فيها، لأنه هو الكتاب المصدق لما بين يديه من الكتب وهو المهيمن عليها فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

ولقد اختلف بنو إسرائيل فى كثير من أمورهم، فاختلفوا فى شأن النسخ، فقال بعضهم: إنه مستحيل عقلاً، وغير واقع شرعا، وقال بعضهم: بجوازه عقلا، وامتناعه شرعا.. واختلفوا فى شأن عيسى - عليه السلام - فنسبوه إلى يوسف النجار، ورموا أمه بما هى بريئة منه، واختلفوا فى شأن إبراهيم - عليه السلام - فقالوا: إنه كان يهوديا، واختلفوا مع النبى ﷺ فى كثير من الأمور، التى ذكرناها مفصلة فى غير هذا الموضع.

وقد حكى القرآن الكريم أكثر هذه الخلافات، وحكم فيها بالقول الحق، والحكم العدل، ودعى بنى إسرائيل إلى طاعة الله ورسوله، واتباع ما جاء به القرآن الكريم، إن كانوا ممن يسمعون النصيحة، ويتبعون الحق، وينقادون للعدل.

ثم وصف سبحانه القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

«النمل: ٧٧»

أى: أن هذا القرآن الكريم بجانب كونه

يقص على بنى إسرائيل أكثر الأمور، التى اختلفوا فيها، ويقول فيها كلمة الحق، فهو أيضا هدى ورحمة لقلوب المؤمنين به، العاملين بتعاليمه، المستقيمين على طريقه، بما يبين لهم من الإرشادات النافعة، والتوجيهات السديدة، التى تسعدهم فى دنياهم وأخراهم.

ثم بين سبحانه أنه هو وحده الذى يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾

«النمل: ٧٨»

أى: إن ربك يا محمد هو الذى يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه فيهم يوم القيامة، فيجازى من أحسن منهم على إحسانه، ويعاقب من أساء على إساءته، وهو - سبحانه - «العزيز» فى انتقامه فلا يقدر أحد على دفع قضائه «العليم» بما اختلفوا فيه، وبمن يقضى له، وبمن يقضى عليه.

ثم أمر - سبحانه - نبيه ﷺ بالتوكل عليه، وبالسير فى نشر دينه، وإعلاء كلمته، وقلة المبالاة بأعداء الدين، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، فقال تعالى:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾

«النمل: ٧٩»

الذى لا يخيب من اتبعه، ولا يتركه إلا من عمى عن الهدى، وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لبنى إسرائيل أن القرآن الكريم، قد اشتمل على أكثر ما اختلفوا فيه من شئون، وقضى فيها بما هو الحق والعدل، فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يحكموا عقولهم، وأن يتركوا العناد والحسد، وأن يتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ؛ لينالوا السعادة فى الدنيا، ورضا الله فى الآخرة.

سابعا: إقامة الحجة عليهم عن طريق الاستشهاد بهم على صدق النبى ﷺ

ومن الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم فى دعوته، أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام: الاستشهاد بما أنزله الله عليهم من الكتاب، على صدق النبى ﷺ وعلى أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد.

وقد كرر القرآن الكريم حملهم فى اتباع الحق عن طريق الرجوع إلى كتبهم، وما جاءتهم به أنبياؤهم، فى كثير من آياته، لعلهم يعقلون، ويستجيبون لما دعوا إليه.

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(يونس: ٩٤)

والمعنى: فإن كنت أيها الرسول فى شك مما أنزلناه إليك فى هذا القرآن، من قصص، وآداب، وأحكام، فاسأل أهل الكتاب الذين قرءوا التوراة والإنجيل، فإنهم يعرفون معرفة لا يشوبها خفاء، أنك على الحق، ويعلمون علم اليقين أن ما جئت به من قرآن، هو من عند الله، لأن مطالعتهم لهذه الكتب أعطتهم هذا العلم، وتلك المعرفة، والآية الكريمة لا تفيد أن الرسول ﷺ قد حصل منه شك فيما

أوحى الله إليه حتى يسأل أهل الكتاب عن صحته، ولكن ذلك على سبيل الفرض والتقدير.

وقد أجاد صاحب الكشاف في توضيح هذا المعنى فقال: فإن قلت: كيف قال الله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾

«يونس: ٩٤»

مع قوله في الكفرة:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

«هود: ١١٠»

قلت: فرق عظيم بين قوله:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله: «فإن كنت في شك» بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديرا:

﴿ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾

«يونس: ٩٤»

والمعنى: أن الله تعالى قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد ﷺ ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضًا وتقديراً، فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علما، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك، ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم، بصحة ما أنزل إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشك فيه[1].

ومن مزايا هذا التعبير القرآني البليغ: تكثير الدلائل، وتقويتها، لتزداد قوة ويقينا في القلب، وإقامة الحجة الإلزامية على صدق ما يريد الإنسان إثباته، أو نفيه كما هو الحال في هذه الآية الكريمة، فإنها أقامت الحجة على أهل الكتاب بأنهم يعلمون عن طريق كتبهم صدق النبي ﷺ وليس في مقدورهم إنكار ذلك.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يزداد ثباتا على دعوته، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

«يونس: ٩٤»

أي: لقد ثبت عندك ثبوتًا لا شك فيه- يا محمد- أن ما جاءك من عند ربك هو الحق الواضح المؤيد بالمعجزات الباهرة، والدلائل القاطعة، فلا تكونن من الشاكين في ذلك.

وإذن فالآية الكريمة قد أقامت الحجة على بني إسرائيل بأنهم يعلمون صدق النبي ﷺ يقينا عن طريق كتبهم السماوية، فمن الواجب عليهم بناء على هذا العلم اليقيني أن يتبعوه ويؤمنوا به ويصدقوه، وإلا كانوا ممن يكتمون الحق وهم يعلمون.

(١) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٧٠

وإلى هنا نكون قد انتهينا من ذكر أهم الوسائل التي اتبعها القرآن الكريم في دعوته أهل الكتاب بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة، إلى الدخول في الإسلام.

ولو أنهم فتحوا قلوبهم لها، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى لبادروا إلى تصديق النبي ﷺ، واتباع ما جاء به، ولكن حرصهم على زينة الحياة، وبيعهم الدين بالدنيا، وتعصبهم لما ألفوه وحسدهم النبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، كل ذلك حمل أكثرهم على أن يؤثروا العمى على الهدى، فباءوا بغضب من الله، واستحقوا الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الموضوع الثاني، وهو: «بيان أهم مظاهر الإنصاف والتسامح، التي عامل بها الإسلام أهل الكتاب، فنقول: أرسل الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، وكان العالم حينئذ يموج بالديانات الباطلة، والنحل الفاسدة، والأخلاق المرذولة، والعادات القبيحة.. ومن الأقوام الذين اهتم الرسول ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام واتباع ما جاء به فريقان من الناس.

أولهما: المشركون، وهم عباد الأوثان والأصنام، الذين يزعمون أن مع الله آلهة أخرى، يدينون لها بالطاعة والخضوع.

وثانيهما: أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظًا مما ذكروا به، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون، والمتتبع لسير الدعوة الإسلامية يتبين له أن موقف الإسلام من الوثنيين يختلف عن موقفه من أهل الكتاب.. فبالنسبة للوثنيين كان موقفه منهم موقف النقيض من النقيض، فهو يبطل عقائدهم، ويسفه أحلامهم، ويعمل على إزالة هذه الأوثان من الوجود بكل طريق، لأنها تتنافى مع توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية.

وقد أعلن الإسلام حربه على الوثنية بكل صراحة ووضوح، وجاهر باحتقاره ومقاطعته لعبدة الأصنام، إذ حرم ذبائحهم، ومنع التزوج منهم، أو تزويجهم، ولم يسمح لهم بأن يقيموا شعائرهم الوثنية في البيت الحرام أو حوله، ولا أن يعمروا مساجد الله، شاهدين على أنفسهم بالكفر، وأعلمهم يوم الحج الأكبر أن الله برئ منهم، وأعطاهم مدة يراجعون فيها أنفسهم ويدبرون أمرهم فإذا لم يعودوا بعدها إلى حظيرة الإسلام، قتلهم المسلمون حيث يوجدون، ويؤخذون، ويحصرون ويقعد لهم كل مرصد، ولم يقبل منهم الجزية التي يكون من ورائها حمايتهم والإذن لهم بإقامة شعائر دينهم الوثني فليس هناك إلا السيف، أو الإسلام.

هكذا وقف الإسلام من الوثنية موقف المحارب لها، المحتقر لأتباعها حتى هدمها، وقوض أركانها، وطهر الأرض منها، وجعل النبي ﷺ يطعن تماثيلها يوم الفتح وهو يردد قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الإسراء: ٨١)

هذا بإيجاز موقف الإسلام من الوثنية وأتباعها، أما موقفه من أهل الكتاب،

فكان يمتاز بالتسامح العظيم، والإنصاف التام، والمعاملة الطيبة، ودعوتهم إلى الحق، بالتى هى أحسن، وإقامة الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، على صدق النبى ﷺ بل إنه ﷺ كان يكره أن يوافق عمله عمل المشركين، ويحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشئ، فقد أخرج البخارى: عن ابن عباس، أن النبى ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤسهم وكان أهل الكتاب يسدلون رؤسهم وكان النبى ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي ﷺ رأسه[٢].

وإليك طرفًا من مظاهر سماحة الإسلام، مع أهل الكتاب وإنصافه لهم:

أولا: وصفهم القرآن الكريم فى كثير من آياته بكونهم أهل كتاب

والمراد بالكتاب: التوراة، التى أنزلها الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - لتكون هداية لبنى إسرائيل، والإنجيل الذى أنزله الله تعالى علي عيسى - عليه السلام - ليكون نورا يسير على ضوئه أتباعه، وهذا الوصف، - فى ذاته - فيه اعتراف بهم فى ماضيهم وحاضرهم، وفيه تزكية لهم على غيرهم ممن لم يرث ما ورثوه من الكتب السماوية، وقد أورد القرآن الكريم هذا الوصف، أحيانًا على سبيل التكريم لهم، والتلطف معهم، والمديح لمن يستحق المديح منهم، وأحيانا على سبيل التوبيخ لهم، والتعريض بهم، والذم لأخلاقهم، ومسالكهم.

وهو فى الحالة الأولى يتلطف معهم ليقبلوا الحق، ويذكرهم بأنهم أصحاب دين سماوى، فاللائق بهم أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وأن يتبعوا ما جاء به، لأنه هو الرسول الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، ومن قبيل مدح القرآن لهم بهذه الصفة قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

«القصص: ٥٢-٥٤»

أما فى الحالة الثانى فهو يؤنبهم على كتمانهم الحق بعد أن علموه، ويوبخهم على تكذيبهم محمد ﷺ، الذى يعرفون صدقه، كما يعرفون أبناءهم ويقرعهم على عنادهم، وجحودهم وتناقضهم، لأن وصفهم بهذا الوصف، يقتضى منهم أن ينزلوا على حكم كتابهم الذى أمرهم باتباع محمد ﷺ عند مبعثه.

ومن قبيل ذمهم على كفرهم مع أنهم أهل كتاب قوله تعالى:

(٢) صحيح البخارى، باب إتيان اليهود النبى ﷺ حين قدم المدينة، جـ٥ صـ٩

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

«آل عمران: ٩٩»

وبذلك نرى أن وصف القرآن لليهود بأنهم أهل كتاب فيه اعتراف بما ورثوه من الهدى، وتمييز لهم عن غيرهم من الوثنيين، وإذا كان القرآن الكريم قد ساق هذا الوصف لهم على سبيل توبيخهم وتقريعهم، فلأنهم لم يعملوا بمقتضى ما أمرهم به كتابهم، ولم ينقادوا للحق، الذى يعرفونه معرفة لا لبس فيها ولا خفاء.

ثانيا: عدالة القرآن الكريم فى أحكامه عليهم

نعت القرآن أهل الكتاب بصفة عامة، بنعوت سيئة، كغلوهم فى الدين، واتباعهم طريق الباطل، ودمغ اليهود منهم بصفة خاصة بكثير من الرذائل، كقتلهم لأنبياء الله، وتحريفهم للكلم عن مواضعه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه، إلى غير ذلك من الصفات القبيحة، التى وصفهم بها بسبب فسوقهم وفجورهم، ولكن المتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أنه قد فرق بين صالحيهم وطالحيهم، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه، من خير أو شر ملتزما فى ذلك طريقة العدالة والصدق، وهذه بعض الآيات التى تضمنت استثناء بعضهم من تلك الرذائل، ونوهت بسلامة مواقفهم، واعتدالهم واقتصادهم، وأشارت إلى إيمانهم، وإخلاصهم واستجابتهم للحق، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

«البقرة: ٨٣»

فقوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾

«البقرة: ٨٣»

إنصافاً للقلة التى لم تنقض عهودها مع الله من بنى إسرائيل، وشهادة لتلك القلة بأنها لم تنحرف عن الحق، ولم تنزلق مع الهوى، قال تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

«آل عمران: ١١٣ - ١١٥»

ومعنى الآيات الكريمة: أن بنى إسرائيل ليسوا متساوين، فى الشرور والمساوىء، بل منهم «أمة قائمة»، أى: منهم جماعة مستقيمة على أمر الله - تعالى - وهم الذين أسلموا واتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ.

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات جليلة، فقال تعالى:

﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ۝ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾

(آل عمران: ١١٣، ١١٤)

فهذه الصفات الطيبة خاصة بمؤمنى بنى إسرائيل، أما كفارهم فهم بعيدون عنها، لأنهم منحرفون عن الحق، كافرون بالله وباليوم الآخر.

ثم قال تعالى:

﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾

(آل عمران: ١١٥)

أى: ما يفعل هؤلاء الذين صلحت نفوسهم من خير، فلن يحرموا ثوابه، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا، وهو عليم بالمتقين فيجازيهم بما يسعدهم، ويرضيهم.

فهذه الآيات الكريمة تضمنت أوصافا جليلة رائعة لمؤمنى أهل الكتاب، وبشرت من تنطبق عليه هذه الصفات بالثواب الكامل يوم القيامة.

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى:

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾

(آل عمران: ١٩٩)

فهذه الآية الكريمة فيها ما فيها من الثناء المستطاب على مؤمنى أهل الكتاب.

وفى سورة المائدة آيات كثيرة، وصفت بنى إسرائيل بأقبح الصفات وأسوئها ولكنها استثنت قلة منهم، من هذه الصفات القبيحة إنصافا لها، ومن هذه الآيات:

(أ) قوله تعالى:

﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾

(المائدة: ٥٩)

(ب) وقوله تعالى:

﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾

(المائدة: ٦٢)

(جـ) وقوله تعالى:

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾

(المائدة: ٦٦)

(د) وقوله تعالى:

﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾

(المائدة: ٨٠)

فهذه الآيات الكريمة قد وصفت أكثر اليهود، أو كثيرا منهم بالفسق والمسارعة فى

الإثم، وأكل السحت، وعمل السوء، دون أن تعمم هذه الأوصاف على جميعهم، وفى هذا الاحتراس إنصاف للقلة التى آمنت منهم، وعزل لها عن النعوت السيئة، التى نعت القرآن الكريم بها غالبية بنى إسرائيل.

وقال تعالى:

﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾

(النساء: ١٦٢)

هذه الآية الكريمة جاءت عقب حملة شديدة على بنى إسرائيل، وصفهم فيها القرآن الكريم بنقض العهود، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقول البهتان على مريم، وأنهم بسبب ظلمهم حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم، وأعد للكافرين منهم عذابا أليما ثم جاءت هذه الآية الكريمة بعد ذلك لتستثنى الراسخين فى العلم، والذين آمنوا بالله ورسله، ولتمدح الذين حافظوا على الصلاة، وأدوا الزكاة، وأقروا بالحساب والجزاء يوم القيامة، وبشرتهم بأن الله تعالى سيؤتيهم أجرا عظيما؛ لأنهم استقاموا على أمر الله، ولم يرتكبوا ما نهى الله عنه، كما كان حال الكثيرين من اليهود فى كل زمان ومكان.

فالضمير فى قوله تعالى ﴿ منهم ﴾ يعود على بنى إسرائيل الذين سبق الحديث عنهم.

هذه بعض الآيات الكريمة التى نوهت بشأن القلة المؤمنة المستقيمة من بنى إسرائيل، واستثنتهم من الذم والتوبيخ الذى دمغت به الكثرة الكافرة من اليهود، وذلك للتفريق بين مصلحهم ومفسدهم، ولتسجيل الحسنة لصاحبها، والسيئة على فاعلها، حتى يأخذ كل فريق ما يستحقه من مدح أو ذم، بالعدل والصدق.

ثالثا: مجادلتهم بالتى هى أحسن:

أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أمثل الطرق فى محاجة أهل الكتاب من حيث الأسلوب والموضوع، فمن حيث الأسلوب أوصى بأن يكون أسلوبنا معهم فى الجدال هادئا حسنا، ماداموا غير متعنتين ظالمين.

ومن حيث الموضوع أوصى بأن يكون جدالنا معهم قائما على إقناعهم بأن دين الله واحد، وأن إلهنا وإلههم واحد، وأننا لا نبغى منهم إلا أن يتبعوا الحق الذى اتبعناه، وأن يتركوا العناد والجحود. وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

ومعنى الآية الكريمة: عليكم يا معشر المسلمين ألا تحاجوا أهل الكتاب إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق وأقومها، وهى أن تكون محاجتكم لهم بالرفق واللين، لا بالخشونة والإغلاظ عليهم، لأنهما يؤديان إلى المعاندة والصد عن سبيل الله، أما الرفق واللين فمن شأنهما أن يعينا على المسالمة والمصافاة.

ثم استثنى القرآن الكريم من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

أى: جادلوا أهل الكتاب جميعًا بالطريقة التى هى أمثل الطرق، إلا الذين ظلموا منهم بالإفراط فى الاعتداء والعناد، ولم ينفع معهم الرفق واللين، فاستعملوا معهم الغلظة وعاملوهم بالطريقة التى ترونها مناسبة لردهم عن ظلمهم، وكفيلة بصيانة حرمة دينكم، وأنفسكم، وأموالكم، وبلادكم.

ثم ضرب القرآن مثلاً للمجادلة بالتى هى أحسن فقال تعالى:

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

«العنكبوت: ٤٦»

أى: جادلوهم بالتى هى أحسن إلا الظالمين منهم فأغلظوا عليهم وقولوا لهم إذا جادلوكم فى شأن دينكم: آمنا بالذى أنزل إلينا وهو القرآن الكريم وبالذى أنزل إليكم وهو التوراة والأنجيل، وآمنا بأن إلهنا وإلهكم واحد هو الله رب العالمين، ونحن له مسلمون خاضعون.

قال الإمام ابن كثير: قوله تعالى:

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾

«العنكبوت: ٤٦»

يعنى: إذا أخبروا بما لانعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقًا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلا، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملا معلقًا على شرط، وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولامؤولا، فقد أخرج البخارى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾

فهذه الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن، وألا يغلظوا القول إلا للظالمين المعاندين منهم، وفى ذلك مافيه من التسامح معهم، والرفق بهم، وعدم الإساءة إليهم وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى، منها قوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

(النحل: ١٢٥)

«يتبع»

من فتاوى الحاخامات

د. منصور عبد الوهاب

عنوان الفتوى: ارتداء الفتيات السراويل بين الأغيار

مصدر الفتوى: WWW.moryia.org.il نوفمبر ٢٠٠٥ فتوى من الحاخام شموئيل إلياهو

سؤال:

- ورد فى هذا الموقع فى الماضى أن السبب الرئيسى فى تحريم ارتداء السراويل هو مقولة «لا ترتدى امرأة زى رجل».

أ- أعتقد أن السراويل تمثل قضية مهمة مثل ارتداء بلوزة غير محتشمة وبوجه عام ينفى الاحتشام حيث ورد فى العهد القديم «لا تجعل معثرة» (اللاويين ١٩ / ١٤) وبوجه خاص لأنه محرم على الذكور إخراج نطفة دون جدوى.

ب- هل محظور علىّ أن أرتدى سراويلاً عندما أكون بين الأغيار؟ حيث إنه ليس هناك تحريم كهذا.

أنتظر إجابتك

جواب:

استعنت بالرب

أ- هذه فقرة فى التوراة، وليس هناك مصدر أقوى من هذا. ويبدو أن الرب يريد أن يحافظ كل نوع على هويته، وبهذا يتطور العالم بشكل سليم. وتغيير الهوية أمر خطير على الإنسان، وعلى العالم أيضًا. والحفاظ على الهوية يتم عن طريق الملابس.

ب- إن عدم احتشام سراويل النساء هو موضوع آخر. وهو أيضًا مهم للغاية.

ولولا التعود لشعرت النساء اللاتى يرتدين السراويل بالخجل. ولا يكاد يكون هناك فى العالم سروال نسائى غير ضيق وملتصق بأية صورة وأى شكل.

جـ- بالتأكيد هناك تحريم كهذا. الاحتشام - أولاً وقبل كل شىء - هو شأن شخصى بحت بينك وبين نفسك. بخاصة وأن التوراة حرمت ذلك. كما أنه لا يوجد مكان فى العالم يخلو من اليهود. أهم ما فى الموضوع هو أن النساء اليهوديات غير المحتشمات يدنسن اسم الرب بين الغرباء. وذات مرة قالت لى امرأة مشهورة تائبة إن كل مسيرة توبتها بدأت عندما لفتت امرأة عربية نظرها إلى عدم احتشامها أثناء تقديمها لعرض فنى. وأصيبت هذه الفنانة فى تلك اللحظة بصدمة عندما أدركت أنها تدنت إلى درجة أن سيدة عربية شعرت بالحاجة إلى لفت نظرها لهذا الأمر.

المسلمون وأهل الكتاب نظرة قرآنية

أ.د. محمد سليم العوا

٦- دستور العلاقة بين المسلمين وغيرهم:

القرآن نفسه هو الذى وضع دستور العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين - أيا كانت دياناتهم في قوله تعالى:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ۝ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾

(الممتحنة: ٨-٩)

والبر هو فعل الخير وإيتاء الفضل، والقسط هو العدل، وهاتان الآيتان تستفاد منهما الأحكام الأساسية المنظمة للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين أيا كان دينهم.

- فالمسلم مطالب بالبر والقسط؛ وليس مسموحًا له بهما فقط، بدليل قوله تعالى

﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾

- والمسلم مطلوب منه ألا يتخذ أولئك الذين يحاربونه بسبب الدين، ويخرجونه من داره - وطنه - أو يساعدون على ذلك أولياء، والولاية هى النصرة[1].

- والنهى عن اتخاذهم أولياء ليس بوصفهم شركاء وطن أو جيران سكن أو زملاء عمل أو رفاق دراسة أو أصدقاء حياة، ولكنه عن توليهم، أى مناصرتهم، بوصفهم جماعة معادية لجماعة المسلمين تحاربها بنفسها أو تمالئ عليها أعداءها المحاربين لها، وبوصفهم جماعة تتخذ من تميزها الدينى لواء تستجمع به قوى المناوأة للمسلمين والمحادة لله ورسوله.

- والمثال الذى تتضح به صورة هذا النهى هو العلاقة التى يجب أن تكون بين المسلم اليوم - أيا كان موطنه - وبين اليهود الصهاينة الذين يحتلون الأرض العربية فى فلسطين ويقتلون أهلها ويشردونهم بإخراجهم من ديارهم بغير حق، فهؤلاء - بالرغم من الضرورات التى تحيط بتصرف بعض الحكومات - تجب معاداتهم، وإعلان بغضهم والوقوف موقف الإنكار لكل ما يفعلون، ولا يجوز أن تعقد معهم الصلات التجارية والاقتصادية والثقافية التى تعرف فى المصطلح السياسى المعاصر باسم (التطبيع) فإن ذلك كله - مهما صغر حجمه - من الموالاة المحرمة بنصوص القرآن الكريم، أما اليهود الذين لا يعيشون بين هؤلاء المحتلين، من يهود العرب أو غيرهم، والذين لا يؤيدون صنيعهم - وهم موجودون ونشطون فى كثير من بلاد الدنيا سوى فلسطين المحتلة - فنحن لا نعاديهم ولا نحاربهم ولا نمتنع عن التعامل المعتاد معهم إذا دعت إليه ظروف الحياة.

- ويؤكد ذلك أن نهى القرآن فى مواضع عديدة عن موالاة غير المسلمين جاء نهيا مرتبطا بالمحادة لله ولرسوله:

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴾

(المجادلة: ٥)

أو مرتبطا بإخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق كما فى سورة:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾

(الممتحنة: ١)

والنهى عن الموالاة فى حال الحرب والعدوان من جانب غير المسلمين مقترن دائما بكون هذه الموالاة «من دون المؤمنين»:

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾

(آل عمران: ٢٨)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴾

(آل عمران: ٢٨)

أو بوقوع هذه الموالاة للذين يتخذون دين الإسلام مادة للعبث والاستهزاء:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾

(النساء: ١٤٤)

والقرآن ينهى المسلمين عن مجرد القعود مع الذين يخوضون بغير علم فى القرآن الكريم استهزاء به، ولو كانوا من المظهرين للإسلام فى قول الله تعالى:

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ۝ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ۝ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾

(الأنعام: ٦٨- ٧٠)

---

(١)- الراغب الأصفهانى مفردات ألفاظ القرآن بتحقيق عدنان الداودى ط دار القلم بدمشق ٢٠٠٢، ص٨٨٠، ومعانى القرآن للفر بتحقيق محمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ط دار الكتب المصرية ج١ ص١٨٠

فلا يجوز للمسلم أن يقعد - مجرد قعود - مع المستهزئ بدينه ولو كان منتسبا إليه، ولا يجوز له، من باب أولى، اتخاذ المخالفين في الدين أولياء - والكلمة هنا تعني أصدقاء أو ندماء - إذا أتوا الخطيئة نفسها.

- وهذا كله ليس له علاقة بالصلة اليومية المعتادة بين شركاء الوطن من أهل الإسلام وأهل غيره من الأديان، فإن العقلاء جميعا لا يحاربون بني وطنهم تحت لواء قوة أجنبية معادية لاسيما إن كانت الحرب حربا للدين فيها شأن ملحوظ.

والعقلاء لا يسلكون مسلك السفهاء فيهزءون بدين الآخرين ويسخرون من رموزه وشعائره، ومن يسلك أيا من هذين السبيلين فإن المسلم الذي يتخذه وليا من دون المؤمنين - سواء بمعنى النصرة أو بمعنى الصداقة - يكون آثما باختياره جانب عدوه، أو جانب المستهزئ بدينه، على جانب عقيدته وشريعته، وهذا قدر لا ينكره، ولا يسمح بخلاف، أي دين كان للمؤمنين به، أولمن يقيم في ديارهم من المؤمنين بغيره من الأديان.

والإسلام يمنع أتباعه من سب آلهة المشركين:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٠٨)

فكيف بأديان أهل الكتاب..؟

وحقيق بدين يصنع ذلك - أعني دين الإسلام - أن يحاسب معتنقيه إذا قبلوا الهزء به أو السخرية من رموزه وشعائره.

٧- الصلة مع المسالمين

والصلة الطيبة التي أساسها (البر) مندوب إليها، بنص آيتي سورة الممتحنة سالفتي الذكر، مع غير المسلم الذي لا يحارب المسلمين، ولا ينحاز إلى محاربيهم، ولا يسلك مسلك السفهاء فيهزأ من دينهم ويتخذه لعبا، وقد تكون هذه الصلة مودة واجبة شرعا، وتكون مظاهرها وآثارها المستمرة المتكررة بينه وبين المسلم، فريضة دينية على المسلم، وهذا هو شأن الزوجة الكتابية وأهلها الذين هم أخوال أبناء المسلم وجدته وجده، وهكذا، وكلهم من ذوي الأرحام الذين صلتهم فريضة، وقطيعتهم معصية، ومودتهم قربة يراد بها وجه الله، وهجرانهم إثم يوجب سخطه وغضبه، فالحديث القدسي فيه: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»[٢]

وهذا هو شأن الجار الذي تكررت وصية جبريل للنبي ﷺ به حتى قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٣] وهي وصية بالجار مطلقة لا يقيدها كونه مسلما أو غير مسلم، فهذا

(٢) متفق على معناه من حديث أبي هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة صحيح البخاري رقم ٥٦٤٣، وانظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي ج٣ ص٢٦٥.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة وعبد الله بن عمر، المصدر السابق ج١٦٨٤و١٦٨٥

الحق ثابت بمجرد الجوار دون نظر إلى عقيدة الجار أو دينه، وقد تتدرج الحقوق فيكون الجار المسلم ذو القربى أولى من الجار الذي لا قربى له، أو يكون الجار المسلم أولى من الجار غير المسلم، لكن أصل الوصية بالجار ثابت للكافة، مسلمين وغير مسلمين، بلا خلاف في ذلك بين أحد من أهل العلم قاطبة.

- وهكذا يتبين أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين هو البر والمودة وحسن الصلة، والاستثناء حين تقوم دواعيه من عداوة حربية أو هزء بالدين أن لا يتخذهم المسلم أولياء - أي أنصارا وأصدقاء - من دون المؤمنين، انتصارا لدينه وإعلاء لشأن عقيدته.

وهذا الأصل يشمل غير المسلمين من الكتابيين وغير الكتابيين، ولكن أهل الكتاب لهم أحكام أكثر تفصيلا تدل على أن التعامل بين المسلمين وغيرهم في شئون الحياة اليومية، والعلاقات المعتادة بين الشركاء في وطن واحد لا يقوم على قاعدة اتفاق الدين واختلافه.

ولو كان الأمر كذلك لما أبيح للمسلمين التعامل مع غيرهم أصلا فضلا عن أن يوجههم القرآن الكريم إلى البر والقسط والمودة عند وجود موجبها من مصاهرة أو قرابة.

- فالقرآن الكريم، في أواخر ما نزل من آياته، يذكر - في سياق بيان الحلال والحرام بعد أن ذكر إكمال الدين وإتمام النعمة - أنه:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(المائدة: ٥)

وهذه الآية تسوى بين الطعامين فتجعل لكل فريق من الفريقين أن يأكل من طعام الآخر، وتقرر حل نكاح المؤمنات (المسلمات) للمسلمين كما تقرر حل نكاح العفيفات من نساء أهل الكتاب، وهي إباحة تؤدي إلى نشوء (صلة رحم) بين الفريقين يجب في شريعة الإسلام وصلها ويحرم قطعها، فهل بعد ذلك سبيل إلى توثيق عرى العلاقة بينهما؟

- والإجماع منعقد على أن المسلمة لا يجوز لها أن تتزوج غير المسلم كتابيا كان أم غيره، والنص صريح في تحريم زواج المسلمة بغير الكتابي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

(الممتحنة: ١٠)

وهذه الآية نزلت في كفار قريش بمناسبة صلح الحديبية الذي عقده معهم الرسول ﷺ.

(١) في تفصيل ذلك، راجع: أستاذنا العلامة محمد مصطفى شلبي أحكام الأسرة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م، ص٣٣.

أما منع زواج المسلمة من الكتابي، فإنه فرع لأصل خاص مقرر في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في شأن تنظيم الحياة الزوجية: إن الرئاسة والقوامة فيها للرجل، فإذا كان الرجل لا يؤمن بالإسلام وله القوامة والرئاسة في أسرته، فإن ذلك يؤدي إلى الإخلال بكثير من أحكام التشريع الواجبة وجوبًا عينيًا على كل مسلم ومسلمة، إذ المرأة مكلفة أن تقيم شعائر دينها، وتطيع أوامره وتنتهي عن نواهيه، وبعض ذلك متصل أوثق اتصال بالحياة الزوجية، وبعضه متعلق بأدق خصائص العلاقة الخاصة بين الزوجين فكيف تستقيم ولاية الرجل وقوامته وهو لا يملك من ذلك شيئًا؟[4]

أما المسلم حين يتزوج الكتابية فهو مؤمن بدينها، مصدق نبيها، لا يتم إيمانه إلا بذلك، وهو مكلف بتمكينها من إقامة شعائرها ومن أداء عبادتها فلا يسبب زواجه منها أي حرج، فما فوقه لها أو له.

– والقول بأن منع الرجل غير المسلم من أهل الكتاب من الزواج من المرأة المسلمة مرده إلى كفر الرجل الكتابي غفلة عن هذا الأصل الخاص بالعلاقة الزوجية والحياة الأسرية والمقرر في الأصول أن الخاص إذا وجد وجب تقديمه على العام في استنباط الحكم أو في تعليله، يؤكد ذلك أن القرآن الكريم كما أمر بالبر والقسط لغير المسلمين عامة، وبأنواع خاصة منها لأهل الكتاب، فرق بين مسلك الصالحين ومسلك الطالحين من هؤلاء ورغب في معاملة الأولين وكره في معاملة الآخرين فقال:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

(آل عمران: ٧٥-٧٦)

ويفرق بينهم في صدق تدينهم فيقول:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

(آل عمران ١١٣-١١٥)

– فلو كانت العلاقات الدنيوية منوطة بالكفر والإيمان وحدهما لما أباح القرآن التعامل مع غير المسلمين أصلاً، فضلاً عما فوق ذلك من وجوب البر وصلة الرحم والعدل وجواز أكل طعامهم ونكاح نسائهم، وسائر أحكام العلاقة بينهم وبين المسلمين في المجتمع الذي يضمهم معا.[5]

– ويجب التنبية في هذا الخصوص – خصوص العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب في الزواج – إلى القرار الذي أصدره المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث في دورته العادية الثامنة المنعقدة في مدينة بلنسية بأسبانيا (٢٦ربيع الآخر -غرة جمادى الأولى ١٤٢٢هـ ١٨-٢٢/٧/٢٠٠١م) برقم (٣/٨) في شأن الآثار المترتبة على إسلام الزوجة دون زوجها الكتابي فقد نص هذا القرار في فقرته (ثالثا/ج) على أنه إذا كان إسلام المرأة بعد الدخول وانقضت العدة؟ فلها أن تنتظر إسلامه ولو طالت المدة فإن أسلم فهما على نكاحهما الأول دون حاجة إلى تجديد له.

ونص في فقرته (رابعًا) على أن يجوز عند بعض العلماء للمرأة "أن تمكث مع زوجها بكامل الحقوق والواجبات الزوجية إذا كان لا يضيرها في دينها وتطمع في إسلامه وذلك لعدم تنفير النساء من الدخول في الإسلام إذا علمن أنهن سيفارقن أزواجهن ويتركن أسرهن ويستندون في ذلك إلى قضاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في تخيير المرأة التي أسلمت في الحيرة ولم يسلم زوجها فقال عمر: "إن شاءت فارقته وإن شاءت قرت عنده" وهي رواية ثابتة عن يزيد بن عبد الله الخطمي كمايستندون إلي رأي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه :إذا أسلمت امرأة اليهودي أو النصراني كان أحق ببضعها لأن له عهدا،وهي أيضًا رواية ثابتة وثبت مثل هذا القول عن إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان[6] ولا شك أن هذا الرأي متفق مع القاعدة الفقهية التي تقرر أنه "يغتفر في البقاء ما لا يغتفر في الابتداء"[7] ومؤدى هذه القاعده هنا أنه إذا كان لا يجوز ابتداء زواج الكتابي بالمسلمة فإنه يجوز بقاؤها إذا طرأ عليها الإسلام بعد الزواج.

وعلاقة المسلم بالكتابي الذي أمر ببره وبالقسط في معاملته، وأجيز له نكاح نسائه لا يجوز عندي أن تكون إلا مع المؤمنين بكتابهم ونبيهم أما أولئك الذين يكفرون بالأديان كلها وبالنبوات جميعا وبالله- تبارك اسمه- ممن يسمون بأسماء اليهود والنصارى-كما نراه في كثير من الأوربين والأمريكيين وفي قليل من بني أوطاننا- فإنهم شر من مشركي العرب ولا يجوز التعامل معهم إلا بقدر الضرورات التي تبيح المحظورات ولايحل الزواج من امرأة منهم بزعم أنها كتابية فإن المباح هو نكاح الكتابية الباقية على الإيمان بنبيها والكتاب السماوي الذي أنزل عليه دون غيرها من الكافرات بذلك كله أو بعضه مع ملاحظة ما سبق أن ذكرناه من أننا نكتفي بمجرد إعلان الإيمان بدين من الأديان دون أن نستقصى ممن أعلن ذلك عن حقيقة إيمانه ومضمونه وأثره في حياته.

(يتبع)

(٤) محمد سليم العوا، المصدر السابق ص ٢٦٠-٢٦٣، وله الفقه الإسلامي في طريق التجديد الطبعة الثانية المكتب الإسلامي في بيروت، ١٩٩٨ص٧٣ وما بعدها.

(٦) المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث العدد الثاني ذو القعدة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ ص٤٤٥-٤٤٦.

(٧) القاعدة رقم (٥٤) من قواعد مجلة الأحكام العدلية وانظر في شرحها: شيخنا العلامة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا في تحقيقه لكتاب والده العلامة الشيخ أحمد الزرقا: شرح القواعد الفقهية الطبعة الثانية، دار القلم بدمشق ١٩٨٩ص ٢٩٣.

معاملة المسلمين مع غيرهم
المبادئ والتطبيق (٢)

لفضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

أشرت فى المقال السابق إلى أن تعاليم الإسلام واضحة وصريحة فى نظام معاملة المسلمين لغيرهم من أصحاب الديانات السماوية الأخرى، بل ومن أصحاب المعتقدات الأخرى غير الديانات السماوية، وإلى أننى سأكتفى بالحديث عن ثلاثة مبادئ أساسية هى:

١ - حرية العقيدة الدينية: الإسلام دين الفطرة

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

(الروم: ٣٠)

والفطرة تقتضى أن يكون الإنسان حرا فى تفكيره، والحرية الفكرية حرية عامة تشمل حرية العقيدة الدينية.

والإسلام جاء لينظم حياة البشر وعلاقاتهم مع ربهم خالقهم:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ۝ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ۝ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾

(الذاريات: ٥٦ - ٥٨)

كما جاء الإسلام لينظم حياة البشر وعلاقاتهم بعضهم مع بعض فى جميع مجالات الحياة، ويسير بهم إلى الطريق المستقيم الذى يكفل لهم تحقيق الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة، دون صراع أو صدام بينهم.

وأول مبدأ من المبادئ الإسلامية التى تحكم معاملة المسلمين مع غيرهم هو: حرية العقيدة الدينية، وتحريم الإكراه على الدين، يقول الله تعالى:

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾

(آل عمران: ٦٤)

ويقول سبحانه:

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾

(يونس: ٩٩)

وبهذا التشريع الحاسم طبق الخلفاء الراشدون قوانين حرية العقيدة الدينية على غير المسلمين.

وقد تمتع أهل الكتاب بحريتهم الدينية، وضمان مصالحهم العامة تمتعا رائعا فى ظل الدولة الإسلامية، ونلحظ ذلك فى المعاهدة التى أمضاها الفاروق عمر بن الخطاب مع أسقف بيت المقدس، وهى نظير جميع المعاهدات التى أمضاها الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد التى تم فتحها، وفيها النص على حقوق أهل الكتاب دون نقص، ومن بعض سطورها: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم لغيرهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من غيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، ومن خرج منهم فإنه آمن على ماله ونفسه حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم سار فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن شاء رجع إلى أهله، ولا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم...».

ثم ختم عمر الكتاب بتوقيعه، وشهد عليه خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان..

الإمام الغزالى

وهذا العهد كان موضع نظر بعيد لدى المنصفين من كتاب الغرب، فقد علق الدكتور «ا.س. ترتون» مؤلف كتاب «أهل الذمة» بقوله: «فى هذا العهد نلاحظ نقاطا بالغة الغرابة، ذلك أنه لم تجر العادة بأن يشترط المغلوبون الشروط التى يرتضونها فيقبلها الغالب»[1].

كما نقل الشيخ الغزالى - رحمه الله - عن الدكتور «ا.س. ترتون» ما ذكره فى كتاب أهل الذمة تعليقا على كلام سيدنا عمر ووصيته قبيل الوفاة. ص٣٨.

وفى الأخبار النصرانية شهادة تؤيد قول عمر، وهى شهادة البطريرك «عشيو يابه» الذى تولى منصبه ٦٤٧ - ٦٥٧هـ إذ يقول: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، لأنهم ليسوا أعداء النصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قسيسينا وقديسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا».

ومما قاله الدكتور «ا.س. ترتون» فى كتابه أهل الذمة: «كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة، وقد لاحظ فى سنة ٢٥٣هـ وجود إيصال ضريبة باللغتين العربية واليونانية، وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة فى أعمال الحكومة بأصفهان فى زمن أبى

(١) الشيخ محمد الغزالى، التعصب والتسامح.

مسلم.. كما أننا نجد رجلا مسيحيا يتولى السجن قريبا من الكوفة سنة ٢٦هـ حين كان الوليد بن عقبة عاملا عليها، ثم إن العرب حين فتحوا مصر أبقوا على من فيها من العمال البيزنطيين، إن حرص الإسلام على تأكيد مبدأ حرية العقيدة الدينية يتضح جليا في انتشار الإسلام في مدن فارس والعراق التي خير أهلها بين الدخول في الإسلام بإرادتهم الحرة وبلا إكراه أو ضغط، وبين البقاء على دينهم مع دفع الجزية، وبين القتال.

إن فرض الإسلام بحد السيف لم يكن هدفا مطلقا للإسلام - كما يدعي المستشرقون.. بدليل أن الإسلام يعرض على أهل البلاد أن يبقوا على دياناتهم ومباشرة عقائدهم الدينية بحرية تامة مقابل دفع الجزية «ضريبة الدفاع عنهم».. وأنه بعد انتصار القوات الإسلامية على القوات الفارسية في القادسية فتحت أبواب مدن العراق وفارس أمام القوات الإسلامية، وكان في مقدورها أن تفرض الإسلام بالقوة على أهل كل المدن، لأنه لا توجد مقاومة أمامها، ولكن القوات الإسلامية كانت تسير على النهج الذي حدده القرآن الكريم:

﴿لا إكراه في الدين﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فلذلك قبلت الجزية من مدينة بهرسير التي رفضت الدخول في الإسلام، وكذلك مدينة المدائن، ومدينة جلولاء، وبعض المدن الأخرى.

وقد كان الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - واسع الأفق، بعيد النظر، دقيق التعليل، بارع التحليل، ملهم الإدراك حين نظر إلى الاختلاف القائم بين الأديان - مع أن إلههم واحد، وكلهم يصدرون من مشكاة النور السماوي - فقال - رحمه الله -: [٢] غير أن هاهنا نقطة يجب التنبيه إليها وهي: أن القرآن الكريم حين دعا إلى هذه الوحدة:



محمد عبدالله دراز

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾

(آل عمران: ١٩)

لم يجعلها غاية يطلب الوصول إليها من كل طريق، وشراءها بكل ثمن، بل نظر إليها كمثل عال وأمل عزيز ينبغي الاقتراب منه بقدر الطاقة، واعترف في أكثر من موضع بأن هذا الأمل متعذر التحقيق

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ۝ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك﴾

(هود: ١١٨، ١١٩)

هذه النظرة لها نتائجها الطبيعية في مسلك الإسلام بإزاء مخالفيه، فهي التي جعلته يواجه الحقيقة الواقعة بالاحتمال والتسامح..

وهي التي حددت مهمة الرسول بأنها ليست هي إكراه الناس على الإيمان، وإنما هي التعليم والإنذار، ثم تفويض الأمر في عقائدهم إلى الله الذي سيتولى الحكم بينهم في يوم الفصل:

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾

(يونس: ٩٩)

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾

(البقرة: ٢٥٦)

﴿فذكر إنما أنت مذكر ۝ لست عليهم بمصيطر﴾

(الغاشية: ٢١، ٢٢)

﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾

(المائدة: ٩٩)

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾

(الشورى: ١٥)

﴿لكم دينكم ولي دين﴾

(الكافرون: ٦)

﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾

(الجاثية: ١٤)

ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الموقف لا يخص علاقة المسلمين بأهل الكتاب وحدهم، فإن أكثر هذه النصوص مكية في شأن الوثنيين أنفسهم، وقد صرح القرآن الكريم بأن هذه هي حدود مهمة الرسول بإزاء الطوائف كلها، وذلك في تلك الآية المدنية الجامعة:

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾

(آل عمران: ٢٠)

ولكن ليس معنى حرية العقيدة الدينية أن يفعل الإنسان ما يؤذي مشاعر الآخرين الذين يخالفونه في العقيدة، أو أن يعتدي على مقدساتهم الدينية، أو أن يستهزئ بطقوسهم الدينية فاستقلالية كل دين، واحترام خصوصيات عقائده، وعدم تجريح أتباعه، أو الطعن في عقيدتهم، أو الخروج على الآداب العامة في معاملاتهم والحديث معهم، كل هذا موضع اهتمام الدين الإسلامي، يقول الله تعالى:

﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾

(الأنعام: ١٠٨)

وبهذه النصوص القرآنية الصريحة التي لا لبس فيها ولا تأويل، تتلاقى الأكف بالمصافحة والتسليم، وتتعانق القلوب بالمحبة والإخاء.. حيث يرسل السلام ضوء على النفوس المؤمنة، فيمحو آثار الخلاف والشقاق، ويوطد دعائم الأخوة الإنسانية..

٢- تحقيق المساواة بين الرعية: عانت البشرية قبل مجيء الإسلام كثيرا من الظلم والقسوة والعذاب.. بسبب التفرقة بين البشر: بين الأبيض والأسود، وبين الغني والفقير، وبين القوي والضعيف، وبين الرجل والمرأة، وبين الطبقة الحاكمة وسواد المحكومين.. حتى الطفل حديث الولادة لم

(٢) بحوث إسلامية، ملحق الأزهر، عدد صفر ١٤٢٦هـ، بحث ألقاه فضيلته في مؤتمر الأديان العالمي الذي عقد في باريس في جامعة السوربون ص ٥٣، ٥٤، ٥٥.

يسلم عند العرب في الجاهلية من هذه التفرقة البغيضة، ويسجلها القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(النحل ٥٨: ٥٩)

وأبناء الفرس كانوا ينظرون إلى الأكاسرة كما ينظرون إلى الآلهة، وأبناء الرومان كان يستعلي بعضهم فوق بعض.. وهكذا عمت بلوى التفرقة المجتمعات البشرية قبل الإسلام، وساد قانون الغاب بين الناس، القانون الذى لا يعرف الأمن والأمان، ولا يعرف الهدوء والاستقرار، وعاش الناس في رعب الخوف، وفزع القلق، وجهالة الغد والمصير.. إلى أن بزغ فجر الإسلام وأشرقت شمسه، وانتشر نوره، وعمت مبادؤه وأحكامه، ورفرفت راية المساواة التي شرعها للناس جميعا عالية خفاقة، فالكل سواء لا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين غنى وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم، الفضل والتفاضل بين الناس في التقوى وفعل الخير فقط.. ويسن الإسلام هذا القانون العادل، ويسجل القرآن الكريم هذا الدستور العظيم في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

وفي قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

ويؤكد الرسول ﷺ هذه المساواة المطلقة بين الناس جميعا من كل لون وجنس ونوع وفي الحديث الشريف:

«والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

فشريعة الإسلام الغراء تثبت وتؤكد أن المساواة بين الناس حق من حقوق الإنسان، وأن ضمان حريته، واحترام إنسانيته كفلها الدستور الإسلامي، فالكل سواء أمام القانون يطبق على الجميع بلا استثناء، فلا شفاعة لمجرم، ولا تغاضي عن مرتكب إثم.. وقصة شفاعة أسامة بن زيد لفاطمة بنت الأسود المخزومية، وكانت قد ضبطت متلبسة بجريمة السرقة سجلها التاريخ الإسلامي ليؤكد هذا المبدأ الإسلامي مبدأ المساواة بين الناس.

وتخاصم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري مع عبد زنجي فقال له: يا ابن السوداء، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا وقال: طف الصاع (أي جاوز الأمر حده)، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح، فما كان من أبي ذر إلا أن وضع رأسه على الأرض وقال للأسود: قم فخذ بحقك مني.

عليك الصلاة وأزكى السلام يا سيدي يا رسول الله، فقد حسمت بأقوالك القاطعة الحازمة قضية التفرقة بين بني البشر، وقننت مبدأ المساواة.. بين الناس، وغرست في قلوب أصحابك حرصهم على الالتزام بتطبيق دستور المساواة.. لأنه حيث تفتقد المساواة تفتقد العدالة، وحيث تفتقد العدالة يفتقد الأمن والأمان وحيث يفتقد الأمن والأمان تسود شريعة الغاب ويحدث الإرهاب وينهار المجتمع.

ولقد كان الصحابي الجليل يقف على قدم المساواة - في مقام الشكوى - مع غير المسلم حتى يقضى لأحدهما، فقد ذهب يهودى إلى الخليفة عمر بن الخطاب يشكو على بن أبي طالب لأمر من الأمور، فلما مثل على أمام الخليفة لاحظ أن الخليفة يخاطبه بكنيته بقوله: يا أبا الحسن، فاكتسى وجه على بمسحة من الغضب، فقال عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهوديا؟ وأن تمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة؟ أجاب على: لا ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه، بل فضلتني عليه أن خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي!!

ولقد أكد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تحقيق وتطبيق مبدأ المساواة بين الرعية، وألا يتميز أحد على أحد حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه، إنه يبدأ القدوة من نفسه ليكون مثالا يحتذى به، ويسير على المنهج جميع ولاته..[3]

لقد جاءه - يوما - أحد ولاته بهدية من الحلوى، فسأل حاملها: ما هذا؟ فأجاب: حلوى يصنعها أهل أذربيجان، وقد أرسلني بها إليك عتبة بن فرقد - الوالي على أذربيجان - فلما عرف مذاقها الشهي قال لحاملها: أوكل المسلمين هناك يطعمون هذا؟ قال الرجل: لا، وإنما هو طعام الخاصة، فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيدا وقال للرجل: أين بعيرك؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك: اتق الله وأشبع المسلمين مما تشبع منه.. وهكذا يطبق خليفة المسلمين المساواة بين الناس على نحو فريد في أمور قد يراها البعض سهلة هينة، ولكنه يضع الضوابط لتحقيق المساواة بمنهاج عملي تطبيقي، ولكي تكون دعوته للمساواة دعوة مسموعة، ولكي تستجيب الرعية له، فإن الرعية حين ترى راعيها لا يستأثر بشيء دونها تطبق ذلك بصدق، وحين يرى الولاة أن أمير المؤمنين لا يقبل أن يتميز عن أحد بأبسط الأمور فإنهم سرعان ما يطبقون المساواة فيما بينهم بدقة.. ولم يقتصر تطبيق المساواة بين المسلمين، بل أيضا بين المسلمين وغير المسلمين، وقصة ابن عمرو بن العاص حين ضرب ابن القبطي، وحكم عمر بن الخطاب أن يضرب ابن القبطي ابن عمرو سجلها التاريخ لإعطاء العالم الصورة السمحة للدين الإسلامي في معاملة الناس أجمعين على قدم المساواة.

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقرأ صحائف العصور الإسلامية التالية لعصر الخلفاء الراشدين فنقلنا عنها ما كان لكثير من الوزراء والأطباء والأدباء ورجال المال والاقتصاد والصناعة والمترجمين وكتبة الدواوين في الدولة الإسلامية من غير المسلمين من مكانة مرموقة، ومن مناصب عالية رفيعة، ومن مساهماتهم الإيجابية البناءة في النهوض بالأمة، ورفع مستوى كفاءة الأداء في الجهاز الإداري للدولة.. بل إن هناك مهنا خاصة تكاد تكون موقوفة على المخلصين من هؤلاء.

وهذه هي سماحة الإسلام وحرصه على تحقيق المساواة بين أفراد الرعية، دون النظر إلى الدين، ما دام المواطن حريصا على سلامة أمن الدولة، مجتهدا في النهوض باقتصادها، ملتزما بالعمل على رفعة شأنها، مساهما في تقدمها العلمي وثقافتها.. أما إذا خالف ذلك، وثبت عليه التقصير والإهمال أو الخيانة فالكل أمام القانون سواء، مسلما كان أو غير مسلم.

(٣) كتاب: العشرة المبشرون بالجنة، إصدار صوت الأزهر.

خصائص الثقافة الإسلامية



أ. د. أحمد كمال أبو المجد

نحن نعيش مع الدنيا كلها عصرا لا سابقة له فى تاريخ الإنسان. فقد تعاقبت على أهل هذا الزمان ثورات علمية حقيقية تتابعت حلقاتها فى سرعة غير مسبوقة.. ولم يكن للمسلمين - مع الأسف العظيم - دور يذكر فى تحقيق شىء منها.. وإنما كان قصاراهم أن يقفوا منها موقف المتفرجين الحائرين المندهشين..

وترتب على تلك الثورات انهيارات عديدة فى موازين القوى بين الشعوب، وتغييرات كبرى فى النظام الدولى الذى لا فكاك لنا من الارتباط به والتعايش معه والتأثر بما يجرى فيه.. كما ترتب عليها سقوط حواجز الزمان والمكان بين الثقافات والشعوب.. فوقفت الحضارات بعضها أمام بعض فى مواجهة مباشرة غير مسبوقة.

نعم، غير مسبوقة فى تاريخ الإنسانية منذ فجره إلى يومنا هذا.. وأخذ الناس يتساءلون أيكون هذا اللقاء لقاء تعاون وتبادل للخبرات أم يكون مدخلا لتنافر وصراع وسلسلة جديدة من المواجهات؟

وصاحب ذلك أمر لم يعد خافيا على أحد، وهو توجيه حملة ضارية ضد الإسلام والمسلمين، تشوه وجه الإسلام المشرق، وتزيف كثيراً من وقائع التاريخ، وتكيل فى تعاملها مع المسلمين بمكيالين.. أحدهما عادل تتعامل به مع الدنيا كلها والآخر جائر ظالم يتجنى على المسلمين ويحرص الحرص كله على الإساءة لهم فى أعين الناس أجمعين.

ونحن المسلمين مدعوون دعوة لا خيار لنا فى أمرها إلى مشاركة الدنيا كلها مسيرتها الواحدة نحو أهداف يسعى العلماء والساسة إلى تحديدها والاتفاق عليها، تأميناً لهذه المسيرة من أخطار الحروب والمواجهات بأسلحة الدمار الشامل التى تأكل الإنسان وحضارته..

ومن أخطار تدمير البيئة وإفسادها وإفساد مواد الطبيعة التي بها حياة الناس والأحياء.. فضلا عن أخطار الأنانية الجشعة وعبادة الذات التى تفضى - لا محالة - إلى مزيد من سعار العنف والحروب والصراع.

على أننا لا نستطيع أن نلبى هذه الدعوة، كما لا نستطيع أن نسهم فى هذه المسيرة الإنسانية المشتركة إلا إذا خرجنا على الدنيا برؤية موحدة لحقيقة حضارتنا ومعالمها الكبرى.. وبما نستطيع - فى ظل هذه الحضارة - أن نقدمه للدنيا من خير نسهم به فى ترشيد المسيرة المشتركة نحو غد أوفى حظاً من العدل والخير وأدنى إلى تحقيق الأمن والرضا والسلام.

ونخطئ ويخطئ العلماء أشد الخطأ إذا تصوروا أن تقديم هذه الرؤية الموحدة للثقافة الإسلامية أمر سهل أو قريب المنال.. ذلك أن ساحة الفكر والعمل المعاصرة فى العالم الإسلامى تموج بألوان من الفكر، ونماذج للتصور أو زوايا للرؤية يتصور أصحاب كل واحدة منها أنها هى وحدها الرؤية الصحيحة.. وربما دخلوا - بسبب هذا التصور - فى مساجلات ومواجهات وتبادل للاتهامات مع أصحاب الرؤى الأخرى.

ولا نستطيع أن نضع أمام هذا الجمع الحاشد من علماء المسلمين تصورنا لما نراه المعالم الأساسية للحضارة الإسلامية.. وهى المعالم التى نقدمها للدنيا أداء لواجب النصيحة وقياماً بحق الإسلام علينا فى دعوة الناس إليه وتعريفهم به قبل أن نعرض لتيارات ثلاثة نراها حاجزاً بين المسلمين وبين التوحد الثقافى، كما نراها روافد تبتعد قليلا أو كثيراً عن وسطية الإسلام والسمت الحقيقى ثقافته وحضارته.. ونحن نعرف أن من غنى الثقافة أن تتعدد فيها الرؤى وأن تتنوع زوايا الاهتمام..

كما نعرف أن تاريخ المسلمين قد عرف عديداً من روافد الفكر والثقافة.. وأنها جميعاً قد أسهمت في تقدم المسلمين وانتفعت بها أجيال منهم بعد أجيال.. وتلك ظاهرة إنسانية لا ينفرد بها المسلمون ولا يعفون منها.. فالفكر السلفى المتشدد فى أمور العقيدة.. والتيار الواسع والعميق للفقه الإسلامى، فروعه وأصوله.. والصوفية الصادقة التى لا تخالف كتاباً ولا سنة.. والفلسفة التى تتواصل مع أصول الدين.. وتحاول رد الأمور الاعتقادية إلى أصول منقولة أو معقولة.. والآداب العربية والفارسية والهندية التى امتزجت بأعراف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وعبرت عن أشواقهم وعن همومهم، ووصفت كثيراً من أحوالهم.. كل ذلك كان ولا يزال مظهر غنى وتنوع فى حضارة المسلمين.. وهو فى جزء منه ثمرة مباشرة من ثمرات الوحى.. ولكنه فى كثير من أجزائه تعبير واضح عن إبداع المسلمين واجتهادهم وعطائهم الموصول للإنسانية.. وهو عطاء إنسانى يرشده ويحدد كثيراً من معالم هدى الوحى.. وما نزل به من عقيدة وشريعة وقيم وآداب للسلوك وللعلاقات بين الناس والناس.

ولكن يبقى أن حاضرنا نحن المسلمين، وهو يعانى آثار التمزق السياسى.. والضعف العسكرى.. والتراجع العلمى.. قد ارتفعت فيه نبرة

بعض التيارات الفكرية الجانبية.. التي لا يرى أصحابها غيرها.. ولا يرون في الإسلام ما يعدوها أو يجاوزها.. وهي نبرة انعطف بها كثير من المسلمين عن الجادة.. غلوا أو تفريطاً أو ذهولاً عن المعالم الكبرى للإسلام ومنطقه العام ومقصده من الدين والشريعة.. ولذلك صارت تنحية التأثير الضار لبعض هذه التيارات أمراً واجباً لا بد أن يصاحب السعي لعرض الإسلام وثقافته عرضاً متوازناً تلتقي عليه الأمة، لتخرج به على الدنيا، كتاباً تمسكه بيمينها، تسهم عن طريقه في حوار الحضارات.. وتشارك- تحت لوائه- في السعي لبناء مستقبل مشترك لجميع الناس والشعوب.

النموذج الأول: نموذج الحرفية أو النصية في فهم الإسلام كله

ولابد هنا أن نميز بين هذا التوجه الذي ننكره أشد الإنكار ونحذر منه وندعو في غير مجاملة إلى ضرورة صرف الأمة عنه.. وبين السلفية الصحيحة التي تجمع بين الالتزام بالكتاب والسنة وبين التجديد في الفكر وفي الفقه ومحاربة التقليد الذي يسد أبواب المصلحة ويفوت منافع الشريعة على الناس.

إن هذا النموذج الذي نسميه نموذج «الحرفية المطلقة» يرفع شعارات محددة، هي- فيما نرى- شعارات حق أفضت إلى ضرر عظيم.

الشعار الأول:

الإلحاح على الاتباع دون الابتداع، والوقوف في وجه محاولات التجديد في الفكر وفي الفقه، باعتبارها ذرائع قد تفضي إلى الخروج على ثوابت الدين والشريعة.

الشعار الثاني:

أن كل صغيرة وكبيرة من أمور الناس وهمومهم ومشاكلهم لها حكم حاضر في الإسلام ينبغي البحث عنه في الكتاب والسنة وحدهما أعني أن هذا النموذج يتصور في وعيه الباطن أن كل حوادث الدنيا منصوص على أحكامها بأعيانها في الكتاب والسنة وهو بذلك يلغي دور العقل، الذي هو أداة الاجتهاد الأولي ذلك الاجتهاد الذي هو - لاغير - سبيل البرهنة علي كمال الشريعة وصلاحيتها وعالميتها وشمولها

الشعار الثالث:

توجه الاهتمام إلى التفسير اللغوي للقرآن الكريم وإلى علوم الرواية في دراسة السنة وأحاديث النبي ﷺ مع قلة العناية بالعلوم العقلية التي يمكن وصفها إجمالا بعلوم الدراية.

الشعار الرابع:

التشديد على النفس وعلى الآخرين، والتوسع في الأخذ بسد الذرائع، والاستناد إلى أثر منسوب لأبي بكر رضي الله عنه يقول: كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نترك سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

الشعار الخامس:

شغل الناس شباباً وشيبة بقضايا جزئية على حساب القضايا الكبرى التي عني الإسلام بمعالجتها والتي تتصل بأساسيات العقيدة والشريعة والأخلاق ومصالح الأمة وعلاقات الناس بالناس.

إن خطر هذا النموذج الذي تعلو نبرته في جزر متفرقة من عالمنا الإسلامي يكمن في انقطاع أصحابه عن مقاصد الشريعة، وذهولهم عن واقع الناس وحاجاتهم الحقيقية، وحبس الإسلام كله في ظاهر النصوص، وخلق وهم مستقر لدى المسلمين وغير المسلمين بأن الإسلام نظام تاريخي محبوس في نصوص، وأنه- لذلك- لا يمكن أن يكون قادراً على التعامل مع المشاكل والحوادث المتجددة للناس والشعوب.. ويصدق على أتباع هذا النهج أنهم «سدوا على أنفسهم وعلى الناس طرقاً كثيرة من طرق الحق والخير، ظناً منهم منافاتها للشريعة، ولعمر الحق أنها لم تناف الشريعة وإنما نافت ما فهمه هؤلاء من الشريعة».. ناهيك عما يتركه تشددهم وتشديدهم وإسرافهم في المنع والحظر والممانعة والتحريم من وضع الأمة كلها موضع العسر والحرج.. مما قد يدفع البعض إلى الإعراض الكلي عن جملة الشريعة.

النموذج الثاني:

نموذج الغيبية والخرافة

هذا النموذج ينبع من خلل أساسي في فهم المقصود «بالإيمان بالغيب» الوارد في مطلع سورة البقرة، والذي هو وصف من أوصاف الحق سبحانه للمتقين:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

(البقرة: ٣، ٤)

وهو كذلك ينطلق من خلل في فهم معنى «المشيئة الإلهية» غفلة عن عنصر أساسي من عناصر المنهج المعرفي الذي أرساه الإسلام، وتصور ساذج لمعنى القدرة الإلهية يجعلها منحصرة في خرق النواميس والخروج على السنن، مع أن قدرة الله سبحانه في السنن الثابتة والنواميس المطردة أظهر وأدل على المشيئة والقدرة من خرق السنن والنواميس.. وفي القرآن إشارات وعبارات صريحة دالة على هذا المعنى، فهو سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو سبحانه يعلمنا أن:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

(يس: ٣٨: ٤٠)

إن هذا النموذج يجعل العالم كله في عقول العامة وقلوبهم عالماً من الصدف التي لا يجمعها جامع.. ويجعل مسيرة التاريخ أخلاطاً من الحوادث تحكمها مشيئة لا يمكن فهمها.. ويجعل الخير والشر كلاهما قدراً مقدوراً لا دور لأصحابه في استجلابه، ولا مسئولية

عليهم في دفعه. هذا مع أن علاقة السببية بين الفعل والجزاء، سنة عقلية وتشريعية من سنن الله، ومع أن القرآن الكريم يعلمنا أنه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

وأنه:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

(النساء: ١٢٣)

والرسول ﷺ يعلمنا: (إنما هي أعمالكم ترد إليكم) (مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٩٧٥ / ٣٠٠٥١)

والذي يقلق وينبغي أن يشغل العلماء والساسة والمصلحين أن هذا الفهم الخرافي للإسلام يوشك أن يكون دين العامة.. والعامة هم السواد الأعظم وهم وعاء الثقافة.. وماعون عمل الأمة.. وأنه ما لم تتم ثورة ثقافية حقيقية ترد العامة إلى عقولهم، وتعلمهم -من جديد- حقيقة إسلامهم.. فإن فرصتنا في اللحاق بالآخرين، ومواجهة الحضارات المنافسة مع مشارف القرن الجديد لا يمكن إلا أن تكون فرصا ضئيلة وهزيلة.

النموذج الثالث- نموذج الغلو والغضب

وهو نموذج صنعه اليأس من الحاضر، والإحساس بالعجز عن ملاقاة التحديات واستفزاز حملات التشويه الموجهة للإسلام والمسلمين، وتقاعس كثير من القيادات الفكرية والسياسية عن التصدي لإصلاح الحال كما صنعه في النهاية، بل في البداية قصور شديد في فهم الإسلام ونقص هائل في العلم بأصول الإسلام الكبرى، وضوابطه الأخلاقية في العمل الجماعي.

وأظهر معالم هذا النموذج أمور أربعة:

١- المسارعة إلى اتهام المجتمعات الإسلامية المعاصرة بالخروج على الإسلام وإدانتها، بحكامها ومحكوميها إدانة شاملة مطلقة.. ووصفها -في غير تحفظ ولا احتياط- بالكفر أحيانا، وبالجاهلية أحياناً أخرى.

٢- سوء فهم حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستباحة اقتحام الحياة الخاصة والعامة للناس، ومحاولة تغييرها باليد واللسان في غير التفات إلى حدود ذلك الواجب الكفائي، وهي الحدود المستمدة من واقع العيش في جماعات منظمة تسوسها حكومات مسئولة، فضلاً عن تلك المستمدة من قواعد الشريعة ذاتها، وأن المفاسد الكبيرة تدفع بالمفاسد الصغيرة، وأن الأمر بالمعروف إذا أدى إلى ضياع معروف أكبر فتركه أولى.

٣- استباحة العنف والقسوة في العمل السياسي والاجتماعي.. وهي استباحة أدت تداعياتها إلى شر عظيم وأدت إلى تصوير روافد العمل الإسلامي كلها تصويرا يسيء إليه في الدنيا كلها، كما يسيء إليه في عين المسلمين أنفسهم.. ناهيك عما تسببه هذه الاستباحة من

مسلسل آخر له من العنف والعنف المقابل.. وتنسى هؤلاء أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.. وأن شرف الغاية لا يغني -في منطق الإسلام- عن شرعية الوسيلة.. كما ينسون قول النبي ﷺ: (إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه) «البخاري في الأدب المفرد ٤٦٢ / ٤٦٦، مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٣٢٧١ / ١٣١١٩».

٤- التشديد على النفس وعلى الآخرين.. وهذه وإن كانت سمة لا يتفرد بها هذا النموذج.. إلا أنها في كل صورها تضع الناس في عسر وحرج في زمان يحتاج فيه الناس إلى التيسير والتخفيف.

هذه النماذج الثلاثة نرى ضرورة الحد منها وصرف الأمة عنها.. كما نرى في هذه المهمة ضرباً من إزالة الأذى والشوك من طريق الأمة الإسلامية في سعيها للانبعاث والصحوة والتواصل من جديد مع العالم..

فإذا تم لنا إنجاز هذه المهمة.. بجهود واعية وموصولة من أهل الذكر الذين يعلمون.. انتقلنا إلى جوهر هذا البحث وهو وصف ما يمكن أن تسميه تيار الوسطية الإسلامية الذي يجمع العناصر الأساسية للثقافة الإسلامية، مستمدة من إطارها المرجعي الذي لا خلاف حوله، وهو كتاب الله مفسراً، وسنة نبيه ﷺ محققة وموثقة ومسندة، وسيرته ﷺ التي تقدم التفسير العلمي لنصوص الكتاب والسنة.

وحين يقدم المسلمون إلى العالم، كتابهم بيمينهم، وثقافتهم من ورائهم، وعزيمتهم وصدق نواياهم بين أيديهم وأمامهم فإنهم يستطيعون الاتفاق على المعالم والخصائص الآتية:

أولاً: أنها ثقافة إيمانية.. يحتل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر مكان القلب من كل شعبها وروافدها.. وتتداعى مع الإيمان معالم عديدة.. في مجال الاعتقاد، ومجال السلوك الإنساني على السواء.. فالإيمان بالله أمان من الاستعلاء الظالم على الآخرين، وأمان من تورط الأفراد والجماعات في العدوان والظلم والجور على الآخرين.. لأن الإيمان يفجر في الإنسان الفرد وفي الجماعة المنظمة معنى «المراقبة» ومراقبة الله عصمة للجماعات من صور الطغيان التي تخشى الإنسانية اليوم من عودتها مع مطلع القرن الجديد في صور جديدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾

(الممتحنة: ١٣)

«والله لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء».

ثانياً: أنها ثقافة عقلانية.. تقوم على العلم، وتعتبر العقل أداة للمعرفة.. وإذا كان المسلمون قد قصروا في الالتزام بهذه السمة من سمات حضارتهم، وتصور كثير منهم، غلطاً ووهماً ونقص علم، أن العقل نقيض النقل، وأن

انتصارات العقل لابد أن تمثل انتقاصاً من الإيمان، فإننا نسأل الله أن تمحو آثار هذه الأوهام الضارة القاتلة.. وأن تعيد أمتنا من جديد كما أرادها ربها، أمة علم ومعرفة وحكمة ونهى.. فالعلماء- بشهادة نبينا ﷺ هم ورثة الأنبياء.. والأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا هذا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، ومن الأمانة والصدق مع الله تعالى ومع النفس أن نعترف بأننا نحن المسلمين قد قصرنا أشد التقصير في تشجيع العلم والتعلم والإبداع، ولذلك توقفنا وتحرك غيرنا، وتخلفنا وتقدم غيرنا.. وسبقنا- في العالمين- سبقاً بعيداً، وما لم نعترف بهذا الخطأ الحضاري الذي يصل إلى حد الخطيئة، وما لم نُعِد العقل المسلم إلى عرشه الذي نحي عنه.. وما لم نشجع الإبداع والتجديد واقتحام المجهول في شتى ميادين العلم، فإن الحديث عن مستقبل مشرق للمسلمين لن يكون إلا أماني.. وليس للأماني في دنيا الناس وزن ولا قيمة.

ثالثاً: أنها ثقافة إنسانية، ارتفعت من أول يوم في مسيرتها فوق عوارض الأصل واللون واللغة والاعتقاد.. فالخلق كلهم- في ظلها- عيال الله.. والتكريم الذي قرره القرآن الكريم تكريم لبني آدم جميعاً.. والمخالفون حتى ولو كانت مخالفتهم في الدين والعقيدة.. لهم دينهم ولي دين.. ولهم في مجتمع المسلمين حقوق لا يملك حاكم أو محكوم أن ينال منها

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾

(الممتحنة: ٨)

والدعوة عامة موجهة في إطار تلك الثقافة لأهل الكتاب جميعاً:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

ولقد دخلت في الإسلام شعوب ذات أصول عنصرية مختلفة متباينة، فما وجدوا إلا حرية وكرامة ومساواة كان من ثمراتها أن قدموا جميعاً عطاء ثرياً غزيراً للحضارة الإسلامية.. لا تزال آثاره موثقة في أسماء العلماء والفقهاء والفلاسفة والصوفية الذين تركوا بصمات واضحة بارزة في الثقافة الإسلامية.. وحسبنا أن نشير إلى أسماء سلمان وبلال وصهيب من صحابة رسول الله ﷺ.. وأن نشير إلى أسماء تعاقبت عبر الأجيال في سماوات العلوم والمعارف المختلفة.. من أمثال ابن سينا والبخاري وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي، والقرطبي وولي الله الدهلوي وكثيرين غيرهم.

رابعاً: أنها ثقافة عطاء قبل الأخذ، تعنى بالواجبات عنايتها بالحقوق، بل قبل الحقوق.. فالحقوق في لغة القرآن الكريم تشير إلى الواجبات.. وهي موجهة أساساً إلى الذي عليه الحق.. بقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

(المعارج: ٢٤، ٢٥)

ويقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

ويقول للنبي ﷺ:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾

ويقول للمسلمين:

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

وفي هذا تختلف الثقافة الإسلامية عن أكثر الثقافات القديمة والمعاصرة.. خلاف له ثمراته الكبرى الفارقة بين الثقافات، ولعل هذه السمة أن تكون أوضح السمات دلالة على الإسهام الإيجابي الهام الذي يمكن أن يسهم به المسلمون في مسيرة الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وبهذا الإسهام.. تتحول الأنانية والجشع الفردي إلى تكافل اجتماعي وإلى تبادل للعطاء وبه تركو وتزدهر مؤسستان من أهم مؤسسات الاستقرار والأمن الاجتماعي، وهي مؤسسة الأسرة ومؤسسة الجوار.

خامساً وأخيراً:

فإن الثقافة الإسلامية ثقافة منفتحة على العالم، تعتبر التعددية سنة واجبة من سنن الله وليست أمراً محدثاً ابتدعه المتحدثون اليوم عن العولمة وعن ضرورة الحوار بين الحوارات ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

(المائدة: ٤٨)

إن الزمن يتحرك سريعاً بنا وبالدنيا كلها..

ومن شهادة الحق التي لا يجوز للعلماء أن يكتموها التسليم بما وصلنا إليه من تراجع حضاري وجمود فكري. ومن تأخر عن حيازة أسباب القوة، عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

فإن أبى بعضنا إلا المكابرة.. وإلا الجمود على الموجود.. فإن مسلكه هذا لا يلزمنا ولا يلزم أحداً غيره.. والمسلمون اليوم يحتاجون إلى إحياء إسلام القوة في مواجهة إسلام التخاذل والضعف.. وإلى إحياء روح الحركة والانطلاق والانتعاش في مواجهة روح السكون والقعود والانكماش. وإلى بعث روح التواصل مع الآخرين.. في مواجهة روح القطيعة والعزلة وسوء الظن بكل الآخرين..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

***

الطابع الأساسى للتصور الإسلامى

للعلامة. محمد فتح الله كولن

إن جذور الإسلام لا نهائية فوق الزمان والمكان، والمخاطب فى الإسلام هو قلب الإنسان الذى يسع ويستوعب السماوات والأرض بسعته المعنوية، وهدفه السعادة الدنيوية والأخروية.

الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتد من الأزل إلى الأبد، وعنوان النظام السماوى المنزل لتحقيق رغبة «الخلود» فى كل شخص، ولفتح مغاليق القلوب جميعاً: ابتداءً من قلب أشرف البشر فى الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية.

منذ أن نصب الإسلام سرادقه فى الأرض وظف طاقاته كلها فى مخاطبة القلوب وفتحها، واستطاع أن يرسم صورته فى كل وجدان، ثم توجه نحو وحدات الحياة كلها.. فثم تناسب دائم بين تعميقه فى الصدور وتأثيره فى مفاصل الحياة؛ فبقدر عمق تغلغله فى الأرواح وتجذره فيها، يتدفق فيض تأثيره فى حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا.

بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه فى محيطنا من الشوق والرغبة والتلقى بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبة طردياً مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعنى أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضارباً فى أغوار أعماق الإنسان، يقوى تأثيره فى محيطه، وفى ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلى يأخذ المجتمع وجهته فى مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع من كل الوجوه يحمل فى ملامحه خطوطاً مبهمة من هذا الوازع الداخلى، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حاملين ألوان هذا المحتوى الداخلى ونقوشه، ويسمع ويستشعر فى كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوت هذا المحتوى الداخلى ونفسه وأداؤه، ويشجى كل شىء مرئى أو خاف أسماعنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلى الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التى فتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتسمع منهم نغمات من الوجود السرمدى.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم فى ممرات زمردية تؤدى بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعناء السفر بالسعادة التى سيلقونها فى نهاية المطاف.. ففى كل مظان التأفف تراهم يسبحون قائلين:

«مرحى.. مرحى».

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية - حسب الإسلام - تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذى هو كـ«شجرة طوبى»، تنشأ من هذه البذرة، فتغطى بما تؤتى من ثمار المعرفة سماء أحاسيس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة وهمة داخلية وشعور وحس داخلى؛ ليحاصر ذاك الإنسان من كل جهة، فيحوله إلى إنسان جديد قائم على محور الوجدان.. فتنعكس هذه الحال على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق؛ وتحمل عبادته وطاعته سمات بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشق والاشتياق، وتصير مناسباته البشرية انعكسات لهذه اللدنية.. وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول قوة الجذب المركزى هذه.. فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتبرز بألوان القلب وأدائه الجميل تماماً؛ وإذا كان الحاصل الظاهر أثراً فنياً أو كتاباً أو رسماً أو شعراً أو لحناً، فإنه يهتف بمشاعر وأحاسيس القلب المتغذى بهذا النموذج والجوهر الداخلى.. فيهتف معبراً عن الهيجان أو الخفقان المرتشف من واردات القلب لصاحب الأثر، وعن عشقه، ووصاله أو هجرانه؛ وكذلك الحال حال الروح المتشبع بالإيمان والمعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، إذ تبدى رسمها الداخلى على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى، وتهتف بمعانى (الإنسان - الكون - الله)، المتحولة فى أعماق الروح إلى «خلاصات» أو «عصارات» رائقة وتسعى دوما إلى «نظم» المعانى الغائصة فى بواطنها العميقة.

قد لا يكون الإنسان فى كل أحواله قاصداً هذا القصد أو متحريا هذا الأمر، إلا أن المنهجية الإيمانية فى قلبه تقود كل تصرفاته - بإرادته أو من غير إرادته - إلى هدف معين؛ وبطبيعة الحال ستنعكس ألوان «حركيته» الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية.. وكذلك تبرز تلك اللهجة والأداء والأسلوب فى أعماله الفنية وأنشطته الثقافية؛ لأن موقع الإنسان فى الوجود، وغاية خلقه، ومقصود فعالياته، وتداعيات الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصود، ووظيفته ومسئولياته، ستحيط مع الزمان بكيانه وتحاصره، وتوجهه فى كل ساعة نحو التميز والفائقية إزاء ذلك الوجود المتعالى والأعلى بأشد المشاعر حيوية وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجه سيتمادى فى تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية.. وبعد مدة، سيحقق حصول «طبيعة ثانية» فيه. هذه الطبيعة ستبدى تأثيرها من الأعماق رويداً رويداً فى كل صفحات حياته: معتقداته وعاداته، وأخلاقه

وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته؛ والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الذاتى بمقدار ما ينمى هذه الموهبة الأولى الموجهة.

وإن هذا الذى توجه وطمح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل، ومن أين يبدأ.. فهو حساس فى العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك فى الشعور بالرهبة من الذنوب فى مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فتكون الحياة بكل وحداتها بالنسبة له كأنها شلال وجد مجراه، يتحدر هداراً أبداً ليبلغ البحر المحيط، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً ـ الإيمان ـ بمقدار انكشافه وعمقه ـ مولد الطاقة «الدينامو» الأساس لهذا الإنسان الحركى، والعبادة سنده ومحركه الواقى، والأخلاق ومجموع العلاقات الإنسانية علامته الفارقة وفصيله المميز؛ والثقافة غدت سجية من سجاياه؛ والفن بدا انعكاساً لا ستطلاعه وتفحصه وحدسه الداخلى ومشاهداته الباطنة؛ وأستطرد لأذكر موضوعاً ليس مكانه هنا.. لكن أقول عن الفن الإسلامى: إنه يحتوى آفاقاً واسعة خصوصية بتحريه التنوع فى فلك التجريد؛ فهو إذ يؤكد على التوحيد، يتخذ موقفاً بيناً وواضحاً ضد التشبيه والتجسيم.. وبحكمة إبقاء باب التأويل مفتوحاً أبداً، يريد أن يرى بحراً في قطرة، ويصور شمساً فى ذرة، ويشرح كتاباً فى كلمة واحدة، أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا المحرك الرئيسى وهذه المقومات الأساسية ولا تنبش الآن عن مقولة أن الثقافة ميراث الإنسانية عموما، فهى منفتحة على كل الأنشطة الفكرية والذهنية المرتبطة بواقع الإنسان، وخلاصة وعصارة للخلطة المشتركة لتلك الأنشطة؛ ونحن نستشعرها بكل شىء يخصنا بأمسنا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نودعه أمانة لدى الوجدان الاجتماعى، العارف المتأهل لما يقدر ويوقر؛ لذلك فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية، والتوجه نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان إذا اقتضى الأمر فوق نسيج أطلسنا الفكرى.

نعم، ينبغى أن نبذل قصارى جهدنا للالتزام بمصادرنا الذاتية أبداً، وأن نحصر الذهن فى بلوغ البحر بمجرانا الذاتى، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سمائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيره إذ نقرؤه، واستنباط أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام منفتح على اقتباس ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت فى أقصى بقاع الأرض ويطلبها أنى يجدها؛ وكما اقتبس فى الماضى من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قومها وطورها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فكذلك اليوم أيضاً يأخذ كل ما يمكن أخذه

أينما وجده، وينميه ويطوره ويودعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله فى الأرض يستوجب على المسلم أن يكون عاشقاً للحقيقة وحريصاً على العلم والتحرى وشغوفاً بالبحث واكتساب المهارة فى كل مجال؛ لكن ينبغى أن يتقى المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى فى الأمور المتعلقة بالنظم العقدية والفكرية، والموضوعات المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بتمثل الرسول ﷺ، وطرائق التحليل والبحث فى السيرة وتاريخ الإسلام عموماً، والفن والأدب ونحوها.. ذلك، لأن الذين أقاموا بنيانهم الفكرى على معاداة الإسلام، ونظروا إلى الإسلام وكأنه خارج الوحى السماوى لا يرجى منهم التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنى التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا وهما خارج إطار ما ذكرناه فقد ظلت الأيدى تتناقلهما بين الأمم فى الماضى، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة فى أيدى حائزيها؛ فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكراً على دين أو أمة.

لذلك، تستطيع كل أمة سليمة المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبة على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصرفة وتقطرها فى روحها، فتجعلها صوت قلبها ونفسه، ووسيلة توصل البشر إلى الله تعالى؛ والمؤلم أن فلسفة العلم فى أوروبا وعلى نقيض المرونة فى عالمنا الفكرى قد أوقعت الغرب كله فى صراع دائم بين العلم والدين، لأمور وأوضاع خصوصية .فخلف ذلك انفصاما بين العقل والقلب هذا هو السبب الرئيسى للمعضلات المتتابعة منذ عصور فى النظم الغربية كلها؛ بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمة جبهة العلم والفلسفة للدوغماليات الكنسية إلى مخاصمة المفاهيم الدينية كافة بمرور الزمان.. فكأن العلم والفلسفة حامية ومدافعة عن الإلحاد؛ وقد أصاب للأسف الشديد الفكر الإسلامى البرىء شىء من هذا العداء ضد الأديان كلها، إذ عرض لأشنع ظلم وأبشع غبن، ووضع فى قفص الاتهام مع الكنيسة التى هى المعنية فى الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغماليات تلك التنظيمات التى ظهرت بمظهر الدين، والمنطلقة فى بداياتها من الحرية الفكرية والعلمية.. انقلبت بمرور الزمان إلى معاداة الله والدين والتدين، ثم إلى تحمس فى أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييق الخناق عليهم، بل إزالتهم من الوجود تماما ومع أنه لم يكن للعالم الإسلامى مشكلة مع العلم أو حرية الفكر، ولكن زمرا من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة واتخذوه غرضاً لمراميهم العدائية الدنيئة مساوين له بالمسيحية الكنسية.

والحال أن الإسلام كان ولم يزل يقدم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً.. نظاماً لا نظير له فى الماضى، ويبدو رمزاً للمثالية والتفرد فى الآتى؛ فهو قد نظم وينظم بأسسه حياة جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيرا جديداً لعوالم الدنيا وما بعد الدنيا، والعالم المادى وما وراءه، ويرتب ـ من جديد ـ الوشائج بين الإنسان والكائنات والبارى عز

وجل برتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر التناقضات في «الإلهيات»، وتستجيب القيم التي أوجدها بإشباع كامل ومطمئن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم.

كان الإسلام - وما يزال - حيويًا وحركيًا من كل وجهة.. كان يتوسع وينبسط في واقع الحياة ولم يؤجل النظر إلى أى مشكلة واجهته؛ كان يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذى هو فيه، ويلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكامًا من أحكم شيء واقعي.

ولم يكن الإسلام «أيديولوجية مثالية» بمعناها المعروف في الغرب، ومحال عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمسًا خيالية بزغت في السهوب المجهولة خلف جبل «قاف»... شمسًا لا ينعكس شعاعها قط على واقع دنيانا المعيش، ولا يمكنها الظهور حتى في أصغر وحدات الحياة؛ فهي بأضوائها الكاذبة تصطدم بالخيال وتتكسر عليه كمثالية غير واقعية، وترنو إلى الحياة وحقائقها الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة! ووصفها «باللذيذة» يعود لمن يتأولها.

أما الإسلام، فقد وعد - ويعد - البشرية بنظام فريد في نوعه، قابل للتنفيذ في كل مجال، مالك لوسائل تحقيقية بديلة في التنفيذ؛ فيجد فيه الذين يلبون نداءه نشوة وتلون نظام قد نما في رحم واحدة متوافقة مع طباعهم وجبلتهم؛ فهو بسعة العناية بكل شيء ابتداء من «القبول المسبق في الوجدان» إلى المسائل الأخلاقية في المناحي النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية يقدم حلولاً فريدة، ولا يخيب رجاء المنتسب إليه مهما كان ضيق الصدر أو قصير الشأو؛ الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردى، وإذ يستقر فيه، يطفح منه بفائقيته الخاصة الذاتية ويفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كل مكان حقل فسائل، فيصطبغ كل مكان بصبغة روحه، ويبدل جذوره أينما انتشرت لون الحياة وأداءها، ويسمع القلوب نداء الوجود الأبدى، وقد كان - ولا يزال - كل نداء منه ترنمًا للسلام العالمي وتناغمًا للانسجام الاجتماعي، ونفسًا للتسامح والحوار، أما الصلف والوحشية والحقد والبغض، فهي إما من الغشيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، أو من عسر هضم جهلة المنتسبين لتعاليمه إليه؛ فهو على كل حال نور وضياء ولكن حيلولة الخصوم بينه وبين القلوب أدت إلى الكسوف كما أن نشر أعدائه وجهلة منتسيه تسببت في الخسوف.

ولو تخلى العدو قليلاً عن الجفاء، وبذل الخليل قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد محا وكنس أنواع الظلمات - مثل البغض والغيظ - من الأرض، كالبراكين بقوة طردها المركزى أو بحزم الضياء من أطياف النور، وجعل الأرض جنان اطمئنان تمتد حافتها حتى تصل الجنة.. ففي ظله ينسى العراك والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتشم نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء؛

وإن القلب الذى يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات إجلالا للخالق، والمصنوعات إجلالا للصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، ويصقل ويجلى كل يوم وأسبوع وعام بشتى أنواع العبادات فلا يحتمل مطلقا أن يبقى ذلك القلب مفتوحًا لتلقى العداوات فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفز فينا شعور التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية؛ وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية وواردتنا القلبية على سلوكياتنا، يتكون نسيج أخلاقنا ويتلون بأبهى الألوان؛ وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعيات ثقافتنا، فتؤمن لنا البقاء بذاتنا وشخصيتنا، وهكذا إذا كان التكامل في الإنسان مستندا إلى ما وقر في قلبه من الإيمان بالله والاعتماد عليه والثقة به، فسيفيض ذلك على المحيط والبيئة حبًا واهتمامًا وإخلاصًا وودا. والفرد المسلم بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها يخرج من الفردية ويكاد يكون أمة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تولد ابتداء في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وجدت المناخ الملائم للنمو والتطور، فكذلك أيضًا العبادات والأخلاق والحياة الروحية والثقافية والعلاقات البشرية الأخرى كافة.. يستشعر بها بداية في عمق الإنسان إيمانًا وإذعانًا، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربل بصبغتها التصرفات البشرية كافة، فتكون موجهًا أساسيًا لكل همة وانطلاقة وحركة وفعالية، حاضرًا بنفسه وبوجوده في كل الأحوال.

يتميز الإسلام عن النظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة: بأنه رسم للإنسانية صورة فكرية وحياتية ذات بعد عالمي، لكن بسيماء خاصة به في الوقت عينه.. وحمل المنتسبين إليه مسئولية أن يجعلوه حياة يحيونها وأمرا ينفذونه. ولذلك يسعى كل مسلم يعرف هذه الحقيقة لكى يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقًا لهذا الفهم، ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال، للإيفاء بحق هذه المسئولية، ولا يخفى أن الأفكار والأهداف السامية تبقى أحلامًا وردية رقراقة، ما لم تؤيد بحملات وأفعال حركية لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تسمح به الأحوال.. فإن قصرنا، فسوف تستمر كماشة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلة في عالمنا الداخلي، إنما تديم وجودها بقدر تناميها وتوسعها في الحياة المعيشية؛ فإذا بذرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورفدت وازع الحقانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامنا إلى اللانهاية للتطور والتوسع، وكما يكون إيمان كهذا الإيمان في الإنسان مصدرًا لا ينفد للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدة ومنصة انطلاق للارتقاء به باسم

«خلافة الله في الأرض»، إلى حق التدخل في الأشياء، وتشكيل صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره الإيمانية، والانفتاح على اللانهائية في محور التوحيد والتجريد بالتصورات الجمالية والروح الفنية في طبيعتيهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يوجد روحا فنية مكينة في الأرواح المتفتحة على الجمال يدعو إلى العجب والانبهار.

نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللانهائي، ويرسم ألوان الأبدية، برقوش وخطوط عديدة على اللوحة بضربة ريشة من غير تعب أو رهق.. حتى إن الناظر يحسب نفسه أمام أنموذج نقش مصغر للوجود في كل تأمل في اللوحة الفنية، فتأخذه نشوة مطالعة اللانهاية في المعطيات المحدودة، والبحر في القطرة، والكائنات في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصور ملاحظات التوحيد والتجريد بلسان الفن.

ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بحصره في رفض موضوعات ذاتية أو موضوعية، أو إشهارًا وإبرازًا للمهارات.. بل تآلفًا من جهة بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهد من علائق الوجود والحوادث فيستشعر، وما يتحسس منها فيفهم أو ما يتحسس وينبغي أن يفهم، وبين لغة القلب والشعور والحس من جهة أخرى.. فيتمكن من ثم أن يرشد على الدوام إلى الوجود الذي ليس كمثله شيء بالإيماء والإيحاء من مختلف المستويات والترتيبات ولكن بلا حيد عن خط مستقيم واحد تشير إليه بوصلة القبلة، وفي مرونة تشعر بالحقيقة الواحدة الثابتة المطلوب فهمها ولكن ببعد جديد مختلف في كل نظرة وتطلع، فيشهر الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة بخطوط سحرية في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونفسه وتفسيره وإيضاحه كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها ومستقبلها وصورتها وخارطتها، ومفتاح سري لأبوابها التي قد تظن أنها مغلقة. الإسلام كل يعبر عن هذه الأمور والشئون جميعا كل يستحيل تجزؤه، ويستحيل أن يحمل جزؤه القيم المحملة على الكل فإن تجزئته إلى أجزاء ثم محاولة استنباط فهم كامل وتام من الأجزاء غلط وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسير آيات وأحاديث معدودة بإسلوب وعظي، مهزوز الوجدان بأحاسيس نقص حقيقي ومعانيا من خواء روحي دائم؛ مهما كد وسعى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن، وهو يتناول الحياة كلا متكاملا، فيفسرها، ويقومها بقيمه، ويقدم لمنتسبيه مائدة سماوية من غير نقص، وهو يفسر أداء الحياة دوما ممتزجا مع الواقع، ولا ينادي البتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة، يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام، الإسلام موجود وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من القضايا العقدية إلى الأنشطة الفنية والثقافية.. وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية.

معوقات التقريب بين السنة والشيعة



د. وصفي عاشور أبو زيد

رغم أن فكرة التقريب - نظريا - انطلقت من الجانب الشيعي بكلام المرجع الشيعي الإيراني تقي الدين القمي، وتشكلت عمليا قبل أكثر من خمسين عاما فيما عرف بـ «دار التقريب» بالقاهرة السنية - بلد الأزهر الشريف - وكتب كلا الطرفين أدبيات رسخت الفكرة وعمقتها، وشرعت لها طريقها نحو التفعيل إلا أن عدم المصداقية الذي بدا واضحا في كثير من المواقف حال دون نجاح جهود التقريب على أرض الواقع.

ويرجع عدم نجاح هذه الفكرة - في تقديري - إلى وجود عقبات وموانع لم تفتح للنقاش بجرأة إلا أخيرا، بل كان كل ما يطرح حول مبادئ الوحدة وآداب الحوار وكيفية إدارة الخلاف وغير ذلك، وحينما طرحت هذه العقبات للنقاش أثارت غضب الطرف الشيعي مما أدى إلى أزمة أشبه بالقطيعة والتدابر، وهذا يدل على أن الحقائق مرة، وطرقها مستفز، والكلام المعسول والمجاملات والمواءمات لن تغني في هذا الملف كثيرا ولا قليلا.

الإسلام دين الوحدة

وقبل أن أذكر بعض هذه العقبات لابد من التأكيد على أن الإسلام دين الوحدة، ولا آكد في الإسلام من هذه الفريضة التي شرع لها الشرع ما يوجدها ويؤكدها ويحافظ على وجودها واستمرارها، وحرم كل ما يمكن أن يقوض هذه الوحدة أو يصيبها بضعف أو ترهل، وأغلظ النكير على القائمين بهذا، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ما يبلغ حد التواتر بما يغني عن إيراده والاستشهاد به.

عقبات

ومن هنا إن أردنا للتقريب النجاح والعافية فلابد من إدراك العقبات والموانع لكي يكون لنا منها موقف عملي حقيقي ملموس، لننطلق بمقتضاها، ونعمل على سبل تذليلها، وطرق ومناهج التغلب عليها، بعيدا عن معسول الكلام ومسك العصا من المنتصف، وإلا فلا داعي لبذل مزيد من الجهد في هذا الملف، ولن يكون أمام جميع الأطراف إلا إغلاقه تماما، ورأيت أن أقسم هذه العقبات إلى جانبين:

الأول: جانب نظري أصولي:

الجانب الأول: عقبات أصولية نظرية يزعم بعض من لهم جهود في ملف التقريب بين السنة والشيعة أنه ليس بينهم خلاف في الأصول، وإنما كل الخلاف بينهم في الفروع

فقط، وإذا صح هذا الكلام فأين يقع تكفير الصحابة - عدا سلمان وعليا والحسن وجعفر وحمزة؟ وسبّ عائشة أم المؤمنين؟ ولعن الشيخين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما؟ وادعاء تحريف كتاب الله تعالى؟ وادعاء مقام الإمامة لأئمتهم الاثنى عشر، وأنهم يعلمون الغيب ولا يموتون إلا بعلمهم ورضاهم؟ وحسبنا ما أورده فى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه: «منهاج السنة النبوية»، ولقد نبعت هذه الخلافات القوية من أنهم لا يحتكمون فى الاستدلال النظرى إلى عدد من القواعد والأصول التى تفضى إلى نتائج عقلية يتفق عليها الجميع، ومن هذه القواعد:

أولا: القواعد اللغوية، وهى منهج ثابت عند الجميع فى دلالة الألفاظ على أحكامها، وفى الاستدلال عموما من القرآن والسنة:

- فلم يقل أحد قديما ولا حديثا فى تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

(الزخرف: ٤)

لم يقل أحد بأن قوله تعالى: ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ هو على بن أبى طالب (رضي الله عنه)، وإنما هو وصف للكتاب فى الآيات قبله:

﴿ حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الزخرف: ١ - ٣)

- ولم يقل أحد فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

(البقرة - ٦٧)

بأن البقرة هى السيدة المبرأة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها.

- ولم يقل أحد فى تفسير قوله تعالى:

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾

(طه - ١٢)

بأن المقصود بـ «النعلين» هما أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما.

لم يقل أحد بهذا سوى الشيعة، وهى تأويلات لا يقرها الشرع، ولا يثبتها التاريخ، ولا تسمح بها السياقات اللغوية ودلالاتها واستعمالاتها بأى وجه من الوجوه.

ثانيا: الحقائق العقلية والمسلمات البدهية، من المسلمات العقلية ألا تعتمد روايات مرسلة عن مجاهيل، سواء كانت الجهالة فى الذات أو الصفات، فلا يقال: «حدثنى الثقة» وهذا الثقة غير معروف عندهم، ومختلف فيه بينهم، ولا يقال: «حدثنى قلبى عن ربى»... إلخ.

ثالثا: اعتماد المنهج التاريخى ذلك أننا حين نعتمد المنهج التاريخى وحقائقه التاريخية، واعتماده أمر يشترك فيه كل البشر فضلا عن أهل الديانات، ناهيك عن مذاهب داخل الإسلام، وخاصة الشيعة والسنة.

وباعتماد المنهج التاريخى والأخذ بحقائقه سيثبت لنا - يقينا - أن المهاجرين والأنصار الذين قال الله فيهم:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(التوبة: ١٠٠)

لم يكونوا خمسة فقط بل كانوا أضعافا مضاعفة.

وكذلك سيثبت لنا - يقينا - أن من قال الله فى شأنه:

﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

(التوبة: ٤٠)

هذا الصاحب هو أبو بكر (رضى الله عنه)، فكيف نلعن ونكفر من رضى الله عنهم؟ ومن عاصروا الرسول، وعايشوا التنزيل، واستأمنهم الله تعالى على نقل الدين وحمل أمانته؟!

الجانب الثانى: عقبات فرعية:

عملية إذا كان ما سبق موانع وعقبات نظرية أصولية فى الاستدلال والبرهان فإن ما نورده الآن من حديث هو عقبات عملية تطبيقية، ولن يصح حديث عنها أو انتقال لها إلا إذا تمت معالجة الموانع الأصولية فى الاستدلال والقضاء عليها فى ضوء ما سبق من قواعد وحقائق يجب اعتمادها.

وكل العقبات الفرعية هنا إنما هى نتيجة طبيعية للأصول التى بنوا عليها هذه الفروع، مثل الأسانيد المرسلة التى يبنون عليها أحكاما، ويفرعون عليها شرعا، وقد وضعوا هذه المناهج الأصولية فى استنباط عقائدهم وعباداتهم ليتفق هذا مع مذهبهم السياسى الذى كان حصاد وقائع تاريخية شديدة، لو رجعنا إلى عصر الإسلام الذهبى قبل هذه الأحداث لما وجدنا لهذه الفروع ولا الأصول أثرا فى واقع المسلمين،


القرضاوى

ولكى تنضبط الفروع الشرعية والتطبيقات العملية والعبادات الإسلامية عند السنة والشيعة على السواء يجب أن نعتمد قواعد يأتى منها ما ذكره شيخنا العلامة د. يوسف القرضاوى فى كتابه: «مبادئ فى الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية»، من مبادئ وآداب فى التعامل، مثل: حسن الفهم، وحسن الظن، والتركيز على نقاط الاتفاق، والتحاور فى المختلف فيه، وتجنب الاستفزاز، وعدم التكفير بلا موجب، والبعد عن شطط الغلاة، والمصارحة بالحكمة، والحذر من دسائس الأعداء، والتلاحم فى وقت الشدة، إضافة إلى أنه لا يعبد الله إلا بما شرع على لسان نبيه ﷺ قرآنا وسنة صحيحة، وأن الإسلام قول وعمل، والإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وعليه فإن مبدأ التقية المعمول به عند الشيعة يجب أن يخضع لهذه القاعدة، التى تستخدم فى الأصل - بضوابطها - بين المسلمين والكافرين فقط، وليست بين المسلمين بعضهم وبعض، كما أنه لا يجوز الخروج على الجماعة فى الشعائر الكبرى فى بلد واحد وفى جماعة وطنية واحدة، ومثال هذا: ما يحدث فى الصيام كل عام عند بدء شهر الصيام وعند انتهائه، أو عند استطلاع هلال رمضان، وعند استطلاع هلال شوال، فانتماءات الشيعة الإمامية فى كل مكان إلى إيران حتى لو تقدمت أو تأخرت عن البلد التى يحيون فيها يوما أو يومين أو ثلاثة، وكذلك فى شعيرة الحج، وهى التى تجمع الأمة كلها من المشارق والمغارب، كان الشيعة قبل سنوات قليلة يقفون على عرفات فى

يوم مخالف لأهل السنة، انطلاقا من استطلاع الهلال عند إيران، إلى أن منعتهم السلطات السعودية من ممارسة هذا الشذوذ.

ميزان الإسلام

والإسلام يزن وزن الأشخاص بميزان الله ويحكم عليهم بالظاهر، فلا ينبغي أن تخضع الناس لأحكام الأهواء والشهوات والانطباعات البشرية، إنما تحكم عليهم بميزان الحق، فمن غلبت حسناته سيئاته، وهبت سيئاته لحسناته، قال سعيد بن المسيب -رضي الله عنه- «ليس من عالم ولا شريف ولا فاضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله»[1].

وقال الإمام الذهبي رحمه الله: «ثم إن الكبير من أئمة العلم، إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، تغفر له زلته، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدى به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[2].

وليس لنا أن نتدخل في نوايا الناس، وما بينهم وبين ربهم، بل نحكم عليهم بالظاهر ونكل إلى الله السرائر، ولهذا نهى الله تعالى عن الظن، لأنه لا يغنى من الحق شيئا، وهذه من القواعد العامة في الشريعة، فبعد أن أرسل النبي ﷺ سرية لتأديب أهل فدك، قال أسامة استغفر لي يا رسول الله. فرد عليه النبي حزينا: «قتلت رجلا يقول لا إله إلا الله؟ كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله؟!» فقال أسامة: يا رسول الله إنما تعوذ من القتل. فقال له الرسول: «هلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا». وظل النبي يردد أمامه وهو حزين: «أقتلت رجلا يقول لا إله إلا الله» حتى قال أسامة: وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر له المصطفى ﷺ وأمره بعتق رقبة[3].

المسئولية الفردية

والإسلام يؤكد على مبدأ الاعتراف بالمسئولية الفردية فيما يصدر عن الإنسان، فليس عندنا في الإسلام كهنوت، ولا سلطة في الإسلام إلا للشرع، فلا أحد يستطيع أن يجادل عن غيره أو نفسه أمام الله، أو أن يغفر أو يأجر، أو يضمن لنفسه - فضلا عن غيره - النجاة من عذاب الله أو دخول الجنة، وإنما هذا موكول إلى الله تعالى يوم القيامة، وراجع إلى عفوه وفضله ورحمته، وفي القرآن الكريم ما يؤيد هذه القاعدة بوضوح، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

(الأنعام: ٩٤)

وقال:

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾

(مريم: ٩٥)

وقال:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾

(المدثر: ٣٨)

حتى أعز الخلق وأحبهم إلى الله تعالى لا يملك ذلك فكيف يدعى مرجع أو قسيس أو حاخام هذا من دون الله؟ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فلعله أن يستعتب». (صحيح البخاري، ٥٣٤٩، ج٥/ ٢١٤٧)، فينبغي التأكيد على هذا المبدأ حتى لا يخضع أحد لأحد، ولا يذل فرد لآخر مهما كانت منزلته الدينية ومكانته العلمية، إنما ليس بين الله وبين أحد من خلقه حجاب أو واسطة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(البقرة: ١٨٦)

حديث الصالات المغلقة

وأخيرا لابد من الصدق في التعاطي مع ملف التقريب، فلا يصح أن يتكلم الشيعة مع السنة كلاما في المؤتمرات والملتقيات ثم هم يمارسون بعدها ما يناقض كلامهم معهم، ويؤيدون مبادئ نظرية ثم هم يمارسون تطبيقات تكذب تأييدهم.

وإذا كان المرحوم الشيخ محمود شلتوت أصدر فتوى شهيرة تقضي بأنه يجوز للمسلم السني أن يتعبد على المذهب الشيعي الإمامي، ومعظم علماء السنة المعتدلين يرفضون تكفير الشيعة - إلا ما يوجب التكفير - فلماذا لم يصدر عن مراجع الشيعة أو أحدهم حتى الآن فتاوى وبيانات لقواعدهم بجواز التعبد على أحد مذاهب أهل السنة، وهي أربعة، إن أرادوا التقريب حقا؟! بل إننا نجد كلاما للمرجع الشيعي الأشهر محمد حسين فضل الله ينفي هذا، حيث أجاب على سؤال يقول: هل يجوز التعبد في فروع الدين بالمذاهب السنية الأربعة، وكذلك بقية المذاهب غير الشيعية؟ فكان جوابه بالنص: جواب: «لا يجوز التعبد بأي مذهب إسلامي غير مذهب أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه المذهب الذي قامت عليه الحجة القاطعة»[4]. لكنه حين يسأل عن ذلك أمام الملأ يبتعد عن محل السؤال، ويتحدث عن المشترك بين السنة والشيعة، وعن الاجتهاد الفقهي، وعن الخطوط الاجتهادية، ولا يتجرأ على إصدار فتوى مقابلة.

ولماذا أيضا لم يصدر أحدهم بيانا أو فتوى يلزم بها أتباعه أو قواعده بحرمة سب الصحابة ولعن أبي بكر وعمر وعائشة؟ ولماذا لم يصدروا فتوى بأن الذي يقول بتحريف القرآن أو بأن فيه زيادة أو نقصا فإن هذا قول قد يخرج صاحبه من الملة؟ أم أن التصريح بهذا الكلام في المؤتمرات للذر الرماد في العيون فقط، وتبقى المراجع مع قواعدها على ما هي عليه؟

وبعد هذه العقبات الأصولية والتطبيقية يجب أن يكون هناك صدق في الأخذ بها، والتعاون فيها، وفي كل ما يخدم القضية من قواعد متفق عليها عقليا وإنسانيا.

١- التمهيد: ١٦/ ٧٠.
٢- سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٧٦، وانظر: ١٦/ ٢٨٥.
٣- راجع: السيرة النبوية لابن كثير، ٤/ ٤٣٥.
٤- (مسائل عقدية، ٦١).

الأقليات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى



المستشار طارق البشرى

أولا ـ وضع المسألة:

هذه النقطة من أهم النقاط التى تشغل الرأى العام وتقوم إزاءها الخلافات وهى من مجالات التماس الأساسية فى الجدال الفكرى القائم لدينا الآن، بين التيار الفكرى الإسلامى والتيار الفكر العلمانى. ذلك أن الفكر العلمانى يزهو على الإسلاميين بأنه استطاع أن يجمع غير المسلمين إلى المسلمين فى بوتقة واحدة وفى «ولاء» واحد، وأنه بهذا قمين أن يقضى على وجوه الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وأن يدعم تماسك الجماعة السياسية فى كل بلد، وأن يضيع على من يعملون على أذكاء روح الخلاف والفرقة وإثارة النعرات والعصبيات الطائفية، يضيع على هؤلاء فسيح مقاصدهم وهو فى ذلك يشير إلى وقائع من التاريخ الحديث، ومن أهم أمثلتها وحدة المسلمين والمسيحيين فى مقاومتهم الاستعمار، فى كل من مصر وبلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى.

على أنه من جهة أخرى، فإن «العلمانية» التى استطاعت أن تقارب بين ذوى الأديان المختلفة، إنما حققت هذا المزيج منهم على غير ما تقوم عليه قوة تماسكهم الجماعية والفردية من روابط العقيدة والتراث، أى أن العلمانية حققت لقاء المسلمين والمسيحيين على غير أرضهم المشتركة، وبهذا فإن «العلمانية» صدعت الجماعة حيث شاءت أولا أن ترتق الفتوق فى نسيجها، وأقامت هوة فسيحة بين التيار الإسلامى الذى يربط الدين بالحياة لا ينفصلان لديه، وبين تلك النزعة العلمانية الوضعية، ولا خير فى رتق يسبب فتقا آخر.

ومن جهة ثالثة، فإن العلمانية قدمت إلى مجتمعاتنا من خارجها، ومن خارج أطرها الفكرية والحضارية، وهى إن كانت فى لحظة تاريخية ما مثلت صيغة جاهزة لتقارب المسلمين وغير المسلمين فى بعض مجتمعاتنا، وأفادت فى هذا المجال فائدة ما فى لحظات تاريخية، فإن هذه الصيغة لتحقيق التقارب بين المسلمين وغيرهم لم تكن كافية؛ لأن ضمان بقاء هذا التقارب واستقراره لا يتأتى إلا بأن يقوم هذا الضمان فى نسيج الفكر الإسلامى وأن يقوم لدى المسيحيين فى نسيج فكرهم العقدى أيضا كما أن هذه الصيغة غير الكافية قد صارت ضارة، لأن الفكر العلمانى وإن قدم هذا «التقارب» مأثرة تتيح له شرعية الوجود فى مجتمعاتنا، فإن أصل قيام المنهج العلمانى

يفيد إقصاء الشرعية الإسلامية عن وضعها المهيمن ويفيد عزل الإسلام عن أن يكون أساسا لشرعية النظم والروابط القائمة فى المجتمع، وهو وضع يتجافى مع الأصول الإسلامية العامة لذلك فإن الجدال الفكرى يحتدم بين تيارى الإسلام والعلمانية، وفى هذا الاحتدام يحاول التيار العلمانى أن يدافع عن نفسه بطرح قضية غير المسلمين ويصنع من غير المسلمين سيفه ودرعه. ويعمل على استثارة غير المسلمين وعلى الوقيعة بينهم وبين التيار الإسلامى وهذا وجه للضرر لا يخفى.

وإن خير ما يمكن به إبعاد هذه القضية من ميدان هذا الجدل المحتدم، أن تتضح الرؤية الإسلامية لها، من خلال كتابات مفكرى الإسلام المعاصرين، وما يرونه رأى الإسلام فى أوضاع الأقليات غير الإسلامية فى المجتمع الإسلامى.

ثانيا: مجمل الحقوق والواجبات:

إن كتبا وبحوثا عديدة تكلمت عن حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، وعن واجباتهم، وهى فى جملتها تفيد أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم بحسبانهم فى ذمة الإسلام وأول حقوقهم وأفعلها هو حقهم فى صيانة الجماعة الإسلامية لهم، تذود عنهم وتقاتل من يتهددهم حفظا لأرواحهم وأموالهم وأعراضهم وتلتزم الدولة الإسلامية بمنع ما يؤذيهم وفك أسرهم ولو كانوا منفردين ببلد ما.

ذكر الإمام القرافى «أن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلدنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك».

ومن حقهم أيضا إفشاء العدل فيهم ودفع الظلم عنهم، فهم فى ذمة رسول الله ﷺ، ومن قذف أحدا منهم حد يوم القيامة بسياط من نار، ومن أذى أحدهم فقد أذى الرسول عليه السلام، ومن كلمه أو انتقصه حقه كان الرسول خصمه يوم القيامة، يقول عمر بن الخطاب فى كتاب له إلى عمرو بن العاص أثناء ولايته مصر: «إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك».

ومن قتل أحدا منهم غير حربى قتل ومن سرق قطعت يده ومالهم معصوم، حتى ما يملكون من الخمر والخنازير مما هو محرم على المسلمين، ومما ليس له عصمة المال لدى المسلمين، ولهم ما للمسلمين من ضمانات وكفالات فى أحوال العجز والمرض.

ثم هم مؤمنون أيضا على دينهم وعقائدهم وعباداتهم، مصانة معابدهم مرعية حرمة مشاعرهم ولهم أن يضربوا نواقيسهم ويخرجوا صلبانهم فى أيام أعيادهم وفى غير أوقات صلاة المسلمين، ومن فقهاء المسلمين من أجاز إحداثهم لكنائس جديدة فى الأمصار الإسلامية، إذا رأت حكومة المسلمين فى ذلك مصلحة.

وهذا عهد عمر لأهل بيت المقدس «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبها ولا من شيء من أموالهم».

أما واجباتهم، فعليهم ما على المسلمين ويلتزمون بأحكام الشريعة كقانون حاكم إلا ما تعلق بشئون دينهم ومسائل الأحوال الشخصية ولكن يثور موضوع الجزية المقررة عليهم دون المسلمين بنص القرآن الكريم، وهي واجبة على القادرين على حمل السلاح، فلا تجب على المرأة ولا الصبي ولا الشيخ ولا ذي العاهة، كما لا تفرض على الراهب.

وأن عددا من كبار المفكرين المعاصرين في الإسلام يرى في الجزية نوعا من البدل المالي الذي يؤديه النصارى عوضا عن الخدمة العسكرية المعفيين منها، ولقاء حماية المجتمع الإسلامي لهم ومن ثم يكون من مسقطات الجزية اشتراكهم في القتال مع المسلمين.

وعن توليهم الوظائف العامة فلهم ذلك إلا ما غلبت عليه الصفة الدينية من الأعمال، ويكاد لا يستثنى مما هو مقر لهم صلاحية توليه من الوظائف العامة إلا ثلاثة وظائف، وهي رئاسة الدولة، وقيادة الجيش، والقضاء بين المسلمين والولاية على الصدقات.

هذه بصورة عامة جوانب المسألة كما يضعها التيار الرئيسي من مفكري التيار الإسلامي، على منهج اتبعوه يعود إلى أقوال السلف وآثارهم، ويأخذ منهم ويترك، وفقا لما يراه مستجيبا لكل مشكلات الواقع، ولكنهم لا يخرجون على أقوالهم وآثارهم جملة.

ثالثا - المشاركة في مناصب الدولة:

إن مبدأ المساواة القانونية والتواد الاجتماعي مقرر، تتسع به صفة المواطن على غير المسلمين، إلا في الوظائف العليا في الدولة، وهي رئاسة وقيادة الجيش وتولي القضاء ونحو ذلك ولهذا يكاد ينحصر الحوار في هذه النقطة داخل التيار الإسلامي والملاحظ أن هذه الوظائف تتعلق بمناصب القيادة والتوصية واتخاذ القرارات في الدولة فهي ركن الدولة.

في هذا الصدد نجد عديدا من الاجتهادات تتراءى في كتابات المفكرين الإسلاميين، فالبعض يرى أن حق الأغلبية المسلمة في أن تحكم لا يخل بقاعدة المساواة، وأن ثمة مبدأ يقول «الحكم للأغلبية والحقوق للأقلية»، وأن قيام دولة الإسلام على أساس عقيدي يرتب نتيجة بديهية هي حق الدولة في أن تستخدم الرجال الممثلين لهذه العقيدة في صون خصوصياتها وحراستها، إذ لا يقوم بواجب حراسة المبادئ العليا التي يقوم عليها المجتمع والدولة إلا رجال يؤمنون بهذه المبادئ؛ بمثل ما تصنع الدولة الماركسية إذ تضع أعضاء الحزب في جميع مواقع القيادة والتوجيه.

وثمة اتجاه يذهب إلى أن الدولة الإسلامية تشترط إسلامية الإمام، وهي بذلك تشترط فيمن يختار الإمام أن يكون مسلما أيضا، فإن كان اختياره بالانتخاب وجب أن يكون انتخابه مقصورا على المسلمين، ولكن هذا الاتجاه ترخص في إجازة اشتراك غير المسلمين في اختيار رئيس الجمهورية؛ لأن رئاسة الجمهورية ليست لها صفة دينية الآن، وهي لم تعد تقوم على حراسة الدين، كما كان شأن الخلافة من قبل، كما أنه يجوز لغير المسلمين الترشيح والانتخاب للمجلس النيابي.

وثمة اتجاه آخر يذهب إلى أن غير

المسلمين يستطيعون أن يعملوا في أية هيئة حكومية يؤهلهم لها تدريبهم، بما في ذلك الدفاع عن الدولة الإسلامية، ولكن يمكن أن يستبعدوا من المراكز التي يتطلب ممارسة العمل فيها أن يكون شاغلها مسلما، كوظائف السلطة القضائية أو مراكز رسم السياسة العامة للدولة الإسلامية، ومن هذه المراكز رئيس الدولة والوزراء.

ويرى البعض أنه وإن كان من غير المقبول أن يكون رئيس الدولة أو رئيس الحكومة أو رئيس السلطة التشريعية من غير المسلمين، فإنه يمكن أن يكون منهم «وزراء تنفيذ» ممن لم يشترط في توليهم الماوردي شرط الإسلام، كما يمكن أن يتولى غير المسلم القضاء الجنائي في الحالات التي تقضي بالتعزير، أما الحالات التي تحكم بالحدود الشرعية فلا بأس أن يكون أحد أعضائها غير مسلم مع استحسان أن تكون الرئاسة والأغلبية في أيدي المسلمين والخدمة في القوات المسلحة متاحة للمسلمين بوصفها جهادا شرعيا وهي متاحة لغير المسلمين بحسبانها دفاعا عن الوطن.

وأتصور أنه يمكن التفكير في هذا الموضوع بطريقة مغايرة للطريقة التي يتبعها المفسرون عادة، وأنهم غالبا ما يلجأون في تفسيرهم إلى النظر في النصوص ومحاولة التخريج منها، التخريج الذي يعتبرونه مستجيبا للواقع وفي هذا الصدد قد يقصر سعيهم عن إيفاء غرضهم عسى أن نستطيع الاقتراب من الموضوع من وجه آخر، أي من جهة مدى إمكان بناء نظام دستوري يوافق أصول الشريعة ويحقق في الوقت نفسه مبدأ المساواة بين المواطنين مختلفي الأديان.

وأننا عندما ننظر في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، نجده تكلم في الولايات وشروط نصب الوالي، وربط بين هذه الشروط وبين الصلاحيات التي يمارسها الوالي، أو السلطة التي يتاح له أعمالها ومن هنا شرط في «وزير التفويض» شروطا منها الإسلام وأعطاه سلطات في الحكم لا يحدها إلا حكم الشرع فيما أمر أو نهى ثم تكلم عن «وزير التنفيذ» ولم يشرط لنصبه شرط الإسلام، إنما صرح بجواز تولي الذمي لهذا العمل وأوضح سلطة «وزير التنفيذ» بكونه يبلغ إلى السلطان ما يحتاج إلى إبرام منه، ويؤدي عن السلطان قراراته إلى الآخرين، ثم هو يشارك بالرأي.

ووجه النظر في ذلك الآن، أن بناء مؤسسات الدولة في الأوقات الحديثة، يمكن أن يخالف الماوردي بالنسبة لخريطة توزيع السلطات وكيفية اتخاذ القرارات وذلك على ضربين من ضروب المخالفة:

أولا: يمكن أن يستعاض عن السلطة الفردية بسلطة «الهيئات» أي لا يستبد فرد ولا ينفرد بإصدار القرار في أي موقع من المواقع المهمة في إصدار القرارات، إنما تتولى ذلك هيئة أو جماعة من رجال عدة يتداولون الأمر ويتدبرونه، ومنهم مجتمعين يصدر القرار، أي أنهم جميعا يساهمون معا في حضانة القرار وتنشئته وتخلقه. وهذا ما نجده في المجالس المختلفة الآن، مجالس الوزراء، ومجالس الإدارة وغير ذلك. وفي هذه الصورة يكون «السلطان» هو الهيئة ذاتها، ويكون كل عضو بها وأي عضو بها لا يزيد دوره عن

«وزير التنفيذ»، يؤدى عن السلطان ويؤدى للسلطان ويشارك بالرأى.

ثانيا: يمكن فى تنشئة القرار، ألا يستند إلى هيئة واحدة أو جهاز وحيد، حتى وإن تضمن هذا الجهاز أو الهيئة عديدا من الأشخاص، فتصدر القرارات من عملهم الشائع الممتزج بين بعضهم البعض. وأن تعدد الهيئات والأجهزة التى تتناقل القرار فى ظروف تخلقه الأولى وهو لايزال «مشروع قرار» هذا التعدد يفيد مساهمتها جميعا فى تنشئته عندما يصدر، إذ تتقاسم الهيئات العمل، بعضها لجمع المعلومات والمواد اللازمة وبعضها للدراسة والفحص وبعضها للتقرير والإبرام والبعض للمراجعة ثم التنفيذ.

ثالثا: وبالنسبة لممارسة ولاية القضاء، نجد أمرا مشابها، إذ استبدل بالقاضى الفرد، قضاة متعددون منهم مجتمعين يصدر الحكم فى الدعوى، سواء كانوا ثلاثة أو خمسة أو أكثر من ذلك ينظرون الدعوى معا ويتابعونها معا ويتدبرون أمرها معا حتى يصدر فيها حكمهم مجتمعين هنا نجد إدارة جماعية حلت محل المشيئة الفردية وذاب الأفراد فى هذا الوعاء الجمعى الذى يضمهم معا، حتى إنه لا يعود باستطاعة الواحد منهم فى القضية المطروحة نفسها بعد المداولة أن يعرف بالضبط مدى مساهمته الشائعة فى القرار الذى صدر.

ومن جهة أخرى فقد صار القضاء على درجتين أو أكثر، أى أن الحكم الصادر فى الدعوى، يمكن لأى من أصحاب المصلحة أطراف الخصومة فيه أن يستأنفه أمام محكمة أعلى ليعاد نظر الحكم أمامها ولتنقض الحكم السابق أو تبرمه أو تعدل فيه.

ومجمل القول فى هذه النقطة، أنه حيثما أمكن الأخذ بهذه الأساليب فى الحكم والإدارة فإن ذلك يمكن أن يحقق أكثر ما يمكن من المساواة بين الغالبيات المسلمة والأقليات غير المسلمة، وذلك فى إطار ما لا يخل بالأسس الشرعية الواجبة الصون والرعاية.

رابعا ـ مقتطفات:

يقول الإمام أبو يوسف فى كتاب الخراج: كان الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية، وفتحت المدن على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها، وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم، وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم ويذبوا عنهم.

ويروى أبو يوسف أن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن تترك كنائسهم وبيعهم، وأجابهم إلى طلبهم أن يخرجوا يوم عيدهم بصلبانهم وبقى المسلمين يوفون شرطهم.

ويروى أن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين وحسن سيرتهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم فأتى الرسل يخبرون أن الروم جمعوا جموعا ضد المسلمين، وأبلغ أهل المدينة الأمر إلى من كان خلف أبا عبيدة

فيهم فلما علم أبو عبيدة بكثافة الجند الروم التى يعدونها بعث إلى ولاته فى تلك المدن التى كان صالح أهلها، بعث إليهم يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج، لأن أخذ ذلك كان بشرط دفاع المسلمين عن أهل تلك المدن، فإن كان المسلمون لن يقدروا على الدفاع وجب رد المال وزرد المسلمون المال.

وكتب أبو عبيدة يخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما صنع مع أهل الصلح، فأقره عمر على صنيعه وقال له: «وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ووف لهم بشرطهم الذى شرط لهم فى جميع أعطيتهم».

ولما وجه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد إلى العراق، جعل خالد يفتح البلدان والحصون حتى بلغ الحيرة، فخرج إليه نفر من أهلها وصالحوه على أداء الجزية والبقاء على دينهم وشرط الصلح ألا تهدم كنائسهم ولا بيعهم ولا يمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخراج الصلبان فى يوم عيدهم وكتب خالد إليهم ما يلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد، لأهل الحيرة، أن خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر رضى الله عنه أمرنى أن أسير من منصرفى من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه، وإلى رسول الله ﷺ، وأبشرهم بالجنة وأنذرهم من النار، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وإنى انتهيت إلى الحيرة فخرج إلى إياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة من رؤساهم، وأنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا لا حاجة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية.

وإنى نظرت فى عدتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدة وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذ أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة، فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك.

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو إصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله.

وجعلت لهم أيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فيبع بأعلى ما يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه، ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب.

خصوصيات الحضارة الإسلامية

الوسطية



أ.د عصام أحمد البشير

إن مصطلح الوسطية من المصطلحات التى عدت عليها العاديات[1] وجارت عليها النائبات فأخرجتها عن معناها الإسلامى الأصيل، وأبعدتها عن كونها أخص خصائص منهج الإسلام فى الفكر والحياة والنظر والممارسة والتطبيق والقيم والمعايير والأصول.. إلى معان أبعدت النجعة عن فحواها وخالفت أصل مسماها وما عادت تمت إلى الوسطية بصلة، ولا تتعلق فيها بسبب، الأمر الذى أوجب العناية بالمصطلح واستجلاء معانيه اللغوية والاصطلاحية.

(أ) المعنى اللغوى:

قال ابن فارس فى مقاييس اللغة (الواو والسين والطاء): بناء صحيح يدل على العدل والنصف، وأعدل الشئ أوسطه و وسطه، قال الله عز وجل:

﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

ويقال: ضربت وسَط رأسه بفتح السين، ووسْط القوم بسكونها وهو أوسطهم حسبا إذا كان فى وسطة قومه وأرفعهم محلا.

قال ابن منظور: وسط الشىء ما بين طرفيه، قال أعرابى:

إذا رَحلْتُ فاجعلونى وسطا
إنى كبير لا أطيق العندا

أى اجعلونى وسطًا لكم ترفقون بى وتحفظوننى، فإنى أخاف إذا كنت وحدى متقدمًا لكم أو متأخرًا عنكم أن تفرط دابتى أو ناقتى فتصرعنى[2]، وقال: «وسط الشىء أفضله وأعدله»[3].

يقول الفيروز آبادى: «الوسط، من كل شىء أعدله»:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

أى: عدلاً خيارًا[4]، قال زهير فى المدح:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا نزلت إحدى الليالى العظائم

وينقل ابن منظور عن أحد الأعراب مخاطبًا الحسن قوله: «علمنى دينًا وسُوطًا، لا ذاهبًا فروطًا، ولا ساقطًا سقوطًا». ويعلق قائلا: «الوسوط هنا المتوسط بين الغالى والتالى، ألا تراه قال: لا ذاهبًا فروطا!! أى ليس بنال وهو أحسن الأديان، ألا ترى إلى قول على رضوان الله عليه: خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى!»[5].

ومما يجلى هذا المعنى اللغوى تجلية واضحة لا غموض فيها ولا غبش قول الآخر:

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت
بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فأنت ترى كيف أن الشاعر جمع فى لباقة بين الوسط والطرف مما يشى بالتضاد بين الوسطية والطرفية.

(ب) المعنى الاصطلاحى:

الوسطية فى المصطلح تعنى حالة محمودة تعصم الفرد من الميل إلى جانبى الإفراط والتفريط، أو «هى التوازن والتعادل بين الطرفين، بحيث لا يطغى طرف على آخر، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وإنما اتباع للأفضل والأعدل والأجود والأكمل»[6].

يقول الشيخ الدكتور القرضاوى: «الوسطية يعبر عنها أيضًا بـ التوازن، ونعنى بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، ومثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها، ومعنى التوازن بينهما: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطى حقه بالقسط أو بالقسطاس المستقيم، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار»[7].

إن لفظ الوسطية قليل الشيوع فى كتب الفقه واللغة والأدب القديمة، ولكن معناه موجود إذ كان يستعاض عنه بلفظ العدل والاعتدال والقسط والقصد ونحوه.

الوسطية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة

(أ) الوسطية فى القرآن الكريم:

وردت لفظة وسط ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى مواضع منها:

وسطية الشعائر، فى نحو قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ١١٠)

---

(١) انظر: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، د.محمد عمارة، ص١٨٩.
(٢) لسان العرب لابن منظور، ج٧، ص٤٣٦.
(٣) المرجع السابق، ج٧، ص٤٣٦.
(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادى ج٢، ص١٤٢.
(٥) لسان العرب ج٧، ص٤٣٦.
(٦) وسطية الإسلام، د. أحمد عمر هاشم، ص٧.
(٧) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوى ص١٦٥.

وسطية الإنفاق، في نحو قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾

(الإسراء: ٢٩)

وسطية السلوك، في نحو قوله تعالى:

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾

(لقمان: ١٩)

وقوله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١)

وسطية المعاملات، في نحو قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(الأنعام: ١٥٢)

وسطية القضاء، في قوله تعالى:

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾

(الحجرات: ٩)

وسطية الخيرية، في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وقوله تعالى:

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾

(القلم: ٢٨)

وسطية الزمان، في قوله تعالى:

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾

(البقرة: ٢٣٨)

وهاهنا وسطية زمان لا يضيرها إن كان المعنى صلاة الفجر أو صلاة العصر (وهو الراجح) أو غيرهما من الصلوات كما جاء في التفاسير، إذ أن المقصود الإشارة إلى الزمان لا غير.

وسطية المكان في نحو قوله تعالى:

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾

(العاديات: ٥)

بالإشارة هنا إلى وسطية المكان إذ المعنى أن الخيل المغيرة - في مكان ما - توسطت جمعا ففرقته وبعثرته.

(ب)- الوسطية في السنة المطهرة:

ورد في السنة من الروايات ما يدل على هذه القاعدة باللفظ أو المفهوم.

منها: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٨].

ومنها الدعاء: «وأسألك القصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضى»[٩].

(٨) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب الدين يسر، ج١، ص٢٢

(٩) صحيح ابن حبان، ج٥، ص٣٠٤.

ومنها «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكن أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١٠].

ومنها حديث أنس أن رسول الله ﷺ كان يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئا. وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما إلا رأيته»[١١].

وحديث أنس أيضا قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين. فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا الحبل لزينب إذا فترت تعلقت به، فقال: «حلوه، فليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد»[١٢] وفي الأخرى: «فإذا نعست فنامي».

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: دخلت على خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية وكانت عند عثمان بن مظعون، فرأى بذاذة هيئتها فقال لي: «يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة؟». قالت: فقلت: يا رسول الله امرأة لا زوج لها تصوم النهار وتقوم الليل فهي كمن لا زوج لها فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟». قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب. قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا. فصم وأفطر وصل ونم»[١٣].

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ آخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، رضي الله عنهما، فرأى سلمان أم الدرداء وهي شعثه فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار، فقال سلمان: «إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه، قال صلوات الله وسلامه عليه: «صدق سلمان».

ومنها: ما جاء في وصية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لابنه الحسن رضي الله عنه عند وفاته: (واقتصد يا بني في معيشتك، واقتصد في عبادتك، وعليك بالأمر الدائم الذي تطيقه).

أي الأمر الوسط. ولعل هذا بعض ما تشير له صفة رسول الله ﷺ من أن عمله كان ديمة، أي موصولا غير مقطوع.

واجبات الوسطية

فوسطية الإسلام لا تقتصر على جانب من جوانب الحياة محدد وإنما هي شاملة لكل شعب من شعابها، منظمة لكل شعبة من شعبها مطلة على كل أفق من آفاقها مهما رحب واتسع وامتد.

(١٠) الترغيب والترهيب، ج٣ص٣٠، ومسند أحمد ج٣، ص٢٨٥.

(١١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كانت صلاة النبي، ج١، ص٢٨٢.

(١٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما يكره من التشدد في العبادة، ج١، ص٣٨٦.

(١٣) مجمع الزوائد، ج٤، ص٣٠١.

وسطية فى الفكرة والحركة:

وتتمثل فى وسطية العقيدة الموافقة للفطرة، والعبادة الدافعة للعمارة.

وسطية العقيدة الموافقة للفطرة:

فعقيدة الإسلام هى عقيدة الفطرة: سماحة ووضوحا واستقامة وعدالة وبساطة.. بعيدا عن تعطيل المعطلة وتمثيل المجسمة، وانحرافات اليهود الذين قالوا: يد الله مغلولة، وإشراك النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله. وجفاء الماديين الذين ينكرون الغيب، وشطحات الروحانيين الذين لا يعيشون «الشهادة».

ومعالم الوسطية فى العقيدة الإسلامية ترتكز على:

١- اعتماد منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح فى أمر العقيدة.

٢- البعد عن اصطلاحات الجدليين والكلاميين واعتماد القرآن ومنهج السلف.

٣- الاهتمام ببيان أثر العقيدة على النفوس: من الضرورى العناية ببيان آثار هذه العقائد فى النفوس ليعلم المسلم أين نفسه من درجة استيلاء العقيدة الإسلامية عليه، فإن كانت متأثرة بها حمد الله على نعمته، وإن كانت هذه الآثار ضعيفة فى نفسه عمل على علاجها وتقوية إيمانه، فقد كانت العقائد عند أسلافنا عواطف مستقرة فى القلوب ومشاعر مستولية على النفوس فلما أن صارت عندنا جدلا وكلاما ضعف إيمان الأمة وتسرب إلى دينها الخلل والوهن، وفرق كبير هائل بين عقيدة باردة مخدرة لا تدفع لعمل ولا تحفز على سلوك وبين عقيدة حية محركة تدفع وتحفز وتوجه.

٤- اعتماد طريقى المعرفة النقلية والعقلية فى العقيدة: المعرفة النقلية التى مصدرها الوحى بشقيه الكتاب والسنة، والمعرفة العقلية التى مصدرها الكون بشقيه الطبيعى والبشرى هما مصدرا المعرفة وفق قاعدة موافقة صحيح النقول لصريح المعقول ودرء تعارض العقل والنقل، فالعقل بتبير، والنقل يحكم، والعقل يضىء، والنقل يرشد.

٥- تقوية الصلة بين الوجدان الإنسانى والخالق - جل وعلا - وذلك حتى يصل الإنسان إلى نوع من المعرفة الروحية القلبية وهى أصدق أنواع المعرفة وأعذبها. قال الحسن البصرى: «العلم علمان: علم فى اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب فذاك العلم النافع»[١٤]. فالعلم بالله والمعرفة بأسمائه وصفاته هى أجل أنواع العلوم؛ لأنها تثمر الحقائق الإيمانية والمعارف الوجدانية التى تصل الأرواح بالملأ الأعلى، فيفترح الواحد منهم قائلا: «تمر علىَّ الساعة فيرقص القلب طربا فأقول: لو أن أهل الجنة فى مثل ما نحن فيه إنهم لفى عيش طيب»، ولولا العلم بالله والمعرفة به لما ألفينا تلك الكلمات الحية التى تخرج من قلوب حية مصقولة موصولة بالله: «المحبوس من حبس عن ذكر ربه، والمأسور من أسره هواه».

٦- تكامل بناء العقيدة: يجب أن لا تؤخذ العقيدة تفاريقا ولا أوزاعا، ولقد نعى الله - عزوجل - على الذين اتخذوا القرآن عضين فقال تعالى:

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ۝ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾

(الحجر: ٩٠، ٩١)

بل هى منهج عضوى فى إطار تجريدى يراد منها أن تكون منهجا للحياة وأساسا للنظم، ولئن فتن الناس فى بعض العهود بشرك الأوثان والأموات فإن شرك الأحياء والأوضاع والنظم قد عظم خطره واستطار شرره فى زماننا هذا والأمر له من قبل ومن بعد.

٧- إن تكفير المسلم إنما يكون بأمر قاطع، لا احتمال فيه ولا اشتباه، إذ مثله يكون من المحكمات الواضحات، والأحكام الجليات، وكل من أتى بالشهادتين فقد عصم دمه إلا بحقها المنصوص عليها. والدلائل فى ذلك كثيرة مستفيضة، والحكم بالكفر تترتب عليه آثار جد خطيرة، ونتائج مدمرة وكم قد عانينا وعانى من قبلنا من آثاره الوخيمة، ونتائجه السالبة.

ت- وسطية الشعائر الدافعة للعمارة:

إن وسطية الشعائر فى الإسلام يجسدها قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ۝ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾

(الجمعة ٩، ١٠)

فالتكاليف ليست كثيرة ولا شاقة كما أنها لا تتعارض مع متطلبات الحياة من سعى لرزق وكدح لتأمين معاش ونصب لتوفير حاجة، وجهد لتحقيق عمارة، وبذل لقيادة ركب، وإنشاء حضارة.

كما أن وسطية الشعائر ماثلة فى قواعد التشريع أيضا، إذ أن العديد من القواعد الفقهية التى وضعها الأئمة الأعلام لضبط الفروع الفقهية جاءت معبرة بشكل واضح عن هذه الوسطية. ومن ذلك:

- المشقة تجلب التيسير.
- الضرورات تبيح المحظورات.
- ارتكاب أخف الضررين.
- الاضطرار يرفع الأثم.
- الضرر الخاص يتحمل لصالح رفع الضرر العام.

* الأصل فى الذمة البراءة.

* الأمر إذا ضاق اتسع، وإذا اتسع ضاق فهذه القواعد تحقق التوازن الدقيق والضبط المحكم الذى يعصم من الميل نحو أحد طرفى المعادلة. وذلك أن الأمر يجرى ويتسع فى مساحة معينة محدودة حتى إذا بلغ حدا معينا وأوشك أن يتجاوزه إفراطا أو تفريطا، عاد ليجرى فى اتجاه معاكس حفظا للتوازن المطلوب، فى حركة تلقائية دون أن يبلغ حد التقصير أو المبالغة[١٥]، إنه التوازن الذى اقام الله عليه بناء الكون كله:

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾

(الحجر: ١٩)

(١٤) فضل علم السلف على الخلف ص٦٩.

(١٥) انظر الوسطية والاعتدال فى الإسلام د. الهادى أحمد الهادى ص٥.

والتوازن ينبغى أن يُراعى فى الشأن الإنسانى كله إذا أريد له أن يستقيم ويعتدل من غير ما ميل ولا جنف.

وإنه لمن المهم أن ندرك أن الأمور التى فيها نص صريح كالقصاص والحدود وبعض أبواب الفقه الأخرى تستثنى من هذه القاعدة لأن التوسط فى أمور محددة لا تقبل الزيادة أو النقصان هو بمثابة تلاعب وتعد على تعاليم السماء، كما هو اجتهاد مقابل النص وهذا مرفوض جملة وتفصيلا.

ثانياً: وسطية فى المنهج:

وهذه تبدت فى أمور منها:

١- شمول فى التصور: فرسالة الإسلام هى «الرسالة التى امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة.

والإسلام لا ينحصر - كما يرى العلمانيون - فى العقيدة والعبادة فقط، بل يمتد ليشمل الحياة كلها، وينبغى أن يواكب خطابنا هذا الشمول ويبرز أن الإسلام رسالة لإصلاح المجتمع، وسياسة الدول، وبناء الأمة، ونهضة الشعوب، وتجديد الحياة، تماما مثلما أنه عقيدة وشريعة، ودعوة ودولة، وسلام وجهاد، وحق وقوة، وعبادة ومعاملة، ودين ودنيا.

٢- أسبقيات فى الفهم: إن التصور الإسلامى الصحيح يدرك أن تكاليف الإسلام ليست كلها على درجة واحدة من الأهمية بل فيها ما هو فرض وما هو نافلة، فيها المتعدى النفع وفيها اللازم، ومنها ما هو كلى ومنها ما هو جزئى، والنظرة الوسطية تقتضى أن تقدم الفرض على النافلة، والمتعدى النفع على اللازم، والكلى على الجزئى.

إن معرفة الأولى وإنجازه وتقديمه على ما هو دونه فى الأولوية، أمر فى غاية الأهمية، وغيابه يوقع الناس فى الكثير من السلبيات التى من أهمها:

أولاً: الاستغراق بالجزئيات والتفاصيل والانشغال بها عن الكليات والعجز عن رد الجزئيات إلى كلياتها والفروع إلى أصولها، وفهم العلاقة الدقيقة بينها.

ثانياً: تقديم النوافل على الفرائض، أو التحسينات على الحاجيات، أو الحاجيات على الضروريات فى مختلف جوانب الحياة، وذلك لافتقاد المنهجية الهادية والافتقار إلى التفكير العلمى الرصين، والنظر الموضوعى المنضبط.

ثالثاً: الميل إلى تجاوز الأسباب، وعدم الحرص على الأخذ بها اعتماداً على متوهم، مع تجاهل أن الارتباط بين الأسباب والمسببات ارتباط سنن:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
[الفتح: ٢٣]

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾
[الإسراء: ٧٧]

رابعاً: عدم التفريق بين الحق والرجال، الأمر الذى يؤدى إلى رفض الحق إن جاء من غير ثقة، أو قبول الباطل إن صدر من ثقة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾
[الأحقاف: ١١]

خامساً: الخلط بين ما هو ثابت وما هو متغير، فكثير من المتغيرات أصبحت ثوابت نسبية لذيوعها، وكثير من الثوابت حُولت إلى متغيرات نسبية للجهل بها.

سادساً: عند غياب أسبقيات الفهم تحدث ممارسات خاطئة كثيرة تنطلق من اضطراب المفاهيم وبعدها عن الوسطية، فقد يختلط على الإنسان مفهوم (التهور) بمفهوم (الشجاعة)، ومفهوم (البخل) بمفهوم (الاقتصاد)، ومفهوم (الكرم) بمفهوم (الإسراف) وتنعدم المساحات الفاصلة بين هذه المفاهيم وتضمحل. وقديما اهتدى أرسطو إلى ما عرف عنه بنظرية الوسط الذهبى (The Golden Mean) التى بشر بها ودعا إليها، فالفضيلة عنده وسط بين طرفين، والكرم عنده وسط بين الإسراف والتقتير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور.

٣- مرحليات فى البناء:

فغاية الدعوة إلى الله هى الوصول إلى المثل الأعلى والوجه الأسنى لتطبيق الدين فى واقع الناس، لكن النظرة الوسطية تدعو لمعرفة الواقع المعاش والتفكر فى مرحلية التدرج به من حاله التى هو عليها إلى الحالة المنشودة والغاية المبتغاة.

المرحلية تتطلب منا أن نعرف أولوياتنا ونرتب أسبقياتنا حتى لا يكون السعى بعيداً عن الواقع، عديم التأثير، صاداً عن سبيل الله، بعيداً عن روح الإسلام وسنة الرسول ﷺ، فالصلاة والصيام والزكاة كلها مرت فى فرضها بمراحل حتى استقرت على الوضع الذى انتهت إليه، وتحريم الخمر واستئصال الرق كل ذلك روعى فيه التدرج والمرحلية، ومما قرره العلماء أن التطبيق العملى للشريعة الإسلامية يجب أن يراعى فيه التدرج بخلاف الفكرة التى يطلب فيها الشمول والإحاطة.

وفرق بين النظرية والتصور، والتطبيق والإنفاذ، وحال الاستضعاف غير حال الاستخلاف، وعهد التكوين غير عهد التمكين. وموضع الإقدام غير موضع الإحجام، والبدئيات غير المرحليات.

٤- تكامل فى السلوك: فالإسلام وسط، فى الأخلاق والسلوك بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن أن يدركه، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، «فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضا، وهؤلاء أساؤوا بها الظن فعدوها شراً خالصا»(١٦) والإنسان إنما هو قبضة من طين، ونفخة من روح، أودع الله - جل وعلا - فيه عقلاً وجسداً وروحا، وجعل غذاء العقل المعرفة، وغذاء الجسد الطعام، وغذاء الروح التزكية، وغذاء الوجدان الفن الراقى، كما أوجد له سبحانه: باهرات المعارف، وطيبات

(١٦) الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوى، ص١٢٦.

الطعام، وزاكيات العبادات، وراقيات السماع، والعاقل من يضرب في كل غنيمة بسهم، ويقطف من كل بستان زهرة، ويلبي حاجة الفطرة بما أمر الله، والمقصر من يضيع حاجة من حاجات الفطرة فيختل بناؤه ويضطرب تكوينه.

وفي واقعنا المعاش من يرى المجتمع المسلم مجتمع نسك وعبادة وجد وعزم وحسب، لا يصح لسن فيه أن تضحك ولا لبهجة أن ترتسم على وجوه الناس، كما يوجد أولئك الذين أذابوا الحواجز بين المشروع والممنوع، والحلال والحرام. فجعلوا الحياة لهوا، وأهدروا العمر سدى، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، ودعوة للتوسط في الأخلاق والسلوك، وقد تبدت هذه الوسطية في صفات عديدة منها:

- الدعوة للتوسط في المشي بين التباطؤ والهرولة:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾

[لقمان: ١٩]

- والتوسط في الحديث بين خفض الصوت وارتفاعه:

﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾

[لقمان: ١٩]

- التوسط في الإنفاق بين الإسراف والتقتير:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان: ٦٧]

- التوسط بين الإسراف في المباح وبين الانقطاع عنه:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾

(الأعراف: ٣١)

- والتوسط في المعاش بين الارتماء في أحضان الدنيا وبين الرهبانية المنقطعة:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

(القصص: ٧٧)

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾

﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ثانيا: وسطية في التجديد والاجتهاد

ارتباط بالأصل:

إن وسطية الإسلام كما سلف القول هي من أبرز خصائصه؛ لأنها تصل المسلمين بأصولهم، فحاضرهم ليس مبتوتا عن تالد ماضيهم، وناصع سيرة الصالحين فيهم، بيد أنه ليس رهينا لذلك الماضي، حبيسا لنتاج أولئك العظماء الماضين، بل يدرك كم ترك الأول للآخر، فالزمان غير الزمان والبيئة غير البيئة والمشكلات غير المشكلات، وأسلافنا الأخيار إنما اجتهدوا في حل قضاياهم هم ولا يجوز لنا أن نكلفهم ما لا قبل لهم به من حل قضايانا نحن:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(البقرة: ١٤١)

واتصال بالعصر:

إن الحياة - في النظرة الإسلامية - يعتريها تغير مستمر، وتعتورها تقلبات دائمة، لذلك تأبى وسطية الإسلام الانفصال عن العصر وعدم معرفة ما يدور فيه وإلباس اجتهاد متأثر بظروفه وبيئته بلباس الديمومة والعصمة، والأبدية، والحيلولة دون أي اجتهاد آخر منبثق عن بيئة مختلفة وظروف مغايرة تتمايز عن سياق الاجتهاد الأول، إذ أنه لن يكون للمرونة والسعة أي معنى إذا تحول النص الظني - دلالة أو ثبوتا - بسبب اجتهاد إلى نص قطعي في حق غير المجتهد.. وبالمقابل ينبغي الإبقاء على النصوص القطعية قطعية فلا تنالها يد التغيير والتبديل فتتحول بسبب اجتهاد إلى نصوص ظنية بعد أن كانت في أصولها نصوصا، إن الارتباط بالعصر يقوم على إدراك البعد الزمني للأفهام، والتمييز بين ما كان من الأفهام ظرفيا وما لم يكن كذلك، إن وسطية الإسلام تبين أن النصوص متناهية والحوادث متجددة والتجارب في اضطراد، وما عندهم من كؤوس دهاق وجفان مترعات لا تضيق بالزيادة النافعة ولا الإضافة المفيدة.

فالأحكام لابد لها أن تجدد وتتبدل بتجدد الظروف وتبدل الأحوال والأزمنة والأمكنة والعوائد في كل عصر ومصر لتناسب المراد من التشريع في ذلك العصر، دون تخط لأمر الارتباط بالأصل، لذلك نجد أن الإسلام يدعو المسلم للارتباط بعصره والأخذ من الحضارات الأخرى ما لا يتعارض مع قيم الأمة الأخلاقية وأصولها العقدية ومفاهيمها الفكرية ومناهجها التربوية وتوجهاتها التشريعية فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها فهو أحق بها، ولا يهمه من أي وعاء خرجت، وهذا ما سار عليه سلفنا الصالح يوم أن اتصلوا بغيرهم وأخذوا عنهم أخذ عزيز عالم بأصوله ومقاييسه ومعاييره في الأخذ والرد والرفض والقبول والإقرار والإنكار.

وسطية الأحكام

تعظيم للأصول:

إن وسطية الإسلام تعظم الأصول التي يقوم عليها بناؤه وتصونها عن أن تمتد لها يد التلاعب بتبديل وتحريف - كما حدث في الديانات السابقة - أو بمحاولة إفراغها من معانيها ودلالات مضمونها.

والثوابت الإسلامية المتمثلة في المقاصد الكلية للشريعة والفرائض الركنية والأحكام القطعية والقيم الأخلاقية ونحوها أصول لا يجوز التهاون فيها مثل محاولة بعضهم لزلزلة هذه الثوابت مستغلين فهما خاطئا للوسطية، موازيا للمساومة وأنصاف الحلول.

تيسير في الفروع:

وعلى النقيض من تعظيم الأصول ترعى الوسطية التيسير في الفروع، دفعا للحرج، ورفعا للأغلال والآصار، وهو منهج نبوي قائم على مبدأ، «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما»، «يسروا ولا تعسروا»، وقد قال الفقيه سفيان الثوري: «إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشدد فيحسنه كل أحد». في المواطن التي لم يرد فيها نص أو في الأحكام الظرفية، وفقه الأسبقيات وأمور السياسة الشرعية والذرائع والمآلات والواقع وتغير الفتوى به ونحو ذلك والصواب أن نوازن بين تعظيم الأصول وتيسير الفروع وفق منهج نظري حكيم يتحرى التجرد والموضوعية في

النظر للنصوص الشرعية ويلتزم النظرة الكلية التكاملية للنصوص الشرعية ويعمل على رد المتشابه إلى المحكم والظنى للقطعى والفرع للأصل والجزء للكل.

خامسا: وسطية فى التفاعل الحضارى:

خصوصية بلا انكفاء: إن وسطية الإسلام فى التفاعل الحضارى تطلب أن يدرك المسلمون تفرد دينهم وخصوصيته المتمثلة فى صحة فكرته وصواب منهجه وإحكام شريعته وترابط مجتمعاته، غير أن هذه الخصوصية لا يراد لها أن تعزلهم عن الآخرين، بقدر ما يراد لها أن تمهد الطريق لهم للتعامل مع الآخرين، فالإسلام دين تبدت قدرته على التعايش مع كل الجماعات البشرية غير المحاربة ـ من نصارى ويهود.. ملوك وفقراء.. سود وبيض.. إلخ ـ على مر الدهور والأيام، بما شهد له العدو قبل الصديق، لكن ذلك التعايش كان محكوما على الدوام بضوابط منها:

١ـ الاعتراف أن الاختلاف بين بنى البشر فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾

(التغابن: ٢)

وقد منح الله البشر الحرية والاختيار فى أن يفعل ويدع، أن يؤمن أو يكفر:

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(الكهف: ٢٩)

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا ينحصر دوره فى مهمة البلاغ المبين قولاً وعملاً دون إجبار أو إكراه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)

٢ـ وحدة الأصل الإنسانى والكرامة الآدمية:

اتساقًا مع قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وقوله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

فالناس أكرمهم عند الله أتقاهم، أبوهم واحد، والرابطة الإنسانية بينهم قائمة شاءوا أم أبوا، هذه الرابطة تترتب عليها واجبات شرعية كالقيام للجنازة أيًا كانت عقيدة صاحبها.. روى البخارى أن النبى ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودى فقال: «أليست نفسا!»[١٧]، وفى هذا من التكريم ما فيه، وفيه من الاعتراف بحق الآخرين ما لا يخفى.

٣ـ التعارف:

لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكما ورد فى الحديث «وأشهد أن العباد ـ كلهم ـ إخوة»[١٨]، فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة فى الدار أو الوطن بالتعبير العصرى، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها، أو التنكر لها.

والروابط الاجتماعية بين البشر كثيرة، عبرت عنها الآية:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(التوبة: ٢٤)

إذ حوت: الرابطة العائلية، والرابطة القومية، ورابطة الإقامة (الوطن)، ورابطة المصلحة، والرابطة الإسلامية.

٤ـ التعايش:

إذ أن حياة المتشاركين لا تقوم بغير تعايش سمح: بيعا وشراء.. قضاء واقتضاء.. ظعنا وإقامة..، وتاريخ المسلمين حافل بصور التعامل الراقى مع غير المسلمين، وقد حدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أساس هذا التعايش بقوله:

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

إن غير المسلمين إذا لم يبدأ بحرب، ولم يظاهر على إخراج، فما من سبيل معه غير التعايش الجميل الملتزم بالبر وهو جماع حسن الخلق، والقسط هو العدل والفضل والإحسان، وفى القسط على العدل زيادة معنى وفضل مراد.

٥ـ التعاون:

كثير من القضايا العامة تشكل قاسما مشتركا بين المسلمين وغيرهم، ويمكن التعاون فيها، كما أن الأخطار التى تتهددهم معا ليست قليلة، ويمكن أن تشكل هذه القواسم المشتركة منطلقا للتعايش والتعاون، ومن أهم هذه القواسم المشتركة ما يلى:

(١٧) البخارى كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودى ح رقم ١٢٢٩.
(١٨) سنن أبى داود، ج٢، ص٨٣.

تفاعل بلا ذوبان: إن وسطية الإسلام تجعله لا ينظر للآخر بازدراء واحتقار، كما لا يراه بعين الإعجاب والانبهار، بل يتعامل معه وفق موجهات منها أنه:

١- يؤمن بالتعددية الحضارية الثقافية التشريعية والسياسية والاجتماعية:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة: ٤٨)

٢- يعمل على تنمية آفاق التواصل الحضارى ومن ذلك الإفادة من الآخر فى المنهج العلمى فى الكونيات والنظم الإدارية المتقدمة وتجديد الإحساس بقيمة الوقت وقيمة العدل فى ظل مناخ كريم والدعوة إلى قيام شراكة إنسانية قويمة، قوامها التبادل العادل للمصالح، والسعى الجاد لخفض أصوات الغلاة من الطرفين.

٣- يهتم بالكتابات التى تقدم لغير المسلمين ويركز فيها على الحجة العقلية التى قد تقدم بين يدى النصوص الشرعية.

٤- يدعو إلى تأسيس فقه الأقليات المسلمة فى مجتمع غير المسلمين على قاعدة «لا تكليف إلا بمقدور» أى على قدر الوسع والطاقة بما يحقق للمسلمين الحفاظ على هويتهم دون انكفاء والتفاعل دون ذوبان.

٥- يركز على المنظومة القيمية فى علاقاتنا مع الآخر والقائمة على وحدة الأصل الإنسانى ومنطلق التكريم الإلهى للإنسان:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠)

وإحياء مبدأ التعارف:

﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات: ١٣)

وتعميق الأخوة الإنسانية، وأشهد أن العباد كلهم إخوة، والتعامل بالبر والعدل مع المسالمين:

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة: ٨)

٦- يعمل على إيجاد القواسم المشتركة والإعلاء من شأن الأنساق المتفقة، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل العدل والمساواة والحرية.. إلخ، وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر والعرفان.

٧- لا يرى الآخر «الغرب تحديداً» كتلة واحدة، بل يتعامل معه على أساس أنه دائرة واسعة الأرجاء، متعددة النوافذ، يمكن مخاطبتها بموضوعية لرعاية المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة دون حيف أو ظلم لتحقيق الأمن والسلام العالميين.

٨- يؤكد الالتزام الواضح بالحرية وحقوق الإنسان ومشروعية الخلاف الفكرى والتعدد الدينى والثقافى والتداول السلمى للسلطة ويدافع عنها بوصفها أساساً من مبادئ الإسلام، ويدين العنف فى العمل السياسى ولا يخلطه بالجهاد.

٩- يدعو إلى إحياء مبدأ التساكن الحضارى واستكمال التوازن المفقود فى الحضارة الغربية بالأساس الأخلاقى والبعد الإنسانى عبر قدوة ومصداقية يتطابق فيها المثال والواقع ويكون بالدلالة الحال أبلغ من دلالة المقال.

١٠- يعمل على الإسهام فى علاج مشكلات المجتمعات الأخرى خاصة المجتمعات الغربية.. من انحلال أسرى وتفكك اجتماعى

وانهيار أخلاقى وانحراف جنسى وتعصب عرقى، والعمل على إبراز تلك الإسهامات.

اعتزاز بلا استعلاء: إن دعاة الوسطية ينظرون إلى واقع البشرية اليوم، وملء نفوسهم فيض من اعتزاز لا تحد، وآيات تقدير لا تعد، يكنونها لهذا الدين، ولماضيه التليد، وإرثه المجيد، وهديه الرشيد، ويتوقون ليوم تسعد فيه البشرية بقيادة الإسلام لركبها: تحقيقاً للعدل وحملاً للكل ونشراً للسلم وردعاً للظلم، فالمسلمون ما فتئوا – وفى وقت الاستضعاف وشيوع الظلم والإجحاف – يرتكزون على اعتزازهم بهذا الدين وما به من قيم حق وعدل وفضيلة فيزداد إيمانهم وتقوى إرادتهم ويتحملون الصعاب ويبذلون الجهد فيغير الله ما بهم من حال، فإذا أورثهم الله الأرض ومن عليها، لم ير منهم استعلاء ولا تكبر ولا بطر للحق ولا غمط للناس، ولا تصفية لحسابات قديمة والتاريخ يشهد بذلك منذ فتح مكة وقولة الرسول ﷺ لأهلها الذين آذوه وأرادوا قتله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، مروراً بما فعله المسلمون عندما هزموا التتار الذين دمروا بغداد ومشوا بالفساد فما عرف التاريخ أن المسلمين ثأروا لأنفسهم بعد انتصارهم، بل عفوا وأصلحوا كما أمرهم ربهم وحققوا معنى الوسطية.

تسامح بلا هوان: هذا التسامح الكريم، والتعامل الشريف، والمخالقة النبيلة، التى يمدها الإسلام للمخالف لا يجوز أن ينظر إليها فى إطار غير إطارها فيظن بالإسلام وأهله ضعفاً وهواناً يفضى بهم إلى أن يذوبوا فى غيرهم من الكيانات البشرية التى تمثل حضارة غير حضارتهم وتوجهاً غير توجههم، فالمسلمون أمة قائمة برأسها تتمتع بخصائصها الذاتية المتميزة فهم كما وصفهم رسولهم الكريم «أمة من بين الأمم تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

خاتمة:

لا شك أن الأمة الإسلامية، هى خير أمة أخرجت للناس، وهى الأمة الوسط التى عناها سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣)

وإذا كان الوسط يعنى العدل والخيار والفضل، فما أحوج البشرية لمن يجسد هذه المعانى واقعاً يتحرك لينقذها من وهدة المادة الصفيقة ومحبس الطين اللئيم.

ولن يعرف العالم سعادة ولا هناءة إلا والأمة الوسط على رأسه: قيادة للأمم وأستاذية للعالم، فهل يحقق المسلمون ذلك؟، الإجابة: لا شك نعم:

﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف: ٨)

ولكن ذلك يحتاج إلى جهد يبذل، وعرق يسكب، ولا سبيل إلى تغيير الأوضاع الخارجية إلا بتغيير داخلى تحدثه فى نفوسنا:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١)

وقوله حق، ووعد وما التوفيق إلا من عنده، عليه توكلنا وإليه نتيب.

الـــزواج



أ.د. نظمى لوقــا

الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات.

هذا هو لباب ما يثور حول موضوع الزواج فى دين الاسلام.

فلا بد من وقفة هاهنا لنتبين الحقيقة فى هذا.

من المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى، ولا عصر من العصور دون سائرها، ولا بيئة من البيئات بعينها. وانما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك، مع مراعاة فطرتهم السوية.. ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التى لا يبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس.

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة، وهى تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم، عسى أن يضع حدوداً لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم.

وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى. ومن البديهى أيضا ألا يطيقه إلا المثاليون، وخاصة ذوى العزم، وما لهؤلاء فحسب جعلت هداية الدين.

ونظرة إلى واقع الحياة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة، تطلعنا على تعدد النساء فى حياة الرجل الواحد، سواء جهراً أو سراً، وسواء برخصة من القانون أو الدين، أو حتف القانون والعقيدة.

وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة، فإن أثر الشعور بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة لأثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تقوم السعادة الروحية والنفسية بغيره. فضلاً عما فى العلاقات المختلسة من إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه.

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر. ففى الريف والبادية يعز القوت أحياناً ولا سيما على المرأة. وقد يكون فى عدد النساء زيادة عن عدد الرجال. فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها مادياً ونفسياً إلا إذا صارت فى كنف رجل. وعندئذ لا حيلة فى التعدد، لأنه الحل السليم الوحيد، أو هو أسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها، والضرورات تبيح المحظورات.

هى رخصة إذن تستخدم بحقها، وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة، أو من أحوال الأفراد.

وما القول فى زوجة أقعدها المرض؟ وما القول فى الزوجة العقيم؟ وما القول فى الزوجة الفاترة؟ وما القول فى الزوجة السقيمة الأعصاب؟ أطلاقها أرحم بها، أم إردافها بزوجة أخرى؟

لا شك أن الأمر واضح.

هى رخصة إذن تستخدم بحقها. ولكنها ليست إلزاماً، فهذه سورة النساء تقول بصريح النص:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(النساء:٣)

بل وتقول أكثر من هذا:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(النساء:١٢٩)

وفى هذا إيحاء، بل حض على التزوج بواحدة.

وليس من الإنصاف فى شىء أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا. بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه، ففى تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقاً من كل قيد.. ومن هذا نفهم سر قول القرآن:

﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾

(النساء:٣)

بلهجة من يعدد للطامع ما هو مباح، بأسلوب يوحى بالتوسع، وهو يرمى إلى التضييق كل التضييق.. ما أشبه هذا - فى تصورى - بالأب الذى يقول لطفله الشره إلى الحلوى شرهاً لا يقف عند حد، أو لا يؤذن بقناعة دون العشرة والعشرين:

- سنعطيك واحدة فى الصباح، أو قل اثنتين. وثالثة فى الظهر ورابعة فى العصر. أرأيت أنى لم أبخل عليك؟ أما ما زاد عن ذلك فليس إليه سبيل!

ثم تلا ذلك الإيحاء بالواحدة لمن خاف الظلم عند التعدد، وليس عن الظلم عند التعدد محيص.

أما فى غير تلك البيئة وشبيهاتها من بيئات البشر الذين تتوجه إليهم الدعوة، فالمسألة أوضح، ولن تضيرهم رخصة التعدد وهم على التوحد أو أقرب إليه طبعاً ونشأة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(البقرة:١٨٥)

ففى ميدان الفضل والتعفف سعة، وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات.

ولا يتم النظر فى موضوع الزواج، ما تعدد منه وما توحد، من غير النظر فى كيفية الزواج، أو نوع الصلة الزوجية. إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى. على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنسى النوع البشرى. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(الروم: ٢١)

هكذا جاء في سورة الروم. وإني لأرى في قوله ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ لمسة تمس شغاف القلب، وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن. وما أقرب السكن في هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الأجساد، بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.

مشاطرة نفس، وسكنها وسكينتها، ومودة ورحمة، ما من شيء في هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية البحتة. فإن الشهوة تأخذ، وتنال، وهي معتصمة بأنانيتها وانعزالها عن الطرف الآخر، ولا تزيد بعد مآربها إلا شعورا بالعزلة والوحدة الموحشة. وشتان هذه والمشاطرة، وسكن النفس، والمودة والرحمة.

كل أولئك من صفات الحنان: الحنان، الذي يرحم ويؤثر، ومن صفات المحبة التي تعطي قبل أن تأخذ، وتنيل قبل أن تنال، وتقيم مطمئنة لتزداد بالمساكنة غنى وأمنا وأنسا.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء..

الزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلباً شهويا جسديا وإن كان له أساس جسدي.

فما كان أحرى الناس لو أن مطلب الجسد رائدهم ومبتغاهم ألا يعرفوا حدود الزواج وقيوده، التي تفرض الالتزامات على كل حال، ثقلت تلك الالتزامات أو خفت، وتربط بين الزوج وزوجه برباط هو قيد على كل حال، وفي خارج الزواج لا قيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء اللبانات الشهوية.

ورب قائل يقول: أما والزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدي.. ففيم التعدد إذن، وإن كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنكبها متعففاً من شاء؟.. أما كان التوحد هو سبيل ذلك السكن النفسي بمعنى الكلمة؟

والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء.. ولكن المبادئ قلما تعيش في دنيا البشر فتتيسر في أمور هي أمس ما تكون بالحياة اليومية والحقائق المادية.

وأزيد الأمر وضوحاً:

أين هي الزوجة المثلى التي تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن إليها نفسه سكناً كاملاً حتى لا يفتقد في كنفها لونا من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق إليه؟

قليل. أقل من القليل.

يقول سليمان الحكيم، الذي عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان، وقد اجتمع في وطابه من التجارب الزوجية، والنسوية ما لم يجتمع لإنسان:

«الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس.. من ذا يجدها؟!».

إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء لن تهفو نفسه إلى سواها، بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلاً ولا يروم عنه حولاً... وأما من لم يجدها، ففي نفسه أشواق تظل ظمأى، تتلفت صادية تنشد ريها هنا وهناك.

هنا وهناك هذا واقع نلمسه كل يوم، وكل ساعة! في رجال محصنين بالزواج، تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم، في علاقات مختلفة، تسف بهم وبشريكاتهم إلى درك الحيوان، أو درك الخزي والتأثم المهدر لشعور

الكرامة الذي هو خاصة الإنسان.

فراغ ينشد الامتلاء، فالطبيعة تفزع من الفراغ وتأباه كما يقول الحكيم القديم: ومن هنا يكون في رخصة التعدد ملاذ يكفي الناس شرين: أولهما شر التورط في الآثام التي قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية، وثاني الشرين تطليق الزوجة القديمة لتفسح للزوجة الجديدة مكانا في نظام التوحد وقد تكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد. وقد تكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال، خالية اليد من مهنة، خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها، ولعلها كانت تؤثر البقاء في كنف زوجها على كل حال.

وإني أعرف من تجربتي الشخصية حالات كثيرة من هذا القبيل، سأذكر منها حالة جار لنا في دمنهور منذ عشرين سنة كان متزوجاً من سيدة قضى معها ربع قرن لم تشركها زوجة أخرى، وكان لهما ولد واحد تجاوز العشرين من عمره، ثم مات فجأة.. وخيم الحزن على البيت.. وكان واضحاً أن الزوجة بلغت سن اليأس منذ زمن.. وإذا بها تلح على زوجها أن تخطب له زوجة تنجب لهما ولدا تقر به أعينهما في خريف العمر! وخطبت الزوجة لزوجها.. وأعرس في دارهما. وكانت الزوجة الأولى من أبر الناس وأرفقهم بالزوجة الجديدة وكأنها ابنتها.. وكان فرحها بالمولود البكر فرحاً جارفاً، فكأنما دبت الخضرة في عودها الجاف، وعود زوجها الثاكل.. وأشهد أن هذا الطفل كان ألصق بصدر زوجة أبيه الكهلة من صدر أمه الشابة. وأشهد أني أدركت من أحوال هذه الأسرة معنى ما حفلت به كتب بني إسرائيل من ندب الزوجة العاقر جارية لها كي تحمل من زوجها وتلد لها نسلا!

وفي اعتقادي، أن هذا الرأي المستمد من الواقع في تحديد ظروف التوحد والتعدد هو أقرب ما يكون للتعليل الطبيعي.

ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك في فراشه أحداً مدة حياة خديجة، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريباً، هو طور الفحولة في حياة الإنسان، ما بين الخمسة والعشرين والخمسين.. ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها. وليس هذا موضع الكلام في ظروف زواجه بأولئك الزوجات، بل حسبنا الإشارة إلى أن خديجة كانت الزوجة المثلى في حياة الرسول، ظل يشهد بذلك ويغار عليها إلى ختام أيامه، ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيراً منها قط!.

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكنت إليها. ولما ذهبت تركت فراغا هائلا لم تستطع واحدة أن تملأه. وأكاد أحس أن الكثيرات عجزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام.

وأيا كان التعدد بموجبات تلك الرخصة، فهو مشروط على كل حال بالمودة والرحمة، فلا تحل فيه المغايظة والإضرار الأناني اللئيم...

وبحسبي أن أشير هنا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجال بثانية ما دامت الأولى في عصمته لما في ذلك من المضارة للزوجة وهي سيئة لا يستحسنها العقل.

وهنا في اعتقادي من باب السمو الذي يحض القرآن عليه إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذي لا مناص منه في حال التعدد، ولكن الرخصة واضحة، والحكمة منها قاطعة

بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهي التوحد. رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها، والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود. وها نحن نرى ظروف الناس تتقدم بهم يوماً بعد يوم نحو سياسة التوحدّ في الزواج، مع ارتقاء العلم، وانفساح الفرص للزواج عن بينة ودرس وتمحيص.

***

ولا بد في هذا المقام من التعرض لناموس الزواج أصلاً، بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصاً، خلاصته أن العفة وأن الرهبانية هي الأصل، ومن لم يستطع ذلك فليتزوج. فكان الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك. ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئة الأولى، واعتبار أن العلاقة الجنسية شر في ذاتها ولذاتها. وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا، فهذا الترهب، مع التنسك، والصيام المسيحي العزوف عن أطايب الإدام، أدلة على الضيق بالبدن، وازدرائه، وصحبته على مضاضة، والنظر إلى مطالبه، وإلى زينة الدنيا جملة نظرة عداء وخصومة.

البدن شر لا بد منه، وكذلك الزواج. والخير كل الخير في محاربتهما وعدم الانسياق لهما والإخلاد إليهما. حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار. وإنما هو الصراع المستعر، والقلق المستمر، الذي تفسد به الدنيا، وتعيا به النفس. وقد كشف لنا علم النفس الحديث عن العلل والآفات المخربة التي تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية. وما حال إنسان يمارس الحياة حزيناً مستخزياً من كل نبضة سرور بها وكل خلجة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية إليها!

إن الإسلام لا يقاوم الحياة، بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها، وصيانة ينابيعها من الأكدار. ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما في واقع الجبلة التي جبلها خالقها الحكيم الخبير.

إن القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية في إبداع الجنسين وكيف أن هذه سنة الله في خلقه كافة في جميع مراتب الحياة. والرسول يؤكد أن الزواج نصف الدين. وأي تعبير أقرب إلى فطرة الحياة، ويرفع عن تلك الصلة كل شبهة في خزي أو هبوط معيب، مما ورد في سورة البقرة، بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

(البقرة: ١٨٧)

أو مما ورد في سورة النساء في باب تعظيم ما يكون بالزواج من ميثاق وعقد وعهد له حرمة ترعى:

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾

(النساء: ٢١)

بل إن الكراهة أمر لا يسوّغ البدار إلى فصم العروة الوثقى، كما جاء في سورة النساء أيضاً:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ
أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ١٩)

إن الأساس في ذلك العقد أنه لا ضرر ولا ضرار:

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

(البقرة: ٢٢٩)

كما جاء في سورة البقرة.. وإن ذلك لمسار الخلق الكريم الذي يترفع في سمت الفروسية عن الافتئات الذميم والجور اللئيم. حتى إن الرسول قال في خطبة الوداع:

«واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله»:

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها في كنفه، فهي تحت رحمته، ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها. إنها أمانة الله في يده وعنقه. وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد!

استجابة للحياة في طلاقة وبراءة من التأثم. وتقديس لدوافعها وورود طلق لينابيعها، مع الحفاظ عليها من أكدار البهيمية المسفة. بذلك يسعد المرء من بني الإنسان، وترفرف في نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة. ولا يجد حرجاً بين ربه ونفسه، وربه قد خلقه على تلك الفطرة، ولو شاء لجعله ملكاً لا بدن له ولا شهوة.

كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا وقد نهض بهذا الإسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر والخزي وعقدة الإثم الشوهاء التي كبلته.. ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة.

***

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

[البقرة: ٢٢٩]

أجل!

لا يمكن أن تتم لنا فكرة متكاملة عن الزواج، من غير التعرض لموضوع الطلاق.

والحق أنه يعسر جداً تصور زواج بغير طلاق بصورة من الصور.. فالزواج نظام جعل لإسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم.. ولم يجعل الناس ليكونوا عبيداً أو ضحايا للزواج، فالزواج الذي تستقيم به حياة الإنسان هو الذي يستحق الإبقاء عليه.. أما الزواج الذي به تفسد حياة الإنسان ويتطرق إليها العطب والعفن وصديد الحقد والسخط.. فهذا ينبغي أن يبتر قبل أن يقضي على فرصة الحياة الفذة المقدسة، كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصاً على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور عزيزاً.

«لا ضرر ولا ضرار»

قاعدة ليس أحكم منها في جميع شئون البشر ومعاملاتهم.

وهذه هي القاعدة الإسلامية العامة.

إن فرصة الإنسان في الحياة واحدة، فقيم نجعلها عذاباً مقيماً للزوجين تبين أن الوفاق بينهما مستحيل، وأن حياتهما معاً إهدار لحياتيهما لا محالة.

إن التطبيق العملي أثبت ذلك، وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق في قانونها بواسطة المحاكم.. وذهب بعضها إلى التوسع في أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية.

ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان، إن كان يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأي حال من الأحوال؟ إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار

فيها ولا حرية، وفي يقيني أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير هما حجر الأساس في كل إحساس بالكرامة البشرية.. وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت.

إن السعادة الحقيقية هي التي يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح، وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد، ما اختار إلا ما هو فيه.

إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق.. أو جراحة موجعة.. ولكن من ذا الذي يلغي التداوي كراهة للمرارة، أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب؟

لابد من الدواء ومن الجراحة، ما دمنا نعيش في عالم كون وفساد، وصواب وخطأ، وصحة ومرض، وحكمة وحماقة.. بحيث لا عصمة للبشر.. لابد من وسيلة لتدارك الأخطاء، وإعطاء الفرصة لبني آدم وبنات حواء كي يبدءوا من جديد بناء سعادتهم في الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح، يعمرها الأمن والمودة والرحمة.

والإسلام يضع رخصة الطلاق في موضع الدواء الكريه المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة، ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة في إصلاح ذات البين.. فقد جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

[النساء: ٣٥]

فإذا عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين، فقد آن إذن أن يكون: ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها، والقاعدة المثلى في الإسلام أنه «لا ضرر ولا ضرار» ولذا جاء في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾

[البقرة: ٢٣١]

وليست المرأة في جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمساكًا وتسريحًا إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج، فيكون زمام الحياة الزوجية في عنقها إن شاءت أبقت، وإن شاءت فصمت.

وهذا هو الحد الذي يقول العقل إنه لا يجور على حقوق السعادة الفردية، ولا يجعل الزواج أحيانًا «عاهة مستديمة» بغير مبرر عقلي، وبغير مصلحة لكائن من كان.

وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد.. وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة، وأحكام الحضانة. ثم ما من أحد يقول إن تربية الأطفال في كنف أبوين متفاهمين متحابين أمر يستوي وتربيتهما في كنف أحدهما دون الآخر.. ولكن المسألة هي أنه إذا امتنع التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا ينشأ الأولاد في ذلك الجو الحاقد اللدود، فذلك أهون الشرين لهم.. وهو كذلك أهون الشرين للأبوين.. وهي على أي حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة.

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها الإنساني والشرعي، قضاء لمآرب وضيعة.. فجاء في الحديث الشريف:

- «لعن الله كل ذواق مطلاق».
- و«لعن الله الذواقين والذواقات»
- و«لعن الله كل مزواج مطلاق».

والحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل.. حتى يكون هناك موضع للمراجعة قبل أن تقع الواقعة.. فإن سلطان الغضب غشوم.. أما السكران والمحرج والمكره فلا يقع منه طلاق.

وأما القول بأن يكون القاضي هو الذي يصدر الطلاق لأسباب محددة، مثل الزنا، فقول فيه وجه غضاضة.. لأن التحاكم في دور القضاء فيه ابتذال للأعراض حتى تغدو مضغة في الأفواه وعرضة للجاجة والملاحاة.

إن صون الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق، وفيه من النخوة والبصيرة الشيء الكثير، حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة أخرى.. وحتى لا يوصم بناتها أو أبناؤها بما تردد في قاعات المحاكم من مثالبها، وما قد يصدر حكم القاضي تأسيسًا عليه.

ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التي تجيز الطلاق بناء على طلب الرجل؟

إن الزواج صلة حميمة.. وقد لا يرى الغريب في المرأة عيبًا.. ولكن يجد الزوج فيها عيبًا كبيرًا.. وليس من الضروري أن يكون ذلك العيب جسميًا أو محسوسًا. فهناك اختلاف الطباع، مع كمال الأدب في الزوجين، بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم.. أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء، وإلى الزيت فقد يكون من أجود الزيت، ثم لا يمكن بينهما امتزاج لاختلاف المعدنين؟

كذلك الناس معادن شتى، قد يطيب كل معدن منها على حدة وليس ضربة لازب يعيبها أن يمتزج أي معدنين منها على الوجه الذي تستقيم به حياة الزواج.. وعندئذ يكون الافتراق خيرًا وأولى، لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا حياة سعيدة.

فلا عيب في الدواء إذن، ولا يطعن في صلاحه أن تطيش به يد أو يشتط لسان، فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به الشارب أو يغرق فيه المغتسل.. ولا يطعن في النار أنها قد تكون حريقًا لا يبقي ولا يذر.. فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر.

* * *

ولابد من كلمة أخيرة، عن جواز زواج المسلم بالكتابية ـ يهودية كانت أو نصرانية ـ في حين يمتنع العكس، أي زواج الكتابي ـ يهوديًا أو نصرانيًا ـ بمسلمة.

فإذا تذكرنا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما، عرفنا أنه لا غضاضة على الزوجة الكتابية في الاحتفاظ بدينها وهي زوج للرجل المسلم.. ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام، فتكون المسلمة غير آمنة على دينها في كنف الكتابي.. وليست المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز في كثير أو قليل.

الميراث والوصية بين الشريعة والقانون

أ.د. صـــلاح سـلطان
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الميراث والإرث لغتان صحيحتان، والألف في الإرث منقلبة عن الواو؛ لأن أصلها الورث.

ويطلق الميراث على التركة التي خلفها الميت، وتسمى أيضا تراثا، قال الله تعالى:

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾

(الفجر:١٩)

قال ابن سيده: الورث والتراث والميراث ما ورث، وقيل: الإرث يكون في الحسب، والورث والميراث في المال، وقد وردت مادة ورث بمشتقاتها في القرآن الكريم خمسا وثلاثين مرة، أما علم الميراث اصطلاحا فهو: قواعد من الفقه والحساب يعرف بها نصيب كل وارث من التركة [1] كما عرفه الشيخ على حسب الله عليه رحمة الله.

وهو تعريف واف كاف أو بعبارة المناطقة جامع مانع.

فضل علم الميراث

قد يستثقل البعض علم الميراث، ويظنه ضربا من الألغاز المعقدة، والحق أنه يسير على من يسره الله عليه، وأن شرف تعلمه ومنزلته السامية وحث النبي ﷺ دائما على تعلمه؛ يجعلنا نتقبله بقبول حسن، ونسارع إلى فروعه، ونقبل على مسائله مستشرفين هذا الفضل من الله تعالى؛ حيث روى ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها فإنها نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء ينزع من أمتي» [2].

وروى أبو داود بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال:

(١) الميراث في الشريعة الإسلامية على ما عليه العمل الآن في المحاكم المصرية ص (٣٦).

(٢) رواه ابن ماجة – كتاب الفرائض – باب الحث على تعليم الفرائض رقم (٢٧١٩).

«العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة» [3]، أي علم الفرائض وهو علم الميراث.

وروى الحاكم بسنده عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ

«تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها، فإني امرؤ مقبوض، والعلم مرفوع، ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة والمسألة فلا يجدان أحدا يخبرهما» [4].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث المسلمين، على تعلمه فقال: تعلموا الفرائض فإنها من دينكم [5].

وخير من حظي بشرف إجادة علم الميراث وإتقانه بعد رسول الله ﷺ هو سيدنا زيد بن ثابت، وقد شهد له النبي ﷺ بذلك؛ حيث روى أحمد وابن ماجة والترمذي والنسائي بسندهم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله – عز وجل – أبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» [6].

والحديث ينص على أن أعلم الصحابة بعلم الميراث هو زيد بن ثابت الضحاك، ويكنى أبا سعيد، وهو من خيار الصحابة، قدم المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة، وأول غزوة شهدها هي الخندق، وكان يكتب الوحي لرسول الله، وأمره أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن؛ حيث قال له: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فقال زيد: فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يجلونه لعلمه وفضله؛ حتى يروى أن ابن عباس رضي الله عنه كان يأخذ لزيد بن ثابت بالركاب أي يسحب له خطام الدابة فيقول له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ فيقول: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

وقال ابن عباس يوم موت زيد [7]: هكذا ذهاب العلم، لقد ذهب اليوم علم كثير، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفا [8].

(٣) رواه أبو داود – كتاب الفرائض – باب ما جاء في تعليم الفرائض رقم (٢٧٦٥).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين – كتاب الفرائض – باب تعلموا الفرائض وعلموها الناس (٤/٣٣٢).

(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٢/٢٠).

(٦) راجع: سنن ابن ماجة في المقدمة – باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ رقم (١٥٤) ونيل الأوطار للشوكاني – كتاب الفرائض ص (٦/٥٤)، وقال ابن حجر العسقلاني: الحديث حسن، أخرجه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم – فتح الباري (١٢/٣٦).

(٧) هناك اختلاف في سنة وفاته، فقيل سنة ٤٥ هـ، وقيل ٥١ هـ، وقيل ٥٥هـ وقيل ٥٦هـ.

(٨) راجع: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/٢٠١، ٢٠٢) رقم (١٠١).

ولذلك يرجح كثير من العلماء مذهب زيد بن ثابت في المواريث على غيره، فلنكن على سنن زيد بن ثابت حبًا لهذا العلم واستجماع مسائله؛ لننال هذا الفضل الكبير.

شروط الإرث

الشرط هو ما توقف الشيء على وجوده، وكان خارجا عن حقيقته، فالطهارة شرط في صحة الصلاة ويلزم قبل الشروع في الصلاة. لكن الركن هو ما يتوقف الشيء على وجوده وكان داخلاً فيه مثل قراءة الفاتحة في الصلاة فهي ركن وليست شرطًا لأنها جزء من الصلاة.

ولكي يوجد ميراث لابد من أربعة شروط، هي:

الشرط الأول: موت المورث حقيقة أو حكماً أو تقديراً:

من الطبيعي أن التوارث لا يتم إلا بعد موت صاحب المال، ولا يصح لأحد أن يتكلم عن حق له في مال والده مثلاً قبل موته، لكن هذا الموت إما أن يكون حقيقيًا، وهو الموت المعروف لعموم الناس، ويعرف بالمشاهدة أو البينة الشرعية لشهود الوفاة إذا كان في سفر مثلاً.

أما الموت الحكمي فهو الذي يحكم به القاضي، وذلك في الحالات التالية:

١- المفقود: وهو الغائب الذي طالت غيبته وانقطع خبره ولا يعرف مكانه ولا يقين بموته أو حياته، وهذا اختلف فيه العلماء؛ فذهب الأحناف إلى أن القاضي لا يحكم بوفاته إلا بعد بلوغ المفقود سبعين عاما من سنة ولادته؛ للحديث الوارد من النبي ﷺ: «أعمار أمتي ما بين السبعين والستين»[9]. وذهب الشافعية إلى وجوب الانتظار حتى يغلب على الظن أنه مات بموت أقرانه، ورده إلى اجتهاد الحاكم، وذهب المالكية إلى الانتظار حتى يبلغ خمسة وسبعين عاما، وفرق الحنابلة بين من تغلب على غيبته الهلكة ومن لا تغلب على غيبته الهلكة، أما الأول: كمن خرج في حرب أو مركب غرق بعض أهله، أو في صحراء يهلك فيها الناس، أو يفقد بين أهله كمن خرج لصلاة العشاء أو حاجة قريبة فلم يرجع، فهؤلاء ينتظر فيهم أربع سنين، ثم يحكم القاضي بموته، وتقسم أمواله، وتعتد زوجته عدة الوفاة.

أما من لا تغلب على غيبته الهلكة كمن خرج مسافرًا للتجارة أو طلب العلم أو سياحة ولم يعلم خبره؛ فهذا فيه روايات كثيرة، أشهرها أنه ينتظر حتى يبلغ تسعين عامًا[10].

وعلى كل، فهذا من مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها، ومع تطور وسائل المواصلات والاتصالات والبحث والتحري يمكن إعادة النظر في هذه الآراء السابقة، ولعل هذا ما حدا بواضعي قانون الميراث في مصر إلى ترك ذلك لتقدير القاضي؛ جاء في المادة الأولى من قانون الميراث رقم ٧٧ سنة ١٩٤٣م: يستحق الإرث بموت المورث أو باعتباره ميتاً بحكم القاضي، وهو ترجيح صحيح حيث تستطيع عن طريق الميكروفونات أو الإعلانات في الجرائد والمجلات والانترنت والفضائيات أن تعرف في وقت قصير أو يغلب على الظن هل الشخص موجود أم في حكم المفقود؟.

٢- الأسير: حكمه حكم المفقود إذا انقطع خبره:

وفي كل الأحوال يكون الحكم بالموت من القاضي لحظة النطق به ولا عبرة بوقت غيابه، فلا يوجد لهذا الحكم أثر رجعي، أي يبدأ التوريث من لحظة الحكم بالموت من القاضي، وليس من لحظة الغيبة أو الأسر.

أما الموت التقديري فهو الجنين الذي يسقط من بطن أمه ميتاً بجناية عليها، ولم يأخذ به القانون خلافًا لمذهب الأحناف.

الشرط الثاني: حياة الوارث حقيقة أو تقديراً:

والحياة الحقيقية معلومة، لكن الحياة التقديرية فهي الحكم بحياة الجنين في بطن أمه؛ لأنه الغالب، فيحجز له نصيبه من الميراث على تقدير أنه حي، ولميراث الحمل تفصيل يذكر في موضعه إن شاء الله.

ومما يتعلق بهذين الشرطين ترد مسألة ما إذا مات اثنان أو أكثر ممن يتوارثون، مثل زوج وزوجته أو أب وابنه، ومثل ذلك يحدث غالبًا في الحروب وحوادث تهدم البيوت والحرائق والسيارات والمشاجرات، فهناك قولان: أنهما يتوارثان، وقيل: لا يرث أحدهم الآخر، وهو الأصح؛ حيث روى أن قتلى صفين واليمامة لم يتوارثوا، وروى أن أم كلثوم بنت علي ماتت هي وابنها أبو زيد بن عمر في وقت واحد فلم يرثها ولم ترثه، وتوزع التركة بين المستحقين الأحياء وقت موتهم[11].

جاء في المادة الثالثة من قانون المواريث المصري: إذا مات اثنان ولم يعلم أيهما مات أولاً، فلا استحقاق لأحدهما في تركة الآخر، سواء كان موتهما في حادث واحد أم لا.

الشرط الثالث: العلم بسبب الميراث

وهي أسباب ثلاثة: القرابة، والزوجية، والولاء، والعلم هنا يقتضي التأكد من ثبوت النسب أو بقاء الحياة الزوجية قائمة حقيقة أو حكمًا، والولاء هو المعتق لعبيده، فيبقى له حق إرثهم إذا لم يكن لهم وارث، وتفصيل ذلك يأتي بعد لكن هنا يشترط ثبوت العلم بوجود سبب الميراث.

الشرط الرابع: عدم وجود مانع من موانع الميراث مثل:

اختلاف الدين، أو قتل الوارث مورثه، وسيأتي التفصيل فيما يلي إن شاء الله تعالى.

أسباب الميراث

الأسباب جمع سبب، وهو في اللغة ما يتوصل به إلى غيره، وفي الاصطلاح: ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته[12]. مثل غروب الشمس الذي يوجب صلاة المغرب وحل الإفطار للصائم، فيكون غروب الشمس سببًا لثبوت هذه الأحكام.

(٩) رواه الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة، ورواه ابن ماجة - كتاب الزهد - باب الأمل والرجاء، رقم (٤٢٣٦) وفيه زيادة: وأقلهم من يجوز ذلك.

(١٠) المغني لابن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو، د. عبدالله التركي (٦/١٨٦، ١٨٧) المسألة رقم (١٠٤٩).

(١١) المغني لابن قدامة (٦/١٧٣).

(١٢) الرحبية في علم الفرائض بشرح سبط المارديني، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، ص (٣٠، ٣١).

وقد جاء فى متن الرحبية:

أسباب ميراث الورى ثلاثة ... كل يفيد ربه الوراثة

وهى نكاح وولاء ونسب ... ما بعدهن للمواريث سبب

أولاً: القرابة أو النسب:

وهى قرابة الدم بسبب الولادة، وتشمل فى علم الميراث ثلاثة أنواع هى:

١- **أصحاب الفروض**، وهم أقارب الميت الذين جعل الله لهم نصيبا مفروضا ومحددا فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية، مثل: الأب، والجد الصحيح، والأم، والجدة الصحيحة، والبنت، وبنت الابن، والأخت الشقيقة، والأخت لأب، وأولاد الأم.

٢- **العصبات**: وهم قرابة الرجل لأبيه، مثل: الابن، وابن الابن وإن نزل، والأخ الشقيق وابنه، والأخ لأب وابنه، والعم الشقيق وابنه، والعم لأب وابنه.

٣- **ذوو الأرحام**: مثل: بنت البنت وابن البنت، والخال وابن الخال، وأم أبى الأم.

وهؤلاء جميعًا يدلون إلى الميت إما بطريق الأبوة أو البنوة، فالأولى مثل الأب والجد، والعم هو فى الواقع أخو أب وهكذا، والبنوة ظاهرة فى الابن وأبنائه وإن نزلوا، والبنات وأبنائهم، والبنت صاحبة فرض وابنها من ذوى الأرحام؛ لأنه ينتسب إلى عائلة أخرى.

يدل على التوريث بالقرابة قوله تعالى:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾

(النساء: ٧)

ثانيا: الزوجية:

وهى الزوجية الصحيحة[١٣] حقيقة أو حكما، ويدخل فيها ما يلى:

١- الزوجة المعقود عليها عقداً صحيحاً، سواء دخل بها زوجها المتوفى أم لم يدخل.

٢- الزوجة المطلقة طلاقًا رجعيًا ما دامت فى العدة.

٣- الزوجة المطلقة طلاقًا بائنًا فى مرض الموت إذا توفرت الشروط التالية:

أ- أن يكون القصد من الطلاق هو حرمانها من الميراث؛ فيعامل المطلق بنقيض قصده، أما من طلق امرأته فى مرض الموت لخيانتها له أو سوء عشرتها على نحو لا يحتمل أو ارتدت فلا ترثه.

ب- أن تكون الزوجة قد رفضت هذا الطلاق، فإذا رضيت به وتصرفت بما يعبر عن هذا الرضى فلا ترثه.

جـ- أن تكون وفاة الزوج فى زمن عدتها، أما إذا انتهت فلا ترثه.

ويدل على حق الإرث بالزوجية قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾

(النساء: ١٢)

(١٣) راجع شروط صحة عقد الزواج وبقاءه فى كتب الأحوال الشخصية.

وقوله تعالى:

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾

(النساء: ١٢)

وقد جاء فى المادة ١١ من قانون المواريث المصرى: وللزوجة - ولو كانت مطلقة رجعيا - إذا مات الزوج وهى فى العدة أو الزوجات فرض الربع عند عدم الولد وولد الابن وإن نزل.. وتعتبر المطلقة بائنا فى مرض الموت فى حكم الزوجة إذا لم ترض بالطلاق ومات المطلق وهى فى عدتها.

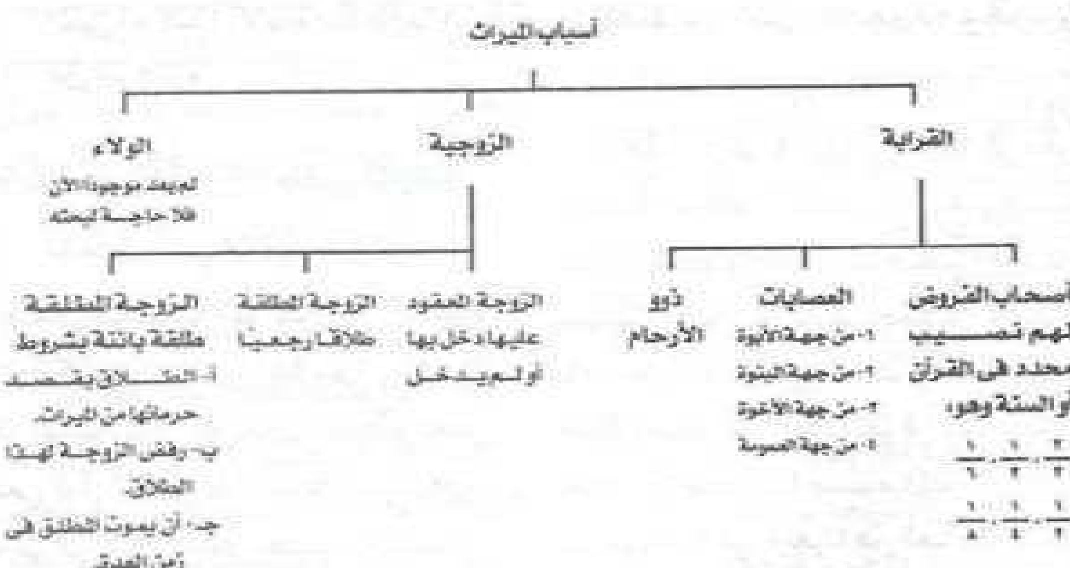
ثالثا: الولاء:

وهو ولاء العتق لا الحلف والمعاهدة وهو يختص بالعبيد الذين يعتقهم سيدهم فيرثهم هذا السيد إذا لم يوجد له ورثة؛ تأكيدا على معنى الولاء والوفاء؛ لأنه حررهم، وتحريضا وحثا على تحرير العبيد؛ حيث لا يفقد حقه فى إرثهم.

والرق عامة من الأمور التاريخية خاصة بعد تحريمه دوليا فلا حاجة إلى التفصيل فيه.

هذه الأسباب الثلاثة متفق عليها، وهناك من جعل بيت المال وارثا عند عدم وجود أحد ذى قرابة أو زوجية أو ولاء، وهناك من جعل أيلولة المال إلى بيت المال هنا على سبيل المصلحة لا الميراث، مثل اللقطة التى لا صاحب لها، وهو الرأى الراجح عندى[١٤].

وهذا الجدول يوضح أسباب الميراث



(١٤) يوجد تفصيل فى هذه القضية مثل هل بيت المال منتظم أو لا؟ وهل يشرف عليه حاكم عادل أم غير عادل؟ ولا حاجة لنا إلى كل هذه التفصيلات ومن أراد المزيد فليراجع القوانين لابن جزى ص (٢٤).

السياق التاريخي والثقافي لتقنين الشريعة الإسلامية

حازم علي ماهر
باحث بالمركز العالمي للوسطية - الكويت

في الوقت الذي تتصاعد فيه الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر بعد أن نجحت ثورة شعبها - حتى الآن - في إزالة رءوس النظام الذي حرمها من حريتها ومن استقلالها السياسي والثقافي يأتي كتاب «السياق التاريخي والثقافي لتقنين الشريعة الإسلامية» للمستشار طارق البشري المفكر والمؤرخ والفقيه القانوني الذي ترأس لجنة التعديلات الدستورية التي تشكلت بعد نجاح الثورة، وهو كتاب صغير الحجم عظيم النفع يتعرض فيه كاتبه لما أسماه «المشكل القانوني» الذي حدث في مصر منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى الآن، متتبعا مسار استبدال المرجعية الوضعية بمرجعية الشريعة الإسلامية والعوامل التي أدت إليه والآثار الناجمة عنه، ويلخص الخبرة التاريخية التي يمكننا الاستفادة بها من تتبع ذلك المسار الذي استمر نحو قرنين من الزمان.

الأثر السلبي للطرح السياسي لقضية تطبيق الشريعة الإسلامية

بعد أن يلفت الكاتب نظرنا إلى أهمية القانون كأحد المجالات الثقافية التي تصوغ العقل البشري، سواء عقول الأفراد أو العقل الجمعي العام الذي يربط الجماعة بآصرة وثقى، ينبه إلى أن الشأن الثقافي بصفة عامة يتجاوز بطبيعته الحدود القطرية لدولنا والحدود الزمانية لحاضرنا، ويرجع ذلك إلى أن حركية العنصر السياسي أسرع وأكثر فاعلية في تكوين الدول منه في تكوين الثقافات.

ويخلص مؤلف الكتاب بعد ذلك إلى فكرة رئيسية مؤداها أن العنصر السياسي يفسد النظام القانوني إذا ما أراد حصره في نظام سياسي معين، أو صيغة حكم لدولة معينة باعتبار أن ذلك من شأنه أن يستدعي قوة الدولة وسطوتها القاهرة لفرض نسق قانوني بذاته أو إزاحته تماما حسبما يتراءى للدولة صالحها الذرائعي، وبعيداً عن العناصر الثقافية والتاريخية العامة التي تشكل سمة هذا النسق.

ويزيد الأمر وضوحا حين يقول بشكل مباشر وصريح أن «تلكؤ استعادة تطبيق الشريعة الإسلامية في بلادنا كان بسبب أنها حملت بمعان سياسية تتعلق بأنظمة الحكم، مما جعلها أدخل في سياسات النظم والحكومات من كونها تتعلق بالمجال الثقافي العام؛ لأنها صورت بحسبانها عنصراً سياسيا من عناصر الصراع على تولي السلطة؛ ولأن من دعاة استعادة الشريعة من صورها هدفًا مرتبطًا بالوصول إلى الحكم».

ولهذا لاحظ «البشري» أن الحكومات عادت الحركات الإسلامية المطالبة في الأساس بتطبيق الشريعة الإسلامية، في حين تركت المجال لكبار المختصين في الفقه والقانون يعلمون على صياغة مشاريع للتشريعات الإسلامية، وأتاحت لهم الوصول إلى مراكز كبيرة في هيئات هذه الدولة في تخصصاتهم العلمية، وتركت لهم المجال لأن ينشطوا داخل هذه الهيئات لبلورة صياغات التشريعية المطلوبة، وتشهد على ذلك مشروعات القوانين التي قدمتها لجان مجلس الشعب المصري في الفترة بين عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢م، ويشهد عليها كذلك ما صدر من مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وما عقد من مؤتمرات، وضرب مثلا لهؤلاء المختصين بكل من الدكتور عبدالرزاق السنهوري، والمستشار عبدالحليم الجندي.

وقد أدى صبغ الحركات السياسية موضوع استعادة تطبيق الشريعة الإسلامية بالصبغة السياسية إلى نقل موضوع المرجعية التشريعية برمته من مجال المتخصصين في الفقه القادرين على الجدل البناء المؤدي إلى الإثراء الفكري إلى مجالات الصراعات الفكرية العامة، ويعزو البشري - في موضع آخر من كتابه - هذه الأسباب المؤدية إلى تلك الصراعات الفكرية بجانب العنصر السياسي، إلى أن المشتغلين بالفكر السياسي والاجتماعي أو بالفكر الفلسفي، تشغلهم العموميات الفكرية وتصرفهم عن تفهم كيفيات المعالجات الفنية المتخصصة لهذا المجال الفقهي المتخصص، على عكس رجال الفقه والقانون في مجالي الفقه الإسلامي والقانون الوضعي؛ لأن كلا من الفريقين يعرف أصالة الفقه الإسلامي وصياغاته الفنية والبالغة أعلى مستويات الدقة، وكل منهما يعرف ويعترف بالحد الأدنى من الأسس التي تقوم عليها وجهة النظر المقابلة، وكل منهما مدرك الوسائل الفنية والمناهج التطبيقية التي تمكن من الملاءمة بين عناصر الثبات والتغير، ولذلك كان الحوار فيما بينهما أهدأ وأوغل في التفاصيل ودقائق المسائل، وأكثر قدرة على الوصول إلى الحلول، من ذلك الصخب العجيب الذي يجري التعامل به بين رجال الفكر السياسي والفلسفي. ولهذا يدعو البشري إلى أن يتولى فقهاء الشريعة الإسلامية وفقهاء القانون من العرب أمر هذا الحوار.

جذور المشكل القانوني في بلاد العالم الإسلامي

بعد أن يتعجب «البشري» من تناقض مناهج الفكر الحديث حين ينظر دائما إلى حركة الواقع أو جموده على عكس نظرته إلى واقع العالم الذي ساد فيه الفكر الإسلامي، فيرى في جمود الفكر سببا لجمود الواقع!.

يقرر المؤلف أن الركود الفكري والتشريعي الذي حدث في أقطار العالم الإسلامي في

خواتيم القرن الثامن عشر وفواتح القرن الذي يليه، كان - بوصفه ظاهرة ثقافية - أثراً ونتيجة للركود السياسي والاجتماعي الذي انحدر إلينا على مدى القرنين أو القرون الثلاثة السابقة منذ نهايات حكم «سليمان القانوني» وأن مشكلتنا على مدى القرنين الماضيين تتحصل في التضارب الذي قام بين عناصر ثلاثة سبق أن ذكرها في كتابه «الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي» ويؤكد عليها هنا، وهي:

- الأول: متطلبات النهوض والتجدد.
- والثاني: وما نحتاجه من علوم الغرب وفنونه وصناعته ونماذج نظمه مما هو لازم للنهوض والتحصن.
- والثالث: هو ما يفرضه علينا الغرب بموجب تفوقه وسعيه للهيمنة وفرض السيادة.

هذا التضارب أربك خياراتنا فيما نستبقي من فكرنا ونظمنا الموروثة وما ندع، وفيما نطلبه من فكر الغرب ونظمه وما نرفضه.

ونحن في هذا كنا نحتاج إلى الصيدلاني أكثر من حاجتنا إلى الطبيب.

كيف تحولت المرجعية التشريعية إلى القوانين الوضعية

ينفي البشري أن بداية الخروج عن المرجعية الإسلامية كانت في عهد محمد علي، ويقرر أن محمد علي كان واعيا بما تحتاجه نهضة الأمة من علوم الصنائع وفنونها والعلوم العسكرية وفنونها، وما يساعد ذلك من فنون الطب والطب البيطري، دون الحاجة إلى استيراد التشريعات والقوانين من الغرب، ولذلك أرسل بعثاته لاستيراد ما تحتاجه فقط في جانب العلوم الحديثة، واعتمد على السياسة الشرعية فيما يخص المجال التشريعي أو ما أطلق عليه «السياسة نامه».


محمد علي

ولكن الحال تغير في عهد خلفاء محمد علي حيث استبدلوا علوم الشرائع بعلوم الصنائع حين ازداد النفوذ الأوروبي وتزايد الوهن الإسلامي والذاتي، وصرنا منذ أربعينيات القرن التاسع عشر نأخذ بالقوانين الغربية بدلا من علوم الصنائع في ظل سعي الغرب إلى السيطرة وفرض الهيمنة واقتحام البيئات المحلية بفكره وأساليبه وأذواقه ونظمه، لا لتقوى البلاد التي يطمع فيها ولكن لتسهل قيادته لها، ولتشكل مادته الثقافية «مراسي» تستقبل سفنه الحاملة حضارته وثقافته وقواعد تنهيا لهبوطه السياسي وإحكام سيطرته، والسعي في ذلك لتغييب الوعي والإدراك بالذات لدى البلاد المطموع فيها وشعوبها ليسهل الانصياع.. وكذلك كان دخول القوانين الغربية إلى بلادنا.

أثر استبدال المرجعية على النظام القانوني المصري

بعد أن يستعرض الكاتب - باختصار- مراحل تغلغل التشريعات الغربية في النظام القانوني السائد في الدولة العثمانية ومصر يصل إلى أن الأمر قد آل إلى أن أصبح النظام القانوني والقضائي في البلد الواحد ذي السيادة التشريعية والقضائية الواحدة إلى ثلاثة نظم تشريعية وقضائية لكل منها مرجعية مختلفة، وهي: القضاء الشرعي، والمحاكم المختلطة (١٨٧٥ - ١٩٤٩)، والقضاء الأهلي «ذو المرجعية الغربية»، وقد أدى تنوع مرجعيات هذه الأنظمة إلى قيام «تعدد مختلف» فيما بينها وليس «تعدد مؤتلف»؛ بمعنى أن تعددها أفضى إلى التضارب بين أطرافه مما أفضى إلى الانتقاص والطرح لا الإضافة والجمع على النحو الذي يؤدي إليه «التعدد المؤتلف»؛ مثل الذي قام عليه اختلاف المذاهب الإسلامية ذو المرجعية الواحدة وهي مرجعية الشريعة الإسلامية.

ولم يقتصر أثر تحويل المرجعية على إحداث هذا التضارب في النظم التشريعية والقضائية، بل إنه نظرا لأن «التقنينات الأهلية» في بلادنا بأساسها الوضعي، لا تصدر عن المرجعية السائدة في الغرب؛ لأنها ينقصها ما يتوافر لهذه المرجعية السائدة هناك من مجال ثقافي يعكس جملة المسلمات الثقافية الوضعية التي صارت تاريخيا ذات تقبل اجتماعي وجماعي هناك بفكرة القانون الطبيعي وبمواثيق الحقوق السياسية والاجتماعية ذات الانتشار، بينما «التقنينات الأهلية» في بلادنا تصدر مستندة إلى شرعية وحيدة في بلادنا هي «مشيئة الدولة»، أي صارت الشرعية في المجتمع شرعية إجرائية فقط، تتعلق فحسب بما إذا كان التشريع قد صدر بالإجراءات المتعارف عليها في البلد المعني بتوقيع حاكم فرد أو مجلس نيابي توافرت في قراره الأغلبية العددية المطلوبة، ويخضع له القاضي والمفتي على السواء، وقد أدى هذا إلى تقوية سلطة الدولة الحديثة في بلادنا، بقدر ما إن فك عقالها من الخضوع لأية قيم ومفاهيم سائدة في المجتمع وبين الجماعة المحكومة، وكذلك أدى إلى أن الحكام مصدري هذه القوانين والنظم لم يكونوا مصدرين للتشريعات فقط، بل صاروا هم أنفسهم مصدر الشرعية، فكأننا استبدلنا مقولة الخليفة أبي بكر الصديق يوم تولى خلافة المسلمين: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم» وحولناها إلى «أطيعوني ما أطعت نفسي»، أو مبدأ: السيادة للحاكم وزاد من هذا التأثير التجزئة السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي إلى دول قطرية متعددة، مما أدى إلى التأكيد على التجزؤ القطري وتدعيم بقائه واستمراره.


طارق البشري

محاولات استعادة المرجعية في عهود الاستقلال

يقرر المستشار طارق البشري أنه يمكن القول أن المرحلة بين عامي ١٧٧٥ و ١٨٧٥ بالتقريب هي المرحلة التي تغلغل فيها النفوذ الأوروبي في الأقطار العربية والإسلامية، وقد كان تغلغلا يغلب عليه الطابع الاقتصادي والسياسي، كما كانت مرحلة ورود التنظيمات القانونية والنظامية والمعارف الخاصة بعلوم الصنائع وفنونها.

ويمكن القول أيضا أن المرحلة من ١٨٧٥ إلى ١٩٢٥ تقريبا وبشكل عام هي مرحلة

اكتمال السيطرة الأوروبية على هذه الأقطار، وهي مرحلة شمول هذه السيطرة بالاحتلال العسكري، وبالممارسة المباشرة أو شبه المباشرة لشئون الحكم في هذه البلاد، ويمكن القول ثالثا بأن المرحلة التالية بالتقريب وبشكل عام هي من ١٩٢٥ إلى منتصف القرن العشرين كانت هي انحسار مرحلة السيطرة الغربية وانحسار الحكم الغربي المباشر أو شبه المباشر، وهي مرحلة ما عرف بـ«حركات الاستقلال السياسي» والظهور التدريجي لحكومات الاستقلال الوطني في هذه الأقطار والتي استمرت بالزيادة والنقصان عبر عقود من النصف الثاني لمئات القرن.

وهذه المرحلة الثالثة تعتبر هي مرحلة الدعوة إلى «الاستقلال التشريعي» والتي عرفتها مصر في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين وما تلاهما من عقود. وقد بدأت هذه المرحلة سنة ١٩٣٣ بدعوة السنهوري إلى تمصير الفقه والتشريع والتخلص من الاحتلال الفرنسي له، ثم بعقد «اتفاقية مترو الدولية سنة ١٩٣٧» التي ألغت الامتيازات الأجنبية وحددت لذلك اثنتي عشرة سنة كمرحلة انتقالية تنتهي فيها المحاكم المختلطة في أكتوبر ١٩٤٩، حيث بدأت حركة الاستقلال التشريعي وتم وضع القانون المدني المصري، إلا أنه جاء نصا وضعيا مستقلا، لم يتبع قانونا أجنبيا معينا ولا مدرسة أجنبية معينة، إنما اعتمد على علم القانون المقارن طبقا لأحدث التشريعات المعمول بها في الغرب، ولم تكن صلته بالشريعة الإسلامية وفقهها إلا بمقدار الاستفادة من حلول لها فقهية وتطبيقية من المعاملات والعلاقات والأحكام مع الصياغات الفنية المناسبة، ومع ما يتفق مع أعراف الناس وعاداتهم المتبعة.

فالقانون المدني جاء معبراً عن الثقافة القانونية المدنية الغربية، ولكنه مستقل عن أي من فروعها ومدارسها الثقافية، وعن أي من تشكيلاتها العينية والمؤسسية، وهو بالدقة استقلال تشريعي يرد على صورة الاستقلال السياسي الذي كان تحقق في هذه المرحلة، والذي عرفته بلادنا والبلاد المحيطة وقتها، أي أنه استقلال يدور في الإطار الغربي!.

وعلى الرغم من ذلك يرى البشرى أن القانون المدني الذي وضعه السنهوري كان يسير في طريق تحقيق الاستقلال التشريعي ولكن في إطار الممكن التاريخي وقتها، فنص في مادته الأولى على أنه إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن للقاضي تطبيقه، فهو يلجأ إلى العرف، فإذا لم يجد به حكما حكم «بمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية، فإذا لم توجد فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة»، وهذا نص مهم لأنه وضع العرف أولا مدركاً أنه حسب الثقافة السائدة في المجتمع لا يوجد عرف يتوافر له ركن الإلزام إلا إن كان مصدره الشريعة الإسلامية، فإذا لم يوجد عرف لجأ مباشرة إلى مبادئ هذه الشريعة، وجعل اللجوء إلى الشريعة مقدما على اللجوء إلى الوضعية المرجعية المتمثلة في القانون الطبيعي.

ويشير البشرى بإيجاز إلى المناقشات التي دارت حول مشروع القانون المدني في مجلس الشيوخ سنة ١٩٤٨ ويلاحظ أنها ركزت على مصدرية الشريعة الإسلامية، وأن ذلك النقاش لم يكن لا من رجال الأزهر والمعاهد الدينية ولا ممن يعرفون باعتبارهم علماء الدين المتخصصين في علومه وبحوثه، إنما غلب على غالبية - إن لم يكن كل - من أعدوا القانون وناقشوه أنهم من رجال القانون المحدثين ممن تعلموا وتربوا في كليات الحقوق غير الأزهرية، ومن درسوا الشريعة في تخصصاتهم، ولم يكونوا ممن يتصلون بمذهب سياسي محدد أو حزب معين أو جماعة بذاتها، ولا كانوا من أنصار حكومة بعينها أو حزب معارض بعينه، إنما هم مصريون من المصريين يسعون إلى تحقيق الاستقلال المنشود لا من الوجهة السياسية والاقتصادية فقط، ولكن من الوجهة الثقافية أيضاً.

مصدرية الشريعة والوحدة التشريعية العربية

يعرج مؤلف الكتاب بعد ذلك إلى بيان العلاقة بين مرجعية الشريعة الإسلامية وتحقيق الوحدة التشريعية المنشودة بين الدول العربية، ويؤكد على أن مسألة المصدرية الشرعية للتشريع لا تتصل فقط بالتشكل الثقافي العام للأمة، ولا بمسألة الاستقلال والتبعية فقط، ولكنها متصلة بهذين الأمرين، فهي تتصل بموضوع الوحدة التشريعية للبلاد العربية، ويذكر أن هذه التوجيهات بدأت منذ قامت حكومات الاستقلال الوطني في بلادنا، ومنذ قامت جامعة الدول العربية، وتعززت بعد سفور الوحدة العربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

ويضرب المؤلف مثالا على ذلك بأن مؤتمرات المحامين العرب منذ بدء انعقادها لم تخل من الدعوة إلى توحيد التشريعات العربية، وقد سيطرت على الداعين إلى تلك الوحدة فكرة أن التوحيد التشريعي هو من أفضل الخطوات لتحقيق الوحدة السياسية، وعلى الرغم من أن عددا من الباحثين قد تبنوا فكرة أن يكون القانون المدني هو الأساس في هذا التوحيد، وأن ينسج على منواله في الدول الأخرى، مثلما حدث في سوريا وليبيا، إلا أن الاتجاه الذي كان الأكثر إلحاحا في دعوته في رأي المؤلف- هو الذي اعتمد على اعتبار الشريعة الإسلامية هي أساس التوحيد، ويكفي أن واضع القانون المدني المصري الدكتور عبد الرزاق السنهوري قد أوضح في مقالته المعنونة: «القانون المدني العربي» أن الهدف الذي قصد إليه هو أن يكون للبلاد العربية قانون مدني واحد يشتق رأسا من الشريعة الإسلامية، ولكنه رأى أن هذا الهدف بعيد، ثم ذكر أن الأمر كان يحتاج إلى مرحلتين.


السنهوري

- أولهما استخلاص ما وصلت إليه الثقافة المدنية الغربية في آخر تطوراتها، وهذا ما تحقق بالقانون المدني المصري.
- وثانيهما وضع هذه الثقافة المدنية الغربية بجانب الفقه الإسلامي، وهذا ما تحقق في القانون المدني العراقي الذي وضعه السنهوري بنفسه.

ثم ترد مرحلة التفاعل بين القانونين، مع وجوب عقد الدراسات المقارنة بين المذاهب الفقهية كلها، سنية كانت أو شيعية، أو خارجية أو ظاهرية، ثم عقد المقارنات بين فقه

الشريعة والفقه الغربي ، ثم يكون الهدف الذى نرمى إليه وهو تطوير الفقه الإسلامى وفقًا لأصول صناعته، حتى نشتق منه قانونا حديثا يصلح للعصر الذى نحن فيه .. القانون النهائى الدائم لكل من مصر والعراق ولجميع البلاد العربية ، إنما هو القانون المدنى العربى الذى نشتقه رأسا من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطويرها .

ويذهب المستشار البشرى أن ما دعا له السنهورى قد تحقق فى مجمل الأعمال الجماعية والفردية والبحوث التى أعدها الباحثون والعلماء فى فروع القانون المدنى بين فقه الإسلام وفقه الغرب ، وذلك على مدى سنوات القرن العشرين جميعها ، وقرر أنه حسبما يرى- إذا تم جمع هذه الدراسات والبحوث وصنفت يمكن أن تستخلص من ذلك ما طلبه السنهورى من التهيؤ لإصدار قانون مستخلص كله من الفقه الإسلامى.

ويختتم البشرى كتابه ببيان أننا نسير فى إطار التوحد التشريعى بقدر ما ينهض فى بعث تراثنا الفقهى وبقدر ما نستخرج منه ما يناسب زماننا من حلول وصياغات للنظم والأحكام والمعاملات ، وبقدر ما نستطيع تمازج النظم والتعامل النافعة والحميدة التى ظهرت فى الخارج ونتمكن من هضمها واستيعابها فى الإطار المرجعى للثقافة الإسلامية ولمعايير الاحتكام والتقويم التى تتحدد بها مصادر الشرعية لدى العرب والمسلمين ، وبمراعاة أن توحيد التشريعات لا يعنى استبعاد التنوع ؛ لأن التوحيد يعنى التشارك فى الثوابت والأصول العامة ؛ مع المرونة والقابلية للتنوع بما يناسب كل قطر وكل بيئة عربية ، ويتوافق مع أوضاعها السياسية والجغرافية السياسية وخصائصها الاجتماعية النوعية . وترد مشاريع القوانين التى أعدتها لجان بمجلس الشعب المصرى فى الفترة من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢ فى هذا السياق .

انتهيت من قراءة الكتاب وأنا تتزاحم الأفكار والتساؤلات فى رأسى ؛ ماذا لو كانت الحركات السياسية قد ركزت على مهمتها الأساسية بالعمل على تحقيق الاستقلال السياسى وتركت الاستقلال التشريعى والثقافى لأهله يعملون لأجله فى صمت ؟!

وماذا لو توجه الجهد فى تطبيق الشريعة الإسلامية إلى الأمة بدلا من توجيهه إلى الدولة ، كما دعا المستشار طارق البشرى – نفسه- من قبل منذ بحثه المعنون «منهج النظر فى دراسة القانون مقارنًا بالشريعة» والذى قدمه منذ عام ١٩٩٥م ؟ هل كنا لا نزال جامدين فى أماكننا «محلك سر» كما نحن الآن أم أننا كنا تحركنا إلى الأمام متخللين النظام القانونى فى الدولة دون ضجيج وصراعات ؟!

ما الذى يمنعنا من متابعة الجهود التى بذلت فى أطروحات الدكتوراة وغيرها فى المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى والاستفادة منها فى تطبيق عصرى للشريعة الإسلامية ينتقل تدريجيًا إلي البلاد العربية والإسلامية فيوحدها تشريعيًا على طريق توحدها السياسى ؟

إن لم تفتح عمل الشيطان ، ولكنها قد تقود إلى الاعتبار !

قالوا عن الإسلام



أ.د/ عماد الدين خليل

«إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا نكون جميعنا مسلمين؟».

الأديب الألمانى غوتة

إبراهيم خليل أحمد

(١) «قرأت بتأمل وتفكر قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

(سورة الزمر : ٥٣)

وقارنت بين هذه الآية وما ورد فى الإنجيل عن الغفران : (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) بالقول : (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية) .. قارنت بين العقيدتين الأولى : أنها مقيدة بقيود : من جانب الله يبذل ابنه الحبيب حسب ما يعتقدون ، ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الابن ، ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنسية تعرف بسر الشكر ، وفيها يؤمن المسيحى باستحالة الخبز إلى جسد المسيح واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة ، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية ، ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران ، إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهى الذى تدد به زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر .

فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادى ، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة»[1].

(٢) «قرأت قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات : ١٣)

وقرأت ما جاء بالإنجيل : (إذن لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة) وزال عنى العجب عن التفرقة العنصرية عند الأمريكيين فى أيامنا هذه بين البيض والسود ، وزاد إعجابى وإجلالى للمسلمين ، أن سيد القوم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، راكعين ساجدين ، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو ، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين فى هذا التساند الجميل والتآخى الحبيب .»[2].

(٣) «للمسلم أن يعتز بدينه ، فهو كالشمس تشرق على المسلمين وغير المسلمين وللمسلم أن يعتز بإسلامه ، فهو كالهواء النقى لا يستغنى

(١) محمد فى التوراة، ص ١٠- ١١.

(٢) محمد فى التوراة، ص ١١.

عنه الخلق ولا حياة لهم بدونه.»[٣].

(٤) «إن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة.»[٤].

(٥) «استوقفني كثيراً نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام، إن التوحيد يجعلني عبداً لله وحده لست عبداً لأي إنسان. التوحيد في الإسلام يحرر الإنسان ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده»[٥].

أرشر[٦]

(١) «إن بحثي لنيل إجازة الدكتوراة كان عن التربية وبناء الأمة، ومن هنا عرفت ما تحتاج إليه الأمم لبنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذلك البناء الروحي. واكتشفت أن أركان الإسلام الأساسية تقدم أساساً عظيماً وقاعدة قيمة لإعادة بناء الأمة اجتماعياً واقتصادياً وروحياً، ولذلك فإذا سألتني لماذا اعتنقت الإسلام؟ سأقول لك لأن الإسلام هو دين فريد من نوعه تشكل فيه أركانه الأساسية قاعدة للحكم تهدي كلا من الضمير وكذلك حياة المؤمنين به على حد سواء»[٧].

(٢) «إن تعاليم الإسلام هي تعاليم عملية تقدم نموذجاً لبناء الأمم، كما يمنح الإسلام للضالين إحساساً بالأمل والاتجاه، ويمكن الفرد المسلم من فهم واجباته نحو الله ونحو بني الإنسان بصورة أفضل»[٨].

(٣) «في الوقت الذي تتحدث فيه الأديان الأخرى عن إله واحد، إلا أنها تعبد ربّين أو ثلاثة، أما المسلمون فيعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً، وهنا شعور قوي بالإخوة الإسلامية في العالم الإسلامي وخاصة بين أولئك الذين يؤمنون بالإسلام حقاً ويطبقونه بصدق»[٩].

سير توماس أرنولد

(١) «ترى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد (ﷺ) في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية»[١٠].

(٢) «لا يغرب عن البال كيف ظهر جلياً أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب

(٣) نفسه، ص ٣٢. (٤) نفسه، ص ١٧٣.
(٥) رجال ونساء أسلموا ٢/٩٢.
(٦) الدكتور دوغلاس أرشر: عبدالله أرشر DOUGLAS ARCHER شاب من جامايكا، في منتصف العقد الخامس من العمر، يعمل مديراً للمعهد التربوي في منطقة الكاريبي، جامايكا، كان بروتستانتيا، وبعد أن انتمى للإسلام قدم استقالته من عمله كأستاذ لعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص هناك، وعاد إلى بلاده لكي يسهم في دعوة أبناء وطنه إلى الإسلام.
(٧) رجال ونساء أسلموا ٥/٣٦. (٨) نفسه، ٥/٣٦. (٩) نفسه، ٥/٣٦.
(١٠) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٣ عن Caetani (leone): Annali dell'islam 1/334-35 (Milano: 1905).

الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل، وأصبح النبي ﷺ بذلك رمزاً لأسلوب جديد.»[١١].

«يعبر الشطر الأول من هذه العقيدة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لا بد منه، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين، ولا يستطيع أي فرد أن يوضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحاً يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور مونتيه في العبارات التالية: (الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق، إن (للإسلام) كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد التي قامت على أساس المنطق والعقل، وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ﷺ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فتعتقد في الله وفي الحياة الآخرة، وهذان المبدأن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وأن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام، وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي ﷺ حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن تجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وأن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين، وكان من المتوقع لعقيدة محدودة كل التحديد خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»[١٢].

(١١) نفسه، ص ٦٦.
(١٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٠٤ - ٤٠٦، أما عبارات مونتيه (Montet) فيستمد المؤلف من كتاب
LA PROPAGANDE CHRETIENNE ET SES ADVERSAIRES MUSULMANS, PP.17 - 18 (PARIS, 1890)

رد الشبهات عن القرآن الكريم

للأستاذ/ عبدالمجيد حامد صبح

جاء على موقع www.muhammadanism.org ما زعمه خمسة وعشرين خطأً لغويًا في القرآن الكريم. وهذا رد علمي موثق يكشف خطأ المخطئين..

عندما تبدأ قراءة شبهاتهم يتضح لك ثلاثة أمور:

أولها: أن هؤلاء ليسوا على علم بما طعنوا فيه، ولا يتحدثون عن (حق يقين)، وإنما يتحدثون عن (هوى نفس، وزيغ فكر، وعلم ناقص) وسوف يتبين ذلك بما لا شك فيه.

وكم من عائب قولاً سليمًا
وآفته من الفهم السقيم

ولو كانوا طلاب حق لرجعوا إلى غير القرآن مما يوصف عندهم بالمقدس الذي يزعم أن من أنبيائها من شرب الخمر، وزنا بابنتيه، ونبي آخر أرسل جاره ليقتل في الحرب ثم يستحوذ على امرأته! إلى غير ذلك مما لا نرضى الخوض فيه. وكان عليهم، بحكم البحث العلمي أن يعرضوا ما زعموه خطأً بصورة استفهام يطلبون جوابه العلمي، فالعقل السليم يتردد ألف مرة في تخطئة كتاب نزل على قوم بلغتهم وقامت عليه حضارة فريدة شهد بها المنصفون.

وكان يكفيهم أن أرباب هذه اللغة، وهم فصحاؤها، وكانت أعلى مفاخرهم، وحاولوا التشكيك في القرآن، ومن نزل عليه فوصفوه بالساحر، والمجنون.. وكتابه بالسحر والأساطير.. ومع هذا الإفك لم يصفوه باللحن أو بالخطأ اللغوي أو النحوي. أفلا يكون ذلك رادعًا لمن لا يعرف هذه اللغة معرفة أهلها عن مثل ما زعمه هؤلاء.

وكان يكفيهم شغلاً ما قاله بعض فلاسفتهم مثل (سبينوزا) وغيره عن هذه الكتب المقدسة، مما نرتفع بأنفسنا وأدبنا واحترامنا للأديان عن الخوض فيه. وقد أشرت في كتابي (الرد الجميل على المشككين في الإسلام من التوراة، والإنجيل، والقرآن، والعلم) إلى مثل ذلك، فارجعوا إليه إن شئتم إن كنتم طلاب حق أو حتى مجرد باحثي علم.

ثانيها: ثاني ما يتبادر إلى ذهن قارئ زاعمي الخطأ في القرآن أنهم لا يعرفون اللغة التي نزل بها القرآن ولا يعرفون أسرار تعبيراته، ولا خصائصه البلاغية ولا قدرته التركيبية التي تتضمن معاني لا تخفى على الخبير الفطن بإعجاز القرآن البلاغي. ولسوف يستبين ذلك لمن يقرأ هذا البيان الكاشف عن تقصيرهم وقصورهم ودعواهم (الخنفشارية [1]).

ثالثها: وثالثة الأثافي أن هؤلاء كما جهلوا، أو تجاهلوا أن فطاحل اللغة والذين تلمسوا للقرآن ونبيه كل عيب افتراء عليه. كما جهلوا ذلك جهلوا، أو تجاهلوا أن القرآن الكريم تحدى هؤلاء الفطاحل في أعز ما كانوا يعتزون به، ويتفاخرون به، ويعقدون له أسواق المفاخرة ويتحاكمون فيها إلى أعلام لغتهم وأكثر الناس علما بدقائقها فيحكمون للشاعر فلان، أو فلان. هؤلاء تحداهم القرآن بأمرين:

- أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو سورة مثله فعجزوا ولجأوا إلى الكذب عليه ومعاداته حتى الحرب وكان ذلك أهون عليهم من الإتيان بسورة مثله. ولو كان فيه من مثل ما زعم هؤلاء ما كان أيسره عليهم ولكنهم علموا أنه أمر فوق طاقتهم وحكموا أن له حلاوة وأن عليه طلاوة وأن أسفله مغدق وأعلاه مثمر وأنه ليس من كلام البشر شهدوا بذلك وهم كافرون أعداء. والفضل ما شهدت به الأعداء!

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

- الأمر الثاني الذي تحداهم به القرآن أنه كما تحداهم أن يأتوا بمثل شيء من القرآن تحداهم أن يأتوا بشيء من مثله من مثل محمد ﷺ فقال:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

(البقرة: ٢٣)

أي من مثل محمد ﷺ بمعنى أن يأتوا بشيء مثل القرآن في إعجازه من مثل محمد في أميته، محمد الأمي الذي لم يقرأ كتابا ولم يجلس إلى معلم، ولم يختلف إلى مدرسة، وقضى من عمره شوطًا بعيدًا، أربعين سنة، أو تزيد ولم يؤثر عنه شعر ولا نثر ثم فجئهم بهذا القرآن، الجديد في نظمه، الغريب عليهم في موضوعاته.. فمقتضى العقل ألا يكون من عنده كما قرر القرآن ذلك في قوله على لسان النبي:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(يونس: ١٦)

وجه عدم تعقلهم أن (علم النفس) يقرر أن الإنسان إذا تجاوز الخامسة والعشرين ولم يظهر له نبوغ في شيء فبعيد جدًا أن يظهر له أي نبوغ بعد، ومحمد قد تجاوز الأربعين وليس الخامسة والعشرين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وزيادة في التحدي تحداهم أن يدعوا

---

(١) إشارة إلى قصة رجل كان يزعم أنه بكل شيء عليم فإذا سئل عن شيء أجاب ونظم شعراً شاهداً على ما قال، فاجتمع له ستة نفر وقال بعضهم لبعض ليقل كل واحد منا حرفاً، وجمعوا هذه الحروف في كلمة خنفشار، سألوه: ما الخنفشار؟ فقال: (الخنفشار) نبات يعقد اللبن. ثم أنشد في نظمه ما زعمه قول غيره، قال: قال الشاعر:

لقد عقدت محبتها بقلبي
كما عقد الحليب الخنفشار

فسمي العلماء، كل زنيم في العلم: الخنفشاري.

شهداءهم، وأنصارهم.. ثم أخبر في الآية بعدها فقال:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾

(البقرة: ٢٤)

وكان هذا دافعًا لهم ـ لو كان في استطاعتهم ـ أن يفعلوا ليفعلوا تكذيبًا لهذا التحدي. وما كان أهون عليهم أن يقولوا أخطأت في كذا وكذا.

ـ وأختم هذا التقديم بشهادة المستشرق الإنجليزي (سير وليم ميور) إذ قال: الأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرنًا كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته.

ـ فهل لكم في هذا الجواب الإجمالي من مقنع؟!، فإن لم يكن فدونكم الإجابة التفصيلية.

بيان الطعون:

البيان الأول: رفع المعطوف على المنصوب جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾

(المائدة: ٦٩)

وكان يجب أن ينصب المعطوف على اسم إن فيقول والصابئين كما فعل في سورة البقرة الآية ٦٢ والحج الآية ١٧

تبيين الجواب:

وأقول: هذا من دقائق الأسلوب القرآني حين يخالف النسق النحوي، وأصل قواعد النحو. وأساليب البلاغة تبع للمعنى والدلالات، وليس العكس، وكذلك علم النحو فإنه الفلسفة العليا لأساليب البلاغة العربية. وإذا قيست اللغة العربية بمقاييس (علم الألسن الحديث) كانت اللغة العربية أوفى اللغات بشروط هذا العلم من حيث ألفاظها، وتراكيبها، وقواعدها البلاغية والنحوية، بل من حيث التركيب الحرفي للفظ. فقولنا (طوال) أبلغ في صفة الطول من طويل وقول القرآن على لسان الكافرين:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

(ص: ٥)

فكلمة ﴿عُجَابٌ﴾ أبلغ في حال التعجب من كلمة (عجيب). فإذا خطت حركة الفم وانفتاحه طابقت حركة لفظ طوال وعجاب ووجدت الفم يرسم ألفا، وهذا من خصائص اللفظ العربي في تطابق حركة النطق مع حركة الكلمة في مطابقة المعنى.

وعطف المرفوع على المنصوب من هذا القبيل من أسرار التعبير القرآني الذي ـ بتغيير النسق النحوي ـ يضمن معاني خاصة من غير التصريح بها، يدل عليها تغير النسق فقوله تعالى:

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ﴾

(التوبة: ٣)

مثل موضح، بيانه: لو نصب لفظ رسوله عطفا على اسم إن لكانت براءة واحدة ويكون صياغة الكلام: الله ورسوله بريء. فلما رفع لفظ الرسول كانت هناك براءتان براءة من الله وبراءة من الرسول. وهذا توكيد للبراءة وتقرير بوجوب التزام المؤمنين بها. كل هذا البيان على طوله أغنى عنه حركة الرفع الإعرابية على اللام من لفظ (رسوله).

وآية سورة المائدة المتخذة شاهدًا على الخطأ المزعوم من قبيل تغيير النسق النحوي لتقرير معاني يراد إيضاح الحق فيها، ذلك أن فرقة الصابئة مختلف في حقيقتهم الدينية: هل هم أهل كتاب أو ليسوا من أهل الكتاب، وقد قيل كان لهم كتاب وكان لهم ملك ظلم شعبه فرفع كتابهم بسبب هذا الظلم. وبسبب هذا الاختلاف اختلف في معاملتهم فأراد الله سبحانه أن يقرر حقهم في حسن المعاملة وأنهم على منزلة سواء مع من يعرفون من أهل الكتاب من المسلمين واليهود والنصارى وأصبح المعنى ـ بسبب تغير النسق من النصب إلى الرفع ـ: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون مثلهم، حكمهم جميعا عند الله بقانون عدل يستوي فيه جميعهم كما نصت الآية. وليس هذا التغير النسقي بغريب على لغة العرب فهم يعرفونه، ولذلك لم ينكروه ولم يخطئوه كما زعم من لم يحكم العلم. ومن شواهده ما أنشده أبو علي الفارسي:

فمن يك لم ينجب أبوه وأمه
فإن لنا الأمَّ النجيبة والأبُ

فعطف (الأب) مرفوعًا على اسم إن المنصوب، فقرر بذلك أن للأم نجابة وشرفا خاصا مستقلا لم تكتسبه من الأب، وللأب مثله لم يكتسبه من الزوجة والسر في ذلك أن تغير هذا النسق جعل (العطف) عطف جمل لا عطف مفرد والجملة الإسمية تدل على ثبوت المعنى وزيادة تقريره ودلالة على دوامه. ومثله ما أنشده أبو الفتح:

وما قصَّرت بي في التسامي خؤولة
ولكنْ عمي الطيب الأصل والخالُ

وإذا تقرر هذا من حيث الفخر فقد يتقرر مثله من حيث عاطفة من العواطف، كما في قول رؤبة بن العجاج:

يا ليتني وأنت يا لميس
في بلدة ليس بها أنيسُ

كان مقتضى النسق أن يقول ليتني وإياك لكنه غير النسق النحوي فعطف جملة (وأنت) على ضمير النصب في (ليتني) فصار التركيب ليتني وليس معي في بلدة.. فصار عطف جملة اسمية وبذلك قرر عاطفة خاصة به نحو (لميس خاصة) ولم تكن عاطفته في بيان قوتها وثبوتها وخصوصيتها لتظهر لو كان العطف عطف مفرد:

ومن شواهد عطف المرفوع على المنصوب قول الفرزدق:

وعض زمان يابن مروان لم يدع
من المال إلا مُسحتا أو مجلَّفُ

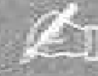
فقال له قائل: أخطأت (أي في وضع مجلف). فغضب الفرزدق وقال: على أن أقول وعليكم أن تحتجوا، أصاب الفرزدق وأخطأ مخطئوه.

والخلاصة:

إن تغيير النسق الإعرابي (والصابئون) لما تقدم من بيان خصوصية هذه الطائفة، ولم يكن هذا المقصد مرادًا في آية سورة البقرة وآية سورة الحج.

وفي التطبيق العملي كان من الصابئين في الدولة الإسلامية، وعند رؤسائها منزلتهم التي فهموها من تغير النسق النحوي فكانت لهم منازل عالية في الدولة، حتى كان منهم وزراء في دولة قامت بالإسلام واستقرت به.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا



أ.د. محمد فتحي فرج
كلية العلوم - جامعة المنوفية

يقول الله تعالى فى مُحكم آياته:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

آل عمران: ١٠٣

القرآنَ حَمَّال أقوال كما يذكر العلماء، وهو صالح لكل زمان ومكان، ما فى هذا شك، وحينما أقرأ هذه الآية المباركة من سورة آل عمران، واستعيد مشهد ميدان التحرير خلال ١٨ يومًا من بداية ثورة ٢٥ من يناير المجيدة، فكأنى بهذه الآية الكريمة تُصوِّر حال معظم فئات الشعب وشرائحه المختلفة خلال تلك الثورة العظيمة فى الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، حينما أذهل الجميعَ العالم كله بثورة سلمية رائعة، لم يسبق لها مثيل قديمًا أو حديثًا، حتى إن زعيم أكبر دولة في العالم هتف قائلا: إن المصريين مازالوا يُعلمون العالم، وجدير بشبابنا أن يتعلم من شباب مصر.. ويردد زعيم آخر لدولة يزعمون أنها الدولة الديموقراطية الأولى في العالم، ويقول: إنها ثورة ينبغى أن تدرج فى البرامج الدراسية لكى يتعلم منها التلاميذ والشباب والدارسون.

حقًا كانت هذه الثورة، فى نقائها وعفويتها وسلاستها وسلميتها، مضرب المثل شرقًا وغربًا، حينما انصهرت جميع الفضائل فى بوتقة واحدة، واجتمعت على كلمة سواء، أعلت فيها مصلحة البلاد والعباد، ووقفت ضد القهر والاستبداد والفساد، يدًا واحدة، فنصرها الله تعالى بهذه الوحدة، وهذه التوجه المُتجرد، وكان ما كان من نصر الله تعالى لهذه الثورة، دون إراقة دماء أو تمزيق أشلاء.

وهنا استحضر قول الله تعالى أيضًا فى محكم آياته:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(المائدة: ٢)

فبفضل توفيق الله تعالى، واجتماع الشمل، والصبر الجميل، كان نصر الله تعالى، فانطلق المارد من قمقمه، خلال أقل من عشرين يومًا، وهذا وأيم الله نصر

من الله عزيز، ينبغى الحفاظ عليه بكل غالٍ وثمين.

ماذا جرى؟ ماذا حدث؟

وحينما أتطلع إلى المشهد السياسى الآن، لا يسعنى إلا أن أتعجب وأتساءل، بقدر كبير من الحسرة والألم، فأقول: ماذا جرى؟ ماذا حدث؟ أين وحدتنا واجتماعنا على كلمة سواء إبّان احتدام هذه الثورة المباركة؟ أين تجردنا وإنكارنا لذواتنا في تلك الأيام العصيبة، أمام جبروت مستبد ظالم، جثم على صدورنا طوال ثلاثين عامًا، بنظامه الحديدى المُحكم القبضة؟!

هل هو اقتسام الغنائم، ألم نتعلم من دروس "أُحد"؟ وأنتم تعلمون ماذا حدث للمسلمين وقتها؟ مع أن رسول الله ﷺ كان بين ظهرانيهم، والله الذى لا إله غيره لن يفيدنا هذا الانقسام والتشرذم والحرص على اجتلاب الغنائم شيئًا، إنه فقط يصب فى مصلحة أعدائنا، ولن يأخذ أحدٌ إلا ما قسمه الله له.

التشرذم والانقسام طريق الفشل

ألم تقرءوا قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

آل عمران: ١٥٢

ألم تقرءوا قول الله تعالى:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الأنفال: ٤٦

ألم تقرءوا قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾

الأنعام: ١٥٩

وقد تعلمنا من نبينا - صلوات ربى وسلامه عليه - أن الجوهر الحقيقى للدين يتبدى فى المعاملة الحسنة والسلوك القويم، حينما قال ﷺ: "الدين المعاملة".

أقول لكل من يسعى لتحقيق مصلحة شخصية على حساب وطنه، أو يتجمهر وينادى بمطالب فئوية بغض النظر عن ظروف البلاد الاقتصادية الصعبة: إذا كنتم حقًا تريدون مصلحتكم، فهى فى مصلحة بلدكم، فإذا كانت مصركم قوية، على كل الأصعدة، فأسهمكم فيها ولا شك ستزداد أضعافًا مضاعفة، وإن كانت مصركم - لا قدّر الله - ضعيفة فلا نصيب لكم فيها إلا الحسرة والخواء، مهما انطلقت من الحناجر الصيحات، وتعالت الشعارات فى الهواء! وإن من يشعلون الفتن سيكونون هم أول ضحاياها، ومن يحترقون بنيرانها!

بالأعمال وليس بالشعارات والأقوال

وإذا كان البعض يتصور أنه يمكن أن يضحك على المطحونين من أبناء الأمة، تحت الظروف الراهنة لبلادنا، وينجحون فى تجنيدهم وتجميعهم من هنا وهناك، فيترك هؤلاء أعمالهم، للانخراط فى الاحتجاجات

الفئوية، والاعتصامات، والتجمهر، لشل حركة الحياة في المجتمع، إلى غير ذلك من أعمال يأباها الضمير الوطني اليقظ، والحس الأخلاقي الواعي، ظنا من هؤلاء أنهم بهذا يزعزعون استقرار الوطن لحاجة في نفوسهم المريضة، فإنهم واهمون؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يكذبوا ويصدقوا ـ في الوقت ذاته ـ طوال الوقت، ففي النهاية ينكشف أمرهم، إذ لا يصح إلا الصحيح، وصالح أولئك وهؤلاء ليس في الاحتجاجات وإطلاق الشعارات، وإنما في العمل الجاد المنتج، الذي يعود عليهم وعلى وطنهم بالخير الوفير، وعندها يجدون ما يريدون، حتى من دون احتجاج أو مطالبة! فنهضة البلاد لن تقوم إلا بالعمل الجاد، والتعاون الرشيد، وتضافر كل الجهود، لتصب جميعها في مصلحة الوطن والمواطن، وليس بالتفرق والتشرذم والعبث والصياح.

الإسفاف في الحوار

وهناك لون آخر من ألوان إشاعة الفوضى، والهرج والمرج، في محاولة من أولئك الناشزين لإظهار أن البلد تعيش في دوامة من القلق، وعدم الاستقرار، ويتبدى هذا أكثر ما يتبدى في حوار بعض الفضائيات ذات "الأجندات" المشبوهة، والتي تجند بعض الأشخاص، الذين لا يرعون إلا ولا ذمة، ثم يتراشقون بالكلمات، ويتنابزون بالألقاب، في حوار فيه من الإسفاف وعدم تحمل المسئولية أكثر مما فيه من الرقي والتعقل واحترام الآخر، مما يتنافون به ولا يفعلونه، والله تعالى يقرِّع هؤلاء ويوبِّخهم ويصف فعلهم بأقذع الصفات، حينما يقول لهم ولأمثالهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

«الصف: ٢-٣»

وكثيرا ما يرددون "في البدء كانت الكلمة".. ونحن نقول مع نبينا الكريم ﷺ: "الكلمة الطيبة صدقة". والله تعالى يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

«إبراهيم: ٢٤-٢٥»

إنها حوارات مفتعلة، أشبه بتمثيليات مقبوضة الأجر، وأدوار مشبوهة يوزعونها على أنفسهم، حتى يظهروا من خلال المشهد السياسي والإعلامي في البلد أنها واقعة في تخبط، وخلاف واختلاف، وعدم استقرار، والله تعالى يقول:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

«الأنفال: ٣٠»

ويقول أيضا:

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

«فاطر: ٤٣»

ويقول:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾

«النحل: ٤٥»

ومع كل هذا، يطمئننا الله تعالى بقوله:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

«الصف: ٨»

والإسفاف في الحوار، وكَيْل الشتائم للخصوم دليل فقر فكري، وإفلاس عقدي، ولا يؤدي في النهاية إلى نتيجة حاسمة، اللهمَّ إلا إلى كشف عوار من ينتهج هذا النهج غير السويّ، وإظهاره بمظهر الصبيان غير الناضجين فكريا أو عقليا، الذين يلقون بالكلام على عواهنه من غير فكر ولا روية، دون تحمل لأية مسئولية!!

ولكن لنا في تراثنا، من حكمة من سبقونا وأدبهم أسوة ومثل، فانظر إلى قول القائل منهم، فيما نحن بصدده، حينما قال: واعلم أن أقوى قوة على عدوك، هي أن تُحصي على نفسك العيوب والعورات كما تحصيها على عدوك، وإذا أخذت على الناس عيوبا فسل نفسك، هل فارقت هذه العيوب أو سلمت منها؟ ولا تقابل سفه السفيه بسفه مثله، وإلا كان معناه أنك راضٍ عن سلوكه؛ ولهذا حذوت حذوه.

لن يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

ولا يحسبن أحدٌ أننا نتزلف لأحد، أو أننا نسير في الركاب معصوبي العينين، دون إعمال للفكر أو إبداء للرأي الحر، وتقديم النقد النزيه والمفيد، حينما تستلزمه الأحوال والظروف؛ إذ إن "الدين النصيحة"، كما جاء في الحديث النبوي الشريف. ونحن أيضا لا نحيدُ عن الحق حينما نردد قول الله تعالى، القائل في مُحكم آياته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

«النساء: ٥٩»

ففي هذا عبادة لله تعالى، وطاعة لأمر من أوامره جل شأنه؛ ولا نقف عند هذا الحد، ولكنا نستكمل الآية الكريمة من قول الله تعالى في الآية ذاتها حينما يقول عز من قائل:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

«النساء: ٥٩»

وهذا الأمر واضح لكل ذي عينين ولا يحتاج لمزيد إيضاح، إذ زالت عن الأعين الغشاوة، وأبصرت القلوب قبل العيون، وصلحت النوايا، فهدأت النفوس، واطمأنت القلوب بذكر الله، وصحت العزائم، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

«الرعد: ٢٨»

خالد محمد خالد: مفكر مسلم شجاع

٣



د. حلمي القاعود

يمثل كتاب «من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد نقطة فاصلة في تاريخ مؤلفه، فقد أثار الدنيا في مصر والعالم العربي، وجعل صاحبه في بؤرة الشهرة، وذيوع الاسم، وقد طبع في أول سنة صدر فيها (١٩٥٠م) أربع مرات، ثم طبع بعد ذلك في مصر بمعدل طبعة كل سنة حتى عام ١٩٦٠ تقريبا، وبين يدي الآن الطبعة الثانية عشرة (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م)، وفي هذه الطبعة يصدّر المؤلف الكتاب بالحكم القضائي الذي أصدرته المحكمة بالإفراج عنه والسماح بتداوله، ثم يشيد المؤلف في مقدمته التي كتبها تالية للحكم المنشور بانتصار التقدمية الرشيدة على الرجعية البغيضة، ويذكر أن زئير العاصفة لا يزال يلغط ويدمدم.. ويضيف: ولكن لا بأس.. فهناك حكمة عذبة تقول: خل العاصفة تزأر، فذلك أخلق أن يعجل بفنائها!

ويعالج المؤلف - كما يقول في المقدمة - التحول الاجتماعي، ما هو؟ وكيف يكون؟ ويستعين بمقولات لكتاب غربيين يدعم بها تصوراته، مثلما يستشهد بمقولاتهم على امتداد الكتاب.. وهي مقولات لأفلاطون وفولتير وروسو وتين وج. بيوري وغيرهم.

أما ناشر الكتاب فيكتب على غلافه الأخير منتشيا بما سيحققه من مكاسب مادية هائلة:

(الكتاب "القضية". الكتاب الذي فجر أضخم قنبلة في معقل الجمود فكان فاتحة الانفتاح، وكان مؤرخا لعصر الثورة..).

ويتضمن الكتاب أربعة فصول تعالج الواقع السياسي والاجتماعي من خلال رؤية مناقضة للإسلام ما زال يرددها الماركسيون والدنيويون من الكتّاب والمثقفين المعاصرين على النحو التالي:

الدين لا الكهانة، الخبز هو السلام، قومية الحكم، الرئة المعطلة (يقصد المرأة المسلمة).. ثم خاتمة تحت عنوان: "..وبعد".

وواضح أن الكتاب متأثر بالتصور الغربي للدين، وبالماركسية في قضية العدل الاجتماعي، وبصفة عامة فهو يفصل بين الدين والدولة، ويرفض إسلامية الحكم، ويستشهد بقول الرسول ﷺ عن رسالته بأنها نبوة لا ملك، وأنه رحمة مهداة، ويرى أن العدل الاجتماعي لا يقوم على ما يسميه اشتراكية الصدقات..!

وقد آثر الشيخ محمد الغزالي أن يناقش الكتاب جزئية جزئية، ويقدم التصور الإسلامي مدعوما بالدليل والبرهان، وينسف كل ما خالف التصور الإسلامي في كتاب خالد، ولم يمنعه رفضه لما في كتاب "من هنا نبدأ" أن يشير إلى نقاط يتفق فيها معه، ويؤيده.. وقد جاء كل ذلك من خلال حدة ملحوظة اشتكى منها خالد لأنه ما كان يتوقعها من صديقه الحميم محمد الغزالي.

في كتابه "من هنا نعلم" للشيخ الغزالي يرد على ما أثاره خالد في كتابه "من هنا نبدأ"، حيث يتوغل في مناقشة قضايا المسلمين المعاصرين ومشكلات المجتمع المصري خاصة، وينطلق من تناول مفهوم الحكم الإسلامي، ويفرق بينه وبين الحكم القومي، ويشير إلى الفساد المتمكن في ثنايا المجتمع الإسلامي لأسباب عديدة خارجية وداخلية، كما يشير إلى بقية الحروب الصليبية التي تحارب التصور الإسلامي، ويتساءل هل هناك حكومات إسلامية الآن؟

كما يتناول موضوع الحدود، والإيمان الأعزل أمام الإلحاد المسلح، وغرائز الحكومة الدينية، وبدعة فصل الدين عن الدولة، والسلطة الروحية والزمنية، ويتحدث عما جرى للمسلمين تحت حكم المستعمرين الغزاة، والديمقراطية في دول الشرق والغرب، وقضايا المجتمع الإسلامي ومشكلاته؛ مع التركيز على موضوع المرأة والنهضة النسائية بعيدا عن الدين والإسلام، ويفرق بين الوحوش والحكام، ويتحدث عن المشكلات الاقتصادية...

وقد كان منهج الغزالي دافعا لأن يقول الشيخ "صالح عشماوي" في مقدمة كتاب "من هنا نعلم":



خالد محمد خالد

(وهذا الكتاب ليس ردا لشبهات محدودة. إنه دفاع أولا عن تعاليم الإسلام؛ وبيان جيد لما انطوت عليه من قيم، ثم هو بعد كشف لخبايا الهاجمين على هذا الدين، والجهات التي ينفسون عن حقدها، ويحققون مآربها..

وستظل الحاجة إلى هذا الكتاب ما بقي الغزو الثقافي ملحفا في النيل من مقدساتنا، موغلا في افترائه على الإسلام، وما بقي له أذناب يتحركون بحركته، ويعملون تحت رايته.

وهكذا يأبى الله ألا تثار حول دينه شبهة إلا ويقيض لها من يهتك سترها، ويريح سرها

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

(الفرقان: ٣٣)

نسأل الله أن يجزيه عن الإسلام خير الجزاء وأن يوفقه للعلم النافع. (محمد الغزالي، من هنا نعلم، ط ٢، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٥).

وسأكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى بعض القضايا التي ناقشها الشيخ الغزالي في كتاب صديقه الأستاذ خالد محمد خالد؛ ليظهر من خلالها البعد الفكري الذي حكم تصورات

كل منهما في تناول القضايا السياسية والاجتماعية.

حول قضية الفصل بين الدين والدولة أو بين الحكومة والإسلام يقول الشيخ الغزالي:

(.. ما يقوله الأستاذ خالد من أن الدين ليس إلا علامات تنصب أول الطريق لترشد المارة إلى اتجاهاته المختلفة - وأنه لذلك لا علاقة له بالسلطات. هذا كلام خيالي يشبه الشعر الحالم - فالطرق مليئة بالقطاع - والذين إن لم يسر فيها قافلة منظمة مسلحة يوشك أن تتخطفه الشياطين من هنا ومن هناك.." (الغزالي، من هنا نعلم، ص٣١).

ويضيف مستخدما التقريع والسخرية أحيانا: "على أن الأستاذ مضى في طريقه يحارب في غير عدو - ويحصي عيوبا سبغة للحكومة - هي حيثيات إقصاء الدين عن السياسة - وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم. فلما أعوزته الأمثلة التي تشهد لهذه النتيجة قال: "وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة.. حتى إن حاكما دينيا واحدا وهو الحجاج أباد البقية الكريمة من صحابة رسول الله". ولأول مرة يقرع سمعي أن الحجاج حاكم ديني!

وما أظن الحجاج نفسه طمح إلى هذا اللقب - وما أظن أحدا من المؤرخين أسبغ عليه هذا الوصف الغريب.

لكن الأستاذ خالدا فعلها - وانتقل منها إلى أن دينا يحكم الحجاج باسمه لا يصح له أن يحكم...

"قال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري لسليمان بن عبد الملك يصف الحجاج: "يا أمير المؤمنين. كان عدو الله يتزين تزين المومسة - يصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار - فإذا نزل عمل عمل الفراعنة. وأكذب في حديثه من الدجال".

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله واستهتارهم الفظيع بالدماء والحرمات. ولو لقي جزاءه في الدنيا لكان الشنق أهون عقاب ينزل به. ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته في نظر خالد تفسيرا للإسلام - وتؤخذ حجة على كتاب الله وسنة رسوله!!.

ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن "نابليون بونابرت" اعتنق الإسلام ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدي علماء الأزهر - ثم ارتكب بعد ذلك من الجرائم السياسية ما نعلم... مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام دينا ودولة بعد تصرفات نابليون الشائنة؛ فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجري في دمه وتنطق بخطورة تحكيم الدين في الشئون العامة (من هنا نعلم، ص ٣٣-٣٤).

وفيما يتعلق بدعوة خالد محمد خالد إلى ضرورة تحديد النسل بين المسلمين من خلال عمل حكومي منظم لتحقيق حياة أفضل؛ يشير الغزالي إلى دور الغزاة الصليبيين في محاربة الإسلام لتنحيته عن حياة المسلمين بصفة عامة، وإصرارهم على أن يحدد المسلمون نسلهم بصفة خاصة؛ فيقول:

"ولذلك أوعزوا إلى كل وسائل الإعلام الخاضعة لهم أن تحارب هذه النزعة بين المسلمين وحدهم. ومن العجائب المضحكة أن الخواجة سلامة موسى - كان جهير الدعوة إلى تقليل النسل لينخدع به المسلمون من

قراء الصحف. ومات حضرته عن ثمانية أولاد!!

إن إحصاء السكان في أنحاء العالم والمشرف عليه هو الاستعمار - يتعمد تقليل عدد المسلمين في أقطار إفريقيا وآسيا - ويشيع أن عددهم نحو ثلاثمائة مليون. مع أن عدد المسلمين ستمائة مليون (كان ذلك في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين). والجهد الاستعماري الخبيث يتجه إلى جعل المسلمين قلة بالفعل عن طريق تحريضهم على تقليل النسل.. ومن هنا قلنا: إن تحديد النسل لآحاد الناس وفق ضرورات مشروعة لا حظر عليه. أما رسم سياسة لتقليل المسلمين - فهو للأسف هدف صليبي لكسر شوكة الأمة - وجعلها بالنسبة للشيوعيين والنصارى نزرا يسيرا يمكن الخلاص منه والتغلب عليه... والمحزن أن ذلك أصبح غاية مقررة لبعض الحكومات التي تقوم في بلاد إسلامية" (من هنا نعلم، ص ٢٩٥).

ويبدي الشيخ الغزالي تأييده لخالد في محاربة الفساد الاقتصادي، وإقامة العدل الاجتماعي بالمفهوم الإسلامي وليس بالمفهوم الاشتراكي المجرد. ويؤكد على رفض تحديد النسل طريقا للإصلاح الاقتصادي:

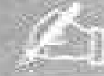
"إننا نؤيد الأستاذ خالدا في حملاته العنيفة على الفساد الاقتصادي الذي خرب بلادنا وهد قوانا وأسقط اعتبارنا. ونؤيده في أكثر المقترحات التي تقدم بها لتعمير ما خرب وتكريم من ذلوا. مع أن خالدا من دعاة الاشتراكية المجردة ونحن من دعاة الاشتراكية الإسلامية - إلا أن مسلكه في نظرنا أشرف من بعض الرجال المحسوبين على الدين - والذين لم نقرأ لهم أي كلمة يعطفون بها على بائس أو يحاربون بها صاحب عدوان.


الغزالي

إلا أننا نرفض رفضا حاسما مقترحه العجيب في تحديد النسل!! وربطه هذا المقترح بالإصلاح الاقتصادي ومعالم الاشتراكية. ولسنا نزعم أن تحديد النسل حرام. فقد كتب الإمام أبو حامد في الإحياء وصدرت الفتوى من المسئولين الرسميين عنها بإباحة التحديد إذا اقتضته ضرورات محترمة. وإنما الذي ننكره أن هناك ضرورات عامة تجعلنا ندعو الأمة إلى الاقتصاد في الأولاد! فالحقيقة أن الفقر في مصر مرده سوء توزيع الثروة وسوء استغلالها لا قلة الإنتاج ثم إن ما يمكن إنتاجه أضعاف ما نحصل عليه فعلا. ولو أن كل يد تستطيع العمل وجد لها المجال الذي تكدح فيه - ولو أن الثروة الوطنية بعد ذلك وزعت على العاملين لا على القاعدين لما كان في مصر بائس ولا محروم. إن مصر تتسع لأربعين مليونا (عدد سكان مصر المحتلين آنئذ)، ولا يضج فرد فيه بشكوى لو أن الحكومات في مصر فكرت في استغلال الصحراء بالزراعة والتعدين - وفكرت في استغلال بحارها الواسعة - وفكرت في استغلال موقعها العالمي الفريد - وفكرت في استغلال نيلها الذي يفيض بالخير الدافق كل عام. (من هنا نعلم، ص ١٩١).

صفر ١٤٣٤هـ
يناير ٢٠١٢م

نظريات التغيير بين العنف والإصلاح



للمفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي
منير شفيق

فى نظريات التغيير أمثلة ونماذج

لعل من الضرورى أن نقدم بعض النماذج والأمثلة على المقصود بنظريات العمل التغييرى وأشكاله وإنه لمن المهم، ومنذ الآن، التأكيد على أن تكرار النموذج الواحد، أو المثال الواحد، غير ممكن، إذ أن الحالات التى يمكن أن تصنف ضمن نموذج واحد حملت فى داخلها وفيما بينها الكثير من الفروق والتنوع والاختلاف.. وإذا كان من الممكن وضعها ضمن نموذج واحد أو مثال واحد فذلك بسبب ما هو مشترك، ربما هى الجوهر، أو من ناحية الشكل فقط، وهو ما يفترض دائما رؤية أصيلة لكل حالة مستجدة بعيداً عن أية محاكاة.

أما من جهة أخرى فإن الأمثلة والنماذج أدناه لا تعطى إلا جزءا من الحالات إذ ثمة حالات لم تذكر إما سهوا وإما اختصاراً أو نقصاً فى المعلومات، لكنها على كل حال قد تساعد على إجلاء الصورة وإن من تلك النماذج والأمثلة:

١ـ نظرية الجهاد المسلح ضد قوات احتلال: وتتمثل باللجوء إلى الجبال أو المناطق المحررة كما حدث مع عبدالقادر الجزائرى، وعمر المختار، وعبدالكريم الخطابى، الذين اعتمدوا نظرية الجهاد فى سبيل الله عن طريق قتال العدو، ونجم عن ذلك أسلوب الجهاد المسلح المرتكز على الأرياف ضد قوات أجنبية غازية، وهذه هى «استراتيجية وتكتيك» حرب العصابات، وتمكنت من تحرير مناطق واسعة، ثم جيّشت الجيوش لخوض معارك حاسمة ضد العدو الأجنبى. وهذا نمط من نظرية للعمل نشأ عنها طراز من استراتيجية وتكتيك محددين «طبعا ثمة تمايزات بين كل حالة من هذه الحالات وفقًا لظرف الزمان والمكان والعدو» وهذا ما يمكن أن ينطبق على نظرية العمل فى أفغانستان حيث يتخذ شكل تحرير المناطق النائية من مراكز قوة الاحتلال السوفيتى والسيطرة عليها والانطلاق منها لتوسيع رقعتها حتى السيطرة على طرق رئيسة واحتلال بعض المدن، ولكن مع الارتكاز على قاعدة وراء الحدود ـ منطقة بيشاور فى باكستان.

٢ـ أما نظرية العمل: التى اتبعها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى مجلتهما «العروة الوثقى» فقد أخذت شكل التوعية السياسية والتنبيه إلى مخاطر غزو بلاد المسلمين من قبل الاستعمار، وشدد على التخلص من النواقص الداخلية التى تشكل ثغرات ينفذ منها ذلك الغزو. ولهذا كانت هذه النظرية تعتمد استراتيجية الجامعة الإسلامية، بزعامة دولة الخلافة العثمانية، وقد ربطت الصراع المحلى ضد الأجنبي بالوحدة السياسية العامة، وركزت تركيزا خاصا على هذه الوحدة، أى نحن أمام نظرية عمل هنا تعتمد على حث الحكام على الاتحاد والتنبه إلى الأعداء وتحريض الشعوب على النهضة والمقاومة حيثما احتل العدو أرضاً للمسلمين.



حسن البنا



جمال الدين الافغانى



الملك فاروق

٣ـ وتشكلت نظرية للعمل: أخرى بعد زوال دولة الخلافة العثمانية، وبعد أن تمكنت جيوش الاستعمار الغربى من احتلال بلاد المسلمين ومزقتها إلى دويلات وفق مخطط سايكس ـ بيكو. وقد تشكلت بعد الحرب العالمية الأولى ونتيجة لها معادلة دولية فيما بين الدول الكبرى كرستها سلسلة مؤتمرات دولية لتكريس تجزئة بلاد المسلمين على أساس دويلات ضمن مناطق النفوذ الاستعمارى «مؤتمر سان ريمو ومؤتمر باريس على سبيل المثال» ففى هذه الظروف كانت نظرية العمل الأساسية هى التى أرسى قواعدها الإمام الشهيد حسن البنا، حيث كان لابد من العمل فى ظل الهزيمة، بل فى ظل قوات الاحتلال والنظام العميل، وقد اعتمدت النظرية التربوية التى كانت تحضيراً لمرحلة أخرى أو أكثر، ينتقل فيها العمل إلى الجهاد، وأصابت هذه النظرية نجاحا كبيرا فى مرحلتها الأولى وكادت تجرف السلطة من الداخل، وانتقلت إلى مستوى العمل الجماهيرى العام ثم الجهاد على أرض فلسطين ١٩٤٨م. ولكن سلطات الملك فاروق وبدعم مباشر، وتخطيط مباشر، من السفارات الاستعمارية عاجلتها بالضربة وقطعت عليها وتيرة ذلك التقدم المتواصل والمتصاعد. ولم تكن الحركة قد وضعت فى حسابها أن تصادم السلطة فى ذلك الحين ولم تحدد كيفية إدارة ذلك الصدام. بل لم تكن شروط الصدام متوفرة. وبهذا حدثت نكسة مؤقتة فكان لابد من الانتقال إلى مرحلة أخرى تتطلب نظرية عمل مناسبة فى ظروفها، ولكنها عادت إلى المد من جديد مع فتح النيران على قوات الاحتلال الإنجليزى فى القناة، وجاءت ثورة ٢٣ يوليو لتغير ظروف مصر تغييراً نوعيا مما أصبح يتطلب نظرية عمل مناسبة. أى أصبح من الضرورى أن تحدد كيفية التعامل وسلطة الضباط الأحرار، وقد اختير أسلوب التعاون والدعم على أمل أن تكون للقيادة الجديدة أو بعضها على الأقل توجهات إسلامية، هذا إن لم تلتزم بخط

الإخوان أصلا، ولكن قيادة عبدالناصر قطعت الطريق مع حادث المنشية ١٩٥٤ ودخلت في حرب قاسية ضد الإخوان وراحت توجه لهم الضربات.

وهكذا تؤكد هذه الأحداث الموضوعة التي تقول لابد من تحديد نظرية في التعامل والسلطة سلبًا وإيجابا، وصراعًا أو تعاونًا، مفاصلة أو نصحا. أي لابد من نظرية العمل التي تنبع من ظروف الزمان والمكان في بلد محدد، وضمن معطيات ميزان القوى محليًا وإقليميًا ودوليًا.

٤- أما نظرية العمل التي اتبعها الإمام الخميني في إيران: فقد اعتمدت نظرية التحريض اليومي وعلى مدى طويل ضد رأس النظام وضد النظام عمومًا. ومن ثم تأليب الرأي العام وحشده للدخول في مواجهات جماهيرية: تظاهرات، إضرابات، اعتصامات وصولاً إلى عزل النظام تمامًا فتهاويه وتخبطه وعدم قدرة الجيش على مواصلة ضرب الشارع، وأخيرًا بلوغ نقطة الاستسلام لثورة الجماهير أو الانتفاضة الشعبية العامة، والتي راح الجند وصغار الضباط ينضمون إليها.

هذه النظرية للعمل طبقت بصورة عفوية، مرات كثيرة بتاريخ مصر حين كان النظام يصل إلى حد الأزمة الخانقة لأسباب داخلية أو خارجية أو معا، فتندفع الجماهير إلى الشوارع ومن ثم يتدخل العلماء «وأحيانا الأزهر رسميا» ويأخذ الجند وصغار الضباط وأحيانا بعض كبار الضباط بالتمرد على الأوامر فيقع التغيير.. وهذا ما حدث في زمن العز بن عبدالسلام أو حين جيء بمحمد علي للسلطة كما حدث ما يشبهه في عدد من الانتفاضات ضد الإنجليز.

وهذا النمط عرفته إيران بصورة عفوية كذلك في ثورتي ١٨٩٨ «ثورة التنباك» و١٩٠٩ «ثورة الدستور» فكانتا النموذج للنظرية الخمينية في التغيير.

٥- نظرية الثورة التي قادها الإمام محمد بن عبدالوهاب: اعتمدت التحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي احتفظ لنفسه بالقيادة العسكرية والسياسية والحكم بينما أمن لها القاعدة الآمنة، بل قاعدة الانطلاق للتوسع من خلال نشر الدعوة واستخدام القوة المسلحة، وتمكنت فعلا ضمن معادلة ظروف شبه الجزيرة العربية، والمعادلة الإقليمية «العثمانية - المصرية» والدولية أن تحكم حوالي ٧٧ عامًا من ١١٥٣ - ١٢٣٣هـ، الموافق ١٧٤٠ - ١٨١٧م في كل الجزيرة العربية، بل التوسع باتجاه العراق لكنها ضربت من خلال قوات محمد علي والي مصر وبمباركة السلطان العثماني.

٦- أما ثورة اليمن: التي قيدت من قبل العلماء ضد الإمام يحيى في أواخر الأربعينيات اعتمدت الثورة على الحاكم الجائر الفرد مطالبة بالدستورية والشورى، وهي أيضًا نظرية للتغيير تابعة من ظروف اليمن سواء أكان على مستوى تقسيماته القبلية وتوازن القوى بينها وبين المركز أم كان على مستوى الاستقلالية أو شبه الاستقلالية الداخلية التي كان يتمتع بها اليمن إقليميًا ودوليًا.

٧- أما قائمة الثورات المسلحة التي انفجرت في وجه القوات الاستعمارية: فكثيرة جدًا تكاد تغطي معظم بلاد المسلمين حين تعرضت للغزو الاستعماري المباشر. وقد اتجه أغلبها إلى بناء القاعدة أو قواعد الارتكاز التي جمعت بين الأرياف والمدن والانطلاق منها لشن المعارك وهو نموذج يمكن أن يلمس بثورات كل من عز الدين القسام والحاج أمين الحسيني في فلسطين ومثلها كذلك ثورة الإمام أحمد بن عرفان في الهند، والشيخ شامل في القوقاز وحركة أحمد دجلان في جاكرتا، والطريقة النقشبندية في تركستان الصينية أو ثورة أحمد الشهيد في الهند، والمهدي في السودان.

المهم هنا أن ننبه إلى نظريتي التغيير الأساسيتين اللتين سادتا القرون الماضية في مواجهة الغزو الاستعماري الخارجي فقد كانتا نظرية الجهاد المسلح منطلقا من قواعد ارتكاز، في الأغلب ريفية، ونظرية الثورة الشعبية العامة المؤيدة من العلماء والمراكز الدينية الكبرى.

٨- نظرية استخدام مختلف أشكال المقاومة ضد الاستعمار المباشر: وقد سادت هذه النظرية في مرحلة تمكن الحكم الاستعماري المباشر بعد ضرب الثورات الأولى التي واجهت جيوش الاستعمار عند دخولها أو بعيد ذلك، فقد بدأت تظهر على السطح أشكال متعددة للمقاومة اللاعنفية والعنفية امتدت من توقيع العرائض



امين الحسيني عز الدين القسام

ووفود الاحتجاج إلى التظاهر والإضراب، إلى استخدام أشكال من العنف المتفرق وهذا نموذج عرفته أغلب البلدان العربية والإسلامية في مقاومة الاستعمار المباشر ما بين أواخر العشرينيات وأواخر الخمسينيات فهنالك بلدان أنجزت طرد الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية من خلال أشكال المقاومة الشعبية غير العنفية عمومًا، مثل لبنان وسوريا والمغرب، واقترنت المقاومة الشعبية ضد الاستعمار في أواخر المراحل في بعض الحالات بأشكال متنوعة من العنف كما حدث في تونس مثلا. أما نموذج ثورة التحرير الجزائرية فقد اعتمدت حرب عصابات المدن وحرب عصابات الريف، وبنت الجيش المنظم خلف الحدود، ودعمت ذلك بتعبئة سياسية عالمية لعبت دورا حاسما في انتصار الثورة.

ويبدو أن استخدام هذه النظرية في التغيير نجح في حالات الاستعمار المباشر بل عرفت هذه الحالات تجربة قبرص التي سار فيها العمل المسلح والعمل السياسي على خطين متوازيين في آن واحد.

٩- وعرفت البلاد التي كانت مرتبطة بمعاهدات مع الاستعمار: شكلين أساسيين من التغيير جاء تتويجاً للمقاومة الشعبية غير العنيفة وهما التغيير بقرار من رأس الدولة كما حدث في الأردن حين قرر الملك حسين تعريب الجيش من بعد ذلك قرار الحكومة والبرلمان بإلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية، والثاني كان التغيير بالانقلاب العسكري كما حدث في مصر والعراق وليبيا وبلدان عربية أخرى.

١٠- نظرية العمل القاعدي والسياسي داخلياً وإقليمياً ودولياً: من أجل تشكيل رأي عام ضد ما يمارسه النظام المعني من قمع أو إساءات للناس والبلاد وصولاً إلى فرض عزلة عليه يُجبر معها على تخفيف قبضة القمع وإطلاق ولو جزء من الحريات السياسية.. فيكون الهدف الوصول إلى التعدد وإطلاق حرية الصحافة، والاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

فهذه النظرية في العمل تشكل تمهيداً لنظرية تغيير تعتمد الأسلوب المسمى اليوم أسلوب التغيير «الديمقراطي».

وهنالك نظريات للعمل ضمن هذا الإطار استخدمت في الاتحاد السوفييتي وعدد من البلدان الاشتراكية حيث كان الاضطهاد قد بلغ حداً صادر كل إمكانية لعمل معارض، أو نشوء معارضة إيجابية ضمن الشرعية. فقد اعتمدت هذه النظرية على الرأي العام الدولي للضغط على النظام، وكان هذا يقتضي من شخصيات مرموقة أن تقدم نفسها ضحايا عن طيب خاطر من أجل تحريك الضمير العالمي، والرأي العام الدولي.

هذه النظرية بحاجة إلى دعم إعلامي وسياسي خارجي حتى تؤتي أكلها في المدى البعيد أو المتوسط.

الملك حسين

١١- إذا كانت نظريات المواجهة قد نشأت ضمن إطار الحالات التي لم تترك فيه السلطة مجالاً للتنفس أو التعبير أو التغيير إلا من خلال المواجهات حين تتوفر الشروط الأخرى: هنالك الحالات التي تسمح بالعمل الدعوي وممارسة النصح وهو ما قبلت به كثير من حركات التغيير. وتقوم النظرية هنا على العمل ضمن الشرعية وإصلاح ما يمكن إصلاحه.

أما الحالات التي تقر بالتعدد وحرية الرأي والعمل العلني وتحتكم إلى صناديق الاقتراع فتضيق فيها إلى أبعد حد نظريات التغيير بالعنف أو المواجهات لتحل مكانها نظريات العمل الإقناعي والتوجه للرأي العام وإجراء الإصلاح والتغيير إما من خلال مؤسسات قاعدية واجتماعية وإما من خلال مجلس البرلمان «الشورى» وإما من خلال التفاهم والحاكم نفسه. وهذا ما يمكن أن يكون بحد ذاته هدفاً لحركة تغييرية تخوض الصراع من خلال التعددية والانتخابات، وهي بهذا تستطيع أن تتحالف مع قوى اجتماعية كثيرة للوصول إلى مثل هذه المعادلة، ولكن شرط ذلك أن يتشكل رأي عام حاسم في رفض الانقلاب عليها تحت أي سبب من الأسباب، ويقوم

ميثاق داخلي تحترمه الأطراف المعنية جميعاً لقبول التعدد والاحتكام إلى صناديق الاقتراع والتداول على السلطة أو المشاركة فيها، أما الشرط الثالث فيتطلب من الجيش أو رأس الدولة إن كان ملكاً دستورياً أن يمنعا أي خروج على هذا الميثاق ويحميا مبدأ التداول على السلطة.

ربما كانت هذه النظرية في العمل التغييري ذات مستقبل في عدد من البلدان العربية والإسلامية، في السنوات العشرين القادمة لكنها لن تتحقق من تلقاء نفسها أو من كرم أولي الأمر أبداً. وإنما من خلال معادلة مركبة من الصراع والتضحيات والمساومات وتداخل القوى ذات المصلحة المشتركة فيها، لاسيما بعد أن تصل حالات التأزيم المختلفة خصوصاً حالات القمع والاستبداد ومصادرة إرادة الناس وحقوقهم وحرياتهم مداها وتجر الويلات إثر الويلات أفعالاً وردود أفعال.

إن جعل هذه النظرية الخيار الأفضل والأول للعمل الإسلامي التغييري - يمكن إسناده بحجج كثيرة تابعة من الواقع الراهن ومن الشرع كما يمكن تأصيله بالعودة إلى تجارب الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقد كان خيار الانتقال السلمي اللاعنفي في التغيير والقائم على الإقناع وكسب الناس هو المنهج الأساسي الذي تبناه جميع رسل الله وأنبيائه عليهم السلام. لكن الأساليب المختلفة راحت تتولد نتيجة إغلاق الأبواب أمام هذا الخيار، ووفقاً لكل حالة كما سبق ولحظنا فكانت الهجرات أو كانت المواجهات والصدامات، والحرب. وكان الأمر بالقتال كما كان حال التجربة الإسلامية قد جاء بعد أن سدت الأبواب في وجه نشر الدعوة بالإقناع والجدال بالتي هي أحسن، وتوفر شرط الانتقال إلى مرحلة الهجرة أو القتال أو الإثنين معاً بعد أن أمنت قاعدة الارتكاز وانطلاق - يثرب.

١٢- ويمكن أن نحضر هنا أيضاً نظرية العمل في المواجهة التي تمت بين ابني آدم حيث رفعت نظرية:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

(المائدة: ٢٨)

إنها نظرية التغيير فيما بين أخوة أراد أحدهما أن يطغى على الآخر، أو حتى يقتله أو قل هي نظرية دقيقة في إدارة الصراع بين الإخوة في ظروف محددة، وبهذا يكون بالإمكان أن نلحظ كيف فتح القرآن بما قدمه من قصص وما أنزله على الرسول محمد ﷺ وما تضمنته السيرة من عبر آفاقاً غير محدودة حول نظريات العمل الممكنة، والمقبولة شرعاً، وجعل كل واحدة منها قانوناً ينطبق على نمط محدد من الحالات أو جعلها منهجاً يمكن الإفادة منه في المعالجات المختلفة التي تواجه البشرية على مر العصور واختلاف البلدان والأزمان والظروف.

«يتبع»

وسائل انتشار الإسلام فى أفريقيا


أ.د. حسن مكى

يهدف هذا البحث إلى ابراز الدور الذى لعبته الهجرات السياسية فى انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية عشية ظهور الإسلام. وبالهجرات السياسية تعنى الدراسة تلك الهجرات التى انطلقت من الجزيرة العربية فى فجر الإسلام. فى هجرة تعرف فى عالمنا المعاصر باللجوء السياسى. من تلك الهجرات هجرة جعفر بن أبى طالب -رضى الله عنه-، وهجرة الخوارج عندما ضيق عليهم سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وهجرة شيعة على عندما ضيق عليهم معاوية - رضى الله عنه- وهجرة الأمويين عندما أقصاهم العباسيون عن الحكم. وهجرة العباسيين فى وجه التتر والمغول.

لقد التجأ كل أولئك المهاجرون إلى أفريقيا، وكانوا فى بلادهم التى هاجروا منها أصحاب ملك ورسالة، فعملوا كل جهدهم على دعوة الأفريقيين للإسلام، وجهدوا فى تنظيمهم لتأسيس دول وممالك إسلامية، على نحو ما فعل عبدالرحمن الداخل صقر قريش فى الأندلس. فدوافع هؤلاء اللاجئين السياسيين الذين ذاقوا الملك كانت أقوى من دوافع الرعاة والتجار فى اكتساب معتنقين جدد. لذا ترى الدراسة أهمية بحث هذا الموضوع بقدر من الاهتمام والتدقيق.

وتبرز الحاجة إلى دراسة من هذا القبيل من خلال ضعف العرض الذى حظى به هذا العامل ـ الهجرات السياسية ـ فى كتابات المؤرخين الذين تناولوا عوامل انتشار الإسلام فى أفريقيا. إذ غالبا ما يقع فى تصانيفهم تحت عامل الهجرات على اتساعه، وقد درجت على تناول تلك العوامل مقسمة إلى أبواب هى فى الغالب الأعم ـ الفتح والهجرات والتجارة والطرق الصوفية.

كما يهدف هذا البحث لإبراز التشكيلة التى انتظمت حركة انتشار الإسلام فى أفريقيا فى القرون الأولى لهجرة النبى ﷺ فيما بين القرنين السابع الميلادى والخامس عشر الميلادى. لقد جاء هذا الاختيار لهذه الحقبة الزمنية؛ لأنها تشكل وحدة متصلة فى

تاريخ انتشار الإسلام فى أفريقيا، تلك الوحدة التى حددتها حركة الكشوفات الجغرافية والصحوة الصليبية فى شرق أفريقيا من ناحية، والضعف الذى اتسمت به ممالك غرب أفريقيا الإسلامية من ناحية أخرى. فقد سيطر البرتغاليون على منطقة شرق أفريقيا السواحلية منذ أن وطئت أقدام فاسكو داجاما أرض الساحل فى عام ١٤٩٨م وأرسى فيها السيطرة البرتغالية التى تعرف عند المؤرخين باسم الفاصل البرتغالى. وقد أمد البرتغاليون أثيوبيا التى كانت تعرف لديهم بمملكة القديس يوحنا بالمبشرين الجدد كما أمدوها بالأمل فى القضاء على المسلمين. أما فى غرب أفريقيا فعلى الرغم من أن الصحوة الصليبية لم تتعرض لممالكها الإسلامية، فى هذه الحقبة فقد كانت تلك الممالك تعانى الأمرين من ويلات الضعف والانقسام، ففى برنو ظهر الضعف واضحا منذ أن طرد عبدالجليل اليولالى الماى عمر ابن إدريس المتوفى حوالى ١٣٩١م من عاصمته جيمى فى كانم، أخذ الماييات المهاجرون فى تلمس الاستقرار فقضوا قرابة قرون من الزمان نهبا للفتن والانقسامات والقلاقل الداخلية. أما مملكة مالى الإسلامية فقد أخذت فى التدهور منذ وفاة مانسا موسى حوالى عام ١٣٢٧م، وأخذت مساحتها فى التناقص حتى تقوقعت أخيراً فى كانجابا، وقد حاصرها الطوارق والموشى والفولانيين والتكارنة ثم صنغى صاحبة الدور الكبير فى إسقاطها عام ١٥٠١م.

وتشكل هذه الفترة وحدة دراسية متماسكة من حيث العوامل التى أسهمت فى انتشار الإسلام وأهم ما يميز عوامل انتشار الإسلام فى هذه المرحلة هو خلوها من دور مشهود للطرق الصوفية، إذ أن الفترة التى انقضت بنهاية القرن الرابع عشر الميلادى لم تشهد اشتداد ساعد التصوف المدرسى الذى نقصد به التصوف المنظم، قد يكون صحيحا أنه ربما كان هنالك صوفى أو اثنان فى هذه المرحلة إلا أن التأخر النسبى فى انتشار مذاهب التصوف أمر أوجبه التأخر النسبى فى ظهور شيوخه، فأغلب شيوخ الصوفية عاشوا فى القرن الثانى عشر ولم يستطع أتباعهم تأسيس طرقهم ونشرها فى أفريقيا قبل نهاية الفترة التى تعنى دراستنا. فقد توفى الغزالى فى حوالى عام ١١١١م، والسيد عبدالقادر الجيلانى توفى عام ١١٦٦م، كما توفى السيد أحمد الرفاعى ١١٣٢م، وأبو الحسن الشاذلى ١٢٥٨م كما توفى أحمد البدوى فى طنطا عام ١٢٧٤م.

وعلى ما ذكر فإن انعدام العامل الصوفى فى هذه المرحلة أصبح سمة مميزة لحركة انتشار الإسلام فى أفريقيا. أما السمة الثانية التى تشترك فيها عوامل انتشار الإسلام فى هذه الحقبة فهى عظم الدور الذى أدته الهجرات العربية والإسلامية فى أفريقيا، وعلى الرغم من تعدد دوافع تلك الهجرات وانقسامها إلى هجرات اقتصادية سواء كانت بقصد المرعى والكلأ أو بقصد التجارة إلا أن الهجرات السياسية تميزت بأنها كان لها

دور لا يستهان به فى انتشار الإسلام فى أفريقيا.

وكذلك فإن الحقبة التى تلتها تميزت بعوامل أخرى كان لها أكبر الأثر فى انتشار الإسلام فى أفريقيا وهى حقبة الحركات الجهادية التى قام بها أمثال دان فوديو وأحمد بن إبراهيم الجران وعمارة دنقس وعبدالله جماع وعمر بن سعيد تال الفوتى ومحمد الأمين الكانمى، قادوا حركات جهادية ساهمت فى حركة انتشار الإسلام فى أفريقيا. وقد تلت هذه المرحلة انتشار الإسلام بعوامل الوحدة أمام التحدى الحضارى فثورة ماجى ماجى بقيادة بشير بن سليم فى تنجانيقا، والثورة المهدية فى السودان، وثورة محمد الحسن ابن عبدالله الملا فى الصومال، والثورات الشبيهة بها تشكل حقبة «منفصلة» فى انتشار الإسلام فى أفريقيا وفى الدراسة التى بين أيدينا نعنى بالحقبة التاريخية الأولى من مراحل انتشار الإسلام.

أثيوبيا وطلائع الدعاة

لقد كان أول اتصال للإسلام بأفريقيا عن طريق البحر الأحمر للشواطئ الغربية ما يعرف حينها بالحبشة وذلك عندما وصلت جماعة من المسلمين لاجئين من الاضطهاد الدينى خلال السنوات المبكرة لبعثة النبى (ﷺ) ٦١٥م ومهما يكن الرأى حول تلك المعلومات عن إسلام النجاشى وصلاة النبى ﷺ صلاة الغائب عليه فإن تلك المدة التى قضتها مجموعة المسلمين المهاجرين لم تترك أثراً تذكره مصادر التاريخ لانتشار الإسلام فى تلك البلاد

لم يبد المسلمون أية محاولة بعد تلك الهجرة متأثرين كما يرى بعض المؤرخين بحديث الرسول ﷺ: «اتركوا الأحباش ما تركوكم» (سنن أبى داود).

غير أن القراصنة الأحباش ما لبثوا أن هاجموا ميناء جدة سنة ٦٤٠م - ٢٠ هجرية مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى إرسال حملة بحرية بقيادة عقبة بن محرز المدلجى للقضاء عليهم، ولكنه لم ينجح فى ذلك. ولهذا السبب تمكن الخليفة الأموى عبدالله بن مروان من احتلال أرخبيل دهلك، ولكن لم يضع حداً لخطرهم إذ ما لبثوا أن هاجموا جدة مرة أخرى عام ٧٦٨م مما دفع الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور إلى إيفاد حملة لتفريق شملهم وذلك عام ٧٧٠م.

أخذ الإسلام ينتشر فى الحبشة سلمياً وتدريجياً بعد ذلك نسبة للتوسع التجارى وقد تأثر انتشار الإسلام هنالك بهجرات العديد من العلماء والدعاة الذين كانوا يطلبون الأمان لأنفسهم بعد انتقال الحكم إلى بنى أمية وإلى العباسيين من بعدهم وبالرغم من أن هذه الهجرات بدأت منذ ظهور الإسلام مباشرة إلا أن استقرار المسلمين بأعداد كبيرة وبصفة دائمة لم يتم إلا بحلول القرن العاشر الميلادى حين أنشأوا المراكز التجارية فى زيلع ومقديشو ومصوع وبربرة وتزاوجوا مع السكان المحليين فكونوا مزيجاً عرقياً وثقافياً متميزاً فى السهول الساحلية.

ولم يقتصر انتشار الإسلام فى الحبشة فى ذلك الوقت على الموانئ الساحلية بل أخذ يشق طريقه إلى داخل الأراضى الأثيوبية من خلال التوسع التجارى متبعاً الشبكة الواسعة من طرق القوافل التى كانت تربط بين الساحل والداخل متبعاً تقلص نفوذ مملكة أثيوبيا المسيحية إلى الهضاب المرتفعة فى الداخل نتيجة للحروب والتفكك الداخلى.

وفى بداية القرن الثانى عشر الميلادى انتشر الإسلام ورسخت أقدامه فى حزام عريض من أرخبيل دهلك قرب مصوع على طول الساحل إلى الصومال والدناكل والسهول المجاورة كما انتشر بين قبائل البجا والجبرتة فى الشمال وفى الأقاليم الوسطى من أثيوبيا وتعداهم إلى قبائل السيداما فى الجنوب، ومرتفعات «شوا» الشرقية، وفى إقليم هرر وحول بحيرة زيوى حتى نهر الأومو فى الجنوب، وظهرت نتيجة لذلك عدة ممالك إسلامية وقد تهيأ لحكام هذه الممالك فرصة إحياء نور القرآن بتوافد العلماء والدعاة المسلمين إليهم، وإيفادهم مجموعة من الطلاب إلى مكة المكرمة والأزهر بالقاهرة.

وقرين بهذا الموقع، طريق آخر من جهة السويس يتمثل فى ذلك الطريق الذى سلكته تلك الهجرات عبر سيناء فى المدخل الآسيوى لقارة أفريقيا من جهة الشمال، حيث اتبعت قوافل المهاجرين الطريق البرى الذى ينحدر من سيناء ومصر على طول ساحل البحر الأحمر مخترقاً أرض الدناكل ومتجها إلى ساحل أرتيريا، إذ وجدت بعض البطون العربية ما يشجعها على الهجرة وبدأ فريق من تجار العرب من ربيعة وجهينة يقيمون بها إقامة دائمة وقد دخلت كذلك جماعات من «بلى» وقيس عيلان أرض البجا، وأقامت فيها وامتزجت مع أهلها بالمصاهرة، وعن طريق هذه الإقامة وتلك المصاهرة أخذ الإسلام ينتشر وبمرور الزمن أخذ العرب يندفعون إليها فى هجرات مستمرة لأسباب سياسية واقتصادية.

وتعتبر تلك الهجرة التى أعقبت سقوط الأمويين وتولى العباسيين أكبر الهجرات، إذ تغلغل النفوذ العربى حتى حاز أرض الدناكل إلى حدود الحبشة، وفى هذه الآونة تأثر البجا بالعرب واندمجوا فى الحياة الإسلامية حتى إن أمراء البجا اختاروا لأنفسهم أسماء عربية فى القرن الثالث الهجرى.

لقد تأخرت بلاد النوبة المسيحية فى اعتناق الإسلام نسبيا مقارنة بزنجبار ومقديشيو وأثيوبيا وغانا فى غرب أفريقيا إذ أن تدفق العرب المسلمين نحوها بدأ مترددا وبطيئا على الرغم من توقيع اتفاقية النوبة فى عام ٦٥١م ولم تكتمل ظاهرة انتشار الإسلام وتصبح البلاد جزءا من العالم الإسلامى إلا بعد قيام الممالك الإسلامية فى سودان وادى النيل فى بداية القرن السادس عشر الميلادى.

لقد كان لهجرة بنى الكنز جنوبا واستقرارهم حول وادى حلفا بعد أن كسر الملك العادل «أخو صلاح الدين الأيوبى» شوكتهم أثره فى تعزيز الهجرات العربية فى منطقة النوبة بالإضافة إلى تلك الأعداد الكبيرة من العرب الذين هاجروا إلى الجنوب نتيجة لزهدهم فى الحياة بمصر على أيام المماليك حوالى عام ١٢٧٥م.

كما يذكر ابن خلدون فإن أكبر القبائل العربية التى أثرت فى انتشار الإسلام فى النوبة كانت جهينة، إذ صار ملك النوبة لبعض أبناء جهينة الذين ينحدرون من أمهات من النوبة.

ويرجع يوسف فضل أن بني الكنز قدأدوا دورا قياديا مهما في سقوط المقرة ويقول أن ذلك لا ينفي أن جهينة كانت أهم وأكبر القبائل العربية التي توغلت في السودان أما السبب المباشر فى تغلغل الإسلام إلى بلاد النوبة فهو استعانة أمراء النوبة بالمماليك لحسم نزاعاتهم الداخلية، ونتيجة لذلك فقد جلس عبدالله بن برشامبو على عرش النوبة ثم أعقبه كنز الدولة وإبراهيم أخو كدنيس، وكما قد يتوقع فقد أصبح اعتناق الإسلام هو الضمان لاعتلاء عرش النوبة مما ساعد قبائل جهينة وحلفاءها من فزارة لتولى الحكم عن طريق أمهاتهم وشجع ذلك للمزيد من تدفق الهجرة العربية.

وثمة هجرات أخرى كان لها أثر مباشر فى انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل، الفوغ الذين قيل إنهم من بنى أمية، نزحوا ابتداء إلى الحبشة وتتبعهم العباسيين، وخاطبوا فى شأنهم حكام الحبشة، واضطر الأحباش للتخلص منهم إلى المناطق المتاخمة، واستدل المؤرخون على ذلك من الرسائل المتبادلة بين عمارة دنقس ومحمد بادى عجيب إلى السلطان سليم وبنى أمية المقيمين بدنقلا.

ارتبط شرق أفريقيا السواحلية بالجزيرة العربية والمنطقة الفارسية قبل ظهور الإسلام بالرياح الموسمية ومنتجات الساحل الإفريقى المتميزة من عطور وبخور، وقد بلغ النشاط التجارى ذروته فى القرن السابع الميلادى.

وبغض النظر عن الأطوار التى مر بها النشاط البحرى التجارى اتساعا وانكماشًا بين الجزيرة العربية والساحل الشرقى لإفريقيا، فما ينبغى الإشارة إليه فى هذا الموضوع هو أن حركة التبادل التجارى المبكرة هذه فتحت الطرق ومهدت الاتصال والاحتكاك الحضارى وأن الهجرات الإسلامية فيما بعد سلكت نفس الطرق التجارية وقد استقبل ساحل شرق إفريقيا ابتداء من القرن السابع الميلادى عددًا من الهجرات الإسلامية «العربية والآسيوية» وكانت السمة المميزة لها أنها نتجت عن التقلبات السياسية فى الجزيرة العربية وكانت كل هجرة مقدمة ظهور مدينة جديدة ولقد شقت أولى تلك الهجرات طريقها فى القرن السابع الميلادى إبان حكم الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان حيث هاجر فريق من عرب الشام وأسسوا مدينة

حدابو، فيما يذكر المؤرخ الإفريقى سيبو فرج بن حمد الباقرى فى «كتاب أخبار لامو» أن فريقا من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف عامل الخليفة الأموى فوصلوا إلى الجنوب ويبدو أن هذه الهجرة هى التى ذكرها صاحب كتاب.. جهينة الأخبار باسم هجرة ابنى عبدالجلندى.

وحول هذا التاريخ أيضًا «٦٩٥م» وفد إلى الساحل الإفريقى فريق من أهل عمان الذين أعلنوا الثورة فى وجه الخليفة عبدالملك وظلوا يقاتلون حتى غلبوا على أمرهم واضطروا إلى الفرار ويذكر صاحب أخبار لامو أن هجرة هؤلاء العمانيين كانت سببا فى ظهور مدينة لامو.

وقبيل منتصف القرن الثامن الميلادى اتجهت نحو الساحل هجرة زيد بن على حفيد الحسين والذى ادعى المهدية فى عهد هشام بن عبد الملك وقد أشعل نار الثورة الشيعية ولكنه هزم وقتل ١٢٢هـ الموافق «٧٤٠م» ومن ثم اضطر أتباعه إلى الفرار واتجه بعضهم إلى شرق أفريقيا حيث استقروا عند شالجابوا ويحدد كوبلاند موضعها ويذكر أنها موضع بورت دنفور الحالية فيما يذكر آخرون أن بعض الزيديين استقروا بمقديشيو.

وقد تبعت هجرة الزيديين هجرة جماعة أخرى قدمت من الشاطىء العربى للخليج الفارسى من مكان بالقرب من جزيرة البحرين وترجع هذه الهجرة إلى أوائل القرن العاشر إذ جاء هؤلاء المهاجرون فى سفن ثلاث بزعامة أخوة سبعة ونزلوا عند الشاطىء وشيدوا مدينة مقديشيو ولما كان المهاجرون المستوطنون السابقون من الزيدية المختلفين معهم فى المذهب فقد رفض الزيديون الخضوع لحكام مقديشيو الجدد وآثروا الارتداد للداخل حيث اندمجوا فى السكان الأصليين وتزاوجوا معهم.

وخامس الهجرات التى قصدت شرق أفريقيا جاءت من إقليم شيراز المطل على الخليج الفارسى فى أواخر القرن العاشر وكان هؤلاء الشيرازيون المهاجرون من الشيعة وتذكر بعض المصادر أنهم وصلوا فى سبع سفن متواليات ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء الشرقى جنوب مقديشيو وأسس زعيمهم «حسن بن على» مدينة «كلوا» وهنالك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل متحررا من تدخل أسلافه المقيمين بعيدًا عنه فى الشمال.

وفى فجر القرن الثالث عشر الميلادى قام صاحب عمان سليمان بن مظفر النبهانى على رأس أتباع كثيرين وفدوا جزيرة «بيت» وتزوج من ابنة اسحق حاكم الجزيرة ثم ورث الملك وأصبح أميرا شرعيا ثم نقل بلاطه من عمان إلى شرق أفريقيا وتأسست الأسرة النبهانية فى جزيرة «بيت» التى تولت حكم شطر كبير من الساحل الإفريقى حتى القرن التاسع عشر وقامت هذه الإمارة بدور بارز فى التاريخ الإسلامى فى شرق إفريقيا.

لقد غمرت الهجرات الإسلامية الساحل الشرقى وأسسوا دولة «المديمة» فى كل من «مقديشيو» و«براوة» و«سيو»

«بيت» و«لامو» و«مالندى» و«كاليجى» و«ممبسة» و«فيمبا» و«بمبا» و«زنجبار» و«مافيا» و«كلوا» و«موزمبيق» و«سوفالا».

وقد نشأت أغلب هذه المدن فى جزر ساحلية يبعد بعضها عن الساحل مثل زنجبار ويقرب الآخر منه مثل «كلوة» و«ممبسة» وهي عبارة عن موانىء ساحلية محصنة تحصينا قويا ولكل منها مسجدها الجامع.

لا يعنينا تتبع تاريخ الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى تفصيلاً وتعقب المعارك التى خاضها المسلمون مع الروم تارة ومع البربر تارة أخرى وإنما سنكتفى بالإطار العام الذى يحدد لنا المراحل الرئيسية لهذا الفتح وما يلقيه ذلك من ضوء على الطرق التى سلكها الإسلام فى الانتشار جنوبا عبر الصحراء إلى وسط وغرب إفريقيا.

لما فتح عمرو بن العاص مصر اتجه إلى برقة «أنطابلس» ثم إلى طرابلس «أطرابلس» ففتحها عام ٢٣هـ وذلك قبل أن يتم له الفتح التام لمصر وقد استوقفه الخليفة عمر بن الخطاب من المضى إلى جهة المغرب ولما توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان على مصر أميران هما عمرو بن العاص «وعبدالله بن سعد ابن أبى السرح فعزل عمرو بن العاص وأخذ ابن أبى السرح يرسل جرائد الخيل إلى إفريقيا- تونس - حتى خرج إليها فى عام ٢٧هـ وفتحها، وثم خرج إليها بعده معاوية بن حديج التجيبى عام ٣٤هـ كما خرج إليها مرة أخرى عام ٤٠هـ ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية عقبة بن نافع الفهرى عام ٤٦هـ وأسس بها مدينة القيروان وأوغل المغرب الأقصى حتى طنجة ومضى إلى إقليم السوس واستشهد فى طريق الأوبة على أيدى «كسيلة» قائد البربر ولم يستطع من خلف عقبة السيطرة على برابرة المغرب إلى أن تولى الأمر موسى بن نصير فأوغل فى إقليم الريف حتى طنجة وانحدر إلى سبتة ومنها إلى السوس الأدنى ٨٦هـ وقد أفلح ابن نصير فى استمالة البربر حتى شاركوه فى الجهاد وخلف موسى بن نصير على جيشه طارق بن زياد الذى تم له فتح الأندلس عام ٩٢هـ.

اعتنق بربر شمال إفريقيا الإسلام بما فيه ابنا الكاهنة بعد المقاومة الشرسة التى أشار إليها ابن خلدون بالاضافة إلى مؤرخين آخرين دعمت بواسطة العناصر اليهودية التى كانت تكون جزءا من السكان وقامت هناك عدة دول فى الشمال الإفريقى واحتفظ بعضها بالولاء لبنى العباسى مثل الأغالبة وبنى حماد وأعلنت بعضها استقلالها، إما انتصارا لحركة الخوارج كما حدث فى قيام الدولة الرستمية فى تاهرت وإما انتصارا للعلويين الذين أخذوا يفرون من بطش بنى العباس فاتجه عبدالرحمن الداخل إلى الإندلس واتجه إدريس الأول إلى المغرب وأسس به دولة الأدارسة (٧٨٨ - ٩٧٤م) وذلك بعيدا عن بطش العباسيين الذين أوقعوا بالعلويين إثر ثوراتهم فى خلافة الهادى وللعبيديين الذين أخذوا بمبادئ التشيع.

«يتبع»

سيناء.. والوحدة الوطنية



بقلم: أ.د. أحمد عمر هاشم
رئيس جامعة الأزهر الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء

إن سيناء هى بوابة الفتح الإسلامى، وهى البقعة المباركة، وعليها كلم الله موسى تكليما، وبها أقسم الله تعالى فى القرآن الكريم:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

إنها الجزء العزيز الغالى من أرض الكنانة المباركة التى جعل الله تعالى أهلها فى رباط إلى يوم القيامة، كما جاء فى الحديث الشريف:

«إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد أهل الأرض قيل: ولم كانوا كذلك يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة»[1].

إنها البقعة المباركة التى شهدت تجليات رب العزة سبحانه وحديثه مع سيدنا موسى عليه السلام وطلب موسى من ربه أن يراه، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا كما قال الله سبحانه: فعندما تمنى موسى عليه السلام رؤية ربه وطلبها قائلا:

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾

«الأعراف: ١٤٣»

أجابه رب العزة سبحانه وتعالى بقوله:

﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الأعراف: ١٤٣)

إن الإسلام دخل إلى مصر من بوابة الفتح وهى سيناء، حيث عبر الجيش الإسلامى بقيادة الصحابى الجليل عمرو بن العاص رضى الله عنه أرض سيناء فى

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء.

عهد الفاروق عمر رضى الله عنه وأرضاه وعندما دخل عمرو بن العاص رضى الله عنه العريش جاءته رسالة من عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إذا كنت قد دخلت مصر فسر على بركة الله وإذا كنت لم تدخلها فعد بسلامة الله»، وذهب من العريش إلى الفرما ثم إلى بلبيس ثم الفسطاط.

واستقبل أهل مصر الإسلام والمسلمين بالبشر والترحاب؛ لأنهم علموا أن الإسلام هو الدين العالمىّ، الذى بعث رسوله ﷺ رحمة للعالمين وبشّر به سيدنا عيسى عليه السلام

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

(الصف: ٦)

وعلموا أن الإسلام يحمى حقوق الإنسان ويدعو إلى التسامح وحرية الرأى وحرية العقيدة وحرية الكلمة والمساواة والعدل وأن القرآن الكريم قال:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

ولقد رأى أهل مصر أن فى الإسلام حماية لحقوق الإنسان فاستقبلوه بالحب والمودة، وكان الرومان قبل دخول الإسلام مصر يعاملون الناس معاملة قاسية وظالمة وعنيفة مما دفع بالبطريرك بنيامين أن يفر إلى الصحراء هائمًا على وجهه تاركًا الكنيسة وتاركًا أهل ملته، ولكن ما إن استقر المقام بالمسلمين الفاتحين وبقائد الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه إلا وأرسل عمرو فى نواحى مصر مناديًا يدعو البطريرك بنيامين قائلا: «إن بنيامين آمن على نفسه وأن عمرًا يود أن يأتى إليه لكى يتسلم منه زمام إدارة شئون أهل ملته»، ولما جاء قال له عمرو بن العاص: «اذهب فارع شئون أهل ملتك وكن مطمئنا آمنا فى كنيستك».

هذا هو الإسلام فى سمو تعاليمه ومبادئه. هذا هو الإسلام فى حمايته لحقوق الإنسان، وفى رعايته للوحدة الوطنية، وفى حرصه على حقوق غير المسلمين. لقد وعى التاريخ - عبر عصوره - إلى أى مدى كان حرص الإسلام على قيام وحدة وطنية آمنة يتعاون فيها الجميع - مسلمين وغير مسلمين - على الحفاظ على الوطن وعلى أمنه، لقد كان هذا منذ زمن بعيد منذ اللحظات الأولى لهجرة المصطفى ﷺ وقيامه بتأسيس أول دولة إسلامية عظمى على أرض المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية فكان أول عمل قام به بعد بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أن أقام بناء الوحدة الوطنية بإبرام أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان أمّن فيها الجميع وأعطى غير المسلمين حقوقهم كاملة غير منقوصة وشرط لهم وشرط عليهم.

وكانت معاملاته وتوجيهاته التى اتسمت برعاية حقوق الإنسان ودعم مسيرته، وقيام حضارته الإسلامية التى نهضت على رعاية الجوانب الإنسانية وحماية حقوق الإنسان وتأمين غير المسلمين من أهل الذمة حيث قال ﷺ:

«من آذى ذميا فأنا خصمه»[٢] وقال:

«ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[٣] أى أنه ﷺ يكون خصمًا لمن يؤذى واحدًا من غير المسلمين أو يتعرض له بشىء يكرهه حتى ولو كان هذا إكراه على الدخول فى الدين؛ لأن الله تعالى قال:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

«البقرة: ٢٥٦»

وقال سبحانه:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

«الكافرون: ٦»

وهكذا أشاد الإسلام تعاليم الوحدة الوطنية منذ فجر الإسلام الأول، وظل المسلمون عبر أجيال التاريخ محافظين على هذه الوحدة الوطنية وظل أهل مصر وأهل سيناء محافظين على هذه الوحدة الوطنية، يعيشون أحبة ودعاء لا يغضب أحد أحدًا، ولا يكره أحدًا أحدًا بل صاغ الإسلام منهم مجتمعًا عارفًا بثقافة التسامح التى نشرها الإسلام ووجههم إليها.

إن أرض سيناء الطيبة، ارتوى ترابها الطهور بدماء الشهداء الذين ضحوا فى سبيل تحريرها، وانتشالها من براثن الاستعمار والعدوان.

لقد جاهد أبطال سيناء فى الله حق جهاده، حتى أتاهم اليقين.

ومن حق الشهداء الأبرار علينا أن نذكرهم وندعو الله لهم، وأن تقوم الدولة برعاية أبنائهم وأسرهم لقد قدموا لأمتهم وعقيدتهم أعظم ما يجود به الإنسان ألا وهى النفس فرضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وإن واجب أمتنا فى هذه الآونة أن توحد صفوفها، وأن ترعى وحدتها الوطنية، وأن تعتصم بحبل الله سبحانه القائل:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

***

(٢) أخرجه البغدادى فى تاريخ بغداد (٨/٣٧٠)

(٣) رواه أبو داود والبيهقى من طريق ابن وهب

الأحرف والقراءات القرآنية فى ضوء الدرس اللغوى





الأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله الذى أنزل القرآن بلسان عربى مبين، تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.. والصلاة والسلام على أفصح خلق الله محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد..

فإن خير ما يبذل من جهد ووقت، وأبقى ما ينفع بعد الموت، أن يتوخى الباحث بيان ما غمض من كتاب الله، ودرء ما وجه إليه من سهام المغرضين والجاهلين.. واستمرارا لهذا النهج الذى التزمته فى معظم بحوثى السابقة أقوم اليوم بمحاولة أدعى أنها تقدم فهما متسقا مع طبيعة اللغة، ومع النص النبوى، ومع التطور التاريخى حول مفهوم الأحرف السبعة، وعلاقتها بالقراءات، وعلاقتها بطبيعة اللغة ونشأتها وتطورها.. ذلك أنه مبحث يقول عنه العلامة الزرقانى[1]: «إنه مخيف وشائك.. كثر فيه القيل والقال إلى حد كاد يطمس أنوار الحقيقة حتى استعصى فهمه على بعض العلماء، ولاذ بالفرار قائلا إنه من المشكل، ثم يضيف: «إن الخطأ فيه يمهد السبيل لأعداء الإسلام فى توجيه المطاعن الخبيثة إلى القرآن».

ويحكى الزركشى[2] عن ابن العربى أنه لم يأت فى معنى هذه السبع نص ولا أثر، وعن الحافظ ابن حبان البستى أن الناس اختلفوا فى ذلك على خمسة وثلاثين قولا.

وما زلت أكرر أنها رؤية أراها صوابا تحتمل الخطأ، وأسأل الله أن يجنبنا الزلل، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

---

(١) انظر: مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقانى ١/٩٨، دار الفكر - بيروت ط الأولى ١٩٩٦م.

(٢) انظر: البرهان فى علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى ١/٢١٢، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

نشأة اللغة الإنسانية

هذا مبحث يبدو لأول وهلة أنه مما لا يضر الجهل به حيث يتعلق بأمر غيبى ليس فى نصوص الوحى ما يحسمه، غير أن ما يترتب عليه من فائدة لفهم ما أحاط بنزول القرآن الكريم على أحرف مختلفة يجعل له قيمة تستحق العناء فى الوصول إليه.

وقد اهتم بهذا البحث الأقدمون والمحدثون على سواء، من المسلمين وغيرهم.

فمن الأقدمين من يقول: إن اللغة الإنسانية طريقها الوحى والإلهام، اعتمادا على قوله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾

(البقرة: ٣١)

وقد أوضح هذا الرأى بشىء من التفصيل ابن فارس فى كتابيه: الصاحبى، وفقه اللغة، وتحدث عنه طويلا ابن جنى فى كتابه: الخصائص.

ومنهم من يقول: إن الإنسان قد تعلم اللغة عن طريق المحاكاة ثم المواضعة والاصطلاح، وقد تحدث عن هذا الرأى أيضا وأفاض فى الحديث عنه ابن جنى فى كتابه الخصائص، ويبدو من كلامه أنه يرتضيه.

أما المحدثون فيقولون: إن اللغة ظاهرة اجتماعية خضعت فى نشأتها وتطورها إلى قاعدة التطور العام على سبع مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الأصوات الساذجة غير المكيفة التى تشبه الأصوات الانبعاثية أو التلقائية التى تصدر عن الطفل فى أول عهده للنطق، فهى أصوات مبهمة لا تعين رغبة، ولا تحدد غرضا.

المرحلة الثانية: مرحلة الأصوات المكيفة التى تشبه النغمات الموسيقية إلى حد ما، وتنبئ عن الأغراض والرغبات بما يصاحبها فى الغالب من إشارات أو حركات.

المرحلة الثالثة: مرحلة المقاطع التى تتكرر فى الغالب، وتظهر منها آثار المحاكاة لما فى الطبيعة من أصوات الأشياء والحيوانات كأن يقول الطفل: تك تك يريد الساعة، نو نو يريد القطة وهكذا.

المرحلة الرابعة: مرحلة الكلمات المكونة من مقاطع، وهذه المرحلة هى التى حيرت الباحثين فسببها لديهم غير معروف، إذ كون الإنسان كلمات من مقاطع يعبر بها عن أغراضه حين اكتملت قواه العقلية، ونضجت أعضاء التكلم لديه، وعلى مر الزمن وتشعب نواحى الحياة تمت هذه الكلمات وكثر عددها حتى تكون منها لغة كافية للتعبير عن أغراض الإنسان المختلفة، ومشاهداته المتعددة.

المرحلة الخامسة: مرحلة الوضع والاصطلاح المبتكر، وهذه مرحلة متقدمة من مراحل النمو اللغوى العادى حيث اضطر الإنسان إلى الوضع والاصطلاح لتنمية لغته حتى تفى بأغراضه المتزايدة وتتسع للتعبير عن تجاربه النامية المطردة.

المرحلة السادسة: مرحلة التقعيد والتقنين للمساعدة فى ضبط اللغة والحفاظ على خلوها من الأخطاء فى صوغ الكلمات أو فى تكوين الجمل والأساليب.

المرحلة السابعة: مرحلة التنميق والتحسين، وهى أرقى المراحل وتتمثل فى تزيين الأسلوب بالمحسنات البلاغية: لفظية ومعنوية، واستعمال التشبيه والاستعارة

والكناية والصور البلاغية المختلفة.

بعد ذلك يعن لنا سؤال آخر هو: هل نشأ الإنسان أول ما نشأ في بقعة واحدة من الأرض وكون أفراده جماعة واحدة بينها صلات وروابط في الدم والنسب والاجتماع؟ أو أنه نشأ في جهات مختلفة من المعمورة وكون في كل جهة وحدة اجتماعية مستقلة؟

- فإذا قلنا في الرأي الأول وهو ما أشارت إليه الأديان السماوية من أن أصل البشر هو آدم وحواء لزمنا القول بأن لغة الإنسان الأول كانت لغة واحدة ثم تفرعت منها اللغات المختلفة بتفرق النوع الإنساني وانقسامه إلى أجناس وشعوب انتشرت في الأرض وسكنت في بيئات مختلفة، وكلما تقدم بها الزمن تطورت لغاتها وتفرعت حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

ومن الأدلة التي اعتمد عليها أنصار هذا الرأي أن الطوفان الذي حدث في عهد نوح عليه السلام كان طوفانا عاما شمل سكان الأرض جميعهم، ولم يبق منها إلا نوح وأولاده الثلاثة: سام، وحام، ويافث، كما جاء في التوراة، ويضيف القرآن الكريم إلى من نجوا من الطوفان من آمن بنوح عليه السلام من غير أهله حيث يقول سبحانه:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(هود: ٤٨)

ويقول:

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾

(هود: ٤٠)

وبناء على هذا كان الناجون في السفينة يتكلمون بلغة واحدة توارثها من تناسل منهم. وحين تفرقوا نشأ لدى كل فريق منهم لغته الخاصة التي انحدرت من اللغة الأولى، ثم تطورت على مر الزمن، وبذلك نشأت المجموعات اللغوية الثلاث الكبرى: المجموعة السامية، المجموعة الحامية، والمجموعة اليافثية.

- أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يرفضون عمومية الطوفان ويتشككون في نصوص التوراة والقرآن.

وأشهر من قال بذلك: (ماكس مولر) العالم الألماني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتتصل نظرية القائلين بهذا الرأي بنظرية (شارلز داروين) الفيلسوف اليهودي في أن نشأة الإنسان قد تطورت من فصيلة القردة..

من أجل ذلك نغمض الطرف عن هذا الرأي لظهور بطلانه.

ويأتي السؤال الأخير في هذه المنظومة التي تؤرخ للغة الإنسانية الأولى وتطورها وهو: أين موطن الساميين؟ وأين رست سفينة نوح؟

وقد اختلفت آراء الباحثين المحدثين وتضاربت أفكارهم، وأقرب هذه الآراء إلى الحقيقة ما ذكره فريق من العلماء في أواخر القرن التاسع عشر وبرهنوا على صحته ببراهين تكاد تكون قاطعة.

وملخصه أن جزيرة العرب هي الوطن الأول للساميين الذين تجمعوا فيه قبل أن يهاجروا إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب. وأول من قال بهذا الرأي مؤرخ انجليزي اسمه (سايس) في كتابه عن قواعد اللغة الآشورية الذي ظهر سنة (١٨٦٢م) إذ ورد فيه أن جميع التقاليد

السامية تدل على أن جزيرة العرب هي الوطن الأول للساميين حيث لم يؤثر فيها أي نفوذ أجنبي يخرجها عن طابعها وطبيعتها، كما أن مميزات الجنس السامي التي من أهمها قوة العقيدة الدينية، والشجاعة الخلقية، والمناعة الجسمية، وقوة الخيال لابد أن يكون مصدرها الأصلي الصحراء.

- وفي ١٨٧٣م أعلن (شريدر) الألماني هذا الرأي.

- وفي ١٨٧٥م نشر (شرنجر) الألماني أيضا كتابا سماه (جغرافية بلاد العرب) أكد فيه هذا الرأي.

- وفي ١٨٨٢م ظهر رأي العالم الهولندي ديجويه مؤيدا كذلك لهذا الرأي.

ومن الأسباب التي بنى هؤلاء رأيهم عليها:

١ - إن التاريخ يقرر أن البابليين والآشوريين أصحاب الحضارة الراقية في العراق كانوا وافدين، على هذه البلاد، وأنهم أخضعوا سكانها الأصليين وهم السومريون.

٢ - إنه عثر على نقوش باللغة الومرية تفيد أن بلادهم كانت في خطر دائم من إغارة قبائل سامية من جهة الغرب.

٣ - يذكر التاريخ العصر الذي هاجر فيه الكنعانيون إلى بابل ومنها إلى كنعان ولم يذكر متى وصل الساميون إلى جزيرة العرب وجعلوها موطنا لهم.

٤ - المعقول أن سكان الصحاري والجبال المجدبة يطمحون دائما إلى التحضر وسكنى المدن والبلاد الخصبة، وليس هناك مثل تاريخي يذكر عكس هذه النظرية.

٥ - لغة سكان الجزيرة هي أقرب اللهجات إلى السامية الأولى حيث لم تتأثر بعناصر أجنبية غازية.

ويرى الأستاذ حامد عبدالقادر عضو مجمع اللغة العربية - رحمة الله - في مذكراته التي كان يدرسها لنا في جامعة الأزهر وانتفعت بمعلوماته فيها.. أن لا مانع من هجرة الساميين إلى جزيرة العرب حين كانت خصبة تجري فيها الأنهار، وتنمو فيها الزراعات والمراعي، وأن لا مانع أيضا من فهم إشارة القرآن إلى مكان استواء سفينة نوح في قوله تعالى:

﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾

إلى أن جبل الجودي هو جبل (أرارات) في أرمينيا..

وبهذا يمكن أن يقال: إن هذه البقعة قد ضاقت بسكانها، فاضطر فريق منهم - يشمل الفصيلة السامية - إلى الرحيل طلبا للمراعي وأماكن الصيد والزراعة حتى وصلت إلى بلاد العرب.

وحول هذا الرأي يأتي إعجاز الإخبار من سيدنا رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم[3]: أن أرض العرب ستعود مروجا خضراء كما كانت من قبل ولهذا نقف خلف هذا الرأي مؤيدين ومقتنعين.

اللغة العربية واللغات السامية

تنتمي العربية إلى الفصيلة السامية، وأول من استعمل هذه التسمية (سامية)

(٣) الحديث رواه مسلم (١٥٧)، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح مسلم ٢/٧٠٠، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

لهذه الفصيلة العالم الألماني: شلوزر (١٧٧٥ - ١٨٠٩م) وسماها كذلك لأن معظم المتكلمين بها من نسل (سام بن نوح) كما ورد في الفصل العاشر من سفر التكوين، وإن كانت هذه التسمية تنقصها الدقة العلمية، إذ ليست جامعة ولا مانعة، ولكن العلماء قبلوها على علاتها لشهرتها وسهولتها على اعتبار أنها مصطلح يدل على مجموعة متوافقة ومتقاربة من اللغات في موادها وتراكيبها.

- ويدخل في هذه الفصيلة خمس لغات رئيسية:

١ - الأكادية وتشمل البابلية والآشورية.

٢ - الآرامية وتشمل الشرقية والغربية.

٣ - العربية وتشمل الجنوبية والشمالية.

٤ - العبرية القديمة.

٥ - الفينيقية.

وأضيف إليها حديثا الحبشية (الأثيوبية).

وقد تفرعت عن هذه اللغات الخمس أو الست لهجات كثيرة لا تخرج عن القواعد الأساسية لهذه اللغات.

وكان الموطن الأصلي لهذه الفصيلة اللغوية بقعة من الأرض في الجنوب الغربي من آسيا تمتد من البحر المتوسط غربا إلى حوض دجلة والفرات شرقا، ومن جبال أرمينية شمالا إلى الساحل الجنوبي لجزيرة العرب جنوبا، وتشمل هذه البقعة فلسطين وفينيقيا (لبنان) وسوريا، بابل وآشور (العراق) وجزيرة العرب، والحبشة.

هذا وقد نشأت البحوث اللغوية الخاصة بمقارنة اللغات السامية منذ القرن الخامس الهجري على يد أبي زكريا يحيى حيوج الذي كان معاصرا لبعض أئمة النحاة العرب وتأثر بهم وجعل قواعد النحو العربي أساسا لدراسة اللغة العبرية دراسة علمية، وقد تمت هذه الدراسات في القرن السابع عشر الميلادي وما بعده، فشملت بحوثهم اللغات السامية الخمس التي أشرنا إليها.. وبالمقارنة بينها تبين بالأدلة القاطعة على أن اللهجات السامية انحدرت من لغة واحدة هي اللغة السامية الأم وأن تفرع هذه اللهجات عن أصلها يرجع إلى تفرق الساميين وانقسامهم إلى شعوب اختلفت بيئاتهم وتجاربهم ومشاهداتهم، وأن توحيد البيئة وتقارب الثقافات يؤدي في الغالب إلى توحيد اللهجات المختلفة.

رأى جديد للباحث في نشأة اللغة يستند إلى القرآن

استنباطا لما سبق، واعتمادا على القراءات الكثيرة في هذا المجال.. أرى أنه يمكن التوفيق بين التوقيفيين الذين يرون أن اللغة منزلة من عند الله تعالى كاملة، وبين القائلين بحدوث اللغة وتطورها وتفرعها من الأصوات أو غيرها محتجين بأحوال الطفل الذي يتدرج فيها من المسموع إلى المحسوس إلى المعقول..

وإبطالا لما رآه المحدثون من أن هناك مرحلة مفقودة من المراحل السبع السابقة ترى أن الاحتجاج بأحوال الطفل لا تقنع الباحث المنصف بأن البشرية قد بدأت لغتها من الصفر، وأغلب الظن أن أصحاب هذا الرأي

قد بنوه على أساس نظرية تطور وارتقاء الجنس البشري من فصيلة القرود كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

والتأمل في حجتهم نفسها يهدم هذا الإلحاد، فإن المشاهد أن الطفل يتعلم اللغة من غيره بالسماع فاللغة وليدة السماع بحيث إذا نشأ الطفل في بيئة عربية تعلم منها اللغة العربية، وإذا نشأ في بيئة أخرى تتكلم الفرنسية مثلا نطق بالفرنسية، وإذا حبس الطفل ومنع من الاختلاط والاستماع إلى الآخرين فإنه لن يتكلم ولن ينطق إلا بأصوات فارغة من المعنى.

ومن هنا نرى أن الطفل يسمع من أبيه، وأن أباه قد سمع من جده، وأن السلسلة ظلت مستمرة إلى أبي البشرية آدم، فلو لم يكن لدينا إيمان بوجود الله فكيف نطق آدم دون أن يستمع من غيره - وبهذا يكون كلامنا في حد ذاته معجزة لغوية تدل على وجود الخالق وعلى تعليمه لأبينا آدم عليه السلام غير أني لا أرى مانعا من تصور نشأة اللغة على النمط الآتي وإن لم أره نظرية متكاملة لأحد:

خص الله تبارك وتعالى هذا الجنس البشري بالتكريم والتعليم وفضله على الملائكة الكرام في خلافة الأرض وتعميرها لما فطره عليه من قابلية الاستيعاب لما يلقى عليه، وقابلية التعليم لغيره بعد أن يستوعب ويتعلم وقد تولى سبحانه وتعالى اللغة التي بها يعرب عما في نفسه وينقل بها أحاسيسه ومشاعره إلى الآخرين، فعلمه أسماء الكائنات التي سيعيش بينها على الأرض، وأظهر فضله أمام ملائكته بأنه يمكن أن يعلم غيره حيث يقول:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة: ٣٣)

وقد ورث آدم أولاده هذا القدر الذي تعلمه من ربه، فكان الأساس الذي بنيت عليه لغات العالم كله، ذلك أن أولاد آدم وأحفاده تفرقوا في بقاع الأرض واختلفت بيئاتهم واحتياجاتهم فاشتقوا من هذه الأسماء كلمات كون بها كل فريق لغة التخاطب في بيئته، وكان هذا الاشتقاق من أسماء الأعيان كما بقي في لغتنا العربية حتى الآن من مثل قوله تعالى:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾

(الأنبياء: ١٨)

أي يضربه في دماغه، وقد أجازه أخيرا مجمع اللغة بالقاهرة تنمية للغة واستنادا إلى كثرة ما ورد من ذلك. ولما كانت وسائل الاتصال في هذه الحقبة الموغلة في القدم محدودة وبدائية لم يحدث التلاقي المؤثر في اتحاد ما ينطقون به، وتلك هي الحقيقة التي توصل الباحثون إليها حديثا كما سبق، وكانت تلك آية من آيات الله التي امتن بها على خلقه حيث قرن اختلاف الألسنة باختلاف الألوان باختلاف أنواع الخلق في السموات والأرض، وجعل هذا الاختلاف مجالا لوصول العلماء إلى عظمة الخالق

فقال سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾

(الروم: ٢٢)

ولما كان اختلاف الألوان عائدا إلى عاملين أساسيين هما البيئة والوراثة بدليل سواد البشرة فيمن يسكن في المناطق الحارة، وبدليل ما ورد عن رسول الله ﷺ حين شك رجل في امرأته حين ولدت له ولدا يختلف لونه عن لون أبيه، فقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته فقال له النبي ﷺ هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال حمر. قال: فهل فيها من أورق؟ قال: نعم. قال رسول الله ﷺ فأنى هو؟ قال: لعله يا رسول الله يكون نزعه عرق له فقال له النبي ﷺ: وهذا لعله يكون نزعه عرق له)[٤].

ومعنى ذلك أن الوراثة قد تؤثر في الألوان. وكذلك الألسنة تعود إلى هذين العاملين: البيئة بما اقتضت الاشتقاق من أسماء الأعيان أولا ثم من أسماء المعاني، والوراثة بما نقله أولاد آدم عن أبيهم مما علمه الله إياه من أسماء الأعيان وبذلك ينحسم الخلاف حول نشأة اللغة الإنسانية بين المواضعة والتوقيف، وصدق الله العظيم:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

(النحل: ٨٩)

العربية ولهجاتها

طبقا للنظرية السابقة في تفرع اللغة الإنسانية الأولى وفي تفرع اللغة السامية الأم كانت العربية خاضعة لهذا القياس مع ملاحظة أن طبيعة الجزيرة العربية أدت إلى نشأة النظام القبلي بكل ما يتميز به من تماسك بين أفراد القبيلة واعتزازهم بالانتساب إليها والدفاع عنها والحرص على تميز لغة التخاطب بين أفرادها، وكلما تقاربت القبائل جغرافيا وتبادلت المنافع بينهم نرى أن لهجاتها تتشابه تبعا لهذا التقارب.

من هنا حين اعتزت كل قبيلة بلهجة خاصة، وكلمات مميزة بكيفية متعارف عليها بين أفرادها كان -بحكم الطبيعة الإنسانية في احتياج الإنسان إلى أخيه الإنسان- أن تقاربت بعض اللهجات حتى اشتهر منها قبل الإسلام في المنطقة الشرقية لهجة تميم، وأسد، وقيس، وفي المنطقة الغربية لغة الحجاز وتشمل لهجة المدينة وخيبر وفدك ومزينة وجهينة وقريش وبني بكر وبعض هوازن ومعظم سليم وهلال وما إلى ذلك، وفي المنطقة الجنوبية لغة حمير.

ومن رحمة الله ومعونته أن جعل الكعبة المشرفة في مكة مثابة للناس وأمنا فكان الجميع يفيئون إليها في مواسم الحج ويختلطون ويتعاملون مما نشأ عن هذا فكرة الأسواق في أماكن المناسك للترويج للسلع التجارية أولا ثم إلى التفاخر والمديح بالشعر والخطابة ثانيا.

ولما كانت قريش هي سادنة البيت الحرام وهي القائمة بخدمة الحجاج وهي من الحصافة بحيث أدخلت في لغتها كثيرا من كلمات اللهجات الأخرى مما أثرى لغتها، ويسر على القبائل الأخرى استساغتها.. اقتضى ذلك ذيوع لغتها وسيادتها، وكانت أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز في أشهر الحج الثلاثة ميدانا ثقافيا رائعا يتحدث الأدباء والشعراء فيه باللغة الفصحى المفهومة لدى جميع القبائل وهي لغة قريش، وكان ذلك تمهيدا ربانيا لنزول القرآن بهذه اللغة المشتركة.

علاقة اللهجات بالأحرف السبعة

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بمكة على لغة قريش ولم يجد النبي صعوبة في بيان معاني ما ينزل في فترة تنزله الأولى على أهل مكة وما جاورها. بل أخذ القرآن بمجامع أفئدتهم وأذهلهم بفصاحته وبراعة أساليبه وعلو مكانته حتى قال قائلهم: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

بل وصل ببعضهم الأمر إلى أن وصفوه بالسحر والكهانة لتأثيره الشديد في النفوس وعجزهم عن مجاراته وتحديه فإن من البيان لسحرا. ولم يصل إلى علمنا أن أحدا من سكان مكة سأل النبي ﷺ عن معنى كلمة أو عن مدلول آية في هذه الفترة.. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وكان سكانها من الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمنيتان متأثرتان بلهجة الجنوب ظهرت الحاجة إلى الاستفسار عن بعض ما نزل من كتاب الله مما ليس في لغته، ثم إن نطق قريش لكلمات اللغة يختلف في أدائه عن نطق أهل المدينة وهنا طلب رسول الله ﷺ من ربه أن يخفف عن الأمة، من حيث إن تغيير العادات اللغوية من أصعب الأمور، بخاصة على الشيوخ الذين دربت ألسنتهم على طريقة خاصة في نطق الكلمات من ترقيق وتفخيم وإمالة وتسهيل للهمزات وما إلى ذلك فاستجاب الله لرسوله ونزل القرآن على حرف آخر، ومازال النبي يستزيد ربه من التخفيف بعد أن دخلت وفود من القبائل في حظيرة الإسلام، -إذ يريد الجميع أن يتلوا القرآن كما أنزله الله حتى ينالوا ثواب قراءته- حتى وصل العدد إلى سبعة أحرف. روى مسلم في «صحيحه» عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار «وهي منطقة فيها بئر لهذه القبيلة في المدينة المنورة» فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف» فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم أتاه الثانية فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين». فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاء الثالثة فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف» فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاء الرابعة فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه أصابوا»[٥].

«يتبع»

(٤) رواه مسلم (١٥٠٠)، كتاب اللعان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (٨٢١)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

فتاوي لها تاريخ

الإسلام والشيوعية



فضيلة الشيخ/ محمود شلتوت

يقال: إن الإسلام عدو الشيوعية، فما هو الدليل على ذلك، وكيف يعيش المسلمون فى روسيا؟

عقائد الإسلام

يتكون الدين الإسلامي من نظم ومبادئ، أساسها الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومعنى هذا أنه يجب على الإنسان، ليكون مسلماً، الإيمان بأن وراء هذا العالم المادى موجوداً، بوجود ذاتي غير مكتسب، قادراً، عالماً، مدبراً، هو مصدر الخلق والإيجاد في هذا العالم، مصدر الهداية البشرية: «لا إله إلا هو يحيى ويميت».

وأنه كان من مقتضيات حكمته بعد أن خلق الخلق بنوازع الشهوة والغضب، لحكمة سامية، ألا يتركهم سدى يتخبطون بأهوائهم وشهواتهم، ويغتال قويهم ضعيفهم، فاصطفى من خلقه أناساً أعدهم لتبليغ رسالاته وتعاليمه إليهم ليبلغوها إياهم فى العقيدة والسلوك ونظام الحياة، وأسس الروابط الشريفة التى يجب أن تسود بين الناس، وأن يعتمدوا عليها فى علاقتهم بخالقهم، وفى علاقتهم بعضهم مع بعض، وبذلك يتحقق فى الإنسان معنى خلافته عند الله سبحانه فى عمارة الكون وتنميته، على الوجه الذى يكون به العالم مظهراً لرحمته سبحانه بعباده.

وكان من عناصر هذه التعاليم أن هذه الحياة الدنيا دار عمل، وأن وراءها حياة أخرى هى دار الحساب والمسئولية، يجزى فيها كل إنسان على عمله فى الحياة الدنيا:

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ۝ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾

(الإسراء: ١٣ - ١٤)

الشيوعية كمذهب مادى

جاءت كل هذه التعاليم فى كتب أوحى الله بها إلى أنبيائه ورسله بواسطة ملائكته ليبلغوها للناس. ومن هنا كان الإيمان بالملائكة والكتب والأنبياء العمود الفقرى للإسلام. فلو كانت الشيوعية مذهباً اقتصاديا - لا يمس الإيمان بتلك الحقيقة، ولا يهتك حرمة الإيمان لما تضمنه القرآن من أصول التعاليم الإلهية، ولا تفتن الناس فى تدينهم بها - لأمكن ألا نقول بعداوتها للإسلام، ولا بعداوة الإسلام لها.

أما واقعها كما ينقل عن مخترعيها، ويقرأ فى كتبها أنها لا تؤمن إلا بالمادة، وأنها تنكر الألوهية والوحى والبعث، وأنها تقتحم فى سبيل ماديتها كل ما قدسه القرآن، وقدسته الشرائع السماوية من حرمات العقيدة والعبادة، والمال والعمل، والروابط الجنسية الشرعية، وما إلى ذلك من أسس الإسلام، فإنها بلا شك تكون عدوة للإسلام، وعدوة لسائر الأديان السماوية، ويكون الإسلام وسائر الأديان السماوية عدوا لها عداوة لا هوادة فيها.

المسلمون فى روسيا:

وعندئذ يتجه الجزء الأخير من السؤال وهو: كيف يعيش المسلمون فى روسيا؟

إن هؤلاء المسلمين إن تمكنوا من إظهار إيمانهم وشعائرهم وأحكام دينهم، فيما يختص بالصلات الزوجية، وما رسم الله من أصول فيما حرم وفيما أحل، كانت إقامتهم فى بلادهم جائزة ولا تثريب عليهم فيها.

أما إذا كانوا يحاربون ويقتلون، كما ترامت الأنباء إلينا فى بعض الأوقات بكثير من هذا، فإن واجب هؤلاء المسلمين أن يهاجروا إلى بلد يستطيعون فيها إظهار إيمانهم والقيام بأحكام دينهم، فإن رضوا بالمقام فيما بينهم مع قدرتهم على الهجرة كانوا ممن يصدق عليهم قوله تعالى:

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾

(النساء: ٩٧)

فإذا لم يستطيعوا الهجرة وجب عليهم التزام الإسلام بقدر الإمكان، وكانوا فى نظر الدين من

﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ۝ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ﴾

(النساء: ٩٨ - ٩٩)

وواجب المسلمين بالنسبة إليهم حينئذ أن يعملوا جهدهم بكل ما يستطيعون على إنقاذهم من بيئة الكفر والإلحاد.

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾

(النساء: ٧٥)

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

حكم قراءة القرآن على المتوفى

● ما حكم الاجتماع فى ميعاد وفاة متوفى كل سنة لقراءة القرآن كاملا على روحه ثم القراءة بصفة جماعية جهرية لسورة ورد فى فضلها نصوص خاصة كالفاتحة ويس وتبارك فهل هذا العمل بدعة أم لا؟

● الجواب: لا مانع من ذلك شرعا، وليس هذا العمل بدعة، بشرط ألا يكون فى ذلك إقامة المآتم أو إعادة العزاء أو استجرار الأحزان، وبشرط ألا يكون من مال القصر أو بغرض التباهى والتفاخر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قضاء الصوم عن الميت

● هل يجوز قضاء الصوم عن الميت؟

● الجواب: إذا أفطر الصائم بعذر واستمر العذر إلى الموت فقد اتفق الفقهاء على أنه لا يصام عنه ولا فدية عليه، لعدم تقصيره، ولا يلحقه إثم؛ لأنه فرض لم يتمكن من فعله إلى الموت فسقط حكمه، كالحج.

أما إذا زال العذر وتمكن من القضاء ولكنه لم يقض حتى مات فللفقهاء فيه قولان: فالجمهور من الحنفية والمالكية والجديد من مذهب الشافعية وهو المذهب عند الحنابلة يرون أنه لا يصام عنه بعد مماته بل يطعم عنه عن كل يوم مد، لأن الصوم لا تدخله النيابة فى الحياة فكذلك بعد الوفاة، كالصلاة.

وذهب أصحاب الحديث وجماعة من السلف كطاوس والحسن البصرى والزهرى وقتادة وأبو ثور، والإمام الشافعى فى القديم، وهو معتمد المذهب الشافعى والمختار عند الإمام النووى، وقول أبى الخطاب من الحنابلة: إلى أنه يجوز لوليه أن يصوم عنه، زاد الشافعية: ويجزئه ذلك عن الإطعام، وتبرأ به ذمة الميت، ولا يلزم الولى الصوم بل هو إلى اختياره وإن كان أولى من الإطعام لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»، ورويا أيضا من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمى ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال: «لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها؟» قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يقضى».

أما الإمام أحمد والليث وإسحاق وأبو عبيد فقالوا: لا يصام عن الميت إلا النذر فقط، حملا للعموم فى حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها على خصوص حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى بينت رواياته أنه صوم نذر.

والمراد بالولى الذى له أن يصوم عن الميت: القريب مطلقا، ويجوز للأجنبى عن الميت أن يصوم عنه بإذن وليه.

قال الإمام النووى فى «شرح مسلم»: وهذا القول -يعنى جواز قضاء الصوم الواجب عن الميت مطلقا- هو الصحيح المختار الذى نعتقده، وهو الذى صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث، لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة. وأما الحديث الوارد «من مات وعليه صيام أطعم عنه» فليس بثابت، ولو ثبت أمكن الجمع بينه وبين هذه الأحاديث بأن يحمل على جواز الأمرين، فإن من يقول بالصيام يجوز عنده الإطعام، فثبت أن الصواب المتعين تجويز الصيام وتجويز الإطعام، والولى مخير بينهما، والمراد بالولى: القريب، سواء كان عصبة أو وارثا أو غيرهما، وقيل المراد الوارث وقيل: العصبة، والصحيح الأول، ولو صام عنه أجنبى إن كان بإذن الولى صح وإلا فلا فى الأصح، ولا يجب على الولى الصوم عنه، لكن يستحب. أ. هـ.

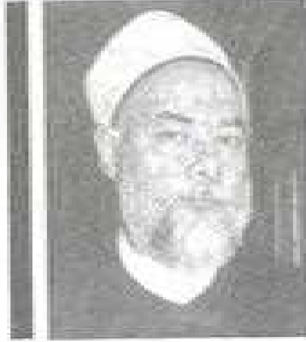
والله سبحانه وتعالى أعلم.

الحكم الشرعي فى كتابة عقد الزواج

● ما الحكم الشرعي فى كتابة عقد الزواج فى المنزل، والإشهار فى المسجد بنفس صيغة العقد مرة ثانية؟

● الجواب: حقيقة صيغة النكاح إنما هى للإخبار وليست للإنشاء، وإنما احتجنا لنقلها من دائرة الإخبار إلى دائرة الإنشاء حتى يتم العقد وتكون دلالة الكلام هى الواقع فى الخارج دون احتمال الصدق والكذب الذى يكتنف الإخبار، وهو غرض مهم صحيح جعل صيغة الإخبار ملغاة مع أنها هى الأصل

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـى جمعـة
مفتى جمهورية مصر العربية



ليحل محلها الإنشاء وهو الفرع، فإذا قيلت الصيغة مرة أخرى على جهة الأصل التي وضعت له هو الإخبار بقرينة الحال فذلك صحيح لغة وجائز شرعا، كما لو قال ولي الزوجة لزوجها: زوجتك موليتي، فقال له: قبلت، يريدان حكاية الماضي ولا يريدان إنشاء عقد جديد، فكأن معنى كلام الولي: زوجتك موليتي منذ سنين، ومعنى كلام الزوج: وأنا قبلت حينئذ ولا مانع من ذلك شرعا ولا حرج فيه.

ولا يجوز الاعتراض على ذلك بأنه لم يكن من فعل النبي ﷺ لأنه لا يلزم من عدم وروده عدم حصوله، كما أنه إذا سلم عدم الحصول فلا يلزم منه عدم الجواز، لأنه استدلال بالترك، والاستدلال بالترك باطل كما هو مقرر في أصول الفقه.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال فإن ما جاء في السؤال من عقد الزواج على نطاق ضيق ثم إعادة التلفظ به من طرفيه على نطاق واسع صحيح وجائز شرعا.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكم النذر

• نذر أبي نذرا لله ثم توفي في ظروف مأساوية، وأنا أحتاج لثمن النذر حاجة شديدة، فهل يجب على القيام بوفاء النذر مع احتياجي الشديد إلى ثمنه؟

• الجواب: أمر الله عز وجل بالوفاء بالنذر، فإذا ما نذر الإنسان شيئا فقد ألزم نفسه به، وعليه الوفاء بما نذر، لقول الحق عز وجل:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾

(الإنسان: ٧)

ولقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»، وذلك إذا كان في مقدور الإنسان الوفاء بما نذر، وإلا فلا يجب عليه الوفاء، لقوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

ولقوله ﷺ: «من نذر نذرا لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين».

وعلى ذلك: فلا يلزمك الوفاء بالنذر مع حاجتك الشديدة إلى ثمنه، وإن كنت محتاجا أيضا إلى ثمن الكفارة فلا تلزمك هي أيضا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم فرم المصاحف القديمة

• هل يجوز وضع المصاحف القديمة وكذلك الكتب الدينية القديمة في آلات تقطيع الأوراق «مفرمة» وإعادة تصنيعها؟

• الجواب: من المعلوم من الدين بالضرورة عدم جواز إهانة كتاب الله تعالى ولا كلامه ولا أسمائه الحسنى ولا كلام رسوله ﷺ، ولا كتب العلم الشرعي، وفي المقابل فإن تعظيم كل ذلك هو من علامات صحة الإيمان، قال تعالى:

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾

(الحج: ٣٠)

وقال تعالى:

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

(الحج: ٣٢)

والمصحف إذا كان صالحا للقراءة فلا يجوز إتلافه، أما إذا لم يكن كذلك فقد أجاز جماعة من العلماء حرقه إذا كان ذلك لغرض صحيح، وفي معنى الحرق وضع أوراقه في مفرمة الأوراق التي لا يبقى معها أي أثر للنص المقدس.

وعليه وفي واقعة السؤال فإن إدخال المصاحف والكتب الدينية القديمة في آلات تقطيع الأوراق من الأفكار الجيدة التي يتم خلالها الحفاظ عليها من أن تطالها يد الإهانة بشكل غير مقصود، أو بنوع تهاون، ويشترط في ذلك التعامل معها باحترام قبل أن يتم تمزيقها جيدا وتمحي الكلمات المقدسة التي فيها، أما بعد ذلك فلا بأس بالتعامل مع الناتج كمادة صناعية خام لصناعات ورقية جديدة تكون فيها خالية عن القداسة والاحترام الواجبين تجاهها قبل التقطيع الكامل.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الطلاق قبل الدخول

• ما هي حقوق المطلقة قبل الدخول؟

• الجواب: قال الله تعالى:

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

ولذلك فالمطلقة قبل الدخول ينتصف لها مهرها: مقدمه ومؤخره، ومن المقدم الواجب تنصيفه الشبكة، لأنها جزء من المهر؛ حيث جرى العرف على أن الناس يتفقون عليها في الزواج، وهذا يخرجها عن دائرة الهدايا يلحقها بالمهر، وقد جرى اعتبار العرف في التشريع الإسلامي؛ لقوله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾

(الأعراف: ١٩٩)

وقد جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «ما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيء»، أخرجه أحمد والطيالسي في مسنديهما.

وكذلك تنتصف قائمتها وعفشها الذي أحضره الزوج إن كان أحضر ذلك على أنه من المهر، أما ما أحضرته هي فهو خالص مالها وحقها، فتأخذه كاملا موفورا.

وعليه فإن للمطلقة كامل ما اشترته هي أو أهلها، وعلى المطلق لها نصف مؤخرها، ونصف الشبكة، ونصف القائمة إن كان متفقا على أنها من المهر.

هذا إذا لم يكن الزوجان قد تراضيا على خلاف ذلك، فإن فعلا ذلك فلا مانع شرعا من إنفاذ ما تراضيا عليه، إلا أنه يحرم على الزوج شرعا أن يعضل المرأة - أي يسيء معاملتها أو يتركها معلقة - حتى يجبرها على التنازل عن حقوقها.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قراءة فى كتاب

(٢)

تاريخ الجامع الأزهر

محمد عبد الله عنان

بقلم: عادل خفاجة

تتناول فى هذا العدد الجزء الثانى من الكتاب أو بالأحرى الكتاب الثانى من هذا البحث.. وقد قسمه المؤلف إلى سبعة فصول وهى:

الأزهر فى عصور السلاطين ـ عصر الأزهر الذهبى ـ الأزهر فى العصر التركى ـ الأزهر وقت الاحتلال الفرنسى ـ إدارة الجامع الأزهر ومشيخته ـ الجامع الأزهر والحياة العامة ـ عهد التطور والإصلاح.

الأزهر فى عصور السلاطين:

أوضح المؤلف أن الجامع الأزهر لبث فى ظل الدولة الفاطمية زهاء قرنين يتمتع بالرعاية الرسمية كمسجد للدولة.. ولما انهارت دعائم الدولة الفاطمية أيام العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين، وتولى صلاح الدين وزارة العاضد باسم الملك الناصر، واستأثر بالأمر، عمد إلى إزالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها فأبطل من الأذان: «حى على خير العمل» وعزل قضاة الشيعة، وعين فى منصب قاضى القضاة قاضيًا شافعيًا، فكان ذلك إيذانًا بانتشار مذهب الشافعى فى مصر.

وأشار المؤلف إلى تعطيل إقامة صلاة الجمعة بالجامع الأزهر نحو مائة عام حتى سعى الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة إلى إعادتها إلى الأزهر، بعد أن استفتى علماء العصر فأفتى بعضهم بجوازها وأفتى بعضهم بالمنع ومنهم قاضى القضاة الذى أصر على المنع برغم تدخل السلطان.. وعمل الأمير أيدمر بفتوى المجيزين وأقيمت الصلاة بالجامع الأزهر يوم الجمعة ١٨ من ربيع الأول سنة ٦٦٥هـ فى حفل من الأمراء والأكابر، ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضاة ولكنه كان مع ذلك يومًا مشهودًا استعاد فيه الأزهر مركزه الدينى القديم.

ويشير المؤلف إلى أن الأزهر غدا منذ أواخر القرن السابع كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامى، وغدا أعظم مركز للدراسات الإسلامية العامة، وهو ما شهد به المستشرق الدكتور فولرز حيث قال:

«منذ عدة قرون يتفوق الأزهر ـ كمعهد للدرس ـ على جميع معاهد العالم الإسلامى، ومن أسباب ذلك التفوق عبث المغول وتخريباتهم فى البلاد الخارجية عن مصر، والقضاء على الحضارة الأندلسية، ويجب أن نضيف إلى ذلك موقع الجامع المتوسط، وقربه من الحجاز، وصبغته العربية المحضة، وأهمية البلاد الاقتصادية، والقارة الإفريقية العظمى التى تمتد فيما وراء مصر وأخيرًا ـ وهو اعتبار له خطره ـ الازدهار العقلى القديم الذى ترك فى وادى النيل كثيرًا من البذر الصالح لتقدم العلوم والآداب».

ويخلص المؤلف إلى أنه إذا كان الأزهر القديم قد تحول اليوم إلى جامعة أزهرية ذات كليات وشعب مختلفة، وأدخل فى مناهجها كثير من العلوم «المدنية»، وإذا كانت الجامعة الأزهرية تأخذ اليوم ببعض الأساليب العصرية فى شىء من التحفظ، فإن ذلك لا يمكن أن يغير شيئًا من تلك الحقيقة، وهى أن الأزهر ما يزال بالرغم من هذه المظاهر الشكلية متأثرًا فى مناهجه، وفى طرائقه وفى تفكيره، بأساليب العصور الوسطى، ومن الصعب على الباحث أن يشعر بأنه قد أحرز كثيرًا من التقدم، فى سبيل التحرر من هذه الأساليب القديمة.

عصر الأزهر الذهبى

يعرض المؤلف عددًا من النقاط فى هذا الفصل حيث يتكلم عن ذروة النهضة الأدبية، والأزهر ومكانته الممتازة، وعن ابن خلدون ومحاضراته بالأزهر، وعن العصر الذهبى للأزهر، ومناصب التدريس والتصدير والإجازات العلمية ثم عن الكتب الدراسية.

فيستهل هذا الفصل بأن القرن التاسع الهجرى «الخامس عشر الميلادى» كان عصر الذروة وعصر الانهيار معًا بالنسبة لمصر الإسلامية، ويشير إلى أن مصر غدت قوة لا تقهر وأنها بأزهرها ومدارسها ومعاهدها العديدة وعلمائها الأعلام تمضى قدمًا فى زعامتها الأدبية للعالم الإسلامى.

وحينما يتحول المؤلف للكلام عن الإجازات العلمية يقول:

«وكانت الإجازات الدراسية من التقاليد العلمية الرفيعة فى ذلك العصر، وكانت لها قيم أدبية كبيرة، وكانت تصدر من الأستاذ إلى تلاميذه، أو الذين سمعوا عليه، وتكتب فى أساليب خاصة، وفيها ينوه عادة بمقدرته العلمية، ويذكر فيها ما قرأه من الكتب على أستاذه، وهى الكتب التى يجيز له أن يقوم هو بتدريسها، وقد تكون هذه الكتب من تأليف الأستاذ الذى صدرت عنه الإجازة، وقد تكون من كتب غيره، وأحيانًا تقتصر الإجازة على الإذن بالتدريس لمادة معينة، أو مذهب فقهى معين، والإفتاء به.. وكانت الإجازة تكتب أحيانًا بإسهاب وإفاضة».

وينهى المؤلف حديثه فى هذا الفصل

بالإشارة إلى أن نظام المعيدين كان معمولاً به بالأزهر منذ العصور الوسطى، وأنه كان لكبار الأساتذة معيدون من المدرسين، يلقون الدرس، أو يلقون ملخصه عقب انتهاء الأستاذ من إلقائه.

كما أشار إلى أن الدراسة في الجوامع كانت تشتمل على المواد العلمية المحضة مثل الطب.. ويؤكد على ذلك مرة أخرى في نهاية الفصل الثالث.

الأزهر في العصر التركي

ويتناول المؤلف في الفصل الثالث من هذا الكتاب: انحلال الدولة المصرية، والغزو العثماني وآثاره المخربة، وبعض علماء الأزهر في العصر التركي، وبعض العلماء الوافدين عليه، كما يتكلم عن ضعف الأزهر وانكماشه، وخدمته العظمى للدين واللغة، وبعض علمائه في أواخر هذا العهد، وبعض الوافدين عليه.

يشير المؤلف إلى انهيار صرح الحركة الفكرية في مصر الإسلامية عقب الفتح التركي، كما انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصري وتضاءل شأن العلوم والآداب، وانحط معيار الثقافة. كما يشير إلى انحطاط معيار الثقافة واختفاء جيل العلماء والكُتاب والأعلام الذين حفلت بهم العصور السابقة، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التي أظلتها دول السلاطين المصرية سوى آثار دارسة، يبدو شعاعها ضئيل من وقت إلى آخر.

كما يشير المؤلف إلى أن الأزهر أصابه ما أصاب الحركة الفكرية كلها من انحلال وتدهور، فاضطربت أحواله، ونضبت موارده تباعًا وانخفض عدد أساتذته وطلابه، وانكمشت حركة التعليم كلها سواء في الجوامع أو المدارس.

ويذهب المؤلف إلى أن الأزهر برغم هذا الأفق القاتم وهذا الغسق المطبق يبسط ظله على مصر كلها واستمر قائما بمهمته العلمية التالدة، لا يلوى على شيء، برغم هذا الانكماش.

على أن الجامع الأزهر، بالرغم من كل ما أصابه من التدهور والركود، لبث حفيظًا على أمانته التاريخية الكبرى.. وقد استطاع في تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية، والعلوم الإسلامية أجل الخدمات.. وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركي، ملاذًا لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية، فأكبر الفضل في ذلك عائد إلى الأزهر.. وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها، أن تحمى هذا التراث نحو ثلاثة قرون، حتى انتهى العصر التركي بمحنه وظلماته.

وربما كانت هذه المهمة السامية، التي ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر، في تلك الأوقات العصيبة، من حياة الأمة المصرية، والعالم الإسلامي بأسره، هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالة، وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل.

الأزهر وقت الاحتلال الفرنسي

يتناول المؤلف في الفصل الرابع الكثير من النقاط المهمة التي توضح أهمية دور الأزهر السياسي فيتكلم عن حيوية الأزهر الكامنة والغزو الفرنسي لمصر وتولى الأزهر للزعامة الوطنية، ثم حديثا عن المشايخ والغزاة، ثم يتكلم عن تأليف الديوان الأول واضطراب الأحوال ولقاء المشايخ بنابليون، وضرب الأزهر بالقنابل واحتلال الفرنسيين للأزهر والقبض على بعض المشايخ ثم مغادرة نابليون لمصر ورياسة كليبر للحملة، ثم يتحدث عن زحف الترك على مصر ومعاهدة العريش ثم مصرع كليبر على يد سليمان الحلبي ثم محاكمة سليمان وزملائه والحكم عليهم بالإعدام وإغلاق الجامع الأزهر، ثم تحدث عن جاك عبدالله مينو الذي خلف كليبر ثم تشكيل الديوان الجديد وجلاء الفرنسيين عن مصر ثم افتتاح الأزهر فيشير في بداية هذا الفصل إلى أن هذه الحالة المؤسفة، التي انتهى إليها الجامع الأزهر – في ظل الحكم العثماني – لم تفقده حيويته القديمة، فقد لبثت هذه الحيوية كامنة بين جدرانه، وبين شيوخه وطلابه، تنتظر الهزة التي توقظها، والشرارة التي تضرمها.

وقد شاء القدر أن تقع هذه الهزة، وأن تضطرم هذه الشرارة، عن طريق حادث جلل كان له أكبر صدى، في تطور مصر التاريخي، في خاتمة القرن الثامن عشر، ونعنى بذلك الغزو الفرنسي.

ويتكلم المؤلف عن بداية الغزو الفرنسي وعن المنشور الذي أذاعه نابليون على الشعب المصري يحث الجميع أن يبقى في عمله أو مطمئنا في داره؛ لأن الحملة إنما جاءت للقضاء على سلطات المماليك وإنقاذ المصريين من ظلمهم، ومعاقبة الصناجق الذين يعادون الفرنسيين ويظلمون تجارهم ويصف المؤلف هذه الحالة مشيرا إلى اجتماع بعض المشايخ والعلماء بالأزهر بعد هزيمة مراد بك وأنهم بعد أن تباحثوا الأمر اتفقوا على أن يبعثوا برسالة إلى الفرنسيين يسألونهم عن مقصدهم، وبعد أن عبر الفرنسيون إلى القاهرة واستقر نابليون في منزل الألفي بالأزبكية استدعى المشايخ لمقابلته وعلى رأسهم الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، وأسفرت المباحثات عن تأليف ديوان يشرف على حكم القاهرة وتدبير شئونها يقول المؤلف:

وهكذا أنشئ ديوان الحكم الأول، في ظل الاحتلال الفرنسي، من علماء الجامع الأزهر، وبالرغم من أن سلطة هذا الديوان كانت محدودة، وخاضعة لتوجيه المحتلين، فإن في تأليفه على هذا النحو، تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر، ومكانة علمائه، والاعتراف بزعامتهم الشعبية والوطنية وتتابعت الأحداث، ولم تستقر الأمور، ولم تهدأ النفوس واستمر الفرنسيون في العمل لإخضاع البلاد، وسيروا حملاتهم المتوالية إلى الأقاليم البحرية والقبلية، وهم يلاقون مقاومة مستمرة من بقايا قوات الزعماء المماليك، ومن يلتف حولهم من جموع الشعب، وأما العاصمة فقد اشتدت وطأتهم شيئا فشيئا، وفرضوا عليها، كما فرضوا على باقي البلاد مختلف الضرائب والمغارم الفادحة، وصادروا كثيرا من الأملاك والمباني، وهدموا أبواب الحارات الداخلية، لكي يحكموا قبضتهم على سائر الأحياء، وأسرفوا في قتل الأهالي، وعلى الجملة فقد

فرضوا على المدينة حكم إرهاب مطبق، وشعر الشعب القاهرى بمنتهى الضيق والحرج، وأخذ يتربص للانتقام.

وأدرك نابليون خطورة الحال، واتفق رأى القادة على أن مركز الثورة الحقيقى هو الجامع الأزهر وكان الثوار قد أقاموا المتاريس والحواجز، فى سائر الشوارع والدروب المؤدية إلى الجامع الشهير، فأمر نابليون أن تنصب المدافع على المقطم، لكى تطلق مع مدافع القلعة على الأزهر.

ويشير المؤلف إلى عدة نقاط نلخصها فيما يلى:

١- أن الفرنسيين لما احتلوا الجامع الأزهر منعوا العلماء والطلاب من دخوله.

٢- أن الفرنسيين نهبوا الأحياء المجاورة للأزهر بحجة البحث عن السلاح.

٣- أن المحتلين إدراكا منهم لزعامة علماء الأزهر الروحية والشعبية يومئذ قد لجأوا إلى هذه الزعامة يحاولون استغلالها فى تهدئة الشعب وحمله على التزام السكينة والخضوع.

٤- أن علماء الأزهر كان لهم نصيب كبير فى عضويته فضلا عن رياسته.

وأنه كان يحسب دائما لمكانتهم ونفوذهم حساب خاص.

٥- أن حوادث الثورة والدور الذى أداه الأزهر فيها جاءت لتؤكد هذه المكانة.

إدارة الأزهر ومشيخته

يتناول المؤلف فى هذا الفصل إدارة الأزهر فى العصر الفاطمى والإشراف الأعلى فى عهد الخلفاء والسلاطين، كما يتحدث عن شئون العبادات وإشراف الخطيب والإمام عليها ومتى أنشئ نظام المشيخة والرأى المرجح فى شأنها، وينقل عن المقريزى وغيره من المؤرخين عددا من الإشارات عن تقديم خطيب الجامع الأزهر فى إلقاء الخطبة بين يدى الخليفة فى أيام الموالد الستة.

أما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى السلطان ووزرائه، وكان لا يعين فى المناصب الدينية سوى أكابر الأساتذة والعلماء.

وعن نظام المشيخة يقول المؤلف: «من المعروف والذائع أن نظام المشيخة الحالى إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف، وأنه طبق لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد بن عبدالله الخرشى المالكى المتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ١١٠١هـ (١٦٩٠م)، وخلفه فى المشيخة الشيخ محمد النشرتى المالكى، ولما توفى هذا الشيخ سنة ١١٢٠هـ(١٧٠٨م)، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شديدة، وانقسم المجاورون «الطلاب» إلى فرقتين، ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى وترشح الأخرى الشيخ عبدالباقى القلينى وكلاهما من المالكية، ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون، وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القلينى فى المشيخة والتدريس، ثم خلفه بعد وفاته الشيخ محمد شنن، ثم الشيخ إبراهيم الفيومى المالكى، ولما توفى انتقلت المشيخة إلى الشافعية لأول مرة، وتولاها الشيخ عبدالله الشبراوى فى سنة ١١٣٧هـ (١٧٢٥م) ولبثت المشيخة فى الشافعية مدى حين وما زال هذا النظام - نظام المشيخة - قائما بالجامع الأزهر إلى يومنا هذا، حيث يقوم «شيخ الجامع الأزهر على رياسته الدينية والإدارية».

على أن المؤلف يرجع بداية المشيخة إلى ما قبل القرن الحادى عشر الهجرى إذ يقول:

على أنه يلوح لنا أن هذه الرواية الذائعة عن أصل مشيخة الأزهر، هى فى الواقع رواية ينقصها التحقيق والدقة، أجل إن نظام المشيخة أمر مستحدث فى رياسة الجامع الأزهر، ولكنه يرجع فيما يظهر إلى ما قبل القرن الحادى عشر الهجرى، ولعله يرجع إلى أوائل العصر التركى، ومن المحقق أن هذا النظام لم يكن معروفا قبل الفتح التركى، فلم يكن للجامع الأزهر «شيخ» من العلماء يتولى رياسته الدينية والإدارية، ولم تكن رياسة الأزهر من الوظائف تنحصر حتى أوائل القرن العاشر أعنى إلى الفتح التركى فى القضاة الأربعة، وهم القاضى الشافعى، والقاضى الحنفى، والقاضى المالكى، والقاضى الحنبلى، والمحتسب، وكانت الحسبة كالقضاء وظيفة دينية يشغلها عالم دينى كبير، وكان لقب شيخ الإسلام الذى أطلق فيما بعد على شيوخ الجامع الأزهر، يطلق فى هذه العصور على كبير القضاة الأربعة وهو دائما القاضى الشافعى ونظام القضاة الأربعة قديم يرجع إلى عصر الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) حيث عين فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) قاضيا لكل مذهب من المذاهب الأربعة، وكان يتولى رياسة القضاة فى مصر منذ الفتح الإسلامى قاض واحد أو قاض للقضاة، وكان قاضى القضاة أيام الدولة الفاطمية شيعيا على مذهب الدولة القائمة، فلما تبوأ صلاح الدين ملك مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية قطع الدعوة الشيعية، وأعاد الدعوة العباسية وعين لمصر قاضيا من الشافعية، واستمر الأمر على ذلك زهاء قرن حتى أنشأ الظاهر نظام القضاة الأربعة.

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا التغيير فى نظام الوظائف الدينية الرئيسية، وقد يرجع التفكير فيه أو قيامه إلى منتصف القرن العاشر الهجرى.

الجامع الأزهر والحياة العامة

يتناول المؤلف فى هذا الفصل مركز الأزهر فى العصر الفاطمى ومركزه أيام الأيوبيين، واستعادته لنفوذه أيام السلاطين ودوره فى جمع كلمة أبناء الأمة العربية، ونفوذه ومكانته الشعبية منذ القرن الثامن عشر، وبعض الحوادث التى تؤيد هذا النفوذ وموقفه أيام الاحتلال الفرنسى وانكماشه فى عهد محمد على، ثم يتحدث عن بدء اليقظة وعن حلقات السيد جمال الدين الأفغانى وأثره فى بعث الوعى الإصلاحى وبعض أعلام الأزهر فى العصر الأخير وموقفه أيام الثورة الوطنية الكبرى.

فيؤكد المؤلف فى هذا الفصل على أن الجامع الأزهر على مدى عصور كان دعامة الحياة الفكرية فى مصر الإسلامية وفى

العالم العربي وليس ذلك فقط بل كان له نفوذه السياسي والاجتماعي العتيد.

ويخلص المؤلف إلى أن الأزهر لبث - خلال مختلف العصور والدول - محتفظًا بمكانته ونفوذه. وقد يتضاءل هذا النفوذ أحيانًا تحت ضغط سلطان الطغيان السياسي، ولكنه يبقى كامنًا يبدو عند أول فرصة. وقد كان العصر التركي أشد العصور وطأة على الأزهر، كما كان أشد العصور وطأة، على الأمة المصرية كلها، ولكنه استطاع خلال المحنة أن يحتفظ بكثير من قوته ونفوذه، حسبما دلت على ذلك حوادث الاحتلال الفرنسي، ولما انتهت المحنة، واضطر الغزاة - وأضرابهم من الإنجليز والترك - إلى الجلاء عن البلاد، وهدأت الأحوال نوعًا، واستقر العهد الجديد - لاح للأزهر أن العهد الجديد يأبى أن يفسح لنفوذه القديم مجالاً، وأنه يراد به أن يلزم السكينة، والابتعاد عن الشئون العامة، وأنه لن يحظى - حتى بالمحافظة - على حقوقه وأرزاقه القديمة، وهو ما كان متمتعاً به في سائر العصور.

وينهي المؤلف هذا الفصل بحديث من صفحة من صفحات الأزهر المشرقة إذ يقول: لم ينس بعد أبناء الجيل الحاضر، ذلك الدور العظيم الذي قام به الأزهر في الثورة الوطنية الكبرى، التي ثارت ضد الإنجليز، في ربيع سنة ١٩١٩ م، فقد كان الجامع الأزهر، صحنه وأروقته ساحة من أهم ساحاتها. وقد اضطلع رجال الأزهر، أساتذته وطلابه، بدور بارز في إزكاء روح الثورة، وتعهد غرسها. وكان الأزهر خلال هذه الفترة العصيبة، مركزًا من أهم المراكز لتنظيم المظاهرات الوطنية الكبرى، وكان الألوف من طلابه قوام هذه المظاهرات التي لبثت حينًا تزعج المحتلين، وتلهب الشعور الوطني. وأهم من ذلك أن الأزهر كان يومئذ موئلا لطائفة كبيرة، من قادة الثورة وخطبائها، يتصدرون الجموع الغفيرة في ساحاته، ويلقون فيها الخطب الملتهبة. وكان أبرز ما في هذه المظاهر الوطنية التاريخية، اجتماع العلماء والقساوسة - المسلمين والأقباط - في صعيد واحد، وتناوبهم الخطابة في الجماهير. فكان الأزهر، فوق ذلك كله، منبرًا للوحدة القومية المقدسة، التي تجلت في هذه الأيام في أروع مظاهرها.

عهد التطور والإصلاح

يختتم المؤلف كتابه بفصل عن التطور والإصلاح فيتناول الحركة الفكرية وعوامل التطور الجديد وتأثر شيوخ الأزهر بمشاهد العلم الحديث، كما تناول وصف أحوال الأزهر في أوائل القرن التاسع عشر ثم النهضة الثقافية في عهد محمد علي طابعها الجديد ثم تكلم عن أول قانون نظامي للأزهر ثم قانون ١٩١٢ م ثم تحدث عن إنشاء الجامعة الأزهرية وفقا لقانوني ١٩٣٠ و١٩٣٦ م يرى المؤلف أن ما أصاب الأزهر في عصرنا (وهذا الكلام يعود إلى سنة ١٩٥٨م) انقلاب خطير وحاسم حول مجرى حياته القديمة، وأسبغ عليها طابعاً جديداً، يحمل في نظمه ومظاهره الخارجية سمة المعاهد الدراسية، وقد اختتمت حياة المعهد الألفي القديم ولم يبق من الأزهر القديم سوى ذلك الصرح الجليل الذي مازال يحتل البقعة التي اختارها جوهر لإنشائه، يبدو بغمده وأروقته المنيفة كحلم جميل انقضى، بعد أن غمر الأجيال المتعاقبة بروعته عصورًا طويلة، واختفت تلك الحلقات العلمية الجليلة التي لبثت زهاء ألف عام سراجًا منيرًا، ينشر أشعته في مصر والعالم الإسلامي، ولم تبق منها سوى ذكريات دارسة.

ولم يك ثمة شك في أن الأزهر كان بحاجة شديدة إلى الإصلاح والتجديد، ومجاراة نظم التعليم والتثقيف الحديثة، على ألا يجني ذلك الإصلاح والتجديد على رسالته الأساسية في السهر على مصاير العلوم الإسلامية والآداب العربية. ولكن هل يمكن أن يقال إن هذه المحاولات التي بدأت في عصر إسماعيل لإصلاح الأزهر، وانتهت في عصرنا بالقضاء على العهد القديم، وكل مناهجه ورسومه وتقاليده، قد حققت الغاية المنشودة في تجديده وإحيائه، وحفظت عليه رسالته التاريخية كاملة غير منقوصة؟ لقد حمل تيار التطور الأزهر إلى مصير غامض. وقد اضطرم الأزهر بروح الإصلاح والتجديد، ولكنه لم يظفر منه فيما نخشى إلا بالمظاهر العرضية، وقد خلع الأزهر رداءه العلمي القديم، وبدا لنا في شكل جامعة وكليات محدثة، ولكن هذا التغيير لم يتناول سوى المظاهر الشكلية. ولم يظفر الأزهر بعد ببديل يعوضه عما كان يتمتع به من المزايا الدراسية القديمة، ولم يعن زعماء الإصلاح الأزهري بالأخص، بتحديد مهمة الأزهر الجديدة تحديدا واضحًا، وقد أصبح الأزهر يجمع بين مزيج غير واضح من الأساليب القديمة، وبعض مظاهر الثقافة الحديثة، ولم يصل بعد إلى طريق الاستقرار والوضوح.

وبعد.. فلقد قدم المؤلف تاريخ الأزهر واضحًا جليًا ولعله لم يفرط في سرد أهم الأحداث التاريخية التي جرت على الأزهر والتي سطرها أبناؤه ولعل أهم ما اتصف به الكاتب نبرات الصدق السائدة في الكتاب حين يصف الأزهر بأنه فقد كثيرًا من خاصته الروحية التي كانت تحمل شيوخه وطلابه على التحصيل والدرس، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا، وإيثار التقشف والزهد على الحياة الناعمة. وتحول مجتمع الأزهر في ظل النظم الجديدة، شيئًا فشيئا، إلى جماعة كسائر الجماعات، تسودها الروح الدنيوية، وتتجه إلى ميدان الصراع المادي. ويجب أن نذكر أن القوانين التي حققت هذا الانقلاب الخطير في حياة الأزهر، لم تكن سوى قوانين قصر، أملتها - كما هو معروف - ظروف ومؤثرات، لم يكن يقصد بها خير الأزهر، وتقدمه العلمي الحقيقي، وإنما كانت ترمي قبل كل شيء إلى تحقيق مظاهر شكلية معينة، ومغريات مادية، لا تتصل بمهمة الأزهر، ولا برسالته العلمية. وقد أحدث هذا التحول، في جو الأزهر العلمي أثرًا لا يحمد، وقضى على كثير من خواصه ومزاياه الروحية القديمة، وهي خسارة لها خطرها في الإضرار برسالة الأزهر العلمية التليدة.

الوقت هو الحياة



لفضيلة الشيخ: معوض عوض إبراهيم

الأوقات تسمو بما يخامر النفس فيها من الأحداث والوقائع والذكريات والوقت هو الحياة، ورحم الله فقيد الإسلام العلامة - الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، الذى زاملته فى مدينة الرياض سنوات ولكنى ما سعدت بالجلوس إليه والانتفاع المباشر بعلمه الغزير، وأذكر باعتزاز وإكبار البيت الذى صدر به كتابه «قيمة الزمن عند العلماء» والبيت للوزير الصالح يحيى بن هبيرة الذى قال:

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه
وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

وأعوذ بالله أن يضيع شيء من أوقاتى وأوقاتكم فى غير علم نافع وعلم صالح.

والعربى يقول:

إذا فاتنى يومٌ ولم اصطنع يداً
ولم استفد علماً فماذاك من عمرى

والبيت يصلنا بما روته السيدة عائشة - رضى الله عنها - من قول رسول الله ﷺ : (لا بورك لى فى شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً) رواه ابن ماجه.

إن يوماً لا أستفيد فيه علماً، ولم أصطنع فيه عملاً فلا بورك لى فى ذلك اليوم، ولقد أولى الله عز وجل فى كتابه الوقت ما نذكر منه قسمه تعالى بالفجر والعصر والضحى والليل والنهار، ومراد الله عز وجل بهذا القسم لا مجرد هذه الأوقات ولكن لما تحمل من عبر وعظات، فالذى أعطى النهار نوره وأعطى الليل ظلمته وسكونه، وجعل الضحى أنفس أوقات الليل والنهار، وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً، هو الله عز وجل الذى ينبغى أن يُشكر أمام تلك الظواهر الكونية بقدر ما تعطى الزمان قيمته وضرورة الاهتمام به قبل أن يسألنا الله عز وجل يوم القيامة عن عمرنا فيما أفنيناه وعن شبابنا فيما أبليناه، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ومن أجلّ ما قرأته فى ذلك الذى ذكرته قول العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله فى كتابه المذكور آنفاً ما عنون له بقوله «قسَمُ الله تعالى بالزمن لبيان عظمه وأهميته»:

«وهناك آيات كثيرة فيها التنبيه إلى عظم هذا الأصل من النعم غير التى أسلفتها، وحسبك أن تعلم أن الله سبحانه قد أقسم بالزمن فى مختلف أطواره فى كتابه الكريم، فى آيات جمة، إشعاراً منه بقيمة الزمن، وتنبيها إلى أهميته، فأقسم جل شأنه بالليل والنهار، والفجر، والصبح، والشفق، والضحى، والعصر، فمن ذلك قوله تعالى

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾

«سورة الليل آية ١ ، ٢»

وقوله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾

«المدثر ٣٣ ، ٣٤»

وقوله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾

«الانشقاق آية ١٦ ، ١٧»

وقوله تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

«الفجر ١ ، ٢»

وقوله تعالى:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

«الضحى: ١ ، ٢»

وقوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

(العصر آية ١ ، ٢ .. أ.هـ)[1]

وهو كلام نفيس ذكر بعده قول العلامة الشيخ حسنين مخلوف، رحمه الله، فى كتابه: «صفوة البيان لمعانى القرآن»، ومنه:

(أنزل الله القرآن على أسلوب فصحاء العرب فى مخاطباتهم ومحاوراتهم، فقد كانوا إذا أرادوا توكيد الأمر وتحقيقه، أقسموا عليه بالعظيم الخطير أو الكثير النفع، أو الظاهر الفضل، وتوكيد الكلام بالقسم إذا اقتضاه الحال أسلوب بليغ رصين، ولله تعالى أن يقسم بما شاء، فأقسم تعالى بنفسه فى القرآن:

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾

«الذاريات: ٢٣»

وأقسم بأفعاله العجيبة ومصنوعاته البديعة:

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾

«الشمس آية ٥ ، ٦»

وأقسم بالزمن والوقت:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

(الضحى: ١ ، ٢)

﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

(الفجر: ١ ، ٢)

والقسم بها فى معنى القسم به تعالى، إذ هو صانعها ومبدعها أ.هـ[2].

ثم أورد الشيخ أبو غدة كلاماً للإمام الرازى رحمه الله، والكلام صفة المتكلم، قوله «أقسم الله تعالى بالعصر - الذى هو الزمن - لما فيه من الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم، والغنى والفقر؛ ولأن العمر لا يقوم بشىء نفاسة وغلاء، فلو ضيعت ألف سنة فيما لا يعنى، ثم تبت وثبتت لك السعادة فى اللمحة الأخيرة من العمر، بقيت فى الجنة أبد الآباد، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك فى تلك اللمحة، فكان الزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم الله به، ونبه سبحانه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها الإنسان، وأن الزمان أشرف من المكان فأقسم به، لكون الزمان نعمة خالصة لا

١- «قيمة الزمن عند العلماء» بقلم العلامة المربى الشيخ/ عبدالفتاح أبوغدة ص ٣٢، ٣٣ ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة جمهورية مصر العربية.

٢- نفس المصدر، ص ٣٣، ٣٤.

عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان» أ.هـ[٣].

وأعتذر عن الإمام الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، فقد كان ينبغي أن يقدم كلام الرازى على كلام الشيخ مخلوف رعاية للزمن الذى يؤكد أن السابق يأخذ من اللاحق.

وفى أهمية الزمن ما ينبغى أن لاينسى ما ورد فى الحديث الذى يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ عن ربه: قال الله عز وجل: «يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار» رواه البخارى.

ورحم الله الذى قال:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

والمسلم ليس بسباب ولا لعان ولا صخاب فى الأسواق، وأجدر به أن يملأ الزمن الذى يحاول أن يخفى فيه الشمس بكفيه أن يصرف ذلك الزمن فى ذكر الله الذى يذكر من يذكره، ويزيد بخير من يشكره عرفانا بحق الله وعما أراد أن يكون عليه أولو الألباب النيرة والقلوب المسفرة، والألسنة التى لا تطيب إلا بذكر الله الذى يقول:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ۝ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾

«الرعد آية: ٢٨-٢٩»

والذين تنطق ألسنتهم بما لا يفيد ولا ينفع قائلين نريد أن نقتل الفراغ، إنما يقتلون أنفسهم ويقضون حياتهم على غير تقوى من الله ورضوان، فكل ما قاله لسانك وعملته يداك، وسعت إليه قدماك، وأبصرته عيناك، إن لم يذكرك بالله، ولم يدعك إلى شكر أنعمه وهباته كان شيئا عسيرا يلقى به أصحابه سوء المصير يوم يجمع الله العباد فى يوم الجمع والجزاء إحسانا بإحسان وسوءا بسوء:

﴿فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾

«الأنبياء: ٤٧»

ورحم الله أسلافنا الأسلاف بحق لا هؤلاء الذين لا يحسنون إلا الصراخ والعويل والقول الهزيل، والاستطالة على العلماء الحلماء الكرماء الذين هم نور الزمان، ومنائر الهدى، ومنابر الحق الذى قامت به السموات والأرض، وما على الشمس من بأس إذا عابها عياب، فإنها برغم ذلك ترسل أشعتها، وتبعث نورها الذى هو من نور الله الذى يهدى للتى هى أقوم.

والحق أردت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

٣- نفس المصدر، ص ٣٥

من تراث الهلال

حديث القمر فى القرآن الكريم



أ/ عاطف مصطفى

نتواصل مع علماء الأزهر ومفكريه الذين حرصت الهلال على مدى أكثر من خمسين عاما على الاستعانة بعلمهم وبكتاباتهم فى كل شئون الحياة، حرصا منها على تطبيق منهج «الدين للحياة»... ومثلما تناولنا فى العدد الماضى من مجلتنا الأثيرة المحببة إلى قلب كل مسلم «الأزهر» ما كتبه فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى، حول الإسلام والصعود إلى القمر، والمنشور فى الهلال يناير ١٩٥٨ م.

تعاود الهلال فى عددها الصادر فى أول ديسمبر ١٩٧٢ م، الموافق ٢٦ شوال ١٢٩٢ هـ، تناول نفس الفكرة وتحت عنوان «القمر فى الدين والعلم والأدب والفن» أى بعد أربعة عشر عاما، وكانت فكرة الصعود إلى القمر والسباق الرهيب بين الاتحاد السوفيتى - وقتها - والولايات المتحدة على أشده.. تتوقف عند كلمة رئيس التحرير الشاعر صالح جودت والتى بدأها: هذا العدد - أيها القارئ العزيز - تأخذك فى رحلة إلى القمر، هى رحلة علم وإيمان معا.

وفى الحق أن العلم لا يختلف مع الإيمان فى شىء، ولعل فى حكايات رجال الفضاء الذين خرجوا عن نطاق كوكبنا، وراحوا يلتمسون الأقمار فى فضائها الخارجى، ما يزيدنا إيمانا بالله جلت قدرته.

فقد ذكر أحدهم ساخرا أنه صعد إلى الفضاء فلم ير الله ولم يلبث صاحبنا أن أدركته آية الموت!

وذكر آخر منهم أنه صعد إلى الفضاء، فوجد أن كل خطوة فيه تشير إلى وجود الله سبحانه وتعالى.

وعاد صاحبنا هذا ليعتزل مهنة الفضاء، ويتفرغ لعبادة الله.. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾

«الحج: ٤٧»

يمثل هذه الآية نزل القرآن منذ أربعة عشر قرنا، قبل أن يحلم إنسان على الأرض بحقائق العلم الحديث.

وجاء هذا العصر الذى نعيش فيه - عصر

العلم - ليؤكد لنا اختلاف أيامنا عن أيام الكواكب الأخرى، حتى لقد ذكر الدكتور جمال الفندي - وهو من علماء الجغرافيا - أن اليوم في بعض الأجرام السماوية، يعادل مائة ألف من أيامنا المعروفة.

فما على الله بمستبعد بعد ذلك أن يكون اليوم عنده - في ملكوته الواسع - بألف سنة مما تعد.

عدد الهلال هذا تعددت موضوعاته عن القمر، من بينها: «الذين عبدوا القمر» و«رائد الفضاء العربي الأول.. الحسن بن الهيثم» و«القمر والأرض والمستقبل» و«البحث عن الماء على القمر».

ونتوقف عند مقال رائع للدكتور أحمد الشرباصي بعنوان: «القمر في القرآن».

يقول في البداية: ذكر كتاب الله القمر أكثر من خمس وعشرين مرة، وهذا الذكر المتكرر يدل على عناية التنزيل المجيد لهذا الكوكب الذي خلقه الله وأبدعه، ويسر الانتفاع به لعباده، ثم تكرر قسم القرآن بالقمر، فقال في سورة المدثر:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾

«المدثر: ٣٢»

وقال في سورة الانشقاق:

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾

«الانشقاق: ١٨»

وقال في سورة الشمس:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾

«الشمس: ١، ٢»

القمر من نعم الحياة

ويواصل الدكتور الشرباصي: ومن مظاهر عناية القرآن بالقمر، أن سورة من سوره سماها «سورة القمر» وافتتحها بذكره فقال:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾

«القمر: ١»

ولقد امتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعم كبرى تقوم فيها الحياة ويحتاج إليها الأحياء، ومن بينها القمر، ولذلك قال القرآن في سورة الأنبياء:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

«الأنبياء: ٣٣»

كما ذكر وكرر وأكد أنه الذي تفضل على عباده فسخر لهم هذه الأشياء، ومنها القمر، ليتمكنوا من استخدامها وقطف ثمراتها.

فقال في سورة الأعراف:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

«الأعراف: ٥٤»

وقال في سورة إبراهيم:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾

«إبراهيم: ٣٣»

وقال في سورة العنكبوت:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

«العنكبوت: ٦١»

أضواء وإشارات تهدي إلى العلم والمعرفة

ولم يقتصر حديث القرآن الكريم عن القمر على التذكير بنعمة التسخير، بل أعطانا في مواطن منه كثيراً من الإشارات والرموز التي تهدي إلى أضواء من العلم والمعرفة، فيما يتعلق بنظام الكون وأسراره.. فيقول في سورة يونس:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

«يونس: ٥»

ونحن نعرف من المعلومات الكونية أن الضوء أقوى وأبلغ من النور، ولذلك نسبت الآية الضياء إلى الشمس، ونسبت النور إلى القمر.

يشير الدكتور أحمد الشرباصي: لقد أكد القرآن الكريم الإشارة إلى الحقيقة العلمية، وهي أن ضوء الشمس ذاتي، وأن نور القمر مأخوذ عنها، فقال في سورة الفرقان:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾

«الفرقان: ٦١»

والمراد بالسراج هنا هو الشمس، بدليل قوله في سورة نوح:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

«نوح: ١٦»

والسراج في الأصل هو الضوء الزاهر بفتيلة ودهن، أي أنه ضوء منبعث من ذات الشيء، وهذا ينطبق على الطاقة الحرارية المضيئة في الشمس، وأما القمر فهو نور أو منير، أي ينير بواسطة الإشعاع الشمسي المنبعث من طاقتها التي تسقط على القمر فتنيره.

إن الشمس والأرض والقمر وسائر الكواكب والأجرام، تجري في الفضاء بسرعة محددة وفي اتجاه محدود، ولم يعرف العلماء أن الشمس تجري لمستقر لها إلا في أوائل القرن العشرين، ولا يمكن أن تدرك الشمس القمر، لأن كلا منهما يجري في أفلاك متوازية، فيستحيل أن يتقابلا، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار، حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب، بدلاً من اتجاهها الحالي من الغرب نحو الشرق.

والقمر خلال دورته حول الأرض، ودورة الأرض حول الشمس، يمر بمجموعات من النجوم، تسمى منازل القمر، وفي التربيع الأول والأخير من الشهر، يظهر القمر كالعرجون القديم، أي يصير كالسباطة إذا قدمت ويبست واعوجت.

انشقاق القمر

ويقول الدكتور الشرباصي: يذكر القرآن الكريم انشقاق القمر في قوله تعالى:

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

«القمر: ١»

وقد حاول بعض الناس أن يفسر انشقاق القمر بأنه عبارة عن انشقاق الظلام عند طلوع القمر، كما يسمى الصبح فلقًا عند انفلاق الظلمة عنه، وحاول بعض آخر أن يقول إن معنى (انشقاق القمر) هو: وضح الأمر وظهر، ولكن الألوسي حمل على هذين الرأيين قائلاً: وكلا الزعمين مما لا يعول عليه؛ ولا يلتفت إليه، ولا أظن الداعي إليهما عند من يقر بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق، ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق، سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده ﷺ عنده، ومنشأ ذلك القصور التام، والتمسك بشبهة هي على طرف التمام، ومع ذلك لا يكفر المنكر، بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك، وعدم كون الآية نصًا فيه، والإخراج من الدين أمر عظيم، فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره والله الموفق.

ويضيف: ولولا ما ورد في شأن انشقاق القمر من أحاديث صحاح قوية تؤكد وقوعه بالصورة المذكورة في كتب السنة، كما استبعد العلماء أن يكون المراد بانشقاق القمر هو انفصاله عن أمه الأرض، لأن علماء الفلك يقولون الآن: إن القمر وليد الأرض.. كان قطعة منها، ثم انفصل عنها؛ وقد جاء في كتاب «مع الله في السماء» هذه العبارة:

أمنا الأرض تلد طفلاً، إنه القمر، نعم إنه القمر، قطعة اقتطعت من الأرض، والأرض لا تزال مائعة، فإن صح هذا فعمر القمر من عمر الأرض، من عمر قشرتها يوم بدأت تتجمد، والذي اقتطع هذه القطعة من الأرض الشمس، اجتذبت إليها من الأرض طرفًا، ظل يبرز ثم يبرز، حتى إذا تهيأ للانفصال انفصل، كقطرة صغيرة من ماء تنفصل عن قطرة كبرى، وكانت الأرض تدور، تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، فظل فصيلها - طفلها - يدور حول نفسه ويتبعها فيدور معها حول الشمس.

القمر سيناله التبديل عند موعد يعلمه الله

ومع هذه العناية البادية التي رأيناها من القرآن المجيد بشأن القمر، ولفت الأبصار والبصائر إلى مكانته ومنفعته ومنزلته، نجد القرآن يحدثنا بأن هناك ما هو أكبر من القمر، ومن الشمس، ومن غيرهما وأن هناك ما هو أقوى من الكائنات جميعًا، ذلكم الله جل جلاله، القاهر فوق عباده وكائناته، الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

إن القمر الذي يجري بحسبان، المنتظم في مسيرته إلى ما شاء الله، سيناله التغير والتبدل عند موعد يعلمه الله، ولذلك يقول القرآن في سورة القيامة:

﴿ فإذا برق البصر ۝ وخسف القمر ۝ وجمع الشمس والقمر ۝ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾

«القيامة: ٧ - ١٠»

يشير الدكتور الشرباصي إلى أن هذه الآيات الكريمة، تتحدث عن حالة الدنيا عند خرابها، قبل بداية العالم الآخر، فتذكر أن البصر حينئذ يزيغ ويتحير، ويذهب ضوء القمر، ويظلم حينما يتأذن الله بدمار هذا العالم، وتغيير نظامه، ونسخ أحكامه، وهناك لا تصير الأرض أرضًا، ولا السماء سماء، فتخرج الشمس عن أفلاكها وينتثر القمر، وتضطرب الجاذبية القائمة الآن بين الشمس والقمر، فإذا هما يتهاويان فيلتقيان ويجتمعان، وهذا تصوير لنهاية الدمار والاضطراب، ولذلك يفزع الإنسان غاية الفزع قائلاً: أين المفر؟

إن القمر عظيم كبير بالنسبة إلى مخلوقات أخرى كثيرة، ولكنه أمام عظمة الله صغير ضئيل.

القمر يخضع ويخشع لعظمة الله جل جلاله

ولهذا نبه القرآن الكريم إلى أن القمر مع الشمس، ومع كل من في السموات والأرض، يخضع لعظمة الله جل جلاله، ويخشع لعظمته وجبروته، ولذلك يقول القرآن في سورة الحج:

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾

«الحج: ١٨»

وكذلك أكد القرآن المجيد معنى خضوع الكائنات لجلاله وعظمته: ومعنى سيطرته على ما في السموات والأرض، ومن بين ذلك القمر، فقال في سورة فصلت:

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾

«فصلت: ٣٧»

التدبر في آيات الله

يختم الدكتور أحمد الشرباصي مقاله قائلاً: وأخيراً نجد القرآن يتخذ من نظام النجوم وفي طليعتها الشمس والقمر وسيلة للنظر في ملكوت السموات والأرض، وللتدبر في آيات الله ودلائل عظمته، وللاهتداء إلى استحقاقه الربوبية دون سواه، لأن الذي خلق كل هذه الأجرام العظيمة، و قدر لها منازلها، وأجراها في مسالكها، وهيمن على أمرها، وقدر على التصرف فيها.

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ﴾

«البقرة: ٢٥٥»

يقول الله تعالى في سورة الأنعام:

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۝ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ۝ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ۝ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۝ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾

«الأنعام: ٧٥ - ٧٩»

مكتبة الأزهر


إعداد: أ. محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

يعقد كتاب "الغرب والإسلام" الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية مقارنة تاريخية في الفكر السياسي العالمي متفحصا المقاربات الغربية والإسلامية لعلم السياسة والقواسم المشتركة بينهما ويختار أنتوني بلاك- الأستاذ الفخري لتاريخ الفكر السياسي في جامعة دندي باسكتلندا- مؤلف الكتاب الفترة من عام ٦٣٢م "عام حجة الوداع" إلى عام ١٤٥٠م "بدء عصر النهضة الغربي" لعرض هذه المقارنة والمقاربة، ويوضح المؤلف أنه حتى القرن الحادى عشر الميلادى كان لدى الحضارات البيزنطية والإسلامية والأوروبية كثير من الأمور المشتركة سياسيا ودينيا موضحا أن ما جعل الغرب مختلفا هو عصر الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر الميلادى. كما يشير المؤلف إلى أن الإسلام بعد فترة انفتاح وتفتح شهد تفسيرات ضيقة مستثنيا ابن خلدون وابن رشد من هذه التفسيرات ويحدد القرن الحادى عشر الميلادى كبداية لتدهور الفلسفة الإسلامية السياسية.

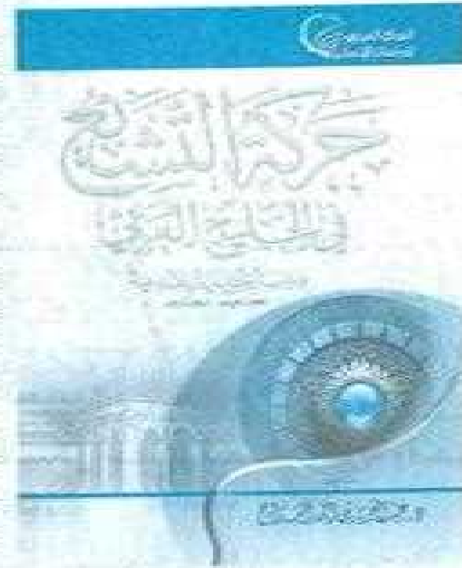
الكتاب رغم أهميته يحتاج إلى مراجعة لبعض الأمور التي ذكرها المؤلف، بل والرؤية نفسها التي تهيمن على الكتاب رؤية غربية تفترض تصورا محددا في تاريخ الإسلام دون مراعاة للاختلافات التي شهدتها الحضارة الإسلامية.



يرصد كتاب "السطو على العالم ..." [illegible]



[illegible]



"في السنوات الأخيرة قويت حركة التشيع وأصبحت واضحة مؤثرة من خلال مشاريعها السياسية والعسكرية والدعوية التي تستهدف العالم الإسلامي عموما والخليج العربي على وجه الخصوص ولهذا اخترت أن يكون موضوع رسالتي لنيل درجة الدكتوراة" بهذه العبارة علق عبد العزيز بن أحمد البداح تقدمه برسالته "حركة التشيع في الخليج العربي دراسة تحليلية نقدية من ١٣٩١ هجرى- ١٤٣١هجرى / ١٩٧١م-٢٠١٠م" والتي حاز بها على الدكتوراة من جامعة أم درمان بالسودان.. الكتاب يقع في ٥٠٠ صفحة ويضم تفاصيل ووثائق ثرية عن المد الشيعي في الخليج ولعل أبرز النقاط التي تطرق إليها المؤلف هي أهداف حركة التشيع في الخليج والتي تنتشر عبر عدة وسائل أبرزها مواقع الإنترنت والقنوات الفضائية والنشاط في صفوف العمالة الوافدة وتوزيع الكتب والأشرطة ودعوة الأجانب إلى احتفالات عاشوراء، كما يستعرض المؤلف أسماء المدارس الحركية الشيعية في الخليج ودورها في إثارة القلاقل في هذه البلدان ويقدم الكتاب الأساليب التي يجب إتباعها في البلدان السنية لمواجهة خطر التشيع.

يرصد ستيفان لاكروا في دراسته "سلطة الحديث في السلفية المعاصرة.. قراءة في تأثير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ومدرسته" الصادرة عن مكتبة الإسكندرية أخيرا في سلسلة مراصد، العديد من الملاحظات حول الظاهرة السلفية في تجليها المعاصر عبر قراءة في فكر أبرز أعلام هذا التيار وهو الشيخ محمد ناصر الألباني والمتوفى عام ١٩٩٩م. لكن قراءة الفكر الألباني استدعت التعريف بالفكرة السلفية ذاتها وتاريخها والسمات الجوهرية المميزة لها وتناقضاتها، فضلا عن فروعها المختلفة ومدى تأثير الألباني في مسار الفكرة. يعود المؤلف بالفكرة السلفية إلى العصر الوسيط، حيث ظهرت مدرسة أهل الحديث إحدى المدارس السنية والتي اشتهرت بمعارضة المدرسة العقلانية التي كان يمثلها المعتزلة في ذلك الوقت وإصرارهم على قراءة حرفية للنصوص المقدسة من خلال اعتمادهم على الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح.

طرائف.. ومواقف



للشيخ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

صفات سيدنا عمر رضي الله عنه

قال معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فقال: كان عالمًا برعيته، عادلاً في قضيته، عاريًا عن الكبر، قبولاً للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريًا للصواب، رفيقًا بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب.

الأجوبة المسكتة

• قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي دواد: إن قومًا تضافروا عليّ.

•• فقال:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

(الفتح: ١٠)

• قلت: إنهم عدد وأنا واحد!

•• فقال:

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾

(البقرة: ٢٤٩)

• قلت: إن للقوم مكرًا!

•• فقال:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

(فاطر: ٤٣)

• وهجا نهار بن توسعة الشاعر، مسلم بن قتيبة والي خراسان بعد يزيد بن المهلب، فطلبه مسلم فهرب منه، ثم دخل عليه بكتاب أمه فقال له مسلم: ويحك بأي وجه تلقاني؟ فأجابه الشاعر: بالوجه الذي ألقى به ربي، وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك فقربه الأمير ووصله وأحسن إليه.

• أقبل المنصور يومًا راكبًا، والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس إليه ولم يقم الفرج بن فضالة فدعا به المنصور وقال له: ما منعك أن تقوم لي مع الناس؟ فقال له: خفت أن يسألك الله عنه لم رضيت به وقد كرهه رسول الله ﷺ لنفسه؟

فسكن غضب المنصور وقربه وقضى حوائجه.

أبغض العلماء إلى الله

قال المسيح - عليه السلام -: إن أبغض العلماء إلى الله رجل يحب الذكر بالمغيب، ويوسع له في المجالس، ويدعى إلى الطعام، وتفرغ له المزاود[1].

بحق أقول لكم: إن أولئك قد أخذوا أجورهم في الدنيا، وإن الله يضاعف لهم العذاب يوم القيامة.

(١) المزاود: جمع مزود وهو وعاء الزاد.

«حقا»

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

وقد نهجو الزمان بغير جرم

ولو نطق الزمان بنا هجانا

فدنيانا التصنع والترائي

ونحن به نخادع من يرانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضًا عيانا

كيف تركت الناس في بلدك؟

خرج عمر بن عبدالعزيز يومًا متنكرًا إلى مفارق طرق تعبرها قوافل المسافرين؟ فسأل أحدهم: كيف تركت الناس في بلدك؟ فأجابه: تركت البلاد؟ الظالم فيها مقهور، والمظلوم منصور، والغني موفق، والفقير مجبور.

وابتعد -رضي الله عنه- ودموع الشكر في عينيه قائلاً لغلامه: والله لئن البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

فما النعمة؟

كان خزيم بن خليفة المري متنعمًا، فسمي خزيم الناعم، وضربت به العرب المثل في ذلك، فقالت: أنعم من خزيم الناعم وحدث أن التقى به الحجاج بن يوسف الثقفي ذات يوم فسأله الحجاج عن تنعمه، فقال خزيم: لم ألبس خلقًا في شتاء، ولا جديدًا في صيف، فتعجب الحجاج من قوله وسأله: فما النعمة؟ قال: الأمن، لأني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش قال: زدني، قال: الشباب لأني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش، قال: زدني، قال: الصحة لأني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش، قال زدني، قال: الغنى لأني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش، قال: زدني قال: لا أجد مزيدًا.

ثلاثة

ثلاث يعز الصبر عند حلولها

ويذهل عنها عقل كل لبيب

خروج اضطرار من بلاد يحبها

وفرقة إخوان، وفقد حبيب

بين متصدق وسائل

مر أديب كبير بشيخ يتكفف الناس على قارعة الطريق، فوقف يعطيه شيئًا ثم أخذ يبحث في جيوبه عن حافظة نقوده فلم يجدها، لقد نسيها في الحلة التي استبدلها، وكان السائل المسكين لايزال باسطًا يده فوضع الأديب يده في يد السائل وصافحه بشدة، فتهلل وجه السائل وقال له:

أشكرك هذه أيضًا صدقة.

إني بليت

إني بليت بأربع يرمينني

بالنبل قد نصبوا على شراكا

إبليس والدنيا ونفسي والهوى

من أين أرجو بينهن فكاكا

يارب ساعدني بعفو إنني

أضحت لا أرجو لهن سواكا

دعاء

اللهم إني أسألك رحمة من عندك، تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وترد بها الفتن عنا، وتصلح بها ديننا، وتحفظ بها غيوبنا، وتزكي بها أعمالنا، وتبيض بها وجوهنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتعصمنا بها من كل سوء.

في ظل تواصل النشاط العلمي والثقافي، وفي ظل التوجه الحضاري لجامعة الأزهر وللأزهر الشريف، وهي أقدم جامعة حملت مشاعل الحضارة وألوية التنوير. نظمت كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، فرع الزقازيق بالتعاون مع الرابطة العالمية لخريجي الأزهر ورابطة العالم الإسلامي المؤتمر العلمي الدولي الثالث عن: دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، وذلك في الفترة من (٦-٨) المحرم ١٤٣٤هـ الموافق (٢٠-٢٢) نوفمبر ٢٠١٢م.

المؤتمر العلمي الدولي الثالث

دور الأزهر
في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي

تحت رعاية الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب

أسامة العبد
رئيس جامعة الأزهر

حسن النجار
محافظ الشرقية

صابر عبد الدايم يونس
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

متابعة: أحمد رضوان

ويهدف المؤتمر إلى بيان دور الأزهر الشريف جامعا وجامعة وجهود أعلامه في تأصيل قضايا الفكر الإسلامي، والتقريب بين المذاهب في ضوء التغيرات العالمية، فضلاً عن جهود علمائه في تحقيق التراث العربي والإسلامي، وفي تطوير وتأصيل الدراسات اللغوية والأدبية والشرعية، كما ناقش المؤتمر جهود أعلام الأزهر في الرد على المستشرقين وتقويم مناهجهم وأفكارهم.

هذا بالإضافة إلى بيان دور الأزهر الشريف في مقاومة المستعمر، وأثره في الثورات ضد الاستبداد ودوره المعاصر في المشهد السياسي والثقافي والاجتماعي في مصر والعالم الإسلامي، وفي نشر الإسلام في إفريقيا وآسيا وأوروبا.

وقد شارك في المؤتمر الذي عقد بقاعة مديرية الثقافة بالزقازيق عدد كبير من علماء جامعة الأزهر والجامعات المصرية والجامعات الإسلامية وذلك تحت رعاية صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب ومعالي الأستاذ الدكتور/ أسامة العبد -رئيس جامعة الأزهر، ومعالي الوزير المستشار حسن النجار- محافظ الشرقية.

جاءت كلمة افتتاح المؤتمر لفضيلة الأستاذ الدكتور/ صابر عبدالدايم يونس -عميد الكلية ورئيس المؤتمر- والتي رحب فيها بالسادة العلماء والباحثين من مصر وخارجها -وبالضيوف جميعاً، مشيراً إلى أن الأزهر الشريف كان وسيظل منارة كبرى تنشر إشعاع الهدى والتنوير والمعرفة، ليس في مصر فقط، ولكن في أرجاء المعمورة كلها.. وعلماء الأزهر وأعلامه منذ أكثر من ألف عام.. وهم يستقبلون طلاب العلم من بقاع العالم الإسلامي كله، وسيظلون قدوة لأبنائهم في الخلق القويم، والمعرفة الشمولية، والتنوع العلمي والثقافي الجاد، والجرأة في الحق، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار المقنع البناء. وجامعة الأزهر تظل نهراً متدفقاً بالعطاء والمعرفة النابعة من رسالة الأزهر العالمية الحضارية في جميع التخصصات العلمية واللغوية والأدبية والشرعية والأصولية.. انطلاقاً من حتمية تكامل الشخصية الإسلامية في توازنها وثباتها وشمولها واتجاهها.

وفي كلمته أشار فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمود أبوهاشم- عميد كلية أصول الدين - بالزقازيق وأمين عام المؤتمر: إلى أن كلية اللغة العربية -جامعة الأزهر -فرع الزقازيق- رائدة في المنطقة وسباقة في كل خير، وأنها وعلماءها الأفذاذ يقدمون دوراً مهماً في الحفاظ على اللغة العربية وآدابها، موضحاً أن الأزهر الشريف -منذ نشأته وعلى مدى أكثر من ألف عام- حمل مشعل اللغة العربية؛ حيث كان له الدور المهم في الحفاظ على الفكر الإسلامي الوسطي المعتدل وترسيخ الدين واللغة في نفوس المسلمين جميعا وعلى الهوية الإسلامية.

ثم ألقى فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم -عضو هيئة كبار العلماء ورئيس جامعة الأزهر الأسبق- **كلمة ضافية قال فيها:** إن موضوع هذا المؤتمر في غاية الأهمية؛ يأتي في توقيت ضروري ومهم وفي منعطف خطير، في خضم أحداث جسام، بيد أن إطلالة عام هجري جديد ترسل علينا ما يهدئ النفوس ويبعث الأمل للنهوض والتقدم.

فالله تعالى ناصر هذه الأمة والأزهر رغم التحديات؛ لأن الله كما تكفل بحفظ كتابه وقرآنه، فكذلك يحفظ المؤسسات المحافظة على علوم الشريعة وفي مقدمة هذه المؤسسات الأزهر الشريف.

وأكد فضيلته أن الأمة العربية والإسلامية، برغم أنها توارد عليها بعض التشرذمات والتي أخرتها بسبب الاستعمار الذي أثر في أمتنا ولغتنا، إلا مصر فلم يستطع الاستعمار أن يغير هويتها ولا لغتها، وذلك بفضل الأزهر الشريف ودوره في الحفاظ على اللغة العربية والفكر الإسلامي.

وفي ابتداء كلمته توجه فضيلة الشيخ/ علي عبدالباقي شحاتة -الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية إلى الله بالدعاء أن يجزي القائمين على هذا المؤتمر -فكرة وتنظيماً وحضوراً- خير الجزاء، وأن يكلل جهودهم بالتوفيق والنجاح.

ثم قال: إذا كان لكل مقتضىً حاله، ولكل مقام مقاله، فإن حال اليوم أكرم الأحوال داعيا، وأنبل المقامات مقتضيا؛ لأن هذا المؤتمر -الذي نفتتحه اليوم على بركة الله- يتخذ من اللغة العربية، ودور الأزهر الشريف في النهوض بعلومها وآدابها عنوانا له، ومدارا لمحاوره، وكما تعلمون أن الله عز وجل قد اختار اللغة العربية من

بين اللغات - لتكون لغة القرآن الكريم: كمالاً وجمالاً:

● كمالاً: لاستيعاب اللغة العربية وكمال الرسالة الإسلامية الخاتمة للرسالات، وما يحتويه القرآن من آيات محكمات، وإشارات واضحات، ودلائل بينات، على وجود الخالق - سبحانه وتعالى - فضلاً عن المعجزات الكونية والعلمية، والأحكام الفقهية، والتكاليف الشرعية.

● وجمالاً: بما يحتويه القرآن الكريم من بديع القصص، وبليغ الأمثال، ورقيق المباني، ودقيق المعاني؛ ليكون القرآن معينا لا ينضب، وضياء لا يغيب، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

كما أشار فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية - إلى عظمة اللغة العربية - قائلا: لم تكن هناك لغة تستوعب هذا الإجمال الضخم لروح الإسلام، وهذا الإيجاز الفخم الجامع لتعاليم الدين إلا اللغة العربية، فنزل القرآن وحيا على محمد ﷺ باللغة العربية يرتل بالنغم القدسي في آذان العالمين.

ويواصل الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية حديثه قائلا: ولما كان فقه الدين، وفهم النصوص، واستنباط الأحكام الشرعية منها، يستلزم وسائل وملكات تتمثل في إجادة فنون وعلوم اللغة العربية، - قيض الله عز وجل - الأزهر الشريف ليكون أحد جنوده في حفظ قرآنه الكريم وعلوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، فكتب الله عز وجل - للأزهر المجد والخلود بحفظه لرسالته الإسلامية الماجدة الخالدة.

حنانك يا قلبي

ثم ألقى الشاعر الأستاذ الدكتور محمد عبدالمنعم العربي قصيدة بعنوان: (حنانك يا قلبي):

حنانك يا قلبي! وحسبك أنني
كأني خيال - بعد عشقك - لائح
أما لك عن هذا الهيام محول؟
أما لك عن تلك السبيل منادح؟

***

أجاب فؤادي: صاحبي: ذاك مذهبي!
وإني إليه رغم عذلك جانح!
على أن حبي قد تسامى لموضع
إذا كنت تدريه فبابك فاتح!
وإن يك أصحاب الهوى يكتمونه
فإني لهذا الحب مبد وبائح!

***

هو (الأزهر المعمور) أخلصت وده
ومازلت أوليه الهوى وأطارح
هو القلعة الكبرى لدين (محمد)
يدافع عنه في الورى وينافح
رحيب يشع الضوء من جنباته

وأمن يلاقيه مقيم ونازح
بأطواء العرفان والخير والهدى
به البر والتقوى إذا الشر جامح
له في سماء المجد عز مخلد
يناقش جوزاء العلا ويناطح
يخرج جندا للحنيف مفاديا
يجاهد في تبليغه ويكافح
يحمل - لا يخشى ولا يرهب الردى
ويمضي بنصر، فهو غاز وفاتح!

***

تحي الرجال اللائذين بساحه
وكلهمو للفضل بالشوق طامح
وكل لهمو خلا وفيا مصافيا
فأنت بهذا النهج - لا شك - رابح
وما أنت ذا بين الألى فيه أقفرا
فنونا من التحصيل والكل راجح
هنيئا فخير النجح ما جاء آخرا
وقد ناله بعد المشقة كادح

***

يا إخوتي الأحباب ذا يوم غبطة
ويوم به الإقبال والبشر طافح!
يزيد ابتهاجي ما أرى من ترابط
وثيق فهذا الجمع بالحق صالح
ويطربني هذا التعاون فيكمو
على البر والتقوى، وهذا التسامح
لأنبائي المعمور إن اتحادكم
لأفضل ما دلت عليه القرائح
لتسيروا بعون الله صفا موحدا
وبعضكمو للبعض خل وناصح
وإني إذا أرجى إليكم تحيتي
أقول لكم: والفكر في الغيب سابح
غدا في ميادين الجهاد سنلتقي
وتحت لواء واحد نتصافح!

قراءة في أبحاث المؤتمر

شارك في أعمال المؤتمر أكثر من خمسين باحثا في ميادين التخصصات العلمية الدقيقة - بأبحاث قيمة - نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر -:

● (أحمد حسن الباقوري: من رواد الأزهر في التجديد والإصلاح) للأستاذ الدكتور السيد محمد الديب - مصر. الديني البغيض.

● (جهود مجلة الأزهر في تجديد النهضة الأدبية الحديثة) للأستاذ الدكتور مصطفى عبد العاطي غنيمي - مصر. ثابتا من موضوعاتها، ولقد أدى هذا إلى تنوع أسلوبها بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي المتأدب، مما يجعل المجلة متميزة عن سواها.

● (جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) للأستاذ الدكتور حسن عبد الرحمن سليم - مصر.

● (حركات التجديد في النحو العربي وموقف علماء الأزهر منها) للأستاذ الدكتور محمد بابكر البدوي - السودان.

● (دور الأزهر وجهوده في خدمة العربية من خلال الرسائل الجامعية - النحو والصرف نموذجا) للأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الخثلان - السعودية.

● (علمـــاء الأزهر .. درر الكواكب في سماء اللغة العربية) للأستاذ الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد.

(موسوعة علماء وأدباء الأزهر الشريف) للأستاذ الدكتور علي علي صبح.

● (الشيخ شلتوت وجهوده في التفسير اللغوي للقرآن الكريم) للأستاذة الدكتورة منى تونى عنتر أحمد.

● (الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي شاعرا وناقدا) للأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم يونس.

● (بلاغة الإجمال والتفصيل للتركيب العددي في البيان النبوي) للأستاذ الدكتور شعبان محمد علي كفافي.

● (حركات التجديد في النحو العربي واللغة العربية وموقف الأزهر منها) للأستاذ الدكتور وافي صلاح الدين صبح - لبنان.

● (أثر الأزهر في مسيرة الثقافة والأدب في سلطنة عمان) للأستاذ الدكتور سعيد العيساني - عمان.

● (طلائع المحققين في الأزهر الشريف) للأستاذ الدكتور محمد السليماني - المغرب.

● (جهود أعلام الأزهر في ميدان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم والبيان النبوي: د. محمد أبو موسى - نموذجا) للأستاذة الدكتورة هند بنت جميل نابته - السعودية.

● (أفكار محمد قريش شهاب في تفسير المصباح - أحكام المرأة في سورة النساء نموذجا) للأستاذة الدكتورة همكة حسن - أندونسيا.

● إضافة إلى موضوعات أخرى عديدة وقيمة لعلماء كبار - كلها تدور حول جهود علماء الأزهر في ميادين العلم والثقافة والتي يتضمنها عنوان المؤتمر.

توصيات المؤتمر

١- يقدر المؤتمر ويثمن جهود الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وعلمائه الأجلاء في إصدار وثائق الأزهر المتعددة في هذه الظروف الانتقالية التي تمر بها البلاد في ظل ثورة الخامس والعشرين من يناير، ويدعو المؤتمر إلى طبع وثائق الأزهر منذ إنشائه حتى الآن في كتاب واحد وينشر بصورة عامة على الناس وتقرر هذه الوثائق على طلاب جامعة الأزهر والجامعات المصرية.

٢- مخاطبة اللجنة التأسيسية وكبار المسئولين بالدولة بالنظر إلى المشروع الإسلامي الذي وضعه علماء الأزهر ومشروع تقنين الشريعة الإسلامية للاستفادة من هذه المشاريع في وضع الدستور الجديد.

٣- إبراز دور الأزهر وجهود أعلامه في المحافظة على الأمن القومي المصري حيث نأى منهج الأزهر الوسطي بمصر عن الطائفية والمذهبية المتطرفة وذلك من أجل جمع الأمة على كلمة سواء.

٤- يوصي المؤتمر بمزيد من التعاون العلمي بين مجمع اللغة العربية وعلماء الأزهر البارزين في مجال اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي لمزيد من الارتقاء بلغتنا العربية والنهوض بها في مواجهة الحملات المغرضة التي تشوه اللغة والتراث والدين، ويطالب أعضاء المؤتمر بضرورة تعديل طريقة انتخابات مجمع اللغة ومجمع البحوث الإسلامية في ضوء القوانين الحديثة المواكبة لثورة الخامس والعشرين من يناير.

٥- إنشاء هيئة أزهرية خاصة بالأدب الإسلامي والتنسيق بين الأزهر الشريف والمؤسسات الراعية والداعية إلى الأدب الإسلامي في العالم، مثل رابطة الأدب الإسلامي وجامعة أم القرى والجامعة الإسلامية وغيرها.

٦- توجيه عناية دارسي الأدب العربي في الأزهر الشريف إلى رصد التحولات الدلالية والأسلوبية في الأدب الحديث بكل أنواعه وفنونه من نتاج أدباء الأزهر بحيث يكون مواكبا للتغيرات الثورية والفكرية المعاصرة.

٧- إعداد معجم أدبي يرصد تاريخ أدباء الأزهر وعلمائه في جميع التخصصات ويسلط الضوء على نتاجهم الإبداعي والفكري والعلمي قديما وحديثا.

٨- توجيه عناية الدارسين في مرحلتي (الماجستير والدكتوراه) إلى دراسة أدباء الأزهر وإبراز مواقفهم الوطنية في مقاومة الاحتلال ومساندة الثورات المصرية منذ الحملة الفرنسية حتى الآن.

٩- إشراف علماء جامعة الأزهر المتخصصين على المناهج التعليمية في المرحلة الابتدائية إذ تكاد تخلو من أي سمة متعلقة بالمناهج الأزهرية سوى مقرر القرآن الكريم فقط.

١٠- العمل على جمع أشعار العلماء ممن تخرجوا في الأزهر الشريف في ربوع مصر ونشره في مجلدات متعددة ليقوم الأزهر الشريف بمساعدة وزارة الأوقاف بطبع هذه الأشعار لتمتد إليها يد الدارسين المتخصصين من أبناء الأزهر.

١١- الاهتمام بطبع الرسائل العلمية في جامعة الأزهر حتى ينتفع بها الباحثون في مختلف الأقطار العربية والإسلامية.

١٢- إظهار جهود علماء الأزهر في مجال الدراسات اللسانية واللغوية والأدبية والتاريخية وإعادة نشر كتبهم نشرا يتاح للأمة كلها للاطلاع عليها، وإنشاء هيئة للنشر تابعة للأزهر الشريف وجامعته العريقة لتقوم بهذا العبء الحضاري العظيم.

١٣- توجيه عناية الباحثين إلى دراسة الاتجاهات اللغوية والأدبية في تفسير القرآن الكريم لدى أعلام الأزهر الأجلاء.

١٤- أن يتولى الأزهر الشريف مطالبة الجهات المسئولة في الدولة بإعادة رفات البطل العربي الأزهري سليمان الحلبي من فرنسا تقديرا لمكانته ودوره في النضال وخدمة الوطن.

١٥- يطالب أعضاء المؤتمر بضرورة توحيد جهود علماء الأمة في مجال النهوض باللغة العربية، ومد جسور التواصل بين الأزهر وجامعته وبين الهيئات التي تعتني باللغة العربية فكرا وأدبا.

١٦- يشيد المؤتمر بما توصل إليه أعضاء اللجنة التأسيسية للدستور الجديد من ضرورة تعريب العلوم في جميع مراحل التعليم، ولابد من إنشاء هيئات متعددة للترجمة الفورية التي تتيح للعلماء الفرصة للاطلاع على أحدث منتجات العلم.

١٧- تفعيل دور الأزهر على مستوى العالم بحيث يكون في كل سفارة أحد علماء الأزهر الكبار.

١٨- إصدار قانون ملزم بضرورة صيانة اللغة العربية في الشارع المصري ومنع أي لافتات أجنبية أو عامية مشوهة حفاظا على هوية الأمة في نفوس الشعب كله.

وأخيرا يواسي المؤتمر أهالي شهداء مصر من أبناء الأزهر الشريف الذين وافتهم المنية وهم في طريقهم إلى ساحات العلم في الأزهر الشريف ويدعو لهم بالرحمة والمغفرة ولآلهم بالصبر والمثوبة.

خميلة الشعر

الأستاذ / محمد عبد الوهاب

ها هي خميلة الشعر، تتألق وتتأنق وتقدم أروع ما ترنم به الشعراء، لتصدح الخميلة بشدوهم، وتتهامس بأخبارهم، وتشدو بموسيقاهم، التي هي إن اختلفت في الأوزان والألوان، إلا أنها اتفقت في الإمتاع وبديع الإلهام.



قصائد مختارة من الشعراء المعاصرين

على ضريح صلاح الدين

الشيخ/ محمد الخضر حسين

«قالها بمناسبة زيارته لضريح المجاهد العظيم السلطان صلاح الدين الأيوبي (1) في دمشق سنة ١٣٦٢هـ»

لو لم تبلغك الحياة مناكا — لكفاك أنك قد قهرت عداكا
لك سيرة كادت تمثل للنهى — بشرا ينافس في العلا أملاكا (2)
ومفاخر يوم استغاث الشرق من — خطر ألم ولم يجره سواكا
صرخوا النفير وأطمعوا أحشادهم — في ثل عرشك واقتحام حماكا (3)
حملوا الصوارم والقنا بحماسة — وأتوا ميادين القتال وشاكا (4)
قلت: الجهاد، فماج حول لوائك السامي فيالق لا تهاب عراكا (5)

(1) يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ) ولد بتكريت وتوفي بدمشق من أشهر ملوك الإسلام وصاحب الفتوحات الخالدة، وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته.
(2) النهى: العقل. الأملاك: جمع الملك: صاحب الملك.
(3) النفير: القوم ينفرون للقتال. الأحشاد: جمع الحشد: الجماعة يحتشدون لأمر مهم.
(4) الصوارم: جمع الصارم: السيف القاطع. القنا: الرماح. وشاك: جمع وشيك: القريب والسريع.
(5) ماج: اضطرب. الفيالق: جمع الفيلق: الجيش العظيم.

ولقيتهم بعزيمة لا تنثني — والرأي نبراس يؤم خطاكا (6)
وإذا البطولة عززت بدراية — كانت لإنقاذ الشعوب ملاكا (7)
عادوا بخيبة آمل وتملأت — من مجتنى النصر المبين يداكا (8)
عادوا ولم يخلد بهم وهن إلى — يأس وظلوا يفتلون شباكا (9)
حتى إذا أخذ الكرى بجفوننا — زحفوا وما لاقوا قنا كفاكا (10)
أو ما سمعت رطانة الإفرنج من — حول الضريح تخوض في ذكراكا (11)
وكأنني بك قد هممت بوثبة الـ — أسد الهصور لو استطعت حراكا
جاسوا المدائن والقفار وأرصدوا — في كل واد غاشما فتاكا (12)
يا ليتني أدري ومثلك يقتدى — بمثاله بين الورى ويحاكى
أيتاح للشرق المعذب ذائد — يرمي ويبلغ في النضال مداكا

المذعورون

شعر محيي الدين عطية

«يتعجب الشاعر ممن يصيبهم الهلع كلما ارتفع صوت ينادي بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل مرافق الحياة»

أذعرٌ إذا ما استدار القمرْ؟ — أرُعْبٌ من الفجر لما ظهرْ؟
أفي كل أرض هداها الإلهُ — لنور الشريعة، ذربٌ وعرْ؟
رُويدًا فماذا يضير العقيق — إذا أجْمعت نزوات البشرْ؟
وما رهبة الطير فوق السحاب — من الليث في الغاب مهما زأرْ؟

❁❁❁

هنيئًا لكم أيها المخلصون — غرستم قديمًا، وهاك الثمرْ
وكلُّ الذي قدمته اليدانِ — يصدق، نما واستوى وازدهرْ
ولكنّ طريق الهُدى ما انتهى — ففي غدكم منجزاتٌ أخرْ
فليس المُراد الذي يُرتجى — قوانينُ تترى، وما من أثرْ
ولكنّ سلوكٌ بحبل الحياة — سبيلاً إلى الله، لو نعتبرْ

(6) النبراس: المصباح.
(7) الملاك: قوام الأمر الذي يملك به.
(8) تملأت: امتلأت. المجتنى: ما يجنى من الشجر.
(9) يفتلون شباكا: أي ينصبون الشباك.
(10) الكرى: النعاس.
(11) الرطانة: الكلام بالأعجمية.
(12) المدائن: جمع المدينة. أرصدوا: الرقيب: نصبوه في الطريق.

من نوادر الشعراء

عبد الحميد الديب الصعلوك الثائر

خلق الخطُ جُـمـانـا .. وحـصـى
خـالقُ الأشـيـاء من مـاء وطين
فـوليـدٌ تـسـجـد الدنيـا لهُ
ووليـــد فى زوايا المُهـملينْ

فإذا كان حظ شاعر ما أن يكون فى زوايا المهملين - على حد تعبير شوقى - بسبب الفاقة، فما عسى أن يكون موقفه من الحياة والناس، بعد أن أخطأته الأضواء، فلا يُسلط عليه ولو شعاعٌ منها، فيبقى قابعا فى الظل، منطويا على نفسه فى عُقر داره ولعل أشهر الشعراء الفقراء الشاعر عبد الحميد الديب، الذى استطارت شهرته فى البؤس بعد قوله لعبدالحميد عبدالحق وزير الأوقاف الأسبق فى زمنه:

سَميُّك عبقرىُ البؤس فـافـخرْ
بـأبأس بـائس تحت الـسـمـاء

والشاعر عبد الحميد الديب ولد بقرية كمشيش بمحافظة المنوفية فى يولية عام ١٨٩٨ ميلادية، فى أسرة فقيرة بائسة، فقد كان والده تاجرا بسيطا للماشية واللحوم، وألحق ابنه عبد الحميد بكتاب القرية، حالما بأن يصل ابنه لأن يكون صاحب عمود بالأزهر الشريف، فقد كان ذلك أقصى طموح يمكن لأب فى تلك الفترة أن يصل إليه لابنه، ولكن ميول الابن كانت نحو الشعر والأدب

أرسله والده بعد ذلك إلى الأسكندرية ليلحقه بمعهدها الدينى، ليواصل تعليمه الأزهرى، فانفتحت أمامه آفاق من الوعى بالجمال والثقافات المختلفة، ولا غرو، فقد كانت الأسكندرية هى الثغر الذى تدخل إليه الثقافات العالمية، ولم تكن مظاهر التحضر بالأسكندرية إلا نكأ لجرح الفاقة والعوز عنده، فنراه يرثى لحاله متحسرا:

لا تنكروا الشكوى على متبرمٍ
قلق الحياة كمن يُساكُ بشوبه
أنا لا أرى فى شـبابى لـذةً
لهفى على مرح الشباب وعُجبه
من كـان توأمـه الشـقـاءُ وصنوهُ
فـشبابهُ حربٌ عليه كشيبه

ويقول الشاعر فى موضع آخر:

بين النجوم أناسٌ قـد رفعتـهُـمْ
إلى السماء فـسـدُّوا باب أرزاقى
وكنتُ (نوح) سفين أرسلت حرمًا
للعالمين فـجازونى بإغـراقى

ثم نراه معتزا بذاته قائلا:

شكوتُ وما شكواى ضعفٌ وذلةٌ
فلستُ بمُستجدٍ ولا طالبا يـدا
ولكننى أقحمتُ ظُلمًا بمنطق
من الدهر لم تبلغ غباوته مدى

ولسوء حظه سقط الشاعر فى دوامة الإدمان التى أودت به إلى السجن تارة وإلى مستشفى الأمراض النفسية تارة أخرى ويقول الشاعر فى ذلك

وإخوان سجن قُبِّحت من وجوههم
همومٌ تتوالى دائمًا وخطـوبْ
فمنظرُهُم أضحوكةٌ كلبابهم
ومَخبرُهم فى الحادثات رهيبْ
لقد كنتُ فيهم يوسُفَ السجن صالحا
أفسرُ أحلامًا لهم وأصيبْ

وما أشبه اليوم بالبارحة فقد كان عبد الحميد الديب ثائرا على الحكام والنظام فى الوطن، لما تنبأ بثورة للشباب على ظلم الحكام وها هى قد تحققت نبوءته، وكأنه كان يرى ثورة شباب مصر التى أشرقت فى الخامس والعشرين من يناير سنة ٢٠١١م، فى حلمه العبقرى وفى سحابات فكره المبدع، فيقول:

لستم لنا الأكفاء، أنتم عُصبةٌ
ما فى جهادكم لمصر نصيبْ
حتما سيأخذكم على أعناقكم
يومٌ بأخذ الظالمين قريبْ
يوم الشباب الطامحين وإنه
كغد لمن يرجو سناهُ قريبْ

ومن ألطف نماذج الفكاهة فى شعر عبدالحميد الديب، تلك المقطوعات التى هجا فيها بعض أصدقائه مستلهما قول جرير: (إذا هجوتم فأضحكوا) على أنه إذا هجا لم يكن فى جميع الأحوال مضحكا بل كان هجاؤه يصل أحيانا إلى حد من الغلظة كبير، فقد حدث أن زار أديبا كان وزيرا معروفا فى الأربعينيات، وكان مشهورا بعطفه على الأدباء والشعراء، فلم يتمكن من مقابلته بسبب خادم له غليظ القلب ساءه أن يدخل رجل زرى الهيئة مثل الديب على سيده الوزير فاشتد ذلك على الديب فقال يهجو الوزير وخادمه فى شعر تظهر فيه خفة الظل:

قـصـدت إلى بابك الموصد
فطوردتُ بالخادم الأسود
غلام يمثل حظى لديك
وقلبك فى البيت والمعبد
كأنى حين طلبت الندى
إليك طلبت يد المعتدى
لقد عشت يا رب حتى رأيـ
ـت من الناس أقسى من الجُلمُد
فخذنى إليك وأنت الكريـ
ـم فقد ضقت بالزمن الأنكد
ولست أرى البؤس عارًا إذا
رأيت إبائى به مُسعدى

أمل دنقل.. شاعر مصر وابنها البار

كان أمل دنقل شاعرا أصيلا ومبدعا، أعطى الشعر حياته، فأعطاه الشعر مفاتيح أسراره وأغواره، وكان عاشقا لمصر وللعروبة، وكان متمردا على الأوضاع العربية وبخاصة بعد هزيمة يونية سنة ١٩٦٧م ولقد كانت قصيدته (كلمات سبارتكوس الأخيرة) سببا فى تعرضه للقمع وللإرهاب واتهامه بالكفر من قبل السلطات، بينما هى تدعو إلى التمرد ضد الطغيان وتمجد دور العبد سبارتكوس الذى امتشق السيف فى وجه قيصر وفى وجه روما كلها التى كانت تعبث بإنسانية الإنسان وتستعبده وتستغله أبشع استغلال، فكانت ثورة سبارتكوس ذلك العبد الشجاع الذى

قال: "لا" في وجه قيصر الطاغية، ملهمة للشاعر المبدع، ليوقظ في نفوس المصريين الرفض لكل مظاهر الظلم والهوان، ولم يكن أمل دنقل حين ذكر الشيطان يعني إبليس والعياذ بالله، وإنما عنى بالشيطان سبارتكوس الثائر على العبودية والمذلة.

من أشعار أمل دنقل

ديباجة:

آه.. ما أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر.. كي نثقب ثغره
ليمر النور للأجيال.. مرّه
......
ربما لو لم يكن هذا الجدار
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق

١ - قصيدة: أيدوم الدهر؟

أيدوم لنا بستان الزهر
والبيت الهادئ عند النهر
أن يسقط خاتمنا في الماء
ويضيع.. يضيع مع التيار
وتفرقنا الأيدي السوداء
وتسير على طرقات النار
لا نحرز تحت سياط القهر
أن نلقي النظرة خلف الزهر
ويغيب النهر
....
أيدوم لنا البيت المرحْ
نتخاصم فيه ونصطلحْ
دقات الساعة والمجهول
تتباعد عني حين أراك
و أقول لزهر الصيف.. أقولْ
لو ينمو الورد بلا أشواك
ويظل البدر طوال الشهر
آه يا زهر..
لو دمت لنا
ودام النهر

الشاعر الأندلسي: ابن حمديس

وهذه دراسة موجزة عن علَم من أعلام العربية، وشاعر من أجل شعرائها، وهو على جلالة قدره وسمو منزلته الشعرية، مجهول الفضل، ولم يفطن الناس له، كما فطنوا لبعض المغمورين من الشعراء، الذين لم يدانوه في عليائه، ولم يحلقوا في سمائه.

ابن حمديس هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس وهو شاعر عربي الجنس واللسان، يتصل نسبه بالأزد إحدى قبائل كهلان، من عرب اليمانية، التي انتقل جثير من بطونها إلى بلاد المغرب والأندلس إبان الفتح الإسلامي وبعده، وقد ولد ابن حمديس في مدينة (سرقوسة) بجزيرة (صقلّية) أواخر حكم المسلمين بها سنة ٤٤٧ هجرية.

وحين نقرأ شعر ابن حمديس يظهر لنا عقلا مثقفا ونفسا مهذبة ووجدانا حيًا شاعرا، ونلمح كذلك احتذاءه بكبار شعراء المشرق، مع ترفعه عن غرض الهجاء، فيقول:

إني امرؤٌ لا ترى لساني
منظما ما حييتُ هَجْوا

ويقول أيضا في نفس الغرض:

وما أنا ممن يرتضي الهجو خطة
على أن بعض الناس أصبح يهجوني
أسالم من ألقيتُ قدري كقدره
وأعظمُ من فوقي وأحقر من دوني
ولو شئت يوما لانتصرت بمِقْول
يُحيل على الأعراض حد السكاكين

وبعد أن غزا النورمانديون جزيرة صقلية نالت الأسر العربية ألوان العسف وصنوف العذاب رحل ابن حمديس كارها عن وطنه متوجها إلى أشبيلية سنة ٤٧١ للهجرة، في عصر ملكها المعتمد بن عباد، وقد لبث الشاعر مدة لا يؤبه له ولا يُفطن إليه حتى تملكه القنوط، ولكن بسم له الدهر فاسترعى انتباه نظر ابن عباد وألحقه بخدمته، وله فيه وفي ابنه الرشيد مدائح غالية، كما كان له منهما العطاء الجزيل، ولما هاجم ألفونس ملك الأسبان أشبيلية استنجد ابن عباد بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فقدم ابن تاشفين وهزم ألفونس، ولكنه طمع في أشبيلية، فضمها لسلطانه واعتقل ابن عباد في قلعة (أغمات) بمراكش حتى وافاه أجله، وقبل وفاة ابن عباد وهو في معتقله كان ابن حمديس يبعث إليه بشعره، ومنه قوله:

أتيأسُ من يوم يناقض أمسَهُ
وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندى في أكفكم
وقلقل رضوى منكمُ وثبير
رفعتُ لساني بالقيامة قد دنت
فهذي الجبالُ الراسياتُ تسير

انتقل شاعرنا بعد وفاة ابن عباد إلى أفريقيا وألقى عصاه بالمهدية، حيث مُلك بني باديس، فاتصل بالأمير تميم بن المعز، وابنه يحيى وحفيده علي وكان حظيا عند ثلاثتهم فأحسنوا وفادته، ثم رحل بعد ذلك إلى جزيرة ميورقه حيث وافته المنية بها.

ومن أشعار شوقه لوطنه يقول الشاعر:

وراءك يا بحرُ لي جنة
لبستُ النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولتُ منها صباحا
تعرضْتَ من دونها لي مساء
فلو أنني كنت أعطى المنى
إذا منع البحر منها اللقاء
ركبتُ الهلال به زورقا
إلى أن أعانق فيها ذُكاء

ومن أناته كذلك:

كأن الدهر محسنه مسيء
فما يجزى على عمل ثوابا
ولو أخذ الزمان بكف حرٍّ
لكان بطبعه أمرا عُجابا
يجسرُ على شُربُ الراح همًا
ويورثُ قلبيَ الشدوُ اكتئابا
وفي خُلُق الزمان طباعُ خُلْفٍ
يُمرُّ في فمي النَّغب العذابا

بين المجلة والقارئ

أ. أحمد السيد تقي الدين

نبدأ رسائل هذا العدد برسالة وردت إلى الأستاذ الدكتور محمد عمارة رئيس تحرير مجلة الأزهر من الأستاذ عبد القادر الادريسى مدير الإعلام بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «إيسيسكو»:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة، رئيس تحرير مجلة الأزهر:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد اطلعت على العدد الجديد من مجلتكم الراقية (الأزهر)، وعلى الملحق الهدية حول (الأزهر والشيعة). وأود أن أعرب عن عميق تقديرى للافتتاحية الضافية الجامعة الشاملة التى كتبتموها لهذا العدد حول موضوع (الإسلاموفوبيا: معالم فى المشهد الغربى الراهن إزاء الإسلام). وأحب أن أقول لكم بمنتهى الصدق والصراحة والأمانة، إن هذه الافتتاحية جديرة بأن تطبع على حدة لتكون وثيقة بالغة القيمة والأهمية ومرجعاً توثيقياً، يستفيد منه العاملون فى حقول الفكر الإسلامى، إن على مستوى التنظير والتأصيل والتأليف، أو على مستوى الدعوة والصحافة والإعلام والتدريس. فلقد جمعتم فأوعيتم فقدمتم للقارئ خلاصة وافية دقيقة ومركزة للشبهات والطعون والمواقف وضروب الكيد والمؤامرة التى تواجه الإسلام فى الدوائر الغربية. وقد لفت نظرى أن الافتتاحية قد ترجمت إلى الإنجليزية فى هذا العدد، ولكن الترجمة انتهت عند الفقرة ٣٤!!

أما الملحق الهدية (الأزهر والشيعة)، فهو كتاب مناسب فى الوقت المناسب. وهذا يكفى. وقد وقفت طويلاً أمام المقدمة للطبعة الرابعة لكتاب الدكتور عبد المنعم النمر (الشيعة، المهدى، الدروز.. تاريخ ووثائق) التى نشرتموها فى هذا الملحق. وكنت قد قرأت الكتاب الذى صدر فى طبعته الأولى عن دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر بالقاهرة. وفاتنى الاطلاع على هذه المقدمة القيمة.

زادكم الله توفيقاً وتفوقاً وتألقاً، ووقاكم ومتعكم بكل خير.

وحمى الله مصر العظيمة وحفظها من كل سوء.

ومع وافر التقدير وبالغ الاحترام، مع خالص محبتى لكم.

أخوكم:

عبد القادر الإدريسى

الاختلاف.. نور ونار

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

مع اصطفاف الصفوف لصلاة الجماعة، يقف الإمام ليساوي بين المؤمنين داعياً لالتصاق الأقدام وتلاصق الأكتاف قائلاً "سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من إقامة الصلاة" وربما ذكّر المصلين بما وصى به رسول الله ﷺ حين كان يلتفت للناس قائلاً "لا تختلفوا فتختلف قلوبكم.."، مما يشير إلى ارتباط نفسي وشرعي بين تساوي الصفوف واستواء القلوب وائتلاف الأرواح، وليس هذا متعلقاً بصلاة الجماعة فقط، بل وبحالة العسكرة والجندية والاستعداد للزحف كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾

فالاتحاد قوة والتفرق أحد أخطر معاول الهدم والفناء، والقرآن الكريم الذي أقر بأن الاختلاف سنة كونية ثابتة قدريا وشرعيا كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

هو ذاته القرآن الكريم الذي أمر الأمة الواحدة الموحِّدة بنبذ الفرقة والتنازع وربطها بالفشل وتبعثر الأهداف وضياع الطريق من الأقدام؛ إذ يقول المولى جل شأنه:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

وعلى ما ذكر الخلاف وأثره على المختلفين؛ فإن الاختلاف قد يكون علمياً وقد يكون فكرياً وقد يكون اجتماعياً... ولكل واحد من هذه الاختلافات أدبه الخاص به في كيفية التعامل بين الأطراف المختلفة في الرأي.

وقبل الخوض في أدب الاختلاف، فإن من المقرر أن الإسلام دين يحث الجميع على الارتباط بالحياة العلمية وعلى ضرورة التواصل الفكري وهذه واحدة من أهم خصائص ديننا وأمتنا التي هي أمة اقرأ، وأول آية نزلت على الرسول ﷺ تخاطبه هي آية القراءة أو العلم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾

فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأخطر ما يكون من شأن الناس هو نشاط الجاهل والدهماء في غياب أهل الحكمة والعلم والبصيرة.

وتاريخنا يذكر أن الرسول ﷺ جعل العلم طريقاً لتخليص النفس من الأسر ذلك لأهمية العلم كما هو الحال مع أسرى بدر، هذا مضافاً إلى حث القرآن على ضرورة التفكر التي هي واحدة من طرق تحصيل المعرفة.

فالتفكير ميزة عبادية تميّز بها بعض المسلمين وحازوا بسببها شرف السبق والمكانة.

إلا أن المشكلة الأساسية التي يعاني منها أكثر المنتسبين إلى الحالة الدينية هي الأمية الفكرية والتعويل على الثقافة الجاهزة (المعلّبة) دون التدقيق وإعمال الفكر وهذا بدوره يترك أثراً سلبياً على الفرد ومن ثم على المجتمع أيضا. فكثيراً ما نطلق الأحكام على عواهنها متسلحين بمقدمات فاسدة لا تمت إلى المعرفة بصلة وتاليها يبطل مقدمها، وانتشار هذا النوع من الثقافة والأفكار يؤدي

إلى إغفال دور العقل وتعطيل قدرته مما يؤدي إلى ظهور جيل لا يعتمد الدليل العلمي في حكمه على القضايا ومناقشة الرأي الآخر ومقارنة الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

ومن نتائج هذه الحركة الموروثة ظهور حركة الاستبداد الفكري للرأي والانفراد بالحقيقة وقسر الناس عليها وهذا قهر لعقول الآخرين على العقل الواحد وعلى الرأي الواحد، والموقف الواحد مع أن عدم الإكراه حق ضمنه القرآن للجميع:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾

فإذا كان القرآن يضمن عدم الإكراه في الدين وهو أشرف الأشياء فكيف بالفكر والرأي لما فيه من سلب حرية الاختيار وقدرته على التمييز والاختيار.

وهنالك مجموعة من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المختلفون في الرأي مهما بلغت درجة هذا الخلاف أو الاختلاف نشير إلى بعضها في عجالة:

١) احترام الآخر وعدم الاستهزاء به أو تسفيه رأيه.

٢) عدم سوء الظن وبناء أحكام قاطعة عليه كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾

وهكذا ورد في الروايات أيضا (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا)

٣) عدم غيبة الآخر:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

٤) عدم تصيد أخطاء الآخر: فإن رسول الله ﷺ يقول: (الدين النصيحة)

٥) ترسيخ ثقافة الاعتذار: ولست أجد في هذا الصدد أروع من كلمة موسى (كليم الله) يقولها بلسان النبوة الصافية الصادقة للخضر عليه السلام، معتذرا عن تعجله في الحكم على ظواهر الأمور:

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾

وقد كان من دعاء سيد الخلق محمد ﷺ: (اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

المرجفون.. والرئيس.. وحماية الثورة

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ: مسلم إبراهيم النجار:

بعد أن طفح الكيل وانشق قلب العدل يقول شاعرنا صارخا منزعجا ومحذرا مما يراه:

«إلام الخلف بينكمـو إلاما..

وهذي الضجة الكبرى علاما!!

لقد أصبح الشعب المصرى كله وكأن التسعين مليونا رؤساء للدولة المصرية فجماعات وطوائف كلها تتكلم بصوت عال منزعج حتى نكاد أن لا نسمع بعضنا بعضا فكثرت الشعارات وتعاكست الاتجاهات وذابت المعالم بين فوضى وعشوائية وإهمال ولا ندرى هل هى ظاهرة صحية بعد أن حرمنا ثلاثين عاما من الكبت والحرمان حتى كنا لا نملك رأيا ولا رؤية.. أم أن هذا الذى يحدث هو جدل لا ضابط له وهو نذير شؤم يجرنا إلى الفوضى التى أوعدنا بها المخلوع وأذنابه أعاذنا الله من شرهم ومن أطماعهم وسيئاتهم فهم المخططون لإشاعة هذه البلبلة.. وسوء الفهم بين العامة والفقراء من أبناء الشعب الكادح المطحون.

إننا لا مخرج لنا من هذه الغشامة إلا أن نتوجه خلف رئيس شرعى جاءت به صناديق الانتخاب الحر ولابد أن نلتف حوله ونثق به وأن نحسن الظن فى أعماله ونواياه حتى تتوضح الرؤية وتدور عجلة الإنتاج بعيدا عن أصحاب الأفكار المتضاربة والولاءات المزدوجة.. فقد عادت وجوه للظهور كانوا يعارضون حكم المخلوع.. والغريب أنهم هم المحرضون الآن على تعطيل مسيرة الإصلاح واستكمال بناء مؤسسات الدولة.. ويبدو أنهم يعانون من مرض اسمه المعارضة من أجل المعارضة وفقط أو أنهم خانهم صبرهم لاستعجالهم لتحقيق تطلعاتهم الشخصية فاقتتلوا وعلت أصواتهم دون حق أو حياء كما أنهم كشفوا عن وجههم القبيح فبمجرد أن أصدر الرئيس مرسى قرارات نوفمبر الحالية – وهذا حقه التشريعى – ليحمى بها مسيرته مع نظام رئاسته وحكومته لينطلق إلى استكمال بناء مؤسسات الدولة ولتدور عجلة البناء والتنمية.

إننا نريد أن نتخلص فورا من هذه الأحوال المؤسفة وأن نعطى القيادة الجديدة حقها فى حرية الحركة والقضاء على ما انتشر فى أوساطنا بصفة عامة من بعض السلوكيات السيئة والتى يرفضها ديننا الحنيف. فإن الدين يأمر بأن يكون الولاء والطاعة لأولى الأمر وهذا من كمال الإيمان وتأكيد وحدة الأمة واصطفافها خلف رئيس اختارته بطريق الشرعية والديمقراطية وتحت شعار:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

وقد أكد هذا المعنى رسولنا الكريم ﷺ فى قوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» (رواه البخارى)

وتحت هذا الشعار بالبناء المتماسك كما صوره الرسول ﷺ لا ينبغى أن يكون الإعلام مصدر معلومات للتفرقة تلهب المشاعر وتثير الشعب وتذكى نار الفتنة بين المتنازعين علاوة على إهماله وتحوله عن واجبه فى تأكيد الولاء لله والدين وزرع الانتماء وتنميته ليكون للوطن والمواطن فمن المؤلم أنه انتشرت فى الإعلام ظاهرة سيئة نرفضها كل الرفض وهى ظاهرة السب والشتم والسخرية من الآخرين أو بالغمز واللمز وللأسف يعتبر الإعلاميون ذلك هو من المهنة وهذا تطاول يحرمه الإسلام وينهى عنه.

وينهانا معلم البشرية الأول ﷺ عن السباب واللعن فيقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (رواه مسلم)

وقال أيضا: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعان ولا بالفاحش ولا بالبذئ» (رواه الترمذى)

إن على المسلم وعلى رجل الإعلام بالذات أن يترفع عن مثل هذه السلوكيات فيكون عفيف اللسان ولا يقول إلا الحسنى حتى تتآلف القلوب وتقوى أواصر المودة بين الجميع فتتحقق وحدة المجتمع حول أهدافه وأمانيه ويتم دوران عجلة الإنتاج والتنمية فى ظل بناء الثقة بين المواطن وقيادته والله يقول فى كتابه الكريم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل: ١٢٨)

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ. محمد جمعة

ما لم تتوقعه إسرائيل !؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ فهمي هويدي المنشور بجريدة الشروق الصادرة بتاريخ ٢١/١١/ ٢٠١٢م يقول فيه :

... ما الذى تغير هذه المرة ودفع إسرائيل إلى التسرع فى طلب وقف إطلاق النار؟

ردى على السؤال أنها أدركت أن ثمة متغيرات فى المشهد، بعضها لم تكن واثقة منها تماماً، وبعضها فوجئت به تماماً، وأزعم أن موقف القاهرة كان أحد المتغيرات التى لم يكن القادة الإسرائيليون مدركين لطبيعته.. وأغلب الظن أن إعلان الرئيس مرسى أن مصر لن تترك غزة وحدها، وإيفاده لرئيس الوزراء إلى القطاع فى اليوم التالى للعدوان مباشرة لإعلان مساندة مصر لموقفه لم يكن متوقعاً من جانبهم، وحين انضم رئيس الوزراء التركى إلى طاولة بحث الموضوع فى القاهرة، وقدم أمير قطر لكى يعرب عن تضامنه ومساندته، ثم حين أكد ذلك التضامن العاهل السعودى فى الاتصال الهاتفى الذى أجراه مع الرئيس مرسى، وصدر عن مجلس وزراء الخارجية العرب قراره الذى دعى فيه إلى إعادة النظر فى المبادرات التى طرحت للتسوية السلمية مع إسرائيل، ثم زار القطاع بعض أولئك الوزراء، حين حدث ذلك كله فإن إسرائيل أدركت أن مصر تغيرت وأن الربيع العربى أحدث تطوراً نوعياً فى الموقف من الاستعلاء والعربدة التى تمارسها إسرائيل.. جدير بالذكر فى هذا الصدد أن الدور التركى كان فاعلاً فى المشاورات التى جرت بخصوص العدوان، وأن وزير الخارجية الدكتور أحمد داود أوغلو، ورئيس المخابرات التركية كانا ضمن الأطراف التى تعاملت مع المشهد، وكانت المخابرات المصرية تدير تلك المشاورات، ومما فوجئت به إسرائيل أن المقاومة الفلسطينية استطاعت إسقاط طائرة تجسس بغير طيار، وطائرة أخرى من طراز «إف ١٦».. وأهم من ذلك أنها استخدمت فى الرد على الغارات الإسرائيلية صواريخ وصلت لأول مرة إلى تل أبيب والقدس؛ وقد تضاعفت الصدمة حين اكتشفوا أن تلك الصواريخ بعيدة المدى نسبيا كانت محلية الصنع، الأمر الذى يمكن أن يقلب المعادلة فى الصراع، من حيث أنه يعنى أن المقاومة أصبحت تتمتع بقدرات عالية، تمكنها من الصمود أمام إسرائيل وتهديد عمقها، من المفاجآت أيضاً أن إسرائيل اكتشفت أن القبة الحديدية عند اختبارها لا تشكل جداراً

يحول دون وصول الصواريخ إليها؛ لأنه فى وجودها وصلت تلك الصواريخ إلى العمق الإسرائيلى، من الأمور التى أحبطت الإسرائيليين أيضاً أن الغارات التى شنوها فشلت فى تدمير منصات الصواريخ الفلسطينية، بدليل أنها واصلت الإطلاق ولم تتوقف، حتى قوات المقاومة الفاعلة ظلت بعيداً عن الاستهداف الإسرائيلى، بدليل أن نصف الضحايا كانوا من المدنيين وأكثرهم من النساء والأطفال، هذه الخلفية لا تجيب فقط على السؤال ما الذى تغير هذه المرة، لكنها تدعونا أيضاً لأن نفتح أعيننا وننصت جيداً لأصداء تلك المتغيرات فى الداخل الإسرائيلى، شكراً للربيع العربى.

تقويمات إسرائيلية:

الحرب على غزة كانت اختبارا للجبهة الداخلية والسلطة المصرية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة/رندا حيدر المنشور بجريدة النهار الصادرة فى: ٢٥/ ١١/ ٢٠١٢م تقول فيه:

قد لا يكون اتفاق وقف النار بين حركة المقاومة الإسلامية «حماس» وإسرائيل الذى أنهى حرب غزة موضع إجماع وقبول لدى جميع الإسرائيليين لا سيما الجمهور اليمنى الذى كان يرغب فى المضى فى العملية العسكرية حتى القضاء عسكرياً على حماس واقتلاعها من جذورها مهما كان الثمن، ومن المؤكد أن ما جرى فى غزة خلال الأيام الماضية شكل اختباراً مهماً لعدد من المسائل الأساسية المتعلقة بأمن إسرائيل، بعضها ذو طابع عسكرى استراتيجى مثل اختبار مواجهة الجبهة الداخلية الإسرائيلية لهجوم صاروخى، ومدى نجاعة المنظومات الدافعية الجديدة فى هذه المواجهة، والبعض الآخر ذو طابع سياسى مثل اختبار مستقبل العلاقات مع مصر فى عهد حكم «الإخوان المسلمين»، ومسار تطور العلاقات الإسرائيلية، الأمريكية خلال الولاية الثانية للرئيس بارك أوباما، وفى الواقع فإن القصف الصاروخى الذى تعرضت له المدن والبلدات الإسرائيلية من جانب التنظيمات الفلسطينية فى غزة شكل نموذجاً مصغراً لما يمكن أن يحدث فى حال قررت إسرائيل شن عملية عسكرية على المنشآت النووية الإيرانية، الدرس المهم هو مستقبل اتفاق السلام مع مصر، فقد شكلت عملية «عمود السحاب» أهم تحد لحكم الرئيس المصرى الجديد محمد مرسى ولسياسة «الأخوان المسلمين» فى مصر، ويبدو أن مصر نقلت خلال أيام القصف رسالة إلى إسرائيل مفادها أنها فى حال شنت هجوماً برياً على غزة فإنها ستعلق اتفاق السلام معها، فإن هذا الموقف المصرى كان من بين الأسباب التى دفعت رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى عدم اتخاذ قرار بالعملية البرية من جهة أخرى، اختبرت إسرائيل إدارة الرئيس أوباما فى ولايته الثانية، وقد أثارت مواقف أوباما الداعمة لحق إسرائيل فى الدفاع عن أمن مواطنيها الارتياح داخل إسرائيل، واستغلت حكومة نتنياهو الفرصة لترميم علاقاتها المضطربة مع البيت الأبيض من خلال تجاوبها مع المطلب

الأمريكي بعدم شن هجوم برى على غزة، بالطبع يحول المسئولون الإسرائيليون إبراز اتفاق وقف النار مع «حماس» على أنه إنجاز، في حين أن ما هو معلن في الاتفاق يظهر بوضوح أن «حماس» استطاعت أن تفرض شروطها للتهدئة التي، إلى جانب وقف الاغتيالات ورفع الحصار وفتح المعابر تجبر إسرائيل على التراجع عن المنطقة المحاذية للسياج الحدودي والتي شكلت الدوريات الإسرائيلية داخل غزة سببا مباشرا للتصعيد، وتعتقد إسرائيل اليوم أن الرعاية المصرية والأمريكية لاتفاق وقف النار مع «حماس» سيجعله فعالاً بحيث يمكن أن يسود على الحدود مع غزة الهدوء الذي يسود الحدود مع لبنان منذ انتهاء حرب تموز ٢٠٠٦.

غزة.. والأمن القومي العربي

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ يوسف الدعاس المنشور بجريدة القدس العربي الصادر بتاريخ: ٢٠/ ١١/ ٢٠١٢م يقول:

أمن غزة يتعلق مباشرة بالأمن القومي العربي المشترك وهو مسئولية كل الدولة العربية بلا استثناء ووقوع الأراضي العربية مكشوفة الغطاء وغير مأمونة الظهر دون وجود قوة ردع عربية مشتركة توقف الاعتداءات المتكررة التي ينفذها العدو التاريخي والاستراتيجي للعرب وتصيب الكرامة العربية بمقتل بعد سقوط الشهداء والجرحى.

وهذه ليست هي المرة الأولى التي تكتشف فيها أن ظهورنا مكشوفة في العراء، فالجيش الإسرائيلي مستمر باستهداف الأراضي العربية باتخاذ سياسة تقليم الأظافر تجاه أي قوى تشكل خطرا عليه وشاهدنا هذه السياسة الاستراتيجية في عدوانها على غزة ولبنان ومؤخرا في الغارات داخل الأراضي السودانية واستهداف ثمانية أهداف مختلفة في آن واحد وكل هذه الاعتداءات تكشف حجم الضعف الدفاعي والأمني للدول العربية وتمثل تحديا وأولوية قصوى ينبغي أخذها بعين الاعتبار خصوصا دول الربيع العربي الذي تواجه أول تحدى مصيرى مما يحتم على الأنظمة السياسية في هذه البلدان تحديدا عمل ميثاق شرف عربي للدفاع المشترك وإنشاء قوة مشتركة كضرورة حتمية وتحديدا «مصر، تونس، ليبيا» لتوفير الغطاء ولو السياسي لحركات المقاومة الفلسطينية.

القضية الفلسطينية اليوم هي ترمومتر الصعود والنهضة للمشروع العربي الإسلامي المشترك ومن هنا تكمن إهميتها ولابد أن تأخذ هذه القضية موقعها الطبيعي في صدارة الاهتمامات واتخاذ سياسات وخطوات استراتيجية بعيدة المدى تصب في مصلحة القضية والمنطقة على المدى المتوسط والبعيد، وبالتنسيق المشترك والحفاظ على المكاسب التي حققتها الثورات الجديدة وأن تكون التحركات محسوبة الخسائر والأرباح ولدى الدول العربية الكثير من الأوراق الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية لتشكيل قوة ردع يحفظ الأمن القومي العربي بما يجعل الكيان الصهيوني يحجم عن الاستمرار في انتهاكاته تجاه شعوب المنطقة.

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذين: محمود الغنشي، عبد الموجود أمين

بيان من مجمع البحوث الإسلامية على افتراءات رافضية

يؤكِّد مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف أنَّ حبَّ آل البيت أمر لا يُزايد علينا فيه أحدٌ، بل إنَّنا نتقرَّب به إلى الله - تبارك وتعالى - ولقد دأب الأزهر الشريف على عدم تكفير أو كراهية أحد من المسلمين، فكيف بآل البيت الكرام، ويؤكد المجمع على أنَّ محبة آل البيت طاعة لله ولرسوله ﷺ مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

(الشورى: ٢٣)

والأزهر الشريف - كما عهده المسلمون طوال عهوده - يجمع ولا يُفرِّق، يصلح ولا يفسد، يبني ولا يهدم، مما أهَّله لكي يكون بيتًا لجميع المسلمين على اختلاف طوائفهم؛ ينضوون تحت لوائه، ويجدون فيه ملاذًا في الملمَّات والمحن والشدائد.. هذا هو الأزهر.

جاء ذلك خلال رد هيئة كبار العلماء على ما جاء من افتراءات ومغالطات في بعض الصحف، على لسان أحد مدَّعي التشيع، موجهة إلى شخص فضيلة الإمام الأكبر، الذي هو إمام للمسلمين جميعًا على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، وأكَّد المجمع على حرص الأزهر الشريف على تدريس جميع مذاهب المسلمين في معاهده وكلياته؛ مما أعطاه ميزة التعدُّدية الفكريَّة التي انفرد بها عن جميع المؤسَّسات العلميَّة في العالم، والذي جعله شامخًا وكعبة للعلم والعلماء، فالأزهر وإمامه يُمثِّلان ضمير الأمة ورمزًا للوسطية والاعتدال.

إنَّ الأزهر الشريف إنَّما يتصدى للذين يكفرون صحابة رسول الله ﷺ ومن والاهم؛ ويكفرون أهل السنة والجماعة - الذين يمثلون ٩٠٪ من المسلمين - والذين يسعون إلى نشر المذهب الرافضي في المجتمعات السنية لخلخلة وحدتها الفكرية والثقافية، الأمر الذي يحولها إلى مجتمعات طائفية بأسها بينها شديد، وذلك حتى تعجز عن التقدم والخروج من المأزق الذي هي فيه، وبهذا الخطط الخبيث تتحقَّق مقاصد الصهيونية والاستعمار. والأزهر إذ يستنكر هذا السلوك الذي لا يتسق مع شيم العلماء، والبعيد عن المبادئ والقيم الإسلامية، لا يمكن أن يدخل في مهاترات جدلية تثنيه عن رسالته السامية، التي تحمَّلها طوال تاريخه، والتي ينتظرها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها.

والله الهادي إلى سواء السبيل

الإمام الأكبر يشيد بدور مصر في وقف العدوان الصهيوني على غزة ويجدد دعوته للمصالحة بين الفصائل الفلسطينية

أشاد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب – شيخ الأزهر الشريف – بالدور المصري رئيسًا وحكومة وشعبًا لوقف العدوان الصهيوني الغاشم على أهل غزة، والذي توّج بهدنة لحقن دماء إخواننا المسلمين في القطاع المحاصر.

ودعا فضيلة الإمام الأمة العربية والإسلاميّة لمد يد العون بالمساعدات والإمدادات اللازمة لهم، والعمل على رفع الحصار الظالم؛ حتى ينعموا بإنسانيّتهم؛ إنصافًا لهم وإحقاقًا لحقهم في العيش الآمن دون المساس بهم وبحقوقهم كباقي البشر.

وناشد فضيلته جميعَ القُوى والفصائل الفلسطينية بالتوحُّد والإنهاء الفوري لحالة الانقسام؛ لأنّ التوحُّد هو الدعامة الأولى للعزة، وأنْ يكونوا على قلب رجل واحد في مواجهة الصهاينة الذين يسعون إلى استئصالهم جميعًا في الضفة كانوا أو في القطاع.

كما جدَّد فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر، دعوته للفصائل الفلسطينية بضرورة العمل على تحقيق المصالحة الوطنية الفلسطينية في ظل هذه الظروف التي تتطلب من الشعب الفلسطيني أن يكون على قلب رجل واحد؛ حتى يشعر الكيان الصهيوني أنه أمام جبهة مُوحَّدة. وأكد فضيلته خلال استقباله رمضان شلح، أمين عام منظمة الجهاد الفلسطينية، ونائبه زياد النخاري، أنّ الأزهر الشريف على استعداد للمشاركة في جهود المصالحة بين الأشقاء. ومن جانبه أوقف رمضان شلح، أمين عام منظمة الجهاد الفلسطينية، فضيلة الإمام الأكبر على حقيقة الأوضاع داخل قطاع غزة والتي تحولت حالة السكان فيه إلى جحيم نتيجة القصف الصهيوني.

التعليم الأزهري

معاهد أزهرية جديدة لنشر الفكر الوسطي في جنوب سيناء وتذليل العقبات التي تواجه طلبة آسيا الوسطى بالأزهر

في إطار خطة الأزهر لنشر الفكر الوسطي في سيناء والتوسع في إنشاء المعاهد الأزهرية، لسد احتياجات أبناء سيناء من التعليم الأزهري، والتي عرضها مشايخ ورموز قبائل سيناء على الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، خلال زيارتهم لمشيخة الأزهر.

وقد أوفد فضيلة الإمام لجنة دعوية وتعليمية إلى جنوب سيناء برئاسة خبير التطوير المؤسسي الدكتور جلال قريطم، وعدد من مشايخ القبائل والمسئولين بالمحافظة، حيث طلب أبناء ومسئولو المحافظة من الأزهر فتح فرع لجامعة الأزهر بها، وقدمت اللجنة تقريرا وافيا حول احتياجات سيناء من التعليم الأزهري، والمشكلات التي تعانيها معاهد المناطق النائية.

وقرر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، إنشاء معهد أزهري نموذجي للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية بشرم الشيخ بعد ترميم المعهد الابتدائي الحالي بالمدينة، وإنشاء معهد أزهري بمنطقة الطور، خصصت له المحافظة قطعة أرض، وتكليف الإدارة المركزية للشئون الهندسية باتخاذ اللازم نحو إدراج معهد مدينة الطور الجديدة «توشكي» في الخطة الاستثمارية للعام المالي ٢٠١٣م / ٢٠١٤م وإنشاء استراحات للمدرسين بمعهد الجوفة الابتدائي الإعدادي والثانوي، ورفع كفاءة وتجهيز استراحة معاهد الحسوة ووادي سهب، ورأس سدر.

كما قرر الأزهر مخاطبة محافظ جنوب سيناء لتخصيص قطعة أرض لإنشاء معهد أزهري بالرويسات، وزيادة البدل النقدي للمدرسين.

كما عقد الدكتور عبد الدايم نصير، مستشار فضيلة الإمام الأكبر للتعليم والشئون الثقافية، وسيادة السفير عبد الرحمن موسى، مستشار فضيلة الإمام الأكبر للعلاقات الخارجية، اجتماعًا مع ممثلي روسيا الاتحادية وبعض دول آسيا الوسطى؛ وذلك للتباحث حول أوضاع الطلاب الوافدين من هذه الدول الدارسين بالأزهر ومؤسساته التعليمية المختلفة، وكيفية تذليل العقبات التي يُواجهونها، وطرق التعاون بين مؤسسة الأزهر وسفارات هذه الدول؛ من أجل التغلُّب على هذه العقبات.

وقال السفير عبد الرحمن موسى: إنّ اللقاء يهدف إلى التأكيد على عالمية رسالة الأزهر في نشر تعليم الدين الإسلامي الحنيف الوسطي والمعتدل لأبناء دول العالم المختلفة، والذين يرغبون في ذلك دون أيِّ تمييز، والتأكيد على التعاون الدائم بين مؤسسة الأزهر وكافة الدول من أجل تحقيق هذا الهدف.

وأضاف: إنّ هذا اللقاء يعدُّ بداية لاجتماعات أخرى مع ممثلي سفارات دول العالم المختلفة، والتي لها دارسون بالأزهر؛ من أجل تحقيق هذه الأهداف.

الإمام الأكبر: الفكر الوسطي يحد من مخاطر التشدد

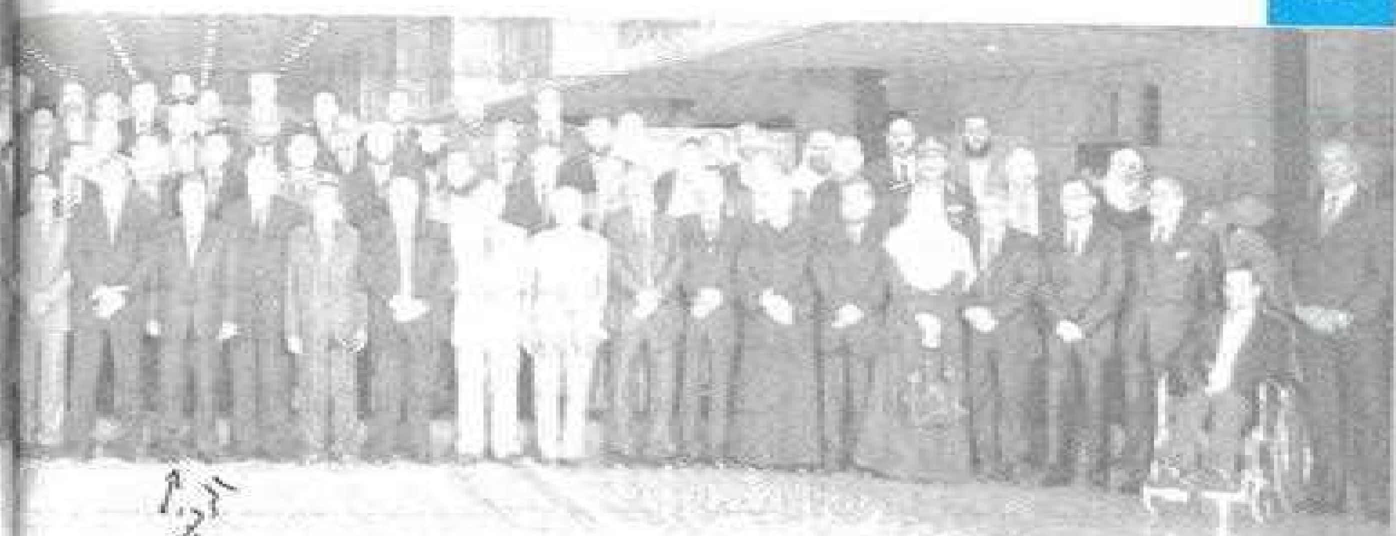
أكدَ فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر على أهمية التنسيق بين المراكز الإسلامية في نشر الفكر الوسطي المعتدل في حصار الفكر المتشدّد أو المتميع، وذلك من خلال تحديد مفاهيم الأفكار المتشددة والمتميعة، والتي أضحت بلاءً تفشَّى في بعض المجتمعات الإسلامية.

جاء ذلك خلال لقاء فضيلته مع د. عادل عبد الله الفلاح، وكيل أول وزارة الأوقاف بالكويت والأمين العام للمركز العالمي للوسطية، والوفد المرافق لسيادته.

وأكد د. الفلاح أنه جاء إلى مصر وبصحبته وفد كبير لاختيار أئمّة وعلماء من الأزهر الشريف بناء على تكليف من أمير الكويت؛ للاستفادة بهم في نشر الوسطية والاعتدال والتي ميَّزت الأزهر على مر العصور، والذي تحتاجه الأمة أمسَّ الاحتياج في تلك المرحلة الراهنة من تاريخها، في الوقت الذي أصبح الإسلام هدفًا يرمى من كل حدب وصوب بالتشدُّد والرجعية؛ بسبب بعض السلوكيات الخاطئة من بعض أبنائه.

أنباء العالم الإسلامي

للأستاذين: سعد فتحي - يحيى سليمان





الرئيس مرسي يدعو الشعب المصري للاستفتاء على الدستور

تسلم الرئيس المصرى محمد مرسى، فى مراسم خاصة فى ١ / ١٢ / ٢٠١٢م، نسخة من مسودة دستور البلاد الجديدة، من رئيس الجمعية التأسيسية لكتابة الدستور المستشار حسام الغريانى.

وأصدر مرسى قرارا بدعوة المصريين إلى الاستفتاء على مسودة الدستور، يوم ١٥ ديسمبر سنة ٢٠١٢ م قائلا: إن على المصريين أن ينظروا بموضوعية إلى مشروع الدستور.

وأشار مرسى إلى أن "الدستور الجديد قلص من صلاحيات رئيس الجمهورية فلم يعد يستطيع حل البرلمان إلا بالاستفتاء وإذا كانت نتيجة الاستفتاء بالرفض يجب عليه أن يستقيل".

وقال إن مشروع الدستور "جاء معبرا عن أهداف الثورة العظيمة بالتأكيد على العدالة الاجتماعية من خلال ضمان حد أدنى للأجور والمعاشات".

وزاد مرسى أن الدستور الجديد أكد على "محاربة الفساد والاستبداد، وتعزيز حرية الاعتقاد والفكر والرأى والإبداع والحق فى الحصول على المعلومات وحرية الصحافة والطبع والنشر".

ووجه الغريانى الشكر للمشاركين فى أعمال الجمعية المكونة من ٨٥ عضوا، بعد عملية التصويت التى شملت كل مواد الدستور.

وجاء فى ديباجة وثيقة الدستور:

نحن جماهير شعب مصر،

بسم الله الرحمن الرحيم وبعونه،

هذا هو دستورنا.. وثيقة ثورة الخامس والعشرين من يناير، التى فجرها شبابنا، والتف حولها شعبنا، وانحازت إليها قواتنا المسلحة، بعد أن رفضنا فى ميدان التحرير وفى طول البلاد وعرضها كل صور الظلم والقهر والطغيان والاستبداد والإقصاء والنهب والفساد والاحتكار. وجاهرنا بحقوقنا الكاملة "عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية"، مشفوعة بدماء شهدائنا وآلام مصابينا وأحلام أطفالنا وجهاد رجالنا ونسائنا. واستعدنا أجواء حضارتنا العظيمة وعبق تاريخنا الزاهر؛ فأقمنا أعرق دولة على ضفاف النيل الخالد، عرفت معانى المواطنة والمساواة وعدم التمييز، وقدمت للعالم أول أبجديات الكتابة، وأطلقت عقيدة التوحيد ومعرفة الخالق، واحتضنت أنبياء الله ورسالاته السماوية، وزينت صفحات التاريخ الإنسانى بمواكب الإبداع.

واستمرارا لثورتنا الطاهرة التى وحدت المصريين على كلمة سواء، لبناء دولة ديمقراطية حديثة؛ نعلن تمسكنا بالمبادئ التالية:

أولا: الشعب مصدر السلطات: يؤسسها، وتستمد منه شرعيتها، وتخضع لإرادته.. ومسئولياتها وصلاحياتها أمانة تحملها، لا امتيازات تتحصن خلفها.

ثانيا: نظام حكم ديمقراطى؛ يرسخ التداول السلمى للسلطة، ويعمق التعددية السياسية والحزبية، ويضمن نزاهة الانتخابات، وإسهام الشعب فى صنع القرارات الوطنية.

ثالثا: كرامة الفرد من كرامة الوطن.. ولا كرامة لوطن لا تكرم فيه المرأة؛ فالنساء شقائق الرجال، وشريكات فى المكتسبات والمسئوليات الوطنية.

رابعا: الحرية حق، فكرا وإبداعا ورأيا، وسكنا وأملاكا وحلا وترحالا، وضع الخالق أصولها فى حركة الكون وفطرة البشر.

خامسا: المساواة وتكافؤ الفرص بين الجميع: مواطنين ومواطنات؛ فلا تمييز، ولا وساطة، ولا محاباة، فى الحقوق والواجبات.

سادسا: سيادة القانون أساس حرية الفرد، ومشروعية السلطة، وخضوع الدولة للقانون؛ فلا يعلو صوت على قوة الحق، والقضاء مستقل شامخ صاحب رسالة سامية فى حماية الدستور وإقامة موازين العدالة وصون الحقوق والحريات.

سابعا: الوحدة الوطنية فريضة، وركيزة بناء الدولة المصرية الحديثة وانطلاقتها نحو التقدم والتنمية؛ ترسخها قيم التسامح والاعتدال والوسطية وكفالة الحقوق والحريات لجميع المواطنين دون تفرقة بين أبناء الجماعة الوطنية.

ثامنا: الدفاع عن الوطن شرف وواجب؛ وقواتنا المسلحة مؤسسة وطنية محترفة محايدة لا تتدخل فى الشأن السياسى، وهى درع البلاد الواقى.

تاسعا: الأمن نعمة كبرى؛ تسهر عليه شرطة تعمل فى خدمة الشعب وحمايته وفرض موازين العدالة، فلا عدل بلا حماية، ولا حماية بغير مؤسسات أمنية تحترم كرامة الإنسان وسيادة القانون.

عاشرا: الوحدة أمل الأمة العربية؛ نداء تاريخ ودعوة مستقبل وضرورة مصير، يعضدها التكامل والتآخى مع دول حوض النيل، والعالم الإسلامى الامتداد الطبيعى لعبقرية موقع مصر ومكانها على خريطة الكون.

حادى عشر: ريادة مصر الفكرية والثقافية، تجسيد لقواها الناعمة ونموذج عطاء بحرية مبدعيها ومفكريها، وجامعاتها، ومجامعها العلمية واللغوية ومراكزها البحثية، وصحافتها وفنونها وآدابها وإعلامها، وكنيستها الوطنية، وأزهرها الشريف الذى كان على امتداد تاريخه قواما على هوية الوطن، راعيا للغة العربية الخالدة، والشريعة الإسلامية الغراء، ومنارة للفكر الوسطى المستنير.

نحن جماهير شعب مصر، إيمانا بالله ورسالاته، وعرفانا بحق الوطن والأمة علينا، واستشعارا لمسئوليتنا الوطنية والإنسانية، نقتدى ونلتزم بالثوابت الواردة بهذا الدستور، الذى نقبله ونمنحه لأنفسنا، مؤكدين عزمنا الأكيد على العمل به والدفاع عنه، وعلى حمايته واحترامه من قبل جميع سلطات الدولة والكافة.

منح فلسطين صفة دولة مراقب غير عضو فى الأمم المتحدة



صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، على منح فلسطين وضع دولة مراقب غير عضو فى الأمم المتحدة. وصوتت لصالح الطلب الفلسطينى ١٣٨ دولة فيما عارضته ٩ دول وامتنعت ٤١ دولة عن التصويت وأصبحت فلسطين دولة مراقبا فى الأمم المتحدة وذلك بعد عملية تاريخية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على رفع التمثيل الفلسطينى إلى صفة «دولة مراقب غير عضو». وطالب الرئيس الفلسطينى محمود عباس، الجمعية العامة للأمم المتحدة التى عقدت فى نيويورك، للنظر فى طلبه رفع تمثيل فلسطين إلى صفة دولة مراقب غير عضو بإصدار شهادة ميلاد دولة فلسطين. وقال عباس فى خطاب أمام الجمعية العامة: إن الجمعية العامة للأمم المتحدة مطالبة اليوم بإصدار شهادة ميلاد دولة فلسطين، ولهذا السبب بالذات نحن هنا اليوم. وأوضح أنه قبل ٦٥ عاما وفى مثل هذا اليوم، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار ١٨١ الذى قضى بتقسيم أرض فلسطين التاريخية، وكان ذلك بمثابة شهادة ميلاد لدولة إسرائيل، فى إشارة إلي قرار تقسيم فلسطين الذى أصدرته الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م. وقال عباس: بعد ٦٥عاما وفى نفس اليوم الذى أقرته هيئتكم الموقرة يوما للتضامن الدولى مع الشعب الفلسطينى، فإن الجمعية العامة تقف أمام واجب أخلاقى لا يقبل القيام بأدائه ترددا، وأمام استحقاق تاريخى لم يعد الوفاء به يحتمل تأجيلا، وأمام متطلب عملى لإنقاذ فرص السلام، لا يتقبل طابعه الملح انتظارا.

تعاون بين الأوقاف والكويت فى مجالات تدريب وتأهيل الأئمة والدعاة

أكد الدكتور طلعت عفيفى وزير الأوقاف حرص مصر على توثيق التعاون مع جميع الدول العربية والإسلامية؛ وذلك لنشر مفاهيم الإسلام الصحيح من خلال تبادل الخبرات وتدريب الأئمة والدعاة وإرسال القوافل الدعوية، جاء ذلك خلال استقباله للدكتور عادل الفلاح وكيل أول وزارة الأوقاف الكويتى، وخلال اللقاء تم الاتفاق على تفعيل بروتوكول التعاون بين مصر والكويت، وكذلك دراسة المقترحات الخاصة بإرسال الأئمة والدعاة والقراء المصريين لإحياء ليالي شهر رمضان بالكويت وكذلك تنظيم إجراءات الأئمة والدعاة بالكويت.

وأكد عفيفى على تفعيل ودعم العلاقات مع الكويت وذلك من خلال إرسال كتب علمية ومكتبات إسلامية من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وتنشيط العلاقات فى مجال برامج تدريب الدعاة وتزويدهم بالمهارات والمعارف اللازمة وتبادل إيفاد الدارسين فى برامج التدريب وتأسيس معاهد لتعليم القرآن الكريم بالتعاون بين البلدين.

مصر تشارك باجتماع إسلامي في جنيف لبحث دعم مسلمي الروهينجا

جاءت مشاركة مصر في ضوء البيان الأخير للمقرر الخاص لمجلس حقوق الإنسان المعني بالوضع في ميانمار، وأيضا وفقا لما ورد في تقارير منظمة التعاون الإسلامي وسفراء الدول الإسلامية من واقع زياراتهم الأخيرة إلى إقليم «راكين» الذي يشهد مأساة مسلمي الروهينجا.

وقد تم الاتفاق على مواصلة تنفيذ المقترحات التي طرحت بدعم من مصر، وتتمثل في تشكيل مجموعة عمل مصغرة على مستوى الخبراء لمتابعة أوضاع حقوق الإنسان بصفة عامة وحقوق المسلمين بصفة خاصة في ميانمار، وقيام مجموعة مندوبي الدول الإسلامية في جنيف بالتنسيق مع المجموعة الإسلامية في نيويورك بشأن صياغة مشروع القرار الخاص بميانمار في الجمعية العامة للأمم المتحدة حتى يخرج القرار بلغة قوية تعكس حقيقة ما يتعرض له مسلمو الروهينجا وتمثل إطارا مرجعيا هاما يمكن البناء عليه تمهيدا للقيام بتحركات أوسع.

كما تعمل الآن مجموعة المندوبين الدائمين للدول الإسلامية في جنيف على الدفع بإجراءات لسرعة وقف الانتهاكات البشعة التي ترتكب في حق الروهينجا، وقد قامت المجموعة بمخاطبة المفوضة السامية لحقوق الإنسان لإصدار بيان يدين هذه الأحداث، كما تمت مخاطبة أمين عام منظمة التعاون الإسلامي، للإعراب عن تطلع مندوبي الدول الإسلامية الدائمين في جنيف لإتمام زيارة تفقدية لميانمار تهدف للوقوف على حقيقة الأوضاع على الواقع ومؤازرة ودعم المسلمين من النازحين هناك.

لأول مرة بالهند: تعيين مواطن مسلم مديرا لمكتب الاستخبارات

تقرر تعيين سيد آصاف إبراهيم مديرا جديدا لمكتب الاستخبارات الهندية، وأنه جوشي الضابط الكبير في جهاز خدمة الشرطة كرئيس جديد لقسم التحليل والأبحاث، وذكرت وكالة «برس ترست أوف إنديا»، أن إبراهيم سيكون أول مسلم يترأس مكتب الاستخبارات، مشيرة إلى أن اللجنة الحكومية المعنية بالتعيينات برئاسة رئيس الوزراء مانموهان سينج، وافقت على تعيين إبراهيم «٥٩ عاما»، وهو ضابط من كوادر ولاية ماديا براديش، وقد تولي مهام منصبه الجديد في ديسمبر.

الإيسيسكو تعقد الاجتماع الثالث للجنة التراث الإسلامي

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيكو - بالتعاون مع اللجنة الوطنية التونسية للتربية والعلوم والثقافة الاجتماع الثالث للجنة التراث الإسلامي، بمدينة القيروان في الفترة من ٢٧ إلى ٢٩ نوفمبر ٢٠١٢م. وتم خلال الاجتماع الذي عقد تحت رعاية وزير الثقافة التونسي دراسة مشاريع المواقع الثقافية والطبيعية الواردة من الدول الأعضاء، وبحث إمكانية تسجيل المواقع الثقافية والطبيعية المستوفاة لشروط ومعايير التسجيل في قائمة التراث الإسلامي، وتقييم الوضعية الراهنة للتراث الإنساني في العالم الإسلامي، وتحديد المواقع المعرضة للأخطار، ودراسة سبل حمايتها. وشارك في الاجتماع ممثلو الدول الأعضاء الممثلة في لجنة التراث الإسلامي من مصر، وتونس، والسنغال، والنيجر، وماليزيا، وإيران، بالإضافة إلى عدد من الخبراء من تونس.

- In 2006, the number of the people who embraced Islam in Germany was 4000 persons.
- In 2005 and 2006, the number of the mosques increased from 141 to 187. In Germany, there are 159 mosques with minarets, 2600 mosques without minarets, and 184 mosques under construction in the next years.
- In England, the number of the Muslims is 2500000 persons, as they increased in four years (2004-2008), i.e., 5% of the population. The statistics reveal that the number of the religiously committed Muslims in the following decades will be more than that of the Evangelicals.
- In England, the name "Muhammad" preceded the name "George" with regard to the people born in 2006, and ranked the first before the names "Jack" and "Hary" with regard to the people born in 2009. 7549 out of 706,549 children who are considered as the total number of children born in England and Wales were named "Muhammad" in 2009, at the time when the number of the Muslims increased by half a million in four years (2004-2008) and the number of the Christians dropped in the same year by 2 millions. The majority of the Muslims includes the young people while the majority of the Christians includes old people who are over the age of seventy.
- In France, the number of Muslims is 6000000 persons, according to the official statistics and 8000000 persons, according to the statistics of the Muslim communities. Also, it includes more than 1080 mosques and prayer rooms.
- More than 3600 French persons embrace Islam annually.
- In Netherlands, the number of Muslims is 1000000 persons out of the total population, whose number is 12000000, and all of the electronic Mus-hafs (copies of the Qur'an) ran out on the day when the film "Fitnah (Trial)", which is adversary to the Qur'an, was screened. A Muslim mayor was elected to Notre Dame, which is the largest Dutch port.

- In Germany, the mass stopped in nearly one third of the Parish churches in Aisne due to the lack of attendees, and 10000 churches are selected to be closed and sold for other purposes.

- The German churches; the Evangelical and Catholic, lose more than 100,000 of its attendees.

- In Italy, the country of the Vatican, the churches are turned into restaurants and clubs. Moreover, Madonna sang in a historical church after being turned into a restaurant and the altar was turned into pizza oven.

- In Copenhagen, the Danish capital, ten churches were for sale, and Kay Pullman, the Secretary-General of Churches in Denmark, said: "If the church is not used for worship, it is better to use it as pigs stable," in an attempt to prevent selling them to be used as mosques for the Danish Muslims.

- In the Czech Republic, there is a tendency to sell half of their 10000 churches due to the lack of its attendees. St. Michael's Church, which is located in the middle of Prague and backs to the twelfth century, was sold and was turned into nudity club and techno music, and 150000 houses of the priests were sold.

- In England, the weekly mass is not attended except by one million persons only, and 10% of its churches were regarded as surplus and are about to be sold to be used as restaurants and clubs. Cardinal Cormac Murphy, the head of the Catholic Church in England and Wales said: "Christianity is about to abate in Britain and religion in no longer effective in the people's life."

- There is lack of monks due to celibacy aversion, as there is one monk for every 1200 European Christian, and in Africa, there is one for every 4000.

- In the USA, 3000 priests are accused of sexual harassment of children, and sexual deviations spread among the priests and monks, especially with regard to raping children. Many parishes bankrupted due to paying compensations for the victims of the sexual harassment, and demonstrations against sexual harassment usually

accompanied the reception of the pope in visiting the European and American countries. Also, some people called for holding the priests to accounts for sexual harassment against children.

The Vatican held a conference in November, 2010 for the cardinals to discuss the sexual harassments and scandals.

- These are merely indicators of the state of Christianity in Europe and in the Western Europe in general.
- As for Islam which appeared 14 centuries ago when the East was the center of the Christian world, the East became the center of the Islamic world, and Pope Benedict XVI said that he fears that Europe becomes part of the Islamic world in the twenty first century.
- If the actual indicators which we mentioned previously declared the bankruptcy of Christianity and its churches in Europe, the indicators if the Islamic real state of affairs in Europe emphasizes the truthfulness of what Gottfried Konzzln said about the success and expansion of Islam in Europe. This emphasizes that the fears of Pope Benedict XVI were not baseless.
- The people have become more interested in Islam and the rates of embracing Islam after the events of 11th of September, 2005 increased, as the people who embrace Islam from the USA annually are more than 20000 persons and in Europe 2300.
- In 2007, the people who embraced Islam in France, Netherlands, Germany, north Belgium and Austria are more than 114000, among whom 40000 from Germany only.
- The percentage of the German Muslims to the total number of the population is 3%, while the Muslims' birth rate is 10% of the German birth rate in the last ten years, and the death rate of the Germans is higher than their birth rate.

with fatigue. The human being in the secular West lost the start which guides him; the star of religion as well as that of modernization. In this way, mental convictions lacked certainty after losing the serenity of the religious faith.

-This caused the human being to have only one dimension, as he does not know anything beyond the apparent worldly life. The experts lacked spirit and the scientists lacked heart.

- Then, philosophy came after modernization and broke up the patterns of modernization, the matter that threw the European person in the pitfall of anarchism and nothingness.

- Then, he spoke about the human need for answering the natural questions which are still existent; rather, they increased, the matter that pushed the Western person to search for the serenity of faith at the various creeds, as he turned from astronomy to worshipping the hidden and supernatural powers, believing in ghosts, the rituals of Indians, reaching the Asian religions, until reaching Islam, which gains increasing success in the Western societies.[1]

* Pope Benedict XVI declared, from the current state of affairs brought about by secularism in the European societies, his fears from:

- The majority of the European considering Christianity as a mere religion embraced by their families at one day.

- The severe lack of the European Christians due to the disintegration of the family and indulging in the life of immoral desires brought about by secularism.

- The fear that Europe becomes part of the European society in the twenty first century.

* If the ugliness of this image may make you doubt it, the religious state of Christianity in the West in general and in Europe in particular witness this image is so real without any exaggeration whatsoever.

1 Gottfried Kunzlin, the Dilemma of Christianity and Secularism in Europe, pp 17-18, introduction and comment by Dr. Mohammad 'Imarah, Nahdit Misr edition, Cairo, 1999.

- Those who believe in Allah in Europe – even if they do not worship Him – are less than 14% of the Europeans. Along with the high standard of living in the Christian Europe, there is a high level of worry, depression, and suicide.

- The percentage of those who attend the mass once a week in France – they most important Catholic country – is less than 5% of the population. This means less than three million people, i.e., half of the number of the Muslims who observe the Friday Prayer punctually in France.

- In Czech Republic, no more than less than 3% of the population attends the mass.

- In the USA, the percentage of attending the Catholic mass on Sunday decreased to less than 40% of those attending the mass in the twentieth century. One third of them observe attending it weekly. They had been double this number a period of time ago. As for the American Evangelicals, those attending the weekly mass dropped by 30% from the sixties of the twentieth century.

- 70% of the Roman Catholics agree to practicing sexual intercourse before marriage.

- Many of the European and non-European churches marry the gays and they include gay priests. Also, the laws governing the European Union, which are regarded as a condition of joining it, considers homosexuality as an inherent human right. The gays have annual conferences and celebrations crossing the streets and squares in many of the European cities.

- Buenos Aires municipal government legislated the marriage of the gays.

- The governments of Latin America agreed to divorce law and supporting the choice of woman for abortion in spite of the refusal of the Church.

-In a poll conducted by Gallup institution in April, 2005, it appeared that 74% of the Catholics dispose of the moral matters according to their conscience, contrary to the instructions of the churches. Only 20% abide by the instructions of the church with regard to the moral matters.

spider at the door of the cave, which looked as if it had been there before the birth of Muhammad.

Muhammad and his companion spent three nights at the cave and their messenger used to bring them food and water along with news about Quraysh. When the people stopped searching, they came out of the cave heading for Yathrib. The trip was not easy, as the desert is arid with neither shadow nor water, the sun was extremely hot. They remained in this state without surrendering, as they used to move at night feeling reassured with its glittering stars.

The tiresome travel ended when the people of Yathrib welcomed Muhammad and his companion, as they were longing for seeing him. He resided with them honorably while illuminating their life and raising them to the level of honorable humanity and benevolence. In this way, the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) gained victory and the following honorable verse was sent down concerning their meaning:

{If you help him (Muhammad peace be upon him) not (it does not matter), for Allâh did indeed help him when the disbelievers drove him out, the second of the two; when they (Muhammad peace be upon him and Abu Bakr may Allah be pleased with him) were in the cave, he (peace be upon him) said to his companion (Abu Bakr may Allah be pleased with him): "Be not sad (or afraid), surely Allâh is with us." Then Allâh sent down His Sakînah (calmness, tranquility, peace) upon him, and strengthened him with forces (angels) which you saw not, and made the word of those who disbelieved the lowermost, while the Word of Allâh that became the uppermost; and Allâh is All-Mighty, All-Wise.}

* Indicators on the state of Christianity and Islam in the West ...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

Gottfried Konzzln, the German Priest, sociologist, and the professor of biblical theology and social morals in the Armed Forces University in Munich defines secularism as:

"Complete and absolute separation between the religious creeds and civil rights as well as the dominance of the principle of religion without politics and politics without religion."

Also, he speaks about the disastrous effects of secularism on the European person at the time when:

- The Christian creeds turned into worldly concepts.
- Modernization is presented as a worldly religion, which is based on reason and science instead of the Divine religion.
- Christianity lost its importance completely and the importance of religion vanished as a general authority that bestows legality on law, regime, politics, education, and learning; rather, the life style of the majority of people.

Then, this sociologist handled the modernization, which afflicted Christianity with fatigue and "failed to answer the questions of the human being, which can be answered by religion." Then, it was afflicted with fatigue after afflicting Christianity

* An article by editor-in-chief of Azhar Magazine which is published in Arabic in the same copy

allowed his followers and companions to immigrate from Mecca to Yathrib, where the hearts of its people were opened to the Da`wah and its people pledged allegiance to obey him at the times of ease and hardship and to say the truth fearing no blame of any blamer.

Some of the Muhajirun (the earlier Muslim who emigrated from Mecca to Medina) took thier familes and properties, while others could only save themselves. Some of them were hindered from Hegira more than once. Quraysh felt what the Muslims hided and feared that the Messenger of Allah would think of immigrating. Thus, they sent people to chase him and keep an eye on him. However, the idea was completed and he resolved to do something when he would be permitted to do it. Then, Jibril revealed to him that Allah permitted him to immigrate.

These are the preliminaries and causes of the Hegira, which include many lessons that should be contemplated at to reach the truth. Also, they include the truthful faith, patience towards difficulties and harms for the sake of the creed, sacrificing the self and money for the sake of the aim, and obeying Allah.

As for Hegira, it is known and clear; when Quraysh was blinded by anger and their hearts were shunned from believing the Prophet, they agreed collectively on something in their private meetings. They spoke secretly to each other, as they feared that this matter got known to any person and what would occur would become contrary to what they wanted. They agreed that every tribe would choose one of its strong youths and give him a sharp sword and they would keep an eye on the Prophet. When he would come out, they would kill him all at once. Thus, the killer would not be known, his corpse would be buried in the dust, and his Da`wah would be forgotten. Thus, those who immigrated would go back to their family, religion, and idols which they worship

instead of Allah. In this way, Quraysh, whose unity was broken and its stanch was weakened would be united again.

Quraysh used to let these youths to surround his house every night, so that when they noticed him going out, they would execute their order which will clear their minds and lead them to tranquility. And what a bad belief!

These were Quraysh`s hopes, for which every one of them has a reason. Allah (Glory be to Him) permitted the Messenger to immigrate and he told Abu Bakr about that when he asked him. At the night when the Prophet resolved to immigrate, he prepared everything and told `Ali ibn Abu Taleb to sleep in his bed and to stay in Mecca to return the trusts to its owners.

The youths of Quraysh were standing in front of the door of the Prophet's house looking at his place of sleeping, and they became more tranquilized when they saw a man still sleeping. At the last third of the night, Muhammad went out unnoticed by those surrounding his house heading for the house of Abu Bakr. They resorted to Thawr Cave until the matter would turn up and they would know what the youths would do. In this way, Quraysh plotted against the Prophet and Allah's plot was stronger, as Allah (Glory be to His) says:

{And (remember) when the disbelievers plotted against you (O Muhammad peace be upon him) to imprison you, or to kill you, or to get you out (from your home, i.e. Makkah); they were plotting and Allâh too was plotting; and Allâh is the Best of those who plot.}

The people in Mecca were extremely angry and they spread in the valley looking for the Messenger. They came near to Thawr Cave and some of them climbed it without looking beneath their feet. There was a

The Honorable Prophetic Hegira ...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

As soon as the crescent of Al-Muharram rises in every year, the anniversary of the Hegira of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) from Mecca to Medina revives in the souls of the Muslims all over the Islamic nation. Jibril came to the Prophet commanded by his Lord (Glory be to Him), as the Prophet was at the beginning of his forties, saying: "Arise and warn! 'And magnify your Lord (Allâh)!"

Then, the Prophet obeyed his Lord, while realizing the greatness of the mission he would carry out, as he was going to warn very tough and hard-hearted people. He should tell them that they had to abandon the idols they worshipped. After the passage of three years which the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) spent in calling the kind people secretly, Allah commanded him saying: "Therefore proclaim openly (Allâh's Message Islâmic Monotheism) that which you are commanded, and turn away from Al-Mushrikûn (polytheists, idolaters, and disbelievers"

Thereafter, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) gathered his followers in two rows, at the forefront one of them is `Umar ibn Al-Khattab and the other is Hamzah ibn `Abdul Muttalib to warn their people against disbelief saying a call they had never heard before:

"Allah is the Greatest, Allah is the Greatest, there is no god but Allah, and Muhammad is the Messenger of Allah."

The disbelievers regarded this call as an announcement of war. Thus, they tormented the Messenger of Allah and his Companions. The case remained as it was until the Messenger of Allah was commanded by his Lord to leave Mecca and immigrate to Medina.

Quraysh got extremely annoyed by this Da`wah which called for mocking the idols, worshipping Allah only, liberty and equity, and truthfulness. Then, Quraysh started to degrade the Messenger, disbelieve his Da`wah, and the Messenger responded to them with what was revealed to him.

This did not persuade the people of Mecca and did not alleviate the fear of Quraysh. Rather, this increased their perplexity and stubbornness. When one of them embraced Islam, they became more confused and they increased their attack to the honorable Messenger in words and deeds. As the Da`wah spread gradually, they unified their word and agreed to hurt the Prophet.

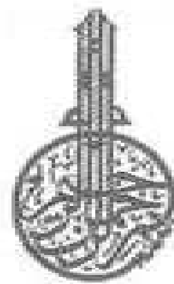
Muhammad did not seek money or influence, but he called to monotheism and virtue. Also, he called to free his people from polytheism and paganism. Thus, he tolerated the harm Quraysh caused to him so did, his followers and believers. He was not afraid of the harm Quraysh inflicted upon him and his resolution was not weakened by their lies, fabrications, and their inciting people to kill him. Rather, this increased his belief in his Da`wah and thinking of the good he was doing to the Da`wah and the Muslims.

He allowed his Companions and followers to immigrate to the Christian Abyssinia, which was ruled by a king who did not wrong any person and to get away from the harm that might distract the believer from contemplation. He was chosen for the mission and promised Allah to sacrifice for the sake of the Message. Later on, the Messenger of Allah

و الأسود - الحمراء - غرناطة

AL-AZHAR MAGAZINE

Safar, 1434 A.H



ENGLISH SECTION

December, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



Al AZHAR
MAGAZINE

www.AlazharMag.com

الافتتاحية
إنه دستور مصر الكنانة ...مصر الأزهر الشريف
أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن
لفضيلة الإمام محمد عبده

حماية الأوطان واجب كل إنسان
أ.د. أحمد عمر هاشم

نظريات التغيير بين العنف والإصلاح
أ. منير شفيق

هدية ربيع الآخر
الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان
تقديم : أ.د. محمد عمارة

facebook.com/AlAzharMag

في العدد القادم

السعر جنيهان

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ربيع الأول ١٤٣٤هـ - فبراير ٢٠١٣م - الجزء "٣" - السنة "٨٦"

الافتتاحية
عبقرية تنظر بنور الله
أ.د. محمد عمارة

الأحرف والقراءات القرآنية
أ.د. محمد المختار المهدي

رد الشبهات عن القرآن
الشيخ عبد المجيد صبح

سيرة الرسول ﷺ مدخلاً للنهضة
أ.د. خالد فهمي

محمد ﷺ طبيب الإنسانية
أ.د. صابر عبد الدايم

هدية العدد
نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي
أ.د. عز الدين فراج

د. صوفي أبو طالب
د. محمد سليم العوا
د. حلمي القاعود

www.AlazharMag.com

داخل العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

١١ ٣٢٢٢٥ دوريات



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى

صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م وحمل اسم «نور الإسلام»

برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير

أ.د. محمد عمارة

مدير عام التحرير: عادل رفاعى خفاجة

مدير التحرير: أحمد السيد تقى الدين

سكرتير التحرير: محمود الفشنى

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

الاشتراك السنوى

داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا - الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام -
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

مكتبة الأزهر الشريف

الافتتاحية

عبقريـــة.. تنظر بنـــور اللـــه



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

عشر سنوات هي عمر الدولة الإسلامية.. على عهد النبي ﷺ بالمدينة المنورة.

وفي السنوات الست الأولى من هذه السنوات العشر فرضت قريش وحلفاؤها – من الأعراب واليهود – على الدولة الإسلامية الوليدة – أغلب وأكبر وأخطر الحروب والغزوات، إحدى وعشرين غزوة، من ثمان وعشرين!.. هي مجموع الغزوات!!

وفي ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، مارس سنة ٦٢٨ م، خرج رسول الله ﷺ في ١٤٠٠ من صحابته، قاصدين مكة المكرمة لأداء العمرة، لا يريدون حربًا، وليس معهم من السلاح إلا السيوف في أغمادها.. وإنما يسوقون «الهدي».. وهم محرمون.

ولقد رمى رسول الله ﷺ بنداء السلام وحباله إلى قريش، العدو الرئيسي للإسلام ودولته، وفتح أمامهم بابه؛ فقال: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها».

لكن قريشًا اعترضت طريق المسلمين المسالمين، ورفضت دخولهم مكة معتمرين، ودارت مفاوضات بين المشركين والمسلمين، عند الحديبية، انتهت إلى الاتفاق على:

١– رجوع المسلمين إلى المدينة، دون أن يدخلوا مكة، هذا العام.

٢– وأن يعودوا إلى مكة معتمرين في العام القادم.

٣– وأن يخلي المشركون لهم مكة ثلاثة أيام خلال وجودهم فيها معتمرين.

٤– وأن تضع الحرب بين الطرفين أوزارها مدة عشر سنوات «يتداخل فيها الناس، ويأمن بعضهم بعضًا».

٥– وأن يرد المسلمون إلى قريش من يسلم منهم ويهاجر إلى المدينة.. دون أن ترد قريش إلى المسلمين من يكفر ويغادر المدينة إلى مكة!.

٦– وأن يشمل الأمن والأمان والعهد حلفاء الفريقين من القبائل العربية.

ولقد رفضت قريش الاعتراف، في نص المعاهدة، بلفظ الجلالة، عنوان التوحيد الإسلامي، والاعتراف بمحمد ﷺ كرسول لله!.

ولقد رأى كثير من المسلمين، يومئذ، في هذه الشروط تنازلات كبيرة من الحق للباطل؛ لكن عبقرية الاستراتيجية السياسية، بل والحربية، فضلا عن الدعوية، جعلت رسول الله ﷺ وكأنه يقول لأصحابه: اصبروا، فإن الله يجعل هذا الصلح سببًا إلى ظهور دينه، وسيجعل فيه للمسلمين فرجًا وقد كان.

– نعم، لقد أبصرت العبقرية السياسية والحربية والدعوية للرسول ﷺ في هذا الصلح وهذه الهدنة المقدمة للفتح الأكبر والمبين، الذي سيطوي صفحة الشرك والوثنية من شبه الجزيرة العربية فتعلوها رايات التوحيد في الدين، ورايات الوحدة

فى الدولة، لأول مرة فى التاريخ.

كانت قريش، الشرك والوثنية، هى العدو الأكبر، الذى استمر فى جمع الحلفاء، مـن الأعراب واليهود، وتجييش الجيوش، وفرض الحروب على المسـلمين، أكثر من عشرين غزوة وموقعة فى ست سنوات!

فجـاء هذا «الصلح – الهدنة» ليحيد العدو الأكبر والأشرس والأخطر للإسلام والمسـلمين والدولة الإسلامية، وكانت قريش حتى عقد هـذا «الصلح – الهدنة» لا تعتـرف بالدولة الإسـلامية، فـكان اعترافها بها –فى هـذا الصلح– لأول مرة فى تاريخ هذا الصراع.. لقد اعترفـت «بالدولة»، وإن لم تعترف «بالدين».. لكن هذه «الدولة»، التى اعترفت بها، كانت هى «دولة الدين»!

ولقد قلب هذا الاعتراف – من قريش – بالدولة الإسلامية موازين القوى فى شبه الجزيرة العربية بأسرها.

فالقبائل التى كانت تميل عن الإسلام ودولته استنادًا إلى قريش، أو التى كانت مترددة فى حسم موقفها من هذا الصرع.. بدأت، بعد هذا الاعتراف، تفكر بالصلح هى الأخرى مع الدولة الإسلامية، بل والدخول فى الدين الجديد.

كمـا أدى هذا الصلح إلى عزل يهود خيبر، أخطر المتآمرين على الإسلام وأمته ودولته، وأخطر حلفاء قريش فى مناوأة الإسلام، لقد عزلهم هذا الصلح، فكان فتح خيبر، من قبل المسلمين، بعد أقل من شهرين على صلح الحديبية!

وبفتح خيبر، التى كان يهودها قد تحالفوا مع يهود وادى القرى وتيماء للزحف على المدينة المنورة، والذين كانوا الممول الأكبر «لمرتزقة الأعراب» وحشـدهم وراء قريـش فـى محاربة الإسـلام.. بفتح خيبـر، وهزيمة يهودهـا أصبحت الدولة الإسلامية هى القوة الأولى والكبرى فى شبه الجزيرة العربية.

كما تمتعت الدولة الإسلامية بالأمن، بعد مهادنة قريش، وفتح خيبر، الأمر الذى جعلها تتوجه إلى دوائر وميادين كانت تشغلها عنها الحروب المتوالية، والمخاطر الدائمة التى فرضتها قريش وحلفاؤها على امتداد السـنوات الست الأولى من عمر دولة الإسلام.

– لذلـك، وكثمرة من ثمرات هذا «الصلح – الهدنـة»، الذى تجلت فيه عبقرية «الاسـتراتيجية السياسية والحربية» للرسول ﷺ؛ بدأت السياسة الخارجية للدولة الإسلامية سنة (٧ هـ / ٦٢٨ م)، أى فى العام التالى لتحييد قريش وهزيمة اليهود.

ففى هذا العام سـنة (٧ هـ / ٦٢٨م)، خرج رسل رسـول الله ﷺ حاملين كتبه ورسـائله إلى قيصر الروم، وكسرى الفرس، والقادة والأمراء والشيوخ والرؤساء فى أطراف شبه الجزيرة العربية وما وراءها [1].

لقد كان الرومان يحتلون الشام ومصر وشـمالى إفريقيا، وكان الفرس يحتلون العراق والخليج.. أى أن مشرق الدولة الإسلامية، الوليدة، وغربها وشمالها كانت تحت الاحتلال والقهر السياسى والحضاري.

ولقـد تجلت فـى «السياسـة الخارجيـة» لدولة النبـوة، منذ فجرهـا وبواكيرها ولحظاتها الأولى «القسـمة التحريرية» للشـرق من هذا الاحتلال والقهر الحضارى والدينى والثقافى والسياسـى، الذى دام عشرة قرون؛ من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٤ ق.م)، فـى القـرن الرابع قبل الميـلاد، إلى هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م)، فى القرن السـابع للميلاد، فهذا التحرير لشـعوب الشرق، المسـتضعفة، هو ضرورة لأمن الدولة الإسلامية الوليدة، كما أنه فريضة دينية على هذه الدولة:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء: ٧٥)

ولذلك، حملت مراسلات رسول الله ﷺ إلى قادة الشرق سنة (٧ هـ / ٦٢٨ م) هذه الدلالات التحريرية لشعوب الشرق المقهورة والمستضعفة.

فمع مراسـلة الرسـول ﷺ لقيصر الروم، هرقل، فلقد راسـل المقوقس، عظيم القبط بمصر، التى كانت، يومئذ، ولاية رومانية؛ ليعلن بذلك عن أن مصر ليست

(١) انظر هذه الكتب والرسائل في «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» ص ٤٣ – ٢٥٣.

شأنا رومانيا بيزنطيا يخاطب قيصر الروم فى شأنها، وكذلك صنعت مراسلاته ﷺ مع قادة ورؤساء القبائل التى كانت خاضعة لقهر الروم فى الشام.. ومع نظرائهم الذين كانوا خاضعين لقهر الفرس فى مشرق الدولة الإسلامية.. لقد خاطبتهم الدولة الإسلامية، فى هذه المراسلات، ولم تكتف بمخاطبة كسرى الفرس الساسانيين (٢).

هكذا بدأت «الإشارات والتنبيهات» فى السياسة الخارجية لدولة النبوة، مخاطبة أهالي المستعمرات مباشرة؛ إعلانًا عن ضرورة استقلالهم عن الفرس والروم، وحتمية تحررهم من القهر الاستعمارى الذى عانوا منه ويعانون!

- وإذا كانت هذه السياسة الخارجية، التى بدأت سنة (٧ هـ/ ٦٢٨ م)، قد جاءت ثمرة من ثمرات صلح الحديبية سنة (٦ هـ/ ٦٢٧ م) فإن العام التالى لبدء هذه السياسة الخارجية سنة (٨ هـ/ ٦٢٩ م) قد شهد أولى غزوات دولة النبوة ضد احتلال الرومان لأرض العرب فى الشام الكبير؛ فكانت «غزوة مؤتة»، ببلقاء الشام، إعلانًا عن ضرورة تحرير المستضعفين من قهر الاستعمار!.. كما كانت «غزوة تبوك» سنة (٩ هـ/ ٦٣٠ م) وهى آخر غزوات دولة النبوة، استمرارًا وتأكيدًا لهذه «الإشارات، والتنبيهات»، وهذه التوجهات كذلك أعلنت رسائل الرسول ﷺ إلى قادة القوتين العظميين الاستعماريتين - الروم والفرس - عن ضرورة التحرر والتحرير لشعوب المستعمرات التى خضعت لاستعمارهم منذ قرون.

ففى رسالته ﷺ إلى «هرقل» قيصر الروم البيزنطيين دعاه إلى الإسلام وحذره من الإثم الذى يرتكبه وترتكبه دولته وكنيسته الملكانية فى حق رعاياه من النصارى الموحدين «الأريسيين» أتباع «آريوس» (٢٧٠ - ٣٣٦م) الرافضين لتأليه المسيح ولعقائد الصلب والتثليث، كما دعاه فى هذه الرسالة إلى أن يخلى بين الفلاحين وبين حرية الاعتقاد؛ ليدخل إلى الإسلام منهم من يشاء، بالحرية والاختيار.

وكذلك صنع رسول الله ﷺ فى رسالته إلى «كسرى أبرويز» (٥٩٠ - ٦٢٨م)

(٢) انظر هذه الرسائل فى «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» ص ٤٣ - ٢٥٣.

عظيم الفرس الساسانيين، فكما خاطبت هذه الرسائل مباشرة المقوقس عظيم القبط بمصر وقادة قبائل غساسنة الشام وشيوخها.. خاطبت مباشرة شيوخ قبائل المناذرة فى العراق والبحرين واليمامة وعمان والخليج، وكذلك كانت المراسلات مع قادة عرب اليمن، الذين ابتلوا باستعمار الفرس والأحباش فى كثير من الأحايين.

وهذه الإعلانات عن «حقوق شعوب الشرق» فى التحرر من القهر الرومانى والفارسى، وفى الاستقلال عن الفرس والروم.. هذه «الإعلانات» التى أفصحت عنها كتب الرسول ﷺ ورسائله إلى قادة الشرق يومئذ، هى التى جسدتها وطبقتها بالفتوحات الإسلامية دولة الخلافة الراشدة فى عهدى أبى بكر الصديق (٥١ق. هـ - ١٣هـ/ ٥٧٣ - ٦٣٤ م)، وعمر بن الخطاب (٤٠ق. هـ - ٢٣هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م) بعد انتقال رسول الإسلام ﷺ إلى الرفيق الأعلى سنة (١١هـ/ ٦٣٢م).

فلم يغادر ﷺ هذه الدنيا حتى أعلنت السياسة الخارجية لدولته «الإعلان العالمي» للحرية الدينية والسياسية للأمم والقبائل والشعوب، فى المراسلات التى بدأت بها السياسة الخارجية للدولة، وبغزوتى «مؤتة» و«تبوك» التى أكدت هذه «الإشارات، والتنبيهات».. فلما جاءت دولة الخلافة الراشدة، السالكة طريق دولة النبوة، فتحت فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون، وكان فتحها فتح تحرير للأوطان والضمائر والعقائد؛ بينما كان فتح الرومان فتحًا استعماريًا، كرس القهر الحضارى والدينى والثقافى والسياسى والاقتصادى فى الشرق لأكثر من عشرة قرون!

هكذا أبصرت عبقرية رسول الإسلام ﷺ كل هذه الفتوحات الكبرى والمبينة، وهى تعقد صلح الحديبية، الذى بدأ فى ظاهر شروطه جائرًا بالإسلام والمسلمين!.. ذلك أن هذه العبقرية كانت تنظر بنور الله؛ فكشف الله سبحانه وتعالى لبصيرتها هذه الفتوحات الكبرى، ولقد أشارت إليها عندما قالت على أرض الحديبية للصحابة الذين لم يروا سوى «الظاهر»: «اصبروا، فإن الله سيجعل هذا الصلح سببًا إلى ظهور دينه وسيجعل فيه للمسلمين فرجًا»!

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا
بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ
(٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

(البقرة: ٣٨ ـ ٤٣)

أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين.

فالأولى، بيان حالهم في أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور، وهو أن حالهم تقتضي الاستقرار في الأرض والتمتع بها، وعدم الخلود فيها،

والثانية، بيان لحالهم من حيث الطاعة والمعصية وآثارها، وهي أن حالة الإنسان في هذا الطور لا تكون عصيانًا مستمرًا شاملًا، ولا تكون هدى واجتباء عاما ـ كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتبائه ـ وإنما الأمر موكول إلى اجتهاد الإنسان وسعيه، ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل في بعض أفراده الوحي ويعلمهم طرق الهداية، فمن سلكها فاز وسعد، ومن تنكبها خسر وشقي، هذا هو السر في إعادة ذكر الهبوط، لا أنه أعيد للتأكيد كما زعموا.

قال تعالى:

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

أي فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة، وادخلوا في طور لكم فيه طريقان: هدى وضلال، إيمان وكفران، فلاح وخسران

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾

(البقرة: ٣٨)

من رسول مرشد وكتاب مبين.

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾

الذي أشرعه، وسلك صراطي المستقيم الذي أحدده:

﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(البقرة: ٣٨)

من وسوسة الشيطان، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران:

﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقرة: ٣٨)

على فوت مطلوب، أو فقد محبوب، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضي الله تعالى ويوجب مثوبته، ويفتح للإنسان باب الاعتبار بالحوادث، ويقويه على مصارعة الكوارث، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته، وأفضل تعزية عما فقده.

والخوف، عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه. والحزن، ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب. وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة في مقابلة ما تحدثه كلمة ﴿اهْبِطُوا﴾ من الخوف من سوء المنقلب، وما تثيره من كوامن الرعب. فالمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة. ومن كانت هذه وجهته، يسهل عليه كل ما يستقبله، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده، لأنه موقن بأن الله يخلفه، فيكون كالتعب في الكسب، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع أو يتوقع.

إذا قال قائل: إن الدين يقيد حرية الإنسان، ويمنعه بعض اللذات التي يقدر على التمتع بها، ويحزنه الحرمان منها فكيف يكون هو المأمن من الأحزان ويكون باتباعه الفوز وبتركه الخسران؟

فجوابه: أن الدين لا يمنع من لذة إلا إذا كان في إصابتها ضرر على مصيبها، أو على أحد إخوانه من أبناء جنسه الذين يفوته من منافع تعاونهم إذا آذاهم أكثر مما يناله بالتلذذ بإيذائهم. ولو تمثلت لمستحل اللذة المحرمة مضارها التي تعقبها في نفسه وفي الناس، وتصور ما لها من التأثير في فساد العمران لو كانت عامة، وكان صحيح العقل معتدل الفطرة، لرجع عنها متمثلا بقول الشاعر:

«لا خير في لذة من بعدها كدر»

فكيف، إذا كان مع ذلك يؤمن باليوم الآخر، ويعلم أن هذه المحرمات تدنس الروح فلا تكون أهلًا لدار الكرامة في يوم القيامة؟!

وليست سعادة الإنسان في حرية البهائم، بل في الحرية التي تكون في دائرة

الشرع ومحيطه. فمن اتبع هداية الله، فلا شك في أنه يتمتع تمتعًا حسنًا ويتلقى بالصبر كل ما أصابه، وبالطمأنينة ما يترقع أن يصيبه، فلا يخاف ولا يحزن.

يريد أن رجاء الإنسان فيما وراء الطبيعة، هو الذى يقيه من تحكم عوادى الطبيعة فيه. وبدون ذلك الرجاء، تتحكم فيه أشد مما تتحكم فى البهائم التى هى أقوى منه طبيعة

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٢٨).

فالتماس السعادة بحرية البهائم، هو الشقاء اللازم. وقد صرح بلفظ التمتع الحسن أخذا من قوله تعالى:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

(هود: ٣)

فالآيات الدالة على أن سعادة الدنيا معلولة للاهتداء بالدين كثيرة جدًا، وقد حجبها عن كثير من المسلمين قولهم فى الكافرين: لهم الدنيا ولنا الآخرة، يغالطون بحجة القرآن عليهم. وآيات سورة طه فى قصة آدم أوضح فى المراد من آيات البقرة، وهى قوله عز وجل:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾

(طه: ١٢٣، ١٢٤)

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾

واشتقاق الآية إما من أى فإنها هى التى تبين أيا من أي، والصحيح أنها مشتقة من التأيى الذى هو التثبت والإقامة على الشيء.

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا التى نجعلها دلائل الهداية وحجج الإرشاد بأن جحدوا بها وأنكروها، ولم يذعنوا لصدقها، اتباعا لخطوات الشيطان وعملًا بوسوسته، وذهابًا مع إغوائه:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

تقدم تفسير الخلود فى آخر الآية ٢٥.

بعد تفسير الكفر بالجحود، والتكذيب بالإنكار، وكل منهما يأتى فى فرق من الناس. فمنهم من لا تقوى ولا إيمان له، وهم الذين لا يؤمنون بالغيب لأنه ليس عندهم أصل للنظر فيما جاءهم. فهؤلاء منكرون. وهم مكذبون، لأن التكذيب يشمل عدم الاعتقاد بصدق الدعوة التى جاء بها الرسول واعتقاد كذبها. والجحود قد يأتى من المعتقد، قال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

(النمل: ١٤).

فهذا هو الطور الأخير للإنسان بعدما

وكل إلى كسبه، وجعل فلاحه وخسرانه بعمله، فمن لطف الله به أن أيده بهداية الدين بعد هداية الحس والوجدان والعقل، فبهذه الهدايات يرتقى بالتدريج ما شاء الله تعالي:

لا يزال الكلام فى الكتاب وكونه لا ريب فيه، وبيان أحوال الناس وأصنافهم فى أمره. وقد قلنا إن التفنن فى مسائل مختلفة منتظمة فى سلك موضوع واحد، هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التى لم تسبق لبليغ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ: ذكر الكتاب وأنه لا ريب فيه. ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للإيمان به المنتظرين للهدى الذى يضيء نوره منه، وثنى بالمؤمنين، وثلث بالكافرين، وقفى عليهم بالمنافقين. ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع. ثم طالب الناس كلهم بعبادته. ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلًا من الله على عبده محمد ﷺ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم. ثم حذر وأنذر، وبشر ووعد. ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم فى الكتاب. ثم حاج الكافرين، وجاءهم بأنصع البراهين، وهو إحياؤهم مرتين وإماتتهم مرتين، وخلق السماوات والأرض لمنافعهم. ثم ذكر خلق الإنسان وبين أطواره. ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة فى البلاد التى ظهرت فيها النبوة تفصيلًا، فبدأ فى هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذى نذكره. والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه فى سلكه، وحسن اتساقه فى سبكه، فهو دائر على قطب واحد فى فلكه، وهو الكتاب، والمرسل به، وحاله مع المرسل به، وحاله مع المرسل إليهم.

قال تعالي:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

اختص بنى إسرائيل بالخطاب اهتماما بهم، لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية والمؤمنة بالأنبياء المعروفين، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين، ولأنه فى دخولهم فى الإسلام من الحجة على النصارى وغيرهم أقوى مما فى دخول النصارى من الحجة عليهم.

وهذه النعمة التى أطلقها فى التذكير لعظم شأنها هى نعمة جعل النبوة فيهم زمنًا طويلًا «أو أعم»، ولذلك كانوا يسمون شعب الله كما فى كتبهم. وفى القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم، ولا شك فى أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله منحهم إياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكرًا وأشدهم لنعمته ذكرا، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبى يرسله لهدايتهم. ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض عن الإيمان، وسبب إيذاء النبى عليه السلام، لأنهم

زعموا أن فضل الله تعالى محصور فيهم، وأنه لا يبعث نبيًا إلا منهم، ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته، وقفى عليه بالأمر بالوفاء بعهده فقال:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب الذى نزله إليهم، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وعهد إليهم أن يرسل إليهم نبيا من بين إخوتهم أى بنى إسماعيل يقيم شعبًا جديدًا. هذا هو العهد الخاص المنصوص، ويدخل فى عموم العهد عهد الله الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروي، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح، لا بميزان الهوى والغرور. ولو التفت بنو إسرائيل إلي هذا العهد الإلهى العام، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم، لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزله معه وكانوا من المفلحين. ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان بالنبى ﷺ كما فعل مفسرنا «الجلال» فإن الإيمان داخل فى العهد العام وهو من أفراد العهد الخاص. فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه.

هذا هو عهد الله. وأما عهدهم، فهو التمكين في الأرض المقدسة، والنصر على الأمم الكافرة، والرفعة فى الدنيا وخفض العيش فيها. هذا هو الشائع فى التوراة التى بين أيديهم. ولاشك أن الله تعالى قد وعدهم أيضًا بسعادة الآخرة، ولكن لا دليل على هذا فى التوراة إلا الإشارات، ولذلك ظن بعض الباحثين أن اليهود لا يؤمنون بالبعث، ومع هذا، يقول «الجلال» كغيره إن هذا العهد هو دخول الجنة، ويقتصر عليه.

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذى فشا تركه فى شعب إسرائيل خوف بعضهم من بعض، لما بين الرؤساء والمرءوسين من المنافع المشتركة، عقب الأمر بالوفاء بقوله:

﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

أى إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع، ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق، فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها، وهو الله الذى أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها، وهو وحده القادر على سلبها، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها، فارهبوه وحده، ولا ترهبو سواه.

ثم انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق، فقال تعالى جل شأنه:

﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾

من تعاليم التوراة وكتب الأنبياء، كالتوحيد والنهى عن الفواحش والمنكرات والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الإرشاد الموصل إلى السعاة. فإذا نظرتم فى القرآن ووجدتموه مصدقًا لما معكم من مقاصد الدين الإلهى وأصوله ووعود الأنبياء وعهودهم، تعلمون أن الروح الذى نزل به هو عين الروح الذى نزل بما سبقه، وتعلمون أنه لا غرض لهذا النبى الذى يدعوكم إلى مثل ما دعاكم إليه موسى والأنبياء إلا تقرير الحق، وهداية الخلق، بعدما طرأ من ضلالة التأويل، وجهالة التقليد. فبادروا إلى الإيمان بهذا الكتاب الذى قامت به الحجة عليكم من وجهين:

أحدهما ـ إعجازه.

وثانيهما ـ كونه مصدقًا لما معكم.

﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾

أى ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع جدارتكم بالسبق إليه. وهذا الاستعمال معروف فى الكلام البليغ لهذا المعني، لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها. والخطاب عام لليهود فى كل عصر وزمان.

ثم قال:

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

الآيات، هى الدلائل التى أيد بها النبى ﷺ، وأعظمها القرآن. فهو كقوله تعالى:

﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

(البقرة: ١٦).

أى لا تعرضوا عن الإيمان بهذ النبى وما جاء به، وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل، وهو ما يستفيده رؤساؤكم من المرءوسين من مال وجاه أرقعاهم فى الكبر والغرور، وما يتوقعه المرءوسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء وأتباعهم، وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة. وإنما سمى هذا الجزء قليلًا، لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه. وكيف لا يكون قليلًا، وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء لإعراضه عن الآيات البينات، والبراهين الواضحات؟! ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى وتحل به نقمه فى الدنيا وعقوبته فى الآخرة. وختم هذه الآية بشبه ما ختم به ما قبلها، وذلك قوله:

﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

وليس فى هذه مع سابقتها تكرار ولا شبه تكرار كما يتوهم، فقد حل كل من القولين محله، ولا مندوحة عن واحد منهما، لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس، واتقاء المرءوس غضب الرئيس. فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى الله وحده الذى بيده قلوب العباد وجوارحهم، وهو المسخر لهم فى أعمالهم، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير.

ثم قال:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٤٢)

بينت هذه الآية مسلكهم في الغواية والإغواء في سياق النهي عنه. فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويعملون العجائب. وجاء فيها أيضًا أنه تعالى يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة، وأنه يكون من ولد الجارية «هاجر»، وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه. ولكن الأحبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الأنبياء الذين تنعتهم الكتب بالكذبة ـ «حاشاه» ـ ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه، وكله ظاهر فيه عليه الصلاة والسلام بأكمل المظاهر.

ومن اللبس أيضًا، ما يفتريه الرؤساء والأحبار، فيكون صادا لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيه عن ضلال وجهل، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادها على الكتب المنزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم، فكانوا يحكمون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعًا لهم، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم. ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم، فأسند إليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم، وكذلك لا يقبل الله ممن بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علما وفهما. فكل ما يعلم من كتاب الله تعالى يجب العمل به، وإنما يسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل.

ثم قال جل ثناؤه:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾

فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني، دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله تعالي، وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظاهر والوقوف عند الرسوم، فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة لأن الإقامة هي الإتيان بالشيء مقوما كاملًا، وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والإخلاص له في الذكر والدعاء والثناء. فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة، فإن الصورة تتغير في حكم الله تعالى على ألسنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة. فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة، ولكن هذا الروح لا يتغير، فهو واحد لم يختلف فيه نبي ولم ينسخ في دين.

ثم أمر، بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله تعالي، بالزكاة التي هي عنوان الإيمان، ومظهر شكر الله على نعمه، والصلة العظيمة بين الناس. وقد عهد في القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة. ومن أقام الصلاة لا ينسى الله تعالى ولا يغفل عن فضله، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته. فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم، فهو لم يكن غنيا إلا بهم ومنهم. فإذا عجز بعضهم عن الكسب بآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه، فيجب على الآخرين الأخذ بيده، وأن يكونوا عونًا له حفظًا للمجموع الذي ترتبط به مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر، وشكرًا لله على ما ميزهم به من النعمة. وظاهر أن الغني في حاجة دائمة إلى الفقير، كما أن الفقير في حاجة إليه. ولكن النفوس تمرض، فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون، لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبل الخير علامة من علامات الإيمان، وجعل البخل من آيات النفاق والكفر، كما سيأتي في بعض الآيات.

إن البخل ـ ومنبعه القسوة على عباد الله تعالي، والحرص على المال استرسالًا في الشهوات وميلًا مع الأهواء ـ لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في قلب واحد قط. وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الأوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على ما يحب الله ويرضى.

ثم أمر، بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، بالركوع مع الراكعين. والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة، لا رعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين. فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة. بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس، فكيف يقع في كلام الله تعالي؟ وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالي: فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله تعالي، لأنها روح العبادة والإخلاص له. ويليها إيتاء الزكاة، لأنها تدل أيضًا على زكاة الروح وقوة الإيمان. وأما الركوع، وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها، فهو في المرتبة الثالثة، فرض للتذكير بسابقيه وما هو بعبادة لذاته، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالًا لأمر الله تعالى وإظهارًا لخشيته، والخشوع لعظمته، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئًا، وإن عده أهل الرسوم كل شيء، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة. ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة. وسنتكلم على الزكاة والإنفاق في سبيل الله بالتفصيل في تفسير آية أخرى إن شاء الله تعالي.

الأحرف والقراءات القرآنية في ضوء الدرس اللغوي

٢

بقلم: الأستاذ الدكتور: محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

معني الأحرف السبعة

من ضروريات المعرفة بكتاب الله أن يحيط المسلم علماً بمعني الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم حتي يحصل علي حصانة وزاد يتأبي علي الشبهات التي قد يثيرها الجهل بثوابت هذا الكتاب الذي:

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢)

وقد خاض في تفسير معنى الأحرف السبعة كثير من العلماء كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا البحث، بالرغم من الأحاديث التي صرحت بهذه الحقيقة قد رويت عن جمع كبير من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري، وأبي بن كعب وعبدالرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام ابن حكيم وأنس وغيرهم، وقد استشهد عثمان صحابة رسول الله ﷺ وهو على المنبر بما سمعوه من رسول الله ﷺ عن نزول القرآن على سبعة أحرف فقاموا حتى لم يحصوا عددا وشهدوا جميعا بأنهم سمعوا رسول الله يقول ذلك. ولا يعقل أن يروى هذا الجمع عن رسول الله ﷺ هذا الحديث وهم لا يعرفون مدلوله، وإلا كان لهم أن يسألوا رسول الله ﷺ عن معناه كما حدث منهم ذلك كثيرا في تفسير ما غمض عليهم من كتاب الله ومن هنا وجب الرجوع إلى معاني الحَرْف المستعملة في لغتهم.

وقد اختار الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان»(١) تفسير الحرف بالوجه واختار على أساسه مذهب الإمام أبي الفضل الرازي في أن الاختلافات في هذه الأحرف لا تخرج عن سبعة أوجه هي:

١- اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.
٢- اختلاف الأفعال في تصريفها بين الماضي والمضارع والأمر.
٣- اختلاف وجوه الإعراب.
٤- اختلاف اللهجات في الأداء بالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم وما إلى ذلك.
٥- الاختلاف بالنقص والزيادة.
٦- الاختلاف بالتقديم والتأخير.
٧- الاختلاف بالإبدال.

غير أنه عقب على ذلك بأن النقل لم يشفع لهذا التفسير بتمثيل لهذه الأوجه، ثم بدأ يجتهد هو في التمثيل لها، واعترض بعد ذلك على بقية الآراء والمذاهب.

ولهذا كان لابد لنا من الرجوع إلى بقية المعاني الواردة للحرف في هذه اللغة التي نزل بها كتاب الله وتحدث بها رسول الله، فوجدنا أن هناك معنيين رئيسيين للحرف هما:

● المعنى الأول: طرف الشيء الذى ينتهي إليه كحرف الجبل، وعلى هذا المعنى ورد قوله تعالي:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١)

● والمعنى الثاني: جزء الكلمة من حيث إن كل كلمة تتكون من عدة أحرف.

من هنا نجد في الأحرف السبعة كلمات من لهجات مختلفة تتفق لفظها ويختلف معناها، وكلمات أخرى يتفق معناها ويختلف لفظها، وكلمات تختلف حركاتها ولا تتغير في صورتها ومعناها.

وإذا أردنا التمثيل لهذه الأنواع فإن مثال النوع الأول وهو اتفاق اللفظ واتفاق المعني:

- ما ورد في كتاب الله عز وجل في استعمال كلمة الفتح في معنى فتح الأبواب وفتح الأمصار في مثل قوله تعالي:

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ (فاطر: ٢)

وقوله:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٤٤)

وقوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦)

كما استعمل القرآن هذا اللفظ في معنى

(١) انظر: مناهل العرفان ١/ ٩٠.

آخر يسود في جنوب الجزيرة العربية في لغة اليمن، وهذا المعنى هو ما عبر عنه سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حينما قال: لم أعرف معنى قوله تعالي:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

(الأعراف: ٨٩)

حتى سمعت ابنة ذي يزن وهي تقول لخصمها: تعال أفاتحك، ففهمت أن معناها عندهم هو الحكم، وقد نزل به القرآن في هذه الآية، وصار المعنى واضحًا: ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين.

كما استعمله القرآن أيضاً في سورة السجدة في قوله تعالي:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

(السجدة: ٢٨، ٢٩)

ذلك أن الكافرين لا يسألون عن يوم النصر إنما يسألون عن يوم الجزاء والفصل والحكم بدليل ما قبل تلك الآية:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(السجدة ٢٥)

ومن ذلك أيضاً: لفظ اليأس بمعنى القنوط وقطع الرجاء في مثل قوله تعالي:

﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾

(العنكبوت ٢٣)

وقوله تعالي:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

(يوسف: ٨٧)

وبمعنى العلم في قوله تعالي:

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(الرعد: ٣١)

على لغة هوزان.

أما مثال النوع الثاني: وهو اتفاق المعنى واختلاف اللفظ فكما صح من قراءة النبي ﷺ قوله تعالي:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

(القارعة: ٥)

بلفظ «العهن» مرة، وقراءتها أيضا بلفظ «الصوف»، «وتكون الجبال كالصوف المنفوش»، واللفظان مختلفان في الصورة متفقان في المعني.

وكذلك قراءة قوله تعالي:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

(الجمعة: ٩)

قرئت هكذا: «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله». وبين اللفظين: «فاسعوا وامضوا» تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ.

وكذلك في قوله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

(الفاتحة: ٧)

قرئت:

«غير المغضوب عليهم وغير الضالين»

فكلمتا ﴿غَيْرِ﴾ و﴿وَلَا﴾ مختلفتان في اللفظ متفقتان في المعني.

ومن أمثلة النوع الثالث: وهو اختلاف اللفظين في الحركات مع اتفاق المعنى والصورة فكقراءة قوله تعالي:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

(البلد: ٥)

بكسر السين وفتحها. والمعنى والصورة واحد.

وكذلك قوله تعالي:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾

«يونس: ٦٥»

بضم الزاى وفتح الياء قرئت بضم الياء وكسر الزاى والمعنى والصورة واحد.

وكذلك قوله تعالي:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

«التوبة: ١١١»

قرئت اللفظة الأولى «فيقتلون» بضم الياء وفتح التاء، والثانية «ويقتلون» بفتح الياء وضم التاء.. كما قرئتا بالعكس واختلاف الحركات يجعل كلا منهما مبنيا للمعلوم تارة وللمجهول أخرى والمعنى واللفظ في القراءتين واحد.

بهذا نستطيع أن نفهم كيف كان رسول الله ﷺ يخاطب ويعلم ويقرئ أصحابه كتاب ربهم بلغتهم ولهجتهم من منطلق أن الله تعالى قد علمه من فضله ولهجات العرب ولغاتها مما يشمله قوله تعالي:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

«النساء: ١١٣»

ومن منطلق الأثر الذى ورد عن على بن أبي طالب لرسول الله حين رآه يكلم كل وفد من وفود العرب بلغته مما لا يفهمه على فيقول: لقد نشأنا يا رسول الله في بيت واحد وأراك تكلم الناس بما لا أفهم فمن علمك؟ فقال: «علمني ربي فأحسن تعليمي».

ومن هنا نفهم أيضاً كيف أقرأ النبي ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب وهو في مكة سورة الفرقان على لغة قريش ولهجاتها، ثم أقرأها لسيدنا هشام بن حكيم بن حزام بعد الفتح على غير هذه اللهجة مع أنهما قرشيان فقد روى الإمام البخارى والإمام مسلم في صحيحيهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت له: كذبت فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التى سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله

إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان؟ فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت». ثم قال ﷺ: «اقرأ يا عمر» فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزله الله على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»(٢).

أين الأحرف السبعة الآن؟

لم يكن التمثيل السابق للأحرف في طرق الأداء وفي اختلاف الكلمات شاملاً لكل الأحرف السبعة، ذلك أنه في العرضة الأخيرة في العام الأخير لحياة رسول الله ﷺ والتي حضرها سيدنا زيد بن ثابت مع سيدنا جبريل في شهر رمضان نسخت بعض هذه الأحرف، وحين قرأ أبي بن كعب بكل ما سمع احتج عليه عمر بآية النسخ، وحين كتب المصحف في عهد سيدنا عثمان عهد إلى أربعة ممن كانوا يجيدون الكتابة ليسجلوا ما يتفق عليه الصحابة الذين كانوا في المدينة حينذاك، وكان عددهم اثني عشر ألف صحابي، إذ كانت الآية تتلى عليهم من المكتوبات المجموعة من كتاب الوحي والتي كتبت أمام رسول الله ﷺ فإذا أقروا كيفية أدائها كتبت في المصاحف دون شكل أو نقط، فبقي من الأحرف ما يحتمله الخط وحذف منها ما اختلفت فيه الكلمات.

وعلى ذلك لا داعي للتركيز الآن على عدد الأحرف، كما فعل الرازي واختاره الزرقاني، فما ورد في القراءات سواء كانت سبعية أم عشرية أم شاذة هي بقايا هذه الأحرف وليست كل الأحرف، وليست القراءات السبع هي الأحرف السبع كما يتوهم العوام.

مفهوم القراءات السبع والعشر

من الموثق بالنصوص ووقائع الأحداث أن النبي ﷺ كانت تنزل عليه الآيات من كتاب الله فيتعجل في تكريرها وتلاوتها فور سماعها من سيدنا جبريل خوف تفلت كلمة أو نسيانها فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦-١٩)

وكان ﷺ يستدعي كتبة الوحي ويملي عليهم ما نزل عليه توثيقا للنص بهذه الكتابة، ثم يتلو في صلاته ما نزل عليه ويكرر ما يتلوه على مسامع أصحابه حتى يحفظوه، ثم ينطلق أصحابه إلى بيوتهم يتلون ما سمعوه على مسامع أولادهم وزوجاتهم، وبهذا وذاك حفظ القرآن في الصدور وفي السطور، فلما خفف الله عن الأمة وأنزل كتابه في المدينة على سبعة أحرف كما سبق.. تعلم كثير من الصحابة من رسول الله ﷺ تلاوة هذا الكتاب كل على حسب لغته وطريقته في الأداء.

وكان من دأب رسول الله ﷺ وعادته المستمرة أن يحتفي بالقرآن في شهر رمضان فيدارس جبريل فيه في كل عام حتى إذا كان العام الأخير تدارسه معه مرتين وكانت هذه المدارسة هي العرضة الأخيرة التي نسخ الله فيها ما أراد نسخه مما نزل.

وبعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى - وانطلقت جنود الإسلام تشيع النور والهدى في جنبات الأرض، وسار مع هؤلاء الجنود حفظة القرآن يرتلونه على مسامع الشعوب في مختلف الأمصار، وكان كل قارئ يتلوه على نسق ما سمعه وقرأه على رسول الله ﷺ، ولم يكن هؤلاء القراء من قبيلة واحدة - فاختلفت القراءة في الأمصار باختلاف القراء، واستمر ذلك في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولم يحدث خلالهما نزاع بين هؤلاء القراء فكلهم ملتزم بما ذكره المصطفى ﷺ: «فأيما حرف قرأوا عليه أصابوا».

وكان من هؤلاء الصحابة الذين انتشروا في الأمصار أبو الدرداء بدمشق واستمر فيها حتى سنة «٣٢ هـ» وعبادة بن الصامت بحمص، ومعاذ بن جبل بفلسطين، وعبدالله بن مسعود بالكوفة حتى سنة «٣٠ هـ» وأبو موسى الأشعري بالبصرة حتى سنة «٤٠ هـ»، ومما يدل على إقبال الجماهير على حفظ كتاب الله أن حلقة أبي الدرداء كانت تضم «١٦٠٠» ألفاً وستمائة دارس.

وفي عهد عثمان انطلقت جيوش الإسلام إلى شرق آسيا والتقت هناك جنود من كل الأمصار المفتوحة، وكانت تقاليد هؤلاء الجيوش أن يؤمهم قائد واحد في كل صلاة، فاستمع الجنود إلى قراءات للنص القرآني لم يألفوها فحدث النزاع الذي خرج على إثره حذيفة بن اليمان إلى أمير المؤمنين عثمان ليقول له: أدرك هذه الأمة حتى لا يختلفوا على القرآن كما اختلف اليهود والنصاري، وهنا نهض سيدنا عثمان بمهمة جليلة في توحيد الأمة على مصحف واحد يجتمع عليه أشهر الحفاظ والقراء، واستعان في ذلك بالمكتوب أمام رسول الله ﷺ وبسيدنا زيد بن ثابت وضم إليه ثلاثة من أمهر الكتاب ورسم لهم منهج التوثيق كما سبق.

وكان من فطنة سيدنا عثمان أن يرسل مع كل مصحف قارئاً يجيد لهجة المدينة المرسل إليها حتى لا يجبر الناس على تغيير ما ألفوه من قراءاتهم للقرآن، فأرسل زيد بن ثابت إلى المدينة مع مصحفها، وعبدالله بن السائب المخزومي إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وأبو عبدالرحمن السلمي إلى الكوفة، وعامر ابن قيس إلى البصرة.

بناء على هذا أجاد بعض المتلقين عن هؤلاء الذين أرسلهم سيدنا عثمان مع المصاحف واشتهروا بحسن التلاوة وجودة الحفظ وتقوى القلب والخشية من الرب والسلوك الأمثل لحامل القرآن، وصاروا

(٢) رواه مسلم (٢٣٠١)، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلي، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

أهلا لثقة الأمة يرسلون أبناءهم ليتعلموا على أيديهم كتاب الله.

واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر في القرن الرابع الهجري بدعة القراءة حسبما يمليه الخط ولو لم يثبت تواترها عن رسول الله على يد ابن مقسم، وبدعة القراءة حسبما يثبت عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ بصرف النظر عن موافقته للرسم العثماني على يد ابن شنبوذ، وكانت فتنة اجتمع من أجلها علماء الأمة وقراؤها بقيادة الإمام أبي بكر بن مجاهد فاختاروا سبعة قراء من أوثق الحفظة لكتاب الله من مختلف الأمصار منهم خمسة من التابعين هم:

١- عبدالله بن عامر المتوفى سنة «١١٨ هـ» تعلم على يد أبي الدرداء ومعاوية بالشام، وراوياه: هشام وابن ذكون.

٢- عاصم بن أبي النجود المتوفى سنة «١٢٧ هـ» وقد أخذ عن زر بن حبيش وأبي عبدالرحمن السلمي بالكوفة وأقرأ الخليل بن أحمد وحمزة، وأبا عمرو بن العلاء، وراوياه: حفص وشعبة.

٣- حمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة «١٥٦ هـ» قرأ على الأعمش وحمران بن أعين وجعفر الصادق واختار قراءة حمران عن ابن مسعود وروى عنه سليم بن عيسى والكسائي، راوياه: خلف وخلاد.

٤- أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة «١٥٤ هـ» ليس في السبعة أكثر شيوخاً منه، قرأ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة، سمع من أنس بن مالك وقرأ على الحسن بن علي وسعيد بن جبير وعاصم وعبدالله بن إسحاق وابن كثير ونصر بن عاصم وقرأ عليه سيبويه، راوياه: الدوري والسوسي.

٥- عبدالله بن كثير المتوفى سنة «١٢٠ هـ» من قبيلة تميم الداري وكان عطاراً بمكة أخذ عن أنس بن مالك وابن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، وهو شيخ للخليل، وعيسي، وأبي عمرو. راوياه: البزي وقنبل.

ومن غير التابعين:

٦- نافع بن أبي نعيم كان أسود اللون صبيح الوجه فيه دعابة، قرأ على الزهري والأعرج وأبي جعفر، وقرأ عليه مالك والأصمعي وورش، وهو قارئ المدينة المنورة وتوفي سنة «١٦٩ هـ»، راوياه: ورش المصري، وربيبه قالون.

٧- الكسائي علي بن حمزة بن عبدالله النحوي المتوفى سنة «١٨٩ هـ» قارئ الكوفة، قال الشافعي: من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي، وكان أوحدهم في القرآن، أخذ عنه حفص، وخلف، ويعقوب، راوياه: الليث والدوري.

ووضع هؤلاء العلماء شروطًا ثلاثة لقبول القراءة هي: تواتر السند إلى رسول الله، وموافقة أحد مصاحف سيدنا عثمان، وموافقة العربية ولو بغير الوجه الأفصح.. ولنا مع هذا الشرط تحفظ فما دام السند متصلا برسول الله فهو موافق قطعًا لنسق العربية لأن القرآن ما نزل إلا بلسان عربي مبين.

وقد رأى من أتى بعد ابن مجاهد من العلماء أن هذه الشروط متحققة في قراءة ثلاثة من الحفظة الورعين وهم:

٨- أبو جعفر بن القعقاع التابعي المتوفى سنة «١٣٠ هـ» قرأ على ابن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب، راوياه: عيسى بن وردان، وابن جماز، وهو قارئ بالمدينة.

٩- يعقوب بن إسحاق بن إسحاق بن يزيد بن عبدالله الحضرمي المصري المتوفى سنة «٢٠٥ هـ»، قال عنه ابن الجزري: لا فرق بينه وبين السبعة، راوياه: روح ورويس.

١٠- خلف بن هشام البزار البغدادي المتوفى سنة «٢٢٩ هـ»، هو راوي حمزة وله قراءة مستقلة، قرأ ابن مجاهد على إدريس عن خلف سماعًا، راوياه: إسحاق وإدريس.

ثم اجتمعت الأمة على أن هذه القراءات السبع أو العشر ما هي إلا كيفيات لأداء كلمات القرآن واختلافها منسوبة إلى ناقلها، وليست هي الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وأن اتفاق العدد في القراءات السبع والأحرف السبعة هو الذي ألبس على بعض الناس أنهما حقيقة واحدة، فابن مجاهد كما سبق هو الذي حدد السبعة وزاد عليها من بعده ثلاثة، أما الأحرف السبعة فالذي حددها رب العزة وأخبر بها نبيه وعلمها النبي لأصحابه ونسخ منها ما أراد الله نسخه وبقي منها ما اتفق مع رسم المصحف العثماني، والهدف منها هو التيسير على الأمة مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

(القمر: ٤٠)

– وهناك علماء اشتهروا أيضا في هذا العلم منهم:

١- الإمام حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز، توفي سنة «١٨٠ هـ» قال عنه الذهبي: أما في القراءة فثقة ضابط، وقال ابن معين: كان أقرأ من زميله شعبة بن عياش، قرأ على الإمام عاصم، وكان أوثق تلاميذه.

٢- الإمام شعبة بن عياش بن سالم الأسدي المتوفى سنة «١٩٣ هـ»، كان عالما عاملا شهد له معاصروه وأقرانه بالتقوى والجودة، وقرأ على الإمام عاصم.

٣- الإمام قالون أبو موسى عيسى مولى بني زهرة، قرأ على الإمام نافع، وكان ربيب الإمام كما قال كثير من المؤرخين، وقد امتحنه الله بالصمم، فلم يمنعه من الجد في الوصول إلى هذا المستوى الرفيع من الأداء القرآني.

٤- الإمام ورش أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري، توفي سنة «١٩٧ هـ»، قرأ على شيخه الإمام نافع، وكان إذا قرأ غشي على كثير من الجلساء من خشوعه وتقواه ونداوة صوته وحسن أدائه، فكان رحمه الله شيخ القراء المحققين، وإمام أهل الأداء المرتلين، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، فرحمه الله رحمة واسعة.

يتبع

بيان رد الشبهات عن القرآن



للأستاذ/ عبد المجيد صبح

البيان الثاني: نصب الفاعل

جاء في قوله تعالى:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)

وكان يجب أن يرفع الفاعل فيقول «الظالمون».

تبيين الجواب

وأقول: هذا الاعتراض مبني على أن الإسناد ذو وجه واحد هو أن فاعل ﴿يَنَالُ﴾ هو ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وعليه يلزم أن يرفع فيقال (لا ينال عهدي الظالمون) والحق أن هذا التركيب يحتمل وجهين أن يكون إسناد الفعل إلى (الظالمين) فيكون المعنى لا ينال الظالمون العهد. ويحتمل أن يكون العهد هو الذي ينال فيكون العهد مرفوعا (والظالمين) مفعولا كما هو التركيب المعترض عليه. فحمله على وجه واحد كما فعل المعترضون تعسف لا يقوم على علم. فقد فرضوا وجها واحدا، غير ملزم ثم أقاموا عليه الاعتراض!.

واللغة العربية تؤيد ذلك (احتمال الوجهين) فيقال: لا ينالُ الكسولُ القعدودُ الشرف، كما قال أبو العباس في (الكامل):

إذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين (١)

فالمعنى تلقى عرابة راية المجد. ويجوز أن يقال: تلقت رايةُ المجد عرابة والسر في ذلك أن كل ما نلته أو تلقيته فقد نالك وتلقاك فإذا نال العهدُ، وتلقت الرايةُ يكون الإسناد من المجاز البلاغي كما قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾

(القارعة: ٦، ٧)

فأسند الرضا إلى المعيشة إسنادًا مجازيا والأصل أنها مرضية والراضي هو من ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وعلى هذا الآية الكريمة:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)

والقراءة الأخرى على إسناد الفعل إلى (الظالمون) فالتركيب لا ينال عهدي

١- اليمين هنا بمعنى: القوة، وليس بمعنى: مقابل الشمال

الظالمون. فالوجهان صحيحان وليس الاعتراض لوجه واحد محل من الإعراب.

وعلى الفرض أن التركيب ذو وجه واحد وأن العهد مفعول به و﴿الظَّالِمِينَ﴾ فاعل، وأن هذا الوجه بين في رأيهم، ولأجله اعترضوا - أقول لو كان كذلك لكان نصب الفاعل وجها من وجوه العربية عندما يكون الفاعل واضحا لا يلتبس والمفعول كذلك جاز نصب الفاعل ورفع المفعول، والعرب تقول خرق الثوبَ المسمارُ. ولكن لا نحمل القرآن على هذا الوجه فالأمر في تركيبه واضح لكل ذي فهم ومعرفة بالعربية.

فقل لمن يدعي في العلم معرفة
عرفت شيئًا وغابت عنك أشياءُ

قال أبو البقاء في (وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن): المشهور على جعل العهد هو الفاعل. ويقرأ (الظالمون). والمعنيان متقاربان؛ لأن كل ما نلته فقد نالك.

قال الزجاج في (معاني القرآن وإعرابه): - المعنى في الرفع والنصب واحد لأن (النَّيل) مشتمل على العهد وعلى الظالمين.

قال: والقراءة الجيدة هي على نصب الظالمين إلا أن قراءة الرفع لا ينبغي أن يقرأ بها؛ لأن معنى قول إبراهيم: (اجعل الإمامة) تنال ذريتي (واجعل العهد) ينال ذريتي. فأجابه الله:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

وبحمد الله كتبتُ ما كتبتُ قبل الرجوع إلى المراجع الخاصة بهذين الإمامين.

البيان الثالث: تذكير خبر الاسم المؤنث

جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف: ٥٦)

وكان يجب أن يتبع خبر إن اسمها في التأنيث فيقول «قريبة».

تبيين الجواب

وأقول: قائل هذا الاعتراض كصارخ ينادي على صاحبه بجهله، وشاهد يشهد على نفسه بلسانه ويوثقه بكتابه، فمن بداءة قواعد لغة العرب أن صيغتي (فعيل وفعول) يستوي فيهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، فنقول: رجل قتيل، وامرأة قتيل، ورجل صبور، وامرأة صبور، ورجل خبير، وامرأة خبير، قال الشاعر:

خبيرٌ بنو لهبٍ فلا تك ملغيًا
مقالة لهبي إذا الطير مرتِ

وقال امرؤ القيس:

له الويل إن أمسى ولا أمُّ هاشم
قريبٌ ولا البسباسة ابنة يشكر

ومن شعر العرب:

فلو أنْك في يوم الرخاء سألتني
طلاقك لم أبخل وأنت صديق (٢)

وقال الطائي:

كرب القلب من جواه يذوب
حين قال الوشاة هند غضوب

وعليه قال المتنبي:

ويومًا كأن الحسن فيه علامةٌ
بعثت بها والشمس منك رسول

وعلى وفق هذه القاعدة جاء أسلوب

٢- أنْك: بإسكان «أن» وهي أن مخففة (شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك)

القرآن. يقول الله تعالى:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾

(التحريم: ٤)

ويقول: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

(الجن: ٨)

والحرس: جمع من الملائكة فالحرس والحراس جمع حارس(٣)

ويقول:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

(الشورى: ١٧)

ويقول:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

(الأحزاب: ٦٣)

وقال تعالى:

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

(مريم: ٢٠)

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

(مريم: ٦٤)

على وزن فعول وفي قوله تعالى:

﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

(يس: ٧٨)

وزنها فعيل. وكذلك الأمر في صيغة (فعول) يقول الله تعالى مخاطبا موسى وهارون:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الشعراء: ١٦)

أترون أن منزل القرآن كرر الخطأ حتى جئتم أنتم بعد كر الغدات ومر العشي فكشفتم الغطاء عن هذا الخطأ الذي غفل عنه كل فطاحل العربية ولم ينتبه إليه فطحل واحد منهم حتى جاءت زعنفة من الزعانف وزنيم يهرف بما لا يعرف.

وأيم الله إن حياة يعير فيها (باقل) قُسا بالفهاهة لحياة ذميم، دميم. (٤)

ألا فاعلموا أن هناك صيغا أخرى لم ترد في القرآن لا تلحقها تاء التأنيث هي:

(مفعال): امرأة مهذار - (مفعيل): امرأة معطير - (مفعل): امرأة مغشم وهي التي لا يثنيها شيء عما تريد.

أما قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾

(المدثر: ٣٨)

فليست بتأنيث (رهين)، كما يتوهم أمثالكم، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله، ولو أريدت الصفة لقيل: كل نفس بما كسبت رهين، على ما تقدم ببابه.

وقالوا: امرأة ملولة، فليست التاء فيها للتأنيث وإنما هي للمبالغة ولذلك قالوا: رجل ملولة.

٣- وصف الجمع (حرس) بصفة «شديد».

٤- إشارة إلى قول أبي العلاء:

إذا عير الطائي بالبخل مادر - وعير قسا بالفهاهة باقل

الطائي: حاتم الطائي المشهور بالكرم، مادر: رجل مشهور بالبخل وقس: الخطيب الجاهلي المعروف، (باقل) رجل مشهور العيّ

أما قوله تعالى عن موسى وهارون:

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾

(طه: ٤٧)

بالتثنية، إنما كان لمراعاة النسق الكلامي كله حيث جاء الكلام كله بالتثنية:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾

(طه: ٤٢)

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾

(طه: ٤٣)

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

(طه: ٤٤)

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾

(طه: ٤٥)

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

(طه: ٤٥)

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾

(طه: ٤٧)

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾

(طه: ٤٩)

قلت: وهذا ضرب من ضروب بلاغة القرآن.

البيان الرابع: تأنيث العدد وجمع المعدود

جاء في قوله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

(الأعراف: ١٦٠)

وكان يجب أن يذكر العدد ويأتي بمفرد المعدود فيقول اثنى عشر سبطًا.

تبيين الجواب

وأقول: أن الأصل في تمييز العدد من (١١: ١٩) أن يكون مفردا منصوبا يقول الله تعالى:

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾

(يوسف: ٤)

وقوله:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾

(التوبة: ٣٦)

أما قوله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾

(الأعراف: ١٦٨)

وزعم المعترضين عليها أنه كان يجب أن يقول اثنى عشر سبطا.. قائل هذا أتى من جهة نقص فهمه للآية وأسرار تركيبها فإن (أسباطا) ليست تمييزًا للعدد (وأممًا) ليست هي المعدود، إنما (أسباطا) بدل من العدد، وتمييز العدد محذوف وأصل التركيب: وقطعناهم أسباطا عددها اثنتا عشرة فرقة (قبائل) صارت أممًا (والفرقة) مفهومة من (قطعناهم) لأن معناها فرقناهم وقوله:

﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾

(الأعراف: ١٦٠)

هو كقولهم: اثنتى عشرة قبيلة، فنظر إلى مضمون (أسباط) كقول عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجنّي دون من كنت أتقي
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فنظر إلى المراد المتضمن في (شخوص) المدلول عليه بقوله (كاعبان ومعصر) وهما من صفات النساء فكان الظاهر بحسب لفظ شخوص أن يقول (ثلاثة) شخوص لكنه نظر إلى معناه، (وأممًا) يدل من العدد كذلك والسر في هذا الجمع أن الأسباط كانت قبائل مختلفة تقطع بينهم كما قال فيهم قوله تعالى:

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾
(الأعراف: ١٦٨)

وكما قال عنهم:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾
(الإسراء: ١٠٤)

فكان من بلاغة المجاز القرآني أن يحذف من الكلام المراد ما يدل عليه اللفظ المذكور فحذف (فرقة) لدلالة (قطعنا) عليه وجمع (سبطًا) كما جمع (أمة) للدلالة على تخالفهم. ومثل هذه الآية من سورة الأعراف قول الله تعالى:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾
(الأنعام: ١٦٠)

كان الظاهر أن يؤنث عشر لتذكير مثل لكنه نظر إلى المعنى الذي هو: له عشر حسنات أمثالها. أرأيتم كيف دل على هذه المعاني المرادة من غير أن يذكرها بهذه الاختلافات اللفظية. وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن الذي أدركه العرب فلم يقولوا: أخطأ. وكان يجب....

البيان الخامس: جمع الضمير العائد على المثنى

جاء في قوله تعالى:

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾
(الحج: ١٩)

وكان يجب أن يثنى الضمير العائد على المثنى فيقول خصمان اختصما في ربهما.

تبيين الجواب

وأقول: هذا من مراعاة اللفظ والمعنى فقال (هذان) باعتبار اللفظ حيث إنهما فريقان مختلفان إيمانًا وكفرًا واستعمل ضمير الجمع باعتبار مدلول ﴿ خَصْمَانِ ﴾ حيث إن كل فريق أفراد كثيرون. وبهذا الاستعمال أعطى معاني كثيرة لو ثنى الضمير الفاعل لما تحققت، فالمعنى ـ على تعبير القرآن: المؤمنون كثير وهم ملة واحدة والكافرون وإن تعددت مللهم فهم فريق واحد يجمعهم الكفر، وهم جميعًا في مقابل المؤمنين الموحدين. وهذا أسلوب تكرر في القرآن للتعبير عن كثرة المعاني، واللغة العربية تعرفه، ويعرفه كل من تذوقها واستكنه أسرارها. من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾
(الحاقة: ٤٧)

المعنى: فما أحد حاجزين فأخبر عن المفرد بالجمع مراعاة لمعنى أحد؛ إذ هو يفيد العموم، يدل على عمومه قوله تعالى:

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾
(البقرة: ٢٨٥)

وقوله تعالى:

﴿ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾
(النمل: ٣٥)

وهو رسول واحد بدليل ما بعده:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾
(النمل: ٣٦، ٣٧)

وقوله تعالى:

﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾
(المؤمنون: ٩٩)

تعبيرا عن الواحد بالجمع كما تقول لذي شأن: انظروا في أمري. ويخبر عن الجمع بالمفرد كقوله تعالى:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾
(الحجر: ٦٨)

ويذكر الجمع ويراد الواحد كقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
(الحجرات: ٤)

والمنادي واحد، والسر في ذلك أن الباقين راضون بفعل المنادي. ووراء كل ذلك أغراض بلاغية تتضمن معاني كثيرة يعرفها المتخصصون. ويحار فيها المبتدئون. وبجهلهم يعيبون. وفي ظلماتهم يعمهون. والعربية تعرف كل ذلك، قال الشاعر:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق
شراذم يضحك منها التواق

والأصل أن يقول: قميصي خلق، ولكن لما كان القدوم والبلى قد عم القميص عبر عن هذا المعنى بجمع الخبر، وقال البارودي:

ولبست هذا الدهر من أطرافه
وخلعته وقميصه أخلاق

والعرب تقول: (بُرمة أعشار) و(حبل أرمام) و(وقميص أخلاق).

وفي قوله تعالى:

﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾
(الشعراء: ٥٤)

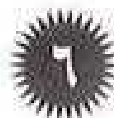
لو لاحظ لفظ شرذمة لقال (قليل) ولكن باعتبار مدلولها قال قليلون. ونظير (خصمان اختصموا) يقول الله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾
(الحجرات: ٩)

لعل في هذه الأمثلة، وغيرها كثير، مقنع لمن ينشد الحق، ويتحرى الحقيقة.



أقسام السنة عند الشيخ عبدالجليل عيسى



مابدا من اجتهاده ﷺ فى صورة «القطع»:

١- سئل رسول الله ﷺ فى مصائر أولاد المشركين فحكم فى سبيل القطع بأنهم تبع لآبائهم..

يروى ابن كثير فى تفسيره عن الحافظ أبى يعلى عن البراء بن عازب أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم مع آبائهم».

ويروى الإمام أحمد، وأبو داود، عن عائشة أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يارسول الله بلا أعمال؟. فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وروى أبو داود عن الشعبى - بلفظ عام - أنه قال قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموءودة فى النار».

٢- ولكنه ﷺ فى روايات اخر تحدث عن مصيرهم بما يعد مقابلا للحكم السابق:

(أ) فمرة وكل مصائرهم إلى علم الله، يروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: دعى رسول الله إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يارسول الله! طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءًا، ولم يدركه. قال: «أو غير ذلك ياعائشة؟، إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم».

(ب) ومرة يحكم عليهم بأنهم على الفطرة.

يروى مسلم عن أبى هريرة أنه قال: قال ﷺ: «ليس من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه».

ويروى أحمد والنسائى عن الأسود بن سريع من بنى سعد أنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: ما بال أقوام يتناولون الذرية؟». فقال رجل: يارسول الله! أليسوا أبناء المشركين، فقال: «إن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها».

فطرة الله

فطرة الله هى الحالة التى خلق الله الناس عليها وهى ما استقر فى طباعهم

من الخضوع لإله قادر حكيم، ومن حب الحق، ومكارم الأخلاق، التى تقرها العقول السليمة، بحيث لو ترك الناس بدون تدخل الشياطين لما تخلوا عنها، ولهذا قال بعض السلف: الفطرة هى المبادىء العامة للإسلام كما فى آيتى ١٣٨ من سورة البقرة و٨٠ من سورة آل عمران.

لا تبديل لخلق الله

أى لا يستطيع مخلوق أن يغير ما خلق الله الإنسان عليه فيضع فطرة أخرى مكان فطرته بحيث يولد على هذه الحالة المغايرة غير قابل للتحول عنها، ويروى الحافظ أبو بكر البرقانى فى كتابه «المستخرج على البخارى» عن سمرة عن النبى ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة». فناداه، الناس يارسول الله! وأولاد المشركين؟. فقال: «وأولاد المشركين».

(جـ) ومرة يميل بهم إلى أنهم حنفاء مسلمون.

يروى مسلم عن عياض بن حماد، عن رسول الله ﷺ، عن الله عز وجل أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء مسلمين».

(د) وأخرى يحكم عليهم بأنهم من أهل الجنة. يروى الطبرانى عن سمرة أنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين، فقال: «هم خدم أهل الجنة».

ويروى أحمد عن خنساء بنت معاوية من بنى صريح أنها قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول الله! من فى الجنة؟. قال: «النبى فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والمولود فى الجنة، والوئيد فى الجنة».

فمجموع هذه الأحاديث يعطى أنه أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام فى أولاد المشركين ومصيرهم قولان قول يلحقهم بآبائهم، وآخر يبعدهم عن هذه التبعية لآبائهم. وأحد هذين القولين صدر من غير شك على سبيل الاجتهاد منه، والثانى عد تصويبا له من الله، أما أيهما كان اجتهاديا وأيهما كان تصويبا فستراه فى كلام الحافظ ابن حجر الآتى قريبًا، وأكثر العلماء على أن الرأى المختار منهما عدم إلحاق أبناء المشركين بآبائهم مستندين إلى الآية الكريمة:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(الإسراء: ١٥)

والبخارى رضى الله عنه عندما تعرض لأحاديث هذا الباب ذكرها كما يأتى:

ذكر أولا حديث ابن عباس، وهو أنه سئل ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين».

وثنى بحديث أبى هريرة، وهو أنه سئل رسول الله عن ذرارى المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وثلث بحديث أبى هريرة، وهو أنه قال: قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وذكر أخيرًا حديث سمرة بن جندب، وهو أنه قال فى كلام طويل: قال ﷺ:

«ذات يوم أتاني الليلة آتيان فانطلقت معهما.. إلى أن قال: فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان - وفي رواية: وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء، وإذا حول الرجل ولدان ما رأيت قط أكثر منهم - فقلت: ما هذا، وما هؤلاء؟: فقالا: أما الرجل فإبراهيم عليه الصلاة والسلام. وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة.. قال سمرة: فقال: المسلمين يارسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «نعم وأولاد المشركين».

والحافظ ابن حجر في شرحه لهذه الأحاديث يعلل ترتيب البخاري لها على هذا النحو بقوله:

رتب المصنف أحاديث الباب ترتيبا يشير إلى المذهب المختار من أن أولاد المشركين في الجنة. فأنه صدّره بالحديث الدال على التوقف (١)، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة (٢)، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك فإنه قال في سياقه: «نعم وأولاد المشركين».

ونقل عن النووي سبب اختيار هذا المذهب فيما يحكيه عنه هنا بقوله: والمذهب الصحيح المختار أنهم في الجنة. وهذا ما ذهب إليه المحققون، لقوله تعالي:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)

وإذا كان الله لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولي.

وذكر النووي أيضًا في شرحه حديث عائشة الذي رواه مسلم متعلقًا بجنازة الصبي من الأنصار: أن من يعتد به من علماء المسلمين أجمع على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة، لأنه ليس مكلفًا. كما ذكر أن بعض من يعتد به أيضًا توقف في هذا الحكم، لحديث عائشة هذا. ثم روى ما أجاب به العلماء توفيقًا بين الرأيين من أنه يحتمل أنه ﷺ قال ذلك - الحديث المروي عن عائشة - قبل أن يعلمه الله أن أطفال المسلمين في الجنة. فلما علم قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحلم إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» (٣).

١- وفي حادثة أخرى يروي أحمد، بإسناد على شرط البخاري، عن عائشة أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر!. فقلت: يارسول الله! هل للقبر عذاب؟

١- وهو ما رواه ابن عباس وأبو هريرة.

٢- وهو حديث (كل مولود يولد على الفطرة) وإنما كان ترجيحا فقط؛ لأنه لم يصرح فيه بكونهم في الجنة.

٣- رواه البخاري عن أنس بن مالك.

قال: «كذبت يهود: لا عذاب دون يوم القيامة»(٤). فنفى ﷺ العذاب دون يوم القيامة على وجه القطع.

٢- ولكنه في رواية أخرى يثبته:

(أ) يروي مسلم عن عائشة أنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود، وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟. قالت: فارتاع ﷺ، وقال: «إنما تفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال ﷺ: «هل شعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون في القبور؟». قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ بعد ذلك يستعيذ من عذاب القبر.

(ب) ويروي البخاري عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: أتيت عائشة حين خسفت الشمس فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي.. إلى أن قالت: فلما انصرف ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيء كنت لم أره إلا وقد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار. ولقد أوحي إلى أنكم تفتنون في القبور مثل - أو قريبًا من - (٥) فتنة الدجال».

والحافظ ابن حجر يقرر اختلاف هذه الروايات، ويختار في تعليله ما قرره النووي هنا من أنه ﷺ حينما نفى عذاب القبر كان ذلك قبل أن يعلمه الله، ولما نزل الوحي أقر بأن هناك عذابًا للقبر..

ويستطرد الحافظ فيقول: إن في حديث الكسوف ما يدل على أنه ﷺ إنما علم بحكم عذاب القبر وهو بالمدينة وفي أواخر الأمر؛ لأن تاريخ صلاة الكسوف يدل على ذلك لأنها كانت يوم مات ولده إبراهيم عليه السلام. وموت إبراهيم كان في السنة العاشرة.

ويستمر فيذكر: أن الذي نفاه ﷺ أولا إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلمه الله بأن ذلك قد يقع على من يشاء منهم، فجزم به، وحذر منه، وبالغ في الاستعاذة منه تعليما لأمته ﷺ.

وهنا في هذه المسألة نجد اجتهاد الرسول ﷺ صوب بوحي من الله. لكن الفترة التي وقعت بين الرأي وتصويبه لا تحدد إلا إذا علم على وجه الدقة: من هي اليهودية التي كانت تتردد على عائشة رضي الله عنها وعلم وقت هذا التردد.



٤- في رواية البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ أن يهودية جاءت تسألها وقالت لها أعاذك الله من عذاب القبر فسألت عائشة رسول الله ﷺ أيعذب الناس في قبورهم؟ فقال ﷺ: أنا عائذ بالله من ذلك».

٥- الشك ممن روى عن أسماء.

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣ م

نظرات فى الإسلام

القانون الدولى.. والإسلام



أ. د/ محمد عبدالله دراز

يكاد يتفق علماء التشريع فى الغرب، ويتابعهم كثير من الشرقيين، على أن فكرة «القانون الدولى العام» فكرة حديثة العهد، ابتدعتها أوروبا فى العصر الأخير.

هذا الحكم صحيح فى الجملة، ويلوح لنا أنه غير قابل للجدل والمناقشة مادمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامي؛ فالنظام الدولى فى الحقيقة لم يكن معروفًا خارج هذا المحيط، لا فى العصر القديم اليونانى والروماني، ولا فى العصور الدينية الأولى فى اليهودية والمسيحية.

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ، وأن ندرك أسبابه؛ ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع.

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة، فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجي؛ إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يومًا ما، ولكن نظرتهما نفسهما إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما بوضع تشريع كهذا.

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولى فى أوروبا فى العصور الحديثة، ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولى، على رغم التقدم الفعلى فى تدوين قواعد هذا التشريع العام: ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون ـ تلك الفكرة التى طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات ـ لم تتخذ بعد فى نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل، ألم يقل «استوارت ميل» باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية أو لم يحدد «لوريمير» على وجه الأرض مناطق ثلاثًا تخضع كل منها

لقانون مختلف؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع فى نظره بحقوق سياسية كاملة، والعالم نصف المتمدين يكفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزامًا قانونيًا، وجاء ميثاق «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولى، فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأكسبه سلطة القانون.

وأخيرًا شكلت «جمعية الأمم المتحدة» بعد الحرب العالمية الثانية، فماذا رأينا؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لايزال مسيطرًا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون فى مصير الإنسانية إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية، فعلينا أن نرجع بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام.

كلنا نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين فى اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة، معادية طورًا ومسالمة طورًا وطبيعى أن هذه الظروف الخاصة التى جعلت للإسلام سلطانًا زمنيًا وحكمًا عالميًا ـ إلى جانب كونه عقيدة روحية، ومبدأ أخلاقيًا ـ كانت تتقاضاه أن يضع تشريعًا لقانون السلم والحرب بين الأمم، وقد كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم.

وليس لمكابر أن يدعى أن الإسلام إنما حمل السلاح لفرض عقيدته. وهذا هو مبدأه:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وليس لهذا المكابر أن يدعى أن فكرة الفتح والتوسع كانت مسيطرة على المسلمين، وهذا هو مبدأه أيضاً:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾

(القصص: ٨٣)

إن الحرب المشروعة فى الإسلام هى «الحرب الدفاعية».

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوى تحتها نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما.

١ ـ الدفاع عن النفس. وفيه يقول الكتاب المجيد:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠)

٢ ـ الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

(النساء: ٧٥)

من هنا نرى أن الحروب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح.

وإن لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجًا حسنًا لهذا الروح العالي في التسامح والصفح، حرصًا على السلام من جانب الطرف الأقوي، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك «زيارة الأماكن المقدسة»، ولم يكتف بأن رضي بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارًا مقترحات الهدنة التي لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقًا لا تخولها المسلمين.

ولم تكن لترجح كفة الحرب في نظر قائدهم الأعلي، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذي يحفظ به دماء الناس وأرواحهم. ولنستمع له حين يقول مصممًا في جواب السائلين له عن السر في هذا العدول عن مكة: «والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم. إلا أعطيتهم إياها». [السيرة النبوية لابن هشام».

إن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزًا واضحًا بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولابد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية.

ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعاليم النبوة في هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس، ويكفل إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء، ويجنب المدنيين كل ويلاتها، فالأطفال، والشيوخ، والنساء، والمرضي، والمعتوهون، بل حتى الفلاحون في حرثهم، والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب.

والذي يلفت نظرنا بوجه خاص في هذا المقام هو حرص الإسلام - لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب - بل على حمايتهم أيضًا من التعرض لكل ألم نفسي لأن الإسلام يهدف إلى إيجاد العلاقات الطيبة مع أبناء البشرية جميعًا.

ومن القواعد الأساسية للحرب في نظرة الإسلام أنه كان يأبى فرض حصار يرمي إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ويوجب حصر العمليات الحربية في الأهداف العسكرية، بالنهي عن استعمال الأسلحة البعيدة المدي، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتغريق والتحريق.

ويستنكر تلك العادة الهمجية التي يشيع استعمالها في أثناء الحروب، ألا وهي تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة

والخشونة ثم إننا نجد تعاليم الرسول التي كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم. ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب، والنهب، والقتل غدرًا، والتمثيل بجثث القتلي.

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم، أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب، فما بالك بمن يلقى سلاحه ويتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام والاستسلام؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاءه تحريمًا قاطعًا، حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

[النساء: ٩٤]

تلك كلها أدلة ملموسة على أن الإسلام لا يرمي قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر، ولكن إلى تجنب خطرهم، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر؛ لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة.

العلاقات السياسية:

رأينا كيف نظم الإسلام حالة الحرب.. فلننظر الآن، كيف نظم علائق السلم. وأول ما يعنينا من ذلك طريقة معاملته لمبعوثي أعدائه، وحاملي رسائلهم، وممثليهم السياسيين وهي معاملة يحق لنا أن نقول فيها إنها سديدة مستقيمة فالإسلام فوق ما يكفله لهم من صيانة وأمن على الأرواح، يمنحهم نوعًا من الحصانة الاجتماعية التي تخولهم حرية العودة إلى أوطانهم متى شاءوا، ولا يدع سبيلًا إلى حجزهم في بلادنا بحجة أنهم من قوم عدو لنا.

يلي ذلك طريقته في الاستماع لهؤلاء المتفاوضين، وحسن استعداده للتفاهم أو التعاقد معهم، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلًا إليه:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾

(الأنفال: ٦١)

أما شرائط الصلح وطرائقه، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية، كيف أن روح المسالمة التي كانت تعمر قلب رسول الإسلام، قد جعلته يضحي بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية وبالسمعة الحربية لجيشه وببعض الحقوق الفردية لأتباعه على أنه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء؛ مهما كان شاذًا، أو ضارًا بحقوق الأمة والأجيال المقبلة، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه، حين عرض عليه مسيلمة الكذاب تقسيم «الأرض» بينه وبينه، يرفض ذلك رفضًا صارمًا، ويجيبه بتلك الجملة الحكيمة التي يقتبسها من القرآن:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

ولعل أبسط العقود السياسية هو التصريح الذى يصدر من جانب واحد، ولا يلزم إلا الطرف الذى أصدره كإعلان دولة ما: أنها تلتزم الأمن والحماية لدولة أخرى وأننا لنجد من هذا النوع مثالاً واضحًا فى ذلك العهد الذى أعطاه النبى لأهل سوريا ومن معهم فى أثناء غزوة تبوك، وضمن لهم فيه حرية انتقالهم وأمن قوافلهم البرية والبحرية وحرية استعمالهم للطرق ومجارى المياه، على شريطة واحدة، وهى ألا يثيروا على المسلمين شغبًا.

ولكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقًا وتبادلاً للمنافع يقبله طرفا العقد جميعًا، وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود، هو التعاقد الذى لا يتضمن إلا التزامات سلبية تنحصر فى امتناع كلا الطرفين عن كل فعل ضار بالآخر. وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لمواثيق من هذا النوع عقدها النبى والتزم فيها الطرفان - إما لمدة غير محصورة، وإما لأجل معلوم - ألا يهاجم أحدهما الآخر، ولا يحالف عدوًا له، ولا يساعد معتديًا عليه، فمن هذا القبيل ميثاقه إلى الهدنة التى عقدها مع قريش فى السنة السادسة من الهجرة لمدة عشرة أعوام.

على أن الحقوق والواجبات المتبادلة إنما تبرز فى أكمل مظاهرها فى عهود الحلف، ومن أمثلة هذه العهود فى حياة الرسول، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما صلح الحديبية، حيث خول كل من الفريقين أن يختار حليفًا له من بين القبائل العربية فاختارت «خزاعة» أن تحالف محمدًا، واختارت «بنوبكر» أن تحالف قريشًا، ولقد كان من نتائج تطبيق هاتين المحالفتين أن نهض المسلمون فى السنة الثامنة لنجدة خزاعة حين نقضت قريش عهدها بإزائها، وينبغى أن يلاحظ أن هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة، وإنما كان معاونة سرية بالمال والسلاح لبنى بكر عليها، ومن هنا تعرف وجهة نظر الإسلام فى هذه النقطة القانونية.

وهذا مثال طريف لنوع من المواثيق لا نجده بعد إلا فى العصر الحديث: ذلك هو العهد الذى أعطاه النبى لنصارى نجران باليمن يلتزم لهم حرية عقيدتهم ماداموا مسالمين، ويلتزمون له بمساعدات مادية. وهو وإن كان عهدًا محليًا أكثر منه عهدًا دوليًا، إلا أن فيه شرطًا يذكرنا بميثاق الإعارة والتأجير الذى عقدته الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا، لتموين الجيوش الإنجليزية فى الحرب العالمية الثانية.

وبعد فإن من المقرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفى العقد - مهما كان نوع المعاهدة التى بينهما - أن يحافظا بدقة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها.

غير أن هذا الالتزام يأخذ فى نصوص القرآن طابعًا خاصًا من التشديد ومن القدسية يجعله فرضًا دينيًا بالمعنى الحقيقي، فالميثاق الذى يعقده المسلم لا

يرتبط به أمام الناس فحسب، بل إنه ينعقد فى الوقت نفسه بينه وبين الله تعالي، إذ يجعل المسلم ربه شهيدًا وكفيلاً على عقوده والتزاماته، ومن هنا يصبح احترام هذه الالتزامات أمرًا متغلغلاً فى النفوس، متصلاً أوثق اتصال بعقد الإيمان، بحيث لا يبقى لقوة فى الأرض أن تحلله منه، سواء فى ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ، أو زيادة الرخاء أو المجال الحيوي، أو التوسع الاقتصادي، أو التوازن السياسى أو غير ذلك، وإلى هذا كله يشير القرآن:

﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾

(النحل: ٩١-٩٢)

فإذا نحن رجعنا إلى السنة النبوية وجدناها قد بلغت من الدقة فى تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغًا ينتزع الاحترام من النفوس.

إن هناك ما هو أعظم دلالة على قدسية العهود والمواثيق فى نظر رسول الإسلام، فلم يكن حرصه على الوفاء بعهوده أشد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشخصية، مهما شقت على ضمير المؤمنين. ومن أطرف الأمثلة فى ذلك وأشدها غرابة حادثة حذيفة وأبيه، فقد كانا قطعا على نفسيهما لبعض الأعداء عهدًا بدون استئذان الرسول - ألا يقاتلاهم فلما جاء وقت القتال استفتيا فى ذلك رسول الله، فما كان جوابه إلا أن قال: «انصرفا ففيا لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم».

والنقض لا يصح أن يحدث اعتباطًا وابتكارًا من قبل المسلمين تحت تأثير الأغراض والمنافع، أو بباعث الهوى والعاطفة، بل لابد أن يكون مسبوقًا باستفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على أنه ينوى خيانة العهد - كما لا يصح أن يكون قطع العلائق عمليًا فقط وبدون سابق إنذار، وإلا لكان غسلاً للخيانة بالخيانة، بل لابد أن يكون نبذًا للمعاهدة صريحًا واضحًا، وأن يصل إلى علم الخصم فى الوقت المناسب ليكون على بينة من نيتنا نحوه، حتى نكون وإياه سواء فى ذلك وهذا هو الإسلام.

إن التشريع الدولى فى الإسلام لا يكتفى بأن يستوحى فى كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون، بل أنه يستمد من ينابيع أشد عمقًا من ذلك كله. يستمد من منابع الإيمان الصحيح، والخلق الكامل.

ونستطيع أن نقول - ووثائق التاريخ بين أيدينا: إن هذا التشريع الدولى العام فى الإسلام صفحة فخار؛ تشهد له بحرصه على إيجاد علاقات طيبة مع البشر قاطبة، لأنه دين إنساني خالد..!

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣م

الرسالة والرسول

لا قيصـــر

أ.د. نظمي لوقا

- «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»
- عالم مقسوم: شطره لله وشطره لقيصر.
- عالم مقسوم: شطره للقلب والروح، وشطره للحس والبدن.
- عالم مقسوم: شطره للدين وشطره للدنيا.
- عالم مقسوم: وعلى المرء أن يختار شطرًا منه ويتخلى عن شطر. ويجعل بينه وبين الشطر المتروك سدًا: سدًا من عداء، أو سدًا من إدغان سلبي هو كالعداء سواء بسواء.

تلك دعوة السيد الناصري، وقد عدل بها عن سنن اليهود في تعلقهم بالملك، وحرصهم على الدنيا، فجعل الدين للقلب، وجعل العزة للروح. ونادى بتحقير الدنيا ونبذها، بما فيها من مال، وحس، وبدن، وملك، وسلطان.

أقيصر بيده مقاليد الدنيا؟ قل إذن ما الدنيا، فإنك بعدها لخليق أن تقول وما قيصر؟! فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها، فأعظم ما فيها عندئذ هين، وأجل ما يكون من أمرها حقير، ماسلمت لك نفسك التي بين جنبيك من شوائب الدنيا، وزهو السلطان وفتنته. فإنك في حزب الله أجل من قيصر شأنًا؛ لأنك أحظى منه سكينة نفس وأمنا، وأهدى منه سبيلا.

ذاك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم، بل ونفضوا: ترابها من نعالهم، وسلكوا إلى ربهم مرتقى عسيرًا إلا على من يسره المولى له، وهم قلة نادرة بين العالمين.. أما سواد البشر وهم ملايين ومئات الملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التي تضج في دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والمقيمات المقعدات. ولاهم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا بقلب سليم وعزم مقيم. وإنما هو الفصام. وإنما هو التعلق بين السماء والأرض، عاجزين عن اليقين، حيارى مالهم من قرار.

أعز مكان في هذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة مفردة في مفازة بيداء، لا يطرقها طارق، ولا ينعق فيها ناعق، يخلو فيها العابد لوجه الله. فما الدنيا للإنسان بدار. وإنما هو قد نعاها وجفاها، وما لبثه فيه إلا ريثما يقبضه ملك الموت فيتم عليه ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة.

وما كل امرئ بقادر على أن يكون راهبا في دير أو ناسكا في صومعة. ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة وباد منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون.

وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطة ضعفًا منهم أوعجزًا، بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التي فطرهم عليها حين ركب في نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين. فلو كان مراده سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم ومقاصدهم، ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها، وخلق محبتها في قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو اكتساب؟

وتغلبت فطرة الخلق، وثابر الناس على الانصراف إلى الحياة، لا الانصراف عنها، فكان إذن لابد من موقف من قيصر، وفي يده مقاليد الدنيا.

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب الحكم وليس في الانصياع السلبي والتسليم للحكومة أي معنى من معاني الاهتمام فالاهتمام هم ومشاركة وعمل.

وبأي سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تتصدى لذلك الاهتمام بالحكم وأسلوبه، وقد قسمت الأمر بين ما هو لله وما هو لقيصر، فجعلت من قيصر في الدنيا ندا لله في عالم الغيب والسريرة.

لا بد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة؛ حتى يصير الأمر كله لله، بين دنيا الإنسان وأخراه.

ولهذا أيضًا تصدى القرآن، وانبرى الإسلام، فمحا تلك القسمة محوًا، ووحد مملكة الحق سفلا وعلوا. فجاء في سورة الأعراف:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

فمن يكون هنا قيصر؟ بل أين هو؟

لا قيصر بعد اليوم!

﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

(الرعد: ٣١)

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾

(البقرة: ١١٥)

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الشعراء: ٢٨)

الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم!

وليس قيصر الروم وحده هو الذي نعنيه حين نقول قيصر بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف، ويستمد من غير الحق والعدل والأصول الإلهية سلطانه على الناس.

لا قيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله:

﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾

(الأعراف: ٥٤)

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾
(الشورى: ٣٨)

كما جاء في سورة الشوري.

بل إن الرسـول؛ وهو الحاكـم الأول زمانًا ومقامًا وقدوة، كان عليه أن يشاور المؤمنين في الأمر. وكذلك كان يفعل، فقد ورد في آل عمران:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾
(آل عمران: ١٥٩)

أتعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر؟.

ومـن ذا يملك مـن الأمر شـيئًا غير الله..

فهذا هو رسـوله والحاكم الآمر باسمه يجابه في آل عمران بأنه:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾
(آل عمران: ١٢٨).

ويقال له في سورة ق:

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾
(ق: ٤٥).

لا جبار على المؤمنين. و:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾
(الحجرات: ١٠)

كما جاء في سورة الحجرات.

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة. وأي أمة؟!

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾
(آل عمران: ١٠٤).

هي أمة إذن وليست ملكا موروثًا. المؤمنون فيهـا إخـوة وليس عليهـم جبـار، وحكـم الله فيهم شـورى بينهم وليس حكمه فيهم لأحد يتحـدث باسـمه أو يحتكـر السـلطان على النـاس أو لجماعـة منهـم كأنهم أربـاب لهم منزلة وسط بين الله والناس:

﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾
(التوبة: ٣٠، ٣١)

لا كهان ولا أحبار. وإنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ به عباده من سنة وارتضاها لهم.

وهكذا تنسق السرائر والمظاهر، وتكون حكومـة الناس سـورة من عقيدتهـم. يحكم الحاكـم بمـا أمـر الله. وليـس لـه أن يكـون علـى الناس جبارًا، وليس لـه أن ينفرد بالأمر دونهـم، بل إنـه لا يكون حاكمًـا إلا بإجماع منهـم، وعندئـذ تجـب عليهـم الطاعـة لـه ماعدل واتقي، وعليهـم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى والطاعة:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾
(المائدة: ٢)

ففي حدود البر والتقوى والعدل:

«اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» (البخاري: ٧١٤٢)

للحاكم على الناس الطاعة، ولهم عليه أن يعدل، ويتقى الله، ويشـاورهم في الأمر، وأن يخفض لهم جناحه. فما هو إلا مؤتم برسـوله وقد قيل له في سورة الشعراء:

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
(الشعراء: ٢١٥)

أما إن ضل وغوي، وأعجبته نفسـه، وفتنه سـلطانه، فقد غدر بالبيعة التى له في أعناق

النـاس إذ جار عليهم. وما كان لهم أن يعينوه علـى الأمر. حتـى لا يكون تعاون على الإثم والعـدوان. ومـا هلـك الأمم مـن قبلهم إلا لأنهم:

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾
(المائدة: ٧٩)

ولـذا كان «أفضل الجهاد كلمـة حق عند سـلطان جائر» كما قال صاحب الرسـالة في حديثه الشريف. (تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي)

الأمر لله جميعًـا.. والمؤمنون أمة الله، في أعناقهـم أمانة دينه وحقـه وعدله. فمن فرط في شيء من ذلك كان مجترحًا لأمر عظيم.

أليس الرسـول هـو القائـل فـي كلماتـه الجوامع، وحكمه النواصع:

«كمـا تكونـوا يـول عليكـم»؟! (عـون المعبود شرح سنن أبى داود)

بلـى فلـن يقوم جائـر في قـوم طبعوا على العدل والحق وكرامـة العدل والغيـرة على الحق! بلي! ولن يقوم عـادل في قوم بهوان وذل. فإنـه خليـق أن يتعلـم مـن تطامنهـم الشرع، ومن أنقيادهم الصيد والاستبداد.

«كما تكونوا يول عليكم»

صدق رسـول الإسلام، وماغادره صدق الإلهام، وهو القائل:

«من رأى منكم منكـرًا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يسـتطع فبقلبه. وذلك أضعـف الإيمان». (صحيح مسـلم - كتاب الإيمان).

أجل يارسـول الخير والصـدق والحق! فالناس بخير، وحكومتهـم بخير، ما بقي للحـق فـي قلوبهـم مـكان، وللغيـرة علـى العدل فى قلوبهم الكلمة والسـلطان؛ وما يئس المنكر أن يجد فـي قلوبهم الإغضاء والتواطـؤ. ومـا أبـوا أن يجعلـوا ممـن يحكمـون بالجور شـركاء لله بالاسـتكانة والإذعان.

صدقـت يارسـول الصدق؛ وصـدق بمدد منـك الإمـام «محمـد عبـده» حيـن قـال: إن المعـول كلـه علـى «يقظـة الأمة»؛ وأنـه إذا فقدت الأمة شـجاعة إيمانهـا فلا خير لها في شيء من مظاهر المنعة والحرية والاستقلال.

أشـورى بلسـان ولا قلب؟ واجتمـاع ولا صدق؟ ذلك هو النفاق الكبير.

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾
(آل عمران: ١٥٩)

ولكن

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
(الزمر: ٩).

وماهو بسؤال وإنما هو إنكار أو استنكار.

إذن:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
(النحل: ٤٣)

اسألوا أهل الذكـر، مـن يذكـرون الله ويصدقـون ويتقـون لا الذيـن يذكـرون مصالحهـم ومآربهم ويتزلفـون، ومن يبتغون المال والجاه:

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾
(الحشر: ٧)

والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان، والحكومة بخير ماوجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم، ذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

أجل: «كما تكونوا يول عليكم» ذلك الحديث الشريف!

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

(الكهف: ٤٩)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الأنفال: ٥٣).

أيها الناس. أمركم إليكم، وحكومتكم منكم وبكم وإليكم وكلكم الله إلى إيمانكم، وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم الضير. لا قيصر بعد اليوم. بل لله الأمر جميعا. والله قد فوضكم في أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا، وإنما هو إيمانكم وعقلكم وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾

(المائدة: ٧٩).

وكاين من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا لسلطان جائر أو طمعا في قربى لديه، فقد أشرك بالله وباع دينه واتبع قيصر.. وكفر بأن:

﴿الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾

(آل عمران: ١٥٤).

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(الأعراف: ١٥٨).

ألا من له أذنان للسمع فليسمع!

فبمثل هذا يكون الملكوت في الأرض، وبمثل هذا تكون عمارة الأرض. وبمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم أمام الطاغوت مستضعفين في الأرض. ولا يكون من تجبر وخرج على الله أقوى فيها ممن قال ربي الله.

إن من: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

(الأحقاف: ١٣)

حقا ليسوا كمن قالوا:

﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

(النساء: ٩٧).

تلك عقيدة تمت دنيا ودينا؛ لأن الدنيا فيها مسبار الدين. والإنسان فيها مسدد اليقين. لا يعبد إلا ربا واحدا. حكامه في الأرض خدامه وصالحوه. هو على نفسه ودينه وكيل مسئول وليس عليه فيها جبار.

«وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

(البخاري: ٦١٤٢)

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

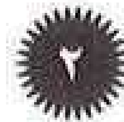
(القصص: ٥).

تلك هي حياة القوة: قوة اليقين بالله لا قوة الحيوان أو قوة العدوان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(ق: ٣٧)

المسلمون وأهل الكتاب
نظرة قرآنية





أ.د/ محمد سليم العوا

٨- الجدال بالتي هي أحسن

الحياة المشتركة في وطن واحد -وقد أصبحت الدنيا من حيث الاتصالات وطنا واحدا- لا تخلو من مسائل مثيرة للجدل وداعية إلى المناقشة، فإذا كان هذا الجدل بين المسلم والكتابي فإن القرآن يأمر المسلمين بقوله:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وهذا النص وإن كان عاما في كل جدال يتصور وقوعه بين المسلم وبين الكتابي، فإنه أولى بالاتباع حين يكون الجدال في أمر من أمور الدين -وهو غير جائز أصلا إلا للعلماء المؤهلين لذلك- فإن الجدال في أمور الدين مظنة إيغار الصدور وجلب العداوة وصنع الفتن، وذلك كله مما ينهى الإسلام عنه ويأمر بسد الذرائع إليه.

١- وأصح مذهبي الفقهاء في تحديد «أهل الكتاب» هو المذهب الذي يجعل هذا المصطلح شاملا لليهود والنصارى ومن آمن بصحف إبراهيم وشيت وزبور داود والصابئة كما أن أصح القولين في شأن المجوس أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب في أحكامهم كلها.

والحق ان الذي يجمع هؤلاء في ذلك كله هو أصل الإيمان بالله، وأن لهم كتابا سماويا في أصله، وأنهم يؤمنون بنبي مرسل من الله تعالي. وهذا كاف لاختصاصهم بمعاملة وأحكام لا تجوز لغيرهم من غير أهل الإسلام.

٢- والقول بأن الجامع بين هؤلاء هو الشرك بالله والإنكار لنبوة محمد ﷺ غير صحيح. فإن هذا الجامع -لو صح- لاقتضى تأثيرا سلبيا على علاقتهم بالمسلمين بينما كونهم أهل كتاب -في تعبير القرآن- قد رتب لهم حقوقا وخصهم بأحكام ميزت علاقتهم

بالمسلمين وأدت إلى توثيقها لا إلى إضعافها وتوهينها. والتعليل بما يناسب الحكم هو الصحيح، لا التعليل بما ينافيه أو يناقضه، فأية مناسبة بين الكفر برسولنا والشرك بالله وبين حل طعامهم، وإباحة الزواج من نسائهم، وحرمة دمائهم وأموالهم، والوصية المتكررة بهم في الأحاديث النبوية الصحيحة وفي وصايا الخلفاء الراشدين؟ وأية علاقة بين الكفر والشرك وبين إقرارهم على أديانهم وعلى دور عبادتهم وعلى نظمهم في ترسيم كهنتهم كما جاء في كتاب رسول الله إلى أهل نجران؟ وكما كان صنيع أصحابه، وفيهم الراشدون في جميع البلاد التي دخلوها بالإسلام ومنها مصر وفلسطين وسائر بلاد الشام والعراق(١).

٩- مسألة دار الإسلام ودار الحرب

من أهم المسائل التي واجهت الباحثين في موضوع العلاقة بين الدول الإسلامية وغيرها من دول العالم مسألة تقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب، أو إلى ثلاثة دور - عند بعض الفقهاء - بإضافة دار العهد إلى داري الإسلام والحرب.

وقد استثار هذا التقسيم الفقهي حمية بعض الباحثين الغيورين حتى كتب يقول: «إن الرؤية الفقهية القديمة للعالم قاصرة عن الإحاطة بتعدديته وغناه. أما الإحيائية المعاصرة (أي الصحوة الإسلامية) فإنها معادية له، ولذلك تعجز عن فهمه والتعامل معه على أساس ذلك الفهم»(٢).

والواقع أن بعض الدعاة يرددون - بلا تبصر - المفاهيم الفقهية التي تصادفهم في كتب أسلافنا العظماء دون أن يتبينوا أن لهذه المفاهيم أصولاً تاريخية تعود إليها، وظروفًا موضوعية سببت نشأتها، وسوغت وجودها وأدت في ظلها وظيفتها.

وهؤلاء يغفلون غالبًا عن حقيقة علمية مؤداها أن الاجتهاد النظري في مثل هذه المسائل يتبع الحاجة العملية أكثر مما يتبع الدليل النقلي. وأنه لذلك متغير بتغير الظروف والأوضاع. ولا يؤدي التمسك بقول قديم فيه - لم يعد مناسبًا للظرف الجديد - إلا إلى إهدار المصالح وتضييعها خلافًا لما هو واجب على المجتهد وعلى الأمة من جلبها والمحافظة عليها.

١- ومن هذه المفاهيم مفهوم تقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب. وهو مفهوم يقوم على تميز المسلمين وتحيزهم في أراضيهم، الذي يقابله تميز غير المسلمين وتحيزهم - هم الآخرون - في أراضيهم - وعلى أن العلاقة بين الموضعين ليست إلا علاقة عداء مستحكم وحرب مستمرة حتى سميت دار غير المسلمين بدار الحرب.

وقد نشأ هذا المفهوم في الفقه الإسلامي لمقابلة مفهوم آخر لتقسيم العالم هو المفهوم الروماني الذي كان يقسم العالم إلى ثلاثة أقسام: العالم الروماني، والعالم اللاتيني، وعالم الآخرين. فأما الرومان فهم سادة الدنيا، وأما اللاتين فأبناء عمومتهم،

١- محمد سليم العوا في النظام السياسي للدولة الإسلامية. ص٢٥٤.

٢- صديقنا الأستاذ الدكتور رضوان السيد. ظهور دار الإسلام وزوالها دراسة في الاجتهاد السياسي والفقهي. قدمها إلى مؤتمر العلاقات الدولية في الإسلام، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في ١٩٩٧/١١/٣٠، ص ١٢-١٣.

وأما الآخرون فعبيد الرومان واللاتين تستباح في سبيل السيطرة عليهم حرمات الإنسان والمال والزمان والمكان جميعًا. وهو تقسيم عرقي عنصري يقوم على وهم التميز الجنسي ويؤدي إلى ارتكاب أشد الأعمال إجرامًا ووحشية ضد غير الرومان واللاتين.

فصاغ الفقهاء المسلمون في مقابلته مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، وهو مفهوم يستمد من حقيقتين: العقيدة والشريعة السائدة، والظرف الواقعي. وتترتب عليه أحكام فقهية ليس من بينها حكم واحد يجيز العدوان أو يبيح ما حرمته نصوص الشريعة.

وهو تقسيم لا يعلي من شأن عنصر أو جنس على حساب سائر العناصر والأجناس، لأن الذين صاغوه وطوروه كان نصب أعينهم قول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكان حاديهم قول رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، ألا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»(٣)

٢- وقد أدى المفهوم الإسلامي دوره في العصر الذي تكون فيه، وفي مراحل تاريخية لاحقة، أداء يدركه المطلعون على مدونات الفقه الإسلامي وكتب القانون الدولي والعلاقات الدولية في الإسلام، وهي الكتب التي تعرف باسم «كتب السير»، ولكنه في بدايته واستمرار تطوره كان مفهومًا فقهيًا اجتهاديًا، ولم يكن مفهومًا مستمدًا من نص قرآني أو نبوي، أومنبيًا عليهما.

فهل يجب على الفقه الإسلامي - في كل العصور - الاحتفاظ بهذا التقسيم والعودة إليه كلما طرأت مسألة أو مشكلة من مسائل العلاقات الدولية أو مشكلاتها؟ أم الواجب على فقهاء كل عصر أن يصوغوا لمواجهة تلك العلاقات الحلول الفقهية المناسبة لعصرهم والتي تحقق فيه المصلحة وتدفع المفسدة؟

وإذا كان التقدم المذهل في وسائل الاتصال والانتقال قد حول العالم المسكون كله إلى قرية صغيرة، فهل يسوغ أن تظل نظرة المسلمين إلى العالم محكومة بذلك المفهوم الذي كان مناسبًا للظروف التي نشأ فيها ولم يعد كذلك بعد زوالها؟

وإذا كان التنظيم الدولي الحديث قد أحال العالم كله إلى مثل ما كان يسميه بعض الفقهاء «دار العهد» فهل يجوز للفقيه أن يستبقي التقسيم الثنائي أو الثلاثي وما يترتب عليه عند الفقهاء من أحكام؟

٣- إن الرأي الذي يرجحه الفقه المعاصر أن الاجتهاد القديم القائل بمثل ذلك التقسيم قد انقضى زمنه. وأن الفقه المعاصر يجب أن يتوجه صوب واقع العلاقات الدولية المعاصرة ويجتهد في بيان الجائز فيها والممنوع، مما يحقق المصلحة أو يهدرها على نحو ما فعل الفقهاء في عصور المواجهة الأولى بين الإسلام وبين العالم القديم.

٣- حديث صحيح، رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة وعن عقبة بن عامر. المسند ج ٣٨ ص ٤٧٤ الحديث رقم ٢٣٤٨٩، طبعة الشيخ شعيب الأرناؤوط.

وليس لهذا الرأى أثر فى مسألة استمرار الجهاد ووجوب إقامته إلى يوم القيامة، فإن موضع الجهاد وموضوعه غير موضع العلاقات السلمية وموضوعها، ولكل منهما أحكامه الشرعية، ونصوصه الحاكمة لأصوله، فى القرآن الكريم والسنه النبوية، ولم يكن شيء من ذلك سندًا للاجتهاد فى مسألة تقسيم العالم إلى دارين أوثلاثة، وإنما كان مبنى ذلك الاجتهاد هو المصلحة وحدها.

٤ – ولذلك نقول إن واجب فقه العصر أن يمم وجهه شطر تلك العلة نفسها: المصلحة الراجحة للمسلمين، ويقيم بناء اجتهاده فى العلاقات الدولية على أساسها، ولايجوز أن يبقى الفقه المعاصر أسيرًا لاجتهاد قديم لم يعد محققًا للغاية التى استهدفها أصحابه، ولم تعد الأسباب التى سوغتة قائمة

وفى رأينا أن العالم كله الآن دار واحدة، هى دار عهد وموادعة. وأن أحكام الإسلام تنطبق على المسلمين أينما كانوا، سواء أكانوا فى دار يغلب الإسلام على أهلها أم كانوا أقلية أو أفرادًا فى دار غالبية أهلها غير مسلمين.

ولايجوز لأحد أن يقبل، أو يعمل، بالفتوى التى تذهب إلى انحسار بعض أحكام الإسلام العملية عن الأفراد، ما داموا يعيشون فى دار لا يغلب عليها الإسلام، لأن هذا القول هدم للدين كله بتسويغ إهمال بعضه. وقد عاب الله تعالى فى محكم كتابه على اليهود أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ولا يجوز لأحد أن يستحل أموال غير المسلمين فى دارهم بزعم أنها دار حرب. ومن كان هذا رأيه فلا يحل له العيش فيها لأن ما أدى إلى الحرام حرام، والمسلم مسئول عن الوفاء بعهده، وقد دخل تلك الدار مشترطا عليه أن لا يخالف قوانينها ونظمها، فإما أن يعمل بعهده ويفى به، وإما أن يغادرها، وليس له أن يحل فيها الحرام أو يحرم الحلال.

٥ – وقد رأيت فى بعض بلاد الغرب شبابا من المسلمين يستبيحون أن يحتالوا لاستخدام وسائل المواصلات العامة، ووسائل الاتصال من هواتف وغيرها، ومواقف السيارات ذات الأجر، وأمثالها من الخدمات دون أن يدفعوا مقابلا لذلك كله.

بل علمت أن بعض اللاجئين إلى بعض تلك البلاد، بزعم أنهم مضطهدون سياسيًا فى بلاد الإسلام التى جاءوا منها، يتخذون عناوين عدة ويسجلون أنفسهم لدى السلطات المحلية التى يتبع كلا منها عنوان من تلك العناوين، ويحصلون على المعونات المخصصة للاجئين مرات عدة، مستغلين فى ذلك تصديق تلك السلطات لكل من يتقدم إليها باعتباره لاجئًا سياسيًا.

وهذا كله – وأضرابه – من أكل المال بالباطل المنهى عنه شرعًا، ولايحله شئ. وفاعله آثم إثمًا صريحًا لا تأويل له. والزعم بأن هذا – وأمثاله – مما يبيحه كون الدار التى يقيمون فيها دار حرب زعم ظاهر الفساد لا تقوم به حجه عند الله ولاعند الناس.

وإذا كان العدول عن تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب هو مقتضى اجتهاد جديد، فإن تحريم هذه الأفعال الشنيعة إعمال مباشر للنصوص الصريحة الناهية عن كسب المال من حرام، والآمرة بأن يكون الكسب من حلال طيب والاتفاق كذلك، ولا يغير شيئًا من ذلك قول قائل أو فتوى مفت مقلد بلا بصيرة[٤].

١٠ - وخلاصة القول:

إن العلاقة بين غير المسلمين وبين الله تبارك وتعالى هى العلاقة التى يتصل بها كونهم كفارًا أو غير كفار. أما العلاقة بينهم وبين المسلمين حين يشتركون فى وطن واحد، أو حين يتعاملون ولو لم يكن يجمع بينهم انتساب إلى وطن واحد فإنها تحكمهاقواعد الأخوة الإنسانية حين لايكون فى القرآن أوصحيح السنةحكم خاص، وتحكمهانصوص القرآن والسنة حين يوجد مثل ذلك الحكم، والفقه الصحيح يستصحب مع ذلك كله سوابق الحياة المستمرة بين المسلمين وغير المسلمين بما عرفته، وسجله التاريخ، من مشاركتهما فى صنع حضارة واحدة وفى الدفاع عنها كلما دهمتها داهمة من عدوها.

ولا يجوز أن تنسب أحكام الإسلام الخاصة بالعلاقة بين المسلمين والكتابيين إلى الحكم بكفر هؤلاء أو تعلل به. فإن هذا ليس من شأن الناس والقرآن ناطق فى آية سورةالحج (رقم: ١٧) بأن مرد الحكم بين الناس فى شأن الدين، هو إلى الله تبارك وتعالى وحده.

ولا يعكر على هذا الأصل، وما رتبناه عليه من نتائج، قول القرآن الكريم فى التفريق بين اليهود والمشركين من جهة وبين النصارى من جهة أخر:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(المائدة: ٨٢)

فإن هذا النص القرآنى الكريم إذا أوجب مزيد رعاية لأتباع عيسى عليه السلام لا يوجب – ولا يجيز – الانتقاص من حقوق غيرهم من أهل الكتاب مما قرره القرآن الكريم، أو أمرت به، أو أشارت إليه، السنة النبوية.

وحري بالعلماء والدعاة والعاملين فى صفوف الحركة الإسلامية المعاصرة أن يتذكروا حين يكون الحديث مع أهل دارنا من أهل الكتاب، بوجه خاص، ومع أهل الكتاب بوجه عام، قول الله تعالي:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

(البقرة: ٨٣)

وقول الله تعالى:

﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وبامتثال هذه النصوص، والقول بمثل ما نطقت به مما يطيب القلوب ويوثق العلاقات بين المختلفين دينًا مع بقاء هذا الاختلاف – أو برغم بقائه – تسود روح الأخوة الإنسانية، ويتعاون الخلق فى عمارة الأرض، ويصبح العيش الواحد حقيقة واقعة.

والحمد لله رب العالمين.

٤ – محمد سليم العوا، الفقه الإسلامي في طريق التجديد، المصدر السابق ص١٩٦

من أقوال الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب

حول تقنين الشريعة الإسلامية



يكاد لا تخلو أية محاضرة يلقيها صوفي أبو طالب، أو اجتماع يشهده، أو ندوة يحضرها، أو لقاء مع الوفود البرلمانية الأجنبية، أو سفراء الدول الإسلامية والأجنبية بالقاهرة، من توجيه العديد من الأسئلة والاستفسارات حول تقنين الشريعة الإسلامية.

وفيما يلي مختارات من أقوال الدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب الأسبق - رحمه الله - وردوده حول هذا الموضوع.

[أ] كلمة الدكتور صوفى أبو طالب فى الدورة التثقيفية العالية بمعهد الدراسات الوطنية يوم ١٩٨٢/١٠/١٠م:

تحدث الدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب صباح الأحد ١٩٨٢/١٠/١٠ عن تقنين الشريعة الإسلامية فى معهد الدراسات الإسلامية الوطنية للحزب الوطنى الديمقراطي، فقال:

إن هناك نوعًا من الأحكام قطعية الدلالة، ولا مجال لإعمال الفكر فيها، مثل قوله سبحانه وتعالي:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]

وهذا حكم مؤبد بطبيعته، وهناك نوع آخر من المبادئ العامة مثل قوله تعالي:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]

فالبيع يمكن أن يتخذ صورًا شتي، ومن ثم كانت هناك تفصيلات تختلف فيها الاجتهادات والآراء تبعًا للظروف السائدة فى المجتمع، ونحن نتخير الرأى الذى يتفق وظروف المجتمع دون أن نتقيد بمذهب من المذاهب؛ لأن الأصل فى الشريعة الإسلامية الاجتهاد دون إعاقة حركة المجتمع.

وفى اللجان الفنية التى شكلت لبحث موضوع تقنين الشريعة الإسلامية تم التوصل إلى رأى معين يتفق مع الشريعة من وجهة نظر هذه اللجان. ولكى يتعين إعطاء الفرصة لذوى الرأى لإبداء رأيهم فى مشروعات القوانين والأحكام التى خلصت هذه اللجان برأى فيها، واعتبرته أوفق للمجتمع للتصدى للمشاكل الاجتماعية التى لم يذكر السلف الصالح عنها شيئًا، بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، فقد يكون هناك رأى أفضل، فيطرح على لجان استماع للمتخصصين؛ لإبداء رأيهم فى هذه النصوص، مثل نظم

البنوك والتأمينات الاجتماعية بصورها المختلفة، كالتأمين على ضرر سيحدث، كالإصابة أو العجز أو الوفاة، والتكافل الاجتماعى الذى حض عليه الإسلام.

والمرحلة التالية لذلك هى عرض هذه النصوص على المجلس لمناقشتها مناقشة تفصيلية والموافقة عليها.

وقد يثور تساؤل مفاده: ما وضع غير المسلمين؟

إن العاصم الأوحد لغير المسلمين هو تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء؛ لأن الإسلام يختلف عن غيره من الديانات الأخري، فبحكم كونه آخر الديانات نجده يكمل ما سبقه من الديانات. فاليهودية قاصرة على اليهود فقط ولا تعليق على غيرهم. والمسيحية لم تتعرض لا للاقتصاد ولا للمعاملات المدنية كالبيع والشراء، ولكنها تحصر نفسها على الأمور الخلقية فقط.

ومن سماحة الدين الإسلامى أيضًا أنه أباح زواج المسلم من مسيحية أو يهودية، مع كفالة حرية العقيدة للمرأة غير المسلمة إذا ما تزوجت من مسلم. فى حين أن المسيحى لا يعترف بالإسلام، ومن ثم لا يسمح للزوجة المسلمة بتمكينها من تأدية شعائرها الدينية، ويوم يسمح لها بذلك سقطت العلة، وحينئذ يمكن زواج المسيحى من غير المسيحية، ولكن هذا لن يحدث.

أما الإسلام فإنه دين جامع شامل، يشمل الأمور الخلقية والمعاملات اليومية، فهو إذن دين ودولة، ويكمل الديانات السابقة، فضلاً عن أن المسلم لا يكون مسلمًا حقيقيًا إلا إذا آمن بالكتب السماوية السابقة وبالرسل.

ومن ناحية أخري، يكفل الإسلام حرية العقيدة وحرية إقامة الشعائر الدينية لغير المسلمين وعدم المساس بها، فلا إكراه فى الدين بحكم نص الآية الصريحة فى القرآن الكريم، وعلى الحاكم ضمان ذلك لغير المسلمين، ولقد رفض الخليفة عمر بن الخطاب إقامة الصلاة فى كنيسة الأقباط حتى لا يجار عليهم.

وهذه السماحة فى الدين، وحرية العقيدة وكفالتها لم تتقرر فى المجتمع الأوروبى إلا بعد الثورة الفرنسية، فلم يعترف فى ذلك الوقت لغير المسيحى بآدميته.

أما فى المجتمع الإسلامي، فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا من حقوق وواجبات، والاستثناء الوحيد يتمثل فى أن يكون رئيس الدولة مسلمًا. أما الاستثناء الثانى الذى كان موجودًا من قبل فى صدر الإسلام ثم سقط بعد ذلك فهو الجزية.

فالإسلام حينما ظهر - شأنه فى ذلك شأن أى مذهب اجتماعى جديد - كان يعتمد على أهل الثقة، ومع مرور الزمن وتثبيت أقدامه لم يعد هناك تمييز بين أهل الثقة وأهل الخبرة. وأصبح جيش المسلمين - الذى كان قاصرًا على المسلمين مع دفع مبلغ من المال هو الجزية (كالجهادية) لغير المسلمين مقابل الدفاع عنهم وحمايتهم -أصبح يضم بعض القبائل من النصاري، وأصبح التجنيد إجباريًا، وأصبحت هناك مساواة فى الحقوق والواجبات، وأورد مثلاً على ذلك، حينما رد

حامى حمص وقائد المسلمين الجزية؛ لأنه فشل فى الدفاع عن غير المسلمين.

[ب] كلمة الدكتور صوفى أبو طالب فى معهد الدراسات الوطنية يوم ١٩٨٢/١٢/١م:

ألقى الدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب صباح الأربعاء ١/ ١٢/ ١٩٨٢ محاضرة حول التكامل، أعقبها كلمة حول تقنين الشريعة الإسلامية قال فيها:

إن موضوع تقنين الشريعة الإسلامية موضوع محبب إلى نفسى وقلبى، وسوف أتعرض له بشىء من التفصيل، حتى نكون على بينة من أمره وعلى معرفة بحقيقته.

كانت الشريعة الإسلامية مطبقة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولما خضعت أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى والعربى للاحتلال، فرضت كل دولة قوانينها لتحقيق مصالحها الخاصة التى ليس لها مكان فى ظل القوانين والتعاليم الإسلامية.

لقد فرض علينا الاستعمار ذلك، ولكن ماذا بعد الاستقلال؟ لماذا لا نعود إلى ذاتنا العربية الإسلامية؟

لقد نص دستور ٧١ على أن الشريعة هى «مصدر رئيسى للتشريع». وفى دستور ٧١ المعدل نص على أن «الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع»

هل الأمر يحتاج لأناة وترو أم لا؟

هناك ثلاثة أمور يتعين أن نجيب عليها ابتداء، حتى نصل إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

● الأمر الأول: نحن الآن فى القرن ١٤ الهجرى، ومنذ القرن الرابع الهجرى أقفل باب الاجتهاد، ولكن استجدت أمور لم يكن للمسلمين عهد بها، ولم يتصد الفقهاء بالفتوى لها، وخاصة فيما يتعلق بالتطور الاقتصادى فى المجتمع.

● الأمر الثانى: أن السلفية يقولون إنه يكفى نص واحد ينص على أن يحكم القاضى بمقتضى الشريعة الإسلامية، وقد لا يكون القاضى على دراية تامة بأحكام الشريعة، أو قد يتاجر بالإسلام.

● والأمر الثالث: هو أن الأحكام فى الفقه الإسلامى تقوم على نوعين من الأحكام: أحكام قطعية الثبوت والدلالة، وهى أحكام الله فى القرآن الكريم، وبعض الأحاديث المتواترة، وأحكام ظنية الثبوت والدلالة، وهى الأحاديث التى يحتمل اللفظ فيها أكثر من معنى، والتى رواها بعض الفقهاء والسلف الصالح.

والخلاصة هى أن ما ورد من أحكام فى الفكر الإسلامى أحكام تفصيلية، أو أحكام عامة، أحكام تفصيلية مثل:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

[النساء:١١]

وأحكام عامة مثل:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

[البقرة:٢٧٥]

دون تفصيل لماهية البيع. وهنا باب الاجتهاد مفتوح فى التفصيلات والجزئيات والتفصيلات تختلف فيها المذاهب فى إطار الروح العامة، والمبادئ الإسلامية. فهناك

أربعة مذاهب للسنة، وهى المذاهب الأربعة المعروفة، وثمانى شعب للشيعة، وهى فرق متعددة، والعقل باستمرار هو الذى يعمل فى فهم الأحكام، والعقول متباينة، حتى الإمام الشافعى -رضى الله عنه- أنشأ مذهبه فى العراق، وحينما جاء إلى مصر غير آراءه فى ضوء مقتضيات الظروف وإذا ترك النص للقاضى ليعمل فيه فإنه لا يستطيع أن يتذكر كل نصوص القرآن، فضلاً عن اختلاف مذاهب القضاة، واختلاف المذاهب المتعددة الآراء فى بعض النصوص، كسن الحضانة، والتعليم، والزواج.

ومن هنا، يتعين تقنين النصوص حتى تلائم العصر الحديث؛ لأنه منذ القرن الماضى وحتى اليوم جدت أمور لم يكن لنا عهد بها، منها المشاكل المالية المعاصرة دون إبداء رأى فيها، كشهادات الاستثمار، والتأمين. ويتعين الوصول إلى حكم شرعى فيها.

ونصوص القرآن أحكام تتسم بالتوحيد. أما المذاهب المتعددة الآراء، فإن اللجان الفنية لتقنين الشريعة الإسلامية اختارت رأيا من هذه الآراء يتفق مع الصالح العام فى الوقت الحديث؛ لكى يطبقه القاضى فى مواجهة الأحداث التى استحدثت؛ ولهذا كانت الشريعة صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها لا تفرق بين الناس كافة؛ ولأن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أن يقلل من النصوص الثابتة وأن يتفضل علينا بقواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان؛ لمواجهة التطور فى المجتمع.

ومن هنا، جاءت المصالح المرسلة للإمام مالك التى يدخل فى نطاقها العرف والاستحسان. ولقد حاول الأمريكان وضع الخطوط العريضة للمصالح الاجتماعية، ولكن فشلوا فى الوصول إلى المصالح المرسلة التى تعمل على التوفيق بين مصالح الأفراد فى المجتمع دون الوقوف عند حد التوفيق بين مصالح طبقة من طبقات المجتمع دون غيرها. وهذه المصالح المرسلة لم يشهد لها الشارع بحكم باعتبارها، ولا بحكم بإلغائها، ومن ثم يتعين علينا أن نتعرف جوانب هذه المصلحة، فلا يوجد فعل من الأفعال – أيا كان – فى المجتمع إلا وله جانبان: جانب صالح، وجانب طالح. والشارع الحكيم أعطانا فى مجال المعاملات من الوسائل ما يمكننا من الوقوف على نوع هذه المصالح التى تجلب النفع أو تدرأ الضرر.

والنقطة الثانية هى أن المجتمع الذى نعيش فيه به أقلية غير مسلمة. فكيف نطبق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين؟ هذا القول مردود؛ لأن الشريعة الإسلامية هى الشريعة الوحيدة التى تسوى بين المسلمين وغير المسلمين. قبل الثورة الفرنسية كان الوضع مختلفًا، فالكاثوليكى الفرنسى يتمتع بالحقوق، وما عداه لا يتمتع بنفس الحقوق. الشريعة الإسلامية تحمى حرية العقيدة، وتكفل المساواة بالتعبير الحديث، فلا إكراه فى الدين، فهى تمكن غير المسلمين من إقامة شعائرهم الدينية فى دور عبادتهم. وما له صلة بالدين والزواج والطلاق والأحوال الشخصية يترك هذا لما يدينون به.

وهنا يثور سؤال مفاده: ما الحكم إذا ورد في دين غير المسلم من الديانات السماوية نص يبيح أمرًا - كشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير - يحرمه الإسلام؟ هل يحرم ذلك على غير المسلمين؟ لا، دون المغالاة في ممارسة شعائرهم حتى لا تحدث فتنة. فإذا خرجت على الملأ مع المغالاة خرجت من إطار التجاوز الشرعي إلى هدم الإسلام نفسه «كما حدث عند هدم خمارة في صدر الإسلام اعتادها المسلمون».

والإسلام جاء لا لهدم الديانات السماوية بل لتكملتها. فهو يؤمن بموسى وعيسى، وإعمالاً لمبدأ:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

أباح زواج المسلم من غير المسلمة. وإعمالاً لمبدأ المساواة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» فلا يغلق في وجه غير المسلم باب من أبواب العمل أو الرزق.

ومن ثم، فلا حجة ولا مبرر للتعلل بوجود أقلية غير مسلمة تعيش بيننا، فحجة الأقليات حجة ساقطة.

فليس هناك قانون أو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي لهم وقاصر عليهم ومن صنعهم ولم نعمل على تطبيقه عليهم. فعيسى قال: مملكتي في السماء ومن ثم فلا مفاضلة بين الشريعة الإسلامية وغيرها من النظم والقوانين.

إن الشريعة الإسلامية مرآة لحضارة المجتمع بكل جزئياته. واليهود والمسيحيون شاركونا في صنع الحضارة العربية. والشريعة الإسلامية ليست مأخوذة عن القانون الروماني كما يدعون، أو مأخوذة عن القانون الفرنسي أو الإنجليزي؛ لأن القانون الفرنسي أو الإنجليزي مأخوذ عن القانون الروماني.

إن الشريعة الإسلامية مستقلة بذاتها، ولم تتأثر لا من قريب أو بعيد بأي قانون أيا كان، ومن ثم، فلا يوجد سبب يمنع تطبيق الشريعة الإسلامية على البلاد العربية كلها.

وهنا قد يتساءل البعض: ما هي الخطوات التي اتخذت لتقنين أحكام الشريعة الإسلامية منذ عام ١٩٧٨م؟

غني عن البيان أن القانون المدني وحده الذي صدر في عام ١٩٤٨م استغرق وضعه ١٣ سنة.

إن العمل الفني الذي تقوم به اللجان الفنية لتقنين الشريعة الإسلامية عمل ضخم، ويقتضي جهدًا وإمعان فكر مرجعه إلى أن هناك أحكامًا في مذهب معين وأحكامًا أكثر ملاءمة للوضع الحالي، وحتى داخل المذهب نفسه، وتختار اللجان من بين المذاهب ما يتفق مع ظروف المجتمع ويحقق مصالح المسلمين.

لقد استغرق البحث عن صيغة مناسبة للتأمين سنة كاملة توصل فيها رجال الأزهر إلى صيغة، وبمقتضاها وضع رجال التأمين النصوص التي تتمشى مع قالب وصيغة رجال الأزهر بما يتفق مع العصر الحاضر.

وكذلك الحال بالنسبة للديون، فقد استقر الرأي بعدم جواز الفائدة، أما الضرر الذي يلحق بالدائن فيقرر تعويضه حكم القضاء. وهكذا في مجال المعاملات.

والحدود التي تعتبر السقف الذي يحمي البيت المسلم لابد من وجود انسجام ما بين البيت والسقف. فلا تطبق الحدود إلا في مجتمع إسلامي يطبق النظام الإسلامي. والجرائم التي يطبق عليها الحدود محددة في ست جرائم، ولكن هل هناك جرائم أخري؟ نعم، وهذا ما نطلق عليه التعزيرات، ويترك لولي الأمر تحديد الفعل الذي يرى أن من صالح المجتمع مواجهته، ويحدد العقوبة التي يراها مناسبة للقضاء عليها - كالرشوة.

ومن سماحة الشريعة الإسلامية أنها تراعي قبل تطبيق العقوبة حد الكفاية، وألا يكون شريكًا في المال، كما تعمل حسابًا للدوافع، بينما لا يراعي القانون الفرنسي عند تطبيق الحدود الدوافع، والفقه الإسلامي لا يطبق الحدود إلا بعد بناء هيكل المجتمع الإسلامي وتطبيق المعاملات.

وقد انتهت اللجان الفنية من الكثرة الغالبة من عملها في تقنين الشريعة الإسلامية، وأحالت مشروعاتها إلى اللجنة التشريعية؛ لكي تنظر فيها، ثم تحيلها لمجلس الشعب لاستصدارها.

ونظرًا لأن تقنين الشريعة يحتاج إلى تبادل في الرأي بين رجال الأزهر ورجال الفقه والقانون ورجال القضاء، لما سيكون له من صفة الدوام، فضلاً عن ربط النصوص بالأصول الشرعية لها، فيرجع أصل المادة إلى رأي فقهاء المسلمين، بدلاً من إرجاعها إلى المستشرقين أو الغربيين.

وفي ختام كلمته أكد الدكتور صوفي أبو طالب أننا من المؤمنين إيمانًا لا يتزعزع بأن صلاحنا وتقدمنا رهن بالعودة إلى ذاتنا السمحة دون الاقتباس من المصادر الأجنبية.

كما أكد على أهمية الدور الذي يتعين أن تضطلع به كلية الحقوق، ووزارة العدل، ووزارة التربية، ووزارة الإعلام من إذاعة وتليفزيون وصحافة، في إعداد البرامج، وتدريسها، وتهيئة الرأي العام، وتغيير ما ورد في كتب التاريخ، والرد على كل ما يشغل بال المسلمين.

وقال الدكتور صوفي أبو طالب: إنه أشد شغفًا لأن يرى الشريعة الإسلامية مطبقة في البيت والشارع، وأضاف: إنه يبذل جهوده من أجل حشد أكبر عدد من رجال الفقه والقانون والقضاء والأزهر للاشتراك في هذا العمل الضخم.

[جـ] كلمة الدكتور صوفي أبو طالب في أكاديمية الشرطة ومعهد الدراسات الوطنية في يومي ٥و٦/١٢/١٩٨٢م:

قال الدكتور صوفي أبو طالب: إن القوانين التي صدرت قبل ١٩٧١م تظل صحيحة، ويلزم القاضي بتطبيقها حتى تعدل. أما القوانين بعد ١٩٧١م فيجب أن تكون موافقة للشريعة، وما هو غير موافق للشريعة غير دستوري؛ ولهذا تعيد اللجان الفنية في مجلس الشعب النظر في القوانين السابقة على ١٩٧١م، كالقانون المدني، والتجاري، والعقوبات، إلى آخره حتى تنقيها من النصوص المخالفة للشريعة، ثم تعرض على المتخصصين لإبداء رأيهم فيها تمهيدًا لدخولها مجلس الشعب لإصدارها.

والقرآن الكريم والأحاديث المتواترة

القليلة القطعية الثبوت والدلالة لا اجتهاد فيها، أما أحاديث الآحاد ظنية الثبوت والدلالة، والمبادئ العامة التي يمكن استنباط أحكام فرعية منها فإن باب الاجتهاد فيها مفتوح.

والخلاصة هي أن كلام الله لا يقنن، وما عدا ذلك يقبل التقنين الذي يهتدي به القاضي الذي لم يعد مجتهدًا كما كان في الماضي.

لهذا كانت الشريعة الإسلامية تصلح لكل زمان ومكان؛ لكل زمان لأنها فيها من المرونة والنصوص ما يمكن استنباط أحكام جديدة تلائم وتواجه متطلبات العصر الحديث؛ ولكل مكان لأنها لا تفرق بين مجتمع وآخر.

ويتعين علينا أن نعمل في تؤدة وهدوء حتى يكتمل العمل الفني الذي سيطبق في العالم الإسلامي كله.

[د] كلمة الدكتور صوفي أبو طالب في معهد الدراسات الوطنية يوم ١٩٨٣/١/١٩م

إن أول عمل لي منذ توليت مهام وظيفتي كرئيس لمجلس الشعب هو تشكيل مجموعة لجان فنية تضم صفوة العلماء في الشريعة، ومن الأزهر، ومن الحقوق والقضاء والمحامين وأنجزت هذه اللجان الفنية الكثير من أعمالها، ولم يبق غير القليل، وفي سبيل الانتهاء منه.

وهذا العمل يجري على مستوى العالم الإسلامي كله الذي لا يتجاوز عدد المتخصصين القادرين على تقنين الشريعة الإسلامية ٢٠ أو ٣٠ عالمًا، منهم في مصر وحدها ١٠ أو ١٢ عالمًا، وهؤلاء هم وحدهم القادرون على إتمام هذا الإنجاز الضخم الذي سيغير النظام القضائي من نظام لاتيني وفرنسي إلى نظام إسلامي كان يطبق وحده دون منازع في القرن الماضي، إلى أن جاء الاستعمار بقوانينه لتفتيت الوحدة الإسلامية.

واليوم نعود إلى ذاتنا الإسلامية. وخلال هذا القرن جرت أمور وأمور لم يتصد لها الفقهاء برأي في مجال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، بالإضافة إلى عوامل الترجيح التي نأخذ بها.

وبعد أن استعرض الدكتور صوفي أبو طالب ما تم إنجازه من مواد، في مختلف القوانين الجنائية، والمدنية، والتجارية، إلى آخره، قال: إن هذا العمل ليس سهلاً أو يسيرًا؛ لأنه سوف يقلب النظام القانوني كله، وتتم مراجعة القانون كله، من أجل الوصول إلى نظام له صفة الدوام.

لقد انتهت اللجان الفنية من وضع المشروع، ولم يبق غير القليل. فمن الناحية الفنية تم إنجاز أصعب وأدق عمل تقريبًا، وأرسلت نسخ من مشروعات القوانين المطبوعة إلى الأزهر ورجال الحقوق والقضاء لإبداء رأيهم فيه، فقد يكون هناك فقه إسلامي آخر أفضل رأيًا من الرأي الذي أخذنا به.

ولسوف نكون قدوة لبقية الدول العربية للأخذ به وسوف ننتهي منه في القريب حسب ما نحب جميعًا ونبغي - وحسب ما يوجهنا إليه الله - ابتغاء وجه الله، والله يوفقنا لما فيه رضاه.

[هـ] كلمة الدكتور صوفي أبو طالب في الدورة التدريبية لمسئولي الخدمات بالمحافظات بمعهد الدراسات الوطنية يوم ١٩٨٣/٢/٢١

إننا ندرك أبعاد العمل وأهميته في هذا المجال كمطلب جماهيري نص عليه الدستور، لقد كنا نطبق الشريعة الإسلامية دون منازع أو منافس حتى أواخر القرن الماضي (القرن التاسع عشر) حتى جاءت القوانين الأوروبية التي ترتب عليها تغيير هوية الشعب العربي وتمزيقه، وما أحدثه الجانب الثقافي والحضاري والوافد علينا من ازدواجية في كل شيء في حياتنا اليومية، حتى في الملبس، وما نتج عن ذلك من ظهور ثلاثة تيارات مختلفة:

١- تيار فكري يتمسك بالتراث الإسلامي بصورته القديمة، كما كان في القرن الأول الهجري، وأصحاب هذا التيار هم من السلفية الذين يرفضون أي تغيير، وهذا ضد الشريعة الإسلامية؛ لأن الشريعة بطبيعتها متطورة.

٢- تيار فكري آخر ينقل نقلاً أعمى عن الغرب، ويتمثل فيمن يطلق عليهم المتفرنجين.

٣- تيار يمثله محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ويتمثل هذا التيار في الاحتفاظ بالتراث الإسلامي، مع تطويره بما يتفق مع ظروف العصر، دون أن يفقد أصالته. فما يتفق مع أصول الحضارة الإسلامية آخذ به وما يتنافى معها أرفضه، وعلى أكتاف هذا الفكر يقوم تقنين الشريعة الإسلامية. فالشورى في الإسلام تأخذ في النظام الغربي شكل الديمقراطية، والبيعة في الإسلام تأخذ في النظام الغربي شكل صناديق الانتخابات. وما دامت هذه الفكرة أصلها في تراثي فليس هناك ما يمنع من الأخذ بها.

مثال آخر وهو العدالة الاجتماعية في أوروبا، إنها أصل أصيل وركن في الإسلام منذ ظهوره منذ ١٤ قرنًا وهو قائم على مبدأ التكافل الاجتماعي:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[المعارج: ٢٤، ٢٥]

فالأمور التي لا دخل لها بالدين أو تحارب الدين أو لا تتمشى مع الحضارة الإسلامية لا نأخذ بها، وهذا التيار يسود الفكر المعاصر، وتقنين الشريعة الإسلامية يعكس حضاراتنا وتراثنا، وهذا الجهد لا يستهان به من الناحية الفنية، ولا سيما أنه قد ظهرت أمور لم يكن لنا عهد بها من قبل في الفقه الإسلامي، الذي يتميز بعدم التعرض لنصوص تفصيلية؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن الزمن يتغير، فترك لنا حرية إعمال فكرنا للتغيير بما يتفق مع ظروف العصر، واستخلاص أحكام من المبادئ العامة في الفقه الإسلامي. وهذا الجهد الكبير يحتاج لبعض الوقت، لتدوين النصوص، واختيار النص الملائم والأحكام الملائمة، التي تتفق مع متطلبات هذا العصر - بالنظر إلى ما استغرقه القانون المدني الذي وضعه السنهوري باشا سنة ١٩٤٨م من فترة بلغت ١٣ سنة - والنظر إلى أن هذا العمل الفني الضخم الذي انتهينا منه تقريبًا لم يتبق منه عندنا إلا حوالي ٥٠ أو

٦٠ مادة في القانون المدنى الذى تصل مواده إلى أكثر من ألف مادة، فضلاً عن الانتهاء من القوانين: التجاري، والمرافعات، والبحري، بما تتضمنه من آلاف المواد، وآلاف الصفحات بمذكراتها وأصولها.

إن ما ينادى به البعض من ترك الأمور للقاضى ليطبق نصوص الشريعة الإسلامية هو ضرب للتجربة، وتعد ضربة قاتلة؛ لأن القاضى فى صدر الإسلام كان قاضيًا مجتهدًا. والاجتهاد له شروط، وهى أن يكون حافظًا للقرآن الكريم وعارفًا لأسباب النزول، وحافظًا لمصطلح الحديث، ومميزًا الأحاديث المتواترة والآحاد، قادرًا على فهم كل هذه الأمور. ويقينًا لا يوجد مثل هذا القاضى فى عصرنا الحاضر. فضلاً عن أن هناك نوعين من الأحكام: أحكام قطعية الثبوت والدلالة، وهى الأحكام التى وردت فى القرآن الكريم، والأحاديث المتواترة التى لا يختلف عليها اثنان مثل:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

[النساء: ١١]

وأحكام ظنية الدلالة مثل:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

[البقرة: ٢٧٥]

فلم تحدد ماهية شروط البيع، وبطلانه، والشهود، إلى آخره من أحكام اجتهادية. وما ينطبق على البيع ينطبق على الحضانة. فتختلف الآراء والمذاهب الفكرية حوله، وحول غيره من الأمور بحكم مذاهب السنة الأربعة، ومذاهب الشيعة الثمانية، وبحكم الآراء المتعددة للأئمة المتقدمين والمتأخرين داخل كل مذهب. وفى دولة واحدة سوف تتباين الأحكام إذا ما تركت للقاضى الذى سوف يصدر حكمه على المذهب الذى له دراية به. ونرى الآن الأحكام الاجتهادية تتباين فيها الآراء فإنه يتعين أن توضع للقاضى أحكام اجتهادية لكى يطبقها مستمدة من كتب الفقهاء يختار منها الرأى الذى يتناسب مع ظروف المجتمع، كانتهاء سن الحضانة بالزواج، وحق الدائن فى الاعتراض على الشخص الذى عليه دين «المدين»، ويحول دون تصرفه فى ماله، بعكس ما كان يحدث فى الماضى عندما كان عند المدين ذمة ودين والتزام بالوفاء بالدين، وتوريث الحفيد بمقتضى ما يعرف بالوصية الواجبة، والتأمين كصورة من صور التكافل الاجتماعي.

إن هذا العمل الفنى الضخم الذى قامت به مجموعة من اللجان من صفوة الفقهاء فى القانون والتشريع والقضاء، وتم فيه اختيار الرأى الفقهى الملائم من كتاب الله وسنة رسوله فى الأمور التى جدت، قد أنجز بأسلوب علمى رائع دونما ضجة أو إعلام. ولما كان هذا العمل الذى قامت به مصر ستحتذى به الدول العربية والدول الإسلامية، فقد أرسل إلى الجهات المعنية لكى تبدى رأيها فيه وهى: الأزهر، وكليات الحقوق، والقضاء لعلها تجد لديها رأيا أفضل.

وبمجرد الانتهاء من هذه المرحلة سيدخل إلى اللجنة التشريعية، ويناقش مادة مادة فى مجلس الشعب؛ تمهيدًا لإصداره والعمل به، وعندئذ سوف أشعر بسعادة منقطعة النظير.

«يتبع»

معاملة المسلمين مع غيرهم.. المبادئ والتطبيق

تحقيق العدالة بين الرعية





فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ونختم الحديث عن المبادئ الثلاثة الأساسية التى اتخذتها مثالاً للمبادىء والتطبيق فى معاملة المسلمين مع غيرهم بالحديث عن:

تحقيق العدالة بين الرعية:

ما أسعد أن يعيش الإنسان فى مجتمع تسوده العدالة، ويطمئن فيه إلى تطبيق العدل بين الناس جميعا، لا فرق فى تطبيقه بين حاكم ومحكوم، ولا بين غنى وفقير، ولا بين قوى وضعيف، ولا بين مسلم وغير مسلم.

ولأن الإسلام حريص على أمن المجتمع واستقراره، وعلى إرساء دعائم هذا الأمن والاستقرار اعتنى عناية بالغة بتحقيق العدالة بين الناس جميعا بلا تفرقة أو تمييز، فأولاها اهتمامه وركز عليها باعتبار أنها من أهم حقوق الإنسان فى الإسلام.

ولأهمية العدل فى حياة المجتمعات والشعوب والأمم بصفته ركنا أساسيًا فى بناء المجتمع السليم، فإذا تحقق العدل وساد، والتزم الجميع بتطبيقه ضمن المجتمع استقرارًا واطمئنانًا يدفعانه إلى التقدم فى جميع جوانب الحياة.. نجد أن القرآن الكريم قد اهتم اهتمامًا خاصًا بالعدل، فقد وردت مادة «عدل» وتصرفاتها:

إعدلوا، تعدلوا، يعدلون.. إلخ فى تسع عشرة آية من سور القرآن الكريم، كما وردت مادة «قسط يقسط بمعنى العدل» فى ست وعشرين آية من سور القرآن الكريم..

والقرآن الكريم يأمر فى صراحة ووضوح بإقامة العدل ووجوب تحقيق العدالة، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

(النحل: ٩٠)

ويقول جل وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

ويحذر القرآن الكريم من الانحياز إلى طرف من الخصمين عند الحكم، بسبب قرابة تربط بين الحاكم أو القاضى وهذا الطرف، يقول الله – تعالى:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(الأنعام: ١٥٢)

كما يحذر القرآن الكريم من الانحياز إلى طرف من الخصمين عند الحكم بسبب عداوة، أو كره، أو بغض للطرف الآخر، يقول- سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

وللترغيب في الالتزام بالعدل والنطق بالحق بين رسول الله ﷺ عاقبة وجزاء العادلين عند الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين - العادلين - عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» (١).

وعن عياض - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رفيق القلب لكل ذي قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال» (٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» (٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة: عدل ساعة أفضل عند الله - تعالى - من عبادة ستين سنة: قيام ليلها وصيام نهارها، ويا أبا هريرة: جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله -عزوجل- من معاصي ستين سنة» (٤).

وللترهيب من الظلم والتحذير من ارتكابه ينهانا رسول الله ﷺ من الظلم ويبين لنا عاقبة فعله، فقد روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم، وتستسقوا فلا تسقوا، وتستنصروا فلا تنصروا» (٥).

وعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» (٦).

وكان رسول الله ﷺ أول من يطبق العدالة على نفسه، فقد طالبه يهودي بدين لم يأت موعد سداده بعد، واشتد اليهودي واحتد في طلبه، وجذب الرسول من ثوبه جذبة شديدة أثرت في عنقه الشريف، مما أثار حفيظة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهم بضربه، فقال له النبي ﷺ: «لا يا عمر: أنا وهو أولى منك بغير ذلك: تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي» (٧).

ولقد حرص الخلفاء الراشدون في صدر الإسلام على الالتزام بالعدالة وتطبيقها على أنفسهم أولا، فكانوا موضع القدوة والحذوة للرعية، ولدى:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

«الزمر: ١٨»

والتاريخ الإسلامي حافل بالأمثلة:

فقد افتقد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه درعه فوجدها عند رجل نصراني، فرفع دعوى إلى القاضي شريح، فقال شريح للخصم: ما تقول في دعوى أمير المؤمنين؟

فقال: الدرع درعي، وليحضر أمير المؤمنين البينة، فقال شريح للإمام علي: ألك بينه على ما تقول؟ فقال الإمام علي: ليس عندي بينة، فقال شريح: هي إذن ملك للرجل لا لك. وأخذ الدرع خصمه ومضى دون اعتراض... وسارع سيدنا علي إلى شريح فقال له: حياك الله، فقد عملت بما يفرضه الشرع الحنيف، وبعد ذلك رجع الخصم إلى شريح فقال له: الدرع درع أمير المؤمنين، وقد أخذتها وأنا أتبع الجيش عند ذهابه إلى صفين! وبلغ الأمر عليا فقال: هي له تبرعا ما دام قد اعترف بالحق.

وحدث أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مر بباب قوم فوجد سائلا ضرير البصر يسأل الناس، فسأل عنه، فعرف أنه يهودي، فقال له: ما ألجاك إلى السؤال؟ فقال: الحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجد، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له: أنظر هذا وأمثاله، فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وقد قال الله - تعالى -:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

«التوبة: ٦٠»

وهذا من المساكين من أهل الكتاب.

على اننا لا نجد مثالا أعلى يبرز عدالة الإسلام، واهتمامه البالغ بتحري وجه الحقيقة مع الخصوم ليحكم بالحق بينهم، مثل هذا المثل الصارخ الذي يدل على حرص الإسلام على تحقيق العدالة بين الناس جميعا، وعلى النزاهة البريئة من كل شك، وهو مثل جدير بالتأمل والتفكر، والذيوع والانتشار ليكون قدوة عظمى للحاكم والمحكومين، وللراعي والرعية، وللناس أجمعين.

فقد نزل القرآن الكريم ليبرىء يهوديا اتهم ظلما وعدوانا بالسرقة، وليس لديه أدلة تثبت براءته، وكاد أن يصدر الحكم عليه بإدانته بالسرقة، وتنفيذ الحد عليه، لولا تبرئة القرآن الكريم له.

فقد حدث أن سطا رجل - ينتسب إلى الإسلام - اسمه: طعمة بن أبيرق - أحد بني ظفر - على جار له اسمه: قتادة بن النعمان، وسرق درعا له في جراب من دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق فيه، ثم خبأ طعمة الدرع عند رجل من اليهود اسمه: زيد بن السمين ليحفظها عنده وديعة له.

وبحث أصحاب الدرع عنها عند طعمة فلم يجدوها، وحلف ما أخذها، فتركوه وتتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوه واتهموه بالسرقة، فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة، وأودعها عندي أمانة له، وأنه لا يعلم شيئا عن سرقتها، وأنه بريء من تهمة السرقة... فقالت بنو ظفر - أقارب طعمة - انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فلما وصلوا إليه سألوه أن يجادل - أي يدافع - عن صاحبهم طعمة، وقالوا: إن لم تفعل هلك طعمة، وافتضح أمره، وبرىء اليهودي السارق.

وعرضت المسألة على رسول الله ﷺ

(١) - مسلم والنسائي
(٢) - مسلم
(٣) - رواه الخمسة إلا أبا داود
(٤) - الأصبهاني
(٥) - الطبراني
(٦) - مسلم وغيره
(٧) - متفق عليه

حيث أنكر طعمة أنه سرق، وأنكر أنه أعطى الدرع إلى اليهودي، وجعل طعمة يحلف - كذبا - على صدق كلامه.

وأمام هذا الحلف المتكرر من طعمة، وأمام ضبط الدرع في منزل اليهودي، وليس لديه أدلة على أن طعمة أعطاها له.. كاد رسول الله ﷺ أن يبرىء طعمة من تهمة السرقة، وأن يعاقب اليهودي، وقيل هم أن يقطع يده.

ولكن الله عز وجل المطلع على كل شيء، يعلم السر وأخفي، شاء سبحانه أن يظهر الحق ويبرئ المظلوم، فنزلت هذه الآيات الكريمة تبرئ اليهودى من السرقة، وتطلب من الرسول ﷺ أن يستغفر الله مما هم به من تبرئة طعمة وإدانة اليهودي، حيث إن ظاهر الأمر يقتضي ذلك «وهذا إن لم يكن ذنبا إلا أنه - سبحانه وتعالى - أمر نبيه ﷺ بالاستغفار من ذلك لعلو مقامه على حد قول العلماء: «حسنات الأبرار سيئات المتقين»، أو تطلب من الرسول ﷺ أن يستغفر الله لهؤلاء الخائنين لكي يتوبوا إلى الله تعالى ببركة استغفاره لهم.. كما توجه الآيات الكريمة التوبيخ الشديد للخائنين أقارب طعمة الذين دافعوا عنه ليبرئوه من الخيانة والسرقة.. ثم تفتح الآيات الكريمة باب التوبة لمن يعمل عملا سيئا يؤذى به غيره - كما فعل طعمة باليهودى -، أو يظلم نفسه بارتكابه الفواحش التى يعود معظم ضررها على نفسه، بأن يتوب إلى الله توبة صادقة نصوحا، وعندما يتوب يجد الله بفضله وكرمه غفورا رحيما.

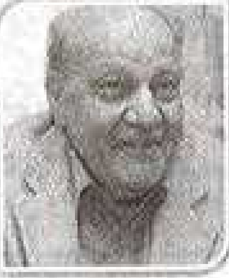
يقول الله - تعالى -:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ
خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ
يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا
يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا
(١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ
اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا
فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ
أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾

(النساء: ١٠٥ - ١١٣)

إن الإسلام ينظر إلى العدالة على أنها أساس أمن المجتمع واستقراره، وفي ظل الحياة العادلة ترى الجميع آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولننظر إلى حياة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد طبق العدل في أسمى معانيه، ها هو ذا يأتيه رسول كسرى بالمدينة فلم يجد له قصرًا ولا بيتًا متميزًا عن سائر الرعية، ويراه نائما أمام بيته، فدهش وقال قولته المشهورة: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

عن حقوق الإنسان



المستشار طارق البشري

من أشهر الوثائق السياسية فى عالم اليوم «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م.

ولم تصدر هذه الوثيقة من فراغ، فقد سبق للأمريكيين فى حرب الاستقلال التى شنوها ضد احتلال بريطانيا لبلادهم، سبق لهم أن أصدروا "إعلان الاستقلال" فى يوليو سنة ١٧٧٦ م وضمنوه "أن كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية" وأشاروا إلى حق الإنسان فى الحياة والحرية والمساواة.

ثم لما كانت الثورة الفرنسية فى أغسطس سنة ١٧٨٩ م، أصدرت إعلانًا لحقوق الإنسان وتضمن "يولد الناس أحرارا ومتساوين فى الحقوق"، وما لبث هذا الإعلان أن صار ذا شهرة واسعة، وصارت مبادئه من الأصول التي انبنى عليه الفكر السياسى الغربى فى العصر الحديث.

وجاء «الإعلان العالمى..» في سنة ١٩٤٨ م مستندا للأصلين السابقين، فكان وثيقة دولية ذات إشعاع على الدساتير والقوانين الوطنية التي تصدر في غالبية الدول. وبصدور هذا الإعلان عملت الأمم المتحدة على إنجاز مهمة أكثر صعوبة، وهي تحويل مبادئ الإعلان إلى مواد تتضمنها معاهدة دولية تقرر التزام الدول المصدقة على هذه المعاهدة، التزامها قانونا بتطبيق هذه المبادئ أى تحويل المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان إلى أحكام قانونية ملزمة. وأعدت مشروعى اتفاقيتين، الأولى تتناول الحقوق المدنية والسياسية، والثانية تعالج الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٦٦م صدقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على هاتين الاتفاقيتين، ولكن كان تنفيذ كل منهما يتطلب موافقة ٣٥ دولة على الأقل. ولم يتوافر هذا العدد إلا بعد عشر سنوات. فى ٣ يناير ١٩٧٦ بالنسبة للاتفاقية الخاصة "بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، وفى ٢٣ مارس ١٩٧٦ م بالنسبة للاتفاقية الخاصة «بالحقوق المدنية والسياسية».

وتتضمن الاتفاقية المدنية والسياسية حق كل كائن بشرى فى الحياة والحرية والأمن والحياة الخاصة، وحقه فى المحاكمة العادلة، وحمايته من العبودية ومن الاعتقال، وحقه فى حرية الفكر والضمير والديانة وممارسة الرأى والتعبير عنه وحقه فى التنقل والتجمع. كما تتضمن الاتفاقية الاقتصادية والاجتماعية كفالة الظروف المعيشية الأفضل، وحق الشخص فى العمل والأجر العادل وتوفير الخدمات الصحية والتعليمية له وتشكيل الجمعيات والانضمام لها.. إلخ.

***

يسهل جدا القول بأن الإسلام كان سابقا لهذه الوثائق فى تقرير جملة المبادئ التى تضمنتها، حماية لحق الإنسان فى العيش الحر الكريم، هذا هو الواقع الذى تنبئ به الحقيقة التاريخية. إن أصل النصوص والمبادئ التى وردت فى الوثائق التى سبقت الإشارة إليها، وهو الأصل الذى صاغه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان في مادته الأولى بقوله "يولد جميع الناس أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق.." هذا النص المشهور المتكرر، هو ذاته نص عبارة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص التى يحفظها صبية المدارس والكتاتيب عبر هذه المئات من السنين "لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" وأن أحمد عرابى زعيم ثورة ١٨٨٢ فى مصر عندما وقف بجواده يواجه الخديوى حاكم مصر فى ميدان عابدين ويقول له: "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا". لم يكن طالع إعلان الاستقلال الأمريكى ولا إعلان الحقوق الفرنسى إنما كان يردد مقولة مشهورة لعمر يعرفها صبية الكتاتيب.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾

(الحجرات: ١٣)

تشير هذه الآية إلى وحدة المنشأ للناس كافة، والحديث موجه هنا للناس كافة لا للمؤمنين وحدهم. والرسول الكريم يوصى فى خطبة الوداع "أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، وكلكم لآدم وآدم من تراب" ثم يؤكد أن ليس لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوي".

بهذا يتقرر أصل التساوى بين الناس جميعا حسب خلقهم الأول وعناصرهم الأولي، وأن التفضيل يرد بعد ذلك من الفعل الإرادى للبشر، وهو التقوي، جماع خاصتى العمل والإيمان، والتعامل والسلوك. كل ذلك منذ ألف ومائتين من الأعوام السابقة على الإعلان الأمريكي.

وتسهل أيضا المقارنة بين هذا المبدأ الإسلامى وبين ما قامت عليه عقائد البشر وقت نزول الرسالة المحمدية، فكتب الهنود البراهيمية بالهند تقرر التفاضل بين الناس حسب عناصرهم ونشأتهم الأولي، واليونان كانوا يرون أنفسهم شعبا مختارا، ويرون غيرهم أدنى منهم ويسمون الغير برابرة، والرومان يبخلون بنظامهم القانونى وما يتيح لهم من ضمانات، يضنون به أن يكون نظاما قانونيا حاكما لغير الرومان من سائر البشر. والإسرائيليون يعتقدون أنهم وحدهم شعب الله المختار، وعرب الجاهلية يرون كمال الإنسانية فى عروبتهم دون الأعاجم، ويأبون على بناتهم الزواج من الأعاجم.. والمسيحيون كان علق بهم من آثار اليونان والرومان.

هذا أهون الملاحظات وأيسرها فى هذا الشأن الذى نتحدث عنه وهى هينة بمعنى أنها معروفة أو أن معرفتها قريبة المنال لمن ينشد المعرفة. إنما ما يحتاج إلى نظر فهو الملاحظتان الآتيتان:

● أولا: أن حقوق الإنسان يمكن تلخيصها على تنوعها وتعددها فى أمرين عامين جوهريين هما: حرية إرادته وحرمة شئونه، أى أن يتاح له من الأوضاع ما يمكنه من أن يعمل إرادته وفق ما تنزع إليه مشيئته، وأن يكون له حرم يحيط بكل ما يلتصق به من شئون، ويشمل هذا المجال الحيوى لإعمال الإرادة، ويأمن فيه أى عدوان أو اقتحام.

هذه الحقوق ليست لازمة للإنسان بموجب كونه إنسانا فقط، أى أنها ليست فقط لازمة للفرد ليحيى حياة صحيحة، ولكنها لازمة كضرورة لإقامة نظام اجتماعى رشيد، بمعنى أنه يتعين توافرها للأفراد لكى يقوم التنظيم الجماعى لهم على تماسك وترابط وليؤدى وظيفته بفاعلية وكفاية ويسر.

وذلك لأن البناء الاجتماعى لا تتماسك هياكله إلا إذا كانت لبناته قد هيئت بمواصفات خاصة تفيد القدرة على التحمل والبعد عن الخور والهشاشة ومثال لذلك، فإننا لا نستطيع أن نقول بقيام نظام نيابى حقيقي، مهما كفلنا أدق الضمانات لصحة العملية الانتخابية، دون أن يكون الفرد آمنا على نفسه وعلى عياله ورزقه. لأن فقدان الأمن يعدم إرادته قبل أن تتشكل.

● ثانيا: ما هو المصدر الذى تعتمد عليه إعلانات حقوق الإنسان؟ طبعا إن لها قوة تأتيها من تأييد الناس لها واقتناعهم بفائدتها. ولكن هذا المصدر وحده لا يكفى مستندا لإعطائها الدرجة القصوى المطلوبة من الاحترام والحاكمية. لأن "تأييد الناس واقتناعهم" أمر يدور فى إطار الخيارات البشرية التى يلحقها التغيير ويرد عليها الخلاف بين الجماعات والمدارس والمذاهب. وبهذا فهى محكومة وليست حاكمة كما يراد لها أن تكون.

هذا هو المأزق الذى يقابل الفكر الوضعى العلمانى (الذى يفصل النظام القانونى عن شريعة السماء)، عندما يبحث فى شرعية الأحكام المطلوب تقريرها لتقسيم أمور الجماعة البشرية وأوضاعها. فالقانون مثلا مصدره إرادة الشعب التى تتمثل فى نوابه المنتخبين، وهو يتقرر إذا وجد نفع فيه، ويلغى ويتعدل حيثما وجد النفع فى الإلغاء أو التعديل.

ولكن بقيت مشكلة أمام الفكر الوضعى العلماني، وهى أن ثمة أحكاما يتعين أن يكون لها قدر من الاستقرار وألا تكون عرضة للتغيرات السريعة (التى قد تكون طارئة) والتى قد تتأثر بأحداث عارضة تؤثر فى ميزان الأغلبية والأقلية البرلمانية. هذه المشكلة واجهها الفكر الوضعى الأوربى بتقرير أن ثمة أحكاما "دستورية" أى أنها أحكام قانونية تعلو على القانون وتحكمه، ولها قدر من الاستقرار والثبات فلا يجوز إلغاؤها أو تعديلها إلا بإتباع إجراءات خاصة، وإلا إذا توفرت أغلبية كبيرة غير عادية لتقرير التعديل أو أن يستفتى عليه بأن يطرح، لا أمام البرلمان، ولكن أمام الناس كافة لتقرر أغلبيتهم ما تراه.

ولكن هذا الوضع لم يكف، فثمة أحكام تشكل المرتكزات الرئيسية للنظام السياسى الاجتماعى الذى يقوم عليه الدستور، وليس من المنطقى أن تكون هذه المرتكزات مما يمكن للدستور نفسه أن يهدمها، ومثال ذلك، شكل الدولة وهل يكون ملكيا أو جمهوريا، أو ما يتعلق باستقلال الدولة أو حدود سيادتها الجغرافية.. الخ هذه المشكلة حلت بطريق منع تعديل هذه الأحكام بأية كيفية كانت، لأنها أحكام تتعلق بأصل قيام الدولة وتماسكها؛ لذلك فإن هذه الأحكام لا تتعدل ولا تتغير "بطريقة مشروعة"

وهى لا تتغير إلا بأحداث تحدث من خارج بناء الشرعية القانونية القائمة فى وقت ما، من نحو الحروب والثورات.

ولكن بقيت رغم كل ذلك مشكلة، وهى أنه إذا كان القانون وضعيا بمعنى أننا نحن الذين ننشئه إنشاء ونخلقه خلقا، ونحن الذين نلغيه ونعدمه وإذا كان الدستور هنا كالقانون يسويه البشر بإرادتهم، ومصدر شرعيته مكسوب من رضائهم فى النهاية، وإذا كانت إرادة البشر متغيرة، فما الذى يحكم إرادة البشر فى تغيرها؟ يمكن أن نقول إن ما يحكمها هو صالح الجماعة فى كل ظرف خاص، وأنها تسير مع ما يتحقق للبشرية من نفع مع تغير الظروف والأحوال. ولكن يبقى سؤال هو: ما المعيار الذى نحكم به بالنفع والصلاح، والمعيار الذى نحدد به المفيد والضار من الأمور؟

هذا السؤال الذى بلغناه سؤال فلسفي، يتعلق بالبحث عن المعيار الذى يوجه الإرادة البشرية ويرشد العقل البشرى إلى النافع ليجتلبه والضار ليجتنبه، أى معيار الحسن والقبح، والصحة والفساد. إن رجال الفكر القانوني الوضعى بلغوا هذا السؤال ووقفوا عنده، إنهم وضعيون علمانيون يفصلون حكم الأرض عن تشريع السماء، ويستبعدون "الغيب" من أن يكون له أثر فى تشريعات الأرض. وها هى الحاجة العملية والمنطقية تلجئهم للبحث عن معيار حاكم "للقيم العليا فى المجتمع ويكون هو مصدر الشرعية العليا التى تميز الحسن من القبيح والصحيح من الفاسد والنافع من الضار.

تفتق الفكر الوضعى هنا عن مقولة فلسفية أسموها "القانون الطبيعي" أو مجموعة المبادئ الأصلية الأزلية وعرفوها بأنها تلك القيم والمبادئ والأصول التى يتضمنها الضمير الإنسانى أو الذى توحى به الفطرة أو أنها المبادئ المتضمنة فى كيان الجماعة البشرية. وهذه المبادئ والأصول والقيم هى التى تحكم الشرعية العليا للجماعة ولقوانينها ولدستورها، وهى أيضا تحكم السلوك والتقابلات إذا لم يوجد نص فى قانون أو دستور.

هنا تتعين ملاحظة، ما صنع الفكر الوضعي، لقد بدأ بأن أنكر غيب السماء فوجد نفسه فى النهاية يبتدع غيبا جديدا، "غيبا أرضيا"، أسماه "القانون الطبيعي" أو "قواعد العدالة" أو "المبادئ الدستورية العليا". ونسب إلى هذا "الغيب الأرضي" أنه مصدر "حقوق الإنسان".

هذه الحقوق الجوهرية لحياة الإنسان واستقامة نظام المجتمع، أقوى من أن تسندها وتدعم وجودها "وثيقة دولية" أو نص دستورى "أو نسبة غامضة إلى مصدر مصنوع أسموه "القانون الطبيعي" هى حقوق ذات قداسة مستمدة فى الأساس من تشريع السماء ومن غيب السماء، وبهذا يصدق وصف الأزلية والأصالة عليها، وهو الوصف الذى يقرره القانون الوضعى ولكنه يبحث له عن مستند فلسفى خارج الدين، فتكون النتيجة أنه خرج على الدين لينشئ دينا جديدا أسماه "القانون الطبيعي".

تقرير الحقوق فى الإسلام يصدر عن أصول الشريعة الإسلامية التى تنزلت إلينا بالقرآن الكريم وسنة النبى - ﷺ -. وهى تستمد شرعيتها العليا من قداسة النصوص التى شرعتها وأقامتها، فيصلاً بين الحق والباطل؛ لذلك كانت رعاية الحقوق المنصوصة وأداء الواجبات المقررة، كان فى ذلك تعبد لله، عز وجل، مع لزومها لضبط السلوك الاجتماعى وترشيد التعاملات البشرية وكفالة العدل

والمساواة بين البشر.

هنا تتصل مجموعة الحقوق والواجبات المشرعة فى أصول الإسلام، تتصل بالجانب الإيمانى الذى يربط الإنسان بربه، وتتصل فى الوقت نفسه بأصل انتماء المسلم للجماعة الإسلامية: وهى فى مجموعها تستهدف تحقيق العدل باعتبار المساواة بين الناس كافة وأنهم لا يتعاملون إلا بالتقوى، ومن حيث أن صاحب الشرع الحاكم هو الإله المعبود من دون الخلق جميعا، والناس إزاء ذلك جميعهم سواسية كأسنان المشط، ولا يتأله ناس على ناس. هذا كله من حيث الشرعية العليا ومعايير الاحتكام التى يتبعها البشر، وبهذا تبدأ حقوق الإنسان بالعبودية لله وحده. ويستمد البشر سيادتهم إزاء بعضهم البعض بهذه العبودية عينها.

هذا هو الوعاء الفكرى العام الذى يمكن أن نضع فى إطاره مبدأ "حقوق الإنسان" فى الإسلام.

لقد سبقت الإشارة إلى أن مجمل ما يسمى بحقوق الإنسان، أشير اليها فى البيان العالمى لحقوق الإنسان، وهو يتكون من ثلاثين مادة، تشمل المساواة بين البشر كافة وعدم التمييز بينهم بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو الاصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد.. وتشمل تساوى الناس أمام القانون وحق كل فرد فى اللجوء إلى القضاء وتساوى الأفراد أمام المحكمة وأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ولا يقبض عليه تعسفا، ولا يدان أحد عن فعل لم يكن مجرما حين أدائه.

كما اشتملت حماية الفرد من أى تدخل تعسفى فى حياته الخاصة وشئون أسرته ومسكنه ومراسلاته، وكفالة حرية التنقل للشخص وحق الزواج وحق التملك، وكفالة حرية الفكر والضمير والدين، وحق الاشتراك فى الجمعيات والمساهمة فى الشئون العامة، وحق كل شخص فى العمل والراحة ومستوى معيشة كاف، وحقه فى التعلم.

هذه مجمل ما يعرف الآن بحقوق الإنسان مع تفاصيل وردت فى الاتفاقات التالية. ويسهل المقارنة بين هذه الحقوق وبين ما تقرره أحكام الشريعة بالنسبة لكل من هذه البنود، مما هو قريب التناول من كل طالب فيما أظن.

وقد سبق أن اشرنا إلى حكم المساواة التامة بين البشر فى الإسلام بغير تمايز إلا بالتقوى ثم إن حرمة حياة الإنسان وشخصه وماله وعرضه نراها فى الحديث الشريف «كل المسلم على المسلم حرام: عرضه وماله ودمه».

وبالنسبة لحرمة المسكن والحياة الخاصة، فقد منع القرآن فى سورة النور (الآية ٢٩) أن يدخل المؤمنون بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا ويسلموا على أهلها، وإن لم يجدوا فيها أحدا فلا يدخلوها. كما منع القرآن الكريم المساس بسمعة المرء بالقذف والغيبة، حرية التنقل والإقامة فى الدولة ومغادرتها مكفولة فى الإسلام. ولا يتقرر النفى فى الإسلام إلا عقوبة تفرض على كل من يحارب الله ورسوله ويسعى فى الأرض فسادا، سورة المائدة (الآية ٣٣) وقد حث القرآن الكريم على الهجرة تحررا من الظلم والاضطهاد (النساء: ٧٩-١٠١)

وبالنسبة لحرية الفكر والعقيدة حفظهما القرآن الكريم ومنع الإكراه فى الدين (البقرة: ٢٥٦)

وضمن لغير المسلم حرية ممارسة شعائر دينه، وأن يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

والحمد لله،،،

مفهوم النوع الاجتماعى من المنظور الإسلامى

دور المرأة المسلمة فى الأسرة والمجتمع وفق مقاصد الشريعة وثوابتها



أ. د. أحمد كمال أبو المجد

كثير من القضايا المعاصرة التى تطرح فيها نفسها للبحث فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، يتعذر الوصول فيها إلى رأى تطمئن له العقول والقلوب، إذ يقتصر بحث أكثر الباحثين على التعامل مع النصوص الجزئية المتفرقة التى وردت فى القرآن الكريم والسنة المطهرة، مع أن اطمئنان العقول والقلوب لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار حسم عدد من القضايا المنهجية التى يتعين البحث عنها فى كتب أصول الفقه وأصول الشريعة، إذ أن هذه الأصول هى التى تنير للباحث طريقه، وهو يتعامل مع النصوص الجزئية، ومع ما طرأ على أحوال الناس، مسلمين وغير مسلمين من تطورات وأمور وأوضاع لم يكن أكثرها قائمًا فى صدر الإسلام، بدءًا من عصر النبوة وامتدادًا عبر عصور التابعين ومن جاء بعدهم، إلى يومنا هذا.

ولما كان مناط الوصول إلى رأى تصدر به الفتوى حين يطلبها الناس من العلماء، أو إلى ترتيب وتنظيم يأخذ صورة التشريع "المبني" على أصول التشريع يصدر به أمر من ولى الأمر المعهود له بوظيفة التشريع، لما كان مناط الأمرين كلاهما، الفتوى والتشريع يتوقف على " معرفة الحق ومعرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر"، كما يقول الفقيه الحنبلى المشهور / شمس الدين ابن القيم، ولما كانت الوقائع متغيرة متطورة متجددة، فقد ترتب على هذا بطريق اللزوم انفتاح الباب للاجتهاد الذى يفضى إلى التجديد، ويكفل استجابة الشريعة لحاجات الناس وتحقيقها لمصالحهم. وفى الحديث

الصحيح (رواه أبو داوود وغيره): " أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).

الاجتهاد والتجديد

وقضية الاجتهاد والتجديد هذه أبعد مدى وأوسع مساحة من قضايا المرأة ومكانتها ودورها فى المجتمعات المسلمة إذ هى قضية " منهجية" تتعلق بدور الاجتهاد فى تطوير وتجديد الفكر الإسلامى كله بجوانبه ومبادئه كلها، والفقه الإسلامى بصفة خاصة، معنى الحديث أكثر من تعرضوا له بالشرح والتوضيح أن المجددين قد يكونون جماعة أو تيارًا فقهيًا اجتهاديًا، ولا يلزم أن يكون المجدد واحدًا على ما قد يوحى به نص الحديث، كما لا يلزم أن يكون بعث هذا المجدد متكررًا مرة واحدة كل مائة سنة، وإنما الذى تتحقق به الفريضة التى كتبها الله على العلماء من عباده إنما هو مواصلة الاجتهاد سعيًا إلى الإفتاء والقضاء والتشريع بما تتحقق المصالح الخاصة والعامة على أكمل الوجوه، وما تندفع به ولا تزال المفاسد الخاصة والعامة على منتهى الإمكان.

وإذا ألقينا نظرة سريعة-ولكنها فاحصة- على حال الاجتهاد المعاصر، لوجدنا الساحة عامرة بفريقين يحتاج موقفهما إلى الاستدراك والمراجعة.

فهناك علماء تخصصوا فى العلوم الإسلامية - فقهًا وتفسيرًا وحديثًا- ولكثير منهم فى هذه العلوم قدم ثابتة، وعلم واسع لا يجحد، ولكن سرعة تغير الأحوال فى الدنيا كلها واختلاف صورة كثير من الوقائع التى يدعى هؤلاء العلماء لبيان حكم الإسلام فى شأنها، والسرعة الهائلة التى تقع بها هذه التغيرات، قد دفعت أكثر العلماء المعاصرين إلى المبالغة فى الحذر والتردد فى الاجتهاد، وإلى إيثار التقليد، وإبقاء المجتمعات المسلمة جامدة على الموجود، متوقفة عن المبادءة إلى "التجديد"، وهذا المسلك قد أفضى بهم وبالناس من حولهم إلى الحال التى ذكرها ابن القيم حين وصفهم بأنهم: "سدوا على أنفسهم وعلى الناس طرقًا كثيرة من طرق الحق والخير، ظنًا منهم منافاتها للشريعة، ولعمر الحق أنها لم تناف الشريعة، ولكنها نافت ما فهمه هؤلاء من الشريعة، والذى أحدث لهم ذلك نوع تقصير فى معرفة الحق ومعرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر".

وإلى جانب هؤلاء اندفع عدد غير قليل من عامة الكتاب والمثقفين إلى منتهى الطرف الآخر من القضية، فتكلموا بغير علم ولا دراية فى تفسير الآيات والأحاديث النبوية، ووجهوا سهام نقد قاس تجاوز حدود النقد فى حالات كثيرة إلى توجيه حملة ضد علماء المسلمين الأقدمين والمعاصرين، ولم يكتفوا بهذا وإنما ندبوا هم أنفسهم لما يرون أن كافة العلماء تقاعسوا عن أدائه، فأفتوا فيما يعلمون وما لا يعلمون، ولم يتصوروا أن أداء هذه المهمة له حد أدنى من شروط العلم واستظهار آراء الأقدمين والمحدثين والتأهل بحيازة المعرفة الكافية والضرورية بعدد من العلوم، مع إحاطة تستند إلى قاعدة بيانات ومعلومات لم تتح لغالبيتهم العظمي، فأحلوا وحرموا وأدانوا وبرأوا، وحولوا جهود النهضة العلمية والسعى لتقديم "مشروع حضاري" يعرف الوقائع المتجددة والحقائق المجتمعية الطارئة التى تحيط بأهل هذا الزمان ويقوم على أسس إسلامية جامعة بين

المحافظة على ثوابت الشريعة ومقاصدها الكبري، ومنظومتها الأخلاقية والأساسية وبين الاستبصار الجديد بما طرأ على "واقع الدنيا" و"واقع الأمة" من تطور وتغير لا يسعف معها تقليد الأقدمين والتوقف عن الاجتهاد الذى يستجيب لحاجات جديدة وأوضاع وملابسات لم يكن أكثرها قائمًا بين يدى علمائنا الأوائل، وكانت حصيلة هذا كله أن توقف كثير من العلماء المحققين عن متابعة "الاجتهاد" بأدواته المقررة وشروطه الضرورية، كما اندفع جيل جديد من الكتاب والباحثين إلى تجريح الأوائل والاستخفاف بالذخيرة العلمية النفيسة التى تركوها لنا، نعم إن فى هذه الذخيرةما يصلح، وفيها ما تجاوزته "الوقائع الجديدة"، فلم يعد يستجيب للحاجات الجديدة، ولكنه -فى جميع حالاته- يمثل ثروة علمية نفيسة لا يتصور التهوين من قيمتها ورفضها كلها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وبين هذا الغلو والتطرف على جانبى المعادلة جاءت أزمة "الخطاب الديني" تجر وراءها "أزمة فكر" وغياب منهج للإصلاح والتدارك، ولعل فى مقدمة القضايا التى عانت من هذه الأزمات المتداخلة قضية «حقيقة النظام السياسي» الذى يتسع له صدر مبادئ الإسلام الكلية، ومقاصده الكبري، والذى تشير إليه النصوص "القليلة" فى هذا الميدان والسوابق التى جرى العمل بها منذ عصر النبوة إلى أيامنا هذه، حيث ترفع كثير من النظم السياسية اسم الإسلام وشعاراته، وهى فى كثير من أوضاعها ونماذج سلوكها تبتعد عن أصوله الكبرى فى احترام الشورى وإقامة العدل وتنفيذ الشرائع والقوانين على الحكام والمحكومين واحترام حقوق الرعية وحريات الأفراد وصون كرامتهم وتمكينهم من المشاركة فى تقرير أمور الجماعة، ولهذا كله حديث غير هذا الحديث.

المرأة!!

أما القضية الثانية فهى قضية المرأة، ونظرة المجتمع إليها وتصوره لدورها داخل الأسرة وفى المجتمع، ويزعم كاتب هذه السطور أن هذه القضية قد شهدت ظاهرة مؤسفة تكاد تنفرد بها، وهى أن التقاليد القديمة المستقرة فى كثير من الجماعات التى وصلتها رسالة السماء، قد غلبت وفى جوانب كثيرة جوهر هذه الرسالة، مع تقديم إقرارات كلامية لا قيمة لها تؤكد الالتزام بمبادئ الإسلام والأديان السماوية بصفة عامة، وغنى عن الذكر أن التأمل الموضوعى يكشف عن مفارقات هائلة بين موقف الشريعة الإسلامية من قضية مكانة المرأة ودورها فى الأسرة وفى المجتمع، وبين ما لا يزال يدافع عنه كثير من أصحاب الرأى والكلمة المسموعة من تقاليد عبرت أزمانًا طويلة ولا يزال تأثيرها غالبًا، مما جعل أكثر المسلمين فى حيرة وقلق فى الفكر وفى السلوك على السواء.

فى إطار هذه الخلفية التحليلية لقضية التجديد الفقهى والفكرى وقضية المرأة ودورها، ننتقل إلى بيان بعض الحقائق العامة المتعلقة بتصور الإسلام لقضية المرأة، والحاجة إلى هذا البيان تنبع من إحساس بأن هناك أكثر من مدخل أساسى لتناول قضايا المرأة ودورها وعلاقتها بالرجل، فالمدخل الأول وهو الشائع فى الثقافة الغربية هو مدخل العمل المنظم لاستخلاص "حقوق

المرأة من الرجل" بعد أن غلب الرجال المرأة على أمرها، وفسروا دورها فى إطار فرضين نابعين من التقاليد القديمة المستقرة.

الفرضية الأولى: أن المرأة دون الرجل فى القدرة والمكانة، ومن ثم لا يجوز أن تكون بينها وبينه مساواة كاملة فى الحقوق والواجبات.

الفرضية الثانية: الزعم بأن هناك شواهد فى النصوص الدينية، وفى التصور الدينى العام تؤيد تفوق الرجل واستحقاقه لدور مجتمعى متميز لا تشاركه المرأة فى بعض جوانبه، وهذا المدخل غير سوي، وهو يتناول قضية كبيرة فى إطار اعتبار جانبى صغير، جاعلاً هدفه الأساسى هو "مواجهة الرجال" والتصادم معهم، سعيًا لاسترداد حقوق مغتصبة للمرأة عبر عصور تاريخية متعاقبة.

أما المدخل الإسلامى للقضية كلها فيدور حول قضيتين تحلان السعى للتعاون فى إطار المساواة محل الصدام بين قطبين لا يتصور التصادم بينهما، والقضية الثانية أن "ساحة "البحث كلها تدور فى التصور الإسلامى حول الأسرة والمجتمع، ولا تدور حول مبارزة تصادمية بين الرجال والنساء، وفى إطار مصالح الأسرة، يدور البحث حول توزيع الأدوار بين الزوج والزوجة، وفى إطار مصالح المجتمع وشروط تنميته يدور البحث حول دور المرأة فى المجتمع وفى مؤسساته السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ومن المؤكد أن الاهتمام بقضية تنمية المجتمع، والأبحاث العالمية العديدة التى تعالج قضية التنمية كان لها دور هام فى تطور المدخل لمناقشة وبحث قضايا المرأة المعاصرة، والمرأة العربية والمسلمة بصفة خاصة.

الشريعة والمرأة

بعد كل هذه المقدمات الطويلة التى قدرت أنها ضرورية للتناول السليم لموضوع هذه الدراسة، ننتقل إلى مناقشة أمرين:

الامر الأول: النظرة العامة للشريعة الإسلامية ولمكانة المرأة ودورها وعلاقتها بالرجل، وهذه النظرة العامة ترجع إلى مصدرين أساسيين من مصادر التشريع الإسلامى وتستمد منهما:

١- المصدرالأول: النصوص الواضحة الدلالة أو التى لا تحتمل تأويلاً من نصوص القرآن والسنة الصحيحة.

٢- المصدر الثاني: المصادر التكميلية للأحكام الشرعية، فليس صحيحًا أن كل حكم جزئى يقرره العلماء الثقاة لابد أن يكون ترديدًا لنصوص من القرآن والسنة، إذ هناك مصادر تكميلية يتحقق بها "كمال الشريعة" من حيث قدرتها على الاستجابة لتغير "الوقائع" وطروء المستجدات العديدة، عن طريق تقريرات علمية وفقهية جديدة تعرف الواقع، وتعرف المبادئ العامة والمقاصد الكلية للشريعة، كما تعرف أصول تنزيل الأحكام على "الوقائع" وطروء المستجدات العديدة، عن طريق تقريرات علمية وفقهية جديدة تعرف الواقع، وتعرف المبادئ العامة والمقاصد الكلية للشريعة، كما تعرف أصول تنزيل الأحكام "الوقائع" وقد لا يعرف غير المتخصصين فى العلوم الإسلامية أن من هذه المصادر ما يتصل مباشرة أو يرجع فى النهاية إلى النصوص، وهى الإجماع، والقياس،

ومنها ما يتصل أساسًا بواقع الجماعة التى يراد تقديم الحكم الشرعى لأفرادها ، وأهم أفراد هذا النوع الثانى العرف والمصلحة المرسلة . ففى حجية العرف نقرأ قول الفقيه المالكى المشهور / شهاب الدين القرافى (وهو فقيه مصرى مالكى المذهب) "فمهما تجدد العرف اعتبره - أى خذ به - ومهما سقط أسقطه ، ولا تجمد على المسطور فى الكتب دون غيره ، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجبه على عرف أهل بلدك ، واسأله عن عرف بلده وأجره عليه وأفته به ، دون عرف بلدك ، المقرر فى كتبك ، والجمود على المنقولات أبدًا ضلال فى الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين" ، ولعله فى هذا الإطار كان اختلاف ما قال به الإمام الشافعى فى العراق عن بعض ما قاله فى مصر ، وذلك فيما نتصور أثر اختلاف العرف المعمول به فى كل من البلدين .

وإذا أردنا أن نقرر فى وضوح وإيجاز حقيقة النظرة العامة للإسلام وشريعته إلى مكانة المرأة ودورها أسعفتنا نصوص عديدة تنبع بدورها من أصل أكبر اعتمده وقرره وأكده الإسلام من أول أيامه ، وهو أصل المساواة بين الخلق جميعًا ، وهو أصل كبير نحتاج معه إلى هدوء وتأمل واستنباط من الآيتين الكريمتين اللتين قرأناه :

أما النص الأول : فهو الآية الأولى من سورة النساء .

وأما النص الثاني : فهو الآية ١٣ من سورة الحجرات .

تقول الآية الأولي :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(النساء : ١)

ونتوقف مع هذه الآية متأملين عند كلمتين :

-الأولى: كلمة ﴿نَّفْسٍ﴾ فالنفس واحدة للرجل والمرأة ، وتجهيل الجنس (Gender) فى هذا السياق له دلالة لا يتصور الغفلة عنها ، وهى أن الجنس هنا لا اعتبار له ولا وزن ولا دلالة فيه على شيء .

-أما اللفظ الثاني: فهو ﴿زَوْجَهَا﴾ فالزوج فى لغتنا العربية تطلق على المرأة كما تطلق على الرجل ، يشهد لذلك قوله تعالي :

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾

(النساء : ٢٠)

ومن الموافقات التى تستلفت النظر أن كلمة Spouse فى اللغة الإنجليزية مقابل كلمة (زوج) فى لغتنا العربية .

أما النص الثاني : فقوله تعالى فى سورة الحجرات :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات : ١٣)

فهذا النص المحكم الوجيز يقرر فى عبارة واحدة ثلاث حقائق كبري :

-الأولي : وحدة أصل الناس جميعًا "من ذكر وأنثي" .

-والثانية : التنوع والتعدد فى أوضاع الناس وأجناسهم وثقافاتهم :

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

-والثالثة : أن التنوع نعمة ينبغى أن توظف توظيفًا نافعًا وهو قوله تعالي :

﴿لِتَعَارَفُوا﴾

أى تبادلوا المعرفة بالآخرين .

وبعد هذين النصين جاء الحديث النبوى الذى رواه أبو داوود والترمذى وأحمد بن حنبل عن عائشة - رضى الله عنها - والذى يقول : "النساء شقائق الرجال" .

ويجمع فقيه مجدد معاصر نتائج هذه المساواة بعبارة واضحة دقيقة المعنى حيث يقول : "ومن أظهر صور المساواة بين الرجال والنساء أن يتساووا فى التمتع بالحقوق العامة وفى أداء الواجبات العامة ، وهى المساواة التى حاصلها الذى تؤهلها له مكانتها العقلية والشخصية فى حياة مجتمعها شأنها فى ذلك شأن الرجل سواء بسواء" .

ومعنى هذا كله أن الإسلام يعتمد المساواة العامة أصلاً لتحديد دور النساء داخل الأسرة وفى المجتمع .

ويبين فقيه معاصر آخر أن قوله تعالى فى الناس جميعًا أنه سبحانه "خلقهم من نفس واحدة" ويضع بذلك قاعدة مهمة "لتفهم فى ضوئها كل النصوص القرآنية والنبوية فى حقيقة الإنسان رجلاً وامرأة ، وفى تحديد الحقوق والواجبات لكل منهما وعليه فى إطار وحدة النفس ووحدة العنصر الإنسانى وعدم التمييز بين الرجل والمرأة" .

"ولا قيمة بعد هذه القاعدة التى أرساها القرآن الكريم لأى نظرة لمفسر أو فقيه قديم يحط من جنس المرأة أو معدنها الإنسانى لحساب معدن الرجل ويرتب على هذا الحط واجبات وحقوقًا تفهم خطأ من نصوص أخري ، بينما الواجب أن تفهم كل النصوص فى ضوء أن الرجل والمرأة من معدن واحد ومن نفس واحدة" .

ومع ذلك فإن الدقة العلمية تقتضينا أن نتوقف مليًا لنحدد المعنى الحقيقى للمساواة ، ذلك أن التشريع بطبيعته وطبيعة وظيفته يقرر عديدًا من التقسيمات والتصنيفات فى تنظيمه للعلاقات الاجتماعية وتقريره وتنظيمه للحقوق والواجبات والاختصاصات ، ولهذا فأن المساواة بمعناها العام تتكون من جزئين :

أولهما: التسوية فى المعاملة القانونية بين أصحاب المراكز المتماثلة قانونًا أو فعلاً .

ثانيهما: المخالفة فى المعاملة القانونية بين أصحاب المراكز المختلفة قانونًا أو فعلاً وهو ما يعبر عنه بأن الفارق بين التمييز الذى يمنعه الدستور والقانون Discrimination وبين التصنيف أو التقسيم Classification الذى لا غبار عليه ولا إخلال فيه بمبدأ المساواة ، جوهره أن التفرقة الجائزة فى المعاملة هى تلك التى تستند إلى اعتبار حقيقى تربطه بالنتيجة رابطة منطقية ، وأن تكون رابطة مشروعة قانونًا .

ولكن التفرقة فى المعاملة لمجرد الاختلاف فى الجنس Gender أو اللون أو العرق أو الجاه أو أى اعتبار آخر لا تربطه بالنتيجة رابطة منطقية ، فإنه يعتبر من قبيل التمييز غير الجائز ، وأن التقسيم والتصنيف جائزان إذ قد تقتضى الاختلافات العضوية أو العاطفية إيثار أحد الجنسين ببعض الوظائف

التي تمتنع على الجنس الآخر دون أن يكون هذا تعبيرًا عن اختلاف في قيمة أيهما، تمامًا كما يختار طالب العلم في الجامعة مادة أساسية يتخصص فيها تسمى **Major** -أي التخصص الرئيسي- ومثله أن يثبت بالاستقراء والتجربة أن المرأة أقدر على القيام داخل الأسرة بمهمة معينة، مما يجعل لها أولوية في أداء هذه المهمة، مع الانتباه إلى أن توزيع الوظائف داخل الأسرة وفي المجتمع لا يخل بالضرورة بمبدأ المساواة ولا ينبغي أن ترتبط به قيمة إيجابية أو سلبية، إنما نحتاج جميعًا إلى أن نتحرر من المدخل التصادمي في تناول قضايا المرأة حاجتنا إلى التخلص من بعض التقاليد القديمة المنفصلة تمامًا عن مقاصد التشريع ومبادئه العامة ونظرتها إلى قضية العلاقة بين المرأة والرجل، وتبقى بعد ذلك قضية عامة ثانية تتعلق بحق المرأة في المشاركة السياسية في المجتمع وفي تولي الوظائف العامة.

فأما المشاركة السياسية فمن أسخف ما يقال اعتراضًا عليها أمران:

الأول: أن المرأة مكانها الوحيد المشروع هو البيت ورعاية أهلها.

الثاني: أن المشاركة السياسية، وفي تولي الوظائف العامة، تفضي إلى مفاسد أخلاقية واجتماعية ناتجة عن الاختلاط بين الرجال والنساء، وهو اختلاط غير جائز شرعًا في تصورهم.

وتلك حجة بالغة السخافة.

ومع ذلك تبقى الحجة الأولى وهي أظهر ما يحتج به المانعون، وهي حجة مرسلة تكاسل القائلون بها عن تفصيلها أو الإدلاء بكلام جاد أمين في شأنها، ولن نتوقف عند أسخف السخف في هذه القضية بالاستناد إلى حديث ما أظن أولئك المجادلين إلا عالمين بعدم صحته، وهو الحديث الذي يقول للرجال في شأن النساء "شاوروهن وخالفوهن".

وهل يمكن لباحث - مهما كان زاده قليلاً من المعرفة بأحاديث النبي ﷺ أن يؤكد نسبة هذا الحديث إلى النبي، وهو الذي استشار أو أشارت عليه زوجته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها يوم صلح الحديبية حين تردد بعض أصحابه في الاستجابة لقراره بالعودة عن إتمام دخول مكة ومباشرة الحلق والذبح تحللاً من إحرام العمرة، إذ نصحته بعدم المجادلة مع أصحابه، وبأن يبدأ بنفسه فيحلق ويذبح، فإذا فعل فعلوا فعله، وهو ما استجاب له النبي ﷺ، ودرأ الله بهذه المشورة كما يقول كتاب السيرة "غضب الله وغضب نبيه على الصحابة الممتنعين".

أما الحديث الآخر الذي يحتج به المانعون للمرأة من أداء دور سياسي إلى جانب الرجل فهو قوله ﷺ الذي يرويه البخاري: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"

وجوابنا أن الأمر في مثل هذه القضايا وغيرها لا يحسمه إيراد نص الحديث والتسليم بصحته، إذ بهذا التسليم ينتهي بحث تحقيق الرواية عن النبي ﷺ، وهذا هو دور علوم الرواية -وهي كثيرة- وعليها المدار في تيسير اتباع مقتضى الحديث والعمل به، ولعل من أحسن ما قيل مما يدخل في علوم الدراية ما أشار إليه الصديق العالم الثقة الدكتور/ محمد سليم العوا في كتابه (الفقه الإسلامي في طريق التجديد-الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٦ -سفير الدولية للنشر ص ١٥٠) من أن: "هذا الحديث لا حجة فيه، لأن الأمر الذي يشير إليه هو الولاية العامة التي ليس فوقها ولاية، وهي الخلافة أو الرئاسة العامة للدولة الإسلامية الواحدة التي تضم العالم الإسلامي كله، وهي دولة لم تعد موجودة الآن، ولا يتوقع أن توجد في المستقبل البشري المنظور، واختصاصات ولي الأمر فيها وشروط ولايته بشمولها وسعيها واتصالها بجميع المجالات بما فيها الإمامة في الصلاة وقيادة الجيوش والاجتهاد والفقه المطلق ورئاسة القضاء، لم تعد متوفرة في أحد من الحكام اليوم، فالحكام اليوم جزء من مؤسسة، والحكم نفسه جزء من مؤسسات عدة توزع بينها السلطات والصلاحيات التي كان يجمعها في يده الحاكم الفرد أيًا كان اسمه وتعدد سلطاته".

وخلاصة ما نراه أن هذا الحديث، وللعلماء في فهمه وبيان حكمه آراء متعددة لا يصلح البتة مانعًا من تولي المرأة منصب الرئاسة بعد أن تغيرت "الواقعة" وصارت الرئاسة منصبًا مختلفًا عما كانت عليه يوم ورد الحديث النبوي الشريف.

والأمر -أي أمر- حين يدخل دائرة الإباحة على فرض الاقتناع بهذه الإباحة، يظل محكومًا بملائمات واعتبارات تحتاج إلى مزيد تأمل، لقد كان يقال في الفقه السياسي والدستوري قديمًا أن تكوين هيئة الناخبين وشروط الأهلية لمباشرة الانتخاب ليست مسألة قانونية خالصة وإنما هي مسألة مركبة تتوقف على الملابسات الاجتماعية والعرف السائد في كل حالة، فأولى أن يقال مثل ذلك عن مسألة تولي المرأة للرئاسة العامة في الدولة.

وعودة إلى عموم قضية المشاركة السياسية لعلنا في غير حاجة إلى بيان فساد التعلل بما تؤدي إليه هذه المشاركة من اختلاط الرجال بالنساء، ذلك فيما نرى هزل خالص في مقام جد خالص، ولفظ الاختلاط ذاته يحتاج إلى مراجعة فالأمر أمر اشتراك أو مشاركة وليس أمر اختلاط، يلابسه بالضرورة عوج وفساد، وفلسفة المنع المطلق احتياطًا لفساد قد يقع، هي حجة العاجزين "الذين يسدون على أنفسهم طرقًا كثيرة من طرق الحق والخير ظنًا منهم منافاتها للشريعة.

وشبيه به محاولة التعلل بقوله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾

(الأحزاب: ٣٣)

إذ هذه الآية -كما لاحظ كثير من العلماء- خطاب لنساء النبي ﷺ مشفوع في الآية الكريمة ذاتها (وهو الآية: ٣٣)

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

(الأحزاب: ٣٣)

والنتيجة التي تستخلص منطقيًا وتوفيقًا بين النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت في باب اشتغال المرأة بالعمل العام قد لخصها الدكتور/ محمد العوا أحسن تلخيص وأوضحه حين قرر أن القول الصحيح في هذه المسألة هو "حق المرأة كالرجل سواء بسواء في المساهمة في العمل العام وولايته، لا تصرفها عنه ولا تمنعها منه إلا الصوارف الخاصة التي مثلها ما يصرف الرجل ويمنعه في ظروف خاصة عن ذلك العمل وولايته.

«يتبع»

نظريات التغيير بين العنف والإصلاح



للمفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي
منير شفيق



نظريات الإصلاح والمواجهة المفروضة

إن النظريات المتعلقة بالتغيير من خلال إصلاح الفرد أو إصلاح المؤسسات بعيدًا عن المواجهة السياسية كثيرة، وهي تبدأ بالقول إن المجتمع لا يصلح إلا إذا صلح الفرد فإذا بنينا الفرد المسلم سيقع التغيير لا محالة، لأن أية عملية حسابية بسيطة توصل إلى الموضوعة القائلة إن اقتناع أفراد المجتمع أو أغلبهم، واحدًا بعد الآخر، بالخط الذي تطرحه الجماعة سوف يحدث التغيير لا محالة.

هذه النظرة شائعة في الفكر التغييري عمومًا وإن اختلفت مدرسة عن أخرى أو جماعة عن أخرى بنوع البناء الإسلامي الذي سيبنى عليه الفرد المسلم المنشود، فكان هناك من طالب بالتربية الشاملة للفرد أي تربيته من كل الجوانب بتثبيت عقيدته وتعزيزه بالإيمان والعبادات والقربات، وبناء الجسد صحيحًا قويًا، وبناء العقل السليم وتسليحه بالوعي في الفقه والسياسة والفكر، وهنالك من ركز على موضوع الثقافة من حيث تصحيح المفاهيم والأفكار المتعلقة بفهم الإسلام والبعض ركز على الثقافة من حيث ضرورة الانفتاح على العصر وتصحيح العقل الحضاري الثقافي وتجديد الفقه، وهنالك من ركز على الفكر وتصحيح الأفكار وهكذا تشترك هذه النظريات في عدم إعطاء الأولوية للسياسة وتغيير النظام السياسي، بل تشترك فيما بينها بتجنب الصدام مع السلطة ونقل المعركة مع الفرد في المجتمع أي محاولة تغييره وفقًا لمنظور النظرية المحددة.

بيد أن هذه النظريات لا تجيب بحد ذاتها عن السؤال كيف يتم التغيير بالنسبة إلى المجتمع ككل أو إلى النظام عمومًا؟ أي هل سيظل العمل ينتشر وينتشر حتى يشمل الجميع ويجتاح النظام أو يجوفه فيسقط كورقة الخريف أو بهزة واحدة أو يأتي مسلمًا عاجزًا عن المقاومة، أم ستجد نفسها في مرحلة أعلى من الصراع تتطلب أسلوب مواجهة مختلفة؟ إن إشكالية هذه النظرية تنشأ عن كونها تتعامل والمجتمع كميًا باعتباره مجموعة أفراد ولا تتعامل وإياه باعتباره جماعات ومؤسسات وكيانات ذات حركة تختلف أو تتمايز عن حركة الأفراد وهي

لا ترى النظام أو الدولة عنصرًا فاعلًا مواجهًا سرعان ما يتحرك بقوة لوقف هذا الانتشار أو الزحف، ولعلها تسعى لتجنب أو تجاهل إشكالية الدولة الحديثة والوضع العالمي المتمثل بوجود مراكز إمبريالية مسيطرة عالميًا، وهي متأهبة دومًا للتدخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فالعملية الحسابية هنا غير واردة وغير ممكنة. لعل تجارب السبعين عامًا الماضية، على الأقل، لم تقدم مثلًا واقعيًا يؤكد صحة هذا التصور فما من نظام سقط كورقة الخريف، أو بهزة واحدة، أو سلم عاجزًا مستكينًا، بل أثبتت التجربة أن تلك النظرية يمكن أن تعمل بعض الوقت عملًا منتظمًا وتحقق تقدمًا كبيرًا أو صغيرًا في كسب أفراد المجتمع ولكن سرعان ما يتحرك النظام ليوقف ذلك، ويسدد لها الضربات، وقد يكون ثمة أساس ما لتلك الأعذار مثل اكتشاف مخزن أسلحة أو خلايا عسكرية أو تنظيم سري مسلح، وقد تكون على شكل ضربات مع عمليات إغراء وترويض وتشتيت وتمزيق للصفوف، أو قد تكون على شكل الحملات الإعلامية الظالمة وإشاعة الأفكار الفاسدة في صفوف الشباب وغير ذلك، ثم قد تأتي نتيجة تطورات هامة في الوضع تشد لها انتباه الجماهير، وهي توجه خلال ذلك الضربات كما حدث في مصر في المنتصف الثاني من الخمسينيات، المهم أن المسار الذي خطط له لابد من أن ينقطع، ويعود السؤال كيف يغير الوضع ما دام الخصيم لا يتركك تتقدم إلى ما لا نهاية، فردًا فردًا أو موقعًا موقعًا.

فأعداء التغيير أصبحوا أكثر دراية، أشد حذرًا، ولم يعودوا يواجهون منفردين في بلدهم وإنما أصبحوا جزءًا من المواجهة العالمية. أي أنهم يواجهون التغيير ضمن دعم خارجي واسع، وهو دعم مادي وسياسي وإعلامي وربما عسكري أحيانًا، وعلى مستوى دولي، وهذا ما يجعل القدرة على التغيير ضمن نظرية القضم فردًا فردًا أو موقعًا موقعًا تحتاج إلى وقفة وتأمل وربما إعادة حسابات، ولكنها تظل نظرية ضرورية للعمل ولها فوائد جمة، في حالة غياب نظرية عمل أخرى تثبت على أرض الواقع أنها جديرة بإحداث التغيير، أي إذا كان تقدير الموقف يقول إن الظروف غير مواتية لإحداث التغيير ولمدى غير منظور، ومن ثم لو تتوفر رؤية تستطيع اشتقاق طريق آخر للتغيير في مستقبل قريب، فعندئذ تصبح نظرية العمل على مستوى الفرد تربية أو توعية أو تثقيفًا، ضمن حدود الشرعية ومن غير صدام بالنظام هي نظرية الممكن والمتاح ضمن ظروف محددة، وموازين قوى معينة، ولكن دون أوهام بأنها ستؤدي إلى التغيير، أو أنها طريق التغيير. وبهذا تكون حدودها مرسومة ضمن حدود الوعي فتكون وظيفتها الأولى هي أن تبقى الراية الإسلامية مرفوعة، ولو في حدود معينة، وتنثر بذورًا في الأرض عساها تقف على سوقها مستقبلًا فتجد نظرية العمل التي تناسب الظروف من أجل التغيير الجذري مشروعًا أو ممكنًا أو حين يصبح على الأجندة. ومن ثم تكون تلكم حدودها ويصبح من الضروري عدم معاملتها باعتبارها نظرية التغيير الشامل ونهاية المطاف.

الدخول من أبواب متفرقة

أما من جهة أخرى فقد دلت التجربة في كثير من الحالات أن أخطر ما يواجه الحركات

هو وقوع الاضطراب الداخلي في نظريات العمل لما يسببه ذلك من تردد وإرباك، وأحيانًا شلل، والأهم ما قد يتركه من آثار سلبية على الموقف الجماهيري والقناعة الذاتية للأفراد في صحة ما يفعل لاسيما عند مواجهة القمع والصعوبات والشدائد وقديمًا قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدمًا
فإن فساد الرأي أن تترددا

ولهذا من المهم أن تحسم الخلافيات ولو على حساب الوحدة الظاهرية، وبعض المظاهر المعنوية حتى يتاح لكل مقتنع بنظرية عمل أن يعطي كل ما عنده ويتحمل مسئوليته وحده كاملة، ويترك النتائج الواقعية تقول كلمتها الفصل في صحة هذا الاجتهاد أو ذلك.

وإن هذا الأمر كما دلت التجارب في الكثير من البلدان في العالم الثالث، كما في الغرب في مراحل تاريخية سابقة، لابد له من أن يجد ترجمته على أرض الممارسة من خلال تعدد في البرامج ونظريات العمل والاستراتيجيات والتكتيكات، وهو ما كان يترجم بتعدد الأحزاب والتنظيمات وتعدد أساليبها واجتهاداتها، وكان الواقع العملي في الصراع لا يرحم، فهنالك من انتهوا إلى كارثة حين كانت تقديراتهم للوضع في غير محلها وتبنوا نظريات عمل تغييرية غير ملائمة لظروف الزمان والمكان والمجتمع المعني، وكان هنالك من انتهوا إلى مداورة في المكان يزيدون أو ينقصون كميًا، وكان هنالك من نجح وثبت جذوره في الأرض، ولو إلى حين. ولهذا يمكن القول إن تلك التجارب ونخص بالذكر التجارب المعاصرة في أغلب أقطار بلادنا تشير إلى سنة التعدد في المحاولات والاجتهادات في نظريات التغيير ضمن ظروف معينة وأحوال محددة لاسيما حين تكون موازين القوى وكثيرًا من شروط نجاح التغيير تهب رياحها بصورة معاكسة، الأمر الذي يزيد من حالة التعدد ومن محاولة طرق أبواب لم تطرق من قبل أو لم تطرق كما يجب!

ولعل الآية الكريمة:

﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾

(يوسف: ٦٧)

شديدة الدلالة على مثل هذه الظروف التي تمر بها حالات تغييرية محددة المقصود هنا أن الدخول من أبواب متفرقة وبصورة مستقلة تمامًا قد يسمح بأن يتحقق الهدف المرجو من خلال إحداها حين لا يكون ذلك الباب واضح المعالم تمامًا، وإنما يدور من حوله غموض واختلاط بأبواب أخرى تشكل خيارات بديلة، وهذا ما يفترض أن تحمل وجهات النظر المختلفة، درجة أعلى من التسامح في مواجهة مخالفيها أو أضدادها، وهي تتشدد في الاستمساك بوجهة نظرها وصحة موقفها ونقدها لوجهة النظر الأخرى. لأن هذا الاستمساك ضروري كما سلف ولحظنا، على نجاح نظرية العمل المقترحة التي يجب أن تكون فيها وتحمل بثقة عالية حتى تكسب صدقيتها وتؤتي أكلها.. وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة:

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(المائدة: ٢٣)

فما أن يستقر الرأي على نظرية عمل تغييري، مهما يكن نمطها، وهو الدخول عليهم من ذلك الباب، فلابد من الإقدام وعدم التردد والتوكل على الله عسى تكون في ذلك الغلبة.

إذن نحن هنا أمام ضرورة الاستمساك بنظرية للعمل محددة بالنسبة إلى كل جماعة أو قيادة. لكننا أمام تعدد في الاجتهادات وأمام تفهم «الدخول من أبواب متفرقة» موضوعيًا ولو لم يعجبنا ذلك حرصًا على الوحدة أو وحدة الموقف والتوجه:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(الإسراء: ١٥)

عند الغرم، والله يضع الغنم حيث يشاء.

ولعل من الأمثلة البليغة في هذا المجال قصة أبي بصير رضي الله عنه فقد هاجر بعد صلح الحديبية إلى المدينة، وكان من شروط الصلح أن يعاد إلى مكة كل من يهاجر إلى المدينة بعد ذلك الصلح، فاضطر الرسول ﷺ أن يسلم أبا بصير لمشركي قريش وفقًا للاتفاق، لكن أبا بصير أخذ مبادرة مستقلة من عنده وعلى مسئوليته فغافل حارسيه وقتلهما في الطريق وبدأ من هناك يشن حرب عصابات ضد قريش، وقد راح ينضم إليه كل من أراد الهرب من مكة فأزعج قريشًا إزعاجًا شديدًا حتى أصبحت ترجو من الرسول ﷺ أن يأخذ المتمردين إلى المدينة، وكان الرسول ﷺ قد لحظ أهمية مبادرة أبي بصير فعلق عليه إطراء.

يعطي هذا المثال نموذجًا من ضرورة الدخول أحيانًا من أكثر من باب واحد، ولكن هذا الدخول ما تم من خلال اتفاق تآمري، لا سمح الله، من قبل رسول الله ﷺ بالنسبة إلى ما تعهد به، فلم يوعز عليه الصلاة والسلام إلى أبي بصير أن يفر ويبني قاعدة مسلحة مقاتلة، على أسلوب حرب العصابات، فلو فعل ذلك لازدوج التعهد ولكان الضرر أشد من النفع، أما أن يحدث ذلك بصورة مستقلة عنه وبتحمل كامل للمسئولية من قبل أبي بصير فقد تحقق أكثر من هدف في آن. فمن جهة بقي العهد مستورًا ولهذه المسألة في السياق الإسلامي أهمية مبدئية وسياسية من الدرجة الأولى ويكون قد تحقق من جهة أخرى تجريب أسلوب لم يجرب من قبل فإن فشل فضرره محدود على صاحبه. وإن نجح عم خيره على عملية التغيير كلها، أما من الجهة الثالثة فخيار أبي بصير يدل على أن ثمة أكثر من خيار أمام المرء دائمًا وكان شرط ذلك التجرؤ على المبادرة والمخاطرة متوكلًا على الله.

نظرية التداول على السلطة

يمكن أن يلفت الانتباه هنا إلى أن الأدوار التي راح الجيش يلعبها في التغيير في عدد كبير من بلدان العالم الثالث ومن ضمنها البلدان العربية والإسلامية لا بالنسبة إلى إحداث تغيير في الحكم السياسي فحسب وإنما أيضًا في محاولة التحرر من الاستعمار، وبناء الدولة الحديثة من النمط الغربي، وإنجاز الإصلاح الزراعي ومحاولة بناء نظام اقتصادي تتحكم به الدولة ويتراوح بين النمط الرأسمالي والاشتراكي جعل بعض المنظرين يعتبرون أن الثورة والتغيير في العالم الثالث يمران من خلال الجيش وبقيادته. لكن هذه النظرية بدأت تتراجع بلا انتظام حتى الانهيار مع انهيار النظام الاشتراكي السوفييتي،

ورزحت أغلب البلدان التى قادها العسكريون فى العالم الثالث تحت الديون الخارجية والركود الداخلى والتراجع الاقتصادى فى كل الميادين فضلًا عن الاختناق السياسى بسبب أزمة الحرية السياسية وحقوق الإنسان.

الأمر الذى أعاد موضوع البحث عن نظرية التغيير إلى الواجهة من جديد، وفى مقدمتها نظرية اعتماد الأسلوب الديمقراطى التعددى والذى يسمح بالتداول على السلطة من خلال الاحتكام إلى صناديق الاقتراع، وهى النظرية الأخيرة الآن بالنسبة إلى الكثيرين ممن كانوا يتبنون نظرية التغيير من خلال الجيش أو بقيادته. ومن ثم من خلال نظرية الحزب الواحد فى الحكم و«الديمقراطية الموجهة» و«الاقتصاد الموجه».

أما اليوم فقد راحوا يجدون الدعم الخارجى لهذه النظرية من خلال الدول الغربية الديمقراطية التى اعتبرت أن نظام الديمقراطية هو الأفضل بعد أن تهاوى أمامه النظام الاشتراكى السوفييتى فنظرية التغيير هذه يراد لها الآن أن تكون السلاح النظرى ضد أى تغيير على أساس الحل الإسلامى، بل ضد أى تغيير وطنى وعروبى يحمل محتوى تحرريًا من الاستعمار أو مواجهة للكيان الصهيونى، أو توجهًا وحدويًا أو تضامنيًا، لكنها نظرية معاكسة فى جوهرها لكل أولئك الذين يريدون أن يستخدموها ضد الإسلاميين أو الوطنيين والعروبيين، لأنها تلتقى من حيث الأساس مع المبدأ الإسلامى الأول، وهو نهج الأنبياء والرسل كافة ذلك، أى البدء بفتح الحوار وترك الدعوة تمضى فى الناس بلا إكراه أو قمع، فالبادئ بالعنف والقمع كان دائمًا أعداء الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكان البحث عن أساليب التغيير البديلة يأتى بعد سد الأبواب جميعًا بين الدعوة والناس، وبعد التشديد على أصحاب دعوة الحق لإسكاتهم بالقوة وكبت أنفاسهم.

فنظرية التغيير من خلال التعدد وإطلاق الحريات السياسية واحترام كرامة الإنسان وحقوقه والاحتكام إلى صناديق الاقتراع تشكل الخيار الأفضل، والذى يجب أن يسعى إلى تثبيته ويضحى بالأنفس والأموال فى سبيل ذلك، لكن لا يمكن أن يكون السبيل الأوحد الذى إذا أعدم انحبس التغيير واختنق وانتهى من هذا العالم، فسنن التغيير حملت عدة نظريات وأشكال، إنها سنن جارية ولا مبدل لها.

إن الهجوم بهذا الشكل من أشكال العمل التغييرى ضمن الظروف الراهنة سيضع أصحاب النظام الأمريكى الدولى الجديد فى مأزق ويلقف ما يدعون من مقولات أيديولوجية زائفة ونفاقية من قبلهم، فالنظام العالمى الاستعمارى القديم قام على أساس العنف وقهر الشعوب بالقوة، ودعم دائمًا الأنظمة الاستبدادية والدكتاتورية، أما النظام العالمى الجديد بزعامة أمريكا فقد افتتح طريقه فى شن حرب الخليج وكانت أكبر حرب دولية منذ الحرب العالمية الثانية، وأن فرض قيم الغرب ومقولاته على الشعوب يقوم أساسًا على أساس استخدام عنف الدولة، ومن ثم فإن شعارات الليبرالية والديمقراطية واللاعنف هى ضدهم ولا يستطيعون تطبيقها على شعوبنا كما يفعلون فى بلادهم، وذلك لسبب بسيط، وهو أنهم سيخسرون المعركة حين يحتكمون إلى

صناديق الاقتراع أو الرأى العام أو يستطلعون رأى شعوبنا. إنهم سيخسرون المعركة إن رفع العنف عن لغة الحوار أو المنافسة.

فإذا كان الغرب قد كسب معركته ضد الأنظمة الاستبدادية للدولة الاشتراكية وهو يرفع راية الليبرالية والديمقراطية فإنه سيضطر إلى تنكيسها، عمليًا، حين يأتى الأمر إلى بلادنا، ولكن ذلك يحتاج من جانبنا إلى أن نحسن إدارة الصراع ورفع الشعارات فلا نترك لهم فرصة استخدام راية «الليبرالية والديمقراطية أو التعددية» فى وجه الحركة الشعبية الإسلامية والوطنية والعروبية كما لا نترك لهم فرصة لإخفاء حقيقة وجههم العنفى والإرهابى، أو إعطائهم الذرائع المجانية لممارسة العنف والإرهاب ضدنا، على أن هذا كله يجب أن يتم بروح صاحبة حق وقوية غير متخاذلة أمام هذا التغيير فى ميزان القوى، بل يمكن أن نلقف سحرهم وما يأفكون الجديد فى ميدان نحن الأقوى فيه وهو ميداننا أصلًا.

خلاصات وملحوظات

الأولى: أنهم منذ الآن أخذوا ينادون بديمقراطية يحرم منها الإسلاميون بعد أن تأكدوا أنهم هم الخاسرون فى هذا الميدان، ولهذا يجب ألا تكون ردة الفعل الأولى التخلى عن القبول بالتعددية والاحتكام إلى صناديق الاقتراع من جانب المعارضة الإسلامية والبحث عن العنف ردًا على ذلك، وإنما يجب أن يحول هذا السلاح (الديمقراطية والليبرالية) فى بلادنا إلى سلاح ضدهم يكشف حقيقتهم ويربك موضوعاتهم النظرية والسياسية، هذا بصورة عامة بالنسبة إلى أغلب البلدان الإسلامية مع بقاء باب الخيارات الأخرى فى العمل مفتوحًا وفقًا لنضوج كل خيار وظروف كل بلد، أى ما أشير إليه من تعدد فى خيارات أشكال التغيير واستراتيجياته، وضرورة توفر شروط كل شكل عند الاختيار.

الثانية: لا بد من تصحيح مواقف بعض الإسلاميين من موضوع التحالفات على مستوى الحركات والجماعات الإسلامية أولًا كما على مستوى التعاون أو التنسيق أو التحالف مع الاتجاهات والحركات الوطنية والعروبية والاستقلالية ثانيًا، كما على مستوى المستضعفين فى الأرض ثالثًا. هذا مع الانفتاح على الإفادة من تناقضات الدول الكبرى وصراعاتها فيما بينها وفقًا لكل بلد ولكل حالة، فالعمل الإسلامى يجب أن يدخل مرحلة السياسات المعقدة والمركبة والمتعددة الأوجه والمجالات والأبعاد.

وإنه لغنى عن الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ يشكل خير معلم فى إدارة الصراع وحسن الإفادة، بلا تخل عن المبدأ، من كل العوامل والظروف المعطاة فى زمنه بما فى ذلك صراعات القبائل أو بعض مزايا التقاليد القبلية مثل الاستجارة والنخوة والعزة وغيرها.

وبعد، فإن ما تقدم ليعطى صورة على المقصود بعبارة «نظرية العمل» وما ينشأ عنها من أساليب جهاد وكفاح وشعارات ومنطلقات ومعارك وصراعات أو من «استراتيجية وتكتيك» فإذا ما روعيت الثوابت الإسلامية الأساسية المتعلقة بالعقيدة وأركان الإسلام وتعاليمه فى العبادات والأخلاق والمعاملات والحلال والحرام فإن نظرية العمل التى تحدد أسلوب التغيير تشكل متغيرًا لا ثابتًا، ومن ثم تشكل خلافية فى الاجتهاد تتبع من خلافية

وزرحت أغلب البلدان التى قادها العسكريون فى العالم الثالث تحت الديون الخارجية والركود الداخلى والتراجع الاقتصادى فى كل الميادين فضلًا عن الاختناق السياسى بسبب أزمة الحرية السياسية وحقوق الإنسان. الأمر الذى أعاد موضوع البحث عن نظرية التغيير إلى الواجهة من جديد، وفى مقدمتها نظرية اعتماد الأسلوب الديمقراطي التعددى والذى يسمح بالتداول على السلطة من خلال الاحتكام إلى صناديق الاقتراع، وهى النظرية الأخيرة الآن بالنسبة إلى الكثيرين ممن كانوا يتبنون نظرية التغيير من خلال الجيش أو بقيادته. ومن ثم من خلال نظرية الحزب الواحد فى الحكم و«الديمقراطية الموجهة» و«الاقتصاد الموجه».

أما اليوم فقد راحوا يجدون الدعم الخارجى لهذه النظرية من خلال الدول الغربية الديمقراطية التى اعتبرت أن نظام الديمقراطية هو الأفضل بعد أن تهاوى أمامه النظام الاشتراكي السوفيتي فنظرية التغيير هذه يراد لها الآن أن تكون السلاح النظرى ضد أى تغيير على أساس الحل الإسلامي، بل ضد أى تغيير وطنى وعروبى يحمل محتوى تحرريًا من الاستعمار أو مواجهة للكيان الصهيوني، أو توجهًا وحدويًا أو تضامنيًا، لكنها نظرية معاكسة فى جوهرها لكل أولئك الذين يريدون أن يستخدموها ضد الإسلاميين أو الوطنيين والعروبيين، لأنها تلتقى من حيث الأساس مع المبدأ الإسلامى الأول، وهو نهج الأنبياء والرسل كافة ذلك، أى البدء بفتح الحوار وترك الدعوة تمضى فى الناس بلا إكراه أو قمع. فالبادئ بالعنف والقمع كان دائمًا أعداء الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكان البحث عن أساليب التغيير البديلة يأتى بعد سد الأبواب جميعًا بين الدعوة والناس، وبعد التشديد على أصحاب دعوة الحق لإسكاتهم بالقوة وكبت أنفاسهم.

فنظرية التغيير من خلال التعدد وإطلاق الحريات السياسية واحترام كرامة الإنسان وحقوقه والاحتكام إلى صناديق الاقتراع تشكل الخيار الأفضل، والذى يجب أن يسعى إلى تثبيته ويضحى بالأنفس والأموال فى سبيل ذلك، لكن لا يمكن أن يكون السبيل الأوحد الذى إذا أعدم انحبس التغيير واختنق وانتهى من هذا العالم، فسنن التغيير حملت عدة نظريات وأشكال، إنها سنن جارية ولا مبدل لها.

إن الهجوم بهذا الشكل من أشكال العمل التغييرى ضمن الظروف الراهنة سيضع أصحاب النظام الأمريكى الدولى الجديد فى مأزق ويلقف ما يدعون من مقولات أيديولوجية زائفة ونفاقية من قبلهم، فالنظام العالمى الاستعمارى القديم قام على أساس العنف وقهر الشعوب بالقوة، ودعم دائمًا الأنظمة الاستبدادية والدكتاتورية، أما النظام العالمى الجديد بزعامة أمريكا فقد افتتح طريقه فى شن حرب الخليج وكانت أكبر حرب دولية منذ الحرب العالمية الثانية، وأن فرض قيم الغرب ومقولاته على الشعوب يقوم أساسًا على أساس استخدام عنف الدولة، ومن ثم فإن شعارات الليبرالية والديمقراطية واللاعنف هى ضدهم ولا يستطيعون تطبيقها على شعوبنا كما يفعلون فى بلادهم، وذلك لسبب بسيط، وهو أنهم سيخسرون المعركة حين يحتكمون إلى صناديق الاقتراع أو الرأى العام أو يستطلعون رأى شعوبنا. إنهم سيخسرون المعركة إن رفع العنف عن لغة الحوار أو المنافسة.

فإذا كان الغرب قد كسب معركته ضد الأنظمة الاستبدادية للدولة الاشتراكية وهو يرفع راية الليبرالية والديمقراطية فإنه سيضطر إلى تنكيسها، عمليًا، حين يأتى الأمر إلى بلادنا، ولكن ذلك يحتاج من جانبنا إلى أن نحسن إدارة الصراع ورفع الشعارات فلا نترك لهم فرصة استخدام راية «الليبرالية والديمقراطية أو التعددية» فى وجه الحركة الشعبية الإسلامية والوطنية والعروبية كما لا نترك لهم فرصة لإخفاء حقيقة وجههم العنفى والإرهابي، أو إعطائهم الذرائع المجانية لممارسة العنف والإرهاب ضدنا، على أن هذا كله يجب أن يتم بروح صاحبة حق وقوية غير متخاذلة أمام هذا التغيير فى ميزان القوي، بل يمكن أن نلقف سحرهم وما يأفكون الجديد فى ميدان نحن الأقوى فيه وهو ميداننا أصلًا.

خلاصات وملحوظات

الأولى: أنهم منذ الآن أخذوا ينادون بديمقراطية يحرم منها الإسلاميون بعد أن تأكدوا أنهم هم الخاسرون فى هذا الميدان، ولهذا يجب ألا تكون ردة الفعل الأولى التخلى عن القبول بالتعددية والاحتكام إلى صناديق الاقتراع من جانب المعارضة الإسلامية والبحث عن العنف ردًا على ذلك، وإنما يجب أن يحول هذا السلاح (الديمقراطية والليبرالية) فى بلادنا إلى سلاح ضدهم يكشف حقيقتهم ويربك موضوعاتهم النظرية والسياسية، هذا بصورة عامة بالنسبة إلى أغلب البلدان الإسلامية مع بقاء باب الخيارات الأخرى فى العمل مفتوحًا وفقًا لنضوج كل خيار وظروف كل بلد، أى ما أشير إليه من تعدد فى خيارات أشكال التغيير واستراتيجياته، وضرورة توفر شروط كل شكل عند الاختيار.

الثانية: لا بد من تصحيح مواقف بعض الإسلاميين من موضوع التحالفات على مستوى الحركات والجماعات الإسلامية أولًا كما على مستوى التعاون أو التنسيق أو التحالف مع الاتجاهات والحركات الوطنية والعروبية والاستقلالية ثانيًا، كما على مستوى المستضعفين فى الأرض ثالثًا. هذا مع الانفتاح على الإفادة من تناقضات الدول الكبرى وصراعاتها فيما بينها وفقًا لكل بلد ولكل حالة، فالعمل الإسلامى يجب أن يدخل مرحلة السياسات المعقدة والمركبة والمتعددة الأوجه والمجالات والأبعاد.

وإنه لغنى عن الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ يشكل خير معلم فى إدارة الصراع وحسن الإفادة، بلا تخل عن المبدأ، من كل العوامل والظروف المعطاة فى زمنه بما فى ذلك صراعات القبائل أو بعض مزايا التقاليد القبلية مثل الاستجارة والنخوة والعزة وغيرها.

وبعد، فإن ما تقدم ليعطى صورة على المقصود بعبارة «نظرية العمل» وما ينشأ عنها من أساليب جهاد وكفاح وشعارات ومنطلقات ومعارك وصراعات أو من «استراتيجية وتكتيك» فإذا ما روعيت الثوابت الإسلامية الأساسية المتعلقة بالعقيدة وأركان الإسلام وتعاليمه فى العبادات والأخلاق والمعاملات والحلال والحرام فإن نظرية العمل التى تحدد أسلوب التغيير تشكل متغيرًا لا ثابتًا، ومن ثم تشكل خلافية فى الاجتهاد تنبع من خلافية

في تقدير الموقف في زمان ومكان محددين تحكمهما ظروف وموازين قوى ومعطيات معينة، بل تشكل تنوعًا بحجم تنوع الدول الإسلامية وعددها. إن نظرية العمل، أية نظرية عمل، وما تقترحه من أساليب في المجاهدة والعمل والشعارات والنشاط بين الناس ونوع الخطاب وطرق الصدام قابلة للاهتزاز وإعادة النظر في حالة تغيير الظروف أو في حالة عدم تحقيقها للأهداف بعد حين من الدهر أو في الحالتين، الأمر الذي يؤدي إلى الاهتزاز فالدعوة لإعادة النظر.

الثالثة: الذين يدافعون عن أسلوب محدد (استراتيجية وتكتيك بعينها) دفاعًا مطلقًا بمعنى رفض كل ما عداه من حيث أتى يخطئون وذلك كان يتصور أحدنا أن ما من تغيير يمكن أن يحدث إلا بالعنف، أو بأسلوب معين من أساليبه، أو كان يتصور آخر أن ما من تغيير يمكن أن يحدث، في كل الحالات وفي كل البلدان إلا بوسائل الإقناع والتربية أو التوعية أو التثقيف، وقد أخذت على سبيل المثال، ثلاث مدارس تتبلور مؤخرًا حول الموقف من الانتخابات البرلمانية وما يسمى باللعبة الديمقراطية، فهناك من عارضها من حيث المبدأ بسبب استمساكه بنظرية الجهاد المسلح، أو الأسلوب العنفي باعتباره أسلوب التغيير الوحيد، دون أن يدعم وجهة نظره بمناقشة الوضع المحدد في المكان والزمان المحددين، وربما اتخذ من الحالات التي حلت فيها البرلمانات أو صودرت الانتخابات سببًا كافيًا لإسقاط هذا الخيار من حيث أتى والقول بعدم جدواه في كل الظروف وفي كل الأمكنة وفي كل الحالات. وهنالك من تبنى أسلوب النضال البرلماني وشدد على الديمقراطية وقد اعتبر ذلك الأسلوب الناجح الوحيد لإحداث التغيير حتى أصبح يتحفظ إزاء الأساليب الأخرى في كل مكان، وإذا لم يجد في بلده مكانًا لهذا الخيار اعتزل وهاجر وبقي ينادي به بعيدًا. أما في المقابل فقد أخذت تنشأ حالات جعلت من العمل ولو بمواجهة وتضحيات، لكسر موقف السلطة المعارض لهذا الخيار، أسلوبًا في التغيير ثم هنالك المدرسة الثالثة التي لا تأخذ موقفًا من أي أسلوب، وإنما تترك أمر اعتماد الأسلوب المناسب على ظروف الزمان والمكان والمعطيات، فهي لا تغلق الباب نهائيًا أمام هذا الخيار أو ذاك، أو الانتقال من خيار إلى خيار إذا ما سد باب الأول وانفتح باب الثاني، ولكن المشكلة هنا تكمن في أن عدم وجود استراتيجية محددة يواظب على تنفيذها يجعل التأثير في الواقع محدودًا ويتحرك صاحبه مراوحًا فيما بين التيارات ويضعف تماسك خطابه. بكلمات أخرى اذا كان من المشروع للمسلم أن يرفض كل أسلوب للتغيير يخالف الشرع، وأن يرفض مقولة «الغاية تسوغ الوسيلة» فإن من غير المشروع أن يدحض هذا المنهج من خلال التمسك بوسيلة محددة بعينها لكل الحالات، وإذا كان من المشروع له أن ينطلق بداية من روح الإقناع والجدال بالتي هي أحسن والدعوة إلى كلمة سواء وأن يختار الرفق في المعالجة وأن يحبذ أسلوب التنافس الشريف، وإفساح المجال الحر أمام العمل الإسلامي، والإصلاحي، والانتخابي البرلماني في التغيير، فإن من غير الصحيح أن ينكر شرعًا بصورة مطلقة، على نفسه أو على غيره اعتماد أساليب أخرى، إذا ما كان الحال يقتضي ذلك أي كانت الظروف مناسبة والشروط متوفرة بينما سدت الأبواب أمام الخيار المحبذ، فأسلوب التغيير ضمن الضوابط الشرعية ليس بمبدأ، وليس بثابت، وإنما هو متغير يحدد على ضوء البلد المعني محليًا وجوارًا إقليميًا وعالميًا، ومن ثم يرفض العنف إن كان الأسلوب الأنسب على ضوء ذلك لا عنفيًا، أو يرفض فكر اللاعنف إن كان الخيار عنفيًا لا سيما في حالات كفلسطين والغزو الخارجي مثل احتلال السوفيات لأفغانستان، حيث لا استراتيجية غير استراتيجية التغيير بالجهاد المسلح وبمختلف أساليب المقاومة.

الرابعة: سيكون اختيار الأسلوب الأنسب للتغيير، كما كان دائمًا، مدعاة لخلافيات واسعة في الاجتهاد، ولا بد من أن تتعدد الحركات بسبب ذلك، لأن من غير الممكن إلا أن يمر ذلك الاختيار عبر اجتهاد الأفراد والجماعات، فعلى الرغم من أن الواقع المحلي وواقع الأمة العالمي معاش ومشاهد، بصورة مشتركة، من قبلهم كلهم إلا أن من غير الممكن إلا أن يقع التعدد في اجتهاد أسلوب التغيير، ذلك بسبب اختلاف البشر بعقولهم ومعارفهم وتجاربهم وحسهم وظروفهم، وأهوائهم، كما أثبتت التجارب الواقعية أن فشل اجتهاد ما، أو تأخر تحقيقه لهدف سيكون مدعاة لولادة اجتهادات جديدة في تقويم التجربة وتحديد أسباب الخلل أو الجمود، أو الفشل، أو التضاؤل والضمور، ومن ثم لا بد من أن يعالج هذا الأمر معالجة سليمة فينظر إلى تعدد الاتجاهات في اختيار أسلوب التغيير باعتباره ظاهرة طبيعية لا مفر منها فيقع الاتفاق حيثما كان اتفاق، ويعذر البعض البعض الآخر حيثما كان خلاف، وهي المقولة التي طالما كررها الإمام الشهيد حسن البنا. أما من جهة أخرى فيجب أن تحدد الخلافية تحديدًا دقيقًا ومعلنًا حتى لا تزر وازرة وزر أخري. كما لا بد عمومًا من أن تحل العقلية الجبهوية بدلًا من الفئوية الضيقة، وتتأكد الثقة بأن الأسلوب الأنسب تثبته التجربة ويؤكده الزمن -ولعل في التعدد، وإن كان غير محبذ فيما بين الإسلاميين، خيرًا.

﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾

(يوسف: ٦٧)

وبهذا لا يغامر، وبلا تخطيط مسبق بوضع البيض كله في سلة واحدة فيحار العدو من أين تأتيه الضربات، حتى لو لم يكن ذلك عبر تنسيق أو كان عبر خلافيات حادة وجادة. وقد يأتي الخير على يد أسلوب لم نتوقع نجاعته، ولا يحسبن أحد أنه يقوى تلقائيًا إذا ضعف اتجاه آخر، لأن من الممكن أن تنهار جماعة ولا ترثها جماعة أخري. فالذي يقرر نجاح أسلوبك في التغيير ليس فشل أسلوب الآخر، وإنما عليك أن تنجح في الامتحان من خلال صوابية أسلوبك وعملك وقولك، ومن خلال إجابات صحيحة تقدمها عن الأسئلة المطروحة، والتحديات القائمة.

وبالمناسبة قد يخشى طرف ما من أن يؤخذ بجريرة طرف آخر، لا سيما حين يتبع الأول أسلوبًا لا عنفيًا والآخر أسلوبًا عنفيًا، ولكن من الخطأ أن يصادمه أو يحاربه تبرئة لنفسه إذ قد يبوء بدمه، وإنما عليه أن يوضح خلافيته معه توضيحًا لا لبس فيه، ومن ثم إذا ما أخذه

الآخرون بجزيرة غيره فسيكون ذلك إثمًا وعدوانًا عليه، ولا بد من أن تبين الحقيقة وينقلب الأمر على الظالمين.

الخامسة: ليس هنالك في تجارب التغيير في التاريخ القديم والحديث، ما هو أغنى دروسًا، وأنسب للمسلمين، من السيرة النبوية الشريفة التي بدأت بالوحي لتنتهي بالنصر الكامل على مستوى شبه الجزيرة، وبداية الفتح المبين.

بيد أن التأسي بالسيرة النبوية العظيمة في التغيير والتعلم منها والاهتداء بها واستخراج السنن والعبر والأساليب منها يختلف اختلافًا كبيرًا عن تقليدها بقياس مخطئ، وبمخالفة عمليًا لروحيتها ووجهتها، وسنتها، وذلك من اتباع الأشكال حرفيًا فلا يفرق بين الحالتين والزمانين والظرفين وما إلى هنالك من معطيات مختلفة، وإن مثالًا على هذه الحرفية يمكن أن نراه في البعض الذين يظنون أن ما وقع للرسول ﷺ من أحداث سيكرر مع كل تغيير، كأن تمر العملية بمرحلة مكية، والبعض يحسبها بعدد السنين إياها أيضًا، ثم تنتقل عن طريق طلب النصرة إلى يثرب فتكون الهجرة إليها ثم تقام نواة الدولة الأولى في المدينة، ويبدأ الأمر بالقتال وتخاض الغزوات والحروب حتى تصل إلى صلح الحديبية ثم يكون الفتح بعد حين.

إن المثال الإسلامي الأول في التغيير فيه ما هو ثابت وفيه ما لا يتكرر، فالظروف التي أحاطت بالدعوة الأولى من حيث معطيات واقع قريش والعرب والعالم في ذلك الوقت غيرها اليوم، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت المدن والقبائل تتمتع باستقلال أو شبه الاستقلال عن بعضها بعضًا، وكان من الممكن أن يطلب الرسول ﷺ النصرة من أهل الطائف، أو من بعض القبائل العربية أو من يثرب، وكان بإمكانهم أن ينصروه بحد سيوفهم لو أرادوا، وإلا لماذا يطلب منهم ما لا يطيقون أو يستطيعون، وبالفعل نصرته يثرب بعد أن أسلم الأوس والخزرج هاجر إليهم مع الصحابة الأولين رضي الله عنهم، ليبني فيها نواة دولة الإسلام الأولى بعيدًا عن مكة، وليبدأ منها القتال حتى تحقيق النصر، ولكن هل يقاس هذا الوضع وينسحب على دولة إسلامية معاصرة، حيث السلطة مركزية أشد ما تكون المركزية، وحيث أصبحت الجهويات والمدن والقبائل خاضعة للمركز خضوعًا مباشرًا، ويمكن لجيش المركز أن يصل إلى أية نقطة ويسيطر عليها فورًا فهل ثمة إمكان أو مكان لطلب النصرة هنا كما حدث مع الطائف أو يثرب، كما أن لغة الخطاب في ظل دولة إسلامية وشعبها مسلم لا يمكن أن يكون نفسه حين يوجه إلى مشركين أو كافرين لم يعرفوا عن الإسلام كلمة واحدة، بل إن سنن التغيير حين يتعلق الأمر بمئات الملايين المسلمة وعشرات الدول الإسلامية غيرها حين يتعلق الأمر بمجتمع صغير، وعليه وحده أن يكون نواة الدولة الإسلامية أو المشروع الإسلامي، فتكون البداية ببضعة أفراد ثم ببضع عشرات ثم بضع مئات فتصبح آلافًا فعشرات الآلاف فملايين.

إن تعدد بلاد المسلمين اليوم وبلوغهم ما يزيد على الألف مليون يفرضان مسارات متعددة للنهضة لا مسارًا واحدًا يبدأ بنواة واحدة بعينها فهذه الملايين عاشت التجربة الإسلامية من قرون عدة، وتكون ضميرها الفردي والجمعي على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واختزنت في داخلها للقرآن قدسية، ولرسول الله ﷺ أسوة وتسليمًا، ولصحابته رضي الله عنهم محبة وتقديرًا، فقد حفظت في ذاكرتها سنة الرسول الأعظم ﷺ نبيًا وقائدًا وحاكمًا وزعيمًا، وكم تلهفت لتلك النماذج المشرقة في حكم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم، ولشد ما أعجبت بسير الأئمة والعلماء والقادة المجاهدين على مر العصور، أي أن «البداية» اليوم أو «البدايات» هي التوجه إلى هذا الضمير وإحيائه واستخراج مكنوناته، فالأمة موجودة وإن كان فيها ما فيها من الغبش والضباب والطين، وإن الإسلام فيها مكنوز بعضه ظاهر وبعضه مختزن وإن خالطه انحراف أو لم يبق منه هنا أو هناك إلا الإسم في الممارسة العملية أحيانًا.

إذن نحن أمام حالة تختلف تمامًا عن الحال زمن الدعوة الأولى الأمر الذي يتطلب مراعاة متغيرات الزمان والمكان والظروف. ولهذا يخطئ من يظن أنه في مرحلة نشوء الدعوة وولادة الأمة، كما كان الحال مع بدء الدعوة في زمن الرسول ﷺ، منذ لحظة نزول الوحي ثم تشكيل الجماعة الأولى التي ستصبح الأمة الإسلامية. فهذا هو القياس الغلط لأن التأسي برسول الله ﷺ يشترط أن نبدأ من «الصفر» كما بدأ، بينما وراؤنا وأمامنا وبين ظهرانينا أمة إسلامية يبلغ تعدادها ألف مليون مسلم تقريبًا وستصبح بعد ربع قرن أكثر من ألفي مليون ولها تاريخ يمتد خمسة عشر قرنًا، وهي الأمة التي أسسها خاتم النبيين محمد بن عبدالله ﷺ، ثم راح الصحابة والتابعون وتابعو التابعين بإحسان إلى يومنا هذا يرفعون البناء ويزيدون المداميك، فإذا اعتبرنا أنفسنا في البداية الأولى نقع في القياس الغلط من عدة أوجه، وفي مقدمته: أن البداية الأولى تمت واستكملت وأتت بأكلها ولن تتكرر، وإنما المطلوب متابعة الطريق، أو العودة إلى الجادة كلما انحرف الركب بهذا القدر أو ذاك، فالمطلوب ليس ولادة أمة جديدة وتكوينها ابتداءً من نواة أولى، وإنما المطلوب إحياء أمة قائمة واستنهاضها وتجديد دينها، وإن الفارق لبيّن جلي بين الأمرين، ويترتب على كل واحد من الأمرين مقتضيات تختلف عما يترتب من مقتضيات على الأمر الآخر، فالخطاب السياسي الموجه إلى أمة مسلمة من ألف مليون عمرها خمسة عشر قرنًا، مهما ساءت أوضاعها، ومهما حل فيها من تغريب وضلال وجاهلية، غير الخطاب الذي وجه إلى مشركي قريش، وإن التعامل والمجتمعات المسلمة الراهنة غير التعامل والقبائل العربية في حينها، بما في ذلك من تبقى منها فقد تضاءلت استقلالية الجهويات والمدن واختل ميزان القوى بينها، وبين المركز اختلافًا شديدًا، فلم تعد قادرة على نصرة وحماية وهي في متناول الجيش وتحت سيطرته المباشرة قبل أن تنبس ببنت شفة، هذا فضلًا عن اختلاف الوضع العالمي في الحالتين، إذ الدول الكبرى اليوم في عقر الدار، ومن هنا فإن مسار التغيير وأشكال الصراع ومقومات الحشد والمواجهة ولغة الخطاب غير الذي جرى في تلك التجربة الأولى المباركة وإن حافظ على ما هو ثابت في الخطاب الإسلامي عمومًا.

«يتبع»

فتاوى لها تاريخ

الابتداع المذموم فى الإسلام



للشيخ محمود شلتوت

يجرى على ألسنة كثير من الناس كلمة (بدعة وابتداع) ويتسع معناهما تارة حتى لا يخرج عن دائرتهما شئ، ويضيق تارة حتى لا يتناول شيئا. فهل لنا أن نسمع أو نقرأ تحديدًا عامًا يضبط ما يدخل فيهما وما يخرج عنهما؟

هذا هو السؤال الذى وجه إلينا فيما يخص البدعة والابتداع فكان جوابنا عنه ما يأتي:

معنى الدين الذى يجب التعبد به

كلف الله عباده عقائد تتصل به سبحانه وبرسالاته وكتبه إليهم، وتتصل باليوم الآخر الذى أعده لدار الجزاء، وكلفهم أيضًا عبادات هى غذاء لهذا الإيمان وعلامة الصدق فيه، وحرم عليهم أشياء صونا لحياتهم وحفظا لعقولهم وأعراضهم وأخلاقهم، وقد فصل لهم فى كتبه ورسالاته ما كلفهم إياه وما حرمه عليهم، وكان مجموع ما فصّل وبيّن - على الوجه الذى بيّن وفصل - هو الدين الذى تعبدهم به، ولا يقبل منهم سواه، وكان امتثاله والقيام به، على وجه المبين فى الكتب الإلهية وعلى ألسنة الرسل، هو التدين الصادق، الذى يقف بصاحبه فى العقيدة والعبادة، والحل والحرمة عند حدّ ما شرع الله وبيّن، وكان التصرف فى شيء منه هو الانحراف عن دين الله، وهو الابتداع فيه.

لا تقييد فى الأمور الدنيوية

ومن هنا يعلم أن الابتداع فى الدين إنما يكون فيما تعبدنا الله به من عقيدة أو عبادة أو حل وحرمة.

أما ما لم يتعبدنا الله بشئ منه - وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقًا لمصلحتنا ومحققًا لخيرنا بحسب العصور والبيئات - فإن التصرف فيه بالتنظيم أو التغيير لا يكون

من الابتداع الذى يؤثر على تدين الإنسان وعلاقته بربه، بل إن الابتداع فيه من مقتضيات التطور الزمنى الذى لا يسمح بالوقوف عند حد الموروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد. وإذا كان لحياة الأبناء والأحفاد وسائل غير وسائل الحياة لأسلافهم كان من ضرورة بقائهم وطيب حياتهم ومسايرتهم للتقدم الزمنى أن يخلعوا وسائل الأسلاف التى لا تتفق وزمنهم، ويعملوا جاهدين فى تلبية عصورهم بما تطلبه وتقضى به، وإلا تخلفوا عن الركب المجد فى السير، وانقطع حبل اتصالهم به، وصاروا فى عزلة لا يسمع لهم فيها صوت، ولا يعرف لهم فيها وجود.

ولو كان من سنة الله فى تعبده لعباده أن يقيدوا فى هذا الجانب بمنهج خاص لحدد لهم أرض الزراعة وأنواعها وطرقها، ولحدد لهم نوعًا من القوة التى أمرهم بإعدادها وأطلقها إطلاقًا، ولحدد لهم نوعًا أو نوعين من مظاهر الحضارة المختلفة التى يعلم أنها ستكثر وتنتشر وتأخذ بأطراف العالم، ولكنه سبحانه وتعالى لم يحدد لعباده شيئًا من ذلك، بل أطلق للعقل الإنسانى حريته فى هذا الجانب كله، ولم يأمره إلا بالبحث والنظر، والكد والعمل بقصد الإصلاح والتعمير:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾

(البقرة: ٢٢٠)

مثل من تاريخ السابقين

وقد كان ما أخذ به الأمم السابقة، وقبحه منهم ونعاه عليهم خاصًا بالابتداع فى العقائد والعبادات والحل والحرمة، ولم يكن شئ منه مما يتصل بزينة الحياة التى أخرج لعباده أو بنموها وتقدمها، فهو لم ينكر مثلا على أهل سبأ أن تكون لهم جنتان عن يمين وشمال. ولم ينكر على قارون أن كان له من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، بل نرى فى القرآن الكريم امتنانه سبحانه على داود بإلانة الحديد له، ونرى أمره إياه بصنع الدروع السابغة الواقية، ثم نراه سبحانه يرضى عن دعوة سليمان:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾

(ص: ٣٥)

ويفسح له مجالها، فيسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ويسيل له عين القطر، ويسخر له الجن يعملون ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ثم يطمعه فى المزيد ويغريه بالعمل.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

(سبأ: ١٣)

موضع الإنكار على الأمم السابقة

نعم: لم ينكر الله على أحد من خلقه ابتداع شئ من متع الحياة الطيبة، ولا من وسائل قوتها واتساع عمرانها، وإنما كان الذى أنكره ابتداع الناس فيما بين ورسم، وتعبد به عباده فى العقيدة والعمل، والحل والحرمة.

أنكر على من تخيلوا أن فى بعض المخلوقات روحًا من ألوهية الله بها كان

فى نظرهم إلهًا أو بعض إله، وبها استحق أن يعبد، وأن يشفع عند الله، وأن يقرب إليه زلفى.

وأنكر على من غيروا وبدلوا فى رسوم العبادة وكيفيتها، فعبدوا بما لم يشرع وغيروا فيما شرع، فكانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وطافوا به عرايا، وحرموا ما أحل الله وقالوا:

﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾

(الأنعام: ١٣٨)

هذا وحده هو الابتداع فى الدين، هو الابتداع الذى يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية، هو الابتداع الذى يغتصب به المبتدع حق الله فى تشريع هو له وحده، هو الابتداع الذى به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد -التى رسمها الله ليتقرب بها العباد إليه- ناقصة أو فاسدة، فأكملها أو أصلحها بابتداعه! أو موضع من يرى أن الرسول الذى اصطفاه الله لتبليغ دينه قد قصر فيما أمر بتبليغه، وحجز عن عباد الله بعض ما يقربهم إليه.

ولقد كان هذا الابتداع هو السبب الوحيد فى نسيان الأمم السابقة شرائع الله وأحكامه، هو السبب الوحيد فى اندراس العقائد والعبادات، وفى التحلل من قيود الحل والحرمة، وانتزاع التدين من القلوب، وبذلك انقطعت صلتهم بالخالق، وصار أساس التعامل بينهم القوة الغاشمة، والطغيان المزرى بالإنسانية.

كلمة (بدعة) فى مجتمعنا

هذا. وقد جرت على ألسنتنا من قديم كلمة (بدعة)، وأخذها بعض الناس عامة فى العبادات والعادات، وحرموا باسمها كثيرًا من العادات الطيبة ووسائل الحياة القوية، وأهدر بعض آخر قيمتها باسم حرية الرأي، وامتدت إلى العقيدة فأفسدتها، وإلى العبادة فحرفتها أو أهملتها، واستباح المنتسب للإسلام بهذا الوهم الخادع أن يعتقد ما يشاء، وأن يعبد أولا يعبد كما يشاء، وتبعًا لاختلاف المنتسبين إلى الدين فى هذا الموقف اختلفت الأمة على نفسها وصارت شيعًا وأحزابًا، لا أقول فى الإقليم والإقليم، وإنما نرى فى الإقليم الواحد، ونسمع طعن بعض المتدينين فى بعض بالإلحاد والزندقة والتزمت، وبذلك تفرقت القلوب وضعفت الوحدة، وتعرض الدين للتلاشي كما تعرض له من قبل.

الشخصية الإنسانية العامة للمسلمين

وسر المسألة أن للمجتمع الإسلامى شخصية خاصة وشخصية عامة. بل لكل مجتمع ذى دين شخصيتان: شخصية إنسانية عامة يشاركه فيها سائر المجتمعات الإنسانية وهو -من هذا الجانب، وبتلك الشخصية- له وعليه أن يفكر فيما يصلح شأنه الإنساني، ويجعله ذا مركز فى الحياة، يجارى به على الأقل إن لم يسبق سائر المجتمعات البشرية.

عليه أن يفكر فى طرق الإصلاح الزراعي والصناعي، وتنسيق موارد الاقتصاد، وتركيز قوته بالوسائل والمعدات التى تحفظ عليه وطنه واستقلاله، وتقيه عادية الطامعين

المغيرين على الناس بغير حق.

عليه أن يفكر فيما يلائم عصره من طرق التثقيف وخطط التعليم بما يوسع مدارك أبناء الشعب، ويصل بهم إلى الثقافة النافعة من أقرب الطرق وأيسرها، وليس له أن يجمد على ما ورث من ذلك عن آبائه وأجداده، ويقف مكتوف اليد دون أن يسلك طريق الاختراع والابتداع فيما يحقق له العزة والمجد من وسائل الحياة. وإن كل ما يحدثه فى هذا الجانب من المخترعات التى لم يسبق بها يكون محفوظًا له فى تاريخ العاملين على ترقية شعوبهم، ويكون له فى الوقت نفسه من الثواب عند الله بقدر ما ينتفع العباد بمخترعاته وإنتاجه.

وقد ترك الله فى شرعه هذا الجانب من الحياة للتفكير البشري، ولم يقيده فيه بتشريع معين ولا أسلوب خاص، بل دعاه إلى التفكير والنظر فيما يصلح شأنه، على حسب الإيحاءات الزمنية والوسائل العصرية المتبدلة المتغيرة، ولعل ذلك هو المقصود بمثل قوله عليه السلام: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»(١)

وإذن، ليس لنا أن نقول عن شئ يقع فى هذه الدائرة إنه لم يفعله الرسول ولا أحد من خلفائه، فلا تفعله، ذلك بأنهم لم يفعلوه لأن زمنهم لم يطلبه، ولم تخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه. ومحال على الرسول وخلفائه أن يعترض تقدمهم فى الحياة شئ لا يمس عمله عقيدة ولا عبادة، ولديهم وسائله والقدرة عليه، ثم لا يعملوه بحجة أن الله لم يأذن لهم فيه!

وقد وافق الرسول عليه السلام سلمان الفارسى فيما أشار به من حفر الخندق حول المدينة حينما جاءتهم الأنباء بتجمع الأحزاب لمهاجمتها، واشترك عليه السلام بشخصه فى الحفر ونقل الأتربة!

وما مشروعات عمر بن الخطاب -فى تنظيم الدولة وإنفاذ الجيوش وترتيب الخراج، وحبس ما أفاء الله على المؤمنين، وتعيين الولاة وتغييرهم- إلا أثر من آثار هذا الإطلاق الذى كانوا يؤمنون أن الله تركهم عليه، يبحثون به ما يحتاجون إليه من الشئون الزمنية.

وبهذا الإطلاق استطاعوا فى وقت وجيز أن يقتحموا الحصون، ويدكوا صروح الظلم وعروش الفساد والطغيان، وأن يثبتوا أقدامهم فيما استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فيه من أرض الله الواسعة، فدانت لهم قوى الفساد فى الأرض، وأيقظوا الإنسانية الفاضلة من نومها، وأخذت تعمل بوحيهم وإرشادهم فى أرض الله، حتى أظهرت ما أظهرت من أسرار الله فى كونه وانتفع بها الناس، وساروا على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

هذه هى الشخصية الإنسانية العامة التى يشارك المجتمع الإسلامى فيها سائر المجتمعات، والتى كان الابتداع فيها وفى وسائل حياتها رائد المجد والكمال.

(١) صحيح مسلم بنحوه

الشخصية الإسلامية الخاصة

أما الشخصية الخاصة للمجتمع الإسلامي فهي الشخصية التي تحدد دائرتها العقيدة والعبادة، وأصول المحرمات التي حظرها الدين حفظًا للعقائد والأخلاق، وحفظًا للعقول والأبدان، وهي الأصول التي تلتئم منها الشخصية الإسلامية ولا تتحقق إلا بها.

وهذه الدائرة لا تتلقى أحكامها إلا من جهة الوحي، بيانًا بالقرآن، أو بيانًا بفعل الرسول التشريعي العام، ولا يصح التصرف البشرى فيها، لا بتغيير فى كيفيتها ولا بزيادة عليها ولا بنقص منها، وهى الدين الذى أكمله الله لعباده.

وهذه الشخصية هي التى لا يقبل فيها الابتداع بوجه من الوجوه، فهى بأحكامها الخاصة المظهر الصادق للإسلامية التى يريدها الله، والمحافظة عليها هى السبيل الوحيد لبقائها وتميز المسلمين بها، ومن هنا كان الابتداع فى شئ منها خروجًا عن حدودها التى رسمها الله:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٢٩)

وفى هذا يقول الرسول: «من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد»(٢): أى مردود على صاحبه غير مقبول، ذلك أن الابتداع فى شئ من عناصر هذه الشخصية يتضمن خفاء كثير من أحكامها، كما يتضمن كثيرًا مما يشوه جمالها ويلبس حقها بالباطل، وخفاء أحكامها سبيل لاندراسها وضياعها، وتشويه جمالها سبيل لإعراض الناس عنها، وسخريتهم منها.

الابتداع مصدر الفرقة

والابتداع بعد هذا وذاك ليس ذا مصدر واحد، وإنما تتعدد مصادره بمصادر المبتدعين، وكل مبتدع يتبع فى ابتداعه هواه، والهوى متشعب النواحى مختلف الأهداف، ومن هنا نجد الشخصية الدينية التى انتابها الابتداع لا تقف فى العقيدة الواحدة أو العبادة الواحدة عند وضع واحد، بل تتعدد فى أوضاعها وصورها بتعدد الأهواء التى أدخلت عليها الابتداع، ومن ثم تصير الشخصية الدينية الواحدة - التى نزلت للتوحيد بين الناس فيما يتقربون به إلى الله الواحد - شخصيات متعددة، تقف كل شخصية منها عند مبتدع من المبتدعين وأتباعه الذين يسلكون طريقه. ومن هنا تفقد الأمة وحدتها الدينية، ويتحكم بين هيئاتها الابتداعية تنافس العداوة والبغضاء، وكثيرًا ما يشتد التنافس والخصام، وتشتعل نارهما فيقع بينهم التكفير واستحلال الدماء، وتنقلب الأمة يضرب بعضها رقاب بعض، وقد جاء حفظًا لوحدة الأمة فى هذا الجانب قوله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وصح أن رسول الله ﷺ «خط خطا بيده، ثم

(٢) البخاري ومسلم بنحوه

قال: هذا سبيل الله مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين هذا الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»(٣)، ثم قرأ هذه الآية الكريمة:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

وفى ذلك تقول السيدة عائشة: «ألا إن نبيكم قد برئ ممن فرق دينه واحترب، ثم تلت قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٩)

وقد عرفنا من تاريخ الأديان والشرائع أن التحريف الابتداعى قد أصابها من جهات ثلاث:

من جهة العقيدة: ومنها دخل الشرك وعبادة غير الله ودعاؤه، والاستعانة به، واللجوء إليه!.

ومن جهة العبادة: ومنها دخل التغيير بالزيادة أو النقص، والتغيير فى الكيفية.

ومن جهة الحلال والحرام: ومنها حرم الحلال، واحتيل فحلل الحرام. وإذا كانت البشرية فى كل زمان هى البشرية، ولا تخلو عن منحرف أو متعصب يعدو على شرع الله بغير علم ولا هدي، ولا تخلو كذلك عن مجامل للمنحرفين أو المتعصبين، فإن أشد ما أخشاه على شخصيتنا الدينية أن تسلك أمتنا بالأهواء أو التعصب مسلك السابقين، فتطغى البدع على ديننا والانحراف على استقامتنا، وبذلك تحق علينا كلمة الرسول: «إنكم تتبعون سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتموه»(٤).

وبعد: فهل لعلمائنا الفاقهين الذين يؤمنون بوحدة أمتهم فى عقيدتها وعبادتها وأصول تفكيرها، ويؤمنون بثمرة هذه الوحدة الطيبة فى الدنيا الغيورين الذين يعملون فى الجوانب السياسية والاقتصادية والحربية على التركيز، وتوحيد الكلمة والمنهج، هل لهم جميعًا أن ينظروا إلى هذا الجانب الدينى أيضًا، ويعملوا بإيمانهم وحكمتهم على إحيائه سليما نقيًا، وعلى وحدة المسلمين فيه، والرجوع بهم إلى المحجة البيضاء التى تركها الرسول، وظلت قائمة بمصادرها الخالدة من كتاب وسنة؟.

هذا ما أرجو أن يعمل عليه الزعماء والعلماء، حتى يحققوا للإسلام الوحدة التى رسمها الله، ويفوزوا بتوفيقه ورضاه.

(٣) أحمد والنسائي والدارمي

(٤) البخاري ومسلم بنحو هذا السياق

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣ م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلي آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلي يوم الدين)

اطلعنا علي الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم صرف الزكاة

● هل يجوز صرف مال الزكاة في مشروع خيري ذي نفع عام وهو عبارة عن مستوصف خيري ومسجد ومعهد لتحفيظ القرآن وإعداد الدعاة؟

●● الجواب: الأصل أن الزكاة لا تكون إلا للأصناف الثمانية الذين نص الله تعالي عليهم في كتابه الكريم بقوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

«التوبة: ٦٠»

أي أنها لبناء الإنسان قبل البنيان؛ واشترط العلماء فيها التمليك إلا حيث يعسر ذلك، كما في مصرف «في سبيل الله»، وكلمة «في سبيل الله» تشمل القيام بشئون الدعوة من تبليغ الدين للمسلمين ولغير المسلمين، فهذه هي حقيقة الجهاد، سواء أكان ذلك بالسنان أم باللسان؛ فالدعوة باللسان هي الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم تفاهمًا وحوارًا بين الناس كما قال تعالي:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

«النحل: ١٢٥»

والسنان يكون في وقت الصدام المسلح يدفع العدوان ورفع الطغيان كما أمرنا ربنا في قوله تعالي:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

«البقرة: ١٩٠»

وكلاهما يجوز دفع الزكاة للقيام به؛

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية



لدخوله تحت مفهوم الجهاد في سبيل الله.

فالجهاد غير مقصور علي حالة الحرب، بل إنه مفهوم روحي يتعلق بعلاقة الإنسان بربه؛ قال تعالي:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

«العنكبوت: ٦٩»

وقال تعالي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

«الحج: ٧٧، ٧٨»

وأخرج البيهقي في «الزهد الكبير»، والخطيب في «تاريخ بغداد» عن جابر رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ من غزاة له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر»، قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: «مجاهدة العبد هواه».

وبناء علي ذلك فإنه يجوز صرف الزكاة لدور تحفيظ القرآن والمؤسسات التعليمية وكل ما من شأنه نشر العلم النافع والدعوة إلي الله تعالي.

وأما ما يتعلق بإنشاء المستوصف الخيري والمسجد فلا يكون من الزكاة؛ فإن الأصل في الزكاة - كما سبق بيانه - أنها لبناء الإنسان قبل البنيان، ولذلك اشترط العلماء أن يتم تمليكها لمستحقها؛ فكفاية الفقراء والمحتاجين من الملبس والمأكل والمسكن والمعيشة والتعليم والعلاج وسائر أمور حياتهم هي التي يجب أن تكون محط الاهتمام في المقام الأول؛ تحقيقًا لحكمة الزكاة الأساسية التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «تؤخذ من أغنيائهم وترد علي فقرائهم».

والـذي تنصـح بـه دار الإفتـاء المصرية النـاس في هذا الصدد أن يبـادروا إلي التبرع لبناء وتطوير المستشفيات والمستوصفات فـي مجتمعاتهـم وأن لا يقتصـر هـذا علـي زكواتهم، وأن يَنشأ لذلك صناديق ثلاثة:

الصندوق الأول:

يكـون للوقـف، فيوقـف فيـه النـاس أموالهـم ويجعلـون ريعها وثمرتهـا لصالح هـذه المستشـفي أو المسـتوصف وعـلاج المترددين عليها أبد الدهر.

والصندوق الثاني:

يكـون للصدقـات، ويتصـدق منـه علي البنـاء والتأسـيس والصيانـة وإظهـار هـذا المبنـي بصـورة لائقة بالمسـلمين إنشـائيًا ومعماريًا وفنيًا.

والصـندوق الثالـث: يكـون للـزكاة؛ يصـرف منه علي الآلات وعلي الأدوية وعلي مصاريـف العلاج والإقامة والأكل والشـرب المتعلقة بالمرضي؛ سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة؛ كمرتبات الموظفين وأجور الأطباء ومصاريف العمليات الجراحية والإشاعات ونحو ذلك.

وبناء علي ذلك وفي واقعة السـؤال: فإنه يجـوز صَرف الـزكاة لـدور تحفيـظ القرآن والمؤسـسـات التعليميـة وكل ما من شـأنه نشـر العلم النافـع والدعوة إلـي الله تعالي، وأما مـا يتعلق ببنـاء المسـتوصف الخيري والمسجد فلا يكون من الزكاة.

والله سبحانه وتعالي أعلم.

سجادة للصلاة !!

● برجـاء إعطائـي فتـوي مكتوبة حول مسـألة عمـل سـجادة للصـلاة تقـوم بعَدّ ركعـات الصلاة أثناء الصـلاة؛ وذلك لكبار السـن ولجميع الأفـراد؛ حيث لوحظ زيادة السـهو والنسـيان في جميع الأعمـار أثناء الصلاة.

●● الجـواب: أصل التنبيه علي السـهو فـي الصلاة مشـروع؛ فقـد شـرع للمأموم عند خطأ إمامه أن يسـبح إن كان رجلا، وأن يصفق إن كانت امرأة.

بل ويجـوز الفتح لمن هو خارج الصلاة؛ قال الإمـام الباجـي المالكي فـي «المنتقي شـرح الموطأ»: «ولا بأس أن يفتح من ليس فـي صلاة علي من هو فـي صلاة؛ قاله مالك فـي «المختصـر»» اهـ. وفي «الفروع» للإمام ابن مفلح الحنبلي: «ولغير مصلّ الفتح، ولا تبطـل» اهـ. وفي «المغنـي» للإمام بن قدامة الحنبلـي: «ولا بـأس أن يفتح علي المصلي من ليـس معه في الصلاة، وقـد روي النجار بإسناده عن عامر بن ربيعة قال: كنت قاعدًا بمكة، فـإذا رجل عند المقـام يصلـي، وإذا رجـل قاعد من خلفه يلقنـه، فإذا هو عثمان رضي الله عنه» اهـ.

وبناء علي ذلك وفي واقعة السـؤال: فلا بأس بهـذا الابتكار شـرعًا؛ ما دام يسـاعد علي ضبط ركعات الصلاة خاصة لمن يكثر سهوه ونسيانه.

والله سبحانه وتعالي أعلم.

موانــع الميــراث



أ. د. صلاح سلطان
الأمين العام للمجلس الأعلي للشئون الإسلامية

مانـع الميـراث هـو وجـود شـيء يمنـع مـن اسـتحقاق الميراث مع اسـتمرار سـبب الميـراث فيـه، مثـل الابن الـذي يقتـل أباه يمنـع من الميراث ويحرم منه مع بقاء سـبب الميراث وهو القرابة والنسـب، ومن منع عن الميـراث يعتبر كأنه غير موجـود أصلاً، فلا يحجب أحدا حجب حرمان أو نقصان.

وموانـع الميراث أربعة (١) هـي: القتل، واختلاف الديـن، واختلاف الدارين، والرق، وتفصيل ذلك كما يلي:

المانع الأول: القتل

إذا قام ابن بقتل والده – لا قدر الله أو زوجة بقتـل زوجهـا، أو العكس؛ فلا يـرث القاتل المقتول مع وجود سبب الميراث؛ وذلك لما يلي:

(١) روي الإمام مالك بسـنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس للقاتل شيء (٢).

(٢) ما رواه البيهقي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله، قال: من قتل قتيلاً فإنـه لا يرثه، وإن لم يكن له وارث غيره، وإن كان والده أو ولده، فليس لقاتل ميراث (٣).

(٣) هـذه الأحاديـث مخصصـة لعمـوم الآيـات والأحاديث التي تفيد اسـتحقاق كل وارث في مال مورثه مثل قوله تعالي:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾

(النساء: ٧)

فهـذه الآية تفيـد حق أي رجـل وامرأة في مال من تنتسـب إليه بصلـة قرابة، ولكن هذا

(١) جاء في متن الرحبية أن موانع الميراث ثلاثة هي:

ويمنع الشخص من الميراث ... واحدة من علل ثلاث

وهي الرق وقتل واختلاف دين ... فافهم فليس الشك كاليقين

وذهـب ابن جزي في القوانين الفقهية (٢٦٠) إلي أن موانع الميراث عشرة هي اختلاف الدين، والرق، والقتل العمد، واللعان، والزني (ولد الزني لا يرث والده) والشك في موت الموروث مثل المفقود والأسير، والشك في حياة المولود، والشك في تقدم موت الموروث أو الوارث، والشك في الذكورة والأنوثة للمخنث، والحق أن ما ذكره ابن جزي – مع تقديرنا له – يعد تداخلا بين شروط الإرث وموانعه، وإلا لأضيف لموانع الميراث عدم وجود تركة للمتوفي، أو وجود تركة تستغرقها ديون الميت.

(٢) كتاب العقول – باب ما جاء في ميراث العقل والتغليظ فيه، ص (٨٦٧) من الموطأ.

(٣) رواه البيهقـي – كتاب الفرائض – باب لا يرث القاتـل – وخرجه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٦/ ١١٦،١١٧).

(٤) لعـل هـذا يدل علي أنه لا يصح لأحد أن يقرأ بعضًا من الآيات أو الأحاديث ثـم يسارع بإصدار حكم شرعي دون وجود أهلية الإفتـاء والاجتهاد عنده «فمن أفتي بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» «وأجرؤكم علي الفتوي أجرؤكم علي النار» كما روي عن

العموم مخصص بالأحاديث السابقة تخرج القاتل عن هؤلاء وتحرمه من الميراث (٤).

(٤) يقول ابن قدامة المقدسي في تعليل هذا الحكم: ولأن توريث القاتل يفضي إلي تكثير القتل؛ لأن الوارث ربما استعجل موت مورثه ليأخذ ماله، كما فعل الإسرائيلي الذي قتل عمه؛ فأنزل الله تعالي فيه قصة البقرة(٥).

لكن هل كل قاتل يحرم من الميراث؟ هناك خلاف واسع في المسألة، والذي عليه العمل ما ورد في المادة الخامسة من قانون المواريث أن من موانع الميراث قتل المورث عمدًا، سواء كان القاتل فاعلاً أصليًا أم شريكًا أم كان شاهد زور أدت شهادته إلي الحكم بالإعدام وتنفيذه، إذا كان القتل بلا حق ولا عذر وكان القاتل عاقلاً بالغًا من العمر خمس عشرة سنة.

ومن هنا يبدو أن شروط منع القاتل من الإرث ما يلي[6]:

١- أن يكون القتل عمدًا، أما القتل الخطأ فلا يمنع من الميراث (٧).

٢- ويستوي في القتل العمد أن يكون القاتل هو الفاعل الأصلي أو يكون شريكًا فيه أو متسببًا فيه كالآمر به غيره، وشاهد الزور في قضية أدت شهادته فيها إلي الحكم بإعدام المورث.

رسول الله ﷺ: لأن النص الذي تظنه عامًا قد يكون مخصصًا، والمطلق قد يكون مقيدًا، وهناك نصوص منسوخة، وهناك الجمع بين الأدلة بطريقة بعيدة عن التعسف، وهناك أسباب نزول توضح إلي حد كبير المراد من النص، فمن يقرأ مثلاً قول الله تعالي:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨)

أي حيضات أو أطهار قد يظن هذا الحكم عامًا في كل مطلقة، علي حين أن المطلقة غير المدخول بها لا عدة لها لقول الله تعالي

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

والحامل التي لا تحيض عدتها أن تضع حملها لقوله تعالي

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق:٤).

هذا يجعل المسلم يتوقف عن الفتيا حتي يدقق في المسألة – يقول ابن القيم: الجرأة علي الفتوي تكون من قلة العلم ومن غزارته. راجع: أعلام الموقعين (٨٢/١)، وهو مبحث طيب عن تورع السلف عن الفتيا.

(٥) المغني (١٥١/٩) المسألة رقم (٣٤٠١)، والذي فعله الإسرائيلي هو أنه قتل ابن عمه الوحيد ليحظي بميراث عمه، ثم اتهم جيرانه في قتل ابن عمه ثم طالبهم بالدية، فأمرهم الله تعالي بذبح بقرة، ثم يضربون ببعضها الميت ليخبر عن قاتله، وهذا شأن كثير من اليهود في كل زمان ومكان، قاتلهم الله أني يؤفكون، فهم أصحاب مكر وخداع وحيل وخسة وتهم علي المادة وقد نسب القتل إليهم في القرآن أكثر من أربعين مرة، لكن القتل جريمة واحدة من جرائمهم المركبة المتراكبة الملتوية.

(٦) في الميراث والوصية لأستاذنا الدكتور محمد بلتاجي ص (٩٢،٠٣).

(٧) للقتل أنواع في الفقه الإسلامي هي:

- القتل العمد العدوان، وهو ما يسمي في القانون قتل مع سبق الإصرار والترصد، وفيه القصاص أو الدية أو العفو.
- القتل شبه العمد، كأن يضرب أب ابنه بما لا يجرح ولا يقتل، فيموت، وفيه تجب الدية أو العفو والكفارة.
- القتل الخطأ، سواء كان خطأ في القصد كأن يرمي أحدًا يظنه عدوًا فيبدو أنه والده، أم خطأ في الفعل كمن يصلح سلاحه فتخرج منه طلقة إلي صدر والده – وتجب فيه الدية أو العفو.
- القتل بالتسبب، كمن يحفر حفرة في طريق عام فيقع فيها والده فيموت، وكذا الأمر بالقتل والمحرض عليه والمشارك فيه، ومن يؤمن الطريق عند مباشرة القتل، وكذا شاهد الزور الذي قتل مورثه بسببها ظلمًا وتجب فيه الدية.
- القتل بحق، مثل القتل قصاصًا أو حدًا أو دفاعًا عن واجب (نفس ، دين ، عرض ، مال) ولا دية فيه ولا كفارة من الناحية الشرعية، ولا جناية فيه من الناحية القانونية.
- القتل بعذر، مثل من فاجأ زوجته أو ابنته – لا قدر الله – ومعها زان فقتلهما.
- القتــل من غير مكلف كالمجنون والصغير، مثل من يلعب بســلاح أبيه فيقتله، أو يضع طفل مادة علي الطعام يظنها سكرا فإذا بها مادة سامة ـ وفيه الدية علي العاقلة.

٣- أن يكون القتل بلا حق ولا عذر.

٤- أن يكون القاتل مكلفًا وقت قيامه بذلك.

هذا ما ذهب إليه القانون، وقد اختار واضعوه المذهب المالكي بخصوص توريث القاتل إذا ثبت أنه قتل خطأ، وحرمان الوارث بالقتل العمد فقط.

ومع عدم تخطئة هذا الاختيار يبدو لي أن الأصوب هو قول الشافعية والحنفية والحنابلة والظاهرية بخصوص حرمان من قتل مورثه خطأ؛ وذلك لما يأتي:

(١) عموم قول النبي ﷺ «ليس للقاتل شيء» فهو يشمل فيه كل قاتل دون الصبي والمجنون؛ لأنهما غير مكلفين أصلاً، والقتل بحق أو عذر له ما يبرره، لكن القتل الخطأ يفتقد إلي التصون والاحتياط مما يستتبع تحمل مسئولية ذلك، وهو واقع من مكلف.

(٢) أن الشريعة الإسلامية تلزم من قتل خطأ الدية إلا أن يعفو أولياء القتيل ثم الكفارة رغم أنه ليس آثمًا شرعًا، وفي ضوء هذا يفسر حديث النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (٨).

والمعني وضع الإثم، وإذا كان من أتلف شيئًا خطأ يلزمه إصلاحه، ويغرم لهذا رغم كونه خطأ. فالأولي أن يحرم القاتل خطأ من الميراث.

(٣) إذا كان القتل العمد هو المانع من الميراث دون الخطأ فيستطيع الوارث أن يقتل مورثه عمدًا ثم يحتال ليثبت – بطريق ما – أن القتل وقع منه خطأ ويحقق مراده، لكن سد الذرائع يقتضي حرمان القاتل عمدًا أو خطأ من الميراث.

(٤) يبدو أن العدول عن مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة والأخذ بمذهب الإمام مالك كان بغرض التوفيق بين أحكام قانون العقوبات الذي يشترط لوجود جناية أن يتوفر القصد الجنائي. وتطرد العلة مع المعلول، وتتسق أحكام المحاكم الشرعية مع أحكام محاكم الجنايات، والحق أن هذا يحتاج إلي إعادة النظر؛ لتتوافق قوانين العقوبات مع قوانين الشريعة الإسلامية وليس العكس، خاصة إذا علمنا أن قانون العقوبات والإجراءات لا يتفق إجمالاً مع الشريعة الإسلامية، مما يجعل إمكانية التحايل واردة لإثبات القتل خطأ لا عمدًا، ويرث الأموال عن قتيله؛ مما يشيع الهرج في الناس.

المانع الثاني: اختلاف الدين

من موانع الميراث مع وجود سببه اختلاف الدين بين الوارث ومورثه وذلك لمايلي:

(١) ما رواه البخاري ومسلم بسندهما عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم».

(٢) ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال:

(٨) رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٣٥)، (١٧٨/٢).

«لا يتوارث أهل ملتين شتى» (٩).

(٣) يقول ابن قدامة المقدسي: أجمع أهل العلم على أن الكافر لا يرث المسلم، وقال جمهور الصحابة والفقهاء: لا يرث المسلم الكافر (١٠).

لكن ابن قدامة يعود فيذكر أن معاذًا ومعاوية ومحمد بن الحنفية يقولون: إن المسلم يرث الكافر ولا يرثه الكافر، قياسًا على أننا ننكح نساءهم ولا ينكحون نساءنا، ولما روي عن عبدالله بن بريدة أن أخوين اختصما إلى يحيى بن يعمر: يهوديًا ومسلمًا، فورث المسلم منهما، وقال: حدثني أبو الأسود أن رجلاً حدثه أن معاذًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام يزيد ولا ينقص فورث المسلم» (١١).

ترجيحي في ميراث المسلم من غير المسلم:

يبدو لي - والله أعلم - جواز ميراث المسلم من غير المسلم وذلك لما يلي:

١- الحديث السابق «الإسلام يزيد ولا ينقص» والحديث رواه أحمد في مسنده وأبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأورد المناوي أن سماع أبي الأسود من معاذ ممكن. والحديث من ناحية المتن معناه صحيح يتوافق مع مقررات الشريعة وبداهة العقول.



القرضاوي

٢- أن عدم التوريث في ظل انتشار الإسلام وإقبال غير المسلمين على الإسلام سيكون سببًا في حجب بعض من يريد الدخول في الإسلام أن يدخل فيه؛ لأنه سيجعل المسلم الجديد فقيرًا فقرًا مدقعًا خاصة إذا علمنا أن أكثر المسلمين الجدد هم نساء، فتجد نفسها بلا مال ولا زوج - على حسب من يفتي بالفرقة - وهو أمر يجعل من فروع الأحكام صدًا عن الدخول في الإسلام، وهو ما لا يقبله عقل فقيه أو داعية إلى الله تعالى.

٣- رجح شيخ الإسلام ابن تيمية صحة توريث المسلم من غير المسلم (غير الحربي)، وأهم أدلته ما يلي:

(أ) أن النبي ﷺ كان يجري الزنادقة المنافقين مجرى المسلمين في الأحكام الظاهرة فيرثون ويورثون مثلما حدث مع عبدالله بن أبي، وعليه يكون مدار الميراث على النصرة الظاهرة لا على إيمان القلوب والموالاة الباطنة.

(ب) أن المعروف عن الصحابة توريث مال المرتد لورثته المسلمين.

(جـ) هناك من حمل الحديث «لا يرث المسلم الكافر» بأنه الحربي دون غيره، فالاعتبار في الإرث بالمناصرة والمانع هو المحاربة، ولهذا قال أكثر الفقهاء: إن الذمي لا يرث الحربي، ولا يعلم عن الصحابة نزاع في توريث المسلم من قريبه الذمي، وتوريث المعتق سيده غير المسلم بالولاء.

٤- هذا ما رجحه العلامة الشيخ القرضاوي في إجابته على سؤال ورد من مسلم بريطاني جديد مات والده عن تركة كبيرة وهو الوارث الوحيد بنص القانون، فلو تركها ستذهب إلى الحكومة أو مؤسسات غير إسلامية وربما كانت تنصيرية، فأجابه بالجواز بناء على الأدلة السابقة، وأضاف فضيلته نقطة جديدة بالاعتبار وهي أنه يأخذ هذا المال لسببين إضافيين على الأدلة السابقة:

(أ) أن القانون يعطي الحق بالتوارث وهو باب من أبواب التملك فيأخذه الوارث بقوة القانون وهو سبب من أسباب التملك.

ب- يمكن اعتباره وصية ولا خلاف أن الوصية جائزة من المسلم لغيره والعكس، وأضاف فضيلته أن الحد الأدنى هو أن يأخذ ما يحتاج إليه لاستقرار حياته ثم يتصدق بالباقي على المؤسسات الإسلامية حتى لا تترك هذه الأموال لاستعمال غير شرعي، وهذا على غرار ما أفتت به المجامع الفقهية في المال المكتسب من الحرام مثل فوائد البنوك فتؤخذ وتصرف في سبيل الخير ومصالح المسلمين (١٢).

٥- أفتى المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، بجواز ميراث المسلم من غير المسلم توافقًا مع حاجة المسلمين الجدد في الغرب، إلى فتوى تحدد مدى استحقاقهم لهذا الميراث، وبعد عرض البحوث حول الموضوع والنقاش، أفتى بالجواز وهو ما يبدو لي أنه الأصح في هذه القضية.

ولا يفوتني أن أتعجب من قول ابن قدامة: إن القضية مجمع عليها (عدم جواز التوارث) ثم يورد بنفسه أن هناك من قال بجواز ميراث المسلم من غير المسلم مثل عمر ومعاذ ومعاوية ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين وسعيد بن المسيب ومسروق وعبد الله بن معقل والشعبي ويحيى بن معمر وإسحاق، وهؤلاء أجلة علماء الصحابة والتابعين خاصة سيدنا عمر ومعاذ وابن المسيب، فهل يكون هناك إجماع بدونهم؟!!، حقًا إن كثيرًا مما ادعي فيه الإجماع ورد فيه الخلاف ومنه قضيتنا ميراث المسلم من غير المسلم.

ويدخل في عدم التوارث بين مسلم وكافر ما يلي:

١- ميراث غير المسلمين من بعضهم (١٣):

لا خلاف أن أهل الملل الأخرى يتوارثون إذا كانوا جميعا ملة واحدة، مثل اليهود مع بعضهم والنصارى والبوذيين والسيخ والشيوعيين والملاحدة، فكل أهل ملة من هؤلاء يرث بعضهم بعضًا.

أما أن يتزوج ملحد بوذية أو يهودي نصرانية أو يكون الأب شيوعيا وابنه يهوديًا،

(٩) رواه أبو داود - كتاب الفرائض - باب هل يرث المسلم الكافر؛ رقم (٢٧٩١)، وقال أخرجه النسائي وابن ماجه، والحديث في سنن ابن ماجه - كتاب الفرائض - باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك - لكن رواية الترمذي عن جابر بن عبدالله وليس عن عبدالله بن عمرو بن العاص راجع الترمذي - كتاب الفرائض باب من جاء في إبطال الميراث بين المسلم والكافر رقم (٢١٩١)، ورواه أحمد في المسند (٢/١٧٨).

(١٠) المغني (٩/١٥٠).

(١١) رواه أبو داود - كتاب الفرائض - باب هل يرث المسلم الكافر برقم (٢٧٩٢) وقال فيه رجل مجهول.

(١٢) في فقه الأقليات المسلمة - الشيخ القرضاوي ص (١٢٦ - ١٣١) - دار الشروق.

(١٣) تأتي أهمية هذه النقطة من ناحية أن قانون الميراث المعمول به في مصر يشمل جميع المصريين بجميع أديانهم، فقد يتزوج مسيحي يهودية والعكس يتزوج يهودي ومسيحي وثنية فهل يتم التوارث بينهما؟

فهل يتوارث هؤلاء؟

هناك ثلاثة أقوال: الأول: أن اختلاف ملل الكفر غير مانع من الإرث، وهو قول جمهور الفقهاء: الحنفية والشافعية وداود الظاهري ورواية عن أحمد، ودليلهم في هذا قول الله تعالي:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

[الأنفال: ٧٣].

والميراث مرجعه إلي الولاية والمناصرة، ويقول الله تعالي:

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾

[يونس: ٣٢]

فهؤلاء جميعًا كفار وملتهم واحدة وهي دين الباطل.

وقد أخذ القانون بهذا القول حيث ورد في المادة (٦١) أنه لا توارث بين مسلم وغير مسلم، ويتوارث غير المسلمين بعضهم من بعض، وهذا هو القول الراجح فعلاً في هذه القضية.

الثاني: أن اختلاف ملل الكفر يمنع التوارث بينهم، فلا يرث اليهودي النصرانية أو العكس؛ لأن لكل منهما ملة مستقلة، وللحديث عن النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتي».

وهذه ملل شتي لقول الله تعالي:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

[المائدة: ٤٨]

ولأن الله تعالي ذكر هذه الملل في القرآن الكريم كلًا علي حدة، قال تعالي:

﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[الحج: ١٧]

والعطف يقتضي مغايرة.

ومع وجاهة الاستدلال هنا إلا أنه ليس في قوة الاستدلال الأول؛ لأن حديث النبي ﷺ: (لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم» فيه دلالة بمفهوم المخالفة أن المسلم يرث المسلم، والكافر يرث الكافر.

- أن غير المسلمين ثلاث ملل: اليهودية والنصرانية وبقية الكفار ملة واحدة أخري؛ لأنهم جميعًا ليسوا أهل الكتاب، فلا توارث بين يهودي ونصرانية إذا كانا زوجين، ولكن الملحد يرث المجوسي، ودليله أن اليهود والنصاري كل منهم ملة لها كتاب ونبي. وبقية الكفار يجمعهم عدم إيمان بأي كتاب أو رسول، والتفرقة هنا ضعيفة لا تقوي أمام أدلة المذهب الأول.

[٢] ميراث المرتد:

وهو التارك للإسلام مختارًا (١٤). وقد اتفقوا جميعًا علي أن المرتد لا يرث مسلمًا مات، مثل رجل مات وترك أبًا مرتدًا وابنًا لا يرث الأب شيئًا. لكن هناك خلافًا في ميراث المرتد علي النحو التالي:

١- ذهب زيد ومالك والشافعي وأحمد إلي أن أهله لا يرثونه؛ لأنه بارتداده انتهت الولاية بينه وبين سائر المسلمين؛ وذلك لعموم الحديث: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم». وتعتبر أمواله فيئا يذهب إلي بيت المال أو الخزانة العامة.

٢- وذهب أبو حنيفة الثوري وكثير من البصريين إلي أن ردة المرتد لا تمنع أن يرثه أهله المستحقون في التركة فيما امتلكه قبل ردته، أما ما اكتسبه بعد ردته فلا يورث ويرد إلي بيت مال المسلمين. وحجتهم في هذا أن المرتد لا يقر علي دينه الجديد، فلا ينطبق عليه أحكام الديانة التي انتقل إليها، فلو دخل النصرانية لا يعامل علي أنه نصراني، بل علي أنه كافر؛ ولذا لو ارتد متوارثان لا يرث أحدهما الآخر حتي لو ارتدا إلي دين واحد.

ولم يتعرض قانون الميراث في مصر لهذه القضية، وبهذا يكون العمل بالرأي الراجح في مذهب أبي حنيفة النعمان، عملا بالمادة رقم (٢٨٠) من القانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١م أن كل ما لم ينص عليه في القوانين الموضوعة في أحكام الأحوال الشخصية يعمل فيه بالراجح من مذهب أبي حنيفة.

[٣] اختلاف الدارين:

المقصود باختلاف الدارين هو: دار الإسلام ودار الحرب؛ فبلاد الإسلام جميعا دار واحدة وإن كان لكل بلد جيش وحاكم ودستور خاص بها، لكنها جميعًا تعتبر دارًا واحدة؛ لقوله تعالي:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء: ٩٢]

وقوله تعالي:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

[التوبة: ٧١]

فهذه الولاية قائمة بين كل المؤمنين والمؤمنات في ربوع الأرض، وهي السبب الحقيقي للتوارث.

لكن الخلاف حول ديار غير المسلمين، وهي ما تسمي دار الحرب أو دار العهد والدعوة، مثل أمريكا أو فرنسا أو انجلترا، أو اليابان أو الصين و.... (١٥)

فلو مات أب في مصر وله ابن مقيم في أمريكا فهل يتوارثان؟

المذهب المختار في هذا أنه لا مانع من التوارث بينهم بشرط أن تكون المعاملة بالمثل، فإذا كانت شريعة الأمريكان لا تسمح بالتوارث، حرصًا علي عدم نقل الأموال الخاصة بها إلي بلد آخر، عوملت بالمثل في عدم توريث أحد من جنسيتهم من مورثه في مصر. علي سبيل المثال جاء في الفقرتين الثالثة والرابعة من المادة السادسة من قانون المواريث واختلاف الدارين لا يمنع من الإرث بين المسلمين ولا يمنع بين غير المسلمين إلا إذا كانت شريعة الدار الأجنبية تمنع من توريث الأجنبي عنها.

[٤] الرق:

ومعناه هنا أن العبد أو الأمة لا يرث أحد منهما سيدة بعد موته لأن الرقيق وما يملكون ملك لأسيادهم، فيرثهم سيدهم ولا يرثونه، وليس هناك ما يضطرنا إلي الخوض في مسألة لا وجود لها الآن مع افتقار الأمة الإسلامية إلي الاجتهاد في مئات القضايا الجديدة في هذا العصر.

(١٤) المرتد يمهل ثلاثة أيام يستتاب فيها ويحتشد له بعض علماء الإسلام يرغبونه في الإسلام، فإن لم يرجع إلي الإسلام حكم القاضي - وليس عموم الناس أو حتي العلماء - بردته، ثم يقتل بيد الدولة لا عموم الأفراد الساخطين علي ردته، وإلا لساد الهرج وانتشر القتل، وادعي كل قاتل أنه سمع قتيله يقول ما لا يحتمل تأويلاً غير الكفر.

(١٥) ما يحتاج إلي اجتهاد حقيقي الآن هو مدي اعتبار الديار ديار حرب أو إسلام، وهذا يتفرع عن الاحتكام العام إلي الشريعة الإسلامية في كل شئون الحياة، بحيث يعيش المسلم والذمي آمنا علي دينه ونفسه وعرضه ونسله. والأمر المحير للمجتهد اليوم أنه قد يكون في ديار الإسلام غير آمن علي شيء من الضرورات الست ويتعرض لابتلاءات عديدة من بني جلدته، وقد يجد الأمان في غير بلاد الإسلام.

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

إنجرام(١)

[١] «إنى أعتقد أن الإسلام هو الدين الذى يدخل السلام والسكينة إلى النفس ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال والسلوى فى هذه الحياة، وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسى فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلهى وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم.. لقد درست الدين الإسلامى مدة سنين، ولم أتخذه دينًا إلا بعد بحث قلبى عميق، وتحليل نفسى طويل، لم أغير دينى إلا لكى أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنونى، ولأنعم بالسكينة فى ظلال الهدوء، والتأمل بعيدًا عن متاعب الهموم والمحن التى يسببها التكالب على الكسب والتهالك على المال، الذى أصبح اليوم معبود البشر وإلههم، ولأخلص نفسى من براثن الإغراء وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات وجنون فرقة الجاز أسلمت لكى أنقذ ذهنى وعقلى وحياتى من الهدم والتدمير»(٢).

[٢] «أنا اليوم ابن الإسلام وإنى سعيد أكثر مما كنت فى أى يوم من أيام حياتى، وفى مدنيتى الغربية ومع ثيابى الغربية سعيد كمؤمن بدين بالإسلام الخالد الذى هو أكمل دين سماوى ارتضاه الله للبشرية»(٣).

أوليفر(٤)

[١] «بعد أن درست الأديان المختلفة فى العالم توصلت إلى الاستنتاج بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يؤثر فى أولئك الذين يؤمنون به وكذلك الذين لا يؤمنون به على حد سواء، فأعظم فضيلة للإسلام أنه يأسر قلوب البشر بصورة تلقائية ومن أجل هذا تجد فى الإسلام سحرًا غريبًا وجاذبية عظيمة تجتذب إليها ذوى العقليات المتفتحة من غير المسلمين»(٥).

[٢] «إن أهم الجوانب، فى الإسلام التى أثرت فى نفسى هى بساطة تعاليمه وطريقة الحياة البسيطة المستقيمة التى يحياها المسلمون المتمسكون بتعاليم الإسلام [كما] أن الإسلام لا يعتبر أحدا خاطئا منذ ولادته والإسلام هو دين السلام فهو يدعو إلى إشاعة السلام والانسجام بين المسلمين، وليس ذلك فحسب بل يضع المسئولية على عاتق المسلمين لإقامة السلام فى العالم كله»(٦).

[٣] «.. إن كل من يؤمن بصدق وإخلاص

(١) ركس إنجرام R Ingram ولد فى اسكتلندا فى أواخر القرن الماضي، وشارك فى الحرب العالمية الأولى، ثم رحل إلى العديد من بلاد الشرق، ودرس لغاتها وأديانها، وانتهى به المطاف مصورا سينمائيا فى هوليود. اعتنق الاسلام بعد أن وجد فيه ضالته المنشودة.

(٢) رجال ونساء أسلموا ١/٣٢. (٣) نفسه، ١/٣٤.

(٤) مارى أوليفر Mary Oliver مسيحية لم تستطع عقيدتها أن تمنحها القناعة، فأخذت تدرس البوذية والهندوسية وإذ لم تجد فيها ما كانت تبحث عنه، انتهى بها المطاف إلى الإسلام، حيث اعتنقته مؤمنة بأنه الدين الوحيد الذى يستجيب لمطالب الإنسان.

بهذا الدين يسعى إلى تحرير نفسه من الذنب والخطيئة، ويعمل على أن تكون حياته تجسيدًا وتعبيرًا صادقًا عن كافة الفضائل وهذه الرغبة من جانب المسلم تورث الانسجام والاعتدال فى المجتمع الإنسانى وهذا الاعتدال بدوره يمهد السبيل نحو تقدم الأفراد والمجتمع..»(٧).

[٤] «.. الإسلام، على عكس الهندوكية والنصرانية، لا يحتفظ بأى جزء من تعاليمه ويجعله حكرًا لطبقة خاصة من الناس. بمعنى أنه فى الإسلام لا يوجد كهنوت ولا رجال دين كطبقة منفصلة متميزة لها امتيازاتها.. فالتعاليم الإسلامية موجهة إلى كافة البشر وهى بسيطة سهلة يستطيع كل إنسان أن يفهمها بكل يسر. فالإسلام يؤكد فى تعاليمه أن على الناس أن يفكروا وأن يستخدموا عقولهم فى الأمور الدينية..»(٨).

واشنجتون إيرفنج

[١] «ينهى الإسلام عن الوثنية تمامًا فى جميع صورها. فقد نهى الإسلام عن جميع الطقوس الدينية فى الجاهلية التى تتعلق بالوثنية، ودعا إلى توحيد الله، ولكنه احتفظ من بين هذه الطقوس بما هو بعيد عن الوثنية، مثل الحج إلى مكة والطواف بالكعبة..»(٩).

[٢] «عند قدوم محمد ﷺ إلى المدينة اعتنق بعض أهلها من المسيحين الإسلام. فقد وجدوا تشابها بين التعاليم الإنسانية فى كل من الإسلام والمسيحية، ولم يلمسوا أى تعارض بين الدينين، وبخاصة أن الإسلام يضع المسيح [عليه السلام] فى مقدمة الأنبياء [عليهم السلام]. أما باقى المسيحيين فلم يبدو أى عداء للإسلام فقد اعتبروه أفضل بكثير من الوثنية. ولا شك أن الخلافات العديدة التى كانت قد نشبت بين الطوائف المسيحية فى الشرق قد مهدت الطريق أمام المسيحيين ليعتنقوا الإسلام»(١٠).

باتيل(١١)

[١] «لقد أيقنت أن الإسلام هو المنهج الذى يحقق غاية [الوجود الإنسانى] فهو يمتاز بالبساطة والواقعية والاستعلاء والحساسية والشمول. فالإسلام يحترم كافة الأديان ويوقر جميع الأنبياء.. قال تعالى:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

فهل هناك أبلغ من هذا الدليل على شمول الإسلام وعقيدته وإيمانه بالله الواحد الأحد؟»(١٢).

[٢] «.. إن قوة الإسلام فى ذاته، فى خصائصه الروحية وشموله. وهذا هو سر غلبته فى النهاية..»(١٣).

(٥) رجال ونساء أسلموا ٤/١٤٢. (٦) نفسه، ٤/١٤٢-١٤٣. (٧) نفسه، ٤/١٤٤.

(٨) نفسه ٤/١٤٤-١٤٥. (٩) حياة محمد، ص٧٥. (١٠) نفسه، ص١٣٣-١٣٤.

(١١) بشير أحمد عبد الرحمن باتيل B.A.Pattel ولد فى الهند عام ١٩٢٩م، فى أسرة هندوكية عريقة، ولم يجد فى دين آبائه ما يمنحه القناعة الكافية، فانقلب إلى الشيوعية، فلم تلب مطالبه هى الأخرى، فتقلب بين الأديان وأخيرا وجد مستقره فى الإسلام، وهو الآن يعمل رئيسا لقسم اللغة الانكليزية والتاريخ فى إحدى المدارس الثانوية فى دار السلام، عاصمة تنزانيا.

(١٢) رجال ونساء أسلموا، ١/١٩. (١٣) نفسه، ١/٢١.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ. د. محمد سيد طنطاوى

رابعًا: إباحة طعامهم والتعامل معهم والزواج منهم

من مظاهر سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، أنه أجاز أكل طعامهم، وأحل ذبائحهم، والتعامل معهم بالبيع والشراء، وغير ذلك من المعاملات.

فعن عائشة رضى الله عنها، قالت: «اشترى رسول الله ﷺ من يهودى طعامًا إلى أجل ثم رهن درعًا له من حديد»(١).

وعنها قالت: «توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير»(٢).

كذلك رخصت الشريعة الإسلامية للمسلمين أن يتزوجوا من نسائهم دون نساء المشركين عبدة الأوثان. قال تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة: ٥)

والمراد بالمحصنات: العفائف، أو الحرائر، وقوله تعالى:

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾

صريح فى جواز الأكل من طعامهم وقوله تعالى:

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

واضح فى جواز نكاح نسائهم.

وقد تزوج عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ نائلة بنت الفرافصة الكلبية، وهى نصرانية على نسائه، وتزوج حذيفة بيهودية، وتزوج طلحة يهودية من أهل الشام.

قال ابن قدامة: ليس بين أهل العلم اختلاف فى حل حرائر أهل الكتاب، وممن روى عنه ذلك، عمر، وعثمان، وطلحة، وحذيفة بن

(١) صحيح البخارى، باب الرهن جـ٢ ص١٧٦.
(٢) صحيح البخارى ما قيل فى درع النبى ﷺ جـ٤ ص٤١.

اليمان وسلمان، وجابر، وغيرهم من الصحابة، ثم قال: قال ابن المنذر: «ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك»(٣).

وقد أثبتت الشريعة الإسلامية للزوجة الكتابية حقوق الزوجية، التى أثبتتها لغيرها، كإعطائها حق القسم بينها وبين الزوجة المسلمة، والإنفاق عليها من حلال، ومعاشرتها بالمعروف، وعدم إكراهها على ترك دينها.

وهذا كله من أكبر الشواهد على سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، ومودته لهم، ماداموا لم يسيئوا إلى الدولة الإسلامية، ولم يستغلوا هذه السماحة، أو المودة فى إلحاق مضرة بالمسلمين.

خامسًا: قبول الجزية منهم دون المشركين

لم يقبل الإسلام من المشركين ـ عبدة الأصنام ـ الجزية، بل خيرهم بين أمرين القتال أو الدخول فى الإسلام، ولكنه قبل من أهل الكتاب أن يعيشوا فى ذمة المسلمين، وأن يبقوا على معتقداتهم، دون إكراه لهم على الدخول فى الإسلام، بشرط أن يسهموا فى تمكين الدولة الإسلامية من القيام بواجبها، عن طريق دفع الجزية لها، مقابل حمايتهم ورعايتهم.

فالجزية فى شريعة الإسلام ما هى إلا حق، يأخذه الحاكم المسلم من أهل الكتاب نظير واجب عليه نحوهم، وهو صيانة أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم، من التعرض لها بسوء.

وقد فهم بعض الناس من قوله تعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٩٢)

معنى القسوة، والإذلال، وامتهان الكرامة، وهذا الفهم خاطئ؛ لأن المقصود من الآية الكريمة، أن يدفع أهل الكتاب مقدارًا معينًا من أموالهم حتى يكونوا مساهمين فى بناء الدولة الإسلامية، التى ترعى شئونهم، وأن يكونوا خاضعين لها، غير متمكنين من الثورة عليها، أو الإضرار بمصالحها، أو الإقلاق لأمنها.

وهذا الخضوع التام منهم، لأحكام الدولة الإسلامية، التى يعيشون فى حمايتها، أمر تفرضه كل دولة على رعاياها، ومن تحت حمايتها، حتى تستطيع أن تباشر وظيفتها الإصلاحية بأمان وطمأنينة، وحتى لا يتعرض كيانها للهدم وسلطانها للضعف، وكرامتها للامتهان، واستقرارها للتدهور والاضطراب.

هذا ومن مظاهر سماحة الإسلام مع أهل الكتاب أنه لم يوجب الجزية إلا على رجالهم، دون نسائهم، وصبيانهم، وأنه لم يأخذ الجزية إلا ممن يقدر على دفعها، أما من ثبت عجزه عن دفعها فلا يكلف بها.

روى أبو يوسف فى كتاب الخراج أن عمر ـ رضى الله عنه ـ مر على قوم أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقيل له إنهم أقيموا فى الجزية فكره ذلك، وقال: «هم وما يعتذرون به» قالوا: يقولون ما نجد، قال: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ثم أمر بهم فخلى سبيلهم»(٤).

ومن وصية أبى يوسف ـ رحمه الله ـ لخليفة المسلمين فى عهده: قوله: «وينبغى يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك، وابن عمك محمد ﷺ حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق

(٣) المغنى لابن قدامة جـ٧ ص٥٠.
(٤) كتاب الخراج لأبى يوسف ص١٢٥.

طاقاتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»، وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم»(٥).

سادسًا: معاملتهم بمقتضى قاعدة لهم

ما لنا وعليهم ما علينا

إذا ارتضى أهل الكتاب أن يعيشوا في ظل الدولة الإسلامية، وحمايتها، والتزموا معها طريقة المسالمة، فلم يعلنوا عليها حربًا، ولم يظاهروا عليها عدوا، يقاتلها، ولم يبدر منهم ما يمسها بسوء، فإن الإسلام في هذه الحالة يأمر أتباعه أن يعاملوهم بمقتضى هذه القاعدة العادلة الرحيمة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

وهاك بعض الحقوق التي ظفر بها أهل الكتاب بناء على هذه القاعدة الذهبية:

[أ] صيانة دمائهم وأموالهم وأعراضهم من الاعتداء عليها، وتساويهم مع المسلمين في وظائف الدولة وأعمالها، ما داموا أمناء على مصالحها، مؤدين لوظائفهم وأعمالهم، على الوجه الأكمل، وما دامت تلك الوظائف، أو الأعمال لا مضرة تترتب عليها، إذا تولاها غير المسلمين، والتاريخ الإسلامي في مختلف عهوده حفظ لنا أسماء عدد كبير من أهل الكتاب، الذين شغلوا مناصب مهمة في الدولة الإسلامية، وإذا كان بعض حكام المسلمين قد عزل بعض الكتابيين من وظائفهم فسببه إضرارهم بالمناصب، التي أسندت إليهم، واستغلالهم إياها فيما يعود بالشر على الأمة الإسلامية.

[ب] العطف عليهم، والرأفة بهم عند العجز: قال الإمام أبو يوسف: حدثني عمر بن نافع، عن أبي بكر، قال مر عمر -رضي الله عنه- بباب قوم، وعليه سائل يسأل، وكان شيخا ضرير البصر فضرب عمر عضده. وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟. فقال: يهودي، قال: فما ألجاك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده. ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وضرباءه. فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ والفقراء: هم الفقراء المسلمون. وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ثم وضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال أبو بكر: «أنا شهدت ذلك من عمر، ورأيت ذلك الشيخ»(٦).

أما بعد: فهذا هو موقف الإسلام العادل من أهل الكتاب، وذلك هو مناهجه الواضح السليم، في دعوتهم إلى الإسلام، وتلك هي بعض مظاهر إنصافه لهم. وسماحته معهم، ومودته إياهم. ولقد كان الواجب على بني إسرائيل، وهم أهل كتاب- أن يقابلوا الإحسان بالإحسان، وأن يتبعوا النبي ﷺ فيما يدعوهم إليه.

ولكن اليهود لم يكونوا عند حسن الظن بهم، فلقد وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المشكك في صحتها، المعادي لرسولها ﷺ، المثير للفتن بين أتباعها. وسلكوا في سبيل القضاء عليها كل مسلك.

(٥) كتاب الخراج لأبي يوسف ص١٣٤ المطبعة السلفية.
(٦) كتاب الخراج لأبي يوسف ص١٢٦ المطبعة السلفية.

من فتاوى الحاخامات

دراسة التوراة مع الفتيات

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il نوفمبر ٢٠٠٥

فتوى من: الحاخام شموئيل إلياهو

● سؤال: أنا صبي أبلغ من العمر ١٥ عاما، وأقوم بتدريس الجمارا لفتاة في مثل سني. فهل يجوز لي ذلك؟

●● جواب: لا يجوز ذلك على الإطلاق.

الاختلاط في التعليم الديني

فتوى من: الحاخام شموئيل إلياهو

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il مارس ٢٠٠٦

● سؤال: هناك منظمة تدعى نحت يدرس فيها البنين والبنات العهد القديم، بمعنى أن فتى أو فتاة يقومان بإلقاء الدروس أمام مجموعة من الشباب، ولكن المدرسة الدينية بشكل عام غير مختلطة. هل يجوز لي أن أنضم لمثل هذه المنظمة؟

وهل يجوز للفتيات التدريس للبنين؟

●● جواب: في الحقيقة هذا غير مناسب. ولا يصح ولا يليق. ربما تقوم الفتيات بإلقاء درس مهم، وقد يكون الدرس سليمًا من الناحية الفكرية، وقد يكون هناك الجديد في كلامهن ولا تتاح لك الفرصة لسماع مثله من أي مصدر آخر. ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا لا يصح؛ لأنه مناف للتوراة التي تعلمنا منها الابتعاد عن التقارب بين الجنسين قدر الإمكان. وكما ورد في كتاب شولحان عاروخ (باب إيفن هاعيزر فقرة ٢١): «يجب على الرجل أن يبتعد بشدة عن النساء». فأين هذا الابتعاد إذا كنا ندرس معًا وننظر إلى هذه الفتاة التي تقوم بالتدريس على مدى فترة طويلة. كأننا نعمل الشيء ونقيضه في آن واحد. فنتعلم التوراة ونناقضها. كيف يمكن ذلك؟ إذا كنا لا نؤمن بأن هذه التوراة من عند الرب. (وبالمناسبة فإنني لا أعتقد أن هناك أي فائدة من تدريس التوراة على غير طهارة. ربما يكون هذا مهمًا – لكن العلم الذي سيأتي منه لن يكون صحيحًا).

معظم الذين يحملقون في الفتاة التي تقوم بالتدريس سوف تراودهم أفكار آثمة. ومن يقول لك إن الأفكار الآثمة لا تراوده فاعلم أنه إما يخدع نفسه أو يخدعك أو أنه أحد الأتقياء المجهولين. وحتى هؤلاء الأتقياء كانوا يحرصون بقدر الإمكان على عدم التقارب مع النساء؛ لأنهم لا يخدعون أنفسهم أبدًا، وكانوا يعلمون جيدًا ما يتسبب فيه هذا التقارب من فساد في علاقات الزوج بزوجته وفي التقرب إلى الرب.

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣م

قصص الأنبياء

بنو إسرائيل بمصر

لفضيلة العلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

نزل يعقوب إسرائيل الله بأولاده مصر في عهد يوسف عليه السلام ولم ينزل في الكتاب الكريم شيء عن بني إسرائيل وإسرائيل بمصر بعد ذلك إلى عهد ولادة موسى.. ولكن التوراة ذكرت أن يعقوب وبنيه لما أقاموا في مصر خيرهم فرعون في الأرض التي ينزلون بها.. فقالوا ـ بناء على تعليم يوسف لهم ـ إنهم رعاة ماشية.. وطلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم أرض جاسان أو جاشان وهي في شمال بلبيس من بلادها سفط الحنة الآن.. ويقول العلماء إنها نواحي الصالحية وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم أنها أرض مراع وهم رعاة ماشية.

ويلوح لي أنه إنما عمل ذلك ليبعدهم عن مخالطة المصريين بقدر الإمكان، حتى يكونوا بمنجاة من وثنيتهم حرصًا منه على بقاء ذراريهم على التوحيد، وذلك أن المصريين كانوا يقذرون الرعاة ولا يخالطونهم لأن ذلك نجاسة لديهم.

وتذكر التوراة أن يوسف اشترى من المصريين مواشيهم وكل ما يملكون من الأرضين لفرعون في نظير ما أعطاهم من الطعام حين اشتد الجوع في الأرض.. ثم اشترى منهم أنفسهم فصاروا عبيدًا لفرعون بطعام بطونهم.. ونقل الناس إلى المدن لأنهم لا خير لهم في البقاء بداخلية البلاد، إذ لا زرع ولا ضرع.

وفاة يعقوب

وقد عاش يعقوب سبعًا وأربعين ومائة سنة.. ومات على رأس سبع عشرة سنة من قدومه إلى مصر.. وبارك ابني يوسف «أفرايم ومنسي» ودعا لهما.. وجعلهما صاحبي نصيبين كأولاد يعقوب الصلبيين في الأرض المقدسة التي يملكها بنو إسرائيل ـ وهي أرض فلسطين ـ ودعا أولاده وباركهم وتنبأ لهم بما سيلاقي كل واحد منهم ونسله إجمالاً.. وأوصاهم بالاستمساك بالدين:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٣)

وقد مات يعقوب بعد ما أوصى أن يدفن عند أبيه وجده.. فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه فحنطوه وحمل إلى فلسطين ودفن هناك كما أوصى، أما أخوة يوسف فوقعوا على قدميه تائبين مستغفرين لسابق ذنبهم ضارعين خائفين أن يمسك يوسف عنهم سبب بره، ويزوي عنهم وجه بشاشته بعد أن كان يكرمهم.. مقدرين أنه ما كان يكرمهم إلا بسبب وجود أبيهم.. وقالوا له: إن أبانا أوصانا أن نبلغك أن تصفح عن إساءتنا إليك وبخعوا له بأنفسهم بالعبودية، فبكى يوسف وسكن روعهم وعرفهم ما في إساءتهم من الخير لشعوب الأرض وأن الله فعل ذلك رحمة بعباده، وعاش يوسف إلى أن بلغت سنه عشرًا ومائة سنة فحنطوه ووضعوه في تابوت وبقي محفوظًا إلى أن أخذه بنو إسرائيل في خروجهم من مصر.

وقد رأيت في الحرم الخليلي بحبرون أحد التوابيت الموضوعة قريبًا من مغارة المكفيلة وهي مدفن إبراهيم وسارة ورفقة وإسحق ويعقوب.. وأهل البلاد يقولون إنه تابوت يوسف وأنه دفن في المغارة، وأحسب ذلك منهم وهما لأن يوسف دفن في أرض «أفرايم» كما تقول التوراة، وحبرون من أرض يهوذا.

وقد أخبرني حضرة الفاضل محمد نمر حسن نابلسي بأن يوسف مدفون بنابلس وله ضريح هناك.. وكذلك أخبرني بذلك حضرة الفاضل أمين بك عبدالهادي من أعيان نابلس.

وهذا هو المعقول لأن نابلس من أرض أفرايم واسمها في القديم «شكيم» أو «شخيم».

ثم ماذا؟

ضرب الدهر ضرباته وجاءت الأسرة الثامنة عشرة المصرية.. وطردوا ملوك الرعاة الذين كانوا في مصر وشغلوا من تاريخها نحو أربعة قرون ـ من الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة.

وجاء أحمس رأس تلكم الأسرة وطرد الرعاة ومزقهم كل ممزق وشردهم كل مشرد.. وبنو إسرائيل في أمكنتهم.. وكان بين ورودهم إلى مصر وخروجهم منها على يد موسى خمس عشرة سنة ومائتا سنة على ما حققه رحمة الله الهندي.

جاء ملك لمصر لا يعرف يوسف ولا فضله على مصر وغيرها.. ورأى بني إسرائيل يكثرون.. فخاف أن يكونوا إلبًا «أي قوة وحزبًا» لأعداء أهل مصر فأراد أن يقتل كل ذكر من أولادهم حتى لا يكثر عددهم ويكون منهم ما يحذر على مصر والمصريين (٢).. فأمر قابلتي المصريين وكان اسم إحداهما «شفرة» والثانية «فوعة» بقتل كل ذكر تلده عبرانية.. وأما البنت فتبقى، فلم تفعلا ما أمرتا به.. ولما سألهما قالتا له إن العبرانيات قويات.. فهن يلدن قبل أن تأتي القابلة.. وكان ذلك الملك أمر بإذلال العبرانيين وتسخيرهم في عمل اللبن والبناء وغير ذلك

من الأعمال الشاقة، ووكل بهم من يتبعهم حتى لا يجدوا مس الراحة، رجاء أن يقلل ذلك من نسلهم، فلم يفد ذلك فرعون وآله فائدة.. لأن العبرانيات كن يحملن كثيرًا، ثم أمر فرعون جنوده والمتدخلين في الأعمال أن يلقوا كل ذكر من أولاد العبرانيين في النهر ليموت.

هذا ما ذكرته التوراة وهو عين ما ذكر في القرآن إلا في تفاصيل جزئية.

اقرأوا هذه الآيات:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(سورة البقرة: ٤٩)

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(سورة الأعراف: ١٤١)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(سورة إبراهيم: ٦)

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

(سورة القصص ٣: ٦)

فأنتم ترون أن قتل الأبناء واستحياء النساء بلاء لا يصبر عليه ذو عقل إلا بمعونة الله، وأن الله سبحانه وتعالى إنما كافأ بني إسرائيل بنعمه الوافرة بما كان منهم من الصبر، وإن كانوا على أخلاق جافية وطباع شاذة في نواح أخرى من نواحي سجاياهم، من حيث ضجرهم بالخير يسدى إليهم، وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاحين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ـ كما سيأتي ـ ومبادرتهم إلى عبادة العجل بلا روية وذلك أن أجر الصبر عند الله تعالى عظيم.

***

من عيون التراث

غاية المرام في علم الكلام

تأليف/ الآمدي سيف الدين
تحقيق/ حسن محمود عبد اللطيف
القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي (١٩٧١م)، [illegible]

التعريف بالمؤلف:

علي بن أبي علي بن محمد بن سالم ولقبه سيف الدين، والآمدي نسبة إلى موطنه الأصلي، ولد سنة (٥٥١ هـ) في مدينة آمد بشمال العراق، استكمل دراسته في بغداد وتعلم على يد «جمال الدين أبو القاسم يحيى أبو الفضل الشافعي»، وتلقي دروسًا في الفلسفة، واتجه إلى الشام وواصل دراساته الفلسفية فيها، ثم انتقل إلى مصر عام (٥٩٢ هـ)، ولنبوغه دبرت له المؤامرات فخرج من مصر بعد عشرين عامًا، وعاد إلى الشام، وأهم كتبه بها هي «دقائق الحقائق» في المنطق، و«أبكار الأفكار» في علم الكلام. ثم انتقل إلى دمشق واهتم بعلم أصول الفقه وأصدر كتابين هما «الإحكام في أصول الأحكام» و«منتهى السول في علم الأصول»، وتوفي في سنة (٦٣١ هـ).

عرض الكتاب:

يتكون من (٤٦٠) صفحة من القطع الكبير، يبدأ بتصدير رئيس لجنة إحياء التراث الإسلامي الناشر لذلك الكتاب وهو «محمد أبو الفضل إبراهيم»، وتحدث فيها عن علم الكلام، وتعريف «ابن خلدون» له بأنه «علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وهو غاية رسالة سيدنا محمد»، وتحدث عن كتاب «بلوغ المرام في علم الكلام»، وأنه نسخة وحيدة، وأنها من نفائس المخطوطات بمكتبة اسطنبول. تلا ذلك مقدمة المحقق، بدأت بالتأكيد على كتب التراث العربي والإسلامي وما فيها من أهمية لنهضة الثقافة والحضارة، وإضافة للرصيد العلمي، وأشار إلى أن الدراسات الكلامية perception.

من أكثر جوانب التراث الإسلامي أصالة وخطرًا فهي أساس الفلسفة الفكرية له، ثم وصف المؤلف وعرض وصفًا تفصيليًا للنسخة الأصلية من الكتاب، وبيان المنهج الذي اتبعه في تحقيقه، ثم تلي ذلك مقدمة المؤلف التي أوضح فيها أن غاية الإنسان الإلمام بالمعلومات، وتحصيل العلم وأن علم الكلام هو أشرف العلوم، وأن الكتاب يتضمن ثمانية قوانين لكل منها عدة قواعد دينية.

القانون الأول: في إثبات الواجب بذاته، ويتحدث عن طرق إثبات وجود موجود هو الله، وفلسفة وجوده، وأن وجود الوجود يلزم وجود الموجود.

وذكر في (ص ٨١) أن الإدراك يكون بالحواس أو بالنظر بمعنى أن معارف الفرد السابقة تحدد إدراكه للأشياء فقد يكون الإنسان عالمًا بقضية كلية وهو جاهل بما يدخل أسفلها بالجزئية أو

غافل عن الارتباط الواقع بينهم.

القانون الثاني: في إثبات الصفات، وإبطال تعطيل من ذهب إلى نفيها من أهل المقالات، وأورد هنا وصف ما يتميز به الخالق عن المخلوقات وهل يجوز أن يكون له صفة زائدة، وهل الصفة نفس الوصف أم غيره؟!

وذكر في (ص٥٤) أنواع الاستقراء Induction معرفًا إياه بأنه البحث والنظر في جزئيات كل ما عن مطلوب ما، وهو إما تام أي أنه على جميع الجزئيات، أو ناقص أي أنه على بعض الجزئيات دون البعض.

وذكر في (ص٨٠) أن العلم بالكائنات عبارة عن انطباع صورها في النفس Images.

وتحدث عن صفة الكلام وأهمية الكلام ووظائفه، وذكر في (ص٢٩) أن كلام النفس ليس خارجًا عن القدرة والإرادة والتمييز الحاصل للنفس الحيوانية، والحواس الباطنية، وذلك كما تتصوره القوة الخيالية من شكل الفرس عن شكل الحمار ونحوه. وما تتصوره القوة الوهمية لشاة من المعنى الذي يوجب نفرتها عن الذئب، أو التمييز الحاصل للنفس الناطقة الإنسانية بالقوة النظرية التي بها إدراك الأمور الكلية بالفكرة والروية، وذلك كتصورنا معنى الإنسان من حيث هو إنسان، وكحكمنا عليه بأنه حيوان ونحوه.

وذكر في (ص٣٩) مراحل معالجة المعلومات كاملة، حيث يرى أن تميز الأشياء يبدأ بأن تنطبع أولًا الصورة الحسية الخارجية في إحدى الحواس الظاهرة الخمسة، ثم بتوسطها تنطبع في الحس المشترك، وهي القوة المرتبة في مقدم التجويف الأول من الدماغ على نحو انطباع الصور في الأجرام الصقيلة المقابلة، ثم بتوسطها في المصورة ثم في المفكرة ثم في الوهمية ثم في الحافظة، وبعض هذه القوى وإن لم يفتقر في الانطباع إلى حضور المادة كما في المصورة والمفكرة والوهمية والحافظة فهي بأسرها لا تنفك عن الانطباع عن علائق المادة، وأن إدراكها لا يكون إلا بانطباع الأشكال والصور الجزئية القابلة للتجزئة، Information Processing Model.

وذكر في (ص٧٩) أن إطلاق الكلام على ما في النفس.

وذكر في (ص٥٢١) تعريف للحواس المختلفة فعرف:

السمع: أنه قوة مرتبة في العصبة المنبسطة في السطح الباطن من صماخ الأذن، من شأنها أن تدرك الصوت المحرك للهواء الراكد في مقعر صماخ الأذن عند وصوله إليه بسبب ما.

البصر: عبارة عن قوة مرتبة في عصبة مجوفة من شأنها أن تدرك ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح صور الأجسام بتوسط المشف.

الشم: عبارة عن قوة مرتبة في زائدتي مقدم الدماغ من شأنها إدراك ما يتأدى إليها بتوسط الهواء من الأراييح.

الذوق: عبارة عن قوة مرتبة في العصبة البسيطة على السطح الظاهر من اللسان من شأنها إدراك ما يرد عليها من الطعوم بتوسط ما فيه من الرطوبة الغذائية.

اللمس: عبارة عن قوة منبثة في كل البدن من شأنها إدراك ما يرد عليه من خارج الكيفيات الملموسة وهي الحرارة والبرودة واليبوسة (يتضح من تلك التعريفات ارتباطها بعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology).

القانون الثالث: في وحدانية الباري تعالى. وذكر في (ص٢٥١) تعريف القدرة ليس معناها غير التهيؤ والاستعداد للإيجاد والإحداث، والعجز لا معنى له إلا عدم القدرة على الإحداث Ability Deficiency.

القانون الرابع: في إبطال التشبيه وما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز ويشتمل على قاعدتين أولًا ما يجوز على الله تعالى، والثانية ما لا يجوز عليه سبحانه.

وذكر في (ص٦٦١) تعريف الإدراك: أنه عبارة عن كمال ما يحصل به مزيد كشف على ما يخيل في النفس من الشيء المعلوم من جهة التعقل بالبرهان أو الإدراك perception.

وذكر في (ص١٧٤) تعريف الاستبصارات العقلية بأنها الشواهد والأدلة غير الحاسمة التي تقوى الدليل الأصلي اليقيني الذي لا بد منه في المسائل العقلية Mental proof.

القانون الخامس: في أفعال واجب الوجود ويشتمل ثلاث قواعد: أولا: أنه لا خالق إلا الله تعالى، وثانيًا: في نفي الغرض والمقصود عن أفعال واجب الوجود، وثالثًا: في حدوث المخلوقات وقطع تسلسل الكائنات.

القانون السادس: في المعاد وبيان ما يتعلق بحشر الأنفس والأجساد، وتحدث هنا عن رأي الفلاسفة الإلهيين والتناسخية ومذهب أهل الحق ورأيه في كل منها، والإيمان وعذاب القبر.

القانون السابع: في النبوات والأفعال الخارقة للعادات وناقشها في بيان جوازها في العقل وفي بيان وقوعها بالفعل.

وذكر في (ص٣١٨) أن الإنسان قلما يستقل بنفسه وفكرته وحوله وقوته في تحصيل أغراضه الدنيا ومقاصده الأخروية لا بمساعدة له من نوعه، وأن هذا أساس العلاقات والمعاملات بين الأفراد فيما يتعلق بتلبية الاحتياجات والحاجات. وينشأ عنها الانقياد والاستسخار من البعض للبعض، التفاعلات الاجتماعية Social Interaction.

القانون الثامن: الإمامة، موضحًا وجوب الإمامة وشروطها وما يتعلق بها، وبيان معتقد أهل السنة في إمامة الخلفاء الراشدين. وذكر في (ص٣٢٥) مفهوم أن من يحدث له عبوسة تغلب على مزاجه (الاكتئاب) تقل شواغله البدنية وتصرف عنه اشتغاله بمتعلقات حواسه الظاهرة، فيصير كالمبهوت، وحينئذ يرى من الصور ويسمع من الأصوات حسب ما يراه النائم في منامه، وإن كان مستيقظًا، وهو ما يراه بعض المرضى والمصروعين وصف حالة اكتئاب Depression.

ثم ينتهي الكتاب بمجموعة فهارس الكتاب وتتضمن فهرس الموضوعات، وفهرس الآيات القرآنية، ثم الأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، والأعلام، ثم الفرق والطوائف ثم الأماكن والبلدان، ثم المصطلحات والمسائل، ثم مراجع التحقيق والمقدمة.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية التالية:

- الإدراك Perception.
- الصور العقلية Mental Image.
- أنواع الاستقراء Induction.
- مراحل معالجة المعلومات Information Process.
- القدرة Ability.
- العجز Deficiency.
- البرهان العقلي Mental Proof.
- التفاعلات الاجتماعية Social Interaction.
- الاكتئاب Depression.

القائم بالعرض

د. غادة محمد عبدالغفار

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣م

قطوف دانيات من جنان الغزالى الفيحاء

د. يحيى جاد

الرجال أنواع: رجل أُمّة، ورجل غمة، ورجل أَمَة!!.. ومقالنا اليوم «سياحة فكرية» في «بحر حكمة» رجل من النوع الأول، بل فى الصف الأول من هذا النوع، وقف حياته على إزالة «الغمة» من طريق نهضتنا، ورفع مستوى «الإماء» إلى سماء «الحرائر».. رجل وقف حياته على إنهاض هذه الأمة من كبوتها التي انطرحت فيها - طيلة عقود من القرن العشرين - أرضًا: تنزف دمًا وفكرًا وقيمًا، واجتماعًا واقتصادًا وسياسة.. رجل وقف حياته على «تجديد دنيانا» بـ «تجديد ديننا».. وهذه «قطوف - روائع «مستلة من «رياض بيان» حكيم الدعوة الإسلامية - كما أسميه - محمد الغزالى رحمه الله:

أ- تكريمًا لهذا الجبل الأشم

ب- وتأكيدًا على بياض وجه أنور حاول بعض القصر تسويده ظلمًا؛ فعاد عليهم بالحسرة والخيبة.. وأنى يقضى الأحداث على العدول المبرزين!

جـ - وتصحيحًا منا - عبر قطوفه الدانيات هذه - لكثير من «المفاهيم المغلوطة» المنتشرة فى الساحة الدينية.

د - وإزالة منا - عبر روائعه الآتيات - لـ «غبش الرؤية» الذى يسيطر على بصيرة عدد من المشتغلين فى حقل الدعوة الإسلامية.

كل ذلك عبر «كبسولات مكثفة».. عبر «جمل قصيرة» ذات «مضمون كثيف».. عبر «الحكمة» التى تطير فى الآفاق ويتناقلها الناس خلفًا عن سلف.

فلنسبح فى «سحر البيان» فوق «جناح أقواله»، ولنبدأ باسم الله مقتطفين من جنانه الفيحاء ما يلي:

- الدين لا يذكر الموت ليعطل الحياة؛ وإنما ليكفكف من غلوائها ويمنع الإفتتان بها والغرق فى حمأتها.

- إن التمكن من الدنيا أمر لابد منه فى التمكين للدين.

- إن نصف العلم يقود إلى الكفر، أما العلم كله فيقود حتمًا إلى الإيمان.

- والله، إنى لا أخاف من الضغط الصليبى أو الضغط الشيوعى ولكنى أخاف من الغفلة الإسلامية.

- من أمارات العظمة أن تخالف أحدًا فى

تفكيره أو تعارضه فى أحكامه ومع ذلك تطوى فؤادك على محبته وتأبى كل الإباء أن تجرحه.

- إذا تصالح سكارى الحانات وتشاكس إخوان المسجد، فستنكسر المئذنة ويستولى السكارى على المحراب.

- إذا كان صاحب البيت جبانـًا واللص جريئا فالبيت ضائع لا محالة.

- لكى نطمع فى استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل، أو نعقل ما قيل لنا فى كتابنا، ونكون نموذجًا حسنًا له.

- إن الدين بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس ضمانًا للآخرة فحسب، إنه أضحى سياج دنيانا وضمان بقائنا.

- إن مصائب الإسلام فى المتحدثين عنه لا فى الأحاديث نفسها.

- من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريًا.

- الإكراه سلاح كل فقير فى براهينه، وكل فاشل فى إقناعه؛ كلاهما أعوزه المنطق وأسعفته العصا.

- العقائد فى يد الغلاة كالسيوف فى يد المجانين.

- الدين موضوع قبل أن يكون شكلاً.. وجوهر قبل أن يكون مظهرًا.. وحكمة فى الرأس قبل أن يكون شعرًا يقصر أو يطول.

- الفقر الثقافى للعالم الدينى أشد فى خطورته من فقر الدم لضعاف الأجسام.. ولابد للداعية إلى الله أن يقرأ فى كل شيء، يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ كتب الإلحاد، يقرأ فى كتب السنة كما يقرأ فى الفلسفة،



الغزالى

وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشرى المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات فى جوانبها المتعددة.

- كان المسلمون يقرأون القرآن فيرتفعون إلى مستواه، أما نحن فنشده إلى مستوانا!

- إن القاصرين من أهل الحديث يقعون على الأثر لا يعرفون حقيقته ولا أبعاده، ثم يشغبون به على الدين كله من دون وعي.

- نحن نرفض أن يشتغل بالسنة رجل فقير فى القرآن.

- كل ما نحرص عليه هو شد الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من [المشتغلين بالإسلام فقهًا ودعوة] محجوبون عنها، مستغرقون فى شئون أخرى تعجزهم عن تشرب الوحي.. والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما جمعوا كل ما جاء فى شأنها من الكتاب والسنة، وحاكموا المظنون إلى المقطوع، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة، أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد فى الموضوع من آثار أخرى فليس من عمل العلماء.

- هناك أناس اتخذوا القرآن مهجورًا، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماس وبردوا حيث تجب الثورة!!.

- إن الإسلام هو صانع الأئمة المجتهدين.. وهم لم يصوغوه.. وإن مصادر الإسلام

معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

– ليس الإسلام طلقة فارغة تحدث دويًا، ولا تصيب هدفًا، إنه نور في الفكر، وكمال في النفس، ونظافة في الجسم، وصلاح في العمل، ونظام يرفض الفوضى، ونشاط يحارب الكسل، وحياة موارة في كل ميدان.

– إننا مكلفون أمام الله أن نخترع الوسائل التي نعلي بها شعائرنا، سواء هدى إليها غيرنا أو لم يهتد، فإن فرطنا وتقدم غيرنا فمن العجز أن ندع هذه الوسائل لأننا وصلنا إليها مسبوقين.

– إن المباديء التي طالما صدرناها للناس يعاد تصديرها إلينا على أنها كشف إنساني ما عرفناه يومًا ولا عشناه دهرًا.. ونحن نملك تراثًا عامر الخزائن بالمبادئ الرفيعة والمثل العليا، ونخشى أن يجيء يوم يصدر الغرب إلينا فيه غسل الوجوه والأيدي والأقدام على أنه نظافة إنسانية للأبدان، فإذا قلت: ذلك هو الوضوء الذي نعرفه، قال لك المتحذلقون المفتونون لماذا لا تعترف بتأخرك وتقدمه وفقرك وغناه؟.

– من السهل أن تبني مسجدًا، لكنك بحاجة إلى كل علوم الدنيا لتحمي هذا المسجد.

– الحياة في سبيل الله كالموت في سبيل الله: جهاد مبرور.. والفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين.. إن السلبية لا تخلق بطولة؛ لأن البطولة عطاء واسع ومعاناة أشد.

– من الصعوبة بمكان أن يرتد مسلم عن الإسلام إلى النصرانية كما أنه من الصعوبة بمكان أن يرتد طالب جامعي إلى التعليم الابتدائي، أو يتحول عالم ذرة إلى العمل بمعبد هندوكي.. إن المستوى الذي يبلغه المسلم في مجال العقيدة ومعرفة الله، يتجاوز بمراحل شاسعة المستوى الديني الذي يقف عنده اليهودي والنصراني.. ومن ثم فلست أخاف على الإسلام من جهود المنصرين مهما اشتدت، فهي إلى بوار.

– ليس الإحسان تجويد جزء من العبادة وإهمال أجزاء أخرى قد تكون أخطر وأجل، وإنما الإحسان أداء فروض العين وفروض الكفاية، وتناول شئون الدنيا وشئون الآخرة معًا.. الإحسان إشراب الحياة الإنسانية حقائق الأمر الإلهي، وإضفاء صبغة السماء على أحوال الأرض.. الإحسان ترقية كل عمل بذكر الله فيه، لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله في العراء.

– ليس الزهد هو الجهل بالحياة وهجر أسباب العمل، وقصور الباع في مختلف الحرف، وترك زينة الدنيا عجزًا عن بلوغها، أو بلادة عن تذوق الجمال الذي أودعه الله فيها. ورب نبي استمتع بالمال والبنين، وهو مع ذلك من الزاهدين! ورب مجرم عاش يشتهي ويتلمظ، فما كان فقره رفعة لشأنه، ولا زيادة في حسناته.. إن الزهد: ألا تبيع مثلك العليا بملك الدنيا إذا خيرت بين هذا وذاك.

– ليست العبادة طاعة القهر والسخط، ولكنها طاعة الرضا والحب.. وليست طاعة الجهل والغفلة، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة.

– العرب من غير إسلام كقصب السكر بلا سكر.

– الفقر العربي يمشي على أرض من ذهب، ولو أحسن أهل وادي النيل زراعة واديهم وأطاعوا ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

– إن التحصيل في أيام اليفاعة – الشباب – زاد يبقى طول العمر.

– إن المدنية الحديثة غليظة العنق، نحيفة الخلق، والويل لمن استسلم لها ولم يتحرز من مؤامراتها.

– قد تكون حضارة الغرب فقدت في هذه الأيام عناصر كثيرة من أسباب نموها وازدهارها إلا أنها – والحق يقال – لا تزال سيدة الموقف؛ لا لشيء إلا أنها لم تجد من ينافسها على قيادة العالم

– إذا كان العمل رسالة الأحياء، فإن العاطلين موتي.

– أثبت تاريخ الحياة – إلى يوم الناس هذا – أن القلة المنظمة تغلب الكثرة الفوضوية، وأن القلة العاملة تغلب الكثرة العاطلة.

– إن الفجر سيطلع حتمًا؛ ولئن يطلع علينا الفجر مكافحين أشرف من أن يرانا راقدين.

– إنما الشباب توثب روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

– الذين يموتون في ميادين الحياة وهم يولون الأدبار أضعاف الذين يموتون وهم يقتحمون الأخطار.

– إن الرياح مهما اشتدت لا تنقل الجبال ولكنها تنقل الكثبان.

– لا أعرف مظلومًا تواطأ الناس على هضمه ولا زهدوا في إنصافه كالحقيقة.

– لا تعط العامة فوق ما لهم من حقوق عقلية أو خلقية.. فإن مستويات الجماهير لا تتحكم في تقرير الحق أو تحديد الفضيلة.. بل تؤخذ الحقائق والفضائل من ينابيعها الأصلية دون مبالاة بالجاهلين لها أو الخارجين عنها.. وإن كانوا ألوفا مؤلفة.. وعلى الرجال الكبار أن يبنوا سلوكهم فوق هذه الأسس؛ فلا يتبرموا بالنقد المثار أو يقلقوا لكثرة الهجامين الشتامين.

– ما تفتقت مواهب العظماء إلا وسط ركام المشقات والمجهود.

– كل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور في فكره، فكما أن المرء ينهض على قدميه، وينشط وينتج بدافع من أفكاره، كذلك يمرض ويشقى بدافع من أفكاره أيضا.

– العاقل يسمع ما يقوله اعداؤه عنه، فإذا كان باطلاً أهمله فورًا ولم يأس له، وإن كان غير ذلك تروى في طريق الإفادة منه، فإن أعداء الإنسان يفتشون بدقة في مسالكه، وقد يقفون على ما نغفل نحن عنه من أمس شئوننا.

– ليست قيمة الإنسان فيما يصل إليه من حقائق وما يهتدى إليه من أفكار سامية، ولكن أن تكون هذه الأفكار السامية هي نفسه، وهي عمله، وهي حياته الخارجية كما أنها حياته الداخلية.

– مستحيل أن يجتمع أمران؛ حب الراحة وحب المجد.. وطاعة النفس وطاعة الله!.

– نحن بحاجة إلى أن نحدد وقتًا للعمل الصحيح، ووقتًا للعب الصحيح.

– الأحزاب المناوئة للحكام عندما تفقد نعمة العلانية في التنفيس عن رغباتها،

والإبانة عن مقاصدها وغاياتها لا ترى بدًا من جمع فلولها في الظلام، ونشر تعاليمها في شكل رسائل أو منشورات مقتضبة حاسمة.

والوسيلة الوحيدة عندهم هي المقاومة السرية، حيث يتلقى الأتباع الأوامر الصادرة من فوق على أنها نصوص واجبة الطاعة لا مجال البتة لمقاومتها أو التملص منها، لا... إن شيئا من هذا لا يجول بخاطر أحد من الأتباع! فإن تنفيذ هذه الأوامر دين تقبل عليه النفس بلذة وشغف، ولو كانت عقباه العطوب والدمار..!

وفي هذه الدائرة المغلقة تتحول الثقة في القيادة إلى القول بعصمة الأئمة!

- ما إن تتكاثر مواهب الله لدى إنسان حتى ترى كل محدود أو منقوص يضيق بما رأي، ويطوي جوانحه على غضب مكتوم ويعيش منغصا لا يريحه إلا زوال النعمة، وانطفاء [التوهج]، وتحقق الإخفاق، والسر أن الدميم يرى الجمال تحديا له، والغبي يرى الذكاء عدوانا عليه، والفاشل يرى النجاح إزراء له!

- الصلاح هو تزكية النفس.. والإصلاح هو تزكية المجتمع.

- إن المرء إذا وهي دينه يقاد من بطنه وفرجه أكثر مما يقاد من عقله وضميره.

- الإنسان الذي يعيش في الحقيقة لا يتاجر بالأباطيل.

- فضيلة القوة ترتكز في نفس المؤمن على عقيدة التوحيد كغيرها من الفضائل التي تجعله يرفض الهوان في الأرض لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء.

- يقول الحكيم الغزالي بأنه كان جالسا مرة يتفكر فإذا بذبابة تحوم حول رأسه فقال في نفسه: «هل تستطيع هذه الذبابة أن تقرأ أفكاري وتفهم ما أفكر به؟.. بالطبع لا، فكيف يطمع الإنسان أن يحيط برب العالمين؟!».

- إن الله قد يقبل نصف الجهد في سبيله ولكنه لا يقبل نصف النية، إما أن يخلص القلب له وإما أن يرفضه كله.

- الضمير المعتل والفكر المختل ليسا من الإسلام في شيء؛ إذ الغباء في ديننا معصية.

- من لم يسهره العلم أيامًا، أسهره الجهل أعوامًا.. فإلى متى نظل ننام في النور، ويستيقظ الأنام في الظلام؟!

- على الأمة أن تؤمن بمبدأ التدرج في التحقيق والتطبيق، فما تم هدمه من قبل أعداء الأمة خلال عدة قرون لا يمكن أن يعاد بناؤه في سنوات قليلة.

- إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره المتدينون؛ بغضوا الله إلى خلقه بسوء طبعهم وسوء كلامهم.

- إرصاد الأدوية للعلل المرتقبة لا يعني تشجيع الأوبئة على الانتشار!

- وددت لو أعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف «إلجام العوام عن علم الكلام»؛ فألفت كتابا عنوانه «إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار»؛ لأمنعهم عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

- إذا كان البرق يبدو من التقاء سحب شتي، فإن سنا الحق يبدو من التقاء آراء شتي..

لقد انتهى عصر المعصومين الذين يساندهم الوحي ولا يقولون إلا الحق.. أدرك العالم كله أن من جاء بعدهم مهما عظمت عبقريته فهو يخطيء ويصيب، ويكبو ويمضي.

- الرجال الكبار كثيرا ما تظل قاماتهم مطوية في أستار العزلة البعيدة حتى تقع حادثة كبيرة فيكون موقفهم منها آية تكشفهم للناس كما يكتشف القمر بعد انقطاع الغيوم.

- أمة سورة الحديد لا تصنع الحديد!

- يقول الغزالي: سألني سائل: هل الإنسان مسير أم مخير؟

فنظرت إليه في ضيق شديد، وقررت أن ألتوي معه في الإجابة، كما التوى هو مع فطرته في هذا التساؤل وقلت له: الإنسان نوعان: نوع يعيش في الشرق، ونوع يعيش في الغرب، والأول مسير والآخر مخير!

ففغر الرجل فاه عن ابتسامة هي بالضبط نصف تثاؤب الكسالى والعجزة والثرثارين الذين ينتشرون في بلادنا.

ثم قال: ما هذا الكلام؟ إنني أسألك: هل للإنسان إرادة حرة وقدرة مستقلة يفعل بهما ما يفعل ويترك ما يترك، أم هو مجبور؟!

فقلت له: قد أجبتك، الإنسان في الغرب مستقل وفي الشرق مستعمر. هناك له إرادة وقدرة، وهنا لا شيء له!!

فضحك أحد الظرفاء وقال: هذه إجابة سياسية.

فقلت: وإنها لدينية كذلك... يا رجل إن القوم في الغرب شعروا بأن لهم عقولا ففكروا بها حتى كشفوا المساتير من بدائع الكون، وشعروا بأن لهم إرادة فصمموا بها، حتى التقت في أيديهم مصاير الأمم وأزمة السياسات وشعروا بأن لهم قدرة، فجابوا المشارق والمغارب، وصنعوا الروائع والعجائب.

أما نحن فهذا.. رجل من ألوف الألوف التي تزحم البلاد يأتي ليستفتي في هذه المعضلة التي غاب عنه حلها.

أله حقا عقل حر يستطيع أن يفكر به؟

أله إرادة يستطيع أن يعزم بها؟

أله قوة يستطيع أن يتحرك بها؟

وإلى أن نثبت له ذلك! سوف يبدأ فيفكر ثم يعزم ثم يعمل.

أما الآن فهو - فعلا - مسير من ذلك الرجل المخير في الغرب.

ما أبعد البون بين الشخصين!

الرجل في الغرب ألقي به في تيار الحياة، فعلم أن له أعضاء يستطيع أن يعوم بها، فظل يسبح مع التيار تارة وضده تارة أخري، حتي وصل إلى الشاطيء!

- يقول الغزالي: جاءتني بضع فتيات يشكون لي أن مدرس الفلسفة يحاول إقناعهن بأفكار مضادة للدين وأنهن تعبن من مجادلته، واقترحن عليه أن يلقاني ليتكلم معي بما عنده.

قلت: هاتوا به في أي وقت!

وجاء الأستاذ فسألته: أأنت شيوعي؟

قال: أنا ماركسي!

قلت له: تتبع ماركس في إلحاده؟ أم في اقتصاده؟

فتريث قليلا ثم قال: بل في إلحاده أولا، لا إله والحياة مادة!!

قلت له - وأنا أنظر إلى جسمه العريض وقامته المديدة: كان وزنك عندما ولدت

قطوف دانيات من جنان الغزالي الفيحاء

بضعة أرطال، وها أنت تزن أكثر من مئتي رطل فمن جاء بهذه الزيادة؟

قال: طبيعة الأجسام!

قلت: الطبيعة حولت الأطعمة التي تناولتها إلى هذا الكيان الحي؟

إنها أطعمة ميتة فكيف تحولت إلى لحم وشحم تسري فيها الحياة؟

الرغيف تقطعة بالسكين فلا يتألم وبعد أن تأكله ويتحول جزءًا من بدنك تشكه بدبوس فيضطرب بدنك من الألم!

من الذى أخرج الحى من الميت؟

قال ببرود: قلت لك إنها الطبيعة!

قلت: حسنا، إنها طبيعة عالمة قادرة!

هل تصنع ذلك معك وحدك أم مع خمسة آلاف مليون من البشر يحيون على ظهر الأرض؟

قال- وهو يتوجس خيفة: مع سكان الأرض جميعا!

قلت: لا ريب أنها طبيعة علمية قديرة حكيمة عظيمة تلك التى تتعهد الألوف المؤلفة من الطفولة إلى الصبا إلى اليفاعة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة .إلخ.

وفى هذه المراحل كلها تهيئ الألوف المؤلفة من الأجهزة للقضم والهضم والامتصاص وتوزيع الغذاء على الأعضاء، ودفع الرئات فى الصدور للحركة الدءوب، ودفع الدم فى العروق مدًا وجزرًا، فى نبض مستمر آناء الليل وأطراف النهار.

إنها طبيعة حية تقوم على كل شيء!

ألا ترى ذلك معي؟

قال وفى نبرته إحساس الوحش الذى يقاد إلى خطر داهم: إن الطبيعة ذكية!

فأجبته: هذا الذكاء الملحوظ صفة عابرة، لابد من موصوف تقوم به، وقد اعترفت بأنك وجميع الأحياء معك تم إيجادهم وإمدادهم بطريقة تنم عن علم وقدرة وحكمة وعظمة فهل التراب أو الهواء صاحب هذه الصفات الرائعة؟ أم أن هناك موجودًا تلتقي فى ذاته هذه الصفات كلها؟

قال: لا معنى للف والدوران، قلت لك: إنها الطبيعة!

فسألته: أترى الطبيعة أسما من اسماء الله الحسني؟ إن عالمنا الذى نعيش فيه مفعم بحياة متجددة يدل سيرها كما قلت معى على العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة الفائقة والعظمة الباهرة فما الذات التى تنبثق منها هذه الصفات؟.. إن الصفات لابد أن تكون لشيء!

قال: يبدو أنك شيخ زاوية مجادل!

قلت: دعك مني! لأكن شيخ بادية ما يعنى هذا شيئا.. إذا قلت: إنك تخين فالصفة ملتصقة بذاتك أنت والصفات التى استقينا من أنها وراء الكون الكبير هى صفات إله أكبر لا محالة..

قال: هذا تفكير رجعي بائد!

قلت ساخرًا: ما دام العقل اليقظان قد صار رجعية والغباء الصفيق قد صار تقدميه، فأنا رجعي أيها الماركسى المغفل.

- يقول الغزالي: دخلت مكتبى فتاة لم يعجبنى زيها أول ما رأيتها غير أنى لمحت فى عينها حزنا وحيرة يستدعيان الرفق بها، وجلست تبثنى شكواها وهمومها متوقعة عندى الخير! واستمعت طويلا. وعرفت أنها فتاة عربية تلقت تعليمها فى

فرنسا لا تكاد تعرف عن الإسلام شيئا. فشرعت أشرح حقائق، أرد شبهات، وأجيب عن أسئلة، وأنفى أكاذيب المبشرين والمستشرقين حتى بلغت مرادى أو كدت!

ولم يفتنى فى أثناء الحديث أن أصف الحضارة الحديثة بأنها تعرض المرأة لحمًا يغرى العيون الجائعة. وأنها لا تعرف ما فى جو الأسرة من عفاف وجمال وسكينة..

واستأذنت الفتاة طالبة أن آذن لها بالعودة.. فأذنت، ودخل بعدها شاب عليه سمات التدين يقول بشدة: ما جاء بهذه الخبيثة إلى هنا؟

فأجبت: الطبيب يستقبل المرضى قبل الإصحاء. ذلك عمله!

قال: طبعا نصحتها بالحجاب!

قلت: الأمر أكبر من ذلك هناك المهاد الذى لابد منه، هناك الإيمان بالله واليوم الآخر والسمع والطاعة لما تنزل به الوحى فى الكتاب والسنة، والأركان التى لا يوجد الإسلام إلا بها فى مجالات العبادات والأخلاق...

فقاطعني قائلا: ذلك كله لا يمنع أمرها بالحجاب!!

قلت فى هدوء: ما يسرنى أن تجيء فى ملابس راهبة.. وفؤادها خال من الله الواحد.. وحياتها لاتعرف الركوع والسجود إننى علمتها الأسس التى تجعلها من تلقاء نفسها تؤثر الاحتشام على التبرج.

فحاول مقاطعتى مرة أخري، فقلت له بصرامة: أنا لا أحسن جر الإسلام من ذيله كما تفعلون.. إننى أشد القواعد وأبدأ البناء.. بعدئذ أبلغ ما أريد بالحكمة.

وجاءتنى الفتاة بعد أسبوعين فى ملابس أفضل من المرة السابقة

وكانت تغطى رأسها بخمار خفيف، واستأنفت أسئلتها.. واستأنفت شروحي.. ثم قلت لها: لماذا لا تذهبين إلى أقرب مسجد من بيتكم؟

وشعرت بالندم بعد هذا السؤال؛ لأنى تذكرت أن المساجد محظورة على النساء!.. لكن الفتاة قالت: إنها تكره رجال الدين. وما تحب سماعهم!

قلت: لماذا؟

قالت: قساة القلوب غلاظ الأكباد! إنهم يعاملوننا بصلف واحتقار!

ولا أدرى لماذا تذكرت هند امرأة أبى سفيان التى أكلت كبد حمزة رضى الله عنه ونالت من الإسلام ما نالت إنها كانت لا تعرف رسول الله فلما عرفته واقتربت منه آمنت به

قالت له هذه الكلمات يا رسول الله: والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب أن يذلوا من أهل خبائك!! وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك.

إن نبع المودة الدافق من قلب الرسول الكريم بدل القلوب من حال إلى حال.

فهل يتعلم الدعاة ذلك من نبيهم فيؤلفوا بدلا من أن يفرقوا ويبشروا بدلا من أن ينفروا؟؟! ١.هـ

ونكتفى من البحر بقطرة.. ومن السماء بنظرة.. وما قل وكفى خير مما كثر وألهي!.

الذريعة إلى مكارم الشريعة:

أسس الأخلاق عند الراغب الأصفهانى

د. عبد الرحمن حللي
الأستاذ بكلية الشريعة جامعة دمشق

تمثل مؤلفات العلامة الراغب الأصفهانى - المتوفى فى القرن الخامس الهجرى - نموذجًا فى الإتقان والإبداع العلمى والاستقلال الفكري، فكل ما وصلنا من كتبه يشكل إضافة نوعية فى مجاله، لا سيما كتابه مفردات ألفاظ القرآن وما وصل من تفسيره، وترجع أهمية كتب الراغب لما تمتع به من استقلال فكري جعله من المجتهدين الذين سجلوا إضافات فيما كتبوه، فهو من جهة يحيط بمصادر المعلومات ويستحضرها عند التأليف، لكنه يتجاوزها إضافة أو ترجيحًا، كما أنه يأخذ من الجميع وينقد الجميع، حتى لم يستقر رأى فى نسبته إلى مذهب فقهى أو عقدى بعينه، فتنازعته تيارات السنة والشيعة والمعتزلة والتصوف، مع اعتراف الجميع بفضله ومكانته العلمية، وهذا يدل على استقلاله الفكري، ومكانته العلمية.

ويعتبر كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) من الكتب المهمة والأساسية فى تأصيل النظرية الأخلاقية عند المسلمين، وهو كتاب صغير الحجم، مركز العبارة، وقد نقل صاحب كشف الظنون أن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائمًا ويستحسنه لنفائسه، والغزالى عمومًا متأثر بكتب الراغب وينقل عنها.

وقد ألف الأصفهانى كتابه لبيان مكارم الشريعة التى يستحق بها الإنسان أن يوصف بكونه خليفة الله، وحدّ المكارم المطلقة بأنها (اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف البارى جل ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعفو وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر)، وهى تقابل الأحكام والعبادات والتى لا يصح أشرفها إلا بطهارة الجسم، وكذلك خلافة الله لا تصح إلا بطهارة النفس، فكان كتابه ذريعة إلى مكارم الشريعة، والذى يجيب فيه على السؤال: (كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية التى جعلها الله تعالى شرفًا للأتقياء، وكيف يترقى عنها إذا وصلها إلى منزلة الخلافة التى جعلها الله تعالى شرفًا للصديقين والشهداء؟ فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علمًا وإبرازهما عملاً يكتسب العلا ويتم التقى وتبلغ إلى جنة المأوى)، وكأن الأصفهانى سبق الغزالى فى التنبه إلى أهمية الأخلاق والعمل والحذر من مغالاة الفقهاء فى تنميط وإتقان الأحكام الظاهرة مع الغفلة عما هو أهم من الأحكام وهو الأخلاق أو المكارم كما يسميها، والراغب يركز على ثنائية الإيمان والعمل والأحكام والمكارم فى أكثر من مكان من كتبه، نجد ذلك ظاهرًا فى تفسيره وفى كتابه المفردات.

وينطلق لتأصيل هذه الثنائية بتحديد ماهية الإنسان المركبة من جسم ونفس، وما يتمتع به من قوى مدركة حسية أو روحية، فضل بها على الحيوان، ليصل إلى تحديد الفعل المختص بالإنسان فى ثلاثة أفعال ذكرها الله تعالى، وهي: عمارة الأرض المذكورة فى قوله:

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

«هود: ٦١»

والعبادة المذكورة فى قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

«الذاريات: ٥٦»

والخلافة المذكورة فى قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

«الأعراف: ١٢٩»

والخلافة إنما تستحق بالسياسة وذلك بتحرى مكارم الشريعة، (والسياسة ضربان: أحدهما سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به، والثانى سياسة غيره من دونه وأهل بلده، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب فى نفسه فقال:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

«البقرة: ٤٤»

أى هذبوها قبل الترشح لتهذيب غيركم، وبهذا النظر قيل: تفقهوا قبل أن تسودوا، وتنبيهًا أنكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولأن السائس يجرى من المسوس مجرى ذى الظل من الظل، ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله، ولاستحالة أن يهتدى المسوس والسائس ضال.

ويحدد المكرمة بأن مبدأها طهارة النفس بالتعلم الذى ينتهى إلى الحكمة، واستعمال العفة التى توصل إلى الجود، واستعمال الصبر الذى يقود إلى الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تصحح الأفعال، ومن حصل كل ذلك فقد تدرع بالمكرمة المعنية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

«الحجرات: ١٣»

وصلح لخلافة الله عز وجل.

والعبادة أعم من المكرمة، فكل مكرمة عبادة وليست كل عبادة مكرمة، فللعبادات فرائض معلومة وحدود مرسومة وتركها ظلم وتعد، والمكارم بخلافها، فتحرى العبادات

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣ م

أسس الأخلاق عند الراغب الأصفهاني

من باب العدالة وتحرى المكارم من باب الإفضال والنفل، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض، ولا يفضل من ترك العدل، وقد أشار الله بالعدل إلى الأحكام وبالإحسان إلى المكارم، بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

«النحل: ٩٠».

والخلافة هي الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحرى أفعاله الإلهية، لذلك لا يصلح للخلافة من لم يكن طاهر النفس، فطهارة النفس شرط لطهارة القول والفعل، فلا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، وقد أزيل رجسها ونجسها، وقد أشير إلى الطهارتين بقوله تعالى:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾

«المدثر: ٤، ٥».

وكنى بالثياب عن البدن.

أما مطهرات ما في النفس فيحددها في العلم والعبادة، وما يحتاج إلى التطهير هو القوى الثلاث: قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم، وقوة الشهوة حتى تحصل العفة والجود، وقوة الحمية حتى تحصل الشجاعة والحلم، ويتولد من اجتماع ذلك العدل، فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث.

بناء على هذه الأسس يبني الراغب الأصفهاني كتابه مبينًا طرق تحصيل مكارم الشريعة وصلتها بأحوال الإنسان وقواه، فيفصل الكلام عن العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها، وكذلك ما يتصل بقوى الإنسان الشهوية والغضبية، ويفصل الكلام عن العدالة والظلم والمحبة والبغض، وما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل، وأنواع الأفعال وما يستحق منها المدح أو الذم.

إن هذه الأسس تكشف عن غاية الأخلاق عند الراغب الأصفهاني فهي اقتداء بالخالق سبحانه بقدر الوسع البشري، وبالتالي فلا سقف لها من حيث السمو والارتقاء، وهي ضمان السعادة الدنيوية إذ بها تنتظم عمارة الأرض وبها ينال الإنسان شرف الخلافة.

ويتضح من كتابه أنه يميز بوضوح بين الخلق وبين غيره من صفات الإنسان: كالسجية، والإنسانية، والعادة، والمروءة، والظرف، والفتوة، ويعتبر أن الإنسان في صراع مع الهوى غالب أو مغلوب أو مغالب، والمكارم والفضائل يمكن تحصيلها بتحريها، كما يطيل الحديث عن قوى الإنسان وما يرجع إليها من فضائل أو رذائل وكيف يمكن أن يتخذ الإنسان سبيله فيها.

هذا ولا يخفى على القارئ حضور النص القرآني والشواهد النبوية - التي يرويها بالمعنى أو يتساهل في التدقيق في نصوصها وأسانيدها- كمرجع وشاهد في تنظيره وتأصيله لمكارم الشريعة، كما نلمح حضورًا لشواهد من الكتب السابقة وأخبار الفلاسفة والحكماء، كما أن الكتاب يكشف عن علمه بالفلسفة وبمذاهب المتكلمين، لكنه كان لا يخوض في المسائل الكلامية ويكتفي بعرض الخلاف فيها، بينما يتعمق في تأصيل المسائل القرآنية، وبالأخص تلك التي تستند إلى دلالة مفردات الألفاظ التي تميز به.

خالد محمد خالد.. مفكر مسلم شجاع



أ.د. حلمي القاعود



في كتابيه «الدولة في الإسلام»، «وقصتي مع الحياة»، امتلك خالد محمد خالد الشجاعة الأدبية ليتراجع عن آرائه التي أعلنها في كتابه «من هنا نبدأ»، ولم يجد حرجا أن يسرد قصة ترويجه للكتاب حين رآه راكدا لا يوزع لدى الناشر، وهي قصة لا تقدح فيه أو في سلوكه؛ لأنه وجد في نفسه الجرأة ليحكيها كأنه يعتذر عنها، وهو ما لا يعتذر عنه بعض الشباب أو بعض المفلسين في زماننا حين يريدون الوصول إلى الشهرة بأسرع وسيلة ومن أقصر طريق، ليوزعوا كتبهم الراكدة فور طبعها؛ فيكتبون في أنفسهم بلاغات بأسماء مستعارة يرسلونها إلى الأزهر أو الرقابة أو الصحف، ويقولون إن الكتاب الفلاني يتناول عناصر إباحية أو إلحادية أو يسب الحكومة أو مسئولا كبيرا، فتهرع الجهة التي وصلها البلاغ إلى تناول الكتاب وتقديمه إلى جهات التحقيق، ومن ثم تبدأ الأخبار تتلاحق عن الكتاب وصاحبه، ومضمونه، ويأخذ الناس في البحث عنه بعد حفظهم اسمه واسم كاتبه، وسواء كان الكتاب كما وصفه صاحبه في البلاغ المقدم باسم مستعار أو لم يكن، فإن المؤلف يجد لذة في الحديث عنه وتداول اسمه في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة بالقدح والذم، فضلا عن بيعه بكميات لم يكن يتوقعها.

ويحكي خالد محمد خالد قصة الكتاب منذ رفض الرقابة نشره ثم الظروف التي يسرت نشره، فيشير إلى أنه بعد نشره لم يلفت انتباه القراء، فالكاتب مغمور ولا يعرف القراء شيئا عنه، ولابد من الدعاية في كبرى الصحف حتى يتعرف عليه القراء لكن ذهبت الإعلانات هباء، ولم يتم تداوله، فلجأ إلى حيلة اكتسبها من (برنارد شو) حيث كان في الموقف ذاته ولم يتم تداول كتابه، فلجأ إلى مهاجمة كتابه تحت اسم مستعار حتى استطاع أن يجذب الأنظار إليه، بالفعل سعى خالد محمد خالد إلى الفعل نفسه، فطلب من أحد أصدقائه أن

خالد محمد خالد.. مفكر مسلم شجاع

يكتب مقالا يذم فيه الكتاب ويسند إليه أقبح الصفات، وجلس كل منهما يفكر فى عنوان مثير للكتاب، واقترح خالد عنوان « كتاب أثيم.. وشيخ ضال » ودفعه صاحبه إلى الشاعر على الغاياتى فأثنى على كاتب المقال خيرا وتعجب كيف صدر الكتاب؟؟.. وأين الأزهر...؟ ونشر المقال بمكان بارز بجريدة (منبر الشرق)، فتوالت الكتابات بالرد عليه.

وأصدرت لجنة الفتوى بالأزهر توصية بمنع تداول الكتاب، وتم تقديم بلاغ للنيابة، تم التحقيق فيه وأصبحت قضية متداولة فى المحاكم، وانتهت بإصدار المحكمة حكما بالبراءة، فتسابقت صحف المصرى والأهرام وغيرهما إلى الحديث عن الكتاب ومؤلفه وأفسحوا له صفحات للكتابة مما أثار ردود فعل حادة، وأخذ الكتاب طريقه للتداول بسرعة رهيبة، ورد عليه الشيخ محمود شلتوت قبل أن يتولى مشيخة الأزهر والعلامة محمد فريد وجدى والأستاذ أحمد الشايب، وغيرهم كثيرون.

هاجم الإخوان الكتاب وقاموا بالتصدى له فى مقالات عديدة كتبها الشيخ صالح عشماوي، كما قام الشيخ الغزالى - فى حدة ملحوظة - بالرد عليه بكتابه « من هنا نعلم »، الذى سبقت الإشارة إليه، وهو ما دفع الأستاذ خالد إلى الهجوم على الإخوان ومرشدهم الأستاذ الهضيبى على صفحات الجرائد.

انتشر الكتاب بسرعة البرق بمختلف اللغات واهتمت به الصحف الأجنبية وكذلك الإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية، وذاعت شهرته بدرجة كبيرة، لدرجة أنه طبع مرات فى فترة قصيرة كما سبقت الإشارة.



خالد محمد خالد

وعلى الناحية الأخرى لقى الكتاب حفاوة كبيرة وترويجا له من جانب الاتجاهات الرافضة للتصور الإسلامى من أمثال: سلامة موسى ومحمد خطاب، وحفنى محمود، وكامل الشناوى الذى دعاه لمقابلته فى جريدة الأهرام.

لاحظ الأستاذ خالد اهتمام الصحف الأجنبية والإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية اهتماما غير عادى بالكتاب، فضلا عن ترجمته إلى أكثر من لغة وهو ما جعله يفكر فى الأمر، فالغرب لا يهتم هذا الاهتمام حبا فى المسلمين ونشرا للثقافة، وما قامت هذه الردود الكثيرة على الكتاب من فراغ، وظل يفكر لسنوات طويلة، حتى هداه الله إلى الصواب، فأدرك خطأه، ووجد فى نفسه الشجاعة، وكتب كتابه: (الدولة فى الإسلام) فند فيه ما ذكره حول فصل الدين عن الدولة الذى تحدث عنه فى كتابه (من هنا.. نبدأ)، وأعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، ولم يخجل - وهو الكاتب الكبير - أن يعلن أنه أخطأ... وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته. فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها، من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية...، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، وجعل شعار الكتاب: «الإسلام دين ودولة.. حق وقوة.. ثقافة وحضارة.. عبادة وسياسة..»

يقول فى كتابه: (الدولة فى الإسلام): «فى عام ١٩٥٠ م ظهر أول كتاب لي، وكان عنوانه (من هنا... نبدأ) وكان ينتظم أربعة فصول كان ثالثها بعنوان: (قومية الحكم)، وفى هذا الفصل ذهبت أقرر أن الإسلام دين لا دولة، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يكون دولة، ولأن الدين علامات تضيء لنا الطريق إلى الله، وليس قوة سياسية تتحكم فى الناس وتأخذهم بالقوة إلى سواء السبيل، ما على الدين إلا البلاغ، وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن الثواب...

وقلت: إن الدين حين يتحول إلى حكومة، فإن هذه الحكومة الدينية تتحول إلى عبء لا يطاق، وذهبت أعدد يومئذ ما أسميته: (غرائز الحكومة الدينية)، وزعمت لنفسى القدرة على إقامة البراهين على أنها - أعنى الحكومة الدينية - فى تسعة وتسعين فى المائة من حالاتها جحيم وفوضى، وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت أغراضها، ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه...

وكان خطئى أننى عمَمتُ الحديث حتى قلت: إن غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد. ولخصت هذه الغرائز فى الغموض المطلق، إذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها، ولا يدرك مداها، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق».

ويفصل خالد بعدئذ كيف وصل إلى اقتناع جديد بأن الإسلام دين ودولة (الدولة فى الإسلام، ط ١، دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص١٦ وما بعدها).

إنه يسهب فى تفصيل طبيعة الدولة قبل الإسلام وبعده، ويركز فيما بعد الإسلام على فكرة ضرورة تنصيب الإمام، ويؤكد على أن « قيام دولة فى أى أمة أمر بدهى تتطلبه طبائع الأشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى » (السابق، ص٣٨).

ولنا أن نتأمل تصدير خالد لكتابه الدولة فى الإسلام بالآية الكريمة:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

ثم نتأمل ما قاله فى ختام الكتاب:

« وعلينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام:

- دين ودولة.
- حق وقوة.
- ثقافة وحضارة.
- عبادة وسياسة ».

(الدولة فى الإسلام، ص ١٠٤).

ونضيف إلى ما سبق الملحق الذى ختم به كتابه، حيث يقدم نموذجا لدولة العدل والحق التى أقامها عمر بن عبد العزيز بعد دولة الملك العضوض التى أقامها بنو أمية واستمرت ستين عاما، إن دولة العدل والحق التى أقامها عمر بن عبد العزيز لم تستغرق إلا عامين وبضعة شهور وخمسة أيام، فامتلأت بالأمن وفاضت بالخير، وانكسر بطش الطغاة، ولم يجدوا فيها فقيرا يستحق الزكاة!

لقد كان هذا الملحق المضاف إلى كتاب الدولة فى الإسلام هو النواة الصلبة لكتابه الجميل عن عمر بن عبد العزيز، وهو من أمتع الكتب التى قرأتها عن الخليفة الخامس بقلم خالد محمد خالد

فلنتفق ولنوحد صفوفنا



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء،
ورئيس جامعة الأزهر الأسبق

اطرحوا الخلافات.. وعوضوا ما فات!!

نؤيد حرية الكلمة والتعبير، وأن يعرب كل إنسان عن رأيه، متوخيًا المصلحة العامة، ومنافحًا عن الوطن والمواطنين، على ألا يأخذ أسلوب الحرية طريق الخلاف والفرقة بين الناس، وعلى أن لا تكون هناك صراعات.

فلا شك أن لكل شيء حدودًا، وأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، فواجب جميع القوى والاتجاهات، أن تطرح الخلافات، وأن تعمل على جمع الكلمة ورأب الصدع؛ للانطلاق للعمل والإنتاج والتنمية.

ولا يخفى على أحد أن الفترة السابقة التى مر بها المجتمع وتوقفت فيها عجلة الإنتاج، كانت تمثل خسارة فادحة على الاقتصاد وأن ما صحبها من تعطيل المرور والحركة، وتوقف العمل والعاملين فى كثير من القطاعات كان له أكبر الأثر سلبًا على المجتمع.

والواجب الآن أن يعمل جميع أبناء المجتمع على تعويض ما فات، بمضاعفة العمل والإنتاج، وأن يسعى الجميع للمصلحة العامة، وأن نتخلى عن الخلافات التى من شأنها تعطيل مسيرة التقدم والنهوض. وليعلم الجميع أن العمل عبادة، وأن الله تعالى مطلع ورقيب وينظر إلى عمل الجميع، حيث قال الله سبحانه:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة: ١٠٥)

ولطالما حث الرسول ﷺ على العمل، وأكد الدعوة إليه، وأعطى نموذجًا مثاليًا يقتدى به من نفسه حين كان يمارس العمل مع أصحابه ولا يتميز على أحد منهم.

وكان يوجه المجتمع إلى ضرورة العمل ووجوب السعي من أجل التنمية والإنتاج لدرجة أنه كان يضرب المثل للعمل بمن لا يحتاج إلى العمل وهو سيدنا داود عليه السلام، ولكنه كان يعمل من أجل مصلحة المجتمع، فقال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وإن

نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»، رواه البخاري.

ولن يتأتى تعويض ما فات، ولا الانطلاق بالعمل فى كل دوائره إلا بالتركيز على توحيد جميع القوى والتيارات وكل الاتجاهات لتكون وجهة الجميع واحدة، ألا وهى اتحاد الصف وجمع الكلمة من أجل المصلحة العامة.

ومن أجل تحقيق التركيز على جمع القوى والاتجاه بها نحو المصلحة العامة، لا بد من استبعاد النبرة العدائية بين أبناء الوطن الواحد؛ إذ من المستحيل أن يتم الانطلاق بفصيل واحد، أو بإقصاء بعض القوى أو بتهميش بعض الكفاءات من النساء أو من غير المسلمين أو من غيرهم.. ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون بين صفوف المجتمع مع إشراقة الفجر الجديد من يقوم بسياسة تخوين البعض وإقصائه، فإلى جانب أن له حقًا فى الوطن وفى الممارسة وتحقيق النهضة فإنه يمثل كفاءة نحن فى أمس الحاجة إليها أو لا يصح أن يحرم الوطن منها، كما لا يصح التهوين من شأن بعضنا.

ومن أهم جوانب العدالة التى يحرص الوطن على تحقيقها فى هذه المرحلة الجديدة، ألا نشكك فى بعض الناس ولا أن نخونهم، ولا أن نأخذ البعض بالشبهات ما داموا لم يرتكبوا المخالفات ولم يثبت ضدهم أى إفساد.

وإن من أهم ما يجب الحرص عليه ونحن نريد تحقيق العدالة والتركيز على جمع كل القوى والتيارات للانطلاق نحو البناء والتنمية.

إن أهم ما يجب الحرص عليه هو عدم تفصيل القوانين لأشخاص بعينهم أو من أجل مجالات معينة أو ضد أشخاص بعينهم، بل علينا أن نحقق العدالة بين الجميع لا فرق بين إنسان وآخر، كما قال أبوبكر الصديق رضى الله تعالى عنه: القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم.

إن واجب الجميع وواجب كل مسئول أن يتقى الله تعالى فى الرعية، وأن يحرص الجميع على نشر العدالة بين جميع الناس لأن العدل هو أساس الملك، ولطالما أكد القرآن على ذلك:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وحذر الرسول ﷺ من الظلم أشد التحذير، حيث قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» رواه البخاري.

ولقد وعى التاريخ عظمة العدالة والمساواة فى أصحاب رسول الله ﷺ، حتى رأينا نماذج باهرة من القدوة فى رعاية حقوق الرعية.

فها هو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان يجتاز الطريق يومًا ومعه «الجارود العبدي» فإذا بامرأة تناديه وتقول: رويدك يا

عمر حتى أكلمك كلمات قليلة ويلتفت عمر وراءه، ثم يقف حتى تبلغه السيدة فتقول له وهو مصغ مبتسم: «يا عمر عهدي بك وأنت تسمى «عميرًا» تصارع الفتيان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سميت «عمر» ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت» فقال لها الجارود العبدي: اجترأت على أمير المؤمنين، فجذبه عمر من يده وهو يقول: «دعها فإنك لا تعرفها، هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها».

وإلى جانب التركيز على توحيد جميع القوى والتيارات وتحقيق العدالة، إلى جانب هذا: لابد من «المصالحة الوطنية» ونبذ الخلافات وأسباب الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، ولا شك أن في المصالحة تراحمًا وخيرًا كثيرًا، كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الحجرات: ١٠)

وفي مناخ المصالحة الوطنية سيتعاون الجميع على إتقان العمل، وعلى النهوض بالوطن قدماً للأمام.

ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، حيث قام ببناء المسجد النبوي توثيقًا لصلة الخلق بخالقهم وآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم كانت صحيفة المدينة التي تم فيها توثيق المصالحة الوطنية وإبرام أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان، حيث أكد على حقوق الجميع من المسلمين وغير المسلمين، وشرط لهم وشرط عليهم.

ونحن في هذه المرحلة المهمة التي يمر بها مجتمعنا يجب علينا جميعًا أن نطرح الخلافات، وأن نعوض ما فات بالعمل والإنتاج ومضاعفة التنمية، وأن نعمل جميعًا على تصفية القلوب وننطلق في إخلاص لبناء المجتمع الجديد، لنحمي مصرنا من عاديات الزمان، فإن لمصر مكانة يجب على الجميع أن يعرفها وهي أن فيها عزة الإسلام ومجده، كما قال أحد المؤرخين:

«من لم يذهب إلى مصر ما رأى مجد الإسلام ولا عزه لأن فيها الأزهر».

ولمصر رسالتها في المحيط الدولي تنافح عن أمتها وعن أمنها، ولذا كان جندها خير أجناد أهل الأرض.. كما جاء في الحديث: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد أهل الأرض، قيل: ولم كانوا كذلك يا رسول الله؟، قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

وقد نوه القرآن الكريم بها في كثير من الآيات وأشاد برسالتها ودورها، وأنها في أمان، حيث قال سبحانه:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

(يوسف: ٩٩)

سيرة النبي ﷺ مدخلا للنهضة



أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

شمول الإسلام أقدم تصور لمفهوم الاستراتيجية!

إن تعريف مصطلح الاستراتيجية بما هو خطة شاملة للتعامل مع الوضع العسكري والاقتصادي والاتصالي والإعلامي والسياسي في أثناء الحرب على تعريف معجم العلوم الاجتماعية للدكتور فريدريك معتوق، (أكاديميا، بيروت سنة ١٩٩٣م، ص٥٢٥) يبرهن على أن الانطلاق في العمل إلي العودة للإسلام من منظور شامل يشمل مساحات الفكرة والحركة التي تصبغ الحياة الإنسانية التي تجاهد في سبيله الحركات الإسلامية المعاصرة ينبغي أن يكون الأصل الأول في هذا الاتجاه.

ومن هنا فإن ما عبر عنه «حسن البنا» في أول أصوله العشرين الكاشفة عن طبيعة ركن الفهم للفكرة الإسلامية هي أقدم ترجمة تكشف عن عمق العناية بالاستراتيجية في التصور الإسلامي المنظم لحركة الحياة، يقول: "الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغني، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء".

وإذا كانت نقطة البدء في تعيين مفهوم الاستراتيجية خرجت من رحم العسكرية وارتبطت بالحرب، فإن ثمة توسعا دلاليًا أصاب مفهوم المصطلح، واتجه نحو التخطيط الشامل المتسع المدى.

السيرة النبوية والتجسيد الحي للمنهج!

ومن المهم جدًا أن يكون واضحًا جدًا أن السيرة النبوية بما هي إخبار ووصف لحركة النبي ﷺ في الزمان والمكان تمثل التجسيد الحي، والتطبيق العملي للفكرة الإسلامية علي المستويات المختلفة اعتقادًا وعبادة وتعاملاً وتخلقًا.

وقد جاء إلينا من الآثار ما يبرهن علي أن الصحابة رضوان الله عليهم رأوا في سيرته ﷺ وحركته في الحياة تطبيقًا حيًا وترجمة واقعية للنص الكريم، ولعل وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لسلوك النبي ﷺ في الوجود دليل علي ما نقرره ساعة قالت في الحديث الصحيح "كان خلقه القرآن" (علي ما أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للسيوطي ٢/ ١١٦، مكتبة الحلبي

سنة ١٩٨٤م).

والإيمان بالإسلام لا يتأسس ابتداءً، ثم هو لا يقوي ولا يتنامي في النفوس إلا باتخاذ النبي ﷺ قدوة وإمامًا، وهو ما يكشف عنه الشرط اللازم لأي عمل في الحياة يقوم به الإنسان المسلم وهو شرط الاتباع؛ أي أن يكون العمل موافقًا لعمله ﷺ، والبلاغة عن ربه سبحانه.

ومن هنا فإن الدعوة إلي قراءة السيرة النبوية قراءة استراتيجية وإن بدت غريبة، فإنها صحيحة تستحق الرعاية والتأييد؛ ذلك أنها تمثل كنزًا استراتيجيًا علي مستوي توجيه خطط النهضة لأية دولة مسلمة، ولا سيما في أوقات الأزمات، وعلي المستوي الزمني الممتد.

وهذه الدعوة إلي القراءة الاستراتيجية للسيرة النبوية، بمعني قراءة السيرة النبوية باعتبارها مصدرًا معينًا للمخططين المعاصرين لنهضة الدولة المصرية، مسألة معروفة تتعلق بحضور التراث في الواقع المعاصر، وأرجو أن يتأمل هذا الصوت القادم من خارج الدائرة الفكرية للحركة الإسلامية؛ لأنها تمثل دعمًا لتصورنا، يقول الدكتور جابر عصفور في مقدمة كتابه (قراءة التراث النقدي، دار كنعان، دمشق سنة ١٩٩١م ص٧)، حيث يقول: إن "للنص التراثي حضورين، حضور (هناك) في تاريخه الخاص.. وحضور (هنا) في تاريخنا الخاص في القرن الخامس عشر للهجرة"، فإذا تعانقت هذه الحقيقة بما قبلها أمكن أن نقرر أن السيرة النبوية في ضوء وظيفة النبوة الهادية تمثل مصدرًا وكنزًا حقيقيًا بالغ الغني للقائمين علي التخطيط الاستراتيجي في الدول الإسلامية المعاصرة.

علامات أساسية علي طريق فحص السيرة من منظور الاستراتيجية:

لقد لمس عدد ممن درس السيرة أهمية الأبعاد الاستراتيجية في تحليل عدد من حادثات السيرة ووقائعها المختلفة، من مثل تحليل الدكتور عماد الدين خليل لبعض أحداث العصر النبوي من منظور استراتيجي، حيث يقول في كتابه (دراسات في السيرة دار الوفاء، القاهرة ص٣٥٦) في التعقيب علي كتابه ﷺ إلي يهود خيبر: "إن من كان عنده عهد رسول الله ﷺ فيأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهده فليتجهز للجلاء".. إن الضرورتين الاستراتيجية والحضارية هما اللتان دفعتا إلي اتخاذ هذا الموقف، ومن ثم يجئ تأكيد رسول الله ﷺ في أخريات حياته ألا يجتمع دينان في جزيرة العرب ضمانة أخري بصدد تعزيز الاستراتيجية الإسلامية التي رسمها ﷺ، واستهدف منها جعل جزيرة العرب قاعدة إسلامية خالصة مهيأة لانطلاق أتباعه برسالته للعالم.. هذا الموقف لا يتعارض مع بقاء التجمعات (الأخري) المسالمة التي تربطها مع الرسول ﷺ عهود خاصة".

وما يهمنا هنا هو حضور الخلفية الاستراتيجية في أعمال المختصين في علم السيرة، واستثمارها لتفسير أحداث العصر النبوي.

إن السيرة يمكنها أن تهدي الواقع المعاصر المأزوم في مصر منارات عديدة ترشد بسيرته، وتضبط حركته، وفيما يلي محاولة لرصد العلامات والمنارات الأساسية مستمدة من فحص السيرة ونحن نتصور أنها تصب في ميدان خدمة التخطيط

الاستراتيجي للدولة المصرية في سعيها للنهضة:

أولاً- ضرورة تعيين أهداف الخطة الاستراتيجية للنهضة المصرية، بما هو خطة تستهدف:

أ- الاستقلال الوطني لمصر.

ب- تعزيز الدور المصري بما هي قاعدة التأثير الإيجابي للعالمين العربي والإسلامي، ومن بعدهما الإفريقي.

ثانيًا- ضرورة افتتاح التخطيط الاستراتيجي بدستور توافقي معبر عن هوية مصر، وداعما للمساواة بين المصريين جميعًا (وثيقة المدينة كانت من أوائل ما أنجزه النبي ﷺ علي أرض الواقع في دولة المدينة المنورة وهو الأمر الذي أكده محمد حميد الله عندما جعل نص الوثيقة أساس الرؤية السياسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية في المدينة، حيث ورد نصها في كتابه (مجموعة الوثائق السياسة في العهد النبوي والخلافة الراشدة).

ثالثًا- ضرورة العناية باستكمال مؤسسات الدولة، تطهيرا للقائم منها، وتكملة للناقص منها، وتأسيسًا للمفقود منها (وهو ما نلمسه في افتتاح الوجود الإسلامي في المدينة المنورة بإنشاء المسجد باعتباره مؤسسة متعددة الوظائف.

رابعًا- ضرورة العناية بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية (وهو ما نلمسه في دعم مشروعات التنمية والتعليم والاقتصاد الحقيقي التنموي، وهو ما يمكن تلمسه في الدور الأخلاقي والتربوي والتعليمي والإعلامي لمؤسسة المسجد، والدور الاقتصادي والسياسي لمؤسسة السوق الإسلامية التي أسسها المجتمع الإسلامي مع وجود السوق اليهودية في المدينة، إلخ)، وتشجيع أعمال الوقف الإسلامي، وسياسات الادخار.

خامسًا- العناية بالصناعات الاستراتيجية، أو الصناعات الثقيلة: (لقد كان القرآن الكريم مدهشًا عندما نبه - من خلال قصص الأنبياء فيه - إلي أهمية الصناعات الثقيلة مثل:

أ- صناعات التشييد والبناء (في قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما للمسجد الحرام)

ب- صناعات النقل (في قصة بناء سفينة نوح).

ج- صناعات التعدين والأسلحة (في قصة داود عليه السلام) وما يرتبط بها من صناعات الأمن.

و- صناعات الأغذية (في قصة المائدة)، وأعمال الحج.

هـ- صناعات مياه الشرب (في قصة شراء البئر التي أوقفها عثمان رضي الله عنه علي المسلمين وفي قصة الناقة).

سادسًا- العناية بالأبعاد الدولية للتخطيط الاستراتيجي للنهضة المصرية: وهو ما نلحظ العناية به قبل الهجرة في بيعتي العقبة الأولي والثانية، وبعد الهجرة اتسعت علامات العناية بهذا البعد الاستراتيجي بحكم عالمية الرسالة، وهذا البعد كانت مشغلة بعض من درس السيرة النبوية من منظور الدبلوماسية علي ما نري في كتاب عبدالرحمن أبي المجد (الدبلوماسية النبوية)

إن الآفاق التي تتحرك فيها السيرة المطهرة، ويمكن استثمارها لا حدود لها.

محمد ﷺ .. طبيب الإنسانية «عقلا وجسدا وروحا»

أ. د. صابر عبد الدايم يونس
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

إن المصطفى (ﷺ) هو طب القلوب وشفاؤها وعلاج النفوس ودواؤها.. وقد شرع لنا فيما بلغه عن ربه، ما يهدى النفوس وما يخرجها من الظلمات إلى النور.

وقد أيده الله بالمعجزات الحسية.. والعقلية.

وبيانه الشريف يتضمن إرشادات طبية تعالج الأمراض الجسمية.. والعقلية.. والروحية والطب النبوي شاهد على ذلك.

ولا تقتصر أحاديثه (ﷺ) الطبية على فرع من علم الطب بدون غيره بل إنه (ﷺ) تحدث فى فروع الطب المختلفة منها:

(أ) الطب الوقائي.

(ب) الطب العلاجي.

(ج) الطب النفسي.

(د) أصول علم الصحة.

(هـ) علم الوراثة.

وهناك كتب عديدة فصلت القول فى «الطب النبوي» وشرحت الأحاديث النبوية التى تعالج الأمراض المتعددة.. وتوضح أنواع الطب النبوي.. التى تتفق مع تطور أنواع الطب فى العصر الحديث.

ومن هذه الكتب كتاب «الطب النبوي» لشمس الدين محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية، وهو كتاب عميق المادة، غزير العلم يجب على كل مسلم قراءته وبخاصة الأطباء فى العصر الحديث.

يقول صاحبه فى مقدمته: «أما بعد... فهذه فصول نافعة فى هديه (ﷺ) فى الطب الذى تطبب به، ووصفه لغيره، نبين ما فيه من الحكمة التى تعجز عقول أكبر الأطباء عن الوصول إليها..

والمرض نوعان: مرض القلب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران فى «القرآن الكريم».

وهذا التقسيم فيه من الحكمة الإلهية والإعجاز الكثير، ما لم يتوصل إليه الأطباء إلا حديثًا فى منتصف القرن الثامن عشر، فقد قسمت الأمراض عمومًا إلى قسمين:

١ ـ الأمراض العضوية:

وهى الأمراض التى تنتج من عدم أداء أى جزء من أجزاء الجسم وظيفته كاملاً، أو

توقفه عن العمل بالكلية، أو تنتج من دخول ميكروبات مختلفة الأنواع إلى الجسم، وتصيب أى عضو فيه بالتلف، وينتج عن ذلك أعراض المرض وكل مرض عضوى له أعراض وتاريخ ومواصفات ومضاعفات خاصة به، بحيث يمكن التفريق بين الأمراض العضوية، وتشخيص كل منها.

وهذا هو المقصود بمرض الأبدان، كما ذكره الرسول (ﷺ) وأمثال هذه الأمراض: «الشلل، والدرن، والصفراء... إلخ».

٢ ـ الأمراض النفسية:

وهى فى الحقيقة أمراض متنوعة وكثيرة جدًا، يشعر بها المريض، والكشف عليه بواسطة الطبيب مع الاستعانة بجميع الأبحاث اللازمة، مثل الأشعة والتحاليل المختلفة، يوجد المريض فى حالة طبيعية أي: عدم وجود مرض عضوى بالجسم.

وهذه الأعراض للمرض النفسى تنتج عن مؤثرات خارجية فى الحياة العامة مثل الخوف، والشك، وكثرة الإجهاد، والقلق... إلخ.

وهذا هو مرض القلوب، كما ذكره الرسول (ﷺ).

ومرض القلوب يقسم إلى: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وهذا التقسيم هو ما ذهب إليه علماء النفس فى أحدث النظريات النفسية فى العصر الحديث.

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث زيادة بن علاقة عن أسامة بن شريك قال: «كنت عند النبى (ﷺ) وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوي؟ فقال: نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد قالوا: ما هو؟ قال: الهرم».

ومن أهم القضايا الطبيعية التى أثارها كتاب «الطب النبوي» وعلى كل مسلم غيور على دينه، مؤمن بحضارة الإسلام، أن يطلع على النصوص النبوية التى تعالج كثيرًا من أمراض الأبدان، وأمراض القلوب.

ومن ذلك ما جاء فى كتاب «الطب النبوي»:

١ ـ هدى النبى (ﷺ) فى الوقاية من «التخمة».

٢ ـ تقسيم الأمراض، ومراتب الغذاء.

٣ ـ أنواع علاج النبى (ﷺ) للمرض.

٤ ـ العلاج بالأدوية الطبيعية.

٥ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج الحمي.

٦ ـ هدى النبى (ﷺ) فى الطاعون وعلاجه والوقاية منه.

٧ ـ هدى النبى (ﷺ) فى داء الاستسقاء وعلاجه.

٨ ـ هدى النبى (ﷺ) فى العلاج بشرب العسل والحجامة والكي.

٩ ـ هدى النبى (ﷺ) فى دفع ضرر الأغذية والفاكهة والوقاية من ذلك.

١٠ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج الرمد «طب العيون».

١١ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج «الصرع».

١٢ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج «الصداع وبيان أسبابه».

١٣ ـ هدى النبى (ﷺ) فى الوقاية من الأمراض المعدية بطبعها، وإرشاد الأصحاء إلى مجانبة أهلها، مثل الجذام وغيره.

١٤ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج الأورام.

١٥ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج السم.

١٦ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج داء «الحريق وإطفائه».

١٧ ـ هدى النبى (ﷺ) فى حفظ صحة العين.

١٨ ـ الكلام عن حقيقة النوم، وأنواعه، وفوائده، ومضاره.

١٩ ـ تبرير الحركة والسكون «الرياضة وأنواعها».

٢٠ ـ هدى النبى (ﷺ) فى علاج الكرب والهم والغم والحزن.

وهذا الهدى النبوى فى الطب لا يلغى الاشتغال بعلم الطب بل لابد من الفقه فى هذا العلم، والاطلاع على أسراره وتعلمه حسب تطور العصر، فى ضوء الطب النبوي، لأن النبى (ﷺ) دعا إلى ذلك فقد ذكر مالك فى موطئه عن زيد بن مسلم أن رجلا فى زمن النبى (ﷺ) جرح فاحتقن الدم وأن الرجل دعا رجلين من بنى أنمار فنظرا إليه. فزعم أن رسول الله (ﷺ) قال لهما: «أيكما أطب؟ فقالا: أو فى الطب خير يا رسول الله؟ فقال: أنزل الدواء الذى أنزل الداء».

ففى هذا الحديث: أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق: فإنه إلى الإصابة أقرب(١).

وروايه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله (ﷺ): «من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن».

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور: أمر لغوي، وأمر فقهي، وأمر طبي.. فأما اللغوي: فالطب «بكسر الطاء» فى لغة العرب يقال على معان منها:

(أ) الإصلاح: يقال طببته إذا أصلحته، ويقال له طب الأمور، أى له لطف وسياسة..

قال الشاعر:

وإذا تغير من تميم أمرها
كنت الطبيب لها برأى ثاقب

(ب) الحذق: قال الجوهري: كل حاذق طبيب عند العرب.. وقال أبو عبيد: أصل الطب: الحذق بالأشياء، والمهارة بها، يقال للرجل: طب وطبيب، وإذا كان كذلك، وإن كان فى غير علاج المريض، وقال غيره: رجل طبيب: أى حاذق، سمى طبيبًا لحذقه وفطنته، قال علقمة:

فإن تسألونى بالنساء فإننى
خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له فى ودهن نصيب

(جـ) العادة: يقال ذلك ليس بطبي، أى عادتي: قال فروة بن مسيك:

فما إن طبنا جبن، ولكن
منايانا ودولة آخرينا

(د) السحر: يقال: رجل مطبوب، أى مسحور.

وفى الصحيح من حديث عائشة: لما سحرت يهود رسول الله (ﷺ) وجلس الملكان عند رأسه وعند رجليه، فقال أحدهما: ما بال الرجل، قال الآخر: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: فلان اليهودي.

قال أبو عبيدة: إنما قالوا للمسحور مطبوب؛ لأنهم كنوا بالطب عن السحر، كما كنوا عن اللديغ فقالوا: سليم تفاؤلا بالسلامة، وكما كنوا بالمفازة عن الفلاة المهلكة التى لا ماء فيها، فقالوا: مفازة تفاؤلا بالفوز من الهلاك.

(١) الطب النبوي، ص١١١ ـ ٢١١.

والطب مثلث الطاء، فالمفتوح الطاء: هو العالم بالأمور، وكذلك الطبيب يقال له: طب أيضا، و«الطب» بكسر الطاء فعل الطبيب و«الطب» بضم الطاء اسم موضع.

وقوله (ﷺ): «من تطبب»، ولم يقل: من طب لأن لفظ التفعل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة وأنه ليس من أهله كتحلم وتشجع، وتصبر، ونظائرها.

وأما الأمر الشرعي: فإيجاب الضمان على الطبيب الجاهل، فإذا تعاطى علم الطبيب وعمله، ولم يتقدم له به معرفة، فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس، وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه، فيكون قد غرر بالعليل، فيلزمه الضمان لذلك، وهذا إجماع من أهل العلم»(٢).

وأما الأمر الطبى فالحديث النبوى الشريف يؤكد على ضرورة إتقان علم الطب، ومتابعة أحداث تطوراته.. ولابد أن يعرف الناس عنه ذلك وهو ما نعرفه فى العصر الحديث بضرورة اعتماده فى هيئة رسمية، وقيل: نقابة الأطباء أو غيرها، وكذلك ضرورة حصوله على شهادة طبية من جامعة متخصصة معروفة لأن هذه الأمور هى مقياس معرفة الطبيب، والشهادة له، بصحة ممارسته لمهنة الطب.

والذى يعضد هذه المقومات يتحمل وزر ما أقدم عليه ويعاقب حسب مواد القانون الخاص بذلك.. ومن مظاهر الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف إرشاده إلى ممارسة أنواع عديدة من الطب منها:

- أولاً: الطب الوقائي.
- ثانيًا: الطب العلاجي.
- ثالثًا: الطب النفسي.

وهذا الإعجاز العلمى يمتزج بالأسلوب الفنى والأداء الجمالى فى الحديث النبوى الشريف، لأن المصطفى (ﷺ) أوتى جوامع الكلم..

أولاً: الطب الوقائي

وهو فرع العلم الذى يبحث فى وسائل وقاية الإنسان من المرض وحمايته من الإصابة والابتعاد به عن كل ما يسبب المرض.

وللطب الوقائى أسس يقوم عليها ومنها:

النظافة.. والمصطفى (ﷺ) دعا إلى النظافة، وحث عليها حتى صارت عبادة من خلال الاستعداد للصلاة.. وفرضيته الوضوء.. حيث يقول: الطهر شطر الإيمان.. والحمد لله تملأ الميزان.. الحديث ويقول المصطفى (ﷺ): لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه خمس مرات كل يوم هل يبقى من درنه شيء؟ فقالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا.

ويقول عليه السلام: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل».

ويقول: «حق الله على كل مسلم أن يغتسل فى سبعة أيام يومًا يغسل فيه رأسه وجسده».

ويحث المصطفى (ﷺ) على نظافة

(٢) الطب النبوي، ص٣١١ ـ ٦١١.

الموارد ووقايتها وبخاصة ما يخص الأكل والشرب منها: يقول الرسول (ﷺ): اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق، والظل.

ولو استجاب الناس جميعًا لهذا الحديث لما ظهرت الأمراض المتوطنة في العالم، ولما انتشرت الأوبئة فيه إطلاقًا.

ومن أسباب الوقاية المحافظة على سلامة المأكولات والمشروبات والحرص على عدم تعرضها للأوبئة والجراثيم.. يقول عليه السلام: «غطوا الإناء، وأكنوا السقاء، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء، فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم».

ومن مظاهر الطب الوقائي:

١ ـ تحريم الخمر.

٢ ـ عدم الإفراط في الأكل والشرب.

٣ ـ الدعوة إلى ممارسة الرياضة البدنية حرصًا على سلامة الجسد؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم، ويقول عليه السلام: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي».

٤ ـ الحجر الصحي: يقول عليه السلام: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»، ويقول: «فر من المجذوم فرارك من الأسد».

ويذكر عنه (ﷺ) أنه قال: «كلم المجذوم، وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين».

وفي سنن ابن ماجه من حديث ابن عباس أن النبي (ﷺ) قال: «لا تديموا النظر إلى المجذومين».

وهذه الأحاديث التي تحذر من مرض «الجذام» وتكشف عن خطره، وتنبه الناس إلى ضرورة الوقاية منه.. تدل على أن المصطفى (ﷺ) لا ينطق عن الهوي، وأنه مؤيد من قبل الله ـ عز وجل ـ وأن أحاديثه الشريفة تتضمن إعجازا لغويا.. وعلميا.. كما تقر بذلك النصوص التي تشهد بصحة ما يذهب إليه العلماء المتخصصون في الطب في العصر الحديث.

فـ«الجذام» علة رديئة تحدث من انتشار المرة السوداء، أي وباء هذا المرض في البدن كله فيفسد مزاج الأعضاء، وهيئتها، وشكلها، وربما فسده في آخره وأوصالها حتى تتآكل الأعضاء وتسقط ويسمى داء الأسد.. وفي هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء:

- أولها: أنها لكثرة ما يعترى الأسد: أى أن هذا المرض يصيب الأسد كثيراً.
- الثاني: أن هذه العلة تجهم وجه صاحبها، وتجعله في سحنة الأسد.
- الثالث: أن مريض الجذام يفترس من يقربه أو يدنو منه بدائه، افتراس الأسد.

وقد نبه المصطفى (ﷺ) إلى الوقاية من هذا المرض الخبيث لأن هذه العلة عند الأطباء من العلل المعدية المتوارثة، وتعدى برائحتها، فالذى يخالط المجذوم، ومريض السل يصيبه المرض من رائحتها، فالنبى (ﷺ) لكمال شفقته على الأمة ونصحه لهم، نهاهم عن الأسباب التى تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم.

وقد سمي هذا المرض بداء الأسد؛ لأنه ـ إضافة إلى ما سبق ـ يحول وجه المريض إلى هيئة تشبه الأسد، لكثرة وجود أورام صغيرة، وتجعدات في الوجه، وخطورة هذا المرض تتمثل في إتلاف الأعصاب المتطرفة، فيفقد المريض حساسية الأطراف أولاً ثم تتساقط الأصابع تدريجيا، وهو من الأمراض المعدية التي تجيء عدواها من التنفس مع المخالطة الطويلة.

ومن مظاهر الوقاية من «الجذام» في العصر الحديث أن جميع مرضى الجذام يعزلون في مستعمرات خاصة لهم، لمنع انتشار المرض(٣).

وقد أثبت العلم الحديث أن الصلاة تعد وقاية من أمراض عدة منها: مرض دوالي الساقين: حيث تبين أن الصلاة تعد عاملا مؤثراً في الوقاية من هذا المرض، وذلك لأوضاعها المميزة المؤدية إلى أقل ضغط واقع على الجدران الضعيفة لأوردة الساقين وتنشيط عمل المضخة الوريدية.

وقد أجريت البحوث في هذا الصدد، فوجدت نسبة المرضى المصابين بدوالى الساقين قد بلغت ١٠٪ من المصلين وكانت النسبة ٩٠٪ من بين غير المصلين (٤).

ثانياً: الطب العلاجي

يقول المصطفى (ﷺ): «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»، وقد دعا إلى تعلم الطب بنص حديثه. «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السام أى الموت».

ومن النصوص النبوية في مجال الطب الوقائي التي تعالج الأمراض قول رسول الله (ﷺ) «المعدة بيت الداء» والحمية رأس الدواء، وأما أمراض المعدة «كسل الكبد، قرحة المعدة، إجهاد القلب، وتصلب الشرايين، والسكر».

ويقول عليه السلام: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن ربهم يطعمهم ويسقيهم».

وقد وضع سيدنا رسول الله (ﷺ) دستوراً للعلاج تضمن أهم أسباب الشفاء عن طريق العلاج حيث قال: الشفاء في ثلاثة «شربة عسل، وشرطة محجم، وكية بالنار».

وعلاج الفم والأسنان وقايتها من الأمراض يتمثل في تنظيف الأسنان بالسواك حيث يقول عليه السلام: «تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب».

ومن الأدوية التي تعد علاجاً لكل داء ووصفها المصطفى صلى الله عليه وسلم وأوصى بها «الحبة السوداء». قال (ﷺ): «عليكم بهذه الحبة السوداء، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام أى الموت». متفق عليه في الصحيحين.

وقد أثبتت النتائج أن الحبة السوداء لها أهمية كبرى بصفتها منشطاً طبيعياً للمناعة ويمكن أن تؤدى دوراً مهماً في علاج الإيدز والسرطان، وغيرها من الأمراض التى تصاحب قصور المناعة.

كما أكدت التجارب الحديثة على الإنسان والحيوان أن للحبة السوداء تأثيرا موسعاً للشعب الهوائية، وتأثيراً مضاداً للميكروبات وتأثيراً منظماً لضغط الدم وتأثيراً مدرا لإفراز المرارة، وتعد علاجاً للربو.

ويفيد الأطباء المختصون بأن الحبة

(٣) النظر الطب النبوي ص٤٢١.

(٤) الإعجاز العلمي في الإسلام «السنة النبوية» ص٩٦ ـ ٠٧ محمد كامل عبدالصمد.

السـوداء لو أخذت بالفم بجرعة قدرها جرام مرتيـن لـكان لهـا أثر منشـط علـى وظائف المناعـة وتحسـين فاعلية الخلايـا الطبيعية «الإعجاز العلمي في الإسلام ٨٠ ـ ٨١».

وقال (ﷺ): «عليكم بالشفاء بالعسل والقرآن». لقد جمع المصطفى عليه السلام في هذا الحديث بين الطب البشري والإلهي، وبين طب الأبدان وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضي والدواء السماوي.

فالعسل غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية وشراب مع الأشربة وحلو مع الحلو وطلاء مع الأطلية، وكان (ﷺ) يشربه مع الماء على الريق، وفي ذلك سر بديع في حفظ الصحة.

والعلم الحديث يؤيد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث النبوي الشريف.. فقد أمكن الاستفادة من استخدام العسل علاجاً للأمراض التي تسببها ميكروبات «التيفود، والدوسنتاريا، والنزلات المعوية، والمعدية» بعد أن أثبت علمياً أن العسل به مواد تمنع الميكروبات سواء أكانت فطرية أم بكتيرية.

ويستخدم العسل لعلاج «البهاق، وحب الشباب» بعد مزجه بالثوم، ويستخدم أيضا في حالات صديد الأذن كما يستخدم العسل بنجاح تام لمعالجة الحروق والجروح.

وللعسل يد طولى في معالجة أمراض الجهاز التنفسي فهو يستخدم لعلاج أمراض الرئة والزكام والأنفلونزا، وللعسل أيضاً دور كبير لشفاء أمراض الجهاز الهضمي وطرد الديدان من الأمعاء، وتناول العسل قبل النوم يذهب الأرق ويجعل الإنسان هادئ الأعصاب.

وتناول العسل يساعد الذين يشكون من الصداع النصفي على الشفاء والتخلص من الآلام في مدة وجيزة. وقال (ﷺ) «من لعق ثلاث غدوات كل شهر، لم يصبه عظيم البلاء» أي من شرب العسل ثلاث مرات كل شهر لم يصبه مرض، ولم يلحقه بلاء «صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله».

ثالثاً: الطب النفسي

يمكن علاج النفس في عدة مظاهر دعا إليها رسول الله (ﷺ) ومنها:

١ـ الاعتدال وعدم الإسراف، لأن الإسراف وعدم القصد في الأمور الحياتية يسبب القلق والاضطراب النفسي.. ويقول عليه السلام: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا خيلاء».

٢ـ الرفق، يقول عليه السلام: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

٣ـ النهي عن الغضب: إن الإحصاءات تشير إلى أن معظم مرضى القلب والشرايين، بل غالبية الموتى بهذه الأمراض يعد الغضب هو السبب المباشر فيما أصابهم والرسول (ﷺ) يقول: «لا تغضب»، ويقول: «ما في جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله».

ومن آثار المصطفى (ﷺ) في معالجة الطب النفسي: علاجه الكرب والهم والغم والحزن. فعن ابن عباس عن النبي (ﷺ) أنه قال: «من كثرت همومه وغمومه، فليكثر من قول ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ». وثبت في الصحيحين: أنهما كنز من كنوز الجنة.

وفي سنن أبي داوود، عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ﷺ): «من لزم الاستغفار

جعل الله له من كل هم مخرجاً، ومن كل ضيق فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرض، رب القرآن الكريم».

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) قال: «ما أصاب عبداً هم ولا حزن، فقال: «اللهم إني عبدك.. ابن عبدك.. وابن امتك.. ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضائك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحا» (٥).

والأدوية التي تعالج النفوس وتعالج أمراض الهم والغم والحزن.. تتضمن خمسة عشر نوعا من الدواء، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن، فهو داء قد استحكم وتمكنت أسبابه، ويحتاج إلى علاج عضوي من العلاج النفسي، والأدوية هي:

١ـ توحيد الربوبية.

٢ـ توحيد الألوهية.

٣ـ التوحيد العلمي الاعتقادي.

٤ـ تنزيه الرب عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

٥ـ اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

٦ـ التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء إليه، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات «الحي القيوم».

٧ـ الاستعانة به وحده.

٨ـ إقرار العبد له بالرجاء.

٩ـ تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، ويصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

١٠ـ أن يرتع قلبه في رياض القرآن ويجعله لقلبه كالربيع، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

١١ـ الاستغفار.

١٢ـ التوبة.

١٣ـ الجهاد.

١٤ـ الصلاة.

١٥ـ البراءة من الحول والقوة وتعويضها إلى من هما بيده (٦).

● اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء صدورنا وذهاب غمنا وهمنا. قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

(التوبة: ١٢٨، ١٢٩)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(٥) الطب النبوي، ص٢٦١ ـ ٤٦١.

(٦) الطب النبوي، ص٤٦١ ـ ٥٦١.

تأملات فى السيرة

إعلام شيطانى وخداع مردود

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدي

يروى أنه لما خرج بنو النضير من المدينة امتثالا لأمر النبى ﷺ خرجوا وهم يحملون أمتعتهم ونساءهم فى الهوادج فوق الإبل عليهن الديباج والحرير وقطف الخز وحلى الذهب والفضة ومروا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم. وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن.

أيها القارئ الكريم أرجو أن تتأمل، أرأيت كيف يفعل اليهود من قديم الأزل هذه عادتهم يستخدمون آلة الإعلام استخدامًا شيطانيًا رهيبًا يخدعون به الناس ويسيطرون على أدواته ويملكونها، وبها يستطيعون أن يُدخلوا فى روع الناس أهدافًا وأفكارًا يريدونها مهما كانت تخالف الحقيقة.

أرأيت وهم خارجون بشر هزيمة وذل وانكسار كيف يخرجون بالهوادج والقيان يغنين خلفهم لإيهام الناس أنهم لم يلقوا هزيمة ولم يخرجوا مُكرهين ؟

حتى اليوم نفس الأساليب والخداع واستخدام آلة الإعلام استخدمًا شيطانيًا.

أرأيت كيف يبدأون بالهجوم على أهالى غزة أطفالاً ونساءً يتذرعون بأسباب واهية ويُوهمون العالم أنهم مظلومون مغلوبون على أمرهم وأنهم يدافعون عن أنفسهم وتنخدع الدول الكبرى أو قل إنها تستسلم لدعواهم وأراجيفهم ويصرحون بأن إسرائيل معها كل الحق فى الدفاع ورد العدوان.. مع أنها المعتدية ؟

كذلك فعل أبو سفيان لما أراد أن ينصرف يوم أحد، إذ نادى قائلاً : موعد ما بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول نلتقى فيه.

ويروى أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب قم وقل نعم إن شاء الله فافترق الناس على ذلك ورجعت قريش يخبرون جمعهم بهذا الموعد وكانت بدر الصفراء مجمعا للعرب وسوقًا تقوم من بداية ذى القعدة إلى ثمان ليال فإذا مضت الليالى تفرق الناس إلى بلادهم فلما دنى الموعد كره أبو سفيان الخروج وأحب أن لا يوافى رسول الله ﷺ الموعد لكنه كان يظهر أنه يريد الغزو وعلى دأب طريق اليهود كان يظهر أنه يريد الغزو ويخفى حاله من الفاقة وقلة العدد ويزعم أن معه جمعا كثيفًا وأشاع أنه يجمع الجموع ويريد بذلك أن تصل هذه الأخبار أهل المدينة فيهابهم المسلمون. ولقى نعيم بن مسعود – وأسلم بعد ذلك – فبصر أبا سفيان وقريش يتهيئون لحرب المسلمين فكان العام عام جدب أخبر أبو سفيان نعيم بن مسعود أنه كاره للخروج إلى لقاء المسلمين وتعلل بجدب الأرض وجعل لنعيم عشرين فريضة على أن يُخذل المسلمين عن المسير لموعده وحمله على بعير فقدم نعيم بن مسعود

المدينة وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان يريد بذلك أن يرعب المسلمين وأخذ يطوف فيهم حتى أوهم المسلمين بكثرة جموع أبى سفيان وتخلل الرعب فى قلوبهم حتى لم يبق لدى المسلمين نية فى الخروج واستبشر المنافقون واليهود وقالوا محمد لا يفلت من هذا الجمع فبلغ ذلك رسول الله ﷺ حتى خشى أن لا يخرج معه أحد وجاء أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقد سمعا ما سمعا فقالا يارسول الله إن الله تعالى مظهر دينه ومعز نبيه وقد وعدنا القوم موعدًا لا نحب أن نتخلف عنه فيرَون أن هذا جبن فسر لموعدهم فوالله إن فى ذلك لخير. فسُر رسول الله ﷺ بذلك ثم قال :«والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد» فنصره الله تعالى وأذهب عنهم ما كان الشيطان يعدهم، فاستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أبى بن سلول وقيل استخلف عبد الله بن رواحة وخرج رسول الله ﷺ فى ألف وخمسمائة فيهم عدة أفراس وحمل اللواء على بن أبى طالب رضى الله عنه وخرج المسلمون بتجارة لهم إلى بدر الموعد فربحت ربحًا كثيرًا ووصلوا إلى بدر الموعد فى غرة ذى القعدة وقام السوق صبيحة ذى القعدة ومكث المسلمون ثمانية أيام والسوق قائم ومكث رسول الله ﷺ فى بدر ينتظر أبا سفيان بمعياد وأتاه مخشى بن عمرو الضمرى ولما رأى المسلمين أكثر أهل الموسم قال :يا محمد لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد فما أعْلمُكم إلا أكثر أهل الموسم فقال رسول الله ﷺ : وإن شئت مع ذلك رددنا ما كان بيننا وبينك من عهد فقال لا والله ما لنا بذلك من حاجة نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك.

هذا وأحب أن أروى لك موقفًا لتعلم منه أن المشركين واليهود يتساوون فى المكر والختل والخداع يروى أن أبا سفيان قال لقريش قد بعثنا نُعيم بن مسعود لأن يُخذِّل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهَد–أى نعيم بن مسعود – لأن يبذل قصارى جهده فى ذلك ثم قال أبو سفيان :– وهذه هى الخدعة – لكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين فإن كان محمد لم يخرج فبلغه أنا خرجنا فرجعنا لأنه لم يخرج فيكون هذا لنا عليه وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عام جدب –يعنى أن هذا العام عام مُجدب فلن نخرج– ولا يصلحنا إلا عام عَشب فقالت قريش:نعم ما رأيت. فخرج فى قُريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرسًا حتى انتهوا ؟ إلى مجنه من ناحية الظهران ثم قال ارجعوا لا يصلحنا إلا عام خصب نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا. فسمى أهل مكة ذلك الجيش جيش السويق وقالوا إنهم خرجوا يشربون السويق.

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف أظهر أبو سفيان أنه خارج وأن معه جيشًا مع أن الحقيقة أنه لا يريد الخروج ولا يرغبه ؟

لكنها خدعة ومع هذا لم تؤت ثمارها مع النبى المعصوم.

وبعد انقضاء الموسم انطلق معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى مكة وأخبر بكثرة عدد المسلمين وأنهم أهل ذلك الموسم وأخبر بما قاله رسول الله ﷺ فقال صفوان بن أمية لأبى سفيان والله قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم –يعنى أن تواعد رسول الله ﷺ ذلك اليوم– وقد اجترءوا علينا ورأوا أنا قد أخلفنا وإنما خلفنا الضعف.

وأخذوا فى الكيد والنفقة فى قتال رسول الله ﷺ ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة.

النبى زوجاً

أ. ياسر محمد عبد الرحمن
عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

قالت عائشة - رضى الله عنها -: «كنت أشرب وأنا حائض - أى من إناء النبى - ثم أناوله النبى فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب»(١).

وقالت أيضا: «كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء بينى وبينه واحد تختلف أيدينا عليه، فيبادرنى حتى أقول دع لى دع لي، قالت: وهما جنبان»(٢).

وسئلت السيدة عائشة - رضى الله عنها - كيف كان رسول الله إذا خلا فى بيته، قالت: كان ألين الناس بسامًا ضحاكًا.

وقالت السيدة عائشة - رضى الله عنها -: خرجت مع رسول الله فى بعض أسفاره وأنا جارية (أى حديثة السن) لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: تقدموا فتقدموا، ثم قال: تعالى حتى أسابقك.. فسابقته فسبقته، فسكت عنى حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت، فخرجت معه فى بعض أسفاره فقال: تقدموا فتقدموا، ثم قال: تعالى أسابقك، وقد نسيت الذى كان وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحالة؟ فقال: لتفعلن. فسابقته فسبقنى فجعل يضحك ويقول هذه بتلك»(٣).

فعليك - أخى الحبيب - أن تصحبها فى سفرك - إن استطعت - فقد كان رسول الله إذا أراد سفرا ضرب القرعة بين نسائه، فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه(٤).

وفى يوم خرجت القرعة على عائشة وحفصة - رضى الله عنهما -، فخرجتا معه جميعًا، وكان رسول الله إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها فقالت حفصة لعائشة: الا تركبين بعيري، وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر فقالت: بلي، فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله إلى بعير عائشة وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا فافتقدته عائشة فغارت! فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها فى الإذخر - نبات طيب الرائحة - وتقول: يا رب سلط عليّ عقربًا أو حية تلدغني. رسولك، ولا أستطيع أن أقول له شيئا»(٥).

ومن مداعبة النبى للسيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت: قدم رسول الله من غزوة تبوك وفى بيتى ستر، فهبت ريح، فكشفت ناحية الستر

(١) صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب جواز غسل الحائض - رقم الحديث ٤٥٣.
(٢) صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب القدر المستحب من الماء - رقم الحديث ٤٨٥.
(٣) مسند أحمد - كتاب باقى مسند الأنصار - باب حديث السيدة عائشة - رقم الحديث ٢٥٠٧٥.
(٤) صحيح البخارى - كتاب الهبة - باب هبة المرأة لغير زوجها - رقم الحديث ٢٤٠٤.
(٥) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضل السيدة عائشة - رقم الحديث ٤٤٧٧.

عن بنات لى لعب. فقال: ما هذه يا عائشة؟ قلت: بناتي. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع. فقال: ما هذا الذى أرى وسطهن؟! قلت: فرس قال: وما الذى عليه؟ قلت: جناحان. قال: فرس له جناحان!! قلت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة، فضحك حتى رأيت نواجذه(٦).

ولذا أخى الزوج الحبيب عليك بهذه الوصايا العملية:

١ - أنت فارس أحلامها فافتح لها قلبك لتسكن فيه، ودعها تر الترحاب فى عينيك. وفى امتداد ذراعيك وفى تمتمة شفتيك وليكن لسان حالك يقول: أهلا وسهلا فى القلب قبل الدار فهى ما تركت دارها وحلت عندك طمعا فى دار ولكن طمعا فى ساكن القلب ومحب الجوار فاجعلها فى جنتك منذ الليلة الأولي. لا ترى أجمل ولا أحب إليها منك ولا تجعلها تكرهك وتكره اليوم الذى رأتك فيه.

٢ - غير طباعك إن كنت جافيا غليظا واجتهد أن تكون رقيقا رفيقاً سهلا لينا، واعلم أنه ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من ليس من معاشرته بد.

٣ - من تعاشرها لها نفس مثلك ترضى وتسخط وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وتحسن وتسيء وتشعر وتتألم وتفكر، تعقل فهى ليست آلة للخدمة والترفيه، فاكتم مشاعرك غير المرغوب فيها نحوها قدر المستطاع، واجعل لك رصيدا من الاحترام عندها.

٤ - احذر فإنهن لا يحببن العبوس والتكشير والتعب والتوبيخ والبخل بالمال والكلام والتجسس والارتياب والإهمال لهن والتنقيص من شأنهن فحدد لها يوما كل أسبوع أو كل شهر وأخبرها أنه لها وحدها.

٥ - اهتم بها أكثر من عملك، وخذ لها يوما إجازة من عملك غير إجازتك الأسبوعية - إن استطعت - لتعرف أنها أهم من العمل.

٦ - دع زوجتك على سجيتها ولا تكرهها على دراسة ما يفيدك أو تعليمها حرفتك وهوايتك فلها شخصية واهتمامات قد تختلف شيئا ما عن اهتماماتك وربما تحتاج إليها بعض الوقت، فقد تكون أنت محبا للقراءة ولا تجيد أسهل أعمال المنزل أما هى فقد تكره القراءة وتبغضها ويكون المطبخ فنا تجيده تهواه ويحلو لها التضحية من أجل إنجاز أشهى الوجبات لك.

٧ - اعرف مفتاح قلبها هل هو الابتسامة أم الهدايا أم الطعام أم الشراب أم الكلمة الرقيقة أم الإحساس بها أم عدم إهانتها.. إلخ، واعلم أنك بقدر ما تسعد زوجتك تسعدك وبقدر ما تزرع طيبا تحصد طيبا فبادر بالأعمال التى تسعدها وليكن شعارك «أسعد زوجتك تسعدك».

٨ - لا تذكرها دائما بحقوقك وواجباتك وإن فعلت شيئا وقالت: هو حقك فاقترح عليها أن ترتفع فوق الحقوق والواجبات لما هو أسمى من ذلك باسم الحب ولا تذكرها دائما بالحديث الشريف «لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»(٧).

٩ - تعلم صفات المرأة وخصائصها فهى ناقصة العقل تغلب العاطفة ضعيفة البدن والنفس تنسى المعروف عاجزة عن إقامة الحجة وهى مثل الضلع الأعوج إن ذهبت تقيمه كسرته وهى سريعة البكاء والاستثارة واصبر

(٦) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب اللعب بالبنات - رقم الحديث ٤٢٤٨.
(٧) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب حق الزوج على المرأة - رقم الحديث ١٨٤٢.

على حديثها فمن طبيعة المرأة حب الكلام والإلحاح في كثير من الأمور وعليك أن تسمع ولا تبدى التأفف ولا تسفه رأيها وانظر إلى حديث عائشة -رضى الله عنها- للرسول ﷺ مع انشغاله استمع إليها وهي تحكي قصة طويلة «حديث أبي زرع وأم زرع»(٨) ولو سمعها بعض الرجال من زوجته ما كان يصبر حتى تنتهي.

١٠ - المرأة غالبا تحب الرجل القوى الشخصية فلتكن كذلك في بيتك ولا تنس أن تكون حكيما.

١١ - عليك ألا تحمل زوجتك من الأسرار ما يكون فوق طاقتها فيعرضها للمشقة والحرج ولاسيما الأسرار الخاصة والتى لا تهم الزوجة من قريب أو بعيد، ويدخل في ذلك أسرار القادة العسكريين والمفاوضين لأطراف أخرى.

١٢ - ازهد في نساء الناس وعف عنهم تعف امرأتك وتزهد في الرجال ولا ترى أمامها غيرك.

١٣ - زوجتك أرهقت نفسها في التزين وصنع أشهى الطعام لك فلا تحرمها من كلمة تقولها لها على الأقل ولا تهمل هذه اللفتات البسيطة، وخذ مثالا على ذلك: يقال: إن امرأة قروية أتت يوما بكومة من علف الماشية ووضعتها أمام رجال عشيرتها بدلا من الطعام فصرخوا في وجهها وقد حسبوا أنها قد أصابها الجنون، فقالت لهم: وما أدراني أنكم ستلاحظون الفارق؟ لقد ظللت أطهو لكم طعام عشرين عاما فلم أسمع منكم طوال هذه المدة ما يطمئنني إلى أنكم تفرقون حقا بين الطعام الجيد وعلف الماشية، وكان آباء الطبقة الراقية في عهد القيصرية الروسية إذا استحسنوا طعاما، أصروا على أن يؤتى بالطاهي أمامهم ليسبغوا عليه آيات الشكر، أليست زوجتك أحق بالشكر والتقدير من الطاهي؟!

لا تنس أخي الزوج في أول أكلة من يد زوجتك بعد قراءة هذه السطور أن تظهر لها إعاجبك بطريقة طهوها. دعها تحس أنك تفرق بين علف الماشية والطعام الجيد.

١٤ - اطلب الدعاء منها واجتهد أن تستمع إليها ولا تقاطعها وعاملها كما أنك ستراها آخر مرة، ولا تسألها عن ماضيها إلا إذا ذكرت بنفسها.

١٥ - قلل السهر خارج البيت وسلم عليها وقبلها عند الخروج من البيت وعند الدخول لقول رسول الله: «يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلم، يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»(٩).

١٦ - الاعتدال في الغيرة فالإنسان الغيور هو الإنسان الطبيعي والمطلوب من المسلم الاعتدال في الغيرة لقول الرسول: «إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة في الريبة أما الغيرة التى لا يحبها الله فالغيرة في غيرة ريبة»(١٠).

١٧ - إذا كنت على سفر فأخبرها بموعد عودتك ولا تفاجئها ليلا قال رسول الله: «إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلا»(١١).

(٨) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب أم زرع - رقم الحديث ٤٤٨١.
(٩) سنن الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في التسليم - رقم الحديث ٢٦٢٢.
(١٠) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الخيلاء في الحرب - رقم الحديث ٢٢٨٦.
(١١) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب لا يطرقن أهله ليلا - رقم الحديث ٤٨٣٤.

خميلة الشعر

للأستاذ/ محمد عبد الوهاب

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المُقَدَّمُ ... أكُلّ فصيحٍ قال شعرًا مُتَيَّمُ
لَحُبّ ابن عبدِ الله أولى فإنّه ... به يُبدأ الذكرُ الجميلُ ويُختَمُ

من دواعى البهجة والانشراح لدينا أن نشرف بأن نحتفل مع العالم بأسره، بذكرى مولد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، بتقديم مهرجان للمشاعر المفعمة بالحب والإعزاز لرسول الله ﷺ، المبعوث للعالم كافة رحمة وهُدًى وذلك بمناسبة ذكرى مولده الشريف.

نهج البردة

لأمير الشعراء: احمد شوقى

أما بعد، فإن الخميلة ستبدأ مهرجانها الشعرى في هذه المناسبة المباركة بأبيات من نهج البردة الشهيرة لأمير الشعر العربى أحمد بك شوقي:

ولقد كانت بردة البوصيرى منبع إلهام للكثير من شعراء العربية، فعارضوها وساروا على نهجها وفي مقدمتهم أمير الشعراء (أحمد شوقى) الذى نظم قصيدته الشهيرة: نهج البردة.

ريمٌ علي القاعِ بينَ البانِ والعلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ
لما رنا حدثتني النفس قائلة
يا ويح جنبك، بالسهم المصيب رُمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي
جُرحُ الأحبة عندي غيرُ ذي ألم
يا نفسُ، دنياك تُخفي كل مبكية
إن بدا لك منها حُسنُ مُبتسم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفسُ من خيرها في خير عافية
والنفسُ من شرها في مرتعٍ وَخِم

تطغى إذا مُكِّنت من لذةٍ وهَوى
طغيَ الجياد إذا عضّت على الشُّكُم
إن جلَّ ذنبي عن الغفران لي أملٌ
في الله يجعلني في خير مُعتصم
ألقى رجائي إذا عزّ المُجيرُ على
مُفرّج الكرب في الدارين والغمم
إذا خفضتُ جناح الذل أسأله
عزَّ الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدّم ذو تقوى بصالحة
قدّمتُ بين يديه عبرةَ الندم
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن
يُمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكلُّ فضلٍ وإحسانٍ وعارفةٍ
ما بين مستلمٍ منهُ ومُلتزمِ
علقتُ من مدحه حبلاً أعزُّ به
في يومِ لا عزَّ بالأنسابِ واللُّحمِ
يُزري قريضي زُهيرًا حين أمدحُهُ
ولا يُقاسُ إلى جودي لدى هرمِ
مُحمدٌ صفوةُ الباري ورحمتُهُ
وبُغيةُ الله من خلقٍ ومن نسمِ
وصاحبُ الحوضِ يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ
متى الورودُ وجبريلُ الأمينُ ظمي
سناؤهُ وسناهُ الشمسُ طالعةً
فالجرمُ في فلكٍ والضوءُ في علمِ
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوَّتُهُ
من سؤددٍ باذخٍ في مظهرٍ سنمِ
نموا إليه فزادوا في الورى شرفًا
وربَّ أصلٍ لفرعٍ في الفخار نُمي
حواهُ في سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلَهُمُ
نوران قاما مقامَ الصُّلبِ والرحمِ
لمّا رآهُ بحيرا قال نعرفُهُ
بما حفظنا من الأسماءِ والسيمِ
سائلْ حراءَ وروحَ القدسِ هل علما
مصونَ سرٍّ عن الإدراكِ منكتمِ
كم جيئةٍ وذهابٍ شُرِّفتْ بهما
بطحاءُ مكةَ في الإصباحِ والغسمِ
ووحشةٍ لابنِ عبدِ الله بينهما
أشهى من الأُنسِ بالأحبابِ والحشمِ
يُسامرُ الوحيَ فيها قبلَ مهبطِهِ
ومن يُبشَّرْ بسيمى الخيرِ يتَّسمِ
لمّا دعا الصَّحبُ يستسقون من ظمأٍ
فاضت يداهُ من التسنيمِ بالسَّنِمِ
وظلّلتهُ فصارت تستظلُّ بهِ
غمامةٌ جذبتها خيرةُ الديمِ

محبةٌ لرسولِ الله أُشربها
قعائدُ الديرِ والرهبانُ في القممِ
إنَّ الشمائلَ إن رقّتْ يكادُ بها
يُغرى الجمادُ ويُغرى كلُّ ذي نسمِ
ونوديَ اقرأْ تعالى اللهُ قائلُها
لم تتصلْ قبلَ من قيلتْ لهُ بفمِ
هناكَ أذّنَ للرحمنِ فامتلأتْ
أسماعُ مكةَ من قدسيّةِ النغمِ
فلا تسلْ عن قريشٍ كيف حيرتُها
وكيف نفرتُها في السهلِ والعلمِ
تساءلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهمْ
رمى المشايخَ والولدانَ باللممِ
يا جاهلين على الهادي ودعوتِهِ
هل تجهلون مكانَ الصادقِ العلمِ
لقّبتموهُ أمينَ القومِ في صغرٍ
وما الأمينُ على قولٍ بمتّهمِ
سرتْ بشائرُ بالهادي ومولدِهِ
في الشرقِ والغربِ مسرى النورِ في الظُّلَمِ
تخطّفتْ مُهجَ الطاغينَ من عربٍ
وطيّرتْ أنفسَ الباغينَ من عُجُمِ
ريعتْ لها شُرَفُ الإيوانِ فانصدعتْ
من صدمةِ الحقِّ لا من صدمةِ القُدُمِ
أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم
إلا على صنمٍ قد هامَ في صنمِ
والأرضُ مملوءةٌ جورًا مُسخّرةٌ
لكلِّ طاغيةٍ في الخلقِ محتكمِ
مسيطرُ الفرسِ يبغي في رعيّتِهِ
وقيصرُ الرومِ من كِبرٍ أصمُّ عمِ
يُعذّبانِ عبادَ اللهِ في شُبَهٍ
ويذبحانِ كما ضحّيتَ بالغنمِ
والخلقُ يفتكُ أقواهم بأضعفِهم
كالليثِ بالبَهْمِ أو كالحوتِ بالبَلَمِ

أسرى بك اللهُ ليلاً إذ ملائكُهُ
والرُّسْلُ في المسجدِ الأقصى على قدمِ
لمّا خطرتَ به التفّوا بسيّدِهم
كالشُّهبِ بالبدرِ أو كالجندِ بالعلمِ
صلّى وراءكَ منهم كلُّ ذي خطرٍ
ومن يفزْ بحبيبِ اللهِ يأتممِ
جُبتَ السماواتِ أو ما فوقهنَّ بهم
على منوّرةٍ دُرّيّةِ اللُّجُمِ
ركوبةً لكَ من عزٍّ ومن شرفٍ
لا في الجيادِ ولا في الأينُقِ الرُّسُمِ
مشيئةُ الخالقِ الباري وصنعتُهُ
وقدرةُ اللهِ فوقَ الشكِّ والتُّهمِ
حتى بلغتَ سماءً لا يُطارُ لها
على جناحٍ ولا يُسعى على قدمِ
وقيلَ كلُّ نبيٍّ عندَ رتبتِهِ
ويا محمدُ هذا العرشُ فاستلمِ
خططتَ للدينِ والدنيا علومَهما
يا قارئَ اللوحِ بل يا لامسَ القلمِ
يا أحمدَ الخيرِ لي جاهٌ بتسميتي
وكيفَ لا يتسامى بالرسولِ سمي
المادحون وأربابُ الهوى تبعٌ
لصاحبِ البُردةِ الفيحاءِ ذي القدمِ
مديحُهُ فيكَ حبٌّ خالصٌ وهوى
وصادقُ الحبِّ يُملي صادقَ الكلمِ
اللهُ يشهدُ أني لا أعارضُهُ
من ذا يُعارضُ صوبَ العارضِ العرمِ
وإنما أنا بعضُ الغابطينَ ومن
يغبطْ وليّكَ لا يُذممْ ولا يُلمِ
هذا مقامٌ من الرحمنِ مقتبسٌ
ترمي مهابتُهُ سحبانَ بالبكمِ
ذُكرتَ باليُتمِ في القرآنِ تكرمةً
وقيمةُ اللؤلؤِ المكنونِ في اليُتُمِ

اللهُ قسّمَ بينَ الناسِ رزقَهُمُ
وأنتَ خُيّرتَ في الأرزاقِ والقسمِ
إن قلتَ في الأمرِ «لا» أو قلتَ فيه «نعم»
فخيرةُ اللهِ في «لا» منكَ أو «نعم»
أخوكَ عيسى دعا ميتًا فقامَ لهُ
وأنتَ أحييتَ أجيالاً من الرِّممِ
والجهلُ موتٌ فإن أوتيتَ معجزةً
فابعثْ من الجهلِ أو فابعثْ من الرَّجمِ
قالوا غزوتَ ورسلُ اللهِ ما بُعثوا
لقتلِ نفسٍ ولا جاؤوا لسفكِ دمِ
جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفسطةٌ
فتحتَ بالسيفِ بعدَ الفتحِ بالقلمِ
لمّا أتى لكَ عفوًا كلُّ ذي حسبٍ
تكفّلَ السيفُ بالجهّالِ والعممِ
والشرُّ إن تلقَهُ بالخيرِ ضقتَ بهِ
ذرعًا وإن تلقَهُ بالشرِّ ينحسمِ
سلِ المسيحيةَ الغراءَ كم شربتْ
بالصابِ من شهواتِ الظالمِ الغلمِ
طريدةُ الشركِ يؤذيها ويوسعُها
في كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ
لولا حماةٌ لها هبّوا لنصرتِها
بالسيفِ ما انتفعتْ بالرفقِ والرُّحَمِ
لولا مكانٌ لعيسى عندَ مرسلِهِ
وحرمةٌ وجبتْ للروحِ في القدمِ
لسُمّرَ البدنُ الطُّهرُ الشريفُ على
لوحينِ لم يخشَ مؤذيهِ ولم يجمِ
جلَّ المسيحُ وذاقَ الصلبَ شانئُهُ
إنَّ العقابَ بقدرِ الذنبِ والجُرُمِ
أخو النبيِّ وروحُ اللهِ في نُزُلٍ
فوقَ السماءِ ودونَ العرشِ محترمِ
علّمتَهم كلَّ شيءٍ يجهلونَ بهِ
حتى القتالَ وما فيهِ من الذِّممِ

دعوتهم لجهاد فيه سُؤددُهم
والحربُ أسُّ نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات في زمن
ما طال من عُمُد أو قرَّ من دُهُم
لمّا اعتلت دولةُ الإسلام واتسعت
مشت ممالكُهُ في نورها التمم
وعلّمت أمّةً بالقفر نازلةً
رعي القياصر بعد الشاء والنعم
كم شيَّد المصلحون العاملون بها
في الشرق والغرب مُلكًا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ما عزموا
من الأمور وما شدّوا من الحُزُم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هُداة الناس فهي بهم
إلى الفلاح طريقٌ واضح العظم
لا يهدمُ الدهرُ رُكنًا شاد عدلُهُمُ
وحائطُ البغي إن تلمسه ينهدم
نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا
على عميم من الرضوان مُقتسم
دع عنك روما وآثينا وما حوتا
كلُّ اليواقيت في بغداد والتُّوم
وخلِّ كسرى وإيوانًا يدلُّ به
هوى على أثر النيران والأيُم
واترك رعمسيس إنَّ المُلك مظهرُهُ
في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دارُ الشرائع روما كلّما ذُكرت
دارُ السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانًا عند مُلتأم
ولا حكتها قضاءً عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها
على رشيد ومأمون ومعتصم

من الذين إذا سارت كتائبُهُم
تصرّفوا بحدود الأرض والتُّخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة
فلا يُدانون في عقل ولا فهم
يُطأطئُ العلماءُ الهام إن نبسوا
من هيبة العلم لا من هيبة الحُكُم
ويُمطرون فما بالأرض من مَحَل
ولا بمن بات فوق الأرض من عُدُم
خلائفُ الله جلّوا عن موازنة
فلا تقيسنَّ أملاكَ الورى بهم
من في البريّة كالفاروق معدلةً
وكابن عبد العزيز الخاشع الحَشِم
وكالإمام إذا ما فضَّ مزدحمًا
بمدمع في مآقي القوم مزدحم
الزاخرُ العذبُ في علم وفي أدب
والناصرُ الندبُ في حرب وفي سلم
أو كابن عفّان والقرآنُ في يده
يحنو عليه كما تحنو على الفُطُم
ويجمعُ الآي ترتيبًا وينظمُها
عقدًا بجيد الليالي غير منفصم
جُرحان في كبد الإسلام ما التأما
جُرحُ الشهيد وجُرحٌ بالكتاب دمي
وما بلاءُ أبي بكر بمتَّهم
بعد الجلائل في الأفعال والخِدَم
بالحزم والعزم حاط الدين في محن
أضلّت الحلم من كهل ومحتلم
وحدن بالراشد الفاروق عن رُشد
في الموت وهو يقينٌ غيرُ منبهم
يُجادل القوم مستلًا مهنّدَهُ
في أعظم الرسل قدرًا كيف لم يدم
لا تعذلوه إذا طاف الذهولُ به
مات الحبيبُ فضلَّ الصبُّ عن رَغَم

يا ربِّ صلِّ وسلّم ما أردت على
نزيل عرشك خير الرسل كلِّهم
مُحيي الليالي صلاةً لا يُقطّعها
إلا بدمع من الإشفاق مُنسجم
مُسبّحًا لك جُنحَ الليل مُحتملا
ضُرًّا من السُّهد أو ضُرًّا من الورم
رضيّةً نفسُهُ لا تشتكي سأمًا
وما مع الحُبّ إن أخلصت من سأم
وصلِّ ربّي على آلٍ له نُخَب
جعلت فيهم لواء البيت والحرم
بيضُ الوجوه ووجهُ الدهر ذو حَلَك
شُمُّ الأنوف وأنفُ الحادثات حمي
وأهد خير صلاة منك أربعةً
في الصحب صُحبتُهم مرعيّةُ الحُرَم
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم
ما هال من جلل واشتدّ من عمم
الصابرين ونفسُ الأرض واجفةٌ
الضاحكين إلى الأخطار والقُحَم
يا ربِّ هبّت شعوبٌ من منيّتها
واستيقظت أممٌ من رقدة العدم
سعدٌ ونحسٌ ومُلكٌ أنت مالكُهُ
تُديلُ من نِعَم فيه ومن نِقَم
رأى قضاؤك فينا رأي حكمته
أكرم بوجهك من قاض ومُنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومَهُ خسفًا ولا تُسم
يا ربِّ أحسنت بدء المسلمين به
فتمّم الفضل وامنح حُسن مُختتم

(من الهمزية النبوية)

[شعر أمير الشعراء أحمد شوقي]

وُلد الهُدى فالكائنات ضياءُ
وفمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ
الرُّوحُ والملأُ الملائكُ حولهُ
للدين والدنيا به بُشراءُ
والعرشُ يزهو والحظيرةُ تزدهي
والمنتهى والسدرةُ العصماءُ
وحديقةُ الفرقان ضاحكةُ الرُّبا
بالترجمان، شذيّةٌ، غنّاءُ
والوحيُ يقطرُ سلسلًا من سلسل
واللوحُ والقلمُ البديعُ رُواءُ
نُظمت أسامي الرسل فهي صحيفةٌ
في اللوح واسمُ محمّد طُغراءُ
اسمُ الجلالة في بديع حروفه
ألفٌ هنالك واسمُ طه الباءُ

يا خير من جاء الوجود تحيّةً
من مُرسلين إلى الهُدى بك جاءوا
بيت النبيين الذي لا يلتقي
إلا الحنائف فيه والحنفاءُ
خيرُ الأبوّة حازهم لك (آدمٌ)
دون الأنام، وأحرزت حوّاءُ
هم أدركوا عزَّ النبوّة وانتهت
فيها إليك العزّةُ القعساءُ
خُلقت لبيتك، وهو مخلوقٌ لها
إنّ العظائم كُفؤها العظماءُ
بك بشّر الله السماء فزُيّنت
وتضوّعت مسكًا بك الغبراءُ
وبدا مُحيّاك الذي قسماتُهُ
حقٌّ، وغُرّتُهُ هُدًى وحياءُ

وعليه من نور النبوة رونقٌ
ومن الخليل وهديه سيماءُ
أثني (المسيحُ) عليه خلفَ سمائه
وتهللت واهتزت (العذراءُ)
يومٌ يتيهُ على الزمان صباحُه
ومساؤه (بمحمد) وضاءُ
الحقُّ عالي الركن فيه، مُظفَّرٌ
في المُلك لا يعلو عليه لواءُ
ذُعرت عروشُ الظالمين فزُلزلت
وعلت على تيجانهم أصداءُ
والنارُ خاويةُ الجوانب حولَهم
خمدت ذوائبُها وغاض الماءُ
والآيُ تترى، والخوارقُ جمّةٌ
(جبريلُ) روّاحٌ بها غدّاءُ
نِعم اليتيمُ بدت مخايلُ فضله
واليتمُ رزقٌ بعضُه وذكاءُ
في المهد يُستسقى الحيا برجائه
وبقصده تُستدفعُ البأساءُ
بسوى الأمانة في الصبا والصدقِ
لم يعرفه أهلُ الصدق والأمناءُ
يا من له الأخلاقُ ما تهوى العُلا
منها وما يتعشّقُ الكبراءُ
لو لم تُقم دينًا لقامت وحدَها
دينًا تُضيءُ بنوره الآناءُ
زانتك في الخُلق العظيم شمائلٌ
يُغرى بهن ويولعُ الكرماءُ
أمّا الجمالُ فأنت شمسُ سمائه
وملاحةُ (الصدّيق) منك أياءُ
والحُسنُ من كرم الوجوه وخيرُه
ما أوتي القوّادُ والزعماءُ
فإذا سخوتَ بلغتَ بالجود المدى
وفعلتَ ما لا تفعلُ الأنواءُ

وإذا عفوتَ فقادرًا، ومُقدّرًا
لا يستهينُ بعفوك الجهلاءُ
وإذا رحمتَ فأنت أمٌّ أو أبٌ
هذان في الدنيا هُما الرُّحماءُ
وإذا غضبتَ فإنما هي غضبةٌ
في الحقّ لا ضغنٌ ولا بغضاءُ
وإذا رضيتَ فذاك في مرضاته
ورضى الكثير تحلُّمٌ ورياءُ
وإذا خطبتَ فللمنابر هِزّةٌ
تعرو النديَّ، وللقلوب بُكاءُ
وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنما
جاء الخصومَ من السماء قضاءُ
وإذا حميتَ الماءَ لم يُوردْ، ولو
أنّ القياصرَ والملوكَ ظِماءُ
وإذا أجرتَ فأنت بيتُ الله، لم
يدخل عليه المستجيرَ عداءُ
وإذا ملكتَ النفسَ قمتَ ببرّها
ولو أنّ ما ملكت يداك الشاءُ
وإذا بنيتَ فخيرُ زوجٍ عِشرةً
وإذا ابتنيتَ فدونك الآباءُ
وإذا صحبتَ رأى الوفاءَ مُجسّمًا
في بُردك الأصحابُ والخُلطاءُ
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيتَه
فجميعُ عهدك ذمّةٌ ووفاءُ
وإذا مشيتَ إلى العدا فغضنفرٌ
وإذا جريتَ فإنك النكباءُ
وتمدُّ حلمك للسفيه مُداريًا
حتى يضيقَ بعرضك السفهاءُ
في كلّ نفسٍ من سُطاك مهابةٌ
ولكلّ نفسٍ في نداك رجاءُ
والرأيُ لم يُنضَ المهنّدُ دونه
كالسيف لم تضرب به الآراءُ

يا أيها الأميُّ، حسبُك رُتبةً
في العلم أن دانت بك العلماءُ
الذِّكرُ آيةُ ربّك الكبرى التي
فيها لباغي المعجزات غَناءُ
صدرُ البيان له إذا التقت اللُّغى
وتقدّم البلغاءُ والفصحاءُ
نُسخت به التوراةُ وهي وضيئةٌ
وتخلّف الإنجيلُ وهو ذُكاءُ
لمّا تمشّى في (الحجاز) حكيمُه
فُضّت (عكاظُ) به وقام حِراءُ
أزرى بمنطق أهله وبيانهم
وحيٌ يُقصّرُ دونه البلغاءُ
حسدوا فقالوا: شاعرٌ أو ساحرٌ
ومن الحسود يكون الاستهزاءُ

ثم يقول:

دينٌ يُشيَّدُ آيةً في آيةٍ
لبناتُه السوراتُ والأضواءُ
الحقُّ فيه هو الأساسُ وكيف لا
والله جلّ جلالُه البنّاءُ
أما حديثُك في العقول فمشرعٌ
والعلمُ والحِكمُ الغوالي الماءُ
هو صِبغةُ الفرقان نفحةُ قُدسه
والسينُ من سوراته والراءُ

ويقول أيضا:

بك يا ابنَ عبد الله قامت سمحةٌ
بالحقّ من مِلل الهُدى غرّاءُ
بُنيت على التوحيد وهي حقيقةٌ
نادى بها (سقراطُ) والقدماءُ

ثم قال:

لمّا دعوتَ الناسَ لبّى عاقلٌ
وأصمّ منك الجاهلين نداءُ
أبَوا الخروجَ إليك من أوهامهم
والناسُ في أوهامهم سُجناءُ

ومن العقول جداولٌ وجلامدٌ
ومن النفوس حرائرٌ وإماءُ

ويقول الشاعر:

أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى
فالكلُّ في حقّ الحياة سواءُ
فلو أنّ إنسانًا تخيّر ملّةً
ما اختار إلا دينَك الفقراءُ
يا أيها المُسرى به شرفًا إلى
ما لا تنالُ الشمسُ والجوزاءُ
يتساءلون – وأنت أطهرُ هيكلٍ
بالروح أم بالهيكل الإسراءُ
بهما سموتَ مُطهّرين كلاهما
نورٌ، وريحانيّةٌ، وبهاءُ

إلى أن يقول في نفس المغزى:

الله هيّأ من حظيرة قُدسه
نُزُلًا لذاتك لم يجزه علاءُ
العرشُ تحتك سُدّةً وقوائمًا
ومناكبُ الروح الأمين وِطاءُ
والرسلُ دون العرش لم يؤذن لهم
حاشا لغيرك موعدٌ، ولقاءُ

ثم يصف رحمة الرسول ﷺ بقوله:

ساقي الجريح ومُطعمُ الأسرى
ومن أمنت سنابكَ خيله الأشلاءُ
إنّ الشجاعةَ في الرجال غلاظةٌ
ما لم تزنها رأفةٌ وسخاءُ

ثم نرى أمير الشعراء يقول:

الحقُّ عرضُ الله، كلُّ أبيّةٍ
بين النفوس حمًى له ووقاءُ
هل كان حولَ محمدٍ من قومه
إلا صبيٌّ واحدٌ ونساءُ
فدعا، فلبّى في القبائل
عُصبةٌ مُستضعَفون، قلائلٌ، أنضاءُ

ثم يقول:

لى فى مَديحك يا رسولَ عرائسٌ
تُيِّمْنَ فيك، وشاقَهُنَّ جلاءُ
هُنَّ الحسانُ فإنْ قَبِلْتَ تكرُّمًا
فمُهورُهُنَّ شَفاعةٌ حَسْناءُ

الى ان يقول:

ما جئتُ بابَكَ مادحًا بل داعيًا
ومن المَديح تضرُّعٌ ودُعاءُ
أدعوك عن قومي الضِّعافِ لأزمةٍ
فى مثلِها يُلقى عليك رَجاءُ
أدْرى رسولَ الله أنَّ نفوسَهُم
رَكِبَتْ هواها، والقلوبُ هَواءُ
مُتفكِّكونَ، فما تَضُمُّ نفوسَهُمْ
ثِقةٌ، ولا جَمعَ القلوبَ صَفاءُ

رقَدُوا، وَغرَّهُمُ نعيمٌ باطِلٌ
ونعيمُ قومٍ فى القيُودِ بلاءُ

ثم يقول:

ظلموا شريعتَكَ التى نِلْنا بها
ما يَنَلْ فى (رومةَ) الفُقهاءُ
مَشَت الحضارةُ فى سناها واهتدي
فى الدينِ والدنيا بها السُّعداءُ
صلَّى عليك الله ما صَحِبَ الدُّجي
حادٍ، وَحَنَّتْ بالفلا وَجْناءُ
واستقبلَ الرِّضوانَ في غُرُفاتِهم
بجِنانِ عَدْنٍ آلُكَ السُّمَحاءُ
خيرُ الوَسائلِ، من يقعْ منهم على
سببٍ إليكَ فَحَسْبيَ (الزَّهْراءُ)

شعراءٌ مسيحيُّون يمدحون النبيَّ ﷺ

ويسر الخميلة أن تقدم مفاجآتها السارة، التى من شأنها أن توحد قلوب أبناء الوطن الواحد، ونتوجه بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور محمد عمارة، صاحب الفضل فى التوجيه والإمداد بأصل المادة.

قصيدة خاتم الرسل

للشاعر السورى: جاك شماس (١)

يا خاتمَ الرسل الموشح بالهدى
ورسول نبل شامخ البنيان
ألقىَ عليكَ الوَحى طهرُ عقيدة
نبوية همرت بفيض معان
قوّضت كهف الجهل تغدق بالمنى
وتسفت شرك عبادة الأوثان

مهما أساء الغرب فى إيلامه
لم يرق هون للنبى الباني
لا يحجب الغربال نور شريعة
ويظل نورك طاهرًا روحاني
ماذا أسطر فى نبوغ (محمد)
قاد السفين بحكمة وأمان

(١) هو الشاعر جاك صبحى شماس، ولد فى الحسكة بسوريا عام ١٩٤٧، نال شهادة الليسانس فى اللغة العربية من جامعة حلب عام ١٩٧٤م، عمل مدرسًا فى المدارس السورية حتى التقاعد، فاز الشاعر بعدة جوائز فى مضمار الشعر، منها جائزة خادم الحرمين الشريفين عام ٢٠٠٢ م وجائزة نادي الطائف الأدبي عام ٢٠٠٥ م.

ومآثر الإسلام فى سفر الهدى
درب النجاة وشعلة الفرقان
أنا يا (محمد) من سلالة يعرب
أهواك دين محبة وتفان
وأذودُ عنك مولهًا ومتيمًا
حتى ولو أُجزَى بقطع لساني
أكبرت شأوك فى فصيح بلاغتى
وشغاف قلبى مهجتى وبياني
وأرتل الأشعار فى شمم الندى
دين تجلّى فى شذى الغفران
وتسامح يزهو ببرد فضيلة
وشمائل تشدو بسيب أغان
أغدقت للعرب النصارى عزة
ومكانة ترقى لشمٌ معان
وأنرت دربًا ناضرًا برسالة
مسك الرسول وخاتم الأديان
وزرعت فى قلب الرعية حكمة
شماء تنطق فى ندى الوجدان
أودعت يمنك فى حدائق مقلتى
ووشمت مجدك فى شغاف جنان
ونذرت روحى للعروبة هائمًا
بالضاد والإنجيل والقرآن
ونقشت خلق (محمد) بمشاعرى
ودرجت أرشف كوثر الرحمن
وشتلت فى دوح التآخى أحرفى
أختال زهوًا فى بنى قحطان
آخيت (فاطمة) العروبة فى دمى
وعفاف (مريم) فى فؤاد كياني

عاودت نور (محمد) بشريعة
تزهو شموخًا فى أجل بيان
رفلت مبادئه نضار رجاحة
وتعطرت بالبر والإيمان
والمجد يتبع خطوة أنى مشى
ويسيل شهدًا فى فم الأزمان
ولئن تغطرس أجنبى حاقدٌ
كفقاعة الصابون فى الفنجان
أنا (مسلم) لله أمرى فى الدنى
ومفاخر (بالمسلم) المعوان
وإذا قرأتم للرسول تحية
فلتقرءوه تحية النصراني
الله أكبر يا رسول فمر بنا
نحو الشموخ وقبلة الإيمان
ويكَحُل الأقصى بروح مجاهد
والقدس تزهو فى قلاع أمان
أستصرخ (اليرموك) فى ألق الوغى
شمخت صمودًا فى رحى الميدان
وتربعت عرش البطولة والفدى
ونمت على شفة وكل لسان
أودعت للعرب الكماة وصيتى
وغداة حتفى أذكروا عنواني
إن تاه عنوانى فإنى شاعر
عشق النخيل وسورة الإنسان
مهما مدحتك يا(رسول) فإنكم
فوق المديح وفوق كل بياني
لن تفلح الدنيا بكسر عقيدة
والدين يرفل ببردة القرآن

قالوا تحب العرب

الشاعر محبوب الخورى الشرتونى

وهناك شاعر لبنانى (محبوب الخورى الشرتوني) نظم قصيدته (قالوا تحب العرب) وقد ضمنها اعتزازه بالعربية ، وفخره بمحمد ﷺ .

قالوا: تحبُّ العُرْبَ؟ قلتُ: أحبُّهم
يقضي الجوارُ عليَّ والأرحامُ
قالوا: لقد بخلوا عليك؟ أجبتُهم:
أهلي وإن بخلوا عليَّ كرامُ
قالوا: الديانةُ؟! قلتُ: جيلٌ زائلٌ
وتزولُ معه حزازةٌ وخصامُ
ومحمدٌ بطلُ البريةِ كلِّها
هو للأعاربِ أجمعينَ إمامُ

ويقول أيضا:

يا سيدى يا رسول الله معذرةً إذا كبا فيك تبياني وتعبيري
ماذا أوفيك من حق وتكرمة وأنت تعلو على ظنى وتقديري؟!
وأنت ربُّ الأداء الفذ فى لغة تشأو اللُّغى حسنَ تنميق وتصوير

وهذه قطعة شعرية للشاعر المهجرى / رياض المعلوف (٢) [١٩١٢ – ٢٠٠٢] بعنوان :

وحِّد الله

وحِّد الله فالمؤذنُ وحَّدْ
ويذكر النبى فى العيد أنشدْ
يا رسولَ الله أنتَ وعيسى
خيرُ من يُصطفى ويُرجى ويُقصدْ
عيدُكَ اليومَ غبطةٌ وابتهاجٌ
لجميع الأعرابِ والله يشهدْ
إيه قرآنكَ الكريمُ كتابٌ
رائعٌ كلُّه ومن دُرٍّ مُنضَّدْ
عبقرٌ كلُّهُ وقولٌ كريمٌ
كلما طال عُمرُهُ.. يتجدَّدْ
وكفى العُربَ فخرهم بانتسابٍ
لنبيٍّ هو النبيُّ مُحمَّدْ

وهذه قطعة للشاعر اللبنانى / شبلى ملاط [١٨٧٥م – ١٩٦١م] يقول :

من للزمانِ بمثلِ فضلِ مُحمَّدِ
وعدالةٍ كعدالةِ الخَطَّابِ
رفعَ الرسولُ عمادَ أُمةِ يَعْرُبٍ
وأمدَّها بالآلِ والأصحابِ
غشتِ الفتوحُ وصفَّقتْ راياتُها
في الشرقِ فوقَ أباطحٍ وهضابِ

(٢) رياض بن عيسى إسكندر المعلوف، ولد في مدينة (زحلة) (شرقى لبنان)، وفيها توفي ينتمي إلى أسرة المعلوف الشهيرة باهتمامها بالثقافة والأدب، التي قدمت للشعر العربي عددًا غير قليل من الشعراء، عاش في لبنان، ومصر، وسوريا، وفرنسا، وأمريكا، والبرازيل.

قصيدة: أنوار النبوة

للشاعر المهجرى : إلياس فرحات [١٨٩٣ – ١٩٧٦] (٣)

غمرَ الأرضَ بأنوارِ النبوَّهْ
كوكبٌ لم تُدركِ الشمسُ علوَّهْ
لم يكدْ يلمعُ حتى أصبحت
ترقُبُ الدنيا ومن فيها دُنوَّهْ
بينما الكونُ ظلامٌ دامسٌ
فُتحت في مكةَ للنورِ كُوَّهْ
وطمى الإسلامُ بحرًا ذاخرًا
بأواذيِّ المعالي والفتوَّهْ
إنَّ في الإسلامِ للعربِ عُلا
إن في الإسلامِ للناسِ أخوَّهْ
فادرسِ الإسلامَ يا جاهلَهُ
تلقَ بطشَ اللهِ فيه وحُنُوَّهْ
يارسولَ اللهِ إنا أُمَّةٌ
زجَّها التضليلُ في أعمقِ هُوَّهْ
ذلكَ الجهلُ الذي حاربتَهُ
لم يزلْ يظهرُ في الشرقِ عُتوَّهْ

ومن أشعار الشاعر اللبنانى حليم دموس [١٨٨٨ – ١٩٥٧] (٤)

أمحمَّدٌ والمجدُ بعضُ صفاتِهِ
مجَّدتَ في تعليمكَ الأديانا
بُعثَ الجهادُ لدُن بُعثتَ وجُرِّدتْ
أسيافُ صحبكَ تفتحُ البلدانا
ورفعتَ ذكرَ اللهِ في أُمِّيةٍ
وثنيةٍ ونفحتَها الإيمانا
مرحى لأُمِّيٍّ يُعلِّمُ سِفْرَهُ
نُبغاءَ يعربَ حكمةً وبيانا
إني مسيحيٌّ أُحبُّ مُحمَّدًا
وأراهُ في فلكِ العُلا عنوانا

ومن قصيدة أخرى يقول الشاعر :

تغنَّي عروسَ الشعرِ باسمِ مُحمَّدِ
وهُزِّي بَني الدُّنيا بسيرةِ أحمدِ
لعمرُكَ ما الأديانُ إلا توافقٌ
ترى اللهَ منها مُقلةُ المُتعبِّدِ
فألمحُ في القُرآنِ عيسى ابنَ مريمٍ
وأشهدُ في الإنجيلِ روحَ مُحمَّدِ

(٣) ولد في قرية كفر شيما اللبنانية، وهو ابن عم الشاعر نجيب محمد بديع فرحات، وكان مهاجرا للبرازيل في أمريكا الجنوبية، وكان متزوجا من السيدة جوليا بشارة جبران، التي تمت بصلة قرابة للشاعر جبران خليل جبران، ورزق منها بأربعة أولاد هم: ليلي، وخالد، وعصام، وسعاد، وقد عرف شعره بنزعته الوطنية والقومية، وتتميز شخصية الشاعر إلياس فرحات بالذكاء والتمرد على المجتمع وتقاليده، والطائفية ونعرتها.

(٤) وهو حليم بن إبراهيم جريس دموس، ولد بمدينة زحلة شرقي لبنان وتوفي في بيروت، ارتحل إلى البرازيل ثلاثة أعوام، عاد بعدها إلى بيروت، زار فلسطين عدة مرات والعراق ومصر، وكانت قد استهوته الدعوة (الداهشية) المنسوبة إلى سليم موسى العشي المولود في بيت لحم عام ١٩٠٩، وبسبب ممارساته السحرية الخارقة أطلق عليه لقب (الدكتور داهش) وهي تدعو إلى الإيمان بكل الديانات السماوية ونبذ الطقوس الشكلية والتركيز على الصفاء الروحي، فأيدها ومات على مذهبها، وقد عاصر دموس عصر نهضة الشعر العربي شوقي ومطران وحافظ والأخطل الصغير وشبلي الملاط، وكان شعره يزاوج بين هدفين: الأول أن يؤكد ذاته الفنية مستخدما أساليب الشعراء المعاصرين له، والثاني أن يتجاوب مع بشائر التجديد والتحديث التي تستقل بين الحين والآخر: من الرثاء إلى الغزل، ومن شعر الوطنية إلى وصف الحياة الاجتماعية، في سباق معاكس ليقظة الروح، ولقب نفسه بـ (حسان) تيمنا باسم شاعر الرسول ﷺ.

(صحراء يثرب)

للشاعر جورج صيدح [١٨٩٣ - ١٩٧٨] (٥)

شرفا حراء الغار هل
كحراء في الدنيا مكان
أخذ الشهادة من شفا
ه المصطفى أخذ البنان
في صدره ضم النجي
وصان معجزة الزمان
وتنزلت أم الكتا
ب على اليتيم مع اللبان
فهدى الأعارب ذلك الـ
أمي بالنور الحسان
أضحوا وفي الدنيا لهم
شأن وعند الله شان
يا صاحبي بأي آلاء
النبي تكذبان ؟
يا من سريت على البرا
ق وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجد
د ليلة المعراج.. آن
عرج على القدس الشر
يف فيه أقداس تهان

ماذا دهاهم ؟ هل عجز
ك فاصبح الغازي جبان؟
أنت الذي علمتهم
دفع المهانة بالسنان
ونذرت للشهداء جنا
ت وخيرات حسان
لا يعجز الله الذي
إن قال كن للشيء كان
أمر الرمال فأطلعت
صحراء يثرب أقحوان
للرسل آيات وهذا
الطفل آيته بيان
الروح يملي ما يترجمه
ونعم الترجمان
بالضاد أذن ربه
فتخلدت لغة الأذان
ياصاحبي بأي
آلاء النبي تكذبان

ويتشرف الشاعر القروي [رشيد سليم الخوري] وهو مسيحي من شعراء المهجر، بإرسال تحية عطرة وسلام صادق إلى رسول الله ﷺ :

عيد البرية عيد المولد النبوي
في المشرقين له، والمغربين دوي
عيد النبي ابن عبدالله من طلعت
شمس الهداية من قرآنه العلوي
بدا من القفر نورا للورى وهدي
يا للتمدن عم الكون من بدوي

يا فاتح الأرض ميدانا لدولته
صارت بلادك ميدانا لكل قوي
يا قوم هذا مسيحي يذكركم
لا ينهض الشرق إلا حبنا الأخوي
فإن ذكرتم رسول الله تكرمة
فبلغوه سلام الشاعر القروي

(٥) أحد مؤسسي الرابطة الأدبية في عاصمة الأرجنتين، ولد في (زقاق الصواف) بدمشق سنة ١٨٩٣، كان والده قاضيا في محكمة استئناف الحقوق، تلقى الشاعر دراسته الأولى في حارة الكنيسة المريمية عام ١٨٩٩ لمدة سنة واحدة، ثم انتقل إلى مدرسة الآسية وأنهى المرحلة الابتدائية فيها عام ١٩٠٩، ثم تابع دراسته في مدرسة عينطورة للآباء اللعازريين في لبنان ليتعلم اللغة الفرنسية فدرس فيها لمدة عامين ونال شهادتها الممتازة عام ١٩١١م انتقل إلى القاهرة عام ١٩١٢ وبقي فيها ثلاث عشرة سنة حتى عام ١٩٢٥ بعد عامين، غادر مصر إلى أوروبا عام ١٩٢٥ ومارس الكتابة بالفرنسية وتعرف على فتاة فرنسية في باريس وتزوجها في آذار ١٩٢٧ وفي العام نفسه قصد (كراكاس) عاصمة فنزويلا وأنشأ مجلة (الأرزة) الشهرية باللغة الإسبانية وكان هدفه من إصدارها نشر الأدب العربي للجالية العربية، وكان يطبعها ويوزعها بغير مقابل !

ويقول الشاعر السوري وصفي القرنفلي ١٩١١ - ١٩٧٢ (٦)

قد يقولون : شاعرٌ نصراني يرسل الحب في كذاب البيان
يتغنى هوى الرسول.. ويهذي بانبثاق الهدى من القرآن
ينتحي الجبهة القوية يحدوها رياءً والشعر (لا وجداني)
كذبوا - والرسول - لم يجرِ يومًا بخلاف الذي أكن لساني

النبي العربي الكريم

للشاعر السوري : إلياس قنصل (٧)

ماذا يهمُّ طوارق الحدثان
خُلق الجهادُ لكل ذي وجدانِ
الحقُّ شرعُك فامضِ فيه مؤملاً
ما آب غيرُ الكفر بالخُذلانِ
عميتْ نفوسُ الناس من أهوائها
فأعدْ جمالَ النور للعميانِ
لا فرقَ بين مُلفَّف بضلاله
ومُلفَّف بنواصع الأكفانِ
إني ذكرتُك يا محمدُ والعدى
يتألبون تألبَ الذؤبانِ
ضربت على أبصارهم وقلوبهم
ليلَ الفساد أصابعُ الشيطانِ
إني ذكرتُك يا محمدُ مصغيا
لحديث غمٍّ ناصحٍ حيرانِ

يُغريك بالذهب الوفير وكم عنت
للفلس من مُهج ومن أذهانِ
إن كنت تبغي أن تكون مسوَّدا
جاءت إليك سيادةُ الأقرانِ
ما المالُ حين تقيسه برسالة
عُلوية ؟ ما المجدُ ؟ ما القمران ؟
مثلٌ من الخُلق الجليل تركتَه
درسا لكل مُناضل مُتفانِ
يا من يُثيرُ حماستي بكماله
عُذرا إذا شاهدتَ ضعف لساني
هيَ باقةٌ تُهدى إليك زهورها
من خير ما يزهو به بُستاني

(٦) وصفي بن كامل بن إسطفان بن نوفل بن رفول، ولد في مدينة حمص (سورية)، وتوفي فيها قضى حياته في سورية ولبنان درس في مدرسة الروم الأرثوذكس حتى وصل للصف الثاني عشر ثم تركها عام ١٩٢٨، والتحق بمدرسة المساحة حتى تخرج فيها طبوغرافيا، عمل موظفا طبوغرافيا في مؤسسة المشاريع الكبرى حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٦٤ بعد عجزه التام عن العمل كان له نشاط سياسي وأدبي من خلال مجلسه الأدبي في مقهى الروضة في حمص، أما ثقافته الأدبية فقد حصلها بجهد ذاتي وتعلق زائد بمظاهرها.

(٧) ولد الشاعر إلياس قنصل في بلدة يبرود بسوريا عام ١٩١٤، هاجر عام ١٩٢٤ إلى البرازيل ثم انتقل إلى الأرجنتين، عمل في المهجر في الصحافة وتولى رئاسة تحرير الجريدة السورية - اللبنانية، من دواوينه : على مذبح الوطنية، السهام، ألحان الغروب ١٩٧٨

رحمة للعالمين !!



لفضيلة الشيخ: معوض عوض إبراهيم

تسعد الحياة، وينعم بال الناس بذكريات نبى الإنسانية ورحمة الله للبشرية بأسرها سيدنا محمد ﷺ وذكرياته صلوات الله عليه لا تتحدد بمولده وذكرى اصطفاء الله له وإرساله رحمة للعالمين، وهجرته من أم القرى إلى المدينة المنورة بعد الإسراء والمعراج، فذكرياته ﷺ نطالعها فى كل آن وكل زمان ومكان، فهو ﷺ رحمة الله العامة لكل ما خلق ومن خلق، وجل الله الذى يقول:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سبأ: ٢٨)

وقوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

إنه ﷺ رحمة الله للجن والإنس والملائكة ورحمته ﷺ، ولقد ذكر الشيخ العلامة عبدالله سراج الدين الحسينى رحمه الله فى كتابه الماتع «سيدنا محمد رسول الله ﷺ، شمائله الحميدة، خصاله المجيدة»(١) ما يؤكد هذا المعنى فقال رضى الله عنه: كان ﷺ يوصى بالرحمة بالحيوان، وينهى صاحبه أن يجيعه أو يؤذيه ويتعبه، بإدامة الحمل عليه أو إثقاله أو يحسه بما فيه نوع من التعذيب له، واستدل رحمه الله بمجموعة من الأحاديث منها:

ما رواه أبو دادود وابن خزيمة فى صحيحه عن سهل بن الحنظلية رضى الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه -أي: ضمر من شدة الجوع- فقال ﷺ: «اتقوا الله فى هذه البهائم، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة».. ومنها ما جاء فى مسند الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله منه»(٢) أ.هـ

وهو ﷺ يقول فى الحديث الذى رواه ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» رواه البخارى وغيره.

وسيدنا رسول الله ﷺ بلغ الناس رسالة ربه، فما من ولى أمر ولا قاض بين الخصوم ولا طبيب أو مهندس أو مدرس أو طالب علم أو إنسان فى أى موقع من مواقع المجتمع إلا

(١) سيدنا محمد رسول الله ﷺ - مكتبة الفلاح - حلب - بتصرف يسير.

(٢) قال الشيخ عبدالله سراج الدين في كتابه المذكور: وعزاه في الجامع الصغير إلى المسند وأبي يعلي والطبراني ومستدرك الحاكم رامزًا لصحته.

وهو يجد رسول الله بالقرآن، وكل ما علم الله تعالى مصطفاه يهدى للتى هى أقوم، فلا يرى إلا الحق ولا يتكلم إلا بصدق ولا يخفق قلبه إلا بالأمانة، ولا يمد يده إلا بما ينفع، ولا يخطو خطوة على أديم الأرض إلا وهو يرى النبى ﷺ معطيًا آخذًا مرشدًا بشيرًا لمن آمن ونذيرًا لمن أضله هواه ومضى فى الحياة بغير هدى الله، ألسنا نقرأ قول الله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

ويوم كنا نأخذ أنفسنا بمثل قول الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

كنا أعز الناس يهابهم الأعداء ويحسبون حسابهم وإن بعدت الديار وشط المزار لأن رسول الله ﷺ هو حبيب مولاه الذى يقول فيه:

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾

(الأحزاب: ٦)

ويوم قال عمر رضوان الله عليه: يا رسول الله إنى أحبك أكثر من كل شيء إلا نفسى فقال له الرءوف الرحيم «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك» وما قال عمر ذلك مجرد مقال ولكنها الحقيقة التى كانت تنمو بين حنايا الصحابة وأضالعهم كما ينمو النبات، وهذا أبو بكر فى حادث الهجرة يتقدم النبى تارة ويمشى خلفه تارة حتى قال له الرسول ﷺ: «ما الذى يدعوك إلى هذا يا أبا بكر فقال: أخاف طلب قريش فأمشى خلفك فداء لك وأخشى الرصد فأتقدم عليك أفتديك فأنا فرد وسلامتك سلامة للعامة والخاصة»

ويوم جاء جبريل النبى ﷺ يقول له: «إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك أتدرى لم رفعت ذكرك بعد أن نزل قول الله تعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

(الشرح: ٤)

فقال ﷺ: الله أعلم، فقال جبريل: إنه تعالى يقول لك: إننى لا أذكر إلا ذكرت معي».

فالرسول ﷺ يذكر مع ربه تبارك وتعالى فى الأذان والإقامة والصلاة وفى كل أمر صالح، ورضى الله عن حسان بن ثابت فقد قال:

وشق له من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد قالوا يوما لابن الفارض: نراك أكثرت فى شوقك لله وتمجيدا لعظمته ولكننا لم نر لك قولا عن رسول الله ﷺ فقال عن فوره:

أرى كل مدح فى النبى مقصرا
وإن أسهم المثنى عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذى هو أهله
فما مقدار ما يمدح الورى

ورحم الله الذى قال:

أنا ما مدحت محمدا بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمد

ﷺ على البشير النذير السراج المنير وعلى آله وصحبه ومن اتبع سبيله واهتدى بهداه حتى نلقى الله.

أخ كريم وابن أخ كريم !!

أ. د. محمد فتحي فرج
كلية العلوم - جامعة المنوفية

إن من أحب إنسانا أكثر من ذكره، وعظَّم من قدره، وتناوله في كل مناسبة بالحديث، فما بالكم برسول الله i ولا نجد مناسبة للتعبير عنه ﷺ أفضل من هذه الأيام، التي تَشْرُفُ بذكرى ميلاده الطيِّب، الذي اهتز له عرش كسري، وانطفأت أضواء إيوانه ونيرانه المجوسية،واندحرت الشياطين، وفرحت بمولده الكائنات.

وإن إظهار الفرح بهذه الذكري، والتعبير عنه في حدود شرع الله تعالي، بمُدارسَة القرآن الذي نزل على قلبه، واتباع سنته، وتَرَسُّم خُطى مَسيرته، والاطلاع على دقائق سِيرتِه، والتوسعة على الأهل والفقراء فيها، من الأعمال الجليلة التي تحظى بالقبول عند الله إن شاء الله تعالي، لاسيما وأنه i كان يصوم يوم الاثنين، فلما سُئل عن ذلك، قال: «ذاك يوم ولِدتُ فيه».

وقد حالف التوفيق أستاذنا، عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، حينما عبَّر بقلمه الرشيق، وصوته العذب، عما استقر في الوجدان العربي، منذ أن نزل القرآن الكريم على قلب رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله -صلوات ربي وسلامه عليه- وحتى الآن، من أن العربية تأتي على ثلاثة أنماط: شعر ونثر وقرآن.

وقد استلهم النبي ﷺ بلاغته من بلاغة القرآن الكريم، الذي تربى عليه. فمثلما ترجمه سلوكا حسنا، فإنه تأثر به أيما تأثير، في تعبيره وفي حديثه. أليس هو القائل ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تاديبي» ؟

ويشمل الأدب- كما يقولون - كل رياضة محمودة، يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، وهذه الرياضة كما تكون بالفعل، وحسن النظر، والمحاكاة، تكون بمزاولة الأقوال الحكيمة التي تضمنتها لغة أيَّة أمة.

ومن حُسن التأديب حسن البيان، وحسن التعبير، وحسن ملاءمته للظروف التي يقال فيها، وهي غاية البلاغة التي عَرَّفها القدماء «بمراعاة مقتضى الحال». وسوف نركز في هذا المقال على نماذج من بلاغته ﷺ التي بلغت المقام الأسمى في حسن التعبير، وحسن المعنى في وقت معا، مع بقاء حديثه صالحا لكل مكان وكل زمان؛ وفي الوقت ذاته فنحن مأمورون باتباع ما جاء في حديثه ﷺ من أوامر ونواه، لقول الله تعالي:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

«الحشر: ٧»

وقوله عز من قائل:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(النساء: ٨٠)

نماذج من بلاغته ﷺ:

يقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرا»، ويفسر ابن المعتز البيان بقوله: ترجمان القلوب وصيقل العقول. أما حده فهو كما ذكر الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعني، وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يُقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. وقيل: إن البلاغة هي وضوح الدلالة وحسن الإشارة. أما الكندي فيقول: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ، كثير المعاني، وأضاف إليهما عمرو بن العاص -رضي الله عنه: حسن البديهة، وقد جمع الرسول - ﷺ - بين كل هذه الصفات، فوصف نفسه بقوله: «أوتيتُ جوامعَ الكلم».

ومما رُوي عنه ﷺ ونحتاج لمثله في هذه الأيام، بل وفي كل الأزمان، من استعمال الأخلاق القويمة، والأفعال الكريمة، قوله: «من لم يقبل عذرا من متنصل صادقا كان أو كاذبا لم يرد عليَّ الحوض»، وقال في آخر وصيته: «اتقوا الله في الضعيفين»

وانظر أخي القارئ معي إلى هذا الحديث النبوي الشريف، الذي يصف العلاج لداءٍ عضال، أصاب الكثيرين ممن يصفونهم خطأ «بالصفوة»، ولكنهم في الواقع من مُشعلي الفتن و«صُنَّاع الجفرة»، أولئك الذين يصطنعون الجدل العقيم العنيف، والمراء المُر السخيف. فقد قال ﷺ -عمن يخالفهم هذا السلوك المعيب: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقا».

وكَلَّمته ﷺ جاريةٌ في السبي، فقال لها: «من أنت؟»، قالت: أنا بنت الرجل الجواد حاتم»، فقال النبي ﷺ: «ارحموا عزيزا ذلّ، ارحموا غنيا افتقر، ارحموا عالما ضاع بين جهال».

وقال النبي ﷺ في الحرص على مظهر المؤمن: «سرعة المشي تُذهِبُ بهاء المؤمن».

ومن كلماته المضيئة ﷺ التي تُكتبُ بماء الذهب، وتعيها العقول الحكيمة، وتخشع لجلالها القلوب الحية، هذه الكلمات الخالدة:

- ففي الحث على البذل والعطاء ومدحهما يقول: «اليد العليا خير من اليد السفلي».

- وفي الحض على التعاون يقول: «يد الله مع الجماعة».

ـ وفى نبذ الأمور المشكوك فيها، والحرص على تجنبها إبراء للذمة، وإظهارا لحُسْن النية، يقول عليه الصلاة والسلام: «دَعْ ما يريبُك يجعلك شاكا فيه لست على بينة من أمرك إلى ما لا يريبك».

ـ وفى بيان المساواة بين بنى البشر، يقول ﷺ: «الناس كلهم سواسية كأسنان المشط». ولاحظ هنا التعبير بلفظ «الناس»، للدلالة على كل الناس، من جميع الأديان والأجناس.

ـ وقوله فى تقويم الأعمال ـ صغرت أم كبرت ـ بما ترتكز عليه من نوايا وأهداف: «إنما الأعمال بالنيات».

ـ وقوله ـ ﷺ ـ يخاطب أحبابه الأنصار، مُقدرا ما قدَّموه من كريم الفعال، مادحا إياهم بما انطبعوا عليه من القناعة وسُرعة النجدة، فى ألفاظ قليلة، لكنها بالغة الدلالة: «إنكم لتقلُّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع»، أي: عند الاستصراخ للاستنجاد: بمعنى طلب النجدة.

ـ وفى الحث على حسن الخلق، والتواضع، والتآلف، ونبذ الثرثرة والتفاصح (أي ادعاء الفصاحة وتكلفها)، يقول: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، المُوطئون أكنافا (السهلة أخلاقهم) الذين يألفون ويُؤلفون، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون».

من عجائب تمثيله ﷺ

من عجائب تمثيله وروائع كلمه ﷺ ما ذكره فى الحث على التحرك الإيجابى، لدرء المفاسد، والحيلولة دون وقوعها، حتى لا تحدث الفتن، فيكتوى بنيرانها الناس جميعا، وفى هذا يقول بهذا التمثيل الرائع الذى يُقرِّبُ لنا المشهد، ويفهمنا بجميع أبعاده: «إن قوما ركبوا فى سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكانى أصنع فيه ما شئتُ؛ فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا».

وصاياه ﷺ لابن عباس وللأمة

ومن وصاياه وتوجيهاته لابن عمه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقد كان غلاما حينذاك، ما يتردد صداه حتى يومنا هذا، ليكون أيضا نُصحا للأمة كلها: فتيانها وشبابها وشيوخها أيضا، حتى يستيقظ ضمير الأمة، وتصبح عزيزة كريمة حُرة، لا تخشى فى الله لومة لائم؛ فقد روى أحمد والترمذى ـ رضى الله عنهما ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

ضرب المثل فى التواضع والتسامح

كان رسول الله ـ ﷺ ـ مضرب المثل فى حسن الخلق، وكان يضرب المثل للناس بأفعاله وأقواله فى التواضع والتسامح والحلم، فكان يأكل على الأرض ويجلس عليها، ويجالس المساكين، ويمشى فى الأسواق، ويتوسد يده الشريفة، ويقصُّ من نفسه، ولم يُرَ قط ضاحكا ملء فيه (أي فمه)، وكان يقول ـ ﷺ: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد، ولو دُعيت إلى ذراع لأكلت، ولو أهدى إليَّ كُراع لقبلت».

هذا، ولم يأكل ـ ﷺ ـ قط وحده، ولا ضرب عبده، ولا ضرب أحدا بيده الشريفة إلا فى سبيل الله.

أخ كريم وابن أخ كريم!!

يذكر الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين»: «ولو لم يكن من كرم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه يوم فتح مكة، لقد كان ذلك من أكمل الكمال؛ وذلك أنه حين دخل مكة عَنْوة وقد قتلوا أعمامه وبنى أعمامه وأولياءه وقادة أنصاره، بعد أن حصروه فى الشِّعاب وعذبوا أصحابه بأنواع العذاب، وجرحوه فى بدنه، وآذوه فى نفسه، وسفهوا عليه، وأجمعوا على كيده، فلما دخلها قام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ماذا تظنون أنى فاعل بكم»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «أقول كما قال أخى يوسف:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

(يوسف: ٩٢)

كلمات من نور

ومن كلماته الوضاءة الشريفة، التى جرت مجرى الأمثال:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وقوله ـ ﷺ: «الوحدة خير من جليس السوء».

وقوله ـ ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم».

وقوله ﷺ: «كل ميسَّرٌ لما خلق له».

وقوله ـ ﷺ: «استعينوا على الحوائج بالكتمان».

وقوله ـ ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما».

وقوله ـ ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان».

وقوله ـ ﷺ: «من غشنا فليس منا».

وقوله ـ ﷺ: «سيد القوم خادمهم».

وقوله ﷺ: «إياك وما يُعتذرُ منه».

هذا، ومن أروع خطبه ﷺ ـ خطبته فى حجة الوداع، والتى أعلن فيها للعالم حقوق الإنسان، قبل أن يعرفها ويعلنها العالم المتحضر بأربعة عشر قرنا من الزمان! ولعل لنا معها وقفة أخرى إن قدر الله لنا البقاء. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتبة الأزهر

إعداد: محمد شعبان

تسعي «الأزهر» عبر هذا الباب إلي التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتي مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.

محمد
كارين ارمسترونج

ترصد كارين أرمسترونج الراهبة والكاتبة البريطانية المتخصصة في تاريخ الأديان تاريخ عداء الغرب للرسول ﷺ وللإسلام في كتابها «محمد» الصادر عن دار سطور بترجمة لـ د. محمد عناني ود. فاطمة نصر. والمؤلفة كما يشير المترجمان بحق «تبين للغربيين أن كراهيتهم وعداءهم لمحمد والإسلام والمسلمين ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية ومن تسامح فكري وعقائدي» وتعرض أرمسترونج لحياة الرسول ﷺ كما أوردتها كتب السيرة مؤكدة أن «الإله الذي دعا محمد لعبادته هو الإله الذي عبده إبراهيم ودعا إليه موسي وعيسي» نقطة أخري تقف عندها المؤلفة في الفصل الأول «العدو محمد» حيث تكشف أن جذور سب الرسول ﷺ تعود إلي عام ٨٥٠ م حين قام راهب في قرطبة يدعي بيرفكتوس بإطلاق وابل من الشتائم علي الرسول ثم قدم للمحاكمة وبرأه القاضي المسلم لأنه رأي أن فعلته كانت استفزازا من المسلمين لكن الراهب عاد مكررا نفس الشتائم فحكم عليه بالإعدام -لانتهاك القانون- فقام قساوسة آخرون بتكرار نفس الأمر فنالوا نفس مصير الراهب وكما تشير أرمسترونج أطلق علي هؤلاء اسم الشهداء مؤكدة أن هذا الميراث الاستفزازي العدواني تجاه رسول الإسلام استمر في الغرب حتي الآن.

عباس محمود العقاد



عبقرية محمد



«إن عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسمي من التعظيم والإعجاب والثناء» بهذه العبارة مهد عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد «لعبقرية محمد» وهو الكتاب الصادر أخيرا في طبعة جديدة ومنقحة عن دار نهضة مصر. ويمضي المؤلف شارحا منهجه «حسبنا من عبقرية محمد أن نقيم البرهان علي أن محمدا عظيم في كل ميزان: عظيم في ميزان الدين وعظيم في ميزان العلم وعظيم في ميزان الشعور وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية إلا أن يرين العنت علي الطبائع فتنحرف عن السواء وهي خاسرة بانحرافها ولا خسارة علي السواء» ثم يعدد العقاد عبقرية الرسول في ميادين الدعوة والسياسة والإدارة والعبادة والفصاحة والزوجية والأبوة وفي المجال العسكري.

معجزات
محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تصنيف
محمود توفيق الحكيم



مكتبة مدبولي

في كتابه «معجزات محمد رسول الله ﷺ» الصادر عن مكتبة مدبولي يوثق محمود توفيق الحكيم أربعين معجزة للرسول ﷺ من مختلف مصادر السنة النبوية ويشير المؤلف في مقدمته أن القرآن الكريم هو المعجزة العظمي الخالدة أبد الآبدين ودهر الداهرين موضحا أن إعجاز القرآن لا ينحصر في فصاحة لغته وترتيب آياته وأسلوبه وحسن نظمه مع كونه علي خلاف النظم والنثر فحسب وإنما ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات مما وقع من أخبار الأمم السابقة مما كان لا يعلمه إلا أفراد أهل الكتاب ولا يعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم ولا أخذ عنهم. المعجزات الأربعون التي يسجلها الكتاب تتنوع ما بين مادية ومعنوية في الماضي والحاضر والمستقبل

حياة محمد
د. محمد حسين هيكل



منطلقا من القرآن الكريم -وحده- أعاد الأديب والمفكر الراحل د. محمد حسين هيكل قراءة السيرة النبوية في كتابه الرائد والرائع «حياة محمد» معللا ذلك «لقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم فإن فيه إشارة إلي كل حادث من حياة النبي العربي يتخذها الباحث منارا يهتدي به في بحثه ويمحص علي ضيائه ما ورد في السنة وما جاء في كتب السيرة المختلفة». علي أن هذه القراءة تعتمد الطريقة العلمية الحديثة التي تقوم علي البحث والتمحيص والاستنباط القائم علي مقدمات علمية وذلك بهدف تنقية السيرة النبوية مما لحق بها من أكاذيب وأباطيل دسها مستشرقون ومبشرون حاقدون من أجل تشويه حقيقة سيرة الرسول ﷺ. المؤلف لم يقف بالأمر عند مراجعة كتب السيرة، بل اعتبر هذا العمل بداية لجهود التجديد الإسلامي وبذرة لهداية الإنسانية إلي طريق الحضارة الجديدة التي تتلمسها



عبر رحلة ممتدة في ٢٣ فصلا يقدم «مات ريدلي» في كتابه «الجينوم» الصادر عن «كلمات عربية» قصة حياة الجنس البشري من خلال قراءة الجينات الموجودة في الـ٢٣ كروموسوم بكل خلية في جسم الإنسان. يشرح المؤلف خطة عمله في الكتاب بقوله: «وضعت قائمة بالكروموسومات الـ٢٣ وإلي جوار كل منها بدأت في ذكر موضوعات عن الطبيعة البشرية وتدريجيا وبعناية تامة شرعت في العثور علي الجينات التي ترمز إلي قصتي» ويوضح ريدلي في مقدمة الكتاب أن «الجسم البشري يحتوي بالتقريب ١٠٠ تريليون -مليون مليون- خلية وداخل كل خلية توجد كرة صغيرة سوداء تسمي النواة وداخل كل نواة توجد مجموعتان كاملتان من الجينات البشرية -يطلق علي هذه الجينات اسم الجينوم- يرث الإنسان إحدي مجموعتي الجينات من الأب ويرث الثانية من الأم» ويكمل المؤلف: «من الناحية النظرية تضم كل مجموعة الجينات نفسها التي يتراوح عددها من ٦٠ ألف إلي ٨٠ ألف جين موزعة علي الكروموسومات الثلاثة والعشرين نفسها».

طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حب النبي - ﷺ -

من يدعي حب النبي ولم يفد ... من هديه فسفاهة وهراء
الحب أول شرطه وفروضه ... إن كان صدقا طاعة ووفاء

حقا

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

حب الوطن

قدم سعد بن ضمضم على الحسن بن سهل، فأنشده قصيدة يمدحه فيها، ويصف سوء حاله بالبادية، ويطلب منه المساعدة، فقال له الحسن: سل ماشئت، وتمن ما أحببت، فلو خرجت إليك ملكي كله ما كافأتك!!

فقال: تشترى لي غنيمات ثم تردني إلى البادية.

فقال الحسن: تحن إلى مكان فيه الفقر والفاقة، والذل والهوان.

فقال: الوطن، الوطن!! ثم أنشده:

بلادي وإن جارت علي عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام

فاشترى له ألف شاة، وأعطاه عشرين ألف درهم، ورده إلى وطنه.

منهج الإصلاح

لما عين عمر بن العزيز عين ناقدا يلازمه، ومنهجه في الإصلاح كان:

- إن قلت لأخيك مواجهة.. فقد أوحشته.
- وإن قلت لغيره.. فقد اغتبته.
- وإن قلت متحدثا.. فقد خنته.

فالأحسن: أن تشغل الإنسان عيوبه.. ويسترك الآخرون

إن تزوجوه.. فالحمد لله

خطب بلال لأخيه امرأة من بني «ليث» من قريش، فقال: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالين فهدانا الله، وفقيرين فأغنانا الله، وأنا أخطب لأخي خالد فلانة، فإن تزوجوه فالحمد لله، وإن تردوه فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: هو بلال، وليس مثله يدفع، فزوجوا أخاه، فلما انصرفوا قال خالد لبلال، يغفر الله لك ألا ذكرت سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ!

قال بلال: مه، صدقت فأنكحك الصدق.

الحلم على خمسة أوجه

١- حلم غرزي: وهو هبة من الله - عز وجل - للعبد، يعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه.

٢- حلم تحالم: به يكظم غيظه رجاء الثواب، وفي قلبه الكراهية.

٣- حلم كبر: لا يرى المسيء أهلا لأن يجاريه.

٤- حلم مذموم: رياء وسمعة، وهو حاقد.

٥- حلم مهانة وذل

ثلاثة ورابعهم

يقول عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما: ثلاثة لا أكافئهم:

- رجل بدأني بالسلام.
- ورجل وسع لي في المجلس.
- ورجل اغبرت قدماه في المشي إلي إرادة التسليم علي.
- أما الرابع، فلا يكافئه عني إلا الله - عز وجل!

قيل له: ومن هو؟

قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلا لحاجته فأنزلها لي.

قالوا..

- لا شيء يشرف المرأة مثل صبرها.
- ولا شيء يشينها مثل صبر زوجها عليها.
- أصعب شيء على المرأة أن تكتم سرا.
- يختبر الذهب بالنار، وتختبر المرأة بالذهب.
- ويختبر الرجل بالمرأة.
- ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ، فهذا سهل ميسر حتى للحمقى، ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعده.

الويل

تحدث «ابن الجوزي» عن رجل اسمه «بزية» وكان قبيح الصورة، فلما حملت امرأته، قالت له: الويل لك إن كان ولدي يشبهك، فأجابها: بل الويل لك أنت إن جاء يشبه أحدا غيري!!

حقيقة

كل العداوات قد ترجى مودتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

من أكرم الناس

قيل لجمعة بن رافع الدوسي: من أكرم الناس؟

قال: من إذا قرب منح، وإذا بعد مدح، وإذا ظلم صفح، وإذا ضويق سمح.

هذا أشعر الناس

من لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء أن بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة، وقد نمى خبر المهدي أنه مات، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك فقام رافعا صوته:

مات الخليفة أيها الثقلان

فقالوا: هذا أشعر الناس فإنه نعى الخليفة إلى الإنس والجن في نصف بيت، ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم إليه، فقال:

فكأنني أفطرت في رمضان

فضحك الناس وصار شهرة في الحمق.

إنها تتقلب

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذ هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذ هي تذهب

لا تدركون ما تؤملون

قال الحسن البصري، رضي الله عنه -: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

دعاء

اللهم ارزقنا توفيق الطاعة، وبعد المعصية، وصدق النية، وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة.

نحو خطاب متوازن في قضايا المرأة



أ. د. وصفي عاشور

الخطاب الإسلامي المعاصر في قضايا المرأة مطمئن إلي حد كبير، ويحتاج إلي نوع من التحليل والتعميق والتوازن، وإلي استصحاب التأصيل الشرعي دائمًا الذي يكاد يغيب عن سماء هذا الخطاب جريًا وراء الحرية المطلقة للمرأة ومساواتها مساواة كاملة بالرجل رغم الاختلاف الذي لا ينكره عاقل في الطبيعة والتكوين، في محاولة لإظهار الإسلام بأنه دين «متطور» و«مستوعب» و«مستنير» ومن ناحية أخري سعيًا لقهر المرأة وحبسها فلا تخرج إلا من بيت أبيها إلي بيت الزوجية، ثم من بيت زوجها إلي القبر، وبين هذا وذاك فصوتها عورة، وهي كلها عورة..!

في حين أن الإسلام يحمل في طياته خطابًا متميزًا ومعتدلاً دون جري وراء خطابات أخري، غريبة علي أصولنا ومقرراتنا العامة بما تمتع به من عوامل للسعة والمرونة وقواعد وضوابط تضمن له السلامة والعافية، وتكفل له أن يسحب بساطه علي كل مستجدات الحياة المعاصرة.

ومن أهم القضايا التي تطرح في خطاب قضايا المرأة قضية مشاركتها في العمل العام، وما من شك في أن من أهم الأدوار الداعمة للمرأة في ذلك: الاهتمام بالخطاب الشرعي المعتدل والمتوازن؛ لأن الخطاب المعاصر وقع في استقطاب حاد بين الإفراط والتفريط، فغادر سبل التوازن، وخالف قول الله تعالي:

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

(الرحمن: ٩)

خطاب الإفراط

فخطاب الإفراط يري أن المرأة لا تخرج من بيتها إلا لبيت زوجها، ثم إلي القبر، وما بين هذا وذاك لا يجوز لها الخروج؛ لأنها شر كلها وفتنة كلها وشؤم كلها، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وانتشر الفساد، وشاعت الفاحشة، وتوسع وجود المنكرات في المجتمع.

يقول الشيخ محمد الغزالي في ذلك متحسرًا: «المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي، لا دخل لها في التربية ولا نظم المجتمع، لا مكان لها في صحون المساجد، ولا ميادين الجهاد، ذكر اسمها عيب، ورؤية وجهها حرام، وصوتها عورة، ووظيفتها الأولي والأخيرة إعداد الطعام والفراش»(١).

وقد زكي هذا الاتجاه أمران:

الأول: الفهم السقيم لبعض النصوص الشرعية الصحيحة، مثل قوله تعالي:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾

(الأحزاب: ٣٣).

وقوله تعالي:

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾

(الأحزاب: ٥٣).

وقالوا: إن هذا الخطاب يشمل أمهات المؤمنين ويشمل المؤمنات أيضًا؛ لأنه إذا كانت أمهات المؤمنين مطالبات بالقرار في البيوت وعدم خروجهن، فأولي بذلك عامة المؤمنات.

ونصوص نبوية أخري، مثل: رأيت النساء أكثر أهل النار، وخلقت المرأة من ضلع أعوج، وناقصات عقل ودين، وغيرها ذلك من نصوص.

ونسوا أو تناسوا كل النصوص الشرعية من قرآن وسنة تفضح هذا الفكر، وتبين كيف خالطت المرأة الرجل في كل ميادين الحياة حتي في زمن النبوة، ملتزمة في كل ذلك بالضوابط الشرعية والآداب المرعية.

والأمر الثاني: رواج أحاديث موضوعة وضعيفة وباطلة بشأن المرأة، والتي تلقفها هؤلاء دون تمحيص أو تدقيق، مثل: شاوروهن وخالفوهن، خالفوا النساء فإن في خلافهن بركة، وأعدي عدوك زوجتك التي تضاجعك، وثلاثة إن أكرمتهم أهانوك: أولهم المرأة، وضاع العلم بين أفخاذ النساء، وعقولهن في فروجهن، يعني النساء، ولولا النساء لعبد الله حقا حقا، وطاعة المرأة ندامة، وأجيعوا النساء جوعًا غير مضر وأعروهن عريًا غير مبرح، وأعروا النساء يلزمن الحجال، واستعينوا علي النساء بالعري، وغير ذلك من أحاديث مشتهرة أوردها الشوكاني والعجلوني وغيرهما.

وكان من شأن هذه النصوص أن رسخت ثقافة تعارض الشرع من كل الوجوه في النظرة إلي المرأة: إنسانًا مكلفًا مشرفًا مكرمًا مخاطبًا تمامًا مثل الرجل، بل عززت النظرة المهنية للمرأة، وأنها لا تصلح لشيء سوي الفراش والطهي، بل ربما لا تصلح إلا للفراش، يقضي الزوج معها وطره فحسب.

خطاب التفريط

وهو خطاب يري أن المرأة لا سعادة لها ولن تتقدم أو تصبح متحضرة إلا إذا أطلق لها العنان دون ضابط، وانفتحت علي الحياة والأحياء دون رابط، وتابعت المرأة الغربية شبرا بشبر وذراعًا بذراع.

فالمرأة عندهم وجه جميل، وجسد مثير، يستخدمها تجار الأنوثة ومستثمروها في مؤسسات إعلانية وإعلامية، وتجارات ومنظمات هائلة تنطلق تجاراتها وفلسفتها وتدور حول جسد المرأة، بحيث تختلط فيها الجريمة المنظمة بالدعارة المدروسة، لتنتشر في أنحاء «العالم المتقدم» وتدر أرباحًا بالملايين.

والمرأة عندهم يجب أن تكون مشاعًا لا يتحكم فيها رجل، أو يتسلط عليها أحد، ولا تخضع لقهر التعدد، بل الشيوعية الجنسية

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ٣٣، طبعة دار الشروق، بدون بيانات. وقد سمعنا مؤخرا آراء بتحريم ظهور المرأة «المنتقبة»! علي الشاشات؛ لأنها «غلبانة» يجب ألا تخرج من البيت، وسمعنا أقساما مغلظة علي أن المرأة جاهلة..!!

أكثر تقدمًا ورقيًا وتحضرا من أن تكون مقصورة علي رجل واحد.

ويرون أن الإسلام كان تاريخًا انتهي زمنه، ولا يسع المرأة المثقفة المعاصرة أن تتبع ثقافة تجاوزتها مسيرة البشرية بقرون، ومن ثم فتمسك الفتاة بشرفها وعذريتها وحجابها يعد عندهم ضربًا من ضروب التخلف والرجعية إلي الماضي.

وجسد المرأة هو حق لها وملك مطلق، لها تتصرف فيه كيف تشاء، تمكن منه من أرادت، وتمنحه لمن تشاء، وتعيش وتسلك مسالك الرجال دون شرط ولا قيد من خلق أو دين (٢).

والمرأة عندهم كذلك يجب أن تتساوي مساواة مطلقة بالرجال في الوظائف والأعمال وكل شيء حتي لو كانت المرأة مختلفة عن الرجل في النوع والطبيعة والتكوين.

وقد زكي هذا الخطاب أمران أيضا:

الأول: التشدد في الخطاب الإسلامي الذي أنتج بدوره تشددًا مقابلا، فلكل فعل رد فعل، كما يقولون، مساو له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه، ومن هنا كان هذا الاستقطاب الحاد بين تيار الإفراط المقابل لتيار التفريط.

والثاني: الخطاب الغربي المنفلت والحركة النسائية المنطلقة دون حدود، والتي كان لها سماسرتها وعملاؤها في الشرق، فبهروا بهذا الخطاب الناس، ووجد كثير من النساء فرصة سانحة للتنفيس عن الكبت والقهر الذي مورس عليها من التيار الآخر، ومن هنا انتشر هذا الخطاب واتسعت رقعته، ووجد أنصارًا وأعوانًا وحواريين.

خطاب الاعتدال

وبين هذا الخطاب وذاك يقف الإسلام الموقف الوسط، ويري الرأي الراشد المعتدل المتوازن الذي يوازن بين كل الأمور دون طغيان ولا إخسار، ملتزمًا بضوابط الشرع، ومراعيا لمتطلبات العصر، يقول الشيخ


الغزالي

محمد الغزالي: «بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية في أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التي تستمد من وثنية الرومان، ومن فلسفة الإغريق» (٣).

هذا الخطاب المعتدل الذي نريده يبيح للمرأة، بل يوجب عليها أحيانا. أن تخرج من بيتها لكن تلتزم بالضوابط الشرعية لخروج المرأة ومشاركتها من التزام باللباس الشرعي، وحدود الحديث مع غيرها وضوابطه، وفي ضوابط المشي، وغض البصر، وإذن الزوج، وأولوية مصلحة الأسرة، وغير ذلك من ضوابط شرعية وآداب مرعية.

يحافظ علي شخصية المرأة، فيجعل لها ذمة مستقلة، ويضمن لها الحق في التصرف دون وصاية أو ولاية، ويحفظ فطرتها وهويتها وأنوثتها ولا يحرمها في الوقت نفسه من المتع الحلال والزينة الحلال بل يأمرها باستخدام الزينة لزوجها، ويحضها علي إسعاده وتفريغ قلبه لعمارة الأرض وخدمة الناس ودعوة الله دون أن تكون في تفكيرها أو عقلها مستقطبة لزوجها، أو تابعة كل التبعية له في الرأي والفكر والعقل، بل يتعاونا ويتشاورا في كل شأن من شؤن الدين والدنيا.

يفقهها هذا الخطاب في دينها، ويعلمها شؤن الحياة، وكيف تكون مؤثرة ونافعة ومصلحة عبر فقه النصوص الصحيحة والتاريخ النبوي والراشدي الناصع الناصح دون أن تقع فريسة لنصوص تهين المرأة وتحط من كرامتها، وتطعن في أهليتها، لا يجعلها حبيسة عادات اجتماعية وعرفية سائدة تمنع المرأة من مشاركة الرجل في أي ميدان من ميادين الدين والدنيا، وتحظر عليها الخروج من بيتها، وتنظر إليها علي أنها شر وعورة وجالبة للفساد، ولا يجعلها منطلقة منفلتة تجري وراء النموذج الغربي وتتبعه شبرا بشبر حتي لو دخلت جحر ضب خرب لدخلته وراءهم، بل تتبع الشرع الحنيف، والنص الصحيح، والقول الصريح دون أن تكون رهن تقاليد وافدة أو راكدة.

لا يأمرها أن تطالب بالمساواة المطلقة مع الرجال؛ نظرا للاختلاف الظاهر الذي لا ينكره عاقل في طبيعتها وتكوينها، بل تمارس دورها الذي خلقها الله له، وتزاول الأعمال التي تليق بها وتحافظ علي فطرتها وأنوثتها وطبيعتها، فيكون التوازن والتكامل في الأدوار بعيدا عن الندية ومناطحة الرجال.

ونريد أن يكون هذا الخطاب بعيدًا عن التأثر بالتجارب الشخصية للرجال والنساء علي السواء، فلا يعقل أن تكون لرجل مع امرأة تجربة زواجية فاشلة تنتهي بالطلاق فيحكم علي النساء عامة من خلال تجربته أن المرأة مخلوق نكد وضيق الأفق لا يفكر إلا بعاطفته، مخلوق متمرد يتعامل بندية، بذيء اللسان عالي الصوت سيء الخلق والدين، كما لا يعقل أن تمر امرأة بنفس التجربة مع رجل سيء فتعيش بعد ذلك في دور المظلومة والمضطهدة، وتمارس أبشع أنواع التمييز ضد الرجال، وأنهم مخلوقات ذكورية لا يرون إلا أنفسهم، ولا يشعرون إلا بذواتهم، لا يؤمنون بالمرأة، ولا يرونها شيئا، ومن ثم فهي مخلوق لا يستحق الحوار، ولا يفهم الأمور، ولا يقدر الحياة والأحياء، فالرجال كلهم شر لا يراعون فيهن شرع الله، وتجري المرأة وراء كل فكر يتعارض مع مقررات الإسلام قرآنا وسنة، وتنتزعه من التراث لتجعله رؤية الإسلام للمرأة، أو آراء العلماء في قضاياها.

كل هذا يحدث ويمارس باسم الدين لكنه للأسف من خلال هذه التجارب الذاتية، والحياة الشخصية التي تؤثر علي نظرة كثير من الناس بل عديد من العلماء والمفكرين للمرأة وقضاياها، كما الأمر متبادل عند النساء، ونريد من خطابنا الإسلامي في قضايا المرأة أن يتحرر من قيد هذه التجارب، وأن ينفلت من أسر هذه الشخصانية إلي عالم الإسلام الرحيب الذي ضمن للمرأة كرامتها وإنسانيتها، وحفظ لها فطرتها وأنوثتها، وأمر الرجل أن يحسن عشرتها، كما أمر المرأة أن تطيع زوجها في المعروف؛ فلا طاعة لأحد في معصية الخالق.

ويزكي هذا الاتجاه عدة أمور:

أولا: الاستفتاء المباشر من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهذا يضمن لنا حكمًا شرعيًا صحيحًا، غير متأثر بالأحاديث الواهية والمنكرة التي رسخت لثقافة احتقار المرأة وإهانتها، ولا راكن إلي العادات الموروثة.

ثانيا: الاطلاع الواسع علي تاريخنا المشرف في قضايا المرأة، لا سيما في عهد الرسالة، عهد النبوة، الذي باشره الوحي، وكان عهد تشريع للأمة، وحسبنا في ذلك الاطلاع علي موسوعة: «تحرير المرأة في عصر الرسالة» للأستاذ محمد عبدالحليم أبو شقة، ففيه الغناء كل الغناء فيما يخص قضايا المرأة.

(٢) راجع في هذه المعاني وغيرها كتاب «مكانة المرأة» لأستاذنا الدكتور محمد بلتاجي رحمه الله ٤٨٣ – ٤٨٦.

(٣) من مقالات الشيخ الغزالي ١٠١/١، جمع عبدالحميد حسنين حسن، طبعة نهضة مصر، طبعة رابعة، ٢٠٠٥م.

ثالثا: الاطلاع على نماذج النساء وسيرهن في عهود الخلفاء الراشدين، ومتابعة مسيرة المرأة المسلمة العاملة والمجاهدة في ضوء ضوابط الشرع عبر تاريخنا في كل مراحله إلى واقعنا المعاصر.

رابعا: محاربة العادات الراكدة التي ورثتها مجتمعاتنا عبر العصور دون تمحيص لها في ضوء المرجعية العليا للقرآن والسنة.

خامسا: ليس كل تقليد للنموذج الغربي فيه الفلاح والتحرر، لكن نخضع هذه الثقافة لنصوصنا ومقرراتنا العامة، فما وافقها قبلناه، وما عارضها رفضناه، وما اختلط فيه الحق بالباطل حللناه وأخضعناه للنقد والنظر وفي ضوء النصوص والمقاصد، ثم نأخذ حقه ونرد باطله، وهذا منهج إسلامي عام تجاه أي قضية وافدة.

سادسا: الرجوع في قضايا المرأة إلى العلماء الثقات، الذين يفهمون الشرع في ضوء مقاصده ومبادئه، ويراعون الواقع وما فيه من تيارات ومستجدات، فيجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات الشرع.

أشرف وظائف المرأة

سابعا: تثمين «أشرف وظائف المرأة»[٤]، وأود أن أقف قليلا مع هذه النقطة؛ لأنها تغيب تماما في خطابنا الشرعي المعاصر حين نتحدث عن عمل المرأة، ومشاركتها في مناحي الحياة، وأنشطة المجتمع المختلفة؛ حيث يتم التركيز على جواز العمل، وشرعية الخروج، وكيف أن الإسلام كرمها وشرفها، والبحث عن الطريق لمساواتها بالرجل، ومقارنة ذلك بما حدث لها في الحضارات المختلفة وما يحدث لها في بلاد الغرب، ومقارنة أوضاعها في الشرق بأوضاعها في الغرب، وكأن الغرب أصبح مرجعيتنا التي منها نأخذ وعنها نصدر وإليها نرجع، ونسينا أو تناسينا الحديث عن أهم دور للمرأة في الحياة، الذي إن تعارض معه شيء قدم على غيره كما اتفق على ذلك الفقهاء قديمًا وحديثًا، وذلك هو دورها في بيتها نحو زوجها وأبنائها.

وسوف أعرض هنا لكلام علمين كبيرين، وداعيتين جليلين، لا يتهمان أبدا بالتحيز أو التمييز ضد المرأة، بل كانا في كل ما يكتبانه منصفين لها من خلال الموازنة بين نصوص الشرع ومتطلبات العصر، إنهما: الداعية المجدد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والفقيه الكبير شيخنا الإمام يوسف القرضاوي حفظه الله.

يقول الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان «لا تهونوا من وظيفة ربة البيت»: «ولا ريب أن كيان المرأة النفسي والجسدي قد خلقه الله على هيئة تخالف تكوين الرجل، فقد بني جسم المرأة على نحو يتلاءم ووظيفة الأمومة تلاؤما كاملا، كما أن نفسيتها قد هيئت لتكون ربة الأسرة وسيدة البيت، وبالجملة فإن أعضاء المرأة الظاهرة والخفية وعضلاتها وعظامها، وكثيرا من وظائفها العضوية، مختلفة إلى حد كبير عن مثيلاتها في الرجل، وليس هذا البناء الهيكلي والعضوي المختلف عبثا؛ إذ ليس في جسم الإنسان ولا في الكون كله شيء إلا وله حكمة، وهيكل الرجل قد بني ليخرج إلى ميدان العمل كادحًا مكافحًا، أما المرأة فلها وظيفة عظمى هي الحمل والولادة، وتربية الأطفال، وتهيئة عش الزوجية ليسكن إليها الرجل بعد الكدح والشقاء»[٥].

وليس معنى هذا أن الشيخ يرفض عمل المرأة، فكفاحه ونفاحه عنها معروف ومشهور، وساكن في الأنفس، وطائر في الآفاق، وهو صاحب التفسير غير المسبوق لحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، بأنها واقعة حال لا تتعدى إلى غيرها.

(٤) هذا من تعبير الشيخ الغزالي، وليس من وضعي.

(٥) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ١١٦ - ١١٧، طبعة دار الشروق.

يقول في كلام آخر متوازن أيضًا، ويمثل الرؤية الوسطية، تحت عنوان: «الوسطية في معاملة الإسلام للمرأة»: «نحن لا نجنح إلى طرف من الطرفين المتباعدين، هذا يسجن المرأة في البيت، وهذا يطلقها في الشارع.. لقد أغنانا الإسلام عن تجارب تخطئ وتصيب وتحلو وتمر، وهدانا صراطا مستقيمًا. نحن بحاجة إلى من يعرف دين الله حق المعرفة ثم يعالج القضايا كلها بإيمان واع، لا بفكر قاصر متشائم هدام. الذي يمنع المرأة من حق الحياة والعمل في الإطار الشرعي المناسب لفطرتها لا يقرر حقيقة شرعية ولا وضعية، والذي يتيح لها كل اختلاط وييسر لها كل احتراف لا يقرر حقيقة شرعية ولا وضعية!! هناك مجتمع بناه صاحب الرسالة ﷺ، ورجاله الكبار، لماذا لا ندرسه ونتأسى به، ونحاول أن نضع المرأة في المكانة التي وضعها فيها القرآن، ورعاها الرسول ﷺ»[٦]. ا.هـ.

أما شيخنا الإمام يوسف القرضاوي فيقرر أن عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس هو تربية الأجيال التي هيأها الله بدنيا ونفسيا، ويجب ألا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان؛ فإن أحدا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها وهي الثروة البشرية، ومثل ذلك عملها في رعاية بيتها وإسعاد زوجها.



القرضاوي

ويستدرك الشيخ قائلا: «وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعًا، فليس لأحد أن يحرم بغير نص شرعي صحيح الثبوت، صريح الدلالة، والأصل في الأشياء والتصرفات العادية الإباحة كما هو معلوم».

يقول الشيخ: إن عمل المرأة. بناء على هذا الأساس. في ذاته جائز، وقد يكون مطلوبًا طلب استحباب، أو طلب وجوب، إذا احتاجت إليه: كأن تكون أرملة أو مطلقة لا مورد لها ولا عائل.. وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها كأن تعاون زوجها، أو تربي أولادها أو إخوتها الصغار أو تساعد أباها في شيخوخته.. وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء وتمريضهن، وتعليم البنات، ونحو ذلك[٧]. ا.هـ.

أريد أن ألفت النظر من خلال كلام هذين الإمامين إلى أننا يجب عند حديثنا عن المرأة وقضاياها المجتمعية ألا يغيب عنا هذا الدور، وألا ننفلت بعيدا عن الضوابط والقواعد الشرعية والآداب الإسلامية حين نطالب بتمكين المرأة أو مساواتها في الحقوق والواجبات.

أتصور أننا بهذه الصورة المتوازنة، وعلى هذا النسق من الخطاب الوسطي في قضايا المرأة نتجنب كثيرا من المشكلات، ونتجاوز عديدا من العقبات، وندعم المرأة المعاصرة في مسيرتها الحضارية، ونصل إلى الرؤية المتوازنة في قضاياها المختلفة.

(٦) من مقالات الشيخ محمد الغزالي: ١/ ٢٢٠.

(٧) فتاوي معاصرة: ٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥، دار القلم، الكويت، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

مياه النيل وضرورة ترشيد الاستهلاك

أ. د. عبدالله ذكيب محمد
معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

من مكرور القول إن الشريعة الإسلامية تحرم الإسراف في كل المجالات، ومنها الماء، سواء في الاستخدام الشخصي أو غيره. فقد روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتوضأ، فقال له: «ما هذا السرف، فقال: أفي الوضوء إسراف، فقال نعم وإن كنت على نهر جار»(١) ومن ثم فإن ترشيد استهلاك المياه ضرورة شرعية في المجالات الآتية:

ترشيد الطلب المنزلي:

لم يعد مناسبًا التعامل مع الماء باعتباره مادة وفيرة لا نهاية لها، كالهواء أو كأشعة الشمس في العصر الحديث، فثمة عوامل كثيرة أدت إلى ندرة المياه وأوجبت التحول من فكرة الوفرة إلى الندرة، هذا التحول يقتضي الآتي:

- أولاً: وضع خطط وطنية وبث برامج إعلامية لتحقيق توعية للتعامل مع الماء بنظرة جديدة. لقد أصبح للماء ثمنًا ينبغي دفعه عند استعماله في أي مجال، وفي الوقت الحالي يدفع الناس في الغالب ثمنًا للماء لا يزيد على خمس تكاليف تشغيل مشروعات الري العام، مما يجعله شبه مجاني، ويغذي فكرة الوفرة، ويدعو إلى الإسراف في استعماله.

والمعلوم أن فكرة الوفرة أدت إلى قيام الحكومة بدعم أسعار المياه وفي مصر مثلاً، يقدر البنك الدولي أن الدولة تدعم المياه بمبالغ تتراوح ما بين ٥ مليارات دولار و ١٠ مليارات دولار في السنة.

وتسعير المياه بسعر حقيقي هو الذي سوف يجعل مستهلكي المياه يدركون قيمة المياه ويقتصدون في استهلاكها.

في عام ١٩٩٢م عقدت اجتماعات تحضيرية «لقمة الأرض» المؤتمر الذي جمع بين رؤساء الدول في «ريو دي جانيرو» لبحث قضايا البيئة الطبيعية والاتفاق على سياسة للمحافظة عليها. واشترك في تلك الاجتماعات التحضيرية لذلك المؤتمر علماء وخبراء في التخصصات المختلفة واتفق علماء المياه الذين اشتركوا في تلك الاجتماعات التحضيرية على ضرورة تسعير المياه ومعاملتها كسلعة اقتصاديا.

(١) رواه ابن ماجة. وراجع أحاديث أخرى رواها البخاري: عن مقالة بعنوان: موقف الشريعة الإسلامية من الإسراف في استخدام المياه - مجلة الرابطة التي تصدرها الإدارة العامة للإعلام برابطة العالم الإسلامي.

وقالوا: «إذا كانت المياه رخيصة فإنها سوف تهدر. ولكن إذا وضع لها سعر مناسب، فإن الناس سوف يتعاملون معها كسلعة ثمينة».

سعر المياه المنشود ينبغي أن يغطي على الأقل تكاليف معالجة المياه ونقلها للمستهلكين وتسعير المياه لفرض السعر المناسب يجب ألا ينطلق من فراغ أو بعيدًا عن العوامل الأخرى كسياسة الأجور والضرائب وتسعير المنتجات وغير ذلك.

- ثانيًا: من الممكن أيضًا الاستعانة بابتكارات علمية لابتكار صنابير للمياه في المنازل تعمل بالخلية الضوئية فقد لاحظت على سبيل المثال، البوابات التي تفتح عند الاقتراب منها، ويمكن تطوير الفكرة، وابتكار صنابير تفتح عند الاقتراب منها، ثم تغلق تلقائيًا.
- ثالثًا: تنفيذ سياسة ناجحة لترشيد الطلب على المياه، ويقتضي هذا أن تهيمن على تلك البرامج السياسيات الآتية:
- إخضاع مؤسسات توزيع المياه للاستخدامات المختلفة لهيئة قومية واحدة توجه المؤسسات المعنية بتوفير المياه، وتوحيد السياسات واللوائح مركزة على الهدف الكلي لترشيد الطلب على المياه.
- تعميم تجربة جمعيات مستهلكي المياه المطبقة في القطاع الزراعي (المصري) لتشمل جمعيات مستهلكي المياه في القطاع الصناعي وفي قطاع البلديات، لتسهم هذه الجمعيات في وضع سياسات الترشيد، وتشارك في تنفيذها، مما يحقق أعلى درجة من الشفافية والتجاوب الشعبي.
- ترشيد الطلب على المياه يقتضي تطوير البنية الأساسية، في المعدات والمؤسسات، وتدريب الكوادر المؤهلة لاستيعاب وتنفيذ سياسات الترشيد.

ترشيد استخدام المياه في الخدمات الحضارية:

نقدم المقترحات الآتية:

١- ضرورة فصل الصرف الصحي الثقيل عن الخفيف في المنازل والمؤسسات، واستخدام الصرف الصحي الخفيف للاستخدام الحضاري.

٢- تجميع المياه المستخدمة في المساجد (للوضوء) في خزانات مؤقتة واستخدامها في ري الحدائق العامة ومياه الوضوء والاستخدمات المشابهة، صالحة تمامًا للري، ولا تحتاج إلى معالجة، كل ما في الأمر، هو فصلها عن الصرف الصحي الثقيل وتجميعها للاستفادة منها.

٣- تبارد إلى ذهني سؤال. لماذا الإصرار على عدم زراعة أشجار مثمرة وبعض الخضروات في الحدائق العامة، وحدائق المؤسسات الحكومية، وجزر الشوارع وأرصفتها؟

في تصوري أن إعداد دراسة للاستفادة من هذه المساحات الهائلة في زراعات مفيدة، سوف يوفر كميات كبيرة من الفواكة والخضروات تكفي لتغطية احتياجات عدد كبير من سكان المدن.

الترشيد في الاستخدام الزراعي:

في إطار استمرار وسائل الري الزراعي التقليدية، نرى ضرورة العمل على الآتي:

أ- تحسين شبكات توزيع ونقل المياه وإعادة تخطيط المجاري المائية وبعضها

يسير في التواءات وتعرجات لا ضرورة لها مما يجعلها تستحوذ على أرض زراعية لا تستخدم.

ب- تطهير قنوات الري والصرف من الحشائش الطفيلية.

ج- تسوية الأراضي المروية تسوية دقيقة بأستخدام الليزر لرفع كفاءة توزيع المياه.

د- استخدام السلالات والبذور المحسنة والمخصبات لرفع الإنتاجية.

هـ- ممارسة الري الليلي لتقليل التبخر.

و- الحد من زراعة المحاصيل الشرهة للمياه مثل الأرز وقصب السكر. ففي بيان ورد ضمن دراسة متخصصة جاء فيه أنه إذا خفضت المساحة التي تزرع الآن في مصر بمحصولي الأرز وقصب السكر من ١,٦ مليون فدان إلى ٧٠٠ ألف فدان، فان ذلك سوف يؤدي لتوفير ٣,٥ مليار متر مكعب (٢).

وفي نفس الاتجاه، قدم خبير ري مصري دراسة أوضح فيها أن مصر تستطيع أن توفر ٢٠ مليار متر مكعب من المياه إذا عزفت عن زراعة المحاصيل الشرهة للمياه (الأرز وقصب السكر) إذا أعادت تدوير مياه الري الزراعي بعد معالجتها (٣).

كل هذا ممكن في إطار الري السطحي، واستخدام الري بالغمر، وتوزيع المياه عن طريق القنوات (الترع والجداول) وهو ما يعتمد على الجاذبية الأرضية لتوصيل المياه للنباتات.

ولكن هذا الوسائل التقليدية للري تهدر كميات كبيرة من المياه عن طريق التسرب، والرشح، والبخر، والنشح، والطفح. وهي الأسباب الأهم لهدر مياه الري لدى توزيعها ونقلها عن طريق الري السطحي الذي تتراوح كفاءة الري فيه ما بين ٤٠٪ و ٥٠٪، أي أن أكثر من نصف المياه يضيع هدرًا قبل أن يصل للنباتات.

هذه الصورة من هدر المياه تختلف تمامًا إذا استخدمت أساليب الري الحديثة مثل الرش، والتنقيط. فكفاءة الري بالرش عالية؛ إذا تبلغ ما بين ٦٥٪ و ٧٥٪ أما الري بالتنقيط فكفاءته أعلى؛ إذ تبلغ ٩٠٪.

واستخدام الري بالأساليب الحديثة محدود في دول حوض النيل. وأعلى نسبة استخدام لها في مصر حيث تبلغ حوالي ٢٠٪ من المساحة المزروعة، ولذلك فإن استخدام أساليب الري الحديثة في دول حوض النيل يرفع كفاءة استخدام المياه في الري ويقلل في نسبة الهدر للمياه. وتقف أمام التوسع في استخدام أساليب الري الحديثة عقبتان:

الأولى: نفقات تأسيس البنية التحتية اللازمة لها.

والثانية: تدريب الكوادر المؤهلة لتشغيلها. ومع ذلك فإن استعمال وسائل الري الحديثة تجعل من تكلفتها أمرًا ضروريًا ومهما للغاية.

ترشيد الاستخدام الصناعي:

التنمية الصناعية هدف استرتيجي للتنمية

(٢) الورقة الرسمية المصرية للمؤتمر السابع للنيل عام ٢٠٠٢م - القاهرة، مارس ١٩٩٩م.

(٣) ورقة قدمها محمد داود مدير هيئة أبحاث المياه المصرية، ومحمد الرافعي باحث بالهيئة، للمؤتمر السابع للنيل عام ٢٠٠٢ - القاهرة، مارس ١٩٩٩م.

حتى في البلدان ذات القطاع الزراعي الكبير والتنمية الصناعية تتطلب كميات من المياه تزيد مع زيادة الاستثمار الصناعي. والتوسع في الاستثمار الصناعي يمكن أن يصحبه ضبط لطلب المياه إذا حرصت المصانع على عدم استخدام خامات ملوثة للمياه، وإذا حرصت على معالجة المياه التي تستخدمها لإعادة استعمالها. ولكي تحقق السياسة الصناعية ترشيدًا لطلب المياه فيجب أن تراعي الآتي:

● تنظيم حصص المياه للصناعات المختلفة، وأن تأخذ في حسبانها مسألة ندرة المياه.

● فرض ضرائب على المصانع التي تستخدم خامات ملوثة للمياه.

● تشجيع المصانع على إعادة تدوير المياه التي تستخدمها بعد معالجتها، بفرض رسوم على استهلاكها للمياه، وعن طريق تقديم حوافز للمصانع التي تقتصد في استخدام المياه.

هذا وقد أظهرت الدراسات التي أجرتها الأمم المتحدة أن قلة كفاءة المضخات في مياه المدن، وعيوب شبكات توزيع المياه، والوصلات الضعيفة تهدر ١٥٪ من المياه المستخدمة في المباني العامة كالمستشفيات والمدارس وغيرها.



لذلك فإن تطوير محطات التنقية، وتجديد شبكات التوزيع، ووقف الفواقد داخل المنازل والمكاتب الحكومية، والمستشفيات، ودور العبادة، والمدارس نتيجة لضعف كفاءة الصنابير والمحابس والسيفونات - سوف ينقذ هذه النسبة العالية من المياه الضائعة هدرًا (٤).

إضافة لهذه الإجراءات ينبغي اتخاذ الإصلاحات الآتية لترشيد استهلاك المياه:

أ- زيادة أسعار المياه بصورة تصاعدية مع زيادة حجم الاستهلاك للأغراض المنزلية، وذلك عن طريق زيادة التعريفة للوحدات المنزلية إذا تعدت حجمًا معينًا من استهلاك المياه.

ب- هناك الآن معدات كثيرة تقتصد في استهلاك المياه، مثلاً: حنفيات تصب كمية معينة من المياه وتقطع تلقائيًا. وهذه المعدات المقتصدة في استهلاك المياه يمكن أن تركب في المنازل، والمحلات التجارية، والمستشفيات، والمدارس، والمعاهد، ودور العبادة.. وهلم جرا.

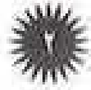
ويمكن تشجيع هذه الوحدات المستهلكة للمياه للإقدام على تركيب هذه المعدات بوسائل الدعم المختلفة (٥).

(٤) جون بولوك وعادل درويش: «حروب المياه».

(٥) راجع: أ.د/ منى مصطفى القاضي: دور البحث العلمي في إدارة وتنمية الموارد - المؤتمر الدولي حول مشكلة المياه في أفريقيا معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ
فبراير ٢٠١٣ م

وسائل انتشار الإسلام فى أفريقيا



أ.د. حسن مكى - السودان

انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا:

لم يكن الفتح الإسلامى للمغرب العربى على أيدى عقبة بن نافع أو موسى بن نصير كافيا لنشر الإسلام بين البربر واستقراره فى قلوبهم إلا أن خلفاء موسى بن نصير وعلى وجه التحديد إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى ولى على إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام فى المغرب الأقصى ولم يبق فى ولايته أحد من البربر إلا وأسلم بفضل الدعاة من «التابعين» الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز.

غير أن توطين قلوب البربر على الإسلام جاء إثر اندلاع ثورة الخوارج الصفرية التى نادت بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب، بل هى للمسلمين على حد سواء وقد بايع الثوار ميسرة الصفرى وعمت الثورة بلاد المغرب واشترك فيها الملثمون وجاوزت أطراف الصحراء.

كان واضحا أن انتقال الإسلام عبر الصحراء الكبرى إلى الجزء الجنوبى من إفريقية الغربية لا يتم إلا إذا أمنت الطرق الصحراوية بإسلام الملثمين وحفر الآبار للرى كما فعل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (١٢٢هـ - ١٢٧هـ).

وعلى الرغم من أنه ليس من الممكن تحديد التاريخ الذى أسلمت فيه قبائل الملثمين على وجه الدقة والتحديد إلا أنه يمكن القول بأن الإسلام ظل يتسرب إليهم منذ أن بنى عقبة مسجداً بمدينة ماسة وترك لهم فيه نفراً يعلمونهم مبادئ الإسلام ثم قامت دولة الأدارسة وبذلت جهداً كبيراً فى سبيل نشر الإسلام فى الصحراء الكبرى واستطاعوا فى القرن الثالث الهجرى أن يمدوا نفوذهم إلى مدينة فاس فاتحة عهداً جديداً، فقد غدت التجار والعلماء من كل حدب وصوب ومنها تنحدر الثقافة إلى الصحراء عن طريق التجار خاصة فى عهد عبد الله بن إدريس الثانى ٢٣٤هـ.

دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب إفريقية:

لسنا فى حاجة إلى تفصيل نشاط المرابطين فى المغرب بقدر ما تدعونا الحاجة إلى الإشارة إلى أن الاتصالات التى قام بها يحيى بن إبراهيم «الجدالي» «وهو من قبائل الملثمين» نجم عنها دعوة عبد الله بن ياسين لتطهير الإسلام مما علق به فى نفوس الملثمين. وعندما استطاع ابن ياسين أن يكسب لدعوته مؤيدين واشتهر أمره ثارت عليه طبقة الأشراف والأغنياء فلجأ إلى جزيرة فى البحر عند مصب نهر السنغال. لقد كانت هجرة ابن ياسين سياسية فى المقام

الأول من وجه نبلاء البربر.. وفى هذه الجزيرة بدأ رباطه وتسامعت به القبائل وأخذت تتوافد عليه، فكان يرسل الدعاة من الرباط إلى الأماكن المجاورة بغرض الدعوة إلى الإسلام فاستجابت له قبائل التكرور المجاورة ودخلت هذه القبائل فى الإسلام وانضم بعضها لرباط ابن ياسين وقاتلوا معه فى حروب الصحراء وكان على رأسهم ملكهم وارجابى بن رابيس الذى استشهد فى إحدى معارك المرابطين.

كما قام المرابطون بعد غزوهم لأودغست سنة ٤٤٦هـ بنشر الإسلام فيها وتركوا رجالاً للدعوة للإسلام وعندما اطمأن خليفة ابن ياسين (أبو بكر بن عمر اللموتوني) لمقدرة يوسف بن تاشفين على السيطرة فى المغرب وجه إلى الجنوب جيشًا مرابطيًا جديدًا وكان هذا الجيش يتكون فى غالبيته من أبناء السودان الغربى ونازل بهم الجيش «الغاني» وهزم الغانيين الذين تحصنوا بعاصمتهم «كومبى صالح» فحاصرهم أبو بكر فيها حتى افتتحها عنوة وأعلن الإسلام فيها (٤٦٩هـ) وأعلن ملكهم إسلامه وتبعه سائر قومه.

واستمر أبو بكر فى الجهاد مدة تقارب الأربعة عشر عامًا حتى استشهد فى إحدى المعارك ٤٨٠هـ.

وقد أسلمت على أيدى المرابطين قبائل التكرور والمادنجو والصنغاى والبربر وأقامت هذه القبائل إمبراطوريات كبرى استطاعت أن تنشر الإسلام فى أغلب بقاع إفريقية الغربية ومن الإمبراطوريات ذات الصلة المباشرة بالمرابطين مالى وصنغي.

ونتيجة لذلك الأمن الذى ضربه المرابطون نشأت مدينة «تمبكتو» و«جني» ذوات الدور الفعال فى نشر الثقافة الإسلامية فى غرب إفريقيا (السودان الغربي).

هناك بعض الاتجاهات بين المؤرخين للتقليل من دور المرابطين فى انتشار الإسلام فى غرب إفريقية إلا أنه من الثابت أنهم أثروا فى ذلك مباشرة وغير مباشرة إذ أننا نجد أن بعضهم قد اتجه شرقًا فى بداية القرن الثانى عشر حيث تجانسوا مع الزغاوة وأنجبوا أول أسرة حاكمة سيطرت على المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد وأسست سلطنة كانم وعلى أنهم ليسوا أول من أدخل الإسلام إلى تلك الفجاج فكما ذكر أبو عبيد الله البكرى فى كتاب المسالك والممالك: ويقال إن فى بلادهم بعض سلالة الأمويين الذين لجأوا إلى كانم فى أعقاب اضطهاد العباسيين وهؤلاء مازالوا يحتفظون بأنماط أزيائهم وعاداتهم العربية.

الإسلام فى السودان الأوسط:

تقع كانم فى السودان الأوسط وهو إقليم يعالج المؤرخون فيه انتشار الإسلام منفردًا، قامت فيه إمبراطورية برنو الإسلامية والهوسا والفولاني، وقد غزت هذا الإقليم هجرات عربية من الشمال الشرقي، فمن المجموعات التى استقرت فى منطقة تشاد مجموعة «الكانمو» هى خليط من قبائل الصو والبربر والتى لها صلة كبيرة بقبائل التبو البربرية من سكان هضبة التبستى من ناحية فزان ويقال لهم القرعان وقد كثرت هجرتهم منذ حوالى القرن التاسع الميلادى فانتشروا فى كانم فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ودخل أفرادها فى خدمة حكومة الزغاوة، وينسب إلى قبائل الصو دور مهم فى إدخال الإسلام ونشره فى كانم وتشير أساطير الصو فى هذا الصدد إلى رحلة قام بها المسئول استأذنوا فيها ملك الصو الخاضع لحكومة الزغاوة من كانم. كما وصل العرب إلى شاد عن طريق النيل من جهة الشرق وعبر الصحراء من ناحية الشمال واستقروا حول بحيرة تشاد واختلطوا بالوطنيين وظهرت عناصر

متميزة منها التنجور والبولالا على أنهم اشتهروا باسم شو ولهم أثر كبير فى إمبراطورية البرنو مما جعل ياقوت الحموى يصف أهل كانم قائلا وهم على زى العرب وأحوالهم وفى مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى برنو عن طريق اليمن واستطاعوا أن يكونوا أسرة مالكة وذكر البكرى أن قومًا من بنى أمية هاجروا إلى كانم عند محنتهم أيام العباسيين كما ردد ذلك ياقوت فى معجم البلدان.

وفى المخطوط الذى ترجمه «بالمر» يتضح أن برنو أخذوا يعتنقون الإسلام على أيام «بولو» سنة (١٠٢٠م) فى القرن الحادى عشر كما أعطوا امتيازات خاصة للمسلمين واستمر انتشار الإسلام وازدياده حتى ضعفت الوثنية فى عهد الماى كاداى أو عبد القديم (١٢٥٩-١٢٧٨م) حتى ادعى خليفة الماى عثمان بن زينب نسب سيدنا عثمان بن عفان وخلافة المسلمين بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز.

الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا فى العصور الوسطي

نشأت بغربى إفريقيا عدد من الممالك الإسلامية وقد كان الإسلام عمادها الروحي؛ واللغة العربية أداتها فى الإدارة والثقافة والتجارة. وقد قامت هذه الممالك فى بلاد السودان الغربى وهى المنطقة الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى الممتدة جغرافيا من المحيط الأطلسى غربا إلى بحيرة تشاد شرقا فى جميع الأقاليم الواقعة شمالى الغابات الاستوائية فى منطقة السافنا ولهذه الإمبراطوريات أصول وثنية إلا أنها بلغت الذروة فى عهدها الإسلامى وأقامت علاقات قوية متنوعة بين هذه الممالك وبين البلاد الإسلامية وسادت التقاليد والعادات الشرقية إذ استقر بها عدد كبير من العرب والبربر من طالبى الأمن السياسى واختلطوا بالوطنين.

كانت غانة أقدم تلك الممالك ثم تلتها برنو فى عهدها الكانمى ثم تلتها مالى ومن بعدها صنغى ثم برنو المتأخرة بالإضافة لإمبراطورية التكارنة فى القرون الوسطى والتى بعثت مرة أخرى فى القرون الحديثة. وقد كانت مملكة التكرور أسبق من غانة إلى اعتناق الإسلام واستطاعت الاحتفاظ بجذورها وإيقاف محاولات جارتها من الدخول فى أراضيها والتوسع فيها. وهناك مملكة سلى الإسلامية والتى استطاعت أن تحتفظ باستقلالها أيضًا أما مملكة ماسنه فى الجنوب الشرقى من غانة فملوكها من الفولانيين وكانت علاقتها بمملكة أودغست البربرية ودية وكثيراً ما استعانت بها ضد جيرانها السود.

اودغست:

نشأت أودغست على طريق تجارى قديم وتوسعت حتى صارت دولة مدنية وكانت تقع على الطريق الذى يمر من سجلماسة إلى أودغست فغانة ولهذا السبب كان صاحبها يحافظ على توازن العلاقات بين الشمال والجنوب وتفيد بعض الراويات أن بعض دعاة الشيعة وردوا إليها ولا يستبعد بحال أن يكونوا ضمن تلك الموجات من الهجرات السياسية التى وصلت إلى هناك حيث كانت إفريقيا مهجرًا للأفكار التى يضيق بها المشرق.

ويذكر البكرى أن من بين أهل أودغست جاليات عربية ومهاجرين، من مفازة القيروان ولما اتسعت المدينة صار الزياديون الخوارج أهم فئاتها المستوطنة ونمت بنمو العلائق التجارية حتى صارت من الأمصار. يقول ابن حوقل: وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، ولما استولت قبيلة زناتة الصنهاجية على الجزء الشمالى من مملكة غانة صارت عاصمتهم أودغست تحت حكم بروتان ابن دبستو بن نزار (٣٥٠-٣٦٠هـ) (٩٦٠م) الذى أخضع عشرين ملكا إفريقيا أدوا إليه الجزية وقام بنشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب واستعانوا فى ذلك بمن لجأ إليهم من الشمال طالبا عندهم الإحسان.

وفى ٩٩٠م استولت غانة على أودغست ووضع حاكم غانا عليها حاكمًا سوننكيا وربما اتخذها ملك غانا محل إقامة له فى بعض الأوقات مما جعل بعض المؤرخين يخلطون بينها وبين كومبى صالح عاصمة غانا القديمة ويذكرون اثنى عشر مسجدًا وحيان وهذا هو الوصف الذى ورد عن كومبى صالح ومنذ ذلك التاريخ أصبحت أودغست خاضعة لغانة تدفع لها الجزية حتى منتصف القرن الحادى عشر.

وعندما فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥م عاقبوها على خضوعها لإمبراطورية غانة واستسلامها لها.

وقد أشار المؤرخون إلى جهود إمبراطورية أودغست وتفانى ملكوها فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا وقد بلغت هذه الإمبراطورية ذروة قوتها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وليس من شك فى أن صلاتها بغانة أدت إلى انتشار الإسلام بين السوننكيين.

غانة الإسلامية:

تعتبر غانة من أقدم الإمبراطوريات التى قامت بغربى إفريقيا، أنشأتها مجموعة من البيض يقال أنها ترجع للقرن الأول الميلادى وحكمها العديد من الملوك مجهولى الأصل وحوالى نهاية القرن الثامن الميلادى قامت أسرة من السوننك وهى سيسى ونجحت فى طرد أسرة البيض الحاكمة وظلت الأسرة السوننكية الجديدة تحكم غانة حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التى استولى فيها عليها المرابطون (١٠٧٦م - ١٠٨٧م).

بلغت إمبراطورية غانة ذروة قوتها واتساعها من القرن العاشر الميلادى إلى أواخر القرن الحادى عشر وصارت أعظم قوة سياسية فى السودان الغربى ويمكن القول أنها امتدت من ناحية الشمال وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية وربما وصلت غزواتها إلى منطقة أدرار وامتدت من ناحية الغرب إلى أعالى السنغال وفرعه بأول وحدود مملكة رنة ومن الشرق إلى قرب تنبكتو وجنوبًا إلى منطقة النيجر وأعالى السنغال ومنطقة الذهب فى ونقارة ويرجح أن تكون عاصمتها فى كومبى صالح.

والراجح أيضًا أن أعدادًا كبيرة من سكان غانة قد اعتنقت الإسلام فى زمن مبكر قبل وفود المرابطين. فالبكرى الذى عاصرها يقول: «وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحوهم وهم بيض الألوان حسان الوجوه بالإضافة إلى العديد من الهجرات السياسية الأخرى التى أصهرت إلى الغانيين ونقلت إليهم الإسلام، وشجعت التجارة إليها من جهة الشمال فى حمل حاجة غانا من الملح. وكما سبق أن ذكرنا فإن جهود إمبراطورية أودغست الإسلامية وتفانى ملوكها فى نشر الإسلام أدى إلى اعتناق بعض سكان غانة الإسلام قبل القرن الحادى عشر حيث جاء إسلام ملوك التكرور وأرجابى بن أبيس (٤٣٢هـ - ١٠٤٠هـ) عنصرًا مهمًا فى ازدياد انتشار الإسلام.

ويقول القلقشندى عن إسلام أهل غانة وكان

أهلها أسلموا في أول الفتح وبالنظر لوصف البكرى لعاصمة غانة يتضح أن الإسلام انتشر فيها بالتدريج خلال فترة طويلة إذ أنه يقول: «مدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة الإسلامية التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدهما يجتمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون، وفيها فقهاء وحملة علم، حواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الملك.. وملكهم محمود السيرة محب للمسلمين وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه» وواضح من الثقل الإسلامى الكثيف والوجود السياسى للمسلمين فى بلاد الملك قبل وصول المرابطين إليهم أن إسلام الغانيين لم يكن من فعل تجار عابرين أو غزو عسكرى لما أوردته بعض المصادر من إسلام بعض ملوكهم قبل وصول المرابطين استولوا على عاصمة غانة ١٠٧٦م وعينوا عليها حاكمًا من البربر وأعلن ملكها الإسلام وتبعه سائر قومه.

اشتهر أهل غانة بحماستهم للإسلام وبالدور الكبير الذى نهضوا به فى الدعوة إلى الإسلام حتى إن بعضهم نذر نفسه للدعوة الإسلامية بأن كلمة سننك فى أعالى غامبيا استخدمها الماندنكا الثيرن مرادفة لكلمة داعية مما يدل على الدور الكبير الذى لعبه السوننك فى نشر الإسلام.

أما حكومة غانة الإسلامية فقد عملت على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية فى بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة وادعى ملوكها النسب العلوي.

وقد أدى غزو المرابطين لإضعاف سلطة ملوك غانة حيث خرج الصوصو الوثنيون وأعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن غانة حتى إنهم انتزعوا إقليم ديارا فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ومرة ثانية تبدو أهمية الهجرات السياسية والدور الذى لعبته فى غانة، وذلك عندما استضعفها الصوصو وهاجموها واستولوا عليها تماماً فى مطلع القرن الثالث عشر، وتفرق مسلمو غانة فى البلاد، وعملوا على نشر الإسلام ومن هذه الهجرات هجرة الشيخ إسماعيل الذى بنى مدينة ولاتة.

مملكة كانم برنو:

يمكن أن نستخلص مما أوردناه عن إسلام البرنو بفضل الهجرات السياسية التى غمرت بلادهم أن مملكة البرنو الإسلامية كانت أسبق إسلامًا من غانة غير أن عراقة غانة وغناها جعلها أكثر شهرة من كانم على أن مملكة كانم الإسلامية كانت أطول عمرًا فى خدمة الإسلام فى تلك المنطقة وقد عاشت برنو عصرين واتخذت لها مركزين: المركز الأول فى العصر الأول فى جيمى شمال بحيرة تشاد واستمر من بداية القرن العاشر الميلادى إلى نهاية القرن الثالث عشر.

ويعتبر بعض المؤرخين الماى أوم بن عبد الجليل (١٠١٠م-١٠٩٨م) أول مايات برنو المسلمين ولعل ما حملهم على هذا الاعتقاد - رغم من سبقه من الملوك المسلمين، شهرته الإدارية والحربية كما يعتبر خليفته دونمة بن أو (١٠٩٧م - ١٥٥١م) أعظم ملوك برنو إذ بلغت فى عهده درجة كبيرة من القوة والاتساع هاجم الزغاوة واستولى على سامينا وحج ثلاثة مرات فى مواكب مهيبة ثلاث وتوفى فى الأخيرة غرقاً عند عيذاب وترك لخلفائه مهمة تأمين حدود إمبراطوريته. وبالفعل قاد حفيده الماى عبد الإله بكر معركة العربيات وأصدر قرارات تحدد علاقة بنى المختار بإمبراطوريته (١٨٨٤م-١٨٩٨م) واستطاع الماى سالما بن بكر درء خطر الصو غير أنه قتل فى معركة معهم وتولى ابنه الماى دونمة بن دابال (١٢٢١-١٢٥٩م) فقضى على خطر الصو وقاد أكثر من معركة للتوسع فى البلاد المجاورة ويعتبر عصره الذروة التى بلغتها إمبراطورية البرنو فى العهد الكانمى إذ وصلت حدودها إلى مشارف النيل الأوسط شرقاً، وغربًا إلى النيجر وشمالاً إلى فزان.

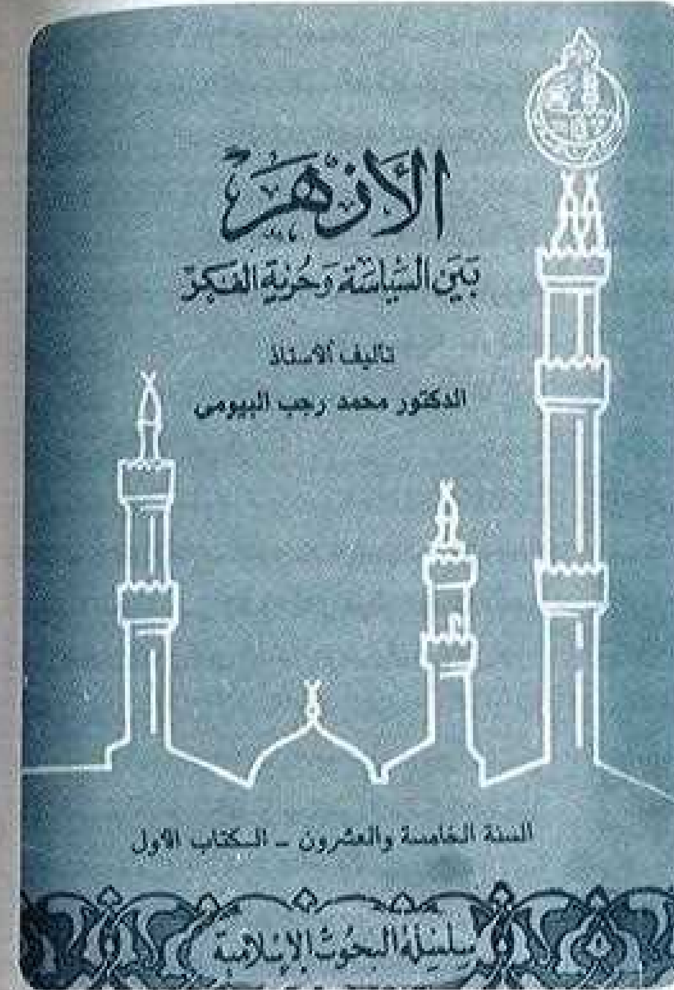
وآخر عظماء برنو هو الماى عثمان بن زينب وهو الماى التاسع عشر فى سلسلة الملوك السبعين وأعتبره أهل برنو خليفة لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقد عمل هذا الماى على نشر الإسلام عن طريق القرارات الرسمية واستجلاب العلماء الفولانيين بالإضافة لتلك الحروب التى قادها تحصينًا لإمبراطوريته ضد الصو والبولالا.

وأخيرًا أدت الفتن والانقسامات فى البيت الحاكم إلى تشجيع كبار الأسر فى مجلس الاثنى عشر ضابطًا العظام لتدبير المؤامرات فهاجر حكام برنو من جيمى فى شمال بحيرة تشاد إلى مدينة بيرونى فى الجنوب الغربى من البحيرة هروبًا من البولالا الذين نجحوا فى إقامة دولتهم شرقى تشاد فى أواخر القرن الرابع عشر ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هجرة الكانميين هذه من أكثر الهجرات السياسية أثرًا فى امتداد الإسلام إلى جنوب غربى بحيرة تشاد فمنذ أن طرد الماى عمر بن إدريس (حوالى ١٣٩١م) من العاصمة جيمى فى كانم على يد عبد الجليل البولالى أخذ المايات المهاجرون فى تلمس الاستقرار فقضوا قرابة القرن من الزمان رهناء للفتن والقلاقل الداخلية وانتقلت عاصمتهم الجديدة من كاكا إلى تايتغام إلى أن تسلم مقاليد الأمور الماى على بن زينب ١٤٧٦م-١٥٠٣م الذى يرجع إليه الفضل فى إعادة هيبة إمبراطورية البرنو وتوسيع رقعة ملكه والقضاء على الحروب الأهلية وبنى عاصمته بيرونى وحصنها وقاد العديد من الغزوات واستولى على العديد من الغنائم وواتاه التوفيق فى استرداد إقليم برنو حين أباد الجيش البولالي وأكمل الماى إدريس بن على (١٥٠٥م-١٥٢٦م) سياسة أبيه الغازى فأخضع البولالا ودخل عاصمتهم جيمى وأدخل ملكهم فى طاعته على أن أعظم مايات هذه الفترة الأخيرة هو الماى إدريس بن على «الوما» وكما كان للماجيرا عائشة الفضل فى توجيه ابنها إدريس وإرشاده، كان للإمام أحمد بن فرتوا رئيس العلماء ومؤرخ بلاد برنو زمن إدريس الفضل فى تخليد أعماله واشتهر عهده بالازدهار فى شتى الميادين فقد أشيع فيه الأمن والرخاء وبنيت المساجد وعادة ما يقارن عهده (١٥٧٠م-١٦٠٣م) بعهد إسكيا الأكبر (ت١٥٢٩م) فى صنغي.

لقد كان لضعف خلفاء إدريس بن عائشة وكثرة المجاعات فى برنو وأخطار القبائل الوثنية فى جنوبيها وحروب كانو وظهور الفولانيين وانتشارهم فى برنو وسيطرتهم على معظم بلاد الهوسا وبعض أجزاء برنو وظهور الشيخ محمد الأمين الكانمى وتحكمه فى عرش برنو وعزل آخر مايات الأسرة السيفية ١٨٤٦م أثر فى زوال برنو. لقد كانت كل هذه الأسباب كافية للتعجيل بنهاية إمبراطورية برنو الإسلامية التى عملت على انتشار الإسلام بين القبائل الوثنية فى جزر بحيرة تشاد.

ووضعت يدها على الأطراف التى كانت توجد بها المسيحية والتى سرعان ما حولت ما وجدت بها من كنائس إلى مساجد ومن أديرة إلى قصور.

قراءة فى كتاب



بقلم/أ: عادل خفاجة

يقول الله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

قال أهل التفسير: إن «من» هنا للتبيين لقوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)،

وعلى ذلك فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يلزم أفراد الأمة كلها، وقيل: للتبعيض وذلك لأن فى الأمة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز وضعف؛ فحسن ادخال لفظ «من» وقيل: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يختص بالعلماء وولاة الأمر وسواء كانت «من» للتبيين أم كانت للتبعيض فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حق العلماء لازم لا مراء فيه، ولأجل ذلك كان نضال الأزهر الفكرى والسياسى تنفيذا لواجب من ألزم الواجبات التى أناطها الله تعالى به؛ فكان هذا التاريخ الحافل بالبطولات لعلماء الأزهر على مر العصور، ولأن حرية الفكر وحرية الأوطان لا يختلفان -بل ينبعان من معين واحد- لأجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر».

مؤلف الكتاب:

هو فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى رئيس تحرير مجلة الأزهر السابق، عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقا، والأستاذ المتفرغ بقسم الأدب والنقد بجامعة الأزهر، ولد عام ١٩٢٣ فى الكفر الجديد التابعة لمدينة المنزلة بمحافظة الدقهلية بمصر نال عالمية الأزهر ١٩٤٩م، ودبلوم معهد التربية ١٩٥٠م، والماجستير ١٩٦٥م، والدكتوراة فى الأدب والنقد ١٩٦٧م.

وتوفى فى ربيع الأول ١٤٣٢هـ/ فبراير ٢٠١١

أسباب تأليف الكتاب:

يقول المؤلف إنه منذ قرابة نصف قرن، ونحن نقرأ فى الصحف عن ضرورة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر، فتعقد لجان وتعد اقتراحات لانجاز هذا الاحتفال الرائع، ثم يمضى الوقت دون تنفيذ، ولكننا اليوم نرى دعوة جادة صادقة لهذا الاحتفال، ونرى اهتماما مشهودا، يؤذن بالجدية المثمرة. لذلك أردت تسجيل المآثر التى سجلها التاريخ ونسيها الناس، فتحدثت فى إيجاز عن نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، لأن قوما تابعوا عن عمد الإرجاف المغرض بالأزهر، فحاولوا أن يطمسوا زعامته السياسية الواضحة لحاجات فى نفوسهم، وتعدوا ذلك إلى رميه ظلما بمناهضته الفكر الحر، ناسين أن الأحرار من زعماء الأمة قد تربوا فى مهده، ونشئوا بين أحضانه.

وفى هذه الصفحات من روائع أعمالهم ما يقدم الدليل الناهض والبرهان الصريح.

أما حرية الفكر الصحيح، فقد كان الأزهر بأعلامه الكبار موئلها المانع، وحصنها الحامي، ومن حق الأزهر أن ينكر جريئا ما يراه باطلا بجانب رسالة الإسلام، التى يقوم على حفظها، ولكن هذا الحق قد وجد من أعداء الإسلام من يفسره على غير وجهه، فجاء هذا الكتاب ليدعو إلى الحق بالحكمة الصادقة، والأثر الشاهد، وليعلن فى وضوح كيف كان الأزهر الشريف لسان الصدق الصريح، وكيف تجرأ مناوئوه على الحقيقة حين وصفوه بما ليس فيه، بل كيف كانوا أعداء الحقيقة وهم يتظاهرون بالدفاع عنها مرائين.

يقع الكتاب فى ثلاثمائة وأربع صفحات من مقاس ١٧×٢٤سم وقد صدر عن الأزهر الشريف ضمن سلسلة البحوث الإسلامية سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين تناول فى القسم الأول نضال الأزهر السياسي، وذلك من خلال حديثه عن الأزهر فى العصر العثماني، والأزهر والغزوة الفرنسية، والأزهر فى عصر محمد على ثم الأزهر وإرهاصات الثورة العرابية ثم دور الأزهر بعد الاحتلال الانجليزى ثم تحدث عن قيادة الأزهر لثورة ١٩١٩.

لقد أوضح المؤلف فى معرض حديثه عن الأزهر فى عصر المماليك أن الحاكمين من المماليك كانوا كل شيء فى الدولة، وكان أتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند لا يتقيدون بدستور يلزم، إذ يكفى أن يكون الأمير موضع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر ويفرض ما يشاء.

ليشير المؤلف من خلال هذا الجو الخانق إلى رسالة علماء الدين ودور الأزهر فى إحقاق الحق وما كان يواجه العلماء فى سبيل ذلك من الصعوبات وبخاصة وأن هؤلاء العلماء يواجهون جبابرة مارقين.

ويستعرض المؤلف عددا من النماذج لبطولة العلماء فى أحلك عهود الاستبداد من هؤلاء العلماء: العزبن عبدالسلام والفقيه القاضى الورع ابن دقيق العيد والشيخ زكريا الأنصارى «شيخ الإسلام» والشيخ محيى الدين النووى وغيرهم.

ويشير المؤلف إلى أن تاريخ الجبرتى مليء بأحداث رائعة تكتب بالذهب حين تسجل كفاح علماء الأزهر ضد الطغيان فيقول:

ولعل مما أفزعه (يقصد العز بن عبدالسلام) أن يعيش فترة فى دمشق ليرى صاحب أمرها يصالح الصليبين ويستنصر بهم على أخيه الملك المسلم، ثم يحدق بعينيه فيشهد جنود الفرنجة يشترون السلاح من مسلمى دمشق، ليحاربوا به إخوانهم فى الدين! أيجوز أن يسكت عن هذه المآثم، كما سكت سواه؟

إنه ليخطب فى المسجد منددًا بمن يتخذ أعداء دينه أولياء، ومحرما بيع السلاح لصليبى يحارب الإسلام وكانت النفوس هائجة، والأعصاب متوترة، فأحدث ضجة أفزعت الحاكم الضال، وحاول أن يبطش بمن ندد به، ولكن باطله السافر، كان أعجز من أن يقف فى وجه العز داعية الحق، وكل ما استطاعه أن حمله على الهجرة إلى مصر، فرحل إليها مستريح النفس، ليواصل دعوته الحرة، وليصطدم بأقوى سلطان عرفه العصر المملوكي، وهو الظاهر بيبرس، إذ خالف أمره حين هم بفرض الضرائب على الشعب الكادح، وجواريه ونساؤه وغلمانه وأشياعه من الأمراء والجند يملكون من قلائد الذهب وحلى الفضة ما

الأزهر بين السياسة وحرية الفكر

يكفي بعضه لأعداد الجيش وتهيئة السلاح.

وانتصر الرجل بعون الله في أولى معاركه انتصارًا دفعه إلى معارك مماثلة كللت بتوفيق الله! وضربت للعلماء مثلا باهرًا في العزة الإسلامية، والحرية المثالية، حتى رأينا من هؤلاء الأماثل من ينهجون نهجه في شموخ واعتزاز، ولا يتسع المجال للإحاطة بمواقفهم البارزة.

ولقد التزم المؤلف في هذا الكتاب ألا يعتمد على روايات ضعيفة أو أخبار مرجوحة وأن يستدل دائمًا بما سطره مؤرخو العصر مجمعين على حدوثه، دون أن يشذ واحد منهم بتشكيك يوقع بعض الريب.

وكم يسعد المؤلف أن يجمع المؤرخون على تأييد هذه الأحداث، لأن في إجماعهم ما يسوء قومًا أن تذاع مآثر العلماء.

الأزهر والغزوة الفرنسية:

ونتنقل مع المؤلف إلى حديثه عن الغزوة الفرنسية إذ يرى أن الأزهر كان وحده هو جامعة الثقافة المصرية، حين تعرضت البلاد للغزو الفرنسي بقيادة نابليون، ومعنى ذلك أن علماءه كانوا ذوي التوجيه الهادف، والزعامة القائدة بين الجمهور.

يقول المؤلف: وحين علم مراد بالغزو الفرنسي استهزأ به، وظن القادمين فلولا مرتشعة، ترجف من سطوة المماليك، وقد عبر بذلك لقنصل النمسا حين قال: إن الفرنسيين (فستق) للأكل لا للحرب! ثم جمع لمقاومتهم جيشًا ضم اثنى عشر ألفا، منهم ثلاثة آلاف من المماليك، وتسعة آلاف من الفلاحين والعرب، الذين لا يعرفون بدائه القتال! ولا نسرف في وصف هذه المعركة الأليمة، فقد انتصر نابليون واحتل البلاد.

نزل القائد القاهرة واثقا مفتخرًا، ومال إلى الكياسة فأعلن حبه للشعب المصري، وأنه قد جاء لينقذه من بطش المماليك والعثمانيين، فهو يحب الإسلام ويقدر شريعته، ثم أنشأ ديوانا لحكم مصر، جعل أعضاءه عشرة من كبار العلماء، ليوهم الشعب أنهم الحاكمون، وجاءت مناسبة المولد النبوي فاحتفل به احتفالاً باهرًا، كما احتفل بوفاء النيل احتفالا مماثلا، يفوق ما عهد في أيام مراد، اذ أطلق المدافع، وزين السفن بالمصابيح، وأظهر ابتهاج جنده بما يشاهدون! وظن بعد ذلك كله أن الأمر استقر، وأن الريح ستجري رخاء في مقبل أيامه.

أخذ أبطال المقاومة يتجمعون، وكان الأزهر محلهم المختار، فكدسوا الأسلحة في أروقته وزواياه، حتى اذا استوثقوا من قوتهم، صعد المؤذنون ينادون بالجهاد على المآذن، وفي مذكرات نابليون ما يثبت، أن لجنة الأزهر كانت تسمى لجنة الثورة، وأن رئاستها كانت للشيخ السادات، وأن علماء الأزهر كانوا يطوفون بالشوارع محرضين، كما قدرت المصادر الفرنسية عدد الذين تجمعوا بالأزهر تحت قيادة علمائه بخمسة عشر ألفا!

ويواصل المؤلف وصف ما ألم بالبلاد من خراب وتدمير من شدة ضرب المدافع الفرنسية حتى أوشك الأزهر أن يتداعي، ثم يرد على افتراء من يصفون الشعب المصري بالاستكانة والرضى بالاحتلال فيقول:

«ولو كانت الاستكانة صفة حقيقة لهذا الشعب المفترى عليه، لآثر الخضوع، ونابليون يعده الأماني، ويشاركه احتفالاته الدينية، ويعلن حبه للدين الإسلامي، ويؤلف مجلس الحكم من كبار العلماء! ويمنع ما عهد في المتاجر والأسواق أيام المماليك من السلب والنهب والاغتصاب! ويبدأ في تنظيم الشوارع، ونظافة المسالك بما لم يعهده من قبل.

كل ذلك لا يساوى ذرة واحدة من ذرات الكرامة المستباحة، ولا يزن ذبابة في ميزان الحرية المنشودة، والاستقلال المراد، وما يُقال عن القاهرة يُقال عن المقاومة المستبسلة في كل صقع، على أيدى أناس بررة من ذوى النخوة المثالية.

ولننتقل إلى الشق الآخر من الكتاب وهو حديث المؤلف عن حرية الفكر، حيث يستهله المؤلف بكلمة كاشفة عن موقف الأزهر من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» يقول المؤلف:

ما رأيت موقفًا ظلم فيه الأزهر عن عمد مقصود، كما ظلم في موقفه من كتاب، الإسلام وأصول الحكم، لقد هوجم الأزهر ظلمًا في مواقف كثيرة، من أعداء يبغضون رسالته، ويضيقون بقيادته، ولكن ما هوجم به الأزهر في هذه القضية، كان من الافتراء والبهتان واختلاق المتاعب، بحيث يضيق له صدر الحليم، اذ كل ما وجه إليه من الأراجيف وليد حقد موغل على الحق، وغرض صريح من الباطل.

وكان من فداحة الأمر، أن الذين قاموا باختلاق الأراجيف الكاذبة، قوم يتشدقون بدعوى الحرية، وانطلاق الفكر، والخلوص من الجمود، ومحاربة الرجعية، وهي عبارات تجد استهواء من الغافلين، الذين لا يدركون كيف يسمى الكذب صدقا، والخيانة أمانة، والسفسطة فكرًا، والتطاول نقدًا.

وأسوأ ما في الموقف كله، أن يتصدى للهجوم من لا يعرف شيئًا عن حقائق الإسلام، وهو فيما بينه وبين نفسه فحسب، كاتب كبير يقود حرية الرأى ولكنه عند الدارسين، دخيل لصيق، يهرف بما لا يعرف!

وقبل كل شئ، أعلن أن صاحب القضية، الأستاذ على عبدالرازق، رحمه الله، باحث جاد اجتهد فأخطأ، اجتهد في أصل من أصول الإسلام التي قام عليها بناؤه، فلم ينل حظا من التوفيق.

وكان على الأزهر أن يعلن للناس خطأ المجتهد، في أصول الإسلام بالدليل الناهض والحجة الواضحة.

وكان على الأستاذ أن يستمع إلى الحجة الناهضة في تواضع وإذعان، ولكن نفرا ممن يسيئهم أن يظهر الحق في قضية إسلامية تمس أصلا من أصوله قد تعاوروا من حوله، وأخذوا يبذلون الجهد الجاهد في تأييده وتسفيه معارضيه، حتى خيل إليه أنه على حق.

الرجل بشر لا يدعى الكمال، ولا يدعيه له أحد، وكان في طور الشباب المندفع، فوجد من تأييد المغرضين ما دفعه إلى العناد، بل ما دفعه إلى الاستعلاء! والاستعلاء حميد كريم اذا كان على الباطل، أما أن يحاول عالم باحث أن يستعلي على الحق، وأن ينظر شزرًا إلى من يهدونه إليه، فذلك غير الطريق المستقيم.


على عبدالرازق

إن الذين يؤيدونه بالباطل لا يريدون أن يعلنوا للعامة أن الكتاب قد ألف بعد سقوط الخلافة ويحاولون إشاعة أن الملك فؤاد قد طمع في أن يكون خليفة، وأن الأزهر يحاول أن يؤيد الملك، لا أن يؤيد الإسلام، وأن الباحث الجرئ، على عبدالرازق قد تصدى للملك بكتابه، وأن الملك لا يؤيده غير الرجعيين من علماءالأزهر.

ويشير المؤلف إلى أن الأستاذ على عبدالرازق قد اعترف أنه بدأ يكتب كتابه عن الحكم في الإسلام سنة ١٩١٥م حين عين قاضيًا بالمحاكم الشرعية في مصر وأنه اعترف بذلك في ص٢٥ من الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٥ كما اعترف بأنه كتب هذا الكلام والخلافة الإسلامية قائمة في تركيا لم يفكر في إلغائها أحد، والخليفة القائم هو السلطان محمد الخامس.

لذلك يرى المؤلف أن البحث العلمي لو سار في هذه القضية على وجهه الهادئ المطمئن لظهر الحق سريعًا لذى عينين ولأدرك المخطئ خطاه دون جدال.

لكن أعداء الفكرة الإسلامية لا يريدون للحق أن يظهر.. ويشير المؤلف إلى أن هذه القضية بعد أن انقطع دويها بظهور وجه الحق فيها بما لا يقبل اللجاج، ظهرت مرة أخرى على يد الأستاذ أحمد بهاء الدين في كتابه «أيام

لها تاريخ، وكأنها حق لا شبهة فيه.

ويقل المؤلف من كتاب الأستاذ بهاء الدين قوله:

«أدرك القصة ـ قصة الخلافة ـ الأذناب وتجار الدين، فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة، التى علقوا بقيامها شرف الإسلام، والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون، لا أحد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد، ولا أحد يجسر على أن يحصب كهنة الدين بحصاة!

ثم يقول بعد صفحات من الكتاب: «لم يكد يخرج إلى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع من جميع الاتجاهات، الملك وأذنابه، لأن الكتاب فيه حملة هائلة على الملوك، وتحطيم لحلم شامل، لحلم الخلافة البراق! ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا فى هذا المنطق ما يزعزع سلطانهم، ويعقل منافعهم فى الاتجار بالدين ويكشف عن حقائق هذه العمائم الضخمة، التى لا ترتفع إلا لتستر وراءها الظلم والاستبداد».

ويتساءل المؤلف ـ ليرفع هذا الظلم عن الأزهر: أين سلطان رجال الدين الإسلامي؟ أكان فى الإسلام كما فى الكنيسة سلطان لرجال الدين؟ ومتى كان ذلك لهم فى مصر حين صدر الكتاب؟

أليس شيخ الأزهر وهو رئيس هؤلاء موظفًا يولى ويعزل كسائر الموظفين؟

ويشير المؤلف إلى أن ما قاله الأستاذ أحمد بهاء جاء بعد ثلاثين عامًا من انتهاء تلك العاصفة وبعد اعتراف الأستاذ على عبدالرازق نفسه بأنه كتب الكتاب قبل أن يفكر أحد فى سقوط الخلافة.

وقد رجع المؤلف إلى التقرير الذى أعده الأزهر فى هذا الشأن وهو يقع فى ثلاث وأربعين صفحة فأوجزه فى صفحات وقد اختار المؤلف من التقرير عدة نقاط نذكر منها:


أحمد بهاء الدين

› قال المؤلف (أى صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم): «إن الشرعية الإسلامية شريعة روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ، وأن الدنيا من أولها إلى آخرها، وجميع ما فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول، وأهون على الله من أن يبعث لها رسولاً، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها».

وجاء فى التقرير تعقيبا على ذلك ملخصًا: إن المؤلف يشطر الدين الإسلامي شطرين، فيلغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الكتاب وسنة رسول الله عرض الحائط، فهو يصادم آيات مثل قول الله:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾
(القصص: ٧٧)

وقوله:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾
(النساء: ١٠٥)

وقوله:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾
(المائدة: ٤٩)

وقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾
(النساء: ٥٨)

وقوله:

﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ ﴾
(النساء: ٢٩)

واستطرد التقرير إلى ذكر آيات كثيرة مشتهرة، شملت صحائف ١٢، ١٣، ١٤، مما هو ذائع لدى المسلمين، كما ذكر من أحاديث الرسول ما ينص على تطبيق الآيات دون لبس.

وعلى هذه الشاكلة جاء تقرير الأزهر يوضح أن الكتاب مملوء بالأخطاء الفقهية مما دفع المؤلف بعد سرد العديد منها إلى القول:

ولنا أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون علماء الأزهر بالوصولية والرجعية، في موقفهم من كتاب الشيخ على عبدالرازق، نقول لهم أكنتم تطلبون أن يسكت العلماء عن أمر فقهى أصولي، يمس أصلاً أصيلاً من قواعد الدين، فلا يجوز لهم أن يقولوا للمخطئ أخطأت، وهو عالم أزهرى يعد منهم، وخطؤه راجع إليهم، وإذا سكتوا كما تريدون، أفيستحقون أن يقوموا على رعاية الدين فى أكبر هيئة علمية أنشأها القانون، لتدافع عن مقررات الإسلام، أم كنتم تطلبون منهم أن يسارعوا إلى تأييد الباطل، ليكونوا موضع الرضا ممن يشايعون الإلحاد، لحاجة من حاجات نفوسهم المريضة، وإذ ذاك يكون العلماء تقدميين متطورين!

ولنفرض أن الدفع عن الخلافة قد صادف هوى من نفس الحاكم، أفيكون كل ما صادف هذا الهوى مرفوضًا منكرًا، وإن كان هواه مع الحق الصريح، وهل تتغير الأحكام الثابتة مراعاة لاعتقاد زيد، وإنكار عمرو!

إننا نسائل محكمة الرأى العام، بعد أن اتضحت الأمور على وجه لا يقبل اللبس؟ أيكون من دافع عن نصوص القرآن الصريحة، وأحاديث النبوة الصحيحة وصوليًا، مدلسًا رجعيًا، يتهم فى أخلاقه وسلوكه، ثم يكون من يحاول تحطيم الأصول الشرعية صادقًا مؤمنًا حرًا، لا يجوز أن يناقشه أحد، وإذا تجرأ عالم على نقاشه فهو انتهازى مأجور! أى إرهاب هذا، وممن؟ من قوم ينتفخون بدعوى حرية الفكر، ونزاهة الضمير!


محمد رجب البيومي

وعلى هذه الوتيرة سار المؤلف يقدم البراهين الهادية الساطعة فى عدد من القضايا التى نال الغلاة فيها من الأزهر وذلك من خلال حديثه عن الأزهر وأيام طه حسين، والأزهر وكتاب الشعر الجاهلي، والأزهر والسلام الديني، والأزهر وحرية الفكر، ثم تناول قضية مسكوت عنها وهي: «هل تعلمت المرأة فى الأزهر القديم؟» ثم الأزهر والدراسات الفلسفية ثم يختتم بحديث عن الأزهر بين السياسة وحرية الفكر.

وبعد.. فقد قدم المؤلف الأزهر فى صورته الحقيقية التى يبدو فيها العالم مجاهدًا لا يثنيه عن رد الظلم شيء معتمدًا فى ذلك على ما أجمع عليه المؤرخون حتى لا يترك مجالاً لمستريب، ويكفى المؤلف ما أثبته من ريادة الأزهر لثورة ١٩١٩ وأن سعد زغلول فوجئ بالمظاهرات التى انبعثت من الأزهر وأن الثورة بدون الأزهر تفقد الجليل الرائع.

وقد جاء القسم الثانى من الكتاب أكثر سخونة حين تكلم عن حرية الفكر حيث نجد جهد الأزهر أشق وأصعب، لأن مجال الرأى يحتاج إلى من يجلو وجهة نظره فى صدق ويترك للقارئ أن يتأمل فى حيدة.. ولقد فعلها المؤلف باقتدار.

من تراث الهلال

طبيعة الخلاف بين الإسلاميين والعلمانيين

أ. عاطف مصطفى

المجلة الثقافية دائما ما تحرص على عرض كافة القضايا المختلفة والمتنوعة التى تهم القارئ. وفى كل عدد من أعداد الهلال، كانت مادة الدين والفلسفة الإسلامية والتاريخ الإسلامى تحظى بكل التقدير والاهتمام، فتشكيل الوجدان عند شباب المثقفين من الضرورى أن تصقله كتابات ورؤى كبار العلماء والمفكرين وخاصة من رجال الأزهر الشريف.

وكان للأستاذ الدكتور محمد عمارة دوره البارز فى مجلة الهلال فى الفترة التى رأس فيها كل من الأستاذ رجاء النقاش والأستاذ مصطفى نبيل رئاسة التحرير، واستمر عطاء الدكتور عمارة الفكرى والثقافى لأكثر من خمسة وثلاثين عاما (٩٦٩١ ـ ٥٠٠٢م)، حيث أسهم بمقالاته العلمية المتفردة أو بكتبه التى صدرت فى سلسلة «كتاب الهلال» الشهري.

وفى هذه الحلقة من تراث الهلال نتوقف عند مقال له دلالة خاصة فى هذه المرحلة من حياة مصر، نشره فى عدد فبراير ١٩٨٨م أى منذ ربع قرن ـ تقريبا ـ وبعنوان «طبيعة الخلاف بين الإسلاميين والعلمانيين» وقد قسم المقال إلى ثلاثة أقسام يقول فى القسم الأول:

إن طبيعة الخلاف بين الإسلاميين الذين يرون الإسلام دينا ودولة، وبين العلمانيين الذين يرونه دينا لا دولة، هى طبيعة سياسية وموضوعها هو «الفروع» وليست طبيعة دينية موضوعها العقائد والأصول.

وهذه الحقيقة على جانب كبير من الدقة والأهمية، ويؤدى إهمالها أو إغفالها إلى منزلق خطر فى الأحكام الفكرية بواقعنا الإسلامى الراهن على وجه الخصوص.

ذلك أن موضوع هذا الخلاف بين الإسلاميين والعلمانيين ليس عقائد الإسلام وأركانه، وإنما موضوع الخلاف هو «الدولة»، ونحن إذا استثنينا إخوتنا الشيعة الإمامية، فسنجد سائر تيارات الفكر الإسلامى مجمعة على أن «الدولة ـ الخلافة، الإمامة» هى من الفروع، وليست من «أصول الدين وأركانه».

ولذلك فإن الخلاف فيها، إنما يجب تصنيفه تحت أحكام وأوصاف «الصواب»، و«الخطأ»، و«النفع» و«الضرر» وليس تحت أحكام وأوصاف «الكفر» و«الإيمان».

يقول الدكتور محمد عمارة مواصلا: وإذا كان لى أن أسوق من فكر السلف نصوصا شاهدة على هذه الحقيقة الفكرية فإننى أشير إلى:

- قول الشهرستانى (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ/ ١٠٨٦ـ١١٥٣م): إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد (١).
- وقول عضد الدين الإيجى (٧٥٦هـ ـ ١٣٥٥م) والشريف الجرجانى (٧٤٠هـ ـ ٨١٦/ ١٣٤٠م ـ ١٤١٣م) «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين وإنما ذكرناها فى علم الكلام وهو علم أصول الدين] تأسيا بمن قبلنا، إذ قد جرت عادة المتكلمين بذكرها فى أواخر كتبهم (٢).
- وقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥ / ١٠٥٨ ـ ١١١١م): «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات، ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإن القلوب عن المخالف للمألوف شديدة النفار» (٣).
- وقول الجوينى إمام الحرمين (٤١٩ ـ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨ـ١٠٨٥م): «إن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الاعتقاد» (٤).
- وقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م) إنها ليست من أركان الإسلام الخمسة ولا من أركان الإيمان الستة: «وهى الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر» ولا من أركان الإحسان ـ «والتى هى: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٥).
- وقول العلامة ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م): «وشبهة «الشيعة الإمامية» فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين وليس كذلك، إنما هى من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق (٦) فالدولة ـ الخلافة ـ الإمامة، بكل ما يتعلق بها من مباحث «الفروع» وأحكام وأوصاف الفكر والمفكرين المختلفين فيها، يجب ألا تتعدى إطار «الخطأ» و«الصواب» إلى إطار «الكفر» و«الإيمان» وهذا الإطار ـ إطار «الخطأ» و«الصواب» و«الضرر» و«النفع» هو ـ فى اعتقادى «الإطار الذى يجب أن يحكم خلافنا نحن الإسلاميين مع العلمانيين الذين لا يتبنون العلمانية ـ الثورية ـ الشمولية، الداعية إلى اقتلاع الدين من اعتقاد الأفراد والشعوب.

-٢-

يواصل الأستاذ الدكتور محمد عمارة: وهذه الحقيقة «الفكرية ـ الإسلامية» تزداد أهمية وتأكيدا، عندما ننظر إليها فى إطار الإسلام وضوء فكره الذى دعا ويدعو إلى «التحرج الشديد» فى الحكم على معتقدات من يشهدون بتوحيد الله، ونبوة محمد ﷺ، وخاصة إذا كان هذا الحكم فى اتجاه «التكفير»، وإخراجهم من حظيرة الإسلام وإذا كان لى أن أسوق شواهد على هذه النعمة التى تميز بها الإسلام، ودعانا إلى التزامها والحرص عليها، فى مواجهة «الكهانة والكهنوت»، و«السلطة الدينية» للأحبار الذين انتزعوا لأنفسهم سلطان الله فى الحكم

١- «نهاية الأقوام فى علم الكلام الإقدام» ص٤٧٨ طبعة وتحقيق الفريد جديوم بدون تاريخ ولا مكان الطبع
٢- «شرح المواقف» ج٢ ص٢٦١ طبعة القاهرة سنة ١٣١١هـ.
٣- «الاقتصاد فى الاعتقاد» ص١٣٤ طبعة صبيح. القاهرة. بدون تاريخ
٤- «الإرشاد» ص٤١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠.
٥- «منهاج السنة» جـ١ ص٧٠ ، ص٧٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م
٦- «المقدمة» ص١٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

على معتقدات البشر، فإنني أشير إلي:

قول الله سبحانه وتعالي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾

[النساء: ٩٤]

● وقول الرسول ﷺ ـ فيما يرويه أسامة بن زيد يقول: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات «مكان» ـ من جهينة، فأدركت رجلا، فقال لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ.

فقال: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!».

قال: قلت يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال ﷺ «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟».

فمازال يكررها على حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ أى حتى يجب الإسلام هذا الذنب العظيم..!

وبعد أن مضى عهد رسول الله ﷺ، حدث أن تدارس بعض الصحابة هذا الحديث ودلالاته، فقال رجل في صيغة التبرير أقتل ذلك الذى قال لا إله إلا الله.

– ألم يقل الله:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾

[الأنفال: ٣٩]

فرد عليه صحابى ممن شهد هذه السرية، التى حدث فيها هذا الحدث، قائلا في صيغة الاستنكار لهذا المنطق.

– لقد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة (٧).

فقتال من يشهد أن لا إله إلا الله ـ وإن بتكفيره. والتكفير إسلاميا قتل! هو في نظر الإسلام فتنة، ولا يمكن أن يكون منعا للفتنة بحال من الأحوال.

● وقول حجة الإسلام الإمام الغزالي: «ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (٨) من دم مسلم (٩).

● يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: «لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان(١٠).

(٣)

يوضح الأستاذ الدكتور محمد عمارة في القسم الثالث من مقاله في الهلال موقف علماء الأزهر من الدعوة للعلمانية والزعم بعلمانية الإسلام فيقول: «لم يكن هذا الفكر الذى امتاز وتميز بسماحة الإسلام، والنهي عن الحكم على الضمائر بالكفر لم يكن مجرد

٧– رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد

٨– المحجمة كوب صغيرة يجمع فيه «الحجام» الفصد وهو الدم الفاسد

٩– الاقتصاد في الاعتقاد ص١٤٢.

١٠– الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ٣ ص٢٨٣.

فكر نظري، بل لقد تميزت به المسيرة الإسلامية، وعرف طريقه إلى «الممارسة والتطبيق» ولعل من المفيد أن نشير إلى موقف مماثل عرفته حياتنا الفكرية في العقد الثالث من القرن الميلادى العشرين.

ففى إبريل سنة ١٩٢٥م خرج واحد من علماء الأزهر، وقضاة المحاكم الشرعية بمصر وهو الشيخ على عبدالرازق: (١٣٠٥ ـ ١٣٨٢هـ ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م) على الناس بكتاب «الإسلام وأصول الحكم» وفيه قال بعلمانية الإسلام، وانفرد دون علماء الإسلام بالادعاء أن الإسلام دين لا دولة، ورسالة روحية خالصة، كالرسالات التى سبقته، لا علاقة له بسياسة المجتمع وتنظيم شئون العمران.. وقال الرجل ضمن ما قال «إن محمدا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة، وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة، ولا داعيا إلى ملك (١١).

فماذا كان موقف علماء الإسلام من هذه الدعوة للعلمانية والزعم بعلمانية الإسلام، والتسوية بينه وبين المسيحية، التى طلبت من أتباعها أن يدعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!!

إن علماء الأزهر الشريف ـ ممثلين في «هيئة كبار العلماء» ـ وكانوا يومئذ أئمة الإسلام على امتداد عالمه ـ لم يدر بخلدهم «تكفير» على عبدالرازق، ولا إلقاء الشبهات في عقيدته وإيمانه، وكل الذى فعلوه، بعد أن اجتمعوا في صورة «هيئة تأديبية» هو تقرير «عدم لياقة» صدور مثل هذا الفكر، من أحد العلماء الشرعيين، فأخرجوه من «زمرة العلماء» دون أن يتهموه في عقيدته الدينية(١٢) فكان ذلك موقفا عمليا تطبيقيا لعلماء الإسلام:

● يرفض العلمانية وفصل الدين عن الدولة رفضا قاطعا لا لين فيه ولا تردد.

● لكنه لا يكفر العلمانيين لأن الخلاف معهم سياسى في «الفروع» وليس في ركن من أركان الإسلام أو عقائده وأصوله.

● والعلمانية ـ بما تعنيه من فصل الدين عن الدولة ـ هى وافد غربى لا مكان لها في واقعنا الإسلامي، لأنها «حل أوروبى لمشكلة أوروبية» والحوار مع دعاتها ضرورة إسلامية، من أجل هزيمة منطقها وتخليص عقول «المتغربين» من سلطانها.

لكن الخلاف معهم هو خلاف «فكرى ـ سياسي» موضوعه «الدولة» وهى «من الفروع» التى تقف أحكام وأوصاف الخلاف والاتفاق فيها عند «الصواب» و«الخطأ» دون أن تتجاوزه إلى «الكفر» أو «الإيمان».

ويختم الدكتور محمد عمارة مقاله إلى «إنما يجب أن نميز «أحكامنا» عن «أحكام الله سبحانه وتعالي» وأن نمتنع عن آفة تقليد أهل الديانات الأخري، الذين اغتصب كهانهم وأحبارهم سلطان الله في الحكم على الضمائر والعقائد، وفى إضفاء الطبيعة الدينية الكهنوتية ـ تحليلا وتحريما، وغفرانا وحرمانا، على أحكامهم البشرية، وقدوتنا في ذلك حديث الرسول ﷺ، فلقد روى أنه «كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية، أوصاه إذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا.. صدق رسول الله ﷺ.

١١– علي عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم» ص١٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م

١٢– انظر حيثيات حكم هيئة كبار العلماء في المرجع السابق ص٧٢ ـ ٩١

بين الصحف والمجلات

للأستاذ: محمد جمعة

الدستور المصرى يلقى اهتمام الصحف العالمية

نشرت جريدة «الحرية والعدالة» ردود أفعال الصحف العالمية حول الدستور المصرى بعددها الصادر بتاريخ ٢٧ / ١٢ / ٢٠١٢م جاء فيه:

● قالت صحيفة «توداى زمان» التركية: إن الانتصار الساحق للإسلاميين فى الاستفتاء على الدستور المصرى الجديد يؤكد عجز جبهة المعارضة للتصدى لمسيرة الرئيس محمد مرسى فى حكم مصر، وأوضحت أن النتائج النهائية الرسمية للاستفتاء تعطى الإسلاميين ثالث انتصار انتخابى على التوالى منذ الإطاحة بالرئيس السابق.

● وذكرت صحيفة «يو إس إيه توداي» الأمريكية: إن الموافقة الرسمية على مشروع الدستور المصرى المتنازع عليه تحمل آمالاً من الاستقرار السياسى للبلاد بعد مرور ما يقرب من عامين من الاضطرابات التى اجتاحت البلاد، ورأت أن الرئيس محمد مرسى سيوجه انتباهه فى المرحلة المقبلة إلى معافاة الاقتصاد المتداعي.

● من جانبها ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» أن الإعلان الرسمى عن نتائج الاستفتاء بموافقة نحو ثلثى الناخبين بنسبة ٦٤٪ يفضح المعارضة التى زعمت عبر وسائل الإعلام المختلفة أن مؤيدى الإخوان المسلمين أقلية ضعيفة.

وأضافت الصحيفة أن الانتخابات التشريعية المقرر عقدها خلال الـ ٦٠ يومًا القادمة ستكون انتخابات حاسمة فى مستقبل مصر، حيث يتيح الدستور الجديد للمشرعين تحديد طبيعة الحكومة المقبلة. لافتة إلى حجم التحديات الاقتصادية التى تواجه نظام الرئيس مرسى والتى تستوجب اتخاذ تدابير تقشفية تتطلب لحظة سياسية مستقرة.

● أما صحيفة «زود دوتيشه تسايتونغ» الألمانية فقالت: منذ ثورة يناير ٢٠١١م التى أطاحت بالديكتاتور حسنى مبارك، والصراعات فى مصر يتم خوضها فى شوارع البلاد وكذلك التعرض للمؤسسات الحكومية، والحكم على قضية بأنها عادلة أو غير عادلة يقرره عدد المتظاهرين والمضربين، والعنف فى المظاهرات بات أمرًا طبيعيًا، إذ حلت قنابل المولوتوف محل الشعارات، والأسلحة النارية محل مكبرات الصوت، كما تتعرض مقرات الأحزاب للهجوم وللإحراق، والمؤسسة الوحيدة التى يبدو أنها نجت من هذا كله هى المؤسسة العسكرية التى تسعى لحماية الوطن والبقاء على الحياد.

● وقالت صحيفة «إسرائيل اليوم» العبرية: إن النتائج الرسمية للاستفتاء على الدستور المصرى الجديد التى أكدت أن ٦٣,٨٪ من الشعب المصرى وافق عليه يعد إنجازًا سياسيًا للرئيس المصرى محمد مرسى وانتصارًا للتيار الإسلامى فى البلاد.

إسرائيل على الخط!!

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ فهمى هويدى مقاله المنشور بجريدة الشروق الصادرة بتاريخ: ٢٤ / ١٢ / ٢٠١٢م يقول:

● مساء الخميس (٢٠ / ١٢ / ٢٠١٢ م) كشف التليفزيون الإسرائيلى النقاب عن أن الملياردير اليهودى الأمريكى شيلدون أدلسون، المقرب من نتنياهو، يجرى اتصالات مع مجموعة من متعصبى أقباط المهجر لشن حملة دعائية لنزع الشرعية الدولية عن الرئيس محمد مرسي، وذلك عبر استخدام وسائل الإعلام الأمريكية وإقناع أعضاء الكونجرس الأمريكي بسن تشريعات جديدة تحظر تقديم مساعدات لمصر بزعم أن الدستور المصرى يمس بحقوق الأقباط والمرأة.. ونوه مراسل التليفزيون فى واشنطن إلى أن أدلسون قام بترتيب لقاءات لبعض أولئك النشطاء مع نواب فى مجلسى الكونجرس لهذا الغرض.. ويذكر أن أدلسون على علاقة قوية جدا مع أعضاء مجلسى النواب والشيوخ فى الكونجرس، فضلا دعمه للحزب الجمهوري، حيث ساهم بمبلغ ١٠٠ مليون دولار لدعم الحملة الانتخابية للمرشح الجمهورى ميت رومني، وقد أكد مراسل التليفزيون أنه لا يساوره شك فى أن تحرك أدلسون يأتى بالتنسيق الكامل مع مكتب نتنياهو، الذى شعر بغيظ وحنق شديدين بسبب موقف الرئيس المصرى خلال الحرب الأخيرة على قطاع غزة.

● وفى حديث للتليفزيون الإسرائيلى جرى بثه فى (٢٠ / ١٢ / ٢٠١٢ م) قال وزير الداخلية الحاخام إيلى يشاى زعيم حركة شاس الدينية المتطرفة: إن الرئيس الأمريكى باراك أوباما مطالب بالتدخل والضغط على الحكومة المصرية للدفاع عن حقوق المرأة والأقباط، علما بأن حركة شاس ترفض مشاركة المرأة فى الحياة السياسية فى إسرائيل، وكان قد رفض المشاركة فى حكومة تسيبى ليفنى عام ٢٠٠٩ م لهذا السبب.. وهذا الحاخام ذاته الذى دعا إلى الدفاع عن الأقباط كان قد رفض فى السابق الحوار مع الفاتيكان، ووصف البابا بأنه «كافر وخنزير وقمامة»ـ وذلك فى «موعظة» ألقاها على تجمع للمتدينين، نقلتها إذاعة الجيش الإسرائيلى فى ١٢ / ٤ / ٢٠٠٧م.

● تعددت تصريحات الساسة والمعلقين الاقتصاديين الإسرائيليين التى أشارت إلى أن مصر تحت قيادة الرئيس مرسى تسببت ـ دون أن تدرى ـ فى إيذاء الاقتصاد الإسرائيلى رغم أنها لم تطلق طلقة واحدة أو تدعو للتعبئة العامة: فقد ذكر الوزير الإسرائيلى يسرائيل كاتس للإذاعة العبرية فى (١٤ / ١٢) أن صعود مرسى للحكم مثل أكبر تهديد استراتيجى لنا، ودفعنا لزيادة كبيرة فى موازنة الأمن والمس بمخصصات الضمان الاجتماعى للفقراء، تحسبًا لما قد تقدم عليه مصر تحت حكمه.

● دعا الجنرال يعكوف عامي درور، رئيس مجلس الأمن القومى الإسرائيلى فى مقابلة مع الإذاعة العبرية جرى بثها فى (٨ / ١٢)، الرئيس باراك أوباما إلى خوض مواجهة مع مرسي، وقال بالحرف الواحد: «على أوباما استغلال الاضطرابات فى مصر لتحجيم مرسى ووقف آثار الربيع العربى السلبية».

● صباح يوم (٢٣ / ١٢) تحدث خبير الشئون العربية فى نشرة أخبار الإذاعة العبرية الصباحية، عن إقرار الأغلبية للدستور المصري، قائلا إنه من المفارقات أن كلا من إسرائيل والغرب وإيران تعتبر ذلك تطورًا سيئًا.. فى حين علق على الخبر لإذاعة الجيش الإسرائيلى بنيامين اليعازر وزير الحرب الأسبق، قائلا إنه تطور خطير له دلالاته الكارثية على إسرائيل، التى بات عليها أن تستعد عسكريًا لمواجهة مصر فى المستقبل.

لقد نسينا إسرائيل فى عراكنا الداخلى المحتدم، الذى صار بمقتضاه «العدو» هو الشقيق، الأمر الذى دفع بنا إلى مشهد عبثي.. إذا صحت رواية التليفزيون الإسرائيلي.. وإذا كانت المعلومات التى سقناها قد تحدثت عن المرارة التى تستشعرها القيادة الإسرائيلية إزاء الثورة المصرية، وسلطت الضوء على بعض ما يحاك ضد مصر فى الخارج، فإن ذلك يثير أكثر من سؤال عما تدبره فى الداخل، وهى التى كانت قد أعلنت من قبل أنها رتبت أمورها فى مصر لمواجهة كل احتمالات التغيير فى نظامها.. ليست لدى إجابة عن أى من تلك الأسئلة، لكننى أتصور أن فى البلد أجهزة لابد أن تكون أفضل منا وعيًا وأكثر انتباهًا وتحسبًا لدور الأصابع الإسرائيلية، التى لا يشك عاقل أنها لا تقف متفرجة على ما يجرى فى مصر، حتى إذا وجدت أن عراك «الإخوة الأعداء» يحقق لها بعض ما تريد.

الرموز اليهودية والمقدسات الإسلامية بين التقديس والتدنيس

حمل هذا العنوان كتابا عرضه الأستاذ زهير أندراوس بجريدة «القدس العربي» الصادرة بتاريخ ٢٣ / ١٢ / ٢٠١٢م يتضمن ما يلي:

أصدرت مؤسسة «الأقصى للوقف والتراث» بالتعاون مع مركز الدراسات المعاصرة التابع للحركة الإسلامية فى الداخل الفلسطينى كتابًا توثيقيًا جديدًا حمل عنوان «الرموز اليهودية والمقدسات الإسلامية بين التقديس والتدنيس»، وهو من تأليف الدكتور حسن صنع الله والباحث الأثرى الأستاذ عبدالرازق متاني، من مركز الدراسات المعاصرة وقدم للكتاب المهندس زكى أغبارية ـ رئيس «مؤسسة الأقصى».

ويضم الكتاب بين دفتيه ١٣٥ صفحة ملونة سلطت الضوء على الرموز اليهودية وأحوالها فى العالم العربي،

وكيف حفظت فيها الرموز الدينية اليهودية وتلقى الاحترام اللازم من المسلمين، بحيث تتم مقارنتها مع ما يحصل للمقدسات الإسلامية فى فلسطين عام ١٩٤٨م من تدمير لمئات المساجد والأماكن المقدسة فى ظل المؤسسة الإسرائيلية وكيفية تعاملها معها أو مع من يسعى للحفاظ عليها.

ويقول مؤلف الكتاب إنه يفند بالدليل العلمى ادعاءات اليهود بالتهجير عنوة من البلدان العربية، وعليه يمكن اعتباره مقدمة لدراسات مستقبلية تفرد لبحث أحوال اليهود ورموزهم الدينية فى كل قطر عربى كل على حدة، وذلك من أجل إثراء هذا الموضوع وإعطائه حقه، فمن الأهمية بمكان أن لا نغفل عن كتابة تاريخنا. ويتناول الكتاب فى الباب الأول فى فصوله الثلاث شرحًا تفصيليًا حول الرموز الدينية اليهودية فى أوروبا بشكل عام والعالم العربى بشكل خاص، وعرج مؤلفا الكتاب على سياسة التعسف والاضطهاد التى تنتهجها المؤسسة الإسرائيلية بحق المقدسات الإسلامية فى كافة أرجاء فلسطين وخصوصًا فى ما بات يعرف بالداخل الفلسطينى الذى يخضع لسيطرتها، سواء كان ذلك من خلال عمليات الهدم أو التخريب أو المصادرة.

أما الباب الثانى من الكتاب فيتناول الانتهاكات الإسرائيلية بحق المقابر الإسلامية فى فلسطين من خلال عمليات التنقيب الأثرى المزعوم الذى تقوم به المؤسسة الإسرائيلية، فى مسعى منها لطمس الوجه الحقيقى لهذه المقابر الشاهدة على تاريخ الأرض وسكانها الأصليين.

الفلسطينيون والصراع فى سوريا

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ فايز سارة المنشور بجريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٢م يقول:

تثير الأحداث الأخيرة فى مخيم اليرموك أكبر المخيمات الفلسطينية كثيرًا من النقاط التى تتعلق بالوجود الفلسطينى فى سوريا، ومدى تأثره وتأثيره فى الأحداث التى تعيشها البلاد منذ نحو عامين، وصولا إلى الإجابة عن سؤال مطروح اليوم خلاصته: هل يمكن تحييد الفلسطينيين والمخيم الفلسطينى خصوصًا فى الصراع الدائر بين السلطة ومعارضيها السوريين؟ وهو سؤال تبدو الإجابة عنه ضرورية لمعرفة ما سيكون عليه وضع المخيمات الفلسطينية ومجمل وضع الفلسطينيين هناك فى الفترة القريبة المقبلة.

جاء القسم الأكبر من الفلسطينيين إلى سوريا خلال الحرب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨م، فيما جاء قسم منهم قبل ذلك، وآخرون وصلوا إلى سوريا من لبنان بعد الحرب بسنوات، وتوزع الفلسطينيون الذين بلغ عددهم نحو ثمانين ألفا على عدد من المحافظات السورية بينها دمشق ودرعا وحمص وحماة وحلب واللاذقية، وقد أقيم فيها جميعًا مخيمات أكبرها مخيم اليرموك بدمشق والذى شهد أحداثًا مأساوية قتل فيها وجرح مئات من الأشخاص، كما تسببت فى نزوح القسم الأكبر من سكانه البالغ عددهم زهاء مائة وخمسين ألف نسمة من مجموع فلسطينيى سوريا وعددهم أقل بقليل من ٤٠٠ ألف.

ولم يقتصر توزع الفلسطينيين فى سوريا على المخيمات، بل تجاوزت ذلك إلى مختلف أنحاء البلاد، وهذا يشكل مدخلا لفهم وضع الفلسطينيين فى هذه البلاد، التى أقرت منذ وصولهم إليها معاملتهم معاملة المواطن السوري، إلا فيما يتعلق بأمرين: الأمر الأول الحفاظ على شخصيتهم الوطنية المستقلة باعتبارهم مواطنين فلسطينيين، والثانى إبعادهم عن الاندماج الشامل فى المواطنة السورية بمنعهم من المشاركة فى عمليات الانتخابات المتعلقة باختيار أعضاء المجلس النيابى، وإبعادهم عن المشاركة فى اختيار رئيس الجمهورية.

وكان من نتائج تلك المحددات فى تعامل السوريين مع الفلسطينيين، أن اندمج الفلسطينيون فى الحياة العامة.

وخلاصة الأمر، أنه من الصعب الفصل بين الفلسطينيين والسوريين في الواقع السورى نتيجة عمومية الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يعيشون فى ظلالها، لكن جهودا بذلت فى المستوى الشعبى والسياسى السورى - الفلسطينى لتحييد المخيمات ولا سيما مخيم اليرموك، غير أن ذلك اصطدم برغبات الموالين للنظام من الفلسطينيين مما أدى إلى مشكلة المخيمات، الأمر الذى يعنى ضرورة قيام السلطات السورية والموالين لها من الفلسطينيين بتأكيد حيادية المخيم عملا لا قولا، وهو ما يحتاج إلى تأكيد مقابل من المعارضة السورية ولا سيما الجيش الحر ومن جانب قيادات التنظيمات الفلسطينية الأخرى نظرًا لخصوصيات الوضع الفلسطينى فقط.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقى الدين

رسالة من الهند

تلقى بريد المجلة لهذا الشهر رسالة من الدكتور ثمامة فيصل- أستاذ مساعد - جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية، لكناو، الهند:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده أما بعد

سيدي ! الهند بلاد ذات أغلبية هندوسية كما تعرفون، والأقلية الإسلامية فيها دائما تناضل من أجل الحفاظ على هويتها وثقافتها، والفضل فى ذلك يرجع إلى الله عز وجل ثم إلى المدارس العربية الكثيرة المنبثة فى طول البلاد وعرضها، وإلى أقسام اللغة العربية فى الكثير من الجامعات الهندية، فإنها هى التى تنشر العلوم العربية والإسلامية بين الجيل الناشيء من المسلمين الهنود. وجامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية من تلك الجامعات الحكومية الهندية التى تهتم بالنهوض بالثقافة الإسلامية فى بلاد الهند، ويكفينا للدلالة على ذلك نسبتها إلى أول وزير للتعليم فى الهند ومترجم القرآن الكريم ومفسره والمؤرخ الباهر والصحفى العظيم مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله.

يقع المقر الرئيسى لهذه الجامعة فى مدينة حيدرآباد، وتم افتتاح فرعها فى مدينة لكناو العلمية بشمال الهند قبل ثلاثة أعوام. ويضم هذا الفرع قسم اللغة العربية وآدابها حيث يتم التدريس حاليا على مستوى الماجستير، ونخطط بدء مرحلتى الليسانس والدكتوراة قريبا بإذن الله. ونحن فى هذه المؤسسة التعليمية فى حاجة ماسة إلى المجلات العربية الصادرة فى الدول العربية، فنتطلع إلى مساعدتكم ودعمكم بهذا الشأن، وبصفتى أحد أساتذة هذه الجامعة، ألتمس من سعادتكم، أصالة عنى ونيابة عن جميع الأساتذة والطلبة، الاشتراك المجانى لمجلتكم وتزويدنا بجميع أعدادها القادمة، هديةً منكم لطلاب اللغة العربية فى هذه البلاد الهندوسية النائية عن العالم العربي، وخدمةً منكم لهذه اللغة المقدسة فى بلاد غربتها. وجزاكم الله خير الجزاء، وكتبه فى ميزان حسناتكم.

مع خالص التحيات وصادق التمنيات،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من الأستاذ عبدالقادر الإدريسى، الخبير فى ديوان المدير العام للإيسيسكو تلقت المجلة هذه الرسالة:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة، رئيس تحرير مجلة (الأزهر) القاهرة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

اطلعت على العدد الجديد من مجلة (الأزهر)، وبدأت بقراءة افتتاحيتكم حول (مؤشرات حول حال المسيحية والإسلام فى الغرب)، فحمدت لكم هذه الإحاطة الواسعة والدقيقة بالأحوال الدينية فى الغرب، والمبشرات التى يفرح لها قلب المسلم، فجزاكم الله خيرًا. ولقد وُفقتم فى اختيار هدية هذا العدد حول (تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب). وكنتم متفوقين ومتألقين، كالعهد بكم دائمًا، فى المقدمة الضافية الجامعة التى كتبتموها لهذا الكتيب- فالله يجزيكم خير الجزاء ويحميكم ويسدد خطاكم ويمتعكم وأهلكم بكل خير.

ومع بالغ الاحترام ووافر التقدير وخالص المحبة.

عبد القادر الإدريسى

الخبير فى ديوان المدير العام للإيسيسكو

الإعلام وأزمة المياه.. بين دول حوض النيل

وتحت هذا لعنوان جاءت رسالة الأستاذ / مسلم إبراهيم النجار:

إن الإعلام الغربى المنتشر فى أفريقيا يقوم ببث أفكار يرسلها إلى الكيان المستهدف عن طريق دراسات متعمقة تتخذ أشكالا متعددة تتخطى كل العقبات أيا كانت.. لذلك فإننا ندعو إلى تفعيل دور الإعلام الإسلامى وتنميته لمواجهة مشكلة المياه فى إفريقيا ومشاكل الدعايات والتدخلات المغرضة من الدول الغربية.

وحيث إن الأوضاع والأحداث بدأت تتسارع وتتصارع فى المنطقة.. فإننا ندق ناقوس الخطر لأن مسئولينا فى الإعلام قد تركوا الساحة الأفريقية مرتعا لدسائس ومؤامرات الغرب والصهيونية العالمية يعبثون بمقدرات المنطقة وشعوبها حتى آتت الفتنة التى زرعوها ثمارها وبدت الخلافات والصراعات تطل برأسها علينا بكل التحديات بيننا و بين دول حوض النيل بسبب أزمة المياه.

إننا من هنا نطالب بإعادة صياغة أساليب الدعاية والإعلام لبلدنا لأنه من المحتم أن يمتد ذراعنا الإعلامى ليس ليغطى منطقة حوض النيل فقط من أجل المياه، وإنما ليغطى دول القارة بأسرها.

إن الأفارقة لم يستمطروا السماء لتنزل عليهم كل هذه الأمطار ليتمتعوا بها وحدهم.. كما أنهم لم يحفروا نهر النيل حتى يعطوا لأنفسهم الحق فى السيطرة عليه أو التحكم فى مقدرات الدول المشاطئة له لأنه من إبداعات نعم الله التى خلقها ووهبها لكل البشر فماؤه حق مشاع لكل الشعوب فى محيط جريانه.. وما أعظم سماحة الإسلام وكرمه إذ جعل الماء ككل شئ ملك لله لا يجوز احتكاره أو امتلاكه حيث يقول ﷺ «الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار».

إننا لا نسعى إلى حرب من أجل حقنا الإلهى والطبيعى فى المياه.. ولن نقول إنه حق تاريخى طويل واستقر بموجب اتفاقيات مبرمة.. وإنما نقول إنه حق طبيعى مشاع فى القسمة على مياه النيل.. ولذلك نمد يدنا لجيراننا بالقوة الناعمة والداعمة بكل أنواع التعاون من أجل التطوير والتنمية لكل دول حوض النيل ومنابعه ولإتاحة فرصة الانتفاع المتبادل بمياه نهر النيل دون الإضرار بالغير.

ومن أجل تحقيق أهدافنا لابد أن نطور إعلامنا وأن نعد الداعية الجيد ومراعاة الدقة فى اختياره وضرورة اجتيازه الدورات التدريبية المقررة قبل إيفاده وإمداده بالوسائل المساعدة لإنجاح مهمته.

- فلابد أن يفهم الداعية رسالته ويكون مقتنعاً بها مع معرفة الدعاوى المناوئة للإسلام وتفنيدها والرد عليها.
- وأن يتعرف على طبيعة الجمهور المستهدف، نُظمه وعاداته ولغته تفاديا لتصادم الأفكار وتعارضها ولذلك لابد من إلمامه الجيد باللغة السائدة فى الدولة الموفد إليها.
- تكوين نوع مشترك من الخبرة بين الداعية والجمهور فيما يسمى «الإطار الدلالى» لأنه كلما زادت هذه المعرفة المشتركة زاد الاقتناع والتوائم مع الرسالة الإعلامية المنشودة وقوة تأثيرها.. والله الهادى إلى سواء السبيل.

الإسلام دين وسطية

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ / كرم رمضان السبعى ـ التعليم المفتوح - عين شمس - قنا ـ معهد قراءات قفط:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم) صدق رسول الله ﷺ.

الإسلام دين وسطية فى كل شئ فهو وسط بين الإفراط والتفريط وبين الغلو وبين التهاون، الوسطية فى الإسلام منهج فى الحياة والأخلاق والعلاقات الفردية والجماعية وكذلك فى العبادات.

شاع فى زمننا هذا جملة (الإسلام دين وسطية) وهى كلمة حق ولكن يوجد فى الوقت نفسه من أساء استعمالها فصار لهذه الجملة استعمالان أحدهما حق والآخر باطل فالاستعمال الحق يبينه كتاب الله فى قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

[البقرة: ١٤٣]

وبينه أيضًا الطبرى فى تفسيره فى وصفه للمسلمين (بأنهم وسط لتوسطهم فى الدين فلا هم أهل غلو كغلو النصارى الذين غلوا بالترهب، ولا هم أهل تقصير كتقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبيائهم، ولكنهم ـ أى المسلمين ـ أهل توسط واعتدال)

ولكن عندما يكون الحلال بين والحرام

بين فلا توسط، أجل لاتوجد وسطية بين الحلال والحرام، وينبغى أن يعلم الناس أن الوسط والتوسط ليس هو أن يقف المسلم بين متناقضين بل هو أن يلتزم بشرع الله تعالى فى موقفه.

من الناس من يغل ويشدد على نفسه، ومنهم من يتهاون ويفرط فيضيع أشياء كثيرة وخير الأمور الوسط،،،،،،،

الشيخ عطية صقر

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ شعبان عبد العال إبراهيم خليفة- محافظة المنيا - بني حسن الشروق:



فى هذه الأيام تحتفل الأمة الإسلامية بذكرى رحيل العالم الكبير فضيلة الشيخ عطية صقر، هذا الإمام الذى يعد من كبار علماء الأزهر الشريف وأفنى عمره كله فى خدمة الإسلام والمسلمين فمشواره طويل ومعروف لكل المسلمين فى العالم الإسلامي، فقد أبحر فى علوم الشريعة ونهل منها الكثير ولذا تمتعت فتاواه بمصداقية كبيرة لدى الجميع، كما أنه عرف عنه مواقفه الجريئة وصدوعه بالحق، ورغم أنهم اتهموه بالرجعية ووصفوه بالتساهل إلا أنه لم يعبأ بذلك ولم يهتم بما قيل، ولم يأبه بأى صوت سوى صوت الحق والعدل وقد لقى بسبب بعض فتاواه العنت والسوء فلم يؤثر ذلك على طريقه الذى يسير فيه، ولم يمنعه من الجهر بالحق والصدع به.

ولد الشيخ عطية صقر فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩١٤م فى قرية «بهنا باي» بمركز الزقازيق بمحافظة الشرقية وحفظ القرآن الكريم فى كتاب القرية وعمره ٩ سنوات ثم التحق بالمدرسة الأولية «الإلزامية» والتحق بعدها بمعهد الزقازيق الدينى عام ١٩٢٨ ثم التحق بكلية أصول الدين وحصل منها على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١م وعلى العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣م وكان ترتيبه الأول. واستحق الشيخ عطية صقر أن يكون سفيرًا للأزهر الشريف فى اللجنة العليا للعلاقات الخارجية، بوزارة الخارجية واللجنة الوزارية للتثقيف الصحي، ومترجما بمراقبة البحوث والثقافة، ووكيلا لإدارة البحوث ومدرسا بالقسم العالى بالأزهر. وقد سافر فى رحلات لمختلف البلدان لنشر الدعوة الإسلامية.

وللشيخ عطية صقر أسلوبه المتميز فى الفتوى والرد على استفسارات المواطنين فى البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون شفويا وتحريريا فى مختلف الصحف كما كانت تفرد له الصحف مساحات كبيرة للكتابة لديها نظرا لما يتمتع به من رجاحة العقل وسعة العلم. وكان له حضور قوى فى مختلف الندوات والمؤتمرات الشعبية

والرسمية وكانت تعتمد عليه معظم الهيئات العلمية والجهات المختلفة لشرح وتوضيح ما يختلفون فيه من قضايا وآراء وخاصة فى القضايا الاجتماعية. كما كان يشارك فى فحص الكتب والرسائل العملية المحولة من مختلف الجهات لإجازتها. وقد عكف الشيخ عطية صقر على تأليف الكتب فله الكثير من المؤلفات أهمها «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية» وهذا الكتاب فاز بجائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

قرع لأبواب السماء

ومن الأستاذ / محمد عباس محمد عرابى كانت هذه الرسالة:

الحمد لله ما خاب من دعاه، ولا ندم من سأله ورجاه، لا إله إلا هو يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، ولا إله إلا هو يكشف الكرب عمن ناجاه.

لا إله إلا هو يسمع تضرع المظلوم وشكواه.

لا إله إلا هو لا يخفى عليه نداء المنكوب إذا ناداه، أو من تحركت بالدعاء شفتاه، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ثم الوصية تقوى الله .

لا إله إلا الله ما قرعت أبواب السماء بمثل مفاتيح الدعاء، لا إله إلا الله يسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

لا إله إلا الله أجاب قومًا بنملة بعد أن رفعت يديها إلى السماء فلما خرج سليمان يستسقى بالناس، وفى طريقه من بيته للمصلي، رأى نملة رفعت يديها تدعو رب العزة، تدعو الذى يعطي ويمنع ويلطف ويغيث، قال سليمان: أيها الناس عودوا فقد كفيتم بدعاء غيركم فأخذ الغيث ينهمر بدعاء تلك النملة.

لا إله إلا الله إليه يصعد الكلم الطيب والدعاء الخالص والهاتف الصادق والدمع البريء، فهلا قرعنا بابه، وهلا لذنا بجنابه، ووقفنا بعتبات بابه، يا أصحاب الحاجات، يا من تكالبت عليكم الملمات، يا كل مكروب، يا كل مهموم، يا كل مظلوم، أليس فيكم عين باكية، وقلب حزين، أليس منكم من الضعفاء المنكوبين، أين قلوبكم التى تشتعل، ودموعكم التى تسيل، أليس منكم عزيز قد ذل، وغنى قد افتقر، وصحيح قد مرض، أنتم وأولئك إلى من تلجأون ومن تنادون ولمن تشتكون، أيديكم إلى من تمدونها، اقرعوا أبواب السماء وجدوا فى الدعاء فالدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض، وما قرعت أبواب السماء بمثل مفاتيح الدعاء، اقرعوا الباب وأكثروا القرع والإلحاح فإنه يوشك أن يفتح لكم.

جاء فى حديث أبى الدرداء -رضى الله عنه- قال: «جدوا فى الدعاء فإنه من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له».

أنباء الأزهر

أ. محمود المشنى
أ. عبدالموجود أمين

الإمام الأكبر: لا مجال لتكفير أحد.. وعلي الجميع التحلي بأدب الخلاف

ناشد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور احمد الطيب شيخ الأزهر أطياف المجتمع المصري للوقوف صفًا واحدًا حتي تخرج مصر من أزمتها ، مؤكدًا أنّ الشعب المصري متديّن بطبعه ، ولا يوجد به ملاحدة ؛ مما يتطلب أن نأخذ الناس بالرفق واللين والبعد عن الغلو والتطرف ومنطق التكفير ، وطالب فضيلته الجميع أن يتحلوا بأدب الخلاف .جاء ذلك خلال لقاء فضيلته يوم الأحد ٣٠ من ديسمبر بالدكتور يوسف القرضاوي ، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ورئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، في لقاء استمرّ أكثر من ساعتين ، ناقش خلاله دور الأزهر الشريف بمختلف هيئاته ومؤسساته وعلي رأسها هيئة كبار العلماء بتشكيلها الجديد .

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن الأزهر الشريف يشهد حاليًا أكبر عملية تطوير وإصلاح علي مدار تاريخه ، وخاصة في مجال التعليم وتطوير المناهج ، وعودته القوية إلي كتب التراث التي سار عليها طوال عهوده ؛ ممّا هيّأه لقيادة الأمة لعهود طويلة من خلال علمائه في مختلف العلوم الشرعية واللغوية وعلوم الطبيعة والفلك ؛ فكان المدرسة العلمية الكبري لكل طالب علم شرقًا وغربًا ؛ مما يدعونا إلي إصلاح المدرس باعتباره حجر الزاوية في العملية التعليمية.

ومن جانبه أبدي د .القرضاوي سعادته بزيارة فضيلة الإمام ليشدّ من أزره ويشكره علي الدور الكبير الذي يقومُ به علي المستوي المحلي والدولي ، ورعايته للمصالحة الوطنية لكافة أطياف المجتمع ، مشيدًا بدور الأزهر الشريف في لم شمل كافة أطياف القوي الوطنية والسياسية ، والتي أثمرت عن العديد من وثائق الأزهر التاريخية ، التي حدّدت معالم الدولة المصرية الحديثة ولقيت إجماعًا من جميع القوي والتيارات السياسية ؛ ممّا جعله بيتًا للوطنية ومعبرًا عن ضمير الأمّة ؛ وهو ما يُلقي علي كاهله مسئوليات جسامًا وأدوارًا ضرورية ينبغي أن يضطلع بها في المرحلة القادمة ؛ باعتباره منبرًا للوسطية والاعتدال .والله ولي التوفيق

بيان مجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله وعلي آله وصحبه ومن والاه وبعد .

فقد ناقش مجلس المجمع في جلسته المنعقدة يوم الخميس ١٤ من صفر ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٨ / ١٢ / ٢٠١٢م ما أثير في الأيام الماضية حول المساس باستقلالية الأزهر الشريف وإمامه الأكبر ، وانتهي إلي - :

رفض أي محاولة للنيل من مكانة هذه المؤسسة الإسلامية العريقة ودورها في خدمة الإسلام والمسلمين ، والمحافظة علي وحدة الأمة ومصلحة الوطن .

ويؤكد المجلس أن الأزهر سيظل الهيئة المستقلة البعيدة عن تقلبات السياسة وأساليبها وهو ينأي بنفسه عن إبرام الصفقات السرية والاتفاقات المشبوهة ويعلو علي الأغراض الحزبية والأطماع السياسية ، ويؤكد حرصه الشديد علي النهوض برسالته وأداء الدور المنوط به علي المستوي الوطني والإقليمي والعالمي .

حفظ الله مصر من كل شر ووقاها من كل مكروه والله الموفق والهادي إلي سواء السبيل .

جامعة الأزهر ترفض النيل من الأزهر الشريف

أدان مجلس جامعة الأزهر في اجتماعه برئاسة الدكتور أسامة العبد رئيس الجامعة ، ما أذيع في الصحف والقنوات الفضائية منسوبًا إلي بعض المشتغلين بالدعوة بما أظهر الأزهر الشريف لاعبًا سياسيًا يتبادل الصفقات ويكون طرفا في المساومات السياسية .وأكد مجلس جامعة الأزهر في بيانه الصادر يوم الخميس ١٣ صفر ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٧ ديسمبر ٢٠١٢ م ، أن الأزهر جامعًا وجامعة بقيادة الإمام الأكبر من خلال تاريخه يقف علي مسافة واحدة من جميع الأطراف ، ويأبي أن يكون طرفًا في الصراع السياسي ، فهو دائمًا يجمع ولا يفرق .

وأوضح مجلس الجامعة أنّ الأزهر الشريف بوسطيته يولي الوحدة الوطنية أشدّ الحرص ، ويجابه شقّ الصف الوطني ، ويسعي سعيًا دءوبًا لجمع شركاء الوطن تحت راية واحدة ، ويعمل علي نبذ الخلافات ، ويجتهد في جمع الشمل .

وطالب مجلس الجامعة كل المشتغلين بالدعوة بضرورة الابتعاد عما يشق صف الوطن ويسئ إلي أعرق المؤسسات الإسلامية ، وأن يقدروا أمانة الكلمة ويلتزموا الحكمة والموعظة الحسنة وما فيه صالح الوطن ووحدة صفه .

وقدّم مجلس الجامعة خالص التهنئة للشعب المصري بمناسبة إقرار الدستور الجديد ، داعين المولي عز وجل أن يهيئ لمصر وشعبها الخير والسداد والتوفيق.

بيان من ممثلي الأزهر الشريف في الجمعية التأسيسية

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده ..وبعد ؛؛؛

فبالنظر لتساؤلات بعض المواطنين الكرام ، بشأن ما نُشر في صفحات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام الأخري .

يود ممثلوا الأزهر في اللجنة التأسيسية أن يوضحوا أن الأزهر الشريف يُعد طوال التاريخ

المصري أحد المقومات الأساسية للمجتمع والدولة، وهو مرجع الكافة فيما يتعلق بالإسلام وشريعته، يفعل ذلك لوجه الله ووفاءً لدوره التاريخي وفكره الوسطي دون أي غرض حزبي أو سياسي أو غير ذلك .

وما تقرر في المادة الرابعة من مشروع الدستور المصري الجديد ليس إلا تأكيدًا لهذا الواقع الذي تشهد له كل مواقف التاريخ .

ومن عجيب الكلام وفضوله أيضًا أن يقول البعض أن المادة المشار إليها كانت نتيجة «صفقة ما» مع الأزهر ...

وردنا علي هذه الافتراءات هو أن موقع الأزهر ومقام إمامه الأكبر فوق هذا الكلام، وحقيقة الأمر أن ممثلي الأزهر كانوا يدافعون في الجمعية التأسيسية عن ثوابت الأمة وحقوق الشعب وحريات المواطنين وحقوق المواطنة لغير المسلمين من أبنائه، ولم يطلبوا للأزهر شيئًا غير التأكيد علي حقيقة وضعه التاريخي واستقلاله الكامل الذي ينبغي أن يكون عليه .

هذا وقد أصدرت هيئة كبار العلماء قرارها العلمي في شهر سبتمبر ٢٠١٢ م بتوضيح المقصود من كلمة «مبادئ الشريعة» جوابًا لسؤال من الجمعية التأسيسية، وأداءً لحق العلم والدين . وسيبقي الأزهر - كما هو في ضمائركم معاشر المواطنين - قلعة الحق والدين، ولا يُعير اهتمامًا لمثل هذه الصغائر التي ارتضاها بعض الناس لأنفسهم، وهي لا تكشف إلا عن دخيلة أصحابها وما تخفي صدورهم تجاه الأزهر، وليس من الوفاء للوطن، ولا لدستوره الوليد، وعهده الجديد، هذه التفسيرات والتدبيرات : «الباطنية» التي لا تتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة، وروحه الشفافة، التي يتفق فيها الظاهر والباطن، دون مناورات أو خداع .

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١)

بيان من الأزهر الشريف بمناسبة الانتهاء من الاستفتاء علي الدستور

الحمد لله، والصلاة والسلام علي خاتم رُسله وأنبيائه؛؛؛

بعد أنْ ظهرت نتيجة الاستفتاء علي الدستور بالموافقة، يتوجّه الأزهر إلي الشعب المصري بكافة أطيافه الوطنية والسياسية والحزبية والفكرية بالآتي:

١- بأنْ ينسوا جميعًا - مسئولين وغيرهم - مَن قال منهم «لا» ومَن قال «نعم»، ومَن اصطف منهم مع الموالاة والتأييد ومَن اختار المعارضة والنقد السياسي - كلَّ الآثار السلبية التي تواكبت مع عملية الانتخابات والاستفتاءات السابقة، وتوابعها من التوتُّرات والاحتقانات، وأنْ يعودوا يدًا واحدة لبناء الوطن، مع احتفاظ كلٍّ منهم بموقفه السياسي بالأساليب الديمقراطية السياسية، بعيدًا عن كلِّ ألوان العنف والنِّزاع والفُرقة، واستهلاك طاقة المواطنين فيما يضرُّ البلاد والعباد مما يتطلب وجوب سعي الجميع إلي المصالحة الوطنية الشاملة.

٢- وأنْ ينطلقوا جميعًا لبناء الوطن، واستكمال مؤسساته الوطنية الدستورية، وبناء الروح الوطنية الديمقراطية الدستورية الحديثة التي أجمَعْنا عليها؛ لينعم المواطنون في ظلالها بكل حقوقهم وحريّاتهم التي نصَّ عليها الدستور بعيدًا عن كل صور التضييق والأحكام الاستثنائية

التي أرهقت المواطنين، وبددت جهودهم، وصرفتهم عن المشاركة الجادّة في العمل السياسي والخدمة الوطنية.

٣- وأن يطلقوا العنان للطاقات الخلّاقة، والجهود الفكرية والعملية، علي طريق بناء الاقتصاد المصري، الذي عاني بشدّة من الخلافات والنِّزاعات؛ لتعود مصر القويّة، بشعبها وجيشها ومواردها الغنيّة المتنوعة، وقيادتها المنتخبة، واحةَ عزّة وكرامة وحرية وعيش كريم لأبنائها ومعطاءة، مُتضامنة مع جميع أخواتها من الدول العربية والإفريقية والإسلامية، وإذا صحَّ العزم وضح السبيل.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥)

الإمام الأكبر يوافق علي إنشاء معهدين بقرية شهداء أسيوط

وافق فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف٢٦ / ١٢ / ٢٠١٢ علي إنشاء معهدين أزهريّين بقرية الحواتكة مركز منفلوط بمحافظة أسيوط (وهي القرية التي شهدت الحادث الأليم الذي أودي بحياة ٥٢ طالبًا من طلاب الأزهر الشريف)، (وقد تبرّع والد الشهداء الأربعة بإحدي قطع الأرض التي سيُبني عليها المعهدان .

كما أصدر فضيلته قرارًا بتشكيل لجنة برئاسة خبير التطوير المؤسّسي بالأزهر و مدير عام الإدارة الهندسية بالأزهر، و مدير عام شئون المناطق و مدير عام التعليم الابتدائي؛ لمُعاينة قطع الأراضي المقدّمة من المحافظة لبناء مجمع المعاهد الأزهرية بمحافظة أسيوط، ووضع تصوُّر عام لتطوير المباني القائمة ودراسة الاحتياجات المستقبليّة لخطة المباني بمنطقة أسيوط الأزهرية .

بيان بخصوص الفتوي المتعلقة ببرنامج «البرنامج»

بالإشارة إلي الفتوي الصادرة عن لجنة الفتوي، التابعة لمجمع البحوث الإسلامية، برقم (٣٧٩) بتاريخ ٢٠ / ٥ / ٢٠١٢م، والمتعلقة بإبداء الرأي في برنامج (البرنامج)، للإعلامي باسم يوسف، وبالنظر إلي مضمون الفتوي، تبين أنها تسدي النصيحة، لكافة الفئات والبرامج، إلي الكلام بالحسني ، والنقد البناء، والبعد عن التجريح والإساءة، وليس للفتوي علاقة بالتحريم أو عدمه، فيما يجري في المجتمع من حوار وحراك فكري، إلا أنه قد أسئ فهم الفتوي، وجري توظيفها من بعض الفئات ضد بعض، والأزهر الشريف يؤكد علي عدة أمور :

١- لا يحق لأي طرف أن يستغل اسم الأزهر الشريف ضد أي طرف آخر .

٢- الأزهر الشريف يؤكد علي حرية النقد البناء، ويدعو جميع الأطراف إلي مراعاة مواثيق الشرف المهني، في النقد والتعامل، ويحض علي التزام القيم الأخلاقية في النقد، وعدم التعدي من أي طرف إلي تجريح الطرف الآخر .

٣- الأزهر الشريف هو المرجعية العلمية لكل فئات الشعب المصري الكريم، ولا ينحاز لطرف دون طرف، بل يظل فوق النزاعات الضيقة، ويدعو المجتمع المصري بأكمله إلي جمع الشمل، والتخلق بأخلاق النبوة، والعمل علي بناء الوطن، ومد جسور الثقة والاحترام بين كل فئات الشعب المصري الكريم، والله ولي التوفيق.

الطيب يدعو لإعادة دراسة «علم الحوار» للخروج من النفق المظلم

دعا فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر إلي إعادة تدريس علم «الجدل والحوار» من جديد في التعليم المصري، خاصة بعد الأحداث السياسية التي تعصف بمصر حاليا، وتحتاج للغة حوار وتفاهم بين كافة القوي السياسية المختلفة.

وطالب الطيب بتدريب الشباب علي هذا العلم، لاكتشاف نقاط الضعف في الآخر، وإثبات الحجج عليه لنصرة الحق علي الباطل.

وقال الطيب في حلقة الجمعة ٢١ ديسمبر من برنامج الكلم الطيب علي الفضائية المصرية أن الجدل والحوار أحد علوم الإسلام هو بالضرورة لابد أن يكون اثنين، واتفق فيه علماء الإسلام أن نتيجته تكون أكثر يقينا من النتيجة التي تنشأ عن اقتناع فردي دون جدال وحوار.

وأكد شيخ الأزهر علي أن الجدل في الإسلام هو مقدمات تؤدي لليقين، وهو طريق الحق، مضيفا أن الجدل والحوار له أصول وضوابط من يتخطاها يصبح هو الخاسر في هذا الجدل.

وكشف فضيلة الإمام عن أن الإسلام استخدم الحوار في مواضع عديدة، منها المحمود ومنها المذموم، فقال الله تعالي:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

«النحل ١٢٥»

وقال أيضا:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾

«سورة غافر ٤».

وقال الإمام الأكبر أن الجدل المحمود هو المتقيد بعلم، وقواعد، وهو حوار بين اثنين في قضية مختلف عليها، وهو علم إسلامي يدرسه الأزهر، دون غيره من الجامعات العالمية.

الإمام الأكبر يوافق علي إنشاء فرع لجامعة الأزهر بماليزيا

وافق فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، بشكل مبدئي علي إنشاء فرع لجامعة الأزهر بماليزيا، مطالبًا بضرورة تقديم ماليزيا لمشروع مفصّل بذلك لدراسته، آملا أن يكون هذا الفرع فرصة لقبول الكثير من طلاب جنوب شرق آسيا هناك؛ لنشر وسطية الأزهر واعتداله، ولتوطيد أواصر العلاقات مع مسلمي جنوب شرق آسيا.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - سعادة السفير / محمد فخر الدين عبد المعطي، سفير ماليزيا بالقاهرة، في زيارة وداع حيث انتهت خدمته في القاهرة.

كما تم خلال اللقاء مناقشة تقوية فرع الرابطة العالمية لخرّيجي الأزهر بماليزيا، وقد تمنّي الإمام للسفير النجاح في مهمّته الجديدة في وطنه، وأن يكون علي تواصُل دائم مع الأزهر، وأن يكون السفير الجديد سائرًا علي الدرب نفسه؛ لمزيد من التقارب والتعاون بين الأزهر وماليزيا.

وفي نهاية اللقاء جدّد السفير دعوته لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة ماليزيا، ووافق الإمام مبدئيًا علي أن تدرس التفاصيل العملية فيما بعد.

أنباء العالم الإسلامي

للأستاذين أحمد رضوان - يحيي سليمان

روسيا: استخدام الأسلحة الكيميائية يعتبر انتحارًا للنظام السوري

اعتبر وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف أن استخدام الأسلحة الكيميائية سيكون بمثابة «انتحار سياسي» لنظام الرئيس السوري بشار الأسد.. وقال لافروف للشبكة التليفزيونية الروسية الناطقة بالإنجليزية: «لا أعتقد أن سوريا ستستخدم أسلحة كيميائية. وفي حال حصل ذلك، فسوف يكون بمثابة انتحار سياسي للحكومة».

وتابع: «كلما وردتنا شائعات أو معلومات تفيد بأن السوريين يستخدمون أسلحة كيميائية، نتحقق منها مرة أو مرتين، نتوجه إلي الحكومة، وفي كل مرة نتلقي تأكيدا حازما بأنهم لن يفعلوا ذلك أيا كانت الظروف».. ويقول خبراء إن سوريا تملك مخزونا من الأسلحة الكيميائية يعود إلي السبعينيات وهو الأضخم في الشرق الأوسط يتضمن مئات الأطنان من غاز الخردل وغاز السارين»

وحذرت الأسرة الدولية مرارا دمشق من استخدام هذه الأسلحة، بعدما أفاد مسئولون أمريكيون طلبوا عدم كشف أسمائهم أن النظام يقوم بتجميع المكونات الكيميائية الضرورية لتجهيز الأسلحة الكيميائية.

وأقر النظام السوري للمرة الأولي في يوليو بامتلاك أسلحة كيميائية وهدد باستخدامها في حال تعرضه لتدخل عسكري غربي، مؤكد علي أنه لن يستخدمها في أي ظرف ضد شعبه.

.. أزمة الحجاب تنتقل إلي روسيا

تجددت مرة أخري أزمة الحجاب في دول أوروبا، حيث رفضت الحكومة الروسية السماح بدخول بعض الطالبات المحجبات إلي المدارس.. وانتقل الجدل من قاعة المدارس إلي المجال السياسي والثقافي العام حيث اعتبر الرئيس الروسي الحجاب ضد علمانية الدولة.

وتجدر الإشارة إلي أن مسألة الحجاب في المدارس بدأت للأول مرة شأنا ساخنا في روسيا في منتصف أكتوبر الماضي عندما حضرت فتاتان محجبتان إلي المدرسة. وانطلق بعد هذه الحادثة النقاش حول الدستور وما يقتضيه من فصل الدين عن الدولة ومؤسساتها ضمن الأطر العلمانية.

وقد سادت حالة من الاستياء بين المسلمين في جنوب روسيا، بسبب حظر الحجاب في مدارسهم، وقد عبروا عن ذلك للحكومة الروسية، الأمر الذي دفع الرئيس فلاديمير بوتين الذي يدافع بقوة عن الكنيسة الأرثوذكسية، للتأكيد علي أن روسيا دولة علمانية.

فيما يؤكد المسلمون في بلدة كاراتبوبي بمنطقة ستافروبول أن الحجاب مسألة في غاية الأهمية بالنسبة لهم، وقالوا: إن حظره في المدرسة يرغم بناتهم علي الاختيار بين دينهن والتعليم الحكومي.

وبحسب صحيفة القدس العربي: فإن كثيرًا من مسلمي روسيا الذين يتراوح عددهم بين ١٥ و ٢٠ مليون نسمة يشكون في المناطق التي يمثلون فيها أقلية من عدم تمتعهم بحقوق مساوية لما يتمتع به المسيحيون الأرثوذكس.

المجلس الاستشاري الإسلامي يدعو لتفعيل الاستراتيجية الثقافية للأمة

دعا المجلس الاستشاري الملكف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي في ختام اجتماعه الثاني عشر بالمقر الدائم للإيسيسكو بالرباط، إلي سرعة تجاوب الدول الإسلامية لتفيعل مشروع الخطوط العريضة حول الحقوق الثقافية في الدول الأعضاء: المنجزات والآفاق و«الخطوط العريضة لمشروع الخطة التنفيذية لمبادرة خادم الحرمين الشريفين للحوار بين أتباع الأديان والثقافات»، اللذين أعدتهما الإدارة العامة للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.. ودعا المجلس الإيسيسكو إلي مواصلة جهودها من أجل التعريف بالاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي علي أوسع نطاق لدي جهات الاختصاص في الدول الأعضاء، وهيئات المجتمع المدني، والمنظمات الإقليمية والدولية الموازية.

وأشاد بجهود الدول الأعضاء التي تم الاحتفاء بمدنها عواصم للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠١١م في تخليد هذا الحدث الثقافي الكبير.. وأشاد بجهود الإيسيسكو في مجال العمل الثقافي الإسلامي الموجه لفائدة المسلمين خارج العالم الإسلامي، وحرصها علي تفعيل مهام المجلس الأعلي للتربية والعلوم والثقافة للمسلمين خارج العالم الإسلامي، والدعم الذي تخصصه لفائدة المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق إفريقيا وجزر المحيط الهندي، ودعوتها إلي مواصلة هذه الجهود، تعزيزًا للعمل الإسلامي الثقافي لنفع المسلمين خارج العالم الإسلامي، وإشراكها في الاستفادة من مختلف البرامج والمشاريع والوثائق الصادرة عن المجلس الاستشاري والمؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة.. ودعا الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي إلي تقديم كافة أنواع الدعم والتضامن مع دولة فلسطين.

الإيسيسكو تندد بإدراج «القدس الدولية» ضمن لائحة «المؤسسات الإرهابية»

ندد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - بإدارج الإدارة الأمريكية «مؤسسة القدس الدولية» ضمن لائحة المؤسسات الإرهابية حسب التصنيف الأمريكي وتجميد أرصدتها وأصولها المالية.

أرضحت الإيسيسكو في بيان لها أن مؤسسة القدس الدولية مؤسسة معلنة ومعروفة للجميع بأهدافها ومقاصدها النبيلة في نصرة قضية القدس والوقوف أمام الحملات الصهيونية لتهويدها فضلاً عن أنها مؤسسة مستقلة تعتمد الأساليب الإعلامية العلنية إضافة إلي أنها عضو مراقب في المجلس الاقتصادي والاجتماعي لجامعة الدول العربية.

وأدانت الإيسيسكو بقوة هذا الإجراء الذي اتخذته الإدارة الأمريكية وأكدت رفضها الشديد له واعتبرته قرارًا جائرًا يساهم في إسكات كل الأصوات التي تتصدي لعدوان إسرائيل وانتهاكاتها للقانون الدولي وحقوق الإنسان في القدس المحتلة وفي الوقوف في وجه محاولات انتزاع القدس من أصحابها الشرعيين وتهويدها.

ودعت الإيسيسكو في بيانها الدول الأعضاء والمجتمع الدولي بصورة عامة إلي ممارسة الضغط لمراجعة

هذا القرار الجائر قبل فوات الأوان.

أوضحت الإيسيسكو أن الإدارة الأمريكية تستعدى شعوب المنطقة بمثل هذه القرارات الجائرة المنحازة كما في موقفها من مطالبة الشعب الفلسطيني بحقوق دولة عضو في الأمم المتحدة و كذلك القرارات المتعلقة بالقدس وهى مدينة محتلة ينطبق عليها ما ينطبق علي الأراضي المحتلة الأخري وعلي الإدارة الأمريكية أن تجفف منابع دعم الإرهاب الإسرائيلي المتمثل في السماح بتحويل الأموال من الولايات المتحدة لدعم البناء الاستيطاني غير الشرعي في الأراضي الفلسطينية المحتلة ومنها القدس واضطهاد المواطنين الفلسطينيين والتضييق عليهم وحرمانهم من أبسط حقوقهم الشرعية التي يكفلها القانون الدولي.

الإسلاموفوبيا إساءة للهوية

أكد الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.. البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلو في ندوة التسامح في فيينا، بالنمسا، أهمية التسامح باعتباره ضرورة حتمية تتوسط الأجندة العالمية. وأشار إحسان أوغلو إلي أن التنبؤ بأمور مثل صدام الحضارات قد أدي إلي تأجيج الانقسامات والفهم الخاطئ والمخاوف بين الغرب والعالم الإسلامي.. وشدد على أن الإسلاموفوبيا تشكل ظاهرة للعنصرية في هذا العصر. وقال إحسان أوغلو: «إن الإسلاموفوبيا تؤدي إلي جرائم الكراهية، فالإسلاموفوبيا هي إساءة لهوية الشعوب وكرامتها الإنسانية».

إسرائيل تسابق الزمن لإقرار خطط تهويد القدس

قال أحمد قريع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية رئيس دائرة شئون القدس إن إسرائيل تسابق الزمن لإقرار خطط المصادرة والتوسع الاستيطاني الاستعماري لتهويد القدس. وقال قريع، إن الحكومة الإسرائيلية تستغل معركة الانتخابات المقبلة لشن حملة للمصادقة وطرح العطاءات لبناء عديد من الوحدات الاستيطانية الاستعمارية في مدينة القدس.

وذكر قريع أن هذه المخططات تندرج ضمن مخططات ما يسمي بألوية لجان التخطيط والبناء الإسرائيلية في القدس المعدة منذ فترة طويلة في انتظار العامل السياسي والتوقيت الزمني المناسب للإعلان عنها والمصادقة النهائية عليها والبدء في تنفيذها، وحذر قريع من مخاطر شروع السلطات الإسرائيلية بإقامة كلية أكاديمية عسكرية ضخمة للقيادة والأركان الإسرائيلية في جبل الزيتون في القدس.. وقال إن السياسة الإسرائيلية الاستيطانية وخاصة في هذه المرحلة الخطيرة تشهد تصعيدًا إسرائيليًا لاستكمال عملّية تهويد القدس بشكل متسارع وفتح معركة حسم وضع القدس بشكل نهائي وحازم.

أكبر دار لرعاية المسلمين الجدد في أوروبا

المركز الإسلامي «بشيفلد» منارة للتواصل الحضاري

يعد مشروع المركز الإسلامي بمدينة «شيفلد» البريطانية منارة متميزة للتواصل الحضاري في الغرب، والذي يخدم الجالية المسلمة في مدينة شيفلد والمدن المجاورة لها.

ويركز المركز الإسلامي علي تنشئة أجيال مسلمة شابة من الجنسين الذكور والإناث حافظين لكتاب الله، متمسكين بدينهم الحنيف، متعلقين بلغتهم العربية وثقافتهم الإسلامية وذلك عن طريق إنشاء مدرسة

سوف تقام فيها دروس لتحفيظ القرآن الكريم والتربية الإسلامية واللغة العربية.

ويقول الدكتور إسماعيل عبدالحميد أستاذ الرياضيات بالمملكة المتحدة: يسعي المركز إلي خلق بيئة فريدة من نوعها وذلك بالتركيز علي المسلمين الجدد من خلال إنشاء مكان خاص يضمهم داخل المركز لمعرفة احتياجاتهم وتلبيتها، كما يركز هذا المشروع علي ذوي الاحتياجات الخاصة من الجالية المسلمة.

وأضاف: مشروع أمانة الإيمان في مدينة شيفلد يهدف إلي بناء مركز إسلامي نوعي ليكون منارة للتواصل الحضاري يخدم سكان المدينة والمدن المجاورة، وذلك يتبلور في طبيعة الخدمات المتميزة التي سيقدمها المركز.

يقدم المركز خدمات عديدة متكاملة لكافة أعضاء الجالية المسلمة في المنطقة رجالاً ونساءً وأطفالاً من كافة الفئات العمرية مثل مسجد للرجال ومسجد للنساء ومركز للشباب ونواد ودورات تدريبية وقاعة رياضية ومدرسة للقرآن الكريم وخدمات الزواج وأخري إرشادية ومركز للدعوة وآخر للاعتناء بالمسلمين الجدد، ودورات للغة العربية.

كما يعمل المركز علي خدمة المسلمين وغير المسلمين في شيفلد وما حولها ببناء جسور الثقافة والتعاون بين الثقافات والأديان الأخري، لتوضيح المفاهيم الصحيحة للإسلام ولمساعدة الناس في حل مشكلاتهم اليومية، ويتم هذا العمل بالتنسيق مع مجلس المدينة ومركز إرشاد المواطنين لتقديم خدمات للمجتمع، مثل: مراكز إرشاد صحي واجتماعي ومكتبة ومركز معلومات وإنترنت ومقهي ومطعم، بالإضافة إلي قاعة للمؤتمرات والاحتفالات بضوابط شرعية.

يوم اللغة العربية

اعتمد المجلس التنفيذي لليونسكو يوم ٨١ ديسمبر من كل عام (يومًا عالميًا للغة العربية) ضمن الأيام الدولية التي تحتفل بها اليونسكو، وجاء القرار عقب إدراج البند في جدول الأعمال المؤقت للدورة التسعين بعد المائة للمجلس التنفيذي بناءً علي طلب السعودية والمغرب.

.. وكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تحتفل بمرور ثمانين عامًا علي إنشائها

تحت رعاية الأستاذ الدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر نظمت كلية اللغة العربية بالقاهرة في ٨١ / ٢١ / ٢١٠٢م ندوة بعنوان: «ثمانون عامًا في خدمة اللغة العربية».

وأكد الأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد عميد كلية اللغة العربية أن هذا الاحتفال جاء انطلاقًا من إقرار الأمم المتحدة لليوم الثامن عشر من ديسمبر يومًا للاحتفال باللغة العربية والحفاظ عليها وبذل المزيد من الجهد لدرء المخاطر عن كيانها والعمل علي نشرها في ظل الهجمات الشرسة التي تتعرض لها بين الحين والآخر في ظل هيمنة الثقافة الغربية علي المجتمع بجانب الاحتفال بالكلية لدورها في خدمة لغة القرآن الكريم.

وطالب المشاركون بالندوة المجتمع بالعمل علي إتقان اللغة العربية والاعتزاز بها، وأن يقوم كبار العلماء والمفكرون ومجامع اللغة العربية وأساتذة الجامعات بخلق عولمة عربية إسلامية تواجه بها العولمة الغربية، وتذكر الأجيال أننا بدون اللغة العربية ننقطع عن جذورنا.

respect except with regard to the national security and executing the ordained punishments.

The armed strike was restricted in the opinion of the majority of scholars to face the foreign attacks against the nation, religion, and people.

In fact, this approach, which is derived from a long historical experiment, although it is blamed of passivity, humbleness, its urge to the oppressors to oppress the heralds and violate the sanctities, rights, and freedoms, it is less harmful to the nation than striking using swords, weapons, and shedding blood on the pretext of fighting a tyrant ruler, who can not be reached except by this way. This results in shedding the blood of many innocent people and opening gaps, from which the enemies of the nation may enter. This also may cause weakening the nation.

What is worse is that in spite of these sacrifices to get rid of the tyrant ruler, the aim may not be achieved. Even in the few cases in which this happened, the surprise has been astonishing, as the tyrant ruler may be replaced by another who is more tyrannical. The Abbasid regime was not more merciful than that of the Umayyads, the Mamluks were not better than those who preceded them or the Ottomans. Also, the Ottomans were not better than the contemporary Arab rulers. This is if not the matter is like that which was stated in the following verse:

{Every time a new nation enters, it curses its sister nation (that went before).}

[Al-A`raf (The Heights): 38]

This does not mean surrendering to the tyrants, as resisting them is a sacred legal obligation, as this is the sublime reason for why the Messengers were sent. They were sent to resist the injustice and establish justice in the world.

This means that we should rationalize this great mechanism - propagating virtue and preventing vice - which Islam attaches to every individual and group according to his ability. This is far from the random approach adopted by Al-Khawarij and their followers along the Islamic history, that caused continuous blood shedding and disasters without any good or salvation from oppression.

The Islamic Movement and the Approach of Alternation ...!

The Honourable Sheikh: Rashid Al-Ghanoshy

The Islamic movement is a broad approach, which expresses from one side the disappointment of the nation the developmental secular projects, which carries the tides of progress. Form the other side, it expresses clinging to Islam for the hope of being able to get out of the dilemma of the time being and to carry out the aborted hopes with regard to justice, honor, unity and restoration of Palestine. It is not strange that along with the widening of the approach, the difference in the circumstances of the Islamic countries, and the difference of the secondary sources to form an Islamic elite, their viewpoints of the national and international time being and their alternative projects. According to this, their alternation approaches change.

Along with confessing to this reality, we can not deny that the general approach – the Islamic mediation as adopted and refined by our Sheikh Al-Qaradawy (may Allah safeguard him) – almost agrees, if not actually agrees, on abiding by the peaceful approach with regard to alternation and managing to gain and protect freedom, as freedom is the best atmosphere for the Islamic Da'wah,.

This approach is keen on being included in all areas of activity within the frame of law and publicity away from the suffocating secret atmospheres, if there is a way to attain this.

The Islamic mediation approach condemns the lock of the regimes, confiscation of the freedom of calling to Allah, profanation of the sanctities of Allah, abstaining from following the Shari'ah and from listening to any advice. Also, it can not do what is implied by the apparent meaning of the texts and Fatwas. It refuses being misled by the passions and adheres to the reply of one of Adams's sons to his brother:

{"If you do stretch your hand against me to kill me, I shall never stretch my hand against you to kill you: for I fear Allâh, the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn, and all that exists),"}

[Al-Ma'idah (The Table): 28]

It insists on adhering completely to peaceful strikes in the cause of Allah in dealing with the injustices and conflicts arising inside the Islamic society. This is the strike by means of conversation, which is a great strike according to the following verse:

{But strike against them (by preaching) with the utmost endeavour with it (the Qur'ân).}

[Al-Furqan (The Criterion): 52]

This was encouraged by the Messenger of Allah, as he preferred it to any other kind of strike when dealing with conflicts inside the Islamic society: "The best strike is saying the truth in the presence of an unjust ruler." (Related by Ahmad)

These texts and their likes encourage peaceful strikes using conversation and the pressure of the public opinion starts by an single word said to a tyrant ruler. This may develop to form a revolution by means of demonstrations, sit-ins, strikes, boycotting the corrupted institutions, abstaining from paying taxes, the axtions which form a complete approach with regard to propagating virtue and prohibiting vice.

The peaceful strike is called by Gandhi the non-violence strategy, by its means he overcame the strongest colonist empire of his time. Unfortunately, the Muslims did not improve this approach in the peaceful strike, which is implied and encouraged in many texts. They limited opposing a ruler by either fighting him with swords or submitting completely to him fearing trials.

{And Al-Fitnah is worse than killing.}

[Al-Baqarah (The Cow): 191]

Although, they have more options, they were limited.

The Muslim scholars disregarded the option of revolting against the ruler using weapons or setting certain conditions, which is rarely met due to disasters resulting from this way without carrying out the intention or even part of it. This is why they didn't revolt against the ruler as long as he abided the rulings of the Shari'ah and trying to restrict these defects through propagating virtue and preventing vice, dedicating the efforts to reform the subjects, subsiding the institutions of popual work such as mosques, schools, and all of the social services, depending on the institution of endowments. This restricted the authorities and sovereignty of the ruler and decreased the people's need to him to a great

Rescue us from this town whose people are oppressors; and raise for us from You one who will protect, and raise for us from You one who will help.) [Al-Nisa' (Women): 75]

The messengers of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) (7 A.H. / 628 A.D.) carried these connotations of liberating the oppressed and vulnerable peoples of the East.

At the time when the Messenger of Allah corresponded with Heraclius, the Roman Ceaser, he corresponded with Cyrus, the Great, which was at that day a Roman state. This meant that Egypt is part of the Byzantine Roman State to correspond with the Roman Ceaser about it. This was the case with his correspondences with the leaders and heads of tribes which were occupied by the Romans in the Levant as well as with those who were occupied by the Persians in the East of the Islamic state. The Messenger corresponded with them and did not only correspond with Chosroes of the Sassanid Persians.[2]

In this way, the foreign policy of the newborn Islamic state started to correspond with the people of the occupied countries directly, declaring the necessity of their independence from the Persians and Romans as well as from the imperialistic tyranny, from which they suffered.

As this foreign policy, which started in 7 A.H./628 A.D. was one of the outcomes of A-Hudaybiyyah Reconcilion (6 A.H./627 A.D.), the following year was the beginning of this foreign policy (8 A.H./629 A.D.) witnessed the first battles of the Islamic nation against the Roman occupation of the Arab land in the Levant. This was Mo'tah Battle in Balqa' in the Levant, announcing the necessity of liberating the vulnerable people from the tyranny of the occupation. Also, this was the case with Tabuk Battle, which was the last of the Battles of the Prophet, as it confirmed these tendencies and connotations.

The messengers of the Messenger of Allah announced to the leaders of the two Colonial Great Powers – the Romans and the Persians - the necessity of the liberation of the people of the colonies, which surrendered to them since a number of centuries.

In his messages to Heraclius, the Ceaser of the Byzantine Romans, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) called him to embrace Islam and warned him against the sin he and his state and church committed against his monotheist Christian subjects, the followers of Arius (270-336 A.D.) who refused the deification of

[2] See these books and theses in "The collection of the political documents of the age of the Prophet and the Rightly-Guided Caliphs", pp 43-253.

Christ and the creed of crucifixion. Also, he called him to grant the peasants the freedom of belief, so they may embrace Islam according to their freedom and choice.

This was what the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) did in his message to Chosroes Opervez (590-628 A.D.), the Great of the Sassanid Persians. As these messages addressed directly Cyrus and the leaders of the Ghassanid of the Levant, they addressed directly the chieftains of Manathira in Iraq, Bahrain, Al-Yamamah, Oman, and the Gulf, as well as the messages directed to the leaders of the Yemeni tribes, who were afflicted with the Persians and the Ethiopians at many times.

In these declarations of the rights of the people of the East to be liberated from the Persian and Roman tyranny and liberation from the Persians and Romans, the declarations which were implied in the messages of the Messenger of Allah to the leaders of the East at that time, were embodied in the Islamic conquests in the Rightly-Guided Caliphate at the time of Abu Bakr Al-Seddiq (51 B.H. – 13 A.H. / 573-634 A.D.) and 'Umar ibn Al-Khattab (40 B.H. – 23 A.H. / 584-644 A.D.) after the death of Messenger of Allah in (11 A.H. / 632 A.D.).

As soon as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) died, the foreign policy of his nation declared the world declaration of the religious and political freedom of the nations, tribes, and peoples in the correspondences with which the foreign policy of this nation started and with the two battles of Mo'tah and Tabuk, which confirmed these warnings and connotations.

At the time of the Rightly-Guided Caliphate, which followed the footsteps of the Messenger of Allah, it conquered in eighty years more than what the Romans conquered in eight centuries. Their conquests aimed at liberating the nations, consciences, and beliefs, while the Roman conquest was colonist, which aimed at the civilizational, religious, cultural, political, and economic oppression in the East for more than ten centuries.

The genius of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) realized these great conquests while concluding Al-Hudaybiyyah Reconciliation, which appeared to be unjust to Islam and Muslims. This is why this genius was looking via the Light of Allah, Who manifested to His Messenger these great conquests. The Messenger of Allah pointed at these conquests in Al-Hudaybiyyah, as he told his Companions who could not see except the apparent meaning: "Be patient, as Allah will cause this reconciliation to

Quraysh refused to admit the word "Allah" in this agreement or Muhammad as a messenger of Allah.

Many Muslims regarded these conditions at this time as major confessions from truth to falsehood. However, the strategic and military genius caused the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) told his Companions: "Be patient, this reconciliation will lead to the emergence of this religion and will dispel the Muslims' worries." This is what happened.

The genius of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) with regard to politics, militarism, and Da`wah expected in this reconciliation and truce a preliminary to the Great Liberation, which will annihilate polytheism and paganism from the Arabian Peninsula. The banners of monotheism and unity in the nation were raised for the first time in history.

Quraysh – the representative of polytheism and paganism – is the major enemy, which went on gathering allies from the Bedouins, Jews and armies and launching wars against the Muslims. They were more than twenty battles in six years.

This reconciliation and truce were to neutralize the major and most dangerous enemy of Islam, Muslims, and the Islamic state.

Quraysh before the conclusion of this truce or reconciliation was not admitting the Islamic nation, as it first admitted the Islamic state, even though it did not admit the religion, in this reconciliation.

The admittance of the Islamic nation from Quraysh upset the balance of powers. The tribes which kept away from Islam and its nation, being based on Quraysh or those who were hesitant regarding settling its stance against this struggle started by virtue of this reconciliation to think of the reconciliation with the Islamic state. Rather, they thought of embracing the new religion.

This reconciliation led to isolating the Jews of Khaybar, who were the most dangerous conspirators against Islam, its nation and state and were the most dangerous allies to Quraysh with regard to resisting Islam. Then, Khaybar was liberated by the Muslims less than months after Al-Hudaybiyah Reconciliation.

With the liberation of Khaybar, where the Jews allied with the Jews of Wadi Al-Qura and Tima' to march towards Medina and financed greatly the mercenaries of Arabs, supporting Quraysh, as well as the liberation of Khaybar and the defeat of the Jews, the Islamic nation became the greatest and major power in the Arabian Peninsula.

In addition, the Islamic nation enjoyed security after the reconciliation with Quraysh and the liberation of Khaybar, the matter that caused it to engage itself in fields, from which they were away due to continuous wars and risks caused by Quraysh and its allies along the first six years of the Islamic nation.

Thus, the great outcome of this reconciliation in which the strategic, military, and political genius of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was manifested, the foreign politics of the Islamic state (7 A.H / 628 A.D.), i.e., the years that followed the neutralization of Quraysh and the defeat of the Jews.

In this year (7 A.H / 628 A.D.), the messengers of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) were sent to the Ceaser of Rome, Chosroes of Persia, the leaders, Princes, and Sheikhs, and heads of the areas located at the edges of the Peninsula and beyond it.[1]

The Romans were occupying the Levant, Egypt, and North Africa, and the Persians were occupying Iraq and the Gulf. This means that the east, west, and north of the newborn Islamic nation were under cultural and political occupation and tyranny.

The foreign policy of the Islamic nation from its very beginning was manifested in the liberation of the East from the occupation and the cultural, religious, civilizational, and political tyranny, which continued more than ten centuries since the time of Alexander the Great (356-423 BC) – in the fourth century BC – to Heraclius (610-641 AD). The liberation of the vulnerable people is necessary for the newborn Islamic nation. Also, it is an Islamic obligation on the state:

{And what is wrong with you that you fight not in the Cause of Allâh, and for those weak, ill-treated, and oppressed among men, women, and children, whose cry is: "Our Lord!

[1] See these books and theses in "The collection of the political documents of the age of the Prophet and the Rightly Guided Caliphs", pp 43-253.

Genius that looks via the Light of Allah ... !

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor – in – chief of Al – Azhar Magazine

The period of the Islamic nation is ten years at the time of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) in Medina.

In the first six years of these ten years, Quraysh and its allies from the Arabs and the Jews on the newly born Islamic nation twenty one battle.

In Dhul Hijjah of the sixth year of Hegira – March, 628 A.H., the Messenger of Allah set off for Mecca with 1400 of his Companions to perform `Umarh, not intending war, and not having weapons except some swords. Rather, they were bringing sacrificial animals while they were Muhrims (wearing `Umrah clothes).

The Messenger of Allah saluted Quraysh, the main enemy of Islam and its state and told them: "When Quraysh speaks with me about anything related to ties of kinship, I answer their need."

However, Quraysh got on the peaceful Muslims' way, refused their entry to Mecca to perform `Umrah. There were negotiations between the polytheists and Muslims at Al-Hudaybiyya. The situation ended with the following agreement:

1- The Muslims' return to Medinah without entering Mecca in this year.

2- Their return to Mecca for performing `Umrah in the next year.

3- The polytheists' evacuation of Mecca for three days, the period of their stay in Mecca for performing `Umrah.

4- The end of war between both parties for ten years, "in which the people intermix with each other and feel safe with each other."

5- The Muslims may send to Quraysh those who embraced Islam and immigrated to Medina, while Quraysh may not send to the Muslims those who became apostates and left Medina to Mecca.

6- Security and safety should encompass the allies of both parties from the Arab tribes.

to benefit from. These wars ended with the great Conquest of Mecca, the Muslims were victor our over those who derived them out of their homes. Along with this victory, they were a very good example of the tolerance of Islam. The Messenger of Allah gave the greatest example of tolerance, as he forgave all of the inhabitants of Mecca who harmed, fought, and wanted to kill him and abort his Da`wah all the time.

The Muslims nowadays need to read Islamic history in its early days and to understand its great lessons. Choosing Islam means freedom, enduring harm patiently means strength of faith, and insistence on victory means ability to move. This is because the battles of faith are not measured by lethal weapons.

Believers know that victory can not only be achieved by the abundance of weapons, but it is granted by Allah, and the warrior will not use his weapon if Allah does not grant him success. The believers were proud of their large numbers in the Battle of Hunayn, as some of them said: "We will not be overcome by a small number of people," which did not benefit them. They were attacked and retreated till the vast earth, shrunk in their eyes. Afterwards, they gathered themselves and returned to Allah in repentance, and Allah granted them victory, as He is the All-Strong, the All-Mighty.

The Muslims nowadays are surrounded by tyrant powers, who use their weapons to occupy, some of the Muslim countries. This occupation is caused by the Muslims dispersion, disunity, and detachment from Islamic principles, about which `Umar ibn Al-Khattab said: "We were humiliated, but Allah supported us with Islam."

If Muslims returned to the religion principles, which they celebrate the anniversary of its Messenger, they would realize that they can overcome these powers if they devoted themselves to their religion, have sincere intentions and love each other. At that time, Allah will advocate and help them against those who feel that no one can overcome them.

Lessons Derived from the Anniversary of the Birth of the Honorable Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him)...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

In Rabi' Al-Awwal of every year, the Muslims experience a precious anniversary; the birth of their Messenger mohammed (may the blessings and peace of Allah be upon him), who came to get the people out of the darkness to the light. When the Prophet was born, the humanity was living in darkness, ignorance, and paganism, which spread completely in the land of the Father of the Prophets, Ibrahim (may the peace of Allah be upon him).

Also, those who claim uniqueness and singularity were spreading in many parts of the world, telling people that they are the chosen and elected people of Allah, and that other people should follow their creed and behavior. In this, there is denial for paganism, which cancels the mind, and correction for the divine creed from the deeds of the human beings. Also, this includes equity among the people, as the message of Islam came at the hands of the Messenger of Allah to all human beings, as Allah brought taught and educated him.

This message discarded paganism of the pre-Islamic era, declaring that there is no one favored by Allah, except those who are truthful, propagate virtue, and prohibit evil. In this regard, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "No Arab is preferred to a non-Arab except with regard to piety." This is the criteria for selecting or preferring one person or race to another.

When we celebrate the birth of the Messenger of Allah, we celebrate the Message, which Allah sent to him. This is the message, which corrects Allah's message which was distorted by the human being. As it adopted the trend of correction, it protects the human mind from any imbalance to be able to think in a sound and straight way.

In this way, Allah's Shari'ah planned the people's life in two directions: the first is relevant to acts of worship and the second is relevant to the human activity, which widens according to the worldly life, reconstructing the earth, establishing a civilization,

building and not destroying, gathering and not dispersing and ruling with justice among people, not forcing anyone to embrace the new religion. Rather, it introduces this religion honestly to a person, and leaves him to decide whether he will respond or not. In this way, it gives the human being the freedom of creed without any coercion or oppression.

It is strange that this message found oppression, coercion, and hostility on the part of paganism and discrimination among people. The pagans fought the new religion by all possible means and fiercely wronged those who believed in it. They feared the loss of their worldly gains because of this new massage's numerous followers. The Muslims seemed to be weak without any support, as the earlier Muslims were among slaves and the poor. The rich people and their masters tortured them fiercely in a way which is described in details in history. Also, they boycotted Muslims and besieged them among the mountains of Mecca for three years so that they could not find food or drink. They endured this patiently, seeking Allah's Reward and having condense in Allah that Allah would not waste their Jihad in vain and that Allah would help them conquer those who boycotted them.

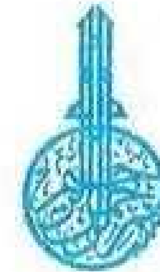
Those stubborn people continued to adopt the same attitude and the Muslims continued to starve for a long time. The pagans asked the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to reconcile with him on the condition that he would admit the worship of idols, but he refused completely, as there is no bargaining on devoting worship completely to Allah. This religion came to fight paganism with all its forms. Thus, how could it admit the gravest form of paganism, which is worshipping idols that neither benefit nor harm?

This was the beginning of the message, for its the sake the Messenger of Allah starved for thirteen years in Mecca without enough followers, to guarantee victory. Then, he immigrated with his followers to Medina, where he established the Islamic state. However, Quraysh and the tyrants did not leave this state in peace, but they frequently launched war against them. They felt that the followers of Islam were increasing day by day. Thus, they feared for the future and they found no other way except war. This war started in Badr and Allah advocated the Muslims with regard to all of the military standards. Then, Uhud Battle followed Badr Battle and Allah gave the believers a lesson





AL-AZHAR MAGAZINE
Rabiul-Awwal, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
January, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University


مكتبة الأزهر الشريف

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
مارس ٢٠١٣ م الجزء ٤ السنة ٨٦



د. وصفي عاشور — أ.د. أحمد عمر هاشم

الافتتاحية

إنه دستور مصر الكنانة .. مصر الأزهر الشريف — أ.د. محمد عمارة

ضلالة فصل الدين عن السياسة
الشيخ الخضر حسين

عن المرأة
المستشار طارق البشري

الحرية وضوابطها
أ.د. السيد الديب

ابن كثير يروى أحداث الربيع العربي
د. حمدي شاهين



هدية العدد: **الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان** — تقديم أ.د. محمد عمارة

السعر جنيهان

AL AZHAR
MAGAZINE

في العدد القادم

الافتتاحية

التأويل العبثى فى الدراسات الإسلامية المعاصرة
أ.د. محمد عمارة

وعد الآخرة : دراسة فى ميزان السنن الإلهية
د. رشيد كهوس

أوضاع المسلمين فى وسط أفريقيا
د. أحمد سمى جدو

الميراث
أ.د. صلاح سلطان

هدية عدد جمادى

فى الرد على الماديين
للعلامة محمد فريد وجدى
تقديم : أ.د. محمد عمارة

www.AlazharMag.com
facebook.com/AlAzharMag

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى

صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م وحمل اسم: نور الإسلام،

برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير

أ.د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعى خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشنى

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

الاشتراك السنوى

داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا - الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام -
شارع الجلاء - القاهرة ت. ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:
مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers @ alazharmag.com

مكتبة الأزهر الشريف

داخل العدد

الافتتاحية

إنه دستور مصر الكنانة.. مصـــر الأزهر الشريف



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

● كانت الدساتير فى بلادنا ـــ توضع بإرادة الحاكم الفرد ـ محمد على باشا فى «قانون السياستنامة سنة ١٨٣٧م ـ والخديو إسماعيل فى دستور سنة ١٨٧٩م ـ والخديو توفيق فى دستور سنة ١٨٨٢م ـ والملك فؤاد فى دستور سنة ١٩٢٣م ـ وقائد ثورة يوليو فى دساتير سنة ١٩٥٤م وسنة ١٩٥٦م وسنة ١٩٥٨م وسنة ١٩٦٤م ـ وقائد حركة التصحيح ـ أنور السادات ـ فى دستور سنة ١٩٧١م.

● لكن هذا الدستور الجديد ـ الذى تم الاستفتاء عليه فى ديسمبر سنة ٢٠١٢م صفر سنة ١٤٣٤هـ ـ قد تميز وامتاز بأن الشعب هو الذى قرر وضعه، ورسم طريقة صياغته فى استفتاء شعبى تم فى مارس سنة ٢٠١١م، عقب ثورة شعبية فريدة شارك فيها عشرات الملايين من المصريين.

● وكانت كل الدساتير السابقة تضعها لجنة يعينها الحاكم.. لكن هذا الدستور الجديد قد امتاز بأن الجمعية التى وضعته قد تم انتخابها من المجالس التشريعية المنتخبة من قبل عشرات الملايين، فى أول انتخابات حرة ونزيهة وشفافة فى تاريخ هذا الشعب العظيم.

● وكانت الدساتير يضعها فرد ـ شريف باشا فى دستور سنة ١٨٧٩م ـ أو لجنة متخصصة من فقهاء القانون والدستور.. أما هذا الدستور الجديد فلقد وضعته جمعية ضمت ـ إلى جانب فقهاء القانون والدستور ـ ممثلين لمختلف طبقات الشعب وفئاته ـ من العلماء والمفكرين والمهنيين ورجال الدين والعمال والفلاحين والطلاب... إلخ.. إلخ..

● وكانت الدساتير السابقة توضع فى غرف مغلقة.. أما هذا الدستور الجديد فلقد أذيعت مداولات وضعه على التلفاز.. وذهب أعضاء جمعيته إلى كل محافظات مصر، وإلى الجاليات المصرية فى الخارج، لاستطلاع الآراء فيه، ولإدارة أوسع الحوارات المجتمعية حول مبادئه وأهدافه.

● وفوق ذلك.. فإن هذا الدستور الجديد هو أول دستور ينص ـ صراحة ـ على انتماء مصر إلى أمتها الإسلامية ـ بالإضافة إلى انتمائها لأمتها العربية، ومحيطها الإفريقى، وامتدادها الآسيوى ـ كما ينص على خصوصية الانتماء إلى حوض النيل.

● وهو أول دستور تشارك فيه هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف عندما وضعت تفسير «مبادئ الشريعة الإسلامية» لإزالة اللبس ومنع الخلاف، وتوسيع مجالات الاختيار أمام المشرع، لتشمل هذه المبادئ «أدلة الشريعة الكلية، وقواعدها الأصولية والفقهية، ومصادرها المعتمدة فى مذاهب أهل السنة والجماعة» ـ كى يختار المشرع ما يناسب العصر ويواكب المستجدات(١).

● وهو أول دستور ينص على استقلال الأزهر الشريف ـ مؤسسة مصرية عالمية الرسالة ـ وعلى أخذ رأى هيئة كبار العلماء فى كل ما يتعلق بالشريعة الإسلامية.. بل ويضع ذلك فى باب المقومات الأساسية للدولة والمجتمع.

● وهو أول دستور يعطى لشركاء الوطن ـ من المسيحيين واليهود ـ الحق فى الاحتكام إلى مبادئ شرائعهم فى أحوالهم الشخصية، وشئونهم الدينية، واختيار قياداتهم الروحية.. فيفصح عن الموقف الإسلامى الثابت: «يتركون وما يدينون».. ويضع ذلك ضمن المقومات الأساسية للدولة والمجتمع.

(١) والغريب والمريب أن يخرج علينا صوت شاذ يصف هذا التفسير لمبادئ الشريعة ـ الذى أصبح المادة ٢١٩ من الدستور ـ فيقول: «إنها مادة كارثية»!!. ونحن ندعو أصحاب هذه الأصوات الشاذة إلى أن يئوبوا إلى رشدهم كى لا يمثلوا الشذوذ على الهوية العربية الإسلامية التى أجمعت عليها الأمة ـ بدياناتها المتعددة ـ عبر تاريخها الطويل

● وهو أول دستور يضيف «الشورى» إلى «الديمقراطية» كمبادئ للنظام السياسي.. هذه الشورى التي قال عنها فقهاؤنا:

«إنها من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام.. وأن من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه».

● وهو أول دستور يحدد معنى «المواطنة» «التي تسوى بين المواطنين في الحقوق والواجبات»، فيزيل اللبس الذى جعل البعض يريدها مواطنة على النمط الغربي، تقوم على نفي الشريعة والدين!

● وهو الدستور الذى منع قيام الأحزاب التي تفرق بين المواطنين بسبب الدين.. ولم يمنع المرجعية الدينية في العمل السياسي والحياة الحزبية ـ كما كان الحال في تعديلات سنة ٢٠٠٧م لدستور سنة ١٩٧١م!.

● وهو الدستور الذى أعاد نظام الوقف ـ كشكل من أشكال الملكية ـ وكمؤسسة تمويلية أسهمت في إقامة العدل الاجتماعي ـ في تاريخنا ـ ومولت صناعة الحضارة الإسلامية.. وذلك بعد أن أجهز حكم العسكر على هذا النظام منذ ستين عامًا.

● وهو أول دستور ينص على ضرورة تعريب التعليم والعلوم والمعارف، فينتصر للغة القرآن، التي ظلت لغة العلم العالمي لأكثر من عشرة قرون، والتي لم تعزل عن تدريس العلوم إلا تحت حراب الاستعمار!

● وهو أول دستور ينص على وجوب محو عار الأمية عن شعبنا في مدة أقصاها عشر سنوات.

● وهو أول دستور ينص على اعتماد نسبة من الدخل القومي للتعليم، وللبحث العلمي، بعد أن انهار تعليمنا، وتخلفنا في البحث العلمي تخلفًا تضرب به الأمثال!

● وهو الدستور الذى تظلل قيم العدالة الاجتماعية العديد من مواده.. فيجعل للعاملين نصيبًا في إدارة المشروعات وفي أرباحها، ويجعل لممثليهم ٥٠٪ من الأعضاء المنتخبين لإدارة هذه المشروعات.. كما يجعل لصغار الفلاحين وصغار الحرفيين نسبة لا تقل عن ٨٠٪ من عضوية مجالس إدارات الجمعيات التعاونية.. و٥٠٪ على الأقل من عضوية المجلس الاقتصادى والاجتماعي الذى يرسم سياسات الدولة الاقتصادية والاجتماعية.. كما يلزم الدولة ـ ولأول مرة ـ بتوفير معاش مناسب لصغار الفلاحين والعمال الزراعيين والعمالة غير المنتظمة، ولكل من لا يتمتع بنظام التأمين الاجتماعي.. كما يقرر ـ هذا الدستور ـ حقوق المواطنين على الدولة في مقومات الحياة الكريمة: المسكن، والغذاء الصحي، والماء النظيف، والبيئة الصالحة، والتعليم عالي الجودة.

● وهو الدستور الذى انتصر للحريات ـ الفردية والاجتماعية ـ لإزالة آثار عدوان الدولة البوليسية على هذه الحريات فنص على صيانة حريات الأفراد والأسرة والأحزاب والجمعيات والصحف والمظاهرات والاجتماعات، التي تقوم وتمارس عملها الحر بمجرد الإخطار.

● وهو أول دستور يضمن حدًا أدنى للأجور.. ويضع حدًا أقصى للمرتبات في أجهزة الدولة.

● كما يقلص سلطات رئيس الدولة، ومدة ولايته، ويضع القيود على الذمم المالية والأنشطة الاقتصادية والتجارية لمن يتولى العمل العام في سلطات التشريع والتنفيذ.

● إنه الدستور الأفضل في تاريخ هذا البلد الأمين، سواء في أسلوب وضعه، أو فيما تضمنه من مميزات وامتيازات.

إنه دستور مصر.. مصر ثورة ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م ـ ١٩ صفر سنة ١٤٣٢هـ ـ الثورة الشعبية السلمية، التي شارك فيها عشرات الملايين من أبناء الكنانة، رفضًا لنظام العار، نظام العجز والتبعية والفساد والاستبداد.

إنه دستور مصر الكنانة، التي انتفض شعبها الأبى ضد الظلم والاستبداد والاستعمار، فسجل في «كتاب الثورة» أكبر عدد من الصفحات لأكبر عدد من الثورات التي قام بها شعب في العصر الحديث:

١ ـ فبعد أن هزم هذا الشعب الأبي الحملة الفرنسية، وأجبر «بونابرت» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) ـ الذى دوخ أوروبا ـ على الهرب من مصر بليل ـ مقدمًا سبع سكانه شهداء للحرية ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف شهيد ـ من شعب كان تعداده يومئذ أقل من ثلاثة ملايين ـ بعد هذه التضحيات غير المسبوقة في تاريخ الثورات.. أعلنت القيادة الشعبية لهذا الشعب، ممثلة في «مجلس الشرع» الذى ضم علماء الأزهر وقضاة الشرع، بلسان السيد عمر مكرم (١١٦٨ ـ ١٢٣٧هـ، ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢م) أول «وثيقة للحقوق» عرفها الشرق في العصر الحديث، وفيها تقرر ـ دستوريًا ـ «أن الأمة هى مصدر السلطات.. وأنه قد جرت العادة، من قديم الزمان، أن أهل البلد يعزلون الولاة، بل وحتى الخلفاء والسلاطين، ويخلعونهم إذا ساروا فيهم بالجور.. بل ويحاصرونهم ويقاتلونهم لأنهم عصاة لأمر أهل البلد».. نعم.. أعلن الشعب المصرى ـ ممثلاً في «مجلس الشرع» هذه الوثيقة الدستورية في مايو سنة ١٨٠٥م.

وإعمالاً لهذه الحقوق الشرعية والدستورية، اختارت مصر واليها محمد على باشا الكبير (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ، ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) على شروط دستورية تعلى من سلطة الأمة وتنص: «على أن يسير فيها بالعدل، وإقامة الأحكام والشرائع، والإقلاع عن المظالم، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء.. وأنه متى خالف الشروط عزلوه».

٢ ـ ثم كانت ثورة عرابى باشا (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ ١٨٤١ ـ ١٩١١م) سنة ١٨٨١م سنة ١٢٩٨هـ ضد الظلم والاستبداد والاستعمار، ومن أجل الدستور والحياة النيابية.. وهى الثورة الشعبية التى جعلت مصر تعرف الحياة الدستورية، والنيابية، والتعددية السياسية قبل كثير من دول العالم.

٣ ـ ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩م سنة ١٣٣٧هـ لتحقيق الاستقلال التام، والتى قادها سعد زغلول باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م) زعيم الفلاحين، وابن الأزهر الشريف، والتى حققت حياة دستورية حديثة، ونظامًا نيابيًا، وتعددية سياسية، واستنارة فكرية جعلت مصر مركز الريادة فى محيطها العربى والإسلامى.

٤ ـ ثم جاءت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م سنة ١٣٧١هـ لتحقيق الجلاء والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.. والتى دخلت بمصر إلى النظام الجمهوري، وفتحت أمام شعبها باب العروبة والقومية العربية.

وهكذا ثارت مصر خمس مرات فى عصرها الحديث.

• إنه دستور مصر الكنانة، التى لم تنكفئ على ذاتها عبر تاريخها الطويل، وإنما مدت يد العون والتضامن وقدمت التضحيات لتحرير الشرق كله من الاستعمار والاستبداد.. فخرج جيشها من ميناء السويس سنة ١٥٠٤م ليحارب إلى جانب الهنود ـ على شواطئ الهند ـ ضد الغزاة البرتغاليين.

ومن قبل ذلك خرجت جيوش الكنانة لتهزم التتار فى عين جالوت سنة ١٢٦٠م، ولتنقذ الحضارة من الدمار.. ومن قبل ذلك كانت جيوش مصر الكنانة هى التى طهرت الشرق من الغزوة الصليبية التى دامت قرنين من الزمان.. وفى واقعنا المعاصر كانت مصر هى التى ساعدت كل حركات التحرر الوطنى فى إفريقيا وآسيا وحتى أمريكا اللاتينية.. وهى التى لاتزال مرابطة على جبهة التحرير للقدس وفلسطين.

• إنه دستور مصر الكنانة، التى أشرقت على أرضها شمس الحضارة الإنسانية، والتى انبثق فى ربوعها فجر الضمير، والتى ارتبط التمدن فيها بالتوحيد الدينى الذى بشر به ثالث الأنبياء إدريس ـ عليه السلام ـ الذى رفعه الله مكانًا عليا.. والتى ظل التوحيد فيها يغالب الشرك والوثنية عبر تاريخها الطويل، فسار على أرضها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ (فى القرن التاسع عشر ق. م).. ودعا إلى التوحيد فيها يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ (فى القرن الثالث عشر ق. م).. ونزلت فيها شريعة موسى ـ عليه السلام ـ (فى القرن الثالث عشر ق.م).. وعاش فيها أخناتون (١٣٦٠ ـ ١٣٣٧ ق. م) مجدد الدعوة إلى التوحيد.. وآوى إليها المسيح وأمه ـ عليهما السلام ـ حتى لقد شرفت مصر وتفردت بأن الأنبياء الذين وصفوا «بالصديق»، هم الذين عاشوا فيها!.


د. طه حسين

• إنه دستور مصر الكنانة، التى عانقت الإسلام، الذى حررها وحرر نصرانيتها وكنائسها وأديرتها وبطركها الوطنى «بنيامين» (٣٩هـ ٦٥٩م) من القهر الرومانى الذى استمر عشرة قرون.. والتى وصفها عمرو بن العاص ـ يومها ـ متنبئًا بمستقبلها الإسلامى فقال: «إنها ولاية جامعة، تعدل خلافة، فتبوأت ـ منذ ذلك التاريخ ـ مكان الريادة والقيادة فى محيط الشرق العربى الإسلامى الكبير.

• إنه دستور مصر الكنانة، التى بارك الرب ـ فى الإنجيل ـ شعبها.. والتى تفردت عندما جاء ذكرها خمسًا وعشرين مرة فى القرآن الكريم.. والتى أوصى بأهلها رسول الإسلام ﷺ خيرًا «لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة.. ولأن جندها هم خير أجناد الأرض».

• إنه دستور مصر، الدولة الوطنية الديمقراطية الحديثة، ذات الهوية العربية الإسلامية، التى تحدث الدكتور طه حسين (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ، ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) ـ فى لجنة وضع دستور سنة ١٩٥٤م ـ عن حاكمية الإسلام على دستورها وقوانينها فقال: «إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عن وضع الدستور على ما أمر به الإسلام وإنه ليس هناك مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن وإنه إذا وجد نص دينى صريح، فالحكمة والواجب ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم.. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا، ولا يكون الإيمان إيمانًا ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر.. كما تحدث القانونى القبطى اسطفان باسيلى ـ إبان مشاركته مع كوكبة من القانونيين الأقباط فى تقنين الشريعة الإسلامية ـ بمجلس الشعب فى سبعينيات القرن الماضى ـ تحدث عن الشريعة الإسلامية فقال: «لقد عرفت، بمضى المدة، وبعد سبعة وخمسين عامًا من ممارسة المحاماة أن الشريعة الإسلامية هى خير ما يمكن أن يطالب به لا المسلم وحده، بل وأيضًا المسيحي، لأن بها كل ما يرضينا، ويؤكد الحفاظ علينا فى كل ما لنا من حقوق وعلينا من واجبات، ففيها من مصادر الرحمة الكثير بالنسبة للمواطنين.. لقد جاءت الشريعة الإسلامية لتصون الحق وتحميه وإنه ليوم بهجة أن يكون اسم الشريعة الإسلامية هو المسيطر على كل تشريعاتنا».

• إنه دستور مصر الكنانة، الذى يرسم معالم العلاقات بين الأمة والدولة، ويوازن بين السلطات، وينتصر للحريات، ويحدد الحقوق والواجبات، ويؤسس لدولة المواطنة الملتزمة بتحقيق المساواة والعدالة بين كل مواطنيها.. إن شاء الله.

تفسير سورة البقرة



للشيخ/ محمد عبده

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

(البقرة: ٤٤-٤٦)

الكلام موجه إلى بنى إسرائيل، وقد تقدم فى الآيات السابقة أن الله ذكرهم بنعمته، وأمرهم بالوفاء بعهده، وأن يرهبوه ويتقوه وحده، وأن يؤمنوا بالقرآن، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به، وأن يشتروا بآياته ثمنا قليلا، وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموه عمدا ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطفق فى هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المعوجة فى الدين، ويهديهم إلى طريق الخروج منها.

اليهود كسائر الملل يدعون الإيمان بكتابهم والعمل به، والمحافظة على أحكامه والقيام بما يوجبه ولكن الله تعالى علمنا أن من الإيمان - بل مما يسمى فى العرف إيمانا - ما لا يعبأ به، فيكون وجوده كعدمه وهو الإيمان الذى لا سلطان له على القلب، ولا تأثير له فى إصلاح العمل، كما قال:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة: ٨)

وكانت اليهود فى عهد بعثته عليه الصلاة والسلام قد وصلوا فى البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد كانوا - ولا يزالون - يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معانى الألفاظ ويجلون أوراقه وجلده، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته، لأن الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال تعالى وعلى الوجه الذى يرضاه تعالى: يتلونه ألفاظه وفيها البشارة بالنبى ﷺ، ويأمرون بالعمل بأحكامه وآدابه من البر والتقوى ولكن الأحبار القارئين الآمرين الناهين ما كانوا يبينون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم وتقاليدهم، ولا يعملون بما فيه من الأحكام إلا إذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم فقد عهد الله إليهم فى الكتاب أنه يقيم من إخوتهم نبيا يقيم الحق، وفرض عليهم الزكاة، ولكنهم كانوا يحرفون البشارة

بالنبى ﷺ ويؤولونها، ويحتالون لمنع الزكاة فيمنعونها، وجعلت لهم مواسم واحتفالات دينية تذكرهم بما آتى الله أنبياءهم من الآيات وما منحهم من النعم لينشطوا إلى إقامة الدين والعمل بالكتاب، ولكن القلوب قست بطول الأمد، ففسقت النفوس عن أمر ربها وهذه التوراة التى بين أيديهم لاتزال حجة عليهم فلو سألتهم عما فيها من الأمر بالبر والحث على الخير لاعترفوا وما أنكروا، ولكن أين العمل الذى يهدى إليه الإيمان، فيكون عليه أقوى حجة وبرهانًا؟!

كذلك كان شأن أحبار اليهود وعلمائهم فى معرفة ظواهر الدين بالتفصيل، وكان عامتهم يعرفون من الدين العبادات العامة والاحتفالات الدينية وبعض الأمور الأخرى بالإجمال، ويرجع المستمسك منهم بدينه فى سائر أموره إلى الأحبار فيقلدهم فيما يأمرونه به، وكانوا يأمرون بما يرونه صوابا فيما ليس لهم فيه هوي، وإلا لجئوا إلى التأويل والتحريف والحيلة ليأخذوا من الألفاظ ما يوافق الهوى ويصيب الغرض فإذا وجه الخطاب فى قوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾

إلى حملة الكتاب، فذاك لأن الأمر والنهى وظيفتهم وإذا كان عاما فذاك لأن شأن العامة فيما يعرفون من الدين بالإجمال كشأن الرؤساء فيما يعرفون بالتفصيل ولا يكاد يوجد أحد لا يأمر بخير ولا يحث على بر، فإذا كان الآمر لا يأتمر بما يأمر به فالحجة قائمة عليه بلسانه.

وبخ الله هؤلاء القوم على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر، كالأخذ بالحق ومعرفته لأهله وعمل الخير والوعد عليه بالسعادة، مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الأنفس، فإن من شأن الإنسان أن لا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة، كأنه يقول: إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه، فكيف نسيتم أنفسكم:

﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾

وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون؟ أفتعلمون مع نقص العلم بفائدة العمل، ولا تعملون على كمال العلم وسعته؟! ولما كان هذا غير معقول، قفى على استفهام التوبيخ بقوله:

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يعنى ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السفه؟! فإن من له مسكة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب والإيمان اليقينى به والقيام بالإرشاد إليه: هذا كتاب الله، هذه وصايا الله، هذا أمر الله، قد وعد العامل به السعادة فى الدنيا أو الآخرة أو كليهما، فخذوا به واستمسكوا بعراه، وحافظوا عليه - ثم هو لا يعمل ولا يستمسك؟!

مثل من كانت هذه حاله كمثل رجل أمامه طريق مضيء، نصبت فيه الأعلام والصوى بحيث لا يضل سالكه، ثم هو يسلك طريقا آخر مظلما طامس الأعلام، وكلما لقى فى طريقه شخصا نصح له أن لا يمشى معه، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذى تركه أو مثل ساغب يدعو الناس إلى المائدة الشهية، ويبيت على الجوع والطوى أو صاد يدل العطاش على مورد الماء ولا يرد معهم.

إذا كان هـذا لا يقـع مـن صحيـح العقل، فكذلـك أمر المؤمن بشـعب الإيمـان وعدم الائتمار بها، مع تذكرها وتلاوة كلام الله فيها فلابد لتعقل هذا من القول بأن الإيمان بالوعد على البر والوعيد على الفجور غير يقيني عند الآمر المخالـف ويؤيده أن القوم كانوا عقلاء في كسب المال وحفظ الجاه الدنيوي، وإنما ضلوا من جهة الدين بأخذه على غير وجهه.

الخطاب عام لليهود الذين كان هذا حالهم وعبـرة لغيرهـم، لأنـه منبئ عن حـال طبيعية للأمم في مثل ذلك الطور الذى كانوا فيه ولذلك كان القرآن هدايـة للعالمين إلى يوم الدين، لا حكاية تاريـخ يقصد بها هجاء الإسـرائيليين فلتحاسب أمة نفسـها في أفرادها ومجموعها لئـلا يكون حالهـا كحال مـن ورد النص فيهم فيكون حكمها عند الله كحكمهم، لأن الجزاء على أعمـال القلـوب والجـوارح، لا لمحاباة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم.

«فـإن قيـل»: إن مـن يأمـر غيـره بالبـر وينسـى نفسه قد يكون متكلًا في ترك العمل علـى الشـفاعات والمكفـرات، كالأذكار والصدقـات، لا أنـه يتـرك لعـدم اليقيـن في الإيمـان. وإذا أمر غيره بالبر مـع هذا، فذاك لأنه يلاحـظ المكفرات في شـأن نفسـه ولا يلاحظها في شأن غيره.

نقول: إن العالـم بالدين لا يخفى عليه أن حكم الله تعالـى واحد عام، فكيف يحتم البر علـى غيره ويوهمـه أنه لا يقربه مـن رضوان الله ويبعده من سـخطه إلا هو، وينسـى نفسـه فـلا يحتـم عليها ذلك؟! ثم كيـف يجهل أن الشـفاعات والأعمال الصالحة التي ورد أنها تكفر السـيئات لا يصـح أن تكون مثبطة عن عمل البر، أو سـببا لتركه لأنـه المقصود من الديـن؟! فهـل يكون فـرع من فـروع الدين هادما لأصوله وسـائر فروعه؟! كل ذلك كان ينبغـي أن يكون بعيدا عن العالم بالدين الذى يتلـو كتاب الله تعالى ولكـن هذا الضرب من الخـذلان يعرض لأربـاب الأديان عند فسـاد حال الأمم، فنبـه الله تعالى عليه بهذا التعبير اللطيف وهو نسـيان النفس مع تلاوة الكتاب فكأن الزاعم أنه مؤمن ولا يعمل عمل الإيمان، نسـى أنه هـو الذى يزعم الإيمـان، وصاحب هـذا النسـيان يمضى فـى العمـل القبيح من غيـر فكـر ولا روية بـل انبعاثًا مـع الحظوظ والشـهوات التى حكمها في نفسه، وملكها زمـام عقلـه وحسـه، ولكنـه لا يلاحظها في غيره عندما يعرض عليه عمله السـيء أو يراه معرضا عن عمل البر ولذلك يعظه ويذمه.

بعدمـا بيـن سـوء حالهـم وأن عقلهـم لم ينفعهـم والكتاب لم يذكرهم، أرشـدهم إلى الطريقـة المثلـى للانتفاع بالكتـاب والعقل والعمل بالعلم النافع، فإن العمل السـيئ الذى سـببه نسـيان النفس ليس طبيعيا كالنفس لا يمكن دفعه ومقاومته، بل هو اختيارى وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله:

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾

أمر بالصبر، وهو كما قال المفسر: حبس النفس على ما تكره. ونقـول بعبارة أوضح: هو احتمال المكروه بنوع من الرضا والاختيار والتسـليم؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقـول العامة في أمثالهم. وذكـر مثلًا بمعنى قول الشاعر:

صـبـرت ولا والله مـالـى طـاقـة
على الصبر ولكنى صبرت على الرغم

والصبـر الحقيقـى المبنى على التسـليم يحصـل بتذكـر وعـد الله تعالـى بالجـزاء الحسـن للصابرين على أعمال البر التى تشق علـى النفس وعـن الشـهوات المحرمة التى تصبـو إليهـا، ويتذكـر أن المصائب من فعل الله وتصرفـه فـى خلقـه فيجب الخضـوع له والتسـليم لأمره ومن عجيب أمر هذا الصبر، أنه يقى الإنسـان من الخسران متى حسن في كل شيء، كما تفيده سورة (العصر) ويؤيده الاختبار وقد اشـتهر أن «من صبر ظفر» وربما أتينا على شـيء من معنى الصبر -وأنه قوة من قـوى النفس تدخـل النظام فـى كل عمل من أعمالها - في موضع آخر.

والاسـتعانة بالصبـر تكـون بالالتفات إلى الأسـباب التـى تأفـك النـاس وتصرفهـم عن صراط الشـريعة، كاتباع الشـهوات، والولوع باللذات، والبعد عـن المؤلمات، ثم بالقياس بينها وبيـن ما رغب الله فيه، أو أوعد بالعقاب علـى فعله، ثم بملاحظـة أن ما أوعد الله تعالى بـه أولى بأن يتقى، وما وعد به أولى بأن يرجى ويطلب، ومثل الذين يفقـدون الصبر فيقعون في الخسـران، كمثـل صاحب الحاجـة يهزه الطيـش والتسـرع إلـى قضـاء حاجتـه ويفقد الصبر على مرارتها، فيكذب لاعتقاد أن حاجته تقضـى، فيدفـع المضـرة أو يجلـب المنفعة بالكـذب، وأنه بالصدق يفوتـه هذا، فيقترف جريمـة الكذب لهـذا الاعتقاد، وهـو ظان بل واهم ومتـى اقترفه مرة هان عليه، فيعود إليه، فيكون كذابا ومتـى عرف بذلك ضاعت الثقة به وفسد حاله وأصبح يجد الحاجة إلى الصدق أشد مما كان منها إلى الكذب.

وإذا ذكـر مثل هـذا الرجـل، أو تذكر من تلقاء نفسـه الوعيد علـى الكذب وما ورد في ذلك من آيات في كتاب الله وآثار عن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسـان، وما يجلبه لصاحبه من مقت الله وغضبه، ويسـبق إلـى ذهنـه المكفـرات، ومثلها الشـفاعات وسعة العفو والمغفرة، كالاستغفار قبل النوم مائـة مرة، وقـول كذا مـن الذكـر بعد صلاة الصبح كذا وكذا مرة، فلا يبقى للوعيد معها أثر، إذ يذعن بأن ذنبه يغفر لا محالة، وينسى سـبب المغفرة الحقيقى وهو التوبة النصوح والرجوع إلـى الله تعالـى، وأن العفو عن غير التائب الأواب إلى الله تعالى مجهول بالنسـبة إلى علمنا وإن كان جائزا عقلًا، فإننا لم نطلع على ما في علم الله تعالى فنعلم أننا ممن يعفو عنهم.

وكيف نترك ما جاء عن الله في كتابه وعلى لسـان نبيه من النصوص القاطعـة الدالة على أن لعنـة الله مسـجلة على الكاذبيـن؟! وهي بعمومها لا تدع لوهم مجالًا في نزول سـخط الله بالكاذب؟! ثم نخترع لأنفسنا تعلة نتوكا عليها في ارتكاب هذه الجريرة ونسندها إلى سعة عفو الله، أو إلى مجمل من القول لا يبينه إلا تلك النصوص القاطعة؟! إن هذا إلا خبال، أو تصويـر خيال، أو فقد للإيمان بصحة تلك النصوص القاطعة، نعوذ بالله.

ومن الناس من يكتفى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمـه بأنـه غيـر معصـوم، وذكـر بعض الشـواهد عمـن يظـن أن لهم فـى الدين قدم صـدق.. ومن هذا رأيه، يتصـور أن الصدق واتبـاع الحق إنما هو شـأن طائفة معدودة من البشـر، وهم الأنبياء عليهم السلام، وكل من عداهـم فليس من شـأنه أن يثبـت على عمل

صالح، ويكتفى بهذه النكتة فى تسلية نفسه وتجريتها على الجرائم وكفى بهذا حمقا!! فليس يلزم من كون غير النبى ليس معصوما أن يكون إلف مآثم، وحلف جرائم، وخدن عظائم ولو لزم أن يكون الناس هكذا، لكانت الشرائع عبثا، والتهذيب لغوا، ولفسدت الأرض، وخرب العمران.

وهل يصح فى حكم العقل، أن يقال إن الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعها إلا لأجل المعصومين؟ وهل يحتاج المعصوم إلى وعد أو وعيد؟! وما فائدتهما بالنسبة إليه، وقد أيقن بتوفيق الله له، وأنه لا يأتى أمرا يخالف ما أمر به، ولا يقترف شيئا مما نهى عنه؟! ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب فى الوعيد ولا الزجر، مع أنهم أحق الناس بالردع وأحوجهم إلى التخويف من سوء العاقبة؟!

وأما الاستعانة بالصلاة، فهى أقرب إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله تعالى، لما لها من التأثير فى الروح ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء، ولذلك قال تعالى:

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

أى لثقيلة شديدة الوقع، كقوله تعالى:

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾

(الشورى: ١٣)

إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى، فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر وكل الخلائق الحسنة، لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله تعالى كما قال عز وجل:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾

(المعارج: ١٩-٢٢)

فمن خواص الصلاة الصبر ونفى الجزع ومن خواصها النهى عن الفحشاء والمنكر ومن خواصها الجود والسخاء، فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة، ولا لما يعرض له فى معاملاته مع الخلق من خوف وخشية وهذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال، ولذلك قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

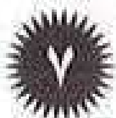
(المؤمنون: ١-٢)

ثم وصف الخاشعين وصفا يناسب المقام ويظهر وجه الاستعانة به فقال:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

أى الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء، وأنهم إليه راجعون بعد البعث، لا مرجع لهم إلى غيره فالإيمان بلقاء الله تعالى هو الذى يوقف المعتقد عند حدوده، ولو لم يكن الاعتقاد يقينيا، فإن الذى يغلب على ظنه أن هذا الشىء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) باليقين لأنه الاعتقاد المنجى فى الآخرة وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ فى التقريع والتوبيخ، كان هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبه بالاحتياط.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى



ما بدا من اجتهاده ﷺ فى صورة التمنى

١- أحب ﷺ أن يكون البيت الحرام قبلته فى الصلاة، بعد ما مكث متجهًا فيها إلى بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهرًا.

٢- فأجابه الله إلى ما طلب، وصرف قبلته إلى الكعبة بما أنزله فى الآية الكريمة:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

(البقرة: ١٤٤)

يروى البخارى عن البراء بن عازب أن النبى ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت -وفى رواية: كان يحب أن يوجه إلى الكعبة- فأنزل الله تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

فتوجه إلى نحو الكعبة(١).

ويحدد ابن كثير فى تاريخه -نقلا عن ابن عباس وابن مسعود- أن القبلة صرفت فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، ويزيد تحديدًا بقوله: إن الجمهور الأعظم على أنها صرفت فى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة.

ويجمل النقل عن ابن عباس -فى رواية أحمد عنه- فى: أن رسول الله ﷺ كان يصلى وهو بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينما صلى إلى بيت المقدس.

ويعلل رغبة الرسول فى التوجه إلى الكعبة فى الصلاة بأنها قبلة أبيه إبراهيم، وقد جاء داعيًا إلى إحياء ملته وتجديد دعوته. والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعًا، وهم نواة الدين وأساس الدعوة.

وهنا تراخى الوحى فى إجابة الرسول إلى ما أحبه، فاجتهد عليه السلام أولاً وبدا اجتهاده فى صورة رغبة وأمنية فحققها له الله سبحانه وتعالى، وبذلك أصبح ما رآه بالاجتهاد مشروعًا مقرًا عليه من ربه.

(١) وروى ابن ماجه من طريق أبى بكر بن عياش، قال: صلينا مع النبى ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرًا وصرفت القبلة إلى الكعبة.

وفى جانب آخر أثناء دعوته ﷺ للإسلام كان بعض زعماء الكفار يحاول فى صور شتى أن يضع العراقيل فى سبيل انتشار دعوته، مرة بالاستخفاف منه واتهامه بما لا يليق بداع إلى الحق، وأخرى بتقديم طلبات مبدين ضرورة إجابتها حتى يكون ذلك تمهيدًا لتصديقه والسير اتجاهه. شأنهم فى ذلك شأن أى فريق معارض، معاند فى معارضته. والرسول عليه السلام كانت تغلب عليه طبيعته البشرية فى بعض الأحيان إزاء ذلك، مرة يتأثر فى دخيلة نفسه بما يتهمونه به، وأخرى يتمنى نفسيًا أن يأتى الله على يديه بما يحقق ما طلبوا تحقيقه. لكن الله جلت قدرته وعزت إرادته هو الكفيل بأن ينتصر رسوله فى دعوته إلى الحق، ولذا كان يتكفله بتقوية عزمه وطمأنينته على مستقبل دعوته حين تستحكم الأزمة، أو تشتد الرغبة فى مجاراتهم.

١- يحكى الله سبحانه وتعالى بعض تعنتهم فى قوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾

(الأنعام: ٨)

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الأنعام: ٣٧)

يحكى بعض ما كان يطلبه الكفار من رسوله الكريم ويتمنى أن يجيبه الله إليه.

٢- لكن لأمر يرتبط بمصلحة الدعوة، وبحكمة الألوهية لم يجبه الله فى بعض الأحايين إلى ما تمنى، وهو العليم الخبير.

يقول تعالى:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

(الأنعام: ٣٣-٣٥)

والمفسرون يقولون فى معنى هذه الآيات: إن زعماء الكفار كانوا يقترحون الآيات عليه ﷺ، وكان ﷺ يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلبوا حرصًا على هدايتهم، ودفعًا لحزنه وأسفه لكفرهم. ولكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون، وفوق ما يطلبون، كما قال:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الأنعام: ٧)

فالرسول عليه الصلاة والسلام إزاء طلب الكفار اعترته حالة نفسية هى حالة المتمني، وذلك من حالات الإنسان كإنسان. ولاشك أن نزول الآية الكريمة بعدم إجابته إلى ما تمنى قطع لهذه الحالة عنده أو تصحيح للوضع كما يجب أن يكون عليه. والرسول الكريم بتمنيه هذا كأنه رأى ذلك لتيسير السبيل لدعوته. والله جل شأنه بعدم موافقته على ذلك - بناء على علمه بطبيعة هؤلاء الطالبين وأمثالهم - قد حدد الطريق السليم لنجاح دعوة رسوله ﷺ.

لكن أكان التحديد منه جل شأنه للطريق القويم فور تمنيه ﷺ؟ أم حصلت بين الأمرين فترة زمنية تجعل وقوع أحدهما إثر الآخر معتبرًا فى تصور الإنسان على سبيل التراخي؟ والحكم على ذلك أيضًا شاق عسير. بالأخص إذا علم أن التمني أمر نفسي لا تستطاع معرفة بدايته عند المتمني لغيره. والرسول عليه السلام وهو الذى كان هنا فى حال المتمني لم يخبر بذلك، والله هو الذى وسع علمه كل شيء لم يوح على لسان نبيه المصطفى أيضًا بذلك.

وفى حادثة ثالثة كان من تقاليد العرب فى جاهليتهم أنه لا يتزوج الرجل زوجة متبناه، إذا طلقها أو مات عنها، لأنهم كانوا يعتبرون زوجة المتبنى كزوجة ابن الصلب تمامًا. ولما جاء الإسلام بإبطال هذه العادة وكانت مسائل النكاح من الحساسية عند العرب بدرجة شديدة أراد الله أن يكون تشريع الإبطال نافذًا على وجه يقطع كل قول ويرفع كل حرج، فأمر رسول الله بأن يسمع طلاق زيد إذا جاءه طالبًا طلاق زوجه وأن يتزوجها هو نفسه ليبطل هذه العادة.

١- وكان ﷺ من جهته يخشى أن يكون فى ذلك فرجة يدخل منها متقولوا المنافقين، وفرصة ينتهزها الخصوم من الكافرين فتمنى أن يجعل الله إبطال هذه العادة على يد غيره، تمنى ﷺ ذلك فى دخيلة نفسه ولم يفاتح به أحدًا.

٢- فعوتب على ذلك من ربه، وأنزل الله فى ذلك آيات كثيرة من سورة الأحزاب ومنها:

﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾

(الأحزاب: ٣٧)(٢)

والحكم هنا أيضا فى ترتب أحد الأمرين على الآخر إن كان على الفور أم على التراخي، مثل حكمنا به فى سابقه للسبب الذى ذكر.

«يتبع»

(٢) ستأتى زيادة إيضاح لهذه الحادثة عند الكلام عن «ما بدا من اجتهاده ﷺ فى صورة الطلب».

الأحرف والقراءات القرآنية في ضوء الدرس اللغوى



الأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية



القراءات الشاذة ودرء شبهة المستشرقين

كل ما خرج عن الضوابط التى وضعها ابن مجاهد، وكل من عدا القراء العشرة يعد من القراء الشواذ كما إذا خالفت القراءة للرسم العثمانى ولو كانت ثابتة الرواية بالتواتر أو كانت موافقة للرسم ولكن ثبوتها عن رسول الله كان بطريق الآحاد، أو كانت مخالفة للرسم مع ثبوتها بالآحاد وقد بلغت هذه القراءات أكثر من أربعين قراءة اشتهر منها أربع هي:

١- قراءة الحسن البصرى المتوفى سنة «١١٠ هـ» وكان زاهدًا ورعًا.

٢- محمد بن عبدالرحمن المعروف بابن محيصن المتوفى سنة «١٢٣ هـ» وكان شيخًا لأبى عمرو.

٣- يحيى بن المبارك اليزيدى النحوى من بغداد أخذ عن أبى عمرو وحمزة وكان شيخًا للدورى والسوسى وتوفى سنة «٢٠٢ هـ».

٤- سليمان بن مهران الأسدى بالولاء ولقبه الأعمش وهو من التابعين، توفى سنة «١٤٨ هـ».

وقد اشتملت القراءة الشاذة على بعض الأحرف السبعة لأن بعض الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ بلهجتهم الخاصة وأجازهم عليها كانوا قد كتبوا لأنفسهم مصاحف بها كلمات غير سائدة فى لغة قريش، وحين جمع سيدنا عثمان الناس على مصحف واحد وأصدر أمره إلى الكتبة أن يختاروا لفظ قريش إذا اختلفوا لأنه نزل أولا بلغتها احتفظ بعض هؤلاء الصحابة بمصاحفهم، ومنها مصحف ابن مسعود الذى ضمنه تفسيرا لبعض الألفاظ مما سمى فى الشواذ بالمدرج، وقد دعا ذلك سيدنا عثمان أن يأمر بإحراق هذا المصحف حتى لا يظن الناس أن ما جاء به من تفسيرات جزءا من نص القرآن. كما أمر بإحراق ما عدا المصاحف التى نسخت فى عهده وأجمعت عليها الأمة، وكان منها مصحف أبى بن كعب.

ومع هذا ظل بعض الناس يحفظون الكلمات التى كانت فى هذه المصاحف التى أحرقت مما يعد من بقايا الأحرف السبعة.

فرية مردودة:

وقد ظن بعض المستشرقين أن اختلاف القراء راجع إلى طبيعة الخط العربى الذى كان حينذاك خلوا من النقط والشكل، وجهلوا حقيقة هامة واضحة على مدى التاريخ الإسلامى كله، وهي: أن الأساس فى تلاوة القرآن لم يعتمد يوما على ما كتب فى المصاحف فقط بل ظل الاعتماد ومنذ وجود الرسول ﷺ على الرواية والسند والإقراء والتلقى من حيث أن النبى نفسه قد تلقاها عن جبريل عن رب العزة سبحانه، قال تعالي:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾

(النمل: ٦)

وقد تلقاها شفويا عن رسول الله صحابته، وعن الصحابة تلقى التابعون، وتوالى ذلك جيلا بعد جيل يتفق الجميع على أن القراءة سنة متبعة خلفا عن سلف.

أما خلو الخط من الشكل والنقط فى مصاحف عثمان فهو الذى أتاح للأمة أن تعتمد من الأحرف ما وافق هذا الرسم.

فما كان السبب فى قراءة قوله تعالي:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(الأعراف: ٥٧)

على وجه آخر هو:

«وهو الذى يرسل الرياح نشرًا بين يدى رحمته»، لم يكن هذا الخلاف راجعًا إلى خلو اللفظ من النقط مما يحتمل قراءته بالوجهين ولكنها الرواية والسند والتلقي.

وكذلك قراءة:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

(الحجرات: ٦)

على لفظ آخر هو: «فتثبتوا»، لم يكن الخط هو الأساس ولكنه التلقى كذلك، والدليل على ذلك أن الأصمعى سأل أبا عمرو بن العلاء وهو أحد القراء السبعة عن لفظين متماثلين فى الرسم فى سورة الصافات، وتقرأ كل منهما على خلاف الآخر، وذلك قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾

(الصافات: ٧٨)

وقوله بعدها عنه أيضًا:

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾

(الصافات: ١١٣)

فقد كتبت: تركنا وبركنا برسم واحد خال من النقط ومن الألف قال الأصمعي: كيف يعرف نطقهما وهما فى مصحف عثمان بهيئة واحدة؟ فأجابه أبو عمر: ما يعرف ذلك إلا بالسماع من المشايخ الأولين.

وهكذا كانت عناية العلماء والقراء في ضبط التلاوة والحفاظ على الأداء كما بلغه رسول الله ﷺ وما ذاك إلا من توفيق الله وحفظه وصدق الله العظيم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

(الحجر: ٩)

وهذا النوع من القراءات كما قال ابن جني: نازع بالثقة إلى قراءه محفوف بالروايات من أمامه وورائه، فالشذوذ لا يعني الضعف ولكن معظمه روى عن رسول الله بطريق الآحاد.

ومما يدل على دقة الرواة القراء في التزامهم بالنقل المتواتر أن كثيرًا من القراءات الشاذة متفقة مع الرسم العثماني ومعانيها سليمة من الناحية الشرعية، لكنها غير متواترة، ومن أمثلة ذلك: قراءة الضحاك في آية السحر:

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾

(البقرة: ١٠٢)

حيث قرأ لفظ الملكين بكسر اللام، ومعروف أن الرسم العثماني ليس فيه ضبط بالشكل لكن القراءة لا تثبت إلا بالتلقي والتواتر ولذلك حكم القراء على هذه القراءة بالشذوذ ومع ذلك أخذ منها المفسرون والمحققون أن هاروت وماروت كانا ملكين من البشر وكانا متميزين بالسلوك الأنبل بين الناس حتى أطلقوا عليهما مجازًا أنهما ملكان.

ومنها قراءة أبي الأسود الدؤلي قوله تعالي:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾

(البقرة: ١٠٦)

قرأها: «أو تنسها» ناسبا النسيان إلى النبي ﷺ، وبالرغم من أن المعنى واحد وأن الرسم واحد إذ من البديهي أن النبي ﷺ لا ينسى شيئًا من القرآن إلا بإرادة الله كما قال سبحانه وتعالي:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

(الأعلي: ٦، ٧)

وبالرغم من ذلك ومن موافقتهما للعربية الفصحى نرى العلماء قد حكموا عليها بالشذوذ لأنها غير متواترة.

ومثلها قراءة أبي بن كعب:

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾

(الأعراف: ٣٥)

حيث قرأها: «إما تأتينكم» بالتاء مراعاة لصيغة الجمع، وهي متفقة أيضًا معنى ورسمًا ولغة، لكنها غير متواترة ومن هذه القراءات قراءة أبي موسى الأشعري قوله تعالي:

﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

حيث قرأها: «ولا تناسوا الفضل بينكم» وتضيف القراءة معنى التظاهر بالنسيان مع تذكر الفضل.

على أن بعض هذه القراءات الشاذة أثارت

جدلًا بين الفقهاء حيث اعتمدها بعضهم دليلًا على حكم شرعي من منطلق أنها ثابتة عن رسول الله بطريق الآحاد فتستوى من حيث الاستنباط مع الأحاديث النبوية، ورفضها البعض على أساس أنها نسخت في العرضة الأخيرة للقرآن من جبريل في آخر عام عاشه النبي ﷺ، وما دامت نسخت تلاوتها فقد نسخ حكمها.

ومثال ذلك: قراءة عبدالله بن مسعود في آية الكفارة لحنث اليمين، وهي قوله تعالي:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾

(المائدة: ٨٩)

زاد ابن مسعود في قراءته لفظ: «متتابعات» وترتب على ذلك أن بعض الفقهاء يعتمدون شرط التتابع، وا لبعض الآخر يعتمد إطلاق اللفظ المتواتر الثابت في المصاحف العثمانية فلا يوجب تتابع الصيام لهذه الأيام.

وهكذا يتبين أن مجال القراءات فيه كثير من الفوائد الشرعية والمعنوية، وأنها منضبطة بقواعد ثابتة مما يجعلنا نقول عن ثقة: إنه لا ضرر على النص القرآني من وجود هذه القراءات ودراستها، فالقرآن محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى.

القراءات واللهجات

مما يعضد ما رجحناه في فهم الأحرف السبعة أن القراءات الواردة سواء منها المتواتر والشاذ قد جرت على لهجات العرب المختلفة في صيغة الكلمة وفي أدائها الصوتي، وليس المجال هنا للإحصاء والحصر ولكنه التمثيل بما يفي بالدليل:

- قرأ الأعمش:

﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾

(الحجر: ١٤)

بكسر الراء على لغة هذيل.

- قرأ الأعمش وعلقمة:

﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾

(يوسف: ٦٥)

بكسر الراء على لغة بني ضبة.

- قرأ عاصم الجحدري وعيسى بن عمر:

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾

(البقرة: ٣٨)

بإدغام الألف في ياء المتكلم على لغة هذيل، وكذلك:

﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾

(يوسف: ١٩)

- قرأ الأعمش:

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

(الجاثية: ٢٣)

بفتح الغين على لغة ربيعة، وقرأ الحسن وعكرمة بضم الغين على لغة عكل، والقراءة بكسرها على لغة الحجاز.

- قرأ حمزة والكسائي:

﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾

(النساء: ١١)

بكسر الهمزة وهي لغة هذيل وهوازن.

- قرأ ابن كثير

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾

(البقرة: ٢٦)

بياء واحدة فى رواية شبل، وكذلك يعقوب وهى لغة بنى تميم.

– قرأ حمزة والكسائى وغيرهما: «وجبرئيل» كعنتريس على لغة تميم وقيس.

– قرأ نافع وابن عامر:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾

(البقرة: ٢١٧)

بفك المثلين على لغة الحجاز، وقرأ الباقون بالتشديد على لغة تميم.

– قرأ الأعرج:

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كَسَالَىٰ﴾

(النساء: ١٤٢)

بفتح الكاف على لغة تميم وأسد.

– قرئ:

﴿فَنَظْرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾

(البقرة: ٢٨٠)

بإسكان الظاء على لغة أهل نجد وبكسرها على لغة الحجاز.

– قرئ:

﴿وَرُضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

(التوبة: ٧٢)

بكسر الراء على لغة الحجاز، وبضمها على لغة تميم وبكر وقيس عيلان.

– قرئ:

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾

(الأنعام: ١٤١)

بكسر الحاء فى حصاده على لغة الحجاز وبفتحها على لغة تميم.

– قرئ

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾

(التوبة: ١٢٣)

بكسر الغين على لغة أسد وبفتحها على لغة الحجاز وبضمها على لغة تميم.

من حكم تعدد القراءات

يحسن بالمؤمن أن يزداد معرفة بكتاب ربه وكيفيات أدائه ووجوه قراءته حتى يقترب أكثر وأكثر من حمى ربه، فيفيض عليه من فضله وينال من بركات القرآن ما هو شفاء لما فى الصدور، وما هو زاد يبقى بعد الرحيل إلى المصير فالقراءات القرآنية قد تشير إلى أسرار من البيان القرآنى المعجز، وقد تكون دليلا على بعض الأحكام الشرعية والاستعمالات العربية الفصحى، وكلما تعمق المؤمن فى دراستها وتدبرها زاد إيمانه بحقيقة لا يمارى فيها إلا عنيد مكابر وهى منطوق كلام رب العزة عنه وهو يخاطب نبيه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

(الإسراء: ٨٨)

وحتى لا يكون الكلام هائمًا غير محدد نستعين بالله فى استلهام بعض الأسرار من تعدد القراءات، فقد ترجح القراءة رأيًا فقهيًا على آخر، ومثال ذلك: مفهوم الطهارة للحائض، فإن الطهارة فى اللغة تعنى النقاء من الخبث وقد يتحقق هذا النقاء من مجرد توقف الدم عند المرأة فى آخر أيام الحيض ويتأكد هذا الطهر بالتنظيف والاغتسال، أمام هذا الاحتمال

اختلف الفقهاء المستنبطون للأحكام من نصوص القرآن فى جواز المعاشرة الزوجية عند انقطاع الدم وقبل الاغتسال، ففريق اعتمد على قراءة حفص فى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

بسكون الطاء وضم الهاء فاستنبط من هذه القراءة أن مجرد النقاء طهارة فلا مانع من المعاشرة، وفريق آخر اعتمد قراءة غيره بتشديد الطاء وأصلها يتطهرن والتطهر يعنى بصيغته المبالغة فى الطهارة، وهذه المبالغة لا تتأتى إلا بالاغتسال فأوجب الغسل قبل المعاشرة ورجح هذا الرأى أيضا قوله تعالى:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

وقد تضيف القراءات حكما جديدا فتغنى القراءتان عن آيتين وذلك كما حدد الله عز وجل أعضاء الوضوء وما يجب على المتوضئ فعله فصرح بوجوب الغسل للوجه واليدين، وصرح بوجوب المسح للرأس، أما الأرجل فعطفت بالواو بعد مسح الرأس، واختلف القراء فى ضبط آخر الأرجل، وبعضهم فتحها عطفا على الوجه واليدين وهما مغسولتان فيكون الحكم غسل الأرجل وبعضهم كسرها عطفا على الرأس فيكون الحكم مسح الأرجل، وحين تدبر المحققون علموا أن الأصل أن تغسل الأرجل فى الحالات العادية، وأن المسح على الأرجل جائز إذا لبس المرء خفًا على طهارة أو وضع على رجله جبيرة لمرض، فدل كل من القراءتين على حكم شرعى فأغنت القراءتان عن آيتين.

وقد يفهم من القراءة معنى جديد لا يتعارض مع المعنى الذى تفيده القراءة الأخرى فيكون الاختلاف بينهما اختلاف تنوع، ومحال على القرآن وقراءاته أن يحدث فيهما اختلاف تناقض وتضاد فإن رب العزة يقول:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ٨٢)

ومثال ذلك أول سورة الحجرات حيث يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

(الحجرات: ١)

والمعنى واضح فى هذه القراءة أن الله عز وجل ينهى عباده المؤمنين أن يقدموا أى شىء من المقترحات أو التعديلات أو المشروعات على ما ورد فى كتاب الله عز وجل أو فى سنة رسول الله من حيث إن الوحى فى كليهما متفق تمامًا مع فطرة الإنسان ومع مصلحته إذ هو صادر ممن يعلم السر وأخفى.

وتأتى القراءة الثانية: لا تقدموا بفتح التاء والدال وتشديد الدال، ومعناها نهى المؤمنين أن يتقدموا أمام الله وأمام رسوله، وفى هذا تصوير رائع لقبح معارضة أوامر الله ورسوله حيث تجعل هذه القراءة المعارض فى

صورة من يتقدم ويقول لله ولرسوله اتبعاني فرأيي هو الأفضل وعلمي هو الأوسع، والمعنى العام الذى يجمع بينهما : لا تفتاتوا على الله ورسوله شيئًا حتى يذكره الله على لسان نبيه، فإذا ذكر فلا جدال ولا اعتراض.

وقد تحقق القراءات تناسبا صوتيا وإيقاعيا مؤثرًا عند التلاوة، وذلك من خصائص البلاغة العربية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالي:

﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾

(الأحزاب: ١٠)

بمد فتحة النون حتى تتولد ألف زائدة لتناسق رءوس الآى حيث إن الآيات التى قبلها مختومة بقوله تعالي:

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(النساء: ١٥٤)

﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٨)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٩)

والآيات التى بعدها مختومة بقوله سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

(الأحزاب: ١١)

﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

(الأحزاب: ١٢)

﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

(الأحزاب: ١٣)

بل إن بعض القراءات المشهورة من حيث إنها صحيحة السند ولكنها غير متواترة قد توقفنا على بعض المعانى الرائعة، وذلك مثل قراءة قوله تعالي:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفَسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

(التوبة: ١٢٨)

بفتح الفاء وكسر السين من «أنفسكم» حيث تدل على أن الرسول ﷺ قد اختاره ربه من أعرق البيوت العربية ومن أنفسها وأعلاها شأنا وخلقا وسلوكا، بيد أن القراءة المتواترة تدل على أنه من أنفسهم يعرف لغتهم وكيف يعالج أدواءهم وكيف يبلغ إليهم رسالة ربهم، وبهذين المعنيين تتعانق القراءتان وتنوبان عن آيتين وذلك هو الإعجاز.

وهكذا رأينا من حكم تعدد القراءات ما يرجع حكمًا شرعيًا، وما يضيف حكما جديدًا، وما يفهم معنى طريفًا فى إطار اختلاف التنوع، وما يحقق تناسبا صوتيا وإيقاعيا، تستوى فى ذلك القراءات المتواترة والمشهورة وسبحان من تحدى بهذا القرآن الإنس والجان على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

خاتمة

من فضل الله وكرمه أن وفق إلى تمام هذه المحاولة لتفسير منطقى قرآني لنشأة اللغة الإنسانية الأولي، وكشف زيف الماديين فى ربط هذه النشأة بنظرية التطور الداروينية، ولتفسير متسق مع معطيات الروايات المختلفة لحديث الأحرف السبعة، ولدرء

شبهة اختلاف القراءات عند المستشرقين بسبب طبيعة الخط العربي، ولبيان بعض الأسرار البلاغية والمعنوية لتنوع القراءات القرآنية.

ويعلم الله أننى بذلت جهداً فى الرجوع إلى كتب القراءات والتفسير وعلوم القرآن واللهجات وفقه اللغة حتى استطعت أن أقدم هذه المحاولة.

ولعل هذا يسهم فى توضيح الحقائق أمام شبابنا الذى انجذب إلى الثقافات الغربية بمؤامرة خبيثة صرفته عن تراثه ومعطياته.

وأدعو إخواني المتخصصين أن يصوبوا ما عساه قد وقع من خطأ ويقدموا ما يرون فيه من عوج وسبحان من كلامه وحده هو المنزه عن الخطأ والنسيان.

وأدعو الله عز وجل أن ينفع به وأن يجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ملخص البحث «الأحرف والقراءات»

١- تناول هذا البحث نشأة اللغة الإنسانية، وتعرض لما قيل إنها توقيفية استناداً إلى تعليم الله لآدم الأسماء كلها، وما قيل إنها مواضعة أو محاكاة قياساً على مراحل الطفولة، واستنبط البحث من القرآن الكريم تصوراً جديداً يجمع بين الرأيين؛ إذ كان منها جزء وراثى مما علمه آدم لأولاده وجزء بمحاكاة لأصوات البيئة وجزء بالمواضعة.

٢- تعرض لكيفية انقسام اللغة إلى لهجات وإلى الاصطلاح على تقسيمها إلى سامية وحامية ويافثية، ثم دلف إلى اللغات السامية، ومنها اللغة العربية الشمالية والجنوبية، وانقسامها إلى لهجات، وفضل الكعبة فى شيوع لهجة قريش فى أسواق مكة، ونزول القرآن أولاً بها، وبدء نزول الأحرف فى المدينة عند أضاة بنى غفار تيسيراً لقراءته حتى وصلت إلى سبعة أحرف كلها شاف كاف.

٣- شرح معنى الحرف اعتماداً على ما ورد بالمعاجم وانتهى إلى أنه يشمل اختلاف الأداء الصوتى كما يشمل اختلاف الكلمات فى المعنى مع اتحاد اللفظ، أو فى اللفظ مع اتحاد المعنى أو فى الشكل مع اتحاد المعنى وضرب لذلك عدة أمثلة.

٤- فرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع فالأولى منسوبة لرب العزة والثانية منسوبة للقراء الذين انتشروا فى البلاد المفتوحة يعلمون الناس بما سمعوه من رسول الله ﷺ وعرج على ضوابط اختيار هؤلاء السبعة وفكرة عن سيرتهم ومن أضيف إليهم، وإلى القراءات الشاذة وموقف العلماء منها من حيث استنباط الأحكام وتعدد المعاني، وضرب لذلك كثيرا من الأمثلة وبخاصة ما ورد من الشواذ.

٥- أثبت البحث أن تعدد القراءات لم يكن بسبب ترك الشكل والنقط ولكن التلقى كان هو العمدة فى ذلك وأقام الدليل الواضح على ذلك ورد على شبهة المستشرقين.

٦- ضرب البحث أمثلة لاختلاف القراءات باختلاف اللهجات العربية.

بيان رد الشبهات عن القرآن الكريم



الشيخ: عبدالمجيد صبح

البيان السادس، أتى باسم الموصول العائد على الجمع مفردًا

جاء في سورة التوبة: (٦٩)

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾

وكان يجب أن يجمع اسم الموصول العائد على ضمير الجمع فيقول خضتم كالذين خاضوا.

تبيين الجواب:

وأقول: اللفظ العربي حمال أوجه، واللفظ القرآني أكثر في ذلك ولفظ (كالذي) في هذه الآية مثل في هذا فهو يحتمل أن يكون بمعنى المصدر فيكون المعنى وخضتم مثل خوض الذين من قبلكم فيكون لفظ (الذي) عائدا على المصدر المقدر، ويدل عليه سياق الآية وهو:

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾

(التوبة: ٦٩)

وهذا راعى (النسق الصرفي) المفهوم من (استمتعوا) وهذا كما تقول: فعل آباؤكم الذين من قبلكم فعالاً، فافعلوا كالذي فعلوا، أي فعالاً كفعلهم. وشاهده ما حكاه محمد بن مسعود (في كتابه البديع): من أن (أن والذي) يتقارضان المصدرية، وشاهد (الذي):

تفرح أكباد المحبين كالذي
أرى كبدي من حب مية تفرح

بمعنى (كتفرح كبدي من حب مية).

ويحتمل أنه أخبر عن الجمع بالمفرد كالأمثلة السابقة ويحتمل أنه (الذين) حذفت نونه والعربية تشهد بذلك، ومن شواهده:

وإن الذي حلت بفلج دماءهم
هم القوم كل القوم يا أم خالد

وواضح أن الذي هي الذين وكذلك يحذفون نون اللذان - اللتان:

قال الأخطل:

إن عمي اللذا قتلا الملوك
وفككا الأغلالا

فهلا سألتم أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

لو أن القرآن قال:

(تبارك ذو نزل الفرقان على عبده)

لقلتم: كان يجب أن يقول:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾

(الفرقان: ١)

، لكن أهل العلم بالقرآن والخبير بلغة العرب يعلمون أن (ذو) يستعملها بعض العرب بمعنى (الذى) كقول سنان الطائي:

فإن الماء ماء أبي وجدي
وبئري ذو حفرت وذو طويت

إن فطاحل اللغة العربية، وعباقرتها يتهمون أنفسهم أمام القرآن: لما قرأ عمر، من سورة عبس قوله تعالى:

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾

(عبس: ٣١)

قال: ما الأب؟

ثم عاد إلى نفسه فقال: هذا تكلف منك يابن الخطاب ولما قرأ من سورة النحل ٤٥ - ٤٧:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

سأل الناس ما التخوف؟

فقام رجل من هذيل وقال: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين، قال شاعرنا:

تخوف الرحل منها تامكا قردا
كما تخوف عود النبعة السفن (١)

هل فهمتم؟ لكن عمر قد فهم، وكل لبيب بإشارة يفهم!

البيان السابع:
عطف الفعل المجزوم على المنصوب

جاء في سورة المنافقون (١٠):

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

وكان يجب أن ينصب الفعل المعطوف على المنصوب فاصدق وأكون.

تبيين الجواب:

وأقول: هذا مثل آخر من استعمالات لغة القرآن الدقيقة، التي تخفى على قليل البضاعة!. في العربية حروف تسمى حروف التحضيض (التحريض - الحث) وهي ثلاثة: لولا - لوما - هلا، إن دخلت على مضارع كان معناها الطلب كقوله تعالى في سورة الحجر: ٧

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾

أي ائتنا بالملائكة إن كنت صادقا في دعوى الرسالة.

أما إذا دخلت على فعل ماض كانت بمعنى التوبيخ والتأنيب واللوم، كقول عنترة في مطولته:

هلا سألت الخيل يا بنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينبئك من شهد الوقيعة
أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وهي في الاستعمالين تتضمن معنى الطلب فهي في الآية بمعنى (أخرني فأصدق وأكن) وفي بيت عنترة بمعنى (سلي ينبئك) جزم (ينبئك) لوقوعه جوابا للطلب، وكذلك في الآية أخرني أكن.

فالفعل المضارع يجزم إذا وقع جوابا للطلب كما تقول: استذكر تنجح، (أكن) معطوف على فاصدق ومحله الجزم لأنه

(١) التخوف: أخذ القليل بعد القليل ورحل الناقة: يأخذ من سنامها عند المشي القليل بعد القليل كما يأخذ المبرد (السفن) من غصن النبعة (نوع من الشجر)

جواب الطلب، لكنه نصب لسبب آخر هو: أن الفعل المضارع ينصب إذا عطف بالفاء وتقدمه واحد من تسع هي: الأمر - النهي - الدعاء - السؤال - العرض - التحضيض - التمني - الرجاء - والنفي، ولفظ (فأصدق) مضارع معطوف بالفاء تقدمه (طلب)، وكان حقه الجزم لولا عطفه بالفاء فوجب نصبه. هل عرفتم أنهما فعلا من دقائق العربية، كلا، لو علمتم ما اعترضتم، ومن جهل شيئًا عاداه.

ومن دعا الناس إلى ذمه
ذموه بالحق وبالباطل

والخلاصة: أن الفعل (أصدق) لو لم يقترن بالفاء لجزم، ومنع منه عطفه بالفاء وجزم (أكن) عطفا على (محل) الفعل أتصدق.

ولتوضيح (مسألة العطف على المحل) أقول: في سورة سبأ (١٠):

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

عطف الطير بالنصب على محل المنادى المبني على الضم لأن محله النصب، والنحاة يعدون المنادى من المفعول به.

ياقوم، اربعوا على أنفسكم، ولا تحملوا عليها مالا تطيق، فالقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، فلو تحول أهل الأرض أجمعون إلى النيل منه، أو التشكيك فيه، أو الزعم بالقدرة على تقليده كما فعل هذا الذى كتب (الفرقان) - لكانوا مثل القزم الذى يظن القدرة على أن يحجب بيده ضوء الشمس. ولو تحول أهل الأرض أجمعون إلى هدامين لكانت معاولهم زجاجًا يتحطم على صخرة القرآن.

كناطح صخرة يومًا ليوهنها
فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

ألا انصحوهم، وقولوا لهم:

«إن تكفروا بالقرآن فقد وكل الله به قومًا ليسوا به كافرين، وإن تكفروا فهو خير لكم».

ومن تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن[2] أبيه ولا تكنوا:

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾

(الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩)

البيان الثامن: جعل الضمير العائد على المفرد جمعا

جاء في سورة البقرة (١٧)

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾

وكان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفردًا فيقول استوقد .. ذهب الله بنوره.

تبيين الجواب:

وأقول: دونكم درسًا في البلاغة: من مجاز اللغة (التشبيه) كما تقول: زيد مثل أسد في الشجاعة، فإذا قلت: زيد أسد في الشجاعة فقد أكدت الصفة بحذف أداة التشبيه وإذا قلت: زيد أسد فقد زدت زيادة أخرى بحذف وجه الشبه، فإذا قلت زيد أسد يحمي الغابة (وهي جملة تعود على المشبه به) فقد قويت التشبيه بهذه الجملة ويسمى ذلك (ترشيحًا)، فإذا قلت: زيد أسد يصول في ميدان القتال فقد جئت بجملة تعود على المشبه وكان مرادك إظهار حاله في صفته ويسمى هذا (تجريدًا) فقوله تعالى:

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾

عائد على (المشبه) (المنافقون) لبيان حيرتهم وتذبذبهم بين إضمار الكفر وإظهار الإيمان وتخبطهم في ذلك، تخبط العشواء وحيرة الذى في الظلام لا يدرى أيتقدم أم يتأخر. ولو عاد الضمير على المشبه به - كما يزعم المتخبطون في الفهم - لفاتت هذه المعاني. وذوق اللغة موهبة ربانية لا يدركها المحروم منها، فيتجرأ على ما لا يعلم، وللجهل جرأة. ومن أسرار هذا التشبيه - وكان على هؤلاء أن يدركوه - قوله:

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾

وكان الظاهر أن يقول:
ذهب الله بنارهم
استتباعًا لقوله:

﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

لكن بلاغة القرآن أبت ذلك لتحقيق معنى دقيق يعيش فيه المنافق من حرارة الضمير ولهيب الحقد والحسد وقد ذهب عنه النور وبقي في حرارة النار. وكل هذا يفوت لو أعاد الضمير على المشبه به وصدق الشاعر في قوله:

إني لأرحم حاسدى لحر ما
ضمت صدورهم من الأوغال
نظروا صنيع الله بي
فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار

لقد حرموا أنفسهم هداية القرآن ونوره، فليصطلوا إنذاره ووعيده.

البيان التاسع: نصب المعطوف على المرفوع

جاء في سورة النساء (١٦٢):

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

وكان يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع فيقول: والمقيمون الصلاة.

تبيين الجواب:

وأقول: اعتراضكم هذا من قبيل اعتراضكم رقم (١) بعطف (الصابئون) على المنصوب قبله. والجواب هناك كان يكفي من يطلب الحق ولكن لما تضمنت هذه الآية من سورة النساء من زيادة في المعنى نوضح بعض أسرارها فأقول: كما عطف المنصوب على المرفوع في آية سورة النساء كذلك فعل في آية البر في سورة البقرة (١٧٧):

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾

(٢) الهن: الفرج، أي قولوا لمن تعزى بعزاء الجاهلية: اعضض من أبيك، بالتصريح من غير كناية.

غير النسق النحوى وتقدم بيان شيء من أسرار هذا التغيير وهنا سر زائد: ذاك أن الصلاة ذات منزلة خاصة من حيث العقيدة الإسلامية فهى بعد الشهادتين أهم أركان الإسلام، وأعلى مظهر لعقيدته. والصبر أهم وأعلى فى بيان الأثر السلوكى للمسلم وتماسكه النفسى ولذلك جمعهما الله فى قرن لما يجمعان من تقوية المسلم فى حياته الإيمانية حيث قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

(البقرة: ١٥٣)

ولذلك تجد القرآن قد عنى بهما حيث تكرر الأمر بهما والمدح بهما لذلك ذكر القرآن الصلاة كثيرًا، والصبر أكثر من تسعين مرة. فتغير النسق القرآنى فى آية سورة النساء لبيان منزلة الصلاة ليكون المعنى: وأخص المقيمين الصلاة لمنزلتها من عقيدة الإسلام. وأخص الصابرين لمثل ذلك. لقد تبين من هذا ومن كل ما سبق أن القرآن يضمن كلامه معانى كثيرة يطول بها الكلام باختيار لفظ معين، أو حرف معين، أو ضمير، أو تغيير النسق الإعرابى.. فهل من مدكر؟!

وكما تكثر المعانى بتغير النسق النحوى فى العطف كذلك يفعله فى الصفات كقوله فى سورة المسد (٤):

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾

لعظم جرمها بالسعى بالنميمة والإفساد فى المجتمع المكى عامة وبين المسلمين خاصة غير النسق الإعرابى فى الصفة من الرفع إلى النصب. وكما كان هذا فى مقام الذم تفعله العربية أيضًا فى المدح قالت خورنق أخت طرفه العبدى:

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزر

نصب صفة المرفوع: (قومي) (النازلين).

وفى آية البر نكتة أخرى هى قوله تعالى

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

أخبر عن المعنى (البر) بالذات (من) والأصل أن يخبر عن المعنى بالمعنى فنقول: البر عمل الصالحين أو البر بر من آمن. لكنك قد تخبر عن (الذات) بالمعنى لغرض بلاغى فتقول: القاضى عدل، ولا يمكن أن تكون (الذات) وهى شيء يدرك بالحس معنى لا يدرك إلا بالذهن. لكنك قد تخالف الأصل لإظهار معنى خفى إذ كان هذا القاضى مبالغا فى تحرى العدل باذلاً فيه الجهد المستطاع، ساهرًا فى تحرى مواقع الحق - لما كان هذا القاضى كذلك كان التعبير بالأصل (القاضى عادل) غير كاف فى تصوير حقيقة القاضى فعدلت عن الأصل لبيان هذه المعانى، ومنه قوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» (رواه الحاكم وصححه على شرط البخارى ومسلم ووافقه الذهبى) أخبر عن ذاته بالمعنى.

كذلك تفعل عندما تخبر عن المعنى بالذات، فإذا اشتد حبك لإنسان إلى غاية لا تدرك من غيرك (كحال مجنون ليلى) لا يكفى أن تقول: فلان أحبه، أو أحب فلانا لكنك تبلغ ما تريد فى التعبير عن شعورك الطاغى إذا قلت حبى أنت، وقريب منه قول الصوفية لا تكون محبًا حتى تقول لمن تحب أنت أنا، وأنا أنت، كما قال الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنًا
فإذا أبصرتنى أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

لما حولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله فى مكة وقع المسلمون وأهل الكتاب فى جدال حول أمر شكلى: أى القبلتين أفضل؟ وحسب كل فريق أن الجهة هى البر كل البر والإيمان كل الإيمان فأعلمهم الله أن المؤمن لا يتمثل البر فيه ولا الإيمان بجهة يتوجه إليها إنما يتمثل فيه البر بالصفات التى ذكرتها آية البر وهى جامعة لحياة المؤمن فى الاعتقاد والتكافل الاجتماعى حتى إنه لا يقف عند الحد فى بذل المال بل يتجاوزه إلى الفضل مع حب النفس للمال والشح به وتمثلت العقيدة فى عباداته وبلغ فى الروابط الاجتماعية والتماسك النفسى الغاية العليا التى ليس للمرء بعدها مذهب فهؤلاء هم الذين صدقوا وهم المتقون، ويعبر عن ذلك كله أن يقال (البر أنتم) وذلك كما جاء فى تفسير قوله تعالى:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

(الفاتحة: ٦)

أنه محمد ﷺ فكأنك قلت الصراط المستقيم محمد، وجاء فى تفسير قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾

(النساء: ١٧٤)

أن البرهان هو محمد ﷺ فنقول: البرهان محمد، وتقول: الرحمة المهداة محمد، فكان قوله تعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

على هذا النسق ليدرك الفطن ذو البصيرة هذه المعانى ولا وزن لمعترض عَجِل إلى غير صواب، ويحسب أنه على شيء، قال المتنبى:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

قال منتقدوه: غيرت النسق اللفظى بين الشطرين: فى الشطر الأول قدمت الإيجاب على النفى وفى الشطر الثانى قدمت النفى على الإيجاب.

فقال لهم: لئن كنت خالفت النسق اللفظى فقد راعيت نسق المعنى ذلك أن من صبر لم يجر دمعه ومن لم يصبر جرى دمعه، فكأنه قال: صبرت فلم يجر دمعك أو لم تصبر فقد جرى، والمعترضون على القرآن من قبيل أولئك المعترضين، غير الفاهمين الواقفين عند مبادئ العلم وظاهر الألفاظ دون بلاغة تركيبها من التقديم والتأخير، وكثير ما هم.

ومن التأويل الممكن والذى تجيزه اللغة أن يقال إن المعنى: «ولكن البر بر من آمن» والعرب تقول «الليلة الهلال» بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ويأخذ إعرابه، والأصل: الليلة رؤية الهلال، وفى قول العرب هذا أيضًا إخبار عن الزمان وهو معنى بالمشخص المحسوس وهو الذات، ومنه قولهم «تطقى الله حسبى» الجملة خبر عن «تطقى» وهو معنى، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب! هل لكم فى ذلك معتبر؟!

يتبع

ضلالة فصل الدين عن السياسة



للإمام الشيخ محمد الخضر حسين

مازال الرسل عليهم السلام يرمون في الدعوة إلى أصول الإيمان بالله عن قوس واحدة، ولكل رسول بعد هذا شريعة يراعي في أمرها ونهيها حال من يرسل إليهم خاصة، حتى حضر الوقت الذي تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام في شريعة واحدة، فبعث الله المصطفى ﷺ بالحنيفية السمحة، وجعله خاتم النبيين، وقضى بأن تكون شريعته خاتمة الشرائع، ولعموم رسالته، سواء الشاهد فيها والغائب والعربي والعجمي، أقام على صدقه آيات باقيات ما نظر فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافذة إلا أسلم وجهه لله قانتا:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩)

ولخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع حكمة، وأوفاها أصولا، وأوسعها للمصالح رعاية.

ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر من الإسلام: عموم رسالة محمد ﷺ، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع، وكون هذه الشريعة أحكم ماتساس به الأمم، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح أو التنازع في الحقوق.

أجمع علماء المسلمين على هذه الحقائق وعرفها عامتهم، فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى في غير هداية الإسلام سبيلاً، ومثل من يماري في شيء منها ثم يدعي أنه لا يزال مخلصًا للإسلام مثل من يضرب بمعوله في أساس صرح شامخ، ثم يزعم أنه حريص على سلامته، عامل على رفع قواعده.

فتنت مدنية الشهوات أشخاصًا ينتمون إلى الإسلام، فانحرفت بهم عن المحجة، وأدركوا أن مجاهرتهم بإنكار رسالة المصطفى ﷺ تسقطهم من حساب المسلمين دفعة، فلا يبلغون من فتنة الأمة مأربا، فبيتوا أن يبقوا ثوب الإسلام على أكتافهم، ويحركوا بمدحه في بعض المجالس ألسنتهم أو في بعض الصحف أقلامهم لكي يركن الغافلون من المسلمين إلى أقوالهم، فيقذفوا من وراء

ريائهم وثقة بعض الناس بهم ما شاءوا من آراء خاسرة، ويزعمون أن هذه الآراء من هداية الإسلام أو أن الإسلام لا ينكرها.

والواقع أن هذا الصنف من المنحرفين قد أحدث في بعض البلاد الإسلامية آثار فساد لم يحدث معشارها النابذون إلى الدين على سواء، وكم أرتنا الأيام في هذا الصنف من عجائب دلتنا على أن هناك مغارات يأتمرون بالدين بين حيطانها، ولغة إذا حضرهم بعض المسلمين يجنحون إلى التخاطب بها، وضروبا من الإغواء يجهدون أنفسهم في تمويهها.

منذ عهد قريب أخذ بعض الكاتبين يتشبهون بمن يؤلف على طريق البحث العلمي، فقالوا ما شاءوا أن يقولوا، وخرجوا بغير مناسبة منطقية إلى إنكار أن يكون للإسلام مدخل في الشئون القضائية والمعاملات المدنية.

جال هذا الصوت جولة الباطل ثم ذهب كصيحة في واد، ولم يبق له صدى إلا في آذان رهط لا يسمعون رشدا، ولا يفقهون حجة، وإن شئت فقل: صادف ذلك الصوت أفئدة هواء، فجعلوا يحاكونه في بعض ما يكتبون، ويوقظون فتنا لو أقبل كل على ما يحسن أن يتحدث فيه لكانوا عنها في شغل.

ما كدنا ننتهي من إماطة أذى ذلك الذي ادعى أنه يفسر القرآن بالقرآن، حتى خرجت إحدى المجلات تحمل مقالاً تحت عنوان «داء الشرق ودواؤه» وفي هذا المقال دعاية إلى فصل الدين عن السياسة، وبلغ بكاتبه الحال أن زعم أن سبب تأخر المسلمين عدم فصلهم للدين عن السياسة.

ونحن نود والله يعلم أن يقبل كل من بيده قلم على مافيه خير للناس، والموضوعات العلمية والأدبية والسياسية مترامية الأطراف، وانصراف نفس الكاتب عن البحث في أمثال هذه الموضوعات ليس بعذر يبيح له أن يخوض بقلمه في الحديث عن الدين خوض من يقولون مالا يتدبرون.

ونود والله يعلم أن نقبل على شأننا، ونمضي في سبيلنا، وليس في فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأيا، أو نبطل لباحث قولا، ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقط الفراش على السراج، والسكوت عنهم تفريط في جنب الله، ومن فرط في جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة.

قال صاحب المقال في ذكر أهم النقط الجوهرية التي ترجع إليها أسباب ضعف الشرق: «الثانية عدم التفريق بنظام قاض بين السلطتين الدينية والدنيوية، فكان هذا من جملة المسببات لتأخر المسلمين، إذ أن جمع السلطتين في شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أبعد (١) الأمور إلى اختلال النظام، وإذا كان هذا أفاد المسلمين في صدر التاريخ الإسلامي وأمر العالم لهم كما قدمنا، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم، وقد عاد اجتماع هاتين السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية في الواقع في قبضة تلك الدول التي نازعتهم كما هو مشاهد الآن».

١- كذا في الأصل ولعلها محرفة عن كلمة «أدعى».

تعرف من قبل أن يظهر هذا المقال أن الذين يدعون إلى فصل الدين عن السياسة فريقان: فريق يعترفون بأن للدين أحكامًا وأصولاً تتصل بالقضاء والسياسة، ولكنهم ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح، آخذة بالسياسة إلى أحسن العواقب، ولم يبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن فى أحكام الدين وأصوله، وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة؛ لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن.

ورأى فريق أن الاعتراف بأن فى الدين أصولاً قضائية وأخرى سياسية، ثم الطعن فى صلاحها، إيذان بالانفصال عن الدين، وإذا دعا المنفصل عن الدين إلى فصل الدين عن السياسة كان قصده مفضوحًا وسعيه خائبًا، فاخترع هؤلاء طريقًا حسبوه أقرب إلى نجاحهم وهو أن يدّعوا أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه لعلهم يجدون فى الناس جهالة أو غباوة، فيتم لهم ما بيتوا.

هذان مسلكان لمن ينادى بفصل الدين عن السياسة، وكلاهما يبتغى من أصحاب السلطان أن يضعوا للأمة الإسلامية قوانين تناقض شريعتها، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق مارتضاه الله فى إصلاحها، وكلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات، وقصور النظر عما لشريعة الإسلام من حكم بالغات.

أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية، ووضع فى فم السياسة لجامًا من الحكمة، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين، إذ كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة، ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله أو سنة رسول الله.

فى القرآن شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية، وتتولى إرشاد السلطة السياسية، قال تعالى:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية، وفى قوله تعالى:

﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

إيماء إلى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية، وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل أحكام الجاهلية؛ ذلك لأنهم فى غطاء من تقليد قوم كبروا فى أعينهم، ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم، وقال تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

فرض فى هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أسرى الشهوات عن بعض ما أنزل الله، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم، ويضع مكان حكم الله حكما يلائم بغيتهم، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(المائدة: ٤٥)

فى آية:

﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٧)

وفى آية ثالثة:

﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

وفى القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات، كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث، وأحكام القصاص والدية وقطع السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات، وجزاء الساعى فى الأرض فسادًا، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار كقوله تعالى مرشدًا إلى القوة المادية:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

وقوله تعالى مرشدًا إلى القوة المعنوية:

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

(التوبة: ١٢٣)

وقوله تعالى منبها على خطة هى من أنفع الخطط الحربية:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾

(التوبة: ١٢٣)

والكفار هنا المحاربون، ففى الآية إرشاد إلى أن يكون ما بينهم وبين ديارهم أمنا، ولا يدعوا من ورائهم من يخشون منه أن ينهض إلى أموالهم وأهليهم من بعدهم، أو يجلب عليهم بخيله ورجله ليطعن فى ظهورهم وقد أقبلوا على العدو الذى تجاوزوا إليه بوجوههم؛ وفى الآيات الحربية ما يتعلق بالصلح كقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾

(الأنفال: ٦١)

وقوله تعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

(التوبة: ٢٩)

وفيها ما يتعلق بالمعاهدات كقوله:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾

(الأنفال: ٥٨)

وفى السنة الصحيحة أحكام مفصلة فى أبواب من المعاملات والجنايات إلى نحو هذا مما يدلك على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور دينًا آخر وسماه الإسلام.

وفى سيرة أصحاب رسول الله - وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة - ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطانا على السياسة، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله.

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة، وفى صحيح البخاري: «كانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى

ﷺ».

ومن شواهد هذا محاورة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى قتال مانعى الزكاة فإنها كانت تدور على التفقه فى حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بقوله فى الحديث: «فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم».

وأبو بكر الصديق يحتج بقوله فى فى الحديث: «إلا بحقها»

ويقول الزكاة من حق الأموال، ولو لم يكونوا على يقين من أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث، أو لوجد أبو بكر عندما احتج عمر بالحديث فسحة فى أن يقول له: ذلك حديث رسول الله، وقتال مانعى الزكاة من شئون السياسة.

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم، قصة عمر بن الخطاب إذ بدا له أن يضع لمهور النساء حدا؛ فتلت عليه امرأة قوله تعالى:

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾

(النساء: ٢٠)

فما زاد على أن قال: رجل أخطأ وامرأة أصابت، ونبذ رأيه وراء ظهره، ولم يقل لها: ذلك دين وهذه سياسة.

وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد، ولم يوجد حتى فى الأمراء المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية وإن جروا فى كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله، جهالة منهم أو طغيانا. وأراد الحجاج أن يأخذ رجلا بجريمة بعض أقاربه، فذكره الرجل بقوله تعالي:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(الأنعام: ١٦٤)

فتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول له: ما تلوته دين، وما سأفعله سياسة.

وأما قيام أحكام الشريعة على أساس العدل، ورسمها للسياسة خططا محكمة الوضع فسيحة ما بين الجوانب، فذلك ما لا أستطيع تفصيل الحديث عنه فى هذا المقال، وفيما كتبناه ونكتبه إن شاء الله تعالى تحت عنوان «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»(٢) ما يساعد على الإلمام بأصول الشريعة ومعرفة اتساعها لكل ما يحدث من الوقائع، والذى نقوله فى هذا المقام أن السياسة لا تجد فى الدين ما يقف دون مصلحة، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة، لا تجد فيه هذا ولا ذاك متى وزنت المصالح والمفاسد بميزان العقل الراجح، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأى فى منعة من أن يطيش بهم التقليد أو إرضاء طائفة خاصة إلى أن يروا الفساد صلاحًا فيشرعوه، أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه وليس من شأن الدين أن يراعى فيما يشرع الأهواء الجامحة وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا، أو

٢. نشرت مجلة الأزهر هذا الكتاب فى أجزاء ثلاثة أعداد (المحرم - صفر - ربيع الأول) لسنة ١٤٢٨هـ.

أهواء من فى الأرض جميعا.

والرؤساء الذين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها، فوضعوا لهم قوانين جائرة، وأذنوا بمظاهر غير صالحة إنما أتوا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم، ولم يبذلوا فى دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم.

أما الأحداث وأشباه الأحداث الذين لا يهدأ لهم بال ما داموا يسمعون اسم الدين يجرى فى لسان بعض الدول باحترام، فإن من نشأ فى غير جد، وأسرف فى حب اللهو، لا يألف شريعة تأمر بالعدل، وتضع دون الأهواء الجامحة حاجزًا، فلا عجب أن يتآمروا بها، ويشيروا على السياسة بأن تبتعد منها، وإذا بلغ هؤلاء مآربهم فى سياسة وقع زمامها فى يد زائغ عن سبيل الرشد، فستذهب آمالهم خائبة فى كل قطر يسوسه رئيس يقدر الإسلام قدره، ويجد من حوله علماء درسوا الشريعة بنباهة، ولا يخفى عليهم قصد من يتغنون بمدح الإسلام، وقبل أن تستريح خناجرهم يطعنونه فى الصميم.

يقول الكاتب:

«إن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أدعى الأمور إلى اختلال النظام».

ليس فى الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة، أو المندرجة فى الأصول المأخوذة منهما. وقاعدة الشورى التى قررها القرآن الكريم، وجرى عليها الخلفاء الراشدون كافلة بصحة الاجتهاد فى الأحكام المستنبطة من الأصول، أما النظم التى تقوم بها الشورى على وجهها الصحيح فموكولة إلى الآراء الراجحة وما تقتضيه مصالح الأمم أو العصور، فالإسلام لم يترك السلطة التى وضعها فى أيدى الأمراء مطلقة عن التقيد، وإذا استهان بعض الأمراء بقاعدة الشورى فإن التشريع تام، والوزر على من لم يأخذ نفسه بما قرره الشرع العزيز.

وإذا كان بعض الأمراء هم الذين خرجوا عما حده الإسلام لسلطتهم الدينية، فحكمة الكاتب متى كان مسلمًا أن يقرر الحد الذى رسمه الإسلام ويبين للناس كيف تعداه أول الأمر، ليطالبوهم بالوقوف عنده، لا أن يقول كلاما مبهما، ويبنى عليه المناداة إلى شهوة هى فصل الدين عن السياسة.

ويقول صاحب المقال: «وقد عاد اجتماع السلطتين بلاء عليهم إذا أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن».

لسقوط الشعوب الإسلامية فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم أسباب ليس الجمع بين السلطتين منها فى شيء، ومن طبيعة سيطرة تلك الدول عليهم أن تتصرف فى شئونهم على طرق لا تحفظ حقوقهم ولا تراعى فيها مصالحهم، وهل ينقص هذا البلاء لو أن المسلمين أعلنوا فصل سياستهم عن الدين قبل أن يسقطوا فى أيدى هذه الدول المنازعة لهم؟!

حرص الكاتب على شهوة فصل الدين عن السياسة جعله يورد فى معرض التشويق إليها

ما ليس بحق ولا يشبه أن يكون حقًا، بأى طريق عرف الكاتب أن تلك الدول إذا وجدت السياسة فى يد والدين فى يد أخرى، سلبت ما فى اليد الأولى من سياسة وتركت اليد الأخرى تعمل فى حدود سلطتها بحرية!

ويقول الكاتب: «وإذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب، ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم».

قد عرفت أن الأمير المسلم ليس عنده فى الواقع سوى سلطة واحدة هى تدبير شئون الأمة على مقتضى القوانين الشرعية والنظم التى لا تخالف شيئًا من أصولها، فتجريد الأمير من السلطة الدينية هو عزل له عن الإمارة فى نظر الشريعة، ومن لم يكن أميرًا فى نظر شارع الإسلام، فليس بأمير فى نظر المسلمين، فالمسلمون لا يستطيعون أن يتصوروا أميرًا مجردًا من السلطة الدينية فضلًا عن أن يجردوه منها بالفعل ويرضوا بعد تجريده منها بالاستماع إليه والطاعة له. ولم تكن السلطة الدينية بيد الأمراء فى يوم من الأيام بلاء على المسلمين وإنما بلاء المسلمين فى عدم قيام بعض أمرائهم بما توجبه هذه السلطة من نحو العدل والشورى والمساواة وإعداد القوة لتقرير الأمن وكف العدو الذى يبسط إليهم يده بالسوء.

قال صاحب المقال: «فكل مملكة احتضنت مذهبًا فى العقائد والفروع لتبقى وحدها منفصلة عن الممالك الأخرى، فبعد الانقسام أصبح كل أمير منهم إمامًا دينيًا وحاكمًا سياسيًا لقطره، فكانت النتيجة من هذا الجمع الإخلال بالنظام العام، وزالت الوحدة المقصودة من روح التشريع الإسلامى فتعددت الخلافة واختلت أحكامها، بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين فصار ذلك الفصل مصدرًا لفائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار، فلم يضرها اختلاف الدول فيها لوجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها وتخصصها، ولذلك بقيت وحدتها خالدة فى عصمة من الانشقاق والتدهور اللذين أصابا الوحدة الإسلامية».

وقع تفرق فى الممالك الإسلامية، وأصبح كل أمير مستقلا بالنظر فى أمور قطره، فكانت النتيجة من استقلال كل أمير بمملكة مع تقاطع هذه الممالك وتدابرها انحلال الرابطة الإسلامية وزوال الوحدة المقصودة من التشريع الإسلامى.

فسبب اختلال النظام العام أو أحكام الخلافة، انقسام الأمم الإسلامية إلى دول انقسامًا غير مصحوب بشىء من التحالف والتعاطف، أما أن كل أمير يرجع إليه النظر فى شئون رعيته الدينية فذلك من لوازم الإمارة فى الإسلام، فلم يكن لعد الأمير المستقل نفسه حارسًا للدين فى مملكته الخاصة دخل فى اختلال النظام، فوهن المسلمين جاء من جهة استقلال كل أمير بطائفة من المسلمين استقلالا يقطع بينها وبين الدولة العظمى صلة التناصر والتعاون، لا من جهة أن رعاية الدين داخلة فى سياسة كل دولة.

ويقول الكاتب: «بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين، فصار ذلك الفصل مصدرًا لفائدة الأمة وحمايتها إلخ». وهذا صريح فى أن الكاتب يريد من الدول الإسلامية أن تفعل مافعلته الدول الغربية من تجريد السياسة من الدين، وهو رأى لا يصدر

إلا ممن يكن فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهذا ما بيته فئة يريدون أن ينقصوا حقيقة الإسلام من أطرافها حتى تكون بمقدار الديانة المسيحية، ثم يصبغوا هذا المقدار من بعد بأى صيغة أرادوا، فيذهب الإسلام، فلا القرآن نزل ولا محمد ﷺ بعث، ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده، ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من واردها، وانتزاع الأحكام من أصولها.

يضرب الكاتب المثل بالأمم الأخرى ويزعم أن فصلها الدين عن السياسة كان مصدر فائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار، ومن أجل فصلها الدين عن السياسة ووجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها لم يضرها اختلاف الدول فيها.

وضرب المثل على هذا الوجه أثر نظرة متسرعة، إذ ليس للرياسة الدينية فى الإسلام حد تنتهى إليه ثم يكون للأفراد أو الجماعات أن تفعل بعده ما تشاء، ولو كان فى دين تلك الدول قوانين مدنية ونظم سياسية، وقامت كل دولة على تنفيذ تلك القوانين والنظم داخل حدودها، أفيكون مجرد رعايتها لما جاء به دينها سببًا لانتشار مرض التقاطع بينها؟!

ليس فى طبيعة ربط السياسة بالدين التقهقر والتنازع؛ إلا أن يكون فى تعاليم الدين ما يسير بالناس إلى وراء، أو ما يغرى بينهم العداوة والبغضاء، وليس فى دين الإسلام إلا ما يصعد بالأمم متى شاءت الصعود إلى السماء؛ وليس فيه إلا ما يدعو إلى الائتلاف والتعاون على أن تكون كلمة الحق هى العليا.

قال صاحب المقال: «ولنضرب لذلك مثلا وحدة الكنيسة الكاثوليكية فإنها على الرغم من اختلاف الدول الكاثوليكية بقيت لها زعامتها وشعورها بقوة فكرتها، وقد رأينا أثرها فى الحروب الصليبية المستمرة بل وفى كل الحوادث التى تلتها والتى تألبت فيها أوربا على الأمم الإسلامية، فإن للكنيسة والجمعيات الدينية المختلفة التى تستمد سلطتها منها أثرها الفعال فى بقاء وانتشار المسيحية وتأثيرها فى سياسة العالم».

ليس فى الإسلام سلطة دينية تشبه السلطة الكاثوليكية، والسلطة الدينية فى الإسلام لكتاب الله وسنة رسول الله:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾

(النساء: ٥٩)

وعلى العلماء البيان وعلى الأمراء التنفيذ، فإن أراد الكاتب من السلطة البيان، فالبيان حق لكل عالم تفقه فى أصول الشريعة ومقاصدها، فلا يختص به عالم دون آخر، ولا يعد بيان العالم الذى تعينه الأمة للبيان أرجح من بيان غيره إلا أن تكون حجته أقوى، وإذا كان الأمر للحجة فما معنى تعيين شخص ليكون مصدر البيان فى كل حال؟ فإن أراد من السلطة التنفيذ فليس له معنى سوى أن تكل الأمة إلى شخص القيام بتنفيذ أحكام الدين على أن تكون هى يده التى ينفذ بها، وسلاحه الذى يدافع به من يعارض فى التنفيذ، وذلك معنى الخلافة المعروفة فى الإسلام.

قال صاحب المقالة: «لو رزق المسلمون رجالًا ينظرون بعين الناقد البصير - من قبل قرنين - وفصلوا الدين عن السياسة لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة فى الممالك التى اغتصبتها

الدول الأوروبية ما لا يقل عما للفاتيكان، وما كان خطر الاستيلاء الأجنبي عليهم عظيمًا».

كلام يروج ولكن في غير هذا الوادي، ويتقبل ولكن بعقول لم تستنر بهداية، يأسف صاحب المقال على الشأن والسيادة اللذين فاتا للمسلمين لعدم فصلهم الدين عن السياسة من قبل قرنين، ويرى أن إبقاءهم الدين في جانب السياسة كان سببًا في أن صار خطر الأجنبي عليهم عظيمًا.

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدى به الأجنبي على الدين إذا جاس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علنًا كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار الأجنبي أقرب إلى الحرية في الدين ممن أصيبوا بسلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التي ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة لألغت محاكم يقضى فيها بأصول الإسلام، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهد لهو ومجون، بل لم يجدوا في أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف في مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجو لله وقارا.

يقول الكتب: «لو فصلوا الدين عن السياسة ما كان خطر الاستيلاء الأجنبي عليهم عظيما» يقول هذا كأنه لا يدرى أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديدًا أشد بأسًا من حديدها، ونارًا أشد حرًا من نارها، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطة دينية ليس في كنانتها سهم، ولا في كفها حسام، أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية - على فرض صحة إقامتها - بحال السلطة الكاثوليكية في احترام مؤسساتها وإطلاق يدها في عمل يرفع أهل ملتها، فمغالطة أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أي حال، وسلطة دينية قد يكون في بعض أصولها ما لا يلائم طبيعة الاستعمار.

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطًا محكمًا، لم تجد يد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلاً، ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين، ولو جد فيهم الغاصب من الفشل أكثر مما وجد، فليست مصيبة المسلمين في تركهم السياسة مربوطة بالدين كما زعم الكاتب، وإنما هي ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها.

قال صاحب المقال: «فإن أعظم ما أصاب المسلمين من المصائب إنما هو فقد الرياسة الدينية بعد أن فقد منهم الاستقلال وحرمانهم من بقائها درعًا حاميًا وسدًا منيعًا من تسرب المستعمرين باسم السياسة إلى السيطرة على شعور وضمائر الأمم الإسلامية حتى كاد يختل بناء الدين، ويتنكر المسلمون تعاليمه الحقة».

حقيقة فقد الرياسة الدينية من أعظم ما أصاب المسلمين، وهو الرياسة التي في إحدى يديها هداية، وفي أخراهما قوة، أما الرياسة التي لا يتعدى صاحبها أن يكون واعظًا عامًا، يدعو الناس إلى الصلاة والصيام والحج إن استطاعوا إليه سبيلا، فلم تفقد بعد ولم يحرم المسلمون منها، ولا تزال باقية ولكن في أشخاص متفرقين في البلاد لا في شخص واحد كما يرغب صاحب المقال، ولم نذكر الزكاة في قبيل ما يدخل في الوعظ مخافة أن يكون الكاتب قد انتزعها من أحضان الدين وجعلها في قسمة السياسة.

يربط الكاتب الوقائع ولكن بغير أسبابها، ويصل النتائج ولكن بغير مقدماتها، لنفرض أن المسلمين اتفقوا على ضلالة فصل الدين عن السياسة، وأقاموا رياسة دينية لا جند لها ولا سلاح، أمن المعقول أن تكون هذه الرياسة درعًا حاميًا، وسدا يمنع من تسرب المستعمرين إلى السيطرة على شعور الأمم الإسلامية وضمائرها؟!

إذا سيطر المستعمر على الشعور والضمائر فإن أكبر مساعد له على هذه السيطرة قبضه على زمام التعليم العام حيث يسير به على منهج يخرج به الناشيء مزلزل العقيدة غائبًا عن سماحة الدين وحكمة التشريع ومعظم النشء مأخوذون بحاجات أو دواع إلى أن يترددوا على مدارس الحكومة.

فإن أراد الكاتب أن يكون لتلك السلطة الدينية فضل إقامة مؤسسات تغنى عن مدارس التبشير ومستشفياتهم التي يتخذونها وسائل للسيطرة على شعور المسلمين وضمائرهم، قلنا: في يد المسلمين أن يقيموا مؤسسات تحاكي تلك المؤسسات، فينقذوا أبناءهم من شر مؤسسات الأجنبي، ولا شيء يضطرهم إلى موبقة فصل الدين عن السياسة، وابتداع رياسة دينية لم ينزل الله بها من سلطان.

بسط صاحب المقال لسانه في «الفقهاء المسلمين» كما يبسطه فيهم من لم يطالع كتبهم، فغلا في وصفهم بالجمود، حتى زعم أنهم «لم يقولوا لنا كيف يجتهد الفقيه» وتمادى في هذه المزاعم إلى أن قال: «ووجد من الفقهاء المزيفين من جوز إمامة المغتصب الذي يتولى ولاية الأمة بغير رغبتها وإرادتها».

يقول الفقهاء: تنعقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن تكون عليه الإمامة في كل حال، وأجازوا للإمام متى خشي التنازع في الإمامة من بعده ورأى في أحد رجاله الكفاية، أن يعهد إليه بها قطعا للفتنة، ولم يجيزوا لأحد أن يتولى أمرها دون أن يبايعه أهل الحل والعقد، أو يعهد إليه بها الإمام، وإن قام مسلم ذو قوة فتولاها بالقهر والغلبة، فإن كان جامعًا لشروط الولاية من نحو العلم والعدل والاستقامة كان إقراره أسلم عاقبة من منازعته، وليس في إقراره من بأس ما تحققت فيه شروط الولاية، فالفقهاء يجيزون ولاية المتغلب على معنى أنه بعد القهر والغلبة يعد إمامًا لتحقق شروط الإمامة فيه؛ ولأن منازعته تفضي إلى فتنة ليسوا في حاجة إلى إثارتها.

فإن فقد منه بعض شروط الولاية منتخبا كان أو معهودا إليه، أو متغلبًا، فمن الشروط ما يكون فقده مسقطًا للولاية بنفسه كالارتداد عن الدين، واختلال العقل، ومنها ما يستحق به العزل بإجماع كالفسق، ومن الفقهاء غير المزيفين من يعد الفسق في الشروط التي تسقط ولايته بنفسها ولا تحتاج إلى إعلان أهل الحل والعقد بخلعه، أما القيام على الفاسق وإبعاده من مقر الولاية باليد، فموكول إلى اجتهاد أهل الحل والعقد، وهم الذين يسلكون ما تقتضيه الحكمة وتستدعيه مصلحة الأمة.

هذا ما يقوله الفقهاء أخذًا من أصول الشريعة ورعاية لمقاصدها في الاستنباط، وليس فيه تفريط في المصلحة العامة، ولا ما يمس مقام الولاية العظمى بسوء.

من أقوال الأستاذ الدكتور صوفي أبو طالب «٢»



حول تقنين الشريعة الإسلامية

(٥) المصالح المرسلة كمبدأ من مبادئ تقنين الشريعة الإسلامية

جاء في تقرير لجنة إجراءات التقاضي والإثبات أن مشروع القانون الذي أعدته هذه اللجنة قام علي مبادئ أساسية هي:

- أولاً: ربط التقنين بمصادر الشريعة من كتاب الله، أو سنة رسوله الكريم، أو إجماع، أو رأي من آراء الفقهاء.
- ثانيًا: عدم التقيد بمذهب معين من مذاهب الفقه الإسلامي؛ وذلك خروجًا من ضيق المذهب الواحد إلي سعة شريعة الإسلام بمذاهبها المختلفة.
- ثالثًا: الاستناد في التقنين للأمور المستحدثة التي ليس لها أصول شرعية - ولا تخالف هذه الأصول - علي ما يسمي في عرف الفقهاء بالمصالح المرسلة.

والمصالح المرسلة هي قاعدة تجيز لأولي الأمر وضع النظم المناسبة لتحقيق مصالح المجتمع، ما دامت هذه النظم لا تتعارض مع أحكام الشرع، أي أن العمل بالمصالح المرسلة يكون فيما لم يرد فيه نص قطعي الثبوت والدلالة، ولم يسبق للفقهاء فيه رأي. فيكون الحكم فيه نابعًا مما تقتضيه المصلحة العامة للأمة.

وقد أفاض الدكتور صوفي أبو طالب في شرح هذا المبدأ الثالث من المبادئ الأساسية في تقنين الشريعة الإسلامية في محاضرة ألقاها في الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع يوم ٥ إبريل سنة ١٩٨٢م قال فيها:

إن موضوع المصالح المرسلة متعدد الجوانب والنواحي، وسأقتصر فقط علي إلقاء بعض الضوء علي بعض جوانبه. وفي البداية، يتعين علينا أن نعرف مقاصد التشريع الإسلامي بالمقارنة بمقاصد التشريعات والنظم القانونية الأخري المعاصرة والقديمة علي السواء، فكل الشرائع والنظم المعاصرة تتوخي - فيما تصدره من تقنينات - التوفيق بين مصالح الأفراد في المجتمع، غير أن بعضها يقف عند حد التوفيق بين مصالح طبقة من طبقات المجتمع دون غيرها، وينكر وجود الباقي، مثل الفكر الشيوعي، والبعض الآخر يسوي - من الناحية النظرية - بين الأفراد داخل المجتمع، ويحاول التوفيق بينهم، كالفكر الإسلامي، وهذه سمة جوهرية، فهو لا يقف عند حد التوفيق بين مصالح الأفراد في المجتمع، بل يضيف إليها معني الارتقاء بالإنسان إلي درجة الكمال من

الناحية الخلقية.

ونتيجة لذلك فصلت الشرائع القانونية - القديمة والحديثة علي حد سواء - بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية، وفي الأمور الدنيوية فصلت بين ما يسمي بالقاعدة القانونية، وبين ما يسمي بالقاعدة الخلقية، والفقه الإسلامي - لأن مقصده الكمال الإنساني - لم يفصل بين أمور الدين والدنيا، ولم يفصل بين القانون والأخلاق.

ومن هنا، كانت مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات مقصدًا من مقاصد التشريع الإسلامي، هذه المقاصد هي ما تدور حول ما يسميه الشرعيون المصلحة. فالشارع الإسلامي يستهدف إذن فيما يصدره من أوامر أو نواه تحقيق مصالح الناس، وهذه المصلحة تتحقق بجلب نفع لهم، أو درء ضرر عنهم، هذه المصلحة بجانبيها ـ جلب النفع أو درء الضرر - هل هي معقولة المعني؟ أي يستطيع الإنسان أن يعمل عقله وفكره فيها، أم أن الخالق جل شأنه استأثر بهذه المصلحة وعلتها وحكمتها وحده دون غيره جل جلاله؟

إن الفكر الإسلامي ينقسم في هذا الصدد إلي ثلاث مدارس هي: مدرسة المعتزلة التي تري أن كل الأحكام التي شرعها الشارع لتحقيق مصالح العباد معقولة المعني، ويتعين علينا إعمال العقل فيها، عبادات كانت أو معاملات، وعكس ذلك مدرسة أهل الظاهر التي تقول: إن الشارع الحكيم هو وحده الذي يعلم بهذه المصالح، ومن هنا كانت الأحكام عندهم تعبدية محضة لا مجال لإعمال العقل فيها، والمدرسة الثالثة التي يمثلها أغلب أو جمهور الفقهاء، وعلي رأسهم كل أهل السنة، ويقولون بالتفرقة بين العبادات والمعاملات، فما يخص العبادات استأثر الشارع الحكيم بمعرفة وجه المصلحة فيها، ومن ثم لا مجال لإعمال العقل فيها، فجعل صلاة المغرب ثلاث ركعات، وقبلها العصر أربع ركعات، وبعدها العشاء أربع ركعات، مسألة استأثر بعلمها الشارع الحكيم، ولا مجال لإعمال عقلنا فيها، أما في مجال المعاملات، أي ما عدا العبادات من بيع وشراء وزواج وجرائم وعقوبات.. إلخ، فالأحكام معقولة المعني، ومن ثم يدور الحكم مع العلة وجودًا وعدمًا ولكي نصل إلي العلة يتعين علينا إعمال العقل، ومن هنا قالوا إن علينا - في غير العبادات - أن نبحث دائمًا وأبدًا عن وجه المصلحة التي قصدها الشارع الحكيم، ومعرفة علة الحكم الذي وضعه لأي أمر من الأمور، ومن هنا، وجريا علي رأي الغالبية العظمي من الفقهاء، نقول إن الشارع الحكيم قصد بما أصدره من أوامر ونواه تحقيق مصالح الناس في أمور المعاملات، سواء لجلب نفع، أو لدرء ضرر، وهذا هو المقصد الأساسي من التشريع الإسلامي كما قلنا.

صور المصلحة من حيث اعتبار الشارع

ويثور تساؤل عن صور هذه المصلحة، فالمصلحة بهذا المعني - جلب النفع، أو درء الضرر كما قسمها الأصوليون - ثلاثة أنواع: نوع أسموه المصالح المعتبرة، أي التي اعتبرها الشارع وأمر بها، ونوع ثان أسموه المصالح الملغاة، وهي التي ألغاها الشارع..

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾
[البقرة:٢٧٥]

مصلحة اعتبرها ومصلحة ألغاها، فالبيع مصلحة معتبرة والربا مصلحة ملغاة، وبين هذين النوعين يوجد نوع ثالث من المصالح لم يشهد له نص بالاعتبار ولا بعدم الاعتبار، وهذه هي ما تسمي بالمصالح المرسلة، أي المصالح المرسلة من قيد اعتبارها أو عدم اعتبارها، ومع ذلك يوجد في اعتبارها تحقيق مصلحة، وفي عدم اعتبارها وقوع مفسدة في المجتمع، إذن فالمصلحة المرسلة هي الدرجة الوسطي من المصالح التي لم يشهد لها الشارع بحكم باعتبارها ولا بحكم بإلغائها، «البيع» مصلحة معتبرة، و«الربا» مصلحة ألغاها الشارع، وهذه مصالح كان يتوهمها الناس في المجتمع ألغاها الشارع، «فالرهبانية» مصلحة ألغاها الشارع، وهذه المصلحة المعتبرة التي أمرنا الشارع بها والمصلحة التي ألغاها وبينهما المصلحة المرسلة التي لم يشهد نص بالاعتبار أو بالإلغاء يتعين علينا أن نتعرف جوانب هذه المصلحة، فلا يوجد فعل من الأفعال - أيا كان في المجتمع - إلا وله جانبان: جانب صالح، وجانب طالح، فإذا ما رجح الجانب الصالح كانت مصلحة معتبرة، وإذا ما رجح الجانب الفاسد كانت مصلحة غير معتبرة، والشارع الحكيم هو الذي قدر ذلك، ولكنه في مجال المعاملات أعطانا من الوسائل ما يمكننا من الوقوف على نوع هذه المصالح التي تجلب النفع أو تدرأ الضرر.

صور المصلحة من حيث أهميتها

قسمها الأصوليون إلى مراتب: الضروريات.. الحاجيات.. التحسينات، أما المصالح الضرورية فهي التي لا يستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات مهما تدني في درجة الحضارة، أما المصالح الحاجية فهي المصالح التي يمكن أن تقوم الحياة بدونها، ولكن يقع الناس دونها في حرج وضيق شديدين، والمصالح التحسينية - وهي النوع الثالث من مراتب المصالح - ليست بضرورة لوجود المجتمع والحياة، وليست بحاجية، ولكنها ترتفع بالإنسان إلي درجة الكمال الخلقي، وهو من المقاصد التي تستهدف الشريعة الإسلامية تحقيقها. والمصالح الضرورية التي لا يستغني عنها أي مجتمع رتبها الفقهاء أيضًا إلي الأمور الخمسة الآتية، وبالترتيب الآتي:

الدين - النفس - العقل - النسل - المال، هذه المصالح الخمس لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات على الإطلاق؛ ولذلك وضع لها الشارع من الأحكام ما يكفل احترامها، فوضع العبادات والشعائر الدينية لحفظ الدين، ووضع الحدود، مثل حد القصاص إذا ما حدث اعتداء علي النفس لحفظ النفس، وحد الجلد في الزنا لحفظ النسل، وحد قطع اليد بالنسبة للسرقة لحفظ المال، وحد شرب الخمر لحفظ العقل، ووضع أيضًا حد الحرابة لكي يحفظ نظام المجتمع ككل، وهذه الحدود تحفظ هذه المصالح الضرورية الخمس، بالإضافة إليها وضع الشارع عقوبات - هي ما تسمي بالتعزيرات من حبس وخلافه، - لكي يحفظ

بها تحقيق ذات المصالح الخمس، كما وضع نصوصًا تكمل هذه المصالح الخمس، فقد منع الزنا ووضع له عقوبة، ثم منع مقدمة الزنا وهي الخلوة تكميلاً لهذه المصلحة، ومن أمثلة المصالح الحاجية البيع والشراء والإيجار.. إلخ، فالمجتمع يمكن أن يستقيم بمبدأ الاكتفاء الذاتي، لكن يعيش الناس في ضيق وشدة، فقد أباح الشارع البيع؛ لكي يمنع المنازعات بين الناس، منع بيع الأشياء المعدومة - أو بلغة العصر الأشياء المستعملة - ولكنه استثناء - من ذلك كيلا يقع الناس في ضيق أو حرج، أباح بعض صوره مثل بيع السلم والاستصناع.. إلخ، وفي المصالح التحسينية التي تبتغي الكمال بالنسبة للإنسان وضع الشارع بعض الأحكام، ولن نتكلم عن الآداب والأخلاق؛ فنحن نعلمها (آداب المأكل والملبس والمعاملة.. إلخ) ولكن سنتكلم من الناحية القانونية: مثل عدم جواز قتل النساء والأطفال في الحروب، وأيضًا عدم جواز الغش في البيع، كما أنه حرم عقود الغرر؛ لأنها تتنافي مع مقاصد الأخلاق الكريمة في المجتمع، هذه المصالح بمراتبها التي ذكرتها إذا كانت معتبرة فالحكم فيها يدور بين الوجوب والندب والإباحة، وإذا كانت ملغاة فهي تدور بين التحريم والكراهية وإن كانت مصالح مرسلة لم يشهد بها نص لا بالاعتبار ولا بعدمه فكيف نفصل فيها؟ سمي الإمام الغزالي المصالح المرسلة بالاستصلاح، وتظهر عبقريتهم في أنهم أباحوا لولي الأمر أن يشرع للمجتمع أحكاما بناء علي هذه المصلحة المرسلة أي أن يصدر ولي الأمر تشريعات في الأمور التي لم يرد بشأنها نص بحماية مصلحة أو بإلغاء مصلحة وهذه المصالح المرسلة تقوم علي معايير يسترشد بها ولي الأمر فيما يسنه من تشريعات، ولقد لخص الفقهاء هذه المعايير في سد الذرائع أي ما نسميه في اللغة الدارج: «الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح»، فإذا ما وجد الشارع أن الناس تتحايل علي بعض الأحكام الشرعية فإنه يستطيع أن يصدر أمرًا في هذا الشأن من باب سد الذرائع والمعيار الأخير الذي تسترشد به في التشريع للمصلحة هو تغير الزمان أي تطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع.

إذن يجوز لولي الأمر بناء علي المصلحة أن يصدر تشريعًا في أمر لم يشهد له نص بالاعتبار أو بالإلغاء، يستهدف جلب نفع، أو درء ضرر، أو سد ذريعة، أو يجاري التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع، وهذا التشريع الذي يصدر من ولي الأمر توخيًا لهذه الاعتبارات الأربعة كلها أو واحد منها، من الذي يقدر هذه المصلحة؟ أي متي نقول إن هناك جلب نفع؟ ومتي نقول إن هناك درء ضرر؟ ومتي نقول إن هناك سد ذريعة؟

ومتي نقول إن الأوضاع تغيرت، أو الظروف تطورت في المجتمع؟ إن الذي يقول هذا بطبيعة الأمر هو ولي الأمر، وإن الله تعالي أمرنا في كتابه الكريم قائلاً:

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾
[النساء:٥٩]

فمن هو ولي الأمر؟ إننا لا نذهب مذهب الخوارج، فيدعي كل شخص لنفسه أنه هو ولي

الأمر، نحن نتحدث بما يقول الجمهور، فولي الأمر هو من بايعه الناس لحكمهم، وفي ظل النظم المعاصرة - هي المؤسسات الدستورية - طبقًا لما هو وارد في دستور البلاد، أي السلطة التشريعية ممثلة في البرلمان والسلطة التنفيذية ممثلة في الحكومة، والسلطة القضائية ممثلة في أحكام القضاء، ورئيس الدولة حسب الاختصاصات المقررة له في الدستور في كل جانب من هذه الجوانب، وكل سلطة من هذه السلطات تعتبر ولي أمر في مجالها، فعندما يصدر الوزير قرارًا فهو ولي أمر، وعندما يصدر مجلس الشعب قانونًا فهو ولي أمر، وعندما يرد رئيس الدولة قانونًا إلي المجلس لكي يعيد النظر فيه فهو يستخدم جزءًا من اختصاصه ومن ولايته كولي أمر، وعندما تقضي المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية قانون من القوانين الصادرة من مجلس الشعب فهي أيضًا تمارس اختصاص ولي الأمر، إذن ولي الأمر هو المؤسسات الدستورية في الدولة تبعًا لنظام هذه الدولة، هذا هو ولي الأمر في مفهوم العصر الحديث، ولا يجوز لكائن من كان أن يدعي لنفسه أنه هو ولي أمر نفسه، ويتحلل بذلك من أي قاعدة تصدر - أو من أي أمر يصدر من أي سلطة من سلطات الدولة.

عرفنا ولي الأمر، وعرفنا المعايير التي يسترشد بها ولي الأمر فيما يصدره من تشريعات مبنية علي المصلحة، هل هناك ضابط جامع مانع وضعه الفقهاء لولي الأمر بحيث لا يجوز له أن يتخطي حدود هذا الضابط؟ نعم، هناك ضابط جامع مانع وضعه الفقهاء لولي الأمر حينما يشرع بالمصلحة، يجب عليه ألا يتجاوزه، هذا الضابط يتمثل في الشروط التي يتعين توافرها في التشريع الذي يشرعه بمقتضي المصلحة المرسلة:

- أولاً: يتعين أن يكون في مجال المعاملات، فلا يجوز لولي الأمر باسم المصلحة أن يشرع شيئًا في مجال العبادات، لأننا قلنا في البداية إن هذه من الأحكام التعبدية المعني، فلا يمكن مثلاً أن نقول إن عدد ركعات صلاة المغرب ركعتان بدلاً من ثلاث، أو عدد ركعات الظهر اثنتان بدلاً من أربع، فهذا لا يمكن أن يكون.
- ثانيًا: يجب أيضًا أن يكون التشريع - فضلاً عن كونه في مجال المعاملات - محققًا لمصلحة كلية، وليس لمصلحة فرد بعينه، وإنما مصلحة مجموع الناس، أي الغالبية العظمي من الناس.
- ثالثًا: أن تكون مصلحة حقيقية، وليست مصلحة متوهمة، إذا ما كان التشريع في مجال المعاملات يحقق مصلحة كلية حقيقية، فيجب كذلك أن يتوخي تحقيق أو توفير مقاصد التشريع الإسلامي، وهو جلب النفع، أو درء الضرر، أو سد الذريعة، أو مجاراة التطور الاجتماعي والاقتصادي.

ويأتي شرط أخير وأساسي، وهو ألا يناقض التشريع بالمصلحة نصًا تشريعيًا ورد من الشارع الحكيم، وهنا يحتاج الأمر لبعض التفصيل.

النصوص في الفقه الإسلامي تنقسم إلي ثلاثة أنواع:

١- من حيث مضمونها

بعضها يتضمن حكمًا خاصًا والبعض الآخر يتضمن حكمًا عامًا، يتضمن حكمًا خاصًا أي حكمًا في حالات محددة محصورة

لا يتعداها إلي غيرها، فمثلاً:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾

[الأحزاب: ٣٠]

عبارة عن خطاب موجه لفئة محددة محصورة، أي أنه نص خاص، كذلك:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

[النساء: ١١]

فهذا نص خاص في الميراث، وإن النص الذي يتضمن حكمًا عامًا هو الذي يكون فيه الخطاب غير محصور في آحاد محدودة بذاتها، والحكم ينطبق علي مجموعة متجانسة غير محصورة؛ فهو لذلك حكم عام.

٢- ومن حيث الثبوت

النص قد يكون قطعي الثبوت، وقد يكون ظني الثبوت يكون قطعي الثبوت إذا كان قد ورد إلينا عن طريق التواتر مما لا يرقي إليه أدني شك، وهذا هو شأن كل آيات القرآن الكريم، فهي قطعية الثبوت، لأن هذه هي ذات الآيات التي نزلت علي الرسول ﷺ، أيضًا الأحاديث المتواترة، وهي لا تتجاوز بضعة عشر حديثًا، وهي متواترة، فهي قطعية الثبوت، وما عداها - سواء كان حديثًا مشهورًا أو أحاديث آحاد - فهي ليست قطعية الثبوت.

٣- ومن حيث الدلالة

قد يكون النص قطعي الدلالة وقد يكون ظني الدلالة، فقطعي الدلالة بمعني أنه لا يحتمل سوي معني واحد أما ظني الدلالة فإنه يحتمل أكثر من معني، ومن أمثلة النص قطعي الدلالة:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

[النساء: ١١]

فهذه لا تحتمل أي تفسير آخر، وهذا ما ينطبق عليه القاعدة المشهورة: لا مجال للاجتهاد فيما ورد فيه النص، أما النص ظني الدلالة فحينما يمكن حمل النص في لغة العرب - وقت تنزيل القرآن الكريم، وليس اليوم، أو وقت صدور الحديث المتواتر - علي أكثر من معني، فمثلاً ما جاء في القرآن الكريم:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾

[البقرة: ٢٢٨]

والقرء في لغة العرب وقتذاك قد يعني الحيضة، وقد يعني الطهر، وكلاهما صحيح في اللغة العربية، وعلي ذلك تكون العدة ثلاثة أشهر، ويمكن أربعة أشهر إذا أخذنا بمعني الحيضة أو بمعني الطهر.

وقد قلنا إنه يجب ألا يعارض التشريع بالمصلحة نصًا أو أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية، وقد رأينا أن النصوص من حيث الثبوت قد تكون قطعية أو ظنية، ومن حيث المضمون قد تكون خاصة أو عامة، ومن حيث الدلالة قد تكون قطعية، وقد تكون ظنية، والمقصود بعدم معارضة نص من النصوص هو النصوص الخاصة قطعية الدلالة قطعية الثبوت بمعني أن يكون نصًا خاصًا قطعي الثبوت، وبطبيعة الحال النص الخاص بطبيعته قطعي الدلالة، ولا يمكن أن يكون النص الخاص ظني الدلالة.

لا يجوز إطلاقًا أن نصدر تشريعًا بالمصلحة يناقض نصًا قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، بمعني أنه لا يجوز إصدار تشريع يناقض نصًا خاصًا ورد في القرآن الكريم أو في السنة المتواترة، فمثلاً بعض الدول العربية في

بعض العهود الحديثة أصدرت تشريعًا سوت بمقتضاه بين الذكر والأنثي في الميراث بحجة تطور الظروف والمجتمع.. إلخ، وهذا التشريع بهذه الصورة يناقض نصًا قطعي الثبوت والدلالة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، مثل هذا التشريع مرفوض شرعًا، ولا يجوز لولي الأمر أن يلجأ إليه إطلاقًا لأنه يناقض نصًا قطعي الثبوت ورد في القرآن الكريم، قطعي الدلالة، لا يحتمل إلا معني واحدًا، فمثلاً مدة العدة قد يطرأ طارئ في حالة ما كزوجة ترملت بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها منه جاءتها فرصة للتزوج بعد الشهر الأول من الوفاة أو من الطلاق، فرصة بالنسبة لها، فهل يتعين هنا الانتظار حتي تمام مدة العدة ولو كانت لها مصلحة في أن تتزوج قبل انتهاء مدة العدة؟ نعم، يتعين عليها أن تنتظر حتي انتهاء مدة العدة؛ لأننا أمام حكم قطعي الثبوت ورد في القرآن الكريم، قطعي الدلالة، لا يحتمل إلا معني واحدًا هو انقضاء مدة العدة، وقد تختلف من ثلاثة أشهر إلي أربعة أشهر، ولكن ليس أقل من ذلك.

إذن، بالنسبة للحكم الخاص لا يجوز إصدار تشريع يناقض حكمًا خاصًا علي الإطلاق.

ما القول بالنسبة للحكم العام؟ لا يجوز الاستثناء منه، وهو ما يعبر عنه بتخصيص الحكم العام، لقد أباح المالكية ومعهم فريق آخر من الفقهاء تخصيص الحكم العام، بمعني جواز الاستثناء من الحكم العام تحقيقًا لمصلحة حقيقية وكلية، تجلب نفعًا أو تدرأ ضررًا، ومن بين الأمثلة الكثيرة علي ذلك الحديث الذي يقول: «البينة علي من ادعي واليمين علي من أنكر»، وهذا حكم عام، أباح الفقهاء تخصيص هذا الحكم بتقييده، بأن اشترطوا أن يكون بين المدعي والمدعي عليه خلطة أو سابق اتصال يشتم منها قيام علاقة بينهما حتي لا يكون الناس عرضة لكيد السفهاء أمام القضاء، فمثلاً، قد يأتي أحد الأشخاص من أقصي بلاد الأرض من المسلمين ومن أقصي مصر نفسها أو من بلد لا يعرفه فيها أحد ويرفع دعوي مثلاً علي رئيس مجلس الشعب ويدعي فيها أن له عليه ألف جنيه، ويطالبه بالأداء أو اليمين.

والحديث يقول: «البينة علي من ادعي واليمين علي من أنكر».

فإذا طلب أن يؤدي الدائن البينة فهي ليست متوفرة لديه، وحينئذ يطلب من المدين أن يحلف اليمين بأنه ليس عليه هذا المبلغ، وهذه حالة تتكرر كثيرًا.

ومن ثم، تكون قد فتحت الباب أمام الكيد للناس، ومن أجل ذلك قيدوا استعمال هذا الحكم بوجوب وجود مخالطة، أو قرائن عن المخالطة بين المدعي والمدعي عليه.

ومن الأمثلة علي ذلك أيضًا أن الشهادة تعني أن الشخص يشهد بشيء رآه بنفسه، فهل تقبل شهادة السامع؟ نعم فقد أباحوا استثناء الحكم، أي تخصيص الحكم، بمعني قبول شهادة السامع تحقيقًا لمصلحة عامة في إثبات أصل الوقوف، وفي دعاوي ثبوت النسب؛ لأنه قد تقتضي المصلحة العامة ذلك في أمور كثيرة، وكذلك بالنسبة للقاعدة الشرعية «لا ضمان علي مؤتمن» ومقتضي هذه القاعدة أن الأجير الخاص وكذلك الأجير العام وهو الشخص الذي

تدفع له أجرًا ما مقابل عمل يؤديه لك دون أن يختص بهذه الخدمة واحدًا، أي أنه يقدم خدماته لكل الناس، دونما تخصيص، كالمحامي والطبيب والمهندس وأصحاب الحرف «لا ضمان علي مؤتمن» بمعني أنه لو كان لديه شيء منك ويجري عليه عملاً لك، وتلف، أو فقد هذا الشيء فإنه طبقًا لقاعدة «لا ضمان علي مؤتمن» لا يلتزم بدفع تعويض لك، وعليك أنت يا صاحب الشيء أن تثبت إهماله وتقصيره، وكلنا يعلم عبء الإثبات وصعوبته في مثل هذه الحالة، فقرر الفقهاء بعد أن تغيرت الظروف وفسدت الأخلاق إخراج الأجير العام من هذه القاعدة، فقالوا بأن الأجير هو ضامن لما في يديه من أموال الغير، إلي أن يثبت القوة القاهرة، وهذا عكس ما كان عليه الحال من قبل، ولكنهم استبقوا القاعدة فقط بالنسبة للأجير الخاص مثل الشغالة في المنزل، أو السائق الخاص، فإذا ما فسد الشيء الذي يكون تحت يده، فإنه لا يدفع تعويضًا إلا إذا أثبت أنت تقصيره وإهماله، وهنا نكون قد خصصنا الحكم بأن «لا ضمان علي مؤتمن»، نتيجة لتغير الظروف التي حدثت في المجتمع.

إذن، الخلاصة أن شرط عدم تعارض التشريع بالمصلحة، مع نص موجود، مقصود به نص خاص قطعي الثبوت، أي وارد في القرآن، أو في السنة المتواترة.

أما بالنسبة للحكم العام، فإنه يجوز تخصيصه بما يحقق جلب النفع، أو درء الضرر، أو سد الذريعة، أو تغير الأحكام بتغير الزمان، وهذا يدعونا إلي بيان دور التشريع بالمصلحة، في تطوير المجتمع.

قام التشريع بالمصلحة بدور جوهري في تطور المجتمع في الماضي، والآن نحن في أمس الحاجة إليه، إذ إنه يقوم بدور مهم في تخصيص بعض الأحكام التي وردت في نصوص تتضمن أحكامًا عامة، وقد ذكرت أمثلة منها تقوم بدور مهم في فهم علة الحكم، والأمثلة علي ذلك لا حصر لها في تاريخنا الإسلامي، حينما ألغي عمر بن الخطاب سهم المؤلفة قلوبهم كان يستهدف من ذلك فهم علة الحكم بما يحقق مصلحة المسلمين، هذا الحكم كان موجودًا حينما كان المسلمون يحتاجون إلي نصراء، ولكن بعد أن أعزهم الله وأصبحوا في غير حاجة فلا مانع من إلغاء تطبيق سهم المؤلفة قلوبهم، هذا هو ما فهمه عمر بن الخطاب أيضًا من أرض الخراج، حينما فتحوا العراق فأرادوا إعمال النص، وهو جعل أربعة أخماس الأرض المفتوحة للمحاربين، والخمس لبيت المال، فقال لهم عمر بن الخطاب - وكان معه فريق من الفقهاء، وناقشوا الرأي أيامًا وأيامًا: إنه إذ ما سلمتم أربعة أخماس الأرض للفاتحين فإنهم سوف يحتكرون الثروة هم وأولادهم من بعدهم، ولا أجد ما أنفق منه علي هذه الدولة، بالإضافة إلي أنه كيف يمكن أن أنتزع الأرض من واضعي اليد أنفسهم الذين يتعيشون منها؟

إن مصلحة المسلمين تقتضي إبقاء هذه الأرض في يد أصحابها، وفرض خراج - فرض ضريبة عليها - تنفق منها علي الدولة وعلي مرافقها في المستقبل، وهذا هو الرأي الذي تغلب بعد نقاش طويل.

من بين الأمور العامة أيضًا عدم تطبيق

حكم قطع اليد في السرقة في عام المجاعة، وهذا لم يعطل الحكم كما يظن البعض، ولكن عمر بن الخطاب فهم هذا الحكم فهمًا صحيحًا في ضوء مصلحة الناس. وعلة حكم قطع اليد الطمع في مال الغير، إذا ما توافرت شروط القطع، وهي أن يكون المال في حرز، وأن يكون لدي السارق حد الكفاية.. إلخ، أما في عام المجاعة فإن أول شروط قطع اليد مثل حد الكفاية أي ما يكفيه هو وأولاده - غير موجود، إذن علة الحكم غير موجودة، إذن لا يطبق الحكم، وهو في هذا لم يعطل حكمًا ولكن طبقه بفهم علته من واقع مصلحة الناس. هذه أمثلة عديدة للاعتماد علي المصلحة المرسلة في فهم علة الحكم الوارد في النصوص.

أيضا هناك أحكام تعدل في ضوء المصلحة تبعًا لتطور المجتمع وتغير ظروفه، وهنا تظهر عبقرية فقهاء المسلمين وفهمهم؛ لأن الأحكام وجدت لرعاية مصالح الناس.

وأضرب لحضراتكم بعض الأمثلة: فمن المسلم به أن الصوم في شهر رمضان لا يثبت إلا بالرؤيا، ورؤية من؟ إما الشخص نفسه، وإما جمع عظيم من الناس، والآن لا يخرج أحد لاستطلاع الهلال، ولن يكتفي بما يراه البعض، اكتفي الفقهاء برؤية شاهدي عدل. وتغير الحكم من ضرورة شهود جمع عظيم من الناس إلي شاهدين اثنين فقط؛ لأن الناس انصرفت عن استطلاع الهلال.

كان الأصل في القضاء في الإسلام جواز أن يقضي بعلمه، ولكن بعدما فسدت الذمم غيروا القاعدة وقالوا بعدم جواز أن يقضي القاضي بعلمه، حماية للقاضي من ألسنة السوء وطمأنينة للمتقاضين، وهو ما يطبق الآن لذات السبب.

ولما كان الأصل أن الزوجة إذا ما قبضت معجل صداقها تلتزم بمتابعة زوجها حيثما ذهب، وهذا حكم شرعي، إلا أنه بعدما فسدت الذمم والأخلاق، وأصبح الرجال يؤذون النساء كثيرًا، سمح الفقهاء للزوجة بعدم جواز مصاحبة زوجها في بلد أجنبي ليس لها فيه أهل أو صديق، رغم أنها قبضت معجل صداقها.

إذن، في كل الأحكام الاجتهادية - أي الأحكام التي لم يرد في شأنها نص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة - أباح الفقهاء تغير الأحكام بتغير الزمان، وبنوا هذا التغير علي ما يحقق مصلحة الناس: إما بجلب نفع، أو بدرء ضرر عام.

فالمصلحة إذن يمكن بمقتضاها الاستثناء من حكم عام، وأن نفهم علة النصوص، ويمكن علي أساس المصلحة أن نجاري التطور الاجتماعي والاقتصادي.

وأخيرًا، يمكن عن طريق المصلحة إنشاء أحكام جديدة لا دليل عليها إلا المصلحة، والأصل في الفقه الإسلامي أن أي حكم يجب أن تردّه إلي دليل، أما الفقه اللاتيني فإنه يسمح بالاستنباط من قاعدة عامة، ولكن في الفقه الإسلامي يتعين أن تقدم دليل كل حكم، هل هو نص في القرآن الكريم، أو حديث شريف، أو إجماع، أو استحسان، أو قياس، أو عرف.. إلخ. هل يجوز أن نبني الحكم علي دليل وحيد، هو المصلحة، في أمر لم يشهد له الشارع بنص لا بالإباحة ولا بالتحريم؟ هل يجوز أن نبني حكمًا جديدًا يجاري تطور المجتمع علي المصلحة وحدها؟ نعم.. وهذا هو ما فعله

المالكية. كل ما لم يرد في شأنه نص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة يعتبر مصلحة ما، أو يلغي مصلحة ما، يستطيع ولي الأمر أن يصدر فيه تشريعًا لمواجهة وضع جديد، والأمثلة لدينا لا تقع تحت حصر.

فبالنسبة لنظام الحكم، ارتضوا نظام الحكم بالخلافة، فهل شكل نظام الحكم يكون برلمانيًا أم رئاسيًا؟ المصلحة هي التي تحكم ذلك، من الممكن أن يكون برلمانيا، ومن الممكن أن يكون رئاسيًا، نظام البيعة هو عبارة عن انتخاب يتم برفع الأيدي، أو من خلال وضع ورقة مكتوبة توضع في صندوق الانتخاب، إن المصلحة هي التي تقرر ذلك، هل تنشأ وزارة الري أو وزارة الأشغال أم ندمج الوزارتين معا وتصبحان وزارة واحدة؟ المصلحة هي التي تقضي بذلك، فترتيب المصالح العامة كلها محكوم بالمصلحة.

وكذلك بالنسبة للعقود، هل توثق أمام موظف مختص في الشهر العقاري أم نتركها لإرادة الطرفين بالكتابة العادية، هذا أيضا متروك للمصلحة العامة فهي التي تقرر ذلك. وفي كل مرافق الدولة يستطيع ولي الأمر أن يشرع فيما يقتضي المصلحة ما دام ليس هناك دليل علي اعتبارها أو عدم اعتبارها، وهنا يطرح العديد من الصور اليوم، توصل الفقهاء القدامي إلي نظام المضاربة كوسيلة لاستثمار المال، فالشخص الذي لديه مال وليست لديه خبرة في استثمار هذا المال، ماذا يفعل بهذا المال؟ إذا أودعه بنكًا بفائدة قالوا له ربًا، وهذا محرم، فماذا يفعل؟ هل يكتنزه؟ إن هذا محرم بحكم الإسلام، ولابد من استثماره، ولكن كيف يستثمره وهو ليست لديه خبرة في هذا المجال. إنه سؤال مهم، يطرح نفسه يوميًا، لقد توصل الفقهاء القدامي إلي صورة من صور استثمار المال وهي المضاربة، أي يضرب في الأرض ويتاجر بهذا المال ويقتسم مع صاحب المال الربح حسبما يتفقان عليه. وقد يكون لأحدهما ٥٠٪ والآخر ٥٠٪ وربما يكون ٦٠٪، ٤٠٪ ويمكن أن يكون ٩٠٪، ١٠٪ أو أقل أو أزيد من هذا، فهذا الأمر متروك لهما. هذه الصورة توصل إليها الفقهاء القدامي لمواجهة كيفية استثمار المال لدي الناس الذين لديهم هذا المال، وليست لديهم خبرة لاستثماره، فهل هذه الصورة تكفي اليوم؟ وإن كانت لا تكفي فهل هناك صور أخري يستطيع أن يتفتق عنها الذهن؟ عندما نفكر في ذلك نجد في الفقه الإسلامي المصلحة والدليل الذي يأتينا بهذا الحكم.

أيضا شهادات الاستثمار، وهي صورة من صور الاستثمار، هل هي حرام أم حلال؟ إن علي ولي الأمر، وعلي الفقهاء ابتداء، أن يبدوا الرأي في كون شهادات الاستثمار هي وسيلة لاستثمار مال الأشخاص الذين يجهلون استثمار الأموال، أهو مثل نظام المضاربة أم لا؟ إن عليهم أن يبدوا الرأي، ولديهم فكرة المصلحة بشرط ألا تعارض نصًا قطعي الثبوت والدلالة - كما قلت - وأيضًا نظام التأمين هل هو فكرة تتفق مع الفكر الإسلامي القائم علي التكافل الاجتماعي، أم هو صورة من صور عقود الغرر؟ هذه صورة لها ما يبررها، ويمكن مناقشة الأمرين هل هو غرر؟ أم هو تطبيق من تطبيقات التكافل الاجتماعي الذي يقوم عليه الإسلام؟ كل هذا يمكن مناقشته، ورائدك في هذا وذاك - مادامت ليست هناك نصوص - هو المصلحة،

وعلي ذلك كل ما جد في المجتمع من تطور اقتصادي واجتماعي نتيجة للثورة الصناعية من ناحية، والثورة التكنولوجية من ناحية أخري يتعين علينا أن ننظر فيه في ضوء المصلحة، ما دامت لا تعارض نصًا قطعي الثبوت والدلالة، والأئمة لهم في ذلك قول مشهور: «حيث تكون المصلحة العامة للمسلمين يكون شرع الله» وهذه قاعدة جوهرية موجودة عند الفقهاء.

النقطة الأخيرة في حديثنا هي عن كيفية الترجيح بين المصالح إذا ما تعارضت، فلقد قلنا إنه من الممكن أن نبني علي المصلحة أحكامًا جديدة تساير التطور الاجتماعي والاقتصادي، إعمالاً لقاعدة «تغير الأحكام بتغير الزمان»، ويمكن بها أن نستثني من الحكم العام، ويمكن بها أن نفهم علة حكم وارد في الكتاب أو السنة، كل ذلك ما دامت لا تناقض نصًا قطعي الثبوت والدلالة.

ما الحكم إذا تعارضت المصالح، وكيف نرجح بينها؟ سواء في ذلك مصلحة معتبرة أو مصلحة مرسلة؟ لقد رسم الفقهاء معيارًا ومازال الفقه الأمريكي حتي اليوم تحت اسم ما يسمي عندهم بالمصلحة الاجتماعية، وهي نظير المصلحة المرسلة عند فقهاء المسلمين، بعد التطور الذي حدث في المجتمع الأمريكي، مازالوا عاجزين عن وضع ضوابط لكيفية الترجيح كما فعل الفقهاء المسلمون.

لقد ظهرت تلك النظرية عند الأمريكان منذ أيام روزفلت، والإصلاح الاجتماعي المتطور الذي أحدثه علي يد القضاء الذي قد يصل إلي نتائج شبيهة بالنتائج التي توصل إليها الفقهاء المسلمون عن طريق المصالح المرسلة، لأن الفقه الأمريكي كما تعلمون مثل الفقه الإسلامي ليس مبنيًا علي تقنين، إنما مبني علي حالات وقضايا معينة.

لقد حسم الفقهاء المسلمون موضوع الترجيح بين المصالح بالطريقة البسيطة الآتية:

يجري الترجيح أولاً حسب المرتبة، أي أن الضروريات إذا ما تعارضت مع الحاجيات فالأولوية للضروريات، وإذا ما تعارضت الحاجيات مع التحسينات، فالأفضلية للحاجيات، وإذا ما تساوت المرتبة، فالعبرة بالنوع داخل المرتبة، ففي الضروريات عندنا الدين أولاً، ثم النفس، ثم النسل، ثم المال. فإذا ما تعارضت مصلحة تتعلق بالمال مع مصلحة تتعلق بالنفس كانت الأولوية للمصلحة التي تحمي النفس، وإذا ما اتحدت المرتبة والنوع يحل التناقض عن طريق ترجيح المصلحة العامة علي المصلحة الخاصة، فإذا ما أتحدت المرتبة والنوع والعموم أو الخصوص يكون الترجيح تطبيقًا للقاعدة الشرعية المشهورة وهي دفع الضرر الأشد بالضرر الأقل، والترجيح حسب المرتبة أو النوع لا يحتاج إلي تفصيل، أما تقديم المصلحة العامة علي المصلحة الخاصة فيحتاج لبعض التفصيل، وهذا هو ما يميز الفكر الإسلامي عن الفكر الرأسمالي الذي يرجح المصلحة الخاصة علي المصلحة العامة، وهوما يميز الفكر الإسلامي عن الفكر الشيوعي الذي يذيب المصلحة الخاصة ولا يعتد بها داخل المصلحة العامة، فالفكر الإسلامي يحترم المصلحة الخاصة ويحميها، ويحترم المصلحة العامة أيضًا ويحميها، ولكن عند التعارض فقط تقدم المصلحة العامة علي المصلحة الخاصة، ولنا في التاريخ أمثلة، عندما نأتي لحق الانتخاب

مثلاً، وهو حق من حقوق القانون العام لصيق بالشخص، تجعله بعض الدول واجبًا، وبعضها تجعله حقًا، فما الحكم إذا تعارض استعمال حق الانتخاب مع المصلحة العامة؟ قد يقال إنه حق انتخاب مقرر للإدلاء برأي لتحقيق مصلحة عامة، ولكننا نأخذ صورة حالة امتناع مواطن عن الإدلاء برأيه، فإذا كان واجبًا سيدفع الغرامة، فإذا لم يكن واجبًا فلن يدفع شيئًا، وهل يتصور هنا حدوث تناقض بين مصلحة الناخب في عدم الذهاب إلي صندوق الانتخاب ودفع غرامة أو عدم دفعها، وبين مصلحة عامة؟ نعم، حدث ذلك حينما اختلف المسلمون علي من يخلف رسول الله ﷺ، وانتهوا إلي أن يتولاها أبوبكر الصديق، وكان سعد بن عبادة، وهو من الأنصار يطمع فيها، فاحتجب في بيته ولم يخرج للبيعة، وظن أن الانتخاب حق شخصي، فماذا فعلوا به، طلبوا إليه أن يخرج ليبدي رأيه، وإلا حرقوا عليه القصر، لماذا لأنه ليس شخصًا عاديًا وعدم خروجه للبيعة سيخلق بلبلة وقسمة في الرأي بين الناس، هنا رجحت كفة المصلحة العامة، وهي ظاهرة علي المصلحة الخاصة في عدم الإدلاء بصوته.

حينما يجري التناقض بين مصلحة تمس الحرية الشخصية والمصلحة العامة، ترجح المصلحة العامة بشرط أن تكون حقيقية وكلية، والمثال عندنا واضح في التاريخ مثل من يطيل شعر ذقنه أو يطيل شعر رأسه فكل هذا كان موجودًا عند العرب مثل نصر بن حجاج، فمن حقك كحرية شخصية أن تربي شعر رأسك أو ذقنك أو تحلقه، فهذا شأنك، ولكن إذا ما وصل هذا السلوك الشخصي من جانب إلي إثارة فتنة في المجتمع ماذا نفعل؟

لقد قام نصر بن حجاج بتربية شعره فافتتنت به النساء، فأتي عمر وأمر بحلق شعره، فازداد نصر جمالاً ووجاهة، وازدادت به النساء فتنة فقام عمر بنفيه. هنا ترجيح بين مصلحة شخصية، ومصلحة عامة لسد الذريعة حتي لا يقع الناس في الفتنة، فالنفي هنا جاء لمصلحة عامة، ولكن قد يقول البعض: إن ما حدث من عمر كان اعتداء علي الحرية الشخصية، أو ما إلي ذلك، إنما هذا يصدق لو استعمل الحاكم هذا السلاح للتنكيل بأعدائه أو لإقامة حكم ديكتاتوري، أما إذا استعمل هذا السلاح للحفاظ علي قيم المجتمع ومقوماته وأخلاقه التي يؤمن بها، فهنا ترجح كفة المصلحة العامة.

والآن بعد أن رأينا مثالاً في حق من حقوق القانون العام، ومثالاً في حق من حقوق القانون الذي يمس الحرية الشخصية للمواطن، نأتي بمثال ثالث في الأموال، فللمال حرمة، وللملكية الخاصة حرمة، ومن حق غير المسلمين علي الحاكم المسلم إذا ما كان دينهم يبيح لهم شرب الخمر أن يمكنهم من ذلك. ما الحكم لو أن الأمر تجاوز حد تمكين غير المسلم من شرب الخمر ليصل إلي فتنة بين المسلمين بتحريضهم علي تعاطي الخمر؟ هنا الترجيح بين مصلحتين متناقضتين: مصلحة عدد محدود في شرب الخمر، ومصلحة عدد كبير في منعهم من شرب الخمر، ومن هنا لم يتردد عمر في هدم «خمارة» في قرية بعد أن ثبت له أن صاحب الخمارة بدأ يغري الناس بشرب الخمر، ترجيح لمصلحة عامة علي مصلحة خاصة بغية الحفاظ علي مقومات المجتمع.

ليس هذا فحسب، ولكن إذا أساء شخص استعمال رخصة له، فلدينا قاعدة شرعية هي أنه

من حق ولي الأمر أن يأمر بالمندوب أو المباح فيجعله واجبًا إن كان في ذلك صلاح للناس، ومن حقه أن يأمر بالمباح فيجعله محرمًا إن كان ذلك يدرأ عن المجتمع ضررًا أو مفسدة، وحتى الفقهاء يبالغون في هذا فيقولون: لو أمر ولي الأمر أن نصوم يومًا بأكمله، فأمره واجب ومطاع.

لقد كان الطلاق بلفظ الثلاث يقع طلقة واحدة، أي يعتبر طلقة واحدة، ولكن الناس أساءوا استعمال هذه الرخصة، فقال عمر: لقد تعجلتم أمرًا كان لكم فيه أناة. ومن الآن فصاعدًا من يستعمل لفظ الطلاق بالثلاث سنعتبرها ثلاث طلقات، وبالتالي لا يسترجع زوجته إلا إذا تزوجت من غيره. وأنفذ هذا الحكم ما دام في ذلك حمل الناس علي الجادة، ليس في ذلك هوي شخصي، وليس في ذلك إقامة نظام ديكتاتوري، ولكن فيه حمل الناس علي الجادة لصالح المجتمع.

إذن، في إطار المصلحة المرسلة نستطيع -طبقًا للمعايير التي ذكرتها- أن نرجح بين المصالح، أي نلجأ إلي المصلحة في إصدار تشريعات تواكب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، فإذا ما كان هناك تقاعس في هذه الناحية فالعيب ليس في الشريعة ولكن العيب فينا نحن، إذ يتعين علينا أن نعمل العقل والنظر، كما فعل الفقهاء الأوائل لكي نجعل الشريعة مسايرة لظروف المجتمع، وهذا هو المعني الذي قصده الفقهاء بقولهم: «إن الشريعة صالحة لكل زمان»؛ لأن فيها من الوسائل ما يجعلها قادرة علي مواجهة كل تطورات المجتمع.

إننا لا نلجأ إلي المصالح المرسلة إلا إذا لم نجد نصًا في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع. إن لدينا مصادر وأدلة رئيسية، كالكتاب وهو القرآن، والسنة المتواترة، والإجماع، ولا نلجأ إلي القياس إلا إذا كان هناك حكم في هذه الأدلة الثلاثة. فالقياس إما علي حكم في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع، فإذا لم يوجد حكم، هل أستطيع أن ألجأ إلي المصلحة المرسلة؟ نعم ألجأ إليها إذا لم يكن هناك حكم.

وألجأ إليها في فهم الحكم. أو ألجأ إليها في الاستثناء من حكم عام، فالقياس يكون علي نص ورد في الكتاب أو السنة أو الإجماع فقط.

ولقد سمي القياس دليلاً وهذا صحيح، ولكنه وسيلة عقلية، وأود أن أقول: إنه عند التعارض بين القياس والعرف يرجح العرف، كما قال الحنفية، لأن العرف دليل الحاجة، وهو بمنزلة الإجماع شرعًا، أما القياس فمبني علي علة عقلية مستنبطة قد تختلف فيها وجهات النظر. ومن بين وسائل الأخذ بالمصلحة رعاية العرف، أما شروط الأخذ بالمصلحة فهي: أن تكون مصلحة حقيقية، كلية، لا تناقض نصًا قطعي الثبوت والدلالة، ولا تخرج علي أصل إسلامي.

ولقد شرع الحنفية بالمصلحة علي سبيل الاستثناء من المبادئ العامة، وأسموها استحسانًا.

وشرع المالكية بالمصلحة علي سبيل الاستثناء مثل الاستحسان عند الحنفية، وشرعوا بالمصلحة لسد حاجة المجتمع، إما رعاية لعرف، وإما نتيجة لتغير ظروف المجتمع.

«يتبع»

الإسلام... والعلاقات





الدكتور محمد عبدالله دراز

هل جاء الإسلام ليكون دينًا محليًا، يستوعب جزيرة العرب.. وما حولها؟ وهل جاء ليدعو إلى إيجاد أمة إسلامية تتعصب لدينها وجنسها؟

أولاً- لم يجئ الإسلام ليكون دين الجزيرة العربية، لأنه بدأ يخاطب الناس جميعًا: وأعلن أن رسالته إلى العالم كافة.

وثانيًا- لو جاء ليكون أمة إسلامية وسطا، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لما كان فى ذلك شيء.. وإنما الحقيقة التى يجب أن توضح لكل ذى عينين، هى أن الإسلام وإن كان قد جاء لتأليف أمة إسلامية ناهضة - إلا أنه قد دعا إلى أخوة عالمية تقوم على أساس من التعارف:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات:١٣)

ودعا إلى العلاقات العامة على أسس من الحب والبر والعدل:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة:٨)

وقد نشد الإسلام السلام العالمي. ليكون دعامة فى العلاقات الدولية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾

(البقرة:٢٠٨).

والإسلام عنى بكرامة الفرد، الذى هو لبنة فى البناء الإنسانى، وذلك ليكون عضوًا مؤسسًا فى العلاقات العامة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

(الإسراء:٧٠).

إن هدف الإسلام من إيجاد أمة إسلامية، إنما لتكون أمة وسطا، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وذلك لتؤدى مهمة نبيلة إنسانية من أجل السلام العالمي، والأمن الدولي.

ولا ريب فى أن أمة - هذا هدفها، وهذه رسالتها - لا بد أن تدعم بناء العلاقات العالمية وتعمل على صيانتها، ضد عواصف الشر، وملاحم الفتن.

إن فى قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(الأنبياء:١٠٧).

معنى إنسانيا وافيا، لا يدع مجالاً لذرة من الريب، فى أن الإسلام إنما جاء ليمنح البشرية: الأخوة .. والحب .. والسلام ..

الإسلام وكرامة الفرد

الفرد هو اللبنة فى بناء المجموع، وهو عضو مؤسس فى العلاقات العامة. فهل عرف الفرد الإنسانى ماله فى دستور الإسلام. من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التى يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية، ليست كرامة مفردة ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هى عصمة وحماية، وكرامة هى عزة وسيادة، وكرامة هى استحقاق وجدارة..

كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته:

﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

(الإسراء:٧٠).

وكرامة تتغذى من عقيدته

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(المنافقون:٨).

وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته:

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴾

(الأنعام: ١٣٢).

﴿ وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ﴾

(هود:٣).

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأقدمها وأدومها، تلك الكرامة الأولى، التى ينالها الفرد منذ ولادته بل منذ تكوينه جنينًا فى بطن أمه .. كرامة لم يؤد لها ثمنًا ماديًا ولا معنويًا ولكنها منحة السماء التى منحته فطرته، والتى جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين فى شريعة الإسلام.

ما حقيقة تلك الكرامة؟

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة. هى ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرًا أو أنثي، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًا، فقيرًا أو غنيًا من أى ملة أو نحلة فرضت .. ظل ظليل، ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدل، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه قسرًا، وحريته أن تعطل خداعًا ومكرًا..

كل إنسان له فى الإسلام قدسية الإنسان، إنه فى حمى محمي، وفى حرم محرم .. ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبًا من تلك الحصانة، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها؛ لأن جنايته ستقدر بقدرها، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها؟ فإن نزعت عنه الحجاب الذى مزقه هو، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى.

بهذه الكرامة يحمى الإسلام أعداءه كما يحمى أبناءه وأولياءه إنه يحمى أعداءه فى حياتهم. ويحميهم بعد موتهم، يحميهم فى حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان .. ويحميهم فى ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال. ثم يحميهم بعد موتهم. إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل .. ولم لا؟ أليسوا أناسي؟ فلهم إذن كرامة الإنسان..

هذه الكرامة التى كرم الله بها الإنسانية فى كل فرد من أفرادها، هى الأساس الذى تقوم عليها العلاقات بين بنى آدم .. هذه الكرامة التى جعلها الإسلام درعًا واقيًا يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين، هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر. والشعور الحاد القوى شيء ثالث .. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابها وتوضح لهم معالمه .. ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته فى نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به .. فهل صنع الإسلام شيئًا لكى يغرس فى نفوس الأفراد ويوقد ناره فى قلوبهم؟.

نعم .. إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظريًا فى هذه الحصانة الإنسانية، ولكنه أخذ يهيب به أن يدافع عن هذا الحق، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحى بنفسه فى سبيله.

ألا فلنسمع صوت نبى الإسلام عليه السلام:

«من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد»(١)

هل سمعت أقوى من هذا إلهابًا وتحريضًا؟

بل لنستمع إلى كتاب الإسلام حين ينعى على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعًا فى السلام، ورضاهم الهوان خوفًا من فراق الأوطان.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

(النساء:٩٧).

هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا؟..

إن الكرامة الإنسانية هى قبل كل شيء سياج من الحرمة والعصمة والصيانة تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعوا حقًا من حقوقه أو ينتهكوا حرمة من حرماته.. ذلك هو جانبها السلمى الخارجى الدفاعي، أما حقيقتها الإيجابية الانبعاثية، فإنها تاج من الشرف والنبل يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم، نظرة يعرف بها أن مكانته فى هذا العالم مكانة السيد لا المسود. لا أعنى سيادة الإنسان على الإنسان، فالناس فى نظر الإسلام كلهم سيد فى نفسه، لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه.

وإنما هى من جهة سيادة عالمية يسيطر بها المرء على مختلف الأشياء فى البر والبحر والهواء، ألم يسخر لكم ما فى السماوات

١- حديث الترمذي: ديات ٢١.

وما فى الأرض جميعًا، ولم يسخره هو لشيء منها؟ ثم هى من جهة أخرى سيادة ذاتية لكل فرد فيما بينه وبين الناس، سيادة تسوى رأسه برءوسهم ومنكبه بمناكبهم، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الإنسانية .. كرامة الحرية والعزة التى تأبى بصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يذل لمخلوق غيره كائنًا من كان .

هذه المرتبة من الكرامة هى كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان، غير أنه لا يشعر بها على تمامها، ولا يقدر حق قدرها إلا المؤمن الموحد الذى لا يعرف السجود لحجر، ولا لشجر ولا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإيمان إلى كرامة الإنسان.

وأخيرًا ترتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة، لتلتقى بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ويكتسبها اكتسابًا، بما يخطه لنفسه من نهج حميد، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مستوحيًا مواهبه الإنسانية العليا، مسيطرًا على قواه وغرائزه الدنيا، مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خدع شيطانه وهواه، تلك هى كرامة العمل الصالح المصلح، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص فى العمل.

هذا الرق:

قد يقول قائل: «إذا كان الإسلام قد كرم الفرد، وهو لبنة فى بناء البشرية، فما لنا نراه لم يبت فى إلغاء الرق؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار.

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟ وهل كانت حملتنا الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان، وإن الاستعباد تبديل للفطرة، فكيف يكون من نظم الإسلام الذى هو دين الفطرة.

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام، قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشأوا الرق أبيضه وأسوده وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب.

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع.. ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام.

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب. فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على

مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدًا لولى الدم، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكًا لدائنه. وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقًا لرب المال. ومصداقه فى قصة يوسف:

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

(يوسف: ٧٥)

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية، محمد خاتم النبيين، وقدوة المصلحين.

فماذا صنع محمد حين جاء بالإسلام؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها .. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر وثورته على الربا، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة. والرذائل الموروثة المتمكنة.

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة..

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة، نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردًا وسلامًا .. ريثما يتيسر لهم الخروج منها.

وسأفسر لك ذلك:

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقى الذى وقف به سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين. ذلك هو القانون الذى منع به استرقاق الأحرار وأمنهم منه، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب .. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل، لم يعد شيء من ذلك كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مبررًا لاستعباد الإنسان. ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء.

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر؛ ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها.

أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد، إلا أنه قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذًا صغيرًا لم يغلقه، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام (٢).

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين فى هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث إما بإطلاق سراحهم، وإما باسترقاقهم - ولو كانوا أحرارا، وإما بقتلهم؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية. فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثرًا لقتل الأسير ولا استرقاقه وإنما نجد له فيه مصيرًا واحدًا كريمًا، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

(محمد: ٤)

كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الرحيم لا نجد فيها أنه أذن قط بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفًا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين. وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة مجرمى الحرب..

بقى الاسترقاق، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد إدراجًا له فى زمرة الأحياء.. بعد أن كان محسوبًا فى عداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يومًا إلى استرقاق الأسير، فإنما يكون ذلك منه نزولا على حكم الضرورة، اتقاء لخطره وكسرًا لشوكته وشوكة قومه على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي، وإنما يأخذه إجراء مؤقتًا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه، ويلح فى المطالبة بتحقيقه.. ألا وهو التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثانى من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية.

● ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب.. فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

(البلد: ١١ - ١٣).

«من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار» (٣).

● ومفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة، إذ جعل فيها سهمًا مقررًا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾

(التوبة: ٦٠)

● ومفتاح ثالث: هو مفتاح قانون الكفارات، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان، والقتل الخطأ، وغير ذلك، ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه. وفى ذلك يقول رسول الرحمة:

«من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه» (٤)

هذا جزاء اللطمة أو الضربة، أما الجرح أو تشويه الجسم، فإن حكمه عند أكثر الأئمة أنه يصير العبد حرًا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرًا عنه. وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك، وهكذا يقودنا الحديث إلى الشطر الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم.

لقد رأينا أبوابًا فتحت أمام الحرية، ورأينا أبوابًا أغلقت دون الرق. بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية المطلق، فهل صنع الإسلام شيئًا لهذه الفئة فى فترة الانتظار؟؟

نعم لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين:

«إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم» (٥)

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

١- منع لإنشائه وابتدائه.

٢- عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣- عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته.

فهل من منصف يقولها معي:

أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام..!

٢- وتكون الحرب فى الإسلام مشروعة كذلك لتحطيم الطاغوت وإقامة شرع الله في الأرض لا لإكراه الناس على الإسلام قال الله تعالى ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ (التوبة ١٢) وقال سبحانه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦).

٣- متفق عليه

٤- مسلم إيمان ٢٩، ٣٠

٥- البخاري: إيمان ٢٢

ربيع الآخر ١٤٣٤ هـ
فبراير - مارس ٢٠١٣م

أصلح نظام لتسيير العالم الإنسانى اليوم هو الإسلام (*)



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

قد يبدو هذا العنوان مدهشًا وغريبًا ومثيرا، لتأثرات مختلفة، فى كثير من النفوس المختلفة، ولشىء من السخرية فى النفوس الساخرة.

أما الدهشة فإن صاحبها معذور مهما كان، وأما الغرابة فكل وارد جديد على السمع أو على الذهن يستغرب، ولكنه إذا تكرر وكثر ترداده أصبح مأنوسًا، وأما السخرية فلا تأتى هنا إلا من رجلين: رجل انطوت نفسه على بغض للإسلام وحقد على بنيه، واحتقار لتعاليمه، ورجل لم يفهم الإسلام إلا من حالة المسلمين اليوم، ولم يعلم أن بين حقائق الإسلام وبين حالة المسلمين اليوم بعد المشرقين، والذى فى العنوان إنما هو الإسلام لا المسلمون.

العناوين لا ذنب لها لأنها دوال على ما وراءها، فاسمعوا ما وراء هذا العنوان، ثم ليندهش المندهشون إن لم يقتنعوا، وليسخر الساخرون إن شاءوا.

• تولى الإسلام فى أول مراحله قيادة العالم الإنسانى العامر للأقاليم المعتدلة، فقاده إلى السعادة والخير بأصلين من أصوله وهما القوة والرحمة، وبوسيلتين من وسائله فى القيادة وهما العدل والإحسان، وبأحكامه المحققة لحكمة الله فى عمارة هذا الكون.

والقوة والرحمة صفتان موجودتان فى كل زمان، ولكنهما متنابذتان لم تجتمعا قط فى ماضٍ ولا حاضر، حتى جاء الإسلام فجمع بينهما وزاوج، وخلط بينهما ومازج، فجاء منهما ما يجيء من التقاء السالب بالموجب فى عالم الكهرباء: حرارةٌ وضوءٌ وحركة.

(*) كلمة كتبت بباكستان، مايو ١٩٥٢، ولم نعثر على الصفحة السابعة من مجموع ثمان صفحات.

وما زال معروفًا عند العقلاء، قريبًا من مدارك البسطاء، أن القوة وحدها لا خير فيها؛ لأنها جبرية واستعلاء، وأن الرحمة وحدها لا خير فيها؛ لأنها ضعف وهوينا، وأن الخير كل الخير فى اجتماعهما، ولكن الجمع بينهما ليس من مقدور الإنسان المسخر للأهواء والعوائد، المنساق للأمانى والمطامع، المنجذب إلى مركز الأنانية، فلا تجمع بينهما على وجه نافع إلا قوة سماوية تتجلى فى نبوة ووحى وخلافة راشدة واتباع صادق مشتق من هذه.

ومن حكمة الإسلام العليا أنه وضع الموازين القسط للمتضادات فإذا هى متآلفة، والمتنافرات إذا تآلفت صلح عليها الكون؛ لأنها سر الكون وملاكه، فوضع الحدود لهذه المتنافرات، وأعطى كل واحدة حقها، ووجهها إلى الخير فى مدارها الطبيعي، فإذا هى أشياء فى الاسم والذات والوظيفة، ولكنها شيء واحد فى الغاية والفائدة والأثر، وكلها خير ونفع وصلاح وجمال.

وضع الحدود بين المرأة والرجل فائتلفا، وأطفأ بالعدل والإحسان نار الخلاف بينهما، والخلاف بينهما هو أصل شقاء البشرية، ولا يتم إصلاح فى المجتمع ما دام الخلاف قائمًا بين الجنسين، وما زالت الجمعيات البشرية من الرجال مختلفة النظر إلى المرأة، فبعضهم يرفعها إلى أعلى من مكانها فيسقطها ويسقط معها، ويعطيها أكثر من حقها ومن مقتضيات طبيعتها فيفسدها ويفسد بها المجتمع، وبعضهم يحطها عن منزلتها الإنسانية فيعدها إما بهيمة وإما شيطانًا، حتى جاء الإسلام فأقرها فى وضعها الطبيعي وأنصفها من الفريقين.

كذلك وضع الحدود بين الآباء والأبناء، وكم أزاغت الشرائع والقوانين الوضعية هذه القضية عن الاعتدال إلى طرفى الإفراط والتفريط.

كذلك وضع الحدود للسادة والعبيد، وللحاكمين والمحكومين، وللأغنياء والفقراء، وللجار وجاره، وللإنسان والحيوان، وللروح والجسم، فألف بين السادة والعبيد بقانون الرفق، والترغيب المتناهى فى العتق، وألف بين الحاكمين والمحكومين بقانون العدل والمساواة، وبين الأغنياء والفقراء بنظام الزكاة والإحسان، وبين الجيران بوجوب الارتفاق والحماية، حتى اعتبر الجيرة لحمة كلحمة النسب أو أشد، ومحا من المجتمع نظام الطبقات والأجناس والعناصر، فلا فضل لعربى على عجمي إلا بالتقوى، ولا عزة للكاثر، ولا تعظم بالآباء، ولا عصبية بالقبيلة، ولا تفاضل بالجاه والمال، وجعل لليتيم حرمة تدفع عنه غضاضة اليتم، ولابن السبيل حقًا يحفظه من الضياع وفساد الأخلاق، وللغريب حقًا ينسيه وحشة الاغتراب، وجعل ميزان التفاضل روحيًا لا ماديًا، فالغنى أخو الفقير بالإسلام، وليس الغنى أخًا للغنى بالمال، وقرر للحيوان الأعجم حق الرفق والتربيب، وحماه من الإعنات والتعذيب، وأشركه مع الإنسان فى الرحمة، ففى كل ذات كبد حرى أجرٌ، وحل مشكلة الروح والجسم، وعدل ما كان يتخبط فيه فلاسفة الأمم من أن العناية بأحدهما مضيعة للآخر، فوفق بين مطالب الروح والجسم، وحدد لكل غذاءه وقوامه، فإذا هما متآلفان متعاونان على الخير والنفع.

• ساس الإسلام الأرض بقانون السماء، فأشاع إشراقه فى غسقها، وأدخل نسقه فى الإحكام على نسقها، وقيد الحيوانية العارمة فى الإنسان بقيود الأوامر والنواهى الإلهية التى لا خيار معها ولا مراجعة فيها، وبذلك نقل الأمم التى دانت به من حال إلى حال، نقلها من الفوضى إلى النظام، ومن التنابذ إلى التآخى، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاضطراب إلى الاستقرار، ومن نزعات نفسية متباينة إلى نزعة واحدة أقرها فيهم ثم أقرها فى الأرض بهم، ونقل الأمم المتبدية إلى حال وسط من الحضارة

المتانية المقتصدة، ونقل الأمم المتحضرة إلى حال من الحضارة العقلية تأخذ بالحجة، وتمنع من التضخم والتهافت.

ونقل الأمم المؤلهة للملوك والكبراء إلى حال من عرفان القدر وفهم الكرامة، جعلتهم هم الملوك.

● قاد الإسلام أهله بقانونه السماوي الشامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر من حرب وسلم، وخوف وأمن، وسياسة وإدارة، وقضاء في الأموال والدماء والجنايات، وفي بناء الأسرة.

قاد بهذا القانون أعقل سكان الأرض إذ ذاك في أعمر بقاعها، فما شكا أحد ظلمًا ولا هضمًا، فإن وقع شيء من ذلك فهو من حاكم حاد عن صراطه، أو شخص أخل بأشراطه، وقد أخذت الأمم الخارجة منه كثيرا من قوانينه العادلة في فترات احتكاكهم بالمسلمين محاربين أو معاهدين في الشام والأندلس وإفريقية، كما أخذوا كثيرا من العادات الصالحة في تدبير المعاش وفي الحياة المنزلية، وما زال كثير من تلك الأصول بارز العين أو ظاهر الأثر في المدنية الحالية.

● جاء الإسلام أول ما جاء بإصلاح الأسرة وبنائها على الحب والبر والطاعة: الحب المتبادل بين أفراد الأسرة، والبر من الأبناء للآباء، والطاعة في المعروف من الزوجة للزوج، وحاط ذلك كله بأحكام واجبة وتربية تكفل تلك الأحكام، وتجعل تنفيذها صادرًا من نفس الإنسان، والرقابة عليها من ضميره، فلا تحتاج إلى وازع خارجي، وجعل تقوى الله والخوف منه حارسين على النفس والضمير، فكلما هم الإنسان بالزيغ تنبّها فيه فنبّهاه إلى لزوم الجادة.

وإن يقظة الضمير الذي سماه النبي عليه الصلاة والسلام وازع الله في نفس المؤمن، ومراقبته لأعمال صاحبه لهي أعلى وأسمى ما جاء به الإسلام من أصول التربية النفسية، وهي أقرب طريق لتعطيل غرائز الشر في الإنسان، وفرق عظيم بين من يمنعه من السرقة مثلا خوف الله، وبين من لا يمنعه منها إلا خوف القانون: فالأول يعتقد أنه بعين من الله تراقبه من السر والعلن، فهو لا يسرق في السر ولا في العلن، والثاني لا يمنعه من السرقة إلا قانون يؤاخذ على الذنب بعد قيام البينات عليه، وفي قدرة الإنسان أن يتحاشى كل أسباب المؤاخذة الظاهرة، فإذا أمن ذلك قارف الشر مقدمًا غير محجم، فالخوف من الله يجتث السرقة وجميع الشرور من النفس حتى لا تخطر على بال المؤمن الصادق، وبذلك يأمن الناس على أعراضهم ودمائهم وأموالهم، أما الخوف من القانون فربما زاد الناس ضراوة بالشر بما يتفننون فيه من الحيل التي تجعلهم في مأمن من مؤاخذة القانون، فكأن هذه القوانين الأرضية تقول للناس: لا سبيل لي عليكم ما دمتم مستترين مني، غائبين عن عيني، ولذلك فهي لا تمنع الفساد في الأرض بل تزيده تمكنًا فيها، وانتشار الشرور في هذا العصر أصدق شاهد على ذلك.

● نقول ونعيد القول بأن أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني هو الإسلام، ولا نلتفت لسخر الساخر، ولا نأبه لدهشة المندهش، ونأتي بالحجة على لون آخر، وهو أن الإسلام عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وكل هذه الأجزاء رامية إلى غرض واحد، وهو إصلاح نفس الفرد الذي هو أصل لإصلاح النفسية الاجتماعية، فعقائد الإسلام مبنية على التوحيد، والتوحيد أقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد، وأدعى لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه، والعقل إذا اطمأن من هذه الجهة انصرف إلى أداء وظيفته مجموعا غير مشتت.

والعبادات غذاء وتنمية لذلك التوحيد وعون على تزكية النفس وتصفيتها من الكدورات

الحيوانية، والأحكام- ومنها الحدود- ضمان للحقوق، وحسم للشرور، وزجر للثاني أن يتبع الأول، ومن تأمل القواعد التي بنيت عليها أحكام المعاملات في الإسلام علم ما علمناه، وهي: لا ضرر ولا ضرار، الضرورات تبيح المحظورات، ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، الحدود زواجر وجوابر، القصاص حياة.

والآداب تزرع المحبة بين الناس، وترقق العواطف، فتقوى عاطفة الخير والتسامح والإيثار والكرم والشجاعة والصبر، وتضعف عاطفة الشر والتشدد والأثرة والبخل والجبن والجزع.

● العالم اليوم في احتراب وحبله في اضطراب، وقد ملكت عليه المادة أمره، وقد جفت الروحانية فيه فضؤلت، فلم يبق لها سلطانها الآمر الناهي، وانطمست فيه البصائر الهادية فهو يتخبط في ظلمات، وتجسمت المطامع الشوهاء فتولت القيادة، وقد جر على نفسه في ثلاثة عقود من السنين حربين عاتيتين أهلكتا الحرث والنسل وهو يتحفز للثالثة، وقد كان قبل اليوم إذا اختلف اثنان وجد بينهما ثالث يدعو إلى الإصلاح أو ينتصر للمظلوم، فما زالت به المطامع وفشو الإلحاد، وشيوع الفلسفة المادية، والاغترار بالعقل، حتى أصبح مقسما إلى كتلتين قويتين عظيمتين متضادتين، تدور كل واحدة منهما على مبدأ اتخذته دينًا ودعت الناس إليه، فانضم كل ضعيف إلى واحدة مكرهًا كطائع، وكلا المبدأين لا رحمة فيه ولا خير، وكلاهما ينطوي على شرور، وكلاهما يعتمد على الظفر والناب (١)...

...ذلك فيهم نشروا أحكامه وتعاليمه حتى نعم العالم، ويومئذ يشهدون انقلابًا فكريًا يقضي على هذا الجنون الذي ابتلي به العالم.

والإسلام دين اقتناع، فلا أقول إنه يجب على العالم أن يصبح مسلمًا كاملًا يصلي ويصوم وإنما أقول: إن دواءه مما هو فيه هو الإسلام، فليأخذ أو فليدع.

● لا يضير الإسلام في حقائقه ومثله العليا إن لم ينتفع به أهله في تحسين حالهم، فما ذلك من طبيعته ولا من آثاره فيهم، وإنما ذلك نتيجة بعدهم عن هدايته، وهو كدين سماوي محفوظ الأصول يهدي كل من استهداه، وينفع كل مستعد للانتفاع به، ولو أن أمة وثنية اعتنقته فأخذته بقوة فأقامته على حقيقته- من العقائد إلى الآداب- لسادت به هذه المئات من الملايين من أهله الأقدمين الذين أضاعوا روحه ولبابه، وأخذوا برسومه والنسبة إليه، ولم يزحزحها عن السيادة أنها جديدة في الإسلام، كما لا ينفع تلك المئات من الملايين أنها عريقة في الإسلام.

ولا حجة علينا ببعض الشعوب الإسلامية التي استبدلت القوانين الأوروبية بأحكام القرآن، لأن تلك الشعوب ما فعلت ذلك إلا بعد أن لم يبق فيها من الإسلام إلا اسمه، ومن لم ينتفع بقديمه لم ينتفع بجديد الناس، وأحوال تلك الشعوب المستبدلة شاهدة عليها، فهي لم تزدد بهذا الاستبدال إلا شقاء وبلاء.

● وبعد، فلو أن علماء الإسلام أحسنوا الدعاية إلى دينهم، وعرفوا كيف يغزون بحقائقه الأذهان، لكان الإسلام اليوم هو الفيصل في المشكلة الكبرى التي قسمت العالم إلى فريقين يختصمون، ولكانوا هم الحكم فيها، ولكنهم غائبون، فلا عجب إذا لم يشاوروا حاضرين، ولم ينتظروا غائبين.

(١) هنا تنتهي الصفحة السادسة من المخطوط، والصفحة السابعة مفقودة.

ربيع الآخر ١٤٣٤هـ
فبراير/ مارس ٢٠١٣م

الواقع المعاصر للعلاقات الدولية



أ. د/ محمد سليم العوا

وأما العلاقات بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول، فإن الفقه الإسلامي التقليدي كان يقسم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب، أو إلى ثلاثة دور - عند بعض الفقهاء - بإضافة دار العهد إلى داري الإسلام والحرب.

وقد استثار هذا التقسيم الفقهي حمية الباحثين الغيورين حتى كتب أحد كرامهم يقول: «إن الرؤية الفقهية القديمة للعالم قاصرة عن الإحاطة بتعدديته وغناه، أما الإحيائية المعاصرة «أي الصحوة الإسلامية» فإنها معادية له؛ ولذلك تعجز عن فهمه والتعامل على أساس ذلك الفهم»[1].

والواقع أن بعض الدعاة يرددون - بلا تبصر - المفاهيم الفقهية التي تصادفهم في كتب أسلافنا العظماء دون أن يتبينوا أن لهذه المفاهيم أصولاً تاريخية ينبغي الرجوع إليها، وظروفًا موضوعية سببت نشأتها، وسوغت وجودها، وأدت في ظلها وظيفتها.

وهؤلاء يغفلون غالبًا عن حقيقة علمية مؤداها أن الاجتهاد النظري في مثل هذه المسائل يتبع الحاجة العملية أكثر مما يتبع الدليل النقلي، وأنه لذلك متغير بتغير الظروف والأوضاع، ولا يؤدي التمسك بقول قديم فيه - لم يعد مناسبًا للظرف الجديد - إلا إلى إهدار المصالح وتضييعها، خلافًا لما هو واجب على المجتهد وعلى الأمة من جلبها والمحافظة عليها.

ومن هذه المفاهيم مفهوم تقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب، وهو مفهوم يقوم على تميز المسلمين وتحيزهم في أراضيهم، الذي يقابله تميز

(1) الأخ العزيز الدكتور رضوان السيد، ظهور الدولة الإسلامية وزوالها، محاضرة ألقاها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة يوم ٣٠/١١/١٩٩٧م، ص١٢ - ١٣.

غير المسلمين وتحيزهم - هم الآخرون - في أراضيهم، وعلى أن العلاقة بين الموضعين ليست إلا علاقة عداء مستحكم وحرب مستمرة؛ حتى سميت دار غير المسلمين بدار الحرب.

وقد نشأ هذا المفهوم في الفقه الإسلامي لمقابلة مفهوم آخر لتقسيم العالم، وهو المفهوم الروماني الذي كان يقسم العالم إلى ثلاثة أقسام: العالم الروماني، والعالم اللاتيني وعالم الآخرين؛ فأما الرومان فهم سادة الدنيا، وأما اللاتين فأبناء عمومتهم، وأم الآخرون فعبيد الرومان واللاتين، تستباح في سبيل السيطرة عليهم حرمات الإنسان والمال والزمان والمكان جميعًا، وهو تقسيم عرقي عنصري يقوم على وهم التميز الجنسي، ويؤدي إلى ارتكاب أشد الأعمال إجرامًا ووحشية ضد غير الرومان واللاتين.

فصاغ الفقهاء المسلمون في مقابلته مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، وهو مفهوم يستمد من حقيقتين: العقيدة، والظرف الواقعي، وتترتب عليه أحكام فقهية ليس بينها حكم واحد يجيز العدوان أو يبيح - بغير سبب - ما حرّمته نصوص الشريعة.

وهو تقسيم لا يعلي من شأن عنصر أو جنس على حساب سائر العناصر والأجناس؛ لأن الذين صاغوه وطوروه كان نصب أعينهم قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكان حاديهم قول رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[2].

وقد أدى هذا المفهوم الإسلامي دوره في العصر الذي تكوّن فيه، وفي مراحل تاريخية لاحقة أداءً يدركه المطلعون على مدونات الفقه الإسلامي وكتب القانون الدولي والعلاقات الدولية في الإسلام، وهي الكتب التي تعرف باسم «كتب السير»، ولكنه في بدايته واستمرار تطوره كان مفهومًا فقهيًا اجتهاديًا، ولم يكن مفهومًا مستمدًا من نص قرآني أو نبوي، أو مبنيًا عليهما، وكان مبنى الاجتهاد الفقهي فيه تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، وهو مقصد من مقاصد الشرع باتفاق الفقهاء.

ولم يكن ناشئًا - كما فهم بعض الباحثين - عن «قصور الرؤية الفقهية عن الإحاطة بتعدد العالم وغناه»، بل كان ناشئًا عن إدراك لفساد التمييز العنصري العرقي بين الناس، وعن إدراك لصحة التمييز بالعقيدة

(2) الحديث ورد في مسند أحمد، عن أبي نضرة.

وما يترتب عليها فى العمل والسلوك من التقوى.

ولم يكن اجتهادًا مبتدأ، بل كان رد فعل لموقف البيزنطيين الذين واجههم المسلمون وواجهوا فكرهم فى ثغور الشام.

وإذا كان التنظيم الدولى الحديث قد أحال العالم كله إلى مثل ما كان يسميه الفقهاء «دار العهد» فهل يجوز للفقيه أن يستبقى التقسيم الثنائى أو الثلاثى وما يترتب عليه عند الفقهاء من أحكام؟!

إننى أرى أن الاجتهاد القديم القائل بمثل ذلك التقسيم قد انقضى زمنه، وأن الفقه المعاصر يجب أن يتوجه صوب واقع العلاقات الدولية المعاصرة، ويجتهد فى بيان الجائز فيها والممنوع، مما يحقق المصلحة أو يهدرها، على نحو ما فعل الفقهاء فى عصور المواجهة الأولى بين الإسلام وبين العالم القديم.

وليس لهذا الرأى أثر فى مسألة استمرار الجهاد ووجوب إقامته إلى يوم القيامة؛ فإن موضع الجهاد وموضوعه غير موضع العلاقات السلمية وموضوعها، ولكل منهما أحكامه الشرعية، ونصوصه الحاكمة لأصوله فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم يكن شئ من ذلك سندًا للاجتهاد فى مسألة تقسيم العالم إلى دارين أو ثلاثة، وإنما كان مبنى ذلك الاجتهاد هو المصلحة وحدها.

ولذلك نقول: إن واجب فقه العصر أن ييمم وجهه شطر تلك العلة نفسها: المصلحة الراجحة للمسلمين، ويقيم بناء اجتهاده فى العلاقات الدولية على أساسها، ولا يجوز أن يبقى الفقه المعاصر أسيرًا لاجتهاد قديم لم يعد محققًا للغاية التى استهدفها أصحابه، ولم تعد الأسباب التى سوغته قائمة.

وفى تقديرنا أن العالم الآن دار واحدة هى دار عهد وموادعة، وأن أحكام الإسلام تنطبق على المسلمين أينما كانوا، سواء أكانوا فى دار يغلب الإسلام على أهلها أم كانوا أقلية أو أفرادًا فى دار غالبية أهلها غير مسلمين.

ولا يجوز لأحد أن يقبل، أو يعمل، بالفتوى التى تذهب إلى انحسار بعض أحكام الإسلام العملية عن الأفراد، ما داموا يعيشون فى دار لا يغلب عليها الإسلام؛ لأن هذا القول هدم للدين كله بتسويغ إهمال بعضه، وقد عاب الله تعالى فى محكم كتابه على اليهود أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. ولا يجوز لأحد أن يستحل أموال غير المسلمين فى دارهم بزعم أنها دار حرب، ومن كان هذا رأيه فلا يحل له العيش فيها؛ لأن ما أدى إلى الحرام حرام، والمسلم مسئول عن الوفاء بعهده، وقد دخل تلك الدار مشترطا عليه

ألا يخالف قوانينها ونظمها، فإما أن يعمل بعهده ويفى به وإما أن يغادرها، وليس له أن يحل فيها الحرام أو يحرم الحلال.

وقد رأيت فى بعض بلاد المغرب شبابًا من المسلمين يستبيحون أن يحتالوا لاستخدام وسائل المواصلات العامة، ووسائل الاتصال من هواتف وغيرها، ومواقف السيارات ذات الأجر، وأمثالها من الخدمات دون أن يدفعوا مقابلا لذلك كله.

بل علمت أن بعض اللاجئين إلى بعض تلك البلاد - بزعم أنهم مضطهدون سياسيًا فى بلاد الإسلام التى جاءوا منها - يتخذون عناوين عدة، ويسجلون أنفسهم لدى السلطات المحلية التى يتبع كلا منها عنوان من تلك العناوين ويحصلون على المعونات المخصصة للاجئين مرات عدة، مستغلين فى ذلك تصديق تلك السلطات لكل من يتقدم إليها باعتباره لاجئًا سياسيًا.

وهذا كله وأضرابه من أكل المال بالباطل المنهى عنه شرعًا، ولا يحله شيء، وفاعله آثم إثما صريحًا لا تأويل له.

والزعم بأن هذا وأمثاله مما يبيحه كون الدار التى يقيمون فيها دار حرب زعم ظاهر الفساد لا تقوم به حجة عند الله ولا عند الناس.

وإذا كان العدول عن تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب هو مقتضى اجتهاد جديد؛ فإن تحريم هذه الأفعال الشنيعة إعمال مباشر للنصوص الصريحة الناهية عن كسب المال من حرام، والآمرة بأن يكون الكسب من حلال طيب والإنفاق كذلك.

فإذا انتقلت العلاقة بين الدولة الإسلامية والدولة غير الإسلامية من حال السلم إلى حال الحرب فإن الأصول التى ذكرناها آنفا لا يكون لإعمالها محل، وينتقل حال المواطنين، والدولة كلها، من حال السلم والعيش فى ظل الأخوة الإنسانية - وإن نأت الديار - إلى حال وجوب الدفاع عن الوطن ورد العدوان عليه، وعندئذ فليس لمعتد أو محتل عصمة، ولا لدمه ولا سلاحه ولا عتاده حرمة، والواجب الوحيد على المواطنين - مسلمين وغير مسلمين - هو قتالهم حتى يجلو المعتدى أو المحتل - حسب الأحوال - عن الوطن ويستعيد أهله سيادتهم عليه وحكمهم له.

وهذا هو اليوم وضع المواطنين فى فلسطين وفى العراق وفى أفغانستان، وقد يكون غدا هو الوضع فى بلاد أخرى - لا قدر الله - وليس دور الفقهاء والمفكرين أن يبحثوا فى حال السراء وأحكامها ثم يسكتوا عن سواها، بل عليهم كذلك النظر فى حال الضراء، وساعة يحين البأس، بل لعل الناس عندئذ يكونون إلى فكرهم ورأيهم أكثر حاجة وأشد طلبًا.

والحمد لله رب العالمين..

ربيع الآخر ١٤٣٤هـ
فبراير مارس ٢٠١٣م

الوظائف التربوية والدعوية لمقاصد الأحكام الفقهية



د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75@gmail.com

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، واتبع هداه، وبعد،

فإن للأحكام الفقهية العملية الجزئية مقاصد تتنوع ما بين مقاصد عالية تأسيسية، ومقاصد عامة كلية، ومقاصد خاصة، ومقاصد جزئية، كما تتنوع بين مقاصد قطعية ومقاصد ظنية، ومقاصد تعود على الفرد وأخرى تعود على الجماعة، وهكذا..

ولهذه المقاصد وظائف وأدوار ومهام تؤديها، ولا شك أن أبرز هذه الوظائف هي الوظائف الفقهية والأصولية التي تنعكس مباشرة على عملية الاجتهاد الفقهي بكل أنواعه، سواء كان اجتهادًا تأصيليًا أم تنزيليًا أم تشغيليًا أم إنشائيًا أم انتقائيًا أم تفعيليًا.. إلخ.

لكنَّ هناك أنواعًا أخرى من الوظائف تقوم بها وتؤديها مقاصد الأحكام الفقهية العملية الجزئية، ومن أهمها الوظائف التربوية والدعوية، ومن هنا كانت فكرة هذا البحث الذي سنقتصر فيه على هذين المجالين من الوظائف؛ نظرًا لجديتهما وطرافتهما - حَسْبَ علمي - وأهميتهما للإنسانية عامة، وللدعاة والمربين خاصة؛ حيث تناولنا الحديث عن الوظائف الأصولية والفقهية في مكان آخر[1].

ومن الأمانة العلمية هنا أن نذكر أن أستاذنا العلامة الدكتور أحمد الريسوني تحدث عن بعض فوائد المقاصد في كتابه: «الفكر المقاصدي قواعده وفوائده»، وذكر منها ستًا هي أنها قبلة المجتهدين، وأنها منهج فكر ونظر، ودورها في فتح الذرائع وسدها، وأنها تزيل الكلل وتسدد العمل، وأنها توسع وتجدد في الوسائل، ولها دور كبير في خدمة العمل الدعوي[2].

وهذه الفوائد - أو الوظائف كما أسميناها - التي ذكرها د. الريسوني تشمل فوائد فكرية، وفوائد دعوية، وأخرى أصولية فقهية[3].

وسنفيد مما سبق في مواضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى فيما يتصل بالوظائف التربوية والدعوية خاصة، وسنقسم الوظائف إلى قسمين: وظائف تربوية، ووظائف دعوية، وكل منهما في مبحث مستقل.

تحديد مصطلحات البحث:

من المهم قبل بداية كل بحث تحديدُ المصطلحات وضبط مضامينها، ومن مصطلحات هذا البحث ما يلي:

مقاصد الأحكام الفقهية، الوظائف الدعوية، الوظائف التربوية.

ونعني بمقاصد الأحكام الفقهية: الغاية من كل حكم فقهي عملي، أو ما قصده الشارع من تشريع كل حكم فقهي عملي جزئي.. فنقول مثلا: مقصد الركوع، ومقصد رمي الجمرات، ومقصد الحجاب، ومقصد حد السرقة، ومقصد متعة المطلقة، وهكذا.

ويحسن أن نعرف الوظيفة قبل أن نعرف الوظيفة الدعوية أو التربوية.

جاء في قاموس «الشامل» أن من معاني الوظيفة:

١- إسهام الجزء في نشاط الكل.

٢- نتائج أو آثار عنصر اجتماعي أو ثقافي.

٣- دور اقتصادي يؤديه شخص[4].

وجاء في موسوعة السياسة: «وظيفة عامة (Fonctiom publique): مركز قانوني يشغله موظف معين من قبل الدولة له اختصاصات وواجبات وحقوق تمارس الدولة من خلاله وظائفها العامة مع نمو وظائف الدولة الحديثة وتعدد فروع خدماتها للمواطنين، ولعبها دورًا واسع النطاق والأثر في المجتمع»[5].

وفي معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية جاء: «الوظيفة: نوع العمل الذي يمكن للبناء أداؤه بوضوح لتحقيق أهداف معينة، ويتضمن المفهوم الإداري للكلمة الواجبات والمسئوليات والسلطات، وهي مكونات الوظيفة»[6].

وبالتأمل في هذه التعريفات نجد الوظيفة تدور حول هذه المصطلحات: «نتائج- تلازم- آثار- أدوار- أداء- واجبات- مسئوليات- سلطات».

ويمكن أن نضع للوظيفة تعريفًا في الاصطلاح في ضوء ما سبق، فنقول: الوظيفة اصطلاحًا هي «الأدوار التي تؤديها، والمهمات

(١) راجع: المقاصد الجزئية وأثرها في الاستدلال الفقهي، وصفي عاشور أبو زيد، رسالة دكتوراه بقسم الشريعة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، ٢٠١١م.

(٢) راجع الفكر المقاصدي قواعده وفوائده: ٧٥، وما بعدها. طبعة دار الهادي بيروت.

(٣) من الجدير بالذكر أن العلامة عبد الله بن بية تحدث عما أسماه محاثر أو مدارك أو أكنسة المقاصد، وهي وجوه الاستفادة منها والاستنجاد بها، ولكنها كلها أصولية وفقهية ولا علاقة لها بالتربوية أو الدعوية. راجع: علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه: ٩٩-١٠٢ أ.د. عبد الله بن بية. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية لندن الطبعة الثانية ٢٠٠٦م. وللدكتور نور الدين الخادمي إشارات خفيفة، وهي أصولية وفقهية كذلك. انظر: الاجتهاد المقاصدي ١/٥٨-٥٩. العدد ٦٥ من سلسلة كتاب الأمة القطري. جمادى الأولى، ١٤١٩هـ.

(٤) الشامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي وعربي ٢٢٧، د. مصلح الصالح، دار عالم الكتب الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٥) موسوعة السياسة: ٧/٢٩٥، عبد الوهاب الكيالي، ومجموعة من المفكرين والسياسيين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، د. ط، د. ت.

(٦) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي فرنسي عربي ١٧٠، أحمد زكي بدوي مكتبة لبنان، ١٩٨٢م.

التى تقوم بها، ونواحى الإفادة منها، والآثار التى تترتب على العمل بها فى علم من العلوم».

ومن هنا فوظائف المقاصد الجزئية تعنى «الأدوار التى تقوم بها مع الحكم الشرعى، والمهمات التى تؤديها معه، والنتائج التى تترتب على إعمالها فى ضوء ضوابطها وطبيعتها».

وبما أن الأمور التربوية هى ما يعود مباشرة على الفرد نفسه: قلبه وعقله وروحه وبدنه وذوقه، بينما تتخطى الأمور الدعوية الإنسان نفسه إلى «المدعوين» فى المجتمع.

فإنه بناء على ذلك يمكننا تعريف:

الوظائف التربوية بأنها: الأدوار والمهمات التى تقوم بها مقاصد الأحكام الجزئية بما يعود على الفرد نفسه.

والوظائف الدعوية بأنها: الأدوار والمهمات التى تقوم بها مقاصد الأحكام الجزئية بما يتجاوز الفرد إلى المجتمع والمدعوين فيه.



ومن هنا فإننا فى هذا البحث سنتحدث عن الوظائف التربوية والوظائف الدعوية التى تؤديها وتقوم بها مقاصد الأحكام الفقهية العملية، بما يعود على الفرد نفسه، وما يعود على أفراد المجتمع أو مجموعهم.. وسنفرد كل مجال منهما: «تربوي، ودعوى بمبحث مستقل.. والله المستعان.

المبحث الأول:

الوظائف التربوية لمقاصد الأحكام الفقهية

يقصد بالوظائف التربوية هنا - كما سبقت الإشارة فى تحديد مصطلحات البحث - ما يعود على الفرد نفسه، ولا يتخطاه إلى غيره، وما يتصل بفكره وعقله، وقلبه وإيمانه، وروحه ووجدانه، ومن الوظائف التربوية التى تؤديها مقاصد الأحكام الفقهية ما يلى:

المطلب الأول: تصحيح كمال التوحيد:

قد يكون هناك شيء من الدهشة حين نقرأ هذا العنوان؛ إذ ما علاقة التوحيد وتصحيحه وكماله بمقاصد الأحكام العملية الجزئية؟ وهو سؤال وجيه، وتعجب فى محله، لكن سرعان ما يتبدد هذا التعجب حين تعلم أن العقيدة ثلاثة أقسام: إلهيات، ونبوات، وسمعيات، وضمن الإلهيات نجد الأسماء والصفات، ومن أسماء الله تعالى «الحكيم»، ومن صفاته «الحكمة».

وإن «الحكيم» الذى يمتنع الخلل فى خلقه وأمره وشرعه، ويضع كل شيء فى مكانه بقدر، ولا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع شيئًا دون حكمة وغاية - يستحيل أن يكون حكم من أحكام شريعته ودينه بلا هدف ومقصد، سواء كان هذا المقصد معلومًا لنا أو مجهولاً، وجهلنا له لا يعنى عدم وجوده، وإنما علمه من علمه، وجهله من جهله.

وإن الذى ينفى التقصيد - الكلى منه والجزئى - عن شريعة الله وعن أحكامه فإنما يعطل بعض ما يقتضيه اسم الله «الحكيم»، وما توجبه صفة الله تعالى «الحكمة»، وهذا مما يشوش عقيدة التوحيد عند المسلم.

من أجل هذا نقول: إن الاهتمام بالتقصيد، والعمل به، والتعويل عليه، والرجوع فى ممارسة الاجتهاد إليه، وأنه لا يند حكم من أحكام الشريعة عن التقصيد وأن يكون له مقصد، علمه من علمه، وجهله من جهله،

إنما هو نوع من تصحيح عقيدة التوحيد عند المسلم، وتعزيز لها.

المطلب الثاني: الزيادة فى الامتثال والانقياد والاستمرار والإتقان[٧]:

وهذه الوظيفة خاصة بالمكلف، فإنه إذا علم مقصد الحكم «زاد» امتثاله وانقياده، واستمراره وإتقانه للعمل، ودفعه إليه وتنشيطه عليه، على مجرد الامتثال والانقياد، وبخاصة فى أمور العبادات، ولهذا قال الآمدى «ما يدل على العلة - يقصد من النصوص - يكون أولى؛ لقربه من المقصود؛ بسبب سرعة الانقياد، وسهولة القبول»[٨].

وقال ابن عاشور: «وفى الإعلام بالعلة تنشيط للمأمور بالفعل على الامتثال؛ إذ يصير عالمًا بالحكمة»[٩].

ويقول د. أحمد الريسونى «إن معرفة مقاصد الأعمال تحرك النشاط إليها، وتدعو إلى الصبر والمواظبة عليها، وتبعث على إتقانها والإحسان فيها»[١٠].

ولا يعنى هذا أن العبد لا يمتثل أو ينقاد لأمر الله ويقبل على تنفيذ حكمه إلا بمعرفته للمقصد أو أسرار الأحكام، وإنما يكفى أنه أمر الله أو أمر رسوله ﷺ فهذا وحده كافٍ للامتثال والانقياد والاستمرار، ولهذا فإننا نتحدث هنا عن «الزيادة» فى هذه المعاني، وليس مجرد الإتيان بها؛ إذ «المقصود أن الحكم الشرعى لا يخلو عن حكمة ومصلحة، لكن قد تعلم هذه الحكمة فيسهل الامتثال»[١١].

ويقول المناوى فى كلام نفيس: «من فقه عن الله أمره ونهيه، وعلم لماذا أمر ونهي، تعاظم لذلك وكبر فى صدره شأنه، وكان أشدَّ تسارعًا لما أمر، وأشد هربًا مما نهي؛ فالفقه فى الدين جند عظيم يؤيد الله به أهل اليقين الذين عاينوا محاسن الأمور ومشائنها وأقدار الأشياء وحسن تدبير الله تعالى فى ذلك لهم بنور يقينهم ليعبدوه على بصيرة وطمأنينة، ومن حُرم ذلك عَبَدهُ على مكابدة وكره؛ لأن القلب وإن أطاع وانقاد لأمر الله فالنفس إنما تنقاد إذا رأت نفعَ شيء أو ضره، والنفس والشيطان جندُهما الشهوات؛ فيحتاج الإنسان إلى أضدادهما من الجنود ليقهرهما، وهو الفقه»[١٢].

فليس من المعقول أن يستوى العبد الذى يعرف هدف الحكم مع العبد الذى لا يعرف، فى سرعة الامتثال، وفى الانقياد، وكذلك الاستمرار والإتقان، وهذا لا يعد قدحًا فى عبودية العبد أو عقيدته، فهناك حد أدنى من الامتثال والانقياد والاستمرار والأداء لا يجوز لأحد النزول عنه سواء علم مقاصد الأحكام

(٧) في المطلب الثاني والثالث نجمل تحت كل منهما عددا من الوظائف والفوائد من غير إفراد لكل منها ولا تفصيل؛ وذلك لأنها وظائف تربوية وتزكوية بعضها قريب من بعض.

(٨) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/٢٧٤

(٩) التحرير والتنوير: ١٣/٢٢٤.

(١٠) مدخل إلى مقاصد الشريعة: ١٥، ١٦.

(١١) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة: ٣٥٧، محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، دار ابن الجوزي الطبعة الخامسة، ١٤٢٧هـ.

(١٢) فيض القدير: ٢/٦٤٧-٦٤٨. وهذا المعنى يتردد كثيرا في «الفيض» حينما يتحدث عن الفقه في الدين والفهم عن الله، أو حينما يتعرض لشرح حديث: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده».

أم لم يعلمها، وإنما يتفاوت العباد في درجات هذه المعاني ويتفاضلون بقدر معرفتهم بما نحن بصدد الحديث عنه.

ولهذا قال الأصفهاني «وإنما غلب ثبوت الحكم بالعلة في الشرع؛ لأن تعقل العلة في الحكم أقرب إلى الانقياد والقبول من التعبد المحض»(١٣).

وجعل ابن دقيق العيد ذلك باعثًا على تعظيم الأولين، قال وهو يتكلم عن مشروعية الرَّمل في الطواف واستحبابه مطلقًا في طواف القدوم في زمن النبي ﷺ وبعده، قال: «وإن كانت العلة التي ذكرها ابن عباس(١٤) قد زالت فيكون استحبابه في ذلك الوقت لتلك العلة وفيما بعد ذلك تأسيًا واقتداء بما فعل في زمن الرسول ﷺ وفي ذلك من الحكمة: تذكر الوقائع الماضية للسلف الكرام، وفي طي تذكرها مصالح دينية؛ إذ يتبين في أثناء كثير منها ما كانوا عليه من امتثال أمر الله تعالى، والمبادرة إليه، وبذل الأنفس في ذلك، وبهذه النكتة يظهر لك أن كثيرًا من الأعمال التي وقعت في الحج، ويقال فيها: إنها تعبُّد- ليست كما قيل. ألا ترى أنا إذا فعلناها وتذكرنا أسبابها حصل لنا من ذلك تعظيم الأولين، وما كانوا عليه من احتمال المشاق في امتثال أمر الله، فكان هذا التذكر باعثًا لنا على مثل ذلك، ومقررًا في أنفسنا تعظيم الأولين، وذلك أمر معقول»(١٥).

بل جعل العلامة المحقق ابن قيم الجوزية معرفة الحكم والمقاصد والأسرار بابًا ينقل العبد من مجرد الامتثال إلى المحبة والمعرفة والحمد والإجلال، فقال: «إن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم مناديًا ينادي للإيمان بها علمًا وعملًا؛ فيقصد إجابة داعيها ولكن مراده -أي الهروي صاحب منازل السائرين- بداعي الحكم الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم، فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال؛ فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال والمعرفة والحمد، فالأمر يدعو إلى الامتثال، وما تضمنه من الحكم والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة»(١٦).

ومن هنا لم يكن غريبًا أن تُشفع كثير من نصوص القرآن والسنة ببيان الهدف من أحكامها، سواء أكان في المأمورات بذكر الأجر والثواب المترتب على القيام بها، أم في المنهيات بذكر الإثم والعقوبات المترتبة على إتيانها، وفي ذلك ما فيه من تحفيز

(١٣) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: ٣/١٠٨-١٠٩، شمس الدين أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني تحقيق د. محمد مظهر بقا، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي مركز إحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

(١٤) العلة المقصودة هنا والتي ذكرها ابن عباس - رضي الله عنهما - هي ما رواه البخاري من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون إنَّهُ يَقْدَمُ عليكُمْ وَفْدٌ وَهَنَهُمْ حُمَّى يثرب وأمرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاثَةَ وَأنْ يَمْشُوا ما بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، ولَمْ يَمْنَعْهُ أنْ يأمُرَهُمْ أنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إلَّا الإبْقَاءُ عليهِمْ». صحيح البخاري كتاب المغازي باب: عمرة القضاء.

(١٥) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ٣١٦، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ) تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(١٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ١/١٣٢، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الناس على السرعة والزيادة في الامتثال والانقياد، والإتقان في العمل، والاستمرار بحب ورضا وحمد وإجلال، وليس مجرد الامتثال والسمع والطاعة فقط، وإلا لما كان في ذكر النصوص لذلك معنى.

لقد أورد د. الريسوني عددًا من النصوص من هذا القبيل في القصاص، والتيمم، والزنى، والغيبة، وإتيان النساء أثناء الحيض، وهي أمثلة معروفة مقاصدها ومنصوصة، ثم قال: «فمن شأن هذه التعليلات المرافقة للأحكام، المنبهة على ما تجلبه من خير ونفع، وما تدفعه من فساد وضرر، أن تكون حافزًا إضافيًا على العمل والصبر على مقتضياته ومتطلباته، ومثل القرآن الكريم كان النبي ينهج هذا النهج، ويبين علل الأحكام ومقاصدها تحبيبًا وترغيبًا في التزام التكاليف الشرعية، والمواظبة عليها، والتحمس لها»(١٧).

إذن فمعرفة مقصود التكليف تجعل المكلف أكثر حبًا للعمل، وأرغب في أدائه بإتقان، وأقرب إلى الامتثال الحقيقي المرضي، فلم يشرع الله الأحكام ليعنت عباده، ولكن رحمة بهم، ومصلحة لهم، وتيسيرًا عليهم، وهذا بحد ذاته من مقاصد وضع الشريعة.

المطلب الثالث: سلامة الإتيان بالتكليف وحسن التطبيق والتطمين:

إذا كانت معرفة المكلف للمقاصد تحمله على مزيد من الإتقان والامتثال، وتزيل كلله وتنشطه، فإنها كذلك تعمل على حسن تطبيق التكليف، وتسديد العمل، وتجعله على بصيرة؛ فيأتي المكلف بالتكليف على الوجه المقصود منه.

يقول د. الريسوني: «وكما أن معرفة المقاصد تقوى الرغبة في العمل والمواظبة عليه، فإنها تسدد العمل وتساعد على حسن تطبيقه وسلامته. ومن لا يعرف مقاصد ما يفعل يوشك أن يزل في عمله، ويحرفه عن قصده وحقيقته.. والمكلف عليه أن يجعل قصده وعمله موافقَيْن لقصد الشارع، فمن أين له هذا إذا لم يعرف مقصود الشارع فيما كلف به؟ وكيف نطلب منه أن يوافق شيئًا ويحققه وهو لا يعرفه»(١٨).

وهذا كلام محسوس ومشاهد في الواقع، ولا يقتصر على العبادات أو الأوامر والنواهي الشرعية فقط، وإنما ينسحب على الحياة ومناشطها المختلفة جميعًا؛ فلا يؤتى بالعمل على وجهه إلا إذا عرفنا وجهه، ولا نأتي به على الوجه السديد والسليم إلا بعد معرفتنا لغايته ومقصوده ومراده، وإلا أدينا العمل أو التكليف جسدًا بلا روح، وشكلًا بلا مضمون، ونشاطًا بلا أثر ولا فائدة.

بل لا نبالغ إذا قلنا إن الجهل بمقصود الحكم يجعل المكلفين -في أحيان كثيرة- يأتون به على عكس مراد الشارع منه، وقد يؤدي ذلك إلى تعطيل آثار الأحكام الشرعية،

(١٧) الفكر المقاصدي: ٩٣-٩٤.

(١٨) الفكر المقاصدي: ٩٥. وراجع حجة الله البالغة: ١/٨.

«كمن يصومون رمضان، ولكنهم يأكلون فى رمضان أكثر مما يأكلون فى غير رمضان، ويرضون شهواتهم فى رمضان بما لا يفعلونه خارج رمضان»(١٩).

ويضرب د. الريسونى لذلك مثلاً آخر بالاستئذان عند دخول البيوت، ومقصوده منع النظر الفجائى الذى قد يقع على ما لا يجوز، أو ما لا يحب الناس أن يرى منهم أو عندهم فى حرمات بيوتهم.. ولكن من لا يعرف هذا المقصد أو لا يراعيه قد يتوقف عند الباب منتظرًا الإذن له بالدخول، ولكنه قد يرسل بصره داخل البيت عبر بابه أو نوافذه؛ فهذا قد التزم بالاستئذان التزامًا عمليًا صوريًا، ولكنه انتهكه من حيث مقصوده(٢٠).

ومثال آخر من الأمثلة التى يكثر حولها الشغب بين الملتزمين ـ غير المتعمقين فى مقاصد الشرع ومراميه ـ وهو الأمر بتقصير الثياب، أو النهى عن إسباله.

روى مسلم عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار. قال أبو ذر: خابوا وخسروا. من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمُنفِّق سلعته بالحلف الكاذب»(٢١).

وذكر جمع غفير من العلماء ـ سبق بيانهم ـ أن هذا الوعيد محمول على من أسبل ثوبه كبرًا وبطرًا، وذلك بجمع النصوص التى وردت فى هذا الموضوع، فنتج عن مجموع النصوص تقييد إطلاق هذا الوعيد بالكبر والبطر والخيلاء.

ونحن نتساءل هنا: ماذا لو أسبل ثيابه لغير بطر ولا كبر ولا مخيلة، هل ينطبق عليه هذا الوعيد الشديد، ونُدخل بذلك شعوبًا كاملة فى نار جهنم؟ إنه بذلك قد فعل النهى شكلاً، ولكن لم يحصل مقصوده مضمونًا.

ونتساءل من جهة أخرى: ماذا لو قصر ثوبه تخايلاً على الناس بأنه يقيم السنة، وبطرًا وكبرًا واحتقارًا للآخرين لأنهم منفلتون عن الشرع متسيبون معادون للسنة مقصرون فيها؟ إنه يكون قد التزم شكلاً بالحكم، ولكنه حقق المقصود من النهى عن ضده، فانظر إلى أى حد تكون الخطورة!.

وما أروع ما ذكره ابن الجوزى عن النبى ﷺ أن حُلة اشتُريت له بسبعة وعشرين بعيرًا، وكان لتميم الدارى حلة اشتريت بألف درهم، يصلى فيها بالليل، ثم قال لله دره: «فجاء أقوام، فأظهروا التزهد، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى، ثم تطلبوا لها الدليل، وإنما ينبغى للإنسان أن يتبع طريقًا ويتطلب دليلها، ثم انقسموا: فمنهم متصنع فى الظاهر، ليثُ الشرى فى الباطن، يتناول فى خلواته الشهوات، وينعكف على اللذات، ويرى الناس بزيه أنه متصوف متزهد، وما تزهد إلا القميص، وإذا نظر إلى أحواله فعنده كبر فرعون»(٢٢).

(١٩) الفكر المقاصدي: ٩٦.
(٢٠) الفكر المقاصدي: ٩٦-٩٧.
(٢١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، والمنفق (بتشديد الفاء المكسورة): المروج أي الذي يسعى إلى نفاقها ورواجها.

ومن هنا يتبين لنا خطورة قيام المكلف بالتكليف دون معرفة مقصوده، ودون علمه بالغاية التى شرع لها الحكم، كما يتبين لنا الأهمية البالغة لأن يتفقه المكلف بمقاصد الأحكام والتعرف إلى الغايات التى شرعت لها الأحكام بشيء من التفصيل والتحديد ما أمكنه ذلك.

فمثلا: لو عرف المسلمون مقاصد ومرامى ما جاء فى دينهم من أحكام المياه، والوضوء، والغسل، والتيمم، والاستنجاء، والسواك، وخصال الفطرة، وطهارة الثوب والبدن والمكان فى الصلاة، ومن النهى عن تنجيس الطرق وأماكن الجلوس، وعن الروائح الكريهة ـ لما رأيت دنياهم تملؤها الأوساخ والأزبال والقذارات، ولكانوا آية من آيات الله، وحجة من حجج دين الله، ولو عرفوا الأبعاد التربوية والحضارية للصلاة لتعلموا منها ضبط أعمالهم ومواقيتهم، واحترام مواعيدهم، وتنظيم صفوفهم، وترتيب شئونهم ولتخلصوا من أدرانهم ورذائلهم وانعزالهم وانكماشهم وأنانيتهم وعشوائيتهم، وهكذا يقال فى سائر أحكام الشريعة(٢٣).

ومن شأن العلم بذلك أيضًا أن يعمل على وضوح الرؤية لدى المكلف فلا يأتى بما ينافى مقصود الشارع كما سبق، وكذلك يعمل على طمأنينة(٢٤) المكلف إلى الشرع، وهذا يحمله على مزيد من الإتقان، كما يحمله على تبليغه والدعوة إليه والدفاع عنه؛ ولهذا قال الله لنبيه:

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(الأعراف: ١، ٢).

ولا يتصور أن يخلو صدر الداعية من حرج حين لا يعلم مقصود الشارع من شرعه، ولن يكون الإنذار ذكرى للمدعوين من المؤمنين، ولن يأتى أكله مع غير المؤمنين إلا إذا زال هذا الحرج من صدر الداعية، ولا يكون ذلك إلا بالوقوف على أهداف وغايات ومقاصد التشريع والرسالة.

ولا غرو أن طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى مع إيمانه التام بطلاقة القدرة الإلهية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾

(البقرة: ٢٦٠)

«فأجاب الله دعوته، وأراه وعلمه، وأفهمه وطمأنه»(٢٥).

إذن فمعرفة مقصود الحكم الشرعى من شأنه أن يُطمْئن المكلف، ويعمل على حسن تطبيقه للحكم، بعدم تحقيق العكس من مقصوده، وبهذا تؤتى الأحكام الشرعية ثمارها عند تطبيقها، وتؤدى نتائجها وفوائدها فى النفس والمجتمع والأمة.

(٢٢) صيد الخاطر: ٢٩، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٢٣) الفكر المقاصدي: ٩٦.
(٢٤) انظر حجة الله البالغة: ١/٨.
(٢٥) الفكر المقاصدي: ٩٣.

نظريات التغيير بين العنف والإصلاح

حول موضوع العنف





للمفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي
منير شفيق

يحظى موضوع العنف فى عصرنا الراهن لاسيما بعد انتهاء الحرب الباردة، كما يحظى عند بحث إشكالية أساليب التغيير، على أهمية كبيرة من قبل محبذيه، أو معارضيه، أو المحايدين على حد سواء. ولهذا كان لا بد من وقفة أطول أمامه فى هذا الصدد الذى يناقش إشكاليات أساليب التغيير.

الموقف من العنف

هذا الموضوع كثر الحديث حوله لا سيما مع الحملات التى شنت وتشن ضد من يسمونهم بالقوى الإرهابية أو المتطرفة.

● ولعل من البديهى القول إن العنف صاحب تاريخ الإنسان منذ أن عرف هذا التاريخ، فهنالك القائمة الطويلة التى لا تنتهى من الحروب فيما بين الأمم، والدول، والقبائل، وهنالك القائمة الطويلة التى لا تنتهى من الحروب الأهلية والثورات الداخلية وحروب المقاومة.

ويندر فى التاريخ وجود من لم يؤيد عنفًا بعينه ويشجب عنفًا بعينه، فالذين قالوا برفض العنف من حيث أتى، ولم يمسوا سيفًا ولم يؤيدوا حامل سيف أو يباركوه هم أندر من الندرة، وما من دولة، أو سلطان قام، أو يمكن أن يقوم، بلا جهاز عنف من جيش وشرطة ومحاكم وسجون، وما من حدود بين دول إلا ويحرسها جند مدججون بالسلاح.

أما عن العنف فى ظل الحضارة الغربية المعاصرة فحدّث ولا حرج فقد انتقلت به عمقًا واتساعًا، تسلحًا وحروبًا، غزوًا وعدوانًا، إلى مستويات لا تسمح لها بأن تعيّر أحدًا بالعنف وتغسل يديها منه، وإنها لفى غاية النفاق حين تجعل من ممارسة العنف عملًا مدانًا حتى لو كان دفاعًا عن النفس، أو ردًا على عدوان، أو دفاعًا عن حق مهدور بالعنف والإرهاب الصهيونى أو الاستعمارى.

ولهذا يجب أن يبحث موضوع العنف ويقوم تبعًا لكل حالة وأهدافها وطبيعتها وضرورته ومدى الاضطرار إلى ممارسته بعيدًا عن الابتزاز الغربى فيتحدد الرأي، أو الموقف تبعًا لكل حالة.

أما بالنسبة إلى مدى صوابية اللجوء إلى العنف فى هذه الحالة أو تلك فهو من شأن أهل العلم والفقه، أما الحكم الفصل هنا فيرجع إلى النتائج العملية المترتبة حتى لو أجازه الشرع. أو بعبارات أخرى لا يجوز أن يصار إلى تناول موضوع العنف بإطلاق: رفضًا، أو تحبيذًا.

الإسلام والعنف

وإذا جئنا إلى الإسلام فسنرى فقهه فى هذا الأمر يكاد يكون مكتملًا، فهنالك حالات دعا فيها الإسلام إلى قتال وجهاد وهنالك حالات دعا فيها الإسلام إلى المعالجة بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة، وهنالك حالات جمعت بين الحالتين، تدرجًا من الرفق والإقناع والحسنى والصبر وصولًا إلى القتال، وإن كان موقع العنف فى العقيدة الإسلامية أو النظام الإسلامى أو الحضارة الإسلامية فى موقع ثانوى عكس موقعه فى الحضارة الغربية حيث يحتل موقعًا مركزيًا.

المهم هنا لا يستطيع أحد أن يقول: إن الإسلام يحرّم العنف بإطلاق، وإنما يضع له فقهًا يضبطه ويوجه استخدامه، أو عدم استخدامه، سواء أكان بالنسبة إلى علاقة المسلمين بالمشركين والكفار أم كان بالنسبة إلى علاقاتهم فيما بينهم، الأمر الذى يفرض أن يناقش الموضوع فى ظروف كل حالة، هذا من حيث المبدأ. وبالمناسبة ترى بعض الغربيين والعلمانيين يستخدمون موضوع العنف والإسلام ضمن معيارين فمن جهة يروجون أن الإسلام قام بالسيف وتاريخه تاريخ سيف ثم يروجون من جهة أن الإسلام متسامح يرفض العنف من حيث أتى وإذا ما مارس العنف طرف إسلامى فهو خارج عن الإسلام وقد جاء بما هو غريب عن الإسلام، أى يستخدمون الحجة ونقيضها دائمًا أو المعيار المزدوج دائمًا، فى مواجهة الإسلام والمسلمين.

قرار العنف بين المقدمات والتنفيذ

تعددت الأسباب التى يستند إليها القائلون بضرورة العنف إزاء حالة معينة فربما استخدم التكفير أو الردة سببًا، أو التعاون مع الاستعمار سببًا، أو الاستبداد والقهر والتعذيب من قبل السلطة سببًا، أو عدم إمكان تحقيق التغيير إلا بوسائل العنف بسبب طبيعة النظام الذى لم يترك متنفسًا، ولم يسمح بأى إصلاح سببًا، وقد تتخذ حالاتُ الفضائح والفساد ونشر الفاحشة سببًا، وربما دفع إلى العنف من خلال دولة مجاورة تعهدت فى حمايته فكان سببًا.

والآن، لنضع جانبًا كل منطق يمكن أن يوصل إلى هذه النتيجة، وبغض النظر عن مستوى جديته ووجاهته، أو صحة مقدماته أو عدم صحتها، ولنركز على مدى صحة أو عدم صحة اتخاذ قرار استخدام العنف.

إذا كان جانب المقدمات لاسيما حين يمس الموضوع إشكاليات مثل التكفير أو الردة يحتاج إلى مناقشة فقهية جادة قائمة بذاتها وهذا ما يدور حوله نقاش بين الفترة والأخرى. وذلك لخطورته بما فى ذلك تأثيره المباشر فى الوصول إلى الجانب الثانى وهو موضوع العنف.

على أن الجانب الذى يناقش هنا فهو المتعلق بموضوع العنف لأن من غير الضرورى أن يأتى نتيجة حتمية لتلك المقدمات أو بعضها.

وبعبارة أخرى ثمة فرق بين المقدمات التى توصل إلى التوجه العنفى وقرار استخدام العنف. فالأولى تعتمد على حيثيات إما عقدية وشرعية، وإما وطنية وقومية وإما ذات علاقة بالمصلحة العامة والأخلاق، ولكن كل ذلك

شيء، وأخذ قرار العمل والتنفيذ شيء آخر، لأن النزول إلى المواجهة تحكمه سنن وشروط غير تلك المقدمات التي قادت إليه، وهذا الجانب هو الذي يحتاج إلى مناقشة مدققة هنا، لأنه يتعاطى وميزان القوي، والظروف المحيطة، وعوامل النجاح والفشل، ومن ثم إذا لم تقدّر هذه القضايا حق قدرها أو قفز عنها فسيترتب على ذلك هزائم، وتقع الضحايا والمآسي والكوارث، ويبقى الوضع على حاله إن لم يزد سوءًا بل هو في الغالب يرجع إلى الخلف أو ينتقل إلى الأسوأ.

تجارب استخدام العنف

دلت سنن التغيير في كثير من التجارب قديمًا وحديثًا على أن استخدام أسلوب العنف سيف ذو حدين، بالنسبة إلى صاحبه، إنه لعب بالنار! ولا يجوز أن يستخدم إلا بأعلى درجات التبصر وحساب الأمور، لأن الفشل فيه يجر إلى مجازر وويلات ولا يحقق الهدف بل يبعده فالدخول في الحرب بين جيشين، على سبيل المثال، يحتاج إلى تبصر وحسن حساب، وإلا كان تجنب خوض الحرب أفضل إن كانت النتيجة سحقًا نهائيًا للجيش، ولربما كان الانتقال في مثل هذه الحالة إلى أشكال أخرى من الحرب غير الاشتباك الفاصل، القتال بالكر والفر، أو بالمجموعات الصغيرة، أو باللجوء إلى الجبال والغابات أو قلب الصحراء أو المدن، هو ما تحتمه النظرة النافذة والقرار الصائب.

ولهذا على الذين يأخذون قرار العنف أن يدققوا في الأمر عشرات المرات أكثر مما دققوا في المقدمات التي اعتمدوا عليها حين وصلوا إلى النتيجة القائلة: هذا مرض لا يشفى إلا بالعملية الجراحية واستخدام المبضع، بل إن القرار هنا يحتاج إلى علم وجمع معلومات وحيثيات ويتطلب خبرة ومرانًا، وحدة ذكاء في تقدير الموقف، وحسن حسابه، أكثر بكثير مما تحتاج إليه تلك المقدمات، لم إذا أحسن التقدير عند اتخاذ القرار تصبح كل خطوة لاحقة عند الإعداد والتنفيذ أشد تعقيدًا من سابقتها وتحتاج إلى توفير شروط موضوعية وذاتية أكثر من سابقتها، وهذا ما ينبغي له أن يحسب مسبقًا، وتقدر إمكانات تلبيته تقديرًا أوليًا صحيحًا.

لذلك لا يجوز استخدام أسلوب العنف كيفما اتفق وبلا بصيرة وحسن تدبر وحساب، ولا يجوز أن يختبأ وراء النية الطيبة في هذا المجال لأن فيه هدرًا للدماء وإزهاقا للأرواح وخرابًا للعمل التغييرى وله نتائج سلبية على الآخرين، إن وقع الخطأ الفادح ومن ثم لابد من أن يتعامل القادة وهذا الأمر بأعلى درجات الشفافية والشعور بالمسئولية.

***

ثمة مجموعة من أنماط أو أساليب «استراتيجيات» العنف عرفت عبر التاريخ الماضي والمعاصر، وإن لكل منها شروطها وسننها، ولعل من المفيد أن نقدم بعض الأمثلة على ذلك:

العنف والاحتلال الأجنبي

لعل من أنجح استراتيجيات العمل العنيف التي يمكن أن يلجأ إليها المرء باطمئنان عال هي تلك التي تقوم في ظروف احتلال أجنبي خارجي للبلاد، فتأخذ شكل مقاومة مسلحة في المدن والقرى أو شكل أعمال فدائية، أو حرب تحرك مجموعات كبيرة، أو صغيرة، من بلد مجاور، أو شكل اعتصام في الجبال أو الغابات، أو بناء قاعدة محررة في إحدى المناطق خارج البلد أو داخله لتكون قاعدة انطلاق وتوسع وهنالك أمثلة كثيرة على هذه الاستراتيجيات من ثرات عبدالقادر الجزائري، وثورة التحرير الجزائرية، كما حدث من عمر المختار وعبدالكريم الخطابي والمهدي والقسام والثورات الفلسطينية وأفغانستان وعدد كبير من بلدان العالم الأخري، المهم أن شروط حمل السلاح واستخدام العنف ضد احتلال أجنبي تكون في الغالب متوفرة فهنالك أولًا استعداد الشعب لهذا النمط من المقاومة وانخراطه فيه وهنالك ثانيًا دعم مباشر أو غير مباشر، في الغالب، من قبل أعداء أو منافسي دول الاحتلال فالعنف هنا ليس عملا تنظيميا صغيرا وإنما هي أرض ملتهبة بالرغبة في الخلاص من الاحتلال، وكان النجاح حليف أغلب تجارب المقاومة المسلحة ضد احتلال استعماري عدواني، وكان الفشل في جولة لا يمنع من تكرار المحاولة وإصابة النجاح في جولة ثانية أو ثالثة.

العنف والصراع الداخلي

الحالات التي استخدم فيها العنف في المواجهات الأهلية الداخلية تراوحت بين الفشل والنجاح، ولكن أمثلة الفشل الذريع كانت أكثر مما لا يقاس مقارنة بحالات النجاح فالتاريخ الإسلامي العالمي يعج بحالات الفشل، أما في العصر الراهن فثمة أمثلة غنية على ذلك متوفرة في تجارب أمريكا الوسطى والجنوبية، فالحالات التي أصابت نجاحًا كانت في كوبا ونيكاراغوا بينما سحقت عشرات المحاولات الأخري، وكان أبرزها تجربة مارغويلا في حرب المدن أو تجربة غيفارا حين حاول تكرار تجربة كوبا في بوليفيا حيث الظروف كانت مختلفة تماما. إن عوامل النجاح أو الفشل في هذه الحالات تقررها في الغالب، ثلاثة عوامل رئيسية مترابطة:

- الأول مدى تماسك الحكم وجيشه أو تفسخه وتآكله، فإذا كان الحكم قويًا ومتماسكا والجيش موحدًا وراءه ومتماسكا فالعنف ينتهي إلى فشل أما إذا كان الجدار مصدعًا أو قابلا للتصدع، فالعنف، كما الانقلاب من المستويات الأدني، أو انفجار التظاهرات واتساع الاضطرابات يحمل قدرًا عاليًا من النجاح.

- الشرط الثاني: هو بلوغ اليأس عند الناس من النظام حدًا عاليًا فنراهم لم يعودوا يأملون في بقائه خيرًا، أو إصلاحًا، وقد ضاقوا ذرعًا بفساده وفضائحه وطغيانه ومظالمه وتفريطه بمصالح الناس، ومن ثم أصبحوا على استعداد للترحيب بالعنف ضده، وبالإنقلاب عليه، أو بالنزول الكثيف إلى الشوارع وتحدى الأحكام العرفية والقمع، هنا تصبح فرص النجاح عالية أما إذا كان الوضع الشعبي منقسمًا، أو لم يصل حد اليأس وأصبحت المواجهة بين الجيش والقوى الذاتية المقابلة بينما أغلب الناس في مواقع المتفرجين فإن النتيجة تحسم في مصلحة الجيش المنظم والأجهزة.

إن الوضع هنا يشبه إطلاق شرارة في سهل جاف قابل لاستقبالها أو إطلاقها في سهل رطب يتركها تختنق في مهدها.

- أما الشرط الثالث: فهو إقليمي - دولي وذلك بأن تترك السلطة لمصيرها، إما بسبب حالة اختلال خارجي في توازن القوى أي حين تنتقل قوى كبرى لتعدل ميزان القوى فيصبح ذلك في مركز الاهتمام الدولي مما يسمح بإفلات البعض، كما حدث في مرحلة إسقاط شاه إيران، وإما في حالة رضا خارجي عن عملية التغيير كحالة كوبا، أما إذا كان هناك ميزان قوى خارجي مثبت نسبيًا في مصلحة السلطة فالأمر يأتي مختلفًا كما حدث في الحالتين، في نيكاراغوا نفسها حيث ساعد

ارتجاج التوازن الخارجي في ظرف معين على النجاح «التراجع الأمريكي أمام السوفيت»، ثم أدى اختلال التوازن الخارجي السابق نفسه، «التراجع السوفيتي إلى حد التدهور» إلى انهيار سلطة الثورة لحساب خصومها.

المهم هنا ملاحظة أن ثمة شروطًا عامة أساسية يجب توفيرها أو توفرها ثم هنالك شروطا أخري، ترتبط بخصوصية كل بلد، لابد من مراعاتها عند أخذ القرار في اختيار استراتيجية التغيير، لاسيما عندما يطرح موضوع العنف على الأجندة، أو الانتفاضة الشعبية، أو التغيير من خلال انقلاب أو انتخابات عامة فاصلة.

تقليد التجارب الناجحة

هنالك تجارب لم تأخذ باعتبارها هذه المجموعة المعقدة من الشروط وبصورة حية، وذلك إما بالاكتفاء بتوفر عامل واحد فقط، وإما بنقل تجربة ناجحة في بلد معين نقلًا بعيدًا إلى بلد آخر كما حدث مع الذين حاولوا أن ينقلوا نظرية البؤرة المسلحة في الريف «كاسترو – غيفارا» أو نظرية البؤرة المسلحة في المدن «غريفاس – مارغويلا» أو نظرية حرب الشعب طويلة الأمد وتطويق المدن من خلال الريف – «ماو تسي تونغ» أو نظرية الانتفاضة المسلحة – تجربة ثورة أكتوبر في روسيا «لينين»، فقد كان يأتي بعد كل ثورة ناجحة عدد من تجارب فاشلة حاولت تقليدها فهذا النمط من التجارب المسلحة الفاشلة حاول تعميم تجربة معينة دون أن يأخذ بعين الاعتبار خصوصيتها، بلدًا وظروفًا إقليمية ودولية، ولا خصوصية وضع ميزان القوى فيها.

لقد أثبت التاريخ أن بعد كل تجربة ناجحة هنالك عملية تنظير وتعميم لها بقصد إعطائها صفة القدوة حتى من ناحية الشكل والأسلوب ثم هنالك محاولات تقليد بليد لا يراعي الخصوصيات، ومن ثم يأتي الناتج سلسلة من الفشل والكوارث، فكم من انتفاضات مدن غرقت بالدماء والفشل من برلين لبودابست إلى شنغهاي تقليدًا لثورة أكتوبر، وكم من مجموعات حاولت إقامة القواعد المحررة على طريقة «ماو تسي تونغ» وكان مصيرها الكارثة من الملايو إلى الفيليبين إلى الهند، وكم من بؤر مسلحة في الجبال تقليدًا لتجربة كاسترو انتهت بكوارث وكم من بؤر مسلحة في المدن في أمريكا اللاتينية حاولت أن تتبع نظرية مارغويلا قضي عليها وهي في المهد.

لذلك لابد من تعلم دروس التجارب الأخرى لا تقليدها، والأهم الإدراك أن لكل حالة خصوصيتها ويجب أن تفهم فهما عميقًا أصيلًا بكرًا.

– العمل من قاعدة حماية:

هنالك حالات من العمل المسلح الذي احتاج إلى قاعدة خارج بلده لتؤمن له الحماية ولينطلق منها كما حدث في حالات كثيرة تفوق الحصر أما قانون العنف في هذا النمط فتعرضه الدائم للتغيير وفقًا لموقف دولة الحماية، إما بسبب معادلات دولية، وإما بسبب ضغوط عالية، وربما عسكرية مباشرة وإما بسبب تشجيع الطرف المقابل لأعمال مسلحة من قبل المعارضة ضدها كذلك المهم أن القانون الحاكم لمثل هذا النمط يعتمد اعتمادًا أساسيًا على دولة الحماية وهنالك أمثلة لحالات استغلت فيها المعارضة للقيام بأعمال مسلحة من قبل دولة الحماية من أجل ممارسة الضغوط على الدولة المجاورة للقبول بمساومة ما، ثم تقع الفاجعة حين تتم الصفقة فتكتشف أنك كنت مجرد أداة، لـ

عملية دفعتك إليها المثل والمبادئ والآمال العراض، وإذ بها عملية لا علاقة لها بالتغيير وإنما سخرت لأغراض قطرية تريدها دولة الحماية ويمكن أن نجد في الصراعات العربية – العربية عددًا من الأمثلة على ما تقدم، كما تزود التجارب الكردية أمثلة بليغة على ذلك.

هنا أيضًا لابد من الفهم المعمق لطبيعة علاقات الدول ببعضها البعض، وعدم السماح بأن يستخدم المرء في عملية لا يدري أبعادها الحقيقية، وهو يظن أنه يمارس عملًا تغييريًا عظيمًا.

أما العمل من قاعدة الحماية بالنسبة إلى حركة جماهيرية تقود الشعب فعلًا في بلدها الأصلي فقد شذ عن الحالات المذكورة أعلاه، وهذا ما أثبتته تجارب في إفريقيا لاسيما حركة المؤتمر في جنوبي إفريقيا، وتجربة الثورة في فيتنام الجنوبية حيث أفيد من قواعد الحماية خارج الحدود.

وإذا ألقيت نظرة سريعة على مجموعة الحالات التي اعتمدت على قاعدة حماية من قبل دولة ضد دولة أخرى «شقيقة أو غير شقيقة» فالنتائج السلبية كانت غالبة وأعم، بينما النتائج الناجحة كانت محدودة جدًا وشاذة.

في العنف الخارجي

هنالك حالات من العنف لها علاقة بما سمي العنف الخارجي، أو الإرهاب الخارجي، ولاسيما الذي وجه ضد السفارات أو الطائرات، أو بعض المؤسسات، أو بعض الأفراد، وهو يعتمد على القتال الفردي من خلال مجموعة صغيرة، أو على التفجير، وهذا النمط من العمل لا يقدر عليه تنظيم صغير مستقل حتى لو اقتنع بجدواه، وأراد التفرغ له، لأنه يحتاج إلى إمكانات مادية وتقنية لا يمكن أن تتوفر لقوة صغيرة مستقلة، ومن ثم فهذا النشاط محكوم منذ البداية بالحاجة إلى دولة حماية وإلى دعم، أما أهدافه فلا تستطيع أن تتجاوز إزعاج الطرف المعني، أو الضغط عليه، أو إلحاق بعض الخسائر به، كما أن إمكانات نجاحه حتى في تلك الحدود تكون في حالة عد تنازلي بسبب قدرة الدول الكبرى على اتخاذ الاحتياطيات والإحباط المضاد، فضلًا عن قدرتها على الضغط الفعال ضد دولة الحماية، وقد أثبت هذا العمل أن ظروف الحرب الباردة كانت مواتية له وكثيرًا ما استخدم لأغراضها، بينما ضاق عليه الخناق بعد انتهائها وبعد نشوء الظروف العالمية الجديدة التي لم تعد تسمح بتوفير دولة حماية ودعم لمثل هذا النشاط، إلا بحدود ضيقة جدًا، ولم يعد قادرًا على ممارسته بحرية غير العدو الصهيوني بسبب الدعم الدولي له، وقد يتغير هذا الوضع في حالة حدوث تغيير جديد في ميزان القوى فيما بين الدول الكبرى وسيظل أسلوب مخابرات الدول ضد بعضها البعض لضبط سقف الصراع فيما بينها.

على أن الإشكال الأساسي الذي يواجه مثل هذا العنف بالنسبة إلى المستضعفين، فضلا عما تقدم، أنه يضع الجماهير في موقع المتفرج، وربما المصفق أحيانا، ولكن لا يمكن أن تقتدي به أو يكون وسيلة نضالها وهو بعيد عنها وفي أرض أخرى ومن ثم فهو أسلوب لا يمكنه أن يمس عملية التغيير داخل البلد المعني أو على مستوى الأمة، لأن هذه العملية تحتاج إلى قوة الملايين لمواجهتها، ومن ثم ينبغي لكل استراتيجية تغيير، أو مواجهة، أن تقدر فاعليتها بقدر تحريكها للشارع وتعبئة الجماهير وإشراكها في المجابهة.

يتبع

محمد الرسالة والرسول
مع النـــاس

د/ نظمي لوقا

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠).

هذا مسلم به. ولكن ما القول فى غير المسلمين؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٦٢).

وما هى علاقة الأمم والشعوب فيما بين بعضها وبعض؟.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣).

لتعارفوا.. هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب.

إنما هى المعرفة والعرف والمعروف. والأكرم بينهم أكثرهم تقوى. ومن اتقى الله ما ظلم وما بغى. وما أفتات وما أعتدى.

تلك هى شريعة الإخاء. وهى شريعة الحرية، التى لا تعرف قيصر، ولا تعرف عقدة إثم، ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله.

أفهى شريعة مساواة؟.

إنها لشريعة مساواة. وماهى شريعة تسوية! هى شريعة عدل. والعدل أن يؤتى كل ذى حق حقه، وأن يكون التقدير فرعاً عن القدر.. كذلك تتفاضل الأقمار والأشجار.. أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار؟.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

(الإسراء: ٥٥).

أجل!

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: ٩).

حاشا وكلا! لا يستوون. وإن كابر الجاهلون، أو ظلم الظالمون، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون! بل:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾

(المجادلة: ١١).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

(الأنعام: ١٣٢).

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

(الأنعام: ١٦٥).

كل إذن ينال على قدر عمله. ولكن بغير بغي، ذلك أنه يريد:

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للثراء أو إيثار للأموال الخاصة على المصلحة العامة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(التوبة: ٣٤).

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح، وما هو دفع بلاء داخلى أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة.. فذلك هو سبيل الله حقا، لأن الله غنى عن العباد، وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف علتهم ويسر لهم أمور معاشهم، فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾

(الحشر: ٧)

يتداولونه فيما بينهم استئثارًا واحتكارًا، وتلك قمة العسف بالناس وإذلالهم وإعناتهم فى أرزاقهم.

كل فى هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(التوبة: ١٠٥).

سيرى المؤمنون عملكم، وسيحاسبونكم عليه ويقدرونه لكم، كما سيقدره الله.

هو العمل إذن، ولكن لا للمعاش والمنفعة الذاتية فحسب، بل ابتغاء مرضاة الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة. وعلى قدر هذا يكون التقدير.

وهذا أمير المؤمنين ابن الخطاب يذهب فى تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعده مزيد:

«والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة».

ومن قال هذا فقد أراد أن الإسلام الصحيح أو الإيمان الصحيح هو العمل النافع للناس.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(الرعد: ١٧).

صدق الله العظيم!..

﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾

(الرعد: ١٧).

ذلكم هو العمل وذلكم هو الفضل. وذلكم هو الفوز العظيم. وليس اكتناز المال، واقتناء الصروح والضياع،

والاستكثار من الزخرف والمتاع.

وليس البر في البطالة والسجود. أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد، كلا:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾

(البقرة:١٧٧).

وعند قوله:

﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾

(البقرة:١٧٧).

وقفة لمن ألقى السمع وهو شهيد!

الله أعلم بحب الناس للمال وهو القائل:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

(الكهف:٤٦).

ولكن الإنسان المؤمن حقًا من يؤثر الواجب على هوى نفسه، ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم، فإن صلة الخلق قربى إلى خالقهم، فإنه بذلك:

﴿يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

(البقرة: ٢٤٥).

اعمل ويسر للناس أن يعملوا، ولا تحبس المال عن التداول بين أيديهم كافة وابذل مالك على حبك له للأقرباء واليتامى والمساكين والسائلين. ثم عليك بعد ذلك الزكاة:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾

(النساء: ١١).

فريضة لا يراد بها الكسالى. بل من أقعدتهم عن العمل العوائق، على طلبهم له ودأبهم في ذلك. فالكسب من العمل هو الأساس. ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب إعالته من مال الزكاة.

دين عمل، لا دين بطالة واستجداء

ونعود كرة أخرى إلى قوله:

﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾

فإنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية في دين الإسلام. وإنا لنجدها حيثما ذكرت الصدقة، سواء بالمال أو بالطعام، فجاء في سورة (الإنسان):

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

(الإنسان: ٨).

وفي (البقرة):

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾

(البقرة:١٧٧).

ففي ذلك مغزى الخلق الإسلامي وخاصته المميزة. فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع فحسب وليست من الأعمال التي يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورقي المعيشة في الأمة وصلاح الأحوال بموجب عقلي. بل هو عمل خلقي في المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية: وجه الواجب.

والفرق بين فعل عقلي وفعل خلقي في هذا المقام، هو الفرق بين ما هو بوحي من العقيدة وما هو بوحي من المصلحة، ضاق مداها أو اتسع.

فإننا نرى اليوم أمما بلغ عندها الفهم العقلي والتنظيم الاجتماعي المادي غاية مداه، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة. ولكنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء.

لماذا؟

وهنا ترتسم علامة استفهام ضخمة؛ لأن هذا هو الفيصل بين الروح والمادة، بين العقيدة والعقل، بين العاطفة والمصلحة. بل بين الله والإنسان!

إن التنظيم الاجتماعي العقلي أو المادي يستوحي تحسين حال المجموع بعامة، تحسينا ينعكس على كل فرد في ذلك المجموع.

ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو اليسر أو الرخاء، يصيب ماذا؟ أو يصيب من؟

إن التقدم المادي تحسين لظروف الآدمي، وليس تحسينًا لذات الآدمي. وتقدم لأحوال الإنسان، وليس تقدمًا يصيب ذات الإنسان ووجدانه. إنه رقي في الكمية، وليس رقيًا في كيفية الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة.

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليعجزه أن يجد لذلك طعمًا وجدانيًا عميقًا، أو رقيًا في قيمته ونهوضًا بمعنى إنسانيته، إنه كالبغل المزركش ولا زيادة.

أما الإنسان الذي يحس ارتباطًا بين قيمته وبين قيم الكون الكبرى. وبين أفعاله ومقاييس الأبد. وبين وجدانه وحقيقة الوجود. فالرضوان الذي يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته الإيمانية رضوان إنساني لا حيواني. روحي لا حسي.. بحيث يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيدًا من الارتقاء في الرضوان، والسعادة، يمتد إلى ماوراء القبر.

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادي.

بين يقين الروح وضياع المادة. بين حس الأخلاق وحساب المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رخاؤها.

وهذه هي أخلاق الإسلام:

بذل للمال والطعام على حبهما، ابتغاء لما في الإيثار من شعور بالنجدة، وقيامًا بالواجب الإنساني والفرض الإلهي، وطموحًا إلى نعيم لا يزول بعدئذ لمن عمل صالحًا.

أخلاق أساسها الشعور بالواجب، والقربى إلى الله في كمال صفاته وآلائه الحسنى

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾

(النحل:٦٠).

وأى مثل أعلى يلتمسه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى؟ إنه الرحمن، الرحيم، العليم، الخبير، اللطيف، البصير، السميع، المجيب، الودود.. إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حثًا لهم لا إعجازًا!

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(البقرة: ٢٨٦).

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

(البقرة: ١٧٣).

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانية.

﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾

(البقرة: ٢٧٢).

هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق، وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلي، ومن ينظمها لهدف مادي.. فالإسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة. ولكنه يضعهما فى حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق. فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان فتيلاً. فيكون كمن ختم على سمعه وبصره:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج: ٤٦).

إن التقدم المادى بغير السمو الروحي عمى مطبق. وقعود عن التحليق وارتباط وخيم بتراب الأرض، ولو جعلته تبرًا إبريزًا وبعد هذا السمو الروحي، فمصالح الناس المرسلة أهل للرعاية، وهم أعلم بشئون دنياهم.

وليس التنظيم الإسلامى لأمور الدنيا بنظام مقفل جامد..

بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم:

«لا ضرر ولا ضرار» (رواه أحمد ومالك فى الموطأ).

«وأنتم أعلم بأمور دنياكم» (رواه مسلم بسنده عن أنس).

فما لم يرد فيه نص بتحريم لسبب من أسباب العقيدة الروحية فلا بأس على الناس فيه، مالم يكن فيه ضرر لصاحبه أو إضرار بسواه.

خلق كريم وإيثار ونجدة ابتغاء وجه الله، واتقاء لغضبه فى معاملة الناس، وإصلاح لحال الدنيا من غير إضرار بالناس، وحرص على مصالح الجماعة. وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق بالعمل. وكفالة المتعطل والعاجز عن الكسب بالزكاة. وترفع عن الترف والإسراف فى البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات الجسد، فذلك هو النموذج الكامل للإنسان. يحب إخوته فى الله ويوفق بين دنياه وأخراه.. ويقهر شره الحس فى مكامنه لا فى صومعة بفلاة.

﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(النساء: ١٣).

حماية الأوطان واجب كل إنسان



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن مما لا ريب فيه، أن حماية الأوطان، واجب كل إنسان.. فلا يُمارى امرؤ ومعه عقله، أن الوطن بيته فيجب عليه أن يحافظ على أمنه وسلامته، وأن يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد أوجب الإسلام الدفاع عن الأوطان، وشرع الجهاد فى سبيل الله، دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض، ومن قتل فى سبيل الدفاع عن وطنه كان شهيدًا فى سبيل الله.

ولا تقتصر حماية الأوطان والدفاع عنها على مواجهة العدوان والدخيل فحسب، بل إن من الواجب فى حماية الأوطان مناهضة كل فكر مغشوش، أو إشاعة مغرضة أو محاولة استقطاب البعض لمصلحة أصحاب الأهواء المشبوهة.

كما تشمل حماية الأوطان المحافظة على أسراره الداخلية، وعدم التعامل مع أعداء الوطن أو من يريدون به السوء، أو ينفثون سمومهم فى أجواء المجتمعات بغيا منهم وعدوانا.

• ومن الأوطان ما هو خاص، مثل وطن الإنسان الذى يعيش فيه.. وبلده الذى نشأ على ظهره، ودولته التي يحيا فيها.

• ومن الأوطان أيضًا: ما هو عام مثل العروبة والإسلام فالعالم العربي، وطن كل إنسان عربي، والعالم الإسلامى وطن كل إنسان مسلم.

• ومن الأوطان الوطن الأعم وهو الإنسانية جمعاء عربًا كانوا أو غير عرب، مسلمين كانوا أو غير مسلمين وفى كل نوع من أنواع الأوطان جاءت توجيهات الإسلام واضحة جلية فى حمايتها والدفاع عنها فى كل وقت وحين، وفى كل حال من الأحوال، لأن الإسلام دين عالمي ودين الرحمة أرسل رسوله سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين كما قال رب العزة سبحانه وتعالي:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

• ولنبدأ بالحديث عن الوطن الخاص وهو الذى يعيش فيه الإنسان وينتمي إليه، فنرى

حماية الأوطان واجب كل إنسان

أن الإسلام أوجب على الإنسان حب وطنه وشرع الجهاد من أجل الدفاع عن العقيدة والوطن.. ودعا إلى حماية الوطن من أعدائه، وممن يريدونه بسوء، وممن يريدون إحداث القلاقل والفتن وإثارة المخاوف والاضطراب، وأن واجب كل إنسان أن يتصدى للفتن ما ظهر منها وما بطن والذى يحدث القلاقل أو يشجع عليها أو يدعو لها ليس بكامل الإسلام، فقد قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وقال أيضا: «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم».. ولقد أكد رسول الله ﷺ فى حجة الوداع على هذه الحقوق وقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

ومن الخيانة العظمى أن يخون مواطن وطنه ويتآمر ضده من أجل منفعة مادية!! ومن فعل مثل ذلك كان بعيدًا عن الدين بعيدًا عن الله، لأن المؤمن الحقيقى من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وإن الإنسان الذى يخون وطنه ويتآمر مع أعدائه إنسان بعيد عن حظيرة الإيمان، إنه يرتكب أبشع أنواع الخيانة، إنه يخون الله الذى أمر بالدفاع والجهاد من أجل الوطن، ويخون رسول الله ﷺ الذى أمر بحماية أمانة الوطن، ويخون أماناته نفسه وأمانات الناس وقد قال رب العزة سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
(الأنفال: ٢٧)

فواجب أبناء الوطن أن يكونوا عيونًا ساهرة لحماية أمن الوطن وأن يتضامنوا فى درء أى خطر يتهددهم وأن يتكاتفوا جميعًا عن بكرة أبيهم وبلا استثناء على ردع كل من تسول له نفسه أن يجترئ على الوطن وأن يسعى بذمتهم أدناهم، وأن يكونوا يدًا على من سواهم، بغض النظر عن عقائدهم فيجب أن يتعاونوا جميعًا مسلمين وغير مسلمين.

وأعظم صورة يقتدى بها فى ذلك ما فعله رسول الله ﷺ فور هجرته من مكة إلى المدينة حيث بنى المسجد توثيقًا للصلة بالله، وآخى بين المهاجرين والأنصار توثيقًا للصلة بين المسلمين، وأبرم صحيفة المدينة توثيقًا بين المسلمين وغير المسلمين دفاعًا عن الوطن، وحماية له من أى عدو يناوئه أو أى خطر يتهدده.. وأعطى بهذا نموذجًا من أرقى النماذج فى الحفاظ على سلامة الوطن وأمنه واستقراره، ليقتدى به العالم كله بعد ذلك وكانت هذه الصحيفة التى أبرمها فى المدينة بين المسلمين وغير المسلمين أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان حيث شرط لغير المسلمين وشرط عليهم ووحد كلمة الجميع على أن يتضامنوا فى الحفاظ على الوطن ودرء أى خطر يوجه من أعدائه إليه.

● وأما بالنسبة للوطن العام وهو العروبة والإسلام فذلك لأن كل عربى يجب أن يصون أمن أخيه العربى وأن كل مسلم يجب أن يحمى أخاه المسلم فى أى مكان على ظهر المعمورة، لأن الجميع إخوة كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» رواه البخاري.

وتضامن المؤمنين يجعل منهم بناء واحدًا يشد بعضه بعضًا كما قال الرسول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا» رواه البخاري.

● وأما بالنسبة للوطن العام الكبير وهو

الإنسانية جمعاء، فيجب على جميع الناس أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾
(الحجرات: ١٣)

إن واجب بنى آدم فى كل الأرض ألا يتصارعوا وألا يتنازعوا بل عليهم أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾
(الحجرات: ١٣)

آدم والد الجميع فحُمْق.. وضلال تفاخر الأبناء وإذا كنا نتنادى إلى نشر الأمان والاطمئنان فى الأرض، انطلاقًا من أننا أبناء أب وأحد وأم واحدة على مستوى الإنسانية جمعاء فإن الواجب كذلك ألا تشتعل الحروب ولا تنتشر أسلحة الدمار الشامل، وبدل أن تبدد الأموال الطائلة على أسلحة الدمار، تُنفق على رفع مستوى حياة الناس وإشباع البطون الجائعة ونشر الخير والأمان.

ويذكرنا انتصارنا فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر كيف تم هذا النصر، وأنه إنما تم نتيجة الإيمان الصادق، والأخذ فى الأسباب وإعداد العدة التى أمر الله تعالى بها فى قوله سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾
(الأنفال: ٦٠)

ونتيجة نصرنا لتعاليم الإسلام

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾
(محمد: ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾



انتقل إلى رحمة الله تعالى الأستاذ الدكتور على أحمد الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر الأسبق صباح يوم الجمعة ١٣ من ربيع الأول سنة ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٥ من يناير سنة ٢٠١٣م.

وأسرة مجلة الأزهر تنعى فقيدها الراحل وتشكر له جهاده ودعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

تغمد الله الفقيد بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة

مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين



للإمام الراحل الدكتور/ محمد سيد طنطاوي

بينا فيما سبق، بعض الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم، لدعوة بنى إسرائيل، إلى الدخول فى الإسلام، وسقنا بعض النماذج التى تدل على إنصاف الإسلام لهم، وسماحته معهم، ومودته إياهم.

وقلنا: إن اليهود لم يقابلوا هذه المعاملة الكريمة بمثلها، بل سلكوا كل طريق للقضاء على الدعوة الإسلامية.

وفى هذا الفصل سنذكر بعض المسالك السيئة، التى اتبعها اليهود، لكيد الإسلام والمسلمين، بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وقبل أن نتكلم عن مسالكهم الخبيثة، نحاول أن نجيب على الأسئلة الآتية:

أولاً: هل كان اليهود فى المدينة على علم بظهور النبى ﷺ وبأخباره قبل أن يهاجر إليها؟

ثانيًا: كيف استقبل اليهود النبى ﷺ عند وصوله إلى المدينة مهاجرًا؟

ثالثًا: لماذا سالم اليهود ـ فى مجموعهم ـ الدعوة الإسلامية أول الأمر، ثم ناصبوها العداء بعد ذلك؟

للإجابة على السؤال الأول نقول:

إن اليهود فى المدينة لم يكونوا يجهلون ظهور النبى ﷺ فى مكة، للأسباب الآتية:

أولاً: كان بعض اليهود يأتون إلى مكة، لأشغال تجارية، وأعمال مختلفة، وأهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق، التى كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها، حين زفافهن، وكان سكان المدينة ـ أيضًا ـ من الأوس والخزرج يأتون إلى مكة؛ لقصد التجارة، والطواف بالكعبة، وغير ذلك من أنواع الأعمال.

ولا شك أن هذه الاتصالات من تلك الأطراف، كان يتخللها الحديث عن الدين الجديد الذى جاء به محمد بن عبدالله ﷺ.

ثانيا: سبق لقريش ـ خلال وجود الرسول ﷺ بينهم ـ أن بعثت « النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط » إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد ﷺ وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول.

- سلوه: عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب؟
- وسلوه: عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟
- وسلوه: عن الروح ما هي؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وأن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا فيه ما بدا لكم.

فانصرف «النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط» حتى قدما مكة، وأخبرا قريشًا بما سمعا من أحبار اليهود، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد:

أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، وقد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟

فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا عما سألتم عنه» ولم يستثن ـ أي: لم يقل إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل ـ عليه السلام ـ حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشئ عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل – عليه السلام – من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه، على حزنه عليهم، وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وجاءه بقوله تعالي:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1)

(الإسراء:٨٥)

ثالثًا: كان اليهود فى المدينة إذا ما نشب بينهم وبين الأوس والخزرج نزاع، هددوهم بقولهم: إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، وإننا سنتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة:٨٩)

الاستفتاح: طلب الفتح، أي: النصر قال تعالى:

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾

(الأنفال:١٩)

فمعنى يستفتحون يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوهم فيقولون: اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان، والذى نجد نعته وصفته فى التوراة، فلما جاءهم هذا النبى الذى استنصروا به، لم يتبعوه، وكفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

رابعًا: كان النبى ﷺ فى السنوات القليلة التى سبقت الهجرة يلتقي، خلال عرض دعوته

(1) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٧١ طبعة الحلبي.

على القبائل فى موسم الحج، بأفراد من الأوس والخزرج، وكان عندما يدعوهم إلى الإسلام، ينظر بعضهم إلى بعض، ويقول: «والله إنه للنبى الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه».

وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل النبى ﷺ إلى أهل المدينة «مصعب بن عمير» لكى يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، فانتشر الإسلام فى كثير من بيوت المدينة.

ثم كانت بعد ذلك بيعة العقبة الكبري، التى اشترك فيها اثنا عشر نقيبًا، من نقباء الأوس والخزرج، والتى قال فيها الزعيم الخزرجى «أبو الهيثم بن التيهان» لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال -أى اليهود- حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا»؟

فتبسم الرسول ﷺ وقال «بل الدم الدم، والهدم الهدم (٢) أنتم مني، وأنا أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

والأمر الذى يهمنا تأكيده هنا، هو أن اليهود لم يكونوا يجهلون تلك المبايعات التى تمت بين الرسول ﷺ، وبين أهل المدينة قبل الهجرة، ولم يكونوا غافلين عن اتجاه سير الدعوة الإسلامية صوب يثرب، وانتشارها بين أهلها.

وكيف يجهلون والحال أن الإسلام لم ينتشر خفية فى المدينة؟، فها هو ذا «مصعب بن عمير» يدعو الناس إلى الله ورسوله، أمام الجميع، وها هو ذا ينتقل من حى إلى حي، ومن بطن إلى بطن، والغبطة تملأ فؤاده، لأنه يرى أن الدعوة الإسلامية قد وجدت أرضًا خصبة بين أهل المدينة، وأن أتباعها فى يثرب يزداد كل يوم عددًا وسلطانًا.

ولكن: ما هى أهم الأسباب التى جعلت الأوس والخزرج يتقبلون دعوة الإسلام قبولاً حسنًا، ويسارعون إلى الدخول فيها بقلوب منشرحة؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن اختلاط الأوس والخزرج بيهود يثرب، كان له أثر روحى عميق، فقد كان اليهود، وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية، يعيبون عليهم اتخاذهم الأوثان آلهة، وكانوا يتوعدونهم بظهور نبى جديد، يتبعونه فيقتلونهم على يديه، ويجعل ملك العالم تحت سلطانهم، فهذه المناقشات الدينية -فضلاً عن الفتن والحروب، التى أنهكت الأوس والخزرج، بسبب دس اليهود بينهم جعلت سكان يثرب يستقبلون الدعوة الإسلامية استقبالاً طيبًا، ويرون فيها وفى الداعى إليها ﷺ المنقذ لهم مما هم فيه، من شقاق واضطراب.

وبذلك نستطيع أن نقول فى نهاية الجواب على السؤال الأول: إن اليهود لم يكونوا على علم فقط بظهور النبى ﷺ وبأخباره، بل إن وجودهم بالمدينة وضواحيها، كان من أهم الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فيها وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة، ولا مقصودة منهم، كما يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون.

بعد هذا نجيب على السؤال الثانى وهو: كيف استقبل اليهود النبى ﷺ عند هجرته إلى المدينة؟ فنقول:

فى يوم من أيام التاريخ المشهود وبينما المسلمون فى المدينة، كانوا ينتظرون كعادتهم قدوم النبى ﷺ بعد أن ترامت الأخبار إلى مسامعهم بهجرته إليهم، صاح بهم يهودي، وقد لمح الركب النبوى: «يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء» (٣).

أخرج البخارى فى حديث الهجرة: «أن المسلمين فى المدينة حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا إلى أهليهم بعد أن طال انتظارهم فلما آوو إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم الأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته:

يامعشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة (٤).

واشترك اليهود -فى مجموعهم- مع المهاجرين والأنصار فى حسن استقبال صاحب الدعوة ﷺ وإنما قلنا -فى مجموعهم- لأن الأخبار الصحيحة حدثتنا أن بعض اليهود قد تنكر للدعوة الإسلامية، وتوجس خيفة من صاحبها ﷺ منذ اليوم الأول من الهجرة.

فعن صفية بنت حى بن أخطب -رضى الله عنها- قالت: «كنت أحب ولد أبى إليه، إلى عمى أبى ياسر لم ألقهما فى ولد لهما قط، وأهش إليهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم النبى ﷺ ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف، غدا إليه أبى وعمى أبو ياسر مغلسين، قالت: فوالله ما رجعا إلا مع مغيب الشمس، قالت: فرجعا إلينا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إلى واحد منهما، مع ما بهما من الغم قالت: وسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال نعم والله قال: أتعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله قال: فماذا فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(٥).

وذكر موسى بن عقبة، عن الزهرى أن أبا ياسر بن أخطب، لما قدم النبى ﷺ المدينة، ذهب إليه وسمع منه وحادثه، ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعونى فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حيى بن أخطب وهو يومئذ سيد اليهود، وهما من بنى النضير فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، ثم رجع إلى قومه وكان فيهم مطاعًا فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدوا أبدا، فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أمي، أطعنى فى هذا الأمر، واعصنى فيما شئت بعده لا تهلك قال: لا والله لا أطيعك أبدًا واستحوذ عليه الشيطان، واتبعه قومه على رأيه، قلت: أما أبو ياسر فلا أدرى ما آل إليه أمره، وأما حيى فشرب عداوة النبى ﷺ ولم يزل ذلك رأيه حتى هلك (٦).

فمن هذين النصين نرى أن بعض اليهود قد أضمروا سوءاً للدعوة الإسلامية منذ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، ومع ذلك فإن النبى ﷺ قد تغاضى عن عداوة هذا البعض دون أن يجهلها، وعمل على نشر روح التعاون والمودة

---

(٢) الهدم: إهدار دم القتيل. يريد إن قتل طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا.

(٣) نسب الأوس والخزرج الذين يجمعهم أب واحد إلى أمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة، ولذا كانوا يسمون بأبناء قيلة.

(٤) صحيح البخاري باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة جـ ٥ ص٧٧ طبعة صبيح.

(٥) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص١٤٠.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص٢٤٢.

مع اليهود، فتحدث إلى رؤسائهم وتحدثوا إليه وتقرب منهم وتقربوا منه، وأباح للمسلمين أن يؤاكلوهم وأن يتزوجوا من نسائهم، وفرح اليهود عندما رأوا النبي ﷺ والمسلمين يستقبلون في صلاتهم بيت المقدس، الذي هو قبلة بني إسرائيل في صلاتهم.

وقد أراد النبي ﷺ بجانب حسن معاملته لهم، أن يزيد في أسباب التعاون وتبادل المنافع معهم، فعقد بينه وبينهم معاهدة عادلة، أمنهم فيها على أنفسهم، وأموالهم، وعقائدهم، وضمنها ما فيها خيرهم، وخير المسلمين، قال الإمام ابن كثير: قال محمد بن إسحاق، وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم وهذا نصه [٧]:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

١ـ هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين، من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم[٨] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٩] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ـ وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون، معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٥ـ وبنو الحارث «من الخزرج» على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولي، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٦ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٧ـ وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٨ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٩ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١٠ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١١ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١٢ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحًا[١٠] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣ـ وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[١١] ظلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأ أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.

١٤ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن

١٥ـ وأن ذمة الله واحدة: يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٤.

(٨) ربعتهم: أمرهم الذي كانوا عليه.

(٩) العاني: الأسير.

(١٠) المفرح هو من أثقله الدين والغرم فزال فرحه.

(١١) الدسع: الدفع والمعنى: طلب دفعا على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم.

١٦ـ من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.

١٧ـ وأن سلم المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن، في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب[١٢] بعضها بعضًا.

١٩ـ وأن المؤمنين يبيء[١٣] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله

٢٠ـ وأن المؤمنين المتقين علي أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١ـ وأنه من اعتبط[١٤] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود[١٥] به إلا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ورسول الله ﷺ.

٢٤ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ[١٦] إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦ـ وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ـ وأن ليهود بني حارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ـ وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ـ وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ـ وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ـ وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهله.

٣٢ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ـ وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الأثم.

٣٤ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦ـ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وأنه لا ينحجز على ثار جرح وأنه من فتك فبنفسه، وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

٣٧ـ وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

(١٢) أي يكون الغزو بينهم نوبا يعقب بعضهم بعضا فيه.

(١٣) من أباءه القاتل بالمقتول إذا قتلته به.

(١٤) اعتبطه: قتله بلا جناية توجب قتله.

(١٥) فإنه قود: أي فإن القاتل يقاد به ويقتل.

(١٦) لا يوتغ: لا يهلك ويفسد.

٣٨ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٣٩ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١ـ وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن من أهلها.

٤٢ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٣ـ وأنه لا تجار قريش، ولا من نصرها.

٤٤ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٥ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٦ـ وأن يهود الأوس مواليهم، وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الأثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٧ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ (١٧).

هذه هي المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ بين طوائف اليهود؛ وقد تضمنت كثيرًا من المبادئ السامية، والأسس التي يجب أن تقوم عليها العلاقات بين الأمم، وهذه بعض الأمور التي يمكن أن تستخلص منها:

أولاً: نصت المعاهدة على كفالة الحرية الدينية لليهود، وأباحت لهم أن يقوموا بأداء شعائر دينهم، بدليل أن من بين بنودها (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

ثانيًا: في المعاهدة روح اجتماعية عالية، فهي تقرر أن من خالف نصًا من نصوصها، واعتدى على أحد ممن تكفل لهم الأمن والسلامة، فإن أهل الصحيفة كلهم حرب عليه، وفي ذلك اعتراف صريح بشخصية الجماعة، وأن لها حقوقًا على الأفراد وعليها واجبات نحوهم، وأن سلامة المدينة يشترك في تحقيقها جميع سكانها.

ثالثًا: المعاهدة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الصادق مع اليهود، من أجل نشر الطمأنينة، والأمن في المدينة، والضرب على أيدي العادين، ومدبري الفتنة أيا كان دينهم، أو جنسهم بدون تفرقة، أو تمييز بين أحد، وإذا حصل عدوان خارجي على المدينة، فالمسلمون واليهود يشتركون في الدفاع عنها.

رابعًا: اشتملت المعاهدة على كثير من المبادئ الإنسانية السامية، كنصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة، والتعاون على دفع الدية، والفداء الأسري، ومساعدة المدين، إلى غير ذلك من المبادئ التي تشعر أبناء البلدة الواحدة كأنهم أسرة واحدة.

خامسًا: نصت المعاهدة على ما كان بين المسلمين وبين قريش من عداوة حينئذ وحرمت على من اشترك فيها من مسلمين أو يهود، موالاة قريش أو مناصرتها، أو إيواء أحد منها، وأن من فعل ذلك فعليه لعنة الله وغضبه

(١٧) سيرة النبي ﷺ لابن هشام جـ ٢ ص ١١٩ المكتبة التجارية

يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

سادسًا: نصت الصحيفة على وجوب اشتراك اليهود مع المسلمين في دفع ما عليهم من نفقات في حالة الحرب، كما نصت على وجوب مؤازرتهم ومناصرتهم للمسلمين بكل طريقة ممكنة، فقد جاء فيها (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب)

سابعًا: نصت الصحيفة على أن كل أمر يختلف فيه أهلها يكون مرد الحكم فيه إلى النبي ﷺ لأنه صاحب السلطة العليا في المدينة.

ثامنًا: تضمنت الصحيفة أن من ارتكب إثما يوجب عقوبة نفذت عليه، وأن اشتراكه في هذه الصحيفة لا يعفيه من العقوبة، ومن بين نصوصها (وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم)

تاسعًا: من المكاسب التي نالها المسلمون عن طريق هذه الصحيفة، أنهم أصبحوا أمام عدو واحد هو قريش، لأن الصحيفة أمنتهم جانب اليهود، لو أنهم - أي اليهود - حافظوا على ما اشتملت عليه من مبادئ، ولم ينقضوها بعد زمن قليل من كتابتها.

عاشرًا: ومن المكاسب التي ظفر بها اليهود بسبب هذه المعاهدة حماية المسلمين لهم من أي اعتداء عليهم، فقد نصت المعاهدة على (أنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم) ولكن اليهود لم يحافظوا على هذه المكاسب لعدم وفائهم بعودهم.

هذا وقد علق الأستاذ عبدالرحمن عزام على هذه الصحيفة بقوله:

«هذه المعاهدة من أنفس العقود الدولية، وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير، من كافة الناس، وما أولاها بأن تكون نبراسًا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخري، هذا فضلاً عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة.

هذه المعاهدة تعاقد فيها المسلمون مع غيرهم من أهل الديانات الأخري، فنشأ عن ذلك أول ميثاق (لجمعية أمم) أساسه النصر للمظلوم، والنصح والنصيحة، والبردون الأثم، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم.

ولقد سبق الإسلام بهذه المعاهدة عهد (عصبة الأمم) الحديثة، بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا وهكذا وضع الرسول ﷺ الأساس المتين للدولة العالمية، وللمعاملات الدولية في هذا الميثاق على أساس الحرية للمشتركين فيه، وعلى مبدأ الاستقلال»(١٨)

ومن كل ما تقدم نستخلص: أن اليهود كانوا على علم بأخبار الدعوة الإسلامية في مكة، خصوصًا في السنوات الأخيرة التي سبقت الهجرة، وأنهم - في مجموعهم - قد استقبلوا النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة استقبالاً فيه مجاملة، وأن عهدًا - ليس بالطويل - من العلاقات الهادئة بينهم وبين المسلمين قد ساد المدينة بعد الهجرة.

(١٨) من كتاب الرسالة الخالدة للأستاذ عبدالرحمن عزام - رحمه الله - ص ٦٥

من فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

الظهور أمام الرجال للدراسة

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il، إبريل ٢٠٠٦م

فتوى من: الحاخام أيال كرايم

• سؤال: تحية للحاخام الموقر، اسمي هيلا، وأنا طالبة في السنة الأولى بالجامعة العبرية. أدرس التربية والمسرح وأعتزم أن أعمل - بمشيئة الله - مستقبلاً في علاج الشباب من خلال المسرح، والدراما النفسية (السايكودراما). وكما تعرف فإن هذا المجال غير شائع بين الجمهور الديني، وانطلاقاً من معرفتي عن قرب بالمشكلات التي يعاني منها شباب الجمهور الديني قررت اقتحام هذا المجال.

وعلى أية حال، مازال أمامي عدد قليل من الدورات المصحوبة أيضاً بالممارسة العملية. عندما التحقت بالجامعة كان واضحاً لي أنني لن أتخلى عن القيود التي التزمت بها فيما مضى من أجل الدراسة، كالرقص أمام الشباب، والتلامس، وإقامة علاقة صداقة مع شباب بغير هدف الزواج. صحيح أنني نشأت في مجتمع مختلط، في بني عكيفا، إلا أنني قررت أثناء أدائي الخدمة الوطنية إنهاء علاقات الصداقة بيني وبين الشباب، وقد أصبحت العلاقة بيني وبين الشباب حالياً رسمية بدرجة أكبر وتنحصر في حدود العمل وما شابه ذلك. إنني أحاول جاهدة أن أحافظ على هذا الأسلوب الرسمي في التعامل مع الشباب في الجامعة أيضاً، وأتجنب الدخول في أحاديث طويلة، إذ الدراسة المشتركة.. لديَّ على أية حال حالياً دورة يُطلق عليها ورشة تمثيل يشارك فيها خمسة شباب و٢٥ فتاة.. وندرس في الدورة كيف نمثل، وكيف نستعمل لغة الجسد وما شابه ذلك، وكذلك كيفية استخدام الصوت وما إلى ذلك. وخلال الدرس السابق، أبلغت المحاضرة أنني لا أستطيع أن أفعل كل شيء في الدورة بسبب التحريم الديني، وقد تفهمت موقفي وقالت لي إنني عندما أقرر ألا أفعل شيئاً ما فإنها ستتفهم ذلك ولن تجبرني على فعله. ولكنني حاليًا أواجه مشكلة أخرى، فمن الواضح أن جميع الأمور التي ذكرتها لك تفصيلاً، لن أفعلها، ولكن ماذا أفعل عندما يُطلب مني التمثيل الصامت (البنتومايم).

إننا نقوم بتدريبات صوتية بشكل جماعي بطريقة تجعل الصوت غير واضح بين الأصوات الأخرى أثناء تقديم نص، وأنا أعرف أن هناك إشكالية في هذا، لأن التحريم يتمثل في أن الاهتمام يتركز على المرأة، ولكنني أسألك هنا هل يوجد مجال للتخفيف إذا وضعنا في اعتبارنا الحقائق التالية:

- أن علاقتي بالشباب في الدورة تنحصر في تبادل التحية فقط.
- أنني أفعل هذه الأشياء بغرض الدراسة ولكي أساعد البشر مستقبلاً، والمشكلة هي أن الحصول على شهادة علمية في المسرح من كلية إيمونا غير معترف به.
- معي في الدورة عدد محدود للغاية من الشباب ٥ من بين ثلاثين.
- الأنشطة التي أتحدث عنها محل خلاف، ولا يوجد حكم قاطع بشأنها في الشريعة اليهودية، مثلما يوجد بالنسبة للغناء والرقص، أو تمثيل مشاهد غير محتشمة.

هل يجوز لي الوقوف جانبًا والتدرب في ركن من القاعة لا يوجد به سوى عدد محدود من الرجال؟

أيها الحاخام لقد تحدثت تفصيلاً عن خلفيتي المتعلقة بحدود الاحتشام بين الرجل والمرأة حتى تستطيع أن تفتيني انطلاقاً من البيئة التي نشأت فيها، لأن هذه المسألة مهمة بالنسبة لي. إنني أدرس في الجامعة لكي أحصل على شهادة علمية لمجرد أن أبدأ العمل في هذا المجال وليس من أجل المجتمع أو الأنشطة الاجتماعية، من المهم أن تدرك أنني على دراية بالإشكالية الكامنة في لقاء الشباب والفتيات، ولذلك أحاول جاهدة تجنب الاختلاط، وحتى في الدروس العملية أحرص على التعامل بشكل رسمي، على الرغم من أنني أدرس في جامعة مشتركة، الأمر الذي يثير مشكلات، إلا أن هذا موضوع مستقل بذاته ولن أتطرق إليه هنا، وعلى أية حال أشكرك لو أجبتني في أسرع وقت.

•• جواب:

لا يجوز القيام بحركات جسمانية أمام الرجال، كما لا يجوز إجراء تدريبات جماعية للصوت معهم، لأنه حتى لو وصل صوتك إلى البنات اللاتي يقفن بجوارك فقط، فإنك بذلك ستكونين شريكة في إثم الانضمام لمجموعة من المغنيات مع رجال.

أيال كرايم

زيارة قبور الصديقين
للمرأة الحائض، للبنات فقط

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il، نوفمبر ٢٠٠٥م

فتوى من: الحاخام شموئيل الياهو

• سؤال: التحية لحضرة الحاخام!

سمعت أنه توجد قيود بالنسبة لزيارة الفتيات الحائضات غير المتزوجات لقبور الصديقين وللمقابر بصفة عامة. هل هذا اعتقاد خاطئ أم أنه من الشريعة؟ شكراً مسبقاً

•• جواب: استعنت بالرب،

القبور ليست مكاناً للنساء بشكل عام ولاسيما النساء اللاتي لم يتطهرن، بخاصة في فترة الحيض. وذلك بسبب الأرواح الشريرة التي تتواجد في المقابر.

وبخلاف ذلك من الأفضل ألا تسير النساء في الجنازة وراء النعش - المكان الذي يوجد فيه ملاك الموت وصحبة الشر، ومن الممكن أن يتسببوا في إيذاء النساء اللاتي يذهبن إلى هناك. وهناك نساء لم يرين القبور من الداخل أبداً وستحل عليهن البركة.

كل هذا ليس من قبيل التحريم ولكن من قبيل الموعظة الحسنة.

ما الفرق بين التحريم والموعظة؟

إذا ذهبت الأسرة كلها إلى المقبرة من أجل ذكرى أحد أقارب الأسرة، وكانت إحدى النساء حائضاً، فإنها إذا لم تذهب سيكون الأمر موضع تساؤل وربما ستكون هناك إهانة أيضاً. وهنا لا داعي أن تحرج نفسها أو تتسبب في نزاع داخل الأسرة. في هذه الحالة تحرص على إبعاد نفسها عن نعش الميت و/أو عن القبور ذاتها على الأقل أربعة أذرع أي مترين. كما يجدر بالرجال الذين لم يتطهروا ألا يدخلوا المقبرة إطلاقاً. أما قبور الصديقين التي ليست في المقابر، فلا ينطبق عليها هذا المبدأ. ولو أن من المفضل دائمًا أن تكون الصلاة على طهارة ولذلك يتطهر البعض قبل كل صلاة.

قصص الأنبياء:

موسى عليه السلام

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب

ولادته وإرضاعه

في أثناء تلكم العاصفة الهوجاء التي مرت ببني إسرائيل في مصر والأهوال التي يلاقونها.

كان رجل عبراني يقال له عمران «عمرام» بالعبري» بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام - قد تزوج من عمته يوكابد بنت لاوي - كما هو مقتضي الآية ٢٠ من الإصحاح الثاني من سفر الخروج ونصها «وأخذ عمران يوكابد زوجة له فولدت له هارون وموسي» ومعلوم أن زواج العمات لم يكن قد نزل الأمر بتحريمه لأن ذلك إنما كان علي يد موسي بعد خروج بني إسرائيل من مصر - ولما ولدته خبأته عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل لقتل ذكرانهم، فمكث عندها ثلاثة أشهر، فلما خافت افتضاح أمرها، أعلمها الله تعالي وعلمها أن تصنع له ما يشبه الصندوق وتطليه بالحمر والزفت وتلقيه في اليم، ففعلت وناطت بأخته أن تتبع أثره وتعلم علمه، وكان الله تعالي قد أعلمها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين. فلم تزل أخته تراقبه حتي علمت أنه التقط وأدخل دار فرعون، وأن عين زوجة فرعون وقعت عليه فالقي الله عليه محبتها، فاستحيته وأبقته ليكون قرة عينها وعين فرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا، وهذا تدبير من الله لموسي وأمه لأنه سيعود إليها لتكون ظئرا له وتتقاضي علي إرضاعه أجرا وهي آمنة كيد الكائدين وسعي الساعين.

وكيفية إعطائها إياه لترضعه. أن الله تعالي زهده في المراضع فلم يقبل علي ثدي إحداهن - رحمة منه تعالي بأمه - وكانت أخته تقص أثره وتتبعه أينما سير به حتي رأت إعراضه عن الثدي، فعرضت علي آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه وتكفله، وأنها تكون له ناصحة مشفقة تقوم له مقام الأم وكان اسم أخته مريم.

صادف قول مريم من آل فرعون أذنا مصغية، وبعثوها في طلب الظئر، فجاءت بأمها وأمه علي التحقيق. فاقبل علي ثديها فالقوا إليها بموسي لترضعه وهو موضع عنايتهم.

اقرأوا هذه الآيات

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(القصص: ٧ - ١٣)

وقد ذكرت التوراة قصص ولادة موسي وإرضاعه أولا، ثم صنع سفط له وطلاءه بالحمر والزفت، وإلقائه.

خرجت ابنة فرعون ومعها جواريها إلي شاطيء النهر، وأنها نزلت تغتسل فعثرت علي السفط الذي فيه موسي. لأنها رأته بين الحلفاء فأمرت جواريها فأتين به إليها، فعلمت أنه عبراني وأحبته.

وللحال عرضت عليهم مريم أخت موسي أن تأتيهم بأمها لترضعه، فبعثتها في ذلك فعادت بها وناطوا بها إرضاع موسي وتربيته.

والقصة هناك ليس فيها اختلاف له شأن مع ما قصه القرآن الكريم. غير أن القرآن يقول إن التي تبنته امرأة فرعون، وما في سفر الخروج يقول إنها ابنته. ولعل امرأته كانت واسطة بين بنته وأبيها، وهي التي تولت تحسين أمر استبقائه لفرعون - فالخطب هين.

وأمر آخر هو أن القرآن يذكر أن الله أمرها بإلقاء التابوت في اليم - أي الماء - وأن الماء سيلقيه بالساحل. والتوراة تذكر أنها وضعته بالساحل بدأة ذي بدء.

تربية موسي في بيت فرعون

طبعي أن تكون أم موسي بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به إلي بيت فرعون وتولي البلاط الفرعوني تربيته، كما كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام، وأن يكون موسي قد تعلم تعليما راقيا ويضاف إلي ذلك ما أفاضه الله عليه في كبره من الحكمة والعلم الثابت في قوله تعالي:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(القصص: ١٤)

وقد ذكرت التوراة أن أم موسي ردته إلي ابنة فرعون فاتخذته ولدا وأسمته «موسي» وقالت إني انتشلته من الماء ولفظ «موسي» في العبري «موشي» بإمالة حركة الشين إلي الكسرة.

خروج موسى من مصر إلى أرض مدين، وسببه

شب موسى فى بيت فرعون. وكان قوى البأس وافر القوة. ولم يخف عليه أنه دخيل فى بيت فرعون، وأنه إسرائيلى من ذلك

الشعب المضطهد من فرعون وآله، فكان ظهيرا للعبرانيين قومه ـ وقد جاء في الطبري أنه من حين شب موسى وقوى كف عادية المصريين عن بني إسرائيل. ومن الأمور الطبيعية أن يعرف فيه بنو إسرائيل الظهير والنصير. وأن يلجأ إليه المظلومون منهم.

خرج موسى يومًا على حين غفلة من أهل المدينة فوجد رجلا مصريا يأخذ عبرانيا ليسخره في بعض عمله. فاستغاث العبراني بموسى فجاء إلى المصرى على حال حرد ووكزه وكزة كانت القاضية. فواراه التراب ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبرانى ـ الذى نصره موسى وندم موسى على ما فعل وقال في نفسه، هذا الذى أتيت من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، وضرع إلى الله أن يتوب عليه وألا يجعله ظهيرا للمجرمين وناصرا لأهل الشر.

فلما كان اليوم الثاني خرج إلى المدينة وهو يخاف افتضاح فعلته التي فعل ـ وقد ذكر الطبري ـ بسنده إلى ابن عباس ـ خبرا طويلا في قصة ولادة موسى إلى أن ذهب إلى مدين جاء فيه: أن المصريين لما عثروا على قتيل موسى ولم يعلموا له قاتلا سبق إلى فكرهم أن بني إسرائيل هم قاتلوه. فقالوا لفرعون ان بني إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن نقضي بغير بينة ولا ثبت فطلبوا له ذلك.

فبينما هم يطوفون ولا يجدون، إذ مر موسى من الغد فوجد ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيا فاستغاثه الإسرائيلي ـ وهو الذى من شيعته ـ على الفرعوني ـ الذي هو من عدوه ـ فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذى رأي، وغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، وفي الوقت ذاته قال للإسرائيلي.

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾

(القصص: ١٨).

قال: فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعوني فخاف الإسرائيلي أن يكون إياه أراد بعد ما قاله له :

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾

فحاجز الإسرائيلي الفرعوني، وقال لموسي: يا موسى:

﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾

(القصص: ١٩).

وإنما قال له ذلك مخافة أن يكون موسى إياه أراد ليقتله.

فانطلق الفرعوني فأخبر قومه. ورفعوا الأمر إلى فرعون بأن القاتل هو موسى فأرسل إليه الذباحين. في ذلكم الوقت خالف رجل شريف من آل فرعون قومه وجاء إلى موسى من أقصى المدينة مسرعا ـ ليسبق الذين يطلبون موسى من طريق مختصر ـ وأعلمه علم القوم وما دبروا عليه. وذلك من فتون الله له. ونصح ذلك الرجل الشريف له أن ينجو بنفسه. ويفارق بلاد مصر حتى لا تمتد إليه أيديهم بسوء، فقبل منه موسى هذه النصيحة الغالية. وذهب على وجه يريد أرض مدين.

وإنما وصفت الرجل بالشرف لأمرين:

● الأول ـ أن من الأمثال الجارية «الأطراف سكنى الأشراف» وذلك أنهم ينالون حاجاتهم من المدينة بفضل مالهم من قوة وثروة. ويسعى إليهم أهل الحاجات بفضل مالهم من جاه وعز.

● الثاني ـ أن الله عبر عن نصيحته بقوله لموسي:

﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾

(القصص: ٢٠)

والملأ القوم يملأون عين من يراهم مهابة وروعة، ولا يطلع على أسرار الملأ إلا من كان منهم، ولا يقف على ما يبيتون إلا من كان من طبقتهم ولا يحجبون عنه سرهم. ومثل هذا لا يكون إلا من أشرافهم وعليتهم.

اقرءوا هذه الآيات ـ سورة القصص:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

(القصص: ١٥ - ٢١).

أرض مدين ونزول موسى بها

هي بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين، وتقول التوراة: «مديان» ابن إبراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه.

وفي الطبرى عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمان ليال، وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى على قصدها والنزول بها ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن إبراهيم واسحق بن إبراهيم الذى من ذريته موسي.

وظاهر أن موسى خرج من مصر على عجل، فلم يتزود للطريق ولم يعد للسفر عدته. معتمدًا على الله في هدايته إلى السبيل السوي. فلم يكن في قافلة أو رفقة في ذلك السفر الشاق، لأن من يطلب النجاة بخيط رقبته، لا يمكن أن يروى في أمره أو يعد لسفره عدته.

وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن موسى لم يكن له طعام سوى ورق الشجر. وأنه خرج حافيا، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه ـ أى أن الجلدة الملاصقة للأرض من قدمه قد أضر بها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت. وعن ابن عباس أنه ورد ماء مدين وأن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال.

موسى عند ماء مدين؟

ورد الماء فوجد عليه جماعات كثيرة من الناس يسقون ماشيتهم. ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن الورد، وتحبسانها بعيدًا عن الحوض انتظارًا لأن

يسقى أولو القوة من الرعاة ماشيتهم، حتى إذا فرغوا من حاجتهم جاءتا واستقتا لماشيتهما.

وفى الطبرى أنهما كانتا تسقيان من الحياض ومما لا خفاء به أن التقدم فى ورود الماء لسقى الماشية انما يكون لأولى القوة. وأما أهل الضعف فحظهم التأخر حتى اذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم أوردوا ماشيتهم. انظروا إلى قول الشاعر:

إذا الله جازى قوم سوء بفعلهم
فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل
أولئك قوم لم يكونوا أعزة
ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية
إذا صدر الوراد عن كل منهل

يريد أنهم لضعف قوتهم وذلتهم يتأخرون عن الناس فى ورود الماء، حتى إذا صدر الوراد ولم تبق لأحد حاجة إلى الماء، أوردوا. وإنما يطلب أهل القوة والعزة الورود أولا، لأن الماء فى هذه الحال يكون صافيا، والذى يرد آخرا إنما يرد بعد نضوب الماء. وحينئذ لا تخرج منه الدلاء إلا ماء كدرا بما خالطه من طين البئر. قال عمرو بن كلثوم التغلبى:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

موسى رجل جد وإنسان صدق رأى هذا فلم يعجبه أن يبتعد النسوة. ويتقدم للورود الرجال. فسأل المرأتين عن شأنهما وحبسهما ماشيتهما عن الورود فقالتا: لا نسقى حتى يصدر هؤلاء القوم ماشيتهم. لأننا إذا حاولنا التقدم عليهم أو مشاركتهم منعونا بفضل قوتهم. وليس لنا من يلزمهم انتظارنا لأن أبانا شيخ كبير لا يقدر على مباشرة شئ من أمر الرعى والسقى فحمى موسى لهما وطرد أولئك الرعاة. وأقدم على البئر ينزع منها بالدلو وسقى لهما غنمهما. ولم يقدر أحد على منعه لأن الناس دائما يحترمون الأقوياء وقد رأوا من قوة موسى وإقدامه ما ألزمهم حد الأدب معه.

ويقول بعض المفسرين: إنه وجد البئر عليها صخرة عظيمة لا يستقل بإزالتها عن فم البئر إلا جماعة من الأقوياء فنزعها وحده وسقى للمرأتين. غير أن فى هذا القول غفلة عما نطقت به الآية فإنها تصرح بأنه وجد على البئر أمة من الناس يسقون فلم يكن بأحد حاجة إلى إزالة الغطاء عن البئر إن كان له غطاء إذ القوم يسقون بالفعل ولا يكون ذلك إلا إذا كانت البئر مفتوحة لا غطاء عليها.

عادت المرأتان إلى أبيهما الشيخ فأنكر منهما تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم وسألهما عن سبب ذلك فأخبرتاه بما كان من الرجل المصرى الذى سقى لهما، وسنى لهما العودة مبكرتين فأرسل إحداهما إليه فوافته بمكانه قرب الماء. وقالت له والخجل يأخذ منها:

﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾

(القصص: ٢٥)

رأى موسى الفرج من ناحية تلك المرأة وأبيها وعلم أن الله استجاب له دعاءه إذ قال:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

(القصص: ٢٤)

وابن عباس وغيره من أهل التفسير يقولون إنما طلب الطعام.

ويقول بعض المفسرين أنه أسمع المرأتين هذا القول تعريضا حتى يكون له منهما ما يقوته وهو ليس معه درهم ولا دينار ولا ما يؤكل. فكانت دعوته كدعوة المظلوم سريعة الإجابة.

ومن جهة أخرى فان غرس الجميل قد أثمر وآتى أكله فى أقل من ساعة، والله يضاعف الحسنات لعباده المخلصين.

تبع موسى المرأة إلى منزل أبيها. وجعلها خلفه قائلا: إنا لا ننظر إلى أدبار النساء ولكن انعتى لى الطريق وأنت خلفى. ويقول بعض المفسرين أنه إنما قال ذلك حين تبعها وضربت الريح ثوبها فكشفت عن عجيزتها فأخرها موسى وتقدم، وقال لها: انعتى لى الطريق.

موسى رجل ربى على العزة فى بيت فرعون. مدللا فى نعيم دائم ورفاهة وقد نزل به من الجوع ما اضطره إلى أن يرضى بأخذ أجر عمل من أعمال المروءة، والجوع يرضى الأسود بالجيف. وأحسبه لو كان فى هنية من العيش لم يرض أن يأخذ أجرا على زكاة قوته.

جاء موسى إلى ذلك الشيخ فرحب به وسأله عن خطبه بعد أن قتل عنه سورة الجوع طبعا، فقص عليه موسى قصصه ولعله وقفه على جلية أمره وفعل فرعون وجنوده ببنى إسرائيل من ذبح الأطفال الذكران وترك النساء، وأنه أفلت من شفارهم بأعجوبة، وقص عليه جميع الأدوار التى لقيتها أمه فى سبيله إلى أن قتل القبطى على غير عمد وأنهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم إلى أن ورد ماء مدين.

فطمأنه ذلك الشيخ قائلا

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

(القصص: ٢٥).

وأحسبه لم يصفهم بالظلم إلا لكفرهم أو لذبحهم أبناء الإسرائيليين واستحيائهم النساء، وإلا فأى ظلم فى مؤاخذة موسى بما اجترحت يداه من قتل القبطى إذا كانوا لا يجازون الجزاء الحق؟

ملاحظة: يقول بعض المفسرين أن ابنة الشيخ لما جاءت إلى موسى وأبلغته دعوة أبيها كانت تكلمه وكفاها على وجهها حياء منه. وهذا الخفر أمر طبيعى فى النساء اللاتى لم يخلعن نقاب الحياء ولم تكن الواحدة منهم سلفعا ولا ولاجة خراجة متبذلة. اقرءوا هذه الآيات:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

(القصص: ٢٢-٢٥)

ربيع الآخر ١٤٣٤ هـ
فبراير - مارس ٢٠١٣ م

ابن كثير يروي أحداث ثورات الربيع العربي!

د. حمدي شاهين
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف..

وفيها كانت الحوادث العظام، والأحداث الجسام، وانتظم فيها من جليل الوقائع ما لم ينتظم فى سواها، وشهدت فيها أمة العرب من زوال الملك، وتحول الأحوال، وتبدل التصاريف ما لا يكون مثله إلا فى المدد المتطاولة، والأزمنة المنفسحة.

وما علمنا فى التاريخ قط أن ملوكًا ثلاثةً كبارًا زال ملكهم فى عام واحد إلا ما كان فى هذه السنة العجيبة!

ففيها فر طاغية ظالم كان يحكم أرض القيروان، يقال له: ابن علي! وقد ذكروا أنه ما ترك سبيلا يحارب به الدين إلا سلكه! ولا هداه شيطانه إلى شيء فيه منقصة للإسلام ورجاله وتضييق عليهم إلا أخذ به، فسجن وعذب وقتل! ثم لم يرض حتى حول بلاد القيروان من عاصمة شامخة من عواصم الإسلام، وقلعة منيعة من قلاع العلم، إلى حانة كبيرة، يتسلى فيها الفرنجة بكشف عوراتهم، وإتيان رذائلهم.

وقد بلغني فيما يرويه الثقات أن المسلمة العفيفة ما كانت تستطيع أن تلبس حجابها، وأن جلاوزة هذا الظالم ربما نزعوه عنها فى الطرقات وأماكن العمل! فالحمد لله الذى عجل بهلاكه.

والعجيب أن الله قد جعل مبدأ هلاكه على يد فتى فقيرٍ كان يبيع ثمار الأرض يتعفف بذلك عن السؤال، فلما استبد به الفقر، وغاظه أن تمتد إليه يد ذات سوار تلطمه، أحرق -غفر الله لنا وله- نفسه، فلم يلبث أن هاج الناس، ففر (بائع البلاد) بفعلة (بائع الخضار)! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفيها أُسرَ فرعون كان يحكم أرض مصر، جعل عاليها سافلها، واتخذ له من سفلة الناس أعوانًا وأنصارًا، فكان منهم الوزير والمدير والخفير والساعي بالفساد والمغتصب لحقوق الناس والمشيع للفاحشة.

وقد ذكروا أن شر خصاله أنه كان ردءًا لليهود يظاهرهم على بني دينه من أبناء فلسطين، ولقد سمعنا عن حصار القلاع والمدن، ولكننا ما سمعنا قط أن حاكمًا مسلمًا يحاصر شعبًا مسلمًا بأكمله سنين متطاولة، لا يبالي بموت من مات، ولا بهلاك من هلك، ولا بجوع من جاع، ولا بمرض من مرض!

ولم أر فيما رأيت من تواريخ الأمم والملوك والطغاة والظالمين حصارًا يكون تحت الأرض كما يكون فوقها! فقد ذكروا أنه لم يرض بغلق المنافذ ونصب العسكر على الحدود حتى شق فى الأرض شقًا عميقًا، ثم دلى فيه من ألوان الحديد وغيره ما صنعه جدارًا يعيا الحاذق بنقبه، وأعجب من هذا أنه جعل فيه شيئًا لا يدرى ما هو يجعل المرء إذا لمسه ينتفض فيموت!

ثم هو بعد ذلك يبسط لليهود يمينه ما قبضه عن الفلسطينيين بشماله، ولقد جعل الحر عبدًا، والعبد حرًا، حتى لمصر فى عهده أحق بقول أبى الطيب:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فالحر مستعبَد والعبد معبود

فلم يلبث المصريون الأحرار أن ذكروا به الحاكم بأمر الله.. فهاجوا عليه كما هاجوا من قبل على الحاكم، على أنهم أسروه ولم يقتلوه.

وقيل: إنه احتشد فى أرض يقال لها التحرير (ثمانية ألف ألف إنسان)، فيهم الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والمسلم وغير المسلم، فما زالوا ثم يهتفون ويصرخون، ما رفعوا سلاحًا ولا آذوا إنسانًا، ولا تلطخوا بجريرة، وظلوا لا يبرحون حتى تنحى ذلك الحاكم وأخذ أسيرًا. وقيل: إنه بكى طويلا لما زاره صديق قديم!

ولله فى خلقه شئون!

وفيها قتل طاغوت من طواغيت الأرض عز نظيره.

قتله من قتله بعد أن أخذ أسيرًا من سرب كان قد اختبأ فيه ذليلا بعد عزة، قليلا بعد كثرة.

قالوا: وكان هذا الرجل ولي أمر طرابلس وما حولها أربعين عامًا، ما ترك قتلا ولا ظلمًا ولا نهبًا ولا جنونًا ولا حماقةً إلا أتى بها!

وبلغ من حمقه أنه كان يلتقط المزق من الأقمشة فيجعل منها ثوبًا!

وأنه كان يقف بين ملوك الأرض فيسخر

ويهزأ ويتمخرق ويمزق الأوراق، ويلقى بها فى وجوه الناس!

وأنه جعل لنفسه لقبًا عجيبًا ما عرف الناس أطول منه!

وأنه كانت له خيمة يطوف بها الأرض، يضرب أوتادها حيث حل، ثم تكون هى مجلسه ومضافته، وربما نصبها بجوار القصر الكبير الفخم، ثم يأتيه الرئيس أو الملك فلا يجلسه إلا فيها!

وأنه لم يرض أن يؤرخ بتاريخ المسلمين ولا بتاريخ غيرهم! فابتدع لنفسه تاريخًا ابتدأ من وفاة نبينا ﷺ! ثم ألغى بأسماء الأشهر التى عرفها العرب والعجم وسمى شهوره: أين النار! والماء! والتمور! والطير! وهلم جرًا.

وبلغ من حمقه كذلك أن صنف كتابًا سماه (الأخضر)، ادعى أن فيه صلاح العالمين، وخلاص الأرض من فقرها وعنائها، وأنه دستور العصر سياسة واقتصادًا!

وفى الجملة، فإن غرائبه لا تحصى.

ومن وقائع هذه السنة كذلك ما فعله حاكم الشام لما تنادى أهلها بطلب حقوقهم وحريتهم، فلم يلبث أن سلط عليهم جلاوزته، ونفرًا كانوا يسمونهم (الشبيحة)، واحدهم (شبيح)، وهو الرجل من غير العسكر يُعطى السلاح، فيفعل به ما يشاء.

وفعل الرجل فى أهل الشام ما لو وجده إبليس فى صحائفه لأخزاه واستحيا منه!

ومثل ذلك فعله رجل ظل يحكم اليمن ثلاثين عامًا، فلما مله الناس، وآذنوه بالرحيل، عاجلهم قصفًا وقنصًا وقتلا وجرحًا، فكان ما كان مما لست أذكره!

ثم انقضت هذه السنة، ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف.. وفيها...". اهـ.

هذا ما تصورت أن المؤرخ الكبير الإمام ابن كثير سيكتبه لو قدر له أن تكون هذه السنة العجيبة ضمن ما أرخ له فى كتابه الفذ (البداية والنهاية).

بين الصحف والمجلات

للأستاذ: محمد جمعة

تأسيس دولة الرهبان بوادي النطرون

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / عامر عبد المنعم المنشور بجريدة «المصريون» الصادرة بتاريخ : ٢١ / ١ / ٢٠١٣ م جاء فيه :

كتبت سابقا عن خطورة ما أعدته هيئة التخطيط العمراني، بناء على طلب جهات من داخل حكومة الدكتور هشام قنديل من تقسيم إدارى جديد وإنشاء ٥ محافظات جديدة، وحذرت حينها من وضع خطوط إدارية لتأسيس محافظة بدون أى مقومات ووضع حجر الأساس لدولة الرهبان فى الصحراء الغربية، بوادى النطرون.

جاء فى التخطيط الجديد إنشاء محافظة باسم "وادى النطرون" باقتطاع الظهير الصحراوى من محافظة البحيرة، وضم مساحات من محافظة مطروح وحتى الساحل الشمالى على البحر المتوسط.

هذا التقسيم الإدارى الجديد هو التنفيذ الدقيق لما خططه أصحاب التوجه الانفصالى من المسيحيين المصريين لإيجاد الرقعة الجغرافية التى ستكون بداية لتأسيس الدولة القبطية المزعومة.

من المعروف أن بعض المسيحيين المصريين يتوقون إلى إقامة دولة خاصة بهم منذ نصف قرن تقريبًا ظنًا منهم أن الفرصة مواتية لضعف المسلمين وخضوع الدولة المصرية للهيمنة الغربية الصليبية.

ولأن إقامة دولة يحتاج إلى شعب وأرض، كان المطلوب هو البحث عن المكان المناسب، فاختار أصحاب هذا التوجه الانفصالى - فى البداية - محافظة أسيوط، لوجود كثافة سكانية مسيحية بها، لكن هذا الخيار فشل ؛ لأن المسلمين يشكلون أغلبية فى المحافظة، وتسبب تسرب فكرة الدولة المسيحية فى رد فعل إسلامى - فى السبعينيات - أفشل هذه الفكرة.

بحث أصحاب المخطط الانفصالى عن مكان بديل، فاختاروا وادى النطرون والصحراء حتى الساحل الشمالى الذى ربما لا يوجد به العقبة التى أفشلت الحلم فى أسيوط، وهى الكثافة السكانية، إذ لا يزيد سكان هذه المنطقة عن ٨٠ ألف نسمة.

فبدأ التوسع فى الأديرة بمنطقة وادى النطرون وتحويلها إلى قبلة للمسيحيين، وبدأ الرهبان يتركون حياة الزهد فى الدنيا إلى التوسع والتمدد والسيطرة على آلاف الكيلو مترات فى وادى النطرون.

بدأت الماكينة تعمل من خلال العلاقات الرسمية وغير الرسمية باستخدام طرق عديدة للتمهيد لهذه الدولة فتم الآتي:

أولًا: بدأ دير الأنبا مقار يتوسع للسيطرة أولًا على وادى النطرون كله وعدم الاكتفاء بالموجود، وتحقق للدير ذلك، ففى سنوات قليلة قام الدير بالآتي:

أ- وضع دير الأنبا مقار يده على ٢٠٠ فدان طبقا للقانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٦٤م.

ب- سيطر الدير على ٣٠٠ فدان بقرار من رئيس الوزراء رقم ١٦ لسنة ١٩٧٧م.

جـ- حصل الدير على ١٠٠٠ فدان منحة من السادات فى ٢٣ / ٨ / ١٩٧٨م.

د- سيطر الدير على ٢٠٠٠ فدان من قبيلة الجوابيص.

ثانيًا: وعندما سيطر الدير على الوادى المنخفض عن سطح البحر بدأ يتحرك شمالًا للسيطرة على الأراضى وحتى العلمين بالساحل الشمالي، ووضع الدير يده على آلاف الكيلو مترات بالصحراء الغربية بحجة الاستصلاح.

ونشرت الصحف فى أوائل التسعينيات قيام الدير بوضع يده على ٥٠ ألف فدان بالقرب من مدينة الحمام عند الكيلو ٦٩ بطريق الإسكندرية مطروح، وعلى ساحل البحر المتوسط على بعد ٢٠٠ كيلو من وادى النطرون.

ثالثًا: بدأ دير الأنبا مقار فى التحرك شرقًا منذ السبعينيات، للسيطرة على المساحات الواقعة بين الدير وطريق مصر الإسكندرية الصحراوى لوضع يده على الأراضى الواقعة بين الكيلو ٢٦ حتى الكيلو ١١٨ طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

رابعًا: استغلال أنصار المخطط الانفصالى أزمة السلطة قبل الثورة وبعدها وحتى الآن، فى الاستيلاء على آلاف الأفدنة فى الصحراء الغربية، من جنوب البلاد وحتى شمالها، وآخر هذا التمدد المسيحى على الأرض استيلاء رهبان من الإسكندرية منذ أيام على ٩ آلاف فدان فى وادى الريان بالفيوم وهى محمية طبيعية، مستغلين ضعف سلطة الدولة والاستقطاب السياسى الذى أوجد حالة من الفراغ.

هذا التوسع زادت وتيرته بعد الثورة، حيث يستغل الرهبان أزمة السلطة وانشغال الرأى العام بالمعارك السياسية فى وضع اليد على مساحات شاسعة من الأراضى وبناء أسوار خرسانية عالية وفرض سياسة الأمر الواقع.

هذه الرغبة الجامحة فى بناء ما يشبه المستوطنات على هذه المساحات الكبيرة يطرح المزيد من المخاوف ويثير الشكوك حول الأسباب التى تدفع هؤلاء الرهبان للاستيلاء على الصحراء الغربية بهذه الطريقة.

قد يكون هناك من يفكر فى إقامة الدولة المزعومة فى هذا الفراغ.

وقد يكون هناك من يفكر فى أنه قد يأتى اليوم الذى يكونون فيه فى حاجة لمبادلة هذه الأراضى مع المسلمين فى الجزء الشمالى الغربى لمصر إن لم يستطيعوا السيطرة على غرب البلاد.

وجزء من هذا الجناح الانفصالى المتطرف هو الذى يقود حملة التصعيد الطائفى خلال السنوات الأخيرة وزيادة المطالب الطائفية لابتزاز الدولة وإبعاد الأنظار عن المخطط الأصلى الدائر الآن غرب البلاد.

بالتأكيد أصحاب التوجه الانفصالى قلة، ونعى أن أغلبية المسيحيين المصريين لا يفكرون فى مثل هذه المغامرات الانتحارية، لكن ليس من المقبول ولا من المعقول أن تخترق هذه الفئة أجهزة الدولة وتمرر طموحاتها المتوهمة والمستحيلة، بل ونرى من يمرر هذه المشروعات الخطيرة وسط حالة التخبط الجارية، ويظن أن الشعب المصرى مغيب ولن يكتشف هذا التخطيط الشرير.

ما كنت أود أن أكتب فى هذا الموضوع علانية، لحساسية وخطورة الموضوع، لكن يبدو أن هناك لوبى مشبوه أقوى مما كنا نتصور، يخترق الدولة ويتمادى فى غيه وكأن لا ثورة قامت ولا رئيس منتخبا يحكم، ولا حكومة من المفروض أنها محسوبة على حزب الحرية والعدالة والإخوان المسلمين مؤتمنة على شئون البلاد.

ملخص خطبة الجمعة للشيخ محمد العريفى بمسجد عمرو بن العاص

نشرت الصحف المصرية فى معظمها وتبارت الفضائيات فى نقل خطبة الجمعة التى ألقاها بمصر فضيلة الشيخ محمد العريفى بمسجد عمرو بن العاص، ومجلة الأزهر تقدم لقرائها ملخصا لهذه الخطبة التى كان لها صداها المحمود:

- إننى إذ أخطب الآن عن مصر كحامل تمر إلى هجر (هجر أكثر بلد بها تمر)

- إننى أتحدث اليوم عن مصر، التى تحدث عنها النبى ﷺ وعن أهلها و إكرامهم وعلو طباعهم، إذا افتتحتم مصر فاستوصو بأهلها خيرًا، وقال فاستوصو بقبطها خيرًا.

- قال النبى ﷺ: أوتيت مفاتيح الشام، وقال: أوتيت مفاتيح اليمن، وقال أوتيت مفاتيح فارس، ولم يوص بمثل ما أوصى بمصر!!

ولم يوص بأقباط فى أى بلد آخر غير أقباط مصر!!

-تجلى الله لجبل واحد فى العالم هو جبل الطور بمصر، وقال لموسى وأخيه:

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾

(يونس: ٨٧)

وقال:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

(يوسف: ٩٩)

وقال يوسف اللهم إنى غريب فحبب إلىّ مصر وإلى كل غريب، فما دخلها غريب إلا أحبها

-اختار الله مصر وقدمها لطيبها وفضلها حيث قال عمرو بن العاص: «مصر أطيب الأرضين وقبطها أطيب الأقباط، بلدة معافاة من الفتن وأهلها أهل عافية ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه فى النار».

-مدح الله مصر فى كتابه، وطهرها من فرعون وقومه:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

(الدخان: ٢٥)

عمرو بن العاص يقول: من أراد أن ينظر إلى الجنة فلينظر إلى أهل مصر

-العرب والعجم يذكرون فضلها ويأنسون سكناها، العرب أخوالهم مصريون، فهاجر عليها السلام ساقها الله من مصر لإبراهيم، تتفجر أرض زمزم تحت قدم مصرية.

-أيها الناس إن مصر لابد أن تعود للقيادة لأن هذا قدرها، كانت قيادة الأمة هنا فقد انتقلت الخلافة إلى مصر يديرون العالم الإسلامى كله حتى انتقلت إلى تركيا.

-كان حفيد بن عبدالوهاب متعلما على يد علماء مصر ثم رحل للملكة يعلم العلماء، ولبسه كان الزى الأزهري.

-أنتم المصريون الذين دحرتم التتار هزيمة لم يذوقوها طوال ٥٠ سنة!! أنتم أذقتم لويس هزيمة كبري!!، أنتم هزمتم اليهود هزيمتهم الكبري

-إن مصر ليست مثل تركيا ولا ماليزيا، فمصر المبدعين قائدة للكل، بشرط استثمار خيراتها ـ مصر هى الداعم الأكيد لجميع الدول.

- إن مصر فيها من الأحزاب الكثيرة والقوى الوطنية. عليكم بالاجتماع جميعا وحذركم النبى من الخلاف، أنتم يا أهل مصر.

(إذا رأيت رجلان يقتتلان على موضع لبنة فاخرج منها) "صحيح مسلم".

-لا يمكن أن يصلح كل شيء بين ليلة وضحاها، إنما يأتى متدرجًا.

-مصر أرض طيبة دعا لها النبي، وأوصى بها النبى مسلمهم وقبطهم.

نداء إلى تجار المملكة والخليج، نداء إلى الذين خرجوا بأموالهم من العراق لبلدان كثيرة، بل لرجال الأعمال فى العالم، استثمروا فى مصر فى استصلاح الأراضى الفرصة سانحة لمن سبق، أهلنا فى مصر أولى بأموالنا من بنوك سويسرا وبريطانيا وأمريكا والدنيا كلها.

كم من مليارات خرجت من بلدان المسلمين ولم نستطع بعدها أن نرجعها، هم أولى الناس بإنشاء المصانع عندهم.

أقول للمتكبرين عن مصر

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

(محمد: ٣٨)

أقسم بالله أن الآلاف من التجار يعزمون على الاستثمار فى مصر والآن تتكون لجان للاستثمار فى مصر

أبشروا الخير قادم.

- لا تلتفتوا للإعلام، فبعض الناس مثل الوزغ الذى كان ينفخ فى النار على إبراهيم وهو فى النار

-الله الله فى وحدتكم فى تآزركم، (قول النبى لمعاذ ومن معه تطاوعا ولا تختلفا) فلا تفسدوا مصر ياعقلاء مصر بالخلاف، فمنكم تعلمنا العقل والحكمة واحرصوا على أن تكون مصر قائدة للأمة وأنا متفائل والله بإذن الله.

قرية تدخل التاريخ اسمها باب الشمس

تحت هذا العنوان جاء " رأى القدس " المنشور بجريدة (القدس العربي) الصادرة بتاريخ ١٨ / ١ / ٢٠١٣ م جاء فيه :

من الطبيعى أن تنجح القوات الإسرائيلية المدعومة بالعربات المدرعة ومئات الجنود المدججين بأحدث الأسلحة فى تفكيك مخيم قرية باب الشمس الذى أقامه ناشطو فلسطينيون فى موقع مخصص لتنفيذ مشروع استيطانى يهودي ، ولكن هذا لا يعنى أن المقاو المدنية السلمية لهؤلاء الشباب الشجعان التى لفتت أنظار العالم بأسره إلى جرائم الاستيطا الإسرائيلية ستتوقف .

المؤسف أن المحكمة الإسرائيلية العليا فى دولة إسرائيل الديمقراطية أعطت الضو الأخضر لتفكيك هذا المخيم الذى أقيم على أراض فلسطينية محتلة تعتزم السلطات الإسرائيلية مصادرتها لإقامة مشروع استيطانى عليها سيكمل عزل مدينة القدس عن الضفة الغربية المحتلة .

اى عدالة يمكن أن تصدر عن محكمة كهذه تقر مصادرة الأرض ، وتشريد أهلها وإقامة مستوطنة عليها ، تقطع التواصل بين أبناء الأرض الحقيقيين ، وليس الأصليين فقط ، ومدينتهم المقدسة؟

فعندما تقول هذه المحكمة وقضاتها أن مخاطر حصول اضطرابات فى النظام العام الناتج عن هذا المخيم أقوى من الحجج التى جرى تقديمها بشأن حقوق الملكية كما جاء فى بيانها ، فإن هذا يعنى إن آخر شيء تفكر فيه هذه المحكمة هو العدالة والإنصاف ، وأنها محكمة منحازة بالكامل للاستيطان الذى يعتبر جريمة كبري ، وانتهاكا لمعاهدات جنيف والقانون الدولي .

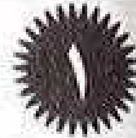
هذا الإرهاب الإسرائيلي ، العسكرى المغطى بعدالة ظالمة مغشوشة ، بل ومفضوحة ، لن يعطل قطار استراتيجية المقاومة السلمية الخلاقة الذى انطلق من مخيم قرية باب الشمس ، بل سيزيده سرعة وقوة .

بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى يقدم خدمة عظيمة للشعب الفلسطينى وقضيته المشروعة فى استعادة أرضه وإقامة دولته المستقلة عندما يطلق العنان لمشاريعه الاستيطانية المتغولة ، فهو يفضح الوجه العنصرى لإسرائيل ، ويزيد من عزلتها الدولية ، والأهم من ذلك يدمر حل الدولتين ، ويسرع فى انفجار الانتفاضة الثالثة فى الأراضى العربية المحتلة .

إسرائيل أقامت ١٧ مستوطنة فى قطاع غزة عندما كان خاضعا بالكامل لاحتلالها ، وأجبرتها المقاومة الشرسة على تفكيكها جميعا ، وسحب جميع المستوطنين فيها ، ومن طرف واحد تقليصا للخسائر بعد أن فشلت كل وسائلها الإرهابية فى بقاء احتلالها للقطاع .

الضفة الغربية ستحذو حذو القطاع حتما ، وستنطلق فيها المقاومة المشروعة بأشكالها كافة ، والسلمية على وجه الخصوص ، وسيدرك المسئولون الإسرائيليون ، مثلما أدرك سابقوهم فى قطاع غزة وجنوب لبنان وحتى فى سيناء ، كم هى خاطئة وغبية وعنصرية سياساتهم الاستيطانية ، وكم هو قصير عمر الاحتلال .

عن المرأة





المستشار طارق البشرى

موضوع المرأة الذى يثير مشكلا فى الحياة المعاصرة، ويثير جدالا بين أنصار وخصوم، ويثير جدالا بين أنصار تطبيق الشريعة الإسلامية ومعارضى تطبيقها، هذا الموضوع إن شئنا أن نحدده فى كلمة لقلنا إنه يتعلق بمدى المساواة المكفولة للمرأة مع الرجل فى الحقوق والواجبات وفى الوضع الاجتماعى وفى إطار تلك العلاقة الثنائية التى تربط المرأة بالرجل بعقد الزواج.

وفكرة المساواة هنا تحتاج إلى ضبط وتحديد وينبغى النظر إليها فى كل مجال من مجالات النشاط الاجتماعى على حدة ، وذلك لتتضح بقدر الإمكان تفاصيل الصورة ، ولتنضبط الجوانب التى يدور حولها التساؤل والحوار إزاء ما تكفله الشريعة للمرأة من وضع اجتماعى .

فهناك ما يتعلق بمدى ما تتمتع به المرأة من حقوق وصلاحيات شرعية فى الحقوق والواجبات .. وهنا لا تبدو أية مسألة تثير جدلا حول وضع المرأة فى الشريعة الإسلامية ، لأن المرأة فى الشريعة الإسلامية ذات شخصية قانونية كاملة تماثل شخصية الرجل وتساويها فهى موضع للتكيف الدينى بوصفها إنسانا قائما بذاته ، وهى تدخل الدين مستقلة أصيلة من نفسها لا تتبع الرجل فى ذلك ولا يتبعها وهى تخضع بذاتها للفروض العينية ، مسئولة فى شخصها عما تقوم به أو لا تقوم من فروض العبادة المأمور بها ، مسئولة فى شخصها عما تعصيه من أوامر الدين ونواهيه .

وهى ذات شخصية قانونية كاملة أيضًا فى سائر الأنشطة الاجتماعية ، والشريعة الإسلامية تمنحها تلك الشخصية المساوية لشخصية الرجل تماما ، سواء من حيث سن التمييز وسن الرشد لكل منهما ، وسواء من حيث الصلاحية لتلقى الحقوق والالتزام بالواجبات ، وسواء من حيث القابلية لتملك الأموال والتصرف فيها وإدارتها واستغلالها .

ولها فى هذه الشئون من أوضاع التساوى مع الرجل ما لم تتمتع به المرأة الأوروبية فى بعض البلاد إلا مؤخرًا جدًا ، وإننا نعرف من الأوضاع الاجتماعية فى بعض بلادنا ، أن المرأة فى المناطق الريفية كثيرًا ما كانت

تحتمى بحقوقها المكفولة لها فى الشريعة إزاء ما تواجه من نكران وجحود بالنسبة لما تملكه من مال وما تراه من تصرف وهذا يوضح إلى أى مدى ظلت الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد تمثل وضعا أمثل لم يكن الواقع الحاضر قد استوعبه بعد ومن ثم فإن هذا الجانب الخاص بالصلاحيات الشرعية لكل من المرأة والرجل، لا يدخل فى إطار المشكل الذى نعمل على تحديده الآن.

وهناك ضروب من التعاملات تدور حول موضوع المساواة، ولكنها لا تدخل فى إطار المشكل الذى تحدده، فمثلا موضوع الأجر المتساوى عن العمل المتساوى، يثور به موضوع واجه المرأة الأوروبية فى القرن التاسع عشر، عندما كانت تعمل بالمصانع بأجر يقل عما يمنح للرجل عن العمل ذاته وهى مسألة لم تعد قائمة هناك وإن كانت تحتل مكانها فى الوثائق والبيانات المتعلقة بحقوق الإنسان، وذلك بسبب من تلك الخبرة التاريخية وهذه المسألة لا تظهر أنها شكلت جدالا فى مجتمعاتنا ولا عانت المرأة العاملة من ذلك عندنا بعد ظهور الصناعات الحديثة وعلى أية حال فهى عندما تثور لن يقوم إزاءها إشكال من أحكام الشريعة الإسلامية التى تقر المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق المالية.

ومثلا: إن المنادين بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة على أساس علمانى، هم أنفسهم يطالبون «بعدم المساواة» فى بعض الأمور، تمييزا للمرأة بسبب يرجع إلى وضعها الطبيعى الخاص، وذلك مثل إقالتها عن العمل فى المناطق النائية، ومن الأعمال العنيفة، ومن العمل فى الأوقات المتأخرة، ومن حيث تمييزها ببعض الأعمال الخفيفة وبعض الأجازات الخاصة فى ظروف العمل والوضع ورعاية الوليد، وهذه موضوعات لا يظهر أيضا أنها شكلت مجال جدال فى مجتمعاتنا، لأن هذا النوع من التمييز تقره الشريعة الإسلامية وترعى أسبابه وآثاره، بل إنه ليحظى منها بتأكيد أكبر وبترتيب أكثر للآثار، لذلك فإن هذا الموضوع يخرج عن إطار المشكل الذى نحدده الآن.

وهناك ما يتعلق بالوضع الاجتماعى للمرأة، أى وصفها الواقعى فى الحياة المعيشة وفى هذا الشأن يثور موضوعان، موضوع التعليم والعمل، وموضوع الاختلاط والحجاب وهما موضوعان متداخلان، وتأثير كل منهما على الآخر تأثير مباشر ولذلك جمعناهما معا لأنه يصعب النظر لأحدهما بمعزل عن الآخر، ولأن جل ما يثور من اعتراض أو تحفظ على موضوع التعليم والعمل إنما يثور بسبب يتعلق بالموضوع الآخر الخاص بالاختلاط والحجاب.

ثم هناك تلك العلاقة الثنائية التى تربط المرأة والرجل بعقد الزواج، وأوضاع كل منهما إزاء الآخر ومدى ما يتكفل للمرأة من ظروف المساواة مع الرجل، أو مدى ما تتوزع به ضروب التخصص بينهما، ونحن نعرف أن المساواة بين غير المتساوين هى أقرب للجور وأن اختلاف الوظائف يشير إلى وجوب اختلاف وجوه التعامل وهذه نقطة يتعين ضبط وتحديد ما يمكن أن يكون اختلاف وظائف بين الرجل والمرأة وبين ما يمكن أن يكون اختلافا فى المعاملة بسبب الجور، أى بين ما يمكن أن يكون توزيع أعمال وبين ما يمكن أن يكون إنقاص حقوق ولتتضح نوعا ما هذه الأمور، ينبغى أن ننظر إلى علاقة الزواج، فى إطار كونه علاقة ثنائية بين رجل وامرأة

ولكن فى إطار تلك المؤسسة الاجتماعية التى تقوم وتنشأ بموجب هذه العلاقة، وهى الأسرة، وهى مؤسسة يقوم بها انتظام الوجود الإنسانى فى هذه الحياة وهى أقدم مؤسسة اجتماعية نعرفها، وقامت واستمرت على هذا المدى الزمنى المتطاول المدى، اللصيق بالوجود الإنسانى الاجتماعى على الأرض ومن جهة أخرى فنحن عندما ننظر فى هذه العلاقة علينا أن نكون يقظين للفارق الدقيق بين أحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بهذه المؤسسة ذات الشمول الاجتماعى وذات الاستقرار الزمنى المتطاول المدى، وبين ما تنفتق عنه وتتنوع أوضاع المعيشة فى كل ظرف تاريخى خاص لمجتمع بعينه.

حاولنا أن نعرف المشكل، وحاولنا أن نوضح حدوده، فاستبعدنا نقطتين ونتكلم عن نقطتين إن شاء الله ونحن هنا لا ننتهى إلى نتائج نتصور أنها وحدها الصائبة، ولكننا كما صنعنا فيما سبق، نعرض المسألة ونحدد وضعها ونبين العناصر التى تتشكل منها أو تحيط بها، ثم نبين بعض وجهات النظر فى شأنها، وحسبنا أن نبين للقارئ كيف يحسن أن يفكر فى أمور كهذه.

● قد نستطيع القول بأن ما يسمى فى التاريخ الحديث «بحركة تحرير المرأة» إنما بدأ فى مصر قبل غيرها من البلدان العربية الإسلامية، ومسألة التحرير هذه شملت فى البداية دعوة المرأة إلى السفور وإلى التعلم، ثم تطورت إلى دعوة إلى أن تعمل وتشتغل فى الأعمال التى كانت وقفا على الرجال فى ذلك الوقت ثم دعوة للمشاركة فى الحياة السياسية بأن تكون المرأة ناخبة ونائبة ومشتغلة بالوظائف العامة.

وكانت إرهاصات هذه الحركة فى عهد الخديوى إسماعيل الذى حكم مصر من ١٨٦٣م إلى ١٨٧٩م، وكان يسعى إلى جعل مصر «قطعة من أوروبا» حسب قوله ونظم فى قصوره دروسا على النهج الأوروبى لبعض من جواريه ذوات الأصل الجركسى، ثم أعتقهن وزوجهن لبعض من رجال حاشيته وكبار موظفيه، على ما كان يحدث منه ومن غيره فى ذلك الوقت كما أن إحدى زوجات الخديوى إسماعيل أنشأت مدرسة للبنات فى سنة ١٨٧٣م واستطاعت أن تحصل على موافقة بعض من الكبراء على تعليم بناتهم بها ومن هذين المجالين الاجتماعيين ظهرت حركة تحرير المرأة فى بداياتها.

ثم ظهرت صالونات أدبية نسائية فى أواخر القرن التاسع عشر، كصالون «نازلى هانم فاضل» وهى إحدى أميرات الأسرة المالكة وابنة أخى الخديوى إسماعيل، وكان فى صالونها نخبة من المفكرين والساسة وكبار رجال المجتمع وكان ذا توجه سياسى وثقافى تغريبي، وكان قاسم أمين ممن يترددون على هذا الصالون وقد وضع فى بدايات القرن العشرين كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» اللذين أثارا ضجة هائلة وقتها.

المهم أن ظهور الحركة وضح فى الفترة من ١٨٩٥م إلى ١٩١٥م، وكانت فى جملتها حركة فى وعاء الثقافة الغربية حديثة الوفود إلى المجتمع المصرى، وتدور فى إطار قسم محدود من الصفوة الحاكمة أو المتصلة بالحكم من الأرستقراطية التى كانت أول من استجاب لعناصر التغريب الفكرى والسياسى الوافد من الغرب.

لقد تبنت الحركة النسائية بعد ذلك عديدا من المطالب السليمة بالنسبة للمرأة ووصفها الاجتماعى، وبلورت موضوعا هاما

وهو أن وضع المرأة فى المجتمع يحتاج إلى معالجة لتضمن تقدمها وتقدم المجتمع معها، وذلك سواء فى موضوع التعليم أو موضوع العلاقة الروحية وسن الزواج أو استرداد الوضع الاجتماعى اللائق بالمرأة فى المجتمع.

على أن تقييم الحركة النسائية ليس من أهداف هذا المقال، إنما قصدت أن أوضح أن الموضوع الذى نناقشه وإن كانت ضرورات الحياة الاجتماعية فى نهايات القرن الماضى وبدايات هذا القرن كانت توجب طرحه، إصلاحا لشأن المجتمع والمرأة، فإنه كشأن غيره من الموضوعات التى طرحت نفسها بإلحاح فى ذلك الوقت، وجدت حلولا تعتمد على فكر الغرب وحضارته الوافدة أكثر مما تعتمد على مقومات الإصلاح الحقيقية التى يمكن توليدها من البيئة نفسها ومن حضارتها وفكرها، لذلك قامت تلك الحركة النسائية طوال النصف الأول من القرن العشرين فى الإطار النخبوى التغريبى الذى أشرت إليه، آية ذلك أن الصحافة النسائية فى مصر على امتداد حقبة طويلة مضت، صدر كثير منها باللغة الفرنسية، وغالب تلك الصحف - حتى ما كان باللغة العربية، لم يستمر أكثر من عامين وبعضه انتهى قبل تمام العام وهذا يلقى الضوء على مدى الشعبية التى حظيت بها تلك الحركة.

إن القول بأن هناك ترابطًا لا ينفك بين التعليم والعمل وبين السفور والاختلاط، هو قول لا يستند إلى الحياة الواقعية، والمرأة الريفية تجمع بين ما يتيسر لها من أعمال الحقل والمنزل مع التزامها فى زيها بما تفرضه الشريعة عليها وكذلك كان شأن العاملات فى مجتمع المدينة ولا يكاد يبين وجه تلازم غير منفك بين عدول المرأة عن الزى الشرعى وبين التعليم وما تقوم به من عمل، أو لا يظهر وجه تناقض أصيل بين هذين الأمرين.

ونحن نشهد فى هذه السنوات حركة صامتة بين الشابات للعودة إلى الزى الشرعى، وهى حركة تقوم وتنمو بين المتعلمات وبين العاملات، وقد تكون هذه الحركة بدأت بواسطة جماعات دينية، وهى لا شك ظاهرة من ظواهر التوجه الدينى الذى يزداد نفوذا وانتشارا ولكنها حركة صامتة بمعنى أننا لا نجدها تتبلور فى دعوة نسائية يقوم بها تنظيم أو جماعة نسائية أو صحافة نسائية ومع ذلك نراها حركة تقوم طواعية دون ضغط أو قمع من المجتمع ثم هى أكثر ذيوعا وانتشارا بين فئات المجتمع مما كانت عليه حركة التغريب السابقة، وهى أسرع فى النمو من سابقتها وفى كل ذلك دلائل على عدم التعارض بينها وبين التعليم أو ما يتاح من عمل للمرأة.

● ومن جهة أخرى، فإن هناك تقاليد فى مجتمعاتنا من قرون طويلة، تمكن للرجل فى المجتمع وتتيح له الجور على النساء فيما أعطتهن الشريعة من حقوق وما اعترفت لهن به من أوضاع، وقد سبقت الإشارة إلى ما يصادف المرأة أحيانًا من نكران الرجل لحقوقها المالية الشرعية وأن القرآن الكريم قد نظر بعين الغيب إلى هذا الأمر، فتوجه الخطاب القرآنى الكريم للرجل فى غالب ما ذكر للنساء من الحقوق، حتى يلتزم الرجال الجادة ولا يضيعون على النساء حقوقهن الشرعية نجد ذلك كثيرا فى سورة البقرة وسورة الطلاق ونجد العديد من التأكيدات للمساواة بين الجنسين، ونجد فى أحاديث

النبى ما يوصى رجال المسلمين خيرًا تجاه أهاليهم.

وقد كانت مجتمعات ما قبل الإسلام تنطوى على استضعاف للمرأة وحجب لها عن الحياة العامة وكان ذلك واضحًا فى المجتمع الهندى والفارسى ولما انتشر الإسلام فى تلك البلاد، بقيت بعض من تلك الأوضاع قائمة وحاولت أن تستبقى نفوذها بطريق محاولة إضفاء الوضع الشرعى عليها، فحمل فقه بعض الفقهاء أثرا من هذه الأوضاع وذلك عند تفسير الأحكام المتعلقة بالمرأة ومالت تلك التفسيرات إلى التضييق والحصر فيما توسع فيه النصوص على المرأة، والبسط والإطلاق فيما تقيد فيه النصوص، أو تعميم ما ورد خاصا منها وكان باب «سد الذرائع» هو أكثر ما استخدم لتضييق أوضاع المرأة والتشديد عليها، وذلك خشية الفتنة وبولغ فى تقدير هذا الأمر من المتشددين وأفدح ما جر إليه ذلك هو عزل المرأة فى المجتمع واعتبار أى وجود لها حيث يوجد الرجال من الاختلاط المحرم وأمسكت فى البيت ومنعت من التعلم والثقافة.

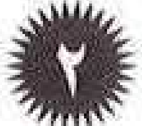
● هذا هو المشكل من الناحية الاجتماعية وضع تقليدى للمرأة يحتاج إلى تعديل للنهوض بها وبالأسرة وبالمجتمع، ونموذج إصلاح لهذا الوضع يرد وافدًا من حضارة أخرى، ومن نسق فكرى وعقيدى مخالف، ومن أوضاع تاريخية بعيدة عن السياق التاريخى لنا. فالمرض كان حقيقيا ولكن الدواء كان مدسوسا، أنت تمرض فيوضع لك الدواء فى الخمر، وهكذا وضعت مسألة تعليم المرأة وقيامها بما يمكنها من الأعمال، وضع ذلك لا فى إطار ما يمكن أن تجود به الشريعة الإسلامية من أوضاع، ولكن فى إطار ما جاءت به الحضارة الغربية من مظاهر، ووضع التعليم والعمل فى الثوب الأوروبى ونمط الحياة الأوروبى وإذا مزج الدواء بالخمر فقد صار على من يريد الشفاء أن يفقد وعيه. وذلك ما بقى هذا التلازم غير منفك، ولكى نخلص من هذا المشكل علينا أن نفك هذا التلازم المصطنع بين الشفاء وفقد الوعى، نفك التلازم بين تعليم المرأة وقيامها بما يمكنها من أعمال وبين التشبه بالمرأة الغربية، وعلينا أن ننظر فى أحكام الشريعة فى ضوء الوضع الذى كانت عليه المرأة فى الصدر الأول للإسلام عندما كانت تجاهد وتعلم وتفتى أحيانا فى شئون الدين وتواجه الرجال، وكل ذلك بعفة ووقار وبعد عن مظان الفتنة. وعلينا ثالثًا أن ننظر فى باب «سد الذرائع» منعا للفتن، ننظر إليه نظرة لا تقوم على تضخيم المخاطر وإن كانت تقوم على القدر الملائم من البصر والحذر وأن نوازن بين مقتضى سد ذرائع الفتن من فرض القيود وبين ما يصلح به المجتمع ويسير به فى طريق الخير، إذا اجتمع المسلمون فى كل أمر جاد وعمل منتج مما لم تقطع فيه النصوص بحكم فاصل.

نحن نروم الشفاء والوعى معا. ونروم حفظ البدن وحفظ الروح. ويتحقق لنا هذا الوضع الأمثل عند البحث عن الصيغة الملائمة بين الأصالة العقيدية والتاريخية والحضارية وبين حاجات الحياة المعيشة والصيغة الملائمة فيما لا نص فيه هى فى إدراك التوازن بين سد ذرائع الفتن وفتح ذرائع النهوض والرقى للجماعة الإسلامية الوطنية وهذه الصيغة يمكن أن تكون على قدر من التنوع بين البيئات الإسلامية المختلفة.

يتبع

مفهوم النوع الاجتماعى من المنظور الإسلامى

دور المرأة المسلمة فى الأسرة والمجتمع وفق مقاصد الشريعة وثوابتها



أ. د. احمد كمال ابو المجد



سنحاول الآن بحث قضيتين من قضايا المرأة المعاصرة، وفق المنهج الذي حددناه، ونراه صالحًا للتعامل المتواصل مع جميع القضايا الجديدة التي لم تكن قائمة أو تلك التي تغير سياقها، أو بعض عناصرها حين تعرض اليوم في إطار واقع جديد، نشير بذلك إلي قضية شهادة المرأة وقضية نصيبها من الميراث.

فأما قضية الشهادة، فقد اختلط فيها الأمر على أكثر الناس، وصارت تعالج فى إطار عنوان فاسد يقول: "إن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل"، والمدخل الحاسم لمعالجة هذا التقرير الفاسد يتمثل فى استقراء النصوص القرآنية والنبوية التى تناولت موضوع الشهادة، وسوف يتضح على الفور بغير حاجة إلى كلام كثير أو قليل، أنه لا توجد البتة قاعدة تشريعية إسلامية بهذا المعني، بل أن أكثر النصوص المتعلقة بالشهادة تسوى بين شهادة المرأة وشهادة الرجل، ودون إطالة نورد النصوص القرآنية الآتية، والأصل العام فى الشهادة وفقًا للشريعة الإسلامية هو وجوب أدائها تطوعًا إذا لم تسبقها دعوة من أحد، واستجابة لدعوة القيام بها سواء صدرت الدعوة من ولى الأمر أو من جهة قضائية، أو خلال إجراء من إجراءات التحقيق أيًا كان القائم به بقوله تعالي:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

(البقرة: ٢٨٣)

ويقول: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾

(الطلاق: ٢).

أما الاستجابة للشهادة عند الدعوة لأدائها، فتشهد لوجوبها الآية:

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

(البقرة: ٢٨٢).

وأما أن الأصل فى الشهادة هو المساواة بين الرجال فى احتساب نصاب تلك الشهادة، فتشهد له آيتان من سورة النساء هما الآيتان ١٥، ٣١، تقول الآية الأولي:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾

(النساء: ١٥)

دون إشارة إلى الذكورة أو الأنوثة.

وتقول الآية الثانية:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾

(النور: ٤)

وفى مقام الطلاق والمراجعة نقرأ قوله تعالي:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾

(الطلاق: ٢)

بل إن الإشارة إلى العدل فى هذا السياق تقتضى أن الاعتبار الوحيد الملحوظ فى قبول الشهادة هو أن يكون الشاهد معروفًا بالعدل، ولا عبرة بكونه رجلاً أو امرأة.

أما الميدان الوحيد الذى جرى فيه التمييز بين شهادة الرجال وشهادة النساء، فهو الشهادة على الحقوق المالية المصاحبة للمعاملات المدنية والتجارية، وما يتصل بها من أمر الديون واستحقاقها وإثبات الوفاء بها، وهو الأمر الذى عالجته الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، وهو نص يتحدث عن الشهادة على الديون الآجلة والفرق فيها وقوع فاصل زمنى بين الواقعة التى يراد تحقيق وقوعها وبين وقوع الشك أو الإنكار فى شأنها، مما يحتاج إلى خبرة خاصة وذاكرة تحتفظ بتفاصيل المعاملة أو الواقعة التى يراد إثباتها، بقوله تعالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

وقد تكلم العلماء القدامى والمحدثون فى علة هذا الحكم الاستثنائى الذى انعطف عن قاعدة المساواة بين الرجل والمرأة فى الشهادة، وقدر أكثرهم أن هذه العلة تتمثل فى أن الأمر الغالب فى زمن النبوة كان اختصاص الرجال بعقد الصفقات التجارية والإلمام بشأن المال والتجارة، بحيث تستقر تفاصيل المعاملات فى ذاكرتهم، وأن ذلك لم يكن من شأن النساء فى غالب الأحوال، نعم كانت هناك سيدات تاجرات، ولكن ذلك كان استثناءً نادرًا، والنادر فى الفقه الإسلامى -لاحكم له ولا وزن- وإنما تقوم الشريعة على قيام "الغالب الأكثري" مقام "العام القطعي"، لذلك نقول: إن الشأن فى المعاملات -خلافًا للعبادات- أن يدور الحكم مع علته المحققة وجودًا وعدمًا.

يصدق ذلك على الشهادة، كما يصدق

على غيرها من وسائل الإثبات، إذ يظل الإثبات وسيلة للاستيثاق من أمر الحقوق والالتزامات، وكلما نشأت لهذا الاستيثاق أدوات ووسائل أوضح وأقطع في دلالتها، كان الأخذ بها جائزًا، بل لم يعد العدول عنها إلى وسائل قديمة أقل منها في قوة الإثبات أمرًا جائزًا عقلاً ولا شرعًا، لذلك نتجاسر على أن نقول: إن النصوص المتعلقة بإثبات الحقوق والديون وأي أمر آخر، لا تعبر -بذاتها- عن قيمة موضوعية من القيم والمبادئ الأخلاقية التي جاءت بالشريعة الإسلامية، والتي يعد التشريع معبرًا عنها وضامنًا لها، وإنما قيمتها في مدى صلاحيتها للوصول إلى الأمر المراد إثباته، فإذا ظهرت وسيلة أخرى أوفى قدرة على إثبات الأمر المراد إثباته، لم يكن من المعقول إهدارها والإصرار على وسيلة كانت - في زمن إقرارها- أحسن المتاح للناس من وسائل الإثبات.

والواقع أن الشارع الحكيم -سبحانه- قد بين لنا في وضوح كامل علة هذه التفرقة بين الرجل والمرأة في خصوص الشهادة على الحقوق والديون، وهو احتمال وقوع النسيان في هذه الشئون من جانب المرأة، فزودها بمن تذكرها لتصل بشهادتها إلى تحقيق المراد منها "

﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾

(البقرة: ٢٨٢)

فنحن إذن في إطار استثناء تحكمه قاعدة "تفريد الحكم" دورانا مع علته، وفي هذا السياق أو مثله قبول شهادة الصبيان على الصبيان، وتفضيل شهادة المرأة في الأمور التي يطلع عليها النساء من شئون النساء والأسرة.

كذلك نرجو أن نلاحظ اليوم وجود نوعين من الشهادة:

النوع الأول: الشهادة على وقوع الواقعة، وهذا يستوي فيه الشهود من الرجال والنساء، ومن الصغار والكبار.

النوع الثاني: الشهادة القائمة على الخبرة والتخصص العلمي أو العملي، ويسمى الشاهد من هذا النوع في النظم المعاصرة شاهدًا خبيرًا Expert Witness، وله دور أكبر أهمية أمام القضاء المعاصر، وتشترط فيه شروط خاصة تراعيها المحكمة قبل أن تعتمد على رأيه الصادر عن خبرته.

وننتهي إلى أن ما أثير حول شهادة النساء لم يعد محتاجًا إلى كلام كثير، وأن أمره محسوم، ولكن تطبيقه يحتاج إلى وضع ضوابط ليس فيها ما يرتبط ابتداءً بالذكورة والأنوثة، وذلك في ضوء ما قررناه، وذهب إليه أكثر العلماء من أن الأصل في هذه القضية هو إعمال مبدأ المساواة، وأن الاستثناء المقرر مرهون بتوفر علته.

ميراث المرأة

التعميم في هذه القضية خطأ علمي جسيم، والأقوال المرسلة في شأنه لا تغني عن الحق شيئًا، ولابد لذلك من التدقيق واستقراء جميع حالات الاستحقاق في الإرث.

وأول ما نبدأ به الإشارة إلى أن الإسلام حرص على ضبط أمر المواريث تصحيحًا لأوضاع فاسدة كانت سائدة في الجاهلية، ودرءًا للنزاع بين الورثة بعد موت مورثهم، وإقرارًا للعدل في أتم صوره.

وإنه إعمالاً لهذه الاعتبارات كلها، رتب الإسلام المستحقين في تركة المورث إلى أصحاب فروض حددت أنصبتهم في التركة تحديدًا واضحًا، وإلى مستحقين للإرث بالتعصيب، وهؤلاء ليس لهم نصيب معلوم،

وإنما يأتي دورهم بعد استيفاء نصاب أصحاب الفروض، فإن بقي بعد ذلك كله شيء من التركة دخل في استحقاق "أولو الأرحام" من بقية الورثة.

الأمر الثاني: أن أحكام الميراث لا تفهم ولا يجوز أن تعالج بمعزل عن أحكام "النفقات" وعن الالتزامات المالية لكل من الزوج والزوجة داخل الأسرة، وسوف نرى أثر هذا الارتباط عند محاولة فهم التفاوت -في حالات معدودة- بين نصيب الذكر ونصيب الأنثى في الميراث.

وتوضيحًا لهذا كله نذكر بأن العرف الذي كان سائدًا في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، كان يحرم المرأة من الميراث، فوضع الإسلام نهاية حاسمة لهذا التمييز، بنص قرآني قطعي الدلالة هو قوله تعالى في الآية السابعة من سورة النساء:

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا﴾

(النساء: ٧)

ثم إذا رجعنا -بعد ذلك- وفي إطار مبدأ المساواة، إلى تحديد من هم أصحاب الفروض، وجدنا أصحاب الفروض من الرجال أربعة، هم: الأب والجد والزوج والأخ لأم.

ووجدنا أصحاب الفروض من النساء ثمانية، هم: الأم، والجدة، والزوجة، والابنة، وابنة الابن، والأخت الشقيقة، والأخت من أب، والأخت لأم.

وثمة دلالة خاصة لاعتبار الشارع سبحانه أن الأخ لأم يعتبر من أصحاب الفروض، إذ أن قرابته مستمدة من انتمائه لأنثى هي الأم، وهو اعتبار مناقض لما كان عليه الحال في الجاهلية من إسقاط القرابة الناشئة عن الانتساب لأنثى.

استعراض الحالات التي يكون للمرأة فيها نصف ما للرجل، وهي حالات أربع:

١- أن توجد بنت مع الابن لقوله تعالى:

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾

(النساء: ١١)

٢- أن يوجد الأب مع الأم ولا يوجد أولاد ولا زوج أو زوجة،

وذلك لقوله تعالى:

﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾

(النساء: ١١)

ويكون للأب ضعف ذلك أي الثلثين.

٣- عند وجود الأخت الشقيقة أو الأخت لأب، مع الأخ الشقيق أو الأخ لأب، وفي ذلك حدد النص القرآني الواضح في الآية ١٧٦ من سورة النساء:

﴿وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾

٤- إذا مات أحد الزوجين، فإن الزوج الباقي يرث كما يلي:

١- عند وجود أبناء، يرث الزوج (الرجل) ربع التركة بينما ترث الزوجة ثمن التركة.

٢- عند عدم وجود أبناء، يرث الزوج (الرجل) نصف التركة، أما الزوجة فترث ثمن التركة.

في ضوء ذلك، وجمعًا بين هذه الأحكام، وبين أحكام النفقات التي يلزم بها الزوج داخل الأسرة، وعند انحلال رابطة الزواج، وجدنا العدالة متحققة من حيث إن من التزم قانونًا بالإنفاق، يفضل نصيب أكبر من التركة، أما

من يعفيه التشريع من الالتزام بالإنفاق، فإن تقليل نصيبه من الميراث في التركة ينسجم مع إعفائه من النفقة.

ثانيا- هناك حالات يتساوى فيها الرجال والنساء من حيث نصيبهم في التركة، وهي حالات ثلاث:

١- حالة ميراث الأب مع الأم- في حالة وجود ابن ذكر وزوج حيث يحصل الأب على سدس التركة وتحصل الأم هي الأخرى على السدس.

٢- إذا ترك المورث -بالإضافة للأب والأم- بنتًا واحدة زوجًا، فإن كلا من الأب والأم يحصل على سدس التركة، ولأن الزوج يحصل على ربع التركة، والبنت تحصل على نصف التركة.

فإن المسألة تنطوي على عول، أي زيادة مجموع الأنصبة على الواحد الصحيح (أي التركة) -وفي حالة العول ينقص من نصيب كل وارث.

٣ -حالة وجود بنتين للمورث، إذ تحصلان على ثلث التركة، ويحصل كل من الأب والأم على سدس التركة، وثمة حالات أخرى عديدة تحصل فيها المرأة على نصيب أكبر من النصيب الذي يحصل عليه الرجل، ولا نريد أن نثقل بإيرادها تفصيلاً.

والخلاصة ان الحالات التي يحصل فيها الرجل على أكثر مما تحصل عليه المرأة حالات قليلة يبررها -في إطار الزوجية والتزامات كل من طرفيها- أن الأزواج ملزمون شرعًا وقانونًا بالإنفاق على الزوجة، أما في سائر الأحوال فإن الرجل والمرأة يتساويان، وثمة حالات أخرى أشرنا إليها تحصل فيها المرأة على أكثر مما يحصل عليه الرجل.

ولما كانت العدالة التامة تحتاج إلى مراعاة خصوصية العلاقات التي ينظمها التشريع، أو التي تصدر في شأنها الفتوي، وكان من المأثور عن رسول الله ﷺ أنه كان يأتيه الرجلان يسألونه عن الأمر الواحد ويفتي كل واحد منهما برأي مختلف انتباهًا منه ﷺ إلى اختلاف واقع الحال المحيط بمسألة كل منهما، وهو ما يسميه الفقه في أكثر النظم القانونية "تفريد المعاملة" مراعاة لحال السائل أو خصوصية الوقائع التي يطبق عليها القانون، ونظير ذلك ومن صور تطبيقه ما تنص عليه أكثر النصوص العقابية من تحديد حد أدنى وآخر أقصى للعقوبة، كان يقال: إن عقوبة الجريمة هي الحبس لمدة أدناها سنة وأقصاها ٣ سنوات، أو أن السجن مدة لا تقل عن ٥ سنوات ولا تزيد عن ثمانية، إلخ.

وفي نصوص المواريث، فإن الشارع رحمة منه بعباده ورعاية مصالحهم قد فتح أمام الآباء والأمهات أبوابًا عديدة لمراعاة ما قد يكون بين ظروف أبنائهم وبناتهم من اختلاف يجب مراعاته عند توزيع التركة بعد وفاة المورث، فيملك الأب أو الأم أن يوصي وصية خاصة لأحد أبنائه أو بناته ممن أحاطت بهم ظروف تجعلهم في وضع أسوأ كثيرًا من وضع سائر إخوتهم وأخواتهم وذلك بما لا يتجاوز ثلث التركة، كما يملك المورث حال حياته أن يقدم هبة خاصة لواحد منهم أو أن يبيعه عقارًا أو منقولاً يخصه به دون سائر أبنائه - وذلك في الحدود ووفقًا للشروط التي يضعها القانون وتقبلها الشريعة- ومع التزام الحرص الشديد الذي يمنع وقوع شقاق بين الورثة بسبب هذه التفرقة الظاهرية في المعاملة.

خاتمة

هذه دراسة موجزة حول بعض جوانب "قضية المرأة" التي تقف أكثر المجتمعات الإسلامية في شأنها حائرة مترددة بين سلطان تقاليد كثير منها فاسد شديد الفساد، مخالف لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها الكبري، وللمساواة التي حرص الإسلام منذ بدء الوحي على نبيه ﷺ على تقريرها وضمان تحققها وذلك منذ أعلن النبي ﷺ أن النساء شقائق الرجال، فورثهن على النحو الذي فصلنا وأشركهن في إقامة ركن الأركان في عبادات المسلم وهو ركن الصلاة في البيوت أو في المساجد بقوله ﷺ ": لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"، [البخاري: كتاب الجمعة].

وبكلمات الوحي التي لا يملك حاكم ولا محكوم وقد قضى الله بها أن تكون لهم -بعدها- الخيرة من أمرهم، يقول سبحانه:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(البقرة:٢٢٨)

وتبقى في نهاية هذا الحديث كلمة، وهي أن استجابة الفكر الإسلامي المعاصر لهذه الحاجات المتجددة إنما تتم من خلال منهج علمي منضبط يحدد لنفسه الخطوط الفاصلة بين ما يسميه المحدثون "ثوابت الشريعة" وبين ما يعتبر حكمًا مرتبطا بعلة محددة يعمل به عند وجودها ويعدل عنه إذا تخلفت إلى ما يكون أقرب إلى تحقيقها وأوفى بمقاصد الشريعة في عمومها وفي خصوص القضية محل البحث والاجتهاد.

نقول: إن هذه الاستجابة لحاجات الناس في إطار مبادئ الشريعة الكلية ومقاصدها العامة- كما ينبغي لها أن تتحرر من الجمود والتردد- فإنه ينبغي عليها ألا تقبل أي جديد أو تتابع أي ثقافة أخرى فيما سارت عليه وتوافق عليه أهلها في كل ما يتعلق بالمرأة وعلاقتها بالرجل ودور كل منهما في المجتمع.. فلكل ثقافة منظومتها الأخلاقية والسلوكية، وقيمها التي تحكم السلوك الفردي والجماعي.

واختلاف الثقافات وتنوعها كما قلنا في مطلع هذا الحديث نعمة ورحمة، والقاعدة العقلية والشرعية أن "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذ بها" وأن القاعدة الكلية الكبرى التي تدور حولها جميع الأحكام والتكاليف الشرعية، إنما هي "تحقيق المنافع وتعظيمها ودرء المفاسد وتقليلها".

والمتأمل في قضية المرأة في إطار الثقافة الغربية والممارسة العملية التي آل إليها أمر كثير من المجتمعات الغربية يكشف عن الآثار السيئة التي ترتبت على الانطلاق في تصحيح أوضاع المرأة من تصور الخصومة والتناقض والمواجهة أساسًا للإصلاح في هذا الميدان، فأقيمت العلاقة بين الرجال والنساء على أساس التحلل الكامل من القيود والضوابط توهمًا بأن الحرية المطلقة في هذا الميدان يمكن أن تثمر خيرًا أو تحقق نفعًا، وما بهذا تقبل شريعة الإسلام، فالحياء شعبة من الإيمان، ومراجعة الأهواء والنوازع الغريزية أمر لابد منه في إطار يعترف بتلك النوازع ولا يصادرها أو يحاربها ولكنه يضبطها وينظمها، والمسلك الإسلامي الإنساني في هذه القضية -وفي كل قضية- مسلك متوسط بين الحجر الظالم المذل والانطلاق المفلت المضل"

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الفرقان: ٦٧)

الحرية وضوابطها فى الإسلام

أ. د. السيد محمد الديب
الأستاذ بجامعة الأزهر

يرتبط تاريخ الحرية فى الإسلام بإعلان الدعوة المحمدية عن وجودها فى مكة أولا وذيوع خبرها وانتشار مبادئها فى المدينة ثانيًا، ثم إلى مجالات أوسع وأرحب فيما بعد. وقد نزل من القرآن الكريم وثبت من أحاديث الرسول ﷺ ما يؤكد مدى قوة الدعوة إلى الحرية وتطبيقها على أرض الواقع فى حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه، رضوان الله عليهم. وتواصل التطبيق الكامل لكل متطلبات الحرية مع ذيوع كثير من المخالفات المناقضة لهذه المتطلبات فى الجزيرة العربية وبعض المجتمعات التى دخلها الإسلام.

وأصل الحرية كما تقول معاجم اللغة - التخلص من الشوائب أو الرق أو اللؤم وكل ما من شأنه أن يقيد حركة الإنسان وفكره عن البوح بما فى أعماقه، ولا يقتصر هذا المعنى على فرد دون آخر، أو على أمة دون أخرى، وهى لها تقدير واعتبار فى الإسلام، وقيل فى تعريفها: الحرية التى منحها الإسلام للناس فى تعبيرهم وأدائهم حرية واضحة المعالم محددة المفهوم، لها ضوابط وقيود تحكمها، وتنطلق من خلالها، وتعبر فى حدودها لتؤتى ثمارها المرجوة منها، ولذا فهى بناءة لا هدامة[١].

وقد انصرف هذا الإطلاق فى بداية الإسلام إلى حرية الاعتقاد، وتحديد الديانة التى يرغبها الإنسان، وكان خطاب الرسول - الذى لا ينطق عن الهوى - واضح المعالم، استمد قوته أولاً من القرآن الكريم، وأضاف الرسول ﷺ دعما وتطبيقًا صحيحًا لتفعيل حق الإنسان فى اختيار الدين الذى يرغبه، ووجد الناس فى الدعوة الإسلامية منقذًا للكثيرين منهم من أغلال الرق وسيطرة الأقوياء وامتداد النفوذ الطاغى، الذى لم يكن معينًا للإسراع فى بسط أنواع الحرية بشتى استعمالاتها، لكن الأمور التى كانت متأزمة فى زمن الرق لم تلبث أن انفرجت، واتسعت آفاق الحرية بشكل مبهر، وتجلى ذلك فى مواقف الكثيرين، الذين تمكنوا من خلع أردية الرق والعبودية، وتحصنوا بالأنوار الجديدة التى بدأت تضىء وتلمع فى مكة والمدينة، وبعض المناطق المجاورة لهما.

وكانت الحرية إبان زمن ولادتها فى الإسلام

(١) انظر: حرية الرأى فى الإسلام أ / خليل محمد خليل إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص٥.

مطلبًا رصينا أكدته الشريعة نظريًا وتطبيقًا، ويتسع معنى الحرية لتشمل سائر جوانب الحياة بما فيها من علاقات متنوعة ومتشابكة للإنسان مع غيره من البشر، إذ يندرج فى ذلك ما يسمى حرية الرأى التى تشمل كل الآراء فى شتى المجالات، وتندرج تحت ذلك أيضًا حرية العقيدة وحرية تكوين الأسرة، واختيار الأصدقاء والتعبير عن الرأى، واختيار القيادات وغير ذلك من المجالات.

وقد اعتبرت الحرية هى الأب الشرعى لسائر الحضارات والانتفاضات على كثير من الأوضاع التى رآها أكثر الناس قاصمة للظهر ومقيدة للحركة والبوح، وتعددت إطلاقاتها ومجالات استعمالاتها وصارت حرية الفكر وإبداء الرأى أقوى الأساسات لنشر الحرية مطلقة غير مقيدة أو مقتصرة على جماعة من البشر دون الآخرين، وكان الخطاب القرآنى للرسول ﷺ واضح المعالم فيما يتصل بحرية الرأى، واختيار الإسلام دينا جديدًا فى ظل انتشار عبادة الأصنام والأوثان وبعض مكونات الطبيعة الصامتة والمتحركة.

ونفتتح الاستعانة بدلالات القرآن الكريم والسنة النبوية بقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس: ٩٩)

إذن فالخطاب القرآنى واضح المعالم فى هذه الآية من حيث الاتساع فى قبول غير المؤمنين، ليكونوا بعض مكونات المجتمع الإسلامى حيثما وجد.

وقال فى هذا الشأن أيضًا:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فالإكراه مرفوض سواء أكان فى مجال الدين أم كان فى نطاق الحريات الأخرى، التى تهم الإنسان على كافة مستويات الفكر لديه، وقد أكد الرسول ﷺ ذلك بالأساليب التعبيرية والبيانية المتعددة فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»[٢].

ويوجه الحديث أنظار المسلمين إلى حتمية إعمال العقل وتوظيف الفكر؛ للاستقلال بالرأى وعدم التبعية لأصحاب الآراء الضالة المضلة.

وفى حديث آخر استعان الرسول ﷺ بأسلوب التشبيه البيانى فى تأصيل حرية الرأى، وتوظيفها فى التصدى للتصرفات الضالة، التى يمكن أن تلحق الأذى بالجماعة، وذلك ما كشف عنه الرسول ﷺ فى الحديث الذى قال فيه: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو خرقنا من نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[٣].

ذلك أن التحرك لردع المنكر فى حالة

(٢) رواه الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه. والإمع: الذى يقول لكل أحد أنا معك، ولا يثبت على رأيه وتضاف التاء للمبالغة.

الاستطاعة تفعيل للحرية الإيجابية التي تبني ولا تهدم، وتعمر ولا تخرب بما يحقق النفع للفرد والجماعة ؛ احتماء بالحق وقهرًا للباطل.

ولقد احتفل الإسلام بالحرية فهيأ السبل لها، وقاوم أى اعتداء على حقها وشرعيتها، وأتاح الحرية المنضبطة المعبرة عن اعتقاد الإنسان دون أن يخضع لجبروت وقهر ممن لهم كلمة ونفوذ وسلطان، ونذكر في ذلك مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عن موقف أو حادثة أخذت حقها في الشرح والتعليق والبيان والتوجيه قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

وتمتد مسيرة الحرية من التاريخ القديم إلى الواقع المعاش مرورًا بمئات السنين، إذ كان هذا المصطلح يختفي ويتلاشى، ثم يصحو على مطالبات في البيئات العربية، تحت ظلال الإسلام، ونصل في غمرة ذلك إلى الزعيم أحمد عرابي، الذى خاطب بكل قوة خديوى مصر بكلمة لا زالت محفورة على جدار الزمن قال: «لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذى لا إله إلا هو .. إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم» وسوف يبقى هذا الموقف حيًا نابضًا في وجداننا، وبما يمكن أن يحدثه من إضاءة وتنوير للباحثين عن الحرية في كل مكان.

وكان الشباب العربي والإسلامي هم المستهدفون برواد الفكر والتنوير وبين أيدينا كتاب (في ظلال الحرية) للدكتور / محمد بديع شريف - الذى أهداه إلى شباب العرب والإسلام فقال: «انشدوا الحرية التي وهبتكم إياها السماء، وهيأكم فيها محمد ﷺ للعمل والإيجاد والإبداع فقصرتم آماد الدهر، وقدمتم للإنسانية حضارة تربع في ظلالها العدل والمساواة والإخاء، فقفوا أمام أولئك الذين يطلقون في ربوعكم الشامخة تيارات الهدم، كي يخنقوا حريتكم، ويحولوا بينكم وبين إرادتكم المبدعة ومثلكم التي جاءت بها آيات قرآنكم، لبناء المجتمع الأفضل» وأعتقد أن الحديث عن الحرية قديمًا أو حديثًا لا ينفصل عما عرض له ﷺ في خطبته الجامعة على ثرى عرفات في حجة الوداع، وذلك قبل أن يتم الإعلان عن ذلك في دساتير الأرض عن حقوق الإنسان.


احمد عرابى

مجالات الحرية

إن الحرية التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان لا يمكن أن تتوقف عند جانب واحد من الحياة ما دامت منضبطة وغير منفلتة وخاضعة للضوابط الراسخة ولا تلحق أذى وضررًا للآخرين فلا يصح أن يسيء الناس ما وهبهم الله إياه، إذ يجب أن يكون الانضباط هو عماد الأمر في الرأى والفكر وسائر وسائل التعبير عن الذات، وكل المكونات الأخرى للتعامل مع الآخرين، على أن لا يغيب المسلم عن عقله، ولا ينفصل عن فكره، فيوظف مكوناته المرشدة في التمييز بين الخير والشر وبين الهدى والضلال؛ ليختار ما يراه مناسبًا ولعقيدته وسائر أحواله، كما أن حرية الرأى أو حرية الفكر هي محل العناية والاعتبار

(٣) رواه البخاري والترمذي وابن حنبل

فمن خلال الرأى الصائب والفكر الرشيد يستطيع المسلم أن يتعامل مع سائر الحريات مثل الحرية الدينية والحرية السياسية وحرية العلاقات الإنسانية، تلك التي يلجأ إليها المسلم في اختيار شركائه وسائر المتعاملين معه في الإطار الاجتماعي والاقتصادى وغير ذلك مما لا يغيب عن كل عاقل مدبر، وهذه بعض مجالات الحرية التي ينبغي أن تكون خاضعة للضوابط التي سنعرض لها.

١- الحرية الدينية.

إن الحرية الدينية مكفولة لجميع الناس وهى جزء من حرية الرأى والفكر.

وقد تحدث الشيخ / عبد المتعال الصعيدى - رحمه الله - عن الحرية الدينية، ونعى جحود المسلمين لهذه النعمة في القرون الأولى من العصر الإسلامي، وخضعوا أو تأثروا بما ظهر بالآخرين من إساءة الظن بدينهم وعقيدتهم، وتلك نكبة ارتدت آثارها السيئة على الإسلام والمسلمين، وغاب عن وعيهم أن الحرية شرط لصحة الإسلام، وابتدأ الشيخ - رحمه الله - هذه الرؤية بقوله: «جحد المسلمون نعمة الحرية التي أتاهم الإسلام بها، ولم يجحد خلفاؤه الراشدون حقهم فيها، فكان جزاؤهم على هذا استباحتهم لدمائهم، وخذلانهم لآخر خليفة منهم، حتى مكنوا لمن سلبهم هذه الحرية، وأخذهم بالاستبداد والطغيان فلم يكن منهم إلا أن استناموا لاستبداده، واستكانوا لطغيانه، ورضخوا لحكم القوة الذى كان لا يرعى لهم حرمة، ولا يرى لهم في تصريفه حقًا»(٤).


عبدالمتعال الصعيدى

وذكر الشيخ أن الزمن قد طال بهذا الفريق من المسلمين، حتى تأثروا بغيرهم فوصلوا إلى الظن السيئ بأن الإسلام كان يأخذ الناس بالاستبداد لا بالحرية كما ذهبوا إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف لا بالحكمة والموعظة الحسنة.

لقد جاء في القرآن الكريم وثبت عن الرسول ﷺ ما يؤكد دعوة الإسلام إلى الحرية في العقيدة، وعدم الإساءة لمن دانوا بغير الإسلام، ونظم الإسلام علاقة المسلم بغيره من أهل الأديان الأخرى، وبقى هذا التاريخ بمعطياته الخالدة تشريعًا حضاريا رائعا يقدر الحرية، ويعطى لكل ذى حق حقه، دون جور من طرف على آخر، وأتاح الحق لكل الواقعين تحت القهر في السعى على نيل استقلالهم والوصول إلى الشواطئ الآمنة للحرية، واعتبر أن كل كلمة في سبيل الظفر بثمرات الحرية هي جهاد ثابت بالكتاب والسنة، ونذكر في ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٥).

وأما فيما يتصل بمراعاة حقوق أهل الأديان الأخرى فقد قال الرسول ﷺ: «من آذى ذميا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى»(٦).

لكن المسلم إذا استقر إيمانه، وثبت

(٤) حرية الفكر في الإسلام ص٦٩.
(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(٦) رواه أبو داود والبيهقي

يقينه صار ارتباطه بالدين ليس قابلاً للتحول والارتداد.

٢- الحرية الفكرية

لقد ذكرنا أن حرية الرأى والفكر تشمل معظم جوانب الحياة الإنسانية، والذى نقصده من العرض لحرية الفكر هنا هو ما ذكره كثير من العلماء، وهى أنها تشمل الحرية العلمية والحرية السياسية والحرية الدينية ولكل واحدة من هذه الحريات أسس وضوابط يجب الالتزام بها وعدم الخروج عنها، وهذه الحرية شديدة الارتباط بالعقل، وحتمية توظيفه للتمييز بين الخير والشر.

وقد قال الأستاذ / خليل محمد خليل فى كتابه «حرية الرأى فى الإسلام»: «إن حرية الرأى فى نظر الإسلام حق لكل إنسان فى الحياة قد شرعه الله له، وجعله مظهرًا من مظاهر تكريمه وتفضيله على كثير ممن خلق، لقد قرر الإسلام للإنسان هذا الحق أيا كانت عقيدته ووطنه، ليعلن رأيه فيما يراه، ويجول بخاطره فى مجتمعه وفى العالم من حوله»(٧).

إن حرية الرأى لا تتيح للإنسان أن يقول كل ما يريد فيلحق أضرارًا بالآخرين، أو ينشر بدعًا وضلالات، أو يمارس جدلاً مع أهل الأديان الأخرى ولكن هذا اللون من الحرية يخضع للضوابط، ولا ينفلت من الثوابت وكم من ضحايا للفكر على مر السنين لم يحسن الناس التعامل معهم فلحق بهم ما لحق إما حبسًا واعتقالاً، وإما نفيًا وطردًا وإما قتلاً وإبادة.

ذلك أن المسلم العاقل الباحث عن الحرية، والحريص عليها ينبغى أن يكون استخدامه لعقله استخدامًا مرشدًا لمصلحة دينه ووطنه ومعتقداته، التى لا تؤذى الآخرين.

٣- الحرية السياسية

تأتى الحرية السياسية كإحدى نواتج الحرية الفكرية فصاحب الرأى لا يكون تابعًا - على طول الخط - لغيره وإنما يجب عليه أن يلتزم بالضوابط المرعية فى كل مجال يسلكه، ولا مانع من أن يقتدى بالآخرين الذين يثق فيهم، ويعتقد بآرائهم بدون قسر وإرغام، وقد قيل عن الحرية السياسية إنها عبارة عن احترام رأى الفرد فى الحكم، بحيث لا تضيع شخصيته فى شخصية الحاكم، بل يكون رأيه سلطانه فيما يراه، ولو تعلق بشخص الحاكم نفسه فيكون له الحق فى معارضة إسناد الحكم إليه، وفى نقد أعماله بالوسائل النزيهة فى النقد»(٨).

وفى ظل الحياة المعاصرة وتنوع المذاهب والأحزاب السياسية يبقى على المسلم أن يستخدم عقله الذى وهبه الله إياه، ليختار من المذاهب والتوجهات ما يحقق به أهدافه بحيث لا يبتعد عن الثوابت والمرعيات - كما أشرنا سلفا - مع الحفاظ على حق الفرد فى الاعتراض على الحكم بالطرق المشروعة، وكم شهدنا من مشكلات بقيت معلقة لسنوات كثيرة مثل ما أحدثه كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للقاضى الأزهرى الشيخ / على عبد الرازق، وكتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين، وكتاب «أوراق امرأة من زمن الثورة» لزوجة المناضل / يوسف صديق أحد أبطال ثورة ١٩٥٢ وإلى غير ذلك من الأحداث والعراك السياسى،

(٧) حرية الرأى فى الإسلام - خليل محمد خليل ص٩.
(٨) حرية الرأى ٣٩.

الذى شهدته مصر فى القرون الأخيرة.

وفى سائر الأحوال ينبغى لكل مسلم أن يوظف أدوات المعرفة لديه فى سبيل تنعمه بأريج الحرية، ويأتى فى مقدمة ذلك العقل والثقافة، وتقبل آراء الآخرين، وإذا كانت هذه المجالات هى محل اتفاق عند الكثيرين من مفكرى العصر الحديث فإنها لا يمكن أن تتوقف عند هذا الحد، وإنما هناك مجالات أخرى للحرية مثل حرية الإبداع والتعبير وحرية الرأى والتفكير، ومقاومة الاضطهاد والحرية العلمية التى لا يتوقف فيها العقل عند حدود معينة، وإنما يتجاوز كل المجالات الضيقة إلى عالم رحب فسيح، كما تمتد مجالات الحرية بشكل متميز وبمجموعة من المرعيات إلى الحرية الاجتماعية، وحق الإنسان فى اختيار النمط الخاص الذى يتوافق مع ميوله وطبيعة النشاط الاجتماعى الحر الذى يميل إليه.

ضوابط الحرية

لا يمكن أن تكون الحرية منفتحة أو متسعة بلا ضوابط يحتكم إليها المسلم فى تعاملاته مع المقربين منه والبعيدين عنه، فلو جاز للإنسان أن يقول ويفعل ما يروق له دون مراعاة لحقوق الآخرين لعمت الفوضى وانتشر الفساد، ولكن الحرية مع تعدد ألوانها وتجلياتها يجب أن تخضع للضوابط والاشتراطات التى تفصل بين ما للشخص من حقوق وما عليه من واجبات، وهذه بعض الضوابط والاشتراطات التى يجب التمسك بها وعدم التفريط فيها خاصة فى مجالات إبداء الرأي، وعرض الفكر ومناقشة الآخرين فيما يؤمنون به، ولا يرغبون فى التخلى عنه، ولأن كثيرا من الباحثين عن الحرية والمطالبين بها يختلفون كثيرًا مع بعضهم، قبل أن يختلفوا مع الآخرين، والقضية فى أساسها ليست قاصرة على المناداة بحق إبداء الرأي، ولكن المسألة تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، ونقصد النطاق الفعلى المنضبط لعرض الآراء ومناقشة الآخرين، ذلك أن القرآن الكريم قد دعا إلى وحدة الصف وعدم التفرق، وخاطب أهل الأديان الأخرى بضرورة الاجتماع على الرأى الواحدة وعدم التمزق هذا الذى يؤدى إلى الشتات والضياع قال تعالى:


قاسم أمين

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾

(آل عمران: ٦٤)

وقيل: «لم يطلق الإسلام حرية الرأى بلا ضابط ولا قيد يقول كل إنسان ما يحلو له من الكلام، وما يعن له من الآراء بغض النظر عن عواقبها، وإنما وضع لها حدودًا وضوابط كى تؤتى ثمارها المرجوة منها» وذلك فى تحقيق مصلحة الجميع أفرادًا وأمما وتبقى على علاقات الناس طيبة حميمة، وفى ضوء ذلك نعرض لبعض الضوابط التى يجب أن تحكم العلاقة بين البشر على مستوى الفرد والجماعة.

١- عرض الرأى مع مراعاة الأدب الحسن والأسلوب الجيد والحكمة العاقلة

وأن لا يتجاوز الإنسان حدود المتاح له، مراعاة لمتطلبات الآخرين وما يجب لهم، ومن المؤسف أن كثيرًا من الناس يتعاملون بألفاظ خشنة وعبارات جارحة يمكن أن يعاقب عليها

المتعامل بها شرعا وقانونا، ذلك أن أسلوب التعامل مع الآخرين لا يصح أن يتجاوز أبعاد ما يهدف إليه قول الله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

٢- تجنب إثارة الفتن والعداوات والشحناء، خاصة بين جموع المختلفين فى الرأى ففى غمرة انفعال الحادث قد يتجاوز المتكلم الغاضب حدود نفسه فيخوض فى أعراض الناس ويكشف أسرارهم، بدون تمييز بين ما يجب قوله أو كتمانه فيشتعل الموقف، ويتمادى المتجاوز وتنفلت الألسنة وتتوه الرؤية خرقا للضوابط التى يجب أن تكون سياجا ضابطا للمتحاورين وأصحاب الآراء المختلفة.

٣- تقبل آراء الآخرين مع استيعاب أفكارهم وحسن فهمها، وحتمية الرد عليها بهدوء وأدب وتقدير، ويمتد ذلك إلى سائر مجالات الحرية، خاصة فى شئون العقيدة والفكر ورفع المظالم وشئون الأسرة وكل مجالات الحياة.

٤- مراعاة التوافق بين النظرية والتطبيق، إذ لا يصح الفصل بينهما مما يوقع كل طالب للحرية فى التناقض والمؤاخذة والمخالفة يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الصف: ٢)

وهذا التناقض يكون أشد خطرا إذا ما تسرب إلى العقائد والديانات؛ لأن المسألة قد تتجاوز النطاقات الفردية والجماعات القليلة العدد إلى مجالات أوسع يكثر فيها الخلاف، وتزداد الهوة بين القول والفعل، وليس ذلك مقبولا فى المجتمع الإسلامي.

٥- مراعاة حدود الحرية وآدابها فى شتى جوانب الإبداع

ففى كثير من الأعمال الإبداعية شعرا أو نثرا أو رسوما تصويرية وغير ذلك من الجوانب يتجاوز المبدع إلى إبداعات مكشوفة كالشعر الحسي والرسم التجريدى والأساليب النثرية الخادشة للحياء، ففى كل ذلك تحدث اضطرابات وفتن كالذى شاهدناه منذ ما يقرب من عشر سنين عندما هبت بعض جماعات دينية ملتزمة ضد الأساليب المكشوفة فى رواية (وليمة لأعشاب البحر) للأديب السورى حيدر حيدر، وغير ذلك من الصراع بين الالتزام بالمرعيات الإسلامية والخروج إلى ما يثير الفتن والغرائز.

٦- مراعاة حسن التعامل مع المتغيرات المستقبلية المنتظرة فى نطاق العالمين العربى والإسلامي، خاصة فى مجال نشوء الأحزاب السياسية، واختيار القيادات وتقدير الرموز المحبة لدينها ووطنها، ومواصلة تجديد الفكر فى شتى المجالات السياسية، دون اختراق للثوابت المتأصلة، مع حسن الفهم لمصطلح الحرية بألوانها وضوابطها، وعدم التجاوز والطغيان على حريات الآخرين.



إسداء النصيحة إلى الحكام والأمراء



للشيخ: فوزى فاضل الزفراف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإصغاء لصوت النصيحة إصغاء لصوت العقل، والاستماع لحكمة الموعظة نجاة من هلاك المعصية، والفائز مَنْ خضع للحق، والخاسر مَن اتّبع هواه وتمكن منه الشيطان فطغى واستعلى، وتجبّر واستكبر!!

ولأهمية إسداء النصيحة والحرص على أدائها فى إصلاح أمر الناس وتحقيق الخير لهم أرشدنا رسولُ الله ﷺ إلى أهميتها وإلى منزلتها ومكانتها فى الدين، عن أبى رُقَيَّة تميم بن أوْس الدَّاريّ - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

والنصيحة شرعا: إرادة الخير للمنصوح وإرشاده إليه، وأحوج الناس إلى النصيحة الحاكم، فمصالح الرعية أمانة فى عنقه، حملها ثقيل، ومسئوليتها جسيمة، وعاقبتها وخيمة لمن لا يؤديها حقها، فعن عبدالله بن عمر -رضى الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، الإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل فى أهله راع ومسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته»(٢).

والحاكم الموفق هو الذى يُحسن اختيار بطانته، لأنها القريبة منه، وهى المحيطة به، وهى جليسته يصيبه خيرُها وشرُّها، فعن أبى موسى -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، ويعطيك، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»(٣)، وهى التى تحببه فى العدل والخير، أو تزين له الظلم والشر، وفى كلتا الحالتين هو المسئول عن أعمالها وأفعالها، لأنها

(١) مسلم. (٢) البخاري. ٣- مسلم.

من اختياره، ويتحمل وزر تصرفاتها في يوم حسابه عسير من إله عادل حكم على نفسه بأن يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، فعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكره أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره، وإن ذكر لم يُعنه»(٤)، وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله»(٥)

وأفضل ما ترزق به أمة أن يتولى أمرَها وحُكمها خيارها، وشر ما تبلى به أمة أن يتولى أمرَها وحكمها شرارُها، فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياءُكم بخلاءُكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»(٦).

والحاكم الذى يخشى الله ويراقبه فى حُكم الرعية، ويخاف من مسئولية الأمانة التى حملها، ويقدر ثقلها، ويعرف حسابها، هو الذى يتقبل النصيحة، ويسعى لسماعها، ويفسح صدره لها مهما كان وقع سمعها ومرارة طعمها.

وقد سجّل التاريخ لبعض الخلفاء حُبَّهم للموعظة، وطلبها، والاستماع إليها.

كما سجل التاريخ لكوكبة من العلماء العظام الذين واجهوا الخلفاء والحكام بالموعظة والنصيحة، ولم ترهبهم سطوة الحكام فقالوا لهم كلمة الحق فى النصيحة.

عندما ولى عمر بن عبدالعزيز -رضى الله عنه- الخلافة لم يبهره المنصب، ولكنه قدّر مسئوليته الضخمة.. فقرر أن يستعين عليه بأهل الخبرة والصلاح، وكان من دلائل صلاحه أنه لم يستبد برأيه، ولكنه طلب المشورة من أهلها.. فطلبها من واحد من كبار الزاهدين العلماء.

وكان من رحمة الله بأمة الإسلام أن أتم عليها نعمته بالحاكم الصالح.. والعالم الصادق وهاهو ذا الحسن -رضى الله عنه- يستجيب لرغبة الخليفة فيرشده بقوة وصراحة إلى طريق الحق والعدل.. ويقدم له النصيحة الخالصة فيما يجب عليه اتباعه، التى نحن فى حاجة متجددة إلى مثلها.

فقد كتب عمر بن عبدالعزيز -رضى الله عنه- لما ولى الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى طالبا منه: أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل.. فكتب إليه الحسن البصرى -رضى الله عنه- يقول:

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصْد كُلٍّ جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها، الذى يرتاد لها أطيب المراعي، ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويُكنها من أذى الحرّ والقُرّ (البرد).

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كُرها ووضعته كرها، وربته طفلا تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامي، وخازن المساكين، يُربى صغيرهم، ويَمون «ينفق» كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله -عز وجل- كعبد ائتمنه سيده واستحفظه على ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا فتزود له ما يصحبك:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

(عبس: ٣٤-٣٦)

واذكر يا أمير المؤمنين:

﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

(العاديات: ٩-١٠)

فالأسرار ظاهرة، والكتاب:

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾

(الكهف: ٤٩)

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبل الظالمين، ولا تسلط المتكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك، ولا تنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله تعالى فى مجمع من الملائكة والنبيين

٤- أبوداود   ٥-البخارى   (٦) الترمذى

والمرسلين وقد:

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾

(طه: ١١١)

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك «أقصر» شفقة ونصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

رحم الله الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، وجزاه خيراً على ورعه وتقواه، فقد عاش المسلمون في ظل ولايته في أمن وأمان، وخير ورخاء.

ورحم الله الحسن بن أبي الحسن البصري الناصح الصادق الأمين، الذي زهد في الدنيا فلم يفتنه مال الحاكم ولا جاهه فأخلص في النصيحة وصدق في المشورة.

دخل ابن السماك يوماً على الرشيد، فلما وقف بين يديه قال له الرشيد: عظني يا ابن السماك وأوجز.

قال ابن السماك: كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(المطففين: ١-٦)

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله!!

وقال له مرة: عظني وأتى بماء ليشربه، فقال: يا أمير المؤمنين، لو حُبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، قال: فلو حُبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، قال: فما خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة!!

قال: يا ابن السماك، ما أحسن ما بلغني عنك، قال: يا أمير المؤمنين إن لي عيوبًا لو اطّلع الناس منها على عيب واحد ما ثبت لي في قلب أحد مودة، وإني لخائف في الكلام الفتنة، وفي السر الغرة، وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها.

دخل الأوزاعي يوماً على الخليفة المنصور فقال الخليفة له: ما الذي بطّأ بك عني؟ قال الأوزاعي: وماتريد مني يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الاقتباس منك.

فكان مما قاله الأوزاعي: يا أمير المؤمنين، إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عُرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وقد جاء عن جدك عبدالله بن عباس في تفسير قول الله عز وجل:

﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾

(الكهف: ٤٩)

قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فما ظنك بالقول والعمل؟ فأعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال ﷺ: «يا صفية عمة محمد، ويا

فاطمة بنت محمد، استوهبا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا»، وكذلك جدك العباس سأل إمارة من النبي ﷺ فقال له: «أي عَمّ نفس تُحييها خير لك من إمارة لا تحصيها» نظر لعمه – وشفقة عليه من أن يلي فيحيد عن سُنته جناح بعوضة، فلا يستطيع له نفعًا ولا عنه دفعًا– وقال ﷺ: «ما من راع يبيتُ غاشًا لرعيته إلا حَرّم الله عليه رائحة الجنة»، وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا، وبالحق فيهم قائمًا، فلا يتخوف محسنهم رهقًا، ولا مسيئهم عدوانًا.. يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده، فقال جبريل: يا محمد إن الله لم يبعثك جبارًا تكسر قرون أمتك، واعلم يا أمير المؤمنين أن كلّ ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النّار عُلّق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحته، فكيف بمن يتقمّصه!! ولو أن ذنوبا «دلوا» من صديد أهل النار صُبّ على ماء الدنيا لأصمّه «سخنه» فكيف بمن يتجرعه!!

ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته فكيف بمن يُسْلك فيها ويُرد فضلها على عاتقه!!

قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- عند موته حين استخلفه: «أوصيك بتقوى الله، فإنّ لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدّى الفرائض. وإنما ثقلتْ موازين مَنْ ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحُقّ لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفّت موازينُ مَنْ خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقّ لميزان لا يُوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا. وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا سمعتَ بهم قلت: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حسناتهم، فإذا سمعت بهم قلت: أنا خير من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب: ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق. فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائبٌ أحبّ إليك من الموت، وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت، ولن تعجزه».

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن: اجمعْ لي أمْرَ الدنيا، وصف لي أمر الآخرة.

فكتب إليه: إنما الدنيا حُلم، والآخرةُ يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام، من حاسَبَ نفسَه رَبح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلّ، ومن حلُم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللتَ فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلتَ فاسأل، وإذا غضبت فأمسك. واعلم أنّ أفضلَ الأعمال ما أُكرهت النفوسُ عليه.

فتاوى لها تاريخ

الدين ونظرية التطور



الشيخ محمود شلتوت

السؤال: هل يعارض رجال الدين نظرية التطور على أساس سند من الدين أم تزمتًا؟

مصادر المعرفة اليقينية

رجال الدين، الذين هم رجال الدين حقًا، هم الذين يفهمون مبادئ الدين من مصادره اليقينية غير متأثرين بتقليد غيرهم ولا بأوهامهم وظنونهم، ولا بمقدمات البحث التى لا تعتمد على مصادر العلم الصحيح: وهى الحس السليم، والنظر العقلى الصحيح، والخبر الصادق الذى قامت على صدقه الأدلة، التى يخضع لها العقل، ولا يجد مناصًا من حكمها. فهم بحكم دينهم يرفضون الإيمان بشىء ما عن طريق التقليد والجرى فى معتقدهم على مجرد ما نقل عن الآباء والأجداد، ولا لشىء سوى أنه نقل عن الآباء والأجداد. وهم بحكم دينهم يرفضون فى معتقدهم الاعتماد على الظنون والمفروضات التى تؤيد بسند يشهد بصحته العقل أو الخبر الصادق.

ومن هنا جاء القرآن الكريم بذم التقليد، وجرى الخلف وراء السلف دون نظر واستدلال. وفى هذا يقول:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾

(البقرة: ١٧٠)

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

(الأنعام: ١٤٨)

ويقول:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

(الحج: ٨)

نظرية تعارض صريح القرآن

هذا مبدأ الإسلام فى قبول الآراء والتسليم بالنظريات، وهو منهج رجال الدين الذين هم كما قلت رجال الدين حقا. ونظرية التطور التى هى موضوع السؤال، والتى يراد بها تطور الإنسان عن نوع آخر من أنواع الحيوانات بطريق النشوء والارتقاء - نظرية لم يرفضها رجال الدين تزمتًا أو تعسفًا، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة، وعلى أساس مما قرره الدين فى رفض ما لا يدل عليه برهان، أو يشهد بصحته حس أو تجربة.

ولقد جاء صريحًا فى القرآن الكريم

الحديث عن خلق الإنسان، تحدث عن خلق الإنسان الأول، ومم كان، وتحدث عن خلق أبنائه، ومم كانوا وكيف كانوا؟. ففى خلق الإنسان الأول يقول:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

(الحجر: ٢٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٨، ٢٩)

وفى خلق أبنائه يقول:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾

(الحجرات: ١٣)

ويقول:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾

(الطارق: ٥ - ٧)

وفى تطور خلق الأبناء من هذا الماء يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾

(الحج: ٥)

فهذا ونحوه خبر الله الصادق، الذى قامت على صدقه المعجزات، يحدث بأن الإنسان خلق نوعًا مستقلاً ليس متطورًا عن نوع آخر من أنواع الحيوانات، أيا كان ذلك النوع، وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان فى بعض الخصائص، وبعض الأوضاع الجسمية. فلو كان خلق الإنسان بطريق الارتقاء عن نوع آخر لكان الحديث الذى ساقه القرآن عن خلقه حديثًا لا يطابق الحقيقة ولا يتفق والواقع، وهو حديث صريح لا يحتمل غير مدلوله المفهوم من عباراته وألفاظه.

الوحى وحده مصدر العلم بالمسائل الغيبية

والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس، ولا محل فيها للتجربة، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها. ومثل هذه المسألة من المسائل التى ينحصر مصدر العلم بها فى خصوص الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات الواصل إلى الناس من عالم الغيب، ومكون الأنواع والمخلوقات.

وقد نفى القرآن أن يكون مبدأ الخلق عامة مما يعلمه الإنسان بنفسه، وما منح من قوى الإدراك، قال تعالى:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(الكهف: ٥١)

أما بعد:

فهذا هو السند القوى الذى يعتمد عليه رجال الدين فى رفض نظرية التطور الفردي، ولم يكن رفضهم إياها مجرد تزمت كما عبر السائل فى سؤاله.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ربيع الآخر ١٤٣٤هـ
فبراير - مارس ٢٠١٣م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

الاحتفال بالمولد النبوى الشريف

هل يجوز الاحتفال بالمولد النبوى الشريف؟

● الجواب: المولد النبوي الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشرى جميعه، فلقد عبر القرآن الكريم عن وجود النبى ﷺ بأنه:

﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهى تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم وتقدمهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان؛ بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾

(الجمعة: ٣)

والاحتفال بذكرى مولد سيد الكونين وخاتم الأنبياء والمرسلين نبى الرحمة وغوث الأمة سيدنا محمد ﷺ من أفضل الأعمال وأعظم القربات؛ لأنها تعبير عن الفرح والحب للنبى ﷺ، ومحبة النبى ﷺ أصل من أصول الإيمان، وقد صح عنه أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» متفق عليه.

قال ابن رجب: «محبة النبى ﷺ من أصول الإيمان، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدم عليها محبة شيء من الأمور المحببة طبعًا من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

(التوبة: ٢٤)

ولما قال عمر للنبى ﷺ: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، قال النبى ﷺ: «لا والذى نفسي بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلى من نفسى، فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر» (رواه البخارى) اهـ.

والاحتفال بمولده ﷺ هو الاحتفاء به، والاحتفاء به ﷺ أمر مقطوع بمشروعيته؛ لأنه أصل الأصول ودعامتها الأولي، فقد علم الله سبحانه وتعالى قدر نبيه، فعرف الوجود بأسره باسمه وبمبعثه وبمقامه وبمكانته، فالكون كله فى سرور دائم وفرح مطلق بنور الله وفرجه ونعمته على العالمين وحجته.

وقد درج سلفنا الصالح منذ القرن الرابع والخامس على الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح فى رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظين ابن الجوزى وابن كثير، والحافظ ابن دحية الأندلسى، والحافظ ابن حجر، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالى.

ونص جماهير العلماء سلفًا وخلفًا على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، بل ألف فى استحباب ذلك جماعة من العلماء والفقهاء، بينوا بالأدلة الصحيحة استحباب هذا العمل؛ بحيث لا يبقى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكار ما سلكه سلفنا الصالح من الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف، وقد أطال ابن الحاج فى «المدخل» فى ذكر المزايا المتعلقة بهذا الاحتفال، وذكر فى ذلك كلامًا مفيدًا يشرح صدور المؤمنين، مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه «المدخل» فى ذم البدع المحدثة التى لا يتناولها دليل شرعى، وللإمام السيوطى فى ذلك رسالة مستقلة سماها «حُسن المقصد فى عمل المولد».

والاحتفال فى لغة العرب: من حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلًا وحُفلًا وتحفّل

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتى جمهورية مصر العربية



واحتفل: اجتمع، وحفل القوم من باب ضرب واحتفلوا: اجتمعوا واحتشدوا. وعنده حفل من الناس: أى جمع، وهو فى الأصل مصدر، ومحفل القوم ومُحتَفلُهم: مجتمعهم، وحَفَلَه: جلاه، فتحفل واحتفل، وحفل كذا: بالى به، ويقال: لا تحفل به.

وأما الاحتفال بالمعنى المقصود فى هذا المقام، فهو لا يختلف كثيرًا عن معناه فى اللغة؛ إذ المراد من الاحتفال بذكرى المولد النبوى هو تجمع الناس على الذكر، والإنشاد فى مدحه والثناء عليه ﷺ، وإطعام الطعام صدقة لله، إعلانًا لمحبة سيدنا رسول الله ﷺ، وإعلانًا لفرحنا بيوم مجيئه الكريم ﷺ.

ويدخل فى ذلك ما اعتاده الناس من شراء الحلوى والتهادى بها فى المولد الشريف؛ فإن التهادى أمر مطلوب فى ذاته، لم يقم دليل على المنع منه أو إباحته فى وقت دون وقت، فإذا انضمت إلى ذلك المقاصد الصالحة الأخرى كإدخال السرور على أهل البيت وصلة الأرحام فإنه يصبح مستحبًا مندوبًا إليه، فإذا كان ذلك تعبيرًا عن الفرح بمولد المصطفى ﷺ كان أشد مشروعية وندبًا واستحبابًا؛ لأن للوسائل أحكام المقاصد، والقول بتحريمه أو المنع منه حينئذ ضرب من التنطع المذموم.

ومما يلتبس على بعض دعوى خلو القرون الأولى الفاضلة من أمثال هذه الاحتفالات، ولو سلم هذا - لعمر الحق - فإنه لا يكون مسوغا لمنعها؛ لأنه لا يشك عاقل فى فرحهم - رضى الله تعالى عنهم - به ﷺ، ولكن للفرح أساليب شتى فى التعبير عنه وإظهاره، ولا حرج فى الأساليب والمسالك؛ لأنها ليست عبادة فى ذاتها، فالفرح به ﷺ عبادة وأى عبادة، والتعبير عن هذا الفرح إنما هو وسيلة مباحة، لكل فيها وجهة هو موليها.

على أنه قد ورد فى السنة النبوية ما يدل على احتفال الصحابة الكرام بالنبى ﷺ مع إقراره لذلك وإذنه فيه؛ فعن بريدة الأسلمى رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله، إنى كنت نذرت إن ردك الله سالمًا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن كنت نذرت فاضربى، وإلا فلا» رواه الإمام أحمد والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. فإذا كان الضرب بالدف إعلانًا للفرح بقدوم النبى ﷺ من الغزو أمرًا مشروعًا أقره النبى ﷺ وأمر بالوفاء بنذره، فإن إعلان الفرح بقدومه ﷺ إلى الدنيا - بالدف أو غيره من مظاهر الفرح المباحة فى نفسها - أكثر مشروعية وأعظم استحبابًا.

وإذا كان الله تعالى يخفف عن أبى لهب - وهو من هو كفرًا وعنادًا ومحاربة لله ورسوله - بفرحه بمولد خير البشر بأن يجعله يشرب من نقرة من كفه كل يوم اثنين فى النار؛ لأنه أعتق مولاته ثويبة لما بشرته بميلاده الشريف ﷺ كما جاء فى صحيح البخارى، فما بالكم بجزاء الرب لفرح المؤمنين بميلاده وسطوع نوره على الكون!

وقد سن لنا رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة جنس الشكر لله تعالى على ميلاده الشريف، فقد صح أنه كان يصوم يوم الإثنين ويقول:

«ذلك يوم ولدت فيه» رواه مسلم من حديث أبى قتادة رضى الله عنه، فهو شكر منه عليه الصلاة والسلام على منة الله تعالى عليه وعلى الأمة بذاته الشريفة، فالأولى بالأمة الائتساء به ﷺ بشكر الله تعالى على منته ومنحته المصطفوية بكل أنواع الشكر، ومنها الإطعام والمديح والاجتماع للذكر والصيام والقيام وغير ذلك، وكلّ ماعُون ينضَح بما فيه، وقد نقل الصالحي فى ديوانه الحافل فى السيرة النبوية «سُبُلُ الهُدى والرشاد فى هدى خير العباد» عن بعض صالحى زمانه: أنه رأى النبى ﷺ فى منامه، فشكى إليه أن بعض مَن ينتسب إلى العلم يقول ببدعية الاحتفال بالمولد الشريف، فقال له النبى ﷺ: «من فرح بنا فرحنا به». وقد ورد الأمر الشرعى أيضا بالتذكير بأيام الله تعالى فى قوله سبحانه:

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾

(إبراهيم: ٥)

ومن أيام الله تعالى أيامُ الميلاد وأيامُ النصر، وأعظمها يوم ميلاد النبى المصطفى والحبيب المجتبى ﷺ، ولذلك كان النبى ﷺ يصوم يوم الإثنين من كل أسبوع شكرًا لله تعالى على نعمة إيجاده واحتفالًا بيوم ميلاده كما سبق فى حديث أبى قتادة الأنصارى فى صحيح مسلم، كما كان يصوم يوم عاشوراء ويأمر بصيامه شكرًا لله تعالى وفرحًا واحتفالًا بنجاة سيدنا موسى عليه السلام، وقد كُرم الله تعالى يوم الولادة فى كتابه وعلى لسان أنبيائه فقال سبحانه:

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾

(مريم: ١٥)

وقال جل شانه على لسان السيد المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾

(مريم: ٣٣)

وذلك أن يوم الميلاد حصلت فيه نعمة الإيجاد، وهى سبب لحصول كل نعمة تنال الإنسان بعد ذلك، فما بالنا بيوم ميلاد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذى هو سبب لكل خيرٍ ونعمة نالها فى الدنيا والآخرة، فكان تذكره والتذكير به من أعظم أبواب شكر نعم الله تعالى على الناس، ولا يقدح فى هذه المشروعية ما قد يحدث فى هذه المواسم الشريفة المباركة من أمور محرمة، بل تُقام هذه المناسبات مع إنكار ما قد يكتنفها من منكرات، ويُنبّهُ أصحابها إلى مخالفة هذه المنكرات للمقصد الأساس الذى أقيمت من أجله هذه المناسبات الشريفة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

«يتبع»



الميراث والوصية بين الشريعة والقانون



الأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

التركة وما يتعلق بها من حقوق

أولاً: التركة:

التركة هى الركن الأساسى للإرث، فلولا وجود تركة ما كان ميراث ولا وصايا، والتركة من الترك، وهى كل ما خلفه الإنسان وراءه، والتركة هى ما تركه الميت بعد وفاته من أموال.

لكن تحديد ماهية التركة وما يدخل فيها وما يخرج منها فيه خلاف بين الفقهاء على النحو التالي:

أولاً: يرى جمهور الفقهاء أن التركة تشمل ما يلى:

«١» الأموال، سواء كانت عقارات مثل: الأرض، المصانع، العمارات، أو منقولات مثل: النقود، الذهب، والفضة، الكتب، الأثاث، السيارات، فهذه كلها يصدق عليها وصف المال ويدخل فيها ديون الميت لدى الغير، مثل ودائع البنوك الخاصة بالميت، فهى ديون على البنك يدفعها عند طلبها، وديونه لدى الأفراد أو الشركات، ومستحقات الموظفين والعاملين لدى مؤسساتهم، ويدخل فيها الدية إذا كان المورث قتيلاً، الدية فى القتل الخطأ أو الصلح فى القتل العمد أو انقلاب القصاص مالاً بعفو بعض أولياء الدم (١).

«٢» المنافع، مثل من يستأجر شقة أو مكتبًا، فهو لا يملك العين «المنزل أو المكتب» وإنما يملك بعقد الإيجار حق الانتفاع فقط وفق شروط العقد، وهذا الحق يورث عند جمهور الفقهاء.

«٣» الحقوق، مثل حق النشر للمؤلف ينتقل إلى الورثة، وحق الشفعة يبقى حقًا ثابتًا للورثة بعد موت مورثهم، وحق قبول الوصية، فلو أوصى شخص لآخر وصية اختيارية لا تزيد عن الثلث، فمات الأول واستحق الموصى له الوصية، لكنه مات قبل قبض الوصية، تبقى حقًا ثابتًا يورث لهذا الأخير.

ومنها حق الرهن، مثل: اقترض محمد من على عشرة آلاف جنيه، وأعطى عليًا رهنًا حتى يضمن سداد الدين، هذا الرهن عبارة عن سيارة، ثم مات على ولم يقض محمد دينه،

(١) بمعنى أنه لو قتل رجل عمدًا وله خمسة أولاد ورأى الجميع وجوب القصاص ما عدا واحد منهم انقلب القصاص إلى الدية؛ لأن القتل لا يتجزأ، ويلزم الجميع بأخذ الدية إلا من عفا، وهذا يفتح الباب نحو العفو.

يبقى لورثته حق حبس المرتهن (السيارة) حتى يستوفوا دينهم من محمد.

هذه الأموال والحقوق (٢) والمنافع تورث عند جمهور العلماء، ودليلهم فى هذا هو ما رواه ابن ماجه بسنده عن رجل من أهل الشام من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك مالاً أو حقًا فلورثته، ومن ترك كلاً أو عيالاً فإلي» (٣).

والحديث ينص على أن الأموال والحقوق تعود إلى الورثة أما المنافع فهى مقومة بمال فتلحق بالأموال عندهم.

ثانيًا: يرى الأحناف أن ما يورث هو المال فقط، ويخرجون من التركة المنافع والحقوق، وعقد الإيجار لا يورث عندهم، وحق الرهن فلو مات شخص وقد اشترى منزلاً، ولم يوف بثمنه لا يورث هذا الحق، ويصير من حق صاحب المنزل استرداد منزله، والرجوع فى البيع طالما لم يأخذ الثمن، ودليل الحنفية فى هذا ما روى عن النبى ﷺ «من ترك مالاً فلورثته» ولم يرد فى الرواية التى وصلتهم «أو حقا»، فتعلقوا بالمروى فى هذا، والمنافع عند الحنفية ليست أموالاً (٤).

والرأى الراجح هو قول جمهور العلماء، وهو المعمول به فى القانون.

ثانيًا: الحقوق المتعلقة بالتركة:

الحقوق المتعلقة بالتركة ثلاثة هى:

١- تجهيز الميت، ومن تلزمه نفقته:

أول شىء يخرج من التركة هو تجهيز الميت ودفنه فى حدود العرف الذى لا يخالف الشرع (٥)، فتجهيز الميت: نفقات الغسل والكفن، ونقله من بيته إلى المقبرة، والنفقات عند القبر، وهذه النفقة تقدم على الديون والوصايا وبالأولى على حقوق الورثة، ولا يدخل فى تجهيز الميت ودفنه ما يدفع على سبيل الشهرة للإعلانات المطولة فى الصحف، وإقامة السرادقات بغرض التفاخر، واستقدام كبار المقرئين وإعداد الولائم، وذبح المواشى، وما يقدمه الناس لصغار المقرئين مما يسمى العتاقة والأسبوع والأربعين والسنوية، فكل هذه بدع لا أصل لها وإن تواتر العرف على العمل بها، لكنها ليست من الإسلام فى شىء، ولا ينفق من تركة المتوفى عليها، وتلزم من أنفقها، فلو مات رجل تاركًا أولادًا قصرًا فقام العم بالإنفاق على هذه الأشياء لا تحتسب من التركة وتلزم العم الذى دفعها، ولا يحسب منها سوى ما سبق من تجهيز الميت نفسه.

والدليل على هذا أن الكفن ونقل الميت

(٢) هناك حقوق شخصية؛ لأنها لا تقوم بمال، وهى حقوق لا تورث مثل: حق تطليق الزوجة لا يورث، وحق الأم فى حضانة طفلها لا يورث أيضًا.

(٣) ذكر د. أحمد عطية فى ضوابط الميراث ص «٧٧»: أن الجمهور صح عندهم هذا الحديث بلفظ: «من ترك مالاً أو حقًا فلورثته» وعزاه إلى ابن ماجه – وعند التحقيق لا نجد فى سنن ابن ماجه كلمة «حقا» فى الحديث: راجع: كتاب الفرائض باب ذوى الأرحام ٦/ ٩١٤» رقم «٢٧٣٨» وهذه رواية الترمذي نفسها عن أبى هريرة، وهو حديث حسن صحيح أول أبواب الفرائض رقم «٢١٦٩». ويبدو أن سبب الخلاف يرجع إلى: هل كل الحقوق تقوم بمال، وهل هى مثل المنافع تقدر بالأموال؟

(٤) الحنفية مع هذا يورثون الحقوق العينية المتقومة بالمال، مثل: حق الشرب، وحق الطريق، فمن كانت له أرض ولها مرور ينتقل هذا الحق للورثة.

(٥) وحد هذه النفقة الاعتدال قال تعالى:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ «الفرقان: ٦٧».

من بيته إلى قبره، مما يلحق بوجوبه حال حياته، فلو كان مدينًا معسرًا لا يلزمه بيع ملابسه، أو عدم شراء ثياب جديدة إذا بليت ثيابه، ومن هنا كان واجبًا تجهيز الميت من ماله الخاص ما دام ترك شيئًا، وإن لم يترك لزم ذلك أي موسر يشهد وفاته، فإن لم يوجد فمن بيت مال المسلمين (٦).

ويلحق بهذا ما يدفع من تركة الرجل لتجهيز زوجته، فقد يموت رجل مع زوجته في آن واحد، ويكون للزوجة مال خاص، ولكن تجهيزها للدفن يكون من تركة زوجها لا من تركتها هي، ولو ماتت زوجة وبقي الرجل حيًا، كان عليه أن يجهزها من ماله الخاص وليس من تركتها؛ لأن نفقة الزوجة دائمًا على زوجها في حياته بعد مماتها.

٢- قضاء الديون:

الديون تجب في ذمة الإنسان إما بالنصوص الشرعية التي توجب على الرجل النفقة على الأولاد والزوجة، وإخراج الزكاة، والنذور واجبة الوفاء، وتكون بالعقود، مثل عقود البيع التي تجعل البائع مدينًا بالسلعة والمشتري مدينًا بالثمن «خاصة إذا كان بالتقسيط»، وعقد الإيجار الذي يجعل المستأجر مدينًا بمبلغ معين كل شهر، وعقد الزواج الذي يوجب مهرًا للزوجة ومنه المؤخر، وعقود القرض مثل الكمبيالات والشيكات لحساب الغير، وقد تأتي الديون نتيجة أفعال معينة من شخص ما، كأن يتلف أحد الناس لآخر سيارة أو زرعًا أو آلة، أو مضارب (٧) يقصر في متابعة ماله؛ فيضمن بالتفريط.

وجميع الديون يجب الوفاء بها قبل تنفيذ الوصايا أو اقتسام التركة؛ فالزكوات المتأخرة يجب أداؤها؛ لأنها حق الله تعالى، وحق الفقراء والمساكين لكنهم لا يطالبون به الورثة ويجب أداؤه.

ومن مات وترك مالاً كثيرًا ولم يكن قد حج حج الفريضة، فهذا دين الله تعالى؛ فيخرج مبلغ منه ليحج أحد الأفراد عن الأب بشرط أن يكون قد حج عن نفسه.

ومن ذلك كفارات الصيام والأيمان والظهار وغيرها إذا مات قبل الوفاء بها، هذه يجب إخراجها إبراء لذمة المتوفى (٨).

أما ديون العباد مثل القروض على المتوفي، أو صداق الزوجية، أو بقية ثمن سلعة كانت بالتقسيط، مثل ما اشتهر الآن في معارض السلع المعمرة، فلا خلاف في وجوب أدائها، ومنه أيضا الأجرة الشهرية للسكن بموجب عقد الإيجار والرهن، فمن حق المرتهن ألا يسلم الرهن قبل استيفاء دينه، وهكذا.

وديون الله عز وجل تجب ديانة لا قضاء (٩)، بمعنى أنه إذا علم بها أهل الميت وفعلوها كان ذلك خيرًا للمتوفي، وإبراء لذمته، ولكن القضاء لا يجري على الإلزام بها، أخذا بمذهب الأحناف بسقوط ديون الله تعالى عن العبد بموته؛ لأن فيها معنى العبادة ويحتاج إلى نية من صاحبه.

والقول الأول أصح؛ وهو وجوب أداء ديون الله تعالى على عبده لما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: «إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء» (١٠).

ولذلك يقول ابن قدامة: «متى توفي من وجب عليه الحج ولم يحج وجب أن يخرج عنه من جميع ماله ما يحج عنه ويعتمر، سواء فاته بتفريط أو بغير تفريط.. ولأنه حق استقر عليه تدخله النيابة فلم يسقط بالموت كالدين» (١١).

أما ديون العباد فتجب ديانة وقضاء، إذا وجدت البينة عليها، مثل الإقرار، سواء عند صحة المتوفى أو في مرض الموت، أو كانت ثابتة بالعقود والشهود، مثل عقد الزواج وعقد الإيجار وخلافه.

ثم تدفع ديون الصحة، وهي ما ثبتت بالبينة، مثل: مهر المثل لمن تزوج امرأة دون تسمية مهر لها ثم مات عنها، فتعطى مهر المثل.

٣- تنفيذ وصاياه في الحد المشروع:

الوصية هي تمليك مضاف إلى ما بعد الموت من غير عوض، وهي تنفذ بدون إجازة أحد من الورثة في حدود ثلث ما بقي بعد إخراج ما أنفق على تجهيزه ودفنه وقضاء الديون أما فيما زاد عن الثلث فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، فإن أجازوها جميعًا نفذت كلها (١٢) كما لو أوصى شخص بنصف تركته لجمعية تحفيظ القرآن الكريم، أو لجنة الإغاثة الإنسانية، ينفذ ثلثها دون اختيار الورثة، ولا ينفذ ما فوق الثلث إلى النصف إلا بإجازة جميع الورثة، فإن أجاز بعضهم ورفض البعض يؤخذ من نصيب من أجاز بمقدار ما كان يأخذه لو نفذت، ويأخذ كل من رفض إجازتها حقه كاملاً في التركة بعد الثلث.

تقديم الدين على الوصية

وهنا سؤال مطروح مؤداه لماذا تؤخر تنفيذ الوصايا على قضاء الديون مع أن الآيات في القرآن الكريم تؤخر دائما الدين

(٦) مما يجري عليه العمل في كل المصالح الحكومية - تقريبًا - صرف مبلغ لأي متوفى كان موظفًا بالدولة، وهذه لفتة تكريم تستحق الثناء، وفي هذه الحالة إن كانت كافية لمثله لا يخصم شيء من التركة لتجهيز الميت، وإن صرفت بعد الوفاة بأيام أضيفت على التركة مكان التي أنفقت، وكأن التركة لم تنقص شيئًا.

(٧) المضارب هو الذي يأخذ مالاً من غيره ليستثمره له على أن الربح بينهما نصفان، وهو غير ضامن لأصل المبلغ إلا عند الإفراط أو التفريط، وهذا هو الفارق الجوهري بين الاستثمار الربوي والاستثمار الإسلامي، فودائع البنوك المضمونة مع فائدة محدودة ربا لا شك فيه؛ لضمان أصل المبلغ؛ لأنه قرض جر نفعا مشروطًا وتحديد الفائدة تجعله من ربا الفضل، لكن المضاربة لا يكون هناك ضمان لأصل رأس المال، ولا يحدد قدر الفائدة.

(٨) راجع القرطبي ٥/٧٤.

(٩) قد يجب الشيء على العبد ديانة ولا يجب قضاء، مثل أن يقترض شخص من آخر ١٠٠٠ جنيه ولا يكتب بينهما ورقة لقوة الصلة بينهما، وليس هناك شهود فإذا نكث المقترض في وعده وطالبه المقرض بالمبلغ دون بينة لا يحكم له القضاء، لكنه يبقى دينا في ذمة المقترض، يسأل عنه أمام الله تعالى، كما يسأل عن غدره وخسته ومخالفة حديث النبي ﷺ: «إنما جزاء السلف الحمد والوفاء» رواه النسائي - كتاب البيوع - باب الاستقراض ٢١٤/٧، وابن ماجه، كتاب الصدقات - باب حسن القضاء - الحديث رقم ٢٤٢٤.

(١٠) صحيح البخاري - كتاب الحج - باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة.

(١١) المغني لابن قدامة ٥/٣٨، المسألة رقم ٥٤١، ويرى أنه يخرج من مال الميت ما يكفي حجا وعمرة؛ تأسيسا على وجوب العمرة مثل الحج عنده.

(١٢) لو أوصى شخص بتركته كلها لشخص آخر أو جهة خيرية، ولم يكن له ورثة ومن في معناهم نفذت الوصية دون رجوع إلى أحد

عن الوصية ؛ مثل قوله تعالي:

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾

«النساء: ١١»

وقوله تعالي:

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾

«النساء: ١٢»

وقد أجاب القرطبي عن هذا بما يلي[١٣]:

١- أن الدين مقدم على الوصية بالإجماع، وعليه العمل عند عامة أهل العلم، لما رواه الترمذي بسنده عن علي أن النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية [١٤].

٢- المقصود في الآية هو تقديم الدين والوصية على الميراث وليس تقديم الوصية على الدين.

٣- لما كانت الوصية أقل لزومًا من الدين قدمت اهتماما بها.

٤- وقيل: قدمت لكثرة وجودها ووقوعها.

٥- وقيل: قدمت الوصية لأنها حظ المساكين والضعفاء، وأخر الدين لأنه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان.

ويقول الشيخ الدكتور مصطفى شلبي: وأما تقديم الوصية على الدين فله حكمة أخرى، وهي أن الوصية تشبه الميراث في كونها مأخوذة بدون عوض، فكان إخراجها شاقًا على نفوس الورثة، وكانت مظنة الإهمال ؛ فقدمها في الذكر ؛ اهتمامًا بشأنها، وحثا على المبادرة إلى تنفيذها - بخلاف الدين ؛ لأنه مستحق بعوض قد يكون موجودًا في التركة فكان حقًا قويًا لا سبيل لإهماله فأخر في اللفظ.

والحق أن العطف في كل الآيات «عطف الدين على الوصية» لا يفيد الترتيب ؛ لأنه جاء بلفظ «أو»، وأقوى دليل على تقديم الدين على الوصية هو حديث النبي ﷺ الذي أورده أبو عيسى الترمذي أن النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية.

رابعًا: حقوق الورثة:

بعد إخراج ما يحتاجه الميت في نفقات تجهيزه ودفنه وقضاء الديون وإنفاذ الوصايا في حدود الثلث، يبقى بعد ذلك حق الورثة، وهو مرتب على النحو التالي:

١- أصحاب فروض، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في الآيات من سورة النساء، وذكرهم الرسول في الأحاديث النبوية بفروض محدودة، وهي ستة هي: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس وبلفظ آخر النصف ونصفه ونصف نصفه أو الثلثان ونصفهما ونصف نصفهما.

٢- العصبات النسبية، وهم أقارب الميت الأقربون غير ذوي الفروض، ويأخذون ما تبقى من التركة بعد أصحاب الفروض، أو يأخذون التركة كلها إذا لم يوجد صاحب فرض، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل عنهم.

(١٣) القرطبي «٥/٧٣، ٧٤» وراجع: تفسير فتح القدير للشوكاني «٤٣٣».

(١٤) سنن الترمذي - كتاب الفرائض - باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية رقم «٢٢٠٥» وفيه زيادة: قضى بالدين قبل الوصية وأنتم تقرءونها قبل الدين ثم قال أبو عيسى: والعمل على هذا عن عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدين قبل الوصية.

٣- إذا لم يوجد عصبات ولم يستوف أصحاب الفروض كل التركة يرد الباقي على أصحاب الفروض ماعدا أحد الزوجين.

٤- أولو الأرحام، وهم الأقارب غير ذوي الفروض والعصبات، مثل: ابن البنت، والخال، ولا يرثون إلا إذا انعدم أصحاب الفروض والعصبات، أو لم يوجد من أصحاب الفروض إلا أحد الزوجين فحسب كما لو توفيت امرأة وتركت: زوجًا، وخالا، فيأخذ الزوج النصف فرضًا، والخال النصف الآخر ؛ لأنه رحم لها.

٥- الرد على الزوجين «بعد فرضهما» إذا لم يوجد عصبات ولا ذوو رحم فلو توفي رجل عن زوجته فقط أخذت الربع فرضًا والباقي ردًا لعدم وجود عصبات ولا أرحام، والحكمة في ذلك - كما يقول الشيخ حسب الله -: ولم يجعل الرد على أحدهما قبل إرث ذوي الأرحام لكيلا يستأثر بالمال دونهم، فينقطع ما أمر الله بوصله في قوله تعالي:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾

«الأنفال: ٧٥»

٦- العصبة السببية، وهو المولى الذي أعتق عبدا، ومات هذا العبد وليس له صاحب فرض ولا عصبة ولا ذو رحم ؛ فيرث المولى أو عصبته هذا المعتق.

هذه حقوق الورثة الذين لهم سبب قائم للميراث من قرابة أو زوجية أو ولاء.

فإذا لم يوجد أحد من هؤلاء جميعا آلت التركة إلى واحدة من ثلاثة على الترتيب التالي:

١- المقر له بنسب إقرارًا محمولاً على الغير، ومعناه أنه لو وجد شخص اسمه زيد مجهول النسب فأقر محمد أنه أخوه، ويموت محمد مصرًا على هذا الإقرار ولم يترك أحدًا من ذوي الفروض أو العصبات أو ذوي الأرحام، يرث زيد أموال محمد ويقال له: إقرار محمول على الغير ؛ لأن محمدا لما قال: هو أخي فقد نسبه إلى أبيه بالضرورة، وهذا الإقرار لا يعتد به بالنسبة لوالد محمد، أي أن زيدًا لا يرث والد محمد ولا إخوته ولا أحدًا إن وجد، ولا يعامل بهذا الإقرار إلا في حق محمد فقط، إذا مات ولم يترك أحدًا ذا قرابة حقيقية أو حكمية أو زوجة ؛ حيث يعامل بإقراره في حق نفسه وليس في حق الغير [١٥].

٢- من له وصية بأكثر من الثلث فإذا انعدم جميع من سبق ذكرهم فإنه يستحق أخذ ما فوق الثلث من التركة.

٣- إذا لم يوجد أحد مما سبق جميعًا فتئول الأموال إلى بيت مال المسلمين أو ما يسمى الآن بالخزانة العامة والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «أنا وارث من لا وارث له» [١٦] وليس معناه شخص النبي ﷺ بل لمصالح المسلمين.

(١٥) هذا بخلاف الإقرار بالأبوة أو البنوة فهذه تثبت بالفراش، أو بإقامة البينة أو بالإقرار مع تصديق المقر له إذا كان أهلا للتصديق وبهذا يكون المقر له من الورثة ذوي الفرض أو العصبات وليس من هذا الباب.

(١٦) نص الحديث رواه أبو داود عن المقدام بن معديكرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك كلاً فإلي، ومن ترك مالاً فلورثته، وأنا وارث من لا وارث له أعقل عنه وأرثه والخال وارث من لا وارث له ويعقل عنه ويرثه» سنن أبي داود - كتاب فرائض - باب في ميراث ذوي الأرحام، رقم «٢٧٧٩».

احترام العلماء... واجب!!

فى هذا العدد مقالان تناولا سن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وقت زواجها بالنبى ﷺ، أحدهما يشير إلى أن السيدة عائشة كان سنها تسع سنوات عندما بنى بها رسول الله ﷺ، والمقال الآخر ينفي تمامًا هذا التحديد، فأما المقال الأول فهو لصاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور على أحمد الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر الأسبق «رحمة الله عليه»[1]، وأما المقال الآخر فهو للأستاذ إسلام بحيرى الذى يكتب لمجلة الأزهر للمرة الأولى.

وفى واقع الأمر فقد وردت هذه القضية - عرضًا - بالمقال الأول، إذ تنصب فكرة المقال بشكل رئيس على إبراز دور الصبية والصبايا - بما لهم من ذاكرة واعية - فى نشر تعاليم الدين الحنيف، فاكتفى بالإشارة إلى ما استقرت عليه كتب السيرة، لا سيما أن تحديد هذا السن ورد على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها، والمفترض أنه لا تعقيب بعد كلام الإنسان عن نفسه فى مثل هذه الأمور.

غير أن صاحب المقال الآخر أزعجه أن يقال عن النبى ﷺ: «رجل ناهز الخمسين يتزوج من طفلة فى التاسعة من عمرها - كما سبق أن قال ذلك غير واحد من الغربيين - فراح يفتش فى كتب التاريخ؛ ليثبت أن النبى ﷺ تزوج السيدة عائشة وهى فى عامها «الثامن عشر».

والمقال يقود القارئ من خلال ما قدم من أرقام إلى التسليم بالنتيجة التى يريدها الأستاذ البحيرى.

إلا أننى توقفت عند قوله: «وهى الرواية التى حازت ختم الحصانة الشهير لمجرد ذكرها فى البخارى ومسلم»، ثم يقول - عن هذه الرواية - «فهى تخالف القرآن والسنة الصحيحة، وتخالف العقل والمنطق والعرف والخط الزمنى».

وكنت قد قرأت كتاب «زواج السيدة عائشة ومشروعية الزواج المبكر» ويذهب مؤلفه إلى مشروعية ذلك الزواج المبكر بالكتاب والسنة.

وطالعت المقال بحثًا عن نص قرآنى يثبت ما ادعاه الكاتب من مخالفة الرواية للقرآن، ولكن المقال انتهى عارضًا الخط الزمنى دون أن ترد به أية إشارة إلى نص قرآنى فى هذا الصدد؛ فرجعت إلى كتاب: «زواج السيدة عائشة ومشروعية الزواج المبكر والرد على منكرى ذلك»[2]

(١) انتقل فضيلة الدكتور الخطيب إلى رحاب ربه بعد أن قدم هذا المقال بعدة أيام وذلك فى يوم الجمعة ١٣ من ربيع الأول ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٥ من يناير ٢٠١٣ م.

(٢) صدر هذا الكتاب عن دار القبلة للثقافة الإسلامية سنة ١٤٠٥ هـ.

للأستاذ الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر وهو يحمل درجة الدكتوراه فى الحديث وعلومه وفيه يقول: «إن مشروعية الزواج المبكر ثبتت بالقرآن الكريم والسنة النبوية...»

وذكر الدليل الأول قول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾

(الطلاق: ٤)

وقال شارحًا: التى لم يسبق لها المحيض هى من كانت دون البلوغ أصالة، حدد لها الله تعالى عدتها بعد الطلاق من زوجها ثلاثة أشهر، فإذا كانت العدة - كما هو معروف عند الجاهل والعالم - لا تكون إلا بعد طلاق أو فراق، وكلاهما لا يكون إلا بعد زواج، فمعنى هذا أن الصغيرة قد أثبت الله تعالى لها زواجًا وطلاقًا وعدة.

فإذا أثبت الله تعالى لها الزواج والطلاق والعدة، فهل يجوز لأحد أن يقول قولاً يخالف حكم الله تعالى؟!!

أما الدليل الثانى فيستخلص من الآية الثالثة من سورة النساء، والدليل الثالث فمن الآية السادسة من السورة نفسها.

ثم يقدم الدكتور خليل إبراهيم عددًا من الشواهد كدليل لمشروعية الزواج المبكر فى السنة، فذكر منها حديث سهلة بنت عاصم بن عدى رضى الله عنهما، قالت: «ولدت يوم خيبر، يوم فتح النبى خيبر، فسمانى رسول الله ﷺ سهلة، وقال: سهل الله أمرك، وضرب لى بسهم، وزوجنى عبدالرحمن بن عوف يوم ولدت».

«وليس هذا بمستغرب فى ذلك الزمان لشهرته وكثرة فعله».

وإذا كان هذا بعض ما قدمه الدكتور خليل إبراهيم صاحب كتاب «زواج السيدة عائشة ومشروعية الزواج المبكر» وهى أدلة دامغة من الكتاب والسنة، فإنه يلزم الأستاذ إسلام بحيرى أن يقدم ما لديه من آيات من كتاب الله تدعم رأيه.

والحق أننا يمكن أن نختلف فى أشياء من مثل: مخالفة الرواية للعرف والعادة ويكون الاختلاف ناشئ عن أن البعض حكّم العرف والعادة لأيامنا هذه والآخر حكم العرف والعادة أيام الإسلام الأولى، أى أن الفريقين احتكما إلى معيارين مختلفين، فخرجت نتيجتان مختلفتان، أما أن يقول البعض: إن الرواية توافق القرآن ويقول البعض الآخر أنها تختلف مع القرآن فهذا ما لا يتصور عقلاً.

وإن مجلة الأزهر لتعرض مثل هذه الآراء، لأن رؤية الشمس أوضح ما تكون بعدما تنقشع عنها السحب.

أما عن عبارة «ختم الحصانة» التى وردت فى قول كاتب المقال وما تحمل من مفاهيم سلبية تقلل من شأن الإمام البخارى، فإننا نشير إلى عبقرية الإمام البخارى من خلال عرض كتاب الإمام البخارى فقيهًا من عناوين صحيحه، ويجده القارئ على صفحات هذا العدد.

عادل خفاجة

ربيع الآخر ١٤٣٤هـ
فبراير مارس ٢٠١٣م

صبية صحابة.. وصبايا صحابيات أثرهم وأثرهن في المسلمين



للأستاذ الدكتور علي أحمد الخطيب

كلمة - أسأل الله - تعالى - أن يجعلها مخلصة لوجهه الكريم، أسوقها لكل ولي أمر: رجلاً كان أم سيدة - يجدها غنية بالأسوة المثلى والقدوة العليا لأبنائنا وبناتنا في هذه الأيام ذات الدخان المبين، حيث نلتمس - عبثًا - هذه الأسوة، وتلك القدوة في محيط غاب ساحله، وغام شاطئه إلا من آية كريمة، أو حديث شريف، ولسوف نجد في هذه الصبية والصبايا الذين انصرف صباهم، وصباهن في «التحصيل» من رسول الله ﷺ الأسوة المنشودة التي لن تتكرر في «الإنسانية» لأن زمن النبوة لن يعود، ولسوف يحبها أبناؤنا وبناتنا بما لهم ولهن من براءة وطهارة، ورغبة صادقة في العثور على «المثال» الأمين.

ثم أرجو أن يصحبني القارئ - مع هذه الكلمة في أمور أربعة - بمشيئة الله تعالى:

أ - سن الصبا - في موضوعنا هذا، وهي سن الصغر والحداثة، سن ما دون البلوغ، إلى الخامسة عشرة.

وهي سن أولاها رسول الله ﷺ عناية خاصة جدًا، فاجتهد في محو أميتها بما هو معروف في أسارى بدر، إذ كان القارئ الكاتب منهم يفدي نفسه بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة، وهي خطوة فريدة لم تكن إلا لرسول الله ﷺ.

كذلك أفسح لهم ولهن في الحضور - بين يديه - فيما كان يحدث به أو يخطب، أو يعلم، أو يفتي، أو يتلو من التنزيل العزيز، فيجد كل ذلك طريقه إلى مسامعهم ومسامعهن، فكان لما للصبا من استيعاب قوى معروف، ولما أمامهم وأمامهن من فسيح العمر مما يزيد وينشر النفع بهم وبهن.

ب - بيان موقع هذه السن للصبي والصبية، ومقياسنا البياني هنا ثلاث وعشرون سنة، هي عمر رسالته ﷺ - ثلاث عشرة منها في مكة، وعشر في

المدينة، فنقول - ما أمكن - ولد فلان، أو فلانة في السنة كذا من مبعثه ﷺ بمكة، أو في السنة كذا من الهجرة في المدينة؛ فيتضح سن الصبا لكل من الفتى والفتاة.

جـ - بيان ما أمكن من حصيلة علمية لهذا الصبي والصبية، توصلنا إليها مما اكتسب من علم رسول الله ﷺ أو علم حدَّث عنه من معارف بيئته، أو تاريخ لحدث ألم به.

د - ثم أخيرًا ما شارك به أو شاركت - في جهاد لحماية الدين والدولة الناشئة.



ثم من الصحابي، وهل يكون الصبي أو الصبية صحابيًا أو صحابية..؟

الصحابي: «من لقي رسول الله ﷺ مؤمنًا برسالته، وأقام على الإيمان».

فأطفالنا - هؤلاء - صحابة:

وفي الحق أن حصرهم، وعدهم عدًا ضرب من المحال، وإنما السبيل إلى معرفة من عرف منهم، كان نفس الطريق إلى من عرف من الصحابة الكبار أنفسهم، بسبب من:

أ - تاريخ البداية في الإسلام، تلك البداية التي عرفتنا بالسادة: أبي بكر، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف - رضوان الله تعالى عليهم - وقد سبقتهم جميعًا أولى أمهات المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ب - كذلك كانت حوادث الهجرة والغزوات سببًا جوهريًا في معرفة العديد والكثير منهم.

ج - ثم تعتبر رواية من روى حديث رسول الله ﷺ مصدرا ثريا في معرفة آلاف منهم وهذه «الأخيرة» كانت أقوى الأسباب في معرفتهم، وتعتبر الأسباب غيرها ضميمة فيها.

ومع الجهد الشاق والمبارك لمؤرخي الصحابة - رضوان الله عليهم - لم تبلغ حصيلتنا من المعرفة بهم إلا إلى نحو سبعة آلاف رجل، وثنتين وعشرين وألف امرأة، فتعدادهم عند ابن الأثير في كتابه: «أسد الغابة» واحد وثمانون وستمائة وستة آلاف رجل «٦٦٨١» وثنتان وعشرون وألف امرأة «١٠٢٢» بينما توفي صلوات الله وسلامه عليه والإسلام ضارب أطنابه على الجزيرة كلها، ولا نبالغ إذا قلنا: بل تعداها إلى غيرها.

ومثل ذلك الحالُ في الصِّبية من الصحابة والصبايا من الصحابيات؛ بل لعله أشد وأعسر.

على أنه في ضوء ما قدمنا من مصادر أمكن التعرف إلى الصبية:

علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر ابن الخطاب، وعبدالله بن الزبير بن العوام، والحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عباس، وأخيه عبيد، وأخويهما: تمام وقثم وعمير بن أبي وقاص، وأبي عمير

بن أبى طلحة زيد بن سهل(١)، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن الحارث بن عفراء، والنعمان بن بشير، وأسامة بن زيد بن حارثة.. رضى الله عنهم.

والى الصبايا:

فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وزينب بنت أبى سلمة، وأمة بنت خالد بن سعيد «أم خالد القرشية»، وفاطمة بنت الحارث بن خالد بن صخر، وحبيبة، والفارعة - وتسمى الفُريعة أيضًا، وكبشة بنات أبى أمامة: أسعد بن زرارة أوصى - رضى الله تعالى عنه - إلى رسول الله ﷺ بهن، ومات - رضى الله عنه - فى السنة الأولى من الهجرة، وهو أنصارى... فرباهن رسول الله ﷺ وزوجهن(٢)

رضى الله تعالى عنهن جميعًا



من هذه الجماعة الطيبة نختار أفرادًا من هؤلاء وهؤلاء، براهين ساطعة على أثرهم وأثرهن فى الإسلام - بقدر ما يتسع مقال لهذا الشأن؛ فإن استيعاب الجميع - فى مقال - محال، ولعل من أبنائنا أهل الدراسات التاريخية الإسلامية بالأزهر الشريف - وقاه الله تعالى السوء - من يتناول هذا الموضوع فيستوعبه بحثًا وتفصيلاً.

ونبدأ فى نماذجنا بأمنا الفاضلة عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها

ولدت - رضى الله عنها - فى نحو السنة الرابعة، أو إطلالة الخامسة من بعثته ﷺ وعاشت ترى رسول الله ﷺ يوميًا بدارها مجتمعًا مع الصديق - رضى الله عنه - حتى إذا أشرفت على الثامنة - انتقلت - مهاجرة - إلى المدينة المنورة، وقد تم عقد زواجها برسول الله ﷺ حتى إذا بلغت التاسعة دخل بها فى المدينة، فلم تفارق حياته حتى توفى ﷺ بدارها بين سحرها ونحرها(٣)، ثم عاشت - بعده - حتى بلغت خمسًا وستين، أو ستًا وستين سنة منها عشرة كاملة زوجة له - صلوات الله وسلامه عليه - ولما توفى ﷺ كان عمرها ثمان عشرة سنة.

أسلمت عائشة - رضى الله عنها - الروح «ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان عام سبع وخمسين أو ثمان وخمسين هجرية، وأمرت أن تدفن بالبقيع ليلاً، فدفنت وصلى عليها أبوهريرة، ونزل فى قبرها خمسة: عبدالله وعروة ابنا الزبير(٤)، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، وعبدالله بن محمد بن أبى بكر، وعبدالله بن عبدالرحمن ابن أبى بكر(٥).

لعائشة عن النبى ﷺ ألفا حديث ومائتا حديث وعشرة أحاديث «٢٢١٠»(٦) تجمع هذا الدين الكريم عقيدة، وشريعة فى كل أبوابها، وهى أحاديث مبثوثة فى الصحاح الست وغيرها من مراجع الحديث الشريف، وخصها الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - فروى مسندها كله تقريبًا ويستغرق عند هذا الإمام الكريم - ثلاثًا وخمسين ومائتى صفحة من القطع الكبير «٢٥٣» بالجزء السادس بداية من صفحة «٢٩» تسع وعشرين(٧).

فهى - رضى الله تعالى عنها - أوعب(٨) من روى من النساء عن النبى ﷺ وعلم وفهم وفقه وأفتى وذكر أبوعُمر بن عبدالبر - رحمه الله تعالى: «أنها كانت وحيدة عصرها فى ثلاثة علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشعر.. قال عروة بن الزبير «ابن أختها أسماء»: قلت لعائشة: إنى لأتفكر فى أمرك فأعجب، أجدك من أفقه الناس، فقلت: ما يمنعها؟! زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبى بكر، وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها، وأبوها علامة قريش؟! ولكن: إنما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب، فمن أين؟

فأخذت بيدى وقالت: يا عرية، إن رسول الله ﷺ كثر من أسقامه(٩)، فكان أطباء العرب والعجم ينعتون له، فتعلمت بذلك.

قال أبوموسى الأشعرى: ما أشكل علينا - أصحاب(١٠) رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما، وقال مسرق - رحمه الله -: «رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض»(١١).

وشاركت - رضى الله عنها - فى الجهاد يوم أحد، فكانت تحمل قرب الماء، ومعها السيدة «أم سليم» فتأتيان بالماء تفرغانه فى أفواه الجرحى المجاهدين»(١٢).

هذه هى عائشة الصبية الصديقة التى عاشت طفلة وصبية ثم عروسًا لرسول الله ﷺ.

يتبع

(١) راجع لابن الأثير - أسد الغابة ٦/ ٢٣٢ وصحيح مسلم ٧/ ٢٠٩. ويمكن متابعة البقية بالمصدر الأول مع الاهتمام بالأخير - أسامة بن زيد - بطبقات ابن سعد.

(٢) راجع لابن الأثير - أسد الغابة ١/ ٨٦، ٨٧ - ٣/ ٢٠٩ - ٥/ ٣١١ - ٧/ ٥٨، ٥٩، ٣٣٤، ٢٤٧.

(٣) السحر - من الإنسان صدره، والنحر: أسفل رقبته أي مات ﷺ ورأسه عليه الصلاة والسلام أعلى صدرها دون ذقنها انظر صحيح البخاري ٧/ ١٠٢ط المجلس الأعلى، ولابن حجر - فتح الباري ٨/ ١٠٦.

(٤) راجع لابن الأثير - أسد الغابة ٧/ ١٩٢ط الشعب. هذا وعبدالله وعروة ولدا الزبير أمهما أسماء بنت الصديق أخت عائشة - رضى الله عنهم والبقية من الرجال أبناء أخويها محمد وعبدالرحمن ولدي الصديق - رضي الله عنهم.

(٥) ابن الأثير - أسد الغابة ٧/ ١٨٨ ترجمة عائشة رضي الله عنها. وراجع مواقع الحديث عنها بالنظر في فهارس طبقات ابن سعد - رحمه الله تعالي

(٦)، (٧) مسند أحمد طبع الميمنية ط أولى ١٣١٣هـ - ١٨٩٥م.

(٨) أي جمعا.

(٩) أي كثر مرضه ﷺ

(١٠) أي - نحن أصحاب النبي ﷺ أسلوب اختصاص

(١١) الفرائض أي المواريث وفي المطبوعة الفرايض بياء بدل همز انظر للإمام بدر الدين الزركشي - الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص٤٠ - ٥٦ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٣ نشر المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني ط ثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(١٢) صحيح البخاري ٥/ ٨٤ - ٦/ ٢٩٥.

وجهة نظر:

زواج النبى من عائشة وهى بنت ٩ سنين

(رؤية نقدية)

بقلم: اسلام بحيري

حينما تظهر أصوات العقلاء لتدافع عن الرسول ﷺ مؤكدة بالتاريخ والروايات الموثقة عدم دقة الكثير من الروايات التى يأخذها البعض على الإسلام مثل رواية زواج النبى ﷺ من السيدة عائشة وهى فى عمر تسع سنين، تواجهها تلك العقبة المقدسة التى تقول بقدسية المناهج الفقهية القديمة، وكتب البخارى ومسلم، وتعصمها من الخطأ، وترفض أى محاولة للاجتهاد فى تصحيح روايتها حتى ولو كانت محل شك؛ فهى العلوم وحيدة زمانها، والتى لا تقبل التجديد ولا الإضافة ولا الحذف ولا التنقيح ولا التعقيب ولا حتى النقد.

وكذا هو الحال مع الرواية ذائعة الصيت التى يكاد يعرفها كل مسلم، والتى جاءت فى البخارى ومسلم، أن النبى ﷺ وهو صاحب الخمسين عاما قد تزوج أم المؤمنين (عائشة) وهى فى سن السادسة، وبنى بها - دخل بها - وهى تكاد تكون طفلة بلغت التاسعة، وهى الرواية التى حازت ختم الحصانة الشهير لمجرد ذكرها فى البخارى ومسلم، رغم أنها تخالف كل ما يمكن مخالفته، فهى تخالف القرآن والسنة الصحيحة وتخالف العقل والمنطق والعرف والعادة والخط الزمنى لأحداث البعثة النبوية، والرواية التى أخرجها البخارى جاءت بخمس طرق للإسناد وبمعنى واحد للمتن - النص - ولطول الحديث سنورد أطرافه الأولى والأخيرة التى تحمل المعنى المقصود، (البخارى - باب تزويج النبى عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها - ٣٨٩٤): حدثنى فروة بن أبى المغراء: حدثنا على بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «تزوجنى النبى ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة،.. فأسلمتنى إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين».

بالاستناد لأمهات كتب التاريخ والسيرة المؤصلة للبعثة النبوية (الكامل - تاريخ دمشق - سير أعلام النبلاء - تاريخ الطبرى - البداية والنهاية - تاريخ بغداد - وفيات الأعيان، وغيرها الكثير)، تكاد تكون متفقة على الخط الزمنى لأحداث البعثة النبوية

كالتالي: البعثة النبوية استمرت (١٣) عاما فى مكة، و(١٠) أعوام بالمدينة، وكان بدء البعثة بالتاريخ الميلادى عام (٦١٠م)، (وكانت الهجرة للمدينة عام (٦٢٢م) أى بعد (١٣) عاما فى مكة، وكانت وفاة النبى عام (٦٣٢م) بعد (١٠) أعوام فى المدينة، والمفروض بهذا الخط المتفق عليه أن الرسول تزوج (عائشة) قبل الهجرة للمدينة بثلاثة أعوام، أى فى عام (٦٢٠م)، وهو ما يوافق العام العاشر من بدء الوحي، وكانت تبلغ من العمر (٦) سنوات، ودخل بها فى نهاية العام الأول للهجرة أى فى نهاية عام (٦٢٣م)، وكانت تبلغ (٩) سنوات، وذلك ما يعنى حسب التقويم الميلادى أنها ولدت عام ٦١٤م أى فى السنة الرابعة من بدء الوحى حسب رواية البخاري، وهذا وهم كبير.

نقد الرواية تاريخيا:

١- حساب عمر السيدة (عائشة) بالنسبة لعمر أختها (أسماء بنت أبى بكر - ذات النطاقين): تقول كل المصادر التاريخية السابق ذكرها أن أسماء كانت تكبر عائشة بـ (١٠) سنوات كما تروى ذات المصادر بلا اختلاف واحد بينها، أن «أسماء» ولدت قبل الهجرة للمدينة بـ (٢٧) عاما، ما يعنى أن عمرها مع بدء البعثة النبوية عام (٦١٠م) كان (١٤) سنة، وذلك بإنقاص من عمرها قبل الهجرة (١٣) سنة وهى سنوات الدعوة النبوية فى مكة، لأن (٢٧-١٣ = ١٤ سنة)، وكما ذكرت جميع المصادر بلا اختلاف أنها أكبر من (عائشة) بـ (١٠) سنوات، إذن يتأكد بذلك أن سن (عائشة) كان (٤) سنوات مع بدء البعثة النبوية فى مكة، أى أنها ولدت قبل بدء الوحى بـ (٤) سنوات كاملات، وذلك عام (٦٠٦م)، ومؤدى ذلك بحسبة بسيطة أن الرسول عندما نكحها فى مكة فى العام العاشر من بدء البعثة النبوية كان عمرها (١٤) سنة، ولأن (٤+١٠=١٤ سنة)، أو بمعنى آخر أن (عائشة) ولدت عام (٦٠٦م)، وتزوجت النبى ٦٢٠م، وهى فى عمر (١٤) سنة وأنه كما ذكر بنى بها - دخل بها - بعد (٣) سنوات وبضعة أشهر أى فى نهاية السنة الأولى من الهجرة وبداية الثانية، عام ٦٢٤م، فيصبح عمرها آنذاك (١٤+٣+١=١٨ سنة كاملة)، وهى السن الحقيقة التى تزوج فيها النبى الكريم (عائشة).

٢- حساب عمر (عائشة) بالنسبة لوفاة أختها (أسماء - ذات النطاقين): تؤكد المصادر التاريخية السابقة بلا خلاف بينها أن (أسماء) توفيت بعد حادثة شهيرة مؤرخة ومثبتة، وهى مقتل ابنها (عبد الله بن الزبير) على يد (الحجاج) الطاغية الشهير، وذلك عام (٧٣هـ)، وكانت تبلغ من العمر (١٠٠) سنة كاملة فلو قمنا بعملية طرح لعمر (أسماء) من عام وفاتها (٧٣ هـ) وهى تبلغ (١٠٠) سنة فيكون (١٠٠-٧٣=٢٧ سنة) وهو عمرها وقت الهجرة النبوية، وذلك ما يتطابق كليا مع عمرها المذكور فى المصادر التاريخية، فإذا طرحنا من عمرها (١٠) سنوات - وهى السنوات التى تكبر فيها أختها (عائشة) - يصبح عمر (عائشة) (٢٧-١٠=١٧ سنة) وهو عمر (عائشة) حين الهجرة، ولو بنى بها - دخل بها - النبى فى نهاية العام الأول يكون عمرها

آنذاك (١٧+١-١=١٨ سنة) وهو ما يؤكد الحساب الصحيح لعمر السيدة (عائشة) عند الزواج من النبي، وما يعضد ذلك أيضا أن (الطبري) يجزم بيقين في كتابه (تاريخ الأمم) أن كل أولاد (أبى بكر) قد ولدوا في الجاهلية، وذلك ما يتفق مع الخط الزمني الصحيح، ويكشف ضعف رواية البخاري، لأن (عائشة) بالفعل قد ولدت في العام الرابع قبل بدء البعثة النبوية.

٣ - حساب عمر (عائشة) مقارنة (بفاطمة الزهراء) بنت النبي: يذكر (ابن حجر) في (الإصابة) أن (فاطمة) ولدت عام بناء الكعبة، والنبي ابن (٣٥) سنة، وأنها أسن - أكبر - من عائشة بـ (٥) سنوات، وعلى هذه الرواية التي أوردها (ابن حجر) مع أنها رواية ليست قوية، ولكن على فرض قوتها نجد أن (ابن حجر) وهو شارح (البخاري)، يكذب رواية (البخاري) ضمنيا، لأنه إن كانت (فاطمة) ولدت والنبي في عمر (٣٥) سنة، فهذا يعني أن (عائشة) ولدت والنبي يبلغ (٤٠) سنة وهو بدء نزول الوحي عليه، ما يعني أن عمر (عائشة) عند الهجرة كان يساوي عدد سنوات الدعوة الإسلامية في مكة وهي (١٣) سنة، وليس (٩) سنوات، وقد أوردت هذه الرواية فقط لبيان الاضطراب الشديد في رواية البخاري.

نقد الرواية من كتب الحديث والسيرة:

١ - ذكر (ابن كثير) في (البداية والنهاية) عن الذين سبقوا بإسلامهم: «ومن النساء... أسماء بنت أبي بكر وعائشة وهي صغيرة فكان إسلام هؤلاء في ثلاث سنين ورسول الله ﷺ يدعو في خفية، ثم أمر الله عز وجل رسوله بإظهار الدعوة»، وبالطبع هذه الرواية تدل على أن (عائشة) قد أسلمت قبل أن يعلن الرسول الدعوة في عام (٤) من بدء البعثة النبوية، بما يوازي عام (٦١٤م)، ومعنى ذلك أنها آمنت على الأقل في عام (٣) أي عام (٦١٣م)، فلو أن (عائشة) على حسب رواية (البخاري) ولدت في عام (٤) من بدء الوحي، معنى ذلك أنها لم تكن على ظهر الأرض عند جهر النبي بالدعوة في عام (٤) من بدء الدعوة، أو أنها كانت رضيعة، وهذا ما يناقض كل الأدلة الواردة، ولكن الحساب السليم لعمرها يؤكد أنها ولدت في عام (٤) قبل بدء الوحي أي عام (٦٠٦م)، ما يستتبع أن عمرها عند الجهر بالدعوة عام (٦١٤م)، يساوي (٨) سنوات وهو ما يتفق مع الخط الزمني الصحيح للأحداث، وينقض رواية البخاري.

٢ - أخرج البخاري نفسه (باب - جوار أبي بكر في عهد النبي) أن (عائشة) قالت: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قِبَل الحبشة»، ولا أدري كيف أخرج البخاري هذا، فـ(عائشة) تقول إنها لم تعقل أبويها إلا وهما يدينان الدين، وذلك قبل هجرة الحبشة كما ذكَرت، وتقول إن النبي كان يأتي بيتهم كل يوم، وهو ما يبين أنها كانت عاقلة لهذه الزيارات، والمؤكد أن هجرة الحبشة، إجماعا بين كتب التاريخ كانت في عام (٥) من بدء البعثة النبوية ما يوازي عام (٦١٥م)، فلو صدقنا رواية البخاري أن عائشة ولدت عام (٤) من بدء الدعوة عام (٦١٦م)، فهذا يعني أنها كانت رضيعة عند هجرة الحبشة، فكيف يتفق ذلك مع جملة (لم أعقل أبوي) وكلمة أعقل لا تحتاج توضيحا، ولكن بالحساب الزمني الصحيح تكون (عائشة) في هذا الوقت تبلغ (٤ قبل بدء الدعوة + ٥ قبل هجرة الحبشة = ٩ سنوات) وهو العمر الحقيقي لها آنذاك.

٣ - أخرج الإمام (أحمد) في (مسند عائشة): «لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تتزوج، قال: من؟، قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا، قال: فمن البكر؟ قالت: «أحب خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر»، وهنا يتبين أن (خولة بنت حكيم) عرضت البكر والثيب -المتزوجة سابقا-، على النبي فهل كانت تعرضهن على سبيل جاهزيتهن للزواج، أم على أن إحداهما طفلة يجب أن ينتظر النبي بلوغها النكاح، المؤكد من سياق الحديث أنها تعرضهن للزواج الحالي بدليل قولها (إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا) ولذلك لا يعقل أن تكون عائشة في ذاك الوقت طفلة في السادسة من عمرها، وتعرضها (خولة) للزواج بقولها (بكرا).

٤ - أخرج الإمام (أحمد) أيضا عن (خولة بنت حكيم) حديثا طويلاً عن خطبة عائشة للرسول، ولكن المهم فيه ما يلي: «قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعدا قط فأخلفه... لعلك مصبي صاحبنا»، والمعنى ببساطة أن (المطعم بن عدي) وكان كافرا قد خطب (عائشة) لابنه (جبير بن مطعم) قبل النبي الكريم، وكان (أبو بكر) يريد ألا يخلف وعده، فذهب إليه فوجده يقول له لعلّي إذا زوجت ابني من (عائشة) يُصبي أي (يؤمن بدينك)، وهنا نتوقف مع نتائج مهمة جدا وهي: لا يمكن أن تكون (عائشة) مخطوبة قبل سن (٦) سنوات لشاب كبير- لأنه حارب المسلمين في بدر وأحد- يريد أن يتزوج مثل (جبير)، كما أنه من المستحيل أن يخطب (أبو بكر) ابنته لأحد المشركين وهم يؤذون المسلمين في مكة، مما يدل على أن هذا كان وعدا بالخطبة، وذلك قبل بدء البعثة النبوية حيث كان الاثنان في سن صغيرة، وهو ما يؤكد أن (عائشة) ولدت قبل بدء البعثة النبوية يقينا.

٥ - أخرج البخاري في (باب- قوله: بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) عن (عائشة) قالت: لقد أنزل على محمد # بمكة، وإني جارية ألعب

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

(القمر: ٤٦)

والمعلوم بلا خلاف أن سورة (القمر) نزلت بعد أربع سنوات من بدء الوحي بما يوازي (٦١٤م)، فلو صدقنا رواية البخاري تكون (عائشة) إما أنها لم تولد أو أنها رضيعة حديثة الولادة عند نزول السورة، ولكن (عائشة) تقول (كنت جارية ألعب) أي أنها طفلة تلعب، فكيف تكون لم تولد بعد؟ ولكن الحساب المتوافق مع الأحداث يؤكد أن عمرها عام (٤) من بدء الوحي، عند نزول السورة كان (٨) سنوات، كما بينا مرارا وهو ما يتفق مع كلمة (جارية ألعب).

٦ - أخرج البخاري (باب- لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها) قال رسول

الله ﷺ: «لا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله وكيف إذنها قال أن تسكت»، فكيف يقول الرسول الكريم هذا ويفعل عكسه، فالحديث الذى أورده البخارى عن سن أم المؤمنين عند زواجها ينسب إليها أنها قالت كنت ألعب بالبنات - بالعرائس - ولم يسألها أحد عن إذنها فى الزواج من النبي، وكيف يسألها وهى طفلة صغيرة جدًا لا تعى معنى الزواج، وحتى موافقتها فى هذه السن لا تنتج أثرا شرعيا لأنها موافقة من غير مكلف ولا بالغ ولا عاقل.

نقد سند الرواية:

سأهتم هنا ببيان علل السند فى رواية البخارى فقط:

جاء الحديث الذى ذكر فيه سن (أم المؤمنين) بخمس طرق وهي:

حدثنى فروة بن أبى المغراء: حدثنا على بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة.

حدثنى عبيد بن إسماعيل: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه. حدثنا معلى بن أسد: حدثنا وهيب، عن هشام بن عروة، عن عائشة. حدثنا محمد بن يوسف: حدثنا سفيان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة. حدثنا قبيصة بن عقبة: حدثنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن عروة. وكما نرى ترجع كل الروايات لراو واحد وهو (عروة) الذى تفرد بالحديث عن أم المؤمنين (عائشة) وتفرد بروايته عنه ابنه (هشام)، وفى (هشام) تكمن المشكلة، حيث قال فيه (ابن حجر) فى (هدى السارى) و(التهذيب): وقال عبد الرحمن بن يوسف بن خراش: كان مالك لا يرضاه، بلغنى أن مالكا نقم عليه حديثه لأهل العراق، قدم -جاء- الكوفة ثلاث مرات، قدمة -مرة- كان يقول: حدثنى أبي، قال سمعت عائشة، وقدم -جاء- الثانية فكان يقول: أخبرني أبى عن عائشة، وقدم -جاء- الثالثة فكان يقول: «أبى عن عائشة».

والمعنى ببساطة أن (هشام بن عروة) كان صدوقا فى المدينة المنورة، ثم لما ذهب للعراق بدأ حفظه للحديث يسوء، وبدأ (يدلس) أى ينسب الحديث لغير راويه، ثم بدأ يقول (عن) أبي، بدلا من (سمعت أو حدثني)، والمعنى أنه فى علم الحديث كلمة (سمعت) أو (حدثني) هى أقوى من قول الراوى (عن فلان)، والحديث فى البخارى هكذا يقول فيه (هشام) عن أبى وليس (سمعت أو حدثني)، وهو ما يؤيد الشك فى سند الحديث، ثم النقطة الأهم أن الإمام (مالكا) قال: إن حديث (هشام) بالعراق لا يقبل، فإذا طبقنا هذا على الحديث الذى أخرجه البخارى لوجدنا أنه محق، فالحديث لم يروه راو واحد من المدينة بل كلهم عراقيون مما يقطع أن (هشام بن عروة) قد رواه بالعراق، بعد أن ساء حفظه ولا يعقل أن يمكث (هشام) بالمدينة عمرا طويلا، ولا يذكر حديثا مثل هذا ولو مرة واحدة، لهذا فإننا لا نجد أى ذكر لعمر السيدة (عائشة) عند زواجها بالنبى فى كتاب (الموطأ) للإمام مالك، وهو الذى رأى وسمع (هشام بن عروة) مباشرة بالمدينة، فكفى بهاتين العلتين للشك فى سند الرواية فى البخاري، وذلك مع التأكيد على فساد متنها - نصها - الذى تأكد بالمقارنة التاريخية السابقة.

قراءة فى كتاب

الإمام البخاري
فقيها من عناوين صحيحة
تأليف
عبدالمجيد صبح
دار المنارة

بقلم/ أ: عادل خفاجة

الإمام البخارى هو الإمام القدوة فى علوم الحديث واسمه الكامل: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفى البخارى.

مولده فى شوال سنة مائة وأربعة وتسعين، طلب الحديث منذ كان فى سن العاشرة، وردَّ على بعض مشايخه فى سن الحادية عشرة، قال: جعلت أختلف إلى «الداخلى» وغيره، فقال الداخلى يومًا فيما كان يقرأ للناس: «سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم» فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرنى، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لى: كيف هو ياغلام؟ قلت: هو الزبير عن عدى عن إبراهيم، قال: فأخذ القلم منى وأصلح كتابه.

(الموسوعة الإسلامية جـ ٦ / ١٦١٦).

أسباب تأليف الكتاب:

يقول المؤلف: المشهور عند المؤرخين: أن البخارى إمام المحدثين بيد أنى رأيته إمامًا فى «الفقه» أيضًا من عنوانات صحيحة ووجدته فى بعض هذه العنوانات استدرك على أئمة أعلام حتى إن صاحب كتاب «رفع الالتباس عن بعض الناس» جمع اثنتى عشرة قضية خالف فيها الإمام البخارى أبا حنيفة.

مؤلف الكتاب:

هو الشيخ عبدالمجيد حامد صبح ولد فى عام ١٩٢٣ وتخرج من كلية أصول الدين وحصل على العالمية مع إجازة التدريس من كلية اللغة العربية وقد تتلمذ على يد الأساتذة الفضلاء محمود حب الله ومحمد غلاب ومحمد البهى ومحمد يوسف موسى - ومن زملائه الدكتور يوسف القرضاوى.

ومن مؤلفاته:

١- الرد الجميل على المشككين فى الإسلام «من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم». ترجمه إلى اللغة الإنجليزية.

٢- بيان وتبيين لافتراءات على القرآن لا تقوم على ساق.

٣- من فيض سورة الكوثر.
٤- تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه.
٥- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه «مجلد».
٦- محنة العرب في الخليج.
٧- المعاملات المصرفية.
٨- المرأة في الإسلام، مكانها ومكانتها، ترجم إلى اللغة الماليزية.
٩- العلم والإيمان. فاز في مسابقة وزارة التعليم بالدرجة الأولى.
١٠- الوصية.
١١- من قضايا الإسلام والمسلمين في الغرب، ترجم إلى اللغة الإنجليزية.
١٢- غزوة بدر.
١٣- أصول المناهج الفقهية.
١٤- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.
١٥- هل العالم في حاجة إلى الإسلام.

الكتاب

يقع الكتاب في ستٍ وتسعين صفحة من مقاس ١٤×٢٠ سم، وقد صدر عن دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة في طبعته الأولى عام ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

يقدم الكتاب المسائل التي خالف فيها الإمام البخاري الإمام أبا حنيفة وهي:

المسألة الأولى: الركاز- المسألة الثانية: قول الرجل: «أخدمتك هذا العبد» هل هو هبة أم عارية؟ - المسألة الثالثة: قول الرجل لآخر: حملتك على هذا الفرس، هل هو عارية أم هبة؟ وهل يصح الرجوع عنها أم لا؟ - المسألة الرابعة: القاذف، هل تقبل شهادته إذا تاب أم لا؟ -المسألة الخامسة: إقرار المريض لوارثه بالدين - المسألة السادسة: حد الأخرس في القذف واللعان - المسألة السابعة: تفسير النبيذ - المسألة الثامنة: بيع المكره - المسألة التاسعة: حماية المتعرض للموت بإطعام غير المباح - المسألة العاشرة: إسقاط الزكاة قبل تمام الحول بالحيلة - المسألة الحادية عشرة: نكاح الشغار - المسألة الثانية عشرة: القضية: شهادة الزور على تمام النكاح.


عبدالمجيد حامد صبح

ثم ينتقل المؤلف إلى مناقشة قضية أخرى وهي: فقه ما ابتدأ به صحيحه، وما ختمه به.

يتلو ذلك عرض مفصل لعناوين الصحيح من خلال تناول خمسة عشر موضعًا.

ثم يقدم المؤلف مثلاً واقعيًا من التطاول على ذوي الفضل من خلال حديث: «إن أبي وأباك في .....».

بداية: فإن الإمام أبي حنيفة ملقب عند كثيرين بالإمام الأعظم ويبين هذا اللقب كلمة الإمام الشافعي عنه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.

وعندما تكلم الإمام البخاري عن المسائل التي خالفه فيها كان يقول: «وعند بعض الناس»، أو «بعض الناس يقولون» يذكر رأيه ثم يعقب برأي أبي حنيفة من غير أن يصرح باسمه، وهذا أدب أخلاقي يعبر عن صاحبه.

كما يدل على معرفته بقيمة الرجال وحفظ منزلتهم من أن تمس بنقص.

وحسبك من الإمام البخاري فقيهًا أن يضارع إمام الفقهاء أبا حنيفة ويستدرك عليه.. ونقدم للقارئ بعضًا من هذه المسائل: فتحت عنوان: القاذف، هل تقبل شهادته إذا تاب أم لا؟ يقول

مؤلف الكتاب:

أما أبوحنيفة فيرى عدم قبول شهادته.

والفقه في المسألة مبني على قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤)

فحكم عليهم بثلاثة ثم قال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ (النور: ٥)

فعلام يعود الاستثناء؟

فعند أبي حنيفة يعود على الفسق فقط، فيرفع عنه الحكم بالفسق، ويجلد ولا تقبل له شهادة.

ولكن الإمام البخاري أعاد الاستثناء إلى الشهادة والفسق، فكما يرفع عنه لقب الفاسق، يرفع عنه عدم قبول الشهادة، وعلى هذا تقبل توبته مع الجلد، ويشهد للإمام البخاري بما رواه في صحيحه (جـ٥/ ١٩٤) قال: جلد عمر جماعة ثم استتابهم، وقال من تاب قبلت شهادته، ونسب هذا الرأي أيضًا إلى جماعة من التابعين على قبول التوبة منهم عمر بن عبدالعزيز وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم.

قال الحافظ صـ ١٩٤: وحديث استتابة عمر لمن جلد وصله الشافعي في الأم ونقل الحافظ عن الشافعي أنه قال: سمعت الزهري يقول: زعم أهل العراق أن شهادة المحدود لا تجوز.

قال البخاري في (كتاب الشهادات صـ ١٩٦) وقال بعض الناس لا تجوز شهادة القاذف وإن تاب، ويقصد ببعض الناس الإمام أبا حنيفة، قال الحافظ، هذا منقول عن الحنفية واحتجوا بأحاديث في رد شهادة المحدود، قال الحافظ: لا يصح منها شيء.

وبهذا يتبين لنا صحة رأي الإمام البخاري، كما يتبين لنا أدبه في عدم ذكر أبي حنيفة أو الأحناف.

حد الأخرس في القذف واللعان

يقول المؤلف في المسألة السادسة:

قال البخاري: إذا قذف الأخرس امرأته بكتابة أو إشارة أو إيماء معروف فهو كالمتكلم، وقال الأحناف: لا حدَّ على الأخرس ولا لعان.

واحتج البخاري ومعه أهل الحجاز والشافعي بقوله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ (مريم: ٢٩)

واحتج البخاري خاصة بعموم قوله تعالى:

﴿يَرْمُونَ﴾

في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ (النور: ٦)

لأن الرمي أعم من أن يكون باللفظ أو الإشارة المفهمة، فهو كالمتكلم، وعدم إجازة الأحناف إشارة القاذف يردها عليهم إجازتهم صحة الطلاق بالإشارة المفهمة، كما يشهد عليهم كلام «العيني» وهو من أعلام الأحناف، قال: إن الإشارة المعهودة من الأخرس تقوم مقام العبارة وهو عين مذهب الإمام البخاري، ولكن أدب الإمام منعه من التصريح بالمخالفين.

المسألة الثانية عشر:

القضية: شهادة الزور على تمام النكاح، قال المؤلف:

قال البخاري غير صحيح، وأبوحنيفة اعتبره صحيحًا بناء على حديث منسوب إلى أمير المؤمنين «علي»، والذي حكم فيه بصحة نكاح بشاهدي زور، وقال للمرأة: شاهداك زوّجاك.

قراءة في كتاب: الإمام البخاري فقيها من عناوين صحيحه

وهذا حديث موقوف لا تثبت به حجة: ولا يصح به النكاح ظاهرًا وباطنًا.

ويعلق المؤلف: إن رأى البخارى فى عدم صحة هذا النكاح هو الواجب الأخذ به، ولا سيما إذا عرفنا فى أيامنا هذه شيوع «النكاح العرفى» الذى يتم بين فتى وفتاة بشهود من سقط المتاع، ويتواصون بكتمان النكاح، وكثيرًا هى القضايا التى عرضت على من هذا النكاح، وضاعت الفتاة، واختفى الزوج، وقد تكون حاملاً، وضاع الوليد، وتبرأ الأهل من ابنتهم.

وسئل المؤلف: عن «مشروعية التوثيق» هذه الأيام ولم يكن توثيق فى عهد رسول الله ولا فى عهد الصحابة، فكانت إجابته:

لم يكن التوثيق بالكتابة فى عهد الصالحين من الصحابة الذين لا ينكرون الزواج ولا ينكرون ثمرته، وكان النكاح بشهود صالحين ويضرب عليه بالدفوف مزيدًا من الإعلان، ولم يكن أحد ينكر زواجه أو ثمرته، فإذا فسد العصر والزمان وفسد الناس كان توثيق عقد الزواج ضرورة تقرها الشريعة الإسلامية التى هدفها الأول حفظ جماعة المسلمين.

وننتقل مع المؤلف إلى عناوين الصحيح وفيها إشارة إلى عبقرية الإمام البخارى كفقيه فى اختيار عناوينه.

ففى المثال الأول يقدم المؤلف هذا العنوان فى كتاب الوضوء: «باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين» ويرى المؤلف أن الفقه فى قوله: (ولا يمسح على القدمين) بهذه الكلمة أبدى رأيه الفقهى فى مسألة مسح القدمين وهو رأى قالت به الشيعة، وقال به بعض الأئمة كالطبرى، وقال به بعض الصحابة، على، وابن عباس، وأنس، وذكر النووى فى المجموع أن أنس بن مالك بلغه أن الحجاج ينكر مسح القدمين فقال أنس: كذب الحجاج إن الله تعالى يقول: «وامسحوا برءوسكم وأرجلكم»

(بجر أرجلكم) قلت: وهى قراءة سبعية وعلى رأيهم ليس الجر لمجاورتها لقوله «برءوسكم»

فقول البخاري: (ولا يمسح) رد لهذا الرأى وهو فقه محض.

فى كتاب المظالم «باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا» ويقدم المؤلف فى المثال السادس أن الإمام البخارى كان يشير إلى الروايات الأخرى لأحاديث ليست على شرطه فيقول المؤلف:

وروى فيه حديث (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) وذلك على عادته - كما بينا سابقًا - من الإشارة إلى روايات أخرى وقد يكون الحديث الذى ذكر لفظه فى الترجمة ليس على شرطه فيذكره عنوانًا اعترافًا برواية الآخرين.

وهنا وجه آخر وهو إفادة لفظ الإعانة ما يشمل جميع وجوه النصر، فالنصر قد يكون بالفعل المانع للظلم وقد يكون بالقول أو بأى وجه آخر، فذكر لفظ الإعانة مع لفظ النصر فى الحديث ليشمل جميع الوجوه.

ويختتم المؤلف كتابه مؤكدًا على المنزلة العلمية الكبرى التى نزلها الإمام البخارى.

فهو إمام المحدثين باعتراف الأئمة الرواة.

وأنه يضارع الإمام الأعظم أبا حنيفة، ويستدرك عليه وعلى غيره، ثم هو بعد ذو أدب جم يحفظ على من يخالفه من الأئمة كرامتهم ومنزلتهم فيأبى أن يصرح بأسمائهم.

وبعد...

فالكتاب يعد بحق رد هادئ لمن لا يحفظ للإمام البخارى مكانته الرفيعة.

وهو كتاب يجب أن يطلع عليه كل باحث وطالب علم ونسأل الله أن يمتع كاتبه بالصحة وموفور النشاط.

خالد محمد خالد مفكر مسلم شجاع





أ.د. حلمى القاعود

ويلاحظ أن الشجاعة الأدبية التى حكمت موقف خالد من الاعتراف بأخطائه فى كتابه «من هنا نبدأ»، لم تمنعه من بيان السبب الذى دفعه إلى كتابة رأيه الذى أثار عليه الدنيا، لكنه يؤكد قبل ذلك أنه لم يكن يومئذ يخدع نفسه ولا يزيف اقتناعه، فليس ذلك والحمد لله من طبيعته، ولكنه كان مقتنعا بما يكتب مؤمنا بصوابه فى ذلك الحين (الدولة فى الإسلام، ص١١).

أما ما دفعه إلى كتابة ما كتب فى كتابه «من هنا نبدأ» فيرجع إلى سببين رئيسيين يتناولهما بتفصيل، ونوجزهما فيما يلي..

الأول: التأثر بما قرأه عن الحكومة الدينية المسيحية في أوروبا فى العصور الوسطى وما بعدها.

والآخر: مخاوفه من تنظيمات العنف التى تتستر بستار الدين (راجع السابق، ص ١٢-١٥).

ولم يكتف خالد محمد خالد بما قاله فى كتاب «الدولة فى الإسلام»، فأكد ما ذهب إليه فى كتابه «قصتى مع الحياة»، وفصّل قصة الكتاب الأول «من هنا نبدأ» وقصة انتشاره وذيوعه على النحو الذى سبقت الإشارة إليه. وزاد على ذلك تفاصيل دقيقة سبقت أو رافقت أو تبعت صدور كتابه من هنا نبدأ، وتضمنت ما فعلته الرقابة وحواره مع الشاعر الشيخ محمد الأسمر الذى أحيل إليه الكتاب لقراءته، ومدير الرقابة «توفيق صليب» على عهد وزارة إبراهيم باشا عبد الهادي، ومديرها «يحيى الخشاب» على عهد وزارة حسين سرى باشا، ومصادرة الكتاب، وما جرى للمؤلف فى النيابة والتحقيقات والمحكمة، ثم استعرض ما كتب عن الكتاب، وتوقف عند ما كتبه صديقه الحميم الشيخ محمد الغزالي، فقد صنع الكتاب - على حد قوله - زحاما من المادحين والقادحين (قصتى مع الحياة، ص ٣٤٩-٣٦٧).

يشير خالد إلى مقدمات التراجع بالتفصيل، فيبدو أنه تأثر إلى حد كبير بالمراجعات التى قوبل بها كتابه؛ ولأنه باحث عن الحقيقة راح يتحرى ويتقصى حول موضوع الدين والدولة، واهتدى إلى فكرة إصدار كتاب يجعل عنوانه «ماذا أردت أن أقول؟» يخضع فيه ما قال للنقد الذاتي، سواء ما تعلق بهذا

الموضوع أو غيره، ولكن لم يتحقق أمر الكتاب لا تأليفا ولا نشرا، ولكنه تابع البحث والتحرى عن الصواب أو مزيد من الصواب فى الموضوع كما يقول، واكتفى ببعض المقالات والحوارات الصحفية التى أجراها مع الراحل جابر رزق الصحفى بمجلة الدعوة - يرحمه الله - وفى هذه الحوارات وتلك المقالات أكد خالد أن الحقيقة التاريخية والموضوعية تهتف أن الإسلام لا يمكن إلا أن يكون دينا ودولة (راجع: قصتى مع الحياة ٣٧٠ - ٣٧١).

ويبدو أن عبارة الرئيس السادات استثارت كوامن داخلية فى نفس خالد محمد خالد، فعجلت به نحو إعلان موقفه الجديد وتغيير آرائه، والإقرار أن الإسلام دين ودولة، ويروى بتفصيل قصة حوار جرى بين صحفى أجنبى وبين الرئيس السادات حول عبارته الشهيرة (لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة) التى يسخر منها خالد ويسميها أغنية السادات المفضلة.. فقد سأله الصحفى الخبيث كما يصفه خالد فى إحدى المناسبات:

هل تعنى بقولك لا سياسة فى الدين؛ كل الأديان بما فيها الإسلام؟

فأجاب السادات: نعم. أعنى كل الأديان.. كل الأديان!

وعاد الصحفى الماكر يسأله:

إذن لماذا استعنت بالدين - وأعنى الإسلام بصفة خاصة، واحتضنت الإخوان المسلمين فى السنوات الأولى من رئاستك؟

فأجاب - غفر الله له: هناك فرق بين الاستعانة بالدين وتحكيم الدين! بين أن أقول للدين ساعدني.. وأن أقول للدين احكمني.. !! (السابق، ص ٣٧١).


السادات

وهنا يتساءل خالد بينه وبين نفسه: إذا كان يعنى بالدين الإسلام - وهو قطعا يعنيه، فمعنى ذلك أن المسلم محظور عليه أن يهتم بأمر الوطن والمواطنين؛ لأن السياسة والاشتغال بها ضروريان لخدمة الوطن.. فى خدمة قضاياه السياسية على الأقل!!

وبالتالى يحظر على الإسلام المشاركة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم.. ويرى خالد أن هذا لغو وبهتان.. ويجب أن يتقدم بكلمته الجديدة.. كلمته الثانية والأخيرة فى هذا النزاع..

ويقول خالد: «إن الإسلام كما فهمته تماما.. لا كما يفهمه المفلسون.. ولا كما يفهمه الغلاة المتطرفون.. ولا كما يفهمه المتاجرون.. هذا الإسلام الذكي، السمح، الفتيّ، المضيء، دين الإخاء القومى والوئام العالمى - هو بيقين:

دين ودولة..
عبادة وسياسة..
ثقافة وحضارة..
إخاء وتعارف...

عندئذ عكفت على تأليف كتابي: «الدولة فى الإسلام».. (نفسه، ص٢٧٣).

ثم ينقل بعض ما كتبه فى كتابه هذا من ص ٥٤ إلى ص ٥٧، ويشير إلى الأخطاء التى تغشت منهجه الذى عالج به قديما موضوع الحكومة الدينية.

ولا يكتفى بذلك بل يتوقف طويلا عند «العلمانية» التى يراها رد فعل لحكم الكنيسة فى العصور الوسطى، حيث تجرد ذلك الحكم من كل مَعْدَلة ومرحمة وعقل وفضيلة..! حتى كان هتاف بعض ثورات أوروبا يقول:

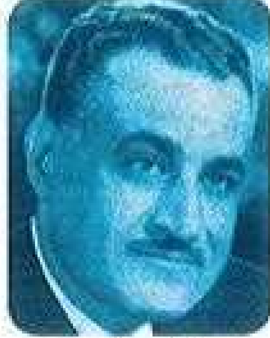
«اشنقوا آخر إمبراطور بأمعاء آخر قسيس..!!» (السابق، ص ٣٧٦).



من مواقف الشجاعة الأدبية التي تحسب لخالد محمد خالد مواجهته مع جمال عبد الناصر فى أوج قوته، دون أن يتراجع عن موقفه الذى بدا نشازًا فى مؤتمر اللجنة التحضيرية الذى انعقد برئاسة أنور السادات عام ١٩٦١م.

ويشير خالد إلى ما قاله فى كتابه «دفاع عن الديمقراطية»، وما وصلت إليه الأحوال فى مصر بعد انقلاب يوليو من ترويع وتطويع، والأكاذيب التى سادت، ووصلت إلى تجسس الأبناء على الآباء والأمهات والأقارب، وتردى الرأي، وحلول الزيف مكان الصدق، ومصادرة حق الشعب فى الرفض والمعارضة وحرية الاختيار، ويتخذ من المثل الشهير: «انج سعد فقد هلك سعيد» محورًا لمعالجة الوضع الديكتاتورى السائد فى مصر.

ويروى خالد قصة لقائه لأول مرة مع جمال عبد الناصر حيث دعاه صديقه الشيخ أحمد حسن الباقورى لمقابلته، وقبل أن يسرد ما جرى فى اللقاء يشير إلى جميل يحفظه له وطوقه به، وهو حمايته منذ ظهر كتابه «الديمقراطية أبدا» فى الشهور الأولى للثورة وحرصه على سلامه وسلامته، ورفضه لمصادرة الكتاب، عندما كان وزيرا للداخلية إعجابًا بخالد وحبًا لمقالاته وكتاباته.


جمال عبدالناصر

ثم يسهب فى تفصيل حواره الذى استمر مع عبد الناصر ساعتين ونصف الساعة حول الديمقراطية وأبعادها فى مصر، حيث أعرب خالد عن إصراره على الديمقراطية والمزيد منها منذ اليوم الأول للثورة.

فى اللقاء لفت انتباه خالد مقولة لجمال عبد الناصر فى خلال الحوار حول الديمقراطية: «إحنا مستعجلين على إيه؟ إحنا قاعدين فى الحكم عشرين سنة!». لقد أذهلته المقولة، وجعلته حين عاد إلى بيته واستلقى على فراشه لا يغمض له جفن حتى سمع صوت أذان الفجر ينادي: الله أكبر.. الله أكبر! ثم يتساءل خالد عما خسره عبد الناصر وخسرته مصر بسبب عدم تطبيق الديمقراطية، وطغيان الديكتاتورية (قصتى مع الحياة، ص٤١٢ - ٤١٨).

فى مؤتمر اللجنة التحضيرية عام ١٩٦١م، كان صوت خالد محمد خالد نشازا، فقد خرج على النص، وقال كلاما مخالفا لما هو سائد فى كلمات الذين سبقوه حيث دعا إلى استعادة الحرية والديمقراطية استعادة كاملة، والآن وليس غدا، متأسيا بنائب أمريكى ذكر حكومته أنها تدخلت فى حريات الشعب فى أثناء الحرب العالمية من أجل الانتصار، وبعد الحرب طالب برفع القيود فورا (الآن وليس غدا)، كما رفض خالد فكرة العزل السياسي، أو شنق السياسيين السابقين على الثورة كما نادى بعض المتحدثين قبله، ويذكر أن أحدا

من الأعضاء لم يصفق له مثلما كانوا يصفقون للآخرين ممن سبقوه بالحديث.

وقد تصدى بالرد عليه أول وزير للإرشاد فى عهد الثورة واسمه محمد فؤاد جلال، واتهمه بأنه يدافع عن العهد البائد، وقد خرجت الصحف المصرية فى اليوم التالى بعناوين كبيرة تقول: إن خالدا يدافع عن العهد البائد، عدا جريدة «الجمهورية» التى نشرت كلامه كاملا، ودفع رئيس تحريرها إبراهيم نوار - رحمه الله - ثمن ذلك !(السابق، ص ٤٢٢ - ٤٢٤).

وقد حاول النظام الناصرى بعد ذلك أن يستميل خالدا إليه فى حربه ضد الإخوان المسلمين بحكم ما كان بينه وبينهم من خصومة بسبب كتابه «من هنا نبدأ»، فأرسلوا إليه من طرف صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة من يطلب منه تأليف كتاب ضد الأخوان، وأنهم سيطبعون منه مئات الألوف من النسخ ويوزعونها على الشعب، ولكن خالدا رفض. فعاد الرسول يطلب منه أن يسمح لهم بطبع فصل من كتابه «من هنا نبدأ» بعنوان «قومية الحكم» الذى يهاجم فيه خالد التنظيم الخاص للإخوان، ولكنه رفض أيضا، انطلاقا من موقف الشهامة والمروءة بعدم الإجهاز على جريح، فقد هاجمهم وهم أقوياء، أما وقد فتك بهم النظام فلا تجوز مهاجمتهم قائلاً: «لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم !! ويوم كانوا من القوة بمكان... أما اليوم وهم فى المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ «ألا نجهز على جريح»». (نفسه، ص ٤٢٨).

❊❊❊

حتى اللحظات الأخيرة فى حياته، ظل خالد محمد خالد مهموما بقضايا الوطن والأمة، وكانت تؤرقه قضية الحرية على المستويين العام والخاص، وكانت مظاهر الفساد والقمع والقهر والاستبداد تمثل له أهدافا مباشرة يصوب إليها سهامه فى كل مناسبة فى مقالاته وحواراته الصحفية وكتبه التى تصدر حاملة أفكاره ورؤاه.. وكان الوضع فى مصر أوائل التسعينيات قد أخذ منعطفا خطيرا من حيث الفساد الذى بدأت روائحه تفوح فى كل مكان والاستبداد الذى يحمى هذا الفساد، والحريات التى يتم مصادرتها فى كافة الاتجاهات، وقد رأى أن يبرئ ذمته أمام الله والتاريخ، فوضع صيغة حل يراه لمشكلات الوطن والأمة يتمثل فى الديمقراطية التى يجب أن يتفق عليها الفرقاء السياسيون فى الوطن وفى مقدمتهم الإسلاميون، حيث فشلت كل الحلول التى تخلت عن الديمقراطية وأدخلت البلاد فى متاهات لم تخرج منها حتى الآن، ويدلل على ذلك بفشل اشتراكية عبد الناصر، لأنه ضحى بالديمقراطية، فتحولت اشتراكيته إلى مجرد «عَلَف» - حسب تعبيره.

إنه يرى الديمقراطية وعاء، وضياء، ومناخا. وغيابها يجعل أى نظام سياسى جحيما على الشعب والحاكم جميعا، ويؤكد مقولته بما حدث من مراكز القوى التى ملأت البلاد فسادا وبغيا، ووضعت جمال عبد الناصر ذاته فى أحد جيوبها. ويذكر ما تندر به صلاح نصر «رئيس المخابرات العامة حين قال: «الراجل فاكر نفسه زعيم ورئيس جمهورية.. مع إننا عاملينه «ديكور»!!

من أجل ذلك صاح جمال عبد الناصر غداة الهزيمة: «الحمد لله، انتهت دولة المخابرات؟!

ويتناول خالد آثار الحكم الشمولى وتدميره للأمة وأبنائها على المستويين العام والخاص. ويضرب أمثلة عديدة على جرائم النظام الناصرى الشمولى التى أصابت الشرفاء والوطن بطعنات نافذة وقاتلة، وفى هذا السياق يجد فى نفسه الشجاعة مرة أخرى ليعترف بخطئه حين خاطب ستالين أمين الحزب الشيوعى السوفياتى يوم موته قائلا فى عنوان مقال له: «طبت حيا وميتا يا رفيق!» ويسرد أسباب الخطأ إسلاميا وسياسيا وفكريا، ويؤكد أنه ما كان له أن يخاطب ديكتاتورا بذلك أبدا! (قصتى فى الحياة، ص ٤٨٤).

يرى خالد أن الشورى فى الإسلام لا تختلف قيد أنملة فى جوهرها ووظيفتها وفى الغاية المتوخاة منها عن الديمقراطية بنظامها السائد فى بلادها، ويحدد عناصرها فى:

١ - حق الشعب فى اختيار الحاكم ورئيس الدولة بالانتخاب لا الاستفتاء.

٢ - اختيار الشعب نوابه وممثليه فى برلمان رشيد يراقب الحكومة ويسحب الثقة عند اللزوم.

٣ - الأمة مصدر السلطات فيما لا يناهض نصا إسلاميا قطعى الدلالة.

٤ - أحزاب تقوم بالحكم والمعارضة. فالعدل لا يؤتمن عليه حزب واحد، والأحزاب تشبه المذاهب الفقهية.

٥ - معارضة برلمانية دستورية لكشف عورات الحكم وتقويم الحكومة، وفقا للمنهج الراشد: إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّموني.


خالد محمد خالد

٦ - الفصل بين السلطات كى لا توضع فى قبضة حاكم واحد أو حزب واحد. وحتى لا يتم تكريس الظلم والطغيان.

ويتساءل عقب عرض كل عنصر من العناصر السابقة وشرحه، قائلا: هل هذا يعارض الإسلام؟

لقد كان خالد محمد خالد شجاعا حين عرض لطبيعة الديمقراطية أو الشورى وطالب مبارك بتطبيقها، وطرح عشر نقاط، تضمنت تخلى مبارك عن رئاسة الحزب الوطنى وكل رئاسة حزبية وتشكيل حكومة ائتلافية ولجنة تمثل ألوان الطيف المصرى لوضع دستور جديد يعتمد الديمقراطية والانتخاب، ويعمل به فور إقراره والتصديق عليه، مع حماية الدستور والحياة الدستورية بكل ما أوتينا من قوة والدعوة إلى ذلك فى الإعلام والتعليم وأجهزة الدولة المختلفة (راجع: قصتى مع الحياة، ص ٤٨٥ وما بعدها).

ما طالب به خالد محمد خالد كان أجمل ختام لحياته، فقد طرح ما حققته يد الله بعد رحيله بخمسة عشر عاما، حيث انتصر المصريون على الطغيان وانتخبوا نوابا لهم فى انتخابات نزيهة بحق، وبدءوا طريقهم إلى الشورى الحقيقية بعد أن سقط الخوف وزال القهر، وانفتح الطريق بإذن الله أمام المستقبل.

خميلة الشعر

للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، صاحب الخُلُق العظيم والنهج القويم، وعلى جميع أنبياء الله، معترفًا لهم بصدق رسالتهم وبفضل أمانتهم، أما بعد، فإن الخميلة فى سعيها الدءوب لتقديم ما يفيد ويسُر من عيون الشعر والأدب، قد آلت على نفسها أن تستمر على نفس النهج ، طامحة إلى الأخذ بكل أسباب التقدم والارتقاء، وذلك بتقديم أرقى نماذج الشعر العربى والعالمي، لأكبر الشعراء، قديمًا وحديثًا، ويسرنا أن نتلقى آراءكم وانطباعاتكم وما تتمنونه، سائلين اللهَ جل فى علاه، جميلَ توفيقه وحُسنَ إلهامه، إنه سبحانه نعم المجيب.

ذكرى المولد النبوى الشريف

لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

حيِّ ذاكَ البدرَ بالزهرِ النَّظيم
واملأ الجفنَ بمرآهُ الوسيم
إنهُ يحكى مُحيا المُصطفى
إذْ بدا بين المُصَلّا والحطيم (١)
إنْ تكن يا بدرُ تزهو بسنًا
يُرشِدُ السارى (٢) فى الليلِ البهيم
فسنا أحمدَ يهدى أمَمًا
ويُريها سَنَنَ العزِّ المُقيم
عُجْ (٣) بروضٍ باكرَ الطَّلُّ به
دَوحَ وَرْدٍ هزَّهُ كفُّ النسيم
تلقَ فى الروضِ شذًا يُشبهُ ما
لنبيِّ اللهِ من خُلْقٍ كريم
إنْ تكُنْ ياروضُ يزهوكَ جَنى
هُوَ زَهْوُ العَيْنِ أو عطرُ الشَّميم
فلطهَ كَلِمٌ يسلو بها
عاشقُ الحكمةِ عن كلِّ نعيم
إنْ تَرَ العَضْبَ (٤) بيُمنى بَطَلٍ
هزّهُ بينَ قتيلٍ وكليم
فاذكُرِ العزمَ الذى لاقَى به
خاتَمُ الرُّسلِ أذى كُلِّ زنيم (٥)
غير أن العَضْبَ يقضى مُرغَمًا
فى الوَغى حاجةَ جبّارٍ نهيم (٦)
يا خصيمًا لهُدى أحمدَ ما
لِخَصيمِ الحقِّ من قلبٍ سليم

(١) الحطيم: جدار حجر الكعبة.
(٢) السارى: السائر ليلا.
(٣) عج: يقال عاج بالمكان أى أقام به.
(٤) العضب: من أسماء السيف.
(٥) الزنيم: اللئيم.
(٦) النهيم: المفرط فى شهوة الطعام.

دُونَكَ التاريخُ لا تُبقى مدًى
فى حديثٍ إنْ تشأْ أو فى قديم
هل رأى الناسُ كتابًا عَجَبًا
مِثْلَ ما يُتلى من الذِّكْرِ الحكيم
وَيْحَ قومٍ سَحَرَتْ أعيُنَهُم
هذه الدُّنيا بمرعاها الوخيم
غَرِقُوا فى لَهْوِها واتخذوا
مِنْ مُوالاةِ الهوى أشقَى نديم
نَكَروا القرآنَ بالذَّوقِ الذى
يُؤثِرُ الذَّرَّ على الدُّرِّ اليتيم
دَعَوا الإلحادَ إصلاحًا وهل
يَعرِفُ الإصلاحَ ذو ذوقٍ سقيم
ورسولُ اللهِ هادٍ للعُلا
مُنذِرٌ عاقبةَ الفعلِ الذميم
مَثَلٌ أعلى لنفسٍ جمعَتْ
سَطوةَ العادلِ فى أُنسِ الحليم
عِزّةً قعساءَ (٧) فى أسنى تُقى
هِمّةً شمّاءَ فى قلبٍ رحيم
هُوَ إذْ يُرهِفُ حدًا للذى
عاثَ أوْ يأذَنُ فى حربِ الخصيم
لَمْ يُرِدْ إلّا سلامًا سائدًا
واعتزازًا لذوى الدِّينِ القويم
إن تكُنْ تعجَبُ فاعجَبْ لِيَدٍ
لَبِسَتْ قُفّازَ أفّاكٍ أثيم
كتَبَتْ تزعُمُ مِن شِقْوتِها
أنَّهُ لَمْ يَكُنْ بالشَّخصِ العظيم
عَلِّموها أنَّهُ أعظَمُ مَنْ
سارَ فى الناسِ على هذا الأديم
صاحبُ الروضةِ فى طَيْبَةَ(٨) لَمْ
آمِنًا طُغيانَ ذا الخَطْبِ الجسيم
إنَّ فى الشرقِ رجالًا نَهَضُوا
يَقْرعُونَ الخَطْبَ بالعزمِ الصَّميم
لا يُبالُونَ إذا ما جاهَدُوا
غَضَبَ الغاشِمِ أوْ كيدَ اللئيم
قدَّسَ اللهُ ثَرَى قبرِكَ ما
نَفَحَ القرآنُ بالهَدْيِ العميم
وأقامَ العلمُ آياتٍ على
أنَّهُ تنزيلُ خلّاقٍ حكيم

ذكرى خير الورى

شعر / محمد عبد الوهّاب

من لى بِدُرٍّ بالفرائدِ نَضَّدا
لأصوغَ فى ذكرى الحبيبِ قلائدا
مِنْ ذَوْبِ قلبي، مِنْ حُشاشةِ مُهْجتي
والكونُ فى وَشْيٍ بديعٍ قد بدا
فى مَوْكِبِ البُلَغاءِ أخطو حائرًا
والشعرُ من فرطِ السعادةِ غَرَّدا
ما عُدتُ - لهفى - مُمْسِكًا بزمامِه
عن محضِ نظمٍ لا يروقُ، تمرّدا !
والدمعُ فى عينى حنينٌ دافقٌ
(للروضةِ الغرّاءِ) يهمى مُزبِدا
ذكراهُ ليست فى ربيعٍ وحدَهُ
بل كلَّ وقتٍ فى (أذانٍ) رُدِّدا
عند الصلاةِ وعند نُطقِ تشهُّدٍ
لله نذكُرُهُ رسولًا.. عابدا
أنا يارسولَ اللهِ صبٌّ مُولَعٌ
بالمَكرُماتِ وبالفضائلِ والهُدى

(٧) عزة قعساء أى ثابتة منيعة.
(٨) طيبة: المدينة المنوّرة.

سُميتُ باسم (مُحمَّد) من والدِ
لخصالك المُثلى تقرّب واقتدي
يا أُمّة الإسلام تُوبي وارشـدي
يا كم شهدت لدى الخطوب شدائدا
و (محمدٌ) هو في الدُّجى نبراسُنا
هو قدوةٌ، لو نقتدي فقنا المَـدي

صبرًا أبا (سوريا) فإنَّ تآمـرًا
للظُّلم، لن يبقى طويلا سائـدا
مهما تمادّى الليل في ظلمائه
فالفجر يبتكرُ انتصارًا سرْمَـدا
قد كان حقًا نصرُ ربي للألـي
صَمدُوا بإيمانٍ يدومُ مدى المَدي

يا أمَّ كل المؤمنين

الشاعر السورى/ مصطفى عكرمة

وهذا صوت شعرى وصل إلينا من سوريا الحبيبة التى نسأل الله لها زوال الغمة والظلم، وبزوغ فجر الحرية والسؤدد إنه سبحانه سميع مجيب والشاعر السورى هو الأستاذ مصطفى عكرمة وقصيدته تترنم أبياتها بحب أم المؤمنين السيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ ، ونرى الشاعرَ الذى أجاد فى توضيح هدفه النبيل.

ماذا أُحدثُ عنكِ يا أُمّاهُ
وعليكِ أثنى فى الكتابِ اللهُ
سوّاكِ ربُكِ للرسول حليلةً
يا طيبَ ما الرحمنُ قد سوّاهُ
هى حكمةٌ لله فاضتْ رحمةً
وبها تجلّتْ للورى نُعماهُ
يا أمَّ كل المؤمنين وفخرهم
ما زال قدرُكِ لا يُرامُ عُلاهُ
ونعيمُ حُبكِ فيه أُنس قلوبنا
فقلوبنا يأمنّا مأواهُ
سمّاكِ عائشةً أبوكِ لحكمةٍ
وأبوكِ أين كمثله أوّاهُ!
لكأنَّ وحيًا جاءه من ربّه
لمّا دعاكِ بما لهُ أوحاهُ
سماكِ عائشة فعشتِ بوحيها
طُهرًا مدى الأزمان كان مداهُ
وأتمّ نعمتهُ فكنتِ بأمره
زوجَ الرسول المُصطفى ومُناهُ

ولأنتِ دون الحور زوجتُهُ غدًا
يا طيبَ مَن من ربّه يُجزاهُ
لو لم تكونى فى الحياة رضيّةً
ما اختارَ أن يرضاكِ فى أُخراهُ
سبحانهُ ما كان أعظم ما قضي
فلقد أراهُ بما قضى سُكناهُ
الرسْلُ كلُّ الرسْلِ صلّتْ خلفهُ
وجميعُ ما ولاهمُوا ولاّهُ
وبه أرادَ لكلِّ من خُلقوا الهُدى
وبقدر ما ولاّهُ قد أعطاهُ
ولأنتِ من قد شاءها سكنًا لهُ
ولأنتِ من أمسى هواكِ هواهُ
تبقين أكرمَ من تعاظمَ أمرُها
ويظلُّ حسبُكِ أنْ رعاكِ اللهُ
يا بنتَ أصدقِ صادقٍ بيقينه
ومع الرسول الغارُ قد آواهُ
سوّاهُ ربُّكِ للخلافة راشدًا
فى كل ما للمصطفى أوحاهُ

كان الأحبَّ إلى الرسول بصدقه
وعلى خُطاهُ كان وقعُ خُطاهُ
حتى لتحسبُهُ أخاهُ وظِلّهُ
وشريكهُ فيما الإلهُ حَباهُ
ما كان أعظمَ دينهُ وثباتهُ
وجليلَ ما قد قدمته يداهُ
أوَلمْ يؤمَّ المسلمين بعلمه
وعليه أثنى مُعلنًا تقواهُ
وعليه أجمعَ أن يكون خليفةً
مَن صِدقُهُم عزّتْ لهُ أشباهُ
كانوا لدين الله أصدقَ من هُدوا
ويقينُهم ربُّ الهُدى صفّاهُ
فهمو وليس سواهمو أهلُ النُّهى
فالرأيُ فيهم، والتُّقى والجاهُ
هم قدّموه أسوةً برسولهم
أوَما لهذا الله قد ولاّهُ
وهمو بدين الله أعظمُ جُنده
وبطيبِ ذكرِهمُ الورى تَيّاهُ
وبهم فُتوحاتُ السلام تعاظمتْ
والحقُّ رفرفَ فى الأنام لواهُ
أدّوا رسالةَ ربهم فى عالمٍ
كان الفسادُ بظلمه يغشاهُ
قد قادهم للفتح خيرُ خليفةٍ
لم تُغرهِ عن دينه دُنياهُ
أمضى الجيوشَ وراحَ يقمعُ ردّةً
ليردَّ مَن عن دينهم قد تاهوا
اللهُ أظهر دينهُ بثباته
فهو المُعدُّ بما حباهُ اللهُ
فأعاد للتوحيد وحدةَ صفّه
لولاهُ لارتدَّ الورى لولاهُ
ما مِثلُهُ بعد الرسول من اتّقي
وحمتْ عقيدةَ ربه كفّاهُ

يا بنتَ صِدّيقِ الرسول وخِلّه
وأبرَّ من عاش الهُدى وحماهُ
ما غابَ عن سمع الإله وعينه
أمْرٌ دَهاكِ لحكمةٍ أجراهُ
أصبحتِ ميزانَ اليقين وصِدقه
يا ويحَ طاغٍ حقدُهُ أعماهُ
لم تجزعي حين ابتُليتِ بفتنة
فدُعائكِ الرحمنُ قد لبّاهُ
فبلوحِهِ المحفوظ أنتِ بريئةٌ
من قبلِ أن يجد امرؤٌ محياهُ
وعظيمُ قدرِكِ فى الكتاب مُخلّدٌ
ما غابَ إلا عن عمٍ معناهُ
يا أمَّ كل المؤمنين على المَدى
من لم يُقرّ بها فما أشقاهُ
الحقدُ أطفأ روحهُ، وفؤادهُ
حسدًا تكادُ تشبُّ فيه لظاهُ
والمُرجفونَ قديمُهم كحديثهم
جُندٌ لما أبليسُ قد أملاهُ
وسواهُ ليس وليَّ كلِّ أمورهم
هيهاتَ أن يستدبروا دعواهُ
علموا بأن الدين عندكِ علمُهُ
ولهدمه كلٌّ أعدَّ قُواهُ
جهلوا بأنَّ الله ناصرُ دينه
من رامَ هدمَ الدين ما أوهاهُ
والدينُ أبتْ ركيزةٌ ببنائه
واللهُ ليس بهادمٍ مبناهُ
فاللهُ أرساهُ ليبقى ظاهرًا
وبحفظه يبقى كما أرساهُ
ما ليس يُحصى من جهابذةٍ
حشدتْ على ما ربُّنا يأباهُ
راموا مُطهرةً تقادمَ عهدُها
فى موضعٍ منها يطيبُ ثراهُ

لتكادُ أدنى قريةٍ مما أتوا
تَفرى الجبالُ، وتَشعلُ الأمواهُ
ولو أنّ أكفرهم أفاق ضميرُهُ
لَنعاهُ مما يفتريه أساهُ
ما أحدثوا لكِ فتنةً يا أمّنا
إلا وأبطلَ ما افتروهُ اللهُ
ما كان أخزى من أضلَّ بعلمه
وأطاعَ أمرَ عدوِّه، وهواهُ
فالفتنة العمياءُ هُمْ شيطانُها
وبها سيَصلى كلُّ من والاهُ
والمُرجفون على المَدى هم أهلُها
وهُمُ الأذلُّ بما الإلهُ يراهُ
وجلالُ قدرِك فى الكتاب فمن أبى
حُكمَ الكتاب فأين منهُ هُداهُ ؟!
يا أمَّ كُلِّ المؤمنين وفخرهم
محمودٌ فضلُك ما انطوتْ ذكراهُ
فلزوجِ خيرِ المُرسلين مقامُها
ودماءُ كلِّ المؤمنين فداهُ

يا أمَّ كُلِّ المؤمنين استبشري
خيرًا بما حقدُ الطغاة أتاهُ
سيزيدُ قدرَكِ عند ربِّكِ رفعةً
ويرى الحقودُ بحقده مأساهُ
ويزيدُ حُبُّكِ فى القلوب قداسةً
يرضى الرسولُ بها ويرضى اللهُ
فالمؤمنونَ بما قضاهُ عِزُّهُمْ
والمؤمنون به حُماةُ حِماهُ
يا مَنْ تولّى اللهُ أمرَكِ لم تزلْ
ترعاكِ مهما لفّقوا: عيناهُ
ولَوَ انّ أهلَ الأرض قد كفروا معًا
لا لن تُغيِّرَ ما الإلهُ قضاهُ
ولأنتِ أمُّ المؤمنين بعلمه
هذا مقامٌ جلَّ مَنْ أهداهُ
فاستبشرى بخلودِ قدرِكِ أُمَّنا
وسيخلدُ الطاغى بما يصلاهُ
يا أمَّ كلِّ المؤمنين مُضلِّلٌ
ومُنافقٌ مَنْ لم يَقُلْ آماهُ

مصر أم الجميع

للأستاذ/ فرج محمود زورة

وهذه قصيدة بعنوان [مصر أم الجميع] للأستاذ فرج محمود زورة الموجه السابق بالتربية والتعليم وحاليًا بالمعاش، وفيها يبدى رأيه بالنسبة للأحداث السياسية بمصر فى الفترة الراهنة من وجهة نظره الشخصية فيقول:

قَومى علامَ تُحطمونَ كياني
وتُزلزلونَ بقسوةٍ أركاني
ولمَ العُقوقُ بُنيَّ إني أُمكم
وكم احتوتكم دائمًا أحضاني
كنتُ الحيا ربًّا لغرسٍ صالحٍ
يجرى إليكم دائمًا تحناني
الأمُّ مدرسةُ الكرام فكُن لها
نعم اللبيبِ يجودُ بالعرفانِ
بالأمهاتِ نصونُ مجدَ بلادنا
مرفوعةَ الأركانِ والبُنيانِ
فلمَ الخلافُ وقد حوتكم مصرُكمْ
ورضعتموا من ذلك الشريانِ
لمَ لا نخطُّ لمصرنا دستورها
بالعلم والتوفيقِ والإيمانِ
نبذُ الخلافِ فإنهُ جرثومةٌ
وكذاك سوسٌ دبَّ فى الجثمانِ
وتوجّهوا نحو البناء فإنهُ
حصنٌ لكم وهو العبورُ الثاني

لا تبخلوا بالجهدِ فهو سلاحكم
إن البخيلَ يبوءُ بالخسرانِ
لا تركنوا للاعتصام فإنه
قتلٌ أتى وحبائلُ الشيطانِ
ودعوا الشوارعَ تستزيد سيولةً
وكذا التعصبُ داخلَ الميدانِ
ولمَ التخبُّطُ فى القرارِ فإنهُ
مسٌّ من الشيطانِ والهذيانِ
بل فاقرعوا الرأيَ الحصيف بحجةٍ
وزنوا القرارَ بأقسطِ الميزانِ
ولتتركوا الخُلفَ العقيمَ فإنهُ
سيجرُّكم نحو الردى بهوانِ
دستور مصر إذا أتى بدراسةٍ
وتفقُّهٍ وهدايةِ القرآنِ
سيظلُّ مصرَ شمالها وجنوبها
وكذا الصعيدَ إلى ذُرا السودانِ
أوصيكمُ بالقبطِ هم إخوانُكمْ
هم أخوةٌ من أقدمِ الأزمانِ
هم لُحمةٌ فى جسم مصرَ وبضعةٌ
وبذا تقومُ ركيزةُ الأوطانِ
الأزهرُ المعمورُ فيه بقاؤنا
هو حصننا من كلِّ باغٍ عانِ
ومنارةُ التثقيفِ فى كلِّ الدُنا
مدعومةٌ بالعلمِ والعرفانِ
فخذ العلومَ من المعينِ وكن بها
نورًا يزيلُ غشاوةَ العمياتِ
مصر الكنانةُ دائمًا محفوظةٌ
بعنايةِ التوفيقِ مِنْ رحمنِ

قد خُطَّ فى الذكر الحكيم بقاؤها
كم مرةً قد جاءَ فى القرآنِ
خمسًا تلاها اللهُ فى قُرآنه
فى اللوحِ قد خُطّتْ ومنذُ زمانِ
يا مصرُ يا مهدَ الحضارةِ كلِّها
أنتِ المُنى، أنتِ الملاذُ الهاني
كم فى رحابكِ كنتُ أفرحُ دائمًا
وعلى ضفافِ النيلِ عشتُ زماني
بين النخيلِ الباسقاتِ خطوتُ فى
عشقٍ لها، ومرحتُ فى اطمئنانِ
ما عكّرَ الصفوَ الجميلَ كآبةٌ
كلّا، ولا بؤسٌ بها أعياني
وكذاك عشتُ طفولتى وشبيبتي
بين الرُبا ومحبّةِ الجيرانِ
لا بُدَّ مِنْ بعدِ العواصفِ وقفةٌ
فيها سنعملُ دائمًا بتفانِ
قد قال « يوسُفُ »: إخوتى هيّا ادخلوا
أرضَ الكنانةِ دائمًا بأمانِ
فى ظلِّ مرسيها وحامى سُفنها
فالسُفنُ لا تجرى بلا رُبّانِ
إنّ السفينَ إذا غلا رُبّانُهُ
فى الهوجِ يحميها من التوهانِ
فترقّبى يا مصرُ خيرَ حضارةٍ
فى ظلِّ مرسى فارسِ الميدانِ
هذا القريضُ دعوتُهُ فأجابني
فصببتُ فيه محبّتى وبياني

اللهُمَّ هيِّئ الخير لمصرنا وحقِّق آمالَ شعبنا واجعل حياتنا سخاءً رخاءً
ووفِّقنا ياربّنا لما فيه صلاح أمرنا.

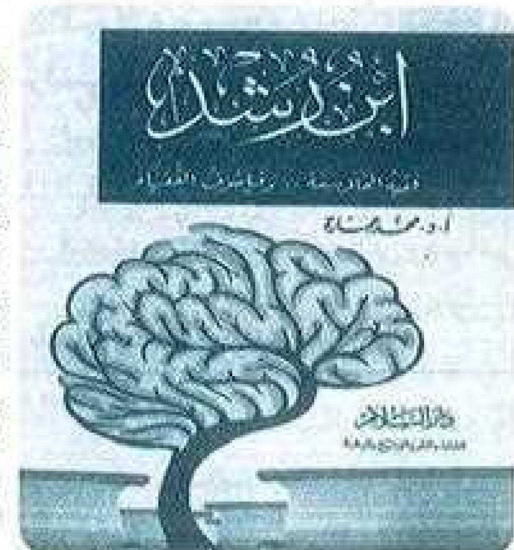
مكتبة الأزهر

إعداد: محمد شعبان

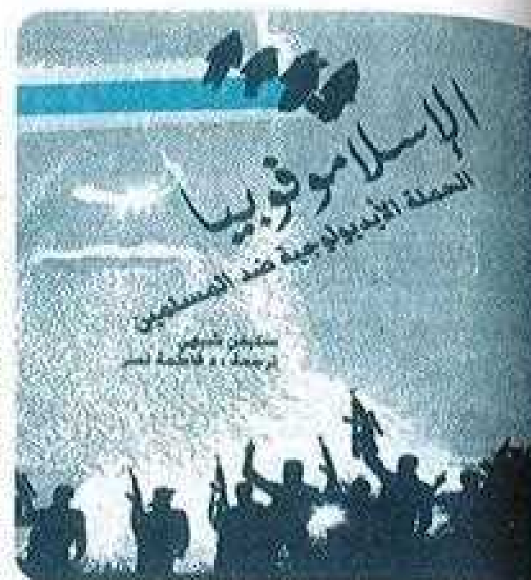
يسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



جمع هذا الكتاب دررا غوالى من عيون قصائد الحب الإلهى وأسراره واحتشد فيه من أقوال الصوفية قدر كبير قل أن يجتمع فى سفر آخر قبل هذا الكتاب، هكذا وصف فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر كتاب «التجليات الروحية فى الإسلام.. نصوص صوفية عبر التاريخ» للمستعرب الإيطالى جوزيبى سكاتولين. ويمضى الإمام الأكبر فى تقديمه للكتاب الصادر عن مكتبة الأسرة قائلاً: «هذا الكتاب الجليل الذى نقدم له يعرض فى أمانة علمية دقيقة مظاهر التجليات الروحية فى الإسلام ويتحدث عن التصوف الإسلامى نشأة وتطورا وازدهارا وعرضا لبعض المفاهيم والقضايا الإنسانية وذلك من خلال نصوص شيوخ التصوف أنفسهم أخذا من كتبهم وأقوالهم بدءا من القرن الأول وانتهاء بالقرن السابع الهجريين».. يضم الكتاب مقولات ونصوص للزهاد والمتصوفة بدءا بأبى الدرداء مرورًا بسلمان الفارسى والحسن البصرى ومالك بن دينار وذو النون المصرى والبسطامى والجنيد والحلاج.



يقدم د. محمد عمارة فى كتابه «ابن رشد فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء» الصادر عن دار السلام دراساته السبع التى أنجزها خلال ثلث قرن حول ابن رشد إبداعا وتحقيقا وبحثا عن أثره وتأثيره فى الحضارة الإسلامية والغربية. على أن المؤلف يشير فى مقدمته إلى تعدد الزوايا التى تم تسليط الضوء عليها من تراث ابن رشد وفلسفته وذلك تبعا لتنوع التحديات والأولويات التى كانت تلح على العقل عند إنجاز كل دراسة من هذه الدراسات.. يمضى الكتاب مع ابن رشد منذ مولده وحتى وفاته متوقفا عند كل محطة من المحطات التى أثارت جدلاً فيتناول رده على الغزالى فى كتاب «تهافت التهافت» وموقفه من الحرية الإنسانية ووجه الخلاف والاختلاف مع الأشاعرة والمعتزلة، بل وأثر ذلك فى النهضة الغربية الحديثة، ويتوقف الكتاب عند موقف فيلسوف قرطبة وفقيهها من مسألة «قدم العالم وحدوثه»، كما يخصص المؤلف دراسات حول موقف ابن رشد السياسى ورؤيته المرأة والتأويل.



يسلط كتاب «الإسلاموفوبيا الحملة الإيديولوجية ضد المسلمين» -للمؤلف ستيفن شيهى وبترجمة أ.د. فاطمة نصر والصادر عن سطور الجديدة- الضوء على جذور الروح العدائية تجاه الإسلام والمسلمين التى طورها الغرب من أجل تعزيز روح الهيمنة على المناطق الإسلامية وتعزيز مداها ويؤكد المؤلف أن «الإسلاموفوبيا تسود جميع مستويات الحياة الأمريكية من اليمين إلى اليسار ومن المتدينين إلى الملحدين يعتقد من يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا أن كل مسلم حقير أحمق وإرهابى مخرب» ويرجع شيهى صعود هذه الروح العدائية إلى لحظة سقوط الاتحاد السوفيتى مضيفًا: «لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها أو أحد المفكرين أو الفلاسفة أو النشطاء أو أى منفذ إعلامى أو مجموعة مصالح خاصة أو مركز أبحاث على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون عن تداول جمعى عن نشر التنميطات الخبيثة المعادية للمسلمين والعرب من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على الكوكب».



يفند كتاب «أشهر ٥٠ خرافة فى علم النفس» التى صدرت ترجمته عن دار كلمات عربية للترجمة والنشر أكثر من ٢٥٠ خرافة فى مجال علم النفس (الكتاب يخص ٥٠ خرافة بالنقد التفصيلى ويكتفى بذكر خطأ ٢٠٠ خرافة أخرى) تتميز ترجمة الكتاب بالوضوح، كما يقدم الكتاب المعلومة بسهولة للقارئ العادى فضلا عن أن شيوع مثل هذه الخرافات يثير فضول القارئ فنجد مثلاً عرضًا لأفكار مثل: «تمتع المكفوفين بقدرات متقدمة خاصة فى حاستى السمع واللمس» و«الأطفال حديثو الولادة لا يسمعون ولا يرون» و«الأشخاص الذين يتمتعون بمستويات ذكاء عالية للغاية أكثر ضعفًا بدنيا من الآخرين» و«هناك صلة وطيدة بين العبقرية والجنون» و«لا يحلم فاقدو البصر» و«الكثير من الناس لا يحلمون» و«الخوف الشديد قد يحول لون الشعر إلى اللون الأبيض» و«يكشف خط اليد عن السمات الشخصية».. ويتولى الكتاب الرد على هذه الخرافات عارضا مصدرها وحقيقتها.



يعرض د. حسن الترابى أحد أبرز قادة العمل الإسلامى المعاصر فى حواره مع المستشرق الفرنسى لرؤيته للإسلام اليوم، كما يجب أن تكون فى شتى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ويجيب الترابى فى هذا الحوار المنشور فى كتاب «الإسلام مستقبل العالم» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد وترجمه السفير يوسف سعيد عن أسئلة حول علاقة الدين بالدولة فى الإسلام ووضع المرأة المسلمة وحقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى وحقوق الجماعة المسلمة فى الغرب والموقف من الديمقراطية حدود تطبيق القانون الشرعى والموقف من حرب الخليج ورؤيته للشأن الداخلى فى إسرائيل وعلاقة العروبة بالإسلام.

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى

ومن جريدة الأهرام تقتطف مجلة الأزهر ما كتبه الأستاذ: جمال عبدالناصر، فى عددها الصادر فى ٢٠١٣/١/٢٧

نشرت مجلة الأزهر مع عدد شهر ربيع الأول كتابًا بعنوان نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربي: احتفاءً بمولد رسول الله ﷺ، الكتاب من تأليف الراحل الدكتور عز الدين فراج الأستاذ بجامعة فؤاد الأول ورئيس دائرة المعارف العلمية سابقاً، وقدم له الدكتور محمد عمارة رئيس تحرير مجلة الأزهر.

ويركز على فكرة مهمة ألا وهى أن الغرب ليس كله فى كفة واحدة، فإن كان هناك من أساءوا للإسلام ورسول الإسلام، سواء عن طريق الهجوم المباشر أو الرسوم المسيئة أو الفيلم المسيء - فإن هناك محايدين آثروا قول الحقيقة وجهروا بها، وأنصفوا الإسلام ونبيه الكريم، وهكذا يعلمنا إسلامنا أننا لا بد أن ننصف الناس ونعترف بالفضل لأهله حتى ولو كانوا مخالفين لنا فى العقيدة، فكما يقول الدكتور محمد عمارة فى تقديمه للكتاب: يجب أن نميز فى الآخر الغربى بين هذا الإنسان - يقصد الإنسان الغربى - وهذا العلم وبين مؤسسات الهيمنة الغربية السياسية والدينية الطامعة تاريخيًا وحاليًا فى استعمار الشرق لنهب ثرواته وإلحاقه هامشًا للأمن الغربى وتابعًا للمركزية الحضارية الغربية، ولهذه الحقيقة المنهجية: فإن علينا أن نميز فى الفكر الغربى بين افتراءات الجهلاء الغربيين الذين يزدرون ديننا ومقدساتنا - وبين الشهادات الغربية التى أنصفت الإسلام وتحدثت بإعجاب وانبهار عن نبى الإسلام ﷺ، ولو أن الجاليات الإسلامية فى الغرب وعتْ هذا المنهج، وأعادت نشر الشهادات الغربية التى تنصف الإسلام وتثنى على رسوله لحدث ترشيد كبير للعقل الغربى المعاصر الذى تغرقه أكاذيب الإعلام الذى يرتزق أهله من صناعة الكذب على الإسلام والمسلمين:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

(الواقعة: ٨٢).

وبدأ المؤلف كتابه موضحًا لنا فكرته قائلاً: تخرج لنا دور النشر والصحافة والإذاعة فى الشرق كل يوم صورًا متباينة عن عظمة نبينا الكريم وسيرته العطرة، بأقلام شرقية وعقليات إسلامية، ولكن الشيء الذى تتوق إليه عقولنا بين حين وآخر، هو أن نعرف كيف صور قادة الفكر الغربى عظمة هذا الرسول، فهؤلاء بعقلياتهم المختلفة وتفكيرهم المتباين ومنطقهم الخاص، يفتحون أمامنا آفاقًا جديدة من التأمل والتفكير، ويخلعون على حياة هذا الرسول ألوانًا جديدة من الإجلال والإكبار، ويضيفون إلى سيرته صورًا شائقة قشيبة من العظمة والعبقرية، وليست هذه الصور الرائعة المجيدة منبعثة من مكان واحد بل هى صيحات تجاوبت أصداؤها بين لندن وباريس ونيويورك وموسكو، وليست هذه السيرة المجيدة منبعثة من جوانب مفكر واحد أو فيلسوف واحد، بل منبعثة من مفكرين وفلاسفة، اختلفت أجناسهم وتنوعت أقطارهم وتباينت عصورهم.

ثم تحدث المؤلف عن العالم قبل بعثة النبى الكريم، وكيف كان يموج فى الاضطرابات والقلاقل والفتن فى الشرق والغرب على السواء، ثم أورد المؤلف ما قاله توماس كارليل مثنيًا على رسولنا الكريم قائلاً: من العار أن يُصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجًا منيرًا أربعة عشر قرنًا من الزمان لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!.

ثم واصل كارليل ثناءه على رسولنا الكريم قائلاً: أحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعى ما ليس فيه، ولم يكن متكبرًا ولا ذليلاً، ثم راح يذبُ عن رسول الله ويثنى على أمنا خديجة - رضى الله عنها - موضحًا أهمية إيمانها به مبكرًا ووقوفها بجانبه فى بداية دعوته.

ثم أورد المؤلف شهادة المفكر والفيلسوف الغربى الجرئ برنارد شو التى قال فيها: إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة ثم أكد برنارد شو صلاحية رسالة الإسلام للعالم كله كى تحل مشكلاته، وأثنى على الأمة الإسلامية بأنها أمة دستورية ديمقراطية يتكافل فيها الجميع، حيث تقف المرأة بجوار الرجل ويتعاون الناس فيما بينهم.

ثم أورد المؤلف شهادة المفكر الغربى بوسورث سميث فى كتاب له بعنوان محمد والدين المحمدى التى قال فيها: وكما كان محمدٌ رئيسًا للدولة كان رئيسًا للدين أيضًا، أى أنه كان قيصرًا وبابًا فى شخص واحد، لكنه كان بابا من غير مزاعم البابا، وقيصرًا دون أن يكون له جيوش قيصر، كان محمد فى وقت واحد مؤسسًا لأمة ومقيمًا لإمبراطورية ربانيًا لدين، وهو وإن كان أميًا فقد أتى بكتاب يحوى أدبًا وقانونًا وأخلاقًا عامة، وكتبًا مقدسة فى كتاب واحد، وهو كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سُدُسُ مجموع النوع البشري؛ لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق ثم أورد المؤلف شهادة السير وليم ميور التى وصف فيها النبى الكريم قائلاً: ومن صفاته الجديرة بالتنويه الرقة والاحترام، اللذان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا، فالتواضع والرأفة والاحترام وإنكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله.

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

بالتودانو(١)

(١) «.. على العكس من الديانة الكاثوليكية التي تدعو إلى السمو الروحي عن طريق المعاناة فإن الإسلام يحض الناس على مقاتلة الطغيان. إن النصرانية تجنح إلى اتخاذ موقف تجاه الحياة، بينما يتصدى الإسلام لمشكلات الحياة بشجاعة»(٢).

(٢) «.. الحضارة المادية عليلة مملة، فالمرء يدور فيها في شبه دوامة، والتحديات فيها قليلة، وحتى عند وقوعها لا يكاد يوجد صراع. فالحياة تنتهي بالتسويات وأنصاف الحلول. إنك لا تنمو، فالمرء لا ينمو إلا في ظل التحدي، والإسلام هو أعظم تحد في حياة الإنسان! وهكذا قررت أن أكون مسلمة»(٣).

بيرج(٤)

(١) «لا حاجة بنا إلى الإطناب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية.. إن نظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له في الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته على الدوام من حب الجماهير له حبًا حماسيًا. إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانًا وأن معتنقيه ليفخرون به.. وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية. وأن إجماع المسلمين على اختلاف الرأي رحمة من الله، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بلينه وتسامحه ويبرهن لنا برهانًا جديرًا بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغم الناس على رأيها»(٥).

(٢) «.. إن الحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته إن استطاع إليه السبيل.. وأثر اللغة العربية في العمل

(١) مرسيدس بالتودانو: فاطمة بالتودانو M. PALTODONO ولدت في مدينة ليوم، بنيكاراجوا، في أمريكا الوسطى، كان أملها أن تصبح راهبة، وعندما بلغت المرحلة الثانوية (١٩٧٦ - ١٩٧٧م) دفعها طغيان سموزا الفردي إلى الشيوعية، لكن اعتقال شقيقتها وضع حدًا لنشاطها السياسي، فسافرت إلى الولايات المتحدة لإكمال دراستها في الهندسة المدنية، وهناك، ومن خلال ضغوط الحياة الأمريكية المادية، وبفضل اتحاد الطلبة المسلمين، أعلنت انتماءها للإسلام.

(٢) رجال ونساء أسلموا، ٨/٥٢. (٣) نفسه، ٨/ ٥٣ - ٥٤.

(٤) ج.ك. بيرج J.K BIRGE عمل أستاذًا في جامعة ليدن، وانصب اهتمامه على تاريخ الصوفية في الإسلام، وكتب أبحاثًا عديدة عن جلال الدين الرومي وغيره.

(٥) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص١٦٠ - ١٦١.

(٦) نفسه، ص١٦١

على الوحدة، وتشابه طرق التعليم في كل العالم الإسلامي، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية في المكان الأول، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة..»(٦).

(٣) «.. إن النزعة التي تصبغ كل شيء بصبغة الدين والتي امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرنًا دينًا متمكنًا في امبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها.. لقد حاز الإسلام فضلاً لا سبيل لإنكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يتبع دينًا آخر ويعتنق فكرة أخرى في الحياة..»(٧).

بنكمرت(٨)

(١) «الإسلام دين السلام والمساواة والحرية، والإخاء والكرامة والعزة، يظهر ذلك جليًا في أحكامه ومبادئه وآدابه. فالصوم في الإسلام ليس كالصوم في الأديان الأخرى، لأن مشكلة الإنسان ليست في أن يكبت مطالب جسده، وأن يتخلى عنها حتى تكون أقرب إلى العدم منها إلى الوجود. فهذا أمر ممكن بالمران والتعود.. مثلما يفعل الرهبان حتى يصير جسد الواحد منهم أشبه بهيكل عظمي متحرك. ولكنهم مع ذلك لم يتركوا أي أثر لهم في الحياة كبشر درجوا على وجه هذه البسيطة وعمروا ما أمكنهم عمرانه فيها، بل انصرفوا عن ذلك في عجز وحسرة. لذلك فالإسلام، الذي هو دين الفطرة، لم يرض للمؤمنين بهذا السلوك السلبي الانعزالي ولم يشرعه لهم، بل عدل مطالب الجسد وهذبها ولم يكبتها، ونمى الغريزة وعلاها ولم يستأصلها، ورسم الطريق السوي للسير بها نحو الكمال. فالصوم في الإسلام تعويد للنفس على الصبر والجهاد ضد الشهوات الآثمة المحرمة، ومراقبة الله في السر والعلن، واستشعار لطعم الحرمان والجوع كي يعطف الصائم على المحرومين، كما أن في الصوم فرصة لإعطاء الجسم راحة من التخمة. فالصوم مفيد للشخص في صحته وروحه وعقله، وللمجتمع في تقاربه وتعاونه واتحاده..»(٩).

(٢) «لم أجد دينًا وضع للزكاة تشريعًا شاملاً كالإسلام. والمجتمع الإسلامي الذي يحرص على إخراج الزكاة يخلو من الفقر والحرمان والتشرد.. إنني أتصور لو أن العالم كله اهتدى إلى الإسلام لما بقي على ظهر الأرض جائع أو محروم. والمجتمع المسلم الذي يلتزم بأحكام الإسلام وآدابه مجتمع نظيف سعيد تنعدم فيه الجرائم بكافة ألوانها..»(١٠).

(٧) نفسه، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٨) بريشا بنكمرت: عثمان عبدالله BERISHA BANKMART من رجال التربية والتعليم، بمملكة تايلاند، نشأ في أسرة بوذية، يتمسك أفرادها بتعاليم وفلسفة بوذا، لكنه لم يطمئن إليها وراح يبحث، بعد إكمال دراسته، عن دين يجدر أن يكون «دين البشرية ودين الحياة».. كما يصفه وفي مطلع عام ١٩٧١ أعلن إسلامه، وغير اسمه إلى عثمان عبدالله.

(٩) رجال ونساء أسلموا، ٣/١١٤.

(١٠) نفسه، ٣/١١٥.

من تراث الهلال:

الله في الشعر العربي القديم

الأستاذ/ عاطف مصطفى

دائما ما كانت مجلة الهلال تحرص على استكتاب كبار الكتاب والاستعانة دائما بثاقب علمهم وبفكرهم، وخاصة في أعدادها الخاصة التي كانت تصدرها بين الحين والآخر، بل إن رؤساء، تحريرها منذ صدورها في عام ١٨٩٢م وحتى الآن يتبعون هذا المنهج.

وفي العدد الخاص بعنوان «الله» والذي صدر في يونية عام ١٩٧٢م نختار منه مقالاً بديعًا للناقد والشاعر محمد عبدالغني حسن بعنوان «الله في الشعر العربي القديم».

حيث تناول نماذج للشاعر القديم الذي كان يتجه إلى الله، إذا أظلم ليل أو حزب أمر، أو ضاق عليه الأمر، لعله يجد مخرجًا مما هو فيه، وفرجا مما هو ملاقيه، حيث عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق
علي فما ينفك أن يتفرجا
وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه
أصاب لها في دعوة الله مخرجا

يقول الكاتب بداية: لا يختلف الشاعر الإسلامي عن الشاعر الجاهلي في الابتهال واللجوء إلى الله والأنس بحضرته، ولا يقال إن الأصنام كانت تعبد في الجاهلية من دون الله، وأن الشرك كان فاشيًا، والكفر كان طاغيًا.

ففي غمرات ذلك الجو الملبد بالإشراك، كانت تلتمع هناك ومضات من نور الإيمان، وضوء التوحيد، فليس طبيعيًا أن ينقطع ما بين الله والناس في فترة من فترات الشرك، وإلا فما بال هؤلاء «الحنفاء» قبيل ولادة محمد عليه الصلاة والسلام - بله بعثته ورسالته - ما بالهم وقد اجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عنده، ويطيفون به، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض، قالوا أجل!

وكان هؤلاء النفر الأربعة: ورقة بن نوفل، وعبدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء... فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية: دين إبراهيم عليه السلام.

الشاعر والكاهن والخطيب

فأما ورقة بن نوفل - ابن عم السيدة خديجة - فاستحكم في النصرانية، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى هداه الله إلى الإسلام فأسلم، وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه من قريش، فاعتزل الأوثان والأصنام والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، وقال: أعبد إله إبراهيم وقد قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: «إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

ولم يكن هؤلاء الحنفاء أربعة وحسب، ولم يكونوا في مكة وحدها، بل كانوا في المدينة وفي بقاع أخرى من جزيرة العرب، ولم يكونوا شعراء وحسب؛ بل كان فيهم الشاعر والكاهن والخطيب، وهدى الله كثيرًا منهم إلى نور الإسلام، وحلاوة الإيمان، كأبي ذر الغفاري، وصيرفة بن أبي أنس الذي كان يكنى بأبي قيس.

معالم في طريق الإيمان

يضيف محمد عبدالغني حسن: وهؤلاء الشعراء الحنفاء في الجاهلية كان يدور اسم «الله» في كثير من شعرهم، ويتكرر في عدد من قصائدهم، حتى لتكاد تعجب من دوران لفظ الجلالة في أشعارهم إلى هذا الحد، وهم في بيئة مفعمة بالشرك، كأنما نصبتهم «العناية الإلهية» ليكونوا معالم في طريق الإيمان، ومنائر في سبيل التوحيد.

وكثيرًا ما تلقى اسم «الله» في شعر هؤلاء الجاهليين الحنفاء في معرض الحلف به والقسم بقسمه، والحمد له، والثناء عليه، والدعاء بالخير والشر باسمه، ووصفه بأنه يعلم كل خافية، ويدري كل جانحة، وأنه يحيي ويميت، ويهلك ويبقي.

ففي معرض الحلف بالله نجد الشاعر عدي ابن زيد العبادي يقول مخاطبًا النعمان:

إنني والله فاقبل حلفي
لأبيل كلما صلى جار

ونجد الشاعر زهير بن أبي سلمى يقول في كافيته المشهورة:

تعلمن ها لعمر الله ذا قسما
فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

ونجد الشاعر عبيد بن الأبرص يقول:

فوالله إن مت ما ضرني
وإن عشت ما عشت في واحده

وفي معرض الحمد لله نجد الشاعر امرأ القيس يقول:

أرى إبلي - والحمد لله - أصبحت
ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

وفي معرض الدعاء إلى الله بالخير نجد النابغة الذبياني يقول:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا
لهو النساء وأن الدين قد عزما

ونجده يقول في أبيات أخرى:

لا يبعد الله جيرانا تركتم
مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم

ونجد عنترة العبسي يقول:

لا أبعد الله عن عيني غطارفة(١)
إنسًا إذا نزلوا جنا إذا ركبوا

فكرة الألوهية الشاملة للتوحيد

يواصل الكاتب: وإذا تجاوزنا هذه المعاني الجزئية من وجود لفظ الجلالة «الله» في الشعر الجاهلي، إلى المعنى الكلي من وجود الله نفسه، وفكرة الألوهية الشاملة للتوحيد، وجدنا شعراء جاهليين فاضت أشعارهم -التي رويت لنا عنهم- بفكرة الله صاحب الكمالات والآيات البينات، ويتمثل هذا كثيرا في شعر -أمية بن أبي الصلت- الذي فكر كثيرًا، وقرأ في كتب الأوائل كثيرًا، فتعبد وتحنف وذكر إبراهيم، ونبذ الأوثان والتمس الدين، وهو صاحب البيت المشهور:

كل دين يوم القيامة عند الله
إلا دين الحنيفة - زور

ومن شعره الإلهي قوله:

إله العالمين وكل أرض
ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا
بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور
من الشمس المضيئة والهلال

ولأمية بن الصلت قصيدة دالية طويلة تفيض بمصطلحات إسلامية لا نجد مثلها حتى عند «حسان بن ثابت - شاعر الدعوة الإسلامية، والمدافع عن الرسول عليه الصلاة والسلام».

يقول أمية:

فسبحان من لا يعرف الخلق قدره
ومن هو فوق العرش فرد موحد
ومن لم تنازعه الخلائق ملكه
وإن لم تُفرِّده العباد فمفرد

وروى مؤرخ السيرة النبوية: ابن هشام للشاعر أمية بن أبي الصلت شعرًا في توحيد «الله» يقول فيه من قصيدة يائية:

إلى الله أهدى مدحتي وثنائيا
وقولا رصينا لايني الدهر باقيا
وإني لو سبحت باسمك ربنا
لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيبا ورحمة
علي وبارك في بني وماليا

إظهار آيات الله

لقد لجأ الشاعر الجاهلي في شعره الإلهي إلى إظهار آيات الله وعجائب خلقه وبديع صنعه في الكون، ولم يأل أن يدير النظر في مجال الكون، كأنه يستجيب -قبل نزول القرآن الكريم- إلى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾

(النحل: ٤٨)

وقد أطال الشاعر أمية بن أبي الصلت الدوران في هذا المدار، فنرى له قصيدة رائية إلهية يقول فيها:

سبحانك اللهم إنك أكبر
من أن يحيط بكنهك المتفكر

(١) غطارفة: جمع غطريف: وهو السيد الكريم السخي.

حار اللبيب وزاغ عنك المبصر
ورمى فأخطأ سهمه المتدبر
أقصى مدى للعقل فيك تحير

على أن الزمان الذى أبقى لنا من شعر «ابن نفيل» الإلهي، وأبقى لنا كذلك بعض القليل من شعر «ورقة بن نوفل» وقد كان حنيفا كصاحبه وما أصدقه وهو يقول:

لا تعبدن إلها غير خالقكم
فإن دعوكم فقولوا: بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحانا نعوذ به
وقبل قد سبح الجودى والجمد
سخر كل ما تحت السماء له
لا ينبغي أن يناوى ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته
يبقى الإله، ويودى المال والولد

ومن الطريف كما يشير كاتب المقال -أن هؤلاء الشعراء الأحناف في الجاهلية، كانوا يتلاقون في العيان، كما يتلاقون في الفكر الإلهي المشرق، ويظهر أنهم كانوا يتباحثون ويتبادلون الرأي، ويهنيء بعضهم بعضا بما أدركه -على هدى الفطرة- من الوصول إلى الله، فقد روى لنا الرواة أن «ورقة بن نوفل» حين التقى مع «ابن نفيل» تباحثا وتناشدا الأشعار التوحيدية، فقال يهنيء صاحبه:

رشدت، وأنعمت ابن عمرو وإنما
تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله
وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

وإذا كان الشعراء الأحناف -أو الحنفاء- في الجاهلية، قد جاشت خواطرهم بالشعر الإلهي المقصود لذاته، والذى كان نتيجة لميولهم واتجاهاتهم الفكرية الغالبة، ودراساتهم وقراءاتهم، فإن ديوان الشعر الجاهلي كله لا يخلو من خطرات إلهية لشاعر هنا وشاعر هناك، وهذه الخطرات تأتي في معارض القول العامة كأنها توكيد لمعاني الألوهية في النفس العربية منذ القديم.

وذكر الكاتب بعض نماذج من بينها ما قاله زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليخفي، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وهذا الشاعر عبيد بن الأبرص يقول:

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير
والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك
علام ما أخفت القلوب

هذه رحلة روحية مع الشعر الإلهي في الجاهلية... فماذا كان موقف الشعراء بعد أن جاء محمد ﷺ يصدع بأمر ربه وينشر الإسلام ويرسي قواعد الإيمان، ولنا بإذن الله عودة إلى هذه الرحلة.

أخوك أم صديقك



فضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

الصدق فضيلة من أجل الفضائل.

وصف الله تعالى بها أنبياءه ورسله ونراه تعالى يقول في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

(مريم: ٤١).

وقال عن ابنه إسماعيل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

(مريم: ٥٤ - ٥٥).

وقال في إدريس عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

(مريم: ٥٦).

ثم قال:

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾

(النساء: ٦٩).

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾

(الحديد: ١٩).

ولقد اصطفى الله تعالى أنبياءه ورسله وجمعهم في إطار الصدق والأمانة والتبليغ وكان سيدنا محمد رسول الله ﷺ قبل أن يرسله ربه:

﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾

(الأحزاب: ٤٥ - ٤٦).

كان معروفا بين قومه بأنه الصادق الأمين.

ومن الحق بمكان أن الإخوة في الله عز وجل من أجل الصفات وأشرف السجايا والله تعالى يقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الحجرات: ١٠).

ولقد كان عبدالله بن أبي قحافة أبو بكر رضي الله تعالى عنه أول الناس إسلاما

وأعظمهم إيمانا، وكان ﷺ يغضب ممن يمسه بمكروه ويقول: هل أنتم تاركو لي صاحبي.

كان رضوان الله عليه يلقب بالصديق، وحسبنا أن نذكر أنه يوم قال له أبوجهل عقب آيتي الإسراء والمعراج أعلمت ما قال صاحبك: إنه يزعم أنه جاء بيت المقدس وعاد منه في ليلة، فقال رضوان الله عليه في قوة المؤمن: «إن كان قد قال لقد صدق» وما بعجيب أن يقول ذلك فهو الذى عرف رسول الله ﷺ من كثرة ما كان يصاحبه في رحلتي الشتاء والصيف، وكان يعرف حقيقة أن قريشا اختصمت في أمر من يضع الحجر الأسود في مكانه الذى هو فيه بعد أن أصاب الكعبة من عطب وفساد وكانت كل قبيلة تريد أن يكون لها شرف ذلك العمل!! وأخيرا تم رأيهم على أن يحكموا أول داخل عليهم، وكان أول الداخلين محمد بن عبدالله قبل أن يصطفي، فقالوا هذا هو الصادق قد رضيناه حكما ونزلوا على رأيه الذى سلمت به أرواح وحقنت به دماء!

ولقد كان قابيل وهابيل أخوين من أبي البشر آدم وحواء عليهما السلام ولم يكن في الوجود إلا هذه الأسرة التى كانت حواء فيها أم البشرية تلد في البطن الواحدة ذكرا وأنثى وكان حكم الله عز وجل يومئذ ضرورة حياة أن يتزوج الذكر في البطن الأولى من الأنثى في البطن الثانية، وتتزوج الأنثى في البطن الأولى من الولد في البطن الثانية، وخالف قابيل عن أمر ربه وأراد أن يتزوج البنت التى معه لأنها كانت أحظى في عينه من أختها في البطن الأخرى ولكن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يقرب كل منهما قربانا فأيهما قبل الله عز وجل قربانه كان أحق بحكم الله عز وجل، وقبل الله قربان هابيل دون أخيه قابيل فحقد قابيل على هابيل وقال له لأقتلنك، والقصة يجلوها قول الله تعالى:

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٢٨ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝٣١﴾

(المائدة: ٢٧-٣١).

وياضلة الإنسان يحقد ويحسد ولا يستبين الحقيقة إلا بعد فوات الأوان.

طرائف..ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

ويحك لقد سقيتني ناراً!!

لما ولى عمر - رضى الله عنه - الخلافة استشار، فقال له علي - رضى الله عنه: لك غداء وعشاء. فوافق عمر.

ولما سئل عن حقه في بيت المال قال: ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف، ففرضوا له: حلة في الشتاء وحلة في الصيف، وراحلة للحج والعمرة، ودابة يقضي بها حوائجه، ويستخدمها في جهاده.

ولما علم يومًا أن عامله سقاه لبن ناقة من مال المسلمين الذي هو مال الله - تعالى - انزعج، وقال له: ويحك! لقد سقيتني ناراً!!.

سيدنا عمر والشورى

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

يا رافعا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرًا عن محبيها
وما استبد برأي في حكومته
إن الحكومة تغري مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

هكذا كانوا

أوذى أبو حنيفة بسبب رفضه منصب القضاء، أوذى من الأمويين، ومن العباسيين على سواء، ولما قال للمنصور العباسي: أنا لا أصلح للقضاء قال له المنصور: كذبت!!

فقال له الإمام: إن كنت كذابًا، فالكذاب لا يصلح للقضاء، وإن كنت صادقًا؛ فأنا صادق حين أقول: لا أصلح للقضاء، فلم ينطق الخليفة بكلمة واحدة.

أُمرنا أن نفعل بعلمائنا

قال الشعبي: ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبدالله بن عباس ليأخذ بركابه..

فقال له زيد: ما تفعل يا ابن عم رسول الله؟

فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا.

فقال له زيد: أرني يدك..

فقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ.

التفويض لله

قال الإمام الشافعي - رضى الله عنه:

إذا أصبحت عندي قوت يومي
فخل الهم عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غد ببالي
فإن غدا له رزق جديد
أسلم إن أراد الله أمرا
فأترك ما أريد لما يريد

يحزن على الإنسان

قال الإمام علي - رضى الله عنه:

إذا مات الإنسان حزن عليه مكانان: مكان في الأرض ومكان في السماء، أما مكان الأرض فهو مصلاه وأما مكان السماء، فهو مكان صعود أعماله الطيبة.

سؤال محرج..وجواب مقنع

يروى أن قيصر الروم كتب إلى معاوية ابن أبي سفيان رسالة مع سفير يقول فيها: أخبرني عما لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في الرحم وعن شيء ونصف شيء وعن لا شيئ، وابعث لي في هذه القارورة ببذر كل شيئ.

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس فرد قائلاً:

- أما ما لا قبلة له فالكعبة.
- وأما من لا أب له فعيسى عليه السلام.
- وأما من لا عشيرة له فآدم.
- وأما من سار به قبره فيونس (عندما ابتلعه الحوت).
- وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في الرحم فكبش إبراهيم وناقة صالح وحية موسى.
- وأما شيء: فالرجل له عقل يعمل به.
- ونصف شيء: الرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول.
- ولا شيء: الرجل ليس له عقل ولا يستعين بعقل غيره.
- ثم ملأ ابن عباس القارورة ماء، وقال: هذا بذر كل شيئ.
- فأعجب ذلك القيصر إعجابًا شديدًا.

حقيقة

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي

يبقى الثناء وتذهب الأموال
ولكل دهر دولة ورجال
لا ترض من رجل حلاوة قوله
حتى يصدق ما يقول فعال

دعاء

اللهم لا تجعلنا موضع شفقة عبادك، بل اجعلنا موضع شفقتك أنت يارب.

ولا تجعلنا محط الإحسان من خلقك، بل موضع الإحسان منك أنت يارب.

واجعلنا دائمًا وأبدًا بك ومعك وإليك، فلا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك يارب.

ربيع الآخر ١٤٣٤ هـ
فبراير/مارس ٢٠١٣ م

من عيون التراث

فتوح الغيب

تأليف/ الجيلانى محيى الدين عبدالقادر
طبع على هامش كتاب: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، للشطنوفى

التعريف بالمؤلف:

المؤلف هو «الجيلانى»، محيى الدين عبدالقادر بن موسى جنكي دوست، ابن الحسن بن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ولد سنة (٤٧٠) هجرية، بجيلان، وهي بلاد وراء طبرستان، ودخل بغداد سنة (٤٨٨) هجرية، وعمره آنذاك ثمانية عشرة سنة، وتوفى سنة (٥٦١) هجرية، وعمره (٩١) سنة.

طبع كتاب «فتوح الغيب» لمحيى الدين عبدالقادر الجيلاني، بطول الهامش الجانبى لصفحات كتاب الشطنوفى «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار» الذى سبق عرضه، وعدد صفحاته (٢٣٨) صفحة وهو منشور بالقاهرة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى سنة (١٣٣٠ هـ).

عرض الكتاب:

يعرض الشيخ «عبدالرازق» بن محيى الدين عبدالقا در الجيلانى مؤلف الكتاب – أربعة وسبعين مبدءًا، فهمها من كتاب فتوح الغيب، ويذكرها هنا لمريدى الحق من الطلاب، وهذه المبادئ تعد أساسًا لإصلاح النفس وتعديل السلوك، والتقرب إلى الله تعالى واكتساب الخصال الحميدة، ومن هذه المبادئ ما يلى:

١ – لا بد لكل مؤمن من ثلاثة أشياء: أمر يمتثل به، ونهى يجتنبه، وقدر يرضى به.

٢ – يقول الشيخ اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا، واصبروا ولا تجزعوا، واسألوا ولا تسأموا.

٣ – مواجهة الابتلاء: إذا ابتلى العبد ببلية تحرك أولا فى نفسه بنفسه، فإن لم يتخلص منها استعان بالخلق، فإن لم يجد فى ذلك خلاصًا، رجع إلى ربه بالدعاء والتضرع.

٤ – الموت عن الخلق وعن الهوى: إذا مت عن الخلق قيل: رحمك الله وأماتك عن الهوى، وإذا مت عن هواك قيل: رحمك الله وأماتك عن إرادتك، وإذا مت عن الإرادة قيل لك: رحمك الله وأحياك حياة لا موت بعدها، وتغنى غنى لا فقر بعده، وتعطى عطاء لا منع بعده.

٥ – فى الزهد فى الدنيا: إذا رأيت الدنيا فى يدى أربابها بزينتها وخدعها، فكن كمن رأى منظرًا قبيحًا رائحته كريهة، فإنك تغض

بصرك عن منظره وتسد أنفك عن رائحته، وهكذا كن فى الدنيا إذا رأيتها، سد أنفك عما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها فتنجو منها.

٦ – الفناء عن الخلق والهوى والإرادة: يقول افن عن الخلق بإذن الله، وعن هواك بأمر الله، وعن إرادتك بفعل الله، فيكون فناؤك عن الخلق باستغنائك عنهم، واليأس مما فى أيديهم.

٧ – إذهاب غم القلب: يوصى بالاستغفار والتوبة فى سائر الأحوال؛ لأن فيها اعترافه بذنبه. كما أنهما يؤديان إلى السكون ثم الهداية والأنوار الروحية Spirituality.

٨ – الرضا بالحال يؤدى إلى راحة البال Well-Being. وترك الالتفات إلى ما سواها، لأن قسم غيرك لا يصل إليك أبدا، وقسمك قد وصل إليك.

٩ – الكشف والمشاهدة: يكشف للأولياء من أفعال الله ما يبهر العقول، وهى قسمان جلال وجمال؛ فالجلال والعظمة يورثان الخوف والوجل، أما الجمال فهو تجلى القلوب بالأنوار.

١٠ – التحكم فى الأهواء: النفس «الشهوة» ضد الله وعدوه، والأشياء كلها تابعة لله، والنفس خلق، ولها تمنى وشهوة ولذة، فإذا وافقت الحق فى مخالفة النفس كنت لله خصيمًا على نفسك.

١١ – مواجهة الشهوة: إذا لقيت شهوة النكاح على الفرد، فى حالة الفقر وعجز عن مؤنته فصبر منتظرًا الفرج من البارى عز وجل، إما بزوالها أو إقلاعها بقدرته التى ألقاها وأوجدها فيعينه ويصونه، أو بإيصالها إلى الفرد، سماه الله صابرا راضيا بقسمته فيزيده عصمة وقوة.

١٢ – النهى عن الانشغال بالمال عن طاعة الله: إذا أعطاك الله مالا فاشتغلت به عن طاعته، حجبك به عن دنيا وأخرى، وربما سلبك إياه وأفقرك لاشتغالك بالنعمة عن المنعم، وإن اشتغلت بطاعته عن المال جعل لك موهبة ولم ينقص منه، وكان المال خادمك وأنت خادم المولى، فلتعش فى الدنيا مدللا وفى العقبى مكرمًا.

١٣ – الرضا بالنعمة والبلوى: لا يختار الفرد جلب النعماء ولا دفع البلوى، فالنعماء واصلة إليك إن كانت قسمك واستجلبتها أو كرهتها، والبلوى حالة بك إن كانت قسمك مقضية عليك سواء كرهتها أو رفعتها بالدعاء، أو صبرت لرضى المولى، بل سلِّم فى الكل، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر، وإن كانت البلوى فاشتغل بالصبر.

١٤ – اتباع أحوال المتقين: يوصى فيقول: «لا تدع حالة القوم يا صاحب الهوى، أنت تعبد الهوى وهم عبيد المولى، أنت رغبتك الدنيا ورغبتهم العقبى، أنت أنسك بالخلق وأنسهم بالحق».

١٥ – التوجه إلى الله وحده: لا تسألوا الناس شيئا بألسنتكم ولا بقلوبكم، توجهوا إلى الله وحده واعلموا أن الله كل يوم هو فى شأن، يرفع قومًا ويخفض آخرين، فخوف الذين رفعهم إلى عليين أن يحطهم إلى أسفل

سافلين، ورجاؤهم أن يبقيهم ويحفظهم على ما هم عليه من الرفع وخوف الذين حطهم إلى أسفل أن يبقيهم ويخلدهم على ما هم عليه من الحط، ورجاؤهم أن يرفعهم إلى عليين.

١٦- الاتكال على غير الله شرك: ما حجب الفرد عن فضل الله إلا لاتكاله على الخلق والأسباب أو الصنائع، فما دمت قائمًا مع الخلق مترددًا إلى أبوابهم فأنت مشرك بالله، فيعاقبك بالحرمان.

١٧- لا تشكو إلى أحد ما نزل بك، ولا تتهمن الرب - عز وجل - فيما فعل فيك أو أنزل بك من البلاء، بل أظهر الخير والشكر، فكذبك بإظهارك الشكر من غير نعمة عندك خير من صدقك فى إخبارك جلية الحال بالشكوى من الذى خلا من نعمة الله.

١٨- الأمر بوفاء الوعد: إذا وعدت بوعد فوف بوعدك، ولا تخلف كى لا يزول إيمانك.

١٩- فى قول الرسول ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»: خذ بالعزيمة التى لا يشوبها ريب ولا شك، أى اتباع الفطرة والبعد عما يخالفها، ودع ما فى أيدى الخلق، ولا ترجو الخلق ولا تخافهم، وخذ من فضل الله.

٢٠- الابتلاء على قدر الإيمان: يقول الرسول ﷺ: «إنا معشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل»؛ فالله يبتلى المؤمن على قدر إيمانه، فالرسول بلاؤه أعظم من الأولياء وهكذا فيديم الله البلاء لهم حتى لا يغفلوا عن اليقظة؛ لأنه يحبهم.

٢١- فى الرضا بما قسم الله تعالى: ارض بالدون والزمه حتى يبلغ الكتاب أجله، فتنتقل إلى الأعلى، واعلم أن القسم لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقسم لا تناله بحرصك فى الطلب.

٢٢- فى الحث على ملازمة بذل الجهد فى الطاعة: احذر معصية الله، والزم بابه، وابذل جهدك فى طاعته، معتذرًا متضرعًا، واقطع بأنك عبده، والعبد وما ملك لمولاه، وأحسن الأدب.

٢٣- ما يؤدى إلى ثبات شجرة الإيمان: اجعل شجرة إيمانك وغرسها وبذرها ثابتة مثمرة، وهذا يأتى بأداء الأوامر، والصبر على ترك المناهى، والتسليم إليه فى المقدور، أما من لا يفعل ذلك فتكون شجرة إيمانه جافة.

٢٤- يقول لا تكشف البرقع عن وجهك حتى تخرج من الخلق وتوليهم ظهر قلبك - إشارة إلى الحياء - ويزول هواك ثم تزول إرادتك.

٢٥- إذا أردت السرور وراحة البال well- being فاخرج من الكبر، واصبر على مجارى الأقدار فيك، وارض بالقضاء فى جميع الأحوال، عندئذ تنعم بالمعرفة والعلوم، وتكون فى الآخرة - دار السلام - مع الأنبياء الأبرار.

٢٦- النهى عن قول الرجل أى شىء أعمل، وما الحيلة: أكثر ما يقول العبد ما الحيلة، فيقال له: قف مكانك حتى يأتيك الفرج، فالله أمرك بالصبر Patience، والمصابرة Forbearing & Longsuffering، فالصبر من الإيمان كالرأس من الجسد. ومن المعروف أن قلة الحيلة والاستسلام من اليأس Despair والقنوط.

٢٧- فى البغض فى الله: إذا وجدت بقلبك بغض شخص أو حبه، فاعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت فيهما مبغوضة فأبشر بموافقتك الله عز وجل ورسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه، فاعلم بأنك صاحب هوى، ظالمًا له ببغضك إياه، وعاص لله ولرسوله، فتب إلى الله من بغضك، واسأله محبة هذا الشخص.

٢٨- مراتب الرجال: رجل لا لسان له ولا قلب وهو العاصى لا خير فيه، ورجل له لسان بلا قلب فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، ورجل قلب بلا لسان وهو مؤمن ستره الله من خلقه وتيقن أن السلامة فى الصمت، ورجل يدعى فى الملكوت بالعظيم وهو من تعلم وعلم وعمل.

٢٩- النهى عن السخط على الله تعالى: ما أعظم السخط على الله واعتراضك عليه واستبطاءك للرزق وكشف الكروب؛ لأن لكل أجل كتابا.

٣٠- فى الورع: عليك بالورع وإلا فالهلاك ملازم لك، ويقول الرسول ﷺ إن ملاك الدين الورع، وهلاكه الطمع، ويقول «أبو بكر الصديق»: كنا نترك سبعين بابًا من المباح مخافة أن نقع فى الجُناح.

٣١- بيان الدنيا والآخرة وما ينبغى أن يعمل فيهما: اجعل آخرتك رأس مالك، ودنياك ربحه، واصرف زمانك فى تحصيل آخرتك، وإن فضل من زمانك شىء اصرفه فى دنياك ومعاشك.

٣٢- ذم الحسد والأمر بتركه: إن الحسد يضعف الإيمان، ويسقط الفرد من عين مولاه ويبغضه إليه، كما أن الفرد لابد ألا يحسد أخاه؛ لأن من لديه الكثير من النعم سيحاسب طويلا على النعم التى أعطاها الله له فى الدنيا.

٣٣- فى الصدق: لا تدعوا ما ليس لكم.

٣٤- متى يصح للسالك أن يكون فى زمرة الروحانيين: تدخل فى زمرة الروحانيين عندما تعادى جوارحك، وتنفرد عن حركاتك وسمعك وبصرك وكلامك وعملك وجميع أجزائك؛ لأن فيها حجاب عن الله.

٣٥- الفناء وكيفيته: عندما يفتح الله على العبد أبواب البلايا وأنواع المحن «فى النفس والمال والأهل والولد والقلب» يصبح متحسرًا كسيرًا، يسأل الله لم ير إجابة طلبه، وإن رجع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلا، عندئذ تأخذ النفس فى الذوبان، والهوى فى الزوال، والإرادة فى الرحيل، حتى إذا فنى العبد من الأخلاق الإنسانية والصفات البشرية يبقى روحًا فقط يسمع نداء داخله، ويمطر الله عليه بحار رحمته ولطفه.

٣٦- فى بيان حالتى العافية والبلاء: النفس لها حالتان، عافية وبلاء، فإذا كانت

في بلاء يظهر الجزع والشكوى والسخط والاعتراض، وإذا كانت في عافية يظهر الشره والبطر واتباع الشهوات ولا يقنع بما في يده من النعم ويبقى في تعب طويل، إلا من رحم الله بالصبر في العسر والشكر في اليسر.

٣٧- ذم السؤال من غير الله: لا يسأل الناس إلا الجاهل بالله وضعيف الإيمان وقليل الصبر.

٣٨- سبب عدم استجابة دعاء العارف بالله: لمقام العارف بالله خوف ورجاء، وهما كجناحي الطائر لا يتم الإيمان إلا بهما فإن غلب عليه أحدهما يهلك.

٣٩- النعمة والابتلاء: الناس رجلان، منعم عليه ومبتلى، فإذا أصاب المنعم عليه بقدر يكدره من أنواع البلايا ليتعظ فكأنه لم ينعم عليه قط وينسى ذلك النعيم.

٤٠- في الحديث القدسي: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»: يمتحن الله المؤمن بأنواع المحن، ويضطره إلى مسألة الخلق، ثم السؤال له عز وجل، ثم ينتقل من السؤال باللسان إلى السؤال بالقلب.

٤١- مراتب التقرب إلى الله: ابتداء التقرب هو الورع، وانتهاؤه الرضى والتسليم إشارة إلى راحة البال well- being.

٤٢- فيما ينبغي للمؤمن أن يشتغل به: ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولا بالفرائض، ثم السنن، ثم النوافل، والفضائل.

٤٣- ذم النوم: النوم أخو الموت، فهو نقص في الحالة، والخير كل الخير في اليقظة.

٤٤- دفع البعد عن الله وكيفية التقرب منه: لا يخلو أمر الفرد من قسمين، إما أن يكون قريبًا من الله أو غائبًا عنه، فإن كنت غائبًا عنه فقم وأسرع في الطيران إليه بجناحين أحدهما ترك اللذات، والثاني احتمال الأذى والمكاره.

٤٥- في الزهد: غض البصر عن الدنيا وزينتها وشهواتها تنجو منها.

٤٦- سبب ابتلاء طائفة من المؤمنين: يبتلى الله المؤمنين الأحباب ليردهم بالبلاء إلى السؤال، فإذا سألوا قد تحصل الإجابة وقد لا تحصل، فيتأدب العبد عند نزول البلاء، ويفتش عن ذنوبه في ترك الأوامر وارتكاب النواهي.

٤٧- الأمر بطلب الرضا عن الله والفناء به: الرضا أو الفناء هو الراحة الكبرى والجنة العالية، والانشغال بالأقسام إن كانت لم تقسم للعبد حمق وجهالة وإن كانت قسمت فالانشغال بها شره وحرص شرك.

٤٨- الزهد في الدنيا والآخرة: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة.

٤٩- في ترك الحظوظ: توجد أربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام، الأولى بالطبع وهو حرام، والثانية بالشرع وهو المباح والحلال، والثالثة بالأمر وهي حالة الولاية وترك الهوى والرابعة الفضل وهي زوال الإرادة.

٥٠- فناء العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني: إذا فني العبد عن الخلق والهوى وصل إلى الحق واصطفاه واجتباه وأحبه.

٥١- عدم المنازعة في القدر والأمر بحفظ الرضا به: على المرء ألا ينازع في القدر، ويوافق جميع ما يجري عليه مما يحلو أو يمر.

٥٢- صرف النظر عن كل الجهات وطلب جهة فضل الله: ما دمت تنظر إلى واحدة من الجهات لا يفتح لك جهة فضل الله، فسد الجهات جميعًا بإمحاء نفسك وفنائك.

٥٣- الرضا على البلية والشكر على النعمة: إن كانت حالتك بلية فتصبر، ثم ارض، ثم وافق، ثم افن في الله، وإن كانت نعمة فاشكر باللسان والقلب والجوارح.

٥٤- التوقف عند كل شيء حتى يتبين لك إباحة فعله: المؤمن يقف عند كل قسم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وسائر الأشياء، فلا يأخذ حتى يحكم له بجواز الأخذ.

٥٥- المحبة والمحبوب وما يجب في حقهما: أحب من يحبك واستجب لمن يدعوك.

٥٦- الموت الذي لا حياة فيه والحياة التي لا موت فيها: الموت الذي لا حياة فيه هو الموت عن الخلق وعن النفس والهوى والإرادة في الدنيا والآخرة، والحياة التي لا موت فيها هي الحياة بفعل الله بلا وجود.

٥٧- النهي عن التسخط على الله في تأخير إجابة الدعاء: عليك بالشكر والصبر ودوام الدعاء وصدق الالتجاء وحسن الظن بالله وانتظار الفرج منه.

٥٨- الأمر بالدعاء والنهي عن تركه: اسأل الله جميع ما تريد من خير الدنيا والآخرة ما لم يكن فيه محرم.

٥٩- جهاد النفس وتفصيل كيفيته: العبادة مخالفة النفس، فيقول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

(النازعات: ٤٠، ٤١)

٦٠- قوله تعالى: «كل يوم هو في شأن»: يسوق الله المقادير إلى المواقيت.

٦١- الأمر بطلب المغفرة والعصمة والتوفيق والرضا والصبر من الله تعالى: تطلب من الله المغفرة للذنوب السابقة والعصمة منها في الأيام اللاحقة، والتوفيق لحسن الطاعة، والرضا بمر القضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء.

٦٢- الشكر والاعتراف بالنعم: إن كان بك من نعمة فهي بتوفيق من الله، وإن كان ترك معصية فهي بعصمة الله وحفظه، ويجب الشكر والاعتراف بهذه النعم.

٦٣- المريد والمراد: إذا كنت مريدًا فأنت حمال لكل شديد وثقيل، لأنك طالب والطالب مشقوق عليه حتى يصل إلى مطلوبه، وإذا كنت مرادًا فلا تتهم الله بإنزال البلاء بك؛ لأنه قد يبتليك ليرفع منزلتك إلى منازل الأولياء.

٦٤- من إذا دخل الأسواق ومال إلى ما فيها ومن إذا دخلها وصبر: من دخل السوق وتعلق قلبه بفتن اللذات والشهوات كان ذلك سبب هلاكه وتركه دينه، ومن تصبر وتركها فهو كالمجاهد ينصره الله على نفسه وهواه، ويكتب له الثواب الجزيل فى الآخرة.

٦٥- من يطلعه الله على عيوب غيرهم: قد يطلع الله وليه على عيوب غيره وكذبه وشركه، فيغار لربه ولرسوله ودينه ويشتد غضبه، فيجرى على لسان الولى ذكر عيوبه وأفعاله الخبيثة.

٦٦- ما ينبغى العاقل أن يستدل به على وحدانية الله: لابد أولا أن ينظر العاقل فى صفة نفسه وتركيبه، ثم فى جميع المخلوقات فيستدل بها على خالقها ومبدعها.

٦٧- فى التصوف وعلى أى شىء مبناه: التصوف مبنى على ثمان خصال هى: السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة، والغربة، والصوف، والسياحة، والفقر.

٦٨- فى الوصية: عليك بالإخلاص لله، والتواضع وذكر الله، وإياك وفضول تصرفات الجوارح، وعليك بطاعة الله ورسوله، وحسن الظن فى المسلمين، وأكل الحلال.

٦٩- فى الوقوف مع الله والفناء عن الخلق: كن مع الله كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس.

٧٠- خصال أهل المجاهدة والمحاسبة وأولى العزم: لأهل المجاهدة وأولى العزم خصال:

- الأولى: ألا يحلف بالله صادقًا ولا كاذبًا عمدًا ولا ساهيًا.
- الثانية: اجتناب الكذب لا هازلا ولا جادًا.
- الثالثة: يحذر أن يعد أحدًا شيئًا فيخلفه.
- الرابعة: يجتنب أن يلعن شيئًا من الخلق.
- الخامسة: يجتنب من الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه، وتلك إشارة إلى الاتسام بالصفح Forgiving.
- السادسة: ألا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق.
- السابعة: يتجنب النظر إلى المعاصى ويكف عنها جوارحه.
- الثامنة: يتجنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة - أى تعبًا - صغيرة أو كبيرة.
- التاسعة: يقطع طمعه من الآدميين، ولا يطمع فيما فى أيديهم.
- العاشرة: التواضع.

الخلاصة

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الأنوار الروحانية Spirituality.
- راحة البال well- being.
- الصبر Patience.
- المصابرة Forbearing, longsuffering.
- اليأس Despair.
- الصفح Forgiving.

القائم بالعرض

د. صفاء إسماعيل مرسى

الملتقى العلمى الدولى الأول لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

متابعة: أ/ عبدالله كمال - أ/ سعد فتحى

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر نظمت الرابطة العالمية لخريجي الأزهر «الملتقى العلمى الدولى الأول لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.. تجارب ورؤى مستقبلية» وذلك فى الفترة من ٢ - ٤ ربيع الأول ١٤٣٤هـ الموافق ١٤ - ١٦ يناير ٢٠١٣م.

فى افتتاح المؤتمر تحدث الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر مرحبًا بالحضور ومبينًا لدور الأزهر البناء فى خدمة الدين واللغة العربية حيث قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله صحبه وسلم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد،،

فإن الأزهر الشريف رغم أنه بدأ جامعًا ومسجدًا إلا أن الله - تعالى - أراده - منذ أعوامه الثلاثة الأولى - أن يكون معهدًا للعلم والبحث والدرس إلى جوار كونه مسجدًا جامعًا للصلاة، وبحيث شكل العلم والعبادة معًا وجهى عملة واحدة فى هذا المعهد العريق قبل أكثر من ألف عام وحتى يومنا هذا، وقد سجل التاريخ أن الجامع الأزهر صليت فيه أول جمعة بعد تمام بنائه فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ الموافق ٢٣ يوليو سنة ٩٧٢م، وأقيمت أول حلقة دراسية فى صحن هذا المسجد فى شهر صفر سنة ٣٦٥هـ الموافق أكتوبر ٩٧٥م ومنذ هذا التاريخ يتعانق العلم والعبادة فى هذا المعهد العريق حتى يومنا هذا. ثم رتبت للعلماء والطلاب رواتب مجزية وأنشىء لهم سكن بجوار الأزهر الشريف بحيث أصبح الأزهر يمثل حدثا حقيقيًا فى هذا الزمن البعيد الذى مضى عليه ما يزيد على ألف عام.

واهم ما تميز به الأزهر قديمًا وحديثًا امران:

الأمر الأول: أنه المعهد الذى يمثل الوجه الحقيقى للإسلام ويعبر عن حقيقة التراث الإسلامى فى بعديه العقلى والنقلى، ويمثل الوسطية والاعتدال فى فهم الكتاب والسنة وما نشأ حولهما من إبداعات جميلة. ثم هو يرسخ فى أذهان طلابه مبدأ الحوار ومشروعية الاختلاف بين

الأمة والعلماء والفقهاء، ومن هنا كان من أصعب الصعب أن يقع طلاب الأزهر وعلماؤه أسرى للاستقطابات المذهبية أو العقدية أو الالتواء الفكري أو التشدد المذهبي.

الأمر الثاني: أنه يتفرد بنشر العلم والثقافة الإسلامية حسبة لوجه الله تعالى، وخدمة للإسلام والمسلمين، ونشرًا للثقافة الإسلامية الصحيحة في ربوع الدنيا كلها، كان ذلك في الزمن الماضي- حيث رتبت أرزاق شهرية ويومية من قبل القائمين على الأزهر في مصر لطلابه وعلمائه حتى الآن، ويمكن أن تتصوروا حجم الخدمات المجانية التي يقدمها الأزهر الآن لآلاف الطلاب والطالبات الوافدين.

في جامع الأزهر يدرس بالتحديد ١٧٨٨٤ وافدا ووافدة معظمهم يدرسون في الكليات الإسلامية مجانا سواء في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا، يستضيف الأزهر منهم في مدن البعوث الإسلامية ما يقرب من ٣٥٠٠ طالب وطالبة، إضافة إلى مئات المنح للذين يسكنون خارج مدينة البعوث.

ومجانية التعليم في الأزهر ليست قاصرة على فقراء طلاب الوافدين وإنما تشمل الطلاب الوافدين من دول غنية مثل طلاب دولة الكويت - السعودية - الإمارات - قطر - أمريكا - فرنسا.. فكل الطلاب الوافدين يدرسون مجانا أغنياء أو فقراء.

لكم أن تتصوروا حجم وفود الطلاب غير العرب، فإذا أضفنا العدد «١٧٨٨٤ في المرحلة الجامعية» وما يزيد على ٣١٠٠٠ طالب وطالبة من الوافدين في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي - الإعدادي/ الثانوي - فيعني هذا أن الأزهر يدرس فيه ما يقرب من ٥٠٠٠٠ طالب وطالبة، ٩٩٪ منهم لابد لهم من تعلم اللغة العربية، وقد لاحظت عندما كنت مدرسا وأستاذا في كلية أصول الدين أن عدد الطلاب من الوافدين يبلغ الثلثين من مجموع الطلاب، وكنت ألمس القصور الرهيب في قدرة الطلاب من الوافدين في مستوى اللغة العربية -وكنت أحمل هذا الهم دائمًا- وفي رمضان سنة ١٤٢٤هـ عندما كنت رئيسا لجامعة الأزهر ذهبت إلى دبي في احتفال مهيب لتسلم الجائزة الممنوحة لجامعة الأزهر من لجنة «جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم» وكان قد تفضل سمو الشيخ دياب بن زايد وقال لي: إن الأزهر وإن كان جغرافيا يقع في مصر فإنه يقع في قلوب المسلمين جميعًا في أنحاء الأرض، وقال لي: نحن على استعداد أن نقدم للأزهر أي مشروع يحتاجه فقلت له على الفور تحتاج معهدا يدرس اللغة العربية للطلاب الوافدين قبل دخولهم كليات الجامعة، وقلت له إن الأرض موجودة وداخل الجامعة.

وقد تفضل سموه باعتماد هذا المشروع، وجاءت لجنة موفدة من مؤسسة المغفور له - الشيخ زايد لتعاين الأرض ويبدأ مشروع الشيخ زايد للغة العربية لغير الناطقين بها.

وقد أردت من سرد هذه الإحصاءات أن تقدروا أيها الأخوة مدى جسامة المسئولية التي تلقى على عاتق الأزهر تجاه ٥٠٠٠٠ من أبناء وبنات المسلمين المغتربين وأدعوكم أن تفكروا معي في مدى إمكانية تكوين مجلس أمناء - ممن يرغبون - تكون مهمته هي كيف نستفيد من هذا الكنز الدولي العالمي الذي لو أحسن استخدامه وإعداده إعدادًا جيدا فإنه سيحول العالم كله لواحة من الأمن والأمان والسلام وكذلك أن تكون مهمة مركز اللغة العربية لغير الناطقين بها أبعد من ذلك وهي نشر اللغة العربية في بلدان العالم كله.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

● ثم تم عرض فيلم تسجيلي يجسد دور الأزهر عبر العصور المتتالية وسير العملية التعليمية في مركز اللغة العربية لغير الناطقين بها.

وتحدث فضيلة الأستاذ الدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر مبينًا في كلمته أنه تم إعداد خطة خمسية للاحتياجات العاجلة لنشر اللغة العربية، وسيتم إنشاء وقفية للإنفاق على نشر اللغة العربية عالميا في المستقبل، كي يتحقق ما نصبوا إليه من آمال؛ لأن لغة القرآن تستحق بذل كل نفيس لنشرها.

وأضاف: إنه في إطار أداء الأزهر لرسالته في نشر اللغة العربية ووحدة الأمة الإسلامية، وحفاظا على ثقافتها تم إنشاء مركز لتعليم اللغة العربية لتعليمها لغير الناطقين بها، وتخرج فيها خلال عامين ألفا طالب ينتمون إلى ثلاث وعشرين جنسية.

وأشاد رئيس جامعة الأزهر بدور مؤسسة الشيخ زايد الخيرية، والبنك الإسلامي للتنمية، وكل من ساهم في هذا المشروع العظيم.

هذا وقد شارك في هذا الملتقى العلمي لفيف من الأساتذة المتخصصين في مجال تعليم وتطوير اللغة العربية للناطقين بغيرها، وذلك على مدى أربع جلسات انعقدت في يومين متتاليين.

وكان من بين الأبحاث التي ناقشها المؤتمر، بحث بعنوان: «برنامج الإعداد التربوي لمعلمي اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى» للدكتور محمود كامل الناقة، ناقش فيه عددًا من النقاط المتعلقة بتدريب المعلم من ناحية طرق التواصل النفسي والاجتماعي والتكنولوجي والتربوي، وكان هدف البرنامج: تنمية المهارات المختلفة النظرية والعملية، حتى يتسنى لهم أداء رسالتهم على الوجه الأكمل.

وتحت عنوان: «متطلبات إعداد برامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.. رؤى وتجارب» جاء بحث الدكتور مصطفى رسلان، حيث قال: «يجب علينا كي نصل لبرنامج أمثل لتعليم اللغة العربية أن يكون متضمنًا لأهم دوافع الدارسين نحو اللغة العربية، وعمل دراسات تقابلية بين لغة الدارس واللغة الأم، وإعداد قائمة بالمفردات الدراسية الأساسية للدارسين».

في حين جاء بحث الدكتور محمد عبدالرءوف الشيخ عن «كيفية بناء اختبار للكفاءة اللغوية في اللغة العربية للناطقين بغيرها»، حيث تناول فيه خطوات بناء اختبارات الكفاءة اللغوية، كتخطيط الاختبار ومراجعة مادته، وعرضها على المحكمين، وتركيب الصورة النهائية للاختبار وعرضها في صورتها النهائية، ومن ثم تطبيقها وتحليل النتائج.

● وناقش الدكتور علي عبدالعظيم سلام في بحثه: «القياس التطبيقي - استراتيجية مقترحة لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها» حيث قدم منهجًا اعتمد على ثلاثة أسس:

- الأول: قراءة النموذج اللغوي وتحليله.
- الثاني: القياس على النموذج.
- الثالث: إنشاء نماذج لغوية مشابهة.

● وقدم الدكتور أحمد مختار الشريف بحثًا عنوانه: «التداخل بين الفصيح والعامي في ضوء حاجة المبتدئين في تعليم اللغة العربية من غير العرب»، حيث بين فيه فئات المتعلمين للمتعلمين من غير العرب مقتصرًا على المبتدئين منهم، والمشكلات التي تقابلهم عند تعلمهم للغة العربية، ثم عرض حلولا لتلك المشكلات، منها: البعد عن الغريب، واستخدام الشائع والفصيح من اللغة، وعدم التقيد بقواعد الإعراب في المراحل المتقدمة فقط.

● وتحدث الدكتور إبراهيم الهدهد عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة عن:

«الفجوة الرقمية ومفهومها والواقع اللغوي»، موضحًا أن المقصود بالفجوة الرقمية هو قلة عدد الصفحات المتحدثة بالعربية على المواقع الإلكترونية، وتحدث عن الجهود المبذولة لمحاولة «ردم» تلك الفجوة الرقمية وأهمية الثورة الرقمية في تعيم اللغة لغير الناطقين بها.

● وحمل بحث الدكتورة اعتماد عبدالصادق عنوان: «الصعوبات اللغوية وطرق علاجها في تعليم العربية لغير الناطقين بها»، حيث تحدثت عن: الأزهر ودوره في تعليم العربية لغير العرب، ومجالات وجهود التعليم، والصعوبات اللغوية

في تعليم العربية للناطقين بغيرها.

- وتناولت الدكتورة رحاب زناتي في بحثها: «تعليم الكتابة للناطقين بغير العربية.. بين النظرية والتطبيق، المشكلات الشائعة في الكتابة وبعض الحلول المقترحة لحلها.
- وتحدث الدكتور محمود أحمد عبده فرج عن: «تجربة الأزهر في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها والعلاقة العامة بين الغة العربية والثقافة الإسلامية»، حيث تناول التجارب الدراسية الخاصة، وإعداد المناهج اللازمة لذلك.
- كما تحدثت الدكتورة إيمان هريدى عن: «تجربة جامعة القاهرة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها» متناولة عدة محاور:

- أولها: إعداد معلم متخصص في تعليم اللغة العربية لغير أهلها.
- والثاني: تعليم اللغة في ضوء معايير الكفاءة اللغوية.

ومستويات اللغة وأهم التحديات وكيفية التغلب عليها.

وقد اختتم الملتقى العلمي الدولي الأول لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها أعماله يوم الأربعاء الموافق ١٦ من يناير، وعقد أعضاء الملتقى اجتماعًا أصدروا فيه أهم التوصيات وقام بإلقائها أ.د. محمد عبدالفضيل القوصي وزير الأوقاف السابق ونائب رئيس مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، جاءت هذه التوصيات على النحو التالي:

بعد لقاء علمي دام ثلاثة أيام متتالية لتناول مختلف الأفكار والرؤى والخواطر والتجارب في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، يمكن الخروج بعدة توجهات وتوصيات إجرائية، أهمها ما يلي:

أولاً: تأسيس المجلس العالمي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ويضم كل المعاهد والمراكز والمنظمات والمؤسسات والهيئات الأكاديمية العاملة في هذا الميدان والمنشغلة به، وقد يكون من مهامه:

(١) العمل على وضع خطة عربية إسلامية لتيسير تعليم اللغة العربية على المستوى العالمي؛ وذلك من خلال بناء منهج تعليمي عربي موحد لمقابلة تعدد اللغات والجنسيات والثقافات ودوافع التعلم.

(٢) تبني الدعوات والمداخل العلمية والتصورات الجديدة في تعليم العربية وتعلمها لغة أجنبية ولغة ثانية، وتحويلها إلى واقع تجريبي ثم تعميمي؛ أي تجديد وتجويد تعليم العربية للناطقين بغيرها.

(٣) إعادة النظر - على المستوى العربي - في إعداد معلم العربية للناطقين بغيرها تخصصًا ومهنية، ومراجعة برامج الإعداد والتقريب بينها؛ بحيث تعمل جميعًا على تزويده بالمداخل الجديدة، وتبصيره بفنيات التدريس الحديثة.

(٤) إجراء الدراسات والبحوث اللغوية والتربوية التي تهدف إلى تطوير مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها - خاصة في مجال علم اللغة التطبيقي - ومن ثم موادها التعليمية وكتبها للكبار والصغار، ولشتى اللغات والجنسيات والثقافات والدوافع.

(٥) حشد الكفاءات العلمية المتخصصة في هذا الميدان وجذب انتباههم؛ للمشاركة، مع توفير كل الظروف لهم لتطوير تعليم العربية وتحسينه والارتقاء به، أسوة بلغات أخري.

(٦) حصر صعوبات ومشكلات تعليم العربية وتعلمها لغة أجنبية ودراستها دراسة علمية، ووضع الحلول الإجرائية التطبيقية لمواجهتها.

(٧) القيام بدراسة تقويمية شاملة لكل المجهودات التي بذلت في هذا الميدان، والإفادة منها في استكمال جوانب القصور، وتدعيم جوانب القوة.

(٨) إعداد اختبار عربي دولي للكفاءة اللغوية أسوة باختبار الكفاءة في اللغة الإنجليزية.

(٩) إعداد معجم لغوي بالكلمات الأساسية للغة العربية للناطقين بغيرها.

(١٠) تخصيص بعثات لإعداد متخصصين في تعليم اللغات الأجنبية، ومن بينها اللغة العربية؛ حيث يعاني العالم العربي من نقص المتخصصين الأكاديميين في ميدان تعليم العربية للناطقين بغيرها.

(١١) توفير مكتبة لغوية ثقافية، مصنفة وفقًا للمستويات اللغوية للطلاب الأجانب على أن تحتوي كتب القراءة المبسطة، تلك التي يستطيع الدارسون تطوير لغتهم وتنميتها من خلالها؛ وهي ما تسمى عادة «مواد القراءة للمتابعة».

(١٢) تصميم قاعدة لغوية إلكترونية تضم إنتاج التراث العربي، وأهم المؤلفات والمعاجم العربية؛ لتيسر لكل من المعلم والطالب البحث فيها.

(١٣) عقد لقاءات دورية ودورات تدريبية يلتقي فيها القائمون على تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، خاصة المعلمين؛ لتبادل الخبرات، وتعميق الأداءات التدريسية وتفعيلها.

ثانيًا: العمل على إنشاء فروع للمركز في شتى أنحاء العالم ذات الاهتمام بتعليم العربية وتعلمها.

ثالثًا: عقد مؤتمر دولي سنوي في كل عام حول موضوع أساسي ومهم من موضوعات تعليم العربية، ومن قضاياه الملحة والمحتاجة إلى دراسة.

رابعًا: إصدار مجلة عربية متخصصة في بحوث ودراسات ومشروعات تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، يمكن أن تصدر عن المركز، وفي ذات الوقت، تصبح دورية تصدر عن المجلس العالمي لتعليم العربية.

خامسًا: توسيع دائرة عقد اتفاقيات التعاون اللغوي والثقافي بين المؤسسات المهتمة بالمجال لتوحيد الجهود وتضافر القوى وتبادل المنفعة.

سادسًا: إنشاء قناة فضائية لنشر برامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها أو الاستعانة بالقنوات المتاحة والتي عرضت استعدادها لتحمل هذه المسئولية دون مقابل.

سابعًا: تشكيل المجلس العالمي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في صياغته التأسيسية من الهيئات المؤسسة التالية:

- مركز الشيخ زايد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالأزهر الشريف - جامعة أفريقيا العالمية - جامعة الملك سعود - معهد اللغة العربية.. فاس.. المغرب - معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالمدينة المنورة - الأزهر الشريف - مؤسسة زايد - البنك الإسلامي للتنمية - مؤسسة قطر الخيرية - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي - هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية - مؤسسة اقرأ للعلاقات الإنسانية - الرابطة العالمية لخريجي الأزهر.. فرع ماليزيا - جمعية العون المباشر بالكويت - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - شركة فيرست للتنمية الصناعية - شركة ريدكون للتطوير - جامعة سيناء - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - معهد الدراسات التربوية.. جامعة القاهرة - المركز التعليمي للغة العربية للطلاب الوافدين بوزارة التعليم العالي بجمهورية مصر العربية - الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت - شركة باك لاين للتنمية الصناعية - المعهد العربي للغة العربية - المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية.. الجامعة الأردنية - المركز الوطني للقياس والتقويم بالسعودية - جامعة الأميرة نورا بنت عبدالرحمن - معهد الخرطوم الدولي - قسم اللغة العربية بالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية.

ثامنًا: دعوة الأزهر إلى مخاطبة الهيئات الثلاث «الأزهر الشريف - مجموعة البنك الإسلامي للتنمية - مؤسسة الشيخ زايد للأعمال الخيرية» المكلفة معه بإعداد نظم المجلس للتشاور في صياغة هذه النظم وتحديد موعد وطريقة إجازتها، وذلك تمهيدًا لمخاطبة سائر المؤسسين في ضوء ما تفضي إليه المشاورات الرباعية التمهيدية.

تاسعًا: دعوة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر إلى تكليف شخصية من شخصياتها تتمتع بالكفاءة والحيوية الازمتين لمتابعة هذا الملف وتنسيقه.

عاشرًا: دعوة الجهات المكلفة بتحضير نظم المجلس بالسعي لتوسعته بدعوة المزيد من الهيئات العاملة في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها للالتحاق به.

حادي عشر: العمل على إجازة نظم المجلس وعقد اجتماعه التأسيسي في أجل لا يتجاوز شهرين من تاريخه.

ثاني عشر: تشكيل مجلس أمناء لمركز الشيخ زايد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وذلك من الجهات الشريكة والراعية ماليًا وفنيًا التالية:

- الأزهر الشريف - ممثلاً في الرابطة العالمية لخريجي الأزهر - مؤسسة زايد - البنك الإسلامي للتنمية - مؤسسة قطر الخيرية - المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم - الندوة العالمية للشباب الإسلامي - هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية - مؤسسة اقرأ للعلاقات الإنسانية - الرابطة العالمية لخريجي الأزهر.. فرع ماليزيا - جمعية العون المباشر بالكويت - شركة فيرست للتنمية الصناعية - شركة ريدكون للتطوير - جامعة سيناء - الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت - شركة باك لاين للتنمية الصناعية.

ثالث عشر: توجيه الشكر للهيئات التي أعلنت عن مبادرات وتبرعات، ومنها:

- مؤسسة زايد التي شيدت المركز ووعدت باستمرار دعمه - البنك الإسلامي للتنمية الذي ساهم في تمويل تطوير البرامج وإعداد الملتقى وتمويله، ووعد بمتابعة دعم المركز في مجالات عديدة منها تمويل دراسة الوقف، والمساهمة في تمويل إنشاء الوقف الاستثماري والتعاون مع الأزهر في حصر أوقافه ودراسة سبل تثميرها وتمهير القائمين عليها والإعداد لإنشاء هيئة نظارة عالية الكفاءة، ترعى الأوقاف الأزهرية وتقدم خدماتها لسائر الواقفين.
- جمعية قطر الخيرية التي وعدت بدعم مالي فضلا عن بناء وتجهيز مركز إقليمي تابع لمركز القاهرة - هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية التي وعدت بدعم مالي - مؤسسة اقرأ التي وعدت بدعم مالي على مدى ٥ سنوات، إضافة إلى البث المجاني للمادة التربوية الرقمية التي سينجزها المركز، طبقًا لمعايير الجودة المطلوبة في البث التليفزيوني - الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وستعلن قريبًا عن حجم وطبيعة دعمها - جمعية العون المباشر، وستعلن قريبًا أيضا عن حجم وطبيعة دعمها.

رابع عشر: دعوة الأزهر إلى الإسراع بإعداد أنظمة المجلس ودعوة جهات داعمة أخرى للالتحاق به، واستجازة أنظمته في اجتماع يعقد في أجل أقصاه شهران، وينبغي الربط بينه وبين اجتماع المجلس العالمي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

خامس عشر: دعوة البنك الإسلامي للتنمية إلى الإسراع باتخاذ الإجراءات اللازمة لفتح صندوق الاستئمان الخاص بتيسير تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، واقتراح أنظمته، ودعوة الداعمين إلى إيداع الأقساط الأولى من تبرعاتهم في الصندوق، على أن تعتمد أنظمة الصندوق في أول اجتماع لمجلس أمناء المركز.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقى الدين

الأخسرون... أعمالاً

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها:

الإيمان والعمل الصالح هما الجناحان اللذان يحلقان بالعبد بالمسلم في عالم الإيمان، فالقرآن، الكريم حافل بالعديد من الآيات الكريمة التي تقرن (الإيمان) وهو عمل القلوب؛ بالعمل وهو حركة البدن والجوارح والدليل الواضح على وجود الإيمان في القلوب؛ ولذا فإن الإسلام لا يلقى بالا لأي ادعاء للإيمان بغير عمل كما جاء في الحديث: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)؛ وفي لفظة "وصدقه" ما يشير على أهمية العمل وضرورته في إثبات الإيمان في القلب، وهو - كذلك - ما أشار إليه الحديث الآخر والذي جاء فيه: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان).

وكما احتفى الإسلام واهتم وأكد على وجوب العمل مع الإيمان القلبي كدليل وشاهد عليه؛ فإنه لم يرض من أتباعه بأي عمل بل أطلق وصفاً محددا على نوع العمل المطلوب من المسلم وهو (الصالح)؛ فهاهو القرآن يرسخ في القلوب والأذهان وفي الخلفية النفسية لمن يتلو القرآن فكرة تكثير الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح، والشواهد تترى؛ مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾

(الكهف: ٣٠)

وهكذا لا معنى لإيمان بلا عمل مما ادعى الهاربون من تكاليف الإسلام حبهم لله ورسوله..

وقد فسر العلماء صفة "الصالح" المطلوبة في العمل بأنه يكون بوجود شرطي الإخلاص والمتابعة؛ بمعنى ألا يداخل نية العبد شائبة الرياء والسمعة، وألا يكون بعيدا عن هدى النبي وسنته، وها هو معيار تعريفي للعمل الصالح للإسلام حتى يسمى «عملا صالحا».

وقد يعمل العاملون أعمالاً كالجبال لكنها لم ترتكز على قاعدة الإخلاص والاتباع، وهنا لا يحسب الإسلام أي قيمة لهذا العمل مهما كانت قيمته أو وزنه أو

كثرته، حتى ولو كان هو أن يضحى الإنسان بنفسه وروحه وحياته، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

(الفرقان: ٢٣)

وكذلك ما جاء فى صحيح مسلم: عن سليمان بن يسار قال تفرق الناس عن أبى هريرة فقال له نقاتل أهل الشام، أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)

وهناك صنف آخر من الناس لم يقصر فى عمل عملوه بل وبذلوا فيه مالاً ووقتاً وجهداً وعرقاً؛ لا لينصروا حقاً، ولا ليعلموا علما نافعاً، ولا ليقضوا حاجة فقير، ولا ليطعموا جائع، ولا يمهدوا طريقا للناس والدواب؛ بل ربما يفسدون فى الأرض ولا يصلحون؛ ومع ذلك وصل بهم الاغترار بالعمل؛ بل وعميت بصائرهم حتى فقدوا الرؤية وألبسوا الحق بالباطل؛ وحق عليهم هذا الاستفهام القرآني:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾

(فاطر: ٨)

ومثل هؤلاء فقدوا حواس الخير واستبشروا بالكفر وشرحوا به صدرا ووصل طغيانه أن زكمت أنفهم من عطر الحق الجميل، كما وصفهم رب العزة والجلال بقوله:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(الزمر: ٤٥)

فمن أكبر أسباب ضبابية الرؤية أو عمى البصيرة هو البعد عن نور الشرع وطريق الإيمان من هنا يأتى الخلل ويحدث الزلل حتى يجد المرء نفسه موصوفاً مع من وصف فى أواخر سورة الكهف بقول الله سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

(الكهف: ١٠٣ - ١٠٤)

فاللهم ارزقنا منك ما يقربنا إليك .

الأزهر والشيعة

مع التحية والتقدير لفضيلة رئيس تحرير مجلة الأزهر - القاهرة سلمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فأسأل الله تعالى لكم الصحة والعافية والتوفيق

واطلعنا على نسخة من كتيب - الأزهر والشيعة، المرفق - هدية، مع عدد مجلة الأزهر، لشهر محرم ١٤٣٤هـ، والكتاب نافع جدا فى مجاله وموضوعه، وهو رسالة علمية موثوقة لعامة المسلمين فى العالم الإسلامي، ولاسيما أن مضمونه صادر عن علماء أجلاء من الأزهر الشريف.. وقد استحسنا فى الأمانة العامة لمؤتمر وزراء الأوقاف والشئون الإسلامية بدول العالم الإسلامي، فكرة ترجمته إلى عدة لغات وطباعته وتوزيعه، دون أى تغيير فى مضمونه.

فنرجو تفضلكم بالموافقة على ذلك، وسوف نسند هذه المهمة إلى «مركز الإعلام والدراسات العربية - الروسية» للقيام بأعمال الترجمة والتصميم والإخراج والطباعة.

فنرجو موافقتكم الكريم، حفظكم الله ورعاكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم/ د. ماجد بن عبدالعزيز التركى
الأمين العام لمؤتمر وزراء الأوقاف والشئون الإسلامية
وأمين مجلسه التنفيذى

وصف مصر.. لعمرو بن العاص، رضى الله عنه.

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ شعبان عبدالعال - محافظة المنيا - بنى حسن الشروق.

تولى عمرو بن العاص مصر أميرا عليها من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - منذ فتحها سنة ٢١هـ أو سنة ٢٠هـ على اختلاف فى الأقوال، وحرر المقريزى ذلك بأول المحرم سنة عشرين.

وظل أميرا عليها طوال حياة عمر - رضى الله عنه - ثم أمره عليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - مدة من الزمن ثم عزله عنها سنة سبع وعشرين من الهجرة، وكان عمرو فى ولايته مثالا للنزاهة والعدل بين الناس، وكان نعم الأمير المصلح والمعمر، فقد عمر ما خربه الرومان وأصلح ما أفسدوه، وقد أصلح طرقها وجسورها وأقام مقاييسين على النيل ليعرف موسم الفيضان وموسم الجفاف، كما أنشأ مدينة الفسطاط التى أصبحت عاصمة لمصر قبل أن تنشأ القطائع فى عهد ابن طولون ثم مدينة القاهرة سنة ٣٦٠هـ فى العصر الفاطمى وأنشئ مع القاهرة الجامع الأزهر الذى نافس جامع الفسطاط.

طلب الخليفة عمر من عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يصف له مصرا فكتب له يقول:

مصر تربة سوداء، وشجرة خضراء، بين جبل أغبر ورمل أعفر، قد اكتنفها معدن رفقها «أى عملها» ومحط رزقها، ما بين أسوان إلى

منشأ البحر، فسح النهر «تدفقه» مسيرة الراكب شهرا، كأن ما بين جبلها ورملها بطن أقب «دقيق الخصر» وظهر أجب، يخط فيه مبارك الغدوات، ميمون البركات يسيل بالذهب، ويجرى على الزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر، له أيام تسيل له عيون الأرض وينابيعها مأمورة إليه بذلك حتى إذا ربا وطما وأصلخم لججه «أى اشتد» وأغلولب عبابه كانت القرى بما أحاط بها كالربا، لا يتوصل من بعضها إلى بعض إلا فى السفائن والمراكب، ولا يلبث إلا قليلا حتى يلم كأول ما بدا من جريه وأول ما طما فى درته حتى تستبين فنونها ومتونها.

ثم انتشرت فيه أمة محقورة «يقصد أهل البلاد الذين استذلهم الرومان»، قد رزقوا على أرضهم جلدا وقوة، لغيرهم ما يسعون من كدهم «أى الرومان» بلا حد ينال ذلك منهم، فيسقون سهل الأرض وخرابها ورواسيها، ثم ألقوا فيه من صنوف الحب ما يرجعون التمام من الرب، فلم يلبث إلا قليلا حتى أشرق ثم أسبل فتراه بمعصفر ومزعفر يسقيه من تحته الثرى ومن فوقه الندى، وسحاب منهم بالأرائك مستدر، ثم فى هذا الزمان من زمنها يغنى ذبابها «أى محصولها» ويدر حلابها «اللبن» ويبدأ فى صرامها «جنى الثمر» فبينما هى مدرة سوداء إذا هى لجة بيضاء، ثم غوطة خضراء ثم ديباجة رقشاء، ثم فضة بيضاء فتبارك الله الفعال لما يشاء، وأن خير ما اعتمدت عليه فى ذلك يا أمير المؤمنين، الشكر لله عز وجل على ما أنعم به عليك منها، فأدام الله لك النعمة والكرامة فى جميع أمورك كلها والسلام.

الحسود لا يسود

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ حسين عمار-أديب وباحث وخطيب- المنيا :

جاء فى الآثار وحكى فى الأخبار أن أحد السلاطين اختار لنفسه مستشارا راجح العقل.. وكان لهذا المستشار صديق حسده على ما وصل إليه لدى السلطان وتمنى ذلك لنفسه وأراد أن يزيحه من مكانة فوشى بوشاية إلى السلطان وقال له: إن مستشارك الذى تحبه وتثق فيه يدعى أنك أيها السلطان أبخر ـ رائحة فمه كريهة ـ قال السلطان: وما دليلك على ذلك؟ أجابه: إنه إذا جاء المستشار وقربته لتتحدث إليه وضع يده على أنفه حتى لا يشم رائحتك؟.. ثم أسرع إلى صديقه وكان قد صنع طعاما أكثر فيه من الثوم والبصل فدعى صديقه ـ مستشار السلطان ـ إلى هذا الطعام.. وما إن فرغا من الأكل.. إذا جاء رسول السلطان يدعو المستشار لمقابلته.. أسرع المستشار إلى السلطان.. الذى دعاه إلى قربه وهو يتحدث إليه فى أخذ ورد.. ولكن المستشار أدبا وحتى لا يؤذى السلطان برائحة الثوم والبصل وضع يده على فمه.. فعلم السلطان عندئذ بصدق صديقه وبأن المستشار يدعى أنه أبخر.. كتب السلطان كتابا أداه إلى المستشار وأمره بسرعة إعطائه لأحد الولاة وعندما خرج من عند السلطان وجد صديقه فى انتظاره يسأله عما حدث ثم يلح عليه أن يأخذ الكتاب منه لتسليمه إلى الوالى ظنا منه أن فيه مكافأة عظيمة أو جائزة ثمينة.. سلم الصديق الحسود الكتاب إلى الوالى المقصود.. وجد فيه «إذا وصلك كتابى هذا.. فاذبح حامله فى الحال».. فنجا المحب الودود وذبح الماكر الحسود.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين/ عبدالموجود أمين - محمود المنشى

الإمام الأكبر:

العنف وإراقة الدماء غير مشروع فى أى حال من الأحوال


د. أحمد الطيب

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب – شيخ الأزهر الشريف – أن المسئولية الدينية والوطنية تفرض على الجميع ضبط النفس ومراعاة حرمة الدماء.

وأضاف فضيلته: أن العنف وإراقة الدماء والعدوان على الممتلكات العامة والخاصة غير مشروع بأى حال من الأحوال وتحت أى مبرر.

وناشد الإمام الأكبر الجميع؛ قيادة، وحكومة، وقوى سياسية، وشباب مصر الشرفاء، بتحمل مسئولياتهم أمام الله وأمام الوطن بسرعة لاحتواء الموقف والحفاظ على الأرواح ومراعاة عصمة الدماء.

ونعى فضيلته إلى مصر وشعبها وإلى الأزهر الشريف بمزيد من الأسى فقدان العديد من أبناء مصر، ورجال الشرطة الشرفاء ضحايا الأحداث المؤسفة التى لا تليق بذكرى مولد النبى الشريف ﷺ والذكرى الثانية لثورة مصر فى الخامس والعشرين من يناير.

الإمام الأكبر يدين التدخل العسكرى الفرنسى فى مالى وينتقد السلوك الأحمق للمتشددين

أدان فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر التدخل العسكرى الفرنسى فى دولة مالى الشقيقة، واصفا هذا التدخل بالغير مشروع. وانتقد فضيلة الإمام فى الوقت ذاته السلوك الأحمق الهدام الذى قام به الغلاة المتشددون فى شمال دولة مالى، وفى منطقة أزواد وغيرها وهو الذى تسبب فى الهجمة الفرنسية الباغية وأعطى الفرصة لإزهاق الأرواح وتهديد البلاد والعباد، فى هذه المناطق المسلمة.

وأضاف الطيب ـ فى تصريحات حررها فضيلته عصر يوم الخميس ١٢ ربيع الأول ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٤ يناير ٢٠١٣م من القرنة بمحافظة الأقصر ـ أن الأزهر من واقع

مسئوليته الدينية والتاريخية يعلن إدانته لكل ذلك، ويدعو إلى وقف الهجوم العسكرى الأجنبي، وإلى توقف التصرفات الحمقاء المخالفة لصحيح الدين فى نبش مقابر المسلمين وتبديد تراثهم ومكتباتهم، وهدم مؤسساتهم الحضارية والدينية.

الأزهر يؤكد..

العلاقات الأخوية بين مصر والسعودية لن تتأثر بـ «الخطأ الغير مقصود»

أكد الأزهر الشريف فى بيان له ظهر الخميس الموافق ١٢ ربيع الأول ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٤ يناير ٢٠١٣م على عدم تأثر العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية بشكل عام أو بين علماء مصر والأزهر الشريف، وبين علماء المملكة العربية السعودية الشقيقة بعد الموقف الأخير من عدم إتمام زيارة فضيلة الإمام وعدد من أعضاء هيئة كبار العلماء إلى المملكة العربية السعودية للإسهام فى بعض الأنشطة وأوجه التعاون العلمي.

وأشار البيان إلى اعتذار المسئولين السعوديين لفضيلة الإمام الأكبر عن ذلك الخطأ غير المقصود، وأبدوا أسفهم لحدوثه، وخصوصاً أنه لا يتفق مطلقاً مع مستوى التعامل الأخوى بين الهيئات المصرية والسعودية.

وانتقد البيان الذى صدر من المركز الإعلامى لمشيخة الأزهر الشريف ما جاء ببعض وسائل الإعلام التى أوردت الحدث على نحو غير ملائم، مؤكدًا أن الأسباب لم تكن شكلية أو نظرية، وليس أحد بحاجة إلى ذلك ولكن الأسباب أدبية معنوية، وواقعية، ورسمية أيضاً: فأعضاء هيئة كبار العلماء المصرية نخبة العلماء الذين أفنوا أعمارهم فى خدمة العلم والدين، وهم فوق السبعين من العمر لا يناسبهم التزاحم فى وسائل المواصلات، وهم أخيراً: مدعوون فى زيارة رسمية، وكلهم محل التقدير من الجميع.

فى أول أيام أعمالها..

قافلة الأزهر تعالج أكثر من ٥٠٠ حالة من أبناء النوبة

قامت القافلة الطبية الأزهرية بالكشف على أكثر من ٥٠٠ حالة من أبناء النوبة فى اليوم الأول لعملها، وصرح الشيخ محمد العبد رئيس القافلة أن زيادة الإقبال على القافلة والثقة التى أعطاها لنا أبناء النوبة تؤكد على ثقة أبناء النوبة فى الأزهر الشريف وعلمائه واصفا أبناء النوبة بالطيبة والمودة وحبهم لمصر.

وقال الدكتور طارق محمد السعيد رئيس الوفد الطبى بالقافلة أنه تم توقيع الكشف فى عيادة الباطنة على أكثر من ١٥٠ حالة وفى عيادة الأطفال أكثر من ١٢٠ حالة وفى عيادة الصدر ١٠٠ حالة وفى عيادة العظام ١١٠ حالات وفى عيادة الجراحة العامة ٥٠ حالة.

وأضاف أنه تم الاتصال بمسئولى الصحة بالمحافظة للاتفاق معهم على ضرورة إقامة عمليات جراحية خلال القوافل القادمة بشرط تحديد الحالات قبل الوصول وضرورة تفعيل التعاون بين مديرية الصحة فى أسوان وكلية الطب بجامعة الأزهر من أجل تدريب الأطباء

وإجراء عمليات جراحية للمحتاجين.

وقال الدكتور مصطفى أحمد رشدى مدرس مساعد الباطنة وعضو القافلة أنه مقارنة بالقوافل الأخرى التى شاركنا فيها من قبل وجدنا أن أغلبية المرضى فى المنطقة فى حاجة ماسة للعلاج من خلال أطباء متخصصين و الكشف الشامل، وقد شعرنا بالتقصير فى حق المرضى بالمناطق النائية وهو ما يتطلب جهودا أكثر بكثير فى الوقت المقبل خاصة من أساتذة الجامعات المصرية.

وقال الدكتور محمد جبريل مدرس طب الأطفال بجامعة الأزهر وعضو القافلة: إن اختيار مكان القافلة كان مناسبا إلى حد كبير، بالإضافة إلى التعاون من جانب إدراة المستشفى والإقبال الشديد من أول يوم يدل على ثقة من المواطنين بالقافلة.

وأضاف أنه لاحظ وجود افتقار شديد لدى المواطنين للثقافة الصحية وهو مما يتطلب زيادة التوعية من قبل الإدارات الصحية بالمحافظة والعمل على الاتفاق مع المستشفيات الجامعية لإرسال قوافل بصفة دورية.

وقال مصطفى هندى منسق القافلة: إن زيادة عدد المرضى وتنوع الحالات جعلنا نقوم بشراء أصناف جديدة من الأدوية و شراء أدوية متخصصة للحالات التى تستدعى ذلك من أجل الحرص على صحة المرضى وتلبية احتياجاتهم.

الإمام الأكبر لسفير بريطانيا:

رسالة الأزهر قادرة على بث روح السلام والأمن فى الغرب

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، جيمس وات، سفير بريطانيا بالقاهرة، والوفد المرافق لسيادته، وقد تناول اللقاء سبل تدعيم أواصر العلاقات والتعاون المشترَك بين مصر وبريطانيا بصفة عامة، وبين الأزهر الشريف والمؤسسات العلمية والثقافية والدينية ببريطانيا بصفة خاصّة.

وأكَّد فضيلة الإمام الأكبر على أهمية تدعيم سبُل الحوار ومد جسوره كركيزة مهمة للتعايش السلمى بين مختلف شعوب العالم بصفة عامّة؛ باعتباره سمةً أساسيّةً ميّز الله تعالى بها الإنسان عن سائر المخلوقات، مضيفًا: أنّ تنوُّع واختلاف الحضارات الإنسانية على مَدار تاريخها الطويل هو مصدر إثراء لخير وتقدُّم البشرية، ولا ينبغى أن يكون سببًا لتصارُعها.

وحمل السفير رسالة من البارونة سعيدة وارثي، وزيرة شئون الأديان وحقوق الإنسان بالحكومة البريطانية، تشيدُ فيها بالدور الكبير الأزهر فى نشر ثقافة الاحترام المتبادَل والتسامح الدِّينى بين الشعوب، وأبدَتْ رغبتها فى إلقاء خطابٍ بجامعة الأزهر الشريف يتناول الحديث عن تلك القيَم النبيلة.

وقد تطرَّق السفير فى حديثه عن الأئمّة البريطانيين والدورات التدريبية التى تلقَّوها فى الرابطة العالمية لخرِّيجى الأزهر؛ مما ساهم بشكلٍ كبير فى توضيح الصورة السمحة

والمعتدلة للإسلام في عيون البريطانيين.

وقد أبدى فضيلة الإمام الأكبر استعداد الأزهر التام لتقديم المزيد من الجهود والدعم فى هذا المجال، مضيفًا: أنّ رسالة الأزهر ووسطيته واعتداله هى القادرة على بث روح السلام والأمن الاجتماعى والثقافى فى الغرب.

الإمام الأكبر: انطلاق فضائية الأزهر قريبًا

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، عمر محمد زين، الأمين العام لاتحاد المحامين العرب، والوفد المرافق لسيادته، وقد تناول اللقاء بحث العديد من القضايا المهمة التى تمر بها المنطقة وفى مقدمتها قضية فلسطين والقدس المحتلة.

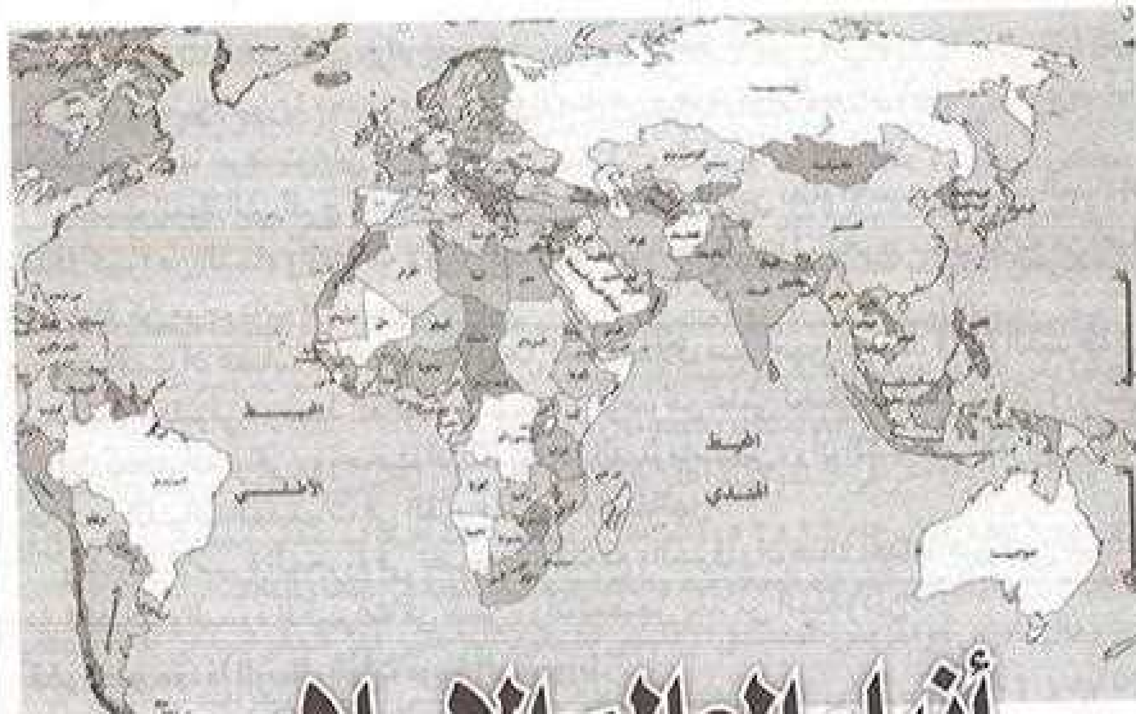
وأكد فضيلة الإمام الأكبر أن قضية فلسطين والقدس المحتلة من أولى اهتمامات الأزهر الشريف منذ أن وطأتها أقدام الصهاينة؛ وحتى تظل هذه القضية حية فى وجدان أبناء الأمة فإنه ينبغى تدريس تاريخها فى مناهج وزارات التربية والتعليم على مستوى جميع الدول العربية والإسلامية، ولا أقل من أنْ يُخصص جزء من مادة التاريخ لهذا الغرض، فضلاً عن طباعة مطويات وتوزيعها على كافة الهيئات والمؤسسات بأمتنا العربية والإسلامية.

وأضاف فضيلته: إن الهجمة الشرسة التى يمارسها الكيان الصهيونى والقوى التى تدعمه إنما هو تكريس لمقولة المؤرخ الأمريكى برنارد لويس: أنه يجب تقسيم المقسّم وتجزئة المجزأ داخل أوصال الأمتين العربية والإسلامية؛ حتى لا تقوم لهم قائمة، وهذا هو عين ما يُمارس الآن فى العديد من المناطق.

وأضاف فضيلته: إنّ الأزهر الشريف بصدد إنشاء قناة الأزهر التى ستعملُ على نشر الفهم الصحيح للإسلام ووسطيته واعتداله، وتصحيح المفاهيم المغلوطة التى تنتشر بين الناس؛ بسبب السلوك الخاطئ لبعض الفضائيات والتى تتنافى مع صحيح الإسلام.

وأشاد الضيف بالدور الريادى للأزهر على الساحة الوطنية والعربية والعالمية، وريادته للعمل الوطنى عن طريق الاجتماعات المكثفة التى تجرى فى رحابه مع مختلف القُوى والتيارات السياسية والائتلافات الثورية، والتى انبثق عنها وثائق الأزهر الشريف المتعددة، والتى أشاد بها العديد من كبار المسئولين حول العالم، مؤكدًا أنه يأمل فى أن توزع هذه الوثائق على أوسع نطاق مُمكن فى العالم العربى والإسلامي؛ حتى يستفيد منها العالم كله.

وأضاف: إننا فى الاتحاد وجميع منظمات المجتمع المدنى على أتم الاستعداد للاصطفاف خلف الأزهر الشريف؛ لأنّ الأزهر هو الضمانة الكبرى لتوحيد العرب والمسلمين، ولنشر رسالته ووسطيته؛ ولكى يتبوأ مكانته التى تليقُ به، وأن يقوم بدوره الريادى فى توحيد الأمة.



أنباء العالم الإسلامى

للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

مليون سورى يواجهون شبح الموت جوعاً !!

ذكرت وزارة الخارجية البريطانية أن بلادها سوف تستضيف اجتماعًا دوليًا للترتيب لفترة ما بعد رحيل الأسد المحتوم.

وأفادت أن الاجتماع سينعقد بحضور خبراء متخصصين فى الشئون السورية وأكاديميين متخصصين فى تحقيق الاستقرار بعد الصراعات، وممثلين للائتلاف الوطنى السورى المعارض بجانب وكالات أخرى.

ومن جانبه، قال «وليام هيج» وزير الخارجية البريطانى على حسابه بموقع «تويتر»: إن رحيل الأسد بات محتومًا ومن الضرورى أن يخطط المجتمع الدولى لليوم التالى لرحيله.

ورفض هيج وزعماء غربيون خطاب الأسد يوم الأحد الموافق ٩ يناير ٢٠١٣ م، والذى وصفه رئيس النظام السورى بأنه خطة للسلام مع أنه رفض المحادثات مع خصومه، فيما وصفته المعارضة بأنه إعلان للحرب.

وبينما يتحدث الخبراء عن تأكيد سقوط الأسد وحتميته إلا أنه مازال يتمتع بدعم من حلفائه روسيا والصين وإيران.

أسيرة محررة تكشف مآسي حرائر سوريا في سجون الأسد

كشفت أسيرة سورية محررة من سجون الأسد عن وجود عدد كبير من النساء والفتيات قيد الاعتقال، وأنها عُرضت على لجنة فيها إيراني وروسي قبل إطلاق سراحها.

وقالت الفتاة التي أفرج عنها في اتفاقية تبادل الأسرى بين نظام الأسد والجيش الحر: إن عددًا كبيرًا من النساء والفتيات لايزلن قيد الاعتقال التعسفي، ولم تخرج سوى ثلاث من أصل ٨١ فتاة كنّ موجودات في مهجع واحد.

وأضافت أن عصابات الأسد اقتادوهن لحظة إطلاق سراحهن إلى أحد فروع الشرطة في منطقة «الحلبوني» وسط العاصمة دمشق، وعرضوهن على لجنة مؤلفة من إيراني وروسي وثالث يُعتقد أنه تركي، ورجحت أن يكونوا من الدبلوماسيين، وأن الشخص الإيراني سألهن عن عدد الفتيات المتبقيات في الفروع الأمنية وأسمائهن.

وأشارت الأسيرة المحررة في تصريحات لموقع «الشرق» أن هناك أعدادًا كبيرة من الرهائن من الفتيات والنسوة الكبيرات في السن، وأن بعضهن يعد من المفقودين.

قطر تدعو مجددًا لإرسال قوات عربية إلى سوريا

صرح وزير خارجية قطر الشيخ حمد بن جاسم آل ثان للصحف ووكالات الأنباء العالمية: «يجب أن يفكر العرب في (إرسال قوات) بشكل جدي إذا لم تنجح كل الوسائل، والعرب قادرون على إيقاف حمام الدم في سوريا».

وأضاف الشيخ حمد الذي يرأس لجنة بالجامعة العربية بشأن سوريا أن الأمر لا يتعلق «بتدخل عسكري بمعنى مناصرة طرف على طرف آخر ... بل قوات لحفظ الأمن».

مليون سوري مهددون بالجوع

أكدت الأمم المتحدة أن نحو مليون سوري مهددون بالجوع بسبب معاناتهم من نقص في الطعام ومعظمهم يعيشون في مناطق الصراع.

وقالت إليزابيث بايرز الناطقة باسم برنامج الأغذية العالمي التابع للمنظمة الدولية: إنّ سبب النقص يعود إلى القيود التي تفرضها حكومة دمشق على توزيع المساعدات.

وذكرت أن البرنامج يقدم حصصًا غذائية لنحو مليون ونصف مليون شخص في سوريا كل شهر، وذلك أقل من عدد الذين يحتاجون إلى مساعدات وهم حوالي مليونين ونصف مليون شخص، مشيرة إلى أن النقص هو في إمدادات الخبز والوقود على وجه الخصوص.

ويحتاج أربعة ملايين شخص في سوريا إلى مساعدات إنسانية مُلحة، بينهم مليونان نزحوا من ديارهم بسبب المعارك. وأظهرت أرقام الأمم المتحدة أن عدد اللاجئين السوريين المسجلين قفز خلال ديسمبر ٢٠١٢ من ٥٠٠ ألف إلى نحو ٦٠٠ ألف.

الأمم المتحدة: عدد اللاجئين في أنحاء العالم يصل أرقامًا قياسية مع فرار عشرات الألوف من سوريا

وأعلن أنطونيو غوتيريس المفوض السامي لشئون اللاجئين في الأمم المتحدة أن عدد اللاجئين في العالم عام ٢٠١٢ م تجاوز أي عدد سجل منذ بداية القرن مع فرار عشرات الألوف من سوريا كل شهر.

وأبلغ غوتيريس اللجنة التنفيذية للمفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بأن إمكانيات المفوضية لم تعد تسمح بالمزيد في تصديها لهذا الوضع.

وقال: «في عام ٢٠١١ م عندما تلاحقت الأزمات واحدة تلو الأخرى عبر أكثر من ٨٠٠ ألف شخص الحدود لاجئين - أي ما يزيد على ٢٠٠٠ لاجئ يوميًا في المتوسط».

وأضاف أن هذا كان أكبر عدد منذ بداية القرن إذ فر هذا العام حتى الآن أكثر من ٧٠٠ ألف شخص من الكونغو الديمقراطية ومالي والسودان وسوريا.

وفي ظل الأزمة الاقتصادية العالمية والضغوط الواقعة على ميزانيات الحكومات، قال غوتيريس للجنة التنفيذية للمفوضية: إن تكلفة مساعدة اللاجئين تتزايد بسرعة بينما لاتزال أزمات طويلة الأمد مثل أفغانستان والصومال مستمرة.

وكان مسئول آخر في المفوضية أعلن أن العدد الإجمالي للاجئين الفارين من سوريا قد وصل إلى ٧٠٠ ألف خلال عام ٢٠١٢ م، وهو ما يقرب من أربعة أضعاف تقدير المفوضية السابق مع احتدام المعارك بين القوات الحكومية والمعارضة المسلحة في أنحاء البلاد.

وقال بانوس مومتزيس المنسق الإقليمي لشئون اللاجئين في المفوضية في إفادة صحفية إن نحو ٢٩٤ ألف لاجئ عبروا الحدود هربًا من الصراع إلى الأردن والعراق ولبنان وتركيا أو ينتظرون التسجيل هناك.

وينضم اللاجئون الجدد إلى نحو ٤٢ مليون لاجئ في جميع أنحاء العالم فروا عبر الحدود هربًا من العنف، ويعيش كثير من هؤلاء منذ عشر سنوات أو أكثر في أماكن إيواء مؤقت توفره المفوضية.

إغاثة تركية سودانية لمسلمي ميانمار

ذكر رئيس اللجنة السودانية العليا لإغاثة مسلمي الروهينجا «إبراهيم عبد الحليم» أنه تم تقديم مساعدات إنسانية لأكثر من ٦٣٠٠ لاجئ من ميانمار ببنغلاديش، بدعم وتنسيق مع منظمات تركية وفقًا لاتفاق الشراكة الذكية بين منظمات الدول الإسلامية المسموح لها بدخول إقليم ميانمار.

وفي وقت سابق نقل عن عبد الحليم قوله: «على الرغم من الخطر المطبق على المنظمات الإسلامية من دخول تلك المناطق، تجتهد المنظمات السودانية في توصيل الإغاثات إلى مسلمي الروهينجا في ميانمار، ولم تكتف فقط بالمساعدات التي تم توزيعها على الـ ٦٣٠٠ لاجئ في بنغلاديش على مدار الأيام الماضية».

وأكد رئيس اللجنة للمركز المحسوب على الحكومة السودانية «استمرار السودان في دعم مسلمي الروهينجا، والوقوف إلى جانبهم في كافة المحافل الدولية لأخذ حقوقهم المسلوبة»، مناشدًا في الوقت ذاته «كل الخيرين وأصحاب الضمائر الحية المساعدة في توصيل المساعدات الإنسانية لهم».

وفي سياق متصل، قال أورهان أردوغان مدير الإغاثة باللجنة العليا لإغاثة الروهينجا: إن الدعم السوداني كان له الأثر الأكبر عند شعب الروهينجا.

قوات إفريقية ودولية تنتشر فى مالى لإقرار الأمن

طالب قادة فرنسا وغرب إفريقيا المجتمع الدولى بمساعدات لوجستية ومالية لتأمين التعامل مع الجماعات الإسلامية المسلحة فى مالي.

أكدت صحيفة «الاقتصادية» السعودية، أن رؤساء أفارقة قد التقوا فى ساحل العاج لمناقشة عملية عسكرية تم طرحها للنقاش للمرة الأولى فى إبريل الماضى عندما سيطر متطرفون على شمال مالي.

وفى إطار هذه العملية العسكرية التى أطلق عليها «أوبريشن سيرفال» نشر الجيش الفرنسى ألفى جندى فى مالي، ويقومون بمساعدة الجيش المالى فى الخطوط الأمامية كإجراء مؤقت حتى تصبح إحدى القوى الإقليمية جاهزة للانتشار بحسب الصحيفة.

وخلال حديثه فى قمة انعقدت فى ساحل العاج، قال وزير الخارجية الفرنسي، لوران فابيوس: «يحتاج أصدقاؤنا الأفارقة للقيام بدور قيادى فى السعى لإنهاء تمرد الإسلاميين».

وأضاف فابيوس: «ادعو كل شركاء التنمية الإفريقية للحضور إلى أديس أبابا وتقديم تبرعات سخية لهذا العمل الذى يرمز للتضامن، والسلام، والأمن، من أجل المنطقة والقارة على حد السواء»، مشيرًا إلى أن كندا عرضت المساعدة فى نقل القوات الإفريقية جوًا إلى مالي.

هذا وقد وصل إلى مالى فى الأيام الأخيرة بضع مئات من الجنود من توجو، وبنين، ونيجيريا. ومن المقرر أن ترسل نيجيريا، التى ستقود المهمة الإقليمية ١٢٠٠ جندي. ووعدت تشاد بإرسال ألفى جندي، لكن موعد وصولهم غير معروف. وعندما يتم نشر القوة الإفريقية بالكامل ستكون مدعمة بـ ٥٥٠٠ جندى فرنسي، وفقًا لفابيوس.

فى الوقت نفسه، تعهدت ألمانيا بتقديم مساعدة مالية. وتعتبر الخدمات اللوجستية قضية أخري، فى ظل افتقار بعض دول المنطقة للمعدات المناسبة لقتال المتمردين، أو طائرات نقل لتوصيل الجنود إلى مالي.

تقرير بريطانى ينتقد سياسات الاستيطان الإسرائيلي

انتقد تقرير حقوق الإنسان لوزارة الخارجية البريطانية ملف إسرائيل فى انتهاك حقوق الإنسان، معتبرًا أن الدولة اليهودية فى وضعية «مثيرة للقلق» خاصة فيما يتعلق باستمرار سياسة الاستيطان فى الأراضى الفلسطينية المحتلةو تجميد عوائد السلطة الفلسطينية من الجمارك، ووضع التقرير إسرائيل ضمن ٢٨ دولة تقوم بانتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، فى تأكيد للموقف البريطانى المعارض بشدة لاستمرار التوسع الاستيطاني «غير الشرعى» فى الضفة الغربية المحتلة.

وبحسب صحيفة «جيروزاليم بوست» فإن التقرير يشير إلى استمرار التوتر فى العلاقات بين تل أبيب ولندن خلال الأشهر الأخيرة.

وأشارت الصحيفة الإسرائيلية إلى أن التقرير أدان التصعيد العسكرى من قبل حركة حماس خلال أكتوبر الماضي، لكنه انتقد بشكل واضح الرد الإسرائيلى الذى دفع لتدهور الوضع الإنسانى لسكان قطاع غزة، وركز التقرير على استمرار الحكومة الإسرائيلية فى دعم الاستيطان بالأراضى المحتلة فى الضفة الغربية والقدس الشرقية.

advised the earlier Muslims to treat the Egyptians well, as they will be united till the Day of Judgement and its soldiers are the best on earth."

- It is the constitution of the modern national democratic country, which has an Islamic entity. Dr. Taha Hussein (1306-1393 A.H. / 1889-1973 A.D.) said in the committee of the constitution in 1954 A.D. about seeking decisions from Islam in its constitution and laws: "Absolutely, the majority will not accept, while setting the constitution, to deviate from the commands of Islam, and there is nothing to allow us deviate from the text of the Qur'an. If there is a clear religious text, it is obligatory and wise not to contradict this text. Also, it is wise not to hurt the people's feelings, consciences, and religion. If the state has respected Islam, it should abide by it in whole and in detail, and we should not believe in part of it and disbelieve in the other part."
- Also, the Coptic legislative Astafan Basily said about the Islamic Shari`ah: "I have known with the passage of fifty seven years of being a lawyer that the Islamic Shari`ah is the best to be sought not only by the Muslim, but the Christian also, as it includes all that pleases us, assures safeguarding our rights and duties. It includes many sources of mercy for many citizens. The Islamic Shari`ah came to protect rights. We are happy to find that we are ruled by the Islamic Shari`ah.
- It is the constitution of Egypt which outlines the relationship between the nation and the country, balances the powers, identifies the rights and duties, establishes the country which can create equality and justice among its citizens – if Allah wills.

2- Pursuant to these constitutional rights, Egypt chose Muhammad `Ali Basha Al-Kabir as its ruler (1184-1265 A.H. / 1770-1849 A.C.) on certain conditions that raise the authority of the nation. They state that: "He should rule Egypt justly, carry out the rulings and Shari`ah, keep away from injustice, and should not do anything without consulting the scholars. Whenever he violates any of these conditions, he will be deposed."

3- Then, the Revolution of `Urabi (1257-1329 A.H. / 1841-1911 A.D.) took place in 1881 A.C. against injustice, tyranny, and imperialism and it was for the sake of the constitution and the parliament. This popular revolution causes Egypt to know constitution, parliament, variety of parties, and intellectual enlightenment before many countries in the world.

4- Then the Revolution of 1919 A.C. – 1337 A.H. took place, led by Sa`d Zaghlul Basha (1857-1927 A.C.), the leader of farmers and the son of Al-Azhar. This revolution established a new constitution, parliamentary system, political variety, which made Egypt a pioneer in the Arab and Islamic area.

5- Then the July Revolution took place in 1952 A.C. – 1371 A.H. to evacuate the English imperialism from Egypt and to carry out democracy and social justice. It turned Egypt to a republic and opened the way to its people for Arabism and nationalism.

- In this way, Egypt carried out seven revolutions in the modern history. This is the constitution of Egypt which has never retreated throughout its long history. Rather, it helped and consolidated with the East, and sacrificed to liberate the whole East from imperialism and tyranny. The Egyptian army set forth from Suez in 1504 A.C. to fight by the side of the Indians at the shores of India against the Portuguese invaders.

- The Egyptian army set forth before that to defeat Tatars in `Ayn Galut and to save the civilization from destruction. Also, the Egyptian army purified the East from the Crusader Expeditions, which lasted for two centuries. In the modern era, Egypt helped the movements of national liberation in Asia, Africa, and even in Latin America. Also, it is still ready to fight for the sake of liberating Jerusalem and Palestine.

- It is the constitution of Egypt in which the human civilization began. It is the country in which civility is connected to monotheism, which is conveyed by Idris, the third prophet, whom Allah has elevated to a high rank. Also, it is the country in which monotheism excelled polytheism and paganism throughout its long history. It is the country in which Ibrahim (may peace be upon him), Allah's chosen Prophet, walked in the nineteenth century before Christ. Also, it is the country in which Yusuf (may peace be upon him) called to monotheism in the third country before Christ. Also, Prophet Mosa (may peace of Allah be upon him) [in the thirteenth century before Christ). Akhnaton (1337-1360 B. C.) renewed the call to monotheism. Also, Christ and his mother came to it, and the prophet, called Yusuf Al-Seddik, lived in it.

- It is the constitution of Egypt, which embraced Islam, liberating it, its churches, monasteries, and national patriarch, Benjamin (39 A.H. – 659 A.D.) from the Roman compulsion which continued for ten centuries. `Amr ibn Al-`As described it predicting its Islamic furure saying: "It is a great state, which is equal to caliphate." It occupied since then a pioneering status in the Arab Islamic East.

- It is the constitution of Egypt, which is blessed by Allah, as mentioned in Injil. It is mentioned in the Qur'an for twenty five times. Also, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him)

- It is the first constitution that states the obligation of removing the shame of literacy from our people in a period that does not exceed ten years.
- This is the first constitution that states approving a percentage of the national income for education and scientific research after the deterioration of our education and severe deterioration of the scientific research.
- This is the constitution in which social justice prevails in its articles, as the employees have a share in managing the projects and their representatives represent 50% of the elected members to manage these projects. Also, the junior farmers and craftsmen have a percentage that is not less than 80% of the membership of the boards of cooperative societies and 50% al least of the membership of the economic and social councils which set the policies of the economic and social state. Also, it obliges that state for the first time to provide the junior farmers, agricultural workers, and non-regular employees with suitable stipend. Also, this constitution entitles the citizens, who are not covered by social insurance, the basics of an honorable life such as residence, healthy food, clean water, valid environment, and good education.
- This constitution supports the individual and social freedoms to remove the effects of the dominance of the police over the freedoms. Thus, this constitution states the protection of the freedom of the individuals, families, parties, assemblies, newspapers, demonstrations, and meetings, which can work freely.
- It is the first constitution that guarantees a least amount of salaries and sets a maximum limit for the salaries in the governmental bodies.

- It limits the authorities of the president, the duration of his rule, and sets constraints on the financial guarantees and economic activities for whoever assumes public work in the executive and legislative authorities.
- It is the best constitution in the history of this secure country, either in the way of setting it or the advantages and previliges it includes.
- This is the constitution of Egypt, of the 25th of January, 2011 – 19th of Safar, 1432 A.H. This is the peaceful popular revolution, in which millions of the Egyptians participated. They refused the regime of shame, corruption, and tyranny.
- It is the constitution of Egypt, whose people refused tyranny, oppression, and imperialism. The people recorded in the book "The Revolution" many revolutions, which the people did in the modern age.

1- After the honorable people defeated the French Expedition (1769-1821), which exhausted Europe, fled, it lost one seventh of the martyrs, as the population was about less than three millions after unprecedented sacrifices in the history of revolutions The popular leadership, being represented in the legislative council, which consisted of Al-Azahr scholars and the judges of Sharī'ah, whose representative was 'Umar Makram (1168-1237 A.H. / 1755-1822 A.C. This was the first document of rights, known by the East in the modern era. It states from the legislative point of view that: "The nation is the source of authorities, and it had been firmly established that the people of a country can depose the rulers, Caliphs, and Sultans. They can depose them if they ruled them unjustly. Rather, they can besiege and kill them, as they disobeyed the people of the country." The Egyptians state these points in this constitutional document, being represented by the legislative council in May, 1805 A.C.

jurisprudents. Also, it included many scholars, engineers, religious people, workers, peasants, students, etc.

- The previous constitutions were set in closed chambers, while in the case of this constitution; the sessions of discussing the articles of the constitutions were broadcasted on the TV. The members of the constitutions went to all of the governorates in Egypt and to the Egyptian communities abroad to seek the opinions of the people and to discuss widely societal dialogue about the principles and objectives of the constitution.
- Moreover, this new constitution is the first one that states explicitly that Egypt belongs to the Islamic nation in addition to belonging to the Arab nation and the African continent and its Asian extension. Also, the constitution states the privacy of the Nile Basin.
- It is the first constitution in which the Council of Senior Scholars in Al-Azhar participates, when it set the article of the principles of the Islamic Shari`ah to remove any obscurity, to prevent conflict, and to widen the fields so that these principles include the rules and principles of the Islamic jurisprudence and the authenticated sources of the Shari`ah in the doctrine of Ahl-Al-Sunnah wal Jama`ah. This is to let the legislator to choose that which suits our age and the new circumstances.
- This is the first constitution that states the independence of Al-Azhar as an Egyptian institution and to consult the Council of Senior Scholars in everything that is relevant to the Islamic Shari`ah. Also, it makes this point one of the essential elements of the state and the society.
- Also, it is the first constitution that gives the Christians and Jews – our partners in this nation – the right to resort to the principles of the laws of their religions in their worldly and religious affairs as well as in the choice

of their spiritual leaders. This constitution confirms the fixed Islamic stance "to leave the people free with their religions" and emphasizes this point as an essential principle of the state and the society.

- This is the first constitution that adds consultancy to democracy as one of the principles of the political system. This is the consultancy about which our jurisprudents say: "It is one of the rules of Shari`ah, and the person who does not consult the scholars should be deposed without any controversy."
- It is the first constitution that defines the meaning of citizenship which makes the citizens equal with regards to rights and duties, so as to remove the obscurity as some of the people want this citizenship to be according to the western style, which is based on separating Shari`ah and religion from the civil life.\
- This is the constitution which prevents the establishment of parties that discriminate among the citizens due to the religion. Also, it does not prevent the religious reference in politics and party life, as the case with the amendments of the constitution of 2007 and the constitution of 1971.
- This constitution regained the endowment as a form of ownership and as a financial institution that took part in establishing the social justice in our history and financed the Islamic civilization. This is after the military regime which rule the country for sixty years.
- This is the first constitution which states the necessity of arabizing the education, sciences, and knowledge, so as to support the language of the Qur'an, which remained the language of science in the world for more than ten centuries, as it was not the language of education due to colonization.

Our constitutions state that the Islamic Shari`ah is the main source of legislation, as the nation is one unit. However the integrity of the role of Islam occurs when the countries of the Islamic world unite. According to the above mentioned union, the Arab and Islamic countries will be united in solidarity.

Thus, there will be Arab Islamic solidarity; nevertheless, this solidarity does not cancel the privacy of each of these countries. As the Arab League has not cancelled the independence of the Arab countries according to Dr. Abdul Raziq Al-Sanhury Pasha, the eminent jurist, the Arab and Islamic integrity and solidarity will not cancel the privacy of each country. Thus, those who regard the caliphate as abominable evil are walking on the path of the history train giving their backs to it & soon it will destroy their evil .

The whole caliphate can be attained when all of the Muslims agree on it, so that their governments get closer to each other and understand each other. In this way, they can form a united body called the League of the Islamic Nations to be in charge of the governments and to be the body of the caliphate.

*The Constitution of Egypt
The Constitution of Al-Azhar

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor – in – chief of Al – Azhar Magazine

- The constitutions in Egypt were set according to the will of the ruler only – the constitution of Muhammad `Ali basha "As-Siastenamah Law" in 1837, the constitution of Khedive Ismail in 1879, the constitution of Khedive Tawfiq in 1882, the constitution of King Fuad in 1923, the constitutions of the Leader of July Revolution in 1954, 1956, 1958, and 1964, and the constitution of the leader of As-Tashih Movement, President Anwar As-Sadat in 1971.
- However, this new constitution, which was subjected to referendum in December, 2012 differs from the other constitutions in the respect that the people set and formulated the way of formulating it in March, 2011 after a popular revolution in which ten millions of the Egyptians participated.
- All of the previous constitutions were set by a committee appointed by the ruler. However, this new constitution excels the previous constitutions in the respect that the Constituent Assembly was elected by the legislatures, which were elected by millions of the Egyptians in the first fair, fair, and transparent elections in the history of this great people.
- The previous constitutions were set either by one person only such as Sherif Pasha in the constitution of 1879 or a specialized committee formed by jurisprudents. As for this new constitution, it was set by an assembly that included representatives of the different classes of the people besides

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same copy (Rabiul-Akher).

One Thousand and Three Hundred Years Yelling: The Caliphate is not an Illusion ...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

A book entitled "The Illusion of the Caliphate" by Dr. Ref`at As-Sayid appeared recently. I searched at its beginning, end, and sides for the name of the printing place, but I found none. It seems that it discharges itself from the consequences of printing and publishing this book. Also, I did not find the code number of the book.

It seems that the author of this book was searching hard for the previous authors to whom the caliphate did not appeal, as they exerted great efforts to convey their supporting pretexts. When Dr. Ref'at As-Sayeid chose the caliphate as a topic of his book, he had known quite well that he chose a thorny topic which was desired to be handled by some previous authors, and one of them was punished before an official jurisprudential committee.

Dr. Muhammad `Imarah wrote a book about reviving the Islamic Caliphate, in which he put forth the Islamic caliphate from a modern point of view that suits our circumstances nowadays, saying:

The Islamic caliphate does not exceed the European Union, which consists of independent countries, each of which has its own constitution, government, and president. However, they have a common parliament, foreign policy, economic policy, and unified market although they have different nationalities. We want the Arab world to have a common market and common foreign Arab policy, unified markets, Arab unity, and Arab and Islamic solidarity.

However, all of this needs great and sincere efforts. Also, the number of the Muslims exceeds a billion and sixty million people, constituting a quarter of the world population, and their religion is the most wide-spreading religion in Europe and all parts of the world.

Also, we have extraordinary natural riches, wonderful spiritual, religious, cultural, social, and economic heritage. Thus, the solidarity and integrity of the Islamic world will lead to the establishment of the Islamic caliphate.

If the role of the Organization of Islamic Cooperation is activated, there will be a real Islamic caliphate, as it is a definite system; the systems vary according to time.

AL-AZHAR MAGAZINE

Rabiul-Akher , 1434 A.H



ENGLISH SECTION

February, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University


مكتبة الأزهر الشريف

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ أبريل ٢٠١٣ م الجزء ٥ السنة ٨٦





الشيخ محمد الغزالي



المستشار طارق البشري



د. أحمد فؤاد باشا

الافتتاحية

التأويل العبثي في الدراسات الإسلامية المعاصرة

أ. د. محمد عمارة

أثر الدرس اللغوي في فهم النص الشرعي

أ. د. محمد المختار المهدي

مع الله

د. نظمي لوقا

قصص الأنبياء

الشيخ عبد الوهاب النجار

الإرهاب الفردي

أ. منير شفيق

هدية العدد في الرد على الماديين - العلامة محمد فريد وجدي - تقديم أ. د. محمد عمارة



ALAZHAR MAGAZINE

facebook.com/AlAzharMag



www.AlazharMag.com

في العدد القادم

الافتتاحية

آية الله مطهري ونقد الفكر الشيعي

أ. د. محمد عمارة

نظرة إجمالية للإسلام

العلامة فتح الله كولن

تفسير القرآن الكريم

الإمام محمد عبده

فتاوى لها تاريخ

لفضيلة الشيخ: محمود شلتوت

هدية عدد جمادى الآخرة

السياسة الشرعية والفقه الإسلامى

للإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج

تقديم وتعليق: أ. د. محمد عمارة

السعر جنيهان

داخل العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي

صدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م وحمل اسم «نور الإسلام»

برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود القشني

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

الاشتراك السنوي
داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا - الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوروبا وأمريكا ٨٠ دولارا أمريكيا - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام -
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:
مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

مكتبة الأزهر الشريف

الافتتاحية

التأويل العبثى فى الدراسات الإسـلامية المعاصرة

لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

لقد سعت الهيرمنوطيقا الوضعية العلمانية الغربية، منذ عصر التنوير الأوروبي ـ في القرن الثامن عشر الميلادى ـ إلى «أنسنة» الدين، بإحلال الإنسان محل الله، وإحلال القارئ محل الوحي، وجعل الوحي ـ في النص الديني ـ هو ما توحيه القراءة الذاتية للقارئ، وما توحيه كينونة عالم القارئ إلى النص ـ بدلاً من العكس ـ كما سعت هذه الهيرمنوطيقا إلى عزل القيم والأخلاق والأحكام الدينية عن مصدرها الإلهي «اللاهوت»، وإقامة قطيعة معرفية كبرى مع الموروث، والموروث الديني على وجه الخصوص.. حتى بلغت حد الصيحة المنكرة: «لقد مات الله»!! وبذلك أحلت «الدين الطبيعي» محل «الدين الإلهي»، بعد أن جعلت الإنسان طبيعيًا، وليس ذلك الرباني الذى نفخ الله فيه من روحه.

وهذا التأويل الهيرمنوطيقي ـ الوضعي العلماني ـ وإن كان قد شارك في الغلو ذلك التأويل الغنوصي الباطني للنص الديني، بتفريغه من محتواه.. وتعميم هذا الغلو التأويلي على جميع النصوص، لا فرق عنده بين متواتر وغير متواتر، ولا بين محكم ومتشابه، ولا بين وحي وغير وحي.. وذلك بدعوى «أنه لا يوجد نص لا يمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به»[1].. إلا أنه ـ أى هذا التأويل الهيرمنوطيقي الوضعي ـ قد ذهب إلى عكس الاتجاه الباطني في التأويل.. فالتأويل الباطني يزعم أنه ينتقل بالنص من «جسده» إلى «روحه»، بينما الهيرمنوطيقا الوضعية تنتقل بالنص من «روحه» إلى «جسده»، وبعبارة أدق، تنتقل بالدين من الإلهية إلى «الطبيعية»، ومن الميتافيزيقا إلى الفيزيقا، ومن الوحي إلى العقل والتجربة الحسية.. فعلم الكلام ـ عندها ـ ليس علم الإلهيات، وإنما هو علم الإنسانيات.. والله ليس له وجود ذاتي مفارق، وصفاته ليست صفات لذاته الواجبة الوجود ـ وجودًا مفارقًا للطبيعة والواقع والإنسان ـ وإنما هو ـ تعالى عن هذه الهرطقات ـ اختراع الإنسان المحبط، عندما عجز عن تحقيق ذاته الحية، العالمة، القادرة، المريدة، السميعة، البصيرة، المتكلمة، الفعالة لما تريد، فاخترع هذا الإنسان ذاتًا أضفى عليها هذه الصفات التى عجز عن تحقيقها، بسبب الإحباط الذى يعيشه.. فإذا ما نهض هذا الإنسان، فحقق ذاته، وتحلى بهذه الصفات، طويت هذه الصفحة من صفحات العلم الإلهي ـ علم الكلام ـ وأصبحت عبارة «الإنسان الكامل» هي البديل والأدق في التعبير عن كلمة «الله»، التى تنتفي مبررات وجودها حتى في اللغة!!!

(١) د. حسن حنفى «من العقيدة إلى الثورة» جـ١ ص٣٩٧، ٣٩٨، طبعة القاهرة ١٩٨٨م.



• وبنص عبارات أصحاب هذا التأويل المادى العبثي، الذى يعيد في واقعنا الفكرى المعاصر ما صنعته الهيرومنوطيقا الوضعية الغربية مع اليهودية والنصرانية ـ منذ القرن الثامن عشر ـ يقول هؤلاء المقلدون لهذه الهيرمنوطيقا ـ حذوك النعل بالنعل ـ:

«إن الله لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أى أنه تعبير أدبي أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفًا خبريًا.. إنه لا يعبر عن معنى معين، إنه صرخة وجودية أكثر منه معنى يمكن التعبير عنه بلفظ من اللغة، أو بتصور من العقل، هو رد فعل على حالة نفسية، أو تعبير عن إحساس أكثر منه تعبيرًا عن قصد أو إيصالا لمعنى معين، فكل ما نعتقده ثم نعظمه تعويضًا عن فقد يكون في الحس الشعبي هو الله، وكل ما نصبوا إليه ولا نستطيع تحقيقه فهو أيضًا في الشعور الجماهيرى هو الله»[2].. والله باعتباره هو الوجود الواحد، أو المجرد الصورى، أو العلة الغائية، كل هذه التصورات هي في حقيقة الأمر مقولات إنسانية تعبر عن أقصى خصائص الإنسان.. والإلهيات، في الحقيقة، وإن بدت نظرية في الله ذاتًا وصفات وأفعالاً، هي وصف للإنسان الكامل ذاتًا وصفات وأفعالاً»[3].. فالإنسان يخلق جزءًا من ذاته ويؤلهه، أى أنه يخلق المؤله على صورته ومثاله، فهو يؤول أحلامه ورغباته، ثم يشخصها ويعبدها، فالمعبود دليل على العجز، والمقدس قرينة على عدم القدرة. القادر لا يعبد ولا يقدس، بل يعمل ويحقق خططه وأهدافه... إن اختيار باقة من الصفات المطلقة، ووضعها معًا في صورة معبود تشير إلى أن الإنسان إنما يؤله نفسه، بعد أن دفع نفسه إلى حد الإطلاق، فالذات الإلهية هي الذات الإنسانية في أكمل صورها.. وأى دليل يكشف عن إثبات وجود الله إنما يكشف عن وعي مزيف.. ولذلك، فإن التفكير في الله هو اغتراب، بمعنى أن الموقف الطبيعي للإنسان هو التفكير في المجتمع، وكل حديث آخر في موضوع يتجاوز المجتمع والعالم، يكون تعميمة تدل على نقص في الوعي بالواقع.. وتصور الله على أنه موجود كامل هو في

(٢) د. حسن حنفى «التراث والتجديد» ص١٢٨، ١٣٠ طبعة القاهرة ١٩٨٠م.
(٣) د. حسن حنفى «دراسات إسلامية» ص ٤٠٥، ٣٥٩، طبعة بيروت ١٩٨٢م.

الحقيقة تعبير عن رغبة، وتحقيق لمطلب.. وليس حكمًا على وجود في الخارج.. فذات الله هي ذاتنا مدفوعة إلى الحد الأقصى.. ذات الله المطلق هي ذاتنا نحو المطلق، ورغبتنا في تخطي الزمان وتجاوز المكان، ولكنه تخط وتجاوز على نحو خيالي، وتعويض نفسي عن التحقيق الفعلي لهذه المثل في الحياة الإنسانية»!!!(٤).

• وبعد «أنسنة» الإله، تذهب هذه الهيرمينوطيقا ـ في تطبيقاتها على الإسلام ـ إلى «أنسنة» الصفات الإلهية.. «فالصفات السبع هي في حقيقة الأمر صفات إنسانية خالصة، فالإنسان هو العالم، والقادر، والحي، والسميع، والبصير، والمريد، والمتكلم.. وهذه الصفات في الإنسان ومنه على الحقيقة، وفي الله وإليه على المجاز..»!!(٥).

• وبعد تأويل الله بالإنسان.. تذهب هذه الهيرمينوطيقا، في التأويل العبثي إلى «أنسنة» النبوة، بحيث تؤول النبوة، واتصال النبي بالملك والوحي «بعلاقة الفكر بالواقع».. فالنبوة التي تتحدث عن إمكانية اتصال النبي بالله، وتبليغ رسالة منه، هي في الحقيقة مبحث في الإنسان كحلقة اتصال بين الفكر والواقع(٦).. والنبوة ليست غيبية، بل حسية تؤكد على رعاية مصالح العباد، والغيبيات اغتراب عنها، والمعارف النبوية دنيوية حسية..»!!(٧).

• وفي تأويل مادي ووضعي آخر، لأحد تلامذة هذه المدرسة، ينفي عن النبوة والوحي أي إعجاز أو مفارقة لقوانين المادة والطبيعة والواقع، فهي ـ عنده ـ مجرد درجة قوية من درجات الخيال الناشئ عن «فاعلية المخيلة الإنسانية»، يتصل بها النبي بالملك، كما يتصل بها الشاعر بشيطانه، وكما يتصل بها الكاهن بالجان.. فهي ـ النبوة ـ «حالة من حالات الفعالية الخلاقة للمخيلة الإنسانية»، وليست «ظاهرة فوقية مفارقة» للواقع وقوانينه المادية!!.

والفارق بين النبي وبين الشاعر والصوفي والكاهن هو، فقط، في «الدرجة» ـ درجة قوة المخيلة ـ وليس في الكيف أو النوع!.

• وعلى عكس إجماع علماء الأمة ومتكلميها وفلاسفتها على أن «أرواح الأنبياء مددًا من الجلال الإلهي لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية..»(٨)... يقول صاحب هذا التأويل المادي للوحي والنبوة: «إن تفسير النبوة اعتمادًا على مفهوم «الخيال»، معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التي تكون في «الأنبياء» ـ بحكم الاصطفاء والفطرة ـ أقوى منها عند سواهم من البشر.. وإذا كانت فاعلية «الخيال» عند البشر العاديين لا تتبدى إلا في حالة النوم وسكون الحواس عن الانشغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجي إلى الداخل، فإن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» في اليقظة والنوم على السواء.

وليس معنى ذلك التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة «المخيلة» وفاعليتها، فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب.. والنبوة، في هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة.. ويمكن فهم الانسلاخ أو «الانخلاع» في ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة.. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي

(٤) «من العقيدة إلى الثورة»، جـ٢ ص٦٣٩، ٦٤٠، جـ١ ص٨٨، ٨٩.
(٥) المرجع السابق. جـ٢ ص٦٠٢، ٦٠٤. (٦) «دراسات إسلامية»، ص٣٩٧.
(٧) «من العقيدة إلى الثورة»، جـ٤ ص٣٤.
(٨) الإمام محمد عبده «رسالة التوحيد» ص٨٦ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٤م.

ـ القرآن ـ لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثبًا عليه وتجاوزًا لقوانينه، بل كانت جزءًا من مفاهيم الثقافة ونابعة من موضعاتها وتصوراتها..»!!(٩).

• وإذا كان الأمر كذلك، فإننا لا نكون بإزاء أي إعجاز.. وإنما أمام قوة «مخيلة»، جاءت بقرآن، يمكن ـ بل يجب ـ تأويله تأويلات متعددة بتعدد القراء لنصه؛ لأنه لا يتضمن معنى ثابتًا ولا خالدًا.. فهو ـ بعبارة صاحب هذا التأويل ـ «نص بشري، وخطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا.. وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص، بل لكل قراءة ـ بالمعنى التاريخي الاجتماعي ـ جوهرها الذي تكتشفه في النص.. فالقرآن، في حقيقته وجوهره، منتج ثقافي، تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا..»(١٠).

• وبعد أنسنة الإله.. وأنسنة النبوة.. ونفي التنزيل والإعجاز عن القرآن والوحي.. ونفي كل خلود عن كل معاني القرآن.. تذهب هذه الهيرمينوطيقا المعاصرة إلى أنسنة عالم الغيب، فترى في أنباء الغيب تعبيرات فنية وصورًا خيالية تعبر عن أماني الإنسان.. «فأمور المعاد إنما تعبر، على طريقتها الخاصة، وبالأسلوب الفني، الذي يعتمد على الصور والخيال، عن أماني الإنسان في عالم يسوده العدل والقانون.. إنها تعبير عن مستقبل الإنسان في عالم أفضل..»!!(١١).

وحديث القرآن عن اللوح المحفوظ:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

(البروج: ٢١، ٢٢)

«هو صورة فنية الغاية منها إثبات تدوين العلم، فالعلم المدون أكثر دقة من العلم المحفوظ في الذاكرة أو المتصور في الذهن»(١٢).

• وبعد تأليه الإنسان، وأنسنة الله.. وأنسنة النبوة والوحي وعالم الغيب.. تذهب هذه الهيرمينوطيقا المعاصرة إلى تأليه العقل، والاستغناء به وبالحواس عن الوحي والغيب، فتقول: «إن العقل ليس بحاجة إلى عون، وليس هناك ما يند عن العقل. العقل يحسن ويقبح، وقادر على إدراك صفات الحسن والقبح في الأشياء، كما أن الحس قادر على الإدراك والمشاهدة والتجريب.. ويمكن معرفة الأخلاق بالفطرة»(١٣).. فالوحي لا يعطي الإنسانية شيئًا لا تستطيع أن تكتشفه بنفسها من داخلها..»!!(١٤).

• وأخيرًا، تعلن هذه الهيرمينوطيقا المعاصرة عن أن مهمتها ـ بعد تأليه الإنسان، وتأليه العقل الإنساني، وأنسنة الله والوحي والنبوة وعالم الغيب ـ تعلن أن مهمتها هي أنسنة الحضارة الإسلامية، بتحويلها عن الإلهية إلى الإنسانية.. وأنسنة الدين الإسلامي، بإحلال «الدين الطبيعي» محل «الدين الإلهي»، فتقول:

(٩) د. نصر حامد أبوزيد «مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن»، ص٦٥، ٥٦، ٥٩، ٣٨. طبعة القاهرة ١٩٩٠م.
(١٠) د. نصر حامد أبوزيد ـ مجلة «القاهرة»، «مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق» ـ عدد أكتوبر ١٩٩٢م و«نقد الخطاب الديني»، ص٨٣، ٨٤، ٩٩. طبعة القاهرة ١٩٩٢م.
(١١) «دراسات إسلامية»، ص٤٠٤.
(١٢) «من العقيدة إلى الثورة»، جـ١ ص١٣٥. (١٣) المرجع السابق. جـ١ ص٨٤٨.
(١٤) من تقديم د. حسن حنفي لـ «تربية الجنس البشري» ـ لسنج ـ ص١٤٦. طبعة القاهرة ١٩٧٧م.

«إن مهمتنا هي أن ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد، فبدلًا من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله.. تكون متمركزة على الإنسان.. وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان.. إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة، ومن الإيمان إلى العقل، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلي المستنير»!!(١٥).

• بل لقد بلغ الغلو بأحد تلامذة هذه المدرسة، إلى الحد الذي انتقد فيه تأويل العقائد الإسلامية في عالم الغيب تأويلا يحولها، فقط، من الحقيقة إلى المجاز، ويجردها، بأنسنتها ـ فحسب ـ من إلهيتها، فدعا إلى إلغاء هذه العقائد كلية، أي إلغاء حتى صورتها الإنسانية، المجردة من الإلهية والغيب، فقال:

«إن هذا التأويل، الذي يحول الوحي إلى واقعة تاريخية.. وإلى الطبيعة.. وإلى خبرة بشرية، ونشاط ذهني، ويرد الميتافيزيقي إلى الفيزيقي.. ويحول العلم الإلهي إلى علم إنساني.. وإن لم يخل من فائدة تتمثل فيما يحدثه من خلخلة في بنية الفكر الديني المسيطر والمستقر.. إلا أنه يكشف عن الطابع المتردد الذي يقع في «التلوين» بدلًا من «التأويل».. ويتعارض مع تاريخية الوحي.. ثم، ما الهدف والغاية من استمرار الوحي، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء، حتى بالمعنى المجازي ـ الوحي الطبيعي ـ؟؟..»!!!(١٦).

فالمطلوب ـ في هذا التأويل العبثي ـ هو إلغاء عقائد التوحيد والبعث والجزاء، حتى ولو كانت مجرد فكر إنساني!!..

❁❁❁

لقد سألت واحدًا من الذين يتولون كبر هذه الدعوى.. بل ويفرضونها على طلابهم في الجامعات:

ـ كيف توفق بين تأويلك هذا للدين، الذي يلغي ثوابت عقائده ومبادئ شريعته ومنظومة قيمه.. بل ويحكم بالموت على مصدر النص الديني المؤسس للدين(!!!)... وبين رفعك للشعارات الإسلامية ـ حتى المثير للجدل منها ـ مثل «الحاكمية» ـ عند الشهيد سيد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٦هـ، ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦م).. و«عموم ولاية الفقيه» ـ عند آية الله الخوميني (١٤١٠هـ، ١٩٨٩م)؟؟ كيف توفق بين هذه المتناقضات؟؟!!!

فكان جوابه:

ـ «إن هذه كلها «أوعية» نضع فيها «المضمون» الذي نريد!!»..

❁❁❁

• وفي حوار أجرى مع صاحب هذه الدعوى ـ نشرته مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» ـ تحت عنوان: «الهيرمينوطيقا وعلوم التأويل».. قال:

«لقد قال المحدثون: مات المؤلف عاش النص. فالمؤلف عندما كتب نصه، نحن لا ندري ما إذا كان ما في الذهن مطابقًا تمامًا لما في العبارة، وأن المؤلف قد انتهى وبقي النص، فأصبح النص يتحدث بنفسه.. لأن المؤلف قد مات..

والسؤال هو الآتي: هل هناك معنى موضوعي في النص؟ هل النص يحتوي على معان موضوعية؟..

(١٥) «دراسات إسلامية»، ص٣٠٠، ١٢٨.

(١٦) د. نصر حامد أبوزيد «نقد الخطاب الديني»، ص١٣٢، ١٧٤ ـ ١٧٩ ـ من نقد د. نصر أبوزيد لأستاذه د. حسن حنفي.


سيد قطب

إن القارئ هو مؤلف ثان للنص، يستطيع أن يعطي لنفسه الحرية في أن النص ما هو إلا مناسبة ما هو إلا البداية وليس النهاية.

يوجد شيء في داخل النص، ولكن النص عندما يتحول إلى قراءة بالعين، أو إلى سماع بالصوت، فإنه يثير في نفس القارئ دلالات ومشاعر، قد لا تكون متضمنة في النص موضوعيًا، ولكن موجودة في ذاتية القارئ.. فلا يوجد معنى موضوعي للنص... إن النص يتحول إلى مجرد مشجب، إلى شماعة، أو إلى مرآة، تكشف قراءات العصور في ظروفها التاريخية، وفي ظروفها الاجتماعية والسياسية، فالنص يصبح مرآة صامتة، لا تكشف عن شيء إلا إذا أتاها موضوع تعكسه، لكن النص نفسه ليس له معنى موضوعي داخلي في ذاته...

... والدين، إما دين وحي، أو دين الطبيعة. دين الوحي هو الذي يأتي به الأنبياء، والدين الطبيعي هو الذي يكتشفه الإنسان بنفسه...

... إن النص لا يتكلم، ومؤلفه قد مات، وإن كل ما يستطيعه القارئ أو المفسر هو أن يحيي النص من جديد، ليس بمدى مطابقته مع مؤلفه الأول، بل مدى مطابقته مع المفسر الثاني، فالمفسر أو المؤول هو المؤلف الثاني، والمؤلف الثاني هو المؤلف الحقيقي، وليس المؤلف الأول... فالنص أخرس، صامت.. والمؤول هو الذي يجعله يتكلم.. وفي التأويل لا توجد حقيقة موضوعية... ولا يوجد صواب وخطأ، كلتاهما قراءة.. وفي الحقيقة لا يوجد معيار للصواب والخطأ داخل النص.. فكل قراءة هي اجتزاء، كل قراءة هي خيانة للكل؛ لأنها ترد الكل إلى أجزائه.

... وإن ما تصوره القدماء أنه من وحي الله أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان. وقد أدى ذلك إلى تغيير مفهوم الوحي والنبوة.. ولقد انتهى النقاد إلى أن العقيدة لم تخرج من النص، بل إن النص خرج من العقيدة. آمن الناس أولًا، ثم دونوا إيمانهم بعد ذلك في نصوص اعتبرت مصدر الإيمان ومنشأه..»!!!!!(١٧).

❁❁❁

• ومن المضحكات المبكيات، أن صاحب هذا التأويل العبثي ـ الذي يجعل الإنسان خالقًا لله، وليس الله هو الذي خلق الإنسان!!..

والذي يقترح حذف لفظ الجلالة حتى من اللغة.. والاكتفاء بعبارة «الإنسان الكامل»؛ لأنها الأدق في التعبير!!..

والذي يرى أن الإيمان هو الإلحاد!! لأن الدينية قد طرأت على الدين في عصور الانحطاط!! والذي يقرر موت الإله!!.. وتفريغ الدين من الدين!!..

والذي يدعو لتحويل الدين إلى أيديولوجية.. وتحويل الأيديولوجية إلى فكر إنساني.. أي «أنسنة» الدين.. وإلغاء الغيب.. وإحلال «الدين الطبيعي» محل «الدين الإلهي»!!

أي الذي «ينقل» كل هذا «العبث الغربي»، الذي صنعته الهيرمينوطيقا الغربية مع اليهودية والنصرانية، إلى الميدان الإسلامي.. أي أنه مجرد «ناقل» و«مقلد»، حذوك النعل بالنعل.. ولا علاقة له بأي «فقه» أو «إبداع»!..

(١٧) حسن حنفي «قضايا إسلامية معاصرة» بيروت العدد التاسع عشر ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ص٨٩ ـ ٩١، ٩٤، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ٢١٨، ٢١٩.

المضحك والمبكى أن صاحب هذا «العبث المنقول» ـ الذى يسمى نفسه «فقيه الأمة» ـ هكذا بتعميم وتفرد وإطلاق!! ـ .. قد دعاه وزير الإعلام السعودى لأداء فريضة الحج ١٤٢٦هـ.. وبعد تردد فى قبول الدعوة ـ وفق روايته المكتوبة والمنشورة ـ وبعد ميل إلى الرفض.. «لأن المفكر لا يملك أسبوعًا يقضيه فى الحج»!.. عاد ـ تحت إلحاح زوجته ـ التى قالت له: «لماذا لا تعتبر الحج مثل الندوة»؟!ـ.. فقبل الدعوة.. ولما عاد من «الحج»، كتب انطباعاته، ونشرها فى الصحافة، تحت عنوان: «خواطر حاج».. وقال فيها ـ «فقيه الأمة» هذا ـ:

- إنه ذهب إلى الحج دون إحرام!..
- وأن «أكثر شعائر الحج مظهرية»!..
- وأن «الكعبة توحى للناظر بالوثنية القديمة فى العصر الجاهلى»!..
- وأن حائط رمى الجمرات هو «كالتمثال فى الجاهلية»!..
- وأن مناسك الحج، التى «تربط الجديد بالقديم، والمسلمين بالحنفاء، والرسول بإبراهيم، هى من بقايا الوثنية القديمة بعد تهذيبها»!!(١٨).

نعم.. هكذا كتب «فقيه الأمة» عن الحج إلى بيت الله الحرام ـ الذى ذهب إليه وعاد منه دون إحرام! ـ ولا تسل عن الطهارة!ـ..

وهكذا يكون «الفقه» عند عبيد التقليد للهيرمينوطيقا الغربية.. الذين ينقلون عبثها بالنص الدينى إلى ميدان القرآن والإسلام!..

***

- وإذا كانت بلوى هذا التقليد قد عمت أغلب بلاد الإسلام، وذلك عندما حملتها رياح الغزو الفكرى الذى جاء إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة.. فإن نماذج هذا التأويل العبثى، الذى اجتاح ـ أو حاول ـ مقدسات الإسلام، والمحكم من آيات القرآن ـ فى العقيدة والشريعة والقيم ـ قد امتدت وانتشرت على امتداد مجتمعات عالم الإسلام.. بحيث يحتاج استقصاؤها إلى مجلدات..

ولما كنا حريصين على الإيجاز فى هذه الدراسة، حتى تحمل صورة هذا التأويل العبثى إلى أوسع جمهور من الباحثين والقراء.. فإننا نكتفى ـ هنا ـ بإشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى نماذج ثلاثة من هذا التأويل العبثى ـ غير التى سبقت الإشارات إليها.

١ـ فواحد منهم يقول: «إن القرآن يقول كل شىء، دون أن يقول شيئًا»!!(١٩).

٢ـ وثانيهم يقول: «إن التقديس للكتب المقدسة خلع عليها وأسدل بواسطة عدد من الشعائر والطقوس والتلاعبات الفكرية الاستدلالية.. والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية»(٢٠) «ولن نستطيع تجنب مشكلات التفكير التيولوجى إذا استمر نظرنا إلى القرآن كنص دينى متعال، يحتوى على الحقيقة التى تجعل حضور الله دائمًا..»!!(٢١).

(١٨) د. حسن حنفى: صحيفة «أخبار الأدب» ـ القاهرة ـ عدد ٦٥٤ فى ٢٢ من ذى الحجة ١٤٢٦هـ ٢٢ يناير ٢٠٠٦م.
(١٩) د. طيب تيزينى «النص القرآنى» ص٢٤٣.
(٢٠) د. محمد أركون «القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى» ص٢٥، ٢٦ ترجمة هاشم صالح. طبعة بيروت ٢٠٠١م.
(٢١) د. محمد أركون «الإسلام والتاريخ والحداثة» ص٣٥ ـ مجلة «الوحدة» ـ الرباط ـ عدد ١٩٨٩م ـ ترجمة: هاشم صالح.

«ولابد من النظر إلى القرآن ليس على أنه كلام آت من فوق، وإنما على أنه حدث واقعى تمامًا كوقائع الفيزياء والبيولوجيا..»!!(٢٢).

٣ـ أما ثالثهم فيقول:

«إن التأويل يطمح إلى التفكيك الذى يقطع الصلة بين النص وقائله وبين المعنى واحتمالاته»!!(٢٣).

«وإن مهمة القارئ الناقد أن لا يؤخذ بما يقوله النص.. مهمته أن يتحرر من سلطة النص لكى يقرأ ما لا يقوله، فالنص يحتاج إلى عين ترى فيه ما لم يره المؤلف وما لم يخطر له..»!!(٢٤).

«ولابد للتقدم والنهضة من خلخلة القناعات وزحزحة المعتقدات»!!(٢٥).

«ويجب أن نصل إلى المستوى الذى بلغه المعرى (٣٦٣ـ٤٤٩هـ، ٩٧٣ـ١٠٥٧م) حين قال:

ولا تحسب مقال الرسل حقا
ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد
فجاءوا بالمحال فكدروه»!!(٢٦)

«إن القرآن يرسخ الأدلجة والأسطرة والتقديس.. والنصوص جميعًا سواء فى ممارسة الحجب والمخاتلة والألاعيب والمراوغة»!!(٢٧).

«ولابد من نزع هالة القداسة عن الوحى بتعرية آليات الأسطرة والتعالى والتقديس التى يمارسها الخطاب القرآنى»!!(٢٨).

«.. وذلك لتحقيق مرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»!!!!(٢٩).

***

هكذا.. ومن خلال هذه السطور المعبرة عن مقاصد أصحاب هذا التقليد الجامد والأعمى للهيرمينوطيقا الغربية، ظهر جليًا أن معركتهم الكبرى والحقيقية إنما هى ضد الذات الإلهية.. والوحى.. والنبوات والرسالات.. والعقائد والمقدسات.. والشرائع والقيم والأخلاق.. أى ضد كل الذى حقق ويحقق تماسك المجتمعات المؤمنة، وتوجيهها إلى ما يحقق الطمأنينة والسعادة فى المعاش والمعاد..

فالإمبريالية عند أصحاب هذا التأويل العبثى هى «إمبريالية الذات الإلهية»!!.. وليست الإمبريالية الغربية المتوحشة، التى جاءتنا بالنهب الاستعمارى.. وبهذا التأويل العبثى لمقومات صمودنا ومقاومتنا.. هذا التأويل الذى يبشر به هؤلاء الذين مثلوا ويمثلون الامتدادات السرطانية للغزو الفكرى الغربى فى عالم الإسلام.

(٢٢) د. محمد أركون «تاريخية الفكر العربى الإسلامى» ص٢٨٤. ترجمة هاشم صالح.
(٢٣) د. على حرب «الممنوع والممتنع فى نقد الذات المفكرة» ص٢٢ طبعة بيروت ١٩٩٥م.
(٢٤) د. على حرب «نقد النص» ص٢٢ طبعة بيروت ١٩٩٣م.
(٢٥) المرجع السابق ص٧٢، ١٤٣.
(٢٦) المرجع السابق ص١٩٠.
(٢٧) المرجع السابق ص١٧.
(٢٨) المرجع السابق ص٢٠٣ و«الممنوع والممتنع فى نقد الذات المفكرة» ص١٢٠.
(٢٩) د. على حرب. صحيفة «الحياة» ـ لندن فى ١٨ ـ ١١ ـ ١٩٩٦م ـ مقال «مسيرة التقدم والحداثة بين انصاف زيتون وانتيار أركون».

تفسير سورة البقرة



للشيخ - محمد عبده

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

(البقرة: ٤٧ ـ ٤٨)

تقدم تذكير بنى إسرائيل بالنعمة فى آية قبل هذه الآية، مقرونًا بالأمر بالوفاء بعهد الله، وبالوعد بالجزاء عليه والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده، «وهى آية ٤٠»، وتلاها آيات أمرهم فيها بالإيمان بالقرآن ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم للناس به وتلاوتهم الكتاب الداعى إليه، ودلهم على الطريق التى لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان، تلك الطريق هى الاستعانة بالصبر والصلاة التى فقدوها بفقد روحها، وهو الإخلاص والخشوع.

وبعد هذا، عاد على التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل.. فإن النعمة فى الآية الأولى مجملة والإجمال ينبه الفكر إلى الذكر فى الجملة، فإذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم، فيكون التذكر أتم، والتأثر أقوى، والشكر على النعمة أرجى.

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله إياهم على الناس، إحياء لشعور الكرامة فى نفوسهم، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء.. وهذا أسلوب حكيم فى الوعظ. فينبغى لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة فى نفوس الموعوظين، لتستعد بذلك لقبول الموعظة، وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التى هى من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى ما فى الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور، شعور العلو والرفعة، أن تنحط إلى تعاطى تلك الخسائس، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه، ثم إن فى الوعظ ممّا يؤلم نفس الموعوظ وجرحا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه. فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإيماء ما ينمى إليه من

الشرف أن يدوم على مثل ما يقترف، يقبل بالنفس على القبول كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه.

ألا وإن هذا الشعور، شعور الشرف والرفعة، ملازم للإنسان لا يفارقه، ولكنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر. وفى تحريك الواعظ له، اعتراف ضمنى بكرامة وفضل للموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من مظنة الإهانة فيسهل احتماله ويقرب قبوله.

شعور العزة والكرامة أمر شريف يحييه الإيمان فى نفوس المؤمنين الصادقين، بل يستلزمه على وجه أكمل، لأن صاحب الإيمان الصحيح يرى أن له نسبة إلى الرب العظيم خالق السموات والأرض، وأنه سنده وممده، وعند ذلك تعلو نفسه وترتفع كما قيل:

قوم يخالجهم زهو بسيدهم
والعبد يزهو على مقدار مولاه

من كان يشعر لنفسه بقيمة أو يجد لها حقًا فى أن تعز وتكرم، تراه إذا خلا بنفسه وتذكر أنه ألم بنقيصة يتألم ويتململ ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وإذا تذكر المؤمن أن قلبه الذى تشرف بمعرفة الله تعالى، وأن شرف تلك المعرفة خلصه من العبودية لغيره وصيره، مربوبًا لرب العالمين وحده، فهو فى ذلك مع أرفع رفيع وأكرم كريم سواء، إذا ذكر ذلك لم ير من اللائق بمثل هذا الاختصاص أن يجاوره ما يدنسه من الاستعداد لما يذله، بل يرى أن ذلك الشعور الطاهر والعرفان الهادى إلى مقامات الكرامة لا ينبغى أن يزاحمه فى موطنه من القلب دنس من رجس الرذائل. فينفر من هذه المزاحمة، وتثقل عليه، ويسهل عليه التزكى مما ألم به، والإنابة إلى الله تعالى. لهذا، بدأ الله تعالى تذكير بنى إسرائيل بما بدأ وثنى بما ثنى، وهو يتضمن من التقريع والتوبيخ ما يشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم، فإن من لا يتأدب بإحياء إحساس الكرامة، يؤدب بالتأنيب والإهانة.

العبد يقرع بالعصا
والحر تكفيه الإشارة

فقوله تعالى:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

مؤكد لمثله فى الآية: «٤٠»، وتمهيد لما عطفه عليه من تفصيل الإجمال فى الآية وما بعدها من الآيات، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم، وما تخللها من المواعظ والحجج، وأوله وأعلاه وقوله:

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

أى أعطيتكم من الفضل ـ وهو الزيادة فيما يحسن ـ ما لم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية كالمصريين وسكان البلاد المقدسة.

.. ناداهم باسم أبيهم الذى هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم، وأسند النعمة إليهم جميعًا لا إليه وحده، لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم. ثم طفق يفصل النعمة التى ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها، فذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله، فإن بنى إسرائيل كغيرهم من البشر. والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل، لأن الذى يرى نفسه رذلًا خسيسا، لا يبالى ما يفعل؛ ومن يرى نفسه مفضلًا مكرمًا، فإنه يترفع عن الدنايا والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله. والحكمة فى التذكير بالتفصيل: أن يتذكروا أن الذى فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته، وتنبيههم إلى عدم الذهول عن أنفسهم ليذكروها عند أمر الناس بالبر، ويعلموا أنهم أولى بأن يبروا

ممن يأمرونهم بالبر، لأنهم يتلون الكتاب الداعي إليه وهو آية تفضيلهم. وإلى أنهم أحق باستعمال الفكر في الآيات التي أوتيها النبي ﷺ، وأجدر من جميع الشعوب بالإيمان به، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل هو عليه.

ثم إن الفضل على العالمين: إن كان بكثرة الأنبياء فيهم، فهو ظاهر على عمومه، لأنه لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية. ولا تقتضي هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تنافي أن يفضلهم أخس الشعوب ـ بله غيره ـ إذا هم انحرفوا عن هدى أنبيائهم، وتركوا سنتهم، واهتدى إليها ذلك الشعب الذي كان مفضولاً. وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى بمرضاته، فلابد من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل.

ثم قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾

أي واحذروا يومًا عظيمًا أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يوم لا تغني فيه نفس مهما يكن قدرها عظيمًا عن نفس مهما يكن ذنبها صغيرًا شيئًا ما كحمل وزرها، أو تكفير ذنبها:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

(فاطر: ١٨).

وصف اليوم بهذا الوصف، ولم يقل يوم القيامة مثلاً، للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والأمر كله لله، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض. وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

(الفاتحة: ٤)

ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال:

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «ولا تقبل» بالتاء، والمعنى: لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها، ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هي استطاعت أن تأتي بذلك كما يظن أكثر الكفار ولن تستطيع. قال البيضاوي: وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية، وجملة المعنى أنه يوم لا تأثير لأحد فيه ولا كسب، ولا ينطق فيه أحد إلا بإذن الله تعالى. وقال «الجلال» أي ليس لها شفاعة، واستدل بقوله تعالى حكاية عن المجرمين في الآخرة:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾

(الشعراء: ١٠٠)

وفسر العدل بالفداء، قال:

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

أي يمنعون من عذاب الله.

ولا دليل في هذا على أن المراد ما ذكره في مسألة الشفاعة، وإنما السياق في الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الإنسان في اختياره، يدفع عن نفسه بالعدل والفداء، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

السلاطين والأمراء، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق وبالباطل على سواء. بل يكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه في عمله، قبل حلول أجله، ورحمة الله العلي الكبير له، لضعف حوله، وضيق طوله، وأنه يوم لا يتحرك فيه عضو إلا بإذن الله، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا بإذن الله:

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

(الانفطار: ١٩).

كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية، كقدماء المصريين واليونان، يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخلص المجرمين من العقاب بفداء يدفع بدلا وجزاء عنه ـ كما يستبدل بعض حكامهم منفعة مالية بعقوبة بدنية ـ أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ إرادته. ولقد اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص، وأتى بنيانها من القواعد. ولكن المسلمين لم يسلموا منها، فقد دخل في الإسلام أقوام يحملون أوزارا مما كانوا عليه من الوثنية، ولم يلقنوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة، فكانوا على بقية مما كان عندهم وعلى جهل بالإسلام. وجاء قوم آخرون تعمدوا الإفساد، فجعلوا التأويل الباطل حقا، والكذب صدقا.

ومن ذلك، بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين، وهي من إرث قدماء الوثنيين، كإعطائهم لغاسل الميت شيئًا من النقد يسمونه «أجرة المعدية»، أي أجرة نقله إلى الجنة. وغير ذلك مما يعملونه للأموات، ولمن يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله. ومثله أكثر تقاليدهم في بناء المقابر واحتفالاتها.

وأيضًا، تلك المكفرات التي يعتقدها اليهود، كقربان الإثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرقة، والاكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه.. وكانوا يفهمون أن هذه الأشياء تكفر الذنوب بذاتها، والحق أنها عقوبات لا مكفرات، فإن فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقي هو التوبة والإقلاع عن الذنب، ثم تقديم القربان يكون توبة وعقوبة. وقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدى الإنسان به. وكانوا يعتقدون أنهم بانتسابهم للأنبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلا أياما معدودة، لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة، ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم في العذاب، ثم زادوا على ذلك شفاعة الأحبار لمن ينتسب إليهم، ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد في العامة لما تسوق إليهم من المنافع. وكذلك كان اليهود، حتى جاء الإسلام بهذه الآية وأمثالها، فمحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا مرضاة الله تعالى بالإيمان الخالص والعمل الصالح.

في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقًا، كقوله تعالى في وصف يوم القيامة:

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾

(البقرة: ٢٥٤)

وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة، كقوله عز وجل:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾

(المدثر: ٤٨)

وآيات تقيد النفى، بمثل قوله تعالى:

﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

(البقرة: ٢٥٥)

وقوله:

﴿ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾

(الأنبياء: ٢٨)

فمن الناس من يحكم الثانى بالأول، ومنهم من يرى أنه لا منافاة بينهما فنحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر، لأن مثل هذا الاستثناء «أى الاستثناء بالإذن والمشيئة» معهود فى أسلوب القرآن فى مقام النفى القطعى، للإشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته عز وجل، كقوله تعالى:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الأعلى: ٦، ٧)

وقوله:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾

(هود: ١٠٧)

فليس فى القرآن نص قطعى فى وقوع الشفاعة. ولكن ورد الحديث بإثباتها، فما معناها؟

الشفاعة المعروفة عند الناس، هى أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره ـ حكم به أم لا ـ فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الإرادة وفسخها لأجل الشفيع. فأما الحاكم العادل، فإنه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراده أو حكم به، كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل فى خلاف ما كان يريده أو حكم به. وأما الحاكم المستبد الظالم، فإنه يقبل شفاعة المقربين عنده فى الشىء وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل فى خلافه، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة. وكل من النوعين محال على الله تعالى، لأن إرادته تعالى على حسب علمه، وعلمه أزلى لا يتغير.

.. فما ورد فى إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات، وفيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم، وأنها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة، عبر عنها بهذه العبارة «الشفاعة»، ولا تحيط بحقيقيها، مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفى.

وأما مذهب الخلف فى التأويل، فلنا أن تحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى. والأحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا. ففى رواية الصحيحين وغيرهما، أن النبى ﷺ يسجد يوم القيامة، ويثنى على الله تعالى بثناء يلهمه يومئذ، فيقال له: «ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع». وليس فى الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه. وليس فيها أيضًا ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتمادًا على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله، وأنه لا ينفع أحدا فى الآخرة إلا طاعته ورضاه:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

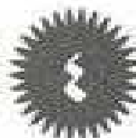
(المدثر: ٤٨، ٤٩)

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾

(الأنبياء: ٢٨).

بيان رد الشبهات عن القرآن الكريم





لفضيلة الشيخ/ عبدالمجيد حامد صبح

البيان العاشر: نصب المضاف إليه

جاء فى سورة هود:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾

(هود: ١٠)

وكان يجب أن يجر المضاف إليه فيقول بعد ضراءٍ.

تبيين الجواب:

وأقول: يا للفضيحة والعار! لقد نادت الجهالة على نفسها، وفضحت أهلها، لقد هممت أن أضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين! ولو أردت لأحلتكم على طالب بالمرحلة الإعدادية ليجيب اعتراضكم، إن تطوع وتنازل ليبين لكم أن الصفة على وزن «فعلاء» مثل ضراء وعلياء وبيضاء وحمراء.. تمتنع من الصرف وتنصب وتجر بالفتحة مالم تضف أو تقترن بأل ومنه دعاؤه ﷺ: «اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى.. وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة».. «ضراء مجرورة بالفتحة وصفتها مجرورة بالكسرة والمعطوف عليه مجرور بالكسرة» قال الفرزدق:

كم عمة لك يا جرير وخالة
فدعاء قد حلبت على عشارى[١]

على نسق اعتراضكم قولوا: أخطأ الفرزدق إذ وصف المثنى بالمفرد، وكان يجب أن يقول عمة وخالة فدعاوان «ويكون فى قولكم خطآن» ألا فاذهبوا إلى قبر الفرزدق معترضين! وما أحسبه يجيب، هوانا بقولكم.

لقد كنت أتكلف لكم العذر، وألتمس لكم مخرجا من الجهل فيما مضى من اعتراضكم لما فى الآيات القرآنية من دقة وخفاء، أما وقد وصل الأمر إلى الجهل بما يعلمه أطفال العلم فتلك هى الفاضحة الموضحة فماذا يفعل المرء فى ذلك؟ وتوضيح الواضح مشكل وإذا قلتم: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟!

البيان الحادى عشر: أتى بجمع كثرة حيث أريد القلة

جاء فى سورة البقرة:

(١) فدعاء القدع: إعوجاج فى أطراف الجسم كالأصابع والمرأة فدعاء، وتثنيتها فدعاوان (عشار): النوق الحوامل.

﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

(البقرة: ٨٠)

وكان يجب أن يجمعها جمع قلة حيث إنهم أرادوا القلة فيقول: «أياما معدودات».

تبيين الجواب:

وأقول: هذا نداء آخر جنت به «براقش»(٢) على نفسها، وما أكثر ما جنت على نفسها براقش من ذا الذى قال إن «معدودة» جمع كثرة؟ إنها لفظ مفرد تدل على القلة وفى سورة يوسف:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

(يوسف: ٢٠)

والثمن البخس لا يكون كثيرا وحالة الزهد النفسية لا تساوم على الكثرة أما ما يدل على الكثرة من مادة «العدد» فهو «عديد»، كما فى قول البحترى فى جيش جرار:

خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
عدد يسير بها العديد الأكثر

ومن ثم وصف «العديد» بالأكثر وليس بالكثير حتى قال فى كثرته:

والأرض خاشعة تميل بثقلها
والجو معتكر الجوانب أغبر

وقال محمود سامى البارودى:

أصبرًا على مس الهوان وأنتم
عديد الحصى؟! إنى إلى الله راجع

جاء (فى لسان العرب): العديد: الكثرة والجمع بالألف والتاء قد يقع للقلة، وقد يقع للكثرة، والذى يعين المراد (المقام) كقوله فى آية الصيام:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

(البقرة: ١٨٤)

أو الصفة بأن تتبعها بوصف يدل على القلة أو الكثرة، فقوله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

(آل عمران: ٢٤)

هذا قد يراد به القلة أما قول أبى الطيب:

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة
ففى الناس بوقات لها وطبول

ولاشك أن المطبلين والمزمرين لدولة الظلم كثير فطبولات مراد به الكثرة ويدل عليه عطف (طبول) وهو من جموع الكثرة أما جموع القلة فمحصورة فى أربعة أوزان جمعها ابن مالك فى قوله:

أفعلة، أفعل، ثم فعل
ثمت أفعال جموع قلة

أما جموع الكثرة فحصرها فى ثلاثة وعشرين وزنا، ليس فيها الجمع بالألف والتاء. ومما يدل على أن الجمع بالألف والتاء قد يقع للكثرة أنك تجمع «طريق» على طرق ثم تجمع الجمع على «طرقات» «فطرق» وزنه فعل جمع كثرة فكيف بجمعه بالألف والتاء تكثيرا للكثير ولذلك قيل فى قوله تعالى:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

(آل عمران: ٢٤)

إنها بعدد أيام سنى التيه فى سيناء وهى أربعون وقالوا: وطول اليوم الواحد مقداره ألف سنة فمن أين جئتم بما قلتم.

مع ملاحظة أن لفظ «معدودة» ليس جمعا كما توهمتم.

والخلاصة: فى الاعتراضين ١١، ١٢ قائم على أن «معدود» للكثرة، وأن «معدودات» للقلة وهذا زعم قام على شفى جرف هار،

(٢) امرأة جنت على قومها فقالوا: على أهلها تجنى براقش، يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره عليه.

فانهار بأصحابه فى أودية سحيقة من مهاوى الجهالات غير المعدودات.

البيان الثانى عشر:
أتى بجمع قلة حيث أريد الكثرة

جاء فى سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

(البقرة: ١٨٣ - ١٨٤)

وكان يجب أن يجمعها جمع كثرة حيث أن المراد جمع كثرة عدته ٣٠ يوما فيقول أياما معدودة.

تبيين الجواب

وأقول: تقدم إجابته فى السؤال السابق (١١)

البيان الثالث عشر:
جمع اسم علم حيث يجب إفراده

جاء فى سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الصافات: ١٢٣ - ١٣٢)

فلماذا قال إلياسين بالجمع على إلياس المفرد؟ فمن الخطأ لغويا تغيير اسم العلم حبا فى السجع المتكلف. وجاء فى سورة التين:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

(التين: ١ - ٣)

فلماذا قال سينين بالجمع عن سيناء؟ فمن الخطأ لغويًا تغيير اسم العلم حبًا فى السجع المتكلف.

تبيين الجواب:

وأقول: كان القرآن الكريم - ومازال - بأسلوبه وبجميع فنونه - جاذبًا للعرب، على علو فصاحتهم، ودقيق علمهم بلغتهم، فلم يتهموه، واتهموا أنفسهم. قال الأصمعى مررت فى الصحراء يومًا على صبية تغنى بقولها:

استغفر الله لذنبى كله
قبلت إنسانا بغير حله
مثل الغزال شادنا فى دله
وانتصف الليل ولم أصله

فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك، قالت: أتعد هذا فصاحة مع قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(سورة القصص: ٧)

قال لها: وما فيها؟ قالت: إنها آية واحدة وجمعت بين أمرين ونهيين وبشارتين، أدركت هذا على فصاحة ما قالت وحداثة سنها مع اتفاق فاصلة الآية مع ما قبلها وما بعدها ولم تقل إنه سجع.

قال جبير بن مطعم: أول ما وقر الإسلام فى قلبى، أن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب سورة الطور فلما وصل إلى قوله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾

(الطور: ٣٥)

كاد قلبي أن يطير لقد أدرك هذا العربي الفصيح السر الذى تضمنته الآية على وجازتها. إنها تضمنت ما يسمى في علم المنطق بالسبر والتقسيم الذى تختبر فيه الأقسام ليتبين صحيحها من سقيمها فكأن الآية قالت: ها أنتم موجودون فمن خلقكم؟ أخلقتم من غير شيء؟ العقل يقول لا: لأن الفعل لابد له من فاعل والمخلوق لابد له من خالق، فبطل هذا القسم فهل أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟ هذا يستلزم، لكي يخلقوا أنفسهم، أن يكونوا موجودين قبل ألا يكونوا موجودين وهذا باطل عقلا وبداهة، وتعين القسم الثالث وهو أنه لابد لهم من خالق وهذا هو المطلوب، وهذا هو الذى أدركه العربي الفصيح ولم يقل (إنه سجع متكلف) مع اتفاق الفاصلة مع ما قبلها وما بعدها.

وحكيم العرب (أكثم بن صيفي) لما سمع بمحمد ودعوته أراد أن يرتحل إليه: ليعلم خبره، فقال له قومه: أنت سيدنا، فابعث إليه من يأتيك بخبره، فأرسل إليه اثنين فقالا للرسول ﷺ: نحن رسل أكثم إليك، يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال ﷺ: أما من أنا فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا، فأنا عبدالله ورسوله، وقرأ عليهم الآية من سورة النحل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

فلما قرءوها على أكثم قال هذا الحكيم: كونوا في هذا الأمر رءوسا قبل أن تكونوا فيه أذنابًا.

حقًا إنه لحكيم، بلغ في الحكمة غايتها! آية واحدة من كتاب الله أدرك بها حقيقة ما جاء به محمد، وصدقه، وأنه بالغ أمره، وأنه منته إلى نهاية يظهر فيها ويعم الناس. فنصح قومه أن يؤمنوا مبادرين ليكونوا رءوسا قبل أن يؤمنوا متأخرين فيكونوا أذنابًا. إنها آية واحدة لخصت حقيقة رسالة محمد ﷺ، وأدرك هذا الحكيم الفطن حقيقتها، وأنها حق، لابد أن يعلو، هذا، مع اتفاق فاصلتها مع سباقها وسياقها.

هذا، وقد خفى على الطاعنين ما لم يخف على الفطن الحكيم، وما يعيب الشمس أن تعمى عنها عين عشواء وقلوب غلف.

لما بعثت قريش (أبا الوليد، عتبة بن ربيعة) سفيرًا إلى الرسول ﷺ عساه يصرفه عما جاء به، فعرض على الرسول ﷺ كل ما يغرى من زهرة الحياة الدنيا وزينتها فقال له ﷺ: انتهيت يا أبا الوليد؟ وقرأ عليه سورة فصلت إلى قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

(فصلت: ١٣)

خشى عتبه أن يتحقق الإنذار فقام إلى الرسول ينشده الله والرحم أن يكف. ثم عاد إلى قومه يقول لهم لقد سمعت منه قولا ما هو من كلام البشر ما هو بشعر ولا رجز، ولا بسحر ولا بسجع كسجع الكهان.. يا قوم أطيعوني، دعوا محمد: فإن لقوله نبأ. هؤلاء ثلاثة شخوص، وصبية، شهود على عظمة القرآن في ما تضمن وما قال وما زعم أحدهم ما زعمتم.

وسورة الصافات التي فيها:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾

ليست فواصل آياتها على حرف واحد فمنها ما هو فاء ومنها الراء ومنها الدال ومنها الميم فالزعم أنه قال إلياسين للسجع المتكلف غير صحيح، وإن كان لابد من السجع كان يمكن أن يقال (سلام على إلياس في العالمين) كما قال في نوح. لكن الأمر ليس كذلك فالصواب أنه قال

﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ليعلم أنه (إلياس)، وليشمل السلام إلياس وأهله ومن ثم وردت القراءة (آل ياسين) والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدل النون من غيرها فيقولون في إسماعيل إسماعين، وإسرائيل إسرائين، وإلياس إلياسين، وسيناء سنين، وجبريل جبرين، صاد أعرابي ضبا فقالت امرأته: إسرائيلي! فأنشد الأعرابي:

قالت - وكنت رجلا فطينا
هذا - لعمر الله - إسرائينا

ذكر النحاة هذا شاهدًا على أن (قال) ينصب مفعولين: (هذا - إسرائينا). قال أبو الطيب في بدر بن عمار:

يا بدر إنك - والحديث شجون
من لم يكن لمثاله تكوين
لعظمت حتى لو تكون أمانة
ما كان مؤتمنا بها جبرين

أحسبكم تقولون إنه تكلف فبدل جبرين من جبريل ليوافق البيت السابق واللاحق، أما الصواب أنها لغة للعرب تطق بها العربي وعرفها أبو الطيب الذى كان ينام ملء جفونه عن شواردها، وكذلك عرفها شارحو ديوانه، ولا سيما فيلسوف لغة العرب (أبو الفتح ابن جنى) الذى قال عنه أبو الطيب: ابن جنى أعلم بشعرى منى، وذكرها ابن كثير في (قصص الأنبياء) في ترجمة إلياس، وذكرها الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير سورة التين. وصور الأسماء في اللغة العربية عديدة كثيرة ذكر منها سيبويه في كتابه ٣٠٨ وبلغ بها العلماء بعده فوق الألف. أين علمكم من هذا العديد الأكثر؟!

وقد جاءكم النبأ عن زعمكم في ﴿ سِينِينَ ﴾ فهي سيناء، وسيناء، وسينين.

أترون ﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾، و ﴿ سِينِينَ ﴾ يقال لهما في حالة الرفع إلياسون وسينون وهذا يلزمكم لو كان جمعًا، واللازم باطل، فبطل ببطلانه الملزوم.

البيان الرابع عشر:
أتى باسم الفاعل بدل المصدر

جاء في سورة البقرة:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

والصواب أن يقال ولكن البر أن تؤمنوا بالله لأن البر هو الإيمان لا المؤمن. (اسم الفاعل: مَنْ).

تبيين الجواب:

وأقول: أولا: قولكم: أتى باسم الفاعل (مَنْ) خطأ والصواب أنها: اسم موصول للعاقل. فلحا الله زمانًا تضطر فيه للرد على من لا يعرف الاسم الموصول من اسم الفاعل والمفعول، فلا عجب - والعجائب جمة - أن من لا يستحى يقول ما شاء!

ثانيًا: أما لماذا أخبر عن (المعنى) بما يدل على (الذات) فقد تقدم بيانه وتحقيقه في الرد على رقم (٩) بما يقر عين العالم وعين التلميذ الذى يعرف قدره فيجلس، «في أدب وتواضع» أمام شيخه ويسأل أهل الذكر عما أشكل عليه.

«يتبع»

وهذه بداية تؤذن بالحظر، فالقاعدة أن ما غلب شره خيره ترك، والشرائع العامة والخاصة تقوم على ذلك الأساس، ونفع الميسر أن كسبه كان يرمى للفقراء، ونفع الخمر يجيء من الاتجار فيها، أو من النشوة الموقوتة التي تعقب تناولها..

بيد أن هذه المنافع خفيفة الوزن إذا قورنت بالأضرار والآثام التي تصحب القمار والسكر..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾

(النساء: ٤٣).

وهذه سياسة عملية واسعة المدى في تحريم الخمر، فإن الصلاة في الإسلام تكتنف الليل والنهار، ومعنى اليقظة التامة عند قربانها أن الذين ما زالوا يستهينون بالشراب سوف يكفون عنه أغلب يومهم، كالذى تعود تدخين ثلاث علب من السجاير إذا فرض عليه أسلوب من الحرمان يباعد بينه وبين شهوته، فإن عدد ما يحرقه قد يهبط من ستين سيجارة إلى عشر أو ست.

وعندما تبلغ الإرادة هذا الحد من القدرة والتسامي، فإن القرار الأخير بالحرمان يجيء في إبانه المناسب، وفي أحسن الظروف لتنفيذه، ومن ثم لم يمض كبير وقت حتى نزل النص الأخير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

(المائدة: ٩٠ - ٩١).

وبعد مجيء هذا الإرشاد القاطع شقت بواطي الخمر، وكسرت دنانها، ورمي بها في طرق المدينة..

ليس في هذه الآيات الكثيرة ما يفيد أن الله أباح الخمر أولاً ثم عاد فحرمها، هل في القرآن نص آخر تفهم منه هذه الإباحة؟!

إن البعض يتوهم من الآية الواردة في سورة النحل أنها تنطوي على حل الخمر، وهذا الوهم لا محل له.

فسورة النحل هذه هي سورة النعم، فيها سرد جميل لآلاء الله على عباده، وخلال هذا السرد تقرأ قوله جل شأنه:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(النحل: ٦٦-٦٧)

إن البعض فهم من السكر أنه الخمر، وهذا خطأ، فالسكر هو الأشربة الحلوة التي تعصر من صنوف الفواكه، ويتناولها الناس طعامًا مغذيًا، ومادة الكلمة أقرب إلى السُّكر منها إلى السُّكْر.

وليس من المعقول عد الخمر من صنوف النعم، ثم سوق ذلك على سبيل الخبر، فإن النسخ عند من يقولون به لا يدخل في الأخبار، وإلا أصبح تكذيبًا لا تشريعًا.

ويرى البعض أن الآية جمعت بين الامتنان والتقريع، وأن اتخاذ الناس أنواع المسكر من ثمرات الأرض لا يسوغ، ولذلك فصلت بين الأمرين فوصفت الرزق الأخير بالحسن، وسكتت عن الأول توطئة لتحريمه مستقبلاً.. وأياماً كان الأمر، فليس في القرآن بالنسبة إلى الخمر أو غيرها أحكام بدأت بالتحليل، وانتهت بالتحريم، أو بدأت بالتحريم وانتهت بالتحليل.

***

ويرى الأستاذ الدكتور «محمد عبدالله دراز» أن تحريم الربا سلك الخطى نفسها التي مشى فيها تحريم الخمر، ولا بأس من نقل كلامه في هذا الموضوع تعميمًا لفائدته، قال:

«فهل يطيب لكم أن تدرسوا معي المنهج التدريجي الذي سلكه القرآن في مسألة الربا «إنه لمن جليل الفائدة أن نتابع هذا السير لنرى انطباقه التام على مسلكه في شأن الخمر، لا في عدد مراحله فحسب، بل هي في أماكن نزول الوحي، وفي الطابع الذي تتسم به كل مرحلة منها.

نعم، فقد تناول القرآن حديث الربا في أربعة مواضع أيضًا، وكان أول موضع منها وحيًا مكيًا والثلاثة الباقية مدنية، وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة مشابها تمام المشابهة لمقابله في حديث الخمر.

ففي الآية المكية يقول الله جلت حكمته:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾(١)

(الروم: ٣٩)

هذه كما ترون موعظة سلبية، إن الربا لا ثواب له عند الله.

نعم ولكنه لم يقل: إن الله ادخر لآكله عقابًا، وهذا بالضبط نظير صنيعه في آية الخمر المكية(٢)، حيث أومأ برفق إلى أن ما يتخذ سكرًا ليس من الرزق الحسن دون أن يقول: إنه رجس واجب الاجتناب.

ومع ذلك، فإن هذا التفريق في الأسلوب كان كافيًا وحده في إيقاظ النفوس الحية وتنبيهها إلى الجهة التي سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم.

أما الموضوع الثاني: فكان درسًا وعبرة قصها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه، وعاقبهم الله بمعصيتهم، وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين، ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح والتعريض، لا بالنص الصريح.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين في موقف ترقب وانتظار لنهي يوجه إليهم قصدًا في هذا الشأن نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية في الخمر(٣)، حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهي صريح فيها، وقد جاء هذا النهي بالفعل في المرحلة الثالثة، ولكنه لم يكن إلا نهيًا جزئيًا في أوقات الصلوات(٤).

وكذلك لم يجئ النهي الصريح عن الربا إلا في المرتبة الثالثة، وكذلك لم يكن إلا نهيًا جزئيًا عن الربا الفاحش! الربا الذي

١- والدكتور المرحوم له رأيه في تفسير الآية، كما أن لنا رأينا الذي أثبتناه سابقا.
٢- انظر النحل ٦٧ ونصها ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
٣- انظر البقرة ٢١٩ ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾
٤- انظر النساء ٤٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾

يتزايد حتى يصير أضعافًا مضاعفة(٥).

وأخيرًا وردت الحلقة الرابعة التي ختم بها التشريع القرآني كله على ما صح عن ابن عباس، وفيها النهي الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدين حيث يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٨-٢٨١)

هذه نصوص التشريع القرآني في الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخي، وإنكم لترون الآن أن الفئة التي تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره «وهي فئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ قدم في علوم القرآن» لم تكتف بأنها خالفت إجماع علماء المسلمين في كل العصور، ولا بأنها عكست الوضع المنطقي المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامي بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق في إتمام مكارم الأخلاق، ويرجع على أعقابه، ويتولى إلى وضع غير كريم، بل إنها قلبت الوضع التاريخي، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية في التشريع، لم يختلف في ذلك محدث ولا مفسر ولا فقيه..

على أننا لو فرضنا المحال ووقفنا معهم عند هذا النص الثالث، فهل نجد فيه ربحًا لقضيتهم في التفرقة بين الربا الذي يقل عن رأس المال، والربا الذي يزيد عليه أو يساويه؟

كلا، فإنه قبل كل شيء لا دليل في الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لا بد منه في التحريم، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش الذي بلغ مبلغًا فاضحًا في الشذوذ عن المعاملات الإنسانية، من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التي تقل عنه في هذا الشذوذ.

ومن جهة أخرى فإن قواعد العربية تجعل كلمة «أضعاف» في الآية راجعة للربا لا لرأس المال - كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين - ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من الربا إلا ما يبلغ ٦٠٠٪(٦) من رأس المال، بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغيرًا تامًا، بحيث لو افترضنا ربحًا قدره واحد في الألف أو المليون لصار بذلك عملاً محظورًا غير مشروع بمقتضى النص الذي يتمسكون به.

أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذي يساوي رأس المال أو يزيد عليه، فإنه لا يصح إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التي نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة، ولقد كان

٥- انظر آل عمران: ١٣٠ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾

٦- ذلك لأن الربا الذي يكون أضعاف رأس المال - بصيغة الجمع - لا بد أن يصل إلى ثلاثة أمثال رأس المال فإذا ضوعفت هذه الأضعاف الثلاثة كانت ستة أمثال وذلك مالم تره في معاملة أجشع المرابين ومالم نسمع به في تشريع سابق ولاحق فيكون القرآن على رأيهم هذا متخلفًا عن جميع القوانين في هذا الشأن.

الشعب العبراني - الذي يعيش والشعب العربي في صلة دائمة منذ القدم - يفهم من كلمة الربا كل زيادة على رأس المال، قلت أو كثرت، وهذا هو المعنى الحقيقي والاشتقاقي للكلمة.. أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربي حادث، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع اهـ.

***

والخلاصة: أن الله ارتضى لعباده حكمًا واحدًا في الخمر وفي الربا، وفي سائر المحرمات، وأنه جلت حكمته تلطف في أخذ عباده بهذا الحكم، وتدرج في حملهم عليه، وذلك بتهيئة أحوالهم النفسية والاجتماعية لقبوله وتنفيذه.. حتى إذا تكاملت الصلاحية المنشودة لتطبيق الحكم المراد، انكشف الغطاء الذي كان يتزحزح قليلاً قليلاً عن الحقيقة التشريعية الأزلية.

الحقيقة التي لم تتغير ولن تتغير.

والقائلون بالنسخ - على معنى إبطال حكم سابق بحكم لاحق - يتعلقون بآيات لا تخدم هذا الغرض ولا تؤدي إليه، من ذلك قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

(النحل: ١٠١، ١٠٢).

قالوا في تفسير الآية: إن المشركين من أهل مكة زعموا أن محمدًا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا، ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى - في نظرهم - وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكمًا آخر، والله أعلم بما ينزل - اعتراض دخل في الكلام، أي: والله أعلم بما ينزل من الناسخ، وربما هو أصلح لخلقه، وبما يغير ويبدل من أحكامه، أي هو أعلم بجميع ذلك من مصالح عباده، ففي الكلام نوع من التوبيخ والتقريع على قولهم للنبي

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾

أي تختلقه من عندك، ثم يسأل الله المشركين!

لماذا يختلقه، أو ينسب إلى الافتراء من أجل التبديل والنسخ، وهو ليس إلا مبلغ عن الله، وإنما فائدة ذلك التبديل ترجع إلى مصالح العباد، ألا ترى الطبيب يأمر المريض بشرب دواء، ثم بعد ذلك ينهاه عنه، ويأمره بغيره

ثم قال المفسرون: وهذا التعبير ليس إثباتًا بأحكام أسهل، أو أقرب إلى رغبات الناس، فقد ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، فالمدار على رعاية الحكمة..

وهذه التأويلات كلها - التي نقلناها عنهم - بعيد عن الآية وعند أقل تأمل يرى المنصف أن ما ينسب إلى المشركين من كلام حول النسخ إنما هو مفتعل ولا يصلح جعله سببًا لنزول هذه الآية الكريمة!.

فسورة النحل مكية وليس فيما نزل قبلها من الوحي الإلهي حكم نسخ بأشق منه أو بأهون، حتى يكون ذلك مثار لغط بين المشركين، أو اعتراض على القرآن بما يقع فيه من تناقض...!! أين الحلال الذي حرم، أو الحرام الذي أحل قبل سورة النحل؟ إن شيئًا من ذلك لم يحدث،

فضلاً عن أن يستفيض، فضلاً عن أن يتندر به المشركون، وينسبوا به محمدًا إلى الافتراء!!

بل نحن نجزم بأن مشركي مكة لم يدر بخلدهم شيء من هذا الذي جعله بعض المفسرين سببًا لنزول الآية، وإنما هو تنزيل الآيات على آراء الفقهاء والمتكلمين وتحميل القرآن ما لا تتحمله آياته ولا ألفاظه من معان ومذاهب.

والشرح الصحيح للآية:

إن المشركين لم يقتنعوا باعتبار القرآن معجزة تشهد لمحمد بصحة النبوة وتطلعوا إلى خارق كوني من النوع الذي كان يصدر عن الأنبياء قديمًا فهو في نظرهم الآية التي تخضع لها الأعناق، أما هذا القرآن فهو كلام ربما كان محمد يجيء به من عند نفسه، وربما كان يتعلمه من بعض أهل الكتاب الذين لهم بالتوراة والإنجيل دراية..

وقد رد الله سبحانه وتعالى على هذه الطعون، بأنه أدرى من المشركين بنوع الإعجاز الذي يصلح للعالم حاضره وغده، وأن هذه الآية أجدى على البشر وأخلد في إنشاء الإيمان وتثبيته من أي آية أخرى، وأن الزعم بأن محمدًا انتفع بعلوم اليهود أو النصارى، ثم ألف هذا الكلام العربي بعد الاتصال بفلان أو فلان من الأعاجم المتنصرين ليس إلا سخفًا يترفع العقلاء العدول عن الخوض فيه!

اقرأ الآية مرة أخرى في تجرد وبساطة تجدها لا تتحمل إلا هذا الشرح القريب، وهو الشرح الذي يربط بها ما بعدها في اتساق وإحكام:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

[النحل: ١٠١-١٠٥].

ومثل هذا الكلام يقال فيما ورد بشأن النسخ في سورة البقرة، ونحن نسوق الآيات المعنية وننظر في شرحها متلمسين الحق وحده، قال جل شأنه:

﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

[البقرة: ١٠٥-١٠٨].

الجملة المكونة من فعل الشرط وجزائه هي التي اعتمد عليها القائلون بجواز النسخ بعدما شرحوها على النحو التالي ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ ما تغير من حكمها مع بقاء لفظها، أو ﴿ نُنسِهَا ﴾: نذهب باللفظ والحكم جميعًا ونمحوه من أذهان الحفظة بعدما استوعبوه قراءة وفهما وعملاً؟!

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

في تحقيق مصالح العباد، وذلك بالنسبة لما ذهب حكمه وبقيت تلاوته، ولما نقضت تلاوته وأحكامه جميعًا.

وهذا التفسير في الحقيقة يبتر الجملة الشرطية عما قبلها وعما بعدها ويعزلها عزلاً لا ينبغي فيه تمحل ولا تكلف، ثم إن القول بآيات نسخ لفظها وحكمها معًا، وأنسيها الرسول وصحابته جميعًا، كلام لا وزن له.

ثم ما معنى التطويح بهذا المنسوخ والإتيان بناسخ مساو له؟!! وكان تذييل الآية - ليستقيم صدرها وختمها على هذا المعنى - أن يقال: إن الله عليم حكيم، لا أن يذكر اسم الجلالة موصوفا بالقدرة على كل شيء.

وقد أجيب عن الاعتراض الأخير بأن معارضي القرآن شغبوا على النسخ، واستبعدوا وقوعه من الله، فرد عليهم بأن النسخ داخل ضمن نطاق القدرة وأن الله القادر على كل شيء لا يعجزه تبديل حكم بآخر، ثم مضى النظم في تخويف المعترضين وتهديدهم ليقبلوا القول بالنسخ، أو ليقبلوا وقوعه!

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

[البقرة: ١٠٧]

ونحن نؤكد مرة أخرى، أن سيرة الرسول الكريم لم تشر من قريب أو بعيد إلى معارضة من المشركين، أو تساؤل من المؤمنين حول أمر النسخ، وأن المجتمع الإسلامي الأول لم تنزل فيه آية بتحليل ثم أتت بعدها آية بتحريم، لا في مكة ولا في المدينة وأنه تبعًا لذلك لم تنزل آية بتخويف أحد كي يقول بالنسخ.

والتفسير الذي ذكرناه - مع تفككه واضطرابه - يقطع أواصر الآية بما قبلها وما بعدها، بل يجو السورة التي بدأ السياق فيها يناقش أهل الكتاب ويندد بمواقفهم، ويشير إلى تعنتهم في تكذيب محمد، واقتراح خوارق مما ألفوا مع أنبياء بني إسرائيل.

فالنسخ هنا ليس تبديلا جزئيا في أحكام شريعة واحدة، بل هو تغيير الدلائل التي تحتف بدين ما كي تركزه في النفوس.

وقد بدأ الكلام بأن أهل الكتاب لا يودون للإسلام خيرًا ولا لأهله فضلاً، ثم أعقبه تساؤل له مغزاه يخاطب اليهود:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾

[البقرة: ١٠٨]

***

والشرح المقبول للآية ننقله عن الإمام الجليل الشيخ محمد عبده، فقد قال:

والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره: أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء، أي نزيلها، ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس، لطول العهد بما جاء بها، فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك، نأتي بخير منها من قوة الإقناع، وإثبات النبوة، أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته، وسعة ملكه،

فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه، والآية في أصل اللغة هي: الدليل، والحجة، والعلامة على صحة الشيء، وسميت جمل القرآن آيات؛ لأنها بإعجازها حجج على صدق النبي، ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل، من قبيل تسمية الخاص باسم العام.

ولقد كان من اليهود من يشك في رسالته ﷺ بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل! ولقد تقدمت الآيات في تفنيد زعمهم هذا عندما قالوا:

﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾

(القصص: ٤٨)

أى من الآيات، فرد الله تعالى عليهم فى مواضع: منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

(القصص: ٤٨)

ومنها هذه الآيات، والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول: إن قدرة الله تعالى ليست محدودة، ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات، أو بآحاد منها لا تتناول غيرها، وليست الحجة محصورة فى المعجزة السابقة لا تتعداها، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التى أعطاها موسى وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شيء، ولا يخرج عن ملكه شيء، كما أن رحمته ليست محصورة فى شعب واحد، فيخصه بالنبوة، ويحصر فيه الرسالة.. كلا..!

إن رحمته وسعت كل شيء، كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السماوات والأرض الذى لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليًا ونصيرًا لمن آمن به لا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه.

انظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها فى هذا المقام، فظهر أن ذكر القدرة، وسعة الملك، إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل، دون معنى الأحكام الشرعية، والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها، لا من حيث هى دالة على النبوة..!

ويزيد هذا المعنى سفورًا ووضوحًا قوله عقبه:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

(البقرة: ١٠٨)

فإن بني إسرائيل لم يكتفوا بما أعطي موسى من الآيات، وتجرءوا على طلب غيرها، قالوا:

﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

(البقرة: ٥٥)

وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها، حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا، وقوله تعالى:

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾

يشمل كل ذلك.

وقد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن فى طلب الآيات، وعدم الإذعان لما يجيء النبي بها، والاكتفاء به ـ بعد العجز عن معارضته ـ هو دأب المطبوعين على الكفر، المجبولين على المعاندة والمجاحدة، فإنه قال بعد إنكار هذا الطلب:

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

(البقرة: ١٠٨)

ويوضح هذا قوله تعالى فى آية أخرى:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(الإسراء: ٥٩)

والمراد: الآيات المقترحة بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين ولو كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها، لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه..

وقوله تعالى:

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

معناه: أنه أخطأ وسط الجادة، ومال إلى أحد الجانبين، ومتى انحرف السائر فى سيره عن الوسط يخرج عن المنهج ويبعد عنه كلما أوغل فى السير، فيهلك دون الوصول إلى المقصد، والمراد بسواء السبيل: الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير فى طريقهما، ومن مال عن الحق وقع فى الباطل لا محالة:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾

(يونس: ٣٢)

هذا هو التفسير الذى تتصل به الآيات، ويلتئم بعضها على بعض، على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذى يتقبله العقل، ويستحليه الذوق اهـ.

***

ونقول: إن أمر القرآن أجل وأعز من أن تقبل فيه أخبار تزعم أن هناك آيات نزلت ثم محيت من الأذهان محوًا، أى نسخت ألفاظها ومعانيها..

فروايات الآحاد ـ لو صحت فى هذا المجال ـ ما أثبتت قرآنًا، فكيف إذا كانت ضعيفة؟! يرفضها النقدة، ويقبضون أيديهم عنها؟؟

وأمر القرآن كذلك أعز وأجل من أن تقبل فيه أفهام سطحية ترسل الحكم إرسالاً بأن هذه الآية بطل حكمها، أو أن هذا النص انتهى أمده!!

إن القرآن الكريم هو الدعامة الأولى للإسلام، وآياته هى الحجج الأولى فى تلك الشريعة الخالدة.

يقول الأستاذ الكبير الشيخ «محمد الخضري»:

هنا مسألة يجب التنبيه لها، وإرخاء العنان للقلم حتى يبلغ الغاية من بيانها وهي: هل من آيات القرآن ما بطل التكليف به لحلول تكليف آخر محله؟! أو بعبارة أخرى هل من آيات القرآن ما هو منسوخ فلا يجب العمل به؟! إن هذه مسألة خطيرة وعلى المتكلم فيها أن يقدم الحجة القاطعة أمام ما يريد أن يقوله، بعد أن ثبت أن القرآن حجة قاطعة يجب الاستمساك بنصوصه كلها والعمل بها.

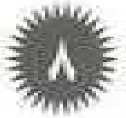
قال: «وإني أزيد المسألة إيضاحًا ولعلي أنال من الله توفيقًا»

ثم شرع الأستاذ بطريق الإحصاء الواقعي، لا بطريق الجدل النظرى يثبت أن آيات القرآن جميعًا محكمة، وأنه ما من آية قيل بنسخها إلا كان القول بإعمالها أبين فى العين وأرجح لدى الموازنة، والاستقراء دليل لا يتحمل لجاجة، فليجتهد من يشاء إثبات إمكان النسخ، فالإمكان شيء ووقوعه فى الكتاب العزيز شيء آخر لم يحدث لأن كل آية ظن نسخها يستبين لدى التأمل أنها نافذة الحكم.. وصدق الله العظيم:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

(فصلت: ٤٢)

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى



ما بدا من اجتهاده في صورة «أن هم ولم يفعل»

في القرآن الكريم بعض آيات يؤذن ظاهرها بتوجيه العتاب من قبل الله سبحانه وتعالى إلى الرسول ﷺ على أمر نفسي جال بخاطره ولم يتعد ذلك إلى دائرة التنفيذ.

يقول تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(هود: ١٢).

والبغوى في تفسير هذه الآية يذكر سبب نزولها فيقول[1]:

١- إن كفار مكة لما قالوا: ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب لآلهتنا همّ ﷺ أن يدع آلهتهم ظاهرًا.

٢- فأنزل الله:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(هود: ١٢).

«وهي مؤذنة بتوجيه عتاب ضمني على ما قام بنفسه من الهم».

ويقول الله تعالى في موضع آخر:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٣: ٧٤).

وسعيد بن جبير يروى - في تحديد نزول هذه الآية الكريمة -:

١- أن النبي ﷺ كان يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك حتى تستلم آلهتنا وتمسكها.

٢- فحدث ﷺ نفسه: وما على إذا فعلت ذلك والله تعالى يعلم أني لها لكاره بعد أن يدعوني حتى أستلم البيت؟.

- وقيل: طلبوا منه ﷺ أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه، فحدث نفسه بذلك- فأنزل الله هذه الآية.

والألوسي في تفسيره يذكر سببًا آخر لنزول هذه الآية، ويقول: وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشًا أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك، وكان ﷺ يشتد عليه فراق قومه، ويحب إسلامهم، فرق لكلامهم فنزلت ..

وفي شرحه لها يقول:

والمعنى: إن اتبعت أهواءهم أحللت نفسك محل المفترى علينا، لأنك بذلك أوهمت أن ذلك بوحي فكنت كالمفترى والله أعلم.

وأيا كان سبب نزول هذه الآية أو التي قبلها فكلتاهما تعطي أن رسول الله ﷺ جال بخاطره أمر نفسي يجول عادة بخاطر الإنسان باعتباره إنسانًا، ثم تبلور هذا الأمر النفسي في صورة «هم» على تنفيذه، فعاتبه الله على ذلك مبينًا له حكمته الإلهية في خلاف ما هم على فعله.

***

وكذا في الحديث الشريف منه ما يعبر عن هذه الحال النفسية للرسول ﷺ، وهي حال الهم بفعل أمر ما، ثم عدم فعله لمصلحة في الترك.

روى البخاري (جزء ٢ باب وجوب صلاة الجماعة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

١- «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف[2] إلى رجال فأحرق عليهم[3] بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أن يجد عرقا[4] سمينا، أو مرماتين[5] حسنتين لشهد العشاء. وفي رواية مسلم: «أخر ﷺ العشاء ليلة فخرج فوجد الناس قليلا فغضب .. فذكر الحديث..».

٢- ولكنه لم يفعل ما هم على فعله إما باجتهاد آخر، أو بوحي من الله في ذلك.

ويروى مسلم[6] عن عائشة رضي الله عنها، عن جدامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

١- «لقد هممت أن أنهى عن نكاح الغيلة.

٢- حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم». [7]

قال العلماء: وسبب همه ﷺ بالنهي عنها خوف الضرر على الولد الرضيع. وكانوا يقولون: إن الأطباء ترى هذا اللبن داء، إذا شربه الولد ضوى واعتل. فلذا كانت العرب تكرهه وتتقيه بقدر الطاقة.

والنووي يعلق على هذا الحديث بقوله: وفي الحديث جواز اجتهاده ﷺ، وبه قال جمهور أهل الأصول.

وأيضا هنا في صورة الهم وعدم الفعل يشق على الإنسان تحديد وقت العدول عن تنفيذه ﷺ ما هم أن يفعله للسبب الذي ذكرناه فيما سبق.

ما بدا من اجتهاده في صورة «الطلب»:

روى البخاري «في الجزء ٦: باب التوديع وباب لا يعذب بعذاب الله». عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

بعثنا ﷺ في بعث، فقال:

١- «إن لقيتم فلانًا وفلانًا - لرجلين من

(١) بعد أن يشرح الجملة الأولى منها بقوله: فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك (هود:١٢) أي فلا تبلغه إياهم.

(٢) أي آتيهم من خلفهم. قال الجوهري: خالف إلى فلان أتاه إذا غاب عنه.

(٣) هذا يشعر بأن العقوبة ليست قاصرة على المال بل المراد تحريق من في البيوت، والبيوت تبع وفي رواية مسلم: «فأحرق بيوتا على من فيها».

(٤) العرق بفتح فسكون. قال الخليل: العرق عظم عليه لحم.

(٥) تثنية مرماة قيل هي سهم يتعلم عليه الرمي.

(٦) في باب جواز الغيلة، والغيلة بكسر الغين هي وطء المرضع - من كتاب النكاح.

(٧) وفي رواية أخرى عن مسلم عن جدامة أيضًا قالت: حضرت رسول الله ﷺ في أناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئا».

قريش سماهما - فحرقوهما بالنار».

٢- ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج، فقال: إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا بالنار، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما». وفي رواية ابن إسحاق:

«.. ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله».

ويعلق الحافظ ابن حجر بقوله: وفي الحديث جواز الحكم بالشيء اجتهادًا ثم الرجوع عنه.

❁❁❁

ويروى مسلم في صحيحه جزء (١) متن (باب من لقي الله بالإيمان) عن أبي هريرة أنه قال: كنا قعودًا حول رسول الله ﷺ - معنا أبو بكر وعمر في نفر - فقام ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا، فكنت أول من فزع حتى أتيت حائطًا للأنصار لبني النجار فدرت حوله حتى دخلته فوجدت رسول الله ﷺ، فقال: «أبو هريرة؟ فقلت: نعم يا رسول الله!.

قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا.. وذكر ما حصل. فقال ﷺ: يا أبا هريرة!.

١- اذهب، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة.

فكان أول من لقيت عمر. فسألني فقلت: بعثني رسول الله ﷺ: من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين ثديي فخررت لاستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة!

فرجعت إلى رسول الله ﷺ: فأجهشت بكاء، وركبني عمر، فإذا هو على إثرى. فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا هريرة؟ قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذى بعثتني به فضرب بين ثديي ضربة خررت لاستي، قال ارجع. قال رسول الله ﷺ: يا عمر! ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! أبعثت أبا هريرة من لقى يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة؟. قال: نعم!. قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون!.

٢- «قال رسول الله ﷺ: فخلهم!».

ومن هذا القبيل ما رواه البخارى في كتاب المغازى في غزوة خيبر عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر حتى أتيناها فحاصرناهم مدة طويلة حتى أصابتنا مجاعة شديدة، ثم فتحها الله علينا، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت فيه أوقدوا نيرانًا كثيرة: فقال ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أى شيء توقدون؟» قالوا: على لحم. قال: «أى لحم؟» قالوا: لحم حمر إنسية. قال ﷺ: «أريقوها واكسروها» أى اكسروا القدور التى فيها الماء واللحم. فقال عمر بن الخطاب: هل نريقها ونغسلها؟ فقال ﷺ: «أو ذاك» والمعنى أن عمر عرض عليه ﷺ غسلها بدل كسرها، فأقره ﷺ على الاكتفاء بالغسل بعد إراقة ما فيها، جمعًا بين تحقيق المقصود من حرمة أكل لحم الحمر الإنسية وبين المحافظة على المال بعدم كسر القدور وكانت قدورهم من الفخار، ويعسر عليهم استبدالها، خصوصًا وهم في السفر.

❁❁❁

وأيضًا في قصة زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، عندما توجه زيد هذا إلى رسول الله ﷺ يريد تطليق زينب لسبب ذكره له.

١- فقال الرسول الكريم لزيد:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾
(الأحزاب: ٣٧).

٢- معاتبة الله على ذلك بقوله:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾

(الأحزاب: ٣٧).

فرجع عما أمر به زيدًا مولاه.

ونود من باب الاستطراد أن نذكر كلمة تتعلق بهذا الحادث، نظرًا لما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ غير مقصود في تفسير هذه الآية الكريمة، واتخذه المبشرون وأعداء الإسلام مرتعًا خصبًا للتضليل وتشويه الرسول ﷺ، حتى يكون أمام القارئ لهذه الرسالة ما يساعده على رد كيد الكائد لدينه.

روى ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن آية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(الأحزاب: ٣٦).

نزلت في زينب بنت جحش لما خطبها ﷺ لزيد مولاه فأبت، فأنزل الله الآية، فقبلت طوعًا لأمر الله.

قال الألوسي في تفسيره تعليقًا على هذه الآية: وكان عرضه ﷺ عليها زواج مولاه زيد إلهامًا من الله، أو وحيًا، ليكون بعد وسيلة لما تلاه من التشريع.

وحاصل قصة «زينب وزيد» على ما أخذ من شراح البخارى والتفسير: أن المعروف أن الولد إما:

(أ) ولد نسب.

(ب) أو ولد رضاع.

(جـ) أو ولد تبن مع معرفة الأب.

(د) أو ولد تبن مع عدم معرفة الأب.

وكان العرب يسمون الولد من هذين النوعين الأخيرين (جـ، د) دعي فلان أو متبناه، كما جرت عادتها أن لا يتزوج الرجل زوج ولده، أيا كان الولد من هذه الأنواع الأربعة.

ولما جاء الإسلام أباح أن يتزوج الرجل امرأة متبناه، إذا طلقها، أو مات عنها.

ولما كانت عوائد العرب في مسائل النكاح حساسة جدًا في هذه الناحية وأراد الله إبطال عادتهم هذه بتشريع مبيح على وجه ملزم بالحل لكل من تحدثه نفسه بالتحلل منه، أوحى إلى رسوله ﷺ أن يتزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة، وأنه إذا طلقها زيد بعد ذلك يتزوجها ﷺ ليبطل تلك العادة بنفسه هو حتى تكون قوة القدرة ماحقة لقوة العادة ولهذا كانت العناية الإلهية بهذا الموضوع ظاهرة في هذه السورة - الأحزاب - من أولها. وقد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة، على ما قال ابن الأثير، وجاء في أولها تمهيدًا لهذا التشريع العظيم الذى حارب عادة تأصلت في نفوس العرب من قرون طويلة قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ

مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(الأحزاب: ٤، ٥).

وقال تعالى فى موضوع الحادث:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٣٦-٤٠).

ويعلق الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله: أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى، فقال: إن هذه الآيات نزلت فى زينب بنت جحش - وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب، عمة الرسول ﷺ، وكان خطبها ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وقال لها: «إنى أريد أزوجك زيد بن حارثة، فإنى قد رضيته لك، فأبت، وقالت: يارسول الله! لكنى لا أرضاه لنفسى، وأنا بنت عمتك فلم أكن لأفعل - وفى رواية أنها قالت وأنا خير منه حسبًا - ووافقها أخوها على ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

(الأحزاب: ٣٦).

ويقول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: لما نزلت الآية رضيت هى وأخوها، فأنكحها ﷺ زيدًا، وساق إليها عشرة دنانير وستين درهمًا مهرًا مع أشياء أخرى من طعام ولباس.

ولما كان هذا الزواج غير طبعى لما علمت من مكانها ومكانه، ومن رغبتها عنه وأنفتها وتواضعه هو وانكساره كان ما لابد منه عادة. وقد جاء زيد إليه ﷺ يومًا، وقال يارسول الله!: إن زينب قد اشتد علىّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها. فقال له ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، فأنزل الله آيات الأحزاب السابقة (٩) معاتبًا له على قوله هذا: ولم يجبه إلى ما أراد، وهو أن لا يكون المباشر فى إبطال العادة المذكورة.

لكن أكانت هناك فترة من الزمن بين أمره الذى عنون له بقوله:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾

(الأحزاب: ٣٧).

وبين عتاب الله جل شأنه له الذى بدا فى قوله:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾

(الأحزاب: ٣٧).

أم كان وقوع العتاب فور صدور هذا الأمر منه ﷺ؟

يتوقف تحديد ذلك على التثبت التاريخي:

يتبع

من أقوال الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب «٢»

حول تقنين الشريعة الإسلامية



الدين والسياسة

هل هناك فرق أو تعارض بين الدين والحكم، أو الدين والسياسة؟ فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والسياسة، أو بين الحكم والدين فإنني أقول: إن هناك فرقًا بين معني الدين في الشريعة الإسلامية وبين معني الدين في الفكر الأوروبي. إن معني الدين في الفكر الأوروبي هو ما يسمي لدينا بالعبادات والميتافيزيقا. ومعني الدين في الفكر الإسلامي: كل ما يخص أمور المجتمع، ابتداء من الولادة، وانتهاء بالوفاة، ولذلك لا يوجد في الإسلام ما يسمي «رجال الدين»، وهذا التعبير موجود في الفكر المسيحي الأوروبي، ولا انفصال بين الدين والدنيا في المجتمع الإسلامي، وتلك نقطة أولي.

● أما ما المقصود بالسياسة؟

المقصود بالسياسة هو السياسة الشرعية، وما هي السياسة الشرعية؟ هي أن ولي الأمر يتخذ أمرًا يكون فيه صلاح الناس، ودرء ضرر عنهم، سواء كان متعلقًا بأمر الفرد، أو أمر من أمور الأسرة، أو أمر من أمور المجتمع ككل، علاقة بين سلطات الحكم، علاقة بين زوج لزوجته، علاقة بين فرد وجيرانه. كل هذا يدخل فيما يسمي بالسياسة الشرعية، أي أن ولي الأمر يتخذ إجراء يسوس به الرعية لما فيه خيرها. ومن الذي يقدر ما إذا كان هذا الأمر صحيحًا أو غير صحيح؟ ذلك هو السؤال الذي يتعين الإجابة عنه، يتعين طبقًا للفكر الإسلامي أن يجري تشاور في هذا الأمر، وتختلف صور التشاور من مجتمع لآخر، قد يكون التشاور من المتخصصين، أو في نقاش واسع، أو في مسجد، أو في مجلس الشعب.. إلخ.

وإن ما ينتهي إليه الرأي بعد التشاور يلتزم به الجميع. ومن يخرج عليه يعتبر خارجًا علي الجماعة، هذا الذي أقوله يختلف عما يقوله الخوارج، فالخوارج يقولون بأنك أنت الذي تقدر السياسة والمصلحة، ويطبقون المعني الحرفي للحديث الذي يقول: «من رأي منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان»، يأخذون هذا المعني الحرفي، ويقيم كل منهم من نفسه وليًا للأمر، وأقول لا. وطبقًا للمبدأ الموجود لدي الخوارج أيضا الحاكمية لله، وطبقا لما انتهي إليه جمهور المسلمين، ولي الأمر هو من انعقدت له البيعة بإرادة المسلمين، فإذا ما اتخذ ولي الأمر قرارًا بعد التشاور وجب علي بقية الناس إطاعته، ولا

يجوز لكائن من كان أن يقيم من نفسه حكمًا علي أمر من الأمور، ويصحح هو ما يراه - من وجهة نظره - فاسدًا، وإلا شاعت الفوضي بين الناس.

موقف الشريعة الإسلامية من أهل الكتاب

● النقطة الأولي: التي نتفق عليها بلا حساسية أن الشريعة الإسلامية كانت أول شريعة - فيما أعلم - سوت بين الناس في الحقوق والواجبات دونما اعتبار لاختلاف الدين أو الجنس أو اللغة. ولم يتقرر هذا المبدأ إلا في أعقاب الثورة الفرنسية، أما قبل ذلك فكانت حقوق المواطنين وواجباتهم تختلف تبعًا لكون المواطن من دين الدولة أم لا، والأمثلة علي ذلك كثيرة في معاملة اليهود في أوروبا، ومعاملة غير الكاثوليك في الدول الكاثوليكية، ومعاملة غير البروتستانت في الدول البروتستانتية. إذن، مبدأ أساسي في الشريعة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، وهذا مبدأ عام.

● والنقطة الثانية: المبدأ العام الثاني في الشريعة الإسلامية:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وهذا يعني حرية إقامة الشعائر الدينية من ناحية، وحرية تطبيق ما يأمر به دينهم من ناحية ثانية، ولو كان مخالفًا لما أمرت به الشريعة الإسلامية، لماذا؟ لأن الشريعة الإسلامية جاءت لتكمل الديانتين السماويتين السابقتين لا لتنقضهما، ولذلك أباحت الشريعة الإسلامية لغير المسلمين من أهل الذمة من أهل الكتاب المسيحيين واليهود إقامة شعائرهم الدينية. والمثال الذي ضربه عمر بن الخطاب بعدم الصلاة في كنيسة القيامة - حتي لا تكون سابقة - كلنا نعلمه. ولكن ما الحكم فيما لو كان هناك في كتاب سماوي حكم يخالف الشريعة الإسلامية؟ هل يسمح لغير المسلمين بتطبيقه أم لا؟ الإسلام يسمح بتطبيق الحكم المخالف للشريعة علي أهل الكتاب الذين ورد الحكم المخالف في كتابهم.

وفي حدود ما أعلم، المسيحية لم تأت بتنظيم لأمور الحياة الدنيوية، لأن المسيح عليه السلام كان يقول دائمًا: مملكتي ليست هنا مملكتي في السماء. ليس في الإنجيل - في حدود علمي وقد أكون مخطئًا - نصوص خاصة بالمواريث، والنص الوحيد الذي ورد في الإنجيل حول تنظيم العلاقات الاجتماعية جاء في خصوص الزواج والطلاق، وكلنا يعلم أن المسيحيين الأوائل كانوا يعددون - أي يتزوجون أكثر من زوجة - ويطلقون، ثم تقرر غير ذلك فيما بعد ابتداء من القرن الرابع أو الخامس الميلادي إن لم تخني الذاكرة، وبالتالي احترامًا لما انتهت إليه الكنيسة في مجامعها من تقنين لمسائل الأحوال الشخصية، فإن الشريعة الإسلامية أمرت أن يترك لغير المسلمين ما يدينون به، وهذا يعني أنه ليس فقط في أمور الشعائر الدينية، بل أيضا في كل مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وغيرهما، أما ما يتعلق بمساواة الذكر والأنثي في المواريث فإنني أقول إنها ليست قاعدة مسيحية، بل هي قاعدة رومانية وردت في القانون الروماني، ونقلها مشرعو الغرب عن القانون الروماني وفي حدود علمي لا يوجد في الإنجيل نص خاص بالمواريث، ومن ثم ينطبق علي غير المسلمين، ما ينطبق علي المسلمين في المواريث، لأن المسيحيين حتي في البلاد الشرقية لهم أسلوب خاص في الحياة مغاير لما هو مألوف في المجتمعات الأوروبية. فمثلاً توجد الحنة، والختان، وما إلي ذلك، وهو غير موجود لديهم في الدول الأوروبية.

وهنا سؤال يطرح: هل يوجد في قوانين الإجراءات، وقوانين الإثبات والمرافعات ما يمكن أن يفرق في المعاملة أو التقدير بين المسلمين وغير المسلمين؟

إن الإسلام سوي بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب في الحقوق والواجبات واستثني أمرين: أحدهما لا يزال قائمًا، والثاني: لم يعد قائمًا. ولنكن صرحاء مع بعضنا، فالاستثناء الذي لا يزال قائمًا هو أن ولي الأمر - رئيس الدولة - يتعين أن يكون من المسلمين، وهذا أمر لا خلاف عليه بيننا وتقررون هذا الوضع، وهو أمر طبيعي.

والاستثناء الثاني: كان موجودًا وزالت علته، ويردده بعض غير الفاهمين عن جهل، أو عن عمد من الجانبين، وهو موضوع الجزية، فلنتكلم فيها بصراحة. فقد فهم البعض من حكم الجزية التي يدفعها غير المسلمين أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأن دفع الجزية دليل علي ذلك، وهو فهم خاطئ من وجهة نظر الإسلام، وهناك فرق بين الجزية في الإسلام والجزية عند غيره من الشرائع السابقة (رومان وإغريق وفرس وغيرهم).

فالجزية عند الرومان والإغريق كانت دليل الخضوع، وأما عند المسلمين فإنها كانت بديلاً عن دفاع المسلمين عن غير المسلمين لحماية أنفسهم وأموالهم، وكان من الطبيعي في كل فلسفة جديدة، أن يعتمد الجيش في أول أمر الدولة الإسلامية علي المسلمين وحدهم لكي يكون مطمئنًا إلي هذا. مقابل قيام المسلمين بالتضحية بأرواحهم في سبيل الأمن والأمان لغير المسلمين، الذين عليهم أن يدفعوا مقابل هذا جزية، كما كنا ندفع في جيلنا البدلية لمن لا يجند، ودليل ذلك أن بعض القبائل النصرانية حينما انضمت للإسلام وانخرطت في سلك الجندية دفاعًا عن الإسلام في بعض المواقع أسقط عنها الخلفاء الجزية، وحاكم «حمص» حينما قبض الجزية من أهل الكتاب للدفاع عنهم، وعجز عن الدفاع وانسحب بجيشه رد لهم النقود قبل أن ينسحب.

علة الحكم إذن هي الدفاع عنهم، أما وقد أصبح التجنيد إجباريًا للجميع فالحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا، والعلة غير متحققة، فلا وجود له.

الشريعة الإسلامية دين ودولة

ما معني الإسلام دين ودولة؟ هل يعني ذلك أن الإسلام هنا هو المعاملات؟ لأنها هي وحدها التي يمكن للدولة كشخص معنوي الالتزام بها وتطبيقها؟

لا.. لأن الإسلام دين ودولة، ويشمل هذا كل صور الحياة: عبادات ومعاملات، ففيما يتعلق بالعبادات فللمسلم شعائره الدينية، وغير المسلم له دينه وشعائره. فلا يجوز للدولة أن تحارب الدين وتفعل كما تفعل الدول الشيوعية، وتصف الدين بأنه «أفيون الشعوب»، ولا يجوز للدولة أن تفعل ما تفعله الدول الرأسمالية وتترك الدين لدخيلة

النفوس، بل عليها التزام بتمكين الناس من إقامة الشعائر الدينية، وترصد مبالغ في ميزانيتها لهذا الأمر.

أما بالنسبة للمعاملات، فإن عليها أن تلتزم بما أنزل الله.

دور مجلس الشعب في تقنين الشريعة الإسلامية

هل يجوز القول بأن مبادئ الشريعة الإسلامية لا تكون واجبة التطبيق ما لم يصدر بها تشريع من مجلس الشعب مصاغًا في صورة مواد محددة ومنضبطة وصالحة للتطبيق؟ وهل يعتبر هذا القول إشراكًا للسلطة التشريعية الوضعية مع الشارع الإسلامي وهو «الله» فيما نص من نصوص صريحة قطعية الثبوت والدلالة، سواء كانت آمرة أو ناهية؟ ما هي حقيقة الموقف؟ وهل مثل هذا التشريع عند صدوره يعتبر منشئًا لقواعد قانونية جديدة أم مقررًا لقواعد قانونية سارية شرعًا؟

سوف أجيب عن هذا السؤال من نهايته وأقول بأن ما يصدره مجلس الشعب من تقنين للشريعة هو كاشف ومقرر للقواعد الشرعية وليس منشئًا. غاية الأمر أن الشريعة توخت قاعدتين جوهريتين: القاعدة الأولي: التقليل من النصوص، القاعدة الثانية: صياغة هذه النصوص في صورة مبادئ عامة كلية، فيما عدا بعض الاستثناءات، التي خصتها بشيء من التفصيل مثل المواريث والحدود والحكمة من ذلك أن الشارع (جل شأنه) وضع تشريعه لنا لكي نطبقه في كل زمان ومكان، وهو يعلم أننا كبشر نتطور وتتغير ظروفنا، فوضع لنا المبادئ العامة مثل:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

(البقرة: ٢٧٥)

ما شكل البيع هل هو مكتوب أم شفهي؟ لم يوضح ذلك. فإن كان مكتوبًا فكم عدد الشهود، أمام موثق عقود، أمام كاتب عمومي، هل أنت الذي ستقوم بكتابته؟ فقد ترك هذا لنا، أما عدد الشهود سواء كانوا عشرين أو عشرة أو سبعة أو شاهدًا واحدًا، فلم يحدد، لأن هذه أمور تركها للمجتمع، لأنه يتقدم ويتطور. وفيما عدا النصوص القطعية الثبوت والدلالة تعتبر هذه كلها أحكامًا اجتهادية، والقاعدة الفقهية تقول «تغير الأحكام بتغير الزمان» والدليل علي ذلك أن الإمام الشافعي رحمه الله عندما كان في بغداد كان له رأي، وعندما جاء إلي مصر كان له رأي آخر، لأن المجتمع تغير.

إذن، فإن كل ما يفعله مجلس الشعب هو أن يختار الرأي الأوفق الذي يتحقق مع مصالح الناس في المجتمع، في إطار المبادئ التي رسمتها الشريعة، فهو لا ينشيء قواعد جديدة إنما يقرر أو يكشف علي هدي المبادئ العامة التي وضعتها الشريعة الإسلامية.

لقد ورد في القرآن الكريم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

(المائدة: ٤٤)

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن مجلس الشعب مسئول عن إعمال حكم الآية، ومن ثم يحكم القضاء بما يصدره مجلس الشعب.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾

(البقرة: ٢٧٥)

ما المقصود بالبيع؟

هل عندما يبادلك أحد قلمًا بقلم معه، هل هذا بيع أم مقايضة؟ وكلنا يعلم أن من شروط العقد: الرضا، التراضي، ومجلس العقد، ولكن من الذي يقرر هذا الكلام؟ إن الذي يقول ذلك هم الفقهاء، ولقد كان ولي الأمر في الماضي يرفض أن يتدخل لحمل الناس علي مذهب معين مخافة الوقوع في خطأ، وكلنا يعلم المثال المشهور، عندما طلب أبوجعفر المنصور ومن بعده الرشيد من الإمام مالك -رحمه الله- أن يكتب - بناء علي نصيحة ابن المقفع - كتابه «الموطأ» لكي يلزم القضاة بتطبيقه منعًا من تضارب الآراء وتباينها، فرفض الإمام مالك، وقال: إنه يحتمل أن أكون قد أخطأت في اجتهادي.

وعندما عز الاجتهاد ولم يعد هناك مجتهد، سواء من القضاة أو الفقهاء أقفل باب الاجتهاد حتي الآن. فبأي مذهب من مذاهب السنة الأربعة أو أي مذهب من مذاهب الشيعة يمكن الحكم به؟ وعندما نأخذ مذهبًا معينًا، فهل نأخذ بالراجح أم بما يحقق مصلحة الناس؟ وسوف أضرب مثالاً، وهو أن كل مذاهب السنة - ليس فيها حكم في الإرث لابن الابن إذا توفي أبوه قبل جده، وعندنا مثل دارج يقول: «اللي مات أبوه قبل سيده يموت والزمان يكيده» ومذهب ابن حزم من الظاهرية قرر أن تأخذ هذه المسألة حكم الوصية الواجبة، وأن النصيب الذي كان من المفروض أن يكتبه الجد لأولاد ابنه الذي توفي ابنه قبله، يئول لابن الابن بشروط معينة، وقد أخذنا بهذا النص في تشريعنا، لأنه لو أننا لم نأخذ بهذا النص مكتوبًا، لحدث خلاف وتضارب في الأحكام.

أيضًا من الحضانة، ففي مذهب الحنفية حدد بسبع سنوات للصبي، وتسع سنوات للبنت، أما في مذهب الإمام مالك فتنتهي سنوات الحضانة في سن الزواج، وإذا رفعت دعوي أمام القضاء في أسوان مثلاً وكان القاضي مالكيًا فسوف يحكم فيها وفقًا لما جاء في مذهب المالكية، وإذا رفعت نفس الدعوي أمام أحد القضاة في الإسكندرية وكان القاضي حنفياً فسوف يحكم فيها وفقًا لمذهب أبي حنفية، ومن ثم تتضارب الأحكام في بلد واحد، ولذا يتعين توحيد القضاء، وبالتالي توحيد الأحكام التي يطبقها القضاة، لأنه ليس لدينا قاض مجتهد.. فنحن لا ننشيء أحكامًا جديدة، وإنما نقنن ما هو موجود في الشريعة الإسلامية لكي يطبقه القضاة، لأنهم ليسوا مجتهدين، حتي لا تتضارب الأحكام، وليست وظيفة القاضي التشريع، وإنما واجبه تطبيق القانون ولو كان قاسيًا. ولكن بعض القضاة في بعض الأحيان - يستعرض عضلاته - ويقول بأنه لا يطبق حكم الحبس في جريمة الزنا، وإنما سيقوم بتوقيع عقوبة الجلد فهذا القاضي يريد أن يستعرض عضلاته، لأن واجبه أن يطبق القانون لا أن يشرعه، وإذا ما أعيته الحيلة عند الضرورة، وتبين له أن هناك قانونًا غير دستوري من وجهة نظره، فإن كل ما يملكه هو أن يوقف سير الدعوي ويحيلها إلي المحكمة الدستورية العليا لتفصل فيها. أما أن يحكم بحكم آخر فهذا ليس من حقه، لأن هذه ليست وظيفته.

***

وفي نهاية محاضرته قال الدكتور صوفي أبوطالب: إنني لا أدعي العلم بشيء ولا الاجتهاد في الشريعة، فدوري هو دور الناقل لما ورد في كتب الفقهاء، ولا أستطيع أن أدعي غير ذلك.

فى تفسير المادة الثانية من الدستور المصري

دكتور/ بهاء الدين محمود محمد منصور

"القرآن الكريم" هو دستور الأمة الإسلامية فكيف تنظم العلاقة بين "دستورية القرآن الكريم" و"الدستور الوضعى فى الدولة" بحيث يفى الدستور الوضعى بالمطالب التشريعية للأمة الإسلامية؛ وخاصةً أنه من المُفترض أن تسمو "دستورية القرآن الكريم" على الدستور الوضعى وتهيمن عليه؛ من أجل ذلك قد تضمّن الدستور المصرى الصادر عام ١٩٧١م نصّ المادة الثانية من بعد تعديلها فى سنة ١٩٨٠ م- على أن: "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع"؛ ولا يزال نص المادة نفسه دون زيادةٍ أو نقصان مذكورًا فى المادة الثانية من "باب المقومات الأساسية للدولة" فى نص "الدستور المصرى الجديد"؛ وبذلك يلحق بهذه المادة حكم المحكمة الدستورية العليا(١) حيث تبين أن هذه المادة تخاطب المشرّع ولا تخاطب القاضي؛ وأن المعنى باتخاذ "مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع" إنما يتمخض عن قيد يجب على السلطة التشريعية أن تتحراه وتنزل عليه فى تشريعاتها الصادرة بعد هذا التعديل ...فلا يجوز لنص تشريعى أن يناقض "الأحكام الشرعية القطعية فى ثبوتها ودلالتها"، باعتبار أن هذه الأحكام وحدها هى التى يكون الاجتهاد فيها ممتنعًا، فهل يفى "النص والتفسير" بكل ما نرجوه نحن المسلمون حتى تتسق التشريعات الرسمية الوضعية بالضرورات التشريعية للأمة الإسلامية.

ومن أجل تقييد التفسير لمفهوم مبادئ الشريعة الإسلامية تم إضافة "المادة ٢٢٠" فى الفصل الثانى "الأحكام العامة" النص الآتي: "مبادئ الشريعة الإسلامية تشمل أدلتها الكلية وقواعدها الأصولية والفقهية ومصادرها المعتبرة فى مذاهب أهل السنة والجماعة" أى أن هذه المادة تشير إلى وجوب الأخذ بما استقر فى "علم أصول الفقه" من مقاصد وقواعد الاستنباط الشرعية.

هذا هو الرصيد التشريعى الحالى الذى يربط بين "دستورية القرآن الكريم" و"الدستور الوضعي" الذى يهيمن على الدولة المصرية؛ وهناك جدلٌ واسع تتراوح فيه التأويلات بين من يؤكدون أن نص المادة الثانية من الدستور وتفسيرها الصادر عن المحكمة الدستورية العليا يستبعد السنة النبوية المشرفة وأن هذه النصوص شكلية لا تعرف إطارًا محكمًا يمنع اختلاط التشريع الإسلامى بغيره ووصل الأمر بأحد الفصائل الإسلامية إلى طلب تعديل النص ليكون "أحكام الشريعة الإسلامية" مما يدخلنا فى أمور خلافية بين أحكام المذاهب الإسلامية؛ ومن يؤكد أن النص وتفسيره الصادر عن المحكمة الدستورية العليا مُلزم للدولة ويحولها إلى دولة يحكمها رجال الدين حيث تتيح لهم التدخل الدائم فى التشريع بالتفسير والتأويل والحكم بمدى توافق التشريع مع مبادئ الشريعة الإسلامية وعليه فإنهم يطلبون رفع كلمة مبادئ من نص المادة الثانية.

من المفترض أن تهيمن "دستورية القرآن الكريم" على الدستور الوضعى فى أى دولة إسلامية وتسبقه؛ وموضوع هذه المقالة هو إثبات أن النص بحالته القائمة والتفسير بأن المبادئ هى كل ما هو "قطعى الثبوت قطعى الدلالة" يكفى تمامًا لتعريف "إطار دستورى قرآنى مُحكم" يفصل بطريقة قاطعة بين الحلال والحرام فى الإسلام سواءٌ جاء فيه نصّ مُحكم فى القرآن والسنة أو لم يُذكر؛ ومن ضمن ما يفصل فيه بين الحلال والحرام أن هذا الإطار يطهّر الفقه السياسى الإسلامى من شرعية "فقه الحكم بالغلبة" حيث لا يقبل هذا الإطار شرعية إلا لصحيح السنة باتباع نهج النبوة فى الحكم والإدارة وأن التزام الخلفاء الراشدين بتحقيق مبادئ الحكم على نهج النبوة لم يكن اختيارًا بل اتباعٌ لصحيح الشريعة الإسلامية كما بيّنتها السنة النبوية المشرفة؛ وبالتالى يُلزم الحكام فى كل زمان ومكان بفقه الخلافة الراشدة حيث "السلطة مقابل المحاسبة"(٢) مما يفتح الباب أمام توافق وتآزر بين صحيح الفقه السياسى الإسلامى والالتزام بحقوق الإنسان الطبيعية دون شذوذ؛ ويستوجب إدخال النظم الديموقراطية الحديثة وآلياتها فى صلب نظام الدولة الإسلامية باعتبار أن الديموقراطية بآليات اختيار الحاكم ومحاسبته على السلطة المفوّضة إليه هى منتج إنسانى قبل أن يكون غربيا؛ وأن العقد الاجتماعى بين الحكام والمحكومين فى دولة الخلافة الراشدة هو نفسه العقد الاجتماعى فى الدول الديموقراطية: "السلطة مقابل المحاسبة"؛ وإذا كانت دولة الخلافة قد افتقرت إلى النظام السياسى الذى يجبر الحكام الذين يفتقدون الورع الكافى لإلزام أنفسهم اختيارًا بهذه المبادئ فإن هذا لا يمنع المسلمين من الاستعانة بآليات النظم الديموقراطية وآلياتها لتنظيم تنفيذ وتحقيق مقاصد الشريعة السياسية الإسلامية وعقدها الاجتماعى باعتبار أن "النظم الدستورية الحديثة" فى التشريع و"آليات النظم الديموقراطية" السياسية فى إدارة الدولة ليست إلا نظم استحدثتها

(١ "قضية رقم ١١٩ لسنة ٢١ قضائية" المحكمة الدستورية العليا "دستورية" جلسة ٢٠٠٤/١٢/١٩.

٢) "فقه الخلافة الراشدة والتحول الديموقراطي في مصر": مجلة الأزهر الصادرة عن "مجمع البحوث الإسلامية": عدد جمادى الآخرة ١٤٣٣- مايو ٢٠١٢.

الحضارة الإنسانية لحل معضلات التشريع والسياسة وبالتالى هى إرث إنسانى عام وليس موروث حضارى غربى خاص.

كل القرآن الكريم قطعى النص وهذه مسألة ثابتة فى كل ما كُتب فى علم أصول الفقه والسيرة فضلًا عن أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد بحفظه بنص آياته الكريمة:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

جاءت الرسالة السماوية مُقسَّمة إلى قسمين رئيسين، وهذا حسب ما جاء فى القرآن الكريم نفسه:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران: ٧)

وبالتالى فإن الآيات المحكمات تنبع منها المبادئ والأحكام الأساس فى الدين الإسلامى عقيدةً وشريعة وعبادات، وأن هذه الآيات المحكمات هى "قطعية النص قطعية الدلالة" وبالتالى هى الشق الأول من مجموعة المبادئ الدستورية "قطعية الثبوت قطعية الدلالة".

فى آيات محكمات قد بيَّن الله - سبحانه وتعالى أن السنة النبوية المشرفة المأخوذة عن رسول الله ﷺ هى وحيٌ يوحى من عند الله:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ١-٥)

ولذلك أمر الله عباده بالالتزام بالسنة النبوية المشرفة فى الآية المحكمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(سورة النساء، آية ٥٩)

والسنة تنقسم إلى قسمين: الأول فى موضوعات "العقيدة والشريعة والعبادات"، والثانى يخص الجانب البشرى من شخص رسول الله مثل الملبس والمأكل والمظهر وغيره مما قد يسجل عن الرسول ﷺ، والرسول معصوم من الخطأ فيه، ولكنها من الأمور المسكوت عنها فى الشأن الإسلامى لأنها ليست من موضوعات الرسالة السماوية وإلا تطرق لذكرها القرآن الكريم الذى لم يفرط فى شيء؛ وقد بيَّن لنا الرسول الكريم أن الناس أعلم بشئون دنياهم كما جاء فى غزوة بدر(٣).

وبالنظر إلى أن السنة النبوية المشرفة قد تروى وقائعها على أكثر من رواية ولكن يجمعها الدلالة الواحدة؛ لذلك احتاط القاضى بأن جاء نص الحكم "قطعى الثبوت قطعى الدلالة" ليشمل الثابت المتواتر

٣) حياة محمد، محمد حسين هيكل، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٧٤.

من السنة النبوية المشرفة؛ وبذلك يكون الدستور الإسلامى المأخوذ عن نبأ السماء وحده ليكون مرجعًا نقيس عليه صحة ما يأتينا من تراث المسلمين وما يُستجد من الأمور يستند عليها، وبالأولوية الآتية(٤):

١- الآيات المحكمات اللاتى هن أم الكتاب؛ وهى نفسها أمرت باتباع السنة باعتبارها وحيٌ من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم وجزء لا يتجزأ من الرسالة الإلهية.

٢- بدراسة الثابت من وقائع السنة النبوية الشريفة نجدها تنقسم إلى قسمين الأول يقع فى موضوعات "العقيدة والشريعة والعبادات الإسلامية"، وهو مُلزم حيث تقوم السنة بدورها المكمل لما جاء فى القرآن الكريم فى تفصيل مُجمله، وتقييد مطلقه، وتخصيص عامه.

شقى الرسالة الإلهية "القرآن والسنة" من علم الله سبحانه وتعالى نزَّله على رسوله بينما يحاول العلماء أن يقتربوا قدر ما يستطيعون من إدراك محتواهما فكان "الفقه" و"علم أصول الفقه" من أعمال البشر؛ ينقسم علم أصول الفقه إلى ثلاثة مباحث رئيسة، هي:

* مصادر التشريع: حيث يؤخذ منها أدلة التشريع
* منهج استنباط الأحكام من مصادر التشريع: وهو الضوابط والمحددات اللغوية والقواعد الشرعية وذلك بغرض تأسيس منهجية علمية عامة مجردة بقدر الإمكان، وذلك حرصًا على الموضوعية.

مقاصد التشريع

ومن مقاصد التشريع والقواعد الشرعية لاستنباط الأحكام وغير ذلك من مناهج استنباط الأحكام الشرعية يتم ربط الشريعة بالواقع.

يبيِّن علم أصول الفقه أن "الأدلة الكلية للشريعة" (مصادر التشريع الرئيسة) هي: القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد؛ وفى هذا الشأن تم إرساء القاعدة الفقهية: "لا اجتهاد مع نص" والمقصود هو "النص قطعى الثبوت قطعى الدلالة"؛ وبالنظر إلى أن "مذاهب الفقه السنية" المشهورة وكذلك "علم أصول الفقه" قد تم إنشاؤها جميعًا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين فقد نظرت جميعًا إلى النصوص "قطعية الثبوت قطعية الدلالة" باعتبارها نصوص قانونية متفرقة تشرِّع لموضوعات متفرقة فى المعاملات وكان هذا متوافقًا تمام التوافق مع أحدث النظم التشريعية حيث لم تعرف البشرية الدساتير إلا عام ١٧٧٦ ميلادية؛ ولكن بالأخذ بالمفهوم الحديث للنظم التشريعية فإنه يجب التعامل مع النصوص "قطعية الثبوت قطعية الدلالة" من "القرآن والسنة" باعتبارها مكملة لبعضها وليست قواعد قانونية متفرقة لا يجمعها رابط عندئذ ستجد أنها تعرِّف بمنتهى الدقة والوضوح "إطارًا عامًا للمعاملات الإسلامية" لا يُسمح لأحد أن يخرق أحد مبادئها أو يتعدى أحدًا من حدودها مما يجعلها تؤسس لدستورية

٤) "التأسيس لدستورية القرآن الكريم"، د. بهاء الدين محمود منصور، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، السنة الحادية عشرة - العدد الثالث والثلاثون، ١٤٢٨ هجرية - ٢٠٠٧ م.

القرآن الكريم(٥)،(٦).

وهكذا فإنه منذ نشأة "الفقه" و"علم أصول الفقه" والعلماء يدركون الدلالة الخاصة لكل ما هو "قطعي الثبوت قطعي الدلالة من القرآن والسنة" لأنها هي الهيكل الذي تقوم عليه "العقيدة والشريعة والعبادات" الإسلامية في كل زمان ومكان وإلى يوم القيامة ولكننا هنا نؤكد على وجود "إطار دستوري مُحكم" يجب إضافته في الاعتبار؛ وهذا هو موضوع هذه المقالة.

"مجموع الآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب (سورة آل عمران، آية ٧) وقطعي الثبوت قطعي الدلالة من السنة النبوية المشرفة" يعرّف إطارًا دستوريًا محكمًا للمعاملات الإسلامية أساساته هي العدل والرحمة والإحسان وتأدية الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل (سورة النحل، آية ٩٠)، (سورة النساء، آية ٥٨). وبخصوص السلطة والنفوذ فقد حرم الله البغي بغير الحق (سورة الأعراف، آية ٣٣)، أما بخصوص التعامل في الأموال والتبادل الاقتصادي فقد حرم الله أكل أموال الناس بالباطل (سورة النساء، آية ٢٩)، وحرم التلاعب في الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم لأكل حقوقهم في تبادل السلع الاقتصادية (سورة هود، آية ٨٥)، وحرم الإدلاء بأموال الناس بالباطل إلى الحكام (سورة البقرة، آية ١٨٨)، وأوجب أيضا المحاسبة بين الناس على الأموال حفاظًا على حقوق العباد (سورة البقرة، آيات ٢٨٢-٢٨٣)؛ أما آداب التقاضي وواجباته فهي القسط في الشهادة (سورة الأنعام، آية ١٥٢)، (سورة الحج، آية ٣٠) (سورة الفرقان، آية ٧٢)، أما في القصاص فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به (سورة النحل، آية ١٢٦).

المبادئ العامة للمعاملات الإسلامية كُلٌّ لا يتجزأ ولو أخذنا واحدة منها يصدق لقادتنا لاتباع باقي قواعدها ولو خرقنا إحداها لخرقنا الآخرين، والتطبيق الخاص لهذه المبادئ العامة هو نفسه "سنة الرسول الكريم في الحكم والإدارة" وهي نفس ما اتبع الخلفاء الراشدون، ونجد أن خصائصها وأساسها هي: العدل والمساواة والرحمة (سورة الأحزاب، آية ٢٨، ٢٩)، الشوري؛ حيث أمر الله سبحانه وتعالى بالشورى كما جاء في (سورة آل عمران، آية ١٥٩) و(سورة الشوري، آية ٣٨)، وأقل ما يعنيه ذلك هو حرية الرأي وألا يُضار أحدٌ من اختلافه في الرأي مع أصحاب السلطة والنفوذ، التعفف عن التمتع بأبهة السلطة أو اكتساب النفوذ الاجتماعي أو التربح منه، كان الرسول الكريم عفيفًا عن السلطة والمال العام وكذلك حرم الله على أزواجه إن كُنّ يردن الله ورسوله فليس لهم إلا أن يكونوا مثله (سورة الأحزاب آية

٥) "التأسيس لدستورية القرآن الكريم"، د. بهاء الدين محمود منصور، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، السنة الحادية عشرة – العدد الثالث والثلاثون، ١٤٢٨ هجرية – ٢٠٠٧ م.

٦) "دستورية القرآن الكريم وعلم أصول الفقه الإسلامي"، د. بهاء الدين محمود منصور، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، السنة الرابعة عشرة – العدد الثاني والأربعين، ١٤٣١ هجرية – ٢٠١٠ م.

٢٨، ٢٩)، السلطة أمانة لا تُستخدم لغير الغرض التي فُوضت من أجله، وأخيرًا رد المظالم قبل مغادرة مقعد السلطة بالوفاة أو بغير ذلك وهذا واضحٌ من ذكر الخبر عن مرض رسول الله الذي توفي فيه(٧)، ومنه نأخذ الدروس والعبر، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون وعلى رأسهم أبوبكر وعمر عند الوفاة ومحاسبة كلٌ منهم لنفسه وسؤالهم عمن جلد له ظهرًا أو شتم له عرضًا أو كان له درهمًا في ذمته.

وبالنظر إلى أن الرسول الكريم يختلف عن البشر جميعا في أنه يوحي إليه وبالتالي هو معصوم من الخطأ فقد زاد الخلفاء الراشدون على السنة النبوية في الاعتراف للرعية بحقها في محاسبة الحاكم ومراجعته على السلطة العامة وعلى المال العام وهذا واضحٌ من خطبتي استهلال الحكم من أبي بكر(٨). وعمر(٩) بطلب التقويم والنصيحة، وقصة المرأة التي راجعت عمر ابن الخطاب على مهور النساء، وقصة الرجل الذي حاسب عمر على طول حُلته(١٠).

العلاقة الإسلامية الشرعية بين الحكام والمحكومين قد بُنيت كلها على آيات محكمات هن أم الكتاب وتحرسها حدودٌ شرعية بينها الله سبحانه وتعالى في آيات مُحكمات وتؤكدها سنة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين في الحكم والإدارة، وأنها قد شُرّعت ليلتزم بها رئيس الدولة والوزير والخفير وكل من منحه الله السلطة والنفوذ حتى ولو كان من خارج نظام الحكم والسلطة الإدارية ولا يُسمح بإفلات من يخرق هذا الاطار الشرعي من العقاب حتى لو كانت فاطمة بنت محمد(١١)؛ وكل من حكم بغير نهج النبوة في الحكم والإدارة قد اضطر إلى خرق هذا الإطار بدرجات متفاوته مما يؤكد أن نهج الخلافة الراشدة هو وحده نمط الحكم الشرعي الوحيد في الإسلام(١٢).

وننوه هنا إلى أنه بالنظر إلى (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)(١٣)، نجد أن الحقوق الطبيعية التي أمر الله بها في قرآنه الكريم للملأ كافةً تسبق كل هذه الحقوق وتشملها(١٤).

"القانون هو قاعدة عامة مجرّدة تنظم

٧) التاريخ الطبري، تاريخ الأمم والممالك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المجلد الثاني (من السنة الأولى للهجرة إلى السنة ٣٥ للهجرة)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م. (ص٢٢٧).

٨) تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والممالك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مرجع سبق ذكره (ص ٢٤٤، ٢٤٥).

٩) الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦ (الطبعة الثامنة)، ص ٩٣، ٩٤.

١٠) الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م (الطبعة الثامنة)، (الجزء الثاني ص ١٩٤)

١١) فقه السنة، المجلد الثاني (الأجزاء الخامس والسادس والسابع والثامن)، الشيخ سيد سابق، دار الريان للتراث، القاهرة ١٩٨٧ميلادية، ص ٥٠٦

١٢) "سنة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين في الحكم والإدارة، بيان لعناصر الحداثة"، د. بهاء الدين محمود منصور، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، السنة السابعة – العدد الثاني والعشرون، ١٤٢٥ هجرية – ٢٠٠٤م.

١٣) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، اعتمد ونشر على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٢١٧ ألف (د-٣) المؤرخ في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨م.

١٤) "فقه الخلافة الراشدة والتحول الديموقراطي في مصر"، مجلة الأزهر الصادرة عن "مجمع البحوث الإسلامية"، عدد جمادى الآخرة ١٤٣٣، مايو ٢٠١٢.

السلوك الاجتماعي، تكفل السلطة العامة احترامها بتوقيع جزاء مادى على من يخالفها، ويُستخلص من هذا التعريف أن للقاعدة القانونية ثلاث خصائص هي: أنها قاعدة عامة مجردة؛ وأنها تختص بتنظيم السلوك الاجتماعي؛ وأخيرًا أنها تقترن بجزاء مادي" (١٥).

"الإطار العام للمعاملات الإسلامية" و"الحقوق الطبيعية للبشر" التى بيّنتها والحقوق والواجبات بين الحكام والمحكومين المبيّنة فى نهج النبوة يحرسها جميعًا عقوبات حدّية بيّنها الله فى آيات محكمات؛ ومن حيث المبدأ لا يمكن أن نترك من يخرقها بغير عقاب لأن كل مبدأ منها بذاته جزء لا يتجزّأ من القاعدة القانونية فبغيره تصبح مجرد توصية أخلاقية لا إلزام فيها وهذا يخرج الأمور كلها عن مفهومها الصحيح؛ والخلاصة فى هذا الشأن أن فلسفة التقنين الوضعى المستند على الشريعة الإسلامية يجب أن تحافظ على الثوابت الآتية:

١- أن يقع التشريع على المستوى القانونى داخل المبادئ الإطارية للمعاملات الإسلامية فى العدل والمساواة المذكورة بعاليه وأن تحقق "الديموقراطية وحقوق الإنسان"، وإلا يُطبّق عليه عقوبة الامتناع أو الإلغاء.

٢- وبالنظر إلى أن الحدود تتعامل مع الجرائم فإنه يجب أن يُجرِّم التشريع فى الدولة ما جرّمه الله وأن يحل ما أحلّه الله.

٣- أخيرًا فى موضوع "حجم العقوبة ونوعيتها" فيما ذُكر فى آيات محكمات وسنة متواترة؛ فإنه يُمكن أن يختلف التشريع فى الدولة الإسلامية الحديثة عمّا كان عليه الأمر واردًا فى النص القرآنى يوم نزول الرسالة الإسلامية فى القرن السابع الميلادى بشرط أن يُعطى نفس الأثر النفسى والاجتماعى المقصود من العقوبة على من يعيشون ظروف الدولة فى القرن الواحد والعشرين وما بعده خاصةً أن المواطنين بالدولة قد تتعدد دياناتهم وإن كانت الأغلبية للمسلمين.

والخلاصة فى موضوع دستورية القرآن الكريم هو أن اتخاذ كل ما هو "قطعى الثبوت قطعى الدلالة" من شقى الرسالة الإلهية "القرآن والسنة" باعتباره كلًا لا يتجزّأ وأنه يكوّن إطارًا دستوريًا محكمًا ولا يُسمح بنقض أيٍّ نصٍّ منه؛ شأنه شأن المبادئ الدستورية؛ وليس نصوصًا قانونية متفرقة؛ فإن هذا الدستور القرآنى يقلل من الخلافات الفقهية بين المذاهب الإسلامية ويوحّد المذاهب السياسية الإسلامية فى نهج النبوة منهجًا شرعيًا وحيدًا ويسقط "شرعية فقه الحكم بالغلبة" أما بخصوص الحدود باعتبارها عقوبات شرعية على جرائم فإنه يمكن الاختلاف فى "حجم العقوبة ونوعيتها" بشرط المحافظة على فلسفة العقوبة وأثرها كما جاءت فى صدر الإسلام.

---

١٥) المدخل للعلوم القانونية، النظرية العامة للقانون، الدكتور/ أحمد شوقي محمد عبد الرحمن، منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٥ ص ٦.

دلائل الإعجاز فى مقاصد الشريعة





أ. د/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

نزلت الأديان وخلق الكون والإنسان لغايات ومقاصد إلهية عليا، إقامة لنظام محكم، يكفل انتظام أمر الكون، وإصلاح الاجتماع البشرى، وإرساء التصورات الصحيحة عن خالق الوجود، لبيان رسالة الإنسان فى الأرض، وتسيير الخليقة على أساس منظومة متكاملة، من الحقوق والواجبات لا إفراط فيها ولا تفريط، ولا محاباة فيها ولا امتياز لإنسان على إنسان، فالكل خلق الله وعباده لا فرق بين إنسان وآخر خلقهم، وأنزل من أجل إصلاح حياتهم بما يستقيم به وجودهم، فسخر لهم الأكوان، وبعث إليهم الرسل بالأديان ولما كان الإسلام الرسالة الخاتمة للإنسان، فقد جاء بخلاصة الأديان جميعا، وأصول الاجتماع، فى مقاصد عليا، وغايات جامعة.

مغزى الإعجاز فى المقاصد

تتبع قيمة وعبقرية مقاصد الشريعة فى رحابة آفاقها وسعه رؤاها، فمن يقف على أسرارها يفقه معانيها، ليجد فيها تأسيس هوية الأمة ومقومات النظام العام فيها وتشييدا لحقوق الإنسان مما يجعل منها منظومة متكاملة ومحكمة الحلقات وعنوانا على صلاح مجتمع، وبناء أمة، تقوم على أمر الدين والدنيا، والمادة والروح، مما يكشف عن تفرد وتميز فى التوجه، وشمول لكافة الجوانب، فى العقيدة والنظام والتشريع والحضارة، وبناء صرح الإنسان ذلك، الكائن المفكر، صانع النهضة والحضارة،

ولا عجب فإنه:

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

(النمل: ٨٨)

وتقديرًا لوجود الإنسان وإدراكا لقيمة دوره كخليفة عن الله فى الكون دون سائر الخلائق، فقد أقام صرح الاجتماع الإنسانى على أسس ومقومات تحقق التمكين فى الأرض، والقيام بواجب تعمير الكون، على هدى قاعدتين:

١ ـ الإيمان بالألوهية وربوبية الله فى الوجود وأحقيته فى العبادة.

٢ ـ إقامة النظام البشرى، وبناء التعايش، وترقيه الوجود، بواسطة إعمال السنن والنواميس الكونية ضمانًا للوفاء بذلك.

وحرصًا على القيام بهذه المهام بقوة وإتقان، فقد ضمن له المقومات التي تحفظ كيانه، ويجعله السيد في الكون، فالإنسان من أعظم ما خلق الله في الوجود، فهو الصناعة الثقيلة، والكيان المتفرد بالعقل والروح، فقد صنعه على عينيه، وأحاطه بكل الرعاية والاهتمام، وحباه بالعقيدة والنظام وأنعم عليه بالعقل المتحضر الذي يجعله بحق قادرًا على حمل رسالة التكليف أو المسئولية التي تجعله على الهيئة المستعدة والقادرة على بلوغ الهدف والغاية من تفرده وتميزه في هذا الكون.

وإذا كان الإسلام الدين والنظام والحضارة وضع الإنسان نصب عينه، فإن مقاصد الشريعة هي تتويج لعطاء هذا الدين للإنسان، حيث جمعت المقاصد في بنيتها المنظومة المتكاملة لجوانب الإنسان الروحية والمادية والمعنوية للإنسان، واستوعبت الحقوق التي لا قيام للنظام ولا للحياة بدونها، ولا غرو فالإنسان هو صاحب هذه الحقوق، ومن أجله شرعت، وعلى أساسها تم تسخير موجودات الكون ليستخدمها وينتفع بها، ويوظفها لمصالحه في ظل الشريعة الربانية.

ومن يدقق في هذه العمد ويتأمل الكليات التي اشتملت عليها المقاصد يكتشف فيها سبق الشريعة إلى تقرير حقوق الإنسان، وسر السبق والجدة فيها يتأتى في استيعابها وشمولها لهذه الحقوق، وفي فرضيتها بالقانون الإلهي، الذي يؤصل حتمية الالتزام بها والقيام بها بأقصى درجات الإلزام لابتنائها على نصوص قطعية، وأحكام شرعية، وهوية مجتمعية، وضرورة حياتية، فهي من ثم حقوق أصيلة في بنية النظام والشرع الإسلامي.

يقول مراد هوفمان: (١) يكفل الإسلام أقدم وأشمل نظام لحقوق الإنسان في العالم، عند المسلم، تلك الحقوق هي التي بينها القرآن والسنة، ويجزم الفقهاء أن تلك الحقوق لا يجوز أن يضعها الإنسان، هو فقط يستطيع ان يتعرف عليها أو يكتشفها من مصادرها، وبهذا نجد حقوق الإنسان أصلب وأمتن قاعدة في النظام القانوني الإسلامي.

ومما يكشف عن دقة الصنعة وتمام الرؤية: مدى الإحاطة، ورحابة الفضاء الذي تتحرك فيه المقاصد، والنطاق الذي تعمل فيه، ويظهر ذلك في رعاية الحقوق جميعا:

- حق الله، وحق الإنسان، والحق العام، والحق الخاص.

ويقوم على تنفيذ هذه الحقوق وسائل وإجراءات سابقة، بهدف تهيئة وإتاحة المجال لاكتساب وتحصيل هذه الحقوق، ووسائل لاحقة بفرض أدائها وتعظيم وجودها، بجانب أن تتنوع هذه الوسائل إلى وسائل إيجابية.

ولكون هذه المقاصد تتشعب مجالاتها، في مجالات متنوعة في الكم والكيف، فهي ليست قاصرة على ناحية واحدة، وإنما يتعدد عطاؤها، وتتدرج مراتبها ويظهر ذلك عند تنفيذها واكتسابها، وقد عبر عن حكم تطبيقها، العز بن عبدالسلام بتقسيم المصالح إلى ثلاثة أقسام (٢): أحدها واجب

(١) الإسلام كبديل، تعريب عادل المعلم، ١٩٩٣، دار الشروق، ص٢١٢.
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام جـ١، دار الجليل ١٩٨٠، ص٤٢، ٤٣.

التحصيل، فإن عظمت المصلحة وجبت في كل شريعة.

القسم الثاني: مندوبة التحصيل.

الثالث: مباحة التحصيل.

«ودوران تلك المصالح بين الأنواع الثلاثة منشؤه قدر الحاجة إليها، وقيامها على مصالح تختلف مراتبها في الواقع المعيش، والدور الذي تقوم به في بنية النظام.

فإذا كان الحق أو المصلحة أساس وحتمي لانتظام وبقاء الفرد والجماعة، ولا غنى عنه للحياة والأحياء، فهي في قمة المصالح، وأصل الحقوق، لذلك تصنف ضمن الضروريات اللازمة والجازمة في كل نظام الشريعة.

وتتعدد المصالح، وترتفع إلى مرتبة الضروريات لتشمل حقوق الله رب الوجود، ومالك الكون ومانحه الحقوق، وحقوق للفرد للوفاء بما يتطلبه بقاء نوعه وصلاح أحواله، وحقوق للمجتمع يحتاجها الاجتماع الإنساني في القيام بالمناصب العامة، والنظام العام، وتمثل هذه الحقوق مقاصد أساسية، يترتب على الإخلال بها الفساد والضرر للفرد والمجتمع.

ويذكر صاحب الموافقات (٣): أن الضروريات ضربان: أحدهما ما كان للمكلف فيه حظ عاجل مقصود لقيام الإنسان بمصالح نفسه وعياله في الاقتيات (الطعام) واتخاذ المسكن واللباس، وما يلحق بهما من المتممات كالبيوع والإيجارات والأنكحة وغيرها من وجوه الاكتساب التي تقوم بها الهياكل الإنسانية.

والثاني: ما ليس فيه حظ عاجل مقصود كان من فروض الأعيان كالعبادات البدنية والمالية من الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج وما أشبه ذلك، أو من فروض الكفايات كالولايات العامة من الخلافة والوزارة والنقابة والعرافة والقضاء وإمامة الصلوات والجهاد والتعليم وغير ذلك من الأمور التي شرعت عامة لمصالح عامة إذا فرض عدمها أو ترك الناس لها انخرم النظام.

ولأجل هذه المنزلة لهذا النوع من الحقوق، تناولتها النصوص القطعية من القرآن والسنة أصل الشريعة ومرجعيتها في استقاء الأحكام، وفرض التكاليف، واكتساب الحقوق والتحمل بالالتزامات.

ويدل استقراء النصوص، والممارسات المقاصدية على بناء نظام اجتماعي متكامل في جوانبه المختلفة يقوم على العبودية لله، والإنسانية الجامعة بين البشر، ارتكازا على أن تأسيس العلاقات الإنسانية الراشدة، وحماية مصالح وحقوق الإنسان وانتظام الكون ومسيرة الحياة، هي الغاية والهدف الرئيسي، في ظل القيام بحق الله خالق الوجود والإنسان.

آفاق ورؤى المقاصد

يفصح الاتجاه المقاصدي لشريعة الإسلام عن هوية الدين، وأهدافه العليا، في حماية ورعاية المصالح الأساسية التي لا يستغني عنها مجتمع أو أمة ناهضة، بواسطة تشييد صرح الاجتماع الإنساني على أسس قويمة، وتعايش خلاق ببناء الضمير الواعي بأهمية الفرد، وتماسك نسيج المجتمع، وقوة كيان

(٣) الشاطبي: جـ٢، دار الفكر ص١٢٣.

الدولة في دائرة محكمة الحلقات لتأسيس نموذج الإنسانية الحقة، التي تكاملت عناصرها، وترابط بنيانها وتضامن أفرادها، تجد برهان ذلك فيما قام عليه صرح الفرد والأمة الإسلامية، في التوحد والتعاون والإيمان والتعايش المشترك بين آحاد وجماعات مختلفين في الدين والجنس واللغة والثقافة واللون، برغم ذلك جمعهم الإسلام على هويته ونظامه وعاشوا جميعا مواطنين في أمته، تأسست فيها المواطنة على مبادئ وثوابت عليا، مكنت للدولة الإسلامية أن يتعايش فيها المختلفون، وأن يتم تدشين فكرة الدين الخاتم الجامع للقواسم المشتركة للأديان السماوية وتأسيس عالمية الجماعة البشرية، في تفرد إسلامي غير مسبوق، تجسدها مقاصد ومصالح كبرى، أقيمت على ركائز صلبة وأسس متينة، قدمت بحق عطاء الإسلام للبشرية، ليكون رحمة وسلاما وعدلا وكرامة للعالمين، قبل فكر العولمة والعالمية والكوكبية التي يتباهى بها أنصار المدنية الحديثة، ولا ينفكون عن الادعاء بالسبق والتحضر على غير مثال، وهو قول بحاجة إلى إعادة نظر، وهو ما يقضي إعمال النظر فيما يكشف عنه فقه المقاصد في عرض الجوانب والرؤى التي يرتكز عليها فقه المقاصد، والآفاق الرحبة في بنيته ومضامينه، بشيء من البيان والإيضاح فقد جاءت المقاصد لترسي وتشيد:

١- الكرامة الإنسانية.
٢- العدل والمساواة.
٣- الأمن والسلام.

أولا: ركيزة الكرامة الإنسانية

البشر جميعا متساوون في الكرامة، لا فرق بين إنسان وآخر فهي مستحقة للإنسان بصفته الآدمية، لصيقة به لا تنفك عنه، لكونه خليفة عن الله تعالى، والقائم على حق العبودية في هذا الملكوت، وبموجب ذلك بدأه السيد على أرضه، وأخضع المخلوقات لإرادته للقيام على تعميره وتنميته، ومن ثم خلقه الله تعالى على نمط رفيع تتعدد ملكاته، وتتمو مداركه لكي تكون الكرامة مصدر علو، وآية رفعة، واستقرارا للجهود والقوى الدالة على استحقاقها لتلك المنزلة التي يفضل بها على غيره من الكائنات الأخرى.

وللحرص على تأصيل هذا الاستحقاق الإلهي، فقد تقرر بأسلوب قاطع في النص القرآني:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

فقد جعلهم موضع رعايته، وخلقهم في أحسن مثال، وأنعم عليهم بنعمة التفكير والقدرة على الهداية والاختيار، فهم في هذا الشرف سواء فقد جعل الإنسانية قاطبة، بارهم وفاجرهم ذوي كرم، أي شرف ومحاسن(٤).

وكان لازم ذلك أن تقر النظم العالمية هذا الحق، وأن تعده من مقومات الاجتماع البشري، وأن تنضبط الممارسات في أنحاء الأرض فلا يكون موضع مساومة ولا تفريط، وأن ينصاع له الجميع ويتضامنون من أجل

(٤) الألوسي، روح المعاني، ج١٥، ص١١٧.

تقرير وجوده وتفعيله على أرض الواقع، ولا غرو فقد خلقوا من أب وأم واحدة، وأمدهم باستعدادات الكرامة بإنعامات شتى في القيمة والقامة وفي الملكة العقلية التي لم يبلغ أي كائن مبلغه فيها، ذلكم فيما تفرد به من فهم مراد الله من النصوص، وقدراته الذهنية على الابتكار والإبداع.

وعلى هذا النسق، جاءت مقاصد الشريعة تكريسا لحق الكرامة وتتويجا لمجامع حقوق أصيلة أثبتها لكل إنسان في بنية شخصيته فأمد الحماية وبسطها على ما يستقيم به وجوده في المعتقد والنفس والمال والعقل والعرض قبل المواثيق العالمية، والجهود الإنسانية وأوجب الانصياع لها تعبدًا مهما كان اختلاف الجنس أو الدين أو العرق أو الوفرة المادية أو الهيئة الاجتماعية.

وشاءت الإرادة الإلهية أن تكون هذه الكرامة للبشرية قاطبة ومنذ بدء الخليقة عندما أخرج الله ذرية آدم من صلبه على صورة الذر فجعلهم عقلاء، فخاطبهم وأمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر، فأقروا بالربوبية، فكان ذلك منهم إيمانا فهم يولدون على تلك الفطرة، ومن كفر بعد ذلك فقد بدل وغير ومن آمن وصدق فقد ثبت عليه وداوم(٥).

وقد تقرر على مقتضى هذه الحقيقة، أن تكون فضيلة الكرامة والتقدير والعزة لكل آدمي، وكشف عن أهمية هذه القيمة في الأديان والشرائع السماوية ليقوم الاجتماع البشري على المساواة والإخوة الإيمانية، على سند من وحدة الأصل والنشأة، فكلهم أبناء آدم الذي خلقه الله وسواه بطلاقة قدرته، وجعل من آدم حواء، وكان من هذا التوحد البشري أجيالا متتابعة، ونسلا كثيرا، انتشر في أرجاء الأرض، وعمر جنبات الكون كل بقدر عطائه، وبلا امتياز لإنسان على آخر، فالكل في استحقاق الكرامة سواء.

وأكد على هذا المنحى النداء القرآني للجنس البشري بتنظيم وجودهم، وقيام تعارفهم وتفاهمهم على أساس التعايش الآمن بالاشتراك فيما بينهم على ما يحقق مهمة الإنسان في الكون الفسيح، في تواد وتراحم، وتعاون على ما يحقق النفع لهم جميعا، باعتبار أن كل إنسان مهما اختلف في طبيعته وفي معتقده، وفي هيئته، فهو عضو أصيل في الجماعة البشرية التي تشكل الأسرة الإنسانية الواحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(الحجرات: ١٣).

فصريح النص يبين مغزى الاختلاف في النوع وبين الشعوب والأمم، وأنه للتلاقي والتآلف على أساس الكرامة الثابتة في دنيا الناس، لكن الأفضل فيها الذي يتبوأ المنزلة الرفيعة هو الأكثر إيمانًا بالله والتزم المشروعية الإيمانية بمعناها الجامع وبتصديقها الكامل في الاعتقاد الحق والعمل الصالح، الذي يعلي قيم الدين ويصلح الدنيا.

(يتبع)

(٥) الملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة، دار الكتب العلمية، ص ٢٠٣

تطبيق الشريعة بين آليتى «الضبط القانونى» و«الضبط الاجتماعى» وبين «دور السلطة» و«دور الأمة»

د. يحيى رضا جاد

رؤية إسلامية جديدة

العلاقة بين القانون والمجتمع، ومقاصد القانون، وتطبيق الشريعة، وآليتا تطبيقها - ضبطًا قانونيًا وضبطا اجتماعيا، وفلسفة السلطة فى الإسلام، وموقعها من الأمة، والعلاقة بين الأمة والدولة، والموقع وفلسفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكيفية إقامة الدين، إلى غير ذلك من موضوعات، ماتزال، فى محيطنا وعصرنا، أمورا من «القضايا المعلقة» و«الموضوعات المفخخة» و«المناطق المحظورة» التى يتجنب ويتحاشى الخوض فيها كثيرون إيثارا للسلامة، سلامة سمعتهم الدينية من أن تتعرض للتشويش من أدعياء الفقه والفكر - الذين يفتقدون لأدب الاختلاف والحوار - إن هم أظهروا ما يرون صوابه فى هذه «المعلقات» على الخصوص!

وهى قضايا يجب أن يتقدم لها من يجد فى نفسه تأهلا علميا للخوض فيها، وشجاعة أدبية للصدع بما يراه بأدب، وجرأة فكرية فى اقتحام لجة هذه «المسائل الشائكة» التى قد تصيب الخائض فيها إصابات بالغة إن لم يحسن السباحة والغوص.

وهى، فوق ذلك، قضايا - لخطورتها وأهميتها ومحوريتها فى حياة البشر، اجتماعيا وسياسيًا وقانونيًا - تشغل الفلاسفة والمفكرين والسياسيين والفقهاء والقانونيين وعلماء الاجتماع، على امتداد دار الإسلام، بل وفى العالم كله.

ومن أجل ذلك كان هذا البحث التأصيلى التجديدى الفكرى الفلسفى السياسى الفقهى المركز والمكثف، والمنطلق والمستهدى بكتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ومقاصد شريعته، إذ التفلسف فى ديننا فريضة، والتدين فلسفة.

فقد تصدى هذا البحث لمعالجة هذه الموضوعات، مؤصلًا ومفصّلا، بلا تهيب ولا وجل، وبلا اندفاع ولا شطط، رافعًا - فى ميدانى الفكر الإنسانى والفقه الإسلامى معًا - لواء الاجتهاد والتجديد، منطلقًا من ثوابت الوحى - قرآنًا وسنة - ومرتكزًا على صحيح العقل، فالوحى - عندنا، وفى ديننا، كما

تفهمه - عقل من الخارج، مثلما أن العقل وحى من الداخل.

وقد جاءت معالجتنا هذه مكونة من «فصّين اثنين»، كأنهما «التوأم الملتصق»:

(الفص الأول): المجتمع والقانون والشريعة، والضبط الاجتماعى والضبط القانونى، والأمة والسلطة: الفكرة والمقاصد والعلاقات والأدوار.

و(الفص الثانى): تأصيل مبدأ «الأمة هى الأصل».

وأرجو أن يكون هذا البحث - فى منهج معالجته، وفيما انتهى إليه من رأى - فتحًا جديدًا فى ميدانه، نبغى به: إزالة وكنس ما تراكم من صدأ فكرى - سواء أتتنا جرثومة هذا الصدأ من الموروث أو من الوافد - وتجلية وتزكية وبيان وتفعيل ما انطمر - بفعل التقليد والجمود والكسل العقلى - من دلالات الوحى المجيد القريبة والبعيدة، ما ظهر لنا منها بأدنى تأمل، وما احتاج إلى غوص وتدبر.. مستهدفين به، ومن خلاله، بذر بذرة التأسيس لمجتمع وأمة ودولة وعلاقات زكية صحية جديدة.

١- الإنسان كائن اجتماعى، إذ طبيعته تدعوه إلى الاختلاط بغيره، مشاركة فى المعيشة، وإسهاما فى النشاط، وتبادلا للمنافع، وهو - فوق ذلك ومعه - لا يمكن أن يقوم بقضاء جميع مصالحه استقلالا = (بذاته)، ولذلك كله كان وجود المجتمع أمرا حتميا، ولذلك أيضًا تقرر مبدأ عاما خالدا: أن الإنسان لا يعيش إلا فى جماعة.

٢- وفى هذا الاجتماع/ المجتمع: تنشأ علاقات بين الناس مختلفة الأنواع.. والناسُ - فوق ذلك ومعه - مختلفة الأفكار والتصورات والميول والطباع - سنة كونية أزلية لا تبديل لها ولا تحويل - فيقع - ولابد - شىء من تعارض السعى وتضارب المصالح، ولو تركت بالكلية تسوية تلك التعارضات والتضاربات والعلاقات لتحل بالاجتهادات الفردية (أى: لو تركت بالكلية إقامة العدالة للاجتهادات الفردية) لغلب الهوى وساد الاضطراب وعمت الفوضى، مما يودى تلقائيًا إلى اضمحلال المجتمع وتفككه وفنائه.. إن العدالة من حقوق المجتمع وواجباته فى ذات الوقت، ولا يجوز التخلى عنها كلية للأفراد ليقوم كل منهم بفرض «عدالته الخاصة» (أى: تصوره الخاص للعدالة)، ولذلك فليس لأحد أن ينتزع كلية هذا الحق والواجب المجتمعى لنفسه تحت أى غطاء أو أى ادعاء، فمثل هذه الدعاوى قد تبدأ بدافع الحرص على الفضيلة أو القيم العليا ولكنها تؤول/ تنتهى إلى تعريض المجتمع إلى «الفوضى» وانعدام «العدالة» ذاتها.

٣- لذلك كان لابد من نظام يؤطر النشاط، ويضبط السعى، وينظم تحصيل المصالح، ويحجم التعارضات، ويعمل - قدر الإمكان - على تفادى وقوعها، وعلى حلها إن وقعت، وبهذا ولهذا ولدت فكرة القانون، فتلك أسباب وجوده وتلك مقاصده.

٤- فليس الغرض من القانون «تعديل السلوكيات والاعتقادات والآراء»، أو التأهيل التربوى والأخلاقى للناس»، وإنما مقصده/ الغرض منه: ضبط وتأطير العلاقات البينية، لئلا يقع طغيان أو إخسار، عدوان أو بغى، حفظًا لكيان المجتمع أن يضمحل، وكفالة له أن يتزكى.

٥- ففارق بين أن يتصور أن يهدف القانون

إلى «تزكية سلوك الناس» وأن «يعبد الطريق لذلك»:

الأولى: وظيفة التربية والتعليم والدعوة والإرشاد والتثقيف والتوجيه والحوار (أى وظيفة المحيط الأسرى والاجتماعى، أى وظيفة «آلية الضبط الاجتماعى» كما أسميها).

والثانية: أعلى وأصعب وأسمى درجات وظيفة القانون (أى وظيفة «آلية الضبط القانوني» كما أسميها).

٦- الغرض من القانون: تنظيم المجتمع وحفظ كيانه، ليسهل أن يتزكى كيانًا ومكونات وبتعبير آخر، مقاصد وجود القانون: ألا يطغى الناس بعضهم على بعض، مع الفصل بين قواتهم وفض اشتباكاتهم، مع تقليل وتحجيم تعارض المصالح وتضاربها، وتنظيم شئون الحياة، تحقيقًا للحد الأدنى من الانسيابية والسهولة والنظام والانتظام والتناغم.

وبتعبير ثالث، مقاصد وجود القانون: تناغم وانتظام حركات وأفعال الأشخاص - الحقيقيين والاعتباريين - من خلال ضبطها عبر مجموعة من القواعد العامة الجبرية التى تؤطر الحركة وتوجه الفعل.

٧- وبهذا يتبين أن كل ما يؤول / يؤدى إلى تهديد أو زعزعة أو خلخلة أو اضطراب استقرار وأمن المجتمع عمليًا وفعليًا وعلى أرض الواقع: يمنع قانونًا، وما ليس كذلك فيضبط اجتماعيًا.

٨- ثم إن النواحى الفاسدة أو السيئة المنبثقة عن العادات والتقاليد والآراء والأفكار والتصورات أو المنظمة بها، والتى يمكن أن يقوم على ضبطها «سلطان الرأى العام والمحيط الاجتماعى» = (آلية الضبط الاجتماعى)، إنما يلجأ فى شأن تقويمها وإصلاحها وتغييرها إلى غرس مفاهيم وعادات وتقاليد جديدة بالتربية والتوعية والتعليم والدعوة والإرشاد، لا بسن قوانين عقابية مضادة لها، لأن ذلك سيأتى بعكس المقصود منه، إذ سيزداد المجتمع (أو الطائفة الخاصة منه) تمسكًا بتلك النواحى الفاسدة أو السيئة، فإن القوانين إنما تقوم على الجبر والإلزام والإكراه المباشر، بينما تعالج النواحى سابقة الذكر بالتفهيم والإقناع والاستمالة والترغيب والتزيين.

٩- نعم، القانون - في الرؤية الإسلامية - مبناه على الأخلاق، ولكن نظام الأخلاق أوسع من نطاق القانون، إذ كل قاعدة أو نص قانونى إنما يستند إلى أساس أخلاقى (ولو إجمالا)، بينما ليست كل قاعدة أخلاقية تصلح أن تكون قاعدة أو نصًا قانونيًا.

١٠- نعم، «القانون» =(آلية الضبط القانونى) و«سلطان الرأى العام والمحيط الاجتماعى» = (آلية الضبط الاجتماعى): يحكمان سلوك الأفراد فى المجتمع، ولكنهما يختلفان فى «ماهية الجزاء»: حيث هو فى الأول: مادى يوقع بالقوة الجبرية، بينما هو فى الثانى: معنوى يوقع بالاستنكار والاستهجان والمقاطعة والازدراء والسخط، أو بالنصح والإرشاد والتواصى بالحق والتوجيه والتعليم والبيان والحوار.. وإنما استخدمت القوة الجبرية فى الأول لكونه ماسًا - بالخلخلة الفعلية، فى القريب العاجل أو في البعيد الآجل - كيان المجتمع ونظامه واستقراره.

«آلية الضبط القانونى» هى أداة السلطة فى الحكم وللإحكام، لتحقيق الاستقرار

وتعبيد طريق العمران، بينما «آلية الضبط الاجتماعى» هى أداة المجتمع فى الدفاع عن، واحترام، وترسيخ، ثوابته وقيمه وما استقر عليه ضميره العام من أخلاق وعادات وتقاليد وسلوكيات.

«آلية الضبط القانونى» هى أداة السلطة لضمان استقرار واستمرار المجتمع، بينما «آلية الضبط الاجتماعى» هى أداة المجتمع ذاته - أفرادًا وكيانًا - للارتقاء والترقى والتزكى.

«آلية الضبط القانونى» تهدف إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع ومنع خلخلته أو تعكير استقراره (أى إقامة النظام الذى هو ضد الفوضى والعبثية، وتوفير الاستقرار الذى هو ضد الاضطراب والاصطراع)، بينما «آلية الضبط الاجتماعى» تهدف إلى إقامة الفرد الصالح والمجتمع الصالح.

«آلية الضبط القانونى» موردها «المنازعات والمشكلات» التى تقع - أو يتوقع أن تقع - بين الناس، فيأتى القانون لحلها - أو منع وقوعها - بالعدل، بلا ظلم ولا جور.. بينما «آلية الضبط الاجتماعى» موردها «العلاقات الطبيعية» بين الناس بصرف النظر عن وقوع المنازعات والمشكلات من عدمه، فتتصدر قيمة «الإحسان» المشهد، ذلك الإحسان الذى يقوم على ساقى: تفكيك عوامل تفجير العلاقات بين الناس (بالعفو عن خطأ الغير، والتنازل طواعية عن الحق)، والعطاء بلا انتظار مقابل.

فـ«آلية الضبط القانونى» إنما تقوم على «المقابلة بين الحقوق»، حفظًا لها ومحوًا للمظالم، بينما «آلية الضبط الاجتماعى» تقوم على أساس «الإحسان»، تزكية للعلاقات الإنسانية.. الأولى تقوم على «التعاقد» والثانية تقوم على «التراحم».. الأولى تقوم على مبدأ «التبادل»، والثانية تقوم على مبدأ «العطاء».. الأولى تقوم على مبدأ «العدل»، والثانية تقوم على مبدأ «الفضل».

إذا: «آلية الضبط القانونى» هى الضامن لاستقرار المجتمعات، بينما «آلية الضبط الاجتماعى» هى الضامن لتزكيها، فإن التزكى والترقى لا يقوم بين علاقات حرجة تتحرك على حد السيف.

١١- ونخلص من هذا كله إلى:

أ- أن القانون هو «أحد» أدوات مواجهة الآثام والمعاصى، وليس «الأداة الوحيدة».

وبتعبير آخر: القانون «أحد وسائل الوصول» إلى تحقيق / مقصد الأخلاق، فمنزلة القانون من الأخلاق منزلة «الوسيلة» من «المقصد»، وكثيرًا ما تتعدد وسائل المقصد الواحد، ثم إن الوسائل ذاتها تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال، كما يُشترط فيها «عنصر «الملاءمة والمناسبة» لتصل بنا إلى الغرض المقصود منها.

ب- وأن المجتمعات لا تقوم لها قائمة إلا بـ«آلية الضبط القانونى»، ولا ترقى / تتزكى إلا بـ«آلية الضبط الاجتماعى».

١٢ / ١ - إن اقتصار القانون على تجريم «بعض» المعاصى والآثام - تلك التى تؤدى، فى القريب العاجل أو البعيد الآجل إلى تعكير الاستقرار الاجتماعى أو الإضرار بمصلحته العامة أو تهديد كيانه أو استمراره - ليس تبريرًا لغيرها من المعاصى والآثام - أيا كان شكلها أو مظهرها - أو إباحة أو فسحًا لها، وإنما هو اعتراف بأن دور «آلية الضبط الاجتماعى» فى التعامل معها ومعالجتها: أنسب وأهم وأنجح وأقوى وأكثر فاعلية وتأثيرًا.

١٢ / ٢ - الشريعة الإسلامية - فيما ترى - إنما تطبق عبر آليتين اثنتين: «آلية الضبط القانوني» و«آلية الضبط الاجتماعي».. وهما آليتان يحق للمجتمع أن يعملهما في أى مجال من المجالات وفق ما يراه من مصلحة، فإن رأى الضبط القانوني مفسدًا في مجال ما إن تدخل فيه: نحاه جانبا وأعمل الآلية الأخرى، وإن رأى الآلية الثانية أولى وأصلح من الأولى - أو العكس: أعملها، وإن رأى الآلية الثانية مفسدة في مجال ما إن ترك لها: نحاها جانبا وأعمل الأولى، وإن رأى إعمالهما معًا هو ما يحقق المصلحة: أعملهما معًا.

١٢ / ٣ - ومن الأخطاء الفاحشة أن يظن أن انعدام ضبط شيء بالآلية القانونية يعنى تنحية الشريعة جانبًا، أو انعدام تطبيقها، لأنه:

- غفلة عن الأمة ودورها ومسئوليتها، بل وتغييب لها.

- وغفلة عن الفرق بين «تطبيق الشريعة» الذى يتم عبر «الضبط الاجتماعي» أو «الضبط القانوني»، و«تقنين الشريعة» الذى ينحصر في «الآلية القانونية».

- ولأن حصر «الشريعة» - الفسيحة الأرجاء والرحبة الميدان - في «القانون»: اختزال فاحش وتبسيط مخل لدور الإسلام في الحياة وضبطها وإصلاحها وإنهاضها وتزكيتها.

١٢ / ٤ - هناك معاص / آثام حدد لها الشرع بنفسه عقوبات / جزاءات توقع على مرتكبيها في الحياة الدنيا.. وهناك معاص / آثام سكت الشرع عن تحديد عقوباتها / جزاءاتها في الحياة الدنيا وللسكوت هاهنا مقاصد في غاية الأهمية والخطورة، أهمها: فسح المجال أمام البشر «وإن شئت قلت: أمام الأمة كلها» ليقرر بنفسه، حسب المصلحة (أى حسب أوضاع الزمان والمكان والإمكان والحال)، ما يحتاج، في ذلك الظرف والزمان والحال، إلى فرضه بالقوانين والعقوبات والجزاءات، وما لا يحتاج إلى ذلك فيه، دون حجر ولا تحجير ولا حرج بمعنى أننا لسنا ملزمين ديانة أن نجرم - بآلية الضبط القانوني الجزائي العقابي - «كل» ما حرمته شريعة الإسلام، لأن لدينا «آلية الضبط الاجتماعي» فنحن - هاهنا - نتحرك بكل حرية بين آليتين شرعيتين يمكن أن نطبق بهما شريعة الإسلام وأوامره ونواهيه.

١٢ / ٥ - وعلى ذات النسق، وفي اتجاهه، نقول: لسنا ملزمين ديانة كذلك أن نوجب - بآلية الضبط القانوني الإلزامي الجبري - «كل» ما أوجبته شريعة الإسلام، لأن لدينا «آلية الضبط الاجتماعي».

وكذلك الأمر فيما يسمى - في التراث الفقهي - بالحسبة، إذ ليس في الشرع منها غير أساسها، مثل: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب التواصي بالحق، وأنه لا ضرر ولا ضرار وأن الضرر يزال، وأن درء المفاسد واجب.. أما «آليات تطبيق ذلك وتفعيله» فمتروكة لنا، نقرر فيها ما يناسب أحوالنا حسب المصلحة، فنحتسب على كل مفسدة - وهي كل أمر يترتب عليه ضرر بمقصد من مقاصد الشرع أو بحق من حقوق الناس أو المجتمع - بما يناسبها ويقتضيها حسب المصلحة.

ثم إن آليات تطبيق ذلك منفسحة أمامنا أيضا، بين «آلية الضبط القانوني» و«آلية الضبط الاجتماعي».

ثم إن الاحتساب - فوق ذلك - لا يستلزم العقاب، ولا يُحتم المعاقبة، إذ غاية الاحتساب رفع المفسدة - أو المعاونة في ذلك - لا عقاب فاعلها، نعم يجوز أن يعاقب الفاعل بشروط، ولكنه غير لازم، أقصد أن العقاب ليس من بنية الحسبة وأركانها، وإنما هو متمم لها عند الحاجة إليه - وفق شروط وضوابط.

١٣ / ١ - وما نرمي إليه هاهنا، هو أن لأولياء الأمور، الذين هم وكلاء عن الأمة - والسلطة التشريعية في عصرنا ممثلة في مجلس الشعب هي المختصة بسن القوانين - أن يقدروا على المعاصي المتعلقة بالحقوق البينية المتبادلة - والتي خلت في ذات الوقت من تقدير الشرع لعقوبة صريحة محددة عليها - من العقوبات ما تقضي به المصلحة العامة، وفق مبدأى «المشروعية» و«المناسبة / الملاءمة» (فإن مفاسد المعاصي تتفاوت في الخفاء والظهور، والضعف والشدة، والقلة والكثرة).

ولهم - بل وعليهم أحيانا - أن يُمسكوا عن تقدير عقوبات ما عدا ذلك من المعاصي، فإن منها ما لا يمكن أن يجبر فاعلها على منعه من المعاودة إن كان قد تلبس بما لا يجوز فعله أو أن يُجبر على الأداء إن كان قد تلبس بإهمال ما يجب فعله إلخ، ومن ثم، يجب ترك معالجة تلك المعاصي والآثام إلى آلية الضبط الاجتماعي، وإلا آل الأمر في مثل تلك الحالات إلى:

أ- خلق شعب من المنافقين يُظهرون غير ما يُبطنون، ويزدادون إصرارا وتشبثا بأفعالهم تلك، وينتهزون الفرص للتفلت من قبضة القانون، بل ويبتغون ذلك كلما أمكن، ومن ثم، تتفاقم المشكلة المراد علاجها بالجزاء العقابي القانوني وتستفحل بدلا من أن تتقلص.

ب- وخدش كرامة وإنسانية الإنسان، والتضييق على حرية اختياره وإرادته - كما سبق البيان - وكما سيأتي، وكلا الأمرين مرفوض في الإسلام - كما نفهمه.

١٣ / ٢ - إن توغل وتغول وتوحش وتفحش القانون غفلة عن أن «الأمة هي الأصل»، وليست «السلطة التنفيذية أو التشريعية أو العقابية»، حتى ولو كانت منتخبة من الأمة.

وغفلة عن أن مقصد الإسلام الأسمى والأسنى ليس أن يلزمك ظاهريًا، وإنما أن يُزكيك / يرقيك باطنيًا فتلتزم ظاهريًا.

وغفلة عن أن «السلطة» في الإسلام إنما تقوم على مبدأ «التعبد لله» - بتعبيد الناس له سبحانه طواعية - لا «التسلط على خلق الله» - بقهر الناس على التعبد له - فالسلطة للدين كالوسيلة للغاية، فمتى لم تتحقق الغاية بها، فلا قيمة لها «أى لوسيلة السلطة» ولا منزلة ولا أهمية، ومن ثم: لنبحث عن وسيلة أخرى نعيد بها نشر وترسيخ وتحقيق مبدأ «التعبد لله» في أنفس الناس أولا، ولا وسيلة إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

١٤ - والخلاصة أنَّ الشريعة وإن فرضت صراحة عقوبات محددة على آثام معينة، فإن ذلك لا يُوجب علينا: فرض عقاب قانوني على كل ما عدا ذلك من معاص وآثام، أو الإلزام بكل الأوامر الشرعية إلزامًا قانونيًا - فالأمر - أمر الإلزام أو العقاب القانوني - خاضع لاجتهادنا ومصلحتنا:

أ- رحمة من الله بنا وتوسعة علينا: فهو سبحانه لم يرد أن يضيق علينا فنحاصر - من كل اتجاه - بالقوانين الإلزامية أو العقابية، حتى لا يرغب المرء عن دين الله إن وجد نفسه محاصرًا بترسانة قانونية إلزامية وعقابية، تجعله يتحرك في الحياة - تفعيلًا لمراد الله من خلقه، وتنفيذًا وتطبيقًا لشريعته - كأنه إنسان

آلى أوتوماتيكى - موجه، أو تحيله عروسًا يحركها مخرج مسرح العرائس بخيوطه، مما يخدش إنسانية الإنسان ويقدح فى صميمها.

وهو فوق ذلك: «تخفيف» من «ثقل» التكليف (وكل تكليف فيه نوع ثقل)، بالترغيب فيه والترهيب من مخالفته «إجمالا»، فالقوانين للحياة كالطعام للإنسان، لا يمكن أن نعيش دون وجوده، ولكن إكثارنا منه وإفراطنا في تناوله يعيق حركتنا ويثبط همتنا ويصيبنا بالأمراض، وكذلك القانون!

وكم سيكون التحرك فى كثير من جنبات ميدان الحياة عظيمًا وحرًا معا إن انبثق عن «التزام طوعى ذاتى»، خاصة إذا فقه المسلم أن تكاليف الرحمن لخلقه لا تدل مطلقًا على قهر إرادتهم وسلب حريتهم، وإنما على كمال رحمته بهم، وذلك من وجوه عدة، منها، بل على رأسها: أن مضامين هذه الأوامر والنواهى إنما هى - فى التحليل الأخير - «قيم خُلقية» - بالمعنى الواسع الصحيح للأخلاق - و«معان روحية»: «ترقى» بالإنسان فى «مدارج الكمال» و«منازل القرب من الحق تبارك وتعالى» وهل من شىء «أرحم» بالإنسان من «دوام الارتقاء» بإنسانيته!

ب- واحترامًا لآدميتنا وإنسانيتنا ولإرادتنا وحرية اختيارنا فإنه سبحانه لا يريد «أعناق عبيد» وإنما يريد «قلوب عباد».

ج- وعاملا دالا على مدى مرونة وسعة الشريعة الإسلامية واستيعابها لمختلف الظروف والأحوال والبيئات والأوضاع.

د- وعاملا فاعلا فى إحسان تطبيقها وتنزيلها على الوقائع والأشخاص والمجتمعات.

هـ- وتأكيدًا على وتنبيهًا ولفتًا إلى أن «سلطة الضمير والأخلاق والالتزام الذاتى الطوعى» أهم وأرقى من «سلطة القانون السلطانى القهرى» فى الرؤية الإسلامية، وإلا أصبح الناس يعبدون القانون ولا يعبدون الله، يخشون القانون ولا يخشون الله!

و- وفسحًا للمجال أمام الأمة لتنظيم شئون حياتها بحرية «أى حرية تكييف الأوضاع حسب متطلبات الزمان والمكان والإمكان والحال، نظامًا وتنظيمًا، فسحًا للمجال أمام العقل البشرى «وإن شئت قلت: أمام الأمة كلها» ليقرر بنفسه، حسب المصلحة، ما يحتاج إلى فرضه بالقوانين والعقوبات والجزاءات، وما لا يحتاج إلى ذلك فيه، وما يحتاج إلى تشديد العقاب عليه أو تنويعه، وما لا يحتاج، دون حجر ولا تحجير ولا حرج.

بمعنى أننا - وكما سبق البيان - لسنا ملزمين ديانة أن نفرض - بآلية الضبط القانونى الإلزامى الجبرى - أو أن نجرم - بآلية الضبط القانونى الجزائى العقابى «كل» ما أوجبته أو حرمته شريعة الإسلام، لأن لدينا «آلية الضبط الاجتماعى» فنحن هاهنا - وكما سبق البيان - نتحرك بكل حرية بين آليتين شرعيتين يمكن أن نطبق بهما شريعة الإسلام وأوامره ونواهيه.

١٥ - وبتعبير آخر أكثر انفساحًا:

* يجب أن نميز بين «دور السلطتين التشريعية والتنفيذية» و«دور الأمة والمجتمع والدعوة»:

(الأولى): تسن وتنفذ القوانين والسياسات الحافظة للاستقرار، والفاضّة للخلافات والمنازعات، والحامية للحقوق البينية المتبادلة أن تنتهك، والكافلة للمجتمع أن يتزكى وهذه هى «آلية الضبط القانونى» إنشاء وتنفيذًا.

من مثل الأمور:

- المالية (الاقتصاد - النظام النقدى - الضرائب - التجارة).

- والقضائية (المحاكم - النيابات - تطبيق القوانين).

- والسياسية «نظام الحكم - العلاقة بين السلطات واختصاصات كل منها - سن القوانين والتشريعات - العلاقات الخارجية».

- والعسكرية «الأمن الخارجى والحدود والجيش والمخابرات».

- والشرطية «الأمن الداخلى: الشرطة والمباحث».

- والصحية «طبًا ودواء وطعامًا».

- والبيئية «المساهمة فى رعاية البيئة، تنمية وتوعية وتمويلا وتخطيطًا وإدارة وتقنينًا».

- والعمرانية (التخطيط المركزى العمرانى - بناء المدن الجديدة - بناء وصيانة المرافق العامة - توفير الخدمات والاحتياجات الأساسية، البنية التحتية الأساسية، من شوارع وطرقات وجسور وكبار وقناطر ومتنزهات وحدائق عامة، وماء وكهرباء واتصالات وغاز طبيعى»... إلخ.

- والاجتماعية (المعاشات - التأمين الصحى - الدعم النقدى أو العينى).

- والأسرية «توقيع: عقد القران - الطلاق والفسخ - النفقة»... إلخ.

- والزراعية «توفير المياه - رسم سياسة زراعة المحاصيل - رسم سياسة استصلاح الأراضى والمساهمة في ذلك».

- والصناعية (تنظيم الإنتاج الصناعى بكافة صوره وأشكاله، والمساهمة فيه، خاصة ما يعزف القطاع الخاص عن الخوض فيه لعظم مؤنته (تكاليفه)، وقلة ربحه، أو طول أجله).

- والاقتصادية (التخطيط المركزى - الاستفادة من الثروات الطبيعية - تشجيع المشروعات التنموية الاستثمارية الجادة).

- والتنظيمية (قوانين المرور والنقل البرى والبحرى والنهرى والجوى، وقوانين لتنظيم، وليس لتكبيل ومحاصرة، إنشاء وتمويل: المؤسسات الإعلامية المختلفة، ومؤسسات المجتمع المدنى / الأهلى بمختلف أشكالها وأنشطتها، والنقابات، والأحزاب، ونوادى أعضاء هيئات التدريس والبحوث بالجامعات والمراكز والمعاهد البحثية، واتحادات الطلبة).. إلخ.

- والتعليمية (المساهمة فى الإنشاء والتمويل والتخطيط لـ: محو الأمية - المدارس والجامعات - نظام التعليم وأنواعه).

- والبحثية العلمية الكونية (المساهمة فى الإنشاء والتمويل والتخطيط لـ: مراكز البحوث والتميز العلمى والتكنولوجى في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء، والطب والهندسة والفلك والزراعة، وبقية المناحى البحثية الكونية والتكنولوجية، وتشبيكها / ربطها بالمشاريع القومية والتنموية) والنظرية (المساهمة فى الإنشاء والتمويل والتخطيط للمراكز البحثية السياسية والاقتصادية والفكرية والفلسفية والثقافية والفنية).

- والسياحية والثقافية والترفيهية (بناء وتهيئة وصيانة وتأمين المتاحف والآثار والأماكن التاريخية والمسارح ودور السينما والشواطئ ومختلف أماكن الترفيه والترويح المشروعة وإنما قيدتها بالمشروعة، إذ لا يجوز بحال للدولة / السلطة القائمة على المرجعية الإسلامية - ولا للفرد المسلم -

بناء الخمارات، وصالات القمار على سبيل المثال، لأنه لا يجوز للدولة/ السلطة مخالفة الشريعة وكذلك الأمر في جميع ما سبق ذكره من مناخ بينما المخالفات/ الآثام/ المعاصي الأخلاقية/ السلوكية التي تقع في مثل تلك الأماكن المشروعة فإنما يتعامل معها وتعالج وفق آلية الضبط الاجتماعي).. إلخ.

و«الثانية»: تقوم بحفظ الدين ورعايته وتبليغه ونشره والدعوة إليه، وبالوعظ والإرشاد وغرس القيم ونشر الأخلاق، وبالتربية والتوجيه والتثقيف، وبالتواصي بالحق، وبالإشادة والتكريم، وبالمقاطعة والهجران، وبالتزكية والتنمية والرعاية، وبالبيان للناس وإقامة الحجة وإزالة الشبهة وهذه هي آلية الضبط الاجتماعي من مثل:

– رفع الوعي الصحي والفكري والديني والسياسي والاقتصادي والقانوني.

– والتدافع الديني والعقدي والفكري والفلسفي بين مختلف الديانات والعقائد والمذاهب والأفكار والتيارات والمدارس = (حرية الرأي والتعبير).

– والقيام بمختلف الأنشطة الزراعية «زراعة المحاصيل - المساهمة في استصلاح الأراضي) والصناعية «إقامة المشروعات الصناعية» والتجارية «الاستيراد والتصدير - البيع والشراء» والسياحية والترفيهية والثقافية والفنية «شواطئ - متاحف - مناطق أثرية - سينما - مسرح - فنون شعبية).. إلخ.

– وتفعيل وتنشيط دور العمل الخيري والتطوعي في مختلف أوجه الأنشطة الحياتية، سواء بالمساهمات المادية أو بالمجهود الشخصي تخطيطًا وإدارة وتنفيذًا (ويمكن هاهنا الاستفادة من الإجازات الصيفية لطلبة المدارس والجامعات، والاستفادة من خبرات ومساهمات المتقاعدين عن العمل، وأرباب المعاشات، وكبار السن، ممن من الله عليهم بصحة جيدة).

– وإحياء الوقف وإدارته بعيدًا عن يد السلطة التنفيذية، ومد ظله ليغطي مختلف مناحي وميادين الحياة (أوقاف لـ دعم مراكز البحوث العلمية الكونية والنظرية - دعم العلماء، وطلبة العلم، والمبتكرين والمخترعين والمُنظّرين والمفكرين، وتوفير مساكنهم ومرتباتهم - جوائز تمنح، من خلال مسابقات، أو من خلال لجان اختيار، للمتميزين والمبدعين في كل مجال أفرادًا وكيانات، تكريمًا وتحفيزًا لهم ولغيرهم - دعم المشروعات متناهية الصغر والصغيرة - بناء وتمويل المستشفيات والمساجد والمدارس والورش الحرفية - سد حاجات الفقراء والمعوزين، وتسليف وإقراض المحتاجين، والمساهمة في تسديد ديون المديونين - رعاية المسنين، والأيتام، واللقطاء، وأطفال الشوارع - رعاية أسر الشهداء والمصابين في الحروب والحوادث - مساعدة غير القادرين على نفقات الزواج - مساعدة غير القادرين على أداء فريضة الحج - المساهمة في بناء أو توفير المساكن لحل مشكلة الإسكان.. إلخ).

– وإدارة دور العبادة والمؤسسات الدينية بعيدا عن يد السلطة التنفيذية، وكذلك النقابات، ومنظمات وجمعيات ومؤسسات المجتمع الأهلي/ المدني بمختلف أشكالها وأنشطتها، والمؤسسات الإعلامية والبحثية والفكرية المختلفة.

– والمساهمة في إنشاء وتمويل وإدارة والتخطيط لـ: «محو الأمية - نظام التعليم وأنواعه - المدارس والجامعات - مراكز البحوث والتميز العلمي والتكنولوجي في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء، والطب والهندسة والفلك والزراعة، وبقية المناحي البحثية الكونية والتكنولوجية، تشبيكها بالمشاريع القومية والتنموية - مراكز البحوث السياسية والاقتصادية والفكرية والفلسفية والثقافية والفنية).

– والمساهمة في رعاية البيئة (تنمية وتوعية وتمويلًا وتخطيطًا وإدارة).

– ورعاية مؤسسة الأسرة «حسن تربية الآباء للأبناء - بر الوالدين - حل المشكلات الأسرية - زيادة الترابط الأسري).

– وترسيخ القيم والفضائل والأخلاقيات (دعوة ونشرًا ودفاعًا وإقناعًا وحثًا) والتواصي بها، وتزكية السلوك، وإحياء وترسيخ مفهوم المصلحة العامة، ونبذ الأنانية، ونبذ الممارسات والسلوكيات والمظاهر الاستهلاكية، وإحسان المعاملة، والحث على تبين والتزام حدود الحلال والحرام في سلوكياتنا وأزيائنا ومعاملاتنا اليومية (الشخصية، والبينية العلنية) سواء في أماكن العمل أو الترفيه أو الترويح المشروعة، والتواصي بذلك.

– والتواصي برعاية الجيران «بالمفهوم العام الشامل للرعاية»، وعيادة المريض، وكسوة العريان، وإطعام الجائع، وكفالة اليتيم، ورعاية الأرملة، وإيتاء ذوي القربى، وقضاء الحوائج والإصلاح بين المتخاصمين، وإماطة الأذى عن الطريق، والرحمة بالحيوان (وأكثر هذه الأمور - مثل أكثر ما سبق ذكره من مناخ - واجبات شرعية لازمة، لا يمكن تطبيقها أو تفعيلها أو نشرها أو الحث على الالتزام بها أو إثمارها إلا عبر آلية الضبط الاجتماعي).. إلخ.

* يجب أن نميز بين «دور رجل التشريع والتنفيذ» و«دور الفقهاء والدعاة والخطباء والوعاظ والمربين والمعلمين والأدباء والمفكرين والفلاسفة وعلماء النفس الاجتماعي».

الأول: ينظم العلاقات بين الناس، ولا يتدخل في الاختيارات أو الممارسات الشخصية - فكرية كانت أو دينية أو سلوكية - وهذا جوهر آلية الضبط القانوني.

والثاني: وظيفته البيان والوعظ والإرشاد والنصح والإقناع والتزكية والحث على الالتزام، لا الفرض والجبر والإلزام والقمع المباشر. وهذا جوهر آلية الضبط الاجتماعي.

* يجب أن نميز بين «دور ومقاصد السلطة» و«دور ومقاصد الأمة».

الأولى: دورها الأساسي إيجاد المناخ العام الذي ييسر ويسهل ويسمح للإنسان المسلم بممارسة «مهمة الخلافة» من خلال التغلب على العقبات السياسية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية التي تعيق ذلك، لا فرض «كل» تعاليم الإسلام بالقهر والإرغام والعقاب القانوني.

والثانية: دورها الأساسي تربية وتزكية الشخصية الإسلامية لمختلف مكونات المجتمع - أفرادًا وجماعات - روحيًا وأخلاقيًا وسلوكيًا، في كافة مناحي وميادين الحياة.

١٦/ ١ - وهذا «التمييز التقسيمي» الإجرائي الإداري للأدوار والمهام - أو هذا «التوزيع» للأدوار والمهام - لا يعني أنها منفصلة عن بعضها تمامًا، أو منعزلة، بل في هذا التمييز والتقسيم والتوزيع مساحات مشتركة

«تتداخل» فيها أحيانا الأدوار والمهام.

فضلا عن «التكامل البنيوى العام» بين «الأمة» و«السلطة»:

أ- فإن وجود سلطة وحكومة ذات مرجعية إسلامية يفترض أولا بروز الأمة إلى حيز الوجود، بمعنى أن قيام دولة للمسلمين يستلزم قبل ظهور مجتمع ملتزم بالإسلام مبدأ ومعيارًا، ويستلزم قبل أن تكون السلطة موكلة من قبل الأمة، لا مفروضة عليها بالغلبة أو القهر - أو الاستبداد أو التزوير أو التوريث، يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(النساء: ٥٩)

وليس «منا» من هو «مفروض علينا»!

ب- وإن الاستمرار الفعلى للأمة يتطلب تأسيس سلطة / حكومة تستلهم طموحات الأمة وآمالها، توفيرًا للحد الأدنى من متطلبات قيام الأمة بمهامها «المنبثقة عن مهمتها الكبرى، مهمة الخلافة والاستخلاف» نعم، يمكن استمرار الوجود الإيمانى والأخلاقى للأمة استمرارًا مؤقتا هشًا «وزائلا فى المآل لا محالة» حال الغياب الطارئ أو الاضطرارى أو الاستثنائى للسلطة / الحكومة، ولكن بقاء الأمة - أية أمة - وظيفيا ونظاميًا يتطلب لزامًا وحتمًا حضور السلطة / الحكومة.

فلا وجود لسلطة - أية سلطة إلا بوجود أمة، ولا وجود لأمة - أية أمة - إلا بوجود سلطة.

ولهذا، لما كون رسول الله (عليه الصلاة والسلام) نواة الأمة في مكة المكرمة، انتقل بها - تحت ضغط الاضطهاد والتعذيب الذى سيفنيها ويبيدها - إلى المدينة المنورة، ليقيم الدولة / السلطة / الحكومة ولولا هذا الاضطهاد والتعذيب لتحولت مكة تلقائيًا، وبمرور الزمن، ودون حاجة للهجرة منها، إلى دولة للمسلمين، وفقًا لطبائع الأشياء وسنن الاجتماع.

١٦ / ٢ - ومع ذلك تبقى الفروق الكبرى وملامحها كما هى، تلك الفروق التى تقضى بـ«التمييز» بين أدوار ومهام هاتين الدائرتين - دائرة الأمة ودائرة السلطة - من غير «فصل تام» بينهما ولا «دمج كلى»، ذلك التمييز الحائل دون استخدام السلطة ومؤسساتها فى «تجميد حياة» الأمة وأنشطتها و«وقف نموها»، والحائل دون تحولها أخطبوطا ديناصوريا جبارا يحاصر بأذرعه جسد الأمة فيمنعها أن تتحرك إلا برغبته!

١٧- والوقف - فى تاريخ أمتنا - يقف شاهدًا شامخًا، ضمن شهود عدول كثر، على فقه الأمة ووعيها واستيطانها لطرحنا سالف الذكر والتفصيل، لقد كان الوقف مؤسسة الأمة التى منها مولت صناعة الحضارة، وبها أقامت العدالة الاجتماعية النسبية بين الناس.. لقد امتد الوقف لمختلف أنشطة العمران فى دار الإسلام، فشمل:

١- المساجد: بيوت الله فى الأرض، والتى مثلت وقتها أماكن تجمع المسلمين لمناقشة شئونهم العامة.

٢- والمدارس: التى جعلت دار الإسلام منارة علم الكرة الأرضية لقرون عدة.

٣- والمكتبات: التى يسرت الكتب للراغبين فيها دون نفقات.

٤- ونسخ المخطوطات: وهو ما يقوم اليوم مقام المطابع ودور نشر الكتب.

٥- والحفاظ على التحف والآثار.

٦- وإنشاء كتاتيب تحفيظ القرآن فى المدن والقرى والنجوع.

٧- والإنفاق على العلماء وطلبة العلم فى مختلف أرجاء بلاد المسلمين، مما حرر الرأى والفكر والفقه من استبداد السلاطين.

٨- والإنفاق على الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، وعلى علمائهم وطلاب العلم فيهم، وعموم المحتاجين من أهل هذه المناطق والوافدين إليها.

٩- وعمارة الرباطات التى يقيم فيها المجاهدون المقاتلون وشحنها بعدة القتال ونفقات المقاتلين ورعاية أسر الشهداء منهم.

١٠- وتحرير الأسرى بافتدائهم والإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم.

١١- وإقامة المستشفيات = (البيمارستانات بالتعبير القديم) للعلاج والاستشفاء من الأمراض العضوية والنفسية معًا.

١٢- وإقامة أسواق التجارة.

١٣- وإقامة الأسبلة وحفر الآبار والعيون ليرتوى منها المارة وطلاب المياه.

١٤- وإقامة القناطر والجسور والأسوار وإنارة الدروب.

١٥- وبناء العبارات التى تنقل الناس عبر الأنهار والترع والرياحات.

١٦- وبناء الخانات = (الفنادق بالتعبير المعاصر) التى ينزل فيها التجار والمسافرون.

١٧- وبناء الحمامات العامة التى تحفظ وتيسر نظافة الناس وطهارتهم.

١٨- ورصف الطرق وتعديلها وصيانتها.

١٩- ورعاية أبناء السبيل حتى يعودوا إلى المنازل والديار.

٢٠- والحدائق المخصصة ظلالها وثمارها لعابرى السبيل يأكلون منها الفاكهة على مدار العام.

٢١- والمعاونة على أداء فريضة الحج للذين لا يستطيعون إليه سبيلا.

٢٢- وتجهيز الحلى الذهبية وأدوات الزينة للعرائس الفقيرات اللاتى لا يستطعن شراءها عند الزواج!.

٢٣- ورعاية النساء الغاضبات: اللاتى لا أسر لهن، أو من تسكن أسرهن فى بلاد بعيدة.. فتؤسس لهن دور، تقوم على رعايتها نساء، على رأسهن مشرفة تهيئ الصلح للزوجات الغاضبات مع أزواجهن!

٢٤- ومؤسسة «نقطة الحليب» الخاصة بإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر، إعانة لهن على تغذية أطفالهن الرضع!

٢٥- وإعانة ورعاية ذوى الأمراض المزمنة والاحتياجات الخاصة.

٢٦- وإيواء الحيوانات والطيور ورعايتها وتطبيبها!

٢٧- وتهيئة موائد الإفطار والسحور للفقراء والغرباء فى شهر رمضان.

٢٨- وتسليف المحتاجين وتزويجهم!

٢٩- والأوانى والقدور المخصصة للمناسبات - أفراحًا وأحزانًا لمن لا يستطيع شراءها.. ومنها كذلك تعوض الأوانى التى كسرت من الخدم، لئلا يؤذيهم ساداتهم!

٣٠- وتجهيز موتى الفقراء والغرباء.

٣١- وبناء مقابر الصدقة ليدفن فيها الفقراء والغرباء وأبناء السبيل.

٣٢- ورعاية المحبوسين وكفالة عائلاتهم.

٣٣- إلخ مما لا يمكن حصره ولا الإحاطة به.

جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ
مارس ٢٠١٣ م

مع الله

الدكتور نظمي لوقا

مع الله في الأرض وابتغاء لوجهه فيما تأخذ من الدنيا وما تدع وفيما يعرض لك من المنافع والطيبات. وفيما يتصل بينك وبين الناس من الأسباب.

تلك دعوة الإسلام:

﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾

(القصص: ٧٧)

أجل!

ولا تجعلن الدنيا تلهيك عن ذكر الله، ذكره في كل حين ولكن عليك فرض من ذكره مفروض، في أوقات معلومة من الليل والنهار، حتى لا تسهو عن ذكره.. وباب النوافل مفتوح بعد ذلك لمن شاء مزيدا من الإحسان.

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩)﴾

(الإسراء ٧٨: ٧٩)

﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون﴾

(الروم: ١٧: ١٨)

﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾

(طه: ١٣٠)

﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾

(العنكبوت: ٤٥)

***

هذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا، حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى، فيخرج إلى الناس والكدح والسعي في طلب الرزق وبه أثارة من الخشية تنهاه عن البغي والمنكر ولا خير في صلاة بذهن شارد، وقلب بارد، لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر:

﴿قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون﴾

(المؤمنون: ١-٣)

﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾

(البقرة: ٤٥)

﴿فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون﴾

(الماعون: ٤-٦)

***

نظام واحد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية، من اتقاء الله في الضعفاء، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين، وأداء الزكاة للمعوزين، والتعفف عن الفسوق، فجاء في سورة

(المؤمنون):

﴿قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون﴾

(المؤمنون: ١-٥)

وجاء في سورة (الذاريات):

﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾

(الذاريات: ١٧-١٩)

وجاء في سورة (المزمل):

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا﴾

(المزمل: ٢٠)

وليست أي صدقة تعد إحسانًا. كلا!

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم (٢٦٣) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾

(البقرة: ٢٦٣-٢٦٤).

وبئس الصدقة ما كان رئاء الناس. وبئس الصلاة ما كانت رئاء الناس فلا تجعله رحيما عفيفًا:

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين (١) فذلك الذي يدع اليتيم (٢) ولا يحض على طعام المسكين (٣) فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون﴾

(الماعون: ١-٧)

وصلاة هذا شأنها، تتكرر في اليوم جملة مرات، لا يلهى عنها بيع أو شراء. إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله، ومن يفعل ذلك:

﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ولكن أين تكون تلك الصلاة؟ هل لابد فيها من وساطة رجال الدين؟

هنا تبرز خصوصية الإسلام في أمر الصلاة التي تقف المرء بين يدى الله جملة مرات في كل يوم.

كل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجدًا ومحرابًا. لا هياكل بعد اليوم! ولا كهانة بعد اليوم! ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم! ولا وصاية على ضمائر الناس! فكلهم أمام الرحمن سواء. والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء. فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلًا إلى ربه «والله سميع عليم». وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه، أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته.

وها هنا لا بد لي من وقفة.

إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظهريات اليهودية، وهدم شكليات الطقوس. ونادى بسيادة الضمير النقي، وقال لمن يريد الصلاة إن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلي.

إني أعتقد أن المسيح نقض الكهانة؛ لأنها تناقض عبادة الضمير والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله.. وأعتقد أن كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه. أما هو فلم يرد في نصوص أقواله ما يبرر قيام الكهنوت.

إن من يطلب من الناس أن ينادوا الله بقولهم: «يا أبانا الذى في السماء» كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء؟ إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق. ولا مكان في هذا الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه.

مقاربات علمية لفقه العبادات

فريضة الصلاة



أ. د. أحمد فؤاد باشا

قال تعالى:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

(طه: ١٣٢).

تبين لنا هذه الآية الكريمة أن الصلاة أمر إلهى يشعر الإنسان فى أدائه بقوة أعلى من قوته تشده ويشعر فى كنفها بالأمن والسكنية والحماية والقوة فيتغلب بذلك على نفسه وتهون كل آلامه ومشكلاته، وقد كان الرسول ï يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»، كما روى عنه ïقوله: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» (أخرجه النسائى).

والصلاة حافظة للصحة دافعة عن الأذى مجلبة للرزق؛ ولهذا دعت الآية الكريمة إلى الصبر والمداومة على أدائها، وقد قال تعالى:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾

(البقرة:٤٥).

وكان الرسول ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه صلوا صلوا»، وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة(١).

ولقد فرض الإسلام الصلاة وجعلها ركنا من أركانه، فهى عماد الدين؛ من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وهى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وتستوجب الطهارة والوضوء قبل أدائها.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(المائدة: ٦).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثانى، ص ٤٩٩.

وفى الطهارة بالغسل أو الوضوء قبل أداء الصلاة حكمة بالغة تضمن استمرار نظافة الأعضاء الظاهرة من الجسم وصيانتها من كثير من الأمراض، فضلاً عن تنشيط دورته الدموية والتنفسية. فغسل اليدين أمر وقائى هام لمنع انتشار الأمراض، وتخليل ما بين الأصابع فى الكفين والقدمين يحفظ هذه الأجزاء من بعض الأمراض الجلدية، والمضمضة بإدارة الماء وتحريكه فى الفم، والاستنشاق والاستنثار بإدخال الماء فى الأنف وإخراجه منه بالنفس، يساعدان على التقليل من انتقال جراثيم الأمراض إلى داخل الجسم، كذلك ينشط الجهاز العصبى بغسل الوجه واليدين والقدمين؛ لأن نهايات أطراف الأعصاب فى هذه المناطق تتنبه فتساعد فى زوال الفتور والخمول.

وتجدر الإشارة إلى أن طهارة المسلم بالغسل أو الوضوء جزء لا يتجزأ من دعوة الإسلام الشاملة إلى طهارة الجسد والروح والعناية بهما معًا، فضلاً عن التزام الطهارة والنظافة فى الثياب والفراش والمنازل والبيئة بوجه عام، وكلها عوامل للوقاية من التلوث بالأمراض وللمحافظة على المظهر الإنسانى الكريم، والنصوص المقدسة التى تحض على الطهارة والنظافة العامة كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة:٢٢٢).

وقول الرسول عليه السلام: «اتقوا الملاعن الثلاث: التبول (أو البراز) فى الموارد وقارعة الطريق والظل»

(رواه أبو داود وأحمد ومسلم).

واقترنت الطهارة والنظافة فى الإسلام بالإيمان، واعتبر التلوث نجاسة كريهة يجب على المسلمين التطهر منها؛ لأن «الطهور شطر الإيمان».

والماء الذى جعله الله – تعالى – أصل الحياة ووسيلة التطهر يصفه القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

(الفرقان: ٤٨).

وقد ورد لفظ «طهر» ومشتقاته فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة لإيجاب طهارة البدن والنفس والبيئة الإنسانية فى الظاهر والباطن، وفرض الوضوء للتطهر والنظافة قبل الصلاة. وجعلت نظافة منطقتى القبل والدبر شرطًا أساسيًا من

شروط الطهارة وصحة الصلاة. ذلك أن ما يخرج من السبيلين يحمل أعدادًا هائلة من السموم والجراثيم التى إن بقى منها أثر فى الجسم سببت له الكثير من المضار؛ ولهذا شرع الإسلام غسل أماكن الخروج وتنقيتها مما علق بها من أذى. وقد أوضحت دراسة علمية أن الحرص على نظافة السبيلين عامل هام فى وقاية الجسم من حدوث السرطان فى الجهاز التناسلى، ولهذا تقل أعداد المصابين بهذا السرطان بين صفوف المسلمين الذين يحرصون على تقصى النظافة، ويكفى أن تعرف أن جرامًا واحدًا من البراز يحمل مائة ألف مليون جرثومة، ولنا أن نتخيل ما قد ينتج عن إهمال ذلك من ضرر وأذى بالغين.

ومن سنن الفطرة أيضًا استنشاق الماء، حيث يعد المخاط وما شابهه من مفرزات تتراكم فى نسيج الأنف الداخلى وسطًا نموذجيًا لنمو الجراثيم والأحياء الدقيقة الأخرى التى قد تسبب العديد من الالتهابات فى حال تراكم المخاط وعدم إزالته وتنظيفه. والاستنشاق عامل مهم يخفف من تراكم المخاط؛ وبالتالى فإنه يحد من حدوث تلك الالتهابات. ولاستنشاق الماء أيضًا دور مهم فى إزالة ذرات الغبار التى قد تعلق فى تجويف الأنف الداخلى؛ ولهذا دور فاعل فى تقليل تفاعلات الحساسية ونوبات الربو والتهابات الجهاز التنفسى العلوى. وتتكفل عملية الاستنشاق أيضًا بترطيب جو الأنف الداخلى، وهذا يعنى المحافظة على حيوية الأغشية المخاطية المبطنة لتجويف الأنف، وعلى العكس من ذلك فإن جفاف بيئة الأنف الداخلية يؤدى إلى تشققها، وينشأ عن ذلك مضاعفات مؤلمة. وقد وجد الباحثون أنه بعد المرة الثالثة للاستنشاق لا يوجد نمو ملاحظ للجراثيم ويصبح جوف الأنف خاليًا منها تقريبًا. ومع كل وضوء يتحقق المزيد من تناقص أعداد الجراثيم فى الأنف.

ومن الأعمال العسيرة على القلب إيصال الدم إلى الوجه والكفين والرجل لبعدها عنه. وعندما نتوضأ يتجذب الدم إلى هذه الأعضاء بتغير توازن الحرارة عند مس المياه الباردة لها. وهكذا يحصل بالوضوء التبريد والحيوية للأعصاب الموجودة فى اليدين والقدمين وسائر الأعضاء المغسولة بماء الوضوء. وبارتباط هذه الأعصاب بالعصب الرئيسى فى المخ يجد الإنسان النشاط بعد الوضوء، ويرتاح القلب أيضًا فى مهمته، ويخف بذلك إمكانية حدوث القلق والتوتر. ولقد أمرنا رسول الله ﷺ بأن نتوضأ عند الغضب؛ لأن الوضوء يهدئ النفس والذهن والجسم ويحمى مرضى القلب من إصابة النوبة بسبب الخوف والغضب.

ويساعد الوضوء فى شفاء دوار الرأس من الذين يعانون من ضغط الدم، فعند الوضوء وتبليل العين والأذن والأنف واللسان بالماء يشتد جريان الدم إلى أعصاب هذه الحواس وينشطها، ويعمل ذلك على ثبات درجة حرارة الجسم الداخلية عند (٣٧ْم).

وفى حالة الطقس البارد يساعد الوضوء بالماء الدافئ على رفع درجة الحرارة فى الجسم من (٣٦ْم) إلى (٣٨ْم)، كما تزيد

سرعة التنفس من (١٢) مرة إلى (٢٩) مرة. وهذا يعنى أن بدن الإنسان يتأثر سريعًا بالوضوء، سواء كان بالماء الدافئ أيام البرودة أو بالماء البارد أيام الحر، ويبقى أثره طويلاً فى الجسم.

أيضًا يصل تأثير الوضوء إلى الكليتين؛ فخلال جريان الدم من الأعضاء الباطنية إلى الجوارح الخارجية تمتص غدة العرق نفايات الدم منه، وتزيلها إلى الخارج بواسطة حفريات الشعر الموجودة فى الجلد، وتختلط هذه الملوثات بماء الوضوء الذى ينظف الجسد منها، وفى العادة يجرى هذا التنظيف بواسطة عمل الكلية بامتصاص النفايات من الدم وإبادتها مع البول أو عن طريق العرق؛ وبهذا يساعد الوضوء الكلى فى عملها المستمر ويحميها بقدر ما من الأمراض الكلوية.

ويعمل الوضوء - كذلك - على حفظ جمال الإنسان، ويخفف تجفيف الجلد وتجعده، ويعمل عن الاحتفاظ برطوبة الجلد.

من ناحية أخرى، تقول المراجع الطبية الحديثة إن الجلد يعتبر مخزنًا لنسبة عالية من البكتريا والفطريات، وتوجد معظم هذه الكائنات الدقيقة بكثرة على الوجه، وعلى البشرة، وعلى جذور الشعر، وفى الغدد الدهنية، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مئة ألف جرثومة على كل واحد سنتيمتر مربع من الجلد، وفى المناطق المكشوفة من الجلد يتراوح العدد من مليون إلى خمسة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. وترتفع هذه النسبة فى الأماكن المخبوءة الرطبة مثل المنطقة الإربية وتحت الإبطين، إلى عشرة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. ونسبة الكائنات الدقيقة على الشعر كنسبتها على الجلد.

فالغسل منظف لجميع جلد الإنسان، والوضوء ينظف الأجزاء المكشوفة منه، وهى الأكثر تلوثًا بالجراثيم؛ لذا كان استعمال الماء أمرًا مهمًا؛ لأن هذه الجراثيم فى تكاثر مستمر، والوضوء والغسل خير مزيل لها. ولو استعرضنا مناطق الجسم التى يشملها الوضوء لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه: فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسيان لأعضاء الجسم الداخلية، ونظافتهما من الجراثيم تعنى حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب. ذلك أن الأنف والفم يكمن فيهما ملايين الميكروبات والجراثيم مختلفة الأنواع ومتعددة الأشكال، فمنها الميكروبات الكروية، ومنها السبحية، ومنها العنقودية، ومنها عصوية الشكل، ومنها الميكروبات المرضية وغير المرضية. وتوجد هذه الميكروبات فى حالة تعايش سلمى مع الإنسان طالما أنه يتمتع بمناعة قوية وصحة جيدة، وإذا ما اعتلت صحته وقلت مناعته، لأى سبب من الأسباب، أصبحت الفرصة سانحة أمام هذه الميكروبات لتغزو الجسم وتنتشر فيه مسببة له العديد من الأمراض. فالأنفلوانزا ونزلات البرد تبدأ من الأنف، والحمى الشوكية والنخاعية تبدأ رحلتها

من الأنف والحلق إلى أن تصيب الأغشية المغلفة للمخ والنخاع الشوكي، وقلما ينجو منها الإنسان أو يسلم من بعض آثارها المتمثلة في حول العينين، وصمم الأذن، والتخلف العقلي والذهني، وغير ذلك. وهناك أيضًا – على سبيل المثال لا الحصر – مرض الدفتريا (أو الخناق) الذي يبدأ من الحلق أو الأنف، ويتميز بتكون غشاء يسد الحنجرة، ويخنق الأطفال خنقًا. كما أن مرض «الأسكليروما» الذي ينتهي أيضًا بخنق المريض نتيجة انسداد الحنجرة أو الأنف من الداخل، فإنه يبدأ من نشاط الميكروبات المسببة له في الأنف أو الحلق، وهكذا يمكن تصور فائدة الوضوء بالنسبة لإنسان يغسل أنفه وفمه عدة مرات في اليوم فيطهرهما من هذه الجراثيم الكامنة والمتحفزة للانتشار، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «إذا توضأت فمضمض». (رواه أبو داود والبيهقي)، ويقول عليه السلام: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه الماء ثم لينتثر» (رواه الشيخان وأبو داود)، وقد دعا الإمام علي – رضي الله عنه – بوضوء فتمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى، ففعل ثلاثًا، ثم قال: «هذا طهور نبي الله ﷺ». (رواه أحمد والنسائي).

وتجدر الإشارة – في هذا الصدد – إلى سنة استعمال السواك عند الوضوء والصلاة، فقد روى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء» (رواه مالك والشافعي والبيهقي والحاكم)، وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» (رواه أحمد والنسائي والترمذي)، وعنها أيضًا أنها قالت: «كان النبي ﷺ يستاك فيعطيني السواك لأغسله، فأبدأ به، فأستاك ثم أغسله وأدفعه إليه». (رواه أبو داود والبيهقي).

والسواك يحتوي على مادة «الفلورين» التي تمنع تسوس الأسنان، ويحتوي على مادة قابضة للثة مما يقويها ويجعلها في حالة صحية جيدة ويمنع حدوث النزيف بها، ويحتوي على زيوت عطرية تكسب الفم رائحة عطرية مميزة، ويحتوي على مواد كيماوية مزيلة لصفار الأسنان. ويساعد السواك على تنظيف ما يعلق بين الأسنان من بقايا وفضلات الطعام وحماية الفم والأسنان من آثار تعفنها.

واستعمال السواك المتكرر، وبخاصة عند كل صلاة، كما هي السنة، وقاية حاسمة من تسوس الأسنان، وتنظيف مستمر، وإبادة باكرة للمستعمرات الجرثومية التي تتكون وتنمو بسرعة مذهلة، وتعشش بين ثنايا الأسنان.

وتشير دراسات علمية إلى تميز السواك بنسب مرتفعة من مادة الثيوسيانات، وهي مادة ذات تأثير مضاد للنخور السنية، كما أن استعماله المنتظم يحرض عملية إفراز اللعاب من قبل الغدد اللعابية الموجودة في الفم، وهذا عامل مهم في صيانة صحة الفم، والتخفيف من حدة ما يظهر فيه من أمراض.

كذلك أثبتت دراسات أخرى جدوى استعمال السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها، وما له من تأثير مهدئ للأعصاب، وتأثير مضاد لما قد يصيب الفم من أنواع داء السرطان المختلفة.

وبهذا يكون أثر السواك مكملاً لأثر المضمضة في تخليص تجويف الفم من الأعداد الهائلة من الكائنات الحية المجهرية التي تتراكم فيه، وتزداد الفائدة المرجوة بالدلك الخفيف للثة والأسنان باستخدام أصابع اليد. ويكفي أن تعلم أن عدد الجراثيم الموجود في سائل اللعاب يقدر بحوالي مائة مليون جرثومة في كل سنتيمتر مربع واحد، كما أن هناك أعدادًا أخرى من الطفيليات والفطريات التي تتغذى على بقايا الطعام الموجودة بين الأسنان، والمضمضة كفيلة بإنقاص تلك الأعداد بصورة ملحوظة، خاصة إذا تكرر هذا الفعل ثلاث مرات لكل وضوء في الأوقات الخمسة للصلوات المفروضة في اليوم والليلة. وحين يتآزر تأثير المضمضة وعمل السواك تحدث عمليتا التنظيف والتطهير المطلوبتين.

أما اليدان والذراعان والوجه وشعر الرأس والقدمان وأسفل الساقين، فهي أجزاء مكشوفة من البدن وغسلها بالماء ينقيها من الكائنات الدقيقة ويزيلها عنها، ويختبئ عدد كبير من هذه الكائنات في الأخاديد بين الأصابع وعلى عقدها؛ لذلك أمر النبي ﷺ بتخليل أصابع اليدين والقدمين وغسل عقدها، وذلك تعقبًا لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة، خاصة تلك التي تتخذ من ثنايا الجلد في هذه الأماكن، كهوفًا لها وأخاديد تنمو خلالها.

ولقد شرع الإسلام على المسلم غسل جميع بدنه بالماء على وجه الإلزام في مواطن معينة، لغسل الجنابة والحيض والنفاس، وندب إليه في أكثر من سبعة عشر موطنًا أخرى، كغسل الجمعة والإحرام، بل قد حدد فترة زمنية يكره تجاوزها بغير غسل، فقال: ﷺ: «حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومًا يغسل فيه رأسه وجسده» (رواه مسلم).

أما الصلاة ذاتها فإنها تمنح مؤديها فوائد عديدة، فأثناء الركوع يضغط المرء على بطنه وأمعائه، وكذلك أثناء السجود والنزول إليه. وهذا الضغط من شأنه أن ينبه الحركة الدورية للأمعاء الدقيقة والغليظة فيعاون في أداء عملية الهضم وأداء فعل التبرز في وقته المعين بكيفية سليمة، ويساعد في منع الإمساك.

كذلك يعمل الضغط الواقع على الكبد والقنوات المرارية والصفراوية على زيادة إفراز العصارة الصفراوية وتيسير انتقالها من الحوصلة المرارية والقنوات الكبدية إلى الأمعاء الدقيقة (الإثنى عشر) للتعامل مع ما يقابلها من غذاء. وللمساعدة في هضم الدهون وتحويلها بواسطة أنزيم يسمى «الليباز» إلى أحماض أمينية وجلسرول، وفي غياب هذا الإنزيم يتعذر هضم الغذاء.

وحركة العضلات أثناء الركوع والسجود والقيام تؤدى إلى تقويتها، وبخاصة عضلات جدار البطن فتمنع ترهلها وتحول دون تشويه قوام الجسم وبدانته، كذلك تساعد حركات الصلاة على تقوية المفاصل وتليين حركتها وانعكاس ذلك على نشاط الجسم لأداء الأعمال الأخرى بكفاءة أفضل.

وحين يركع المسلم أو يسجد في صلاته فإن معدل تدفق الدم إلى النصف العلوى من الجسم، وبخاصة إلى المخ والرأس، يزداد، وتكرار هذا الفعل يجعل كمية الدم وما يحمله من غذاء للخلايا أكبر، فيزداد بالتالي معدل التنبه والتركيز والقدرة على الإبداع والتفكير العميق.

وأهم ما يميز الوضوء والصلاة من الناحية الصحية أنهما يعتمدان على الحركة غير المجهدة والموزعة بشكل منتظم على كل أوقات اليوم ليلاً ونهارًا، وهى لا تقل فى أهميتها عن تلك التمارين الرياضية البدنية المعروفة بـ «التمارين السويدية»، حيث يتم تحريك جميع مفاصل الجسم وعضلاته القابضة والباسطة، علمًا بأن عدد ركعات الفروض (١٧) ركعة، وتصبح مع سننها (٣٦) ركعة. فإذا اعتبرنا - على سبيل المثال - انخفاض الرأس للأسفل أثناء السجود وما يحدثه من احتقان دموى فى الأوعية، ثم ارتفاع الرأس للأعلى فجأة وما يحدثه من انخفاض فى الضغط داخل الأوعية، وتكرار هذه الحركة فى كل ركعة (٦) مرات ما بين ركوع وسجود بما يبلغ (٢١٦) مرة فى اليوم- فإن الأوعية الدماغية تزداد مرونتها وتقوى جدرانها وعضلاتها بفضل تلك الحركات المنتظمة التى تجعلها عند السجود أو الركوع، ثم القيام منهما، بين انقباض وارتخاء. بل إن الإسلام يحث أتباعه على اعتياد المساجد لأداء الصلاة، والمشى إلى المسجد رياضة خفيفة محببة تنشط الجسم كله، وخاصة جهازه الدورى والتنفسى والمفاصل والعضلات.

وسمو الجو الروحى الذى يتمتع به المصلى يؤدى إلى راحة النفس وهدوئها، فيتم تمثيل الجسم للغذاء بكفاءة أعلى وتنتفى الأسباب النفسية والعصبية لحدوث بعض الأمراض المتعلقة بالهضم مثل قرحة المعدة والأثنى عشر والقولون العصبى واضطراب الهضم العصبى وصعوبة البلع العصبى وفقدان الشهية العصبى، وغير هذا من أمراض القلب والضغط والأمراض العصبية والنفسية. وقد أكدت تجارب العلماء وجود علاقة وثيقة بين إتمام هضم الغذاء فى جو نفسى طيب وبين كفاءة سير عمليات الهضم.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الصلاة فى القرآن عبادة يجب الامتثال بها لأمر الخالق العظيم، ولا يجوز تعليقها بما يكشفه لنا العلم، فمجال العلم مهما ارتقى محدود ولا يمكن له أن يستوعب كامل حكمة الله فى كل ما يفرضه على عباده أو يروض به خلقه، ولكن هذا لا يمنع من التحدث عما يكشف عنه العلم من فوائد للفروض والتوجيهات الإلهية.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾

(إبراهيم: ٤٠).

وإذا انتقلنا إلى لطيفة أخرى من لطائف العلم والإيمان تتعلق بصلاة الفجر على وجه الخصوص، فإننا نستهدى بقوله تعالى:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

(الإسراء: ٧٨).

حيث تذكر كتب التفسير أن قرآن الفجر فى هذه الآية الكريمة هى صلاة الفجر؛ وسميت قرآنا لأن من أركانها قراءة القرآن، كما سميت مشهودة لبيان فضلها وعظيم شأنها وكبير أجرها، فهى فى وقت يصعب على الإنسان القيام فيه من نومه الهنىء ودفء فراشه المريح، ولكن المؤمنين تتجافى جنوبهم عن المضاجع اللينة ويستيقظون فى أعماق الليل متقربين لخالقهم بالدعاء والصلاة خوفًا وطمعًا، كما وصفهم الله تعالى فى قوله:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

(السجدة: ١٦).

وفى قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾

(الفرقان: ٦٤).

وكذلك فى قوله ترغيبًا فى التهجد:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

(المزمل: ٦).

وناشئة الليل هى القيام بعد النوم.

وسميت صلاة الفجر مشهودة كذلك؛ لأنها فى وقت يكون الإنسان فيه على أحسن حال، بعد نومه الليل وراحة بدنه وعقله وأعصابه وسمعه وبصره من متاعب النهار ومشاغل الحياة. فالإنسان يستعيد فى وقت النوم قواه البدنية والعقلية والعصبية، فيصفو عقله وتهدأ أعصابه وتتجدد خلايا بدنه، فيتجدد نشاطه وحيويته بعدما كف لفترة مناسبة عن الحركة والتفكير وقضى الليل فى هدوء وسكون. ولاشك فى أن الذهن المستريح يكون أكثر استعدادًا للفهم والخشوع من الذهن المرهق بالعمل، وليس من المعقول أن تكون حال العقل والجسم قبل النوم كحالها بعد استغراقهما فى نوم عميق طويل.

من ناحية أخرى، تحث آية:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾

(الإسراء: ٧٨)

على تنظيم الحياة الإسلامية بالمحافظة على الوقت والتبكير فى بدء العمل بصدر منشرح وعزم مكتمل، وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام النوم حتى الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون فى نومهم على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون فى سعيهم من أجل معاشهم ورزقهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لأمتى

فـى بكورهم» (أخرجـه أحمد فى المسـند ٣/ ٤١٦).

ويأتـى دور العلم الحديـث ليلقى بعض الضـوء علـى الإعجاز القرآنى فـى دعوته إلـى الاسـتيقاظ المبكـر فيبيـن جانبًـا من الفوائد التى يجنيها الإنسان بيقظة الفجر، ويكشـف عن المزيد من معنى آية كريمة، حجبه أولاً ذلك النطاق العلمى الضئيل المعروف عند عرب الجاهلية. وما تكذيب الكفار للقرآن وقت نزوله إلا لأنهم اعتزوا بما علموا. وما أنقه علمهم آنذاك، فعدوا كذبًا كل ما لم يتفق مع علمهم، فشهر القرآن الكريم بجهلهم وعاب ذلك عليهم فى قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾

(يونس: ٣٩)

ويمكـن إجمال رأى العلم فى بيان فوائد يقظة الفجر وبركة البكور فيما يأتى:

١ ـ تكـون أعلـى نسـبة لغاز الأوزون فـى الجو عنـد الفجـر، وتقل هذه النسـبة تدريجيًا حتى تضمحل عند طلوع الشمس. ولهـذا الغـاز ـ فى حـدود النسـبة الطبيعية المقـدرة لـه ـ تأثير مفيد للجهاز العصبى، ومنشـط للعمل الفكرى والعضلى، بحيث يجعل الإنسـان فى الصباح الباكر فى ذروة نشـاطه الفكرى والعضلى، ولعل الإنسـان قـد اسـتطاع بخبرتـه العملية أن يسـتشـعر نشـوة لا مثيل لها فى أية سـاعة من ساعات النهار أو الليل عندما يستنشق نسيم الفجر العليل.

٢ ـ تكون نسـبة الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس أكبر ما يمكن عند الشروق، وهى الأشعة التى تحث الجلد على تكوين فيتامين «د» اللازم لنمو العظام وتقويتها، والاستيقاظ الباكر يتيح للإنسان الفائدة القصوى من هذه الأشعة بالاستعداد لاستقبالها، ناهيك عن منظر شروق الشمس ذاته وما يبعثه لون الأشعة المائل إلى الحمرة من إحساس جميل فى النفس.

٣ ـ تبين أن النوم على وتيرة واحدة لساعات طويلة يعرض الإنسان للإصابة بأمراض القلب؛ لأن النوم ما هو إلا حالة سكون يؤدى استمرارها طويلاً إلى ترسيب المواد الدهنية على جدران الأوعية الشريانية، ولا شك أن الاستيقاظ الباكر وقطع النوم الطويل فيه وقاية للإنسان من أمراض أوعية القلب.

٤ ـ من الثابت علميًا أن أعلى نسبة للكورتيزون فى الدم تكون وقت الصباح، وأقل نسبة تكون فى المساء، ومن المعروف أن الكورتيزون يزيد من فعاليات الجسم وينشط أجهزته لعمليات التمثيل الغذائى بوجه عام.

وإذا ما أضفنا هذه الفوائد إلى تلك التى يجنيها المسلم من الوضوء والصلاة نجد أن حكمة الإسلام لا مثيل لها فى دعوة الإنسان إلى الاستيقاظ مبكرًا واستقبال اليوم الجديد بجد ونشاط حيث تكون إمكاناته الذهنية والنفسية والعضلية على أعلى مستوى فى الساعات الأولى من النهار، مما يؤدى إلى مضاعفة الإنتاج فى عالم

ملؤه الرضا والصفاء والسرور. ولو تصورنا أن ذلك الالتزام بتعاليم الإسلام أخذ طابعًا جماعيًا فسيغدو المجتمع المسلم مجتمعًا مميزًا فريدًا تدب فيه الحياة منذ البكور.

أما بالنسبة لمواقيت الصلاة وتحرى اتجاه القبلة فنجد التكليف الشرعى واضحًا فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾

(النساء: ١٠٣)

وفى قوله سبحانه:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

(البقرة: ١٤٤)

وفى قوله جل جلاله:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٠)

وقد أسس المسلمون الأوائل «علم الميقات» لخدمة هذا التكليف الشرعى بتحديد اتجاه القبلة ومواقيت الصلاة من الليل والنهار تحديدًا دقيقًا. ومع بداية القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى» ظهر نظام «الموقت» كفلكى محترف مسئول بالدرجة الأولى عن تنظيم أوقات الصلاة. وكان أحد الأغراض الرئيسية من اختراع الساعات المائية أن تساعد على إعلان الأوقات المحددة للصلاة عندما تكون السماء مظلمة أو ملبدة بالغيوم، فقد كان الميقات الفلكى داخلاً فى بنية الساعات المائية؛ نظرًا لأن سرعات تشغيلها كانت تعدل يوميًا للتوافق مع طولى الليل والنهار. ولاتزال الأجزاء الخارجية لهذا النوع من الساعات، المصممة فى القرن الرابع عشر الميلادى، موجودة فى إحدى الغرف العليا فى مسجد القرويين بمدينة فاس بالمغرب، وكان يعلن عن أوقات الصلاة أثناء النهار برفع علم على قمة المئذنة، وفى أثناء الليل بإشعال النار فى موقد عند قمة المئذنة لكى يعلم الموجودون خارج المدينة أوقات الصلاة.

من ناحية أخرى، سبق ابن يونس المصرى إلى وصف طريقة دقيقة لتحديد اتجاه القبلة وجدها «كارل شوى» فى أوائل القرن العشرين أنها لافتة للنظر من حيث إنها تعطينا بلغة العصر تعريفًا لمعادلة جيب الزاوية وجيب التمام فى حساب المثلثات الكروية.

وفى العصر الحاضر توجد آلات ذكية لتحديد المواقيت واتجاه القبلة والمواقع المختلفة من أى مكان فى العالم.

«يتبع»

الوظائف الدعوية لمقاصد الأحكام الفقهية



د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75@gmail.com

ويقصد بالوظائف الدعوية هنا - كما سبقت الإشارة في تحديد مصطلحات البحث - ما يعود على الآخرين، وما يتصل بفكرهم وعقولهم، وقلوبهم وإيمانهم، وأرواحهم ووجدانهم، ومن الوظائف الدعوية:

المطلب الأول: التجديد في الفكر:

تمثل مقاصد الشريعة الإسلامية مرجعية معتبرة للتجديد في الفكر الإسلامي بشكل عام، وفي الفقه والأصول بشكل خاص، وتتميز هذه المرجعية بأنها قادرة على تقديم الإجابات المناسبة لما ينزل بالأمة من نوازل، سواء كانت نوازل عامة في جوانب حياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية والحضارية، أم نوازل فقهية تمس حياة الناس من الناحية الشرعية المباشرة.

وتحت هذه المظلة الواسعة تنطلق حركة الاجتهاد والتجديد انطلاقة رحبية تأخذ مداها، لتحتضن كل جديد، وتستوعب كل حادث، ولا تقف مكتوفة الأيدي أمام أي نازلة، إنما تقوم بتوصيف واقعها، وتستنزل حكمها في ضوء هذه المظلة مع مراعاة النصوص الجزئية الخاصة والعامة.

وما من شك في أن هذه المظلة الكبرى التي تمثل ساحة واسعة للمجتهد المعاصر تتكون - بداية تكوينها - من المقاصد الجزئية التي تعتبر مهادًا لتكوين المقاصد الخاصة، وتكونان - بدورهما - المقاصد الكلية والمفاهيم التأسيسية والمقاصد العالية التي ترتكز عليها عملية التجديد الفكري في النسق الإسلامي العام.

إن نظرية المقاصد هي الرؤية الكلية التي تندرج في إطارها كل الرؤى الفكرية والقواعد الفقهية، ولا تتعلق باستنباط الأحكام الشرعية فحسب، «بل إنها تشكل المفهوم الكلي الذي يحكم طريقة التفكير الإسلامية، والتي تواءم موائمة فريدة بين هداية النقل ودراية العقل: فهي منهج لتجديد الفكر الإسلامي على هدى سنة رسول الله ﷺ ومنهج صحابته عليهم الرضوان في النظر المقاصدي.. الذي يوفر منهجًا للأحكام العقلية كما هي منهج للأحكام العملية»(١). وهذا يقتضي كون النظر المقاصدي صالحًا لإحداث الفاعلية والتجديد، ومرتكزًا أساسيًا في صناعة تنمية دائمة، ونهضة إسلامية شاملة.

وهذا التجديد لا بد أن يصدر من أهله وفي محله: من أهله الذين سبروا أغوار الشريعة بمقاصدها ونصوصها، بمواردها ومصادرها، بكلياتها وجزئياتها، ثم آتاهم الله فهمًا وبصيرة لتوصيف الواقع وفهمه فهمًا دقيقًا وتوصيفًا صحيحًا يطابق الواقع، ثم تكون عندهم قدرة فائقة على ممارسة عملية التنزيل بكل أبعادها المعقدة في واقعنا المعاصر، وفي محله الذي يقتضي أن يكون في مساحات الاجتهاد المشروعة.

المطلب الثاني: الرد على المتشككين وتفنيد الشبهات:

إن الشبهات التي يلقيها المتشككون والمبتدعة(٢) على العقيدة والشريعة تتردد بين الحين والآخر منذ أول يوم نزلت فيه الرسالة، وقد أورد القرآن الكريم العديد من هذه الشبهات حول الرسول والرسالة التي يثيرها غير المسلمين من ملاحدة وأهل كتاب، ثم يورد الرد عليها ويفندها، وهو في القرآن أكثر من أن يحصى.

وهذه الشبهات تتطلب علماء على قدر كبير من الوعي بأهداف وغايات ومقاصد الرسالة، ولديهم تفنن في بيان فلسفة الأحكام ومقاصدها؛ إذ لا يبلّغ الدعوة ويقيم الحجة ويرد الشبهة ويكشف زيفها إلا المتعمقون في مقاصد الشريعة، المستوعبون لأهداف الرسالة وغاياتها.

ولأن أهداف الرسالة أهداف إنسانية نبيلة(٣)، ومقاصد إسلامية شريفة، فإنها تمثل قاسمًا مشتركًا بين البشر، ولا يختلف عليها أحد.

وحسبنا قول الله تعالى مبينًا أهداف إرسال الرسول:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

(١) مقاصد الشريعة إطارًا ووسيلة للإصلاح والتجديد في المجتمعات الإسلامية، د. أمين حسن عمر، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة: ١/٤٦٤، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م).
(٢) انظر حجة الله البالغة: ١/٨، طبعة دار التراث.
(٣) انظر الأبعاد الإنسانية للمقاصد الإسلامية، د. إبراهيم أحمد مهنا، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة: ١/٥٢٥-٥٤١، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م).

﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقول جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حينما قال له النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من الملل»؟

قال جعفر ـ رضي الله عنه ـ: «أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولاً كما بعث الرسل إلى من قبلنا، وذلك الرسول منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع ـ أي نترك ـ ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده، وأمرنا بالصلاة ـ أي ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ـ والزكاة ـ أي مطلق الصدقة ـ والصيام ـ أي ثلاثة أيام من كل شهر أي وهي البيض أو أي ثلاثة على الخلاف في ذلك ـ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة؛ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا؛ ليردونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجوناك أن لا نظلم عندك يا أيها الملك. فقال النجاشي لجعفر: هل عندك مما جاء به شيء؟ قلت: نعم. قال: فقرأت عليه صدرًا من «كهيعص»، فبكى والله النجاشي حتى أخضل ـ أي بل لحيته ـ وبكت أساقفته»(٤).

ففي هذه الآيات الكريمة، وفي قول جعفر لا نجد أجمع للخير، وأوعب لصالح الإنسانية من هذه المقاصد التي ذكرتها الآيات، وبيّنها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

بل إن للفكر المقاصدي دورًا كبيرًا في المناظرات والحجاج الشرعي والعقلي، الأصولي والفقهي، والمتأمل لمناظرات الإمام مالك الأصولية والفقهية ـ سواء كانت شفهية أم تحريرية ـ مع فقهاء عصره يقف على أهمية المقاصد في هذا المجال(٥).

وإذا كان الوعي بالمقاصد بكل مراتبها من الضروريات لتبليغ الدعوة وتفنيد الشبهات في كل عصر؛ فإن ذلك أوجب في عصرنا الذي أضحى من أهم خصائصه: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، وفي ظل هذا الانفتاح «العنكبوتي والفضائي» غير المحدود يصبح لزامًا على كل ناطق باسم الإسلام أن يكون له أوفى نصيب من الغايات التي جاءت في الآيات الكريمة، وفصلها جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ولذلك كان هذا هو منهج الراسخين في العلم، يقول شيخنا د. يوسف القرضاوي إن من منهجه ذكر «الحكم مقرونًا بحكمته وعلته، مربوطًا بالفلسفة العامة للإسلام. وهذا ما التزمته في فتاواي وكتاباتي بصفة عامة، وذلك لأمرين:

الأول: أن هذه هي طريقة القرآن والسنة..

الثاني: أن الشاكين والمشككين في عصرنا كثيرون، ولم يعد أغلب الناس يقبلون الحكم دون أن يعرفوا مأخذه ومغزاه، ويعوا حكمته وهدفه، وخاصة فيما لم يكن من التعبدات المحضة. ولا بد أن تعرف طبيعة عصرنا، وطبيعة الناس فيه، وتزيل الحرج من صدورهم ببيان حكمة الله فيما شرع، وبذلك يتقبلون الحكم راضين منشرحين. فمن كان مرتابًا ذهب ريبه، ومن كان مؤمنًا ازداد إيمانًا»(٦).

وقال عن إحدى الخطوات المنهجية التي سلكها في بحثه «فقه الزكاة» من قبل: «لم أكتف ببيان الحكم الشرعي مجردًا في كل مسألة، بل عُنيت بتفسير الحكمة من وراء تشريعه، والسر فيما أوجبه الشارع أو استحبه، أو نهى عنه أو أذن فيه، وهذا اقتداء بالشارع نفسه الذي عُني بتعليل الأحكام، وبيان مقاصدها ومنافعها للبشر أفرادًا وجماعات، ولم يكتف بالتكليف المجرد، والإلزام الصارم، اعتمادًا على التزام المكلفين ـ بحكم إيمانهم ـ بامتثال كل ما يصدر عن الشارع، عقلوا حكمته أو لم يعقلوها.



د. يوسف القرضاوي

وإذا كان بيان الحكمة من التشريع أمرًا محمودًا على كل حال، فهو في عصرنا أمر لازم، لغلبة الأفكار المفسدة، والتيارات المضللة، والوافدة من الشرق والغرب، فلم يعد يكفي إصدار الحكم المجرد، وانتظار صيحات المكلفين بعده:

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾(٧)

(البقرة: ٢٨٥)

ويقول د. الريسوني ـ بحق ـ: «إننا اليوم في ظل التحديات الفكرية والثقافية والإعلامية التي تواجهنا وتحاصرنا أصبحنا أكثر اضطرارًا إلى أن نعرض على الناس ونشرح لهم مقاصد شريعتنا ومحاسن ديننا؛ فهذا هو الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه، وإبرازه بما هو عليه، وما هو أهله، وهو الكفيل بدفع الشبهات، ورفع الإشكالات، وإقامة الحجة

---

(٤) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: ٣/٣١، علي بن برهان الدين الحلبي (المتوفى: ١٠٤٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

(٥) راجع مثلاً: الفكر المقاصدي عند الإمام مالك وعلاقته بالمناظرات الأصولية والفقهية في القرن الثاني الهجري: ٥٩١-٦٢٩، د. محمد نصيف العسري، دار الحديث، القاهرة، ومركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٦) فتاوى معاصرة: ١/١٦-١٧، وعقب الشيخ في نفس الموضع على قوله تعقيبًا مهمًا فقال: «ومع هذا لا بد أن نؤكد للناس أن من حق الله تعالى أن يكلف عباده ما شاء بحكم ربوبيته لهم، وعبوديتهم له، فهو وحده له الأمر، كما له الخلق. ولهذا لا بد أن يطيعوه فيما أمر، ويصدقوه فيما أخبر، وإن لم يدركوا علة أمره أو كنه خبره، وعليهم أن يقولوا في الأول: «سمعنا وأطعنا»، وفي الثاني: آمنا به كل من عند ربنا، إن الله لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء إلا لحكمة، هذه قضية ثابتة جازمة، ولكن لسنا دائما قادرين على أن نتبين حكمة الله بالتفصيل، وهذا مقتضى الابتلاء الذي قام عليه أمر التكليف، بل أمر الإنسان ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢).

(٧) فقه الزكاة: ١/٢١، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

كاملة ناصعة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة»(٨).

إن معرفة مقاصد الشريعة «تعطى المسلم القناعة التامة والمناعة الكافية ضد الحرب الضروس التى تقام اليوم ضد الإسلام عن طريق الغزو الفكرى والعقدى والتيارات المنحرفة، والدعوات البراقة، والأفكار الهدامة التى تطلق من هنا وهناك عبر وسائل الإعلام التى تنوعت وتعددت فى عصرنا الحاضر، وأصبحت السلامة منها أمرًا متعذرًا، وليس هناك من وسيلة لمواجهتها إلا عبر تحصين المسلم عن طريق القناعة بهذا الدين وبيان مقاصده مما يعطى المسلم هذه الحصانة»(٩).

ومن يتأمل فى تاريخ أعلامنا المصلحين والمجددين يدرك تمام الإدراك أنه لا يخلو مجدد أو مصلح من الاهتمام بالفكر المقاصدى، وأن الاهتمام بهذا الفكر يبرز فى حالات الرغبة فى النهضة والتجديد والحفاظ على الهوية ونشر الدعوة والإصلاح؛ وفى ضوء هذه الحقيقة نفهم ما رواه البيهقى عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»(١٠).

قال المناوى: «وهذا إخبار منه بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأنه تعالى يوفق له فى كل عصر خلفًا من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف، وهذا تصريح بعدالة حامليه فى كل عصر»(١١).

ولا يتصور أن يكون هؤلاء الفضلاء الأخيار عدولًا ثم يخلون من فقه مقاصد الشريعة وإدراك غايات الرسالة؛ لأنهم لا يستطيعون رد تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين إلا بالتمكن من غايات الشريعة ومقاصد الرسالة، وهذا من وظائف المقاصد بكل مراتبها. وحين يقول الله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

(يوسف: ١٠٨).

فمن معانى البصيرة فى هذا السياق - والله أعلم بمراده - أن يكون متبصرًا بمقاصد

(٨) مدخل إلى مقاصد الشريعة: ١٩، د. أحمد الريسوني، دار الأمان بالرباط، ودار السلام بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٩) مقاصد الشريعة وأثرها في الإصلاح والتشريع ووحدة الأمة، د. عبد الله الزبير، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة: ١/ ٥٧٢، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م)، وراجع: الدليل الإرشادي إلى مقاصد الشريعة الإسلامية: ٢/ ١٦-٢٢، أستاذنا الدكتور محمد كمال الدين إمام.

(١٠) سنن البيهقي الكبرى: كتاب الشهادات، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع أو أنه لا يبصر الفتيا رقم (٢٠٧٠٠)، راجع سنن البيهقي الكبرى: ١٠/ ٢٠٩، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ورواه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة، رقم (٥٩٩)، انظر مسند الشاميين: ١/ ٣٤٤، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(١١) فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: ٦/ ٥١٤، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

الشريعة وغايات الرسالة؛ فيكون قوى الحجة ظاهر البرهان، فينقاد إليه الناس بما معه من حقائق ورسوخ وتبصر بما يدعو إليه، وهذا لا ينفك عن مقاصد الشريعة.

ولهذا يقرر العلامة ولى الله الدهلوى أن علم الأسرار والحكم والمقاصد «أحق العلوم بأن يصرف فيه من طاقة نفائس الأوقات، ويتخذه عدة لمعاده بعدما فرض عليه من الطاعات؛ إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع»(١٢). وحين يقول أيضًا:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

(الرعد: ١٧).

فإن الزبد هو ما يطفو فوق سطح الماء، وهو إشارة إلى عدم الثبات والقوة والعمق، وهذا شبيه بالظاهرية فى فهم النصوص التى ترفض التقصيد والتعليل وتقف عند ظاهر النص دون سبر أغواره والوقوف على مقاصده وغاياته؛ ولهذا قال الدهلوى: «ومن عجز أن يعرف أن الأعمال معتبرة بالنيات .. فإنه لم يمسه من العلم إلا كما يمس الإبرة من الماء حين تغمس فى البحر وتخرج، وهو بأن يبكى على نفسه أحق من أن يعتد بقوله»(١٣).

لكن الراسخين فى العلم، المتعمقين فى فهم الدين والفقه فيه، فلا شك أن فقههم هو الذى ينفع الناس، ويمكث فى الأرض، والآخر هو الذى يذهب جُفاء، كما يذهب زبد السيل.

وإذا كان كثير من الأصوليين احتجوا لمشروعية القياس بقوله تعالى:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(الحشر: ٢).

والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(آل عمران: ١٣).

ويقول:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(آل عمران: ١٩٠).

ويقول:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(يوسف: ١١١).

ويقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(غافر: ٥٣، ٥٤).

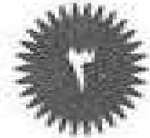
فإنه يعنى - والله أعلم بمراده - أن العبرة وهى ما يَعْبُرُ به الإنسان من الماضى إلى الحاضر والمستقبل - والآيات والهدى والذكرى لا تكون ولا ينتفع بها إلا أولو الأبصار والألباب، ولا يمكن أن نتصور أولى الألباب والأبصار إلا والفكر المقاصدى فى القلب من تكوينهم وفكرهم ومنهجهم.

(١٢) حجة الله البالغة: ١/ ٣.

(١٣) حجة الله البالغة: ١/ ٥.

نظريات التغيير بين العنف والإصلاح

الإرهاب الفردي



للمفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي
منير شفيق



وهو نمط من العنف يلجأ إليه لتصفيه قيادات في جهة الخصم وهو يستخدم على مستويين أحدهما مستوى تمارسه الدول والجبهات المتصارعة ولا تتعدى أهدافه في هذه الحالة أكثر من إزعاج الخصم وإرباكه أو الضغط عليه لمساومته ولكن التجارب أثبتت أنه عامل ثانوى في تقرير مجرى الصراع فيما بين الدول، أو فيما بين الجبهات الكبرى، ويبدو أن فاعليته تزيد في حالات الحروب لاسيما عندما تكون الرياح قد أخذت تهب ضد خصم بدأ ينهار فتأتي بعض الاغتيالات لتزيده انهيارًا، أو لتعجل في ذلك أما في حالات الأوضاع المستقرة أو حالات تفوق الخصم، فتأثيره معنوى ومحدود جدًا إذ سرعان ما يتم تخطي الخسارة وربما كانت النتيجة إلى أسوأ بالنسبة إلى الهدف الذى استخدم من أجله.

ويحتج البعض بثلاث أو أربع حالات اغتيال فردى أمر بها الرسول ﷺ، لكن من دون أن يلحظ أنها جميعًا تمت في حالة الحرب وإعلان التمرد والقتال، وليس في الأحوال العادية، فهذا الأسلوب لم يكن نهجًا ولم يستخدم في المرحلة المكية، أما تلك الحالات فأحداها حادثة إرسال عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة وأمره قتل أبى سفيان بن حرب، وكان ذلك في إثر اغتيال من وجههم النبى ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع، ويبدو أن إرسال عمرو كان أقرب إلى الإنذار والتحذير منه إلى التنفيذ لأن عمرو كان مكشوفًا لقريش ولم يكن من السهل أن يصل إلى أبى سفيان وهذا ما حدث فعلًا.

أما الحالات الأخرى فوجهت جميعًا ضد أفراد كانوا يعدون لغزو الرسول ﷺ مثل حالة يسير بن رزام اليهودى، وحالة كعب بن الأشرف، وحالة خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلى [١].

على أن هنالك من اعتمد هذا النمط أسلوبًا في إحداث التغيير فبنى على ذلك نظرية تقول إن الاغتيالات الفردية سوف ترهب الخصم وتخيفه، أو إنها قد تقود إلى انهياره، وقد استخدم هذا الأسلوب بتوسع من قبل الحشاشين ومن شابههم في التاريخ الإسلامي.

واستخدم من قبل الفوضويين في الروسية القيصرية وبعض الدول الأوروبية وبعد حتى

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري، ج٣ ص ١٤٢، ١٤٣، ٣٩٥، ٣٩٦، دار الفكر - بيروت.

اليوم من يتبناه، ولكن التجربة أثبتت أنه لم يستطع ولا في حالة واحدة أن يحقق هدف التغيير الذى نسوه عنه حتى لو أصاب نجاحات متتالية ولو في الرأس، فأهل الحكم لا يتهاورون بفعل الإرهاب الفردى فإذا أخاف بعضهم وانكفأ فيأتي الأشد بطشًا وتصميمًا لتولى الأمر والمواجهة، وهذا كان الشأن مع كل التجارب التي واجهها هذا النمط، وكانت النهايات دائمًا فاجعة ليس على مستوى أصحاب هذه النظرية فحسب وإنما أيضًا على مستوى هدف التغيير نفسه.

بكلمة هذا النمط هو أسلوب القوى ضد الضعيف على عكس ما يظن البعض، ويراد منه إرهاب الضعيف وإرباكه وثمة تجارب حاولت فيها الأجهزة استخدام حالة إرهاب فردى، فعلًا أو تلفيقًا، لشن حملة تصفية للطرف المقابل تحت تلك الحجة أى هو السلاح ضد الطرف الأضعف من أهل التغيير، أما من جهة أخرى فهو يحمل في طياته بالنسبة لأصحاب المبدأ إشكاليات شرعية وأخلاقية لا يسهل تجاوزها في أغلب الحالات، هذا ويمكن أن نلاحظ أن من ارتكبه قويًا كان أم ضعيفًا عاد عليه في عصرنا الراهن بالسلبية والخسارة المعنوية وسوء السمعة.

يجمع البعض عند الترويج للاغتيال الفردى باتباع معظم ثورات أو حروب التحرير هذا الأسلوب ضد المتعاونين مع العدو الخارجي المحتل، وهذا يعنى أنه مورس في ظل حرب وقتال وليس في ظل حالة عادية لكن من جهة أخرى، فقد أثبتت التجربة الفلسطينية التاريخية أن استخدام الاغتيالات الفردية ضد من يشتبه بهم، أو حتى يثبت عليهم، أنهم عملاء للعدو جاء بنتائج سلبية على مستوى العائلات والحمائل وارتد على الثورة عام ١٩٣٩م.

وهو ما يجب أن تتنبه له الانتفاضة وتجعل ممارسته في أضيق، أضيق نطاق ضد الحالات الأشد خطرًا وإيذاء والتي يشهد الجميع على ارتكابها الجرائم وليس العمالة فقط أما الحالات الأقل خطرًا، لاسيما تلك التي لم يقم على عمالتها وخطرها الدليل القاطع والإجماع العام، فيجب تجنب استخدام هذا الأسلوب ضدها، وربما اللجوء إلى أساليب التحذير المتكرر، والتأديب بالضرب المحدود هو الأنسب، والأكثر فعالية، ويستحسن أن يحرض الأهل والأقربون على الردع تجنبًا لتأريث الخصوميات والثارات فيما بين العائلات والحمائل والعشائر.

وبالمناسبة استخدم الاغتيال الفردى في الصراعات العربية - العربية من قبل الأجهزة من أجل ممارسة الضغوط على الطرف الآخر لتغيير سياساته أو الانتقال من محور إلى محور، وهو هنا كان في الأغلب ينتهي إلى الفشل في تحقيق هذا الهدف المتواضع هذا دون الحديث عن تحقيق هدف تغييرى في الوضع ككل.

ولهذا يستطيع المرء أن يسقطه هو والعمل الخارجي من قائمة نظريات التغيير أو أشكاله فهذان الأسلوبان لم يحققا تغييرًا إيجابيًا ولو عبر تجربة واحدة، ومن هنا جرى التعامل وإياهما من خلال حدودهما الضاغطة الجزئية فيما بين أجهزة الدول لاسيما الكبرى منها ضد بعضها بعضًا أو ضد الضعيف لإنهاكه وإرباكه.

لم تثبت حالات الاغتيالات التي مارسها الأقوياء ضد الحركات السياسية أنها يمكن أن تحطم تلك الحركات أو تمنع تطورها، بل ثمة دلائل كثيرة أكدت أن الجراح هنا سرعان ما تضمد لتواصل المسيرة، كما لم تثبت حالات الاغتيال السياسي إنها أوقفت اتجاهًا سياسيًا من خلال إرهاب أصحابه بل كان هؤلاء يأخذون الاحتياطيات ثم يستعدون أكثر لمواصلة الاتجاه، وإذا لم يفعل جاء من بعدهم من كان

أشد شكيمة منهم فى السير فى ذلك الاتجاه، وتحمل عواقبه، إن لم يستطع ردًا مقابلاً ولعل من أكبر الدلائل على أن الإرهاب الفردى لا يصلح أسلوبًا فى التغيير أن ممارسته لاسيما فى العصر الراهن تمت أساسًا من قبل المخابرات الدولية والموساد الإسرائيلى والدول ضد خصومها المستضعفين.

ومن هنا يكون التبصر بالتجارب السابقة، ومن ثم معرفة القوانين الحاكمة، والسنن الجارية، فى مسائل التغيير أو بالنسبة إلى كل نمط تغييرى، يشكلان مرشدًا ضروريًا عند اتخاذ القرارات أو تحديد الخيارات من بين أساليب التغيير.

فى الموقف من سياسة الخصم

لعل المعارضة الناجحة، أو حركة التغيير الحكيمة، هى التى تحدد أهدافها وفقًا لعقيدتها ومبادئها وثوابتها والمصلحة العامة ثم تحدد نظرية العمل أو الاستراتيجية المناسبة وإلى جانبها خطة العمل التكتيكى، لتحقيق تلك الأهداف وذلك بناء على تقديرها لحال المكان والزمان وظروف الناس وسماتهم المحددة، ولموازين القوى القائمة والمحتملة وللأوضاع المحلية والإقليمية والدولية فإذا كانت المرتكزات الأساسية كما مر سابقًا، لوضع الهدف الكلى من الثوابت فإن نظرية العمل أو الاستراتيجية والخطة اليومية فى التنفيذ تعتبر من المتغيرات، بل هى قابلة للتغير مع تغير الأساسات التى تبنى عليها مثل حال المكان والزمان المحددين، وظروف الناس وأمزجتهم وأفكارهم وسماتهم المحددة ومثل موازين القوى القائمة والأوضاع المحلية والإقليمية والدولية، وهذه جميعًا من المتغيرات، بل كثيرًا ما تكون فى حالة تغيير مستمر.

أما موقف الخصم، أو العدو، أو الطرف المقابل الممانع، وما رسم من أهداف ووضع من استراتيجية واستخدام من تكتيك فى مواجهه المعارضة أو حركة التغيير، فما ينبغى له أو يؤثر فيما تقدم إلا تأثيرًا محدودًا، أو فى الأصح ما ينبغى له أن يحدد نظرية العمل أو خطة المواجهة المقابلة، علمًا أنه حريص دائمًا على أن يدفع بخصمه إلى المواقف التى يريدها حتى يسهل عليه منازلته وصرعه ولهذا كثيرًا ما يستفزه استفزازًا ليركب متن العنف والرفض المطلق حتى يعزله عن كثير أو قليل، من تأييد الناس، وحتى يوجه له الضربة القاضية أو الثقيلة وهو فى موقع المعتدى والبادىء بالظلم فى حين هو المظلوم والمعتدى عليه، كما أنه كثيرًا ما يفرش أمامه من المغريات استدراجًا له من أجل أن تمحى الحدود الفاصلة، أو لتلطيخه بالطين نفسه الذى يلطخ الخصم فتفقد المعارضة مصداقيتها ومسوغ معارضتها أو مشروعها التغييرى، ولكن يجب أن يلاحظ أن المغريات أفعل فى استدراج الأفراد وسقوطهم منها فى استدراج الحركات والجماعات حين تأخذ الأجهزة قراراتها عبر المشورة وبصورة جماعية، فتقرر الحوار والتعامل الإيجابى والمشاركة بصورة جماعية كذلك.

المهم أن الحكمة تقضى ألا يقرر لك الطرف المقابل سياستك وخطتك وطريقة مواجهته، لأنك إن فعلت لا تستطيع أن تأخذ بعين الاعتبار جملة الشروط الأخرى الواجب مراعاتها، وهى الأكثر أهمية، عند رسم استراتيجيتك، وسياستك وخطتك وطرق مواجهتك، بما فى ذلك لغة الخطاب والتعبئة والشعارات.

فعلى سبيل المثال إن معالجة موضوع الموقف من دخول الشرطة الفلسطينية إلى قطاع غزة وأريحا، وإقامة الحكم الذاتى فيها، يجب أن يقوم بمعزل عن موقف تلك الشرطة وذلك سواء أكان استدراجًا لصراع عنيف أو لتعاون يزكى اتفاقى أوسلو والقاهرة واتفاق باريس الاقتصادى.

فالموقف هنا يجب أن يقوم على أساس معطيات أخرى كثيرة وأهمها معطى مقاومة الاحتلال وتفكيك المستوطنات وتحرير القدس وإبقاء القضية الفلسطينية حية ومن ثم إيجاد صيغة لتنظيم الصراع الداخلى سياسيًا دون سقف الفتنة والاقتتال الداخلى قطعًا.

إذا كان كل صراع هو فى الغالب حالة معقدة شديدة التركيب والتعقيد، فإن الصراع ضد قوة أجنبية «استعمارية أو استيطانية عنصرية» يظل الأقل تعقيدًا وتركيبًا لاسيما فى تحديد طبيعة العدو أو فى تحديد الأهداف أو فى حساب موقف الشعب وتأييده أو فى اتباع الاستراتيجية والتكتيك المناسبين فى المواجهة.

أما الصراع الداخلى على مستوى القطر الواحد أو على المستوى العربى - العربى أو الإسلامى - الإسلامى فهو الأشد تعقيدًا وتركيبًا سواء أكان فى تحديد طبيعة الطرف المقابل، أم كان فى تحديد الأهداف أو نظرية التغيير والمواجهة والأسلوب «الاستراتيجية والتكتيك» فعلى سبيل المثال إن نسبة الخطأ فى لجوئك للعنف فى محاربة قوات أو اغتصاب استيطانى «أنظمة عنصرية» تظل محدودة جدًا لأن العنف وقطع التواصل والحوار، فى الأغلب، هو أسلوب المواجهة منذ البداية أو بعد تجريب الأساليب الأخرى وفشلها، «وبالمناسبة إن أشكال المقاومة اللاعنفية فى مثل هذه الاحالات تحمل عنفًا جماهيريًا عالى التوتر وإن لم يكن بالسيف وإراقة الدماء - تجربة غاندى مثلاً» وهو من جهة أخرى يحمل مشروعية فى كل الأحوال سواء أكان من جهة الشرع الإسلامى أم من جهة القوانين والأعراف الدولية.

أما استخدام العنف فى حالات الصراع داخل الأمة فيحمل الكثير الكثير من المخاطر فمشروعيته أصلاً تحتاج إلى فتوى موثوقا بها، وإمكانات الصواب فى استخدامه أسلوبًا للتغيير تظل خاضعة للمساءلة لأن إطلاقه والفشل فيه يؤدى إلى الكارثة على أصحابه وعلى الأمة، ومن ثم فإن التعامل والصراع الداخلى ينبغى له أن يعامل باعتباره حالة معقدة شديدة التركيب ولا يجوز اختصارها بحالة من حالاتها، مثل بغى الطرف الآخر أو استخدامه أو تجاوزه لهذا الخط الأحمر أو ذاك، فالقرار هنا لا يقوم على تقرير جانب الباطل أو البغى أو الظلم أو الردة، أو الخيانة حتى يكون الخروج إلى العنف والمواجهة لأن الخروج بالعنف والمواجهة يحتاج إلى توفر شروط النجاح وإلا فالفتنة أو الفشل أشد على الأمة من تلك جميعا ومن ثم يكون البحث عن أساليب أكثر مناسبة لظروف الصراع المحدد وما يحيطه من ظروف إقليمية وعالمية ومن حالة جماهيرية وموازين قوى لا يتعارض، وما يمكن تقريره فى جانب التجاوز مهما بلغ غلوًا أى لا يجوز أن تحصر المعارضة لأشد أشكال الانحراف بأسلوب العنف فقط، أو الخروج من الساحة إلى عزلة سياسية أو صوفية أو استسلام، فأساليب المواجهة تظل ذات خيارات كثيرة وتخضع لمبدأ الاستطاعة وتتطلب تقديرًا سليمًا لجملة المعطيات، ومهما سدت المنافذ تبقى ثمة خيارات كثيرة متوفرة وذات نجاعة حتى لو بدت أكثر بساطة فالطغيان حين يشتد إلى أقصى مداه يصبح أكثر هشاشة فى مواجهة أدنى أشكال المعارضة والمقاومة ولو كانت بسيطة ومتواضعة ولا عنيفة، الأمر الذى يساعد بدوره على فتح مجال الخيارات الكثيرة الناجحة فلا يجد المرء نفسه محشورًا أمام خيار واحد ألا وهو العنف وبغض النظر عن نتائجه أو توفر شرائط النجاح فيه.

وعـــد الآخـــرة
دراسة فى ميزان السنن الإلهية

الدكتور: رشيد كهوس (*)

إن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم بقدم الحياة على ظهر هذه الأرض، والأيا... دول، ولاشك أننا نعيش اليوم مرحلة من مراحل الدولة للباطل وأهله يوم انشغل عن... الحق أهله حيث تمكن إخوان القردة والخنازير أهل الغدر من إقامة دولتهم فى الأرض... المقدسة، سيطروا على مسرى الحبيب، وحرقوا منبر صلاح الدين، وقاموا بحفريات خطير... تحت المسجد الأقصى، كل هذا وغيره ليقيموا هيكلهم المزعوم فى «أرض الميعاد» كم... يعتقدون، وهذا درس من أهم الدروس للأمة الإسلامية، بل هو الدرس بالحروف البارز... أصابها ما أصابها لما تخلت عن ذروة سنام الدين، الجهاد فى سبيل الله.

هكذا ابتليت أمتنا الإسلامية بهذه الجرثومة القذرة الخبيثة التى تؤكد صباح مساء أ... الصراع بيننا وبينهم ليس صراع أرض وحدود، ولكنه صراع عقيدة ووجود. لهذا اقتضت سن... الله بقاء هذه الفصيلة الآدمية الشريرة، لتسوقها إلى وعد الآخرة لتلفظ أنفاسها الأخيرة...

أولا: بشائر النصر والفتح المبين

إن النظر إلى واقع الأمة بعين الشؤم لا يزيد الوضع إلا تأزمًا، والجرح نزيفًا، والثغرة توسعًا، وقد قرأت لمجموعة من الكتاب من بنى جلدتنا يئسوا من واقع الأمة كما يئس الكفار من أصحاب القبور بحكم الفساد الذى استشرى فى جسم الأمة، ويعارضون كل من يقول بأن هناك خيرًا وفتحًا سيعم ربوع الأرض، وتخضع ... الجبابرة والقياصرة، فتجاسروا برأيهم هـ... على مهيع العلماء العاملين وتمردوا عل... ما تلقته الأمة بالقبول من سيدنا رسول ا... ﷺ إلى اليوم فى عودة الخلافة على منها... النبوة، وبلوغ نور الإسلام إلى ما بلغه اللي... والنهار، ودخوله إلى كل بيت.

ولنا وقفة مع بعض البشائر بمستقب...

(*) أكاديمي وباحث مغربي – نشرت هذه الدراسة بالمجلة الفصلية «المنار الجديد» عدد ذو القعدة سنة ١٤٣٣ هـ – سنة ٢٠١٢ م.

الإسلام، فعن تميم الدارى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»(١).

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة ثم سكت»(٢).

والأحاديث فى باب بشائر المستقبل كثيرة جدًا لا يمكن حصرها، مفادها أن الأمة الإسلامية ستعود لها خيريتها ومكانتها وعزتها وكرامتها فى آخر الزمان، وسيلحق هذا القرن الذى يظهر فيه نور الإسلام من جديد ويسود العالم كله بالقرون الخيرية الأولى.

ثانيا: حقيقة وعد الآخرة

بعد ما سبق ذكره من بشائر بنصر الإسلام نلج باب بشارة أخرى من بشائر النصر والتمكين الموسومة فى القرآن الكريم «وعد الآخرة» والمذكورة فى أوائل سورة الإسراء تبين لنا سنة الله جل وعلا فى اليهود الذين يسوقهم القدر إلى أرض المحشر ليلقوا حتفهم الأخير، على يد عباد الله المؤمنين، يقول الله تبارك وتعالى فى هذه البشارة:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٧ - ٩)

وقال البارى سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(الإسراء: ١٠٤)

إن ذكر الوعدين فى سورة الإسراء التى نزلت إبان معجزة الإسراء والمعراج، التى كانت مباشرة بعد رجوع النبى ﷺ من الطائف الذى لاقى فيه من الأذى والعنت والشدة الكثير على يد سفهاء ثقيف، فكان ذكر الوعدين فى سورة الإسراء بلسم الرحمة، وإكسير النصر، وباعث اليقين، لحبيبنا وسيدنا وسندنا رسول الله ﷺ، وللرجال الصادقين معه، وللسالكين منهاجه

١. المسند للإمام أحمد حديث تميم الدارى ح ١٧٤٤٠، المستدرك كتاب الفتن والملاحم ح ٨٣٢٦.
٢. المسند الإمام أحمد فى مسند النعمان بن بشير ١٨٤٣٠.

من بعده.

لقد نظر أسلافنا رحمهم الله ورضي الله عنهم إلى قضية بني إسرائيل وكأنها أمر انتهى ولم يعد لذكرهم موضوع بعد أن شردوا في الأرض وقتلوا تقتيلا.

ونقرأ -نحن رحمنا الله كما رحمهم- هذه الصفحة من كتاب الله العزيز قراءة حية تنبض بالتوتر مع الأحداث الهائلة التي رفعت بني إسرائيل إلى علو كبير. مكنهم ولايزال يمكنهم من الإفساد في الأرض. علو وفساد ما كان لأسلافنا أن يتصوروه وهم كانوا أحد رجلين: إما مفسر مجتهد قابض على النص ناظر فيه ومن خلاله ثاو في منصة العز أيام كان للمسلمين الغلبة، وكان اليهود تحت الذمة يرتعون في حماية الإسلام دون أن يشكلوا أي قوة تستحق في نظر المفسر الثاوي في زمانه أن يخاطبها القرآن، أو كان المفسر مقلدًا في عصور الرقاد والانحطاط فلا يجرؤ على تجاوز ما قاله السابقون، وماذا يقول، لو كان هو الشوكاني المجتهد المطلق، ولا ذكر لليهود إلا بالقلة والذلة؟(٣).

وعليه، فإن المعركة ضد اليهود عند إفسادهم الثاني هي معركة المسجد الأقصى، وسيدخله المجاهدون فاتحين، وسيحررون الأرض المقدسة، ويدمرون الكيان اليهودي عليها، وليتبروا ما علوا تتبيرًا(٤).

ولا يفوتني في هذا السياق أن أذكر حوارًا بين الإخوان المسلمين واليهود(٥)، حيث التقوا في سجن طره السياسي بمصر، فكان بينهم الجوار والحوار، أنقله على طوله- من كتاب: «البوابة السوداء» للأستاذ أحمد رائف -لما فيه من فوائد كثيرة، تدعم رأينا في أن إفساد اليهود في المرة الثانية، «وعد الآخرة» إنما يتحقق في آخر الزمان الذي ينتصر فيه الإسلام على الكفر والطغيان.

يقول الأستاذ أحمد رائف: «كان اليهود يعيشون سادة في معتقل طرة السياسي، فهم ينتمون إلى دولة منتصرة، أعلامها مرفوعة، وجهات دولية كثيرة تسأل عنهم وترسل مندوبيها للاطمئنان كل حين وآخر، فهم يعيشون أيام المعتقل بحبوحة من العيش يرتدون الملابس الغالية الثمن ويخرجون للرياضة كل صباح، ويتخذون ما يشاءون من خدم المسجونين الذين تكلمت عنهم، وتعمل الإدارة لهم كل حساب، وهي تطيع رغبتهم في كثير من الأمر، وكانوا ينقسمون إلى قسمين: الربانيين(٦) والقرائين(٧)، وهم يعيشون معا في عنبر واحد ورقمه واحد

٣. سنة الله، ياسين، ص٦٩

٤. وعود القرآن بالتمكين للإسلام، الشيخ صلاح عبدالفتاح الخالدي، ص١١٤ - ١١٨

٥. كان ذلك بعد هزيمة عبدالناصر - العبد الخاسر - في يونيو سنة ١٩٦٧م من تاريخ النصاري، التي دفعت البكباشي إلى الزج بيهود مصر في معتقل طرة السياسي، فكان ذلك مناسبة للالتقاء بالإخوان المسلمين هنالك في المعتقل.

٦. فرقة الربانيين، وتسمى كذلك (الفريزيون) وهي فرقة تعتقد بأن عيسى - عليه السلام - زنديق؛ وإن كانوا معتقدين بظهور مسيح منتظر، كما أنهم يوجهون العامة إلى احتقار الأمم والأديان والأجناس الأخرى، وأكثر اليهود في هذا الزمان ربانيون وهم الذين أنشأوا الحركة الصهيونية.

٧. فرقة اليهود القرائين: هم فرقة رفضت التلمود، واكتفت بما في التوراة بغير تفسير، وجعلته مصدرًا أوحد للاهوتهم، وهم أتباع «رجل من اليهود يسمى (عنان بن داود) من أهل بغداد، ظهر زمن أبي جعفر المنصور في القرن الثاني الهجري وأنكر التلمود وسائر الروايات التي يقول بها الفريسيون». فرقة القرائين اليهود، جعفر هادي حسن، ص٩.

أيضًا، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ، وكانوا على صلاتهم يحافظون، وتراهم متمسكين بدينهم، يعملون حسب أوامره ونواهيه، كان زعيمهم (إيلي صفدية) وهو رجل عجيب، يستطيع أن يفعل ما يشاء وأن يحصل على ما يريد، وكنا نعجب من أحوالهم وكيف يعيشون؟! وكيف يحصلون على تلك المكاسب في بساطة ويسر؟ ونحن لم نأكل (الفول المدمس) حتى سقط منا شهداء وقد أخبرنا بعضهم بتفسير هذه الألغاز، فالمال في الخارج كثير ونساؤهم لهم قدرة كبيرة على إقناع كبار المسئولين، هكذا حكوا لنا، وكنا نجادلهم في كثير من الأحيان، ونقول لهم:

-في القرآن الكريم أنكم تفسدون في الأرض مرتين، وفيه أيضا أننا نقاتلكم ونطردكم من أرض فلسطين، ونحن على يقين من هذا.

ويقول قائلهم في هدوء:

-ونحن على يقين مثلكم، فقد حكت التوراة عن هذا، ولكن ليس في هذا الجيل، أنتم أضعف من أن تفعلوا، ونحن أقوى من أن نهزم أمامكم.

وتستفزني هذه الصفعة الهادئة فأقول:

-عجيب أمرك، هل ترى هذا حقًا؟

ويرد في هدوء:

اسأل نفسك، ألا تقرأ صحف الصباح؟ انظر فيها لتعرف الفرق بين العرب وإسرائيل، ثم أنت تقول إن المسلمين هم الذين يهزمون اليهود، أين هؤلاء المسلمون؟ هم جميعًا في السجن، والقائم على أمركم يتبرأ من الإسلام كل صباح ومساء، ليس هو فقط، بل كل حكام العرب، عداؤهم للإسلام والمسلمين أعظم من عدائهم لإسرائيل واليهود، حتى يتوحد العرب يحتاجون إلى جيلين، أما أن تخرجوا أنتم من السجن وتحكموا البلاد فهذا بعيد، وسوف يحول بينكم وبين هذا إخوانكم من حكامكم، أما إن حدث ذلك فتلك قصة أجيال تذهب وتجيء ونحن لن نشهد منها شيئًا، هذا أمر يكون بين أحفادنا وأحفادكم، هي حرب لن يشهدها واحد فينا، أما هذه الأيام فهي عصر اليهود، لقد بذل الحكماء والكبراء فينا أعمارهم وأموالهم من أجل الوصول إلى هذه الأيام، وقد شهدها جيلنا، وأنتم تعيشون عهدنا الذهبي.

وكنا نتأمل صراحتهم في دهشة، ونرقب إيمانهم في فضول وتعجب، ونرى كثيرًا مما يقولون ينطبق على واقعنا المر.

وكنت أسأل بعضهم:

-لو أفرجوا عنك إلى أي البلاد تذهب؟

فيقول متعجبًا من سؤالي:

إلى إسرائيل بطبيعة الحال، هذه أيام الرب، وهو يتجلى من جبل صهيون.

-ولكنك تعودت الحياة في مصر؟

-يجيب: سوف يمكننا الرب من مصر، وطني إسرائيل من الفرات إلى النيل.

وأقف مذعورًا على كلامه:

-أعوذ بالله -لن يكون هذا في حياتنا أبدًا.

وبهدوء الواثق:

-لو امتد بك العمر فسوف ترى هذه الحقيقة، وبعدها الأيام دول وليفعل بنا الرب ما يشاء، قد نسينا وصايا الرب لموسى فشردنا في الغربة قرونا، ونحن الآن نعود

إليها، والرب جبار وقادر وهو رحيم وعادل أيضًا(٨).

من هذا الحوار تستفيد أن اليهود أنفسهم على يقين من «وعد الآخرة» الذى تصبح فيه دولتهم كالهشيم الذى اشتدت فيه الريح فى يوم عاصف.

هذا علاوة على أن سنة الله ساقتهم إلى فلسطين ليتحقق فيهم وعد الله بإفسادهم الأخير.

فالمتفقه فى سنة الله إذن، والناظر بمنظار القدر الإلهى فى الكون، والمتمعن فى آيات الله فى الكون يدرك حقيقة الآيات القرآنية التى تتحدث عن فساد اليهود، ويدرك سنة الله التى تسوقهم إلى وعد الآخرة.

ثالثًا: وعد الآخرة فى السنة النبوية

لقد بينت السنة المطهرة المقصود بوعد الآخرة فى الحديث، الذى رواه الإمام البخارى ومسلم فى صحيحيهما والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلا الغرقد(٩) فإنه من شجر اليهود»(١٠).

هذا الحديث النبوى الشريف يرسم لـ[...] صورة للمستقبل القريب الذى يواجه فيه[...] عباد الله المجاهدون الصادقون المتقو[...] أخبث جرثومة على وجه الأرض.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين إلى أن تقوم الساعة»(١١).

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»(١٢).

وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه[...] يقول: «سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمرا[ء] لتكرمة الله هذه الأمة»(١٣).

وعن ابن زغب الإيادى قال: نزل على عبدالله بن حوالة الأزدى فقال لي: وإنه لنازل علىَّ فى بيتى بعثنا رسول الله ﷺ حول المدينة على أقدامنا لنغنم فرجعنا ولم نغنم شيئًا وعرف الجهد فى وجوهنا فقام فينا فقال: «اللهم لا تكلهم إلىّ فأضعف، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم، ثم قال: «ليفتحن لكم الشام والروم وفارس - أو الروم وفارس - حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا ومن البقر كذا وكذا ومن الغنم حتى يعطى أحدهم مائة دينار فيسخطها» ثم وضع يده على رأسي - أو هامتي! فقال: «يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل، والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدى هذه من رأسك»(١٤).

قال الأستاذ سعيد حوي: «الظاهر أن الحديث فى خلافة تكون عاصمتها القدس، وإلى القدس يذهب المسيح عليه السلام بعد نزوله في دمشق، وهذا يشير إلى أن فلسطين وقتذاك بيد المسلمين، وأن دولة اليهود الحالية منتهية»(١٥).

وعلى ضوء ما تقدم لابد من المواجهة إذن. وقتال اليهود وراء الحجر والشجر ما عدا الغرقد حتم مقضي، والدخول الثانى للقدس بعد دخول عمر رضى الله عنه قضاء محتوم، لا تحسب الدخلة الكريمة العزيزة التى دخلها صلاح الدين - رحمه الله - ورفع مقامه، فقد دخلها على النصارى المحتلين لا على بنى إسرائيل. ولو بدا من النصارى التفات عن حلفائهم اليهود لالتمسنا «ظروفًا للتخفيف» من حدة المواجهة معهم(١٦).

رابعًا: الإفساد اليهودى فى الأرض علامة تحقق وعد الآخرة

إننا إذا أشرفنا على الساحة الواقعية من إزاء القرآن وتصفحنا الأحداث وقارنا أهميتها التاريخية بالمستوى الجهادى الذى تطلبنا به (التى هى أقوم) وهى مطلقة لا تتقيد بصوابنا أو خطئنا فى التفسير رأينا كيف كان التكليف خفيفًا على مفسرينا الأولين الذين عاشوا فى ظل شوكة الإسلام المنتصرة لا وجود تحتها لما يشبه ولو فى الخيال شيئًا مثل: «الخطر اليهودي». وأنى لليهود، فى رأى العين يومئذ، أن يشكلوا قوة تعلو فى الأرض وهم بدد، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟

لذلك طفق مفسرونا يرددون قتل اليهود لأشعياء وحبسهم لأرمياء عليهما السلام. قتل أنبياء الله من أشنع جرائم اليهود لعنهم الله، لكننا لا نحسبه من حيث مصير الإنسانية إفسادًا يقارب ما نعرفه ونقاسيه من

٨. التاريخ السري للمعتقل «البوابة السوداء» صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين ص٤٧٥ - ٤٧٧.

٩. يقول الإمام النووي: «الغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود، وقال أبو حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة». صحيح مسلم بشرح النووي ٩/٢٤٢. واليهود اليوم فى فلسطين البلاء مولعون بغرس شجر «الغرقد» المذكور فى الحديث

١٠. صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب قتال اليهود ح٢٩٢٥ و ٢٩٢٦. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ح٢٩٢٢، واللفظ لمسلم. المسند للإمام أحمد مسند أبي هرير ح٩٣٨٧.

١١. المعجم الكبير للطبراني ج١٩، ح٢٢٠، المعجم الأوسط للطبراني ج١، ح٤٧، مسند أبي يعلى الموصلي ح٦٢٨٦.

١٢. المستدرك على الصحيحين، كتاب الجهاد، ح٢٣٥١ قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». المعجم الكبير للطبراني ١٤٦٤٨، سنن أبي داود كتاب الجهاد باب في دوام الجهاد ح٢٤٨٦، مسند الإمام أحمد مسند الكوفيين ح١٩٣١[...]

١٣. صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ ح٦٩٤٥، مستخرج أبي عوانة كتاب الإيمان ح٢٣٥، السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٨٠.

١٤. مسند الإمام أحمد المستدرك للحاكم كتاب الملاحم والفتن، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

١٥. الأساس في السنة وفقهها ٢/١٠٠٢-١٠٠٢.

١٦. سنة الله ص٧٤.

إفساد بنى إسرائيل فى عصرنا (١٧).

منذ عقود من الزمان واليهود يعيثون فى الأرض فسادًا، قتلوا الأطفال ويتموهم، وقتلوا الشيوخ والنساء، وهدموا المنازل والمساجد وقطعوا الأشجار وهدموا الجسور وهتكوا الحرمات واغتصبوا الحريات، وسيطروا على العالم وعلى ثروات العالم، وأمسكوا بزمام الاقتصاد والإعلام، واستعبدوا الحكام... وهلم جرًا من الجرائم والمجازر التى تقشعر من هولها الجلود والأبدان.

ما كان لبؤرة السوء، ومعدن الشر، وخلاصة الجاهلية، ومنبع الفتنة، وداء الأمم المبثوث فى التاريخ، وفساد الأرض الكبير، ووباء كل عصر إلا أن يكون أبشع ما يمكن أن يتصوره خيال.

وعليه، فإن ما ذهب إليه المفسرون من إيقاع بختنصر باليهود وإيقاع جالوت وجند فارس وبابل. وكل أولئك كانوا كفارًا لا يحق أن يشرفوا بتفسير أنهم «عباد لنا». فلفظ «العباد»(١٨) منسوبًا إلى الألوهية أو الرحمانية أو ضمير الجلالة يطلق فى القرآن على العباد الصالحين، وما ربك بظلام للعبيد، مطلق العبيد.

عباد الحضرة المصطفون الأخيار كانوا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم. أفسد اليهود فى الأرض يومئذ بما نقضوا من عهود وبما نكثوا وغدروا. كان جند الله بقيادة رسول الله ﷺ عبادًا لله أولى بأس شديد جاسوا خلال ديار خيبر الحصون المنكى الذى لا تزال ذاكرة إخوان القردة تحفظه وتغذى ثوايا ثاراته باحتلال مكة والمدينة بعد احتلال القدس.

نقلة تاريخية ما بين انتصار المسلمين على اليهود بعد خيبر ودخولهم بيت المقدس فى زمن عمر طواها القرآن طيا كما نعهد فى بلاغته.

لم يكن لليهود كل ذلك العلو المادى على عهد رسول الله ﷺ وإن كانت لهم صناعة وأطم وحصون، لكن عباد الله كانوا عبادًا لله حقًا. وموعد الآخرة بينهم وبيننا يقترب، نرى اطّراد تقدمهم العلمى والتكنولوجى والتحالفى والتنظيمى والكيدى ومعهم القنابل الذرية والصواريخ يصنّعونها تصنيعا. ولن يكون المسلمون الذين يقاتلونهم ويقتلونهم خلف الحجر والشجر، يتكلم الشجر بإذن الله، إلا الجيل الذى يستحق أقرب الاستحقاق أن يسموا عباد الله كما كان المهاجرون والأنصار عباد الله (١٩).

١٧. سنة الله ص٧٠

١٨. وللإشارة فإن كلمة «عبد» تجمع على «عبيد» وعلى «عباد»، ففى القرآن الكريم فالعبد الذى يعرف ربه جمعه «عباد» كقوله جل فى علاه ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ (الصافات: ١٦٠)، وقوله جل ذكره ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر: ١٠) وقوله تقدست أسماؤه ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ (الزخرف: ٦٨) وقوله جلت حكمته ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ (الإنسان: ٦)، وقوله سبحانه وتعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ (الفرقان: ٦٣) ومطلق العبيد تجمع على «عبيد» نحو قوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ (آل عمران: ١٨٢).

١٩. سنة الله ص ٧١.

إن وعد الآخرة كان إلى نزول القرآن الكريم غيرَ واقع، وأنه سيقع فى المستقبل القريب، أو البعيد.. والدليل على هذا ما يحدث به القرآن الكريم فى هذا المقام.

فقد تحدث القرآن الكريم عن مجيء المرة الأولى هكذا:

﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾

(الإسراء: ٥)

وتحدث عن مجيء المرة الثانية هكذا:

﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾

(الإسراء: ٧)

فالآيتان تحدثان عن المستقبل، الذى يدل عليه الشرط: «إذا».. وهذا يعنى أن المرتين على سواء، فى تعليقهما بالمستقبل وقت نزول القرآن.. الأمر الذى يجعل القول بأن إحداهما قد وقعت، والأخرى لم تقع.. قولا لا حجة عليه، ولا مبرر له..

ولكن الذى ينظر فى الآيتين يجد:

أن الشرط الذى يعلق الفعلين بالمستقبل هو منظور فيه إلى ما قضاه الله سبحانه وتعالى فى كتابه، وجعله قدرًا مقدورًا على بنى إسرائيل فى وقوع هاتين المرتين من الإفساد.. وعلى هذا يكون وقوع الأحداث المسطورة في كتاب الله كلها لم تكن وقعت حين قضى الله بها وأودعها خزائن علمه.

ففى قوله تعالى:

﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾

(الإسراء: ٧)

فى الآية نجد حديثا عن «المسجد» والمسجد كما هو معروف معلم من معالم الإسلام، وسمة من سمات بيوت الله التى يتعبد المسلمون فيها.. إذ كان السجود أبرز عمل من أعمال المسلمين فى الصلاة.. ولهذا كان الاسم الذى يعرف به المسجد الأقصى هو: «بيت المقدس» حتى إذا أسرى الله سبحانه وتعالى بالنبى الكريم ﷺ إليه أسماه - سبحانه - المسجد الأقصى، وجعله بهذا الاسم القبلة الأولى للمسلمين، كما جعله بهذه التسمية مسجدًا لهم يعبدون الله فيه.. ثم كان الوصف الذى يعرف به المسلمون فى المجتمع الإنسانى هو سمة السجود الذى فى وجوههم. كما يقول تعالى:

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة﴾

(الفتح: ٢٩)

فذكر «بيت المقدس» باسم «المسجد» يشير إشارة واضحة إلى أن المرة الثانية التى يقع فيها من بنى إسرائيل هذا الإفساد إنما تكون فى العهد الإسلامي، وفي الوقت الذى يكون فيه بيت المقدس مسجدًا للمسلمين، على خلاف ما كان عليه من قبل، حيث لم تشر الآية الأولى إلى المسجد من بعيد أو قريب، بل جاءت الآية هكذا:

﴿فجاسوا خلال الديار﴾

(الإسراء: ٥)

أى تنقلوا كما يتشاءون بين الديار، وهذا يعنى أن العدو الذى ابتلاهم الله به كان متمكنا، بحيث يمشى فى ديارهم، ويتخلل طرقاتها دون أن يخشى أحداً.

ومن ثم فإننا بتدبرنا لآية وعد الآخرة نجدها تقرر مجموعة من الحقائق، وهي:

- أن الذين يتسلطون على بنى إسرائيل فى هذه المرة سيدخلون المسجد الأقصى.. «كما دخلوه أول مرة».

وهذا يعنى أمورًا:

- أن الذين يدخلون المسجد الأقصى هذه المرة قد كان لهم دخول إليه من قبل، وأنهم إنما يفعلون فى هذه المرة ما فعلوه فى المرة السابقة.

- ودخول المسلمين المسجد الأقصى أول مرة كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد ظل فى أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل فى العقود السابقة، سنة ١٣٨٧ للهجرة.

نعم خرج المسجد الأقصى من يد الصليبيين.. ثم أعيد إليهم مرة أخرى على يد صلاح الدين.. ولم يكن لبنى إسرائيل حساب أو تقدير فى هذا الأمر.

- دخول المسلمين إلى المسجد الأقصى وانتزاعه من يد الصليبيين ليس له شأن بالدخول الذى سيدخله المسلمون، بعد أن ينتزعوا هذا المسجد من يد بنى إسرائيل، لأن بنى إسرائيل لم يدخلوا المسجد، ولم يستولوا عليه منذ الفتح الإسلامي، حتى وقع بأيديهم فى هذه الأيام.

- فهذه إرهاصة من إرهاصات المرة الثانية، أو وعد الآخرة، وهى أن يكون المسجد الأقصى فى يد بنى إسرائيل، ثم يجىء إليهم من يخرجهم منه، وينتزعه من أيديهم، وهم أولئك الذين كان «المسجد» مسجدهم الذى «دخلوه أول مرة» وليس المسجد إلا مسجد المسلمين، وليس الذى يدخله للمرة الثانية وينتزعه من اليهود، إلا المسلمين.

- والإرهاصة الثانية هى الحال التى عليها اليهود أنفسهم، وهى أن يكونوا على الصفة التى وصفهم الله بها حين يفسدون فى الأرض، ويعلون علوًا كبيرًا، وحين يدخل عليهم أصحاب المسجد كما دخلوه أول مرة، ليسوءوا وجوههم، أى يلبسوهم الخزى والسوء، وقد اختصت الوجوه بهذا، لأنها الصفحة التى ترتسم عليها أحوال الإنسان كلها، وما يمسه من خير أو شر، وما يلقاه من نعيم أو بؤس (٢٠).

ولهذا فإن وعد الآخرة هى ما تعيشه بنو إسرائيل اليوم، وما وصلت إليه فى عصرنا من علو وفساد واستكبار وغرور، وحقد بلا حدود.

وسيتحقق وعد الله تعالى على يد المسلمين، وسيدخلون المسجد كما دخله المسلمون أول مرة فى زمن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وسيذيقون اليهود الخزى والعذاب، ويلبسونهم سرابيل الهزيمة النكراء، وحينئذ يعرفون حقيقتهم ويدركون جبلتهم بأنهم الجبناء

٢٠. التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/٤٤٩ - ٤٥٢.

حقًا وإن تظاهروا بزى النمور، فيهوون هويًا من علوهم وعتوهم.

يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب: «إننا نقطع عن يقين أن بنى إسرائيل معنا اليوم واقعون تحت قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٧)

وإذا فالجولة التالية بيننا وبين بنى إسرائيل هى لنا، وسندخل المسجد إن شاء الله كما دخلناه أول مرة، وسنخزى القوم ونعريهم من كل ما لبسوا من أثواب الزهو والغرور.. وسنقضى على هذه الدولة المولودة سفاحًا.. فلن تقوم لها قائمة إلى يوم القيامة..» (٢١).

وهنا لابد أن نشير إلى أن هذه الدولة قامت تحت اسم «إسرائيل» ولم تقم تحت اسم «اليهود» أو دولة «يهودا».

وهذا ما يجعل قوله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٤)

متوجهًا إلى تلك الدولة القائمة تحت اسم «إسرائيل» الأمر الذى يجعل من العسير أن تدخل تحت حكم الآية لو أنها اتخذت أى اسم آخر غير هذا الاسم.. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن.

فبنو إسرائيل الذين جاءوا لوعد الآخرة، واجتمعوا اليوم فى فلسطين، وأقاموا الدولة الواقعة تحت حكم الله الذى قضى به عليهم يوم يجىء وعد الآخرة بنو إسرائيل هؤلاء، قد جاءوا من كل أفق من آفاق الأرض مسوقين إلى حتفهم مدعوين إلى قدرهم المقدور، فى قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(الإسراء: ١٠٤)

أى جمعناكم من كل جهة (٢٢).

وعليه، فإن جمع اليهود الصهاينة أو بنى إسرائيل مهزوم، وجيشهم مكسور، والدوائر على إخوان القردة تدور:

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾

(القمر: ٤٥، ٤٦)

فكيف يكون وعد الآخرة قد مضى؟! وقد ظهر فساد اليهود فى البر والبحر، وعتوا عتوا كبيرا، وأصبحوا يتحكمون فى كل صغيرة وكبيرة ويسيرون العالم، فطبولهم ومزاميرهم وقيناتهم تصم الآذان وترمى بشررها على الوجوه!!

فلاشك أن سنة الله لهم فى الدنيا والآخرة بالمرصاد، فى الدنيا تبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، ويعركهم عرك الأديم، ويدسهم دس الحصيد، فتذهب بهم

٢١. التفسير القرآني للقرآن، ٣/٤٥٤ - ٤٥٥.
٢٢. التفسير القرآني للقرآن، ٣/٤٥٥ - ٤٥٦.

الذواهب، وتتيه بهم الغياهب، وتخدعهم الكواذب، وفي الآخرة ملائكة غلاظ شداد تغل أيديهم إلى الأعناق، وتلبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران، في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع، وقصيف هائل، لا مدة لدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى.

وعودا على بدء، فإن في عصرنا هذا انتشر اليهود في الأرض على قلة عددهم انتشارًا سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا وعلميًا وتنظيميًا في كل بقعة من بقاع الأرض لهم مؤسسات، وخبراء، وأيد مشاركة، وأصابع محركة، ورأى مسموع.

الأرض التي احتلوها احتلالا واضحا كاملا هي الولايات المتحدة الأمريكية. لكن وجودهم في سائر البقاع وجود ثابت راسخ.

احتلوا من أمريكا(٢٣) الاقتصاد والسياسة والإعلام، واحتلوا العقول والنفوس واحتلوا الكنيسة والدين النصراني احتلالًا مريعًا. وبما أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أقوى دولة وأعظمها وأغناها في عصرنا فإن «وعد الآخرة» يكتسب عندنا معنى كان بعيدًا جدًا أن يتصوره أسلافنا رحمهم الله. معنى «وعد الآخرة» المواجهة المحتومة بين اليهودية التي جعلها الله تعالى لفيفا في أرض فلسطين، وفي خدمة اليهودية ودولتها الصغيرة الدولة العظمى التي يتحكم في ماليتها وسياستها وعقيدتها اليهود. وعد الآخرة مواجهة واسعة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، واليهود بعَدَدهم وعُدَدهم أقل وأذل من أن يشكلوا جبهة تقارن بأمة الإسلام(٢٤).

وعد الآخرة مواجهة بين أمة الإسلام وأمة الغدر الملعونة في القرآن، مواجهة بين روح الإسلام وروح الجاهلية.

لهذا وجب على الأمة الإسلامية أن تعد العدة وتوفر شروط المواجهة، وتتأسى بجهاد سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، حتى تستحق النصر وتكون أهلا له، فمواجهة أخطبوط اليهود ـ الذين يزيد عددهم في العالم عن ثلاثة عشر مليون نسمة منهم خمسة ملايين ونصف المليون في فلسطين السليبة ـ واجب محتوم فهم بقلة عددهم وجبنهم أهون من أن يسهروا أعين أمة تعدادها مليار ونصف. لكن لما كان هذا العدد الضخم غثاء لم يستيقظ من سبات ولما يعتصم بحبل الله المتين، كان التفوق النوعي لليهود الغاصبين وتمكنهم من رءوس الأموال وامتلاك زمام أكبر «دولة عظمى في العالم» عوامل حاسمة في ترجيح كفتهم إلى الآن.

يتبع

٢٣. دعمت الولايات المتحدة الأمريكية الدولة اليهودية الصهيونية منذ نشأتها لأسباب ثلاثة: أولها أن حلول مملكة صهيون عقيدة يشارك اليهود فيها البروتستانتيون المنكبون على تلاوة التوراة. وثانيها أن الأرض العربية تتوفر على أكبر حقول النفط في العالم وتحتاج إلى حارس «أمين» يحفظ الكنز ريثما تهب «عاصفة الصحراء». لكن العلة الاقتصادية والعلة الاعتقادية تدعمها علة ثالثة ـ سياسية هذه المرة ـ تنبع مباشرة من الأحداث، وتكمن في وجود مجموعة ضغط يهودية في واشنطن يسندها حوالي ستة ملايين من اليهود يملكون الثراء والقوة، ويتمتعون بالنشاط». الإسلام والحداثة. عبدالسلام ياسين: ص١٢٥.

٢٤. سنة الله: ص١١٢ ـ ١١٣.

عن المرأة



المستشار طارق البشرى

تنتقل إلى النقطة الثانية التي تتعلق بالتوازن الشرعي الذي يحكم علاقة الرجل بالمرأة، أي علاقة الزوجية، ويجري النظر إلى أحكام الزواج في إطار العلاقة الثنائية التي تربط الرجل والمرأة، وهذا فيما يبدو أول طريق الخطأ في فهم هذه الأحكام وفي إدراك التوازن القائم بينها فالزواج ليس علاقة رجل بامرأة، وما يفرقه من أية علاقة أخرى بين رجل وامرأة لا ينحصر في أنه يضفي على العلاقة الثنائية الصفة الشرعية. الزواج أكبر من ذلك، هو عقد ثنائي الأطراف، ولكنه ينشئ مؤسسة اجتماعية هي أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية، من حيث أنه ما من فرد إلا وارد منها مولدا وتربية، ومن حيث أنها مؤسسة تغطي وحداتها المجتمعات كافة، وهي تغطيها على مدى التاريخ الحضاري كله.

لذلك فهي أكبر المؤسسات الاجتماعية حظا من اهتمام القرآن الكريم بها، من حيث نشأتها بعقد الزواج ومن حيث انحلال ربطها بالطلاق أو بالوفاة ولم تحظ مؤسسة أخرى من القرآن نفسه بمثل ما حظيت الأسرة منه؛ اهتماما بالتفاصيل والجزئيات وقد نظمت وشيدت على ضربين من الأحكام أحكام قانونية مفصلة دقيقة تتعلق بنشأة الزواج وشروطه وتعدده وبانتهائه وأنواع الطلاق، وبالوفاة والميراث، ووضع الأولاد في كل ذلك والولاية عليهم وحضانتهم ثم أحكام أخلاقية ترد بالتوصية وبالأمر بالمعروف وبسائر وجوه القول لتضمن الألفة والانجذاب والمودة والرحمة والإيثار في علاقة كل أفراد الأسرة بعضهم ببعض وبهذا نجد قانونا يحكم المنشأ والمنتهى والتصفية، وأخلاقا تحكم سير الأسرة على مدى عمرها، ولا نجد قانونا هنا إلا إذا اضطربت أحوال الأسرة في ظروف استثنائية خاصة لم تنفع معها قواعد الأخلاق وحدها لتسييرها.

وهنا نجد تدخل القاضي في حال النشوز

والنفقة والتطليق والآيات القرآنية الدالة على كل ذلك كثيرة جدا.

وفى هذه التصورات العامة لا يمكن أن تقوم المقارنة الكمية بين مجموع الحقوق والواجبات لدى كل من الرجل والمرأة لأننا لسنا إزاء علاقة ثنائية متبادلة كعلاقة البائع والمشتري، إنما نحن نقف إزاء مؤسسة يجب أن تعمل بالكفاية اللازمة وهى تقوم بهذا العمل ليس بالتوزيع المتساوى لأحجام العمل المتساوي، فإن ذلك لا يحقق رشدا ولا ضبطا ولا تمليه حسن الإدارة ولا حسن السياسة فى أى بناء تنظيمي، إنما تقوم المؤسسة بعملها بتوزيع العمل وفقا لنوعيات ووفقا للصلاحيات التى تتوافر فى أى من القائمين به ومدى تلاؤمها مع هذه النوعيات.

وفى هذا الصدد فإن المرأة إذا نظر إليها كزوجة فى حدود العلاقة الثنائية التى تضمها مع الرجل، فهى فى إطار هذه المؤسسة الاجتماعية تقوم بوظيفة الأمومة أولا وقبل كل شىء، وهذه مهمة طبيعية جسمية وهى مهمة عاطفية وجدانية فى الوقت نفسه وإذا جاز القول بأن المؤسسة يمكن أن تندمج فى أحد أعضائها على سبيل المجاز، فيمكن القول: إن الأسرة تندمج فى الأمومة؛ لأنها السكن والمربى، وهى الحاضنة وفقا للشرع أيضا وهذه الوظيفة تنفرد بها المرأة دون محيص ولا فكاك وهى تبعة ثقيلة لا يمكن أن تتوزع على غير الأم من أفراد الأسرة ويتعين أن توازن بنوع آخر من التبعات تلقى على عاتق الرجل.

إن ذلك لا يعنى أن ينحصر دور المرأة فى الأمومة وينحصر دور الرجل فى العمل الخارجي والسعي وراء الرزق ليس المقصود ذلك، إنما المقصود أنه عند النظر فى وظائف أعضاء الأسرة وتبعاتها، تجد أن ثمة وظيفة لا تستطيع المرأة أن تتخلى عنها ولا يستطيع الرجل أن يمارسها، فهى فى كفنها لا مناص ثم بعد ذلك ينظر فى أمر ما عدا ذلك من الواجبات وهذا الأمر يلقى على الطرف الآخر أن يكون هو المرشح الأساسى لأداء وظيفة التمويل اللازمة لحفظ حياة هذه الأسرة، على الأقل فى الفترات التى تمارس المرأة فيها أمومتها حملاً ووضعاً وحضانة، وبمراعاة هذه الأوضاع، فللمرأة وعليها حسب الظروف المحيطة بها أن تحصل العلم وأن تمارس ما يتاح لها من عمل مناسب أما الرجل فعليه العمل دون النظر فى مدى مناسبته، حتى إن كان غوصا فى البحار أو ضربا فى الصحراء أو نفاذا فى المناجم.

ووفقا لهذا التصور، ينظر فى قوامة الرجل على المرأة، فهى لا تكون فى أى من شئون الحياة إلا فى إطار الأسرة التى تنشأ بعلاقة الزوجية، وهى علاقة تقوم أصلا برضاء المرأة وتستمر ولرضائها شأن فى بقائها. فهى رئاسة للأسرة بوصفها كيانا اجتماعيا لابد أن يكون له من يقوده

والقوامة مرتبطة بالانفاق؛ لأن القرار مرتبط بمكنة التمويل فى أى من الكيانات الاجتماعية التنظيمية فهذا الأصل الواقعي محدود بجميع ما تشمله قواعد التراحم والتواد وتصور أن الأسرة ليست أعضاء متباعدة ولكنها كيان يترابط بعضه ببعض ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

«النساء: ٣٤»

فالفضل هنا لبعضهم على بعض وليس للرجال على النساء، أى أنه تفاضل بين أعضاء جسم واحد.

والطلاق فى يد الرجل، ولكن يمكن للرجل أن يفوض فيه المرأة، ويمكن للقاضى أن يوقعه إذا قام الإضرار بالزوجة وهنا تقوم خصوصية الحياة الزوجية وخصوصية الأسباب التى تدفع لإيقاع الطلاق، بما يتعين معه أن يناط بيد واحدة وتقوم المسئولية هنا بافتراض رشد القرار حسب الغالب الأعم من الحالات فإذا اختل هذا الغرض فى حالات مخصوصة قام القاضى محل الزوج فى إيقاع الطلاق، ويمكن للزوجة أن تطلبه فى حالة الضرر وفى حالة الخلع.

وتعدد الزوجات رخصة بتقييد استخدامها بتحقيق العدل، إن نظم الزواج التى عرفها المجتمع البشرى تتحصل فى خمسة أنواع هى، الشيوعية الجنسية وهى تنفى نظام الأسرة، والزواج الجمعى وهو زواج جمع من الرجال جمعا من النساء وقد عرفته قبائل بدائية بين الأقرباء وواحدية الزوجة مع تعدد الأزواج وهو ينفى إمكان ضبط الأنساب، ووحدة الزوج مع تعدد الزوجات، ونظام وحدانية الزوج والزوجة.

النظام الإسلامى يبيح التعدد مع شرط العدالة بحسبان أن الإباحة هنا رخصة يجوز استخدامها فى الظروف الملجئة لها. وهذا نظر واسع من تشريع يحكم علاقة لها كل ذلك الشمول الاجتماعى والتنوع البشرى والاستمرار التاريخى، مما يتوقع معه أن تجد حاجة بشرية أو اجتماعية ملجئة للتعدد، وأن يكون الانحصار التشريعى الكامل فى الواحدية مما يضيق بهذه الحاجات فى ظروف مرض أو عقم يكون معه الجمع أخف ضررا من التطليق، أو فى ظروف كوارث حروب يقل بعدها عدد الرجال جيلا أو أكثر.

هذه هى التصورات العامة التى تبدو ضابطة لهذه العلاقة ولتنظيمها.

الحمد لله،،،.



الحقوق الإنسانية للمدنيين في أثناء النزاعات المسلحة



أ. د/ محمد سليم العوا

لو عرَّف أحد الإنسان بأنه كائن محارب، لما كان مغاليًا، أو مخطئًا، في هذا التعريف.

فكما أن تاريخ الإنسانية، هو في بعض جوانبه، تاريخ التقدم الحضاري، وتاريخ بناء الممالك وازدهارها، ثم انهيارها، وتاريخ التقدم العلمي، والكشوف الجغرافية؛ فإنه في جانب آخر منه، تاريخ الحروب المستمرة بين الجماعات الإنسانية منذ بدأ تجمع الإنسان، قبائل وشعوبًا، على الأرض.

ويقاس تقدم البشرية أو تخلفها في تاريخها الحربي، وتقاس الآماد الحضارية التي بلغتها من وجهة نظر تاريخ الحروب، لا بالهزيمة والنصر، ولا بعدد الضحايا كثرةً وقلةً، ولكن بالمبادئ التي كانت تدافع عنها كل قوة من القوى المتصارعة، وبالخير الذي نشرته فأسعد الناس، عند انتصارها، أو بالشر الذي فرضته فأتعسهم. كما يقاس التقدم والتخلف، في هذا المضمار، بالقواعد التي اتبعتها الجيوش المتحاربة في معاملة المحاربين بعضهم لبعض، وبوجه أخص في معاملة المحاربين لغير المحاربين الذين يلتقون بهم أو يخترقون ديارهم أثناء في النزاعات المسلحة.

نطاق البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف في إيجاز على حكم الإسلام في شأن المعاملة الإنسانية للمدنيين في أثناء النزاعات المسلحة، لا على وجه المقارنة بين الأحكام الإسلامية وبين الأحكام الدولية المعاصرة، وإنما على وجه التعريف والبيان بأحكام الشريعة الإسلامية، أداء لواجب

البلاغ الذي ألقاه القرآن الكريم(١) على عاتق العلماء، وأكده الحديث الشريف في حقهم(٢)، واستجابة لمطلب الظروف الدولية الراهنة(٣)، وتترك إلى مجال آخر مسألة المقارنة بين نظام قانوني ونظام آخر.

من هم المدنيون؟

وقد عرفت المادة الرابعة من اتفاقية جنيف، بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب، الصادرة في ١٢ آب / أغسطس سنة ١٩٤٩م، المدنيين الذين تحميهم أحكامها في وقت الحرب بأنهم الأشخاص الذين يجدون أنفسهم في لحظة ما وبأي شكل كان، في حالة قيام نزاع أو احتلال، تحت سلطة طرف في النزاع ليسوا من رعاياه أو دولة احتلال ليسوا من رعاياها.

كما فرقت المادة نفسها بين هؤلاء المشمولين بالحماية وبين مدنيين آخرين لا تشملهم حماية الاتفاقية إما لأنهم رعايا دولة غير مرتبطة بها، وإما لأنهم رعايا دولة محايدة أو محاربة لها تمثيل دبلوماسي عادي في الدولة التي يقعون تحت سلطتها.

وما هو النزاع المسلح؟

والنزاع المسلح هو حال القتال سواء أكان هذا القتال بين جيشين نظاميين لدولتين، أم كان بين جيش وجماعة مسلحة منشقة أو خارجة على الدولة، أم كان بين قوات متحاربة لجماعات مسلحة لا ينتظمها جيش دولة ما. فهذه كلها تدخل في مفهوم النزاع المسلح الذي يجب حماية المدنيين من مخاطره(٤).

من هم المدنيون في النظرة الإسلامية؟

وما هي صور النزاع المسلح؟

المدنيون في النظرة الإسلامية هم كل من لا يحمل السلاح ولا يشارك في القتال دون نظر إلى كونه من رعايا دولة إسلامية أو من رعايا دولة غير إسلامية. والمعاملة التي يأتي بيانها للمدنيين في أثناء النزاع المسلح، كما تأمر بها النصوص الإسلامية، وكما يصورها الفقه الإسلامي، تشمل هؤلاء المدنيين كافة ولا تعرف استثناء.

والنزاع المسلح قد يكون حربًا بين المسلمين وغير المسلمين، وهي لا تجوز إلا في سبيل الله: إما لفتح باب الدعوة إلى دين الحق، عندما تحول قوة مسلحة بين

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

(٢) صح أمر الرسول ﷺ بتبليغ ولو آية (صحيح سنن الترمذي، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج، الحديث رقم ٢١٥٠) وأنه رب مبلغ أوعى من سامع (نفسه رقم ٢١٤٠)، وأنه رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه؛ ورب حامل فقه ليس بفقيه (نفسه رقم ٢١٣٩).

(٣) منذ الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ والإسلام يتلقى سهام التهم الباطلة من أعدائه ومن بعض أبنائه. والصمت مساهمة في هذا الباطل. والكلام يجب أن يقوم به العلماء العاملون حتى تنقشع عن وجه الحق الإسلامي غيوم التضليل وظلمات الجهالة.

(٤) المادة الثانية والمادة الثالثة من اتفاقية جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب (الاتفاقية الصادرة في ١٢/٨/١٩٤٩م وهي إحدى اتفاقيات جنيف الأربع التي تحمل التاريخ نفسه وتنظم بعض العلاقات الدولية في أثناء النزاعات المسلحة).

المسلمين وبين الدعوة إلى الله، وإما لصد عدوان المعتدين حماية للدين والوطن ودفاعا عنهما. وهذه الحرب لم يؤذن للمسلمين بخوضها إلا بعد أن بدأهم أعداؤهم بالقتال، قال تعالى:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾

(الحج: ٣٩ - ٤٠)

وهي في الحالتين تسمى «جهادًا» في سبيل الله. وقد يكون الجهاد قتالاً لفئة ظالمة من المسلمين، وهو يسمى قتال «البغاة»، أخذًا من تسميتها «بالفئة الباغية» كما أشارت إليها الآية التاسعة من سورة الحجرات. وهو القتال الوحيد الجائز بين طائفتين كلتاهما مسلمة. وحكم غير المقاتلين في صورتي هذا النزاع المسلح واحد، وهو عدم جواز التعرض لهم بالعدوان، كما يأتي تفصيله.

حديث الأصول:

دستور المعاملة الواجبة للمدنيين في أثناء النزاعات المسلحة مستمد، في الفقه الإسلامي، من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية الصحيحة.

فأما القرآن الكريم فإنه يخاطب المؤمنين بقول الله تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾

(البقرة: ١٩٠)

فإذا انتهى القتال وكف المعتدون على المسلمين عن عدوانهم فإن الخطاب القرآني يقرر أنه:

﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

(البقرة: ١٩٣)

فالقتال هو مقابلة صنيع «المعتدين» بما يؤدي إلى «كفهم» عن العدوان.

وهو رد لا بدء:

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾

(التوبة: ٣٦)

وقد فسر «العدوان» المذكور في آيتي البقرة بأنه قتل غير المقاتلين، والتمثيل بالمقاتلين، وإتلاف الأموال، وإهلاك الحيوان، والإفساد للممتلكات بغير مسوغ مشروع[٥].

(٥) يراجع تفسير الآية ١٩٠ من سورة البقرة في القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٢، ص٣٤٨ (ط دار الكتب المصرية). ونقل القرطبي قول أبي جعفر النحاس إن هذا التفسير هو «أصح القولين في السنة والنظر (أي العقل)» فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان، وأما النظر فإن «فاعل» لا يكون في الغالب إلا من اثنين، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم، كالرهبان والزمنى والشيوخ والأجراء فلا يقتلون».

وحين يقع القتال بين طائفتين مسلمتين فإنه يرمي إلى ردع الفئة الظالمة منهما:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾

(الحجرات: ٩)

فالقتال هنا مقصوده أن تعود الفئة الظالمة، أو الباغية، إلى طريق الحق، وسنن العدل، وذلك هو معنى قوله تعالى:

﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾

والمدنيون في النزاعات المسلحة، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، لا شأن لهم بالقتال، ولا يجوز قصدهم بالعدوان أو الإضرار، فهم ليسوا مقاتلين، وليسوا باغين، فلا يصح قتالهم، ولا الاعتداء عليهم، في أثناء النزاعات المسلحة، وفقًا لحكم هذه النصوص القرآنية الصريحة.

وأما السنة النبوية فعمدة الاستدلال بها هو حديث وصية رسول الله ﷺ لأمراء بعوثه، وقواد جيوشه وسراياه، الذي رواه الإمام مسلم وغيره، عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان: «إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزو باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله. ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»[٦].

والمقرر في علم أصول الحديث أن الصحابي إذ قال «كان» و«كنا» ونحوهما من الألفاظ، دل ذلك على أن ما يذكره بعده هو من السنن الدائمة التي كانت مكررة معروفة بينهم، لا على مجرد وقوعه مرة أو مرتين، فمضمون هذه الوصية. إذن، من قبيل الأوامر النبوية المقررة بلا خلاف، ولذلك كانت، فيما بعد، موضع اتفاق كامل بين الفقهاء.

وفي صحيح مسلم أيضًا عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنه: «أن امرأة وجدت مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص٣٧ (من طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها)؛ وبشرح القاضي عياض ج٦، ص٣١ (طبعة دار الوفاء بتحقيق الدكتور يحيى إسماعيل، القاهرة ١٩٩٨ م).

فأنكر رسول الله ﷺ ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان»(٧).

وفى بعض الروايات الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال عندما رأى المرأة مقتولة ما كانت هذه لتقاتل، وكان خالد بن الوليد على مقدمة الجيش فى المعركة التى قتلت فيها هذه المرأة فقال رسول الله ﷺ لأحد أصحابه: «الحق خالدا فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا»(٨) «العسيف: الأجير».

وروى أبوداود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تغلو» وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال: «... ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع».

ونهى رسول الله ﷺ يوم خيبر «عن قتل النساء والصبيان». ونهى عن قتل الذرية فى الحرب فقالوا يا رسول الله أو ليس هم أولاد المشركين قال: «أو ليس خياركم أولاد المشركين»(٩).

وقد قال الشوكانى، رحمه الله: «إن فى نهيه ﷺ عن قتل أصحاب الصوامع دليل على أنه لا يجوز قتل من كان متخليًا للعبادة من غير المسلمين كالرهبان، لإعراضهم عن ضر المسلمين، وهذا الحكم يعضده القياس على الصبيان والنساء، بجامع عدم المشاركة فى القتال، أى عدم نفع هؤلاء جيش العدو، وعدم التسبب منهم فى الإضرار بجيش المسلمين. ويقاس على من ورد النص عليهم كل من لا يخشى ضرره على المسلمين، ولا يرجى نفعه لجيش عدوهم؛ لأن العلة واحدة، وهى عدم جواز إيذاء من لا يشارك فى القتال»(١٠).

صنيع الخلفاء الراشدين:

إن النظر فى سنة الرسول ﷺ يكمله النظر فى صنيع الخلفاء الراشدين، الذين أمرنا رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم، فى مثل قوله: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش من بعدى فسيرى اختلافاً كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ...»(١١).

وقد أوصى الخلفاء الراشدون فى قتال المشركين، وفى القتال بين المسلمين، بمثل ما أوصى به الرسول ﷺ قواد جيوشه.

(٧) مسلم بشرح النووي، السابق، ص٤٨، وبشرح القاضي عياض، السابق، ص٤٧.
(٨) نيل الأوطار للشوكاني، ج٨، ص٧١ (من طبعة دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية) والحديث في صحيح أبي داود ج٢، ص٥٠٢ برقم ٢٣٢٤ (من طبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج).
(٩) خرج هذه الأحاديث الإمام الشوكاني في نيل الأوطار، ج٨، ص٧١ و٧٢.
(١٠) الشوكاني، السابق، ج٨، ص٧٤.
(١١) رواه الإمام أحمد في مسنده وأبوداود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وأورده النووي في الأربعين النووية، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٥٤٩ (من مطبعة المكتب الإسلامي الثانية بإشراف زهير الشاويش، ج١، ص٤٩٩) وفي لفظه اختلاف يسير عما أوردته نقلاً عن الترغيب والترهيب للمنذري.

فأوصى أبوبكر، رضى الله عنه، يزيد بن أبى سفيان، عندما بعثه إلى الشام فقال له: «إنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نحلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن»(١٢).

وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يوصى قواد جيوشه بمثل ذلك فقد روى زيد ابن وهب أن عمر كتب إليهم، وهم فى بعض الفتوح، أن: «لا تغلو ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا واتقوا الله فى الفلاحين»(١٣).

وابتلى الإمام على، رضى الله عنه، بقتال المسلمين، حين خرج عليه الخوارج وقتلوا واليه عبدالله بن خباب، واعترضوا عليه فى المسجد وهو يخطب، فوضع لنا أصول القتال بين المسلمين، وأصول معاملة المسلمين للخارجين على الإمام فى غير حال القتال.

فأما القتال بين الفئتين: المحقة والباغية من المسلمين فقد نهى على رضى الله عنه عن قتل جريح البغاة، وعن اتباع مدبرهم، وعن قتل أسيرهم، وعن أخذ غنائمهم(١٤).

وسئل عنهم. رضى الله عنه. أكفار هم؟ فقال: «من الكفر فروا» قيل: فمنافقون؟ قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا» قيل: فما هم؟ قال: «هم قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا، وبغوا علينا، وقاتلونا فقاتلناهم»(١٥).

وقال لهم عندما قاطعوه وهو يخطب فى المسجد: «لكم علينا ثلاث: ألا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله. وألا نمنعكم الفىء مادامت أيديكم معنا، وألا نبدأكم بقتال ما لم تبدءونا»(١٦).

ولما طعنه عبدالله بن ملجم. أحد هؤلاء الخوارج قال لابنه الحسن: «أحسنوا إساره، فإن عشت فأنا ولى دمي، وإن مت فضربة كضربتي»(١٧).

وهذه السنن النبوية والتطبيقات الراشدية كانت، ولا تزال. هى الأصل، الذى يبنى عليه الفقه الإسلامي، أحكام معاملة المدنيين فى أثناء القتال، سواء أكان القتال بين المسلمين وغيرهم، أم كان بين مسلمين ومسلمين.

«يتبع»

(١٢) رواه مالك في الموطأ وعبدالرزاق في المصنف والبيهقي في السنن وغيرهم، وقد شرحه، وبين مذاهب العلماء في العمل به أبوعمر بن عبدالبر في كتابه الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، ط الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي (تحقيق)، ج١٤، ص٦٨ وما بعدها.
(١٣) العلاقات الدولية في الإسلام وقت الحرب، للدكتور عبدالعزيز صقر، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م ص٣٦، وهو يحيل إلى كنز العمال للمتقي الهندي ج٤، ص٤٧٧.
(١٤) المجموعة، شرح المهذب (طبعة المطيعي، مكتبة الإرشاد بجدة) ج٢١، ص٣٦ وما بعدها، والمغني لابن قدامة (طبعة التركي والحلو، القاهرة ١٩٩٠م) ج١٢، ص٢٣٧، وما بعدها وفي أصول النظام الجنائي الإسلامي، لمحمد سليم العوا (ط٦، دار نهضة مصر ٢٠٠٦) ص١٧٨.
(١٥) راجع تخريجه من كتب الحديث في المغني، ج١٢ ص٢٤٢ حاشية رقم ٢٩.
(١٦) المبسوط للسرخسي، ج١٠، ص١٢٥ (ط مصورة عن طبعة ١٣٢٤هـ بالقاهرة).
(١٧) المصدر السابق.

فتاوى لها تاريخ



الشيخ محمود شلتوت

أرباح صندوق التوفير

هل يحل للمسلم شرعًا أن يأخذ نصيبه من أرباح صندوق التوفير؟

رأى بعض العلماء:

رأى بعض علماء الحلال والحرام أن الربح الذى تدفعه مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة فى صندوق التوفير حرام؛ لأنه إما فائدة ربوية للمال المودع أو منفعة جرها قرض. وكلا الأمرين حرام فى نظر الشريعة. وعلى هذا يجب رده ويحرم أخذه والانتفاع به.

رأينا أنه حلال:

والذى نراه ـ تطبيقًا للأحكام الشرعية، والقواعد الفقهية السليمة ـ أنه حلال ولا حرمة فيه.

ذلك أن المال المودع لم يكن دينًا لصاحبه على صندوق التوفير. ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما تقدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعًا مختارًا، ملتمسًا قبول المصلحة إياه. وهو يعرف أن المصلحة تستغل الأموال المودعة لديها فى مواد تجارية ويندر فيها ـ إن لم يعدم ـ الكساد أو الخسران.

وقد قصد بهذا الإيداع أولاً: حفظ ماله من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد. وقصد ثانيًا: إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها، ليتسع نطاق معاملاتها، وتكثر أرباحها فينتفع العمال والموظفون، وتنتفع الحكومة بفاضل الأرباح.

ولا شك أن هذين الأمرين ـ تعويد النفس على الاقتصاد، ومساعدة المصلحة الحكومية ـ غرضان شريفان كلاهما خير وبركة ويستحق صاحبهما التشجيع، فإذا ما عينت

المصلحة لهذا التشجيع قدرًا من أرباحها منسوبًا إلى المال المودع أى نسبة تريد، وتقدمت به إلى صاحب المال، كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاونى عام، يشمل خيرها صاحب المال والعمال والحكومة، وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلم أحد، أو استغلال لحاجة أحد، ولا يتوقف حل هذه المعاملة على أن تندمج فى نوع من أنواع الشركات التى عرفها الفقهاء وتحدثوا عنها وعن أحكامها.

معاملة جديدة:

وفى الواقع أن هذه المعاملة بكيفيتها، وبظروفها كلها، وبضمان أرباحها لم تكن معروفة لفقهائنا الأولين وقت أن بحثوا الشركة ونوعوها، واشترطوا فيها ما اشترطوا.

وليس من ريب فى أن التقدم البشرى أحدث فى الاقتصاديات أنواعًا من العقود والاتفاقات المركزة على أسس صحيحة لم تكن معروفة من قبل؛ ومادام الميزان الشرعى فى حل التعامل وحرمته قائمًا فى كتاب الله

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾

(البقرة: ٢٢٠)

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٩)

فما علينا أن نحكمه، ونسير على مقتضاه.. ومن هنا يتبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حرامًا على فرض صحة النهى عنه، وإنما هو كما قلنا تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع.

ooo

﴿فَسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم الاجتماع في المسجد للذكر الجماعي

ما حكم الاجتماع في المسجد للذكر الجماعي؟

الجواب:

ورد الأمر الشرعي بذكر الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ مطلقا، ومن المقرر أن الأمر المطلق يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة والأشخاص والأحوال، فالأمر فيه واسع، وإذا شرع الله سبحانه وتعالى أمرا على جهة الإطلاق وكان يحتمل في فعله وكيفية إيقاعه أكثر من وجه فإنه يؤخذ على إطلاقه وسعته، ولا يصح تقييده بوجه دون وجه إلا بدليل.

فمن أدلة الكتاب في الأمر بالذكر على جهة الإطلاق: قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

(الأحزاب: ٤١-٤٢)

فهذا خطاب للمؤمنين يأمرهم بذكر الله تعالى، وامتثال الأمر حاصل بالذكر من الجماعة كما هو حاصل بالذكر من الفرد.

وقوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

(الكهف: ٢٨)

وامتثال الأمر بمعية الداعين لله يحصل بالمشاركة الجماعية في الدعاء، ويحصل بالتأمين عليه، ويحصل بمجرد الحضور.

والذكر الجماعي مشروع ولا شبهة فيه، بل إن غالب الآيات القرآنية التي أمرت بالذكر جاء الأمر الإلهي فيها بصيغة الجمع كقوله تعالى:

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾

(البقرة: ١٥٢)

وكقوله:

﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾

(البقرة: ١٩٨)

وكقوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية
«سابقا»

بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾

(الكهف: ٢٨)

ولقوله عز وجل:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

(الأحزاب: ٣٥)

وكقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

(الأحزاب ٤١-٤٢)

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة في إشارة إلى مشروعية الاجتماع على ذكر الله تعالى ودعائه.

وبذلك تواترت الأحاديث النبوية الشريفة، فعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

وعن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة» رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ النبي ﷺ بعبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهو يذكر أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «أما إنكم الملأ الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معكم» ثم تلا هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

(الكهف: ٢٨)

أما إنه ما جلس عندكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة، إن سبحوا الله تعالى سبحوه، وإن حمدوا الله حمدوه، وإن كبروا الله كبروه، ثم يصعدون إلى الرب جل ثناؤه وهو أعلم بهم فيقولون: يا ربنا عبادك سبحوك فسبحنا وكبروك فكبرنا وحمدوك فحمدنا، فيقول ربنا جل جلاله: يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقولون: فيهم فلان وفلان الخطاء، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسُهم» رواه الطبراني في الصغير.

وعن يعلى بن شداد قال: قال حدثني أبي شداد ابن أوس وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «هل فيكم غريب؟» يعني أهل الكتاب فقلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال: «الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم» رواه أحمد بإسناد حسن والحاكم والطبراني وغيرهم.

إلى غير ذلك من الأحاديث المتكاثرة الدالة على مشروعية الاجتماع على الذكر، وعلى ذلك فإن القول بأن هذا اللون من الذكر بدعة هو في نفسه بدعة مذمومة، إذ من البدعة تضييق ما وسع الله ورسوله ﷺ، فإن الأمر المطلق بذكر الله يتناول الذكر الجماعي، وقد تقرر - كما سبق - أنه إذا شرع الله سبحانه وتعالى أمرًا على جهة الإطلاق وكان يحتمل في فعله وكيفية إيقاعه أكثر من وجه فإنه يؤخذ على إطلاقه وسعته ولا يصح تقييده بوجه دون وجه إلا بدليل.

على أن الذكر في الجمع أرجى للقبول وأيقظ للقلب وأجمع للهمة وأدعى للتضرع والذلة بين يدي الله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة» رواه الترمذي وحسنه والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما الجهر بالذكر فإن مشروعيته ثابتة بالكتاب والسنة وعمل الأمة سلفًا وخلفًا، وقد صنف جماعة من العلماء في إثبات مشروعية ذلك، كالإمام الحافظ السيوطي في رسالته «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر»، والإمام أبي الحسنات اللكنوي في كتابه «سباحة الفكر في الجهر بالذكر»، وغيرهما.

ومن الأدلة على مشروعيته ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

قال العلامة ابن الجزري في «مفتاح الحصن الحصين»: (فيه دليل على جواز الجهر بالذكر خلافًا لمن منعه) اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر» (المطبوع ضمن الحاوي للفتاوى ١ / ٣٧٦، ط. دار الكتب العلمية): «والذكر في الملأ لا يكون إلا عن جهر» اهـ.

وقد ساق الإمام السيوطي في رسالته هذه خمسة وعشرين حديثًا تدل على مشروعية الجهر بالذكر، ثم قال عقبها محققًا الكلام في ذلك: «إذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر، بل فيه ما يدل على استحبابه إما صريحًا أو التزامًا كما أشرنا إليه، وأما معارضته بحديث: «خير الذكر الخفي» فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، وقد جمع النووي بينهما: بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلين أو نيام، والجهر أفضل في غير ذلك؛ لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط.. وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار.. انتهى، وكذلك نقول في الذكر على هذا التفصيل، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث» اهـ.

ومن خصوص ما جاء في السنة من الجهر بالذكر جماعة ما جاء عن النبي ﷺ في التكبير في العيدين، فعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نلبس أجود ما نجد، وأن نتطيب بأجود ما نجد، وأن نضحي بأسمن ما نجد، والبقرة عن سبعة والجزور عن سبعة، وأن نظهر التكبير وعلينا السكينة والوقار» رواه البخاري في «التاريخ» والحاكم في «المستدرك»، والطبراني في «المعجم الكبير» قال الحاكم في «المستدرك»: «لولا جهالة إسحاق بن بزرج لحكمت للحديث بالصحة» اهـ، وقد تعقبه ابن الملقن والحافظ ابن حجر وغيرهما بأنه ليس بمجهول بل وثقه ابن حبان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ كان يخرج يوم الفطر والأضحى رافعا صوته بالتهليل والتكبير حتى يأتي المصلى» رواه الحاكم والبيهقي مرفوعا وموقوفا ولكن صحح البيهقي وقفه، وقال الحاكم في «المستدرك»: «هذه سنة تداولها أئمة أهل الحديث، وصحت به الرواية عن عبدالله بن عمر وغيره من الصحابة» اهـ.

والثابت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم جهروا في مواضع من الذكر، كما في تكبيرات العيد، سواء في ذلك التكبير المقيد الذي يقال بعد الصلوات المكتوبات أو التكبير المطلق الذي يبدأ من رؤية هلال ذي الحجة إلى آخر أيام التشريق.

ففي صحيح البخاري «أن عمر رضي الله عنه كان يكبر في قبته بمنى، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرا»، وهذا صريح في الجهر بالتكبير، بل وفي كونه جماعيا، فإن ارتجاج منى لا يتأتى إلا بذلك، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢ / ٤٦٢، ط. دار المعرفة): (وهي مبالغة في اجتماع رفع الأصوات) اهـ، وكذلك قال الحافظ العيني والشوكاني في «نيل الأوطار»، وأصرح من ذلك رواية البيهقي في «السنن الكبرى» (٣ / ٣١٢): فيسمعه أهل السوق فيكبرون، حتى ترتج منى تكبيرًا واحدًا.

وفي صحيح البخاري تعليقًا: «أن ابن عمر وأبا هريرة رضي الله عنهما كانا يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران، ويكبر الناس بتكبيرهما، وقد وصله الفاكهي في «أخبار مكة» (٣ / ٩-١٠، ط. دار خضر) بلفظ «فيكبران فيكبر الناس معهما لا يأتيان السوق إلا لذلك».

وهذا والذي قبله صريحان في التكبير الجماعي.

وهكذا جاء الأمر الإلهي بالصلاة والسلام على النبي ﷺ، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٥٦)

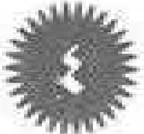
وامتثاله حاصل بفعله في جماعة أو على انفراد.

وبناء على ذلك: فالاجتماع للذكر والجهر به أمر مشروع في المسجد وفي غيره، وتبديعه في الحقيقة نوع من البدعة؛ لأنه تضييق لما وسعه الشرع الشريف، ومخالفة لما ورد في الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح وعلماء الأمة المتبوعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الميراث والوصية:

ميراث أصحاب الفروض





أ.د. صلاح سلطان
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإرث يكون بإعطاء من فرض الله لهم نصيبًا مقدرًا في كتاب الله عز وجل، ويسمون أصحاب الفروض، ثم يعطى ما تبقى للعصبات، لما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي بسندهم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»[1].

وقد بين صاحب الرحبية الوارثين بالفرض والتعصيب في متنه فقال:

والوارثون من الرجال عشرة
أسماؤهم معروفة مشتهرة
الابن وابن الابن مهما نزلا
والأب والجد له وإن علا
والأخ من أي الجهات كانا
قد أنزل الله به القرآنا
وابن الأخ المدلي إليه بالأب
فاسمع مقالا ليس بالمكذب
والعم وابن العم من أبيه
فاشكر لذي الإيجاز والتنبيه
والزوج والمعتق ذو الولاء
فجملة الذكور هؤلاء
والوارثات من النساء سبع
لم يعط أنثى غيرهن الشرع
بنت وبنت ابن وأم مشفقة
وزوجة وجدة ومعتقة
والأخت من أي الجهات كانت
فهذه عدتهن بانت

ولبيان من يرث بالفرض أو التعصيب أو بهما معًا أنظر الجدول التالي:

الوارثون بالفرض	الوارثون بالفرض والتعصيب	الوارثون بالتعصيب فقط
١- الزوج	٦- الأب	١٢- الابن وابنه وإن نزل
٢- الزوجة	٧- الجد الصحيح وإن علا	١٣- الأخ الشقيق
٣- الأم	٨- البنت	١٤- الأخ لأب وابنه
٤- الجدة الصحيحة	٩- بنت الابن	١٥- العم الشقيق وابنه
٥- أولاد الأم	١٠- الأخت الشقيقة	١٦- العم لأب وابنه
	١١- الأخت لأب	

وسوف نتناول فيما يلي كل من يرث بالفرض فقط أو بالفرض والتعصيب أو بالفرض أحيانًا وبالتعصيب أحيانًا أخرى.

١- رواه البخاري - كتاب الفرائض - باب ميراث الولد من أبيه وأمه، رقم (٦٧٣٢)، ورواه مسلم - كتاب الفرائض - باب ألحقوا الفرائض بأهلها، ورواه الترمذي كتاب الفرائض باب ما جاء في ميراث العصبة رقم (٢١٧٩) أما رواية ابن ماجة فهي: اقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله، فما تركت الفرائض فلأولى رجل ذكر.

وترجيء الحديث عمن يرثون بالتعصيب فقط في فصل لاحق إن شاء الله تعالى.

ميراث الزوجين

قال الله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾

(النساء: ١٢)

ويبدو من الآية أن فرض الزوجين كما يلي:

الوارث	السهم	الشروط	ملاحظات
الزوج	١/٢	إذا لم يكن للزوجة فرع وارث (٢)	يستوي أن يكون الفرع الوارث لهما معًا أو منه الزوجة من زوج سابق
	١/٤	إذا كان للزوجة فرع وارث	
الزوجة	١/٤	إذا لم يكن للزوج فرع وارث	ترث الزوجة إذا كانت واحدة الربع أو الثمن وإذا تعددت الزوجات اشتركن في فرضهن
	١/٨	إذا كان للزوج فرع وارث	

ويتضح من ميراث الزوجين ما يلي:

١- أن الزوجين يرثان بكل حال، فهما لا يحجبان عن الميراث حجب حرمان في جميع الأحوال، وإنما يحجبان حجب نقصان، لوجود الفرع الوارث.

٢- أن ميراث الزوجة نصف ميراث الرجل، فإذا كان هناك فرع وارث للزوجة أخذ الزوج الربع، أما لو كان الزوج هو المتوفى تأخذ الزوجة الثمن وهكذا، وهذا يجرى على أصل قواعد التوريث، كما قال الله تعالى:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

(النساء: ١١)

لأن للرجل القوامة، ومن مقتضياتها الإنفاق على المرأة، سواء كانت بنتًا أم زوجة أم أختًا، ولا تجب النفقة على الزوجة لأولادها ولا لنفسها مهما كانت موسرة، حتى قيل - كما سبق - نفقة تجهيز الدفن للزوجة بعد موتها على الزوج إن وجد، وإن ماتا معًا ولكل مال خاص، فتجهيز الدفن على الزوج من ماله دون مالها، أقول: هذا من أساسيات القوامة لقوله تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[3]

(النساء: ٣٤)

ولذا يقول ابن حجر العسقلاني: «جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن الرجال تلحقهم المؤن، كالقيام بالعيال والضيفان، وإرفاد القاصدين، ومواساة السائلين،

٢- يقصد بالفرع الوارث من يتصلون بالميت مباشرة، مثل الابن والبنت أو يتصلون بالميت عن طريق ذكر، مثل ابن الابن وابن ابن الابن وإن نزل، وبنت الابن وبنت ابن الابن. وليس منهم من يتصلون إلى الميت بطريق غير مباشر وفيه أنثى، مثل ابن البنت وبنت البنت. فهؤلاء من ذوي الأرحام ولا يحجبون الزوج حجب نقصان من النصف إلى الربع ولا الزوجة من الربع إلى الثمن، ولا يحجبون غيرهم. وإذا قيل: أليس هؤلاء من الولد الميت ويكون جده أوجدها، فهذا قول صحيح لكن هؤلاء لا ينتسبون إلى هذا الجد، وإنما ينتسبون إلى والدهم (زوج البنت) وجدهم لأبيهم، ولذلك قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فأولاد البنات أولاد الأزواج الوافدين على الأسرة، وعليه فكلما ذكرنا الفرع الوارث يخرج منه دائمًا أولاد البنات.

٣- ولا يعني هذا أن الرجل أفضل من المرأة بل يعني أنه أكثر حملًا ومسئولية ويجب أن تظل له الريادة والقيادة ما دامت الحياة الزوجية، أما الأفضلية فأية مسلمة أفضل من كفار الأرض جميعًا، والمسلمة التقية خير من زوجها الفاجر.

وتحمل الغرامات، وغير ذلك ... (٤) وهذا يرد على أدعياء العدالة وتحرير المرأة دعواهم، وهي: ظلم الإسلام للمرأة، على حين لا توجد للمرأة في تشريعاتهم وقوانينهم - إذا تزوجت - شخصية مالية مستقلة، ولا تتصرف في مالها إلا بإذن زوجها، لكن عدل الإسلام يجب كل هذا التشريعات، وهو الحق الذى لا يكون غيره إلا ضلالاً وظلمًا وإجحافًا.

٣- أن فرض الزوجة وهو الربع أو الثمن تأخذه الزوجة إذا انفردت، ويقسم على الزوجات إذا تعددن، ولا حق لهن فى غيره، وتلك حكمة بالغة؛ لأن الرجل لو كان متزوجًا من أربع وتركهن مع أب، فلو أخذت كل واحدة الربع لما بقى للأب شيء مع فضله عليه وحزنه على مفارقته.

٤- يشترط لاستحقاق الإرث أن تكون الزوجية قائمة حقيقة أو حكمًا، كما سبق فى أسباب الميراث، وألا يوجد مانع من موانع الإرث، مثل: ردة أحدهما - لا قدر الله - أو قتل أحدهما للآخر.

٥- جاء فى متن الرحبية فى ميراث الزوجين ما يلى:

والربع فرض الزوج إن كان معه
من ولد الزوجة من قد منعه
وهو لكل زوجة أو أكثرا
مع عدم الأولاد فيما قدرا
وذكر أولاد البنين يعتمد
حيث اعتمدنا القول فى ذكر الولد
والثمن للزوجة والزوجات
مع البنين أو مع البنات
أو مع أولاد البنين فاعلم
ولا تظن الجمع شرطًا فافهم

أمثلة على ميراث الزوجين

(١)

الورثة	زوج	أب
الأنصباء	$\frac{1}{4}$	ق ـ ع (*)
السبب	لوجود الفرع الوارث	لأنه عصبة بالنفس

(٢)

الورثة	زوج	أخت لأب
الأنصباء	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{2}$
السبب	لعدم وجود فرع وارث	لانفرادها وعدم [illegible]

(٣)

الورثة	زوجة	ابن
الأنصباء	$\frac{1}{8}$	ق ـ ع
السبب	وجود فرع وارث	عصبة بالنفس

(٤)

الورثة	زوجة	ابن بنت
الأنصباء	$\frac{1}{4}$	الباقي لأنه من ذوي الأرحام
السبب	لعدم وجود فرع وارث	وليس فرضًا أو تعصيبًا

(٥)

الورثة	زوج	أخ شقيق	ابن قاتل لمورثه
الأنصباء	$\frac{1}{2}$	ق ـ ع	محروم لأنه قتلها بالتسبب
السبب	لعدم وجود فرع وارث حكمًا؛ لأن الابن [illegible] كأنه غير موجود	نفس السبب	

ميراث الأبوين

قال الله تعالى:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾

(النساء: ١١)

يؤخذ من هذه الآية أن ميراث الأب والأم كما يلى:

الوارث	السهم	الشروط	ملاحظات
الأب	$\frac{1}{6}$	إذا كان للميت فرع وارث مذكر (ابن أو ابن ابن وإن نزل)	
	$\frac{1}{6}$ + ق ع	إذا كان للميت فرع وارث مؤنث (بنت أو بنت ابن وإن نزل أبوها)	
	ق ع	إذا لم يكن للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث	
الأم	$\frac{1}{6}$	إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث أو اثنان فأكثر من الإخوة	يتضح الفرق بين الأم والأب هنا حيث يرث الأب السدس إذا كان للميت فرع وارث مذكر فقط، أما الأم فأي فرع وارث يحجبها إلى السدس. الإخوة: كلمة الإخوة [illegible]
	$\frac{1}{3}$	إذا لم يكن للميت فرع وارث مذكر أو أنثى أو جمع من الإخوة	
	$\frac{1}{3}$ الباقي	إذا كانت المسألة عمرية [illegible]	

ويلاحظ هنا ما يلى:

١- نؤكد على أن الفرع الوارث هو الذى يحمل اسم المتوفى فى مستوى الأب أو الجد أو أبى الجد وهكذا، ولكن ابن البنت وبنت البنت هؤلاء لو وجدوا لا يحجبون الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس، ولا ينقلون الأب من وارث بالفرض إلى وارث بالتعصيب، يدل عليه المثال التالى:

(١)

الورثة	أب	أم	ابن ابن
الأنصباء	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$	ق ـ ع
السبب	لوجود الفرع الوارث المذكر	لوجود الفرع الوارث	

(٢)

الورثة	أب	أم	ابن بنت
الأنصباء	ق ـ ع	$\frac{1}{3}$	ليس له شيء لأنه من ذوي الأرحام [illegible]
السبب	لعدم وجود فرع وارث	لعدم وجود الفرع الوارث	

وبمقارنة المسألة الأولى بالثانية يبدو الفرق بين الفرع الوارث والفرع غير الوارث، حيث إن ابن الابن (وهو فرع وارث) نقل الأب والأم إلى السدس، لكن الفرع غير الوارث تبقى الأم معه صاحبة فرض الثلث؛ لعدم وجود الولد، وأعطى الأب الباقى تعصيبًا.

٢- أن الأب والأم لا يحجبان حجب حرمان أبدًا، فإذا وجدا معًا، أو وجد أحدهم فلابد أن يرث، لكن الذى يرد عليهما هو حجب النقصان فقط كما هو واضح من الجدول.

٣- الدليل على أن ميراث الأب بالتعصيب إذا لم يوجد فرع وارث هو الآية الكريمة:

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾

النساء: ١١

فنص على فرض الأم، وسكت عن الأب، فيطبق الحديث: «ألحقوا الفرائض بأهلها (وهى هنا الأم) فما بقى فهو لأولى رجل ذكر» (وهو هنا الأب) طالما لم يوجد الفرع الورث.

وكذلك عندما يوجد أب وأم وبنت، فتأخذ البنت النصف فرضًا، والأم السدس فرضًا لوجود الفرع الوارث عامة، ويبقى

(٤) فتح البارى (١٢/١٤).
(*) هذه معناها كلما وردت: الباقى تعصيبًا.

للأب السدس فرضًا وباقي التركة تعصيبًا، وهو سدس آخر، فيكون مجموع حظه الثلث؛ لأن ما بقي بعد أصحاب الفروض يلحق بأولى رجل ذكر، وهو هنا الأب.

٤ـ في حال وجود أم مع أكثر من أخ أو أخت (اثنان فصاعدًا) يكون للأم السدس، مع أن منطوق الآية:

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾
النساء ١١

والإخوة من ألفاظ الجمع، وهو يبدأ بثلاثة ومن هنا رأى ابن عباس أن الأخوين أو الأختين لا يحجبان الأم من الثلث إلى السدس بل الثلاثة فصاعدًا، وجرى بينه وبين سيدنا عثمان بن عفان حوار حول هذه القضية، فقال ابن عباس: ليس الأخوات إخوة في لسان قومك، فقال عثمان: لا أنقض أمرًا كان قبلي وتوارثه الناس، ومعناه أن سيدنا عثمان يحتج بما جرى عليه العمل قبله مما يعد عند علماء الأصول إجماعًا لا يصح مخالفته.

لكن مذهب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وكبار مجتهدي الصحابة والتابعين على أن الإخوة يدخل فيهم الاثنان من الإخوة والأخوات.

والقضية عامة مطروحة في علم أصول الفقه: هل أقل الجمع اثنان أم ثلاثة، ذهب إلى الأول: عمر وزيد والقاضي أبوبكر العربي، وحكاه عن مالك، واختاره الباجي وأبويوسف وأهل الظاهر والخليل بن أحمد وثعلب والغزالي، واستدلوا بقول الله تعالى لسيدنا موسى وهارون وهما اثنان:

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾
(الشعراء: ١٥)

وقوله تعالى عن عائشة وحفصة:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾
(التحريم: ٤)

ولم يقل قلباكما.

وذهب إلى أن أقل الجمع ثلاثة: ابن عباس وجمهور النحاة، وقيل: هو مذهب سيبويه، وهو السابق إلى الفهم..

لكن القول الأول هو الأرجح، ويدعمه أن حكم البنتين مثل البنات، والأختين كالأخوات فهن سواء كن اثنتين أو أكثر يأخذن الثلثين إذا انفردن بدون إخوانهن.

هـ ـ بالنسبة للأم حينما توجد في مسألتين هما:

١ـ زوج	أب	أم
٢ـ زوجة	أب	أم

فيعطى للزوج أو الزوجة فرضها ويعطى للأم ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة، ويأخذ الأب الباقي تعصيبًا لعدم وجود فرع وارث، هذا ما اختاره سيدنا عمر وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وعلي والحسن والثوري ومالك والشافعي وأصحاب الرأي، لكن ابن عباس تمسك بظاهر الآية، وقال: إن الأم تأخذ في الحالتين الثلث كاملاً وللأب الباقي تعصيبًا[٦]، حتى لو أدى إلى أن ترث الأم ضعف نصيب زوجها وهو أبو الميت.

وحتى يتضح الفرق بين القولين نورد الشكلين التاليين:

مذهب ابن عباس

الورثة	زوج	أم	أب
الأنصبة	١/٢	١/٣	ع
أصل ٦	٣	٢	١
		الأم ضعف الأب	

الورثة	زوجة	أم	أب
الأنصبة	١/٤	١/٣	ع
أصل ١٢	٣	٤	٥
		نصيب الأم يقترب من نصيب الأب	

مذهب سيدنا عمر وزيد

الورثة	زوج	أم	أب
الأنصبة	١/٢	١/٣ الباقي	ع
أصل ٦	٣	١	٢
		الأب ضعف الأم	

الورثة	زوجة	أم	أب
الأنصبة	١/٤	١/٣ الباقي	ع
أصل ١٢	٣	٣	٦
		نصيب الأب ضعف نصيب الأم	

نلاحظ أن اختيار ابن عباس على القول الظاهر في الآيات والأحاديث يورث المرأة ضعف الرجل في حالة (زوج، أم، أب) وقريبًا من نصيب الرجل في حالة (زوجة، أم، أب)[٧]، لكن اختيار سيدنا عمر ـ وهو الراجح ـ يجعل التوريث يجري على القاعدة الأصلية، وهو بقاء نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر طالما أدليا إلى الميت بقرابة واحدة.

على أن ما ذهب إليه سيدنا عمر يستند مثل مذهب ابن عباس إلى فهم معقول للنص وتأويله كما يقول أستاذنا الدكتور محمد بلتاجي[٨]، وإن كان يرجح ما أخذ به سيدنا عمر؛ لأنه أعدل مما ذهب إليه ابن عباس من توفير الثلث على الأم، وبخس الأب حقه برده إلى السدس، وقد أخذ عامة الفقهاء بمذهب عمر وزيد[٩] هذا النظر المعقول يرجع إلى النص ذاته حيث قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾
النساء: ١١

فكأن الآية نص في حالة ميراث الأب والأم مثل رجل توفي وترك أبًا وأمًا، فللأم الثلث وللأب الباقي تعصيبًا وهو الثلثان، فإن وجد أحد الزوجين فلأمه الثلث مما يأخذه الأبوان، وإلا قال الله تعالى: (فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث) فلما لم يأت النص هكذا وقال:

﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾
النساء: ١١

أي ثلث ما يأخذه الأبوان لا الجميع.

وبصفة عامة المسألة مسكوت عنها، كما يقول الشيخ علي حسب الله[١٠]، فيستنبط لها حكم ملائم لما عرف عن الشارع في نظائرها أن الذكر يأخذ ضعف الأنثى، ولذا كان رد زيد

٦. المغني لابن قدامة (٩/٢٢)

٧. لعل هذا ما جعل ابن سيرين يختار في (زوج، أب، أم) أن للأم ثلث الباقي على مذهب سيدنا عمر، وفي (زوجة، أب، أم) مذهب ابن عباس طالما أخذ الزوج أكثر من الزوجة.
٨. منهج عمر بن الخطاب في التشريع (٣٢٦، ٣٢٧)
٩. تفسير القرطبي (٥/٥٧)
١٠. الميراث في الشريعة الإسلامية (٤٩)

على ابن عباس لما سأله: أتجد ثلث الباقي في كتاب الله أو تقول برأيك قال: أقوله برأيي، لا أفضل أما على أب، قال أبو سليمان: فهذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نص، وذلك أنه اعتبرها بالمنصوص عليه[١١].

٦- يتفق الأب والأم في أنهما وارثان دائمًا ولا يحجبان حجب حرمان أبدًا، وأنهما يرثان السدس لكل واحد إذا وجد فرع وارث مذكر، ويختلفان فيما يلي:

أ- عند وجود فرع وارث مؤنث يبقى فرض الأم السدس، ويكون فرض الأب السدس والباقي تعصيبا.

ب- الأم ترث بالفرض فقط دائمًا وهو السدس أو الثلث أو ثلث الباقي، لكن الأب يرث بالفرض فقط أو بالفرض مع التعصيب أو بالتعصيب.

ج- يرث الأب الباقي تعصيبًا ويحجب جميع الإخوة؛ لأنهم يتصلون بالميت من خلاله وهو كاب مسئول عنهم في النفقة لأنهم أولاده، ولكن الأم لا تحجبهم وترث مع الأخ الواحد أو الأخت الواحدة الثلث، ومع الاثنين فصاعدًا السدس؛ لأنها ليست مسئولة عن نفقتهم فلا تحجبهم.

٧- جاء في متن الرحبية عن ميراث الأبوين ما يلي:

فالأب يستحقه[١٢] مع الولد
وهكذا الأم بتنزيل الصمد
وهكذا مع ولد الابن الذي
مازال يقفو أثره ويحتذي
وهو لها أيضا مع الاثنين
من أخوة الميت فقس هذين
والثلث فرض الأم حيث لا ولد
ولا من الإخوة جمع ذو عدد
كاثنين أو اثنتين أو ثلاث
حكم الذكور فيه كالإناث
ولا ابن معها أو بنته
ففرضها الثلث كما بينته

أمثلة على ميراث الأبوين

[١]

الورثة	زوج	أب	أم	بنت ابن
الأنصباء السبب	١ / ٤ لوجود الفرع الوارث	١ / ٦ + ع لوجود فرع وارث مؤنث	١ / ٦ لوجود فرع وارث	١ / ٢ لأنها واحدة ولا معصب لها

[٢]

الورثة	أم	أب	أخ شقيق	أخ لأب	ملاحظات
الأنصباء السبب	١ / ٦ لوجود أخوين	ق . ع لوجود فرع وارث	م محجوب بالأب	م محجوب بالأب والأخ الشقيق	مع أن الأخوين محجوبان لكنهما حجبا الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس

[٣]

الورثة	زوج	أب	أم	أختان شقيقتان	ملاحظات
الأنصباء السبب	١ / ٢ لعدم وجود فرع وارث	ق . ع لعدم وجود فرع وارث	١ / ٦ لوجود أختين	محجوبتان بالأب	هذه ليست عمرية، لأن الأم هنا محجوبة حجب نقصان بالأختين من الثلث إلى السدس فبقي للأب ضعف الأم.

١١- تفسير القرطبي (٥/٥٦).
١٢- أي السدس.

وإن يكن زوج وأم وأب
فثلث الباقي لها مرتب
وهكذا مع زوجة فصاعدًا
فلا تكن عن العلوم قاعدا

ونلاحظ هنا في المسألتين السابقتين أن حصة الأب زادت لوجود إخوة الميت أو أخواته لأنهم أبناء الأب وهو مسئول عن نفقتهم فزادت حصته بحجب الأم من الثلث إلى السدس مما يؤكد أن توزيع الميراث مرتبط بالمسئولية عن الإنفاق.

[٤]

الورثة	زوج	أب أب	أم	ملاحظات
الأنصباء السبب	١ / ٢ لعدم وجود فرع وارث	ق . ع لأنه يحل محل الأب عند غيابه وعدم الإخوة	١ / ٣ لعدم وجود فرع وارث ولا اثنين من الإخوة	هذه ليست عمرية؛ لأن مكان الأب الجد، وهو ليس في درجة الأب في القرابة، فلا حرج أن تأخذ الأم ضعفه، حيث يبقى له السدس فقط.

[٥]

الورثة	أب	أم	ابن بنتان
الأنصباء السبب	١ / ٦ لوجود الفرع الوارث المذكر	١ / ٦ لوجود الفرع الوارث	الباقي تعصيا للذكر مثل حظ الأنثيين، لأن الابن عصبة للبنت

[٦]

الورثة	أب	أب أب	أم	أم أم
الأنصباء السبب	ق . ع لعدم وجود فرع وارث	محجوب بالأب	١ / ٣ لعدم وجود فرع وارث	محجوبة بالأم

من عيون التراث

قاعدة في المحبة

• تأليف: ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم الحراني (٦٦١-٧٢٨ هـ)
• تحقيق: محمد رشاد سالم
• القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي

التعريف بالمؤلف:

هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله تقي الدين أبو العباس الملقب بشيخ الإسلام. ولد في (٦٦١هـ) في حران بلدة تقع في الشمال الشرقي من بلاد الشام في جزيرة ابن عمرو بين دجلة والفرات، وهو أحد علماء المسلمين.

من شيوخه زين الدين بن المنجا، والمنجد بن عساكر وغيرهم، ومن تلامذته شمس الدين بن قيم الجوزية، ومحمد بن أحمد عبدالهادي المقدسي، من مؤلفاته في التفسير «رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون»، وفي العقائد «الإيمان»، و«الاستقامة»، و«الرد على المنطقيين»، و«رسالة في أمراض القلوب وشفائها»، توفي سنة (٧٢٨ هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (٢١٨) صفحة، بدأها بالفصل الأول في محبة الله - تعالى - معناها وشروطها، مشيرا إلى حب الله تعالى، ومعاني المحبة، ودرجات المحبة وبين ما يستجلب به العبد محبة الله، وما يستجلب به العبد محبة الله له، وعلامات محبة العبد لله تعالى.

أما الفصل الثاني فتناول ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية من مولده، ونشأته، وشيوخه، حتى وفاته.

ثم عرض لنص الرسالة. وبدأها بقاعدة عظيمة في المحبة وما يتعلق بها، وأن الحب والبغض أصل كل فعل وحركة في العالم، وبين فيها أن المحبة والإرادة أصل للبغض والكراهية وأشار إلى أن الحركات Movements هي إما إرادية Voluntary عرفها بأن الفرد يشعر بها، أو طبيعية وهي التي تحدث على وفق طبع المتحرك، أو قسرية لا إرادية Involuntary (ص٩) وهي التي تحدث على خلاف طبعه.

ثم بدأ بأن المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له، وأن كل عمل في العالم هو بحسب نية صاحبه، وليس للعامل إلا ما نواه وقصده فالمحبة المحمودة

هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها السعادة Happiness (ص١٦) والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء.

وأشار إلى أن أهل الطبع والمتفلسفة لا يشهدون الحكمة الغائية من المخلوقات، وأن أهل الكلام ينكرون طبائع الموجودات وما فيها من القوى والأسباب.

وأن المحبة والإرادة أصل كل دين، وبين معاني كلمة دين، وأنه لابد لكل طائفة من بني آدم من دين يجمعهم وأن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة.

ثم أشار إلى أن الدين هو التعاهد والتعاقد، وجاء الحديث ليشير إلى أن «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

وبين أن الدين الحق هو طاعة الله وعبادته، ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له.

وعرض أن كل دين غير الإسلام باطل ولابد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة.

وتنوع الناس في المعبود والعبادة، فلكل منهم شرعة ومنهاج وأن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح موجبات للسعادة.

وعرض لذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة، والتفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد.

وأن بعض المتفلسفة يقولون أن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية وأن الحب أصل كل عمل والتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان، ويتفاوت حال الشخص الواحد في محبة الشيء الواحد بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة.

وأن العشق هو المحبة الكاملة التامة ومنكرو لفظ العشق لهم من جهة اللفظ مأخذان، ومن وجهة المعنى مأخذان، المأخذ الأول من وجهة اللفظ أنه ليس لفظا مأثورًا عن السلف، وباب الأسماء. والمأخذ الثاني أن المعروف من استعمال هذا اللفظ إنما هو في محبة جنس النكاح

وأشار إلى أن العشق هو الإفراط في الحب حتى يزيد على القصد الواجب، فإذا أفرط كان مذمومًا فاسدًا مفسدًا للقلب والجسم، وأشار إلى أنه كالإفراط في الغضب Extreme Anger، والإفراط في الفرح والذي قد يقصد به الهوس Mania، والإفراط في الحزن والذي قد يشار إليه بالاكتئاب Depression (ص٥٦).

كما أن العشق فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة، ويشير الأطباء إلى أن العشق مرض وسواسي Obsessions (ص٥٨) يفسد التخيل Imagination (ص٥٨).

وأن كل محبة وبغضة يتبعها لذة، وألم، واللذات ثلاثة أنواع: لذة حسية ملموسة، ولذة متخيلة، ولذة عقلية تختلف باختلاف إدراكها.

وأن الله شرع من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان وجعل اللذة التامة فى الآخرة، وأن غلط المتفلسفة ومن اتبعهم فى أمر هذه اللذات وضلال النصارى كذلك فى أمر اللذات، وأن اليهود أعلم ولكنهم غواة قساة.

وتفضيل مقالة الفلاسفة فى اللذة، وأن حب الله أصل التوحيد العملى، وأصل الإشراك العملى بالله الاشراك فى المحبة والمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله.

وأن محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات والذنوب تنقص من محبة الله.

ثم أشار إلى مراتب العشق مثل العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ويجعلون آخره التتيم وذكر الله العشق فى القرآن ومنها قصة امرأة العزيز.

وأن المتوكلين على الله ليس للشيطان سلطان عليهم، وإنما سلطانه على المتولين أى الموالين له وعباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان، وأنه يوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين.

وأصل العبادة المحبة والشرك فيها أصل الشرك، والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ومحبة الله توجب المجاهدة فى سبيله، فمن أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله وأبغض ما يبغضه الله.

موادة عدو الله تنافى المحبة، ومحبة الله ورسوله على درجتين واجبة ومستحبة الواجبة هى محبة المقتصدين، والمستحبة هى محبة السابقين، فيحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة.

وأن ترك الجهاد لعدم المحبة التامة هو دليل النفاق وأن الناس تنقسم إلى أربعة أقسام:

- قوم لهم قدرة وإرادة ومحبة مأمور بها.
- وقوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله وقدرة كاملة.
- وقوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية، لكن قدرتهم ناقصة.
- قوم قدرتهم قاصرة، وإرادتهم للباطل.

وأن العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، ومن أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك.

وبين موقف المؤمن من الشرور والخيرات، وما يجب عليه حياله، فالعلم بالخير سبب لفعله، والعلم بالشر سبب إلى منعه.

ولا يمكن لبنى آدم العيش إلا بالتعاقد والتحالف، ولا يمكنهم العيش إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم ويكون التحالف وفق شريعة منزلة أو شريعة غير منزلة أو سياسة.

وأن المسلمين على شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا كما بين أن المقصود الأول من كل عمل هو التنعم واللذة، وأن النعيم التام هو فى الدين الحق ومن الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور والمؤمن يطلب نعيم

الدنيا والنعيم التام فى الآخرة ومن الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار فى الدنيا ولا ينصر المؤمنين.

وعرض فى جزء من الكتاب لرأى ابن تيمية.

وبين حال الإنسان فى السراء والضراء وأن المؤمن أرجح فى النعيم واللذة من الكافر فى الدنيا قبل الآخرة، وأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر كما أن لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور.

ولما خاض الناس فى مسائل القدر ابتدع طوائف منهم مقالات مخالفة للكتاب، وأن الله يرفع الحرج عن المؤمنين وأن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة.

كما أشار إلى أن المؤمن يحب ما أحب الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويرضى بما قدره الله، وأشار هنا إلى الرضا **satisfaction** (ص١٩٣)، وأن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار وهى مستلزمة للحياة والعلم.

وبين أن أصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغض.

وأن العلم ينقسم إلى فعلى وانفعالي، وعلم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات وبغضه للسيئات.

وتنقسم الإرادة والمحبة أيضا إلى فعليتين وانفعاليتين، وذكر أن الإنسان لا يحب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس **Sensation** أو معرفة **Cognition** (ص٢١٢).

وانتهى الكتاب إلى بيان أن الحب يتبع الإحساس، والإحساس يكون بموجود لا بمعدوم والأمور الغائبة لا تعرف ولا تحب وتبغض إلا بنوع من القياس والتمثيل.

وبين أن الأمور الغائبة عن المشاهدة (المجردة) **Abstract** (ص٢١٤)، لا تعرف ولا يحس بها إلا عن طريق المماثلة **Analogy**.

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الحركات **Movements**
- إرادية **Voluntary**
- لا إرادية **In Voluntary**
- السعادة **Happiness**
- الإفراط فى الغضب **Extreme Anger**
- الهوس **Mania**
- الاكتئاب **Depression**
- الوسواس **Obsessions**
- التخيل **Imagination**
- الرضا **Satisfaction**
- الإحساس **Sensation**
- المعرفة **Cognition**
- المماثلة **Analogy**

القائم بالعرض

د. نشوة عبدالتواب حسين

عظمة الله جل جلاله في التراث الجاهلي!



أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب، جامعة المنوفية

مسوغات الطرح!

يتأسس العلم، وتنمو مباحثه على مبدأ جامع مهم هو المراجعة، والفحص؛ ذلك أن كثيرًا مما استقر في كثير من المجالات والميادين المعرفية يحتاج إلى المراجعة الدائمة، ولاسيما إذا ما توافرت المسوغات الباعثة على هذه المراجعات العلمية، من وجود نصوص جديدة؛ إن أعمال القضاء والحكم لا تستنكف أن تصدر قراراتها بفتح التحقيق في بعض القضايا التي سبق إغلاق باب التحقيق فيها بناء على ما جد من أدلة مؤثرة في سير الإجراءات، ويتوقع معها تغير الأوضاع القانونية المتعلقة بالأطراف المتقاضية.

لقد تصور نفر من الدارسين أن المبالغة في ازدراء الجاهلية، وحشد المثالب، ووصمها بها طريق مأمونة لتجلية عظمة الفكرة الإسلامية، وهو ما تراه سببًا مباشرًا وصريحًا في الإفراط في ذم الجاهلية من الاتجاهات والمجالات كافة.

وقد تسببت هذه المبالغات في خلق جو من التناقض في البنية المعرفية في أكثر من منطقة على خريطة العلوم الإسلامية، استوجبت الحاجة الملحة إلى معاودة المراجعة، والنقد لهذا الاتجاه البحثي المتفشي.

لقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» فيما أخرجه السيوطي في الجامع الصغير أحاديث البشير النذير ١ / ١٠٤.

كما صح كذلك عن النبي ﷺ أنه قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» أخرجه السيوطي في الجامع الصغير في

أحاديث البشير النذير ٢ / ٨.

وما يفهم من هذين الحديثين وأمثالهما أن ثمة خيرية منسوبة للجاهلية، فثمة منظومة أخلاقية، وإن تكن بحاجة إلى تتميم، وثمة توافر لرجال من الأخيار عرفتهم المرحلة السابقة على مجيء الإسلام مما سمي اصطلاحا باسم الجاهلية.

وانطلاق الإسلام في البناء والتغيير من قدر قائم من علامات الخيرية للأمة العربية التي أمرها الله سبحانه ابتداء بحمل الدعوة وبلاغها للعالمين أليق بطبيعته، ومنظومته الأخلاقية والمعرفية؛ فقد استقر في هاتين المنظومتين تقدير الإسلام للعطاء الإنساني والبناء عليه. فضلا عن مسألة مهمة جدًا تتعلق بمبحث مهم يشغل مصنفات السيرة ويمثل المقدمات العلمية لعلم السيرة النبوية ألا وهي سر اختيار الله سبحانه العرب موطنًا أوليًا للدين والدعوة.

ومن المهم جدًا الاعتقاد بأن بقية خير في النفس العربية كانت وراء هذا الاختيار الإلهي العظيم والمشرف معاً.

لقد يسرت المنظومة الأخلاقية والمعرفية نحو فكرة: «الله» سبحانه عمل الإسلام بما هو دين جديد على الأرض يسعى لتخليصها من مساوئ الانحراف الاعتقادي والأخلاقي.

لقد كانت أخلاق الجوار والنجدة والإغاثة والترابط التراحمي من جانب، وبقية من تعظيم الله سبحانه، وتعظيم بيته الحرام من جانب آخر أساسًا داعمًا للدعوة الإسلامية في مفتتح حركتها على الأرض انطلاقًا من جزيرة العرب، وبدءا بالشعب العربي.

وتبقى عظمة الإسلام، وعبقريته الجبارة في استيعابه وشموله، وإنسانيته الغامرة، وتوازنه هي كلمة السر الحقيقية في تمايزه عن كل الموروثات السابقة عليه، من الأفكار والاعتقادات.

ويبقى التغيير الجذري والفذ الجبار الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية والإنسانية قائما في تجاوزه للجزئي والمتناثر والمتشعب إلى الكلي الشامل المنتظم على مستوى رؤية الكون وانتظام ذلك في منظومات عقدية وعبادية وأخلاقية ومعرفية وتعاملات إنسانية.

وهو الأمر الذي يؤكده: صلاح سالم في كتابه (نبي الرحمة ص ٩١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالقاهرة ٢٠١٢م)، بقوله: «والهيمنة القرآنية هنا لا تعني بالضرورة قطيعة جذرية مع الموروث المكي، بل إحداث الصدمة الذهنية للعقلية الوثنية، بقصد تفكيكها، وإعادة بنائها من خلال ملكتي النفي والتعديل بقصد التجاوز إلى ذهنية أرقى عقديًا وثقافيًا».

إن التصور العقدي الذي أسسه الإسلام للمحور الإلهي، وما يتعلق بجانب الله تعالى؛ يتعالى على كل تصور سابق عليه في بساطته، وشموله؛ وكامل تنزيهه، وتعاليه، وبواعث الدعوة إلى الإيمان به، وارتباطه بمنظومات الأخلاق والعبادة والمعاملات، وهيمنته على مطالب رؤية الكون، والتعامل معه، وعمرانه، وتقدير الإنسانية.

وهو الأمر الذي يجعل «الله» سبحانه في التصور الإسلامي محاطًا بكل معاني القرادة والجلال والعظمة والقدرة والقيومية، والعلم، والرحمة إلخ.

(٢) إيمان العرب في الجاهلية: خزينة تحتاج إلى الفحص! مما وصل إلينا من تراث العربية العريق الممتد في عمق التاريخ والمنتمي في بعضه إلى تاريخ الجاهلية ما يعرف باسم إيمان العرب في الجاهلية، أو باسم نوافل القبائل.

وأهمية هذه النصوص التي جمعها كثير من العلماء العرب، ووصل إلينا بعضها، ونشر في العصر الحديث ظاهرة في المحاور التالية:

١/٢ الأهمية الدينية والاجتماعية

فهذه النصوص تفيد في الكشف عن الخريطة الدينية للعرب قبل الإسلام، وبقايا العناصر السماوية في ما يدينون به، ومناطق الضعف في هذا البناء الديني، وهي مسائل مهمة جدًا في دراسة التشكيل العقلي والوجداني للشخصية العربية قبل الإسلام لقياس التأثير الإسلامي في هذا العقل وهذا الوجدان، وهو ما يسهم في فهم ما جاء في القرآن الكريم عنهم.

كما أن هذه النصوص مهمة جدًا في دراسة التركيب الاجتماعي للقبائل العربية وقياس عوامل التقارب بين بعضها، وعوامل التخالف والتباعد بين بعضها الآخر اعتماداً على دراسة الفوارق في المعتقدات البادية من خلف الأيمان الموروثة من الجاهلية، وتوزيع نسبتها على القبائل العربية المختلفة.

كما تفيد هذه النصوص في تأكيد إعجاز الذكر الحكيم فيما يخص الذى أورده عن عقائد القوم الجاهليين.

٢/٢ الأهمية الحضارية

وتكشف هذه النصوص عن أثر هذه المعتقدات في تنمية الحياة العربية في الميادين المادية، مما يعرف بالأبعاد الحضارية، ولاسيما أن ثمة اتجاها قائما ينسب للعرب إسهامًا حضاريًا بمحددات مادية يمكن التأريخ لها، وهو الاتجاه الذى يظهر في كتابات الدكتور نجيب البهبيتي رحمه الله تعالى.

ولعل أعمق ظهور للتأثير العقدى في المؤسسات المادية أو الحضارية عند العرب ظاهر فيما حرصوا على دعمه وخدمته مما يتعلق بالملامح التالية:

أ- إطعام الحجيج.

ب - سقي الحجيج.

ج- تعظيم الكعبة ماديا (بناء وكسوة وتطييبا إلخ).

د- تأمين طرق الحج في الموسم.

هـ - تأمين أبدان الحجيج في الموسم.

فضلا عن أن حفظ هذه النصوص دليل جيد على ما قدمه المسلمون للحضارة الإنسانية من حفظ منجزها.

٣/٢ الأهمية اللسانية

وتكشف نصوص هذه الأيمان عما استمر واستقر من الصيغ المعظمة التي استمر استعمالها، وما يمكن أن تكون مادة للدراسة للتحليل الدلالي ثباتا وتطورا، لاختيار ما أحدثه الإسلام في النسق الفكرى وترك آثاره في مدونة ما أوجده من معان ودلالات وصيغ تعظيمية في أبواب الأيمان والأقسام وغيرها.

وهذه الأشكال من الأهمية وإن تكن حضرية فإنها كاشفة عما يمكن الوقوع عليه من فوائد ما وصل إلينا من تراث نصوص الجاهلية في بابي الأيمان وتلبية العرب.

(٣) أيمان العرب وتلبياتهم في الجاهلية:

وقد ذكر العلماء ولاسيما أهل تصنيف العلوم ابتداء بالنديم ومرورًا بغيره من المختصين بهذا الميدان عددًا من الكتب التي تمثل المصدر الأساسي لأيمان العرب وتلبياتهم من مثل ما أورده النديم في الفهرست في سياق كلامه عن تأليف ابن أبي مريم النسابة الأخباري (٢: ١ / ٢٩٩ طبعة مؤسسة الفرقان، لندن ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م بتحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد).

كتاب «النوافل، نوافل العرب»

وذكر في سياق كلامه عن هشام الكلبي الأخباري: كتابه نوافل العرب، وقال عنه النديم (٢: ١ / ٣٠٢): «يحتوى على: نوافل قريش / نوافل كنانة / نوافل أسد / نوافل تميم / نوافل قيس / نوافل إياد / نوافل ربيعة / نوافل قضاعة / نوافل اليمن».

ومن مصادر المادة كذلك كتاب الأيمان الوارد من الجاهلية، ولعل أشهرها كتاب: أيمان العرب في الجاهلية، للنجيرمي (كان حيا سنة ٦٣٩هـ)، وقد نشر منذ فترة طويلة، إذ نشره الشيخ / محب الخطيب سنة ١٣٤٢هـ، ثم أعاد ابنه: قصي نشره سنة ١٣٨٢هـ بالمطبعة السلفية، بالقاهرة.

ومن مصادر النصوص هذه كذلك كتب التلبية الموروثة من الجاهلية من مثل كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ، وقد نشره الدكتور حنا جميل حداد ونشرته مكتبة المنار، بالأردن سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

إن هذه المصادر الثلاثة، أقصد:

أ- مصنفات النوافل الواردة عن القبائل العربية من الجاهلية.

ب - مصنفات أيمان العرب في الجاهلية.

ج - مصنفات تلبية العرب في الجاهلية.

هي المصادر الأصلية والأساسية في هذا الباب المهم من تراث العربية العريق.

وليس معنى كون هذه الأنواع هي المصادر الأساسية غياب نصوص الأيمان والتلبية عن المصادر العلمية الأخرى، ولكن ثمة وجود لبعض هذه النصوص في بعض أنواع المصادر الأخرى من مثل:

أولا- كتب الخطب والمواعظ القديمة، من مثل كتاب أبي عبيد القاسم ابن سلام الهروى ٢٢٤هـ: الخطب والمواعظ الذى أورد فيه عددًا من النصوص القديمة منسوبة إلى أصحابها من مثل: مواعظ إبراهيم الخليل، ومواعظ موسى، ومواعظ أيوب، مواعظ داود، ومواعظ سليمان، مواعظ عيسى، ويحيى بن زكريا عليهم السلام ومواعظ لقمان، مواعظ الحكمة من سائر الكتب.

ثانيا- كتب الأمثال العربية، حيث أوردت النصوص القديمة الموروثة عن الجاهلية.

وفي هذا السياق يتذكر المرء ما ورد عن النبي ﷺ من تأكيد بقاء نصوص قديمة موروثة من كلام القدماء، فقد أخرج العجلوني في: كشف الخفاء (١ / ٩٨ حديث ٢٧٠): قوله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح

فاصنع ما شئت».

وهو ما يعني أن ثمة خيرًا متراكمًا موروثًا من القدماء، يمكن أن يكون مادة صالحة لدعم خطاب الدعوة إلى تعظيم الله جل جلاله بعدما انتشرت علاماته تتجاوز هذا المقام الشريف، ذلك أن قضية توارث الأمم مما يدل على تراكم تعظيمه سبحانه يعين على الاقناع بالقضية، إن الإسلام جاء ليدعم قضية قديمة جدًا هي من أجل القضايا، وهي قضية تعظيم الذات الإلهية، سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا.

(٤) أيمان العرب وتلبياتهم في الجاهلية:

تكشف نصوص أيمان العرب في الجاهلية وتلبياتهم عن قدر كبير من ملامح تعظيم الله سبحانه، وهو ما يمكن تجليته في المحاور التالية:

أولاً- الله الإله المتعالي

فقد كشفت نصوص التلبية الموروثة من قريش أن الله سبحانه يملك غيره، على ما جاء في تلبية الجاهلية لقطرب ص ١١٧.

وقد ظهرت مفردات التعظيم مسندة إليه سبحانه في تلبية ثقيف ص ١١٧ حيث كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك.

هذي ثقيف قد أتوكا
وخلفوا أوثانهم وعظموكا.

ثانيًا- الله الرب المانح

فقد كشفت نصوص أخرى عن أن العرب كانت تتوجه له سبحانه تطلب العطاء وسؤاله، فقد جاء في تلبية بكر بن وائل بن ربيعة ص ١٢٠ أنهم كانوا يأتونه للمياحة؛ أي لطلب العطية.

ثالثًا- الله سبحانه هو منزل المطر وخالق الخلق

وهو ما نطقت به تلبية النخع وهي من مذحج القحطانية، حيث كانت تلبي فتقول ص ١٢٥: لبيك رب الأرض والسماء.

وخالق الخلق ومجرى الماء.

وقد جاء ذلك في نصوص الأيمان أيضًا في قولهم: «لا والذي يشق الرجال والجبال» أي خلقها.

رابعًا- جمع الصفات العلى لله سبحانه في نصوص الأيمان

فقد وردت في أيمانهم القديمة نسبة الرؤية لله سبحانه في مثل: (لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة».

خامسًا- الله خالق الكون بظواهره المختلفة

فقد جاءت نصوص الأيمان، وقد أثبتت له خلق ما في الكون من رياح وسحاب وأنس وجان وغير ذلك.

ومن هذه النصوص (في النجيرمي ص ٢١):

- لا ومنزل المطر
- لا ومقطع القطر
- لا ومميت الرياح
- لا ومجرى البحر
- لا ومنشئ السحاب
- لا والذي دحا الأرض، أي مدها وبسطها
- لا ورب الشمس والقمر، لا ورب البيت والحجر وغير ذلك كثير.

وهذه النصوص مع ما فيها من تعظيم ونسبة الخلق إلى الله سبحانه إلا أنها تورطت جميعًا في نسبة الشرك معه، وهو المهمة الجليلة التي اضطلع بها الإسلام سعيًا نحو

تنقية الوعي العربي والإنساني من أدران الشرك، وفي هذا السياق يقول إيزوتسو في كتابه (الله والإنسان في القرآن ص ١٦٢): «من المؤكد أن الإسلام قد وجد في المكونات العلاقية التي نمت حول مفهوم الله في نظام الجاهلية شيئًا ما مغلوطًا ومتعارضا مع تصوره الديني الجديد، فكافح بعنف ضده، وضد من يؤيده، وكانت على رأس تلك العناصر المرفوضة فكرة أن الله على الرغم من أنه الإله الأعلى بلا شك قد سمح بوجود ما يدعى بالشركاء معه».

إن الإبقاء على هذه النصوص وصيانتها وحمايتها يمثل نقطة قوة جبارة تصب في الوعي الذي أحدثه الإسلام في العقل الإنساني، وفحص هذه النصوص مقدمة للكشف عن عظمة هذا الدين، وعبقرية ما دعا إليه وأسسه على مستوى التوحيد تعيينًا.

فضلا عن أنها تمثل وثيقة بالغة الخطر في تقدير الحقائق التي أوردها القرآن الكريم حول قضية اعتقاد الجاهليين، وتصوراتهم عن الله سبحانه، أي أنها تمثل مادة مركزية لمن أرد أن يفحص القرآن فحصًا داخليًا فيما نسبه إلى الجاهليين من حقائق تتعلق بالله سبحانه.

إن هذه النصوص الدينية والأدبية تثبت بشهادة القرآن الكريم الوارد في حق معتقدهم الذي يتقرر معه: أن مفهوم «الله» لم يكن راسخ الوجود في النظرة الدينية للعرب الجاهليين فحسب، بل كان فوق ذلك ذا بنية داخلية مطورة جدًا، أعني:

أ- أن الله في هذا التصور هو خالق العالم.

ب- أنه واهب المطر...

ج- أنه الوحيد الذي يهيمن على أقدس الإيمان.

د- أنه «رب الكعبة».

فهذه النقاط التي استخلصها إيزوتسو (ص ١٦٥ - ١٦٦) وظهرت لنا من نصوص الأيمان والتلبيات، تتفق مع المفهوم الإسلامي لله سبحانه، وتفارقه في عدم وجود الإخلاص في المفهوم الجاهلي وتوافره في المفهوم الإسلامي، أي أن توحيده وتعاليه وعدم الإشراك معه كان مفهومًا إسلاميًا خالصًا جاهد من أجله رسول الله ﷺ حتى استقر في النفوس.

إن إعادة تحليل النصوص الدينية وغير الدينية الموروثة من الجاهلية العربية مفيدة جدًا في إعادة التاريخ للحياة العربية لتقديم فهم أعلى وأكثر انضباطًا لما جاء عنها في القرآن الكريم.

ومفيدة جدًا في فهم الظروف النفسية والعقلية لطبائع المدعوين إلى عقيدة التوحيد في ضوء ما كان عليه العرب في هذا الجانب.

لقد أحسن العلماء العرب المسلمون الأوائل الذي حفظوا لنا هذا التراث من الضياع، وتجلت مفاهيم التسامح على المستوى المعرفي مع المنجز الفكري للجاهليين، وهو درب بالغ القيمة لتقدير الإسلام البالغ إسهامات العقل البشري ولو كانت هذه الإسهامات وافدة من حقب الوثنية وربما يسهم في صد هجمات السفهاء المعاصرين على الحضارات القديمة.

قصص الأنبياء:

مصاهرة موسى للشيخ

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

لما جاء موسى إلى الشيخ وكلمه وطمأنه قالت إحدى بنتى الشيخ - وهى التى دعت موسى: يا أبت استأجره لرعى ماشيتنا ليكفينا مؤونة هذا العمل إن خير من استأجرت القوى الأمين.

ويذكر أصحاب التفسير أن أباها سألها عن أمانته وقوته من أين علمتهما؟ ونص عبارة الطبرى فى التفسير: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى فى السقى منه، وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلى حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشى خلفى وانعتى لى الطريق ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت.

نشط الشيخ لرأى ابنته وطلب إلى موسى أن يخدمه برعى غنمه ثمانى سنوات فى نظير أن يزوجه بإحدى ابنتيه وأشار إليها وأنه إذا أجمل معه يتم عشر سنوات فقبل موسى على أنه بالخيار فى أى الأجلين، وتمت الصفقة بينهما على ذلك.

ومن ذلك الوقت صار موسى صهرًا لذلك الشيخ وراعيًا لغنمه.

ويقول بعض المفسرين: إنه أخرجها معه من حين العقد، ومعنى قوله:

﴿فلا عدوان على﴾

أى أنى إذا قضيت الأجل الأول وهو الحجج الثمان فليس لك أن تطالبنى بإتمام العشر، وإذا قضيت العشر فليس لك أن تطالبنى بزيادة عنها.

وأكثر المفسرين على أن اسم ابنة الشيخ التى صارت زوجًا لموسى «صفورة».

اقرءوا هذه الآيات:

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين (٢٦) قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين (٢٧) قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل﴾

(القصص: ٢٦ - ٢٨)

وقال تعالى:

﴿فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى (٤٠) واصطنعتك لنفسى﴾

(طه: ٤٠، ٤١)

ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى، وهو لا يخالف ما فى الكتاب الكريم فى شيء سوى أن التوراة لم تذكر طلب ابنة الشيخ استئجار موسى، بل الذى هناك أن الشيخ طلب استئجاره ابتداء والخطب سهل جدًا، وذكرت أن بنات الشيخ كن سبعًا.

وقد جمع ابن كثير بين القولين بأن المخاطبتين لموسى كانتا اثنتين وهما المباشرتان للرعى، وأن سواهما لم يباشرن الرعى.

من هو صهر موسى؟

إن مفسرى القرآن الكريم قد اضطربت أقوالهم فى اسم صهر موسى عليه السلام الذى استأجره، وكثير منهم يذكر أنه شعيب عليه الصلاة والسلام، وقد اشتهر ذلك اشتهارًا عظيمًا وأولع به الأدباء وأصحاب السير، وهذا أبو العلاء المعرى يقول مادحًا رجلاً عظيمًا زفت إليه عرسه:

كنت موسى وافته بنت شعيب غير
أن ليس فيكما من فقير

وآخرون يذكرون غير ذلك وهأنذا أسوق أقوالهم جميعًا:

١- قال جماعة إن اسم والد المرأتين «يثرون» وأنه ابن أخى شعيب عليه الصلاة والسلام - قال أبوجعفر جرير الطبرى: وأما أبوهما ففى اسمه اختلاف فقال بعضهم: كان اسمه «يثرون» وحدث بسنده إلى أبى عبيدة قال: الذى استأجر موسى «يثرون» ابن أخى شعيب.

٢- قال آخرون: بل اسمه «يثرى» وقد أورد أبوجعفر الطبرى فى ذلك ثلاث روايات تنتهى كلها إلى ابن عباس، فى روايتين منها: الذى استأجر موسى «يثرى» صاحب مدين، وفى الثالثة: اسم أبى المرأة «يثرى».

وليس فى الروايات الثلاث أنه شعيب أو ابن أخى شعيب.

٣- قال جماعة: إن الذى استأجر موسى هو نبى الله شعيب عليه الصلاة والسلام.

وفى ذلك روى الطبرى بسنده إلى قرة بن خالد قال: سمعت الحسن البصرى يقول: يقولون شعيب صاحب موسى ولكنه سيد أهل الماء يومئذ، ص ٤٠ ج ٢٠.

أقول: فى كونه سيد أهل الماء نظر؛ إذ لو كان سيد أهل الماء ما أخر الرعاء ابنتيه عن الورد؛ ولكانتا تصدران قبل ورد الرعاء.

وقد أخذ الحافظ ابن كثير فى تفسيره من قول الحسن هذا، أنه من القائلين بأن والد المرأتين هو شعيب عليه الصلاة والسلام (ص ٣٣٢ ج ٦)

والذى أميل إليه غير ذلك؛ لأن الحسن إنما قال ذلك بصيغة التبرى إذ يقول: «يقولون» وصيغة التبرى لا تقضى أن حاكيها يلتزم ذلك القول ويجزم به.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره: أن ممن روى أن والد المرأتين هو شعيب: ابن أبى حاتم بسنده إلى مالك بن أنس أنه بلغه أن «شعيبًا» هو الذى قص عليه موسى القصص ومعلوم أن «بلغه» لا تفيد الجزم القاطع، فقد بلغ وبلغنى وبلغ غيرى ذلك، بل وبلغ من قالوا إن اسمه يثرون أو يثرى، ولكن هل هذا يفيد القطع؟ كلا.

٤- قال آخرون: إن صاحب موسى والد المرأتين هو رجل مؤمن من قوم شعيب، ذكر ذلك الحافظ ابن كثير فى تفسيره «ص ٣٣٢ ج ٦» ونص عبارته «وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب».

٥- قال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد - وما قيل إن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال.

ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده - كما سنذكره قريبًا إن شاء الله - اهـ من ص ٣٣٢ ج ٦ - من تفسير الحافظ ابن الكثير.

هذه أقوال خمسة بعضها قريب من بعضها الآخر وبعضها بعيد، وليس أحدها بأولى بالقبول من الآخر؛ لأنه لم يؤيد بنص قطعى الثبوت والدلالة ولا بحديث صحيح يرجحه على غيره.

ولقد راودت نفسى على أن أقول إن الشيخ الكبير هو شعيب النبى عليه الصلاة والسلام فتمثل لى شيخ المعرة يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى
إنى أخاف عليكمو أن تلتقوا

وخشيت أن يلقانى شعيب عليه الصلاة والسلام فى عرصات القيامة فيلبينى إلى الله عز وجل ويقول: أى ربى سل عبدك هذا لم جعلنى صاحب موسى الذى استأجره ولم أكن صاحبه ولا وجدت فى زمنه؟ وليس بيدى حجة ولا برهان، وجدت الجزم بأن الشيخ الكبير هو (شعيب) قول منى على الله بما لا أعلم وهو منهى عنه بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

(الإسراء: ٣٦)

لذلك كله آثرت تفويض العلم باسم الشيخ الكبير إلى الله تعالى؛ إذ من المحتمل الذى لا استحالة فيه أن يكون بنفسه شعيبًا عليه الصلاة والسلام، ومن المحتمل أيضًا أن يكون ابن أخيه، كما يحتمل أن يكون رجلاً صالحًا من أهل مدين، كل ذلك محتمل والله أعلم.

يوجد وجه سادس: وهو التوقف فى أمر ذلك الشيخ الكبير - كما توقفت - ذكره الإمام محمد بن جرير الطبرى وأورده الحافظ ابن كثير فى تفسيره «فى صفحة ٣٣٢ ج ٦» ونص عبارة الطبرى؛ قال أبوجعفر: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول فى ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه اهـ «٤٠ ج ٢٠» وهذا يعنى قوله تعالى:

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

(القصص: ٢٣)

هذا ولقد تكلم شيخ من أفاضل العلماء معى وناقشنى فى الشيخ الكبير الذى استأجر موسى، فقال لى: إن موسى نبى كريم ورسول عظيم فلا ينبغى أن يكون الذى استأجره إلا نبيًا مثله أو قريبًا منه فى المنزلة، ولم يوجد فى مدين من هو بهذه المنزلة سوى شعيب عليه الصلاة والسلام.

فقلت له: لقد انتقلت المسألة من النص إلى الاستحسان، وليس الاستحسان من البراهين التى يحتج بها فى موقف يحتاج فيه إلى نص قاطع، على أن موسى لم يكن فى زمن استئجاره نبيًا.

وقد أورد الحافظ ابن كثير عدة أحاديث مرسلة فى أى الأجلين قضى موسى؟ وكلها تدل على أن موسى عليه السلام قضى أبر الأجلين وأوفاهما، ولم يذكر فى تلك المراسيل اسم الشيخ الكبير.

ثم قال: قد روى أيضًا نحوه من حديث عتبة ابن المنذر بزيادة غريبة جدًا، فقال أبوبكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحرث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال: سمعت عتبة بن المنذر يقول: إن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى؟ قال «أبرهما وأوفاهما»، ثم قال النبى ﷺ: إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لون، قال: فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها، وولدت ثنتين وثلاثًا كل شاة وليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا ثعول، وقال رسول الله ﷺ: إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهى السامرية، هكذا أورده البزار.

وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبوزرعة حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير حدثنى عبدالله بن لهيعة وحدثنا أبوزرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبدالله بن لهيعة

عن الحرث بن يزيد الحضرمى عن على ابن رباح اللخمى قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله ﷺ قال إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أى الأجلين؟ قال: «أبرهما وأوفاهما»، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه من قالبة لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناء، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بإزاء الحوض، فما تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين، ليس فيها فشوش، قال يحيى «ولا ضبوب» وقال صفوان ولا «ضبوب» وقال أبوزرعة: الصواب «طبوب» ولا عزوز ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف، قال النبى ﷺ: «لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية، ثم قال الحافظ ابن كثير - بعد كلام - مدار هذا الحديث على عبدالله بن لهيعة المصرى وفى حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم اهـ.

من هذا تعلم أنه لا يوجد حديث صحيح فيه اسم «شعيب» مصرحا به.

«لطيفة» جاء فى تفسير الإمام البغوى «معالم التنزيل» عند قول ابنة الشيخ «إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» قال أبوحازم سلمة بن دينار: لما سمع ذلك موسى أراد ألا يذهب، ولكنه كان جائعا، فلم يجد بدا من الذهاب، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها.

فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشى خلفى ودلينى على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال: اجلس يا شاب فتعش، فقال موسى: أعوذ بالله! فقال شعيب: ولم ذاك ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون ذلك عوضا لما سقيت لهما، وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا، قال شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف ونطعم الطعام، فجلس موسى وأكل.

أقول: إنها حكاية جميلة لولا أن موسى كان موقنا أنه إنما دعاه ليجزيه أجر ما سقى لابنتيه، فما كان له أن يتجاهل ذلك.

بقيت مسألة: وهى أن حضرموت بها قبر يقول أهل البلاد إنه قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يقع فى شمال شبام يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر إليه بوادى ابن على، ويخلص السائر إلى سهل بعد الوادى، وليس بجانبه عمران ولا يقصد ذلك القبر إلا للزيارة، وشبام تقع فى غربى مدينة سيون، وأنى أشك فى أن القبر لنبى الله شعيب.

نظرات فى الإسلام

نحو محبة شاملة



الدكتور محمد عبدالله دراز

إذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع.. كلمة يوجهها الجمهور دائمًا إلى كل داعٍ يدعو إلى فضيلة نبيلة مثالية.. وأن من أخص هذه الفضائل المثالية فضيلة المحبة الشاملة.

فإذا قال الداعي: لتكن نظرتنا إلى البشر نظرة محبة رحيمة عطوفًا ألوفًا، قالوا: إن كنت تعني أن تكون هذه هي نظرتنا الأولى حين نصبح كل يوم، قبل أن نبدأ صحيفة أعمالنا اليومية فسمعًا وطاعة، إذ لا معنى لافتراض السوء والشر فى الناس اعتباطًا من غير بينة، ولا مبرر لعداوتهم بالمجان، دون تجربة سابقة.

وإن كنت تعني أن نطبق هذا المبدأ على الذين عاشرناهم وجربناهم فكانوا علينا رحمة وسلامًا، لم يصل إلينا من عشرتهم سوء، ولم ينالونا بأذى، فسمعًا وطاعة كذلك، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

أما إن كنت تريد أن تنشر جناح هذه الرحمة والمحبة، حتى على من خالطناهم فوجدنا منهم خشونة وغلظة، ومنعًا للخير، وهمزًا ولمزًا بالغيب، فقد أمرت بما لا يطاع ولا يستطاع، وتلك هى المثالية الخيالية، التى لا مجال لها فى دنيا الناس، أليست النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكيف تأمر أن نحول فطرتنا ونغير طبيعة نفوسنا، حتى نحب أعداءنا.؟

ولئن كنت تريد فوق ذلك كله أن نغدق هذه المحبة والرحمة حتى على الذين فرطوا فى جنب الله؛ وأساءوا فى حق المجتمع، حتى على المجرمين والمفسدين، فقد جئت شيئًا نكرًا، إذ كيف تأمرنا أن نحب عدو الله، وعدو المؤمنين؟

هكذا تتنوع الإنسانية فى نظرهم إلى أربعة أصناف: صنفان منهم أهل للمحبة والولاء من أولانا وسالمنا ومن جانبنا وحايدنا، وصنفان أهل للكراهية والعداوة، من عادانا وآذانا، ومن اعتدى على حرماتنا ومقدساتنا، وإن لم يمس أشخاصنا بسوء.

فمن دعا إلى محبة البشر كافة، محبة تنتظم صديقهم وعدوهم، وتسع برهم وفاجرهم، فهو فى نظرهم رجل انطوى على نفسه فى برج عاجي، فلم يجرب أذى الخلق وشرهم، ولم يكتو بنار فسادهم وإفسادهم، ولو أنه نزل إلى ميدان العمل فى الجماعة، لرأى كيف يثير العمل غبارًا تقذى به عينه، وكيف يولد الاحتكاك شرارًا يحترق به صدره، ولكان عليه أن يقول لنا عندئذ، كيف يستطيع أن يحب مثار هذا الغبار؛ وكيف يطيق أن يرجح مبعث هذا الشرار؟

ألا فلنلب دعوة هذا الناقد.. لننزل معه إلى ميدان العمل، ولنستقبل ما يثار فيه من غبار وشرر، ولننظر كيف نعالج المثير والمثار، يقول القائل: كيف أحب عدوي؟ أليس هذا تناقضا وإحالة.

نقول: كلا! إن هذا التناقض ليس فى الأمر الواقع، ولكن فى الصورة التى صورت بها الوقائع، إنك تسمى المسيء، إليك عدوًا مصرًا عامدًا، فلا تقدر أن تحبه، أما أنا فأسميه صديقًا مخطئًا جاهلاً: أستطيع إذًا أن أحبه.

ولأفسر لك ذلك:

ألست تزعم أنك برئ لم تقترف إثمًا ولا ظلمًا، وإنما آذاك بغير ذنب جنيته؟ إنه إذا لا يوجه هذا الأذى فى الحقيقة إليك وإنما يوجهه إلى شخص مذنب تخيله فيك، ولو انكشف له حقيقة أمرك، لكان بك برًا رحيمًا، بل كان لك وليًا حميمًا، فالتحتمل الآن هذا الأذى ولتغمض عينيك لحظة عن هذا القذى، ريثما ينجلى له وضعك فى سلامة واستقامة، وينكشف له جوهرك فى طهره ونقاوته، وليكن هذا الإغماض والاحتمال على غير كره ولا مضض، ولكن منبعثًا عن قلب مؤمن مطمئن شفيق رفيق.. أرأيت ولدك الصغير حين تعطيه الدواء فيصيح فى وجهك، ويدفع بيديه ورجليه فى صدرك، أتراه بفعلته هذه صار أهلاً لأن تتخذه عدوًا لك، وتنتزع رحمة بنوته من قلبك، ألست ترثى لطيشه ورعونته، وتلتمس له عذرًا من غرارته وجهالته، ألست تبتسم له ابتسامة رحيمة يذوب منها خجلاً، حين يشعر بأنه أذنب فعفوت، وأنه أساء فأحسنت؟ فكذلك فلتكن نظرتنا إلى إخواننا الذين يسيئون إلينا فى طيش وجهالة، من غير ذنب جنيناه.. فتذوق نفوسنا حلاوة العفو عنهم وعن إساءتهم، ولتطمئن قلوبنا أنه متى انكشفت هذه الغشاوة، سوف يندم المسيء على فعلته، وسوف يستغفر لنا عن زلته، بل سوف تنقلب عداوته محبة وتتبدل سيئته حسنة وصدق الله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

(فصلت: ٣٤)

سيقول السائل لئن صح هذا التفسير فى طائفة من الذنوب يستحب العفو عنها، والرفق بأصحابها، فلقد علمنا الكتاب والسنة أن هناك طائفة أخرى من الذنوب، لا تقبل فيها شفاعة ولا ينبغى أن تأخذنا بأصحابها رأفة، تلك، هى حدود الله وحقوق الأمة، أليس من التناقض البيّن، أن تشمل أولئك المجرمين المفسدين بمحبتنا ورحمتنا؟ أنعاقبهم ونقول لهم إننا نحبكم؟ أنقتلهم ونقول لهم إننا نرحمكم؟

ورويدًا أيها السائل: إن مفتاح هذه المسألة، وحل هذه المسألة، فى تعيين الزاوية التى ننظر منها إلى العقوبة، وفى تحديد الهدف الذى نرمى إليه من ورائها، أرأيت الطبيب حين يجرى الجراحة القاسية الأليمة، طلبًا لشفاء المريض وسعيًا فى إنقاذه، أتقول: إنه بذلك قد اتخذ المريض عدوًا له أم هى الرحمة فى جوهرها وصميمها؟ فكذلك نحن حين نقيم الحدود المقررة ونوقع العقوبات الزاجرة، ولا نفعل ذلك تشفيًا وانتقامًا من الأشخاص المذنبين، ولكن تهذيبًا وتطهيرًا لهم، ورحمة بهم وبالجماعة التى يعيشون فيها..

إن صدورنا ينبغى أن تبقى نقية من الحقد والكراهية لأشخاصهم، وإن سهام مقتنا يجب أن نصوبها إلى جرائمهم، لا.. لهم..

أما أنه لو كانت نظرة القرآن إلى العقوبة نظرة التشفى والانتقام من المستحقين لها، إذًا لأوقدوها عليهم حربًا لا تطفأ نارها، وما قبل منهم بعد ذلك تبديلاً ولا تحويلاً، كيف وهو يقول:

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾

(المائدة: ٣٩)

ويقول:

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٩٢)

هكذا تلتقى المثالية والواقعية فى وصايا القرآن الحكيم؟

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾

(التين: ٨)

بلى هو أحكم الحاكمين.

ooo

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

بعد ذلك نجيب على السؤال الثالث وهو: لماذا سالم اليهود الرسول ﷺ فى الشهور التى أعقبت الهجرة؟ ثم لما نصبوه بعد ذلك الكيد والعداء بشتى ألوانهما وصورهما؟

للإجابة على الشق الأول من هذا السؤال نقول:

أولاً: اليهود لم يشتركوا فى الترحيب بالرسول ﷺ عند مقدمه إلى المدينة حبًا له، وإنما اشتركوا فى الترحيب به أملاً منهم فى استدراجه إليهم واستمالته إلى حلفهم، لكى يستعينوا به وبمن معه من المؤمنين على تأليف قوة فى جزيرة العرب يقاومون بها النصارى الذين أجلوهم عن (فلسطين) ومزقوهم شر ممزق، وكانوا يعتقدون أن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لن يرضى عن تثليث المسيحية، فلابد أن يعاونهم المسلمون فى القضاء على المسيحية التى أخرجتهم من أرض الميعاد.

ثانيًا: اليهود ما سالموا النبى ﷺ فى الشهور القليلة التى أعقبت الهجرة إلا لأنهم كانوا يعتقدون أنه سيتركهم خارج نطاق دعوته، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم رسالته، وأمنع من أن تنالهم دعوته، وأكبر من أن ينضموا تحت رايته، وكانوا يعتقدون أنه لن يأتى بتعاليم جديدة تخالف ما فى التوراة، ولا يطعن فيها بتحريف أو تغيير، بل لعلهم كانوا ينتظرون منه أن ينضم إليهم، خصوصًا بعد أن رأوه يصلى إلى قبلتهم، ويصوم عاشوراء معهم ويقول: نحن أحق بموسى منهم، ويعلن إيمانه بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر.

ثالثًا: اليهود عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، كانوا فى حالة شديدة من التفرق والشقاق، وهذه الحالة السيئة التى كانوا عليها، جعلتهم لا يستطيعون المبادرة بإعلان العداوة للرسول ﷺ ويرون من الأنفع لهم تأجيل المجاهرة بالعداء للدعوة الإسلامية إلى الوقت المناسب الذى يختارونه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين طوائف اليهود من تنازع وعداوة، فقال تعالى فى سورة البقرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ

تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (٨٥) ﴾

(البقرة: ٨٤-٨٥)

ومعنى الآيتين الكريمتين إجمالا:

أن الله تعالى قد أخذ موثقا على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضا، وألا يخرج بعضهم بعضا من داره، وقد أقروا بذلك واعترفوا، ولكنهم بعد أخذ الميثاق عليهم، قتل بعضهم بعضا، وأخرج بعضهم بعضا من داره، وذلك أنهم كانوا إذا حصل قتال بين الأوس والخزرج، انضمت طائفة بني قينقاع وبني النضير إلى الخزرج، وقاتلوا معهم، وانضمت طائفة بني قريظة إلى الأوس وقاتلوا معهم، فكان يترتب على هذا أن يقاتل اليهود بعضهم بعضا، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها بذل اليهود جميعا أموالهم لافتداء أسراهم الذين وقعوا في أيدي الأوس والخزرج فكان العرب يعيرونهم ويقولون لهم:

كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم، ولكنا نستحي أن تخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدي أسرانا، فوبخهم الله تعالى بقوله:

﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (٨٥) ﴾

(البقرة: ٨٥)

رابعا: بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة تم الإخاء بين الأوس والخزرج، وجمعتهم الدولة الإسلامية تحت لوائها بعد أن كانوا متفرقين وأصبحوا هم أصحاب الكلمة العليا في المدينة وجددوا عهودهم مع النبي ﷺ بأن يدافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم، وإزاء هذه القوة الشاملة التي طرأت على الأوس والخزرج بعد دخولهم في الإسلام، عجز اليهود في المدينة عن مواجهة النبي ﷺ عند هجرته بالعداء السافر، وآثروا أن يبدءوا حربهم معه بطرق ملتوية، من أهمها حرب الإرجاف، والتشكيك، وإثارة المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، كما سنبين ذلك قريبًا.

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت اليهود يسالمون الدعوة الإسلامية في الشهور الأولى، التي أعقبت الهجرة، ويقفون منها موقف المترقب المترصد لما سيصير إليه شأنها، ولكن أتراهم يستمرون على هذه الحالة، ويتركون الدعوة الإسلامية تنتشر، وسلطانها يمتد، مكتفين بالأمن في جوارها ذلك الأمن الذي يزيد تجارتهم سعة، وثروتهم ربحا؟ كلا إنهم ما استمروا على هذه الحالة، وما تركوا الدعوة الإسلامية تأخذ طريقها الطبيعي تحت الشمس، بل بدأت المخاوف تساور نفوسهم، والقلق يقض مضاجعهم، والهموم تملأ جوانحهم والتفكير العميق في الكيد للإسلام والمسلمين يسيطر على عواطفهم وعقولهم، وذلك لأنهم رأوا تيار الحوادث يسير في طريق مضاد لأطماعهم وأهوائهم للأسباب الآتية:

أولا: أحزنهم أن رأوا تعاليم الإسلام قد

قبل عليها الكثيرون، وأن المسلمين يزيدون ولا ينقصون، وأن كل يوم يمر عليهم يزيدهم قوة إلى قوتهم، ويكسبهم استقلالا في العمل والتفكير.

ثانيا: حزّ في نفوسهم ما شعروا به من أن عظمتهم المادية والسياسية المبنية على تفرق العرب، وتمزق وحدتهم، قد بدأت تنهار وتتلاشى، بعد أن دخل الأوس والخزرج في الإسلام، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا، متحابين، متعاونين، بعد أن كانوا في الجاهلية متنازعين.

ثالثا: أدركوا أن طمعهم في ضم المسلمين إليهم ليزدادوا بهم قوة على محاربة النصارى في جزيرة العرب من باب الأماني والأوهام؛ لأن الإسلام ليس في تعاليمه ما يدل على أنه تابع لشريعة موسى -عليه السلام- وإن كان لا يعارض الصحيح منها -بل هو في كل يوم يظهر بمظهر التجديد والاستقلال؛ ولأن المسلمين في المدينة قد أصبحوا بعد الهجرة يكوّنون دولة لها شخصيتها المعنوية المستقلة، وهم -في حربهم وسلمهم وغير ذلك من الشئون- لا يسيرون إلا على حسب توجيهات دينهم عن طريق نبيهم، وليسوا على استعداد لأن يسيروا في ركاب اليهود أو غيرهم.

رابعا: اليهود بطبيعتهم أحرص الناس على حياة، وأجشعهم في جمع المال، ولقد شعروا بأن حركة التجارة التي كانوا يحتكرونها في المدينة منذ مئات السنين، ويستغلونها للكسب الحرام، قد بدأت تخرج من أيديهم، بعد أن نافسهم فيها المهاجرون المسلمون، الذين لا يقلون عنهم خبرة في الشئون المالية والاقتصادية، وهذه المنافسة جعلتهم يبذلون نهاية جهدهم فيما ينفعهم ويغنيهم عن الاستقراض من اليهود.

خامسا: أفزعهم أن رأوا النبي ﷺ لم يجعلهم خارج نطاق دعوته، وإنما دعاهم إلى الدخول في الإسلام كغيرهم ممن دعا؛ لأن رسالته عامة للناس جميعا، ومرد فزعهم من توجيه الدعوة إليهم، زعمهم الباطل أن الشعب الإسرائيلي فذّ في النوع الإنساني، وأنه شعب الله المختار من بين سائر الأمم، وأن من المحال أن يرسل الله رسولا من غيرهم، وأن يوحي إليه بشرع جديد لا يقتصر في تعاليمه على ما جاء في التوراة.

سادسا: غاظهم أن لمسوا في شخصية النبي ﷺ المنافس الخطير الذي قضى على امتيازهم الديني، وكيانهم الخاص، ومركزهم الأدبي، فقد أخذ الناس ينصرفون عنهم، ويتخذون النبي ﷺ مرجعهم الأعلى، ومرشدهم الأعظم، وقائدهم المطاع؛ لأنه رسول من عند الله، ومن صميم العرب، وما جاء به فيه السعادة الدينية والدنيوية.

سابعًا: أحزنهم أن شاهدوا تعالم الإسلام تدعو إلى إحياء روح الإخاء والمساواة بين البشر، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لإسرائيلي على غيره إلا بالتقوى، وأنها قد اجتذبت بعض علمائهم ورؤسائهم إليها، فها هو ذا حبرهم وابن حبرهم (عبدالله بن سلام) لم يلبث حين اتصل بالنبي ﷺ أن أسلم، وأمر أهل بيته بأن يسلموا، فأسلموا معه، ولم يكتف بإعلان إسلامه، بل وصف اليهود بأنهم قوم بهت، وحذر النبي ﷺ من مكرهم وخيانتهم، فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك، قال: سمع عبدالله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو

فى أرض يخترف(١) فأتى النبى ﷺ فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال (أخبرنى بهذه جبريل آنفا) قال جبريل؟ قال (نعم) قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (البقرة: ٩٧)

(أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت) قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ: (أى رجل عبدالله بن سلام فيكم؟) قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا، وابن سيدنا قال: (أرأيتم إن أسلم) قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: هو شرنا وانتقصوه، فقال: هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله).

هذه هى أهم الأسباب التى جعلت اليهود ينشطون لمحاربة الدعوة الإسلامية فى المدينة، ويسلكون كل طريق لإطفاء نورها، وإخماد سلطانها لقد كرهوا أن يثبت أمر هذا الدين الحنيف، وعز عليهم أن يعيشوا فى ظلاله، وتحت سلطانه، وإن اكتسبوا الأمن والقرار، واستفادوا الرواج المادى فى هذا الجوار، فأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا للنبى ﷺ والمؤمنين، وعلى أن يقفوا فى وجه الدعوة الإسلامية يصدون عنها، ويبغونها عوجا، ويحشدون كل ما لهم من قوة ومال فى سبيل القضاء عليها فى مهدها، فماذا هم صانعون لبلوغ غايتهم؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: ليس من قبيل المبالغة أن نؤكد أن اليهود لم يتركوا وسيلة من شأنها تعطيل سير الدعوة الإسلامية إلا ولجوها، ولم تلح لهم بادرة يستطيعون معها الطعن فى الإسلام ونبيه ﷺ إلا اهتبلوها واستغلوها لصالحهم.

وهذه بعض مسالكهم لكيد الإسلام والمسلمين نذكرها إجمالا، قبل أن نتكلم عنها تفصيلا:

١- مسلك المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية.
٢- تعنتهم فى الأسئلة لإحراج النبى ﷺ.
٣- محاولتهم الدس والوقيعة بين المسلمين.
٤- محاولتهم رد المسلمين عن دينهم.
٥- تلاعبهم بأحكام الله -تعالى- ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ.
٦- تحالفهم مع المنافقين ضد المسلمين.
٧- تحالفهم مع المشركين ضد المسلمين.
٨- إيذاؤهم للرسول ﷺ بالقول القبيح.
٩- استهزاؤهم بالدين وشعائره.
١٠- محاولتهم قتل الرسول ﷺ.

(١) يخترف: أي يجني الفاكهة.
(٢) صحيح البخاري: باب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ من كتاب التفسير جـ٦ ص٢٢ والبهت بضم الباء والهاء جمع بهوت - كرسول ورسل - والبهوت الغريق في الكذب والافتراء.

تأملات فى السيرة

دومة الجندل ومسئولية الدعوة والبلاغ

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

أيها القارئ الكريم لابد لك أن تعلم وأن نعلم جميعا أن ثمة فارقا بين من يمارس الحرب كحرفة فهو أشبه (بالمرتزقة) الذين يتكسبون منها، ومن يمارسها رغبة فى السيطرة والنفوذ وحب الغلبة والقهر، لابد لنا أن نفرق بين هؤلاء وبين داعية تدفعه إلى الحرب مبادئه والأمل فى أن يقوم أخلاق الناس وإرجاعهم إلى الصواب وأن يرشدهم إلى طريق الخير؛ وذلك هو هدف الداعية الذى يدخل الحرب مدفوعًا بمبادئه ورغبته فى أن يقوّم اعوجاج الناس فهو يدخل الحرب مضطرًا وهى بالنسبة إليه آخر البدائل التى تلجئه إليها الضرورة؛ ولذلك تختلف موازينه وحساباته عن حسابات الآخرين وهذا هو الذى طبعت عليه كل تحركات النبى فى حربه وسلمه؛ ولذلك نرى فى مبادئ الإسلام مبدأ يعلو فوق كل اعتبار وهو ساقط فى ميزان الغزاة والمحاربين يقول النبى ﷺ: (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم) فالكثرة العددية وكثرة العدة لاتعنى فى ميزان الرسالة شيئًا إنما المهم والمعول عليه هو الهدف، فلما كان الهدف نبيلا والغاية رشيدة فلا بد للوصل إليها وهذا ما نشاهده واضحا جليًا فى غزوات النبى ﷺ عمومًا وفى غزة دومة الجندل على وجه الخصوص رغم أن ثمة روايات تقول إن سبب الغزوة أن النبى ﷺ أراد أن يدنو إلى أدنى الشام وقيل له إنها طرفا من أفواه الشام فلو دنوت لها لكان ذلك مما يفزع قيصر. لكننى أرى الهدف عند رسول الله ﷺ للمسير إليها أنه ذكر له أن بها جمعًا كثيرًا وأنهم يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون أن يدخلوا المدينة!! أفرأيت دوافع النبى ﷺ للمسير إليها ليس اعتداء وليس استغلالاً وإنما هو تأمين الناس المسافرين فى الطريق.. تأمين الناس.. أى ناس؛ مسلمين وغير مسلمين لأنه من المبادئ العامة التى يجب أن تسود فى العالم كله تأمين الطريق، وإن تأمين المسافرين على الطريق مهما كان فردًا أو جماعة من أى ملة أو دين هدف من أهداف قوى الخير فى العالم وأوله الإسلام فإن صلاح الدنيا بالأمن وصلاح الناس بالأمن، أرأيت إلى أى مدى يعتنى النبى ﷺ بأمن العالم وتأمين الناس وأمن الطريق إنها المسئولية الجماعية التى ألقت بظلالها على سير المسلمين من بعده بل إنها الفكرة التى تأسس على

أساسها ما يسمى فى الفقه الإسلامى (فرض الكفاية) وهو الفرض الذى يجب أن يؤدى فهو فرض على المجموع مجموع المسلمين لابد أن يؤدوه فلو أداه أفراد سقط الفرض عن الجميع، لكن لا يقبل أن يتقاعس المجتمع عن أدائه فذلك جرم، هذا هو الإسلام مجتمع مترابط يحس الواحد بإحساس الجميع والجميع يحسون بإحساس الفرد. إن أمن الطريق مسئولية يجب أن يتحملها الناس جميعا فهى مسئولية الناس وأول من يقوم بهذا العبء هم المسلمون أتباع النبى ﷺ لأنه ﷺ أرسى هذا المبدأ السامى ومن هذا الإحساس النبيل نشأ هذا الشعور الكريم للنبى والمسلمين من بعده فترى المسلمين فى تاريخهم لم يؤمنوا الطريق فحسب وإنما أنشأوا فى كل مسافة مايعرف (بالخانقاه) وهى أماكن يأوى إليها المسافرون فيجدون النوم الهادئ والطعام الهانئ حسبة لله مما يساعد الرحالة الإسلاميين على التجول والترحال فلا يمكن أن يكون رحالة ما لم تؤمن الطرق.

وفى ضوء هذه المعانى السابقة نفهم تشديد العقوبة على قاطعى الطريق فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾

(المائدة: ٣٣)

فخرج رسول الله ﷺ فى ألف من أصحابه فكان يسير الليل ويكمن النهار، فلما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل قال له الدليل إن نعمانهم ترعى فأقم حتى أطلع لك فأذن له النبى ﷺ، فخرج الدليل وحده ثم رجع إلى النبى ﷺ فأخبره بمواضعهم فسار رسول الله ﷺ فأصاب ماشيتهم وتفرق أهل دومة الجندل ونزل رسول الله بساحتهم فلم يجد منهم أحدا فأقام بها أياما وبعث السرايا فجاءت كل سرية بإبل ونعم ولم تلق أحدا إلا أن محمد بن سلمة وهو فارس جسور لقى رجلا منهم فجاء به إلى النبى ﷺ فسأله عن أصحابه فقال هربوا أمس لما عرفوا أنك أخذت نعمهم فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام فأسلم ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وسوف لاتعجب هذه النهاية صنفين من الناس أولهما: الكارهون للنبى ﷺ والإسلام، المزيفون للتاريخ المرجفون بالباطل فى أن الإسلام انتشر بالسيف، ثانى الصنفين: ذلك الصنف من الناس الذى يتلذذ بالقتل والدم والقهر ويرى فى نفسه أنه مهيمن على العالم والناس وأن بنى آدم من غير صنفه أو نحله حيوانات لا تستحق الحياة ولا يليق لها أن تعيش، ويقيم كل الحركات والسكنات فى العالم تقييمًا ماديًا فهو تسيطر عليه شهوة الانتقام والقهر ولذلك فكلا الصنفين السابقين لا يكاد يفهم تصرف النبى ﷺ ولا يرضيه فهو كان يود ويريد أن يتتبع النبى ﷺ الرجال فيبيدهم ويقتلهم، نقول لا ليس ذلك فهم النبى ﷺ وليست تلك رسالة النبى فى حربه إنما بعث معلما قال ذلك فى موقف طريف

حدث بينه ﷺ وبين زوجاته يروى أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٨)

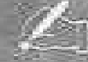
فبدأ النبى ﷺ بالسيدة عائشة وقال لها إنى أعرض عليك أمرا ولا تجيبى حتى تستأمرى أبويك فخيرها النبى ﷺ فقالت أفيك أستأمر أبواى يا رسول الله اخترت الله ورسوله؟ ثم قالت له حين هم أن يخبر باقى نساءه: لا تخبرهن بما قلت لك. فأبى النبى ﷺ ذلك وقال لها لو سألتنى واحدة منهن لأخبرتها. أيها القارئ الكريم اسأل نفسك لماذا لم يجبها رسول الله ﷺ إلى طلبها ولماذا قال لها لا؟ المسألة ليس احتيالا لزلة أخرين وليس من طبعه أن يحرم الناس وأن يتصيد الأخطاء إنما هو معلم يهئ القلوب لتعلم الصواب ويستدعهم إليه ويوكلهم إلى اتباعه ولذلك يقول فيما روى عنه (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها) لم يقل أن تقيم حدا أو تقتص من سارق مثلا فذلك خير من الدنيا وما فيها إنما قال يهدى الله بك وتأمل قد تكون الهداية ولا يتحقق الرشد إلا فى جو من الهدوء النقى والاطمئنان القلبى والإيلاف والائتلاف ثم ماذا قال النبى ﷺ للسيدة عائشة رضى الله عنها لم يضربها ولم يعنفها ولم يغلظ عليها فى القول إنما قال لا بكل هدوء وسعة صدر، هو ما جعلها تسمع وتعى وتحفظ وتنال شرف رواية الحديث كما سمعناه من رسول الله ﷺ قال لها: (لو سألتنى واحدة منهن لأخبرتها) ثم بين الهدف من الرسالة فى كلمات موجزة قال (إنما بعثت معلما ولم أبعث متعنتا).. فيا ترى هل يفهم كثير ممن يزعمون أنهم علماء الدين الآن معنى قوله ﷺ: (ولم أبعث متعنتا). إن الذين يتكلمون وأكثروا الكلام عن الحدود حتى ظن كثير من الناس أن الإسلام انتزع من محتواه التعليمى والخلقى ولم يبق فيه غير الحدود!!

إن علماء الإسلام الحقيقيين الذين أشربوا منهج الإسلام وأشربوا سير وسيرة النبى ﷺ عندما تناولوا بالبحث الحديث عن الحدود فعلماء الحديث صدروا أبواب الحدود بروايات تقول: (ادرءوا الحدود بالشبهات) وبقولهم لأن تخطئ فى العفو خير من أن تخطئ فى العقوبة. وما ذاك فى ظنى إلا أنهم يريدون أن ينبهوا قيادك قبل أن تدخل فتجنح إلى العقوبات.

أما علماء الفقه فكان تناولهم للحديث عن الحدود من نفس المنطلق حتى لا تندفع إلى إقامة الحد وتساءلوا فى روية وهدوء هل الحدود زواجر بمعنى أنها تزجر المخطئ لا عموم الناس عن الوقوع فى المعصية فليست فى نظر الفقيه عملاً قاسيًا يصيب شخصًا واحدًا إنما هو علاج للمجتمع كله، أم هى جوابر بمعنى أنها تصلح ما أفسده الإنسان بمعصيته، هذا هو منهج الإسلام ومنهج ورسوله ﷺ.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

فتاوى الحاخامات



د. منصور عبدالوهاب

المرأة عند الحاخام مناحم هامئيري

مصدر الفتوى: www.daat.ac.il، نوفمبر ٢٠٠٥م

بقلم: أفراهام جروسمان

هناك معارضة شديدة فى المشنا وفى التلمود الأورشليمى من جانب الحاخام إليعزر بن هوركانوس لتعليم النساء الشريعة: «يقول الحاخام إليعزر: كل من يعلم ابنته التوراة كأنه يعلمها الفسق». كما فسر التلمود البابلى كلمة «الفسق» على أنها الانشغال بالجنس والخلاعة. وقد أثرت أقواله بشدة على رجال الدين اليهودى فى العصور الوسطى.

كما أن تفسير الحاخام أفيهو كان أكثر ضررًا بوضع المرأة حيث قال: «ما السبب الذى جعل الحاخام إليعزر يقول ذلك؟ لقد ورد فى التوراة «أنا الحكمة أسكن الذكاء»، لأنه عندما تدخل الحكمة الإنسان يدخل معها الدهاء». أى أن تعليم الشريعة لن يزيد حكمة المرأة فقط، بل يزيد من دهائها أيضًا، فتستطيع أن تستغل ذلك فى الشر، فتتخابث على زوجها وتخفى عنه أفعالها غير السوية. إن جهل المرأة سيصعب عليها العمل فى الخفاء، وإخفاء أعمالها عن زوجها. وقد كان مثل هذا التبرير الذى يهدف لمنع النساء من التعليم، مطروحًا عند شعوب أخرى.

لقد فسر هامئيرى الأمر بشكل مختلف ومبتكر

يقول الحاخام إليعزر إن كل من يعلم ابنته الشريعة كأنه يعلمها الفسق.. وقد اندهش مفسرو الجمارا من كلمة يعلمها، لأنها تجعلك تتساءل هل كلمات الشريعة فسق؟! ثم يقول مبررًا ذلك: قول المشرع «كأنه يعلمها الفسق»، كأنه أراد أن يقول أمورًا تافهة، لأنها من خلال فهمها تكتسب بعض الدهاء ولا يتمكن عقلها من استيعاب الفهم الصحيح. وهى تعتقد أنها حققت إنجازًا فتثرثر كالجرس لتُظهر حكمتها للجميع.

وهنا ابتعد هامئيرى عن المعنى الصريح للكلمات الواردة فى التلمود. وكل من يدقق فى هذه القضية سيرى بوضوح أن التلمود لا يورد كلمة «فسق» بمعنى الأمور التافهة، حسب تفسير هامئيرى، ولكن بمعنى الخلاعة والعلاقات الجنسية.

ونلاحظ فى موضوع لاحق من تفسيره تخبطه فى تفسير هذه الكلمة.. وما كتبه السلف فى هذا الشأن يدل على أن المعنى المقصود من كلمة «فسق» هو الفحشاء والخلاعة، وهكذا فسرها أيضًا الحاخام ناتان بن يحيئيل صاحب كتاب شولحان هاعاروخ وآخرون. ووفقًا لاقتراح هامئيرى من الصعب الرد على رأى الحاخام أفيهو بأنه «عندما تدخل الحكمة الإنسان يدخل معها الدهاء»...

فلسطين واليهود



للإمام محمد البشير الإبراهيمى

❝ كتبتُ قبل ست سنوات مجموعة مقالات فى جريدة البصائر كانت طلائعها مبشرات تحتوى على تحميس للعرب فى حرب اليهود، وبيان حقوق العرب وأحكام الاستدلال عليها من التاريخ. وكشف الأخلاق والطبائع اليهودية وبثهم للدسائس والمكائد فى كل حركة يأتونها، ولا عجب فى استرسالى فى تلك المقالات، فنحن الجزائريين بلونا من تلك المكائد ما جعلنا أفقه الناس فى تلك المخزيات التى يأتيها اليهود فى العالم، وتلك الطرائق فى امتصاص أموالهم وتسخيرهم بالمال، وبراعتهم فى الدعاية والتضليل وإنفاقهم الملايين فى بث الفتن وإفساد الأخلاق.

نحن أفقه الناس فى الطبيعة اليهودية، لأن يهود الجزائر من بقايا الجالية اليهودية التى هاجرت مع العرب عند الجلاء عن الأندلس. وقد عاشوا مع العرب المسلمين فى الأندلس قرونًا فرأوا فيها من حسن الرعاية ومن صنوف البر والتكريم ما وصلوا به إلى مراتب الكرامة وولاية الوزارة. وعاملهم المسلمون فى أيام ملكهم معاملة الأخوة فلم يمنعوا عن مال ولا جاه. فلما جاء طور الانتقام نالهم منه ما نال المسلمين، وكانت النزعة المسيحية فى عداوة أعداء المسيح الأول على أشدها.

***

كارثة فلسطين من أعمق الكوارث أثرًا فى نفوس المسلمين الصادقين، وجميع الكوارث التى حلت بالمسلمين عدل من الله تخفى على البسطاء أسراره، وتظهر للمتوسمين أسبابه، إلا قضية فلسطين فإن وجه العدل الإلهى فيها واضح مستقر، ذلك أن العرب ومن ورائهم المسلمون لم يؤخذوا فيها على غرة. بل كانوا يحيطون علمًا بنيات اليهود ومطامعهم فى إقامة دولة فى أرض الميعاد، وتحقيق حلمهم القديم الذى تزودوا به من يوم خرجوا من فلسطين، أذلة صاغرين فى سبى بابل، وما زالوا يغذون أبناءهم جيلاً بعد جيل بعودة ملك إسرائيل إلى بنيه، ويسندون أوهامهم فيه إلى نصوص دينية ووعود إلهية على لسان بعض أنبيائهم

افتراها أحبارهم، وأيدوها بتلك الوعود المصطنعة لترسخ في مستقر العقائد من أبنائهم ويتوارثونها فيما يتوارثون.

●●●

إن أجدادنا لم يأخذوا فلسطين من يد اليهود وإنما أخذوها غلابًا من أيدى الروم وحرروها من استعمارهم، وفي تحريرها تحرير لليهود أنفسهم. فلماذا ينقم اليهود منا؟ ولماذا ينتقمون منا؟ ولماذا يجزون إحساننا لهم بالإساءة، ولماذا يستعينون علينا بأعدائنا وأعدائهم؟ إنه اللؤم المتأصل، والأنانية المركبة في الطباع المريضة، إن اللؤم قرين الضعف ودليله. فحيث ترى ضعف الطباع ترى لؤم الطباع، وقد جرت الدول الإسلامية في تاريخها الطويل على معاملة اليهود بالحسنى؛ معاملة إلا تكن معاملة عمرية فهي بمقربة منها إلا في الفرط والندرة حينما ينقض اليهود عهدًا أو يظاهرون عدوًا، وما أكثر ما يقع منهم ذلك؛ لأنه طبيعي فيهم لا يكادون يصبرون عليه. ولقد كانوا يعيشون عند الاحتلال الفرنسي للجزائر مع العرب المسلمين معززين مكرمين ويزيدون عليهم باحتكار التجارة وبعض الصنائع وبالبراعة في طرق الاقتصاد، وكثير منهم دخل الجزائر مع الجاليات الأندلسية التي اختارت الجزائر وطنًا لها. ولم يلقوا من الحكم الإسلامي إلا الرفق والإحسان، ولكنهم ما كادوا يخالطون الفرنسيين حتى تنكروا للمسلمين فقبلوا الجنسية الفرنسية دفعة واحدة بقانون كريميو (CREMIEUX) الوزير اليهودى المشهور، ومنذ أصبحوا يتمتعون بالجنسية الفرنسية ازداد تنكرهم للمسلمين وتفاقم شرهم، وازدادوا جرأة على سلب أموال المسلمين وتفقيرهم تحت حماية القانون الفرنسي، وما ضمتهم فرنسا إلى جنسيتها إلا لتحقيق الغرض الاستعمارى الذى لا يقدر أحد قدرتهم عليه.

●●●

التاريخ في سلسلته الزمنية الطويلة يشهد أن بني إسرائيل لم يكن لهم ملك مادى في فلسطين ولا في غيرها كالذى تتأثله الأمم بالقوة والغلبة، وإنما كان لهم في فلسطين وما حولها من أرض الكنعانيين سلطان ديني أساسه النبوات. تسانده من القوة المادية ما تحتاج إليه الدعوات الدينية عادة، وما يظهر به ذلك السلطان الديني من مظاهر الملك المادية، ولكن ذلك الملك وذلك المظهر لا يخرج عن نطاق الدين المؤيد بالعلم والحكمة، كما وقع لداود وسليمان فملكهما كان دينيًا محضًا، وهل يحتاج بعد الملك المادى في مألوف العادة إلى تسخير الجند والطير والريح؟ وقد انقضى ذلك النوع من الملك بانقضاء زمنه، ولم تجر به سنة الله في الأمم والملوك، وكل ما يذكر عن ملوك بني إسرائيل فهو متأثر بذلك النوع أو مصبوغ بصبغته، وفيما عدا تلك الفترات الدينية التي كان يقوم فيها الملك على الدين، أو يؤيد فيها الملك بالخوارق أو يعضد بالعلم والحكمة، فإن بني إسرائيل لم يظهروا في التاريخ كأمة مدنية تستطيع بمؤهلاتها البشرية ومواهبها الفطرية

المشاعة بين الأمم أن تقيم دولة أو تؤسس حضارة ذات خصائص جنسية منتزعة من الطبيعة الإسرائيلية من غير اعتماد على عامل خارجي عبر الخوارق، وقد دعاهم موسى إلى الملك وأكد لهم ذلك بوعد الله بعد أن يقوموا بالأسباب العادية التي لا يقوم الملك إلا عليها، وأهمها الغلاب والقتال في سبيله فأبوا عليه وعنتوه جريًا على الطبيعة المتأصلة فيهم من الجبن والمذلة وحب المكسب المادى الميسر الهنيء، وقالوا له تارة:

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

(المائدة: ٢٢).

وقالوا له مرة أخرى:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

(المائدة: ٢٤).

وقد لقيى موسى الألاقى في سبيل دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة وإعدادهم للملك وفهم سنن الله فلم يفلح.

واليهود في أخلاقهم النفسية وطبعهم الأصيل شعب أناني يحب الاستئثار بالفضائل الإنسانية من دون أن يعمل لها أو يضحي في سبيلها، ليذهب به الغرور كل مذهب في تمجيد الجنس اليهودى واصطفاء الله له على الشعوب إلى درجة أن دماء الأمم الأخرى وأموالها كلها مباحة له، لأنها مخلوقة لأجله، وتملك الغير لها إنما هو اعتداء وغصب، فسرقة أموال الناس في نظرهم ليست سرقة وإنما هي استرجاع لحق كان مغصوبًا، وهم ينتحلون لذلك نصوصًا من وضع أحبارهم ولكنهم يُسندونها إلى الله، ويسوقونها في صورة تدليل من الله بجنسهم ويجادلون الله فيها كما يجادل الكفء الكفء، حتى قالوا:

﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

(المائدة: ١٨).

والأحباء. هم قرابة الملك أو المقربون منه. وقد مرت بهم في تاريخهم فترات ترتفع فيها يد الله عنهم ويوكلون إلى أنفسهم فيضيع تدبيرهم وينكشفون عن جهل بتدبير البيوت فضلاً عن تدبير الممالك والدول، ويتناهبهم الأقوياء من الفرس والرومان فيبيدون خضراءهم ويستبيحون حرماتهم ويتقاسمهم السيف والتشريد والسبي، فلا يذهبون في ذلك إلى تعليله بعلله المعقولة، ولا يرجعون فيه إلى موازين صحيحة من أحوال الأمم، ولا يفقهون أن سنن الله تنالهم كما تنال غيرهم، وإنما يقولون: ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. كلمة يقولونها كلما أحاطت بهم خطيآتهم والتحمتهم الأمم وذاقوا عواقب الأنانية والكيد والاغترار واحتقار الأمم وعدم الاعتبار للسنن الإلهية، ولاعتبارهم الملك وعزة الحياة استحقاقًا إلهيًا لا نتيجة للجهاد والقراع. لم يشهد لهم التاريخ موقف دفاع عن حوزة، ولا سجّل لهم صفحة واحدة في حماية حمى أو ذود عن حرمة وطن حازوه في ظل النبوة، ذلك أن اليهود لا وطن لهم

ولا وطنية فى طباعهم بمعناها المعروف عن الأمم، فادعاؤهم للوطن القومى تدجيل وتضليل، وإنما الوطن القومى حلم دعا إليه منهم المهووسون جريًا وراء أخيلة من الماضى العريق من غير تبصر فى طبائع الأشياء، وألهية ابتكروها لهم ليسلوهم بها عن المصائب التى جرتها عليهم أنانيتهم، وشيء زينته لهم التطورات المتلاحقة فى العالم، والداعى الأصيل إلى ذلك فى نفوسهم هو حب المال، إذ كل شيء عند هؤلاء القوم ما عدا المال هو وسيلة لا مقصد فى الفلسفة اليهودية، وقد كذبوا وعد الله لهم على لسان موسى من أن الأرض المقدسة كتبها الله لهم، وكتب لهم فيها التمكين إذا أخذوا بأسبابه وأهمها القتال، وهم لا يحبون القتال لأنه يؤدى إلى القتل وهم أحرص الناس على الحياة.

ولو أن أمة غير الأمة الإسرائيلية كانت سليمة الفطرة، وكانت سليمة النفوذ من آثار الاستعمار الفرعونى الطويل سمعت من نبى كموسى عشر ما سمعه بنو إسرائيل من موسى من وعد الله إياهم بالملك والتمكين إذا أخذوا بأبسط الأسباب لذلك لأقبلوا على الموت مستبشرين، ولكن بنى إسرائيل كذبوا وعد الله ولم تفدهم مواعظ موسى فى تلك القلوب الغلف وفى تلك النفوس التى قتل الذل منها كل عرق يخفق بالعزة، وما هو إلا أن جاوزوا البحر وأهلك الله عدوهم وهم ينظرون، حتى حنوا إلى ما كانوا عليه من ذل واستعباد ووثنية هى من آثار الذل والاستعباد الطويل، فأغواهم السامرى واتخذوا عجلاً من ذهب وعكفوا عليه وقالوا:

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾

(طه:٨٨).

وقالوا لموسي:

﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾

(الأعراف:١٣٨).

وإنك لا ترى فى تاريخ الأمم النفسى أخلاقًا أفسدها الاستعباد ولم ينجح فيها علاج الأنبياء ولا معجزاتهم، وهم أطباء الأرواح المريضة، كما ترى فى أخلاق هذه الأمة المتبجحة باصطفاء الله لها دون الأمم.

سقنا هذه الكلمة القصيرة المجردة من التنسيق التاريخى لنرى أن هذه الأمة ليست أمة ملك فى تاريخها الطويل، وأنها لا تملك وسائله التى يملكها غيرها، فإذا قام لها ملك ففى ظل النبوة والخوارق وهى وسائل غير كسبية، وإذا تقلص عليها ذلك الظل تداعت عليها الأمم وأوسعتها قتلاً وسبيًا وتحيفًا، ولم يزل هذا دأبهم إلى أن جاء الإسلام.

جاء الإسلام وكان من مقاصده الأولى بناء المملكة الإسلامية على صخرة السنن الإلهية والأسباب والمسببات لا على الخوارق، وكان من مقاصده نشر هدايته وفضائله فى أرض النبوات الأولى بعد تطهيرها من الجبروت الرومانى ومن الاستخذاء اليهودي، وإنا لنتلمح فى قصة الإسراء والمعراج – وهما من صنع الله – ثم من اتجاهات نبى الإسلام وتوجيهاته ما يشعر بأن فتح الإسلام لمواطن الأنبياء ومدافنهم كان هو المقصد الأول للإسلام، وكان خروج النبى بنفسه إلى تبوك من طريق الشام رمز إلى ذلك وإيحاء به وإنذار للرومان، ثم نتلمح فى تجهيزه لجيش مؤتة لقتال الروم ومن يواليهم من العرب والأنباط فى مشارف الشام أنه خطوة ثانية ثم نتلمح فى تجهيزه لجيش أسامة وهو فى مرض موته تأييدًا لتلك المرحلة، وكلها إنذارات للروم حققها ما بعدها.

ثم فتح المسلمين لفلسطين فى أيام عمر، وكان هذا الفتح كسائر الفتوحات الإسلامية يحمل الهدى والسلام ويفتح الأذهان قبل البلدان، وكان ينطوى على معنى الثأر لموسى ودينه وقومه اليهود لو كانوا يعقلون، فقد قطع دابر الرومان ودولتهم من فلسطين، وطهرها من ظلمهم واستعبادهم لليهود، فلم يروا ناصرًا قويًا مثلما رأوا فى الإسلام لو كانوا يقدرون النعمة ويشكرونها، وبفتح المسلمين لفلسطين وفيها بيت المقدس رجع إرث النبوة إلى النبوة واجتمعت مساجد الإسلام الثلاثة فى يد واحدة قوية قادرة على حمايتها، وعادت القبلة الأولى إلى الوجوه التى كانت تستقبلها وإلى النفوس المطمئنة لعبادة الله وحده فيها، وإلى الأيدى القادرة على حملها، وإلى أبناء العم لو كان اليهود يرعون للأرحام حرمة، وفى فتح أصحاب محمد لبيت المقدس تتجلى الفروق بين الطبيعتين العربية واليهودية، وشتان ما بين من يبذل مهجته فى سبيل الله وتثبيت دينه الحق فى الأرض، وبين من يكذب وعده ويشترط على رسوله، ويتألى عليه أن يؤتيه الملك والعز وهو نائم ناعم ويستعلى على خلقه.

***

قضية فلسطين فى جوهرها وحقيقتها واعتبارها التاريخى قضية إسلامية من حيث إن فيها المسجد الأقصى ثالث المساجد المقدسة فى حكم الإسلام، وهو أول قبلة صلى إليها المسلمون قبل الكعبة، ولئن نسخ هذا المعنى فإن الخصائص الأخرى من الاحترام الدينى وشد الرحال إليه لم تنسخ، وأن المتوسمين فى آيات الله المستخرجين لدقائق الحكم منها يتلمحون من الأسرار فى اختيارها قبلة أولى وفى كونها كانت نهاية للإسراء وبداية للعروج ما يضعها فى موضع من الاحترام يوجب الدفاع عن مشاعرها، ودفع كل معتد على حرماتها أن تدنس بوثنية، وتطهيرها من كل من يريد بها شرًا أو يريد فيها بإلحاد وإنها ميراث النبوة وضعه الله فى أيد قادرة على حمايتها، وقد دافعت عنها بالفعل، وأقامت البرهان على اضطلاعها بحمايتها مدة أربعة عشر قرنًا كاملة، وحاربت عليها أمم الأرض، وما سلبها الله من اليهود وأورثها المسلمين إلا لأن اليهود كانوا أعجز الناس عن حمايتها.

ومن حيث أن فيها الصخرة التى هى أول محطة لاتصال الأرض بالسماء، ذلك الاتصال الذى كان سببًا فيما فاض على الأرض من بركات السماء، ولو شاء الله لكان المعراج بعبده محمد من مكة التى هى موطنه ولكن كانت له فى هذه الرحلة الأرضية حكم ولنا فيها عبر، فقد كانت رمزًا

إلى أن ملك الإسلام سيتسع حتى يبلغ فى مرحلته الأولى ممالك النبوة قبله ومواطنهم ومواطئ أقدامهم ومدافنهم، وسينشر فيها هدايته وسيبسط عليها حمايته وكذلك وقع، ومواريث النبوة لا يستحقها إلا الأنبياء والمصطلعون بها من أممهم، ولقد قال ﷺ: «زويت لى من الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها».

٥٥٥

من التزوير على التاريخ أن يقال إن اليهود احتلوا فلسطين بالقوة العسكرية كما يحتل القوى الغالب أرض عدوه الضعيف المغلوب، ألا إن كلمة الحق التى يقف الواقع بجنبها شاهدًا لا يكذب هى أن ملوك العرب وزعماءهم المتحكمين فى مصائرهم المنقذين لإرادة المستعمر هم الذين سلموا فلسطين لليهود سائغة هنية وحققوا للإنجليز غايتهم وما شرطه اليهود عليهم من تسليم فلسطين فارغة من العرب كما تسلم الدار المبيعة فارغة من الساكن، فاصطنعوا لذلك التسليم المقرر وسائل وأعذارًا من التخاذل والمشاكسات بين القادة العسكريين حتى تم الأمر بذلك التسليم المهين، وكل ذلك تم وفق خطة مدبرة متصلة الحلقات من الإنجليز وأعوانهم منا فى مقابلة نفع مادى شخصى زائل ومناصب مضمونة لعدة رجال من العبيد باعوا قومهم بتلك الوظائف، وما زلنا نراهم رأى العين يتقلبون فى تلك الوظائف الذليلة وينفذون أغراض الاستعمار ويدافعون عنها، وقد حنّ لهم الدهر فنالوا ما نالوا.

فيا ويحهم إن عقهم الدهر وصحا من تلك اللوثة، وما صحوه منها ببعيد، وما مصرع فاروق وعبدالله ببعيد من الذين باعوا فلسطين بالثمن الزهيد، ومهما تكن تلك الوظائف مضمونة من الإنجليز فإن رواءها الموت والعار والسبة الخالدة ووراءها هبة الشعوب وثورات المكبوتين.

أما الصهيونية فهى قديمة ولقد كانت فى مرحلتها الأولى نسيجًا من أحلام وخيالات وأماني، ولكن كثرة ملابسات القائمين بها للدول الاستعمارية نقلتها من طور إلى طور حين وجد كل من الاستعمار الأوروبى والصهيونية فى صاحبه عونًا ومساعدًا على أغراضه، ولم تزل المصالح المادية تقرب بينهما حتى اجتمعا فى بعض النقط فتعاهدا على تقارض العون والمساعدة إلى نهاية الشوط، وصاحب ذلك ضعف الشعوب العربية وإحباطها وجهلها، فكان ذلك كله معينًا على تنمية الفكرة، وجاءت الحرب العالمية الأولى والعرب على تلك الحالة فاتفقت دول الاستعمار على تشتيت العرب وتمزيق أوطانهم واستغلال الكنوز التى يجهلونها فى أرضهم وأهمها البترول، ولما كان نظر الاستعمار بعيدًا وعلم أن انتصاره فى تلك الحرب يضمن له تشتيت العرب وتمزيق بلادهم ولكنه لا يضمن له بقاءهم على تلك الحالة طويلًا فرأى أن يرميهم بالداهية الدهياء وهى تحقيق الوطن القومى لليهود.

أثر الدرس اللغوى فى فهم النص الشرعى



الأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم نستروح عبق الإيمان، وبحمده وتسبيحه نستمطر العون والتوفيق والرضوان، وبالصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم، ونوابغ الحكم، وسوابغ النعم، نعطر جو الزمان والمكان. أما بعد:

فإن هذا الموضوع الذى يعبر عنه عنوان هذا البحث مما ينبغى أن تكثف حوله الجهود قبل أن يستغلق فهم النص، أو يجمد الذهن على معنى ضيق أراد الله أن يكون واسعًا، أو يحاول العقل توسيع ما أراده الله محددًا.

- ذلك أنني ممن يرى أن الفصل التعسفي الذى حدث بين علوم العربية دون ربط معنوى يقف بالدارس على الفروق الدلالية بين أسلوب وآخر، وعلى السر فى هذا الاختلاف.. من أهم أسباب انصراف هذا الجيل عن تعلم العربية وتذوقها والتعمق فى أسرارها وخصائصها.

- كما أن من هذه الأسباب الاهتمام بعلم النحو على أنه قواعد جافة، يُمثل لها بأمثلة صارت أضحوكة فى بعض وسائل الإعلام من كثرة ترددها على ألسنة الحافظين لها دون ظهور أثر تطبيقى لها على الأساليب الفصحى التى تحرك المشاعر وتبين الحكم، وتأخذ بلب القارئ والسامع دون أن يدرك السر فى تراكيبها حتى يستطيع أن ينسج الدارس على منوالها.

- وليس بخاف على أحد أن أفصح هذه الأساليب وأروعها وأقربها إلى قلوب المؤمنين أساليب القرآن الكريم والسنة والنبوية المشرفة. تلك الأساليب التى استنبط منها الفقهاء أحكام الشريعة، واختلفت وجهات

نظرهم أحيانًا فى فهم النص، ورتب كل منهم حكمه على هذا الفهم مستدلاً على فهمه باستعمال العرب للفظة ما فى معنيين اختار منهما ما رآه متسقًا مع السياق، أو مع نص آخر أو معتمدًا على إمكانية فهم الجملة القرآنية أو النبوية مرتبطة بما قبلها، أو مستأنفة معنى جديدًا تسمح به قواعد الفصحى، أو مفسرًا لمعنى الجملة على الحقيقة أو على المجاز.

– وكثيرًا ما ثار لدى المثقفين ثقافة مدنية سؤال عن سبب اختلاف الأئمة فى بعض الأحكام الشرعية، بل وكثيرًا ما تعصب بعض المسلمين لرأى فى مذهب ما منددًا بالآراء الأخرى والمذاهب المخالفة لرأيه، بل ومجندًا كل طاقات دعوته فى توهين المذهب الآخر.. وفى ذلك تبديد لجهود الدعوة التى ينبغى أن تركز حول الأصول العامة التى لا خلاف حولها، والثوابت الراسخة فى ديننا؛ حيث إن الإسلام يسع جميع تلك الآراء ما دامت اللغة التى نزل بها كتابه تسيغ هذا الفهم، ويحتمله التركيب.

– ورسولنا ﷺ قد أرانا النموذج الأمثل فى فهم النص على حقيقته أو على مجازه فى حديثه المشهور حين قال للجنود بعد أن كفى الله المؤمنين القتال فى غزوة الأحزاب وأمر بالتوجه إلى بنى قريظة الخونة حيث قال: «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة».

فقهم بعض الصحابة هذا الحديث على معناه الحقيقى بحيث إذا جاء وقت العصر قبل أن يصلوا إلى بنى قريظة امتنعوا عن الصلاة تنفيذًا لأمر رسول الله.. وفهم البعض الآخر أن الرسول ﷺ يقصد بنهيه هذا الإسراع فى الوصول إلى بنى قريظة لمباغتتهم وحين جاء موعد صلاة العصر صلوها فى الطريق.

ولما علم رسول الله ﷺ بما فعله الفريقان أقر كلا على ما فهم وما فعل.

لهذا وذاك أقدم هذه المحاولة: أشير فقط إلى ما فى دراسة العلوم العربية من أثر فعال فى الفهم الصحيح والمعتدل لوحى الله الخالد.

وليكن هذا البحث إشارة فقط وتمهيدًا لدراسة التراث العربى فى مظانه ومراجعه وإضاءة لمسالك البحث وفهم النص.

ومن الله وحده نستمد العون ونرجو النفع، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تمهيد

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا البحث نستصحب بعض الحقائق التى تفيدنا فى فهم الأسس التى ينبنى عليها ما يمكن استنباطه من نتائج توضح أهمية التعمق فى درس الفصحى وسيلة وحيدة للوصول إلى مراد الله من وحيه المبارك بقدر الطاقة البشرية:

١– الدرس اللغوى المقصود ليس خاصًا بفقه اللغة ومعاجمها – كما قد يتبادر إلى الذهن – إنما المقصود به دراسة النص من جوانبه اللغوية المتعددة: دلالة لغوية معجمية، أو صرفية، أو نحوية، أو بلاغية. فكل ذلك له تأثيره الواضح فى الفهم والاستنباط. وهذه العلوم متكاملة لا يغنى أحدها عن غيره.

٢– النص الشرعى المقصود فى هذا البحث منحصر فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وكلاهما – كما هو من البدهيات – بلسان عربى مبين.

٣– هذا اللسان ما اختاره الله أداة لوحيه ووعاء له، إلا لتميزه عن غيره من اللغات من حيث وفرة المواد اللغوية وتعدد معانيها واستخداماتها وتراكيبها وصيغها، مما يحقق البلاغ المبين إلى كل العالمين.

٤– فى أثناء نزول الوحى كانت السليقة العربية والنبوغ فى فنون الكلام الفصيح شعرًا ونثرًا سمة غالبة فى البيئة العربية وبهذه السليقة أدرك العرب مرامى ومدلولات الوحى مما جعلهم يسجدون لبلاغته ويعجزون عن مجاراته حتى من قبل أن يؤمنوا به.

٥– عالمية الإسلام أتاحت لجميع الأجناس البشرية على اختلاف ألسنتها وألوانها وأوطانها أن يدخلوا فى دين الله أفواجًا، وصار من حقهم أن يفهموا نصوصه وتعاليمه، ومن حيث إن لغاتهم تختلف عن العربية كان لابد لهم من تعلم لغة الوحى ليصلوا إلى ما يريدون.

٦– من أجل ذلك هرع علماء الإسلام منذ عصر الصحابة إلى تقعيد هذه اللغة وضبط مفرداتها المستعملة زمن الوحى، وسمات الأساليب والتراكيب العربية.. وبهذا نشأت كل العلوم العربية لخدمة هدف محدد هو الحفاظ على القرآن والسنة من التحريف أو الفهم السقيم أو التأثر باللغات الوافدة.

٧– فى عهد أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) وبعد الفتوحات الإسلامية ظهر اللحن فى ألسنة بعض المسلمين الذين دخلوا فى دين الله ولغاتهم تختلف عن العربية، ومن ذلك ما روى عن أعرابى دخل المدينة وطلب من أحد القراء الأعاجم أن يعلمه القرآن فبدأ معه بسورة التوبة حتى وصل إلى قوله تعالى:

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾

(التوبة: ٣).

فنطقها القارئ بكسر اللام من (ورسوله) فقال الأعرابى ذو السليقة السليمة: وأنا برئ من رسوله كما برئ الله منه ومن المشركين. فأمسك القارئ – الجاهل بلغة الوحى – بتلابيب الأعرابى وذهب إلى سيدنا (عمر) مخبرًا إياه بأن هذا الأعرابى قد برئ من رسول الله، فسأل (عمر) هذا الأعرابى فحكى له ما حدث. فقال له: «ما هكذا نزلت الآية يا أعرابى، إنها بضم اللام من (ورسوله)». فقال الأعرابى وأنا برئ ممن برئ الله ورسوله منهم. وأساس هذا الفهم لدى الأعرابى أننا إذا نطقنا كلمة (ورسوله) بكسر اللام كانت معطوفة على المشركين الذين وقعت عليهم البراءة كما تقول: عجبت من محمد وعلى، فالعجب منصب عليهما معًا. أما إذا قرأت الآية بالرفع فإن كلمة (ورسوله) تكون بدءًا لجملة جديدة تقديرها: ورسوله برئ منهم كذلك.

وخرج سيدنا (عمر) مرة فلقى شبابًا يتبارون فى الرمى فعاب عليهم طريقة رميهم، فقال: شاب منهم: يا أمير المؤمنين نحن قوم متعلمين. فغضب (عمر) وقال: «لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى رميك».

ولهذا بدأ علماء الصحابة كأبى الأسود الدؤلى وسيدنا (على بن أبى طالب) فى وضع قواعد النحو للمحافظة على الإعراب.

٨– وحين قرأ بعض المتعلمين قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾

(البقرة: ٢٢١).

بفتح التاء من (تنكحوا) رد عليه من يعرف مسار اللغة، والفروق المهمة بين الصيغ: ولو آمنوا يا بنى لن نتزوجهم، فلا

زواج بين الرجال والرجال. وعليك أن تضم التاء لتفيد معنى التزويج لا التزوج. ذلك أن فتح التاء يقتضي أن الفعل مضارع للثلاثي: نكح، أما الضم فيجعله مضارعًا للفعل الرباعي: أنكح، والفرق بين اللفظين واضح.

ومن هنا كانت الحاجة إلى علم الصرف.

٩- ثم تبع ذلك أن بدأت الشبهات تسرى بين بعض المسلمين تشكك في سلامة الأسلوب القرآني وألفاظه، ومن ذلك أن نافع ابن الأزرق الخارجي حين رأى حبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس يجلس في مسجد النبي ﷺ يفسر القرآن دخله الشك في قدرة هذا الغلام على تفسير كتاب الله، فجمع بعض الأسئلة التي رآها صعبة في مجال الكلمات الغريبة في القرآن، وبدأ يسأله عن معاني هذه الكلمات وحين يجيبه سيدنا عبدالله بالمعنى يسأله: وهل تعرف العرب ذلك في كلامهم؟ فيرد عليه ابن عباس ببيت من الشعر العربي يؤيد ما قاله في تفسيره الكلمة، وذلك كله من منطلق أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ... وسميت هذه الأسئلة واشتهرت بـ (مسائل نافع بن الأزرق) وقد تجاوزت مائتي مسألة ... وكان هذا سببًا في ظهور كتب غريب القرآن التي بدأت بها كتب المعاجم.

١٠- ولما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى لدروس العلم في المسجد جاءه رجل يقول له: إن العرب حين تستعمل أسلوب التشبيه فإنها تشبه مجهولاً بمعلوم حتى يتضح المجهول فما بال القرآن يشبه مجهولاً بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم:

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

(الصافات: ٦٥).

فنحن لم نر طلع الشجرة فهي مجهولة لدينا، ورءوس الشياطين أيضًا مجهولة لنا حيث لم نر شيطانًا، فكيف وقع هذا في القرآن؟ فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة، ورأس الشيطان صورته في الذهن العربي صورة كريهة مخيفة مرعبة، فشبه به شجرة الزقوم، كما فعل العرب حين شبهوا الرماح بأنياب الغول وهم لم يروا الغول في مثل قول الشاعر:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

ومن هنا نشأ علم البلاغة لخدمة أساليب القرآن أيضًا.

١١- ولما كان الهدف واحدًا لهذه العلوم تعاونت وتكاملت في فهم النص الشرعي، وأجمع علماء الشريعة وفقهاؤها أن تعلم العربية والتعمق فيها شرط أساسي لكل باحث في أي علم شرعي، ولجأ أئمة الاستنباط إلى تلك القواعد يستعينون بها على بيان أحكام الله، بل جعلوها أحيانًا حكمًا بين الآراء، ومرجحًا لبعض الأحكام، فكانت مباحث الألفاظ العربية - مثلاً - بابًا رئيسًا في علم أصول الفقه، وكان اشتراط أهل العلم في أي مجتهد أن يكون إلمامه عميقًا بأسرار العربية، وكانت مقولات المفسرين في بداية كتبهم تنبيهًا مسهبًا إلى أهمية التعمق في العربية بعلومها المختلفة وسيلة لفهم كتاب الله. ومن أهم هذه العلوم: علم الغريب والمعاجم، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم البلاغة والأدب.

من تراث الهلال

السنة والشيعة والحاجة إلى حوار جديد

الأستاذ/ عاطف مصطفى

يعود الفضل الكبير لدور الأزهر الشريف ولشيخه العالم الجليل فضيلة الدكتور أحمد الطيب في موقفه الحازم من الشيعة، وضرورة التوقف عن الممارسات العدائية التي تقوم بها إيران ضد أهل السنة والجماعة سواء داخل إيران، أو في غيرها من البلدان المحيطة بها، وخير دليل على ذلك الموقف الشجاع للشيخ الجليل الدكتور أحمد الطيب - أثناء زيارة الرئيس الإيراني أحمدي نجاد لمشيخة الأزهر- ومطالبته أمام العالم كله بأن تتوقف الشيعة الإيرانية عن مهاجمة آل البيت وتخص السيدة عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين، والهجوم على رموز أهل السنة والجماعة.

كما يجيء كتيب الأزهر والشيعة الذي صدر هدية مع عدد مجلة الأزهر - الغراء- لشهر محرم ١٤٣٤هـ كاشفا لتلك الممارسات التي نرفضها جميعا ضد السنة.

وأيضا ذلك الحوار المتميز لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة رئيس التحرير في إحدى الفضائيات الدينية منذ عدة شهور مبينًا بالوثائق والكتب أمام المشاهدين للمحاولات المستميتة لكي يتشيع المصريون -وهو ما لم ينجح على مر التاريخ- ويبين فضيلته تورط بعض الشخصيات المصرية في هذا الأمر!.

ذلك كله دفعني لكي أعرض لمقال مهم وفريد في بابه نشرته «مجلة الهلال» للمفكر الإسلامي الدكتور أحمد كمال أبوالمجد في شهر فبراير ١٩٨٦م - جمادى الأولى ١٤٠٦هـ، بعنوان «السنة والشيعة والحاجة إلى حوار جديد».

يبدأ الكاتب: لا أعرف أحدا من المعاصرين تعرض من قريب أو بعيد لقضية انقسام المسلمين إلى أهل سنة وشيعة؛ إلا أصابه من ذلك ما لا يحب، وتناوشته - في غضب وثورة - الاتهام من هنا وهناك.

ويحتاج القارئ غير المتخصص إلى ملاحظة عدد من الحقائق التي تتصل بالشيعة والتشيع،

قبل أن يتخذ موقفًا أو يكون رأيا فى موضوع هذا الحوار.

وأول هذه الحقائق أن الشيعة يعرفون عن عقائد أهل السنة والجماعة ما لا يعرفه أكثر أهل السنة عن عقائد الشيعة ومذهبهم وآراء علمائهم وعامتهم (وهذه المعرفة ليست قاصرة على علماء الشيعة وخاصتهم، إنما يشترك فيها - بأقدار متفاوتة - عامتهم وغير المشتغلين بالعلم الدينى منهم) بينما لا يكاد أكثر المثقفين غير المتخصصين من أهل السنة يعرفون عن الشيعة إلا أنهم طائفة أسرفت فى التشيع لعلى بن أبى طالب -رضى الله عنه- وترى أنه كان أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر، وأنهم - فوق ذلك - أصحاب بدع يخالفون بها مذهب أهل السنة، ويخرج بها المتطرفون منهم عن دائرة الإصلاح الصحيح.

٢ - الحقيقة الثانية أن الشيعة ليسوا طائفة واحدة، وليسوا سواء فى مظاهر مخالفتهم لمذهب أهل السنة والجماعة، وأشهرهم فى أيامنا هذه.. وعلى امتداد التاريخ - الشيعة الزيدية المستقرون فى اليمن والشيعة الإمامية (أو الاثنى عشرية) المنتشرون اليوم فى إيران والعراق وسائر دول الخليج وباكستان.

حول مذهب هذه الطائفة الأخيرة، يدور اليوم أكثر حديثنا..

أما بعض الطوائف المحسوبة على التشيع والتى تدين بعقائد لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين الإسلام، كالقول بألوهية على كرم الله وجهه أو نبوته، أو أن محمدًا ﷺ ليس آخر الأنبياء، فهذه لا يمكن نسبتها اليوم إلى الشيعة، حتى ولو كان ظهورها تاريخيا مرتبطا بإحدى فرق الشيعة المعتدلة، ومن هذه الطوائف السبئية (نسبة إلى عبدالله بن سبأ وهو شخصية غامضة لعبت دورًا فى الترويج لكثير من العقائد الفاسدة، وينكر عامة الشيعة كل صلة بها بل يذهب بعضهم إلى إنكار وجود ابن سبأ أصلا؟).

والخطابية والغرابية والقرامطة والبابية والبهائية، وفى ذلك يقول مؤلف كتاب أصل الشيعة وأصولها: «إن الشيعة الإمامية يبرءون من تلك الفرق براءة التحريم، ويبرءون من مقالاتها، ويعدونها من أشنع الكفر والضلالات».

يواصل الدكتور أحمد كمال أبوالمجد فيقول: إن القضايا الخلافية التى فجرها ظهور الحركة الشيعية، ظلت على امتداد التاريخ الإسلامى محور جدل طويل ومتشعب بين علماء أهل السنة والجماعة وعلماء الشيعة وهو جدل موثق فى مؤلفات عديدة من العلماء من الفريقين، جرت خلاله مساجلات طويلة، محصت فيها الأدلة، وحققت النصوص، بحيث لم تبق حجة يحتج بها، أو دليل يستند إليه إلا وقد أوسعه العلماء تحليلا ونقدا، ومع ذلك بقى كل فريق على رأيه ومذهبه، لذلك يكون من الإسراف فى تبسيط الأمور أن يتصور الداخل اليوم إلى ساحة هذا الجدل أن فى وسعه حسم القضية وتصفية الخلاف، وإقناع محاوره بخطأ ما هو عليه.

إن علينا جميعًا - بدلا من ذلك - أن ندرك جيدًا أن الخلافات ذات الجذور التاريخية الضاربة فى الأرض لا يلغيها أو يمحوها جهد فرد، ولا يمكن - مع ذلك - القفز عليها بغير مخاطر هائلة، وأن مواجهتها تحتاج إلى جهد متصل وصدر متسع وصبر طويل.

مخاطر استقطاب عقائدى

إن الجدل التاريخى المتصل بين أهل السنة والشيعة، قد ظل خلال المئات الأخيرة من السنين محصورا فى الدائرة الاعتقادية والفكرية، وأن «الاستقطاب» الاجتماعى والسياسى ظل فى حالة هدوء واستقرار عند نقطة محددة، لم يهبط عنها بحيث تتحقق الوحدة النفسية والاجتماعية الواجبة بين المسلمين، ولم يرتفع عنها كثيرًا، بحيث يتحول إلى نذير بفتنة طائفية جديدة ذات أبعاد سياسية واجتماعية.

غير أن قيام الثورة فى إيران عام ١٩٧٦م، وتولى رجال الدين قيادتها وقيادة الدولة كلها بعد نجاحها، وسعيهم إلى نشر مبادئها خارج حدود إيران؛ ثم اندلاع الحرب - بعد ذلك - بين العراق وإيران، وامتداد آثارها إلى دول عربية مسلمة مجاورة يتوزع أهلها المذهب الشيعى إلى جانب مذهب أهل السنة والجماعة.

كل ذلك فتح الباب على مصراعيه أمام مخاطر استقطاب عقائدى وسياسى جديد، محوره ذلك الانشقاق التاريخى ومصدره- فوق ذلك - ما تؤمن به أشد الإيمان من وجود حرص واع لدى بعض الدوائر غير العربية وغير الإسلامية على تأجيج كل صور الانقسامات العقائدية والسياسية فى هذه المنطقة من العالم.

لذلك لم يعد أمامنا خيار، فقد صارت الحاجة ملحة وماسة إلى حوار جديد- بدلا من ترك ظاهرة الاستقطاب تنمو وتتطور فى الخفاء، ونحن نغمض أعيننا عنها، ونزعم أنها ليست هناك لأننا نتمنى لها ألا تكون هناك!

التأمل فى مواضع الخلاف

غير أن الحوار الذى نحتاج إليه يجب أن يظل محكومًا بهدف واحد لا يتجاوزه ولا يعدوه، وليس ذلك محاولة للحجر على حرية أحد فى البحث والحوار، وإنما هو دعوة تأخذ فى حسبانها أن الحوار حين يبدأ وسط توترات قائمة ومشاعر متأججة قد يزيد الأمر اشتعالا، ويزيد الخلاف حدة والقضية تعقيدا، والهدف المحدد الذى نريد له أن يحكم هذا الحوار هو زيادة المعرفة المتبادلة والاستبصار الهادئ المنصف لموقف الآخرين، والتأمل من جديد- فى مواضع الخلاف، والبحث الدءوب فى الوسائل والصيغ التى يمكن أن يتراضى عليها الفريقان، بتجاوز تلك المواضع دون تصفيتها، بالغًا موقف فريق منهما، وذلك كله رجاء أن يتعاون المسلمون فيما اتفقوا فيه، وهو الكثرة الغالبة التى تشمل أساسيات العقيدة، كما تشمل الجزء الأكبر من فرعياتها، وأن يعذر بعض المسلمين بعضا فيما اختلفوا فيه، أو يجدوا لهم- على الأقل - سعة لا تحول دون المؤاخاة والتواصل وتقطع الطريق على الساعين إلى إيقاظ فتنة نائمة، أو خلق فتنة جديدة.

وقال الدكتور أبوالمجد: والحق أن الحديث فى أمر العقائد والمذاهب والمواقف التاريخية - خصوصا حين تكون محلاً للخلاف الشديد - لا يصلح له الإيجاز والإجمال ومع ذلك فسنحاول أن نضغط آلاف الصفحات فى سطور وأن نجمل تراثا فكريا متراكما فى عبارات وجيزة، وأن نطرح قضايا فكرية وفقهية معقدة فى كلمات واضحة، وأن نلخص حركة تاريخ حى طويل، سالت فيه دماء، وسقط شهداء، وتخلقت خلاله معالم الوجدان الجمعى للشيعة فى هذا المقال القصير، وقد يكون أوفق السبل لبلوغ هذا المرام الصعب أن نصوغ القضية فى شكل أسئلة محددة، نلتمس لها الجواب من الزاد العلمى العزيز الذى تركه لنا المؤرخون

وعلماء الفقه والفلسفة وأصول الدين على جانبي الحوار.

أولا: متى ظهر مذهب الشيعة؟

يقول الدكتور كمال أبو المجد في مقاله: ليس لهذا السؤال جواب واحد.. لأن التشيع قد اتخذ منذ بدايته إلى اكتمال نموه، ثم بعد هذا الاكتمال صورا متعددة! ظهر منها في مرحلة أعقبتها مراحل أخرى.

أ- فإذا كان المقصود بالتشيع مجرد حب علي كرم الله وجهه والانحياز العاطفي إليه، فقد ظهر ذلك على نحو فردي في عهد النبي ﷺ إذ أن علماء الحديث من أهل السنة والجماعة يوافقون الشيعة في القول بصحة كثير من الأحاديث الدالة على فضل علي كرم الله وجهه، والدالة فوق ذلك على منزلته العالية من نفس النبي ﷺ.

فهو كرم الله وجهه أول من آمن من الصبيان، وهو خليفته في فراشه يوم هجرته، وأخوه بعد الهجرة، يوم آخى بين المهاجرين والأنصار، وهو حامل راية المسلمين في يوم خيبر، وهو فوق ذلك ابن عمه وزوج ابنته التي هي قطعة منه، وأكثر علماء الشيعة قديمًا وحديثًا، يحرصون أشد الحرص على رد أصل التشيع إلى عهد النبي ﷺ ليمنحوه بذلك شهادة الشرعية والصدق، وليجعلوا منه مذهبًا إسلاميًا خالصًا، وليبعدوا عنه ما اتهمهم به الناقدون من تأثرهم بآراء اليهود والنصارى في كثير مما قالوا به، وهم فوق ذلك يحرصون على هذا الإثبات لأنه وحده المتفق مع مذهبهم في أن النبي ﷺ قد أوصى لعلي بالإمامة من بعده فكان بذرة التشيع قد وضعها النبي بنفسه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى.

ب- أما إذا كان المقصود بالتشيع القول بأفضلية علي كرم الله وجهه واستحقاقه للإمامة بعد وفاة النبي ﷺ، وللاعتراض - بسبب ذلك- على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فإن هذا القول قد ظهر في أعقاب وفاة النبي ﷺ، وازداد وضوحًا بعد أن تمت البيعة لأبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، إذ تخلف عن هذه البيعة عدد من الصحابة، قالوا بأحقية علي بن أبي طالب، منهم العباس بن عبدالمطلب وابنه الفضل والزبير بن العوام والمقداد بن عمر وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر. لذلك يحتل هؤلاء جميعًا، وخصوصا سلمان وأبو ذر وعمار مكانة خاصة في الوجدان الشيعي والأدب الشيعي إلى يومنا هذا.

على أن من الضروري أن ننبه هنا إلى أن أحدا من هؤلاء جميعًا لم يحمل معالم العقيدة الشيعية التي تكونت بعد ذلك وتحددت فكريا ونفسيا في أعقاب حوادث ومواقف تاريخية لاحقة، على يوم السقيفة. أو متأخرة عنه أعوامًا كثيرة، إذ لم يكن تشيع هؤلاء النفر من كرام الصحابة، إلا موقفًا سياسيًا وفكريًا معبرًا عن تقديرهم لعلي كرم الله وجهه واعتقادهم بأفضليته لمنصب الخلافة.

ج- أما الانحياز الجماعي المتمثل في قيام (حزب سياسي) ممالئ لعلي رضي الله عنه ظهر واضحا في أعقاب واقعة التحكيم وما انتهت إليه من خذلان الحق الذي يمثله الإمام كرم الله وجهه، وربما كان هذا الانحياز موقفًا طبيعيًا لمواجهة الانحياز المعاكس الذي تمثل في ظهوره الخوارج وانشقاقهم على عليّ كرم الله وجهه ثم قتلهم إياه، وإسرافهم في الإنكار عليه إلى حد تكفيره، فكان طبيعيًا أن ينحاز الموالون له إلى «حزب» يرد عليهم، ويواجه تهمة «التكفير» بالجنوح إلى المبالغة في تقرير الحق الثابت للأئمة من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وفي نفي هذا الحق عمن سواهم.

وابتداء من واقعة التحكيم بدأ ظهور نظرية الشيعة في الإمامة، وأنها تثبت بالنص عن النبي ﷺ وأن إقامتها بهذه الطريقة، ومتابعة الإمام الذي يتولاها ركن من أركان الإسلام يضاف إلى أركانه المسلم بها من المسلمين كافة.

والحق أن عليا رضي الله عنه قد وضع بنفسه أساس التمييز السياسي للشيعة، في مواجهة الخوارج (وهو فيما نرى تميز لأهل السنة والجماعة وكذلك في مواجهة الخوارج، حين رد على الخوارج قولهم «لا حكم إلا لله» حين خطب قائلاً: كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لابد من أمير أو فاجر، ويعمل في إمرته المؤمن ويستمتع بها الفاجر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفئ ويقاتل به العدو وتؤمن به السبل..».

د- أما الأساس النفسي الثابت للمذهب الشيعي، والذي لازمه إلى يومنا هذا، وجعل من الشيعة مذهبًا متميزًا عن مذهب أهل السنة والجماعة وأدى -فوق ذلك- إلى تحديد سائر معالمه الاعتقادية في الإمامة وغيرها، فقد نشأ في أعقاب الفاجعة التي ألمت بآل بيت النبي ﷺ في كربلاء والتي استشهد فيها الحسين رضي الله عنه، وعدد كبير من آل بيت النبي ﷺ.

فبعد هذه الفاجعة التي قدم فيها ابن بنت رسول الله ﷺ مثلا فريدًا في الاستشهاد من أجل المبدأ ترسبت في الفكر والوجدان الشيعي أمور ثلاثة:

الأول: الإحساس بفقدان جولة حاسمة في الصراع السياسي من أجل بقاء الإمامة في آل بيت النبي ﷺ، ولذلك اتجه الشيعة بعد هذه المعركة اتجاهًا انعزاليًا وانشقاقيًا عن سائر جماعة المسلمين.

الثاني: الإحساس الدفين بالظلم، والرغبة المكبوتة في الثأر من هذا الظلم والشعور بالمرارة الشديدة تجاه كل من تسببوا فيه، والإحساس الغامر بالحزن المستغرق المستولي على الكيان، وهو حزن عبر عنه بعد ذلك الإمام علي بن الحسين «زين العابدين» حين كلمه بعض الناس في أمر ذلك الحزن فقال: إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ولم يعلم أنه مات، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداء يوم واحد، أفترون حزنهم يذهب من قلبي؟!

الثالث: الإحساس بالحاجة إلى المداراة عن إظهار الخصومة في مواجهة من يملكون تصفيتهم أو إيقاع الأذى الشديد بهم، وهو ما عرف بعد ذلك بمبدأ التقية، ولذلك كله نقول مع القائلين إن دماء الحسين رضي الله عنه كانت أبعد أثرًا من دماء علي رضي الله عنه في نمو الحركة الشيعية وازدياد أنصارها، ويؤكد ذلك ما نلاحظه اليوم من احتلال الحسين رضي الله عنه مكانة في الوجدان الشيعي تقارب مكانة علي كرم الله وجهه، بل تعلوها أحيانًا حين يذكر التاريخ الشيعي أو يعدد المظالم التي وقعت على آل بيت النبي ﷺ.

منصب إلهي كالنبوة

أما السؤال الثاني الذي طرحه كاتب المقال: ما هي معالم العقيدة الشيعية وفي أي شيء يختلف مذهب الشيعة الإمامية عن مذهب أهل السنة والجماعة؟

ويجيب: الإمامة منصب إلهي يثبت لصاحبه

بالنص عليه من النبى ﷺ: فبينما يذهب أهل السنة والجماعة، إلى أن الإمامة أو الخلافة هى رئاسة عامة - فى أمر الدين والدنيا خلافة عن النبى ﷺ .. وأن المسلمين فى كل عصر يختارون خليفتهم بمبايعة من يرونه أصلح لرئاستهم، بعد أن يختاره أهل الحل والعقد فيهم - يذهب أهل الشيعة إلى أن الإمامة منصب إلهى لا يعقل أن يترك أمر اختياره للناس، وإنما يختاره الله بوحى يوحيه إلى نبيه فينص على شخص الإمام.. ويدللون على رأيهم بأدلة عقلية ونقلية ومن الآيات التى يسوقونها لتأييد مذهبهم فى الإمامة قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾

(القصص: ٦٨)

وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾

(ص: ٤٧)

وقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

(البقرة: ١٢٤)

مخاطبا سيدنا إبراهيم - والله سبحانه وتعالى هو الذى يختار للمسلمين إمامهم.

ولقد لخص رأى الشيعة الإمامية فى طبيعة منصب الإمامة، العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتابه «أصل الشيعة وأصولها» فقال: إن الشيعة زادوا فى أركان الإسلام ركنا هو «الاعتقاد بالإمامة يعنى أن يعتقد أن الإمامة منصب إلهى كالنبوة، فكما أن الله سبحانه وتعالى يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيده بالمعجزة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن يضعه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبى، وإنما يتلقى الأحكام مع تسديد إلهى.. ومنصب الإمام بهذا المعنى ليس واجبا على المسلمين فحسب، ولكنه واجب على الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم الأمة بعد النبى على الحق وحتى يقوم أمرها كله على الرشد.

والإمامة متسلسلة عند الشيعة الإمامية فى اثنى عشر إماما كل سابق منهم ينص على اللاحق وهم على التسلسل:

على رضى الله عنه - ثم الحسن بن على - ثم الحسين بن على - ثم على بن الحسين «زين العابدين» - ثم محمد بن على «الباقر» - ثم جعفر ابن محمد «الصادق» - ثم موسى «الكاظم» - ثم على «الرضا» عم محمد «الجواد» - ثم على الهادى - ثم الحسن العسكرى - وأخيرا ابنه محمد المهدى وهو الإمام الغائب الذى ينتظر الشيعة خروجه فى آخر الزمان.

عصمة الإمام

وختم الدكتور أحمد كمال أبوالمجد حديثه عن عصمة الإمام بقوله: يتصل بنظرية الشيعة فى الإمامة قولهم بعصمة الإمام، ويلفت النظر فى هذا المقام أن علماء المسلمين من أهل السنة والشيعة لم يخوضوا كثيرا فى قضية عصمة الأنبياء بقدر ما خاض الشيعة فى أمر عصمة الإمام.

وليس من العسير تعليل هذه الظاهرة فلقد كان الشيعة فى أشد الحاجة إلى القول بعصمة الأئمة، ليثبتوا استحالة الوصول إلى هذا المنصب الإلهى بالاختيار، وليمنعوا انقياد الناس لخصومهم من الخلفاء المغتصبين لهذا المنصب الإلهى.

مؤتمر عالمى عن الإسلام فى إفريقيا:

أوضاع المسلمين فى وسط إفريقيا

د. أحمد سامى جدو محمد النور
السودان
sami572011@hotmail.com

يتناول هذا البحث أوضاع المسلمين فى إقليم وسط إفريقيا، ونقصد به المناطق التى اصطلح على تسميتها بالدول الناطقة بالفرنسية وبالتحديد (تشاد، إفريقيا الوسطى، الكاميرون والكنغو برازافيل)، ونرمى من وراء ذلك إلى تقديم دراسة منهجية وعلمية، يمكن من خلالها تقويم مجمل أوضاع المسلمين بتلك الدول، فى محاولة جادة وطموحة لكشف الأخطار التى تستهدف وجود المسلمين هناك، أو تهدد مصالحهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، إذا علمنا بأن الدول - ميدان الدراسة - تعانى من جملة مشكلات، فهى من الدول التى تنتمى إلى مجموعة الدول النامية، التى تتميز بهشاشة البنيات الاقتصادية، وضعف الجهاز الإدارى، وسيطرة قطاع الزراعة والرعى، وتدنى مستوى دخل الفرد، وضعف المؤسسات السياسية، المسئولة بالدرجة الأولى عن حالة عدم الاستقرار السياسى الذى اتسم به الإقليم، من جراء الحروب الأهلية، والصراعات حول السلطة والثروة. بالإضافة إلى اشتراكها فى سمات أخرى متعددة مثل، التعدد العرقى، والتنوع الثقافى الصارخ الذى تذخر به دول إقليم وسط إفريقيا، من حيث تعدد اللغات واللهجات المحلية، والثقافات والأديان، وهيمنة الولاءات القبلية.

إن هذا الواقع السياسى المعقد قد كان مسئولاً بالدرجة الأولى، عن حالة عدم الاستقرار السياسى، بل وتسبب فى غياب خطط وبرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية بتلك الدول ردحا من الزمن، الأمر الذى أدى إلى بروز ظاهرة الحروب، ذات الطابع العرقى والقبلى، التى انعكست آثارها على مجمل الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والصحية، والتعليمية، لمواطنى تلك الدول بشكل عام، والمسلمين فيها بشكل خاص، على الرغم من التشابه الكبير الذى قد يصل إلى حد التطابق فى نوعية وأسلوب الحياة، وإدارة أنشطتها المختلفة.

خاصة وأن هؤلاء المسلمين منتشرون فى طول وعرض هذا الإقليم الناطق بالفرنسية أو الفرانكوفونية، التى عجزت معظم دوله، عن إحداث النهضة الاقتصادية والصناعية والاجتماعية فى بلدانها، مما عرض شعوب هذا

الإقليم، إلى جملة من الأخطار والمهددات، التى سوف تعمل الآن وفى المستقبل على تحويل منطقة وسط إفريقيا، إلى مسرح من مسارح المواجهة بين المد الإسلامى الطاغى، على حساب المشروع الصليبى التنصيرى، الذى تتبناه المنظمات اليهودية، والدوائر الكنسية هناك، مما يشير بوضوح إلى أن الصراع بين الإسلام والغرب المسيحى دائم ومتصل والشاهد على ذلك، العداء الجامح، والبغض الشديد الذى ظل يكنه أهل الغرب للإسلام بخلاف كل الديانات والمذاهب الأخرى المنتشرة فى العالم.

مشكلة البحث:

ومن أبرز مشكلات البحث، شح المصادر ذات الصلة بالموضوع، وندرة المعلومات، والإحصائيات، والبيانات، التى يعتمد عليها الباحث فى تفسير وتحليل، أوضاع المسلمين السياسية والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، بالإضافة إلى اشتمال الموضوع، على جوانب مختلفة ومتداخلة، بشكل يصعب معه فصلها عن بعضها البعض، مضافًا إلى كل ذلك ضيق الإطار الزمنى المحدد لإجراء البحث وإنجازه فى (العقدين الأخيرين).

أهمية البحث:

وتبدو أهمية البحث، فى أنه يمثل محاولة جادة، لتسليط الضوء على أوضاع المسلمين فى إقليم وسط إفريقيا، الذى يتكون من الدول (تشاد، إفريقيا الوسطى، الكاميرون، والكنغو برازافيل) فى أبعادها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والصحية، وتظهر أهميته كذلك، فى أن ميدان الدراسة - إقليم وسط إفريقيا - يمثل أحد أهم المجالات الخصبة، لإجراء البحوث والدراسات العلمية المستقلة، بهدف تقديم المعلومات الأساسية عن أوضاع المسلمين، من حيث أعدادهم، ونسبتهم، إلى غيرهم من سكان الإقليم، فى محاولة لكشف مواطن القوة والضعف لديهم، ومعرفة قدراتهم الاقتصادية، ونوعية الفرص المتاحة لديهم، التى يمكن اغتنامها لتحسين نوعية الحياة فى بيئاتهم المختلفة، والمهددات والأخطار التى يمكن أن يتعرضوا لها فى تلك الدول، ونوعية الأساليب والتدابير، التى بإمكانهم استخدامها وتوظيفها، حتى لا تتردى أوضاعهم بشكل تتقاصر دونه مجهودات الحاقدين على الإسلام وتوسيع دائرته والحفاظ على بيضته، إذا علمنا بأن دول هذا الإقليم تتباين أوضاع المسلمين بها، بسبب الضغوط التى يتعرض لها المسلمون، من قبل حركات التنصير الكنسى ومؤسساتها ومسئوليها، بشكل يحرم المسلمين من حقهم الطبيعى فى العيش الكريم، والتعليم والأمن والغذاء والصحة، بل والمشاركة فى الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية على قدم المساواة مع نصفائهم من الملل والنحل الأخرى، وبذلك يكون البحث قد أسهم فى سد ثغرة من ثغرات البحث العلمى ظلت موجودة فى المكتبة العربية و الإسلامية - على الأقل - فيما يتعلق بأوضاع المسلمين فى وسط إفريقيا.

أهداف البحث:

ويسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١- التعرف على أوضاع المسلمين السياسية، من حيث مشاركتهم فى السلطة والثروة، وموقعهم من خطط وبرامج التنمية، فى إطار السياسة الكلية للدول الناطقة بالفرنسية خلال العقدين الأخيرين.

٢- فهم وتفسير الواقع الدينى والثقافى للمسلمين بتلك الدول، للتأكد من قدرتهم على قيادة المجتمعات الإفريقية، نحو البناء والتعمير، بعيدًا عن التعصب الدينى والمذهبى، ومدى استعدادهم لإفساح المجال لغيرهم، لترجمة مفهوم التسامح الدينى، والقبول بالآخر على أرض الواقع، فى إطار حرية المعتقد، وممارسة الشعائر والطقوس الدينية، الخاصة بكل طائفة دينية، مسلمة كانت أم مسيحية.

٣- الوقوف على أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية، من حيث تفشى مظاهر الفقر، والجهل والمرض والبطالة، لمعرفة ما إذا كانوا بالفعل يمثلون قوة اقتصادية ضاربة، بوسعها أن تلعب أدوارًا مؤثرة فى مسار الاقتصاد الوطنى للدولة المعنية، ومدى قدرتهم على المساهمة فى تغيير أوضاع المسلمين هناك.

٤- بيان وتوضيح حظهم من التعليم العام، ومدى قدرتهم على استخدام التقنيات المعاصرة، لمسايرة الانفجار المعرفى، والتدفق المعلوماتى، الذى انتظم عالم اليوم، الذى يسير بخطوات متسارعة ومتلاحقة، لا سبيل إلى كبح جماحها، أو الحيلولة دون تفادى تأثيراتها السالبة، على مجمل أوضاع المسلمين بتلك الدول فى هذا الإقليم.

٥- تشخيص أوضاع المسلمين الصحية فى بيئاتهم المختلفة، وذلك بالوقوف على نوعية الأمراض والأوبئة المنتشرة بينهم، والتحقق من مدى صحة انتشار مرض فقدان المناعة (الإيدز) بين مسلمى تلك الدول.

٦- الكشف عن مدى قابلية المسلمين فى تلك الدول، لمبدأ التعايش السلمى والقبول بالآخر، من خلال أدوارهم ومشاركتهم، فى فض النزاعات، بينهم وبين من يستهدفونهم، من الملل والنحل الأخرى.

٧- التأكد من مدى مقدرة المسلمين بدول وسط إفريقيا، على مد جسور التواصل والتعاون مع بقية شعوب العالم الإسلامى، بشكل يعينهم على قيادة العمل الإسلامى، والسياسى، والاقتصادى، والاجتماعى، فى تلك الدول.

منهج البحث:

إن المنهج المتبع فى هذا البحث، هو المنهج الوصفى التحليلى، المستند إلى المصادر الوثائقية، إن وجدت، المتبع عادة فى تحليل الدراسات المتداخلة، بهدف إثراء مادة البحث وموضوعه.

أدوات البحث:

يعتمد البحث فى جمع معلوماته، ومادته، وبياناته وإحصائياته، على الإصدارات الحديثة، التى تناولت أوضاع المسلمين فى وسط إفريقيا، وشبكة المعلومات الدولية (Internet)، وبعض الدوريات (periodicals) ذات الصلة بالموضوع، بالإضافة إلى المقابلات مع أبناء دول الإقليم، (تشاد، إفريقيا الوسطى، الكاميرون، والكنغو برازافيل)، وبعض التقارير، ومن واقع نتائج الاستبانة، التى صممت لهذا الغرض،

والتى تعتبر إحدى المصادر التاريخية الحية والمؤتمنة، التى يمكن الاعتماد عليها فى إبراز أوضاع المسلمين بتلك الدول – موضوع الدراسة – خلال الإطار الزمنى المحدد.

الإطار النظرى

– أوضاع المسلمين السياسية فى الإقليم:

لا يختلف اثنان فى أن جمهورية تشاد، هى إحدى دول وسط إفريقيا المسلمة، المعنية بالدراسة فى هذا البحث، لما لها من أهمية استراتيجية فى المنطقة الإفريقية، بدليل أن نسبة المسلمين فيها تربو على ٨٥٪ من مجموع سكانها البالغ تعدادهم سبعة ملايين نسمة، فيما يمثل النصارى ٥٪ فقط، والبقية الباقية من الوثنيين وعبدة الديانة الإحيائية، والذين يمثلون ١٥٪، ولا شك فى أن نسبة المسلمين فى ازدياد مستمر، قد تصل فى الوقت الحالى، إلى ٩٠٪ أو تزيد، وذلك لاعتناق أعداد كبيرة من وثنيى الجنوب، وبعض المسيحيين، للإسلام فى الآونة الأخيرة. خاصة وأن الجزء الشمالى من تشاد، يتميز بشكل عام، بنفاذ الثقافة العربية الإسلامية، بينما تنتشر الثقافة المسيحية بين مثقفى الجنوب من السارا. وتأسيسا على ما تقدم، فهى إذن دولة إسلامية الطابع والهوية. ونحن حينما نطرق مجال الحديث، عن الأوضاع السياسية للمسلمين فى هذا القطر المسلم، إنما نرمى فى الواقع، من وراء ذلك، إلى معرفة حجم مشاركتهم السياسية، فى السلطة وإدارة الدولة، ومدى فعالية أحزابهم السياسية، – إن وجدت– وهل بمقدورهم تحويلها إلى منابر، يمكن من خلالها مناقشة وتقويم أوضاع المسلمين هناك، ومدى بعدهم أو قربهم من المؤسسة الحاكمة، أو النظام السياسى القائم، وهل هناك أى فرص متاحة أمامهم، لنشر أفكارهم، وعرض آرائهم بحرية، وطرح قضاياهم ومشكلاتهم، على قدم المساواة مع الطوائف الدينية الأخرى، أم أنهم مضطهدون لا حول لهم ولا قوة، وهل الدولة التشادية نفسها، ذات توجهات إسلامية ظاهرة، من شأنها التمكين للمسلمين، بإتاحة الفرصة لهم للجهر بأفكارهم، وإدارة برامجهم الدعوية، باتجاه توسيع دائرة الإسلام، والقيام بأمر الدعوة على أتم وجه وأكمل صورة، وبدعم منها، أم أن المسلمين – فى الواقع – يمثلون طائفة دينية مقهورة ومنزوية، تعيش على الهامش، وليس بإمكانها إسماع صوتها للرأى العام، والسلطة الحاكمة، من خلال المنابر السياسية والمؤسسات الدستورية، والمنتديات الفكرية إن وجدت.

إن الغاية من هذه الأسئلة والاستفسارات، أن تمثل مدخلا ضروريا، لفهم الأوضاع الحقيقية، التى يعيشها المسلمون فى هذه الدولة المسلمة، إلا أن الصعوبة تكمن فى عدم القدرة على التكهن، بتحديد ملامح النشاط السياسى، للرموز السياسية المسلمة فى هذه الدولة، وذلك لسبب بسيط، يتعلق بطبيعة النظام السياسى نفسه، ومدى قربه أو بعده من الكوادر الإسلامية الناشطة فى مجال الدعوة الإسلامية فى البلاد، فهذه العملية ليست سهلة، وذلك لشح المعلومات المتعلقة بهذه المفردة، ومع ذلك نقول إنه بالإمكان تلمس بعض المعالم الأساسية على هذا الطريق الشائك الذى اخترناه.

ومن تلك المعالم التى بإمكاننا التوقف عندها، شخصية السياسى المسلم التشادى، المعروف أحمد غلام الله، الذى نجح فى الوصول إلى منصب رئاسة الجمهورية التشادية بعد فترة الاستقلال، خلال الستينيات من القرن الماضى، غير أن الفرنسيين قد كانوا له بالمرصاد، فتمكنوا من عزله، وإبداله بمسيحى جنوبى من قبائل السارا، هو نيغرتا فرانسوا تمبلباى، ومن هنا يتضح جليا بأن النخب السياسية التى تعاقبت على إدارة دفة الحكم فى جمهورية تشاد، قد أسهمت وبشكل متعمد فى استهداف الرموز الإسلامية ومحاولة اغتيالهم سياسيا، والدليل الذى يقوم على تأكيد هذا المعنى، حل الحزب الوطنى الإفريقى الذى كان يقوده الإسلامى الناشط – أحمد غلام الله– بالتعاون مع بعض الشخصيات التشادية المسلمة، ومنهم جان باتيست ساهولبا، وجبريل خير الله، – بواسطة قرار أصدره الرئيس المسيحى تمبلباى، يقضى بإلغاء تعدد الأحزاب، ليصبح حزب الرئيس هو المسيطر على السلطة، وبالرغم من المضايقات السياسية، التى ظلت تحاصر وتراقب نشاط النخب السياسية المسلمة فى دولة تشاد، فإن عددا من العرب المسلمين، قد نشطوا فى تأسيس الجمعيات، التى آلت على نفسها الدفاع عن الحقوق السياسية للمسلمين، وبعث اللغة العربية، والإرث الثقافى العربى الإسلامى فى تشاد، ومن تلك الجمعيات، رابطة مثقفى اللغة العربية، التى تأسست فى العاصمة أنجمينا، والتى كانت تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها وأقواها، توظيف اللغة العربية، فى بعث وإحياء التراث الوطنى، المستمد من تاريخ تشاد العربى الإسلامى، والاستفادة من القدرات الوطنية، عن طريق إشراكها فى العمل السياسى الرسمى للدولة.

ويمكننا القول: إن زمام الأمور فى تشاد، مازال بأيدى المسلمين، إذ من الصعب التنبؤ بإمكانية نزعه منهم – على الأقل فى الوقت الراهن – أو فى المستقبل القريب، خاصة وأن الرئيس – إدريس دبى – قد أتاح بعض الفرص للمسلمين، لمزاولة أنشطتهم السياسية عبر المشاركة فى السلطة، حتى أصبحت الأحزاب التى يرأسها المسلمون، تناهز الثلاثين حزبا سياسيا، خلال الفترة الممتدة من ١٩٩٢م – ١٩٩٧م.

ومما يؤكد أن المسلمين فى تشاد يعيشون أوضاعا سياسية لا بأس بها، هو حصولهم على بعض المؤسسات، التى أصبحت تحمل وجهة نظرهم، وعرضها أمام السلطة السياسية الحاكمة، ألا وهو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، باعتباره الجهة المعترف بها من قبل الدولة، فى أعلى مستوياتها، والممثل الرسمى للمسلمين داخل تشاد وخارجها، والذى رأسه، الدكتور حسين أبكر، مفتى جمهورية تشاد الإسلامية، وبالرغم من هذا التمثيل المحدود، إلا أن هناك بعض المشكلات السياسية، التى ظل يواجهها المسلمون فى تشاد، أبرزها مشكلة فصل الدين عن الدولة، وموقف المسلمين من هذه القضية، التى أصبحت موضوعا للجدل المحتدم بين المسلمين من جهة، والمسيحيين من الجهة الأخرى، باعتبار أن ليس هناك فصلا كاملا بين الدين والدولة، إذ يرى المسيحيون

ضرورة أن ينحصر واجب الدولة فى تنظيم رحلات الحج، وكفالة حرية العقيدة للطوائف المسلمة، بالرغم من أن المسلمين يشكلون أغلبية السكان، فهذه الوضعية، من شأنها إنتاج المزيد من الصعوبات والمشكلات ذات الطابع السياسى، التى يمكن أن تحدث فى أى لحظة بين المثقفين المسلمين الذين يحاولون جهد طاقتهم، جعل الشريعة الإسلامية، هى الدستور الذى يجب أن يتحاكم إليه الشعب التشادى المسلم، فى كل معاملاته، مما سوف يعرّض الوضع السياسى، فى تشاد للانفجار آجلاً أم عاجلاً، وبالفعل فقد حدثت الطامة الكبرى التى مثلت - فى الواقع - تحديًا سافرًا أصبح يهدد الوضع السياسى والعقائدى، لمسلمى هذه الدولة، ذات الهوية العربية الإسلامية، ألا وهو مشروع قانون الأسرة التشادية، أو مدونة الأحوال الشخصية، كما يسمونه فى تشاد، الذى ظل يمثل أحد أهم المشاريع التى بدأت تطرح الآن وبقوة فى دولة تشاد، وبدعم من بعض أبناء المسلمين، الذين وقعوا تحت تأثير النفوذ الفرنسى الطاغى على الحياة السياسية لهذه الدولة.

ومما يجدر ذكره، أن هذا القانون، قد قصد منه فى الأصل، الإضرار بالوضع السياسى لمسلمى هذه الدولة، لحساب الأقلية المسيحية، التى ظلت تدور فى فلك فرنسا، إذا علمنا بأن هذا القانون، هو فى الواقع، عبارة عن خلاصة التوصيات والقرارات التى صدرت عن المؤتمرات الدولية، الخاصة بشئون الأسرة، مثل مؤتمر المرأة، المنعقد بكوبنهاجن، ومؤتمر القاهرة، الذى انعقد مؤخرًا ولذات الهدف، ومن أهم القضايا التى تم التركيز عليها، فى مشروع هذا القانون التشادى الجديد، قضية تحديد سن الزواج، ومنع تعدد الزوجات، وموضوع القوامة، وتأديب المرأة عن طريق الهجران فى المضجع، وشهادة المرأة، وقضايا الميراث والحجاب، بالإضافة إلى حقوق المرأة السياسية، مثل حق الترشيح للولاية العامة، تمهيدًا لإزالة الفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأة، والتى قصد منها إضعاف وحدة المسلمين، حتى تسهل عملية اختراق صفوفهم، من خلال الدعوة الإباحية، التى من شأنها المساهمة فى تفكيك الأُسر المسلمة فى تشاد، وفى غيرها من بلدان الإقليم، بل ويهدف المشروع إلى إلغاء الأحكام الشرعية، التى يتطلع إليها المجتمع التشادى، فى أن تسود كل جوانب حياته ومعاملاته، كما يدعو مشروع هذا القانون، إلى السفور والزندقة، والتفسخ الأخلاقى، وذلك بالقضاء على الحجاب الإسلامى، الذى يعد أحد أهم المظاهر الإسلامية فى العصر الحالى، فى محاولة يائسة، لعزل المجتمع التشادى المسلم عن محيطه العربى الإسلامى، ومن ثم الاتجاه نحو علمنة الحياة السياسية والاجتماعية فى تشاد وبشكل كامل، من خلال تفريغ واستنساخ أجيال مستضعفة لا تعرف سوى قضاء الشهوات، وإشباع النزوات، بعيدًا عن أى وازع دينى أو أخلاقى، ويقف وراء هذا العمل الإجرامى الخطير، بعض العلمانيين من النصارى، الذين تجرأوا على طرح هذا المشروع منذ عام ٢٠٠٠م، فى أحد أهم مراكز التنصير بالعاصمة أنجمينا يسمى بالسيفود، ولحساسية الموقف، فقد تم عرض هذا القانون، أمام البرلمان التشادى لمناقشته والخروج بتوصيات حوله، إلا أن السلطة الحاكمة قد أرجأت النظر فيه إلى وقت لاحق، والجدير بالذكر أن هذا القانون يجد الدعم والمساندة من شخصيات مسئولة فى الدولة.

وعلى الجملة فإن المسلمين بدولة تشاد، يواجهون أوضاعًا سياسية صعبة، وتحديات جمة، والمتمثلة فى محاولات النظام الحاكم فى تشاد الدءوبة، لإعادة العلاقات السياسية مع دولة الكيان الصهيونى، بدليل وصول عدد من المستثمرين الصهاينة -على حد قول صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية - التى أفصحت عن وجود اتصالات رسمية تم إجراؤها بين الحكومة الإسرائيلية، والحكومة التشادية، بهدف تطبيع العلاقات الدبلوماسية، التى انقطعت منذ السبعينيات من القرن الماضى، خاصة وأن المدير العام لوزارة الخارجية الصهيونية (يوآف بيران) قد قام بزيارة سرية لتشاد، أجرى خلالها لقاءات مع مسئولين تشاديين كبار، لفتح قناة اتصال بين الجانبين، تسمح بإقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين فى المستقبل، إن ما يدل على صحة هذا التقارب التشادى الصهيونى الأمريكى، تلك الزيارة التى قامت بها الملحقية الثقافية الأمريكية فى أنجمينا، بصحبة الوفد الأمريكى، الذى جاء أساسًا لزيارة، أهم مركز من مراكز الدعوة الإسلامية فى تشاد بمدينة بحر الغزال، التى تبعد ٣٠٠ كلم عن العاصمة أنجمينا، حيث قام الوفد بزيارة المدارس العربية الإسلامية، والمحكمة الشرعية هناك، وكان محور أسئلتهم يدور حول، مناهج القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والقدر الذى يدرس منها، والجهات الداعمة لهذه المدارس، وتخصصات المدرسين العاملين بها، والجامعات والمعاهد التى تخرجوا فيها، والقانون المطبق فى المحاكم الشرعية، وهل هناك إمكانية لتطبيق قوانين وضعية بتلك المحاكم.

من المؤكد أن هذه الزيارة، قد تمت بعلم من الدولة وبترخيص منها، وأنها تهدف بوضوح لا لبس فيه، إلى محاولة تحجيم ومحاصرة المجهودات التى ظل يقوم بها أبناء المدن التشادية، فى إطار التخطيط، لتمكين المد الإسلامى الطاغى، والكاسح لمعظم بلدان إقليم وسط إفريقيا - موضوع بحثنا هذا - والمتمثلة فى مجهودات شباب الدعوة الإسلامية، من المثقفين وأساتذة الجامعات، الذين تحملوا عبء ومسئولية توعية المجتمع التشادى المسلم، بالأبعاد السياسية للمخطط الأمريكى الصهيونى، وانعكاساته على مجمل أوضاع المسلمين فى تشاد بصفة خاصة، ودول الإقليم بصفة عامة، من خلال الندوات العامة، بقاعة مسجد الملك فيصل، ومن داخل المساجد المنتشرة فى المدن التشادية، وعبر الإذاعة القومية، وذلك بحثهم على ضرورة تقديم البديل العملى لهذه المشاريع العلمانية الضارة بأوضاع المسلمين السياسية والعقائدية.

وعلى ضوء ما تقدم، فباستطاعتنا أن نستنتج، بأن مفتاح المخطط الأمريكى فى المنطقة، يتركز بالدرجة الأولى على التعاون الأمريكى الاستراتيجى مع المسلمين النقدميين بهذا الإقليم - حسب زعم الأمريكان - الذى أكده تقرير مؤسسة «راند» للأبحاث

أوضاع المسلمين في وسط إفريقيا

الأمريكية، الذى أشار فى بعض فقراته، إلى ضرورة تشجيع مجموعات إسلامية، موالية للفكر والطرح السياسى الغربى، ولكنها تتدثر بدثار الإسلام فى الظاهر، ويستطرد التقرير فى القول، بأن المسلمين الليبراليين أو المعتدلين، لا يملكون شبكات فعالة كالتى أنشأها الإسلاميون المتطرفون، ويقترح التقرير ضرورة إنشاء شبكة عالمية للمعتدلين، لنشر الأفكار والرسائل المعتدلة، غير المعادية للغرب، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، بشرط توفير الحماية لهذه الجماعات، ومساعدتهم فى توفير الموارد اللازمة، لإنشاء تلك الشبكات بأنفسهم، وما يدعم هذا الاتجاه، ما قاله «بريجينسكى» «مستشار الأمن القومى الأمريكى»: إن المجتمع المنغمس فى الشهوات، لا يستطيع أن يسن قانونًا أخلاقيًا للعالم، وإن أى حضارة لا تستطيع أن تقدم قيادة أخلاقية، سوف تتلاشى».

وبنظرة متأملة وفاحصة، لمضمون ومحتوى هذا القول، نستطيع أن نتبين حقيقة الأخطار والمهددات، التى تحاك ضد المد الإسلامى، المنطلق من دولة تشاد الإسلامية، باتجاه وسط إفريقيا، المرشحة كمسرح لبداية الأحداث القادمة، والمدعومة من اللوبى الصهيونى، ومن ورائه أمريكا، بهدف تقسيم وتجزئة الأمة الإسلامية، عن طريق تجزئة وتفتيت الدولة الواحدة، إلى أقاليم متناحرة، حتى تنعدم بينهم الوحدة، وتنتهى عندهم عوامل القوة تمامًا، وهذا هو سر اهتمام إسرائيل وأوروبا وفرنسا، بمنطقة وسط إفريقيا، انطلاقًا من تشاد التى تعد البوابة المناسبة للتأثير السياسى على مجتمعات وسط إفريقيا، ودليلنا على ذلك ما تعيشه تشاد اليوم من نزاعات داخلية، تطورت إلى حروب أهلية مدمرة، بين أبناء المسلمين فى الوطن الواحد، مما يشير بأن هذا الواقع الذى آلت إليه الأمور فى تشاد، هو جزء من المخطط الأمريكى الصهيونى فى المنطقة الإفريقية ذات الأغلبية المسلمة، عن طريق إضعاف أنظمتها السياسية، لاستبعاد إمكانية حدوث أى تقارب سياسى ممكن بين دول الإقليم، يسعى لخلق تكتلات إقليمية أو تحالفات دولية، لحماية مصالح المسلمين، وتحسين أوضاعهم السياسية بإقليم وسط إفريقيا.

ولبلوغ تلك الغاية، كان لابد من تدمير المجتمع المسلم وتشويه صورته، بل وطمس معالم وملامح هويته الإسلامية، وليس ذلك ببعيد، فى ظل الخضوع شبه الكامل من بعض النخب السياسية لتأثير الضغوط الصهيونية الأمريكية، سواء أكان ذلك بوعى منهم أم بدون وعى، وهم بمواقفهم تلك إنما يعرضون شعوبهم المسلمة، وشعوب المنطقة بأسرها، إلى جملة من الأخطار والمهددات، ذات المساس المباشر بالعقيدة والكرامة والأخلاق، بل وبالوجود المادى على الجغرافيا ذاتها، ذلك الوجود المرتبط إلى حد كبير بتحقيق الذات الوطنية المؤمنة بربها والمتمسكة بعقيدتها الإسلامية، وهو ما يفسر لنا حالة الضعف والوهن، الذى يعيشه مسلمو تشاد اليوم، وبعلم تام من النظام السياسى الحاكم فى الدولة، فطوبى للمسلمين الذين أصبحوا غرباء فى ديارهم، تحت سمع وبصر حكوماتهم التى أصبحت لا تحرك ساكنًا، ولا تسكن متحركًا.

«يتبع»

خميلة الشعر

للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

قُم فى قِمَمِ الدنيا وحيِّ الأزهـرا ... وانثرْ على سفحِ الزمانِ الجوهرا
واجعل مكان الدُّرِّ - إن فصَّلْتَهُ ... فى مدحِه - خَرَزَ السماءِ النَّيِّرا

تفتح الخميلة اليوم أبوابها لنسمات الربيع الجميل، وأيضا لأصوات شاعرية عذبة مختلفة المذاق والرائحة، فمذاقها رائع، ورائحتها جذابة وموحية، وهدفنا ليس الإمتاع وفقط - وإن كان الإمتاع متوفرًا - إلا أننا عمدنا إلى تقديم أعمال لها قيمتها الأدبية، فمن تعريف للشاعر إلى تقديم دراسة لشعر الصعاليك الفرسان فى الجاهلية، ومن الشعر الوطنى الخاص بسوريا الشقيقة، إلى محاولة لتصحيح الأفكار لدى الشيعة، إنها جولة ممتعة حقًا، أتمنى أن يجد فيها كل قارئ ضالته أو على الأقل يشعر نحو ما نقدمه بالرضا، لكم خالص ودى.

من هو الشاعر؟

فى رأيى أن الشاعر هو فارس الكلمات العربية، الذى لا يستخدم الكلمة ليعنى بها شيئًا آخر غير الكلمة نفسها فمن لم يقبل هذا الأساس كان له ألا يقترب من ذلك الفن الجميل، ألا وهو الشعر، وفى كل العصور، فالشاعر يرى نفسه المنار الهادى لقومه، وهو لا يتخذ فى حواره معهم لطف المأخذ ولا نعومة الملمس، بل ينقض على مثالبهم كالصاعقة، فيشعل لهم ترافدهم، ويلهب فيهم حماستهم، ليبدأوا معًا تسطير صفحات جديدة فى تاريخ الأوطان، فلا مندوحة عن رفض الشاعر للواقع والتمرد عليه، ليبتدع عصرًا جديدًا، ويصوغ كلمة بكرًا، ومعانٍ مغايرة للمعتاد والمألوف، ليبدأ عهد البصيرة الوهاجة، ولذلك لابد له أن تجىء كلماته وقصائده، كأنها الراية اللؤلؤية الرفافة، التى تلوِّح للناس بفجرٍ جديد.

إذن فالشاعر يأتى أعزلا إلا من كلماته، التى بها تهتز القارات وتتحرك البحار من أماكنها، إنه فيزياء الأشياء، يعرفها ويسميها بأسماء قد لا يبوح بها، ولكنه يعرفها لنا بطريقته هو وحده، إنه الواقع ونقيضه، والحياة وغيرها، يستخرج المعادن النفيسة دون أن تلحظه العيون.

القصائد:

فى العدد الماضى قمنا بعرض قصيدة بعنوان: يا أم المؤمنين، للشاعر السورى مصطفى عكرمة، يستنكر فيها ما يقوم به بعض من يتبعون المذهب الشيعى من حديث الإفك، وكيف أنهم سادرون فى غيهم وأباطيلهم، وفى هذا العدد يقدم لنا الشاعر مختار فارس قصيدة: الشاتمون، ويعرض الشاعر من خلال أبيات

قصيدته، مثالب أهل المذهب الشيعي، مفندًا لمزاعمهم ومبطلاً لادعاءاتهم، ومستنكرًا لأسلوبهم الذى تتجلى فيه الشتائم لأصحاب الرسول الكريم ﷺ، ومظهرًا كذلك محبة أهل السنة لكل آل بيت النبى وتوقيرهم لهم هذا وتتمنى من الله عز وجل، أن يلهم أئمة أهل الشيعة الصواب ليزيلوا تلك الإهانات لصحابة النبى رضوان الله عليهم جميعًا، ليكون نهجنا جميعًا نهجًا واحدًا كما أراده الله لنا، فكلما زاد التشدد، ضاعت الحكمة، وكلما اتجهنا نحو التعسير، زادت حياتنا عسرًا ومشقة، ولكن إذا جعلنا من اللين والتسامح سبيلا، يسر الله لنا حوائجنا وجعل فيما بيننا الألفة والمودة.

الشاتمون

شعر الأستاذ مختار فارس

الشاتمون صحابة المُختار
هم شَرُّ ما فى الأرضِ من أشرارِ
أحقادُهم فاقت ضلال عدوِّنا
وبكفرهم فاقوا أذى الكفّارِ
لا يرقبونَ بمؤمنٍ إلاًّ، ولا
هم يأبهون لغضْبةِ القهّارِ
مردوا على أخزَى النفاق فدينهم
أن يستروهُ بألفِ ألفِ ستارِ
يتظاهرون بأنهم أهلُ التُّقَى
وإذا خلَوا: كانوا من الفُجّارِ
يتجاهلون الله فى تقديرهم
كتجاهل الأعمَى ضياءَ نَهارِ
وعلى هواهم، وافتقارِ عقولهم
يتمسّكونَ بفاسقٍ مهذارِ
ويُؤلِّهونَ مُضلِّلاً يلهو بهم
ويرونهُ قَدَرًا من الأقدارِ
ويرون فيه، عصمةً لا تنقضى
وقراره فى الكون خير قرارِ
الرسْلُ، دونَ هواه، أدنَى رتبة
وأقلُّ مقدرةً على الإقرارِ
الشرعُ عندهمو إبادة كلِّ من
يدعو الأنام لسنّة المختارِ
ويُنافقون من ازدرَى بعقولهم
ويرونَ غيرَهمو وقودَ النارِ
وبكل ما جاء النبيّون ازدروا
ويروْنَ فيه، أخطرَ الأخطارِ
كذبًا علينا يدَّعونَ تقيّةً
لنظنَّ أنهمو من الأبرارِ
وصحيحُ ما قال الرسول يرونهُ
مهما علا: من جملة الأخبارِ
ويُؤوِّلونَ على هواهم شرعَنا
ويرونَ فيه منبعَ الأضرارِ
والسابقونَ الأوّلونَ ومن هدوا
هم عندهم من طغمة الأشرارِ
وعلى افتراءات الولىِّ تراهمُ
عكفوا بلا فهمٍ ولا إبصارِ
ووليُّهم صباه جهل عقولهم
يا ليتهم كانوا أولى أبصارِ
لرأوا وليَّهمو أشدَّ ضلالةً
من كل ما فى الأرضِ من كُفّارِ
هو فى الحياة وليّهم، ووليّهم
بعد الممات وعند كل خَسارِ
وصفات ربّى كلّها فى نسله
أبدًا، وليس هناك أىّ خَيارِ
يتناهبونَ النذرَ من أتباعهم
ولمن تباطأ غلظةُ الإجبارِ
فكأنما الرحمنُ ليس بقادرٍ
أن يستجيب لدعوة الأبرارِ
متجاهلين قضاء ربٍّ فاطر
إلهٍ ليس مُقدِّرُ الأقدارِ
ما غابَ عنهُ غائبٌ تحت الثرَى
كلاَّ، ولا ما كان جوف بحارِ
بالعدل سوّى خلقَهُ، وجلالُهُ
يأبَى أقلَّ الظُّلم والإضرارِ
حاشاهُ أن يرضَى بظلمٍ دونَهُ
أو يرتضى الإضرارَ بالكُفّارِ
وجميعُ ما يجرى بواسعِ علمه
ما آدَهُ أثرٌ من الآثارِ
أوَليْسَ ربُّ العرشِ يعلمُ ما جرى
أو يسلمُ الأبرارَ للجزّارِ ؟ !
آلاف آلاف المزاعم كلُّها
كذبٌ ينوءُ بأقبحِ الأعذارِ
فعلامَ أهل الشتم تلعنُ أمّةً
هم فى البريّة صفوةُ الأخيارِ
وهم الألى نشروا رسالة ربهم
دون الأنام، بسائر الأمصارِ
حملوا كتابَ الله، وانطلقوا به
فمحوا ظلامَ الكون، بالأنوارِ

●●●

أين الذين لربهم قد هاجروا
طوعًا، وأين محبة الأنصارِ
أيكون من نشروا الهُدَى بجهادهم
عند البغاة جحافلَ الكفّارِ
من قادَ أمةَ أحمد من بعده
هل كان ممن هامَ بالدينارِ
يا منكرين جهادَ صحب محمد
أنتم على الإسلام شرُّ قرارِ
لو ذرةٌ بقيَتْ لكم من عقلكم
لم تعمدوا للشتم والإنكارِ
فمقامُ أهل البيت فرضٌ عندنا
بصلاة من صلى على المختارِ
وبحبهم لا بادعاء ولائهم
نرجو مثوبة ربنا الغفّارِ
يا شاتمي السابقين إلى الهُدَى
هلا اعتمدتم صحوة الأفكارِ
ما ضرَّ من نشروا الهدى شتمٌ ولا
نلتم عليه سوى عذاب النارِ
فهم جميعًا عند أرحم راحم
عدلٍ، فهل عودٌ إلى استغفارِ
فإذا المماتُ أتى فليس بسالم
إلاَّ مُوحِّد ربّه القهّارِ

●●●

وعن سوريا الجريحة، وشعبها المناضل الثائر، يقدم الشاعر أسامة كامل الخريبى قصيدة عن استشهاد المغنى السورى إبراهيم قاشوش

(١) دمشق

قصة المغنى: إبراهيم قاشوش

ومشيت فى كل الدروب الثائره
والناسُ تهتفُ.. والمشاعرُ فائره
حملوا المُغنّى
كى يغنى فى الجموع الهادره:
«أنا لا أخاف من البنادقِ
فوق أى مُجنزَرَه
أنا لا أخاف من الرصاص
ومن وعيد المجزره»

●●●

سقط المُغنّى..
بعد أن غني لشعبٍ لا ينامْ
شعبٌ يريدُ العيشَ حُرًا.. والسلامْ
سقطت طيورُ الحُبِّ باكيةً.. وأسرابُ الحمامْ
ومشى الرصاصُ يلوِّن الدنيا بلون الانتقامْ
لم يرحم الأطفال، والثكلى، ولا شهرَ الصيامْ
صوت المُغنّى.. لم يزل ينسل من بين الركامْ
هُرِعَ الجنودُ إليه.. واستبقوا.. لنزع الحنجَرَه
مازال يهتفُ فى الدروبِ، وفى النوافذ والغمامْ
ما زال يهتفُ: «لا أخافُ الموتَ»
لا الرشّاشَ.. لا جُندَ النظامْ
ومشيتُ بعدكَ، فى الدروبِ الكابيه
متثاقلاً.. والليلُ يبكى.. والمنافذُ خاوية

حتى قناديل الشوارع.. من بُكائها خابيه
الحزنُ قد لفّ المدينةَ والشوارعَ والشجرْ
وبدت جنائزها المهيبة.. مثل قلبٍ ينفطرْ
جثثٌ تدلّتْ من حبال الأعمدةْ
جثثٌ تعانى من نزيف الأوردةْ
ومقاومون يقاومون.. على جميع الأصعدةْ
ومسلحون تفنّنوا قنص الضحايا كالمطرْ
ورصاصهم.. من كل صوْبٍ.. فى الأزقّةِ.. ينهمرْ
يا محنة الجيش الذى أضحى عصابة أشقياءْ

***

ورحلتَ يا (قاشوش) لكن لم يفارقنا الغناءْ
ما زال صوتكَ.. رغم أنف الموت يصرخُ: لا تخافوا
والصوت يهدرُ، والهتافُ
يا أيها الصنمُ العنيدُ: غدًا ستقذفك الضفافُ

***

ومن شعر التصوف نقدم قصيدة:

جواب فى حقيقة الإيمان للحلاج

[بتصرف]

للعلم أهلٌ وللإيمان ترتيب
و للعلوم وأهليها تجاريب
والعلم علمان مبتوذ ومكتسب
والبحر بحران مركوب ومرهوب
والعمر يومان مذموم وممتدح
والناس اثنان ممنوح ومسلوب
فاسمع بقلبك ما يأتيك عن ثقة
وانظرْ بفهمك فالتمييز موهوب
إنى ارتقيتُ إلى طودٍ بلا قدم
له مراقٍ على غيرى مصاعيب
و خُضتُ بحرًا ولم يرسب به قدمى
خاضتْهُ روحى وقلبى منه مرغوب
خضباؤه جوهرٌ لم تدنُ منه يدٌ
لكنه بيَدِ الأفهام منهوب
شربتُ من مائه ريًّا بغير فم
والماء قد كان بالأفواه مشروب
لأنّ روحى قديمًا فيه قدْ عطشتْ
والجسم (ما) ماسّهُ من قبل تركيب
إنى ضعيفٌ ولى ربٌّ ألـوذ به
قلبى لرحمته ما عشتُ مشبوب
قلبى بَصيرٌ وعقلى دائمًا فطنٌ
ولى كلام إذا ما قلتُ مطلوب
وأهل الفضل إنْ عرفت فَهْمْ
صَحْبى ومن يُحْظ بالخيرات مصحوب
تعارفتْ فى قديم الذّر أنفسهم
فأشرقتْ شمسهم والبَيْنُ غريب

لاميّة العرب

الشعر الجاهلى:

لقد أُعجِبَ المثقفونَ العرب فى كل عصورهم بالشعر الجاهلى، وجعلوه دائما المثال الأعلى والتقييم الفريد لكل نَظْم مُستحدث، حتى أصبح مَعينًا لا ينضب فى علوم اللغة، وارتفعت قيمته وتصاعدت لتعادل الروح القومية عند العرب، فى حال صراعها مع الثقافات الوافدة، ولا غرو، إذا رأينا أن الشعوبية القديمة كانت تبذل قُصارى جهدها للنيل من الشعر الجاهلى، متهمة إياهُ بالبداوة والفقر والمحدودية إلى غير ذلك من الصفات السلبية، التى تهدف من ورائها إلى إدانة الإنسان العربى ذاته، وتجريده من مواهبه الإبداعية والفكرية والاجتماعية.

وما زال المثقف العربى يشعر بأن معركة الشعر الجاهلى، إنما دارت ولا زالت تدور خارج حدود هذا الشعر وبعيدًا عن الساحات الأساسية التى ينبغى أن يصول فيها البحث والتحليل الموضوعى، ومن هذه المعارك الافتراضات والبراهين والردود الإيجابية والسلبية حول صحة نسب الشعر أو انتحاله، لكأنما هذا الشعر، كل قيمته هل وجد جاهليًا أم لم يوجد؟ فكان السجال والنقاش يبحث دائما عن براهين الإثبات والنفى، خارج طبيعة الشعر ذاته، ودراسته والكشف عن تجربته الخاصة وأبعاده الحضارية، ومذاهبه الفكرية.

ومن الغريب أن يكون الشعر الجاهلى هو مصدر علوم اللغة والبلاغة والتاريخ وغيرها، ولا يكون مصدرًا للكشف عن مقوماته الداخلية، وإذا كان النقاد القدامَى وقد حاولوا أن يغطوا هذا النقص - الذى ربما لم يعوه - بأساليب البحث عن سرقات الشاعر ومقارنته بمن سبقه أو عاصره من الشعراء مقتصرين على النقد اللغوى، فإنّ النقّاد المُحدثين لم يتقدموا إلاّ قليلاً مما يجعلنا نقول بأن الشعر الجاهلى كتجربة فنية وثقافة تكوينية وجودية، ولغة من الرموز الكثيفة عن الحياة، ومواقف الإنسان العربى من مشكلات الحياة، يعتبر مازال عالَمًا بكرًا.

الشعراء الصعاليك فى الجاهليّة:

إنّ تاريخ الشعر العربى، وأصوله الفنية، ومصادر تجاربه الإنسانية، قد أخذت قواعدها الأولَى من ثقافة الجاهليين العفوية، فإنّ أحد هذه المصادر الأساسية، لا شك، والتى هى الأقرب إلى مصطلح العفوية والتجربة الإنسانية اليومية الثرية، نجده لدى الشعراء الصعاليك أكثر مما نجده لدى شعراء آخرين من الجاهليين، ذلك أن أدب الإلتصاق بالبادية، والتآلف مع مفازاتها ووحوشها ومعاشرة خلانها وأنوائها، وأنّ ألفة العفوية المبدعة والفروسية وقمم التجربة فى الدفاع عن الحرية الإنسانية والدفاع عن كرامة الإنسان بدون مجتمع، بدون حماية، بدون أى حد من حدود الضمانة العادية، نرى أن هذا الأدب ينطلق حارًا عنيقًا من خلال فروسية الشاعر الصعلوك وتقاليده الخاصة فى معاناة الشجاعة والكرامة، والفقر من أى شكل من أشكال متع الحياة.

الصعلوك هو فارس اليأس وبطل الحرية الطليقة خارج المجتمع وعدو التقاليد التى تنشر الظلم والفقر والمهانة، وفى عصر حتّمت المعيشة القاسية على أقوامه نمط الحياة الجماعية للدفاع والغزو، وتأمين الطعام والحماية بينما نرى الصعلوك هنا حمل مسئولية المعيشة كفرد مستغنيا بدفق من التمرد، عن كل نوع من أنواع الضمانات داخل حياة الصحراء، ومَع وحوشها وفيافيها المجدبة، يواجه عداء الطبيعة والإنسان معًا، فإن كان الشعر الجاهلى هو شعر الحيوية العربية الأولى، فإن شعر الصعاليك يكاد يكون هو جوهر هذه الحياة فى صفائها المطلق.

صفوة القول إن شعر الصعاليك ينبع عن تجربة مطلقة للحرية فى ظروف الحياة فى الجاهلية، ولا يخلو من التغنّى بالتشرد العدمى، الذى هو غاية فى حد ذاته ولقد تابع الصعاليك عادات القبائل فى السلب والنهب والاقتتال على المرعى والكلأ، بعد أن عرّوها من كل اعتبار خارجى مزيف، فأصبحت الشجاعة والبطولة والكرم ومعاناة الشدائد كلها غايات إنسانية بالنسبة لهم يمارسونها بكل عنف وصرامة ويحافظون على نقاوتها الفردية الخالصة.

ولم يكن كل الصعاليك - بطبيعة الحال - ينزعون هذه النزعة فى حياتهم، بل إن قسمًا كبيرًا منهم، وخاصة من الذين حُرموا أسباب

القوة الجسدية والنفسية، فقد خضعوا إلى حياة الذل، وعاشوا أشبه بالشحاذين في المجتمعات الأخرى، إلا أن فئة أخرى منهم أوتيت مواهب الشجاعة والقوة الجسدية إلى جانب مواهب الفصاحة والإبداع الشعرى، فاقترنت عندهم الفروسية بلحظات التعبير الفنى، وامتزجت عندهم تجربة الحياة الشاقة العنيفة، بتجربة التعبير الشعرى المباشر عنها.

ولو أننا تتبعنا الفلسفة التى كانت تتألق فى حياة الصعلكة لدى المبدعين من فرسانها الشعراء لوجدناها قريبة مما يسميه (نيتشه) بنموذج البطولة (الديونوزوسية) نموذج الفرح بالحياة كما هى، والإقبال عليها بفيض من القوة واتحاد النفس الكامل بالجسد، فحين تتفجر نشوة الحرية فى أعماق الصعلوك الثائر، نجد فى مواقفه احتجاجًا صارخًا على أسلوب الحياة الاقتصادية آن ذاك، فالصعاليك الذين ما كانوا يملكون شيئا من متاع الدنيا راحوا يسعون لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية بطريقتهم الخاصة، ذلك لأن تمردهم الفردى يحمل دعوةً اجتماعية عبّرت عنها أشعارهم فى تصوير الجوع والنقمة على الأغنياء، فرفضوا حياة الخمول والهوان وطلبوا المغامرة ولذة اكتشاف المجهول ومصارعة الخطوب، بلا قيود ولا حدود.

الشَّنْفَرَى

وقصيدة اليوم (لامية العرب) هى لشاعر من الصعاليك الفرسان هو ثابت بن أوس الأزدى، الملقّب بالشَّنفَرى الذى يتقدم كل الشعراء الصعاليك بقصيدته لامية العرب، لبروز الخصائص الفنية واللغوية الممتازة، والتى أعلت من قيمة شعر الصعاليك عامة، فالشنفرى فى قصيدته هذه يؤكد على تفرده وتمرده وشجاعته وصبره على الشدائد، مصورًا أساليب الغزو وأنواع الأسلحة بصيغة رائعة كشفت عن حس شعرى بأسرار اللغة وعلاقات الألفاظ وقدرتها على تكوين الأجواء النفسية المطلوبة.

إن حماسة الشنفرى للصحراء ووحوشها وتطلعه إلى الحرية والوحدة ومغامراته فى سبيل أن يكفى نفسه وأصحابه، كل ذلك صنع طبقة من الفكر والذوق والرقى المعنوى، تصاحبها معاناة الصعلكة بتفاصيلها التى قد تصدم الوجدان المتحضر الرقيق، فقد كانت تلك الصياغة الفنية العالية، مع فخامة اللغة العربية الأولى، وتعدد زوايا الرؤية الشعرية، من البراعة والموهبة والرقى الذوقى، بحيث حولت مباذل الصعلكة ذاتها إلى قيم خاصة، قادرة على تبرير هذا النوع من السلوك، ولكن الشنفرى، كما فجّر موضوعات التصعلك وحياة التردى من ناحية شعرية فإنه حاول أن يجعل منها شهادة على فروسيته وشجاعته وكرمه، واعتماده المطلق على إمكانياته كفرد متوحد، كما أنه لم يهمل جانب الإنسانية المضطهدة من نفسه فملأ تمرده غضبًا على أعدائه الذين دفعوه انطلاقًا من مبدأ المطالبة بالثأر عن سبيه صغيرًا، ولطفولته الذليلة عند القوم الذين استعبدوه حتى شبّ، وراح ينظّم أهداف وجوده حسب ثورة الانتقام فى نفسه.

إن الشنفرى الذى اشتهر كواحد من أشجع فرسان الصعاليك، ومن أقواهم شكيمة وأكثرهم قدرةً على الغزو، كان فى الوقت نفسه رجُلَ صبابة ووجدان، كان شاعر غزل لطيف متذوقًا لقيم المرأة المُشاركة لهموم زوجها المُتحلّية بأخلاق العفّة، المتطبّعة بطباع الحرة المتمدّنة، لدرجة أن أصبحت أوصاف الشنفرى

للمرأة، نموذجًا للمرأة الكاملة المرموقة وجدانيا واجتماعيا.

هذا وسترى فى شعر الشنفرى موهبة فطريّة شفّافةً مفعمة بحماسة الانطلاق والحرية والغلبة فجاءت بأفضل صورة عن تراث المعيشة الصحراوية المبدعة فوق الواقع، على مستوى الأسطورة والشعر من مذهب حياة خارقة فذّة.

حول لامية العرب:

تبدأ القصيدة بتصوير قرار الشاعر هجرته عن أهله، وانسياحه فى الأرض، مبتعدًا عن أذى قومه له وكيف أنه يفضّل عشرة الوحوش على عشرة قومه، لدرجة أنه يقارن بين شجاعته وشجاعة الوحوش فيرى أنه أشجع منها، ثم يصف انفراده بنفسه فى البرارى الموحشة فلا يجد معه أصحابًا إلا ثلاثة هم: قلبه الشجاع، وسيفه الأبيض، وقوسه الصفراء، ولقد راح ينطلق عدْوًا فى الصحراء، صابرًا على الجوع والعطش، مقارنًا نفسه بالذئب المتضوّر جوعًا، وهو فى ذلك لا يتفجّع على نفسه، بقدر ما يفخر بها، وهو مثلما نافس الذئبَ فى جوعه، فقد نافسَ القَطا فى سرعة ورود الماء، وهو حين يفترش رمال الصحراء يحس أن ظهره لنحول جسمه من شدّة الجوع، ومع ذلك وبالرغم من شعوره بحريته المطلقة مع الطبيعة، يعترف بهمومه التى يعانيها فى حياته البرية، وهو صابر على ذلك، غير طامع فى غنًى ولا متألّم من فقر ثم يصف الشاعر بعد ذلك غزوةً من غزواته، خلال ليلة مظلمة ممطرة، ثم خلال نهار قائظ شديد الحر، ولا ينسى أن يصف سرعته فى العَدْو ومؤالفته الحيوانات البرية مستأنسة به كأنه واحدٌ منها.

قصيدة لاميةُ العرب

١ - أقيموا بنى أُمّى صدورَ مطيّكم
فإنّى إلى قومٍ سِواكُم، لأَمْيَلُ

يقول الشاعر فى ضميره ووجدانه إنّه لا يرغب فى صحبة قومه، فيطلب منهم أن يقيموا دوابهم من رقدتها استعدادًا كى يرحلوا بعيدًا عنه، ونراه فى هذا البيت مرتبطا بأمرين، الأمر الأول هو كراهيته لقومه لدرجة أنه لا يطيق عشرتهم، الأمر الثانى هو ميله للتوحد مع ذاته وإلى الحرية المطلقة التى لا يعوقها قيد أو قانون إلا قانون الطبيعة الفسيحة فى الصحراء، تلك الحرية التى يعتز بها أيما اعتزاز، ونراه كذلك مستخدمًا لظاهرة من ظواهر بيئته، ألا وهى المطايا، وهى الدواب التى يمتطونها من جمال وخيل إلى غير ذلك فى تصويره التلقائى المعبر عن الرحيل.

٢ - فقد حُمّت الحاجاتُ والليلُ مُقمرٌ
وشُدّتْ لطِيّاتٍ، مطايا وأَرْحُلُ

يقول لقد تهيّأت فى النفس احتياجاتها للسفر والرحيل ليلاً، وبخاصة أن الليل كان مضيئًا بالقمر، مما يسهّل إسراءهم فيه، وكذلك أعدّت الركائب والمؤن الضرورية لعبور المفاوز والتلال والوديان، مما يحتّم إزماع هذا الرحيل.

٣ - وفى الأرض مَنْأى للكريم عن الأذَى
وفيها لِمَنْ خافَ القِلَى مُتَعزَّلُ

يقول الشاعر المفجوع فى قومه بأن لديه الأمل بأن يجد منزلا بعيدًا ينأى بنفسه العزيزة والكريمة إليه بعيدًا عن قومه الذين آذوه، ويكون فى ذلك البيت البعيد صونًا وحماية لنفسه من كراهية قومه وحقدهم فيكون مجرد اعتزاله عن قومه هو بمثابة الأمن والأمان لنفسه الأبيّة.

٤ - لَعَمْرُكَ، ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ
سَرَى رَاغبًا أو رَاهبًا، وَهْوَ يَعْقِلُ

ثم نرى الشاعر يُقسم بأنَّ الأرض ليست بضيقة على الإنسان، فإن وجد بقعة فيها أذى، فعليه أن يرتحل إلى بقعة أخرى تحفظه وتصونه، فسواءٌ أرحل راغبًا في الرحيل، أو رحل خوفًا من الأذى، فلكل إنسان هدف في ذاته يوافي به ويعقله.

٥ - ولِي دُونَكُمْ أهْلُونَ: سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وأرْقَطُ زُهْلُولٌ، وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

نرى شاعرنا في هذا البيت قد أعلن إدانته للإنسانية كلها، واستعاض عنها بصحبته للوحوش الضارية في البراري والقفار، مظهرًا شجاعته النادرة وعودته إلى أصل الحياة وبراءتها الأولى، ونراه يحدد لنا بعض أنواع تلك الوحوش، فمنها السيد وهو الذئب والأرقط والعرفاء من الضباع.

٦ - هُمُ الأهْلُ، لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائعٌ
لَدَيْهِمْ، ولا الجَانِي بما جَرَّ يُخْذَلُ

يقول الشاعر إنه أحب عشرة وحوش الصحراء وجعلها في منزلة الأهل، الذين يحفظون أسراره فلا يذيعونها، وإذا جنى جناية فهم يحمونه ويدافعون عنه مهما فعل، ولا يخذلونه.

٧ - وكُلٌّ أبِيٌّ، باسِلٌ، غَيْرَ أنَّني
إذا عَرَضَتْ أولَى الطَّرائِدِ أبْسَلُ

وكل من هذه الوحوش الكواسر، معتز بنفسه وبقوته، وشجاع، ومع ذلك فإن الشاعر يظهر تفوقه عليها جميعا في الصيد ومطاردة الفرائس بمجرد ظهورها مبديًا شجاعته التي تفوق شجاعة ضواري الفلاة.

٨ - وإنْ مُدَّتِ الأيدِي إلى الزَّادِ لم أكُنْ
بأعْجَلِهِمْ، إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ

وفي هذا البيت يظهر الشنفرى مدى اعتزازه بذاته وبعدم جشعه بعرض نموذج فريد للتعفف والكبرياء، وذلك من خلال أسلوبه في تناول طعامه، فهو لا يتلهف على الطعام ولا يسابق شركاءه فيه، وإنما يكون مالكا لزمام شهوته للطعام، مهما كانت حاجته إليه، ومهما استبد به الجوع.

٩ - ومَا ذاكَ إلاَّ بَسْطَةٌ عن تَفَضُّلٍ
عَلَيْهِم وكانَ الأفْضَلَ المُتَفَضِّلُ

ثم يشرح سبب عدم تلهفه على الطعام، بأنه زيادة في تفضله على من يشاركه الطعام، فهو يرى في ذلك أفضلية له عليهم

١٠- وإنّي كَفَانِي فَقْدَ مَن ليسَ جَازِيًا
بِحُسْنَى، ولا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

ويعلن الشاعر في هذا البيت استغناءه عن صحبة قومه الذين لا يعاملونه بالحسنى، ولا يجد لديهم ما يسليه - فقدَ مفعول ثان (لكفاني)

١١- ثلاثةُ أصحابٍ: فُؤادٌ مُشَيَّعٌ
وأبْيَضُ إصْلِيتٌ وصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

ثلاثة: فاعل كفاني في البيت السابق، ويصف الشاعر في هذا البيت ثلاثةً من صحبته التي لا تفارقه والتي كفته وأغنته عن صحبة قومه الذين لم يلق منهم خيرًا، ومن ليس في صحبتهم نفع أو حتى لهو، والثلاثة هي: الفؤاد المشيع، وهو القلب الجسور، ثم الأبيض الإصليت، أي السيف المصقول، وآخرها صفراء عيطلُ، وهي قوس متينة طويلة العنق، لونها أصفر.

(تابع البقية في العدد القادم بإذن الله)

اللهم هيئ لنا الخير، واحفظ مصرنا من كل شر، وألف بين قلوب أبنائها، واكفنا شر التشدد في الأمور كلها، واجعل اللين والخلق الكريم في تعاملنا سبيلا ومذهبا.

«اللهم آمين»

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

نصري سلهب

«١» «في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمه، ساعة ولادته، أنه سيكون أحد أعظم الرجال في العالم بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقا..»[١].

«٢» «هنا عظمة محمد ﷺ لقد استطاع، خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة»[٢].

«٣» «... هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج، أن يرسي قواعد دولة، وأن يشترع قوانين ويسن أنظمة، ويجود بالتفاسير والاجتهادات.. ولم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالما قائما بنفسه»[٣].

«٤» «تراثك يا بن عبدالله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، في ما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب، كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، تجد لها في آثارك حلا»[٤].

«٥» «... لم يكن النبي ﷺ رسولا وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيما وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس وكان له ما أراد»[٥].

أحمد سوسة

«١» «... أي غاية أسمى وأقرب إلى الإنسانية ودين الله من تلكم الغاية التي كان يرمي إليها الرسول ﷺ في توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟ لنتصور محمدا ﷺ وهو يملي على أهل الكتاب وحي الله قائلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)[٦]

«٢» «... إن نبي الإسلام شخصية تاريخية

(١) في خطى محمد، ص٤٢.
(٢) نفسه، ص٣٩٦.
(٣) نفسه، ص٢٧٣ - ٢٧٤.
(٤) نفسه، ص ٣٩٦.
(٥) نفسه، ص ٤٠٩.
(٦) في طريقي إلى الإسلام، ١/٢٢-٢٣.

قالوا عن الإسلام

مبجلة وما حياة الرسول ﷺ سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامي من الحلقة الإنسانية..»[٧].

(٣) «.. كان محمد ﷺ أنموذجاً للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن تضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سمو ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته وقدسية نبوته»[٨].

(٤) «إن التاريخ ينبؤنا أن محمداً ﷺ ضحى بكل شيء من أجل رسالته إذ أتيحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ «دعوته» وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثاني؛ لأن إيمانه برسالته كان قويا وكان قد أوحى إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة إلى الإنسانية جمعاء فكان ما أراد الله له»[٩].

لويس سيليو

(١) «لقد حلّ الوقت الذى توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد ﷺ»[١٠].

(٢) «.. لم يعد محمد ﷺ نفسه غير خاتم لأنبياء الله «عليهم السلام» وهو قد أعلن أن عيسى ابن مريم كان ذا موهبة فى الاتيان بالمعجزات، مع أن محمداً ﷺ لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجاً على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!»[١١].

(٣) «.. إن محمداً ﷺ أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق ومن مفاخر محمد ﷺ أن أظهره قويا أكثر مما أظهره أى مشترع آخر..»[١٢].

(٤) «.. ما أكثر ما عرّض محمد ﷺ حياته للخطر انتصارا لدعوته فى عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال فى واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه.. وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله فى معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيى قوة إرادته ومتانة خلقه.. وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان ﷺ حليماً معتدلاً، وكان يأتى بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله، فيسحر كلماته بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضجر من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلا فلا ينم ما يقول عن كبرياء أو استعلاء، وكان يوحى فى كل مرة باحترام القوم له.. ودل ﷺ على أنه سياسى محنك..»[١٣].

(٥) «بدت فى بلاد العرب أيام محمد ﷺ حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرى على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة»[١٤].

[٧] نفسه ص١٧٤/١.
[٨] نفسه ١/ ١٧٤ – ١٧٥.
[٩] نفسه ٢/ ١٣٠.
[١٠] تاريخ العرب العام، ص١٥.
[١١] نفسه ص٩٠.
[١٢] نفسه ص٩٣.
[١٣] نفسه ص١٠٢ – ١٠٣.
[١٤] نفسه ص١٢٣.

دار الإفتاء «نور يتألق دائمًا»



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة، علامة العصر ومفتى كنانة الله فى أرضه مصر يودع دار الإفتاء بعد أن أبلغها بعلمه وحكمته مستوى لم يسبق، والله المسئول أن يعين من يخلفه باختيار الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب وهيئة كبار العلماء على أن يحفظ تلك المؤسسة فى مهمتها التى بلغ عطاؤها جوانب الشرق والغرب والعجم والعرب، والعلامة الدكتور علي جمعة وهو يودع دار الإفتاء يذكرني بجذع النخلة التى كان سيدنا رسول الله ﷺ يخاطب أصحابه والبشرية جميعًا من فوقه، فلما تحوّل ﷺ عنه إلى المنبر الذى صنع له كان يُسمع لهذا الجذع حنين لا ينتهى إلا بوضع الرسول ﷺ يده عليه، والمفتى يدع الدار ليواصل عطاءه الميمون فى ساحة الأزهر الشريف جامعًا وجامعة إلى أماكن ألفته وألفها تذكرني بقول النبى ﷺ وهو يقول يومًا من الأيام: «أحدٌ جبلٌ يُحبنا ونُحبه».

وعطاء الدكتور/ علي - بارك الله فى حياته - صير بمجالسه ما يقصر عنه دوى النحل يعطى الناس آية الله فى العسل المصفّى عند تناوله، لكن دروس الشيخ تتصل فى لقاءاته زلفًا من الليل بعد عمله فى نهاره من صبحه إلى أصيله وهو يضرب بذلك المثل والأسوة الحسنة للرموز التى تغنى عن التعبير يؤدون معه ومن حوله مهمة البلاغ عن الله وعن مصطفاه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قلت فيه يومًا:

وحين أوثر بالفتوى الحفى بها
أتته بالتهنئات العُجم والعربُ
برقًا وبرًا وبحرًا والطوائر قد
كادت لكثرتها تخفى بها الشُّهبُ

والدكتور علي لا تعد هباته التى نقول معها:

له هِممٌ لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجل من الدهر

عرفته منذ قرابة ربع قرن حين زرت الدكتور حسن عباس زكى لأستهديه نسخة من كتاب الدكتور فى السنة النبوية، ولم أتحدث طويلا للدكتور علي ولم أعرف اسمه، وتوالت سنوات، وفى أمسية مباركة وجدت الدكتور علي يزورنى فى بيتى وكان فى زيارتى الأستاذ الدكتور مصطفى أبوعمارة أحد أعمدة الحديث النبوى فى كلية أصول الدين وفى الجامع الأزهر الشريف، وهو يسعدنى بزيارته متفضلا فى أزمان متقاربة، ولقد ذكرت للدكتور علي جمعة أننا التقينا فى مكتب الدكتور حسن عباس زكى

دار الإفتاء «نور يتألق دائمًا»

دون أن أحظى بنسخة من كتابه فأجاب: غدًا إن شاء الله سيكون عندك نسخة من هذا الكتاب ونسخة أخرى للدكتور مصطفى، وأنجز الحر ما وعد وتوالت علىّ مؤلفاته وكتب أخرى أسأل الله أن يجزيه عليها موفور الجزاء، وتوالت لقاءاتنا في مؤتمرات إسلامية في الأزهر الميمون الغدوات والروحات وفي غيره من المؤتمرات البانية الهادية، وكان وأبناؤه الكبار يمنحونني كثيرًا من التقدير والإكبار، وأذكر إحدى هذه المؤتمرات التي قال لي فيها الإمام الطيب شيخ الأزهر أين أنت يا شيخ معوض؟ فقلت له: إن الوصول إلى المريخ أيسر من الوصول إلى بابك، فقال لي: «إنني سآمر الرجال أن يدعوا الباب مفتوحًا حتى تزورنا» وهي لطيفة لا تستكثر من الإمام الطيب.

ولقد حباني الله بكثير من أمجاد الدين والدنيا ولله وحده الفضل والمنة، فما يكاد صباح ولا مساء إلا وكثيرون يترددون على المنزل الذي يشرف بهم قارئين علىّ ما يريدون أو كاتبين ما أمليه عليهم مما يكون مزيدًا فيما وفقني الله إلى إصداره مما وفق إليه وأعان عليه.

وليت الذين يقرءون في مجلة الأزهر هذه الكلمات قد أتاهم ما قلته منذ قريب في عطاء دار الإفتاء تحت عنوان «الإفتاء قائدة رائدة» ومنه: «ونحن نرى اليوم مفتيًا جاء بعد عدد من العلماء في أحقاب من الزمان، وما تحابى مثقال ذرة فقيه العصر ومفتي كنانة الله في أرضه مصر الأستاذ الدكتور علي جمعة، حين نقرر بصوت عالٍ أنه استكمل كل دروب العلم والحكمة أكثر مما كانت يوم كان عمل دار الإفتاء في حدود ما يُخول إليها من الحكم على إنسان بالإعدام تبدى رأيها في ذلك الحكم، فنرى اليوم المفتي في مكانه ومكانته وقد جاوز مكانه بمؤسسات واختار إلى جواره رجالاً يؤخذ برأيهم وينتفع بما يشيرون به عن فهم صحيح وإدراك لم يبعد قيد شعرة عما أمر الله به أو نهى عنه حتى ترددت في كل صقع في شتى جوانب الأرض المستطاب على تلك المؤسسة القائدة الرائدة، وإنجازات الدار الرائدة القائدة قد يصعب عدها بعد أن تراخى مدها، وفتح الله عليها القلوب والعقول ثقة منها بالرجل الذي أوكلت له هذه المهمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، أن الدار لم تكتف باللغة العربية الأم بل هي تتعامل مع الشرق والغرب بتسع لغات، ومنها سعيها لإخراج فتاوى السابقين والإضافة عليها، ومنها الحرص على تدريب الأكفاء من شتى الأقطار على أمانة الفتوى التي حرصت عليها الدار انطلاقًا من منهج الأزهر الجامع ذي الوسطية التي لا يرتفع إلى مستواها سواه، والمفتي الجليل بنشاطه في هذه المؤسسة الجليلة يعطي الصورة المُثلى لرجل العمل والأمل الذي أتعب من بعده ونسأل الله أن يباركه ويبارك تلامذته وتابعيهم» اهـ.

إننا سنرى الدكتور علي ونستمع إليه أضعاف ما كنا نراه ونستمع إليه بعد أن خلص من قيود المكتب وصار نورًا يتألق وبحارًا من العلم تتدفق بين جوانب البحر الكبير الأزهر كعبة الإسلام الثانية ونور الدين الباقي وإن غيب الليل شمس النهار.

بارك الله في الشيخ الكبير وأبقاه منبرًا للعلم هاديًا ولنا وللمسلمين في كل مكان.

بقيت أبا الإفتاء كهف معارف
وبحر مروءات وأحسن تأويلا
ودُمت على القدر منبر حكمة
وينبوع عرفان وبالله موصولا

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «مجلة الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.

جاك رانسيير

كراهية الديموقراطية

ترجمة أحمد حسان



• يزخر كتاب «كراهية الديموقراطية» للمفكر الفرنسي الشهير جاك رانسيير بالعديد من المناقشات السياسية والفكرية والسوسيولوجية الجادة حول «الديموقراطية» وتجلياتها في الواقع اليوم. الكتاب الصادر عن دار التنوير بالقاهرة بترجمة دقيقة لـ«أحمد حسان» يقوم بمهمة مزدوجة فهو من ناحية يرفض تمامًا كل النزعات الراديكالية المعادية للديموقراطية باعتبارها مرادفة للاستهلاك ومجتمع يدعم الجشع وسيطرة الإفراط وتقود لتدمير البشرية، منفندًا بعض هذه الاتهامات وواضعًا بعض العيوب في موضعها الصحيح، ثم يعترف المؤلف من جهة ثانية باستفادة الأنظمة الحاكمة «الأوليجاركية» بالديموقراطية لتحقيق مكاسب والبقاء في السلطة. هذه القراءة المزدوجة للطرفين المتقابلين قادة إلى رؤية رانسيير الخاصة لما يجب أن يكون عليه النظام الديموقراطي فيرفض فكرة «الديموقراطية التمثيلية» لتعارضها مع مبدأ المساواة بين الجميع الذي تقوم عليه الديموقراطية معتبرًا المماهاة بين «الديموقراطية» و«التمثيل» وربما لكن لا يعني ذلك - برأيه - رفض الديموقراطية، بل يتطلب الأمر إدخال تعديلات على «التمثيل» كتقليل مدة التفويض الانتخابي وعدم تكرار التجديد وتقليل الحصانات وإرجاع النفقات إلى الحد الأدنى وتقليل تدخل القوى الاقتصادية في العملية الانتخابية. رانسيير يشدد على أن تطوير الديموقراطية يتطلب ممارسة للفعل الديموقراطي الجماعي من أجل تحرير المجال العام لخلق مؤسسات مستقلة وقوانين تنظم عملها حتى لا تختزلها النخب الحاكمة في صندوق الاقتراع.



• يكشف كتاب «الوشيعة في نقد عقائد الشيعة» الصادر عن «مكتبة الأديب كامل كيلاني» لمؤلفه الروسي الراحل موسى جار الله عن مخاطر الشيعة على الأمة سواء في النصوص الأصلية أو وفق ما رآه في زيارات للمناطق الشيعية بمختلف بلدان العالم الإسلامي في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي فضلاً عن مراسلات له مع أئمة المذهب، ورغم أن الكتاب يناقش بالتفصيل أسس المذهب الشيعي إلا أنه يسلط الضوء بصفة خاصة على تكفير الشيعة لبقية الأمة معتمدًا في ذلك على نصوص أئمة المذهب التي تجعل الولاية ركن من أركان الإيمان وتركه كفر. وينقل الكتاب نصوصًا تحرض على قتل السنة وأخذ أموالهم ناقلاً ما نسب لجعفر الصادق «خذ مال الناصب حيثما وجدته وادفع إلينا الخمس».

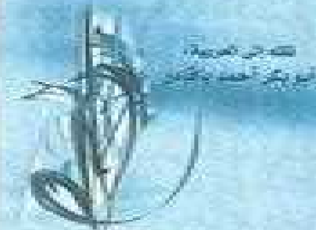
مكتبة مجلة الأزهر

المعقول واللامعقول فى الأديان
د. محمد عثمان الخشت

● وعندما يشعر الإنسان أن المادة وحدها غير كافية لتفسير الوجود، فإنه يكون على أعتاب الإيمان، وعندما لا يكتفى بالمتناهى ويسعى نحو اللامتناهى فإنه يكون قد غادر تماما التفسيرات المادية للوجود وبدأ فى التماس مجال معرفى آخر يقدم تفسيرا مُرضيا عن العالم والإنسان والله، وهذا المجال المعرفى قد يكون الدين وقد يكون الميتافيزيقا وقد يكون الاثنين معا... بهذه العبارة البليغة والدقيقة يقدم د. محمد عثمان الخشت موسوعته الدينية الموجزة، «المعقول واللامعقول فى الأديان.. بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة» الصادرة عن دار نهضة مصر.

يعيد الخشت قراءة موقف كانط وهيجل من الدين فضلاً عن استعراض موجز للأديان السماوية والوضعية ليصل إلى نتيجة مفادها: «جاء الإسلام فى المرحلة النهائية من مراحل ارتقاء الدين، واستوعب كل العناصر الإيجابية فى الأديان السابقة عليه وخلص مفهوم الألوهية من كل ما علق به من تصورات تشبهه بالبشر أو تخلط بينه وبين الطبيعة أو بين مستوى من مستويات الوجود».

برايان تيرنر
علم الاجتماع والإسلام
دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر

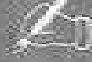


● يقدم عالم الاجتماع الأسكتلندى برايان تيرنر فى كتابه «علم الاجتماع والإسلام.. دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر» الصادر عن دار جداول قراءة نقدية لموقف عالم الاجتماع الشهير ماكس فيبر من الإسلام، الكتاب الذى ترجمه أبو بكر أحمد باقادر يهدف إلى كشف أوجه القصور والخلل فى موقف فيبر من الإسلام باعتباره غير مؤهل لقيام رأسمالية عقلانية - أى التحديث - على غرار البروتستانتية - بحسب التصور الفيبرى - حيث يقول المؤلف: «حينما حاول فيبر أن يوضح أن الإسلام باعتباره دين المجاهدين قد طور الأخلاق التى لا تتطابق أو تتلاءم مع روح الرأسمالية فإنه لم يكن فى ذلك على حق بالقياس إلى المفاهيم العلمية الحقيقية» ورغم عدم الاتفاق كلية مع تصور تيرنر للتاريخ الإسلامى إلا أنه يثير نقطة بالغة الأهمية حول موقف علماء الاجتماع الغربيين من الإسلام قائلا: «الواقع أن فحص ومراجعة كتاب يتناول علم الاجتماع الدينى من بين ما نشر خلال الخمسين سنة الماضية يكشف عن الحقيقة المرة التى تؤكد أن معظم علماء الاجتماع قد انعدم اهتمامهم بالإسلام أو افتقروا ما يمكن الإسهام به فى الدراسات الإسلامية، ويمضى معظم أساتذة علم الاجتماع فى الجامعات يتحيدون عن قصد أو بدون قصد عملية تحليل الإسلام».



● يفند د. إبراهيم عوض فى كتابه «الرد على ضلالات زكريا بطرس» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد الشبهات التى يوجهها المنصرون للإسلام وفى مقدمتهم زكريا بطرس، يكشف المؤلف حيل هؤلاء واختطافهم للكلمات ونزع العبارات من سياقها واختلاق القصص ليدلسوا على البسطاء، الكتاب يثبت من خلال فصوله التسعة أن أى مواجهة علمية مع ما يروجه المبشرون تثبت كذبهم.. يعد فصل «القرآن وأمية بن أبى الصلت».. أيهما أخذ من الآخر؛ من أهم الفصول الكتاب، كما يعرض المؤلف لمغالطات فى التعامل مع السيرة النبوية.

من جهود العالم المفكر / على الخطيب فى خدمة قضايا الإسلام والتراث العربى



بقلم أ. د/ صابر عبدالدايم
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق
وعضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر

إن العالم المفكر أ. د. على الخطيب رحمه الله من أعلام الأزهر الذين أخلصوا دينهم لله، ونافحوا عن رسالة الإسلام، وبذلوا جهودًا فكرية ودعوية فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية، والتعريف بدور الأزهر الشريف من خلال منبر مجلة الأزهر الشريف، فى النهوض باللغة العربية وتراثها وآدابها، وعلومها، وتجلية كثير من قضايا الفكر الإسلامى فى ضوء المنهج الوسطى المتوازن الشمولى، مع الحرص فى كل ما كتب.. وما ترك من آثار علمية على إضاءة وإبراز قضايا التراث العربى الحافل بالكنوز العلمية واللغوية والإبداعية التى تجعله مناط فخر واعتزاز لكل من ينتسب للعروبة والإسلام، ولا غرو فإن القرآن الكريم أنزل بلسان عربى مبين، وروى أن رسول الله ﷺ صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإن الرب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى.

وكل ما أنتجه العقل العربى والإسلامى فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، كان باللسان العربى الناطق والمعبر عن فكر الأمة وتراثها وعلومها التجريبية والفلسفية والتشريعية واللغوية والأدبية وأصبحت لغة عالمية يفتخر بها كل من أراد أن يتعرف على حضارة العرب والمسلمين.

وفى ضوء ما سبق، وفى سياق الكشف عن جهود العالم المفكر د. على الخطيب فى تجلية بعض القضايا الإسلامية والتراث العربى عبر ثلاثة محاور عُنى بها الراحل الكريم د/ على الخطيب، وهى:

أولاً: حقوق المرأة بين الجاهلية والإسلام.

ثانيًا: الحلف والإيلاف من مظاهر حضارة العرب قبل الإسلام.

ثالثًا: التراث العربى فى ظل الإسلام وثائق حضارية ومنارات إشعاع عالمية

وفى هذا السياق نبين جهد الراحل الكريم فى تجلية القضية الأولى وهى:

أولاً: حقوق المرأة بين الجاهلية والإسلام.

إن هذه القضية خصها د. على الخطيب بمؤلف خاص اتسم بالإيجاز والدقة فى عرض الآراء والاعتدال فى الأحكام والتوازن فى المقارنة بين وضع المرأة فى الجاهلية، ومكانتها فى الإسلام؛ ولذلك اتسمت رؤيته بعدم التقليد، حيث لم يقلد الرأى السائد المألوف الشائع بين العامة، ويردده كثير من الدعاة، حيث يشيعون بأن المرأة فى كل مراحل العصر الجاهلى، وكل بيئاته، وقبائله كانت مهانة، وحقوقها مهدرة. وهذا التصور ليس صحيحًا على إطلاقه، ولكنه كان سلوكًا جزئيًا، مرتبطًا بالعادات والتقاليد الفاسدة عند بعض القبائل، ونتيجة للتعصب، وانتشار الإماء والجوارى. ولذلك يمهد د/ على الخطيب لدراسته بالتفريق بين الجوارى والحرائر من النساء، فى نظرة المجتمع لهن. فالمرأة كما يقول لها مكانة مختلفة فى المجتمع، تبعًا لرقيها وحريتها فالإماء يخدمن علية القوم، ويعزفن على آلات الطرب، أما الحرة فكانت أعلى شأنًا، وأرفع قدرًا حيث كن مترفات مخدومات ينمن الضحى، ولا ينتطقن.

ويؤكد د. على الخطيب فى ضوء الوقائع التاريخية، والشواهد الاجتماعية هذه المكانة التى تنطق بالبعد الحضارى عند العرب الذين أهلهم الحق سبحانه وتعالى لاستقبال الرسالة الإسلامية ونشرها فى العالمين إلى يوم الدين.. يقول: وقد كان رقى النساء يوم ذاك دليلا على ارتقاء العرب فكريًا، حيث كان للمرأة رأى يحترم، ويؤبه له، وهى صاحبة رفعة وأنفة وشم وإباء فنبغت غير واحدة فى الشعر والسياسة، والتجارة.

• ويقدم د. على الخطيب نماذج من النساء العربيات فى عصر ما قبل الإسلام، للتدليل على علو المكانة والشأن وجاء الإسلام، وأصبحت هذه المكانة حقًا شرعيًا وليس تفضلاً ولا تنازلاً من المجتمع وليس استثناء يمكن أن ينقض عليه المتعصبون والمتزمتون، والذين يتهمون الإسلام بالأقاويل الزائفة والمزاعم الباطلة.

• ومن النساء المكرمات الفضليات: سلمى بنت عمرو، إحدى نساء بنى عدى ابن النجار حيث كانت لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها، فالعصمة بيدها - كما يقول المعاصرون.

• ومن الحقوق التى كانت تحتفظ بها المرأة فى الجاهلية أنها كانت تخير قبل الزواج فيؤخذ رأيها فى شريك حياتها، وأقر الإسلام ذلك التقليد الإنسانى الراقى العادل. وهند بنت عتبة، زوجة أبى سفيان، قد شرطت على أبيها أن يصف لها من يتقدم لخطبتها دون ذكر اسمه، ورسم لها أبوها ملامح كل شخصيته وصفاتها بكل أبعادها فى بيان عربى عذب واضح، فأبدت رأيها فى لغة دالة تنبئ عن وعى اجتماعى وحضارى واختارت أبا سفيان من خلال صفاته قبل أن تراه.

• وسيدة نساء العرب وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد كانت قبل البعثة النبوية لبيبة حازمة، وذكية عاقلة، ذات شرف وغنى، والدليل على ذلك اختيارها لرسول الله ﷺ ليكون على تجارتها.. وهى أول من أسلم(١).

ومن النساء اللاتى لهن مكانة قبل الإسلام، وبعضهن أنعم الله عليهن بالإسلام كذلك «الخنساء» وهى ذات النفس الكبيرة والهمم العوالى، كما يقول د. على الخطيب، وهى أميرة الشعر العربى قبل الإسلام، وأم الشهداء، والتى كان يخاطبها رسول الله ﷺ ويقول لها أنشدينا الشعر يا خناس، وقالت وهى تنعم بالأمان فى الإسلام، حين بلغها نبأ استشهاد أبنائها الأربعة فى معركة القادسية، الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم وأدعو الله أن يجمعنى وإياهم فى مستقر رحمته.

• ويرد د. على الخطيب عدة شواهد، ويقدم كثيرا من النساء الشاعرات والخطيبات والطبيبات، وناقدات الشعر فى العصر الجاهلى، وهى شواهد ودلائل تؤكد التقدم والوعى الحضارى لدى الأمة العربية، وهى تتهيأ لاستقبال الدين الجديد، ومن النساء الشواعر جليلة بنت مرة، امرأة كليب الفارس الشهير، وميسة بنت جابر زوج حارثة بن بدر، وكبشة أخت عمرو بن معديكرب.

• ومن النساء اللاتى نبغن فى فن الخطابة، هند بنت الحسن الإيادية، وجمعة بنت حابس.

• ومن النساء من نبغن فى الطب وكن يداوين المرضى وبخاصة فى المعارك الحربية ومنهن: زينب طبيبة بنى أود وكانت تعرف الطب وتعالج العين والجراح.

وإن هذه الصورة المشرقة لمكانة المرأة فى الجاهلية لم تكتمل إلا بمجيء الإسلام الذى جعل حقوق المرأة من أسس الشريعة ومقاصدها، لأن المجتمع الجاهلى لم يعط المرأة حقوقها كاملة، وإنما كانت المرأة عند كثير من القبائل كما هو معروف فى التاريخ المدون الموثق، وكما صرح بذلك د. على الخطيب فى مقدمته لكتابه قائلا وهو يرصد مظاهر رفض المجتمع الجاهلى للمرأة فى كثير من الجوانب: إنها كانت فى الجاهلية تُملك ولا تَملك، وتورث ولا ترث، وتدفن حية عند بعض القبائل، ثم يضيئ المؤلف الوجه الآخر من هذه الصورة حينما بعث محمد ﷺ فأنار الكون كله بالعدل وشملته الرحمة، وأعطى الإسلام للمرأة حقوقها كاملة غير منقوصة فجعل لها حقًا فى الميراث، وحقًا فى اختيار شريك حياتها، وحقًا فى إبداء الرأى والمشاركة فى العمل السياسى، والخروج إلى العمل فى الوظائف العامة شريطة أن تخرج محتشمة غير متبرجة بزينة حتى لا يطمع فيها من فى قلبه مرض.

• وللدكتور على الخطيب رؤية مقنعة فى قضية «وأد البنات» حيث لا ينكرها، كما يزعم بعض المحدثين الذين يدعون التجديد فيغيرون الحقائق، ويشوهون وقائع التاريخ فالوأد ظاهرة موجودة وأشار إليها القرآن الكريم، ومما يؤكد كراهية بعض العرب للبنات وهن فى مهدهن

(١) انظر: المرأة بين الجاهلية والإسلام د.على الخطيب. وارجع إلى تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ أدب اللغة العربية

من جهود العالم المفكر د/ على الخطيب

أنهم كانوا لا يقيمون الموائد، إلا إذا ولد لأحدهم ذكر، أو أنتجت فرس، أو نبغ فيهم شاعر(١) والحقيقة كما يقول د. على الخطيب فى إنصاف واتزان وحياد، أن الوأد الذى وصم به العرب جاهليتهم لم يكن أمرًا عامًا، أو سائدًا ومنتشرًا فى الجزيرة العربية كما يتوهم بعض الناس، ولكنه كان فى مناطق محدودة، وعند قبيلة معينة مثل قبيلة ربيعة، وكندة، وتميم، فلو أن الأمر كان عامًا ما وجدنا امرأة فى الجزيرة العربية ولا نسلاً ولا ذرية، ويبدو أن هذا الأمر كما يرى د. على الخطيب كان موجودًا عند بعض الشذاذ فكريًا من العرب، ويدلل شيخنا الخطيب على هذا الرأى ببعض الشواهد الناطقة برفض بعض شيوخ العرب لهذا التصرف الجاهلى العبثى ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشى، حيث إنه كان إذا رأى رجلا هم بدفن ابنته يقول له: لا تدفنها وأنا أكفيك مؤونتها، ثم يأخذها حتى تشب عن الطوق ثم يقول لأبيها: إن شئت رددتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها.

وفى معرض المقارنة بين وضع المرأة فى الجاهلية ووضعها فى الإسلام، ركز المؤلف فى كل فصول كتابه على حقوق المرأة فى الإسلام، بعد أن رصد مكانتها فى الجاهلية وهى مؤرجحة بين الإنصاف والإجحاف، وبين المحافظة عليها والرفض لها، وبين تقديرها، وامتهانها.

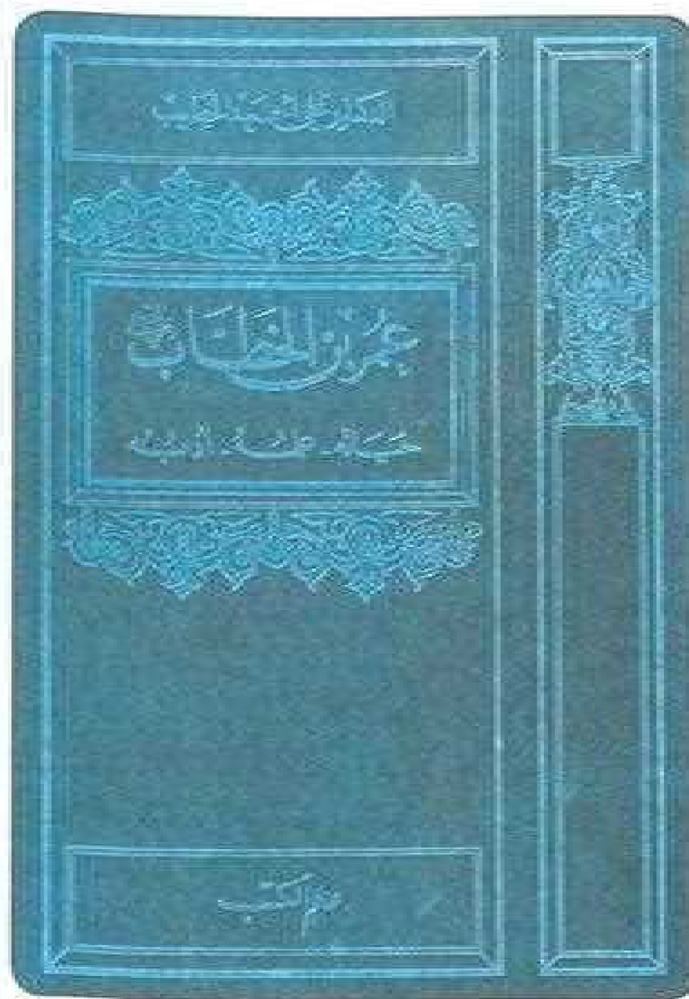
أما فى الإسلام فهى تتمتع بحقوق، وعليها واجبات، فى ضوء تعاليم الإسلام وأحكامه وهذه الحقوق فصل العلماء القول فيها، وساقها د. على الخطيب فى إيجاز ودقة وموضوعية مع الاتكاء على الأدلة العقلية والنقلية والمقارنة بين الأحكام الخاصة بالمرأة فى الشريعة اليهودية والشريعة الإسلامية. ، وكذلك المسيحية فى قليل من المواقف.

ومما يتسم به منهج د. على الخطيب فى الإقناع والاستدلال هو لجوؤه إلى القياس فى سياق الانتصار لرأى فقهى معين، وكذلك الاستشهاد بآراء العلماء الأجانب المنصفين، ومما يستدعى الانتباه والتدقيق فى آراء د. على الخطيب هو موقفه، من قضية تولى المرأة القضاء والمناصب السياسية، فقد أيد ذلك مستشهدًا بما قاله ابن جرير الطبرى: يجوز أن تقوم المرأة بوظيفة القضاء فى جميع الأحكام.

واستدل على ذلك بقول: أبى حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله، يجوز للمرأة أن تتولى القضاء فيما تصح فيه شهادتها، ولا يجوز لها أن تقضى فيما لا يصح فيه شهادتها، فلها كما يقول د. على الخطيب حق تولى جميع المناصب كعضو فى مجلس الشعب، ومحامية، ومدرسة، وطبيبة وغير ذلك من المناصب، . إن رقى المرأة واشتركها فى العمل السياسى إنما هو رقى لإنسانيتها وسمو أخلاقها ونهضة لمجتمعها ونصرة لدينها. . رحم الله شيخنا رحمة واسعة تقديرًا لما قدم لتراث العربية وللفكر الإسلامى من جهود خالصة لوجه الحق سبحانه إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) انظر العمدة لابن رشيق القيروانى لمزيد من التفصيل.

قراءة فى كتاب



بقلم/ أ: عادل خفاجة

روى الإمام أبوحنيفة - بسنده - قال:

كان عمر بن الخطاب - يطعم الناس بالمدينة - وهو يطوف عليهم - وبيده عصا - فمر برجل يأكل بشماله، فقال: يا عبد الله كل بيمينك، قال: يا عبدالله إنها مشغولة، فمضى ثم مر به، وهو يأكل بشماله، فقال: يا عبدالله كل بيمينك، قال: يا عبدالله إنها مشغولة، ثلاث مرات، قال: وما شغلها؟ قال: أصيبت يوم مؤتة، قال: فجلس عمر عنده - رضى الله عنه - يبكى، فجعل يقول له: من يوضئك؟ من يغسل رأسك وثيابك؟ من يصنع كذا وكذا؟ فدعا له بخادم وأمر له براحلة وطعام، وما يصلحه، وما ينبغى له، حتى رفع أصحاب محمد ﷺ أصواتهم يدعون الله لعمر - رضى الله عنه - مما رأوا من رقته للرجل واهتمامه بأمر المسلمين(١).

لقد كانت أمة جديرة بعمر، وكان عمر جديرًا بها، وتجلت صفاته العبقرية فيها، وحفظوه بالسمع والطاعة وحفظهم بمراقبة الله فيهم، فنزل من نفوسهم مكانًا رفيعًا، وتلك امرأة من أوساط شعبه تقفنا على ما فى قلبها لعمر:

حدث مالك - رضى الله عنه - بسنده:

«أن عمر بن الخطاب مر بامرأة مجذومة، وهى تطوف بالبيت، فقال لها: يا أمة الله، لا تؤذى الناس، لو جلست فى بيتك، فجلست، فمر بها رجل بعد ذلك فقال لها: إن الذى كان قد نهاك قد مات فاخرجى، فقالت: ما كنت لأطيعه حيًا وأعصيه ميتًا»(٢).

ثم كان - رضى الله عنه - عبقريًا شديد الذكاء لا يُخدع إلا نادرًا، ومن حيث يؤتى الكريم، له حافظة عريضة مستوعبة لمختاراته، لها مقدرتها على طرح محفوظها ومقارنته فى ذوق وافر، حساس بمواطن الفوق والجمال والنصفة الجميلة.

(١) الإمام محمد بن الحسن الشيبانى - الآثار ص ١٤٥، ١٤٦، وآثار الإمام أبى يوسف ص ٢٠٨.
(٢) موطأ مالك ١/ ٣٧١

ذكر عبقريته رسول الله ﷺ إذ قال عنه: (لم أر عبقريًا يفرى فريه) (٣).

أسباب تأليف الكتاب:

هذا الكتاب هو في الأصل بحث أعده المؤلف لنيل درجة الدكتوراه في «أدب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب»، عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م وكان من الأسباب التي دفعته لإعداد هذا البحث أن دراسة النثر لم يتم لها ما تم للشعر، يقول المؤلف:

ولما كانت دراسة النثر لم يتم لها ما تم للشعر، وخرجت من بحثي الأول، الذي أعددته للماجستير، وأنا - على يقين - من وجود نثر لعصر صدر الإسلام لا تعلق به الشبهات، لأن آثاره الأدبية قيض الله لها رجالاً التزموها بالحفظ والحيطة، ومنعوا منها الدخيل والموضوع، حتى خرجوا من ذلك بعلم ينفرد به المسلمون، أعني به علم الرواية: سندًا وخبرًا، كان معنى ذلك إمكان البحث في هذا النثر، وكان من توفيق الله لي أن أسهم بالدراسة في نثر هذا العصر، لا سيما وقد طرق الميدان أخ كريم هو الدكتور محمد رجب البيومي.. فدرس الأدب النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، فتناولت دراسة أدب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على مختلف ألوانه، آملاً أن أكون قد وضعت لبنة في الطريق إلى دراسة النثر في هذا العصر، وليكون في ذلك تمهيد لاتصال الدراسة إلى غيره من العصور.

ثم هو يرى أن أدب صحابي مثل عمر ليس كمثل أثر أدبي لابن العميد مثلا، فمع الأخير لا ننتظر منه أحكامًا تشريعية يطرحها للمسلمين، ولكن آثار عمر الأدبية كثيرًا ما تحمل تشريعًا، فإذا درسنا منه للأدب ما درسنا كنا في رضا عن فهم الحكم الشرعي الذي يتركه في نفوس الناس، سواء تناولناه بالبحث أم لم نتناوله.


د. علي الخطيب

مؤلف الكتاب:

هو صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور علي أحمد علي الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر الأسبق وقد عمل بمجلة الأزهر محررًا ثم سكرتيرًا للتحرير حتى أسندت إليه رئاسة التحرير في ربيع الأول ١٤٠٣ هـ الموافق ديسمبر من عام ١٩٨٢ ميلادية، وله العديد من المؤلفات نذكر منها:

- تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة، صدر هدية مع مجلة الأزهر بعدد محرم ١٤٠٤ هـ.
- الجوار صدر هدية مع مجلة الأزهر بعدد صفر ١٤١٥ هـ.
- مقدمة قبل هجرة النبي ﷺ صدر هدية مع مجلة الأزهر بعدد المحرم ١٤١٥هـ.
- الشرك في العقيدة الجاهلية، صدر عن دار اللواء للطباعة سنة ١٤٢١ هـ.
- الجنة ونساء مبشرات بها صدر عن دار اللواء للطباعة ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

وكان محبًا لمصر حتى دعاه هذا الحب أن يدعو لها قائلاً:

مصر العزيزة، جزى الله تعالى خيرًا كل من أحسن إليها ولا نال خيرًا قط كل من طعنها بسوء نال من خيراتها وأبنائها، فإن مصر لم تسئ حتى إلى أعدائها، فلا نال خيرًا من قصفها، فانقص منها، وكان هذا الدعاء في يوم ٢٣ من ذي الحجة من عام ١٤٢٩هـ والموافق ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٨م، قبل ثورة يناير فما عساه أن يقول بعد هذه الثورة!!

(٣) صحيح البخاري ٥ / ١٣

الكتاب:

يقع الكتاب في خمسمائة واثنتي عشرة صفحة من قطع ١٧ X ٢٤ سم وقد صدر عن عالم الكتب - بيروت في طبعته الأولى سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

وقد قسمه المؤلف إلى مقدمة وبابين، فأما الباب الأول بعنوان «حياة عمر وعلمه»، فيتكون من فصلين:

تكلم في الفصل الأول عن حياة عمر بين أبويه - مولد عمر - آل عمر - أزواج عمر - شخصية عمر - مواقف عمر في القرآن والسنة - إسلام عمر - عطاء الإسلام لعمر.. كما تكلم عن جهاز الحكم.. وأنواع العمل - وشروط العمل - وأسباب عزل العامل - كما تناول أيضًا أبرز أعمال عمر بعد جمع القرآن العظيم مثل تدوين التاريخ - والفتوحات الإسلامية.

فأوضح أن الخطاب كان فقيرًا في شطر من حياته استوعب طفولة عمر، وكان إلى ذلك فظًا قاسيًا لكنه كان شريفًا في قومه عاملاً من أجل سيادتهم غير مغمور النسب، لعز شرفه ووفور عرضه، ثم كان عليمًا بالنسب.

كما أشار المؤلف إلى أن عمر - رضي الله عنه - كما نال من أذى الخطاب في العمل نال من علمه في النسب، وأنه برغم الشدة القاسية التي مارسها الخطاب مع ابنه فقد كان عزيزًا عليه إلى درجة أنه كان يحلف به، ولم يترك عمر القسم بأبيه حتى نهاه عنه رسول الله ﷺ.

وتزوج عمر من عشرة نسوة وله منهن من البنات: حفصة ورقية وفاطمة وزينب ومن البنين: عبدالله وعبيد الله وعياض وعاصم، وزيد الأكبر والأصغر وعبدالرحمن الأكبر والأوسط والأصغر.. ونخلص من هذا الفصل إلى أن عمر كان له من الصفات الخُلقية والخَلقية ما يجعل منه شخصًا سويًا له قوة التأثير وبعد النظر، ونجاح القيادة العسكرية والسياسية وبراعة التدبير إلى جانب جمال العبارة وإحكام المنطق فكان بحق الحاكم القوي الأمين الذكي المهيب.

وكان على رحمته بالرعية صلبًا ضد متلاعب بواجبه أو مجاهر بمعصية أو مبتدع لفتنة، أو لشاعر أطلق لسانه في أعراض الناس، وشدته في ذلك كله لم تجاوز العدل أو تجمح إلى عدوان.

ولقد أعطى الإسلام عمر الكثير، ولولا إسلامه ما افترق عن أبي جهل في شيء، لكنه بإسلامه نال عطاء الإسلام في العقيدة التي أرست في نفسه قواعد المسئولية والجزاء في الخلق والسلوك فقد استأصل الإسلام منه خلقًا وعادة لا يتناسيان مع الإسلام.

وعلمه الإسلام كتاب الله، ووهبه تلمذة نادرة على يدي رسول الله ﷺ وانتهى به عطاء الإسلام إلى إمامة في الدين قائمة ما كانت الدنيا وكان المسلمون.

ولم يصرف المؤلف بحثه عن أدب عمر رضي الله عنه أن يتتبع سمات هذه الشخصية الفذة في الفاروق عمر فرأى فيه ذكاء مفرطًا وظفه صاحبه في خدمة قضايا المسلمين، يقول المؤلف في هذا الشأن:

«وتتبين ذكاءه في جوانب، منها استنتاجه الفقهي، وقضاياه كثير، وانتزاعه الحق في قضائه بغير إكراه وحواره مع اليهود، وموازنته لحديث محدّثه في بصيرة تطرح ما جانب الواقع، أو خالف الحق ونأى عن الصواب.

يصفه ابن عباس رضى الله عنهما بأنه:

«كان كالطائر الحذر، قد علم أنه قد نصب له في كل وجه حباله»(٤).

وكان في ذكائه إلهام، أشار إليه رسول الله ﷺ فقال: «لم يبعث الله نبيًا إلا كان في أمته محدث، وإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر قالوا: يا رسول الله كيف محدث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه (٥).

على أن هذه العبقرية بذكائها وإلهامها لم تمنعه أن يتهم الرأى على الدين (٦) وتلك ميزة يندر أن تكون في عبقرى، إذ الغرور مهلكة تجعل ذكاء المرء محسوبًا عليه، وقد سلم عمر من هذه الآفة، فكان وافر الدين - كما رآه رسول الله ﷺ.

ولذلك كان ينأى في دينه عن استقصاء يضر به:

عن عبدالرحمن بن حاطب رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص، حتى وردوا حوضا، فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضك السباع؟

فقال عمر بن الخطاب يا صاحب الحوض، لا تخبرنا، فإنا نرد على السباع وترد علينا»(٧).

وكان رضى الله عنه، على ذكائه الوافر لا يتبع هوى بل يستشير، ويقبل النصح، ويعترف بالخطأ، وتلك خصال شريفة تكشف عن جانب من أسباب توفيقه، ولا حرج عليه بعد أن يقول:

«الله يعلم إنى لصادق بار راشد تابع للحق»(٨).

وكفى بمدحه ﷺ له إذ يقول: «نعم الرجل عمر» (٩).

ويعقب المؤلف على هذا قائلاً:

وعندى أن هذا الذكاء الملهم الذى لا يغتر به صاحبه هو «البصيرة» التي هدت عمر إلى أمور وافقه عليها القرآن الكريم أو السنة المطهرة، وقد عرفت هذه الأمور بالموافقات، والتسمية بـ(موافقات) مشتقة من إطلاق لعمر نفسه:

١، ٢، ٣ -قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن «فنزلت هذه الآية».

«عمال عمر»

ويستوقفنا في هذا الفصل - أيضًا - ما كان لعمر من نظام لا يقل عن النظم الحديثة بحال من الأحوال وقد رصدها المؤلف في أناة وعرضها في يسر إذ يقول تحت عنوان: عمال عمر:

وهم من قامت بهم شئون البلاد وسارت بهم عجلة الحكم، وقليل منهم من ليس صحابيًا.

ويعتبر الصحابة من أسباب توفيق عمر، فهؤلاء عدول هذه الأمة وخير قرونها، يقول المؤلف:

وعمال عمر يمثلون جهازًا متنوع الاختصاص:

فمنهم - كما تقدم - القائد والحاكم.

ومنهم القاضي - مثل سلمان بن ربيعة الباهلي - رضى الله عنه - على الكوفة، وقيس ابن أبي العاص السهمي، رضى الله عنه - على مصر، وكعب بن سور بن بكر الأزدى - رضى الله عنه - على البصرة.

ومنهم صاحب بيت المال: كمعيقيب ابن أبي فاطمة الدوسي، رضى الله عنه - على بيت مال المدينة، وعبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - على بيت مال الكوفة.

ومنهم المساح، القائم علي مساحة الأرض كعثمان بن حنيف - رضى الله عنه - بالعراق والخارص، والعاشر والساعي والبريد.

وإذا وقع اختيار عمر على عامل كان له - ابتداء - أن يعمل أو لا يعمل. وفي بعض الأحوال يقبل عمر نوع العمل الذى يريده العامل ما دام أهلا له. فإذا قبل الرجل العمل كان عليه أن يقبل شروطه، وفي مقدمتها:

أ- تسجيل ما يملك كله إلى يوم توليه العمل.

ب- وألا يكون مترفا في عيشه ومظهره أو متخذا لنفسه حجابا من دون الناس.

جـ- وأن يعود المريض ويشهد الجنازة ما أمكن.

د- وأن يعلم الرعية دينها ويقيم شعائره، ولا يذلها بأمر أو تكليف ليس لها به طاقة.

وينبغي أن نلاحظ أن شروط العامل الأمير غير الشروط فيما سوى الإمارة - ضرورة تنوع التخصص واختلاف المسئولية.

وعامل عمر يحظى بأجر يرضاه، ويرفض عمر تنازل العامل عنه، استمدادا من تجربة شخصية له مع رسول الله ﷺ تحدث بها عمر عندما امتنع عامله: عبد الله ابن السعدى - رضى الله عنه - عن أخذ عمالته، فقال عمر: «لا تفعل فإني كنت أردت، فكان النبي ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة فقلت: أعطه أفقر إليه مني قال: فقال له النبي ﷺ خذه فتموله، وتصدق به، فما جاءك من هذا المال - وأنت غير مشرف، ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك...»(١٠).

وللعامل علاج إذا مرض، فقد عالج عمر معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي من جذام أو برص حتى توقف.

ثم يتحدث عن عزل عمر لعماله فيقول:

ثم يحدث ما يعرض العامل للعزل، وليس في مراجعي معزول لخيانة، فإن عمر عمّل صفوة الأمة، فإذا عزل فإنما عزل:

أ- لإقدام العامل على أمر خطير دون استئذانه، وقد أطاح هذا العمل بالعلاء بن الحضرمي -رضى الله عنه - إذ أقدم على غزو فارس من البر دون إذنه.

ب - ولتعرض العامل مع رعيته أو جزء منها لما يحرجه، وقد عزل - في هذه - الوليد بن عقبة، فقد أبى من بني تغلب النصارى إلا الإسلام، وكان فيهم عز وامتناع فلا زالوا

(٤) الجاحظ - البيان والتبين ٣ / ٢٦٦.
(٥) رواه الطبراني
(٦) مسند الإمام أحمد ١ / ٢٩٣
(٧) موطأ مالك ١ / ٤٦
(٨) صحيح مسلم ٥ / ١٥٢
(٩) صحيح الترمذي ٣ / ٢٠٥
(١٠) مسند الإمام أحمد ١/١٩٢

ينازعونه فتهددهم وبلغ تهديده عمر، فخاف عليه أن يجرحوه فيضعف صبره فيسطو عليهم فعزله وأمر عليهم غيره.

جـ- وعزل لوجود عامل أقوى من آخر.

د- وعزل - في اتهام حتى يتبين ما يسفر عنه التحقيق، وعزل في هذه المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه - وكان اتهم بالزنا - ثم برئت ساحته فاستعمله عمر بعد.

هـ- وعزل لرغبة الجماعة عزل أميرها دون عجز أو خيانة، وأصابت هذه سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه-

و- وعزل في العطاء للشعراء لغير الرغبة في إسكات ألسنتهم، وأفلت من هذه أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه- فقد أعطى إسكاتا لشاعر.

ز- وأعفى بعض العمال استجابة لرغبتهم، كما حدث لزياد بن حنظلة، والنعمان بن مقرن - رضي الله عنهما - ولم تكن تلك قاعدة مطردة، فقد يتمسك بالرجل ولا يعفيه.

وينبغي حين ندرس (العزل) عند عمر أن نلاحظ أن البعض استعمل اللفظ في غير ما يتبادر منه، فقد يصرف عمر العامل إلى جهة لأمر ما فيطلق البعض على ذلك عزلا وليس به، بل ليس في الأمر عجز ولا خيانة ولا مجرد خطأ، إنما هو نقل اقتضته المصلحة.

وأما الفصل الثاني وقد جاء تحت عنوان (علم عمر) فقد تناول فيه العديد من الموضوعات منها:

مصادر علم عمر، عمر والقرآن - القراءات - أسباب النزول- ... ثم تفسير عمر ومنهجه في التفسير وموقفه من الإسرائيليات، ومنها: المنحول على عمر في أسباب النزول.. نقد عائشة - رضي الله عنها - لعمر في بعض ما روى ومنها حذره من الرأي، ومنها علمه بآثار أهل الكتاب و علمه بالنسب ومنها علم القيافه وعلمه بالشعر مع كونه ليس شاعرًا وعلمه بأصول الجاهلية وصدر الإسلام وغيرها من الموضوعات.

ونلخص من هذا الفصل إلى أن عمر - رضي الله عنه - كان واحدًا من القلائل الذين محوا أميتهم، وأنه محا أميته على يد حرب بن أمية.

وأن خير فترات علمه تنظيما وتلقيا هي فترة لقائه برسول الله ﷺ الذي جمع بينه وبين عمر حب وتقدير، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالعلم.

ولم يتخذ عمر - رضي الله عنه - الرأي وسيلة في فهم الدين فكان في اجتهاده على حذر منه، يتهم الرأي على الدين، ويلجأ إليه بحذر شديد إذا أعوزه الدليل، ويسند الأمر فيه لنفسه حتى يرتد خطؤه إليه إذا كان هناك خطأ.

وكان له علم بالنسب وبالقيافة وبالشعر ولم يكن شاعرًا حفظ منه الكثير، حتى حفظ ما قيل منه ضد الإسلام، وكان يحس القيمة الجمالية للشعر، ويتذوقه، ويفطن لمواطن الجمال والقوة فيه ويبصر مطارح الإلهام في روحه، فكان له شاعرية في نفسه ولكنه لم يكن شاعرًا، ولا يثبت بيت ما نسب إليه.

ونتوقف في هذا الفصل الأخير من الباب الأول عند دفاع عمر عن السنة، إذ يقول المؤلف:

كان عمر حريصا على السنة مطواعا لها، وكان لديه منها علم يطمئن إليه، أعني به هذا الذي سعى إلى تحصيله بوسيلة فاصلة.

وكان - رضي الله عنه - يلتزمها، حتى التزم منها بعض ما ارتبط بسبب لم يعد له وجود، قال - رضي الله عنه - بشأن الرمل:

«فيم الرملان اليوم، والكشف عن المناكب، وقد أطأ الله الإسلام و نفى الكفر وأهله؟ مع ذلك، لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ...»

ومع حرصه الشديد عليها لم يجمعها، مع أن فكرة الجمع لم تغرب عنه، فقد: «... أراد أن يكتب السنن واستشار - فيها أصحاب رسول الله ﷺ فأشار إليه عامتهم بذلك. فلبث عمر شهرًا يستخير الله تعالى في ذلك.

ثم يقول:

وإذا كان عمر لم يجمع السنة، وصدر في ذلك عن استخارة، فقد التزم منهجًا محكمًا تتأدى به الرواية خير أداء تسلم به صحتها ولنر إلى أين سار في هذا الأمر؟

قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه-.

«... كنا في مجلس عند أبي بن كعب، فأتى أبو موسى الأشعري مغضبا حتى وقف فقال: أنشدكم الله، هل سمع أحد منكم رسول الله ﷺ يقول: الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع..؟

قال أبي: وما ذاك؟ قال: استأذنت على عمر بن الخطاب أمس ثلاث مرات، فلم يؤذن لي فرجعت، ثم جئته اليوم، فدخلت عليه فأخبرته أني جئت أمس فسلمت ثلاثا، ثم انصرفت قال: قد سمعناك، ونحن حينئذ على شغل، فلوما استأذنت حتى يؤذن لك؟ قال: استأذنت كما سمعت رسول الله ﷺ.

قال: فوالله لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتين بمن يشهد لك على هذا!!!

فقال أبي بن كعب: فوالله لا يقوم معك إلا أحدثنا سنا، قم يا أبا سعيد، فقمت حتى أتيت عمر فقلت: قد سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ثم انطلق أبي بن كعب - رضي الله عنه - فقال لعمر - معاتبا:

سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك - يا بن الخطاب فلا تكن عذابا على أصحاب رسول الله ﷺ!!.

قال عمر: سبحان الله، إنما سمعت شيئا فأحببت أن أتثبت.

وقال لأبي موسى: أما أني لم أتهمك، ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ.

وانطلق عمر - مرة - بعمرو بن أمية الضمري - رضي الله عنه - إلى عائشة أم المؤمنين ليتحقق أيضا صحة رواية لعمرو.

ورفض أمرا انفردت به فاطمة بنت قيس، رضي الله عنها. قالت:

طلقني زوجي ثلاثا، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة.

قال عمر: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ بقول امرأة لا ندري: صدقت أم كذبت. المطلقة - ثلاثا - لها السكنى والنفقة.

ويسجل المؤلف رأيه فيما انتهجه عمر رضي الله عنه إذ يقول:

وعندي أن هذا يفسر موقف عمر الوسط، فهو - وإن لم يدون السنة، لم يطلق العنان لروايتها، فحذره الناس، ثم زادهم فلعن من سأل عما لم يكن حتى لا يكون سبيل إلى سفسطة أو بحث عن حديث لأمر معين، فانتهى الأمر - إبان حكمه - بتداول الصحيح عن ثقة، قال معاوية - رضي الله عنه: «إياكم والأحاديث إلا حديثا كان في عهد عمر، فإن عمر كان يخيف الناس».

«يتبع»

طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

واعتصموا

يقول الله واعتصموا بحبلي
تفوزوا بالسلام وبالوئام
أبينا ما يريد لنا وهمنا
ورنى بالتفرق والخصام
يقاتل بعضنا بعضا ونمضي
نكيد لبعضنا كيد اللئام
فواعجبا لنا نأبى سلاما
لنا، ونهيم بالموت الزؤام

رسول الله.. أنا قادم إليك

قال نافع عن ابن عمر: أصبح عثمان بن عفان يحدث الناس، قال رأيت رسول الله ﷺ الليلة في المنام فقال: أفطر عندنا غدا فأصبح صائمًا وقتل من يومه قبل غروب الشمس!!

من أين لك هذا؟

أول من طبق عليه هذا القانون في زمن سيدنا عمر هو أبو هريرة -رضي الله عنه- إذ كان واليًا على البحرين، ولما عزله سيدنا عمر -رضي الله عنه- أحصى ثروته فإذا هي قد زادت زيادة كبيرة عما كانت عليه قبل توليته، فقال له عمر: أاستعملك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني عنك أنك ابتعت أفراسا بألف دينار وستمائة دينار.

فقال أبو هريرة: «كانت أفراس تناتجت، وعطايا تلاحقت»

قال عمر: «قد حسبت رزقك ومؤونتك، وهذا فضل فأده لبيت المال» قال أبو هريرة: «يا أمير المؤمنين»!: ليس لك وقد أغضب ذلك عمر فقال: «بلى والله لأوجع ظهرك، ثم قام إليه والدرة في يده فضربه حتى أدماه، ثم قال إئت بها».

قال أبو هريرة: «احتسبتها عند الله» قال عمر: «ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعا، أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين، ما رجعت بك أميمة (أم أبي هريرة) إلا لرعية الحمر»، وتقول الرواية: إن الخليفة عمر -رضي الله عنه- أراد أن يوليه المنصب ثانيا، فأبى أبو هريرة وقال: أخشى أن يشتم عرضي، ويضرب ظهري، وينزع مالي».

المنافق العليم

عن أبي عثمان النهدي، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر: «إياكم والمنافق العليم، قالوا: وكيف يكون المنافق عليمًا؟!! قال: يتكلم بالحق ويعمل بالمنكر».

سلني

دخل الخليفة المعتصم على رجل عالم في المسجد، وقال له: سلني، فقال العالم: إني أستحي أن أكون في بيته وأسأل غيره، فانتظر الخليفة حتى خرج العالم من المسجد، وقال له: أنت الآن خارج المسجد فسلني، فقال العالم: البيت بيته وخارج البيت ملكه، وإني أستحيي أن أطلب الدنيا من الله، فكيف أطلبها منك.

سلام على الدنيا

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا
فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة
وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه
ولا كل من صافيته لك قد صفا
ولا خير في خل يخون خليله
ويلقاه من بعد المودة بالجفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا

أتشتمني وفيّ ثلاث خصال

شتم رجل ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال ابن عباس: إنك تشتمني، وإن في ثلاث خصال: إني لأقرأ الآية في كتاب الله فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم من هذه الآية، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح ولعلي لا أقاضي إليه أبدا، وإني لأسمع بغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح ومالي به سائمة.

سيفي صارم.. ومعي لساني

دخل شريك بن الأعور على معاوية، وكان دميمًا، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما لله شريك وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك؟

فقال له: إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة فصغرت، فكيف صرت علينا أمير المؤمنين؟ ثم خرج من عنده وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن حرب
وسيفي صارم ومعي لساني
وحولي من بني عمي ليوث
ضراغمة تهش إلى الطعان

إياك

إياك ودمعة اليتيم: ودعوة المظلوم فإنها تسرى في الليل والناس نيام.

وقال عنترة بن شداد:

لا تسقني ماء الحياة بذلة
بل واسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم
وجهنم بالعز أطيب منزل
لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا
فالظلم آخره يأتيك بالندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

دعاء

اللهم إن مغفرتك أرجى من عملي، وإن رحمتك أوسع من ذنبي، اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين.

فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسى وأثره فى وحدة الأمة الإسلامية

متابعة الأستاذين:
رمضان ثابت - أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف ومؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم (التركية) برئاسة الأستاذ الدكتور فارس كانت فعاليات المؤتمر الدولى تحت عنوان: فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسى وأثره فى وحدة الأمة الإسلامية المنعقد بمركز الأزهر للمؤتمرات خلال الفترة من ١٦ - ١٧ ربيع الآخر ١٤٣٤هـ الموافق ٢٦ - ٢٧ فبراير ٢٠١٣ م.

فى افتتاح المؤتمر جاءت كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر والذى ألقاها - نيابة عن فضيلته الأستاذ الدكتور حسن الشافعى رئيس مجمع اللغة العربية وعضو هيئة كبار العلماء مرحبا بالسادة الحضور حيث قال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

«إن الوضع الطبيعى للأمة الإسلامية هى أن تكون أمة واحدة وفقا لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وإن عوامل الفرقة التى تأتى أحيانا من داخل نفوس المسلمين نتيجة لحب الذات وإيثار النفس، وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة الأمة العامة وقد يصل بهم الأمر إلى حد الاقتتال وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الحجرات: ١٠)

ثم قال فضيلته: «إن غيرنا سلك الطرق الصحيحة لوحدة أمتهم؛ بينما نحن لا زلنا فى صفوف المتفرجين» موضحا أن للوحدة المنشودة مستويات ثلاثة:

أولها: الوحدة الروحية الأخلاقية الثقافية وهى التى تحقق وحدة الشعوب.

وثانيها: الوحدة الاقتصادية والتكامل الاقتصادى وزيادة المعاملات المالية بين شعوب الأمة الإسلامية وهى التى تحقق وحدة المصالح.

وثالثها: الوحدة السياسية وهى الوحدة المنشودة التى تحقق لنا وحدة المصير.

وأشار فضيلته إلى أن وحدة العقيدة والدين ومحبة الرسول ﷺ تحقق للأمة الإسلامية وحدتها الروحية مؤكدا دور العلماء والمؤسسات العلمية ومنها الأزهر الشريف بفكره الوسطى فى نشر الوعى الدينى الصحيح بين شعوب الأمة الإسلامية.

كما أكد فضيلته ضرورة تحقيق الوحدة الاقتصادية الإسلامية باستثمار إمكانات الدول الإسلامية وتشجيع التجارة البينية وإقامة تجمع اقتصادى إسلامى على غرار التكتلات الأخرى التى لا يجمعها عوامل وحدة كالتى تجمع الأمة الإسلامية.

وبذا تتحقق بالتدريج وحدة المصالح ومن ثم وحدة المصير وهى الوحدة السياسية المنشودة سواء كانت خلافة إسلامية أم وحدة إسلامية، مشيرا إلى أن العبرة فى شريعة الإسلام تكون بالحقيقة والمعانى لا بالأسماء والمبانى.

ويختم فضيلته بسؤال وهو: «من الذى على استعداد أن يخلف هذه النظم لسيادة العالم؟»

هذا وقد استهلت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر بحضور كوكبة من العلماء والمفكرين والدبلوماسيين من مصر وتركيا ووفود من ٤٠ دولة من العالمين العربى والإسلامى وذلك فى العاشرة صباحا بآيات قرآنية تحض على الوحدة الإسلامية.

ثم أعقبها فيلم تسجيلى للتعريف بالإمام بديع الزمان سعيد النورسى الذى عاصر السلطان عبد الحميد الثانى - أواخر الدولة العثمانية - وجهاده ومؤلفاته المجموعة فى كليات رسائل النور، ومدى المنعطف الخطير الذى مرت به الأمة الإسلامية وقتذاك، والذى حاول فيه الأعداء اقتلاع جذور الإيمان من قلوب أبناء الأمة الإسلامية لدرجة وصلت بوزير خارجية بريطانيا آنذاك «غلادستون» أن يصرح فى مجلس العموم البريطانى مخاطبا نوابه قائلا: ما دام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم؛ لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به، وهنا هب بديع الزمان النورسى ليحمل هموم الأمة ويعلنها عالية خفاقة لمن حوله وللعالم قائلا: «لأبرهنن للعالم بأن القرآن الكريم شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها».

وتحدث الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية عن مكانة النورسى كمصلح ومجدد مثل رواد مدرسة التجديد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده واصفا بديع الزمان بأنه: «أحد من يمكن أن نهتدى بهم فى هذا العصر».

تلتها كلمة الأستاذ الدكتور صلاح سلطان أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التى قدم فيها التحية للأتراك وللإمام النورسى ومؤلفاته مذكرا بجهود الأتراك فى حمل عبء الدعوة إلى الله طوال قرون عديدة فى عهد الخلافة العثمانية، وطالب الجميع بضرورة الاستفادة العملية قبل النظرية من رسائل

النور للإمام النورسى والتى ظهر فيها الإبداع والإعجاز، وأخيرا لخص محاور الوحدة الإسلامية عند الإمام النورسى فى عشرة محاور منها الانتقال من الفتاوى الفردية إلى فقه المجامع الفقهية ومن الفرقة إلى الوحدة.

تبعتها كلمة الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل مفتى الديار المصرية الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء حول وحدة الأمة الإسلامية عند النورسى من خلال خلاصة مدارسته للقرآن الكريم والسنة النبوية والحياة المعاشة محتسبا إياه من الذين قال الله فيهم:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

(المجادلة: ١١)

واصفا بديع الزمان بالموسوعة الإسلامية الشاملة، إذ ترك خلفه أكثر من (١٢٠) رسالة علمية تتعلق بشتى أمور الحياة.

وكذا أشاد الأستاذ الدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر فى كلمته بالإمام النورسى كعلامة فارقة فى تاريخ تركيا فى القرن العشرين، وأنه ألف باللغتين التركية والعربية وترجمت مؤلفاته إلى أكثر من (٥٠) لغة فى العالم.

وصرح سيادته على هامش المؤتمر باعتزامه الموافقة على افتتاح فرع لجامعة الأزهر الشريف بتركيا تكون فيه مؤسسة إسطنبول هى الوسيط بين البلدين.

ثم جاءت كلمة المفكر الإسلامى الأستاذ الدكتور محمد عمارة عضو هيئة كبار العلماء ورئيس تحرير مجلة الأزهر والتى قال فيها: «إن الإمام النورسى بحر من بحار العلم، وعالم فى ميادين الإصلاح، والحديث عنه يطول ويطول ..ثم أكد الدكتور عمارة- أطال الله فى عمره ونفع بعلمه -صدق نبوءة النورسى فى جوابه للشيخ محمد بخيت المطيعى- رحمهما الله -والذى تنبأ فيه بأن «الدولة العثمانية حبلى بأوروبا وستلدها فى يوم ما، وأوروبا حبلى بالإسلام وستلده فى يوم ما».

وهو ما دلل عليه عضو هيئة كبار العلماء من خلال إطلالة حول معدلات انتشار الإسلام فى أوروبا والعالم حاليا بما فى ذلك: «فرنسا التى احتفلت بتشييع جنازة الإسلام فى سنة ١٩٣٠ م لتفاجأ اليوم بأن أعداد المسلمين فيها فى صلاة الجمعة ضعف أعداد المسيحيين فى قداس الأحد».

وكانت كلمة وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور طلعت عفيفى التى ألقاها نيابة عنه الدكتور عبده مقلد وكيل أول وزارة الأوقاف والتى أكد فيها على ضرورة الوحدة الإسلامية، مشيرا إلى التوافق الذى حدث قديما بين مصر وتركيا تحت رعاية الأزهر الشريف وعلمائه وطلابه، وكذا تحدث عن دور وزارة الأوقاف فى نشر الدعوة إلى الله بالفكر الوسطى المعتدل، والتقريب بين الشعوب من أجل وحدة المسلمين.

فى حين تتابعت كلمات العلماء الأجلاء بدءا بالأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء الذى أمتع الحضور بعرضه الشيق حول ضرورة الوحدة الإسلامية التى تجلت فى الأفكار الإصلاحية والأدلة القاطعة فى دفع الشبهات عند بديع الزمان النورسي، مطعما ذلك بالأشعار الإسلامية التى لاقت ترحيبا واستحسانا لدى الحضور.

وألقى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مختار المهدى رئيس الجمعية الشرعية كلمته فى السياق ذاته والذى أشار فيها إلى أن بديع الزمان النورسى ظهر بفضل الله فى وقت عصيب فأحيا الله به الأمم وشحذ به الهمم.

ثم تفضل الأستاذ الدكتور على جمعة عضو هيئة كبار العلماء بالحديث عن مولد بديع الزمان النورسى بقرية نُورْس جنوب شرقى تركيا وحياته ووفاته عن عمر يناهز ٨٣ عاما، وحذر من الاستعمار الذى نبش قبر النورسى بعد وفاته بأربعة أشهر - خوفا منه حيا وميتا - وأنه يسعى جاهدا وبكل السبل لتقسيم أمة الإسلام مرة أخرى، وطالب مصر وتركيا بالرجوع إلى الله والأخذ بنصائح النورسى فى هذا الصدد لمواجهة خطط الأعداء الرامية إلى تقسيم الدول إلى ٤٠٠ دولة بدلا من ٢٠٠ دولة تقسم فيه كل دولة من دولنا إلى ٤ دويلات.

واختتم الجلسة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي (مترجم رسائل النور إلى اللغة العربية) بدعائه أن يصلح الله الأمة الإسلامية ويجمعها على كلمة سواء، ووزعت الجوائز على المشاركين بحضور الأستاذ الفاضل محمد فرنجة أحد تلاميذ بديع الزمان النورسي.

كان هذا فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر، فيما دارت باقى جلسات المؤتمر- على مدار يومين شارك فيه لفيف من الأساتذة والمفكرين بأبحاث متنوعة حول:

فكر بديع الزمان النورسى ومنظوره لمفهوم الأمة الإسلامية، ومصطلح الإيمان ونموذج الفرد المؤمن، وأهمية العمل الإيجابى فى حياة المسلمين، وكذا عرضت مصادر التلقى لدى بديع الزمان وموقفه من مسألة التصويب وتعدد الحق والغزو الثقافى والنزاع بين السنة والشيعة، وأثر النورسى فى وحدة الأمة الإسلامية، وكيفية تشخيصه لأمراض الأمة التى تحول دون وحدتها وأسباب ذلك، والسبل الناجعة لعلاجها من خلال رسم خارطة طريق نحو الاتحاد الإسلامى.

وقبل الختام ألقى رئيس مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم الأستاذ الدكتور فارس قايا كلمة شكر وتقدير للجميع ووعد بتعلم اللغة العربية للحديث بها فى المرة القادمة.

وهذه بعض توصيات المؤتمر:

أولا: توجيه الشكر لمصر ومؤسساتها الدينية وعلى رأسها الأزهر الشريف على استقبال هذا المؤتمر العالمى.

ثانيًا: التأكيد على ضرورة نشر ثقافة الانتماء للأمة الإسلامية بين الجميع.

ثالثًا: التأكيد على ضرورة جلب الأبعاد الوظيفية للانتماء للأمة الإسلامية.

رابعًا: حث الأمة على تجاوز أزمتها ومحنتها الخاصة بقضية الوحدة.

خامساً: ضرورة الاستفادة من التطبيقات والتعليمات الخاصة التى وردت فى رسائل النور للعالم الكبير بديع الزمان النورسي.

سادسًا: ضرورة تنمية المكونات الفكرية والثقافية بين أبناء الأمة الإسلامية.

وفى الختام تسلم المشاركون الجوائز وشهادات التقدير.

وللحصول على نسخة إلكترونية من أبحاث المؤتمر يمكن الدخول على الرابط التالي: http://www.iikv.org/academy/index.php/conferences/issue/view/56

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

الخوف والرجاء

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ أحمد سعيد منصور بحيرى - عضو نقابة القراء القاهرة - قليوب البلد - قليوبية - يقول:

قال الله تعالى:

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

(الحجر: ٤٩، ٥٠).

وفى الحديث القدسى الذى رواه أبوهريرة يقول الله تعالى: «وعزتى لا أجمع على عبد أمنين، ولا أجمع له خوفين، إذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة».

ياعباد الله: إن الله عز وجل واسع الرحمة، عظيم المغفرة، حليم ستير، عفو لم يؤيس عباده من رحمته وعفوه، وقد فتح باب الرجاء على مصراعيه، لكل قلب منيب وفؤاد نادم، ولنتدبر قوله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

(الزمر: ٥٣، ٥٤).

وقد جاء فى حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة». أى الرجوع إلى الله بالتوبة مع الإخلاص.

فتح الله باب القبول لكل تائب ولم يحجب -بفضله- مغفرته وعفوه عن النادم.

فينبغى للعاقل أن يستحضر عظمة الله دائمًا، ويخشاه فى السر والعلن، فعلمه محيط، وغضبه شديد، يملأ قلوب الخائفين من غضبه أمنًا، ويعوض النادمين الآسفين على ما كان منهم بمحو السيئات، ويغفران الذنوب وقبول التوبة ورفع الدرجات، ولنتدبر ما يقوله الرب عز وجل فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذر: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم».

وهذا من رحمة الله بالعباد، فقد سبقت رحمته غضبه، وفى الحديث القدسى يقول رب العزة: «إن رحمتى غلبت غضبى».

فالمؤمن حقًا هو الذى يخاف ربه، ويرجو رحمته وعفوه، فالخوف من الله هو اللجام القامع عن المعاصى، وسببه معرفة شدة عذاب الله، ويسمى خشية ورهبة وتقوى، فالمؤمن يخاف من ذنوبه، ويخشى الخاتمة وترهبه سوابقه والخوف ويبعث العبد على الانكسار والتواضع والعفاف، كما يبعثه على اتقاء الشبهات والبكاء أو التباكى..

أما الرجاء فسببه معرفة سعة رحمة الله، ويسمى طمعًا ورغبة، وينبغى أن يكون الخوف والرجاء معتدلين، فإن الخوف إذا فرط قد يجر صاحبه إلى اليأس من رحمة الله، وهو حرام، إذا أفرط المرء فى الرجاء قد يجره ذلك إلى الأمن والغرور، وهو حرام وإن كان جانب الخوف ينبغى أن يغلب على المرء فى شبابه وأيام قوته ونشاطه، وفى الحديث القدسى: «ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل، وكيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى».

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة «لو يعلم المؤمن ما عندالله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته».

فالعارفون بالله تسكن نفوسهم، وتطمئن قلوبهم عندما يذكر عفو الله ورحمته وحلمه ومغفرته قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(الرعد: ٢٨).

فالقلوب المؤمنة تسكن وتطمئن من حيث اليقين بالله، وحسن الظن به، والثقة بوعده للصالحين والعاملين فإن الله بفضله وإحسانه لا يضيع أجر من أحسن عملا وإن كان هؤلاء العارفون فى الوقت نفسه يخافون الله، ويخافون سطوته وعقوبته، وكلما ازدادت معرفتهم قوى خوفهم، هؤلاء كما وصفهم الله عز وجل هم المؤمنون حقًا، وذلك لقوة إيمانهم، ومراعاتهم لربهم، وخوفهم منه كأنهم بين يديه.

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(الحج: ٣٤، ٣٥).

فهم مع طمأنينة القلب ثقة بما عند الله من الرحمة والعفو، يعيشون على خوف ووجل من غضبه وعذابه.

روى العباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها».

وقد وعد الله فى كتابه العزيز أهل الخشية والخوف والمراقبة بالمغفرة والنعيم الدائم والرحمة الشاملة ولنسمع قول الله عز وجل يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

(الملك: ١٢).

ما السعادة؟

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابي تتضمن ما يلي:

- السعادة الانتصار على العقبات، ومغالبة الصعاب، فلذة الظفر لا تعدلها لذه. وفرحة النجاح لاتساويها فرحة.

- السعادة في التضحية وإنكار الذات، وبذل الندى وكف الأذى، والبعد عن الأنانية.

- السعادة هي العبادة، والصلاح هو النجاح، ومن لزم الأذكار، وأدمن الاستغفار، وأكثر الافتقار فهو أحد الأبرار.

- السعادة أن يكون مصحفك أنيسك، وعملك هوايتك، وبيتك صومعتك وكنزك قناعتك.

- السعادة انجلاء الغمرات، وإزالة العداوات، وعمل الصالحات، والانتصار على الشهوات.

- السعادة مفتاحها الابتسامة، وبابها الحب، وحديقتها السرور، ونورها الإيمان، وجدارها الأمن.

- السعادة هي أن تصل النفس إلى درجة كمالها، والفوز أن تجد ثمرة أعمالها، والحظ أن تخدمه الدنيا بإقبالها.

- السعادة سلامة القلب من الأمراض العقدية كالشك والسخط والاعتراض والريبة والشبهة والشهوة.

- السعادة في عيادة المريض، وإعطاء الفقير، ورحمة اليتيم، والإحسان إلى الناس.

- السعادة التزام السنة، والاقتصاد في الطاعة، والبعد عن الغلو، والتمسك بالوسطية.

- السعادة ليست في الحسب ولا النسب ولا الذهب، وإنما في الدين والعلم والأدب وبلوغ الأرب.

مشكلة سب الدين

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ شعبان عبدالعال إبراهيم خليفة - المنيا/ بني حسن الشروق تتضمن ما يلي:

لقد كثرت في الآونة الأخيرة سب الناس بعضهم بعضًا ومما هو مؤسف ومحزن للغاية يحدث السب بالدين والعياذ بالله.

وعن أبي عبدالرحمن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه». رواه مالك في الموطأ والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك: فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت أعوججنا» رواه الترمذي. معنى «تكفر اللسان»: أي تذل وتخضع.. وإني أهيب بالشباب أن يتقوا الله ويصطلحوا معه..

بين الصحف والمجلات

للأستاذ: محمد جمعة

بالأسماء.. تخريج أول دفعة من مراجع الشيعة في مصر

تحت هذا العنوان جاء التقرير الإخباري المنشور بجريدة المصريون الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/٢/١٣م يتضمن مايلي:

علمت "المصريون" أن المراجع الشيعية الإيرانية قامت بتخريج جيل كامل من المتشيعين المصريين ليصبحوا وكلاء المذهب الشيعي في مصر، تمهيدًا لتأسيس أول مرجعية لهم في البلاد، ويبلغ عددهم أكثر من ٥٠ شخصية، وكانوا قد سافروا إلى إيران سرًا عبر سوريا والعراق هربًا من تتبع الأمن لهم، ثم حصلوا على دراسات عليا بالحوزات العلمية الإيرانية بمدينة "قم"، بعدما تعلموا العلوم الشرعية على المذهب الشيعي الاثنى عشرية ليصبحوا وكلاء لهذا المذهب في مصر، وتدرج هؤلاء الشباب في العديد من المراحل العلمية والتي تتمثل في مراحل: سطح المقدمات، وسطح المتوسط، وسطح الخارج، وإذا كان الطالب لا يزال في مرحلة سطح المقدمات، فهو إما طالبًا وإما مبتدئًا، وتلي مرحلة الطالب المبتدئ مرحلة "ثقة الإسلام": وهي درجة علمية تمنح لمن تخرج من سطح المقدمات والتحق بالمتوسط، ثم تليها درجة "حجة الإسلام" إذا التحق بسطح الخارج ثم أنهى دراسته يصبح حجة الإسلام، وإذا أجيز للاجتهاد فإنه يحمل لقب "آية الله"، ثم يدخل مرحلة "آية الله العظمى" إذا بدأ يمارس تدريس البحث الخارج في حلقات الدرس مع وجود الشهادات بالمرجعية من "المراجع العظام"، والذي يشترط لحصولها أن يكون رجلا بالغا عاقلا.

ويعد هذا تطورًا بالغًا في محاولة الشيعة اختراق مصر بعد أن حذرت أكثر من جهة من محاولات شيعية للتوغل في المجتمع المصري ونشر المذهب الشيعي استغلالا لتعلق المصريين بحب آل البيت.

غير أن أغلب رموز المتشيعين في مصر لا يتقلدون مراجع أو درسوا في مراجع إيرانية، ومنهم من حصل على درجة "المعمم" في علم الفقه الشيعي – وهي درجة علمية رفيعة تسبق درجة "المرجعية" مباشرة حيث يتدرج طالب العلم في مراحل التعليم الحوزي الثلاثة – ليصبح من أتباع المذهب الجعفري الاثنى عشري في كل المسائل التي تتعلق بالدين والدنيا ويقلدونه.

ولا يتعدى عدد هؤلاء المراجع أصابع اليدين في العالم كله لصعوبة الوصول إلى تلك الدرجة العلمية الرفيعة من العلم الديني والدنيوي، في حين، وصل عدد من الطلاب المصريين إلى درجة "المعمم" وفي مقدمتهم الشيخ حسني مسعود الذي تخطى المرحلة الوسطى ليصبح شيخا "معمما" مؤهلا لبحث الخارج وهو بداية طريق المرجعية. وخالد محيي الدين الحليبي الذي سافر إلى مدينة قم الإيرانية ثلاثة مرات لدراسة العلوم الشرعية الشيعية هناك، كما درس إسلام الرضوي، في مرجعية "قم" ونال حظا كبيرا من التعلم على يد مراجعها وشيوخها وعلمائها.

وقال الرضوي: إن درجة "المعمم" هي إلباس الدارس بالحوزة العلمية "العمة" وهو ما يعني أنه يجوز لصاحبه تدريس مبادئ المذهب الشيعي، مشيرا إلى أن الكثير من الشيعة وصلوا إلى درجة التعميم، وهم قليلون جدا ومعروفون وسط الشيعة فيما لا يعرفهم أحد من العامة.

وقال القيادي الشيعي محمد غنيم – مؤسس التيار الشيعي المصري: إن إيران تسعى لإعداد دعاة

شيعة، ولكنها تفضل أن تكون المرجعيات فقط في إيران حتى تنفرد بهذا الأمر، مشيرًا إلى أن أبرز هؤلاء هو السيد الدرغامي الذى تلقى العلم فى الحوزات الشيعية بإيران.

وأوضح أن الطلبة المصريين الذين يسافرون إلى إيران لإعدادهم كدعاة شيعة يسافرون بطريقة سرية، ومنهم من يسافر إلى سوريا والعراق، لعدم تعقبهم من الجهات الأمنية.

وتوقع أن تزداد رحلات العلم الدينية إلى إيران خاصة بعدما أعلن وزير الخارجية الإيراني، علي أكبر صالحي، أن طهران ستلغي التأشيرات بالنسبة للتجار والسائحين القادمين من مصر إلى أراضيها.

وقال محمود حامد، المتحدث باسم التيار الشيعي: إن عدد المصريين المعممين الذين تقلدوا العمامة على يد مراجع إيرانية ليس قليلا، لافتا إلى أن شروط الالتحاق بالحوزة العلمية التي يتخرج منها مشايخ المذهب الشيعي، ألا يقل سنه عن ٢٠ عامًا، وهناك استثناء لمن يحفظ القرآن الكريم كاملا، ويجب أن يكون قد أنهى دراسته بمؤهل متوسط، موضحًا أن هناك حوزات تشترط المؤهل الجامعي.

وأضاف: أن الوصول إلى درجة "معمم" قد يأخذ ١٠ سنوات، لأن طالب الحوزة قد يأخذ عامين في دراسة "المقدمات"، وبعدها يستغرق من ٨ إلى ١١ عامًا أو أكثر في دراسة "السطوح"، فيما يأخذ "بحث الخارج" وقتا طويلا ولا يصل إلى هذه الدرجة سوى عدد قليل وهم المعروفون بـ "آية الله العظمى".

مرشد إيران يطالب الرئيس المصرى بتبنى تعاليم الخمينى فى بناء الدولة

نشرت جريدة الشرق الأوسط بعددها الصادر في ٢٠١٣/٢/١٦م تقريرًا إخباريًا جاء فيه:

طالب (المرشد الأعلى) الإيراني على خامنئى الرئيس المصرى محمد مرسي بتبني (النموذج الإيراني) والانضمام إلى طهران في (بناء الحضارة الإسلامية الجديدة)، استنادًا إلى تعاليم الإمام الراحل آية الله الخميني، وتأتي دعوة خامنئى للرئيس المصرى في شكل خطاب مكون من ١٢٠٠ كلمة، وتم التوقيع عليه بالنيابة عن الخميني من قبل مستشاريه المقربين البالغ عددهم ١٧، بمن في ذلك (مستشار شئون السياسة الخارجية للمرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية).

ويبدأ الخطاب بتوجيه التهنئة لمرسي بمناسبة الذكرى السنوية الثانية لـ(الثورة المصرية) وانتخابه رئيسا للبلاد. ويقول الخطاب: إن إيران قد أصبحت (تحت ولاية الفقيه) (واحدة من أكثر دول العالم تقدمًا) في مجموعة من المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية.

ويشير الخطاب إلى أن "الحق في حكم المجتمعات البشرية يعود إلى الله ورسوله وأهل البيت، كما يؤكد على أن أفضل مسار في الحياة هو الذى يكون مستوحى من ولاية الفقيه.

ويضيف الخطاب أن الخميني كان فيلسوفا عظيمًا وعالمًا ذا مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي، ولذا فإنه يتعين على المسلمين في كل مكان اتباع تعاليمه، ولا سيما فيما يتعلق بـ(الحرب بلا هوادة ضد الصهيونية والغطرسة العالمية). ويشير الخطاب إلى أن الغرب نفسه يحاول الآن العودة إلى طريق الإيمان، مؤكدًا أن (السبب في العودة إلى الإيمان هو المأزق الناجم عن النمو والتربية من دون الدين).

ويعد الخطاب بأن (المفكرين الإسلاميين الإيرانيين على استعداد لتقديم قدراتهم العلمية المتاحة للحكومة المصرية النبيلة وشعب مصر العظيم)، ويوجه الخطاب حديثه إلى مرسي قائلا: (نظرًا لأنك تتمتع بقدر كبير وعميق من الإيمان والفلسفة والفكر، ولأنك على رأس دولة قد ورثت الحضارة الإسلامية، فإننا نحثكم على أن تقيموا حكومتكم بناء على الإسلام فقط، ويتعين عليكم أن تتجاهلوا الضغوط الدولية وتأثير ما يسمى بالمثقفين الذين يبحثون عن فصل الدين عن

السياسة).

ويضيف الخطاب أن (مصر الجديدة) يجب أن تبني وفقًا لتعاليم الإسلام، كما وردت في النموذج الإيراني للتنمية، مشيرًا إلى أن كافة الصراعات الدولية يمكن حلها عن طريق التعاليم الدينية، ولا سيما الإسلامية منها. ويضيف الخطاب: (لا يمكن للمواقف الإنسانية أن تقدم حلولا كاملة للاحتياجات الروحية والمادية للبشر).

ويرى محللون سياسيون أن هذا الخطاب يعكس سعي إيران الحثيث لإيجاد موطئ قدم لها في مصر. ودائمًا ما تزعم وسائل الإعلام الإيرانية الرسمية أن (الربيع العربي) كان، في الواقع، بمثابة (الصحوة الإسلامية) المستوحاة من تعاليم الخميني وقيادة خامنئي، ومع ذلك، تكمن المشكلة في أن جميع بلدان (الربيع العربي) ليس لها علاقات دبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية.

ووفقا للرئيس الإيراني محمود أحمدى نجاد فإن محتوى هذا الخطاب قد نوقش في جميع لقاءاته في مصر، بما في ذلك اللقاء الذى حضره في الأزهر، وتحدث نجاد في طهران قائلا: إن بعض خطابات خامنئي باللغة العربية قد (أسيء فهمها) في مصر، وإنه حاول (توضيح الأمور)، ويريد أحمدى نجاد أن يقوم خامنئي بتخفيف حدة ادعائه بأنه يقود العالم الإسلامي برمته، وأن يرضى بمكانة أكثر تواضعا كـ(مرشد أعلى).

وعلى هذا الأساس، قد يكون هذا الخطاب الموجه إلى مرسي بمثابة هجوم مضاد من قبل خامنئي الذى يشعر بالانزعاج من الانتقاد الضمني الموجه إليه من قبل أحمدى نجاد، ويمكن أيضا أن ينظر إلى هذا الخطاب، الذى أثار ضجة كبيرة في طهران، على أنه محاولة لمواجهة كل الأحاديث المثارة حول تأثير (النموذج التركي) على البلدان التي اجتاحها ما يسمى بـ"الربيع العربي".

صناعة الجنس على الإنترنت تدر ٢,٨٤ مليار دولار سنويًا في الولايات المتحدة

تحت هذا العنوان جاء التقرير المنشور بجريدة المدينة الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/٢/٢٢م يتضمن ما يلي:

قالت صحيفة «أوبزرفر» البريطانية: «إن ٤٠ مليون أمريكي يشاهدون هذه الأفلام، وإن صناعة الجنس على الإنترنت تدر ٢,٨٤ مليار دولار سنويًا في الولايات المتحدة، ويعتقد أن هذه الصناعة تدر على مستوى العالم ضعف الرقم المذكور. وأوضحت الصحيفة أن ٢٥٪ من عمليات البحث في الإنترنت تدور حول كلمة «جنس»، وأن يوم الأحد هو أكثر أيام الأسبوع مشاهدة للأفلام الإباحية». وذكرت الصحيفة أن «حوالى ٢٠٪ من محتوى الإنترنت إباحي، ومتوسط سن التعامل مع المحتوى الإباحي هو ١١ سنة».

وفي نفس السياق تدرس بريطانيا احتمال حظر المواقع الإباحية على الإنترنت لتحذو حذو أيسلندا؛ بسبب مخاوف قوية بشأن تأثير الأفلام الإباحية على الأطفال والنساء، وعلاقتهن بالرجال.

وأضافت الصحيفة في تقرير نقله موقع «بي بي سي» أن «وزارة الداخلية في أيسلندا تعكف حاليا على صياغة قانون خاص بحظر الأفلام الإباحية، بعدما أظهر التشاور مع مسئولي الشرطة، والتربية، والصحة، أن ثمة مخاوف قوية بشأن تأثير الأفلام الإباحية على الأطفال والنساء وعلاقتهن بالرجال، ومشروع قرار الحظر سيؤجج على أقل تقدير النقاش على المستوى الوطني بشأن هذه المسألة رغم أنه سيسبب مشكلات خاصة به». ونقلت الصحيفة عن أكاديمية بريطانية أمريكية تدرّس في إحدى كليات بوسطن، تدعى الدكتورة جيل داينز قولها: إنها تعتقد أن «بريطانيا ستحذو حذو إيسلندا وتخضع الأفلام الإباحية لعمليات الغربلة». وأضافت قائلة: «تحدثت مع ممثلي الجمعيات الخيرية في بريطانيا ومع المتخصصين في هذا المجال، إنهم يرون ما يحدث. لا يمكن ترك الأمر للآباء، والأفلام الإباحية تؤثر «سلبا» على الحياة الجنسية لشبابنا». ونقلت الصحيفة عن وزير الداخلية الأيسلندى قوله: «إن الأفلام الإباحية تقوض مساواة النساء بالرجال وحقهن في أن يعشن بمعزل عن العنف».

أنبـاء الأزهـر

إعداد الأستاذين: محمود الفشني - عبدالمنعم محمد أمين

تنويـه

نشرت مجلة الأزهر فى عددها رقم ٤ الصادر فى ربيع الآخر لسنة ١٤٣٤ هـ مقالاً افتتاحيًا بقلم رئيس تحريرها الأستاذ الدكتور محمد عمارة عنوانه (إنه دستور مصر الكنانة - مصر الأزهر الشريف) وقد تضمن المقال آراء سياسية فى دستور جمهورية مصر العربية تعبر عن وجهة نظر صاحب المقال ولا تعبر عن وجهة نظر الأزهر ممثلاً فى هيئة كبار العلماء ومجمع البحوث الإسلامية، وفى هذا السياق يؤكد الأزهر على استمرار اضطلاعه بدوره الوطنى بمنأى عن الانخراط فى دهاليز السياسة ومزالقها.

الإمام الأكبر يناشد مختطفى الرهينة النمساوى باليمن إطلاق سراحه

أبدى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، استياءه لحادث الاختطاف الذى تعرض له الشاب النمساوى ديمونيك نوبور فى اليمن فى الحادى والعشرين من فبراير على أيدى بعض العناصر الإجرامية هناك.

جاء ذلك خلال لقاء فضيلة الإمام بسفير النمسا الجديد بالقاهرة الدكتور فريدناند مولتاستشى الذى نقل لفضيلة الإمام طلب بلاده التدخل بشأن الشاب النمساوى المختطف فى اليمن، معربًا عن تقدير دولة النمسا للأزهر الشريف وإمامه الأكبر، للدور الفعال الذى يقوم به فى العالمين العربى والإسلامى.

وناشد فضيلة الإمام المختطفين سرعة إطلاق سراحه، حرصًا على حياة هذا الشاب البرىء الذى أمنه المجتمع اليمنى المسلم حين منحه الأمان بتأشيرة الدخول، مؤكدًا على أن الإسلام حرّم اختطاف الناس وترويع الآمنين، أيا كان شكل هذا الترويع، وأن شريعة الإسلام تبرأ ممن يرتكبون هذه الجرائم المنكرة.

ودعا الأزهر المختطفين أن يرجعوا إلى الحق وإلى القرآن الكريم وأحكامه، وألا يسهموا فى ازدياد تشويه صورة العرب والمسلمين أمام العالم، آملا سرعة الاستجابة لهذا النداء الإسلامى والإنسانى.


د. أحمد الطيب

الإمام الأكبر: مناقشة حقوق المرأة يجب أن يتم فى إطار الثوابت الإسلامية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ شيخ الأزهر أحمدالطيب وفدًا نسائيًا من سيدات مصر المهتمات بالشأن العام المصرى بوجه عام، وحقوق المرأة المصرية بوجه خاص.

ورحب الإمام الأكبر بالوفد، معربًا عن سعادته بإيجابية المرأة المصرية، ومشاركتها الفاعلة فى كل ما يتصل بمصر فى الظروف الراهنة.

وأشار فضيلته إلى أن وثيقة المرأة تأتى ضمن عدة وثائق أصدرها الأزهر الشريف بروح وطنية بعيدًا عن الشأن السياسى، كعادته فى عدم التدخل فى هذا المضمار فذلك ليس مجاله، وأن أهم أولوياته تمثل فى البحث عن المصالح العليا للوطن والمواطن، مشيرا إلى أن الأزهر تلقى عددًا من الملاحظات الخاصة بالمرأة المصرية على مشروع وثيقته التى أصدرها، وتتم الآن عمليةمراجعتها وتضمينها تلك الملاحظات مع ذوى الرأى والاختصاص من علماء الأزهر الشريف.

السيرة الذاتية للدكتور شوقى إبراهيم علام

قامت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بترشيح الدكتور شوقى عبدالكريم علام، أستاذ الشريعة والقانون بجامعة الأزهر فرع طنطا، مفتيًا جديدًا للديار المصرية، بعد حصوله على أكثر الأصوات فى اقتراع سرى ضمّ إلى جانبه الدكتور عطية السيد السيد فياض، أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر، والدكتور فرحات عبدالعاطى سعد أبو وطفة، أستاذ الفقه بكلية الشريعة والقانون.

ومن خلال دراساته وكتبه وأبحاثه العديدة نجح علام وبشكل عملى فى الربط بين القانون الجنائى والفقه الشرعى الإسلامى.

وخلال السطور التالية نقدم السيرة الذاتية للدكتور شوقى إبراهيم، والتى أهلته للحصول على أكثر أصوات هيئة كبار العلماء للترشيح لمنصب مفتى الديار المصرية.

و د. شوقى إبراهيم عبدالكريم علام أستاذ ورئيس قسم الفقه بكلية الشريعة والقانون بطنطا، جامعة الأزهر، من مواليد عام ١٩٦١م، وبالتحديد فى الثانى عشر من أغسطس.

وحصل علام على العديد من المؤهلات العلمية وهى الإجازة العالية (الليسانس) فى الشريعة

والقانون سنة ١٩٨٤م من كلية الشريعة والقانون بطنطا، جامعة الأزهر بتقدير جيد جدًا، ثم (الماجستير) في الفقه من كلية الشريعة والقانون بالقاهرة سنة ١٩٩٠م بتقدير جيد جدًا، وأخيرًا (الدكتوراه) في الفقه من كلية الشريعة والقانون بالقاهرة سنة ١٩٩٦م بتقدير مرتبة الشرف الأولى، ثم أعير إلى معهد العلوم الشرعية بسلطنة عمان من سنة ٢٠٠١م إلى ٢٠١٠م.

الطيب لوفد جبهة دعم الأزهر:

لا نمارس السياسة ومبادراتنا تنطلق من الواجب الوطني

شدد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر على أن الأزهر سيظل بعيدًا عن السياسة؛ فهو لا يلعب دورًا سياسيًا، بل تنطلق مبادراته وأفكاره من الواجب الوطني، لافتًا إلى أن الفكر الإسلامي يسع كل التيارات والأفكار الوسطية.

واستعرض فضيلته خلال لقائه بوفد من مؤسسي جبهة إنقاذ الأزهر صباح يوم الخميس ١٤ فبراير ٢٠١٣م دور الأزهر في السنوات الثلاث الأخيرة، وما بذله من مجهودات في شأن إصلاح التعليم في مراحله المختلفة، للعودة بالمنتج البشري إلى مكانته المرجوة، مشيرًا إلى تجربة الشعبة الإسلامية في عشر محافظات، وتحسين أوضاع المعلمين المالية، وعقد الاتفاقيات مع الجامعات البريطانية ليكفل معرفة الأزهريين باللغات الأجنبية لتنمية قدراتهم.

كما أشار فضيلة الإمام إلى أن الأزهر يعكف حاليا على اختيار وتدريب مجموعات من الوعاظ ليقوموا بعرض الإسلام الصحيح على الناس، مبديًا استعداد الأزهر لإرسال قوافل دعوية تجوب المحافظات والقرى، بالتنسيق مع الجهات المعنية، وطبع كتابين شهريًا، بالتوازي مع تطوير مجلة الأزهر لمواجهة الأفكار المتشددة.

من جانبه هنأ عزيز أباظة - رئيس الوفد- الأزهر وهيئة كبار العلماء باختيار المفتي الجديد، ثم عرض فكرة إنشاء الجبهة، لافتا إلى أنها وجدت لتكون وسيلة من وسائل الدعم للأزهر الشريف.

وفي كلمته طالب محمد زكريا محيي الدين عضو الجبهة التعريف بوثائق الأزهر الشريف المتعددة، والعمل على ضمان ممارسة الحريات وحقوق الإبداع، والمطالبة بالدفع في اتجاه تجريم الفتاوى الضالة.

وأعرب الدكتور جابر نصار عن اهتمامه بهذه الجبهة؛ لأن الأزهر هو الممثل للوسطية، وطلب أن تكون الجبهة ضمن جمعية أهلية للدفاع عن الأزهر لتكتسب مصداقية أكثر، وناشد فضيلة الإمام إصدار رسالة إلى الأمة ولو شهرية يعبر فيها الأزهر عن رأيه فيما يدور في الواقع المصري من أحداث، وتمنى أن تكون هناك فكرة لتنظيم الفتاوى؛ بحيث يتم توسيع دائرة اختصاص كبار العلماء لتشمل الإشراف على الفتاوى، لتخرج من الفتاوى الشخصية إلى نطاق الفتاوى المؤسسية.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين/ أحمد رضوان - يحيى سليمان

اعتقال شبكة دولية للتنصير في ليبيا

ألقت السلطات الأمنية في مدينة بنغازي شرق ليبيا القبض على عدد من الأجانب المقيمين في المدينة واتهمتهم بالترويج لنشر الديانة المسيحية بين المسلمين في ليبيا، خصوصًا بين أطفال المدارس. وذكرت مصادر أمنية: يدير هذه الشبكة مجموعة أفراد من عدة جنسيات يقودها مصري، وتعمل في سرية تامة بالتنسيق مع شركاء لها في القاهرة وطرابلس، ويدعمها رجال أعمال مصريون ويحمل المتهمون الرئيسيون -حسبما يقول جهاز الأمن الوقائي الليبي- جنسيات غير ليبية، من سوريا وأمريكا والسويد وجنوب إفريقيا، وبعضهم يعملون مدرسين في مدارس دولية في بنغازي، وعثرت السلطات على نسخ من كتب تبشيرية بالدين المسيحي باللغة العربية، بينها نسخ من الإنجيل، كما حجزت أقراصًا مدمجة، وأن هذه الكتب والأقراص هربت إلى ليبيا عبر منفذ السلوم.

رجل دين إيراني يصف سوريا بالمحافظة الإيرانية الخامسة والثلاثين

أثارت تصريحات رجل الدين الإيراني مهدي طائب، الذي منح من خلالها سوريا أهمية أكبر من أهمية إقليم «الأحواز» ذي الأغلبية العربية، والذي يضم ٩٠ بالمائة

من ذخائر النفط الإيراني، ضجة واسعة النطاق في الأوساط السياسية الموالية والمعارضة.

وكان مهدي طائب، الذي يترأس مقر «عمار الاستراتيجي» لمكافحة الحرب الناعمة الموجهة ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قال: لو خسرنا سوريا لا يمكن أن نحتفظ بطهران، ولكن لو خسرنا إقليم خوزستان «الأحواز» سنستعيده ما دمنا نحتفظ بسوريا.

ووصف طائب، في تصريحات أدلى بها بحسب موقع «العربية نت»، قائلا: سوريا هي المحافظة الـ ٣٥ وتعد محافظة استراتيجية بالنسبة لنا. فإذا هاجمنا العدو بغية احتلال سوريا أو خوزستان، فالأولى بنا أن نحتفظ بسوريا.

مدرسة إسلامية جديدة ببريطانيا

أكد رئيس مجلس إدارة «جمعية اقرأ» البريطانية - أنه سعيد بإنشاء أول مدرسة إسلامية في «ستافوردشاير» بمنطقة «ميدلاندز» الغربية في بريطانيا، والتي حظت بدعم مجتمعي واسع، وساهم في هذا الدعم العديد من المتطوعين ورجال الأعمال، فقد تقدم المسلمون بطلب للحكومة للموافقة على بناء مدرسة باسم «أكاديمية اقرأ»، حيث حظي الإعلان بتقدم أولياء الأمور بطلبات لتسجيل أبنائهم، هذا بالإضافة إلى تأكيد ٥٠٠ أسرة على رغبتهم في إدخال أبنائهم بتلك المدرسة الدينية.

إيطاليا تحتفل بالدفعة الأولى للأئمة

احتفلت مدينة بادوفا في إقليم «فنيتو» شمال شرق إيطاليا بتخريج أول دفعة من مدرسة الأئمة، والتي يعقد فيها علماء الدين الإسلامي برامج مكثفة لدراسة الوضع الإسلامي في «إيطاليا» وأوروبا عموما، ويقيمون الندوات والدراسات الثقافية والاجتماعية، ويتلقون الدروس على أيدي المتخصصين في هذا الشأن، كنواة لدعاة مستنيرين يدمجون فضائل وقيم الإسلام بالواقع الحي في البلاد الأوروبية.

قوات الاحتلال تستولي على ٨٠ ألف مخطوطة فلسطينية

أقدمت سلطات الاحتلال الإسرائيلي على نهب وسرقة جزء مهم من الممتلكات الثقافية الفلسطينية وإرثها التاريخي، وتتمثل بسرقة ما يقدر بـ ٨٠ ألف كتاب ومخطوطة إبان الاحتلال الصهيوني عام ١٩٤٨م، استولى عليها العاملون في المكتبة الوطنية الإسرائيلية من بيوت العرب، وقد عرضت إحدى القنوات الفضائية العربية

فيلما عن الموضوع بعنوان: «السرقة العظمى للكتب» استغرق إنتاجه خمسة أعوام وأخرجه المخرج الإسرائيلي «بيني برونز».

أدان الاتحاد العام للأدباء العرب هذا السلوك غير الحضاري والمشين، وناشد المنظمات العربية والدولية، المعنية بالثقافة، التدخل لاسترداد التراث الفلسطيني المغتصب والذي يعد جزءًا أصيلاً من الهوية الثقافية للشعب العربي في فلسطين.

وأكد الاتحاد العام أن من المستحيل محو التاريخ أو تدليسه وإنكار حقائقه الناصعة، وأولها أن هذه أرض عربية وأنها ملك للشعب العربي الفلسطيني، الحي والفاعل، بدليل أن ٦٥ عامًا من الاحتلال الاستيطاني والاعتداء الوحشي ولم تطمس القضية.

فرنسا تستعين بطائرات إسرائيلية لضرب المتمردين في مالي

كشفت صحيفة «وورلدتريبيون» الأمريكية النقاب عن استخدام فرنسا لطائرات إسرائيلية بدون طيار لشن غارات جوية تستهدف المسلحين المتشددين في مالي.

وذكرت الصحيفة - نقلا عن مسئولين بوزارة الدفاع الفرنسية - أن الجيش الفرنسي استخدم طائرات بدون طيار من طراز «هارفانج» التي تستطيع التحليق على ارتفاعات متوسطة وعالية منذ بداية العملية العسكرية في مالي. وأوضحت الصحيفة أن هذا النوع من الطائرات يعد الطراز المعدل من الطائرة الإسرائيلية بدون طيار من طراز «هيرون» التي تصنعها شركة الصناعات الفضائية الإسرائيلية.

موسوعة بالإنجليزية للتعريف بالعلوم الشرعية للمسلمين في أوروبا وأمريكا وآسيا

أعلن الدكتور إبراهيم نجم، مستشار مفتي الجمهورية عن إصدار موسوعة باللغة الإنجليزية للتعريف بالعلوم الشرعية، وفقا للمنهج الأزهري الوسطي تلبية لاحتياجات قطاعات كبيرة من المسلمين في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا غير الناطقين بالعربية، وذلك تحت إشراف فضيلة الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية.

وقال نجم، إن الموسوعة التي تحمل اسم "مدخل لدراسة العلوم الشرعية" تعرض باللغة الإنجليزية وبأسلوب سهل وبسيط، كما أعرب في تعليق له على الموسوعة عن أمله في أن تسهم هذه النظرات التمهيدية لدراسة علوم الشريعة في تسهيل تواصل غير الناطقية بالعربية مع العلوم الإسلامية.

٣٠٠ بوذى يهاجمون مدرسة إسلامية روهينجية

قام أكثر من ٣٠٠ بوذى متطرف بمهاجمة مدرسة إسلامية فى مدينة يانغون عاصمة بورما «سابقًا»، ولم يتم وقف اعتداءات المتطرفين من قبل الشرطة البورمية رغم وجود سيارات لها قرب المنطقة.

وذكرت وكالة أنباء الروهينجيا أن خمسة مجموعات دينية إسلامية فى ميانمار عقدت اجتماعات طارئة لمناقشة الوضع الحالى وبحث الحلول المقترحة، والتأكيد على ضرورة أن تتعامل الحكومة البورمية بحزم مع هذه الاعتداءات، فى الوقت الذى أفادت فيه بعض المصادر المحلية أن عناصر حكومية تشارك فى التحريض على هذه الهجمات.

يذكر أن مراسل وكالة أنباء الروهينجيا قد أفاد أن خطة حكومية سرية تطبق الآن على أرض الواقع، وتفيد بتوطين عشرات العوائل البوذية المهاجرة من بنجلاديش فى قرى وأحياء المسلمين بعد مصادرة بيوتهم وأراضيهم.

ومن ناحية أخرى، فقد اجتمع الحاكم العسكرى لولاية أراكان مع الرهبان البوذيين وقاموا بتقسيم المهام، لتتم عملية إبادة الروهنجيين خلال عام واحد فقط.

خطر الإبادة يهدد مسلمى سريلانكا

حذرت التقارير الإعلامية الدولية، من تزايد قلق المسلمين فى سريلانكا من جراء تصاعد أحداث العنف الأخيرة، والتهديدات التى تقوم بها جماعة الـ«بودوبالاسنا» البوذية المتطرفة التى أحرقت بعض المساجد، وهددت بتحطيم محال المسلمين، وشنت حملات إلكترونية لمقاطعة تجارتهم، ودعت إلى عدم التعامل معهم وإبادتهم أو طردهم من الجزيرة نهائيًا.

وحذرت كثير من المنظمات الدولية العاملة فى المجالات الإنسانية، من وقوع أحداث عنف عنصرية جديدة ضد المسلمين السريلانكيين، على غرار ما يحدث فى بورما على أيدى البوذيين.

وكشفت التقارير الإعلامية، عن قيام الرهبان البوذيين المتشددين، مؤخرًا، بمظاهرات احتجاجية حاشدة تطالب بإزالة عدد من المساجد، ومنها مسجد حى «ماوات وأويا» من منطقة «أنوراذابورا».

the unseen. It says: "The mind is not in need for help; it can beautify, uglifies, and perceive the attributes of beauty and ugliness in things. Also, the senses can perceive, behold, and experience, and the morals can be known by the innate nature.[13] Revelation does not give humanity anything that can not be discovered by itself from its inner side.[14]

At last, the contemporary hermeneutics declares its mission – after idolizing the human being and the human mind and humanizing Allah, revelation, and the world of the unseen – it declared its mission, which is humanizing the Islamic civilization by transferring the idolized into human as well as humanizing Islam by replacing the divine religion by the natural religion, as it says:

"Our mission is to move our civilization from the old divine phase to a new human phase. Instead of the civilization being focused on Allah, it becomes focused on the human being, and it moves from the knowledge of Allah to the knowledge of the human being. The progress of humanity is linked to its progress from religion to philosophy, from faith to mind, from the centralism towards Allah to centralism towards the human being until humanity reaches the phase of perfection and the enlightened intellectual society rises."[15]

---

[13] The previous reference, part 4, p. 848.
[14] Introduction by Dr. Hasan Hanafy, Educating Mankind, p. 151, Cairo edition, 1977.
[15] Islamic Studies, pp. 300 and 126.

the previous editor-in-chief of Al-Azhar Magazine passed away

The Honorable Dr. `Ali Ahmad Al-Khatib, the previous editor-in-chief of Al-Azhar Magazine passed away.

May Allah confer His Mercy upon him and admit him to the ranks of the pious. Amen.

spiritual dominance[8], the one who believed in this materialistic interpretation of the Revelation and prophecy said: "The interpretation of prophecy depending on the concept of imagination means that the movement from the world of mankind to the world of angels occurs through the interaction of the human imagination which exists in the prophets – due to innate nature and selection – is stronger in them than in other human beings.

If the interaction of the normal human beings does not emerge except in sleep and the state when the senses are not preoccupied with transferring the impressions about the external to the internal world, the prophets, poets, and well-informed people are more capable to use the interaction of the imagination in wakefulness and sleep.

This does not mean equality in the levels of the capability and interaction of the imagination, as the prophet comes at the top of this order, followed by the Sufi, then the poet at the end. Prophecy, from this point of view, is not a supernatural phenomenon. Metamorphosis can be understood according to this concept as a private experiment or a state of creative interaction. This emphasizes that the Qur'an is not a supernatural phenomenon and is not regarded as transcending of its laws, but it is part of the concepts of culture and is derived from its topics and conceptions.[9]

If the matter is like this, we will not be opposite any miracle. However, we are opposite strength of imagination that resulted in the Qur'an, which can be – should be – interpreted in different ways according to the numerousness of the readers of the text, as it does not include fixed or eternal meaning.

[8] Imam Muhammad 'Abdo, Message of Monotheism, p. 81, studied and verified by Dr. Muhammad 'Imarah, Cairo edition, 1994.
[9] Dr. Nasr Hamid Abu Zaid, Concept of the Text: Study in the Sciences of the Qur'an, pp. 65, 56, 59, and 38, Cairo edition, 1990.f

It is – according to the one who had this interpretation: "Human text or historical speech that does not include fixed substantial meaning. There are no fixed substantial elements in the texts. However, every recitation – according to the social and historical meaning – has its essence which it reveals in the text. The Qur'an in its reality and essence is a cultural product, which is formed in the reality and culture throughout a period that exceeds twenty years, and its concepts were formulated by its language and culture, and the reality is its first, second, and last effective element."[10]

After humanizing God and prophecy and denying the miracles of the Qur'an, Revelation, and eternity of the meanings of the Qur'an, the contemporary hermeneutics held the opinion of humanizing the unseen, as it regards the news of the unseen as artistic expressions and imaginative concepts expressing the hopes of the human being.

"The matters of the unseen express in is own way and in the artistic style, which depend on perception and imagination, the hopes of the human being in a world governed by justices and law. It is an expression of the human being in a better world.[11]

Also, when the Qur'an mentioned: "Nay! This is a Glorious Qur'ân, '(Inscribed) in Al-Lauh Al-Mahfûz (The Preserved Tablet)," this is merely an artistic picture that aims at proving the writing down of knowledge, as the written knowledge is more accurate than knowledge saved in the memory or perceived by the mind."[12]

After humanizing the God and prophecy and denying the miracles of the Qur'an, Revelation, the world of the unseen, this contemporary hermeneutics idolizes the mind and dispenses with it and the senses for the Revelation and

[10] Dr. Nasr Hamid Abu Zaid – Cairo magazine, "Al-Nahdah Project between Success and Fabrication, October issue, 1992.
[11] Islamic Studies, p. 104.
[12] From Creed to Revolution, part 4, p. 135.

Theology, in fact, even though it appeared as a theory with regard to Allah as an Entity, Attributes, and Actions, it is a description for the human being in terms of entity, attributes, and actions. [3]

The human being creates a part of him, then he idolizes it. This means that he creates the idolized part with the same form and shape, as he interprets his dreams and desires, then he personalizes and worships them. The worshipped object signifies incapability and the sacred object in evidence on the incapability. The capable person neither worships nor sanctifies; rather, he manages to carry out his plans and aims.

Choosing a group of absolute attributes and putting them in form of a worshipped object refers to the idea that the human being idolizes himself after he puts himself within the frame of absoluteness. The Divine Entity is the human entity in its perfect form, any evidence that proves the existence of Allah only discovers fake awareness. Thus, thinking about Allah is alienation, i.e., the natural attitude of the human being is to think about the society, and any other speech about anything exceeding the society and the world reveals lack of awareness of the society.

The concept that Allah is a Perfect existing Entity is in fact an expression of desire and achievement of a requirement, not an existing Entity from outside. The Divine Entity is our absolute entity and signifies our desire for transcending the limits of time and place, but it transcends then in an imaginary way and actual psychological compensation for this human life.[4]

After humanizing the Divine Entity, this hermeneutics goes on humanizing the Divine Attributes in its application on Islam: "The Seven Capabilities are in fact human attributes, as the human being is the knowing, mighty, living,

[3] Dr. Hasan Hanafy, Islamic Studies, pp. 405-359, Beirut edition, 1982.
[4] From Creed to Revolution, part 2, pp. 639-46, p.1, pp. 88-89

hearer, seer, willing, and speaking. These attributes ascribe to the human being."[5]

Then, hermeneutics goes on humanizing the prophecy, as it interprets the relation between the prophet and the Revelation as "The relation between the thought and the real circumstances, as prophecy which signifies that there is a connection between the prophet and Allah and the prophet conveys Allah's message is in fact a link between the thought and the real circumstances.[6] Prophecy is not something related to the unseen, but is physical and asserts caring for the interests of the worshippers and the unseen things are regarded as alienation, and the prophetic knowledge is worldly and physical.[7]

In another positive and materialistic interpretation by one of the followers of this school, he denies any miracles or difference from the laws of the material, nature, and reality prophecy for prophecy or Revelation. He regards them as a degree of the imagination rising from the interaction of the human imagination, by which the prophet is linked to the King in the way the poet gets linked to his devil, and the priest with jinn. Then, prophecy is a state of the interaction creating the human imagination and not a supernatural phenomenon that is different from the materialistic laws. The difference between the prophet and the poet, Sufi, and priest lies in the degree of imagination and not in the quality.

Contrary to the consensus opinion of the scholars, speakers, and philosophers of the nation that "the spirits of the prophets are inspired by the divine revelation, with which no human soul can be dominated by a

[5] The previous reference, p. 2, pp. 602-604.
[6] Islamic Studies, p. 2, pp. 602-604.
[7] From Creed to Revolution, p. 4, p. 34.

* The Absurd Interpretation in the Contemporary Islamic Studies...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor –in- Chief of Al-Azhar Magazine

The Western positive secularism since the age of the European enlightenment in the eighteenth century aimed at replacing the religion by human ideas and the revelation by the reader, making the revelation in the religious text inspired by the subjective reading of the text, not vice versa. Also, it aimed at isolating the values, morals, and religious rulings from its divine source, and being separated from the heritage, especially the religious one. This is to the extent that this abominable movement said: "Allah died." In this way, it replaced divine religion by the human religion, after believing that the human being is a natural entity, without attributing its creation to Allah, Who blew His Soul into him.

This positive secular interpretation participated in exceeding the proper limits in this Gnostic esoteric interpretation of the religious text by discharging the content of the religious text. Also, it generalized this extravagance in interpreting all of the texts. It does not consider any difference between what is successive and non-successive, what is decisive and what is identical, what was sent by the Revelation and what is not. This is on the pretext that "there is no text that can not be interpreted so as to find its actual context."[1]

However, this internal interpretation claims that it moves from the body of the text to its spirit, but the positive secularism moves from the body of the text to its spirit,

*An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same copy.

[1] Hasan Hanafy, From Creed to Revolution, Part 1, pp. 397-398, Cairo edition, 1988.

or more accurately, it moves the religion from divinity to naturalism, from metaphysics to physics, and from Revelation to reason and the physical experience.

As for it, theology is not concerned with divinity, but is concerned with humanities. Also, Allah does not have a sublime existing entity, and His Attributes are not relevant to His due Presence, in a way that is different from nature, reality, and the human being. However, He – Exalted be He above all of these heresies – is invented by the disappointed human being, when he was not able to achieve his living, knowing, willing, hearing, seeing, speaking, and doing whatever he intends. Thus, the human being invented an Entity, to Whom he ascribed the attributed that he was not able to do due to his disappointment.

If this human being has succeeded and gained these attributes, then theology will be about the "perfect human being", which replaces "Allah", Whose existence is not justified even in language.

Some of those who imitate the followers of this absurd materialistic interpretation which restores to our contemporary intellectual reality what was done by the Western positive hermeneutics since the eighteenth century. They say:

The word "Allah" expresses the cries of pain and joy, i.e., it is a literary expression more than a descriptive reality. It does not refer to a certain meaning. It is a cry of existentialism more than a meaning that can be expressed by a word or perception. It is a reaction to a psychological state or a feeling rather than deliberate expression or conveyance of a certain meaning. What we believe in then glorify in compensation for loss is in the common feeling is Allah. All that we seek but we can not carry out is Allah.[2] Allah, is considered as the Only Existing Entity or the theological cause.

[2] Dr. Hasan Hanafy, Al-Turth Wal Tajdid, pp. 128-130, Cairo edition, 1980.

groups. Then, he supported the group calling for fighting and avoiding negligence.

The person whose faith equals the faith of the whole nation interfered saying: "By my Lord, if they refused to pay anything – whatever small it is – while they used to pay it at the time of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), I will fight them."

The majority of them heard these eternal words, and they said that they feared to subject the Muslims to the danger of fighting, whose results were not known.

`Umar ibn Al-Khattab preceded them to say in clear sharp and steadfast way: "How can we fight Muslims, while the Prophet said: "I was commanded to fight the people until they say, "there is no god except Allah and Muhammad is the Messenger of Allah." Anyone who says it protects himself, his money and his blood from me, and they will be accounted for their deeds."

All of the people kept silent, waiting for the answer of Abu Bakr, who was the best companion of the Prophet (may the blessings, and peace of Allah be upon him). They were eager to know his opinion about `As pretext. However, he did not hesitate in answering `As he said:

"I swear that I will fight whoever differentiated between the obligation of offering Prayer and paying Zakah."

The Shura Council adjourned and some of the attendees approved of Abu Bakr's opinion, and the others adjourned of `Umar's opinion and all of them were anxious.

`Abs and ` Dhubyan tribes, who refused to pay Zakah were joined by some people from Bani Kenanah, `Atfan, and Fazarah had sent groups to gather near Madinah. They were divided into two sections to surround it wholly. Every group sent a person to meet and talk with the notable Muslims in Madinah in a way to

impress them and to try to persuade Abu Bakr to exempt them from Zakah. However, Abu Bakr told them decisively:

"If they refused to pay the Zakah of a camel rope they used to pay to the Messenger of Allah, I will fight them for it."

The messengers conveyed the opinion of Abu Bakr to their people and they knew the entry of Madinah is very easy. As, they learnt with certainty that there is no one to defend it against raiders. Abu Bakr realized this matter and gathered the people to inform them with his opinion.

He sent for `Ali ibn Abu Talib, Al-Zubair, Talhah, and `Abdullah ibn Mas`ud and ordered them to stay at the entry of Madinah. Also, he ordered their families to stay in the mosque fully equipped and ready for war.

What Abu Bakr thought of was right, as the Muslims who refused to pay Zakah gathered and approached Madinah, seeking to weaken the resolution of the Muslims to fight them and to disobey Abu Bakr.

However, Abu Bakr and the Muslims did not sleep at this night and were preparing themselves for the following day as much as they can.

When the last third of the night approached, the Muslims came out headed by the Caliph and they were divided into right wing and left wing. They continued marching until dawn and they met their enemy without letting their enemy hear them. Then, they were engaged with them in a fierce fight and won victory over them.

Abu Bakr the most truthful was Prepared by Allah to Support His Religion along with His Prophet ... !

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Before the first Rightly-Guided Caliph, Abu Bakr took charge of the caliphate by the Muslims' paying allegiance to him, he solved for the Muslims a serious problem, which was about to destroy the unity of the Muslims, causing a fierce sedition. He said after making sure of the death of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) came out to the gathering Muslims, saying after praising Allah and His Messenger: "As for whoever worships Muhammad, Muhammad is now dead, but as for whoever worships Allah, Allah is Ever-Living."

He undertook the caliphate and the responsibility of the Muslims and the religion, while he was extremely sad for the Death of his companion, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

As for the apostates, they will not be stopped except by an army to eradicate them and take them back to the fold of religion. Also, there is dire need for this army, as the revolution of apostasy in Yemen increased after knowing about the death of the Prophet.

Musaylamah and Tulayhah called the people to believe them and they managed to do that, and those who accepted his call transgress against those who remained steadfast to Islam.

The messengers conveyed to Abu Bakr horrible news. Abu Bakr kept thinking about the matters intensifying around him. The Muslims were newly introduced

to such matters after the Conquest of Mecca and the inhabitants of Thaqif embracing Islam.

Then, he was informed that the people in Medina, the residence of the Caliphate, refused to pay Zakah and declared that they would not pay Zakah as the Messenger of Allah died.

Abu Bakr started to think about the matter saying: "The army of Usamah is at our borders with the Romans, and there remains no army to defend Madina. What will we do? Can the Muslims in medina fight the tribes of `Abs and Dhubyan while all of their great warriors are in the army of Usamah ibn Zayd? Will we accept that `Abs and Dhubyan abstain from paying Zakah, as long as they do not apostatize and in this way, we will not gain supporters against the apostates at the outskirts of the Peninsula? Will we fight them and we increase our enemies and we may not be able to fight them while our army is outside Medina?

The matter was really serious and critical.

Abu Bakr gathered the Companions to take their consult concerning fighting those who refused to pay Zakah. They were divided into two parts, the first of which did not approve of fighting them, and the other approved of fighting those who refused to pay Zakah.

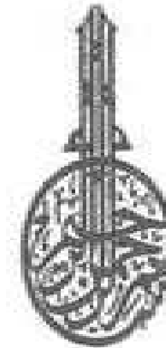
Each section defended his point of view and had his own pretexts. Umar ibn Al-Khattab was at the top of those who held the opinion of not fighting the people who did not pay Zakah. They viewed that they might seek their help in dire need and they would not be harmed if they took what they wanted without paying Zakah as long as they were still embracing Islam.

The minority approved of fighting them, and they defended their point of view strongly. The dispute was fierce between the two groups to the extent that caused Abu Bakr to avoid being impartial and to interfere to support any of the two



AL-AZHAR MAGAZINE

Jumada Al - Oula , 1434 A.H



ENGLISH SECTION

March, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)



Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
١٤٣٤ هـ - أبريل مايو ٢٠١٣ م - الجزء ٦ - السنة ٨٦

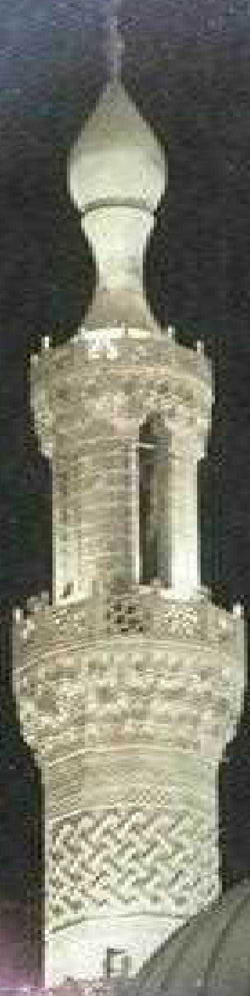

الشيخ محمد عبده


محمد سليم العوا


د. علي الخطيب

الافتتاحية

آية الله مطهري ونقد الفكر الشيعي
أ. د. محمد عمارة



دولة القرآن
الشيخ البشير الإبراهيمي

الإسلام والسلام
أ. د. محمد عبد الله دراز

التربية الروحية الإسلامية
د. طه عبد الرحمن

هدية العدد
السياسة الشرعية والفقه الإسلامي
الجزء الأول
للإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج
تقديم وتعليق أ. د. محمد عمارة



ALAZHAR MAGAZINE

facebook.com/AlAzharMag



السعر جنيهان

في العدد القادم

الافتتاحية

الفريضة الغائبة والمنشودة
أ. د. محمد عمارة

أقسام السنة النبوية
الشيخ عبد الجليل عيسى

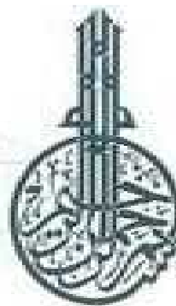
الاجتهاد فى مقاصد العقائد
د. جاسر عودة

الرسول والرسالة
د. نظمي لوقا

هدية عدد رجب
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى | الجزء الثاني
للإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج
تقديم وتعليق: أ. د. محمد عمارة

www.AlazharMag.com

١١
٤٢٢٢٥
دوريات



﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم « نور الإسلام »
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد



الافتتاحية

آية الله مُطَهَّرى ونقد الفكر الشيعى



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

• ولد آية الله مرتضى مطهرى (١٣٣٨ - ١٤٠٠هـ، ١٩٢٠ - ١٩٨٠م) بمدينة «مشهد» الإيرانية.. وبدأ فيها تلقى التعليم والعلوم.. ثم انتقل إلى مدينة «قم» سنة ١٩٣٨م.. وتتلمذ فى حوزتها العلمية الشهيرة على عدد كبير من أعلام علماء الشيعة.. منهم آية الله بروجردى (١٢٩٢ - ١٣٨٠هـ، ١٨٧٥ - ١٩٦١م)، وآية الله الخمينى (١٣٢٠ - ١٤٠٩هـ، ١٩٠٢ - ١٩٨٩م).

• ولقد جمع مطهرى - فى دراسته - بين «الحوزة» و«الجامعة» - أى الأصولية والتجديد - كما اهتم بدراسة الأدب والمنطق والأصول وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والحكمة واللغة العربية والأدب العربي، والفارسي.

• والتحق مطهرى بركب الجهاد السياسى والدينى ضد النظام الشاهنشاهى الإيراني.. فانضم إلى منظمة فدائى إسلام، فى أوائل خمسينيات القرن العشرين.. وأسس - فى طهران - سنة ١٩٥٣م الجمعية الإسلامية للطلاب.

• وفى سنة ١٩٦٤م اعتقل مع آية الله الخمينى - فى انتفاضة المدرسة الفيضية، وعمل على تشكيل جمعية علماء الدين المناضلين.

• واشتغل بالتدريس - بكلية العلوم الدينية - بجامعة طهران.. ومنها حصل على الدكتوراة فى الفلسفة.

• وامتدت اهتماماته السياسية إلى القضية الفلسطينية منذ سنة ١٩٧٠م.

• كما أطل على الساحة الفكرية والدينية الإيرانية من خلال الخطابة فى الحسينيات.

• وانخرط فى صفوف الثورة الإيرانية، التى قادها الخمينى فى سبعينات القرن العشرين، فكان مستشارا للخميني.. ورئيسا للجنة استقباله عند عودته إلى طهران سنة ١٩٧٩م.

• وعندما استشهد مطهرى - غيلة - فى ١ / ٥ / ١٩٨٠م - أى بعد أقل من عام على انتصار الثورة - بكاه الخمينى كما لم يبك ابنه.. وقال فى مأتمه: «خذنى معك!. فأنا مستعد للشهادة لقد فقدت ابنى العزيز الذى هو قطعة من جسدي، لقد كان لا نظير له فى طهارة الروح وقوة الإيمان، والقدرة على البيان وإن شخصيته الإسلامية والعلمية والفلسفية لن تذهب بموته»، ولقد أعلن الخمينى الحداد على مطهري.. وجلس - فى المدرسة الفيضية - يتلقى العزاء فيه.

• ولقد ترك مطهرى أكثر من خمسين كتابا.. مثلت صرحا من الإبداع الفكري، جعلت منه واحدا من أبرز أعمدة الفكر فى الفضاء الشيعى المعاصر.

• وفى هذا الكتاب - «نقد الفكر الدينى عند الشيخ مرتضى مطهري»[1] الذى يمثل خلاصة لمشروعه الفكرى - تتجلى عبقرية هذا الفيلسوف المجدد، الذى جمع بين الأصولية وفقه الواقع - المحلى والعالمى - وبين النظرة المستقبلية للإسلام والمسلمين.

«١»

إن مفتاح الشخصية الفكرية للشهيد مطهرى هو الأفق الفلسفي، الذى يفتح منافذ العقل على الشكوك والتساؤلات.. وعن هذه الخصيصة الفكرية يقول:

«إنني، وخلافا لكثير من الأفراد لا أنزعج إطلاقا من طرح التشكيكات وإلقاء الشبهات فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية، رغم ما أتمتع به من الإيمان بهذا الدين والرغبة الجامحة فيه، بل يسرنى ذلك كثيرا، لأننى أعتقد - وقد شاهدت ذلك بالتجربة العملية خلال أيام حياتي - بأن هذا الدين السماوى المقدس كلما تعرض فى جبهة من الجبهات للمواجهة والهجمات، خرج من المعركة قويا عزيزا ظاهرا متلألئا.

إن ميزة الحقيقة هى أن الشك والتشكيك يساعدان على إشراقها أكثر فأكثر، فالشك مقدمة اليقين، والتشكيك سلم البحث والتنقيب.

وقد جاء فى رسالة «ميزان العمل» للغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) ما نصه: «.. ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به

(١) طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي. واشنطن سنة ١٤٣٢ هـ سنة ٢٠١١م جمع وتصنيف مهدي جهرمي ومحمد باقري ترجمة صاحب الصادق ومراجعة صادق العبادي.

نفعاً، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»(٢).

ثم يمضي مطهري فيتحدث عن تراجع الفضاء الثقافي والفكري عن هذا المنهاج، فيقول:

«.. فيما سبق كان المستوى الفكري للناس هابطاً، وقلما كان الناس يثيرون الشكوك والتساؤلات، أما الآن فالأمر يختلف، ومن الطبيعي حيث يرتفع المستوى الفكري درجة فإن تساؤلات جديدة تطرح بينما لم تكن تثار في السابق، ويجب علينا معالجة الشك والتردد، والإجابة على التساؤلات والإشكاليات الفكرية.

فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردد. إننا نعيش عصراً ملياً بالشبهات التي تثار حول الإسلام، ويزداد فيه المخالفون للإسلام.

.. دعوهم يقولوا ويكتبوا ويعقدوا الندوات ويثيروا الإشكالات، حتى يكونوا - دون إرادة منهم - وسيلة انبلاج حقائق الإسلام» - (ص٢٠٧، ١١٣، ١١٨).

«٢»

وفي تشخيص مطهري للتخلف الفكري والانحطاط الثقافي اللذين أصابا الحياة الدينية للمجتمع الشيعي.. أبصر المسئولية الكبرى التي يتحملها «المنهج الأخباري» الذي ساد الفكرية الشيعية، والذي جعل اعتماده الأول والأكبر على «الأخبار.. والروايات» بعد استبعاده القرآن.. والعقل.. والإجماع.. والاجتهاد!.. فعلى «الأخبار.. والمرويات» - التي لم تعرض على القرآن ولا على العقل - قامت الفكرية الشيعية، التي مثلت انحطاط هذا الفكر لعدة قرون.. وعن هذه الحقيقة يقول الشهيد مطهري: «قبل نحو أربعة قرون شهدت الأوساط الشيعية حركة سميت بالحركة الأخبارية - هيمنت على عقول الناس ثلاثة قرون - كانوا يرفضون منهج الاجتهاد - بحجة أنه مأخوذ من أهل السنة.. ويرجعون مباشرة إلى الأخبار المروية.. ويستلهمون أحكام الشريعة منها.. وكانوا يشكلون أبرز مظاهر الجمود.

لقد عارضوا حجية ثلاثة من الأدلة الأربعة: الكتاب.. والعقل.. والإجماع عارضوا القرآن؛ لأنه - بزعمهم - أرفع مرتبة من أن يفهمه البشر العاديون، بل لا يحق لأحد غير الأئمة أن يفهم القرآن، وهو إنما نزل كي يفهمه الأئمة فقط، ولذلك علينا أن نبحث عن الأحكام في الأخبار المروية عن الأئمة.. فنحن لسنا مخاطبين بالقرآن.

وكانت النتيجة أن هناك في الأخبار والأحاديث ما يؤدي إلى المساس باعتبار القرآن - «مثل الزعم بتحريف القرآن»!.. لقد أسقطوا اعتبار حجية القرآن.

.. وأسقطت هذه الحركة الأخبارية حجية العقل.. وقالوا: إن الدين ليس من مجالات تدخل العقل، فعلى الإنسان أن يخطئ عقله.. وإذا ما وجدنا رواية تخالف العقل علينا أن ترفض العقل ولا تسمح له بالتدخل.. ولذلك دعوا إلى الأخذ بالروايات دون التمييز بين الصحيح والسقيم.

.. كما أسقطوا حجية الإجماع، لأنه - عندهم - من أدلة أهل السنة، وهو وسيلة استخلاف أبي بكر

(٢) طبعة المطبعة العربية - القاهرة - ص١٦.

وتنحية الإمام أمير المؤمنين عن الخلافة بعد الرسول فكيف تستدلون به؟!

.. وهكذا، لم يبق عندهم من الأدلة الأربعة إلا السنة، التي دس فيها الوضاعون من الروايات ما شاءوا من الأكاذيب.

وبذلك تم التركيز تماما على الأخبار فقط: (ص١٣٩ - ١٤٤).

***

ولقد أفاض الشهيد مطهري في ضرب الأمثلة - التي مثلت تجليات التخلف الفكري والانحطاط الثقافي والشعوذات والخرافات التي سادت الفكر الديني الشيعي.. والتي مثلت الثمرات المرة لهذا المنهاج الأخباري.

- فلقد سادت وشاعت المرويات التي تجعل الناس «يدفعون قسما من الأموال لسدنة المراقد المقدسة، لكي يدفنوا بالقرب من قبور أولياء الله، حيث لا يجرؤ الملائكة على تعذيبهم!.. فالدفن في هذه الأماكن يؤدي إلى تجاوز السيئات.. ويغني عن كل شيء!.. وحتى لو قضينا عمرنا الطويل بدون تقوى وبدون عمل، ثم توصي أن يحملوا جنازتنا إلى النجف لندفن هناك فستصلح أمورنا..».

- وساءت المرويات والأخبار التي تجعل لاتخاذ التشيع وحب أهل البيت وسيلة للتهرب من تحمل المسئولية الإسلامية.. فالانتماء إلى الإمام عليّ كاف للنجاة.. وهناك رواية مشهورة تقول «حب عليّ حسنة لا تضر معها سيئة!..».

ويكفي لضمان السعادة والحظوة عند الله أن يطلق المرء على نفسه اسم شيعي!..

- وانتشرت الروايات التي تزكي الغرور، وتقول: «إن الأعمال الصالحة من غير الشيعة غير مقبولة.. وإن الذنوب والسيئات التي يرتكبها الشيعة كلها مغفورة:..».

- وكثرت الروايات التي نسجت الأساطير عن أمير المؤمنين علي.. وعن سيفه الذي شق أحد أبطال اليهود في خيبر نصفين متساويين.. ثم تعداه إلى جبريل فجرحه جرحا مرض بسببه أربعين يوما، الأمر الذي أخر صعوده إلى السماء تلك المدة حتى يعالج جراحه!!..

- وانتشرت الروايات الأسطورية عن وقائع كربلاء: اختلاق أسماء لأصحاب الحسين لا وجود لهم في التاريخ!.. وأسماء لأعداء الحسين لا وجود لهم في التاريخ!.. بل واختلاق أسماء لأبناء للحسين لا وجود لهم في الواقع والتاريخ!..

- وانتشرت الروايات التي أدخلت عقائد المسيحية في الفكر الشيعي.. من مثل: «أن الحسين قد عرض نفسه إلى القتل ليحمل على عاتقه ذنوب الأمة»..

- ووضعت في «كتاب الكافي» للكليني (٣٢٨هـ - ٩٤١م) «الروايات التي لو أمعنا النظر فيها لوجدناها باطلة».

- «ويذكر التاريخ شخصا يسمى أبو الخطاب - كان ملحدا ومناوئا للإسلام، ولكنه كان يروي الأحاديث للناس، وعندما افتضح أمره.. اعترف فقال: «لقد وضعت في أخباركم أربعة آلاف حديث!».

- ولقد ساد بسبب هذا الانحطاط الفكري «اتجاه مجتمع العلماء نحو عوام الناس.. واهتم

العلماء بطبائع العوام، واستقطاب ولائهم، لأنهم الممولون للمؤسسة الدينية.. فكثرت المفاسد والسلبيات الموجودة فى أوساط علماء الدين بسبب هذه السلبية بالذات!» (ص٢٦، ١٠٢، ١٠٣، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٠، ٩٢، ١٠٧، ١١٠، ١١٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٤١،).

تلك إشارات - مجرد إشارات - لما ساقه الشهيد مطهرى من نماذج للأخبار والروايات الخرافية والأسطورية، التى أفرزتها حقبة المدرسة الأخبارية، والتى مثلت عصور الانحطاط بالنسبة للفكر الشيعي بعد أن استبعد الأخباريون المصادر الأصلية والمعتبرة للفكر الإسلامي، القرآن.. والعقل.. والاجتهاد.. والإجماع.

٢

ولقد تحدث الشهيد مطهرى عن أن هجران الجيل القديم - جيل الأخباريين - للقرآن الكريم، لايزال قائما فى الواقع الفكرى والعملى الشيعي المعاصر!.. وتعجب من بقاء هذا الميراث السيء.. فقال:

«عجبا! فإن الجيل القديم قد ترك القرآن وجعله مهجورا ولكن - «هذا الجيل القديم» يعتب فى الوقت نفسه على الجيل الجديد لأنه غير منفتح على القرآن فالقرآن مهجور فى أوساطنا، ولكننا نطالب الجيل الثانى أن يتمسك به»!

ثم شرع مطهرى فى إثبات هذه الحقيقة، فقال:

«.. والآن أثبت لكم كيف أن القرآن أصبح مهجورا بيننا: لو درس شخص علم القرآن، أى تدبر فى آيه كثيرا، وعرف تفسيرها بشكل كامل، فما حظ هذا الشخص من الاحترام فى أوساطنا؟ الجواب لا شيء!

أما لو درس شخص كتاب «كفاية الأصول» للشيخ كاظم الخراسانى - فإن ذلك سيجعله شخصا محترما وجيها؛ إذن فالقرآن مهجور فيما بيننا وبسبب هذا الإعراض عن القرآن فقد أصبنا بهذا التخلف والهوان، حتى لتشملنا شكوى رسول الله ﷺ:

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾

(الفرقان: ٣٠)

.. «غريب حقا، لو أن شخصا قضى عمره فى العلوم القرآنية فى أهم مراكزنا الدينية، فإنه يواجه ألف مشكلة ومشكلة، ويفقد كل شيء: الخبز والمعيشة والوجاهة والاحترام، ولكنه لو أنفق عمره فى كتب علم الأصول فإنه يحظى بكل شيء، ولذلك فإنك تجد الآف من الأشخاص يتقنون كتاب «الكفاية» - بكل شروحه وردوده - بينما لا تجد شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة.

لقد واجه كلا الجيلين الجديد والقديم القرآن بالجفاء، فقد جفاه الجيل القديم أولاً، ثم جفاه الجيل الجديد..» - (ص ٧٧، ٧٨).

• ولقد يستغرب القارئ - الذى يقرأ هذا الكلام - للشهيد مطهري، ويتساءل:

- كيف حدث ذلك الهجر والجفاء للقرآن وأهله فى بيئة إسلامية؟!

وهنا على القارئ أن يتذكر عنوان كتاب الشهيد مطهرى «نقد الفكر الديني» ويتذكر ما كتبه عن جناية المدرسة الأخبارية الشيعية على القرآن الكريم.

• لقد استبعدوه من مكانته كمصدر أول للدين.. وزعموا أن الناس غير مخاطبين به، وأن الأئمة وحدهم هم القادرون على فهمه!.. فصرفوا عنه الناس.

• وصعدوا بجريمتهم إزاء القرآن عندما وضعوا المرويات والأخبار التى ادعوا فيها أن التحريف والتغيير قد أصاب هذا القرآن الكريم.. بل ونسبوا بعض هذه المرويات والأخبار - كذبا - إلى بعض الأئمة.. نسبوا إلى الإمام الباقر (٥٧ - ١١٤هـ ٦٧٦ - ٧٣٢م) أنه قال:

«ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده»!

ونسبوا إليه أيضا أنه قال:

«ما يستطيع أحد أن يدعى أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه، غير الأوصياء»(٣).

• ولقد استفاض الأخباريون فى هذه المزاعم تجاه القرآن الكريم.. فقال الشيخ المفيد (٣٣٨ - ٤١٣هـ ٩٥٠ - ١٠٢٢م):

«إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الزيادة والنقصان»!(٤).

• وسار على هذا الطريق المظلم كثير من الأخباريين - من مثل نعمة الله الجزائرى (١٠٥٠ - ١١١٢هـ ١٦٤٠ - ١٧٠١م).. والمجلسي - محمد الباقر - (٤١٨ - ٥٠٤هـ ١٠٢٧ / ١١١١م) وميرزا حسين النورى (١٣٢٠هـ) الذى ألف كتابا جعل عنوانه: «فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب»!!

• بل وزعموا أن روايات وأخبار تحريف القرآن - الذى تعهد الله بحفظه - قد بلغت حد التواتر المعنوي.. فضلا عن نسبتها المزورة إلى الأئمة المعصومين!.. وتم جمع كل هذا التراث الإخبارى فى أهم المصادر الإخبارية: (كتاب الكافي) للكليني (٣٢٨هـ ٩٤١م) الذى لقبوه بـ«ثقة الإسلام» هكذا.. وباستحضار جناية الأخباريين على القرآن الكريم نفهم حديث الشهيد مطهرى عن الجفاء والهجر الذى أصاب القرآن الكريم فى ذلك الفضاء الفكرى الأخبارى، ولدى الذين ورثوا هذا الفكر.

ونفهم كذلك «الثورة الفكرية» التى أحدثتها «المدرسة الاجتهادية» - مدرسة مطهرى والخونى (١٣١٧ - ١٤١٢هـ ١٨٩٩ - ١٩٩٢م) والشيخ الطبرسي.. والفيض الكاشانى (١٠٩١هـ) وغيرهم من المجتهدين الذين ثاروا على روايات الأخباريين، وانتصروا لحفظ القرآن الكريم عن التحريف والتغيير والتبديل(٥).

(٣) الكليني (الأصول من الكافي) ج١ ص ٢٢٨ تحقيق على أكبر الغفاري - طبعة طهران سنة ١٣٨٨هـ.
(٤) الشيخ المفيد (أوائل المقالات) ص٥٤ طبعة تبريز.
(٥) انظر رسول جعفريان «أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة» (ص٩١ - ٩٧) وهو يورد أسماء قرابة ثلاثين من المجتهدين الشيعة ينفون دعاوي تحريف القرآن - ولقد صدر هذا الكتاب في طهران سنة ١٩٨٥م وقمت بالتقديم له وإعادة طبعه بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

• وفي هذا السياق، نفهم مغزى كلمات الشهيد مطهرى:

«إن تحريف القرآن، عن طريق زيادة أو نقصان كلماته وألفاظه لم يحدث أبدا، ولا ولن يحدث فى المستقبل أيضا ولكن لا شيء يقف فى وجه عمليات التحريف المعنوى والتفسيرات والتأويلات الخاطئة.. إن هذا الكتاب المقدس يتكفل بصيانة المسلمين، شرط أن يتكفل المسلمون من جهتهم بصيانته من التحريف المعنوي، أى التفسيرات والتأويلات العبثية» (ص٨١) - مثل التفسيرات الماركسية والمادية - التى وجه إليها مطهرى النقد والتفنيد.

وهكذا لم يكن مطهرى مجرد مجدد.. وجه سهامه الصائبة إلى المدرسة الأخبارية، وإلى جنايتها الكبرى وجريمتها العظمى فى حق القرآن الكريم.. وإنما كان - أيضا - عاشقا لهذا القرآن العظيم.. فهو الذى قال: «إننى أشعر بجمال وبلاغة القرآن حقا، خاصة حينما يقرأ بلحن جميل ولطيف» (ص١٠٩).

٤

وفى إطار النقد للتوجهات الفكرية فى الفضاء الشيعى الإيراني، حاور مطهرى التيار القومى الفارسي، الذى اتخذ ويتخذ موقفا سلبيا من العربية - لغة القرآن الكريم ولسان الإسلام - لأنها لغة العرب والقومية العربية.

وفى هذا المقام، نفى مطهرى عن الإسلام أى توجه عنصري، يجعله دين شعب معين، ويلزم أتباعه بلغة معينة لكنه دافع عن العربية كلغة للقرآن، يلزم تعلمها وإتقانها - من قبل علماء الإسلام - على اختلاف قومياتهم، لفهم الإسلام فهما كاملا.. ولجعلها مساحة لوحدة المسلمين.. وعن هذه الأفكار والمقاصد، قال:

«إن اهتمامنا باللغة العربية لا يأتى من كونها لغة قومية معينة، بل ينبع من كونها لغة القرآن الكريم.

إن الإسلام من جهة - ليست له لغة خاصة أى أنه لم يفرض على معتنقيه التحدث باللغة العربية.. فهو ليس دينا عنصريا.. لكنه - من جهة أخرى - له لغة خاصة فيما يتعلق بالشعائر الدينية، ولو لم تكن لكل دين لغة خاصة به، لما استطاع الاستمرار.. فهذه اللغة هى عامل الوحدة بين المسلمين.. وهذا أمر إيجابى من حيث الوحدة البشرية، وهو خطوة نحو تحقيق وحدة البشرية..» (ص١٠٨، ١٣٦).

• وانتقد مطهرى القصور فى تعلم علماء الفرس والإيرانيين للغة العربية.. وقال: «إن ما ندرسه من العربية لا ندرسه بشكل متقن، وهو لا ينفعنا فى فهم القرآن والتدبر فيه» (ص ١٣٦).

• ولعلاقة التعصب القومى الفارسى بالعداء للعربية.. بل - وأحيانا - العداء للإسلام.. وجه مطهرى نقده للنزعة القومية، التى تجاوزها الإسلام منذ قرون طويلة.. والتى عادت لتطل برأسها من جديد.. فقال: «إن الشعوب الإسلامية قد اجتازت مرحلة المشاعر القومية منذ قرون ودخلت مرحلة أعلى منها، فالإسلام أوجد - منذ قرون - وحدة الشعوب الإسلامية على أساس الفكر والعقيدة والأيديولوجيا.

كما أثبت الإسلام فى القرن العشرين بأنه قادر على أداء دور فعال وحاسم فى النضال ضد الاستعمار.. ولكن هناك عددا لا يحصى من الأفراد قد نشط فى الفترة الأخيرة فى شن حرب واسعة النطاق ضد الإسلام، وذلك تحت يافطة الدفاع عن الوطنية والقومية، وفى توجيه الإهانات للمقدسات الإسلامية تحت شعار النضال ضد العرب والقومية العربية، وإن ما نشاهده من ذلك فى إيران - على صفحات الكتب والصحف والمجلات - يدل على أن الأمر ليس صدفة، بل هو خطوة محسوبة ولها أهداف معينة:

إن توجيه الشعوب نحو عامل القومية هو خطوة رجعية حقا..» (ص٩٨، ٩٩).

• وفى إطار نقد المقولات والنظريات الفكرية السائدة فى الفضاء الشيعي.. انتقد الشهيد مطهرى اجترار الشيعة لأحداث الخلافات التى حدثت فى صدر الإسلام..

وانتقد التركيز على سلبيات التاريخ الإسلامي.. وإهمال الإيجابيات التى جعلته وتجعله تاريخا عظيما مليئا بالملاحم التى تصبغه بالجمال.. وفى هذا السياق قال:

«إن الحديث عن مسألة الخلافة والإمامة والتجربة السلبية فى القرن الإسلامى الأول، وتكرار الوقائع السلبية فى أكثر من مرحلة، لاسيما فى العصر الحاضر، حيث يواجه الجيل الجديد أزمة روحية فى مجال الدين، يؤدى إلى ضعف الإيمان والابتعاد عن الإسلام.. وزلزلة الأفكار بالنسبة إلى الأصول والجذور.

لماذا يعمل الآخرون على إخفاء سلبيات تاريخهم، بينما نحن المسلمين نعمل - على العكس من ذلك - على اجترار السلبيات وتضخيمها أحيانا أكثر من الواقع.

إن تاريخ الإسلام لا نظير له من حيث كثرة نقاط الجمال والتجليات الإنسانية والإيمانية فهذا التاريخ مفعم بالملاحم ومليء بالجمال والإشعاع.. فوجود بعض البقع السوداء لا يقلل من جماله وعظمته وجلاله..» (ص٢٦، ٢٧).

• لكن الشهيد مطهرى - الذى دعا إلى إبراز إيجابيات التاريخ الإسلامى - والذى انتقد تكرار اجترار ما فيه من سلبيات - وهى قليلة بالنسبة لما فيه من إيجابيات وملاحم تشع بالجمال والإنسانية ما كان له أن ينسى أنه أحد أركان التشيع، الذى يجد مبرر وجوده فى التركيز على ما يراه سلبيات فى قضية القيادة والإمامة وحقوق آل البيت.. وفى التنبيه على ذلك، قال:

«لكن لا يجوز غض الطرف عن سلبيات التجربة التاريخية فيما يتعلق بمسألة القيادة، لارتباطها بأساس الإسلام وكذلك سلبيات سحق حقوق أفضل أبناء الأمة، وإلا كان ذلك تضامنا مع سيف البغي!..» (ص ٢٨).

• كذلك انتقد مطهرى مفهوم «العلم الديني» فى الفضاء الإسلامي، وقصره على الفقه والأصول والعلوم النقليدية.. داعيا إلى اعتبار كل علم يحتاجه المسلمون علما دينيا.. ذلك «أن تقسيم العلوم إلى علوم دينية وعلوم غير دينية ليس تقسيما صحيحا.. إن كل علم يفيد الإسلام والمسلمين ويكون ضروريا لهم، ينبغى اعتباره علما دينيا» - (ص٩٠).

• وانتقد - كذلك - تخلف الشيعة فى الاهتمام بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. فقال: «.. للإنصاف نقول: إن أهل السنة قد بحثوا فى هذا الموضوع علميا.. أكثر منا نحن الشيعة.. والمعتزلة - وهم من أهل السنة - يعتبرونه من أصول الدين، وليس من فروعه.. أما الشيعة،

فإنهم يعتبرون أن أصول الدين خمسة (التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد) - وليس منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ويعدونه من الفروع العشرة للدين - (الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الخمس، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التولي لأولياء الله، التبري من أعداء الله).

.. ولابد أن نعترف بأن هذا الموضوع قد تضاءل وتصاغر في أوساطنا نحن الشيعة، بحيث لم يعد الفقهاء منذ قرون يكتبون شيئا حوله في كتب الأحكام الفقهية (الرسائل العملية)..» (ص ١٨١، ١٨٢).

● وانتقد مطهري - كذلك - الموقف الفكري من «الثروة».. منبها على «أن الإسلام لا يحتقر المال والثروة.. ولكنه يعارض تأليهها..» (ص ٢٢٩، ٢٣٠).

كما انتقد الأوضاع الاجتماعية القاسية التي أدت إلى الفوارق الطبقية الفاحشة والظالمة بين الأثرياء والفقراء.. وقال: «إن انقسام المجتمع طبقيا لا ينسجم مع هدف الإسلام.. لقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، إحداهما فقيرة وتعيسة.. والأخرى مسرفة ومبذرة ومغرورة لا تعرف كيف تنفق ثرواتها الهائلة..» (ص ٨٨).

● كما نبه على أن المعنى الإسلامي «للتوكل» هو معنى مغاير لما هو شائع عن هذا المصطلح في الفضاء الإسلامي.. فالتوكل حافز على العمل وعلى الشجاعة والإقدام.. وبعبارته: «... فإن للتوكل في القرآن مفهوما حيا وحماسيا - فكلما أراد القرآن أن يدفع بالإنسان إلى العمل وأن ينزع عنه الخوف والرهبة، يقول له: لا تخف وتوكل على الله، وتقدم واثقا بالله عز وجل قل الحقيقة معتمدا على الله، وثق بالله، ولا تخشى كثرة الناس..» (ص ٢٢٠)..

● ولأن الشهيد مطهري هو أحد أركان المدرسة التجديدية في الفكر الشيعي المعاصر.. وأحد أركان الثورة التي انتصرت في إيران سنة ١٩٧٩م.. كان له موقف متقدم من قضية المرأة.. فهو يدعو إلى مراعاة التمايز الفطري بين الذكورة والأنوثة، وبعد ذلك من العدل في النظر إلى الجنسين ويدعو - كذلك - إلى إبراز الموقف الإسلامي الذي أنصف المرأة، ورفع عنها الإهانات التي ألحقتها بها مواريث دينية سبقت الإسلام.. وفي ذلك يقول:

«إن مراعاة الفوارق الفطرية بين المرأة والرجل هو أكثر تطابقا مع العدالة.. كما أنه يوفر السعادة للأسرة، والتقدم للمجتمع.

والإسلام لم يقرر للمرأة والرجل حقوقا متشابهة في كل الحالات، كما أنه لم يفرض عليهما واجبات وعقوبات متشابهة أيضا.

ولكن ما أقره الإسلام للمرأة من حقوق ليس أقل قيمة مما أقره للرجل.. لقد خلقا من نفس واحدة.. ولم تخلق المرأة من أحد أضلاع آدم اليسرى.. فليس في الإسلام هذه الأفكار التي تحقر المرأة، وتجعلها كائنا طفيليا.

وإن أية موهبة طبيعية - للرجل أو المرأة - تدل على وجود حق طبيعي..» (ص ١٨٩ - ١٩٠، ١٩١).

● وفي إطار الفكر الشيعي دافع مطهري عن «التقية» عندما تكون نوعا من الدرع الواقي في النضال..

وعندما تعني إنزال أقوى الضربات، وتوقي كل الضربات، فهي تكتيك عقلي في المسيرة النضالية.

لكنه انتقد هذه «التقية» «التي نجدها قد فرغت - اليوم - من مفهومها الأصلي تماما - واتخذت مفهوما مضادا للنضال، وغدت تعني عند المرفهين وطالبي الراحة: التهرب من ساحة المواجهة، وترك المعركة لمصلحة العدو، والاهتمام - في المقابل - بالمناقشات والجدليات الجوفاء» - (ص ١١٥) -.

● وهناك قضية أخرى من قضايا العلاقة بين الشيعة والسنة - تطرح أحيانا تحت لافتة «التقريب بين المذاهب الإسلامية».. وأحيانا تحت لافتة «وحدة الأمة الإسلامية» وهي قضية حظيت باهتمام الطرفين - السنة والشيعة - منذ أربعينيات القرن العشرين.. وعاد الاهتمام الشيعي بها بعد نجاح الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م.. ولها تعقد الكثير من المؤتمرات، وتصدر العديد من البيانات والكتب والتصريحات.

وحول هذه القضية فجر الشهيد مطهري مجموعة من الآراء، التي ستجعل الكثيرين من أهل السنة يعيدون النظر في حماسهم لهذه القضية، وفي جدوى الجهود المبذولة في سبيلها، وفي واقعية الآمال المعلقة عليها!..

لقد كشف مطهري في تناوله لهذه القضية عن:

١ - أن الشيعة يعانون من العزلة.

٢ - وأن أسواق العالم الإسلامي مغلقة في وجه المعارف القيمة الموجودة لديهم.

٣ - وأن المطلوب هو خلق أجواء التفاهم التي تسمح للشيعة بعرض ما لديهم على الآخرين!

٤ - وذلك دون التنازل عن حتى «مستحب» أو «مكروه» يمكن أن تضحي به الشيعة في سبيل الوحدة الإسلامية - التي هي فكرة غير عملية من الأساس!

لقد كشف الشهيد مطهري حقيقة مقاصد الشيعة من وراء الشعارات والجهود المبذولة تحت لافتات «التقريب بين المذاهب» و«الوحدة الإسلامية».. وبدد الأوهام والآمال التي يعقدها الكثيرون ويعلقونها على هذه الجهود.. وصارح الجميع برأيه - الذي قال فيه:

«إننا نحن شيعة أهل البيت، نفخر بأننا نتبع مذهب أهل بيت رسول الله ﷺ ولا نعتبر أصغر حكم من أحكام الشريعة، حتى المستحب والمكروه، يمكن أن يضحى به من أجل الوحدة، فإننا لا نستجيب لتوقعات الآخرين في هذا المجال، كما لا نتوقع من الآخرين أن يتخلوا عن أصل من أصولهم باسم المصلحة من أجل الاتحاد الإسلامي.

إن الاتحاد الإسلامي، الذي رفع لواءه خلال القرن الأخير عدد من العلماء.. لا يعني أن تتنازل المذاهب الإسلامية - من أجل تحقيق الوحدة - عن أصولها العقائدية أو غير العقائدية أو بعبارة أخرى: لا يعني أن يأخذ المسلمون بمشتركات كل المذاهب ويدعوا جانبا مختصات كل المذاهب، ذلك لأن هذا العمل لا هو منطقي ولا هو عملي.

إن ما نتوقعه ونأمله: هو خلق أجواء التفاهم الإيجابية التي تسمح لنا، كشيعة، لنا أصولنا وفروعنا، ولنا الفقه والحديث والكلام والفلسفة والآداب الخاصة بنا، أن نعرض على الآخرين ما نملك، لكي لا تبقى الشيعة في عزلة، وتبقى أسواق العالم الإسلامي مغلقة في وجه المعارف الإسلامية القيمة

الموجودة لدينا»!! (ص١٦٢، ١٦٣).

فليس المراد: التفاعل بين المذاهب.. أو الالتقاء حول «المشتركات».. ولا حتى التنازل عن الهوامش - من مثل «المستحبات» و«المكروهات» في الفقه - الذى هو - كله - علم الفروع - ليس المراد أى شيء من ذلك.. وإنما المراد: خلق أجواء التفاهم، التى تسمح للشيعة بالخروج من عزلتها - كأقلية - لتدخل أسواق العوالم السنية - التى تمثل ٩٠٪ من الفضاء الإسلامى - لتسويق البضاعة الشيعية في الأسواق السنية!!

هذا هو المراد والمقصود من وراء التقريب بين المذاهب.. فقط لا غير!! والأمر الذى نعتقده هو أن الشهيد مطهرى لم يكن «مخترعا» لهذه المقاصد.. وإنما كان له ولشجاعته وصراحته فضيلة «الكشف» عن هذه المقاصد والغايات!



وإذا كانت هذه هى أبرز القضايا التى تناولها الشهيد مطهرى في نقده للأمراض الفكرية الداخلية - في الفضاء الشيعي -.. فلقد تناول الرجل بالنقد والتفنيد تلك الأمراض الفكرية التى جاءت إلى بلادنا في ركاب الغزو الغربى لعالم الإسلام.. والتى غدت جزءا من «داخلنا»!..

• انتقد النزعة المادية - التى تفسر القرآن والإسلام تفسير ماديا وماركسيا.. وانتقد التغريب، الذى أدى ويؤدى إلى الانهزامية العقائدية أمام كل ما يأتى من الغرب.. وقال:

«هناك - في مجتمعنا - انهزامية عقائدية يعشق أصحابها المنطق الديالكتيكي، ويزعمون أن منطق الإسلام هو المنطق الديالكتيكي.. دون التفات إلى أن هذا المنطق الديالكتيكي يحارب دينه وإسلامه، ويسعى لاقتلاع جذوره من الأساس..» (ص٨١)

«وهناك من يتصور إمكانية تحقيق العدالة دون المعنويات.. ويتصور أن الجوانب المعنوية في القرآن قابلة للتأويل.. وهم يحسبون أنهم بذلك - إنما يؤسسون ثقافة ثورية للإسلام»! (ص١٧٧).

«وهناك مرض استلاب الشخصية.. والزعم بأن ما يقوله الإفرنج لابد أن يكون صحيحا..»! (ص١٥٥).

• ولقد انتقد الشهيد مطهرى استبدال القوانين الوضعية الغربية بالشريعة الإسلامية معتبرا القرن العشرين - الذى تم فيه هذا الغزو القانونى - قرن «الكارثة العظيمة»!.. فقال: «بعد القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادي) - قرن كارثة عظيمة بالنسبة إلى الفقه والأحكام الإسلامية، فقد شهدنا فيه التضحية بالقوانين والأحكام الإسلامية لمصلحة القوانين الأوروبية»! (ص١٣٨).

• ولقد أبصر مطهرى دور الاستشراق اليهودى في هذا الصراع الغربى للهيمنة على الإسلام والمسلمين.. وأشار إلى «أن أكثر من ٩٠٪ من مقاعد الدراسات الاستشراقية في جامعات العالم، يشغلها اليهود»!..

وتساءل: «فكم لهؤلاء من القدرة على ضرب الإسلام»؟! (ص١١٦).



وبقدر ما تجلت عبقرية الشهيد مطهرى في رصد وتشخيص أمراض التغريب والغزو الفكرى واستلاب الشخصية الحضارية الإسلامية - بقدر ما تجلت عبقريته في وصف العلاج، الذى يتمثل

في «الاستقلال الفكرى والعقائدي».. وعدم الاكتفاء «بالاستقلال الشكلي» «الاستقلال السياسى والاقتصادي»، والاكتفاء باستقلال «القلم» و«النشيد» ففى الاستقلال الفكرى والحضارى العلاج لأمراض التغريب.. لأنه هو «حقيقة الاستقلال»!

أبصر مطهرى هذا العلاج.. فقال:

«إننى أؤكد كثيرا على مسألة الاستقلال، ولاسيما الاستقلال العقدي، فلو لم نقدم رسالتنا المستقلة للمجتمع، فإنه لا ينفعنا إسقاط النظام الملكي، حتى ولو نلنا الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادي، فبدون الاستقلال الثقافى فإننا سنواجه الهزيمة، ولا نستطيع تثمير ثورتنا الإسلامية.

علينا أن نثبت أن رؤيتنا الإسلامية، لا تتطابق مع الرؤية الغربية ولا مع الرؤية الشرقية، وهى لا ترتبط بأى منهما، كما لا تحتاج إلى أى منهما فما هذا المرض الذى يدفع بعضنا لتكييف الرؤية الإسلامية مع الرؤى الأجنبية؟! إن من يحاول تكييف الإسلام مع المدارس الفكرية الأخرى أو إقحام عناصر من تلك المدارس في الإسلام، فهو يخدم الاستعمار شاء أم أبى، وإن خدمة هؤلاء للاستعمار هى أكبر من خدمة عملاء الاستعمار سياسيا أو اقتصاديا، وبالدرجة نفسها تكون خيانتهم للأمة أعظم.

إن من أهم مسئولياتنا لصيانة الثورة الإسلامية هو الحفاظ على استقلالنا الرسالى والأيديولوجي» (ص٨٢، ٨٣).



هكذا تجلى الشهيد مطهرى - في هذا الكتاب الفذ - الذى أحاط بمشروعه الفكري..:

• مجددا ومجتهدا.. تصدى بعمق وصراحة ووعى لمخاطر «المدرسة الأخبارية».. التى مثلت الجناية الكبرى على مصادر الإسلام.. والتى صبغت الفكر الشيعى بالخرافات والشعوذات والأكاذيب.

وهو موقف شجاع حبذا لو احتذاه علماء السنة في نقد الفكر الدينى بالفضاء السني! وحبذا لو واصل السير على طريقه علماء شيعة آخرون!!

• وتجلى مطهرى حكيما وفيلسوفا يشخص الأدواء الفكرية.. ويصف لها العلاجات!

• وتجلى ابنا بارا لأصالة الفكر الإسلامي، التى لا تقبل «الغزو» ولا «التهجين» وإن قبلت التفاعل الصحى والرشيد بين الحضارات، من موقع الاستقلال الفكرى والثقافى والحضاري، الذى يميز في الفكر العالمى - بين الخصوصيات الثقافية وبين ما هو «مشترك إنسانى عام»(٦).

عليه رحمة الله

(٦) هناك - في ثنايا هذا الكتاب - بعض الأفكار التي ربما كانت ثمرة قلة المعلومات. من مثل نقد مطهري لمحمد إقبال. ولابن تيمية. وللأشاعرة. ومثل قوله - ص٦٦: إن مكة - عند ظهور الإسلام - لم يكن بها أكثر من سبعة أشخاص يجيدون الكتابة. والواقع يشهد أن كتاب الوحي - الثمانية والعشرون - كان منهم واحد وعشرون مكيا فكم من الكتاب المكيين الذين أسلموا ولم يكونوا من «كتاب الوحي» - وكم من المكيين الذين كانوا كتابا ولم يدخلوا في الإسلام؟. أنظر كتابنا (حقائق وشبهات حول القرآن الكريم ص٣٠ - ٤٢ طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.

تفسير سورة البقرة



للشيخ - محمد عبده

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

(البقرة: ٤٩).

هـذه الآية، كالتي قبلها واللواتي بعدها، تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل التي ذكرت من قبل مجملة، وابتدئ التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة في ذكره وهو نهوض الهمة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون المقام الذي رفعهم الله إليه، وتوطين النفس لقبول الموعظة، إلخ، ثم ذكرهم بما حل بهم من البلاء والعقوبات جزاءً على جرائمهم وبلطف الله تعالى بهم وإنجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعْرفهم مقدار فضله وعقوبته معًا.

والآية معطوفة على ما قبلها من سلسلة الذكريات، فقوله:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾

عطف تفصيل على الإجمال في قوله:

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾

أى نعمى الكثيرة؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أى واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون. وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة، مرجع وإله خاصته، وقد يطلق على قومه قدماء المصريين. ولما كانت التنجية لا تكون إلا من ظلم أو شر، بيّن ما نجاهم منه بقوله:

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

أى يكلفونكم ويبغونكم مما يسوءكم ويذلكم من العذاب. ثم بين ذلك بقوله:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾

أى يقتلون ذكران نسلكم ويستبقون إناثه أحياءً لإضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلكم وإبادتكم:

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

أى وفى ذلكم العذاب وفى التنجية منه - فى كل منهما - بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم، كما قال فى آية أخرى:

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(الأعراف: ١٦٨).

خاطب الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ بما كان لآبائهم؛ لأن الإنعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا هو إنعام شامل للأمة، من أصابه ذلك الإنعام من أفراد ومن لم يصبه. ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين، كما يصح الفخر به منهم أجمعين، كما أن الإنعام على شخص بشىء يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه، أو لذيذ طعام يطعمه، يكون إنعامًا على الشخص، ولا يقال إنه إنعام على لسان فلان ولا على رأسه، أو يده أو رجله؛ ولأن ما وصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التى ربطت أفراده بعضهم ببعض يكون له أثر فى مجموع الأفراد، لاسيما إذا كان الواصل من نقمة أو نعمة مسببًا عن عمل الأمة شرًا أو خيرًا، ويكون لذلك أثر فى الأمة يورثه السلف الخلف ما بقيت الأمة.

وأنواع البلاء التى ذكر بها اليهود فى القرآن كانت لشعب إسرائيل من حيث هو شعب إسرائيل؛ لأن الجرائم التى كان البلاء عقوبة عليها إنما كانت من مجموع الشعب من حيث هو شعب إسرائيل. ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ويفيض عليه النعم، فتكون العقوبة تربيةً وتعليمًا تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة.

لا أقول إن هذا الخطاب إيماء أو إشارة للمخاطبين بأن يستحضروا تاريخ أمتهم الماضى ليتذكروا صنع الله تعالى فيهم فيعتبروا بما أصابهم من نعماء وضراء، وسعادة وشقاء، ويتفكروا فيما حل بهم من بعدهم، وما ينتظر أن يحل بهم. وإنما الكلام نص صريح، لا يحتاج إلى التأويل. فالروابط الاجتماعية بين أفراد الأمم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضاء الشخص الواحد بلا فرق. تعثر الرجل فتخدش أو توثأ، والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حى بحياة واحدة تستوى فيها رجله وسائر أعضائه، ولذلك يسعى بجملته لإزالة ألم الرجل، ويتوقى أسباب العثار بعد ذلك مستعينًا بكل أعضائه وقواه.

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الأمم، وأنعم على أمتنا - التى لا تختص بشعب ولا جنس - بهذا القرآن الكريم، فكان لهم به نعم لا تحصى تعرف من الكتاب والسنة، منها:

أنهم كانوا أعداءً، فألف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخوانًا. ومنها أنهم كانوا مستضعفين، فمكن لهم فى الأرض، وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم. ومنها أن جعلهم أمة وسطا لا تفريط عندها ولا إفراط، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا، والذين قصروا وفرطوا. ثم لما كفرت بأنعم الله، أنزل بها ألوانا من البلاء والنقم بعنوان الأمة. فإن التتار إنما نكلوا بها وتبروا ما علوا تتبيرا لأنها الأمة الإسلامية. ثم زحف عليها الغربيون أيام حروب الصليب، وجاسوا خلال الديار لأنها الأمة الإسلامية. ثم إن الفتن لاتزال تحل بديارها، وتنقصها من أطرافها، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الأمة الإسلامية. وقد مرت عليها

قرون وهى لا تعتبر بما مضى، ولا تتربى بما حضر، بل جهلت الماضى فحارت فى الحاضر، لا تعرف سببه ولا المخرج منه.

أليس من العجب، أن الجمهور الأعظم من المشتغلين بالعلم منها هم أجهلها بتاريخها، لا يعرفون شيئًا من ماضيها ولا حاضرها؟! ولكنهم يعترفون بأن الأمة فى بلاء كبير، ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الأسباب، ويكلون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه؟!

إن هذه الأمة أمة واحدة، وإن اختلفت ديارها وتعددت أجناسها، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضى، فلابد من تتبع السواقى والجداول إلى الينبوع الأول الذى هو الأصل.

كان سلفنا رضى الله تعالى عنهم يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا بكل اعتناء ودقة، حتى كانوا يروون البيت من الشعر أو النكتة بين العاشق ومعشوقته بالأسانيد المتصلة. وليست هذه المبالغة مما يؤخذ عليهم، فإن الأمة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها، فإذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات بحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان وتقلبات شئون الاجتماع، مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم وبكيفية حدوث التغيير الضار للجهل بالتاريخ. بهذا تفعل فواعل الكون بالأمة الجاهلية أفاعيلها حتى تقلب كيانها، وتقوض بنيانها، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها، فلا يكون لهم عمل إلا للمصلحة الشخصية وهى لا حفاظ لها فى مجموع الأمة إلا بالمصلحة العامة فإذا أهملت تكون الأمة من الهالكين.

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة، فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقيها بالرواية كالسنة النبوية، بل تفننت فيها فصنفت فى تاريخ الأشخاص كما صنفت فى تاريخ البلاد والشعوب، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخًا، فترى فى المكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحدثين وطبقات النحويين وطبقات الأطباء وطبقات الشعراء إلى غير ذلك. ثم اهتدى بعضهم إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ، فصنف ابن خلدون فى ذلك مقدمة تاريخية. ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد، لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستثماره.

فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هى فيه من سعة العمران، وعزة السلطان. وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله فى الأمم منه. وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثانى إلى ذلك. فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ، بل صار ممقوتًا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين، فإن وجد من يلتفت إليه فإنما يكون متبعًا فى ذلك سنة قوم آخرين.

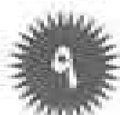
نكتفى الآن بهذا التنبيه، ونعود إلى إتمام تفسير الآية التى صرفتنا إليه بمخاطبة بنى إسرائيل فى زمن تنزيل القرآن بما كان من تعذيب آل فرعون لسلفهم وإنعام الله عليهم بالإنجاء من ذلك العذاب.

أول من دخل مصر من بنى إسرائيل هو يوسف عليه السلام، وانضم إليه بعد ذلك إخوته، ونما نسله ونسلهم فيها، وكثر حتى قيل إنهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف. وهذا النمو كان فى مدة أربعمائة سنة. وكان المصريون من آل فرعون لا يحبون مساكنة الغرباء. فلما رأى فرعون نمو شعب إسرائيل، خاف مغبة؛ الأمر لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا يتبسطون فى الأرض ويزاحمون المصريين، فطفق يستذلهم ويكلفهم الأعمال الشاقة، كصنع الطوب لبناء الهياكل والبرابي، لعلمه بأن الذل يقلل النسل ويفضى بالأمة إلى الانقراض. ولكنهم ظلوا مع الاستذلال يتناسلون ويكثرون. فلما رأى الحكام المصريون يزدادون نسلًا؛ وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولا يمازجون المصريين، وعندهم الأثرة والإباء لاعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه، خافوا أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها. وإنما كانوا يزدادون على الذل نسلًا، لأن الذل لا يؤثر إلا فى الزمن الطويل، ذلك بأن الذليل الذى لا تطلق إرادته فى أعماله هو بمنزلة الشخص الذى يضعف عن تناول الغذاء الذى يمد حياته، فهو يذبل رويدًا رويدًا حتى ينحل ويموت. والقوى المعنوية التى تحفظ حياة الأمم هى قوة الأرواح والإرادات، لأن الجسم محمول بالروح. والعمل النافع، إنما يكون بالإرادة. فمتى خذلت النفوس بالتسلط على إرادتها تبعها الجسم فيضعف بضعفها. والضعيف يأتى بنتاج ضعيف، ويكون نسل نتاجه أضعف من نسله، ويتسلسل هكذا حتى يكون من لوازم ضعف النسل إسراع الموت إلى صغاره قبل بلوغ سن الرشد. وبهذا ينقرض النسل كما حصل لهنود أمريكا وسكان شمالى أستراليا.

استبطأ المصريون أثر الاستذلال فى الإسرائيليين، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء إناثهم. فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبنى إسرائيل عند ولادته، لأن من سنة الله فى الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس إنما يكون بالذكور. وقال مفسرنا (الجلال) - تبعًا لغيره: إن سبب العذاب وتقتيل الأبناء دون البنات، هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأنه سيولد من بنى إسرائيل ولد ينزع منه ملكه ويكون على يديه هلكه.

وليس لهذا القول سند صحيح، ولا يعرف فى التاريخ. وما قلناه هو الذى يعرفه بنو إسرائيل ويتناقلونه فى كتبهم المعروفة بالمقدسة وغير المقدسة، وهو المعقول فى نفسه أيضًا.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى



مابدا من اجتهاده ﷺ فى صورة «الإذن»

ثم هنا أيضًا رأى الرسول ﷺ وبدا رأيه فى صورة «إذن وتسويغ» لشخص أو نفر من الناس فى عمل، ثم نزل الوحى بتعديل رأيه:

١ - وذلك حين استأذن بعض المنافقين النبى ﷺ فى التخلف عن غزوة تبوك فأذن لهم على ضعف أعذارهم - وتخلف من المؤمنين آخرون - فأنزل الله فى الجميع آيات نزلت أثناء سفره ﷺ فى نفس الغزوة، وهى قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

(التوبة: ٤٢: ٤٣)

وعاتبه سبحانه وتعالى على إذنه لهم بذلك، إذ وجه إليه الخطاب بقوله:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

(التوبة: ٤٣) (١)

والمنار فى تفسير هذه الآية الكريمة يقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ العفو: التجاوز عن الذنب والتقصير، وترك المؤاخذة عليه: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أى هلا استأنيت وتريثت بالإذن حتى يتبين لك الصادق فى الاستئذان والكاذب الذى قرر التخلف أذنت أم لم تأذن.

فمتعلق ﴿حَتَّىٰ﴾ مفهوم من السياق. ثم يستطرد فيقول: إن الزمخشرى أساء الأدب فى تفسير العفو (٢). ويقول: إن الفخر الرازى فى تفسيره جاء على الطرف الآخر محاولا إثبات أن لا ذنب (٣).

ثم قال: وما كان للفخر الرازى أن يهرب من إثبات ما أثبته الله فى كتابه فى عدة مواضع لأنبياء كثيرين - نبينا ﷺ واحد منهم - تمسكًا باصطلاحات وعرف (٤) مستحدث فى «الذنب» مخالف لمدلول اللغة. فالذنب

(١) ونزلت هى وغيرها فى هذه السورة فى شأن غزوة تبوك وهى «غزوة العسرة» المشهورة بشدة الحر وبعد الشقة، وكانت فى رجب سنة تسع من الهجرة.

(٢) عبارة الزمخشري: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت.

(٣) إذ يرى أن العفو إنما هو لمخالفة الأولى فقط.

(٤) هو مرادفة الذنب للمعصية.

فى اللغة: كل عمل يستتبع ضررًا أو يفوت مصلحة، مأخوذة من «ذنب الدابة»، وليس مرادفًا للمعصية، بل أعم منها، والإذن المعفو عنه هنا قد فوت المصلحة المنصوص عليها فى الآية، وهى علم جميع الناس بالصادق والكاذب من هؤلاء المتخلفين. فكان المطلوب ألا يأذن ﷺ لهم حتى يفتضحوا على رؤوس الأشهاد، وحتى لا يبهجوا ولو قليلا بأنهم غرروا به ﷺ وأضلوه بالكذب. وقد نسب الله للنبى ﷺ الذنب فى موضع آخر من كتابه العزيز، فقال:

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

(محمد: ١٩)

وقد كان «الإذن» المعاتب عليه هنا اجتهادًا منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز على الأنبياء وليسوا معصومين من الخطأ فيه، فقد كان الأولى منه ﷺ أن يؤخر الإذن لهؤلاء المنافقين حتى يفتضحوا من أنفسهم.

●●●

١ - وفى حين آخر يروى مسلم (٥) فى صحيحه عن عامر بن شراحيل الشعبى عن فاطمة بنت قيس - وكانت من المهاجرات الأول - قالت: نكحت ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش يومئذ، فأصيب فى أول الجهاد مع رسول الله ﷺ: فلما تأيمت خطبنى عبدالرحمن بن عوف، وخطبنى ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حدثت أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبنى فليحب أسامة» فلما كلمنى ﷺ قلت: «أمرى بيدك فأنكحنى من شئت». فقال: «انتقلى إلى أم شريك».

فقال ﷺ: «لكم أن لا تحشروا ولا تعشروا، ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير فى دين لا ركوع فيه».

فقلت: سأفعل. فقال: «لا تفعلي! إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإنى أكره أن يسقط عنك خمارك، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهينه، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبدالله بن أم مكتوم.. فانتقلت إليه.. إلخ (٦).

وفى مقام ثالث يروى الإمام أحمد (٧) عن عثمان بن أبى العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا على رسول الله ﷺ أن لا يحشروا (٨)، ولا يعشروا (٩) ولا يُجَبُّوا (١٠) ولا يستعمل عليهم غيرهم.

ويروى أبو داود عن جابر أنه يقول: اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك:

٢ - «سيصدقون، ويجاهدون» (١١).

فأولا أذن لهم رسول الله ﷺ بعدم

(٥) جزء ٨ متن العيني صفحة ٢٠٣ كتاب الفتن باب الدجال وابن الصياد.

(٦) وفى رواية: «تأيمت وكان بيتى فى مكان خال فخفت أن أغتال فيه».

(٧) - (٨) أى لا يندبون إلى المغازى (٩) أى لا يؤخذ منهم عشر أموالهم (١٠) أى لا يصلوا.

(١١) قال فى اللسان: وأما حديث بشير بن الخصاصية حين ذكر له ﷺ شرائع الإسلام فقال: أما اثنان منهما فلا أطيقهما: الصدقة والجهاد، فقبض ﷺ يده وقال: «لا صدقة ولا جهاد؟ فبم تدخل الجنة؟» فلم يحتمل ﷺ لبشير ما احتمل لثقيف، ويشبه أن يكون إنما لم يسمح ﷺ لبشير لعلمه أنه يقبل إذا قيل له ما قيل، وثقيف كانت لا تقبله فى الحال، وأيضًا هو واحد وهم جماعة فأراد ﷺ أن يتألفهم ويدرجهم على الإسلام شيئًا فشيئًا.

إخراج الزكاة، وبعدم خروجهم إلى الجهاد. وهما أمران لا تقدم عليهما إلا النفس المؤمنة المطمئنة فى إيمانها، إذ المال والنفس فى مقدمة ما يحرص عليه الإنسان ويبذل جاهدًا دون أن يفقد واحدًا منهما، ولا سبيل إلى التغلب على هذا الطبع البشرى إلا بالإيمان بأعز منهما، والله سبحانه وتعالى لدى المؤمنين به حقًا أعز من النفس، والمال، والولد، والحياة الدنيا كلها.

ثم هو ﷺ ثانيا ترقب منهم أن يؤدوا الزكاة ويخرجوا إلى القتال بدافع الإيمان، دون احتياج إلى نصيحة أخرى منه، إن آمنوا وتغلغل الإيمان فى قلوبهم.(١٢)

وهذا شأنه ﷺ يُدرِّجُ القوم إلى الدين رويدًا رويدًا، ويلين لهم من جانبه ويتساهل فى مطالبه تأليفًا لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد، حتى إذا وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى المألوف من عاداتهم، ويتحملون المشاق فى كل جانب من جوانب حياتهم فى سبيل نصرة ما آمنوا به واستمرار بقائهم عليه.

• • •

ومما يدخل فى هذا الباب للغاية نفسها ما يرويه أبو داود عن عبدالله بن فضالة عن أبيه، قال: علمنى رسول الله ﷺ فكان فيما علمنى: «وحافظ على الصلوات الخمس!».

قال: قلت: إن هذه ساعات لى فيها أشغال، فمرنى بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عنى، فقال:

١ - «حافظ على العصرين!».. وما كانت من لغتنا فقلت: وما العصران؟ فقال: «صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها».

ويروى أحمد فى مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبى ﷺ فأسلم على أنه لا يصلى إلا صلاتين، فقبل ذلك منه. ويعلق الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبى الأنصارى الحنفى النقشبندى فى شرحه «بذل المجهود فى شرح سنن أبى داود» على رواية أحمد هذه بقوله:

فظهر بذا أنه أسقط عنه ثلاث صلوات. فكان من خصائصه ﷺ أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام، ويسقط عمن شاء ما شاء من الواجبات.

والظاهر أن هذا الرجل المبهم فى حديث أحمد بن حنبل هو فضالة الذى فى حديث أبى داود، فإنه ليثي، ونصر بن عاصم ليثي.

وقد ترجم «الفتح الرباني: ج١ ص٩٢» لحديث مسند أحمد هذا بقوله: «فصل فى ترغيب المشركين فى الإسلام وتأليف قلوبهم»، وترجم له الشوكاني بقوله: «باب صحة الإسلام مع الشرط الفاسد».

٢ - لكن قبوله ﷺ من فضالة الاقتصار على صلاة العصرين كان قبولاً مؤقتًا، أملاً فى أن يصبح فيما بعد كبقية المسلمين يؤدى من فروض الصلاة ما يؤديه غيره.

وكان ما يترقبه الرسول ﷺ هنا من فضالة - بعد أن يتمكن الإيمان من قلبه - هو المسوغ لما أذن له فيه من إجزاء صلاة العصرين عن اليوم كله أول الأمر.

(١٢) كما فى رواية أبى داود عن جابر المتقدمة.

• • •

وكذا ما فى رواية البخارى عن أم عطية من أنها قالت: بايعنا ﷺ فقرأ علينا: «أن لا يُشركن بالله شيئًا» ونهانا عن «النياحة» فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتنى(١٣) فلانة فأريد أن أجزيها.

١ - فما قال ﷺ شيئًا (١٤) فانطلقت.

٢ - ورجعت فبايعها.

وفى رواية النسائي... قال:

١ - فاذهبى فأسعديها، فذهبت فأسعدتها.

٢ - ثم جئت فبايعت.

قيل فى تعليل هذا الترخيص: كان خصوصية لأم عطية، وقيل: إن ذلك كان قبل تحريم النياحة.

ورد القرطبى هذا التخريج الأخير - ووافقه الحافظ ابن حجر - وقال: دعوى أن ذلك كان قبل تحريم النياحة فاسدة لمساق حديث أم عطية. فلولا أنها فهمت التحريم لما استثنت. بل إن أم عطية نفسها صرحت بالنهى عن النياحة.

ويرد - أيضًا - دعوى كون ذلك خصوصية لأم عطية بثبوت مثل ذلك لغيرها: فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس لما أخذ رسول الله ﷺ على النساء فبايعهن أن لا يُشركن بالله شيئًا، قالت خولة بنت حكيم: يا رسول الله، كان أبى وأخى ماتا فى الجاهلية وأن فلانة أسعدتنى وقد مات أخوها.. الحديث. وأخرج الترمذى أيضًا عن أم سلمة الأنصارية - وهى أسماء بنت يزيد - قالت: قلت يا رسول الله! إن بنى فلان أسعدونى على عمى ولابد من قضائهن، فأبى. قالت: فراجعته مرارًا فأذن لى، ثم لم أنح بعد. وأخرج أحمد والطبرى كذلك - من طريق مصعب بن نوح - قال: أدركت عجوزًا لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ، قالت: فأخذ علينا... ولا ينحن، فقالت: عجوز: يا نبى الله! إن ناسًا كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا، وأنهم قد أصابتهم مصيبة، فأنا أريد أن أسعدهم، قال: «فاذهبى فكافئيهم». قالت: فانطلقت فكافأتهم، ثم أتت فبايعته.

ولم يبق بعد رد القرطبى - لما سبق من تخريج الحديث على أن الإذن بالنياحة كان قبل تحريمها - إلا أن يكون الحديث معبرًا عن اجتهاد منه ﷺ بغية تيسير الإسلام على من دخل جديدًا فيه معتمدًا على أنه سيكون فى سلك بقية المؤمنين بعد أن يتمكن نور الإسلام من قلبه.

فقد أذن ﷺ هنا بالنياحة - وهى أمر غير مرغوب فيه - وإذنه بذلك مؤقت، والإذن المؤقت ينطوى على معنى العدول عن استمراره واعتباره قاعدة عامة.

(١٣) قال الحافظ: الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى في النياحة تراسلها، وهو خاص بهذا المعنى، ولا يستعمل إلا في المساعدة على البكاء.

(١٤) وفي رواية عاصم: فقال ﷺ: «إلا آل فلان».

أثر الدرس اللغوى فى فهم النص الشرعى (٢)

ضرورة الدلالات الأربع



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يرجع الأساس الذى بنينا عليه أهمية الرجوع إلى هذه العلوم إلى أن القارئ لأى نص عربى قد يصادفه لفظ لا يدرى استعمال العرب له، فيلجأ فورًا إلى المعجم العربى ليعرف دلالته اللغوية .. غير أن المعاجم العامة وبخاصة الكبيرة منها مثل (لسان العرب) تستوعب المعانى الواردة فى اللغة بمختلف لهجاتها، وما ورد من شعرها ونثرها.. وقد يصعب على الدارس للنص القرآنى تحديد المعنى المراد من خلال هذه المعاجم، فالأفضل له أن يلجأ إلى كتب الغريب بحيث إذا كان البحث عن معنى لفظ قرآنى رجع إلى كتب: غريب القرآن. وإن كان فى حديث نبوى لجأ إلى كتب: غريب الحديث. ومن أفضل هذه الكتب فى غريب القرآن: (المفردات) للراغب الأصفهاني. و(معجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية. أما كتب غريب الحديث فمن أيسرها كتاب (النهاية فى غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، و(الفائق فى غريب الحديث) للزمخشري. ومن العلماء من جمع بين غريب القرآن والحديث مثل الهروى فى كتابه (الغريبين). ومع كل ذلك لابد من إدراك السياق للنص عند تحديد المعنى المراد.

- وبعد أن يعرف المعنى اللغوى للمادة لابد له أن يبحث عن الصيغة التى أتت عليها المادة، إذ لكل صيغة معنى يخصها، وعند معرفة الصيغة ومعانيها الواردة فى اللغة ينضاف المعنى الصيغى إلى المعنى اللغوى للمادة. وستأتى أمثلة كثيرة توضح أن كل حرف يزاد على أصول الكلمة العربية لا بد أن يكون له معنى زائداً يقصده البليغ، ويتكفل ببيان هذه الصيغ علم الصرف.

كما أن دراسته مهمة للغاية فى كيفية تجريد الكلمة من زوائدها ليتمكن الدارس من الكشف على معناها فى المعاجم لأن معظم هذه المعاجم تضع تصرفات اللفظ تحت المادة اللغوية المجردة.

فإذا شاء الباحث معرفة معنى الاستقامة مثلا كان عليه أن يرجع إلى مادة: (القاف والواو والميم).

وإذا أراد أن يبحث عن معنى التقوى كان عليه أن يبحث فى مادة: (الواو والقاف والياء) وهكذا.

ومن مباحثه أيضًا ما يعرف به كيفية التأنيث والتذكير والتثنية والجمع والإمالة والوقف والإدغام وغير ذلك.

- وبعد أن يحدد المعنى اللغوى من كتب الغريب، والمعنى الصيغى من علم الصرف يأتى دور علم النحو فى تحديد الموقع الإعرابى لهذه الكلمة ووضعها فى الجملة التركيبية حتى لا ينسب حدث إلى من لم يقم به.. ولا يخفى ما للعلامة الإعرابية فى آخر اللفظ من أهمية بالغة فى تحديد المعنى المراد، وستأتى أمثلة كثيرة لاختلاف المعنى باختلاف الإعراب.

وقد تنوعت كتب النحو من عهد (سيبويه) إلى الآن فمنها ما اختص بشرح القواعد بأمثلة من واقع المستعمل لدى الدارسين، وهى المشهورة الآن فى الدراسة التجريدية من أمثال شروح ألفية ابن مالك، وهذا النوع من الكتب لا يصلح إلا للمتخصصين الحافظين لكتاب الله، كما كان الوضع فى مناهج التعليم القديمة.

ومنها ما اختص بإعراب القرآن والسنة، وهو منهج تطبيقى للقواعد على النص الشرعي، وقد بلغت كتب الإعراب من الكثرة في مختلف العصور ما يعكس الاهتمام بكتاب الله مثل: (إعراب القرآن) للنحاس، و(مشكل إعراب القرآن) لمكى بن أبي طالب، و(البيان فى إعراب القرآن) لابن الأنباري، و(معانى القرآن وإعرابه) للزجاج، و(معانى القرآن) للفراء، وللأخفش، و(إملاء ما من به الرحمن) للعكبرى وكل ذلك مطبوع ومنشور.

وهناك لون آخر من الدراسة النحوية التطبيقية يتمثل فى توجيه القراءات القرآنية نحويًا، سواء كانت قراءات متواترة - وهى القراءات العشر - أم كانت قراءات شاذة، فمن ذلك: (الحجة فى القراءات السبع) لأبى على الفارسى ولابن أبى زرعة، ولابن خالويه. و(الكشف عن وجوه القراءات السبع) لمكي. و(إعراب القراءات الشاذة) للعكبرى، و(المحتسب) لابن جني.

ومن الدراسات النحوية الطريفة ما يتعرض لرد الشبهات التى أثارها الملحدون فى أسلوب القرآن الكريم والسنة النبوية ومن ذلك:

(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، و(مشكلات الجامع الصحيح) لابن مالك، و(مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام، و(البرهان فى علوم القرآن) للزركشي، و(نتائج الفكر) للسهيلي، و(بدائع الفوائد) لابن قيم الجوزية.

- وحتى يتم الوضوح والبيان للأسلوب العربى لابد من معرفة سياق النص وما لحقه، وتتعرض لهذا كتب: (أسباب النزول) للسيوطى وغيره، وكتب البلاغة التى تعنى بمقتضيات الأحوال وأسرار التراكيب فى التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب والمساواة، والحقيقة والمجاز، والقرائن، والمحسنات البديعية. ومن أفضل كتبها: (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) للإمام عبدالقاهر الجرجاني، وكتاب (التلخيص وشروحه) للخطيب القزويني.

- وفي كتب التفسير عناية بهذه المباحث وإن كان بعضها يركز على المباحث النحوية بحسب تخصص المفسر كما في (البحر المحيط) لأبي حيان، و(الدر المصون) للسمين الحلبي، ومنها ما يعنى بالمعاني البلاغية كـ (تفسير الكشاف) للزمخشري، و(تفسير أبو السعود) و(المحرر الوجيز) لابن عطية. ومنها ما يعنى بالأحكام واستنباطاتها من النص مثل: (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي وهكذا.

أهمية الكشف عن المعنى اللغوي

من المهم جدًا التنبيه إلى أن القرآن والحديث قد يرد فيهما اللفظ الواحد مستعملاً في أكثر من معنى، وضرورة مراعاتهما للهجات المختلفة، حيث نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، وكان النبي ﷺ يكلم كل وفد من وفود العرب بلهجته. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأفضل للدارس - الباحث عن معنى لغوى للفظ شرعي - أن يرجع إلى كتب الغريب وليس معنى ذلك أن المعاجم اللغوية لا تفيد الباحث عن المعنى المستعمل في النص الشرعي، ولكن بصعوبة تتدرج من المعاجم الصغيرة إلى المعاجم الكبيرة.

ومن أيسر هذه المعاجم (المصباح المنير) للفيومي إذ يعنى بالألفاظ الشرعية وهو يسير على طريقة الهجاء الألف بائي، بمعنى أنه يقدم ما أوله همزة على ما أوله باء، ثم على ما أوله تاء، بحسب الترتيب المشهور للحروف العربية، كما يقدم فيما أوله همزة ما ثانيه همزة على ما ثانيه باء، على ما ثانيه تاء، وهكذا إلى حرف الياء. وكذلك (المعجم الوسيط) لمجمع اللغة العربية.

ومن المعاجم ما يسير على طريقة القافية مثل: (القاموس المحيط) و(لسان العرب)، و(الصحاح) للجوهرى، بمعنى أنه يرتب الكلمات بحسب الحرف الأخير منها فيقدم ما آخره همزة على ما آخره باء، فمثلا كلمة (صمد) نجدها في (المصباح المنير)، و(المعجم الوجيز)، و(المعجم الوسيط)، و(مختار الصحاح) في باب الصاد فصل الميم. ونجدها في (القاموس)، (واللسان)، و(الصحاح) في باب الدال فصل الصاد.

وحتى لا يكون الكلام نظريًا يتوه في عالم العموميات نتعرض لبعض الأمثلة من النصوص القرآنية ليتبين صدق ما نقول من أهمية الكشف عن المعنى اللغوى ومعرفته بدقة قبل فهم الآية:

١- توقف ترجمان القرآن سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما - مع ما عرف عنه من قوة الحافظة وإلمامه الواسع بالشعر العربي - عن الإدلاء برأيه في معنى قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

(الأعراف: ٨٩).

فهو يقول: لم أفهم معناها إلا بعد أن سمعت ابنة ذى يزن وهى تقول لخصمها: تعال أفاتحك، فعلمت أن الفتح مستعمل عندهم بمعنى الحكم والقضاء، وعلى هذا فالمعنى: ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين.. وعلى هذا أيضًا نفهم قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

(السجدة: ٢٨، ٢٩).

ذلك أنه يوم الحكم والقضاء بين الناس، لا بمعنى فتح الأبواب ولا فتح الأمصار.

٢- توقف أيضًا سيدنا عبدالله بن عباس في معنى قوله تعالى:

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(فاطر: ١).

حتى سمع رجلًا يخاصم آخر على بئر فيقول له: أنا فطرتها، بمعنى أنه هو الذى بدأ حفرها دون سابق له.

٣- توقف سيدنا (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه- بالرغم من درايته الكبرى بالشعر العربي - في معنى التخوف في قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾

(النحل: ٤٧).

في سورة النحل حتى قام بعض الصحابة فقال: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين: التخوف عندنا التنقص، أى أن الله يعدد احتمالات العقاب في الدنيا للماكرين، إما بخسف الأرض بهم، وإما بإتيان العذاب الماحق من حيث لا يحتسبون، وإما بأخذهم وهم يتقلبون في منامهم أو في معايشهم، وإما بأخذهم بالتدريج: ينقص منهم النعم شيئًا فشيئًا حتى يهلكوا.

٤- ورد اليأس في القرآن الكريم بمعنى الإحباط والقنوط وعدم الرجاء مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

(يوسف: ٨٧).

وقوله:

﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾

(العنكبوت: ٢٣).

وقوله:

﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾

(فصلت: ٤٩).

لكن هناك آية ورد اليأس فيها بمعنى العلم على لهجة من لهجات العرب وذلك في قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(الرعد: ٣١).

ومعناها: أفلم يعلم.

٥- قوله تعال:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

(البقرة: ١٤٤).

اختلف الفقهاء في حكم التوجه إلى الكعبة المشرفة هل الواجب تحرى عين الكعبة؟ أو يكفى التوجه ناحيتها؟ وهل على من يقيم خارج مكة أن يتحرى أيضًا عين الكعبة؟ أو تكون قبلته مكة نفسها؟ أو المسجد الحرام كله؟

وبعد اتفاقهم على أن من يكون في المسجد الحرام - ويمكنه رؤية الكعبة - يجب عليه أن يتجه إلى الكعبة نفسها، بحيث لو انحرف عنها بطلت صلاته.. جاء خلافهم فيمن هو خارج المسجد الحرام، وانبنى الخلاف على الدلالة اللغوية لكل من كلمة (شطر) وكلمة (المسجد الحرام)، إذ ورد الشطر في اللغة بمعنى النصف، وبهذا أخذ الفريق القائل بوجوب تحرى عين الكعبة ومنتصفها.. كما ورد الشطر بمعنى الجهة، وبه أخذ الفريق الآخر الذى يرى الاكتفاء بالتوجه ناحيتها.

كما أن كلمة المسجد الحرام أطلقت في القرآن على المسجد نفسه، وعلى مكة كلها، وعلى الحرم كله، ومن هنا قال بعض الفقهاء

من الصحابة والمجتهدين: إن الكعبة قبلة من في المسجد، وإن المسجد قبلة من في مكة، وإن مكة قبلة من بخارجها من الحرم، وإن الحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب وواضح أن قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

(البقرة: ١٩٦).

وقد ورد فيه لفظ المسجد مرادًا به ما حول المسجد حتى المواقيت.

٦- في قوله تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾

(الأنبياء: ٨٧).

لو فسرنا (نقدر) هنا بمعنى نستطيع لكان في إيمان سيدنا يونس خلل، إذ كيف يظن نبي ورسول أن الله عاجز عن إدراكه. ولكن لو رجعنا إلى المادة اللغوية لوجدنا أن الفعل هنا مستعمل بمعنى التضييق أي: فظن أن لن نضيق عليه، لأنه خارج للدعوة إلى الله في مكان آخر، بعد أن رفض قومه الاستجابة له. غير أنه خرج دون إذن من ربه، ومن هنا ضيق عليه في بطن الحوت. وبهذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾

(الإسراء: ٣٠).

وقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

(الفجر: ١٦).

على أن بعض النحاة قد فهم الفعل (يقدر) في آية ذي النون بمعني: يؤاخذ، لأن المؤاخذة مبنية على القدرة.

٧- في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾

(البقرة: ٢٢٤).

وردت كلمة (عرضة) في اللغة بمعنى كل شيء اعترض ومنع، كما وردت بمعنى الشيء المعرض المبتذل بكثرة. والآية صالحة لكلا المعنيين على أساس أن الله ينهى أن يحلف به على منع خير، كصلة رحم مثلا، ثم يحتج الحالف بأنه لو لم يحلف لوصل رحمه .. كما أنه ينهى عن كثرة الحلف بالله كما ذمه في آية أخرى في قوله:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾

(القلم: ١٠).

٨- قد يبين المعنى اللغوى الحكمة في اختيار القرآن لفظا معينًا له ظلال، أو له إشارة إلى حكم، أو ضابط حكم، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾

(الأنفال: ٥٧).

فقد اختار لفظ (تثقف) بدل (تجد) أو (تلقى)، وفي ذلك حكمة؛ إذ كلمة (ثقف) تعني: وجده بحيلة وذكاء ودهاء، فكأن الآية باختيارها هذا اللفظ توحي للمسلمين أن يستعملوا الحيل والفطنة.

ووضع كل الاحتمالات لضبط هؤلاء اليهود وهم مختبئون خلف حصونهم، أو خلف الغابات، فإن من طبيعتهم الجبن كما قال سبحانه:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾

(الحشر: ١٤).

٩- ومن ذلك اختيار لفظ (القنوت) في وصف المرأة الصالحة، بدل لفظ (الطاعة)، لأن القنوت هو الطاعة في خضوع، ومن المفروض شرعًا أن تكون المرأة قانتة لله دائمًا، ولأبيها قبل زواجها، ولزوجها بعد خروجها من بيت أبيها، فالقنوت وصف دائم لها، ومن هنا جاء قوله تعالى:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾

(النساء: ٣٤).

وقوله:

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾

(الأحزاب: ٣١).

وقوله مخاطبًا نساء نبيه حين بدا من بعض نسائه تدلل وتذمر:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ﴾

(التحريم: ٥).

وقوله عن مريم:

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

(التحريم: ١٢).

١٠- ومن ذلك اختيار كلمة (الفسق) بدل (الخروج) لأن الفسق في اللغة خروج إلى التهلكة، تقول العرب حين يرون نضج البلح على الشجر، يحثون صاحبه على جنيه قبل أن يفسد: فسقت الرطبة عن قشرها - ويقولون: فسقت الفأرة عن جحرها، لأن الرطبة إذا انخرمت قشرتها تعرضت للميكروبات ففسدت، والفأرة إذا خرجت من جحرها تعرضت لأعدائها فأكلتها.

١١- ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾

(البقرة: ٢٧٦).

بدل: يزيل أثره في زيادة المال؛ لأن المحق فيه إشارة إلى الإزالة الكلية للأصل والربح معًا.

١٢- ومن ذلك استعمال كلمة (الصلاة) بدل: الدعاء أو الانحناء، لأن في الصلاة إشارة إلى ما كان يحدث من العرب حين يلتقون بعظيم، ينحنون له إكبارًا وإجلالاً، وحين يلتقون بيتيم أو مريض ينحنون له إشفاقا وحنانًا .. فاستعمل القرآن لفظ الصلاة المأخوذ من الصلا وهو واحد الصلوين المحيطين بفقرات الظهر، ليدل على الصلاة لله خضوعًا وتعظيمًا، والصلاة على رسوله أو على الجنازة حنانًا وحبًا وإشفاقا.

١٣- قوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

(النحل: ١٢٥).

الحكمة في معناها اللغوى مأخوذة من حكمة الدابة، أى لجامها الذى يتحكم في سيرها .. ومن هذا المعنى اللغوى قيل عنها إنها: وضع الكلمة المناسبة للشخص المناسب في الوقت المناسب؛ لأن راكب الدابة إذا رأى أمامه خطرًا حول وجهة فرسه إلى طريق آمن، أو توقف بالكلية.

حول النسخ



للشيخ محمد الغزالى

قال الشيخ الخضرى: النسخ فى اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين:

الأول: إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق. ومثاله ما ورد فى حديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور. ألا فزوروها».

فالنص الأول: يطلب الكف عن الزيارة.

والنص الثاني: يرفع ذلك النهى ويحل محله الإباحة أو الطلب.

الثاني: رفع عموم نص سابق أو تقييد مطلقه، ومثاله قوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ثم قال فى سورة الأحزاب:

﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾

(الأحزاب: ٤٩)

فإن النص الأول عام ينتظم المدخول بها وغيرها، والنص الثاني: يعطى غير المدخول بها حكماً خاصاً بها. وكذلك قوله تعالى فى سورة النور:

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾

(النور: ٤)

ثم عقب ذلك:

﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾

(النور: ٦)

فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجاً كانوا أم غير أزواج والنص الثانى جعل للأزواج حكماً خاصاً بهم حيث جعل أيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بأيمانها الخمس.

ومثال تقييد المطلق قوله تعالى:

﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾

(المائدة: ٣)

وقال فى آية أخرى:

﴿قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا﴾

(الأنعام: ١٤٥).

فالنص الأول مطلق للدم المحرم. والثانى مقيد له بالدم المسفوح.

هذا النوع الثاني موجود فى القرآن بدون نزاع، سواء كنا نعلم من تاريخ التنزيل أن العام والمطلق سابقان فى التنزيل على الخاص والمقيد أم متأخران عنه، وسواء كان المتأخر متصلاً أم متراخياً، وسواء سرنا مع بعض الفقهاء الذين يطلقون على المتراخى من الخاص والمقيد أنه ناسخ للعام والمطلق، أم سرنا مع من يسميه تخصيصاً وتقييداً لأن الأسماء لا تهمنا بعد الاتفاق على وجود المسميات، ويكفى أن نقول إن العام والمطلق لم ينلهما الإبطال، فإن العام لايزال فيما عدا ما دل على خروجه من دائرة الحكم السابق، ويرجع ذلك إلى الأصل الذى قررناه فى التشريع الإسلامي. وهو التدرج فى التشريع والتنزيل، بحيث إذا أكمل الدين يؤخذ العام وما خصصه كأنهما نص واحد، عامة كالمستثنى منه وخاصة كالمستثنى. ومن أجل ذلك لم يكن مما اهتم به القرآن الدلالة على السابق من النصين واللاحق منهما، ولا مما اهتم الأصحاب بمعرفته. لأن جملة الكتاب كما قدمنا شيء واحد.

أما النوع الأول: وهو وجود نص من القرآن أبطل حكمه، أو بتساهل فى العبارة: انتهى أمد حكمه ولم يعد بقاؤه إلا بصفة أنه ذكر يتلى، فهو محل نظر.

<<<

إن إبطال نص لاحق لنص سابق موقوف على أحد أمرين:

أولهما: أن ينص اللاحق على أنه ناسخ للسابق.

ثانيهما: أن يكون بين النصين تناقض بحيث لا يمكن الجمع بينهما. فهل فى نصوص القرآن شيء من ذلك؟؟!

أما الأمر الأول فليس فى القرآن شيء منه، اللهم إلا فى ثلاثة مواضع يمكن أن تؤيد - قبل بحثها - رأى الجمهور القائلين بأن فى القرآن منسوخاً. قال تعالى فى سورة الأنفال:

﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾

(الأنفال: ٦٥)

ثم قال فى الآية التى تليها:

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾

(الأنفال: ٦٦).

النص فى هاتين الآيتين خبر والغرض منه الإنشاء، فإن الله تعالى يقول فى هذه السورة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾

(الأنفال: ٤٥)

حداً لهذا الأمر المطلق فإنه يوجب الثبات فى جميع الأحوال أيا كان عدد المسلمين وعدد من يقاتلهم، فأول الآيتين تحدد ما يجب الثبات أمامه بعشرة الأمثال ولم يأت فى ذلك بالأمر الصريح كما جاء قبله «اثبتوا» بل جاء به على صورة الخبر لأن المراد بعث الحمية فى أنفسهم، وإلهاب الغيرة فى صدورهم.

ثم جاءت الآية الثانية معنونة بعنوان التخفيف إذ علم الله فيهم ضعفًا، والمراد بالعلم هنا الظهور يعنى أنه قد ظهر فيهم ضعف لم يكن، لأنه لو كان سابقًا لكان الله قد علمه موجودًا، ولم يكن محل التشريع السابق، فهذا الضعف الحادث هو الذى اقتضى التخفيف.

فإذا قلنا: إن نسبة الآية الثانية للأولى هى نسبة النص المخفف، لعارض مع بقاء حكم النص الأول عند زوال العارض، كان حكمها حكم العزيمة مع الرخصة فإذا لم يكن بقلة هذا الضعف الذى ذكره الله سببًا للتخفيف، كان عليها أن تثبت لعشرة أمثالها.

ويؤيد هذا الرأى أن العشرين المذكورين فى النص الأول موصوفة بالصابرين وكذلك المائة موصوفة بكونها صابرة، فمتى وجدت صفة الصبر ثبت الحكم الأول والصبر من لوازمه المتقدمة عليه القوة المادية وقوة القلب المعنوية. وإذا قلنا: إن النص الثانى عام فى جميع الأحوال كان الأول منسوخ الحكم وهذا بعيد.

٭٭٭

ويقرب من هاتين الآيتين قوله ـ تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾

(المزمل: ١ : ٧)

ثم قال فى آخر السورة:

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

(المزمل: ٢٠)

الآية الأولى نص صريح فى طلب قيام جزء من الليل قريب من نصفه، وبينت السبب فى هذا الإيجاب، والخطاب فيها موجه إلى النبى ﷺ والنص الثانى دال على أن الرسول يقوم بهذا التكليف. وكذلك طائفة من الذين معه، ثم ذكر أن هناك سبباً يقتضى التخفيف عن الأصحاب وهو علم الله بأن سيكون منهم الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم. ومن أجل ذلك كان التكليف مقصوراً على قراءة ما تيسر من القرآن، فإذا كان النص الأول قاصراً على النبى ﷺ، والأصحاب إنما قاموا بقيام الليل اقتداء به ﷺ والتخفيف قاصراً عليهم للأسباب المذكورة، لم يكن النص الأول منسوخاً، بل حكمه باق بالنسبة إلى النبى ﷺ وهذا رأى ابن عباس، وإذا قلنا: إن الأول عام والتخفيف عام كان النص الأول منسوخاً وهو بعيد.

ويقرب من ذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(المجادلة: ١٢)

٭٭٭

ثم قال فى السورة نفسها:

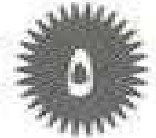
﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

(المجادلة: ١٣)

فالآية الأولي: تحتم تقديم الصدقات بين يدى النجوي، والثانية ترفع ذلك التحتيم من غير تصريح بالرفع، هذا ما يمكن تطبيقه على الأول وهو إعلام النص اللاحق بإلغاء النص السابق، وقد علمت أن هذه النصوص الثلاثة غير معينة لإفادة النسخ.

أما الطريق الثاني: وهو الالتجاء إلى النسخ لوجود نصين متناقضين ولا مجال لتأويل أحدهما، فمن العسير أن ترى فى كتاب الله ما هو كذلك وقد أفضنا القول فى بيان الآيات التى قيل: إنها منسوخة وإجابة ما نعى ذلك من العلماء فى كتابنا الموسوم بـ«أصول الفقه»، فارجع إليه إن شئت، ومن سلف العلماء الذين منعوا أن يكون فى القرآن منسوخ «أبو مسلم» الأصفهانى المفسر الكبير، وقد رأينا أقواله فى تفسير الرازي: ويظهر من خلال كلام الرازى أنه ميال لرأى أبى مسلم فى ذلك»، ا. هـ.

بيان رد الشبهات عن القرآن الكريم



لفضيلة الشيخ: عبد المجيد حامد صبح



وضع الفعل المضارع بدل الماضي

جاء في سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

{آل عمران: ٥٩}

وكان يجب أن يعتبر المقام الذي يقضي صيغة الماضي لا المضارع فيقول قال له كن فكان.

تبيين الجواب

وأقول: من أسرار الاستعمالات العربية عامة، والقرآن خاصة استعمال الفعل الماضي بدلاً عن المضارع كقوله تعالى في أول سورة النحل:

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

{النحل: ١}

والمراد: سيأتي ولذلك قال فلا تستعجلوه، وسر التعبير أنه أراد أن ما أخبر به من ظهور الإسلام على الدين كله ظهور الحجة والبرهان، وصدق ما أخبر به من الغيب المستقبل ولا سيما اليوم الآخر.. آت لا ريب فيه وتحقق وقوعه كالأمر الماضي الذي علم علم اليقين فلا سبيل إلى إنكاره؛ لأن الواقع لا يرتفع ولا يجحد، فيكون منكره زاريا بنفسه داعيًا الناس إلى ذمه وعيبه. تأملوا هذه المعاني الكثيرة وكيف دل عليها وضع الماضي مكان المضارع، فياللعجب من القرآن وإعجازه، ويا عجباً ممن يجهل ذلك ثم يتطاول.

وكذلك يستبدل القرآن الفعل المضارع بالماضي لمثل ذلك الذي تقدم وغيره، يقول الله في سورة سبأ:

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

{سبأ: ٢٤، ٢٥}

وضع الله في هاتين الآيتين أدب المناظرة مع المخالف في الرأي والعقيدة وبلغ به في الإنصاف مبلغاً ليس فوقه منزلة، وقد بينت ذلك نظراً وتطبيقاً في كتابي: الرد الجميل، وتهافت قبل السقوط، والمراد هنا أنه قابل الفعل المضارع بالماضي: أجرمنا - تعملون، وكان السياق اللفظي أن يقال: أجرمنا - أجرمتم فعدل عن لفظ الإجرام للمخالف واحتماله للمتكلم المناظر زيادة في الإنصاف وقابل إجرامه بـ تعملون، زيادة في الإنصاف: الفعل الماضي يدل على فعل مضى وانتهى والمضارع يدل على الحال والاستمرار، فالمعنى: افعلوا ما شئتم واستمروا في فعلكم، فلن نتعرض لكم، لكم حريتكم في القول والفعل والاعتقاد. وهذا ما يتفق مع القاعدة القرآنية:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

{الأنعام: ١٦٤}

إن هذا ما يسمى حديثاً بحرية التعبير، وليست حرية السب والشتم والسخرية.

فقوله تعالى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ من قبيل هذا التعبير البلاغي الذي يراد به تصوير الماضي بصورة الحاضر ليتمثله المخاطب، مشخصًا كأنما يدركه بحواسه فيكون معناه الخفي، الذي لا يخفى على فقيه اللغة أنّ إرادة الله إذا تعلقت بشيء تعلقت به قدرته من غير تخلف.. وهذه سنة ماضية من يوم أن خلق الله العالمين ما أراد قد كان، وما يريد يكون، فكان آدم وعيسي، ويكون ما يريد، فكأن التركيب في أصله قال له كن فكان ككل ما مضى، وكل شيء في المستقبل يريده فيكون.. والشواهد منه في القرآن الكريم كثيرة لمن تدبر وعقل. كما قال في سورة النحل:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

{النحل: ٤٠}

وفي سورة غافر:

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

{غافر: ٦٨}

تأملوا ﴿ قَضَىٰ ﴾ فهو فعل ماضي ويكون، فعل مضارع، وذلك لبيان جريان هذه السنة فيقول له مثل عيسى:

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

{غافر: ٦٨}

مع ما فيه من بيان هذه السنة الماضية وتصويرها سنة حاضرة فيها نوع دقيق من الالتفات من الماضي إلى الحاضر كما قال في سورة المائدة:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾

{المائدة: ٧٠}

وقتلهم الأنبياء أمر مضى كتكذيبهم لكنه التفت من الماضي إلى الحاضر لأمرين: استحضار هذه الصورة لبيان شناعتها وجرمها الكبير، ولبيان أن هذا شأنهم أبدا، وسيأتي مزيد عند إجابة رقم ٢٣.

ومنه قول تأبط شرا:

بأني قد لقيت الغول تهوى
بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت
صريعا لليدين وللجران

عدل عن فضربتها إلى «فأضربها».

ومنه قول الزبير بن العوام في طعنه عبيدة ابن سعيد بن العاص، يوم بدر وهو لابس لأمته لا يرى منه إلا عيناه: فأطعنه بين عينيه

فيقع فاطا على رقبته، فتخرج العنزة منه متعقفة. يحكي عما حصل ولكنه استبدل الفعل المضارع بالماضي.

والخلاصة: أنه مع استحضار الماضي ليس هناك في الحقيقة الإلهية لفظ كن أو كان أو يكون إنما هذا تعبير عن الكلمة التكوينية المعبرة عن مشيئة الله التي إذا تعلقت بشيء يكون كما شاء وعلى الوجه الذي يشاء.. فرحم الله عبداً انتصف من نفسه، ولا يرى ما عنده غاية العلم:

ويرى أنه البصير بهذا
وهو في العمى ضائع العكاز

لم يأت بجواب لما

جاء في سورة يوسف:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[يوسف: ١٥]

فأين جواب لما؟ ولو حذف الواو التي قبل أوحينا لاستقام المعنى.

تبيين الجواب

وأقول: خضرم الله آذانكم وأضحك الله أعداءكم. إن حذف ما يمكن معرفته إيجاز تعرفه العربية، وتكثر شواهده شعرًا ونثرًا.

يقول ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز، كما
تقول: زيد بعد من عندكما
وفي جواب «كيف زيد» قل دنف
فزيد استغني عنه إذ عرف

ومن شواهده قول امرئ القيس:

ولو أنما أسعى لأدنى معيشة
كفاني، ولم أطلب، قليل من المال

أي: لم أطلب الملك، حذفه للعلم بحاله.

وقال قيس بن الحطيم، أحد فحول الجاهلية:

نحن بما عندنا، وأنت بما عندك
راض والرأي مختلف

أي: بما عندنا رضوان.

وقال عبيد:

نحمي حقيقتنا وبعـ
ـض القوم يسقط بين بينا

أي بين هؤلاء وبين هؤلاء.

قال الراعي:

إذا ما الغانيات برزن يوما
وزججن الحواجب والعيونا

أي وكحلن العيون، قال:

علفتها تبنا وماء باردا
حتى غدت همالة عيناها

والماء يسقى ولا يعلف.

والقرآن يستخدم هذا الحذف فيما يسمى في علم البلاغة «بالاحتباك» وهو: أن يحذف من إحدى الجملتين ما يدل عليه في الأخرى فيصيران جملة واحدة كما قال في سورة يونس:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

[يونس: ٣٢]

أصلها: فماذا بعد الحق إلا الباطل، وماذا بعد الهدى إلا الضلال، وفي سورة آل عمران:

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

[آل عمران: ١٣]

أصلها فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، كما قال في سورة النساء:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾

[النساء: ٧٦]

وقريب منه قوله تعالى في آل عمران:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾

[آل عمران: ١٤]

أي: من النساء والرجال والبنات والبنين.

والقرآن الكريم اتخذ هذا النهج إيجازاً وإعجازاً، وتنبيها على معنى مراد، أو حالة غير مرادة فيذكر القسيم المراد ويحذف القسيم غير المرغوب كما قال في سورة النساء:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

[النساء: ١٧٥]

ولم يذكر القسيم الثاني:

«وأما الذين كفروا..» تعليما أنه ينبغي ألا يكون.. أترك لكم التعرف على الكثير المحذوف.

وقد تنوع في القرآن المحذوف من حيث مقداره، فقد يكون كلمة واحدة كقوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

[الأعراف: ١١٧]

أي فألقاها.. ويحذف الجملة كما قال في سورة الطلاق:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾

[الطلاق: ٤]

أي واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.. وقد يحذف الجمل كما قال في سورة يوسف:

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٤٥-٤٦]

أي فأرسلوني إلى السجن، فأسأل يوسف الذي كان يؤول لنا أحلامنا ونحن معه في السجن، فأرسلوه إلى السجن، فطلب الدخول على يوسف، فأدخلوه فقال يا.

ومن معجزات القرآن في استخدام أسلوب الحذف الدلالة عليه باستعمال حرف الواو كما قال الله في سورة آل عمران:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

[آل عمران: ١٤٠]

أي يداولها بين الناس لحكم كثيرات؛ ليبتلي الكافرين ويمتحن الصابرين...

وليعلم الذى آمنوا. أحسبكم لو علمتم هذه الآية لقلتم قد زاد الواو العاطفة على غير معطوف عليه. وخصت اللغة العربية «لما وحتى» بهذه الواو التى زعمتم زيادتها جهلا بفقه اللغة وسر العربية، قال امرؤ القيس فى البيت ٢٩ من مطولته:

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل

زاد الواو فى قوله وانتحى والأصل: لما أجزنا انتحى بنا بطن الوادي، يراد ساحة الحي، وزيادة الواو دلت على محذوف، أي: كان ما بينه وبينها مما أطال ذكره فى مطولته، ولولا زيادة الواو لما كانت هذه المعانى.

والشأن كذلك فى قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾

{يوسف:١٥}

المعنى... وأجمعوا على إلقائه فى الجب وبدا منهم الخيانة والغدر وخلفهم وعدهم لأبيهم وأحس يوسف منهم غدرهم وما بيتوه له وتملكه الفزع والجزع أوحينا إليه السكينة فى قلبه وأنه سيسلم ويخبرهم بما فعلوا. فالواو قبل أوحينا للدلالة على هذه المعانى الكثيرة التى لولا الواو ما عرفت ولا خطرت ببال. ومنه قوله تعالى فى سورة الصافات:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾

{الصافات:١٠٣-١٠٤}

الواو قبل ناديناه دلت على جمل محذوفة يدركها الفطن الفقيه، ولك أن تتصور المعانى المحذوفة المصورة لحال أب شفيق يلقى ابنه وحيده، أتاه بعد سن طويلة وأمل بعيد، وعمر مديد، ليذبحه من قفاه، ثم حال الابن الصبى المتعلق بأبيه الذى تزعجه النبأة، وترعده الهمسة، يلقيه أبوه على جبينه ليذبحه فى خلوة ليس بها أنيس، ولا مغيث ولا صريخ، كل هذه المعانى دلت عليها هذه الواو. ومن لا يفقه يقل: لو حذفت الواو لاستقام الكلام، ولو استقامت أفهامهم لاستقام لسانهم.

لقد زدناكم آية الصافات لأننا على يقين ببعض معجزات القرآن ثم نعطيكم حقيقة أخرى: كما بينا زيادة الواو بعد لما كذلك تزاد بعد «حتى» يقول الله فى سورة الزمر:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾

{الزمر: ٧٣}

هذه الواو دلت على معان يراها بقلبه وذهنه فقيه اللغة الخبير بالقرآن من ذلك: حتى إذا جاءوها وما كانوا يطمعون فى دخولها كما بين فى سورة الأعراف

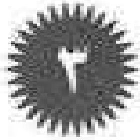
﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾

{الأعراف:٤٦}

وسعدوا بأن زحزحوا عن النار وأتوا أبواب الجنة واستأذنوا فتحت لهم أبوابها. وما كانت هذه المعانى لولا هذه الواو. لقد زدناكم فوق ما قلتم لأن الله تعالى قد أتانا بعض أسرار القرآن الكريم، لو ذقتموها لاستحييتم مما شبهتم.

قصص الأنبياء:

قصة موسى عليه السلام



للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

قضاء موسى مدة استئجاره

قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره، والمفسرون للقرآن الكريم على أنه قضى أكبر الأجلين، أى أنه خدم صهره عشر سنين، وقد رووا فى ذلك حديثًا عن رسول الله ﷺ والقرآن الكريم لم يبين عدد السنين التى أقامها بعد انقضاء الأجل، وأكثر المفسرين يتعجلون موسى ويقولون إنه بعد انقضاء الأجل أراد العودة إلى مصر وأن حماه جعل له نتاج غنمه تلك السنة فحملت الماشية كلها.

وأنا لا أظن أن موسى يتعجل العودة إلى مصر بمجرد انتهاء الأجل؛ لأنه يعلم أن بمصر من ينتظر الظفر به ليورده موارد الردى، وقد ثبت لديهم أنه مقترف الجريمة لهربه منهم عقب افتضاح الأمر، ويدل على ذلك قوله:

﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾

(القصص: ٣٣)

وقوله:

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾

(الشعراء: ١٤)

أما التوراة فتقول إن عودة موسى إلى مصر بأمر ربه لإخراج بنى إسرائيل من ذل العبودية كان على أثر بلوغه ثمانين سنة، وأنه على أثر مدة التيه كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وقد مات ولم يدخل الأرض المقدسة، وقد يكون ذلك صحيحًا وهو لا يعارض الكتاب الكريم.

وفى معالم التنزيل أنه أقام بعد انقضاء الأجل عشر سنين والأسلم التفويض إلى علم الله.

وربما كان السبب فى أن المفسرين يقولون إن موسى سار عقب انتهاء الأجل قوله تعالى:

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾

(القصص: ٢٩)

وقد فاتهم أن الواو لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا، وتقول التوراة إن موسى رزق ولدًا اسمه «جرشوم» وهو اسم يدل على معنى الغربة، أى أنه غريب المولد.

بينما موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضل الطريق فى ليلة باردة، وأراد أن يورى نارًا فصلد زنده وضن بالنار، وبينما هو على هذه الحال رأى نارًا من بعيد فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى: فأسأل من عندها عن الطريق يهدوننا، والظاهر أنه كان أبعد من مدين حتى جاء إلى سيناء، وهذا ليس بغريب فإن الراعى يتبع مواضع الكلأ ومواقع المطر، حيث كانت ليرعى ماشيته.

لما قرب موسى من النار وجد النار فى شجرة عليق، وأن النار لا تطفأ والعليقة لا تشتعل، ولم يجد أحدًا من الناس يسأله عن الطريق وحينئذ سمع صوتًا

قضاء موسى مدة استئجاره

من وسط النار يناديه يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأمره بخلع نعله لأنه بالوادي المقدس طوى فخلعها.

وفي الحديث «كانتا من جلد حمار ميت».

وفي الطبري: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه أخطأ الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح نارًا لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح ويعلم وجه سبيله، فصلد عليه زنده فلم يور نارًا، فقدح حتى أعياه، ولاحت له النار فرآها:

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾

(طه: ١٠)

بقبس تصطلون وهدى عن علم الطريق الذي ضللناه بنعت من خبير، فخرج نحوها فإذا هي في شجرة من العليق، وبعض أهل الكتاب يقولون في عوسجة.

فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها وأوجس في نفسه خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله:

﴿يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

(طه: ١١ - ١٢)

فألقاهما، ثم قال:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾

(طه: ١٧ - ١٨)

أي منافع أخرى، قال:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾

(طه: ١٩، ٢٠)

قد صار شعبتاها فمها وصار محجنها عرفا لها في ظهرها، تهتز، لها أنياب فهي كما شاء الله أن تكون، فرأى أمرًا فظيعًا

﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

(النمل: ١٠)

فناداه ربه أن:

﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾

(القصص: ٣١)

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾

(طه: ٢١)

أي سنعيدها عصا كما كانت، قال فلما أقبل:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾

(طه: ٢١)

أدخل يدك في فمها، وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه - وهو لها هائب - فنودي أن ألق كمك عن يدك، فألقاه عنها ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها فإذا هي عصاه في يده، ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها، ومحجنها بموضعه الذي كان لا ينكر منها شيئًا، ثم قال:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

(النمل: ١٢)

أي من غير برص، وكان عليه السلام رجلاً آدم أقنى جعدًا طوالاً - فأدخل يده في جيبه ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج ثم ردها في جيبه فعادت كما كانت على لونها، ثم قال:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾

(القصص: ٣٢-٣٤)

أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهمهم عني ما لا يفهمون:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾

(القصص: ٣٥)

ونقل عن السدي: فأقبل موسى إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل - المرق - فنزل في جانب الدار، فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت؟ فقال: أنا موسى! فقام كل منهما إلى صاحبه فاعتنقه.

ولي هنا ملاحظة: هي أن موسى قال:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾

(القصص: ٣٤)

وقال في مرة أخرى:

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(طه: ٢٧ - ٢٨)

وعيره فرعون بعدم الفصاحة فقال:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

(الزخرف: ٥٢)

والمفسرون يرون لحبسة موسى أو لكنته سببًا، هو أن موسى أخذه فرعون على حجره وهو صغير فمد يده إلى لحيته ونتف خصلة منها، فأراد قتله. فتشفعت فيه زوج فرعون وقالت إنه لا يعقل ما يفعل، وأشارت باختياره بتمرة وجمرة، فوضعتا في طست فأخذ الجمرة ووضعها في فيه فأثرت في لسانه، فلذا نشأ موسى غير فصيح بل عنده حبسة في لسانه، وأحسب ذلك غير صحيح وأن المسألة ذات وجهين:

أولهما: أن موسى ألقته أمه في اليم، والتقطه آل فرعون، وحرم الله عليه المراضع لطفًا بأمه الوالهة إلى أن جاءوا بها فأرضعته وكفلته، والطفل عادة إذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورثه ذلك حبسة في لسانه.

وقد رأينا من أصحابنا من كان لا يكاد يبين ولا سبب لذلك إلا احتباسه عن الرضاعة مدة.

ثانيهما: إن موسى خرج من مصر من عهد بعيد، واعتقادي أنه مكث في مدين زمنًا طويلاً فنسي اللغة المصرية - لغة القبط - لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه، وأما هارون فكان بين المصريين ومقيمًا معهم، فهو أفصح من موسى، وحقيق بأن يشافههم بها، ونحن أولاء يسافر الواحد من أبنائنا إلى البلاد الأوروبية - ولا تكون مدة إقامته أكثر من خمس أو سبع سنوات - ثم يجئ إلى مصر ناسيا كثيرا من لغة أبيه وأمه، وللناس نوادر في حكاية ألفاظهم وأحوالهم.

بقي أن يقال: إذا كان موسى قد نسي لغة المصريين فكيف يحاور أخاه هارون الذي لم يخرج من مصر؟ وجوابي على ذلك أن هارون بحكم البيئة كان يجيد القبطية، وبحكم طينته كان يجيد العبرية، ولغة أهل مدين ولغة العبرانيين متقاربة جدًا؛ لأن المديانيين إخوة للعبرانيين، أبوهم واحد هو إبراهيم، لا جرم كان هارون يفهم من موسى ما لا يفهمه عنه المصريون القبط، وإني أميل إلى الرأي الأول، ولبيان موقف موسى هذا.

معناه أن الله تعالى يأمر موسى بأن يضم يديه إلى جنبيه إذا آنس من نفسه رعبًا ورهبًا من فرعون، فإن الله ينزل عليه السكينة والقوة على مقاومة ذلك في هذا الحين، وهذه ليست من الآيات التي ضربها لفرعون وإنما هي تأييد خاص من الله لموسى وكأنها تكاد تكون أمرًا غريزيًا.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ. د. محمد سيد طنطاوى

مسلك المجادلات الدينية والمخاصمات الكلامية:

يبدو لنا أن أول طريقة اتبعها اليهود لإيذاء الرسول ﷺ وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، هى الإكثار من المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، فإن الإسرائيلى من طبعه الجدل والمماراة فى قبول الحق، وقصة أمرهم بذبح بقرة، وقصة الملأ من بنى إسرائيل، الذين قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله، وغيرهما مما جاء به القرآن الكريم فى شأن لجاجهم، خير دليل على ما نقول، ولسنا الآن بصدد تحليل نفسياتهم، وإنما نحن الآن بصدد إيراد بعض الشواهد والنماذج للمسائل التى دار الجدل حولها، وبيان أن جدلهم كان صادرا عن سوء نية، وأنه لم يكن من أجل الوصول إلى الحق، وإنما كان من أجل إظهار الرسول ﷺ بمظهر العاجز عن مقارعة حججهم، ومجابهة براهينهم، حتى يتشكك المسلمون فى صدق نبيهم ﷺ، ويرجعوا عن دين الإسلام، الذى هداهم الله إليه. ولكن اليهود خابوا فى مسلكهم هذا، كما خابوا فى غيره، فقد لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الذى يخرس ألسنتهم، ويبطل حجتهم، ويظهر أمر الله وهم كارهون.

وهذه هى بعض الأمور التى جادل اليهود فى شأنها ﷺ نذكرها إجمالا قبل أن نتحدث عنها بالتفصيل:

(أ) جدلهم فى نبوة النبى ﷺ بقصد الطعن فيها.

(ب) جدلهم فى إبراهيم وملته.

(جـ) جدلهم فى نبوة عيسى - عليه السلام.

(د) جدلهم فى مسألة النسخ.

(هـ) جدلهم فى مسألة تحويل القبلة.

(و) جدلهم فيما أحله الله، وحرمه من الأطعمة.

وإليك الكلام عن كل مسألة من هذه المسائل بالتفصيل:

[أ] جدالهم النبى ﷺ فى شأن نبوته بقصد الطعن فيها:

حاول اليهود الطعن فى نبوة النبى ﷺ والتشكيك فى صدقه، لكى ينصرف الناس عن دعوته، واتخذوا لذلك وسائل متعددة من أهمها:

أولا: تصريحهم بأن محمدًا ﷺ ليس هو النبى المنتظر، الذى بشرت به الكتب السماوية، بعد أن عرفوا صدقه، كما يعرفون أبناءهم، وقد حكى القرآن الكريم كذبهم هذا فى قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(البقرة: ٨٩)

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولونه فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال لهما سلام بن مشكم - أخو بنى النضير: ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكره لكم، فأنزل الله الآية الكريمة)(١).

ومعنى الآية الكريمة: وحين جاء إلى اليهود كتاب من عند الله هو القرآن الكريم، مصدق للتوراة التى بين أيديهم، وكانوا من قبل مجيء محمد ﷺ بهذا القرآن يستنصرون به على أعدائهم ويقولون لهم: سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، ولكنهم بعد أن جاءهم ما عرفوا أنه حق، ومطابق لما عندهم من صفات له فى كتبهم، كفروا به لأنه من العرب وليس من اليهود، فلعنة الله على الكافرين، الذين يجحدون الحق بعد أن تبين، ويكتمونه عن تعمد وإصرار. وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبختهم على كذبهم، ومحاولتهم الطعن فى صدق النبى ﷺ.

ثانيًا: ظهورهم أمام الناس بمظهر المحافظ على عهود الله، وأنهم ما تركوا الإيمان بمحمد ﷺ حسدًا له، وإنما تركوا الإيمان به لأنه لم يأت بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيًا صادقا - فى زعمهم.

وقد حكى القرآن الكريم شبهتهم هذه، ورد عليها بما يدحضها فقال تعالى فى سورة آل عمران:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(آل عمران: ١٨٣)

وملخص هذه الشبهة أنهم قالوا: (إن الله عهد إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته، أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه، أن تنزل نار من السماء فتأكلها).

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٤.

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم فقال: قل لهم - يا محمد:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

(آل عمران ١٨٣)

أى بالحجج والبراهين: ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أى: بنار تأكل القرابين المتقبلة:

﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(آل عمران ١٨٣)

فى زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل قال الإمام الرازى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة:

(وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد، وإنما على سبيل التعنت، وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذا المعجز من الأنبياء المتقدمين مثل (زكريا، ويحيى، وعيسى) - عليهم السلام - فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا فى قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة، وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا فى قتلهم، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم وهذا يقتضى كونهم متعنتين - أيضًا - فى مطالبهم، ولهذا لم يجبهم الله فيها)(٢).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت دعواهم، وردت عليهم بما يثبت كذبهم، ويؤيد صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه.

ثالثًا: مطالبتهم للرسول ﷺ بالمطالب المتعنتة، على سبيل التحدى والتعجيز، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مقترحاتهم، لكى ينصرف الناس عنه ويعتقدوا عدم صدقه.

أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: (قال رافع ابن حريملة اليهودى لرسول الله ﷺ يا محمد: إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(البقرة: ١١٨)(٣)

ومعنى الآية الكريمة:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

علمًا نافعًا أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد -

﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ إما مشافهة، أو بواسطة الوحى إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود لأن تكون الآيات التى أقامها الله على صدق رسالته آيات حقًا.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾

أي: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور:

﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك فى العناد والضلال:

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

أي: جعلناها بينة واضحة فى ذاتها، لمن شأنهم الإخلاص فى طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء، موقنة بجلال الحق ووجوب اتباعه.

قال الإمام الرازي: وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن فى أن القرآن معجزة؛ لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله:

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

وحاصل هذا الجواب: أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت، وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها:

١- لو كان فى معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها، ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجا.

٢- إن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

٣- ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح فى كونها معجزة، لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة، فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح فى النبوة(٤).

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد بـ: ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة ١١٨)

اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب، وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصدا أوليا من هذه الآية للأسباب الآتية:

١- الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.

٢- جملة:

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، فقد قالوا له:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(البقرة ٥٥)

---

(٢) - تفسير الفخر الرازي جـ ٩ ص ١٢٢، طبعة عبدالرحمن محمد سنة ١٩٣٨.

(٣) - تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤١٤ طبعة الحلبي

(٤) - تفسير الرازي جـ ١ ص ٤٦١.

وقالوا له :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(النساء ١٥٣)

وطلبوا منه كثيرًا من المطالب المتعنتة.

٣ـ الآية مدنية ومن سورة البقرة التى هى من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدنى عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركى العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق.

٤ـ سبب نزول الآية الذى ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصدًا أوليًا فى هذه الآية.

٥ـ القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب دعموا قولهم بأن آيات القرآن التى تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة، وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردُّنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة، بدليل قوله تعالى فى سورة النساء:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾

(النساء: ١٥٣)

٦ـ الإمام ابن جرير رجح أن المراد بـ ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النصارى، مستدلا بأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾

(البقرة ١١٦)

والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي:

(أ) لأن الآية ليست فى سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هى فى سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم فى أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصارى وحدهم هم الذين ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾

(البقرة ١١٦)

وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ٣٠)

(جـ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذى أورده ابن عباس فى سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب).

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع فى أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة، ولكنا نرجح أنهم اليهود المقصودون قصدا أوليا مهما دخل غيرهم معهم فى السياق، وأن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التى لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن فى نبوة النبى ﷺ.

رابعًا: ومن الوسائل التى اتبعها اليهود للطعن فى نبوة النبى ﷺ، محاولتهم إنكار أن يكون القرآن منزلا من عند الله ـ تعالى ـ على محمد ﷺ.

عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال: قال ابن صوريا القطيوني[٥] لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها ـ وغرضهم من هذه المقالة الطعن فى كون القرآن الكريم معجزة للرسول ﷺ فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾

(البقرة: ٩٩) [٦]

الفاسق: من الفسوق وهو الخروج من شىء إلى آخر، ويستعمل فى الكفر والمعصية؛ لأنها خروج من فطرة الله التى هى حق وصلاح إلى ما هو باطل وفساد.

ومعنى الآية الكريمة: ولقد أنزلنا إليك ـ يامحمد ـ آيات واضحات الدلالة على معانيها، لأنها بإعجازها للبشر، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل عليها، كالضياء يظهر الأشياء وهو ظاهر فى نفسه، فمن تعسف فى تأويلها فقد خرج بها عن أن تكون آيات بينات، والحق أنه ما يكفر بها إلا الماردون على الكفر بسبب انحراف فطرتهم، وبعدهم عن كل مستحسن فى العقل والشرع، وما من عاقل يتدبر هذه الآيات التى نزلت عليك يا محمد إلا أفضت به إلى الإيمان الصحيح لا محالة.

فالآية الكريمة ترد على اليهود الذين حاولوا الطعن فى صدق النبى ﷺ عن طريق إنكارهم أن يكون القرآن معجزة.

خامسًا: ومن الوسائل الخبيثة التى سلكها اليهود للطعن فى نبوة النبى ﷺ إنكارهم نزول الوحى عليه من السماء، وغرضهم بذلك اتهامه بأن ما يقوله ليس من عند الله ـ تعالى ـ وإنما من عند نفسه.

أخرج ابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من اليهود يقال له: (مالك بن الصيف) فخاصم النبى ﷺ. فقال له النبى ﷺ: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟» ـ وكان حبرا سمينا ـ فغضب وقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

(الأنعام: ٩١)

فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى؟ فأنزل الله :

(٥) قال السهيلي: القطيون كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود وملكهم
(٦) أسباب النزول للنيسابوري ص١٧

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

(الأنعام: ٩١)(٧).

وقال النيسابوري: قال محمد بن كعب القرظي: أمر الله محمدًا ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أمره وكيف يجدونه في كتبهم، فحملهم الحسد لمحمد ﷺ أن كفروا بكتاب الله، وكفروا برسوله، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله هذه الآية(٨).

ومعنى الآية الكريمة: اعلم - يا محمد - وأعلم أمتك - أن هؤلاء اليهود المنكرين للوحي، ولنزول شيء عليك، ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، بإنكارهم للرسالات السماوية من أساسها، فما كانت رحمة الله لتذر الناس بلا هداية، وما كانت حكمته لتترك الضلال والفساد يستشريان في الأرض بلا مدافع، فتعظيم الله حق التعظيم، يستلزم الاعتقاد بأنه لابد أن يبعث للناس من يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن ينزل على رسله الوحي الذي يبلغهم أوامره ونواهيه، ثم سلهم - يا محمد - وخذ عليهم الحجة مما يعلمون، وجابههم بالدليل الإلزامي، ووبخهم على سوء جهلهم، والتواء تفكيرهم، واردد على سلبهم العام بقضية جزئية موجبة فقل لهم:

﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾

(الأنعام: ٩١)

وهو التوراة، لتكون نورا يستضاء به من الظلمات، وهداية يهتدى بها من الشبهات، ولكنكم - معشر اليهود - جعلتموها قراطيس مقطعة، ووريقات مفرقة، وأبديتم بعض نصوصها بين الناس، وأخفيتم أكثرها مما فيه خطر على دنياكم ورياستكم، أو ما فيه حجة عليكم لمحمد ﷺ والحال أن الله قد علمكم وعلم آباءكم عن طريقها ما كنتم تجهلونه من الأحكام والشرائع، قل لهم يا محمد في جواب هذا السؤال: الله الذى ينكرون أن يكون قد أنزل على بشر من شيء هو الذى أنزل التوراة على موسى، وهو الذى علمكم وآباءكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم بعد أن لزمتهم الحجة، ذرهم في طغيانهم يعمهون، وفي باطلهم يخوضون، فما كان ذلك الإنكار منهم إلا لعبًا لا يستحق الاهتمام وبذلك تكون الآية الكريمة قد ردت على اليهود في إنكارهم نزول الوحي على النبي ﷺ.

هذه هي بعض الصور الجدلية، التي اتبعها اليهود للطعن في نبوة النبي ﷺ وقد باءت كلها بالفشل؛ لأن القرآن الكريم قد اهتم بهذه الحرب الجدلية - التي هي أشبه ما تكون بحرب الأعصاب، أو ما يسمى بالحرب الباردة في عصرنا الحاضر - فتعقب مزاعم اليهود وفندها، ورد عليها بما يدحضها، ويثبت صدق النبي ﷺ:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(الأنفال: ٤٢)

---

(٧) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي هامش الجلالين ص ٢٣٢.

(٨) أسباب النزول النيسابوري جـ ٢٥

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

٢١. عنوان الفتوى: علامة تحذير رياضة سياسة نزاهة فساد

مصدر الفتوى: www.hagada.org.il، ٢٠٠٥/٥/٢٤

بقلم: جدعون سبيرو

عقائد خرافية ومخزية:

يعرف قاموس إيفن شوشان مصطلح عقائد خرافية بأنه «وصف لعقائد فاسدة يميل عديمو الثقافة والتعليم إلى الإيمان بها».

وهذا هو التعريف الذى ينطبق في رأيى على سلوك رئيس بلدية القدس الحريدى أورى لوبوليانسكى في المناسبات العلنية. ففى كل عام أشاهد مراسم توزيع جائزة إسرائيل في عيد الاستقلال، حيث يقف هناك على المنصة صف من الرجال منهم رئيس البلدية ويصافحون الفائزين والفائزات بالجائزة حينما يتقدمون لاستلامها.

وقد صافح رئيس بلدية القدس الحريدى الفائزين بحرارة، وامتنع عن مصافحة الفائزات. لماذا لا يصافح رئيس البلدية نساء؟ طبقًا لعقيدته الدينية المرأة الحائض هى امرأة نجسة، ونظرًا لأن أحدًا لا يدرى متى تكون المرأة حائضًا يعتاد الحريدى طبقًا لهذه القاعدة عدم مصافحة النساء.

من حق لوبوليانسكى أن يتصرف وفقًا لعقيدته الدينية واعتقاده الضحل حتى وإن كانت عقائد غريبة لعبدة الكواكب. منذ اللحظة التى يتولى فيها يهودى حريدى وظيفة تخدم الجمهور العام، الذى معظمه غير حريدي، يتحتم عليه أن يتعامل باحترام ومساواة مع الجميع.

إن رفض رئيس البلدية مصافحة نساء خوفًا من النجاسة في حفل توزيع جائزة إسرائيل، وهو حفل علمانى أساسًا، ليس مجرد تصرف بدائى صادر عن إنسان عديم الثقافة، بل هو أيضًا تصرف عنصرى ومهين ولا يختلف في جوهره عن رفض مصافحة عرب على سبيل المثال.

إذا كان رئيس البلدية غير قادر على مصافحة نساء بسبب النجاسة فليحترم نفسه وليجلس في بيته ولا يظهر أمام الجمهور.

نظرات فى الإسلام:

الإسلام.. والسلام



أ. د. محمد عبدالله دراز

إذا كان الإسلام قد دعا إلى السلام وتدعيم العلاقات الطيبة مع العالم أجمع، فلم كانت حروبه فى المرحلة الأولى من الدعوة وما تبعها؟

إنه ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه، لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها. وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه وإنما يستبين موقف الإسلام واضحًا جليًا فى هذا الضرب من المسائل، حيث يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر، والتى يبرز بها التشريع الإسلامى فى وحدة لا تنقسم وعروة لا تنفصم، تلك هى الآيات المحكمات وهن أم الكتاب.

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذًا فى وسطه لا فى طرفيه، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه. وستريك الآن أين الأطراف، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا. فانظر هاهنا، فى أقصى الجانب الأيمن!

أليس يبرز الإسلام أمامك فى شعاب «مكة» ووديانها رافعًا راية الإسلام، باسط جناحى رأفة ورحمة يفيء إلى ظلهما الوارف أنصاره وأعداؤه على السواء؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله؟ فإذا هى هداية وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير، ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة «بلاغ».

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(القصص: ٥٦)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية ٢١ - ٢٢)

وزد ما شئت من سماحة وكرم، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا لانتقام، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام... الإسلام إذًا هو رسالة السلام. ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر!

ألست تسمع من قبل «المدينة» صيحات النفير إلى النزال وقعقعة السلاح فى ميادين القتال؟ أولست ترى هنالك أشلاء تتناثر، وأطرافًا تتطاير، وأعناقًا تدق، ودماء تسفك، وأرواحًا تزهق، وأسرى يشد وثاقهم، وشهداء يهنئون بنبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾

(الأنفال ٦٥).

الحرب إذًا شريعة إسلامية، وفريضة محمدية. بل هى أعظم من ذلك، إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق.

بالله! ما أبعد الشقة، وأشد المفارقة! أمن الإسلام الأبيض الناصع الرحيم المتواضع، إلى الثورة الحمراء القانية والحرب الفاتكة المهلكة؟

تلك هى المشكلة التى فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها.. وما أكثر الفروض. وما أبعد تشعب الظنون، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف فى محراب العلم وهو لما يفيق من نشوة نزعاته وعصبياته، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأي، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه، وأكثر تملقًا لشعور قومه، ثم يرسلها فى الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ.

وما هى من العلم ولا من التاريخ فى شيء!

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل فى معالجتهم لهذه الشخصية.

أكان محمد متعطشًا للدماء بفطرته، ولم يمنعه من سفكها إذ كان فى «مكة» إلا أنه كان من الأعوان فى قلة ولم يكن أعوانه فى عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز وفقد النصير، حتى إذا واتته الفرصة فى موطنه الجديد اهتبلها وغمس يده فى الدماء إشباعًا لغريزة الثأر والتشفي؟

أم كان هذا الموقف الحربى متحركًا بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه، ولكنه دفع إليها دفعًا، وكان فيها تابعًا لا متبوعًا؟ ذلك أنه وجد نفسه فى قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب، فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى فى تيارهم.

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب، ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقًا خلبًا، وسرابًا خادعًا.

نعم فقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالاً بعيدًا فى كل شيء ضربوه.

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره: فى شبابه وكهولته فى بأسائه ونعمائه، حتى فى أوج سلطانه، شهدوا بأن محمدًا لم يكن يومًا ما، فظ الطبع، ولا غليظ القلب، وفى الوقت نفسه بأنه لم يكن يومًا ما إمعة فى رأيه، ولا رخوًا

فى حكمه، وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له: لا يمليها سوط ولا صولجان، ولكن يبعثها الحب والمهابة والطاعة والثقة والإيمان وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار، لم يكن سببًا فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه، فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته. فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوه من أول يوم، ولكانوا أطوع له من بنانه، ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلًا مستغرقًا بشعائر دينه، وشئون قومه، وكان كل شيء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة. وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثًا فجائيًا حقًا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه.

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد، بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى. وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر فلم يفعلوا. ولو أنهم طرقوا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها.

فالواقع أن أول حرب فى الإسلام لم يوقدها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها، لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليًا والمتسببين فيها من طريق مباشر، وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدي، وردوا التعدي.

إن قريشًا غيرت أسلوبها - بعد الهجرة - فى معاملة المسلمين المستوطنين فى مكة، خلا لها الجو فوالت التنكيل بهم، وما زال طغيانها عليهم يزداد يوما بعد يوم، حتى عيل صبرهم، وطفح كيل بلائهم. فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، فى صرخات عالية تسمع دويها فى القرآن الكريم، وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

(النساء: ٧٥)

لم تكن الغزوة الأولى إذًا حملة تحرش وبدء بالعدوان، كما زعم الجاهلون، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع. ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم، كما قد يظن بادئ الرأي، ولو فعلوا لكان حقًا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية، ولكنه حق مشروع فحسب، وكان من السائغ التنازل عنه، كلا، لم يكن هذا ولا ذاك، ولكنها كانت عملًا أعلى من ذلك كله وأسمى. لقد كانت قيامًا بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، وواجب نجدة المظلوم، وإغاثة الملهوف. فهى إذًا صفحة فخار جديرة أن تسجل فى أعلى مكان من ديوان التضحية والإيثار، وليست عملًا عاديًا يتطلب التبرير أو الاعتذار!

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت به أفهام، وزلت فيه أقلام، نعود إلى سياق الحديث عن المبادئ العامة فنقول: إن أمثال هذه الضلالات والزلات فى تحديد موقف الإسلام من الحروب، مردها - كما أسلفنا - إلى النظرات الجزئية الجانبية فى نصوص التشريع، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة. ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى الإسلام فى السور المكية، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدنى، وهو آخر دورى التشريع الإسلامى، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية، وأنها تمثل انقلابًا نهائيًا محيت به آية السلام فى الإسلام. وإنه لمن العجيب والمؤسف حقًا أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم، حتى إن بعض كبار المستشرقين، الذين عاشوا بيننا ودرسوا لغتنا، وتولوا إدارات فنية فى دورنا العربية، كتبوا فى الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولًا مطولة عن الإسلام، قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة، وكانت زلتهم كغيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطيه المنفرجين، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان:

وها نحن أولًا ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط، الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة، وحجة دامغة، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات، فإنه متى ظهر النص بطل القياس، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس.

أجل: إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية تلائمه، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك، إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيرًا شافيًا لموقع كل تشريع، وتحديدًا كافيًا لمجال تطبيقه، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على ظروف واقعية فى عصر نزوله، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه، ويكون مرجعًا للناس على مر العصور والأجيال، ولا سيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء.

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة، إنما هى استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه

بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية، إنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها، وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة، ولا تستأخر خطوة:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾
(البقرة: ١٩٠)

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
(البقرة: ١٩٢).

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾
(الأنفال: ٦١)

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾
(النساء: ٩٠)

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾
(النساء: ٩١)

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾
(البقرة ٢٥٦)

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾
(يونس: ٩٩).

ومنع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾
(المائدة: ٢).

وأنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب الفتح والتوسع والاستيلاء:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾
(القصص: ٨٣)

واستنكر حروب التنافس بين الأمم في مجال الضخامة والفخامة:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾
(النحل: ٩٢)

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحليف، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم؟ كلا: إن الإسلام دين إحسان، ولكنه إحسان لا يناقض العدل، ولا يشجع الإجرام، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به، إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. فهو دين عدل وإحسان معاً، وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما. ولقد علمنا كيف ينزل بالحكمة كلا المبدأين في منزلته، وحذرنا أن نضع واحدًا منهما في موضع صاحبه.

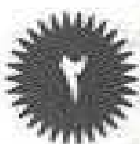
فوضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى[١]

١. البيت للشاعر المتنبي

إسداء النصيحة إلى الحكام والأمراء



لفضيلة الشيخ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية



ما أعظم المجاهدين الذين نطقوا بكلمة العدل والحق عند الملوك والحكام والأمراء والولاة فنالوا شرف الجهاد الذى بشرهم به رسول الله i فى حديثه الشريف: عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى i قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».[١]

لقد سجل التاريخ مواقف كثيرة لهؤلاء العلماء الذين لم ترهبهم سطوة الحكام ولم تخفهم قوة الملوك والأمراء فنطقوا بكل شمم وإباء كلمة العدل والحق، ورفضوا الجور، معلنين النصيحة بكل صراحة ووضوح، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ورفضوا الإذعان والاستجابة لتأييدهم فى آرائهم وتصرفاتهم التى تجانب الحق والصواب، وبذلك استحقوا رضا الله ورسوله، وتقدير المسلمين واحترامهم، وتخليد ذكراهم على مر الأزمنة والعصور.

قدم هشام بن عبدالملك حاجا إلى مكة، فلما دخلها قال: ائتونى برجل من الصحابة، فقيل له: ياأمير المؤمنين قد تفانوا، فقال: من التابعين، فأتى بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يُكنه، وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟

فغضب هشام غضبًا شديدًا حتى هم بقتله، فقيل له: أنت فى حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك.

فقال هشام: ياطاوس ما الذى حملك على ما صنعت؟ قال طاوس: وما الذى صنعت؟ فازداد هشام غضبًا وغيظًا، ثم قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم على

(١) أبو داود والترمذي

بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذن، وقلت: كيف أنت ياهشام؟

قال طاوس: أما مافعلت من خلع تعليّ بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب علي، وأما قولك: لم تقبل يدى فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لايحل لرجل يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة، وأما قولك: لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك: لم تكنني فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه فقال: يايحيى ياعيسى: وكنى أعداءه فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له هشام: عظني.

فقال طاوس: سمعت يا أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وانصرف.

وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال: ادخلت على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي: ارفع إلينا حاجتك، فقلت له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا، قال: فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا فاتق الله وأوصل حقوقهم، فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه: كم أنفقت، قال: بضعة عشر درهما، وأرى ها هنا أموالا لا تطيق الجمال حملها!! وخرج.

بينما المنصور في الطواف ليلا إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه فصلى الرجل ركعتين، واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة.

فقال المنصور: مالذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض، وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني (أوجعني وآلمني).

فقال: إن أمنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي فلي فيها مشاغل.

قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ماظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت، فقال: فكيف ذلك ويحك!! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي،؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، وأتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابًا من الحديد، وحراسًا معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، (الخيل)، وأمرت ألا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفرًا سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع العاري، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجبى الأموال وتجمعها.

قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه. فائتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس شئ إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلمًا وبغيًا وفسادًا، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه، فإذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضربًا مبرحًا يكون نكالا لغيره، وأنت تنظر فما تنكر!! فما بقاء الإسلام على هذا؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه، فبكى بكاء شديدًا، فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال: أما إذ قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوبًا أحمر إلا متظلم، ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلومًا، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك!! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبرًا في الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذي تعطي، بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء. فإن قلت إنما تجمع المال لتشييد السلطان، فقد أراك الله عبرًا في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد. وإن قلت إن ما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها. فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال المنصور: لا. فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم. قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك. هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب؟ قال: فبكى المنصور، ثم قال: ليتني لم أخلق!! ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يفزعون «يلجأون» إليهم في دينهم، ويرضون بهم في دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن

افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفئ والصدقات على حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدونك على صلاح الأمة.

وجاء المؤذنون فآذنوه بالصلاة، فصلى وعاد إلى مجلسه، وطلب الرجل فلم يوجد..

قدم سليمان بن عبدالملك إلى المدينة وهو يريد مكة، فأرسل إلى أبي حازم فدعاه، فلما دخل عليه قال له سليمان: يا أبا حازم مالنا نكره الموت؟ فقال أبوحازم: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال سليمان: يا أبا حازم كيف القدوم على الله؟ قال: يا أمير المؤمنين: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري مالي عندالله؟ قال أبوحازم: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾

(الانفطار: ١٣، ١٤)

قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين

ثم قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟ قال: أهل البر والتقوى.

قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال: فأي الكلام أسمع؟ قال: قول الحق عند من تخاف وترجو.

قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها.

قال: فأي المؤمنين أخسر؟ قال: رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفني؟ قال سليمان: لا بد فإنها نصحية تلقيها إلي. قال أبوحازم: يا أمير المؤمنين: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا، فلو شعرت مما قالوا وما قيل فيهم؟.

فقال له رجل من جلسائه: بئسما قلت!!.

قال أبوحازم: إن الله أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال: أن تأخذه من حله فتضعه في حقه.

فقال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟ قال: من يطلب الجنة ويخاف من النار.

قال سليمان: ادع لي: فقال أبوحازم: اللهم أن كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ماتحب وترضى.

فقال سليمان: أوصني فقال: أوصيك وأوجز. عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

دخل أعرابي على سليمان بن عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته، قال: هات يا أعرابي، قال: إني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن من عظتك تأدية لحق الله تعالى وحق إمامتك، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب الآخرة سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لا يألونك خبالاً، والأمانة تضييعاً، والأمة عسفاً وخسفاً «ظلما وإذلالا»، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا مسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة وأعظمهم غبنا، من باع آخرته بدنيا غيره، قال سليمان: أما أنت يا أعرابي فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك، قال: أجل ياأمير المؤمنين لك لا عليك.

حج سليمان بن عبدالملك، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب، فلما دخل قال سليمان: تكلم يا أباحازم، قال: فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: في المخرج من هذا الأمر، قال: يسير إن أنت فعلته، قال: وماذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حلها، ولا تضعها إلا في أهلها، قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك. قال: عظني أباحازم، قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك، قال: يا أباحازم أشر علي. قال: إنما أنت سوق، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت، قال: مالك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانك ياأمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه!! قال: فارفع إلينا حاجتك. قال: وقد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها. فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت.

ولثقل مسئولية الولاية والخوف من تبعاتها وعاقبتها، وحسابها العسير أمام الله عافها كثير من الصحابة - رضوان الله عليهم - وابتعدوا عنها، فقد روى عن أبي وائل شقيق ابن أسامة أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استعمل بشر بن عاصم - رضي الله عنه - على صدقات هوازن، فتخلف بشر، فلقيه عمر فقال له: ما خلفك؟ أمالنا سمعاً وطاعة؟ قال: بلى، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي شيئًا من أمر المسلمين أتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنًا نجا، وإن كان مسيئًا انخرق به الجسر «انشق» فهوى فيه سبعين خريفا «سنة»، قال: فخرج عمر رضي الله عنه - كئيبًا محزونًا، فلقيه أبو ذر - رضي الله عنه - فقال: مالي أراك كئيبًا محزونًا؟ فقال: مالي لا أكون كئيبًا حزينا؟ وقد سمعت بشر بن عاصم يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي شيئا من أمر المسلمين أتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفًا»، فقال أبو ذر: أوما سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال - عمر - لا، قال أبو ذر: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي أحدا من المسلمين أتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئًا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفًا، وهي «جهنم سوداء مظلمة»، فأي الحديثين أوجع لقلبك؟ قال: كلاهما قد أوجع قلبي، فمن يأخذها «الولاية» بما فيها؟ قال أبو ذر: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، أما إنا لا نعلم إلا خيرا، وعسى إن وليتها من لا يعدل فيها أن لا تنجو من إثمها.

(٢) الآيتان ١٣، ١٤ سورة الانفطار

مقاربات علمية لفقه العبادات «٢»

فريضة الصيام



أ.د. أحمد فؤاد باشا

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٨٣ - ١٨٤)

وقال ﷺ: «صوموا تصحوا»

(رواه الطبراني).

بمثل هذه النصوص المقدسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تقررت فريضة الصوم كركن من أركان الإسلام، وهى فضلًا عن كونها فريضة تعبدية واجبة على المسلم يؤديها طاعة لأمر ربه، إلا أنه من الواجب عليه أيضًا أن يبحث فى الحكمة من وراء هذا الصيام والفائدة التى يجتنيها منه.. وهنا تؤدى العلوم الكونية المختلفة دورًا مهمًا فى تعريف المسلم ببعض هذه الفوائد التى تشمل جميع جوانب حياته، خاصة الطبية منها.

ولقد بدأ المهتمون بالطب، فرادى وهيئات، مشوار البحث عن آثار الصوم على صحة الإنسان فعرفوا بادئ ذى بدء أن الإنسان ليس هو الكائن الوحيد الذى يصوم، بل إن جميع الكائنات الحية فى الكون تمر بفترة صوم اختيارى مهما توافر لها الغذاء فى البيئة من حولها، وقد لاحظ العلماء أن هذه المخلوقات تخرج من فترة الصيام هذه أكثر نشاطًا وحيوية، وأن أكثرها بعد الصوم يزداد نموًا وصحة، وقد حاول الباحثون تفسير ذلك علميًا فلم يتوصلوا إلى أكثر من أن هذه المخلوقات التى تعيش على الفطرة يعتبر صومها ظاهرة فسيولوجية، أى مرتبطة بوظائف الأعضاء وعوامل البيئة واعتبروها ظاهرة عامة لكل الكائنات الحية وأطلقوا عليها اسم «ظاهرة البيات».

أما بالنسبة للإنسان الذى يتصرف بعقله أكثر مما يتصرف بغرائزه، فقد اكتشف العلماء من آثاره التاريخية أنه عرف الصوم فى العصور القديمة بفطرته وغريزته قبل أن تنزل الكتب السماوية؛ وهذا يؤكد أن المخلوقات تلجأ إلى الصوم بالفطرة لأنها تجد فيه فوائد لا تستطيع أن تحددها، ويهديها الخالق العليم إليه لضرورة فسيولوجية لازمة لاستمرار الحياة والمحافظة عليها، تمامًا مثل الأكل والشرب والتنفس والحركة والنوم؛ ومن ثم فإن الابتعاد عن الصوم يؤثر سلبيًا على الصحة.

ومن أول الفوائد الحيوية للصوم ما نجده فى تنشيط التفاعلات الكيميائية والبيولوجية التى تحدث داخل الجسم عند الجوع أو الصوم. ذلك أن جسم الكائن الحى فى حالة الصيام يبدأ باستهلاك المواد الغذائية المخزونة فيه، وعندما ينتهى المخزون من الغذاء تبدأ البروتينات المكونة لأعضاء الجسم المختلفة، وأولها الكبد والعضلات، بالتحرك والتخلخل. فإذا كان الصوم لمدة مناسبة محدودة وغير زائدة عن الحد المعقول، كما هو الحال فى صوم رمضان، فإن هذا التخلخل فى بروتينات أعضاء الجسم يجعلها أكثر قابلية للتجدد والنشاط واستعادة شبابها وحيويتها.. وهذا يعنى أن الصوم يعمل على تجديد وتنشيط أنسجة الجسم خاصة أنسجة الغدد التى تسيطر على النمو والحركة وعمليات الهضم والبناء؛ الأمر الذى يفسر لنا ظاهرة النشاط الزائد والنمو السريع الذى يلاحظ على الحيوانات والطيور والديدان بعد فترة الصوم أو «البيات» كما يسميها علماء الأحياء. وهذه الحقيقة هى عكس ما يتصوره الجهلاء من الناس من أن الصوم يؤدى إلى الهزال أو الضعف أو فقر الدم.

وهذا طبعًا بشرط أن يكون الصوم فى حدود المعقول كما نظمه الإسلام.

وحديثنا عن العلاقة بين الصيام وفوائده الحيوية للصحة العامة يكتسب أهمية خاصة فى ضوء اهتمام الباحثين والعلماء بموضوع أسرار الحيوية والشباب وتجنب مشاكل الشيخوخة، حيث يكتشف العلم كل يوم ما يؤكد حكمة التعاليم الإسلامية من توقير الحياة التى يحياها المسلم كهبة من الله سبحانه وتعالى، ويحب ما فيها من الطيبات، ويجب أن يؤدى أمانة الاستخلاف على خير وجه وهو فى أتم صحة وعافية إلى أن يعبرها إلى الآخرة التى هى خير وأبقى؛ ومن ثم فإن المسلم مطالب بالأخذ بالأسباب لأنها سنن الله فى خلقه، مع تسليمه وتفويضه لله وإيمانه بالقدر والأجل المحدد.

ومن أسباب المحافظة على الصحة العامة التزام النظام الإسلامى فى الصوم والغذاء، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» (رواه الترمذى). وقال أيضًا: «اسألوا الله العفو والعافية فإنه ما أوتى أحد بعد يقين خيرًا من معافاة» (رواه النسائى).

وعن فريضة صوم رمضان يقول الله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

تبين هذه الآية الكريمة أن الإسلام فرض الصوم على المسلمين طوال شهر رمضان المعظم، وبينت السنة النبوية المطهرة كيفية

هـذا الصيام وآدابه وأحكامه وغايته. أما أبحاث العلماء على مر العصور فقد كشفت عن حقائق مهمة تجلى الحكمة الإلهية من وراء تشريع الصيام، لا ليكون فرضًا تعبديًا فقط، ولكن باعتباره أيضًا من ضرورات الإبقاء على حياة الأحياء وسلامتهم.

فالصوم من وجهة النظر الصحية وسيلة لتطهير الجسم مما يحتمل أن يكون به من زيادات فى السموم الضارة، أو ما يكون به من غذاء لا لزوم له؛ ولهذا نجد الحديث عن الصوم فى الموسوعات الصحية يندرج تحت باب العلاج بالغذاء.

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الصيام مفيد لعلاج اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر، ويفيد فى حالات زيادة الضغط والبول السكرى.

ذلك أن كمية السكر فى الدم تقلّ بالصوم إلى أدنى المعدلات، وهذا يعطى غدة البنكرياس فرصة للراحة ويجدد كفاءتها ونشاطها مع غيرها من باقى أجزاء الجهاز الهضمى وملحقاته كالكبد والغدد اللعابية والحوصلة المرارية.

ومن المعروف أن البنكرياس يفرز مادة الأنسولين التى تؤثر على السكر فى الدم فتحوله إلى مواد نشوية ودهنية تترسب وتختزن فى الأنسجة، ولكن إذا زاد الطعام عن قدرة البنكرياس فى إفراز الأنسولين فإن هذه الغدة تصاب بالإرهاق والإعياء ثم تعجز أخيرًا عن القيام بوظيفتها، فيتراكم السكر فى الدم وتزيد معدلاته بالتدريج سنة بعد سنة حتى يظهر مرض السكر، ويعانى المريض من مشاكله ومضاعفاته الخطيرة. وخير حماية للبنكرياس من هذا الإرهاق أو العجز الوظيفى هو الصوم المعتدل، هذا فضلا عن أهمية الصوم كعامل مساعد لنقص وزن الجسم عند مرضى السكر. ففى خلال ساعات قليلة من فترة الصوم الإسلامى التى تتراوح بين «١٢» و«١٧» ساعة حسب فصول السنة يهبط معدل سكر الدم ليبلغ حوالى «١٠٠» مليجرام لكل «١٠٠سم٣» من الدم، أو أقل من هذا المستوى بقليل، ومعنى هذا أن يتنبه الجسم ليبحث عن مصدر آخر للطاقة فيستمده من مخزون النشا الحيوانى فى الكبد ويحوله إلى سكر الدم «الجلوكوز»، وهو مخزون يكفى الجسم حوالى «٦» ساعات، وبعد أن ينفد مخزون الكبد يلجأ الجسم إلى الدهون الموجودة تحت الجلد وفى الأعضاء ليهدمها ويتمثلها ويحصل على الطاقة اللازمة بعد هدم بعض الأنسجة والخلايا ذات الأهمية الأقل، وبخاصة المحتقنة والملتهبة والمتقيحة فيتخلص الجسم منها ومن سمومها مع إذابة الرواسب الكلية بتلك المناطق، ويتبع ذلك بناء أنسجة جديدة مكان ما تهدم، ومن ثم تتجدد حيوية الأعضاء، ويستعيد الجسم نشاطه، وتواصل أجهزته المختلفة أداء وظائفها بكفاءة عالية.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب المدارس الطبية الحديثة المعنية بالبحث فى طول عمر الإنسان وتجديد شبابه وحيويته تضع قواعد صحية معينة تعتمد على تبسيط الغذاء والصوم لفترات محدودة. من ذلك ما توصى به مدرسة «جايلورد هاوزر» الأمريكي المعاصر صاحب كتاب «عش مئة عام»، من أن أكل كميات غذائية أكثر مما ينبغى يؤدى إلى حدوث تسمم بطىء وضعف تدريجى لكثرة النفايات فى الجسم والدم؛ ومن ثم فإنها تدعو إلى تطبيق

نظام علاجي أسمته «النظافة الداخلية» يعتمد على صوم المريض لمدة سبعة أيام عن كل أنواع الغذاء التقليدية، ويعتمد فقط على كميات قليلة من الزبادى والعسل الأبيض أو الأسود وشوربة الخضار وسلاطة الخضار وعصير الفواكه والسوائل الدافئة كالتيليو واليانسون وغيرهما، وينصح الطبيب الأمريكى مرضاه بتطبيق هذا النظام العلاجى مرتين فى كل عام فى الربيع والخريف ليتلافى الجسم الكثير من المتاعب، وخاصة فى فترة الشيخوخة، وهو يقول: «إننى أعتقد باختصار أن عمر الإنسان هو عمر نظامه الغذائي»، ويزداد العلماء يومًا بعد يوم اقتناعًا بصحة هذه النظرية.

وإذا كان هذا هو ما يضعه البشر لأنفسهم من قواعد لاتباع نظام غذائى متزن يضمن صحتهم البدنية والنفسية، فما بالنا بالمنهج الإلهى الذى وضعه الخالق الأعلم بمن خلق وبينه النبى المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى بقوله: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

وتبين الآية الكريمة فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

أن البشرية مارست الصوم منذ القدم، وإن كان التاريخ لا يحدد لنا بدقة أول صوم منظم عرفته البشرية، إلا أن قدماء المصريين والهنود والصينيين والإغريق وعرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم بطرق مختلفة، كل حسب معتقداته. كذلك فرض الله تعالى الصوم على موسى -عليه السلام- وعلى اليهود، وفرضه أيضًا على المسيح عيسى -عليه السلام- وعلى النصارى الذين يصومون فى أوقات محددة بأساليب معينة، ثم جاءت رسالة الإسلام الخاتم لتفرض على كل مسلم ومسلمة صوم شهر رمضان كل عام هجرى بالطريقة التى حددها البيان النبوى، وهى الامتناع عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر حتى مغرب الشمس، وهو ميقات مرتبط بشهر قمرى التقويم، كذلك نجد أن صوم النوافل مرتبط بالشهور الهجرية القمرية التقويم.. وهنا تظهر أول ميزة للصوم الإسلامى، وهى أن يصوم المسلمون فى كل أوقات العام صيفًا أو شتاءً أو خريفًا أو ربيعًا، فيكتسبون بذلك قوة تحمل، ويتعلمون الصبر، وتتكيف أجسادهم بالصوم على احتمال تكاليف الحياة إذا ما أصابهم نقص فى الطعام أو الشراب فى مختلف الأحوال الجوية على مدار العام، وهذا يعكس الذين يصومون أيامهم مرتبطين بالتقويم الميلادى أو القبطى «النظام الشمسي»، حيث يصومون كل عام تحت ظروف جوية وبيئية واحدة رتيبة لا تتغير، فتكون الفائدة أقل من ناحية تعود الجسم على مختلف الظروف الجوية والصبر عليها.

من ناحية أخرى، تتراوح فترة الصوم الإسلامى ما بين «١٢» و«١٧» ساعة يوميًا حسب الفصل من شتاء يقصر فيه النهار، أو صيف يطول فيه النهار، أو ربيع أو خريف، وهى فترة من الناحية الطبية تعتبر مناسبة وكافية لحصول الأثر المطلوب بالتعود على كمية طعام وشراب أقل، فلا يكون الصوم مجهودًا فوق طاقة المكلفين به. فالإنسان السوى «العادي» يمكنه تحمل هذه المدة مع إمكانية

تأدية أنشطة الحياة اليومية دون تراخ أو فتور معتمدًا فى هذا على مخزون جسده من الطاقة والسوائل. وهكذا يكون الصوم الإسلامى متوازنًا، ففترة الصوم اليومى ليست بالقصيرة بحيث تنعدم الفائدة، وليست بالطويلة كما فى بعض أنواع صوم غير المسلمين الذين يمتد صومهم إلى يومين وأكثر؛ مما يؤدى إلى هبوط حاد بقوى الجسد ويشكل خطورة حقيقية على الجسم والكفاءة المطلوبة لأجهزته المختلفة، خاصة ما يسببه نقص السوائل من دخول الجسم فى مرحلة عدم التوازن لإحساس بالعطش والجوع مع التوتر والإجهاد العصبى والبدنى.

وبعد انتهاء فترة الصوم اليومية يبيح الإسلام لأتباعه كل أنواع الطعام والشراب فيما عدا المحرمات - فى قصد واعتدال، وبذلك يعوض الجسم ما فقده من طاقات كانت مخزونة مع تلافى حدوث أى ضرر للجسم لإباحة تناول كل الأطعمة، فلا يصاب الصائم بأمراض سوء التغذية أو نقص الفيتامينات والأملاح المعدنية. وهذا يعكس بعض أنواع الصوم التى تمتد لفترات طويلة، كما فى الصوم الكبير عند النصارى ومدته «٥٥» يومًا، حيث يعتمد الصائمون على المواد الغذائية ذات الأصل النباتى ممتنعين عن أى طعام دبت فيه الروح، وبذلك يحرم الجسم من البروتين الحيوانى وأحماضه الأمينية الأساسية اللازمة لتكوين الأنسجة الحيوية والهرمونات والإنزيمات وغيرها مما يحتاجه الجسم ولا يستطيع أن يعوضه بالغذاء النباتى؛ ولذا نجد أن هذا النوع من الصوم شديد الخطورة على صائميه، وخاصة المراهقين والأطفال دون سن البلوغ والناقهين ما لم يتم تعويضهم بكميات مناسبة من البروتين الحيوانى. وبطبيعة الحال تزداد الخطورة أضعافًا مضاعفة لدى من يسمون أنفسهم بالنباتيين الذين يعيشون حياتهم كلها على الأغذية النباتية فقط.

والصوم الإسلامى لا يمنع الصائمين من ممارسة أعمالهم وقضاء مصالحهم، عدا الطعام والشراب والجماع بين الزوجين، بعكس نوع الصوم الذى يمارسه اليهود مثلاً فى يوم الغفران «يوم كيبور»؛ حيث يمتنعون عن ممارسة أى نشاط من أنشطة الحياة، وصوم الإغريق اليونانيين القدماء - الذى يخرجون فيه إلى الطرقات فى حالة من الاكتئاب والضيق والحزن الشديد تمنعهم من مزاولة أى عمل.

صوم شهر كامل تكون له حصيلة إيجابية بالنسبة لتحقيق تضامن جماعى أكثر صلابة، فبالرغم من انتشار أخلاقيات المادية الغربية فى المجتمعات الإسلامية، إلا أن هناك مئات الملايين من المسلمين الذين يحرصون على صيام رمضان كل عام. كما يمكن القول بأن الصيام الجماعى لمدة شهر كامل، وفى قارات وأقطار مختلفة من المعمورة تمثل خاصية من خصائص الحضارة الإسلامية، فمن وجهة نظر علم الاجتماع يقوى هذا الصوم الجماعى من أواصر التضامن الاجتماعى داخل كل قطر مسلم، وكذلك بين المجتمعات الإسلامية المتعددة على ظهر الكرة الأرضية.

وهكذا نجد أن منهج الإسلام فى الصوم يفضل كل أنواع الصيام الأخرى فى أنه يراعى فائدة الجسد وصحة الروح ونقاء النفس مع مواصلة الحياة الطبيعية بنشاط وحيوية، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وصلاة وسلامًا على رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين.

واستهداء بما يقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

«البقرة: ١٨٤»

فإن الخير الذى يجنيه الصائم كثير كثير، تكشف عن كنوزه أبحاث العلماء من آن لآخر.

ولعل أهم البحوث ما يتصل بالعلاقة بين الصيام وفسيولوجيا الأجسام، فقد أظهرت أحدث الدراسات العلمية أن دورية صيام رمضان، أى إيقاع تردده مرة كل عام، يعمل على تحسين إيقاع هرمون الميلاتونين **Melatonin** المسئول عن انتظام الإيقاع الأساسى لحياة كل عضو، وكل نسيج وكل خلية فى الجسم، ذلك أن الميلاتونين هو الهرمون الذى يساعد فى الإبقاء على الضبط الدقيق لأجهزة الجسم حتى تظل متوافقة وعاملة معًا فى تكامل وتناغم، ولا تكاد خلية واحدة فى جسم الإنسان، أو جهاز كامل من أجهزته، لا يتعامل مع هذا الهرمون ويتأثر به.

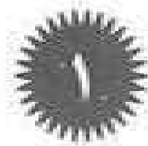
إن هناك مصدرًا أساسيًا للميلاتونين يتمثل فى «الغدة الصنوبرية» التى تقع فى منتصف المخ تمامًا، وتكون على صلة وثيقة بالعين من خلال ممر عصبى، وهكذا فحينما يقع الضوء على شبكية العين تتولد نبضة عصبية لا تلبث أن تصل سريعًا إلى الغدة الصنوبرية التى تستجيب لها وتقوم بتحويل الحامض الأمينى «تربتوفان» إلى مادة «السيروتونين»، وما أن يحل الظلام حتى تبدأ فى تحويل السيروتونين إلى ميلاتونين لا تختزنه بداخلها؛ بل تضخه مباشرة إلى مجرى الدم، وعلى هذا فإن مستويات عالية نسبيًا من الميلاتونين تسرى بمجرى الدم فى الليل إلى كل أجزاء الجسم، ولكن مستوياته تنخفض كلما اقترب الصباح حيث يتسبب الضوء الوارد من العين فى توقف إنتاج الميلاتونين، ومعنى ذلك أن الغدة الصنوبرية تفرز الهرمون وفق نظام دورى محدد يتبع الليل والنهار.

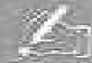
هذا إذن هو المصدر الأساسى للميلاتونين، لكن الباحثين عثروا حديثًا على مصدر آخر للهرمون يتمثل فى القناة الهضمية. فقد أظهرت كثير من الدراسات أن الجهاز الهضمى يحول التربتوفان إلى الميلاتونين... كما بينت أن هذا النوع المعوى خلافًا للميلاتونين الصنوبرى، ينتج بشكل ثابت نسبيًا، وأنه يشكل قاعدة أساسية مستوى الهرمون فى الدم على مدار اليوم، وأكثر من ذلك، فإن إنتاجه فى الأمعاء لا يتأثر بالنور والظلام. وهذا يعنى أن الجهاز الهضمى يبدو كأنه مصدر مستقل تمامًا لإنتاج الميلاتونين. وفضلاً عن ذلك توصل الباحثون إلى أن إنتاج هذا النوع يتحسن كثيرًا مع الصيام، ومع الحد من السعرات الحرارية فى الغذاء.

ونجد فى اعترافات عظماء المعمرين فى العالم ما يؤكد هذه الحقيقة العلمية، فقد قال أحدهم وكان يتمتع بصحة جيدة بعد بلوغه سن المئة: «إن تمسكى بأبسط المأكولات، وتقشفى فى المعيشة، كان أهم ما تتميز به حياتى عن حياة الآخرين، فعلى الرغم من ثرائى الوفير وتواجد أسباب الحياة المنعمة لى، إلا أننى قد حييت حياة خالية من الإسراف معظم أيامى. وكان غذائى المحبوب التمر واللبن، كما أتناول الخبز الجاف والجزر.. وكنت أصوم فترات متعددة فى كل عام فجنبت نفسى ويلات المرض ومتاعب الشيخوخة».

- يتبع -

التربية الروحية الإسلامية والخروج من أزمات المعرفة المعاصرة





د. طه عبدالرحمن

اعلم أن (التعقل) و(التعلم) صفتان حببتا إلى المسلم [1] حتى صار يطلبهما في كل طريق ويقبلهما من كل جانب، وما زال يطلبهما من نفسه ومن غيره، حتى اطمأن اطمئناناً إلى الأخذ بكلية المناهج العقلية والنتائج العلمية التي اختص بها (النمط المعرفي المعاصر).

ولئن سلمنا بأن المسلم يلزمه طلب الاتصال بالعقل والعلم فلا نسلم بأنه يلزمه في تحصيل هذا الاتصاف الأخذ بمناهج العقل ونتائج العلم المنقولة من هذا النمط المعرفي المتداول، وذلك أن هذه المناهج والنتائج أشبعت ـ من حيث يرى المسلم أو لا يرى ـ بمذهبي (الغير) في العقل والعلم.

ولسنا نعترض على هذه المناهج والنتائج لمجرد نسبتها إلى الغير من حيث هو غير، فذلك لا يقول به عاقل، وإنما لأن مذهب هذا الغير فيها يقوم على مبادئ لا يمكن للمسلم أن يقبلها أو يدعو إلى قبولها.

أولاً - أزمات النمط المعرفي المعاصر:

١ ـ أصول النمط المعرفي المعاصر:

لقد قام النمط المعرفي منذ نشأته في مطلع القرن السابع عشر على أصلين اثنين يقضيان بقطع الصلة بصنفين من الاعتبارات التي تأخذ بها الممارسة الإسلامية.

أما الأصل الأول، فيمكن أن نصوغه، كما يلي: (لا أخلاق في العلم)، مقتضى هذا الأصل أن لكل واحد أن ينشئ بيان نظريته حسب قرارات معرفية وإجراءات منهجية لا دخل فيها للاعتبارات الذاتية والعملية التي تصدر، إما عن التسليم بقيم معنوية أو عن الأخذ بقواعد سلوكية مخصوصة.

وأما الأصل الثاني فيمكن أن نصوغه، كما يلي:

1 ـ تأمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)

(لا غيب في العقل)، ومقتضى هذا الأصل أن لكل واحد أن يركب من العلاقات أو يقيم من البنيات ما شاء، إلا أن تكون بعض العناصر المرتبطة بهذه العلاقات الداخلة في هذه البنيات مما يخفى عن العين المجردة والمزودة، ولا تفيد في إدراكه تقديرات العقل المجرد، إما لكونه غير متحقق الآن، أو لكونه متحققا لكنه لا يظهر بوجوده الظهور المعلوم.

أزمة الصدق

لقد تفرّع عن الأصل الأول الذي يقول بفصل العلم عن الأخلاق المبدآن المشهوران:

أ – مبدأ الموضوعية: الذي يقضي بأن يكون النظر العلمي مستقلاً كل الاستقلال عن آثار الذات الإنسانية، ولما كان هذا الاستقلال، في الحقيقة، ادعاء بعيد التحقق، عسير الإثبات، اخترنا أن نسميه بمبدأ (الموضوعية الميتة)، تمييزاً له عن مبدأ يأخذ بموضوعية (حية) تقصد قصداً أن تشترك قيم الذات الداخلية ومدركات النظر الخارجية في تأسيس المعرفة تأسيساً موجها (بفتح الجيم) ومقوما (بفتح الواو)، لا تأسيساً مجرداً.

ب – مبدأ التجاوز: الذي ينص على أن لا أخلاق في المنطق، فلكل امرئ أن يبني منطقه، كما شاء، لا يتقيد في ذلك إلا بأن يبين عند الاقتضاء، مناهجه وقواعده فيما اتخذ من منطق، ولما كان هذا المبدأ يسقط إسقاطاً كليا الاعتبارات العملية، اخترنا أن نطلق عليه مبدأ (التجاوز المسيب) تمييزاً له عن مبدأ يأخذ بتجاوز (موجه) (بفتح الجيم) يقصد قصداً إلى أن يشرك الجانب العملي مع الجانب النظري في تركيب النسق المنطقي والرياضي.

وهكذا باسم مبادئ توهم بالنزاهة والسماحة يقع تمجيد العلم الحديث، بل وتقديسه، وينال حظوة ما بعدها حظوة في قلوب بعض علماء المسلمين أنفسهم، ولا أدل على هذا الإيهام من أن هذه المبادئ التي ترسخ دقة الانقطاع عن القيم الأخلاقية، لم يقتصر العمل بها على مجال العلوم النظرية، كما أراد ذلك أهلها في مرحلة التأسيس، بل جرى الأخذ بها في مجال العلوم العملية نفسها، حيث أخرجت أفعال الإرادة الإنسانية الحية على مقتضى الوقائع الجامدة، ثم انتقل العمل بها إلى المجالات غير العلمية مثل الفكر والأدب، حتى صار المثقف، مفكرًا كان أو أديبًا، يعتقد مشروعية هذا الانفصال وضرورة الالتزام به، ويتجلى هذا الاعتقاد في الادعاءات الثلاثة الآتية:

- إن القول الحق قد يصدر عن القائل ولو لم يعمل به.
- إن الفعل ليس شرطًا في قبول قول القائل.
- إن تقويم قول القائل من جهة أفعاله مسلك غير مشروع، ولا يخفى أن هذه الادعاءات تزكي الانفصال بين القول والفعل، ولما كان هذا الانفصال أثرًا من آثار مبدأ (الموضوعية الميتة) ومبدأ (التجاوز المسيب)، فقد دخلت على المعرفة المعاصرة، على اختلاف أساليبها وتنوع محتوياتها، آفة الإخلال بشروط الصدق، علما بأن الصدق هو مواطأة القول للفعل، فلا نعدو الصواب إذ ذاك إن قلنا بأن المعرفة المعاصرة تعاني أزمة حادة هي باصطلاحنا (أزمة صدق).

أزمة القصد

لقد تفرع عن الأصل الثاني الذي يقول بفصل العقل عن الغيب المبدآن المشهوران:

أ – مبدأ السببية: الذي يقضي بأن يكون لكل ظاهرة سبب محدد، وما كان القول بالسببية يلزم عنه أن (الإمكان) أو (الجواز) لا محل له في الممارسة العقلية المشترطة في العلوم، آثرنا أن نسمي هذا المبدأ بمبدأ (السببية الميتة)، حتى نفرق بينه وبين مبدأ يأخذ بسببية (حية) تتزاوج فيها الضرورة والإمكان، كما يتزاوج فيها التوجيه

الذي يضبط العلاقة السببية، فتكون موجهة من جانب المسبب، كما هي موجهة من جانب السبب، وإن اختلفت صورة هذا التوجيه من أحدهما إلى الآخر.

ب - مبدأ الآلية: الذي ينص على أن كل ظاهرة لا تحددها إلا أوصاف خارجية تتحكم فيها تحكمًا، ولما كان القول بالآلية يلزم عنه أن الممارسة العلمية تجمد على الظاهر، ولا تتطلع إلى ما وراءه من الوجوه الخفية، وإلى ما بطن من الأسباب الممتنعة عن المراقبة، آثرنا أن نطلق على هذا المبدأ اسم: (الآلية المسببة)، حتى نفرق بينه وبين مبدأ يأخذ بآلية (موجهة) (بفتح الجيم) يتزاوج فيها التحكم في ظاهر الأشياء مع الاحتكام إلى باطنها لتزاوج الأوصاف العلنية مع المقاصد الخفية، وتزاوج العلل المشهودة مع الحكم المبثوثة.

وإذا دققنا النظر في المعنيين الغيبيين: (الجواز) الذي يخرجه مبدأ السببية الميتة، و(الباطن) الذي يخرجه مبدأ الآلية السببية، تبين لنا أن المعرفة المعاصرة تكابد أزمة ثانية تضاهي في حدتها أزمة الصدق التي تنشأت عن القول بانقطاع العلم عن الأخلاق، ذلك أن (الجواز) له تعلق (بالإرادة)، وأن الظواهر التي يستقرئ العلم الوضعي أسبابها هي من صنع الإرادة الإلهية التي تعلقت بهذه الأسباب، وكان بالإمكان أن تتعلق بأسباب غيرها لو شاءت هذه الإرادة أن تكون الظواهر على غير ما هي عليه، أو شاءت أن يدركها الإنسان على غير الوجه الذي أدركها عليه، كما أن (الباطن) الذي يقترن بظاهر الأشياء، له تعلق بالغاية التي أنيطت بكل ظاهرة.

ومعلوم أن مدلول (الإرادة) الذي يتعلق به الإمكان ومدلول (الغاية) الذي يتعلق به الظاهر هو بالذات معنى (القصد). فالإرادة هي، على التعيين، ممارسة السلوك القصدي، والغاية ليست إلا المقصد الذي يستهدفه هذا السلوك، فتكون بذلك الأزمة التي أصابت المعرفة المعاصرة بسبب تزكية الانفصال بين العقل والغيب هي باصطلاحنا (أزمة قصد).

حاصل القول في النمط المعرفي المتداول أن نتائجه العلمية لما كانت لا تؤدي بصاحبها إلى طلب الأخلاق، ولا يعنيها أمر الوصول إلى التحلي بها، فقد ورثت الآخذين بها أزمة صدق، كما أن مناهجه العقلية، لما كانت لا تحمل صاحبها على التطلع إلى الغيب، ولا يعنيها أمر الوصول إلى اليقين بشأنه، فقد ورثت الآخذين بها أزمة قصد. ومتى ثبت أن المعرفة المعاصرة تكابد أيما مكابدة أزمتين اثنتين: (أزمة صدق) و(أزمة قصد)، احتاج المسلم، الذي عليه واجب العمل بالاعتبارات الخلقية والتوجهات الغيبية، أيما احتياج، إلى أن يقي نفسه شر هاتين الأزمتين، ما قرب منهما وما بعد، فكيف إذن السبيل إلى دفعهما واتقاء سوء آثارهما، حتى يستقيم له تحصيل نمط معرفي غير منقطع عن المعاني الخلقية ولا منفصل عن الحقائق الغيبية؟

وسائل الخروج من أزمات النمط المعرفي المعاصر:

طريق التنقيح والتخريج:

رب قائل يقول بأن مسلك التصحيح النظري كاف لإخراجنا من هاتين الأزمتين ووقايتنا من شرهما، ويقوم هذا التصحيح في عمليتين اثنتين إحداهما: تنقيح المناهج العقلية، حتى تصير موافقة لمقتضيات الإذعان للغيب، والثانية: تخريج النتائج العلمية، حتى تصير آخذة بأسباب السلوك الخلقي، نرد على هذه الدعوى من الوجوه الثلاثة الآتية:

- أحدها: أن الوسائل العقلية والمضامين العلمية المنقولة تشكل نسقًا يشد بعضه بعضًا، بحيث يحكمه منطق خاص لا تضره محاولة الاستقلال بعنصر من عناصره والاشتغال به في غير مجاله؛ لأن روح المنطق المبني به هذا العنصر في الأصل تنتقل معه، ولا تلبث أن تؤثر في إجرائيته في مجاله الجديد، فيصير ضرره أكثر من نفعه.

- والثاني: أن هذا التصحيح يوقع في الإلزام بما لا يطاق، ذلك أن مدعي القدرة عليه واقع لا محالة في دور فاسد. فالتنقيح والتخريج، اللذان يزعم لنفسه الاقتدار عليهما، لا يستقيمان إلا بسلوك طريق في العقل والعلم يختلف عن طريق النمط المعرفي المنقول، ولو كان هذا الطريق قد انفتح له لاستغنى به عن الدخول في عمليات تصحيحه، ولما لم يكن كذلك، انساق انسياقًا في العمل بالطريق المنقول في إنجاز مشروعه التقويمي، فيجيء تنقيحه وتخريجه حاملين لآثار الانقطاع عن القيم الخلقية والمعاني الغيبية، كما حملها ذلك الطريق.

- والثالث: أن مسلك التصحيح المزعوم يبقى مسلكًا نظريًا جزئيًا لا يرقى إلى مستوى الفعالية والشمول اللذين يقتضيهما الخروج من الأزمتين المذكورتين، فليس النظر العقلي الذي يقوم عليه هذا التصحيح إلا واحدًا من الأفعال التي تشترك في إنشاء المعرفة، بل ليس العقل نفسه إلا واحدًا من الأفعال الإدراكية مثله مثل الإبصار والسمع[٢] وقد يطلق على حاصل هذا الفعل الإدراكي، فيكون مرادفًا لمجموع المعقولات، ولما لم يزد العقل عن كونه فعلاً أو نتاجًا لهذا الفعل، فإنه يظل مظهرًا محدودًا وجزئيًا لا يفيد تأثيره إلا إفادة ظاهرة وعابرة، بينما يحتاج في الخروج من الأزمتين إلى تأثير بعيد النفوذ وبالغ الرسوخ.

ومتى تبين أن مسلك التنقيح والتخريج غير كاف في استرجاع المعرفة للقصد والصدق، لزم طلب طريق آخر يحصل تحصيلاً الجمع بين العلم والاعتبارات الخلقية، ويوصل توصيلاً إلى الجمع بين العقل والتوجهات الغيبية، أما الجمع بين العلم والاعتبارات الخلقية فهو بالذات مقتضى مبدأ (العلم النافع) عند المسلمين، فالعلم النافع هو ما كان باعثا على العمل، ومعلوم أن مصطلح (العمل) في الإسلام يتسع للدلالة على جميع الممارسات والسلوكيات[٣]، وأما الجمع بين العقل والتوجهات الغيبية، فهو على التعيين مقتضى مبدأ (العقل الكامل) عند المسلمين، فالعقل الكامل هو ما كان مفضيا إلى القرب من الله[٤]، وعلى هذا الطريق الذي ينبغي أن نطلبه حتى نحقق به ما عجز عن تحقيقه مسلك التنقيح والتخريج هو طريق العقل الكامل والعلم النافع، فكيف نحصل على هذا الطريق المتميز؟

طريق العقل الكامل والعلم النافع:

حقا لو نحن وضعنا في الاعتبار ما بله من إنسان العقل المقطوع عن العمل أو قل باصطلاحنا، (العقل المجرد)، حتى صرنا نحسب القرب في

٢- ليس (العقل) ذاتًا، كما ساد الاعتقاد بذلك بسبب تأثير التعريف اليوناني للعقل، وإنما هو فعل من الأفعال الإدراكية مثله مثل السمع والإبصار، وقد يطلق بتوسع على حاصل هذا الفعل، فيكون مرادفًا لمجموع المعقولات، كما أن (العلم) ليس ذاتًا، وإنما فعل من الأفعال الإدراكية وقد اشتهر بالدلالة على حاصل هذا الفعل، فصار مرادفًا لمجموع المعلومات. انظر طه عبد الرحمن، (العمل الديني وتجديد العقل) ص٣٢ - ٣٦.

٣- تحصي لعلماء المسلمين صيغًا مختلفة تفيد مدلول (العلم المعمول به)، منها (العلم مبدأ العمل، والعمل تمام العلم) (أبو الحسن العامري، كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ص٧٨)، و(العلم المستعمل) أو (العلم الباعث على العمل) (الشاطبي، الموافقات، الجزء الأول ص٦٩) و(كمال العلم في حصول الاتصاف به) (ابن خلدون، المقدمة ص٤٦٠ - ٤٦١، طبعة المكتبة التجارية بمصر).

٤- ورد هذا المعنى الجامع بين كمال العقل ودلالته على القرب من حضرة الله في أحاديث ذكرها الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين)، قال رسول الله ﷺ: (إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلفى على قدر عقولهم) ص٢٧، وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: (يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قربًا، قلت: بأبي أنت وأمي، ومن لي بالعقل، قال: اجتنب محارم الله، وأد فرائض الله تكن عاقلاً ثم تنفل بصالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً وتزدد من ربك قربًا وبه عزًا) ص٢٩ - ٣٠، وقد قيل أيضًا (العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه) ص٢٩.

الجهة التي يستدرجنا منها إلى البعد، وما يلفه منا العلم المقطوع عن الغيب أو قل باصطلاحنا (العلم المجرد) حتى صرنا نحسب النفع في الجهة التي يستدرجنا منها إلى الضرر، فلا نكاد نتصور إمكان تحقيق الانفصال عنهما واتخاذ غيرهما، مما نأمن فيه من الاستدراج إلى نقيض مرادنا.

كما أننا لو أخذنا بعين الاعتبار المحمل الموسع الذي نحمل عليه (العقل الكامل) و(العلم النافع) فإننا لا نكاد نستبين كيف السبيل إلى تحصيلهما.

فإن العقل الكامل، عندنا، لا ينحصر في القدرة على تمييز الأفعال وتمييز ما جاء من أحكام الشرع المتعلقة بها، كما ينحصر اصطلاح (العقل التكليفي) في الدلالة عليها، ولا يقتصر العلم النافع عندنا على العلم المتعلق بالإحاطة بالأدلة التفصيلية والإجمالية للأحكام الشرعية، كما يقتصر اصطلاح (العلم الشرعي) على إفادة ذلك دون سواه، ذلك أن القول بالعقل التكليفي يوهم بوجود عقل غير تكليفي نسميه بـ(العقل التشريفي) وقد يختص بالنظر في الآيات الكونية، بينما القول بالعلم الشرعي يوهم بوجود (علم وضعي)، وهذا بالذات ما ساد الاعتقاد به.

• وعلى هذا، فواحد من أمرين: أما الأمر الأول فهو أن نوسع مفهوم العقل (التكليفي) بحيث يصير شاملاً لكل الأفعال العقلية سواء ما تعلق منها بالمسالك الإيمانية: العقدية والعبادية، وبالمعاملات الإنسانية أم ما تعلق منها بالعادات الكونية، حتى لا يقل تكليف الإنسان في اكتشافه لقانون من قوانين الكون مثلا عن تكليفه في أداء واجب من واجبات العبادة، فيستشعر من القرب في هذا ما يستشعره في ذاك، وأن نوسع أيضًا مفهوم (العلم الشرعي) بحيث لا يخرج عنه أي معلوم سواء أتعلق بمدركات الغيب خبرية كانت أم قلبية، أم تعلق بمدركات الشهادة، حسية كانت أم نظرية، حتى لا يقل شعوره بالتبعية للحقيقة الشرعية فيما يلاحظ أن يفترض أو يبنى من معلومات كونية عن شعوره بها فيما يقوم به من أعمال التقرب المفروضة، فيجد من النفع في هذه ما يجده في تلك.

• أما الأمر الثاني، فأن نجعل (العقل الكامل) جامعًا لمعنى (العقل التكليفي) ومعنى (العقل التشريعي)، على اعتبار أن التكليف متعين فيهما معًا، إلا أن هذا التعيين ظاهر وصريح في الأول وتابع ومضمر في الثاني، وأن نجعل أيضًا (العلم النافع) جامعًا لمعنى (العلم الشرعي) المتعلق بمضامين العقل التكليفي ولمعنى (العلم الوضعي) المتعلق بمضامين العقل التشريفي، على أساس أن مقاصد الشريعة متحققة فيهما معًا، غير أن هذا التحقق سمعي وقلبي في الأول، وحسي ونظرى في الثاني.

وهكذا، فسواء أوسعنا مفهوم (العقل التكليفي) ومفهوم (العلم الشرعي) أم عممنا معنى (العقل الكامل) ومعنى (العلم النافع) فلسنا نزداد بذلك التوسيع ولا بهذا التعميم إلا ميلا إلى استبعاد إمكان تحصيل الطريق المطلوب في إقامة معرفة إسلامية غير مشوبة ولا مشبوهة.

شمول ورسوخ التجربة الروحية:

يبدو من العسير تصور تحصيل مطلوبنا العقلي والعلمي ما لم نطمح إلى أبعد من القيام بعمليات جزئية وضحلة لا تنال كثيرًا من النمط المعرفي الذي تولت السنون والقرون تثبيته فينا كعمليات التصحيح تنقيحًا وتخريجًا، التي تجعلنا نجزئ هذا النمط المعرفي لننتقي ما نعتقد صلاحه ونسقط ما نعتقد فساده، أو نجزئ الذات العارفة، فنتخير منها النظر العلمي المجرد من دون بقية الأفعال الأخرى التي تشاركها إنشاء المعرفة.

ولا ينفع في بلوغ غرضنا هنا إلا الدخول في تجربة حية تنال كلية الإنسان، وتبلغ من القوة والرسوخ درجة تفوق قوة ورسوخ النمط المعرفي الموروث، بحيث تجب ما قبلها جبا، ولا تجربة بهذا الوصف الشمولي والجذري ممكنة ما لم تتعلق بذات الإنسان نفسها وليس بفعل من أفعاله أو وصف من أوصافه فحسب، لأن الذات تصدر عنها الأفعال صدور الآثار وتظهر منها الصفات ظهور التجليات، ولأن كل تجربة لا تحياها إلا الذات، أما الفعل أو الصفة، فلا يقال عنه: إنه يحيا التجربة إلا على سبيل التجوز، كما إذا أطلق لفظ المسبب وأريد به السبب، وليست الحقيقة الذاتية الحية للإنسان، التي تكون الأفعال الإدراكية صادرة عنها، وتكون الأوصاف الخلقية ظاهرة منها، إلا ما اصطلح عليه باسم (الروح).

وليس لنا أن نخوض في معاني الروح ولا في أوصافها ولا في مآلاتها، معاشًا ومعادًا، كما خاض فيها غيرنا من قبل بطريق الخبر أو بطريق الخبرة أو بطريق الفكرة، فلم نؤت من العلم إلا القليل(*)، وحسبنا هنا أن نذكر حدا لها قامت عليه شواهد قطعية من الطرق الثلاث، وهو:

(أن الروح نفخة ربانية خرج بها الإنسان من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ومن عموم الوجود إلى خصوصه بالتكريم الإلهي لفطرته).

وإذا صح أن أرسخ التجارب أصلًا وأشملها أثرًا، بحيث تقوى على جب ما قبلها، لا بد أن يكون محلها الروح التي تظهر آثارها في الأفعال الإدراكية، وتظهر تجلياتها في الأوصاف الخلقية، صح معه أن كل طريق يأخذ بالتجربة الروحية الشاملة والراسخة، من شأنه أن يفتح لنا باب تحصيل مرادنا من الجمع بين العلم والأخلاق والجمع بين الغيب والعقل، ولا طريق أقرب إلى القدرة على فتح هذا الباب من (التربية الروحية) إذ هي (التنشئة وفق مناهج عقلية ونتائج علمية تستمد الأولى كمالها وتستمد الثانية نفعها من نور الفطرة التي كرمها الله تكريمًا).

فكيف تتمكن التربية الروحية من تزويدنا بأسباب العقل الكامل والعلم النافع؟

اعلم أن من أركان التربية الروحية ركنين أساسيين: أحدهما تحصيلي عرف باسم (ركن القدوة)، أو قل باصطلاحنا (النموذج الصادق) والثاني توصيلي عرف باسم (ركن الإشارة)، أو قل باصطلاحنا (التعبير القاصد)، وغرضنا بهذا الصدد أن نستدل على دواع ندعيها بشأن هذين الركنين التربويين، وهي: (أن الركن التحصيلي من التربية الروحية، أو القدوة، يتعهد بالتربية على الصلة بين العلم والأخلاق، بينما يتولى الركن التوصيلي منها أو الإشارة، التربية على الصلة بين العقل والغيب).

وليس من سبيل إلى تحصيل التربية على الجمع بين العلم والأخلاق إلا إذا تمكن القدوة من إخراجنا من أزمة الصدق التي تولدت عن الفصل بينهما، ولا يتمكن من ذلك إلا إذا تحلى هو بأحسن صور الصدق، كما أنه لا سبيل إلى تحصيل التربية على الجمع بين العقل والغيب إلا إذا تمكنت الإشارة من إخراجنا من أزمة القصد التي تولدت عن الفصل بينهما، ولا تتمكن من ذلك إلا إذا اتصفت هي بأحسن صور القصد.

وحتى نتحقق من الوظيفة الصدقية المتميزة للقدوة والوظيفة القصدية الخاصة للإشارة، نلتزم معايير إجرائية ثلاثة ضابطة لمثل هذا التحقق، وهي: (معيار الطبيعة) و(معيار الأصل) و(معيار الغاية) فننظر في السلوك الصدقي للقدوة هل هو صادق في طبيعته وصادق في أصله وصادق في غايته؟ ثم نمضي إلى التعبير القصدي للإشارة فننظر هل هو قاصد في طبيعته وقاصد في أصله وقاصد في غايته؟

(يتبع)

(*) تفسير الآية الكريمة ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

من عيون التراث

كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء

تأليف
المحقق السيد بكري بن السيد محمد شطا
القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
(١٩٥٢م)

عرض الكتاب:

كتب هذا الكتاب على منظومة كتاب «هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء» للشيخ زين الدين بن علي المعبري. يعرض الكتاب في مجمله وصايا كثيرة تتعلق بالعبادة، والأخلاق، والتعلم، والمجاهدة. فقد بدأ المؤلف بعرض ما أطلق عليه «الوصايا التسع» للأتقياء وهي: التوبة، والقناعة، والزهد، وتعلم العلم الشرعي، والمحافظة على السنن، والتوكل، والإخلاص، والعزلة، وحفظ الأوقات. ثم قدم بيانًا للشيم والأخلاق الحميدة وهي: الزهادة في الدنيا، وترك المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجودة، والحلم، والصبر، والتنزه عن خسيس الصنائع، والسكينة، والطمأنينة، والوقار، والورع، والخشوع، والتواضع، والنظافة، واجتناب كل من الضحك، والعجب، والرياء، والحسد، واحتقار الغير والتعالي عليهم، واستعمال المأثور من أوراد النبي.

كما ركز المؤلف على فضيلة العلم والتعلم وأوضح عدة علامات لعالم (من علم) الآخرة وهي: أن لا يطلب الدنيا ويدرك عظمة الآخرة، أن لا يخالف قوله فعله، وأن يكون معنيا بتحصيل العلم النافع، وأن يتجنب الترفه في المأكل والملبس والمأوى، وأن يتباعد عن مخالطة السلطان، وأن لا يكون مسارعًا إلى الفتاوى، وأن يقصد من العلوم العلم الذى يوصله إلى سعادة الآخرة.

هناك العديد من الإشارات النفسية التي تطرق لها المؤلف. فقد نظر إلى التصوف باعتباره علم نفس؛ حيث قال عن فن التصوف: «أما حده فهو علم يعرف به أحوال النفس وصفاتها الذميمة والحميدة. وأما موضوعه فهو النفس من حيث ما يعرض لها من الأحوال والصفات»(ص٤). وقدم تعريفات موجزة لمفاهيم نفسية متعددة تشمل: السعادة، «التقوى والتي هي منع النفس من شهواتها»(ص٨)، والنميمة، «نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض بقصد الإفساد والفتنة»(ص١٩)، والقناعة، «الرضا باليسير من العطاء»(ص٢١)، والحلم، «ترك العجلة والتأني في الأمور»(ص٥٧) والصبر، «حبس النفس عن الجزع»(ص٥٧). وأعطى أهمية كبيرة للتفكير؛ حيث يرى أن «الفكر مفتاح المعرفة والكشف»(ص٥١). وعلى نحو أكثر أهمية، حذر المؤلف من النظر إلى المحرمات بقوله: «إياك والنظر فإنه ينقش في القلب صورة المنظور»(ص١٩). ويتفق ذلك

مع حقيقة وجود تمثيلات بصرية Visual Representations مخزنة للأشياء البصرية Visual Objects كما أشارت إليها بحوث علم النفس المعرفي المعاصرة.

كما حدد سببًا مهمًا للحسد، وهو العداوة والرغبة في الانتقام؛ فيرى أن «الحسد تمنى زوال نعم الله تعالى، وأعظم أسبابه العداوة. فإن من آذاه إنسان وغضب عليه تولد منه الحقد المقتضى للانتقام فإن عجز عنه بنفسه أحب أن يتشفى منه بتغير الزمان، وعلاجه أن تعلم أن الكل بتقدير الله تعالى، وأن تتذكر مضار الحسد في الدين والدنيا، أما في الدين فسخطك لقضاء الله وكراهتك لمنحته التى قسمها بين عباده، وأما في الدنيا فتألمك وغمك على الدوام، إذ أعداؤك لا يخليهم الله من نعم يفيض عليهم فلاتزال تتعذب لكل نعمة تراها عليهم وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغمومًا ضيق الصدر»(ص٥٩).

يتفق ذلك مع مفهوم العدائية في علم النفس الاجتماعي.

وقدم المؤلف تمييزًا بين مفهومين نفسيين هما السخاء والجود؛ حيث يرى أنه «لا فرق بين السخاء والجود إلا أن الأول صفة غريزية فلا يتطرق إليها الرياء؛ لأنه ينبع من النفس الذكية المرتفعة عن إرادة الأعواض وفي مقابله الشح وهو من لوازم صفة النفس، والجود يأتي به الإنسان متطلعًا إلى عوض إما من الخلق كالثناء أو غيره أو من الحق كالثواب؛ ولذا يتطرق إليه الرياء وفي مقابله البخل، فالسخاء أتم وأكمل من الجود، فكل سخي جواد ولا عكس هذا حاصل»(ص٥٦). ويستشهد بقول القشيري بأن الجود أعلى رتبة من السخاء ونصه «السخاء عند القوم هو الرتبة الأولى ثم الجود ثم الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئًا فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره على نفسه فهو صاحب إيثار Altruism»(ص٥٦).

وهو هنا يقدم مستويات من سلوك المساعدة Helping Behavior.

وبالرغم من أن العزلة هي إحدى الوصايا التسع التي أوصى بها المؤلف الأتقياء، فإنه أشار إلى أهمية التفاعل الاجتماعي Social Interaction ودعمًا لهذا الرأي، استشهد بالإمام الغزالي حين قال: إن فوائد المخالطة سبع:

الأولى: التعليم والتعلم وهما أفضل العبادات ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة.

الثانية: النفع للناس بماله أو بدنه والانتفاع بالناس بالكسب والمعاملة.

الثالثة: التأديب بأن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية والتأدب بأن يرتاض بمقاساة الناس وبالمجاهدة في تحمل أذاهم كسرًا للنفس وقهرًا للشهوات.

الرابعة: الاستئناس والإيناس وهذا مستحب فيما إذا كان لأمر الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين سمة التقوى.

الخامسة: نيل الثواب بحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين.

السادسة: التواضع فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة وقد يكون الكبر سببًا في اختيار العزلة.

السابعة: التجارب فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم والعقل الغريزي ليس كافيا في تفهم

مصالح الدين والدنيا وإنما تفيدها التجربة والممارسة»(ص٤٤). وبالرغم من ذلك، أوصى المؤلف باختيار الصديق الجيد؛ فقال محذرًا: «لا تصحبن أيها السالك المريد للآخرة من كان متأهلاً للبطالة والتساهل في الدين أي متصفًا بهما؛ لأن صحبة من كان كذلك بلاء محض ومصيبة عظمى إذ الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على الاقتداء بمن تستحسن حاله»(ص٤١).

كما أوصى بضرورة: حفظ الأوقات»(ص٤٥) وتوزيعها(ص٤٧) وهو ما يعد إرهاصا لإدارة الوقت Time Management؛ فيرى «أن النفس إذا وردت على نمط واحد من الطاعات أظهرت الملل والاستثقال لكونها مجبولة على السآمة فكان من اللطف بها أن تروح بالنقل من نوع إلى نوع آخر بحسب كل وقت لتزيد لذتها وتعظم اللذة رغبتها ويدوم بدوام الرغبة مواظبتها. فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة والذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات وأكثرها فإن النفس مائلة بطبعها إلى ملاذ الدنيا»(ص٤٧).

ومن الوصايا أيضًا، المجاهدة؛ فيرى «أن جهاد النفس تزكيها من رذائلها أي من الأوصاف الذميمة؛ كالعجب، والكبر، والرياء، والحسد، والغضب، وشهوة البطن، والفرج، والبخل، وحب الجاه، وحب المال، والغرور، وطول الأمل. وتحليتها بنور الفضائل أي بالصفات الحميدة؛ كالتوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والفقر، والتواضع، والزهد، والورع، والتوكل، والنية، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والشوق، والأنس، والرضا، وقصر الأمل»(ص١٢٠).

ولزيادة التحصيل أثناء القراءة، أوصى المؤلف بما يلي: «قابل كتابك أيها الطالب قبل المطالعة على الصحيح الواضح المعول عليه من الكتب حتى يصح كتابك؛ فإن ذلك أسرع للفهم وأتقن وأحكم.. ثم بعد تصحيح كتابك أيها الطالب متن ذلك الكتاب قبل مطالعة شروحه وكرر ذلك حتى يثبت في ذهنك ثم انتقل إلى شروحه فإن ذلك أولى لك من مطالعة الشروح»(ص٩٢) ويقابل التدريب الموزع أو استراتيجية القراءة الفعالة وهي إحدى استراتيجيات التعلم الناجح.

وحدد المؤلف أربع خصال يمكن للشخص بواسطتها الحصول على محبة الآخرين؛ فيرى أن «سلامة الدنيا خصال أربع:

الأولى: غفرك لجهل قومك: أي تجاوزك عن جهلهم وسترك له والمراد تجاوزك عما يقع منهم في حقك من الإيذاء الناشيء من الجهل.

الثانية: منعك أن تجهل عليهم أي أن تقع في عرض أحد منهم بأن تؤذيه.

والثالثة: أن تكون آيسًا أي قانطًا من سبب أي من عطاء الأناسي.

والرابعة: أن تكون باذلاً لهم سببك أي عطاءك.

فإذا استكملت فيك هذه الخصال كنت محبوبا عندهم؛ لأن من تجاوز عن جهلهم وصبر على أذاهم، ولم يجهل على أحد منهم، وآيس مما في أيديهم، وبذل ما في يديه لهم كان محبوباً عندهم مشكورًا فلا يبغضونه ولا يوصلون إليه مكروهاً فيكون سالماً من إيذائهم وبغضهم، ومن لم يكن كذلك فلابد له من تزاعهم ومخاصمتهم»(ص٢٥، ٢٦).

وأشار المؤلف إلى وجود فروق فردية

في «الاشتغال بالعلم أو العبادة»، ويستشهد على ذلك برأي الشيخ عبد الله اليافعي حين قال إن: ذلك يختلف باختلاف الناس في أحوالهم وذوقهم وقابلياتهم وأذهانهم ونياتهم فينقسمون بذلك خمسة أقسام:

الأول: رجال غلبت عليهم أحوال قوية أزعجتهم واضطرتهم إلى الاشتغال بالله وحده ولم تدع فيهم للاشتغال بغيره بقية، وهؤلاء ليس لنا عليهم حكم فهم الفرسان في الحقيقة.

القسم الثاني: قوم لهم ذوق في العبادات وأنس وحلاوة في مناجاة مولاهم ويلحقهم تغير وتكدر في المخالطات وتفرق لهم عند الاجتماع في الاشتغال بالعلم، فهؤلاء إن عرفوا الزيادة في قلوبهم وأحوالهم من النقصان لزموا الذي يجدون به الزيادة حيثما كان أو لم يعرفوا فينبغي أن يكثروا من صلاة الاستخارة والدعاء والتضرع إلى مجيب الدعوات في التوفيق للأفضل في حقهم من العلم والعمل هذا كله بعد تعلم أحكام فرض العين.

القسم الثالث: ناس لهم رغبة في العلم وذوق وذكاء ونية صالحة، فهؤلاء ينبغي أن يبذلوا الجهد في الاشتغال بالعلوم بتقديم الأهم منها فالأهم مع التقليل من الدنيا ولزوم سيرة العلماء الأخيار.

القسم الرابع: ناس في أذهانهم بلادة لا يجيء منهم إفادة ولا استفادة، فهؤلاء ينبغي لهم بعد تعلم فرض العين أن يستغرقوا أوقاتهم في العبادة.

القسم الخامس: ناس فيهم دواعي العلم وجودة الأفهام مع خلوهم من صلاح النية فينبغي لهؤلاء أن يجاهدوا نفوسهم في تحصيل الإخلاص ويذكروها فناء الدنيا وحقارتها وغرورها وفتنتها وما جاء في الوعد والوعيد وتشبيه بعض العلماء بالحمير والكلاب في نص الكتاب، وأن يشتغلوا بعد فرض العين بذكر الله – تعالى – وعبادته في الليل والنهار ليعيد الله من بركات العبادة على قلوبهم حتى تصلح وتشرق فيها الأنوار، وحينئذ ينتج اشتغالهم بالعلم النفع ويثمر أزكى الثمار»(ص٦٦).

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- النفس Psych.
- السعادة Happiness.
- النميمة Gossip.
- القناعة Content.
- الحلم Dream.
- الصبر patience.
- التفكير Thinking.
- التمثيلات البصرية المخزنة Stored Visual Representations.
- العدائية Hostility.
- التفاعل الاجتماعي SocialInteraction.
- حفظ وتوزيع الأوقات Time Saving & Distribution.
- القراءة Effective Reading
- خصال الشخصية Characteristics of Personality.
- الفروق الفردية Individual Differences
- سلوك المساعدة Helping Behaviour.

القائم بالعرض

د. أحمد محمد مجرية

علي الغاياتي
شاعر الإسلام والوطنية



بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود

-١-

من معالم النهضة الإسلامية المعاصرة توظيف الشعر العربي في مقاومة الغزاة والمستبدين من أتباعهم في بلاد الإسلام والشرق العربي، وقد أبلى الشعراء العرب والمسلمون منذ مطالع النهضة في العصر الحديث بلاء حسنا في نظم القريض والتعبير عن مشاعر الشعوب العربية والإسلامية، وكان محمود سامي البارودي وعبد الله نديم وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم حلمي المصري وغالب الهندي ومحمد إقبال الهندي، الباكستاني فيما بعد، ومحمد عاكف التركي، وشعراء الديوان، وغيرهم، من طلائع الدفاع عن الأمة ودينها وكرامتها، واستدعاء تاريخها المضئ في شتى المناسبات الإسلامية والوطنية، سعيا لتحرير الأمة من قبضة الغزاة والجلادين، وصنع نهضة تليق بأمة خير المرسلين ﷺ.

كان علي الغاياتي شاعر الإسلام والوطنية واحدا من هؤلاء الشعراء العظام، فقد عبر عن رؤيته بمنتهى القوة والجرأة، ودفع ثمن ذلك تعرضا للمحاكمة، والحكم عليه بالسجن، والهروب من البلاد، والغربة عن الوطن سنوات طوال، وارتبط اسمه في هذا الجهاد باثنين من أكبر رواد الإصلاح في مصر وهما الزعيم محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش، كما سنفصل فيما بعد إن شاء الله، وكان إرادة الله سبحانه أن يتغرب عن مصر الغالية؛ ليذهب إلى بلاد أخرى؛ يتعلم لغتها ويؤسس فيها صحيفة تعرّف بالإسلام، وتنشر أخبار الشرق المسلم إلى أهل الغرب والمقيمين فيه من أهل الإسلام، ويخدم قضايا مصر والبلاد الإسلامية في المجال السياسي والسعي من أجل استقلالها ووجودها في السياق الدولي.

هذا الشاعر المجاهد نموذج لرجال الإصلاح والجهاد في العصر الحديث الذين عرفتهم بلادنا، وكانوا نموذجا صلبا في الحفاظ على هوية الأمة، ومقاومة الغزو العسكري والسياسي والثقافي الذي يشنه الغرب معتمدا على بعض أبنائنا والمنتسبين إلينا، لقد كان هؤلاء المجاهدون نموذجا وقدوة تسير على هديها الأجيال — جيلا بعد جيل — وتستلهم تجاربها في العمل والجهاد والصبر على الابتلاء، وفي الوقت نفسه ترفض انهيار بعض من يضعفون أمام الترغيب والترهيب، فيستسلمون لإرادة الغزاة، ويتحولون إلى الولاء لهم والدعوة إلى فلسفتهم واعتماد مناهجهم وهي في مجملها ضد الإسلام والمسلمين والإنسانية وإن تلفعت بمعسول الكلام ورقيق الألفاظ، يقول عنه الشاعر مختار الوكيل، وهو من أقرب الناس إليه بحكم المصاهرة:

"ولقد شاء الله أن يكون جهاد الشيخ علي الغاياتي متصلا في سبيل الوطن، وملازما ومواكبا لجهاده في سبيل تحقيق الحياة الكريمة العزيزة للإسلام والمسلمين".

ويضيف الوكيل: "ولكنه كان سعيدا بشقائه في جهاده، لأنه كان صاحب رسالة، أجل كان مؤمنا بربه، وكانت عاطفته الإسلامية أقوى ما يكون وأنصع ما يكون، حتى إنه لم يقبل في جريدته، سواء في جنيف أو في مصر، إعلانات الخمر، أو القمار، أو أماكن اللهو المريبة، وكان يحاول في كل تصرفاته أن يكون مثالا ونموذجا للمسلم الذي سلم الناس من لسانه ويده.

لقد عاشرت الشاعر بحكم مصاهرتي له في أعقاب عودته إلى أرض الوطن، فوجدت فيه أشد الناس حبا لربه ولوطنه ولقومه، وكان أحرص ما يكون على أداء الواجب في إخلاص ونزاهة وتجرد (مختار الوكيل، خمسة من شعراء الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، ص ٢٧٥ وما بعدها).

لقد ترك الغاياتي شعرا ونثرا يستحق الوقوف عنده، وتأمل مضمونه وصياغته، فقد كان هذا الميراث تعبيرا عن شخصيته وفكره وسلوكه، ولعل هذا كان من وراء الدراسات والبحوث التي تناولته أكاديميا وأدبيا وصحفيا، فإلى جانب ما تناولته الصحافة في زمنه وبعده، جاءت دراسات عديدة تؤكد على قيمة الرجل وأهميته في بناء النهضة المصرية الحديثة بقلمه ومواقفه في آن واحد.

ومن هذه الدراسات: الوطنية في شعر علي محمود الغاياتي دراسة وتحليل، تغريد النقراشي إبراهيم علي، جامعة الأزهر (كلية الدراسات الإسلامية؛ فرع البنات، ٢٠٠٧) - علي الغاياتي حياته وشعره، محمود جمعة أمين، جامعة الأزهر - علي الغاياتي: سيرة وحياة، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨١م- الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر، طه وادي، دار المعارف، ١٩٩٢م - علي الغاياتي، إبراهيم عبد الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م- موسوعة تاريخ مصر، أحمد حسين - علي الغاياتي من وطنيتي إلى منبر الشرق - إبراهيم عبد الله المسلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩ م - مجموعة مؤلفين، خمسة من شعراء الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣-١٩٨١م علاء الدين وحيد، شعراء

اليقظة الإسلامية في بداية القرن العشرين، دار سنابل للنشر والتوزيع، المنصورة (مصر)، ١٩٩٥م، " كامل الدابي، علي الغاياتي، كتاب أعلام دمياط، مارس ١٩٨٤م، ويلاحظ أن الغاياتي لم يخلف كتبا كثيرة، باستثناء كتابين، الأول هو ديوانه " وطنيتي " الذي أقام الدنيا في زمنه ولم يقعدها بسبب مضمونه الثوري، وكان ينوي نشر جزء ثان منه، ولكنه لم يفعل.

الكتاب الآخر " على هامش الحج " وهو عبارة عن مقالات قصيرة نشرها في جريدته " منبر الشرق " إثر عودته من رحلة الحج، بيّن فيها أوجه القصور في الأماكن المقدسة.

وواضح أنه كان مشغولا بالكتابة الصحفية التي لم توفر له فرصة التأليف أو الكتابة في موضوعات تستحق البحث والدرس وتحتاج إلى وقت طويل من التريث والتفكير، بالإضافة إلى العمل السياسي الحركي وخاصة في فترة وجوده بجنيف، وهو ما يجعله أقرب إلى التعامل اليومي مع الناس دون التعامل مع الكتب والمراجع والدراسات.

-٢-

ولد علي الغاياتي في مدينة دمياط سنة ١٨٨٥م، ونشأ في أسرة دينية وبيئة عريقة في شئون الدين، ودخل الكتاب في سن السادسة، وحفظ القرآن الكريم في الثامنة، ثم أرسله أبوه إلى المعهد الديني وكان مقره جامع البحر بدمياط؛ ليتلقى علوم الدين وأصول اللغة والبلاغة، وتجمعت لديه خيوط رقيقة مما يقرأ في الصحف والمجلات من آراء حديثة وصلت إلى أعماق نفسه، وقد تأثر بدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التي كانت ترى ضرورة ارتباط البلاد الإسلامية في أمة واحدة لمواجهة الفرقة والسوء والتدهور، ومقاومة الاستعمار، وقد أحدثت فتاوى محمد عبده التي حاولت التوفيق بين الدين الحنيف ومقتضيات العصر الحديث تأثيرا كبيرا في نفس الغاياتي الذي عكف على قراءتها ودراستها بإمعان ودافع عنها ونشرها بين الطلاب مما أوقعه في خصومة مع بعض أساتذته وزملائه الطلاب انتهت بطرده من المعهد ومنعه من تلقي الدروس في حلقاته.

خرج الغاياتي من المعهد ليشتغل بإحدى المدارس الابتدائية الخاصة، وكان يدرّس مبادئ القراءة وبعض آيات الذكر الحكيم ومحفوظات خفيفة من الشعر منها:

أطـــع الإلـــــه كـــمــــا أمـــر
وامـــــلأ فـــــؤادك بـــالـحـذر
والـــديـــن لا تـــلـــعـــب بـه
لــعــب الـصــــوالـــج بـــالأكـر
حـــــافـــظ عـــلـــيـــه فـــإنـــه
نـــعـــم الـــســـعـــادة تـدخـر

رحل الغاياتي من دمياط إلى القاهرة في أبريل عام ١٩٠٧م وكان في الثانية والعشرين من العمر، وهناك التقى بعدد من الأدباء وعلماء الأزهر الذين قدروا موهبته، وكان من بينهم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩م) الذي ألحقه للعمل معه بصحيفة " الجوائب " التي كان يصدرها، ونشر الغاياتي شعره في صحف "الوطن"، و"المؤيد"، و"الدستور"، ثم في جرائد الحزب الوطني مثل "اللواء"، و"العلم"، وبعد شهر وأكثر من عمله - في الجوائب - تعرض الغاياتي لمحنة بسبب وقوفه ضد الخرافات والبدع مثل التوسل بالأولياء والتمسح بالأضرحة وطلب شفاء المرضى، وقد أثار هذه الفتنة بدخول بعض العوام ومناصرتهم لبعض المشايخ، ومع التحريض رفع أمر الفتنة إلى الخديوي، وانتهى أمرها بمنع الرجل من التدريس وقطع راتبه وجرايته سنة كاملة يقدم شيخ علماء دمياط بعدها شهادة بحسن سيره.

كما دبرت له مكيدة ليجند في الجيش، مع أنه قد أعفي من التجنيد لطلب العلم، وقد قضى اثني عشر يوما في معسكر العباسية، وقد نظم فيها قصيدة عينية حارة، منها:

رامـوا دخـولـي الـجـيـش لـمـا أبـصـروا
ضـربـي وطـعـنـي بـالـيـراع الـمـشـرع
فـدخـلـتـه مـسـتـبـسـلا حـيـنـا وعـدت
كـمـا ذهـبـت بـعـزتـي وتـرفـعـي
والآن لا أرجـــو ســـوى أن يـعـلـمـوا
أن الـهـدى كـانـت حـقـيـقـتـه مـعـي
والله يـغـفـر مـا جـنـوه بـجـهـلـهـم
أو يـقـمـع الـنـفـس الـتـي لـم تـقـمـع

ويبدو أن الغاياتي استغل فترة احتجازه في المعسكر ليدعو إلى أفكاره ويهاجم معارضيه عن طريق الخطابة وإلقاء الشعر، ووجد استجابة لدى الجنود والضباط، فأسرعت القيادة إلى إطلاق سراحه.

كانت الصحافة هي المهنة التي تتفق مع ميوله الثورية، والطريق الذي يتيح له نشر أفكاره وآرائه، وقد وجد في صحيفة اللواء التي يصدرها الحزب الوطني وتعبر عن مبادئ الزعيم مصطفى كامل وفي مقدمتها تحقيق الاستقلال في ظل السيادة التركية فرصة ملائمة تناسب توجهه الفكري فكان من كتابها وشعرائها.

وقد تأثر الغاياتي بمصطفى كامل وأفكاره تأثرا كبيرا وخاصة ما يتعلق ببث روح الوطنية


أحمد شوقي مصطفى كامل

الصحيحة والشهامة والاحترام في الأمة من أجل الوحدة واتحاد الغايات والمقاصد لإرغام بريطانيا على الجلاء والحصول على الاستقلال.

كانت صيحات مصطفى كامل بمثابة معالم الطريق التي رسمت للغاياتي ما تناوله في شعره ونثره في صحف الحزب وصحف أخرى، وقد انضم إلى الحزب الوطني الأعلى صوتا في تلك الفترة ضد الاحتلال والحكم، وراح ينشر قصائده الملتهبة هجوما على الغزاة وأبواقهم، وهاجم أمير الشعراء أحمد شوقي لأنه صرح بلسان الخديوي أن إعلان الدستور غير ممكن إلا بإذن من الإنجليز، كما هاجم رجال الإعلام والموالين للاحتلال، وأيد في شعره وكتاباته كل عمل ثائر في مصر وخارجها، من أجل إجلاء الإنجليز، والأخذ بالدستور، وإصلاح الحكم، والضرب على يد الفساد، ونشر التعليم، وامتدح بقصائده قادة الحركة الوطنية مثل مصطفى كامل، ومحمد فريد، والشيخ عبد العزيز جاويش الذي منحته الحركة الوطنية وسام الشعب الذي اكتتب المصريون بثمنه وقلدوه إياه عند خروجه من السجن، وكتب قصيدة نارية وقف فيها مع إضراب طلبة الأزهر وتحقيق مطالبهم، وحين صدر قانون المطبوعات المقيد للحريات أنشأ قصيدة جاء فيها:

لــئــن قــيــدوا مــنــي الــيــراع
وأوثقوا لساني فقلبي كيفما شئت ينطق

وفي عام ١٩١٠م قام الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت بزيارة لمصر أشاد خلالها بالاحتلال البريطاني، فهاجمه الغاياتي بعنف، وقد أخرج قصائده التي حملت مشاعره النارية الملتهبة ومشاعر البلاد بالنسبة للأحداث السياسية في تلك الفترة الصعبة في ديوانه "وطنيتي"، وكان هذا الديوان سببا في الحكم عليه بالسجن، وهو ما اضطره إلى الهروب إلى خارج مصر (راجع - محمد طاهر الجبلاوي، خمسة من شعراء الوطنية، ص ٢٧٨ - ٢٨٧، وديوانه: وطنيتي، دراسة وتحقيق: أحمد حسين الطماوي، ط ٤، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ٢٠١٠م).

***

يحكي الغاياتي قصة هروبه في "منبر الشرق" تحت عنوان "ركن الذكريات" عام ١٩٥٢م، ويوضح كيف ساعده ضابط تركي على الهروب إلى الآستانة (أستانبول)، وقد اضطر الغاياتي إلى التنكر في زى إفرنجي بعد أن كان يرتدي الزى الأزهري، ووصل إلى الآستانة ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من يوليو ١٩١٠م.

في الآستانة تولى الغاياتي تحرير مجلة "دار الخلافة"، واستعاد فيها قوته، وأخذ ينشر مقالاته وقصائده ومنها قصيدته (مصر ودار السعادة) ومطلعها يقول:

دار الــســعــادة هــل أتــاك مخبر
يشكو لديك شقاء مصر ويشتر
النيل من حمر المدامع فائض
والوجد في أحشائه يتسعر

ومنها:

يا أهل مصر قفوا وصيحوا صيحة
دوى لها جو البلاد الأغبر
واقضوا بحد السيف حقا ناله
من مصر ذاك الطامع المستعمر

عرف الغاياتي في الآستانة عددا من كبار العرب والشرقيين المقيمين بها منهم الشيخ سليمان الباروني والسيد محمد رشيد رضا والسيد عبد الحميد الزهراوي وعزيز المصري والزعيم محمد فريد الذي حكم عليه بالسجن بسبب ديوانه وطنيتي، فقد كان الرجل في الآستانة عائدا إلى مصر من أوربا ليقدم نفسه للعدالة، وعرض عليه الغاياتي العودة معه فلم يقبل فريد، لأن عودته تزيد عدد المسجونين واحدا، فخصه بقصيدة كان ينوى نشرها في مجلة (صراط مستقيم) يقول فيها:

ولست أرى سجن الكرام مهانة
ولكنه للمجد والحمد جامع..
فإن سجنوا (عبد العزيز) فإنه
له بين حبات القلوب مرابع
وراموا (فريدا) مثله وترقبوا
لقاه، وفي هذا اللقاء مصارع
إذا كنت بالتأليف أصبحت جانيا وسجني
عاما فيه للحر قامع..!
فما كان تقريظ الكتاب جناية
ولكن أعداء البلاد تخادع..

والمقصود بعبد العزيز في الأبيات الشيخ "عبد العزيز جاويش" الذي سجن بسبب كتابة المقدمة الثانية لديوان "وطنيتي"، وفريد هو "محمد فريد" خليفة الزعيم مصطفى كامل الذي كتب المقدمة الأولي.

تعرف الغاياتي على شاب أوربي يقيم في الآستانة فأعطاه بعض الدروس في اللغة الفرنسية التي استهوته موسيقاها وإن لم يفهم معناها، وأخذ يتمرّن عليها بقراءة اللافتات وأسماء المحال العامة المكتوبة بالفرنسية، وكان قد عقد العزم على السفر إلى جنيف، إذ كان يعرف أنها تأوى الأحرار والمضطهدين في ديارهم من قبل المستعمرين، وقد وصلها مساء السبت الموافق الثالث من ديسمبر ١٩١٠م.

كانت حياته في جنيف صعبة في بدايتها وخاصة ما يتعلق بلقمة العيش، ولكنه تعرف إلى بعض المصريين الوافدين للدراسة في جامعتها، وبدأ يهتم بتدريس اللغة العربية لمن يرغب بإذن من إدارة المعارف بمقاطعة جنيف، فدرّس في بعض المدارس وأعطى دروسا لبعض الطلبة المصريين والعرب مما وفر له نحو مائتي فرنك أو أكثر، وعن طريق بعض معارفه تزوج فتاة سويسرية، وتطلع لمواصلة تعلم الفرنسية ليواصل دراسته الجامعية، وقد عاونته زوجه في هذا المجال وكانت طالبة بالجامعة ولكنه بعد ثلاث سنوات من الدراسة والجهد لم يتقدم للامتحان لعدم قدرته المالية على دفع المصروفات، وذلك بسبب التزاماته الأسرية وقلة الموارد التي فرضتها الحرب العالمية الأولى وسفر كثير من الطلاب إلى بلادهم، فضلا عن غلاء المعيشة.

وقد أدركته عناية الله فأخذ يترجم بعض الأنباء لبعض الصحف المحلية ويكتب بعض المقالات في شئون الشرق والإسلام بأجر، بدأ بالسطر ثم بالقطعة ثم بالشهر، واستطاع أن يكتب في صحف جنيف المعروفة، بيد أن هذه الصحف انكمشت عقب الحرب العالمية الأولى، واندلاع ثورة ١٩١٩م في مصر فقام الرجل بالدفاع عن بلاده ضد الغزاة الإنجليز، وقام بتأسيس جريدته "منبر الشرق" ليقول فيها ما يشاء دفاعا عن حقوق الشرق الناهض والعالم الإسلامي في مقر عصبة الأمم؛ الهيئة الدولية التي يجتمع فيها ساسة العالم، وكان يطبع ثلاث صفحات منها بالفرنسية وصفحة واحدة بالعربية اضطر إلى الاستغناء عنها لصعوبة الطبع بالحرف العربي .وقد نشر في أول أعدادها قصيدة في "سعد زغلول" حينما كان اسمه في أوربا يعني اسم مصر المتحدة المجاهدة؛ لا الحزبية ولا الأنانية، وجاء فيها:


سعد زغلول

نظموا فيك أيها العلم
دررا قيل إنها كلم
وهي عندي أجل جوهرة
حملت تاج مصر لو علموا
بك يا سعد هام شاعرهم
مثلما هام النيل والهرم
أجمع الشعب في محبته
لك يا سعد رغم من وهموا

واستمرت الصحيفة منتظمة في الصدور منذ عام ١٩٢٢م في ظروف بالغة الصعوبة، تدافع عن مصر والدول الشرقية حتى تم قبول مصر عضوا في عصبة الأمم عام ١٩٣٧م، وهو العام الذي رجع فيه الغاياتي إلى مصر، بعد أن حقق نجاحا عظيما في خدمة الإسلام والمسلمين والوطن.

كان وجود الغاياتي في العمل الصحفي بجنيف مفيدا لقضايا الأمة الإسلامية على أكثر من مستوي، فقد قام بالدعوة الإعلامية والسياسية للمؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد عام ١٩٢١م بمبنى البلدية في جنيف وحضرته شخصيات مهمة منها: ميشيل لطف الله ورشيد رضا وشكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح وتوفيق اليازجي..

كما أعد للمؤتمر الإسلامي الأوربي الذي انعقد بفندق فيكتوريا بجنيف في سبتمبر ١٩٣٥م وهو أول مؤتمر إسلامي يعقد في أوربا ورأسه الأمير شكيب أرسلان، كما بذل الغاياتي جهدا كبيرا في المفاوضات الخاصة بإنهاء الامتيازات في مونترو عام ١٩٣٧م، وهو الجهد نفسه الذي بذله لانضمام مصر إلى عصبة الأمم وتكلل بالنجاح، مما دعا رئيس الوفد المصري مصطفى النحاس أن يطلب من الشيخ الغاياتي أن يعجل بالعودة إلى الوطن وأن يضعه في منصب من أكبر مناصب وزارة الخارجية، وهو وعد لم يتحقق.

***

واصل الغاياتي إصدار صحيفته " منبر الشرق " بالعربية من القاهرة في ظل ظروف صعبة وإمكانات محدودة. وأخرج العدد الأول في السادس من مايو سنة ١٩٣٨م، وجاء في افتتاحيته:

" ها نحن أولاء ننزل الميدان فرحين مستبشرين، وها هو ذا (منبر الشرق) يظهر في القاهرة بعد جنيف، وبالعربية بعد الفرنسية وكتب على رأسه أنه جريدة مصرية مستقلة، فهو إذن سيكون بعيدا كل البعد عن الحزبية والأحزاب، وستكون مصر الخالدة وحدها هنا كما كانت هناك شغله الشاغل، كما سيتابع العناية بشئون العرب والشرق والإسلام ".

وناشد الغاياتي زعماء مصر آن إذ أن يتقوا الله في شعبها المسكين، وأن يعملوا بجد وإخلاص على إنقاذه من الفواجع والآلام قبل أن يحاسبهم حسابًا عسيرًا ولا يجدون وليا ولا نصيرا:

وما الشعب إلا صارم جاد صقله
وكل سيجني ما هو صانع
فلا بقيت في جانب النيل أمة
إذا بقيت في النيل تلك الفواجع

ويلاحظ أنه كان حريصا على استقلال جريدته، وعدم تأثرها بأية مؤثرات تطعن في صدقها ونزاهتها، وقد أكد في حديث مع " فؤاد سراج الدين " وزير الداخلية مساء ١٨ من مايو ١٩٤٤م ضرورة قطع إعانة وزارة الداخلية عن الجريدة؛ لأنه يرغب رغبة أكيدة في أن تكون منبر الشرق صحيفة للرأي الحر مائة في المائة مهما كانت الظروف، وقد كان سعيه للاستقلال سببا في تعرضه للتضييق والعنف من جانب الحكومات الحزبية، ولكنه كان يواجه ذلك بكثير من الصبر والصدر الرحب والإيمان القوي، وبصفة عامة فقد آثر الجانب الوطني مع القليل من الرزق أسوة بالرسول الكريم ﷺ حين قال: رب أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين!

(راجع: مختار الوكيل، خمسة من شعراء الوطنية، ص ٣٠١ - ٣٢٧).

«يتبع»

الإمام المجدد محمد عبد الله دراز وجهوده في خدمة السنة النبوية



إعداد:
الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى فضلية
مبعوث الأزهر الشريف لماليزيا
والمحاضر بدار القرآن، حاكيم

سجل التاريخ الحديث والمعاصر صحائف مضيئة بجلائل الأعمال لعلماء أعلام أخلصوا دينهم لله عز وجل، وصدقوا العمل لإنهاض أمتهم المسلمة، وتفانوا في بعث تراثها الإسلامي، وتجديد فهمها لعطاء الإسلام الحضاري، وأوقفوا أعمارهم للعلم والتجديد والبحث والتنقيب في بطون الكتب لخدمة القرآن والسنة تفسيرًا وشرحًا، فسبروا الأغوار، واستخرجوا علما نافعا ناصحا خدموا به دينهم القيم، وأسعفوا بفهمهم الصحيح طلاب الحقيقة، فاستنار الناس بنور علمهم، وتأدبوا بأدبهم، وعرفوا ما لهم من فضل وفضائل على النهضة الإسلامية المعاصرة في فقه التدين فهما وتنزيلا على الواقع المعاصر، ومن هؤلاء العلماء الأعلام المجددين لفهم الإسلام، لتتجدد به حياة المسلمين، داعية الإسلام العالمي، وفيلسوف الأخلاق، الإمام المجدد والباحث المنهجي المتفرد الدكتور «محمد عبدالله دراز» يرحمه الله، من علماء الأزهر الشوامخ، كان إمامًا من أئمة الدين، وعمودًا من أعمدة العلم الناصح بكليات الأزهر العتيق، ودار العلوم، عاش مصاحبا للقرآن والسنة مصاحبة عمر وحياة، عالما تقيا، ذكي العقل، نقي الفؤاد، زاهدا ورعا، يحمل هموم الأمة المسلمة صباح مساء، وله في مجال الدعوة إلى الإسلام بين المسلمين، وعالم الغرب جهد مشكور عند الله، وتقدير وثناء عند الناس:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا
ما لما يروا عنده آثار إحسان

وهذا البحث موقوف على بيان جهوده في مجال خدمة السنة النبوية فقد كان رحمه الله وطيب ثراه من أكابر علماء السنة المعاصرين، غض من فيض الله، ونهل من معين السنة المتدفق، وارتوى من ريها الذي لا ينضب، فطلع علينا بجواهر الكلم ولآلئ الحكم حاملا بشارة النبي محمد بن عبدالله ﷺ، (رحم الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع)، وفي رواية (فرب

حامل فقه إلى من هو أفقه منه) ومن فضل الله على الأمة المسلمة أن رزقها هذا العالم الذى وقف حياته لخدمة القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة. فعاش دارسا لهما، ومدافعا عنهما، وباذلا جهده ووقته فى شرح مبادئ الإسلام وقيمه الحضارية، وأخلاقه العالية وشريعته الصالحة لكل زمان ومكان، بأسلوب يتسم ببلاغة الإيجاز، وغزارة الدلالة، وقوة السيطرة.

وإن الدارس لآثاره العلمية فى خدمة القرآن والسنة والفكر الإسلامى لا يسعه إلا أن يوافق على هذا القول. وهذا إمام الأمة العالم الفقيه الدكتور يوسف القرضاوى يقول عن أستاذه وشيخه:

كان الشيخ محمد عبدالله دراز من الراسخين فى علوم السنة، ولاسيما فى فقه الحديث وشرحه، كما تبين ذلك من كتابه القيم «المختار من كنوز السنة» شرح أربعين حديثا من أصول الدين وقد قام بتخريج أحاديث كتاب «الموافقات» الذى حققه والده العالم المحقق الشيخ عبدالله دراز تخريجا موجزا وهو فى صدر شبابه العلمى مما يدل على مدى اهتمامه بالحديث النبوى الشريف. وكان الشيخ -رحمه الله- فيما تناول من شرح للحديث فى كتابه المختار متميزا فى منهجه، متميزا فى عمقه، متميزا فى أسلوبه.

وقد شرع فى بعض البحوث التى أراد أن يخدم بها السنة، ولكن لم يمهله القدر حتى يكملها. مثل كتاب «الميزان بين السنة والبدعة». الذى أراد به أن يحدث كتاب «الاعتصام» للشاطبى وأن يعرضه بلسان العصر وكما أن مؤلف الأصل -وهو الاعتصام- لم يكمله. فكذلك مؤلف الميزان...»(١).

وفى أثناء رحلة بحثى عن تراث الإمام دراز لنشره عثرت على أصل الميزان مخطوطا فى مكتبة الشيخ فأكملته بالأصل الرابع من أصول الابتداع من الاعتصام وأشرت إلى ذلك. آخذا بنصيحة شيخنا الإمام يوسف القرضاوى حفظه الله.

وقبل أن أبدأ بعرض جهد الإمام دراز فى خدمة السنة من خلال كتابيه القيمة «المختار من كنوز السنة» و«الميزان بين السنة والبدعة» أعرض بيانه لمنزلة السنة من أصول الإسلام من خلال مسودة بحث موجز عثرت عليه مخطوطا فى أوراقه الخاصة يحمل هذا العنوان: منزلة السنة من أصول الإسلام فها هو بيانه:

بيانه لمعنى السنة ومنزلتها من أصول الإسلام:

فى ضوء الآيات البينات التالية الذكر يوضح الإمام دراز معنى السنة النبوية:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

منة على المؤمنين جديرة أن يقابلوها بالذكر والشكر:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٣١)

(١) د. يوسف القرضاوي – مقدمة لكتاب (زاد المسلم للدين والحياة) للدكتور دراز جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية – نشر دار القلم بالقاهرة – الطبعة الثانية ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م.

ومنة على الرسول نفسه ﷺ:

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

(النساء: ١١٣)

«الكتاب»، و«الحكمة»، كلمتان حبيبتان، تترددان على أسماعنا فى ثنايا هذا الإمتنان المتكرر، فتجددان لنا مصدر هذا الهدى الإسلامى الشامل، وتكشف لنا عن منبع هذا النور السماوى الغامر.. منبع مزدوج، الكتاب والحكمة. فما الكتاب وما الحكمة؟

أما الكتاب: فهو القرآن العظيم الذى نزله الله:

﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

(النحل: ٨٩)

وأما الحكمة: فهى السنة المشرفة، التى جعلها الله بيانا لهذا التبيان، هكذا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

(القيامة: ١٨-١٩)

ويقول سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٤٤)

يقول الإمام دراز شارحا لهذه الآيات: «هاهنا إذا وحيان سماويان، كلاهما منزل من عند الله بشهادة القرآن: أحدهما:

١- وحى نصى حرفى يتلى فى الصلاة وذلك هو القرآن الكريم.

٢- والثانى وحى معنوى توجيهى لا يتلى فى الصلاة، وهذا هو السنة المطهرة.

س: كيف قام الرسول ﷺ بتبليغ هذا الوحى المعنوى؟

جـ- لقد اتخذ فى تبليغه طرائق تعليمية ثلاث:

١- كان تارة يعلم الناس بالقول الفصيح الصريح: أمرا ونهيا ونصحا وتحذيرا، وإقامة للحجة ودحضا للشبهة.

٢- وتارة يعلمهم بالأسوة الحسنة والقدوة الصالحة من سيرته وأسلوب حياته.

٣- وتارة يعلمهم بمجرد الصمت وغض الطرف عما لا بأس به من أقوالهم وأفعالهم.

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام مشرعا بقوله مشرعا بفعله، مشرعا بسكوته وإقراره، وجملة ذلك نسميه بالسنة.

فإن سأل سائل: من أين لنا أن أقواله وأفعاله وإقراراته الصامتة كانت سواء فى أن لها دلالات توجيهية لأمته، وكانت ينابيع تشريعية للناس عامة؟

كان جوابنا أنه عليه الصلاة والسلام يستمد سلطانه فى ذلك كله من القرآن نفسه.

أما سنته القولية فالقرآن صريح فى إلزامنا بطاعة أمرها، وتحذيرنا من مخالفتها:

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(النور: ٥٦)

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

(النساء: ٨٠)

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

(الحشر: ٧)

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(النور: ٦٣)

وأما أن فعل الرسول ﷺ فيما لم تثبت خصوصية لشخصه، كان بمجرده أسلوبا تشريعيا عاما، فذلك بَيّن في مواضع كثيرة من القرآن العظيم.

وإن القرآن لا يكتفي في هذا الشأن بأن يقول للنبي ﷺ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

(آل عمران: ٣١)

ولا يكتفي بأن يقول لنا:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ولكننا نراه قد يأمر الرسول ﷺ أمر إلزام أن يباشر بنفسه بعض المباحات التي لم يألفها العرف العام، وألا يكتفي ببيان حلها بيانا قوليا، وذلك لكي يكون في مباشرته بنفسه ما يرفع عنها الحرج الذي وقر في صدور الناس بغير حق، حتى حرموا ما أحل الله، ألا ترى كيف أمره الله أن يتزوج مطلقة متبناه:

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾

(الأحزاب: ٣٧)

وفي الحق إن التعليم بالأسوة العملية في مثل هذه الشئون أبلغ أثرا وأشد وقعا، وأدعى إلى سرعة الإمتثال من كل بيان قولي.. وهذا هو المعنى الذي أدركته أم سلمة (رضي الله عنها) حين أحصر المسلمون في غزوة الحديبية وصدوا عن الطواف بالبيت، فأمرهم النبي ﷺ أن يتحللوا من إحرامهم، ولكنهم تباطأوا في الامتثال ظنا منهم والله أعلم أن هذه رخصة تليق بالضعفاء.. وحزن النبي ﷺ لما رآه من تلكؤهم في امتثال أمره فأشارت عليه أم سلمة أن يبدأ بنفسه فيتحلل قبلهم من إحرامه، ففعل.. فما لبث القوم أن تحللوا اتباعا لفعله، وهكذا كان تشريعه العملي أقوى سلطانا من تشريعه القولي.

وأما أن سكوت النبي ﷺ على القول أو الفعل يقال أو يفعل أمامه دليل على حله وإباحته فذلك أن القرآن حدد لنا مهمة الرسول ﷺ بأنها هي إحلال الطيبات وتحريم الخبائث كلها.. وقضية ذلك أن الأشياء التي لم ينه عنها ولم يحرمها لا تكون خبيثة! وإذا فهي مباحة.

هكذا تبين لنا أن القرآن الحكيم هو الذي خول حامل الرسالة حق التشريع للناس بقوله وفعله وبإقراره الصامت وهو الذي جعل هذه التشريعات النبوية كلها بيانا وتفصيلا لما جاء به الدستور القرآني نفسه.

نعم إن الذي يدرس السنة النبوية قد يشكل عليه من أمرها أن يجدها لا تقتصر على إيضاح ما في القرآن من معان وتحديد ما فيه من واجبات ومنهيات، بل قد تتخطى هذه المهمة فتتولى إنشاء واجبات وحظر محظورات جديدة، وتأسيس عقوبات وتأديبات مبتكرة لا يوجد لها أصل واضح في نصوص القرآن، فالقرآن مثلا يوجب زكاة الذهب والفضة والحرث، ولكون السنة تنفرد بإيجاب زكاة الأنعام، وبإيجاب زكاة سنوية في نهاية رمضان.

والقرآن يحرم الربا، والسنة تزيد رجم الزاني المحصن.. وهكذا غير أننا إذا أمعنا النظر نجد لهذه التشريعات النبوية، أصولا خاصة في القرآن العظيم تستند إليها وتعتمد عليها وزكاة الأنعام إنما هي تطبيق لواجب الإنفاق العام من أموالنا التي رزقنا الله، والتي جعلنا مستخلفين فيها:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

(الذاريات: ١٩)

وزكاة الفطر إنما هي نوع من الشكر المطلوب في ختام فريضة الصيام:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

والبيوع الربوية إن لم تكن ربا فقد تكون ذريعة إليه، وهي على أي حالة مظنة مريبة، والقرآن يحضنا على أن نتجنب الريب والتهم:

﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾

(البقرة: ٢٨٢)

ورجم الزاني إن لم يقرره القرآن نصا، فقد مهد السبيل إليه حين قال:

﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

(النساء: ١٥)

على أننا لماذا نلتزم أن يكون كل تشريع نبوي بيانا لأصل قرآني من مادته ومعدنه، أليس هذا إلزاما لما لا يلزم؟ ألسنا نخول الفقهاء حق التخصيص والتعميم في نصوص القانون، وحق المقايسة والمطابقة بين أشباهها ونظائرها استنادا إلى روح التشريع ومبادئه، أليس الرسول الأمين ﷺ الذي نزل القرآن على قلبه أعلم بروح الشريعة وأسرارها وأحق بتجديد مقاصدها وأهدافها؟(٢)

هبه قضى في بعض الشئون باجتهاد خاص من رأيه البشري لا عن وحي يوحي، أليس هو أزكى البشر قلبا، وأصدقهم حدسا وأعدلهم حكما وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله؟ هب حكمه في قضية ما لم يوافق ما عند الله فيها، أيتركه الله دون أن يبين له وجه صوابها؟ كلا!!!:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾

(النساء: ١١٣)

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(التوبة: ١١٥)

شرح لأربعين حديثا من أصول الدين

وذلك في كتابه «المختار من كنوز السنة» والذي كان ثمرة مباركة لتدريسه مادة الحديث النبوي الشريف لطلبة كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية العتيقة حين إنشائها في أول العقد الرابع من القرن العشرين فقد جاء ليسد ثغرة في موضوعه ويلبي حاجة الطلاب في فهم وفقه قضايا العقيدة ومفاهيم الإيمان والإسلام والإحسان. وزيادة الإيمان ونقصانه.. والقضاء والقدر وغير ذلك مما لا يسع المسلم جهله وتصح به عقيدته ويقوى إيمانه وترسخ أخلاقه.

وقد قسم الإمام محمد عبدالله دراز كتابه كما يلي:

- «باب بدء الوحي» وفيه تناول الوحي وأنواعه، والفرق بينه وبين الإلهام، والفراسة.

(٢) أنظر كتاب «حصاد قلم» للدكتور دراز جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية تقديم د. عبدالستار فتح الله سعيد، نشر دار القلم بالقاهرة – الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

وشرح فى هذا الباب خمسة أحاديث وفى كتاب «الإيمان والإسلام» حدد الإمام دراز معناهما اللغوى ومعناهما فى لسان القرآن ومهد لهذا الباب ببحوث تمهيدية مهمة عن الدين وبيان أنه مركب من عناصر ثلاثة وذلك فى المبحث الأول. وفى المبحث الثاني: بين حظ كلمة إيمان وكلمة إسلام من هذه العناصر. والمبحث الثالث: فى تحقيق أن الإيمان يزيد وينقص بكلا معنييه.

- وفى الفصل الأول تناول فضل الإيمان وشرح فى هذا (١٢) اثنى عشر حديثا.
- وفى الفصل الثاني: تناول مجاز الإيمان وفيه شرح (١٩) تسعة عشر حديثا.

ولأهمية الكتاب فى موضوعه فلا يزال الأزهر الشريف يقرره على طلاب الدراسات العليا بأصول الدين كما يدرس فى الجامعات الإسلامية فى أم القرى بمكة، والمدينة المنورة وقطر، وبغداد، ودمشق وغيرها. وقد تحدث عنه كثيرا أعلام علماء أنصار السنة بمصر. ومما أعجبنى ما خطه يراع الشيخ «بخارى أحمد عبده» من علماء أنصار السنة بمصر مبرزا الأسباب والبواعث التى جعلت الإمام محمد عبدالله دراز يؤلف هذا السفر الممتاز.

الباعث على تأليفه «المختار من كنوز السنة»

يقول الشيخ بخارى يرحمه الله: لقد راع الإمام محمد عبدالله دراز رحمه الله أن يعوق مجرى السنة شوائب تنذر بالخطر، وعوائق تهدد بالتبدد تراث الرسول ﷺ. وقد استودعناه لننتشل منه إنتشالا إلى يوم القيامة.

راع الإمام المجدد ذلك فشمر وراح يرتاد مناجم الحديث يسبر أغوار كنوزها ويجمع الشتيت، ويستدنى الشارد، وينظم النظائر التى كثرت فيها الأقاويل، وتنوع التأويل والتعليل وغايته فى المختار أن يجمع كل ذلك فى نظام واحد حتى تبدو ماثلة للعيان سهلة التناول ولطالما أرقه تنوع موارد الحديث، وتعدد مظانه بشكل يجعل الطريق إلى قطوف السنة وعرا محفوفا بالعقبات. فلا يصل الباحث فى يسر -إلى تلك المتفرقات الحبوبية المبثوثة فى كتب السنة كأنها الذهب فى مناجمه[٣].

ومختارات الإمام فى شرح أربعين حديثا من أصول الدين، تبل الصدي، وتشفى الصدور، وتصون العقائد، وترسى أسس الآداب والأحكام والسيرة وتسكن مع كل هذا ثائرة الفتن التى يزكى أوارها حمقي، من ورائهم أعداء يزينون لهم عملهم، وغايتهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى اهتم الأستاذ الإمام محمد عبدالله دراز بالتنقيب فى المناجم وتتبع الأوجه المختلفة من زيادة ونقصان، مستهديا بأقوال أئمة الفقه وشراح الحديث. ولاشك أن هذا المقام مقام محمود، ولكن ما يكتنفه من جلال وهيبة. وما يتطلب من بصر ووعى ودقة تتناسب مع مقام الريادة وتطمئن الذين يحذون الحذو ويقتفون الأثر. كل هذا جعل الإمام دراز يسارع فيذكر دعائم أهليته للرواية، وشواهد الممارسة والدراية. ومن هنا كانت إشارته إلى شيوخه الذين أجازوه وزكوه فى الثبت الموجود فى صدر الكتاب.

يتبع

(٣) انظر مقدمة الشيخ «بخاري أحمد عبده» للكتاب المختار من كنوز السنة، طبعة دار الأنصار بالقاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

بَرِحَ الخفاء

الدكتور نظمى لوقا

لم يبق شك فى أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعى.
جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض فى العقيدة الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن والروح فى كيان واحد.

ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد فى السمو الروحي. فما كانت دعوة تهوين أو إسفاف. بل دعوة اتساع فى الأفق وشمول فى النظر. يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته. ثم هو متروك فى أمر طاقته لضميره وسريرته. أن يقول صادقا:

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾

(البقرة:٢٨٦)

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

(البقرة:٢٨٦)

فالمعول عليه السريرة والنية والصدق. فهذا الدين - كما قال رسوله - «يسر لا عسر» وهو دين متين «فأوغل فيه برفق». لا زيف فى هذا الدين إذن. وهو ملب حاجة البشر كافة، سوادهم وخاصتهم، لا مسخ فيه ولا إسفاف، ولا عسر فيه، ولا إجحاف. وإنما هو «صراط مستقيم» لا إعنات فيه للفكر السليم والبداهة السديدة.

برح الخفاء. وأثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق. وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المعميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدته فى الاقتناع والتصديق. ورد اعتبار البدن بوصفه هيكل الروح، فهو ليس مصدر خزى لصاحبه. ولا هو بالرجس وإنما الرجس فى مقارفة المحرمات المحددة شرعا. وفى الإضرار بالنفس أو الغير. وبغلبة الشهوة على صاحبها.

فصاحب الرسالة هو القائل:

«إن لبدنك عليك حقا» (صحيح البخارى)

والقرآن يكرر ذلك المعنى فى أكثر من موضع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾

(البقرة: ١٦٨)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

(المائدة: ٨٧)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١)

هو دين يسع الناس كافة، ويهديهم كافة، ولكن حذار أن يظن ظان أن دعوة الإسلام استهوت الناس بتملق غرائزهم، أو رشوة منافعهم وأثرتهم. أو إباحة الأهواء والشهوات. فإن ذلك يكون ضلالا كبيرًا، وجنوحًا إلى عكس مضمون تلك الدعوة.

إن الرسالة الإسلامية جاءت تنظيمًا لحياة الناس، بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من الشهوة أو الهوى، والقسوة، والظلم، والإباحية.

فرضت على المرء أن يعمل، وجعلت قيمته وشرفه معلقين بعمله، وسيرى عمله الله ورسوله والمؤمنون.

وفرضت الزكاة على الأموال، وجعلت للفقير فى عنق الغنى حقًا مفروضًا هو الصدقة.

وفرضت الصفح والعفو، ومحت الثأر والشحناء.

وفرضت الصلاة والصيام، وحرمت البذخ والسرف..

وفرضت التواضع، وحرمت الخيلاء.

وأحلت الزواج، وحرمت الزنا.

وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاه أربعا، وحضت على زواج الواحدة.

وفرضت الأخوة والمساواة. وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه.

وحرمت الخمر، وكل ما يخمر العقل فهو خمر، فالخمار هو الغطاء.. وكل غطاء للعقل حرام.

وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم.

فلئن قيل: إن الإسلام اعترف بحق البدن، فإنما يقال ذلك بوجه معين، أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشر ذوى أبدان، لا ملائكة من نور. فهو دين حصيف شامل. لا يرهق الناس من أمرهم عسرًا.. ولكنه إذ يمتنع عن الغلو فى إنكار الجسد، لا يغلو فى إطلاق العنان له، بل إنه يلزمه حدوده، ويجعل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكا طاهرًا يتمتع بالطيبات مما أحل الله، شاكرًا له نعمه، مبتغيًا رضوانه.. فذلك البدن إذ أشبه ما يكون بمطية طيبة أحرى براكبها أن يرتحلها إلى كل ما هو طيب، ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم.

فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات، أو إباحة الأهواء. ورشوة المنافع واللبانات.

كان العرب فى الجاهلية أهل إباحة، لا وازع ولا رادع.

فصفهم مجون - ولهوهم فجور، وحياتهم عدوان، وكسبهم سحت، وليلهم خمر وميسر، فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى، أنه استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباذلهم؟

إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو، فماذا عساه يكون؟!

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التى يراه الله فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها، فاستطاع الإنسان أن يعيش غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية، وقد رسمت له حدود تتفق وواقع فطرته، وتسمح له بالتسامى ما استطاع. ومن لم يستطع فلا تثريب عليه. وفى رحمة الله الذى خلقه وعرف ضعفه متسع.

ومن سمى هذا التوسيع لباب رحمة الله، والاعتراف بفطرة الله التى فطر عليها بنى آدم، إباحة أو تملقًا للشهوات! فإنه إذن لمغالط أو مخالط. أترى إن قيل للناس: لا تتنفسوا - أيكون ذلك معقولا مقبولا، وتكون إباحة التنفس تملقًا لأهوائهم أو رغباتهم؟.

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة وعدم قطع الناس عن رحمة الله فلا تكون لهم حجة بعد فى تعدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى حقيقة طبائعهم بغير إعنات.. وهذا هو القسطاس الحق فى تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطيق كل منهم تسويد العقل والروح على نوازع نفسه. ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا، وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة.

برج الخفاء. والرسالة رسالة حق.

بقى إذن أمر الرسول. وهل هو رسول صدق - فإن:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

***

دولـة القـرآن



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

القرآن كتاب الكون، لا تفسره حق التفسير إلا حوادث الكون. والقرآن كتاب الدعوة، لا تكشف عن حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر، والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها والقرآن «لا يبلى جديده، ولا تنقضي عجائبه».

جاء القرآن لهداية البشر وإسعادهم، والاهتداء به متوقف على فهمه فهمًا صحيحًا، وفهمه الصحيح متوقف على أمور: منها فقه أسرار اللسان العربي فقهًا ينتهي إلى ما يسمى ملكة وذوقًا، ومنها الاطلاع الواسع على السنة القولية والعملية التي هي شرح وبيان للقرآن، ومنها استعراض القرآن كله عند التوجه إلى فهم آية منه أو إلى درسها، لأن القرآن كل لا يختلف أجزاؤه، ولا يزيغ نظمه، ولا تتعاند حججه، ولا تتناقض بيناته، ومن ثم قيل: إن القرآن يفسر بعضه بعضا، بمعنى أن مبينه يشرح مجمله، ومقيده يبين المراد من مطلقه، إلى آخر الأنحاء التي جاء عليها القرآن في نظمه البديع، وترتيبه المعجز، ومنها الرجوع في مناحيه الخصوصية إلى مقاصده العامة، لأن خصوصيات القرآن وعمومياته متساوقة يشهد بعضها لبعضها، وكل هذه الأمور لا تتهيأ إلا لصاحب الفطرة السليمة، والتدبر العميق، والقريحة اليقظة، والذهن الصافي، والذكاء الوهّاج.

والقرآن حجة على غيره، وليس غيره حجة عليه، فبئس ما تفعله بعض الطوائف الخاضعة للتمذهب من تحكيم الاصطلاحات المذهبية، والآراء الفقهية، أو العقلية فيه، وإرجاعه بالتأويل إليها إذا خالفته، ومن الخطل، بل من الخذلان المفضي بصاحبه إلى ما يستعاذ منه أن يجعل الرأي الاجتهادي غير المعصوم أصلًا، ويجعل القرآن المعصوم فرعًا، وأن يعقد التوازن بين كلام المخلوق وكلام الخالق، إن هذا لهو الضلال البعيد.

ما أضاع المسلمين ومزّق جامعتهم ونزل بهم إلى هذا الدرك من الهوان إلا بعدهم عن هداية القرآن، وجعلهم إياه عضين، وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس ليكفكف منها، وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها، وفي تواجم الفتن ليجلي غماءها، وفي معترك الشهوات ليكسر شرتها، وفي مفارق سبل الحياة ليهدي إلى أقومها، وفي أسواق المصالح والمفاسد ليميّز هذه من تلك، وفي مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها، وفي شعب الأحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب، وإن ذلك كله لموجود في القرآن بالنص أو بالظهور أو بالإشارة والاقتضاء، مع مزيد تعجز عنه عقول البشر مهما ارتقت، وهو تعقيب كل حكم بحكمة، وكل أمر بما يثبته في النفس وكل نهي بما ينفر عنه، لأن القرآن كلام خالق النفوس، وعالم ما تكن وما تبدي، ومركب الطبائع، وعالم ما يصلح وما يفسد، وبارئ الإنسان وسطا بين عالمين: أحدهما خير محض والآخر شر محض، فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيا فيه، ليبتليه أيشكر أم يكفر، وليمتحنه أي الطريقين يختار، كل ذلك ليجعل سعادته بيده، وعاقبته باختياره، وتزكيته أو تدسيته من كسبه، وحتى يهلك عن بينة، أو يحيا عن بينة.

***

ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحًا بالجبلة والطبع، فالرعيل الأول منهم وهم الصحابة كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف، ولا يصلح المسلمون ويسعدون إلا إذا رجعوا إلى القرآن يلتمسون فيه الأشفية لأدوائهم، والكبح لأهوائهم، ثم التمسوا فيه مواقع الهداية التي اهتدى بها أسلافهم وإذا كان العقلاء كلهم مجمعين على أن المسلمين الأولين صلحوا فأصلحوا العالم، وسادوه فلم يبطروا، وساسوه بالعدل والرفق، وزرعوا فيه الرحمة والحب والسلام، وأن ذلك كله جاءهم من هذا القرآن، لأنه الشيء الجديد الذي حوّل أذهانهم، وهذّب طباعهم، وثبت الفضائل في نفوسهم، فإن الإجماع على ذلك ينتج لنا أن سبب انحطاط المسلمين في القرون الأخيرة هو هجرهم للقرآن، ونبذه وراء ظهورهم واقتصارهم على حفظ كلماته، وحفظ القرآن -وإن كان فضيلة- لا يغني غناء ما لم يفهم، ثم يعمل به.

وهجر المسلمين للقرآن يرد إلى أسباب، بعضها آت من نفوسهم، وبعضها آت من خارجها. فمن الأول افتتانهم بآراء الناس، وبالمصطلحات التي تتجدد بتجدد الزمان، ومع طول الأمد رانت الغفلة، وقست القلوب وطغت فتنة التقليد، وتقديس الأئمة والمشايخ، والعصبية للآباء والأجداد، وغالت طوائف منهم في التعبد والاستغراق فاختلت الموازنة التي أقامها القرآن بين الجسم والروح، وغالت طوائف أخرى في تمجيد العقل فاستشرف إلى ما وراء الحدود المحددة له، وتسامى إلى الحظائر الغيبية فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده، ونجمت لذلك ناجمة علم الكلام، وما استتبعه من جدل وتأويل وتعطيل، وتشابهت السبل على عامة المسلمين لكثرة هذه الطوائف، فكان هذا التفرق الشنيع في الدين أصوله وفروعه. وفي غمرة هذه الفتن بين علماء الدين ضاع سلطانهم الديني على الأمة، فاستبد بها الملوك وساقوها في طريق شهواتهم فأفسدوا دينها ودنياها وكان ما كان من هذه العواقب المحزنة.

ومن الثاني تلك الدسائس الدخيلة التي صاحبت تاريخ الإسلام من حركات الوضع للأحاديث، إلى هجوم الآراء والمعتقدات المنافية للقرآن، إلى ما آخر لزماننا من إلقاء المبشرين والمستشرقين للشبهات في نصوص القرآن عن عمد ليصدّوا المسلمين عن هديه، وإن خطر هذه الفتنة الأخيرة لأعظم مما يتصوّره

علماؤنا، ويقدره أولياء أمورنا.

هذه العوامل مجتمعة ومفترقة، وما تبعها أو لازمها من عوامل فرعية هي التي باعدت بين المسلمين وبين قرآنهم، فباعدت بينهم وبين الخير والسعادة والعزة، وأصبحوا - كما يرى الرائي - أذلة مستعبدين، ولايزالون كذلك ماداموا مجانبين لسنن القرآن، معرضين عن آياته وإرشاداته، غافلين عما أرشد إليه من السنن الكونية ولو أنهم تواردوا على الاستمساك به في هذه القرون الأربعة عشر لكانوا هم السابقين بإرشاده إلى اكتشاف أسرار الكون، واختراع هذه العجائب الآلية، ولم يكن موقفهم منها موقف المكذب أولًا، المندهش آخرًا ففي القرآن آيات للمتوسمين، وإرشاد للعقل البشرى يتدرّج مع استعداده، وفيه من الكشف عن غرائب النفوس وألوانها، وعن حقائق الكون وأسرار مواليده ما يسير بمتدبّره رويدًا رويدًا حتى يضع يده على الحقيقة، ويكشف له عن وجهها، ويكاد يكون من البديهيات فيه ما يقرره في أطوار الأجنة، وتزاوج النبات، وتكوّن المطر، وتصاريف الرياح، وتكوير الليل على النهار، وإثبات الصلة بين علويات هذا الكون وسفلياته، ولكن المسلمين ظلّوا غافلين حتى عن هذه البديهيات، إلى أن جاءتهم من غير طريق قرآنهم، ثم دلّهم القرآن على نفسه فلاذوا بالفخر الكاذب، وربما دلّهم على مواقع هذه الأشياء في القرآن من ليس من أهل القرآن، وإن هذا لهو الخذلان المبين.

وما زاد المسلمين ضلالًا عن منبع الهداية وعماية عنها إلا فريق من العلماء وضعوا أنفسهم في موضع القدوة والتعليم، وطوائف من غلاة المتصوفة انتحلوا وظيفة التربية والتقريب من الله فهم الذين أبعدوهم عن القرآن، وأضلوهم عن سبيله بما زينوا لهم من اتباع غير سبيله، وبما أوهموهم أنه عالٍ على الأفهام، وما دروا بأن من لازم هذا المذهب كفر، وهو أنه إذا كان لا يفهم فإنزاله عبث، وأنى يكون هذا؟ ومنزله - تعالت أسماؤه - يصفه بأنه عربى مبين، وأنه غير ذى عوج، وأنه ميسر للذكر، وينعته بأنه يهدى للتى هى أقوم، وكيف يهدى إذا كان لا يفهم؟ ومن عجيب أمر هؤلاء وهؤلاء أنهم يصدرون فى شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة، فبينما يسدون على الناس باب الاهتداء به فى الأخلاق التى تزكى النفس، والعقائد التى تقوّى الإرادات، والعبادات التى تغذى الإيمان، والأحكام التى تحفظ الحقوق، وكل هذا داخل فى عالم التكليف، وكله من عالم الشهادة، بينما يصدون عن الاهتداء فى ذلك بالقرآن تراهم يتعلّقون بالجوانب الغيبية منه، وهى التى استأثر الله بعلمها، فيخوضون فى الروح والملائكة والجن وما بعد الموت، ويتوسعون فى الحديث عن الجنة والنار، حتى ليكادون يضعون لهما خرائط مجسّمة، وسبيل المؤمن القرآنى العاقل فى هذه الغيبيات أن يؤمن بها كما وردت، وأن يكل علم حقيقتها إلى الله، ليتفرغ لعالم الشهادة الذى هو عالم التكليف.

***

ومازلنا نرى من آيات حفظ الله لدينه أن يقوم فى كل عصر داع أو دعاة إلى القرآن، وإمام أو أئمة يوجهون الأمة الإسلامية إليه، ومفسر أو مفسرون يشرحون للأمة مراد الله منه، ويتناولون تفسيره بالأدوات التى ذكرناها فى أول هذه الكلمة، ويجعلونه حجة على المذاهب والاصطلاحات ومنازع الرأى والعقل، وحكمًا بينها، وأصلًا ترجع إليه ولا يرجع إليها، ومن المبشرات بالخير ورجوع دولة القرآن أن الدعوة إليه قد تجددت فى هذا الزمان على صورة لم يسبق لها مثيل، وأن أصوات الدعاة المصلحين قد تعالت بذلك وتجاوبت وتلاقت على هدى، تدعوا إلى دراسته واستخراج ذخائره وإحياء دعوته إلى الفضيلة والخير والمحبة وأخذ العقائد والعبادات وأحكام المعاملات منه، والاستعانة على ذلك بمفهوم السلف الصالح وتطبيقاتهم، وتحكيمه فى كل ما يشجر من خلاف في الدين والدنيا، وكان من آثار ذلك أن أصبح العلماء المستعدون للعمل، والعوام المتهيئون للعلم يرددون الجمل الآتية، وتجول فى نفوسهم معانيها، وهى: «لماذا نهجر دستور القرآن وهو من عند الله، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتبدل ولا يتغير، ثم نلتجئ إلى دساتير الغرب وقوانينه وهى من أوضاع البشر القاصرة، يظهر فى كل حين تناقضها ومنافاتها للمصلحة، فتبدل وتغير، ولا تزال تبدل وتغير، مع أن واضعيها والموضوعة لهم من جنس واحد، وعلى طبيعة واحدة ومصلحة واحدة؟ لقد بؤنا بالصفقة الخاسرة مرتين.

إن هذا الغليان فى أفكار المسلمين وكثرة حديثهم عن القرآن، وإقبالهم على دعاته ومدارسه، واحتذاء أساليبه فى الوعظ وفى الكتابة، كل ذلك بشائر برجوع دولته وإصلاح البشرية به من جديد، واتخاذه مرجعًا وملاذًا للأمم الأجنبية التى لم يستقر لدساتيرها الوضعية قرار، فاضطربت حياتها، واستشرفت نفوسها إلى قانون سماوى يحفظ حقوقها، ويحدد للفرد حقّه، وللجماعة حقها ولعمرى أن هذه المطالب كلها لفى القرآن، لو وجد القرآن من أهله من يقيمه ويبلغ دعوته وينشر هدايته.

***

ثم ما هذه النغمات الناشزة عن هذا الإيقاع اللذيذ، إيقاع الدعوة إلى إقامة الدستور القرآني؟ ما هذه النغمات الممجوجة المترددة التى تصور أن الدستور القرآنى يتحيف حقوق الأقليات الساكنة للمسلمين أو يجحف بها؟.. إنها نغمات صادرة عن مصدرين: أعداء القرآن ينصبون بها العواثير فى طريق الدعوة إليه، وضعفاء الصلة بالقرآن الجاهلين آثاره وتاريخه فى إصلاح الكون كله، فليقل لنا الفريقان: متى ظلم القرآن غير المؤمنين به؟ ومتى أضاع لهم حقًا، أو استباح لهم مالًا، أو انتهك لهم عرضًا، أو هدم لهم معبدًا، أو حملهم على مكروه فى دينهم، أو أكرههم على تغيير عقيدة من عقائدهم، أو حملهم فى أمور دنياهم ما لا يطيقون؟.. بلي، أنه عاملهم فى كل ذلك بما لم يطمع فى معشاره الأقليات ولا الأكثريات من شعوب اليوم الواقعة تحت حكم الدول العالمة المتحضرة الخاطئة الكاذبة التى تزعم لنفسها الفضائل كلها ولا تتخلق بواحدة منها.

من أصول الإسلام أنه لا إكراه فى الدين، وأين موضع هذا عند هذه الدول الباغية؟ ومن أصول الإسلام الوفاء بالعهد فى السلم والحرب، وأين هذا مما تفعله هذه الدول الطاغية؟ ومن أصول الإسلام أن لا يكلف من دخل فى ذمته بالدفاع الحربي، وأين هذا مما تفعله هذه الدول الظالمة التى تجند المحكومين بالإكراه ليموتوا فى سبيلها من دون جزاء ولا شكر؟ ومن أصول الإسلام أن لا يقتل فى الحرب إلا المقاتل، وأن

لا يقتل الأعزل المعتزل والشيخ الكبير والمرأة والطفل والمنقطع للعبادة، وهذه الأصناف هى تلك الأمم المحاربة. فأين هذا مما ترتكبه الأمم المتمدنة فى حروبها اليوم من الإبادة للكبير والصغير والمرأة والرجل والطفل والجنين، وما تتفنن فيه من وسائل الاستئصال؟ وكفى بواقعة «هيروشيما» اليابانية شاهدًا لا يكذب.

إن الإسلام يعامل المخالفين بالرحمة، لأن قرآنه هو دستور الرحمة، ويضعهم فى أربع مراتب، لكل مرتبة حكمها العادل: الذمى المقيم فى وطن الإسلام له كل ما للمسلم، وليس عليه كل ما على المسلم، فهو محمى النفس والمال والعرض، حر فى التصرفات المالية، آمن فى الظعن والإقامة، وليس عليه ما على المسلم من أعباء القتال والدفاع، والمستأمن آمن على حقوقه حتى يبلغ مأمنه، والمعاهد موفى له بعهده من غير ختر ولا غدر، والحربى يعامل بما رضيه لنفسه من غير أن يجاوزه إلى غيره من أهله أو بنى ملته، فإذا شذ أمير مسلم أو قائد عن هذه القواعد الأساسية فى الإسلام وظلم طائفة من هذه الطوائف أو فردًا من أفرادها فقد خرج عن حكم الإسلام، وإذا حكى التاريخ عن ملوك مسلمين ظلمة فهؤلاء بطبيعة حالهم يظلمون المسلمين قبل أن يظلموا المخالفين، وليست أعمالهم حجة على القرآن، بل للقرآن الحجة عليهم، وأيسر أحكام الإسلام فيهم أن يعزلوا وأعلاها أن يقتلوا.

أين هذا من قوانين اليوم ومعاملة اليوم أيها الناطقون بغير علم، الصادرون عن غير فهم؟ وأين عدل القرآن من جوركم أيها الجائرون فى الحكم، المحاربون للحقيقة فى الحرب والسلم، البانون لحياتهم فى الظلام على الظلم؟ وأين تجدون الرحمة والعدالة إذا لم تجدوها فى ظلال القرآن، أيتها الأقليات غير الوفية، المدفوعة من الخلف بالأيدى الخفية؟

***

أثمرت الحركات الإصلاحية منذ أكثر من مائة سنة ثمرات زكية، وفتحت الأذهان لحقيقة، وهى أن القرآن يفهم، وأنه ميسر للفهم، فانفتحت للدارسين أبواب كانت مقفلة وكثر جريانه على ألسنة الخطباء والمرشدين منزلة آياته فى منازلها من الأحداث الطارئة متجاوبة مع العلم، مقسمة على المواضيع المتجددة، وكثر جريانه على أقلام الكتاب فى المباحث الدينية والأخلاقية والاجتماعية والكونية، يقيمون منه شواهد على كل حقيقة، وأدلاء على كل طريق، وأعلامًا هادية إلى كل غاية، فإذا هو يفسر نفسه بنفسه وتتسابق معانيه الواضحة إلى الأذهان، وأعان على ذلك هذه النهضة الأدبية التى لم تر العربية أعمق منها غورًا، ولا أوسع منها دائرة، فأصبح بها القرآن قريبًا إلى الأفهام، مؤثرًا فى العقول، وأصبحنا نسمع من تلامذتنا الذين ربيناهم على القرآن حفظًا وفهمًا وعملاً، وروضناهم على الغوص وراء معانيه -آراء فى الاجتماع الإنسانى سندها القرآن ما كانت تزيغها أفكار الشيوخ، وآراء فى الدستور القرآنى وتطبيقه على زماننا ومكاننا ومصالحنا ما كانت تسيغها عقول الأجيال الماضية. وهؤلاء التلامذة لم يزالوا بعد فى المراحل العلمية المتوسطة، فكيف بهم إذا أمدتهم الحياة بتجاربها، وأمدهم العلم باختباراته؟ لعمر أبيك إنه القرآن حين تتجلى عجائبه على الفطر السليمة، والعقول الصافية.

نظرة إجمالية إلى الإسلام

للعلامة/ محمد فتح الله كولن

الإسلام مشتق من مادة السلم والسلام، ومعناه استسلام العبد لله تعالى، وانقياده لأوامره، وانخراطه فى السير فى طريق سليم وسديد نحو السلامة، وبثُّ الأمان فى الناس وفى كل شيء، كما يعنى سلامة الآخرين من لسانه ويده.

أساس الإسلام ومبدؤه هو الإيمان والإذعان، ومنتهاه الإحسان والإخلاص، وحقيقة الإسلام بإيجاز هى أن يصدِّق المرء بحقيقة الألوهية تصديقًا لا يحتمل الضد مطلقًا، ويوثق رابطة قلبه بالحق تعالى، ويؤدى التكاليف أداءً دقيقًا ورقيقًا وكأنه يرى الله تعالى أو يراه الله تعالى، وأن يسعى فى بلوغ رضا الله فى كل عمل يعمله.

وقد عرَّف بعضهم الإسلام تلخيصًا بأنه: "التسليم لله سبحانه وتعالى وإظهار الانقياد والولاء له بالشكر قولاً وفعلاً وحالاً، والمكوث فى الرغب والرهب الدائم"، فالذى على هذا الحال، يسمى مؤمنًا أو مسلمًا -وليس إسلاميًا (Islamist-Islamci)- ويعتبر مرشَّحًا لنيل السعادة الأبدية.

إن الإسلام الذى يستند إلى الوحى الإلهى، ويبلغه الرسول ﷺ وتمثله وأحياه وطبقه.. دين سماوى، والمؤمن والمسلم هو من يجعل الإيمان بهذا الدين، إحياءً لحياته، ففى أساس الإسلام وباطنه الإيمان والإذعان والتسليم، وفى ظاهره الطاعة والانقياد والعمل الصالح، وعرَّف السلف الدين بأنه: "وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"، وإنما يمكن الحصول على الثمار الدنيوية والأخروية لمنظومة حركية فعالة كهذه بقدر جعلها عنصرًا لإحياء الحياة، وبمقدار تمثُّلها فى الواقع، وإلا فيتعسر الحديث عن محاسنها إذا أقصيت إلى خارج الحياة.

ومع الانتباه للتمييز اللغوى بين الإسلام والإيمان، فالرأى الأرجح المقبول هو أن لا إسلام بدون إيمان، ولا إيمان بدون إسلام؛ الإيمان باطن، والإسلام هو الظاهر بانعكاسه على القول والفعل والحال، والنظام الإلهى الذى نسميه "الدين الحق" هو الأمر الجامع لذلك كله، فالدين هو عنوان إلهى يعنى أن يكون الإيمان والإسلام بجميع شُعبهما وكلياتهما حياة للحياة، وإن القبول بهذا النظام على هذا الوجه وتطبيقه فى واقع

الحياة، هو التصرف المؤمن، والذى يمثله بهذه الحال هو "المتدين" التقى وليس "الدينى" فبناءً على هذا، الذين يظنون أن الدين مجردُ "اعتقاد"، وكذلك "المسلمون بالثقافة" الذين لم يتقبلوه قبولاً خالصًا فى صميم قلوبهم، كلاهما مخدوع، وجلى أن كلتا الزمرتين محرومة، وستحرم، من حسن ثواب الدنيا والآخرة التى وعد الله سبحانه وتعالى به أهل الدين والتدين.

لكن لا يصح احتساب العمل جزءًا من الإيمان استنادًا إلى ما ذكرناه آنفا؛ فمن اعتقد بأن العمل فرض ثم ترك إقامته وإجراءَه على وجهه فمع أنه يكون آثمًا ومرتكب ذنب، لكنه يعتبر مؤمنًا، ولا علاقة لهذا الذى نقوله بأفكار "المرجئة" البتة، ذلك بأن الاستهانة بالذنوب مع الإيمان شىء، وتقويم المسألة فى إطار "أن الله إن شاء غفر، وإن شاء عذب" شىء آخر، والإيمان -حسب القرآن- أصل لابد منه، وأساس ضرورى لا يقوم شىء إلا به، وأما الإسلام فهو الوسيلة الوحيدة لصيرورة الإيمان من أعماق طبع الإنسان.

فالعمل من غير إيمان نفاقٌ، وترك العمل رغم وجود الإيمان فسق، ولا يغفر عن النفاق بتاتا باعتباره كفرًا مخفيًا ومضمرًا، أما الفسق أو الفجور، فيحتمل فيه المغفرة -فى كل وقت- بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الحق تعالى، وبهذا الاعتبار، ينبغى أن نحافظ على حسن الظن بحق تارك العمل الذى لا يزدرى به أو لا يستحقره أو لا يستهين به، وأن لا نحكم عليه بالكفر؛ وأما تارك العمل الذى يستحقر المؤمنين لكونهم مسلمين ويُسفههم، فللظن به وجه آخر غير الوجه الأول.

ويجدر أن نذكر ههنا، بأن محط الإيمان ومحل انكشافه هو القلب والوجدان، وبأن الله تعالى يريد -بمقتضى الإسلام- أصلاً مهمًا آخر مع هذا القبول الوجدانى، ألا وهو العمل الصالح والخلق الحسن، فمن هذه الوجهة، ينبغى على المؤمن أن يحفظ -فى كل وقت- ما صدق به وآمن، سواء الأمور النظرية أو الشئون العملية، إلا أن يُكره أو يضطر.

نعم، كما أنه لابد من تجنب الشرك وكل شوائب الشرك، لكى نكون مسلمين، ينبغى -كذلك- تعليق القلب بالله بإخلاص، وعبادة الله كأننا نراه أو كأنه يرانا، وإجراء التصرفات الاجتماعية فى إطار "الخلق الحسن" الذى يأمر به الإسلام.. وذلك كله، انعكاس لصور الروح الإسلامية على حياة الإنسان بأبعاد تجلياتها المختلفة، إن هذه الشئون التى يمكن أن نُرجعها إلى الإيمان والإسلام والإحسان -كما ورد فى حديث جبريل المشهور- هى بعينها، سلسلة من اللوازم المرتبطة بعضها البعض والمتداعية فيما بينها، وأعماقٌ مختلفة لشأن واحد، مع الأخذ بالاعتبار أن الأصل الأساس هو الإيمان، وذلك باعتبار فروق الظاهر والباطن للحقيقة الواحدة، أن الباطن يستدعى الظاهر ويربو به، وأن الظاهر يستند إلى الباطن ويتأسس عليه ويقوم به، وإن العملى هو صوت لروح النظرى وجوهره.

فما دام أصل المسألة كذلك، فادعاء أن الدين محض مسألة وجدانية، استهانة بروح الدين ووقاحة وتجاوز للحد، والذى يظهر قبوله للدين -والله يتولى السرائر- ثم يقول: "اعتبر بما فى قلبى"، ثم يتعدى ذلك إلى اعتبار الانشغال بالجوانب العملية للدين تطرفًا، فإنما يمنى نفسه بالأوهام الفارغة ويستتر عن المؤمنين بقناع الإيمان، إن تفسير الإيمان والإسلام تفسيرًا يمالئ أهواء الناس وغرائزهم، يخرجه عن دائرة الدين السماوى، ويجعله نظامًا بشريًا؛ والأصل أن الإسلام وضعٌ إلهى إلى البشر لإنقاذهم من الأهواء والغرائز وربطهم بالحق وهداية الحق تعالى، أو بتعبير آخر، هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضيق الجسمانية، وتجهيزهم للانطلاق والسياحة فى الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح، وإن روح هذا النظام الذى لا نظير له هو الإيمان، وجسده هو الإسلام، وشعوره هو الإحسان، وعنوانه المعظم هو الدين.

الدين -وكما قلنا فى البداية- يخاطب العقلاء وأصحاب الشعور، ويوجههم بإرادتهم واختيارهم إلى الخير الدنيوى والأخروى، ويعد المستجيبين له، بالسعادة الأبدية. إن موقع المكلفين حيال الدين ليس الانسحاق تحت مسئولياتهم إزاءه، بل -انطلاقًا من حقيقة "الخالق أعلم بخلقه"- تعليق الصلاح والحسن والخير والسعادة الأبدية بإرادتهم -فى مستوى الشرط العادى- فى علم الله وبإرادته وتقديره، تكريم وتلطيف من المشيئة الكلية إلى الاختيار الجزئى الموهوب لهم قديمًا، والدين بهذا الوجه من حيث أداؤه المعبر عن الألوهية وتفسيره المعبر عن العبودية، يختلف اختلافًا بيّنًا عن التنظيمات المتشكلة فى صورة أديان؛ فأولا وقبل كل شىء، المخاطبون فى هذا الدين هم أصحاب العقول والإرادة، الذين يسعون إلى تطبيق هذا النظام الذى وضعه الله تعالى، ويجدون فى تمثله، وبهذا الاعتبار يمكن تفسير الدين من وجهة أخرى بأنه: لطف وتوجه خاص إلى جاهزية خاصة، فإن عديم العقل والإرادة، ليس مكلفًا بالدين، وليس محلا للتوجيه إلى الخير.

نعم، إن العقل والإرادة هما الشرط الأول للدين وأهم أركان "التدين" الذى معناه أن يكون الإسلام حياةً للحياة، ويعنى هذا، أن من لا عقل ولا إرادة له، ليس محلاً للتكليف بمسئولية الدين التى تتطلب قابلية التمييز بين الخير والشر، فهو فى حل من الدين الذى هو مجموعة القوانين الإلهية، التى تشترط العقل والاختيار أولاً، ومن التدين الذى هو من خلق الله تعالى وكسب البشر.

وإن هذا الدين -باعتباره وضعًا وتكليفًا من العليم بخلقه- يرشد ويقود إلى الخير أبدًا، ويجيش القلوب بوعد حسن العاقبة، ويدعو إلى التحوط والحذر بوعيد سوء العاقبة، وأوامره ووصاياه فى هذا الصدد، باقية وثابتة لا تخلق جدّتها، فإن هذه الأوامر والوصايا، ذات أداء أزلى وهندام

أبدى.. تخلق الأنظمة كلها وتبلى، وتبقى هى جديدةً وندية ومغبوطة، إلا فى عين من منعته الأحكام المسبقة من النظر السليم، فما من وسيلة أو طريق للخير والسعادة من نتاج عقل البشر، إلا ويحكم عليها بالزوال أو القدم.. ويعرض عليها التبدل من مجتمع إلى آخر، وتترهل وتخرق بمرور الزمان، وتستهلك وتتهرأ بالغلط والتصحيح المستمرين.. فهى لا تتعدى أن تكون "تنظيمات" تمتنى بخبرات نسبية وإضافية فى مستوى معين، بل تبدو وكأنها تمتنى بالخبرات بالنظر إلى ظاهر أمرها، لكنها لم تحقق قط ما تصبو إليه البشرية فى الماضى، ولن تحقق أمانيها البتة فى المستقبل.

أما الدين الحق، فقد جاء برسالات البشرى التى تستجيب لكل مطالب الإنسان المخلوق للأبدية، والمرشح لها، والمتقلب دائمًا فى آمال السعادة الأبدية، وإذ جاء بها لم يكلف الإنسان بتكليف يخالف ماهيته وذاته، ولم يهمل رغبةً من رغباته ولا مطلبًا من مطالبه؛ فالعقول السليمة والأفكار المستقيمة تقر أن لا إغفال ولا إحجام فى هذا الدين عن رغبات الإنسان ومطالبه وأمانيه، ولا تناقض فى أوامره التكوينية أو فى تفسيرها، وفوق ذلك كله؛ إنه منظومة ممتازة، مفصلة حسب ماهية الإنسان وقابلياته وآماله وميوله، يعده ويرجيه بالسعادة الأخروية ورضى الحق تعالى وإمكان رؤية الله سبحانه.

وما دام امرؤ يعيش حياته وفاقًا لدين الإسلام، فإنه يستفيد من النعم المشروعة كافة فى هذه الدنيا، وكذا يقضى عمره فى نشوة السير فى الدروب الموفية إلى الجنة بملاحظة الاطمئنان إلى خطوته بمزيد من ألطاف الحق تعالى حينما يحين الأوان، مع نوال الثواب وحسن الجزاء فى الأخرى بقدر يتعدى الخيال والتصور، هذا، وإذا وسعه أن يعيش حياته بالارتباط الدائم مع رضا الحق تعالى -وهو الأساس فى التدين- فلعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إنه يبارى الملائكة، وبالمقابل يقف المتنكر للدين الحق، والمنقاد "لعقل المعاش"، والمنتسب إلى تنظيمات مختلفة متشكلة فى صورة أديان، والمناصر للنظم البشرية أو الدنيوية (اللادينية).. عاجز عن تبيان ما يُطمئن الإنسان أو يقنعه بشأن حاضره وقابله، وسوف يعجز لا محالة؛ لأن هذا الدين هو نظام الله فى الأرض، والله هو الخالق، والخالق هو الأعلم بكل شىء، ولا جرم أن كل فكر ومنهج ونظام بشرى لما أنه نتاج الإدراك المنحصر، من الممكن أن يعتل فى أغلب الأحوال بعلات الأغراض والمنافع الشخصية أو العائلية أو القومية، ولذلك هى منبتة لا توصل إلى الخير المطلق، ولا يرتجى منها السعادة الأبدية، فالمنظومات والنُّظم المختلفة المحصور أفقها بالأغراض الشخصية والنعرات العرقية والمصالح الطبقية والفئوية، مهما بدت متكاملة، فلن تستجيب لرغبات الإنسان ومتطلباته غير المحصورة، فإن من طبيعة هذه الأمور أن يكون أصحابها ذوى ذهن كدر، وعقل مشوش، ومنطق أعمى، وشعور قصير النظر،

ووجدان وبصيرة ملبدة الأفق بالدخان والقتام.. فهم لا يستطيعون أن يبصروا ما ينبغى أن يرى، وإن يبصروا، يبصروا شتاتًا وشيئًا معوجًا، فتخرج تفسيراتهم مثقلة بالأغلاط وكليمة بالأخطاء.

الدين الحق نظام فريد لا يُضل، ووضع إلهى فسيح ورحيب يفتح آفاقًا دنيوية وأخروية جديدة، فهذا النظام اللاهوتى "دين" باعتبار أبعاده الاعتقادية، و"شريعة" من وجهته العملية، و"ملّة" بوظائفه الاجتماعية.. وهذه المعانى هى المقصودة عنى ما نقول: "الملة الإسلامية"، الواقع أن أسلوب إجراء الحركات والفعاليات كلها يتوافق مع جوهر الإيمان، وكيفما كانت الصورة التى عليها الإيمان، والهيئة الاجتماعية تأخذ شكلها حسب تلك التصرفات والسلوكيات والفعاليات، ولذلك يجب على المؤمن الذى آمن إيمانًا سديدًا، وجعل هذا الإيمان بالعمل الصالح عمقًا من أعماق طبيعته وجبلته، أن يكون عاشقًا للحقيقة، ومنحازًا إلى الحق، وعادلاً، ومستقيمًا، وأمينًا، ومثالاً للخلق الحسن، وسالكًا سبيل العلم والمعرفة، ومشدودًا شدًا محكمًا إلى الجاذبية القدسية للدين، ومنشغلا بدافع الارتقاء إلى موقع العنصر الفعال فى الموازنات الدولية.. فتجده متحفزًا فى هذه الأحوال، بل لابد أن يكون كذلك، وأن لا يتأخر طرفة عين حتى يحقق ما يريد.

إن المؤمن الذى كمل إيمانه وارتقى إيمانه إلى مرتبة الإذعان، وأعماله كلها موزونة بموازين الحق، وقلبه موصول فى كل وقت بربه، وتصرفاته كلها منطبعة بتلك الصلة الربانية.. هذا المؤمن لن يستوقفه هذا وذاك، ولن يدور البتة فى فلك الآخرين مهما كانوا؛ يقوم ويقعد حاملاً شعور الانتماء إلى أمة شريفة ممسكة بالمركز (أمة الوسط)، ومتميزًا بخصاله فى كل حركة من حركاته، إنه يحس بتوقير غائر حيال كل إنسان وكل شىء مخلوق، لأجل الخالق، ويتوقى من الدنايا التى لا تأتلف مع نعمة "الإنسانية"، ويبرز بين الناس بفائقية دينه وإيمانه وفكره وسلوكياته، وإذ يتصرف كذلك، لا يعتريه قط استعلاء أو كبر، ولا يفكر فى إكراه غيره على قبول فهمه وفلسفته فى الحياة، فهو يتقبل الآخر "كما هو" بملاحظة أن النظام الذى آمن به يقطع سبيل الإكراه فى الدين؛ فيعيش بمحبة مسلكه ومشربه بدلاً عن إجبار الآخرين على معتقداته، ويُشهر أفكاره ومعتقداته ويمثلها تمثيلاً سليمًا، ويعتنى عناية شديدة بأن يكون أنموذجًا يغبطه الناس، وإذ يقوم بذلك، لا يستجدى إعجابًا ومديحًا من أحد قط، بل يحتسب كلّ عمل من ضرورات السبيل لكسب رضى الحق تعالى؛ فلا يفكر إلا فى مرضاة الحق تعالى فى كل قول وعمل وسلوك، ويعرف أن المباهاة والبهارج جراثيم تقتل القلب، ويتمسك بالحق تعالى بإخلاص كامل، ثم يمضى فى مسيرته.

فالأصل أن الإسلام جاء لإنقاذ البشر من الإكراه، وتحفيزهم لاختيار جديد بإرادتهم

الحرة مخاطبًا عقولهم ومنطقهم، وليس لدفع أتباعه إلى الضغط على هذا وذاك للقبول بنظام معتقداتهم أو إكراههم عليه، ففى الأيام التى طبق الدين بلا نقص ولا فتور، فإن جاذبيته المعنوية لم تدع حاجة إلى ألاعيب المنطق الملتوية، أو القوة الطائشة، أو القهر الصريح أو الخفى، أو الجبر والإكراه؛ فلقد نطقت الحال وأبانت، ووضّح اللسان المبهمات، فإذا خلا الميدان للقول، خوطب الوجدان، وبشر البيان وأنذر، متحليًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يضغط على أحد لا قولا ولا فعلا ناهيك عن الإكراه والجبر، بل كان الإكراه والجبر ممتنعًا؛ لأن الإسلام لا يقبل إيمان المكره والمقهور؛ ولأن الأعمال القائمة على الجبر والقوة القاهرة تناقض جوهره وروحه، بل لا يحتسب الدين الحق من العبادات عملا ليس فى أصله الإخلاص أو رضى الله تعالى، فلا يرى فى إيمان المكره والمقهور إيمانًا، بل نفاقًا، ولا الأعمال أعمالاً، بل رياءً بشعبها كافة. لذلك، لا يجيز الإسلام الإكراه فى الدين، ويمنعه بنص القرآن:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦)،

فيقطع دابر القهر لأنه يعتبر الرياء عين النفاق، ويعتبر النفاق كفرًا مستورًا، والحال أن الإسلام جاء ليقتلع جذور الكفر، ويمحو الشرك من الشعور والفكر، ويُغلق أبواب الرياء والسمعة.

لكن منع هذا الإكراه والجبر، لا ينفى الإجبار الداخلى للوجدان، أو التأثر والميل الشبيه بالقهر، المتولد فى القلب المؤهل لمعرفة فضل التوقير وحق الاحترام حيال التعبير عن الحق قولاً وفعلاً، فمن الطبيعى أن يخاطب وجدان البشر جميعًا بالأسلوب القرآنى فى كل فرصة متاحة، وأن تُحفز الفطرات السليمة، وأن تخلص البشرية من الشرك وشوائبه بتوجيه القلوب الممهدة والمستعدة، إلى الله تعالى، وبهيج الإيمان ونور الإسلام وشعور الإخلاص والإحسان فى القلوب، بتبليغ الناس جميعًا أن أصفى الهداية وأخلصها ممثلة فى سيدنا محمد ﷺ، وأن حقيقة الإنسان والأشياء والكائنات قد نودى بها فى القرآن، وأن الحُكم والحكمة فى قبضة الله تعالى، فبذلك يُبعث فى القلوب نور الإيمان والإسلام وشعور الإحسان والإخلاص، ويُنادى الجميع إلى التوحيد الحقيقى، وهذا من الضرورات اللازمة لإيماننا بالإسلام واستجابتنا لدعوة سيدنا ﷺ.

إن نبينا خاتم الأنبياء، ورسالته التى قدمها للإنسانية أكمل الرسالات وأتمها، وأهدى الوسائل إلى الله وأضمنها وأوثقها؛ ولم ترشد إلا إلى الصواب والهدى، فمتى ما وجد هذا الدين من يمثله صدقًا صار ظلا للحق، يلجأ إليه الناس من كل فئة سراعًا ليتفيأوا فى ظله، وأبطل سحر الأنظمة الشيطانية كلها، ولم يترك أتباعه من غير نور حتى فى أحلك الأحوال، فإن كان لا يستطيع فى الوقت الحاضر أن يعبر عن نفسه تعبيرًا كاملاً، فذلك بعداوة خصومه

الألداء المستمرة بلا توان منذ عصور، وحقدهم وبغضهم وتشويههم لصورته ومحاربتهم له من جهة، ولجهل منتسبيه وخذلانهم وغفلتهم من جهة أخرى، ولكن دوام هذا الحال محال؛ فحينما يحين الوقت، فسيجد الفرصة لكى يعبر عن نفسه كرة أخرى فى مناحى الحياة كافة، ويتكلم بصوته الخاص، ويشعشع فى العيون بألوانه ورقوشه الذاتية، ويحسس بكنهه فى كل مكان بتناغمه وانسجامه السماوى، وذلك بفحوى "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه" (رواه البيهقى)، وبفضل أوليائه الذين يتولونه بخالص قلوبهم، ويربطون مصيرهم به، فيجعلون غاية خلقهم السير فى خطه.

نعم، حينما تنتبه هذه "الأمة" إلى أنها الأمة المصطفاة من الله، وأنه هو اختار لهم اسم "المسلمين" بمنطوق:

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾

(الحج: ٧٨)

فستقول:

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

(الحج: ٧٨)،

وتتوجه إلى ربها الكريم، وتستسلم لحكمته، وستسمو فى النهاية -لا محالة- إلى حال التعبير عن ذاتها بالصورة التى يريدها الحق تعالى.

والصحيح أن إحراز هذا الموقع من الأمور التى يمكن أن تتحقق فعلاً فى كل وقت، فإن الإسلام هو الدين الخاتم الكامل الذى اختاره الله تعالى ليشرف به الإنسانية، وهو بختمه وبكماله، تفصيل وبسط وأداء للأديان السماوية كلها حسب متطلبات الزمان الأخير، لكن هذا النظام الكامل محروم الآن من تمثيل فى مستوى تمثيل الشهود الأوائل، ومبتلى بسوء الحظ فى أيدى نفر عديمى الوفاء، فهو لذلك محكوم عليه اليوم بالانحباس فى الضيق وهو رحيب، وبالمنع من الكلام بلهجته الخاصة، وهذا يعنى -فى الوقت نفسه- تضييقًا وحظرًا على الأديان السماوية كافة.. إذ من البدهى أن الإسلام جاء مصدقًا للأنبياء جميعًا ولرسالاتهم كلها، مراعيًا ما بلغه إدراك البشر وفهمه.. فصار بمثابة نداء جامع لأصواتهم وأنفاسهم أجمعين، وإن انقطاع صوت هذا النداء السماوى، وفى عصر جمحت وطفت فيه الأفكار والمعتقدات المادية والطبيعية، هو انهزام وخسران للأديان الأخرى أيضًا تجاه هذه التيارات العفريتية المتمردة، بل يعنى انقراضها تمامًا، فالإسلام ذود عن الدين الحق وصون له، وكذلك هو -باعتبار أن دعوة الأنبياء جميعًا واحدة- بمثابة نقطة استناد للنظم السماوية الأخرى ونقطة استمداد لها وشاهد يشهد لها، فإحياء الإسلام مجددًا يعد إحياءً لها أيضًا فى معنى من المعانى، بإصلاح الجوانب اللازم إصلاحها، وتجديد وإعمار ما ينبغى إعادة تعميره ولو جزئيًا، وفتح آفاق جديدة أمام أتباعها بالضوابط ذات الدور التأسيسى فيها، وإنى أظن ذلك كله ممكنًا، وأحسب أن وحدة المصدر معين وسند متين فى هذا الأمر.

يتبع

جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ
أبريل/مايو ٢٠١٣م

الخلاف بين السُنة والشيعة



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

لقد دعا الإسلام أتباعه أن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا حيث قال الله سبحانه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ووجه الرسول ﷺ أمته إلى التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، حيث قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبوداود والترمذي عن العرباض بن سارية.

ومع هذا فعلى مر التاريخ شب الخلاف الفكري والعقدي بين المسلمين، وبرز عدد كبير من الفرق، ومنها: الشيعة وهم الذين أعلنوا اتباعهم لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأعلنوا حبهم وولاءهم لآل البيت.

إلا أن البعض غالى في هذه المحبة لعلي رضي الله عنه لدرجة الادعاء بما لا يقبله عقل ولا شرع كادعاء بعضهم أنه نبي ولكن الوحي أخطأ فنزل على سيدنا محمد ﷺ، وكادعاء أنه الإمام بعد رسول الله ﷺ وأشهر هذه الفرق هي «الزيدية» وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين، وعندما دعا الشيعة لحرب الأمويين سألوه رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأثنى عليهما فرفضوه، وأطلق على هؤلاء اسم الرافضة وهم يوجدون في اليمن.

ومنهم: «الإمامية» وهم الذين رأوا إمامة اثنى عشر من آل البيت ويطلق على هذه الفرقة اسم «الاثنا عشرية» وهي في إيران والعراق وسورية ولبنان ومن آرائهم تجريح الصحابة والأخذ بمبدأ التقية وهي إظهار خلاف ما يبطنون.

ومنهم «الإسماعيلية» وهي تابعة لإسماعيل ابن جعفر الصادق ومن مبادئهم التناسخ والحلول ورجعة من مات من الأئمة بصورة التناسخ.

ومنهم: «النصيرية»: وهم أتباع أحد وكلاء الحسن العسكري واسمه محمد بن نصير ويطلق عليهم اسم العلويين، ومن مبادئهم الولاية لعلي، وعصمة الأئمة، والتقية.

الخلاف بين السنة والشيعة

إن دعوة الإسلام إلى وحدة الصف وجمع الكلمة أمر يجب أن يُطبق من الجميع وذلك بمنهج الوسطية بلا إفراط ولا تفريط، قال الإمام علي رضي الله عنه: سيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالا: النمط الأوسط فالزموه والزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة.

ومن مظاهر الخلاف بين السنة والشيعة:

الأخذ بمبدأ «التقية» والمراد بذلك أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن، وقد جعل الشيعة هذا من الدين عندهم واستدلوا بقول الله تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾

(آل عمران: ٢٨)

أما أهل السنة فلا يجيزون هذا إلا في الضرورة مثل حفظ النفس، كحال عمار بن ياسر عندما نطق بكلمة الكفر إنقاذًا لحياته من الموت، قال الله تعالى:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(النحل: ١٠٦)

وأما الأخذ بالتقية خارج الضرورة فهو كذب؛ لأن في ذلك مخالفة للحقيقة وإيهام للأمور، واحتيال لتحقيق الأهواء الخاصة.

وقد تمسك الشيعة بمبدأ التقية تمسكا قويًا لدرجة أن قال أحدهم: «إن التقية ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له» قاله أبوجعفر الإمام الخامس حسب زعمهم.

إن كلمة التقية هي إظهارهم خلاف ما يبطنون فهي الكذب بعينه، وواضح أن الإسلام نهى عن الكذب، وقد زكى القرآن الكريم أصحاب الرسول ﷺ لصدقهم، فقال الله تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٣)

ونهى الرسول ﷺ عن الكذب وأمر بالصدق: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» رواه البخاري ومسلم.

ومما لا شك فيه أن الذي يمارس التقية، يكون مستمعه مصدقًا له، بينما هو كاذب في حديثه وهذا من أكبر أنواع الخيانة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق، وأنت له كاذب» رواه أبوداود.

من مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة: موضوع الأئمة حيث يرفع الشيعة الأئمة مكانة عالية جدا لدرجة أن بعض طوائفهم تصفهم ببعض الأمور التى تجعلهم فى مقام الألوهية وأن الإمام هو الوارث للأنبياء عند بعض الطوائف، وترى بعض طوائف الشيعة أن الله اصطفى الأئمة كالأنبياء وجعل لهم العصمة بينما يرى أهل السنة أن الإمامة تختارها الأمة بالشورى والاختيار، وتبايع من تريد وتحاسبه إن أخطأ وأن الإمام ليس معصوما عند أهل السنة، ولشدة اعتقاد الشيعة فى الأئمة ومبالغتهم فى مكانتهم تراهم يزعمون أن المرء لا يقدر أن يتصل بخالقه مباشرة بل لابد أن يكون اتصاله بخالقه عن طريق الإمام.

أما أهل السنة فيختلفون عنهم تماما فى هذا ويرون أن الأئمة بشر كسائر البشر ليسوا معصومين ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

وأن اتصال الإنسان بخالقه لا يحتاج إلى من يتوسط بينه وبين ربه لأن الله تعالى قريب من عباده وليس بينه وبين عبده حاجب ولا بواب فلا وساطة بين الإنسان وبين خالقه سبحانه وتعالى. روى ابن أبى حاتم عن معاوية بن حيدة القشيرى أن أعرابيا قال: يا رسول الله ﷺ أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

إذا أمرتهم أن يدعونى فدعونى فاستجبت لهم رواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعرى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فجعلنا لا نصعد شرفا، ولا نعلو شرفا، ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنما تدعون سميعا بصيرا، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» رواه أحمد وأخرجه البخارى ومسلم.

ومن مظاهر الخلاف بين السنة والشيعة: أن أهل السنة إنما أخذوا الحديث النبوى الشريف بسلسلة الرواة أهل الثقة من رسول الله ﷺ، فمن خلال رواة الحديث الثقات جاء الحديث مرويا من رسول الله ﷺ إلى الصحابة ثم إلى التابعين وهكذا.

بينما ترى الشيعة يأخذون عن الأئمة أو ينسبونه إليهم لأنهم فى رأيهم هم المعصومون، أما غير المتهم فلم يثقوا فيهم وواضح أن الحديث النبوى الشريف نقله أهل السنة ورووه بمقاييس علمية، وقواعد دقيقة وزنوا بها كل خبر جاءهم عن رسول الله ﷺ بميزان النقد العلمى النزيه الذى لم تعرف الدنيا له مثيلا.

فوضعوا قواعد للسند والمتن، واشترطوا شروطا للرواة، وأن يكون الحديث مرويا بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط من أول الإسناد إلى منتهاه وليس شاذا ولا به علة من العلل.

ولا توجد ثقافة فى العالم نقلت بمثل ما نقل به الحديث النبوى من الدقة والاستيثاق.

وقد نقل أهل السنة كل ما يتصل برسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة فى

حربه وسلمه وفى حله وترحاله وفى عباداته ومعاملاته وجميع أحواله.

ومن مظاهر الخلاف بين السنة والشيعة بعض أحكام فقهية منها: نكاح المتعة، وقد حرمه أهل السنة إلى الأبد.

ومن ذلك أيضا: بعض زيادات فى كلمات الأذان مثل زيادة الشيعة فى الأذان «حى على خير العمل» ومن ذلك: قولهم: «أشهد أن عليا ولى الله» مع أن الأذان له كلماته التوقيفية المعروفة والتى وردت فى الأحاديث الصحيحة ليس من بينها هذه الكلمات.

ومن مظاهر الخلاف بين السنة والشيعة: القول بحدوث التحريف فى القرآن، فلم يكتف الشيعة بتأويل بعض الآيات بل قالوا بتحريف بعضه.

ولا يخفى على إنسان معه عقله أن رب العزة سبحانه تكفل بحفظ القرآن الكريم وحفظه فعلا فليس فيه زيادة ولا نقصان، وكما هو رأى أهل السنة فى كتاب رب العالمين أن الله تعالى حفظه وتكفل بحفظه وقال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

- ومن مظاهر الخلاف بين السنة والشيعة: أن الشيعة يتركون صلاة الجمعة ويزعمون أنها لا تصلى إلا وراء الإمام المعصوم، وإذا حضروا فى المساجد إما أن يخرجوا دون أداء لصلاة الجمعة، وإما أن يبقى فى المسجد ولا يصلى.
- ومن أبشع ما ذهب إليه الشيعة: الطعن فى صحابة رسول الله ﷺ، لقد طعنوا فى أبى بكر وعمر وعثمان والسيدة عائشة والسيدة حفصة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأرى أن تجريح الصحابة رضوان الله تعالى عليهم

أجمعين هو ضربة للإسلام فى مقتل؛ لأن الصحابة هم شهود هذا الدين ونقلة الإسلام والكتاب والسنة، اصطفاهم رب العزة سبحانه ليحملوا القرآن الكريم عن الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، حيث قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(فاطر: ٣٢)

ونزلت عدالتهم من فوق سبع سماوات وصرح القرآن الكريم بأن الله تعالى راض عنهم وهم راضون عنه حيث قال الله سبحانه:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾

(التوبة: ١٠٠)

ووضح الرسول ﷺ أنهم خير القرون فقال رسول الله ﷺ: «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» رواه البخارى ومسلم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» رواه البخارى ومسلم. فنهى الرسول ﷺ عن سب الصحابة ووضح مكانتهم العالية، وأجرهم العظيم وثوابهم المضاعف الذى لا يبلغه أحد من الناس.

وبين ﷺ أن محبة الصحابة دليل على محبته حيث قال ﷺ: «الله الله فى أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه» رواه الترمذي.

من عناصر التصور الاجتماعى والاقتصادى فى الإسلام



المستشار/ طارق البشرى

> العقيدة فى الإسلام هى أصول الأصول وهى المسلمة الأولى التى تتفرع منها بعد ذلك كل الأمور، سواء فى ذلك النظم والشرائع التى تنظم شئون الحياة، أو الآداب والسلوك والأخلاقيات فالعقيدة هى المصدر والمشرع لبناء نظام المجتمع ولإقامة هياكله التنظيمية ولتربية الأفراد والجماعات، فضلاً عن كونها تحدد الأحكام التى يقوم عليها البناء التعبدي.

وإن الوسيلتين اللتين تصدران عن العقيدة لتحديد الملامح لنظام حياة البشر، هما القانون والأخلاق. والقانون يتوجه فى الأساس للجماعة لينظم تعاملاتها، لذلك فهو يقيم أحكامه على قدر كبير من العموم والتجريد، فهو يتعامل مع الإنسان ويضبط معاملاته لا بوصف هذا الإنسان فردا معينا ومسمى، ولكنه يتعامل معه ويضبط معاملاته آخذًا فى الاعتبار السمات العامة للإنسان عادة فى تلك الجماعة المحكومة، بصرف النظر عما يتخالف فيه أفراد هذه الجماعة من سمات عينية ملموسة لكل منهم. ولذلك فإن القانون يعول فى معاملاته فى الأساس على الظاهر من تصرفات الناس فى جماعة معينة، دون أن يصرف همه الأساسى للحكم على الدوافع الباطنية لهذه التصرفات، ولذلك أيضا فإن حكمه لمعاملات الناس يكون بطريق الفرض والإلزام، ووسيلته فى ذلك أن تحمى سلطة الدولة أوامره، ويكون لها اللجوء لاستخدام العنف لفرض قوة الإلزام لأوامر التشريع ونواهيه.

أما الأخلاق، فهى وإن كان هدفها النهائى صلاح الجماعة، إلا أنها تتوجه فى الأساس للفرد فى هذه الجماعة لتنظيم سلوكه، وأحكامها بالغة المرونة لأنها تراعى أوضاع الأفراد من حيث كونهم أفرادًا، أى تراعى ما يتمايزون به من سمات خاصة وملامح ذاتية، لذلك فهى هادية أكثر منها حاكمة، وهى ناصحة أكثر منها آمرة، وهى تضع فى اعتبارها نوايا الناس ودوافعهم الباطنية ولا تكتفى فى حكمها على السلوك بظاهره. وهى بذلك لا تملك وسيلة مادية لحمل الناس على اتباع وصاياها، إتيانا لما تحسنه وتجنبًا لما تقبحه، إنما وسيلتها فى الهيمنة على سلوك الأفراد وحماية قواعدها، اللجوء إلى الزواجر الأدبية والروادع النفسية، بحيث إن الخروج على قواعد الأخلاق يمثل سلوكا مشيناً يزدرى صاحبه أمام الناس ويمتهنه.

وإن العقيدة الإسلامية عندما تمثل النبع الرئيسى لأحكام القانون وقواعد الأخلاق، إنما تخلق تناسقا وانسجاما بين هاتين الوسيلتين فى تكاتفهما على إقامة نظام الحياة فى المجتمع وهما تتبادلان تنظيم الجماعة وأفرادها كل فى مجاله وفيما يصلح له من ميادين النفوذ والفاعلية. وبوجه عام فإننا نلاحظ أنه كلما اتسع حجم الجماعة المعنية بالتنظيم، كلما كان حكم القانون لنظمها وعلاقاتها أوجب، وكلما صغر حجم الجماعة المعنية كلما كان إرشاد الأخلاق لها أنسب. وإن الجماعات تتسلسل فى المجتمع من الوحدات الصغيرة إلى الوحدات الأكبر، ومن الأسرة كجماعة صغرى حتى تصل إلى الجماعة السياسية العامة التى ينتمى إليها الأفراد، بحكم صلات النسب كالعائلة والعشيرة والقبيلة، أو بحكم الاندراج فى الوحدات السياسية القائمة كالدول.

نحن نلاحظ مثلاً أن الأسرة هى اللبنة الأولى فى التنظيمات الاجتماعية، يحكمها قدر قليل من أحكام الشريعة، وكثير من قواعد الأخلاق، وأن قواعد الشريعة تحيط بالأسرة من خارجها فى الأساس فتنظم نشوءها وزوالها، بتنظيمها الزواج والطلاق والميراث، وهى لا تكاد تتدخل فى تسيير أوضاع الأسرة كمؤسسة اجتماعية، إلا إذا اعترى سيرها خلل جسيم كنشوز أو منع نفقة، أما فى أوضاعها العادية فهى تسير فى الأساس بقواعد الأخلاق وضوابطها. ولا تتدخل الأحكام القانونية قط فى تحديد نصيب كل واحد فى الأسرة من دخلها أو قدر الجهد المطلوب منه فى خدمتها أو حصته من المزايا العينية المتاحة بداخلها، كل ذلك مرجوع فيه إلى السلوك الذى يستهدى بالأخلاق وبمشاعر المودة والتراحم على أن الاحتياج يزداد إلى القواعد القانونية للحركة وللتعامل كلما زاد حجم الجماعة وتعقدت روابطها كما تشاهد فى التنظيم الشرعى لحركة التبادل بيعا وشراء فى السوق، إذ تخضع فى بدئها ومسيرها ومنتهاها لعدد كثيف من الأحكام الشرعية الضابطة لها والحاكمة لآثارها.

لذلك نجد أن واحدية المصدر العقيدى الدينى، لكل من الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية، هذه الواحدية تجعل القانون والأخلاق وإن اختلفت أدواتهما فإنهما يظلان ذوى طبيعة واحدة ومتجانسين فيما ينشدانه وتنشده العقيدة للبشر فى حياتهم من صلاح، لأن كلا منهما فى مجال فاعليته يتم عمل الآخر، وهما يتبادلان معا بتنظيم الجماعة المعنية بالقدر الذى يتيح لها ولأفرادها الفاعلية المرجوة، وذلك حسب حجم هذه الجماعة ومدى تعقد أواصرها أو بساطتها.

فالأسرة بين الدين والأخلاق والقانون فى

الإسلام متينة مكينة، لا تكاد تنفصم دون خلل يعترى كلا من هذه الجوانب معا.

***

هذه الخصيصة تستتبع خصيصة أخرى، تبدو من أساليب الفقه الإسلامي فى صياغة القواعد والأحكام وفى بناء المؤسسات، فهو لا يفرق بين شكل ومضمون، هذه الثنائية التى يعرفها الفكر الغربي بين الوعاء والمحتوى لا يكاد يقرها الفقه الإسلامي، فنحن لا نجد فى الفكر الإسلامي ما يؤيد تلك التفرقة التى اعتاد على أن يمارسها الفكر الغربي دائما ويشكل بها كل أبنيته الفكرية ومؤسساته الاجتماعية. وهى التفرقة بين الشكل والمضمون أو بين الذات والموضوع، وهى ازدواجية ورثها الفكر الغربي فيما يبدو من الثنائية الفاصلة بين السماء والأرض، وبين الغيب والواقع وبين الكنيسة والدولة، النظام العقيدى الإسلامي يقوم بترابط وتوحد فالمصدر واحد وأساس الشرعية واحد. ولا يختلف الحكم فيها إذا كان التصرف المحكوم يتخذ وسيلة لغاية أم كان هو الغاية نفسها، ولا يعرف التنظيم القانونى الشرعى فارقا بين شرعية الحق المطالب به وبين الإجراءات التى تتبع فى المطالبة به، ولا يعرف ما نتج عن هذه المفارقة من سقوط الحق الثابت لمجرد أن صاحبه لم يطالب به بالإجراءات المرسومة فى الموعد المرسوم كما لا يعرف ابتناء الحقوق على الغصب لمجرد حيازة الغاصب المال المغصوب مدة معينة بوضع ظاهر هادئ.

وإن من أهم تطبيقات هذه الواحدية ما يبدو من نظر الفكر الإسلامي لمفهومى المساواة والعدالة، فإن المساواة بين البشر يقرها الإسلام ويحض عليها فالناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، بمعنى أن الناس لا يتفاضلون إلا بما فى مكنة كل منهم من وجوه الخيارات الإرادية فى عبوديتهم لله ومعاملاتهم مع سائر الناس، لأن التقوى المأمور بها فى العبادة والتعامل، إنما ترد فى مجال الخيارات المتاحة للناس والتى ترد بشأنها تبعة الثواب والعقاب.

إذا كانت المساواة مقرة هكذا فى الإسلام، فإن الضوابط الإسلامية للتنظيم الاجتماعي لا تكتفى بهذا التقرير، بل تتجاوزه لتؤكد على «العدالة» بوصفها الهدف الأصيل من تقرير المساواة.

إن المساواة تعنى منع التمييز بين الناس بسبب يلحق بهم، وذلك إلا أن يكون لإرادتهم دخل فى قيامه، وأن يقوم هذا السبب لديهم على وجه الاطراد دون أن يكون فى مكنتهم بالعمل الإرادى أن يرفعوه أو أن يتجاوزوه، وتقوم هذه الأسباب عادة لدى جماعات من البشر تشترك فيها، تلك هى الأسباب المتعلقة بالجنس أو لون البشرة أو اللغة أو ما يشابه ذلك، والمساواة على هذا الوصف صفة سلبية تشكل الحد الأدنى لما يتعين أن يكون عليه وضع الإنسان.

والمساواة تعنى أن تنظر الجماعة إلى الأفراد المكوّنين لها بحسبانهم محض أفراد فيها، لا يميِّز أى فرد فيهم عن الآخرين إلا أن تكون أوصافا مكتسبة، كشروط التعليم أو الخبرة ونحو ذلك، أو على الأقل أن تكون أوصافا مفارقة وغير لصيقة بالفرد التصاقا دائما، كشرط بلوغ الفرد سنا معينة ليتمكن من إجراء أعمال معينة أو للتعيين فى منصب معين، فالسن شرط غير مكتسب ولكنه شرط مفارق يطرأ على الإنسان ويبارحه ويطرأ على الناس جميعا ويبارحهم على سواء.

والمساواة بهذا تصنع إنسانا مجردا من الأوصاف التى تميزه عن غيره من أفراد الجماعة، ولكنها لا تكفى وحدها لأن تكفل للإنسان وضعا اجتماعيا مساويا لغيره فى الحقيقة والواقع. وتفسير ذلك أنك إن سويت بين الناس فى التكاليف بافتراض أنهم سواسية، فإن هذه التسوية لا تكفل لكل من المكلفين قدرا مساويا من الأعباء مع غيره، ما دامت ظروفهم الواقعية غير متماثلة. وذلك كما تسوى بين الغنى والفقير فى منعهما من النوم فى شوارع المدينة، أو كما تسوى بين المريض وصحيح البدن فى إيجاب التجنيد عليهما، هنا نجد أن مبدأ المساواة مع أهميته ولزومه لم يكف لتحقيق ما نصبو إليه من مساواة حقيقية، وهنا نجد أنه يلزمنا مبدأ آخر نقيمه لتحقيق التساوى الواقعى، ألا وهو مبدأ العدالة.

المساواة تكتفى بأن تقر وتعترف بأن البشر متساوون ولكن العدالة لا تكتفى بهذا «الإقرار»، بل تسعى للتعامل مع الواقع القائم لتحقق التساوى الفعلى فيه، فالمساواة فى نظر العدالة هدف وليست مجرد اعتراف، وهى هدف واقعى وليست مجرد افتراض، لذلك تجد أن الإسلام بعد أن يقر المساواة، وأن الناس جميعا خلقوا من ذكر وأنثى وأن ربهم واحد وأباهم واحد، وأن كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، بعد هذا الإقرار المؤكد فى مصادر التشريع الإسلامي، لا يكتفى الإسلام بذلك، إنما يؤكد ويسعى ويفتح الذرائع لتحقيق «العدالة».

والخليفة الراشد رضى الله عنه يجهر بأنه سيعطى الضعيف أكثر وسيعطى القوى أقل وذلك حتى يأخذ للأول حقه ويأخذ من الثانى حق الغير عليه. هذا الذى قرره الخليفة الراشد يكشف عن قصد اختلاف المعاملة باختلاف أوضاع البشر بهدف تحقيق التساوى فى الواقع من بعد. هنا نجد العدل وهو قيمة إيجابية ونحن مأمورون بإقامة العدل بنص أمر الإيجاب الموجه إلينا فى القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾

(النحل: ٩٠)

والاستثناء من القاعدة القانونية يحقق العدالة وإن كان يعتبر انتهاكا لمبدأ المساواة، ذلك لأنه يعنى أن حكم القاعدة العامة فى ظرف خاص لم يفض إلى المقصد المبتغى، فلزم تنمية الحكم العام فى هذه الحالة المخصوصة لضمان اطراد تحقيق المقاصد كإفطار المريض فى رمضان.

إن الإسلام وجه غالب أوامره فى هذه المسألة إلى إقامة «العدل» وإشاعته، وقرن القرآن الكريم الأمر بالعدل فى الحكم، قرنه بأداء الأمانات إلى أهلها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وإن اقتران الحكم بالعدل بأداء الأمانة يفيد أن العدل حق للمعدول معه يستأديه منا، وهو أمانة علينا أن نوفى بها.

والعدل بنص هذه الآية الكريمة واجب إفشاؤه «بين الناس»، فهو حق للناس جميعا

كاتين من كانوا لا ينقص من حقهم علينا ولا من أماناتنا لهم اختلاف جنس ولا لون ولا اختلاف دين أو عقيدة أو مذهب، ويذكر الشيخ محمد الصادق عرجون أن خطاب هذه الآية موجه «لكل من كان أهلا لتحمل الأمانة على عمومها، ولكل من تعرض للحكم بين الناس، سواء أكان هذا التعرض بطريق الأمانة العامة والولاية السياسية، أو بطريق التقاضي إليه.. أو كان بطريق الفتوى أو بطريق الرياسة العرفية كرئيس الأسرة أو رئيس العمل».

وقال القرطبي: إن هذه الآية من أمهات الأحكام «تضمنت جميع الدين والشرع» وإنها عامة في جميع الناس تتناول الولاة ومن دونهم.

ويقول ابن القيم: في كتابه «الطرائق الحكمية» إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات «فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه» ويقول إن من له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها وإنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة. فالعدل هو الميزان الذي تعتمد عليه السياسة التشريعية وهو الهدف الأعلى للسياسة الشرعية في الإسلام.

ثمة سؤال يرد عن صلة النظام الاجتماعي الاقتصادي في الإسلام بأي من المذاهب والنظم الشائعة في الغرب الآن، سواء الرأسمالية أو الاشتراكية والشيوعية وغيرها، ما صلة الإسلام بها ووجوه الخلاف بينه وبينها؟

ويبدو لي أن ثمة خطأ منهجيا يرد عند هذه المقارنات خطأ يرد فيها يسمى «بوضع المسألة» أي كيفية النظر إليها، إذ يوضع الإسلام كما لو كان صنوًا لهذه المذاهب أو لأي منها.

وكمنهج أساس فإن عقد المقارنات لا يجوز ولا ينتج ثمرة إلا إذا قام بين أمور تقف على مستوى واحد في تسلسل الأصول والفروع، أو في تتابع العموم والخصوص، أي على مستوى واحد من التجريد والتفصيل. فلا يقارن بين نظر فلسفي ومذهب اجتماعي لخلافهما في درجة التجريد والتفصيل. ومن ثم يمكن المقارنة في العقيدة بين الإسلام والمسيحية، كما يمكن المقارنة بين الرأسمالية والاشتراكية، ويمكن المقارنة بين الموقف الإسلامي من نظم الحياة وبين الموقف العلماني من هذه النظم.

ولكن لا يستقيم منهج المقارنة بين الإسلام وموقفه من نظام الحياة وبين الرأسمالية خاصة أو الاشتراكية خاصة.

إن المميز الأساسي لنظم الحياة في الإسلام عن أي من الرأسمالية والاشتراكية، يقوم في أن الإسلام عقيدة إيمانية، تبدأ بالإيمان بالغيب، من حيث الوجود الإلهي الخالق المهيمن.

وأنه تعالى هو الأول والآخر، وأنه سبحانه رب السماوات والأرض، فلا انفصال بين السماء والأرض في ملكوت الله، كما تبدأ من حيث إن حياة الإنسان ممتدة تشمل دنياه وأخراه. هذا الترابط بين السماء والأرض في خلق الله، وبين الدنيا والآخرة في حياة البشر هو ما يعتبر المسلمة الأولى للإسلام عقيدة ونظاما.

أما بالنسبة للنظام الرأسمالي أو الاشتراكي، فإن لهما مسلمتهما الأولى، وهما يشتركان فيها معا، وهي أنهما يقيمان نظاما دنيويا خالصا ونظاما وضعيا بحتا. وهما يستندان إلى فكرة عقدية أساسها انفصال الأرض عن السماء وانفصال الحياة الدنيا عما عسى أن يكون في الآخرة. ويستند النظام الشيوعي إلى فكرة عقيدية أتت من الفلسفة الماركسية أساسها إنكار السماء أصلا وإنكار الآخرة مطلقا.

إن كل عقيدة تبدأ بمسلمات، وترسخ في عقول المؤمنين بها مجموعة من الأصول، وحجية هذه الأصول ترد من كونها مسلمات ثم بعد ذلك، وبدءًا من هذه المسلمة، تتالى التصورات العامة والخاصة للمنظومة الفكرية التي تقيم في النهاية صورة النظام الاجتماعي من حيث هو علاقات وأنماط علاقات بين الأفراد والجماعات، وقد يمكن أن يتولد عن ذات البناء العقيدي ومسلماته عدد من التصورات المتباينة للنظم الاجتماعية، تتخالف وتتنوع فيما بينها ولكنها تنضم معًا في الأساس أو الأصل العقيدي الذي انبعثت عنه، وذلك ما نراه بالنسبة للنظامين الرأسمالي والاشتراكي، فهما تصوران مختلفان لنظامين اجتماعيين يضمهما معًا أصل عقيدي واحد، وموقف نظري واحد هو النظر العلماني للحياة الذي يفصلهما عن أهل العقيدة الدينية.

وبالمثل يمكن أن يتفرع عن الأصول العامة للنظر الإسلامي أكثر من تصور للنظام الاجتماعي، تختلف بعضها عن بعض في الفروع وتتباين ظروف الزمان والمكان وإن جمعها دائمًا اتصالها بأصول العقيدة الإسلامية والتزامها بها، ومنها أن يظل النظر الإيماني الإسلامي وتصوراته العقدية ومصادر شريعة الإسلام، يظل كل ذلك يشكل الإطار العام للنظام الاجتماعي، ويشكل المرجعية الأساسية والمصدر الأساسي للشريعة العليا المهيمنة في المجتمع على أفراده وسلوكهم ومعاملاتهم.

من هنا يظهر أن الخلاف الذي نشير إليه هنا بين نظام اجتماعي يقوم على الإسلام وبين أي من الرأسمالية أو الاشتراكية، إنما هو الخلاف في الجذور في المسلمة الأولى الخاصة بصلة الأرض بالسماء وصلة الدنيا بالآخرة، والسؤال الآن: هل لهذا الخلاف صلة بنظم الحياة الدنيا وتفاصيلها؟

أتصور أن له وجه اتصال وثيق بذلك، اتصال يرد من مقتضى التصور الإسلامي للأمور، قد تجد تفاصيل من هنا ومن هناك تتشابه بين نظام يقوم على أسس إسلامية ونظام يقوم على أسس علمانية وضعية ولكنه تشابه يظل محدودًا في إطار الجزئيات والمفردات، مع قيام الخلاف البيّن في الصورة العامة والرؤية العامة الحاكمة، وهو خلاف يتعلق بكيفية توظيف هذه المفردات وترتيب علاقاتها بعضها ببعض وكيفية صياغة المعنى العام منها، خلاف يتعلق بهيكل البناء العام وبالوظائف الجوهرية التي يقوم بها والتي توظف التفاصيل والمفردات كلها لخدمتها.

إن مباني المدرسة والمستشفى والفندق تتشابه في أعداد يصعب حصرها من التفاصيل والمفردات، كالطرقات والغرف والنوافذ والأبواب وغير ذلك، ولكن يظل الخلاف واضحًا وكبيرًا وحاسمًا بين كل منها والأخريات من حيث الهيكل العام، وأكثر من ذلك يظل الخلاف جسيمًا في الوظائف المؤداة والأهداف المبتغاة، وما يوجبه هذا في ترتيب

الأولويات وفى النوعية الخاصة التى تترابط بها الأجزاء والمفردات والأساليب الخاصة التى ترسم العلاقات بين الأفراد والجماعات لأداء الأهداف المقصودة وخدمتها.

وفي موضوعنا الذى نتكلم عنه، تضرب مثلاً من ميدان الاقتصاد أشار إليه مالك بن نبى، فهو يرى أن الاقتصاد الماركسى يقوم على فكرة «المنفعة» التى يراها علاقة بين العرض والطلب، وأن الاقتصاد الماركسى يقوم على فكرة «الحاجة» التى يراها علاقة بين الإنتاج والاستهلاك، ويذكر أن التصور الأساسى لكلا الأمرين «المنفعة والحاجة» يقوم على كونهما لا متناهيين، بينما توحى العلاقة الاجتماعية فى تصورها الإسلامى بأن هناك حدودًا متناهية للمنفعة الحسية وللحاجة المادية الحسية أيضًا.

ومثل آخر يمكن أن يساق من ميدان القانون، فالشريعة الإسلامية تقيم وثيق الأواصر بين نظام الحقوق وبين نظام القيم والأخلاق، وهدت الإنسان لإدراك الصيغة الملائمة بين واقعية الأحكام والأخذ بالظاهر وبين الالتزام الأخلاقي، نجد ذلك واضحًا فى العديد من الأحكام التفصيلية، فالشريعة الإسلامية لم تقر حقًا يصدر عن مسلك أخلاقى فاسد قط، بعكس القانون الوضعى الذى يعترف مثلاً بإمكانية اكتساب الملكية بمجرد الظهور بمظهر المالك على الشىء مدة معينة بغير نزاع، أى يقر بالغصب مصدرًا للملك، والفقه الإسلامى يرى فى مثل هذه التصرفات نقمة لا تؤدى إلى نعمة قط.

وأصاب من قال إن القرآن الكريم رفع أصول العلاقات الاجتماعية والقيم التى تصدر منها الحقوق والواجبات، رفعها إلى مستوى غيبي، وعقد الصلة بين الفرد ومسئولية المجتمع وبين الجزاء الروحي ومصير الإنسان وغاية الوجود فقامت الوحدة الحضارية فى الإسلام على العقيدة الروحية.

***

وبموجب تلك الصلة بين العقيدة وبين النظام الاجتماعي، تظهر السمات العامة لنظام الملكية فى الإسلام، فالقانون الوضعى الغربى يعرّف حق الملكية: «بأنه سلطة للفرد على شىء يخوله مكنة استعماله واستغلاله والتصرف فيه»، وتختلف نظريات القانون الوضعى فى الغرب بين ما إذا كان هذا الحق مطلقًا أم أنه ترد عليه قيود تحد من إطلاقه لصالح الجماعة أو لصالح الآخرين، والأمر كله هنا يتعلق بالمصالح ومواجهتها بعضها لبعض، مصلحة المالك ومصلحة غيره من أفراد الملاك أو مصلحة ما تراه الجماعة فى وقت ما، فالحق مصلحة يحميها القانون، والقانون يحميها لمصلحة ما ارتآها فى وقت ما أو فى مرحلة ما، وحدود الحق ترد من مصالح الآخرين ذوى الحقوق الأخرى المعترف بها فى القانون، هنا نلاحظ أن جانب الصراع بين الفرد وغيره من الأفراد، أو بين الفرد وبين الجماعة، هذا الجانب متضمن فى لب التعريف الحقوقى للملكية وفى ضوابطه ومحدداته بحسبانه مصلحة تقيدها مصالح وهى مصلحة ومصالح مادية.

النظرة الإسلامية تخالف ذلك لأنها لا تنظر إلى الحق متعلقًا بالفرد وتطلقه ثم تعود وتحده بالقيود، إنما تذهب إلى أن المال أصلاً مال الله سبحانه، والناس مستخلفون فيه:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(لقمان: ٢٦)

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٨٤، ٨٥)

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(النور: ٣٣)

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد: ٧)

وبما أن الإنسان مستخلف فى الأرض فإن ما يملكه يعتبر أمانة، وهو ملزم بشروط الاستخلاف، وبشروط الأمانة، وهو ملزم بكل ما يتعلق بإفشاء العدل والقسط فى كل ذلك، والملكية هنا اختصاص كما عبّر بعض الفقهاء، والاختصاص آت للمرء بشروطه وبهذا لم تظهر مشكلة نظرية فى الفقه الإسلامي، عندما وضع الحدود والضوابط فى استخدام المال المملوك لأن المال أصلا وديعة عند الناس، ومن ثم ساغ تقرير منع الاحتكار، وساغ تقرير منع الاكتناز امتثالا للنهى القرآني، وساغ تقرير ألا يفسد الإنسان المال بالإهلاك ونحوه، وساغ تقرير أن تعطيل المال لا يجوز لأن مقصود الاستخلاف تعميم النفع على الناس. فمن له أرض مثلا عليه أن يزرعها وأن ينفع بها وينتفع، والإنفاق يكون بالاعتدال.

ساغ كل ذلك من الناحية النظرية، لأن الملكية بتعريف فقهاء الإسلام «حكم شرعى مقدر بالعين أو المنفعة يقتضى تمكن من يضاف إليه من الانتفاع بالشىء وأخذ العوض منه»، أو هى «انتفاع بالعين المملوكة انتفاعا شرعيا بسلطان من الشارع سبحانه»، ومن ثم فهو ليس حقا ناشئا عن العين نفسها ولا عن الصلة المباشرة بين المالك وما يملك، ولكنه صادر عن إذن من الشارع سبحانه وهو إذن مشروط حسب أصله، مشروط لصالح الجماعة وللفرد كعضو فيها وليس منفصلا عنها، وأصل الملكية للشارع سبحانه أعطاها للفرد بترتيب منه وبشروطها.

إن ما اعترف به الفقه الغربى من هذه المبادئ احتاج لعشرات السنين ولجهود نظرية واحتاج إلى ثورات واضطرابات اجتماعية، وذلك للحد من إطلاق حق الملكية ولنزع وشاح القداسة عنه واعتباره مجرد وظيفة اجتماعية.

هذا مثل نسوقه يبين كيف ينبنى نظام الحقوق فى الفكر الإسلامي، على أساس من تلك الصلة العقيدية الإيمانية التى تربط بين السماء والأرض، وتجعل نصوص القرآن والسنة هى مصدر التشريع ورسم الأطر الخاصة بنظم الحياة وعلاقات الناس بعضهم بعض، بحيث إن الالتزام بالقانون لا تكمله سلطة الدولة الآمرة فقط، وإنما يجد سنده من ترابطه مع القيم الأخلاقية التى ترعاها الجماعة فيما بينها، كما يجد شرعيته فى أن الخالق العليم الحكيم سبحانه وتعالى هو مصدر التكليف بالحكم، أمرا كان هذا الحكم أو نهيا. وأن صاحب العمل الذى لا يؤدى للعامل أجره، لا يكون مجرد مخل بالتزامه، إنما يجد نفسه أحد ثلاثة يخاصمهم رسول الله ﷺ «... ورجل استأجر أجيرا فاستوفى حقه ولم يعطه أجره...»، وأن من لا يؤدى دينه فى وقته مع الاستطاعة لا يكون مجرد مخل بالتزامه، إنما يجد نفسه مخالفا أمر الشارع سبحانه فى إيجابه الوفاء بالعهود.

وهكذا يترابط الدين مع حكم القانون مع قيم الأخلاق.

الحقوق الإنسانية للمدنيين في أثناء النزاعات المسلحة (٢)



أ.د/ محمد سليم العوا

٨. الفقه الإسلامي وحقوق المدنيين في القتال:

استقر الفقه الإسلامي على عدم جواز التعرض للمدنيين الذين لا يقاتلون المسلمين، واستند الفقهاء في ذلك إلى النصوص التي سلف ذكرها من الكتاب الكريم وصحيح السنة، وإلى فهم السلف لهذه النصوص المحكمات.

فقد أخرج ابن عبدالبر في الاستذكار(١) عن عمر بن عبدالعزيز أنه أجاب يحيى بن يحيى الغساني حين كتب إليه يسأله عن قول الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)

أن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لكم الحرب. وكتب إلى بعض قواده أن لا تقتلوا امرأة ولا شيخًا ولا صغيرًا ولا راهبًا.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يكتب إلى قواده وعماله ينهاهم عن قتل النساء والصبيان وروى النهي عن ذلك عن ابن عباس. كما يقول ابن عبدالبر، من وجوه كثيرة صحاح.

والعلة في عدم قتل هؤلاء المذكورين جميعًا، هو أنهم لا يقاتلون. ولذلك قال ابن حزم(٢): إنه لا يحل قتل نسائهم، ولا قتل من لم يبلغ منهم، إلا أن يقاتل أحد من هؤلاء، فلا يكون للمسلم نجاة منه إلا بقتله، فله حينئذ أن يقتله. والدليل

(١) الاستذكار ج١٤، ص٦٣.

(٢) المحلى للإمام ابن حزم الظاهري، بتحقيق العلامة الأستاذ أحمد شاكر، ط بيروت، ج٥، ص٢٩٦ (المسألة رقم ٩٢٦).

على ذلك ما روى من أن رسول الله ﷺ رأى امرأة قد قتلت قال: «من قتل هذه؟» فقال رجل: أنا يا رسول الله نازعتني قائم سيفي، فسكت رسول الله ﷺ، وفي بعض الروايات أنها كانت تقاتل، فأسرها ذلك الصحابي، وأردفها خلفه، فأرادت أن تستل سيفه لتقتله، فقتلها وقتلها. فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ(٣).

وقد نفى ابن عبدالبر في الاستذكار(٤) وقوع خلاف في هذا الحكم بين الفقهاء فقال: «لم يختلف العلماء فيمن قاتل من النساء والشيوخ أنه مباح قتله، ومن قدر على القتال من الصبيان، وقاتل، قتل».

ونقل ابن عبدالبر عن مالك وأبي حنيفة وأصحاب أبي حنيفة أنه لا يقتل الأعمى، ولا المعتوه، ولا المُقعد، ولا أصحاب الصوامع الذين طينوا الباب عليهم، لا يخالطون الناس، وقال مالك: «وأرى أن يترك لهم من الأموال مقدار ما يعيشون به إلا أن يخاف من أحدهم فيقتل». وقال الثوري: «لا يقتل الشيخ والمرأة والمقعد». وقال الأوزاعي: «لا يقتل الحراس، والزرّاع، ولا الشيخ الكبير، ولا المجنون، ولا الراهب». وقال الليث: «لا يقتل الراهب في صومعته، ويترك له من ماله القوت»(٥).

وتترك لهم أموالهم، لكفالة حياتهم، وهو المروى عند مالك والأوزاعي والليث ابن سعد(٦).

والمقرر في فقه الشيعة الإمامية أن المسلمين إذا غنموا خيلا للمشركين أو مواشي ثم أدركهم المشركون، وخشي المسلمون أن يؤخذ منهم ما غنموه، فإنه لا يجوز لهم عقر تلك الخيل والمواشي؛ لأن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتل الحيوان لغير مأكلة، ونهى عن قتل الحيوان صبرًا»(٧).

ولا يجوز - في أحد قولي الإمامية - قتل الشيوخ الذين - لا رأى لهم في الحرب، ولا قتال فيهم، كالرهبان وأصحاب الصوامع، ومن لم تبلغه الدعوة من الكفار فلا يجوز قتله(٨).

ويكره قطع الأشجار، ورمي النار، وتسليط المياه، إلا لضرورة، ويحرم إلقاء السم، وقيل يُكره.

ولو تترسوا بالنساء والصبيان منهم كف عنهم إلا في حال التحام الحرب «إذ لا يمكن التمييز عندئذ بين المقاتل وبين من يتخذه المقاتلون ترسًا». وكذلك لو تترسوا بالأسرى المسلمين، فإذا التحم القتال فلو

(٣) الشوكاني، نيل الأوطار، ج٧، ص٢٨١ (من طبعة الحلبي بمصر) وقد عزاه لأبي داود في المراسيل عن عكرمة، وذكر أن الطبراني وصله بسند فيه حجاج بن أرطاة، وهو ضعيف لا يحتج بحديثه.

(٤) الاستذكار، ج١٤، ص٧٤.

(٥) الاستذكار، ج٤، ٧٢.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) الإمام أبوجعفر الطوسي، شيخ الطائفة، كتاب الخلاف، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ١٤١٦هـ.ق. ج٥ ص٥١٩.

(٨) المرجع نفسه، ص٥٢٠. ومعنى «لا قتال فيهم» أنهم لا قدرة لهم عليه.

(٩) المحقق الحلي، شرائع الإسلام، ج١ ص٣١٢ وما بعدها.

قتل الأسير المسلم فتلك ضرورة لا يمكن الجهاد إلا مع تحمل حكمها.

ولا يجوز قتل المجانين ولا الصبيان ولا النساء منهم، إلا مع الاضطرار. ولا يجوز التمثيل بالقتلى ولا الغدر بعد العهد. وتكره الإغارة ليلاً(٩).

٩.قواعد جامعة:

إن القواعد الأخلاقية الإسلامية. وهي أوامر ونواه ملزمة، وليست مجرد وصايا مستحبة، ينفذها من شاء ويهملها من أراد. توجب على الجيوش الإسلامية أن تتحلى بما نصت عليه آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ في شأن القتال، أو النزاعات المسلحة، إذا عرض للمقاتلين غير مقاتلين (وهم المدنيون)، وذلك بالإمساك عنهم، وعدم الإضرار بهم، والمحافظة على أموالهم، وزروعهم، ودوابهم، ودورهم. وأن يتوجه القتال إلى المقاتلين وحدهم دون سواهم، وأن يلتزم فيه بالقواعد الآتية:

التزام التقوى:

وذلك أخذًا من قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

(المائدة: ٨)

ومن قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(التوبة: ٣٦)

في سياق الأمر بقتال المشركين كافة، ومن وصية النبي ﷺ لقواده وجنوده (بتقوى الله في خاصته، ومن معه من المسلمين) والتقوى تعني الالتزام بأمر الله تبارك وتعالى، ونهيه، وهو ما يعبر الفقهاء عنه بأنه (فعل المأمورات واجتناب المنهيات)(١٠).

وينبغي الالتفات إلى أن أمر القرآن الكريم، ووصية النبي ﷺ بالتقوى، يأتيان في سياق التعامل مع الأعداء، الذي هو مظنة التعاون في المحافظة على الحقوق الإنسانية، وعلى الحرمات المحمية في أحوال السلم، وفي أثناء العلاقات الطبيعية، فيأتي النص القرآني والنبوي ليؤكدا عدم جواز هذا التهاون أصلا لا في الحرب ولا في السلم، ولا مع المسلمين، في قتال بينهم، ولا مع غير المسلمين.

ان لا يقع اعتداء في القتال:

وذلك أخذا من قول الله تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾

(البقرة: ١٩٠)

وقوله سبحانه:

﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٩٣)

وقوله جل شأنه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٢)

(١٠) محمد سليم العوا: العبث بالإسلام في حرب الخليج. الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٠، ص٩٧.

فالعدوان غير مشروع كله، ولا يسوغه سبق العدوان من الآخرين، مادام هذا العدوان قد توقف أو انتهى، ولا شك أن إصابة المدنيين، أو قصد قتلهم، أو تخريب أموالهم أو ديارهم أو قتل دوابهم، كل ذلك من العدوان الذي تنهى الآيات سالفة الذكر، وغيرها عنه، نهيا صريحًا لا يحتمل تأويلاً ولا تبديلاً.

ولا ينال من هذه القاعدة أن القرآن الكريم يخاطب المؤمنين بقول الله تعالى:

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

(البقرة: ١٩٤)

لأن معنى العدوان هنا هو ما ذكرته الآية نفسها في مطلعها:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

(البقرة: ١٩٤)

فالمماثلة هي في استباحة الحرب في الشهر الحرام لا في تسويغ الاعتداء بعد انتهاء القتال(١١).

وإباحة رد الاعتداء هنا لا تنافي منع العدوان بمعناه الذي ذكرناه سابقاً.

تحريم الغلول:

والغلول هو الاستيلاء على بعض الغنائم قبل قسمتها، وتحريمه من الوصية المكررة في الأحاديث النبوية، وفي وصايا الخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، أخذا من النهي القرآني المصحوب بالوعيد الشديد، الوارد في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(آل عمران: ١٦١)

ومع ما في الغلول من خيانة، استوجبت تحريمه، فإنه مظنة العدوان على أموال غير المقاتلين من المدنيين، ولذلك حرم أخذ الأموال قبل أن توضع بين يدي القائد العسكري المسئول عن قسمتها، وتطبيق الأحكام الشرعية بشأنها، تطبيقًا يحول بين المسلمين وبين ظلم غير المحاربين بالاستيلاء على أموالهم سرًا، بعيدًا عن رقابة القائم- منهم- على تطبيق الأحكام الإسلامية تطبيقًا صحيحًا.

تحريم الغدر:

والغدر هو خيانة العهد وإخفار الذمة، وهو في القتال: أن يؤمن ثم يقتل، وقد نهى الرسول ﷺ، ونهى أصحابه، عنه. وحذرت نصوص نبوية صحيحة منه؛ ففي الصحيحين ومسند الإمام أحمد، عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس رضي الله

(١١) ينظر تفسير الآية في القرطبي، السابق. وفي أوضح التفاسير لمحمد محمد عبداللطيف (ابن الخطيب) ص٣٥ من الطبعة السادسة.

(١٢) الاستذكار، السابق، ص٨٠.

عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذه غدرة فلان». وقال الإمام ابن عبدالبر: «وهذا حرام بإجماع»(١٢) يعني الغدر، واستدل ابن قدامة في المغني على تحريمه بالآيات الموجبة للوفاء بالعهود.

تحريم المثلة:

لقول النبي ﷺ: «ولا تمثلوا». وهو نهي عن تشويه جثث قتلى المعركة بعد انتهائها، وقال الإمام ابن عبدالبر: «فالمثلة محرمة في السنة المجتمع عليها، قال رسول الله ﷺ: أعف الناس قتلة أهل الإيمان»، وقال: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة»(١٣).

وقد نهى عن المثلة الخلفاء الراشدون، ولم يختلف العلماء في تحريمها(١٤).

عدم جواز التخريب والتحريق في أرض الأعداء:

والنهي عن ذلك ثابت في السنة الصحيحة، وفي وصايا الخلفاء الراشدين. وقال الإمام ابن قدامة في المغني «لا أعلم فيه بين الناس خلافًا»(١٥) وقد نص أبوبكر، رضي الله عنه، في وصيته، التي سلف ذكرها، على المنع من قطع الأشجار وتحريق النحل وتغريقه، وقال ابن قدامة في بيان سبب هذا الحكم: «ولأنه إفساد فيدخل في عموم قوله تعالي:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

{البقرة: ٢٠٥}(١٦)

وفي الحديث الصحيح أن بعض المسلمين كان في «سفر مع النبي ﷺ فرأى حُمَّرة (طائر صغير كالعصفور) معها فرخان فأخذوا فرخيها، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تفرش (أو تَعَرَّش) فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»(١٧).

أفرأيت الدين الذي يحافظ على حقوق النحل، وصغار الطير؟ أيمكن أن تقبل قواعده، أو يبيح فقهه، العدوان على المدنيين من البشر، أو التعرض لهم في قتال لم يشاركوا فيه، ولا أعانوا عليه؟!

ولذلك جاء نص المادة الثالثة من إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان في الإسلام على أنه:

أ- في حالة استخدام القوة أو المنازعات المسلحة لا يجوز قتل من لا مشاركة لهم في القتال كالشيخ والمرأة والطفل. وللجريح والمريض الحق في أن يداوى وللأسير

(١٢) المرجع نفسه. وأنظر تخريج الحديثين في حاشيتيه رقم (٢) و(٣).

(١٣) العلاقات الدولية في الإسلام وقت الحرب. السابق. ص٥٦ ـ ٥٨.

(١٤) المغني ج١٣، ص١٣٩.

(١٥) السابق ص١٤٢.

(١٦) صحيح سنن أبي داود رقم ٢٣٢٩، ج٢، ص٥٠٨ ومعنى تفرش أو تعرش: أي ترفرف بجناحيها تحوم حول طائرة أو تقف على الأرض فيه.

أن يطعم ويؤى ويكسى، ويحرم التمثيل بالقتلى، ويجب تبادل الأسرى، وتلاقي واجتماع الأسر التي فرقتها ظروف القتال.

ب- لا يجوز قطع الشجر أو إتلاف الزرع والضرع أو تخريب المباني والمنشآت المدنية للعدو بقصف أو نسف أو غير ذلك.

جاء هذا النص معبرًا تعبيرًا موجزًا، وصادقًا، عن خلاصة الأحكام الإسلامية في شأن معاملة المدنيين في أثناء النزاعات المسلحة.

ولينظر ذو بصر فيما يجري، في دنيا الناس اليوم، من كيفية معاملة الأسرى المسلمين، الذين أخذوا في أعقاب القصف الأمريكي لأفغانستان، من حجزهم في أقفاص كأقفاص الحيوانات العجماء، ومن نقلهم -قبل ذلك- مقيدين، ومخدرين، ومربوطين إلى مقاعدهم، لا يقدرون على الحركة، في رحلة بلغ طولها بضعًا وعشرين ساعة، ثم يأبى آسروهم أن يعاملوهم بمقتضى اتفاقيات جنيف التي أشرنا إليها(١٨)، ويكون آخر ما تشر من أنبائهم أنهم يعتدى عليهم وهم يصلون، وأن بعضهم سوف يعدم، والبعض الآخر سيسلم إلى بلده شريطة أن يحاكم فيها تحت إشراف أمريكي(١٩).

ولينظر ذو بصر، لنفسه، فيما يصنعه العدو الصهيوني في المدنيين الفلسطينيين، الذين يُختطفون من مخيمات اللاجئين، ويساقون وعيونهم معصوبة وعلى جباههم أرقام مكتوبة. كما يصنع بالأنعام تساق إلى الذبح. فيودعون سجونًا لا يعلم ما يصيبهم فيها إلا الله، وذلك يحدث لقوم لم يمسكوا سلاحًا ولم يقتلوا أحدًا، بزعم مقاومة الإرهاب!

ولينظر ذو بصر، لنفسه، فيما جرى للمدنيين الأبرياء في أثناء الثورات العربية في تونس ومصر وليبيا واليمن، وما لا يزال يجري حتى اليوم للمدنيين الأبرياء العزل في سوريا. وهذا كله قتال بين مسلمين ومسلمين محرم في أصله ومحرم ما يصيب المدنيين فيه، من باب أولى. وهذا ما حدث لمعظم هؤلاء. ولا يزال فريق منهم في ذلك السجن الرهيب (جوانتانامو) يسامون سوء العذاب لا رقيب ولا حسيب.

أقول: لينظر ذو بصر إلى ذلك، وليحكم لنفسه، أي الفريقين أهدى سبيلاً وأصدق قيلا: المسلمون، المستمسكون بدينهم، المتهمون ـ ظلمًا وزورًا ـ بكل نقيصة، أم أولئك الذين يحكمون بما يهورون، من المتسمين بأصحاب المدنية والحضارة، ومن الحكام في بلاد الإسلام، وهم جميعًا لا يرقبون في بشر ـ إن كرهوه ـ إلاً ولا ذمة، ولا يخافون حسابًا ولا نشورًا؟

(١٨) الأهرام القاهرية، ٢٠٠٢/١/١٤ (مقال الكاتب أحمد بهجت تحت عنوان: صندوق الدنيا).

(١٩) صحيفة الحياة اللندنية، ٢٠٠٢/٢/٢٨ م وقبله ٢٠٠٢/٢/٢٦.

الحضارات بين التفاعل والغزو الفكرى

إعداد:
أشرف موسي - محمد الصان

الحضارة كما يعرفها صامويل هنتنجتون «هى التجمعات الثقافية الأعلى للناس والمستوى الأوسع للهوية الثقافية .. وللناس مستويات للهوية فمن يسكن فى روما قد يعرف نفسه بدرجات متفاوتة من القوة فى تعبيرات مثل: روماني، إيطالي، كاثوليكي، مسيحي، أوروبي، غربي. إن الحضارة التى ينتمى لها هذا الشخص هى المستوى الأشمل للتعريف الذى عرف به نفسه».[1]

وبتفصيل أدق يشير نفس الكاتب إلى أن الحضارة تحوى عنصرين، الأول هو العناصر الموضوعية المشتركة مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والأعراف، والثاني، عناصر ذاتيه بمعنى التماثل الذاتى بين الناس.

ولكن واقعًا يبقى الدين هو العامل الحيوى والمؤثر فى قيام الحضارة والحفاظ على بقائها أيضًا، يقول كريستوفر داوسون (الديانات الكبرى هى الأساس الذى تقوم عليه الحضارات الكبرى) [2] ففعليًا إذا نظرنا لحضارات العالم الآن نجد أنها ترجع فى الأصل إلى أديان رئيسية كالمسيحية والإسلام والكنفوشيوسية والهندوسية[3].

(1) صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي. صامويل هنتنجتون. ترجمة عباس هلال كاظم ص٤٩.

2) THE DYNAMICS OF WORLD HISTORY BY CHRISTOPHER DAWSON EDITED BY jOHN JMULLOY

(3) المسيحية أصل بداية الحضارة الغربية. أما الكنفوشيوسية فهى دين الحضارة الصينية وهى مذهب واتجاه انبثق من البوذية فى أصله ولكن طمست فيه معالم البوذية الأجنبية تمامًا. «وتحدث ويبر عن خمسة أديان فقال بأن الأديان العالمية أربعة ـ المسيحية والإسلام والهندوسية والكنفوشيوسية وهى مشتركة بين الحضارات الرئيسية. أما الخامسة فهى البوذية ليست عالمية». المصدر. صدام الحضارات. صامويل هنتنجتون. ترجمة عباس هلال كاظم ص٦٣.

أشكال العلاقة بين الحضارات

للحضارات المختلفة (قديمًا وحديثًا) أشكال من العلاقات ربما لا تخرج عن تلك الحالات:

١- الحوار الحضارى وهى مرحلة مثالية من الاجتماع بين من يمثلون النخب وفلاسفة ومفكرى الحضارات المختلفة يتم فيها التباحث عن المشتركات الإنسانية وعوامل اتفاق كل حضارة والحديث عن أوجه الخلاف بشكل غرضه التعارف والتفاهم فقط وهو مايسمى بحوار الحضارات، يقول الدكتور محمد سليم العوا: «وحوار الحضارات مطلب إسلامى عبر عنه كثير من المفكرين الإسلاميين، بل ردوا به على تحليلات صامويل هنتنجتون الخطيرة والمخيفة» [4] وقد وضع له الدكتور العوا شروطًا لإتمام نجاحه منها:

أ- الاعتراف المتبادل بكل حضارة، أصالتها وعراقتها ودورها لخدمة الإنسانية.

ب- التبادل الثقافى والحضارى للآراء والمواقف.

ج- الاستمرارية والتجدد الحواري.

د- الحوار يجب أن يكون فى إطار الفكر والثقافة بعيدًا عن العلاقات السياسية والتبادل الاقتصادى والخلافات الدينية.

٢- التصادم وفيه الكلام عن مرحلة الغزو الفكرى كمرحلة أولية للغزو والاحتلال العسكرى والاقتصادى أو ربما تأتى كنتيجة لما بعد مرحلة الاحتلال كما هو الحال فى مرحلة مابعد الاحتلال الإنجليزى والفرنسى لمنطقتنا العربية والإسلامية والتى أعقبها تغيير نمط الحياة والأفكار فى تلك الدول لدرجة بلغت أوجها حتى بعد خروج المحتل ونيل تلك الدول استقلالها السياسي!!

٣- التفاعل الحضارى وهى مرحلة وسيطة بين الحالتين السابقتين نتكلم عنها الآن.

التفاعل الحضارى

قبل الخوض فى مسألة الغزو الفكرى لابد أن نشير أولا إلى مايسمى بالتفاعل الحضارى حتى إذا مابان جليا ذلك المفهوم وشروطه، ظهر الفارق بينه وبين قضية الغزو الفكرى.

مقياس التفاعل الحضارى

أفرد الدكتور محمد عمارة فى كتابه «الغزو الفكري» مقياسين مهمين بمجرد حصولها تتم تلك الحالة من التفاعل الحضارى بين حضارتين مختلفتين والشرطان هما:

١- التفاعل وتبادل المشتركات الإنسانية للحضارات.

٢- عدم التأثير فى الخصوصية لكل حضارة.

فالمشتركات الإنسانية هى فى نظرى حالة من حالات المطلقات التى تخدم الإنسانية بوجه عام ولا يختلف عليها اثنان ولعل من أهم مصاديقها مثلا البحث العلمى والتقدم التكنولوجى فى شتى مجالات العلم المادى القائم على التجربة والاستنتاج وذلك مثل الطب والتقدم النووى والفيزيائى والهندسى والتقنى وغيره من شتى مجالات العلم المادى والتى تخدم بشأنها الإنسان وترفع المجتمعات والحضارات المختلفة إلى آفاق التقدم والتطور

(4) مقال بعنوان: حوار الحضارات، شروطه ونطاقه للدكتور محمد سليم العوا
http://www.siironline.org/alabwab/iosoor/023.html

المدنى المطلوب والذى لا يمكن لأى حضارة أن ترفضه أو تقاومه طالما يخدم الإنسانية ولم يتم توجيهه للحروب والدمار كما كان الحال فى شأن صنع القنابل النووية والأسلحة البيولوجية والكيماوية وغيرها.

كذلك فبعض العلوم الإنسانية مثل علم النفس مثلا يصبح التباحث والتبادل الحضارى فيه مهمًا ويخدم الإطار نفسه، وفى المجمل فإن قضية نهضة الإنسان والصعود بالمسار المجتمعي بوجه عام كقضية كلية لها ضرورتها لا يختلف عليها اثنان، ولكن التباين يتمثل فى خصوصية كل حضارة فى طرح سبل الإصلاح الإنساني والاجتماعي بما تقتضيه فلسفة كل حضارة ورؤيتها حول طبيعة الإنسان نفسه وفلسفة وجوده ومدى علاقته بالغيب من عدمها وبالتالى تتدرج العلوم التى تحدد طريقة الإصلاح فى كل حضارة تحت إطار خصوصية تلك الحضارة، فيكون لكل حضارة أداة معرفية خاصة ورؤية كونية متفردة وفلسفة متمايزة تؤدى إلى أيدولوجية معينة تتمثل فى طريقة سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية مختلفة تعبر عن تلك الحضارة وتدخل فى دائرة الخصوصية لتلك الحضارة.

ويضرب الدكتور عمارة فى كتابه «الغزو الفكري» مثالاً رائعًا عن تلك الحالة فيقول (فالعالم والمثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من النفور أو الغربة أو الاستغراب، إذا هو نظر فى الحقائق والقوانين التى أبدعتها الحضارة الغربية فى الكيمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والجيولوجيا والطاقة .. إلخ .. إلخ .. وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم فى الممارسة والتطبيق .. كما أنه مستطيع - دونما حرج أو تعديل - أن يبدأ إبداعاته وإضافاته فى ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الإبداع الغربي فى ميادينها .. لأنه هنا أمام «فكر» هو مشترك إنساني عام».

لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر فى كثير من «المكونات الثقافية» التى هى طبيعية فى إطارها الغربي .. ففنون الغرب التى لا تحرم العري، بل تقيم تماثيله فى الميادين والمنتزهات .. وفلسفات هذا الغرب التى لا تحرم «الحرية الجنسية» طالما خلت من الجبر والإكراه والاغتصاب .. ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد، ولا الدعوة إليهما ولا التبشير بهما .. والتى تؤسس علومها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على النزعة المادية، التى ترى فى الإنسان سيدًا لهذا الكون والمحور الحاكم بإطلاق فى هذا الوجود .. هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والآداب .. وما ماثلها، لابد وأن تثير فى نفس العالم والمثقف المسلم من النفور والغرابة ما لا يجده عندما ينظر فى إبداع الغرب بميادين علوم المادة وظواهر الطبيعة .. لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب، يجد نفسه بإزاء «خصوصية حضارية غربية»، تتميز عن «الفكر» الموضوعي، الذى هو «مشترك إنساني عام».

إذن، فهناك على وجه التحقيق، فى الفكر الإنساني، ما هو «مشترك» .. وما هو «خاص» .. وإذا كان هذا هو القول العام والمجمل - فلا بد له من التفصيل الذى يضع النقاط على الحروف!(٥).

وعمليا، فإن تلك الحالة من التفاعل الحضارى تتم بصورة تلقائية نتيجة انفتاح الحضارتين على بعضهما وصور ذلك كثيرة لا تحصى فمنها حركات ترجمة كتب ومؤلفات مفكرى وأدباء كل حضارة كذلك التبادل التجارى للبضائع والمنتجات والأدوية يتم فى صورة امتزاج بين تجار وأطباء الحضارتين وقد يكون بصورة أوسع نتيجة التطبيع الكامل حتى على المستوى الحكومى والرسمى بين الحضارتين ويتمثل فى البعثات العلمية المتبادلة وتبادل الخبرات فى كافة المجالات.

وحتى لا تقع حضارة ما أسيرة للغزو الفكرى والثقافي للأخرى ينبغى المحافظة على المظهرين الفائتين ويظهر ذلك فى تلك المطالب أو الشروط:

أولا: الإدراك المعرفى لمفكرى تلك الحضارة وساستها لطبيعة المشتركات الإنسانية العامة وضرورة الانفتاح على الحضارات الأخرى لاكتسابها وإلا تعرضت تلك الحضارة للعزلة وتأخرت فى ركوب حافلة التقدم المادى والعلمى المفيد للإنسانية وتلك أولى درجات الضياع .. وهنا يظهر دور علماء الدين والقادة الروحانيين فى تلك الحضارة مثلما ظهروا فى حضارتنا الإسلامية مباركين لخطوة التقدم المادى والعلمى بل إن بعضهم كابن سينا وجابر ابن حيان والحسن بن الهيثم والبيرونى (رغم أن منهم من كان فى الأصل فيلسوفا ومفكرًا) كانت لهم إسهامات علمية تجريبية فى الطب والكيمياء والجغرافيا والبصريات خدمت التطور العلمي لحضارتنا واستفادت منها الحضارة الغربية فيما بعد.

ثانيا: الفهم العميق لخصوصية الحضارة والاستعداد للدفاع عنها حتى لا تنسحق وتذوب فى أفكار الآخر، وهنا يأتى دور مفكرى ومتكلمى تلك الحضارة مدافعين عن فلسفة ورؤية تلك الحضارة المعرفية بوجه عام ولا ينكر أداء علماء الأخلاق والقادة الروحيين المهم فى المحافظة التطبيقية على أسس تلك الحضارة ومبانيها .. وباصطلاح آخر لمفهوم الخصوصية نطلق عليه مايسمى بالهوية الفكرية والثقافية للحضارة.

نماذج للتفاعل الحضاري

وبتطبيق ذلك على الحضارة الإسلامية نجد حالات كثيرة من القوة والضعف انتابت تاريخها القديم وحتى المعاصر مما جعلها تارة تقع أسيرة للغزو الفكرى من الآخر وتارة أخرى تنجح فى احتواء الثقافات الوافدة بالتفاعل الحضارى المطلوب وهو ماحدث بين الحضارة الإسلامية ومثيلتيها فى فارس والهند ليس هناك شك فى أن الفتح العربى للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس - بمواريثهم الحضارية الغنية - فى إطار الدولة الإسلامية، قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضارى واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي، الذى كان النواة التى تتبلور من حولها الحضارة العربية الإسلامية الجديدة .. ولقد زاد من فرص هذا التفاعل ما بلغه العنصر الفارسي، حامل الميراث الحضارى الفارسي، من مواقع مؤثرة فى دوائر الفكر والسلطة، فى دولة الخلافة، وخاصة العباسية منها .. وما بلغه العلماء، من ذوى الأصول الفارسية، بميدان الفكر من جودة فى الإبداع وتنوع فى ميادين العطاء.

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر

(٥) الغزو الفكري وهم أم حقيقة. د. محمد عمارة. دار الشروق. ص٢٠ و٢١ و٢٢.

الإسلامي، إبان تبلور حضارته، وبين الميراث الفارسي الوافد والطارئ بعد الفتوحات، يستطيع أن يميز بين ما «قبل» وبين ما «رفض»، أو ووجه بالمعارضة أو المقاومة من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب .. وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية: النيل، وبردى، ودجلة، والفرات .. ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبني النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية، والذي كان يسمى «وضائع كسرى»، وظل سائدًا ومعمولا به حتى عدل في ظل الدولة العباسية .. فهنا تم استلهام تجربة حضارية وخبرة قومية في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية.

لكن العرب كانوا حذرين كل الحذر، وشديدي الرفض والمقاومة لكل ما هو «خصوصية حضارية» فارسية تتعارض مع معايير الإسلام وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة .. لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهي نمط متميز في نظم الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية، التي كانت ترى رأس الدولة - كسرى - ابنًا للإله «أهورا - مزدا»، يحكم باسمه، ونيابة عنه، زاعما أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين .. كذلك رفضت حضارتنا الإسلامية ميراث الفرس في «النظام الطبقي المغلق»، لتعارضه الجذري مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات .. والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام «الملل والنحل» وصراعهم الفكري مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية، يدركون المقاومة الباسلة التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم من قبل حضارتنا العربية والإسلامية .. فالمجوسية والزرادشتية .. ومذاهب مثل المانوية «الثنوية» بفرقها المتعددة .. تحتل معارضتها صفحات كثيرة في عشرات المجلدات التي تصدت للوافد الضار والمرفوض .. وكذلك صنع المتكلمون والفلاسفة المسلمون مع «الغنوصية» التي كانت ثمرة هلينية في تربة التصوف والعرفان الشرقي، اتجهت إلى تحصيل المعرفة بالذوق والحدس، وليس بالعقل أو الحواس.

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية، ولعلوم التمدن العملي .. كان الحذر، بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة لمعاييرنا الحضارية، إما في السياسة أو في الاجتماع أو في الدين أو في الفلسفات (٦).

ومع الحضارة الهندية، عندما التقت حضارتنا الإسلامية بمواريث الهندوس عمل كذلك هذا القانون، فالبيروني الذي نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عاما عقب الفتح الغزنوي لبعض أقاليمها، والذي درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقري المتفرد .. البيروني هذا يعلمنا - دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه - كيف ميز أسلافنا في تراث الهند مثلا بين الحساب الهندي والفلك، فأخذوهما وطوروهما، وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية .. إلخ - كيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية التي أخذوها وطوروها، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التي رفضوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ومع إلهية المصدر الديني في الإسلام، كديانة سماوية نزل بها الوحي على الرسول ﷺ (٧).

الغزو الفكري والاحتلال الثقافي

يقصد بمصطلح الغزو «إغارة الأعداء على أمة من الأمم، بأسلحة معينة، وأساليب متعددة، لتدمير قواها الداخلية وعزائمها ومقوماتها، وانتهاب كل ما لديها» (٨) ولتوضيح الفارق والمقارنة فيما بين الغزو الفكري والعسكري يقول الدكتور علي عبدالحليم محمود «ولذا كان الغزو الفكري أشد عنفًا - من الغزو العسكري - لأن الأمة المهزومة فكريًا تسير إلى غازيها، عن طواعية، وإلى جزارها عن رضا واقتناع وحب، ولا تحاول التمرد أو الخلاص، وبهذا يتبين الارتباط بين مفهوم الاصطلاح ومدلول اللغة من صلة، حيث إن لفظ الغزو استعمل في معناه، وهو الإغارة على أمة من الأمم للاعتداء عليها، وانتهاب مقوماتها الفكرية لتدميرها.» (٩)

وقد يكون الغزو الفكري مختلطا بشكل من أشكال الغزو العسكري سواء كان ممهدًا لظهوره أو ناتجا عنه أو ملتصقا به، وبالرغم من ذلك فالاحتلال العسكري ليس شرطًا لوجود نظيره الثقافي، فما يحدث في العالم الآن من سيطرة للمد التغريبي المادي لا يتم في كثير من الأحيان بالآلة العسكرية .. بل إن الأدوات الناعمة لحدوثه باتت أقوى تأثيرًا من الوسيلة العسكرية التي لا تتدخل إلا في حالات الضرورة القصوى كما في حالة استعصاء أي كيان أو دولة على الانسحاق التام والذوبان في الإطار التغريبي وهو ماستتحدث عنه لاحقا في الكلام عن النظام العالمي المعاصر.

وكذلك العكس أيضًا، فلا يؤدي الاحتلال العسكري إلى حتمية التأثير الفكري والثقافي فقد استمر العصر الهلليستي حتى عام ٣٢ قبل الميلاد وحتى بعد ضم اليونان إلى الجمهورية الرومانية عام ١٤٦ قبل الميلاد ظل هذا العصر والفكر قائمًا في الشام ومصر تحت حكم السليوقيين والبطالمة وانتهى ما يعرف بالعصر الهلليستي بعد سقوط كليوباترا ودخول الرومان إلى الإسكندرية، إلا أنه واقعيا لم يستطع الفاتح المنتصر الوقوف أمام الثقافة اليونانية بل تأثر بها واستمرت الثقافة اليونانية في الإنتاج «باللغة اللاتينية» وانتهت فعليا بعد انتشار المسيحية ومقتل آخر فلاسفة الفكر اليوناني «هيباتيا» بمصر، كذلك كان تأثير الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ضعيفا على المستوى الفلسفي والفكري فلم يتأثر المصريون بفكرة الثورة الفرنسية القائمة على فلسفة الحرية وإن بدا ذلك في مقاومتهم للمحتل الفرنسي إلا أن فكرة المقاومة للمحتل هي فكرة فطرية أصيلة لا يتسبب في حصولها أي ثقافة أو فكرة وافدة.

يتبع

(٦) المصدر نفسه ص٢٠٨ - ٢١١.

(٧) المصدر نفسه ص٢١٦.

(٨) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. يوسف الراعي ط ١٤٠٨ ص٦٨.

(٩) التيارات الفكرية القديمة والمعاصرة، وموقف الإسلام منها دكتور سامي عفيفي حجازي ص١١٦.

أوضاع المسلمين فى وسط إفريقيا



د. أحمد سمي حدو محمد النور
السودان
[illegible]@hotmail.com

جمهورية أفريقيا الوسطى

تحدثنا فى المقال السابق عن حال المسلمين فى تشاد المسلمة- ففى أوضاع المسلمين فى جمهورية إفريقيا الوسطي، تبدو الأوضاع أكثر قتامة من تشاد، لأن الدولتين بحكم وضعهما السياسي، ينتميان إلى منظومة الدول الأقل نموًا بوسط إفريقيا، بالرغم من التصريح الذى أدلى به (محمد مهدى ماربوا) وزير الدولة للشئون المالية والاقتصادية، بجمهورية إفريقيا الوسطي، ورئيس الطائفة الإسلامية، لموقع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس فى ليبيا، فى ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٤م، مفاده أن المسلمين بإفريقيا الوسطي، لا يعانون من أى مشكلات سياسية أو عقائدية، وأنهم يتمتعون بحرية تامة فى ممارسة شعائرهم الدينية، ولا يتعرضون لأى اضطهاد سياسي، بدليل أنهم ممثلون بشكل جيد، فى البرلمان والحكومة التى بها أربعة وزراء مسلمين، إلا أن الواقع يكذب ذلك تمامًا، لأن المسلمين فى هذه الدولة، يمثلون أقلية مسلمة، لا تزيد نسبتهم عن ٥ ٪ من مجموع السكان، حسب آخر إحصاء سكاني لسنة ١٩٩٦م، بل وتكشف بعض المصادر عن تباين أوضاعهم فى هذه الدولة، بحيث يعيش المسلمون كفئة مضطهدة ومهمشة، وأن وزنهم السياسي لا يتناسب على الإطلاق مع تعدادهم السكاني، وعراقة الوجود الإسلامي هناك إذا أضفنا إليهم أكثرية الجالية اللبنانية التى تدين بالإسلام، والتى نجحت فى أن تنتزع اعترافًا سياسيًا من الحكومة بفعالية وخطورة وجودها - على الأقل - فى العاصمة بانقي، خاصة وأن هذه الجالية قد تمكنت من إقامة علاقات سياسية متميزة مع السلطة الحاكمة، ومنهم السيد (كميل فنيانوس)، الذى حظى بالترشيح لمنصب رفيع ألا وهو منصب القنصل الفخرى لجمهورية إفريقيا الوسطى منذ عام ١٩٩٤م، لسد الفراغ الذى أحدثه غياب ممثل للسفارة اللبنانية هناك، مما يعنى أن أوضاع المسلمين فى هذه الدولة، تحتاج إلى استراتيجية خاصة تسعى إلى تحسين أوضاعهم السياسية، إذا علمنا بأن الإسلام فى هذه الدولة يواجه استهدافًا مباشرًا، ظلت تمارسه الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية، فى محاولة لتشويه صورته، وتكذيب وقائعه، بل والتشكيك فى حقيقة وجوده أصلاً، من حيث كونه نظامًا شاملاً للحياة، لأن حقيقة الإسلام كما أكدها (محمد إقبال) تبدو دينًا وعقيدة، إذا نظرنا إليها من ناحية، وتبدو دولة إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى، ونتيجة لتأثيرات سيطرة الغرب على بلاد المسلمين فى الآونة الأخيرة، فقد برزت فى الوسط التعليمى الغربي، الذى أسس له المستعمرون، مبادئ مثل فصل الدين عن الدولة، وتحميل الإسلام ورموزه مسئولية الانحطاط والتردى الأخلاقى الحادث بدول هذا الإقليم، وليس أدل على ذلك من السلوك المنحط الذى أقدم عليه القس أو الأب (جان الأكير)، الأستاذ بالمدرسة الثانوية المختلطة، فى إفريقيا الوسطى، بدعوته لعدد من الفتيات المسلمات الفقيرات والتقط لهن صورًا خليعة وفاضحة، مستغلاً ظروفهن المعيشية الصعبة، بهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين هناك، فهذا جزء يسير مما فعلته المؤسسات الكنسية فى العاصمة بانقي، سواء أكانت كاثوليكية أم بروتستانتية، مما يشير بوضوح إلى أن أوضاع المسلمين العقائدية والسياسية فى هذا البلد، ليست على ما يرام، بدليل الاضطهاد الذى ظل يمارس حتى الآن ضد القبائل التى تمثل أقليات مسلمة، وظلت محتفظة بإسلامها، بالرغم من كل هذا الجور والعسف، مثل قبائل القولا، والكارا، والبولو فى شرق البلاد، وقبائل الرونقا فى الشمال، بالإضافة إلى قبائل الأمبررو من الفلاتة الرحل، الذين يعيشون أوضاعًا مأساوية، تتمثل فى الجهل والفقر والمرض، فقد حالت الحركات التبشيرية دون التحاق أبنائهم بالمدارس، وحتى الذين يحالفهم الحظ منهم، ويوفقون فى دخول المدرسة، يجدون الباب أمامهم موصدًا، لا لشيء إلا لأنهم من المسلمين الوافدين إلى إفريقيا الوسطى من الخارج، سواء جاءوا من السودان أو تشاد، حتى ولو كانوا يحملون جنسية إفريقيا الوسطى.

وبذلك استطاعت الدوائر الكنسية، أن تولد قناعة راسخة، لدى الأقليات المسلمة، بدولة أفريقيا الوسطي، بأن من لا يدين بالمسيحية أو الوثنية، فهو أجنبى أو وافد، غير مرغوب فيه، ولذات السبب لم يتمكن الطلاب المسلمون، من مواصلة دراساتهم، مما اضطرهم لأن يضيفوا إلى أسمائهم أسماءً أفرنجية، أما الموظفون فكذلك يعانون أوضاعًا قاهرة، لا تتناسب وحقهم الطبيعى فى العيش كمواطنين، ناهيك عن كونهم مسلمين، بحيث أصبحوا يوضعون فى مراكز قليلة الأهمية السياسية أو الإدارية، مما ترك آثارًا سيئة فى نفوس الشباب المسلم بهذه الدولة، وبقراءة فاحصة لهذا الواقع، نستنتج أن المسلمين فى إفريقيا الوسطي، يعيشون واقعًا، أقل ما يمكن أن يوصف به، هو التغريب الثقافي،

والظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والانتصار للأهواء والمصالح والعصبيات، بل والارتماء في أحضان القوى الدولية المعادية للإسلام، مما يضاعف من غربة المجتمع المسلم هناك، التى سوف تحول بينه وبين انعتاقه من الاستلاب الثقافي، الذى ظل يسعى وبطرق ووسائل متعددة، لطمس معالم ومظاهر الإسلام، بدولة إفريقيا الوسطى بصفة خاصة، وإقليم وسط إفريقيا بصفة عامة، فقد عرف هذا الإقليم هذه الأخطار والمهددات، بسبب وجود الأقليات المسلمة، والطوائف الدينية المتصارعة، مع العلم بأن هذه الطوائف نفسها لم تنشأ نشأة ذاتية، وإنما نتيجة لجملة تفاعلات وتأثيرات، ذات طابع إسلامي، وفدت إلى المنطقة منذ قرون خلت، وفى ظروف مواتية، وللحيلولة دون تنامى المد الإسلامى فى هذا الإقليم، كان لابد للصهيونية العالمية، ومن ورائها أمريكا وفرنسا، وبعض الدوائر الكنسية، أن تحاول تكريس صراعات هامشية مفتعلة، لتغذية روح العنصرية والقبلية والأثنية، لا يستفيد منها غير خصوم الإسلام بهدف طمس هويته العربية لإفريقية. وبالتالى فإن من مصلحة الدول - أى دولة - أن تتعامل مع المسلمين الذين يعيشون على أراضيها، على أساس المواطنة، وباعتبارهم أقلية لها وزنها، ودورها فى الحياة السياسية، وليس على أساس أمنى أو عقائدى مما يشعرهم بأنهم مجرد جاليات أجنبية فى أوطانهم.

الكاميرون

أما الكاميرون فهى كذلك، تدخل فى إطار منظومة دول إقليم وسط إفريقيا الناطقة بالفرنسية، وتقع على المحيط الأطلسي، عند نقطة التقاء وسط إفريقيا بغربها، وتحدها من الغرب نيجيريا، ومن الشرق تشاد وإفريقيا الوسطى، ومن الشمال تشاد وبحيرة تشاد، ومن الجنوب الكنغو برازافيل، وعاصمتها السياسية ياوندي، أما عاصمتها الاقتصادية فهى دوالا، وبسبب الإرث الاستعمارى فقد أصبحت رسميًا ثنائية اللغة (الفرنسية والإنجليزية)، فضلاً عن وجود مائة لغة ولهجة محلية، ويدين شعبها بالإسلام، والمسيحية والديانة الإحيائية الوثنية، ويعتنق ما يقرب من ٤٥٪ من السكان الديانة لإفريقية التقليدية، و ٣٥٪ منهم النصرانية، فيما يعتنق ٢٠٪ فقط الإسلام، من مجموع السكان البالغ تعدادهم ١٣,٥ مليون نسمة.

أما النظام السياسى المطبق حاليًا فى الكاميرون فهو التعددية السياسية الحزبية، ونسبة لتعذر الحصول على البيانات والإحصائيات، وغياب المعلومات ذات الصلة بأوضاع المسلمين فى هذه الدولة، إلا أننا قد حاولنا جهد المستطاع الحصول على مؤشرات واتجاهات عامة، يمكننا من خلالها قراءة وتفسير واقع أوضاع المسلمين هناك، لمعرفة الاتجاه الذى تسير فيه الأمور، لذلك اعتمدنا أساسًا على نتائج الاستبانة التى ضمناها بعض الأسئلة التى شملت عدة محاور، هى المحور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى والثقافي، ومن خلال المتغيرات التى حصلنا عليها، عند تحليلنا لنتائج الاستبانة، تبين لنا بأن المسلمين فى هذه الدولة، يعيشون أوضاعًا سياسية سيئة وقليلة الأهمية، وعديمة الفعالية، بحكم وضعهم كأقليات مسلمة مستضعفة، بدليل أن حجم مشاركتهم السياسية ضعيف بشكل يدخله فى خانة العدم، إذ لا نصيب لهم فى الحقائب الوزارية، فقد انحصر تمثيلهم السياسى فقط فى بعض الوظائف الإدارية قليلة الأهمية، بحيث ظلوا بعيدين تمامًا عن المشاركة فى جهاز الدولة السياسي، لأن تمثيلهم السياسى وإن وجد، فغالبًا ما يتم على أسس قبلية وجهوية، فاتسم دورهم بعدم الفعالية، لعدم وجود أحزاب سياسية تعبر عن وجهة نظرهم، وتمكنهم من طرح قضاياهم ومشاكلهم، وإسماع صوتهم للدولة، مما يؤكد بأنهم يمثلون بالفعل أقلية مسلمة مكسورة الجناح، وضائعة الحقوق، مما وضعها فى محط أنظار حركات التنصير، التى ظلت تنشط فى أماكن تركيز سكن المسلمين، للتأثير على أوضاعهم السياسية والاجتماعية، من خلال اصطياد ضعاف الإيمان، باستغلال ظروفهم الاقتصادية القاهرة، من جراء الفقر والجهل والمرض، الذى ظلوا يرزحون تحت وطأته وسلطانه، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون مستضعفون، لا صوت لهم على الساحة السياسية.

الكنغو برازافيل

ولا يقل الحال قتامة إذا ما تعرضنا لأحوال وأوضاع المسلمين فى الكنغو برازافيل، التى تبدو أسوأ، لأنهم فى الواقع يمثلون أقلية مسلمة لا تزيد نسبتها عن ٣٪ فقط من إجمالى السكان البالغ تعدادهم ٢,٦٦٢,٠٠٠ نسمة حسب إحصائية عام ١٩٩٦م، مما انعكس سلبًا، على دورهم السياسى المتمثل فى عدم قدرتهم على التأثير، فى مجرى الحياة السياسية هناك، بحكم وضعهم كأقلية مسلمة، فلم تكن لديهم أحزاب سياسية تمثلهم فى البرلمان أو الجهاز التشريعي، أو التنفيذى فى الدولة، مما يشير بوضوح بأنهم فى وضع سياسى غير فعال وغير منفعل، بما يجرى حولهم من تطورات سياسية، الأمر الذى جعلهم هدفًا سهل المنال، لبرامج وأنشطة حركات التنصير، التى ظلت تنشط وسط الأحياء الفقيرة التى يسكنها المسلمون فى الكنغو برازافيل.

والخلاصة هى أن المسلمين فى هذا الإقليم، يواجهون بعض التحديات، المتمثلة فى الضعف الداخلي، الذى بدأ يفت فى عضد هذه المجتمعات المسلمة فى هذه الدول، بحيث أصبحوا يعانون من عوامل الاغتراب، والاستلاب الثقافي، والفكري، الموجه ضدهم من قبل الصهيونيج العالمية، وحركات التنصير، بهدف تكريس عوامل الضعف والاستسلام، وتعميق التبعية المذلة لهذه الشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها.

ومهما حاولنا إبراز التحديات التى تواجه

الإسلام والمسلمين بوسط إفريقيا، فلا يمكن أن تكتمل الصورة دون الإشارة إلى إسرائيل ودورها، وأطماعها في المنطقة الإفريقية، ولعل أبرز تلك الأدوار، هو محاولتها عزل الدول والمجتمعات العربية عن رصيفاتها غير العربية، وخلق صراع متصل بين العروبة والإفريقية في إقليم وسط إفريقيا، وتوثيق عرى الصداقة والتعاون مع تلك الدول ضد الأفارقة العرب، وخاصة في حوض النيل ووسط القارة، في محاولة دؤوبة لبسط سيطرتها على المواقع الاستراتيجية، لدعم تحالفها الاستراتيجي مع جنوب إفريقيا، ذلك التحالف القائم على التطابق، والتشابه في الأنظمة السياسية والمصالح المشتركة، ومحاولة تنصير من يضعف من المسلمين أمام إغراءات الكنائس، بسبب جوعهم وفقرهم، وحوجتهم للدواء، لأن الأمراض تطحنهم وتسحقهم، ورغبتهم في التعليم والجهل متفش بينهم.

أوضاع المسلمين الاقتصادية في الإقليم

فيما يختص بهذا المحور، يجدر بنا في المقام الأول، محاولة التعرف على أوضاع المسلمين الاقتصادية في هذا الإقليم، وبالتحديد في تشاد المسلمة، وذلك لمعرفة ما إذا كانوا يمثلون بالفعل قوة اقتصادية كبيرة، بوسعها أن تلعب الدور الفعال والمؤثر، في مسار الاقتصاد الوطني للدولة. ومدى قدرتهم على تغيير أوضاع المسلمين هناك، ولفهم ما تقدم فهمًا صحيحًا وعميقًا، لابد من الوقوف على بعض ملامح الاقتصاد في الدولة نفسها أولا بأول.

وعليه فبإمكاننا القول- وبحسب المعلومات التي بين أيدينا - بأن تشاد دولة نامية، ولكنها تفتقر إلى بعض المقومات التي تجعل منها دولة مؤثرة من ناحية اقتصادية. وذلك لأنها دولة داخلية حبيسة، وليس لها منفذ على البحر، الأمر الذي يجبرها على الحصول على وارداتها وصادراتها عبر دولة الكاميرون، التي ترتبط معها بحدود سياسية مشتركة، هذا بالإضافة إلى أنها تمتلك مصادر طبيعية قليلة، خاصة وأن معظم الأراضي الشمالية غير صالحة للزراعة، بالرغم من توفر القيمة الاقتصادية لمستودعات النطرون الطبيعي، واليورانيوم بغرب البحيرة، ومخزون البترول في منطقة البحيرة وفي الجنوب التشادي، والذي ربما أوفى بمعظم متطلبات الدولة من الطاقة، ومع ذلك فإن تشاد تعاني من سمات وملامح الاقتصاد التقليدي، بشقيه الزراعي والحيواني، والدليل على ذلك، أن ٩٠ ٪ من التشاديين يعملون في مجال الزراعة التقليدية وتربية الماشية، إذ يشكل الرعاة في الشمال ٢٠ ٪ من هذه النسبة. بالإضافة إلى تخلف قطاع الصناعة، إذ لا توجد بتشاد إلا القليل من الصناعات، والتي تتركز بشكل أساسي في العاصمة أنجمينا، والمدن الجنوبية البعيدة، وقد تعطلت معظم هذه الصناعات بسبب الحرب الأهلية الدائرة خلال العقدين الأخيرين، مما أدى إلى تناقص صادرات البلاد بصورة كبيرة، وظل الاقتصاد التشادي، يعاني

من الضعف، خاصة وإن من عوائق التقدم الاقتصادي في هذه الدولة، ضعف وسائل النقل، وقلة المواصلات وتخلفها، وانعدام السكك الحديدية، وعدم وجود الطرق البرية المعبدة، مما أجبر الدولة على استيراد معظم بضائعها من فرنسا . وسبب ذلك فيما يبدو وقوع هذه الدولة تحت تأثير المساعدات الاقتصادية، والمعونات الغذائية، القادمة إليها من فرنسا وأمريكا. وأكثر ما يهدد أوضاع المسلمين التشاديين اقتصاديًا، إصرار فرنسا على تركيز جل اهتمامها في العمل من أجل استنزاف موارد الدولة، لمد مصانعها بما تحتاجه من مواد أولية، من خلال خطة استراتيجية محكمة تفتقت عنها أذهان دهاقنة السياسة، وخبراء الاقتصاد الفرنسيين، مما جعل الدولة تدور في فلك الاقتصاد الفرنسي، وفي تبعية مذلة. لأن من سياسات فرنسا الاقتصادية في المنطقة، هي التمكين لشركاتها، بغرض احتكار النشاط الاقتصادي في تشاد، وخاصة مجال التصدير، أملاً في استغلال الجو الخالي من المنافسة، لتبخيس قيمة موارد البلاد، بشراء ما تحتاجه من مواد خام بقيمة زهيدة، باعتبار أن تشاد من الدول الفقيرة للغاية، بحسب التصنيف الدولي، إلا أنها كما أوردت بعض المصادر، بأنها قد بدأت تدخل في مرحلة جديدة من الحياة الاقتصادية، التي ربما أهلتها لأن تصبح ثالث أهم منطقة اقتصادية في وسط إفريقيا، حسب زعم الدوائر الاقتصادية الأمريكية، وإلاَّ فما تفسير أن تسرع أمريكا في استخراج البترول التشادي واليورانيوم، مما يعد مؤشرًا خطيرًا للغاية، يصب مباشرة في خدمة سياسات المستعمر الرامية، إلى استغلال حالة الفقر والحاجة للسكان المسلمين، تحت مظلة إحداث التنمية والتطور الاقتصادي في الظاهر، بينما تعمل في الباطن على إنجاح المشروع التنصيري، الذي يستهدف مسلمي وسط أفريقيا بصفة عامة، ومسلمي تشاد بصفة خاصة، وإلاَّ فما معنى مناشدة بابا الفاتيكان لأمريكا بعدم الإسراع في استخراج البترول التشادي، لعلمه بأن تشاد منطقة هامة، ومقبلة على مرحلة جديدة من التطور الاقتصادي بحلول عام ٢٠٠٦م، وهذا ما يؤكد سوء نوايا بابا الفاتيكان، وسعيه الخبيث لتدمير البنيات الاقتصادية لدول منطقة وسط إفريقيا، الذي يمكن استنتاجه من قوله " ووسيلتنا إلى هذه المناطق، الفقر، والحاجة، فأرجو من الحكومة الأمريكية، ألا تستعجل في استخراج البترول التشادي، حتى ننجز أهدافنا، وعندئذ فإن ثروة البلاد كلها، سوف تكون في خدمة ربنا المسيح".

وبنظرة متأملة، لهذا الواقع الاقتصادي المزري، ندرك بأن الفرانكفونيين قد بدأوا بالفعل في تكريس جهودهم لإبقاء هذا البلد المسلم في حالة من الركود الاقتصادي، لتأكيد الحاجة المستمرة، للدعم الفرنسي، والمعونة الأمريكية، لإنعاش الاقتصاد التشادي، الذي أضرت به السياسة الاقتصادية الفرنسية طويلاً ومازالت، حتى شهدت البلاد سلسلة من المجاعات والأزمات والكوارث،

والهدف من كل ذلك هو تحطيم الاقتصاد التشادي، بدليل تحكم الشركات الفرنسية في حركة النشاط التجاري في تشاد، وبشكل محكم، لا سبيل إلى الفكاك منه، حتى ظلت كل القطاعات الهامة في ميدان التجارة والصناعة والتصدير، تحت رقابة رءوس الأموال الفرنسية.

ومن جهة أخرى، فقد بدأت فرنسا، وعن طريق عملائها وصنائعها، وربائبها الفرانكفونيين بوسط إفريقيا، في إحكام القبضة، على إنتاج اليورانيوم، وخاصة في تشاد، وإفريقيا الوسطى، تحت رقابة الجيش البري الفرنسي، المعد أصلاً، لتنفيذ مهامها ومخططاتها الحربية خارج أوروبا، هذا بالإضافة إلى الأنشطة التجارية، التي ظل يقوم بها المهاجرون والوافدون، الذين قدموا إلى تشاد، منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وتذكر بعض المصادر إلى أن أعداد الليبيين المتواجدين في أغلب المدن التشادية، مثل فايا لارجو، ماو، بحر الغزال، آجي، وآتيه، قد وصلت إلى ثلاثة آلاف شخص، جميعهم يشتغلون بالتجارة، مضافًا إليهم المصريون الذين وصلوا إلى هذه البلاد الإسلامية، في عصور مختلفة، ولأغراض متعددة، في مقدمتها تجارة الجملة والتوريد عن طريق شركات الامتياز الفرنسية. إن هذه السيطرة على التجارة والأنشطة الاقتصادية في تشاد، من قبل الفرنسيين وعملائهم، تشير بوضوح إلى أن الاقتصاد التشادي الوطني، يعاني من ضعف ظاهر، بسبب سيطرة الأجانب، على ميادين التجارة، ومفاصل الاقتصاد التشادي، ولكل ذلك ورثت تشاد مؤسسات اقتصادية هشة، كبلت الدولة بالكثير من القيود، من جراء سياسات الاحتكار، وسيطرة شركات الامتياز، بحيث انعكس ذلك على أوضاع السكان المسلمين هناك، مما ينذر بوضع اقتصادي سيء، لا يعطي أي مؤشرات إيجابية، في ظل غياب أي مؤسسات تجارية أو اقتصادية منافسة، تعمل لصالح المسلمين أو يديرها مسلمون، بهدف رفع مستوى دخولهم المعيشية، حتى يتمكنوا من أداء دورهم بفعالية باتجاه خدمة الأهداف الكلية للدعوة الإسلامية، في هذا البلد المسلم، ويرجع السبب في ذلك إلى ضعف مشاركة المسلمين في الأنشطة التجارية، والتي بلغت ١٠,٩ ٪ فقط، مما يشير بأنهم يعانون بالفعل من ضعف اقتصادي ظاهر بلغ ٢,٣٪ بسبب الفقر والجوع، الذي ظلوا يعانون منه نسبة ٢,٦٪، كما أشارت بذلك نتائج تحليل الاستبانة.

وكذلك تتشابه الأوضاع الاقتصادية إلى حد كبير بين جمهورية تشاد وإفريقيا الوسطى، من أن الأخيرة دولة حبيسة مغلقة على نفسها، وليس لها منفذ على البحر، وتعاني من انعدام خطوط السكة الحديد، ومعظم الطرق بها غير معبدة، مما أسهم بقوة في عجز الدولة عن ربط مناطق الإنتاج بمناطق الاستهلاك، بالإضافة إلى وجود ذبابة التسي تسي، التي أثرت بشكل مباشر، على قطاع الثروة الحيوانية، وساهمت في انتشار

مرض النوم الإفريقي بين السكان، مما عطل طاقاتهم الإنتاجية، في مجالات الرعي والزراعة والصناعة.

وتعاني إفريقيا الوسطى من معوقات اقتصادية حقيقية، بسبب ما تعرضت له، من أزمات سياسية، ونزاعات داخلية، أضرت باقتصادها القومي، وتتضح المعاناة الاقتصادية التي تعيشها هذه الدولة، من أن ناتجها القومي لعام ١٩٩٩م، قد بلغ ٤,١ مليار دولار، بحسب تعادل القوة الشرائية فيها، بمعدل دخل فرد وصل إلى ١١٦٦ دولارا في السنة، ولذلك فإن ترتيبها في سجل التنمية البشرية يعد منخفضًا للغاية، إذ وصل إلى ١٥٤ من أصل ١٦٢ دولة مسجلة في تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠١م والدليل على فقر هذه الدولة، وسوء أحوالها اقتصادية، هو أن عدد الجاليات، اللبنانية واليونانية والفرنسية، قد تقلص تمامًا، ولم يبق منهم إلا ٧٠٠ أجنبي، لأن المردود المالي النقدي، قد تضاءل كثيرًا، بالإضافة إلى بروز ظاهرة عدم الاستقرار السياسي، الذي ظلت تعاني منه هذه الدولة.. وبالرغم من قلة عدد اللبنانيين وجلهم من المسلمين، إلا أنهم ظلوا يسيطرون على جوانب ذات أهمية في اقتصاد إفريقيا الوسطى، وخاصة في مجال التجارة، إلا أن نشاطهم في المجال الصناعي محدود للغاية، ويقتصر فقط على صناعات معينة، مثل الخشب، والصابون، والزيوت، والدقيق.. وبسبب هذه السيطرة على قطاع التجارة فقد أصبحوا أكثر عرضة للمخاطر، أثناء حدوث الاضطرابات السياسية، والنزاعات الأهلية، لأن أول ما يستهدفه اللصوص، أثناء هذه الاضطرابات، هو مجال المواد الغذائية، والسلع استهلاكية، والأفران.. وأيًا كان الأمر، فإن اللبنانيين وإن كانوا أقلية مسلمة، إلا أنهم يمسكون بنحو ٥٠٪ من اقتصاد البلاد، ويسيطرون على ٨٠٪ من قطاع النقل، و٧٠٪ من قطاع التجارة، بالرغم من إشارتنا السابقة، إلى أن هذه الدولة محصورة ومغلقة، وليس لها أي منفذ على البحر.. واللافت للنظر هو أن اللبنانيين على قلتهم قد أسهموا بشكل فاعل، في إنعاش اقتصاد إفريقيا الوسطى، من خلال تشغيلهم للأيدي العاملة الوطنية.

ويبدو من سياق البحث، واعتمادًا على منهج تحليل المضمون، فإن أكثرية اللبنانيين الموجودين في إفريقيا الوسطى، يدينون بالإسلام.. وبالتالي فبوسعنا القول بأن هذه الأقلية المسلمة من الوافدين اللبنانيين، قد بدأت تساهم في بناء اقتصاديات جمهورية إفريقيا الوسطى، من خلال السيطرة على قطاع استثمار في بعض المشاريع الحيوية، ومن خلال مساهمتهم في تشغيل المواطنين المحليين في منشآتهم ومحالهم التجارية، ومعاملهم ومصانعهم، مثل اللبناني «مصطفى طراد» الذي قام بتشغيل ٤٥ شخصًا من الوطنيين، بينما وظف «هزاع أبو زيد» ٨٥ عاملاً من المواطنين المحليين لكن يبقى الأمل المنشود في بروز بعض المؤسسات الإسلامية الاقتصادية الكبيرة، التي

بوسعها، توجيه كل أنشطتها الاقتصادية، ورؤوس أموالها الضخمة، لخدمة الإسلام والمسلمين بوسط إفريقيا، الذين يعيشون أوضاعًا اقتصادية سيئة، من خلال برامج، وخطط محكمة ومدروسة، لضمان الحصول على نتائج إيجابية، لانتشال تلك الأقليات المسلمة التي أصبحت هدفًا استراتيجيًا، لمخططات الدوائر الكنسية، والبعثات التبشيرية، وحركات التنصير، التي تزداد يومًا بعد يوم بإقليم وسط إفريقيا.

● أما الكاميرون، فإنها تتمتع باقتصاد تام، يعتمد أساسًا على الزراعة، إذ يعمل نحو ٧٥٪ من السكان في زراعة المحاصيل النقدية، ويعد النفط والبوكسيت، الذي يصنع منه الألومنيوم، من أهم الموارد الاقتصادية في الكاميرون، ولكنها متأخرة في مجال الصناعة.. وتعمل عائلة اللبناني «هزيم هزيم» في مجال استثمار الغابات وتحويل الخشب، والتصنيع الزراعي، فيما تعمل عائلة «حاج» في النقل وعائلة «زعتر» في التجارة العامة.. ويعمل البعض الآخر من اللبنانيين في مجال المطاعم.. ويقول «جمال الساحلي» أن أعمالهم في الكاميرون، تشمل قطاع النقل والتجارة، والوكالة لعدد من السيارات، مثل المازدا، وهونداي، وهوندا، ويستوردون أغلب احتياجات البلاد من أوروبا، وجنوب إفريقيا.. وهذا دليل قوي يؤكد على أن الوافدين من العرب المسلمين، قد أسهموا بشكل واضح وملموس في تطوير الاقتصاد الكاميروني، بسبب التسهيلات التي تمنحها الدولة.. لمن ينوي العمل في مجال التجارة والاستثمار.. وتتركز القوة الاقتصادية لهؤلاء اللبنانيين في العاصمة الاقتصادية دوالا.. وما يؤخذ على الاقتصاد الكاميروني، أنه يعتمد أساسًا على الاستثمارات الأجنبية أو الوافدة، والتي ربما تعرضت لبعض المضايقات، من جراء سياسات البنك الدولي، أو السياسات الاقتصادية للدولة الكاميرونية نفسها، مما يؤثر بشكل خطير على التطور الاقتصادي، لمواطني هذه الدولة، الذين يشكلون العمالة الرئيسية، لنجاح تلك الشركات، والأعمال التجارية، التي تعج بها الكاميرون، ولكنها وبكل أسف مملوكة للأجانب، مما يشير بأن القوة الاقتصادية ليست في أيدي المسلمين أو الوطنيين.. مما يشكك في إمكانية توظيفها لتحسين أوضاع الأقليات المسلمة، في دولة الكاميرون، والذين يشكلون ٢٠٪ من السكان.. ولكنها على كل حال، أفضل حالًا من بقية دول وسط إفريقيا من حيث الوضعية الاقتصادية.

● أما الأوضاع الاقتصادية في الكونغو برازافيل، فتختلف عما عداها من دول الإقليم في تمتعها بثروات طبيعية قليلة، وبعض المعادن، وتعتمد الكونغو بالأساس على المحاصيل النقدية.. ويعد النفط من أكثر المعادن قيمة اقتصادية في البلاد، بالإضافة إلى الغاز الطبيعي والبوتاس والزنك، هذا فضلًا عن مقوماتها الاقتصادية الأخرى، المتمثلة في امتلاكها لأطول شبكة نقل في إفريقيا بشكل عام، ووسط إفريقيا بشكل خاص.. ويسمى هذا الخط بخط سكك حديد الكونغو ــ المحيط، الذي يبلغ طوله ٥١٥ كلم، ويربط العاصمة السياسية الكونغو برازافيل، بالعاصمة الاقتصادية بوانت نوار.. بينما تسير البواخر على نهر الكونغو «زائير»، ونهر الأوبانجي عند برازافيل، بحيث يتم نقل صادرات وواردات جمهورية إفريقيا الوسطى وتشاد عبر الشبكة الملاحية، وخط سكك حديد الكونغو ـ المحيط.. وتمثل تجارة النقل النهري عنصرًا مهمًا من عناصر الاقتصاد في الكونغو برازافيل.

وتعتبر الكونغو من البلاد الثرية، بحكم ما تحتويه أرضها من ثروات، يأتي النفط في مقدمتها، وتعد الكونغو رابع دولة نفطية في إفريقيا جنوب الصحراء كما تشتهر بثروتها الغابية الهائلة وتعد كذلك من البلدان الإفريقية ذات التنمية البشرية المتوسطة، وترتيبها ١٢٦ من أصل ١٦٢ دولة، وفقًا لتقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعام ٢٠٠١م، وأن ناتجها القومي قد وصل خلال عام ١٩٩٩م إلى ٢,٢ مليار دولار، مع معدل ٧٢٧ دولارًا، للفرد الواحد من الناتج القومي.. إلا أنها من البلدان التي عانت ولازالت تعاني، من حالة عدم الاستقرار السياسي.

ويمكن القول بأن الوجود اللبناني الكبير في هذا البلد ـ بحسب تصريح وزير خارجية الكونغو (بنجامين بونقولو) ـ قد تراجعت أعدادهم كثيرًا بعد أن شهدت الكونغو حربين أهليتين مدمرتين، خلال عامي ١٩٩٣م ـ ١٩٩٧م بسبب الصراع السياسي حول السلطة.. ويتركز اللبنانيون في العاصمة الاقتصادية والميناء الرئيسي بوانت نوار، مما انعكس على نجاح وتميز أعمالهم في جميع المجالات، كالتجارة وشركات الطيران الخاصة، التي تغطي الكونغو بكاملها في مجال النقل الجوي، بالإضافة إلى شركات البناء وصناعة الأدوية وشركات بناء وشق الطرق، وتجارة الخشب وتصنيعه وتصديره.. وتتمركز كل هذه الأعمال والأنشطة التجارية في العاصمة الإدارية والسياسية الكونغو برازافيل، والعاصمة الاقتصادية بوانت نوار، بسبب انعدام وسائل الاتصال بين مدينة وأخرى تمامًا، لانعدام الكابلات والهواتف.. ويبدو أن سر الحضور اللبناني في هذا البلد، هو النجاح والتميز، الذي حققوه من خلال طرقهم لأبواب المهن التي تتسم بالندرة وتحتاج إلى رءوس أموال وفيرة وجرأة ومغامرة.. ولأننا لم نعثر على مصدر يتحدث بشكل مباشر عن الهوية الدينية لهؤلاء اللبنانيين، إلا أن الواقع يشير إلى أنهم يتوزعون على الديانات الإسلامية والمسيحية، وإن كان عدد المسلمين يبدو أكثر من نظرائهم المسيحيين.. ونستنتج من ذلك أن الكونغو برازافيل، من دول وسط إفريقيا، التي بها أقلية مسلمة، ولكنها وإن كانت وافدة أو مهاجرة، إلا أنها فاعلة وناجحة، استطاعت أن تسهم كثيرًا في تطوير الاقتصاد الكونغولي، وتشغيل الأيدي العاملة، من الوطنيين المحليين، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين.

يتبع

مياه النيل: الموارد والاتفاقيات



أ. د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية

فيما يتعلق بموارد نهر النيل يلاحظ ما يلي:

(١) النيل أطول أنهار العالم، وتهطل على حوضه أمطار تبلغ جملتها ٢٠٠٠ مليار متر مكعب كل عام. هذا الطول كان - ضمن عوامل أخرى - بددت هذا الثراء المائي، وجعلت النيل من أقل الأنهار العالمية دفقًا مائيا، وهذا ما يبينه الجدول التالي:

الجدول [١]

اسم النهر	طوله بالكيلومتر	تدفقه بالمليار متر مكعب
النيل	٦٦٧٠	١٢٥
الكنغو	٤٣٧٠	١،٤٦٠
النيجر	٤١٦٠	٣٢٠

(٢) حوض النيل الرئيسي مكون من حوضين فرعيين هما: حوض النيل الأبيض الذي ينبع من الهضبة الاستوائية، وحوض النيل الأزرق الذي ينبع من الهضبة الإثيوبية، والنهران الأبيض والأزرق يلتقيان في مدينة الخرطوم، ويسير النيل متجهًا شمالاً نحو البحر الأبيض المتوسط في مصر.

وتتشاطأ على أحواض النيل عشر دول هي: إثيوبيا - الكنغو - رواندا - بوروندي - تنزانيا - كينيا - أوغندا - إرتريا - السودان - مصر.

وكل دول حوض النيل لديها مصادر مياه أخرى غير مياه النيل، لكنها تتفاوت في هذا الجانب تفاوتًا كبيرًا، فدول أعالي النيل - دول المنابع - هي الأكثر حظا من حيث البدائل المائية للنيل. أما دولة المصب - مصر - فهي الأقل حظا من حيث البدائل المائية للنيل. والسودان وسط بين دول المنابع ودولة المصب.

(٣) تدفق مياه النيل على قلته النسبية متأرجح من عام إلى عام. حيث بلغ أقصاه في عام ١٨٧٩م. إذ وصل إلى ١٣٧ مليار متر مكعب. وبلغ أدناه في عام ١٩١٣م إذ وصل إلى ٤٢،٨ مليار متر مكعب. هذه المياه موزعة بين الروافد الآتية التي تغذى النيل كما يلي:

الجدول [٢]

الرافد	النسبة
النيل الأزرق (إثيوبيا)	٥٩٪
نهر السوباط (إثيوبيا)	١٤٪
نهر عطبرة (إثيوبيا + إرتريا)	١٢٪
جملة الوارد من الهضبة الإثيوبية	٨٥٪
وارد بحر الجبل (النيل الأبيض)	١٥٪

(٤) هذه المياه البالغة في المتوسط ٨٤ مليار متر مكعب في السنة خاضعة الآن لتقسيم بين مصر والسودان بنسبة ٣:١، بموجب الاتفاق للانتفاع بمياه النيل المبرم بين البلدين عام ١٩٥٩م.

ويبرز نزاع صامت أحيانًا، بين دولتي المجرى والمصب «مصر والسودان» الملتزمتين باتفاقية ١٩٥٩م من جهة، وبين دول المنابع التي لا تعترف بالاتفاق، كما لا تعترف بالاتفاقيات السابقة له وتعتبرها غير ملزمة لها.

(٥) أدى تطوير تكنولوجيا السدود لتفكير بعض الدول في نقل المياه واستغلالها للإنتاج الكهرومائي مما أدى إلى استهلاك كمية من مياه النيل في الجنوب وهو ما يؤثر بالضرورة على دولتي المجرى والمصب. وقد استغلت بعض الدول الخارجية وجود تعارض بين دول الحوض لإثارة المنازعات أحيانًا، والضغط على مصر بصفة خاصة، رغم أن مياه النيل تكفي لتلبية حاجة الجميع. إذا أحسن استخدامها من خلال إرادة سياسية واعية.

الاتفاقيات المنظمة لاستخدامات المياه:

نشأ تناقض بين دول أعلى النهر وأسفله. يقول «هارمون» المهندس الأمريكي: إن الأسبق جغرافيا هو الأحق، وأن دولة المنابع صاحبة سيادة مطلقة على مواردها الطبيعية ومنها المياه. هذا المبدأ يقابله ويتناقض معه مبدأ حق الانتفاع، وأن الأسبق انتفاعا هو الأحق، فهو صاحب الحق المكتسب(١).

بعد ذلك نشأ مبدأ دولي يقول: إن الأنهار والبحيرات والمياه الجوفية التي تقع في أكثر من دولة عليها سيادة محدودة، سيادة مشتركة بين الدول المتشاطئة عليها.

والواقع يشهد الآن نزاعا صامتا بين دول حوض النيل، حيث تتضارب الآراء والمشاعر التي تغذيها وتعقدها عوامل تاريخية وغيرها، مما جعل التفكير في استخدام المياه كسلاح سياسي، أمرا واردا. ففي عام ١٦٨٠م هدد حاكم إثيوبي حاكم مصر المعاصر له باستخدام الماء سلاحًا ضده. قال الملك «تقلا حيمنوت»: «إن نهر النيل سيكون كافيا لمعاقبتكم. حيث وضع الإله في قبضتنا منبعه وخيراته. ويمكننا بذلك

(١) راجع نصوص هذه الاتفاقيات في الصادق المهدي - مياه النيل ص ١٥٧ - ١٨١.

إلحاق الضرر بكم»(٢).

وكلنا يتذكر حادثة فشودة بين بريطانيا وفرنسا، حيث سعت فرنسا لوضع يدها على منابع النيل. كذلك استخدم البريطانيون موضوع المياه كنوع من الابتزاز ضد مصر عام ١٩٢٤م عندما اغتيل «السير لى استاك» حاكم عام السودان فى القاهرة.

وفى أوج الحرب الباردة ووقوف الاتحاد السوفيتى إلى جانب مصر فى بناء السد العالى بعد أن انسحب الغرب من تمويله، حاولت الولايات المتحدة استغلال الأمر ضد مصر، وقام مكتب الولايات المتحدة لاستصلاح الأراضى بمسح تفصيلى لتقديمه للحكومة الإثيوبية. انتهى فى ١٩٦٣م، ونشرت نتائجه فى ١٧ مجلدًا ضخمًا. سنوات الدراسة الخمس هذه تزامنت مع أقصى درجات التوتر بين مصر وأمريكا، ومن الواضح أن كل هذه الأحداث لها دلالات خطيرة.

كانت هذه الدراسة الأخيرة تحذيرًا مستترًا لمصر، وتذكيرًا بحساسية موقعها الجغرافى.

ولقد أوصت الدراسة بإقامة ٣٢ سدًا وخزانًا لتوفير مياه الرى وتوليد الكهرباء. وقررت الدراسة أنه إذا تم إنشاء كل المشروعات المذكورة، فإن الاحتياجات المائية السنوية للرى ولتعويض الفاقد فى التخزين ستخفض تدفق مياه النيل الأزرق عند الحدود السودانية بحوالى ٦,٤ مليار متر مكعب(٣).

هذا العمل خلق مخاوف فى مصر، وهى مخاوف يزيد منها الآن ما تدفع به تركيا فى حوض الرافدين. حيث تعلن صراحة انفرادها بالسيادة على مياه الفرات ودجلة، وقد تعمل على حرمان العراق وسوريا من مصادر المياه القادمة من أراضيها.

وفيما يتعلق بحوض النيل، فإن النزاع لا يدور فى فراغ، بل هنالك اتفاقيات تعود إلى أكثر من قرن من الزمان بيانها الآتى:

- بروتوكول بين بريطانيا ممثلة لمصر، وإيطاليا ممثلة لإثيوبيا كدولتين مستعمرتين عام ١٨٩١م.
- اتفاقية ١٢/٥/١٩٠٢م بين بريطانيا والإمبراطورية الإثيوبية المستقلة.
- اتفاقية ٩/٥/١٩٠٦م بين بريطانيا ودولة الكونغو.
- اتفاقية ١٣/١٢/١٩٠٦م بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.
- تبادل مذكرات فى عام ١٩٢٥م بين المملكة المتحدة وإيطاليا.
- اتفاقية ١٩٢٩م بين مصر وبريطانيا.
- اتفاقية ٢٣/١١/١٩٣٤م بين بريطانيا نيابة عن تنجانيقا، وبلجيكا نيابة عن الكونغو.

هذه الاتفاقيات تعتبرها مصر ملزمة بموجب اتفاقية «فيينا» لعام ١٩٧٨م، والتى ورد فيها النص الآتى: «الاتفاقيات الخاصة بتحديد ورسم الحدود الدولية، أو الخاصة بالوضع الجغرافى الإقليمي، تظل سارية المفعول بموجب قاعدة الوراثة، ولا يمكن إلغاؤها أو تعديلها إلا باتفاق بين الدول الموقعة عليها».

ولكن دول منابع النيل، دون استثناء، ترى بطلان هذه الاتفاقيات الموروثة من عهد الاستعمار، وترى أنها لا تناسب حقوقها ولا تلبى حاجات وضرورات التنمية فيها.

القانون الدولى بشأن المياه:

تدرجت مفاهيم وأحكام القانون الدولى بشأن المياه كما يلى:

- فى عام ١٩١١م بحث معهد القانون الدولى مسألة المياه الدولية، وجاء فى إعلان مدريد الذى صدر عنه الآتى:

- لا يجوز للدول المتشاطئة إقامة منشآت لاستغلال مياه النهر دون موافقة الدول الأخرى.
- لا يجوز إنشاء المشاريع التى تستهلك كمية كبيرة من المياه.
- عدم انتهاك حقوق الملاحة فى النهر الدولى.
- لا يجوز لدول المصب إقامة منشآت من شأنها أن تحدث فيضانات فى دول المنبع.
- يجب تعيين لجان مشتركة دائمة لدراسة المشاريع المقترح إنشاؤها على النهر.

- وفى عام ١٩٦٦م وضعت قواعد هلسنكى بشأن المياه.
- وفى عام ١٩٧٩م وضعت مبادئ لجنة القانون الدولى بشأن المياه.
- وفى عام ١٩٩٧م صدرت اتفاقية الأمم المتحدة لاستخدام المجارى المائية لغير أغراض الملاحة.

هذا التطور فى القانون الدولى لم يواكبه تطور فى تقنين العلاقات المائية بين دول حوض النيل.

ومنذ اتفاقية ١٩٢٩م لم يحدث جديد إلا اتفاقية ١٩٥٩م بين مصر والسودان بشأن مياه النيل. والتطور القانونى الدولى نفسه كان أقل كثيرًا من التطور الفنى والتقنى فى مجال علوم موارد المياه (Hydrology) وقياس الطقس (Meteorology).

(٢) «حروب المياه»، جون بولوك وعادل درويش- الهيئة العامة للاستعلامات، ص٦١.
(٣) راجع الصادق المهدي: مياه النيل - مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٠٠٠م، ص١٩.

العرب.. و"مشكلة الدولة"(١)

أ. حازم علي ماهر
باحث بالمركز العالمي للوسطية - الكويت

"على الرغم من أهمية مؤسسة الدولة في العالم العربي، فإن الاهتمام بدراستها كقضية فكرية وسياسية - هو أمر حديث وغير مكتمل، فلدينا أكثر من ٢٠ دولة عربية ذات سيادة، والكثيرون يأملون في دولة عربية موحَّدة، وهذه الدولة القطرية ذات جهاز إداري ضخم ومتحكم بصورة طاغية على الاقتصاد القومي وعلى نظم التعليم والثقافة، ومع ذلك فإن التنظير للدولة - بتجذرها الاجتماعي، وإطارها القانوني وأخلاقياتها الفلسفية - ما يزال متخلفًا بصفة عامة".

هذه هي الأطروحة الرئيسية التي يُصدِّر بها الباحث الجادُّ والأستاذ في العديد من الجامعات الأوروبية، الراحل نزيه نصيف الأيوبي، كتابه "العرب ومشكلة الدولة"، نشرته دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، سلسلة بحوث اجتماعية، والذي يسعى إلى تحليل الجذور المختلفة لفقر التنظير حول قضية "الدولة" في الفكر العربي حتى وقت قريب؛ ثم لتقديم عرض نقدي للكتابات الحديثة التي بدأت تظهر في هذا الخصوص منذ السبعينيات؛ مستهدفًا من ذلك سبر غور موضوع العلاقة بين "الدولة" وبين مجتمعها المدني، وكشف طبيعة الواجهة الأيدلوجية التي تستخدمها "الدولة" لتبرير احتكارها لاستخدام القوة في المجتمع وسيطرتها على العمليات الاقتصادية والفكرية فيها.

نظريات الدولة في الفكر العالمي

وهو في سبيل تحقيق هذا الهدف، يخصص الفصل الأول منه لعرض (يستغرق ما يقرب من نصف الكتاب) للآراء والنظريات التي طرحت حول مفاهيم الدولة ونشأتها وتطورها في الفكر العالمي المقارن منذ القرن السادس عشر الميلادي وحتى القرن العشرين؛ على يد رواد من أمثال ميكافيللي وبودان وهوبز وهيجل وماركس، وما حدث لموضوع "الدولة" من تطور مع بداية السبعينيات حين أصبح موضوعا محوريا في الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، إلى أن يصل إلى أن "الدولة" - في الدراسات المقارنة - هي ظاهرة ومفهوم يمكن تحديد أصوله وجذوره.

ولكن التعدد والتنوع في طبيعة المؤثرات التي خضعت لها عملية تكوين "الدولة الحديثة" قد أدى - بدوره - إلى وجود مفاهيم مختلفة لاصطلاح "الدولة" في الأدبيات المختلفة، حددها الكتاب في: حكومة، نظام قانوني مؤسسي، طبقة حاكمة، نظام معياري متكامل للقيم العامة؛ إلا أن هذا الاختلاف هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تناقض.

وعلى أية حال فإنه لكي يصح استخدام مفهوم الدولة في الدراسات المقارنة؛ فهناك أسلوبان يمكن اللجوء إليهما في هذا السبيل:

الأول: هو تعريف الدولة تعريفا مبدئيا مبسطًا مستخلصًا من الخبرة والملاحظة الشخصية، ثم القياس الكمي لدرجات أو مستويات مختلفة من الدولة Stateness.

والثاني: هو النظر إلى الدولة باعتبارها - على الدوام - ظاهرة تاريخية وثقافية لا يمكن فهمها إلا في ارتباطها بمجتمع معين.

وفي غمار هذا العرض المقارن، يتوقف الكتاب عند النظريات التي طرحت حول موضوع "الدولة" في العالم الثالث، ويستعرض تساؤلات مهمة عن أسباب عدم سعي التكوينات غير الأوروبية - التي لم تمر بتركيبة مماثلة من العوامل التاريخية - إلى خلق "الدولة الحديثة" بدلا من أن تبحث عن أنماط أخرى للدولة، ولماذا تجد أن المجتمعات التي تعارض الأيدلوجية السائدة فيها (مثلاً: الأصولية الإسلامية) فكرة "الدولة - الأمة"، عاجزة عن أن تتخطى مرحلة الرفض لكي تشكل نماذج سياسية بديلة للدولة؟.

وهكذا فإن المشكلة تزداد تعقيدا في بلدان العالم الثالث؛ لأن عملية محاولة بناء الدولة فيها تتطلب كذلك عملية بناء "أمة"، وبناء اقتصاد وطني في الوقت نفسه، وتؤدي هذه المحاولة - وخاصة في ظروف استمرار التبعية - إلى وقوع المجتمع في براثن التسلط والعنف.

وهذا - بدوره - يثير تساؤلا آخر حول كيفية إزالة التناقض بين المفهوم "القانوني" للدولة وبين المفهوم "الاجتماعي" لها.

لمعالجة هذه الإشكالية، يستعرض الكتاب طريقين مختلفين:

- طريقا تطرحه مدرسة التحديث أو المدرسة التنموية التي سادت الفكر الأمريكي (والغربي بصفة عامة)، وهو طريق نقل الخبرة الغربية إلى الدول غير الغربية بأسلوب "الحث" أو أسلوب "المحاكاة والتقليد"، وهي عمليات يعوَّل فيها كثيرًا على دور النخب ذات التعليم الغربي.
- والطريق الثاني تطرحه مدرسة الاقتصاد السياسي اليسارية التي ترى أن المشكلة - في حقيقتها - راجعة إلى طبيعة الدولة التي أقامها الاستعماريون في البلدان التابعة للرأسمالية العالمية، تلك "الدولة المتضخمة" التي لم تتأسس عن طريق برجوازية وطنية، وإنما عن طريق برجوازية استعمارية أجنبية.

وكنوع من محاولة تفسير هذا التناقض،

ينقل الكتاب عن "غرامشي" فكرة أنه في الغرب يتسيد المجتمع المدني على الدولة، وتتخذ سيطرة الطبقة الحاكمة صورة التراضي والهيمنة، على حين أنه في الشرق تتسيد الدولة على المجتمع المدني وتتخذ سيطرة الطبقة الحاكمة شكل التسلط والقهر؛ "فالدولة هي كل شيء".

بعد ذلك يعرض الكتاب لما أسماه "الطريق غير الفرداني" إلى بناء الدولة، ويقصد به ذلك الاتجاه الذي ظهر على يد الرومانسيين الألمان، والذي ربط بين فكرة "الجماعة" وفكرة "الدولة"، ولم يتبنَّ الفلسفات الفردية التعاقدية التي قامت عليها الدول الأوروبية الأخرى، وفي هذا يشار إلى أن هذا الطريق كانت له تأثيراته على كثير من المثقفين في العالم الثالث، وخاصة في الوطن العربي، ممن يورد الكتاب نماذج مهمة منهم فيما بعد.

وينهي المؤلف عرضَه للدراسات المقارنة هذه بالإشارة المهمة إلى "الطريق غير الأوروبي" في بناء "الدولة"؛ باحثًا عن "نموذج بديل.. لنمط دولة واقعية أخرى ذات مسار تطوري" مغاير لمسار الدولة الأوروبية؛ ويقصد به التجربة اليابانية؛ حيث إن اليابان هي دولة واقعية فعالة و"ناجحة"، مع أنها قد سلكت في تطورها مسلكًا مخالفًا إلى حد بعيد للدول الغربية، ويورد آراء لبعض العلماء اليابانيين توضح أن تجربة اليابان السياسية والمؤسسية تدفع علماء السياسة فيها إلى أن يطرحوا أسئلة لا تتوارد على خاطر قرنائهم الغربيين، من قبيل: طبيعة دور الجماعات القروية والتشكيلات الأسرية في تشكيل بعض المؤسسات الحديثة في اليابان، الجذور التقليدية للدولة اليابانية؛ بما في ذلك مؤسسة "الدولة القديمة" المقتبسة عن الصين، ونظام "المعاني والأقانيم الكونية" الياباني **cosmology** الذي يحكم عمل المؤسسات السياسية والإدارية بما في ذلك المقتبس منها من الغرب، وكذلك مجموعة القيم اليابانية المتميزة.

وإذا كانت "المجتمعات التفرقية" (كالمجتمعات الغربية) – كما يطلق عليها اليابانيون – تتكون فيها الجماعات السياسية بناء على مبدأ التصارع على السلطة، فإن "المجتمعات التجمعية" (مثل المجتمع الياباني) تتكون فيها الجماعة السياسية بناء على مبدأ التشارك في السلطة **Kikyo**، ولذا يعتبر الكتاب أن التجربة اليابانية والتنظيم الياباني بخصوصيها إنما يوضحان بجلاء أن هناك أكثر من طريق ممكن للتوصل إلى "الدولة"؛ ومن ثم فإن اهتمام بعض المثقفين العرب في الفترة الحالية "بإعادة اكتشاف اليابان" هو اهتمام يستحق التشجيع والمتابعة.

الدولة في الفكر الإسلامي التقليدي

ينتقل الكتاب – في الفصل الثاني – نقلة نوعية؛ إلى دراسة قضية "الدولة" في الفكر الإسلامي التقليدي؛ حيث ينطلق من القول بأن مفهوم الدولة الحديثة غير موجود أو غير وارد في الفكر السابق على العصر

الحديث؛ وإن كانت ظاهرة "الدولة" معروفة في "البلدان المسلمة"، على الأقل بمعناها القانوني ومعناها الهيكلي، فالدولة هي "سلعة غربية مستوردة"، جاءت إلى العالم الإسلامي عنوة عن طريق المستعمِر في جانب منها، وتدعَّمت فيه عن طريق اقتباس الحكام ومحاكاتهم لأساليب "هذه السلعة" ومنظماتها من جانب آخر.

وفي هذا يؤكد الكتاب على أنه ليس في الفكر السياسي الإسلامي مفهوم محدد للدولة، وأن عشرات الكتب التي تتحدث عن مفهوم "الدولة في الإسلام" وتستمد مادتها من الأدبيات الإسلامية التقليدية إنما تتحدث عن "الحكم" أو عن "السياسة"، وليس عن "الدولة" بالمفهوم النوعي والمعنى المتكامل؛ ذلك أن تصنيف "الدولة" في الفكر السياسي التقليدي هو تصنيف لضروب الصُّنعة السياسية، وليس لأنواع "الدولة".

ويعتبر المؤلف أن نظرية "الخلافة" تبلورت كبحث مثالي حول ما يجب أن يكون وليس كدراسة وصفية لما هو قائم بالفعل، ممثلا لذلك بإسهامات الماوردي والغزالي وبدر الدين بن جماعة، أما ابن خلدون فإنه يعد – في نظر المؤلف – استثناء من هذه القاعدة؛ حيث يعتبر "أهم مفكر إسلامي تقليدي يضع الدولة في بؤرة اهتمامه الفكري؛ فهو يعالج قضايا تمس القارئ المعاصر وتذكره بمشكلات شبيهة يحياها بالفعل"، ولذلك يعود الكتاب إلى بعض القراءات المعاصرة لابن خلدون، وخاصة عابد الجابري الذي ركَّز في قراءته على إسهام ابن خلدون في ربط تطور الدولة بمفهوم "نمط الإنتاج"، وهي نقطة أهملها الكثيرون في تحليلهم لقضية الدولة في المجتمعات العربية الإسلامية، على نحو ما يؤكد المؤلف.

يبرز الكتاب اختلافًا مهمًا بين فكرة الدولة في أوروبا عنه في الفكر السياسي الإسلامي، فإن كانت الدولة الأوروبية قد تطورت من خلال "الفرداتية" ومفهوم "الحرية" المرتبط بها، فإن الفكر السياسي الإسلامي قد ركَّز على "الجماعة"، ومن ثم أصرَّ على "العدل" كقيمة سياسية عليا، و"القيادة" باعتبارها أساس الحياة السياسية، فإذا وضعنا مقارنة أولية بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي في هذا الخصوص تكون نتيجتها كالتالي:

- الفكر الأوروبي: الفرد – الحرية – الدولة.
- الفكر الإسلامي: الجماعة – العدل – القيادة.

فالقيادة تحتل إذن مكانة بالغة الأهمية في التراث السياسي الإسلامي، ومن المعروف طبقًا لماكس فيبر وغيره، أن قوة القيادة تتحقق عادة على حساب صلابة المؤسسات، والعكس بالعكس، ولكن هذه الفكرة لم تحظَ بتشجيع كبير من رواد الفكر السياسي الإسلامي.

وانتقالاً إلى اللحظة الحديثة، يعرض الكتاب قصة تطور فكرة "الدولة"، في ارتباطها بالأوضاع السياسية للأمة الإسلامية

كما يشرحها رضوان السيد، ويعتمد على حامد ربيع فى تشخيص الوظيفة "الحضارية" للدولة الإسلامية، ويشيد بقيام هذين الباحثين العربيين المحدثين باستخدام المناهج العصرية لتحليل الأفكار والأوضاع التاريخية فى التجربة الإسلامية.

يستغرق حامد ربيع وفكره المتعلق بالدولة بين التجربة الإسلامية والتجربة الأوروبية مساحة غير ضئيلة من الكتاب؛ مبرزًا عددًا من أفكار ربيع، من قبيل: إشكالية العلاقة بين الفكر والحركة فى التقاليد السياسية الإسلامية، وقيام النظام السياسى والإدارى الإسلامى على مبدأ "التوازن"، وأن السلطة هى أداة تحقيق الوظائف العقيدية والحضارية والدعوية للأمة، وأن "الدين الإسلامى هو دين سياسي، والسياسة الإسلامية هى سياسة دينية"؛ ليخلص الكتاب إلى التأكيد على أن محاولة ربيع هى محاولة بالغة الأهمية؛ "لسعيها إلى استلهام التراث السياسى الإسلامى فى ضوء الإطار المرجعى لهذا التراث نفسه"؛ الأمر الذى يتميز فيه ربيع عن عدد من النماذج الفكرية العربية التى يتعرض لها الكتاب لاحقا.

يتفق الكتاب مع رأى حميد عنايات بأن نظرية الدولة الإسلامية قد ظهرت كرد فعل لزوال آخر خلافة إسلامية (العثمانية)، وأن سقوط هذه الخلافة هو أصل ظهور نظرية "الإسلام دين ودولة"؛ التى صارت أشبه بالبدهيات فى الأدبيات الإسلامية المعاصرة.

ويلخص الكتاب وجهة نظر من أسماهم "المحدثين" حول "الدولة فى الرؤية الإسلامية" برأى لعابد الجابرى مؤداه أن "الخطاب السلفى يتركز فى الواقع حول "سياسة" الماضي؛ أى حول الخلافة والإمامة، و"أصول" الحكم فى الإسلام، دون أن يتعدى ذلك إلى القضايا التفصيلية المتعلقة بالدولة والسلطة".

أخيرًا، يشير الكتاب إلى تصنيف فهمى جدعان للاتجاهات الفكرية المطروحة حول الدولة (دعاة الفصل العلماني، دعاة الدولة الإسلامية، الوسيط بينهما بتياريه التشريعي والإنساني)؛ ليخلص إلى أن التيار الأخير يقدم بذور نظرية أولى بالقبول فى ظل الدولة - القومية العربية القائمة؛ وليؤكد على جوهرية اقتراح جدعان التمييز بين ما قد تسميه "فكرة الحل الإسلامي" وبين "فكرة الدولة الإسلامية"؛ لفهم تيار "الإسلام السياسي" فهما صحيحًا ودقيقًا.

الدولة العربية المعاصرة

فى الفصل الثالث يستكمل الكتاب استعراضه لأفكار "المحدثين" حول "الدولة"؛ منتقلاً من رؤاهم حول "الدولة الإسلامية التقليدية" إلى رؤاهم الخاصة بـ"الدولة العربية المعاصرة"، فبدءًا مما أسماه "عصر النهضة": مطلع القرن الميلادى الثامن عشر، لاحظ طابعا "توحيديا" على الفكر العربى آنئذ، وإن اختلفت مادة هذا "التوحيد" بين: الدين، المجتمع العضوي، الأرض، اللغة، مشيرًا إلى أن هذا الفكر البكر لم يتناول ساعتئذ موضوع "الدولة" هكذا بصورة مباشرة، رغم تجربة "دولة الباشا العملاقة" وتجربة "التنظيمات".

إن تفسير ذلك - فيما يتفق فيه الكتاب مع أومليل والجابرى وابن دور - أن المفكرين العرب لم يتعرفوا فى بادئ الأمر على "الدولة كجهاز متكامل، بل كعناصر مبتورة"، وأن العرب اهتموا - عند تحليلهم لتفوق الغرب وأزمة العرب - بالتطلع إلى ما يمكن تسميته بـ"مظاهر السلطة"، أكثر مما اهتموا بإدراك مرتكزاتها (أى جذورها الاجتماعية الاقتصادية، وصياغاتها الفلسفية والقانونية)، أو على نحو ما عبر البعض من أن العرب استوعبوا سريعًا المظاهر الهيكلية وعمليات "التبرقط"، غير أن مفهوم "الدولة" نفسه ظل غائبًا عندهم.

يمضى الكتاب فى ذات المسار النقدي؛ ليتبنى رؤية عبد الله العروى من أن "الدولة" لم تكن قضية مطروحة فى الفكر السياسى العربى "التقليدي" إلا فى صورة "طوبي"، فيما هى فى العصر الحديث حقيقة هيكلية قارة فى الواقع العربي: هيكلاً أجوف بلا روح، "جهازًا دون نظرية".

وفيما وصفه بأهم محاولات معالجة قضية "الدولة" التى كتبت باللغة العربية، يؤكد الكتاب على نظرة وضاح شرارة لواقع "الأزمة" بين الدولة العربية ومجتمعها؛ والتى يرجعها شرارة - باختصار - إلى قيام الدولة - من ناحية - بالتعبير الأمين عن المصالح الضيقة المباشرة لفئة محدودة من المجتمع، وقيامها - من الناحية الأخرى - بخلق وهم سياسى بأنها تعبر عن مصلحة عامة وفكرة جامعة، والنتيجة - كما ألمح شرارة - هى أن قوى الاختلاف داخل الدولة العربية لم تجد أمامها إلا أن تصير قوى مصادمة ومقاومة، وأن الدولة لا تتحول إلى الانسلاخ فقط عن المجتمع، بل إلى عزله والتسلط عليه أيضا: دولة - ضد - مجتمعية، تفرغ المجتمع المدنى من مضمونه الاجتماعي ثم تسيطر على كل ثناياه وأنحائه؛ لتعيد صياغته على النحو الذى يناسبها هي.

يشير الكتاب إلى أهمية الطرح الاقتصادى والاجتماعى لقضية "الدولة"، منوهًا باجتهادات البعض من قبيل سمير أمين؛ ذلك على أساس أن الوحدة العربية المنشودة لن تتحقق لمجرد وجاهتها المنطقية كفكرة ولا لسموها المعنوي، وإنما تتحقق بتجمع القوى الوطنية الفاعلة من حولها، وبناء دولة رشيدة وعصرية تحتويها، ولن تكون هذه الدولة عقلانية وحرة وقوية ما لم يسهم المثقفون العرب بدور قائد فى مناقشة قضايا بنائها وتطورها.

بهذه الدعوة المفتوحة للنقاش الجاد والفاعل يختتم الأيوبى كتابه الماتع هذا على إيجاز عبارته وصغر حجمه؛ بعد أن رسم خريطة معرفية للأفكار والأطروحات التى تعرضت لموضوع الدولة، إلا أن هناك عددا من الملاحظات تجدر الإشارة إليها فى هذا المقام:

أن الأستاذ نصيف لم يقدم مفهوما محددًا للدولة، سواء من قبل أن يشرع فى استعراض الرؤى والأفكار حوله، أو بعد أن فعل ذلك، واقتصر على اقتراح أسلوبين يصح بهما

استخدام مفهوم الدولة في الدراسات المقارنة.

كما أنه قد ركَّز على بيان "مشكلة الدولة" أكثر من أن يقدم حلولاً لها، وبدا أنه قصد فقط إلى الاكتفاء باستعراض تنوعات الرؤى التي تبين جوانب المشكلة كخطوة أولية في سبيل الوصول إلى حلول لها.

وقد كان استعراضه لمظاهر المشكلة التي تمر بها الدولة استعراضًا متوازنًا إلى حد كبير؛ فهو قد أوضح الأزمة التي تمر بها الدولة على المستويات الثلاثة التي ذكرها دون تفاوت كبير بينها، إلا أنه قد يؤخذ عليه في الجزء المتعلق بدعاة الدولة النابعة من الحضارة الإسلامية أنه اكتفى بنموذج حامد ربيع - كما أشرنا - دون غيره ممن أسماهم بدعاة "الإسلام السياسي"، وكذلك كتابات طارق البشرى وعادل حسين وفهمي هويدي، على الرغم من أنه كان من الضروري عرض أطروحات هؤلاء على النحو الذي عرض به غيرها من الآراء بدلا من الاكتفاء بالإشارة إليهم (مع ملاحظة أن الكاتب قد أشاد في كتابه "الدولة المركزية في مصر" بمحاولات ذلك الاتجاه في التنقيب عن روافد أخرى لمفهوم الدولة بالعودة إلى التراث الإسلامي، ودعا إلى تشجيعها والتعاطف معها).

ويتصل بما سبق ما يلاحظه القارئ من أن الأستاذ نصيف قد اكتفى بالعرض الوصفي والتصنيفي لنصوص وآراء الآخرين والتعليق الواصل بين هذه العروض النصية؛ وهو ما يثير التساؤل حول مدى دقة وصف هذا العرض بأنه "عرض نقدي"، ويعطي فكرة غير صحيحة عن أنه ليست له اجتهادات شخصية حول هذا الموضوع؛ إذ إن للكاتب دراسات جادة وأطروحات عميقة حول الموضوع نفسه أوردها في كتاباته الأخرى، خاصة في كتابه "الدولة المركزية في مصر" - الذي سلفت الإشارة إليه - وكتابه "تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط" (باللغة الإنجليزية).

إن الإضافة الأساسية لهذا الكتاب - في نظرنا - أن من يطَّلع عليه يخرج وهو يشعر بأنه قد وضع يده على المشكلة الرئيسية التي تعاني منها الدولة في العالم العربي والإسلامي، وهي أنها دولة "مستوردة" على حد تعبير الكاتب، (وكذلك برتران بادي) فرضت عليه فرضًا من الإمبريالية الغربية، وتضخمت تضخمًا شديدًا تحت رعايتها حتى تحقق مصالحها وتحافظ على هيمنتها، وأن الوضع الصحيح لمعالجة هذه المشكلة هو البحث عن الكيفية التي يتم بها وقف تغول هذه الدولة، وإعادة استقلاليتها من جديد، ولن نجد هذا الحل في إضفاء مشروعية كاذبة على هذه الدولة، سواء كانت مشروعية إسلامية أو قومية أو وطنية؛ إذ إن ذلك يزيد من هيمنتها وسيطرتها وتسلطها، ولكن الحل هو في تقديم النموذج البديل المستمد من الموروث الثقافي للأمة دون مفاصلة مطلقة مع النماذج الحديثة الأخرى.

فتاوى لها تاريخ

تقبيل الأيدى



الشيخ محمود شلتوت

● ما حكم الشرع في تقبيل أيدى العلماء والوالدين؟

التقبيل من العادات القديمة التي عرفها الناس وانتشرت فيما بينهم، ومنه القبيح المستهجن، ومنه الحسن المقبول، وقد اختلط على الناس - بحكم التقاليد المختلفة، والأهواء النفسية - قبيحه بحسنه، ومستهجنه بمقبوله، وصرنا نرى منه ما يمقته الشرع والدين، وما تنكره المروءة والشرف، وبما قد يصل بصاحبه إلى عتبة الكفر والخروج عن الإيمان، ونرى منه ما لا يأس به في نظر الشرع وتقدير الشرف.

نرى تقبيل الأرض والأقدام أمام العظماء والملوك، وأمام الشيوخ، ونرى تقبيل أيدى العلماء والوالدين والطاعنين في السن، ونرى تقبيل أيدى السيدات الأجنبيات، والفتيات المراهقات، نرى كل هذا في المجتمعات وعند المقابلات، وقد أخذ عند بعض الطوائف وضع الشيء المألوف، الذي يعد تركه منكرا أو تأخرًا. والواجب في هذا الشأن النظر فيما ينبغي منه أن يكون فيفعل، وما لا ينبغي أن يكون فيترك، والأصل - الذي يجب أن تجعله أساسًا لذلك - هو تقدير الباعث عليه، فإن التقبيل قد يكون بقصد الخضوع وإعلان العظمة، وقد يكون بقصد إشباع الغريزة تحت ستار التحية والتعظيم، وقد يكون تلبية لعاطفة الشفقة والرحمة، وقد يكون اعترافا بفضل، وهكذا تتنوع بواعثه. فإن كان الباعث يمقته الشرع أخذ التقبيل حكمه وكان ممقوتا، وذلك كتقبيل الأرض أمام الملوك والعظماء، وقد صرح العلماء بحرمته، وقالوا: إن فاعله والراضي به آثمان؛ لأنه يشبه العبادة، ومن مظاهر الوثنية. ومنه تقبيل الأجنبيات، سيدات كن أم فتيات، في الخدود أو الأيدي، فهو محرم ممقوت، وفاعله والراضي به آثمان.

وإن كان الباعث عليه لا يمقته الشرع أخذ حكمه، وذلك كالتجلة والاحترام لتقيٍّ ورع، أو عالم عامل، أو حاكم عادل، تستقيم بعدله الأحوال، ويقيم حدود الله، والوالدان مقدمان على الناس جميعًا في استحسان تقبيل أيديهما: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤).

ومن طريف ما قرأته لبعض الفقهاء بمناسبة الكلام على حكم التقبيل أنه باعتبار موقعه على أنواع: تقبيل المودة للولد، ويكون على الخد، وتقبيل الرحمة للوالدين، ويكون على الرأس. وتقبيل الشفقة للأخ، ويكون على الجبهة، وتقبيل الشهوة للزوجة، ويكون على الفم، وتقبيل التحية للعلماء العاملين والحكام العادلين، ويكون على اليد.

والذي يعنينا في الموضوع أن نحكم في عادة التقبيل عقولنا، ولا نجاري العواطف ولا الأهواء فنزلّ، وهذا شأن يستطيع تقديره كل من يعرف الكرامة، ويخشى الذلة، ولا يحتاج إلى مجهود عقلي، ولا بحث فقهي، ولا فتوى شرعية، بعد أن نعرف الحلال والحرام في التعظيم ومماسة الأجسام للأجسام.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ
أبريل: مايو ٢٠١٥م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

صلاة المسافر

السؤال من: أ. ذ. ع: كنت في سفر إلى إحدى المناطق داخل مصر وحان وقت الصلاة، وعندما قمت لأداء الصلاة وقعت في حيرة شديدة؛ لعدم قدرتي على معرفة الاتجاه الصحيح للقبلة، فأخبرني أحد الحاضرين بأن الاتجاه الصحيح للقبلة هو بأن أجعل أذني اليسرى باتجاه مشرق الشمس، فهل هذا القول صحيح؟ وهل يسري هذا القانون على كل مناطق مصر؟ وما الحكم في حالة عدم معرفة اتجاه القبلة؟

●● الجواب: من شروط صحة الصلاة استقبال القبلة؛ لقول الله تعالي:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

(البقرة: ١٤٤)

فعلى الإنسان أن يتحرى القبلة بنفسه أو عن طريق أهل الخبرة، فإن كان الإنسان في مكان عجز عن تحديد اتجاه القبلة فليجتهد قدر استطاعته وليصل حسب اجتهاده. وكون المصلي يجعل أذنه اليسرى باتجاه مطلع الشمس وبذلك يكون متجها للقبلة فهذا صحيح، ولكن ليس في كل مصر بل إلى قرب محافظة المنيا ثم بعدها ينبغي الانحراف عن ذلك أكثر جهة الشرق.

والله سبحانه وتعالى أعلم

القراءة في المصحف أثناء الصلاة

● السؤال من: ش. ف. ع: هل يجوز القراءة من المصحف أثناء الصلاة؟

●● الجواب: من أفضل القربات والسنن الحسنات أن يجمع الإنسان بين الحسنيين: الصلاة، وقراءة القرآن، فيحرص على ختم القرآن الكريم في صلاته، ولما كان من غير المتيسر لكل واحد أن يقوم بذلك من حفظه تكلم الفقهاء عن إمكانية الاستعانة بالقراءة من المصحف في الصلاة، وذلك عن طريق حمله في اليد، أو وضعه على حامل يمكن المصلي من القراءة.

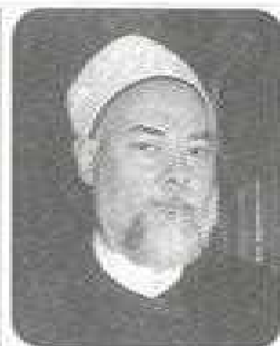
ومذهب الشافعية، والمفتى به في مذهب الحنابلة: جواز القراءة من المصحف في الصلاة

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

«سابقا»



للإمام والمنفرد لا فرق في ذلك بين فرض ونفل وبين حافظ وغيره، وهذا هو المعتمد، ونقله الإمام ابن قدامة في «المغني»(١ / ٣٣٦) عن عطاء ويحيى الأنصاري من فقهاء السلف.

وفي صحيح البخاري معلقا بصيغة الجزم - ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف»(٢ / ٢٣٥)، والبيهقي في «السنن الكبري»(٢ / ٢٥٣) - عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كان يؤمها عبدها ذكوان ويقرأ من المصحف.

وسئل الإمام الزهري عن رجل يقرأ في رمضان في المصحف، فقال: «كان خيارنا يقرءون في المصاحف». المدونة الكبرى (١ / ٢٨٨ - ٢٨٩)، والمغني لابن قدامة (١ / ٣٣٥).

وكما أن قراءة القرآن عبادة فإن النظر في المصحف عبادة أيضا، وانضمام العبادة إلى العبادة لا يوجب المنع، بل يوجب زيادة الأجر؛ إذ فيه زيادة في العمل من النظر في المصحف.

قال حجة الإسلام الغزالي في إحياء علوم الدين»(١ / ٢٢٩): «وقد قيل الختمة في المصحف بسبع؛ لأن النظر في المصحف أيضا عبادة».

والقاعدة الشرعية أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد، والمقصود هو حصول القراءة، فإذا حصل هذا المقصود عن طريق النظر في مكتوب كالمصحف كان جائزا.

قال الإمام النووي في «المجموع»(٤ / ٢٧): «لو قرأ القرآن من المصحف لم تبطل صلاته، سواء كان يحفظه أم لا، بل يجب عليه ذلك إذا لم يحفظ الفاتحة، ولو قلب أوراقه أحيانا في صلاته لم تبطل».

وقال العلامة منصور البهوتي الحنبلي في «كشاف القناع»(١ / ٣٨٤): «وله - أي المصلي - القراءة في المصحف ولو حافظا.. والفرض والنفل سواء، قاله ابن حامد».

بينما يرى الحنفية أن القراءة من المصحف في الصلاة تفسدها، وهو مذهب ابن حزم من الظاهرية، واستدل على ذلك بأدلة منها:

ما أخرجه ابن أبي داود في «كتاب المصاحف»(٦٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نهانا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن يؤم الناس في المصحف، ونهانا أن يؤمنا إلا المحتلم».

وهذا أثر لا يثبت؛ ففي إسناده نهشل بن سعيد النيسابوري، وهو كذاب متروك، قال عنه البخاري في «التاريخ الكبير»(٨ / ١١٥): في أحاديثه مناكير، وقال النسائي كما في «تهذيب التهذيب»(١٠ / ٤٢٧): ليس بثقة، ولا يكتب حديثه.

ومنها: أن حمل المصحف والنظر فيه وتقليب الأوراق عمل كثير.

والجواب المنع من أن يكون حمل المصحف وتقليب أوراقه عملا كثيرا مبطلا للصلاة؛ أما

الحمل فقد صلى رسول الله ﷺ حاملاً أمامة بنت أبي العاص على عاتقه فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها، وأما تقليب أوراق المصحف فقد جاءت بعض الأحاديث الدالة على إباحة العمل اليسير في الصلاة، والتقليب هو من جنس هذا العمل اليسير المغتفر.

والقراءة من المصحف لا يلزم أن تصل لحد العمل الكثير، فتقليب أوراق المصحف يكون في أضيق نطاق لبعد الزمان بين طي الصفحة والتي بعدها، ولكون التقليب في ذاته عملاً يسيرًا، وقد يستعان على هذا بوضع المصحف ذي الخط الكبير على شيء مرتفع أمام المصلي ليقرأ منه الصفحة والصفحتين، ولا يحتاج إلى تقليب الأوراق كثيرًا.

وذهب الصاحبان من الحنفية أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني إلى أن القراءة من المصحف في الصلاة مكروهة مطلقًا سواء في ذلك الفرض والنفل، ولكنها لا تفسد الصلاة؛ لأنها عبادة انضافت إلى عبادة، ووجه الكراهة أنها تشبه بصنيع أهل الكتاب. والتحقيق أن حصول ما يشبه صنيع أهل الكتاب إنما يكون ممنوعًا إذا كان الفاعل قاصدًا لحصول التشبه؛ لأن التشبه: تفعل، وهذه المادة تدل على انعقاد النية والتوجه إلى قصد الفعل ومعاناته، ومن الأصول الشرعية اعتبار قصد المكلف، ويدل على ذلك أيضا ما رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد فالتفت إلينا فرآنا قيامًا فأشار إلينا فقعدنا فلما سلم قال: «إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم: يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا، وإن صلى قاعدًا فصلوا قعودًا»، و«كاد» تدل في الإثبات على انتفاء خبرها مع مقاربة وقوعه، ولذلك لما لم يقصد الصحابة التشبه انتفى ذلك الوصف عنهم شرعًا، والمصلي الذي يقرأ من المصحف لا يخطر بباله التشبه بهم فضلا عن قصده.

ولذلك قال العلامة ابن نجيم الحنفي في «البحر الرائق» (٢ / ١١): «اعلم أن التشبه بأهل الكتاب لا يكره في كل شيء، وإنا نأكل ونشرب كما يفعلون، إنما الحرام هو التشبه فيما كان مذمومًا وفيما يقصد به التشبه، فعلى هذا لو لم يقصد التشبه لا يكره عندهما» اهـ.

وذهب المالكية إلى التفرقة بين الفرض والنفل؛ فرأوا كراهة قراءة المصلي في المصحف في صلاة الفرض مطلقا سواء كانت القراءة في الأول أو في الأثناء؛ وكذلك يكره في النافلة إذا بدأ في أثنائها؛ لاشتغاله غالبا، ويجوز ذلك في النافلة إذا ابتدأ القراءة في المصحف من غير كراهة؛ لأنه يغتفر فيها ما لا يغتفر في الفرض. «منح الجليل شرح مختصر خليل (١ / ٣٤٥)».

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن هذه الكراهة إنما تتأتى إذا كان العمل في حد العبث، الذي هو اللعب وعمل ما لا فائدة فيه، فيكره للمصلي حينئذ أن يشتغل به؛ لما فيه من منافاة للخشوع، أما القراءة من المصحف في الصلاة فليست من هذا الباب بل هي عمل يسير يفعله المصلي لحاجة مقصودة، وكل ما كان من هذا الباب فلا بأس أن يأتي به؛ وأصل ذلك ما ورد أن النبي ﷺ خلع نعليه في الصلاة لما أوحي إليه أن فيهما قذرًا، كما رواه الإمام أحمد في مسنده (٣ / ٩٢)، وأبو داود في سننه (٦٥٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وبناء على ما سبق يثبت ما قررنا من أن القراءة من المصحف في صلاة الفرض والنفل صحيحة وجائزة شرعًا ولا كراهة فيها فضلا عن أن تكون مفسدة للصلاة.

على أنه ينبغي التنبيه على أنه ما دامت المسألة خلافية فالأمر فيها واسع؛ لما تقرر من أنه لا إنكار في مسائل الخلاف، ولا يجوز أن تكون مثار فتنة ونزاع بين المسلمين.

والله سبحانه وتعالى أعلم

دلائل الإعجاز في مقاصد الشريعة





أ. د/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

مظاهر الكرامة وتجلياتها

ليست الكرامة في مقاصد الشريعة التي قننت حقوق الإنسان في جنبات المعمورة، مجرد نصوص تحفظ في المواثيق الإسلامية في القرآن والسنة وفي إجماع الأمة، إنما قصد رب الدين من تنزيلها في المصدرين الرئيسيين للشريعة، إضفاء طابع القدسية عليها، وأن يتعبد الناس بها، وأن يقوم اجتماع الخلق على أساسها ليتم الاعتراف لكل شخص بحقوقه الإنسانية الأصيلة، فترسخ في أعماق الضمير والوجدان وتظل حية متقدة في ذهنية الإنسان.

ولم يقف الإسلام عند حدود الاعتراف بها، وتقريرها في العقيدة والشريعة، فهذا غير كاف ولا واف ولا مجز في الدين ولا في الدنيا، وإنما الواجب والمراد تطبيق ما وردت به النصوص، وتفعيل الأحكام المقررة لذلك، للوصول إلى جعل تكريم الإنسان واحترام آدميته حقيقة فعلية ملموسة ومحسوسة في الواقع المعيش.

ويتجلى ذلك في إرساء بعض المظاهر لتأكيد هذا المعنى، من بينها:

- النص على أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(النساء: ١)

- فكرة العالمية الجامعة بين سائر البشر، برغم الاختلاف الحاصل بينهم في الأعراق والأديان والأجناس والألوان، واللغات، والأرزاق والمعايش، وتأسيس هذه العالمية، على التعايش المشترك في سلام ووئام ورحمة، فهذا مقرر عند الله:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

(الأعراف: ١٥٦)

وفي الرسالة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قد حضر حلفا في صدر شبابه، لبعض أشراف قريش، عقد في دار عبدالله بن جدعان، تعاقدوا فيه لينصرن الضعيف على القوي، وقال عنه: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا، لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا

أن ترد الفضل على أهلها ولا يقهر ظالم مظلوما»(١).

- مبدأ الأخوة الإيمانية والأخوة الإنسانية، فإنها توجب استحقاقات وترتب التزامات في تقرير حق المواطنة والتساوي في الحقوق، وفي التسليم بحقوق الأجانب في الحياة والحرية والسلام، والأمن لتحقيق المصلحة، ودرأ المفسدة، ولذلك جاء القرآن بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

(الحجرات: ١٠)

وفي نداء التعارف بين بني البشر والكرامة، كما سبق أن أشرنا، وفيما قال به الإمام علي بن أبي طالب: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» وفيما يقول به ابن عربي(٢): فإن الاعتبار في ذلك نية الخير في العمل فيمن ليس من جنسك، يعود فضله عليك، وأنا مؤمن بما هو اليهودي والنصراني به مؤمن، مما هو حق في دينه وكتابه، من حيث إيماني بكتابي، قال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

- المساواة في الآدمية، وفي الحقوق الطبيعية التي لا تنفصل عن إنسانية الفرد، واللصيقة بشخصيته، الكفيلة بالحفاظ عليه وعلى كيانه الجسماني والذهني والمعنوي، يقول الرسول ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إنما الفضل بالتقوى»(٣).

وأكد مضمون تلك المساواة في رحاب البيت الحرام في مكة، في خطبة الوداع(٤): «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، ويسألكم عن أعمالكم».

«أيها الناس إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ليس لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى».

- إثبات العصمة والحصانة والتوقير لكل إنسان حال الحياة وحال الممات، باعتباره نفسا آدمية محترمة ومصونة فإن إيذاء الإنسان أو الإساءة إليه أو الاعتداء على نفسه أو ماله أو عقله أو شرفه وعرضه ممنوع ومنهي عنه شرعا، لمعارضة هذا السلوك مع القول الحسن والعمل الصالح الذي وجه إليه الإسلام، فإن القرآن يأمر بذلك:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة: ٨٣)

(١) في معنى هذا السيوطي، الفتح الكبير، جـ٣، ص٢٩٢.
(٢) الفتوحات المكية، جـ١، ص٥٦٩.
(٣) المبسوط للسرخسي جـ٥، ص٢٢١٣ سبل السلام جـ٣، ص١٢٨ الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.
(٤) انظر: حديث حجة رسول الله ﷺ - رواية جابر بن عبدالله، صحيح مسلم، جـ٤، ص٣٧.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

(العصر: ٢)

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

(العصر: ٣)

فسلوك الإنسان لطريق الفساد مؤثم ما لم يعتصم بالإيمان والعمل الصالح، ويستقيم على طريق الحق والتخلق بالصبر، وهو جامع المعاملة الطيبة، ونقيض الأذى والإساءة والضرر.

وحرمة الإنسان في الظاهر والباطن وعند الحياة والممات مما طبقه الرسول ﷺ عندما مرت عليه جنازة، فقام لها واقفا، فقال له بعض الصحابة: إنها ليهودي فقال: «أليست نفسا»(٥) وهو برهان على كرامة الإنسان حيا وميتا.

المؤيدات الفقهية والحقوقية

وقدساير الفقه منهج الإسلام في الحفاظ على كرامة الإنسان في كل الظروف، وفي المراحل العمرية المختلفة وبعدالة بين الأفراد جميعًا المسلم وغير المسلم، وهو أمر وفر الاستقرار والاحترام والأمان المجتمعي، وخلصه من التجاوز والتعدي على قيمة الشخص واحترامه لدى ذاته وعند الناس. وهذا الاتجاه في التأكيد على تكريم الإنسان إلى أبعد مدى في جنبات الحياة الشخصية والمجتمعية، وفي الظاهر والباطن، وهو ما تشهد عليه مقاصد الشريعة في إحاطتها بمشتملات الحياة الشخصية، وحرصا على تكاملها في جوانب النفس الإنسانية، سواء ما يتعلق منها بحق الحياة أو حماية المال والعقل والعرض، مع حماية حق الدين، مما يجعل الإنسان آمنا على نفسه ومكرما وبين أهله، وفي أوساط مجتمعه.

ويفسح النظر الفقهي المجال لكل إنسان ليتمتع بالحق في الكرامة، وتحريره من القيود والأغلال دون أن يقف الدين أو الجنسية أو القومية أو العصبية حائلا دون نيل الشخص لحريته وكرامته، وهو ما نص عليه الفقه الحنفي أنه(٦): لو تنازع مسلم وذمي على ولد، فادعى المسلم أنه عبد، وادعى الذمي أنه حر، حكم للذمي، ترجيحًا لأصل الحرية على الرق والعبودية، فيحكم لصالح الذمي دون المسلم، لأن الحكم بالحرية إحياء للشخص، واسترداد لكرامته الإنسانية، فيحقق مقصود الإسلام في حماية الشرف والكرامة، وصيانة النفس الآدمية من الامتهان والانتقاص.

ثانيا: ركيزة العدل والمساواة

لا يقوم نظام رشيد وآمن بدون العدالة والمساواة بين أفراده وجماعاته، يتوفر على تحقيقهما دولة مرهوبة الجانب، عزيزة السلطان، إذ المساواة تشكل قاعدة النظام، والعدل عنوان عليه، وفي ظلالها ينال كل فرد حقوقه ويحصل على احتياجاته، ويضطلع بالتكاليف والواجبات التي تلزم لترسيخ قواعد العدالة والمساواة، وهي ألزم في حالة المقاصد، لإقامة المصالح التي جاءت

(٥) صحيح البخاري - الجنائز الحديث رقم ١٣١٢.
(٦) حاشية ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، جـ٣، ص٨٠٨.

لحمايتها بالدين والحياة والمال والعقل والعرض.

وعلى هذا النسق، فإن الأفراد جميعا أمام الشرع والقانون سواء، لا مزية لأحدهم على الآخر، ولا حرمان لفرد من استحقاقاته الثابتة له، وهو النداء الإيماني للجماعة الإسلامية:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(النساء: ١٣٥)

وهي مساواة حقيقية عامة في جوانبها الحقوقية والعدلية والمجتمعية، تنوه إلى وجوب تحقيقها على أرض الواقع، تأكيدًا على أنه لن ينتظم الاجتماع بين الناس، ولن تستقيم الحياة، ولن يتحقق الأمن والسلام المجتمعي، والعالمي بدونه.

ولأن مقاصد الشريعة استلهام لأصول الإسلام ومبادئه القيمة، فإن دلالة المقاصد على العدالة والمساواة مترابطة ومتساندة، يكمل كل منها الآخر، ويقود إليه، من أجل تحقيق الغاية والمراد.

واستقراء التاريخ الإنساني، والواقع الحياتي على امتداد مراحل التاريخ يكشف كم عانت البشرية من صنوف التفرقة والظلم ألوانًا وأجيالاً، مما جلب على البشرية أحزانًا ومآسي يعجز عنها الوصف، ولم ينج من الكوارث التي نتجت عن غياب المساواة والعدالة، إلا بعض الفترات والعصور، التي كانت مصدر فخار وأمجاد للإنسانية، على رأسها العصر الإسلامي.

ولايزال مسلسل الصراعات والحروب قائمًا في العصر الراهن بسبب مساعي الهيمنة واستنزاف الثروات من جانب قوى الاستعمار الغربي، والسعي حثيثًا لإخضاع شعوب العالم الإسلامي.

وهذا على خلاف ما أقرته الشريعة وسارت عليه دولة المسلمين، فقد أرست مقاصد العدالة، وأكدت على استحقاقات المساواة، وأرسى القرآن قاعدة المساواة في تقرير العبودية بين البشر جميعا:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾

(مريم: ٩٣)

فوضع بحق ركيزة قيام الدولة، وأساس دوامها وبقائها، فبدونها تسقط الدولة، شاهد ذلك، الحقيقة الشرعية والاجتماعية: إن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مسلمة.

ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام(٧). فلا يستقيم نظام، ولا يستقر اجتماع مع الظلم والجور.

عمومية المساواة والعدالة في المبدأ والتطبيق

المساواة بين البشر تثبت لكل فرد بصفته الإنسانية، بمقتضى أن الناس كلهم عباد الله، فهم متساوون في عبوديتهم لله

(٧) ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المكتبة القيمة ص٤٣.

تعالى واستحقاق العدالة والإنصاف كقوله عز وجل:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(فصلت: ٤٦)

فهذه التسوية في العبودية من أصول الشريعة، منشؤها معرفة الإنسان أنه خلق لغاية ووجد من أجل رسالة تنصلح بها نفسه ويرتقي اجتماعه تتجلى في الالتزام بتكاليف الشرع، وفي التمتع بالاستحقاقات الإنسانية، والالتزام بأصول الدين والعبودية لله رب الناس، فينعم بالسكينة والطمأنينة اللازمة لإقامة صرح المجتمع على العدل والمساواة. وليس من العسير أن يدرك قيمة ذلك، عندما يرصد قوة الأمم والمجتمعات فإنه لا بديل عن قيمة المساواة والعدالة في تأسيس البناء الفولاذي للنظام في أي أمة، فالعدالة ترجمان المساواة وبرهان عملي عليها، إذ الدنيا تقوم على العدل، وعليه تتأسس المجتمعات، ويقوى صرح الدولة، وهو ما جعل العدل ضمن الأوامر القطعية التي جاء بها القرآن بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وكعهد الشريعة في تجسيدها لهذا الأصل، والبرهان عليه، كان صنيع الرسول ﷺ عندما خرج على الناس أثناء مرضه الذي قبض فيه بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب حتى جلس على المنبر، ثم قال: أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قلبي فإنها ليست من شأني، ألا إن أحبكم إلي من أخذ مني حقًا إن كان له، أو حللني فلقيت ربي، وأنا طيب النفس، ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع إلى المنبر فعاد إلى مقالته الأولى(٨).

فلم يشأ الرسول ﷺ إلا أن يكون النموذج القدوة في كل أقواله وأفعاله، وفي معاملاته مع الناس، في التزام المساواة والعدالة، فقد خرج على الملأ ليعلن المصداقية على المساواة والعدالة على نفسه وأنه لا امتياز له على أي من الناس، فهذا بلاغ من رسول الإسلام إلى العالمين، لإقامة صرح الاجتماع السليم.

ولا تنحصر المساواة والعدالة كشرعة ربانية في إنسان دون آخر، ولا على نظام دون غيره، ولا في مجال دون مجال، ولعل أقوى معيار على التساوي بين بني الإنسان، تقرير قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(النساء: ١)

فهو نداء العموم، وإشعار بالمساواة الذي استهل به الخطاب القرآني: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾. وهي تعم كافة أفراد النوع البشري.

وبالبناء على فلسفة المقاصد الشرعية، واستلهاما لها تتعدد تجليات المساواة والعدالة، في توجهات المقاصد ودلالتها.

— يتبع —

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص١٣٢.

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

هنري سيروي

«١» «ومحمد ﷺ لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب»(١).

«٢» «محمد ﷺ شخصية تاريخية حقة، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل وقبل مماته أراد أن يطهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطبا: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحداً فهاكم ظهري فليأخذ ثاره، أو سلبته مالاً فمالي ملكه فوقف رجل معلنا أنه يدينه بثلاثة دراهم، فرد الرسول ﷺ قائلاً: أن يشعر الإنسان بالخجل في دنياه خير من آخرته ودفع للرجل دينه في التو وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد ﷺ لدوره كنبي يرينا بأن «رينان» كان على غير حق في نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين براثين الجهل والخرافات..»(٢).

«٣» «إن المحاولة الإسلامية في التاريخ ذات أثر كبير، و العبقرية العربية تجد في محمد ﷺ منشئاً لحضارة التوحيد التي تعتبر ذات أهمية كبيرة، إذا فكرنا في القيمة الفلسفية للتوحيد، وفي تفوقها الكبير الذي جعل كل الشعوب الآرية تمارس أفكار تلكم الفلسفة وهذه الثروة الروحية الغزيرة في الأمة العربية، راجعة إلى الغريزة النبوية والتي تعد واضحة لدى الشعوب السامية، فاليهود الذين يستطيعون الفخر بأنبيائهم الكبار، يقروا بأن روح النبوة قد اختفت لديهم بعد هدم معبدهم الثاني، وهذا ما يفسر بمعنى أكيد العداوة العنيفة والكثيرة التكرار في القرآن بالنسبة إليهم»(٣).

«.. إن الحضارة الفكرية الذهنية الحقيقية لم تظهر وتوجد - لدى العرب - سوى لدى وصول محمد ﷺ»(٤).

لورافيشيا فاغليري

«١» «.. كانت حملة كبيرة على سوريا.. رهن الإعداد، عندما أسكت الموت إلى الأبد صوت النبي ﷺ الذي كان قد أحدث هذه الهزة العميقة في تلك القلوب كلها، والذي كان مقدراً له أن يستهوي عما قريب شعوباً أخرى تقيم في مواطن أكثر إمعانا في البعد وكان في السنة الحادية عشرة من الهجرة»(٥).

«٢» «كان محمد ﷺ المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية، شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائما اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور لقد عرف جيداً أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري»(٦).

«٣» «حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ﷺ ببعض التهم المفتراة لقد نسوا أن محمد ! كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد ﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك «وحاشاه» رجلا كذابا؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثا موصولا؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جدا، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنا إيمانا عميقا بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد «ﷺ» كان عميقاً وأكيداً»(٧).

«٤» «دعا الرسول العربي ﷺ بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين إلى أصفى عقيدة توحيدية وارتضى أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى..»(٨).

ليوبولد فايس

«١» «.. إن العمل بسنة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وأنك إذا أزلت هيكل بناء ما، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء، كأنه بيت من ورق؟»(٩).

«٢» «.. إن السنة هي المثال الذي أقامه لنا الرسول «ﷺ» من أعماله وأقواله إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حيا وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلغ الوحي»(١٠).

---

(١) فلسفة الفكر الإسلامي، ص.
(٢) نفسه ص١٧.
(٣) نفسه ص٣١.
(٤) دفاع عن الإسلام، ص٢٩.
(٥) نفسه ص٣٣.
(٦) نفسه ص٧٣.
(٧) نفسه ص٣٧ - ٣٨.
(٨) نفسه ص٤٣.
(٩) الإسلام على مفترق الطرق، ص٨٧.
(١٠) نفسه ص٨٨.

إنما المؤمنون إخوة



لفضيلة الشيخ/ عوض عوض إبراهيم

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات : ١٠)

إنها الأخوة التى قارنها الصدق قولاً وعملاً، وقد ورد فى المعجم لألفاظ القرآن الكريم فى كلمة (أخ): (الأخ ومؤنثه أخت وهو المشارك الآخر فى الولادة من الأبوين أو من أحدهما، ويطلق على المشارك من الرضاع كما يطلق على كل مشارك فى القبيلة أو فى الدين أو فى صنعة أو معاملة، أو فى مودة وما شابه ذلك وجمع الأخ إخوان وإخوة، وجمع الأخت أخوات).

وقد عرض هذا المعجم لألفاظ: صاحب، وخليل، ورفيق، وكلها يلتقى مع ما سبق فى بيان الأخ، مما يؤكد أن الأخ على جلالته لا يعول عليه إلا إذا كان صديقًا صادق الدين، صادق الود، صادق الصحبة، وقديمًا قالوا: (رب أخ لك لم تلده أمك).

وقال أخ لأخيه: لأهجونك. فقال: كيف تهجونى وأبى أبوك وأمى أمك؟

فأنشد الأول:

أبــوك أبٌ حـرٌّ وأمــك حُـرةٌ
وقـد يـلـد الـحُـران غيـرَ نجيب

ونحن نأخذ من معانى النجابة معنى الجد والصداقة الحقة والخلة التى تعنى أن ودك لأخيك وود أخيك لك قد تخلل أثرهما قلبيكما.

وقد قال الشاعر:

قـد تـخـلـلـت موضـع الـروح منى
ولــذا ســمـى الـخـلـيـل خليلا

وقال الإمام الشافعى:

تكثر من الإخوان ما اسطعت إنهم
عمادٌ إذا استنجدتهم وظهور
ومـا بـكـثـيـر ألـف خـل وصـاحـب
وإن عــدوا واحــدًا لكثير

ولقد كان إخوة يوسف عليه السلام من الأب الواحد يعقوب، وكان بنيامين وحده ويوسف من أبوين على سواء، والقرآن الكريم الذى أورد

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، جـزء ١، ص ٣٠، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ مجمع اللغة العربية

شأن يوسف منذ رأى فى المنام ما قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾

(يوسف: ٤)

حتى فسر الواقع أمر هذه الرؤيا فى قوله تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾

(يوسف: ١٠٠)

ومن خلال هذه الآيات بدءًا ونهاية يبدو ما أظهره يعقوب عليه السلام من كيد إخوة يوسف له، وضيق ذرعهم به وإرادة بعضهم أن يقتلوه حتى قال كبيرهم:

﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾

(يوسف: ١٠)

لقد حسدوا وكادوا وكذبوا على أبيهم واحتالوا عليه حتى يُخرج معهم أخاهم يوسف ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، وكأنما كان يعقوب عليه السلام يقرأ صحيفة الغيب من وراء ستر رقيق حين قال:

﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾

(يوسف: ١٣)

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾

(يوسف: ١٦-١٧)

وكم كانوا موغلين فى الكذب وتبرير الكيد الأثيم، والله تعالى يكشف الخبيء من شرورهم وهو تعالى يقول:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾

(يوسف: ١٦)

وعشاء تعنى أن ضياء النهار قد انقضى وظلام الليل لا يمكث معه البحث عن حقيقة هذا الذى زعموا أن الذئب قد قتله:

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

(يوسف: ١٨)

ليس دم يوسف ولكنه دم ذئب جعل العقل البشرى يقول عجبًا ليوسف المأكول زعمًا وكذبًا وقميصه سالم إلا من الدم المزعوم، وألقى الإخوة الظالمون أخاهم فى غيابة الجب فما انكسر منه عظم ولكنه وجد أحد ملائكة الله تعالى يقول له ما يعنيه قول الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(يوسف: ١٥)

وجاءت سيارة تمتح[٢] الماء فى البئر وكان عجبًا أن يعود الوارد بيوسف وليس معه شىء من الماء، وكان من أمر القافلة أن باعته بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، فإن ما معهم من زاد لا يتسع لإضافة مشارك، وكانت عناية الله وحنوه ورحمته بالمظلومين تتمثل أكرم تمثل فى أن اشتراه عزيز مصر، وكانت محنة امرأة العزيز التى تجملت له وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، وكان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على

(٢) تمتح: تستخرج

مستواه من الطهر والنقاء إلى المدى الذى قال فيه عزيز مصر :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

(يوسف:٢٩)

وأتجاوز ما ابتلى به يوسف عليه السلام من أمر امرأة العزيز إلى أمر يوسف البرئ مسجونًا وظالمه يكيد ويمكر وأمر صاحبيه فى السجن، وألفت الأنظار والأذهان إلى إخوة يوسف الذين جاءوا من بلاد الشام إلى مصر، كنانة الله فى أرضه وكان يوسف بعلمه ورحمة الله عز وجل قد صار على خزائن الأرض مصر وهو يقول:

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف:٥٥)

وعرف إخوته وهم له منكرون فأكرم وفادتهم وأمدهم بالمدد الكثير، كل ذلك تقرأه لتعلم أن الحق ظافر وأن الباطل وإن طال المدى مخذول، وفى سورة الكهف من كتاب الله عز وجل أمر الصاحبين، قال تعالى:

﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾

(الكهف: ٣٢-٣٧)

وكانت عاقبة المغرور بالدنيا المفتون بالحياة ما قال الله تعالى:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

(الكهف: ٤٢)

وقد ذكر سماحة الأستاذ الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله فى تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير ما نذكر منه قوله: (فضرب مثلا للفريقين للمشركين وللمؤمنين بمثل رجلين كان حال أحدهما معجبا مونقا، وحال الآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تبابا وخسارة، وكانت عاقبة الآخر نجاحا، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله فى العالم من التذكير والتدبر فى العواقب فيكون معرضا للصلاح والنجاح) (٣). أهـ

(٣) تفسير التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور، ص ٣١٥، جزء ١٣، ١٤، ١٥، ط دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ط ١٩٩٧م.

تأملات فى السيرة

غزوة بنى المصطلق

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

لعلك تذكر ما كان من شماتة المنافقين بعد غزوة أحد وما كان من جراء ذلك من سعى المشركين وتمردهم وسعى اليهود الدءوب لتأليب أعداء الإسلام وجمع كلمتهم لمحاربة المسلمين حتى وصل الأمر إلى أن عمر بن الخطاب توجه إلى رسول الله ﷺ أن يأذن له فى قتل من تسول له نفسه بالشماتة وقول رسول الله له: يا عمر إن الله تعالى مظهر دينه ومعز نبيه ولليهود ذمة فلا أقتلهم قال: فهؤلاء المنافقون؟ قال: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟ قال: بلى يا رسول الله وإنما يفعلون ذلك تعوذًا من السيف، فقد بان لنا أمرهم وأبدى الله تعالى أضغانهم عند هذه النكبة. فقال ﷺ: إنى نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يا بن الخطاب إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن.

لعلك أيها القارىء الكريم أن تتبين حقائق ثلاث فيما رويت لك أولا: أن النبى ﷺ منع سيدنا عمر من قتل اليهود؛ لأن لهم ذمة. ومنع قتل المنافقين؛ لأنهم يظهرون قول لا إله إلا الله، وهكذا الإسلام يحفظ العهد فلم يقتل اليهود رغم خيانتهم وشدة حقدهم إلا حفاظا على العهد الذى بينهم رغم أنهم نقضوه، ومنع قتل المنافقين لا لشىء؛ إلا لأنهم يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ ولعل هذا يلجم من يقذفون بكلمة الكفر يخرجون بها كل من يخالفهم الرأى فى مسألة من المسائل، أما ثالثة الأمور هى قوله ﷺ: «يا بن الخطاب إن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن» فهذا وعد وبشارة من النبى ﷺ أن الله مظهر دينه ومعز نبيه وأن المشركين لن تكون لهم الغلبة فى لقاءات مع المسلمين أبدًا وهو وعد وبشرى للمسلمين أنهم سوف يدخلون البيت إن شاء الله ويستلمون الركن.

وعلى كل قارئ للسيرة أن يعلم أنه لا يقرأ تاريخًا لزعيم أو مقاتل، إنما يطالع خطوات نبي مؤيد من عند الله يخطو بأمر الله، ويحارب بأمر الله، وينظر إلى الغيب بنور الله وعندما نقول إن رسول الله ﷺ لم يدخل حربًا معتديًا أبدًا إنما كل غزواته ﷺ وكل تحركاته كانت دفعًا لاعتداء أو ترسيخًا لمبدإ إنسانى دولى أو تأمينًا لطرق

الناس أو ترسيخًا لمعاهدة واتفاق يجب أن يحترم، فلم يخرج النبى ﷺ إلى قتال بنى المصطلق؛ إلا لأنهم كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ ثم نقضوا العهد وتحالفوا مع قريش، ولم يكن رسول الله ﷺ هو الذى بدأ بالهجوم ولم يشعل الحرب وإنما كان عمله تأمينًا للمدينة وذلك أن النبى ﷺ بلغه أن مالك بن جزيمة ابن كعب سيد بنى المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه ومن العرب وتهيئوا لحرب رسول الله ﷺ فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمى ليخبره خبرهم فخرج حتى ورد عليهم ماءهم فوجدهم قد تألبوا وجمعوا الجموع فقالوا: من الرجل؟ قال: رجل منكم، قدمت لما بلغنى جمعكم لهذا الرجل - يعنى رسول الله ﷺ - فأسير فى قومى ومن أطاعنى فتكون يدًا واحدة حتى نستأصله، قال الحارث بن أبى ضرار (وهو سيد من سادتهم)، فنحن على هذا فعجل علينا، فقال بريدة: اركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي، فسروا بذلك ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم فأسرع الناس بالخروج، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة زيد بن حارثة ويقال أبا ذر الغفارى ويقال غير ذلك وكان مع المسلمين ثلاثون فرسًا للمهاجرين، عشرة منهم فرسان لرسول الله ﷺ، وسار رسول الله ﷺ بجيشه وسار معه كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها لا رغبة فى الجهاد وإنما رغبة فى أن يصيبوا من عرض الدنيا لقرب السفر عليهم وأتى النبى ﷺ يومئذ برجل من عبد قيس فسلم على رسول الله ﷺ فسأله النبى ﷺ فقال له: أين أهلك؟ قال: بالروحاء. فقال له: أين تريد؟ قال: إياك جئت لأؤمن بك وأشهد أن ما جئت به حق وأقاتل معك عدوك فقال رسول الله ﷺ الحمد لله الذى هداك للإسلام. فقال الرجل: أى الأعمال إلى الله أحب يا رسول الله؟ قال: الصلاة لوقتها.

وأمسك المسلمون بعين للمشركين فسأله النبى ﷺ عنهم فلم يذكر من شأنهم شيئًا فعرض عليه النبى الإسلام فأبى فأمر النبى ﷺ عمر فضرب عنقه وانتهى مسير رسول الله ﷺ حتى بلغ المرَيسيع وقد سمع القوم بمسير رسول الله ﷺ إليهم وقتله عينهم فتفرق عن الحارث بن ضرار من كان قد اجتمع عليه من أفناء العرب فترامى الناس ساعة بالنبل ثم أمر النبى ﷺ أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد فما أفلت من المشركين إنسان قتل منهم عشرة وأسر ﷺ سائرهم، أسر الرجال وسبى النساء وما قتل من المسلمين إلا رجل واحد يقال له هشام ابن صبابة قتل خطأ.

ويروى عن السيدة جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها وهى فى قومها قالت "أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المريسيع فسمعت أبى يقول أتانا ما لا قبل لنا به فكنت أرى من الناس والسلاح والخيل ما لا أصف من الكثرة فلما أسلمت وتزوجنى رسول الله ﷺ جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى فعلمت أنه رعب من الله تعالى يلقيه فى قلوب المشركين" وكان الرجل منهم قد أسلم وحسن إسلامه يقول كنا نرى رجالًا على خيل بلق ما كنا نراهم قبل ولا بعد ولما قسم السبى بين المقاتلين صارت جويرية بنت الحارث سيد القوم فى سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له فكاتبها على تسع أواق من ذهب - يعنى جعل لها حريتها على أن تدفع له تسع أواق من ذهب - وكان اسمها برة، غيرها رسول الله ﷺ إلى جويرية.

تروى كتب السنة عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: كانت جويرية امرأة حلوة مليحة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينما النبى ﷺ عندى ونحن على الماء إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابتها - يعنى فيما اشترطت فيه مع ثابت بن قيس - فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على رسول الله وعرفت أنه سوف يرى منها مثل الذى رأيت فقالت: يا رسول الله إنى امرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومى أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبنى على ما لا طاقة لى به ولا يدان، وما أكرهنى على ذلك إلا أنى رجوتك صلى الله عليك فأعنى فى مكاتبتي، فقال رسول الله ﷺ: أوخيرًا من ذلك؟ فقالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت. فأرسل ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه فقال ثابت: هى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى. فأدى رسول الله ﷺ ما كان عليها من كتابتها وأعتقها وتزوجها وخرج الخبر إلى الناس ورجال بنى المصطلق قد اقتسموا وملكوا ووطئت نساؤهم فقال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبى. تقول عائشة رضى الله عنها: وأعتق مائة أهل بيت بتزوج رسول الله ﷺ إياها فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها. ويروى عن السيدة جويرية رضى الله عنها قالت: رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى فكرهت أن أخبرها أحدًا من الناس حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سبينا رجوت الرؤيا فلما أعتقنى وتزوجنى والله ما كلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم وما شعرت إلا بجارية من بنات عمر تخبرنى الخبر..

***

صبية صحابة.. وصبايا صحابيات أثرهم وأثرهن فى المسلمين «٢»



للدكتور: على أحمد الخطيب

فاطمة بنت رسول الله ﷺ وبنوها رضى الله تعالى عنهم

كلٌّ استفرغ صباه فى عهد رسالته ﷺ :

فأما فاطمة - رضى الله عنها - وهى اللؤلؤة الثانيـة فى الجنة، فقد ولـدت - قبل خمس سنين من بعثته صلوات الله وسلامه عليه، جاء فـى «الطبقات»: «أمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، ولدتها، وقريش تبنى البيت، وذلك قبل النبوة بخمس سنين»(١).

أى أن صباها كله كان بمكة بجوار الوالد الكريم محمد ﷺ حتى إذا حلت الهجرة - بعد ثلاث عشرة سنة بمكة - كانت فاطمة - رضى الله عنها - قد جاوزت سن الصبا بسنتين أو دخلت فى الثالثة.

وهـذا يعنى أنها عاصرت إلى جانب أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنهما - كل السنوات العصيبة التى مرت برسول الله ﷺ حيث تفنن مشركو مكة فى أذاه - عليه الصلاة والسلام - فقصدوا بيته الكريم.. بإلقاء القاذورات عليه، بل وإلقائها عليه شخصيا، وفاطمة - رضى الله عنها - هى التى أزالت عن ظهره الكريم - وهو ساجد بالكعبة - سلا(٢) الجزور - الذى ألقاه عليه اللعين عقبة بن أبى معيط، بل لم يتورعوا عن قذفه بالحجارة وهو ﷺ صابر حتى أذن الله - تعالى - له بالهجرة، فهاجر ﷺ ثم بعث بعدُ من أتى بأهله إليه فطرقت فاطمة المدينة وسنها نحو ثمانية عشر عامًا.

وفى حرب «أحد» ضمدت جرح رسول الله ﷺ(٣).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٩ والطبقات ١/٢٣٧ «احتضار فاطمة إلى المدينة» ط دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م
(٢) السلا: ما يلقى من بطن الذبيحة تخلصا منه.
(٣) إسماعيل بن كثير - السيرة النبوية ٣/٨٨ط عيسى البابي الحلبي ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

لم يرزق النبى ﷺ بأبناء بعدها إلا إبراهيم من والدته المصرية مارية - رضى الله عنها، ومات صغيرًا كما مات جميع أبنائه - عليه الصلاة والسلام - عدا فاطمة - رضى الله عنها، ففاطمة هى الوحيدة التى بقى منها عقب البيت النبوى إلى يوم الدين، فكانت هى كنز النبوة، ونورها الدائم الكريم الثاقب.

وكانت - بجانب رسول الله ﷺ بعد وفاة أمها خديجة فى السنة العاشرة من البعثة(٤).

وهى - حينئذ - شابة لا تعوقها خدمة رسول الله ﷺ .. لها - رضى الله عنها - بمسند أحمد عشر آثار فقط، لها نفعها المفيد، وأكثرها بركة ما يردده رواد المساجد - دخولا وخروجا، صباح مساء، رواها - رضى الله عنه - بسنده إلى عبدالله بن حسن عن أمه فاطمة ابنة حسين، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت - رضى الله عنها -: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد، صلى على محمد وسلم وقال: اللهم اغفر لى ذنوبي، وافتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال: اللهم اغفر لى ذنوبي، وافتح لى أبواب فضلك»(٥).

فكان قلبها أكثره بركة.



وأول أبنائها: الحسن بن على بن أبى طالب، سبط(٦) رسول الله ﷺ، وأشد الناس شبها به - عليه الصلاة والسلام - وكان الصديق - رضى الله عنه - يداعبه بقوله:

بـأبـى شـبـه النـبـي
لـيـس شـبـيـهـا بـعـلـي

وولد - رضى الله عنه - فى العام الثالث من الهجرة، أى أنه عاصر سبع سنين من حياة رسول الله ﷺ لابد أن يكون فى الحسبان منها القدر الذى يمكن أن يعيه صبي، ورسول الله ﷺ هو الذى سماه وسمى أخاه الحسين وأخاهما الثالث: محسن، ومات هذا الأخير صغيرا(٧).

ويعتبر الحسن والحسين وعيس ابن مريم ويحيى بن زكريا - عليهما الصلاة والسلام - سادة شباب أهل الجنة.

وقال ﷺ فى «الحسن» رضى الله عنه: «إن ابنى هذا سيد يصلح الله به بين فئتين من المسلمين».

وكان - ذلك واقعًا: فإنه لما قتل على - كرم الله وجهه - فى رمضان سنة أربعين هجرية، بايع الحسن على الخلافة نحو أربعين ألفا، أو أكثر على الطاعة حتى الموت، فأقام سبعة أشهر خليفة، ثم سار إليه معاوية من الشام، وسار إليه الحسن من العراق، فلما تقاربا رأى الحسن أن غلبة أى الطائفتين - تعنى إراقة دم مسلمين، فقال: ما أحببت أن ألى أمر أمة محمد ﷺ على أن يهراق فى ذلك محجمة دم، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر إليه، على أن تكون له الخلافة بعده، وشروط أُخر قبلها معاوية، وانتهت بذلك الحرب، ولم تنته

(٤) الأستاذ محمد الخضرى «بك» - نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين طبع مجلة الأزهر ١٤١٢هـ
(٥) مسند أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - ٦/٢٨٢ وفيه مسندها صفحتا ٢٨٢، ٢٨٣.
(٦) السبط ولد البنت، والحفيد ولد الابن، ولم يكن لرسول الله ﷺ حفيد لوفاة ذكوره ﷺ.
(٧) راجع لابن الأثير - أسد الغابة ٢/١١.

دسائس السياسة فاحتال عليه بعض أعدائه فسقوه سمًا فمات منه. قيل: إن جعدة بنت الأشعث بن قيس - رضى الله عنه - هي التى سقته إياه، وكانت زوجه، فالله أعلم، هل كانت تعلم، أم غرر بها على أنه دواء.

وحذر - رضى الله عنه - الحسين أخاه أن يسعى للانتقام فأجابه الحسين إلى طلبه(٨).

للحسن - رضى الله عنه - مسند لدى الإمام أحمد يضم ثلاثة عشر حديثًا(٩).

وقد عهدنا فى «قلة» الرواية لدى أهل البيت مدى ما يتلوها من انتشار عجيب إلى يوم الدين ومع قصر المدة التى عاصر فيها المصطفى - جده - عليه الصلاة والسلام، فقد حفظ هذه الأحاديث التى أشرنا إليها.

قال أبوالحوراء السعدى للحسن: ما تذكر من رسول الله ﷺ ..؟ فأجابه كان يعلمنا هذا الدعاء: اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمن عافيت، وتولنى فيمن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شر ما قضيت، إنه لا يذل من واليت.. تباركت ربنا وتعاليت»(١٠).

وهو دعاء يندر أن يفوت مسلمًا أو مسلمة فى «الوتر» بعد العشاء، أو فى «القنوت» فى الفجر.. رضى الله عن الحسن وأمه وأبيه وآله إلى يوم الدين.



ثم أنجبت - رضى الله تعالى عنها - الحسين، قال قتادة: ولد الحسين بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر، فولدته لست سنين وخمسة أشهر ونصف شهر من الهجرة. ويرى الليث بن سعد أن ولادته كانت فى شعبان سنة أربع(١١)، وفوات الضبط فى مولد الحسين شبيه - تمامًا - بفواته فى ميلاد الحسن، لكن ولادتهما بالمدينة أمر لا جدال فيه، ولعل ضبط البناء بفاطمة - رضى الله تعالى عنها - يقرب الأمر، جاء فى «الطبقات»: أخبرنا محمد بن عمر، حدثنى عبدالله بن محمد ابن عمر بن عليّ عن أبيه قال: تزوج على بن أبى طالب فاطمة بنت رسول الله ﷺ فى رجب، بعد مقدم النبى ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها مرجعه من «بدر» وفاطمة يوم بنى بها على بنت ثمانى عشرة سنة(١٢) أ.هـ.

ويبدو أن هذا التاريخ يرجح رواية الليث. والله أعلم. قال الليث: «ولدت فاطمة بنت رسول الله ﷺ الحسين بن على فى ليال خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة»(١٣).

وأى ذلك كان فقد وعى الحسين عن رسول الله ﷺ وحدث عنه، وإن قلّت روايته عن أخيه الحسن، فذلك وضع طبيعى جدًا.

أثبت له الإمام أحمد - بمسنده ثمانية أحاديث منها عن النبى ﷺ قال:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

ومنها عن النبى ﷺ:

«البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل عليّ» ﷺ.

(٨) ابن الأثير - أسد الغابة ٢/١٥.
(٩) مسند أحمد ١/١٩٩.
(١٠) نفس المرجع ١/١٩٩.
(١١) ابن الأثير - أسد الغابة ٢/١٩.
(١٢) محمد بن سعد - الطبقات ٨/٢٢.
(١٣) ابن الأثير - أسد الغابة ٢/١٩.

ومنها عنه ﷺ:

«للسائل حق وإن جاء على فرس»

ومنها قوله رضى الله عنه عن النبى ﷺ:

«ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة، فيذكرها - وإن طال عهدها(١٤).. فيحدث لذلك استرجاعًا(١٥)، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها»(١٦).

قُتل الحسين يوم عاشوراء سنة إحدى وستين هجرية، قتله تقربا من أولى الأمر سنان بن أنس النخعى ولما رآه زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قتيلا قال: أنتم - يا معشر العرب - العبيد بعد اليوم، قتلتم الحسين ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة(١٧)، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم»

رحم الله الحسين رحمة واسعة.

عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما صبى قرشى نادرة عبقرية

عاش عشر سنوات صبيًا صحابيًا، خمس منها فى مكة فى صحبة رسول الله ﷺ وخمس منها فى معيته - عليه الصلاة والسلام - فى المدينة.

روى الإمام مسلم - فى صحيحه - قوله - رضى الله عنه - وقد تقدم ليشارك فى القتال فى «أحد»: عرضنى رسول الله ﷺ - يوم أحد - فى القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزني، وعرضنى «يوم الخندق» وأنا ابن خمس عشرة فأجازني»(١٨).

وكانت «أحد» فى السنة الثالثة من الهجرة، وكانت «الخندق» فى بحر الخامسة منها(١٩).

ويعنى ذلك التاريخ الصحيح أنه ولد بمكة فى النهاية من السنة الثانية من بعثته ﷺ.

أسلم عبدالله مع أبيه عمر رضى الله عنهما فى السنة السادسة من البعثة، وتأخرت هجرته إلى المدينة إلى قرب مخرج رسول الله ﷺ إليها، قال البراء بن عازب الصحابى المدنى الأوسى - رضى الله عنه: أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير.. ثم قدم علينا ابن أم مكتوم.. ثم قدم علينا عمر بن الخطاب - فى عشرين راكبا، فقلنا: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: هو على أثرى»، وكانت هجرته ﷺ فى ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه الصلاة والسلام(٢٠).

ويقطع أبوالحسن عزالدين على بن محمد الجزرى المعروف بـ«ابن الأثير» صاحب «أسد الغابة» أن عبدالله بن عمر سبق أباه فى الهجرة، قال هذا المؤرخ الجليل - فى عبدالله بن عمر - رضى الله عنه: «أسلم مع

(١٤) وفى رواية: قدم عهدها جاء الحديث: وإن طال عهدها قال عباد: قدم عهدها اهـ والمعنى واحد.
(١٥) يقول - إذ يذكرها: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(١٦) راجع مسند أحمد فى الأحاديث جميعا ١/٢٠١.
(١٧) ابن مرجانة هو عبيد الله بن زياد الحاكم من قبل الخليفة ابن معاوية.
(١٨) صحيح مسلم ٦/٤٨٧٥ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٥هـ.
(١٩) ابن الأثير - أسد الغابة ٣/٣٤٥ ترجمة عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.
(٢٠) نفس المرجع ٤/١٥٣ ترجمة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.

أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وقد قيل: إن إسلامه قبل إسلام أبيه، ولا يصح، وإنما كانت هجرته قبل هجرة أبيه، فظن بعض الناس أن إسلامه قبل إسلام أبيه(٢١).

ومنذ شارك في «أحد» لم يتخلف بعدها عن غزوة مع رسول الله ﷺ(٢٢).

روى - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ - فأوعب، وروى أيضا عن كثير من الصحابة وأمهات المؤمنين، وفي مقدمة من روى عنهم: أبوه عمر، وأبوبكر الصديق، وعمه زيد بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب وبلال بن أبي رباح، وأخته أم المؤمنين: حفصة بنت عمر، وعائشة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - وغير هؤلاء كثير(٢٣).

ومسنده الجامع لرواياته، يقع في مسند الإمام أحمد - رضي الله عنه - في سبع وخمسين ومائة صفحة من القطع الكبير، لا تقل الرواية بإحداها عن خمسة عشر حديثا، ويندر أن تأتي صفحة منها بثمانية أحاديث(٢٤).

رضي الله - تعالى - عنه صحابيًا صبيا ورجلا وإماما إلى يوم الدين.

كان شديد المتابعة لرسول الله ﷺ يكفينا في هذا مقدمة حديثه هذا، قال: «رمقت النبي ﷺ أربعا وعشرين مرة، أو خمسا وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر، أي في سنة الصبح، وبعد المغرب:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾(٢٥).

ولا دقة في الاستيعاب تعلو ذلك، ومن دقته - في الرواية عن رسول الله ﷺ، واطمئنانه لما يرويه قوله: «لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثا، لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين.. حتى عد سبع مرار، ولكن قد سمعته أكثر، قال ﷺ: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك.. أكرهتك..؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة!! قال «الكفل»: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل عنها(٢٦)، فقال: اذهبي، فالدنانير لك، ثم قال: والله، لا يعصى الله الكفل أبدًا.. فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله - عز وجل - للكفل»(٢٧).

وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر»(٢٨).

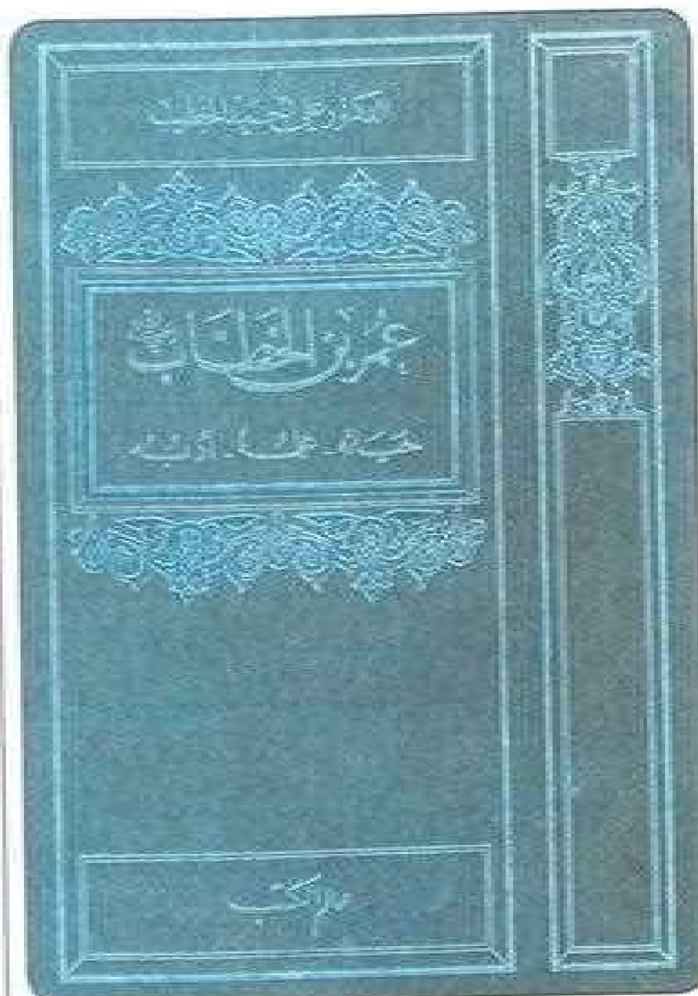
رحم الله عبدالله بن عمر، ورحم الله - تعالى - من تمثل من صبياننا وصبايانا بابن عمر.

(٢١) نفس المرجع ٣/٣٤٠ ترجمة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.
(٢٢) ابن حجر - تهذيب التهذيب ٥/٣٢٨ الترجمة رقم «٥٦٥»، ط الهند «حيدر آباد الدكن» ١٣٢٦هـ.
(٢٣) انظر نفس المرجع.
(٢٤) مسند أحمد بن حنبل ٢/٢ - ١٥٨.
(٢٥) مسند أحمد بن حنبل ٢/٩٥.
(٢٦) أي قام بقربها.
(٢٧) مسند أحمد ٢/٢٣.
(٢٨) مسند أحمد ٢/٢٣.

قراءة في كتاب

٢

«إنه ليس من حلم أحب إلى الله ولا أعم نفعًا من حلم إمام ورفقه، وليس من جهل أبغض إلى الله وأعم ضررًا من جهل إمام وخرقه».. من أقوال عمربن الخطاب رضي الله عنه.



بقلم/ أ. عادل خفاجة

كان الباب الأول عن حياة عمر وعلمه أما الباب الثاني فجاء تحت عنوان: «أدب عمر» وقد قسمه المؤلف إلى ستة فصول هي: خطب عمر - وصايا عمر - رسائل عمر - عهد عمر - حكمة عمر - عمر الناقد.

خطب عمر:

أما الفصل الأول «خطب عمر» فقد تناول فيه المؤلف العديد من النقاط الكاشفة لأسلوب ومنهج عمر في الخطبة فمما تناول: ألفاظ الخطبة - أسلوب عمر - أغراض عمر - علاج عمر لموضوعه - ارتجال عمر وترويه - نماذج محققة من خطب عمر - وبعضا من خطبه في تعليم الحجيج الشعائر.... إلخ.

وقد انتهى المؤلف إلى أن أفكار عمر جاءت معبرة عن القيم الإسلامية وتنطلق في أسلوب صادق التعبير، سهل، وواضح، مقتصد في ألوان البيان، ذي زخرف محدود، وإذا كرر فإن تكريره لا يخلو من تجديد، ويلزم خطبته الطابع الإسلامي بدءا وعلاجا وخاتمة، وتلاحظ عليها خلوها من الشعر والحكمة الجاهلية.

ومما أوضحه المؤلف في معرض كلامه عن الخطابة في الإسلام أن الدين الإسلامي لما جاء كانت الخطبة لسان دعوته تنسخ بها حمق الجاهلية، وأنهى أمر الوثنية وأقام الدين خالصا لله، ونبذ العصبية والعداوة وأرسى المساواة والأخوة؛ فقضى بذلك على ما كان عند القوم من مفاخرة ومنافرة ودعوة إلى شن غارة أو أخذ بثأر، وما إلى ذلك من أغراض أورثت العداوة والبغضاء في مجتمع الجزيرة قبل الإسلام، وانتهى - بذلك - دور الخطابة في إثارة هذه الأمور وأمثالها.

وكان على الخطابة الإسلامية أن تؤدي:

رسالة الدعوة إلى الإسلام، فتشرح عقيدته، وتبين صحتها، وتدعو الناس إلى اعتناقها، وتفند ما في المجتمع من عقائد الوثنية، وتبين ضررها، وتدعو إلى نبذها.

ثم تبين أحكام هذا الدين التي شرعها الله لعباده، وتدعو إلى آدابه السامية التي كانت سببًا مباشرًا في القضاء على الجاهلية بما فيها من رعونة وحمق وعصبية وعداوة وثأر ونهب وغارة.

وتحث على الجهاد لنشر هذا الدين في أرجاء الأرض والاستشهاد في سبيل الله وترسم سياسة الحكم وتبينها للناس.

ومما أوضحه المؤلف - أيضًا -:

أن خطب عمر نموذج حي من هذه الخطابة الإسلامية، ويمكن القول: أن ألفاظ عمر في خطبه سهلة الإدراك سريعة الأداء لما تحمل من معان، جيدة التركيب، لا تنافر بين حروفها، رصينة محكمة، ثم هي قاطعة قوية إذا سيقت لبيان حكم، وادعة آسرة في مقام خشيته لله وإحساسه بالتزام الأمانة ثم إن أسلوبه صادق التعبير قوى التأثير يحمل أفكاره للناس في وضوح الصورة سهولة ألفاظه وبلاغتها، مقتصدًا في ألوان البيان، بلا ابتذال أو إغراب، لا يخلو من لون فني ولا يتقيد به.

ويخلص المؤلف إلى أن خطبة عمر كانت إشباعًا لحاجة الجمهور لارتباطها المباشر بشئونه ومشاكله، وإشباعًا لحاجة الحكم الإسلامي وما يقتضيه هذا الحكم من إعلام الرعية ببعض الشئون لتكون على بينة وتجاوب مع الحاكم شورى وإدارة.

وإشباعًا لحاجة عمر الحاكم نفسه، تلك الحاجة المنطلقة من أحاسيسه الشخصية في وجوب توجيه الناس وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتأكيدًا لذاته بأنه أدى الأمانة.

ولم يك عمر من ذلك اللون من الخطباء الذين يتملق سامعيه ولسنا نلمس ذلك في نصوص خطبه، بل نجد - عكس ذلك - حديث يطلب من جمهوره التفكير والنظر في الأمور نظرًا ينتهي إلى صدق الحكم، يقول:

«لا يغرنكم صيام رجل ولا صلاته، ولكن انظروا: إلى صدقة إذا حدث وإلى أمانته إذا اؤتمن، وإلى ورعه إذا استغنى».

عندي أن الإقناع الذي تمتع به عمر في نفوس مستمعيه مرجعه دينه ثم فطرته النقية؛ فهو بدينه ثم فطرته يلتزم الحق والعدل، ويسوق قضاياه في ضوء المنطق السليم مبتعدًا بها عن التناقض والغموض، وتلك سبل الإقناع النظيف.

وإذا أضفنا إلى وضوح أفكاره وصدورها عن دين وأمانة علم هذا الجمهور بأن أفكار عمر مطروحة - مع ذلك - لنقاش مفتوح يكون لعمر أو عليه، علمنا أن عمر وصل بعنصر الاقناع إلى القمة.

وصايا عمر:

أما الفصل الثاني: فجاء تحت عنوان: وصايا عمر، وقد تناول فيه الوصية في الجاهلية والإسلام - ألفاظ الوصية وأسلوبها - أغراض الوصية ومنها: سمات ثلاث لوصايا عمر وقد أوضح المؤلف في هذا الفصل أن الوصية رافد من روافد الأدب

العربي من العهد الجاهلي، وكانت في هذا العهد غنية العطاء بالمثل والحكمة والتجربة، متناولة مختلف نشاط الإنسان في هذا المجتمع القبلي، وكانت مع ذلك نبيلة، دعت إلى خلال كريمة في شتى مظاهر الحياة، وصيغت خلال هذا العصر شعرًا ونثرًا.

كما يشير المؤلف إلى أن الإسلام رفع من شأن الوصية، وتجاوز بها حدود المجتمع القبلي إلى الجماعة الإنسانية، وحض على اللون المالي منها.

وتراها - في أدب عمر - لا تتخلى عن لون من ألوانه حتى ليكاد أدبه أن يكون كله وصايا لحرصه على المسلمين، وزوده عنهم.

وكانت وصاياه مستمدة من كتاب الله ومن تعاليم رسوله ﷺ فجاءت متفقة مع كل ما هو إنساني كريم.

كما يشير المؤلف إلى أن وصايا عمر - جميعًا إسلامية وأنه - أي المؤلف - لم يعثر لعمر على وصية في الجاهلية بينما وصاياه الإسلامية كثيرة، بثها - رضي الله عنه - في حديثه وخطبه ورسائله، وهي كثيرة إلى درجة لا نكون معها مغالين، اذا قلنا: أن أدب عمر هو أدب الوصية، فعمر حريص على المسلمين، زائد عن الرعية مشغول بالخير لها أكثر منها لنفسها وأكثر منه لنفسه فليس غريبًا ألا يفوته - في هذه الوصايا - النصح للأمة أفرادًا وجماعات، تدفعه إلى ذلك مشاعر طيبة من رحمته لها، وواجبه نحوها، وبصيرته في أمورها.

ثم يشير المؤلف إلى واحدة من عقبات البحث في كتب التراث فيقول:

وعلى كثرة وصاياه لا زلنا نفقد منها - بالضرورة - ما لم يدونه الرواة أو دونوه وفاتني العثور عليه.

كذلك ينبغي التحفظ في اعتبار بعضها هو كل الوصية، فقد تفقد من الوصية ما فقدناه في الخطبة من «بعض المضمون» أو «بداية» أو «نهاية» أو «مقام حال».

رسائل عمر:

أما الفصل الثالث: رسائل عمر وهو أكبر فصول الكتاب فقد تناول فيه فيما تناول: الرسائل في الجاهلية - الرسائل في صدر الإسلام - رسائل عمر من الرواية إلى التدوين - أغراض رسائل عمر - كتبه إلى عماله في شئون الحكم - ماكتب به عمر إلى بعض حكام عصره - ألفاظ الرسالة وأسلوبها نماذج لرسائل محققة .... إلخ.

وفي هذا الفصل مهد المؤلف لهذه الدراسة عن رسائل عمر وانتهى إلى وجود الرسائل التجارية والسياسية.

وبرزت الرسالة موجزة تبدأ بالآية: بسم الله الرحمن الرحيم أو (باسمك اللهم) ثم بيان المرسل والمرسل إليه، فالسلام فالغرض فالختام بالسلام غالبًا.

وقد أجمل المؤلف أغراض الرسالة عند عمر في:

١- توجيه قواده في شئون الجهاد.

٢- وتوجيه عماله في شئون الحكم.

٣- وإعانة من لجأ إليه من الرعية.

٤- ونصيحة عماله.

٥- وكتب إلى بعض الحكام، لتصفية بعض الأوضاع.

ومن هنا تعلم مدى اتساع أغراض الرسالة عند عمر – رضى الله عنه – ومدى مقدرتها على علاج شؤون الدولة والناس.

وأهم ما نلمحه فى هذا الفصل قول المؤلف: أن ألفاظ عمر – فى الرسالة – تستمر – بنفس طابعها فى الخطبة والوصية – فهى فصحية بليغة، سهلة الإدراك، سريعة الأداء لمعانيها .. وقد تزيد هنا من واقع اللفظ الحربي، فضلاً عن وضوحه الشديد – كثرة تجرده من رداء فنى يضفى عليه خيالاً، أو يتجاوز به دائرة الحسم والفصل.

فالحسم والفصل كلاهما طابع اللفظ فى رسائل عمر الحربية، وهو– كذلك طابعها فيما يصدر بعقوبة أو إنذار أو فتوى.

ثم يشير المؤلف إلى نوع آخر من الرسائل وهو «المنشور» ويرى أنه لم يتميز بشكل فارق عن الرسالة من حيث البدء والختام وقد أسس هذا الظن على ورود عبارات من مثل: قرىء علينا كتاب عمر، وكتب إلى أمراء الأجناد ونحوهما، وهى عبارات تفهم منها ورود منشور إلى مسؤول أو مسؤولين يتولون إذاعته – بعد فى الناس. فهو إذًا يوجه إلى صاحبه رسالة معتادة إلا أن فى نصوصها ما يبتغى إذاعته فى الناس.

ونلمس من ذلك أن رسائل عمر مع قيمتها الأدبية والفقهية والتاريخية تعتبر دليل صدق على أن اهتمامات عمر بمسائل الأفراد لا تقل – بحال – عن اهتمامه بمصالح الدولة.

عهود عمر:

أما الفصل الرابع فجاء تحت عنوان: «عهود عمر» وقد ورد فيه العهد فى الجاهلية – والعهد والإسلام – خصائص العهد فى الإسلام، وكتابا العهد، وعهد عمر، وصورتا عهده، وعهد ليس لعمر.

ويرى المؤلف أن عهد عمر – ويقصد به ما صدر عنه شخصيًا – لم يتميز بجديد، وأنه وجد عهدًا دوليًا واحدًا هو الذى وقعه نيابة عنه عمرو بن العاص مع الروم، وقد التزموا بالجلاء التام عن آخر معقل لهم فى مصر فى سبتمبر سنة ٦٢٤م، وما عدا ذلك من عهود كانت جميعًا بين الدولة وجزء من رعاياها أهل الكتاب.

ويوضح المؤلف أنه وجد لعمر عهدين صدرًا عنه، هما: عهده لأهل إيلياء، وعهده لأهل لد. فأما العهد الذى ذكره الأرشمندريت بنيامين بوانيدى فهو موضوع منحول لا يمثل حقًا ولا واقعًا.

ويشير المؤلف إلى أن عهود عمر صدرت جميعًا فى لغة بسيطة سهلة لا تحتوى نصًا غامضًا أو تزهو بنصر، ولكنها صورة دقيقة لمعاملة الدين وبساطة عقيدته ووضوح قصدة.

وعن العهد فى الإسلام يقول المؤلف أن ما لديه من نصوص يمكن – فى ضوئها – أن نتبين خصائص العهد الإسلامى ويوضح المؤلف أن عهود الحديبية يمثل التزام بين طائفتين كل منهما قوة مستقلة غير خاضعة لنفوذ الأخرى، فإن رسول الله ﷺ جنوحًا منه إلى السلم رضى بافتتاحه بعبارة «باسمك اللهم» أما العهد نفسه فهو كبقية عهوده ﷺ – وعهود أبى بكر وعمر، وكل له سمت واحد يمكن أن يدلى بخصائص العهد الإسلامى فى هذا الصدر المبارك إذ هو – أى العهد –:

أ- عادة – يستهل بالآية: «بسم الله الرحمن الرحيم».

ب – يليها النص على اسم معطى العهد، وذكر من يعطاه.

جـ – فبيان التزام الطرفين فى ضوء حقوق وواجبات كل منهما.

د– وقد يحمل العهد فى نهايته عبارة خاتمة، فقد وجدنا فى العهود الثلاثة التى أوردها عبارة ذات مضمون واحد تقريبًا كانت فى ختام كل منها، وهي: «وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله أبدًا .. إلخ

أو قوله: وعلى ما فى هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله ﷺ .. إلخ

أو قوله: ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ – وذمة المسلمين على ذلك وفى عهد عمرو لمصر: على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله إلخ.

هـ – ثم يذيل العهد بشهادة الشهود، وقد يذكر كاتب العهد.

ثم لا يمنع مانع من النظر فى العهد على ضوء ما يجد من حوادث قد يترتب عليها معالجة بعض نصوص بما يتفق وهذه الأوضاع دون ظلم.

وليس يبدو أن هناك عبارة (رسمية) يلتزم بها تصوير المضمون، فالامر أبسط وأوسع من ذلك ما دام قد أحاط بهذه الالتزامات وعلى أمير المؤمنين إن لم يكن هو مصدره أن يمضيه بمعنى أن يجعله نافذ المفعول.

حكمة عمر:

ويأتى الفصل الخامس يتكلم فيه المؤلف عن حكمة عمر، وفيه يتناول مصادر حكمته – وألوان حكمته.

وقد عالج المؤلف موضوع حكمة عمر فوجدها ككل حكمة، مصدرها تجارب البشر عامة، وواقع الأمور من حيث تبدأ إلى حيث تنتهي، يحصدها من الناس ذوو الخبرة والفطنة، وعمر واحد منهم، كما وجدها المؤلف موزعة فى أدبه من رسالة أوخطبة فى عبارة مطولة يتخللها التقسيم، وقد تأخذ بحظها من زينة اللفظ دون كلفة.

كما يشير إلى أن حكمته – رضى الله عنه – تنوعت فتناولت الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وأثرت فى كل هذه الضروب فى قبسات عالجت واقع الحياة من أجل الناس، وارتادت لهم لتنفعهم.

ويقول المؤلف: ليس لحكمة عمر – مكان بعينه من حديثه وإنما يرسلها حيث تحل من الكلام .. فى صدره أو خاتمته أوبين ذلك.

ويذهب المؤلف إلى أن هناك حكمة سيقت مفردة، قد يكون عمر ساقها مفردة فى مقام حال، ومما ساقه المؤلف من حكمة أخذت حظها من اللفظ دون كلفة قول عمر:

– «من كثر ضحكه قلت هيبته»

– «من كتم سره كان الخيار فى يده»

– «لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما أركب»

وكما سلف فإن حكمة عمر ألوان شتى شملت: الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع وقد قدم المؤلف عددًا من الحكم لكل هذه الألوان.

نذكر منها فى الدين:

- احذر النعمة كحذرك المعصية.
- من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وفي السياسة:

- إن هذا الأمر لا يصلحه إلا لين في غير ضعف وشدة في غير عنف.

وفي الاقتصاد:

- بع الحيوان أحسن ما يكون في عينيك.

وفي الاجتماع:

- لكل شيء شرف، وشرف المعروف تعجيله.
- ما الخمر صرفًا بأذهب للعقول من الطمع.

عمر الناقد:

أما الفصل السادس والأخير.. فجاء تحت عنوان: «عمر الناقد» وفيه تناول المؤلف: النقد عند عمر روافد النقد عند عمر - عمود النص الأدبي عند عمر ومعراجه - عمر بين الأدب ومسئوليات الحكم.. إلخ

وفي معرض كلامه عن روافد النقد عند عمر بين أنه لم تفته ثقافة العصرين الجاهلي والإسلامي وأنه كان مستوعبًا حافظًا لدرر الشعر العربي حتى زمنه عالما بأحوال العرب: جاهلية وإسلامية: عقيدة وعلمًا وتاريخًا وأنسابا وأنه كان واحدًا من المسؤولين في الجاهلية، ثم رأسًا في الإسلام.

وقد اختتم هذا الفصل الأخير من البحث بكلمة عن مسؤوليات الحكم وتأثيرها على عمر، وبين فيها كيف كانت سببًا في منعه الهجاء، وعزل لبعض عماله الذين قالوا في الخمريات، أو هددوا الرعية في أشعارهم، وأمثال ذلك مما يمكن أن يثير الفتنة في هذا المجتمع الذى اضطلع بدور الريادة للإسلام بين العاملين، وأنه - فيما عدا ذلك - شجع إنشاد الشعر وبنى لذلك رحبة في المسجد النبوى يلجأ إليها عشاق الشعر ليتناشدوه.

ويشير المؤلف إلى صدق عمر وأنه يدور معه حيث يدور وهو ما رآه في نهي عمر للناس أن يقولوا:

«استأثر الله بفلان، بل يقال: مات فلان، فلم يستأثر الله به؟!! إن المجاملة تدفع أحيانًا إلى مبالغة ذات تكلف ممجوج وشتان بين العبارتين:

عبارة تزكي على الله واحدا من عباده، لا يدرى قائلها ما بينه وبين الله يتحدث بها مقحمًا نفسه فيما لا يعرف، فيفقد صدق التعبير، وأخرى تقرر الواقع.

وعبارته في الحطيئة في مسارها من مذهبه هذا، قال:

«أشيروا على في الشاعر، فإنه يقول الهجر، وينسب بالحرم ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم وما أراني إلا قاطعًا لسانه»

فالحطيئة - في نظر عمر - تجرد عن تصوير الفكر النبيل بتجربته الشاعرة إلى صنعة كاذبة مشينة جعلت لونًا من شعره سلاح إرهاب لا فنا تعبيريا من الفنون الجميلة.

وكلمة عمر جامعة في نقده لهجاء الحطيئة، أوردت خصائص هجائه، وكشفت عن ملامحه، ثم كان عمر رفيقًا به في النهاية، فقطع لسانه عن أعراض الناس بصلة وصله بها، ثم قال له: «إياك والشعر».

قال: لا أقدر على تركه يا أمير المؤمنين، مأكلة عيالي ونملة تدب على لساني.

قال: فشبب بأهلك، وإياك وكل مدحة مجحفة!

قال: وما المجحفة

قال: تقول: إن بني فلان خير من بني فلان، امدح ولا تفضل أحدًا.

قال: أنت - والله - يا أمير المؤمنين أشعر مني!

وقد نجح عمر في تجنيب الناس ويلات كذبه في أعراضهم وتفضيل بعضهم على بعض!

وحسب عمر أن يعطي الشعر بهذا الالتزام - بنبل الموضوع وشرف الغرض معراجه نحو الكمال، ويحط عنه خلال السوء وينحو به إلى رفيع الخلال.

وما من شك أن هذا الالتزام أثر مباشر للدين في نفس عمر، أو هو الإسلام في الأدب، والأدب في الإسلام، وينتهي هذا الاتجاه عند عمر بالتحام تام مع حقائق هذا الدين ليصدر عنها في لمحات نقده.

وبعد.. فقد كانت هذه الصفحات تدور حول شخصية ذلك الرجل الفذ الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه «عبقرى لا يفرى فريه أحد» نعم لقد كان عمر رضي الله عنه عبقرى بكل ما تحمل الكلمة من أبعاد.

ومن كلماته التي تقطع بعبقريته إمامًا قوله:

ومن كلماته التي تقطع بعبقريته واعظًا قوله:

«أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم».

ومن كلماته التي تقطع بعبقريته مصلحًا اجتماعيًا قوله:

«إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون».

وقوله:

«من أسرع إلى الهجرة أسرع إلى العطاء ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عن العطاء، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته»

ثم أما بعد:

فقد أحسن المؤلف أولاً حين اختار هذا الموضوع عن أدب عمر رضي الله عنه - موضوعًا لأطروحة الدكتوراه وقد أحسن أخيرًا حين قرر نشره ليقدمه لجمهور القراء؛ ليكون نافذة على حياة الخليفة العادل عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الإسلام.

ولعل هذه السنوات الطوال التي قضاها أستاذنا الدكتور علي الخطيب مؤلف الكتاب ودرس فيها أعمال الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه قد صبغته ببعض صفات عمر فنهل منها ما شاء الله له أن ينهل وكان أكثر هذه الصفات وضوحًا صفة الورع.

لقد أضاف أستاذنا الكريم - رحمة الله عليه - إلى المكتبة الإسلامية بهذا الكتاب زادًا أدبيًا لا غنى للباحثين عنه كما قدم في ذات الوقت تبعًا رائقًا عن الإمام الورع العادل عمر بن الخطاب فجزاه الله عن عمله خيرًا.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

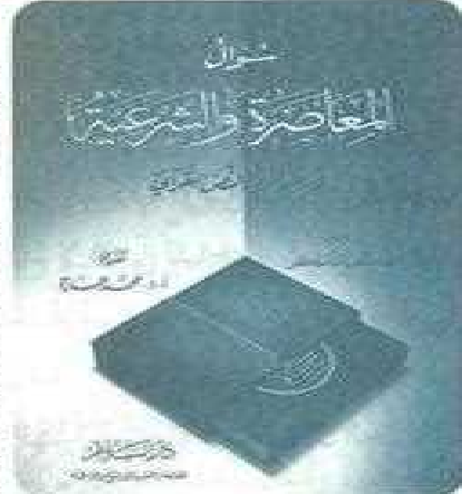
تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يحفل كتاب «مستقبل الإسلام السياسي» لمؤلفه جراهام فولر والصادر عن مشروع جامعة القاهرة للترجمة، بالعديد من النقاط بالغة الأهمية والخطورة، لعل أبرز هذه النقاط هي خروج المؤلف عن الروح الاستشراقية التي تهاجم الإسلام وتفرد في أحيان كثيرة بينه وبين الإرهاب يقول المؤلف: «الإسلام كعقيدة تعتنقها ربع البشرية هو مصدر للإلهام ومعنى الحياة والهداية والسلوان والإشباع في هذه الحياة.. يقدم - أي الإسلام - السبيل لفهم الوجود البشري والمبادئ الأخلاقية التي تمنح الحياة مبناها ومعناها» ثم يؤكد أن هذا التصور هو الباقي حتى لو فشل الإسلام السياسي الذي يعرفه بأنه اعتقاد بأن الإسلام عقيدة تحمل رسالة مهمة يجب الإصغاء لها وتناول الأسلوب الذي يجب أن تنتظم به الشئون السياسية والمجتمع في العالم الإسلامي المعاصر، فولر يدافع عن قيام حضارتين متوازيتين إحداهما إسلامية والأخرى غربية.

الكتاب يؤكد كذلك أنه لا حاجة بمصالح الولايات المتحدة أن تقع على طرفي نقيض مع مصالح معظم المسلمين وتختلف جذريا معها، المؤلف يرى أن المشروع التركي هو المثال الأفضل بين جميع الحركات الإسلامية.

يذكر أن مؤلف الكتاب الذي ترجمه محمد عثمان خليفة وراجعه أ. د. محمد عثمان الخشت المشرف على المشروع، شغل منصب نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية.



كيف يمكن الوصول لنمط أو لأنماط من «قراءة للنص القرآني» تستفيد من منجزات العلوم الإنسانية في الغرب مع الاحتفاظ بقدسية هذا النص الإلهي؟ هذا ما يحاول الإجابة عنه كتاب «سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني» الصادر عن «دار السلام» لمؤلفه نبيه النكر.

في مقدمته الضافية يكشف المفكر الإسلامي د. محمد عمارة مخاطر وعبث القراءات الحداثية للنص القرآني موضحا أسسها ومنابعها ضاربا أمثلة لها على أن المؤلف يقترح المزاوجة بين علم التفسير وعلم الأصول والنظريات المعاصرة التأويلية واللسانية والتداولية والهيرمنيوطيقية ويوضح أهمية ذلك، خاصة إذا ما تم التعامل مع علم التفسير كمجال واسع يحمل مادة تراثية غنية فيما يتعلق بقراءات السلف للقرآن الكريم فهو لا يحتوي عدة منهجية كبيرة بقدر ما يحتوي على زخم وفير من النصوص التي يمكن استثمارها في قراءتنا المعاصرة للنص القرآني في محاولة لتجاوز المعطيات ذات البعد التاريخي المرتبطة بأفق تفسير النص الخاضعة لشروط زمان ومكان بيئة المفسر.



«ما يحتاج أغلب الناس إلى تعلمه هو كيفية حب البشر واستغلال الأشياء بدلا من استغلال البشر وحب الأشياء».. يستخدم جون تشانلير رجل الأعمال الأمريكي هذه العبارة في مقدمة كتاب «الوصايا اليومية الست» المترجم عن «كلمات عربية للترجمة والنشر».

الكتاب يهدف من خلال ست نصائح لخلق حياة مليئة بالبهجة والنجاح، تشانلير توصل خلال رحلته العصامية إلى رسالة مفادها ثمة فارق بين النجاح والنجاح الهادف، فإذا كان الأول يهتم بجمع الأموال وكل وسائل الاستهلاك المتواصل الذي لا نهاية له فإن النوع الثاني - النجاح الهادف - يوازن بين المتع الشخصية وخلق أجواء السعادة في مختلف أرجاء المجتمع.. الوصايا الست كما رتبها المؤلف هي: ١- الاستعداد للتغير ومواجهة مخاوفك ومواصلة التعلم، ٢- أهمية وقت الهدوء اليومي، ٣- قيمة خدمة الآخرين، ٤- فوائد الحب والتسامح، ٥- تبعات الامتنان، ٦- الحاجة إلى التنقية».



عبر مقاربة تراثية وتاريخية وفكرية يقرأ المفكر أحمد الكاتب «الفكر السياسي الوهابي» من خلال الكتاب الذي يحمل نفس العنوان والصادر عن مكتبة مدبولي، القراءة التحليلية التي يستخدمها المؤلف تنطلق بحثا عن مفهومي «الشورى» و«التوحيد» في الفكر الوهابي منذ نشأته. الكاتب يرى «أن النظام السعودي عاني ويعاني من تطرف التفسيرات الوهابية وأحكامها المتشددة ضده إلا أنه يخشى أن ينفصل عنها تماما خوفا من فقدان القاعدة الاجتماعية والعصبية الحزبية التي تحتضن النظام».

نقطة أخرى يؤكد عليها المؤلف هي: «ضرورة الفصل بين الحديث عن الوهابية النظرية والوهابية في الواقع إذ ليس كل من حمل اسم «الوهابية» أو انتمى إليها في يوم من الأيام هو بالضرورة مؤمن بكل مقولاتها وملتزم بكل مواقفها ومترجم لكل ملامحها فإن ثمة حركة ثقافية متطورة ومتنوعة داخل الحركة الوهابية». ويضيف «ينبغي ألا نقع في خطأ النظرة إلى الآخرين وكأنهم كتلة واحدة جامدة لم ولن تتغير».



يقدم د. راشد البدراوي في سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» الصادرة عن «المجلد العربي» بعدا معاصرا في قراءة سير الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو التعريف بأماكن وجودهم وموقع البلدان التي تواجدوا فيها على الخريطة الآن وإلى أين كانت تحركاتهم ومن قومهم ومن الملوك الذين عاصروهم مدعما ذلك بخرائط توضيحية تسهم بذكاء في تقديم السيرة بشكل مصور.

السلسلة الصادرة في سبعة أجزاء تضم أيضا مرويات التوراة ويهدف المؤلف من ذلك إلى إظهار العنصر البشري للسرد التوراتي للأحداث حيث ينسب - هذا السرد - للأنبياء أشياء لا يتصور صدورها من أشخاص عاديين فما بالنا بأنبياء معصومين - على حد قول المؤلف.

طرائف.. ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

ليكن همك.. ما بعد الموت

قال سيدنا عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ ما انتفعت بكلام بعثه إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كتب إليّ: «أما بعد؛ فإن المرء يسره إدراك مالم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فات منها، وما نلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحًا، وما فاتك منها فلا تيأس عليه جزعًا، وليكن همك ما بعد الموت».

ما تلد النساء مثل هذه

لما دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين، دخلت عليه زبيدة ابنة جعفر أم الأمين: فجلست بين يديه، وقالت: الحمد لله إن أهنئك بالخلافة، فقد هنأت بها نفسي قبل أن أراك، وإن كنت فقدت ابنا خليفة فقد اعتضت ابنًا خليفة، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت عينها منك.

وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعًا بما وهب.

فقال المأمون: ما تلد الناس مثل هذه، ما تراها أبقت في الكلام لبلغاء الرجال.

لسانك سيف قاطع

• قال سفيان الثوري: لأن أرمي عدوي بسهمي خيرله من أن أرميه بلساني؛ لأن رمي اللسان لا يخطئ ورمي السيف يصيب ويخطئ.

• وقال الشاعر:

وربَّ كلام قد جرى من ممازح
فساق إليه سهم حتف معجل

• وقال ابن مسعود: لسانك سيف قاطع يبدأ بك، وكلامك سهم نافذ يرجع عليك فانتصر في المقال، وإياك وما يوغر صدور الرجال.

خذ الثمن من ها هنا

أهدى سيدنا نعمان بن عمرو -رضي الله عنه -وهو من شهد غزوة بدر إلى النبي ﷺ جرة عسل اشتراها من أعرابي، وأتى بالأعرابي إلى باب النبي ﷺ فقال: خذ الثمن من ها هنا، فلما قسمها النبي ﷺ نادى الأعرابي: ألا أعطي ثمن عسلي؟ قال النبي ﷺ: إحدى هنات نعمان، وسأله، لم فعلت هذا؟

فقال: أردت برك يارسول الله، ولم يكن معي شيء، فتبسم النبي ﷺ وأعطى الأعرابي حقه.

حقيقة

رأيت الناس خداعًا
إلى جانب خداع
يعيشون مع الذئب
ويبكون مع الراعي

أخي

لا ترضى قول امرئ حتى ترضى فعله، ولا ترضى فعله حتى ترضى عقله، ولا ترضى عقله حتى ترضى حياءه، فإن ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم، فإن قوي الحياء قوي الكرم وإذا ضعف الحياء قوي اللؤم؛ وفي هذا يقول الشاعر بشار بن برد:

وأعرض عن مطامع قد أراها
فأتركها وفي بطني انطواء
فلا وأبيك ما في العيش خير
ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

نصيحة

قال رجل للمأمون: يا أمير المؤمنين، الله، الله في أصحاب الأخيار، فإنهم قوم إن أعطوا كذبوا، وإن حُرموا كذبوا، فإن أعطوا مدحوا وهم كاذبون، وإن حرموا ذموا وهم كاذبون.

فقال المأمون: لله درها من كلمة ما أقصرها، وأبين فضلها، وأمر أن تثبت في أمور أصحاب الأخبار.

دعابة

كان أحد المحدثين على دعابة.

خرج إلى طلبته يومًا، فقال لهم: لولا أن أخرجني من البيت من هو أبغض إلى منكم ما خرجت، وسأله حائك: هل تقبل شهادة الحائك؟

فقال: نعم مع عدلين.

لا تيأس

قال حكيم:

ادفع بصبرك حادث الأيام
وترج لطف الواحد العلام
لا تيأسن وإن تضايق كربها
ورماك ريب صروفها بسهام
فله تعالى بين ذلك فرجة
تخفى على الأبصار والأوهام
كم من نجي (١) بين أطراف القنا
وفريسة سلمت من الضرغام

وصية

مات زاهد وقد وجد في جيبه ورقة مكتوب فيها: أحمق الحمقى من يملأ بطنه، من كل ما يجد؛ وما أكلته فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلفته فلغيرك، والمحسن حي وإن نقل إلى دار البلا، والمسيئ ميت وإن بقي في الدنيا، والقناعة تستر الخلة، وبالصبر تدرك الأمور، وبالتدبير يكثر القليل ولم أر لابن آدم شيئًا أنفع من التوكل على الله.

ريح الأماني

تمنى ابن أبي عتيق أن يهدى له مسلوخ يتخذ منه طعامًا. فسمعته جارة له، فظنت أنه قد أمر أن يشترى له، فانتظرت إلى وقت الطعام ثم جاءت تدق الباب.

وقالت: شممت ريح قدوركم فجئت لتطعموني.

فقال ابن عتيق: جيراني يشمون ريح الأماني.

دعاء

اللهم ياعظيم الجناب، ياواسع الرحاب، ياقابل المتاب افتح الأبواب، ويمّن الكتاب ويسر الحساب، وأجزل الثواب.

(١) مكروب يناجي ربه سبحانه.

خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

هو الربيعُ إذا هبّـت نسائمُـهُ   هزّ البسيطةَ دانيها وقاصيـها
فصلٌ جميلٌ من الجنات مشرقُهُ   تبدى الطبيعة فيه خير ما فيها

لقد حل فصل الربيع الذى تكتسى الأشجار فيه بأبهى حللها، وتتفتح الأزهار بأجمل ألوانها، وبأطيب عبيرها، وتشدو الأطيار بأعذب ألحانها، فتبدو الطبيعة كالطفل الجميل، الذى يمرح ويصخب، بالبراءة والرقة، وتضج الأرض بالأفراح، وأهازيج الشعراء، التي تنتقى منها بعض القصائد الموحية، التي تبعث على الشعور بالأمل، فما أحوجنا جميعًا إلى الأمل، ولعل قدوم فصل الربيع، يكون باعثا لآمالنا جميعًا، في مصر، كى يتحقق ما يصبو إليه شعبها الصابر العظيم، من ازدهار ورفعة وحضارة، تصل ما انقطع من ماضيها التليد، أيام ريادتها ومجدها في كل المجالات العلمية والفنية، فيعود لها ما يستحقه شعبها من ازدهار ورفاهية وعدالة.

هذا ونبدأ جولتنا في الخميلة بلقاء حميم مع شعر الشاعر محمود حسن إسماعيل، الذى يصف لنا بعبقرية شاعرية نادرة، يصور ترقب الكون كله لأول خطوة لرسول الله ﷺ خارج غار حراء، بعد أن تلقى أول آيات وحى ربه

«اقرأ باسم ربّكَ الذى خلَق»

ثم نرى الشاعر في مقام طيب آخر يصف لنا تجاربه مع أنواع من الناس، واصفًا لكل نوع منهم من الزاوية التي شملت طريقة من طرق التعامل بين الشاعر وبين كل نوع على حدة، ثم نراه طالبا من الله عز وجل، أن يمن عليه بالهدى وبالعون، على طريق الحكمة والتبصر.

«مع الكون .. وهو يرتقب أول خطوةٍ خارج الغار لنبى الإنسانية»

سجدةٌ في طريق النــور

شعر : محمود حسن إسماعيل

كل حصاةٍ في الطريق .. أومات تنتظرْ
وكل ذرّاتِ الأثير .. أقبلت تُكبّرْ
والريحُ من كل اتجاه .. أيقظت ربابَها
وأسبلت على جبينِ أُفْقِهَا .. أهدابَها
واسترسَلَت .. تعزِفُ للسكونِ من صَلاتِهَا
وتستعيدُ شجوَها .. همسًا على لهاتِها
وتَسْمعُ الجبالُ من تسبيحِهَا .. أنغاما
لم تدرِ .. كيف انحدَرتْ مِنْ قلبِهَا إلهاما
والفجرُ .. من مزارهِ النعسانِ في وجه الوَثَنْ
ردَّ خُطاهُ لخُطا جديدة .. على الزمن
جاءت تهزُّ مُطرقًا .. أمامَ ربِّ مُطرق
كلاهُما وهْمٌ لوهم جاهلٍ .. مُلفّق !
جاءت .. تردُّ الظّلم مدحورًا إلى طاغوته
ندمانةً مذعورةً .. تصرخُ في تابوته !
جاءت .. تؤجِّجُ نارَها تأوُّهَ المُضطهَد
وتُضرمُ الإباءَ.. في جبينهِ المُسْتَعبَد
جاءت .. ونورُ اللهِ يحدو الخطوَ في طريقها
والكونُ يستافُ عبيرَ الصحوِ .. من شروقِها
والبيدَ ليلٌ ضارعٌ في القيد .. حَوْلَ الصّنم
والناسُ أوهامٌ تدورُ .. في ضلالِها المُلثّم !
في خيمة .. خيّمَ فيها الرّقُ منذ الأزلْ
وغمغمَ الإنسانُ حول قيدِه .. المُكبّل
جاءتْ إليه .. تنزِعُ الهوانَ من جبينه
وتحصُدُ الإطراقَ والذلّةَ .. من جُفونه !
جاءتْ .. منَ الغارِ .. منَ النورِ .. خُطا (مُحمّد)
طوبى .. لمَنْ خفَّ إليها ، بالضياء يهتدى !!

والشاعر يقول في مقام آخر :

أريد لقاءَ الله .. لا لمتابة
ففي كل سرٍّ منه تسكنُ توبتى
أريد لقاء الله .. دعوةَ حائرٍ
تلاشت خطتهُ عند باب الحقيقة
أُريد لقاء اللهِ .. تضرعَ راحتى
ويَضرع طيرٌ مؤمنٌ في سريرتى
وتضرعَ أيامى ، كأنّ دُروبَها
بساتين لم تُمْرِعْ بغير الخطيئة
غدوتُ غناءً ضارعًا ، كلُّ نغْمَةٍ
تَمُدُّ يدًا تدعوه مِنْ كل نَغْمَة
إلهى .. وأنت النورُ لم يخْبُ مرّةً
سناهُ ، إذا أعشَى الضياءُ بصيرتى
أعنّى على هذا الستارِ .. فإننى
عجزتُ ، ولم تهدأ براكينُ حيرتى
دهورٌ توالت ، والربابُ على يدى
وأعزفُ للإنسان سرّ تميمتى
وأستلّ من تيه الوجوه ضلالَها
وما دقّتْهُ في سراب الخديعة
أغوصُ بها حتى يذوبَ شغافُها
وأنفذُ حتى في جذور الغريزة
ومهما تلوّتْ نظرةٌ ، أو تخالستْ
رَمَيْتُ لها صيّادَ كلِّ خبيئة
وقرّتْ حواليْها ، وطرفى ساكنٌ
يجوبُ زوايا النفس في كل نظرة
فما فاتنى وجهٌ ، ولا كان زادُهُ
من التيه ، ليلٌ غارقٌ في سكينة !
ولا فرّ عنّى مَنْ سمعتُ بوجهه
عزيفَ الرياحِ الهوجِ فوقَ الظهيرة !
ولا من أتانى والهًا مُتذلّلا
ويختنقُ في عينيه ظلُّ المكيدة
ولا مَنْ غزتْ وجهى بشوْقٍ وبسْمَةٍ
تراها من البُهتان أسمالَ حيّـة
مُعذّبة ، صفراء ، تنقعُ سُمّها

على شفة تومي بكأس وزهرة
عبرتُ فضاء الله صيادَ أوجه
ولو سكنتْ غابَ الغيوب المنيعة
وحيرني وجهٌ أطلَّ .. فنظرةٌ
حياةٌ ، وأخرى أومأتْ بالمنيّة
تناقض حتى خلتُ عدةَ أوجه
توالت لعيني زُمرةٌ إثرَ زُمرة
تُريكَ الربيعَ الغضَّ حانَ خريفُهُ
وشابت لياليه على كل ربوة
فتُبصرُ أطيارا ، وتسمعُ حولها
جنائزَ موسيقى الغصون الحزينة
وتُنشقُكَ أوشالٌ من العطر خانها
شذاها ، فذابت في زُفات الخميلة
وكيف عميقُ الظنّ في كلّ محجرٍ
وأجفانُ أفعى تاكلات التلفت
وبحرٌ بلا ماء ، وموجٌ بلا صدى
يُغمغمُ شيءٌ فيه من كل وجهة
مخرتُ دُجاهُ بالخيال ، وبالرؤى
وبالوحي ، وبالإلهام قُدتُ سفينتي
وأطلقتُ أسرابَ الظنون كأنها
جوارحُ طيرٍ حلّقتْ للقنيصة
وعوّذتُ واستلهمتُ نفسي غيوبَها
وأسرارَها في هتك أي خبيئة
فعادت بلا شيء ، كأن مدارَها
دروبٌ من ما أفي كل سخنة
تولولُ من فرط الضلال وتشتكي
ضبابًا على تلك العيون البليدة
وتضرعُ مثلي أن يُفاجئَ جهلَها
من الله ضوءٌ ظافرٌ بالحقيقة

أغنيات الوطن ..

للشاعر فتحى سعيد

بلادى
بلادى بلادى ..
على هامة الأفق نجم تألّق
وشعبٍ عريقٍ أصيلٍ يُصدّق
بأنك أعرق
بأنكِ أحلى البلادْ ..
وخير العبادْ ..
وأغلى الديارْ
بأنك نورٌ ونارْ
يضيءُ ويحرق
يضيءُ الحياةْ
ويحرقُ أعداءَها .. والطُغاةْ

بلادى بلادى
على شاطئِ الخُلد .. نهرٌ ترقرقْ
وصافٍ وأغدقْ
ومن سالف الدهر .. نهرٌ تدفّقْ
يفيضُ .. ويُورقْ
سنابلَ حبٍّ
وغُصنَ سلام ..
و نايًا وزورقْ
بلادى بلادى
وإياكِ أعشقْ ..
على هامة الأفق نجمٌ تألّقْ
يُشعُّ الضياءَ .. إذا الليلُ أطبقْ
على جبهة الشمس رمحٌ ويبرق
يشقُّ السماءَ .. إذا الصبحُ أشرقْ
وفى الليل .. عند بزوغ القمرْ
وبوح الوترْ
يرفُّ ويخفقْ
يرف ويخفق !

أما القصيدة التالية فبعنوان «مصر لم تنم» وأنا مع الشاعر فمتى نامت مصر؟ وهى كنانة الله فى أرضه، ما كاد أهلها أحد، إلا وقصمه الله، ومتى نامت مصر؟ وهى على مدى التاريخ يقظانة العينين صلبة القدم ولم تزل.. فى الأرض كالجبل .. وفى السماء للذرى والقمم

مصر لم تنم

مصرُ لمْ تنمْ
ولمْ تزلْ
يقظانةَ العينين .. صلبةَ القدمْ
في الأرض كالجبلْ
وفى السماء .. للذرى وللقممْ
مصرُ لمْ تنمْ
ما خرَّ سورُها العتيدُ .. ما انهدمْ
ما انهارَ شعبُها العظيمُ .. ما انهزمْ
ولم يزلْ
مُزودا بأعرق القيمْ
متوّجَ الأملْ
في الأرض كالهرمْ
وفى السماء للذرى والقممْ
مصرُ لم تنمْ
الموكبُ الكبيرُ سارَ كالخضمْ
أمامَهُ وخلفَهُ قد أقسموا القسمْ
حرائقٌ مشبوبةٌ لكل من هجمْ
زلازلٌ .. مناجلٌ .. لكلّ من جثمْ
بنادقٌ .. مطارقٌ .. سواعدٌ وقمْ
ولوحةٌ .. وراية .. واللحنُ .. والقلمْ
هنا .. هناك .. كلنا على قدمْ
فلم نزلْ
في الأرض كالجبلْ
٢ - لا وراء
لستُ عبدًا .. لستُ مغلولَ الفم
أنا إنسانٌ ولي روحٌ وعقلْ
وصناعاتٌ وحقلْ
وانتفاضاتُ دمي ..
أنا حرٌّ
لستُ وحدى .. بل معى كل البشرْ
لى أرضٌ وسماءٌ وقمرْ
لى أطفالٌ لهم حقُّ الحياةْ
وابتسامات الشفاهْ
لىَ أمٌّ وأبٌ
لىَ قلبٌ
فيه للآمال دربٌ
وعواميلُ حبٍّ
أنا حرٌّ ..
أنا عند الخير خيرٌ
ولقاء الشرِّ شرٌّ
أنا عزمٌ قد تحرّرْ
أنا أكبرْ
من رصاص البندقيةْ
بنضالي .. بنضال الآدميةْ
أنا أكبرْ ..
من صواريخ الطغاةْ
وقفتى بالأمس كانت في القناةْ
أنا صاعدٌ .. أنا صاعدٌ
بقلوبٍ وسواعدْ
موكبٌ للزحف ثائرٌ
من قلوبٍ مُحرقةْ
صاعقةْ
منْ ثقةْ
ترفعُ الساعدَ تَفنى كل قوةْ
تقذفُ الجلادَ .. في أعمق هوةْ
فإذا خرَّ شهيدٌ قام آخرْ
وإذا نادى بشيرٌ ضجَّ سامرْ
هكذا .. لا خطوةٌ نحو الوراءْ
لا وراءْ
لا وراءْ

من تراث الهلال

زعماء مصر بين العقاد وعبد الرحمن الرافعي

للأستاذ/ عاطف مصطفى

أضاف علماء الأزهر ومفكروه الكثير إلى مائدة الهلال الثقافية التي تقدم للقراء في أول كل شهر ميلادي.



العقاد
طه حسين

وكما ذكرت من قبل تسابق رؤساء التحرير الذين عملت معهم على أن يتضمن كل عدد من المجلة صفحات مشرقة لكل واحد من هؤلاء الأعلام العظام.

ودائمًا تعود بي الذاكرة إلى الفترة الطيبة التي تولى فيها الأستاذ رجاء النقاش رئاسة تحرير الهلال، حيث اصطحبني معه أكثر من مرة إلى منزل أستاذنا المفكر الدكتور محمد عمارة لكي نتسلم منه عدة مقالات لـ«الهلال» وبعض كتبه لنشرها في سلسلة كتاب الهلال الشهري.

كذلك حرص اثنان من رؤساء التحرير هما كمال النجمي ومصطفى نبيل على استكتاب أستاذنا الأديب الراحل الدكتور محمد رجب البيومي، صاحب الأسلوب المتميز، وفارس الكلمة ما بين الشعر وتناوله للقضايا الاجتماعية وغيرها.

هذا واحد من مقالاته التي نشرها في أول ابريل ١٩٨٦م بعنوان «زعماء مصر بين العقاد وعبدالرحمن الرافعي».

وربما اخترت هذا المقال تحديدًا، حيث صادف احتفال مدينة أسوان بعملاق الأدب عباس محمود العقاد.

وعلى الرغم من أن الاحتفالية لم تكن لتليق باسم واحد من أعلام مصر الكبار، إلا أنها جاءت ردًا على أولئك الذين انتزعوا «رأس» عميد الأدب العربي طه حسين من فوق تمثاله بمدينة المنيا، وربما كان هذا من أعمال السرقات المنتشرة في مصر «المحروسة» الآن، وهؤلاء غاب عنهم حب الوطن، وعدم معرفتهم بقدر هؤلاء الأدباء الذين قدموا لمصر وللعروبة والإسلام الكثير.

شجاعة حاسمة

يبدأ د. رجب بقوله: كتب الأستاذ عبدالرحمن الرافعي تاريخ مصر الحديثة في مجلدات حافلة، وجدت طريقها إلى القراء في يسر وترحيب، وقد ذكر المؤرخ الكبير أنه لقي عناء شديدا في تأليف هذه الموسوعة وفي طبعها، أما من حيث التأليف فقد قرر عليه أن يكتب تاريخ الأسرة الحاكمة، وهي لاتزال صاحبة الأمر والنهي، وضميره العلمي لا يسمح له أن يتنازل عن تدوين الأخطاء فكان ذا شجاعة حاسمة في مواجهة المؤلف الدقيق، ولم يكن كغيره ممن ملأوا جيوبهم وخسروا أنفسهم.

ونحن نعلم أن الرافعي أراد باديء ذي بدء أن يكتب تاريخ الزعيم الوطني مصطفى كامل، فبحث في الأصول الهامة لتاريخ صاحب اللواء، فوجد حركته القومية، تمتد بجذورها البعيدة إلى عهد الحملة الفرنسية التي تعد المحاولة الأوروبية الأولى لاحتلال مصر، فلابد من متابعة هذه الجذور في نموها الطبيعي بدءا من غزوة نابليون ومرورا بمحمد علي وخلفائه، حتى يأتي زمان مصطفى كامل، والرحلة شاقة عسيرة، فلابد من التضحية بالجهد والوقت والمال، حتى يصل صاحبها إلى ما يبتغيه.

وقد انفرجت المساحة بعد مصطفى كامل، إلى حيث توالت جهود محمد فريد وزعماء الثورة المصرية وما أعقبها حتى مفتتح ثورة يوليو.

عنف العقاد

يقول د. البيومي: والحق أن الوقوف المتئد أمام مؤرخ مصطفى كامل ومؤرخ سعد زغلول، مما يفسح المجال للنظر الشامل للجوانب المتعددة، ذات الوجوه المختلفة، وهو في الوقت نفسه، يكشف عن طبيعة مستنيرة في


عبدالرحمن الرافعي

خلق العقاد، قد تخفى على بعض دارسيه فقد عرف عن العقاد عنف المناظرة، وسطوة الصيال، حتى حسب هذا العنف خلة ذاتية لديه لا محيص عنها.

والحق أن العقاد لا يلجأ إلى العنف إلا حين يلمس من معارضه شططا والتواء، فهو حينئذ يلقى بالقفاز في وجهه ليصارعه في ميدان النقاش صراع الأسد الجموح.

أما حين يأنس في معارضه نزاهة القصد، وخلوص السريرة واستقامة الرأي، فهو حينئذ يبادله الحجة بهدوء، ويخالفه في سماح رحب، بل ربما التمس له من العذر ما يقيم له وجه السداد فيما انتحاه.

مكانة سعد لدى العقاد

ونحن نعلم مكانة سعد لدى العقاد، ونعرف أن الرافعي قد نال من سعد بما لا يطيق أن يصبر عليه العقاد كما سنعلم عن قريب وكان المظنون بالعقاد أن يرتفع صوته بالضجيج صاخبا، ولكنه عرف خلوص النية لدى الرافعي، فناقشه بالتي هي أحسن وقرأ الرافعي ما كتبه صاحبه، وآثر الصمت بعد أن كيت ما طواه، وحفظته أوراقه الخاصة في مكتبته، ولعله عرف أن النشر من جانبه سيعقبه الرد السريع، والعقاد هو العقاد، فالصمت أولى، وليس معنى هذا أنه توقع الشطط من مناظره، فقد عرف عنه الاعتدال في النقاش، ولقد أخذ بالحزم دون العزم.

استقبال رصين وأمين

يقول الدكتور البيومي: نبدأ بالحديث عن مصطفى كامل، فنذكر أن الرافعي كتب عنه

مؤلفا رائعا، كان أنشودة حب، ونفحة وفاء، لأن عبدالرحمن طالب مدرسة الحقوق، قد اتصل بالزعيم الشاب، وظفر بتشجيعه، وفسح له مكانا طيبا بجريدة اللواء.

وقد استقبل العقاد كتاب الرافعي عن مصطفى كامل استقبالا رصينا أمينا من وجهة نظره، فبدأ حديثه بتقدير المؤلف الكبير، فهو في رأيه جدير أن يسمى بحقق مؤرخ النهضة القومية الحديثة، إذ تابعها في أدوارها المتتالية، وتهجه في كتابه عن الزعيم شبيه بنهجه في الكتب السابقة من حيث الطريقة والوجهة، فهو يتتبع الحقائق، ويستقصي ما احتاج إليه من الأسانيد، وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات، أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب، وسهولة في التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القارئ، ولا تكتفي مع ذلك بالظواهر دون ما يلازمها من الأسباب والعواقب.

وهذا الكلام من العقاد يدل على إنصاف معتدل، فالناقد الكبير حين يقرر أن الرافعي متتبع مستقص منصف، لا يترك منفذا للوم، كما أنه حين قال إن الرافعي ذو سهولة في التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القارئ، ولا تكتفي مع ذلك بالمظاهر دون البواعث، قد صدم من حاولوا أن يجعلوا من كتب الرافعي مجرد أحداث جمعت من الصحف والوثائق، لحاجة في نفوسهم، لأن العقاد أدرى منهم بالحكم حين يرى غير ما لا يرون، وهو يعرف مناخ كل مؤرخ، ومواضع ارتفاعه وانحداره، وليس ذا تعسف مريض.

ولكنه قرر في وضوح أن المؤرخ لم يتحدث عن موقف مصطفى كامل من الخلافة العثمانية، إذ كان الزعيم الشاب قد وصفه العقاد بأنه زعيم الوطنية في عهده.. من أنصار السيادة التركية مع الاستقلال الداخلي لمصر،


مصطفى كامل

وقد كان الإنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه الحقيقة ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعذار المعتصمين بالسيادة العثمانية في ذلك الحين بل يوجب عليه أن يذكر معها صواب المخالفين.

ولكن الرافعي قد أغفل الموضوع كل الإغفال ولو تحدث عنه لأقر الحقائق في نصابها وأتاح للقارئ أن يلم بمعاني الحركة الوطنية من جميع نواحيها وأن يستخرج العبرة المقصودة بالتاريخ من صواب أو خطأ لكل فريق وما هو فريق واحد لديه كل الخطأ والصواب.

سعد زغلول

يقول الدكتور محمد رجب البيومي عن زعماء مصر بين العقاد والرافعي: كان الرافعي أحد أقطاب الحزب الوطني، وللحزب الوطني نظرته السياسية لمن يخالفه في الاتجاه ولم يكن سعد زغلول في أكثر أحواله موضع الرضا من زعامة الحزب أيام مصطفى كامل ومحمد فريد ومن تلاهما وقد رحبت جريدة اللواء بسعد زغلول حين تولى وزارة المعارف ولكن سياسته المعتدلة كانت موضع نقد لدى المتشددين.

وفي مجال التاريخ السياسي لمصطفى كامل تعرض الرافعي لسعد ليحصي عليه أشياء يراها العقاد بعيدة عن الصواب، والرافعي ليس وحده صاحب هذه النقدات ولكن نفرا من خصوم لسعد دأبوا على نقده قبل زعامته للثورة وبعدها وليس سعد العظيم فوق النقد فهو سياسي ماهر يخطىء ويصيب وإذا كانت

عين الرضا عن كل نقد كليلة فإن عين المراقبة ولا أقول عين السخط قد دفعت الرافعي إلى تسجيل وجهة نظره في سعد حين كان ناظرا للمعارف أيام مصطفى وحين تزعم الثورة المصرية في عهده الأخير.

ففي عهد نظارته للمعارف أخذ عليه الرافعي في كتابه عن مصطفى كامل أنه انسحب من رئاسة الجامعة المصرية تحقيقا لرغبة الاحتلال كي يحبط المشروع كما أنه دافع عن سياسة الاحتلال في التعليم حين أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية.

وفي عهد زعامته للثورة المصرية ذكر الرافعي في تاريخها أن سعدا لم يكن الحافز الدافع لها وأنه لم يطلب الاستقلال التام في أول الأمر وهذه المآخذ لم تجد ارتياح العقاد فهب لتفنيدها وقد تحدث أكثر من مرة عن خطأ الرافعي فيما حاوله من انتقاص سعد وكان مقاله الصادر بجريدة الأساس ٢٨ / ١٢ / ١٩٥١ من أجمع ما دار حول هذا النطاق وقد جاء بجريدة الجمهورية الصادرة في ١٣ فبراير ١٩٨٦م أن الرافعي رحمه الله كتب ردا على مقال العقاد وجد في مسوداته وقد كتب عليه لا داعي لنشره!! وإذا لم يجد الداعي للنشر فلماذا كتبه إذن؟! لعله حذر حيال العقاد وهو في هذه الناحية ذو منطق وبرهان.

دفاع العقاد عن سعد

يذكر العقاد بصدد النقد الأول أن ولاية سعد لوزارة المعارف لم تكن. كان يريدها معهدا للمتخصصين الذين يبتكرون ولا يقلدون.

أما أن سعدا قد اعترض على التعليم باللغة العربية فهو زعم لا أصل له لأن سعدا هو الذي أوفد عشرات الطلاب إلى أوروبا ليعودوا إلى مدارس مصر فيعلموا التلاميذ باللغة العربية،


سعد زغلول

والذي يقول إن نقل التعليم من لغة إلى لغة لا يتم في يوم واحد لا يحارب لغة بلاده، ولكنه ينتظر من يستطيع التأليف باللغة العربية والتدريس بها قبل تقرير التعليم باللغة العربية وما تظن خبيرا يمتري في ذلك!

أما النقد الخاص بموقف سعد من الثورة فقد عجب له العقاد لأن فضل سعد قبل ثورة ١٩١٩ لا ينكره أحد بدليل معقول، لأن الأمة بغير زعيمها لا تعرف كيف تتحرك بل إنها تحار وتضطرب ما لم تتفق على زعيم يملؤها بالثقة والرجاء وتشعر بقيادته شعور اليقين والإيمان.

وقد كان سعد هو الزعيم المنقذ وقد عرفت الأمة المصرية ذلك في أعماق وجدانها فكان اسم سعد على كل لسان وملء كل ضمير.

هجوم على عرابي من الرافعي ودفاع العقاد لصفه

ويتحدث عن أحمد عرابي كاتبنا الكبير محمد رجب البيومي بقوله: كان مصطفى كامل قاسيا أشد القسوة حين هاجم أحمد عرابي ودمغه بالخيانة على صفحات اللواء ولم يكن من المنتظر أن يصدر هذا العنف الظالم من زعيم مخلص يعرف أقدار المجاهدين، ولنفرض أن أحمد عرابي قد تورط في مدح الانجليز بعد رجوعه شيخا محطما مكدورًا من منفاه وأن الزعيم الشاب قد استاء من هذا المدح، أفما كان الأجدر به أن يتعمق البواعث النفسية التي دفعت الرجل الأعزل المضطهد إلى محاولة العيش

فى سلام، بعد أن ذاق بلاء النفى والتشريد والمرض والشيخوخة.

وإذا كان عرابى خائنا فى منطق مصطفى كامل، أيكون وطنيا فى منطق الاحتلال.

مهما يكن من شيء فإن عبدالرحمن الرافعى لم يخلص من تأثير مصطفى كامل، حين تحدث عن الثورة العرابية، فأخذ يبحث عن المساوئ بحث المتتبع الحريص، وقد تكون مساوئ فى رأيه فحسب!

وقارئ ما كتبه عن أحمد عرابى بالذات يلمس ما يشبه التناقض، فالرافعى فى حديثه عن مقدمات الثورة وأسبابها، يقول عن زعيمها الباسل إنه كان فى مقدمة هذه الأسباب، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد، للمطالبة بحقوقهم المهضومة، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارًا على ولاة الأمور، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة، فهذه الجرأة كان لها أثر كبير فى ظهور الثورة، ولو لم يظهر عرابى، ولو لم تكن له هذه الشخصية التى اجتذبت إليه صفوف الضباط، وثبت فيهم روح التضامن والإقدام، لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية أو لظهرت فى زمان آخر!

فإذا ما انتقلنا إلى ما كتبه الرافعى تحت عنوان «لماذا أخفقت الثورة العرابية»، فإننا نجده يقول: ولو كان على رأس الثورة قائد «كفء» لتغير مصير الوقائع الحربية بها، ولكنها مع الأسف لم توفق إلى قواد أكفاء، ثم ينعى على الزعماء قلة البطولة والتضحية فعرابى ذاته لم يشترك فى المواقع الحربية، ثم سلم نفسه للإنجليز، وكان معه زملاؤه قدوة سيئة فى الخضوع والاستسلام والضعف النفسى، إلى آخر ما ينحو هذا المنحى.

وقد تحدث العقاد عن الثورة العرابية فى كتابه (١١ يوليو وضرب الإسكندرية) فأنصف عرابى وأشاد ببطولته، وقال إن الجيش المصرى لعهده لم يوجد به من هو أقدر منه ولا أحق منه، بعرض مطالبه، والدفاع عنها، وقد استمر يقاوم فى ميدان الدفاع بما عنده من وسائل المقاومة، إلى ما بعد ضرب الإسكندرية، ولم يكن نجاحه فى صد الجيش الإنجليزى ميئوسًا منه، بل كان نقيض ذلك أملا راجحًا، لولا الأوامر التى صدرت بمساعدة الجيش الإنجليزى، ولولا خيانة المأجورين على هداية ذلك الجيش فى دروب الصحراء، ولولا إعلان السلطان عصيان عرابى بإلحاح من الإنجليز، فمن شاء أن يلوم عرابى فليلمه، لأنه طلب الإصلاح وتعرض للانتقام، أو فليلمه لأنه رفض الدسائس والذرائع المختلفة من الدول الأجنبية وليقم الدليل القاطع على أن الخير فى ذلك الملام.



عرابى

ooo

هذا قول العقاد فى عرابى ولم يسقه فى مجال الرد على الرافعى، ولكنه فى موضع آخر لم يغفل مواجهة الرافعى معارضا منحاه فى الحديث عن الثورة العرابية، حين ذكر فى مقاله بجريدة الأساس: «أن المؤرخ الذى يعلم عواقب الحوادث بعد زمانها يجب أن يذكر أن المشتركين فيها لم يعلموها ولا يجوز لنا أن نطالبهم بعلم الغيب، أو السيطرة على منافذ القضاء، وليس للمؤرخ الذى يعيش فى القرن العشرين فضل فى القرن التاسع عشر، فإنه لو عاش مع أبناء القرن التاسع عشر لصنع كما صنعوا، وتوقع الحوادث كما توقعوا!!

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ. محمد جمعة

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى

تحت هذا العنوان عرض الأستاذ/ محمد عويس كتاب «نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى» ملحق مجلة الأزهر نشر بجريدة الحياة الصادرة بتاريخ ٢/ ٢/ ٢٠١٣م:

قدم الدكتور عزالدين فراج للمكتبة الإسلامية العديد من المؤلفات: (حياة محمد)، (عظمة الرسول)، (الإعجاز العلمى والإسلامى)، إضافة إلى عدد من الكتب فى المجالات الأدبية والاجتماعية منها: (فن القراءة)، (العالم العربى الجديد)، (نحو قرية أفضل) وكلفته وزارة الثقافة المصرية بترجمة العديد من الكتب العلمية، ومن الكتب التى ترجمها (نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى)، الذى طبع عام ١٩٥٣م فى مطبعة (الجهاد) فى القاهرة، وكان فراج حينذاك مدرسًا فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، والكتاب ملحق مجلة (الأزهر) لقرائها ويضم نماذج من شهادات كوكبة من العلماء العظماء لنبى الإسلام ورسول الإنسانية، ورحمة الله للعالمين. وبحسب الدكتور محمد عمارة فى تقديمه للكتاب، «يستطيع العقل المسلم أن يرد بها -الشهادات- على الافتراء والازدراء الذى يصدر من السفهاء الجهلاء ضد الإسلام ورسوله ورموزه ومقدساته».

ومن الشهادات التى يضمها الكتاب: نبى الإسلام كما صوره الإنجليزى بوسورث سميث (١٧٨٤-١٨٨٤م) فى كتابه (محمد والدين المحمدى)، إذ قال: «لقد ظل محمد إلى آخر حياته وليس له لقب يعتز به إلا إنه نبى مرسل من عند الله، من دون أن يكون له جيش قائم ولا دخل ثابت، وإذا كان لأى إنسان أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من الله فإنه محمد، وإنه لحدث فريد فى التاريخ أن يؤسس محمد شعبًا وإمبراطورية ودينًا»، ويضيف سميث فى موضع آخر من كتابه: «لقد كان محمد موفقا كل التوفيق، ولم يحدثنا التاريخ عن مثله، لقد جمع بين زعامات ثلاث، زعامة الشعب، وزعامة الدين، وزعامة الحكم والسلطان، ومع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادة». أما السير وليم ميور (١٨١٩-١٩٠٥م) فتناول حياة النبى ﷺ بالبحث والتحليل من جوانب مختلفة فكتب عنه: ومن صفاته الجديرة بالتنويه الرقة والاحترام اللذين كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا، فالتواضع والرأفة والأناة وإنكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله، وكان يكره أن يقول: لا، فإذا لم يتمكن من أن يجيب الطالب لسؤاله فضل السكوت على الجواب، وقد قالت عنه

عائشة: إنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا ساءه شئ تبيناه في أسارير وجهه أكثر من كلامه، ولم يمس أحدًا بالضرر إلا في سبيل الله، ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة دعوة إلى بيت مهما كان رب البيت، وإذا جلس إلى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخًا منه وكبرًا، وكانت له تلك الخلة النادرة التي يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار».

ودرس لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩م) حياة محمد ﷺ دراسة وافية، أدرك ما فيها من عظمة وخلود، ما جعله يسجل ويقول: «أترون محمدًا كان أخا خداع وكذب؟ لا، لم يكن خادعًا ولا كاذبًا بعدما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته، فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة وليس للنفاق قوة العقيدة وليس للكذب قوة الصدق»، وفي تناوله لحياته ﷺ يقول: «إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وشهامته وجرأته وبأسه، وثباته ثلاثة عشر عامًا يدعو دعوته في وسط أعدائه، وقبوله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين وحميته في نشر رسالته، وتوافره على السعي في إظهار دعوته، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالفوز ورباطة جأشه في الهزائم، وتطلعه إلى إعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الإسلامية، ونجاح دينه بعد موته.. كل ذلك أدلة على أنه لم يضمر خداعًا أو يعش على باطل، وهذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجًا، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة، الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفي ما ألصقه الوثنيون به، الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقًا إلى الفكر والتأمل»، وكتب المستشرق الفرنسي إميل درمنغم (١٨٩٢-١٩٧١م) تحت عنوان (رسول الله): «تاريخ البشرية ما هو إلا سلسلة من الإيحاء والإلهام، إذ يسمع البشر بين وقت وآخر صيحة مدوية، وإذا برجل يسير في طريق الحق غير متوان، عاملا على أن يوقظ الآخرين من نومهم العميق، هكذا يقوم خلاص البشر على سلسلة من الأفعال الحرة الطليقة، وهكذا نهض محمد ﷺ يدعو قومه إلى دين الواحد الأحد...».

كما اعترف المستشرق الفرنسي أندريه سرفيه بفضل النبي ﷺ في كتابه (الإسلام ونفسية المسلمين) بقوله: «لا يتحدث هذا النبي عن المرأة إلا في لطف وأدب، كان يجتهد دائمًا في تحسين حالها ورفع مستوى حياتها، لقد كانت النساء قبله لا يرثن بل كن متاعًا يورث لأقرب الرجال، وكأنهن مال أو رقيق، وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر المرأة وأعطاها حق الإرث»، ثم اختتم سرفيه كلامه قائلا: «لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبي فليقرأ خطبته في مكة والتي أوصى فيها بالنساء خيرًا وليقرأ أحاديثه المتباينة».

ويشير فراج إلى أن الكولونيل الأمريكي ر. ف. بودلي (١٥٤٥-١٦١٣م) والذي اختلط بالعرب ودرس حياتهم الخاصة بصورة واسعة، جذبته حياة محمد ﷺ ما دفعه إلى تناول حياته ومظاهر عظمته في كتاب، لافتًا إلى أنه (كان على نقيض من سبقه من الأنبياء، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشكلاتها، فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية في دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملي، لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف).

ويضيف بودلي أن محمدًا ﷺ «لم تتبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، حتى لقب بالأمين ولم تفتنه النساء فقط، ولم تفتنه الشهوات أيضًا، وبقيت غرائزه الجنسية مهذبة، وكان حاضر البديهة، عذب الحديث».

١٠٠ كتاب ممنوع حول العالم

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ / عزت إبراهيم تقريرًا إخباريًا نشر في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ: ١٥/ ٣ / ٢٠١٣م جاء فيه:

كلمة "رقابة" وكلمة "ممنوع" من الكلمات اللافتة في التاريخ البشري، وعندما تقترن الكلمتان بالكتاب تصبح ذات واقع سيئ ولا يمكن الدفاع عنها. اليوم نقدم واحدا من أهم الكتب التي جمعت بين دفتيها أشهر المؤلفات في السياسة والأدب والدين أو بالأحرى الأعمال التي صودرت في سائر أنحاء العالم على مدار التاريخ على أرضيات سياسية أو دينية أو لأسباب تتعلق بالأعراف والخروج عن الآداب العامة والترويج للخلاعة وغيرها من الاتهامات التي راحت في ركن مظلم من التاريخ مع أصحابها وبقيت الكتب الممنوعة صامدة على (الرفوف)، كتاب "مائة كتاب ممنوع: تواريخ الرقابة على الأعمال المكتوبة في العالم" هو واحد من الكلاسيكيات المهمة للتعرف على الكتب التي وقعت تحت مقص الرقيب على مر العصور ومن بينها الكتب المقدسة حيث يتناول تاريخ المصادرة والملابسات التي دفعت السلطة إلى فرض حظر أو محاربة أعمال بعينها.

وقد رصد المؤلفون ٢٥ عنوانا طالته يد الرقابة لأسباب سياسية ومنها:

"عناقيد الغضب" للكاتب الأمريكي جون شتاينبك والتي كتبها عام ١٩٣٩م وهي الأكثر شهرة في تاريخه وتصور حياة الطبقة العاملة وشرائح المعدمين والمهمشين وما سماه بسراب الحلم الأمريكي وهي الرواية التي تعرضت للحرق والهجوم المتواصل لمدة أكثر من خمسين عاما، وفي قائمة الأعمال الملاحقة لأسباب سياسية، نجد رواية "مزرعة الحيوانات" لجورج أورويل وابنة ألبيرجر لناديين جورديمر أديبة نوبل و"دكتور زيفاجو" لبوريس باسترناك ومن الأعمال السياسية "أرض الحر: تاريخ الولايات المتحدة" لجون هوب فرانكلين وجون كوبي وإيرنست ماي و"البيان الشيوعي" لكارل ماركس و"كفاحي" لهتلر و"عصر العقل" لتوماس بين والكتاب المقدس ورواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ والعهد الجديد والإغراء الأخير للمسيح للأديب نيكولاس كازانتزاكس و"أصل الأنواع" لتشارلز داروين وآيات شيطانية لسلمان رشدي وأعمال أخرى ليست بشهرة الأعمال السابقة!

قمع الأعمال الأدبية

هناك تاريخ طويل من مصادرة الأعمال الأدبية لأسباب تتعلق بالتعدي على الآداب العامة والأخلاق وغيرها من المسميات التي استخدمتها السلطة السياسية والدينية حول العالم لمنع أعمال كبرى مثل "عشيق الليدي تشاترلي" للكاتب الشهير دي إتش لورانس ورائعة مارك توين - الكاتب الأمريكي الأشهر - التي تحمل عنوان "مغامرات هاكيلبري فين" والأولى منعت بسبب اللغة الصريحة التي تناولت العاطفة والعلاقات الخاصة والثانية بسبب الكلام الصريح عن العرق وهناك أعمال نالت اعتراضا لتناولها قضايا تمثل خروجًا على قيم المجتمع منها العمل الشهير المترجم إلى العربية

"عالم جديد شجاع" للمفكر ألدوس هكسلي ورواية "فهرنهيت ٤٥١" لراي برادبيري وهو من الأعمال التي تحولت لفيلم سينمائي ناجح و"السيرة الذاتية لبنجامين فرانكلين" بقلم صاحب السيرة نفسه.

الرقابة ربما تكون شرًا لابد منه في غالبية

المجتمعات إلا أنها صارت شيئا من الماضي فى المجتمعات الأكثر انفتاحًا والتى خاضت معارك طويلة من أجل الحرية وحررت الفكر والأدب والثقافة، وحتى الكتابات السياسية، من مقص الرقيب أو من سيف الحاكم!.

دراسة إسرائيلية:

اليهود فى العالم يتناقصون

نشرت هذه الدراسة فى جريدة الأهرام

الصادرة فى: ٢٠١٣/٤/١م:

كشفت صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية النقاب عن أن إجمالى عدد اليهود فى العالم يصل إلى ١٣ مليونًا و٨٠٠ ألف نسمة يتركز منهم ٦ ملايين فى إسرائيل يليها ٥ ملايين و٥٠٠ ألف فى الولايات المتحدة وبعدها فرنسا بـ ٥٠٠ ألف يهودى.

وقالت الصحيفة فى تقرير إحصائى لها أن عدد مواطنى إسرائيل وصل فى مارس الماضى إلى مستوى ٨ ملايين نسمة بينهم ٦ ملايين يهودى يشكلون ٧٥ فى المائة من سكان إسرائيل.

ويتوزع باقى سكان إسرائيل بين نحو ١,٦ مليون عربى يشكلون ٢٠,٥ فى المائة من السكان، ونحو ٣٥٠ ألف مسيحى ليسوا عربًا وغير مصنفين حسب الدين فى سجلات وزارة الداخلية ومعظم هؤلاء مهاجرون جدد أو أبناء عائلة لمهاجرين من دول الاتحاد السوفيتى سابقًا.

وأشارت الصحيفة أن قسمًا من سكان إسرائيل لا يسكنون بشكل دائم فيها، ولكنهم مسجلون كمواطنين وكسكان وحسب التقديرات، فإن نحو نصف مليون إسرائيلى يوجدون الآن فى خارج البلاد، حيث يتنزهون، أو يعملون، أو يدرسون وما شابه.

وعن عدد اليهود فى الجاليات اليهودية فى العالم، يتبين -حسب يديعوت أحرنوت- أن إسرائيل أصبحت لأول مرة المركز الأكبر فى العالم حين تجاوزت العدد الرمزى لـ ٦ ملايين يهودى يسكنون فيها بينما ٩٦ فى المائة من اليهود الذين يعيشون فى الشتات يرتكزون فى عشر دول فى أرجاء العالم وأنه فى مقابل زيادة أعداد اليهود فى إسرائيل تتناقص أعدادهم فى الخارج وحسب البروفيسور سيرجيو دى لا فرجولا، الخبير فى الديموجرافيا للجاليات اليهودية فى العالم من الجامعة العبرية، فإن المركز اليهودى الهائل الآخر يوجد فى الولايات المتحدة حيث يسكن ٥ ملايين ونصف المليون يهودى، يسكن فى نيويورك وحدها ٢ مليون يهودى.

وفى فرنسا، يسكن نحو نصف مليون يهودي، منهم ٣٠٠ ألف فى العاصمة باريس، وفى كندا يبلغ عدد الجالية اليهودية ٣٨٠ ألف نسمة، معظمهم فى تورنتو، كما يبلغ تعداد السكان فى إنجلترا، ٢٩٠ ألف يهودي، معظمهم فى لندن، ويسكن فى روسيا ١٩٠ ألف يهودي، قسمهم الأكبر فى موسكو.

كما أن عددًا مشابهًا نحو ١٨٠ ألف يهودى يسكنون فى الأرجنتين، معظمهم فى بينوس آيريس.

وفى ألمانيا حيث يعيش ١٢٢ ألف يهودى.

وفى أستراليا يسكن ١٠٢ ألف يهودى، أما المركز اليهودى العاشر فيوجد فى البرازيل حيث يعيش نحو ٧٥ ألف يهودى.

"٩٦ فى المائة من اليهود فى أرجاء العالم يسكنون فى هذه الدول العشر" وذلك حسبما يقول البروفيسور دى لا فرجولا مشيرًا إلى أنه فى العالم يوجد ١٣ مليونًا و٨٠٠ ألف يهودى، ولكن السنة الماضية لم تكن سنة طيبة للعالم اليهودى خارج إسرائيل بل العكس حيث تقلص حجم السكان اليهود فى العالم وإن كان قد ارتفع فى إسرائيل.

مؤتمر مجمع اللغة العربية فى الدورة التاسعة والسبعين

قضايا اللغة العربية المعاصرة

للأستاذين رمضان ثابت - سعد فتحي

افتتح فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الشافعى رئيس مجمع اللغة العربية المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية فى دورته التاسعة والسبعين بعنوان: «قضايا اللغة العربية المعاصرة»، وذلك بمقر المجمع بالزمالك يوم الاثنين١٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٥ من مارس ٢٠١٣م وحتى يوم الأثنين ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٤٣٤هـ الموافق ٨ أبريل سنة ٢٠١٣م.

استهلت الجلسة الافتتاحية - التى أدارها الأستاذ فاروق شوشة - بكلمة الأستاذ الدكتور حسن الشافعى رئيس المجمع بالترحيب والحفاوة بالسادة الضيوف، فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

.. اسمحوا لي أيها الإخوة الكرام أن أتناول معكم باختصار وبصراحة ما يوجه إلى مجمع القاهرة من انتقادات ومآخذ تذخر بها وسائل الإعلام المصرية والعربية وأهمها أمور خمسة سوف أتناولها معكم واحدة بعد الأخرى موضحا رؤيتنا فى هذه المؤسسة العريقة إزاءها:

الانتقاد الأول: ضعف التواصل بين المجمع القاهرى والجماهير العربية بوجه عام وضعف تواصله مع الهيئات ذات الصلة فى الجامعات وفى المجتمع المدنى بل ضعف تواصله أيضا مع جمهور المثقفين بالقاهرة.

وكان رد فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الشافعى حول هذا الانتقاد فى عدة نقاط نذكر منها:

١ - نعمل الآن على تطوير مجلة المجمع. ٢ - وقد تصدر مع المجلة الأم نشرة شهرية أو فصلية لتحمل الأخبار السريعة وتنقل الأحداث التى تجرى فى محيط المجمع إلى الدوائر المعنية لا للدعاية ولكن للمشاركة واستحياء الصلة وطلب الرأى والنصيحة.

٣ - وكلاهما إلى جانب الموقع الإلكترونى الذى ينبغى أن يحمل إلى العالم الرصيد الغنى الذى يمثل جهود المجمعيين.

٤ - هذا إلى جانب المعاجم اللغوية العامة والمعاجم الفنية المتخصصة التى صدر منها عدد ضخم منذ قيام المجمع القاهرى وتنشط لجان المجمع الخمس والعشرون ومنها سبع لدراسات اللغة والأدب وثمانى عشرة لجنة للثقافة والعلوم الاجتماعية والعلوم البحتة نظرية وتطبيقية.

٥ - أما المصطلحات العلمية فقد بلغت حتى

الآن ما يربو على ربع مليون مصطلح علمي جديدة لا تكاد – في الحقيقة – تسد الفجوة الهائلة بيننا وبين الفكر العلمي في العالم المتطور.

إن المجمع - كما نراه - منارة لا قلعة وبرج رفيع ولكنه ليس عاجيا مصمتا بل هو مفتح الشرفات موطأ الأكناف قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه ويبسط يده لمن ناداه.

أما الانتقاد الثاني الذي ذكره أ.د.حسن الشافعي فهو: بطء الإيقاع المجمعي وفي هذا الصدد قال فضيلته:

إننا بعد فترة ليست بالقصيرة بدأنا نقترب من استكمال نصاب العضوية الكامل في هذا المجمع الموقر، وعسى أن يكتمل التشكيل إلى الأربعين عضوا في مطلع العام القادم.

وعلى كل حال فستسمعون من الزميل الكريم الأمين العام للمجمع كيف أن المجمع جمع أمره في حدود إمكاناته القليلة الراهنة وأعلن في شجاعة يغبط عليها أن استكمال المعجم الكبير الذي كان مقدرا له أربعون عاما سيتم بإذن الله خلال خمس سنوات فحسب ولكم أن تحاسبونا العام القادم وما بعده -إن شاء الله.

كما أثار فضيلته الانتقاد الثالث وهو: إغفال المجمع مشكلات الواقع وعدم متابعة أطواره الميدانية ،فقال: الإنصاف يقتضي أن أذكر من يرجه تلك التهمة أن:

١ - هذا المجمع عقد خلال الأعوام القليلة الماضية مؤتمرات ثلاثة خصصها لدراسة مشكلات العربية في التعليم وفي الإعلام وجهود المجتمع المدني العربي.

٢ - وجد المجمع أنه قد آن الأوان لكي تتحول بعض لجان المجمع أو كل مجموعة متجانسة من لجانه إلى مركز أبحاث في إطار المجمع أو بالتعاون مع مؤسسات أخرى معنية.

٣ - وقد يعين على ذلك ما تحقق للمجمع في دستور مصر الجديد من الاستقلال فنحن نحمد السيرة الحسنة مع وزارة التعليم العالي ولكن تطبيقا للدستور الجديد هذه الهيئة أصبحت مستقلة تابعة للدولة رأسا.

صحيح أن التطوير الحقيقي للعمل المجمعي يحتاج إمكانات للبحث ومخصصات مالية وبشرية تسمح بتحقيق إنجاز محسوس ولكننا برغم ذلك مصممون على المضي في الطريق ولو بدريهماتنا القليلة وإمكاناتنا المحدودة آملين أن تخصص الدولة نسبة مناسبة من الدخل القومي كما نص على ذلك الدستور لهذه الجوانب إن شاء الله.

وعن الانتقاد الرابع: حال الشبيبة العربية المتفاقم خطره دون مواجهة مناسبة

قال فضيلة الدكتور: أما حال الشبيبة فإنه شأن مجتمعي وليس مجمعيا فحسب. ومع ذلك:

١ - فبجانب المعجم الوجيز الذي سبق أن أصدره المجمع لتلاميذ مرحلة التعليم الأساسي قد شرع المجمع منذ أكثر من عام في إعداد معجم مصور للطفل العربي بين الخامسة والثانية عشرة من العمر يقدم الكلمة مصحوبا بالصورة الواضحة الجذابة التي تبين دلالتها ويوشك أن تتم الخطوات العملية لإنجازه وعلى نحو لا يقل جاذبية ودقة عن نظائره في اللغات الأخرى.

٢ - بل إن العمل يتجه أيضا إلى أن تصدر عنه طبعة ناطقة كذلك فيرى الطفل العربي الصورة ويفهم المدلول وينظر إلى الاسم أو الكلمة ويستوعبها ثم يستمع إلى نطقها السليم الجميل فيزداد معرفة بلغته السليمة وبيئته الحيوية.

وفي اهتمام أجيالنا الجديدة بحمد الله بالحاسب الآلي واتجاه الكثيرين منهم لاعتماده وسيلة إلى المعارف الجديدة ما يدفع إلى مشروعات أخرى من أمثال المعجم الناطق المصور كأفلام الكارتون العربية ونحوها والله ولي التوفيق.

أما كلمة معالي الأستاذ الدكتور مصطفى مسعد وزير التعليم العالي فجاء فيها بعد التحية وحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ :

.. «فخيرا فعلت أسرة المجمع الموقر حين اختارت هذا العنوان الموثق الذي يندرج تحته عدد من القضايا الحيوية في مجال عمل المجمع من قبيل: المصطلح اللغوي والثقافي والعلمي بين المشرق العربي، والمغرب العربي وتعريب العلوم ضرورة أم حاجة قومية، ولغة الحوار في الأجناس الأدبية المعاصرة، ولغة الإعلام الصحفي وطرق الارتقاء بها، واللغة العربية في مدارس اللغات وغيرها من القضايا التي تشتبك بقوة مع واقعنا الثقافي وتسعى إلى إيجاد أفضل السبل العملية لتكريس وجود اللغة العربية في شتى مناحي الحياة».

ثم أعرب سعادته عن انطباعاته عن الواقع المرير الذي تعانيه الأمة العربية وانعكاسه على اللغة العربية وانكسارها بين أبنائها وسبل معالجة ذلك في ضوء ما قرره الدستور الجديد للمؤسسات العلمية واللغة العربية وأشار في نهاية كلمته إلى بعض القضايا متمنيا إيلاءها اهتماما مضاعفا فقال:

أولا: قضية تدريس اللغة العربية في الجامعات والتي أثق أن تفعيلها سيكون وسيلة جيدة لربط شبابنا بأحد أهم مقومات هويتهم عبر ما يتلقونه من برامج دراسية تتعلق بعلوم العربية وآدابها بغض النظر عن تخصصهم الدراسي وخطوة جادة على طريق جسر هوة الاغتراب الثقافي لديهم وهو أمر سيكون له ما بعده في سبيل معرفتهم بتراثهم العلمي والأدبي والانطلاق منه إلى مساهمات أكثر فاعلية في مسيرة التقدم الإنساني.

ثانيا: قضية تعريب العلوم وأعلم أنها أحد المحاور التي تقع في بؤرة اهتمام مجامعنا اللغوية في ضوء ارتباط هذه القضية بقضايا أخرى تتعلق بقدراتنا الإبداعية ونشاط حركة الترجمة في بلادنا وغرس قيمة الانتماء للغتنا في أوساط باحثينا ومبدعينا، لقد اختار مؤتمرنا لهذا المحور عنوانا دالا هو تعريب العلوم ضرورة لغوية أم حاجة قومية؟

فحقيقة الأمر أن التعريب حاجة لغوية بحكم ما يوفره من جهد وما يكسره من حاجز عدم إتقان اللغات الأجنبية التي تصاغ بها الاصطلاحات العلمية ومسميات المخترعات والمنتجات.

وهو في الوقت نفسه حاجة قومية أساسية في ظل طموح بلادنا إلى مواكبة كل جديد في مضمار العلوم والتكنولوجيا ما يلحق بها من تغيرات متلاحقة". وأخيرا أكد على أهمية التعريب بوصفه جسرا تستطيع بلادنا أن تعبر به واقعها المؤلم إلى مستقبل أكثر إشراقا في مجال العلوم وتطبيقاتها.

كما تحدث عميد المجمعيين العرب الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي فقال:

ليس هناك من مبرر لاختياري لإلقاء كلمة باسم أعضاء المجمع إلا أنني أكبر الموجودين سنا فأنا أحمل من العمر اليوم أربعا وتسعين سنة ومع ذلك تحاملت على نفسي لأحضر الدورة التاسعة والسبعين معتزا بانتسابي لسدنة هذه الدار الذين يحمون اللغة العربية طوال عشرات السنين، أنا كنت محظوظا عندما استقبلت عندما كنت عضو شرف لمرافقة الدكتور طه حسين رحمة الله عليه عندما زار بلاد المغرب حيث نقل إلينا أقاويق لبن القاهرة أقاويق لا تنسى.

سألوا عالما من علماء النهروان: إنك تحمل من العلم ما يحمله أبو عوف فكيف ساغ أن يكون أبو عوف أكثر منك سمعة وأكثر منك علمًا؟

أجابهم بجواب قصير له دلالاته الخاصة قال لهم: «أبو عوف درس في مصر فرفعته مصر أما أنا فدرست في النهروان».

عبارة في منتهى الرقة وهي تعبر عن أن مصر كانت وستظل منارتنا في كل وقت وفي كل مكان، مصر التي ستظل قبلتنا وأنا معتز كما قال أخي بأن أكون أقدم عضو يوجد في هذه الدار أنا أعتبر حضوري في هذه المجامع بمثابة حمية ثقافية تحمي لغتي تقوى من معلوماتي وتزيد في زادي أنا من الذين - حقيقة - يدينون لهذه الدار الذي عرفتها منذ عرفتها منبع الإنتاج منبع إسعاد البشرية وقد كانت سعادتي كبيرة أن أعرف في هذه الدار ظاهرة حضارية لا تنسى وهي أنه منذ نشأة المجمع لم ينس المجمع زملاءه المستشرقين الذين حضروا في أول جلسة والذين يحضرون معنا أيضا في هذه الجلسة التاسعة والسبعين تقديرا للغة العربية واعتبارا لما يبذلونه في خدمة اللغة العربية.

أنا ذات مرة هنأت أرمستروتج الذي صعد القمر وقلت له: هل هناك من إسهام عربي في نجاحك؟

أجابني جوابا حقيقة أرجو أن تجعلوه في ذاكرتكم قال لي بأن:

«الأرقام العربية كانت هي التي صعدتني إلى القمر».

أنا سعيد أن أراكم اليوم وأن أحمل لكم أنني طوال رحلاتي الأخيرة وجدت أن الأرقام العربية تحتل في كل بلد من البلاد العربية منزلتها.

وأخيرًا يختم الدكتور التازي كلمته بقوله:

أنا سأقف هنا امتثالا لحكمة تقول: إذا أتاحت لك الفرصة أن تتحدث إلى قوم فكن رفيقا بهم شفوقا عليهم سأكون رفيقا بكم شفوقا عليكم، وأتمنى لمصر الحبيبة كل نجاح وكل توفيق وكل ما يتصل بترقيتها؛ لأن ترقيتها ترقية لنا نحن، وفي عظمتها عظمة لنا نحن أشكركم على حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله.

وفي ختام الجلسة الافتتاحية ألقى الأمين العام لمجمع اللغة العربية الشاعر فاروق شوشة كلمته حول إنجازات المجمع بعنوان: بين مؤتمرين وجاء فيها:

أيها الحفل الكريم:

أخيرًا يتمخض المشهد عن ثورة حمية وحماسة، وتنشق الأرض العربية في بقاع شتى من الوطن العربي عن انتفاضات وعي ومسئولية ترفع جميعا لافتة واحدة وشعارا واحدا هو: النهوض باللغة العربية.

وحين يقرر اختصار الزمن المتبقي أمام المعجم الكبير لإنجاز ما تبقى منه فيما لا يزيد على خمس سنوات ولتفعيل ذلك فقد قرر المجمع أن تعمل فيه ثلاث لجان علمية متوازية ومتكاملة بدلا من لجنة واحدة كما كان الحال في السابق، يؤازر هذا الجهد ويحفز من طاقاته حصول المجمع في هذا العام على جائزة الملك فيصل العالمية في مجال إنجاز المعاجم.

كما أن العمل متصل ودائم في مجال تحديث المعجم الوسيط لأول مرة بعد مضي أكثر من خمسين عاما على صدوره وفي إنجاز المعجم الموضوعي المصور للطفل العربي ومعجم الأعلام في الحضارة العربية والإسلامية الذي بدأه المجمع منذ سنوات طويلة قبل أن يتوقف العمل فيه، ثم جاء عام الانطلاق هذا العام ليعود المشروع بكامله إلى دائرة العمل والتنفيذ.

أيها الحفل الكريم:

العالم العربي من حولنا الآن في هذه اللحظة في هذه الأيام يضج بفكر جديد ومختلف يواجه به قضايا اللغة العربية ومشكلاتها يقوم هذا الفكر الجديد على أن اللغة للحياة وأن العربية المعاصرة هي التي يجب أن تكون مستهدفة في المراحل الأولى من التعليم لأنها وعاء العصر ولأن تعليمها وتعلمها يؤديان إلى وحدة المعرفة والثقافة في المجال اللغوي حين يعتمد التعليم والتعلم سياسة الحمام اللغوي أو الغمر اللغوي في كل المناهج والدروس المختلفة حتى لا يهدم الآخرون ما يبنيه درس اللغة العربية الذي لا بد أن يتسع للأنشطة المدرسية والهوايات المختلفة المرتبطة باللغة كالصحافة المدرسية والمسرح المدرسي والتمثيل والمناظرات ومسابقات القراءة العربية؛ فبها وحدها يكتمل تعليم اللغة العربية وممارستها في المدرسة قبل أن تمارس في الحياة.

وفي هذا الإطار لا بد من الاهتمام بوضع المعايير التي يجب أن تقوم عليها شهادة الكفاية اللغوية الدولية أسوة بما يحدث بالنسبة للغات الأجنبية بحيث يصبح حصول المعلم على هذه الشهادة مؤهلا ضروريًا له قبل العمل في مجال التربية والتعليم.

الفكر الجديد للغة العربية يدعونا أيضا إلى الاهتمام بوسائل ما يسمى بالإعلام الجديد وهي وسائل أتاحتها ثورة التكنولوجيا والتقنيات الحديثة والإلكترونية إضافة إلى وسائل الإعلام التقليدي من صحافة وإذاعة وتليفزيونات وفضائيات هذه الوسائط الاتصالية الجديدة التي زلزلت مجتمعاتنا العربية تأخذها مأخذ الهزل مثل اليوتيوب والتويتر والفيس بوك والآي باد والبلاك بيري وغيرها أصبحت واسعة الانتشار بين الملايين من أبناء الأجيال الجديدة شبابا وناشئة وهي تتيح في دراسات كثير من الباحثين إضافة بالغة الأهمية إلى تعليم اللغة الصحيحة حين يمرن مستخدموها على تحرير الرسائل وتجويدها وضبطها لغويا وتنمية قدرتهم على الفهم والتحصيل المعرفي وعلى التحليل والنقد والجهر بما كان قبل مضمرا في الصدور، وضرورة الاهتمام بالتعلم قدر الاهتمام بالتعليم.

كما يطالب بالتوسع في وضع برامج جديدة للتدريب تشمل العاملين في المؤسسات الإعلامية ومراكز البحث اللغوي والكليات والمعاهد المتخصصة لتدريب العاملين في مجالات الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية والإلكترونية تركز على علم الإسلوب وعلم السؤال وفن الحوار والدراسات الصوتية وشروط الإبانة والإفصاح في النطق والأداء ودراسة الوقف والنبر والاستفهام وغيرها من أساليب تغير الدلالة وتنوعها.

ولمجمعنا تجربة رائدة في هذا المجال حين قام بعض أعضائه وخبرائه متطوعين بالمشاركة في دورة تدريبية نموذجية تبناها اتحاد الإذاعة والتليفزيون في مصر لكنا عندما كتبنا للمجلس الأعلى للصحافة لنقوم بالمثل لم يتكرم رئيس المجلس -وقد كان وزيرا سابقا للإعلام- بالرد على رسالة المجمع كما أن هذا الفكر الجديد يناشد المجامع والمؤسسات اللغوية العربية العمل على إنجاز تخطيط لغوي سليم أسوة بما يمكن أن يتحقق في إنجاز تخطيط اقتصادي أو اجتماعي أو تنموي تراعى فيه شروط التنمية اللغوية الصحيحة التي تزيد في حجم متن اللغة المعاصرة وتوسع من دوائر استخدامها وتيسر الأمر على الملتزمين بها في كل هذه المجالات.

لقد ساعد النطق الصحيح والاستخدام السليم

للغة العربية في العديد من وسائل الإعلام والاتصال العربية وحدها دون غيرها من المؤسسات والهيئات في الوطن العربي على إبقاء اللغة العربية حية منطوقة ومسموعة بصوتياتها وألوان أدائها وأطياف استخداماتها والغريب أن الوحيدين الذين يحاسبون على أخطائهم إذا أخطأوا هم العاملون في مؤسسات الإعلام والاتصال بينما أخطاء المجتمع زاخرة على ألسنة المسئولين ورؤساء الهيئات والمؤسسات دون أن يتكلم أحد فلنعمل على زيادة هذه المساحة من نفاذ اللغة الحية الصحيحة إلى الناس يقلدونها ويتعلمون منها ويقومون ألسنتهم وأقلامهم بحسن الاستفادة ممن يمثلونها في هذه الوسائل وهو دور لا ينكر في الحفاظ على هذه اللغة وإثرائها والعمل على نشرها وتوسيع دائرة استخدامها.

وأخيرا أشار إلى الجوائز التي حصل عليها المجمع وترشيحات أعضائه، ومنها فوز المجمع بجائزة الملك فيصل العالمية في حقل اللغة العربية والأدب شاكرا أعضاء المجمع وخبرائه وجميع العاملين به ليستعرض في نهاية الجلسة إنتاج المجمع هذا العام ككتاب اقتطاف الزهر واجتناء الثمر لابن بري التازي تحقيق أ.مصطفى حجازي عضو المجمع، ومعجم الحشرات وهو أول معجم في علم الحشرات يصدر باللغة العربية.

البحوث والدراسات

شارك المؤتمرون بعدد من البحوث والدراسات وفيما يلي عرض موجز لبعض ما تم عرضه في المؤتمر:

أصحاب الأساليب في العربية الحديثة [مصطفى عبدالرازق نموذجًا] بحث أدبي للدكتور محمود الربيعي.

ابتكر مصطفى عبدالرازق صيغة أدبية، تقارع ما ابتكره بديع الزمان من فن «المقامة»، سماها مذكرات الشيخ حسان الفزاري، قدم لنا فيها نموذجًا بشريًا في منتهى الحيوية.. ومن هذه النماذج أسلوبه الرائع لمن تأملها تحكي إلى حد كبير قصته هو إذ تساوره هواجس الإصابة بمرض السل، وإذ يخيل إليه أن مذكراته هو سوف يكون أكثرها قابلاً للإذاعة والنشر «أما الحوادث التي ذكرها في هذه المقالات وأشخاصها فهي مقتبسة من غير شك مما حدث له...».

وتحت عنوان اللغة العربية في الإعلام المقروء جاء بحث أ. د أحمد بن محمد الضبيب عضو مجمع من السعودية.

قال فيه: إن الإعلام ذو تأثير واضح على جمهور المتلقين لذلك فإن بإمكانه أن يرتقي باللغة، كما أن بإمكانه ان يخسف بها إلى درك أسفل، فالإعلام يكوّن العادات الكلامية للناس ويشيع بينهم الألفاظ والتعبيرات، والإعلام هو الذي يستطيع أن يوجد لغة مشتركة راقية بين المواطنين ويساعد في إشاعة ديمقراطية اللغة.

وأشار إلى أن تأثير الصحافية على اللغة كبيرا، سواء من حيث إغناء اللغة بالمصطلحات والتعبيرات الحديثة أو دخول استعمالات لم يكن للعربية في السالف عهد بها.

ونبه إلى أن كثيرًا من الصحفيين يتخلون عن التمسك الملتزم بفصيح اللغة بل يجاهرون بضيقهم من قواعد اللغة مثل يوسف السباعي الذي يعلن هو نفسه جهله الفاضح بقواعد اللغة العربية والخطأ لا يعنيه كثيرًا. وجاء د.الضبيب بنماذج من الأخطاء اللغوية في الصحف الكبرى واستخدام العامية أو استعمال المصطلحات الأجنبية في الصحف وفي الإعلانات.

وكتب الدكتور نيقولا دوبريشان عضو المجمع من رومانيا بحثاً بعنوان: الازدواجية ومستقبل اللغة العربية.

جاء فيه: تعتبر اللغة العربية الفصحى من جهة واللهجات العامية من جهة أخرى مظهرين للغة واحدة مع اختلافات وفوارق متباينة في كل المستويات اللغوية، وعلى الرغم من أن ثمة تداخل بين مختلف العوامل وبخاصة المعجمية حدث بين مستويي اللغة إلا أنها لم تمثل خطورة على اللغة الفصحى بعد أن حفظها القرآن الكريم.

وعلى الرغم من أن عوامل التأثير والتأثر بين اللغة العربية واللهجات العامية التي زادت وبخاصة في العصر الحديث إلا أن هناك صيحات عالية نادت بالتقارب بين اللهجات بعضها البعض من جهة وبين اللهجات العامية واللغة الفصحى من جهة أخرى تحت مسمى (تفصيح العامية) وساعد في تفعيل تلك الصيحة المدوية عوامل عدة نسردها فيما يلي:

١- دور الدين الإسلامي في حماية وحفظ اللغة الفصحى.

٢- دور وسائل الإعلام في تحديث اللغة العربية وخلق عربية وسطى قابلة للاستعمال في التخاطب.

٣- التعليم باعتباره أداة أساسية لإرشاد الأجيال وتربيتها بروح القيم السامية.

٤- الأدب العربي باختلاف أجناسة وما لعبه من دور مهم في حفظ اللغة الفصحى وبخاصة أدب العصر الحديث الذي ساهم بدوره في تبسيط اللغة الفصحى وخلق ما سمي بالفصحى الحديثة.

٥- دور المثقفين البارزين في اختيار الصيغة اللغوية المناسبة التي فرضت نفسها بين الناس على اختلاف ثقافتهم.

٦- هذا ويمثل وجود لغة مكتوبة موحدة في كافة الأقطار العربية عاملاً ذا أهمية بالغة في التقريب بين اللهجات المختلفة.

وأضاف إلى أنه لابد أن تلقى اللغة العربية جهودا من أبناء العربية المخلصين حتى يتم الاندماج التام بين مستويي اللغة ويتحقق نصر اللغة العربية الفصحى الموحِّدة والموحَّدة.

كما شارك أ.د/ محمد فتوح أحمد ببحث حمل عنوان: لغة الحوار في السرديات [إطلالة على جدلية الحركة والسكون في نقد يحيى حقي].

يبدأ د.فتوح حديثه بما حدث من التباس الاعتبارات الفنية في قضية الحوار السردي بالاعتبارات التراثية والقومية مما وسمها بالحيرة والتردد أو التوسط والتراجع، وسبب تلك الحيرة أنه إذا استعملنا الفصحى كانت بعيدة عن الفن الذي يتطلب المسحة الحقيقية وإن استعملنا العامية في الحوار قضينا على اللغة العربية.

ثم عرض حلاً وسطًا لتلك التركيبة العجيبة المحيرة وهو أن تكتب المحادثات الثنائية بلغة عربية متوسطة قد يتخللها أحيانًا ألفاظ عامية، وقد أدى ذلك إلى ما عرف باللغة الثالثة وقد سميت الفصعامية وسماها عيسى عبيد (اللغة الوسيطة).

ثم عرض الباحث رؤية يحيى حقي في قضية الحوار السردي أن لكل نمط لغته الحوارية المنبثقة من تميزه النوعي وقد تكون الفصحى في رواية والعامية في أخرى مرهونة بطبيعة العمل، ولطبيعة العمل الأدبي نمطان محوريان: الأول استاتيكي والثاني ديناميكي.

بين الكاتب أن هناك أصحاب مذهب ثالث لا يعولون على فكرة المقارنة بين الفصحى والعامية فلكل منهما استعماله الذي لا يحتم الصراع مع الآخر.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

الإيمان أو الفوضى!

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب بوزارة الأوقاف - مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها:

من أخطر ما أظهرته ثورة ٢٥ يناير المصرية مدى ما أفرزته سنوات القهر والعشوائية في معظم جوانب حياة المصريين من فوضى وضعف أخلاق وتعد واعتداء على دماء وأموال وأعراض الآخرين، ولعلنا نذكر قول من قال قبيل التنحي وهو يتوعد الشعب الثائر (الاستقرار أو الفوضى)؛ فإما أن ترضى بواقع بلغ مبلغا لا يحتمل من الظلم والقهر وأكل أموال وحقوق الناس بالباطل، وإما سأهدم لكم الدولة والوطن على رأس الجميع، وليس غريبا على حاكم يفقد سلطانه أن يقاوم إلى آخر أنفاسه من أجل البقاء، ولكن العجب العجاب أن يحقق الشعب انتصاره - بفضل الله تعالى - بل ويقدم تضحيات من دماء خيرة أبنائه؛ ثم ينقلب بعد ذلك على نفسه ليشيع الفوضى وليكون هو ذاته أحد أدواتها محملا الحاكم الذي تم اختياره بطريق ديمقراطي مشروع كل سوءات النظام السابق لدرجة أن يقارن بمن سبقه فيتحسر بعض الغافلين على زمن الرفاهية والرخاء والعدالة الاجتماعية المكذوبة التي كنا تعيش فيها أيام النظام السابق!

وربما لم يعد لدينا مساحة من الوقت لأن يتوقف العقلاء من أهل مصر، الغيورين على وطنهم والخائفين على سفينة المجتمع أن تخترق فيملأها الماء فتغرق - لا سمح الله - أقول لم يعد هناك مساحة للناصحين أن يتناصحوا بقدر ما ضجت فضائياتنا بكثرة اللغط والبحث عن الأخطاء والتفتيش في القلوب والنوايا، وافتقدنا جميعا - إلا ما رحم ربك - عبادة من أهم العبادات الغائبة وهي فضيلة (حسن الظن بالناس)، بل صار التخوين والاتهام بالعمالة وغيرها من التهم هي المعلبات الأخلاقية الجاهزة يرمي بها الناس بعضهم بعضا، إذن .. يا عباد الله؟ متى نهدأ؟ ومتى نسمع؟ ومتى نفيق؟ ألم ترى أن من أكبر أسباب الغفلة عدم السماع والإنصات لما نسمع وبالتالي غياب العقل كما قال تعالى على لسان أهل النار - عياذا بالله -:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

(سورة الملك)

لا ريب بأن إصلاح ما فسد في مجتمعنا المصري يحتاج إلى ثلاثة أمور: نية الإصلاح - الوقت - التعاون بين الجميع، وإلا فماذا يفعل حاكم صالح يصلي ويصوم ويخطب فينا ويذكرنا بالإيمان بلا سعي حثيث لتحقيق العدالة الاجتماعية، ولن يستطيع هو وحده أن يقوم بأي شيء ما لم تكن جميعا على قدر المسؤولية في بناء الوطن حتى ولو كان هذا "الحاكم" نبيا مرسلا وليس بكثرة النقد والتجريح والسباب والشتائم و"هد الحيل"، وهدم المنشآت وحرق الوطن الذي هو وطننا جميعا وليس وطن الحاكم وحده!

أقول: ليس لنا من سبيل للخروج من المأزق الاجتماعي الراهن إلا أن نفتح قلوبنا لبعضنا البعض، ونتذكر نعمة الله علينا بأن أخرجنا من قمقم الظلم والقهر إلى فضاء الحرية لينظر - سبحانه - أنشكر أم نكفر، فالحل في تجديد الإيمان واستدعاء القيم الاجتماعية الجميلة مثل: النجدة - المروءة - الكرم - الأخوة - حق الجار - التكافل .. إلخ وتفعيل وتسهيل دور جمعيات المجتمع المدني للقيام بدورها الاجتماعي بين الناس، مع العودة لتبصير الناس بدينهم بشكل يعود بهم إلى قيم الهدى والخير من جديد.

الرسول والدا (ﷺ)

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ شعبان عبدالعال إبراهيم خليفة - المنيا - بني حسن الشروق - قال فيها:

كان ﷺ يعامل بناته بالحب والحنان والرفق واللين في الوقت الذي كانت تضيق فيه الأمة العربية بالبنت، رزق ﷺ بأربع من البنات، كن أحب إليه من نفسه، نشأن في بيت النبوة وتربين على الأخلاق الكريمة والفضيلة، وتزوجن في حياته ﷺ، حتى كانت معاملته لهن، وحبه وعطفه عليهن منهجا حارب النظرة الجاهلية للبنت في تلك الفترة، ونبراسا نسير عليه في معاملاتنا لبناتنا، رزق ﷺ بسبعة أولاد - ثلاثة ذكور وأربع بنات، فأول من ولد له القاسم ثم زينب ثم رقية ثم فاطمة ثم أم كلثوم ثم عبدالله، وجميعهم ولدوا من السيدة خديجة - رضي الله عنها - ثم رزق ﷺ بإبراهيم من السيدة مارية، غير أن البنين قد توفوا صغارا، ولم يبق له غير البنات اللاتي تربين وتزوجن في حياته، وكان ﷺ لهن نعم الأب، كان يلاطفهن ويداعبهن، ففي الوقت الذي كانت الأمة العربية تضيق بالبنت وتئدها حية، كان ﷺ يعتز ببناته ومن المأثور عنه في رعايته للبنات بالذات، أنه كان يصلي وعلى عاتقه ابنته زينب - رضي الله عنها - فإذا سجد أخذها فوضعها على الأرض وإذا رفع من سجوده أخذها فوضعها على عاتقه، فما كان هناك أعظم من تكريمه ﷺ للبنت حتى أنه كاد يعاقب رجلا من أصحابه على قتل ابنته قبل دخوله في الإسلام، وقد تزوج جميع بناته في حياته ﷺ، تزوجت زينب بابن خالتها أبي العاص بن الربيع، أما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى، أما فاطمة الزهراء التي تربت في حجرة النبوة فقد كانت تحظى من رسول

الله ﷺ بمحبة خاصة ومكانة سامية حتى قال «فاطمة مني من أحبها فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله.. ومن أبغضها فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»، ومن شدة حبه ﷺ لها كان إذا سافر تكون فاطمة آخر وجه يلقاه، وإذا قدم من سفره كانت أول من يزورها وقد روى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: «ما رأيت أحدًا أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه»، وتزوجت فاطمة من الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وكان أيسر زواج على مر التاريخ، فعندما دخل الناس بيت فاطمة كانت تتملكهم الدهشة، لأنهم لم يجدوا من الأثاث سوى حصيرة ووسادة محشوة بالليف ولحاف رقيق ورثته عن أمها السيدة خديجة - رضى الله عنها - حتى أخذ أبو بكر النبى فى زاوية من زوايا البيت وقال له.. أهكذا يكون فراش فاطمة الزهراء، فقال له ﷺ «يا أبا بكر ما قولك فى رجل عرف الله فهانت عليه الدنيا» أى على - رضى الله عنه - وكثيرًا ما كان ﷺ يدخل السرور على قلبها بإخبارها بمكانتها عند الله عز وجل فيقول «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة».

فى بر الوالدين

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ أحمد سعيد منصور بحيرى - عضو نقابة القراء - القاهرة - قال فيها:

يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

«الإسراء: ٢٣»

والداك سبب وجودك وأصل حياتك يحفانك برعايتهما ويتعهداتك بالتربية والتهذيب.

أمك حملتك فى بطنها جنينًا، وبرغم آلام الحمل كانت فرحه بك قبل ولادتك ووضعتك وليدًا ومهما تقاسى من آلام الوضع فإنها تنسى عذابها برؤية وجهك وغذتك بلبنها رضيعًا وحفظتك فطيمًا، تسهر لمرضك متخوفة لا تنام مشفقة عليك من العلل والأسقام، تفضلك على نفسها فى العطية.. وتنسى نفسها فى سبيلك.

أما الأب.. فإنه يجاهد الزمن، ويسعى فى طلب الرزق لينفق عليك ويسد حاجتك ويمضى ساعة عمله، فإذا رجع إليك والاك بعطفه وحبه وحنانه وبره.

وضع الله عز وجل الرحمة فى قلب الوالدين من أجل وليدهما، ولهذا لن تجد صلة قوية البنيان متينة الأساس كصلة الوالدين بولدهما لأنها صلة طبيعية من صنع الله عز وجل، تملأ قلب الأم والأب برغمهما لا باختيارهما.

إنه الحنان الإلهى من الوالد لولده.. حنان يظهر أثره فى تلك الرعاية الشاملة، وذلك العطف الأبوى وفى تلك الرحمة التى تملأ قلب الأبوين.

إن فضل الوالدين عظيم لهذا قضى الله فى محكم كتابه علينا بتوحيده وعبادته وحده لا نشرك به أحدًا، وقرن - سبحانه - الأمر بتوحيده الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وعدم الإساءة إليهما ولو بأدنى كلمة تصدر من اللسان، أمرنا عز وجل بحسن الخلق معهما وبلين الجانب وجميل القول وخفض الجناح تواضعًا ورفقًا بهما، وبخاصة إذا تقدمت بهما أو بأحدهما السن واحتاجا إلى ولدهما الذى كان بالأمس أفقر خلق الله إليهما.

إن عليك لوالديك دينًا لا يمكنك سداده مهما بلغت فى إكرامهما والتودد إليهما ورعاية جنبهما، إن لهما عليك حقوق واجبة الأداء أمر بها الشرع وأقرها العقل إن من حقهما عليك أن تطيعهما وتحترمهما وتساعدهما بمالك إن احتاجا، وأن تتولى خدمتهما إن ضعفا.. وأن تلازمهما فى المرض وتجتهد فى إرضائهما وأن تدخل السرور عليهما وإظهار حبك لهما. وسكونك عند غضبهما عليك.. فمهما خدمتهما وأرضيتهما فلن تكافئهما بعمل.. أو تجزيهما بخدمة.

من بريد رئيس التحرير

ومن الأستاذ عبدالقادر الإدريسى مدير الإعلام بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إيسيسكو) كانت هذه الرسالة:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة،

رئيس تحرير مجلة الأزهر،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

فقد صدمت بالسطور القليلة التى نشرت فى برواز واضح، حول انتقاد الأزهر للافتتاحية التى كتبتموها تعليقًا على الدستور الجديد. فالملاحظة الأولى التى عندى هى أن الافتتاحية لا تتضمن (آراء فى السياسة تتعارض مع موقف الأزهر الشريف)، ولكنها تعليق وتحليل لمواد وردت فى الدستور، بما يدخل فى إطار الشرح والتفسير والتحشية - بلغة الأزهريين - أما الملاحظة الثانية، فإنه ليس من اللائق ولا من أصول العمل الصحافى أو حتى العمل العلمى الفكرى، أن يتدخل أى كان فى عمل رئيس التحرير، خصوصًا إذا كان لم يخرج عن السياسة العامة المعتمدة لدى الجهة التى تصدر عنها المطبوعة. أضف إلى ذلك أن رئيس التحرير كان يمثل الأزهر فى الهيئة التأسيسية لكتابة الدستور، وهذا عمل سياسي، بل هو من صميم السياسة العليا للدولة.

أما الملاحظة الثالثة، فهى أن الأزهر انخرط فى العمل السياسى انخراطًا كاملاً، حين دعا إلى حوار وطني، وعندما أصدر ثلاث وثائق تاريخية حول قضايا وطنية سياسية بامتياز.

والله يحفظكم ويرعاكم،

ومع وافر الاحترام وفائق التقدير وخالص المودة

محبكم:

عبدالقادر الإدريسى

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذين
محمود الفشني - عبد الموجود أمين

الأزهر: حماية أطفال المسلمين من شلل الأطفال واجب مقدس

أصدر الأزهر الشريف صباح يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٩ مارس ٢٠١٣ م بيانًا أدان فيه أعمال العنف والقتل تجاه العاملين في مجال الصحة والتطعيم في كلا من باكستان ونيجيريا.

وأوضح البيان الممهور بتوقيع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أن حماية أطفال الأمة الإسلامية واجب ملزم لنا بصفتنا مسلمين، إذ أن قوة الأمة الإسلامية ومستقبلها مرهونان بحماية أطفالها وضمان كافة حقوقهم ومنها الحق في الصحة.

وحث البيان جميع الآباء والأمهات والمجتمعات المحلية على ضمان تلقي الأطفال اللقاح المضاد لشلل الأطفال الذي يقدم في جميع حملات التطعيم؛ داعيًا جميع علماء الدين الإسلامي، وقادة المجتمعات المحلية، والمهنيين الصحيين إلى توجيه رسالة قوية لدعم أنشطة استئصال شلل الأطفال، والتأكيد على ضرورة تطعيم جميع الأطفال تطعيما تامًا ضد شلل الأطفال وضد كل الأمراض التي يمكن توقيها باللقاحات.

يشار إلى أن بعض المتشددين في باكستان ونيجيريا يرفضون تطعيم أبنائهم بدعوى أنه تطعيم من بلاد الكفار، بما ينكر الحق الأساسي لأطفال المسلمين في تلقي التطعيم والحماية من داء شلل الأطفال المقعد.

"البحوث الإسلامية" يحيل مشروع الصكوك لهيئة كبار العلماء لدراسته

قرر مجمع البحوث الإسلامية في اجتماعه الذي عقد يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى ١٤٣٤هـ الموافق الثامن والعشرين من مارس ٢٠١٣م برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، تحويل مشروع الصكوك الإسلامية إلى هيئة كبار العلماء لإبداء الرأي الشرعي فيه قيامًا بواجبها الشرعي والدستوري.

وأوضح بيانٌ صادر عن مجمع البحوث أن المادة الرابعة من الدستور تنص على أنه "يؤخذ رأي هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في الشئون المتعلقة بالشريعة الإسلامية"، وهذا النص يفرض على المجلس التشريعي أخذ رأي هيئة كبار العلماء في كل ما له علاقة بالشريعة، ومنها هذا المشروع، لافتًا إلى أن السادة العلماء الممثلين للأزهر في مجلس الشورى يعبرون عن

آرائهم الخاصة وليس عن رأي هيئة كبار العلماء.

واستنكر المجمع ما ورد في المادة ٢٠ من مشروع القانون، التي تجعل من رئيس مجلس الوزراء السلطة المختصة في تشكيل هيئة شرعية مركزية لإصدار الصكوك، بناءً على ترشيح وزير المالية؛ مما يعني إغفالاً لهيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف.

سفير ماليزيا بالقاهرة في مدينة البعوث الإسلامية

قام سيد حسن الجهلان، رئيس قطاع مدن البعوث الإسلامية، بجولة تفقدية لمنشآت مدينة البعوث الإسلامية برفقة سفير ماليزيا بالقاهرة والوفد المرافق لسيادته، والذي استمع أثناء الزيارة إلى شرح من رئيس القطاع للدور الذي تؤديه المدينة لخدمة الطلاب الوافدين البالغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب.

أعرب السفير عن سعادته البالغة بما رآه من عناية ورعاية داخل المدينة؛ لتوفير البيئة المناسبة للمذاكرة وتحصيل العلوم النافعة التي أتى الطلاب من أجلها للأزهر الشريف؛ باعتبارهم سفراء الأزهر في بلادهم عقب تخرجهم.

وفي نهاية الزيارة شكر سيادته قيادات مدينة البعوث على الجهد المبذول لهؤلاء الطلاب، وأن هذا هو المتوقع من الأزهر الشريف، كعبة العلم والعلماء للأمة الإسلامية.

الإمام الأكبر: العالمين العربي والإسلامي مطالبان بوقف حمام الدم في سوريا

وجه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، نداءً إلى الأمة العربية والإسلامية حكومات وشعوبًا أن يهبوا للوقوف بجوار الشعب السوري المظلوم تجاه ما يلاقيه من مجازر، قائلاً: على العالمين العربي والإسلامي مواجهة المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقهم تجاه إخوانهم في سوريا، بعد تصاعد نزيف الدم، وبعد تخلي النظام العالمي عن القضية.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلته للدكتور محمد ياسر المسدي، الأمين العام المساعد لرابطة العلماء السوريين، والوفد المرافق له، حيث دار اللقاء حول التواصل، وتوثيق عرى الأخوة والتكافل بين الرابطة والأزهر، وحشد المجتمع المسلم في مصر والعالم ممثلاً في شيخ الأزهر، الذي يؤمن بمرجعيته جموع المسلمين في الشرق والغرب، للوقوف أمام آلة القتل البشعة الممثلة في النظام السوري.

وأشاد الوفد بجهود الأزهر وإمامه الأكبر في مسار توحيد الصف في الداخل والخارج، موضحًا أن الكارثة التي يعاني منها الشعب السوري الآن تتمثل في تزايد عمليات القتل والقمع، فضلاً عن تشتت أكثر من ثلاثة ملايين سوري تفرقوا في أنحاء العالم، وهو ما يعد سابقة في التاريخ العربي كله، وجموع السوريين مع كل هذا مستبشرون بالفرج القريب، ومعنوياتهم مرتفعة؛ فما من محنة إلا ويتبعها منحة من الله عز وجل.

وأعلن عن تقديره لما يقوم به الأزهر الشريف تجاه المحافظة على مذهب أهل السنة والجماعة في وجه المد الشيعي، داعين الأزهر إلى تبني مؤتمر خاص لنصرة أهل السنة والجماعة.

الإمام الأكبر: الأزهر يتعامل مع كل الطوائف المعتدلة النافعة للإنسانية

أشار فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، إلى أن الأزهر الشريف يتعامل مع الطوائف المعتدلة النافعة للإنسانية؛ لأن الإسلام أمرنا بحسن التعامل مع أهل الديانات الأخرى، وعدم مبادرتهم بالعداء، ومن جلال القرآن خلوه من لفظة السيف، وإن وردت عند أهل الديانات الأخرى.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلته الأستاذ جهاد الخازن، الصحفي اللبناني المعروف، الذي أعرب عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وقال: "إنني أجوب معظم دول العالم، وقد رأيت في الدول الغربية أن العديد من الكنائس والجامعات خاصة في أمريكا أصبحت معارضة للسلوك الصهيوني الغاشم الذي يتنافى مع كافة الأعراف والمواثيق الدولية؛ مما يتطلب دعم تلك الجهات، ولا يوجد أفضل من الأزهر الشريف حامل لواء الوسطية والاعتدال مرجعًا لمسلمي العالم".

الأزهر يدرس مشاركة المرأة في الإفتاء وعضوية مجمع البحوث

اقترح فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر وجود مكتب للإفتاء بكل محافظة، يتولى النظر في فتاوى الناس، وبخاصة في هذه الآونة التي تضاربت فيها الفتاوى، داعيًا إلى تفعيل دور المرأة في الإفتاء، وتمكينها من عضوية مجمع البحوث لأول مرة.

جاء ذلك خلال لقاء فضيلة الإمام الأكبر بالدكتور يوسف القرضاوي، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين وعضو هيئة كبار العلماء، ظهر يوم الأربعاء ١٥ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٧ مارس ٢٠١٣ م، والذي طالب خلاله الشيخ القرضاوي بتفعيل دور المرأة ومشاركتها في مجال الإفتاء، وأن يفسح لها مجال العضوية في مجمع البحوث الإسلامية، على أن يحدد ذلك بضوابط ومحترزات.

شيخ الأزهر: لابد من الجمع بين حفظ القرآن الكريم وتحصيل المعارف الحديثة

دعا فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، إلى ضرورة أن يجمع الطالب الأزهري بين حفظ القرآن الكريم، واستيعاب العلوم العربية والإسلامية، وبين تحصيل المعارف الحديثة، عن طريق دراسة المواد الثقافية؛ بحيث لا ينفصل الطالب الأزهري عما يدور حوله من ثقافات ومعارف، وليواكب سوق العمل، ويكون عضوًا نافعًا لنفسه ومجتمعه.

جاء ذلك خلال اجتماع فضيلته مع وزيري التربية والتعليم، والتعليم العالي، وأعضاء اللجنة المشتركة لإصلاح التعليم، وقد عرضت اللجنة مقترحاتها بشأن المناهج المنشودة، وبخاصة في المرحلة الابتدائية، والتي تتضمن حفظ التلميذ للقرآن الكريم كاملاً باجتيازه للمرحلة الابتدائية، مع مناهج مخففة من المواد الثقافية تكفل له الحد الأدنى من المعارف المناسبة للفترة العمرية، لتحقيق التوازن المطلوب والخروج من الازدواجية في المناهج الحالية.

الأزهر يدين تدنيس الصهاينة لباحات المسجد الأقصى

استنكر الأزهر الشريف بشدة قيام عشرات الصهاينة باقتحام باحات المسجد الأقصى المبارك، وتدنيسه باصطحاب قطعان الخراف، وذبحها في المسجد الشريف، استعدادًا للاحتفالات بعيد الفصح، وهي حلقة من مسلسل الانتهاكات الغاشمة ضد القدس ومقدساتها وأهلها، والتي درج الرأي العام العالمي على تجاهلها.

وأكد بيان للمكتب الإعلامي للأزهر الشريف أن هذا الفعل المشين يسيء لأكثر من مليار ونصف مسلم، ويصدم مشاعرهم في شتى بقاع الأرض، كما يتنافى مع الأعراف والتقاليد الدولية وثوابت الحضارة الإنسانية.

وطالب البيان الأمة العربية والإسلامية وكل أحرار العالم باتخاذ موقف حازم إزاء هذا الاعتداء الآثم على المقدسات، كما يطالب المؤسسات الدولية بتبني تشريع يجرم الإساءة لبيوت العبادة والعبث بحرماتها.

بيان بشأن أحداث بورما

يتابع الأزهر الشريف بقلق بالغ ما يحدث للمواطنين المسلمين في بورما "ميانمار" من أعمال وحشية تقوم بها جماعة "الماغ" البوذية المتطرفة بدعم من النظام، والتي نجم عنها تشريد ملايين المسلمين في طول البلاد وعرضها وتدمير منازلهم وحرق مساجدهم ومزارعهم وممتلكاتهم وطردهم من قراهم التي ظلوا يسكنونها مئات السنين حتى أصبحوا لاجئين داخل بلادهم، جراء عمليات التطهير العرقي، والمذابح الجماعية التي تحدث بشكل ممنهج ومرتب، وبتخطيط شيطاني مسبق من آن لآخر تحت سمع وبصر الجهات المسئولة.

إن الأزهر وهو يستنكر بشدة حملات الإبادة الجماعية التي يتعرض لها المسلمون والتي امتدت في أنحاء بورما "فما تكاد تهدأ في مدينة حتى تندلع في مدينة أخرى" وهو ما يتنافى مع كل الأديان السماوية والقيم الإنسانية وحقوق الإنسان التي أقرتها سائر المبادئ والاتفاقيات الدولية.

وفي ضوء تلك الأحداث الدامية فإن الأزهر الشريف يطالب دول العالم المتحضر وكل القوى المحبة للسلام والهيئات والمؤسسات الخيرية والإغاثية وهيئة الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان في كل أرجاء العالم أن تعمل على رفع الظلم الواقع على هؤلاء المضطهدين الذين يعانون من التمييز العنصري والحرمان من الحقوق، وأن تقدم الحكومات لهم كافة أشكال الدعم، لمنحهم حقوق المواطنة الكاملة، وتمكينهم من العيش على أرضهم في أمن وسلام.



أنباء العالم الإسلامي

للأساتذة/ أحمد رضوان - يحيى سليمان

مصر.. الرابعة على الشرق الأوسط فى البحث العلمي

أكدت الدكتورة / نادية زخارى وزيرة البحث العلمي، أن مصر احتلت المركز الرابع على مستوى الدول العربية والشرق الأوسط ودول البحر الأبيض المتوسط فى مجال البحث العلمي، والمركز ٤١ عالميًا مما يعطى دفعة قوية للبحث العلمي، وأوضحت زخارى فى تصريحات - عقب عودتها من دار السلام بتنزانيا بعد تمثيلها فى أعمال المائدة المستديرة لبراءات الاختراع - أن مصر أكدت فى أعمال المؤتمر ضرورة التعاون مع دول القارة الأفريقية فى العديد من المجالات والقطاعات.

بمشاركة علماء مصر

١٥٠ باحثًا يناقشون النهوض بالوقف الإسلامى بالمدينة المنورة

عقدت الجامعة الإسلامية بالمملكة العربية السعودية فى نهاية مارس الماضى المؤتمر الرابع للأوقاف الذى نظمته الجامعة بالتعاون مع وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية تحت عنوان: نحو استراتيجية تكاملية للنهوض بالوقف الإسلامي، وذلك بمشاركة ١٥٠ عالمًا وباحثًا من السعودية ومصر ومختلف دول العالم الإسلامي.

وقال مدير الجامعة ورئيس اللجنة الإشرافية العليا واللجنة العلمية للمؤتمر الدكتور/ محمد بن علي العقلا: إن المؤتمر يأتى ضمن مشاركة الجامعة فى فعاليات اختيار المدينة المنورة عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٣م ويشارك فيه ١٥٠ باحثًا وباحثة من ١٣ دولة.

وحول محاور المؤتمر قال الدكتور العقلا: إن أولها يتضمن بحوثًا حول استراتيجية النهوض بالوقف الإسلامى تنظيمًا وتشريعًا، فيما يبحث المحور الثانى استراتيجية النهوض بالوقف الإسلامى إداريًا... أما المحور الثالث فيناقش تلك الاستراتيجية استثماريًا، وتطرح أبحاث المحور الرابع بالأوقاف وإشاعة ثقافتها فى المجتمع.

اتهام جامعة بريطانية بالعنصرية لإغلاقها حجرة لصلاة الجمعة

اتهمت مجموعة من الطلبة المسلمين جامعة سيتى فى لندن باتباع ممارسات عنصرية بعد قيامها بإغلاق إحدى الغرف التى يؤدى فيها الطلبة صلاة الجمعة، وشكل عدد من الطلاب مجموعة تطالب الجامعة بالعدول عن قرارها وأطلقوا عليها اسم "أصوات مسلمة فى الحرم الجامعى" وأكدت المجموعة أنه يتم استهدافها بطريقة غير منصفة.

أما جامعة سيتى يونيفرستى فقالت: إن الطلبة قد رفضوا طلب إدارة الجامعة بأن يقدموا محتوى تلك الخطب للوقوف على كونها مناسبة للتقديم أم لا.

وقال الشيخ (واصف) الذى يقود تلك المجموعة: نشعر بأنه تجرى معاملتنا بطريقة غير عادلة، فكل الخطب التى نقدمها مفتوحة، ونحن نرحب بالجميع سواء أكانوا من الطلبة أم من هيئة التدريس.

كانت الجامعة قد أصدرت بيانًا تقول فيه: إنها بحاجة للتأكد من أن ما يجرى تناوله فى تلك الخطب مناسب، وأنه يجرى اختيار الطلبة الذين يقومون بأداء الخطبة وإمامة المصلين بطريقة فيها مساواة.

وزير الداخلية الفرنسي: الإسلام ينتشر بطريقة مذهلة فى بلادي

توقع وزير الداخلية الفرنسى مانويل فالس أن يصبح الإسلام هو الدين الثانى رسميا فى فرنسا خلال السنوات القليلة المقبلة، ويزيد عدد معتنقيه على ستة ملايين مسلم.

قال وزير الداخلية: لدينا بين ٢٢٠٠ و ٢٣٠٠ مسجد وقاعة للصلاة فى جميع أنحاء البلاد، ويجب على فرنسا وأوروبا أن تعترف أن الإسلام متوافق مع الديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة.

وذكر فالس أن تاريخ البشرية نادرا ما شهد انتشار دين بهذه الطريقة فى مثل هذا الوقت القصير.

ويعتبر الإسلام بالفعل ووفقا لتعداد المسلمين هو الدين الثانى فى فرنسا، ويفوق عدد أتباعه الخمسة الملايين بنسبة ٨٪ أو تزيد، وهم بذلك يشكلون أكبر تجمع للمسلمين فى أوروبا، الأمر الذى يثير حفيظة الكثيرين ممن يعتبرون ذلك خطرا على هوية الدولة العلمانية.

مستوطنون يقتحمون المسجد الأقصى مع احتفالات عيد الفصح

قام عدد من المستوطنين اليهود باقتحام باحات المسجد الاقصى لأداء طقوس تلمودية فيها تحت حماية من عناصر شرطة الاحتلال الإسرائيلي.

وقال أحد حراس المسجد: "إن حوالى ٢٠ مستوطنا دخلوا إلى الباحات من جهة باب المغاربة

بحماية شرطة الاحتلال فى فترة زيارة السائحين ، وأن طلبة العلم فى المسجد الأقصى يرابطون فيه خوفا من اقتحامات المستوطنين له للاحتفال بعيد الفصح العبرى .

وقالت مؤسسة الأقصى : "إن المستوطنين اقتحموا باحات الأقصى تحت حراسة قوات الاحتلال وأن الساحات تشهد حالة استنفار أمنى من قبل الجيش الإسرائيلي ، بالإضافة إلى أن المستوطنين يسيرون فى اتجاه محدد برفقة حاخامات لأداء طقوسهم التلمودية" .

أضاف البيان : "إن طلاب مصاطب العلم والمصلين ينتشرون فى ساحات الأقصى إلا أن قوات الاحتلال تحاصرهم وتمنعهم من الحركة .. وطالبت المؤسسة بتكثيف تواجد المصلين فى المسجد يوميا لحمايته" .

من ناحية أخرى ، تشهد مدينة القدس إجراءات أمنية مشددة من قبل قوات الاحتلال نشرت خلالها مئات العناصر من الوحدات الخاصة بشرطة وحرس حدود الاحتلال فى الشوارع وعلى الطرقات وعلى المعابر والحواجز العسكرية الثابتة على المداخل الرئيسية للمدينة المقدسة ، وقامت قوات الاحتلال بتسيير دوريات راجلة ومحمولة وخيالة ونصب المتاريس والحواجز الشرطية والعسكرية ، والتأكد من بطاقات المواطنين ، وذلك من أجل تأمين احتفالات اليهود بعيد الفصح العبري .

معرض عمانى للتسامح الدينى فى ليتوانيا

استضافت العاصمة الليتوانية فيلنيوس فعاليات معرض التسامح الدينى العمانى فى محطته السادسة والعشرين والذى تنظمه وزارة الأوقاف والشئون الدينية العمانية بهدف التعريف بالإسلام ونشر ثقافة التفاهم والتعايش السلمى بين الشعوب ، وذلك بحضور شخصيات عمانية وليتوانية .

وأوضح الدكتور محمد بن سعيد المعمرى المستشار العلمى فى وزارة الأوقاف والشئون الدينية المشرف العام على المعارض الخارجية فى كلمته التى ألقاها فى حفل الافتتاح - أن هدف المعرض هو إيصال رسالة عمان فى التسامح الدينى والمسئولية المشتركة مشيدا بالتاريخ العريق لجمهورية ليتوانيا الذى جمع بين مختلف الأعراق والثقافات والأديان ، معتبرا ذلك إرثا حضاريا يجعل من فيلنيوس عاصمة للحوار والتعايش ، وأشار المعمرى فى كلمته إلى أهمية نشر رسالة الخير للإنسانية والدعوة إليها من خلال مثل هذه الفعاليات التى تحقق المعرفة والتعارف ، مؤكدا على أن الدول التى تنشد الأمان والاستقرار لا بديل أمامها إلا بالحوار والتفاهم ، وتطرق المعمرى فى كلمته إلى رسالة عمان التى تلتزم بها تجاه الآخرين

وهى رسالة الخير التى تستمد مبادئها وروحها من رسالة النبى محمد ﷺ التى وصلت إلى أهل عمان فى عام ٦٢٩م .

وأعرب مفتى ليتوانيا الشيخ رمضان يعقوب عن شكره العميق للسلطة على إقامة المعرض

واعتبر أن السلطنة بلد مشابه لبلاده من حيث التسامح الديني ؛ فعمان يعيش فيها أناس من مختلف الديانات بأمان وسلام رغم أنها بلاد إسلامية ، وفى ليتوانيا كذلك يعيش المسلمون فيها بسلام وأمان رغم أن غالبية السكان من غير المسلمين ، فالتسامح الدينى هو القاسم المشترك الذى يجمع البلدين .

جمعية بحرينية تنجح فى إقناع ٥ آلاف شخص باعتناق الإسلام

نجحت جمعية (اكتشف الإسلام) بمملكة البحرين فى إقناع خمسة آلاف شخص من مختلف دول العالم باعتناق الإسلام حيث تقوم الجمعية بتعريف الإسلام الحنيف للجاليات الأجنبية المقيمة فيه كما ينظمون زيارات خارج المملكة لذات الغرض .

وقد دخل الإسلام أكثر من خمسة آلاف شخص على يد دعاة الجمعية من داخل المملكة منذ تأسيسها فى عام ١٩٨٧م .

ويقوم المركز بتنظيم زيارات دورية لنزلاء السجن من أجل تعريف غير المسلمين بديننا الحنيف والإجابة عن استفساراتهم بالحكمة ورد الشبهات التى تثار حول الإسلام ، حيث دخل عدد كبير من هؤلاء إلى الدين الإسلامي ، وجمعية (اكتشف الإسلام) هى أول جمعية متخصصة بالتعريف بالإسلام ودعوة الجاليات فى مملكة البحرين وهى عضو فى الهيئة العالمية للعناية بالمسلمين الجدد كما أنها أول مؤسسة إسلامية بمملكة البحرين تحصل على شهادة الأيزو فى جودة الإدارة والتنظيم .

وتهدف الجمعية إلى التعريف بالإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بما يوافق الكتاب والسنة وتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى غير المسلمين ورد الشبهات التى تثار حول الإسلام والمسلمين وتعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية .

كما تهدف الجمعية إلى إظهار أوجه انتفاع العالم بالحضارة الإسلامية والسعى إلى رفع المستوى التربوى الثقافى للمهتدين الجدد وتوثيق العلاقات بين المهتدين الجدد وإخوانهم المسلمين بالإضافة إلى إقامة النشاطات التطوعية الخيرية ومساعدة جمعية الهلال الأحمر والقيام بالنشاطات الدينية والتربوية والاجتماعية التى تخدم المسلمين وغيرهم .

وتنظم جمعية (اكتشف الإسلام) سنويا رحلة لأداء فريضة الحج للمهتدين الجدد ، ويحظى هذا العمل بمشاركة العديد من لجان الجمعية التى تجتمع للإعداد لهذه الرحلة المباركة ، كما تحرص الجمعية على اختيار حملة حج متميزة لتوفير سبل الراحة للمهتدى الجديد ؛ حتى يتفرغ لمناسك الحج بسهولة ويسر ، كما لا تخلو بعثة (اكتشف الإسلام) للحج من البرامج الدعوية والتوجيهية لكى يتعلم المهتدون الجدد مناسكهم على النهج الصحيح ، كما تحرص الجمعية على التواصل مع الأجيال وتنشئة جيل معتز بحضارته وبدينه ، ولكى يقف على أهمية العمل من أجل خدمة هذا الدين ، الأمر الذى يعود على البلاد والعباد بالخير والصلاح .

بابا الفاتيكان يوجه التحية إلى المسلمين ويدعو للصداقة والاحترام بين الأديان

وجه بابا الفاتيكان البابا فرانسيس التحية إلى المسلمين وشكرهم على "حبهم لله"، ودعا إلى الاحترام والصداقة بين الأديان المختلفة، كما طالب بالحوار من أجل "الوحدة المسيحية".

وأعرب البابا، خلال لقائه بممثلي الأديان السماوية في قاعة "كليمنتين" بالقصر البابوي المطل على ساحة القديس بطرس، عن تقديره للمسلمين الذين يعبدون الله الحي الرحيم، والذي يدعو إليه الجميع في صلاتهم.

ونقلت وكالة أنباء آنسا الإيطالية عن البابا، تقديره لحضور ممثلي الأديان المختلفة اللقاء، واعتبر ذلك حرصا على دعم الاحترام المتبادل والتعاون من أجل الخير العام.

وردد البابا عبارته مرتين بأن الكنيسة الكاثوليكية على وعي بضرورة تعزيز الصداقة والاحترام بين رجال ونساء الأديان المختلفة، وأكد إصراره على استكمال مسيرة الحوار المسكوني، وأضاف أن الوحدة بين المسيحيين تحتل صدارة الاهتمامات، معتبرا أنها تمثل مطلبا أساسيًا حتى تكون شهادتهم المسيحية ذات مصداقية أمام من يقفون خارج الكنيسة أو على هامشها.

وخلال اللقاء، وجه البابا حديثا إلى ممثلي اليهودية بشكل خاص، مؤكدًا على الروابط الروحية شديدة الخصوصية بين المسيحيين واليهود، كما أكد البابا أنه على بينة من المسئولية التي تقع على عاتق الجميع في هذا العالم، داعيًا إلى العدل وتعزيز المصالحة من أجل بناء السلام.

منبر إعلامي إسلامي عابر للحدود

أكد الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي أن المنظمة تؤمن بأن وجود منبر إعلامي فضائي عابر للحدود يساعدها على الوصول إلى الرأي العام الإسلامي والدولي عبر صوت إسلامي موحد ومعتدل قادر على إيصال خطابها الوسطي والمتوازن طبقًا للميثاق الرسمي للمنظمة، وذلك خدمة للقضايا الإسلامية المختلفة.

وأضاف إحسان أوغلو، في كلمته أمام اجتماع الخبراء حول إنشاء فضائية (التعاون الإسلامي) بمقر المنظمة بجدة بأنه "لم يعد خافيًا على أحد، الدور المتصاعد للإعلام والقنوات الفضائية، مشيرا إلى أن دول العالم الإسلامي تفتقر لوجود أدوات إعلامية فاعلة وخصوصا فضائية إسلامية شاملة تحمل رسالة واضحة وتعمل على توجيه وتثقيف الشعوب في تلك الدول بأهمية العمل الإسلامي المشترك وبالقطاعات المختلفة".

وأكد الأمين العام للمنظمة بأنه إذ يعيش العالم الإسلامي في زمن العولمة وتقنية المعلومات والاتصالات سريعة التطور، فقد أصبح أكثر إدراكا من ذي قبل للضرورة الملحة والأهمية البالغة لوجود قناة تليفزيونية إعلامية باسم المنظمة تبث على الأقمار الصناعية، وتهتم بقضاياه، وتدافع عن مصالحه تجسيدا لمبادئ التضامن الإسلامي.

مشددًا على ما يمكن أن تؤديه هذه الفضائية من دور أساسي في تجلية صورة الإسلام الحقيقية، في ظل الهجمة الشرسة على الإسلام ورموزه المقدسة.

- Also, there were spreading narrations that brought the Christian creeds into Shiism, for example: "Al-Hussein subjected himself to murder to carry the sins of the nation."
- There are some narrations in the book Al-Kafy by Al-Qulliny [322 A.H.-941 A.C.) which we will consider as null and void if we scrutinize.
- There was a person called Abu Al-Khattab, who was atheist and antagonist to Islam, but he narrated some narrations for the people and said: "I put four thousand narrations of yours."
- Intellectual deterioration dominated the tendency of the scholars towards the common people, and some of the scholars cared about the natural disposition of the common people and attracted them to themselves, as they were financing the religious establishment. Thus, corrupt and disadvantages prevailed in the milieus of the scholars due to this passivity!"

  (pp. 26, 102, 103, 28, 29, 30, 33, 50, 39, 40, 42, 49, 43, 107, 110, 110, 114, 125, 129, 141, 92)

These are mere references stated by the martyr Motahhari from the models of news and superstitious narrations, which were brought by the narrative school and it represented the era of the deterioration of Shiism. After the narrators put aside the original and fundamental sources considered by the Islamic thought: the Qur'an, reason Ijtihad, and consensus opinion.

search for the rulings in the news narrated from these Imams, as the Qur'an does not address us.

This resulted in the existence of news and narrations that refuse depending on the Qur'an as the source of rulings – as there is also a claim of the distortion of the Qur'an.

Also, this news movement dropped dependence on reason, as its followers said: "Reason has nothing to do with religion, as the human being should regard his mind mistaken; if it finds a narration that is not reasonable, he should refuse the view of his reason and should not let it interfere. Thus, they called for relying on all of the narrations without distinguishing between the correct and false ones.

Also, they dropped dependence on the consensus of opinion, as it is one of the evidence of the followers of the Sunnah mainstream, and it is a way of regarding Abu Bakr as a Caliph and disregarding the Commander of the Believers as a Caliph after the Messenger of Allah. Thus, how could they rely on it as evidence?

Thus, they had nothing out of the four evidences except the Sunnah, to which some narrators added fabrications.

Thus, they relied only on news and narrations: [pp. 139-144]

****

Sheikh Motahhari elaborated on giving examples, which embodied the intellectual degradation, cultural deterioration, and superstitions which dominated Shiism and represented the sour fruits if this narrative trend.

- There spread some narrations which let the people pay money to the custodians of the holy sites to be buried beside the righteous people, so that the angels do not dare tormenting

them. Burial in these places lead to overlooking the sins and misdeeds and suffices for everything. Even if we spend our lifetime without doing good deeds or piety, and we made a will to be buried in a holy place, our affairs will be set right.

Also, many narrations, which direct the people to loving the righteous people and members of the Prophet's extended family, dominated and became as a way of getting away from the Islamic responsibility. Belonging to Imam Ali is regarded as sufficient for rescue. There is a famous narration saying: "Love a good deed with which a misdeed does not harm."

It is sufficient for a person to be called a Shiite to guarantee happiness in the Hereafter.

There were also spreading narrations which increase arrogance, as they say that the good deeds done by the non-Shiites are not accepted and the sins and misdeeds committed by the Shiites are all forgiven.

There are also narrations which fabricated superstitions about the Commander of Believers Ali and his sword which split one of the Jews into two equal halves, then it surpassed him to Jibril, who was seriously injured and fell ill for this reason for forty days. This caused his soul to ascend to heaven for the period of his treatment.

There were also spreading narrations about the events of Karbala, as they fabricated names for the companions of Al-Hussein, the enemies of Al-Hussein, and the sons of Al-Hussein who do not exist in history.

fundamentalism and the jurisprudence of contemporary state of affairs – local and international – and the future theory of Islam and the Muslims.

The key to the intellectual personality of the martyr Motahhari[2] is the philosophic scope, which opens the mind to the doubts and inquiries. He said about it:

"Contrary to many people, I do not get disturbed due to rising doubts concerning the Islamic issues, in spite of my belief in this religion. Rather, I am pleased for this because I saw this through practical experience throughout my life. I see that this holy and divine religion, when attacked by any party, it comes out of the battle stronger and brilliant.

The advantage of the fact is that doubt reveals it more and more, as doubt is an introduction to belief and doubtfulness is the way to search.

It is stated in thesis "Mizanu Al-`Amal (Balance of Work)" by Al-Ghazaly [450-505 A.H. / 1058-1111 A.C.]: "If there is not in these words anything that rise doubt in your inherited beliefs, they will not be worthy, because doubts lead you to the truth. Whoever has no doubts will not look, and whoever does not look will not see, and whoever does not see will remain in blindness and delusion."[3]

Then Motahhari proceeds to handle the retreat of the intellectual and cultural fields from this methodology, as he said:

"The intellectual level of the people previously was low, and the people rarely raised doubts or inquiries. However, nowadays the

[2] The edition of the International Institute of Islamic Thought, Washington 1432 A.H. – 2011 A.C., collected and classified by Mahdy Gahramy and Mohammad Bakry, translated by Sahib Al-Sadiq and reviewed by Sadeq Al-`Abbdy.

[3] Edition of the Arab Press – Cairo – p. 16.

matter is different, and it is normal that when the intellectual level rises, new inquiries, which have not been raised, are raised.

We live nowadays in a world of science, doubt, and hesitation, and we live in a world full of suspicions about Islam and the contradictors to Islam increase.

Let them speak, write, hold seminars, and rise suspicions, till become unconsciously a way to the demonstration of the Islamic facts. [pp. 207, 113, and 118]

Motahhari, while revealing the intellectual and cultural retardation which afflicted the religious life of the Shiite society, he recognized the great responsibility undertaken by the "News methodology" which dominated Shiism, as it mainly depends on news and narrations after setting aside the Qur'an, reason, consensus opinion, and Ijtihad. Shiism is based on news and narration, which are not mentioned in the Qur'an and represented the deterioration of Shiism for a number of centuries. Martyr Motarahhari said about this fact:

"Before four centuries, the Shiite milieus witnessed which is called news movement, which dominated the minds of the people for three centuries. They were refusing Ijtihad on the pretext that it is derived from the Ahl-ul-Sunnah and they refer directly to the narrated news, from which they derive the rulings of Shari`ah. Hence, they represented dullness.

They objected three out of four evidences: "The Book, reason, and consensus opinion. They objected to the Qur'an on the pretext that it is sublime to the extent that it could not be understood by the common people, and the Imams only can understand it and it was sent down to be understood by the Imams only. Thus, we should

Ayatollah Mutahhary and Criticizing Shiism Thought…! *

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor–in-Chief of Al-Azhar Magazine

- Ayatollah Morteza Motahhari was born [1338-1400 A.H. to 1920-1980 A.C.] in the Iranian City Mashhad and he was educated there. Then, he moved to Qum in 1938 A.C. where he was taught by a number of well-known Shiism scholars such as Ayatollah Boroujerdi [1292- 1380 A.H. / 1875-1961 A.C.] and Aytollah Khomeini [1320-1409 A.H. – 1902-1989 A.C.]
- His education combined between Hawza[1] and the university – i.e. fundamentalism and renovation. Also, he cared for studying literature, logic, theology of the Twelvers, dialectical theology, Islamic philosophy, wisdom, Arabic language, and Arab and Persian literature.
- Motahhari joined the political and religious Jihad against the Iranian Shahenshahs, as he joined the Islamic Fedaii's Islam Organization at the beginning of the twentieth century, and he established in Tehran the Islamic Students Association. In 1953.

---

* An article by editor-in-chief of Azhar Magazine which is published in Arabic in the same copy

1- religious knowledge.

- In 1964, he was arrested along with Ayatollah Khomeini due to the uprising of Al-Faydiyah School and formed the Struggling Scholars Association.
- He worked as a professor in the Faculty of Religious Sciences in Tehran University, where he obtained PhD.
- He appeared in the Iranian intellectual and religious fields throughout oratory.
- He joined the Iranian Revolution, which was led by Khomeini in the seventies of the twentieth century, and he worked as Khomeini's consultant and the head of the committee that received him when he came back to Tehran in 1979.
- When Motahhari was martyred on May 1, 1980, i.e., a year after the victory of the Revolution, Khomeini wept a lot in a way that he would not have dome for the death of his son. He said: "Take me with you, I am ready for martyrdom. I lost my dear son, which is a piece of my flesh. He was unparallel with regard to purity of the soul, strength of faith, and eloquence. His Islamic, scientific, and philosophic personality will not vanish with his death." Khomeini declared mourning for Motahhari and stayed in Al-Faydiyyah School to receive consolation.
- Motahhari left more than fifty books, which are regarded as an imposing structure of intellectual creativity and which made him one of the imminent contemporary Shiite.
- In this book – Criticizing Shiism by Sheikh Mertaza Motahar – which represents the extract of his intellectual project, the genius of this innovative philosopher, who combined

without your consultancy; if you see any person aggressing or you were informed with any injustice, I adjure you in the Name of Allah that you tell me what you are informed with." Then, they asked Allah to bestow goodness on him.

During his reign, he built and widened the Mosque of the Prophet by virtue of the order of Al-Walid ibn Abdul Malik. The territory under his reign extended and he became the ruler of all Hijaz, and he strived to spread justice and security among the people. He let them taste the sweetness of mercy and peace of mind. Omar ibn Abdul Aziz hated Al-hajjaj ibn Yusef Al-Thaqafy, due to his oppression and aggression. He was responsible for the affairs of Hajj in one of the years. Umar asked Al-Walid to order Al-Hajjaj not go to Al-Madinah although he knew that the Umayyad Caliphs appreciated him, and the Caliph asked for Omar and wrote to Al-Hajjaj saying: "Omar ibn Abdul Aziz wrote to me asking me to prevent you from passing through Al-Madinah. Thus, do not pass by a person who hates you and do not go to Al-Madinah."

Al-Walid wanted to depose his brother Suliman ibn Abdul Malik from being his successor and to let his son be his successor. Then, many of the senior officials obeyed him willingly and unwillingly. But Omar abstained from that and said: "We pledged allegiance to Sulaiman." Then, he insisted on that and Suliman recognized his situation.

Suliman ibn `Abdul Malik told Omar after being appointed:

"O Abu Hafs, we appointed whom you saw and we did not arrange for this matter.

Say what will be beneficial for the people in general." Prayers were offered at their due times after being offered at the end of their due times, along with other serious things concerning which he listened to Omar.

It was said that Suliman ibn Abdul Malik performed Hajj and saw a huge number of people and told Omar: "Do you see those people whose numbers are not known except to Allah?" He said: "These people are your subjects today and your opponents tomorrow." Then, he wept heavily. Caliph Suliman ibn Abdul Malik accompanied him to visit some of the military camps, one of which was full of equipment and men. Suliman asked him proudly: "What do you say about this, Omar?" He said: "I see a world, whose parts eat each other and you are responsible for it and fascinated by it." He told him after being astonished: "How strange you are!" Then, Omar said: "Rather, how strange is the person, who knows Allah and disobeyed Him, knew Satan and obeyed him, and knew the worldly life and had confidence in it."

He was chosen as the Caliph after the death of Suliman ibn `Abdul Malik although he disliked being the Caliph. The people were called to perform Prayer and they gathered in the mosque. Thereafter, he preached at the people, as he praised Allah and invoked Allah's peace and blessings for the Prophet. Then, he said: "O people, I am afflicted with this matter without seeking it or consulting the Muslims. I ask you to concede your allegiance to me, and choose for yourself someone whom you like. The people said loudly in one voice: "We chose you and are pleased with you as a Commander of the Believers. Thus, undertake our responsibly with blessing and prosperity.

Omar ibn Abdul Aziz, the Fifth Rightly Guided Caliph...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

He is Omar ibn Abdul Aziz ibn Marwan ibn Al-Hakam ibn Abul `As ibn Omayah.

He was called the fifth Rightly-Guided Caliph, as he followed in the footsteps of the Rightly Guided Caliphs during his Caliphate. He succeeded Suliman ibn Abdul Malik in caliphate capital Damascus in 99 A.H. He was called "Al-adel Caliph" due to his status and justice in his reign. He was born in Rabi` awwal , 87 A.H. And he was appointed by Caliph Al-Walid ibn Abdul Malik as the ruler of Al-Madinah Al-Munawwarah. Then, he added to his rulership Taif in 91 A.H. His principles can be summed up as follows:

- **Governing the people justly, avoiding injustice, dealing with the people justly concerning the Treasury. This resulted in the little amount of money that is accrued to the Treasury.**

He undertook the responsibilities of ruling Al-Madinah and the people were so happy for that. One of his most distinguishable deeds in Al-Madinah was the Shura Council, which consisted of ten of the jurists in Al-Madinah.

Abu Sufian Al-Thawry said about him: The five Caliphs were: Abu Bakr, Omar, `Uthman, `Ali, and Omar ibn Abdul Aziz.

Due to strict adherence to the Sunnah, Hazm ibn Hazm said:

Omar said: "If every innovation in religion which I end and ever Sunnah which I revive cost a piece of my flesh until my death, this would be few.

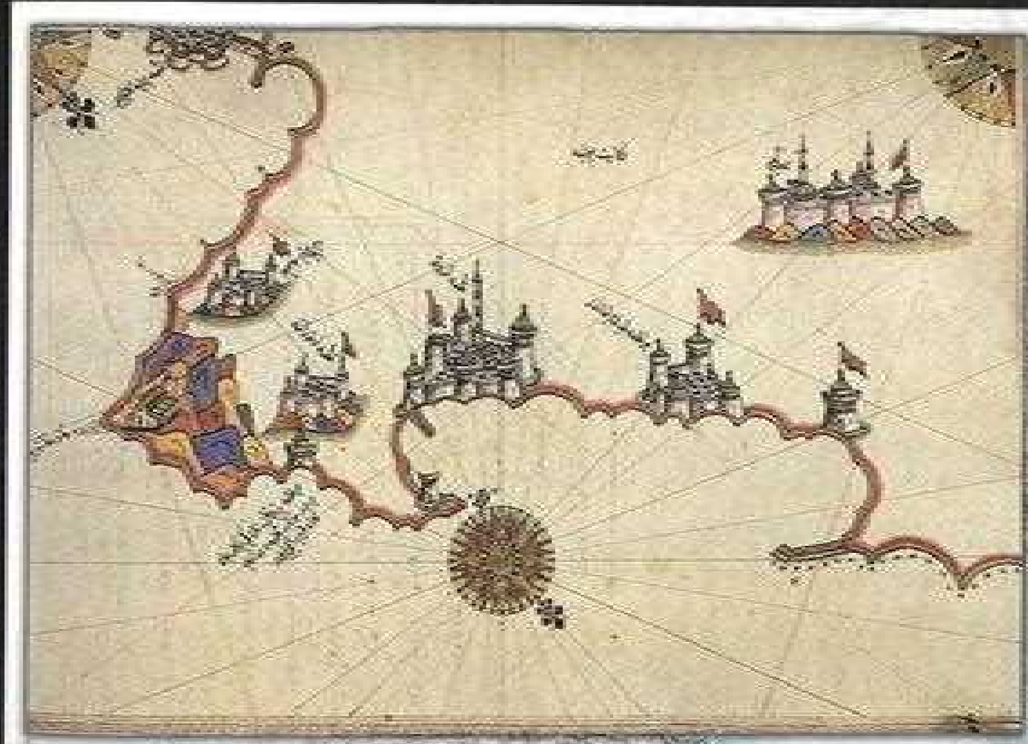
Historians said that he is one of the great Imams of his time, as Imam Malik and Sufian ibn `Uyaynah called him "Imam". Mujahed said: When we came to him to educate him, but we started to learn from him.

Maymun ibn Mahran said: Omar ibn Abdul Aziz was the teacher of the scholars. Al-Zahaby said about him: He was a clever jurist and Imam, who had rich knowledge of the Sunnah and was of high esteem and was submissive to Allah. He was known of good conduct and justice like his maternal grandfather Omar Ibn Al Khattab. Also, he was like Al-Hasan Al-Basry in his asceticism and Al-Zuhary in his knowledge. When he was writing to the Muslims, he used to lit a candle from the Muslims' Treasury, but when he was writing private matters, he used to lit a candle from his own money.

When Al-Walid ibn Abdul malik was appointed as a Caliph, he assigned the rulership of Al-madinah to Omar ibn Abdul Aziz, and he remained to be its ruler from 86 A.H. to 93 A.H.

When he came to Al-Madinah as its ruler, he prayed Zhuhr Prayer and called for a group of men: as `Urwah ibn Al-Zubair, `Ubaidullah ibn Abdullah ibn `Utbah, Suliman ibn Yassar, Al-Qasim ibn Abu Bakr, Salem and Kharjah ibn Zaid ibn Thabit, Abu Bakr ibn Abdul Rahman, and Abu Bakr ibn Salman. He thanked and praised Allah, then he said: "I call you to something for which you will be paid your attention and that we will help each other for the sake of truth. I do not want to take a decision

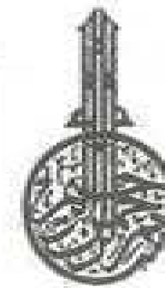
فتح مدينة أوترانتو الإيطالية على يد محمد الفاتح
جمادى الآخرة 885 هـ - 11 أغسطس 1480 م



إيطاليا

AL-AZHAR MAGAZINE

Jumada Al – Akhera, 1434 A.H



ENGLISH SECTION

April, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
رجب ١٤٣٤ هـ - مايو/يونيو ٢٠١٣ م - الجزء ٧ - السنة ٨٦

الافتتاحية

الفريضة الغائبة المنشودة
أ. د. محمد عمارة


شيخ الأزهر
أ. د. أحمد الطيب

كتاب فيه عدوان على الشريعة الإسلامية
أ. د. علي جمعة


فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك

حول التصور العقدى فى الإسلام
المستشار طارق البشري


فضيلة الشيخ أحمد المحلاوي

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة
أ. د. محمد سيد طنطاوي

هدية العدد
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى
الجزء الثاني
للإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج - تقديم وتعليق أ. د. محمد عمارة



www.AlazharMag.com



AL AZHAR MAGAZINE
facebook.com/AlAzharMag



في العدد القادم

الافتتاحية

الأصولية بين الغرب والإسلام
أ. د. محمد عمارة

تفسير القرآن الكريم
الشيخ محمد عبده

هجرة النبوة من مكة إلى يثرب
الإمام البشير الإبراهيمي

رسالة الإحياء
العلامة فتح الله كولن

هدية عدد رجب
الجهاد
دفاعاً عن الإسلام
للعلامة مولانا أبو الكلام آزاد
تقديم وتعليق- أ. د. محمد عمارة

www.AlazharMag.com

السعر جنيهان

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثانى.



١١ هـ
٢٠٠٥ ع
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

مكتبة الأزهر الشريف

الافتتاحية

الفريضـــــة الغائبــــــة.. والمنشودة



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

الإسلام: دين الجماعة، ولذلك تميزت فرائضه وتكاليفه بالتوجه إلى «الفرد» وإلى «المجموع» معا. بل إن فرائضه الاجتماعية - الكفائية - غدت أكثر توكيداً من فرائضه الفردية - وذلك لاعتبار العائد منها - ولذلك كان إثم التخلف عن الفريضة الفردية واقعا عند الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية واقعا على الأمة جمعاء.. بل إن الفرائض الفردية - كالصلاة مثلا - يكون ثوابها أعظم عندما تؤدى في جماعة واجتماع! كما أن المقاصد والثمرات لكل الفرائض الفردية إنما تصب في ترشيد الجماعة والمجموع.. ولهذا التميز الإسلامي كان لابد لإقامة كامل الإسلام من وطن يمثل الوعاء لإقامة فرائضه الاجتماعية، وذلك على عكس ديانات أخرى يكتمل قيامها وإقامتها في عزلة الرهبنة، بعيدا عن الانتماء للوطن والأمة والمجموع.. ولهذه الحكمة - أيضا - كانت رهبانية الإسلام فريضة اجتماعية، هي الجهاد في سبيل الله.. أي في سبيل الأمة وصيانة الوطن وصلاح الاجتماع!..

ولهذه الخصيصة، التي تميز بها الإسلام - كونه دين الجماعة - قامت «دولته»، وكذلك «أمته» على «التنظيم والنظم والمؤسسات»..

• فالدولة الإسلامية الأولى - التي أبرم «عقدها الاجتماعي والسياسي» في «بيعة العقبة» قبل الهجرة ٦٢١ و التي برزت إلى حيز الواقع عقب الهجرة في سنتها الأولى اهـ ٦٢٢م - قد قامت على مؤسسات دستورية ثلاث:

١- مؤسسة الأمراء: - المهاجرين الأولين - العشرة الذين مثلوا قيادات بطون قريش والذين كانوا أول الناس إسلاما، والذين أحاطت بيوتهم بمسجد النبوة - دار الحكومة - وكانت لها أبواب تفتح في المسجد، وكانوا - في الصلاة - يقفون خلف الرسول ﷺ وفي القتال يقفون أمامه!.

٢- مؤسسة الوزراء: - النقباء الاثنى عشر - الذين مثلوا قيادات الأنصار - من الأوس والخزرج - والذين تم انتخابهم في بيعة العقبة لينوبوا عن الأنصار في مبايعة الرسول على الهجرة إلى المدينة وإقامة الدولة فيها.

٣- ومؤسسة مجلس الشوري: - مجلس السبعين - الذي كان يعقد جلساته بمسجد النبوة - دار الحكومة - في مكان محدد، وأوقات محددة، وتعرض عليه شئون الدولة ومشكلات الولايات والأقاليم..

• وغير مؤسسات «الدولة» كانت «المؤسسية والمؤسسات» هي الروابط الجامعة التي تحول الأفراد والقبائل والطوائف والطبقات إلى لبنات في بناء أمة الإسلام.. الإسلام العقدى الخاص بالمؤمنين، والإسلام الحضارى الجامع لرعية الدولة على اختلاف العقائد والأعراف والألسنة التي احتضنها المحيط الإسلامي، وسلكها في النسيج الحضارى الواحد الذي بناه وانتمى إليه واعتزبه كل الذين أظلتهم رايات حضارة الإسلام[1].

• ولأن «صلاح الدنيا - صلاح المعاش» هو الأساس الذي يقوم عليه «صلاح الدين - صلاح المعاد»، على النحو الذي عبر عنه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) عندما قال: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا - فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا:

- بصحة البدن.
- وبقاء الحياة.
- وسلامة قدر الحاجات من:

أ- الكسوة. ب- والمسكن. جـ- والأقوات. د- والأمن.

فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية. وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟!.. فإذن بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين»[2]

(١) انظر: د. محمد عمارة (المؤسسية والمؤسسات في الحضارة الإسلامية) ص ١٣ - ٣٣. طبعة دار السلام. القاهرة ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م.
(٢) الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥. طبعة مكتبة صبيح. القاهرة. بدون تاريخ.

لأن هذا هو مكان صلاح الدنيا والمعاش من صلاح الدين والمعاد. في فلسفة الإسلام، كانت فريضة الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام- والتي هي فريضة جامعة بين التكليف الفردي وبين التكليف الاجتماعي - كانت أولى المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية في تاريخ الإسلام ودولة الإسلام وأمة الإسلام.

صحيح أن إيتاء الزكاة كان مشروعا في الرسالات السماوية التي سبقت الشريعة الإسلامية الخاتمة .فلقد جاء في قصص أبي الأنبياء إبراهيم وآله - عليهم السلام:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٣).

لكن هذه الشعيرة قد اتخذت في الإسلام مكانا متميزا، جمع بين التكليف الفردي والتكليف الاجتماعي، لأنها السبيل لتكافل الأمة اجتماعيا، ومن ثم فهي الآلية التي تحقق جعل آحاد الأفراد أمة واحدة ونسيجا متصلا وجسدا واحدا.. كما أنها قد تميزت وامتازت - في الإسلام - بجعلها «مؤسسة»، تقوم عليها «الدولة» وتنظمها «الجماعة» عندما يتولاها ويقوم عليها نظام في الجمع والتحصيل وفي الرعاية والتنمية وفي التوزيع، ينهض به «العاملون عليها».. فهي «مؤسسة» للأمة، ترعاها «الدولة» - التي تحرس الدين وتساس بهذا الدين.. فالخطاب الإلهي بها موجه إلى «الدولة» وإلى «الأمة» معا:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (التوبة:١٠٣).

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٠).

• ولقد نبعت هذه المكانة المتميزة، لفريضة الزكاة، على النحو الذي جعلها أولى المؤسسات الاجتماعية في دولة الإسلام وأمته، من فلسفة الإسلام في الثروات والأموال، هذه الفلسفة التي جعلت الذات الإلهية هي المالك الحقيقي - مالك الرقبة - في الثروات والأموال، وجعلت الناس - كل الناس - وليس الفرد أو الطبقة مستخلفين عن الله - سبحانه وتعالى - في «الحيازة» و«ملكية المنفعة» و«التنمية والاستثمار والاستمتاع الحلال» بهذه الثروات والأموال، فكانت الفلسفة المالية التي جمعت - بإعجاز وتوازن - بين ملكية المجموع وبين ملكية الأفراد- على النحو الذي برئ من غلواء الإفراط والتفريط اللذين سادا في الحضارات غير الإسلامية- .. حتى إن القرآن الكريم قد نص على فلسفة الاستخلاف هذه - في الثروات والأموال - فقال - ضمن ما قال-:

﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (النور:٣٣).

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد:٧).

كما أضاف القرآن مصطلح «المال» إلى ضمير «الفرد» في سبع آيات، وأضافه إلى ضمير «المجموع» في سبع وأربعين آية!.. لتقرير هذه الفلسفة الفريدة والجامعة في الثروات والأموال:

ولقد قام «الفكر الإسلامي» وكذلك تطبيقاته- بالتفصيل لهذه الفلسفة الإسلامية في الثروات والأموال - فلسفة الاستخلاف - فقال الراشد الثاني عمر بن الخطاب (٤٠ق هـ- ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م)- رضي الله عنه- : «والذي نفسي بيده، ما من أحد إلا له في هذا المال حق، وما أحد أحق به من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم. فالرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه، والرجل وغناؤه، والرجل وحاجته. هو مالهم يأخذونه، ليس هو لعمر ولا لآل عمر.. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول -زيادات- أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء، وجعلتهم رجلا واحدا»(٣)

• وقال الراشد الرابع علي بن أبي طالب (٢٣ق هـ-٤٠ هـ/ ٦٠٠- ٦٦١م)- رضي الله عنه- : «إن الله قد فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، وإن الله سائلهم عن ذلك.. إن الغنى في الغربة وطن، وإن الفقر في الوطن غربة، وإن المقل غريب في بلدته»!.(٤)

• وقال الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز (٦١- ١٠١ هـ/ ٦٨١- ٧٢٠م)- رضي الله عنه - عن المال في دولة النبوة :«إن الله قد اختار رسوله ﷺ إلى جواره، وترك للناس نهرا شربهم - (نصيبهم)- فيه سواء»(٥)

• وقال الإمام الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ ١٠٧٥- ١١٤٤م)- في تفسير آية:

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد:٧).

«إن مراد الله من هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب»(٦)

• وقال الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م)- في التعليق على إضافة القرآن مصطلح «المال» إلى ضمير «الفرد» في سبع آيات، وإضافته إلى ضمير «الجمع» في سبع وأربعين آية- : «إن الله سبحانه وتعالى - أراد أن ينبه بذلك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم»(٧)

• وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، ورغم الجور والأثرة والاستبداد التي طرأت على «الدولة» الإسلامية في كثير من الحقب والعصور، ظلت «الأمة» ساعية وقائمة على رعاية العدل الاجتماعي - قدر الطاقة - .. وظلت «الزكاة».. ومعها «الأوقاف»- راعية للفقراء، وعاملة على الوفاء بقدر من حقوق الفقراء في أموال الأغنياء.

• كذلك ظلت الثورات الاجتماعية - التي قادها علماء الأمة- شاهدة على وفاء العقل والضمير

(٣) ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج ٣ ق١، ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، طبعة دار التحرير، القاهرة. و(تاريخ الطبري) ج ٤، ص ٢٢٦، طبع دار المعارف، القاهرة.

(٤) (نهج البلاغة)، ص ٤٠٨، طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٥) الأصفهاني (كتاب الأغاني) ج ٩، ص ٣٣٧٥، طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٦) الزمخشري: (تفسير الكشاف) ج ٤، ص ٦١، طبعة القاهرة ١٩٦٨ م.

(٧) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج ٥، ص ١٩٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣ م.

والفقه الإسلامي لهذه الفلسفة الإسلامية في الثروات والأموال.. حتى لقد جعل الامام ابن حزم الاندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م) هذه الثروات فريضة واجبة وليست مجرد حق من الحقوق.. فقال: «وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فئ أموال المسلمين بهم. فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولايحل لمسلم أضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل - زيادة - عن صاحبه لمسلم أو ذمي.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلى قاتله القود - الدية - وإن قتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقا، وهو فئة باغية. قال تعالى:

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الحجرات: ٩)

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق. وبهذا قاتل أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - مانع الزكاة»(٨)

تلك هي فلسفة الإسلام في الثروات والأموال.. وهذه هي مكانة الزكاة - أولى الفرائض الاجتماعية.. وأولى المؤسسات الاجتماعية في دولة الإسلام وأمة الإسلام وحضارة الإسلام.

●●●

واليوم.. وأمة الإسلام - البالغ عددها أكثر من مليار وسبعمائة مليون نسمة أى ربع البشرية - والتي تمتلك وطنا مساحته أكثر من ٣٥،٠٠٠،٠٠٠ كليو متر مربع.. يمتد من «غانا» - غرباً - إلى «فرغانة» - شرقا - ومن حوض نهر الفولجا شمالا - إلى جنوب خط الاستواء.. كما تمتلك هذه الأمة من الإمكانات المادية والثروات الطبيعية ما يجعلها العالم الأول على ظهر هذه الأرض.. تمتلك: أطول أنهار الدنيا، وأعرق الحضارات الزراعية، وملايين من الأفدنة الصالحة لأن تكون «سلة غذاء» لكل عالم الجنوب.. مع الأنهار والبحار والمحيطات الزاخرة بالثروات المعدنية والسمكية.. والأرض المركوز فيها أعظم كنوز الثروات التى تمثل عماد الاقتصادات العالمية: أغلب الغاز المسال.. وثلثى البترول.. وربع المنجنيز.. و٤٠٪ من الكروم.. و٥٦٪ من القصدير.. و٢٣٪ من البوكسيت.. و٢٥٪ من النحاس.. و٢٥٪ من الفوسفات.. و١٢٪ من الحديد.. و١٠٪ من الرصاص.. ناهيك عن اليورانيوم والذهب.. وكذلك الطاقة الشمسية الكفيلة بتحلية مياه البحار وتحويل الصحارى الشاسعة إلى جنان خضراء.

اليوم.. وأمة الإسلام هذه تمتلك هذه الإمكانات والثروات المادية والطبيعية، فضلا عن التراث الروحي والفكرى الذى تعلمت منه الدنيا، نرى الواقع البائس الذى تعيشه جماهير هذه الأمة!:

- نرى الفقر والأمية يفترسان طاقات الجماهير.

- ونهب الرأسمالية المتوحشة والاحتكارات الغربية والشركات المتعددة الجنسيات والقارات كنوز الثروات الإسلامية، لقاء (حصة) لعلها أقل من زكاة الركاز، تعطيها للمستبدين

(٨) ابن حزم (كتاب المحلى) ج ٦، ص ١٥٦، طبعة المنيرية القاهرة.

السفهاء، الذين أمرنا الله أن لا نعطيهم أموال المسلمين:

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ (النساء: ٥)

حيث ينفق هؤلاء السفهاء أغلب هذه (الحصة) في الترف الذى يؤذن بخراب العمران

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (الإسراء: ١٦)

حتى لتموت قلة من هؤلاء السفهاء جراء التخمة.. بينما تبيع جماهير غفيرة عقيدتها لمؤسسات التنصير لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!

اليوم.. وهذا هو (الواقع البائس) للاجتماع وللأموال والثروات في عالم الإسلام.. تشتد الحاجة وتتعاظم الضرورات للعودة إلى فلسفة الإسلام في الثروات والأموال.. وتشتد الحاجة إلى (مأسسة) فريضة الزكاة، لتتحول إلى مؤسسة تنموية، تغني الفقراء والمساكين، وتعتق رقاب المسلمين من أسر المؤسسات الاحتكارية الربوية الغربية، وتسلك بالأمة سبيل الله في الاستقلال الاقتصادى والحضارى والعزة التى جعلها الله - سبحانه وتعالى - من عزته وعزة رسوله ﷺ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨)

- إن تحويل الزكاة - وضمنها زكاة الركاز التى تمثل ٢٠٪ من قيمة الثروات المستخرجة من الأرض - إلى (مؤسسة تنموية) لكل شعوب الأمة الإسلامية.
- وإعادة الأوقاف إلى مكانتها التى عرفها تاريخ الإسلام، عندما كانت المؤسسة الأهلية الأم التى مولت صناعة الحضارة الإسلامية، وأسهمت في تحقيق قدر كبير من العدل الاجتماعي.
- وتحرير ثروات العالم الإسلامي من النهب الاستعمارى والاستغلال الرأسمالي الغربي.
- وتوظيف الفوائض النقدية الإسلامية - على سبيل الحصر - في الوطن الإسلامي، هي بعض الفرائض والآليات التى تكفل عودة الأمة الإسلامية إلى مكانتها الطبيعية بين الأمم والحضارات، مكانة الريادة والإمامة والقيادة، مكانة العالم الأول، الذى مثلته وتبوأته على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.

كما أن هذا السبيل هو المحقق لصلاح الدنيا - المعاش - الذى يتأسس عليه صلاح الدين - المعاد - كما قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.

إن فلسفة الإسلام في الثروات والأموال هي البديل الوحيد القائم اليوم على النطاق العالمي، لقد سقط الغلو الشيوعى إلى غير رجعة ودخل الغلو الرأسمالي نفقا مظلما لن يخرج منه أبدا.. وصدق الله العظيم:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾

(التوبة: ٣٣)

التراث والتجديد



لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

ما زلت أذكر الكثير من ستينيات القرن الماضي، ونحن طلبة في المعهد الديني، على وشك الفراغ من دراستنا الثانوية في الأزهر، وعلى عتبات كليات الجامعة، حين كانت الفلسفة الماركسية والاشتراكية العلمية تغرقنا بمطبوعاتها وسلاسل كُتبها، وتأخذ على مسامعنا وأبصارنا كل طريق.. وكانت الوجاهة العلمية والثقافية تفرض على الطلاب النابهين - آنذاك - أن تلهج ألسنتهم بأسماء أساطير الفلسفة اللِّينينية والماركسية والتروتسكية، وأن يتحدَّثوا في الفروق الدقيقة بين هذه المذاهب، ويخوضوا في أحاديث الجدل التاريخي والطبيعي وقوانين التطور، وما إلى ذلك من أصول فلسفية واجتماعية كانت معرفتها أو الإلمام بها، وهي فرق ما بين الطالب النابه والطالب المنطوي على تحصيل التراث والتعرف على لغته الفنية الدقيقة التي صيغت بها عبارات الشيوخ في هذا التراث: متنًا وشرحًا، وحاشية وتعليقًا..

نعم لقد بدا لنا أن المعاصرة التي يتطلع إليها الطلاب الطامحون للتميز والوجاهة تقتضي عليهم اقتناء بعض مؤلفات ماركس وإنجلز ولينين وأساطين الفكر الاشتراكي، وقراءتها وتسريح النظر فيها، واتخاذها «مادة» للمناقشة والمحاورة، والمباهاة أحيانًا.. ولم تكن الفلسفة الماركسية التي كانت تروج تحت لافتة الفكر الاشتراكي هي التيار الوحيد الضاغط على أفكار الشباب وعقولهم في ستينيات القرن الماضي، فقد كنا نعرف قليلاً أو كثيرًا عن مدارس أخرى للفلسفة العلمية كالوضعية المنطقية مثلاً، والفلسفة الوجودية، وغيرهما من المدارس التي كانت تلفت نظر الطلاب المتعطشين إلى ثقافة البحث عن الجديد خارج التراث، وكانت حركة التأليف والنشر في غالبها تغري القراء والمثقفين

بالدفع في هذا الاتجاه؛ لأن الدولة في هذه الحقبة كانت - اقتصاديًا - تميل إلى المذهب الاشتراكي وتعلي من قدره، بقدر ما تبتعد عن النظام الرأسمالي وتقلل من شأنه، ومن هنا راحت تُيسر على الشباب اقتناء المصادر العلمية الاشتراكية بقروش زهيدة.. كما كانت حركة الثقافة والفكر والفن والأدب تنحو في توجهها العام نحو المذهب الاشتراكي في كل تجلياته: الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.. وتردد في بعض الأغاني والأناشيد التي يحفظها الصغار والشباب أن عدو الاشتراكية خائن للمسئولية، وبلغ تأثير المعسكر الاشتراكي في ذلك الوقت مبلغ التدخل المباشر في المؤسسات الدينية وتقييم أدائها ورصد مدى ملاءمتها للتيار الاشتراكي الذي كان يمثل التوجه الاقتصادي والثقافي للدولة آنذاك.. وأذكر أنني زرت أحد كبار أساتذة الأزهر في ذلك الوقت في الفيلا التي كان يقيم بها في مصر الجديدة، وكان قد أُعفي من منصبه كوزير للأوقاف - قبل سنوات قلائل - رغم نشاطه وتميزه العلمي وذكائه الحاد وجمعه بين الثقافة الأزهرية العميقة والثقافة الأوروبية الحديثة، وقال لنا يومها: إن إعفاءه من الوزارة كان بتوجيه من المعسكر الاشتراكي، الذي يخشى أن يقف النشاط الديني لوزارة الأوقاف عقبة في سبيل «المد الاشتراكي»، وبلغ من تغلغل هذا «المد» في الشئون الدينية أن خضعت خُطب المنابر في تلك الفترة لخطة موحدة، ترتبط بالواقع المادي للمجتمع وتدور معه حيث دار.. إني لأذكر أن إحدى خُطب الجمعة كان موضوعها: «أسبوع المرور» وثقافة الالتزام بقواعد السير في الشوارع والطرقات، وكان ذلك مدعاة للتندر والتفكه في المقارنة بين مسئولية إمام المسجد ومسئولية عسكري المرور.

وقد تنبهنا فيما بعد إلى أن المذهب الاشتراكي الذي تحولت إليه مصر في هذه الحقبة وإن كان مذهبا اقتصاديا بحتًا في تطبيقاته العملية، إلا أنه مذهب ذو جُذور فلسفية وأيديولوجية، وله - في بلاد المنبع والنشأة - موقف معلن من الدين، أي دين، وبحيث يصْعب جدًا الفصل بين البعد الاقتصادي والاجتماعي والبعد الأيديولوجي في هذا المذهب، أو التغاضي عن الجانب الفلسفيّ الكائن في أحشائه، وأن أية دولة لا تستطيع - مثلا - أن تطبق تأميم الصناعات الثقيلة، أو السيطرة على الإنتاج ووسائله، أو التجارة الخارجية أو التعليم أو العلاج.. إلخ، دون أن تتأثر بفلسفة هذا المذهب في التهوين من شأن الدين في نفوس الناس؛ وصحيح أن الخلفيّات الأيديولوجية للمذهب الاشتراكي الذي أظل المجتمع المصري حينذاك لم تكن معلنة في مواجهة «الإسلام» بصورة صريحة؛ لأن مواجهة كهذه كانت كفيلة برد هذا المذهب على أعقابه والعودة به إلى خارج البلاد، إلا أن تأثيره - غير المباشر - كان سلبيًا على الأزهر والمؤسسات الدينية الأخرى في مصر.. وبخاصة طلاب الأزهر ممن لهم بصر بعلوم التراث العقلية والنقلية.

وكدليل على تضييق الخناق على الأزهر وشيوخه في ذلك الوقت، أسوق للقارئ الكريم بعض العبارات من تقرير بعثة الأزهر الشريف في زيارة إلى إندونيسيا والملايو والفلبين، في الفترة من ١٧ يناير إلى ١٦ فبراير من عام ١٩٦١م برئاسة الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وبصحبته الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية في ذلك الوقت، وعلماء آخرون، وفي هذا التقرير نقرأ فقرات توحي بالشكوى من المسئولين في مصر الذين يميلون لسحب البساط من تحت أقدام الأزهر وعلمائه، ونزع سلطانه وتسليمها لجهات مدنية بعيدة كل البعد عن العمل الإسلامي، وذلك حين أشار التقرير إلى ظهور كيان جديد يسمى بالمؤتمر الإسلامي ليكون البديل لكل أنشطة الأزهر العلمية والثقافية والاجتماعية التي يتواصل من خلالها مع شعب مصر ومع المسلمين في الخارج.

لقد شكل «المؤتمر الإسلامي» - في مصر - بعثة صغيرة من بعض أعضائه سبقت بعثة شيخ الأزهر في إندونيسيا بأسبوعين، وكان تعاقب البعثتين في هذا الوقت القصير «مدعاة للتساؤل لدى الجهات الرسمية الحكومية» في إندونيسيا - فيما يقول التقرير - الذي كشف عن أن مهمة بعثة المؤتمر الإسلامي تناولت «ضمن ما تناولت» بيان رسالة الأزهر للإندونيسيين،



محمد البهي — محمود شلتوت

وأنها أصبحت قاصرة على شئون العبادة وحدها، وأن المؤتمر الإسلامي - في وضعه الجديد - قد أخذ الجانب الاجتماعي من رسالة «الأزهر»، ولذلك فالمؤتمر الإسلامي يطرح نفسه بحسبانه الجهة التي تعين على الربط الثقافي الروحي بين الجمهورية العربية المتحدة وبلاد العالم الإسلامي الأخرى، ومن ثم فإن النداءات التي توجه إلى الجمهورية العربية المتحدة في شأن تقديم المعونة الثقافية في صورة كتب أو مدرسين أو طلاب يجب أن توجه إلى المؤتمر الإسلامي وحده.

ويعقب التقرير على العرض الذي تقدم به مبعوثا(١) المؤتمر الإسلامي إلى إندونيسيا فيقول: «وفوق أن هذا العرض من شأنه أن يضفي ظلاً من الشك والريبة على علاقة الجمهورية العربية المتحدة بالبلاد الإسلامية - فإنه من جانب آخر من شأنه أن يُضعف من مركز الأزهر وهيبته في نفوس المسلمين خارج الجمهورية العربية المتحدة، وذلك أمر لا يفيد منه إلا خصوم الجمهورية العربية المتحدة»(٢).

(١) يذكر التقرير أن أحد هذين المبعوثين كان أستاذًا بكلية الزراعة والآخر كان مدرسًا بها.

(٢) انظر تقرير عن رحلة بعثة الأزهر إلى إندونيسيا من ١٧ يناير إلى ١٧ فبراير سنة ١٩٦١م «سري جدًا» ، مطبوع على الآلة الكاتبة، ويقع في ١٣ صحيفة.

وقد كانت بعثة الأزهر برئاسة شيخه الجليل الشيخ محمود شلتوت في قمّة الشجاعة وهي تقدم هذا التقرير إلى السيد الرئيس جمال عبدالناصر. ويقول الشيخ الجليل في هذا التقرير: «وقد كانت مفاجأة لي أن أخبرني السيد وزير الشئون الدينية بأنه تلقى دعوة من المؤتمر الإسلامي ووزارة الأوقاف في القاهرة لعقد ندوة إسلامية في يونيو من هذا العام. وقد فوجئت بهذا، إذ ليس لدى الأزهر علم بهذه الندوة.

والحرص على مكانة الأزهر في هذه البلاد كان يقتضي التشاور أولا مع الأزهر في مثل هذه الدعوة، وفوق أن ذلك يُنبيء عن عدم انسجام في السياسة الإسلامية للجمهورية العربية المتحدة فهو يُشعر الرأي العام الإسلامي في الخارج بتنافس الهيئات الإسلامية في القاهرة ووضع بعضها وضعًا غير كريم، خصوصًا ذلك المعهد الذي له تاريخ وله قيادة في العالم الإسلامي في الشارع»(٣).

إن ما جاء بهذا التقرير من عبارات مثقلة بالأسى والألم خير شاهد على أن الأزهر في مصر الاشتراكية كان يعاني من التضييق، ومن سلب الاختصاصات، ومن سجنه في زاوية العبادات فقط، وحرمانه من جماهيره ومحبيه ومريديه من المصريين ومن المسلمين عامة.

ونحن نعتقد أن إقصاء الأزهر في ذلك الوقت: سياسيًا واجتماعيًا وشعبيًا، لم يكن - بكل تأكيد أمرًا سهلاً على نفوس المسئولين المصريين أنفسهم، ولكنه كان - في أغلب الظن - أشبه بما يسمى الآن بالمواءمة التي تفرضها ضرورات التحول السياسي والاقتصادي، وما تقتضيه ظروف التحول من غض للطرف عن اللوازم الفلسفية والأيديولوجية لهذا المذهب أو ذاك.

هكذا عشنا نحن طلاب الأزهر في هذه الحقبة، تهب علينا الرياح الثقافية العاتية من شرق أوروبا وغربها، وكُنا بين طريقين: إما فتح النوافذ لهذه الرياح ومعاناة الاغتراب، وإما الانغلاق في مقررات التراث ومعاناة الاغتراب كذلك.. ولم ينقذنا من هذا الصراع إلا هذه النخبة من عظماء مفكري مصر، الذين صمدوا لهذا الفكر الوافد من شرق ومن غرب، وكشفوا عن كثير من عوراته ونقائصه وتناقضه أيضًا، وبينوا للتائهين من القراء والشباب مواطن الضعف والتهافت في هذه المذاهب، وكيف أنها «مذاهب هدامة».

وكان عملاق الأدب العربي «العقاد» في مقدمة هذه النخبة من العظماء الذين مثلوا لجيلنا طوق نجاة، وأعادوا لنا الثقة في أنفسنا وفي تراثنا وحضارتنا، وهذا الرائد العظيم له فضل السبق والترصد لهذه المذاهب وتحطيم أصنامها وهدم معابدها بمعول لا يقوى أحد على مواجهته. وقد سار على المنوال نفسه الأستاذ محمد البهي الذي تفرغ بعد خروجه من وزارة الأوقاف تفرغا كاملاً لنقد «المادية» وتفنيدها، وإثبات تهافت الفكر المادي

(٣) التقرير ص٨.

فى مؤلفات بالغة الرصانة والقوة، وأيضًا فى تفسيره لأجزاء من القرآن الكريم.. اتخذ فيه من تفنيد الفلسفة المادية موضوعًا لا تخطئه عين قارئ.


العقاد


سيد قطب


الغزالي

ثم كانت مؤلفات المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ الشيخ محمد الغزالي، ومقالاته ومحاضراته، «مصدات» قوية وشامخة وقفت فى مهب الرياح المادية العاتية، التى كانت على وشك اقتلاع الجذور وتسطيح العقول وتزييف الوعى. وقد تميزت محاولة الأستاذ الشيخ بيسر الأسلوب وسهولة العرض، وسرعة الانتقال فى أوساط الجماهير على اختلاف درجاتها العلمية والثقافية، وقد لا تعدو الحقيقة لو قلنا إن الشيخ محمدا الغزالى تفرد بالقدرة على صياغة ثقافة إسلامية رفيعة المستوى، أفاد منها المثقفون والدهماء على سواء، وكشفت للقراء عن عظمة الإسلام وحيوية القرآن والنبى الكريم محمد ﷺ، وأعادت لكثير من المسلمين الثقة فى قدرتهم على أن يجمعوا فى حياتهم المعاصرة بين الدين والدنيا، دون أن يتطرق لنفوسهم طوارق الانفصام أو التضاد أو الاغتراب.

وقل مثل ذلك عن الأستاذ سيد قطب وكتبه التى ألفها ليصور عدالة الإسلام الاجتماعية التى تقف دونها الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية فى الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية حسرى كليلة الطرف.

ولا يمكن لأى راصد لمعركة الماركسية فى العالم العربى – فى ستينيات القرن الماضى وسبعينياته – أن يغفل أعمال السيد محمد باقر الصدر بالعراق التى جاءت هدمًا وتقويضًا للفلسفة المادية فى مذاهب: الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، وقد أفاض السيد الصدر فى بيان المآسى الاجتماعية التى شقيت بها الإنسانية فى ظلال هذه الأنظمة المادية، سواء فى الفكر الرأسمالى أو الاشتراكي. وتميز عمل الأستاذ الصدر بالدقة الفلسفية وبالتحليل العميق للشيوعية والاشتراكية والرأسمالية، وبنقده المنطقى المستند إلى الحجج العقلية، والدلائل الفلسفية والاقتصادية والفقهية على إفلاس هذه المذاهب، التى تنكرت فلسفة الدين وفلسفة الأخلاق، وسيظل الكتابان الخالدان على وجه الزمن – وهما: «اقتصادنا» و«فلسفتنا» – مصباحين يضيئان الطريق لكل راغب فى الاطلاع على عورات الفلسفة المادية، وما نتج عنها من أنظمة اجتماعية خيل للإنسان فى بادئ الأمر أنها الفردوس المفقود، ثم ما لبث أن اكتشف أنها الجحيم الذى لا يطاق.

وما أن تهاوت هذه البناءات العلمية والفلسفية فى بلاد النشأة، بعد سقوط الاتحاد السوفيتى حتى بدأت موجة جديدة من موجات التضليل والالتفاف على المقدسات الإسلامية، وكانت الهجمة هذه المرة على «تراث المسلمين»، والعبث به، وتشريحه وتقطيع أوصاله، ولا تزال هذه الهجمة تواصل حملتها حتى يومنا هذا، وقد نشأت فى هذا الاتجاه نظريات عدة تدور حول ما أسماه بعض الكتاب بمذبحة التراث (٤).

وقد عقدت ندوات كبرى تناقش قيمة التراث فى تحديث العالم العربي، وهل هو عنصر فاعل قادر على صنع مشروع يحقق نهضة العالم العربى والإسلامي، أو أنه عنصر جامد ميت معوق! وحينئذ يحق للمشروع النهضوى – فيما رأى البعض – أن يبدأ من فراغ، ويحق لنا أن نتجه إلى أوروبا وأمريكا نقتبس منها ما نستطيع اقتباسه وتمثله وهضمه، لا نتردد ولا نتحرج ولا ننظر إلى دين أو شريعة أو حضارة عربية وإسلامية.

ويقتضينا واجب الإنصاف أن نقول: إن طائفة من كبار مفكرينا الأصلاء نظروا إلى التراث نظرة شديدة التوازن، ونبهوا إلى أن إغفال تراثنا العقلى والنقلى فى مشروع النهضة هو بمثابة «الانتحار» أو الدمار الحضارى أو «السقوط» فى هاوية لا قرار لها، وأنه لا يتسنى لحضارة عربية حديثة أن تستوى على سوقها إلا إذا اعتمدت على «تراثها» فى عملية التحديث، وذلك حتى تستبين شخصيتها وتتحدد لها ملامحها وقسماتها بين الحضارات الأخرى، مع التنبيه على أن التراث يؤخذ منه ويرد عليه: يؤخذ منه ما يكون ثقافة تقبل أن نعيشها الآن، ويرد ما كان منه ثقافة لصيقة بالعصر الذى أنتجها وسوغها وارتبطت به ارتباطا وثيقا، ولم تعد الآن من هموم هذا العصر أو صوالحه، وهؤلاء هم الوسطيون الذى آمنوا بثوابت التراث ونادوا بالحفاظ عليها، ونظروا إلى متغيراته بعين الاحترام والتقدير، ولكن فى إطار تبدلاتها وتحولاتها التاريخية، حسب تطور الظروف وتقدم العصور وطروء المستجدات، ولكن هذا لا يعنى أن نحكم عصرنا بمتغيرات عصور لا تلبى حاجات هذا العصر، وعلينا أن نفتح باب الاجتهاد.

غير أن طائفة أخرى اشتطت فى دعوتها فأطلقت حق الاجتهاد لكل مفكر ومثقف، حتى لو كان غير مؤهل وغير مستوف لشروط الاجتهاد وضوابطه، وقد زعم هؤلاء أنهم جديرون بحركة إحياء للتراث بغرض تطويعه لمستجدات العصر، وقد اختلفوا طرائق ومدارس: فمنهم من جرد التراث من أخص خصائصه، أعنى النص المقدس، أو «قداسة النص»، واستبدل بها ما يسمى عندهم بـ«تفكيك المقدس».

ومنهم من حصر التراث أصولاً وفروعًا فى فترة تاريخية منتهية، وهؤلاء هم أصحاب مذهب «تاريخانية النص».

ومنهم من أحال التراث برمته إلى

(٤) جورج طرابيشي. مذبحة التراث.

أصول مادية، ليسلك به في درب المذاهب المادية التي تتوقف عند حدود المحسوس ولا تعترف بما وراء العالم المادي.

ومنهم من لجأ إلى تطبيق علم «الهيرمينوطيقا» في تفسير النص القرآني وتأويله، ونادى بأن فهم النص غير ثابت وليس نهائيًا، وأن قراءته مفتوحة ولا فرق في ذلك بين نص أدبي أو نص ديني، والقرآن - عندهم - نص لغوي، تكون في ثقافة عصره وظروفها وتاريخها، ولا يمكن فصله عن بيئته وثقافته التي نزل فيها.

وأصحاب هذا التوجه ينطلقون من التسوية بين النص القرآني المقدس، والنصوص التاريخية، ونصوص التوراة والإنجيل في خضوعها للقراءات الحداثية، غير عابئين بالفروق الدقيقة الحاسمة بين نص القرآن وهذه النصوص، من حيث اختلاف طبيعة المصدر، فهو في القرآن إلهي مقدس؛ وفي غيره كتابات أو إلهامات مؤلفة ومدونة، ونص القرآن الكريم لم يتعرض لتدخل بشرى بالرواية أو باستحضار الأحداث أو بالصياغة بعد موت صاحب النص، أو بوحي من تأثير البيئة والواقع التاريخي ولم يكن للنبي ﷺ أي دور أو عمل إلا نقله وتبليغه للناس كما سمعه ووعاه عن الوحي: حرفًا حرفًا وكلمة كلمة. ثم إن النص القرآني قد توفرت له طرق عجيبة في توثيق النص وحفظه وصيانته وخلوده، لم تتوفر لأي نص آخر من النصوص التاريخية أو الدينية أو الأدبية أو غيرها.. وهذه الفروق الكبرى هي التي سوغت للغربيين أن يخضعوا هذه النصوص التي يتدخل فيها العمل البشري للقراءات الحداثية، إذ هي نصوص مات أصحابها، ومن حق قارئها أن يضرب صفحًا عما كان يقصده هؤلاء الموتى في نصوصهم من معنى محدد أو فهم معين، ومعلوم أن الحداثة الغربية تقتضي أول ما تقتضي قطع الصلة بالماضي وآثاره؛ «لما انطبع في ذاكرتهم من أشكال التخلف التي عانوها في القرون الوسطى، حتى إنهم أصبحوا يفرون من كل ماض - ولو كان ماضيهم القريب - فرارهم من موتهم.

ورغم أن هذا الحال لا ينطبق على ذاكرة المسلمين، لأن هذه القرون كانت تشهد على تحضرهم فقد أبى بعض الدارسين إلا أن ينبوا على أن الأمة المسلمة ينبغي أن تحذو في علاقتها بتراثها وتاريخها حذو الغرب في علاقته بتراثه وتاريخه، فجاءوا بقراءات للقرآن تقطع صلتها بالتفاسير السابقة، طامعين أن يفتحوا عهدًا تفسيريًا جديدًا» (٥).

هذا إضافة إلى أن الواقع الأوروبي الذي نتج عنه المنهج الحداثي كان واقع صراع مرير بين المفكرين والأدباء والفلاسفة من ناحية، والدين والكنيسة ورجالها من ناحية أخرى، وتكشف الصراع عن انتصار ساحق لرجال الأدب والفلسفة،

(٥) روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، تأليف طه عبدالرحمن ص١٧٥ ، ١٧٦، المركز الثقافي العربي، المغرب ٢٠٠٦م، وهو كتاب بالغ الأهمية في نقد الحداثة الغربية والحداثيين العرب في قضية التراث.

وسموا فلسفتهم «الفلسفة التنويرية»، في إشارة صريحة إلى أن فلسفة خصومهم من رجال الدين والكنيسة هي فلسفة ظلام وجهل وتخبط، يجب أن تنجلي غمتها عن الناس. ومن هنا لم يتردد فلاسفة التنوير الغربي في أن يصدعوا بأن الفكر الحداثي يشتغل بالإنسان وينفض يديه من «الإله» جملة وتفصيلاً، وأن العقل وحده هو المرجع وليس الوحي الإلهي، وأن الدنيا هي محور تعلق الإنسان وتوجهه واشتغاله وليس الآخرة (٦).

وبدهي أن منهجا لتفسير النصوص وتأويلها يتخلق في تداعيات كتداعيات الصراع الغربي وتحولاته العقدية والعقلية، لو طبق على نصوص تعتمد أول ما تعتمد على القداسة والوحي الإلهي وتنظر إلى الدنيا من منظور أنها خط قصير في مشوار الحياة، يسلم إلى خط لا يتناهى في حياة لا نهائية، هذا المنهج حين يطبق بطريق القسر على غير متماثلين، بل متدابرين، فإنه لا محالة ينتج قراءة خاطئة ينكرها النص نفسه ولا تعبر عنه من قريب أو بعيد.

وبحثنا الذي نقدم له بهذه المقدمة هو من طراز يجمع في منهجه بين مختلف التوجهات التي أشرنا إليها، وذلك يعد (بعد) ما ينطلق من مبدأ «انتزاع القداسة» من النصوص الأصول في هذا التراث وأعني بها: القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم يفتح الباب بعد ذلك لتاريخية النص، وللمادية الأصولية التي تعني أن وحي القرآن والسنة كان نتيجة لحراك الواقع المادي على الأرض. فهو الذي يستدعيه استدعاء السبب مسببه والعلة معلولها، وهو الذي يغيره حين يتغير، وهو الذي يتحكم فيه نزولاً وتغييرًا وحذفًا وتعديلاً.

ورغم احترامنا للأستاذ الكبير الدكتور حسن حنفي فإن من الواجب العلمي علينا أن نذكر بأن مشروعه ومؤلفاته بمجلداتها الضخمة جاءت كلها لتقول لنا: إن التراث بأصوله وفروعه، لا يصلح للاعتماد عليه في هذا العصر، ولابد من إعادة إنتاجه وتوظيفه عبر التجديد.

إلى هنا قد نتفق معه بصورة أو بأخرى إذا تمت عملية التجديد على أساس استبقاء الأصول والثوابت وكل النصوص القطعية، مع الاجتهاد المنضبط بالنقل والعقل في الفروع الظنية القابلة للتحرك لمواكبة ما يستجد من النوازل والقضايا..

ولكن نختلف معه أشد الاختلاف في أن يجيء التجديد هدمًا وتبديدًا للمسلمات الأولى والثوابت القطعية للتراث وأصوله، ومسخه وتشويهه ثم تقديمه بعد ذلك للمسلمين بحسبانه طوق النجاة لحياتهم المعاصرة.

في هذا البحث دعوى ومقدمات واستدلالات، وفيه أيضًا مناقشات واعتراضات وردود.. أوردناها إبراءً للذمة وابتغاء لمرضاة الله تعالى إنه نعم المولى ونعم النصير

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٦) السابق ١٨٩.

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو يونيه ٢٠١٣ م

تفسير سورة البقرة



للشيخ محمد عبده

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا
مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ
ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا
أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ
لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ
مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ٥٠ - ٥٧)

جاء في الآيات السابقة ذكر تنجية بني إسرائيل من آل فرعون، وهو على كونه تفصيلاً لما قبله من حيث التذكير بالنعم، مجمل من حيث الإنجاء، فإنه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب. وذكر في هذه الآية نعمته في طريق الإنجاء بالتفصيل بعد الإجمال، لبيان عناية الله تعالى بهم فيها إذ جعل وسيلته من خوراق العادات، وجعل في طريقه هلاك عدوهم. وقد يقال إن هذه نعمة مستقلة من نعمه تعالى عليهم لا أنها بيان لإجمال في التي قبلها.

لما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه يدعوهم إلى توحيد الله، وإلى أن يخلي بينه وبين شعب إسرائيل بعد إطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب، لم يزدهم فرعون إلا تعذيبًا وتعبيدًا. وفي «سفر الخروج» من تاريخ التوراة، أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسي قلب فرعون فلا يخفف العذاب عن بني إسرائيل ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته، وأنه بعد الدعوة زاد ظلما وعتوا فأمر الذين كانوا يسخرون بني إسرائيل في الأعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم، وأن يمنعوهم التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ما كانوا يعملونه من اللبن، لا يخفف عنهم منه شيء. فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة. فلما آمن السحرة برب العالمين، رب موسى وهارون، لعلمهم أن ما جاء به ليس من السحر وإنما هو تأييد من الله تعالى، ورأى ما رأى بعد ذلك من آيات الله لموسى، سمح بخروج بني إسرائيل بل طردهم طردًا. وفي «سفر الخروج» أنهم خرجوا في شهر «أبيب»، وكانت إقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة. ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم، وأنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه، وذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ أي واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر، فجعلنا لكم فيه طريقاً يبسًا سلكتموه في هربكم من فرعون ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر، ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ذلك بأعينكم ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه.

فلق البحر كان من معجزات موسى، وقد قلنا في رسالة التوحيد: إن الخوارق الجائزة عقلا، أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما، لا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبي من الأنبياء. ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها، ولا يمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق، واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول كما قال الله تعالى في كتابه الذي ختم به الوحي، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية، بل أرشده تعالى بالوحي الأخير - «القرآن» - إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي، ثم جعل له كل إرشادات الوحي مبينة معللة مدللة حتى في مقام الأدب - كما أوضحنا ذلك في رسالة التوحيد - فإيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى البرهان، لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة، وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل.

وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين، أن عبور بني إسرائيل البحر كان في إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر زقاقا إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدًا يتيسر للإنسان أن يعبر ماشيا، ولما اتبعهم فرعون بجنوده، ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض ثوائبه - وهي المياه التي تجيء عقيب الجزر - فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين.

تحقق إنعام الله على بني إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم، ولا ينافي الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام، فإن نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر - كذا قالوا - . ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه بالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن، فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

(الشعراء: ٦٣)

وهو الموافق لما في التوراة.

بعد أن قرر نعمة الإنجاء من استعباد الظالمين، والبعد من فتنة القوم الضالين، ذكر النعمة التي وليتها، وذكرهم بما كان من كفرهم إياها، فقال:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

وقد كانت هذه المواعدة لإعطائه التوراة، ولما ذهب لميقات ربه استبطئوه فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه، كما هو مفصل في غير هذه السورة.

والمراد هنا التذكير بالنعمة وبيان كفرها، ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم، وإنما هو معهود منهم مع رؤية الآيات، وبعد إغداق النعم عليهم. ولذلك اكتفى بالإشارة إليه بقوله:

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

أى اتخذتموه إلها ومعبودا. وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم، ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة، ثم بالعفو الذى هو جزاء التوبة، فقال:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة.

ثم قفى على هذا بذكر إيتائهم الكتاب، وهو المنة الكبرى، فقال:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

قال المفسر (الجلال) ـ كغيره ـ إن الفرقان هو التوراة وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو ما أوتيه موسى من الآيات والمعجزات. ولكن ذكره بعد الكتاب معطوفا عليه دليل على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والأحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام. ومعنى قوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

لعلكم تهتدون أى: ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعدكم بهذه الأحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية أخرى. وإن من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون، وجاحده الرؤساء المستكبرون والمقلدون الذين لا يعقلون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(البقرة: ٥٤ ـ ٥٧)

فى هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ما سبقه، ومن البلاغة والحكمة أن يجيء

تاليا له ومتأخرا عنه، مهد أولا للتذكير تمهيدا يسترعى السمع، ويوجه الفكر ويستميل القلب، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين.

ولا يرتاح الإنسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم. ثم طفق يفصل النعمة ويشرحها، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يقترن به ذكر سيئة من سيئاتهم، وهو تنجيتهم من ظلم آل فرعون، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم وهو قتل الأبناء، يخفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التى تعتقد أن الله لا يسود عليهم شعبا آخر، وهو مع هذا لا ينفر بها عن الإصغاء والتدبر، لأنه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء إليها. ثم ثنى بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة تتصل بواقعتها، وهى فرق البحر بهم، وإنجاؤهم، وإغراق عدوهم.

لا جرم أن نفوس الإسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عندما تلا عليهم النبى ﷺ هذه الآية، لما فيها من الشهادة بعناية الله تعالى بهم، ولاسيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركى العرب بتلك القوارع الشديدة.

لم يتركها بعد هذه الهزة تجمح فى عجبها وفخرها، وتتمادى فى إبائها وزهوها، بل عقب فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم هى كبرى السيئات التى ظلموا بها أنفسهم، وكفروا نعمة ربهم، وهى اتخاذ العجل إلها، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهى من النعم، وختمها بذكر العفو، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان، وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف.

بعد هذا كله، استعدت تلك النفوس لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تمهيد ولا توطئة، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوءا بقوله تعالي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾

أى واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بنى إسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه إذ كان يناجي ربه فى الميقاتين الزماني والمكاني:

﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها عبدتموه. والقصة مفصلة فى سورتى الأعراف وطه المكيتين، لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات. وأما ما هنا، فهو تذكير لبنى إسرائيل بما تقدم وجهه فى سياق دعوتهم إلى الإسلام:

﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾

أى فتوبوا إلى خالقكم الذى لا يجوز أن تعبدوا معه إلها آخر هو أدنى منكم، وهو من خلقكم، أى: تقديركم وصنعكم، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه. ويحتمل اللفظ أن يكون معناه: ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا.

والتوبة هى محو أثر الرغبة فى الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه فى الحال، وكون مصيره إليه فى المآل. لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهى بعد

مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث في روحه انفعالاً مما فعل وندما على صدوره عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيئ:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

(هود: ١١٤)

فمن علامة التوبة النصوح الإتيان بأعمال تشق على النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب. وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة، سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس. ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهي به أن يجيء معترفا بالذنب معتذرا عنه؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة، وقد أمر بنو إسرائيل بأشق الأعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم. وقد قال:

﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾

لينبههم إلى أن الإله الحقيقي هو الخالق البارئ ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم.

ذلك العمل الذي أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم. والقصة في التوراة التي بين أيديهم إلى اليوم: دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه «بنو لاوي»، فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا ففعلوا، وقتل في ذلك اليوم «نحو ثلاثة آلاف». وقال مفسرنا «الجلال» - كغيره - الذين قتلوا سبعون ألفا، والقرآن لم يعين العدد، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه، فنمسك عنه.

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾

لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلاً لما وعدكم به في الدنيا ولمثوبته في الآخرة، وقوله:

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾

من كلام الله تعالى لا تتمة لكلام موسى عليه السلام في الظاهر، وهو معطوف على محذوف تقديره: ففعلتم ما أمركم به موسى، فتاب عليكم:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أي أنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولاسيما الشرك به.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

أي واذكروا إذ قلتم لنبيكم: يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، أي فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم. وسيأتي بيان هذا التفصيل في سورة الأعراف، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة، وإنما المراد به هنا التذكير كما تقدم.

سؤال بني إسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لا تتصل بمسألة عبادة العجل، وهي معروفة عند بني إسرائيل ومنصوصة في كتابهم. وذلك أن طائفة منهم قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله تعالى من دوننا؟! وانتشر هذا القول في بني إسرائيل، وتجرأ جماعة منهم بعد موت هارون، وهاجوا على موسى وبني هارون وقالوا لهم: إن نعمة الله على شعب إسرائيل هي لأجل إبراهيم وإسحاق فتشمل جميع الشعب. وقالوا لموسى: لست أفضل منا فلا يحق لك أن ترتفع وتسود علينا بلا مزية، وإننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذهم إلى خيمة العهد، فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم، وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين. وهذه النار هي المعبر عنها بالصاعقة. وهل ثمة من نار غير الاشتغال بالكهرباء، وهو ما تحدثه الصاعقة التي تحدث الانشقاق في الأرض أيضًا؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون.

وهكذا كان بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السلام، وكان سوط عذاب الله يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة، وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيرا. فمجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

إن المراد بالبعث هو كثرة النسل، أي أنه بعدما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها، وظن أن سينقرضوا، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجها إلى الذين في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر. وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو:

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾

(الأنفال: ٢٥)

وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين.

بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التي من بها على بني إسرائيل فكفروا بها ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار إليه بما ختم

به الآيـة من أنهم لم يظلمـوا الله تعالى بذلك الذنب المطوى وإنما ظلموا أنفسـهم. وهذا أسلوب آخر من أسـاليب البيان فى التذكير، وضـرب من ضـروب الإيجاز التـى هى أقوى دعائم الإعجاز.

- أما النعمة الأولي، فقوله تعالى:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾

هـذه نعمة مسـتقلة متصلة بمـا قبلها فى سياق الذكرى، منفصلة عنها فى الوقوع، فإن التظليل اسـتمر إلى دخولهـم أرض الميعاد. ولـولا أن سـاق الله إليهم الغمـام يظللهم فى التيه لسـفعتهم الشموس ولفحت وجوههم. ولا معنـى لوصـف الغمـام بالرقيـق كما قال المفسـر «الجلال» وغيره: بل السـياق يقتضى كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل، الذى يفيده حـرف التظليل إلا بسـحاب كثيف يمنع حر الشـمس ووهجها. وكذلـك لا تتـم النعمة التـى بها المنـة إلا بالكثيف، وهـو المنقول المعروف عند الإسـرائيليين أنفسهم.

- وأما النعمة الثانية، ففى قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾

ما منـح الله تعالى يسـمى إيجـاده إنزالاً، ومنه:

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾

(الحديد: ٢٥)

علـى أن المن ينـزل كالنـدي، وهو مادة لزجة حلوة تشـبه العسـل، تقـع على الحجر وورق الشـجر مائعـة، ثـم تجمـد وتجـف فيجمعهـا الناس، ومنها الترنجين وبه فسـر المن مفسرنا وغيره.

وأما السـلوى فقد فسروها بالسـماني وهو الطائر المعـروف، فمعنى النـزول يصح فيه على حقيقته أيضًا. وظاهر أن قوله تعالي:

﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

مقدر فيه القول. وفى «سـفر الخروج» أن بنى إسـرائيل أكلـوا المن أربعين سـنة، وأن طعمـه كالرقاق بالعسـل، وكان لهم بدلا من الخبـز. وليس المـراد أنه لم يكـن لهم أكل سـواه إلا السـلوى، فقد كان معهم المواشى ولكنهم كانـوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتي.

وفى قوله تعالي:

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

تقرير لقاعدة مهمة، وهى أن كل ما يطلبه الديـن من العبد فهو لمنفعتـه، وكل ما ينهاه عنـه فإنمـا يقصد به دفـع الضرر عنـه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحد ضره فيضره، كما ثبت فى الحديث القدسي. فكل عمل ابن آدم له أو عليه:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

•••

بيان رد الشبهات عن القرآن الكريم



لفضيلة الشيخ عبدالمجيد حامد صبح

أتى بتركيب يؤدى إلى اضطراب المعنى

جاء فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

(الفتح: ٨، ٩)

وهنا تـرى اضطرابًا فى المعنى بسـبب الالتفـات مـن خطـاب محمـد ﷺ إلـى خطـاب غيره ولأن الضميـر المنصوب فى قوله تعـزروه وتوقروه عائد على الرسـول المذكـور آخـرًا وفـى قوله تسـبحوه عائد علـى اسـم الجلالـة المذكـور أولاً هذا ما يقتضيـه المعنى، وليس فى اللفظ ما يعينه تعيينًا يزيل اللبس، فإن كان القول تعزروه وتوقـروه وتسـبحوه بكرة وأصيـلا عائدًا على الرسـول يكـون كفرًا، لأن التسـبيح لله فقـط، وإن كان القول تعـزروه وتوقروه وتسـبحوه بكـرة وأصيـلا عائـدا على الله يكـون كفـرًا، لأنه تعالـى لا يحتـاج لمن يعـزره ويقويـه!!

تبيين الجواب

وأقـول: سـؤال طويـل، بعث بـه التياس طويـل، وتعسـف أطـول، الله تعالى أرسـل الرسـل جميعًا، وخاتمهـم محمداً ﷺ ليرد الناس إلى الله ويعرفوه حق معرفته، ويعبدوه على صراط مستقيم وينصروه بنصر دينه.. وهـذا مـا قررته هـذه الآية من غير التباس، فجميـع الضمائـر عائـدة على الله سـبحانه وتعالـى، فـالله يقـول مخاطبـا رسـوله ﷺ وأمته: إنا أرسـلناك شـاهدًا على أمتك، كما قال:

﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وليكـون مبشـرا للمؤمنيـن ومنـذرًا للمعاندين، كما قال:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

(مريم: ٩٧)

أرسـله بهذه الوظائـف ليؤمن الناس بالله

ورسله، ويعزروا الله وينصروه ويوقروه ويسبحوه بكرة وأصيلا.

أما ما ذكرتم من التقسيم والسبر: إن كان الضمير كذا وكذا فيكون كذا وكذا فهذا من سوء الفهم، فالضمير في (تعزروه وتوقروه عائد على الله عز وجل)، وليس في ذلك شائبة كفر، كما زعمتم فالمعنى: تقروا دينه وتنصروه، كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(محمد: ٧)

وأصله النحوي من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو كثير كثير في القرآن ولغة العرب ومنه في القرآن الكريم

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾

(التغابن: ١٧)

أترون أن الإقراض (الصدقة) على عباد الله الفقراء كانت إقراضاً لذات الله تعالى فيكون كفرًا (تعالى الله)، إن هذه التعبيرات إعلاء وتكريم لكل عمل يأمر به الله ويقرب فاعله من الله، تحضيضًا عليه وتقوية لباعث الإيمان عليه، كما يقول الله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(الأنفال: ١)

وفي السورة نفسها:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(الأنفال: ٤١)

وأما ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ فهو لله سبحانه وتعالى أيضًا لأنه بمعنى التعظيم وإجلال الله والخوف منه، كما قال تعالى:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾

(نوح: ١٣)

وبهذا يتبين أن الآية ليس فيها التفات من حيث إن الخطاب للرسول ﷺ وأمته على نحو قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾

(الطلاق: ١٠)

على أن الالتفات أو عدمه ليس موضوع المسألة، إنما المسألة تحقيق مرجع الضمائر وقد بيناه وبينا أنه لا إشكال فيه.

تنوين الممنوع من الصرف

جاء في قوله تعالى:

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾

(الإنسان: ١٥)

بالتنوين مع أنها لا تنون لامتناعها عن الصرف؟ إنها على وزن مصابيح، وجاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾

(الإنسان: ٤)

فلماذا قال سلاسلاً بالتنوين مع أنها لا تنون لامتناعها من الصرف؟

تبيين الجواب

وأقول: إذا كنتم تعرفون الممنوع من الصرف حتى أخذتم تخطئون وتصوبون فما بالكم لم تعرفوا إعراب (ضراء)؟!(١)

وها أنتم ترتدون على أدباركم: (قوارير وسلاسل) على ما هما عليه في المصحف الشريف ليسا منونين والألف بعدهما مرسوم عليها ما يشبه علامة السكون دلالة على أن هذه الألف لا تنطق عند الوصل وإنما تنطق عند الوقف، وعند الوقف ينطق اللفظان بدون تنوين (الذي هو الصرف) وتكون الألف ألف الإطلاق، كما هي في قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾

(الأحزاب: ٦٦)

فهذه الألف لا يمكن أن تكون بدلاً عن التنوين لأن التنوين لا يجتمع مع (أل) ولا مع الإضافة وألف الإطلاق هذه معروفة في العربية ومن أمثالها قول جرير:

أقلي اللوم عاذل والعتابا
وقولي إن - أصبت - لقد أصابا
أجدك ما تذكر عهد نجد
وحيا طالما انتظروا الإيابا

زيدت ألف الإطلاق في الفعل (أصابا) والفعل لا ينون ولحقت الاسم المقترن بأل (العتابا الإيابا) وهو لا ينون.

وفي قراءات القرآن قراءة بتنوين قوارير وسلاسل وهي لغة عربية صحيحة وقاعدتها النحوية أن جمع التكسير الممنوع من الصرف يجوز صرفه ومنعه.

قال ابن مالك في ألفيته:

والصرف في الجمع أتى كثيرا
حتى ادعى قوم به التخييرا

فالزعم بأن صرف (قوارير وسلاسل) خطأ - قام على وجه واحد فأوقع صاحبه في الخطأ، إذ حسب أن ما عنده هو كل العلم ونصف الحق باطل، وخير لك أن لا تعلم من أن تعلم نصف الحقيقة.

ومما يدل على نقص علم هذا الزاعم قوله (قوارير) بالتنوين مع أنها لا تنون لامتناعها عن الصرف؟ إنها على وزن مصابيح، أما العلم والعالم فيقول: من الأسماء الممنوعة من الصرف (الجمع المنتهي) وضابطه: كل جمع تكسير بعد ألف تكسيره حرفان أو ثلاثة وسطها ساكن، بشرط ألا يكون الثاني بعد ألف التكسير متحركًا وإلا صرف مثل عباقرة - صيارفة - صياقلة - أشاعرة.

لقد كان أئمة العربية ينفقون عمرًا طويلاً في تعلم العربية قبل البحث في القرآن كانوا يحفظون دواوين شعرها ونثرها وآدابها تدرجًا لدراسة القرآن، وفي ذلك عاش (النضر بن شميل) أربعين سنة في الصحراء يحفظ شعرها ونثرها ولغتها من لسان العرب الأقحاح ولما مر الإمام ثعلب على أبي الفتح بن جني إبان شبابه وهو يلقي درسًا قال له لقد تزببت وأنت حصرم.(٢)

(١) راجع عدد مجلة الأزهر شهر جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ ص٩١١.

(٢) تزببت: جعلت نفسك زبيبًا وأنت عنب (حصرم) لم تنضج بعد - والحصرم بكسر الحاء.

فصحبه أربعين سنة يتعلم، وكان أبوبكر ابن الأنبارى يحفظ ٣٠٠٠٠٠ بيت شعر من شعر من يحتج بهم من شعراء العربية شواهد للقرآن، كما كان يحفظ ١٢٠ تفسيرًا وكان عبدالله بن عباس أحيانًا يستشهد ببيت من شعر عمر بن أبى ربيعة فيقول له قائل: أبه تستشهد (يقصد أن شعره كله فى الغزل) فينطلق ابن عباس فينشد القصيدة كلها، فكانوا يتأهلون بلغة القرآن وعلومها قبل دراسته، يقول الإمام الزمخشرى فى مقدمة كتابه (الفائق): يجب على من يريد دراسة القرآن أن يتقن خمسة عشر علمًا.. أسألكم بأقدس ما تؤمنون به: أين أنتم من هذه الأمثال. لقد تربيتم وأنتم حصرم.

تنكير خبر الاسم المؤنث

جاء فى قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

(الشورى: ١٧)

لماذا لم يؤنث خبر (لعل)، فيقول (قريبة)، وهو عائد على (الساعة) وهى مؤنثة؟

تبيين الجواب

وأقول: لو كان السائل يملك شيئًا من التنسيق الفكرى لضم هذه الشبهة إلى الشبهة الثالثة (٣)، فإن القول فى:

﴿ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

(الشورى: ١٧)

هو القول فى ﴿ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

(الأعراف: ٥٦)

ولقد أفضنا فى الرد بما يغنى عن التكرار (للشطار).

أتى بتوضيح الواضح

جاء فى قوله تعالى:

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

فلماذا لم يقل تلك عشرة مع حذف كلمة كاملة تلافيًا لإيضاح الواضح، لأنه ما من أحد يظن العشرة تسعة؟

تبيين الجواب

وأقول: كان عليكم أن تقولوا: لماذا قال:

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

ومن الواضح أن ثلاثة + سبعة = عشرة لا يخفى على صبى مبتدئ، لكن اللغة، أى لغة، حمالة أوجه فلو لم يقل تلك عشرة لاحتملت اللغة أن المتمتع إذا لم يصم الثلاثة فى الحج صامها سبعا إذا رجع، فلرفع هذا الاحتمال قال:

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

كما قال:

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

(النحل: ٥١)

(٣) راجع مجلة الأزهر عدد شهر ربيع الأول ١٤٣٤ هـ ص٤٧٣.

العرب تجمع بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فيقال رجال ثلاثة؛ لأن المعدود لا يدل على العدد المخصوص، أما (رجل ورجلان) فالمعدود فيهما يدل على العدد المخصوص فلا حاجة إلى أن يقال (واحد أو اثنان)، لكن الاسم الحامل لمعنى الإفراد أو التثنية يدل على الجنس والعدد معًا، فإذا كان مقصود المتكلم العدد وليس الجنس فلابد من رفع الاحتمال بذكر العدد لذلك قال الله:

﴿ إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(النحل: ٥١)

لأن المقصود رفع الاثنينية وإثبات الوحدانية، يوضحه أنه لو قيل: (إنما هو إله) كان إثباتًا للألوهية دون الوحدانية فيفوت المقصود، فهل يقال: إن ذكر العدد فى هذه الآية توضيح للواضح، وذكر العدد، بإطلاق، يتطرق إليه الاحتمال فإذا قلت: فعلت كذا سبعين مرة فيحتمل أنك قصدت التكثير وليس الحصر، ولما قال الله للرسول:

﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾

(التوبة: ٨٠)

أراد عمر من الرسول ألا يستغفر مطلقًا للمنافقين ولكن الرسول ﷺ الذى بعث رحمة للعالمين قال لأزيدن على السبعين، أملاً فى أن يغفر الله لهم حتى نزل قوله تعالى:

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

(المنافقون: ٦)

والرجل يقول لأهله اصنعوا لنا كوبى شاى ويريد ما يكفى أهل الدار فإذا أراد مدلول التثنية قال كوبين اثنين وفى سورة الزخرف: على لسان المعاندين المنكرين للقرآن على محمد:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(الزخرف: ٣١)

والمراد من إحدى القريتين فأقام المضاف إليه مقام المضاف، الاثنينية غير مقصودة، وقول الله تعالى:

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾

(الصافات: ١٤٧)

معنى (أو): بل يزيدون فقوله أو يزيدون دل على العدد قبله بسبب ما يتسلون ويلدون بعد إرساله، وشاهد (أو بمعنى بل) ما أنشده الفراء:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى
وصورتها، أو أنت فى العين أملح

فلما كان إطلاق العدد يتطرق إليه الاحتمال أراد الله فى آية من آيات التشريع أن يرفع احتمال النقص أو الزيادة فقال كاملة، وكل من درس فى علوم البلاغة مسألة الإيجاز والإطناب لا يتطرق ذهنه إلى مثل ما ظننتم، فالعيب فى الأفهام التى لم تحكم العلم!، ثم أختم هذه المسألة بقول المعتب عن حبه:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد
جاءت محاسنه بألف شفيع

أترونه أراد بالألف ألفا؟ لو أرادها لقال: ألفا كاملة.

تاريخ النزول وسببه



للشيخ محمد الغزالي

تاريخ النزول وسببه: أصلان عظيمان في تبيان الأحكام، واستكمال الصورة الشرعية على أوضاعها الصحيحة، وترتيبها العتيد.

ونحن نعلم أن ترتيب المصحف على نسقه القائم - وإن تم بتوقيف الرسول، واجتماع أصحابه - يخالف ترتيب نزوله حسب الوقائع والأزمان.

كانت الطائفة من الآيات تنزل، فيأمر الرسول كتبة الوحي أن يضعوها في المكان الذي يذكر فيه كذا وكذا، وربما يكون نزل قبلها بسنين.

وما دام هذا الترتيب قد وقع بإشراف الرسول نفسه، فلابد أن يكون ذلك كي تتفق صورة المصحف مع الأصل الثابت لها في السماء.

وطبيعي أن تكثر الروايات عن أول ما نزل، وعن آخر ما نزل، وعن السبب في نزول آية ما، وعن مكان نزولها.. وللأقدمين بحوث في ذلك مستفيضة لا يتسع المجال هنا لشرحها، ولا لنقدها.

ونحن نذكر الترتيب الآتي للسور وفق مجيء الوحي بها للرسول ﷺ، وإن كانت لنا عليه ملاحظات.

فأول ما نزل من القرآن بمكة (اقرأ باسم ربك الذي خلق - ثم ن والقلم - ثم يا أيها المزمل - ثم المدثر - ثم تبت يدا أبي لهب وتب - ثم إذا الشمس كورت - ثم سبح اسم ربك الأعلى - ثم والليل إذا يغشى - ثم والفجر - ثم الضحى - ثم ألم نشرح - ثم والعصر - ثم والعاديات - ثم إنا أعطيناك الكوثر - ثم ألهاكم التكاثر - ثم أرأيت الذي.. - ثم قل يا أيها الكافرون - ثم الفيل - ثم قل هو الله أحد - ثم والنجم - ثم عبس - ثم سورة القدر - ثم سورة البروج - ثم التين - ثم لإيلاف قريش - ثم القارعة - ثم القيامة - ثم الهمزة - ثم المرسلات - ثم ق - ثم سورة البلد - ثم الطارق - ثم اقتربت الساعة - ثم ص - ثم الأعراف - ثم الجن - ثم يس - ثم الفرقان - ثم فاطر - ثم مريم - ثم طه - ثم الواقعة - ثم الشعراء - ثم النمل - ثم القصص - ثم سورة بني إسرائيل - ثم يونس - ثم هود - ثم يوسف - ثم الحجر - ثم الأنعام - ثم الصافات - ثم لقمان - ثم سبأ - ثم الزمر - ثم المؤمن - ثم السجدة - ثم حم عسق - ثم الزخرف - ثم الدخان - ثم الجاثية - ثم الأحقاف - ثم الذاريات

- ثم الغاشية - ثم الكهف - ثم النحل - ثم نوح - ثم إبراهيم - ثم الأنبياء - ثم قد أفلح المؤمنون - ثم تنزيل السجدة - ثم الطور - ثم الملك - ثم الحاقة - ثم سأل سائل - ثم عم يتساءلون - ثم النازعات - ثم إذا السماء انفطرت - ثم إذا السماء انشقت - ثم الروم - ثم العنكبوت).

واختلفوا في آخر ما نزل بمكة، فقال ابن عباس: العنكبوت، وقال الضحاك وعطاء: المؤمنون، وقال مجاهد: ويل للمطففين، فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات.

وأما ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت الأرض، ثم الحديد، ثم سورة محمد ﷺ، ثم الرعد، ثم سورة الرحمن، ثم هل أتى على الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم الفلق، ثم الناس، ثم إذا جاء نصر الله والفتح، ثم النور، ثم الحج، ثم إذا جاءك المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الصف، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الفتح، ثم التوبة، ثم المائدة.



على أننا نلاحظ أن السور لم تنزل بهذا الترتيب كاملة، فقد تلحق بها آيات في أمكنة وأزمنة أخرى.

فالآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية، وإن كانت السورة مكية، ومع الفاصل الزمني، واختلاف الأسلوب طولاً و قصرًا، فإن المعنى الذي عرضت له هذه الآية متصل بصدر السورة.

وقد رأينا خلافًا بين علماء الروايات في أماكن النزول، خذ مثلاً سورة الأنعام، فهناك قول بأنها نزلت كلها جملة واحدة بمكة، وهذا ما أرجحه، بل ما تتظاهر الدلائل على صحته، ومع ذلك فقد وردت أقوال أخرى تجعل عددًا من آياتها مدني النزول، والمتأمل في هذه الأقوال يستبعد بعضها ويجزم ببطلان البعض الآخر.

يقول الله عز وجل في هذه السورة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(الأنعام: ٢٢، ٢٤)

هذا المعنى المتصل المتماسك يجيء بعض الرواة فيقول: إن آخر آية منه نزلت بالمدينة أما الأوليان فقد نزلتا بمكة..!! وهذا تقطيع لا يسوغ .....

وفي هذه السورة نفسها يقول الله عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

(الأنعام: ١٤١)

ثم يعطف على هذا الإنشاء نعمًا أخرى

يمتن بها على عباده فيقول:

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾

(الأنعام: ١٤٢)

فيجيء بعض الرواة فيقول: إن الأولى مدنية والثانية مكية، أي أن المعطوف والمعطوف عليه في سياق واحد بينهما أزمنة وبلاد.

وهناك آيات تعرضت لأهل الكتاب فجاء الرواة وعدوها مدنية كأن الكلام عن أهل الكتاب في مكة لا محل له!

والواقع أن هذه الروايات ينقضها التمحيص العلمي والتحقيق التاريخي. وشيوعها بهذه الصورة يشبه شيوع القول بالنسخ مع ضعف سنده من ناحيتي العقل والنقل.

والغريب أن هذه الروايات الواهية هي التي أثبتها دون غيرها نفر من الحفاظ أشرفوا على طبع هذا المصحف أخيرًا في دار الكتب المصرية، والخطب سهل على كل حال..

وما يقال في الصفة المكية والمدنية، يقال في الترتيب الزمني لبعض السور! فسورة المزمل مثلا تجيء الثالثة في ترتيب النزول، مع أن القارئ لا يفوته وهو يتلو آياتها ملاحظة أن قيام الليل الذي أمر به الرسول إنما يكون بقرآن كثير، يستغرق الساعات لا الدقائق، وأين هو إذا كان ما نزل سورتين فقط من قصار السور... !!

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

(المزمل: ٢ - ٤)

ثم إن الوعيد الموجه إلى المكذبين، وتخويفهم بخزي الدنيا والآخرة ما يتصور إلا بعد الجهر بالدعوة، واشتباكها بجدل الخصوم ومؤامراتهم:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾

(المزمل: ١٠ - ١٢)

ويبدو أن عناية الحفاظ باستظهار القرآن الكريم على الوضع المأثور، أي بتوقيف الرسول نفسه قد استنفدت الاهتمام كله، فلم تتوفر الجهود على تتبع أزمنة النزول بأسلوب يقوم على الدقة الواجبة، وإن كانت الأحكام قد ظفرت بقسط وافر من العناية المشكورة.

والعلماء الثقات لم تفتهم هذه النظرة الفاحصة، وينبغي - ونحن ندرس النقول المروية - أن نحتفي بآرائهم فلا تخفى بين عشرات الأقوال التافهة التي ملأ السيوطي مثلا بها كتابه..

•••

اختلاف الأحوال يقتضي اختلاف التوجيه، وتباين المواطن يقتضي تباين الأوصاف، وهذا وذاك دلالة انسجام لا دلالة تناقض، فإذا قال الله في المجرمين:

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾

(الصافات: ٢٤)

أو قال:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

(الحجر: ٩٢، ٩٣)

ثم قال مرة أخرى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

(الرحمن: ٣٩)

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾

(الرحمن: ٤١)

فليس هناك تناقض بين هذا السياق وذاك.

فإن المجرمين في دنيانا هذه عندما يواجهون تبعات آثامهم (يسألون مرة أو مرتين) ثم تمر بهم مراحل شتى قبل إيقاع العقاب عليهم، لا يسألون عن شيء بل يقتادون في صمت إلى السجن أو الشنق!!

فالقول بأنهم سئلوا لا ينفيه القول بأنهم لم يسألوا، ذاك في موقف وهذا في موقف آخر..

وتلك الأوصاف المتغايرة تشبه الأحكام المتغايرة لا لشيء إلا لأن القضايا التي تعرضت لها ليست سواء، فلا جرم أنها تصدر متفاوتة في اللطف والعنف، والأخذ والتجاوز.. ومعاملة الكافرين بالإسلام من هذا القبيل، لم يرد فيها حكم واحد، ولم ينسخ فيها حكم ورد، بل كل حالة يرصد لها ما يناسبها وكل موقف يتنزل فيه ما يصلح له.

واختلاف الأوامر والوصايا في هذا الشأن لا يعاب، المعيب هو جمود التوجيه على تلون أحوال الخصوم، وتقلبهم، بين الإنصاف والاعتساف.

والإسلام منذ ظهر، ثم بعدما دخل في أطوار الكفاح ضد معوقي سيره، ثم بعدما اجتاز هذه المراحل ليستقر وينمو، مرت به أوامر ونواه كلها حق، وإن هادنت حينا وخاصمت حينًا آخر، فلم يكن بد من ملاينة أهل السلم، ومجافاة أهل العدوان، وكلا النصين في موضعه سليم، وليس العيب كما قلنا في اختلاف الأدوية إذا اختلفت العلل، إنما العيب ألا تحسن المداواة، أو أن تضع علاجًا مكان آخر.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقد أقحم القول بالنسخ في الآيات الواردة بشأن الكفار إقحامًا غريبًا، فألغى بعضها دون وعي، وأعمل البعض الآخر دون فقه، والأمر أجل من ذلك وأحوج إلى تغلغل النظر وسداد القول.

والقارئ اللبيب يرى أن الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له والكافرين به بأساليب شتى، ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام وهو عنه صاد، كل ما ينشده الإسلام أن يعامل في حدود النصفة والقسط، وألا تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرئ انشرح صدره به.

ولم يكن على الإسلام من بأس، ولن يكون عليه بأس أبدًا لو أصر ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم، فكلمة:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(الكافرون: ٦)

وكلمة:

﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(يونس: ٤١)

هذه الكلمات وأمثالها مما تردد في الإسلام هي التي ظلت تتردد في أواخر العهد المدني، ويخاطب بها كل إنسان.

فالإسلام لم يفرض على النصرانى أن يترك نصرانيته، أو على اليهودى أن يترك يهوديته، بل طالب كليهما، مادام يؤثر دينه القديم، أن يدع الإسلام وشأنه، يعتنقه من يعتنقه، دون تهجم مر، أو جدل سيئ.

●●●

كن مسيحيًا أو إسرائيليًا، ولكن لا تكن خصمًا للإسلام ونبيه وأتباعه تتمنى لهم الشر، وتتربص بهم الدوائر، واسمع إلى قول الله فى سورة البقرة - يخاطب أهل الكتاب:

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٩)

وفى سورة آل عمران:

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(آل عمران: ٢٠)

وفى سورة النساء - بعد ما ذكر تفضيل اليهود للوثنية على الإسلام - قال لهم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وسورة المائدة - وهى آخر السور نزولا - تحدد وظيفة الرسول بهذه الآيات:

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

(المائدة: ٩٩)

ويقول:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

(المائدة: ٩٢)

وفى سورة التوبة - وهى التى أعلنت الحرب على طوائف من أهل الكتاب ختمت السورة بهذا التوجيه:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

(التوبة: ١٢٩)

لم يقل: فإن تولوا فعليهم اللعنة، ولابد من مقاتلتهم حتى يتخلعوا عن دينهم، ويدخلوا فى ديننا، كلا، إن توليتم فالملجأ إلى الله من كيدكم إن أغراكم الشيطان بكيد، أو دفعكم إلى حرب.

والواقع أن الإسلام لم يشتبك فى قتال مع النصارى أو اليهود إلا بعد أن وصل هؤلاء وأولئك إلى منزلة فى السلوك والسياسة عريت عن الشرف والعدالة، وبعدت عن مرضاة الله كما يصوره موسى وعيسى أنفسهما، فهم تمردوا على أنبيائهم قبل أن يتمردوا على محمد، وهدموا حدود الحلال والحرام، كما آلت إليهم قبل أن يهدموا حدود الحلال والحرام كما بينها القرآن الكريم، وكما شرحها النبى المتواضع النبيل محمد بن عبدالله، وفى مثل هذه الحالات تكون موالاة الكافرين خيانة لمبادئ الحق، ويكون النزول على إرادتهم تسليمًا مطلقًا للباطل وأهله.

ومع ذلك فإن القتال إذا وقع لم يشترط الإسلام لانتهائه شروطًا تخرج الناس عن الحق، كما يتصورونه، وتدخلهم فى الحق كما يتصوره هو.

إن هناك شروطًا يرضاها الجميع، وتتفق مع أفهام الفريقين المتنازعين مهما ضاقت أو اشتطت هى: العدل والرحمة، ودائرة العدل والرحمة رحبة الآفاق، واسعة الأقطار، يتعاون فيها أهل الأديان جميعًا على حسن الجوار، وكرم اللقاء، بل إنها تتسع للمؤمنين، ولمن لا يدين بدين.

وبدهى أن المسلم سوف يلجأ إلى الحذر والتوجس، إذا كان الآخرون دائبين على استباحة الحق، وكراهية دينه، ورفض الاعتراف بنصيبه فى الحياة والكرامة والحرية، والدعاية المؤذية العاقلة. وآيات القرآن التى أتت شارحة موقف الإسلام لمن يدخل فيه لا صلة لها بالنسخ ومعرفة المتقدم والمتأخر منها، إنما تفيد تفهم الملابسات والدوائر التى تعمل كل آية داخل نطاقها لا تعدوه.

ولا نزال نحن الدعاة إلى الإسلام مطالبين إلى هذا اليوم وإلى ما بعده بإنفاذ قوله - عز وجل:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

(الروم: ٦٠)

وقوله:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

(ق: ٣٩)

وقوله:

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾

(الحجر: ٨٥)

وقوله:

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٨٣)

وقوله:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: ٢١، ٢٢)

وما أشبه ذلك من الآيات التى تملأ فؤاد المسلم بالشعور الصحيح فى كل طور من أطوار الدعوة إلى الله، والتى تعلمه مساندة الحق بالثبات والسكينة، وبارتفاع النفس عن المهاترة والتشفى.

إن هذه الآيات ترسم أطرافًا من سياسة الدعوة إلى الله لا يلحقها نسخ ولا يمكن إهمالها حين تبنى العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أهل الأرض.. ومثلها فى الخلود قوله تعالى:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٠)

فقتال العدوان لا يحله الله لأحد من خلقه، ولا يمكن أن ينتصر به حق، ولا أن يتخذل به باطل، والوسائل الشائنة لا تقر بها فضيلة، ولا يتوطد بها إيمان.

وإذا كنا نحتقر هذا اللون من الحروب أيا كان مشعلها، فنحن لا نهمل حق الإيمان فى تمسك أصحابه به، وحرصهم على حياته وكرامته.

ويستطيع الإنسان أن يموت دون عقيدته فى مقام لا تلحقه ريبة، ولا يشتم منه طغيان ولا تحد ولا افتيات.

ويستطيع أن يلحق بخصومه أبلغ الأذى، وهو مستمكن من قوته، ومطمئن إلى عقباه.. والإسلام يرفض المسلك الأخير، ويستحب المسلك الأول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

ومبدأ المعايشة السلمية الذى نسمعه الآن فى الشرق والغرب، ولا نلمح من ورائه نية صالحة، ليس بدعة ابتكرها عصرنا الحاضر، وإنما هو نبت إسلامى عرف فى أرضنا وحدها، وحمله المسلمون إلى الناس هنا وهناك، والصياح به قد يقبل بعد اصطلاح الأمم كلها على تحرير الأرقاء وترك المستعمرات لشعوبها المهيضة، وترك الأديان جميعًا تعرض عقائدها وتعاليمها على الضمائر والأذهان دون سدود ولا قيود...

أما قبل ذلك، فالرضا عن المظالم لن ينشئ سلامًا.



ومعرفة ترتيب النزول كما يفيد فى شرح آيات الأحكام، يفيد فى شرح كثير من الآيات المتصلة بالنبوة، ومعالم الرسالة.. ويمكن أن تتبع على ضوئه حقيقة ما، لنعرف بدءها وسيرها ونماءها.

ومن المسائل التى دار حولها الكلام، واختلف فى فهمها العلماء: أمر الإعجاز المادى الذى أيد الله به نبيه محمدًا ﷺ.

فالجمهور على أن الله أجرى خوارق مادية على يدى رسوله لتكون أدلة صدقه، إلى جانب المعجزة الكبرى الخالدة، وهى القرآن الكريم.

والمحققون على أن الآيات المادية التى وقعت لا تحمل اسم المعجزة، وإنما هى خوارق بثها الله فى طريق نبيه، خوارق أكرمه بها، وجعلها مشابهة لما وقع للرسل السابقين، حتى لا يمتازوا عليه بشىء يعجب الجماهير، ويرونه دلالة تفوق.

ومع هذه الآيات المادية، فإن الله عز وجل لم يقدمها على القرآن الكريم، بل جعل القرآن المعجزة المنفردة بالسبق والعظمة والخلود..

وقد ملنا إلى هذا الرأى وشرحناه فى كتبنا الأخرى..

ويرى الدكتور الغمراوى أن هناك خوارق تحمل وصف الإعجاز، قد أجراها الله على يد رسوله، ثم شرع الدكتور يقارن بين الآيات التى نزلت تنفى بظاهرها الإعجاز المادى، والآيات التى أثبتته، ويناقش المعارضين له فى حجاج هادئ رقيق وذلك فى تفسيره لسورة القمر.

لقد استدل أولاً على وقوع انشقاق القمر بما اتضح له من حجج، ثم أخذ يفند آراء المخالفين ممن ينكرون الانشقاق، ويجعلون موعده يوم القيامة.. قال:

ويبدو أن الذى حملهم على التأويل أحد أمرين أو كلاهما: عجزهم عن التوفيق بين ظاهرة آية:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

(القمر: ١)

وبين الآيات القرآنية المتعددة التى تأبى وتنكر على طلاب الآيات ما طلبوا، وظن المؤولين أن انشقاق القمر فيه خرق للسنن الكونية، يأباه العلم الحديث والقرآن.

وهم فى العجز مقصرون، وفى الظن مخطئون.

فلو أنهم رجعوا إلى ترتيب نزول سور القرآن فى تاريخ القرآن للزنجانى، أو طبقوا المعلومات القيمة المذكورة فى ديباجات السور فى مصحف فؤاد لتكشفت لهم حقيقة تاريخية مهمة هى أن نزول آية انشقاق القمر سابق على نزول الآيات الأخرى، إذ ليس فى الست والثلاثين سورة السابقة فى النزول على سورة القمر آية تنكر أو تمنع إجراء معجزة على يده ﷺ كالتى طلبت قريش.

وإذن يكون نزول آيات الإنكار نتيجة لتكذيب من كذب بمعجزة انشقاق القمر بعد أن رآها، فإن من يكذب بمعجزة رآها، وينسبها إلى السحر سيكذب غيرها من المعجزات وينسبه إلى السحر أيضًا، ويكون إذن من العبث إجراء معجزة أخرى لهم كالتى طلبوا، وإلى هذه يشير تعالى فى سورة الحجر:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

(الحجر: ١٤، ١٥)

وسورة الحجر متأخرة عن سورة القمر.

وليس من المحتمل أن تكون آية:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ متأخرة فى نزول السورة نفسها، لأنها أول آية فى السورة ومعروف أن نزول السور المنجمة إنما كان يعرف بنزول البسملة وأول السورة.

وسبب آخر منع من تكرار المعجزات الحسية لقريش أو لغيرها من العرب أن سنة الله فى المكذبين بالمعجزات بعد أن شهدوها تقضى بإهلاكهم، كما هو واضح من القصص القرآنى فى سورة القمر وغيرها، ولكن رحمة الله كانت قد سبقت لأكثر قريش والعرب أنهم سيؤمنون، ويكون لهم فى نشر الإسلام والجهاد فى الله شأن أى شأن، فاقتضت حكمة الله ورحمته بعد أن كذب من كذب بمعجزة انشقاق القمر فاستحق الهلاك، أن يحبس الله عمن غاب عنها غيرها من المعجزات الحسية حتى لا يكذبوا بها فيهلكوا.

ولابد أن تكون سنة الله قد نفذت فى القليل الذى أجريت لهم معجزة انشقاق القمر من كفار قريش فيكونوا ممن هلك فى بدر أو قبلها مع من هلك من المستهزئين.

والحديث الذى ذكره الألوسى رواية عن أبى نعيم يشهد لهذا على ضعف فيه عند الألوسى، فقد ذكر أسماء بعض رءوس المشركين الذين شهدوا الآية وكذبوا بها وكلهم كانوا من المهلكين مثل النضر بن الحارث، وأبى جهل بن هشام.

وآية الإسراء وقعت بعد آية انشقاق القمر، وهى وإن كانت من المعجزات الكبرى إلا أنها بالنسبة للمشركين لم تكن إلا خبرًا أخبرهم به النبى فكذبوه رغم امتحانهم له ﷺ فى أوصاف بيت المقدس، ورغم ما كشفه من أخبار العير التى رآها فى الطريق وصدقه فيه أهلها بعد قدومها ورأوه بأعينهم فى بعضها.

ولو أنهم صدقوه ﷺ فى خبر الإسراء

لقص عليهم خبر المعراج وهو أكبر وأعجب من الإسراء، وكل منهما ثابت بالقرآن وبالحديث الصحيح على ظاهره من غير تأويل.

ويبدو أن من لم ير انشقاق القمر من المشركين ألح في أن يشهد آية مثلها، وأقسم وأكد أنه يؤمن لو رآها، وود النبي والمسلمون لو أنزل الله آية أخرى لعلهم يؤمنون، فأراد الله سبحانه إقناعًا للمسلمين أن يمتحن المشركين مرة أخرى في صورة لا تقتضي إهلاكهم إن كذبوا، لما ادخر لأكثرهم من الإيمان بعد الفتح، فأكرم نبيه بالإسراء، وجعله يحدثهم صبيحته، وجعلهم يجتمعون حوله ويمتحنونه في بيت المقدس، وجلى سبحانه لنبيه بيت المقدس فوصفه لهم وصف مشاهد، وزادهم ما زاد من أخبار عيرهم التي صدقها الواقع فيما بعد، لكنهم رغم ذلك كله مضوا في تكذيبهم، وقد كان في بعض ذلك مقنع لهم لو كانوا يؤمنون، فكانت آية الإسراء آخر ما أجراه الله لرسوله في مكة من المعجزات ا. هـ.

ونحن لا نبالي بالأوصاف بعد ثبوت الحقائق، فإن الروايات المستفيضة دلت على وقوع خوارق شتى، فإذا عدها البعض معجزات كالذى أوتيه موسى وعيسى فله ذلك.

أما نحن فلا نرى منحها هذه الصفة حتى ينفرد القرآن وحده بموقف التحدى والإعجاز.

ثم إن إنكار آيات بعينها من الخوارق المادية لا يطعن في إيمان أحد إذا كان هذا الإنكار يقوم على فهم له وزنه واعتباره.

وموضوع انشقاق القمر أثبته من أثبته، ونفاه من نفاه، بدلائل صحت عنده، وترجحت لديه، يمكن لمن أحب أن يدرسها في مواطنها.

فغرضنا هنا التنويه فحسب بقيمة الأفهام القائمة على إدراك تواريخ النزول..



خاتمة

الإيمان صانع العجائب..

عندما أنظر إلى قوافل الحجيج مندفعة صوب مكة مقبلة من أقصى المغرب أو أقصى المشرق، فيها الراكب وفيها الرجلان، تريد أن تقضي المناسك وتطوف بالبيت العتيق.. أهز رأسي دهشًا وأتأمل في الوجوه الضارعة، ثم ألمس كيف استجاب الله دعاء عبد صالح من أنبيائه الطيبين، هو إبراهيم الخليل، الذى هتف في جوف فلاة موحشة، مؤذنًا بالحج، فإذا صدى الدعاء الخالص يتردد في أغوار الأزمنة السحيقة، وإذا القلوب المؤمنة يتولد فيها بين الحين والحين لاعج من الشوق يسوقها سوقًا إلى زيارة بيت الله - وكأنها الحمائم تثوب إلى وكناتها - فما تجد إلا لديه المستقر والاطمئنان والرضا.

ما قيمة مكة.. لولا هذا البيت؟

وما رغبة الناس في زيارتها لولا داعى الإيمان؟

أجل، لولا هذا وذاك ما امتازت مكة عن سائر الصحراء التي تقع فيها، ولبقيت قفرًا من القفار المنقطعة المستوحشة.

إن ذلك مثل مصغر لشأن هذا القرآن العزيز..

فقد تأذن الله بحفظه، وأعلن أن سوف يبقى في الأرض، كما نزل من السماء آيات مصونة لا يتسرب إليها دخل، ووحيًا منزهًا لا يتطرق إليه ريب، وحقًا يطاول الليل والنهار، مادامت السموات والأرض، وما قامت بربها الأشياء، وشاهدًا على الناس، لا يبقى معه عذر لجاهل.

وكان أن بقي هذا القرآن، وأن توفر له من ضمانات الخلود ما لم يؤثر لكتاب سابق ولا لاحق..!!

لقد قامت أجيال غفيرة من المسلمين تتواصى بتلاوته، وتتعاون على دراسته وتتواصى بتنقيله من سلف إلى خلف، وتوريثه جيلاً من جيل.

وهنا تتريث هنيهة لنفكر. إن جرثومة الحياة التي يتخلق منها الجنين في بطن أمه تتم من تلاقي حيوان واحد في صلب الرجل مع بويضة واحدة في كيان الأنثي.

لكن هذا الحيوان الواحد لا يسبح فريدًا في الماء الذى يتدفق، إنه يسبح بين الألوف المؤلفة من أترابه، ألوف تعجز العادين لكثرتها، وكلها سواء في قوة الإخصاب وسر الحياة.

والوجود الدائم الذى انفرد به هذا القرآن، واطرد به مع مواكب الحياة المائجة، فيه بعض شبه من هذا التخلق الإنساني الغريب.

فإن الحفظة ألوف مؤلفة، فيهم جماهير غفيرة ممن يتقنون تلاوة القرآن حرفًا حرفًا ويحسنون المدود والغنن، مدًا مدًا، وغنة غنة..

ويعبدون الله بالحل والترحال فيه كلما انتهوا من آخر سورة افتتحوا القراءة من جديد، لا يسقطون لفظًا.

وقد يكونون على فقر مدقع في معاني ما يقرأون، وقد يتكسبون لقيمات الخبز، أو يأكلون السمن والعسل من هذه التلاوة المجردة.

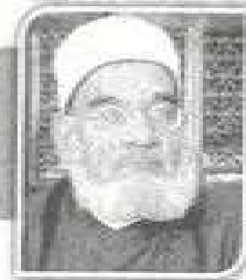
بيد أن في هذه المحيطات الموارة من حملة القرآن شاءت العناية العليا أن تتولد أسباب خلوده، وأن تمتد حبال حياته، وأن توجد طائفة من الفاقهين تعمل به وتعمل له، وترث النبوة في حمل أمانة الوحي، وفي صيانته وسط ضوابط من الشرف والعفة، ثم تبلغه للأمم مشروحًا نقيًا كيما تهتدى بمناره، وتنطلق في آثاره.

وتزاحم العامة على استظهار القرآن طوال القرون السابقة، وإلى ما شاء الله، أمر ثبت في رسوخ الإيمان، وكمن فيه وعد الله ببقاء هذا القرآن أبد الآبدين.



أثر الدرس اللغوى فى فهم النص الشرعى (٢)

الأثر المعنوى لمعرفة الصيغ



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو جماعة كبار العلماء
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

مثل علماء الصرف المادة اللغوية المجردة بالذهب المذاب: يوضع فى قوالب مختلفة فتظهر منه أشكال متعددة، فهذا (قرط) وتلك (أسورة) وهذا (عقد) وذاك (خاتم) بحسب الإطار الذى وضع فيه.. وطبقوا هذا المعنى على المادة اللغوية حين تصاغ على أوزان وصيغ، فكما لا يقال عن الخاتم والأسورة والعقد: إنها ذهب فقط، كذلك لا يقال عن التقوى، والمتقى، والوقاية، والتقى: إنها بمعنى الحفظ فقط، فكل صيغة من هذه الصيغ لها دلالة خاصة، فالتقوى اسم مصدر من الفعل: اتقى الدال على التكلف والمشقة، أو على الاتخاذ والامتلاك، كما نقول: استمع فلان فنفهم أنه بذل جهدًا فى الإصغاء متعمدًا، وإذا قلنا: سمع فلان فلا يدل على أكثر من إدراك سمعه لشىء دون تكلف أو تعمق، وإذا قلنا: اختتم فلان بالفضة علمنا أنه اتخذ وامتلك خاتمًا.

ومن هذين المعنيين نفهم أن كلمة (اتقى) ومنها التقوى تدل على أن صاحب هذا الحدث قد بذل جهدًا فى الوصول إلى اتخاذ وقاية من غضب الله، وهذا الجهد متمثل فى القيام بتكاليف الشرع فى تنفيذ الأوامر، والبعد عن المنهيات، فإذا قيل لنا: إن التقوى هى فعل الطاعات، واجتناب المعاصى.. علمنا أن هذا القول نتيجة لهذه الصيغة، أما المتقى فهو على صيغة اسم الفاعل الدال على التجدد والحدوث لهذا الفعل، وأما التقى فهو على صيغة الصفة المشبهة الدالة على الدوام والثبوت، ونخلص من هذا المعنى الذى حملته إلينا الصيغة أن من بذل جهدًا فى التقرب إلى الله، وحفظ حدوده.. فقد اتخذ لنفسه وقاية وحفظًا وحراسة من الله لأن من حفظ الله حفظه الله.

١- ومن أمثلة هذا المعنى الصيغى أن القاعدة الصرفية تقول: إذا أردنا صوغ اسم الزمان واسم المكان من مصدر الفعل

الأجوف اليائى جاء على وزن (مَفْعِل) وتحديد الدلالة على الزمان أو المكان يرجع إلى السياق.. وهناك رأى لبعض العلماء معتمد على كثرة السماع يرى أن المصدر الميمى أيضًا يصاغ قياسًا من هذا الباب على هذا الوزن وعلى وزن (مَفْعَل) أيضًا، مثل السير مصدرا للفعل (سار) يأتى منه اسم الزمان والمكان على (مسير) ويأتى المصدر على (مسار) و(مسير)، ودلالة المصدر كما هو من البدهيات على مجرد الحدث.. وفى ضوء هذه القاعدة نقرأ قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

فنجد كلمة «المحيض» وفعلها حاض يحيض ومصدرها الحيض من هذا الباب فهل هى اسم زمان أو اسم مكان أو مصدر ميمى؟ فى الموضع الأول: يترجح كونها مصدرًا ميميًا، ورد بمعنى اسم الفاعل، لأن السؤال عن الحيض بمعنى الدم النازل من المرأة فى العادة الشهرية، ولذلك كان الجواب بأنه أذى يخرجه الله من المرأة، وهو أذى للرجل والمرأة حين يقترب منها أثناء نزوله، أما الموضع الثانى: فإنه صالح للاحتمالات الثلاثة، وإن كان احتمال اسمى الزمان والمكان أرجح، فالأمر بالاعتزال موجه للرجال فى زمن الحيض وفى مكانه، وبذلك يكون تفصيل رسول الله ﷺ لمكان الاعتزال بيانًا فقط لما أجمل فى هذه الصيغة، فبمجرد انتهاء زمن الحيض يحل للرجل الاقتراب منها كما أن المحظور على الرجل فى هذه الأثناء أن يقترب من موضع خروج الدم فقط وما عدا ذلك حلال، أرأيتم هذا الإعجاز فى الإيجاز بسبب إدراك معنى الصيغ.

٢- ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾

(الأعراف: ٢٩)

فإن معاجم اللغة تدل على أن القسط بفتح القاف هو الظلم والجور، وقد ورد على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

(الجن: ١٥)

لكن هذا الفعل (قسط) إذا دخلت عليه الهمزة أفاد معنى العدل وتسمى هذه الهمزة: همزة السلب والإزالة، فإن سلب الظلم هو العدل، فإذا قال تعالى:

﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(الحجرات: ٩)

فهمنا أن الله يطلب منا إزالة الظلم لأنه يحب ذلك، وتأتى كلمة (القسط) بكسر القاف اسم مصدر من الإقساط بمعنى: إزالة الظلم أيضًا ويكون قوله تعالى:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾

(الأعراف: ٢٩)

بمعنى أمر بالعدل، وبهذا المعنى الذى تدل عليه همزة السلب وردت أمثلة كثيرة

عن العرب حيث يقولون: أعجمت الكتاب بمعنى أزلت عجمته، وأشكيت فلانًا بمعنى أزلت شكواه، وأقذيت عينه بمعنى أزلت القذى عنها وهكذا.

٣ـ ومما يتصل باسم المصدر ما تتداوله في التحذير من الغيبة والنميمة، ذلك أن بعض الوعاظ ينطقون الغيبة بفتح الغين وذلك خطأ، لأن الغيبة بهذا الضبط مصدر للفعل (غاب)، والغياب ليس داخلاً في الكبائر، إنما المنهي عنه أن تذكر أخاك بما يكره وهو غائب، والذي يؤدي هذا المعنى الفعل: (اغتاب) اغتيابًا، واسم المصدر منه الغيبة بكسر الغين لا بفتحها، وتسميه اسم مصدر لأنه دل على معنى المصدر ونقصت حروفه عن حروف فعله كما في قول الله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾

(القصص:٦٨)

فالخيرة اسم مصدر من الفعل (اختار يختار اختيارًا).

٤ـ قال تعالى:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾

(الإسراء:١٦)

اختلف المفسرون في هذه الآية حيث يورد الجهلة سؤالاً: كيف يأمر الله المترفين بالفسق؟

فقال بعضهم: إن مفعول الأمر هنا محذوف لفهمه من السياق وكان الأصل: أمرنا مترفيها بالطاعة والإصلاح ففسقوا وأفسدوا.. وقال المحققون: إن هناك قراءة متواترة تنطق هذا الفعل بمد الهمزة: آمرنا، ومعناه: كثرناهم لأن الهمزة هنا نقلت الفعل من اللزوم إلى التعدي، والفعل هو (أمر) بكسر الميم وهو يدل على معنى: كثر، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح عن النبي ﷺ: «لقد أمِر أمْرُ ابن أخيك»، أي ظهر وانتشر، وهذا المعنى في تلك القراءة هو نفسه في القراءة المتداولة لحفص على الطريقة الأخرى للتعدية ففي القراءة الأولى تعدى الفعل بزيادة الهمزة وفي القراءة الثانية تعدى بتغيير الصيغة إلى باب: نصر ينصر، فصار المعنى: أمرنا مترفيها أي كثرناهم فيتفق معنى القراءتين، وتكون كلمة (مترفيها) مفعولاً به ولا حذف في الآية، ويتفق ذلك مع الواقع التاريخي أن الله إذا أراد إهلاك أمة كثر فيها المترفون فطغوا وأفسدوا..

٥ـ قال تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

(الفاتحة:٣)

كثر في هذه الآية كلام المفسرين من حيث إن المادة اللغوية في اللفظين واحدة، هي الرحمة، فمن قائل إنه رحمان الدنيا رحيم الآخرة، أو المنعم بالنعم الكبرى والصغرى.. وهكذا، لكن الاحتكام إلى دلالة الصيغة هو الذي يعطينا الفرق بين اللفظين، ببيان واضح مقبول شرعًا وعقلا ولغة، ذلك أن صيغة (فعلان) في الصفة المشبهة تدل على بلوغ الوصف منتهاه وذلك مثل فرحان أو شبعان، ومثل: جوعان أو ظمآن، وصيغة (فعيل) تدل على الانتشار والذيوع مثل: كريم، حليم، لطيف..

وحين نطبق هذا المعنى على الآية بعد تحويل فعل: رحم، بكسر الحاء، المتعدي إلى رحم بضمها اللازم للدلالة على الكثرة واللزوم والدوام، كما هو الشأن في صياغة الصفة المشبهة.. نجد أن المعنى في وصفه تعالى بالرحمن أنه اتصف بالرحمة اتصافًا ذاتيا وبلغت عنده مبلغًا لا يمكن أن يصل إليه من سواه، وفي وصفه تعالى بالرحيم يعني أن رحمته وسعت كل شيء وانتشرت وعمت كل الخلائق.

ومن هنا يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل»، ومن هنا أيضًا لا يطلق لفظ الرحمن إلا على الذات العلية ولا يوصف به من سواه إذ هو مرادف للفظ الجلالة في مثل قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

(الرحمن:١، ٢)

وقوله:

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾

(ق:٣٣)

٦ـ في قوله تعالى مخاطبًا نبيه محمدا ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾

(هود:١٢)

جاء وصف النبي هنا بضيق الصدر من مواقف قومه، وهو إذا كان ملازمًا للإنسان كان خلقا سيئًا، وهذا ما يتنافى مع وصف النبي بأنه على خلق عظيم، ولهذا جاء الوصف بصيغة اسم الفاعل الدالة على التجدد والحدوث بعد أن لم يكن موجودًا، فهو طارئ غير ملازم..

أما حين وصف القرآن جهنم بالضيق فإنه لم يأت بصيغة اسم الفاعل، وإنما جاء بصيغة الصفة المشبهة الدالة على الثبوت والدوام والملازمة فقال عنها:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾

(الفرقان:١٣)

وعلى هذا الوزن جاء: طيب، هين، لين، سيد، ميت.

٧ـ في قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(الفاتحة:٦)

كلمة «الصراط» مأخوذة من: سرط الشيء إذا ابتلعه في يسر وسهولة، وهذه اللفظة هي التي حرفت في اللغة العامية إلى: زلط، غير أن اختيار صيغة (فعال) لطريق الإسلام.. فيه دلالة أخرى غير الدلالة اللغوية، ذلك أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة للاشتمال والإحاطة مثل الإزار، الرداء، اللحاف، الغطاء، الخمار، الإطار، فهي إذن في الصراط إشارة إلى أن من يدخل في الإسلام يجده سهلاً، كما يبتلع المرء اللقمة في سهولة ييسرها له البلعوم بما فيه

من مادة مخاطبة، وهذا هو المعنى اللغوي، وهو كذلك يغطي كل احتياجاته بحيث لا يفتقر إلى رافد آخر يأخذ منه رأيا أو حكمًا أو توجيهًا، وهذا هو المعنى الصيغي.

٨- قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾

(التوبة: ١٢٢)

الفقه في اللغة هو الفهم والإدراك، أما التفقه فهو التعمق والتكلف للفهم، وهذا المعنى مأخوذ من الصيغة التي أتى عليها هذا الفعل، وبهذه الصيغة نفهم أن القرآن يوجه طلاب العلم أن يبذلوا أقصى جهدهم للتعمق في فهم الدين لأن الفهم السطحي قد يؤدي إلى الفساد في فهم أحكام الله..

ومن هذه الصيغة استدل جمهور الفقهاء على ضرورة اغتسال الحائض بعد انقطاع الدم قبل أن يباشرها زوجها، لأن الطهر يطلق لغة على النقاء من الحيض، وعلى الاغتسال، أما التطهر فهو المبالغة في الطهر مع تحصيل المشقة في ذلك، وهذا لا يتأتى إلا بالغسل والآية تقول:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

٩- قوله تعالى:

﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

(النمل: ٦٦)

العمى قد يكون للعين وقد يكون للقلب، فعمى البصر يأتي في اللغة وصفه على صيغة (أفعل) فيقال فيه: أعمى، ويجمع على: عمي وعميان، كما في قولك: أعرج، أصفر، أحول، أكتع.. أما عمى البصيرة فيأتي الوصف منه على صيغة (فعل) فيقال: عَمٍ وجمعه: عمون، كما في قولك: قلق، أرق، فرح، جزع، حزن، لبق، جشع، فإذا وصف الله الكافرين هنا بأنهم «عمون»، فهمنا أنه يقصد أن عماهم في بصائرهم وقلوبهم، كما قال عن قوم نوح:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

(الأعراف: ٦٤)

تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج: ٤٦)

١٠- قوله ﷺ: «فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم» الفقه كما سبق هو الفهم، لكن إذا أريد الدلالة على هذا المعنى فقط جاء الفعل على صيغة (فعل يفعل)

فيكون: فقه يفقه مثل فهم يفهم وعلم يعلم، أما إذا أريد وصول هذا الفهم إلى درجة الملكات الثابتة والغرائز الدائمة بحيث يتصف بموهبة الفقه جاء التعبير بصيغة (فعل) كطهر وشرف وكرم.

وهذا ما يريده النبي ﷺ لمن ينتفع بعلمه وهداه، فينفع نفسه وغيره، ويكون الفقه لديه كالطبيعة والغريزة التي خلق عليها.

آيتا الإسراء والمعراج



لفضيلة الشيخ: عيوض عوض إبراهيم

إن لله تعالى مقاصد ومرادات في الأيام والليالي التي تؤلفها الدقائق والساعات ويتألف منها الشهور والأعوام، والحياة من أزلها إلى أبدها، وجل الله الذي يقول: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة: ٣٦)

وقد ذكر سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»(١) المراد من الأربعة الحرم فقال:

والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم: ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم والرابع فرد وهو رجب عند جمهور العرب.. وقد بين إجمال هذه الآية النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع بقوله:

«منها أربعة حرم ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»(٢).

- والذي نواجهه ونحرص على إبراز تكريم الله عز وجل لمصطفاه في مواقف من حياته يصعب عدها، ورحم الله الذي قال:

إن آيات ربنا بينات
لا يماري فيهن إلا الكفور

آية الله في ميلاد مصطفاه، وآيته تبارك وتعالى في افتداء الذبيحين إسماعيل أبي العرب وعبدالله بن عبدالمطلب، فقد فدى إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، نزل من السماء بعد الرؤيا التي أريها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ودار بينه وبين ابنه إسماعيل ما قصه الله في سورة الصافات حتى قال إسماعيل:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾

(الصافات: ١٠٢)

وافتداء عبدالله بن عبدالمطلب الذي كان وفاء بنذر نذره عبدالمطلب، وكان من أمر عبدالمطلب وعبدالله ما انتهى به الموقف بعدما أشارت به إحدى العرافات للاقتراع بينه وبين عشرة من الإبل، وكانت القرعة كل مرة تقع على عبدالله حتى بلغ عدد الإبل مائة.

فذبحت المائة ونجا عبدالله إعدادا لزواجه من آمنة بنت وهب التي لم تكد تزف إليه حتى تعلقت نفسه الكريمة بأن يودع سر الله عز وجل في أحشاء آمنة، ومضى في أرض الله يتاجر ثم كان الميلاد وكان الاصطفاء لسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، وكان كيد المشركين الذي واجهه النبي عليه الصلاة والسلام، حتى كانت كرامة الإسراء والمعراج وإلى أولهما يقول الله تعالى:

(١) تفسير التحرير والتنوير، ص١٨٣، جزء ١٠، ١١، ١٢، ط. دار سحنون للنشر والتوزيع.
(٢) «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». رواه البخاري.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الإسراء: ١)

وكان الإلماح إلى المعراج في صدر سورة النجم إلى جوار ما صح من أحاديث رسول الله ﷺ عن المعراج في أحاديث إن لم تبلغ حد التواتر فهي منه قريب من قريب.

ولقد كان الإسراء الذي أجراه الله على نبيه عليه الصلاة والسلام واقعا طوى الله عز وجل به ما بين مسجدين «المسجد الحرام والمسجد الأقصى» وفي جزء قصير من الزمن إلى ما وراء ذلك مما يعنيه صدر سورة الإسراء مبتدئا بحقيقة الحقائق التي تعنيها كلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ وهي تعني تنزيه الله عما لا يليق به، واليقين بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

ولا تدع الآية مجالا لزعم زاعم ولا فهم غافل عن أن الله عز وجل أسرى بنبيه جسدا وروحا معا موصوفا ﴿بِعَبْدِهِ﴾، وهي عبودية شرف وتكريم و﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ نص كاف في أن سيدنا محمدا ﷺ كان في تلك الليلة بجسده لا بروحه ولا في منام.

وأراني أمامي ما ذكره الشيخ العلامة محمد زاهد الكوثري، في مقالاته قوله: والجمهور على أن الإسراء والمعراج في ليلة واحدة وأنهما بالروح والجسد معا يقظة ولا محيد عن ذلك بعد صحة الخبر وتمام الاعتقاد، وبقدرة القادر الحكيم الشاملة لكل ممكن» أ. هـ[٣].

فأنت تحدثني بأنك كنت الليلة في الكعبة المشرفة بمكة أو في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة فلا يداخلني ريب فيما قلت، وأين ما رأيته مما تفيضه آية الإسراء الآية الكبرى التي ختمها الله تعالى بقوله:

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

وقوله في آية المعراج:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

(النجم: ١٧، ١٨)

وكم يكون مفيدا أن أذكر قول سماحة الشيخ العلامة نوح القضاة، رحمه الله، في كتابه «المختصر المفيد في شرح جوهرة التوحيد»:

وقد كان بعض من يدعي المعرفة يشكك في هاتين المعجزتين، ويقول هما رؤيا رآها النبي ﷺ، ويحتج بأن الأجسام الكثيفة يستحيل عليها قطع المسافات البعيدة بسرعة، وها نحن اليوم نرى الطائرات والمركبات الفضائية، وتضحك من تلك القواعد التي وضعها أولئك المتفلسفون واعترضوا بها على قدرة الله تعالى، فطوبى لمن شرح الله صدره للإسلام، واطمأنت نفسه لما في كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ» أ. هـ[٤].

وفي هذه الأيام التي سفهت فيها نفس إسرائيل وأعانها على ذلك قوم آخرون نعرفهم ولا يخفون عنا ممن ينتظرون الأخذ الوبيل من الله عز وجل ترى المسجد الأقصى في تلك الآية الكريمة وهو يشيع في أنفسنا اليقين بأن فلسطين والمسجد الأقصى محفوظان بحفظ الله عز وجل وأنهما عائدان غدا أو بعد غد.

ولقد كان من الآيات البينات والتكريم الإلهي للمصطفى ﷺ أن أركبه البراق، وأخدمه ملائكته، وأحيا له أنبياءه ورسله الذين أحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر، وأمهم صلوات الله عليه في صلاة حامدة شاكرة لله حتى اعترفوا آخر الأمر بأن ذلك من دواعي تفضيل الله لمصطفاه على خيرته من ملائكته ورسله سبحانه وتعالى، وجل الله الذي قال لمصطفاه:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

(الزخرف: ٤٥)

فها هم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم بحيث يجيبون النبي بما يسألهم عنه ليبقى جوابهم ملقيا تراب المهانة في وجوه الذين يشغبون على الرسالة الخاتمة، والنبي الذي ختم الله بنبوته النبوات، وأتم به تبارك وتعالى الرسالات في دين أمن الله عز وجل به على مصطفاه في آخر ما نزل من آيات الأحكام في سورة المائدة حيث يقول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

وكان المعراج الذي يقربه إلى الأذهان مثل قول الله تعالى:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾

(المعارج: ١ - ٣)

كان المعراج ارتفاعا في ملكوت السموات سماء بعد سماء حتى بلغ النبي عليه الصلاة والسلام وفي صحبته أمين السماء جبريل عليه وعلى ملائكة الله السلام إلى البيت المعمور ثم إلى سدرة المنتهى التي توقفت عندها خطى جبريل، وتقدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى حيث شاء الله فخر ساجدا لربه محييا إياه ببعض ما هو أهله حتى قال الله تعالى له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وكانت جائزة الله لخيرته من خلقه ولأمته يوم القيامة تلك الصلاة التي هي ثانية الإسلام وهي معراج المؤمن كما صح في بعض الآثار، وفي مقالات العلامة الكوثري رحمه الله: «واعتبر الصحابة -رضي الله عنهم- بما حدثهم عن الآيات الكبرى التي شاهدها في ملكوت السموات، وتلقوا منه فرض الصلوات الخمس في تلك الليلة المباركة فواظبت الأمة عليها حتى صفت نفوسهم واتسع عرفانهم، وأصبحت الصلوات الخمس معراجا معنويا لهم حيث يناجون ربهم عند وقوفهم للصلاة فترسخ في نفوسهم مخافة الله التي هي ينبوع كل خير للبشر» أ. هـ[٥].

ولعلك على ذكر مما قيل «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» إلخ[٦].

وما الصلاة إلا قيام وقعود وركوع وسجود، ومخاطبة الله عز وجل بكلامه.

والتقرب إليه بإنعامه، فأنت إذا قمت إلى الصلاة لم يشغلك زوج ولا ولد ولا أهل ولا عمل، فجاهد نفسك وهواك حتى تخلص صادقا إلى مولاك.

إنه نبي الإسراء والمعراج في الشهر الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يستقبل هلاله قائلا: «هلال خير ورشد، آمنت بالذي خلقك، ربي وربك الله، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام»، وكان يقول ﷺ: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»، والحمد لله رب العالمين.

---

(٣) مقالات الكوثري: ص٤١٤ - ط. دار السلام - القاهرة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م مقال بعنوان «الإسراء والمعراج».

(٤) المختصر المفيد في شرح جوهرة التوحيد، تأليف الشيخ الدكتور نوح علي سلمان القضاة. ص١٤٥، ط. دار الرازي - عمان - الأردن ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٥) مقالات الكوثري، لفضيلة العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري، ص ٣١٨ بعنوان «الحكمة من الإسراء والمعراج» ط. دار السلام - القاهرة جمهورية مصر العربية.

(٦) «رواه الترمذي في السنن قال الترمذي: حديث حسن غريب، أبواب فضائل القرآن. ط دار الغرب الإسلامي.

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو يونيه ٢٠١٣ م

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى

ما بدا من اجتهاده ﷺ في صورة «الدعاء»

وهذه صورة أخرى من الصور الكثيرة التي بدا فيها اجتهاده ﷺ، وتتصل اتصالا وثيقا بمعنى العبادة(١)، وهي صورة الدعاء على بعض الناس من كافرين ومؤمنين وقع منهم من أحداث أثارت دخيلة نفسه عليه السلام.

١ - فالبخاري - ويوافقه في الرواية أحمد والترمذي والنسائي - يروى عن ابن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد لما جرح وكسرت رباعيته(٢) ورأى تمثيل الكفار بعمه حمزة وبالمسلمين: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية»، فتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم ويسجل عليهم سخطه.

٢ - وفي إثر ذلك نزلت هذه الآية:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

(آل عمران: ١٢٧)

فرسول الله ﷺ عندما دعا عليهم وطلب من الله أن يلعنهم كان ذلك عن اجتهاد منه. لكن لم يقره الله سبحانه وتعالى على اجتهاده إذ نهاه عما طلب بقوله الكريم في هذه الآية السابقة، على رأى من يرى من المفسرين أنها نزلت في شأن أحد. ومن هؤلاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

ويعلل ما اتجه إليه بقوله فيما نقل عنه من تفسير للقرآن الكريم: ما قبل الآية وما بعدها(٣) في قصة أحد، فيجب أن يكون الكلام كله في أحد صونا للقرآن عن تكلف ينزه عن مثله كلام الله.

ثم هذا مثل آخر لهذه الصورة من صور اجتهاده ﷺ وهي دعاؤه على بعض المؤمنين:

١ - فمسلم يروى في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدرى ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما - وفي رواية فخلوا به فسبهما ولعنهما وأخرجهما - فلما خرجا

(١) فقد ورد «الدعاء مخ العبادة».

(٢) الرباعية بفتح الراء هي السن التي بين الثنية والناب. والمراد بكسرها أنها ذهبت منها فلقة ولم تقلع من أصلها والرباعية التي كسرت منه ﷺ هي السفلى اليمنى.

(٣) الآية التي قبلها ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٧)، والتي بعدها قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢٩). وبعض أهل من المفسرين يرى في سبب نزول الآية أنها كانت في دعائه ﷺ على أصحاب بئر معونة - وكانت بعد أربعة أشهر من أحد - ودعا عندها على رعل وذكوان وعصية... إلخ. ومعنى قوله تعالى «ليقطع» ذهب بعض المفسرين إلى أنه متعلق بقوله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، واختار بعضهم أنه متعلق بمفهوم من المقام متعلق بواقعة أحد المقصودة بالكلام بالذات لأن ذكر بدر إنما جاء استطرادا. ويكون المعنى: فعل الله ما فعل ليقطع طرفا أي يهلكهم.

قلت: يا رسول الله ما أصابا من الخير شيئا؟ قال: وما ذاك؟ قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: أو ما علمت ما شارطت ربي عليه؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا.

فالرسول عليه السلام كما يؤخذ من هذه الروايات قد سلك مسلك الإنسان العادى يغضب ويلعن لأمر يثير نفسه.

ثم يعود فيرجع ويطلب من ربه - شفقة ورحمة - أن يجعل الدعاء على من دعا عليه من المسلمين دعاء له بأن يكون زكاة وأجرا له. وفي هذا يروى مسلم عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه: فأيما مؤمن آذيته أو سببته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة».

ونحن في إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول ﷺ لا نبغي أكثر من أن نقرر أنه ﷺ بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة فهو فيها معصوم وقوله فيها قول الحق جل جلاله.

ما بدا من اجتهاده في صورة تفضيل الترك على الفعل:

وهذا نوع آخر غير ما تقدم من الأمثلة التي تدل على اجتهاده ﷺ وبالتالي على أنه بشر إلا فيما عصمه الله فيه في دائرة الرسالة والتبليغ، وهو اجتهاده عليه السلام في صورة تفضيل الترك على الفعل. فيروى عنه ﷺ في «تلقيح النخل» أنه نصح لهم بعدم تلقيحه اجتهادا منه بأن في ذلك مصلحته ولما رمى النخل ما عليه من الثمر قبل أن ينضج بسبب عدم تلقيحه وذكروا له ذلك قال: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر». يرويه مسلم في صحيحه(٤) عن رافع بن خديج. ونص الرواية: قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه! قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا، فتركوه فنفضت(٥) قال فذكروا ذلك له ﷺ فقال: إنما أنا بشر.... الخ.

وفي رواية أحمد: ما كان من أمر دينكم فإليّ وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به.

وفي رواية أخرى لمسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح، فقال ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئا قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر بذلك فقال ﷺ: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل».

وفي رواية ثالثة له أيضا عن عائشة وأنس أنه ﷺ مر بقوم يلقحون النخل

(٤) في باب: وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

(٥) أي رمت ما عليها من الثمر قبل نضجه.

فقال: لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصًا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

وأيا كانت صيغة الرواية عنه ﷺ في ذلك فقد رأى رأيًا في صورة ما - هي هنا صورة تفضيل الترك على الفعل - تبين له فيما بعد خلافه بحكم ما صار إليه الأمر في الواقع.

ولما كان الذى رآه عليه السلام هنا لم يحقق مصلحة لقومه بل جلب مضرة لهم اعتذر من ذلك واستن لهم مبدأً عامًا في اتباع ما يقوله وهو.. إذا أمرتكم بشيء من دينكم - وفي رواية إذا حدثتكم عن الله شيئًا - فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر.

وصيغة هذا الحديث واضحة في الهدف الذى هدفنا إليه من هذا الكتاب، وهو تعدد جوانب الرسول عليه السلام فكان له جانب بشرى يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر، وجانب آخر يمتاز به عن البشر وهو ما يتصل فيه بربه جلت عظمته من حيث إنه رسوله وأنه كلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة.

والنووى يعلق على هذا الحديث بقوله: قال العلماء رأيه ﷺ في أمور المعايش كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا وقوع ما يخالف رأيه كخروج النخل شيصًا هنا - ولا نقص في ذلك. وسببه تعلق همه بالآخرة ومعارفها.

وقال الأبى قال القرطبي: قال ذلك ﷺ لأنه لم يكن عنده علم باستمرار العادة، لأنه ﷺ لم يكن ممن عاني الفلاحة فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسك ﷺ بالقاعدة الكلية وأنه لا يؤثر ولا يغني إلا الله تعالى. والأبي يعلق على اعتذار القرطبي عن الرسول عليه السلام في ذلك بقوله: يرد أن يقال: اجتماع الذكر والأنثى سبب واضح في حصول النتيجة كما نص عليه القرآن فكيف يلغى اعتبار ما نص على اعتباره القرآن، ثم قال: والجواب أن سببها أمر عادى مشاهد في الحيوان، وأما في الأشجار فمستنده التجربة.

وما ينقل عن النووى في الشرح يتفق مع ما يذكره ابن خلدون حيث يقول: إنه ﷺ يقول في أمور المعايش من طب وزراعة بما يقول به الناس حوله ناتجًا عن تجارب وعادة - وهذا فيما لا وحي فيه طبعًا -.

وتتجلى صحة هذا الرأى بالمقارنة بين ما غاب عنه ﷺ من شئون النخل التى تعتبر بدهية لدى أهل المدينة لأنه ﷺ نشأ في بلد غير ذى زرع - مكة - ولم يكن لأهلها علم بحال النخيل وما يصلحه وما يفسده من جهة وبين تمام خبرته ﷺ ببعض نبات جبال مكة وصحاريها مما يعلمه رعاة الغنم من جهة أخرى. فقد أخرج البخارى في صحيحه عن جابر بن عبدالله قال: «كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث فقال ﷺ عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، قالوا: أكنت ترعى الغنم قال: وهل من نبي إلا وقد رعاها!!».

***

ومثال آخر لما بدا من اجتهاده ﷺ في صورة تفضيل الترك على الفعل ما يرويه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتهما دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير! قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبرى بذلك أحدًا! فنزلت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

(التحريم ١ - ٣)

١ - فهو عليه السلام رأى أن لا يعود لشرب العسل ظنًا منه أن رائحته كريهة غير مقبولة.

٢ - لكن الله جل شأنه لم يقره على ما رأى بل عاتبه بقوله سبحانه:

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾

***

ما بدا من اجتهاده في صورة النهي العام

يروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله حرم مكة لا يعضد شجرها». فقال العباس يا رسول الله إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا، فقال ﷺ: «إلا الإذخر».

وفي رواية أخرى: وهذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لا يحل فيه القتال لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه... الخ..». فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال ﷺ: «إلا الإذخر».

وفي رواية: قال العباس: «يا رسول الله: إن أهل مكة لا صبر لهم عن الإذخر، لقينهم وبيوتهم».

والقرافي - في تنقيح الفصول - يعلق على هذا الحديث بقوله: فهذا يدل على أنه ﷺ لما بين له العباس الحاجة إلى الإذخر أباحه بالاجتهاد للمصلحة.

والحافظ يقول: إن هذا يدل على أن الاستثناء في كلام العباس لم يرد به أن يكون هو المستثنى، وإنما أراد به أن يلقن النبى الاستثناء.

ويقول الطبري: ساغ للعباس أن يستثنى بعد أن علم أن المحرّم هو الله لأنه احتمل عنده أن يكون المراد بتحريم مكة تحريم دون ما ذكر من تحريم عضد الشجر فإنه من تحريم الرسول باجتهاده فساغ له أن يسأله استثناء «الإذخر».

١ - فالرسول عليه السلام حرم باجتهاده في صيغة العموم قطع «الإذخر».

٢ - ثم عدل عن تحريمه إلى إباحته عندما تكشفت له الحاجة إليه. وهذا ما يفيده شرح الطبرى والقرافي.

رجب
١٤٣٤ هـ
مايو يونيه
٢٠١٣ م

العربية: فضلها على العلم والمدنية وأثرها فى الأمم غير العربية

للامام محمد البشير الابراهيمي



انشقت العربية من أصلها السامى فى عصور متوغلة فى القدم وجرت فى ألسنة هذه الأمة التى اجتمعت معها فى مناسب المجد وأرومات الفخر وشاء الله أن يكون ظهورها فى تلك الجزيرة المحبوة بجمال الطبيعة ومحاسن الفطرة لتتفتق أذهان عمار تلك الجزيرة عن روائع الحكمة مجلوة فى معرض البيان بهذا اللسان، وقد كانت هذه اللغة ترجمانًا صادقًا لكثير من الحضارات المتعاقبة التى شادها العرب بجزيرتهم، وفى أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفى هذه اللغة من المزايا التى يعز نظيرها فى لغات البشر الاتساع فى التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها.

وهذه المدنية التى تردد لفظها الألسن ويصطلح المؤرخون على نسبتها إلى أمم مختلفة ويميزون بينها بطوابع خاصة ويشتد المتعصبون فى احتكارها لأمة دون أمة كأنها خلقت معها أو كأنها ذاتية لها، هى فى الحقيقة تراث إنسانى تسلمه أمة إلى أمة وتأخذه أمة عن أمة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل، وما يؤثر فيها من عوامل، وخير الأمم وأوفاها للمدنية هى الأمة التى تقوى الجهات الصالحة فى المدنية وتكمل النقائص الظاهرة فيها، وتسعى فى نشرها وإشراك الناس كلهم فى خيراتها ومنافعها، وخير اللغات ما كانت لسانا مبينًا للمدنية تسهل على الناس سبيلها وتمهد لهم مقيلها.

<<<

وقد أصبح احتكار المدنية لأمم خاصة تقليدًا شائعًا متعاصيًا عن التمحيص والنقد

ومن هذا الباب احتكار الغربيين للمدنية القائمة اليوم، وما هى فى الحقيقة إلا عصارة الحضارات القديمة ورثها الغربيون عمن تقدمهم، وقاموا عليها بالتزيين والتحسين والتلوين وطبعوها بالطوابع التى اقتضاها الوقت وانتحلوها لأنفسهم أصلاً وفرعًا، ولا تزال التنقيبات عن مخلفات الحضارات القديمة تكتشف كل يوم عن جديد يفضح هؤلاء المحتكرين ويقلل من غرورهم.

ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت فى تكوينها وفى تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلاً من المفردات.

ازدهرت حضارات الأمم القديمة من العرب وفارس والهند والصين ومصر واليونان والرومان وزخرت علومها وكانت كلها مبنية على أصول عامة متشابهة وكانت لكل حضارة لغتها المعبرة عن محاسنها والكاشفة عن حقائقها وكان لتلك اللغات أثر بين فى بقاء الحضارة وانتشارها وكل من بقاء الحضارة وانتشارها يتوقف على ما فى اللغة من قوة وحياة واتساع، فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء، ثم اندثرت تلك المدنيات والعلوم إلا ما بقى من آثار الأولى منقوشًا على الأحجار وما بقى من آثار الثانية مكتوبًا فى الأسفار، ولولا اللغات لم تتبين من الحضارات ما تبيناه.

كانت الحضارات القديمة تقوم على تعبد يسد شعور النفس البشرية بالخضوع إلى قوة أعلى منها فإن لم يكن هذا التعبد حقا طغت عليه الخرافة وأصبحت الخرافة جزءًا من المدنية، وتقوم على تشريع يوزع العدل بين الناس ويحفظ مصالحهم الدنيوية، فإن لم يستند هذا التشريع على وحى سماوى أو نظام شورى طغا عليه التحكم والاستبداد وأصبح الاستبداد جزءًا من تلك المدنية، وتقوم على نتاج القرائح البشرية من علوم فإن لم تكفل هذه القرائح حرية شاملة لابسها التزوير والكذب وأصبح التزوير والكذب جزءًا من تلك المدنية، وتقوم على لغة تسع تلك المدنية بيانًا وإفصاحًا فإن ضاقت اللغة خسرت المدنية وإن حضارة اليوم لم تسلم من بعض هذه النقائص والعيوب.

كانت هذه حال الحضارات إلى أن جاء الإسلام بالحضارة التى لا تبيد والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها والتشريع الإلهى العادل سياجها واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها، وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة مما ذكرناه.

وقامت اللغة العربية ببيانها على أكمل وجه وكانت الأمة المدخرة لتشييد هذه الحضارة التى نسميها بحق الحضارة الإسلامية هى الأمة العربية.

فهم العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القرآن أن هناك أممًا قد خلت عمرت الأرض ومكن لها الله فيها وكانت

أكثر أموالاً وأعز نفرًا وأثبت آثارًا وامتثلوا أمر القرآن بالسير فى الأرض والنظر فى آثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها ونبههم القرآن إلى أن مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، فكان هذا الإرشاد القرآنى المتكرر حفزًا إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة ودراستها والاطلاع على الصالح النافع منها والأخذ به، وكان من آثار هذا التنبيه القرآنى أن تفتحت أذهان المسلمين ـ ولا أعنيكم ـ إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها وكان من فضل القرآن على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندرس وعلى آثار مدنيات كادت تنطمس.

إن الفائدة الكبرى التى يعلقها القرآن على السير فى الأرض والوقوف على آثار الأمم البائدة هى الاعتبار بحال الظالمين وعقبى الظالمين ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنيات فيقيم العدل وإذا جاء العدل جاء العمران وإذا جاء العمران قامت المدنية وكان العدل سياجها والعلم سراجها وهذه هى مدنية الإسلام.

إن إرشاد الإسلام للمسلمين بأخذ الصالح النافع أينما وجد هو الذى دفعهم بعد تمكن سلطانهم وتمهد ملكهم، إلى البحث عن الآثار العقلية للأمم التى سبقتهم فاطلعوا على ما أنتجت قرائح يونان وفارس والهند فى العلم والآداب فنقلوها إلى لغة القرآن ووجدوا فيها خير معين على ذلك.

هنا الجانب العامر من لغتنا وهنا النقطة التى سقنا هذا الحديث كله من أجلها وهنا الموضوع وهو فضل اللغة العربية على العلم والمدنية.

لو لم تكن اللغة العربية لغة مدني وعمران ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب ـ لما استطا أسلافنا أن ينقلوا إليها علوم يونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم بتعلم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحو عربًا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وق ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامى برمته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لم وسعت علوم العالم ،وما العالم إذ ذا إلا هذه الأمم التى نقل عنها المسلمون قامت اللغة العربية فى أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعي وآدابها، فوعت الفلسفة بجميع فروعها والرياضيات بجميع أصنافها والطب والهندسة والأدب والاجتماع، وهذه هى العلوم التى تقوم عليها الحضارة العقلي فى الأمم الغابرة والحاضرة. وهذا هو التراث العقلى المشاع الذى لا يزال يأخذ الأخير عن الأول وهذا هو الجزء الضرورى فى الحياة الذى إما أن تنقله إليك فيكو قوة فيك وإما أن تنقل إليه فى لغة غير فتكون قوة لغيرك، وقد تفطن أسلافنا لهذ الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه. وق قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضرورى م الضياع، بانتشاله من أيدى الغوائل وبنقل إلى الأواخر عن الأوائل وبذلك طوقت العالم منة لا يقوم بها الشكر ولولا العربي لضاع على العالم خير كثير.

إن كثيرًا من العلوم التى بنيت علي الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طري

اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم فى هذه العلوم عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها وأنهم يحمدون للدهر أن هيأ لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال إفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا ولا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون فضل معاهد الأندلس العربية ومعاهد شمال إفريقية ومعاهد الشام على الحضارة القائمة ولا يزالون ينتهجون بعض المناهج الدراسية الأندلسية فى معاهدهم إلى الآن ولا يزالون يردون كل شيء إلى أصله ويعترفون لكل فاضل بفضله.

<<<

وها هنا مسألة يجب الكشف عن حقيقتها فقد كثرت فيها المغالطات وجنى عليها تعصب المتعصبين من ذوى الدخائل السيئة من الغربيين ومقلدتهم حتى أصبح باطلها حقًا وكذبها صدقًا ووهمها حقيقة، وحتى أصبح هذا الوهم من المسلمات التى لا تقبل الجدل عند أبنائنا الذين تلقوا العلم على أيدى أولئك المتعصبين ـ وهى أن العرب ليس لهم فيما ترجموا إلا النقل المجرد وأنهم لم يزيدوا شيئًا فى التراث الفكرى الذى نقلوه وأن وظيفتهم فى هذه الوساطة وظيفة الناقل الأمين الذى ينقل الشيء كما هو ملفوفًا من يد إلى يد، أغلوطة ملأت كتب الكثير منهم وترددت على ألسنتهم يمهدون بها إلى وصم العربى بأنه بليد الفكر جامد القريحة سطحى التفكير مسدود الشهية العلمية ويتوسلون بذلك إلى تزهيد العربى فى مزايا أسلافه واحتقاره لها ولهم. والحقيقة التى يؤيدها الواقع ويشهد بها المنصفون منهم أن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا يسمونها نقلوا بدافع وجدانى إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا ليستقلوا وليستغلوا ولينتفعوا بثمرة ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال فى العلم إلا بالتمحيص والتصحيح.

ومن الثابت عندنا أن عهد الترجمة كان عهد اضطراب فى هذه العلوم المترجمة ردت فيه التبعة على المترجمين ثم انجلت الرغوة وعمل الفكر العربى الوقاد عمله فصحح أغلاط الفلاسفة وصحح نظريات الرياضة وجاء دور الاجتهاد فى هذه العلوم فاستقل الفكر العربى بالفلسفة وكيفها على ذوقه الخاص، واستنبط فى هذه العلوم طرائق وأنواعًا لم تكن معروفة من قبل للأوائل وصحح العلل وكشف عن الأوهام وانتقد انتقاد المستقل، وما كان الفارابى وابن سينا وأبو سليمان المنطقى فى المشارقة ولا ابن باجة وابن الطفيل وابن برجان وابن رشد وابن الهذيل فى الأندلسيين بالمقلدين فى علوم الأوائل.

إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة مدنية الخير العام والنفع العام ولم تخدم علمًا خاصًا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين

مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع، وقد كانت هذه اللغة فى القرون الوسطى يوم كان العالم كله يتخبط فى ظلمات الجهل هى اللغة الوحيدة التى احتضنت العلم وآوته ونصرته.

هذا فضل لغتنا على المدنية الإنسانية وفضلها على الأمم غير العربية وأما فضلها على الأمم العربية فإنه يزيد قدرًا وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى وإذا قلنا - الأمم العربية فإننا نعنى الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام.

فاللغة العربية منذ دخلت فى ركاب الإسلام على الأمم التى أظلها ظله كانت سببًا فى تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم وإن هذا لمن المناهج السديدة فى توحيد الأمم المختلفة الأجناس، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية فى فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية وقد وقع بعض هذا ولكنه من القلة بحيث لا يظهر أثره فى الحركة العامة للأمة.

إن الأمم التى دخلت فى الإسلام متفاوتة الدرجات فى الانفعالات النفسية وأنماط التفكير، متفاوتة فى الإدراك والذكاء متفاوتة فى القابلية والاستعداد متفاوتة فى التصوير والتخيل، ولكن اللغة العربية فتحت عليها آفاقًا جديدة فى كل ذلك ما كانت تعرفها لولا العربية ودفعتها بما فيها من قوة وبما لها من سلطان إلى التفكير والتعقل على منهج متقارب، وحفزت الأفكار الخامدة إلى التحرك وزادت الأفكار المتحركة قوة على قوة.

إن اللغة العربية هى التى قاربت بين الفكر الفارسى المنفعل القلق وبين الفكر البربرى الرصين الهادئ ثم هيأت لكل فكر قابليته، واللغة العربية هى التى سهلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية ومهدت لها الطرائق المؤدية إليهما حتى أخذت كل أمة حظها منهما.

واللغة العربية هى التى أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التى تعجز أى لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا فى كل علم وبحثوا فى كل فن وملأوا الدنيا مؤلفات ودواوين ومن عرف كتاب أبى حنيفة الدينورى فى النبات وكتاب أبى عبيدة فى الخيل وكتاب الهمدانى فى تخطيط جزيرة العرب وكتاب الجاحظ فى الحيوان وكتب الأئمة فى الطب والنجوم والإبل رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها وعلم مقدار إفضالها على الأمة العربية، كما أن من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة وشعر الشعراء الوصافين من الأندلس يتجلى له أى إفضال أفضلته العربية على تلك القرائح الوقادة التى وجدت فى العربية فيضًا لا ينقطع مدده وإضافته إلى فيض الاستعداد، وما أعظم الإنتاج الأدبى إذا كان يصدر عن اتساع فى اللغة واتساع فى الخيال.

إن النهضة العربية الحاضرة فى الشرق مفتقرة إلى كثير من المصطلحات العلمية والصناعية وما زلنا نقرأ من سنوات عن اهتمام قادة النهضة بهذه المشكلة ونقرأ اختلافًا فى الوجهة وهل الأصلح البحث عن مصطلحات عربية أصيلة، أو استعارة هذه المصطلحات من لغات العلم الأجنبية وأن غاية ما استنجد به أصحاب الرأى الأول المعاجم اللغوية - وأعتقد أنه لو كانت الكتب العلمية والفنية التى كتبها أسلافنا موجودة بين أيدينا ولم تغلها غوائل الدهر لوجدنا فيها من هذه المصطلحات ما يفى بحاجتنا أو يقارب ولكنها - ويا للأسف - ضاعت، وضاعت علينا بضياعها ثروة لا تقوم بمال.

هذا كتاب الحيوان لأبى حنيفة شدت فى طلبه الرحال من عشرات السنين وأنفقت على تحصيله بدر المال، وتبارى هواة الكتب فى طلبه فى جميع أقطار الأرض فلم يعثر له على أثر، وإن من يقرأ ما ينقله عنه ابن سيده فى كتاب المخصص يسترخص فى سبيله كل غالٍ ويستسهل كل صعب.

هذا عرض بسيط لبعض ما للغتنا من فضل على العلم والمدنية، وإن هذا البحث فى حد ذاته موضوع طريف يحتاج إلى بحث عميق ودراسة مستفيضة ويتطلب جهدًا قويًا ووقتًا متسعًا ولو أن باحثًا عربيًا يساعده وقته وحاله على استقراء هذا الموضوع لكتب فيه المجلدات ولبث فى ناشئتنا روحًا جديدة من الحماس للغتهم والتعلق بها والكد فى تحصيلها والتعاظم بجمالها ولكان ذلك مقاومًا لروح التزهيد الخبيثة التى لابست عقولهم.

إن المستعربين من علماء المشرقيات فريقان متفقان فى الاعتقاد بجمال هذه اللغة والاعتراف بمزاياها على العلم والمدنية مختلفا الدواعى والبواعث فى معاملتها، فريق ينظر إليها نظر الهون والمصلحة فينادى بموتها ويعمل على موتها ويزهد فيها للناس ويتجنى عليها وينحلها العيوب، وفريق ينظر إليها نظر العلم المجرد فيتعلمها بإخلاص ويحض على تعلمها ويشيد بذكرها فى المحافل والكتب.

وإن لهذا الفريق فى خدمة هذه اللغة أيادى بيضاء يستحقون عليها الشكر العظيم من أبناء هذه اللغة، فكم كتبوا عنها مؤلفات وكم عقدوا للبحث عن دقائقها مؤتمرات وكم طبعوا من أسفارها القيمة فى اللغة والأدب والتاريخ والعلوم ولو لم يكن من فضلهم عليها إلا إحياء أمهات علمية عجزنا نحن عن إحيائها لكان ذلك موجبًا لعرفان جميلهم وإذا كان فضل العربية عليهم فى القديم عظيمًا، فقد قابلوا الفضل بفضل ولهم الشكر على كل حال، إن فى هذه النقطة موضع اعتبار، وهو أنه إذا كان الأجنبى عن هذه اللغة يعرف لها فضلها فيحيى من آثارها ما استطاع ويحث قومه على تعلمها والاستفادة من ذخائرها وحكومته من ورائه تجمع له مئات الآلاف من أسفارها القيمة فماذا صنعنا نحن، ونحن أبناؤها حقيقة؟

الحق أن ما صنعناه نحن لهذه الأم ضئيل وأن ما أنفقناه فى سبيلها قليل، ولكن النية فى خدمتها صحيحة والرغبة فى تعلمها ملحة، وعلى الله قصد السبيل.

كتاب فيه عدوان على الشريعة الإسلامية

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو/يونيه ٢٠١٣م



دراسة نقدية كتبها الأستاذ الدكتور علي جمعة
عضو مجمع البحوث الإسلامية وعضو هيئة كبار العلماء

نشر الأستاذ الدكتور سعد الدين هلالي - أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر - كتابًا عنوانه: (الإسلام وإنسانية الدولة) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م.

ولخطورة الآراء المنشورة بهذا الكتاب، فلقد تم عرضه على مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.. وقرر المجمع تكوين لجنة من أعضائه لفحص الكتاب، وبيان الموقف الشرعي مما جاء فيه.

ومجلة (الأزهر) - بتكليف من المجمع - تنشر أول التقارير التي كتبت حول هذا الكتاب - والذي كتبه الأستاذ الدكتور علي جمعة - عضو المجمع، وهيئة كبار العلماء، ومفتي الديار المصرية - وقت كتابته للتقرير.

وسيجد القارئ في هذا التقرير:

- أن هذا الكتاب قد احتوى على «مخالفات للجانب العقدي الذي يجب على كل مسلم مكلف يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعتقده».
- وفيه «تعد على الشريعة الإسلامية».
- «ومخالفة لما قرره أهل العلم».
- «واضطراب في الفكر»
- «ومغالطات ومخالفات لما تقرر عند علماء الأمة».
- «وطعن صريح في ديانة الأمة جميعها».
- «ومجازفات بعيدة».
- «وهجوم شرس على الأمة، عامتها وخاصتها».
- «وتهجم وطعن في أمانة علماء الأمة وديانتهم، واتهامهم بأنهم شاركوا في تضليل هذه الأمة.. وادعاء بأنهم قد استعبدوا الناس باسم الدين».
- «والقول بعلمانية الدولة، وبتصور علماني محض لعلاقة الدين بالدولة، بل ولدور الدين في الأرض.. وإنكار أن يكون الدين قد نزل للحكم به في الأرض.. وجعل الدولة أعلى من الدين مطلقًا.. والقول بأن الدولة المعاصرة هي الثابت، وأن الشريعة الإسلامية وفقهها هي المتغير».
- «ونفي وجود المرجعية الإسلامية».
- «ونفي أن يكون للدولة وظيفة دينية وأن يكون الدين من مقومات الدولة.. وجعل الدولة أعلى من الدين».
- «وقطع الصلة بين الفقه والشريعة».
- «واتهام الذين يقولون إن الإسلام دين ودولة، وأنه منهاج حياة، وفيه حلول للأمور الحياتية، ومرجعية للدولة، بأنهم «الكسالى».
- «وتعطيل لبعض مقاصد الدين ووظائفه المتعلقة بأحكام المعاملات والجنايات والأقضية».
- «والبحث - في الأقوال والآراء الفقهية - عن الشاذ، أو المهجور، أو غير المعمول به.. وتتبع الرخص، مع تأويل ما يعارض المؤلف».
- «وتشبيه مقلدي المذاهب الفقهية بعباد الأصنام والداعين إلى الأصنام».
- «والسعي إلى أنسنة الدين.. حتى أن الأليق بعنوان هذا الكتاب أن يكون: (الإسلام وإنسانية الدين)!..».

الإسلام
وإنسانية
الدولة
د. سعد الدين هلالي

•••

سيجد القارئ هذه الأفكار - التي جاءت بهذا الكتاب - خلال هذا التقرير الذي رصد هذه الأفكار.. وغيرها - والذي يمثل عملا علميًا، ودراسة نقدية.. كتبها الأستاذ الدكتور علي جمعة - بتكليف من مجمع البحوث الإسلامية - لكتاب (الإسلام وإنسانية الدولة) - للأستاذ الدكتور سعد الدين هلالي..

وهذا هو نص التقرير:

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير عن كتاب

«الإسلام وإنسانية الدولة»

دراسة تأصيلية معالجة للشبهات والتوصيات ومبادرة إلى الدولة الإنسانية الجامعة»

للدكتور/ سعد الدين مسعد هلالي. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - سنة ٢٠١٢م.

قدم المؤلف من خلال كتابه محاولة فقهية لمعالجة تعارض الدين والدولة، رافضًا السلطة الدينية، ومؤكدًا على الحرية والاختيار التي نادى بهما الإسلام كدين مبنى على حرية التكليف واختيار المكلف، نابذًا أي استغلال للشعارات الدينية من أجل تحقيق مكاسب سياسية، وعلى الرغم من حاجة المكتبة الإسلامية لمثل تلك الكتابات فقد لاحظنا فيه وقوع مغالطات تتناقض مع ما قرره الإسلام وعلماؤه مما يؤثر سلبًا على المفاهيم الإسلامية، وسنجمل تلك الملاحظات في العناصر التالية:

(أ) اجتهاده في أمور ثبت أصلها من حيث الحجية والدلالة بنصوص قطعية، ويظهر ذلك من خلال النماذج الآتية:

١] وصيته للمجتمعات الإسلامية بألا تركن إلى الحدود المقررة في الشريعة، وذلك خوفًا من الإساءة إلى الإسلام، ولئلا يبدو التعارض بين الحدود الشرعية وبين مقومات الدولة المعاصرة التي تجعل السيادة للشعب وقد جاء ذلك في قوله (ص: ١٧٠ الفقرة الأخيرة، وأول ص: ١٧١): «أما وضع تلك المنظومة العقابية الحقيقية، فهي مسئولية الناس في مجتمعهم، عليهم أن يعالجوا الجرائم بما فيها السرقة والزنا والقذف والحرابة، وكل ما يخل بأمن المجتمع بتعازير رادعة دون النظر إلى تلك الحدود المقدرة التي جعلها الإسلام خيارًا لمرتكبيها، إن المجتمع مسئول عن أمنه بقانونه، ولا يركن إلى الحدود حتى لا يسيء إلى الإسلام أو إلى القضاء» اهـ. ونجده قبل هذا الموضع في (ص: ١٦٨).

وقد طرح المؤلف حلًا لإسقاط هذا التعارض هو أن تنظر للحدود الشرعية على أنها عبادات تكليفية مثل الصلاة والصيام، والفرق بينها وبين العبادات أن العبادات عينية الامتثال عند توفر شروط التكليف، أما الحدود الشرعية فهي عبادات تخييرية تطهيرية بمعنى أن الشرع خير المكلف فيها بين الستر على نفسه.. وبين أن يجود بنفسه إلى جهة القضاء.

وقد عاد المؤلف لتأكيد الفكرة نفسها على ذات النحو (ص ٣١٢ - ٣١٣)، مضيفًا أن هذا الوضع التخييري للحدود لا يناسب وضعها ضمن قانون العقوبات الجنائية، بل يقترح وضعه ضمن قانون الأحوال الشخصية لما فيه من معنى العبادة.

ويلاحظ عليه: أن تصوير الحدود على هذه الصورة فيه مغالطة، لأن هناك صورًا أخرى تقام فيها الحدود وإن لم يجد الجاني بنفسه، كمن ثبت عليه الحد بدليل صريح.

والفقه الجنائي المعاصر يتفق مع الفقه الإسلامي في وجوب العقوبات الجنائية، ولكنه

يختلف معه في أنواع العقوبات ولم يقل أحد على الإطلاق بأن العقوبات تخييرية ولا ندرى كيف سيكون حال الدنيا إذا سقطت العقوبات، وفتحنا الباب على مصراعيه للمجرمين يفعلون ما شاءوا، مخيرين في عقوبتهم أتقع أم لا؟.

كما أن فيه مخالفة صريحة لأحكام الشرع القطعية حيث أوجب الله تعالى تطبيق الحدود على من يقترفها ويقع فيها بعد تحقق شروطها في المجتمعات الإسلامية بنصوص ثابتة صحيحة قطعية - لا إجماع ولا حكم فقهي يمكنه الطعن عليه -، وهذا ما يجب أن يسعى إليه المسلمون ويعتقدونه، هذا من الجانب العقدي الذي يجب على كل مكلف مسلم يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يعتقده.

أما الجانب الفقهي: فنحن نوافق المؤلف فيه أن هناك شروطًا يجب أن تستوفى حتى تطبق هذه الحدود والعقوبات على أرض الواقع.

٢] وصيته في دفع التعارض بين الإسلام والدولة الحديثة بأن تقصر التكاليف على الشخصية الطبيعية دون الاعتبارية، وذلك بقوله «ص: ٢٥٤، رقم «١٠» من العناصر العشرة»: قصر التكاليف الشرعية على الأشخاص الطبيعيين لمنع المزايدين بتكليف الأشخاص الاعتبارية» اهـ. وفي هذا ظلم وتعد على أحكام الشريعة حيث رتبت أحكامًا خاصة للشخصية الطبيعية، كما أنها رتبت أحكامًا خاصة أيضًا للشخصية الاعتبارية، فكلٌ مكلف أمام الشرع، ولا يسقط خطاب الشارع إلا بموجباته التي قررها العلماء.

٣] غلطه في الحاكمية، وذلك في قوله (ص: ٤٣، ٤٤): «مما يؤكد أن المقصود بحاكمية الله هو الحكم بالعدل الإنساني في كل مجتمع مسلم أو غير مسلم، وليس الحكم بأحد الوجوه الاجتهادية في المسائل الدينية، خاصة وأن التدين أمر اختياري في حكم الأصل كما قال تعالى:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فكيف يكون الدين حاكمًا على الغير وهو خيار إنساني، فضلا عن كون الأحكام فيه اجتهادية ظنية، وليست أحكام الله قطعًا» اهـ. فنلاحظ أن المؤلف وقف وقفة طويلة أمام قضية «الحاكمية لله تعالى»؛ حيث أفرد ذلك في مبحث مستقل (ص ١٠١ - ١٢٨)، ولم يستطع بطبيعة الحال نفي حاكمية الله تعالى، إلا أنه قد لم يأل جهدا في تضييقها، خاصة فيما يتعلق بالدولة ونظام الحكم السياسي.

ويعتمد في تقرير ذلك على أمرين:

أولهما: تفسير معنى الحاكمية بأنها رفع وصاية البشر، وذلك في قوله (ص: ١١): «وليس معنى ذلك أن قاعدة «الحاكمية لله» تقبل الاستثناء أو يدخلها الشك، وإنما تقوم هذه القاعدة على رفع وصاية البشر بعضهم على بعض، فليس من حق إنسان ولو حاكمًا أو فقيهًا أن يلزم إنسانًا بغير التزام منه» اهـ. وقوله (ص: ١٠٢): «وثم معنى آخر في «الحاكمية لله» وهي إقامة العدل الذي جعله أساسًا للحكم في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

اهـ، وقوله (ص: ١٣٩، الفقرة الأخيرة): «أجمع الفقهاء على وجوب إعلان شعائر الدين في الديار الإسلامية في الجملة، فإن امتنعت قرية أو أهل محلة وجب على الحاكم مقاتلتهم حتى لا تهدم شعائر الإسلام، ولكن هذا الوجوب فقهي لا دليل عليه إلا الرأي، بل يخالف طبيعة العبادة التي تحتاج لصحتها إلى نية واختيار» اهـ، كما حكى في (ص: ١٤٣، فقرة: ٢) الإجماع على وجوب إقامة شعائر الإسلام وظهورها على أهل الأقطار الإسلامية، لكن سرعان أن عقب عليه بقوله (ص: ١٤٣، أول الفقرة الأخيرة): «قلت هذا الاتفاق على ترك شعيرة يعني التواطؤ على ذلك وليس مجرد التوافق، وهو يدخل في حكم الردة أو الزندقة وما فيهما من تفصيل وخلاف فقهي يجب الرجوع إليه؛ لأن مقاتلتهم لإقامة شعائر الإسلام مبني على حمل الناس على الطاعة والعبادة، وهو يخالف طبيعة العبادة التي تحتاج لصحتها إلى نية واختيار» اهـ.

ومن ذلك يلاحظ أن المؤلف لم يقدم بهذا التفسير - الذي تكرر منه مرارًا - حلا للمشكلة التي يريد أن يصورها، لأن قاعدة: «إقامة العدل» تحتاج إلى تفاصيل وأحكام وأنظمة تحدد من خلالها الحقوق والواجبات التي على أساسها يفصل بين الناس، ويعطى لكل ذي حق حقه، ولا يتصور أن هناك عدلاً يمكن الوصول إليه هكذا مطلقًا دون أنظمة وقوانين توصل إليه، وبناء على ذلك نسأل المؤلف عن عدة أسئلة: ما هي تلك الأنظمة والقوانين؟ وهل نرجع فيه إلى شريعة الله تعالى، أم إلى غير شريعته؟، فالعدل هو مبتغى الجميع، ولكن كيف نصل إليه؟ هذا هو المحك!

وثانيهما: تشويهه قضية الحاكمية بأنها تدخل الحاكم وحاشيته فيما بين الفرد وربه في التكاليف الشرعية مع التعبير بعبارات توحي بدكتاتورية الحكام وحاشيتهم، وذلك في قوله (ص: ١٠٢): «أما تفسير «الحاكمية لله» بقيام الحاكم وحاشيته بحمل الناس على التكاليف الشرعية فهو مناقض لصدق تلك الحاكمية، فعلى أي وجه فقهي يكون هذا الإلزام، ومن الذي أذن به مع تظاهر الكتاب والسنة على تكريم الإنسان بتخييره بأي وجه فقهي منها، ومن سيقوم بحمل الحاكم وحاشيته على التكاليف الشرعية، أم أنه وحاشيته فوق حاكمية الله؟» اهـ.

ويلاحظ على ما سبق أنه: في خضم حماس المؤلف للوصول إلى فكرته ينسى دائمًا ذكر الحد الوسط بين الاتجاهين اللذين يعقد التناقض بينهما مصورًا أن القسمة في المسألة ثنائية: إما رفع الوصاية مطلقًا، وإما تدخل الحاكم وحاشيته فيما بين الفرد وربه في التكاليف الشرعية.

في حين أن الأمر ليس كذلك، فلا يمكن رفع الوصاية مطلقًا، لحاجة الناس إلى حاكم؛ لدفع الظلم ولإقامة العدل بينهم؛ ولا يطلب أيضًا تدخل الحاكم بأنفه في كل أمر حتى في ضمير المحكوم الديني، ولكن دور الحاكم يبدأ عندما تشتبك علاقات أفراد المجتمع فيتدخل بينهم لإقرار العدل والحق، ولو تركنا ذلك لكل إنسان وفهمه للأحكام الشرعية وتطبيقه لها لصارت الأمور فوضى، والعجيب أنه يقرر ما أثبتناه بنفسه فنجده يعقد عنوانًا ليتحدث تحته عن حاجة

الناس إلى سلطة قضائية لتقيم العدل فيما بينهم، وقد استغرق صفحتين، هما: ٣١٣، ٣١٤، ويختمه بقوله (ص: ٣١٤، فقرة: ٣): «ويحتكمون في قضائهم لبعض تلك الأوجه بحسب ما يقع عليه الاختيار في القانون، ويجددون قوانينهم دائمًا بالأوجه الفقهية التي تناسب متغيرات أوضاعهم وأزمنتهم، والفقه عمل بشري بإذن شرعي وفق ضوابط محكمة يؤكد إنسانية الإسلام» اهـ، وهنا نسأل المؤلف: على أي وجه فقهي يكون هذا الإلزام؟ ومن الذي أذن به مع تظاهر نصوص الكتاب والسنة على تكريم الإنسان بتخييره بأي وجه فقهي منها، ومن سيقوم بحمل الحاكم وحاشيته على التكاليف الشرعية، أم أنه هو وحاشيته فوق حاكمية الله؟!.

ونجيب بنفس إجابته: إنه الشرع الشريف، مع التنبيه أن الشرع الشريف لا يبرر الأخطاء الواقعة من الحكام أو من غيرهم.

• تعميمه دون تفصيل بكون أحكام الدين اجتهادية ظنية، وهو مخالف لما هو مقرر من كون أحكام الدين الإسلامي تنقسم باعتبار احتمال ثبوت الدليل ودلالته لمعنى واحد، أو أكثر إلى نوعين، هما: الأحكام القطعية والأحكام الظنية، وإن كانت الأحكام الظنية هي الغالبة في الوقوع.

(ب) مخالفة ما قرره أهل العلم من تعريفات جامعة مانعة والتي أصبحت من المتواترات المسلمات ويظهر ذلك من خلال النماذج الآتية:

١) استنكاره لكون أحكام الفقه توصف بالشرعية، وذلك في مواضع عدة، منها:

- قوله (ص: ٦١، فقرة: ٢): «فإن المعنى الإنساني في هذا النظام المرجعي - النظام المرجعي بدلالة الوحي - قد يكون هو الأغلب في ميلاد الحكم محل الامتثال، فكيف يوصف بأنه حكم ديني أو شرعي؟ إن وصفها الحقيقي أنها أحكام فقهية، أي اختيارات اجتهادية بحسب غلبة الظن عند الفقيه» اهـ.

- وقوله (ص: ٦٧، فقرة: ٣): «فكيف توصف بأنها أحكام دينية أو شرعية؟ إن وصفها الحقيقي أنها أحكام فقهية» اهـ.

- وقوله (ص: ١٨٧، فقرة: ١): «فأحكام الردة أحكام فقهية وليست أحكامًا شرعية؟ والحكم الفقهي يقبل التحول من وجه إلى وجه بحسب المصلحة» اهـ.

٢) إطلاقه الأحكام الفقهية أحكام لا توصف بكونها من الدين، ومن نماذج ذلك:

- قوله معللا جواز مشاركة غير المسلمين والاستعانة بهم في مهام المسلمين العسكرية والشرطية (ص: ٢١٨، فقرة ٢): «حيث يتضح أنه شرط فقهي كانت له ملابسات تاريخية تلحقه بضوابط المهنة، ولم يكن شرطًا دينيًا عباديًا كالصلوات الخمس وصيام رمضان، حتى إن المصريين وكثيرًا من دول المسلمين قد تركوا العمل به دون نكير من الفقهاء المعاصرين، ويدل على أن هذا الشرط ليس دينيًا: أن الفقهاء قد اختلفوا فيه» اهـ.

- وقوله في تعليل إسقاط دعوى التعارض بين اشتراط صفة الإسلام في شهادة العدل وبين حق المواطنة التي ترعاه الدولة الحديثة (ص: ٢٣٠، فقرة: ٣): «فقد كان اشتراط جمهور الفقهاء

لهذا الشـرط مبنيا على ظروف تاريخية مليئة بالعداوة والانتقام بين المسـلمين وغيرهم، ولم يكن شرطًا دينيًا أو عباديًا محضًا كالطهارة للصلاة» اهـ.

– وقوله (ص: ٢٧٣، فقرة: ١): «أقول: وعند تعدد أوجه العدل في الشئون التنظيمية فإنه يتم الاحتكام إلى أحدها بحسـب أغلبية أهل الشورى، ولا يوصف بأنه حكم ديني بل هو حكم فقهي» اهـ.

● ولنا على هذه النقول ملاحظات ومنها:

– أنـه لم يأت بجديد في كـون وصف الأحكام التعبدية العمليـة بأنها فقهية، ولا غرو فـي ذلـك؛ حيث قرر العلماء ذلـك، لكن العجب أنه قد قصر أحـكام الدين على الأحكام العملية التي تمثل الفقه، وهذا ظلم بين للدين الإسـلامي؛ حيث يشـتمل الدين الإسلامي على الأحكام العقائدية والفقهية العملية والأخلاقية السلوكية.

– أنـه علل لدعـواه: أن الأحكام الفقهية لا توصف على الحقيقـة بأنها أحكام دينية أو شـرعية؛ لوقوع الخلاف فيهـا، ونصه (ص: ٦١، فقرة: ٢، وكذلـك ص: ٦٧، فقرة: ٢) فـي ذلـك كالآتي: «أي اختيـارات اجتهادية بحسـب غلبة الظن عند الفقيـه بدليل تحول الفقيه عن اختياره إلى آخر إذا وجد لذلك مقتضى» اهـ، وهذا التعليل لا يصلح دليلا لجعل الأحكام فقهية على الحقيقة دون وصفها بالشرعية.

وذلـك لمـا تقرر عند الفقهاء من وقوع الخلاف في الفـروع العملية مع كونهم يعرفون الفقـه بأنه: «العلم بالأحكام الشـرعية العملية المكتسـب من أدلتهـا التفصيلية»، وهذا ظاهـر واضح لا يسـتطيع أن ينكره أحد من خلال ما تركوه لنـا من مؤلفات جليلة مفيدة، ونزيـد في ذلك الأمر تأصيلاً وبيانًا؛ فنقـول: إنه لما تقرر أن الحكم يقصد به: إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، وكذلك لما كانت موارد ومصادر ذلك الحكم متعددة فتارة يكون مورده العقـل، وتارة يكون مورده الشـرع (الوحـي)، وتارة يكون مورده العـادة، قد جاء وصف الأحـكام التـي موردها الشـرع بأنها أحكام شـرعية؛ لتمييزها عن التـي موردها المصادر الأخرى.

كمـا أن الشـرع هو الذي أذن للفقيه أن يجتهد في اسـتنباط الأحـكام لما ينزل بالناس من حوادث وقضايا وفق مناهج محكمة علمها المبلغ للوحي سيدنا محمد ﷺ، وكشـف العلماء عنها، وذلك مما هو معلوم ومقرر في الشرع، وفي ذلك نورد كلام المؤلف لنستشـهد بـه – ممـا يدل على اضطراب الفكرة عنده – في الـرد عليه، حيث قال (ص: ١٣٤، فقرة ٣): «والفقه عمل بشـري بإذن شرعي وفق ضوابط محكمة يؤكد إنسانية الإسلام» اهـ، كما أنه يقرر ذلك بوضوح أيضًا في كلمته المطبوعة على الصفحة الخلفية للغلاف؛ حيث قال: «ويدعو الناس إلى كلمة سـواء باعتبار الإسلام دينًا إنسـانيا يعتمد في صورته الظاهرة على قرار الإنسـان واختياره من أوجه شاملة للفكر الإنسـاني استنبطها الفقهاء، من دلالات النصوص الشرعية التي صيروها قبلة للعقل الإنسـاني واستداروا حولها» اهـ.

تقريره أن الأحكام الفقهية أحكام شرعية:

لـم يسـلم المؤلف من الاستشـهاد بما تقرر عنـد العلماء من وصف الأحـكام الفقهية بأنها أحكام شرعية، وذلك في النماذج الآتية:

– قوله (ص: ١٠١، سطر: ٦): «وذلك في حراكهم الفقهي؛ لأنهم يدركون جيدًا الجانب الإنساني في الأحكام الشرعية» اهـ.

– ونجد أنه قد أضل بنفسـه بما قد شـغب على العلماء من قبل لكون هذه الأحكام شـرعية، وذلك في قوله (ص: ١٩٥، فقرة: ٣): «التجريم الشرعي خطاب فقهي للتعبير عن محظورات دينيـة عباديـة أو مجتمعية مصلحية مرتـب عليها عقوبات في الدنيا، أمـا الجريمة المجتمعية المصلحية فهي سـائر ما يتفق المجتمع على تجريمه ويضع جزاء معينًا على مخالفته بحسـب قواعـد المصالـح العامـة، ومـن أمثلتها: التهـرب الضريبـي، والتخلف عن الخدمـة الوطنية، وارتكاب المخالفات المرورية والتنظيمية، وهي جرائم شـرعية تبعًا للأمر الشـرعي بالسـمع والطاعة في المعروف، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾

(النساء: ٥٩)

وما أخرجه مسلم عن علي أن النبي ﷺ قال: «إنما الطاعة في المعروف» اهـ.

وعلى الرغم من كونه يؤصل لكون الأحكام توصف بالشـرعية تجده يرجع فينادي بوجوب تغيير قيد «حكم شـرعي» الواقع في تعريف الإجمـاع عند الأصوليين مثلهم مثل الفقهاء بقوله (ص: ٨٩، فقـرة: ١): «كما يجب تغيير «الحكم الشـرعي» ليصيـر «الحكم الفقهي»؛ لأنه مناط الامتثال فيكون التعريف هكذا: اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته، أو اتفاق ذوي الشأن في عصر من الأعصار على حكم فقهي» اهـ، ومما مر نجده يغير قيد «الأحكام الشرعية» بـ«الأحـكام الفقهيـة» في تعريفهم المحفـوظ المتداول الجامع المانع؛ ولـم يقتصر حديثه مع الفقهاء بل تعدى في ذلك إلى الأصوليين!.

٣) غلطه في الإجماع: حيث يقول (ص: ٨٠، فقرة: ٢): «وعلى التسـليم بحصوله فهو دليل إنساني قائم على استقراء واقع الناس في اختيارهم المذهبي، إلا أنه انحرف عن مساره حتى أخذ حجية دينية، وصار العامة يفهمونه على أنه الدليل الثالث بعد الكتاب والسنة؛ لأن نصوصهما تحتمل أوجهًا مختلفة أما الإجماع فلا يحتمل إلا وجهًا واحدًا ولذلك أساء الكثيرون استخدامه وجعلوه سيفًا مسلطًا على الفقهـاء المجددين ووصفوهم بأهل الضلال والشـذوذ، كما وقع لابن تيميـة المتوفى ٧٢٨هـ بسبب ممارسة حقه الشرعي في الاجتهاد والذي مس ما وصفوه بالإجماع» اهـ، ثم قال بعدها (نفس الصفحة، في نهاية الفقرة): «وهذا يتوجب إعادة دراسة الإجماع في علم أصول الفقه حتى تظهر جانبه الإنساني من أكثر الأوجه» اهـ.. فيا ترى ما ماهية تلك الدراسة؟

ويجيب عن هذا السـؤال في قوله (ص: ٨١، فقرة: ٤): «(٣) إن النظام الاتفاقي بالإجماع الإنساني على الحكم محل الامتثال – عند الإقرار بوجوده – لم يعط للجانب الديني سوى أحد

أوجهه وألغى اعتبار سائر الأوجه ببشريته دون وحى قاطع بها؛ ذلك أن الشرع أقر للمجتهدين - فى الجملة - بحق اعتبارهم للأوجه الفقهية التى استنبطوها، فيأتى الإجماع ليلغى اعتبار أكثرها بسلطة الكثرة والغلبة، ويسوِّد وجهًا واحدًا على أنه الوجه الذى يجمعهم بالاتفاق أو بالتوافق، كما أن المتفقين بالإجماع على حكم محل الامتثال قد يكون منهم المجتهد المخالف بفقهه ولكنه أمام الكثرة الكاثرة يعجز عن الصدع بانفراده الفقهى حتى لا يوصف بالضلال والشذوذ، مع أن الله تعالى جعل - هكذا بالأصل، والصواب جعل - الاجتهاد حقًا إنسانيًا، أو قد يرى مصلحته فى النزول مؤقتًا على قولهم، كما أن المجتمعين على قول هم الذين ألزموا أنفسهم به، فكان لهم الحق فى تعديله أو فى اختيار غيره» اهـ. ومقتضى تلك الدعوى أن الإجماع يتزعمه أحد الناس ثم يوافق عليه من حوله كأن أمر الموافقة من الذين حول الزعيم الذى يدعو إلى الإجماع قد حصل محاباة له أو مجاملة أو خوفًا، وتجد ذلك فى إضافة كلمة «تزعمه» أمام بعض الإجماعات التى حكاها العلماء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وذلك فى قوله (ص: ٨٢ فقرة: ٥): «وبهذا يتضح أن حكم الإجماع فى وجوب الغسل من الإكسال قد تزعمه عمر رضى الله عنه وحصل على موافقة من حوله» اهـ. وقوله: (آخر ص ٨٤، وأول ص ٨٥): «وبهذا يتضح أن حكم الإجماع فى جعل صلاة الجنازة أربع تكبيرات وجوبًا قد تزعمه عمر - رضى الله عنه - وحصل على موافقة من حوله» اهـ. وقوله: (ص: ٨٥، فقرة ٣): «وترك عمر رضى الله عنه ومن وافقه على جعل صلاة الجنائز أربع تكبيرات تركوا أوجها أخرى من النصوص الشرعية» اهـ. ثم سرد بعد ذلك ستة أوجه، وقوله (ص: ٨٧، فقرة: ٣): «وبهذا يتضح أن حكم الإجماع فى جلد شارب الخمر ثمانين قد تزعمه عمر رضى الله عنه وحصل على موافقة من حوله» اهـ.

ويلاحظ فى النقول السابقة وقوع مغالطات ومخالفات لما تقرر عند علماء الأمة، وتتمثل في:

- الإجماع انحرف عن مساره حتى أصبح حجة دينية.
- صار العامة يفهمونه - الإجماع - على أنه الدليل الثالث بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.
- الإجماع يضيق على المجتهدين المجددين حقهم المشروع فى الاجتهاد، والسباحة فى سماء الفكر!.
- الإجماع يضيق على الناس أحكام الشريعة؛ حيث إن أحكام الشريعة تكون واسعة تحتمل الوجه والوجهين والثلاثة، فيأتى الإجماع ليخصص وجهًا فقط، وهذا مخالف للشرع الذى أقر للمجتهدين - فى الجملة - بحق اعتبارهم للأوجه الفقهية التى استنبطوها.
- الإجماع لا يستند إلى وحى قاطع.
- الإجماع سيف مسلط يقهر أمامه المجتهد المخالف له حتى لا يوصف بالضلال والشذوذ، مع أن الله تعالى جعل الاجتهاد حقًا إنسانيًا.
- الإجماع يتزعمه أحد الناس فيوافق عليه من حوله إما مصانعة له أو مجاملة أو خوفًا منه.

كما تجده ينادى بتغيير وجيه - على حد زعمه - فى تعريف الإجماع، وهو ما لم يقل به أحد

من العلماء، وذلك فى قوله (ص: ٨٩، فقرة ١): «كما يجب تغيير «الحكم الشرعي» ليصير «الحكم الفقهي»؛ لأنه مناط الامتثال فيكون التعريف هكذا: اتفاق مجتهدى أمة محمد ﷺ بعد وفاته، أو اتفاق ذوى الشأن فى عصر من الأعصار على حكم فقهي» اهـ.

تناقضه فى احتجاجه بالإجماع

على الرغم مما ذكره المؤلف فى حديثه عن الإجماع الذى يطعن بوضوح فى الإجماع وحجيته ومكانته فى الشريعة الإسلامية، ولا يسعنا فى هذا المقام، إلا أن نذكر المؤلف بأنه قد احتج بالإجماع - المضيق لأوجه الشريعة، والسيف المسلط على رقاب المجتهدين، المضيع للحريات، والذى صيره العامة دليلاً ثالثًا للأدلة الأصولية - فقد احتج به المؤلف فى كتابه هذا أكثر من عشرين مرة، فى الصفحات التالية: ٣٥، ٣٩، ٧٣، ١٧٠، ١٧٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣١١، على أحكام شرعية ليقطع بها الطريق أمام من يخالفه؛ ليسلم له ما يريده.

كما نذكره بأن تلك الإجماعات التى حكاها لا تنضبط مع شروط الإجماع بل هو لم يذكر من حكاها عنه، والواضح أنه هو الذى جمعها وحكاها من قبيل سعة الاطلاع وطول الباع!.

كما وجدناه يستصحب الاتفاق من محل الاتفاق عليه؛ ليحتج به فى محل النزاع مع المخالف؛ ليتم له ما يريد، وذلك فى (ص: ٢٢٩، فقرة: ١)؛ حيث يقول: «القياس على جواز الاستعانة بأدوات وأسلحة غير المسلمين، التى هى محل اتفاق فى الجملة، فكان الاستعانة بعدد من غير المسلمين فى شرطة المسلمين لقتال البغاة منهم كالأداة فى يد المسلمين» اهـ، كما وجدناه يدفع بين قول مجتهد يظهر منه أنه مناقض للإجماع حيث يقول (ص: ١٨١، الفقرة الأخيرة): «وقد استقر العمل بها حتى صارت قاعدة فقهية، ولا يخرق الإجماع بدرء الحدود بالشبهات ما ذكره ابن حزم فى كتابه المحلى بقوله: وذهب أصحابنا إلى أن الحدود لا يحل أن تدرأ بالشبهة، ولا أن تقام بشبهة» اهـ.

الإجماع غير متحقق وقوعه؛ بل وقوعه ضربًا من الوهم والخيال

وعلى الرغم مما ذكرناه وأثبتناه من الاحتجاج بالإجماع نجده يجزم بأن وقوع وتحقق الإجماع الذى هو اتفاق مجتهدى أمة النبى محمد ﷺ ضربًا من الوهم والخيال، وذلك فى قوله (ص: ٨٨، فقرة: ٤): «ولكن ما يجب التنبيه إليه هو أن التعريف بهذا القيد، وهو اتفاق مجتهدى الأمة يجعله ضربًا من الخيال، لو كان هذا الاتفاق لزمن معين أو عصر محدد لطبيعة النفس البشرية المجبولة على التمايز» اهـ. ويلزم من ذلك الطعن فيمن حكى إجماعا وقع من الأمة فى أى فترة من فترات تاريخها؛ وهو يكاد أن يكون تكذيب للأمة كلها من أولها إلى آخرها فما من عالم إلا وحكى الإجماع فى مسألة من المسائل، كما أنه ما من عالم فى الأمة إلا وحكى الإجماع فى مسألة من مسائل عمن حكاه فى الأصل، وهذا طعن صريح فى ديانة الأمة جميعها.

الإجماع مسائله فقهية وليست دينية:

ونجده يذكر أن مسائل الإجماع لا تعد مسائل شرعية دينية بل هى فقهية، وذلك فى قوله

(ص: ١٠١، سطر: ٨): «كما أن مسائل الإجماع ليست أحكاما دينية وإنما هي اتفاقات إنسانية على اختيار وجه فقهي دون وجه» اهـ. ومقصوده من ذلك ظاهر؛ حيث يشير إلى أنه مع التسليم بوقوع الإجماع وحصوله، فلا يمنع هذا الحصول والوقوع أن للمجتهد أن يخالفه ويختار بين الأوجه الأخرى أيضًا، يعني لا عزاء للإجماع!.

٤] **غلطه في الردة:** حيث قرر أن هناك تعارضًا بين أحكام الردة والزندقة في الفقه الإسلامي ومقومات الدولة المعاصرة، وفي ذلك يقول قوله (ص ١٨٦): «... بل ذهب بعض السلف منهم عمر بن الخطاب والنخعي والثوري إلى إنكار كون الردة عدوانًا، بل إنها حق إنساني مكفول في الدنيا باعتبارها دار عمل» اهـ.

بالإضافة إلى ما في العبارة من إيحاش ونكارة حيث حول المؤلف الردة من كونها عدوانًا إلى كونها حقًا إنسانيا مكفولاً، وكأن الشريعة قد أتت برعاية الردة وكفالتها!

ولو عبر بالعبارة الشائعة في الكتابات المعاصرة «حرية الاعتقاد - حرية العقيدة»، لكان أكثر قبولاً.

ثم عاد المؤلف إلى هذه الفكرة بمزيد من التأكيد والتفصيل ومحاولة التدليل عليها بالآثار (ص ١٩٦ - ١٩٨)، فيذكر أنه: «اختلف الفقهاء في تجريم الردة شرعًا بمعنى ترتيب عقوبة عبادية في الدنيا على المرتد بسبب تعارض ظاهر النصوص التي جاء في بعضها الأمر بقتل المرتد، وجاء في أكثرها تأثيم الردة في الآخرة، دون ذكر جزاء لها في الدنيا، وهذا ما جعل الفقهاء يختلفون في تكييفها الشرعي هل هي حق إنساني في الدنيا أو هي عمل عدواني على الدين وأهله؟ اتجاهان للفقهاء:

الاتجاه الأول: يرى أن الردة حق إنساني مكفول شرعًا في الدنيا وما على المسلمين إلا النصح والتذكير، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وإبراهيم النخعي وسفيان الثوري وحكاه ابن حزم في المحلى عن طائفة ولم يسمهم، وحكاه ابن تيمية في مجموع الفتاوى عن بعض أهل العلم ولم يسمهم...»، وهي مغالطة واسعة من المؤلف، وليس فيما ذكره من عمومات الكتاب الكريم ومطلقاته ولا في الآثار عن سيدنا عمر وغيره ما يؤيد كلامه، غاية ما فيها بيان الاختلاف في عقوبة المرتد، ومقدار استتابته، وذلك تجريم، ولا يساعد أبدًا على أنه «حق إنساني مكفول» اهـ.

٥) غلطه في المباح بأنه لا يعد حكمًا تكليفيًا، وذلك في (ص ٢٥٨ - ٢٥٩)، ومن كلامه في ذلك (نهاية صفحة ٢٥٨): «(٤) أن حكم المباح عند الفقهاء يشغل النسبة الغالبة من المسائل، وهذا الحكم عند أكثر الفقهاء والأصوليين ليس حكمًا تكليفيًا، وإنما هو حكم إنساني تركه الشرع للإنسان» اهـ.

ونسبة هذا الرأي إلى أكثر الفقهاء والأصوليين من المجازفات البعيدة، بل يمكن الجزم بأن هذا الرأي لا يعرف ولا يكاد يوجد في كتب الأصول والفقه، ولا يعرف الفقهاء أصلا عبارة «حكم إنساني»، فهي من مبتكرات المؤلف.

وإذا كان الشارع هو الذي أباح وحظر وأوجب وندب وكره، فالأحكام الخمسة كلها شرعية، فالمباح حكم شرعي باتفاق العلماء لأن الشارع هو الذي حكم بإباحته، وإنما اعترض بعضهم على صحة إطلاق «تكليفي» على المباح من جهة أن التكليف إلزام ما فيه مشقة، وليس المباح كذلك، والحاصل أن المباح حكم شرعي، وإن جرى النقاش حول كونه حكمًا شرعيًا تكليفيًا، أو هو حكم شرعي ليس بتكليفي، ومن المعلوم أن الأحكام الشرعية تنقسم إلى أقسام بعضها تكليفي، وبعضها وضعي، فكون المباح ليس بتكليفي لا يخرج عن كونه حكمًا شرعيًا، ولا يجعله حكمًا إنسانيًا.

ج) غلطه في العلماء والعامة، ووصفهم بأوصاف لا تليق بهم:

وذلك في قوله (٢٦٠، فقرة: ٤): «وإذا كان خطاب الله تعالى المذكور في التعريف - تعريف الحكم الشرعي عند الأصوليين - هو الحكم الشرعي إيجابًا وتحريمًا فإن أثر هذا الخطاب من الفهم البشري هو الحكم الفقهي، بوصف هذا الفعل بالواجب وذاك بالفعل المحرم، وهذا ما استقر عليه الفقهاء والأصوليون إلا أنه مع فشو الجهل وعدم الاكتراث بالمصطلحات صار العامة يتهيبون تركه إلى غيره بسبب الوصف الشرعي المقدس في قلوب الناس، واستمرأ أهل الدعوة الإسلامية هذا الخطأ لأنه يطوع الناس لدعوتهم، فتكاسلوا في تجديد أساليب الدعوة والموعظة تواكلا على سلطة الحسبة التي تحمل الناس قسرًا على الطاعة والالتزام بالوجه الفقهي الذي يسوِّده الأولياء والأوصياء، لكن الأمانة تستوجب على الجميع تصحيح هذا الخطأ ووضع الأمور في نصابها بتخصيص الحكم الشرعي لنصوص الكتاب والسنة التي تتضمن أمرًا أو نهيًا، وتسمية أوصاف الأفعال بالمحرم والمكروه والواجب والمباح بالحكم الفقهي، وهو حكم متعدد من نتاج بشري يخطئ ويصيب، وقد يعدل عنه صاحبه إلى غيره، بخلاف الحكم الشرعي الذي هو خطاب الله فإنه حكم ثابت دائم مقدس، وليس محلاً للامتثال إلا عن طريق الاجتهاد بالحكم الفقهي» اهـ.

ونلاحظ في قوله ذلك هجومًا شرسًا على الأمة عامتها وعلمائها، فانظر إلى هذا التهجم والطعن في أمانة وديانة علماء الأمة بأنهم تكاسلوا وتواكلوا وتركوا الجهل يفشو، ولم يكترثوا بالمصطلحات الخاطئة.

كما أنهم شاركوا في تضليل هذه الأمة بأن حملوا الناس قسرًا على الطاعة، وساعدوا في إيجاد الأولياء والأوصياء عليهم من دون الله، وهذا طعن واتهام عريض لا يمكن إطلاقه بمثل هذه الطريقة.

● كما ادعى أن علماء الإسلام خاصة الفقهاء منهم يرسخون فكرة السلطة الدينية (الثيوقراطية) التي تعني توسط مخلوق بين مخلوق آخر وبين خالقه، وذلك في قوله (ص: ٢٦١، فقرة: ١): «ويعطي الإسلام الناس الحق في أن يتوافقوا ببشريتهم على اختيار وجه فقهي معين يلتزمون به، أو أن يتركوا المسألة بوجوهها الفقهية لحرية الاختيار، وبهذا تسقط فكرة السلطة الدينية أو المرجعية الدينية في الإسلام؛ ليتحصن الناس من الاستعباد ولو باسم الدين، وقد عاب القرآن الكريم على أولئك الذين قدسوا أحبارهم ورهبانهم، ومشايخهم من دون الله؛ لأن الله تعالى يريد من عبده أن يجعل قراره بيد نفسه لا بيد شيخه أو وصيه لتتحقق العبودية الخالصة له سبحانه، يقول تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا

﴿ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣١)

وقال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾

(البقرة: ١٦٥، ١٦٦). اهـ

ويلاحظ على هذا القول عدة مغالطات، هي:

- عمده في ذكر آيات نزلت في أهل الكتاب والأمم السابقة وإنزالها على علماء المسلمين.
- دعواه بترك الناس في أن يتوافقوا ببشريتهم على اختيار وجه فقهي معين يلتزمون به، أو أن يتركوا المسألة بوجوهها الفقهية لحرية الاختيار، حتى تسقط فكرة السلطة الدينية أو المرجعية الدينية في الإسلام، تلك الدعوى تتعارض مع قطعيات في الإسلام، وتتمثل تلك القطعيات بأن الله تعالى أوجب على المؤمنين أن يسألوا أهل الذكر - المرجعية الدينية الإسلامية - إذا لم يعلموا في قوله تعالى:

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

(النحل: ٤٣)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾

(النساء: ٨٣)

- اتهامه لتاريخ علماء الأمة على طول تاريخها الكبير وادعاؤه بأنهم استعبدوا الناس باسم الدين!
- ادعاؤه أن علم أصول الفقه ابتكار بشري، وذلك في قوله (ص: ٢٥٨، رقم (١)): «أن النصوص الشرعية من الوحي في الجملة، لكن فهم تلك النصوص وترجمتها إلى لغة الفعل والترك بدرجات الحتم وما دونها يرجع إلى الإنسان باجتهاده وبحثه البشري في طرق الاستنباط، فلم ينزل مع نصوص الوحي بيانًا لكيفية الفهم أو الاستنباط، وإنما صار الفهم بعلم أصول الفقه الذي هو ابتكار بشري» اهـ، وهذا القول فيه مغالطة تنأى بالمؤلف عن الانزلاق فيها؛ حيث إن كيفية البحث والاستنباط المتمثلة في علم أصول الفقه الذي هو ابتكار بشري لم يخرج عن كونه كاشفًا لمناهج الفهم التي علمها المبلغ المعصوم الذي هو جزء من الوحي لأصحابه، ثم الأصحاب نقلوها للتابعين من بعدهم وهكذا الأمر إلى الآن.

وعليه فإن علم أصول الفقه وغيره هي علوم مأخوذة من الوحي وليس الإنسان منشئًا لها أصالة.

(د) عدم الاعتناء بالآيات القرآنية الجليلة الثابتة المعصومة:

ومن ذلك ما جاء في (ص: ٤٨، فقرة (ج)) من ذكر الآية الكريمة:

﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾

(الطور: ٢١)

بدون «كُلُّ»؛ فهي مرسومة في الكتب كالآتي: ﴿ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾، وكذلك ما جاء في رسم قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

فوقع في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أمران: الأول: كلمة «إلى» غير واضحة، والثاني: لفظ الجلالة في قوله «أمر الله» غير مذكور بالمرة.

(هـ) ملاحظات أخرى حول مصطلحات أطلقها المؤلف وأراد التأصيل والترويج لها:

[أ] فكرة [إنسانية الإسلام]:

وقد فسرها بقوله (ص ١٠): «ولا أعني بإنسانية الإسلام كونه اختراعًا إنسانيًا منقطعًا عن الوحي الثابت بالنص الشرعي - حاش لله - وإنما من وجه أن الشارع ترك للمسلمين فهم نصوصه بآلية إنسانية متعددة أثمرت عن تعدد الوجوه المحتملة في المسألة الواحدة ثم الإذن الشرعي في الامتثال بكل وجه اجتهادي منها بحسب الاختيار الإنساني، وهذا يجعل من دينهم دينًا إنسانيًا من جهة الاستنباط ومن جهة مرونة التعامل مع الآخر باختيار الوجه الفقهي الذي يقربه ولا يبعده» اهـ.

وقد تحدث عن هذه الفكرة طويلا في ثنايا كتابه وجعلها المقدمة الأساسية التي سيرتب عليها النتيجة التي يبتغيها، ولهذا عقد في أواخر الكتاب مبحثًا (ص ٢٥٨) ترجم له بقوله (الوقوف على إنسانية الإسلام بما يحول دون السلطة الدينية)، مؤكدًا (ص ٢٥٣) على أن هذا الأمر هو أحد الوصايا العشر لفك التعارض بين الدين والدولة.

- **نقد للفكرة:**

رغم تفسير المؤلف السابق لمراده من عبارة (إنسانية الإسلام)، فإنها تبقى موهمة وموحشة، ولها وقع ثقيل على الأذن والنفس، وتبني الرأي الآخر المتطرف المقابل للرأي الذي يهاجمه والقائل بأحدية التفسير والفهم للوحي الإلهي، بحيث يبدو من كلام المؤلف أنه لا نهاية للأفهام والآراء، فأحادية الفهم يقابلها لا نهائية الفهم التي ستئول إليها فكرة (إنسانية الإسلام)، والتي نربأ بالمؤلف أن يكون قد قصدها.

ولا شك أن هناك قواعد وضوابط وأصول فهم للنصوص الشرعية، وأنه مهما تعددت اجتهادات المتأهلين للاجتهاد من علماء المسلمين، فإنها لا تخرج عن تلك القواعد والضوابط والأصول، والتي لا تخفى - بلا شك - على مثل الأستاذ المؤلف.

[٢] وظيفة الدولة:

من الأفكار التى طرحها المؤلف (ص ١٨ - ٢١) أنه ليس من وظائف الدولة (الرسالة الدينية).

نعم من وظائف الدولة الحفاظ على المقاصد الخمسة (الجسد - المال - العرض - العقل - الدين) بحسب ما ذكرها المؤلف ورتبها، إلا أن ذلك لا يعنى أن الدولة تترجم «وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية وتحمل الناس على ما لم يقم به الرسل صلوات الله عليهم أجمعين».

● نقد الفكرة: إن هذا الذى ذكره يتناقض مع ما نقله (ص ١٣١-١٣٢) عن الفقهاء فى تعريف الخليفة أو الإمام الأعظم أو الإمامة من كونها «موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا»، ولا يدفع هذا التناقض مجرد دعوى المؤلف التفسير الخاطئ لكلام الفقهاء والعصبية الدينية والمزايدة التى وقع فيها العامة وكثير من الخاصة لوظيفة الإمام أو الحاكم فى الإسلام، دون أن يقدم أى دليل على وجه الخطأ فى التفسير.

كما أن دعوى أن ذلك «لم يقم به الرسل» غير مقبولة على الإطلاق خاصة فى حق نبينا ﷺ الذى أقام دولة كما نشر دينًا، وكان يحكم ويقضى بين الناس، كما كان ينشر الرسالة الخاتمة بينهم، ومن ثم كانت له تصرفات بما أنه الحاكم أو القاضى أو الرسول، ومع تعدد وجوه تصرفاته ﷺ واعتباراتها فإنها جميعًا لم تكن تخرج عن حكم الله تعالى وما شرعه لنبيه ولأمته من بعده.

ومن ثم نرى أن الفكرة التى طرحها المؤلف ستفضى فى نهايتها إلى القول بعلمانية الدولة، التى لا تتداعى مسئوليتها تجاه الدين إلا أن تكفل فحسب (حرية العقيدة والدين).

[٣] وفى ضوء وظيفة الدولة السابقة عند المؤلف يبنى عليها وظيفة الحاكم:

حيث يتناول وظيفته فى مبحث خاص (ص ١٢٩ - ١٣٧)؛ ويرى أن وظيفة الحاكم أو الخليفة تدور بين تكييفين: الأول: أن الحكم عمل فنى فى إدارة الشئون العامة على العدل.. الثانى: أن الحكم عمل فنى ودينى معًا لحراسة الدين وسياسة الدنيا.

والتكييف الثانى هو الاحتمال الأشهر على حد تعبير المؤلف، وإن كان قد سعى جهده خلال صفحات هذا المبحث إلى إقناع القارئ بالتكييف الأول، ومن ذلك قوله (ص ١٣١) بأن «وظيفة الحكم وظيفة حياتية أو فنية فى الإدارة العادلة التى تحقق المساواة بين الناس، كما أن وظيفة الطب والهندسة ونحوها وظائف فنية حياتية، وليست وظائف دينية، فيصح أن يتولاها كل أحد مهما كانت عقيدته أو جنسه طالما تحققت فيه الشروط الفنية لإدارة الحكم...» اهـ.

[٤] القارئ للكتاب يستشعر أن العنوان الأليق بالكتاب ينبغى أن يكون [الإسلام وإنسانية الدين] بدل [الإسلام وإنسانية الدولة]، حيث إن المؤلف بالغ إلى حد كبير فى تقدير العنصر الإنسانى فى إدراك الشريعة وفقهها. وهناك العديد من الأمثلة:

- يجعل المؤلف (ص ٣٧) مقومات الدين أمرين: أولهما: الإنسان لأنه المستهدف، وثانيهما: نصوص الوحى من الكتاب والسنة لأنها المرجعية المعبرة عن صحيح الدين.

وقد عرف المؤلف مقومات الشىء وقوامه بأن «قوام كل شىء عماده وصلبه وما يقوم به»، وهذا التعريف لا يقتضى أن يكون الإنسان من مقومات الدين لمجرد أنه المستهدف من الدين،

ولكن المؤلف يسعى بشتى السبل إلى تعظيم الدور الإنسانى فى الدين، حتى يصل إلى بغيته من أنه لا يوجد تفسير وحيد لنصوص الدين، ولا يملك واحد أو طائفة من أهل الدين حق التفسير وحدهم، وكأن المؤلف يرد على تيارات بعينها دون ملاحظة المرجعية الدينية الصحيحة كالأزهر الشريف فى مصر، وإلا انسحب عليها الحكم نفسه فنصل إلى ألا مرجعية!

- ويرتب المؤلف على فكرته عن مقومات الدين نتيجة عبر عنها بقوله: «إن العلاقة بين هذين من خلال التطبيق العملى تقوم على مبدأين برجحان حظ الإنسان، يعنى على حظ النصوص».

[٥] ينزع المؤلف فى كثير من الأحيان إلى ما يخشى أن يفهم منه أن للمؤلف اتجاهات علمانية، ومن ذلك:

- يجعل المؤلف الدولة أعلى من الدين مطلقًا (دين أفراد الدولة ومللهم) فالدولة عنده (ص ١٣) هى الحاضنة للدين وأهله.

- يذكر المؤلف (ص: ١٦) مقومات الدولة فلا يجعل من بينها الدين كمقوم أساسى، وإنما اكتفى بذكر الدين من حيث تساوى الشعب فى الحقوق والواجبات.

[٦] يشتمل الكتاب على العديد من العبارات والأفكار التى تدخل فى باب المغالطات، ومن ذلك:

- ما ذكره المؤلف (ص ١٨) عن محاولة «البعض أن يجعل من وظيفة الدولة القيام برسالة دينية معينة»؛ ويرى المؤلف أن ذلك «من أسباب تعقيد العلاقة بين الدين والدولة، فبدلا من أن يكون الدين رسالة لهداية الإنسان بالحكمة والموعظة الحسنة يتجه البعض إلى جعل الدين سلطانًا قاهرًا»، والمغالطة هنا أن مجرد أن نجعل للدولة وظيفة دينية لا يقتضى بالضرورة «جعل الدين سلطانًا قاهرًا»، لأنه من الممكن بل والمشاهد أن تقوم الدولة برعاية الرسالة الدينية بالحكمة والموعظة الحسنة أيضًا، دون قهر أو إجبار.

- والمغالطة نفسها نجدها فى (ص ٢١)؛ حيث يشير المؤلف إلى أنه «لم تكن من وظيفة الدولة الحاضنة.. أن تترجم وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية وتحمل الناس على ما لم يقم به الرسل...»، والمغالطة هنا أنه يريد أن يقصر دور الدولة قصرا على الإلزام وقسر الناس، ولكن يمكن بلا شك أن تترجم الدولة وظيفة الرسل الفكرية - على حد تعبيره - إلى برامج غير إلزامية.

[٧] يرى المؤلف [ص: ٣٥] «أن الإسلام لم يغير من شأن الدولة فى المدينة المنورة فلم يضع رسول الله نظامًا خاصة لإدارتها بل استمر النظام على ما كان عليه من قبل والذى تم تغييره فقط هو الأشخاص».

وفى هذا جناية على السنة النبوية الشريفة، وعلى الحقيقة التاريخية الواضحة والتى تؤكد على ما وضعه النبى ﷺ من أصول للأنظمة والاتفاقات وأصول تطوير فى شتى شئون الدولة من قضاء وشرطة وحسبة وجيش واقتصاد ومالية ونواب للحاكم.. إلخ، فلا شك أن النبى ﷺ هو مؤسس الدولة فى الإسلام، وهو الذى شرع أصولها التى اتبعها الخلفاء من بعده. ولكن للأسف سيطرت على المؤلف فكرته وأراد إثباتها بأية طريقة حتى ولو بنفى الحقائق التاريخية. وقد بنى نفيه هذا

على مجرد أن النبى ﷺ لم يستخلف، ومن البين أن عدم الاستخلاف لا يعنى عدم الدولة.

[٨] من الأفكار الشائكة التى أوردها المؤلف فكرته عن فهم النصوص وقواعد هذا الفهم، حيث يجعلها إنسانية محضة وخالصة، مما يخشى معه من فتح باب نسبية الفهم مطلقًا وفى أسوأ صورها، ويجعل لكل إنسان الحق فى أن يفهم ما شاء من النصوص وكيف شاء، وليصبح الدين الإسلامى بهذه الطريقة دينا إنسانيا لا كهنوتيا، وهناك العديد من المواضع التى تشير إلى هذه الفكرة، منها:

- ما يذكره المؤلف (ص: ٣٨): «. . وأما حصة الإنسان فهى الفهوم والامتثال يكون بالفهم لا بالنص، والفهم حق خالص للإنسان، حتى إن صاحب النص لم يقيد الإنسان بقواعد فهم النص، وإنما تركه حرًا فى اختيار آلية الفهم واستنباط دلالات النصوص» اهـ.

وسيعود المؤلف للموضوع ذاته بتفصيل أكثر، ويفرد له مبحثا كاملا «ص٥٤-٩٧»، حاصل وجهة نظر المؤلف «ص٥٤» أن الإسلام يعتمد «فى نظام أحكامه على ما يريح الإنسان ويشركه فى إصدارها بما يمكن القول بأنه دين إنسانى وليس دينا كهنوتيا»

النقد: جعل المؤلف مقابل الدين الكهنوتى الذى يملك حق التفسير فيه أهل الكهنوت فحسب: الدين الإنسانى الذى يملك كل إنسان حق الفهم والتفسير فيه.

وهذه مغالطة تنضم إلى المغالطات التى وقعت فى الكتاب، فبين الدرجتين درجة أهل الذكر التى أمرنا الله تعالى أن نسألهم إذا كنا لا نعلم، قال تعالى:

﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(النحل٤٣)

وإذا كنا نتفق مع المؤلف فى أن الإسلام لا يعرف الكهنوت، ولا يقبل قصر حق التفسير والاجتهاد على طائفة بعينها، فإنا نختلف معه فى فتح الباب على مصراعيه.

والإنسان لا يشارك فى إصدار الأحكام الشرعية كما ذكر المؤلف، بل يقتصر دوره على فهمها وفقهها والعمل بمقتضاها، أما إصدار الأحكام وتشريعها فليس إلا للشارع الحكيم فحسب، على ما ذهب إليه أهل السنة، فالشارع والحاكم هو الله وحده.

- ومن أمثلة هذه الفكرة أيضا عند حديثه عن النظام المرجعى النصى قوله (ص: ٥٦): «الصفة الإنسانية لا تنقطع عن هذا النظام لتمكين الإنسان من مراجعة الوحى فى حينه وتفويض الإنسان فى ممارسة فهم النص واستنباط الحكم منه» اهـ.

النقد: فكرة «تفويض الإنسان فى ممارسة فهم النص»، ليس على إطلاقها، فالإنسان ليس مفوضًا تفويضًا مطلقًا فى ذلك، لأن هناك قواعد وأصولاً وأسسا وضوابط تحيط بعملية فهم النص واستنباط الأحكام منه. وبقدر ما اختلف العلماء، وأهل الذكر حول بعض تلك القواعد والأصول والضوابط فقد اتفقوا جميعًا على أن ثمة ضوابط وقواعد لتلك العملية، تلك القواعد والأصول والضوابط؛ هى التى تفرق بين أهل الذكر الذين أمرنا الله بسؤالهم، وبين غيرهم الذين لا يعلمون.

[٩] واجه المؤلف [ص:٨١] بالمنع والنفى كل ما رآه سببا «لتعقيد العلاقة بين الدين والدولة» كقيام الدولة بوظيفتها فى خدمة الرسالة الدينية، مثل الحاكمية كوظيفة من وظائف الدين (ص: ٣٩)، فنفى نفيًا قاطعًا أن يكون للدولة وظيفة دينية إلا توفير حرية الاعتقاد فحسب، كما نفى أن يكون للدين أى دور فى الحاكمية.

النقد: القراءة الكلية لكلام المؤلف لاشك أنها ستخرج بتصور علمانى محض لعلاقة الدين بالدولة، بل ولدور الدين فى الأرض، والذى قصره المؤلف على «أوجه التعامل مع الآخر» (ص٣٩-٤٢)، وقد خص مفهومه على التعامل مع الأفراد فحسب.

[١٠] فى إطار سعى المؤلف الحثيث إلى إغلاق الباب أمام من يدعى وحده «امتلاك الحقيقة المطلقة والفهم الصائب»، فإنه ربما وقع فى بعض المجازفات والمبالغات، ومن ذلك:

- قوله (ص٤٠): «وأما أدعياء الواسطة بين العبد وبين ربه كأمثال صانعى الأصنام قديمًا . . . وفى حكمهم حديثًا من يزعم وجوب عبادة الله تعالى على الوجه الفقهى الذى اختاره إمام معين أو فقيه مخصوص اعتقادًا أنه الأعلم بالصواب» اهـ.

النقد: من الواضح أنه لا وجه للمقارنة بين عُبَّاد الأصنام والداعين إليها، وبين مقلدى المذاهب الفقهية والداعين إليها، والمقلد لمذهب من المذاهب مهما كان الأمر فهو آخذ بوجه من وجوه الشريعة الإسلامية، ومتعبد ربه بوجه أذن فيه شرعا، بخلاف عبادة الأصنام فإنها لا تجوز بوجه.

[١١] حمل المؤلف «حكم الله» فى النصوص الشرعية التى تأمر بالحكم بما أنزل الله، وبالعمل بحكم الله، على «العدل»، فحكم الله- بحسب نظره- هو العدل وليس الحكم بتفاصيل الشريعة (ص:٤٣)، ثم يعود فيدفع بفكرته تلك خطوة أخرى للأمام ليؤكد (ص:٩٩) على أن الإسلام لا يطلب من الدولة سوى العدل الإنسانى.

وفى الحقيقة فإن ما قرره المؤلف (ص: ٤٣-٤٤) بخصوص الحاكمية ـ وعلى قصره واختصاره ـ يعد من أهم وأخطر ما طرحه فى الكتاب كله من اجتهادات وآراء، مؤسسًا رأيه على الفرق بين حكم الله بالعدل وبين الحكم بالدين فى تفاصيل الشريعة، وأنه إذا كان التدين أمرًا اختياريًا فى حكم الأصل، فكيف يكون الدين حاكمًا على الغير، منكرًا على من يزعم أن الدين نزل للحكم به فى الأرض.

النقد: إن الهاجس الأكبر للمؤلف وخوفه من تسلط أحد التيارات الدينية المتشددة وذات الأفق الضيق على مقاليد البلاد وحملها للناس حملا على فقه واحد وفهم واحد ضيقين، جعلت المؤلف يسعى بأية طريقة لسد الباب عليهم، حتى ولو أدى ذلك إلى تعطيل بعض مقاصد الدين ووظائفه المتعلقة بأحكام المعاملات والجنايات والأقضية.

وإذا كنا نتفق مع المؤلف فى تخوفه ذلك، فإننا لا نتفق معه فى أسلوب المعالجة.

[١٢] يعتبر الفصل الثالث من الكتاب [ص: ٩٥ - ٢٥١] هو أهم فصول الكتاب وأكثرها تعبيرا عن منهج المؤلف وآرائه فى الموضوعات التى طرحها فى الكتاب، وقد ترجم لهذا الفصل بعنوان: (شبهات تعارض الدين والدولة) ، وقسمه إلى عشرة مباحث تناول فيها أهم الشبهات من وجهة نظره : «حاكمية الله ـ وظيفة الحاكم وشروطه ـ تقسيم الديار إلى إسلامية وغيرها ـ القصاص والديات ـ الحدود الشرعية ـ الردة والزندقة ـ الجهاد القتالى ـ التحاق غير المسلمين بجيش المسلمين ـ شهادة غير المسلمين وأيمانهم على المسلمين ـ شرب الخمر والمسكرات وامتلاكهما».

وطريقة الحل التى مضى عليها المؤلف فى حل ما رآه من تعارض بين هذه الموضوعات العشرة ومقومات الدولة المعاصرة، كان دائمًا بالميل جهة الدولة المعاصرة ـ بحسب تصوره ـ على حساب الجانب الفقهي، والحال المطرد عنده هو البحث فى الأقوال والآراء الفقهية المروية عن بعض الأئمة والفقهاء التى تخفف من حدة التعارض أو تبدو ملائمة أو غير معارضة لمفهوم الدولة المعاصرة من وجهة نظره، مهما كان هذا الرأى الفقهى شاذًا أو مهجورًا أو غير معمول به، أو داخلا فى تتبع رخص العلماء، مع تأويل ما لم يساعده منها صراحة حتى يتوافق قسرًا مع مقومات الدولة المعاصرة التى ارتآها. وقد مضت بعض الأمثلة لذلك.

والإشكال الحقيقى أن المؤلف قد انتصف للدولة المعاصرة ومقوماتها من الشريعة الإسلامية، بحيث جعل الدولة المعاصرة هى الثابتة، والشريعة الإسلامية وفقهها هى المتغيرة ومن ثم مال دائمًا إلى تغييرها مع إبقاء الدولة المعاصرة هى الثابتة.

ولكن الحقيقة أن من المبالغة وصف الدولة المعاصرة ومقوماتها بالثبات. فالدولة المعاصرة تقوم على مجموعة من النظريات السياسية التى مهما بلغت درجة من النضج بالمقارنة بالنظريات السياسية السابقة عليها ومهما كانت الدولة المعاصرة الناتجة هنا تبدو أرقى وأقوم من الدولة الناتجة عن النظريات السياسية التى عفا عليها الزمن.

فمهما كان هذا أو ذلك، فلا يعنى بحال أنها وصلت إلى الثابت وخلت من الأخطاء الفكرية والمنهجية والنظرية، وحلت كل إشكالات الحكم والسياسة.

ومن هنا فمن التجنى ـ ليس على الشريعة فحسب ـ بل على العلم وعلى الحقيقة العلمية والتاريخية اعتقاد ثبات تلك النظريات وأن ما عداها هو المتغير، وأنها صارت فوق الجميع، وغير قابل للتأويل أو الرفض، وأنه ينبغى تأويل أو تعطيل كل ما خالفها.

[١٣] فى معرض رد المؤلف [ص٢٨٥ - ٢٨٨] على استعمال شعارات دينية خطابية غير محققة كشعار «الإسلام دين ودولة»، و«الإسلام هو الحل» و«الإسلام منهج حياة»، وبعد أن أرخ لهذه الشعارات، وناقشها أطلق عبارة من عباراته تلك الشائكة فقال (ص٢٨٨) : «ومما سبق يتضح أن الإسلام ليس - كما يتوهم الكسالى - دولة ومنهجًا وحلا، وإنما الإسلام يؤهل صاحبه لكى يكون رجل دولة ومبرمجا للمناهج وحلالا للعقد...».

النقد: نفى المؤلف كون الإسلام دينًا ودولة متبنيًا فى ذلك رأى الشيخ على عبد الرازق (ص ٢٨٥ - ٢٨٦)، والحقيقة أن كون الإسلام لم يأت بنظام حكم معين لا يعنى ولا يستلزم على الإطلاق ألا يكون دين دولة، كما أنه إذا لم يقدم الإسلام لنا الحلول والمناهج لمشكلاتنا فما هو دوره وما هو مفهومنا له كرسالة خاتمة لا يقتصر دورها ـ كبعض الديانات الأخرى ـ على الجانب الروحي. ولهذا لا نتفق مع المؤلف فى عبارته تلك ونرى اتفاقا مع جمهور العلماء أن الإسلام دين ودولة ومنهج وحل وأيضا مؤهل للأفراد كى يكونوا رجال دولة، فالإسلام هو كل ذلك، وإن كنا نتفق مع المؤلف تمام الاتفاق فى أهمية مواجهة سوء استخدام الشعارات الدينية خاصة فى المجال السياسى الحزبى الضيق، الذى يعرض الفكرة الإسلامية كلها للخطر إذا فشل مستخدمو تلك الشعارات فى تحقيق ما يصبون إليه.

[١٤] ذهب المؤلف [ص٣٠٥] إلى أن الدين الإسلامى ترك للعلماء والفقهاء «الحرية فى وضع قواعد الاجتهاد والاستنباط».

النقد: المتأمل فى قواعد الاجتهاد والاستنباط يجد أنها جميعها قائمة على أدلة شرعية من الكتاب والسنة ومن قواعد العقل المتفق عليها ومن قواعد اللغة العربية التى نزلت بها النصوص الشرعية، ورغم ما وقع من تنوع واختلاف فى قواعد الاجتهاد فإنه لا يمكن القول بأن العلماء والفقهاء يتمتعون بحرية مطلقة فى وضع تلك القواعد، بل تلك الحرية مقيدة بما ذكرناه.

ملاحظة عامة على طريقة المؤلف فى معالجة الموضوعات

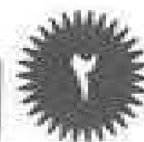
الحاصل أن طريقة المؤلف تقوم على عقد التناقض فى القضية التى يتناولها بين طرفين بينهما غاية البعد، أحدهما يتبناه المؤلف ويريد أن يثبته، والثانى يقف ضده ويرفضه، ثم يقوم المؤلف بنفى وإلغاء وإبطال ما يرفضه ليبقى أمامنا الطرف الآخر الذى يتبناه.

ولكن عند التأمل ستجد غالبًا أن تلك القسمة الثنائية التى ذكرها المؤلف ليست قسمة حاصرة، وأن هناك طرفًا ثالثًا أو حلاً وسطًا ينفك عنده التناقض والتعارض ويسلم من الإشكالات التى ساقها المؤلف.

أ. د. على جمعة
عضو مجمع البحوث الإسلامية، وهيئة كبار العلماء،
ومفتى الديار المصرية

نظرة إجمالية إلى الإسلام





للعلامة محمد فتح الله كولن

إن الأديان كلها ركزت على أصول وأسس معينة واحدة، وأكدت على حقائق بعينها، ومن حيث الضوابط الأصلية - وبالتناسب مع أحوال الزمان وحاجاته - كل نبي بعثه الله تعالى، قام بدور الامتداد لمن سبقه والمكمل والمتمم له، وصدق رسالة السابق أو السابقين، وكملها حسب الأحوال والشرائط، وفصل للأمور التي تطلب التفصيل، وجدد المسائل المحتاجة إلى تجديد، وفي الأحوال كلها أكد على الأمور الأصيلة بعينها؛ فالتوحيد والنبوة والبعث والنشور والعبادة هي المسائل المقدمة العزيزة لدى نبي.. فهي الزبدة في دعوة الأنبياء والمرسلين أجمعين، مع التنوع في الأسلوب والتعبير والبيان والأداء، أما الفروق في الديانات أو الإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، والوضوح والخفاء وأمثالها في المسائل المختلفة، فتتعلق بأفق إدراك البشرية وتحضرها وتطورها، فقد شرع الحق تعالى لكل أمة أوامر وقوانين خاصة تتعلق بالفروع حسب مبلغ علم تلك الأمة وإحاطتها، وتنوع معضلاتها وحاجاتها، ووضح - مجددًا - الأسس التكوينية والضوابط التشريعية حسب إدراك المخاطبين، وبين تنزلاته الكلامية بتنوعاتها المتعددة بعد تجل مختلف في كل مرحلة، فتوالى التنوع والتجديد في أمور مثل تفصيل المجمل وإطلاق المقيد وتعميم الخاص وتوضيح المبهم، مع أن محور المضمون والمنطوق واحد وثابت، فكم من المسائل هي كافية للمبتدئ والبدوي تستدعي تفصيلاً أكثر للمنتهي والحضري.

فهنا نشهد تبدلاً دائمًا في المسائل التبعية الثانوية في رسالات الأنبياء والرسل ابتداء من أولهم إلى خاتمهم، بالصورة المبينة آنفًا، لكن هذا التبدل لم يمس أبدًا روح الرسالة الأصل، ولم يغادر حدود التفرعات.

أما التفرق والاختلاف والصراع والحروب الناشئة منهما بين أتباع الأديان السماوية فليس مردها إلى الدين والتدين، بل إلى تفسيرات خاطئة كان يسوقها المبتدئون من أتباع الأديان الذين لم يحافظوا على أصل الرسالة الإلهية وتربوا على الانحراف وراء المصالح والحقد والبغض والانحراف والأهواء والنزوات.. ولا زالت القضية كذلك، فمن أجل ألا تقع أنواع التنازع والتفرق كما وقع أمس، ولكي نلم الشعث إن كان قد وقع اليوم، يجب القبول بالإيمان وبالإسلام وفاقًا للأصول والأسس التي وضعها الله تعالى، وجعلها جزءًا لا يتجزأ من طبعنا وجبلتنا، ولكن الحاجة ماسة إلى العمل الصالح؛ لكي يثمر هذا الإيمان ويبدي قوته.. بعبارة أخرى: حتى يسبغ الحياة على الوجدان؛ فيقدر إسناد الإيمان بالعمل الصالح وإمداد المؤمن بالعبادة، يقترب إلى الله تعالى، ويظل محافظًا على هذا القرب واكتساب رضاه، وإلا، فالإيمان الذي لم يمد بالعبادة ولم يسند بها، لن يبدي قوته تمامًا، وكذلك المؤمن الذي ليس له عبودية لن يستطيع الثبات منتصبًا على ساقيه أمدًا طويلاً، ولذلك ما برح القرآن الكريم يتبع الإيمان بالعمل الصالح ويذكر بظاهر «العمل بالأركان» مع باطن «التصديق بالقلب» الذي هو الركن الأساس، ولا يفتأ ينبه إلى الحزم في مناسباتنا الداخلية والخارجية، الباطنة والظاهرة.. إذ الإيمان أساس وحيد للعمل، والعمل سور للإيمان وصون وشاهد وضمان له.

إن التصرفات الحسنة غير المستمدة من الإيمان هي أعمال توافقت مع الصواب لا يحتمل دوامها وتماديها بتاتًا، ولا تمنى مستقبل واعد البتة، والإيمان من غير عمل إيمان غير مسنود قد يعرض عليه التصدع والانهيار، ولا يحتمل انفساحه وتوسعه، وتقليد بارد عبارة عن مقبولات نظرية، أما الإسلام الذي نسميه «الدين الحق»، فهو العنوان المبجل للعمل بكل المسئوليات والتكاليف التي جاء بها القرآن، إلى جانب الإيمان القلبي الصادق بمجموع الأصول والفروع لهاتين الحقيقتين.

فالإسلام بهذا الفهم هو المصدر الفريد الوحيد لسعادة الإنسان القلبية والروحية، والمادية، والمعنوية، والدنيوية والأخروية.. غير أن الاستفادة من مصدر كهذا على الوجه الأتم قد نيطت بالاستخدام الأمثل للأجهزة الظاهرة والباطنة الموهوبة للإنسان بالفطرة، فالذين يستخدمون مواهبهم الأولية كأجهزة استقبال للواردات الثانية، يبدأون أعمالهم بالمحاسن والألطاف، ويقضونها بالمحاسن والألطاف في الأجواء الزرقاء لـ«الدوائر الصالحة»(١) ويفلحون بإنجاز أعمال تنبئ عن مدارج الأبدية في كل آن ولمحة بصر من حياتهم.

وما برح الإسلام مصدر عز وقوة لأتباعه الذين يؤمنون به ويحيونه بصدق، وقد أسعدهم بقدر صدق انتسابهم، ولم يوقعهم قط في خذلان دائم أو متماد، فمنذ عهد الصحابة وحتى اليوم كم عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورًا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية؛ وبالمقابل في مراحل الشؤم التي ولينا فيها ظهورنا الدين وقطعنا علاقته عن الحياة، توالت علينا النكبات وضجت الجموع عويلاً في الانكسارات، وانقصم ظهر المجتمع حتى عجز عن القيام، ولكن - حتى في تلك المراحل -

(١) «الدوائر الصالحة» اشتقاق على الضد من «الدوائر الفاسدة». (المترجم)

هناك الكثير ممن ظل مؤمنًا بالدين وقوته، غير أنهم حدقوا بأبصارهم فى أفق الجدود والحظوات الخارقة، وقاموا وقعدوا حالمين بعناية الكرامات الخارقة، وغضوا البصر عن العادات والسنن الإلهية، ومعلوم أن على المؤمنين أن يؤمنوا بإمكان وقوع ألطاف الحق تعالى منة منه وفضلاً.. لكن عليهم أيضًا أن لا ينسوا البتة أن الوسيلة إلى استمداد هذه العناية هى الهمة والمجاهدة، وقد تفضل الله تعالى بتذكيرنا فى الآية الكريمة:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

بأن الألطاف التى يخلقها ويظهرها تقترن بعزم الإنسان وإرادته، فنبهنا إلى أهمية الجهد والمثابرة فى نفس الوقت الذى قطع فيه السبيل أمام الشرك، فكأن السعى والجهد من أمارات توفيقه وتوجيهه الخاص.

ولابد أن أنبه هنا إلى أنه ينبغى أن لا يحمل محاولتنا لتفسير وشرح النظام الإلهى الجارى فى الوجود والحوادث، وفاعلية هذا النظام باطراد وانسجام، وكأنه تابع للأسباب.. ينبغى أن لا يحمل ذلك على أننا نقوّم الأحداث من منظور فكرة «التعين السابق» (Determination)(٢)؛ فغاية ما نريده هو التذكير بأن الإرادة الكلية والجزئية فى تصرفات الإنسان توجّهٌ ذو لون من المشيئة الإلهية، وكذلك التذكير بأهميتها فى مستوى الشرط العادي، وأذكر من فورى هنا بأمر آخر هو: أنه - سواء اعتبرنا «الإرادة» ميلاً أو تصرفًا جزئيًا فى ضمن ذلك الميل - لابد أن يستعمل المؤمن قابلية الترجيح هذه، والتى يحسها فى وجدانه، باتجاه تحقيق ما يريده الحق تعالى ويشاؤه، وأن يحفظ عزمه وثباته على هذه الحال، فاللازم أن يتجنب المؤمن ما يقبحه الشرع، وأن يسعى إلى المعروف، ويثبت بأطواره ومواقفه فى موضع تمثيل الإسلام ثباتًا دائمًا، حتى تكون كل لقطة من حياته أنموذجًا لوجه من أوجه الإسلام، وحتى يصور الإسلام فى ذاته ويشدو به فى صوته ويجسده فى شكله باعتباره المثل الصدوق لهذا الدين، وحتى يستخدم كل قدراته التى وهبها الله له فى جعل الإسلام إحياء للحياة.. فيتحرى فى كل صغيرة وكبيرة من أعماله كلها - مهما كانت - رضا الرب تعالى، وحسب تعبير بديع الزمان: أن يكون العمل لله، والابتداء لله، واللقاء لله، والتكلم لله.. والتحرك أبدًا فى دائرة الله، ولوجه الله ولأجل الله، وتكون الثوانى والدقائق والساعات والأيام فى هذا العصر الفانى أجزاء من زمان طريق البقاء، وتغدو وسائل

(٢) المقصود أن لا يفهم أن الأستاذ المؤلف يلتفت إلى الأسباب بملاحظة تعيين الأسباب للنتائج ويراجع ما هو مشروح فى فصل المعينية (Détermination) فى كتاب «ونحن نقيم صرح الروح» ١١٧، للمؤلف، دار النيل، ط ٣، ٢٠٠٩. (المترجم) والتعيين فى الفرنسية (Détermination) وفى الإنجليزية (Détermination)، وإذا كان بين الشيئين علاقة توجب أن يكون الثانى لازمًا عن الأول كانت هذه العلاقة تعيينًا وإذا كانت لا توجب ذلك دلت على عدم التعين ويطلق اصطلاح التعين السابق (Predetermination) على تحديد واقعة أو فعل بعلل وأسباب متقدمة على اللحظة التى تسبق مباشرة حدوث تلك الواقعة أو ذلك الفعل، والتعيين السابق عند «بوسويه» مرادف للتحريك السابق (Prémotion). (المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ١٩٨٢).

لسعادته الأبدية. (٣)

وعلى المؤمن أن يغذى إيمانه بنياته وتصوراته وإرادته وبرامجه، ويؤدى حق إسلامه، وألا يرسل نفسه إلى الغفلة دقيقة واحدة أو ثانية واحدة، حتى لا تقع فى النفسخ، وعليه أن يحرك مكوك الشعور والحس والإرادة دائمًا من الإيمان إلى «الحركية»، ومن الحركية إلى الإيمان، وينسج نقوش قماش حياته ورقوشه وكأنه يعرضها لمشاهدة أنظار الله تعالى بكامل انشراح الصدر.

إن الكفر والإلحاد جهنم فى القلب، وترك العمل الصالح غربة ومخمصة ووحشة، ولا مفر من ظهور اختلال الشخصية فى أمثال هؤلاء بين حين وآخر، إن عزائم هولاء خائرة وأفكارهم سائبة وإرادتهم مشلولة، وإن الذى يقوى الإرادة إنما هو الدعاء والعبادة، والذى يقتلع جذور الأحاسيس والانقيادات الفاسدة إنما هو التوجه إلى الحق تعالى والإنابة إليه، ولم يحدث أن انقطع فى الطريق من توجه بوجهه إلى الله بالمعايير الإسلامية.. ولئن تعرض نفر منهم إلى اهتزاز بسبب ضعف منهم، فلم يُصرع أحد منهم على ظهره تمامًا، فكيف بمن شد وثاق حياته بوشيجة الإحياء؟!

ولن يستطيع المؤمن أن يصمد واقفًا على ساقيه ولا ينكبّ على الأرض إلا إذا عاش حياة ذاتية وبعزم الإحياء، هذا ما شهدناه أبدًا، فهو عادة سبحانية لمشيئة الله الكلية، وتبديلها وتغييرها محال على كل أحد.

ولا جرم أن هناك أعداء ألداء يبرزون دومًا ضد الذين يعيشون الحياة فى هذه الاستقامة، تطفح صدورهم غيظًا وحقدًا على هؤلاء المؤمنين ويقعدون لهم كل مقعد ليسحقوهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتصدون لهم كل يوم بخطر جديد.. ولكن المؤمنين حق الإيمان يخرجون دائمًا من هذه المحن أشد شحذًا من قبل، بل يتبدلون إلى أخرويين وربيين وربانيين.. وبمشاعر الرضا، يغيرون المصائب إلى رحمات، ويحولون زخات البلايا إلى مرشحات للتطهير والتصفية، فلا يتخلعون عن فكرهم وسلوكهم الذاتيين.

فالواجب علينا - نحن المسلمين - أن تعود إلى أنفسنا وقيمنا، وتعزم على البقاء بذاتنا، وتتغذى من مصادرنا بأقصى قدراتنا، وإن مصدر الدين الإسلامى ومنبعه هو القرآن والسنة، فهو فائض من صدرهما، وقد أحرزت الأمة الإسلامية موقعًا تغبط عليه، وصارت قدوة للأمم ما دامت متمسكة بهذا النظام الإلهي؛ وبالمقابل كلما ابتعدت عن قيمها الذاتية، وقلدت الأجانب، وسقطت أسيرة أهوائها ونزواتها، انكبت على وجهها من بؤس إلى بؤس، ومن عار إلى عار.

فيلزم المسلم ألا يهمل قيمه الذاتية البتة، وأن يحاول الاستفادة من المصادر الأجنبية بشرط استئذان النظم والقواعد الأساسية الذاتية، وتنقيتها بالترشيح فى تلك المصافي، ولكى لا يساء فهم المقصود، نقول: إن الإسلام لا يمنع المسلمين من تعلم علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفضاء والطب والهندسة والإدارة العامة

(٣) من اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة الثالثة ص ٢٥، دار النيل، القاهرة، ٢٠٠٧.

وإدارة الأعمال والزراعة وأمثالها، بل يحثهم على التخصص فيها وأخذها والاستفادة منها من أى مصدر كان، لكنه لا يريد أن يبقى المسلمون تبعًا لغيرهم على الدوام، بل يحبذ لهم الاستفادة مما عند الأجانب من هذه الأمور، ثم التخلص السريع من استجدائها، وإقامة عالمهم الذاتى فى الأوامر الإلهية التكوينية كما فى الأوامر التشريعية.

وكان أجدادنا فى عصورنا الذهبية، يتذكرون مرارًا وكل يوم أنهم «خلفاء الله فى الأرض»، ويتحرون مراد الله ورضاه فى كل حركة من حركاتهم الدنيوية والأخروية، ويمحصون أحوالهم بميزان الأوامر التشريعية، ويقيسون مدى صلتهم بربهم، ويجدون فى التعرف على الأسس التكوينية بعشق جاد للحقيقة والبحث، ويحدون البصر لاستطلاع الوجود والحوادث، ويحثون السير فى السلوك إلى التوفيق بين ما اطلعوا عليه فعلموا وما سمعوه ففهموا، وبين العائلة والمجتمع والوجود كله، فيهرولون من العلم إلى العرفان، ويحلقون من المعرفة إلى المحبة، فيرون فى كل شيء وحادثة وتبليغ من الحق تعالى وسيلة للسمو نحوه، ويضعونها فى مقدمة أعمالهم الدنيوية وملاحظاتهم الأخروية.

ولقد بلغوا أفقًا كهذا الأفق لأنهم عاشوا الإسلام وأحيوه باعتباره كلا لا يتجزأ، وبحبهم إياه من صميم قلوبهم وتحبيبهم له، وبجعل الحياة الإسلامية غاية حياتهم، فلما توطد فى قلوبهم روح حركة كهذه توطدًا مكينًا، تأسس توازن الدنيا والعقبى تلقائيًا وجعلهم مجتمعا متوازنًا، فصاروا مقتدرين على التعبير عن ذواتهم فى كل مكان وفى كل مجال للحياة، فما برحوا - بفضل ذلك - يتجددون ويتغيرون فى دائرة «مقوماتهم الذاتية» ويهرعون إلى التغيير، ويتعمقون على الدوام، ويصبحون بإيمانهم وحركيتهم أساتذة يعلمون الإنسانية دروسًا فى الحضارة فى رقعة جغرافية واسعة، فكانوا مرايا للحق تعالى فى حركاتهم وسكناتهم، وكلامهم وصمتهم، وكانوا فى كل تصرفاتهم وسلوكياتهم المتناغمة المؤتلفة كأن كل واحد منهم آلة موسيقية تشجي بأناشيده تعالي، ويدعون إليه بنداءاتهم الحرّى كنداء الدلال، فكأنهم - بتعميقهم وعرفانهم هذا - مجتمع صحابة، وكأنهم ممثلون لخصال كثيرة ترجع إلى رؤية النبى ﷺ.

فإذا ما دخل هؤلاء المنورون إلى العلاقات مع الله تعالى أو تفكروا فى عقباهم، فإنهم - بين فينة وفينة - يرسلون أنفسهم فى رحاب المعرفة، ويرتعشون بالخشية من أعماقهم، وتوجف قلوبهم، ويستغرقون فى المحاسبة، ويجددون مراجعة كل شيء فيهم، ويزنون معايير القلب كل مرة، ويحسون دائمًا بوطأة المسئوليات والتكاليف على أكتافهم كالجبال، وتذوب النفس والجسمانية فيهم ذوبانًا يبدلهم إلى موجودات روحانية، وبالأخص إذا ما فاض القرآن والحقائق التى يستهدف القرآن شرحها وانصبت فى قلوبهم، فإن هذه القلوب التى غدت وكأن كل واحد منها بيت من بيوت الله ستتطهر من كل خاطر أجنبي، فلا تفكر إلا به تعالى ولا تشعر إلا به وتشرق شمس النهار به وتغيب به.

والأصل أن القلب المؤمن لا يسع الإسلام إلى جانب معتقد غيره أو تصورات أخرى، فما أن يدخل الإيمان والإسلام القلب، حتى يكنس المتقبلات الخاطئة ويمسحها ويلفظها، وتصبغ العبادة كل جهاته بلونه، ويصونه شعور الإحسان تحت دفينة أن يرى الحق أو يراه الحق، فلا يبقى فيه إلا الأنسام التى تهب منه تعالى.

فبفضل هذه العلاقة مع الله تعالى، والقائمة على أساس الإيمان والإسلام، تتجلى فى فكر الإنسان وسلوكه استقامة لا تذبذب، وإخلاص متماد، وشعور مستمر فى التعاون، وهمة قلبية للتساند، وأخلاق أخروية.

فالإيمان النافذ إلى دواخل الإنسان بهذه الدرجة، يتجلى فى أحوال المؤمن كلها، سواء فى الوظيفة أو التجارة أو معاملات الأسواق أو سائر الأنشطة الاجتماعية، فيطبع بصماته عليها ويرسم على روحه صورة معناه، وتنقلب الصورة بمرور الزمان إلى قصيدة معنوية تقرأ على تصرفاته وسلوكياته كلها.. فكأن مؤمنًا فى مثل هذا التماسك هو المعني بمقولة: «إذا رأيته ذكرت الله تعالى»[٤].

ونعتقد أن الإيمان والإسلام بالمعنى الحقيقى هو هذا، والوضع الإلهى الذى نسميه «الدين» هو العنوان الجامع لكل ذلك، و«التدين» اسم لصيرورة هذه الحقيقة الجليلة حياة أو إحياء للحياة.. مبدؤه يستند إلى أجمل الكلام وأحسنه: كلمة الشهادة أو كلمة التوحيد.. ومنتهاه يمضى حتى يصل إلى رؤية الحق تعالى. فكل من يرضى به ويعيشه على هذا الحال - والله يتولى السرائر - هو مؤمن ومسلم ومتدين من وجهة الكتاب والسنة.. وأى اسم أو عنوان آخر غير ذلك قد يلصق به يعني تهوينًا من شأنه ووضعًا من قدره.

ويرد فى المصطلحات الإسلامية بلساننا تعبيرات مثل: «إسلام» و«مسلمان - مسلم» و«ديندار - ملتزم» علمًا على المسلم، لكن لا يرد فيها كلمات دسها الأجانب عن قصد إلى لساننا فاستعملها البعض، مثل إسلامى (Islamist) و«ديني» إننا لم نتعرف على مثل هذه الألفاظ والأوصاف فى ديننا من قبل وإلى عصرنا الحاضر، ولا يهمنا أن وردت بعينها أو بأشباهها فى الأديان الأخرى أو المنظومات المتشكلة فى صورة أديان غير ديننا، فبموجب ديننا، المسلم الذى يرتكب الذنوب أو يقع فى الخطيئة يكون «آثمًا»، لكنه يبقى «مؤمنًا»، والذى يترك العمل بأمور من الأسس الإسلامية، بشرط عدم إنكاره لها، يبقى «مسلمًا» فعلى هذا الاعتبار، تسمية الذى يبتغى أن يعيش الدين كاملاً بـ«الإسلامي» (Islamist)، أو «الديني» غير مناسب، كما أن تسمية تارك العمل بقسم من الأوامر الإسلامية أو المتقاعس عنها بـ«الكفري» أو «الضلالي» أو «الفسقي» تعبير غير لائق، وأرى أن على الجميع أن يصون نزاهة لسانه، وأن يفكر ويتكلم بمستوى يليق بالإنسان، وأن يتعلم كيف يحترم كل أحد.

(٤) ابن ماجة، الزهد ٤.

إسلام واحد ورؤى متعددة


أ. د/ محمد شامة

ما هو الإسلام؟ وما هو الفكر الإسلامي؟ هل يتفقان في المعنى والمضمون أم بينهما اختلاف؟ وما نوع هذا الاختلاف؟ أهو اختلاف جوهري أم شكلي؟ وإذا كان بينهما اختلاف، فما مدى تأثير هذا الاختلاف على حياة المسلمين والتزامهم بتعاليم شريعتهم؟

هذه أسئلة أرى- حسب علمي- أنها تطرح لأول مرة في تاريخ المسلمين، كما أعتقد أن كثيراً من المسلمين- ومنهم عدد كبير من المتخصصين في الدراسات الإسلامية- يستنكرها، ويرى أنها لا فائدة من طرحها، والاشتغال بالبحث عن إجابة لها، وهذا خطأ محض، وقعنا فيه منذ زمن بعيد، على الرغم من أن الأحداث في المجتمعات الإنسانية تحتم على الباحثين دراستها، كما أن المعطيات الحضارية تدعو المسلمين- وعلى الأخص المثقفين منهم- إلى تناولها بالبحث والتحليل، وبيانها للناس، علهم يجدون في الإسلام مخرجا من أزماتهم الفكرية، ومنارا يهديهم إلى طريق يحفظ عليهم دينهم مع تهيئة الظروف للاستمتاع بما تنتجه الحضارة الحديثة، فضلاً عن الإسهام والابتكار في المجالات العلمية المختلفة كي يكون لهم قدم في صفوف صناع الحضارة والتقدم في كل المجالات.

الإسلام دين ودنيا، عبادة وعمل، لكل البشر، على اختلاف ألوانهم وأفكارهم، وتعدد نظم حياتهم وتباين أشكال وضعهم الاجتماعي، فهو كما يعبر عنه المتخصصون: دين صالح لكل زمان ومكان. فكيف يتأتى ذلك والعصور مختلفة، والأوطان متباعدة، والتطور مستمر في جميع ميادين الحياة مما يجعل القواعد والنظم الملائمة لعصر لا تتفق مع متطلبات عصر آخر، كما أن أسلوب الحياة وروقعها يختلف من قطر لآخر، وتركيب النظم الاجتماعية ومعطياتها ليست واحدة عند كل الشعوب، فنظم الحياة في القارات تتفاوت، بل إن بين الشعوب في القارة الواحدة تباين واضح في العادات والتقاليد، وتباعد واسع في تعاملهم مع ما- ومن- حولهم، فهل يصلح الإسلام- والوضع هكذا- لهذه الشعوب قاطبة؟

يرى بعض المعارضين لمبدأ سيادة الدين على توجيه وتنظيم الحياة في المجتمع، أن أساليب الحياة قد تغيرت تغيرًا جذريًا، بحيث أصبح من المتعذر تطبيق مبادئ وتعاليم العصور القديمة في المجتمع المعاصر، إذ كيف يمكن أن يتعامل إنسان العصر الحديث بأسلوب يتنافى مع طبيعة حياته المعاصرة؟ وكيف يخضع إنسان القرن الواحد و العشرين لأحكام صيغت لتنظيم حياة إنسان القرون الأولى، حيث البداوة والبساطة وعدم التعقيد. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما كان مقبولاً لدى المجتمعات البدائية، فإنه أصبح غير مستساغ لدى الإنسان المعاصر، بل إن من القضايا التي كانت من المسلمات الأولية التي لا تقبل الشك في الماضي، ترفضها العقول الآن رفضًا باتًا، ولا تتجاوب معها المشاعر والأحاسيس، لأنها لا تتفق مع درجة الحضارة الحالية، ولا تلبي مطالب الحياة المعاصرة، ولا تتناغم مع معطيات العصر، بل تنفر منها ولا تستسيغها.

تنقسم تعاليم الإسلام الى قسمين:

- الأول: يستطيع الإنسان أن يلتزم به مع اختلاف الأماكن والعصور، وهو العبادات، إذ يمكن للإنسان أن يؤديها في البيداء والصحراء، حيث الحياة البسيطة التي لم تحمل بالمعطيات الحضارية، ولم تقيدها متطلبات التقدم والرقي، كما أن من يعيش في مجتمع حضاري، لا يحول بينه وبين أدائها أي عائق، ففي آراء الفقهاء متسع لأدائها مع التزامه بالسلوك الحضاري، وتمسكه بما تمليه عليه الحياة، مهما كانت درجة حضارتها وتقدمها.
- الثاني: أما القسم الآخر، وهو ما يتعلق بشئون الحياة، فقد أباح الإسلام للمسلمين أن يجتهدوا فيها، وإن اقتضى الأمر تطويرها فليهم ذلك، ما داموا ملتزمين بالإطار العام، وهو منهج إسلامي يبيح الانفتاح على كل الأفكار والتجارب السياسية والاقتصادية في العالم، ويسمح بالأخذ منها بما يمكن المسلمين من الانطلاق والتقدم، والأخذ بكل عناصر الرقي العلمي والسياسي والاقتصادي، ما دام في ذلك مصلحة للمجتمع، إذ أن من بين القواعد العامة في الفقه الإسلامي: «حيث توجد المصلحة فثم شرع الله».

ولما كانت أساليب الحياة متجددة، ونظمها متطورة، فقد وضع الله التشريعات المتعلقة بها في صورة قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور، وتتمشى مع ما ينبغي أن تكون عليه الحياة من الاستقرار والاطمئنان، وتتفق مع الظواهر التي يشترك فيها جميع الأجناس البشرية. أما التفاصيل والتفريعات فقد تركها الله لعقل الإنسان يستخلصها حسب عصره وبيئته، ويستنتجها طبقا لمتطلبات ظروفه المحيطة به، بحيث يلبي احتياجات العصر، وفي الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسي الذي رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة أصلية للتشريع، ينبثق عنها كل ما يقررونه، وما يرسمونه من لوائح ونظم.

وتكفي نظرة واحدة إلى ما يشغل المجتمعات من قضايا كبرى- وهي على سبيل المثال لا الحصر:

- الشورى في مجال الحكم.
- وحرية النقد في جميع مجالات الحياة.
- وقضية المساواة بين الناس على أساس القدرة الذاتية، لا على أساس عرق، أو لون، أو أي مظهر من مظاهر الحياة المادية.
- والعدل في توزيع الثروة القومية.

وغير ذلك من الأمور الأساسية التي تقوم عليها حياة المجتمعات، وتؤثر تأثيرًا بالغا في رقي الأمم والمجتمعات. وموقف الإسلام منها: يبين أنه جاء موافقا فيها- وفي غيرها من القضايا الأساسية- لقوانين الحياة، فرسم قواعد ثابتة، وترك التفصيلات والتفريعات للفقهاء، لتكون مجالاً للاجتهاد والاستنباط، سعيا وراء الصيغ القانونية التي تلائم بيئاتهم وعصورهم.

فمن يتخذ المتغيرات في الكون وفي الحياة دليلا على عدم ملاءمة الإسلام للحياة المعاصرة، لأن معطيات العصر تختلف كلية عما كان موجودًا في القرن السادس الميلادي، فإنه لا يعرف خصائص التشريع الإسلامي، ولا يدرك ركائزه، لأن المبادئ الأساسية في حياة المجتمعات البشرية لا تتغير، وتلك هي ما نصت عليه الشريعة

الإسلامية حرفيًا. أما ما يلائم المتغيرات من الفروع والتفصيلات، فقد تركها الإسلام لاجتهاد الفقهاء والمشرعين، يصوغونها حسب متطلبات العصر، وظروف البيئة مما أعطاه صلاحية التطبيق في جميع العصور ومختلف البيئات.

ومن هنا فقد اجتهد العلماء في شرح وتحليل نصوص القرآن الكريم، واستنباط ما فيها من أحكام، كما بذلوا جهودًا لم يسبق لها مثيل في فحص ما قاله الرواة عن رسول الله ﷺ، فنشأت بذلك فروع عديدة في العلوم الإسلامية: علوم القرآن وتفسيره، علوم الحديث (علم الرواية والدراية، وعلم الجرح والتعديل)، علم الكلام، علم الفقه وأصوله.... وغير ذلك من العلوم الإسلامية التي تمحورت حول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ولما كانت العقول متفاوتة في فهم النص وتحليله، جاءت آراء العلماء المختلفة، وتعددت الأحكام المستنبطة من النص الواحد، إذ يدلي الواحد منهم برأيه مستندًا إلى روايات صحت عنده، ولم تصح عند الآخرين، ومعتمدًا على جانب من جوانب قواعد اللغة العربية المتعددة في المسألة الواحدة، فتكونت من ذلك مدارس عدة في جميع فروع العلوم الإسلامية:

ففي التفسير ظهرت اتجاهات متعددة حول الاعتماد في التفسير على اللغة، أو الأحاديث، وثالثة تميل إلى تفسير القرآن بالقرآن.. وغير ذلك من المدارس التي ظهرت في المجتمع الإسلامي حول تفسير القرآن الكريم، طبقا لروح الفكر السائد.. حتى ظهر في العصر الحديث ما يعرف بالتفسير العلمي للقرآن الكريم، والمقصود بالعلم هنا: «العلم التجريبي»، واشتهر فرع من هذا الاتجاه تحت مسمى: «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم».

وفي الفقه ظهرت مدارس كثيرة، اشتهر منها عند أهل السنة أربعة: المالكية، والحنفية، والشافعية، والحنابلة، كما اشتهرت مدارس أخرى في مناطق متعددة من العالم الإسلامي كـ: الظاهرية، والجعفرية والإباضية، والزيدية.... وغيرها من المدارس التي اندثرت لعدم وجود تلاميذ يحافظون على نشر آراء أساتذتهم، رغم أن بعضهم كان أفقه وأعلم في استنباط الأحكام من كثير ممن اشتهرت آراؤهم وتكونت مدارس عرفت بأسمائهم. ولم يلتزم أتباع هذه المدارس برأي واحد في جميع المسائل الفقهية، فكثيرًا ما تباينت آراء الفقهاء في المدرسة الواحدة في بعض المسائل، فتعددت الآراء داخل كل مدرسة.

وفي علم الكلام الذي يبحث في المسائل العقدية كان الخلاف شديدًا في كثير من مسائلها، ومن أشهرها: خلق القرآن، وصفات الله.

وهكذا في كل فرع من فروع العلوم الإسلامية، لا تجد إجماعًا - في معظم المسائل - فيما يستنبطه العلماء من أحكام المصدرين الرئيسيين في الإسلام، وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، إذ لم يتفقوا جميعًا إلا على:

أ. نصوص القرآن الكريم، وليس تفسيرها.

ب. السنة العملية، كـ: هيئة الصلاة، والصيام، والحج.

ت. الأحاديث المتواترة.

ومن هنا جاء تحديد الإسلام بأنه: نص القرآن والسنة العملية والأحاديث المتواترة، والفكر الإسلامي، هو ما كتبه المسلمون حول هذه النصوص. وعليه فمن أنكر نصًا من نصوص القرآن الكريم -ولو حرفا واحدًا- أو رفض عنصرًا من السنة العملية، أو جحد حديثًا متواترًا فليس مسلمًا، وما عدا ذلك فيجوز للمسلم:

- أن يرجح رأيًا على آخر.
- أو يرفض حديثًا غير متواتر لعدم ثبوت الأدلة على صحته عنده،
- أو يستنبط حكمًا مخالفًا لما عليه المسلمون من اجتهادات سابقة، ما دام الرأي الجديد مستندًا على أدلة صحيحة، ولا يناقض القرآن الكريم بشكل لا خلاف عليه.

ولكن، ألم يؤد هذا إلى حدوث صراعات بين المدارس المختلفة - بل بين أفراد من أتباعها - بسبب اختلاف آرائهم، ليس فقط بأسلوب التراشق بالألفاظ والحجج والأدلة، بل ربما وصل الأمر إلى تبادل الألفاظ الجارحة، والالتجاء إلى السلطة للتنكيل بالمخالفين؟

نعم، فكثيرًا ما عقدت جلسات للمناظرة، حيث يدلي كل برأيه، مع الاستشهاد بالحجج والأسانيد التي تقويه، وتفنيد الرأي المخالف وإبطال حججه وأدلته... حتى وصل الأمر في بعض الأحيان إلى سلوك طرق تؤدي إلى إلحاق الأذى البدني بالمعارضين، كما حدث في مسألة خلق القرآن، فقد استعان المعتزلة - وهم الذين رأوا أن القرآن مخلوق وليس قديمًا - بالمأمون، وهو أمير المؤمنين في ذلك الوقت، لإجبار من يرى من العلماء أن القرآن قديم على الرجوع عن رأيه واعتناق مذهب المعتزلة، وهو القول بخلق القرآن، فاستجاب المأمون لطلبهم.. لدرجة أنه عذب وسجن من رفض ذلك، وكان من أشهر من رفضوا: أحمد بن حنبل، فقد أصر على رأيه رغم تعذيبه وسجنه.

كانت هذه حوادث فردية وقعت على الرغم من تصريحات أئمة هذه المدارس بأن ما رأوه من تفسير لنصوص القرآن الكريم، وما استنبطوه منها من أحكام هو صحيح في رأيهم، ولكنه يمكن أن يكون غير صحيح، كما يجوز أن يكون رأي من يخالفهم صحيحًا، وإن كانوا يرون أنه خطأ حسب تفسيرهم، فقد قال الشافعي رضي الله عنه: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، كذلك لم يتعصبوا لآرائهم التي توصلوا إليها، بل كانوا يرجعون عنها إن بدا لهم أن رأي المخالفين هو الصواب، فقد روي عن أبي حنيفة أنه قال: «هذا أفضل ما توصلنا إليه، فإن جاءنا أحد بأفضل منه قبلناه»، وقال الشافعي: «إذا صح الحديث فاضربوا بمذهبي عرض الحائط».

كان هذا هو الطابع العام بين المدارس المختلفة، ولكن حدث التعصب واللجاج في عصر متأخر، حيث انحدر الفكر الإسلامي، فادعى العلم أنصاف العلماء، ومن ليس لديهم إلمام بكثير من قواعد الاستنباط، فلم يطلع إلا على النذر اليسير من أدوات البحث التي تؤهله للإدلاء برأي في هذا المجال، بل وصل الأمر بالتدهور العلمي إلى حد الإفتاء بعدم جواز الصلاة مؤتمًا بمن يخالفه في المذهب، والتمسك بما استقر في مذهبه رافضا رأي من يخالفه.... حتى أصبحت المدارس كأنها أديان مختلفة، على الرغم من أن علماء المذاهب - الذين كانت لهم قدم راسخة في العلم فهموا روح الإسلام وفلسفته، وأدركوا أسباب الخلاف ومغزاه - كانوا يرون أن الاختلاف في الرأي أملته طبيعة النصوص وتكوينها، وأنه أمر لا بد منه، ولهذا نظروا إلى آراء من خالفهم نظرة تسامح وقبول لها، بل تعاملوا معها وطبقوها في بعض الأحيان، فقد روي أن القاضي أبا عاصم العامري الحنفي مارًا في باب مسجد القفال، الفقيه الشافعي، والمؤذن يؤذن المغرب، فنزل عن دابته ودخل المسجد فلما رآه القفال أمر المؤذن أن يثني في

الإقامة – وفقًا لمذهب الحنفية – ، وقدم القاضي أبا عصام، فتقدم، وصلى، وجهر بالبسملة، وأم بشعائر الشافعية في صلاته، وكان ذلك منهما تهوينًا لأمر الخلاف في الفروع.

وهنا أيضًا ترك القفال الفقيه الشافعي مذهبه في إقامة الصلاة وترًا، وأمر مؤذنه أن يثني في الإقامة – وفقًا لمذهب الحنفية – وقدم القاضي الحنفي يصلي بالناس إمامًا في مسجد أكثر المصلين فيه مذهبهم شافعي، وإمامه فقيه كبير من فقهاء الشافعية. ولم يكن القاضي أقل فقهًا منه، حيث ترك مذهبه أيضًا وطبق مذهب الشافعية في الجهر بالبسملة والجهر بآمين، وغير ذلك مما يختلف فيه الحنفية عن الشافعية. فكان هذا تعليمًا ودليلاً على التسامح بين المذاهب الفقهية(١)، وتوضيحًا لما قررناه سابقًا: أن ما كتبه المسلمون حول القرآن والسنة، وما استنتجوه منهما من أحكام وآراء هو نتاج بشري يجوز للمسلم أن يختار منه ما يلائم عصره ويتفق مع نظام حياته.

أليس اختلاف آراء العلماء في المسألة الواحدة، وتمسك أهل كل قطر بمذهب دون آخر، بحيث أصبح لكل بلد من البلاد الإسلامية مذهبه الذي لا يرضى به بديلاً يوحي للبعض من غير المسلمين بأن الإسلام ليس واحدًا في كل البلاد الإسلامية، فهناك إسلام في قطر يختلف عما هو في قطر آخر، وهذا بالتالي يختلف بدوره عن مفهومه في أقطار أخرى؟

قد يكون ذلك هو واقع مفهوم الإسلام عند من لم يدرك حقيقة الإسلام وأهدافه، إذ لما كان الإسلام لكل الناس على اختلاف بيئاتهم ونظم حياتهم، حيث تختلف ظروف الحياة في كل عصر وقطر، وتتجدد الأحداث وتتشعب عبر الأيام والسنين، فلا بد أن يكون التشريع ملبيًا لكل ما يحتاج إليه الفرد، وتستلزمه حياة المجتمعات، ولهذا جاء كل ما يتعلق بهذه المتغيرات في صور مبادئ كلية، وقواعد تصلح لكل المجتمعات الإنسانية، ويمكن تطبيقها أيضًا في كل أقطار الأرض على اختلاف أساليب حياة من يسكنوها، وتباين معيشتهم، ثم ترك الفروع – وهي مركز الاختلاف بين سكان المناطق المختلفة – وعلاج ما يجد من أحداث – وهي لازمة من لوازم الحياة الإنسانية – للفقهاء، يستنبطون أحكامها من الأصول العامة، قياسًا، أو حملاً للخاص على العام، أو حملاً للمطلق على المقيد، أو غير ذلك من طرق استنباط الأحكام داخل الإطار العام للأحكام الإسلامية.

وبذلك تصبح الشريعة الإسلامية صالحة لكل المجتمعات الإنسانية في جميع الأقطار، وفي كل العصور، إذ يمكن أن تطبق على الناس جميعًا على اختلاف أساليب حياتهم، ونظمهم المعيشية، فالاختلاف بين المجتمعات ليس إلا في أمور فرعية، أما الشكل العام للحياة، فالناس جميعا سواء، ولهذا جاءت شريعة الله دقيقة ومحددة فيما يتعلق بهذا الجزء الذي لا يختلف فيه الناس.

أما الفروع التي يتناولها التغيير بسبب اختلاف المناطق، أو بسبب تجدد الزمن وتعاقب العصور، فقد ترك أمر استنباطها للفقهاء بشرط ألا تخرج عن الإطار العام للتشريع الإسلامي.

فالاختلاف في هذا الجانب إيجابي وليس سلبي، إذ هو يساعد على تحقيق مبدأ العالمية في الإسلام، فيتيح لكل إنسان على وجه الأرض أن يعتنقه دون حرج، ويلتزم بتأدية

١- انظر ما كتبته أ.د/ عطا السنباطي في بحث تحت عنوان: اختلاف المذاهب الفقهية وأثره في العبادات

تشريعاته بسهولة ويسر، ولا يقف عقبة في طريق التقدم والرقي. ومن يعارض صلاحيته للعصر الحاضر بأن أساليب الحياة قد تغيرت تغيرًا جذريًا، بحيث أصبح من المتعذر تطبيق مبادئ وتعاليم العصور القديمة في المجتمع المعاصر، إذ كيف يمكن أن يتعامل إنسان العصر الحديث بأسلوب يتنافى مع طبيعة حياته المعاصرة؟ وكيف يخضع إنسان القرن الواحد والعشرين لأحكام صيغت لتنظيم حياة إنسان القرون الأولى، حيث البداوة والبساطة وعدم التعقيد؟ وبالإضافة إلى ذلك فإن ما كان مقبولاً لدى المجتمعات البدائية، فإنه أصبح غير مستساغ لدى الإنسان المعاصر، بل إن من القضايا التي كانت من المسلمات الأولية التي لا تقبل الشك في الماضي ترفضها العقول الآن رفضًا باتًا، ولا تتجاوب معها المشاعر والأحاسيس، لأنها لا تتفق مع درجة الحضارة الحالية، ولا تلبي مطالب الحياة المعاصرة، ولا تتناغم مع معطيات العصر، بل تنفر منها ولا تستسيغها.

هذا غير صحيح، لأن القضايا الكلية في الإسلام هي قواعد التشريع الأساسية التي تصلح لكل الشعوب، وتلبي احتياجات كل المجموعات البشرية، على اختلاف ألوانها وأجناسها، وتتناسب مع كل عصر وبيئة، إذ يتخذها الجميع أساسًا تستنتج منه أحكام لكل القضايا، وعلاج لكل المشاكل التي تواجه الإنسان والمجتمعات، فكانت هذه المبادئ الرئيسية في التشريع أساسًا للاجتهاد في مجال الأحكام الشرعية الذي بمقتضاه تكونت المذاهب الفقهية، فزخرت بالأحكام والتفريعات التي كانت منها فروض مقدرة الحدوث في الأزمان المستقبلة.

كان هذا العمل في مجال التشريع دليلاً على مرونة الفقه الإسلامي، وصلاحيته لمواجهة الأحداث التي تظهر، نتيجة لديناميكية الحركة في مجالات الحياة المختلفة، وعنصرًا جوهريًا في مفهوم عالمية الإسلام. فقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية في مجالات الحياة المتعددة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

(الشورى: ٣٨)

فهذه قضية توضح أن الإسلام يحث على ألا يكون الأمر في المجتمع ديكتاتوريًا، بل ينبغي أن يقوم على أساس الشورى، ولم يحدد لهذه الشورى صيغة معينة، بل تركها لظروف كل عصر، وطبيعة كل بيئة.

كذلك لم يحدد في قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف: ٣٢)

أنواع الزينة، أو أشكالها وهيئاتها، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان، بشرط ألا يكون في ذلك اقتراف لمعصية، أو تناول لخبيث، كما في قوله تعالى:

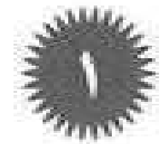
﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

فهذه وأمثالها – وهو كثير في التشريع الإسلامي – أمور كلية وضعت الأساس الذي يحفظ كيان المجتمع، وحددت الإطار الذي يتحرك بداخله الفقهاء والمشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة، بحيث لا يقف الدين الإسلامي عقبة في طريق التقدم والرقي.

يتبع

حول التصور العقدى فى الإسلام





المستشار طارق البشرى

الدين كما يعرفه المفكرون الإسلاميون هو وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات.

وللدكتور محمد عبدالله دراز تعريف أكثر تفصيلاً وشرحًا، فيقول إن الدين من الناحية الموضوعية هو جملة النواميس التى تحدد صفات الذات الإلهية وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها.. ووفقًا لهذا التعريف تختلف الأديان بعضها عن البعض إن اختلفت فى أى من المجالين السابقين، تحديد صفات الذات الإلهية والتصورات الأساسية للذات الإلهية، أو تحديد القواعد الأساسية لعبادة الله سبحانه.. ومثل الاختلاف فى الصفات ما تراه من فارق عميق بين التصور الإسلامى للوحدانية المطلقة لله تبارك وتعالى، وبين التصور المنتشر بين المسيحيين من أن الله واحد ولكنه يظهر فى تصورات ثلاثة.

أما الدين من الناحية الذاتية النفسانية لدى المؤمن، فيوضحه الدكتور دراز رحمه الله، بأنه اعتقاد الإنسان بوجود الذات العلوية الغيبية التى لا يمكن العلم بكنهها، وإنما يمكن إدراك آثارها، والاعتقاد بما لها من مطلق القدرة والاختيار.. وأن هذا الاعتقاد يبعث على مناجاة الذات الإلهية فى رغبة ورهبة وفى خضوع وتمجيد، وأنها واجبة الطاعة والعبادة.

والحقيقة الموضوعية هى الحقيقة أو الوجود القائم خارج النفس الإنسانية ومستقلا عنها، وهو الوجود الذى لا يتغير باختلاف نفوس البشر ورؤيتهم.. بينما الناحية الذاتية فمقصود بها انعكاس الحقيقة الموضوعية فى شعور الإنسان وعقله.

وبالنسبة للمسيحيين والفلاسفة والمفكرين الغربيين، فإذا كان بعضهم يضع تعريفًا للدين يقارب تعريف المسيحيين له، إلا أن كثيرًا من التعريفات

تفترق فى عنصر واحد أو عناصر عدة عن التعريف الإسلامي.

فمن قال منهم «إن الدين هو الرباط الذى يصل الإنسان بالله» غفل عن أثر الدين فى السلوك والمعاملات.. ومن قال: «إن الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية» لم يبين الوجود الموضوعى لمصدر تلك الأوامر.. ومن ذلك يبين أن التعريف الإسلامى يتميز بشموله عناصر الإيمان الدينى كافة، من حيث الوضع الإلهى ونطاق الواجبات الإنسانية.

إن الدين يقتضى خضوعًا وامتثالاً لما ندين به.. ولكن الخضوع والامتثال وحدهما لا يكفيان، لأننا نخضع ونمتثل لقوانين الكون وللسنن التى توجد فى الطبيعة، دون أن يعنى ذلك أننا نشعر شعورًا دينيًا تجاهها.

إن الخضوع والامتثال الدينى فيه رضاء وقبول، وفيه مشيئة الاختيار لهذا الخضوع.

ولكن هذا الخضوع الرضى لا يكفى كذلك، فإننا نخضع بالرضاء والقبول لقيم نقدسها ونقبل الانصياع لها، مثل الشرف والكرامة وغير ذلك مما يعتبر معانى عقلية مجردة يمكن أن يكون الإنسان هو الذى أوجدها.. ولذلك فليس هذا من نوع ما يعتبر دينًا.. لأن الدين يشمل الخضوع بالرضاء، ولكنه رضاء لحقيقة موجودة خارج نطاق المشاعر الإنسانية والأفكار.. حقيقة ذات وجود مستقل قائم بنفسه.. حقيقة موضوعية.

إلى هذه المرحلة من التسلسل المنطقى لم يفترق المؤمن بالله عن المادى بعد.. لأن المادى يمكن أن يرتضى الخضوع لحقيقة مستقلة عنه، وهنا يرد الفارق الحاسم بين المؤمن بالله سبحانه وبين من يعتقد بأن المادة هى أصل الكون والحياة.. هذا الفارق يتعلق بأن ما يدين به المؤمن إنما هو موجود غيبى لا يقع عليه الحس ولا تدركه الأبصار، وإنما تدركه القلوب والعقول.. هو وجود غيبى فيما وراء الطبيعة ليس من جنس الطبيعة المادية المنفعلة، وهو ما يستحيل على أى الإنسان أن يعرف كنهه وجوهره، وإنما يدركه بالعقل من خلال آثاره.. بينما أن المادى يرى تلك القوى هى قوى الطبيعة ومن جنس ما يستطيع أن يعمل فيه أدوات بحثه لمعرفته.. وهنا يظهر الفارق الحاسم فى الموقف.. لأن الدين يقتضى الإيمان بالغيب.. ويدخل فى هذا النطاق الغيبى الملائكة والجنة والنار والحساب والبعث بعد الموت.

كما أن الذات الإلهية تتمثل فى قوة عاقلة تقصد ما تفعل وهى ذات إرادة ومشيئة، ولها اختيار وتدبير وتصرف غائي، أى تصرف مقصود فى أسلوبه وأهدافه وآثاره.. وهى قوة مطلقة لا يحدها حد ولا يقيدها قيد، إلا ما تفرضه هى من النواميس وما تسنه من الأسباب لاتساق الكون ونظامه.. وأفعالها تصدر عنها بمحض إرادتها.. ثم هى قوة معنية بشئون العالم والبشر.. فهى ليست منعزلة ولا بعيدة عن أحوال الخلق، ولكنها معنية بهم

وتستمع لمن يدعوها منهم وتستجيب لهم رفضًا أو قبولاً.

علينا أن نعرف أن الدين جامع كبير، هو جامع معد لأن يسع الخلق أجمعين، رغم كل ما يفرق هؤلاء الخلق من صفات فردية وجمعية، ورغم ما يندرجون فيه من تصنيفات وفئات وشعوب وطبقات وألوان وألسن ولهجات وأزمان وأصقاع.. فهو يسع العربي والفارسي والهندى والزنجي والأوروبي وغيرهم كثير، وهو يسع العامل وصاحب العمل ويسع كل صاحب لغة وكل صاحب لهجة ويسع من عاش من ألف عام ومن يعيش الآن ومن يعيش بعد ألف عام، ويسع من في المشارق ومن في المغارب.

هو كلمة الله سبحانه بموجب كونه الخالق إلى الناس كافة بموجب كونهم المخلوقين.. والقرآن نص يأتى من اللازمان ليحكم الزمان ويرد من اللامكان ليحكم المكان.. ويأتى من خارج المجتمع ليحكم أسس حركات المجتمع وإن تغيرت نظمه وأوضاعه.

إن الدين بهذا يأتى من المطلق ليحكم النسبي، ويرد من الثابت ليحكم المتحرك.. والثبات في هذا السياق لا يعنى السكون ولكنه يعنى الدوام أى الوجود والبقاء المستمر.. ومن ثم فالدين دائم يحكم المؤقت والمتغير.

وإن التوقيت والتغيير في الحياة الدنيا هو مما يقتضى الحركة التى تحتوى التغيير، إلا أن ذلك لا يعنى خروج الحركة عن نطاق محكوميتها وخضوعها للذات الثابتة السرمدية جل شأنها.. وأن حركة الأجرام السماوية وحركة المجتمعات الإنسانية وحركة البشر.. كل ذلك يرد من كونها نسبية، والتغيير يطرأ عليها فيتحول من حال إلى آخر ومن وضع إلى غيره، يرد ذلك بموجب ما تتسم به من نقص واحتياج، فالكامل لا يلحقه التغيير ولا التعديل، والسرمدى الدائم لا يتحول من حال لحال ومن وضع لغيره.

ثبات المعبود الخالق جل شأنه يسع كل نسبي بموجب كون المعبود مطلقًا، وهو يسع كل تغيير بموجب كونه الكمال.

ونحن نذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إننا نفر من قضاء الله إلى قضاء الله.. وهو قول فيه فقه أصيل.. لأنه يضع فهمنا لقضاء الله بحسبانه قضاء موسعًا ينفسح لحركة الخلق والأكوان والمجتمعات والبشر، ويستوعب كل ما يرد عليهم من تغيير وتبديل، ويشمل كل ما هم عليه من تعدد وتنوع واختلاف.. كل ذلك حادث ويحدث في نطاق الهيمنة الإلهية في نطاق قدر الله وقضائه.. ونحن نقصد بالتنوع الاختلاف بين الظواهر والأشياء في المكان ونقصد بالتغير الاختلاف بين الظواهر والأشياء في الزمان.. بمعنى أن كلا من التنوع والتغير إنما يرد منسوبًا للزمان والمكان في إطار شمول الهيمنة الإلهية وسرمديتها المستوعبة كل ما تسميه زمانًا ومكانًا.

بهذه النظرة وهذا الفهم، يمكن أن ندرك أن الناس تقترب من الدين الواحد اقترابًا تتنوع تصوراته تنوعًا نسبيًا، وتتفاوت

مثيراته وتوجهاته، وتتباين دوافعه وأحواله، وكل ذلك في نطاق الضوابط الدينية الواحدة وفي حدود ما تسمح به أسس الدين وأصوله.. بمعنى أن ثمة أسسًا للدين وأصولاً عامة واحدة وهى الإيمان بالله وحده، وبمحمد رسولاً لا نبى بعده، وبالقرآن كتابًا منزلاً، وبالملائكة والرسل والأنبياء والبعث واليوم الآخر، وبوجوب اتباع ما أمرنا الله به في الكتاب وسنة النبي الشريفة.

في هذا النطاق تتنوع مواقف الناس وأحوالهم واستجاباتهم، وتختلف وجهات انجذاب كل منهم لأى من عناصر الدين وخصائصه، وتتعدد فيهم جوانب الاهتمام به.

فمن الناس من يؤكد على الجانب التعبدى من صلاة وصوم أكثر مما يؤكد على غير ذلك من جوانب.. ومنهم من يتوجه لله بالشوق والوجد المشبوب، ومنهم من يثيره الجانب الفكرى الباحث في أصول العقيدة، ومنهم من يصرف غالب همه في جانب الأحكام الاجتماعية والمعاملة بين بني البشر، ومنهم من تحركه الاستجابة لنداء النهوض بجماعة المسلمين بالنشاط السياسي.. وهذا التنوع لا يتعلق بالبشر من حيث هم أفراد فقط ولكنه يتعلق بهم من حيث هم جماعات وحركات فكرية وروحية وسياسية واجتماعية وتعليمية..

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

(البقرة: ١٤٨)

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

(الرعد: ٧)

ونحن نجد القرآن الكريم قد استجاب لكل أولئك ولغيرهم، ومد لهم حبال العون وأفسح في العطاء والاستجابة لكل وجهة.. فنجد الآيات التى تشير إلى الإعجاز في خلق الطبيعة، وآيات تشير إلى الإعجاز في تقرير الأحكام، ونجد الخطاب القرآني يتوجه إلى كل من وجهات البشر في شئون العبادات والسياسة وغير ذلك.. والقرآن يخاطب كل هذه الوجهات لأنها في الواقع وفي الحياة تتكامل لتكمل جوانب العقيدة بين الناس ولتضع أسس النظم المترابطة وأسس بناء الإنسان من جوانبه المختلفة.

وللدين وللإسلام قدرة فريدة على مخاطبة مختلف المستويات الثقافية والذهنية ومختلف مراحل العمر في الإنسان المدرك المميز.. فهو يخاطب العلماء والمثقفين وجمهور المتعلمين والأميين على سواء.. وكل من هؤلاء يستجيب لوجه من وجوه الخطاب ويتمثل منه ما يكفيه ويهديه.. ذلك أن العلاقة هنا علاقة معبود وعابد، وهى علاقة حميمة ووثيقة ولصيقة، بحيث إن الفروق بين الناس مهما اتسعت أو عمقت فهي لا تكاد تبين إزاء علاقتهم جميعًا بالله.. وإذا جاز أن نضرب مثلاً هنا بمثل ما ضرب القرآن مثلا لنور الله بالمشكاة، فإن اختلاف مستويات الأبناء لا تكاد تبين إزاء علاقتهم بأمهم، وقد يتنوع المذاق مع مراحل العمر ومع تنوع صفات الأبناء، لكن تبقى العلاقة صميمة واحدة، ولغة

الخطاب وثيقة متكافئة، مهما اختلفت مفرداتها.

ومن جهة أخرى، فإن الفوارق الصغرى تزول إزاء الفارق الأكبر، وأيا كانت التنوعات بين خلق الله من البشر، فهى لا تبين وتؤول إلى العدم إزاء علاقتهم بالخالق الصانع المعبود.. ذلك أنهم يتوجهون إلى الله بموجب كونهم خلقًا وبشرًا وعابدين. وهذا مفاد القول أن الدين فطرة.

من هذا جميعه يظهر أن واحدية الدين تسع التنوع والتغير فى الإطار المقدور لأصول الدين وأسسه، وأن هذا التنوع والتغير فى هذا الإطار المقدور لا يتنافى ولا يشكل إزاء العلاقة بالمعبود عز وجل، بمعنى أنه اختلاف لا تنشأ معه مشكلة ما إزاء العلاقة الدينية.. وما من علاقة يعرفها البشر تسع لهذا الأمر وتفسح للتنوعات والتغيرات والتحركات فى إطار الهيمنة الواحدة والثبات والدوام، ما من علاقة تتسع لهذا كله بمثل ما يتسع الدين.

ونحن فى عبوديتنا لله نفهم كيف يتنوع البشر أفرادًا وجماعات وكيف يتغيرون أحوالاً وأوضاعًا عبر الزمان، فى إطار أصول الدين وأسسه.. ونحن فى هذا الإطار علينا أن نتحلى بالحرص على التحمل وعلى حسن التقبل.

* * *

يقودنا هذا إلى أن هناك مذاهب وآراء وفرقًا كثيرة عرفها ويعرفها الإسلام فى تاريخه الطويل العريض، الباقى طولاً وعرضًا بإذن الله.. ونحن اليوم عندما ننظر إليها معًا ونضعها إزاء بعضها البعض تجد الخلافات كثيرة بينها، وقد يؤثر ذلك على نظرتنا لما للعقيدة الإسلامية من اتساق وثبات.

فى حين أنه مادامت هذه المذاهب والآراء والفرق منضوية تحت لواء الإسلام وأسسه العقيدية، فيجب علينا أن نتدبر فى الظروف التاريخية التى أوجدت كلا من هذه المذاهب والآراء.. إن أى كيان عقيدى حتى عندما يجد له وجه تحد من وجهة معينة، فهو إنما يواجه ذلك بأن يشد بعضه بعضًا وتتداعى سائر أعضائه تحشد قواها وتجند إمكاناتها لرد الغائلة ودفع التحدى الذى يواجه جوانب محددة من جسم المجتمع أو العقيدة.

إن أى بلد تواجه بغزو عسكرى مثلاً، إنما تحشد كل قواها الإنتاجية والعلاجية والتعليمية لرد الهجوم ودفعه، فيجند العمال والفلاحون وتتدفق الأموال لشراء السلاح أو إنتاجه وتتحول المصانع إلى إنتاج ما يلزم الحرب أولاً وتتحول المستشفيات المدنية إلى مستشفيات عسكرية وتتحول المدارس إلى معسكرات للتدريب... إلخ.. ونحن عندما ننظر إلى هذه النزعة العسكرية فى ظرفها التاريخى نراها نزعة طبيعية لابد منها.. ولكننا إذا عزلناها عن هذا الظرف فإننا فى ظرف تاريخى مختلف قد نفسرها على أنها كانت جنوحًا ضارًا وغير مفهوم.. ومثال ذلك عندما ننظر إلى حكم المماليك على مدى قرنين ونصف، وقد كان يتمثل فيهم وقتها حكم المؤسسة العسكرية فى مجتمعات ذلك الزمان، قد ننعى على حال تلك الأيام ونرى فى ذلك شذوذًا غير سائغ

ووضعًا ضارًا.. ولكننا قد نفهم بعض أسباب الظاهرة عندما نعرف أن سبب هذه الظاهرة إن كان العصر وقتها عصر رد للعدوان الخارجى الذى استمر يتدافع على موجات متتالية عشرات من السنين، سواء من ناحية الصليبيين أو من ناحية التتار.. وأن هذا مما دفع إلى التركيز الاجتماعى على المؤسسة العسكرية ومما دفع إلى اعتلائها السلطة.

وبهذا المنهج ننظر فى مجال الكيان العقيدى العام للإسلام، فنرى مثلا جماعة كجماعة المعتزلة وعلماء الكلام ظهروا فى فترة، كان الجانب العقيدى يواجه الكثير من حملات التشكيك الفلسفية من العقائد والفلسفات الأخرى، فحدث هذا «البروز» أو «النتوء» المعتزلى الذى يؤكد على العقل ليواجه حملات التشكيك «العقلية»، يواجهها بسلاحها.. وقد يكون فى تأكيده على هذا الوجه مما أخل لديه بالتوازن الواجب بين النص والعقل.. ولكن ذلك معركة فكرية جرت وكان لها رجالها وردوا الغوائل عن العقيدة من هذه الجهة وأكسبوا الجسم الإسلامى لدى المؤمنين حصانة تجاه الهجمات الفلسفية.. وانتهى هذا الدور واستنفد المذهب وظيفته بنجاحه فى أداء هدفه التاريخى لحماية عقيدة المؤمنين.

ثم نجد الحركة الصوفية مثلا تقوم لتؤكد على الجانب الوجدانى الروحى إزاء من يسميهم الإمام الغزالى بـ«الحداذين» الذين يبالغون فى قصر التصور الإسلامى على ضبط القيام بالشعائر وضبط التعاملات.. وهى بحكم قيامها بهذا الدور قد تؤكد عليه تأكيدًا مبالغًا فيه لتلفت النظر إلى الخلل الحادث والحاصل أن الجسم العقيدى العام يصحح أوضاع نفسه ويأخذ من كل دواء ما ينفعه فى وقت الشدة حتى يعاود توازنه، فتقل الجرعة وتنضبط فى حدود ما يتفع التوازن العام وهذا الوضع نفسه نلمسه فى عصرنا الحاضر، بين نزعتى التجديد والمحافظة فى ظروف واقعنا المعيشى والأولى تهتم بتفتيح الفقه الإسلامى على ما يستجيب لمتطلبات الحياة الحاضرة، والأخرى تلتزم بالمحافظة لتدرأ عن العقيدة وأسسها وأصولها غوائل العدوان من العقائد والحضارات الأخرى. وكل منهما يقوم باستجابة واجبة ليرد عن ثغور المسلمين الغوائل الآتية من ناحيته. وقد يبالغ البعض ويظن أن الصواب مطلقًا هو فى موقفه، وهذا هو وجه التحفظ على هذا الموقف. فيتعين ألا نقف موقف التنافى إزاء بعضنا البعض، وإنما نعرف أن كلا يقف على ثغر وأنها أدوار لازمة موزعة علينا لخدمة الإسلام.

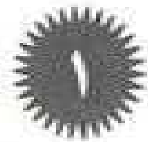
ونصحح مواقف بعضنا بهذه العقلية. تلك هى النظرة التكاملية التى يتعين أن نتسلح بها.

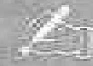
ونحن كلما أكدنا على التمايز العام لجماعتنا وحضارتنا وعقيدتنا إزاء غيرها، كلما خفتت حدة التمايزات والتنوعات الخاصة التى تنشأ بين المسلمين والمواطنين، أفرادًا وجماعات ومذاهب.

(يتبع).

الاجتهاد في مقاصد العقائد

مقاصد صفتي المعطي والمانع نموذجًا




د. جاسر عودة
المدير التنفيذي لمركز مقاصد الشريعة الإسلامية بلندن

مقاصد الاعتقاد باب من أبواب المقاصد كبقية الأبواب الأخرى: قديم جديد. قديمًا بحث فيه الأئمة وتحدثوا عنه بمصطلحات تختلف عن مصطلح «مقاصد العقائد» في الشكل ولكنها تتفق في المضمون، وذلك كحديثهم عن «الأسرار»، و«الحكم» و«الأغراض» و«المحاسن» و«المناقب» التي تتعلق بالعقائد من إيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، إلى صفات الله تعالى وأفعاله، وغير ذلك من مسائل الاعتقاد.

ومن الأمثلة على هؤلاء الحكيم الترمذي، والذي كتب عن أسرار و«علل» العقائد بأسلوب صوفي غلب عليه تجربته الصوفية الخاصة في كتابيه «إثبات العلل»، (١) و«الحج وأسراره»(٢) وكابن بابويه القمي الذي ضمن كتابه «علل الشرائع» تفسيرات عقلية وحكم وأسرار للإيمان بالله، والرسل، والغيب، وما إلى ذلك من عقائد، إضافة إلى ما كتبه في نفس الكتاب عن أسرار الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وبر الوالدين، وغير ذلك من أحكام. (٣).

أما العامري الفيلسوف في «مناقبه»، فقد قارن بين الإسلام وغيره من الأديان من ناحية العقائد، وبحث في الحكم والأسرار والمناقب، في إثبات الصانع تعالى، والرسل، والملائكة، والمعاد، وغير ذلك من العقائد.(٤).

وأما محمد الزاهد البخاري في كتاب الإيمان من كتابه «محاسن الإسلام» (٥) فقد تناول محاسن الشهادة بالتوحيد وفصل القول في ذلك.

وأما الإمام الغزالي، فقد اشتهر بنظراته المبدعة في «الأسرار»، والتي تعدى بها الحديث عن الأحكام والعبادات والمعاملات – كما في إحياء علوم الدين – إلى الحديث عن أسرار العقائد في معرض كلامه عن «معارف الأولياء وأحوالهم»(٦) وقد كتب العز بن عبدالسلام عن أسرار قرب الله عز وجل، وعظمته، وعلوه، وأثر ذلك المتوقع على العبد خضوعًا وخشوعًا وتذللاً لله تعالى (٧) والإمام القرافي كتب عن مقاصد تمييز ما لله عن ما ليس له على سلوك المكلف (٨) وأما الإمام الشاطبي. فقد دافع عن التعليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة (والتي تشمل العقائد) وعن الاستقراء منهجًا لاستنباط العلل والمقاصد منها(٩) وغير هؤلاء من العلماء كثير ممن كتبوا في «مقاصد العقائد» وقاربوا نفس المعنى بأساليب مختلفة (١٠)

وبعد عصر السلف ذكر إمام الهند شاه ولي الله الدهلوي كلامًا نفيسًا عن مقاصد العقائد في الله تعالى، وذلك في أبواب متعددة من «حجته»، كباب الإيمان بصفات الله تعالى، وباب الإيمان بالقدر، وباب الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لأنه منعم عليهم مجاز لهم بالإرادة، وباب تعظيم شعائر الله (القرآن، والكعبة، والنبي، والصلاة)، وغير ذلك من الأبواب الاعتقادية(١١).

ومن العلماء المعاصرين، كتب العلامة الشيخ يوسف القرضاوي عن مدى السعة في مجال البحث في مقاصد الشريعة. فقال: «الذي أرجحه، أننا نعني مقاصد الإسلام كله، وأحسب أن الأصوليين الذين حصروا مقاصد الشريعة في الكليات الخمس، أرادوا أن تشمل العقائد فيما تشمل، ولهذا جعلوا الدين هو الضرورة الأولى. والعقائد هي رأس الدين وأساس بنيانه كله»(١٢).

وحث الدكتور أحمد الريسوني على تفعيل البحث في مقاصد العقائد فكتب يقول: (١٣)

وهذا المجال في تقديري هو أهم المجالات والآفاق التي على البحث المقاصدي ارتيادها والحاقها بمجالات الدراسات المقاصدية، وأعني به البحث في (مقاصد العقيدة الإسلامية)، تمامًا مثلما يبحث السابقون ويبحث المعاصرون في (مقاصد الشريعة الإسلامية). وليست شرائع الإسلام أولى بالعناية وبالبحث عن مقاصدها من عقائد الإسلام. فلماذا نجد الحديث ينمو ويتكاثر عن مقاصد الأحكام ولا نجد شيئًا عن مقاصد العقائد.. مجال العقائد (علم التوحيد

١. راجع كتاب إثبات العلل للحكيم الترمذي (تحقيق ودراسة خالد زهري) ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٨م

٢. تحقيق حسني نصر زيدان، دار السعادة، القاهرة، ١٩٦٩م

٣. ابن بابويه الصدوق القمي، علل الشرائع، تحرير محمد صادق بحر العلوم، دار البلاغة، النجف، ١٩٦٦.

٤. أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة د. أحمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربي للثقافة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م

٥. محمد بن عبدالرحمن الزاهد البخاري، محاسن الإسلام، مكتبة حسام الدين المقدسي، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

٦. أبو حامد الغزالي، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق د. حمدي الكبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م

٧. راجع: العز بن عبدالسلام، مقاصد الصلاة، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٥م

٨. راجع: أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، الأمنية في إدراك النية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

٩. راجع: الموافقات في أصول الفقه، أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي، تحقيق: عبد الله دراز، محمد عبد الله دراز، عبد السلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ب-ت.

١٠. راجع: محمد كمال إمام، الدليل الإرشادي إلى مقاصد الشريعة الإسلامية، مركز دراسات مقاصد الشريعة، لندن، ج١ - ج٦، ٢٠٠٦ - ٢٠١١.

١١. شاه ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق سيد سابق، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٥م

١٢. راجع: يوسف القرضاوي في: محمد سليم العوا محررًا، مقاصد الشريعة الإسلامية، في قضايا المنهج وقضايا التطبيق، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة، ٢٠٠٦م

١٣. راجع: أحمد الريسوني، البحث في مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله، في: محمد سليم العوا محررًا، مقاصد الشريعة الإسلامية دراسات في قضايا المنهج وقضايا التطبيق، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة، ٢٠٠٦م.

وعلم الكلام، قد خلا تقريبًا من النظر المقاصدي، وكأن عقائد الإسلام ليس لها مقصد ولا غرض ولا ثمرة ترجى، وأن على المكلف أن يعتقدها ويعقد عليها قلبه ليس إلا.. المهم لكي تستعيد عقائدنا وجهها الحقيقي وتؤدي دورها الحقيقي، وتستعيد موقعها الأساسي في حياتنا وعلومنا وثقافتنا، لابد من البحث في مقاصدها الشرعية، ودراستها والتعامل معها في ضوء مقاصدها تلك. فهذا مجال كبير وبكر من مجالات (علم المقاصد)، يحتاج إلى باحثين أفذاذ ومستكشفين رواد.

ومن تلاميذ الأستاذ الدكتور الريسوني بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط من كتب في هذا الموضوع رسائل علمية جادة جددت البحث في كثير من الجوانب، وقدمت محاولات رائدة في هذا العلم، كالأستاذ محمد عبده الذي قدم رسالة عن «مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي» (عام ٢٠٠٢م)، والأستاذة يامنة هموري التي قدمت رسالة عن «مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة عند الإمام فخر الدين الرازي» (عام ٢٠٠٣م)، وغيرهما.

ونوه الأستاذ الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي كذلك على أهمية التفرقة بين مجالات العقيدة القطعية التي لا تقبل الاجتهاد المقاصدي، ومجالات العقيدة الظنية التي تقبل الاجتهاد المقاصدي، مثل الوسائل الخادمة للعقيدة (١٤).

وبين الدكتور يوسف أحمد محمد البدوي في كتابه عن ابن تيمية كيف أنه لم يراع المقاصد في الفقه وأصوله فحسب، بل في كل أبواب الشريعة، حتى في العقيدة والأخلاق والسلوكيات، وحرص على ربط الجزئيات بالكليات في الإسلام وبيان مقاصدها (١٥) وأشار الدكتور محمد الزحيلي إلى أن العقيدة بمختلف أصولها وفروعها إنما جاءت لرعاية مصالح الإنسان وتحقيق السعادة لهم في الدارين (١٦) وغير هؤلاء كثير (١٧).

وهذا البحث يهدف إلى إضافة متواضعة في هذا الباب عن طريق التفكر في صفتين من صفات الله عز وجل تحدث عنهما الإمام العارف بالله الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري في حكمه القيمة وتوجيهاته المركزة المعروفة بحكم ابن عطاء الله(١٨) بدا لي أن انتقى منها ما يبين الأسرار والحكم والمصالح الدينية والدنيوية التي يحصلها العباد من اعتقادهم بهاتين الصفتين: وما قصده الله عز وجل من تجليه على عباده عطاء أو منعًا، وهو الذي بيده الخير دائمًا - سبحانه - وهو على كل شيء قدير.

وأبدأ قبل الشروع في مقاصد العلم بصفتي

١٤. راجع: نور الدين بن مختار الخادمي، الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، ضمن سلسلة كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - قطر، ج١، العدد ٦٥، جماد الأول ١٤١٩هـ - السنة الثامنة عشرة، وج٢، العدد ٦٦، رجب ١٤١٩هـ، السنة الثامنة عشرة.

١٥. راجع: يوسف أحمد محمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٦. راجع: محمد مصطفى الزحيلي، مقاصد الشريعة، بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - مكة المكرمة، السنة السادسة، العدد السادس، ١٤٠٢ - ١٤٠٣هـ.

١٧. راجع: محمد كمال إمام، الدليل الإرشادي إلى مقاصد الشريعة، مركز دراسات مقاصد الشريعة، لندن: ج١ - ج٦، ٢٠٠٦ - ٢٠١١.

١٨. العارف بالله الشيخ الإمام أحمد بن عطاء الله السكندري رحمة الله ورضي عنه، واسمه على مسمى؛ فقد أعطاه الله من العلم والحكمة الشيء الكثير فهو فقيه، ومحدث، ونحوي، وله باع في علوم شرعية ولغوية مختلفة، بالإضافة إلى علو كعبه في التصوف وقد كان معروفا كذلك - رحمة الله - بإمامته في الفقه المالكي، وشهد له مشايخه وتلاميذه ومعاصروه بالقدرة على الإفتاء والدعوة في (المذهبين) أي مذهب أهل السلوك ومذهب أهل الفقه، وله مؤلفات كثيرة معروفة، وناظر شيخ الإسلام ابن تيمية - وكان من معاصريه - في بعض المسائل وقد عاش ابن عطاء الله في القرن السابع في الإسكندرية المصرية، ومات في بداية القرن الثامن الهجري (٧٠٩هـ) رحمه الله ورضي عنه.

العطاء والمنع، والتي سوف أعرضها بأسلوب مبسط على هيئة خواطر وأسئلة وأجوبة - أبدأ بمناقشة موجزة بأسلوب أكثر أكاديمية للسؤال الفلسفي (الكلامي) المتعلق بهذا الموضوع، ألا وهو هل العقائد الإسلامية معللة بأغراض؟

هل العقائد الإسلامية معللة بأغراض؟

هذا السؤال يتعلق بسؤال كثر حوله الجدل في تراثنا الإسلامي الكلامي، ألا وهو السؤال: «هل أفعال الله معللة بأغراض؟»، ومن المهم أن نلاحظ أن مفهوم العلة أو السبب لم يكن يجري في علم الكلام التفريق بينه وبين مفهوم الغرض أو المقصد أو الحكمة(١٩) وإنما كان يجري التفريق بين هذين المفهومين في مجال الاجتهاد الفقهي(٢٠) إن البحث الفلسفي الكلامي حول التعليل ذو علاقة بهذا البحث، لأن الشريعة الإسلامية نفسها هي من حيث العقيدة «فعل إلهي» أتتنا عن طريق الوحي، والأغراض التي من وراء الشريعة هي إذن مقاصد الشريعة. فالسؤال إذن هو هل هناك من قصد من وراء تنزيل الله تعالى لهذه الشريعة؟ وقد أعطانا الكلاميون عن هذا السؤال ثلاثة أجوبة:

(أ) من قالوا إن أفعال الله «يجب عليه» أن يكون لها مقاصد، وبالتالي فإعلامنا بهذه المقاصد «يجب على الله تعالى» أن يكون له غرض فيها: قسم المعتزلة والشيعة (كلهم عدا بعض الاستثناءات) كل الأفعال إلى أفعال «حسنة» وأفعال «قبيحة»،(٢١) واعتقدوا في كل شيء حسنًا أو قبحًا ذاتيا غير قابل للتغير بتغير الظروف ثم اعتقدوا أن العقل الإنساني قادر بذاته على ما أطلقوا عليه «التحسين والتقبيح العقليين»، أي على معرفة الحسن من القبيح ولو دون وحي إلهي. ولأن تحديد التحسين والتقبيح أعمال عقلية، فإن المعتزلة طبقوهما سواء بسواء على البشر وعلى الله تعالى (وكان هذا بناء على «أصل العدل»). وإذن، في حق البشر تكون الأفعال الحسنة عندهم «واجبة» وتكون الأفعال القبيحة «محظورة»، وفي حق الله تعالى تكون الأفعال الحسنة واجبة عليه، والأفعال القبيحة هي أفعال «يستحيل عليه فعلها»، حسب تعبيرهم. ويعتقدون أيضًا أن الأفعال التي لا علة ولا غرض لها عبث قبيح لا يجوز على الله، ولهذا فهم يعتقدون أن كل أفعال الله تعالى «معللة». (٢٢)

(ب) من قالوا إن الله تعالى منزه عن الأسباب والمقاصد والأغراض كان الأشاعرة والسلفية - كرد فعل على المعتزلة - قد أقروا بأن الفعل يمكن أن يكون «حسنًا» أو «قبيحًا»، ولكنهم قرروا أن تقرير القبح والحسن هو من الشريعة لا من العقل. ففي غياب الشريعة - عندهم - يمكن أن يكون أي فعل «حسن» أو «قبيح» على حد سواء (إلا العلم في مقابل الجهل، والعدل في مقابل الظلم)،(٢٣) وقالوا بناء على ذلك إن الله تعالى «لا يجب عليه» فعل شيء أصلا، وإن كل ما يفعله هو «خير» و«حسن». لهذا يعتقد الأشاعرة أن أفعال الله تعالى هي «فوق الأسباب»، لأن من يفعل

١٩- يمكن الرجوع مثلا إلى: الشاطبي، الموافقات، المجلد ١، ص ٣٧١ والمجلد ٣، ص ٦.

٢٠- جاسر عودة، فقه المقاصد: إناطة الأحكام الشرعية بمقاصدها (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦م)، ص ٨١.

٢١- أحمد بن تيمية، دقائق التفسير، تحرير محمد الجليند (دمشق: مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٤هـ)، المجلد ٢، ص ١١٠.

٢٢- محمد الطيب البصري، المعتمد في أصول الفقه، تحرير خالد الميس، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ) المجلد ١، ص ١٨٤. راجع أيضًا أحمد الطيب، «نظرية المقاصد عند الشاطبي ومدى ارتباطها بالأصول الكلامية»، المسلم المعاصر رقم ١٠٣ (٢٠٠٢)، ص ٣٩. وطه جابر العلواني، «مقاصد الشريعة»، في مقاصد الشريعة، تحرير عبدالجبار الرفاعي (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١)، ص ٩٢، وحسن الشافعي، «الآمدي وآراؤه الكلامية»، الطبعة الأولى (القاهرة: دار السلام ١٩٩٨)، ص ٢٤٦.

٢٣- راجع الطيب، «نظرية المقاصد».

الشيء لسبب هو بحاجة إلى ذلك السبب، بينما الله تعالى لا يحتاج لشيء. (٢٤) واحتج الأشاعرة أيضًا بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وخالق الأسباب، وخالق نتائجها كذلك، ولهذا فهو يفعل ما يشاء دون أن يحتاج أن يلتزم بأي شيء يلزمنا من أحكام الأسباب والمسببات». (٢٥)

(جـ) من قالوا إن أفعال الله تعالى لها أسباب ومقاصد رحمة منه بعباده، وهو قول الماتريدية، ورأوا أن المعتزلة مصيبون في اعتقادهم أن أفعال الله تعالى مسببة، ولكنهم مخطئون في جعل الله وكأنه ملزم أو «يجب عليه» أن يفعل ما يفعل وارتأى الماتريدية أيضًا أن الأشاعرة مصيبون في قولهم إن الله تعالى «لا يحتاج» إلى الأسباب، ولكنهم قالوا إن الأسباب والمقاصد والمصالح هي «حاجات» للبشر، لا لله تعالى وقبل الماتريدية مبدأ التحسين والتقبيح، ولكن «العقل» عند الماتريدية لا يملك السلطة ليحكم مستقلاً عن الشرع على ما هو حسن وما هو قبيح، وإنما العقل «آلة» منحها الله للإنسان لكي يدرك الحسن والقبح إذا أعلم به (٢٦).

ولكن كثيرًا من الأئمة الذين انتموا إلى الأشاعرة خالفوا الموقف الأشعري في الواقع فيما يخص عدم تعليل أفعال الله بأسباب، وتبنوا موقفًا هو أقرب إلى موقف الماتريدية ولعل الظروف السياسية والخوف من الاضطهاد – فيما يبدو لي – هو الذي جعلهم يعلنون رفضهم الكلي والجزئي لمبدأ «التحسين والتقبيح» العقلي، كالآمدي، (٢٧) والشاطبي، (٢٨) وابن تيمية، (٢٩) وابن القيم، (٣٠) وابن رشد. (٣١)

وقد كان هجوم ابن رشد على الأشاعرة هو الأشد، فقد كتب في نقده لكتاب «التهافت» بأن: «أولئك الذين ينفون الأسباب ينفون العقل نفسه» (٣٢)

والجدير بالذكر هنا أن الشاطبي اعتبر مقاصد الشريعة العامة من «أصول الدين وكليات الملة»، أي أن ثبوت المقاصد نفسها عنده من مسائل الاعتقاد ولو كان طريق إثباتها الاستقراء للنصوص الشرعية، الذي وسمه الأشاعرة بالظنية(٣٣)

وإنه بناء على الاستقراء كذلك، فإن الله عز وجل أغراضاً ومقاصد من تعليم العباد عن صفاته وأفعاله – عز وجل – مما يظهر بوضوح في نصوص كثيرة، نذكر بعضها هنا على سبيل المثال:

يقول تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

(الحديد :٢٢ – ٢٣).

٢٤– نفس المصدر.

٢٥– طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، الطبعة الأولى (بيروت : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الهادي، ٢٠٠١)، ص ٧٥.

٢٦– شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ) المجلد ١٥، ص

٢٧– علي أبو الحسن الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحرير سيد الجميلي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ)، المجلد ٣، ص ٢٤٩.

٢٨– الشاطبي، الموافقات، المجلد٢، ص ٦.

٢٩– الطيب، «نظرية المقاصد».

٣٠– ابن القيم، إعلام الموقعين، المجلد ٣، ص٣.

٣١– ابن رشد، تهافت التهافت.

٣٢– نفس المصدر.

٣٣– الشاطبي، الموافقات، المجلد ٢، ص ٢٥.

و«لكيلا» هنا للتعليل، أي أنه سبحانه وتعالى أخبرنا عن الكتاب الذي كتب فيه كل شيء، لكيلا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا، وهو إذن يقصد أن نستفيد هذه الفوائد النفسية والدينية من تعليمنا هذه المسألة العقدية ويقول تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(الحج :٤٠).

وهو يبين المقصود من سنة التدافع التي خلق الله العباد على نظامها، ألا وهو إحلال السلام، ومنع الحروب وهدم بيوت العبادة.

ويقول تعالى:

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾

(الشورى :١٩).

فصفات اللطف والقوة والعزة هنا القصد منها أن نوقن أنه سبحانه يرزق من يشاء وأن العباد لا يستطيعون رد ذلك ولا الاختيار فيه،

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(القصص :٦٨).

وهذا أدعى لتسليمهم له وتوكلهم عليه.

ويقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

(المؤمنون :٧٦).

وفيه بيان أن المقصود من البلاء والعذاب في الدنيا قد يكون أن يستكين العبد ويتضرع لربه، وفي هذا مصلحة أي مصلحة، ومثله في المقصود من قوله تعالى:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الروم :٤١).

ومثله قوله تعالى:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(السجدة :٢١).

ومثلة قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الأحقاف :٢٧).

ومثل هذا المعنى كثير في كتاب الله.

ويقول تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الحشر :٢١).

وفيه بيان أن المقصود من إخبارنا بهذه المسألة الغيبية هو أن نتفكر ونتعظ.

وفي كتاب الله عز وجل من ذلك الكثير مما يدل على مقاصد أفعال الله تعالى وصفاته وغير ذلك من مسائل العقائد، استقراء، بغض النظر عن الجدل الفلسفي والتعقيد الكلامي، والله أعلم وأحكم.

(يتبع)

الوظائف التربوية والدعوية لمقاصد الأحكام الفقهية



د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75@gmail.com

الوظائف الدعوية لمقاصد الأحكام الفقهية

ويقصد بالوظائف الدعوية هنا - كما سبقت الإشارة في تحديد مصطلحات البحث - ما يعود على الآخرين، وما يتصل بفكرهم وعقولهم، وقلوبهم وإيمانهم، وأرواحهم ووجدانهم، ومن الوظائف الدعوية:

التجديد في الفكر:

تمثل مقاصد الشريعة الإسلامية مرجعية معتبرة للتجديد في الفكر الإسلامي بشكل عام، وفي الفقه والأصول بشكل خاص، وتتميز هذه المرجعية بأنها قادرة على تقديم الإجابات المناسبة لما ينزل بالأمة من نوازل، سواء كانت نوازل عامة في جوانب حياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية والحضارية، أم نوازل فقهية تمس حياة الناس من الناحية الشرعية المباشرة.

وتحت هذه المظلة الواسعة تنطلق حركة الاجتهاد والتجديد انطلاقة رحبة تأخذ مداها، لتحتضن كل جديد، وتستوعب كل حادث، ولا تقف مكتوفة الأيدي أمام أي نازلة، إنما تقوم بتوصيف واقعها، وتستنزل حكمها في ضوء هذه المظلة مع مراعاة النصوص الجزئية الخاصة والعامة.

وما من شك في أن هذه المظلة الكبرى التي تمثل ساحة واسعة للمجتهد المعاصر تتكون - بداية تكوينها - من المقاصد الجزئية التي تعتبر مهادًا لتكوين المقاصد الخاصة، وتكونان - بدورهما - المقاصد الكلية والمفاهيم التأسيسية والمقاصد العالية التي ترتكز عليها عملية التجديد الفكري في النسق الإسلامي العام.

إن نظرية المقاصد هي الرؤية الكلية التي تندرج في إطارها كل الرؤى الفكرية

والقواعد الفقهية، ولا تتعلق باستنباط الأحكام الشرعية فحسب، "بل إنها تشكل المفهوم الكلي الذي يحكم طريقة التفكير الإسلامية، والتي تواءم موائمة فريدة بين هداية النقل ودراية العقل؛ فهي منهج لتجديد الفكر الإسلامي على هدى سنة رسول الله ﷺ ومنهج صحابته عليهم الرضوان في النظر المقاصدي... الذي يوفر منهجًا للأحكام العقلية كما هي منهج للأحكام العملية"(١)، وهذا يقتضي كون النظر المقاصدي صالحًا لإحداث الفاعلية والتجديد، ومرتكزًا أساسيًا في صناعة تنمية دائمة، ونهضة إسلامية شاملة.

وهذا التجديد لابد أن يصدر من أهله وفي محله: من أهله الذين سبروا أغوار الشريعة بمقاصدها ونصوصها، بمواردها ومصادرها، بكلياتها وجزئياتها، ثم آتاهم الله فهمًا وبصيرة لتوصيف الواقع وفهمه فهمًا دقيقًا وتوصيفًا صحيحًا يطابق الواقع، ثم تكون عندهم قدرة فائقة على ممارسة عملية التنزيل بكل أبعادها المعقدة في واقعنا المعاصر، وفي محله الذي يقتضي أن يكون في مساحات الاجتهاد المشروعة.

الرد على المتشككين وتفنيد الشبهات:

إن الشبهات التي يلقيها المتشككون والمبتدعة(٢) على العقيدة والشريعة تتردد بين الحين والآخر منذ أول يوم نزلت فيه الرسالة، وقد أورد القرآن الكريم العديد من هذه الشبهات حول الرسول والرسالة التي يثيرها غير المسلمين من ملاحدة وأهل كتاب، ثم يورد الرد عليها ويفندها، وهو في القرآن أكثر من أن يحصى.

وهذه الشبهات تتطلب علماء على قدر كبير من الوعي بأهداف وغايات ومقاصد الرسالة، ولديهم تفنن في بيان فلسفة الأحكام ومقاصدها؛ إذ لا يبلغ الدعوة ويقيم الحجة ويرد الشبهة ويكشف زيفها إلا المتعمقون في مقاصد الشريعة، المستوعبون لأهداف الرسالة وغاياتها.

ولأن أهداف الرسالة أهداف إنسانية نبيلة(٣)، ومقاصد إسلامية شريفة، فإنها تمثل قاسمًا مشتركًا بين البشر، ولا يختلف عليها أحد.

وحسبنا قول الله تعالى مبينًا أهداف إرسال الرسول:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

(١) مقاصد الشريعة إطار ووسيلة للإصلاح والتجديد في المجتمعات الإسلامية، د. أمين حسن عمر، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة: ٦٤/١، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م).

(٢) انظر حجة الله البالغة: ٨/١، طبعة دار التراث.

(٣) انظر الأبعاد الإنسانية للمقاصد الإسلامية، د. إبراهيم أحمد مهنا، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة: ٥٢٥/١-٥٤١، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م).

﴿إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

وقول جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- حينما قال له النجاشي: "ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من الملل"؟

قال جعفر -رضي الله عنه-: "أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولاً كما بعث الرسل إلى من قبلنا، وذلك الرسول منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع -أي نترك- ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده، وأمرنا بالصلاة -أي ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي- والزكاة -أي مطلق الصدقة- والصيام -أي ثلاثة أيام من كل شهر أي وهي البيض أو أي ثلاثة على الخلاف في ذلك- وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة؛ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا؛ ليردونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجوناك أن لا نظلم عندك يا أيها الملك. فقال النجاشي لجعفر: هل عندك مما جاء به شيء؟ قلت: نعم، قال: فقرأت عليه صدرًا من "كهيعص"، فبكى والله النجاشي حتى أخضل -أي بل لحيته- وبكت أساقفته"(٤).

ففي هذه الآيات الكريم، وفي قول جعفر لا تجد أجمع للخير، وأوعب لصالح الإنسانية من هذه المقاصد التي ذكرتها الآيات، وبينها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

بل إن للفكر المقاصدي دورًا كبيرًا في المناظرات والحجاج الشرعي والعقلي، الأصولي والفقهي، والمتأمل لمناظرات الإمام مالك الأصولية والفقهية -سواء كانت شفهية أم تحريرية- مع فقهاء عصره يقف على أهمية المقاصد في هذا المجال(٥).

وإذا كان الوعي بالمقاصد بكل مراتبها من الضروريات لتبليغ الدعوة وتفنيد الشبهات في كل عصر؛ فإن ذلك أوجب في عصرنا الذي أضحى من أهم خصائصه: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، وفي ظل هذا الانفتاح "العنكبوتي والفضائي" غير المحدود يصبح لزامًا على كل ناطق باسم الإسلام أن يكون له أوفى نصيب من الغايات التي جاءت في الآيات الكريمة، وفصلها جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ولذلك كان من هذا هو منهج الراسخين

(٤) السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون: ٢/٣١، علي بن برهان الدين الحلبي، المتوفى: ١٠٤٤هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
(٥) راجع مثلاً: الفكر المقاصدي عند الإمام مالك وعلاقته بالمناظرات الأصولية والفقهية في القرن الثاني الهجري ٩١-١٧٩هـ، د. محمد نصيف العسري، دار الحديث، القاهرة، ومركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

في العلم، يقول شيخنا د. يوسف القرضاوي: «إن من منهجه ذكر "الحكم مقرونًا بحكمته وعلته، مربوطًا بالفلسفة العامة للإسلام، وهذا ما التزمته في فتاواي وكتاباتي بصفة عامة، وذلك لأمرين:

- الأول: أن هذه هي طريقة القرآن والسنة..
- الثاني: أن الشاكين والمشككين في عصرنا كثيرون، ولم يعد أغلب الناس يقبلون الحكم دون أن يعرفوا مأخذه ومغزاه، ويعوا حكمته وهدفه، وخاصة فيما لم يكن من التعبدات المحضة، ولابد أن نعرف طبيعة عصرنا، وطبيعة الناس فيه، ونزيل الحرج من صدورهم ببيان حكمة الله فيما شرع، وبذلك يتقبلون الحكم راضين منشرحين، فمن كان مرتابًا ذهب ريبه، ومن كان مؤمنًا ازداد إيمانًا»(٦).

وقال عن إحدى الخطوات المنهجية التي سلكها في بحثه "فقه الزكاة" من قبل: "لم أكتف ببيان الحكم الشرعي مجردًا في كل مسألة، بل عنيت بتفسير الحكمة من وراء تشريعه، والسر فيما أوجبه الشارع أو استحبه، أو نهى عنه أو أذن فيه، وهذا اقتداء بالشارع نفسه الذي عني بتعليل الأحكام، وبيان مقاصدها ومنافعها للبشر أفرادًا وجماعات، ولم يكتف بالتكليف المجرد، والإلزام الصارم، اعتمادًا على التزام المكلفين -بحكم إيمانهم- بامتثال كل ما يصدر عن الشارع، عقلوا حكمته أو لم يعقلوها، وإذا كان بيان الحكمة من التشريع أمرًا محمودًا على كل حال، فهو في عصرنا أمر لازم، لغلبة الأفكار المفسدة، والتيارات المضللة، والوافدة من الشرق والغرب، فلم يعد يكفي إصدار الحكم المجرد، وانتظار صيحات المكلفين بعده:

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

(البقرة: ٢٨٥)"(٧).

ويقول د. الريسوني -بحق-: "إننا اليوم في ظل التحديات الفكرية والثقافية والإعلامية التي تواجهنا وتحاصرنا أصبحنا أكثر اضطرارًا إلى أن نعرض على الناس ونشرح لهم مقاصد شريعتنا ومحاسن ديننا، فهذا هو الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه، وإبرازه بما هو عليه، وما هو أهله، وهو الكفيل بدفع الشبهات، ورفع الإشكالات، وإقامة الحجة كاملة ناصعة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة"(٨).

إن معرفة مقاصد الشريعة "تعطي المسلم القناعة التامة والمناعة الكافية ضد الحرب الضروس التي تقام اليوم ضد

(٦) فتاوى معاصرة ١/١٦-١٧. وعقب الشيخ في نفس الموضع على قوله تعقيبًا مهمًا فقال: "ومع هذا لابد أن نؤكد للناس أن من حق الله تعالى أن يكلف عباده ما شاء بحكم ربوبيته لهم، وعبوديتهم له، فهو وحده له الأمر، كما له الخلق، ولهذا لابد أن يطيعوه فيما أمر، ويصدقوه فيما أخبر، وإن لم يدركوا علة أمره أو كنه خبره، وعليهم أن يقولوا في الأول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وفي الثاني: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، إن الله لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء إلا لحكمة، هذه قضية ثابتة جازمة، ولكن لسنا دائمًا قادرين على أن نتبين حكمة الله بالتفصيل، وهذا مقتضى الابتلاء الذي قام عليه أمر التكليف، بل أمر الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾".
(٧) فقه الزكاة: ١/٢١، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
(٨) مدخل إلى مقاصد الشريعة: ١٩، د. أحمد الريسوني، دار الأمان بالرباط، ودار السلام بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

الإسلام عن طريق الغزو الفكري والعقدي والتيارات المنحرفة، والدعوات البراقة، والأفكار الهدامة التي تطلق من هنا وهناك عبر وسائل الإعلام التي تنوعت وتعددت في عصرنا الحاضر، وأصبحت السلامة منها أمرًا متعذرًا، وليس هناك من وسيلة لمواجهتها إلا عبر تحصين المسلم عن طريق القناعة بهذا الدين وبيان مقاصده مما يعطي المسلم هذه الحصانة"(٩).

ومن يتأمل في تاريخ أعلامنا المصلحين والمجددين يدرك تمام الإدراك أنه لا يخلو مجدد أو مصلح من الاهتمام بالفكر المقاصدي، وأن الاهتمام بهذا الفكر يبرز في حالات الرغبة في النهضة والتجديد والحفاظ على الهوية ونشر الدعوة والإصلاح؛ وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم ما رواه البيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسول الله ﷺ: "يرث هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين"(١٠).

قال المناوي: "وهذا إخبار منه بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأنه تعالى يوفق له في كل عصر خلفًا من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر"(١١).

ولا يتصور أن يكون هؤلاء الفضلاء الأخيار عدولاً ثم يخلون من فقه مقاصد الشريعة وإدراك غايات الرسالة؛ لأنهم لا يستطيعون رد تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين إلا بالتمكن من غايات الشريعة ومقاصد الرسالة، وهذا من وظائف المقاصد بكل مراتبها.

وحين يقول الله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(يوسف: ١٠٨)

فمن معاني البصيرة في هذا السياق -والله أعلم بمراده- أن يكون متبصرًا بمقاصد الشريعة وغايات الرسالة؛ فيكون قوي الحجة ظاهر البرهان، فينقاد إليه الناس بما معه من حقائق ورسوخ وتبصر بما يدعو إليه، وهذا لا ينفك عن مقاصد الشريعة.

ولهذا يقرر العلامة ولي الله الدهلوي أن علم الأسرار والحكم والمقاصد "أحق العلوم بأن يصرف فيه من طاقة نفائس الأوقات، ويتخذه عدة لمعاده بعدما فرض عليه من الطاعات؛ إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع"(١٢).

وحين يقول أيضًا:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

(الرعد: ١٧)

فإن الزبد هو ما يطفو فوق سطح الماء، وهو إشارة إلى عدم الثبات والقوة والعمق، وهذا شبيه بالظاهرية في فهم النصوص التي ترفض التقصيد والتعليل وتقف عند ظاهر النص دون سبر أغواره والوقوف على مقاصده وغاياته؛ ولهذا قال الدهلوي: "ومن عجز أن يعرف أن الأعمال معتبرة بالنيات.. فإنه لم يمسه من العلم إلا كما يمس الإبرة من الماء حين تغمس في البحر وتخرج، وهو بأن يبكي على نفسه أحق من أن يعتد بقوله"(١٣).

لكن الراسخين في العلم، المتعمقين في فهم الدين والفقه فيه، فلا شك أن فقههم هو الذي ينفع الناس، ويمكث في الأرض، والآخر هو الذي يذهب جفاء، كما يذهب زبد السيل.

وإذا كان كثير من الأصوليين احتجوا لمشروعية القياس بقوله تعالى:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(الحشر: ٢)

والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(آل عمران: ١٣)

ويقول:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(آل عمران: ١٩٠)

ويقول:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(يوسف: ١١١)

ويقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

غافر: ٥٣-٥٤.

- فإنه يعني -والله أعلم بمراده- أن العبرة -وهي ما يعبر به الإنسان من الماضي إلى الحاضر والمستقبل- والآيات والهدى والذكرى لا تكون ولا ينتفع بها إلا أولو الأبصار والألباب، ولا يمكن أن تتصور أولي الألباب والأبصار إلا والفكر المقاصدي في القلب من تكوينهم وفكرهم ومنهجهم.

يتبع

(٩) مقاصد الشريعة وأثرها في الإصلاح والتشريع ووحدة الأمة، د. عبد الله الزبير، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة ١/٥٧٢، الجامعة الإسلامية العالمية - بماليزيا، كوالالمبور (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م)؛ وراجع الدليل الإرشادي إلى مقاصد الشريعة الإسلامية ٣/١١-١٢، لأستاذنا الدكتور محمد كمال الدين إمام.

(١٠) سنن البيهقي الكبرى: كتاب الشهادات: باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع أو أنه لا يبصر الفتيا، رقم (٢٠٧٠٠)، راجع سنن البيهقي الكبرى: ١٠/٢٠٩، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ورواه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة، رقم (٥٩٩)، انظر مسند الشاميين: ١/٣٤٤، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(١١) فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: ٦/٤١٥، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١٢) حجة الله البالغة ١/٣.

(١٣) حجة الله البالغة ١/٥.

دلائل الإعجاز فى مقاصد الشريعة «٣»

تجليات المساواة والعدالة



أ. د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

١- فى الدين أو العقيدة:

من حيث أوجب حفظ الدين والحرص عليه والدفاع عنه، وحق كل شخص فى اعتناق الدين، والذود عنه، فى جوانب متعددة يتكامل بعضها مع البعض الآخر، لتكتمل أبعاد المساواة والعدالة بين البشر فيه نجد ذلك فى تقرير تجليات العبودية، وحرية الاختيار فى اعتناق الدين، ودعوة أصحاب الأديان السماوية إلى التوحد حول أصول الدين الحق، الذى جمع به الإسلام الأديان جميعًا فى منظومته الدينية الجامعة ودعوة أصحاب الإيمان إلى الاتفاق حول أصول الأديان بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ٦٤).

وفى جانب العبودية، فتوجه إلى الكل فى خطاب الإيمان بالله تعالى ووحدانية الخضوع لعبوديته، والخطاب القرآنى صريح وقاطع بقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء: ٢٥).

وبقوله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(الذاريات: ٥٦).

فكل إنسان مدعو ومطالب بالاستجابة لداعى الإيمان وإظهار العبودية لخالق الناس جميعًا، وهم أحرار فى اختيار الدين الذى يريدون اعتناقه بمحض إرادة كل فرد بلا ضغط ولا قهر، وما دام الخطاب باعتناق الدين الإلهى، فيتحمل الشخص نتيجة اختياره، وتبعة ما أدى إليه وما نتج عنه.

ويرتب الإسلام على المساواة فى عمومية الخطاب للبشر، لاعتناق الإيمان بالله وإعمار الكون، حماية حق كل فرد وجماعة فى اختيار الدين الذى يرتضيه عن قناعه، وجوب احترام معتقد الآخر، وفى ممارسة شعائر دينه، لذلك تقررت القاعدة: «أمرنا بتركهم وما يدينون»(١).

٢- فى النفس وحق الحياة:

فإن حماية حق الحياة أو حفظ النفس لكل فرد أمر مسلم به، لا مساومة فيه، ولا جدال حوله فى الدين أو النظم القانونية، كأصل من أصول الاجتماع البشرى.

وقد أرست النصوص هذا الحق من منطلق أنه لا وجود للإنسان ولا بقاء لحياته دون حماية هذا الحق، فالكل فى حفظ حق الحياة سواء، بلا تمييز بين إنسان وآخر بقوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(المائدة: ٤٥).

وبلغ حرص صاحب الرسالة على التسوية بين البشر والعدالة فى تقرير حق الحياة لكل آدمى، بقول الرسول ﷺ فى حجة الوداع: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا وإن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعه بن الحارث»(٢).

وقوله: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها».

ولم يكن هذا الموقف من الرسول إلا تعبيرًا عن أساس راسخ للتمكين للعدالة، والحرص على تغلغل وبث الإحساس بقيمة الاحترام والمصداقية بين أفراد الجماعة بالمساواة الفعلية الحقيقية التى تعلو على كل المطالبات والنداءات التى تتجاوز النظريات القانونية، والرؤى السياسية دون تفعيلها على أرض الواقع.

ولا أدل على ذلك من تصنيف أساس البناء القاعدى للجماعة المؤمنة ضمن المقصد الأساس، حفظ الأنفس، وتوفير أحد المقومات اللازمة لذلك الحفظ، لأنه إذا اختلت المساواة، وفقدت العدالة فى المعاملة، تضطرب العلاقات، وتعم الصراعات، وتضيع الحقوق ويتفتت البنيان الاجتماعى، ويتحول النظام إلى فوضى، ويتهدد كيان الفرد والجماعة للارتباط الوثيق بين كل منهما، مما يترتب عليه حصول الفساد.

ومنشأ ذلك أن العدالة القائمة على المساواة، لا قيام لبنيان المجتمع بدون تحقيقها، ووجودها فيتأسس عليها النظام العادل المصلح فى التدبير وسياسة الدول، وهى مصلحة أكيدة، وذلك أن الله تعالى أراد فى العالم انتظام أمرهم، وأن يعاون

(١) حاشية بن عابدين ج٣، ص ٢٠٠، بدائع الصنائع جـ ٤، ص ١٣٢.
(٢) صحيح مسلم، من رواية جابر، جـ ٤، ص ٣٢.

بعضهم بعضا، وألا يظلم بعضهم بعضا، وأن يتألف بعضهم ببعض، ويصيروا كجسد رجل واحد، إذا تألم عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.. ويخمل فيهم الرسوم الفاسدة، ويشهر فيهم الخير والنواميس الحقة(٣). التي عليها تقوم الأمم، وتنصهر الشعوب، فمن استشعر التفرقة، وذاق الظلم كان ناقما على المجتمع، قد يلجأ إلى صور من العنف للخروج من دائرة القهر، وقد يتحول إلى الإرهاب والانتقام فيصير حربًا على المجتمع، فيقتل ويعيث في الأرض فسادًا، مما يجعل الفرد والجماعة في فزع، فلا يشعر أحد بالأمان على حياته، ويتزعزع الاستقرار وينتقص سلام الجماعة، وهي آفة تفشت في بعض المجتمعات الإسلامية، توجب على كل فرد أن يتكاتف مع الجماعة لمحو الظلم، وبث الطمأنينة وردع الخارجين على أمن الفرد والجماعة، حفاظًا على الأرواح وإشاعة للأمن والسلام(٤).

٢- في المال والممتلكات:

المال كما هو مشاهد ومحسوس عصب الحياة، ومصدر التنمية والعمران، ويلزم لسد الضروريات، وقضاء الحاجات، لذلك فإن كسب المال والحفاظ عليه، وحفز التعامل فيه وتداوله في إطار المشروعية، على أساس المساواة والتكافؤ بين الناس هو أمر مقصود للشرع.

ولأن الحاجة إلى المال حاجة عامة لا تخص فردًا دون غيره، ولا جماعة دون أخرى، ولا أمة دون أمة، فإن منحى الشريعة فيه كان إتاحته للكافة، والسعي إلى اكتسابه وتحصيله لكل الناس كل حسب قدراته وعمله.

ويظهر مسلك الشريعة في التسوية والتكافؤ بين الناس في مناح متعددة، نذكر منها:

١- تعميم الانتفاع والشراكة في الثروات فيما خلق من موارد وعناصر على نحو تتسابق فيه جهود الأفراد والجماعات والأمم إلى استغلالها واستثمارها في ضروب الأنشطة المتنوعة، بغية الحصول منها على أقصى استفادة ممكنة.

٢- والنصوص الدالة على الإتاحة للكل كقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

[البقرة:٢٩]

فالخطاب فيها للعموم والاشتراك للبشر جميعًا، يعم البلاد والعباد، فلا يجوز تخصيصه بالمسلمين دون غيرهم، وإنما هو حق للناس جميعًا.

وتمضي السنة على درب القرآن في تأكيد عموم الانتفاع والاشتراك بقول الرسول ﷺ «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»(٥) فقد عبر الحديث عن ذلك بلفظ الشركة، وهذا يدل على الاشتراك فيه للناس كافة، المسلمين وغير المسلمين فيه سواء(٦).

وما جاء في معاهدة الرسول ﷺ إلى أهل أيلة: هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة لسفنهم ولسيارتهم، ولبحرهم ولبرهم، ذمة الله وذمة محمد النبي ولمن كان معهم من كل مار من الناس من أهل الشام واليمن وأهل البحر، فمن أحدث حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيبه لمن أخذه من الناس، ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يردونها من بر أو بحر(٧).

ويروى أنه أتى أعرابي عمر، فقال يا أمير المؤمنين: «بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية، وأسلمنا عليها في الإسلام، علام تحميها، فقال عمر: المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبرًا في شبر»(٨).

فهذا الاتجاه في النصوص يرسي قاعدة المساواة المدعومة بالعدالة في الحفاظ على المال من حيث الحصول عليه واكتسابه وتوزيعه.

٣- جعل توظيف المال وتشغيله في الأنشطة الاقتصادية والاستثمارية الجائزة شرعًا، مطلبًا شرعيًا باعتبار استغلال المال وتشغيله مسئولية عامة على الفرد والجماعة والدولة، لأن به قوام الحياة، ونهضة الأمم، وهو ما يوجه إليه قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[التوبة:٣٤]

٣- مشاركة كل فرد في العمل والإنتاج لتحصيل الأرزاق وكسب الأموال، بلا تمييز بين الرجل والمرأة بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾

[النساء:٣٢]

وجعل ذلك من أسباب الحياة الطيبة، في قوله عز وجل:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(النحل:٩٧)

فلا اختصاص لأحد دون أحد في المال أو في اكتسابه وتحصيله.

ويمضي الإسلام في إحكام منظومته في حماية المال، والمحافظة عليه وفي نطاق تحديد الممارسات الاقتصادية والمالية

(٣) الدهلوي- حجة الله البالغة، جـ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ص ١٢٥.
(٤) وتتلاقيا مع هذا الفكر، وقيمته في تحقيق الأمن والسلام لبني البشر، نصت المادة (١) من وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام على أن البشر جميعًا أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوة لآدم، وجميع الناس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية وفي أصل التكليف والمسئولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللون أو اللغة أو الإقليم أو الجنس أو المعتقد الديني أو الانتماء السياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات.
(٥) انظر الشوكاني، نيل الأوطار جـ٦، ص ٤٨.

(٦) الموصلي، الاختيار لتعليل المختار، جـ ٢، ص ٩٧.
(٧) أبو عبيد، الأموال ١٩٧٥ ص ٢٥٨.
(٨) أبو عبيد الأموال، ص ٣٧٧.

في وسائل معينة مانعة ومحفزة أو بعبارة أخرى سلبية وإيجابية: فأما الوسيلة المانعة أو السلبية، فتتلخص في قصر النشاط الاقتصادي والمالي في مجالات تمنع كسب المال من مصادر غير مشروعة مثل الغش وأكل المال بالباطل ويشمل كل صور تحصيل المال المحرم بالتزييف أو التزوير أو السرقة أو الاختلاس أو الرشوة أو الاحتكار أو الغرر، أو غيره من الطرق المستحدثة للاستيلاء على المال من غير حله والعمل الجاد والمتقن فيه.

وهو جامع قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٨)

ويقول الرسول ﷺ «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»(٩) وليس التحريم أخذ المال بغير رضا صاحبه خاصا بالمسلم، إذ أن الخطاب النبوي كان بين جمع من المسلمين تطهيرًا للمعاملات فيما بينهم، دون اختصاص الحكم بهم لأنه يحمل الحديث على عموم النصوص القرآنية العامة، وعملا بالقاعدة الأصولية: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمغزى في تحريم هذه الصور غير المشروعة لكسب المال لما تتضمنه من تعطيل لقيمة العمل، وإخلال بنواميس الكون، ومهمة الخلافة البشرية عن الله في التكليف وتحمل المسئولية.

فالمقرر والمعلوم أن الإسلام يحث على تداول المال ويحفز إلى العمل للقيام والوفاء بالاحتياجات الأساسية، ولا يمنع من الثروة والغنى طالما كان من مصدر مشروع.

وعلى الجملة، فإن كسب المال والسعي إلى الإنتاج ليس على درجة واحدة، فإنه على مراتب(١٠)، فمقدار ما لابد لكل أحد منه يعتني به ما يقيم به صلبه (يبقى على حياته) فحكمته أنه يفترض على كل أحد اكتسابه عينا، لأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرائض إلا به، وما يتوصل به إلى إقامة الفرائض يكون فرضا فإن لم يكتسب زيادة على ذلك فهو في سعة من ذلك لقوله ﷺ «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١١).

ب. الوسيلة الدافعة أو الإيجابية، فهي تتحق بمزيد من الكسب، وتنمية المال، وتحصيل الثروة ويجري التعامل معها بالتمسك بالمشروعية في اكتساب المال وتمكين كل فرد من أخذ ريع كسبه بالعدل والإنصاف دون انتقاص من حقه أو الافتئات على نصيبه، فذلك من قبيل الظلم وأكل المال الحرام، فلكل عامل نصيبة على قدر عمله، وتقديره وفقا لعطائه وإنتاجه.

(٩) سنن البيهقي - كتاب الغصب حديث رقم ١١٨٧٧ عن أبي حرة الرقاشي عن عمه.
(١٠) محمد بن الحسن الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٣٢.
(١١) السيوطي، الجامع الصغير، وهو حديث حسن.

من عيون التراث

اللباب في تسلية المصاب

تأليف المقدسي
أبي الحسن علي بن أيوب بن منصور (٦٦٦هـ - ٧٤٨هـ)
تحقيق وشرح وتعليق
عبد القادر أحمد عبد القادر

التعريف بالمؤلف

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور بن الزبير المقدسي الشافعي، ولد سنة ست وستين وستمائة تقريبا.

برع في الفقه واللغة العربية، وسمع الحديث الكثير بدمشق والقدس ودرس بالأسدية. مات فقيرا مدقعا في شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

عرض الكتاب

يقع الكتاب في (٤٢) صفحة مشتملة على الفهارس، مقسما إلى أربعة فصول. يبدؤها الكاتب بمقدمة حول المحن والمصائب التي تصيب الفرد، وكيف عليه أن يصبر عليها؛ لأن في الصبر أجرا عظيما. كما أشار في مقدمته إلى أن التعزية هي التصبير وذكر ما يسلي صاحب الميت ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وفي ذلك إشارة إلى كون التعزية نوعا من أنواع المساندة Support (ص١٣) لمن له مصاب.

بدأ الفصل الأول بآيات وأحاديث في فضل الصبر تبين أن جزاءه الأجر الوفير، وكيف أن الصبر على المكروه خير للفرد. وهنا أشار إلى أفضل أنواع العلاجات التي تساعد الفرد على تخطي ما أصيب به من كرب هو الرضا Satisfaction (ص١٧) لأنه يجعله يتقبل ما وقع به، أما السخط أو عدم الرضا (ص١٧) فلا يولد إلا عدم تقبل للواقع الذي حل به.

أما الفصل الثاني فكان فيما يقوله من مات له ميت من الاسترجاع والحمد والشكر. وأورد الأحاديث والآيات التي تبين أن أفضل ما يقال عند الفقد «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وتقوم هذه الكلمات بمثابة أسلوب للمساندة الذاتية Self- Support (ص٢٠) يستخدمه الفرد ليهون على نفسه تأثير ما وقع به، وتقوى عزيمته لكي يصبر ويتحمل وطأة ما أصابه.

تناول الفصل الثالث من مات له أولاد صغار تصبر وأن جزاء من مات له أطفال الجنة، وأنه مهما كان عدد الأولاد الذين يموتون له فمصيره الجنة حيث يستقبلون آباءهم يوم القيامة.

نهى الفصل الرابع والأخير عن البكاء جزعًا، وأن الصبر عند الصدمة الأولى هي الأصعب في مرحلة الحزن، وبين كيف يصحب الصدمة الأولى جزع شديد ويقصد به الأسى Grief (ص٣٦).

كما أشار إلى أن هناك مظاهر للحزن منهي عنها في الإسلام منها النياح، والندب، وشق الثوب، ولطم الوجه، من قام بهذه السلوكيات وأداها يرتكب معصية. بالإضافة إلى ذلك هناك مظاهر مقبولة للحزن منها دمعة العين وحزن القلب.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- المساندة Support.
- الرضا Satisfaction.
- عدم الرضا Dissatisfaction.
- المساندة الذاتية Self - Support.
- الأسى Grief.

القائم بالعرض

د. نشوة عبد التواب حسين

في وسائل معينة مانعة ومحفزة أو بعبارة أخرى سلبية وإيجابية: فأما الوسيلة المانعة أو السلبية، فتتلخص في قصر النشاط الاقتصادي والمالي في مجالات تمنع كسب المال من مصادر غير مشروعة مثل الغش وأكل المال بالباطل ويشمل كل صور تحصيل المال المحرم بالتزييف أو التزوير أو السرقة أو الاختلاس أو الرشوة أو الاحتكار أو الغرر، أو غيره من الطرق المستحدثة للاستيلاء على المال من غير حله والعمل الجاد والمتقن فيه.

وهو جامع قوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة:١٨٨)

ويقول الرسول ﷺ «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»[٩] وليس التحريم أخذ المال بغير رضا صاحبه خاصا بالمسلم، إذ أن الخطاب النبوي كان بين جمع من المسلمين تطهيرًا للمعاملات فيما بينهم، دون اختصاص الحكم بهم لأنه يحمل الحديث على عموم النصوص القرآنية العامة، وعملا بالقاعدة الأصولية: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمغزى في تحريم هذه الصور غير المشروعة لكسب المال لما تتضمنه من تعطيل لقيمة العمل، وإخلال بنواميس الكون، ومهمة الخلافة البشرية عن الله في التكليف وتحمل المسئولية.

فالمقرر والمعلوم أن الإسلام يحث على تداول المال ويحفز إلى العمل للقيام والوفاء بالاحتياجات الأساسية، ولا يمنع من الثروة والغنى طالما كان من مصدر مشروع.

وعلى الجملة، فإن كسب المال والسعي إلى الإنتاج ليس على درجة واحدة، فإنه على مراتب[١٠]، فمقدار ما لابد لكل أحد منه يعني به ما يقيم به صلبه (يبقى على حياته) فحكمته أنه يفترض على كل أحد اكتسابه عينا، لأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرائض إلا به، وما يتوصل به إلى إقامة الفرائض يكون فرضا فإن لم يكتسب زيادة على ذلك فهو في سعة من ذلك لقوله ﷺ «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[١١].

ب- الوسيلة الدافعة أو الإيجابية، فهي تتحق بمزيد من الكسب، وتنمية المال، وتحصيل الثروة ويجرى التعامل معها بالتمسك بالمشروعية في اكتساب المال وتمكين كل فرد من أخذ ريع كسبه بالعدل والإنصاف دون انتقاص من حقه أو الافتئات على نصيبه، فذلك من قبيل الظلم وأكل المال الحرام، فلكل عامل نصيبة على قدر عمله، وتقديره وفقا لعطائه وإنتاجه.

---

(٩) سنن البيهقي – كتاب الغصب حديث رقم ١١٨٧٧ عن أبي حرة الرقاشي عن عمه.
(١٠) محمد بن الحسن الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٣٦.
(١١) السيوطي، الجامع الصغير، وهو حديث حسن.

من عيون التراث

اللباب في تسلية المصاب

تأليف المقدسي
أبي الحسن علي بن أيوب بن منصور (٦٦٦هـ - ٧٤٨هـ)
تحقيق وشرح وتعليق
عبد الشافي أحمد عبد القادر

التعريف بالمؤلف

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور بن الزبير المقدسي الشافعي، ولد سنة ست وستين وستمائة تقريبا.

برع في الفقه واللغة العربية، وسمع الحديث الكثير بدمشق والقدس ودرس بالأسدية. مات فقيرا مدقعا في شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

عرض الكتاب

يقع الكتاب في (٤٢) صفحة مشتملة على الفهارس، مقسمةإلى أربعة فصول. يبدؤها الكاتب بمقدمة حول المحن والمصائب التي تصيب الفرد، وكيف عليه أن يصبر عليها؛ لأن في الصبر أجرًا عظيما. كما أشار في مقدمته إلى أن التعزية هي التصبير وذكر ما يسلي صاحب الميت ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وفي ذلك إشارة إلى كون التعزية نوعًا من أنواع المساندة Support (ص١٣) لمن له مصاب.

بدأ الفصل الأول بآيات وأحاديث في فضل الصبر تبين أن جزاءه الأجر الوفير، وكيف أن الصبر على المكروه خير للفرد. وهنا أشار إلى أفضل أنواع العلاجات التي تساعد الفرد على تخطي ما أصيب به من كرب هو الرضا Satisfaction (ص١٧) لأنه يجعله يتقبل ما وقع به، أما السخط أو عدم الرضا (ص١٧) فلا يولد إلا عدم تقبل للواقع الذي حل به.

أما الفصل الثاني فكان فيما يقوله من مات له ميت من الاسترجاع والحمد والشكر. وأورد الأحاديث والآيات التي تبين أن أفضل ما يقال عند الفقد «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وتقوم هذه الكلمات بمثابة أسلوب للمساندة الذاتية Self-Support (ص٢٠) يستخدمه الفرد ليهون على نفسه تأثير ما وقع به، وتقوى عزيمته لكي يصبر ويتحمل وطأة ما أصابه.

تناول الفصل الثالث من مات له أولاد صغار قصر وأن جزاء من مات له أطفال الجنة، وأنه مهما كان عدد الأولاد الذين يموتون له فمصيره الجنة حيث يستقبلون آباءهم يوم القيامة.

نهى الفصل الرابع والأخير عن البكاء جزعًا، وأن الصبر عند الصدمة الأولى هي الأصعب في مرحلة الحزن، وبين كيف يصحب الصدمة الأولى جزع شديد ويقصد به الأسى Grief (ص٣٦).

كما أشار إلى أن هناك مظاهر للحزن منهي عنها في الإسلام منها النياح، والندب، وشق الثوب، ولطم الوجه، من قام بهذه السلوكيات وأداها يرتكب معصية. بالإضافة إلى ذلك هناك مظاهر مقبولة للحزن منها دمعة العين وحزن القلب.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- المساندة Support.
- الرضا Satisfaction.
- عدم الرضا Dissatisfaction.
- المساندة الذاتية Self – Support.
- الأسى Grief.

القائم بالعرض
د. نشوة عبد التواب حسين

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

عامر علي داود

«١» «.. بفضل دراستي الحرة البعيدة عن كل تعصب مقيت أصبح إيماني بهذا الدين (الإسلام) قويًا راسخًا، لقد آمنت برسالة القرآن، وأحسست أن الإسلام هو دين الفطرة والكمال، أنزله الله على قلب آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ. لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أي نوع، من أجل ذلك كان هذا الدين متمشيًا مع الفطرة البشرية»(١).

«٢» «إن الإسلام يخاطب الإنسان الكامل، وهكذا أيقنت أن هذا الدين هو خير الأديان جميعًا، لقد شرعت في التحدث عن معتقداتي الجديدة، حول الإسلام والنصرانية وصارحت بها العديد من العلماء والمرموقين والقسس المعروفين، وكنت صريحًا وصادقًا في مناقشاتي معهم، لقد سألت القسس لماذا يخدعون الناس بإخفاء الحقيقة ولا يخبرونهم بوضوح وصدق أن محمدًا ﷺ هو رسول الله؟.. ولما سمعوا مني ذلك غضبوا ولكنهم لم يستطيعوا أن يحيروا جوابًا»(٢).

إميل درمنغم

«١» «إن الذي أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد في القرن السابع من الميلاد، وفرق النصرانية الضالة هي التي كان محمد ﷺ شاهدًا عليها، وهو الذي لم يعرف غيرها، والمسائل المشكوك فيها الكثيرة التي مصدرها ما أدخله اليهود إلى التلمود وغيره»(٣).

«٢» «كان للدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع وفي تقدم الصحة أيضًا، فقد حسن بها مصير المرأة، وحرم بها الزنا والمتعة وحياة الغرام، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن، والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامه فعد فك الرقاب من الحسنات ومكفرا لبعض السيئات»(٤).

«٣» «تعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصراني أحيانًا معارضة مصنوعة فالإسلام وأن بدا أكثر تسامحًا في الميل الجنسي، لم يكلف نفسًا إلا وسعها ويرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي، ولكن زهد الصوفية المسلمين يعدل زهد نساك جميع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمر وفرض الصوم الصارم الذي لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكن المسلمات ملزمات بهندام وزي يبتعد بهما كثيرًا عن الأزياء الأوربية العصرية، فمن العبث إذن أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأدبين مع اختلاف في النظر والعمل وتباين في النظريات نفسها»(٥).

«٤» «كان كثير من المسلمين يكثرون من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد ﷺ أن القصد أولى من الإفراط، فأشار بالاعتدال في التقشف وبترك كل ما يميت النفس، وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد ﷺ هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجدع الإنوف»(٦).

«٥» «على ما نراه في دعوة النبي ﷺ من المبادئ الأخروية لم يأل النبي جهدًا في تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيمًا عمليًا، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب الزبور»(٧).

م.ح. دروانى

«١» «أكثر ما استهواني إلى الإسلام كان ولا يزال جوانبه العملية، فإذا أردت أن تشاهد علاقة الحب الحقيقية التي تقول (أحب جارك مثلما تحب نفسك) فستجدها في أخوة الإسلام لا في الكنيسة حيث يسعى البابا والمطارنة والأساقفة وغيرهم وراء السلطة مستخدمين اسم الله كمبرر لما يفعلون»(٨).

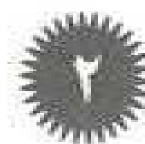
«٢» «الإسلام لديه كلا من النظام والقانون فالطقوس الدينية المفروضة على الأشخاص لها هدف خلقي.. فهي تهدف إلى تنظيم الفرد خلقيًا وروحيًا بطريقة معقولة، كما تهدف إلى تطهير عقله وتنقيته وكذلك تقويته كي يؤدي واجباته تجاه الآخرين الذين يعيشون معه، فالإسلام هو الدين الوحيد من حيث أنه نظريًا وعمليًا لا يطلب من المرء أن يؤمن بمبادئ هامدة وأسرار غامضة كما هو الحال في الديانة النصرانية، إذ أن الإسلام يتقبل جوانب الحياة الروحية والمادية على حد سواء، ويضع كلاً في موضعه اللائق به، ويقيم فلسفته على أساس أن تغطي كافة جوانب السلوك الإنساني»(٩).

«٣» «الإسلام، بادئ ذي بدء، يركز أعظم تركيز على النظافة الشخصية والصحية لا نظافة المناسبات والمراسيم، فالاستحمام الإسلامي كما هو معروف، يختلف كثيرًا عن الاستحمام لدى الآخرين والمسلمون يمتنعون عن أطعمة معينة تبعًا لأثرها الضار بأخلاق الناس، ويحرم الإسلام المشروبات المسكرة لأنها تحيل الإنسان إلى وحش، والصلوات الخمس اليومية تنأى بالمرء عن الخبث والآثام، ثم هناك شهر للصوم يمتنع المسلم فيه عن الطعام والشراب وحتى التدخين طوال النهار، وهو دورة رائعة للنظام يتدرب فيه المسلم ويقوى نفسه للصمود في وجه الشدائد.. ويصير سيدًا لشهواته ونزواته، فالرجل الذي تعلم أن ينتصر على شهواته ورغباته وأن يقود نفسه هو رجل قوي»(١٠).

(١) رجال ونساء أسلموا ٢/ ٨١١.
(٢) نفسه ٢/ ٨١١ - ٩١١.
(٣) حياة محمد ص٧٣٦.
(٤) نفسه ص٩٢.
(٥) نفسه ص٢٩٢.
(٦) نفسه ص٧٩٢ - ٨٩٢.
(٧) نفسه ص٧٩٢، ٨٩٢.
(٨) رجال ونساء أسلموا ٤/ ١٣.
(٩) نفسه ٤/ ٣٣.
(١٠) نفسه ٤/ ٣٣، ٤٣.

رجب ١٤٣٤هـ
مايو يونيه ٢٠١٣م

التربية الروحية الإسلامية والخروج من أزمات المعرفة المعاصرة



د. طه عبدالرحمن

ثانيًا: المقتضيات التحصيلية والتوصيلية للتربية الروحية

سلوك القدوة والتحقق بالصدق:

الطبيعة الصادقة للقدوة:

أما عن طبيعة سلوك القدوة، فاعلم أن القدوة لا يتصدى لمهمة التربية الروحية (التي هي التنشئة وفق مناهج عقلية ونتائج علمية مزودة ومسددة بنور الفطرة) إلا إذا تحقق بمعنى العمل، والمقصود بالتحقق بالعمل ليس مجرد (الاشتغال) أي الدخول في العمل الشرعي، وإنما الاستغراق في الاشتغال والنزول في مراتب العمل، وتحصيل الملكة في الانتقال بين هذه المراتب حتى يصير العمل وصفًا راسخًا لا ينفك عن مجموع حركاته، إن قولاً أو فعلاً، إشارة أو حالاً.

ومن تغلغل في العمل إلى أن صار العمل صفة قائمة به، يكون قد تزود بمنطق سلوكي تخالف معاييره معايير سلوك من بقي دون هذا التغلغل، وبالأولى سلوك من انقطع عن العمل.

مبدا اسبقية الفعل عن القول

من المعايير المنطقية التي سادت النمط المعرفي المنقول والتي كانت أثرا من آثار الانقطاع عن الأخلاق، مبدأ (أسبقية القول على العمل)، الذي اتخذ صورًا تختلف باختلاف وجوه طرحه الإشكالي، منها: (أسبقية النظر على العمل) و(أسبقية المنطق على الوجود) و(أسبقية العقل على التاريخ)، بينما القدوة المربي يكون له من رسوخ القدم في العمل ما تعتمده في إبطال هذا المبدأ، وفي نسبة عكس هذا المبدأ إلى سلوكه، فهو وإن كان لا يقول كل ما يفعل فإنه لا يقول إلا ما يفعل، كأنما يسبقه الفعل إلى القول، لكمال استغراق حركاته في الاشتغال.

مبدا تباين الاتباع والاتفاق

من المعايير المنطقية المتداولة أيضًا مبدأ المطابقة بين مدلول (اتباع القاعدة) ومدلول (الاتفاق مع القاعدة)، بمعنى أن من يتبع قاعدة في الوصول إلى مطلوب معين، لا يزيد اتباعه عن كونه متفقًا مع ظاهر الضوابط التي تنص عليها القاعدة، وما كان هذان الوجهان فيه سواء، كما أقل أن ينفع في تحصيل المدلول العملي، أما القدوة التي أشربت نفسه عملا، فشتان عنده بين (الاتباع) و(الاتفاق)، فالاتفاق يدخل عليه التقصير، لأن الذي يأتي الفعل متفقا، إما أن يكون مصادفًا له من غير أن يريده، وإما أن يكون مقلدًا له، من غير أن يعقله، فإن كان الأول فقد فاته العمل، وإن كان الثاني فقد فاته العلم، بينما (المتبع) لا يدخل عليه هذا التقصير، لأن الإرادة والتعقل لا ينفكان عن الفعل الموصوف بالاتباع، فالذي يأتيه يحصل بقصده الإرادي فائدة العمل وبدليله العقلي فائدة العلم، فيكون الانتفاع من نصيبه وحده، لا من نصيب المتفق، مصادفا كان أم مقلدًا.

مبدا دلالة الداخل على الخارج

من المعايير السلوكية المنقولة كذلك المبدأ الذي ينص على أن (الخارج دال على الداخل) مع الاختلاف في تقرير طبيعة هذه الدلالة بين الآخذين به اختلافا كبيرا، أما القدوة الذي يكون العمل قد لابس جوانحه حتى استعدت للتأثير في الجوارح وفي مداركها، فإن المبدأ الذي ينضبط به سلوكه هو أن (الداخل دال على الخارج)، مع حمل هذه الدلالة على معنى واحد هو (التجلي)، ومعلوم أن كل معنى متجل، يستغني بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج عليه، لأنه لا خلاف فيه.

وإذا ثبت أن سلوك القدوة محكوم بالمبادئ العملية الثلاثة: (مبدأ أسبقية الفعل على القول، و(مبدأ تمايز الاتباع عن الاتفاق) و(مبدأ دلالة الداخل على الخارج)، تبين أن القدوة يحقق الصدق من جهة طبيعة سلوكه، ذلك أن (مبدأ أسبقية الفعل على القول) يمكنه من الصدق في أقواله، بينما يمكنه مبدأ تمايز الاتباع عن الاتفاق من الصدق في إرادته وأدلته ويمكنه (مبدأ دلالة الداخل على الخارج) من الصدق في تقلبه في مراتب العمل[١].

الأصل الصادق للقدوة

أما عن أصل سلوك القدوة، فإن أقواله إذا طالبت أفعاله، لما هو عليه من الصدق في الأفعال والإرادة والأدلة والمراتب العملية، فليست هذه المطابقة ثمرة النظر المجرد في النصوص الأصلية، وإنما هي ثمرة عمل حي يتجلى في أمرين اثنين هما: (مراقبة السلوك) و(التعلق بالدلالة العملية للنص).

مراقبة السلوك

إن القدوة يكون قد دخل في عملية توجه لسلوك مشخص صادر عن عاقل عامل عملاً حيًا سبق أن تحقق بالمطابقة، ومعلوم أن هذا التوجه يفيده كيفيات في العمل، لا يمكن أن تكون تفاصيلها كلها مبثوثة في النصوص، وما كان مبثوثًا منها في هذه النصوص، فلا يفيد بيانًا كافيًا للعمل، بل قد يتعرض لتحريف ويحمل على وجوه غير وجهه الحقيقي، وبهذا يكون القدوة قد أخذ المطابقة من مراقبة قدوة سابق بدون

---

(١) الغزالي (إحياء علوم الدين) الجزء ٥ (كتاب النية والإخلاص والصدق) ص١٩٥ - ٢٠٦.

انقطاع وعلى خير الوجوه، قدوة أخذ هو بدوره عن غيره بنفس الطريق، وهكذا صعدًا إلى النموذج الإنساني الأكمل صلوات الله عليه(٢)، فيكون لمطابقة القدوة سند عملي متصل.

وليس غريبًا إذ ذاك، أن يتولى القدوات تحرير أسانيدهم ورفعها إلى رسول الله ﷺ، حرصًا منهم على بيان أصولهم العملية، وتحقيق الوراثة السلوكية، كما أنه ليس من الغريب أن يتحرى المقتدون بهم طلب من اتصل سنده بالنموذج الأكمل، حرصًا منهم على الأخذ ممن كان أكثر الناس تحققًا بالمراقبة الفعلية لسلوك السلف، وأكثرهم تخلقًا بفوائد هذه المراقبة، فلا اقتداء إلا لمن كان سلوكه ثمرة ملاحظة مباشرة ودائمة لأفعال نموذج حي لأنه ينقله بالسند المتصل إلى مراقبة سلوك الرسول ﷺ.

التعلق بالدلالة العملية

لما كان القدوة قد شد نفسه شدا إلى مراقبة السلوك النموذجي، فإن كلية مداركه تكون قد اصطبغت بآثار هذه المراقبة الحية، فيكون عندئذ فهمه للنصوص الأصلية مغايرًا لفهم من لم يدخل قط في هذه المراقبة، ويتجلى هذا الفهم المغاير في الأمرين التاليين:

أ- تحققه من الدلالة العملية للنصوص الأصلية: فكل معنى يأخذه من هذه النصوص لا يتنزل عنده منزلة الفكرة المجردة التي تنتظر أن ينضاف إليها حسن النية وقوة العزيمة ومضاء الإرادة لتنتقل إلى مجال التطبيق الذي قد يبدل فيها أو يحرف، وإنما يكون عنده بمنزلة القيمة المعتبرة، ومعلوم أن القيمة هي الأمر المعتقد الذي يستوجب منها أن تطلبه وأن نسعى إليه ونسلك وفقه.

ب- تلبسه بالقيم المأخوذة: لما كان استهلاك القدوة في المراقبة الحية يفضي به إلى حمل معاني النصوص على مدلول القيم العملية، فإنه يبادر إلى تقمصها بحيث تشاهد جارية على أفعاله من غير تعمد ولا تعمل.

ويكفي هذان الأمران: التحقق من الدلالات العملية للنصوص والتخلق بالقيم المأخوذة منها لتجعل القدوة قريبًا من الأصول الإسلامية قرب عمل وحال لا قرب نظر ومقال.

ومتى حضر مع هذه الأصول بعقله العملي لا بالنظر المجرد كان أبصر الناس بأخبارها وأحكامها، إذ يكون فهمه لها فهمًا بالحضرة لا فهمًا بالفكرة، وشتان بين فهم مستنير بنور الاشتغال وفهم منقطع عن الاشتغال.

ومتى كان القدوة يأخذ تحققه بمطابقة الأقوال للأفعال بطريق المعاينة لنموذج سالف، وبطريق الوقوف على الدلالة العملية للنصوص، أدركنا أن يقوم القدوة بشرط الصدق من جهة الأصل الذي أخذ منه المطابقة ذلك أن المعاينة الحية تزوده بالصدق فيبصره، بينما يزوده التعلق بالدلالة العملية بالصدق في بصيرته.

الغاية الصادقة للقدوة

أما عن غاية سلوك القدوة، فإن القدوة ينقل مطابقة القول للفعل إلى الغير، وينقله إليه بطريق لا يقل التزامها بتجربة العمل الحي عن الطريق الذي أخذ بها هو هذه المطابقة عن غيره، ويتجلى هذا الالتزام في أمرين اثنين، هما (الاجتهاد الحي) و(القبول المؤيد).

الاجتهاد الحي

إذا لبست المعاني القدوة، واتحدت بها جوارحه وتفاعلت بها أحواله، تجددت مداركه العقلية والوجدانية، وقامت بها أسباب الإنتاج والإبداع، ومن يكن بهذا الوصف، يكن اجتهاده من الداخل، سواء من داخل الظرف الذي يحتضنه أو من داخل النص الذي يتأمله أو من داخلهما معا، فأما الظرف، فإن القدوة يأخذه من جوانبه الفاعلة والمنهضة إلى العمل، ويتصرف فيه بمقدار فعالية هذه الجوانب وإنتاجيتها وبمقدار حاجته العملية منها، وأما النص، فيتناوله في دلالته التي تفتحه على أسباب تتعدى أسباب وروده والتي تجعله يحيا في قلوب العاملين به، وأما اجتماع الظرف والنص، فيتخير القدوة وجوه تنزيل أحدهما على الآخر من جهة ما يختزنان من قوة عملية، سواء بإخراج الظرف عن آيته، أو بإخراج النص عن ظاهريته، إيمانًا منه بأنه ليس كل ما جمد في الظرف لا يمكن تحريكه، ولا كل ما سكت عنه ظاهر النص لا يمكن استنطاقه.

ومتى كان القدوة يأخذ بالأسباب الحية الكامنة في الظروف والنصوص، والباعثة على تجددها وعلى استمرار هذا التجدد، كان أوفق وأكمل مجتهد وأحق من غيره بأن يقتدى به.

القبول المؤيد

لما كانت المعاني قيما سامية مطلوبة، ومثلا عليا محبوبة، وكان القدوة متحققًا ومتخلقًا بها في جميع جهاته الظاهرة والباطنة، انعكس عليه وصفها وقدرها، فصار عن الناس مطلوبا ومحبوبًا مثلها، وإذا طلبوه، فلا يطلبون فيه إلا المعاني التي تمثلت فيه خير تمثيل، ولا تكون استجابته لهم إلا بصرف شخصه الحسي ودواعيه البشرية عن هذه المعاني، وإذا أحبوه فلا يحبون فيه إلا جمال وكمال هذه المعاني، ولا تكون محبته لهم إلا بإرشادهم إلى طريق التقرب منها والتخلق بها، فليس لهذا الطلب ولا لهذه المحبة أية دلالة مادية تتصل بشخص من الأشخاص أو بغرض من الأغراض، وإنما هي دلالة معنوية محضة تخرج بالطالب أو بالمحب إلى عالم يذوق فيه ثمرة الأعمال ولذة الأفضال.

ومتى كان القدوة مأخوذًا عن الإحساس بشخصه وبنفسه وبأغراضه، مستغرقا بالكلية في المعاني الروحية، كان الإقبال عليه إقبالا على هذه المعاني والتشبه به تشبها بها.

وإذا تقرر أن القدوة ينقل تحققه بمطابقة القول للفعل بطريقين: طريق الاجتهاد الحي وطريق القبول الذي يوضع له، اتضح أن القدوة يستوفي شرط الصدق من جهة نقل المطابقة أو قل، غايتها، ذلك أن الاجتهاد الحي يضفي الصدق على تجديده في التربية بينما القبول الموضوع له يضفي الصدق على تقريبه لحضرة الله.

والآن، وقد عرفنا كيف أن القدوة لا

٢- تدبر الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١)

يزال صادقًا ويتحرى الصدق فى حركاته وسكناته، هذا الصدق الذى ادعينا أنه يزود الكائن مع القدوة(٣) أو قل المقتدي، بالقدرة على إنشاء نمط من المعرفة، محفوظ من آفة الانفصال بين العلم والعمل، أى نمط من المعرفة (النافعة)، بقى لنا أن نعرف كيف أن النموذج لا يزال قاصدًا ويتحرى القصد فى جميع إشاراته، هذا القصد الذى ادعينا أنه يمكن الكائن مع القوة من القدرة على إنشاء نمط من المعرفة محفوظ من آفة الانفصال بين العقل والغيب، أى نمط من المعرفة (الكاملة).

التعبير الإشارى والأخذ بالمقاصد

الطبيعة القاصدة للإشارة

أما عن طبيعة القول الإشاري، فاعلم أنه لما كان هذا القول مقابلا للعبارة، من حيث أنه يدل على معناه دلالة غير مباشرة، بينما تدل هذه على معناها دلالة مباشرة، فإن هذا المعنى غير المباشر يتميز بوصفين هما: أنه يرتبط ارتباطًا (بالسلوك العملي) وأنه ينتقل انتقالاً بطريق (التواتر الحي).

المعنى والارتباط والعمل

إن حقيقة المعنى الإشارى تقوم فى كونه دلالة عملية خالصة، والمقصود بالدلالة العملية أن التعبير المبلغ يفيد أمرًا يبتغى لمخاطب اتباعه أو إنجازه فى ظرف سلوكى مخصوص يعينه مقام الكلام، وإذا ثبت أن المعنى يتوجه بالمقتدى إلى العمل، ثبت أيضًا أن المعنى هو أصلاً قيمة، ومدلول القيمة أنها كل أمر استملح فى نظر فرد أو طائفة التعلق به والسلوك وفقه.

ولا عجب إذ ذاك أن يتواجد المعنى مع الدلالة الظاهرة للقول، لأنه لا يعارضها، حتى يكون دلالة إضافية تتنازع معها المحل وإنما هو القيمة العملية التى تلابس الدلالة الظاهرة فى سياق الكلام، علمًا بأنه لا انفكاك للتعبير عن التوجيه، والتوجيه هو بالذات المعني.

وليس المعنى قيمة وحسب، بل هو قيم مقرونة أساسًا بالممارسة الحية، فالأقوال التى تلقى إلى المقتدى تنعكس فيها آثار هذه الممارسة، فيدل منها الوجوه التى توافق هذه الآثار، وتواصل تزكيتها فى نفسه.

ومما يزيد فى إثبات الدعوى بعدم معارضة القيمة أو المعنى لظاهر التعبير أنها تتغير بتغير مراتب هذه الممارسة، وتظل الدلالة الظاهرة واحدة، بينما تتعدد قيمها.

وليس فى هذا التعدد القيمي، ما يدعو إلى الظن بإغراق الظاهر فى التأويل، ولا بإخراج الباطن عن كل القيود اللغوية، حتى وإن لم يكن بين الظاهر والقيمة أدنى تلازم منطقي.

المعنى والانتقال بطريق التواتر الحى

إن حقيقة التواتر الحى تقوم فى نقل الخبر عن القدوة عبر وسائط مختلفة تدل به على نفس المقصود الذى دل عليه القدوة به، بوصفه أكثر الناس تحققا به، بحيث يجعل اتصال السند إلى القدوة فائدة الخبر متعلقة أصلاً بهذا النموذج لا بالقول المنقول عنه.

ولما كان مرجعنا فى فهم الخبر هو النموذج المنقول عنه وليس القول المنقول، جاز أن يحصل الاختلاف بين الخبر والمخبر (بفتح الباء) به، من غير أن ينقطع الخبر عن الدلالة على المخبر به وأن يفيد العلم به، كالاختلاف الحاصل من تعدد الخبر بتعدد الطرق التى نقل من جهتها والمخبر به واحد، وكالتفاوت بين الوضع الاصطلاحى الأصلى للخبر وبين المدلول المخبر به، وهذا بالذات مقتضى القول الإشاري.

وإذا صح أن الخبر المتواتر يدل على حقيقة المخبر به وإن لم يقم بالشروط المطلوبة للخبر، لأن المعلول عليه هو خبرة النموذج بالمخبر به واتصال السند إليه، صح معه أيضًا أن يكون القول الإشارى مفيدا للمخبر به على تفاوته مع ظاهر هذا القول.

ومتى ثبت أن الإشارة يدخل عليها العمل من كل جانب وأن صحة دلالتها تتوقف على طريق التواتر الحي، تبين أن طبيعة التعبير الإشارى طبيعة معنوية قصدية، فالعمل لا يكون عملاً إلا بالقصد الذى يقترن به، والتواتر لا يكون تواترًا إلا بالحفاظ على قصد النموذج الأصلي، ولا عجب عندئذ أن يختص المدلول الإشارى أو يكاد باسم (المعني)، فالمعنى، لغة، هو ما يعنى باللفظ أي، بالذات، ما يقصد به.

الأصل القاصد للإشارة

أما عن أصل التعبير الإشاري، فليس مدلول الإشارة مدلولاً معنويًا أى عمليًا وتواتريًا فحسب، بل هو أيضًا مدلول تجربي، وتتميز (التجربة) التى يستند إليها هذا التعبير بأنها:

أ- تجربة وجودية لا لغوية بمعنى أن التبليغ فيها لا يتم على الوجه الأكمل إلا بطريق المشاركة الفعلية والعلم بهذه المشاركة.

ب- تجربة وجدانية لا نظرية مجردة، بمعنى أنها شعور حي يجده صاحبه فى قلبه.

والدليل على هذا الوصف الوجودى والوجدانى للتجربة الإشارية: (تقلب هذه التجربة) و(تعدد العبارة عنها).

تقلب التجربة

قد يكون التعبير الإشارى دالاً على معنى قائم بالمقتدى عند صدور الإشارة، فيكون مطالبا بالارتقاء من هذا المعنى، أو يكون هذا التعبير دالاً على معنى لم يقم به بعد، فيكون مطالبا بجمع الهمة والتهيء بالعمل لاستقباله.

يترتب على هذه المطالبة، أن يأخذ المقتدى فى التقلب بين المعانى بحسب مستويات هذه المطالبة، فإذا ما أدرك معنى مخصوصًا فى مستوى مخصوص من هذه المستويات، لا يلبث أن يدركه بوجه آخر أو يدرك غيره بانتقاله إلى مستوى آخر، ولما كان كل معنى مقرونًا بطريقة معينة فى الشعور أو فى الفهم، صار كل خبير بمعنى أحق أن يسلم له به ويفزع إليه فى فهمه.

تعدد العبارة

لما كانت درجات أهل التجربة الروحية فى المعارف والأحوال متفاوتة، كان كل منهم يعبر عن مقدار معرفته وينطق حسب حاله، وكل هذا لا يحول دون تواصلهم وتفاهمهم وتبليغ مقاصدهم بعضهم لبعض، فمن كان فى نفس المرتبة من المعرفة أو كان له نفس الحظ من التجربة، لا يذهب عليه الوجه الذى تدل به العبارة التى ألقى بها إليه، ومن كان فى منزلة من المعرفة أعلى أو كان نصيبه من

٣- تشير الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩).

التجربة أقوى، كان أولى بأن لا يفوته إدراك ما لوحت به العبارة، لأن دلالتها المقصودة مطوية فيما يمكن أن تحمل عليه من المعنى لـو ألقـى هو بهـا علـى غيـره، منطلقًـا من مرتبتـه، ومن كان فى منزلة من المعرفة أدنى أو كانـت تجربته أنقص، لم يفته إدراك أن ما تشير إليه العبارة أبعد فى الدلالة وألطف فى المعنى من الوجـه الذى يمكن أن يدل هو به عليها وإن فاتته المكابدة بالتجربة لإشارتها المقصودة، ومن كان فـى تجربة وارتقى إلى تجربة فوقهـا، علم أن العبارة حمالة لوجوه، أقربهـا إلى الحقيقـة الوجه الـذى هو ألطف وأنسب.

فلـولا شـعور صاحب التجربـة بضرورة التـلازم بين المقـال والحال لمـا عمد إلى تلويـن عبارتـه وتلويـن فهمه لعبـارة غيره بتلويـن تجربته ومعرفته .فلمـا كانت هذه التجربـة غيـر مقيمـة، وكانـت تتزايد فى الترقـى بتزايد العمل، لم يجـد هذا حرجًا فى تصحيـح فهمه والاسـتمرار على حمل العبارة على معان متفاوتة من غير أن يكون هـذا التفـاوت مضـرا بالتواصـل ولا مخلاً بالتعاقل.

ومتـى كانـت الإشـارة متعلقـة بتجربـة وجوديـة وجدانيـة، متميـزة بالتقلـب فـى معانيهـا ومتعـددة فـى صيغهـا التعبيرية، فقد دل ذلك على أن الإشـارة تسـتوى شرط القصد من جهة أصلها التجربي، فالتقلب فى المعنى يفيد (تجريد القصد) الذى يقتضيه اسـتئناف العمـل، والتعدد فـى التعبير يفيد (تعديـد القصـد)، الذى يقتضيـه الترقى فى درجات المعنى.

الغاية القاصدة للإشارة

أمـا عن غايـة التعبير الإشـاري، فإذا كان (القول العباري) لا يشـترط بالضرورة التعلق بحكمـة معينة، فـإن مقتضى (الإشـارة) أن تقتـرن اقترانًـا داخليًا بهـا، بحيث ينصرف عنها المدلول الذى وضع له اللفظ فى الأصل انصرافًـا، ولا يبقـى إلا المدلـول الحكمـى (بكسر الحاء) وحده.

أمـا (العبارة)، فـإذا اقترنت بالحكمة، فـإن اقترانها لا يكون إلا على جهة خارجية بحيث تكـون الحكمة المنوطـة بها معنى زائدا علـى المدلول المنقـول باللفظ، ولا اقتـران داخلـى لها إلا مـع المعنى الوعظى وشـتان بيـن القـول الوعظـى والقـول الحكمـي(٤)، فـالأول لا تـلازم بينه وبين العمل. فقد يـدرك (الموعوظ) المضمون المجرد للوعـظ، ولا ينتهض إلـى العمل، إعراضًـا عنه أو جهلاً بكيفية العمل التى لا تنفع فيها الشـهادة والحكاية، بينما التلازم قائـم بيـن الحكمـة والعمـل، إذ لا إدراك لمضمون الحكمة إلا من خلال فعلين اثنين هما: (المشـاهدة) و(المحـاكاة) (أو قل التشبه).

الحكمة والمشاهدة

لا ينفـذ إلى حكمة الإشـارة من تجردات مداركه مـن صبغة العمـل، لأن قصارى هذا التجـرد أن يوقفـه علـى أوصـاف الأشـياء وعللها الظاهرة وأن لا يتعدى به إلى إدراك مقاصدهـا الخفية، أما التغلغـل فى العمل، فمـن شـأنه أن يخـرج صاحبه مـن التجريد النظـرى لمـا يـدرك، ليورثـه القـدرة على الحضور بقلبه فيما يدرك، وأن يفتح مداركه فتحـا على ما وراء الأسـباب الظاهرة ليورثه الشـعور الحـى بدلالاتهـا البعيـدة، فتنزل بذلك هـذه المدركات والظواهر من نفسـه منزلة (الآيـات) وعندما يصير المدرك آية، ويصير الإدراك حضورًا وشعورًا، فإن المدرك يصير متحققًا بالمشـاهدة، فالمشـاهد من كان نافـذا إلـى المعنى من جهة اسـتهلاكه فـى العمـل، على خـلاف (الشـاهد) الذى يكون واقفًا دون المعنى لتجرده عن العمل، وليسـت الحكمـة إلا المعنى الـذى أثمرته المشـاهدة على خلاف (الفكـرة) التى هى المدلول الذى تنتجه الشـهادة والرواية.

الحكمة والتشبه:

لا يكاد المشـاهد يشـاهد الحكمة حتى تنبعـث مـن نفسـه داعيـة الأخـذ بهـا عن صاحبها بالتشـبه بأفعالـه وأحواله، لحصول التعظيـم عنده فى بالغ نفعها وفى جلال قدر الناطـق بها، وليس فى هذا التشـبه ما يدعو إلى الاعتقاد بـأن الآخذ به واقع لا محالة فى المحاكاة الآلية وسلب حرية الإرادة، وذلك للسببين الآتيين:

- أحدهمـا أن من يتشـبه بالقدوة يصدر عن مبادرة عفوية ناتجة عن شـعور بمناسبة بينـه وبيـن هذا النمـوذج تمتزج بمشـاعر المحبـة، ومعلوم أن المحبة لا تنتزع بالقهر أو العنف.

- والثانى أن ما يقصد المقتدى التشبه به ليس ظاهر القدوة وأحواله الخارجية، وإنما على الأصح، المعانى التى يحملها فى باطنه والتـى تظهـر آثارهـا على جوارحـه، أى أنه يقصد التشـبه بالحياة الروحية للقدوة، ولا يخفى أن الروح مجلى حرية الإنسان ومنشأ انطلاقه وابتكاره فى عالم المعنى.

ومتـى علمنـا أن معنـى الإشـارة يـدرك بطريق المشاهدة ويؤخذ بطريق المحاكاة، أدركنـا أن تقوم الإشـارة بشـرط القصد من جهة غايتها، ذلك أن المشـاهدة تستند إلى الحضور ولا حضور بغيـر (تمديد القصد) بينمـا المحاكاة تسـتند إلـى التعظيم، ولا تعظيم بغير (تشـديد القصـد)، ولا عجب حينئذ أن يجرى اسـتعمال لفظ الإشـارة فى معنـى الحكمـة، حتى نزلـت منزلتها، وأن يختص لفـظ (التدبر) و(الاعتبار) بالدلالة على هـذا المعنى الحكمـي، فالتدبر هو ما كان مـن النظـر متجهـا إلـى إدراك الغايات والمـآلات، والاعتبـار هو مـا كان من النظر محققًـا للعبـور مـن الدلالـة الحقيقيـة إلى الدلالة المقصدية.

ثالثًا: فائدة التربية الروحية فى تحليد النمط المعرفي

لقد اتضح لنـا أن القدوة متحقق بالصدق فـى مطابقة قوله لفعله، طبيعة وأصلاً وغاية، كما تضح لنا أن الإشارة متعلقة بالقصد، من حيـث طبيعتهـا المعنوية وأصلهـا التجربى وغايتهـا الحكميـة، ولمـا كان الصـدق هـو المخـرج من آفـة الانفصـال بيـن العلم والأخـلاق، وكان القصـد هـو المخـرج من

4. تدبر الآية ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، لقد جرى الاستشهاد بهذه الآية فى سياق تمييز مراتب الدعوة الثلاث: (الحكمة) وهى أعلى مرتبة ثم (الموعظة) وهى دونها ثم (المجادلة الحسنة) وهى دون الأخريين

آفة الانفصال بين العقل والغيب، لزم أن تكون التربية الروحية(٥) التى هى التربية على الصدق عن طريق الكون مع الصادقين وعلى القصد عن طريق الأخذ بالمقاصد قادرة على أن تطهرنا من آثار هاتين الآفتين، وقادرة أيضًا على أن ترسخ فينا ملكة الوصل بين العلم والأخلاق وملكة الوصل بين العقل والغيب، فلنبسط الكلام فى هاتين العمليتين: (التطهير) و(الترسيخ).

التطهير والتكامل المادى الروحى

لما ترسب فينا ما ترسب من المعلومات المنقطعة عن القيم الأخلاقية والمعانى الغيبية تحت تأثير النمط المعرفى المنقول، كانت مهمة التربية الروحية أن تقوم بـ(إعادة التربية) لمداركنا، حتى تطهرنا من هذه الطبقات المعرفية المترسبة والمانعة لنا من قبول وتقبل أى شكل مغاير من أشكال المعرفة، ووسيلتها فى هذه (الإعادة التربوية) تمريننا المنظم والمكثف على القيام بالأعمال على خير وجه والمواظبة عليها والزيادة فيها على قدر طلب الخروج من الطلبات المعرفية المتراكمة، أى على قدر ما تراكم من الطبقات المعرفية تكون الأعمال الضرورية لإزالتها.

وفى هذه الحقيقة ما يبطل دعوى من يدعى بأن القليل من الأعمال عند المتأخرين يسد مسد الكثير من الأعمال عند المتقدمين، محتجًا بتطور المعرفة العقلية وانشغال الإنسان بالوفاء بمتطلبات الحياة ومواجهة الواقع، والحق أننا مطالبون بأن نكون أعمل وأشغل ممن سبقونا لقربهم من الأصول المعرفية الإسلامية وبعدنا عنها.

وما أن يوفى الداخل فى هذه العملية التطهيرية، أو قل (المقتدي)، هذا التمرين المرتب والمتسق حقه، حتى يفتح له باب تحصيل التكامل المادى الروحى المقوم لفطرة الإنسان، هذا التكامل الذى يهيؤه لاكتساب القدرة على الاستقلال عن النمط المعرفى المألوف، ذلك أنه إذا نفعه استغراقه فى العمل، وذهبت عنه العوائق المعرفية المترسبة واسترجع توازنه المادى الروحي، فإنه يستعد لتلقى معرفة متكاملة، كما لو كانت قد انطوت عنها آثار النمط المعرفى المترسب انطواء كليا، وكما لو كانت أسباب المعرفة الجديدة مطوية أصالة فيه.

الترسيخ وتجديد النمط المعرفى

لا يكفى أن يقترن النظر بالعمل، بل ينبغى أن يبلغ العمل من نفس (المقتدي) درجة يصبح معها هو المد للنظر بأسبابه وكيفياته، بل ينبغى أن يتحد النظر بالعمل اتحادًا، فلما كان الفصل بينهما أثرًا من آثار الترسبات المعرفية التى تختص عملية التطهير بإزالتها، فإن (المقتدي) بمداومته على الأعمال والاستزادة منها، يتجه تدريجيا إلى الجمع بين هذين الطرفين، بل إلى تحقيق الاتحاد التام بينهما، فينظر بقوالب العمل، كما يعمل بمقولات النظر، ويرجع إلى هذا الاتحاد رجوعه إلى وصف راسخ فيه رسوخ الطبائع، وما صار كالوصف الراسخ لا يتصرف صاحبه إلا على وفقه.

وما أن يتحقق المقتدى باتحاد النظر والعمل حتى يفتح له باب تحصيل القدرة على التجديد فإذا اهتدى المقتدى إلى التحرر من صنوف التبعيات للطبقات المعرفية المتوارثة، وصارت أسباب المعرفة المتكاملة داخلية ومتمركزة فى شعوره وفى فهمه، كان أقدر على التوسل بهذه الأسباب لإنشاء معرفة مغايرة لطبيعة النمط المتعارف، معرفة تصل، على خلاف هذا النمط، العلم بالأخلاق والعقل بالغيب وصلاً تامًا، فيجتمع له اجتماعًا (نفع العلم وكمال العقل)، فكل علم نافع لابد وأن يخرج عن (مبدأ الموضوعية الميتة) و(مبدأ التجاوز المسيب) اللذين أخذ بهما النمط المعرفى المنقول بموجب فصله العلم عن الأخلاق، فلا موضوع علمى يستقل عن آثار الذات الإنسانية ولا مضمون معرفى يخلو من تأثير القيم السلوكية، فيكون العلم النافع آخذا بموضوعية حية وبآلية موجهة، وكل عقل كامل لابد أن يخرج عن مبدأ (السببية الميتة) ومبدأ (الآلية المسيبة)، كما أخذ بهما النمط المعرفى المنقول بموجب فصله العقل عن الغيب، فلا سبب عقلى بغير إمكان تركه إلى غيره، ولا ظاهر مادى بغير قصد باطني، فيكون العقل الكامل آخذًا بسببية حية وآلية موجهة.

وإذا استقام للمقتدى بناء هذا النمط المعرفى الجديد، فإن كان عالما فلا يصوغ قانونًا ولا قاعدة إلا وازداد بها تطلعًا إلى النفع ودخولاً فى أفق القرب، وإذا كان مفكرًا فلا يدعى دعوى إلا وأفاد منها المزيد من الالتزام والمزيد من التقرب، وإن كان أديبًا فلا يأتى قولاً إلا زاده ذوقًا للمعنى الخلقى وأدبًا مع حقيقة القرب.

والقول الجامع أن النمط المعرفى السائد غير مناسب إن لم يكن غير صالح للتوسل به فى بناء معرفة إسلامية حقة، لأن مناهجه العقلية ونتائجه العلمية تنبنى على أصلين:

- أحدهما: فصل العلم عن الأخلاق، الذى يتفرع عنه مبدأ الموضوعية الميتة ومبدأ التجاوز المسيب.
- والثانى: فصل العقل عن الغيب، الذى يتفرع عنه مبدأ السببية الميتة ومبدأ الآلية المسيبة، لذا يحتاج المسلم بوصفه مسلمًا إلى الدخول فى تربية تزوده بنمط معرفى بديل محفوظ من هاتين الآفتين: آفة الانقطاع عن الأخلاق وآفة الانقطاع عن الغيب، ولا تربية أوفى بهذا الغرض من التربية الروحية، إذ يقوم جانبها التحصيلى فى ربط العلم بالعمل عن طريق الكون مع الصادقين، وجانبها التوصيلى فى ربط العقل بالغيب عن طريق الأخذ بالمقاصد ذلك أن الكون مع الصادقين والأخذ بالمقاصد، يولدان فى نفس المسلم فاعلية تعيد إليه تكامله المادى الروحي، فينهض إلى تطهير نفسه من الطبقات العقلية والعلمية الموروثة عن النمط المعرفى المتداول، كما تعيد إليه رسوخ وحدة النظر والعمل، فينهض إلى تجديد المعرفة تجديدًا يزداد فيه عملاً بعمله وقربًا بعقله، فيكون علمه نافعًا وعقله كاملاً.

(٥) إن المصطلح القرآني المقابل للفظ (التربية الروحية) هو (التزكية) كما ورد في آيات متعددة نذكر منها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٩-١٠)، ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات ١٨-١٩)، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٢٩)، كما أن اللفظ القرآني (التطهير) يحمل نفس المعنى، كما جاء في الآيتين: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة ١٠٣)، (ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة ٢٣٢).

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو يونيه ٢٠١٣م

شجاعة الإيمان


أ.د. نظمى لوقا

إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى فى سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد.

إن الرسالة التى تسير بصاحبها على مهاد من الود، ويكون هدفها الغنم له أو لذويه لا تدل على إيمان، بل على وصولية وطمع أو طموح.

وأيا كان المقياس الذى تقاس به دعوة الإسلام، فلن نجد فيها دليلا واحدا ولا شبه دليل على أن الغرض منها خدمة شخصه من قريب أو بعيد.

كان موفور الرزق موسعًا عليه، فبدل من ذلك ضيقًا وشظفًا.

كان آمنًا فى سربه، فبدل من ذلك قلقًا ومطاردة وارتياعا.

كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه، بالنسب الرفيع، والحسب المنيع، فبدل من ذلك إهانة وتحقيرًا وازدراء.

كان وحيدًا أعزل لا أمل له فى نصرة أحد على قومه، وهم أئمة الشرك، وحراس الكفر، وأولياء عاصمته المستفيدون منه.

أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم، وأوذوا بسببها فى أرزاقهم، وفى أعمالهم، وفى أشخاصهم. وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة أكثر من مرة.

وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفى عليهم شيئًا من المنافع. فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب البشر، أو حظًا من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله.

كلا! فهذه نبوة وليست ملكا. ولا وراثة فى النبوة..

كلا! بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان. فالناس فى هذا الدين سواسية كأسنان المشط.. وهذا الرسول هو القائل: إنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى.. وإن عصبية الجاهلية موضوعة!

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا

جميعًا إلا الخسران ولا تحمل لقومه - على افتراض نجاحها وظفرها - إلا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه.

بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين، ولم يظفر صاحبها بمغنم، ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته. لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة.. بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة.

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية دعوته حتى المنتهى. ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية أو أهواء حزب من الناس أو فئة. وصح إذن أنه ما كان ينطق عن الهوى وأنه:

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾

(النجم: ٢)

هى من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان، وليست مطية هوى.

هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه فى أشد الظروف حلكة وأدعاها لليأس؟ وإن لم يكن مقياسه الصبر فى سبيله على المكاره؟

وإنها لمكاره من كل نوع. لعل المعنوى منها أقسى من المادى. ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والإيذاء البدنى بالغًا ما بلغ من العنف.

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة فى موضوع رسالته، على كثرة فنون المساومات، واشتداد المحن.

وهناك موقف مشهور جدًا من تلك المواقف. هو موقفه من عمه أبى طالب حين قال له: إن قريشًا تشدد عليه النكير بسبب ما يبسطه عليه من حمايته. وإنه - على كبر سنه - مهدد باجتماعهم على مقاطعته وعدوانه. وقد قالوا له:

- إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

وتقدم عمه إليه بقوله:

- فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فهذا عمه، حصنه الأوحد وحاميه يوشك أن يتخلى عنه.

ولن يكون بعد ذلك إلا الهلاك له هلاكا مؤكدًا.

إما هذا وإما أن يحرج عمه ويبقى على حمايته له، فيتعرض معه للهلاك فى تلك المعركة التى لا تكافؤ فيها.

وعمه.. من عمه؟

إنه الذى كفل وربى بعد هلاك جد ذلك الفتى اليتيم. إنه الذى دلل وأعز هذا اليتيم. وأردفه رحالته حين تعلق به صغيرًا وقد تجهز للسفر إلى الشام، فلم تطاوعه نفسه أن يفارقه باكيا، وصحبه حيث ذهب.

ومحمد أوفى الناس بالمعروف، وأحفظهم للوداد، وأبرهم وأقسطهم. أى حرج شعر به أمام ذلك الرجاء؟ أى تورط؟ أى امتحان لخلال البر وعرفان الجميل والنخوة؟

لو كان شىء من الأشياء ثانيًا محمدًا عن إيمانه، لكان هذا الحرج، ولو كان الأمر

يبده بأى صورة من الصور لما صمد لهذا الامتحان، ولو كانت قوة لتزعزعه عما تجرد له لكان هذا التوسل من أبى طالب.

إن الامتحان النفسى فى هذا المقام، والإكراه المعنوى والضغط الأدبى لهى أعنف ألف مرة من اللطمات والبصقات التى كيلت له من سفهاء القوم.

وأطرق محمد.. وما أحسب هلاكه كان أهول لديه من تخييب رجاء عمه وكافله.. فحق لمن فى مثل نخوته وبره أن يطرق ويهتم. وهو يتعرض لتهمة العقوق.

ثم كانت الكلمة التى لا تنطق إلا عن منتهى شجاعة الإيمان ورسوخ اليقين بما هو بسبيله.

- يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته..

من كابر فى صدق هذا الإيمان، فهو مسكين لا يميز الإيمان من الدجل، ولا الصدق من الهزل.

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه، بل ثابر على نصره ومنعه وقال له مأخوذًا بذلك الإيمان:

- اذهب يابن أخى فقل ما أحببت. فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبدًا!

واحتمل آله العنت بسبب ذلك.. فكان فضل أبى طالب مضاعفًا بعد هذا اليوم الفاصل.

ثم يحضر الموت هذا العم النبيل الذى غمره بحنانه وحمايته وإحسانه صغيرًا وكبيرًا، حدثًا وكهلا مطاردًا مبغوضًا.. فإذا بالرسول يطالبه بأن ينطق بالشهادة كى يستحل الشفاعة له بها يوم القيامة..

فيأبى أبو طالب حفاظًا وخشية أن يرمى بشبهة الجبن أمام الموت والضعف أمام وعيد يوم الحساب.

وتحشرج الروح، ويميل على أبى طالب أخوه العباس يسمع ما يهمس به فى لحظته الأخيرة، ثم يقول العباس لابن أخيه: إن المحتضر نطق بالشهادة وهو فى الرمق الأخير.

وعلى شدة حبه لعمه الراحل، وتعلقه به، ورغبته فى نجاة نفسه لقاء ما أحسن إليه ونافح عنه، لم تتحرك فيه خالجة، وقال بجمود الراسخ: إنه لم يسمع.

وغيره فى مثل هذا الموقف كان حريا أن يبادر إلى التصديق على عهدة الراوي، وهو عمه العباس. كى يجد فى ذلك عزاء وسلوانا وراحة إلى أن عمه وكافله المحبوب لم يمت كافرًا وليس مصيره جهنم ذات السعير.

ولكن شجاعة الإيمان تأبى عليه هذه الراحة التى كان وزرها على سواه. فحيثما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته، فلا محل لمجاملة، مهما قويت بواعثها من كرائم الخلال.

أهذا شأن من يملك من الأمر شيئًا؟

أهذا شأن من لا تسيطر عليه قوة قاهرة، أقوى من مراده وهوى نفسه، هو إزاءها العبد المأمور؟

لذلك، هو الرسول الأمين حقًا، الذى يقول له ربه:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾

(آل عمران: ١٢٨)

***

لا مساومة! وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شيئا؟

ها هو ذا يدعو القبائل فى موسم الحج إلى ربه، يقف بمنازلهم فمنهم من يعرض ومنهم من يسخر. وها هو يقف يوما على منازل بنى عامر، ويتكلم فى يقين وبسلطان.. وأى سلطان أعلى من سلطان اليقين بالعزيز ذى الجلال؟

ويبهر كبير القوم بما سمع، ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها عسى أن تكون لقومه بذلك الداعى رئاسة أو يحدث لهم ذكرا وجاها. فيقول له:

- أى محمد أفإن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة فإنه يطلب إلى قوم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة وفى ذلك من البلاء والمشقة ما فيه. بل فيه من الهلاك للأنفس والأموال ما فيه. وفى منطق المساومة وتبادل المنافع لابد من مقابل لكل خدمة تؤدى أو منفعة ترجى.. فليكن الأمر إذن كما يطالب به شيخ بنى عامر. فهو عرض معقول، يصلح أساسا على كل حال للمدارسة بين الطرفين.

ولكن محمدًا لا يساوم.

ولكن محمدًا مأمور ليس له من الأمر شىء.

ولكن محمدًا لا يرى الإيمان بالله منة للمؤمنين على الله ورسوله بل منة لله على المؤمنين. هداهم من ضلال. ونصر الله حق عليهم كفاه هذا الفضل العميم.

وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة.

وكان محمد وحيدًا لا يكاد يجد لدعوته سميعًا.

وكان محمد مطاردًا لا يجد مانعًا ولا نصيرًا.

ولكن محمدًا لم يقبل المساومة فى أمر هو من شأن الله وحده. وهو لا يملك من الأمر شيئا.

- الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء!

ما هذا قول مغامر مساوم ومداور. هذا قول لا يصدر إلا عن شجاعة إيمان نادر، سلطان إيمانه عليه قاهر، لا حيلة له فيما يأخذ وفيما يدع.

***

وأكثر من هذا لا يهتز له إيمان محمد.

هؤلاء ذؤابة قومه قريش يجتمعون عند الكعبة ويرسلون إليه. ويقول قائلهم له:

- يا محمد إنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى تبرئك منه أو نعذر فيك.

هو إذن ملك حاضر بغير عناء أو جهاد أو انتظار وثراء ماثل لا ضرورة معه لجهد أو اصطبار، فما يبتغى مغامر نفعى سوى ذلك؟

وأى مساومة هذه؟ إنها أشبه بالتسليم المطلق من كل قيد إلا أن يدع ما هو بسبيله من الدعوة.

ودون هذا خرط القتاد!

ودون هذا شجاعة الإيمان التى ما كان عن سواها يصدر جوابه على تلك المساومة التى يسيل لها اللعاب:

- مابى ما تقولون! ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل علىّ كتابًا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم!

كلام العبد المأمور الذى ليس له من الأمر شيء، كلام الرسول المكلف بالبلاغ الأمين، ولا مآرب له من وراء دعوته، وقد استنفدت المآرب فى ذلك العرض الذى شمل كل شيء، من الجاه العريض إلى الملك العضوض.

ولكن معاذ الإيمان، وشجاعة الإيمان، ما الملك؟ وما الجاه؟ وما الثراء؟

هباء هى، أو أهون من الهباء.

وفى أى وقت يقول هذا؟ وفى ثبات من لا يشعر أنه يفعل أمرًا خارقًا أو يهم بمقاومة إغراء تحشد الحماسة من جوانب النفس لملاقاته؟.

فى وقت عز فيه النصير، وطارده السفهاء، بالأذى فى قريش وغير قريش أينما ذهب يقوم بأمانة الدعوة، حتى بلغ منه الضيق مبلغه وحزبه الأمر، وصاح ذات يوم بصوت يخنقه البكاء:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين وأنت ربي! إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك هى أوسع لي! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»!

أى شيء هذا إن لم يكن غاية الغايات من شجاعة الإيمان؟

ضرب وشج وتحقير فى كل مكان، حتى يصرخ هذه الصرخة من قلب صديع، ثم لا يعنيه من ذلك شيء، سوى خوفه أن يكون بالله عليه غضب! فإلا يكن ربه غاضبًا عليه، فهو لا يبالي!.. ثم يمنى بانقلاب الحال إلى ملك مؤثل وثراء مذلل، فلا يفكر فى شيء من ذلك طرفة عين، ويعرض عنه بغير مبالاة.

فإلا يكن هذا هو الصدق الصادق، فقد ارتكست مقاييس تجعل من صاحب هذه المواقف ومثيلاتها مساوما مغامرًا طالب مغتم.

وسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمنهم شنآن قوم على ألا يعدلوا.

وسلام على الصادقين.

تأملات فى السيرة

غزوة بنى المصطلق



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى

انتهينا أيها القارئ الكريم إلى ما كان من حديث السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لما دخلت جويرية بنت الحارث على رسول الله ﷺ تطلب مساعدته فى مكاتبتها ممن وقعت فى سهمه، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها (وكانت جويرية امرأة جميلة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينما النبى ﷺ عندى ونحن على الماء إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابتها فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على رسول الله ﷺ وعرفت أنه سوف يرى منها مثل الذى رأيت).

لعلك أيها القارئ تقول: لماذا تخوفت وقلقت السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من رؤية النبى ﷺ للسيدة جويرية بنت الحارث وهى كما وصفتها جميلة ملاحة؟ هل خشيت أن يقع جمالها فى قلب رسول الله ﷺ؟ وكيف ينظر النبى ﷺ إلى المرأة الأجنبية ويتملى منها حتى تقع فى قلبه؟ أقول والله أعلم إنه لا يعيب الرجل المستقيم كامل الاستقامة وكامل الرجولة أن يعجب بكل جميل ما دام مستقيم الطبع قوى الحواس أما كيف أن النبى ﷺ نظر إليها مع أنها أجنبية؟ للإجابة عن هذا نقول والله اعلم - لأنه لما نظر النبى ﷺ كانت جارية وأن النظر المحرم للحرة وليس للجواري، ثانيًا قد يقال إن هذا كان قبل نزول آية الحجاب وعلى أى حال فليس فيما فعل الرسول ﷺ ما يحظر أو يلام حيث إن النبوة لا تكون إلا فى شخص مكتمل الرجولة والبنيات محب لكل حسن وجمال.

والذى أميل إليه أن نظر النبى ﷺ وإعجابه بجمال جويرية لم يكن فيه شائبة شهوة حتى نلجأ إلى معاذير غير مقبولة - تنزهه ﷺ عن ذلك.

وأيضًا فإن ما ورد فى الرواية مما وقر في قلبه ﷺ هو قول السيدة عائشة (رضى الله عنها)، فلا يحسب أو يدان عليه ﷺ، وليس على السيدة عائشة جناح فيما قالت، فهى زوجة شابة تحب زوجها وتغار عليه وهو المتوقع من مثلها فى مثل موقفها وليس من سبيل لفهم كلمة السيدة عائشة رضى الله عنها على وجهها الصحيح اللائق. بمقام النبوة ألا يتجاوز حدود المادة فى النظر

إلى الجمال الحسي وكذلك أفهم قول الله سبحانه وتعالى مدحًا لسيدنا زكريا:

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

(آل عمران: ٣٩)

ومعنى حصور ليس فاقد الرجولة إنما هو صاحب الرجولة المكتمل الذى يملك نفسه وإلا لم يكن مدحًا فما كان من النبى ﷺ من ظاهر كلامه هو إعجاب بالجمال وليس فيه شائبة يعاب فيها النبى ﷺ أو يلام كما لا يلام صاحب خلق كريم، وما لاحظته السيدة عائشة رضى الله عنها هو المتوقع من كل شابة تحب زوجها وتبادله حبًا بحب، وتغار عليه كما ينبغي أن تغار كل زوجة تخشى أن تنازعها فى زوجها زوجة أخرى.

وعلى كل حال فلم يكن موقف السيدة جويرية هو ما حدث فى غزوة بنى المصطلق إنما ثمة مواقف كثيرة سوف نتناولها بإذن الله تعالى.

وكأن غزوة بنى المصطلق كانت بابًا انفتحت فيه فتن داخلية فى مجتمع المدينة المسلم وكانت مرتعًا لعبد الله بن أبى ليبث سمومه فى مجتمع المدينة الهادئ ويقض مضجعه، وكأن الأحداث هيأت له ما يريد فدخل يخب فى الفتنة ويضع سمومه حتى كادت سمومه أن تهز مجتمع المدينة الهادئ فمن هذه الأحداث أنه بينما المسلمون على ماء المريسيع وقد انقضت الحرب أتى سنان الجهمى وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار فأدلى دلوه وأتى جهجاه بن مسعود الغفارى وهو أجير لعمر بن الخطاب وتناعا فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم منه فنادى سنان باللأنصار ونادى جهجاه باللمهاجرين وكأن هذا النداء كرات من لهب سقطت بين الحيين وأشعلت فتنة عظيمة فخرج رسول الله ﷺ المعلم الراشد الرشيد.

ماذا تتوقع أن يقول قائد فى موقف كادت الفتنة أن تمزق جيشه؟ أتوقع أنا وأنت أن يأمر القائد جيشه بأن يقف كلٌ مكانه ولا يتقدم حتى يتمكن أن يسيطر على الموقف وتهدأ النفوس لكن ذلك لم يكن فليس النبى قائدًا عسكريًا فقط!

ورغم أنه نجح فى كل معاركه، وكل خطواته وخططه كانت موضع إعجاب، ولم تكن هزيمة وقعت للمسلمين فى حرب من حروبهم لعيب فى خططه إنما كانت الهزيمة لمخالفة تعليماته ﷺ. فرغم كل هذا فليس النبى قائدًا عسكريًا فحسب إنما هو بعث معلمًا ومرشدًا يريد أن يقتلع بواعث الشر من نفوس من حوله -ولا يريد أن يكسب موقفًا فحسب- حتى تستقيم النفوس وتصفوا القلوب فلا تنزع إلا لخير فقال ﷺ نازعًا أسباب الفتنة من قلوب الرجال موجهًا سهمه إلى بيت الداء فقال ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة ولينصرن الرجل أخاه ظالمًا كان أو مظلومًا فإن كان ظالمًا فلينهه عن ظلمه، وإن كان مظلومًا فلينصره، وعلى أى حال».

كانت فرصة لابن سلول سنحت له ما كان له أن يتركها وصاح كأنه يجيب ويلبى نداء الفتنة واستطرد كأنه يخطب وهو يثير الفتنة وقال كلامًا يؤلب حربًا ضروسًا فى مواجهة المسلمين ننقله بنصه لخطورته.

قال: (والله ما رأيت كاليوم قط ولكن قومى غلبونى، أو قد فعلوها؟ - يعنى المهاجرين - لقد نافرونا وكاثرونا فى بلدنا وأنكروا مننا، والله ما صرنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل (سمن كلبك يأكلك) والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفًا يهتف بما هتف به جهجاه والله لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال (هذا ما فعلتم بأنفسكم أنزلتموهم بلادكم فنزلوا، وأسهمتموهم فى أموالكم حتى استغنوا، أما والله لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا قتلتم دونهم فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا.)

وكان ممن حضر الموقف وسمع كلام جهجاه وسنان وما أثار ابن سلول والقوم جميعًا زيد بن أرقم وكان غلامًا ناهز الحلم فأخذ الحديث كله إلى رسول الله ﷺ وكان عنده نفر من الأنصار والمهاجرين وتغير وجه النبى ﷺ ثم قال رسول الله ﷺ: «ياغلام لعلك غضبت عليه؟» قال: لا والله يارسول الله فقد سمعته منه. فقال رسول الله ﷺ: «لعلك أخطأ سمعك؟» قال: لا والله يارسول الله، قال ﷺ: «فلعله شبه عليك؟» قال: لا والله يا رسول الله، وشاع الخبر فى المعسكر ما قاله ابن أبى وليس للناس حديث إلا ما قال وجعل القوم من الأنصار يؤنبون الغلام ويلومونه ويقولون له عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل وقد ظلمته وقطعت الرحم.!!! فقال زيد: والله لقد سمعت ما قال والله ما كان فى الخزرج رجل واحد أحب إلىّ من عبد الله بن أبى ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ وإنى لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي.

سارت الأمور كما يحب عبد الله بن سلول ويرضى وفوق ما يرضى فزيد بن الأرقم نقل كلام ابن سلول إلى النبى ﷺ وأحدث الكلام هزة فى مجتمع المدينة والنبى ﷺ يراجع الفتى كأنه يريد أن يدافع الواقعة لأنه مشفق على المجتمع المدنى فالمجتمع المدنى لم تنل منه الحروب والمواجهات بينه وبين أعدائه، لكن الفتن الداخلية وخبث النفاق أخطر على الكيانات الوليدة وإن كانت المتماسكة من المواجهات الخارجية بل إنه فى غالب الأمور تكون الحروب الخارجية وسيلة من وسائل تماسك الجبهات الداخلية خصوصًا إذا استطاعت القيادة أن توضح وجهة نظرها فى الحرب وأنها ليست معتدية إنما هى تدافع عن مبادئها وأرضها وترابها الوطنى وهكذا كانت غزوات النبى ﷺ كلها.

وإزاء هذه الفتنة كان موقف الرسول ﷺ هو التثبت من الخطر وفى نفس الوقت كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدرك ما يعتمل فى نفس النبى ﷺ من خوفه على جيشه وأيضًا فى ما يجب عليه أن يفعله ﷺ، بادر "عمر" وقال للنبى ﷺ: مر أحد فرسانك يا رسول الله فليأتك برأسه، فكره النبى ﷺ هذه المقالة رافضًا هذا السلوك لما يترتب عليه من أثر سئ فى الجزيرة

العربيـة وقال لعمر: "حتى لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتـل أصحابه" لأن عبـد الله بن سلول رغم نفاقه محسوب على المجتمع الإسلامى ثم قام النفر من الأنصار الذين سمعوا قول النبى ﷺ ورده على زيد فجاءوا إلى ابن أبى فأخبروه وقالوا له إن كنت قلت ما حكاه الغلام فأخبر النبى ﷺ فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك قرآن يكذبك وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﷺ فاعتذر له واحلف أنك ما قلت، - وفى جسارة غريبة لا يحسد عليها وفى اجتراء غليظ جعل يحلف بالله ما قلت ما قاله زيد، ولا تكلمت به، فقال جمع الأنصار للنبى ﷺ "عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قاله الرجل"، تأييدًا لابن أبى ودفعًا عنه وكان شريفًا فى قومه، وبعض الناس يظن أنه قد صدق والبعض الآخر يظن أنه كاذب سيئ، فأنت ترى أن الفتنة وسموم ابن سلول تسرى فى الجيش وتعمل عملها فى أفراده ورسول الله ﷺ متأثر مغتم بما حصل فى الجيش وليس ثمة بينة تقطع برأى ولا بد من عمل يتخذه القائد يقطع به ألسنة المرجفين عن التمادى فى الحديث الذى لا تكون له إلا نهاية محتومة وهى أن يفت فى عضض الجيش فليس هناك بينة تقطع برأى.

يروى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: لما كان من أمر ابن سلول ما كان، (أتيت رسول الله ﷺ وهو فى ظل شجرة عنده غلام يغمز ظهره فقلت له: يا رسول الله كأنك تشتكى ظهرك! فقال: تقحمت بى الناقة الليلة)، وأدرك ابن الخطاب أن ما ألم بظهر رسول الله ﷺ بعض من أثر فعل ابن سلول فقال: (يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن سلول، فقال النبى ﷺ: إذن لأرعدت له أنف بيثرب كثيرة، قلت: يا رسول الله مر محمد بن سلمة يقتله، قال: ليتحدث الناس أنى أقتل أصحابى قلت فمر الناس بالرحيل، قال: نعم)، قال عمر: فأذنت بالرحيل فى الناس ولم يشعر أهل المعسكر إلا برسول الله ﷺ قد طلع على ناقته القصواء وكانوا فى حر شديد وكان ﷺ لا يروح فى مثل هذا الوقت فكان أول من لقيه سعد بن عبادة (ويقال أسيد بن حضير) فقال: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، فقال النبى ﷺ: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، قال: يا رسول الله قد رحلت فى ساعة منكرة لم تكن ترحل فيها، فقال له ﷺ: ألم يبلغك ما قال صاحبك؟، قال: أى صاحب؟ قال: «ابن أبى زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، قال أنت الأعز يا رسول الله، تخرجه إن شئت والعزة لله ولك وللمؤمنين.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن سلول ما قاله عمر بن الخطاب فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك فمرنى به فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مقامك، فقال ﷺ لعمر: أرأيت لو أنك قتلته آنذاك لأرغمت له أنف هى التى تطالب بقتله؟ فقال عمر: الآن علمت أن أمر رسول الله ﷺ خير وأعظم بركة من أمرى.

والى لقاء آخر إن شاء الله

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوى

جدالهم مع النبى ﷺ فى شأن إبراهيم وملته

كانت ملة إبراهيم واتباع النبى ﷺ لها ودعوته إليها، موضوع آيات عديدة فى العهد المكى وكانت هذه الآيات تعلن بأن إبراهيم – عليه السلام – كان موحدًا لله تعالى – وما كان من المشركين، من ذلك قوله تعالى فى سورة النحل – المكية:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(النحل: ١٢٠).

ثم قوله تعالى بعد ذلك فى السورة نفسها:

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(النحل: ١٢٣).

فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، نزلت آيات مدنية متعددة، تحكى – أيضًا – أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، وأن ما يدعيه أهل الكتاب من أن إبراهيم – عليه السلام – كان يهوديًا أو نصرانيًا، قول باطل، وزعم فاسد.

وسنكتفى هنا بتفسير أربع آيات من سورة آل عمران – المدنية –، فيها محاجة بين النبى ﷺ وبين أهل الكتاب حول إبراهيم وملته، وهى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٥– ٦٩)

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار:

ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا، فأنزل الله - تعالى -:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (١)

(آل عمران: ٦٥)

ومعنى الآيات الكريمة: لا يسوغ لكم معشر اليهود والنصارى مبادلة الحجة في شأن إبراهيم، من حيث إنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، ومن حيث إنكم أكثر الناس اتباعًا له، أو أكثرهم بعدًا عنه، ومن حيث ما جاء به وحقيقته، فإن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده، فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا؟ وكيف يدين بهما قبل نزولهما؟ إن هذه محاجة ظاهرة البطلان ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ هذا الأمر البدهي وهو أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعًا لهذا الشيء المتأخر عنه؟.

ثم عرضت الآية الثانية بعد ذلك لمظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لمقتضيات العقول السليمة، وهو أنهم يجادلون في أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقالت:

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٦)

أي: أنتم يا معشر أهل الكتاب بادلتم الحجة في أمر عندكم علم به، وهو جدلكم حول ما وجدتموه في كتبكم مما يتعلق بدينكم، أو جدلكم حول زعمكم أن شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن، أوجد لكم في شأن النبي ﷺ، لأن صفاته موجودة في كتبكم، ولكن لم تجادلون فيما ليس لكم به علم وهو كون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا، مع أنه لا ذكر لدين إبراهيم في أحد الكتابين؟.

لقد كان من الواجب عليكم أن تتبعوا ما أوحاه الله على رسوله محمد ﷺ في شأن إبراهيم، لأنه - سبحانه - هو الذي يعلم حال إبراهيم وشأنه وملته، وأنتم لا تعلمون ذلك، والعاقل من الناس، هو الذي ينأى بعقله عن المجادلة في أمر ليس عنده شيء من أسباب العلم به.

• أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(آل عمران: ٦٧)

فقد صرحت ببراءة إبراهيم - عليه السلام - من كل دين يخالف دين الوحدانية، وينفي عنه صفة اليهودية والنصرانية، وفي هذا النفي، تعريض بما فيهما من ضلال لا يليق أن يلصق بخليل الله إبراهيم - عليه السلام - وفيه - أيضًا - تنويه بشأن إبراهيم، وتنزيه له عن أن يتصف بما عليه هؤلاء من خلال.

وقد ذكرت الآية الكريمة على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقي، فنعتته بمناقب ثلاث، تتنافى كلها مع ما عند أهل الكتاب من تخليط، وتجسيم، وانحراف عن الحق.

وصفته - أولا - بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفٗا ﴾ أي: مائلا عن كل دين باطل، إلى الدين الحق وهو الإسلام.

ووصفته - ثانيا - بأنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي: ما كان ممن يشرك مع الله آلهة أخرى، بأي لون من ألوان الإشراك، وفي هذا الوصف تعريض بما هم عليه من كفر وإشراك بالله - تعالى - فكيف يزعمون أنهم على دين إبراهيم أو أن إبراهيم على ملتهم؟.

ثم جاءت الآية الرابعة لكي تحسم الخلاف، ولتعلن في صراحة ووضوح من هم أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم فقالت:

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(آل عمران: ٦٨)

والمعنى: أن الناس بالانتساب إلى إبراهيم أصناف ثلاثة منهم:

أولهم: ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي: الذين أجابوا دعوته في حياته، واتبعوا تعاليمه بعد مماته، ولو أن هؤلاء اليهود تجنبوا الشرك بكل ضروبه لأمكنهم أن يكونوا من أتباعه، ولكنهم استحبوا العمى على الهدي، واستبدلوا الكفر بالإيمان، فصاروا من غير أتباعه.

وثانيهم: ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وهو محمد ﷺ الذي هو من نسله والداعي إلى التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وقد نصت عليه الآية الكريمة ولم تذكره ضمن الذين اتبعوه، لأنه تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

وثالثهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه، في هذا تنويه بشأنهم، وتقرير بأنهم أولى بإبراهيم من اليهود، لأنهم طلبوا الحق وتحروه، وأخلصوا دينهم لله.

وقوله-تعالى- ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ بشارة لهم بأنه ناصرهم ومتولي أمورهم.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «يقول - تعالى - أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي، يعني محمدًا ﷺ، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم، فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي ولاة من النبيين، وإن ولي منهم أبي وخليل ربي، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ (٢).

هذا هو موقف القرآن الكريم من محاجة اليهود للنبي ﷺ حول إبراهيم وملته، فقد وبخهم لمحاجتهم في إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده، وقرعهم لجدالهم في أمر لا علم عندهم به، ونفى عن إبراهيم أن يكون منهم، وقرر أن أولى الناس به هم الذين على ملة التوحيد وعلى رأسهم محمد ﷺ وأتباعه المؤمنون.

وهكذا أبطل القرآن الكريم دعاوى أهل الكتاب الباطلة في شأن إبراهيم، بالحجج الملزمة، والبراهين الساطعة، والأدلة القاطعة.

﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

(الأنفال: ٨).

جدالهم في نبوة عيسى - عليه السلام:

ومن المسائل التي احتدم فيها الجدل بين النبي ﷺ وبين اليهود نبوة عيسى - عليه السلام - لأن الإسلام يعترف لعيسى بالنبوة، وأنه من الرسل، وأن مثله:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(آل عمران: ٥٩)

وأن أمه صديقة مطهرة من كل ما يخدش المروءة والشرف.

١ - تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٢
٢ - تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٢

ولكن اليهود لا يسلمون بذلك، فهم لا يعترفون له بالنبوة، بل يرون أنه قد أتى عن طريق غير شريف، وأن أمه كانت امرأة بغيا.

أخرج ابن جرير – عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: «أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود، فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبى رافع، وآزار بن أبى آزار، وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ قال: أومن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به وما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دينكم فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (٣)

(المائدة: ٥٩)

ومعنى الآية الكريمة: قل – يا محمد – على سبيل التوبيخ والتبكيت والرد الملزم، لهؤلاء اليهود المنكرين لنبوة عيسى – عليه السلام – إنكم ما تعيبون علينا إلا لأننا نؤمن بالله ونوحده، ونؤمن بما أنزل علينا من عند الله، ونؤمن بالرسل السابقين – ومن بينهم عيسى – وبما أنزل عليهم، وما تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون، متمردون، خارجون عن دائرة الإيمان. فما تعيبونه علينا، وتكرهونه لنا هو عين الحق والصواب، ورأس الفضائل والمكرمات، وأساس السعادة فى الدنيا والآخرة.

فالآية الكريمة سجلت على اليهود أعظم أنواع المكابرة والجحود، إذ جعلوا الإيمان برسل الله موجبا للنقمة، مع أنه موجب للقبول والرضا والرحمة من الله – تعالى –.

ومن بلاغة القرآن الكريم وإنصافه لأهل الكتاب أنه لم يعمم حكم الفسق على جميعهم، بل جعل الحكم بالفسوق منصبا على الأكثرين منهم، لأن قلة من أهل الكتاب اتبعوا طريق الحق والإيمان.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت علام عطف قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾؟ قلت: فيه وجوه منها: أن يعطف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا فى دين الإسلام وأنتم خارجون عنه.. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون، ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفا على تعليل محذوف، كأنه قيل: ما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات، ويدل عليه تفسير الحسن، بفسقكم نقمتم ذلك علينا (٤).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبخت اليهود على كراهتهم للمؤمنين إيمانهم بالله وبكتبه وبرسله، بدون تفرقة بينهم، وكان من الواجب على هؤلاء اليهود أن يؤمنوا بما آمن به المؤمنون، وأن يشهدوا لعيسى بالنبوة كما شهد له بها النبى ﷺ وأتباعه المسلمون الصادقون، ولكن اليهود قوم لا يفقهون.

---

٣ – تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٩٢. سورة المائدة الآية ٥٩ (وتنقمون) تعيبون وتنكرون، لأن النقمة معناها الإنكار باللسان [illegible] بالعقوبة – كما قال الراغب – ونقم: ورد كضرب يضرب، وهي اللغة الفصحى التي جاء بها القرآن الكريم والأصل فيه أن يتعدى (بعلى) تقول: نقمت عليه بكذا وعدي فى الآية الكريمة (بمن) لتضمنه معنى تكرهون وتعيبون.

٤ – تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢٣.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

٥- عنوان الفتوى: «ليس للأم البيولوجية حق فى الطفل»

مصدر الفتوى: www.maariv.co.il ، ٢٠٠٤/٦/١٥ أفيشاى بن حاييم

فتوى من: حاخام إسرائيل الإشكنازى الأكبر يونا متسجر

أصدر حاخام إسرائيل الإشكنازى الأكبر يونا متسجر فتوى بأنه ليس للأم البيولوجية المسيحية حق فى ابنها إذا تم الانتهاء من إجراءات تهويده.

وكان الحاخام متسجر قد شارك أمس فى مؤتمر للقضاة فى شمال إسرائيل.

وقال فى كلمته أمام المؤتمر: إنه من حيث المبدأ ووفقًا للشريعة فإن الأم البيولوجية ليست مخولة بالتنازل عن ابنها، نظرًا لأن الارتباط بين الأم وأبنائها يختلف تمامًا عن ارتباط المالك بما يمتلك، وقال الحاخام متسجر إنه وفقًا للشريعة تظل الأم أمًا فى أى وقت.

واستدرك متسجر قائلاً: إنه على الرغم من أنه من حيث المبدأ من حق الأم البيولوجية، التى تنازلت عن ابنها، التراجع عن قرارها، ولكن الوضع يختلف عندما يتعلق الأمر بطفل تم تهويده، وقال متسجر: نظرًا لأن الأمر يتعلق بأم بيولوجية مسيحية أعربت عن موافقتها على أن يمر ابنها بإجراء تهويد من أجل تغيير دينه، فلا يكون لها حق فى ابنها إذا ما انتهت إجراءات تهويده وفقًا للشريعة.

وأضاف: لقد انتهى ارتباطها به وذلك وفقًا للشريعة التى تقول بأن الأجنبى الذى تهود يعتبر تهويده ميلادًا جديدًا من الناحية القانونية والشرعية وينهى ارتباطه البيولوجى بأمه.

عودة موسى إلى مصر ودعوته لفرعون

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

ذكرنا عود موسى إلى مصر، وأن موسى أخبر هارون بأنه شريك له فى الرسالة ومعين له على تبليغ حجة الله فامتثل أمر الله تعالى. فأنتم ترون أنه ليس بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى التوراة - خاصا بمواقف موسى المذكورة - سوى فروق ليست بذات بال.

ويقول بعض المفسرين: إن أمهما خافت عليهما وعارضت فى ذهابهما إلى فرعون خشية أن يبطش بهما فلم يصغيا لقولها ولم يكن لهما هم إلا تنفيذ أمر الله تعالى.

وبعض المفسرين يذكر أنهما دخلا على فرعون بمجرد استئذانهما عليه، وبعض آخر يقول إنهما ترددا على بابه سنتين لا يظفران بالمثول بين يديه حتى دخل عليه مضحكه وأخبره أن بالباب رجلا مجنونا يدعى أن له إلها غير فرعون فكان ذلك حافزا لفرعون على طلب موسى وهارون.

أما القرآن الكريم فلم يتعرض لشىء من هذا وإنما ذكر أنهما أتيا فرعون وبلغاه رسالة الله تعالى له، أن يرسل معهما بنى إسرائيل لعبادة ربهما وفى التوراة «أطلق شعبى ليعيدوا فى البرية» وبلغه موسى فيما بلغه أنه لم يقل على الله إلا الحق وأنه قد أرسل بآية منه ليرسل معه بنى إسرائيل وجعل ترخيصه لبنى إسرائيل بالذهاب مع موسى إلى البرية لعبادة ربهم نعمة يمنها فرعون على موسى.

وهذا من تلطف موسى ورفقه فى خطاب فرعون طبقا لقوله تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٤)

وهذه الآيات تدل على هذا الموقف من مواقف موسى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥)

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ١٧)

ومنها أيضا:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ٢٢)

لا تنسوا أن المفسرين يجعلون الآية الأخيرة:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾

توبيخا من موسى لفرعون أن جعل بنى إسرائيل عبيدا وأنه يتهكم به لذلك.

ولكنى أخالفهم فى ذلك وأقول إنه يتلطف به غاية التلطف ليحمله على إطلاق بنى إسرائيل قائلا: إن تعبيدك بنى إسرائيل أى تكريمك لهم وتمكينهم من عبادة ربهم أعده نعمة مننت بها على، تضاف إلى تربيتى فيكم وليدا وإلى مكثى بينكم فيكم من عمرى سنين. وما كان من شأن موسى أن يخرج الهزل فى معرض الجد ولا أن يلجأ إلى المعاريض والمجازات. ولكنه كان فى محاوراته كلها مثال الجد والصراحة يؤدى ما أمر به على الوجه الذى صدر له أن يؤديه ومهمته العظمى إنقاذ بنى إسرائيل من ذلك العذاب المهين الذى كانوا فيه وهذا طلب لذلك الأمر على وجه اللطف والرفق.

قد يقول بعض الناس: إن هذا المحمل الذى حملت الآية عليه لم يوجد لمفسر، وكتب اللغة لم تذكر هذا المعنى.

والجواب: إن محور رسالة موسى والغرض الأول المقصود بها هو إطلاق بنى إسرائيل، والحجة الظاهرة لهذا أنهم يريدون أن يعبدوا إلههم فى البرية، يعملون له عيدا «وفى العبرية حج» فهذا هو الغرض الأصلى الذى جاء موسى لتنفيذه وجاء بالآيات لحمل فرعون وقومه عليه وأما استعباد فرعون لبنى إسرائيل فليس من النعمة أو المنة فى شىء، وما كان موسى من المستهزئين أو الذين يأتون بالأمر يكون مغريا لفرعون بالعناد، والاستخفاف بمثل هذا الملك الجبار لا ينتج ما يرجو موسى فحمل المعنى على ما قالوه لا يجعل فى موسى حكمة الأنبياء الذين جملهم الله تعالى بها.

بل هذا القول إلى المشاكسة أقرب، ومن قوله تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

أبعد وأقرب المعانى إلى ذلك هو ما ذكرته.

ومعنى:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

أى كرمتهم وتكريمهم يكون بترقيه العذاب عنهم وإطلاق الحرية لهم فى عبادة ربهم وإرسالهم مع موسى لذلك.

والتعبيد بمعنى التكريم وارد فى اللغة العربية، فقد جاء فى لسان العرب «مادة (عبد) ما نصه» والمعبد: المكرم. والمعبد: المكرم فى بيت حاتم:

تقول ألا تبقى عليك فإننى
أرى المال عند المكثرين معبدا

أى معظما مخدوما وبعير معبد: مكرم اهـ.

وإذا عرفت هذا أيها القارئ الكريم عرفت أن الوجه الذى ذكرته أقرب إلى الغرض من إرسال موسى، وأجدر بأن تحمل الآية عليه.

تذكير فرعون موسى

تربيته فى بيت فرعون

لما دخل موسى على فرعون وأدى مقالته بواسطة هارون، كان فيما قال فرعون لموسى وذكره به. أنه ربى فى بيت فرعون وليدا ولبث فيهم سنين من عمره، وهذا يقتضى أن يكون حافظا للمودة حريصا على التباعد عن كل ما يغيظ فرعون وآله، فلا يروعهم بمعتقد غريب عنهم غير معروف لهم. وهو عبادة غير فرعون وآلهته، بل عليه أن يبادر إلى عبادة فرعون ثم ذكره بفعلته التى فعل من قتل الرجل القبطى

وهربه على أثرها فمن كان آثما إثمه لا يأتى بما هو أعظم منه وهو حملهم على ترك آلهتهم وتقديس فرعون وترك التوجه إليه بالعبادة فرد موسى على هذه المسألة الأخيرة بقوله:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(الشعراء: ٢٠-٢١)

وهذا الموضع من الحوار بين موسى وفرعون لم يذكر فى التوراة.

موسى يحاج فرعون فى ربوبية الله تعالى

لما فرغ موسى مما قال وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا إلهم فى البرية ـ وفرعون رجل عات تدين الأمة المصرية بعبادته وتذعن بقداسته، وقد فجأه من موسى أمر لا يقره ولا يرضاه. وهو محاولة إنزاله عن عرش الربوبية ـ أخذ على أثر ذلك يحاوره موسى فيسأله ما رب العالمين؟ قال: رب السموات والأرض وما بينهما، خالق ذلك ومبتدعه. فالتفت فرعون إلى من حوله من ملئه مظهرا العجب قائلا: ألا تستمعون! واستمر موسى قائلا:

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

(الشعراء: ٢٦)

أى حين لم يكن فرعون موجودا ولا معبودا فقال فرعون لملئه:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾

(الشعراء: ٢٧)

لأنه جاءنا بشىء لا نعرفه ولا نقره فاستمر قائلا:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(الشعراء: ٢٨)

ولما علم موسى وهارون عدم ارعواء فرعون عن غيه، وتماديه فى ادعاء الربوبية وأنه مكذب لا محالة قالا له:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

(طه: ٤٨)

فقال لهما:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾

(طه: ٤٩)

فأفهمه أن إلهه هو الذى أحصى كل شىء خلقه فهو الذى أعطاهم الحواس والعقول، وخلق لهم ما فى الأرض جميعا، وجعلهم فيها خلفاء، وصرفهم فى خيراتها ومرافقها وما عليها من حيوان، وجعلهم مستخلفين فى كل ذلك، وهداهم إلى الانتفاع بكل شىء فى مصالحهم كل فيما يصلح له فسأل فرعون عن القرون الأولى، فأحال موسى على الله الذى علم كل شىء من شئونها، وأن ذلك فى كتاب، وأن الله لا يضل عن أعمالهم ولا ينسى منها شيئا وسيحاسب كل إنسان بما صنع ثم ذكر من قدرته على ما صنع ويصنع ما تجب بمثله الحجة على قدرته وحكمته واستحقاقه للعبادة قائلا:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

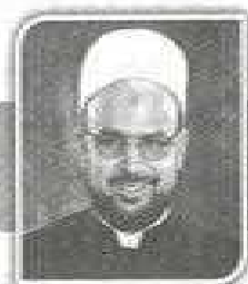
(طه: ٥٣)

أى أخرج به أنواع النبات على تعدده وأزواجه وتباين ألوانه وسهل للإنسان ما يأكله ولماشيته ما ترعاه وأن من كانت هذه أعماله، كانت تلك الأعمال آيات يهتدى بها ذو العقل السليم.

ثم قال: إن الأرض منبتنا الذى أنبتنا الله منه وفيها يعود الناس إذا فنيت حياتهم ومنها يخرجون مرة أخرى لمجازاة كل بما صنع.

يتبع

الإمام المجدد محمد عبد الله دراز وجهوده فى خدمة السنة النبوية



للشيخ أحمد مصطفى فضلية
مبعوث الأزهر الشريف لنيجيريا

٥. أهمية كتاب المختار فى تصحيح العقيدة وتدعيم حقائق الإيمان:

ويشهد علماء السنة فى العصر الحديث أن «المختار من كنوز السنة» للإمام دراز من المعالم التى رفعها على الطريق يعالج بها قضايا تكلف فى شأنها المتكلفون. منهم من بشر وأفرط فى التبشير واغتر بالأمانى وفتح أبواب الجنة عريضة للعالمين، ومنهم من نفر فغالى فى التنفير وصد عن أبواب الجنة جموعا من المسلمين، ومنهم ومنهم. مذاهب مجمل القول فيها أنها سبيل بلبلة وقلق واضطراب يضرب الناس فى أنحائها حيارى، قاب قوسين أو أدنى من انهيار تنسف به ركائز الرجاء والخوف والثقة.

وهكذا تتزلزل القيم، وتتزحزح الأمة عن المقام الوسط الذى تمركزت فيه وكانت به أمة وسطا تعتدل بين الرجاء والخوف.

فالإمام دراز فى بحوثه فى مختاراته، ينشد الأغوار، ويلمس بتوفيق ربانى أوتار المشكلات، وعند القضايا التى يعرضها يستقصى فى عمق الأبعاد، ويمحص بثقة الآراء.

ويمتح أعماق الكلمات حتى يربط بين سائر معانيها، والمعنى الإصطلاحى بطيل رشاءه، ويجند قدراته الواعية فى تقليب كل الوجوه التى تتحملها متون الأحاديث المختارة، من غير هضم ولا هدم، دون أن تكبه العجلة أو يشكله الغرور، فيجمع رافضا، مغريا غيره باعتناق فكره كما يفعل أدعياء المعرفة وعشاق الريادة والظهور. بهذه الروح خاض الإمام دراز غمار قضايا معقدة يخطر فيها وتزل الأقدام يقف حيالها وقفات تطول وتقصر تبعا لمقتضى الحال وعمق المستقى، فإذا أشرف على الدخن ومثار الفتن جال وصال واستطرد واستقصى حتى يخسع الدخن وتسكن الفتن.

٦. قضايا ومشكلات عالجها المؤلف فى كتابه

والعجيب أن جل مختاراته من هذا النوع الذى تصطرع فى حلبته الآراء، وترقص الأهواء،

وتعدد المذاهب منذرة بتفكك الوحدة، وتفرق الكلمة، وتمزق الأمة.

واختياره لهذه النوعية المتميزة من كنوز السنة لم يجئ عفو الخاطر، ولكنه نثر الكنانة واصطفى من الأحاديث أحفلها بالشبه وأجمعها للغموض، وأكثرها تداولا بين أهل الأهواء والفرق. وهو حين يركز على هذه النوعية إنما يريد أن يسد مداخل الفتن ويكبح جماح الشيطان، ويضمن لقرائه الأمن والأمانة والإيمان.

وغايته أن يجلى أن الدين لا يساس بالعقل فالعقول لا منهل لها من معين واحد، وأن حصائد العقول يبطل بعضها بعضا، من هنا كان التعويل على العقل فى رد النص سبيل تفرق وتهلكة، يريك الإشراق فى فكر فرقة من الفرق ثم يقذف عليه بفكر فرقة أخرى فيبهرك وترى فى وميضه الفكر الأول زهوقا خامد الأنفاس[1].

هكذا ينتقل بك من فكر إلى فكر ثم يعرج بك فى مبارح السلف، ويوثبك مقامات السنة حيث تجد عندها السكينة والشفاء وتتم بعدها كل محاولات وزن مسائل الدين بالعقل. إذ هى محاولات لا تلد غير التباعد، ولا تورث إلا الضلال؛ والهدى كل الهدى فى طريقة السلف، أن نؤمن بما جاء، ونفوض إلى الله علم ما يعرض من شبهات.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

(آل عمران: ٧)

ولهذا يرى الإمام دراز فى كتابه المختار من كنوز السنة: أن من جاوز المحكمات وخاض فى المتشابهات يضطرب الأمر أمامه، وقد يؤدى به إلى تحكيم نزوات العقل فى صريح النقل، بل إلى تحكيم الهوى فى النقل فيكون ممن اتخذ إلهه هواه وأضله


د. محمد عبدالله دراز

الله على علم وختم على سمعه وقلبه، وهو فى مسيرته إلى هذه الغاية يعالج معتقدات مبعثها اللبس والخلط وعاقبتها الخرافة والوهم. وعلى سبيل المثال تجده فى صفحة ١٢ يفصل بوعى قضية الإلهام وصادق الأحلام، فيقرر أن الأحلام الصادقة قد يشارك فيها غير الأنبياء، ويبين أن ما يقع للصالحين من الإلهامات ليس من العلوم اليقينية فى شىء، وإنما هى سوانح مظنونة قد تلتبس فيها لمة الملك بلمة الشيطان.

وإن الرؤى الصادقة قد تعرض للفساق والكفار وهو بتقرير هذا إنما يريد أن يفسد ألاعيب الدجالين والمشعوذين الذين يوسوسون بالأوهام ويشرعون بالأحلام، ويحذرون ضحاياهم برؤى مفتعلة كاذبة، يزعمون أنها تجيء كفلق الصبح، وهم بهذه البدع المفتراة يمسخون وجه الإسلام الجميل.

والإمام دراز لتقديره خطورة هذه القضايا يخصص لها بحوثا تمهيدية تعين على فهم المعانى الدقيقة التى يعالجها فهو مثلا حين يبحث فى كلمتى الإيمان والإسلام، يستفتح يبحث عن الكلمتين ثم يجول فى معطياتهما ويستطرد بلا شطط فيتكلم كلاما طيبا عن زيادة الإيمان ونقصه من حيث الأدلة، ومن حيث قضاياه وما تستتبع من تفاصيل تثرى المفهوم، وتوسع آفاق العلم، وتفسح رقعة الإيمان.

ويواصل الإمام دراز الحديث فى بحوثه فتنم عن تبرمه وإنكاره على أولئك الذين يقفون على شفير جهنم منذ كلفوا بالمتشابهات فكأنه رحمه الله انزعج مبكرا بهذه الحركات الخرقاء التى تستهدف كيد الإسلام بما تنكر من أحاديث وترفض من مقدسات. ينظر ببصيرة نفاذة، ويتحدث باستفاضة عن نوع من المعلومات الدينية يحمل فى نفسه شاهد صدقه، وصدق ما وراءه من كليات.

وعن نوع آخر قد يثير الشكوك وينقض الأصول بما يعكس من مشكلات ويحمل من شبهات تلتبس على العقول التى تسلم أشرعتها للرياح الهوج فتتفتح أبواب الفتنة ومنافذ الحيرة والشك، وربما كان مبعث كل هذا جزئية لم توافق الهوى فعميت عليهم مسالك الهدى، وتاهوا عن صواب ينتعش فى التضاعيف. ومثل هذه العقليات الصابئة العمياء كثيرا ما تلتقى لتشكل جبهة سعادتها فى الرفض والإنكار.

ورب آخرين اهتدوا فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم يتلقون عن تلك الجزئيات التى أثارت فى نفوس أولئك ما أثارت ولكنهم يتلقونها بروح مؤمنة ونفس مشرقة.

فلا يرون فيها نبوا ولا إشكالا ولا يجدون فى أنفسهم إلا إيمانا وتسليما.

هكذا يتفاضل الناس وتتفاوت درجات الإيمان فهذا الذى يستعين على الخفى بالجلى يرد المتشابه إلى المحكم، ويهتف آمنت به كل من عند ربنا، أزكى نفسا وأنقى روحا وأكمل إيمانا من ذلك الذى شد إلى بواعث العبث وتخبط وأشرف إيمانه على الانهيار.

بهذا العمق والإصابة واجه الأستاذ الإمام محمد عبدالله دراز مشكلات الأحاديث وشطحات الفرق، ولهذا العمق آثرنا بسط الحديث عن هذا الكتاب الذى لا يسد مسده سواه. والذى يعد به الإمام من أكابر علماء السنة فى العصر الحديث داعين الله أن يسد به خصاصة المسلمين، ويجعله ركنا يأوى إلى بابه ويستمد من رحابه الزود عن الحديث النبوى الشريف. وأن يعم نفعه خاصة المسلمين وعامتهم[2].

٧. أصل كتاب المختار من كنوز السنة

لما أسند للإمام محمد عبدالله دراز درس الحديث النبوى لطلاب كلية أصول الدين بالجامع الأزهر الشريف فى أبواب مختارة من كتاب «تيسير الوصول» الذى وضعه العلامة «الزبيدى» الشافعى المتوفى سنة ٩٤٤هـ وكان هذا الكتاب كأصله وأصل أصله «فأصله جامع الأصول للإمام ابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦هـ وأصل أصله هو «التجريد فى الجمع بين الصحاح» للحافظ رزين العبدرى المتوفى بعد سنة ٥٢٠هـ مجموعا من الكتب الستة المشهورة:

«موطأ مالك» ٩٥ - ١٧٩هـ و«صحيح البخارى» ١٩٤ - ٢٥٦هـ و«صحيح مسلم» ٢٠٦ - ٢٦١هـ و«سنن أبى داود» ٢٠٢ - ٢٧٥هـ و«جامع الترمذى» ٢٠٠ - ٢٧٩هـ و«سنن النسائى» ٢١٤ - ٣٠٣هـ مع بعض زيادات انفرد بها «رزين العبدري»[3].

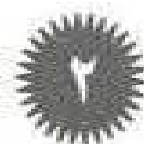
يتبع

(١) انظر مقدمة الشيخ (بخارى أحمد عبده) لكتابه المختار من السنة، طبعة دار الأنصار بالقاهرة.

(٢) نفس المصدر ص ل م.

(٣) انظر مقدمة الإمام محمد عبدالله دراز لكتابه - طبعة قطر.

علي الغاياتي.. شاعر الإسلام والوطنية



بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود



كان ديوان «وطنيتي» لعلي الغاياتي مصدر شهرته واهتمام الرأي العام في مصر به، وقد صدر في ظروف كان فيها قانون المطبوعات يمثل أداة قمع لا تعرف الرحمة ضد الصحف والشعراء والكتاب والخطباء الذين يتناولون دولة الاحتلال أو حكومة الاستبداد المصرية التابعة لها، وقد صدر أول قانون للمطبوعات في مصر في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م، في عهد الخديوي «توفيق»، لكن هذا القانون لم يتم العمل به حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية بعد حادثة دنشواي وحالة الغضب المكتوم التي اجتاحت الرأي العام المصري على هذه البشاعة التي تمت بها محاكمة دنشواي، لذا طلب الإنجليز من حكومة «بطرس غالي» (١٨٤٦-١٩١٠م)، ضرورة عودة قانون المطبوعات مرة أخرى، فأصدر مجلس الوزراء في ٢٥ مارس ١٩٠٩م قرارا بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديوي «توفيق»، وكان الهدف منه مراقبة الصحف، ومصادرتها، وإغلاقها إذا اقتضى الأمر، وكان هذا القانون لوضع القيود على الأقلام، ويلاحظ أن وزارة بطرس غالي باشا قدمت تنازلات كبيرة للاحتلال، وفرطت في كرامة المصريين، ووضعت أول لبنة في تقسيم السودان، وهو ما دفع شابا وطنيا إلى اغتياله.

وقد حاول الشعراء والكتاب الالتفاف على قانون المطبوعات القديم والجديد؛ ليمرروا أفكارهم وتصوراتهم إلى الناس دفاعا عن حرية مصر، وسعيا لاستقلالها عن المحتل الإنجليزي. من ذلك مثلا ما فعله الشاعر «حافظ إبراهيم» عندما كتب قصيدته الشهيرة «عمر بن الخطاب» التي اشتهرت باسم العمرية، وهي قصيدة طويلة ألقاها الشاعر بمدرج كلية الآداب في الجامعة المصرية بدرب الجماميز

وعبر فيها عن الدعوة إلى الحرية والعدل والمساواة والكرامة والحكم الرشيد من خلال شخصية الخليفة عمر التي بهرت العالم في زمانه، ومواقفه العديدة منذ جاهليته حتى وفاته خليفة للمسلمين، وإن كان حافظ يبدأ القصيد بمصرع عمر الذي أثار حزن الأمة كلها، ويعتذر عن عدم قدرته على توفية الفاروق حقه، ويدعو على قاتله الذي طعنه في خاصرته منتقما من الحنيفية فأصبحت دولة الإسلام في خطر تشكو الوجيعة بعد فقدان الطبيب وهو الفاروق:

مضى وخلفها كالطود راسخة
وزان بالعدل والتقوى مغانيها
تنبو المعاول عنها وهي قائمة
والهادمون كثير في نواحيها
حتى إذا ما تولاها مهدمها
صاح الزوال بها فاندك عاليها

وبعد أوصاف لدولة الإسلام في عهد عمر يعود إلى إسلام عمر، وكيف كان إسلامه دائما فقرت بصحبته الحنيفية وحققت أمانيها، ويركز حافظ في القصيدة على فكرة الشورى وتأثيرها في الدولة وأهميتها للمسلمين، وكأنه يشير إلى دولة الاستبداد القائمة في مصر، فيخاطب عمر:

يا رافعا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها
وللمنية آلام تعانيها

تسهب القصيدة في تقديم مواقف عمر وأخلاقه وصفاته وعلاقاته مع الصحابة وغيرهم، ورجوعه إلى الحق، وإنفاذه للعدل ولو كان على ابنه، حتى يصل إلى الخاتمة:

هذي مناقبه في عهد دولته
للشاهدين وللأعقاب أحكيها
في كل واحدة منهن نابلة
من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل في أمة الإسلام نابتة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر
حتى ينبه منها عين غافيها

بهذه الطريقة استطاع حافظ إبراهيم أن يتجاوز قانون المطبوعات، ويلتف عليه ويقول ما في نفسه، ويخاطب الشعب بما يريد دون أن يقع تحت طائلة هذا القانون وذراعه الباطشة بالعسف والجور والأذى ويتناقل الناس القصيدة مشافهة أو عبر كتابتها في أوراق من خلال الذاكرة.

بيد أن الغاياتي لم يفعل ما فعله حافظ وغيره، وفضل أن يواجه الاحتلال والاستبداد مباشرة، فكتب ديوانه «وطنيتي» الذي يضم قصائده الثائرة، ويصدره بمقدمتين الأولى للزعيم محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩م)، والثانية للشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦-١٩٢٩م).

كتب محمد فريد في مقدمته لديوان وطنيتي يقول:

«الشعر من أفضل المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها وبث روح الحياة فيها، كما أنه من المشجعات على القتال وبث حب الإقدام والمخاطرة بالنفس في الحروب ولذلك تجد الأشعار الحماسية في قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم

علي الغاياتي.. شاعر الإسلام والوطنية

المجيدة كالرومان واليونان وغيرهما ».

ويشير فريد إلى أنشودة المارسيليز الفرنسية التي كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربا الذين تألبوا لإخماد روح الحرية فيها، ويتطرق إلى أهمية الأناشيد والأغاني الوطنية في تربية الأطفال والشعوب، ثم يحمل على الأغاني السخيفة وقصائد المدح الفارغ للحكام والأمراء والوزراء، وابتعاد الشعراء عن كل ما يربي النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال؛ ويعزو ذلك إلى الاستبداد؛ وهو ما جعل خطب الجمعة تخلو من موضوعات الحياة وتكتفي بالتزهيد في الدنيا والحض على الكسل وانتظار الرزق بلا سعي ولا عمل.

ويشيد محمد فريد بالنهضة المباركة التي عرفتها مصر وجعلت الشعراء يتركون نظم قصائد المديح للأمراء والحكام وينصرفون إلى وضع الأشعار الوطنية ووصف الشئون السياسية التي تشغل الرأي العام « وقد لاحت وطنيتي في طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة »..

ويضيف فريد إلى ذلك التعبير عن سروره لأن شعراء الأرياف وضعوا عدة أغان وأناشيد في مسألة دنشواي وما نشأ عنها، وفي مصطفى كامل رحمه الله ومجهوداته الوطنية، وفي موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعاتها.. ويدعو في ختام مقدمته إلى استعمال المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة وتربيتها «بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء وتملق الأمراء والتقرب من الوزراء، فالحكام زائلون والأمة باقية» ، (وطنيتي: تحقيق الطماوي، ص ٥٥ - ٥٦).

وواضح أن محمد فريد مع انشغاله بالسياسة ومشكلاتها إلا أنه كان واعيا بأهمية فن الشعر في إنهاض الأمة وتحريكها إلى اليقظة والتطور، ولذا كانت نظرته إلى قيمة المارسيليز، وتأثيره على الفرنسيين نظرة واعية ثاقبة، وسنرى الشيخ الغاياتي يترجم الأنشودة كاملة في مقدمة ديوانه في طبعاته التالية إيمانا منه أن قيمة هذا النشيد مرادفة لقيمة الحرية.

ولا ريب أن نظرة محمد فريد لطبيعة دور الشعر تؤكد على نظرة نقدية متقدمة في زمنه، مع أنه غير متخصص في نقد الشعر، وهي النظرة التي حكمت مقدمة عبد العزيز جاويش بصورة ما، فقد تحدث عن طبيعة الشعر الذي يتجاوز الأوزان والتفاعيل والعجمة المتفشية والذوق السقيم إلى امتلاك القلب ورؤية آثار الانفعالات النفسية بنفس واضحة ويستشهد بإجابة لأرطاة بن سهل حين سأله عبد الملك بن مروان: كيف أنت الآن في شعرك؟

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربعة.

ويختم جاويش تقريظه لديوان الغاياتي بالقول:

« ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعاني بين إحكام التأليف وصدق العبارة، فليقرأ شيئا من « وطنيتي »، ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها؟ (وطنيتي، ص٥٧ - ٥٩).

بالطبع لم يتطرق أي من الرجلين محمد فريد وعبد العزيز جاويش إلى النواحي الفنية التطبيقية في شعر الغاياتي، واكتفيا بالكلام المجمل حول طبيعة الشعر الجيد أو المطبوع وتأثيره في المجتمع، مع الثناء على الغاياتي وشعره بصفة عامة؛ لأنه يحقق أهداف الأمة في الحرية والنهضة ومقاومة الاستعمار والاستبداد؛ وهو ما أفادت منه الحكومة المستبدة الموالية للاستعمار في تقديم الرجلين مع الشاعر والشيخ «محمد حسن القزويني» المحرر بجريدة «العلم»، و«إلياس» أفندي صاحب المطبعة إلى القضاء للنيل منهم، وخاصة فريد وجاويش، وهما من هما في الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال والاستبداد؛ فمحمد فريد هو خليفة الزعيم الوطني الشهير مصطفى كامل الذي استطاع أن ينقل القضية المصرية إلى المحافل الدولية؛ ويفيد من قضية دنشواي إلى أبعد مدى، وهو الذي لا يكف الليل والنهار عن مطالبة الإنجليز بالجلاء والحصول على الاستقلال، أما جاويش فهو من كبار الخطباء في الحزب الوطني، ومن أعلام الصحافة الذين يوجهون مدفعيتهم الثقيلة (الكلمة) إلى حصون الاحتلال والحكم المستبد، فألهب المشاعر الوطنية عندما تولى تحرير «اللواء»، و«العلم»، وقد سبق حبسه ثلاثة أشهر بسبب مقال في «ذكرى دنشواي» في العام ١٩٠٩م.

وبعد صدور الديوان ونشره على الناس، قامت الحكومة المصرية بمصادرة الديوان

عام ١٩١٠م، وتقديم الشاعر وكاتبي المقدمتين إلى المحكمة التي حكمت على الغاياتي بالسجن لمدة سنة؛ وعلى الزعيم محمد فريد بستة أشهر؛



عبدالعزيز جاويش

وعلى عبد العزيز جاويش بثلاثة أشهر، وقد نفذ الحكم في فريد وجاويش بينما استطاع الغاياتي أن يهرب إلى الخارج ليقيم في تركيا ثم في سويسرا حتى عام ١٩٧٣م.

كان صدور الديوان فرصة ذهبية للاحتلال والحكومة المصرية للانتقام من محمد فريد وعبد العزيز جاويش اللذين يمثلان الحزب الوطني وسياسة الزعيم مصطفى كامل الذي أقض مضاجع الاحتلال والحكومة المستبدة، وكان سجن فريد وجاويش فرصة لعرقلة الحركة الوطنية وإيقاف تقدمها بالإيقاع باثنين من أهم زعمائها وإدخالهما السجن.

لقد أعدت عرائض الدعوى وجهزت التهم ،واستعدت المحكمة التي تكونت برئاسة محمد مجدي بك وعضوية علي ذو الفقار بك ومسيو سودان، ورأس النيابة توفيق نسيم، أما هيئة الدفاع عن المتهمين فتكونت من كل من أحمد بك لطفي ومحمد بك أبو شادي وعبد السلام ذهني.

كانت تهمة الغاياتي القذف في حق الوزراء والمحاكم والحض على كراهية الحكومة، وتهمة فريد وجاويش تحريض الغاياتي على الكتابة في تلك الموضوعات.

«يتبع»

من تراث الهلال:

من رحلاته في ربوع الوطن العربي:

عبدالوهاب عزام سفير العروبة الجوال

للأستاذ عاطف مصطفى

حرصت «الهلال» فى عصرها الذهبى على الاستفادة من كبار المثقفين المصريين والعرب وفى مقدمتهم علماء الأزهر الشريف، وأفردت لهم صفحاتها، بل إن رؤساء تحريرها الذين عشت بينهم كانوا يتسابقون فى الاهتمام باستقطاب هذه القامات الكبيرة، ومن رؤساء التحرير الأساتذة كامل زهيرى ورجاء النقاش والدكتور على الراعى والشاعر صالح جودت والدكتور حسين مؤنس وكمال النجمى ومصطفى نبيل وامتد ذلك من عام ١٩٦٣ وحتى عام ٢٠٠٥.

وهذا الشهر نعرض مقالا لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى بعنوان: «مصريون فى بلاد العرب: عبدالوهاب عزام سفير العروبة الجوال» والذى نشر فى عدد يونيو ١٩٨٦م.

يبدأ بقوله: ماذا تقول فى إنسان كانت نهضة العروبة والإسلام هى شغله الشاغل، محاضرًا فى كليته، ومتحدثًا مع رفقته، ومؤلفًا فى كتابه، وشاعرًا فى ديوانه، لأن عزاما كان ذا رسالة إصلاحية تملأ عليه حياته، فهو لا يتجاوزها إلى غيرها من فنون يسهل الحديث عنها، لدى من يكتب فى كل موضوع، وإن تناقض مع نفسه حين يكتب مرة عن ذوى المثل الرفيعة.

إن أصحاب الرسالات العالية من حملة الأقلام قليلون، ولئن ذكرنا فى طليعتهم محمد فريد وجدى، وشكيب أرسلان، ومصطفى صادق الرافعى، فإننا نذكر معهم عبدالوهاب عزام.

صفحات من التاريخ

ويضيف الدكتور البيومي: من حظ المكتبة العربية أن حظيت بمجلدين نفيسين، دون فيهما عبدالوهاب عزام رحلاته المتعددة إلى البلاد العربية والإسلامية فكانت جولاته مصدر نفع كبير للقارئ الأديب، لأن الرحالة الهادف لم يخط كتابيه دون مقصد أصيل يتوخاه، إذ أراد أن يربط قلوب قرائه بأهداف عزيزة، حين يلمون بأنباء إخوانهم فى ربوعهم النازحة.

وإذا كانت جولاته وجل رحلاته فى بلاد الإسلام، فلأن كتب الرحلات الأوروبية والأمريكية قد ملأت الأيدى وشغلت القراء، ومن حقهم أن يعرفوا الجار اللصيق والأخ القريب، كما يعرفون ذوى الشهرة من أصحاب السيطرة السياسية فى عالم اليوم، لاسيما وعزام يعرف حقيقة الشعور المصرى ويعبر عنه أصدق تعبير فى قوله:

«يذهب المصرى إلى أحد الأقطار العربية فكأنما يبرح قطعة فى مصر إلى أخرى، يرى وجوها يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضى والحاضر ما يسمعه فى بلاده، ويحدث عن الهموم والمطامح التى تنطوى عليها نفسه، ويخفق بها قلبه، حيثما توجه وجد أهلا بأهل، وإخوانا بإخوان، وأبصر من ذكر التاريخ ومشاهد الحاضر، وخطط المستقبل ما يوحى إليه أنه فى وطنه وبين قومه، وأنه لا يذهب إلى هذه البلاد إلا ليرى بعينه ما حدثه به التاريخ، وأحكمته فى نفسه النشأة والتعليم.

ذهبت مرات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيل إلىّ أينما سرت، أنى لا أخطر إلا على صفحات من التاريخ المجيد، ولا أرفع بصرى إلا على عنوان من عناوينه، فى صورة مسجد، أو قبة وضعت على عظيم من أسلافنا، أبطال الإسلام والعربية، وطوفت فى العراق مدنه وقراه، وحضره وباديته، فكانت بغداد عندى القاهرة، بل أجل ذكرًا، وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثرا فى نفسى من طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت مضارب شمر وبنى تميم أذهب بى فى التاريخ من مضارب القبائل المصرية، أما دمشق الجميلة الجليلة، فما دخلتها إلا ازدحمت علىّ أحداث التاريخ، ودفعتنى مواكبه، فسارعت إلى المسجد الأموى أنشد قول شوقي:

هذا الأديم كتاب لا كفاء له
رث الصحائف باق منه عنوان

ولست بدعًا فى هذا، فما أحسب مصريا ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به. يعلق على ذلك كاتبنا الدكتور محمد رجب البيومى قائلا: بهذه الروح الصافية كتب عزام رحلاته، فكانت صدى لمشاعره القوية، وترجمة لإحساس إنسانى نبيل، وليس من موضوعنا أن نتحدث عن تركيا وإيران والهند والباكستان، فقد يأتى وقت قريب يتيح لى أن أجول فى هذا النطاق، إنما أقصر حديثى على شذور مما كتب به عزام فى رحلاته إلى السعودية ودمشق وبغداد لنرى كيف كان هذا الرحالة، سفيرا قبل أن يكون سفيرا سياسيا ببعض البلاد.

حياة حافلة فى بلاد الحرمين


عبدالوهاب عزام

عاش عبدالوهاب عزام طيلة حياته مرفرفا فى أجواء الحجاز، تصور روحه على البعد مشاعر النور فى مكة ومعا مع الجهاد فى المدينة، ومسرى الروح الأمين بين حراء وقباء، وقد ألهمته هذه الربوع أرق ما تلهم الأماكن الحبيبة من بيان حى يتوثب وقد قدر عليه أن يسلم روحه بالرياض، إذ كان يعمل مديرا لأول جامعة هناك، فمكث عامين يشرف على الدراسة، بعد أن وضع الخطة وأحضر الأساتذة، وطبق المنهج، ورأى بعينه بشائر الأمل تنمو زاهرة، يرجى يومها الحالم بغدها الناضر.

ومن قبل كان السفير السياسى لمصر فى جدة، فكان بارعا بين السفراء، إذ كانت دار السفارة مراح أولى الفكر من رجال الأدب والعلم والدين، من مواطنى الحجاز الذين عرفوا الكاتب البحاثة، وتتلمذوا على مؤلفاته، وفهموا عشقه الصوفى لبلادهم قبل أن يروه، فهرعوا إليه ليكونوا عونه على ارتياد مواطن العزة فى الجزيرة، فاختاروا صحبته إلى بدر وحمراء وثور والطائف وعكاظ وشفوا غلته، إذ أشبعوا نهمه العلمى فى التحقيق الميدانى الكاشف.

لقد اقترح الدكتور عزام وهو عميد كلية الآداب بمصر على جامعتها المصرية أن تبعث فى الجزيرة العربية بعثا فيه من المؤرخين والأدباء والجغرافيين والمهندسين من يضعون مصورات للجزيرة العربية يبينون المواضع التى ذكرت فى التاريخ الإسلامى منذ إشراقه، كما يحققون الوقائع التاريخية، ومنازل القبائل القديمة، ذكر ذلك الدكتور يحيى الخشاب فى كلمته التأبينية عن أساتذة بالمجمع ثم

عقب قائلا: «ولم يكد الأستاذ يعمل سفيرا لبلاده بالجزيرة العربية، حتى قام بنفسه بما كان يوصى به غيره، ولم يحل بينه وبين هذا الواجب تقدم السن وضعف البدن، وكما ارتحل الأستاذ إلى أنحاء الجزيرة، فكذلك فعل وهو بالهند وباكستان وإيران، إذ كانت الأمة الإسلامية بعربها وعجمها أهم ما يفكر فيه الأستاذ، وغاية ما يرمى إليه فى رسالته.

خواطره فى رحلاته حول الحج

يواصل الدكتور رجب البيومى الحديث عن عزام: ومن آثاره العلمية فى هذا المجال كتاباه «مهد العرب» و«موقع عكاظ»، والجهد فى الكتاب الأخير، أوضح من أن يدل عليه، فكما وقف الدكتور محمد حسين باحثا عن مكان عكاظ، ومسجلا خواطره، ونتائج رحلته العملية فى كتابه الخالد «فى منزل الوحى»، فكذلك وقف الدكتور عزام مع نفر من حوارييه يتأمل الجرعاء الممتدة، ويقيس الأبعاد والأطوال، ليتحدد موضع هذا الأثر التاريخى الفذ، وإذا كان أعلام المؤرخين من أمثال الهمدانى والبكرى والأزرقى واليعقوبى، وابن هشام وابن حبيب والإدريسى وياقوت، قد اختلفت أقوالهم فى التحديد الدقيق لعكاظ، فأى جهد بذله الرحالة الباحث للاهتداء لهذا المكان، وقد تبعه من ناقشه دون أن يصل الأمر إلى حسم صريح، فالأقوال كثيرة، والآراء متشاجرة، وقصارى الباحث أن يرجع دون يقين.

اقتراحات لتسهيل رحلة الحج

وقبل السفارة وإدارة الجامعة، قام عزام بحج البيت أكثر من مرة، وسجل فى رحلاته خواطره الدافقة، منذ فارق مصر فى رحلات الإيمان، حتى رجع إليها، فهو فى الرحلة الأولى يوازن بين الحج فى العهود القديمة، حيث السفر الممتد والرحلة الشاقة عن طريق البر، وبين الراحة النسبية والوقت القصير عن طريق البحر.

ويتحدث بإعجاب عن الأمن الآمن فى الطريق، إذ يرتحل الناس مطمئنين على حاجتهم، ومن سقطت منه حقيبة وجدها تسبقه لدى الشرطة إذا كتب عليها اسمه، أو رجع إلى مكانها ليجدها دون أن تمتد إليها يد.

أما خواطره المؤمنة فى هذه الرحاب الوضيئة، فقد كانت أقرب إلى الشعر حين يصف العيون المتطلعة إلى المسجد الحرام، والزفرات المترددة فى شوق والألسنة الهاتفة بالذكر، والقارئ الصادح بالقرآن، والمؤذن المغرد بقول الله أكبر، والملبى الهاتف لبيك اللهم لبيك.

يقول عزام: كم قلب محزون حمل إلى هذا الجانب شكواه، وفؤاد معذب بث فى هذه الساحة نجواه، وكم آثم حط فى هذا الفناء الأوزار، ليمسحها بالتوبة والاستغفار، وكم نفس مظلومة ترفع ظلامتها، وأخرى ظالمة تعترف بجنايتها.

إن الدعوات تهفو إلى الكعبة مع النسيم، أترى سويداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء، أم أناسى العيون تراكمت فكانت هذه البنية السوداء.

اقرأ مثل ذلك فيما كتبه عزام عن عرفات ومنى، واقرأ أرق ما أوحى به الإيمان الخالص، فيما كتبه عن الروضة الشريفة بالمدينة المنورة مثوى رسول الله ﷺ، فتلك صحف مزدهرة لا ينقطع لها عبير.

الشاعر والناثر فى زيارة ربوع دمشق

يتناول الدكتور رجب زيارات عزام إلى سوريا فيقول: رحل عزام إلى سوريا أكثر من مرة، رحل إليها فى بعثة الجامعة المصرية مع فريق من أساتذتها الكبار، ورحل إليها عند الاحتفال بالذكرى الألفية لأبى الطيب المتنبى، حيث ألقى بحثا علميا عن الشاعر الكبير، ثم رحل مرة ثالثة إلى سوريا عند الاحتفال بالذكرى الألفية لأبى العلاء المعرى.

وقد سجل انطباعاته عن هذه الرحلات، فوصف ما شاهده من البلاد والحدائق والأنهار وتحدث عمن قابلهم من أعلام الأدب والسياسة، ومن هرعوا لاستقباله من الأساتذة والطلاب.

فى مجال الشعر عن دمشق يهتف بقوله:

أحيت دمشق رميم الشعر فى خلدي
لا غرو أن تبعث الأشعار أشعار
كلا فؤادى وطرفى فوق بهجتها
بين الحضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب ونجوى من نضارتها
ورب أخضر منه تقدح النار
واها لقلبى إن يبد الجمال له
سطرًا تبدت من الآلام أسفار

وتابع الشاعر شوقيا فى معانيه، فتحدث عن المسجد المعمور، وصوت مؤذنه، وعن أمية وقرطبة، وعن الغوطة الخضراء وتدمر، ولن أظلمه شيئا حين أقول إنه احتذاه فى بعض سبحاته، وانفرد عنه فى بعض آخر.

وفى مجال النثر يخاطب عزام صديقه الأستاذ أحمد حسن الزيات قائلا: لعلك رأيت دمشق فأسعدك مرآها، ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل تحيط به الحدائق الشجراء، متصلة بين المزة والغوطة، فسرحت الطرف والقلب فى مرأى جميل، ومنظر بهيج، ولا ريب رأيت بردى يتبطن الوادي، ويقتحم الجبل، ويتسرب فى شرايين المدينة، فيسرى فى دورها ومساجدها، وحماماتها وشوارعها، وأحسبك يا أخي مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع أو طرحت كما يقول البحترى ثقلا من الدموع.

وقفة بالعقيق أطرح ثقلًا
من دموعى ووقفة بالعقيق

فى آفاق العراق

ويختم الدكتور محمد رجب البيومى فى مقاله للهلال بزيارات الدكتور عزام للعراق، فيقول: إن أطياف الجاحظ وأبى تمام والبحترى وأبى حنيفة، والكندى وسيبويه لتتخايل واضحة زاهية أمام العيون فإذا رحل إليها أديب كبير وعالم ضليع، وعربى حر مثل عبدالوهاب عزام فإن أشواقه إلى منهل الثقافة الأولى، وعصر العربية المؤتلق لتسبق ركابه فوق مياه دجلة، وفى سماء الفرات.

وقد رحل إليها عزام عدة رحلات.. رحل إليها فى طريق الفردوس عند الاحتفال بعيده مع العبادى ورحل إليها أستاذا للأدب العربي بدار المعلمين العالية، ورحل إليها فى حفلة تأبينية كبرى لراحل عظيم.

وقد تحدث عنها شاعرا وناثرا كما تحدث عن دمشق.

فيقول متعجبا «لله بغداد ما يستقر بها فكر زائرها حتى يحلق فى أرجاء العصور وثنايا التاريخ أبدا بعيدا، فما يفتأ البصر يترامى بين الرصافة والكرخ، يبتغى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء أو مجلس من مجالس العلماء أو حفل للأدباء والشعراء.. ففى كل نظرة ذكرى خليفة، وفى كل فكرة حديث فيلسوف ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد التدويم فيستريح من بغداد الحاضرة إلى أمة أخذت للمجد أهبتها وأعدت للعظائم عدتها وعرفت بين الأمم غايتها فسارت فى مواكب من الهمة تحدوها عزة عربية وأنفة إسلامية. ذلكم تاريخ يتدفق من قمم المجد الشاهقة إلى المستقبل ومن ذا يصد السيل إذا هدر، بل من يسلسل البحر بأمواجه ويرد الحر الأبى عن منهاجه!!

هذا بعض ما يقال عن سفارة عزام فى دنيا العروبة.. وكم من أساتذة كبار رحلوا إلى الأقطار الشقيقة كما رحل عزام ولكنهم لم يتركوا من الصدى المؤثر ما ترك هذا الغيور الصادق، ولن نعين نفرا قليلا ممن انتحوا منحاه إخلاصا وتأثيرا ونفاذا.

ولكنهم كما يقول أستاذنا الدكتور البيومى رذاذ يتقاطر تجاه غيث دفوق لم يؤت أكله المستطاب!

فتاوى لها تاريخ

الأسهم والسندات ضرورة الأفراد وضرورة الأمة



الشيخ محمود شلتوت

من المشاريع الهامة التى تعود بالخير على المسلمين ما يحتاج إلى قرض من المصرف، يتقاضى عنه المصرف ربحًا، فهل يحجم المسلمون عن ذلك على أنه ربا، ويترك المجال لغير المسلمين؟ وما حكم الشرع فى الأسهم والسندات؟

الربا الذى نزل فيه القرآن:

لا شك فى أن القرآن حرم على المؤمنين التعامل بالربا، والربا حدد بالعرف الذى نزل فيه القرآن، بالدين يكون لرجل على آخر، فيطالبه به عند حلول أجله فيقول له الآخر: أخر دينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك (وهو الربا أضعافًا مضاعفة) فنهاهم الله عنه فى الإسلام.

وواضح أن هذا الصنيع لا يجرى عادة إلا بين معدم غير واجد، وموسر يستغل حاجة الناس، غير مكترث بشىء من معانى الرحمة التى يبنى الإسلام مجتمعه عليها، والتى لو عدمت فى المجتمعات لأصبحت كغابات الحيوانات المفترسة، وهذا النوع مما لا تقبل إنسانية فاضلة الحكم بإباحته.

وقد قابل القرآن الكريم حرمته فى جميع الآيات التى وجد فيها بالصدقة التى تبذل فى مساعدة الفقير المحتاج، وتشير هذه المقابلة إلى أن تلك الحالة كان جديرًا بها أن تجرى فيها الصدقة، وهى التبرع المحض، فإن لم تكن صدقة فلا أكثر من الرد بالمثل ومن النظرة إلى الميسرة:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ﴾

(البقرة: ٢٧٦)

﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧٩، ٢٨٠)

أما الزيادة والمضاعفة فيها، فهما ظلم وعدوان، وهما من موجبات المقت والغضب عند الله

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٣١)

الضرورات والحاجات:

والفقهاء تمشيًا مع توسيع نطاق التراحم، والبعد عما يفتح على الناس باب التزاحم المادى فى الضغط على أرباب الحاجات، توسعوا كثيرًا فيما يتناوله الربا، وكان لهم فى ذلك مشارب مختلفة وآراء متعددة، ورأى كثير منهم أن الحرمة فيما يحرمون يتناول المتعاقدين معا المقرض والمقترض، وإنى أعتقد أن ضرورة المقترض وحاجته مما يرفع عنه إثم ذلك التعامل، لأنه مضطر أو فى حكم المضطر، والله يقول:

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

(الأنعام: ١١٩)

وقد صرح بذلك بعض الفقهاء، فقالوا: يجوز للمحتاج الاستقراض بالربح، وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة، وكان تقديرها مما يرجع إليهم وحدهم، وهم مؤتمنون مصيرون بدينهم، فإن للأمة أيضا ضرورة أو حاجة، كثيرًا ما تدعو إلى الاقتراض بالربح، فالمزارعون كما نعلم تشتد حاجتهم فى زراعاتهم ونتاجهم إلى ما يهيئون به الأرض والزراعة، والحكومة كما نعلم تشتد حاجتها إلى مصالح الأمة العامة، وإلى ما تعد به العدة لمكافحة الأعداء المغيرين، والتجار تشتد حاجتهم إلى ما يستوردون به البضائع التى تحتاجها الأمة وتعمر بها الأسواق، ونرى مثل ذلك فى المصانع والمنشآت التى لا غنى لمجموع الأمة عنها، والتى يتسع بها ميدان العمل فتخفف عن كاهل الأمة وطأة العمال العاطلين، ولا ريب أن الإسلام الذى يبنى أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرر، والعمل على العزة والتقدم وعلاج التعطل، يعطى للأمة فى شخص هيئتها وأفرادها هذا الحق، ويبيح لها - ما دامت مواردها فى قلة - أن تقترض بالربح تحقيقًا لتلك المصالح التى بها قيام الأمة وحفظ كيانها.

تقرير الحاجة والمصلحة لأولى الرأى:

غير أنى أرى أن يكون تقدير الحاجة والمصلحة مما يؤخذ عن «أولى الرأى» من المؤمنين القانونيين والاقتصاديين والشرعيين، ويكون ذلك فى ناحيتين: ناحية تقدير الحاجة، وناحية تقدير الأرباح، واختيار مصادر القروض، فلا يكون قرض إلا حيث تكون الحاجة الحقيقية، ولا يكون قرض إلا بالقدر المحتاج إليه، وتدفع إليه الضرورة والحاجة، ولا يكون قرض إلا من جهة لا تضمر استغلالنا واستعمارنا.

ولو أن الأمم الإسلامية تكاتفت على وضع أساس اقتصادى يحقق مصالحها، ويقيها شر التحكم الأجنبى، لوجدوا من مبادىء الإسلام الاقتصادية ما يجعلهم فى مقدمة الأمم اقتصادًا وقوة وحضارة.

أما الفرق بين الأسهم والسندات، فهو أن الأسهم من الشركات التى أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهى التى تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها..

أما السندات، وهى القرض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسارة، فإن الإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت إليها الضرورة الواضحة، التى تفوق أضرار السندات التى يعرفها الناس ويقررها الاقتصاديون.

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

رجب ١٤٣٤هـ
مايو يونيه ٢٠١٣م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

إخراج الزكاة في أموال القصر

● هل يجب إخراج الزكاة في أموال القصر المودعة لدى النيابة الحسبية إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول؟

●● الجواب: يرى جمهور العلماء أن الزكاة واجبة في مال الصبي القاصر وفي مال السفيه أو المجنون المحجور عليه، وهذا هو الذي عليه الفتوى، لأنه حق يتعلق بالمال فلا يسقط بالصغر أو السفه أو الجنون، ويخرجها عنهم أولياؤهم، واستندوا في ذلك إلى عموم النصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة التي دلت على وجوب الزكاة في المال الذي بلغ النصاب وحال عليه الحول، كقوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

«التوبة: ١٠٣».

وكقوله ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم»، رواه مسلم.. والقصر والسفهاء والمجانين ترد فيهم الزكاة إذا كانوا فقراء، فلتؤخذ منهم إن كانوا أغنياء.

كما استدلوا بما رواه الإمام الشافعي عن يوسف بن ماهك أن رسول الله ﷺ قال: «ابتغوا في أموال اليتامى، لا تستهلكها الصدقة»، وهو مرسل صحيح يعتضد بما سبق من عموم النصوص، وبما يأتي من طرقه وشواهده، وقد صح هذا اللفظ أيضًا موقوفًا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وروى الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة»، وصححه الحافظ العراقي.

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

وروى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «من ولي يتيمًا فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة».

ولولا أن الزكاة واجبة في مال القاصر والسفيه والمجنون لما جاز للولي أن يخرجها منه، لأنه ليس له أن ينفق ماله أو يتبرع منه في غير واجب، فأمر النبي ﷺ بتنمية أموالهم حتى لا تستهلكها الزكاة الواجبة فيها.

وقد صح إيجاب الزكاة في مال الصبي والمجنون عن عمر وعلي وابن عمر وعائشة وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة إلا رواية ضعيفة عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يحتج بها.

وهذا هو الملائم لتشريع الزكاة في الإسلام من أنها حق في المال يجب لمستحقه كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فإن الزكاة حق المال»، كما أن كلًا من القاصر والمجنون أهل لوجوب حقوق العباد في ماله، ولذلك يضمن ما أتلفه بأداء الولي من ماله.

وينوب عن القاصر أو المجنون أو السفيه وليه في إخراجها، بشرط أن يكون هذا المال فائضًا عن نفقة الصبي وحاجته الأصلية وأن يبلغ هذا المال النصاب ويحول عليه الحول القمري ويخرج عليه ربع العشر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

زكاة المال في شهادة استثمار

● أرجو التكرم بالإفادة عن طريقة احتساب زكاة مبلغ من المال في شهادة استثمار هل تكون ١٠٪ بعد أن يحول الحول عليها، أم كم في المائة؟ بالإضافة إلى مبلغ بسيط كمعاش؟

●● الجواب: زكاة المال المودع في البنوك على هيئة ودائع أو شهادات تكون بمقدار ربع العشر على المال المودع في البنك أو الذي تم به شراء الشهادات الذي مر عليه حول قمري وعلى المال الذي يمر عليه عام قمري من الأرباح كذلك، وهناك قول آخر لبعض العلماء يجوز إخراج العشر على أي ربح يخرج من هذه الودائع أو الشهادات، دون رأس المال ودون النظر إلى الحول القمري.

والله سبحانه وتعالى أعلم

لا يجوز للمسلمة أن تتزوج غير المسلم

● هل يجوز للمسلمة أن تتزوج رجلًا كتابيًا؟

●● الجواب: أجمعت الأمة الإسلامية بفقهائها وعلمائها على أنه لا يجوز للمرأة المسلمة أن تتزوج بغير المسلم، سواء أكان كتابيًا كاليهود والنصارى، أم كان مشركًا، أم كان ملحدًا لا دين له، لأن الله تعالى قال:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

«البقرة: ٢٢١»..

ولقد جاءت أحاديث نبوية شريفة تخبر بأن المسلمين يجوز لهم أن يتزوجوا من نساء الكتابيين، ولا يجوز للكتابيين أن يتزوجوا من نساء المؤمنين، وكذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين إذا هاجر إليهم من حواليهم نساء دخلن الإسلام، ولهن أزواج كافرون، بأن يستبقوا هؤلاء النساء عندهم، ولا يردوهن إلى أزواجهن الكفار ماداموا كافرين، لأنه لا يحل للمرأة المسلمة أن تكون فى عصمة غير المسلم، يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الممتحنة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

«الممتحنة: ١٠».

ومما ذكر وفى واقعة السؤال: فلا يجوز للمسلمة أن تتزوج من غير المسلم، وإذا تم مثل هذا فالزواج باطل والمعاشرة بينهما من باب الزنا المحرم شرعًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

عدة المطلقة

● ما هى عدة المطلقة المدخول بها الآيسة من المحيض؟

●● الجواب: من المقرر شرعًا أن عدة الآيسة من الحيض ثلاثة أشهر قمرية، لقول الله تعالى:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾

«الطلاق: ٤».

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم الشبكة والهدايا

● ما حكم الشبكة والهدايا عند فسخ الخطبة؟

●● الجواب: إن الخطبة وقراءة الفاتحة وقبض المهر وقبول الشبكة والهدايا، كل ذلك من مقدمات الزواج، ومن قبيل الوعد به مادام أن عقد الزواج لم يتم بأركانه وشروطه الشرعية، وقد جرت عادة الناس بأن يقدموا الخطبة على عقد الزواج لتهيئة الجو الصالح بين العائلتين.

فإذا عدل أحد الطرفين عن عزمه ولم يتم العقد، فالمقرر شرعًا أن المهر إنما يثبت فى ذمة الزوج بعقد الزواج، فإن لم يتم فلا تستحق المخطوبة منه شيئًا، وللخاطب استرداده، أما الشبكة التى قدمها الخاطب لمخطوبته فقد جرى العرف على أنها جزء من المهر؛ لأن الناس يتفقون عليها فى الزواج، وهذا يخرجها عن دائرة الهدايا ويلحقها بالمهر، وقد جرى اعتبار العرف فى التشريع الإسلامي؛ لقوله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾

«الأعراف: ١٩٩».

وفى الأثر عن ابن مسعود رضى الله عنه: «ما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيء» أخرجه أحمد والطيالسى فى مسنديهما.

فالشبكة من المهر، والمخطوبة المعدول عن خطبتها ليست زوجة حتى تستحق شيئًا من المهر؛ فإن المرأة تستحق بالعقد نصف المهر، وتستحق بالدخول المهر كله.

وبناءً على ذلك: فإن الشبكة المقدمة من الخاطب لمخطوبته تكون للخاطب إذا عدل الخاطبان أو أحدهما عن عقد الزواج، وليس للمخطوبة منها شيء، ولا يؤثر فى ذلك كون الفسخ من الخاطب أو المخطوبة.

أما الهدايا فإنها تأخذ حكم الهبة فى فقه المذهب الحنفى الجارى العمل عليه بالمحاكم؛ طبقًا لنص الإحالة فى القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠م؛ حيث جاء فيه: «والهبة شرعًا يجوز استردادها إذا كانت قائمة بذاتها ووصفها»، فيجوز للخاطب أن يطالب باسترداد الشبكة والهدايا غير المستهلكة، وعلى المخطوبة الاستجابة لطلبه.

أما إذا كانت الهدايا مستهلكة - كنحو أكل أو شرب أو لبس - فلا تسترد بذاتها أو قيمتها؛ لأن الاستهلاك مانع من موانع الرجوع فى الهبة شرعًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم الجهر بالبسملة

● عندما يصلى إمام مسجدنا الصلوات الجهرية فإنه لا يجهر بالبسملة فى الفاتحة، فاختلفنا فى ذلك، فما حكم الجهر بالبسملة فى الصلوات الجهرية؟

●● الجواب: الجهر بالبسملة من المسائل المختلف فيها بين العلماء، فالشافعية وجماعة من العلماء يرون مشروعية الجهر بها، وغيرهم من العلماء يرون أن الإسرار بها هو الأفضل، وهذا الأمر معدود من هيئات الصلاة التى لا ترقى إلى درجة السنن المؤكدة، فالخلاف فيه قريب والشأن فيه واسع، ومن المقرر شرعًا أنه إنما ينكر ترك المتفق على فعله أو فعل المتفق على تركه، ولا ينكر المختلف فيه، فمن جهر بالبسملة فهو حسن ومن أسر بها فهو حسن، ولا يجوز أن تكون أمثال هذه المسائل الخلافية مثار فتنة ونزاع وفرقة بين المسلمين، بل يسعنا فيها ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذى كانوا يتحلون به فى خلافاتهم الفقهية واختياراتهم الاجتهادية، ومن حكمة الإمام أو الداعية أن لا يتعمد مخالفة الناس فيما اعتادوا عليه وألفوه من التخيرات الفقهية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

ظاهرة الثأر من رواسب الجاهلية



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

يدعو الإسلام إلى التحلى بالأخلاق الفاضلة، والمعانى الكريمة الكاملة، والقيم النبيلة، والمثل الرائدة، وبدعوة الإسلام تمت مكارم الأخلاق، وكمل الدين، وتحققت نعمته كاملة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

وقبل أن يرسى الإسلام مبادئه وأركانه وقيمه وفضائله، حرص فى بادئ الأمر على تنقية مناخ الحياة من كل رذيلة؛ لأن التخلى عن الرذائل مقدم على التحلى بالفضائل. ومن هنا ناهض الإسلام الرذائل والفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن.

جاهد الإسلام فى تنقية الأمة من ظواهر الجاهلية الأولى التى كانت قد تفشت فى الحياة ومن هذه الظواهر الجاهلية: «ظاهرة الثأر» التى إذا استبدت فى مجتمع أوردته موارد الهلاك لأنها ظاهرة يترتب على ظهورها يتم الأبناء وترمل النساء، وإهدار الدماء، وتمزيق الروابط الإنسانية، وتفشى العادات العدوانية، وضياع الأمان.

ولذلك ما إن ظهر الإسلام إلا وقاوم هذه الظاهرة وأمثالها من ظواهر العنف والإرهاب وجاء الإسلام وكانت الحروب مشبوبة بين القبائل لأتفه الأسباب، بل إن بعض الحروب والصراعات كانت تستمر سنين عديدة كما حدث بين الأوس والخزرج حتى جاء الإسلام، فجمعهم الله ووحد كلمتهم على يدى رسول الله ﷺ، ومحى ما بينهم من فتن، وبينما هم فى ألفتهم ووحدتهم إذ باليهود يعاظرون فيؤلبونهم ويبعثون لهم من يذكرهم بصراعاتهم القديمة وما كان بين كل منهم من ثأر تجاه الآخرين حتى تذكروا أيام بعاث وهى موقعة كانت بين الأوس والخزرج فلما استثيروا حدث منهم تجدد للخلافات والصراعات وعادوا الرفع السيوف، فلما علم الرسول ﷺ بذلك ذكرهم ووجههم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة، فثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى صوابهم وعانق بعضهم بعضا ونزل قول الله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وهكذا أعاد الرسول ﷺ الأمان والسكينة والاستقرار والطمأنينة إلى قلوب العباد.

بل إن الإسلام ناهض ظاهرة التطرف والإرهاب، وظاهرة «الثأر» حتى ما كان بين المسلمين وغيرهم من الكفار فى الحروب، ففى غزوة أحد وفيها استشهد عم الرسول ﷺ حمزة بن عبدالمطلب ومثلوا به وأخرجوا أمعاءه وكبده وأقسم أن يثأر لعمه ولإن ظفر بهم ليمثلن بسبعين منهم فنزل قول الله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾

(النحل: ١٢٦، ١٢٧)

عندئذ قال ﷺ: «بلى يارب أصبر»، فكانت النتيجة ومثوبة الصبر أن خالد بن الوليد وهو قائد الفرسان يوم أحد قدمته الأقدار هدية لسيد الأبرار وللإسلام والمسلمين فدخل فى دين الله وأصبح جنديا فى صفوف المسلمين ليهيل عرش كسرى وقيصر بعد ذلك، وأسلم عمرو بن العاص وأبو سفيان.

لقد تلقى الرسول ﷺ من ربه بشرى هذا المستقبل فى يوم أحد:

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

(النحل: ١٢٦)

لقد جاء الإسلام فقضى على ظاهرة الثأر وطوى صفحته وشرع القصاص ويقوم به ولى الأمر حتى لا تكون الحياة فوضى.

وأعلن الرسول ﷺ فى حجة الوداع وضع دم الثأر، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وقال: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

ومن أبشع الظواهر السلبية جريمة الإرهاب التى يهيا يرجع مرتكبها للكفر كما قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، رواه الترمذى وقال أيضًا: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية»، رواه مسلم وفى سبيل تأمين الحياة، ونشر التسامح والصفح بين الله تعالى جزاء من عفا وأصلح فقال جل شأنه:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

(الشورى: ٤٠)

وقال سبحانه فى وصف المتقين:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

(آل عمران: ١٣٤)

وعلم الرسول ﷺ أصحابه كظم الغيظ والعفو ففى أحد مجالسه نال رجل من أبى بكر رضى الله عنه ثلاث مرات وفى كل مرة كان يكظم غيظه فلما رد عليه بعد الثالثة جنح من المجلس فسأله أبوبكر أوجدت على يارسول الله؟! فوضح له الحقيقة قائلا ما معناه: إنك حين كنت تكظم الغيظ فى صدرك كان الله قد سخر ملكا يرد عنك وحين أردت أن تثأر لنفسك خرج الملك ونزل الشيطان وما كنت لأقعد إذ نزل الشيطان.

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين أجرهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا».

وإذا كانت ظاهرة الثأر إحدى بذور الإرهاب فإن الإرهاب الذى يصطلى بناره الكثير من الناس اليوم نشأ فكرا ضالا، وتنظيمًا منحرفا هم معتقوه باتخاذه وسيلة لتحقيق أغراض عدوانية ودنيوية. فارتكب أهله أبشع الجرائم بالعدوان على الأنفس والأموال والأعراض وقال رب العزة سبحانه:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٩٣)

حُرمة المال العام



الشيخ / فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ينظر بعض الناس ولاسيما بعض الحكام والولاة ومن بيدهم مصالح العباد ــ كبر منصبهم أو صَغُر ــ ينظر هؤلاء إلى الأموال العامة كأنها كلأ مباح يستبيحون أخذه، ويستحلون أكله، ويتحايلون على الاستيلاء عليه بطرق ملتوية عديدة، يقنعون بها أنفسهم أن ما يفعلونه ويزاولونه شيء مشروع، وعمل حلال.. وينسون أو يتناسون أن ما تحت أيديهم وتصرفاتهم هو أمانة ائتمنوا عليها، وسيحاسبون عليها حساباً عسيراً فى يوم المساءلة والمحاسبة، يوم القضاء والجزاء، يوم تبرز الخفيات وتظهر الخطيئات:

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾

(الإنفطار: ١٩)

يوم توضع فيه الموازين، وتنشر الدواوين، وتبسط الصحائف والكتب مفتوحة مقروءة:

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(الإسراء: ١٤)

وليس الأمر قاصراً على استغلال الأموال العامة واستباحتها وأكلها بالباطل، بل يشمل التسهيلات التى يملكها الحكام والولاة ومن بيدهم مصالح العباد بحكم مناصبهم ووظائفهم العامة لقضاء مصالحهم الشخصية وفى تكوين ثرواتهم وتضخمها، وفى قضاء مصالح أولادهم وأقربائهم الذين يحجزون لهم أرقى المناصب والوظائف بأعلى الأجور والرواتب.. ويعطون لأبنائهم بحكم وظائفهم العامة التسهيلات والتوكيلات المالية والتجارية التى تمكنهم من الاحتكار وتكوين الثراء الفاحش..

إن المال العام هو من الأمانات التى استودعها الله فى يد الحكام وفى يد من يملكون التصرف فيها، فهم مسئولون عن رعاية هذا المال وحفظه، ومحاسبون عن تصرفاتهم فيه، وأن تعديهم عليه واستغلالهم له هو مواقعة لحدود الله وانتهاك لمحارمه.. وقد حذرنا رسول الله ﷺ من عاقبة انتهاك محارم الله، عن ثوبان ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ أنه قال: «لأعلمن أقواماً من أمتى يأتون يوم القيامة بأعمال أمثال جبال تهامة بيضاء ــ أعمال كثيرة تزن الجبال ــ فيجعلها الله هباءً منثوراً ــ فيخف وزنها كلا شيء ــ قال ثوبان: يا رسول الله صِفْهم لنا، جَلِّهم لنا ــ بيّن لنا ما تحذّره من الخصال وتكلّموا به من الفعال ــ لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها».

والحاكم الذى لا يرعى حقوق الله فى المال العام، وحقوق الرعية فيه هو غاش لأمته، مضيع للأمانة، استحق غضب الله عليه وحرمانه من جنته، عن معقل بن يسار ــ رضى الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعيته يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرّم الله تعالى عليه الجنة».

والشيء الذى يلفت الأنظار، ويثير الانتباه، ويدعو إلى الدهشة والعجب، ويصيب المواطن بالإحباط أن ترى بعض من يتولون المناصب الكبرى يستحلون لأنفسهم وللصفوة من بطانتهم أخذ المال العام تحت مسميات كثيرة ومتنوعة وبلا حدود، فى الوقت الذى يحرمون إعطاء جزء من المال على من سواهم، ويمنعونه عن مرءوسيهم ــ وهم يستحقون أخذ جزء من هذا المال ــ مدعين بلا خجل ولا حياء أنهم يحافظون على المال العام!! فى حين أنه ليس للحاكم أو الوالى أن يأخذ من المال إلا ما حُدّد له من مال معين، فإن جاوز ذلك فهو غال مستغل خائن، عن بُرَيْدة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول».

كما أن الحاكم مسئول أمام الله عن اختيار أعوانه وبطانته ومن يوليهم أمور الرعية، ويحاسب على استغلالهم مناصبهم لقضاء مصالحهم الشخصية، ومصالح أولادهم وأقربائهم والمنتمين إلى حزبهم وجماعتهم.. ولذلك يحذر رسول الله ﷺ من المحاباة عند اختيار الأعوان، ومن المجاملات عند اختيار الولاة، ويبين سوء عاقبة هذا الاختيار، وأن الإقدام على هذا العمل هو خيانة للأمانة، عن ابن عباس رضى الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلاً من عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

ولقد عُرف عن سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الخوف من الله، والزهد فى الدنيا، والشدة فى الحق، والورع وخشية الله فى مال المسلمين، ومن منطلق إيمانه يتحمل المسئولية أمام الله فى مال المسلمين، لا عن نفسه فقط وإنما عن جميع عمّاله الذين يعيّنهم ولاة على الأمصار، كان يراقب تصرفات هؤلاء العمال، ويتتبع ثرواتهم..

ويسجل لنا التاريخ أن سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ كتب إلى عمرو بن العاص ــ وكان عامله على مصر ــ: من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو

بن العاص. سلام الله عليك، أما بعد. فإنه بلغني أنه فشت لك فاشية، كثرت، من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك. فاكتب إليّ من أين أصل هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيها رخيص، وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سعة.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: أما بعد: قد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيران المال، لم يعوزكم عذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم أما إنكم تجمعون العار، وتورثون النار. والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة، شاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه فأخذ إحداهما وترك الأخرى.

كما يسجل لنا التاريخ: أن معاوية ــ وهو على الشام ــ بعث إلى عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ بمال وأدهم «قيد يقيد به الأسير» وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد ــ أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ــ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد.

فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم، فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر، واحتبس المال لنفسه، فلما قرأ عمر الكتاب قال: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان علينا دين ومعونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به، فقال عمر: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال، فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال، فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم، فلما قدم الرسول على معاوية قال له معاوية: رأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدهم؟ قال: نعم وطرح فيه أباك. قال: ولم؟ قال: جاء بالأدهم وحبس المال، قال: إي والله، والخطاب لو كان لطرحه فيه.

رحم الله سيدنا عمر بن الخطاب، فقد كان أحزم الخلفاء، وكان له فضل يمنعه أن يَخدع، وعقل يمنعه أن يُخدع.

لقد كان خلفاء رسول الله يتحاشون المال العام، ويحرصون على البعد عنه ومجانبته فهذا أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ يرد إلى بيت مال المسلمين ــ عند وفاته ــ ما كان قد خصص له لنفقته بعد أن تولى الخلافة، فقد أخرج البيهقي عن الحسن أن أبا بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ بعد أن تولى الخلافة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن أكيس الكيس التقوى.. فذكر الحديث، وفيه: فلما أصبح غدا إلى السوق، فقال له عمر ــ رضى الله عنه ــ: أين تريد؟ قال: السوق، قال: قد جاء ما يشغلك عن السوق، قال: سبحان الله، يشغلني عن عيالي!! قال: نفرض بالمعروف، قال: ويح عمر!! إني أخاف أن لا يسعني أن آكل من هذا المال شيئاً!! قال: فأنفق في سنتين وبعض أخرى «مدة خلافته» ثمانية آلاف درهم، فلما حضره الموت قال: قد كنت قلت لعمر: إني أخاف أن لا يسعني أن آكل من هذا المال شيئاً فغلبني، فإذا أنا مت فخذوا من مالي ثمانية آلاف درهم وردوها في بيت المال! قال: فلما أتى بها عمر قال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً!!

إن حرمة المال العام ليست قاصرة على الحكام والولاة ومن بيدهم مصالح العباد فقط، بل هي حرمة عامة تشمل كل مواطن يقوم بأي عمل يترتب عليه تخريب المنشآت العامة والمؤسسات المملوكة للدولة..

لقد أصيب الشعب المصري بفزع وهلع، وحزن وألم من الأعمال التي تقوم بها فئة منحرفة ضالة بالاعتداء على المال العام بإتلاف محطات مترو الأنفاق، وتخريب عربات وقضبان ومحطات السكك الحديدية، وحرق منشآت ومؤسسات عامة وسيارات مملوكة للدولة، وسلب ونهب وإحراق الفنادق!!

إن قيامهم بهذه الأعمال الإجرامية هو فساد في الأرض حرّمه الله ــ تعالى ــ وقد غلظ ــ سبحانه ــ عقوبة المفسدين في الأرض فقال ــ جل شأنه:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(المائدة: ٣٣).

وهؤلاء المخربون المفسدون في الأرض إن تمكنوا من الإفلات من حساب الدنيا وعدم محاكمتهم وتطبيق شرع الله والقوانين عليهم فإن حسابهم في الآخرة عسير شديد...

ألا يعلم هؤلاء المخربون أنهم وأبناءهم والأجيال القادمة هم الذين سيدفعون ثمن إصلاح ما أفسدوه وخربوه!!

إن الإسلام أوجب على الإنسان حب وطنه، والمحافظة على سلامته وأمنه واستقراره، ودعا إلى حماية الوطن من أعدائه وممن يريدونه بسوء، وممن يريدون إحداث القلاقل والفتن، وإثارة المخاوف والاضطرابات، ويعملون على فقره وضعفه وتخلفه وانهياره.

ما أحوجنا اليوم ــ لإصلاح حالنا ــ إلى أن نسير على درب الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ في رعايتهم للمال العام، وإلى أن نطبق منهجهم في المحافظة عليه، وإلى أن يراعي كل واحد منا الأمانة التي ائتمنه الله عليها.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



تبحر كارين أرمسترونج عبر كتابها «معارك في سبيل الإله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام» الصادر عن دار سطور الجديدة وترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني في رحلة تاريخية وفكرية لنشأة الحركات الأصولية في الأديان السماوية الثلاثة منذ أواخر القرن الخامس عشر - بداية عصر النهضة والتنوير والحداثة - وحتى اليوم، المؤلفة في مقدمة الكتاب تؤكد على أن لكل نزعة أصولية قانونها الخاص ومبادئ ديناميكيتها، كما ترفض وسم «الأصولية» بالجمود والارتباط بالماضي لأن أفكارهم - أي الأصوليين - ذات طابع حديث في أساسها ونزاعة إلى التجديد والابتكار.

الكتاب على امتداد صفحاته التي تقترب من الـ ٦٠٠ صفحة يرصد محاولات العقلانية الغربية تفريغ المجتمعات من أي فكرة مقدسة وإغراقه في تصور وضعي علماني لا ديني، الأمر الذي استتبع هجوم سلفي مضاد لإعادة القدسية، ثم تقدم مقترحًا للخروج من هذا الصدام بين الأصولية والعلمانية بقولها: «إذا كان على الأصوليين أن يطوروا تقييمًا أكثر تعاطفًا لأعدائهم طبقًا لما تنص عليه تعاليم موروثاتهم فعلى العلمانيين أيضًا أن يكونوا أكثر إيمانًا بالنزوع إلى الخير والتسامح واحترام الإنسانية وأن يوجهوا عنايتهم بشكل أكثر تأكيدًا إلى المخاوف والقلق والاحتياجات التي تسيطر على جيرانهم الأصوليين والتي لا يملك أي مجتمع تجاهلها».



«إذا نحن حللنا المبادئ الأساسية للإسلام ظهر لنا تشابه كبير بينها وبين مبادئ العلم والديمقراطية» هكذا يلخص السياسي والمفكر الهندي همايون كبير فكرة كتابه «العلم والديموقراطية والإسلام» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد بترجمة لعثمان نويه.

المؤلف يمضي في توضيح العلاقة بين الإسلام والعلم والديمقراطية «إذا أضفنا أن التقدم المظفر للعلم قد أتى مباشرة بعد ظهور الإسلام وجدنا مبررًا قويًا للقول بوجود علاقة قوية بين الأمرين وليس ما يميل بنا إلى هذه الفكرة في المحل الأول هو كثرة عدد العلماء العرب، بل هو الاستمرار المتصل في تقدم العلم منذ ظهور الإسلام»، على أن المؤلف ينطلق من رؤية «وحدة الوجود» ومن ثم رأى ابن رشد كاسبينوزا في التأكيد على وحدة الطبيعي وما بعد الطبيعي رغم الفارق بين الاثنين.



يحلل د. عماد عبد اللطيف في كتاب «بلاغة الحرية» الصادر عن دار التنوير بالقاهرة الخطابات الثلاثة التي استحدثتها ثورة ٢٥ يناير في ساحة التواصل السياسي.. الخطابات هي «خطاب الميادين الاحتجاجي الثوري» والثاني خطاب الشاشات الذي استخدمه الرئيس المخلوع مبارك لإجهاض الثورة ويرصد المؤلف عدة استراتيجيات في خطب مبارك أولها «استراتيجية التهديد» الذي استخدم في بداية الثورة إلا أن عدم جدوى هذه الروح التهديدية مع الثوار قاده إلى الاستراتيجية الثانية لخطب مبارك وهي «استراتيجية الاستعطاف»، ورغم تأثير الاستعطاف على كثير من الثوار، إلا أنها فشلت أيضًا بسبب وحشية التعامل مع الأبناء - المتظاهرين -، الخطاب الثالث الذي يتوقف عنده المؤلف هو «خطاب الصناديق» الذي لجأت إليه القوى والتيارات الإسلامية لنقل الثورة إلى الصندوق الانتخابي ويؤكد المؤلف أن الحجة الأساسية المستخدمة في خطاب الصناديق هي التأكيد على تطبيق شرع الله.



في طبعة جديدة تقدم دار «مدارات للأبحاث والنشر» كتاب «الفكر السياسي للإمام حسن البنا» للدكتور إبراهيم البيومي غانم.. الكتاب يقدم رسم صورة كلية للحياة الفكرية والسياسية في مصر في فترة ما قبل إنشاء جماعة الإخوان المسلمين وحتى اغتيال مؤسسها، أي بدءًا من توصيف الجهود الفكرية والإصلاحية التي سبقت حسن البنا وتأثر بها وتتبع أثرها في الحياة المصرية وقتذاك، ثم استكناه آثارها في فكر البنا وجماعته التي كانت جزءًا مهمًا من الحياة الفكرية والسياسية المصرية عبر ما يزيد على ثمانين عامًا، ويرسم البحث جماعة الإخوان المسلمين في صورتها الأولى ونسخة مؤسسها، وأهم ركائزها ومبادئها وتصوراتها التي قامت عليها وقتذاك، بحيث يسهل على من أراد الاستقصاء بعد ذلك أن يعقد المقارنات بين هذه النسخة الأولى للجماعة وما طرأ عليها من تحولات وتطورات.



«يدور هذا الكتاب أولاً وقبل كل شيء حول خوف أوروبا من الشرق» من هذه الفكرة ينطلق كتاب «الأعداء على الأبواب الصراع بين العثمانيين والهابسبورج للسيطرة على أوروبا» لمؤلفه أندرو ويتكروفت والذي ترجمه د. عزت زيان في مشروع جامعة القاهرة للترجمة وحرره أحمد إدريس وراجعه د. عاطف معتمد. المؤلف مع استعراضه للصراع بين الدولة العثمانية والهابسبورج - ألمانيا والنمسا - خلال القرن الـ ١٦ والـ ١٧ يرفض استغلال هذا الصراع التاريخي في خلق صراع جديد بين الأتراك والغرب ناقلاً آراء قيادات غربية سياسية ومسيحية تصور انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي على أنه تدمير للمسيحية وأنهم سينجحون فيما فشل فيه أجدادهم العثمانيون.. داعيًا إلى عدم استعادة روح الكراهية.

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو يونيه ٢٠١٣ م

ندوة تطور العلوم الفقهية

فقه رؤية العالم والعيش فيه

(المذاهب الفقهية والتجارب المعاصرة)

متابعة الأستاذ/ محمد جمعة

في عاصمة سلطنة عمان - مسقط - أقامت وزارة الأوقاف والشئون الدينية ندوتها السنوية " تطور العلوم الفقهية " في نسختها الثانية عشرة تحت عنوان " فقه رؤية العالم والعيش فيه - المذاهب الفقهية والتجارب المعاصرة) برعاية صاحب المعالي يوسف بن علوي بن عبدالله الوزير المسئول عن الشئون الخارجية في الفترة ما بين ٢٥ حتى ٢٨ من جمادي الأولى سنة ١٤٣٤ هـ الموافق ٦ ـ ٩ أبريل ٢٠١٣ م

وفي كلمته خلال افتتاح الندوة، قال د/عبد الرحمن السالمي رئيس اللجنة المنظمة: (اعتاد كثير من باحثينا الاجتماعيين والسياسيين، ومن المراقبين لمجتمعاتنا من الاستراتيجيين والأنثروبولوجيين الغربيين- على الحديث عن ظواهر متعددة يجمعونها تحت اسم الظاهرة الإسلامية، باعتبارها بشكل عام، ناجمة عن الفشل في مواجهة الحداثة والتحديث والعولمة، أو عما يسمونها عدم القدرة على المشاركة الفاعلة في حضارة العصر، وهذا التعليل العام لا أجده شديد السلامة والوضوح، لأنه لا يجعلنا نفهم أكثر عن هذه الانكماشية الدينية التي لم يعرفها تاريخنا القديم والحديث، منذ الحروب الصليبية إلى عصر الغزو الاستعماري.

بيد أن لهذا الانكماش وجهًا آخر، وهو الذي يتصل بموضوعنا اتصالاً وثيقًا، ونعني به الجانب الرافض للعنف أو شبه العنف للظواهر السائدة، والإيمان بضرورة إزالتها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشترك في صنع هذا الوعي كل من الإصلاحيين والأصوليين.

إن رؤية العالم في الأصل مصطلح فلسفي، يُعنى بالتصورات الفردية والجماعية للخير والشر، والحق والباطل، والفضائل والرذائل في مجتمع معين، ومجال حضاري معين، بحيث يصبح ذلك كله عرفًا وتقليدًا. بحيث تسهم تلك الرؤية في انتظام العلائق بين الفئات الاجتماعية بالداخل، والعلائق مع الجوار والخارج. وعندما تتوتر العلائق بين الفئات بالداخل، وتتوتر مع الخارج، فإن ذلك يعني



أن رؤية العالم متأزمة في هذا المجتمع أو ذاك، بسبب حيف شديد نزل به وتناقض مع قيمه وتقاليده، ولم تستطع تلك التقاليد استيعابه أو تجاوزه- أو بسبب الفشل في التلاؤم مع متغيرات الوقائع والقيم.

وبهذا المعنى فإن المذاهب الفقهية التي نشأت وتطورت وثبتت عبر قرون متطاولة، مثلت لدى المسلمين أنساقًا معرفيةً و رؤًى معينة لطرائق العيش ذات شقين: الشق المتعلق بالنص الديني والسنن والإجماعات، والشق المتعلق بالأفعال وردود الأفعال من جانب مجتمعات المسلمين، ومن جانب جوارهم القريب والبعيد...

وفي كلمته أشار الدكتور أحمد حمد الخليلي مفتي سلطنة عمان إلى "أن ندوة تطور العلوم الفقهية دائما ما تهتم بالقضايا المستجدة وتضع لمسات على ما يشغل بال كل مسلم ومسلمة بل يشغل الضمير الإنساني... وقد جاء الإسلام يعزز العلاقة بين الأسرة البشرية ومن أهم ما جاء به ما يطمئن كل واحد إلى حقه: العدل، فقد جعله الله سبحانه وتعالى حقا للجميع يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر فإن العدل يجب أن يكون ميزانا يؤدي لكل أحد حقه من غير حيف...". كما دعا إلى التمسك بقيم العدل والأخلاق الحسنة في تعامل المسلمين مع الآخر غير المسلم، "وبهذا تكون حياة الناس حياة آمنة مطمئنة إذ لايخشى أحد من الناس حيفا من أحد بسبب معتقده أو بسبب لونه أو بسبب جنسه أولأي سبب من الأسباب..."

ومن جانبه قال فضيلة الدكتور شوقي علام مفتي جمهورية مصر العربية في كلمته خلال افتتاح الندوة: "إن هذا الموضوع التي طرحته هذه الندوة في هذا العام هو من الموضوعات التي تعالج قضايا الساعة وهو طرح قبل ذلك وسيطرح فهو موضوع قديم جديد يتجدد بتطور البشر وتطور علائقهم وتعقد مشاكلهم...". والعلاقة بين الأنا والآخر تندرج تحت ثلاث صور" الصورة الأولى هي علاقة المسلم بالمسلم والصورة الثانية هي علاقة المسلم بغير المسلم في داخل الدولة المسلمة والصورة الثالثة هي علاقة المسلم

بغير المسلم فى خارج الدولة المسلمة ..".

ثم قال فضيلة المفتى "... وإذا كان ثمة خلاف يحتمله النص القرآنى أو السنة المشرفة فإننا فى هذه الحالة لابد أن نحتكم إلى مبدأ عظيم قرره العلماء وهو لا إنكار فى المسائل المختلف فيها، بهذا نتصور أن يكون العيش بين المسلم وأخيه المسلم فى هذا الإطار عيشا آمنا مطمئنا وتحكم العلاقة بين المسلم وغير المسلم فى داخل الدولة المسلمة مبدأ العقد الاجتماعى أو ما يطلق عليه حديثا مبدأ المواطنة وهو مبدأ يضمن كافة الحقوق لغير المسلمين فى داخل الدولة المسلمة نظريا وتطبيقيا؛ نظريا فى تلك الأفهام المتعددة المختلفة الراسخة الثابتة لفقهاء المسلمين على مر عصورهم إلى وقتنا المعاصر من أن غير المسلم له كافة الحقوق وعليه الواجبات التى على المسلمين والذى يهم فى النهاية هى الصورة الثالثة التى تعنى بها هذه الندوة المباركة وهى علاقة المسلم بغير المسلم فى خارج الدولة الإسلامية وهى علاقة يكتنفها الكثير الآن من التعقيدات ذلك لأن العلاقات الدولية أصبحت علاقات تكاد أن تكون تنزع إلى الهيمنة فى هذا العصر الذى تسود فيه العولمة ومع هذا فإن فكرنا نحن المسلمين هو فكر مستقر على أننا نتعايش بالعدل والمساواة ونعامل الآخر على أنه يعيش معنا فى هذه الأرض ويشترك معنا فى إعمارها وأن كان لكل منا له فكره الخاص، إن فكرة الإقصاء ليست مطروحة فى فكر المسلمين، وهذا ربما سيعالج من خلال هذه الندوة.

وإن كان الاقصاء لنا نحن المسلمين يكاد يكون هو المهيمن فى الوقت المعاصر... إننا لا نريد أن نقصى غيرنا وإنما نريد الخير للجميع نحن لا نريد أن نقف موقف المدافع عن فكرنا وإنما نريد أن نقف موقف الموضح المعمق لهذا الفكر"...

والقى اية الله احمد مبلغى من علماء حوزة قم بإيران كلمة فى الجلسة الافتتاحية تطرق فيها الى أهمية العيش المشترك بين المسلمين وكيفية التعايش السلمى بين مختلف فئاتهم وطوائفهم مؤكدا أنه يجب أن يكون هناك تعايش سلمى بين كافة المسلمين فى مختلف دول العالم... واعتبر آية الله مبلغى أن فقه العيش المشترك يجب تأسيسه كفرع فقهي جديد...".

ثم ألقى الدكتور / سالم بن هلال الخروصى نائب رئيس اللجنة المنظمة للندوة كلمة أعلن فيها عن تدشين موقع إلكترونى لندوة تطور العلوم الفقهية وعن إنشاء مركز للبحوث الفقهية "مهمته دعم شباب العلماء فى أطروحاتهم التى تتناول فقه العيش بمعناه الواسع، ويجرى تنظيمه على النحو التالي:

أولا: إنشاء موقع بوزارة الأوقاف يتلقى طلبات الشباب الحاصلين على درجة الماجستير فى الفقه والأصول وفروع الدراسات الإسلامية الأخرى، والذين يريدون كتابة أطروحات للدكتوراه فى الدراسات الفقهية المتعلقة بالاجتهاد الفقهى المعاصر، ومن ذلك فقه التوقع، واستكشاف الآفاق وتوسيعها باتجاهات علوم النص، وفلسفة الدين، والعلوم الإنسانية.

ثانيا: إنشاء لجنة من الباحثين المعروفين للنظر فى الطلبات والموضوعات، والتواصل مع من تختارهم من المتقدمين، ومتابعة عمل ونشاط الذين يجرى إعطاء المنح لهم.

ثالثا: التعاون فى ابتعاث الطلبة مع إدارات كراسى جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم فى الجامعات الكبرى بالعالم.

رابعا: تستمر المنحة الواحدة لأربع سنوات، وتتولى وزارة الأوقاف نشر الأطروحات التى تقرر لجنة الباحثين بالوزارة صلاحيتها لذلك..".



وقد نوقشت فى ندوة تطور العلوم الفقهية على مدار جلساتها ثمانية محاور كالتالي:

المحور الأول: المصطلحات والمفاهيم

وقد تقدم فضيلة الشيخ أ.د/ وهبة الزحيلى ببحث حمل عنوان "مفهوم الخلاف عند الفقهاء"

يشتمل البحث على تقديم وخاتمة ومطالب ثمانية وهي:

١- بيان مفهوم الخلاف و الاختلاف بين الفقهاء، والفرق بينهما.

٢- رصد مسيرة ظاهرة الخلاف عبر القرون الماضية.

٣- أنواع أو ألوان الاختلاف بين المذاهب.

٤- مناهج أئمة المذاهب الثمانية فى الاجتهاد المؤدية للخلاف وهى: المذهب الحنفى، و المالكى، و الشافعي، و الحنبلى، و الإباضى، و الإمامى (الجعفري)، والزيدى، و الظاهري.

٥- أسباب الاختلاف وقواعده و أمثلته.

٦- طرق تخفيف الخلاف من متابعه بقواعد الترجيح المعتبرة.

٧- مدى تقدير الخلاف الفقهى، و أنه اختلاف طبيعى وضرورى ورحمة للأمة، وليس عيبا، ولا ضيما، ولا أساسيا، وإنما هو مقصور على الفروع الناجمة عن الاجتهاد.

٨- موجز عن قواعد الترجيح بين الأدلة المتعارضة.

هذا الموضوع برهان واضح على أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، عقيدتها واحدة، ومصادرها الفقهية تكاد تكون واحدة، وأن الاختلافات بين أئمة الاجتهاد لا تعدو ثمرتها الانقسام إلى رأيين أو ثلاثة، كما قال الإمام الشعرانى، و هو أقل بكثير من الاختلافات بين شراح القانون المدنى أو غيره، فقد تكون بالعشرات.

هذه الخلافات إثراء لساحات إعمال النظر، و رفع للحرج عن المقلدين المجتهدين، وبخاصة عند اختيار قانون واحد، سواء فى الأحوال الشخصية أو القانون المدنى، أو الجنائى (الجزائي)، و تعليم للعلماء على مدى

الزمان، و تدريب على الاجتهاد، و تمكين لأهل كل عصر من اختيار رأى واحد يلائم المصلحة و ظروف العصر، وذلك إشعار أيضًا بأن الثروة الفقهية الإسلامية متحضرة، ودليل واضح على صلاحية الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامى للتطبيق فى كل زمان ومكان.

المحور الثانى: الخطاب التشريعى فى فقه التعايش.

ومن الأبحاث التى نوقشت فى هذا المحور "المواطنة فى الخطاب التشريعى الإسلامى مع اختلاف العقائد" إعداد الدكتور / سلطان بن محمد بن زهران الحراصي

ويتلخص هذا البحث فى الآتي:

ـ كلمة المواطنة دخيلة فى العالم الإسلامى، واشتقاقها لغة من الوطن وهو المنزل يقيم به الإنسان، أى موطن الإنسان ومحله.

ــ حب الوطن فكرة راسخة فى النفس، فهو وسيلة لنشر الحق والدين، وإقامة شرعه العظيم، لأن مفهوم الوطن فى الإسلام هو الذى يسيطر على المسلم بعقيدته، ويحكم فيه بشريعته، فيتمكن من إقامة شعائر دينه، ونشر رسالته العالمية، بما تحمله من معانى الحرية والكرامة والمساواة والعدالة.

ــ أهم ضابط للوطنية فى الإسلام هو الدين والعقيدة، والفكر والثقافة والتاريخ التابع من أصالة الدين وصفاء المعتقد وطهره، ولا عبرة بالأرض وما فيها، إلا أنها وسيلة مهمة لإقامة الدين وظهوره.

ـ يكون الانتماء للوطن والوطنية إيجابيا أو سلبيا، أما الأول: فهو الانتماء للوطن بتاريخه وثقافته وفكره الأصلى، وأما الثاني: فهو محاولة إيجاد وطن مصلحى، يحكم بخليط من الهويات المتعددة، والثقافات المتنوعة، فتذوب العقيدة ويتلاشى الفكر الضابط لوحدة الأمة وقوتها وأمنها واستقرارها.

ـ من قواعد المواطنة فى الإسلام الحرية، والمساواة والعدالة.

ـ تمثل صحيفة المدينة القواعد الكلية والضوابط العامة التى تضمن تعايش الأفراد فى وطن واحد، مع وجود الاختلاف، ففيها تقرير للحمة الوطنية، وحماية الوطن والمواطن، وكفالة حرية التدين، والتعاون الجماعى فيما فيه مصلحة الوطن والمواطن، وتوحيد المرجعية، لضبط الأمور وفق منهج واضح.

ـ المواطنة تكفل حرية الفكر والتفكير بين المسلمين أنفسهم، وذلك فى إطار منظومة الإسلام الجامع، لأن تنوعها هو تنوع تكامل وتعارف، وليس هدم وإقصاء.

ـ لقد تحققت المواطنة بين المسلمين وغيرهم، فى ظل رعاية الإسلام، فقد ضمن لهم الحقوق، وطالبهم بالواجبات، فمن أهم الواجبات: الإخلاص للوطن والدفاع عنه واحترام نظامه، ومن أهم الحقوق الحرية الدينية.

المحور الثالث: المدارس الفقهية وفقه العيش فى العالم (الفقه الإباضى)

وفى هذا المحور عرض أ.د / محمود هرموش بحثه "فقه التعايش مع أهل الذمة عند الإمام السالمى وفقهاء الإباضية عموماً" وتناول البحث التعريف بأهل الذمة ومن تؤخذ منهم الجزية، وحقوق أهل الذمة فهناك حقوق أوجبها الإسلام لأهل الذمة لتكون مظاهر حية للتعايش مع أهل الكتاب تنص عليها الإمام السالمى وأئمة الإباضية عامة.

من هذه الحقوق:

١ - حق الحياة.

٢ - لهم من الأحكام جميع ما ثبت فى شريعتهم.

٣ - إقرارهم على دينهم.

٤ - إنهم داخلون فى الجوار.

وفى نهاية البحث عرض نماذج من التعايش التى أسسها الإسلام.

المحور الرابع: المدارس الفقهية وفقه العيش فى العالم رؤية مقارنة المذاهب الفقهية الإسلامية.

وتحت عنوان "فقه العيش مع الآخر من منظور فقه المذهب المالكى" جاء بحث الأستاذ الدكتور / مجدى عاشور ومن أهم النتائج التى توصل لها كالتالي:

١) تعايش الإسلام مع الآخر حقيقة ثابتة، شهد بها الواقع والتاريخ؛ فضلاً عن نصوص الوحى الشريف.

٢) العيش مع الآخر يراد به جميع أشكال التفاعل و التعاون والتكامل الإيجابى البناء المنبثق عن الإحسان والرفق و الرعاية و العناية بين المسلم (فردًا ومجتمعًا) وبين الآخر (فردًا ومجتمعًا).

٣) يشمل مصطلح الذمة غير المسلمين بأديانهم المختلفة سوى المرتدين عند المالكية.

٤) حرية الاعتقاد حق مكفول للناس جميعًا، ولا يجوز بحال إكراههم على الدخول فى الإسلام.

٥) من سماحة الإسلام التى قررها فقهاء المالكية: لا يجوز للزوج المسلم الذى تزوج غير المسلمة أن يمنعها من ممارسة شعائر شريعتها مطلقًا، وكذلك إباحة شهود غير المسلمين صلاة الاستسقاء مع المسلمين فى وقت خروجهم على المشهور فى المذهب.

٦) يجوز تعامل المسلمين مع غير المسلمين فيما يتعلق باحتفالاتهم بأعيادهم ومواسمهم الدينية، من بيعهم أو إجارتهم أشياء خاصة بالأعياد، كبطاقات التهنئة، أو توفير الأطعمة الخاصة بالأعياد، والملابس الجديدة إذا كان بقصد الربح واستغلالا للأعياد و المواسم تجاريًا.

٧) لا يحق لأحد أن يعقد عقد الأمان سوى الإمام أو نائبه، ويدخل الأولاد والنساء تبعًا للرجال فيه.

٨) يجب الالتزام بضوابط الشريعة الإسلامية وأحكامها عند التعامل مع أهل الذمة، ولا عبرة بما تبيحه شرائعهم.

٩) أنفس أهل الذمة وأموالهم وأعراضهم مصانة لا يجوز المساس بشيء منها إلا بحق، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، ويضمن المسلم ما أتلفه وأهدره من أموالهم.

١٠) المذهب المالكى يعد من أهم الأصول التى استمدت منها التشريعات الغربية قوانينها.

المحور الخامس: فقه العيش المشترك وعيش الخصوصية

وفى هذا المحور تمت مناقشة بحث الأستاذ الدكتور / إبراهيم البيومى غانم "أصول الرؤية الإسلامية للعالم وفلسفة العلاقة مع الآخر"

ويتلخص البحث فى أن الهوية هى ما يشخص الذات. هى بحسب ابن سينا: "معرفة الذات بالذات". والإقرار بمبدأ الهوية بالمعنى الوجودى العينى لها ترتبط بالمادة والتاريخ والمجتمع. ومثل هذا الإقرار يعنى بالضرورة الإقرار بمبدأ الكثرة والتنوع والتعددية فى متن الوجود. وليبرهن فى الوقت عينه على وحدانية الخالق سبحانه. ولا معنى للهوية بمعزل عن

الأنا والآخر. فالهوية هي -بحسب الجرجاني هذه المرة- "صفة الشيء من حيث امتيازه في تشخصه عن الأغيار". وعليه نستنتج أنه لا وعي بالهوية الذاتية دون وعي بهوية الآخر.

مسألة الهوية ليست من مسائل المجتمعات الحديثة ولا حتى الدول القومية الحديثة وإن كانت مشكلة الهوية - وما يرتبط بها من ضرورة تحديد أسس الانتماء والولاء التي تنظم علاقة الفرد بالدولة - قد مثلت جزءًا أساسيًا من بنية الفكر السياسي الحديث والمعاصر في العالم برمته؛ وفي العالم الإسلامي عامة، وفي العالم العربي بوجه خاص. وقد كان مناخ الجدل والصراع الفكري الذي عاشه عالمنا الإسلامي من أواخر العشرينيات إلى أواخر الأربعينيات دافعًا لتقديم اجتهادات حول الهوية وإطار الجامعة السياسية للدولة الوطنية التي لاح في الأفق آنذاك أنها هي التي سترث الدولة العثمانية في عديد من ولاياتها السابقة.

وقد تعدد الاتجاهات الفكرية والسياسية المتجادلة حول الهوية. وكان جدالها في جانب منه تجسيدًا للانقسام الأساسي في صفوف النخبة الفكرية / السياسية، بين عقلية تستلهم الإسلام وثرواته وتصدر عنه، وأخرى تستلهم الغرب وحضاراته الحديثة وتصدر عنه. وفي غمار المجادلات حول الهوية ظهر بين الاتجاهات المتجادلة تعارض بين الانتماء التاريخي العقدي "لدار الإسلام" وبين الولاء المفترض للوطن المحلي المحدود. وبين الارتباط بالجماعة أو الأمة الإسلامية وبين التبعية لأرض محدودة" في إطار الدولة الوطنية/ القومية الجديدة.

وفي تلك الفترة التي تعود إلى أوائل القرن العشرين؛ كانت "المفهومات" الأساسية المتداولة للتعبير عن الهوية هي: "الوطنية" أو "القومية" أو "الإسلامية". ودون الدخول في تفاصيل نشأة كل منها وتطوره في التاريخ الحديث للعالم الإسلامي؛ فقد تعين على كل اتجاه فكري / سياسي أن يربط رؤيته لمسألة الهوية بتصوره للدولة الحديثة التي ينشدها؛ ومن ثم بتصوره للنهضة وسبيل تحقيقها.

فهوية الدولة التي كان يتصورها وسعى لتحقيقها الفكر التغريبي العلماني، بصفة عامة، هي الدولة الوطنية " القومية " المتحيزة عرقيًا وجغرافيًا وثقافيًا. أما الدولة التي كان ينشدها الفقه الإسلامي فهي " الدولة الإسلامية" المنفتحة على مختلف الأعراق والقوميات والثقافات والتقاليد.

وإضافة إلى ما سبق، فإن طبيعة رابطة الولاء وحدود الجامعة السياسية اختلفت من نموذج لآخر حسب تصور كل اتجاه فكري سياسي. وتباينت أيضًا بحسب إدراك كل اتجاه لمشكلة الهوية وصلتها بالتصور الأساسي للدولة من ناحية، وفي سياق مناخ الجدل الفكري والصراع السياسي الذي شارك جميع الفرقاء فيه بصورة مباشرة منذ أواخر العشرينيات إلى اليوم وإن بدرجات مختلفة من القوة والضعف من ناحية أخرى.

يستبطن الفقه السياسي الإسلامي الحديث على الدوام فكرة أساسية قوامها أن البشرية ستجمع في صيغة وحدة عالمية تحكمها مبادئ الإسلام وقيمه، وأن الوصول إلى تلك العالمية أو الإنسانية هو الهدف الأسمى، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح الممكن في عالم الإنسانية. وقد انتهى البحث إلى أن مجتهدي الفقه السياسي الإسلامي الحديث قد استوعبوا في اجتهاداتهم "دوائر الهوية" جميعها: الوطنية، والقومية، والإسلامية،



والإنسانية. وأكدوا على أنها متواصلة غير متمانعة.

المحور السادس: حقوق المخالف دينيا

ومن الأبحاث التي نوقشت في هذا المحور بحث: «حقوق غير أهل الكتاب من المواطنين من منظور فقهي» للأستاذ الدكتور / خالد بابكر.

يتضمن هذا البحث تمهيدا وأربعة مباحث ذكر في التمهيد: أن المواطنة ليست مجرد انتماء الشخص لوطن يحمل جنسيته، إنما هي تجسيد فعلي للوحدة الوطنية وتجل واضح لمعاني الولاء والإخلاص لذلك الموطن من خلال رفض كل ما يهدد كيانه، ووحدته واستقراره، وهي الآصرة المتينة في بناء الدولة الحديثة وترصين قواعدها وشد أجزائها.

أما المباحث الأربعة فقد تناول في المبحث الأول: مفهوم الحقوق، و المواطنة وغير أهل الكتاب، وبين فيه غير المسلمين المقيمين في بلاد المسلمين، فالمقصود بهم ما سوى المسلمين من أهل الملل والأديان. وهم ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان". والمبحث الثاني: تناول موقف الفقهاء من مواطنة غير أهل الكتاب.

أما المبحث الثالث فيتضمن الأسس النظرية لمواطنة غير أهل الكتاب من منظور شرعي. وأوضح أن فكرة المواطنة في النظام الإسلامي تعود إلى عدة مبادئ إنسانية بالدرجة الأولى كالتكريم الإلهي للإنسان، ومبدأ المساواة ومبدأ اللاإكراه و مبدأ العدل.

وجاء المبحث الرابع :تحت عنوان حقوق المواطنة لغير أهل الكتاب وذكر أن المواطنين من غير أهل الكتاب لهم حقوق تجب على المسلمين الذين يساكنونهم.

المحور السابع: أصل العلاقة مع غير المسلمين في المنظور الإسلامي.

ومن الأبحاث التي نوقشت في هذا المحور بحث حمل عنوان "التعامل مع غير المسلمين (رؤية إسلامية، وواقع تاريخي)" لسعادة الشيخ / أحمد بن سعود السيابي.

وهذا البحث يناقش العلاقة الإسلامية مع غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم، ويتناول أربعة محاور وخاتمة.

المحور الأول: نظرة إسلامية عامة الى غير المسلمين: فقد بعث الله نبيه ورسوله محمدا عليه والصلاة والسلام إلى كافة الناس بشيرًا ونذيرًا ليحيى من يحى على بينة من الأمر، ويهلك من يهلك على بينة من الأمر:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

(سبأ: ٢٨)

والمحور الثانى حمل عنوان التعامل مع اليهود عرض فيه سردا تاريخيا للعلاقة بين المسلمين واليهود وتحدث عن وثيقة المدينة أو دستور المدينة، وهى أول وثيقة تعنى بشئون المواطنة وحقوقها، وقد قسمها المفكرون المعاصرون الى مواد دستورية.

وفى إطار هذه الوثيقة أو الصحيفة ومن خلال الآيات القرآنية الشريفة، تعايش المسلمون واليهود فى المدينة النبوية المنورة وكان القرآن ينزل ويعطى كل ذى حق حقه، دون النظر إلى اللون أو الجنس أو العرق أو الدين..

أما المحور الثالث فعرض فيه للعلاقة مع المسيحيين؛ وقد بدأت علاقة الإسلام بالمسيحيين منذ هجرة عدد من الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة بأمر من النبى ﷺ قائلا: إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهناك تعرف النجاشى والحبشة على الإسلام من خلال المسلمين، وبالتحديد من المحاورة التى دارت بين النجاشى وجعفر بن أبى طالب، التى أوضح فيها جعفر مبادئ الإسلام وخطوطه العريضة للنجاشى بحضور عدد من أكابر الحبشة.

وأخيرًا المحور الرابع فقد خصص لتوضيح التعامل مع المجوس والهندوس.

المحور الثامن: فقه الملاءمة والمجتمع الدولى

وقد تقدم الأستاذ الدكتور سعيد بن سعيد العلوى فى هذا المحور ببحث "العولمة من منظور إسلامي".

ويعرض فى التمهيد تعريفا للعولمة فيقول "... وربما كان التعريف الذى يقدمه للعولمة عالم الاجتماع العربى حليم بركات أكثر المحاولات توفيقا فى الاقتراب من الإحاطة بهذه الظاهرة الجديدة فى التاريخ البشري: "نسق جديد من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والمعلوماتية بين مختلف بلدان الأرض تجاوز الحدود الجغرافية واختصر المسافات"

وبعد ذلك يعرض البحث لعدة نقاط مهمة فعلى سبيل المثال يقارن بين العولمة والهوية "فالهوية نوعان: إما هوية تقبل الانغلاق على الذات وتسعى إلى الانكفاء على الذات بكل سبيل، وإما أن الهوية تقبل أن تكون مشروعا منفتحا على الدوام، منفتحا على الغير وعلى المستقبل معا. فأما الأولى فمصيرها إلى الزوال والاندثار وأما الثانية فهى تفلت من ذلك..

يتعين علينا أن نضيف أن الهوية، إذ تنسب إلى الذات المفردة، تكون على نحو وإذ تنسب إلى الأمة والجماعة تكون على نحو مغاير. وهذه الأخيرة تخضع، وجوبا، لمنطق التاريخ وحكم السياسة والاجتماع. إنها تتصل بالثقافة فى معناها الشامل والأرحب بأكثر من معنى وسبب.

والنقيض المطلق للهوية- وقد كانت مشروعا منفتحا على المستقبل وعلى الغير- هى العولمة. العولمة تكون كذلك من حيث إنها النفى المطلق للهوية، نفى يتذرع بدعاوى العالمية والنموذج الإنسانى الشمولى، والقول بنهاية الأيديولوجيا ونهاية التاريخ وما فى هذه المعانى وأشباهها. لذلك كانت الصلة الوحيدة الممكنة بين الهوية والعولمة هى صلة التنافى والإقصاء المتبادلين. بيد أنه لا تكافؤ بين طرفى المعادلة ولا اختيار ممكن تتركه العولمة للهوية".

ثم يتناول البحث "صورة العالم والوعى الإسلامى بالذات: مراحل ولحظات" عن طريق "تحقيب رباعى المراحل يجعل فيه لكل مرحلة (أو زمن) نعتا معلومًا كالتالى:

١- وعى الذات فى العصر الكلاسيكى الإسلامي: لحظة القوة والانبساط.

٢- زمن الانقباض: لحظة الضعف والخمول

٣- زمن النهضة: لحظة الاقتباس واستعادة الوعي.

٤- وعى الذات فى زمن العولمة: لحظة المقاومة والنهضة الثانية الممكنة".

النتائج والتوصيات

وفى ختام الندوة ألقى الشيخ محمد بن سالم الخروصى رئيس قسم خطب الجمعة بوزارة الأوقاف والشئون الدينية النتائج والتوصيات التى جاء بها:

١) يقصد بفقه العيش التصالح مع النفس التساكن والتجاور والتحاور مع الآخر والعيش معه على وفق قواعد الاحترام المتبادل وتوفير الأمان، وضمان الحقوق والحريات لكل إنسان فى إطار الضوابط المرعية المقتضية لصون الدين على أعرافه المستقرة، ولهذه المهمة الفقهية أهمية بالغة وضرورة ملحة لكون الفقه جسرا للتواصل بين أبناء الإسلام وغيرهم، ومنبرا لإبراز قسمات الإسلام النقية، وصورة ناصعة لعالمية الإسلام وشمولية فقهه للحياة البشرية فى شتى مناحيها، وضبطا لعلاقات الإنسان بأخيه الإنسان، بما يكفل له العيش الكريم، ويضمن منهجا يسوده التآلف والاعتراف وتصان فيه حريات الجميع، وإن تباينت بهم المسالك واختلفت الديانات.

٢) يطالب الإسلام بالتعايش المتوازن والتسامح المتكافئ بلا إفراط ولا تفريط، لأنه يوجب حرمة الإنسان كإنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو دينه، مع الدعوة إلى التزام القيم الأخلاقية المتبادلة التى تعد عاملا أساسيا للعيش مع الآخر، فالأصل فى العلاقات بين الناس جميعا هو التعارف والمسامحة والمساكنة.

٣) إن التعايش والتعارف مصطلح مقاصدى، ومضمونه قرآنى صريح:

﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ ﴾

(الأعراف: ١٠)

فهو ركن من أركان المجتمع الإسلامى والإنسانى، والمحافظة عليه بما يقرره بحسب المقاصد الكلية والجزئية أمر شرعى تؤيده أدلة نصية كثيرة.

٤) إن إحقاق الحق والعدل والمفاهيم الإنسانية واستقرار الأمم إنما يكون بالتعايش والتعارف، ولذلك ثمار عظيمة فى صلاح حال الإنسان والدنيا، وتحقيق أهداف الإنسانية المثلى، وللوصول إلى ذلك لا بد من الحوار والتزام آدابه والمبادئ التى تدعم ذلك.

٥) إن الواقع الإسلامى للمجتمعات الإسلامية فى تعدد الأعراف والأديان والمذاهب أمر عاشه المسلمون وعرفوه عبر تاريخهم الطويل، فعلينا أن نحافظ عليه، لأنه دليل وبرهان ساطع على سماحة الإسلام والمسلمين.

٦) إن معالجة التأزم الراهن بالأفكار والوسائل الملائمة والمتفهمة هى السبيل الأوحد للخروج من المأزق الحضارى العالمى وتفاعلات الظواهر الجزئية الناجمة عن العنف الذى يسود العالم فى كل مظاهر الحياة الإنسانية، ولذا كانت الحاجة ملحة لإنتاج الأفكار والمفاهيم والنظريات الإبداعية الاجتهادية لمواجهة متطلبات الواقع الحضارى

والعيش المشترك. وما يصدق بالنسبة للعالم والتأزم فيه يصدق أيضا على حالة المسلمين في علاقاتهم بالعالم وفي العلائق فيما بينهم.

٧) اصطلحت المذاهب الإسلامية في رؤيتها للعالم من الناحية الجغرافية - من غير وجود نص شرعي وإنما بالاجتهاد - على وحدة العالم وتقسيمه قانونيا إلى دارين: دار إسلام ودار حرب، وفقا للظروف آنذاك. وقد تفرعت على ذلك باختلاف الظروف دور أخرى مثل دار العهد ودار الموادعة، وعلى ذلك ينبغي إعادة النظر في فهم النصوص التي تنظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم وفهمها فهما يتسق مع المقاصد الكلية لدعوة الإسلام، ومع الوضع الجغرافي والتاريخي، ولذلك حاول بعض العلماء المعاصرين التجديد في مفهوم الدارين على أنهما: دار استجابة ودار دعوة، وإنما التوصيفات الأخرى هي توصيفات سياسية طارئة تبعًا للعلائق بين دول المسلمين والدول الأخرى عبر العصور.

٨) توصي الندوة ببحث موقف الفقه الإسلامي من بعض قواعد القانون الدولي المعاصر، لما سيدل عليه هذا البحث - بلا شك - من إظهار لمدى التقدم الذي وصل إليه الفقه الإسلامي في بلورة العديد من قواعد القانون الدولي، وهو الأمر الذي لم يصل إليه العلم القانوني الغربي إلا بعد ذلك بقرون طويلة، وإنه يحق لأهل الإسلام أن يعتزوا ويفتخروا بما قدمه الفقه الإسلامي في تاريخ الإنسانية، وبخطواته الاستباقية لكثير من الوقائع والأحوال، وبإمكانات التطوير التي يزخر بها. ولكن على الفقهاء في هذا العصر مراجعة الكثير من التصورات التي بنيت على أساسها مجموعة من الاجتهادات التي لم يعد لها وجود فعلي في الواقع.

٩) إيلاء قدر أكبر من العناية بدراسة تأثير الفقه الإسلامي في صياغة قواعد القانون الدولي بفروعه المختلفة، وخاصة ما يتعلق بفقه التعايش، مثل الحصانات الدبلوماسية، والعلاقات الدولية الأخرى وحوار الحضارات وتبادل العلوم والمعارف.

١٠) ضرورة الانتقال من النظرية إلى التطبيق، والعمل بجدية لتفعيل المؤسسات التي تقوم بتمثيل الإسلام والمسلمين في البلاد الغربية والمنظمات الدولية.

١١) نشر كتيب يتضمن الأحكام الفقهية والآداب الشرعية فيما يتعلق بالسفر، بنحو مبسط، وبلغات عدة، وتوزيعه على المغادرين في المطارات ونحوها.

١٢) إن الاتفاقيات الاقتصادية الدولية تجعل من الضرورة إعادة صياغة النظريات الفقهية الخاصة بالعلاقات الدولية والسياسة والحكم وغيرها من مجالات السياسة الشرعية في ضوء التطورات الدولية واجتهادات الفقهاء المعاصرين.

١٣) تأصيل مبدأ المواطنة وأصول التعايش مع الآخر من خلال وضع وثائق تضم الأفكار والضوابط والأطر لتحقيق التعايش فيما بين مختلف الملل والثقافات في ضوء القواعد الشرعية.

١٤) الاهتمام بفقه الاغتراب أي معايير وآداب تعامل المسلمين مع غيرهم في الرحلة والاستقرار بالدول والمجتمعات الأخرى، فالعالم ليس مجموعة دول فقط، وإنما يضم مجتمع عالمي يقوم على الاعتراف المتبادل بالثقافات المختلفة والتعايش فيما بينها فئات وأفرادا، ويكون على فقهائنا التفكر في الخاص والعام من ضمن فقه العيش الجديد.

١٥) صياغة ضوابط فقهية متخصصة لبيان واقع تعايش الجماعات المسلمة في البلاد الأخرى، وضرورة توفير حقوقهم الإنسانية الكريمة ومعاملتهم بمقتضى حق المواطنة أو الجنسية والامتناع من إجلائهم أو تهجيرهم.

١٦) إحياء فقه المواطنة وضوابط التعامل مع الآخر من خلال التوجيه الديني والإرشاد الاجتماعي وذلك بتطوير أنشطة الوعظ الديني والإرشاد الاجتماعي والتوعية الثقافية، امتثالا لقول الله تعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة: ٨٣)

وقوله سبحانه:

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وإعداد برامج تدريبية للكوادر الدينية.

١٧) ضرورة الاعتناء بالتراث العماني في تفعيل ندوات تطور العلوم الفقهية المقبلة، بحيث تتبنى وزارة الأوقاف والشئون الدينية إعداد فئة من الباحثين والدارسين العمانيين من خلال تبني بعض البحوث والأطروحات، والتأكيد على أهمية الموقع المفتتح لندوة تطور العلوم الفقهية في تفعيل تصوراتها ونشر توجيهاتها، وإقامة الدراسات الإسلامية العلمية المعمقة في نطاقها.

١٨) ضرورة غرس مبادئ القرآن الكريم والقيم الإيمانية وتأصيل حب الوطن ومعرفة الحكمة الإلهية في سنة التدافع فإن ذلك كفيل بضمان حقوق الآخرين، من خلال رؤى مؤصلة في تجربة المسلمين، ومنفتحة على الرؤى الجديدة للعالم والعلائق به.


الشيخ محمد بن سالم الحريصي

١٩) العناية بالدراسات الفقهية التي تهتم بالعلاقات الدولية من جهة، وبتطور العلوم ورؤى المسلمين للآخرين من جهة ثانية؛ وفي التجربة التاريخية للأمة والزمن الحاضر. وفي الموقع الذي افتتحته وزارة الأوقاف والشئون الدينية للاعتناء بفقه العيش فرصة طيبة لذلك لدى شباب العلماء.

٢٠) الحاجة إلى مزيد من الدراسات العلمية الجادة في فقه العيش، تنطلق من رؤية واقعية تستند في منطلقاتها إلى أصول الشرع التي تراعي المقاصد والمآلات، على أن تكون هذه الندوة تمهيدا لندوات مقبلة في الموضوع ذاته والموضوعات المقاربة، بما يؤدي إلى تعميق الرؤى المنفتحة في الوعي والواقع، والحرص على التواصل مع مجامع الفقه الإسلامية للإبلاغ والمناقشة.

٢١) الدعوة إلى إعداد معجم فقه حول "نحن والآخر" يجمع ما جاء في فقه التراث الفقهي لمختلف المذاهب، وربط الأحكام والاجتهادات بالمستجدات ومبادرات الفقهاء المعاصرين، وتتولى الجمع والإعداد لجنة من المعنيين والمختصين من الفقهاء وغيرهم.

٢٢) توجيه المعنيين لتشكيل لجنة تعنى بكتابة موسوعة علمية تأصيلية لدراسة الأصول والضوابط في المنظومة الفقهية الإباضية، بما يعني آليات العيش مع الآخر في المجتمعات والدول، وضوابط ذلك فيما يتعلق بأصول الشريعة وفروعها، مع بيان حقوق المخالف دينيًا.

فرص التمكين الاقتصادى للمرأة ودور التمويل متناهى الصغر

متابعة الأستاذين: رمضان ثابت - سعد فتحي

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف وبالتعاون مع الوكالة الفرنسية للتنمية ومركز صالح كامل والمركز الدولى الإسلامى للدراسات والبحوث الإسلامية ومركز البحوث الاقتصادية والمالية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة تم افتتاح مؤتمر: "فرص التمكين الاقتصادى للمرأة ودور التمويل متناهي الصغر"، وذلك بمركز الأزهر للمؤتمرات يوم ٤ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ الموافق ١٤ أبريل ٢٠١٣م.

فى افتتاح المؤتمر جاءت كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر والذى ألقاها - نيابة عنه - الأستاذ الدكتور محمود عزب مستشار شيخ الأزهر لشئون الحوار مرحبًا بالسادة الحضور، حيث قال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ: "استجاب الأزهر لمبادرة الوكالة الفرنسية للتنمية بشأن التعاون فى مجال التمكين الاقتصادى للمرأة توطيدا للعلاقات بين الأزهر وفرنسا والتى بدأت مع إرسال الشيخ رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا عام ١٨٢٦م"، مشيرًا إلى أن الأزهر كان وما زال يسعى لإضفاء الحداثة على مصر، وأن الإسلام له دور ونصيب فى الحضارة الغربية من خلال العلوم الإنسانية، التى تم تطويرها على مدار عقود طويلة وأصبحت تمثل - فيما بعد - قاعدة للنهضة فى فرنسا.

كما أكد فضيلته على ضرورة الاهتمام بالمشروعات المتناهية الصغر للمرأة المصرية باعتبارها أحد أهم المحاور الأساسية للنهوض بالمجتمع - فى إطار دعم المرأة وتمكينها من خلال تلك المشروعات - للمساعدة على تحقيق التنمية المطلوبة، مضيفًا أن الأزهر بوصفه المدرسة الأولى للوسطية يضع المرأة نصب أعينه، وأن الشريعة الإسلامية منحت المرأة حقوقًا لم تقدمها الثقافات الأخرى، ولكن فى الوقت الذى ضعفت فيه الحضارة الإسلامية بدأ عدم الفهم و الفهم الخاطئ للشريعة ووضع المرأة فى المجتمع، معرجا على وثائق الأزهر فى الشأن الداخلى المصرى والشأن العربى بما فى ذلك وثيقة المرأة، وشدد على ضرورة استعادة طرق الشريعة الإسلامية الصحيحة والعودة بالمرأة للإطار الصحيح، و التمكين الاقتصادى لها بقوله: "لن ينهض مجتمع دون إسهام المرأة فى المجال الاقتصادى والاجتماعي؛ فهى قادرة على العمل، وهى فى قلب الأحداث والثورة".

وفى ختام كلمة الإمام الأكبر أعلن الأستاذ الدكتور/ محمود عزب أن بيت العائلة المصرية بصدد عقد دورة تدريبية تجمع ٢٠ إماما و٢٠ قسيسًا، لتلقى محاضرات عن الدعوة الوسطية، والدراسة الموضوعية للاحتقان الطائفي، والعمل على التركيز على القيم والرحمة فى الإسلام والمحبة فى المسيحية.

هذا وقد استهلت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر بحضور كوكبة من العلماء والدبلوماسيين من مصر وفرنسا وبعض الدول العربية منهم الرئيس التنفيذى للوكالة الفرنسية للتنمية الدكتور دوف زيرا والأستاذة الدكتورة هالة السعيد عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، والسفير الفرنسى نيكولا جالى الذى قال فى كلمته بعد الحفاوة بالحضور:

"إن كل دولة يجب أن تتوصل إلى أصولها الاجتماعية، والمرأة يحق لها أن تشارك فى اتخاذ القرار جنبا إلى جنب مع الرجل، والجميع عليه أن يؤيد ذلك فلكل منا هويته، ويجب احترام خصوصية كل طرف وحين تكتسب المرأة حقوقها فهذا - يعنى أنها تتخلى عن دورها الاجتماعى والتقليدي، وكذلك لا يعنى أن تتخلى عن الأسرة والأولاد؛ فلا بد أن يكون لها دور فى المجتمع المصري، لإحداث التقدم الاجتماعى والاقتصادى لمصر".


أ.د محمود عزب

وفى الإطار ذاته جاءت كلمة الرئيس التنفيذى للوكالة الفرنسية للتنمية د. دوف إذ قال: "إن تهميش المرأة يمثل تبديدًا لكل المجهودات التى يبذلها المجتمع، ويقلل من فرصها فى التنمية، وإن الاستثمار فى المرأة ذو عائد مهم و هو أحد عناصر التنمية والتطور الاقتصادي"، مشيرًا إلى أن كافة الدراسات والإحصائيات أثبتت أن المرأة قادرة على تسديد ديونها، كما أنها تمثل مصدرًا كبيرًا للإبداع وأن أى تبديد لها هو تبديد لنصف الإمكانيات البشرية".

وقالت الدكتورة ميرفت التلاوي، رئيس المجلس القومي للمرأة: "إن نجاح الدولة فى تحقيق التنمية المستدامة لن يتم إلا عن طريق الاهتمام بدور المرأة فى المجتمع فى جميع المناحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وذلك من خلال العمل على تغيير الرؤى والمعتقدات السائدة تجاهها وتوفير فرص عمل لها".

وأضافت أن بيانات الأمم المتحدة تشير إلى أن ٧٠٪ من فقراء العالم من النساء، ويحصلن على عشر الدخل العالمي، ويمتلكن ١٪ من ثروات العالم، ويمثلن ١٪ من المناصب السياسية القيادية و٧٥٪ من النازحين والفقراء يتعرضن لانتهاكات حقوق الإنسان.

وفى ختام الجلسة الافتتاحية للمؤتمر أشادت الدكتورة هالة السعيد عميد كلية

الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة بدور الأزهر الشريف تجاه المرأة بما فى ذلك وثيقة الأزهر للمرأة، واستعرضت معايير تمكين المرأة اقتصاديا كنسبة مشاركتها فى البرلمان وسوق العمل والتعليم، ملخصة أبرز محاور المؤتمر وهو ما سنعرض له من خلال جلسات المؤتمر والأبحاث المشاركة:

انتظمت فعاليات المؤتمر بعد الجلسة الافتتاحية فى أربع جلسات وخاتمة؛ دارت الجلسة الأولى حول دور المرأة فى التنمية، ورأستها الدكتورة كاترين بوتو المتخصصة فى مجال الصحة بالوكالة الفرنسية للتنمية، فيما طوفت الجلسة الثانية حول اندماج المرأة فى مصر: التحديات والعوامل الأساسية، ورأسها الأستاذ الدكتور عبد الله النجار عضو مجمع البحوث الإسلامية، وكانت الجلسة الثالثة بعنوان: التمويل متناهى الصغر باستخدام الأسلوب التقليدى والأسلوب الإسلامى والأسلوب المبتكر، فيما استعرضت الجلسة الرابعة الخدمات المبتكرة لتمكين المرأة وهذه لمحة موجزة عن بعض الأبحاث المشاركة فى المؤتمر.

عرضت الجلسة الأولى أربع مشاركات حول دور المرأة فى التنمية منها بحث بعنوان: "التأصيل الإسلامى فى الأهداف الإنمائية للألفية المتعلقة بالمرأة؛ مكانة المرأة فى الإسلام" للأستاذ الدكتور طه أبو كريشة عضو مجمع البحوث الإسلامية حيث أوضح فى كلمته الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة على كافة المستويات التى تمكنها من الاندماج فى سوق العمل بما فى ذلك المجال الإنسانى، حيث سواها الإسلام بالرجل، والمجال الاجتماعي، حيث فتح لها باب العمل، وعلى المستوى القانونى والاقتصادي، حيث أعطاها الأهلية الكاملة والمساواة مع الرجل فى الكسب والعمل فى الحقوق والواجبات ولا تكون التفرقة إلا فى الأدوار فقط.


أ.د. طه أبو كريشة

وأخيرًا استعرض عضو مجمع البحوث الإسلامية المجالات التى تساوى فيها الرجل مع المرأة كالمساواة فى الإيمان، والمساواة فى الجزاء فى الآخرة، والمساواة فى العمل الاجتماعي، والمساواة فى الحقوق المالية، والمساواة بين الزوجين، والمساواة فى التعليم والتربية، وكل ذلك مدعما بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

فيما ناقشت الجلسة الثانية بحثين حول اندماج المرأة فى مصر: التحديات والعوامل الأساسية؛ أحدهما بعنوان: دور المنظمات الإيمانية للأستاذ الدكتور عبد الله الحسينى وزير الأوقاف الأسبق قال فيه:

"تمثل المرأة نصف المجتمع فى العدد وأكثر من نصفه فى الأثر والفاعلية، فهى صانعة الأجيال وشريك الرجل فى تنمية المجتمع وتحقيق الرخاء وصنع التقدم ولذلك قرر لها الإسلام من الحقوق ما يضمن تمكينها ويكفل قيامها بواجبها وأداءها لرسالتها على الوجه الأكمل".

وفى ختام كلمته أكد فضيلته على تعدد الحقوق التى كفلها الإسلام للمرأة فبعد أن عدد تلك الحقوق قال: "وهكذا تتعدد الحقوق التى كفلها الإسلام للمرأة، ولم

يكتف بتقريرها نظريا ولكنه شرع من النظم والقواعد ما يضمن حصولها على هذه الحقوق حتى تؤدى دورها وتنهض برسالتها".

وتطرقت الجلسة الثالثة إلى أساليب التمويل متناهى الصغر: الأسلوب التقليدي، والأسلوب الإسلامي، والأسلوب المبتكر" وتضمنت أربعة أبحاث منها بحث بعنوان: "التمويل الإسلامى متناهى الصغر فى مصر: التجارب، والوسائل المالية، الابتكار ووجهات النظر فيها د. عادل عيد، ود. محمد الغزالى - مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، ألقاه الأستاذ الدكتور محمد الغزالي.

فيشير إلى أهمية التمويل الأصغر كخطوة مهمة أمام صناعة التمويل الإسلامى لخدمة الشرائح السكانية العريضة وبخاصة الفقراء، ويؤكد على تكامل التمويل الإسلامى والتمويل الأصغر واتفاقهما فى العناية بإنتاج استثمارات حقيقية نافعة للمجتمع وتقديم العون للفئات الأكثر احتياجًا وعدم استغلال حاجة الناس والتربح منها، ثم يستعرض الصيغ التمويلية الإسلامية التى يمكن من خلالها تمويل وتنمية المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر مثل: "المرابحة، المشاركة، المضاربة، الاستصناع، السلم، الإجارة، المقاولة، والمزارعة، المغارسة، البيع الآجل وبالتقسيط، البيع بالوكالة، والبيع بالعمولة... وغيرها" ويشرح طبيعة كل صيغة من هذه الصيغ واختلافها عن الصيغ الأخرى، ومدى إتاحة الشريعة الإسلامية استحداث صيغ جديدة شريطة الالتزام بالمبادئ والمعايير والضوابط الشرعية، ومدى الحاجة إلى تكييف وتحوير وتطوير منتجات وأدوات ونماذج تشغيل صناعة التمويل الإسلامى بالشكل الذى يلبى احتياجات الفقراء بوصفهم الشريحة التى يستهدف خدمتها التمويل الأصغر.

وأخيرًا يعرض الدكتور محمد الغزالى المشكلات التى تواجه المشروعات الصغيرة سواء كانت تمويلية أو فنية أو قانونية أو إدارية والحلول الابتكارية للتغلب عليها مقدما نماذج عملية وتجارب ناجحة لمشروعات ممولة من جمعيات خيرية لخدمة المرأة المصرية مثل مشروع تشغيل أمهات الأيتام بالجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية.

هذا وقد ناقشت الجلسة الرابعة الخدمات المبتكرة لتمكين المرأة من خلال أربع مشاركات قدمت للمؤتمر منها بحث مترجم بعنوان "توجيه الخدمات الضرورية لتمكين المرأة: أصحاب المشروعات العالمية" لـ(أوجينيه قوستانسياس) المسئولة عن الأداء الاجتماعى بالوكالة الفرنسية للتنمية، عرضت فيه دور ومهمة منظمة "أصحاب المشروعات العالمية **Enterpreneurs du Monde**" فى تقديم الدعم والمساعدة للنساء والرجال بما فى ذلك خدمات التمويل متناهى الصغر والتوجيه والتدريب والإشراف والمتابعة وذلك على مستوى (١٤) دولة فى غرب أفريقيا وآسيا وهاييتي، ويشير البحث إلى تركيز المنظمة - فى تقديم الدعم - على النساء بنسبة تتجاوز ٩٠٪ لتخفيض معدلات الفقر بين الإناث.

وفى ختام المؤتمر تم استعراض خلاصة الأبحاث والدراسات المقدمة وتوجيه الشكر للحضور والمشاركين.

رجب ١٤٣٤ هـ
مايو يونيه ٢٠١٣م

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

من أوّلُ المارّين عبر دُروبنا — فتحوّلتْ أحزانُنا لأمـانى ؟
من قدّمَ الأرواحَ يفدى مصرنا — من قام يرفضُ سطوةَ الخُذلانِ ؟
من ثارَ فى وجه البشاعةِ نازعا — سُمّ الرّدَى من مخلب الشيطانِ ؟
من مات كى نحيا بوفر كرامةٍ؟ — من بالبراءةِ دكّ مَعقِلَ البُهتانِ ؟
من أدهشَ الدنيا فأحنت رأسها — لتحضُّرٍ وشجاعةٍ و تَفَـانِ ؟
أبناءُ مصرَ شبابُها هم وحدهم — من فجروا البُركانَ فى الطغيانِ
هم بايعوا وطنا على حريـةٍ — وعدالةٍ موفـورةٍ وأمَـانِ
لم يبحثواعن سُلْطَةٍ أو منصبٍ — هم وحدهم من يفتدى أوطانى

كان الأزهر الشريف وما يزال هو معقل الإسلام فى مصر وفى العالم أجمع ، وكان ولا يزال هو الأمل لجميع المصريين بمختلف أيدلوجياتهم و اتجاهاتهم الفكرية ، لنهجه القويم ومسلكه الحكيم ، فكان الملجأ لهم عند الشدائد والخطوب ، وكان الجامع لهم حين ينادى المنادى : حى على الجهاد لمواجهة معتد آثم أو فاجر ظالم . إن الأزهر هو من حافظ على صحيح الدين منذ أكثر من ألف عام من الزمان ، يصون حرمة الإسلام ويحمى حماه ، بعلم شيوخه الأجلاء وتلامذته النابهين على مر القرون.

هذا وتزهو الخميلة اليوم بباقة فواحة من القصائد الشعرية ، العبقة بالإحساس الشعرى العميق والأخاذ، تستهلها بقصيدة للصديق الشاعر العربى السودانى الشهير الأستاذ محمد الفيتورى ، تتحدث عن شاعر كبير ملأ صيته الدنيا منذ الخلافة العباسية ، وحتى اليوم ، إنه المتنبى ، الذى يعتبر علامة كبرى على درب الشعر العربى .

المتنبى

للشاعر محمد الفيتورى

يمرُّ غيرُكَ فيها مُختصرُ
لا برق يخطف عينيه ولا مطر
وأنت.. لا أسألُ التاريخ عن هرمٍ
فى ظله قمم التاريخ تنتظر
عن عاشق فى الذرى..
لم تكتمل أبداً
إلا على صدره الآيات والسور
عن الذى كان عصرا شامخا
ويداً تشد عصرا إليها
وهو ينحدر
يمر غيرك
بعض العابرين على بطونهم
يثقلون الأرض إن عبروا
كمثل من أبصرت عيناك
ثم نأت عيناك عنهم
فلا غابوا.. ولا حضروا
وبعضهم أنت تدرى
أن شعرك لو لم يلق ضوءا
على أيامهم غبروا
كانوا ملوكا على أرض ممزقة
يجوع فوق ثراها النبت والبشرُ
كانوا ملوكا مماليكا
وأعظمهم تحت السموات
من فى ظلك استتروا
***
ورحت تنفخ فيهم منك
ترفعهم ، فيسقط البعض
أو تبنى ..فينكسر
أردت تخلق أبطالا ، تعيد بهم
عصر النبوة والرؤيا ، فما قدروا

هتفت : ياعمر
مكتوب لك العمر
وليس ينقص فيك الجهد والسهر
وإنما تنقص الأعمار فى وطن
يغتاله القهر ، أو يغتاله الخطر
وقلت..
والشاهدان ، اللّيل والسفر
وشعلة فى مدار الكون تستعر
هذى الطيور التى احمرت مخالبها
فوق الصخور لنا
ولتسنح الحفر
وسرت غضبان فى التاريخ
لا عنق إلا ومنك على طياته أثر
تصفو ، وتجفو
وتستعلى ، وتبتدر
وتستفز ، وتستثنى ، وتحتقر
هذا زمانك
لا هذا زمانُهم
فأنت معنى وُجُودٍ ليس ينحصر
فى كل أرض وطئتها أمم
تُرعى بعيدٍ كأنها غنم
وإنما الناس بالملوك
وما تصلح عرب ملوكها عجم
وتكفهر على مرآتك الصُّوَرُ
أتعقم الأرض؟ هذى الأم
أيُ دجى هذا الذى فى عُيون الناس ينتشر
وينحنى شجر الأيام
والغضب القدسى يغدُو انكسارات
وينحسر
***

فلتسمع النُصُبُ الجوفاء والأُطُرُ
هذى الأغانى البواكى فى فمى نذر
إذا تساقط فى أيامهم علمٌ
فإن أعلام من يأتى ستنتصر
وإن يخن خائن فالأرض واحدة
برغم من خان .. والآلام مُختبَرْ
***

وقلت بغداد
يا بغدادُ أىُ فتى كان الفتى
وهو فى عينيك يزدهر
أنت التى اخترته للعشق
كان إذا رآكِ فى لهب الأحداث
ينفجر
ويحرث الأرض كالمجنون
يحرثها براحتين هما الإحباط والظفر
أقل مجدك أن الفاتحين وقد

جاءوا غُزاة على أبوابك انكسروا
وبعض مجدى ، أنَّ الكون لى فلك
شعرى وأنت عليه : الشمس والقمر
ويا شام الهوى أنا فى العاقُول أنتظر
ويا حدائق كافور القديم
سوى تلك الثمار التى حُملتها الثمرْ
***

الله.. يا كم تغرّبنا
وكم بلغت منا الهموم
كما لم يبلغ الكبر
فإن أكن أمس قد غازلت أُمنيةً
حيث استوى الصمتُ
أو حيث استوى الضّجر
فالمجد أعظم إيقاعاً
وربّ دم يمشى حزيناً
ويمشىٌ إثرهُ القدرْ

من قديم وللشعر اغراض تنظم قصائده فيها ، فمنه النسيب والوصف والهجاء، ومنه كذلك غرض الرثاء ، الذى نتخير منه اليوم قصيدة من ارق وابلغ ما نظم شعرا فى هذا الباب وهى للشاعر الاستاذ حسن طلب وهذه القصيدة الرائعة من ديوانه [سيرة البنفسج]

بنفسجة الغياب

للشاعر حسن طلب

[إلى فوزى المنتيل]

أبكيكَ ؟
أم أبكى الوطنَ ؟
أم أدَعُ البكا للنيل ..
حتى يسترد فضيلةَ الحُزْنِ القديم ..
ويَترُكْ ؟!
أبكيك أم أبكى الوطنْ ؟
أبكيكَ .. أم أشكوكَ ؟

أم آتيكَ ، أم أرجوكَ ؟
إنى اليومَ لن أرثيكَ ..
إلاَّ أن تُقرَّ بأنْ سترثينى غدًا !!
فدَع القصائدَ تنتشى بالدمع ..
دَعْ شعرى وشعرَكَ يبكيان دمًا
ودع شعرى وشعرَكَ يذهبان سُدًى ..
وضَعْ كل العروضِ معًا ..

وقُلْ :
لله دَرُّكَ يا بنفسجةَ الشَّجَنْ
وَصَلَ الخطابْ
ووصلتَ أنتَ ..
فيا لوقتٍ فرَّ من وقت ..
ويا لكما ذهابًا فى إيابْ !
قُلْ لى بربِّكَ :
كيف كنتَ ، وقد أتى الآتـى إليكَ .. عليكَ
؟.. كيف نضا الإهابْ
عن حُرِّ وجهكَ ..
دون أنْ ترمى بسهم الشعرِ طلعتَه ؟!
لماذا لـمْ تدَعْ لى فرصةً حتـى أرُدَّ عليكَ كيدَ
الشعرِ ؟
أو أدَعَ الدَّواةَ ترى خيالَكَ فى الكتاب ؟!
أولَمْ يكنْ ما بيننا يكفِى
لكى يتقهقرَ الآتى الغريبُ ويَنْتَحِى ؟
أولَمْ يكنْ هذا الرسولُ ليَسْتَحِى ؟
أو لَمْ يكنْ هذا الغيابُ .. ؟!!
إنَّ القصيدةَ حرَّضَتْنى ضِدَّ موتِكَ
.. والقصيدةُ أوغرَتْ صَدرِى عليكَ
فلم أُجرِّبْ فيكَ ماءَ الحزنِ
لا وأبيكَ لم آتِكَ

القصيدةُ خاصمتنى فيكَ ..
ويْحكَ
لا تظنَّ بىَ الظنونَ ، فما بكيتُكَ .. إنما
وتَرُ الربابْ
هو ما يئنُّ عليك بقيةَ الردِّ الذى لمْ تنتظرْهُ
.. ويقتضيكَ صَدَى الجوابْ
ولا جوابْ !
إنَّ القصيدةَ راودتنى منكَ عنكَ
.. فما بكيتُكَ ..
بل ضحكتُ ! ضحكتُ حتى كبّلتنى الروحُ
.. ثم شربتُ حتى أطلقتنى !
لا تظنَّ بىَ الظنونَ
.. فليسَ ما فى الكأسِ خمرًا
إنهُ شِعرٌ مُذابْ
فاشربْ إلى أنْ يستتبَّ لكَ الزمانُ
.. ويستضىءَ بكَ الترابْ
وقُلْ : التحيَّةَ للصدَى النائى
الوداعَ لصورةِ المرئى فى الرائى !
وقُلْ :
لا دَرَّ دَرُّكَ يا بنفسجةَ الغيـابْ
لا دَرَّ دَرُّكَ يا بنفسجةَ الغيـابْ
(الدوحة – مايو ١٩٨١م)

اما قصيدة [رسالة فى ليلة التنفيذ] فهى للشاعر هاشم الرفاعى ، الذى نظمها قبل ان يقبض عليه ويسجن ، متصورا حاله ليلة تنفيذ حكم الإعدام شنقا عليه ، والذى تحقق فعلا فيما بعد ، نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

رسالة فى ليلة التنفيذ

شعر هاشم الرفاعى

أبتاه ماذا قد يخطُّ بنانى
والحبلُ والجلادُ ينتظرانى
هذا الكتابُ إليكَ مِنْ زَنْزانةٍ

مَقْرورةٍ صَخْرِيَّةِ الجُدْرانِ
لَمْ تَبْقَ إلاَّ ليلةٌ أحْيا بها
وأُحِسُّ أنَّ ظلامَها أكفانى

سَتمرُّ يا أبتاهُ لستُ أشكُّ في
هذا وتحملُ بعدها جُثماني
والليلُ مِنْ حولي هُدوءٌ قاتلٌ
والذكرياتُ تمورُ في وجداني
ويَهُدُّني ألمي فأنشُدُ راحتي
في بضعِ آياتٍ مِنَ القرآنِ
والنفسُ بينَ جوانحي شفافةٌ
دَبَّ الخشوعُ بها فهزَّ كياني
قد عشتُ أومنُ بالإلهِ ولم أذقْ
إلا أخيراً لذةَ الإيمانِ
والصمتُ يقطعُهُ رنينُ سلاسلٍ
عبثتْ بهنَّ أصابعُ السجَّانِ
ما بينَ آونةٍ تمرُّ وأختها
يرنو إليَّ بمقلتيْ شيطانِ
مِنْ كوَّةٍ بالبابِ يرقُبُ صيدَهُ
ويَعودُ في أمنٍ إلى الدورانِ
أنا لا أحسُّ بأيِّ حقدٍ نحوهُ
ماذا جنى فتمسُّه أضغاني
هُوَ طيبُ الأخلاقِ مثلُكَ يا أبي
لم يبدُ في ظمأٍ إلى العدوانِ
لكنَّهُ إنْ نامَ عنِّي لحظةً
ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمانِ
فلربما وهُوَ المروَّعُ سحنةً
لو كانَ مثلي شاعراً لرثاني
أوْ عادَ - مَنْ يدري - إلى أولادهِ
يوماً تذكَّرَ صورتي فبكاني
وعلى الجدارِ الصُّلبِ نافذةٌ بها
معنى الحياةِ غليظةُ القضبانِ
قدْ طالما شارفتُها متأملاً
في الثائرينَ على الأسى اليقظانِ
فأرى وجوماً كالضبابِ مصوِّراً
ما في قلوبِ الناسِ مِنْ غليانِ
نفسُ الشعورِ لدى الجميعِ وإنْ هُمو
كتموا وكانَ الموتُ في إعلاني
ويدورُ همسٌ في الجوانحِ ما الذي
بالثورةِ الحمقاءِ قدْ أغراني؟
أوَ لمْ يكنْ خيراً لنفسي أنْ أرى
مثلَ الجموعِ أسيرُ في إذعانِ؟
ما ضرَّني لوْ قدْ سكتُّ وكلَّما
غلبَ الأسى بالغتُ في الكتمانِ؟
هذا دمي سيسيلُ يجري مُطفِئاً
ما ثارَ في جنبيَّ مِنْ نيرانِ
وفؤاديَ المَوَّارُ في نبضاتهِ
سيكفُّ في غدهِ عنِ الخفقانِ
والظلمُ باقٍ لنْ يُحطِّمَ قيدَهُ
موتي ولنْ يُودي بهِ قرباني
ويسيرُ ركبُ البغيِ ليسَ يضيرُهُ
شاةٌ إذا اجتُثَّتْ مِنَ القطعانِ
هذا حديثُ النفسِ حينَ تشفُّ عنْ
بشريتي وتمورُ بعدَ ثوانِ
وتقولُ لي إنَّ الحياةَ لغايةٍ
أسمى مِنَ التصفيقِ للطغيانِ
أنفاسُكَ الحرَّى وإنْ هيَ أُخمِدَتْ
ستظلُّ تغمرُ أفقهمْ بدخانِ
وقروحُ جسمكَ وهْوَ تحتَ سياطِهمْ
قسماتُ صبحٍ يتَّقيهِ الجاني
دمعُ السجينِ هناكَ في أغلالِهِ
ودمُ الشهيدِ هنا سيلتقيانِ
حتى إذا ما أُفعِمتْ بهما الرُّبا
لمْ يبقَ غيرُ تمرُّدِ الفيضانِ
ومِنَ العواصفِ ما يكونُ هبوبُها
بعدَ الهدوءِ وراحةِ الربانِ
إنَّ احتدامَ النارِ في جوفِ الثرى
أمرٌ يثيرُ حفيظةَ البركانِ
وتتابعُ القطراتِ ينزلُ بعدَهُ
سيلٌ يليهِ تدفُّقُ الطوفانِ
فيموجُ يقتلعُ الطغاةَ مُزمجِراً
أقوى مِنَ الجبروتِ والسلطانِ
أنا لستُ أدري هلْ ستُذكرُ قصتي
أمْ سوفَ يعروها دُجى النسيانِ؟
أمْ أنني سأكونُ في تاريخنا
متآمراً أمْ هادمَ الأوثانِ؟
كلُّ الذي أدريهِ أنْ تجرُّعي
كأسَ المذلةِ ليسَ في إمكاني
لوْ لمْ أكنْ في ثورتي متطلباً
غيرَ الضياءِ لأمتي لكفاني
أهوى الحياةَ كريمةً لا قيدَ لا
إرهابَ لا استخفافَ بالإنسانِ
فإذا سقطتُ سقطتُ أحملُ عزتي
يغلي دمُ الأحرارِ في شرياني
أبتاهُ إنْ طلعَ الصباحُ على الدُّنى
وأضاءَ نورُ الشمسِ كلَّ مكانِ
واستقبلَ العصفورُ بينَ غصونهِ
يوماً جديداً مشرقَ الألوانِ
وسمعتَ أنغامَ التفاؤلِ ثرَّةً
تجري على فمِ بائعِ الألبانِ
وأتى يدقُّ - كما تعوَّدَ - بابنا
سيدقُّ بابَ السجنِ جلادانِ
وأكونُ بعدَ هنيهةٍ متأرجحاً
في الحبلِ مشدوداً إلى العيدانِ
ليكنْ عزاؤكَ أنَّ هذا الحبلَ ما
صنعتهُ في هذي الربوعِ يدانِ
نسجوهُ في بلدٍ يشعُّ حضارةً
وتضاءُ منهُ مشاعلُ العرفانِ
أوْ هكذا زعموا! وجيءَ بهِ إلى
بلدي الجريحِ على يدِ الأعوانِ
أنا لا أريدُكَ أنْ تعيشَ محطماً
في زحمةِ الآلامِ والأشجانِ
إنَّ ابنكَ المصفودَ في أغلالهِ
قدْ سيقَ نحوَ الموتِ غيرَ مدانِ
فاذكرْ حكاياتٍ بأيامِ الصبا
قدْ قلتَها لي عنْ هوى الأوطانِ
وإذا سمعتَ نحيبَ أمي في الدجى
تبكي شباباً ضاعَ في الريعانِ
وتكتمُ الحسراتِ في أعماقها
ألماً تواريهِ عنِ الجيرانِ
فاطلبْ إليها الصفحَ عني إنني
لا أبتغي منها سوى الغفرانِ
مازالَ في سمعي رنينُ حديثها
ومقالِها في رحمةٍ وحنانِ
أبنيَّ: إني قدْ غدوتُ عليلةً
لمْ يبقَ لي جلدٌ على الأحزانِ
فأذقْ فؤاديَ فرحةً بالبحثِ عنْ
بنتِ الحلالِ ودعكَ مِنْ عصياني
كانتْ لها أمنيةً ربانةً
يا حسنَ آمالٍ لها وأماني
والآنَ لا أدري بأيِّ جوانحٍ
ستبيتُ بعدي أمْ بأيِّ جنانِ
هذا الذي سطرتُهُ لكَ يا أبي
بعضُ الذي يجري بفكرٍ عانِ
لكنْ إذا انتصرَ الضياءُ ومُزِّقتْ
بيدِ الجموعِ شريعةُ القرصانِ
فلسوفَ يذكرني ويكبرُ همتي
مَنْ كانَ في بلدي حليفَ هوانِ
وإلى لقاءٍ تحتَ ظلِّ عدالةٍ
قدسيةِ الأحكامِ والميزانِ

أسأل الله جلت قدرته ، أن يهبنا الأمن والأمان ، وأن يرزقنا العلم النافع وأن يتولانا برحمته وبمغفرته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

طرائف.. ومواقف

للشيخ: عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حياً.. وميتاً

ذكر بعض المؤرخين، أن أبا جعفر المنصور ناظر الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله ـ تعالى ـ أدب قوماً فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾

(الحجرات: ٢)

ومدح قوماً فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الحجرات: ٣)

وذم قوماً فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحجرات: ٤)

وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها المنصور.

فعل هذا بالتقي الطاهر

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته، فقال: «لولا رحمة الله لهلك أبوك، إنه سألني عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبدالعزيز فصاح وضرب بيده على رأسه، وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين..

رجل كريم

حكى الأصمعي أنه قصد رجلاً مشهوراً بالكرم، فلما جاءه منعه البواب من الدخول، وقال له: ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده.

فكتب الأصمعي في ورقة إلى البواب هذا البيت:

إذا كان الكريم له حجاب
فما فضل الكريم على اللئيم

فأخذها البواب وأعطاها سيده، فكتب على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل مال
تحجب بالحجاب على الغريم

وأعطاه معه خمسمائة دينار.

أيحاسب الخليفة؟

روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبدالملك فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قرأت القرآن وفقهت!!.

فقال يا أمير المؤمنين: أأنت أكرم على الله من نبيه داود ـ عليه السلام ـ؟ إن الله ـ تعالى ـ جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه، فقال:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(ص: ٢٦).

تواضع

● وقف بكر بن عبدالله المزني يوم عرفة وسط الحجيج وقال: ما أشرفه من مقام لولا أني فيهم.

● وكان الحسن البصري يقول: ليس لأمثالنا نوافل، إنما النوافل لمن كملت فرائضه.

● وكان الفضيل بن عياض ـ وهو من هو في الزهد والورع والصلاح يعاتب نفسه قائلاً:

يا فضيل كنت في شبابك فاسقاً، ثم صرت في كهولتك مرائياً، والله للفسق أهون من الرياء.

الزمان

قال الشيباني: أتانا أبو حياش الشاعر، ونحن في جماعة، فقال: ما أنتم فيه؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده، قال: كلا، الزمان وعاء وما ألقي فيه من خير أو شر كان على حاله ثم أنشأ يقول:

أرى حللاً تصان على رجال
وأخلاقاً تذال ولا تصان
يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا وما فسد الزمان

فتاة مؤمنة

وضع الطعام أمام السيدة رابعة العدوية، فأبت أن تأكل، فقال لها أبوها: يا رابعة ما الضرر لو أكلت؟!

فقالت: لا آكل حتى أعلم أهو من الحلال، أم من الحرام؟

فقال لها أبوها: وإذا كان من الحرام، ولم تجد غيره فماذا عساك أن تفعلي؟

فقالت: يا أبت أصبر على الجوع في الدنيا فهو أفضل من الصبر على عذاب النار يوم القيامة.

تصوير بارع للدنيا

جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقال له: يا أمير المؤمنين، لقد اشتريت داراً وأريد أن تكتب لي عقد الشراء بيديك، فنظر أمير المؤمنين إلى وجه الرجل فرأى الدنيا قد تربعت على عرش قلبه، وأراد أمير المؤمنين أن يلقنه درساً يذكره فيه بالله ـ تعالى ـ فأمسك القلم وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فقد اشترى ميت من ميت داراً تقع في بلد المذنبين لها أربعة حدود: الحد الأول ينتهي إلى الموت، والحد الثاني ينتهي إلى القبر، والحد الثالث ينتهي إلى الحساب، والحد الرابع ينتهي إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

علاج

جاء رجل إلى أبي حازم القاضي، وقال له: إن الشيطان يأتيني، فيقول: إنك قد طلقت امرأتك فيشككني!! فقال له: أوليس قد طلقتها؟ قال: لا، قال له: ألم تأتني أمس فطلقتها عندي؟، فقال: والله ما جئتك إلا اليوم ولا طلقتها بوجه من الوجوه، فقال له: فاحلف للشيطان كما حلفت لي وأنت في عافية.

من المروءة

قال أبو بكر الإسماعيلي:

وإذا جلست وكان مثلك قائماً
فمن المروءة أن تقوم وإن أبى
وإذا اتكأت وكان مثلك جالساً
فمن المروءة أن تزيل المتكا
وإذا ركبت وكان مثلك ماشياً
فمن المروءة أن مشيت كما مشى

اخفض من بصرك

أكل أعرابي على مائدة الحجاج، فكان يأكل بسرعة ونهم، فقال له الحجاج: يا هذا أرفق بنفسك، فقال الأعرابي: وأنت اخفض من بصرك!.

دعاء

اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان نائياً فقربه، وإن كان قريباً فيسره.

اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك، ولا تعذبني وأنا أدعوك، فقد دعوتك كما أمرتني، فأجبني كما وعدتني.

قراءة فى كتاب

من هذا الرجل الذى بهر أهل مدينة سانت بطرسبورج فدعا السيد سافيليف أن يكتب مقالاً فى جريدة أخبار سانت بطرسبورج، وفى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ أغسطس سنة ١٨٤٠م، بعنوان: (من هذا الرجل الوسيم ؟) وترى من هذا الرجل الوسيم الذى دعا كذلك المركز العربى الروسى للثقافة بمدينة سانت بطرسبورج للاحتفاء به وذلك بإنشاء مدرسة لتعليم العربية بها، وترى من هذا الرجل الذى بهر أهل سانت بطرسبورج فتراهم إلى اليوم يحيطون مدفنه بالزهور الجميلة النضرة مما يدل على مدى الاحترام والتقدير الذى مازال يكنه الروس لذلك العالم الجليل وقد مر على وفاته ما يزيد عن قرن ونصف القرن من الزمان.. إنه الشيخ محمد بن عياد الطنطاوى وهو أيضًا الذى دعا الدكتور حسين الشافعى إلى كتابة هذا الكتاب الذى تقدمه لقرائنا بعنوان "من تراث الشيخ محمدعياد الطنطاوى أول معلم للعربية فى البلاد الروسية".



بقلم/ أ. عادل خفاجة

مؤلف الكتاب:

هو الدكتور حسين شعبان الشافعى رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير أنباء روسيا.

حاصل علي: بكالوريوس هندسة حلوان ١٩٨٢ م ،ماجستير هندسة معهد بوليتيكنيك لينتجراد الاتحاد السوفيتى ١٩٨٨ م

ودكتوراه الهندسة فى الطاقة معهد موسكو للطاقة ١٩٩٢م ودكتوراه الهندسة المعلوماتية أكاديمية المعلومات بلجيكا ٢٠٠٣م

يعمل:

مستشار الشرق الأوسط لوكالة الفضاء الروسية ومستشارًا للعديد من المؤسسات العلمية الشرقية (الروسية الأوكرانية البيلاروسية).

كما يعمل رئيسًا لمجلس الإدارة ورئيس

تحرير العديد من الإصدارات العربية للمطبوعات الشرقية، ومنها:

- مجلة الفضاء الروسى.
- مجلة أنباء روسيا.
- ومجلات كازاخستان اليوم، وأخبار أوزبكستان وغيرها منذ عام ٢٠٠٦م.

ترأس مجلس إدارة مجلة "التجربة الآسيوية" التى تصدر عن معهد الدراسات الأسيوية بجامعة الزقازيق.

مهتم بالشأن الروسي، وبتطوير العلاقات الثقافية / الاقتصادية مع دول المنطقة.

ترجم أكثر من مائة كتاب علمى من الروسية للإنجليزية فى موضوعات الطاقة.

حاصل على عدد من الأوسمة والنياشين والميداليات من عديد من الجهات الرسمية العربية والأجنبية عن مساهماته فى مشروعات التطوير الصناعي المشتركة.

سبب تأليف الكتاب:

يقول المؤلف: "من إدراكنا لقدر هذا العالم الأزهرى النابغ وضلوعه فى علوم القرآن والفقه وتبحره فى اللغة العربية وفهمه لدقائق الأدب العربى قديمه وحديثه وجمعه لمخطوطاته وشعره تجد أنفسنا أمام عالم موسوعى يجمع بين العلم والأدب والدين، متقنًا لعدة لغات هي: الروسية والفرنسية والألمانية والفارسية والتركية.

كان هذا هو دافعنا الرئيس لمحاولة إلقاء الضوء على تراث مهم له، وها هو كتابنا: (من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي) أول محاولة جادة لنشر بعض من آثاره اعتمادًا على المخطوطات التى تركها لنا الشيخ الطنطاوي".


محسين الشافعى

الكتاب: يقع الكتاب فى مائة وعشرين صفحة من قطع ١٧×٢٤ سم فى طبعته الأولى سنة ٢٠١٣ م عن دار نشر أنباء روسيا.

ويتكون الكتاب من إهداء ومقدمة بقلم الدكتور حسين الشافعى مؤلف الكتاب استوعبت تسعا وثلاثين صفحة ضمنها دراسة تاريخية دقيقة عن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى وأتبعها ببيان محتوى كتابه وأنه يضم فى جزئه الأول - بعد المقدمة - النص الكامل لكتاب: "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا" أما الجزء الثانى من الكتاب فيشمل منتخبات من كتاب الشيخ محمدعياد الطنطاوى "أحسن النخب فى معرفة كلام العرب" ثم يلى هذين الجزئين عدد من الأبواب هي:

الوثائق والمخطوطات.

مؤلفات الشيخ عياد الطنطاوي.

مؤلفات وأعمال عن الشيخ عياد الطنطاوي.

السيرة الذاتية للشيخ عياد الطنطاوى، مسيرة الشيخ الطنطاوى كما يرويها كراتشكوفسكى أغناطيوس.

ثم أتحفنا بمقارنة بين تخليص الإبريز للطهطاوى وتحفة الأذكياء للطنطاوي.

ثم أورد "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا" كاملاً فى الصفحات من ص ٤١ إلى ص ٢٢٦، وأتبعه بمقتطفات من كتاب

"أحسن النخب في معرفة كلام العرب".

ونعود إلى حديث المؤلف وتحليله الدقيق لكتاب "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا" حيث استهله بكلمة عن الشيخ محمد عياد الطنطاوى جاء فيها: هو أحد الأعلام المصريين في اللغة العربية وآدابها.

علمٌ مغمور لأنه سار عكس الاتجاه الذى سار فيه كثير من جيله من أعلام مصر، ففي حين يمم هؤلاء شطر فرنسا، دفعت الظروف بالشيخ لأن يرحل إلى بطرسبورج بروسيا (سان بطرسبورج اليوم)؛ حيث أمضى حياته أستاذًا للغة العربية في جامعتها وتوفي ودفن هناك واندمجت ذريته من بعده في المجتمع الروسي والواقع أن الدراسات العربية قليلة العناية بالشيخ الطنطاوي، فلم يكتب عنه أحد سوى: أحمد تيمور في مجلة المجتمع العربي في دمشق ومحمد عبد الغني حسن؛ ولعل أوفى مصدر عن الشيخ: الكتاب الذى وضعه المستشرق أغناطيوس كروتشوكوفيسكى عام ١٩٢٩م تحت عنوان (حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى)

وفي رسالة من الطنطاوى إلى المستشرق الروسي فرين يقول:

إلى حضرة الجناب الوقور الخواجة فرين يقول الفقير محمد بن سعد سليمان عياد الطنطاوي: ولدت بقرية طنطا بقرية تسمى نجريد سنة ١٢٢٥ هـ وكان أبي تاجرا للأقمشة والبن والصابون ونحو ذلك، وكان له بيت بطنطا وبيت بنجريد وبيت بالصافية وأنا ولدت بنجريد، وتعلمت القرآن بطنطا، وطنطا أحسن من مصر (القاهرة) بخلاف العلم ولذلك يقال في المثل: (ما قرآن إلا أحمدي، ولا علم إلا أزهري) أحمدى نسبة إلى مجتمع سيدى أحمد البدوي، وأزهرى نسبة للأزهر.

وذهبت إلى المكتب وعندى نحو ست سنين فحفظت القرآن مرتين بداية وعيادة كما هو العادة، ثم بعد حفظ القرآن لم أخرج من المكتب بل حفظت فيه متونا كثيرة، ثم لما كان عمرى عشر سنين ابتدأت في تعلم العلم فحضرت على المرحوم الشيخ محمد الكومي شرح ابن قاسم في الفقه مدة سنة، ثم مرة ثانية في سنة ثانية على المرحوم الشيخ السيد محمد أبي النجا عالم شهير مصنف ثم حضرت عليه شرح الخطيب في الفقه في السنة الثالثة، وفي السنة الخامسة من مكثي في مصر مات والدى في طنطا وقد تكدرت بسبب ذلك نحو سنتين ثم قرأت بعض الشروح وتفسير الجلالين ثم الشفاء، ثم تراجع الأمر وألجأني الدهر إلى الكسب فعاشرت بعض الإفرنج المقيمين في مصر وأول من عاشرته حضرة الخواجه فرين وهو يحب اللغة العربية بالطبع فكان يحثني دائما على الاشتغال".

ويواصل المؤلف قوله: "ومن هذه الرسالة علمنا أن الطنطاوى لم يتم علومه الأزهرية بكاملها، وإنما انصرف إلى تحصيل المعاش بعد وفاة أبيه فكان أغلب معاشه من تدريس العربية للمستشرقين الذين كان بعضهم يفوقه في السن، كان المعلم يفيد من تلاميذه معرفة مناهج البحث التي تسلحوا بها من علومهم الأوربية، وفي تلك المرحلة كانت القاهرة محجا المستشرقين يأتون إليها ليعدوا أنفسهم إعدادا لغويا عربيا، وكان أغلب هؤلاء من المهيئين لتسلم مهمات كانت تحتاج إليها الدول الأوربية الناهضة في مهمتها الاستعمارية في الشرق".

ويشير المؤلف إلى أن علاقة الطنطاوى بتلاميذه المستشرقين كانت وطيدة وفي أحيان عدة كان يجرى تعاون بينه وبين بعضهم في تحقيق بعض الكتب التراثية العربية، ومن تلاميذه المستشرقين الروس رودلف فرين ونقولا موخين اللذان طلبا منه السفر إلى روسيا لتدريس اللغة العربية هناك إذ كان لهما شأن سياسي في بلدهما.

يقول كرتشكوفيسكي: المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر الطنطاوى إلى روسيا استغرقت وقتًا ليس بالقصير كان يلزم السماح بالسفر من قبل باشا مصر محمد على ودعا هذا الأخير الطنطاوى وحثه على دراسة اللغة الروسية وإتقانها ووعده بعطفه وعنايته به.

ويواصل المؤلف وصف وقائع السفر التي امتدت ثلاثة أشهر ونصف الشهر من الإسكندرية حتى وصل بطرسبورج.

وفي بطرسبورج بدأ الطنطاوى إلقاء محاضراته، وقد وصفه أحد تلاميذه سافيليف في رسالة إلى جريدة بطرسبورج كما أشرنا في المقدمة قائلاً: من هذا الرجل الجميل في لباس شرقي وعمامة بيضاء وله لحية سوداء وعينان تشعان بإشعاع غريب وعلا وجهه سمات الذكاء وقد لفحت الشمس بشرته وليس بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة، وقد لفت هذا الرجل نظرى كما لفت أنظار زائرى هذا الشارع، في أيام الجو الطيب وتريد أن تعرف من هو إنه ضيف جديد من ضفاف النيل إنه الشيخ محمد عياد الطنطاوي.

إن اسم الشيخ محمد الطنطاوى معروف لدى كل من يدرس اللغة العربية مع أنه لم يؤلف شيئا لكن كل الذين انتفعوا بخدماته والمدينين له بنجاح أبحاثهم يذكرونه بالشكر ويكنون له المودة مذيعين شهرته في أوروبا.

وبعدما اطلع الشيخ الطنطاوى على الرسالة أوضح أن له بعض المؤلفات ومنها أشعار وكتاب في البديع وآخر في أسماء البشر والخيل وثالث في الصرف والبلاغة.

وفي دفاتر الجامعة نلاحظ أن الطنطاوى كان يجمع في تدريسه بين الطرق العملية والنظرية كما يقوم بتدريس الترجمة من الروسية إلى العربية ومنذ عام ١٨٥٥م زاد على ذلك تدريس التاريخ العربي.

بقي الطنطاوى منتظما في التدريس خلال ١٥ سنة حتى أصيب بمرض عضال ونال رسالة شكر من القيصر.

وفي عام ١٩٦١م أحيل إلى التقاعد وتوفي في نوفمبر من العام نفسه وصلى على جثمانه في مسجد بطرسبورج (لا يزال قائمًا حتى اليوم) ودفن هناك وقد كتب على شاهد القبر بالروسية كما كتب باللغة العربية الآتي:

"هنا مدفن الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوى الذى كان مدرسا للغة العربية في المدرسة الكبيرة في بطرسبرج المحروسة وتوفي في شهر جمادى الآخرة عام ١٢٧٨ هـ عن ٥٠ سنة.

فإذا تصفحنا ما خطه الشيخ الطنطاوى فى كتابه «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» وجدنا تمهيدا و مقدمة للكتاب تقع فى ٥٢ صفحة يشير فيها إلى سبب سفره حيث يقول:

«أتاح الله لى السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة بسبب طلب دولتها لى أعلم اللغة العربية فى مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندى من الميل الحسن، وسرت لا ألوى على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب فى وطنه وما عاقل فى بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان، وتأسفها على فراق الأهل والخلان.

وهذا يشير إلى الحكمة التى تحلى بها الشيخ الطنطاوي.

وعن سبب تاليف الكتاب يقول:

سألنى جمع من الأصدقاء والمعارف، أن أسطر فى سفرى هذا كتابا أودع فيه ما يعذب مذاقا، ويطيب شرابا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية وطرف استحسانية، وملح اختراعية، فأجبت السائل، وبادرت الامتثال، وشرعت فى هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا».

وفى ذلك يقول شعرا:

• ودعانى عزيز مصر إليه
وحبانى بالعز والتكريم
قال لاتضع زمانك إلا
فى اكتساب العلوم والتعليم
فيمينا لأرحلن سريعا
لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجم وكم بمصر شموس
ومع الشمس كيف مرأى النجوم
فلهذا بزغت نحو بلاد
أنا فيها شمس لكشف الغيوم

وهكذا حال العاقل يعرف مكانه وسط أقرانه وبين أساتذته، ويعرف كيف يشق طريقه وكيف يصنع مجدا، وهو لاشك قرأ قول الإمام الشافعي:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب

• ولأن الرجل ركب البحر لفترة طويلة لأول مرة فى حياته فقد أصابه دوار البحر فضاقت نفسه بذلك وتذكر قول ابن رشيق:

البحر صعب المذاق مر
لا جعلت حاجتى إليه
أليس ماء ونحن طين
فما عسى صبرنا عليه

ولكنه فى اليوم التالي - وقد هدأت نفسه - وراقه أن أوصله النيل إلى الأسكندرية، ويتوق أن يوصله البحر إلى روسيا فأصبح يتجاذبه حبيبان، فقال واصفا هذه الحالة:

النيل غضبان على كأنه
لمحبتى لايرتضى بتنائى
ورأى الأجاج عذبا سيره
فكأنه متشوق للقائى

فلما أوغلت السفينة وتباعدت الشطآن ولم تر العيون غير زرقة الماء وزرقة السماء، لم تأخذه الرهبة بل عبر عن ذلك أفضل تعبير حيث قال:

والبحر أزرق كالسما ولا نرى
أرضا كأنا فى طباق سماء

وفى سفره يدخل مع الآخرين فى الحجر الصحي، ويخبره ناظر الحجر أن الطاعون قد فقد من إسلامبول منذ سنين فتذكر إصابته بالمرض ومكثه نحو عشرة أيام بلا نوم، حتى تفجرت بشرة المرض وكرة الخطوب، فأنشد يقول:

يكفيك يا كرة الخطوب إقامة
وتدحرجى ما للكرات قرار
وتفجرى لو كنت أنت حجارة
فلربما تتفجر الأحجار

وهو بقوله هذا يشير إلى الفرج بعد الشدة، فى إشارة لطيفة لقول الله تعالى:

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾

ثم يصور إعجابه بقبة آيا صوفيا، ويسجل إعجابه بما رأى فى هذا الجامع حيث رأى خمسة عميان وبصيرا يقرءون البردة كما فى مصر وتلفظهم حسن؛ لأن أصلهم عرب إلا أنهم يلحنون، فعذرهم ويقول بعضهم:

مولاى صل على من حل فى الحرم
محمد المصطفى المخصوص بالكرم

وهو حسن وكل مديحه صلى الله عليه وسلم حسن إلا أن الشيخ يسجل لطيفة أزهرية إذ يقول: وقول المصريين:

مولاى صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهم

أحسن لعدم إفراد الصلاة عن السلام وهو مكروه عند البعض.

ولا تترك مصر خاطر الرجل، فكلما مر بمكان استدعى نظيره من أرض مصر فعندما وصل إلى إسلامبول يقول: وتوجهت إلى إسلامبول على قنطرة، وهذه القنطرة طويلة جدا من رآها علم عرض الخليج؛ لأنه فى المرأى صغير، وذهبت إلى بالقلى - منتزه جميل - كبركة الشيخ قمر فى مصر كل أرضه مخضرة وفى موضع آخر يقول: وفى وسط المدينة جنينة كجنينة روشتق بمصر، وبرغم ذلك فقد أحس غربة لم يكد يخفيها حين لم يجد من يكلمه بالعربية فقال:

إن جزت مملكة الفرنج تجد بها
ما تشتهيه النفس من أمنية
لكنما العربى فى طرقاتها
مستغرب النفس يبكى على العربية
لم يلق فردا عارفا بلسانه
أبدا ولا هو عارف الروسية
هو ساكت إذ لم يجد عربا بها
لكنه متكلم بالنية

ولا يتركنا الرجل قبل أن يشير إلى أن هناك تورية فى كلمة «العربية»، وهذا حال الأساتذة.. وكذلك يقول -شارحا- فى موضع آخر: وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت فى أول سفري، فقلت:

فرحت بمقدمى البلاد وأهلها
رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيت ببرق ضاحك
والأرض رشت ساعة قدامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته فى الواقع. كقول آخر:

وما نزل القطر إلا لكى
يقبل بين يديك الثرا

فيقول شارحا: إن علة نزول القطر وسبب البرق ليس إلا التحية والإكرام والتقبيل

وهذا من التلاعب بالكلام.

فلا ينتهي القارئ من المقدمة إلا وقد علم أنه أمام أستاذ أديب، فقيه، بارع، مالك زمام قلمه.

ويتحدث الشيخ الطنطاوى عن «منشا الروس» في الباب الأول وتكلم في الباب الثانى عن تاريخ بطرسبرج وأصل الكلمة ووصف المدينة وتكلم عن انتقال بطرس الكبير إلى الدار الآخرة وفي الباب الثالث والأخير من الكتاب والذى قسمه إلى عشرة فصول تكلم فيها عن:

١- عوائد الروس وأخلاقهم

٢- ملابسهم.

٣- أعيادهم.

٤- عاداتهم في الزواج

٥- التعميد

٦- يوم الولادة

٧- في الخط العمومي ويتكلم فيه عن التياترو والأوبرا إلخ

٨- تقدمهم في العلوم

٩- سكن الروس ومعيشتهم

١٠- لسان الروس

ومع ذلك فلم يتخل عن أسلوبه الأدبي الشيق ومن أمثلة ذلك حين لاحظ أنه عند قرب البرد القارص يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج والسطوح وأغلبها لونه أسود تتغطى أيضا بالثلج فتراه يقول:

وأسنمة السطوح السود حازت
بياضا حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذى لا
محالة قد يشيب به الوليد؟

وحين تحدث عن غضب القيصر شاه زاده من ابنه ذى السلوك المنحل وعدم استحسان الأب لأفعال ابنه وهروب الابن خارج روسيا سنة ١٧٨٠ م مما أغضب القيصر حتى هدده بحرمانه من إرث التخت فنرى الشيخ حين يروى هذا التاريخ فلا يضن عليه ببعض الأبيات التى تؤكد المعنى وتذهب رتابة السرد التاريخي إذ يقول:

إذا أظهر الدهر شخصا لبيبا
فكن في ابنه سيئ الاعتقاد
فلست ترى من نجيب نجيبا
وهل تلد النار غير الرماد

وبعد... فقد أبدع المؤلفان؛ أبدع المؤلف الشيخ الطنطاوى مؤلف كتاب «تحفة الأذكياء» حين أتحفنا بهذا الكتاب القيم الذى يوقفنا فيه على أحوال الروس وتاريخهم ولم يحرم القارئ من وصله بالأدب العربي.

وأبدع الدكتور حسين الشافعى مؤلف كتاب: «من تراث الشيخ الطهطاوي» الذى انتزع المخطوطة وغيرها من أعمال رجل مصرى نسيه وطنه وتذكره الروس فاستطاع أن يقدم لمحة وفاء لأحد أبناء الوطن الذى دفن بعيدا عن وطنه واستطاع أيضا أن ينفض غبار قرن ونصف من الزمن عن درة متألقة لتأخذ مكانها على أرفف المكتبة العربية الزاخرة....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بين المجلة والقارئ

للأستاذ أحمد السيد تقي الدين

ظاهرة عالمية في التاريخ والأدب

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الباحث محمد عباس محمد عرابي - قال فيها:

ظاهرة العيارة والشطارة «اللصوصية الشريفة» ظاهرة عالمية في التاريخ والأدب فحيثما توجد المظالم الاجتماعية يوجد الخروج على القانون، إذ هو المقابل الوحيد للطبقات الشعبية الفقيرة للحياة على حساب الطبقات الغنية المترفة، أو هو العلاج الأكيد لتحقيق العدل الاجتماعي ومن هنا كان العداء المتولد من الخوف والشك هو الذى يحكم العلاقة بين ذوى الجاه والسلطة والثراء وبين أراذل العامة من الفقراء المعدمين المستقرين في قاع المجتمع.

والناظر في أسلوب العيارين في التمرد أو الثورة يجد أنه يفتقر للنظام بل والتنظيم والتخطيط لتغيير أسلوب الحكم ولم يكن للقائمين بها من تصور لمجتمع آخر ومن ثم فهم لا يشكلون طبقة تاريخية كالزنج والقرامطة وغيرهما وكذلك لم يخطر ببال العيارين أساسا الثورة على نظام الخلافة أو ذات الخليفة باعتباره خليفة الله في الأرض وكل ما كانوا يريدونه هو لفت أنظار المسئولين إلى سوء أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولئن شكوا دون أن يثوروا ربما لا تصل شكواهم إلى من بيده الأمر وهم بطبيعة تكوينهم كان بينهم وبين السلطة ود مفقود، فحيث يعيش الأعيان، وعلية القوم في رغد من العيش وفي عز وجاه كانوا هم يعيشون في فاقة وذل وحرمان، ومن ثم التزموا بالثورة خارج القانون مادام القانون رهن بمشيئة ذوى النفوذ والسلطات.

ولقد حظى العيارون بتأييد العامة وإعجابهم كما حظوا أيضا بإعجاب بعض المؤرخين والكتاب الذين وجدوا في ثورتهم درسا سياسيا للقائمين على السلطة من الفرس والترك عليهم يعدلوا في حكمهم وعلى الرغم من أنهم سايروا التعبير الشائع عن هؤلاء المتمردين فسموهم باللصوص والشطار والعيارين والدعار والزعار والطرار وغير ذلك من ألفاظ، فإن من يقرأ ما كتبوه عنهم يجد أن هذه الألفاظ جميعا ذات دلالة سياسية أطلقها أصحاب السلطة عليهم لتشويه غاياتهم النبيلة. وشايعهم في نهجهم هذا المؤرخون الرسميون.

ولا عجب إذن أن تكون حركات العيارين الجياع من العامة ضد عجز الدولة وترف ذوى الدخول الفاحشة في نظر الحكام وكتابهم ليست إلا «انتفاضة حرامية» يجب ضربها بكل شدة وعنف مع أنها كانت في أحايين كثيرة صرخة مظلوم مستضعف في وجه ظالم مستبد.

ومن هنا يصبح علينا إعادة دراسة الحركات السياسية الكبرى في التاريخ الإسلامي بتجرد بعيدا عن اتهامات التاريخ السلطوى لها بالكفر والإلحاد، والنظر إليها كانتفاضات شعبية أو هبات اجتماعية ظهرت نتيجة للخلل الاجتماعي والاقتصادى في مجتمع دولة الإسلام خلال العصر العباسي الثاني.

الحياء من الإيمان

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ شعبان عبدالعال ابراهيم - المنيا - بني حسن الشروق - قال فيها:

الحياء من أجل الأخلاق التي منحها الله تبارك وتعالى للإنسان وجبله عليها، إذ هو خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع صاحبه من التقصير في حق ذي الحق، يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: روينا عن أبي القاسم الجنيد رحمه الله تعالى: الحياء رؤية الآلاء «النعم» ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى حياء، إذ هو يكف عن ارتكاب القبائح، ويبعد عن دنائة الأخلاق، ويحث على مكارم الأخلاق ومعاليها، ولقد بعث ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق.

وعن الحياء يقول سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، إن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان» ذلك لأن الحياء خلق فطرى خلق به الإنسان، ولا يأتي إلا بخير قال تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الروم: ٣٠)

ولا يمكن للحياء أن يتأصل في نفس النشء، إلا بمراقبته، وبعدم مخالطته لأهل السوء والسفهاء من الناس وأهل لغو الكلام، وأخذه بصور الصالحين ومجالستهم، لذلك قال أحد العلماء: «أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيى» ولقد قال حبيبنا الرسول ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ويقول سبحانه في وصف المؤمنين بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾

(القصص: ٥٥)

اللوبي الصهيوني.. وجهة نظر

ومن الأستاذ مصطفى محمد عفيفى ناظر معهد العزايزة الابتدائي، أسيوط، هدفا عضو اتحاد الكتاب، محاضر بوزارة الثقافة، محاضر بالهيئة العامة للاستعلامات

نشرت مجلة الأزهر الغراء في العدد الصادر في جمادى الأول ١٤٣٤ هـ مقالا بعنوان «وعد الآخرة دراسة في ميزان السنن الإلهية» للدكتور رشيد كهوس والذى أكن له كل تقدير واحترام وجاء بالمقال أن اليهود احتلوا من أمريكا الاقتصاد والسياسة والإعلام واحتلوا العقول والنفوس بمعنى أن قوة اليهود وصلت إلى السيطرة على كل شيء بالولايات المتحدة الأمريكية.

لكن الحقيقة أن النفوذ الصهيوني في العالم وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية والتي بها «لوبي صهيوني» يعمل لصالح إسرائيل حديث مبالغ فيه ومنقول عن مصادر صهيونية سربته عن عمد كجزء من الحرب النفسية ضد العرب لإقناعهم بعدم جدوى محاولاتهم لاسترداد حقوقهم أما عن المساعدة الغربية وخاصة الأمريكية لإسرائيل فقد أخبرنا عنها القرآن الكريم منذ حوالى ١٤٣٤ عاما فقد قال تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

«آل عمران: ١١٢».

قال المفسرون في هذه الآية الكريمة إنه سيأتى يوم وتخرج فيه قوة تساعد اليهود وفعلا خرجت هذه القوة منذ أكثر من ستين عاما ألا وهى الغرب متمثلة في بريطانيا تارة والولايات المتحدة تارة أخرى.

والسبب الرئيسى لهذه المساندة هو دعم الحروب التي يشنها الغرب وإسرائيل على الإسلام والمسلمين، كما أن إسرائيل هي القاعدة المتقدمة للغرب في هذه المنطقة التي ينفذ فيها مخططاته ومؤامراته لا تعود لنفوذ وقوة الصهيونية فبعد الآية الكريمة السابق ذكرها هناك عدة دلائل أخرى تؤكد ذلك وهي:

أولاً: معروف أن بريطانيا ساعدت اليهود على الاستيطان بفلسطين ولم تترك فلسطين إلا بعد أن تأكدت من وجود دولة يهودية بها، فهل كان هناك «لوبي» في بريطانيا؟! ثم إذا كان موجوداً فعلاً في بريطانيا فلماذا انتقل إلى الولايات المتحدة؟!

ثانياً: إذا كان اللوبي الصهيوني بهذه القوة في الولايات المتحدة فلماذا لا يُقنع اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية والبالغ عددهم خمسة ملايين بالهجرة إلى إسرائيل.. ولماذا لا يستغل قوته وتأثيره ويقنع الولايات المتحدة بسن قانون يمنع الإسرائيليين من النزوح إلى الولايات المتحدة وذلك بدلاً من أن تبحث إسرائيل عن يهود من أثيوبيا والهند.

ثالثاً: إذا كان اليهود في كل مكان بهذه القوة فلماذا لم يشكل يهود الاتحاد السوفيتي السابق «لوبي» للضغط على النظام الشيوعي آنذاك ويمنعهم من تصدير السلاح إلى العرب وحتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لاتزال روسيا المصدر الوحيد للسلاح إلى الدول المعادية لإسرائيل مثل سوريا وإيران ومعروف أن عدد اليهود في الاتحاد السوفيتي السابق كان يبلغ مليونا وسبعمائة ألف نسمة وكانوا يشغلون مناصب عليا خاصة في صناعة الأسلحة وفي الطاقة النووية، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي سافرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل ولاتزال أعداد أخرى باقية ولكن ليس لها تأثير في عملية صنع القرار الروسي.

رابعاً: لا تتعدى نسبة اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٢,٥٪ من السكان وإذا لم تستثن منهم الأطفال وكبار السن فإننا لا يمكننا القبول بسيطرة أقلية صغيرة على أغلبية ساحقة بهذه الصورة والتى حتى لو وزعت على المناصب الهامة في شتى المجالات فلن تكفى ونفس الشيء في بريطانيا وفرنسا وباقى دول الغرب.

خامساً: إن الغرب معجب جداً بهذه النغمة فهى تجعله يظهر أمام العرب بأنه مغلوب على أمره لا حول له ولا قوة أمام السيطرة الصهيونية وهذا ليس اجتهاد شخصى ولا محض افتراء ولكنه حقيقة فعندما تقترب الانتخابات الرئاسية الأمريكية ويصدر الرئيس قراراً لصالح إسرائيل أو يخرج أحد المرشحين بتصريح لصالحها تتسابق الدراسات والتحليلات العربية في تبرئة الرئيس أو المرشح وإظهاره بمظهر الحمل المسكين أمام اللوبي الصهيوني والانتخابات على الأبواب.. وأنه لولا الصوت اليهودى ما حصلت إسرائيل على هذا التأييد الجارف.

سادساً: هناك العديد من الدول الغربية تتخذ موقفاً عدائياً نحو الحقوق العربية وتكاد تخلو من اليهود ودول أخرى غير غربية تتخذ نفس الموقف العدائى وأيضاً لا يوجد بها يهود.

وعموماً هذه وجهة نظرى ولعلى أكون أصبت الحقيقة مع خالص تقديرى لكاتب المقال.

الطلاق.. حلول وقائية

تحت هذا العنوان جادت كلمة الأستاذ/ فاروق محمد، قال:

الطلاق مشكلة كبيرة.. ينجم عنها مشاكل عديدة لكلا الزوجين، خاصة في الظروف الحالية مع صعوبة الزواج وتكاليفه المرهقة.. والمشكلة الأهم هي الأولاد ومدى تأثرهم بهذا الشقاق وضرورة معيشتهم مع أحد الطرفين أو من ينوب عنهما من عم أو جد....... إلخ.

ولقد ازدادت حالات الطلاق في الأونة الأخيرة زيادة خطيرة «تبعاً لآخر الإحصاءات «حالة طلاق كل ٦ دقائق» ولأسباب عديدة منها: عدم حسن الاختيار.. وعدم مراعاة كلا الطرفين لحقوق الآخر، فضلاً عن الأعباء المادية للزواج والظروف المعيشية المرهقة.. في ظل عدم القناعة والرضا كما كان أجدادنا في الماضي.. مع تحمل كل من الطرفين ضغوطاً نفسية أو اقتصادية مضاعفة تجعله أشبه بسر كان ثائر وقابل للانفجار في أية لحظة.. فيكون الدمار لكل من في البيت.. مما نراه ونسمعه في واقعنا ـ فتنفجر القنبلة.. قنبلة الطلاق وما يتبعه من ندم.. حيث لا ينفع؟!

والإسلام دين محكم قيم.. جعل لكل شيء ضابطاً وحدوداً ـ فالبناء أو الزواج وضعت له شروط واشتراطات «رغم المغالاة الحالية في المهور والتجهيزات» تحول دون العبث الذي يلجأ إليه البعض الآن باستغلال النساء فيما يسمى «العرفي» دون رجوع لأهل أو ولي أو دون مهر أو إشهار.

ولما كان الهدم أو الطلاق أشد.. لما ينتج عنه من خسائر وأضرار تمس جميع الأطراف وبخاصة الأطفال «ولا ننسى جميعاً أن الزواج أصبح من الصعوبة بمكان يجعل تكراره شبه محال»، كان لابد من وضع ضوابط تحول دون حدوث ذلك لمجرد كلمة عابثة.. أو نتيجة استفزاز غير مبرر من أحد طرفي الزواج في هذه الأيام التي يعاني الجميع فيها ضغوطاً شديدة بالعمل أو بالشارع أو عند قضاء المصالح والحوائج.. ولم تترك كلمة الطلاق ليلفظ بها الإنسان في أي لحظة غضب وهو غير عابئ بنتائجها المدمرة على الأسرة وعليه نفسه.

وأرى في سورة الطلاق نصاً قرآنياً لا أدري لماذا لا نأخذ به؟! خاصة في هذه الأيام حفظاً للأسرة من الدمار.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الطلاق:

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾

(الطلاق: ٢)

فلماذا لا يتم تطبيق هذه الآية في حياتنا فلا يقع الطلاق إلا بشهادة أو أمام شهود.. وهما ليسا بأي شهود وإنما ذوي عدل منا.. ولربما يحدث في بلد ما عن مثل أولئك العدول فلا تجد في زماننا الحالي.. إنه ليس انتزاعاً لحق الرجال.. وإنما حفظاً لذلك الحق كي لا يساء استعماله.. أو يستعمله في لحظة غضب وانفعال فيندم حيث لا ينفع الندم، فإذا رغب الزوجان في الطلاق.. فلا مجال للتطبيق في الحال ولا يؤخذ به.. وإنما أمام شاهدين ذوي عدل ذوي فقه ومروءة ـ فقد تكون المشكلة بسيطة يمكنهما حلها.. فيراجعا الزوجين ويذكرانهما بتقوى الله وما ينجم عن الطلاق من مفسدة وضياع للأولاد ودمار للأسرة.. فيرشدا المخطئ ويوجها المسيء منهما ـ فتصان البيوت المسلمة من الدمار وتحفظ من الضياع..

بين الصحف والمجلات

الأستاذان: عبدالله كمال - أبوالسعود محمد

"قضية المرأة بين العقل والجنون"!

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٨/٤/٢٠١٣م:

مرة أخرى يثور الجدل في بلادنا حول الموقف من وثيقة من وثائق الأمم المتحدة المتعلقة بالمرأة، فعن الجلسة السابعة والخمسين للجنة: "وضع المرأة بالأمم المتحدة" - المنعقدة في ٤ - ١٥ مارس ٢٠١٣م - صدرت الوثيقة المتعلقة باستخدام العنف ضد المرأة، تلك الوثيقة التي أيدها "المجلس القومي للمرأة" وعارضتها جهات كثيرة، تتبنى المرجعية الإسلامية في النظر إلى قضية المرأة - ومنها الأزهر الشريف.

ولأن المنهج العلمي في دراسة القضايا الخلافية، يحتم الرجوع إلى المصادر الأصلية والرسمية، وليس إلى السماع والعنعنات، فإن النظر في نص "الوثيقة الختامية المتفق عليها" - والتي أرسلها "المجلس القومي للمرأة" إلى أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - سيكون السبيل إلى إبداء الرأي الموضوعي في منظومة القيم التي جاءت بهذه الوثيقة، ومن ثم عرضها على الفطرة الإنسانية، التي تجمع مختلف الفرقاء في بلادنا.

وأكثر ما يثير الجدل في هذه الوثيقة أنها:

- "تحث الدول" - باسم المنظمة الدولية - في المادة الرابعة عشرة، على استبعاد الأعراف والتقاليد، بل والدين، كي تكون هذه الوثيقة هي المرجعية الوحيدة، وليست الأعراف ولا التقاليد ولا الدين، فتطلب هذه المادة بالحرف: "أن تمتنع الدول عن التذرع بأي عرف أو تقليد أو اعتبارات دينية لكي تتجنب الوفاء بالتزاماتها فيما يتعلق" بما جاء في هذه الوثيقة.

ومعنى هذا: إلزام الحضارات الإنسانية والقوميات والثقافات باتخاذ هذه الوثيقة مرجعية بديلة لخصوصياتها الدينية، ولما في ثقافاتها الوطنية والقومية من عادات وأعراف وتقاليد.

- ويتكرر الحديث - في هذه الوثيقة - عن "برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية" الذي صدر عن مؤتمر القاهرة في سبتمبر ١٩٩٤م، باعتباره المرجعية التي تفسر وتؤكد منظومة القيم الواردة بهذه الوثيقة.

ولقد تحدثت هذه الوثيقة - في المادة الثانية والعشرين - عن "ضرورة احترام وتعزيز الصحة الجنسية والإنجابية، والوفاء بها، وفقاً لبرنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية".

ولأن مصطلحات "الصحة الجنسية والإنجابية" غامضة لدى جمهور الناس - مع أنها أكثر المصطلحات تكراراً في هذه الوثائق - فإن الرجوع إلى "برنامج عمل مؤتمر السكان" - في الفصل السابع - يقول لنا: إن المراد هو إباحة النشاط الجنسي المسئول - وليس الشرعي وذلك بالنسبة لكل الناشطين جنسياً - من الأزواج، والأفراد، من الفتيان والفتيات، من المراهقين والمراهقات، من جميع الأعمار، بحيث تصبح الممارسات الجنسية بالنسبة لكل الناشطين جنسياً حقاً طبيعياً مثل الحق في الغذاء، وبنص ما جاء في هذا الفصل السابع

عن هذه "الصحة الجنسية والإنجابية":

"فإنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد - لاحظ تعبير الأفراد، وليس الأزواج - من جميع الأعمار، أزواجًا وأفرادًا، فتيانًا وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة، هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع الدول لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز ٢٠١٥م".

أي أن جميع الدول مطالبة - من الأمم المتحدة - بتحقيق هذه الإباحية الجنسية، كحق للجميع، رجالا ونساء، أزواجا وأفرادا، فتيانا وفتيات، مراهقين ومراهقات، من جميع الأعمار، بشرط أن تكون هذه الممارسات الجنسية مأمونة - بصرف النظر عن شرعيتها ومشروعيتها، أي بشرط "ألا تؤدي للإصابة بالإيدز"!.

بل لقد تجاوزت وثيقة "برنامج عمل مؤتمر السكان" هذا المستوى من "الإباحة الجنسية" إلى الحد الذي دعت فيه - في الباب السابع ذاته - إلى "التدريب والترويج والتعزيز" لهذا "السلوك الجنسي المأمون والمسئول"!، بل ووصلت هذه الوثيقة الأخيرة إلى الحديث عن "ضرورة الدعم المؤسسي للبنات المتزوجات بالفعل، والحوامل بالفعل، والمراهقات الحوامل، والأمهات الشابات"!، هكذا، بنات في الوقت نفسه متزوجات وبنات هن في الوقت ذاته حوامل!، لهن حقوق الدعم المؤسسي في النشاط الجنسي، والحمل، وتنظيم النسل، والإجهاض الآمن!.

- وبعد هذه الإباحية الجنسية للجميع - من جميع الأعمار - دعت هذه الوثيقة - الأخيرة - إلى ما دعا إليه برنامج عمل مؤتمر السكان: دعت إلى تحريم وتجريم الزواج المبكر "والحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة، بل والقضاء على هذا الزواج المبكر"!

أي إن هذه الوثائق قد دعت إلى تحريم وتجريم الزواج المبكر، بعد تشريعها للنشاط الجنسي المبكر - للجميع، من كل الأعمار - أي أن الزنا المبكر قد غدا البديل للزواج المبكر، بل وللزواج بشكل عام!.

- وكارثة أخرى من كوارث هذه المنظومة القيمية الغربية والغربية - بل والشاذة - تمثلت في أن هذه الوثيقة الأخيرة، بدلا من أن تدعو إلى تكامل المرأة مع الرجل، رأيناها تتحدث عن "حق المرأة في أن تتحكم - أي والله تتحكم - وأن تبت بحرية ومسئولية في المسائل المتصلة بحياتها الجنسية والإنجابية"، فجسدها ملكها وحدها، تتحكم في نشاطه الجنسي المأمون، وفي الحمل، وفي الإجهاض الآمن، دون مراعاة لأي أعراف أو عادات أو ديانات أو عائلات. فمصطلح "التحكم" - في هذه الوثيقة - قد غدا البديل لمصطلحات الإنصاف والتحرير والتكامل والمساواة!.

● ولأن هذه الوثيقة الجديدة - مثلها كمثل "برنامج عمل مؤتمر السكان" - قد دعت إلى أن تكون هذه المرجعية الغربية بديلا للديانات والأعراف التي آمنت بها وتعارفت عليها الثقافات والحضارات. فلقد طالبت بدمج المرأة في المجتمع دمجا كاملا، وبدمج الرجل في المنزل. فطالبت "بتشجيع المشاركة المتساوية، فيما يتعلق بتربية الأطفال والأبوة والأمومة والعمل المنزلي، والعمل على تغيير السلوكيات التي تدعم تقسيم العمالة على أساس الجنس". فالتمايز الفطري بين الأنوثة والذكورة، والتكامل الفطري بين عمل الرجل وعمل المرأة، هو - بنظر هذه الوثيقة - تمييز - بل وعنف - ضد المرأة!.

● ولأن هذه الوثيقة قد دعت إلى أن "تتحكم المرأة" في كل شئونها - حتى الجنسية والإنجابية - وتحدثت عنها كفرد - وليس كجزء من أسرة - كما دعت إلى طي صفحات الأديان والأعراف. فلقد طالبت بإعطاء المرأة الحق المطلق في "حرية التنقل"، ومنها حرية السفر وترك الأسرة دون رفاق أو استئذان!.

● وحتى تلزم الأمم المتحدة جميع الدول، بصرف النظر عن ثقافاتها ودياناتها وعاداتها وأعرافها، بهذه "القيم الغربية، والغربية"، سعت - من خلال هذه الوثيقة - إلى مطالبة الدول التي سبق وتحفظت على بعض المواد في الاتفاقيات السابقة - ومنها اتفاقية (السيداو) سنة ١٩٧٩م - وأغلبها دول إسلامية - ومعها الفاتيكان

- سعت إلى مطالبة هذه الدول بالتنازل عن تحفظاتها، لكي تصبح هذه الوثائق الغربية، بقيمها الغربية والشاذة المرجعية الوحيدة المتحكمة في السلوك البشري، فدعت إلى "الحد من أي تحفظات على اتفاقية "السيداو"، وإلى عدم إبداء أي تحفظات لا تتفق مع الهدف والغرض من هذه الاتفاقية، ومراجعة تحفظات هذه الدول بشكل منتظم بغية سحب هذه التحفظات، وذلك لتنفيذ هذه الاتفاقيات بالكامل" على البشرية جمعاء.

● وإذا كانت منظمة الأمم المتحدة لم تقدم أحدا من تجار الحروب، الذين أبادوا البشر والشجر والحجر، وقتلوا وشردوا عشرات الملايين في فيتنام، وفلسطين، والعراق، وأفغانستان، والبوسنة والهرسك، لم تقدم أحدا من هؤلاء إلى محكمة الجنايات الدولية، فلقد طالبت - في المادة الخامسة من هذه الوثيقة الجديدة - "بتقديم الرجل الذي يعاشر زوجته دون رضاها إلى محكمة الجنايات الدولية، معتبرة هذا العمل "جريمة حرب، وجريمة ضد الإنسانية، تماثل جرائم الإبادة الجماعية أو التعذيب"!.

● هكذا تحدثت وثيقة الأمم المتحدة - الأخيرة - عن المرأة، وعن ما اعتبرته عنفا ضد المرأة. فإعادة الإنتاج وتأكيد منظومة القيم الغربية والغربية - بل والشاذة - داعية إلى التزامها، بل وإلزام كل الدول بها، كبديل غربي للديانات التي يؤمن بها المؤمنون، وللعادات والتقاليد والأعراف التي تمايزت بها الأمم والثقافات والحضارات.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

إن الليالي من الزمان حبالى
مثقلات يلدن كل عجيب

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

"غارة على إسرائيل"

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ فهمي هويدي بجريدة الشروق الصادرة بتاريخ ٢٠١٣/٤/١٣ وقال فيه:

تعرضت إسرائيل لغارة مفاجئة جاءتها من حيث لا تحتسب، فقد نجح الناشطون الفلسطينيون والمتضامنون معهم في اختراق نحو ٦٠٠ موقع إلكتروني بينها ١٥ موقعا حكوميا رسميا، وشملت القائمة مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو إضافة إلى مواقع أخرى حساسة حتى إنهم استطاعوا سحب ١٧ ألف اسم من موقع الموساد (جهاز المخابرات الخارجية)، وطبقا لما ذكرته صحيفة (معاريف) فإن الاختراق شمل مواقع وزارات الدفاع والتربية والتعليم ومواقع الصناعات العسكرية الإسرائيلية ومكتب الإحصاء ومكافحة السرطان وعشرات المواقع السيادية الأخرى في الدولة العبرية، إضافة إلى مواقع بنكية حساسة و٢٠ ألف حساب إسرائيلي على شبكات التواصل الاجتماعي.

اعترفت المصادر الإسرائيلية بالغارة لكنها قالت إنها استمرت عدة ساعات ولكن الدفاعات الإسرائيلية تمكنت من صدها وتقليل أضرارها إلى الحد الأدنى، وأعلن الجيش الإسرائيلي أنه أسس وحدة خاصة لمواجهة مثل تلك الغارات وخوض حرب (السيبر)، ومراقبة مجموعات (الهاكرز) التي تتحدى الاحتلال الإسرائيلي في مختلف أنحاء العالم.

رغم أنه هجوم إلكتروني وافتراضي حتى الآن، إلا أنه أثار قلقا بالغا في إسرائيل ليس فقط لأن من شأنه فضح بعض أسرار الدولة وهو ما حدث بالنسبة للعاملين بالموساد أو أرصدة العاملين في البنوك الذين ظلت أسماؤهم تبث على شبكة الإنترنت طول الليل، ولكن أيضا لأن تلك الاختراقات يمكن أن تعطل الكثير من الخدمات التي تدار بواسطة الكمبيوتر سواء ما تعلق منها بالبنية التحتية أو ما تعلق منها بالأنشطة الاقتصادية، وللعلم فإن الموضوع مثار في الولايات المتحدة الأمريكية وتتبناه وزيرة الأمن الداخلي جانيت نابوليتانو التي مابرحت تدعو إلى اتخاذ الاحتياطات لتحقيق الأمن الإلكتروني وقالت أخيرا في مركز ويلسون بواشنطن أن الهجوم الإلكتروني

يتبقى ألا يستبعد وأن تأثيره إذا وقع لن يقل عن تأثير الإعصار ساندى، الذى أدى إلى قطع الكهرباء فى مناطق شاسعة فى الولايات الشمالية الشرقية، بل إنه لن يقل أثرا ولا صدمة عن هجوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م.

وبرغم محدودية الآثار التى ترتبت على ما فعله الهاكرز (القناصة) فى إسرائيل، إلا أن الفلسطينيين تهللوا لوقوعه واعتبروه إنجازًا مهمًا، إذ أقنعهم بأن التفوق التكنولوجى هذه المرة انتصر على التفوق العسكرى الإسرائيلى، وهو ما أشاع حالة من الارتياح والحماس فى أوساط الفلسطينيين، الذين تنافس شعراؤهم ومطربوهم فى التعبير عن الإشادة بما جرى.

فمن حقهم أن يفرحوا وأن يشمتوا وأن يترقبوا تحول الحلم إلى حقيقة، قولوا إن شاء الله.

"التوصيات النهائية لمؤتمر هرتسليا"

تحت هذا العنوان نشر تقرير للباحث زهير أندراوس على صفحات القدس العربى ورد فيه الآتى:

يُعتبر مؤتمر هرتسليا، الذى يُعقد سنويا فى المركز المتعدد المجالات فى المدينة الواقعة إلى الشمال من تل أبيب، أحد أهم المنابر فى رسم وتوجيه السياسات المستقبلية للدولة العبرية وقد أصدر المؤتمر تقريرا يساعد على رسم الخطوط العريضة للحكومة الإسرائيلية تطرق التقرير إلى مصر، زاعما أنها باتت على حافة الإفلاس الاقتصادي، لافتا إلى أن نهاية الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي تشهدها مصر غير واضحة، خاصة بعد أن فقدت مصر معظم مصادر دخلها وتوقع التقرير النهائي للمؤتمر أنْ تجد مصر نفسها على حافة المجاعة، إذا استمرت الأوضاع كذلك، كما أن استمرار الأزمة الاقتصادية سيُبعد أكثر احتمالات الوصول لاستقرار اقتصادى واجتماعي.

وفي الشأن السوري، خلص التقرير إلى القول إن سوريا هى المحور الاستراتيجي الأهم فى هذه الأيام، مشيرًا إلى أن الحرب الأهلية المتصاعدة فيها تفرض تحديا أمنيا، وسياسيا وإنسانيا لمواطنيها، ولكل جيرانها بمن فيهم إسرائيل، مؤكدا أن تفكك وانهيار بلاد الشام، البادى للعيان، والانقسام الطائفي والجغرافي الواضحين فيها، سيؤثر على الأمن الإقليمي لكل من لبنان والعراق، إنْ لم يكن أكثر من ذلك.

وانتقد المؤتمر – كما أكد التقرير – سياسة الاختفاء من أمام العاصفة، التى انتهجتها الدولة العبرية منذ بداية الاضطرابات فى المنطقة قبل عامين، مؤكدا أن استمرار السلبية الإسرائيلية من شأنه أن يُعرض مستقبل إسرائيل للخطر فى شرق أوسط يتشكل، وأن الدولة العبرية قادرة على إحداث تغيير، ويجب أنْ يكون هذا الأمر المهمة الأولى للحكومة الإسرائيلية الجديدة بقيادة نتنياهو.

كما أكد التقرير أن المشاركين فى المؤتمر توصلوا إلى نتيجة مفادها أن اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط بدأ يتقلص، فهي منشغلة بأزماتها الداخلية ووجهتها الاستراتيجية تتجه نحو شرق آسيا وأوروبا.

وتابع التقرير قائلا إنه انطلاقا من هذه الفرضية أو النبوءة طرح المؤتمر رؤيته لكيفية التعامل مع المشكلة الفلسطينية، مشددا على أن المتغيرات التى تشهدها المنطقة تلزم قادة إسرائيل ببلورة صفقة شاملة للشرق الأوسط تساعدها على التقدم فى مسار التسوية مع تمكينها من لعب دور إقليمى سماه التقرير بالبناء، والنتيجة أنه أمام إسرائيل فرصة تاريخية كي تدفع باتجاه تشكيل ائتلاف إقليمي للسلام والأمن والاستقرار فى المنطقة، وهذا الدور سيشكل ركيزة مهمة لمساعدة أمريكا فى مواصلة دورها فى المنطقة فى وقت يتجه اهتمامها إلى ساحة جديدة، فضلاً عن أن ذلك يثبت مكانة إسرائيل كذخر استراتيجي لأمريكا، علاوة على أنه سيحميها من أى آثار ضارة قد تنشأ فى المستقبل، لأن استمرار السلبية هو الذى يمكن أن يصيبها بضرر فى ضوء تعاظم القوة العالمية للاتجاهات الإسلامية وتضرر مكانة الولايات المتحدة.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين
محمود الفشنى – عبد التوحود أمين

شيخ الأزهر يقطع زيارته للإمارات لمتابعة تسمم طلاب المدينة الجامعية

قرر الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، قطع زيارته إلى الإمارات العربية المتحدة والعودة فوراً، على طائرة خاصة للوقوف على أحداث تسمم عدد من طلبة المدينة الجامعية.

كما أمر بفتح تحقيق فورى تحت إشرافه مباشرة للوقوف على حقيقة الأمر، بعد ما تردد أن السبب فى ذلك يرجع إلى معلبات التونة، والتى كان قد اعترض عليها الطلاب من قبل، وتم تغييرها بناء على طلبهم وبعد موافقتهم.

وجدير بالذكر أن شيخ الأزهر فى زيارة للإمارات لتسلم جائزة الشيخ زايد الثقافية.

الإمام الأكبر يتسلم جائزة الشيخ زايد للكتاب

أعرب فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عن شكره وتقديره لصاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة لدعوته لزيارة دولة الإمارات الشقيقة، كما أعرب عن تقديره لثقة القائمين على جائزة الشيخ زايد للكتاب والتى قامت بمنح فضيلته جائزة شخصية العام الثقافية، معتبراً أن هذا التكريم هو تكريم لمصر والأزهر الشريف والعالم الإسلامى.

الإمام الأكبر يبدى قلقه إزاء الوضع فى سوريا والعراق

أبدى الإمام الأكبر قلقه الشديد للوضع فى سوريا الذى يتأزم يومًا بعد يوم، وبخاصة ما تتداوله وسائل الإعلام من احتمال وجود أسلحة كيماوية، والتى يدفع ثمنها الشعب السورى التوّاق للحرية والعدالة والعيش الكريم، والمستحق للمناصرة والتأييد.

كما أبدى قلقه أيضًا للوضع المتأزم فى العراق الشقيق، وطالب المسئولين بضرورة النزول لإرادة الشعب، وتحقيق المطالب المشروعة للحراك الشعبى الذى يتزايد يومًا بعد يوم، والذى يطلب العدل والمساواة والولاء للوطن، ويأمل فى مكافحة الطائفية والتمييز.

الأزهر يسند الإشراف على انتخاب رئيس الجامعة للقضاء

أكد المكتب الإعلامي بالأزهر الشريف أن المجلس الأعلى للأزهر قرر إسناد الإشراف على العملية الانتخابية لمنصب رئيس جامعة الأزهر إلى لجنة عليا من قضاة مجلس الدولة، وبناء عليه تم مخاطبة المستشار / غبريال جاد عبد الملاك، رئيس مجلس الدولة، للموافقة على إسناد هذه المهمة لثلاثة قضاة من مجلس الدولة.

الإمام الأكبر: ممثلو كبار العلماء بالشورى لا يعبرون إلا عن آرائهم الشخصية

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، أن أعضاء مجلس الشورى من هيئة كبار العلماء لا يعبرون عن رأى الأزهر أو هيئة كبار العلماء فيما يصدر عنهم من آراء داخل المجلس.

جاء ذلك فى رسالة إلى الدكتور أحمد فهمي، رئيس مجلس الشورى، أكّد فيها، أن أعضاء الشورى من هيئة كبار العلماء حينما يتحدثون داخل المجلس فى أى قضية بالرفض أو التأييد لأى مشروع مطروح للنقاش فإنما يعبّرون عن آرائهم الشخصية باعتبارهم أعضاء فى المجلس.

نصير: التطورات فى مصر وإفريقيا تستوجب التعاون بين المسلمين فى القارة السمراء

استقبل المستشار التعليمى لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبدالدايم نصير والدكتور محمد مهنا، مستشار شيخ الأزهر للشئون الخارجية، وفدا نيجيريا برئاسة أبوبا ماركوس كادافا، الوزير المفوض بالسفارة النيجيرية بالقاهرة، والذى ضم عضوين من المجلس الوطنى للدراسات العربية والإسلامية بنيجيريا.

حيث أكّد الدكتور عبد الدايم نصير أن التطورات التى تحدث فى مصر وإفريقيا تستوجب الجلوس معًا، حتى تحدد مسار التعاون بين المسلمين فى القارة الإفريقية، وبخاصة بين مصر ونيجيريا الدولتين الأكبر والأهم فى القارة، مشيرًا إلى أن العالم الإسلامى يحتاج إلى الفكر الوسطى ليواجه به حملات التشويه من الأعداء ومن بعض التيارات المتشددة من المسلمين، وأن الأزهر هو قلعة الوسطية الإسلامية فى العالم، ومن أولوياته القيام بهذا الدور، كما أكّد أن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر يبارك ويدعم كل تعاون يسير فى طريق جمع المسلمين وتوحيدهم من أجل تقدم حقيقى يساهم فى إثراء الحضارة العالمية.

أما الدكتور محمد مهنا مستشار شيخ الأزهر للشئون الخارجية فقد أشار إلى التحديات التى تواجه الأزهر داخليًا وخارجيًا فى مواجهة حملات التطرف من جانب بعض ذوى الانتماءات الدينية المختلفة، مقترحًا أن يضاف إلى هذا الاجتماع الثنائى، الخارجية المصرية فى اجتماع آخر لبحث أوجه التعاون لتكون أكثر فاعلية.

ومن جهته عرض الوفد النيجيرى للعلاقات التاريخية بين الأزهر ونيجيريا، والتى تأتى

منذ فترة الستينات حيث تم بالتعاون مع الأزهر تأسيس المجلس الوطنى للدراسات العربية الإسلامية، وكانت هناك زيارات أثناء تولى الإمام الأكبر جاد الحق لمشيخة الأزهر، مؤكدًا أن أولوياتهم فى العلاقة مع الأزهر الآن تتركز فى بحث المعوقات التى تواجه الطلاب النيجيريين فى دراستهم بالأزهر، وزيادة عدد المنح لطلاب نيجيريا، والنظر فى الاعتراف بشهادات المجلس الوطنى التى تعادل الشهادة الثانوية الأزهرية فى مصر، إضافة إلى التعاون فى مجالات تدريب المعلمين وتأهيلهم.

كما أكدوا رغبتهم فى بحث أوجه التعاون المشترك بين الأزهر والمجلس الوطنى للعلوم العربية والإسلامية هناك فى مجال تدريب الأئمة والوعاظ، وعقد ورش عمل وتدريبات مشتركة تهدف إلى تنمية مهارات المعلمين والأئمة فى نيجيريا

عمارة: زيارة الإمام للسعودية جاءت فى وقتها

أكد المفكر الإسلامى الدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية وعضو هيئة كبار العلماء ورئيس تحرير مجلة الأزهر - عضو وفد الأزهر لزيارة المملكة العربية السعودية والذى ترأسه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر - أن هذه الزيارة جاءت فى وقت مناسب لتزيل الغموض واللغط حول العلاقات المصرية العربية، والعلاقة بين أهل السنة والجماعة والشيعة.

وأضاف أن هذه الزيارة تؤكد للأمة أن الأزهر بمكانته الريادية عند الأمة الإسلامية وعند أهل السنة والجماعة الذين يمثلون ٩٠٪ من العالم الإسلامى هو محط الأنظار وقبلة المسلمين والقيادة الحكيمة التى تلجأ إليها الأمة لجلاء الحقيقة.

من جانبه قال الدكتور حسن الشافعي عضو هيئة كبار العلماء والمرافق لفضيلة الإمام إن الزيارة طبيعية مع المكانة التى يحتلها الأزهر فى قلوب الأخوة السعوديين باعتبارهم علماء المؤسسة الإسلامية العلمية الدعوية الجامعة.

يشار إلى أن الزيارة تشمل المملكة العربية السعودية ثم يتوجه الوفد إلى دولة البحرين.

الإمام الأكبر للطلاب الوافدين: صارحونى بمشاكلكم

عُقد بقاعة مؤتمرات الأزهر بمدينة نصر المؤتمر السنوى الأول للوافدين برعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، والذى تنظمه الرابطة العالمية لخريجى الأزهر بالتعاون مع برلمان الطلاب الوافدين.

وقد حضر المؤتمر لفيفٌ من عمداء الكليات الأزهرية، وأساتذة جامعة الأزهر، وكان فى مقدمة الحضور: الأستاذ الدكتور حسن الشافعي، رئيس المكتب الفنى لفضيلة الإمام الأكبر، ورئيس مجمع اللغة العربية، والأستاذ الدكتور عبد الفضيل القوصي، عضو هيئة كبار

العلماء، والأستاذ الدكتور عبد الدايم نصير، الرئيس العام للرابطة العالمية لخريجي الأزهر، والدكتور محيي الدين عفيفي، عميد كلية العلوم الإسلامية للوافدين.

وتحدث فضيلة الإمام الأكبر، قائلاً: أُوصيكم أيها الأبناء في مبدأ الأمر: بإحسان النيّة في طلب العلم، وأنّه لهداية النفس، وإرشاد الغير؛ قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٢).

وأضاف فضيلته: "أُوصيكم أيضًا بطَهارة القلبِ واليدِ واللسان؛ فإنّ العلم نورٌ يقذفُه الله في قلوب عباده، فلا يجتمع مع رُعونات النّفس، وغلَبة الهوَى، فاحرِصُوا على آداب طُلب العلم تنالوا منه أرفَعه؛ فإنما العلمُ علمان: علمٌ في القلب، وعلمٌ على اللسان؛ فأمّا الذى في القلب فذلكم هو العلم النافع، وأمّا الذى على اللسان فهو حُجّةُ الله على ابن آدم (الإنسان)".

وطالب الإمام الأكبر الطلاب الوافدين، قائلاً: "أرجوكُم أيها الأبناء أنْ تُصارحونا بأحوالكم وتُفضوا إلينا بمتاعبكم، ولا تتردّدوا في ذِكر أيّة مُشكلة من مشاكلكم؛ فنحن لكم هنا آباء، وأنتم لدينا وَديعةٌ غالية، ونَعِدُكم أن نزيل من طريقكم كلّ العقبات - ما أمكَننا ذلك - لتتفرّغوا لغايتكم التى جئتُم من أجلها".

وقد تحدث د. عبد الفضيل القوصي مُركزًا على ثلاث ركائز، هي: القرآن، والأزهر، والوافدين؛ حيث ذكر أن القرآن هو الأساس الذى ينبنى عليه كل شيء في حياتنا وأن الأزهر هو الحارس الأمين على علوم القرآن الكريم وأن الطلاب الوافدين ليسوا غرباء على مصر؛ وإنما هى بلدهم.

أما الشيخ على عبد الباقي، الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، فقد تطرق إلى أن عدد الوافدين الذين يدرسون بالأزهر أربعون ألف طالب، يمثّل طلاب المنح منهم ما لا يزيد عن خمسة آلاف طالب، والباقي يدرس على نفقته الخاصة، وأتوا إلى مصر بتأشيرة سياحية وليس بتأشيرة دراسة، وقام الأزهر بتغيير التأشيرات للدراسة، مما يدلل على مدى رغبة الآلاف من الطلاب الوافدين في الإقبال على الأزهر حتى ولو كان ذلك على نفقتهم الخاصة، منتقدًا بعض الطلاب الوافدين الذين ينشغلون بالعمل ويهملون الدراسة، وكذلك من يتركون الدراسة بالأزهر ليدرسوا دراسة أخرى غير وسطية.

كما نبه إلى أن هناك توجيهات من فضيلة الإمام الأكبر بضرورة استعمال العربية الفصحى داخل قاعات الدراسة، وخصوصًا مع الطلاب الوافدين.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين أحمد رضوان - يحيى سليمان

مفتى الجمهورية يحيى مشروع القمر الصناعى الإسلامى

بعد توقف لعدة سنوات أحيت دار الإفتاء المصرية مشروع القمر الصناعى الإسلامى، الذى كان من أوائل المشاريع التى تبناها مفتى مصر الأسبق الدكتور نصر فريد واصل، حيث أعلن الدكتور شوقى علام، مفتى مصر، اعتزام دار الإفتاء إطلاق قمر صناعى إسلامى قريبًا، بهدف ضبط وتوحيد بدايات الشهور القمرية.. وأكد مفتى الجمهورية أنه تم بالفعل اتخاذ خطوات ملموسة لإطلاق القمر الصناعى قريبًا، والذى سيكون بمثابة مرصد جوى لتحديد بدايات أوائل الشهور القمرية لجميع الدول الإسلامية، مما يسهم بشكل كبير فى اختفاء الخلافات المتعلقة بالرؤية الشرعية لرصد الهلال، خصوصًا فى رمضان وشوال وذى الحجة.

وأضاف المفتى: أن القمر الصناعى الإسلامى سيساعد كذلك على رصد الهلال فى سماء العالم الإسلامى على وجه الدقة، وتنتفى بذلك احتمالات الشك فى الرؤية وتتوحد أيام المواسم والأعياد الإسلامية فيما بينهم.

من جانبها قالت الدكتورة ميرفت عوض، أستاذ الفلك والأرصاد الجوية بكلية العلوم جامعة القاهرة: إن مشروع القمر الصناعى الإسلامى سيحقق توحيد جهات الرصد لتحديد أوائل الشهور القمرية، بالإضافة إلى أنه يمكن الاستفادة منه فى خدمات كثيرة فى مجال الاقتصاد والبيئة وغيرها من الموضوعات، التى تخدم قضايا التنمية فى الدول العربية والإسلامية. وزير الشئون الإسلامية بالمالديف:

وزير الشئون الإسلامية بالمالديف:

دور كبير للأزهر فى نشر الدعوة فى بلادى ونسعى لإنشاء معهد لتعليم العربية

أشاد وزير الشئون الإسلامية بالمالديف الشيخ محمد شهيم على سعيد بالدور الذى يقوم به الأزهر الشريف فى خدمة الدعوة الإسلامية ورعاية الدعاة فى المالديف، مشيرًا إلى أن للأزهر بعثة تعليمية ودعوية تضم ٢٢ أستاذًا ومعلمًا.

كما أشاد وزير الشئون الإسلامية بالمالديف الذى تخرج عام ٢٠٠٤ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بالتطور الذى شهدته الجامعة الإسلامية لتضيف إلى رصيدها الكبير فى خدمة الدعوة الإسلامية والمسلمين فى كل مكان، مشيرًا إلى أنه فى بلاده معهد أزهرى منذ ٣٠ سنة لتعليم الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة ونشر الدعوة الإسلامية.

وقال فى كلمته أمام المؤتمر الدولى الرابع للوقف بالجامعة الإسلامية: لقد تخرجت فى كلية الشريعة بالجامعة قبل ثمانى سنوات وأشعر بالفخر والسعادة للعودة إلى المدينة المنورة لأتذكر تلك الأيام التى تعلمت فيها بالجامعة.

وأضاف: نحن فى المالديف بحاجة إلى دعم الدعاة وتدريبهم ومساعدتهم وتطوير أفكارهم وهم بحاجة إلى نشر اللغة العربية، ونسعى لتأسيس معهد للغة العربية لغير الناطقين بها فى المالديف.

وأوضح أن تعداد سكان المالديف يبلغ ٣٥٠ ألف نسمة كلهم مسلمون ويخدمهم ألف مسجد، مشيرًا إلى أن الدستور ببلاده يحرم الدعوة لغير الإسلام فى البلاد، بل وينص على أن كل من يحمل الجنسية المالديفية لابد وأن يكون مسلمًا.

ودعا وزير الشئون الإسلامية بالمالديف العلماء والباحثين وأهل الخير إلى زيارة بلاده للاطلاع على ظروف المسلمين فى بلاده.

مفتى السعودية: النهوض بالوقف الإسلامى ضرورة لنهضة الأمة

كما أكد الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، مفتى عام السعودية، فى تصريح له على هامش أعمال المؤتمر الدولى الرابع للوقف أن النهوض بالوقف الإسلامى ضرورة لتحقيق نهضة الأمة الإسلامية فى جميع المجالات، داعيًا الجميع شعوبًا وحكومات بإعطاء الأولوية للنهوض بالوقف.

وقال مفتى السعودية: إن الإسلام أولى عناية فائقة بالمجتمع المسلم ليكون مجتمعًا يعيش أفراده فيما بينهم إخوة متحابين يسود التراحم والتعاطف بينهم.. ولتحقيق ذلك حث الإسلام أتباعه على الإحسان، قال تعالى:

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(البقرة: ١٩٥)

والأوقاف فى عصرنا الحاضر بحاجة إلى تنظيم شئونها، والطريقة المثلى لإدارتها وتطويرها وتطوير الوسائل الرقابية عليها، وكذلك البحث عن أفضل سبل لاستثمارها واستثمار مواردها بما يجعل الأوقاف أقرب إلى تحقيق الأهداف المنشودة منها، والاستفادة المثلى من ريعها وعوائدها.

بعد إشهار إسلامه وأداء العمرة

الهولندى المسىء للرسول يستعد لإنتاج فيلم يدافع عن النبى ﷺ

أعلن أرنادو فان دورن السياسى السابق فى حزب الحرية الهولندى أحد المشاركين فى إنتاج فيلم الفتنة المسىء للنبى ﷺ اعتزامه بعد إشهار إسلامه إنتاج فيلم يدافع فيه عن النبى ﷺ.

جاء ذلك فى تصريحات لأرنادو فان بعد إشهار إسلامه وقيامه بزيارة للمدينة المنورة ومكة المكرمة لأداء مناسك العمرة والتقائه بالأئمة والدعاة فى الحرمين الشريفين.

كما أكد الشيخ عبدالرحمن السديس إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة عقب لقائه بالسياسى الهولندى بمقر رئاسة شئون الحرمين فى مكة المكرمة أن اعتناق أرنادو للإسلام ومعرفته بسلوك طريق الحق والهداية لهو مكسب كبير. وقام بإهدائه نسخة من المصحف الشريف وكتابه عن خطب الجمعة باللغة الإنجليزية، ومن جانبه أعلن السياسى الهولندى عن فكرة إنتاج فيلم يتناول إبراز أخلاق وهدى النبى ﷺ.

المسلمون فى النمسا يطالبون بعطلة فى أعيادهم الدينية وكبير الأساقفة يتحفظ!!

فى نطاق المساواة فى الحقوق بين أتباع الديانات المعترف بها فى النمسا طالب رئيس الجالية الإسلامية الرسمية فى النمسا فؤاد سنج السلطات النمساوية بضرورة تعديل القانون النمساوى الصادر عام ١٩١٢م الذى ينص على «الاعتراف رسميا بالدين الإسلامى منذ أكثر من مائة عام».. بحيث يتضمن منح المسلمين فى النمسا عطلة عن العمل ليوم واحد فى كل عيد لهم مثلما يمنح المسيحيون البروتستانت عطلة فى يوم الجمعة التى تسبق عطلة الكاثوليك بعيد الفصح.

وقال سنج فى تصريحات له: إن الجالية الإسلامية ترغب فى الحصول على عطلة ليوم واحد خلال عيدى الفطر والأضحى المباركين، مؤكدًا أن منح المسلمين هذه العطلة من شأنه أن يساعدهم على مزيد من الاندماج داخل المجتمع النمساوى.

من جانبه أعلن كبير أساقفة النمسا كاردينال كريستوف شونبورن عن تحفظه تجاه طلب رئيس الهيئة الإسلامية فى النمسا فؤاد سنج حول حصول الجالية الإسلامية على إجازات رسمية فى الأعياد الإسلامية، معتبرا أنها مسألة تحتاج إلى مناقشة مجتمعية واسعة مع تأكيده ضرورة مراعاة نسب الأغلبية فى البلاد. ولفت شونبورن إلى أن ٨٠ فى المائة من سكان النمسا أعضاء فى الكنيسة الكاثوليكية، مبديًا تفهمه لتميز أعياد المسيحيين الكاثوليك فى النمسا، كما لفت فى الوقت نفسه إلى الخلفية التاريخية للبلاد. كما نوه شونبورن إلى أن أعداد أفراد الجالية الإسلامية المقيمة فى النمسا ليست كبيرة بالدرجة التى تجعل من أعيادها الدينية إجازات عامة رسمية فى البلاد.

الإيكونوميست: الإسلام فى بريطانيا يتحول من دين (مهاجر) إلى (متوطن)

اعتبرت مجلة (الإيكونوميست) البريطانية: أن تزايد أعداد أئمة المسلمين ممن ولدوا وتدربوا على الإمامة فى بريطانيا بمثابة جزء من تحول الإسلام فى تلك الدولة الأوروبية من دين (مهاجر) إلى (متوطن).. ورصدت، فى تعليق بثته عبر موقعها الإلكترونى، تجمع ستة آلاف رجل وامرأة من المسلمين كل أسبوع بأحد مساجد جى (وايت تشابل) شرقى لندن؛ لأداء صلاة الجمعة التى يخطب فيها أئمة هذا المسجد بثلاث لغات مختلفة لإفهام المصلين من مختلف الجنسيات: من

الجزائر وبنجلاديش والهند والمغرب وباكستان والصومال وجنوب أفريقيا.

وتوهت المجلة عن اصطحاب المسلمين، ممن قدموا إلى بريطانيا فى حقبتى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، ومعظمهم من بنجلاديش وباكستان، لأئمتهم الدينيين معهم ممن لا يتحدثون الإنجليزية باستثناء القليل، بينما لم تطالبهم الحكومة بذلك، مشيرة إلى ركون المسلمين إلى سماع لغتهم الأصلية فى المساجد المحلية، لا سيما أنهم يصارعون لحل شفرات اللهجات المحلية التى يتحدث بها سكان مدن شرق إنجلترا المزدحمة، حيث يسكن هؤلاء المسلمون.

لكن هذا الوضع قد تغير، بحسب (الإيكونوميست) التى لفتت إلى أن أحدًا لا يدرى على وجه الدقة كم عدد الأئمة الموجودين فى بريطانيا، فضلاً عن اللغات التى يتحدثونها إلا أنها أوردت قول إبراهيم موجرا، الإمام بمنطقة (لايستر) والعضو البارز فى مجلس مسلمى بريطانيا، إن عدد الأئمة متحدثى الإنجليزية آخذ فى الازدياد. وعزت المجلة هذا التزايد فى أعداد متحدثى الإنجليزية بين الأئمة، فى جانب منه، إلى الضغط الذى مارسته الحكومة البريطانية بعد التفجيرات الانتحارية عام ٢٠٠٦م التى خلفت ٥٢ قتيلا فى لندن، وإنشائها (المجلس الاستشارى الوطنى للأئمة والمساجد) لتأهيل الأئمة واعتمادهم بناء على معايير محددة. فيما يتمثل السبب الثانى- بحسب المجلة- فى العامل الديموجرافى: ذلك أن الجيل الثانى والثالث من أبناء الذين قدموا إلى بريطانيا قبل نصف قرن ربما يعرفون اللغات البنغالية أو الأردية، ولكنهم ولا شك يعرفون أكثر منها اللغة الإنجليزية باعتبارها لغتهم الأصلية.. كما نوهت المجلة فى هذا الصدد عن افتتاح معاهد إسلامية لتعليم وتحفيظ القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية فى بريطانيا منذ حقبة السبعينيات.

الخارجية المصرية تشارك فى اجتماع التعاون الإسلامى حول ميانمار

شاركت الخارجية المصرية فى اجتماع منظمة التعاون الإسلامى وذلك لبحث أوضاع الأقلية المسلمة فى ميانمار «الروهينجا».

وكانت وزارة الخارجية قد أعربت مؤخرًا عن إدانتها لتجدد أحداث العنف التى يتعرض لها المسلمون فى ميانمار، كما أعربت عن قلقها العميق إزاء امتداد تلك الأحداث إلى عدة أقاليم جديدة، مما ينذر بوجود استهداف ممنهج على أساس طائفى وعرقى.

دعت مصر لاتخاذ إجراءات رادعة وفورية ضد مثيرى الفتنة، ووقف التمييز ضد المسلمين، والذى يتناقض مع كافة الأعراف والاتفاقيات الدولية.

فى إطار رئاسة مصر لمنظمة التعاون الإسلامى، دعت وزارة الخارجية حكومة اتحاد ميانمار للاستجابة للدعوة التى عبر عنها اجتماع وزراء خارجية المنظمة فى ٢٠١٢م والمنعقد فى جيبوتى، بشأن قيام وزراء خارجية مجموعة الاتصال المعنية بالروهينجا بزيارة ميانمار لوضع خطة لتقديم مساعدات بشكل عاجل للمتضررين، وهو ما أكد عليه البيان الختامى لمؤتمر القمة الإسلامى بالقاهرة فى فبراير ٢٠١٣، خاصة أن استجابة الحكومة الميانمارية لتلك الخطوات تعد الحد الأدنى لإظهار حسن النية، وطمأنة للمجتمع الدولى لما يتم اتخاذه من إجراءات على الأرض لمعالجة الأزمة.

should pay blood money; and if the person who withholds the money and food is killed, he will be cursed by Allah, as he is considered as an oppressor.

Allah (Glory be to Him) says:

{But if one of them outrages against the other, then fight you (all) against the one which outrages till it complies with the Command of Allâh. Then if it complies, then make reconciliation between them justly, and be equitable. Verily, Allâh loves those who are the equitable.}

[Al-Hujurat (Apartments): 9]

The person who withholds a right from his brother is an oppressor. On this basis, Abu Bakr Al-Seddiq (may Allah be pleased with him) fought those who refused to pay Zakah."[1]

This is the Islamic philosophy with regard to money and wealth. This is the status of Zakah – the first collective and social obligations – and the first social establishments in the Islamic state, nation, and civilization.

Nowadays, the population of the Islamic nation stands at a billion and seven million people, i.e., a quarter of the population. It occupies 35,000,000 km. It extends from Ghana to Ferghana in the east, from Volga River basin in the north to the south of the equator.

[1] Ibn Hzm, Al-Muhalla, part 8, p. 59; Al-Muniriyyah edition, Cairo.

am like you in this regard. The money of every person is entitled to him only, and `Umar and his family has no right to this money. If I can go back and change anything, I would have taken the surplus of the money of the rich and would have distributed it among the poor to make all the people equal."[3]

• The fourth Rightly-Guided Caliph [23 A.H. – 40 A.H. / 600-661 A.C.] (may Allah be pleased with him) said: "Allah assigned part of the money of the rich to the poor; if a poor person feels hungry, it is because his share of money is enjoyed by a rich person, and Allah will hold them to account for this. Richness is like a homeland in alienation, and poverty is like alienation in the homeland, and the person who does not spend the due amount of his money for Allah's sake is strange in his homeland."[4]

• The fifth Rightly-Guided Caliph, `Umar ibn Abdul Aziz [61-101 A.H. / 681-720 A.C.] (may Allah be pleased with him) said about money at the life time of the Prophet: "Allah took the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and left for the people a river, there shares in it are equal."[5]

• Imam Al-Zamakhshary [467-538 A.H. – 1075-1144 A.C.] explained this Ayah: "...and spend whereof Allah has made you trustees" saying: "Allah wants to tell the people that this money belongs to Allah, who has given it to you to enjoy it. Also, he made you trustees in it, so in fact, this money is not yours, but you are merely like deputies with regard to it."[6]

[3] Ibn Sa'd, "The Other Classes," Part 3, chapter 1, pp. 215, 238, and 279, Dar Al-Tahrir edition, and "The History of Al-Tabary," part 4, p. 226, Dar Al-Ma'aref edition, Cairo.
[4] Nahj Al-Balaghah, p. 408, Dar Al-Sha'b edition, Cairo.
[5] Al-Asfahany, Al-Aghany, part 9, p. 3375, Dar Al-Sha'b edition, Cairo
[6] Al-Zamakhshary, Tafsir Al-Kashshaf, part 4, p. 61, Cairo edition, 1968 A.C.

• Imam Muhammad `Abdo [1266-1323 A.H. / 1849-4905 A.C.] said about the addition of the singular pronoun to the word "money" in the Qur'an in seven verses and its addition to the plural pronoun in forty seven verses: "Allah (Glory be to Him) wants to draw our attention to solidarity among the members of the nation with regard to rights and interests . It is as if He says: The money of anyone of you is the money of your nation."

• Throughout the Islamic history and civilization, the Islamic nation continued to seek the social justice as much as possible. Also, Zakah and Endowment Establishments continued to attend to the interests of the poor and to their rights in the money of the rich.

• The social revolutions, led by the scholars of the nation, continued to witness the care attached by the reason, conscience, and Islamic jurisprudence to wealth and money. Imam Ibn Hazm, the Andalusian [384-456 A.H. / 994-1064 A.C.] rendered these revolutions obligatory and not merely one of the rights.

He said: "It is obligatory on all of the rich to take care of the poor, and their ruler should obligate them to do so if the money of Zakah is not sufficient. They should grant them food, summer and winter clothes, and a house to shelter them.

It is not lawful for a Muslim to be forced to eat the meat of dead animal or the meat of swine, while there is a surplus of food with a Muslim or one of the People of the Book. He has the right to fight for this purpose. If he is killed, his killer

{And We made them leaders, guiding (mankind) by Our Command, and We revealed to them the doing of good deeds, performing Salât (Iqâmat-as-Salât), and the giving of Zakât and of Us (Alone) they were worshippers.}

[Al-Anbiya' (The Prophets): 73]

However, this ritual has an eminent status in Islam, as it combined between the individual and the collective obligation, as it is the way to social solidarity in the nation. Hence, it leads to uniting the nation by gathers all of the individuals. Its remarkable feature in Islam is that it is regarded as an establishment organized by the community, when it is entrusted to the people responsible for collecting and distributing it. It is one of the establishments sponsored by the nation, which guards the religion and is ruled by the religion. The Divine Address is directed to the state as well as the nation:

{Take Sadaqah (alms) from their wealth in order to purify them and sanctify them with it, and invoke Allâh for them. Verily, your invocations are a source of security for them; and Allâh is All-Hearer, All-Knower.}

[Al-Tawbah (Repentance): 103]

{And whatever good you send before you for yourselves, (i.e. Nawâfil non-obligatory acts of worship: prayers, charity, fasting, Hajj and 'Umrah), you will certainly find it with Allâh, better and greater in reward. And seek Forgiveness of Allâh. Verily, Allâh is Oft-Forgiving, Most-Merciful.}

[El - Muzzammil) (Enwarapped 20)]

• This remarkable status attained by the obligation of Zakah, in the way that renders it one of the first of the social establishments of the nation, stems from the Islamic philosophy with regard to wealth and money. This philosophy states that Allah is the real Owner of money and wealth, and renders all the people trustees in "possessing", "beneficial ownership", "developing, investing, and enjoying lawfully wealth and money". This is the Islamic philosophy with regard to money, which combined miraculously and in balance the property of the community and that of the individual in a way that is free from any negligence or excessiveness, which spread in the non-Islamic civilizations. The Noble Qur'an stated this philosophy with regard to money and wealth in the following verses:

{...and give them something (yourselves) out of the wealth of Allâh}

[Al-Nur (The Light): 33]

{...and spend of that whereof He has made you trustees}

[Al-Hadid (Iron): 7]

Also, it is mentioned in the Qur'an the expression "money" which is added to the singular pronoun in seven verses and to the plural pronoun in forty seven verses to confirm this unique financial philosophy.

• The Islamic thought and its applications explained this philosophy in detail. The second Rightly-Guided Caliph, 'Umar ibn Al-Khattab [40 B.H. – 23 A.H. / 584-644 A.C.] said: "With the One in Whose Hand my soul is, every person has a share in this money and no one is entitled to a share more than the other. Also, I

2- surrounded the house of the Prophet – the government. Its doors lead to a mosque. In the Prayer, they used to stand behind the Prophet, but in the battles, they used to stand in front of him.

3- The Ministers' Establishments: The twelve leaders from Al-Ansar. They belonged to Al-Aws and Al-Khazraj, were elected in Al-'Aqabah pledge of Alliance to represent Al-Ansar in pledging alliance to the Prophet about the Hijira from Mecca to Medina and establishing a state therein.

4- Shura Council Establishment: It consisted of seventy people, who used to hold its sessions in the Prophet's Mosque in particular times and place. The affairs of the state and the problems of the districts were referred to it.

- The establishments represented the links, which turned the individuals, tribes, and classes to the blocks that built the nation. Islam was the religion embraced by the believers and the civilization that included all the people of the nation under its banner in spite of their difference in creed, race, and languages, which existed in the Islamic nation. It was cherished by all the people under the banner of Islam.[1]

- As the flourishing of the worldly life is the basis of the reformation of the flourishing of the religion, in the way expressed by Abu Hamid Al-Ghazaly [450-505 A.H. / 1058 – 1111 A.C.] when he said: "The religious system is

[1]See "Establishments in the Islamic Civilization," pp. 13-53, Dar Al-Salam Edition, Cairo, 1431 A.H. / 2010 A.C.

established by the worldly system, the religious system in terms of knowledge and worship can not be attained except by:

1- Good health

2- Being alive

3- The well-being of the following:

-Clothes

-House

- Sustenance

- Security

The religion can not be sound without these essential elements. The person who spends his time guarding himself from the oppressors, and trying hard to earn his living, when will he dedicate himself to knowledge and work, which are his ways to happiness in the Hereafter? Thus, the regularity of religion depends on the amount of needs in the worldly life.[2]

For the sake of the prosperity of the worldly life and the Hereafter, Zakah was enjoined as one of the pillars of Islam, and it is an individual obligation as well as a collective obligation. It was the basis of the first economic and social establishments in the Islamic history and the Islamic nation.

In fact, Zakah was enjoined in the heavenly Messages, which preceded Islam. It was stated in the life story of Prophet Ibrahim, the Father of the Prophets:

[2] Al-Ghazaly, "Economy in our Creed," p. 135, Subaih Library edition, Cairo, without date.

Mu`tasem got angry for this event, as he liked this city as it is his mother's hometown.

Ibn Al-Athir mentioned that a Hashemite lady shouted loudly saying: "O Al-Mu`tasem" when she was captured by the Romans. When Al-Mu`tasem was informed with this, he swore to take revenge from the Romans and to destroy Amuriah, the birthplace of the father of the Byzantine Emperor and the most important city in Minor Asia. Al-Mu`tasem gathered a huge army, as we mentioned before, and led it himself and he was helped by the senior leaders of his army like Haidar ibn Kawis, Ashnan, and others.

It is mentioned that the name "Amuriah" was inscribed on the arms of every soldier in the army. Al-Mu`tasem went ahead with his army until he met the army of Theophile in 838 A.C. Then, a battle broke out between the two armies and ended with the victory of Al-Mu`tasem's army. Then, he headed towards Amuriah and besieged it severely, after which managed to break into Amuriah and captured those who were in it.

Al-Mu`tasem died on Thursday, Rabi` I 8, 227 A.H. His reign lasted for eight years, during which he was known with courage, magnanimity, faith, and kindness; and he was one of the greatest and most venerable Caliphs of the Islamic Abbasid state.

*The Absent and Desired Obligation ... !

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

Islam is the religion of the community; thus, its obligations are distinguished by addressing the individual and the community at the same time. Rather, its collective obligations are more stressed that the individual obligations. Thus, the sin resulting from neglecting the individual obligation is limited to the individual only, while the sin resulting from neglecting the collective obligations befalls the whole nation. Also, the individual obligation such as Prayer is more rewarded when it is performed in congregation. Also, the outcomes of all the individual obligations lead to guiding the community. For this Islamic remarkable feature, there should be a nation for Islam in which the collective obligations can be performed. This is contrary to other religions, which are perfected by isolation and monasticism, being away from belonging to a nation or a community. For this wisdom, monasticism in Islam is a collective obligation – strife in the cause of Allah – i.e. for the sake of establishing a nation and reforming the society.

For this feature, which distinguished Islam, its nation is based on organization, systems, and establishments.

- The earlier Islamic nation, whose social and political contract was conclude in Al-`Aqabah Pledge of Alliance in 1 B.H. corresponding to 621 A.C. It was unveiled after the Hijira in 1 A.H. corresponding to 622 A.C. It was established on three constitutional establishments:

1- The Princes' Establishments: The earlier ten emigrants, who represented the leaders of Quraysh and were the first to embrace Islam. Their houses

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same copy.

Caliph Abu Ishaq Muhammad Al-Mu`tasem Billah : A Muslim Lady was arrested, then she cried loudly O Mu`tasem and history recorded her cry and rescue ...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

He is Abu Ishaq Muhammad Al-Mu`tasem Billah ibn Harun Al-Rashid ibn Al-Mahdy ibn Al-Mansur, the eighth Abbasid Caliph, who was born in 179 A.H. and died in Samarra on Rabi` Al-Awwal 18, 227 A.H. corresponding to February 4, 842 A.C. During the caliphate of his brother Al-Ma'mun, he wsa the ruler of the Levant and Egypt, and Al-Mu`mun loved him due to his courage. Thus, he appointed him as his successor. Upon the death of Al-Ma'mun, Abu Ishaq Muhammad was appointed as the Caliph and was called Al-Mu`tasem Billah on Rajab 19, 218 A.H. corresponding to August 10, 833 A.C. The historians stated that he had strong body and distinguishable courage. Also, he favored the Turkish soldiers due to his confidence in their military ability.

During his reign, the scientific boom, which was started by Caliph Al-Ma'mun flourished, and he chose Samarra to be his capital and the headquarters of his Turkish armies. The historians render Al-Mu`tasem's tenedency towards the Turks to his mother's Turkish origin.

Al-Mu`tasem followed in the footsteps of his brother Al-Ma'mun in getting rid of the internal revolutions, which broke out during his reign. He managed to eliminate the revolution of the Indians, which threatened the regions of the state at the south of Iraq and succeeded in eliminating it by his Arab Leader `Agif ibn `Anbasah in 220 A.H., who dismissed them from the state.

Then, another revolution broke out, led by Muhammad ibn Al-Qasim who was residing in Kufa. Then, he left it heading to Taleghan and `Abdullah ibn Tahir ibn Al-Hussain, the Ruler of Khorasan, confronted him and sent to him a great army. Battles broke out in Taleghan, which ended with the defeat of Muhammad ibn Al-Qasim and his retreat to Core Khorasan in Lancia. However, its ruler captured him and sent him to Al-Mu`tasem who imprisoned him.

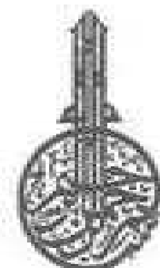
The Byzantine Emperor Theophile exploited the opportunity of Al-Mu`tasem's preoccupation with chasing those who revolted against him, and invaded the Islamic borders and attacked Zaboutrh, which is the closest Islamic fortified borderline state to the Byzantine State. He burnt and destroyed, killed its men, captured its women and children. Al-

وقف الأذان ومنع أداء الصلاة بجامع أيا صوفيا
16 رجب 1353هـ - 21 من فبراير 1925م

تركــــيا

AL-AZHAR MAGAZINE

Rajab, 1434 A.H



ENGLISH SECTION

May, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

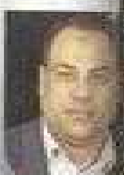
مكتبة الأزهر الشريف

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
شعبان ١٤٣٤هـ يونيو/ يوليو ٢٠١٣م الجزء "٨" السنة "٨٦"

الأزهر


أ.د. محمد عبدالله دراز


أ.د. يوسف القرضاوي

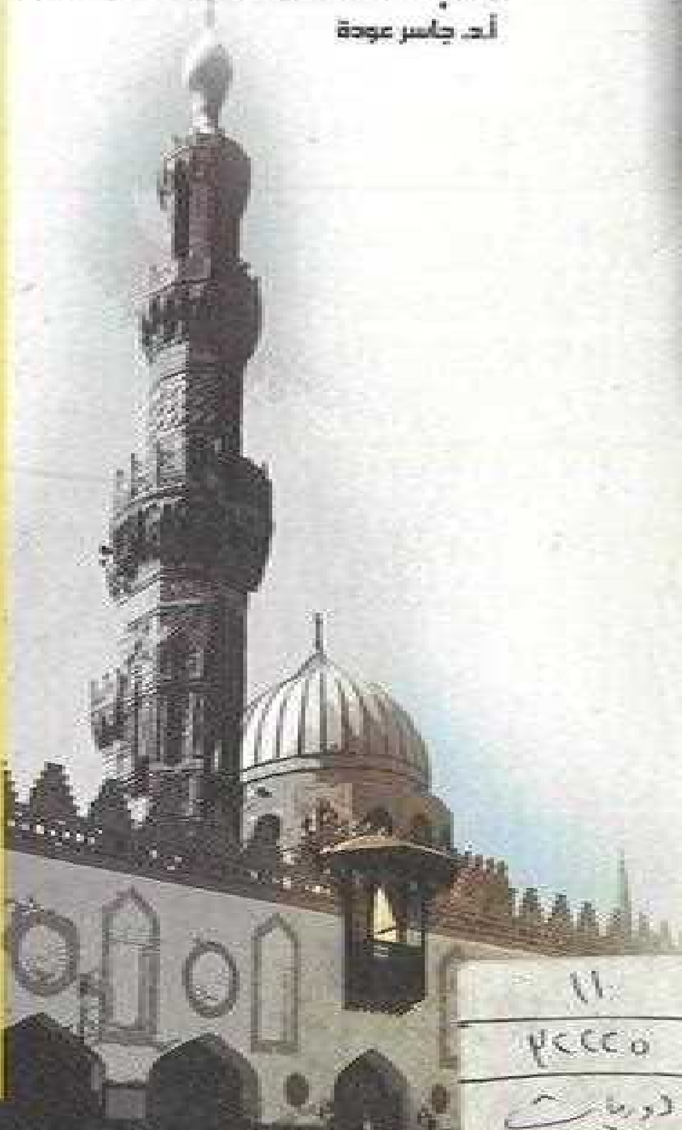

أ.د. خالد فهمي

اتجاهات التجديد فى التراث
أ.د. أحمد الطيب

إسلام واحد ورؤى متعددة
أ.د. محمد شامة

الاجتهاد فى مقاصد العقائد
أ.د. جاسر عودة





الافتتاحية: الأصولية بين الغرب والإسلام
أ.د. محمد عمارة

شعبان ١٤٣٤هـ

هدية العدد: الجهاد دفاعاً عن الإسلام
للعلامة مولانا أبو الكلام آزاد

٥ ١١
٤٢٢٢٥
دوريات

في عدد رمضان

الافتتاحية
مسيرة قلم
أ.د. محمد عمارة

الإعلان العالمى لحقوق العباد فى خطبة الوداع
د. رشيد كهوس

مقاصد الشريعة .. أفق إنسانى
د. وصفى عاشور

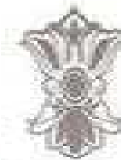
الأخلاق العالمية
أ.د. طه عبدالرحمن

الأنشطة الفنية فى حوض النيل
د. عبدالله نجيب

هدية رمضان: ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين
للعلامة الشيخ: عبدالجليل عيسى

السعر جنيهان

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة؛ فمن فاته عدد ويرغب فى الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثانى.



﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

الأصولية بين الغرب والإســـــــلام



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

«الأصولية» fundamentalism - بالمعنى الذى شاع مضمونه فى أوساطنا الإعلامية والثقافية والسياسية المعاصرة - هو مصطلح غربى النشأة وغربى المضمون، ولأصله العربى ومعانيه الإسلامية مضامين ومفاهيم أخرى مغايرة لمضامينه الغربية، التى يقصد إليها الآن متداولوه.

وهذا الاختلاف فى المضامين والمفاهيم، مع الاتحاد فى المصطلح - الوعاء - أمر شائع فى العديد من المصطلحات التى يتداولها العرب والمسلمون ويتداولها الغرب مع تغاير مضامينها فى كل حضارة، وهو أمر يحدث الكثير من اللبس والخلط فى حياتنا الثقافية والسياسية والإعلامية المعاصرة، التى خلطت فيها وسائل الاتصال مصطلحات كثيرة، اتحدت فى اللفظ مع اختلافها فى المضامين والخلفيات والإيحاءات.

فمصطلح «اليسار» - مثلا - يرمز، فى الفكر الغربي، للأجراء والفقراء وأهل الفاقة والحاجة، بينما يدل، فى المفاهيم العربية والإسلامية، على أهل الغنى واليسر والنعيم!

ومصطلح «اليمين» - مثلا - يدل، فى الفكر الغربي، على أهل التخلف والرجعية والجمود، بينما هو يعني، فى فكر العربية والإسلام، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأقبلوا على بارئهم، يوم الحساب، يتناولون صحائف أعمالهم الطيبة باليمين، أى القوة والثبات والاطمئنان! ولذلك كان الإمام عبدالحميد بن باديس (١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ/ ١٨٨٩-١٩٤٠م) يدعو الله - سبحانه وتعالى - فيقول: «اللهم اجعلنى فى الدنيا من أهل اليسار، واجعلنى فى الآخرة من أهل اليمين» - بالمفهوم الإسلامي، طبعًا، وليس بمفهوم الغربيين.

والأصولية، فى المحيط الغربي، هى - فى الأصل والأساس - حركة بروتستانتية التوجه، أمريكية النشأة، انطلقت فى القرن التاسع عشر الميلادى من صفوف حركة أوسع هى «الحركة الألفية»، التى كانت تؤمن بالعودة المادية والجسدية للمسيح - عليه السلام - ثانية إلى هذا العالم، ليحكمه ألف عام تسبق يوم الدينونة والحساب.

والموقف الفكرى الذى ميز هذه الأصولية هو: «التفسير الحرفى للإنجيل وكل النصوص الدينية الموروثة، والرفض الكامل لأى لون من ألوان التأويل لأى نص من هذه النصوص - (حتى ولو كانت - كما هو حال الكثير منها - مجازات روحية ورموزًا صوفية) - ومعاداة الدراسات النقدية التى كتبت للإنجيل والكتاب المقدس». وانطلاقًا من التفسير الحرفى للإنجيل، قال الأصوليون البروتستانت بالعودة الجسدية للمسيح ليحكم العالم ألف عام سعيدة، لأنهم فسروا «رؤيا يوحنا» - (سفر الرؤيا ١٠- ١- ١٠)- تفسيرًا حرفيًا.

وعندما أصبحت الأصولية مذهبًا مستقلاً بذاته، فى بداية القرن العشرين، تبلورت لها عبر مؤتمراتها، ومن خلال مؤسساتها وكتابات قساوستها مقولات تنطلق من التفسير الحرفى للإنجيل، داعية إلى مخاصمة الواقع ورفض التطور، ومعاداة المجتمعات العلمانية بخيرها وشرها على السواء. فهم - مثلاً - يدعون التلقى المباشر عن الله، ويتوجهون إلى العزلة عن الحياة الاجتماعية، ويرفضون التفاعل مع الواقع، ويعادون العقل والتفكير العلمى والمبتكرات العلمية، فيهجرون الجامعات، ويقيمون لتعليمهم مؤسسات خاصة، وهم يرفضون إيجابيات الحياة العلمانية، ومن باب أولى سلبياتها، من الإجهاض وتحديد النسل إلى الشذوذ الجنسى والدعوات المدافعة عن «حقوق» أهله، ومن المسكرات والتدخين والرقص إلى الاشتراكية.

ولقد شهدت الحركة الأصولية فى العقود الأولى من القرن العشرين عددًا من المؤتمرات التى أفضت إلى عدد من المنظمات، كان من أبرزها فى أمريكا: «جمعية الكتاب المقدس» سنة ١٩٠٢م، وهى التى أصدرت اثنتى عشرة نشرة بعنوان «الأصول» **Fundamentals** دفاعًا عن التفسير الحرفى للإنجيل، وهجومًا على نقده أو تأويله، و«المؤسسة العالمية للأصوليين المسيحيين» سنة ١٩١٩م، و«الاتحاد الوطنى للأصوليين».

تلك هى «الأصولية» فى الاصطلاح الغربي، وبالمفهوم النصرانى [١].

١- انظر دائرة المعارف البريطانية Fundamentalism

٭٭٭

أما فى المنظار العربى والمفهوم الإسلامى، فإننا لا نجد فى معاجمنا القديمة - لغوية كانت أو كشافات للمصطلحات - ذكرًا لهذه النسبة - «الأصولية» - وإنما نجد الجذر اللغوى - «الأصل» بمعنى: أسفل الشيء، والحسب، وجمعه: أصول. وفى القرآن الكريم:

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(الحشر: ٥)

ورجل أصيل: له أصل ومتمكن فى أصله، وثابت الرأى عاقل. ورأى أصيل: له أصل. ومجد أصيل: أى ذو أصالة. والأصل كذلك القرار.

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾

(الصافات: ٦٤)

والجذر:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾

(إبراهيم: ٢٤)

والأصلى: يقابل الفرعى، أو الزائد، أو الاحتياطى، أو المقلد.

ويطلق الأصل على القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات، وعلى الحالة القديمة، كما فى قول علماء أصول الفقه: «الأصل فى الأشياء الإباحة والطهارة». والأصول: المبادئ المسلمة.

وعند «علماء الأصول» يطلق الأصل على معان، أحدها: الدليل، يقال: «الأصل فى هذه المسألة الكتاب والسنة»، وثانيها: القاعدة الكلية. وثالثها: الراجح، أى الأولى والأحرى(٢).

ولقد تبلورت فى الحضارة الإسلامية علوم «أصول الدين» - وهو علم الكلام - التوحيد - الفقه الأكبر - و«أصول الفقه» - وهو العلم بالقواعد والبحوث التى يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية - و«أصول الحديث» - ويقصد بها مصطلح الحديث.

وهكذا خلا ويخلو تراث الإسلام وحضارته وتخلو معاجم العربية وقواميسها من مصطلح «الأصولية»، ومن المضامين التى عرفها الغرب لهذا المصطلح.

٢- انظر - على سبيل المثال - ابن منظور (لسان العرب) طبعة دار المعارف. القاهرة. والتهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩١م. وأبو البقاء (الكليات) تحقيق د. عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م. والمعجم الكبير) - وضع مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م. والمعجم ألفاظ القرآن الكريم) - وضع مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

وحتى فى فكرنا الإسلامى المعاصر الذى استخدم بعض علمائه مصطلح «الأصولية» - فى مباحث علم أصول الفقه - وجدناه يعنى: «القواعد الأصولية التشريعية، التى استمدها علماء أصول الفقه من النصوص التى قررت مبادئ تشريعية عامة وأصولاً تشريعية كلية، مثل:

١- المقصد العام من التشريع.

٢- وما هو حق الله وما هو حق المكلف.

٣- وما يسوغ الاجتهاد فيه.

٤- ونسخ الحكم.

٥- والتعارض والترجيح(٣).. ولا علاقة لأى منها بمضامين مصطلح «الأصولية» فى الحضارة الغربية وفكرها النصرانى.

لكن، وبصرف النظر عن التسمية، هل فى تيارات الفكر الإسلامى ومذاهبه - القديم منها والحديث - تيار أو مذهب وقف من النصوص المقدسة موقف الأصوليين الغربيين، فقال بالتفسير الحرفى للقرآن والسنة، ورفض كل ألوان المجاز والتأويل لأى نص مهما بدا من تعارض ظاهره مع براهين العقل، حتى يمكن أن يقال: إن موقف هذا التيار أو المذهب إزاء النصوص الإسلامية المقدسة، هو ذات موقف ذلك التيار الأصولى النصرانى من الإنجيل والكتاب المقدس؟ الأمر الذى يبرر القول بوجود «أصولية إسلامية»، بهذا المعنى «الغربى - السلبى»، لمصطلح «الأصولية»؟.

إن حقيقة الجواب عن هذا السؤال هى النفى القاطع والأكيد، فكل تيارات الفكر الإسلامى القديمة - سواء القلة من «أهل الأثر» و«أصحاب الحديث» و«الظاهرية»، أو الكثرة الغالبة من «أهل الأثر» - قد قبلوا بالمجاز و«التأويل» لطائفة كبيرة من النصوص المقدسة، بل يكاد الإجماع أن ينعقد على أن ما لا يقبل التأويل من النصوص - وهو الذى يسمى، فى الاصطلاح الأصولى «نصًا» - هو القلة، بينما الكثرة فى النصوص هى مما فيها للرأى والتأويل والاجتهاد مجال. ولقد كان التمايز والاختلاف بين هذه التيارات الفكرية الإسلامية هو فى الاقتصاد فى التأويل، أو التوسط إزاءه أو التوغل فيه، ولم يرفضه بإطلاق مذهب من مذاهب الإسلام.

وإذا كان «التأويل» فى تعريف ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ - ١١٩٨م) - «هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز، من تسمية الشيء: بشبيهه أو بسببه، أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التى عددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى»(٤)، فإن حجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م) قد مد آفاق التأويل المقبول إلى خمس مراتب لوجود

٣- عبدالوهاب خلاف. علم أصول الفقه - الكويت. ١٩٧٢م ص ٢١٠ - ٢٣٢.

٤- فصل المقال فى ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال دراسة وتحقيق أ.د. محمد عمارة - القاهرة. سنة ١٩٨٣ ص ٣٢.

الشيء الذى جاء به النص، تدخل هذه المراتب التأويلية بصاحبها إلى نطاق التصديق والإيمان، وتدفع عنه تهمه التكذيب والزندقة، وهذه المراتب هي:

١- الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي، الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يأخذ الحس عنه صورة، فيسمى أخذه إدراكاً.

٢- والوجود الحسي: الذى يتمثل فى القوة الباصرة من العين، مما لا وجود له خارج العين، فيكون موجودًا فى الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره، وذلك كما يشاهد النائم، بل كما يشاهد المريض المتيقظ.

٣- والوجود الخيالي: الذى يخترعه الخيال لصور المحسوسات إذا غابت عن الحس، فهو موجود فى الدماغ لا فى الخارج.

٤- والوجود العقلي: فيما له روح وحقيقة ومعنى .. كاليد، مثلاً، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها وهى القدرة على البطش التى هى «اليد العقلية».

٥- والوجود الشبهي: وهو أن لا يكون نفس الشيء موجودًا، لا بصورته ولا بحقيقته، لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل، ولكن يكون الموجود شيئًا آخر يشبهه فى خاصة من خواصه وصفة من صفاته.

فكل من نزل قولاً من أقوال النبوة ونصا من النصوص المقدسة على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين، لأن التكذيب: «هو نفى جميع هذه المعانى الواردة فى هذه المراتب، والادعاء بأن ما أخبرت به النصوص هو كذب محض وتلبيس». وذلك هو الكفر والزندقة «ولا يلزم كفر المتأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل».

ثم يؤكد حجة الإسلام الغزالى أن كل مذاهب الإسلام قد لجأت إلى التأويل «فما من فريق من أهل الإسلام إلا هو مضطر إلى التأويل، وأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م) سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون: إنه صرّح بتأويل ثلاثة أحاديث منها ما هو أبعد وجوه التأويل وإنما اقتصر على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة؛ لأنه لم يكن ممعنًا فى النظر العقلي. والأشعرية والمعتزلة، لزيادة بحثهما، تجاوزوا إلى تأويل ظواهر كثيرة، والأشعرية أولوا أكثر الظواهر فى أمور الآخرة إلا يسيرًا. والمعتزلة أشد منهم توغلاً فى التأويل ..»(٥).

فليس، إذن، بين مذاهب الإسلام القديمة من وقف تمامًا ودائمًا عند حرفية النصوص، رافضًا أى تأويل، حتى يمكن إطلاق مصطلح «الأصولية» بالمفهوم الغربى عليه.

ولأن «معاصرتنا الإسلامية» قد تميزت تميز «أصالتنا الإسلامية»، فلقد خلت تيارات فكرنا الإسلامي، الحديث والمعاصر، من تيار يماثل فى الموقف من المجاز والتأويل والتفسير

٥- أبو حامد الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة - القاهرة ١٩٠٧م. ص ٤- ١٠.

الحرفى للنصوص - «أصولية» الغرب النصرانية.

فالإمام محمدعبده (١٢٦٥- ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) يجعل «تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض» أصلاً من أصول الإسلام، ويقول: لقد «اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل. وبقى فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه. والطريق الثانية: تأويله، مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل. وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ، مُهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..»(٦).


حسن البنا - محمد عبده - رشيد رضا

وهذا مذهب أبعد ما يكون عن «الأصولية» بالمعنى الغربى لمصطلحها.

ولما كان الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢- ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥- ١٩٣٥م) قد مثل حلقة الوصل بين محمد عبده وبين الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) حتى لقد جعل حسن البنا من كتاب محمد عبده، الذى ورد فيه النص الى الذى أوردناه - وهو كتاب (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) واحدًا من مواد التثقيف فى «جماعة الإخوان المسلمين»، فلقد وجدنا هذا الموقف من علاقة العقل بالنقل هو موقف المرشد العام للإخوان، فهو يصف جماعته بأنها «دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب»(٧).. وينفى إمكانية اختلاف «النظر الشرعى والنظر العقلى فى القطعى - (من الأدلة) - فلن تصطدم حقيقة عملية بقاعدة شرعية ثابتة، ويئول الظنى منها ليتفق مع القطعي، فإن كان ظنيين، فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار. فلقد جاء الإسلام الحنيف بفصل القضية فصلاً حقًا، فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل. فإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية، ندعو الناس ..»(٨).

وهو موقف لا أثر فيه لمضمون «الأصولية» كما عرفه النصارى الغربيون.

بل إن بعض الكتاب الغربيين، الذين أطلقوا مصطلح «الأصولية» على الصحوة الإسلامية

٦- محمد عبده: الأعمال الكاملة/ دراسة وتحقيق محمد عمارة - القاهرة ١٩٩٣م. ج ٣ ص٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣.
٧- مجموعة رسائل الإمام الشهيد رسالة دعوتنا فى طور جديد - القاهرة - دار الشهاب. ادنا ص ١٢٢.
٨- المصدر السابق رسالة التعاليم ص٣٧١. رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١١٠ - ١١٢.

المعاصرة، تراهم - وهم يتحدثون عن علاقة هذه الصحوة بـ«الماضي» الإسلامي - يجعلون موقفها هذا من «الماضي» والتراث على العكس من موقف الأصوليين الغربيين من ماضيهم وتراثهم النصراني، فعلى حين تنسحب «الأصولية» بمعناها الغربي إلى الماضي مخاصمة الحاضر والمستقبل، نجد الصحوة الإسلامية المعاصرة - بشهادة هؤلاء الكتاب الغربيين - تتخذ من العلاقة بالماضي ومن النظر إليه ومن علاقته بالمستقبل موقفًا مختلفًا، فهي تريد «بعث الماضي» لا على النحو الذي تفعله التيارات الجامدة و«المحافظة»، وإنما بعثًا ينظر إلى هذا الماضي ليتخذ منه «هداية للمستقبل»، الأمر الذي يجعل أهل هذه الصحوة - بنظر هؤلاء الكتاب - «ثوارًا .. وليسوا محافظين»!



ريتشارد نيكسون — جاك بيرك

ومن أصحاب هذه الرؤية وهذا التقييم للصحوة الإسلامية المعاصرة، الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» الذي يقول عنها في كتابه (الفرصة السانحة **Seize the Moment**): «إنهم هم الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب، وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة. وبالرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين ولكنهم ثوار..»[٩]!

بل إن عددًا كبيرًا من المستشرقين المعاصرين - وخاصة منهم الخبراء في الفكر الإسلامي، والأكثر التزامًا بمعايير «الفكر» المتميز عن «لغة الإعلام» - يرفضون صراحة إطلاق مصطلح «الأصولية» على ظاهرة الإحياء الإسلامي واليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، وبلسان هؤلاء يقول المستشرق الفرنسي الأشهر «جاك بيرك»: «أنا أرفض تعبير الأصولية؛ لأنه آت من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية. هناك مسلمون «العامة» وهناك الإسلاميون الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات، وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط. هذه أطروحة من نسميهم الإسلاميين. إنها حركات تسعى إلى تقريب العالم العربي من منابعه، ولديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض، لكنهم يلتقون في الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول، وبخاصة القرآن، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادرًا على تقديم الحلول للمشاكل التي يطرحها العالم المعاصر، يطرحون ذلك في مواجهة المجتمعات التي وضعت

٩- نيكسون، ريتشارد، الفرصة السانحة / ترجمة أحمد صدقي مراد - القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٤٠، ١٤١.

نفسها منذ مائة سنة في مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة».

ومع «جاك بيرك»، في رفض إطلاق مصطلح «الأصولية» - ذي المضامين الغربية السلبية - على «الظاهرة الإسلامية» المعاصرة، يقف العديد من كبار المستشرقين، منهم المستشرق الأمريكي «روجر أوين» والمستشرقة الإسبانية «كارمن رويث»، والمستشرق الروسي «فيتالي ناعومكين»، والمستشرقين الإنجليزيين «هومي بابا» و«روبن أوستل» إلخ[١٠].

وهكذا نجد اختلافًا بينًا، قد يبلغ حد التضاد، بين مفهوم ومضمون مصطلح «الأصولية»، كما عرفته النصرانية الغربية، وبين مفهوم هذا المصطلح في تراثنا الإسلامي ولدى تياراتنا الفكرية، القديم منها والحديث والمعاصر.

فالأصوليون في الغرب: هم أهل الجمود والتقليد، الذي يخاصمون العقل والمجاز والتأويل والقياس، وينسحبون من العصر، فيقفون عند التفسير الحرفي للنصوص.

بينما الأصوليون في الحضارة الإسلامية: هم علماء أصول الفقه - الذي يمثل قطاعًا من أبرز قطاعات إسهام المسلمين في الدراسات العقلية - أي هم أهل الاستنباط والاستدلال والاجتهاد والتجديد.

الأمر الذي جعل من هذا المصطلح - «الأصولية» - نموذجًا من نماذج الخلط الفكري الناشئ عن عدم التمييز بين المفاهيم المختلفة - وأحيانًا المتضادة - التي تضعها الحضارات المختلفة في وعاء المصطلح الواحد المتداول بين أبناء هذه الحضارات.

إن «المسلم»: هو كل من يؤمن بالإسلام، من عامة الأمة وجمهورها. و«الإسلامي»: هو من له «مشروع» للتغيير والتجديد والنهوض، مرجعيته الإسلام[١١]، وبعبارة «جاك بيرك»: «هناك مسلمون (العامة)، وهناك الإسلاميون، الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية، وقدرته على بناء دولة المؤسسات ...».

أما مصطلح «الأصولية»، بمعناه الغربي، فهو غريب عن الواقع الإسلامي، مقحم عليه بقوة «القصف الإعلامي»، لأنه يعني في الغرب: «أهل الجمود» بينما هو في التراث الإسلامي عنوان على: «أهل التجديد والاجتهاد والاستدلال والاستنباط».

***

لكن كتاب «اليمين الديني» المسيحيين والصهاينة و«المحافظين الجدد» - في أمريكا الذين سخروا أفكارهم وأقلامهم لتبرير الهجمة الأمريكية على الإسلام والعالم الإسلامي -

١٠- انظر ملف مجلة (الوسط) اللندنية - عن رأي الاستشراق في الحركات الإسلامية - الأعداد من ٩٦ حتى ١٠٢ الصادرة من ٢٩/١١/سنة ١٩٩٣م حتى ١٠/١/سنة ١٩٩٤م.

١١- واستخدام مصطلح «الإسلامي - والإسلاميين» بهذا المعنى، قديم في التراث الإسلامي، فلأبي القاسم البلخي (٣١٩هـ/٩٣١م) كتاب (مقالات الإسلاميين) ولأبي الحسن الأشعري (٢٦٠- ٣٢٤هـ/ ٨٧٤- ٩٣٦م) كتابه الشهير بنفس العنوان - (مقالات الإسلاميين) - فالمقالات والاجتهادات والمذاهب والمشاريع الفكرية هي «للإسلاميين»، الذين هم أخص من جمهور المسلمين وعامتهم.

الهجمة التى أعلنتها - بعبارة الرئيس جورج بوش - حربًا صليبية، والتى وصف فيها الإسلام بالفاشية - هؤلاء الكتاب قد أصروا على إطلاق مصطلح «الأصولية» - بمعناه الغربى - على الحركات الإسلامية المعاصرة لا لشىء إلا لرفضها «التغريب» والتقليد للنموذج الغربى فى التقدم .. نموذج «الحداثة الغربية»، والاستهلاكية، ونمط الحياة الأمريكية، معتبرين أن رفض هذه الحركات الإسلامية لهذه «الحداثة الغربية»، ودعوتها - بدلاً من ذلك - إلى الأصالة الإسلامية والاستقلال الحضاري، هو «الأصولية» - بالمعنى السلبى والردئ. وفى هذا المقام


بوش

كتب الصحفى الأمريكى الصهيونى «توماس فريدمان» - إبان الغزو الأمريكى لأفغانستان سنة ٢٠٠١م - يقول: «إن الحرب الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس، ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية ضد ابن لادن بسرعة ونخرج .. وعندما نعود (من أفغانستان) يجب أن نكون مسلحين بالكتب، لا بالدبابات. وفقط عندما تنمو تربة جديدة، وجيل جديد يقبل سياستنا كما يحب شطائرنا، سيكون لنا فى المنطقة الإسلامية أصدقاء»!(١٢).

ويكتب المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فوكوياما» يقول: «إن العالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة .. العلمانية نفسها .. وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى السابق وإفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون فى ذلك دليلاً على الانحلال الغربى .. وإن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية - الفاشية الإسلامية - التى تقف ضد الحداثة الغربية، وإن التحدى الذى يواجه الولايات المتحدة الأمريكية اليوم هو أكثر من مجرد حركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا إيديولوجيًا هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية، وعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة الغربية، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية»(١٣).

كما يعلن المفكر الاستراتيجى الأمريكى «صموئيل هنتنجتون» عن ذات الأهداف - أهداف «اليمين الدينى» و«المحافظين الجدد» - فيقول:

١٢- (نيويورك تايمز) - الأمريكية - والنقل عن صحيفة (وطني) - المسيحية - القاهرة فى ٢٥-١١-٢٠٠٦م.
١٣- (نيوزويك) - الأمريكية - العدد السنوى - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

«إننا نريد حربًا داخل الإسلام، حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»(١٤).


هنتنجتون

فهم يطلقون مصطلح «الأصولية» - بمعناه السلبى الغربى - على الحركات الإسلامية، لا لأنها - مثل الحركات الأصولية المسيحية الغربية - تقف موقفًا جامدًا ورجعيًا ولا عقلانيًا، وإنما يريدون تشويه صورة هذه الحركات الإسلامية لأنها رافضة للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والمبدأ المسيحى فى فصل الدين عن الدولة، والاستهلاكية الغربية.

بل لقد رأينا الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣-١٩٩٤م) يعلن - فى صراحة تحمد له - أن الأصوليين المسلمين هم:

١- الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب.
٢- وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي.
٣- ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.
٤- وينادون بأن الإسلام دين ودولة.
٥- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار..»(١٥).

هكذا كشف هذا الفكر الاستراتيجى عن المعنى الحقيقى للأصولية الإسلامية والأصوليين الإسلاميين، باعتبارهم دعاة البعث الحضارى الإسلامي، والثوار المجاهدين فى سبيل النهضة الإسلامية المتميزة عن نموذج الحداثة الغربية.

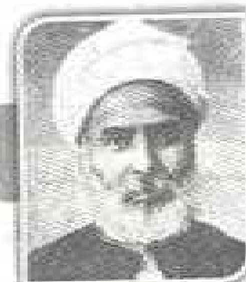
فأين هذه «الأصولية الإسلامية» من الأصولية الغربية، التى عرفها قاموس «لاروس الكبير» سنة ١٩٨٤م، بأنها: «موقف جمود وتصلب، معارض لكل نمو ولكل تطور.. مذهب محافظ متصلب فى موضوع المعتقد السياسي»؟!

<<<

هكذا وجدنا - ونجد - اختلافًا بينًا، قد يبلغ حد التضاد، بين مفهوم ومضمون مصطلح «الأصولية»، كما عرفته النصرانية الغربية والحضارة الغربية، وبين مفهوم المصطلح فى تراثنا الإسلامي، ولدى تياراتنا الفكرية، القديم منها والحديث والمعاصر على حد سواء.

١٤- المصدر السابق.
١٥- نيكسون، ريتشارد: الفرصة السانحة/ ترجمة أحمد صدقي مراد - القاهرة ١٩٩٢م ص ١٤٠، ١٤١.

تفسير سورة البقرة



للشيخ محمد عبده

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ
قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا
وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ
اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا
وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

(البقرة: ٥٨ - ٦١)

المراد بالقرية ما هو أوسع من البلدة، وهى فى الأصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذى يبنيه.. ومادتها تدل على الاجتماع، ومنها قريت الماء فى الحوض إذا جمعته.. وأطلقت على الأمة نفسها.. ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة، ولا يصح هنا، فإن الرغد لا يتيسر للإنسان كما يشاء إلا فى المدن الواسعة الحضارة.. ونحن نسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن، فقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة، وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمته وجلاله ونعمه وأفضاله، وهو معنى السجود وروحه المراد هنا.

وأما صورة السجود من وضع الجباه على الأرض، فلا يصح أن تكون مرادة، لأنها سكون، والدخول حركة، وهما لا يجتمعان.. المراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم.. وتبديل القول بغيره، عبارة عن المخالفة، كان الذى يؤمر بالشىء فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه، يقال بدلت قولاً غير الذى قيل، أى جئت بذلك القول مكان القول الأول.

وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير، خلافًا لما يتراءى لغير البلغ من أن الظاهر أن يقال: بدلوا القول بغيره دون أن يقال: غير الذى قيل لهم، فإن مخالف أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به.. فكأنه يقول فى الآية خالفوا الأمر خلافًا لا يقبل التأويل، حتى كأنه قيل لهم غير الذى قيل.. وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها، وكلمة يقولونها، وتعبدوا بذلك وجعل سببًا لغفران الخطايا عنهم فقالوا غيره وخالفوا الأمر، وكانوا من الفاسقين.. وأى شىء أسهل على المكلف من كلام يحرك به لسانه؟! وقد اخترع أهل الأديان من ذلك ما لم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فعصوا بتركها؟! إنما يعصى العاصى إذا كلف ما يثقل على نفسه ويحملها على غير ما اعتادت.. وأشق التكاليف حمل العقول على أن تفكر فى غير ما عرفت، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ما تكيفت.

وذهب المفسر «الجلال» إلى ترجيح اللفظ على المعنى والصورة على الروح، ففسر السجود ككثيرين غيره بالانحناء، وقال إنهم أمروا بأن يقولوا ﴿حِطَّةٌ﴾، فدخلوا زحفًا على أستاههم وقالوا: حبة فى شعيرة: أى إننا نحتاج إلى الأكل.. ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية.. ولليهود فى هذا المقام كلام كثير وتأويلات خدع بها المفسرون، ولا نجيز حشوها فى تفسير كلام الله تعالى.

ويدل قوله تعالى:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾

على أن هذا العصيان لم يكن من كل بنى إسرائيل، وأن هذا الرجز كان خاصًا بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه.. وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر، فقال:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

ولم يقل فأنزلنا عليهم.. ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عامًا كما هو الغالب فيه، ثم أكده بتأكيد آخر، وهو قوله:

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

وفى هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه.

ونسكت عن تعيين نوع ذلك الرجز، كما هو شأننا فى كل ما أبهمه القرآن.. وقال المفسر وغيره أنه الطاعون، واحتج بعضهم عليه بقوله تعالى:

﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾

وهو كما تراه.. والرجز هو العذاب، وكل نوع منه رجز.. وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بالطاعون غير مرة، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم فى إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم.. ومن أشد

ذلك تسليط الأمم عليهم.. وحسبنا ما جاء فى القرآن عبرة وتبصرة فنعين ما عينه، ونبهم ما أبهمه:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

«البقرة: ٢١٦»

﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

«البقرة: ٦٠»

هذا بيان لحال آخر من أحوال بنى إسرائيل، فى هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها.. أصابهم الظمأ، فعادوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبة المتدفقة بالأمواه.. وكانوا عند كل ضيق، يمنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم.. فاستغاث موسى بربه واستسقاه لقومه، كما قصه الله علينا بقوله:

﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾

أى طلب السقيا لهم من الله تعالى:

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾

أمره أن يضرب بعصاه حجرًا من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر، فضربه:

﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

بعدد أسباطهم، وذلك قوله عز وجل:

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾

وكون هذا الحجر هو الذى روى أنه تدحرج بثوب موسى يوم كان يغتسل، كما قال المفسر «الجلال»، لا دليل عليه.. وقصة الثوب ليست فى القرآن، فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود فى القصة.. وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذى ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم، ككونه صلبًا أو عظيمًا تتسع مساحته لتلك العيون، ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم، أو كونه يقع تحت أعينهم منفردا عن غيره ليس فى محلتهم سواه.. وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس، ليفيدنا بعد المرغوب عن التناول، وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل فى تقريبه وتحصيله.. وعبر عنه فى سفر الخروج بالصخرة.. ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة فى أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعيين، لما تركه.

ثم أراد أن يصور حال بنى إسرائيل فى هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد فى مهاجرهم، فقال:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾

فعبر عن الحال الماضية بالأمر، ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم فى ذهنه، ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب يوجه إليهم.. وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التى لا تجارى ولا تمارى.. ثم قال:

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا فى الشرور قدوة سيئة للناس.. يقال عثا، إذا نشر الشر والفساد وآثار الخبث، فهو أخص من مطلق الإفساد، ولذلك مع كون ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالا من ضمير ﴿تَعْثَوْا﴾.

إن كثيرًا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص، ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كانا قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكرا هنا بعد تلك الوقائع.. والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارًا فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن، وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها.. ومتى كان هذا هو الغرض من السياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير.

إن الباحثين فى التاريخ لهذا العهد، قد رجعوا إلى هذا الأسلوب فى التقديم والتأخير، وقالوا ستأتى أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار فى حال الحاضرين.. وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن تنظر فى كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها، ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة فى وضع التأليف فلا يتوقف عليها الاعتبار، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه.. فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع فى الإنسان.

هذا نقوله، إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لا فيه، ولنا أن نقول إن أرض التيه هى الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيداء فلسطين مما يلى حدود مصر وفيها كان الاستسقاء بلا خوف، وفى سفر الخروج أنه كان فى «رفيديم» التى انتقل إليها بنو إسرائيل من «سين» التى بين «إيليم» و«سيناء».. ويطلق التيه على ضلال بنى إسرائيل أربعين سنة فى الأرض.. والعبرة فى القصة على ما يظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما فى قلوب قومه من الشرك الذى أشربوا عقائده فى مصر، وما فى نفوسهم من الذل الذى طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم إياهم، ليكونوا أعلياء أعزاء بعبادة الله تعالى وحده، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهى بلاد الشام التى وعد بها آباءهم.. وكانوا لطول الإقامة فى مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية، فكانوا لا يخطون خطوة إلا ويتبعونها بخطيئة.. وكلما عرض لهم شىء من مشقات السفر يتبرمون بموسى ويتحسرون على مصر ويتمنون الرجوع إليها ـ كما سبق القول ـ ويستبطئون وعد الله.. فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلهًا غير الله، وتارة يصنعون عجلاً ويعبدونه، وتارة يفسقون عن أمر ربهم ويكفرون نعمه.. ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التى وعدهم الله، أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذى هو حليف الذل.. وكان موسى أرسل «كالب»

و«يوشع بن نون» والذين لينظروا حال البلاد في القوة والضعف، وأرسل غيرهما عشرة من بقية أسباط بني إسرائيل، فأخبر هؤلاء بأن في تلك الأرض قومًا جبارين، فقال بنو إسرائيل: إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها.. وأخبر «يوشع» و«كالب» بأن الأرض كما وعد الله، وأن دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه.. فلم يسمعوا لهما، بل:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾

«المائدة: ٢٤»

فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة لحكمة بالغة، وهي إرادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت في نفوسهم عقائد الوثنية، ورذائلها صفات الرجولية، حتى فسد مزاجها، وتعذر علاجها، وخروج نشء جديد يتربى على العقائد الصحيحة، وأخلاق الشهامة والرجولية.. فتاهوا حتى انقرض أولئك المصابون باعتلال الفطرة، وبقي النشء الجديد وبعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغارًا لا يقدرون على حمل السلاح، وقضى الله أمرًا كان مفعولًا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

«البقرة: ٦١»

هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بني إسرائيل في سياق دعوتهم إلى الإسلام.. قال صاحب الكشاف: «كانوا قومًا فلاحة، فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء أ.هـ. وفلاحة بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع، وعكرهم بكسر العين أصلهم، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه.. وهو بيان لما بعثهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التي طلبوها، والسبب في جهرهم بذلك وثورتهم عليه، كأنه يقول: إن الحامل لهم على ذلك، هو تمكن العادة من نفوسهم، فلما خرجوا منها وجاءهم ما لم يكونوا يألفون، نزعوا إلى ما كانوا قد عودوه من قبل.. ولو كان الأمر كما قال «الزمخشري»، لكان في ذلك التماس عذر لهم، ولما عد الله هذا القول في خطاياهم.. بل إن السآمة من تناول طعام واحد قد تكون من لوازم الطباع البشرية، إلا ما شذ منها لعادة أو ضرورة، ولا يعد ما هو من منازع الطباع جرمًا إذا لم يسقط ذلك في محظور.. وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾

«البقرة: ٦٣»

كل ذلك يدل على أن ما عدد من أفاعيلهم ـ مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم ـ كله من خطاياهم.. ومن ذلك

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾

ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقالهم هذا.

ولكن الذي يقع عليه الفهم من الآية: أن النزق قد استولى على طباعهم، وملك البطر أهواءهم، حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذي هيأهم الله له من التمكن في الأرض الموعودة والخروج من الخسف الذي كانوا فيه.. ومع كثرة ما شاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم، لم تستيقنه أنفسهم، بل كانوا على ريب منه، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر وجاء بهم في البرية ليهلكهم، فلذلك دأبوا على إعناته والإكثار من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع، حتى ييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة، ولهم مطمع في العيش وأمل في الخلاص من الهلكة.. فما ذكره الله عنهم في هذه الآية على حد قولهم:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

«البقرة: ٥٥»

ويرشد إلى ما فيه من الإعنات قولهم: لن نصبر على طعام واحد.. فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسلب الفعل في مستقبل الزمان مع تأكيده، فكأنهم قالوا: اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد.. فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم، فادعه يخرج لنا ما يمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا.. وهم يعلمون أنهم كانوا في برية غير منبتة.. وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أجم من وحدة الطعام، ولكنه نزق وبطر، كما بينا، وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم.. ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم.

ووصفوا الطعام بالواحد، مع أنه نوعان: المن والسلوى، لأنهما طعام كل يوم، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير: إنه يأكل من طعام واحد.. كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هي غذاؤه الذي لا يتغير، فهي غذاء واحد، فإذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعامًا متعددًا.

والبقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل، كما ذكره «ابن سيده».. وقال أبو حنيفة ما ينبت في بزرة ولا ينبت في أرومة ثابتة.. وفرق ما بين البقل ودق الشجر، أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق، والشجر تبقى له سوق وإن دقت.. وأرادوا من البقل ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغري بالقضم، ويعين على الهضم.. والقثاء هي أخت الخيار، تسميها العامة «القثة».. والعدس والبصل معروفان.. والفوم هو الحنطة.. وقال الكسائي وجماعة: هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما في جدث وجدف.. وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذي يصنع منها.

ولقد قال موسى عليه السلام تقريعًا لهم

على أشرهم، وإنكارًا لتبرمهم:

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾

أى أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها، وهو المن والسلوي؟ والمن فيه الحلاوة التى تألفها أغلب الطباع البشرية، والسلوى من أطيب لحوم الطير، وفى مجموعهما غذاء تقوم به البنية، وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية.

ثم قال:

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾

من الأمصار

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

أى فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم.. أما هذه الأرض التى قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود، فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول.. وإن الله جل شأنه لم يقض عليهم بالتيه فى هذه البرية إلا لجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار.. فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للطعام الواحد، فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرض منكم.. فإن أردتم الخلاص مما كرهتم، فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة، فإن الله كافل لكم النصر عليهم، وعند ذلك تجدون طلبتكم، فالتمسوا الخير فى أنفسكم وفى أفعالكم، فإن الله لا يضيع أجر العاملين.

قال تعالي:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾

الذلة والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإباء والعزة.. وأصل المادة فيه معنى اللين فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة.. وإذا تتبعت المادة وجدتها لا تخلو من هذا المعني.. صاحب هذا الخلق لين ينفعل لكل فاعل، ولا يأبى ضيم ضائم.. غير أن هذا الخلق الذى يهون على النفس قبول كل شيء، لا يظهر أثره غالبًا على البدن وفى القول إلا عند الاستذلال والقهر.. وكثيرًا ما ترى الأذلاء تحسبهم أعزاء يختالون فى مشيتهم من الكبرياء، ويباهون بما لهم من سلف وآباء، وربما فاخروا من لا يخشون سطوته من الكبراء.

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا

ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس نفس القاهر، أو طاف بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذى واستكان، وظهر السكون على بدنه، واشتمل الخشوع على قوله وفعله.. وهذا الأثر الذى يسطع من النفس على البدن هو الذى يسمى المسكنة.. وإنما سمى الفقر مسكنة، لأن العائل المحتاج تضعف حركته ويذهب نشاطه، فهو بعدم ما يسد عوزه كأنه يقرب من عالم الجماد، فلا تظهر فيه حاجة الأحياء فيسكن.. والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ما عليه أهل المسكنة فى أوضاع أعضائهم وما يبدو على وجوههم، وما طبع فى أقوالهم وأعمالهم.. فضرب الذلة والمسكنة على اليهود، وهو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها، أو إلصاقها بطباعهم كما تطبع الطغرى على السكة..

﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

أى رجعوا به، كما يقال رجع أو عاد بصفقة المغبون، إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه.. وكذلك كان آخر أطوار اليهود فى بغيهم أيام ملكهم، والمراد به فقد الملك وما يتبعه.. لقد استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه، فقد غضب الله عليهم.. وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

فإنهم بإحراجهم لموسى وإعناتهم المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب وما أظهر الله لهم من الغرائب، قد دلوا على أن لا أثر للآيات فى نفوسهم، فهم كافرون فى الحقيقة.. ونسيان الآيات وعدها كأن لم تكن يعده الكتاب العزيز كفرًا.. ثم توالى العقوبات عليهم ثم تواتر إحسان الله إليهم ثم عدم اعتبارهم بجميع ذلك وجرأتهم على الأنبياء يقتلونهم:

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلاً عنهم إلا بحقه المبين فيه، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم، وقلوب غلف دون الفهم، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلاً مقهورًا، ثم هو مهبط غضب الله ومحط نقمه، لأنه أشد الناس كفرًا لنعمه.. وقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك، يزيد فى شناعة حالهم، ويصرح بأنهم لم يكونوا مخطئين فى الفهم، ولا متأولين للحكم، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم فى دينهم:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

ذلك الذل وتلك الخلاقة بالغضب إنما لزماهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التى حدها الله لهم فى شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هى الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم فى الأرض الموعودة، لأنها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فإذا أهملوها فسدت ألفتهم، وانهدم بناؤهم، وأسرعت إليهم الذلة التى لم تكن فارقتهم، إلا منهزمة من يدى سلطان الشريعة.. ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع.

ويمكن أن ترجع الإشارة فى «ذلك» إلى الثاني، أى إلى الكفر بآيات الله وقتل النبيين، أى أن كفرهم وجرأتهم على النبيين بالقتل إنما منشأهما عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم، لأن المعتقد بدين وشريعة أيا كانت يتهيب لأول الأمر مخالفتها، فإذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثرًا فى نفسه وضعفت هيبة الشريعة فى نظره.. فإذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته، ولايزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعًا ودينًا، وينسى ما قام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة، وضرى بالعدوان كما يضرى بالافتراس، وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه، خصوصًا ما اتبع فيه الهوى.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى

ما بدا من اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين

قال ابن كثير : قال قتادة : أرسل عبدالله بن أبي(١) إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له ﷺ : «أهلكك حب يهود». قال : يا رسول الله ! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ، ولم أرسل إليك لتؤنبني . فاستغفر ﷺ ، ثم سأله عبدالله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه « إذا مات» فأعطاه إياه.

قال في تفسير المنار تعليقا على ذلك : والظاهر أنه كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو للمشركين ويقول : «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه وبالتالي لم يستجب لدعائه ، كما جاء في كتابه الكريم :

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

(التوبة : ٨٠)

فلو كان استغفار الرسول عليه السلام لعبد الله بن أبي عن وحي ولم يكن عن رأي اجتهادي منه لما نفى سبحانه وتعالى هنا في هذه الآية الكريمة- قبوله وأكد ذلك بعدم وقوعه فيما بعد أيضا.

وقد ورد في هذا الموضوع عدة أحاديث ، بعضها حكم له بعض العلماء بالصحة، ولكنها جميعها تناقض صريح القرآن ، ولا تتفق مع منزلة الرسول ﷺ ، ولذا أنكر القاضي أبو بكر الباقلاني والغزالي وابن المنير صحتها.

وأنكر صحتها أيضا . صاحب المنار حيث قال :

فالذين يعنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون به عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة هذا الحديث ، ولو من جهة متنه . وقد تقدم كثير منهم كالقاضي أبي بكر الباقلاني والغزالي.

وأما الذين يعنون « بالأسانيد» أكثر من عنايتهم بـ«المتون» ، وبالفروع أكثر من الأصول فقد تكلفوا أجوبة لا يقبلها منصف.

(١) كان من كبار المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، وكانت وفاته سنة ٩ هـ.

ومن الأصول المتفق عليها : أنه ليس كل ما صح سنده صح متنه ، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعي ، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما.

٭٭٭

عمله ﷺ اجتهادا

في السابق ذكرنا أمثلة من اجتهاده ﷺ في صور قولية ، والآن نذكر أمثلة أخرى لاجتهاده عليه السلام لها الطابع العملي. وبذا تتأكد إنسانيته فيما خرج عن دائرة الرسالة والتبليغ.

وكما رأينا في الصور السابقة لاجتهاده عليه السلام من إقرار الله سبحانه وتعالى لما رأى ﷺ أو عدم إقراره لذلك سنرى هنا أيضا نفس هذا الحال مما يدل دلالة واضحة على أن الذي بدا من الرسول الكريم كان له خاصة كإنسان ، ولم يصدر عنه كموحى إليه.

فمن هذه الأمثلة:

١- أنه ﷺ صلى على عبدالله بن أبي ابن سلول- باعتبار ما في الصلاة من أعمال كاستقبال القبلة ورفع اليدين عند التكبير مثلا-(٢).

٢- وأن الله سبحانه وتعالى لم يقره على ذلك - كما تقدم-.

أخذه ﷺ الفداء من أسرى بدر

يروى ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر ، يا رسول الله ! قومك ، وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبدالله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس- وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك ، فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ برأي عمر ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال :

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(إبراهيم : ٣٦)

وإن مثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام ، قال :

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

(٢) وقد سبق الحديث ضمنا عن ذلك في السابق تحت عنوان : ما بدا من اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين ، ص ١١٤.

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٨)

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، إذ قال:

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

(يونس: ٨٨)

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، إذ قال:

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾

(نوح: ٢٦)

ثم قال ﷺ: أنتم عالة(٣) فلا ينفلتن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق». فأنزل الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٧: ٦٨)

ويروى أحمد(٤) ومسلم من حديث ابن عباس عن عمر ابن الخطاب- فى نفس الموضوع- قال: لما أسر الأسارى - يعنى يوم بدر- قال ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يارسول الله! هم بنو العم والعشيرة أن تأخذ منهم فدية، فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يابن الخطاب، فقال: لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها(٥).

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت. فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال ﷺ: أبكى للذى عرض لأصحابك من أخذهم الفداء، وقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة- لشجرة قريبة منه ﷺ، فأنزل الله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(الأنفال: ٦٧)

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر- فيه أيضاً- ثم قال: اختلف الناس فى أسارى بدر، فاستشار ﷺ كبار أصحابه، فأخذ ﷺ بقول أبى بكر، ففاداهم .فأنزل الله تعالى:

(٣) أى فقراء فى حاجة إلى مال الفداء. مصنف ابن أبى شيبة رقم الحديث: ٣٦٦٩٠
(٤) ورواية أحمد أكثر تفصيلا.
(٥) صناديدها أى صناديد قريش وهم رؤساؤها.

﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٨)

فقال ﷺ: «إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر». وأخرج ابن جرير عن أبى زيد قال: لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه، وقال: يارسول الله: ما لنا وللغنائم؟ نحن قوم نتجاهد فى دين الله حتى يعبد الله، فقال ﷺ «لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك».

***

عبوسه ﷺ فى وجه ابن أم مكتوم الأعمى على نحو ما ورد فى قوله تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

قال الحافظ ابن حجر: لم يختلف السلف فى أن فاعل «عبس» هو النبى ﷺ، وأخرج الترمذى والحاكم وابن حبان عن عائشة قالت:

نزلت فى ابن أم مكتوم الأعمى، قال يارسول الله أرشدني! وعند النبى ﷺ ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما - فجعل النبى ﷺ يعرض عن ابن أم مكتوم، ويقبل على غيره.

٢- فنزلت:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾

(عبس: ١-١١)

قال صاحب المنار(٦) فى ذلك: اجتهد ﷺ فى الإعراض عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكابر قريش إلى الإسلام، وقد لاحت له بارقة رجاء فى إيمانهم بتحدثهم معه، فعلم ﷺ أن إقباله على الأعمى قد ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوته، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام فى جميع العرب، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله فى البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم وأوساطهم، دون الأكابر المجرمين المترفين الذين يرون فى اتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم.

وقال الألوسى أيضًا فى تفسيره سورة (عبس):

جاء ابن مكتوم إلى النبى ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يارسول

(٦) عند شرح قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣)

الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك، ولم يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾

فكان ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه:

مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول: هل لك من حاجة؟

***

سوقه ﷺ الهدي، وتمنيه أن لم يكن ساقه

١- روى البخاري عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ أهلّ وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدي غير النبي ﷺ وطلحة بن أبي رباح، وفي رواية أحمد ومسلم: غير النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وذي اليسار، وأن النبي ﷺ أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة، يطوفوا ثم يقصروا ويحلوا إلا من معه الهدي. فقالوا: أننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر (٧)؟: فبلغ النبي ﷺ:

٢- فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحللت».

وروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال: خرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فأحرمنا بالحج، فلما قدمنا مكة قال: «اجعلوا حجكم عمرة»، قال: فقال الناس: يا رسول الله! قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟. قال: «انظروا ما آمركم به فافعلوا»، فردوا عليه القول، ثم زادوا: أندخل البيت ومذاكيرنا تقطر منيا؟. فغضب ﷺ ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان، فرأت الغضب في وجهه. فقالت: من أغضبك أغضبه الله، قال ﷺ: «ومالي لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع».

وقد صح في الأحاديث أنهم بعد ذلك فعلوا ما أمرهم ﷺ به وتحلل كل من لم يكن معه هدى.

***

دخوله ﷺ في جوف الكعبة ثم تألمه لذلك(٨)

١- روى أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ من عندي وهو قرير العين، طيب النفس.

٢- ثم رجع إليّ وهو حزين القلب فقلت: يارسول الله! خرجت من عندي وأنت كذا وكذا، فقال: «إني دخلت الكعبة ووددت أني لم أكن فعلت، إني

(٧) استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذي يبيح لهم النساء وغيرها.
(٨) في نيل الأوطار جزء ٥ ص ١٦٦.

أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي».

***

إقراره ﷺ كتابة شروط الصلح مع قائدي غطفان يوم الخندق(٩)

روى ابن كثير في تاريخه (١٠)، قال ابن إسحاق: لما اشتد البلاء على الناس بالحصار الذي مكث نحو شهر، بعث ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان (١١) وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح (١٢) فلما أراد ﷺ أن يفعل ذلك، بعث إلى السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه. فقالا يارسول الله!: أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لابد من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟

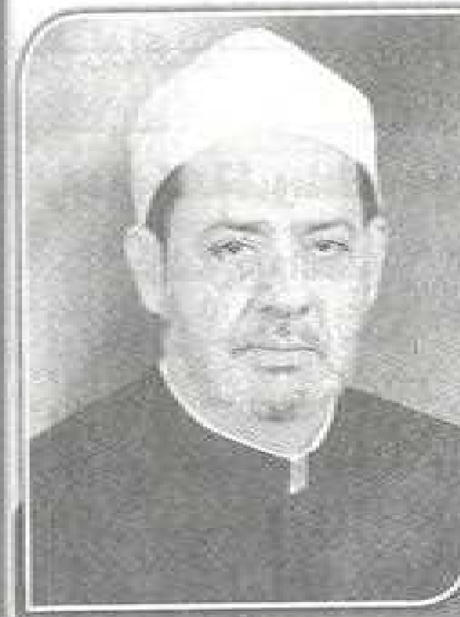
فقال ﷺ: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (١٣) من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما». فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟، ما لنا بهذا من حاجة! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

٢- فقال ﷺ: «أنت وذاك». فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا أنفسهم.

***

(٩) وإذا نظر إلى ما حصل منه ﷺ من الكلام صح وضع هذا البحث في فصل اجتهاده ﷺ بالقول المتقدم ذكره.
(١٠) جزء٤ ص ١٠٤.
(١١) من القبائل الكبيرة التي كانت تقيم في منازلها شرقي المدينة على مسافة منها.
(١٢) أي امضاء الشرط وتوقيعه.
(١٣) المصباح: كالبه مكالبة أظهر عداوته وناصبته العداء وجاهره به.

اتجاهاتُ التّجديدِ في التراث (٢)



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

في بدايةِ حديثي عن (التُّراثِ والتّجديدِ)، أودُّ أنْ أشيرَ إلى أنّ هذا الموضوعَ أصبحَ في السنواتِ الأخيرةِ محورَ اهتمامِ المثقّفينَ من الباحثينَ والعُلماءِ وأساتذةِ الجامعاتِ والكُتّابِ، على اختلافِ انتماءاتِهم الثقافيةِ والمذهبيةِ، بلْ إنّ التُّراثَ - بما هو قضيةٌ محوريّةٌ تُشكّلُ مُنعطفًا حاسمًا في التاريخِ المُعاصرِ لأمّتنا العربيةِ والإسلاميةِ - حَظِيَ بدراساتٍ طويلةٍ وعريضةٍ فاضتْ بها كُتُبٌ مُتنوّعةٌ ومُؤتمراتٌ وندواتٌ ومحاضراتٌ، وقلّما تَصدُرُ مَجلّةٌ من المَجلاتِ الثقافيةِ دونَ أنْ تتناولَ قضيةَ (الموروثِ الثقافيِّ)، وتَنظرَ بصورةٍ أو بأخرى، وأحدثُ الاهتماماتِ في هذا الموضوعِ: المقالاتُ العشرُ التي نُشرتْ في جريدةِ (الحياة) بعُنوان (مَذبحةِ التُّراثِ في الثّقافةِ العربيّةِ المُعاصرة)[1]، وقد نُشرَ آخرُ مَقالٍ منها في (مارس) الماضي[2].

ولقدْ صَدرتْ مُجلّداتٌ ضخمةٌ اتّخذتْ من موضوعِ التُّراثِ مَشروعًا للنهضة عالجتْ في ضوئه تحدياتِ العصر، أو بعبارةٍ أدقّ: عالجتِ التُّراثَ في ضوءِ هذه التحدياتِ، وأغرقتْ لغةَ الخطابِ بمُفرداتٍ خاصّةٍ ولوازمَ التصقتْ بهذه الأقلام، مثل: (السلفوية – الماضوية – التلفيقوية – القروسطية (نحتًا من: القرون الوُسطى) – العصروية – الوثوقية – المركزية – الأوروبية – التحييدوية

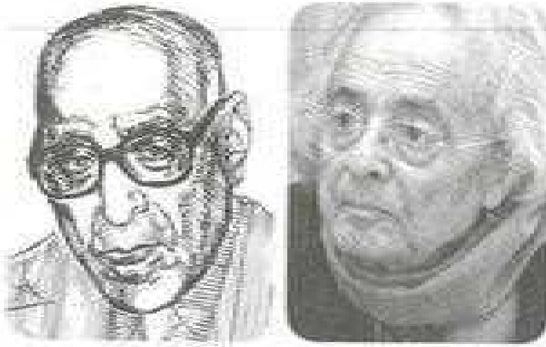
١ -للكاتب جورج طرابيشي.
٢ -نشرت هذه المقالات العشر في جريدة الحياة اللندنية في يناير – مارس ١٩٩٣م، ثم في كتاب مستقل في دار الساقي بلندن ١٩٩٣م.

– اللاتاريخية اللاتراثية – البورجوازية – الإقطاع – الجماهير – الديالكتيك – الكبح – الاستلاب..)، إلخ هذه المفردات الغامضة في معناها وفي تركيبها الصوتي والصرفي، والتي حاولتْ إضفاءَ شيءٍ من الغموض على المقولاتِ المطروحة.

وفي مُقدمة هذه الأعمال: يأتي مَشروعُ الدكتور (الطيب تيزيني) – المُزمَعُ اكتمالُه في اثني عشر جزءًا – تُشكّلُ في مجموعها مَشروعَ رؤيةٍ جديدةٍ للفكر العربيّ منذ بداياته حتّى المرحلة المُعاصرة. وقد ظهر من هذا المشروع بعضُ أجزاء، والجُزءُ الأوّلُ منه يقعُ في أكثر من (١٠٠٠) صفحة. كما تأتي – وبنفس القدرِ المُتضخّم – أعمالُ الأستاذ الدكتور حسن حنفي تحت عُنوان: (التُّراث والتّجديد).

وإذا كانتْ أعمالُ الدكتور (تيزيني) قد حددتْ مَسارها في مشروع الرُّؤية الجديدة: (من التُّراث إلى الثّورة)، فإنّ المسار الذي انتهجه مَشروعُ الدكتور حنفي كان: (من العقيدة إلى الثّورة).

وفي هذا المَسار الأخير نُثرتْ قضايا علم الكلام في خمسة أجزاء – أربتْ صفحاتُها على مائتين وثلاثة آلاف



أدونيس
زكي نجيب محفوظ

صفحة – بدءًا من المقدمات النظرية، ومرورًا بالتوحيد والعدل والنُّبوة والمَعاد، وانتهاءً بالإيمان والعمل والإمامة. إضافةً إلى أبحاثٍ أُخرى مُستفيضة تحت عُنوان: (الدِّين والثّورة)، ومقالات ومحاضرات تضمّنتها ندواتٌ كُبرى، مثل ندوة: (التُّراث وتحديات العصر في الوطن العربيّ: الأصالةُ والمُعاصرةُ)[3]، وندوة: (الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربيّ)[4]، وندوة (الفلسفة في الوطن العربيّ المعاصر)[5]، وغيرها.

ثمّ هناك أعمالٌ أُخرى في نظرية التُّراث لا تقلّ أهميةً عن الأعمال السابقة، في مُقدّمتها أعمالُ الأساتذة: زكي نجيب محمود، وعبدالله العروي، وأدونيس، ومحمد عابد الجابري، وحسين مروّة، وغيرهم.

والأمانةُ العلميّةُ تُحتّمُ القولَ بأنّ

٣ -عقدت في القاهرة في ٢٣ – ٢٧ سبتمبر ١٩٨٤م، ونشرت أعمالها في مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥م.
٤ -ندوة دولية عقدها مركز الإسلام والديمقراطية، بالتعاون مع المركز المغربي لحقوق الإنسان، الرباط، ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.
٥ -مؤتمر نظمته الجامعة الأردنية، ونشر أعماله مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نوفمبر ١٩٨٧م.

الحديثُ عن هذه الأعمال حديثًا علميًا مُؤسَّسًا على قراءة فاحصة ورؤية مُتقصّية - أمرٌ صعبٌ، فضلاً عن تقويمها تقويمًا نهائيًا يَطمئنُ إليه الباحثُ المُتصفُ.

ومِنْ أهمّ ما يُرهقُ القارئَ في نظريّات تجديد التُراث، ويُطيلُ طريقَ بحثه -دونَ فائدة تُذكرُ في بعض الأحيان- أمران:

الأمرُ الأوّلُ: أنّ النظريات الاشتراكيّة في ثوبِها (الماركسيّ) الراديكالي (Radicalism) وهي تتحدّثُ عن التُراث: (تعرضُ نفسها في البلاد الإسلامية بأشدّ صُور التوصيل تعقيدًا، وتكتبُ تحليلاتِها بلغة لا تنقلُ معنى واضحَ المعالم للجماهير العريضة، وتُغرقُ في التنظير إلى حدّ نسيان العلاقة مع الواقع، مع أنّ فلسفتها قد بُنيتْ أصلاً على أساس الالتصاق بالواقع والتعبير عن حركته)(٦)، بل والتعبير عن آمال وآلام الطبقة الكادحة تحديدًا.

الأمرُ الثاني: أنّ النظريات المطروحة في تجديد التُراث وقفت حيالَ التُراث مواقفَ شتّى.. ذهبتْ من النقيض إلى نقيضه الآخر، لا أقولُ: (بين أيديولوجيات متباينة متعارضة، بل بين توجّهات مختلفة في النظريّة الواحدة، بل في تناقضات الكاتب الواحد - أحيانًا - وتنقّلاته الدائمة بين أيديولوجيات مختلفة، وإسقاط كلّ ذلك على التُراث، دونَ أنْ يُنبّه قارئه إلى هذه الطبيعة التحوّليّة أو المرحليّة في بناء نظريّته)(٧).

وسنحاولُ في إطار هاتين الصُعوبتين أنْ نتلمّسَ فكرةً نقديّةً تتعلّقُ بمدرسة (التُراث والتجديد) مِنْ حيثُ موقفُها من التُراث، وعلاقةُ التُراث بالواقع، والعلاجُ المطروحُ لتجديد التُراث.

ولكنْ ما هو السياقُ الزمنيُّ الذي ظهرتْ فيه هذه المشكلةُ؟

كثيرٌ من الباحثينَ يرى: أنّ حربَ يونيو ١٩٦٧م كانت البداية الزمنيّة التي فجّرت هذه القضيّة؛ قضيّة: التساؤل عن العرب في الماضي والحاضر والمستقبل.

وبعضٌ آخرُ يرى: أنّ المشكلة بدأتْ بعدَ احتكاك العرب بالغرب أيامَ حملة نابليونَ على مصرَ.

فها هُنا.. ومن المُواجهة المباشرة بين حضارتينِ مُتباينتين أشدَّ التباين طُرحتْ أسئلةٌ كان لا مفرّ من طرحها:

كيف يُمكنُ أنْ نأخذ بأسباب التقدّم؟

أو بتعبير آخرَ: (ما هي الوسائلُ التي تكفُلُ للعرب عُبورَ الفجوة بين التخلّف والتقدّم؟ هل يكونُ ذلك باحتذاء النموذج الغربيّ في السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها احتذاءً كاملاً؟ أو يكونُ بإحياء التراث الإسلاميّ كنموذج حضاريّ للتنمية والتحديث؟ أو أنّ الحلّ يكمُنُ في محاولة التوفيق بين النموذج الغربيّ والتُراث؟).

٦ -الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، لفؤاد زكريا، ١٥.
٧ -مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، لجورج طرابيشي، (التيار الماركسي) جريدة الحياة، الأربعاء ٦/١/١٩٩٣م.


العقاد


مصطفى عبدالرازق


عبدالله النديم

أعتقدُ أنّ جذورَ (قضيّة التُراث) ينبغي أنْ تعودَ بداياتُها إلى هذا الاحتكاك المباشر بين الشرق وبين الغرب الأوروبيّ، ففي دائرة هذا التوقيت تظهرُ القيمةُ الكُبرى للجهود الجبّارة المشكورة التي اضطلع بها رُوادُ الفكر الإسلاميّ قبل عام ١٩٦٧م، بدءًا من جمال الدين الأفغاني، ومرورًا بمحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الله النديم، وعبد القادر المغربي، وطاهر الجزائري، ومصطفى عبد الرازق، ومحمود شلتوت، وعباس العقاد، ومحمد البهيّ، ومحمد عبد الله دراز... وغيرهم.

وكلّ هؤلاء شغلتهم همومُ العلاقة بين الشرق والغرب، وكرّسوا لها شطرًا كبيرًا من حياتهم الشخصيّة والفكريّة.

ومهما يكن من أمر التوقيت الزمنيّ الذي تفجّرت فيه قضيةُ (الأصالة والمعاصرة)، أو قضيةُ (تجديد الفكر العربيّ)، أو في أحدث تسمية لها: (التُراث والتجديد)، فإنّ الذي لا شكّ فيه: هو أنّ هذه القضيّة بدأتْ تفرضُ نفسَها بعد (سنة ١٩٦٧م) بشكل حادّ على طائفة لا يُستهانُ بها من المفكرين والباحثين وأساتذة الجامعات، تراوحتْ خلفيّاتُها المذهبيّةُ من قوميّة إلى ليبراليّة إلى ماركسيّة إلى عَلمانيّة إلى أصوليّة مادية.

فكُنّا نرى الدّعوات الصارخةَ إلى نفض اليدين من التُراث جُملةً وتفصيلاً، والالتحاق بركب الحضارة الغربية فكرًا وسلوكًا. وكُنّا نرى الدعوةَ إلى إعادة تفسير التُراث وتأويله بما يتّفقُ وأُسسَ فلسفة ماركس ولينين، والنظر إلى الإسلام -عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا- من خلال قوانين وسائل الإنتاج وعلاقات الملكيّة والصّراع الطبقيّ.

وكُنّا نرى الدّعوة الموضوعيّة التي تنطلقُ بنظرتها إلى التجديد من خصائص التُراث نفسه وفعالياته وآلياته في مواكبة التطور تأثّرًا وتأثيرًا، اعتمادًا على حركة الاجتهاد المشروع في أصول هذا التُراث.

وتسهيلاً على القارئ: يُمكننا أنْ نُقسّمَ مدارسَ التجديد ومشاريعه -جغرافيًا- إلى المدرسة السُوريّة، والمدرسة المغربيّة، ثم المدرسة المصريّة.

المدرسةُ السوريةُ فى تجديد التراث

بكلمةٍ مُوجزةٍ لا تتخلَّصُ - بطبيعةِ الحالِ - مِنْ عيوبِ الاختصارِ المُخلِّ، نقولُ: إنَّ الاتجاهَ البارزَ فى المدرسةِ السوريّةِ هو: الاتّجاهُ الماركسيّ اللينينيّ. ففى هذه المَدرسةِ تكرّستْ (المادّيّةُ التاريخيّةُ) أداةً مُعلنةً لاكتشافِ التراثِ وتحليلِه، بل (مبضعًا) لتشريحِه وتقطيعِ أوصالِه.

وفى ثنايا العَرْضِ والتّحليلِ قدّمَ أبو نصرٍ الفارابيّ (ت. ٣٣٩هـ) - فى هذه المحاولةِ - فيلسوفًا ماديًا؛ لأنّه يقولُ بتعاقُبِ الصُّورِ والأضدادِ على الهَيُولي، وبقاءِ النوعِ، وهو موقفٌ ماديّ مُتقدّمٌ، أو تصوّرٌ ديالكتيكيّ للطبيعة، على حدّ تعبيرِهم، بل أُرغِمَ الفارابيّ - الحكيمُ المُسلمُ المُتألّهُ - على مُعانقةِ ماركس وأنجلز، والعملِ معهما على تأصيلِ الفكرِ الماديّ. وقُدِّمَ (إبراهيمُ النَّظّامُ) (ت. ٢٣٨هـ) فى صورةِ رائدٍ مِنْ رُوّادِ تحريرِ الإنسانيّةِ من سُلطةِ الغَيبِ والمجهولِ، لمُجرّدِ أنّ أبا الحسنِ الأشعريّ يحكى عنه فى مقالاتِه[٨] أنّه كان يقولُ: (إنّ اللهَ لا يقدرُ على الظُّلمِ). وقُدِّمَ (إخوانُ الصَّفا) - أيضًا - رُوّادًا أوائلَ لفلسفةِ النُّشوءِ والارتقاءِ قبلَ لامارك وداروِن. وباختصارٍ: (تؤكّدُ هذه المَدرسةُ أنّ مُعظمَ مُفكّرِينا القُدامى كانوا ذوى نزعةٍ ماديّةٍ أو جدليّةٍ)[٩]. أمّا الإسلامُ كجوهرٍ يُشكّلُ النسيجَ الداخليّ لعلومِهم النظريّةِ والعمليّةِ، فهو - فى منظورِ هذه المدرسةِ - مجردُ أثرٍ (لاتّجاهٍ مثاليّ أو ميتافيزيقيّ)[١٠] سببُه (العجزُ التاريخيّ الذى كان يمنعُ بلورةَ الاتّجاهِ الماديّ)[١١].

المَدرسةُ المَغربيّةُ فى تجديدِ التُّراث

إذا ما ولَّينا وجهَنا شَطْرَ مدرسةِ المغربِ، ألفيناها توقِفُ شطرًا كبيرًا من نشاطِها على تحليلِ بِنيةِ العقلِ العربيّ وتكوينِه، وفى هذا المنظورِ استُؤنِفَت دراسةُ علومِنا اللُّغويّةِ والدينيّةِ والفلسفيّةِ والعرفانيّةِ تحت محاورَ ثلاثةٍ:

١ - البيانُ ويُرادِفُه المعقولُ الدينيّ.

٢ - والبرهانُ ويُرادِفُه المعقولُ العقليّ.

٣ - ثمّ العرفانُ ويُرادِفُه اللامعقولُ العقليّ.

أو العقلُ المُستقيلُ، وهو التصوفُ، أو كما سُمّيَ فى هذه المدرسةِ بالهمجيّاتِ الدينيّةِ والفلسفيّةِ التى حملَها معه الموروثُ القديمُ من رُكامِ الهرمسيّةِ والغنوصيّةِ والمانويّةِ والصّابئةِ... إلخ.

وقد انتهى العقلُ الفلسفيّ الإسلاميّ إلى مصيرٍ شديدِ البؤسِ فى هذه المدرسةِ باستثناءِ الكِنديّ (ت. ٢٥٦هـ)، وشطرٍ من أبى نصرٍ الفارابيّ، وإنْ كان الشّطرُ الآخرُ قد سيطرَ عليه اللامعقولُ العقليّ، بل سيطرَ اللامعقولُ العقليّ على قِسمِ العقلانيّةِ فى الفكرِ الإسلاميّ، وأوّلُ هؤلاءِ اللاعقلانيّين: جابرُ بنُ حيّان (ت. ١٩٨هـ) أقدمُ رُوّادِ علمِ المنطقِ، وأبو بكرٍ الرازيّ (ت. ٣١١هـ) كبيرُ أطبّاءِ المسلمين، ثمّ أبو عليّ ابنُ سينا (ت. ٤٢٨هـ)، الذى وُصِفَ بأنّه (أكبرُ مُكرِّسٍ للفكرِ الظّلاميّ الخُرافيّ فى الإسلامِ)[١٢]، وأنّ (فلسفتَه قتلتِ العقلَ والمنطقَ فى الوعيِ العربيّ لقرونٍ طويلةٍ)، وأبو حامدٍ الغزاليّ، الذى أدخلَ شيطانَ العرفانِ إلى البيانِ أو المعقولِ الدينيّ، وأسّسَ أزمةَ العقلِ العربيّ، وخلّفَ جُرحًا عميقًا فى العقلِ العربيّ مازالَ نزيفُه يتدفّقُ من كثيرٍ من العقولِ العربيّةِ حتّى الآن. والفرقةُ الوحيدةُ التى نجتْ من هذه الهلوساتِ - فيما تقولُ هذه المدرسةُ - هى الفرقةُ المغربيّةُ: أبو الوليدِ بنُ رُشدٍ (ت. ٥٩٥هـ)، ومن قبلِه أبو بكرٍ بنُ باجةَ (ت. ٥٣٣هـ)، وأبو بكرٍ بنُ طُفيلٍ (ت. ٥٨١هـ)، إضافةً إلى أبى محمدٍ بنِ حزمٍ (ت. ٤٥٦هـ).

فى هذه المدرسةِ انشطرَ العقلُ العربيّ إلى شطرينِ: عقلٍ مشرقيّ لاهوتيّ، وفلسفتُه تقومُ على علمِ الكلامِ، وعقلٍ مغربيّ علميّ، وفلسفتُه تقومُ على الرياضياتِ والمنطقِ. والمدرسةُ الشرقيّةُ - بحُكمِ لاهوتيّتِها - ماضويّةٌ. بينما المدرسةُ المغربيّةُ - بحُكمِ علمانيّتِها - مُستقبليّةٌ.

ويصلُ بنا تحليلُ العقلِ العربيّ فى هذا الاتّجاهِ إلى: (أنّ ما تنشُدُه اليومَ من تحديثٍ للعقلِ العربيّ وتجديدٍ للفكرِ الإسلاميّ، يتوقّفُ، ليسَ فقط، على مدى استيعابِنا للمُكتسباتِ العلميّةِ والمنهجيّةِ المُعاصرةِ، بل أيضًا - ولرُبّما بالدرجةِ الأُولى - على مدى قُدرتِنا على استعادةِ نقديّةِ ابنِ حزمٍ، وعقلانيّةِ ابنِ رُشدٍ، وأصوليّةِ الشاطبيّ، وتاريخيّةِ ابنِ خلدونَ.

إنّه باستعادةِ العقلانيّةِ النقديّةِ التى دشّنتْ خطابًا جديدًا فى الأندلسِ والمغربِ مع ابنِ حزمٍ وابنِ رُشدٍ والشاطبيّ وابنِ خلدونَ - وبها وحدَها - يُمكنُ إعادةُ تأسيسِ بنيةِ العقلِ العربيّ)[١٣].

يقولُ أحدُ الباحثينَ مُعقّبًا على هذا الاتّجاهِ: (إنّها حربٌ أهليّةٌ مُزدوجةٌ، دارتْ رحاها فى الثقافةِ العربيةِ الإسلاميّةِ - أوّلًا - بينَ النظامِ البيانيّ والنظامِ العرفانيّ، وانتهتْ بانتصارِ ظلاميّةِ العرفانِ. وثانيًا: بين المشرقِ اللاعقلانيّ والمغربِ العقلانيّ، وانتهتْ - بدورِها - بانتصارِ لاعقلانيّةِ المشرقِ)[١٤].

يتبع

٨ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ٥٥٥ وعبارته: (لا يوصف الله سبحانه بالقدرة على الظلم)

٩ - مداخلات، لعلي حرب: ٢١٩، ٢٢٠.

١٠ - م. ن. ١١ - م. ن.

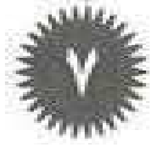
١٢ - نحن والتراث، قراءات معاصرة فى تراثنا الفلسفي، لمحمد عابد الجابري: ٢٠١.

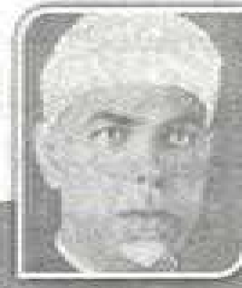
١٣ - بنية العقل العربي، للجابري: ٥٥٢.

١٤ - مقال جورج طرابيشي فى صحيفة الحياة ١٠/٣/١٩٩٣م.

نظرات فى الإسلام

فى حياتنا الاجتماعية مناهج الناس فى السلوك





الدكتور محمد عبدالله دراز

المجتمع هو الأساس الأول الذى يقوم عليه بناء الدولة، وحين يكون متينًا قويًا، سيظل بناء الدولة إلى الأبد ثابتًا شامخًا لا تزلزله العواصف، ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار، والأفراد هم اللبنات لهذا الأساس، فمتى كانت هذه اللبنات سليمة، ظل المجتمع إلى الأبد أيضًا متينًا قويًا.

فالعناية بالفرد أولا، لأنه لبنة فى بناء المجتمع، ثم العناية ثانيًا بالمجتمع فى مجموعة أفراده، وبذلك تتيسر للشعب الدولة الناهضة النابضة بالحركة وبالحياة.

وللناس فى ظل المجتمع مناهج فى سلوكهم، وسبل فى حياتهم تختلف هذه المناهج وتلك السبل باختلاف الأفراد، تبعًا لاستعدادهم النفسى والخلقى والثقافي، وهى إما تتخبط فى الحضيض، وإما تتهادى فى القمة، وإما أن تسير وسطًا، ليست فى الحضيض، وليست فى القمة أيضًا.

والأخلاق هى المقياس، والمضطلعون بتقويم المجتمع، إذا حاولوا أن ينتقلوا بمنهج الحضيض، وبالمنهج الوسط أيضًا إلى القمة، يجب أن يبدأوا بالأخلاق أولاً، لأنها أول الخيط الذى يصل بهم إلى الغاية.

على أن المجتمع فى حاجة قبل ذلك، إلى وعى جماعى لا يمالئ ولا يحابى ولا يجبن ولا يتقهقر، يتعقب المتمردين على المجتمع، ويضيق عليهم السبل حتى يعودوا إلى رشدهم، ويثوبوا إلى صوابهم.

وللإسلام فلسفة فى إصلاح المجتمع وتقويمه، فهو يسلك فى هذا الصدد مسلكًا ذا اتجاهين، الاتجاه الإيجابى، والاتجاه السلبى، فهو يقيم الاتجاه الأول على قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى إطار فردى وجماعى، والتدخل للإصلاح بين المتنازعين:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

(لقمان: ١٧)

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾

(الحجرات: ٩)

ويقيم الاتجاه الآخر السلبى، على قاعدة المقاطعة، وفى القرآن مثل واضح للثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فى غزوة تبوك، وكان أن أمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، ونفذت المقاطعة الشاملة إلى أن تاب الله عليهم.

لو أن المجتمع قامت فيه هاتان القاعدتان اللتان يرتكز عليهما الإصلاح الإيجابى، والإصلاح السلبى، لأمكنه أن يعيش عيشة يسودها الأمن.. وتغمرها الرفاهية والسلام.

مناهج الناس فى السلوك

الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم أصناف ثلاثة، لا زائد عليها:

١- هذا صنف من الناس، لا يفعل الخير ولكنه يحب أن يحمد به، ويقترف الإثم ثم يرمى به من هو برىء منه، إذا كان عليه الحق ضجر به وإذا كان له الحق، ألح فى طلبه، ولم يقبل فى ذلك معذرة، ولا نظرة إلى ميسرة، أولئك قوم قد أهمتهم أنفسهم وعموا وصموا عن حق من حولهم، إذا نالهم أذى جاوزوا الحق فى عقوبته، فكافئوا السر بالعلانية، والنصيحة بالتشنيع والفضيحة.

هذا الصنف من الناس، إن لم يكن هو أكثر الناس ففى أكثر الناس نزعة من نزعته، لا أقول إنها نزعة الأثرة فحسب: بل نزعة البغى والجشع، تلك خلة قوم وصفهم الله بأنهم أحرص الناس على حياة، على حياة أى حياة كانت، ولو حياة الذلة والمهانة، أو حياة الوحشية والتخلى عن كل عاطفة إنسانية.

هذا الصنف من الناس شعاره فى الحياة: كن كلاعب الشطرنج، خذ ولا تعط، فإن لم تستطع فخذ أكثر مما تعطى.

٢- وصنف ثان من الناس، قليل ما هم، لا يضنون بالحق الذى عليهم، بل يسارعون إلى أدائه، ولكنهم يحرصون فى الوقت نفسه على الحق الذى لهم، ولا يتهاونون فى اقتضائه، لا يبدأون أحدًا بظلم ولا عدوان، ولكنهم إن ظلموا انتصفوا ممن ظلمهم، وحرموا من حرمهم، لا ينامون على ثأر، ولا يكفون عن المطالبة بحق، فإذا أدى إليهم لم يجاوزوه مثقال ذرة، وإذا شفوا صدورهم واقتضوا الحرماتهم، لم يبالغوا فى العقوبة، ولم يسرفوا فى التشفى.

وهؤلاء شعارهم فى الحياة: خذ بقدر ما تعطى:

﴿لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٩)

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾

(البقر: ١٩٤)

٣- وصنف ثالث، هم أقل القليل، يتجاوزون العدل إلى الفضل، لا يظلمون أحدًا، بل يعفون عن ظلمهم، ولا يبخسون أحدًا حقه، بل يسمحون له ببعض حقوقهم، فإذا كان لهم دين على معسر لم يكتفوا بإنظاره إلى الميسرة، بل تجاوزوا له عنه تجاوزًا كريمًا، وأعطوه إياه عطاء غير ممنون.

وهؤلاء شعارهم فى الحياة: أعط ولا تأخذ، فإن لم تستطع فأعط من نفسك أكثر مما تأخذ.

تلك أصناف الناس، وتلك منازعهم ومبادئهم التى يصدرون عنها فى الحياة.

منازع ثلاثة، لو كان لنا أن نرمز لكل واحد منها برمز حسابى، لوضعنا على أولها علامة النقص، وعلى الثانى علامة المساواة، وعلى الثالث علامة الزيادة.

ما قيمة هذه المناهج والمبادئ فى نظر

الإسلام؟

لنضرب الذكر صفحًا عن الخطة الخاسرة، والتجارة البائرة: خطة النقص والبخس، إنها ليست ممقوتة في الإسلام وحده، ولكنها مذمومة بكل لسان، في حكمة الحكماء، وفي شرعة السماء في التوراة والإنجيل والفرقان.

ولننظر فيما بين المبدأين الأخيرين: مبدأ العدالة الحازمة، ومبدأ العفو والإحسان.

وقبل أن نعرض نظرة القرآن الحكيم إلى هذين المبدأين، نحب أن نعرف على وجه الإجمال مكانتهما في الكتب السماوية السابقة:

إن هذين المبدأين قد اقتسمتهما شريعتان من شرائع السماء، أخذت كل واحدة منهما بطرف: فشريعة التوراة في زعمهم هي شريعة العدل الذي لا هوادة فيه، والقصاص الذي لا عفو معه، وشريعة الإنجيل في نظرهم هي شريعة الإحسان الذي لا يعرف مشاحة ولا محاسبة، والعفو الذي لا تنقصه عقوبة ولا مخاصمة.

هكذا وضعوا بين دستور الأخلاق في هاتين الشريعتين حواجز حديدية، تجعلهما لا يتصافحان ولا يلتقيان، فهل حق هذا الخصام؟

لنقرأ الكتاب الذي أنزله الله مصدقًا لما بين يديه من الكتب، حارسًا لما فيها من حقائق، حفيظًا عليها أن تغير أو تبدل.

لنقرأ القرآن الكريم، لنعرف مدى ما في هذه الأقوال من تحر للصدق أو نقص عنه أو تزيد فيه، فماذا نجد؟

نجده يحدثنا عن الشريعة الموسوية بأنها حقًا كان فيها بعض الإصر والمشقة، وأنها أخذت أتباعها بشيء من الحزم والشدة، وأنها شرعت لهم قانون القصاص بأدق ما فيه من معنى المساواة، بين الجناية وعقوبتها، ولكننا نجد إلى جانب ذلك نصًا صريحًا من التوراة المقدسة، يرغب المجني عليه في التنازل عن حقه، والعفو للجاني عن جنايته، هذا حين كتب الله على بني إسرائيل في التوراة أن النفس بالنفس، وأن الجروح قصاص، قال لهم بعد ذلك:

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾

(المائدة: ٤٥)

وكذلك يحدثنا عن الشريعة العيسوية، بأن الله أودع في قلوب أتباعها رأفة ورحمة ولكنها لم تخل مع ذلك من دعوة إلى الجهاد، وإلى التكتل في نصرة الحق:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

(الصف: ١٤)

ولما سجل القرآن بيعة الإيمان:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

(التوبة: ١١١)

عقب على ذلك بقوله:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾

(التوبة: ١١١)

لم يكن بين الشريعتين إذًا هذا الانفصال الكلي الذي صوروه لنا في دستور الحياة ولكننا مع ذلك لا ننكر أن طابع الحزم والشدة كان على الموسوية أغلب، وأن طابع الرفق والعفو كان في المسيحية أظهر وأبرز، وأن الطابع الآخر كان مغمورًا مكنوزًا بالطرف المقابل له.

والآن ما موقف القرآن من هذين المبدأين؟

لقد نظرنا مليًا إلى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم، فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن إحدى نزعات ثلاث: إما نزعة الاستئثار، وإما نزعة الإيثار، وإما نزعة المبادلة والمعادلة.

ولعله من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على السجية الغالبة، سجية الأثرة والبغي والعلو، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعي عليها.

بحسب هؤلاء المسرفين في حب أنفسهم أن مقتهم مركوز في كل ضمير، وأن ذمهم منشور على كل لسان.

فإذا جاوزنا نطاق هذه الخطة المذمومة ويممنا شطر المبدأين الآخرين: مبدأ المحاسبة على قانون المساواة والعدل، ومبدأ المكارمة والمسامحة والفضل، فقد يلوح لنا في بادئ الرأي أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ساميين، وقد نظن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتًا في مراتب النبل والسمو، بينما يجمعهما شعار الفضيلة، وينتظمهما شرف الحمد والثناء.

فهل يصدق هذا الظن؟

هل إذا نظرنا إلى هذين المبدأين في نظر القرآن الحكيم نراهما معروضين في معرض الفضائل المأمور بها، أو المرغب فيها، أو المثنى عليها، وهل نجد التفاوت بين مكانيهما في معرض الأخلاق القرآنية ليس إلا تفاوتًا في مقدار الحث والترغيب ومبلغ الحمد والثناء؟

إن القرآن حين وزع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ، لم يجعل القسمة بينها قسمة ثنائية، ولكنه جعلها قسمة ثلاثية، لها طرفان وواسطة، جعل من بينها فضيلة واحدة رفعها إلى الطرف الأعلى، تلك هي فضيلة الإيثار، وجعل من بينها رذيلة واحدة، وضعها في الطرف الأدنى، تلك هي رذيلة الاستئثار.

أما الواسطة بين الطرفين وهي مبدأ المقاصة الدقيقة في الحقوق والواجبات، وتحري المساواة بينها - تلك القاعدة التي كانت الحكمة اليونانية تعدها أم الفضائل، فإنها في نظر القرآن ليست فضيلة ولا رذيلة، إنها لا تستحق عنده مدحًا ولا ذمًا، وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها.

من كان في شك من ذلك كله فليقرأ قول الله جلت حكمته:

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

(الشورى: ٤١-٤٣)

هكذا دمغ رذيلة الظلم والبغي فجعلها مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة، فجعلها من عزم الأمور، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

(الشورى: ٤٠)

أما المقاصة في الانتصاف من الظلم فإنه لم يتبعها ذمًا ولا ثناء، ولم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال:

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

(الشورى: ٤١)

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم:

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾

(النساء: ١٤٨)

﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

(النساء: ١٤٩)

نهى الناس بادئ ذى بدء أن يغلظ بعضهم لبعض بالفاحش من القول، فهذه هي الخطة المذمومة، خطة البدء بالإساءة.

وقد بين أنها تستوجب غضب الله، ثم استثنى من استحقاق هذا الغضب من كانت إساءته ردًا لمظلمة، فأخرجه من عداد المغضوب عليهم، ولكنه لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها، وهي خطة العفو عن الإساءة، فأشار إلى أن من عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله، أليس الله يعفو ويعفو، ثم يعفو ويعفو، حتى كان اسمه العفو، وهو مع ذلك قدير على الانتقام، ثم ألا يذكر الذى أسيء إليه أنه هو نفسه ليس بريئًا من الذنب، ولا معصومًا من السيئات، فإن كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه.

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(النور: ٢٢)

بين العدل والفضل

لقد قلبنا النظر في جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم، سواء في نطاق المعاملات المالية، أو في دائرة الشئون الاجتماعية، أو في معرض الأحداث الجنائية، فوجدناه في كل ذلك ينهى عن التزيد في حق النفس، ويحض على الزيادة في حق الغير، أما المعاملة بالمثل فلا تجد فيها نهيًا عنها ولا تحريضًا عليها، وإنما نجد إذنًا وتخييرًا ور... للحرج، لا زائد على ذلك.

هكذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في ... المعاملة المالية فوجدناه من جهة ينهى ... أخذ الربا، وعن أكل أموال الناس بالباطل، و... الجهة الأخرى يأمر الدائن بإنذار مدينه المع... ويندبه إلى التصدق عليه بدينه، أما المحا... على السواء فلا يذكرها القرآن قادحًا ... مادحًا، ولكن مقررًا لوضعها القانوني الس...

﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧٩)

ثم نظرنا في القرآن حين يتناول أسالي... المخالطة والمعاشرة فوجدناه من جهة ين... عن الفحش والأذى، والخشونة والغلظة و... جهة أخرى يأمر بالعفو عن الأذى، والإعر... عن اللغو ويثني الثناء المكرر على مقا... الإساءة بالإحسان، أو بالتي هي أحسن، ... مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقًا سائغًا ل... حرص عليها غير باغ ولا عاد.

ثم نظرنا في القرآن حين عرض لجري... الإفك والقذف، فوجدناه ينهانا أن نعا... القاذف بقطع ما بيننا وبينه من رحم، أو ... ما يستحقه لدينا من بر وصلة، ويحر... أشد التحريض على أن تشمله بكريم الصف... والمغفرة، التماسًا لعفو الله ولمغفرته.

فإذا استقصينا هذه المثل وأشباهها، ف... المنطق يتقاضانا أن نستخلص منها هـ... القضية الكلية وهي أن المعاملة الفاضلة ف... نظر القرآن إنما هي المعاملة التي تقوم ع... العفو والإيثار والفضل، وأن الرذيلة إنـ... هي في الطرف الأقصى، تقوم على الج... والاستئثار والبخس، أما الخطة التي بين بين ... وهي المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة، فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية، لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وإنما هي رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي، ولا يناط بها مدح ولا ذم، ولا يستحق صاحبها ثوابًا ولا عقابًا.

لكن الإشكال البارز في هذه النظرية، أنها في بادئ الرأي تصادم المعقول والمنقول: أما المعقول فهو ما تقرر في الفطرة السليمة أن العدل فضيلة، هو أس الفضائل، وأما المنقول فالقرآن الكريم نفسه كثيرًا ما يشيد بمبدأ العدل والمساواة:

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾

(النساء: ١٣٥)

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨)

﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

فلننظر الآن في حل هذه المشكلة، وفي إزالة هذا التعارض.

إن مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين: مقام الحكم ومقام المعاملة: فمقام الحكم هو مجال العدل الدقيق الصارم، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة، والمكارمة والمجاملة.

فالقاضي حين يفصل بين الخصمين، والوالد حين يوزع بره بين أولاده، والمربي والمعلم، والوصي والقيم، وكل راع في رعيته، ليس له أن يحابي، أو يجامل أو يؤثر أو يفضل، إذ كيف يؤثر بشيء غيره؟ وكيف يتفضل بما ليس من حقه؟

أتملكه عاطفة الإحسان على البائس الفقير، فيجامله في الحكم؟ كلا.

﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾

(النساء: ١٣٥)

أتدفعه سورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم؟

كلا.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾

(المائدة: ٨)

أتحمله صلة القرابة أو النسب، أو عصبية الإقليم أو المذهب على التحيز لإخوانه فيها، ظالمين.. أو مظلومين؟

كلا.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

أيحز في نفسه منظر العقوبة، أيزعجه صوت الشكاية، فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع صيتها، ورفع إليه أمرها؟

كلا.

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾

(النور: ٢)

أيترك دولة الإسلام نهبًا لأعدائها، أو يقطعهم شبرًا من أرضها، أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها؟

كلا.. إن أرض الإسلام وحقوق المسلمين ليست ملكًا لفرد ولا لجماعة، وليست حقًا لأمة ولا لجيل من الأمم، إنما هي حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالتسامح فيها تصرف في حق الغير، والضن بها والدفاع عنها ليست

مشاحة (١) في حظ النفس وإنما هو غضب لحرمة الله والوطن.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾
(البقرة: ١٩٠)

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾
(النساء: ٧٥)

هكذا نرى أن المجال الذى يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة، هو المجال الذى تكون أنت فيه طرفًا ثالثًا، وسطًا بين طرفين، فيكون واجبك أن توفى كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد، وكل شىء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه، هذا ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس، ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التى وردت فى مدح العدل والأمر به وجدناها صريحة فى هذا الباب:

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾
(النساء: ٥٨)

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾
(ص: ٢٦)

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾
(المائدة: ٤٢)

أما حيث أنت أحد الطرفين، تتصرف فى شيئك، وتساوم فى حقك، فهذا ما نسميه مقام المعاملة، وهذا هو المجال الذى تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة، وإلى الإيثار والمجاملة، وهو المجال الذى يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعها، إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات.. وتبقى الفضيلة للفضل وحده.

الحلقة المفقودة

إننا نفهم الحرية الفردية فهمًا سـ... متطرفًا، ونفهم المسئولية الاجتماعية فهـ... ناقصًا محرفًا، الدولة عندنا هى المسئولة عـ... كل شىء، هى التى يجب عليها أن تتعقـ... المذنبين وأن تتولى عقوبتهم، فإذا لم يصـ... إليها نبأ الجريمة، أو لم تصل هى إلى كشـ... معالمها، أو كانت مما لا يعاقب عليه القانو... تركنا نحن أيضًا صاحبها آمنًا مطمئنًا، يلاقـ... الترحيب والتكريم الذى كان يلاقيه من قبـ... وتركنا كل فرد يسير سيرته الأولى غير شاعـ... بمسئوليته عن سلوك الآخرين، ولا حـ... حسابًا لموقف الآخرين من سلوكه، عقـ... منفرط لا ينظمه سلك واحد، وجسم مفكـ... لا يهيمن عليه روح واحدة.

أتدرون ما هذه الروح الواحد، التى يجب ... تسود وتهيمن على المجتمع؟ إنه الوعى العـ... الغيور المتيقظ، الحارس للقيمة المعنوية فـ... الجماعة.

إن ها هنا سر الشقاء وحقيقة الدواء، أما ... وراء ذلك من دعوة الداعين، وإرشاد المرشدين... فليس فى جملته إلا تلطيفًا وتسكينًا وقـ... لبعض جوانب المرض، ذلك أن الذين تتفتـ... أسماعهم وقلوبهم لهذا الإرشاد إنما هـ... الصالحون الخيرون، وقليل ما هم، وإن الذيـ... تنطبع به مشاعرهم وتتحرك به عزائمهم، ... بين هؤلاء القليل، هم أقل القليل، أما السـ... الأعظم من المستمعين فإنهم متى انصرفـ... إلى شئون الحياة فى البيت أو فى الطريـ... فى المدرسة أو فى الديوان، فى الأندية أو فـ... الأسواق، فى المصانع أو فى المزارع، فإنهـ... سرعان ما ينسون، لأنهم لا يجدون فى بـ...

(١) المشاحة: الشدة والبخل والحرص

منها وازعًا ولا نازعًا (٢) ولا مذكرًا ولا محذرًا، بل يجدون فيها من ضروب الإهمال والتهاون، ... ما قد يغريهم بالعبث أو الإجرام، هكذا تهدم الجماعة فى ساعة واحدة ما تعبت فى بنائه أيدى القادة والمصلحين، وهكذا تكون الجماعة هى التى تمهد السبيل لأبنائها أن يقفوا مواقف الإثم والبغى، وهى التى تقودهم فى النهاية إلى أسوأ العواقب وأشد العقوبات.

نحن إذن فى حاجة ملحة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعى فى الأمة، لا عن طريق الدعوة الموعظة فحسب، بل عن طريق عملى جدى، نحن بحاجة إلى تكوين رأى عام أخلاقى، له نفوذه واحترامه فى نفوس كل الأفراد، بحيث يشعر كل امرىء أن إساءته - دقت أو جلت - ستلاقى جوابًا سريعًا علنيًا فى سلوك المجموع بإزائه، إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره، وكل خائن لأمانته، وكل مضيع لواجبه، وكل خارج على الآداب فى صورة من الصور.. نريد أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجهه التحقيق، ستصوب نحوه جهارًا سهام النقد والذم، وسيذوب وجهه خجلاً، تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم من عطف المجتمع ومعونته، وأنه لن يبسم فى وجهه أحد، ولن يبادله التحية أحد، وأنه سيعيش مهجورًا منبوذًا حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته.

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد، فى سفر شاق طويل، وفى إبان القيظ الشديد؟ فلما عاد من السفر، وسألهم عن سبب تخلفهم، صدقوه الخبر، واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز، وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهيز للرحيل، حتى فاتتهم القافلة.

أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم؟! أمر الناس..

فاجتنبهم الناس اجتنابًا، بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم، ولبثوا على ذلك خمسين يومًا وليلة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة، التى كانت أنكى فيهم من حد السيف.

لقد نهى الناس عن كلامهم، حتى يقضى الله فى شأنهم، وهذا هو طراز التربية الناجعة، الذى نريد أن نترسم منهاجه، وتلك هى الحلقة المفقودة، التى لو وضعناها فى مكانها من جهاز حياتنا العامة، لاستراح الحاكم والمحكوم وكاد لا يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم.

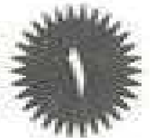
إن مفتاح الحل بين المجتمع نفسه، هو أن يحاول أفراده أن يكونوا يدًا واحدة فى الصراحة بالحق، يبدءون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه، فيذكرونه كلما نسى، وينبهونه كلما غفل.. حتى إذا عاود وعاند، أشعروه بإعراضهم، وحرموه بشاشة وجوههم حتى يفىء إلى أمر الله.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية، هى معنى تغيير المنكر بالقلب، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، هى التى صدر فيها النطق النبوى الحكيم بأنها هى أضعف درجات الإيمان.

فإنكم إن قمتم اليوم بوضع حجرها الأساسى أيها المسلمون فتحتم فتحًا مبينًا فى تدعيم نهضة المجتمع، والتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة.

(٢) وازعًا: مانعًا أو كافًا. نازعًا: مقتلعًا لهم من تلك البيئة

معالم ومنارات للوسطية الإسلامية والتجديد الإسلامي





أ. د. يوسف القرضاوي (*)

حتى لا يدعى هذا المنهج «الوسطية الإسلامية والتجديد الإسلامي»، من لا يفقهه ولا يعيه، ولا يتحدث باسم هذا التيار من ليس من أهله، بل من الدخلاء عليه، ولا يخوض فيه كل من أمسك بالقلم، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ وجدت لزامًا عليّ أن أضع للقارئ المسلم معالم أو ملامح أو منارات؛ تحدد الأصول الفكرية والشرعية لهذا التيار أو المنهج، لتكون مشاعل ومصابيح تهدي من أراد الاهتداء بها، والسير في ضوئها على نور وبينة:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢)

فمن الضروري هنا ألا ندع مفهوم الوسطية والتجديد مائعًا رجراجًا هلاميًا، يفسره كل من شاء، بما شاء، ويدعيه كل فريق لنفسه، زاعمًا أن ما يدعو إليه هو الوسطية التي يدعو إليها الداعون، ويتوه بها المتوهون.

وقد كنت منذ فترة وضعت عشرين معلمًا - على سبيل الإيجاز لمنهج الوسطية - وزعتها على الجمعية العامة التأسيسية للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، التي انعقدت في لندن في شهر يوليو سنة ٢٠٠٤م.. وقد طلب مني أحد الإخوة من العلماء: أن يقوم بشرحها، فقلت له: أولى الناس بشرحها، هو صاحبها. فالمفروض أن أقوم بشرحها وتجليتها، وتأصيلها وتفصيلها. وهي في الحقيقة مشروحة في كثير من كتبي، ولكنها منثورة فيها، فلابد من تجميعها، وترتيبها، والاستدلال عليها، وربط الفروع بأصولها، ورد الجزئيات إلى الكليات، حتى تستبين للقارئ الكريم، بلا لبس ولا غبش.

وقد نظرت في هذه المعالم العشرين - شأن كل مصنف دائمًا يسعى إلى تحسين ما كتبه، حتى يصل إلى أكمل ما يكون - فكرة وعرضًا وأسلوبًا، وأعدت صياغتها وترتيبها، وفصلتها بعض التفصيل، فبلغت الثلاثين معلمًا، ثم اختصرتها، ليسهل حفظها لمن أراد.

وقد نشرها بصورتها الأولى مركز الوسطية بالكويت، ثم تراءى لي أن أعيد النظر فيها مرة أخرى على مهل: إعادة قلبتها رأسًا على عقب، ولاسيما بعد أن أضيف مفهوم «التجديد» إليها، فأصبح مركزنا يحمل اسم «مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد»[1]. فأضفت وبينت، وغيرت وحسنت، ورتبت، كما ذكرت في المقدمة. حتى غدت كتابًا جديدًا على هذه الصورة بحمد الله. وقد أردت بهذا: أن يعرف المنهج الوسطي التجديدي لطلابه ومريديه، وأن تتضح صورته وملامحه، وتتحدد أركانه ومقوماته. وتتجلى خصائصه ومزاياه، في صورة «معالم» محددة، يرجع عند الخلاف لها، ويحتكم إليها.

وها هي ذي معالم الوسطية المجددة، في صياغتها الأخيرة، وقد ألفت من جديد. آملا بعد ذلك أن ييسر الله لي شرحها على الوجه الذي أحب، وأدعو الله أن يوفقني إليه. وها أنا ذا أسرد المعالم الثلاثين، مجرد عناوين، ثم أبدأ في بيانها واحدًا واحدًا. وبالله التوفيق.

المعالم الثلاثون للمنهج أو التيار الوسطي التجديدي:

١- العلم الراسخ والفهم الشامل والمتوازن للإسلام.

٢- الإيمان بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية.

٣- تأسيس العقيدة على الإيمان والتوحيد.

٤- التقرب إلى الله وحده بما شرع من العبادات.

٥- تزكية النفس بمكارم الأخلاق.

٦- الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧- ترسيخ القيم الإنسانية والاجتماعية.

٨- احترام العقل بجوار الوحي.

٩- تجديد الدين من داخله، والاجتهاد من أهله في محله.

١٠- الدعوة إلى فقه جديد، فقه في الكون وفقه في الدين.

١١- إنصاف المرأة وتكريمها والحفاظ على فطرتها.

١٢- العناية بالأسرة نواة للمجتمع.

١٣- تكوين المجتمع الصالح المتكافل.

١٤- الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ووحدتها والولاء لها.

١٥- إقامة الدولة العادلة حاملة الدعوة.

١٦- تجنب التكفير والتفسيق إلا ببينة.

١٧- تقوية اقتصاد الأمة وإقامته على أسس إسلامية.

١٨- الإيمان بضرورة التعددية والتعارف والتسامح بين الشعوب.

١٩- إنشاء حضارة العلم والإيمان.

٢٠- الرقي بالفنون وتوظيفها في خدمة رسالة الأمة.

٢١- عمارة الأرض وتحقيق التنمية ورعاية البيئة.

(*) رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ومدير مركز بحوث السنة والسيرة في الدوحة - دولة قطر.

(1) أنشئ سنة ٢٠٠٨م في كلية الدراسات الإسلامية بالدوحة.

٢٢- السلام مع المسالمين والجهاد ضد المعتدين.

٢٣- العناية بالأقليات الإسلامية في العالم.

٢٤- العناية بالأقليات الدينية في مجتمعاتنا الإسلامية.

٢٥- تبني منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة.

٢٦- رعاية سنة التدرج وسائر سنن الله.

٢٧- الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.

٢٨- وضع التكاليف في مراتبها الشرعية.

٢٩- ضرورة الإصلاح الشامل والتغيير الجذري.

٣٠- الانتفاع بتراثنا الغني بما فيه من علوم وفنون وآداب.

أضواء على معالم ومنارات الوسطية المجددة

يتميز المنهج أو التيار الداعي إلى الوسطية والتجديد، بالتركيز على جملة مبادئ أو معالم أو قواعد فكرية، في فهمه للإسلام وعرضه لأصوله ومفاهيمه، عرف بها، وعرفت به، ونسبت إليه، وأصبحت معالم بارزة له، تجسد فكرته، وتوضح غايته، وتجلي منهجه، وتحدد مفاهيمه. فصلناها في الثلاثين التي سردناها، وها نحن أولاء الآن نلقي ضوءاً على كل معلم منها، بما يعطي للقارئ فكرة أو نبذة واضحة وكافية عنها، بلا إطناب ممل، ولا إيجاز مخل.

١- العلم الراسخ والفهم الشامل والمتوازن للإسلام:

الفهم الشمولي التكاملي المتوازن للإسلام، كما أنزله الله على رسوله، بحيث يتجلى في خصيصتان:

- الأولى: الشمول والتكامل، بوصفه: عقيدة وشريعة، علماً وعملاً، عبادة ومعاملة، ثقافة وأخلاقاً، حقاً وقوة، دعوة ودولة، ديناً ودنيا، حضارة وأمة. ورفض كل تجزئة لأحكام الإسلام وتعاليمه، كدعوى الذين يريدونه: أخلاقاً بلا تعبد، أو تعبداً بلا أخلاق، أو عقيدة بلا شريعة، أو زواجاً بلا طلاق، أو سلاماً - أو استسلاماً - بلا جهاد، أو حقاً بلا قوة، أو ديناً بلا دنيا، أو دعوة بلا دولة، وهو ما يرفضه الإسلام نفسه الذي يقول كتابه:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

وبهذا يقدم الإسلام على أنه رسالة الإنسان كله، ورسالة الكون كله، ورسالة الزمن كله، ورسالة الحياة كلها.

- والخصيصة الثانية: هي المزج المتوازن بين المتقابلات، أو الثنائيات، التي يتوهم كثيرون أنها متضادات لا يمكن الجمع بين بعضها وبعض. كالمزج بين الروحية والمادية، بين الربانية والإنسانية، بين الفكر والوجدان، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية، بين نور العقل ونور الوحي، بين الدنيا والآخرة، بين حظ النفس وحق الرب، وحقوق الخلق، بين الإبداع المادي والاقتصادي والسمو الروحي والأخلاقي، بحيث يأخذ كل جانب منها حقه، بلا وكس ولا شطط، دون طغيان على الجانب الآخر، أو الجوانب الأخرى:

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

(الرحمن: ٨، ٩)

ومن هنا تتكامل العناية بالعبادة، والثقافة، والرياضة، والفنون، والعلوم. فالعبادة تغذي الروح، والثقافة تغذي العقل، والرياضة تغذي الجسم، والفنون تغذي الوجدان، والعلوم تغذي الحياة (٢).

٢- الإيمان بمرجعية القرآن والسنة:

الإيمان بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والتوجيه للحياة الإسلامية، حياة الفرد والأسرة والجماعة والأمة، التي تستمد من المصدرين المعصومين: عقائدها وعباداتها، وآدابها وأخلاقها، وأفكارها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وتشريعاتها وأنظمتها.

فالقرآن كلام الله تعالى، والسنة بيان رسوله، لا يصح الإيمان، ولا يقبل الإسلام إلا ممن آمن بهما، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(النور: ٥١)

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

والذين ينكرون السنة، ويسمون أنفسهم «القرآنيين» هم أول من يخالف القرآن الذي أمر بطاعة الله وطاعة رسوله:

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(النور: ٦٣)

والمصادر الأخرى من الإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح وغيرها، إنما تكتسب حجيتها من القرآن والسنة. مع ضرورة فهم النصوص الجزئية من ضوء المقاصد الكلية للإسلام وشريعته، ولا يجوز معارضتها بالآخر، أو الاكتفاء بالجزئي عن الكلي، أو بالكلي عن الجزئي. والحذر من الحرفية من جانب، ومن سوء التأويل من جانب آخر، ومن اتباع المتشابهات وترك المحكمات(٣).

٣- تأسيس العقيدة على الإيمان والتوحيد:

تأسيس العقيدة السليمة على معاني الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهذه هي أركان العقيدة، وأس الأعمال الصالحة.

والتركيز على عقيدة التوحيد، واليقين بالآخرة، وعلى نبوة محمد الذي ختم الله به الرسل والأنبياء.

والتركيز على حقيقة التوحيد كما صورها القرآن في مقومات ثلاثة:

ألا يبغي غير الله تعالى رباً. وهو رب كل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل شيء:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(الأنعام: ١٦٤)

وألا يتخذ غير الله ولياً. يواليه ويعبده وحده لا شريك له:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الأنعام: ١٤)

وألا يبتغي غير الله حكماً، يأتمر بأمره،

---

(٢) انظر كتابنا «شمول الإسلام»، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة ببيروت، وخصيصة «الشمول» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام».

(٣) انظر كتابنا «المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة»، نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة، وانظر أيضاً كتابينا «كيف نتعامل مع القرآن العظيم»، و«كيف نتعامل مع السنة النبوية»، نشر دار الشروق بالقاهرة.

وينتهي بنهيه:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾

(الأنعام: ١١٤)

وبذلك تجتمع كل معاني التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الحاكمية، فهكذا يجب أن نؤمن به سبحانه:

﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾

(الناس: ١-٣)

وبهذا التوحيد الخالص يتحرر الإنسان من العبودية للإنسان، ومن كل ما سوى الله، ولهذا كان نبينا يختم رسائله إلى ملوك النصارى بهذه الآية:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

كما لا يصح إيمان المسلم إلا إذا آمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل، كما قال تعالى:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

وبهذا يعيش المسلم مع موكب النبيين منذ آدم ونوح إلى خاتمهم محمد، ويرثهم جميعًا، ويقتدي بما لديهم من فضائل، كما قال الله لرسوله محمد:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾

(الأنعام: ٩٠)

وللإيمان الإسلامي أثره في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع. فلابد أن يرعى ويحمى ويشاع[٤].

٤- التقرب إلى الله بالعبادات ظاهرة وباطنة:

التقرب إلى الله جل شأنه بعبادته وحده، وإقامة شعائره، وأداء فرائضه، وترطيب اللسان بذكره، وعمارة القلب بحبه، واستحضار خشيته تعالى وتقواه، التي هي من عمل القلوب، والتركيز على عبادة الله تعالى بوصفها الغاية التي خلق لها الإنسان:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

وتوجيه هذه العبادة لله وحده. وهي تتجلى في الشعائر الأربع الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهي العبادة المفروضة، وبجوارها عبادات أخرى مندوبة، مثل: تلاوة القرآن وذكر الله تعالى والدعاء والاستغفار. ويمكن للمسلم أن يجعل حياته كلها عبادة، حيث تتحول المباحات والعادات إلى قربات وعبادات بالنية الصالحة.

هذا بالإضافة إلى العبادات الباطنية: من صدق النية والإخلاص لله، والمحبة لله، والخشية له، والحياء منه، والرضاء عنه، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والتفكر في خلقه، وذكر لقائه، ومحاسبة النفس، ومجاهدة الشيطان، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. وهي أساس التصوف السني الحقيقي الذي يقوم

(٤) انظر كتبنا «الإيمان والحياة» و«وجود الله» و«حقيقة التوحيد» و«الإيمان بالقدر» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت.

على «الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق»، وهو كما سماه العلامة الندوي[٥] «ربانية لا رهبانية». ومن الواجب غرس هذه المعاني الربانية عن طريق الدعوة والتربية والثقافة والإعلام.

ونرفض موقف الذين ينكرون التصوف كله ويعرضون عنه، بما فيه من مناهج رائدة، وتجارب صادقة، ووصايا نافعة في التربية الإيمانية، وموقف الذين يأخذونه كله بما فيه من شركيات في العقيدة، ومبتدعات في العبادة، وسلبيات في التربية، دون مراجعة ولا تمحيص[٦].

٥- تزكية النفس بمكارم الأخلاق:

تزكية النفس، والسمو بها، عن طريق المجاهدة والرياضة، حتى تنتصر فيها حوافز التقوى على دوافع الفجور، كما قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

(الشمس: ٧-١٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

وإنما تتزكى النفس حقًا بالتركيز على القيم الأخلاقية التي عني بها الإسلام، وجعلها من شعب الإيمان، ودلائل رسوخ العقيدة، وجعلها من ثمرات العبادات التي فرضها الله، وجاء في الحديث النبوي: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٧]، وفي رواية «مكارم الأخلاق»[٨]. واعتبر الإخلال بها من خصال النفاق، سواء أكانت أخلاقًا فردية مثل: الصدق، والأمانة، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، والإنصاف في الخصومة، والتواضع والحياء، والسخاء، والشجاعة، والعفة، أم أخلاقًا اجتماعية مثل: العدل والإحسان، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والجيران، والرحمة بالضعفاء، والتعاون على البر والتقوى، ولزوم الجماعة، وإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وعدم التبذير في إنفاق المال، والإسراف فيه، كمنع الشح والبخل به.

ونرفض موقف الذين يعتبرون العبادات الشعائرية هي كل شيء، وإن لم تؤثر في أخلاقهم وسلوكهم، وموقف الذين يعتبرون الأخلاق كل شيء، وإن لم يؤدوا فرائض ربهم[٩].

كما أن للأخلاق الإسلامية مزايا ومقومات وخصائص تميزها عن غيرها من الأخلاق الوضعية، ومن أخلاق الديانات الأخرى: من الشمول والتوازن والواقعية ومخاطبة الفطرة والعقل وغيرها.

يتبع

(٥) أبو الحسن علي الحسني الندوي (١٩١٤ - ١٩٩٩م) رئيس ندوة العلماء المسلمين في لكنهو بالهند.
(٦) انظر كتابنا «العبادة في الإسلام» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت وكذلك سلسلة «فقه السلوك» أو «الطريق إلى الله» وقد صدر منها الحياة الربانية والعلم، النية والإخلاص، التوكل، التوبة إلى الله، الزهد والورع، المراقبة والمحاسبة نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة.
(٧) رواه أحمد في المسند (٨٩٥٢) وقال مخرجوه: صحيح وهذا إسناد قوي، والبخاري في الأدب المفرد (١/١٠٤) والبيهقي في الشعب (٦/٢٣٠) وفي الكبرى كتاب الشهادات (١٠/١٩١) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩) عن أبي هريرة.
(٨) رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين (٢/٦١٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٠/١٩١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥) عن أبي هريرة.
(٩) انظر فصل «الأخلاق» من كتابنا «مدخل إلى معرفة الإسلام».

تقرير علمي عن فحص كتاب:

الإسلام وإنسانية الدولة لمؤلفه أ.د / سعد الدين هلالي



أ. د. محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

في العدد الماضي من مجلة (الأزهر) نشرنا - بناء على قرار مجمع البحوث الإسلامية - التقرير الأول من التقارير التي كتبتها اللجنة التي عهد إليها المجمع فحص كتاب (الإسلام وإنسانية الدولة) للأستاذ الدكتور/ سعد هلالي.. وهو التقرير الذي كتبه الأستاذ الدكتور على جمعة - عضو المجمع وهيئة كبار العلماء.

وتواصل مجلة (الأزهر) - تنفيذا لقرار المجمع - نشر بقية التقارير التي قدمت إلى المجمع حول هذا الكتاب... فنقدم للقراء التقرير الذي كتبه الأستاذ الدكتور / محمد الشحات الجندي - عضو مجمع البحوث الإسلامية - بالأزهر الشريف.. وهذا هو نصه:

يقع الكتاب في ٣٢٦ صحيفة من القطع المتوسط يتضمن مقدمة عن الموضوع.

- في الفصل الأول: التعريف بالدولة ومقوماتها ووظيفتها ونظامها في التاريخ الإسلامي.
- الفصل الثاني: يتضمن التعريف بالدين ومقوماته ووظيفته ونظامه الاستدلالي.
- الفصل الثالث: شبهات تعارض الدين والدولة، وفيه الحاكمية لله تعالى "لا حكم إلا لله تعالى"، وظيفة الحاكم وشروطه.
- الفصل الرابع: الوصايا العشر لفك التعارض بين الدين والدولة.

تدور فكرة الكتاب كما يتضح من عنوانه على تكريس فكرة الإنسانية في أحكام الشريعة المختلفة التي تشمل الأمور الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى الحد الذي جعل العديد من أحكامها شأنا شخصيا للمسلم فردا أم جماعة، وليس شرعا منزلا واجب الاتباع:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الجاثية: ١٨)

تلك التي تشتمل على نظام حاكم للفرد والجماعة تقوم عليه دولة تملك إرادة الإلزام في التنفيذ، تنظمها شريعة تحكم العلاقات الإنسانية، في جوانبها المختلفة العبادية والتعاملية، ولديها القدرة على إلزام الأفراد باتباعها عند الاقتضاء.

وقد قام الكاتب ببث فكرته الإنسانية عبر صفحات الكتاب الذي جاء عنوانه: «الإسلام وإنسانية الدولة» وتشكلت آراؤه في الموضوعات المتعددة التي تناولها بما لا يخلو في بعض الأحيان عن ليّ عنق العديد من المبادئ والأحكام الإسلامية وتمييع مواقف شخصية المسلم إزاء القضايا الشرعية والحياتية باسم الإنسانية.

نماذج من الآراء التي اشتمل عليها الكتاب

١- الإسلام دين يفتقد الهوية والرسالة الإلهية جاء في ص١١: ومن متانة هذا الدين أن صاحبه يتكيف مع كل حال، ويتعايش مع كل نظام على اختلاف الأزمنة والأمكنة دون مساعدة حاكم أو رئيس في شأن إقامة الدين، ولكن يبقى احتياج المسلم للعدل والأمن وفتح آفاق الرزق بصفته إنسانا لا بصفته مسلما.

وليس الأمر كذلك، فليست الشخصية المسلمة بهذا الانبطاح لكل نظام، ولا الانسياق وراء أي موقف، لما في ذلك من فقدان خصوصية شخصية المسلم الملزمة التي تحمل رسالة في الدين والحياة مكنتها من الصمود أمام عمليات اجتياح العالم الاسلامي في موجات الغزو المتتابعة للأقطار الإسلامية من الصليبيين، والتتار والاستعمار الأوربي للدول الإسلامية وامتد من أقصاها إلى أقصاها.

٢- عند حديثه عن وظيفة الدولة: ينتقد أن تضطلع الدولة بوظيفة دينية محدودة ويعتبر قيام الدولة بهذه الوظيفة من شأنه أن يعقد العلاقة بين الدين والدولة. وذلك بقوله: يحاول البعض أن يجعل من وظيفة الدولة القيام برسالة دينية معينة، فضلا عن العدل الإنساني، وهذا من أسباب تعقيد العلاقة بين الدين والدولة.

ومنشأ المفارقة في هذا القول أنه لا يجعل للدولة الإسلامية دورا في حمل رسالة التوحيد وهي جوهر الإسلام والأديان السماوية، وتصحيح الفكر الإيماني في منظومته الشاملة بالأديان والرسل جميعا وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان، وخلوصها لعبودية الله تعالى.

٣ - ويمضي الكاتب في خطته نحو الفصل بين الدولة والفكر الديني، فليس واجبا على الدولة أن تقوم على تنفيذ تعاليم الرسل، ونص ما قاله ص: ٢١:

ومن هنا لم تكن وظيفة الدولة الحاضنة للأجساد والأموال والأعراض والعقول والأديان - وهى المقاصد الشرعية الخمسة - أن تترجم وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية وتحمل الناس على ما لم يقم به الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين.

وهو بذلك يعفى الدولة الإسلامية من أى التزام نحو الدين، وتتحلل من الالتزام بالهوية التى تتعمق فى ضمير ووجدان المسلم، وتؤثر بالضرورة على غير المسلم من مواطنى هذه الدولة.

٤- ينتقل الكاتب إلى تأكيد نظرته التى ملكت عليه فكره فى بحثه ذلك، حيث يرى أن الإسلام لم يستطع أن يغير وجه الحياة فى عقر داره فى الجزيرة العربية، وليس له فضل على تطوير نظم جديدة.

وعلى حد تعبيره فى ص: ٢٥ أرى أن الإسلام لم يغير من شأن الدولة فى المدينة المنورة، فلم يضع الرسول نظما خاصة لإدارتها بل استمر النظام على ما كان عليه من قبل، والذى تم تغييره: فقط هم الأشخاص -وهى مقولة ساقطة - لأن حياة كل مواطن فى الدولة المدنية تأثرت تأثرا عميقا مسلما أو يهوديا أو حتى وثنيا بالإسلام العقيدة والشريعة والأخلاق.

كما أن الإسلام أقام مؤسسات مثل المسجد والدفاع المشترك، وفكر المواطنة والإخاء والتعايش المشترك بين المختلفين، وهى أسس الدين والمدنية.

٥- ومن عجائب ما ذكره فى دراسته محل البحث أنه يفصل بين حكم العدل الإلهى وحكم الدين بمقتضى الشريعة ويرجح الحكم بالعدل على الحكم بالدين، وذلك فيما ذكره: "حكم الله بالعدل يختلف عن الحكم بالدين فى تفاصيل الشريعة.."

ويواصل قوله: "ومن يزعم بأن الدين نزل للحكم فى الأرض على الناس، خلط بين أحكام الدين التى لا يجوز فرضها على أحد بدون اختياره، وبين الحكم بالعدل الذى هو أصل فطري".

وخطورة دلالة هذا الكلام أنه يجرد الدين من خصائصه الإلهية، من حيث كونه سفينة الإنقاذ والملاذ للإنسان فى حياته كلها لأنه يقدم رؤية شاملة فى الحياة الدينية والدنيوية ومصدر الهداية والرشاد إلى الطريق المنجى لهم دينا ودنيا.

٦- وفى معرض حديثه عن الإجماع، يشكك فى حجيته كمصدر من مصادر الشريعة، فيما قاله ص: ١١٠: "وعلى التسليم بحصوله، فهو دليل إنسانى قائم على استقراء واقع الناس فى اختيارهم المذهبي، إلا أنه انحرف عن مساره حتى أخذ حجية دينية، وصار العامة يفهمونه على أنه الدليل الثالث بعد الكتاب والسنة".

ولا شك أن رأيه فى إنكار حجية الإجماع يتعارض مع حديث الرسول ﷺ: "لا تجتمع أمتى على ضلالة" ومع قوله تعالي:

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(النساء: ١١٥)

بالإضافة إلى أن الإجماع هو عقل الأمة، ويعترف بالإرادة الجمعية للأمة، ويعصم رأيها ويحصنه، ولو أنه حقق القضية، لتوصل إلى أن مصدر الإجماع يخدم فكرته عن إنسانية الدولة الإسلامية لأنه يعتد بإرادة الأمة، وهو ما يتضمن ارتباك نظريته وتناقض حججه.

٧- فى حديثه عن الشعائر ص: ١٤٣: يذهب إلى أن ترك المسلمين لشعيرة إسلامية عن طريق التواطؤ والاتفاق يجرى الخلاف فى شأنها فى موضوع الردة.

وعن كيفية التعامل معهم يرى أن مقاتلتهم لإقامة الشعائر مبنى على حمل الناس على الطاعة والعبادة، وهو يخالف طبيعة القرب والعبادات التى لا تصح إلا بنية واختيار، أما المعاملات التى ترتب حقوقا للآدميين فهى التى تكون محلا لحمل الناس على الوفاء بها

هذه التفرقة بين العبادات والمعاملات، يقلل من شأن العبادات التى تشكل أركان الإسلام فى الحديث المشهور: "بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت". كما يخالف موقف الصديق أبى بكر عندما قاتل من امتنع عن أداء الزكاة، وقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وقتال هؤلاء المسلمين مرده إلى الاتفاق حرمة ترك الخارجين عن الأركان والشعائر الإسلامية ومجاهرتهم بذلك، وانقلابهم على النظام العام الإسلامي، وهو ما يؤدى إلى التحلل والتفريط فى أصول الإسلام والخروج على أحكامه القطعية، بجانب أن ذلك يخالف حقيقة الإيمان، من حيث إنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل، كما أن فى ذلك تمييزا بين العبادة وهى حق الله وبين المعاملة وهى حق الفرد بغير دليل ولا مسوغ.

٨- وفى موضع آخر يذهب الكاتب ص١٤٩ إلى أن: "القصاص حق إنسانى وليس فريضة شرعية" وهذا يعطل شريعة القصاص وهو مساواة بين الجريمة والعقوبة حالة الاعتداء على النفس والأطراف والجروح فيما يمكن المماثلة فيه ومصداقا لنص محكم بقوله تعالي:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ١٧٩)

٩- وفى السياق ذاته فى مجال الجريمة والعقوبة ينكر الطبيعة العقابية لمن يرتكب جريمة من جرائم الحدود، مثل الحرابة والسرقة والزنا والقذف وشرب الخمر... إلخ ويقول فى ذلك ص: ١٦٩: "إنه لو كانت الحدود أجزية أو عقوبات لأوجب الإسلام على مرتكبها أن يقوم بالإبلاغ عن نفسه"

وليس ذلك جائزا ولا مقبولا إقامة الحدود متى ثبت أمام القضاء ارتكاب الجانى للجريمة الحدية بيقين لا يتطرق إليه شك؛ لأن القول بغير ذلك يجرد الحدود الشرعية وهى جرائم تتضمن الاعتداء على حق الله تعالي، وحق المجتمع، وهو ما يؤدى إلى

تفشي هذه الجرائم، وينفي الهدف من العقوبة في الردع العام والردع الخاص.

١٠- ويستمر في تأكيد رأيه في تغليب الجانب العبادي في الحدود وفي التهوين من الحدود الشرعية وعدم وجوب تطبيق عقوباتها عند ثبوت الجريمة الحدية بضوابطها الشرعية، وذلك فيما يتعلق بجريمة شرب الخمر، ويقول في ذلك ص: ٣٣١: "وكل هذه السعة الفقهية تسقط التعارض بين أحكام شرب الخمر والمسكرات وامتلاكهما، وبين مقومات الدولة المعاصرة التي تترك حرية الاختيار للناس ما لم يكن إضرارا بالغير فيرقع الضرر ويؤاخذ فاعله.

وهذا الكلام يتعارض مع حماية مقصد أساسي من مقاصد الشريعة، وهو حفظ العقل، الجوهرة النفيسة للإنسان، والنصوص القطعية المحرمة للخمر في القرآن والسنة، والتي وصفها القرآن بأنها رجس من عمل الشيطان، وتوقع العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله تعالى بالإضافة إلى من يتعاطى الخمر أو يشارك في تعاطيها هو ملعون مطرود من رحمة الله تعالى.

١١- وفي إطار خطته ونهجه في تحكيم الجانب الإنساني في الحقائق الشرعية والمقومات الدينية، وجعلها شأنا بشريا خالصا، ينسب إلى الأصوليين [علماء أصول الفقه] ص: ٢٦٠: "أنهم كانوا أول من استبق إلى بيان إنسانية الإسلام في تعريفهم الحكم الشرعي". لكن المحقق أن الأصوليين في رعاية الجانب الإنساني في القواعد والقوانين الشرعية التي استخلصو كميزان للأحكام الشرعية، إنما قصدوا إ تحكيم المسلم والتزامه بهذه الأحكا وليس إلى تلمس السبل لتحكيم القوا الوضعية بديلا عن أصول الشريعة وقطعياته كما هو مؤدى كلام الكاتب وإلحاحه علي

١٢- وعن حاكمية الله تعالى، والآيا الصريحة الدالة عليها والتي أوردها عند حديثه بخصوصها فإنه برغم ذل يذهب ص: ٢٢٣: يرى عدم فرض أو إلز الناس بشيء ولو كان هو الحق والصوا وأن من العناصر التي ينبغي إدراكها عن حاكمية الله، يترتب عليها ترك الناس و يدينون من الملل والعقائد والمذاهب، وتر المسلمين وما يختارون من أوجه فقهية وعدم التدخل في شأن الغير مسلما أو غ المسلم إلا في صورة الظلم والعدوان لتب التغالب وإقامة العدل أن من يتولى الحكم السلطة على الناس لا يملك شرعا أن يفرض عليهم إلا قانون العدل الذي يمنع الظل والعدوان بين الناس؛ لكون العدل هو قانو الفطرة الإنسانية الذي لا يختلف فيه الناس

وهذا الكلام يوحي بأن العدل ليس قيم عليا في الشريعة وأنه جوهر رسالة الإسلا ومن صفات الله تعالى وأمره الجازم عز وج وكأن حاكمية الله تغاير العدل، ولا تقره، و القول بالحاكمية التي تعني التزام المسل بنصوص الوحي وأحكامه القطعية؛ الت أجـ ـت عليها الأمة، لا تلتقي مع العدل الذ

بقصده.

١٣- ويمضي الكاتب في الدفاع عن فكرته في تمييع هوية الشعائر الدينية، وتنحيتها عن نطاق اهتمام الدولة الإسلامية فيما أورده ص: ٢٧٦: من عدم التدخل في شئون نبهت عليها الشريعة مثل فرضية الصلاة والزكاة، وتقاعس الناس عن أدائها، وكذلك حديثه عن زي المرأة مما يشي بعدم الالتزام بزي محدد، مع أن سيادته يعلم أن هناك حالات تشكل مخالفات صارخة يتعين فيها التدخل لرعاية الشعائر الإسلامية، وخصوصية الدين الإسلامي في الالتزام بالصلاة والزكاة، فكيف يعفي الدولة من مسئوليتها عن القيام بهذه الشعائر، واختزالها في النطاق الشخصي.

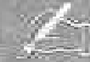
١٤- يؤكد الكاتب على منهجه في إقصاء الشرعية على كل شيء، وفي شتى المجالات دون ضبطها بمعايير الشريعة، واستمدادها من أحكامها ومبادئها بدلا من إقرار استيراد القوانين ونسبتها إلى النظم الغربية الأنجلو أمريكية، واللاتينية الفرنسية والجرمانية؛ لذلك فإنه من الغريب أن يقول ص: ٢٨٨: "إن الإسلام ليس كما يتوهم الكثير دولة ومنهجا وحلا، وإنما الإسلام يؤهل صاحبه لكي يكون رجل دولة وصرحا للمناهج وحلالا للعقد".

إن إشكالية هذا القول أنه ينفي وجود دولة إسلامية، ومنهج يتميز به، وأنه لم يأت بقواعد ونظريات وحلول في شئون الدين والحياة، وأن له حكما في مناحي الحياة المختلفة إما بالنص أو بالاجتهاد في إطار المبادئ الشرعية والمصلحة العامة.

١٥- ويعلن الكاتب عن إصراره على موقفه من جرائم الحدود، واستبدالها بعقوبات أخرى، فيما قاله ص: ٣١٣: "لذلك وجب ضبط المجتمع بقانون عقوبات تعزيري في الجرائم المخلة بالأمن، ولو كانت من جرائم الحدود الشرعية، ويبقى تنفيذ الحد خيارا شرعيا يطلبه المحدود إذا يئس من توبة نفسه" وهو قول صريح يستبعد الحدود الشرعية من التطبيق ويزيحها دائما عن تضمينها في منظومة التجريم والعقوبات القانونية في الدول الإسلامية، وهي مقولة خاطئة لا تستند إلى صحيح الشرع والمقاصد الإسلامية.

وخلاصة الرأي أن هناك العديد من المواضع والآراء التي أختلف مع الكاتب فيها من منظور الشرع والفقه الإسلامي، ومصلحة المجتمعات الإسلامية وأن مكمن الخطر في بعض ما أورده في دراسته يتأتى في تغريب النظام الإسلامي في الدول الإسلامية، وتنحية الشريعة عن مجالات التطبيق وتكريس المنظومة القانونية الغربية في الدول الإسلامية وهو ما أرى معه ضرورة الرد على هذه الشبهات التي ضمنها كتابه، وإظهار الرأي الصحيح والمستند إلى الأدلة القطعية وما يحقق المصلحة العامة للأمة في كل زمان بما لا يخالف قواطع الشريعة ومبادئها العامة.

لا ادعاء



د. نظمي لوقا

من لم يكن صادقًا في دعواه، فهو دعي لا يسلم من أعراض الادعاء مهما تصنع الصدق.

وتجتمع أعراض الادعاء في انتحال صفة أو قدرة أو حق ليس للمرء حقيقته.

وما كذلك كان أبو القاسم.

لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقًا يستعلي بها على أحد، أو يرتب لنفسه بها سلطانًا أو تقديمًا.

ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد. ليس عليه إلا البلاغ.

عليه البلاغ. ولكن أي شيء له؟

لاشيء. ثم لا شيء. ثم لا شيء.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

(آل عمران :١٢٨).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

(الغاشية :٢١،٢٢).

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

(ق :٤٥).

امرؤ عليه وليس له.

أين من ذلك دعوى الأدعياء؟.

ولما طولب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه يسأله أن يؤيده بخارقة بل خوطب مأمورًا بما يقول لهؤلاء:

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(الأعراف:١٨٨).

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾

(الأنعام: ٥٠).

لا دعوى ولا ادعاء. ولا مظاهرة من الخوارق والبوارق وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأنعام :٥٠).

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس، ولا حجة له سوى هذا. فما هو بصاحب معجزات، ولا هو يمني الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها إلا الله. ولا يعدهم بدفع السوء عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه. ومن لم ينفعه عقله في الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال فهو أعمى.



﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾

(فاطر: ١٩)

وليس بنافعه إذن خوارق المعجزات.

***

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحي أول مرة وهو يتحنث في غار حراء صائمًا قائمًا يقلب طرفه بين الأرض والسماء جياش النفس منقطعًا عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسي الغليظ، لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين، ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها المتلهف على شرفها، بل ظن ذلك في أول مرة رؤى من الجن. وارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة الخارقة، ودخل على خديجة وكان به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئنًا إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى قريبها ورقة ابن نوفل وهو من نصارى العرب.

واستيقظ محمد فصحبها إلى هناك وقص على الشيخ الكتابي ماوقع له في الغار من الرؤية والسماع.. وأطرق الشيخ هنيهة ثم قال لقريبته خديجة: قدوس قدوس! والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى.

واطمأن محمد قليلا، ثم تراءى له الوحي وهو في سنة من النوم فثقل تنفسه وتفصد جبينه بالعرق ونزلت عليه (سورة المدثر):

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

(المدثر :١-٧).

ونهض محمد مرتجفًا مأخوذًا. ورأت خديجة ما به من روع فدعته إلى النوم ليصيب شيئًا من الراحة فقال:

- انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة. فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس. وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته. فمن ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لي؟

وليس هذا حال دعي يلفق دعوى للناس لا يؤمن بها.

ليس هذا حال المتصدي لأمر عن هوى. ليس هذا حال ملفق دجال بل هذا حال رجل متحرج لا يريد أن يصدق ما تراءى له إلا ببرهان ويقين. فقد فوجيء بما وقع له وتولاه الروع والفزع.

هو إذن تكليف لا تأليف.

وهو تكليف مر شاق: ألست ترى هذا المرفه الناعم في ظل زوجة هي أشبه له بالأم، يقول لها في حسرة وأسى:

انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة!؟.

ألست ترى هذا المتحسر المروع حائرًا لا يدري ما يصنع بهذا التكليف من ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لي ما هذا قول مغامر دعي أفاق يلتمس مغنما ويرسم خطة للكسب أو يهتبل؟ فرصة مواتية للظفر. بل هذا قول من يرى نفسه مأمورًا بما لا يكاد يطيق، والطريق أمامه مسدود. فمن ذا يدعو في عاصمة الأوثان إلى عبادة الله؟ ومن ذا يستجيب له بين سدنة تلك الأوثان؟ وإن هذا الحائر المتحسر لا يدري بعد خطورة ما هو بسبيله. شأن من دبر

أمراً وبينه بليل وحسب حساب العواقب وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله لا يحز به إلا من يدعوه إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التي ألقيت على كاهله إلقاء. فلما قال له ورقة بن نوفل:

«ليتني أكون حيا إذا يخرجك قومك. إذن لأنصرنك نصرا مؤزرا»

قال محمد متعجبا «أو مخرجي هم»؟.

فقال له الرجل المجرب المطلع على تاريخ الأنبياء:

لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك لأنصرنك الله نصرًا يعلمه.

«أو مخرجي هم»؟.

كلمة كافية وحدها للكشف عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه. وأنه لم يفكر في ذلك من قبل ولم يعد له عدته. ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان، وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر.

أجل: هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيا وتكليفًا، لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء.

***

وشرع محمد كما أوحي إليه ينذر عشيرته الأقربين، وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين. ثم انتظر محمد أن يدله الوحي على ما يفعل لإنذار الناس ومحاجتهم وهدايتهم، فإذا الوحي يبطئ عليه. حتى ظن أنه كان مخدوعًا فيما تراءى له من قبل، أو أن ربه انصرف عنه بعد أن اصطفاه، وتملكه فزع ووجل:

وطال انقطاع الوحي، وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء، واشتد به الأمر حتى ظن أن ربه قلاه، فحزن واغتم وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحي ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة:

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

(الضحى :١-١١)

عجبًا فيمَ هذا العذاب كله لو كان محمد واضع هذا القرآن مدعيًا ملفقًا؟ ما كان أغناه عن فضيحة فتور الوحي لو لم يكن أمينًا غير متصنع ولا مموه، وإنما هو الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير؟.

ثم مسألة الروح.

سأله القرشيون خارقة، فقال:

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

(الأعراف :١٨٨).

فسألوه عن الروح ما هي؟.. فقال لهم: أخبركم بما سألتم عنه غدًا.

ثم يمضي نيف وأسبوعان ومحمد لا يأتيهم بخبر الروح كما وعد، وما عهدوه من قبل مخلفًا. ولا سيما وهو اليوم في مقام التحدي لصدق دعواه.

وأبطأ الوحي. ومحمد مكروب لهذا الإبطاء، يتوسل ويتحنث ويفزع إلى الله أن يرفع عنه هذا البلاء وينزل إليه وحيه ليرفع بين المشركين رأسه.

وما إن يظهر جبريل أخيرًا حتى يعاتبه محمد لاحتباسه عنه ويصارحه أنه ساء ظنًا لذلك الاحتباس فيكون الوحي:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

(مريم :٦٤).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾

(الكهف :٢٣، ٢٤).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الإسراء :٨٥).

ما كان أغناه عن هذا الكرب وهذا البلاء. وتعرضه لسخرية قريش وقد وعدهم الجواب غدًا، لو كان يملك القول من نفسه، ولم يكن الأمر لربه؟.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

تأنيب واضح، يرد الأمر إلى من بيده الأمر وما هو بقول دعي، وما هو بمسلك المستقل بشأنه، وإنما هو المأمور، الصادع بالأمر، الصادق في أمانة البلاغ المبين.

وما من دعي إلا وهو مطية الشعور بالنقص، فيدفعه ذلك إلى المغالاة في شأن نفسه، والتزيد في مدى قدرته.

وما كذلك كان محمد!

مر بقوم على رءوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟

فقالوا: يلقحون، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح.

فقال: ما أظن يغني ذلك شيئًا.

فأخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول. ونقصت غلة النخل ذلك العام وخرج شيصا، فذكروا له ذلك فقال:

«إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به. وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر. أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم.

وقيل إنه قال:

إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذوني بالظن!

لم يرتج عليه، ولم يكابر، ولم يسؤه أنه أخطأ الظن. بل اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم. وما هكذا يكون موقف دعي يستولى عليه شعور النقص وهو أبين الأمراض التى تنتاب الأدعياء.

وأكثر من هذا:

سمع قوما يختصمون ببابه، فخرج إليهم. وإذا به - وهو الرسول المسموع المطاع يومئذ - يقول لهم:

«إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها»!

«إنما أنا بشر أخطيء وأصيب»

تلك مقالة من لا يخطر له الادعاء ببال، وإنما هو يذكر ويذكر دواما أنه كسائر الناس. وهكذا الصادق الذى لا يشغله تمويه حقيقته ليبدو أفضل مما هو.

وسلام على الصادقين.

شعبان ١٤٣٤هـ
يونيه يوليه ٢٠١٣م

رسـالة الإحيـاء



للبلاغة محمد فتح الله كولن

لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت فى جمع البشر فى ظلها زمنا طويلاً، بل ولا أيديولوجية اكتشفت كل الضرورات اللازمة التى يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدول الغربية التى هيمنت على قسم واسع من الأرض فى التاريخ القريب أن تحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوب الاشتراكية والشيوعية فى الشرق، ولا «المحايدون» الذين يستوى وجودهم وعدم وجودهم، والذين عبر عنهم «جميل مريج» بـ«رجال الأعراف».

إن هـذا الإخفاق فى تحقيق الوعود زعزع أركان الثقة لدى الذين هم فى موقع المتلقى، بالإضافة إلى أن عجز الحلول المطروحة عن البلوغ إلى مستوى العالمية، وقصورها عن احتضان البشرية كلها، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية، قد أوقع الجميع فى أزمة انعدام الثقة، بل فى الريبة والشك فى وعود كل من يعد! فلذلك تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يعرض عليها موقف الشك والقلق والاستهزاء.. لأنها باتت تعتقد أن الأنظمة التى فرضت عليها حتى اليوم لم تعمل كما ينبغى، بل عجزت عن العمل، وبالتالى هناك خلل فى الأنظمة كلها!. وهذا يقتلع بعض المحاسن التى غرستها تلك الأنظمة، فلا يبقيها فى ذاكرة البشر إلا خيالاً بائسًا ورؤى خائبة.

وكما أن نقص قطعة صغيرة فى نظام ميكانيكى متكامل، يعطل عمل النظام ويحوله إلى ركام، فكذلك هذه الأيديولوجيات؛ برزت إلى الميدان بادعاءات مبهرة، لكنها كانت عليلة بعلل وبيلة؛ مثل التصادم مع الطبيعة البشرية، والعجز عن احتضان الفئات كلها، والقصور فى إنجاز وعودها، والضعف فى الاستجابة للحاجات الإنسانية؛ والأنكى إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، بل تأجيج بعضها مشاعر الحقد والبغض والغيظ بين البشر.. فذلك كله قوض أركان الأيديولوجيات كلها فخلفت خرائب وأنقاضا فكرية، أو قل: هكذا حدس المجتمعات وظنها. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم - إلا شرذمة قليلة- فى حالة تزعزع وخيبة أمل وترقب مريب وبحث عن مخرج خارق للأسباب.

بناء على ذلك، فإن أمتنا أولا وبالذات، ثم الإنسانية جمعاء، بحاجة ماسة إلى فكر سام يقوى إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينور أعيننا، ويبعث الأمل فى قلوبنا، ولا يعرضنا للخيبة مرة أخرى. أجل، نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو عاطفية، وتكون منغلقة تجاه السلبيات التى ذكرناها آنفا وصالحة للتطبيق كلما سمحت الظروف. إننا نشهد مرحلة يتغير فيها مركز العوالم الفكرية فى الأرض، وبدأ الناس يتوجهون بشكل أساسى ودائمى إلى الأفكار بدلا من الأشخاص، واضطر البشر بعد التجارب الفاشلة إلى المبالغة فى التمحيص. فإن وفقنا فى استثمار هذا الوضع العام بإستراتيجيات متماسكة ومنسجمة، ونظمنا التحفز المعنوى الموجود فى المجتمع والنشاط الفعال المتراكم فيه منذ عصور، حول هدف سام، فلسوف يجتمع الجمهور الأعظم من الإنسانية، ولو بنسبة معينة - حول هذا المركز الجاذب، إن لم يكن من يومه، ففى القابل القريب.

لكن ينبغى بادئ ذى بدء تعيين ذلك الهدف السامى. فلقد تعرضت أمم عديدة فى الماضى، كما تتعرض فى الحاضر، لهزات شديدة مع كونها تملك سياسات، ولكنها فشلت فى ربط تلك السياسات بهدف سام وسليم، وقصر باعها فى النفوذ إلى قلوب البشر. صحيح أن هذه الحال أشد ظهورًا فى البلدان التى لم تستقر فيها الحضارة والديمقراطية استقرارًا كاملاً؛ لكن الأمم التى ادعت لنفسها أستاذية العالم فى الحضارة والديمقراطية، ليست أحسن حالا فى هذا الأمر؛ فمهما كان بهرج ظواهرها، ومهما زعمت دعاياتها، فإن عديدًا من الدول التى تبدو عظيمة بترفها وبذخها وأبهتها، إنما تلهى فى الواقع حشود الغافلين بالخدع الوقتية لحركتها فى فلك النفعية، وتتباكم إذ تدعو الحاجة للحديث عن الغد، بدلا من بث الأمل فى مستقبل مشرق مغبوط أو حياة راقية.. والأنكى للجرح أنها تتمادى فى تجويع القلب والروح والوجدان.

فالواجب علينا الآن - مع وضع كل هذه السلبيات نصب أعيننا - أن نضع أمامنا أهدافًا سامية نتخذ فى سبيل تحقيقها قيمنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحقق الاستقرار فى سياساتنا.. وإذ يتحقق ذلك، نتمكن من استخدام هاتين القوتين فى الاتجاه عينه، من غير السماح للصدام بينهما. ونقول: «من غير الصدام بينهما»، لعلمنا بأن أى نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بناءة دائمًا. إن النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بعدًا معنويًا فى الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتة إذا كانت وصفًا من أوصاف العمل الخاطئ. إن أية حركة من الحركات قد تكون بناءة أو هدامة حسب طريقة عرضها وأسلوب طرحها. وإذ يفيد

العقل والمنطق والمشاعر قيمة في أي مخطط أو مشروع، فإنه من المهم جدًا وجود تمثل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام التغيرات العاطفية. وأحيانا قد تبيد الأعمال بعضها بعضًا بـ«التعارض» و«التساقط»، وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيرًا وصالحًا؛ فعندما يحاول أفراد النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشترك؛ يسحب بعضها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى. فتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف.. كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومثل عليا، أو وجدت ولم تمتلك معها جاهزية ذهنية تناسبهما، فإنك تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب - منذ البداية - تعيين هدف سام يوقره الوجدان ويرغب فيه الانسياق الداخلي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني ذلك تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة.

لقد تكاتفت المساعي الفردية كلها إبان الكفاح الوطني (حرب الاستقلال) في اتجاه تحقيق «تركيا المستقلة». فهذا الهدف كان بسيطا جدًا؛ ولكنه استطاع أن يحوز على الاحترام من كل الفئات، فيستحوذ على العقل والمنطق والعواطف، ويكثف الحركات كلها في نقطة واحدة.

فكانت هذه القوة - في إطار الشروط العادية والأخذ بالأسباب - كافية لتحقيق الهدف المنشود. غير أن كل نصر وظفر يستجلب الفتور والزهو.. لذلك، من الصعوبة بمكان الحفاظ على نقاء لون الفكرة من التغير، وإدامة وجودها بحيويتها التامة. ونترك تقويم مدى نجاحنا في هذا الأمر للتاريخ.. ونقول: إنه لا مفر للمجتمع الذي يعيش مشاعر الظفر والنصر ويتنشى بهما، من ارتخاء التحفز المعنوي ومن التورط في دوائر الحلقات المفرغة للفتور، ما لم يستمر إمداده بغذاء الأسباب الجديدة المحفزة نحو الأهداف والغايات السامية. وقد لا نصيب إذا حصرنا أسباب ارتخاء هذا التحفز في الفتور المصاحب للانتصارات، أو نشوة النصر، أو الانقباض واللامبالاة اللذين قد يعتريان طبع الإنسان. فهناك أمور أخرى تولد شروخا واسعة في حياتنا الفكرية وفي حركياتنا؛ مثل تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحي بالثقة فتوجد التذبذب والشك، أو مثل ضعف قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحيانًا إلى درجة العجز عن رؤية مواطئ أقدامهم بله إبصارهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعفنا كأمة عن الإحاطة بواقع حالنا، أو نقص التحفيز فينا، أو تقديم التفكير الميكافيلي النفعي على القيم الدينية وقيم الأمة.

ونحن الآن في مواجهة سلسلة من الأزمات المختلفة الناشئة من بيئة مفعمة بكل هذه المحاذير. وحالنا يوحي بإمكان انفلات الذات وإرسالها، والوقوع في تبعثر وتشتت يؤدي بنا إلى الانحلال والذوبان. ولا شك أن هذا يثير شهية العدو، ويخذل الصديق. بل الأدهى والأمر هو احتمال أن نصرع ونسقط - حفظنا الله تعالى - إذا تكاسلنا في سد هذا الكم من التغيرات العقلية والمنطقية والعاطفية المقترحة في حياة الأمة. وحتى يجنب أمتنا من القطائع والفواجع التي لا مفر منها في حال سقوطنا، فمن الضروري والمحتم أن ننسلخ ونتزحزح تمامًا عن البيئة في انعدام الهدف وقابلية الانصياع للاستعمار والاستغلال، ونقسيه العيش تحت الوصاية. وهي الحالات الملازمة لدول العالم الثالث.. وعلينا أن نتشبث بالسعي مستعينين بالله تعالى، ونستهدي التوفيق الإلهي في وحدة الأمة وتوافقها، ثم نركز على كينونتنا الذاتية ونتعقب أهدافنا وغاياتنا السامية.

ومن الظاهر عيانًا وبيانًا، أننا لن نتغلب بمشاريع سبق أن تعودناها، على كل هذه السلبيات في مرحلة عاصفة تواجهنا فيها مهاوٍ سحيقة متشابكة، وجسور منهدة وطرق متوعرة، وبأمة مرهقة بمحن متنوعة لم نشهدها في تاريخنا إلا قليلا. إن مثل هذه الأحوال غير الاعتيادية، تستدعي همما وجهودًا تتجاوز الهمة والحمية الإنسانية، وطاقة تعلو فوق ما هو المعتاد.

وبالتالي قد تكون هذه الأحوال المدلهمة أحيانا ميلادًا تاريخيا للأمم، بمخططاتها، ومشاريعها، واستراتيجياتها، وعقولها النابغة التي تنتج هذه المطلوبات، وممثليها الأبطال الذين جلوا عن أن يعيشوا لأنفسهم بل نذروا حياتهم لإحياء غيرهم.

ولذلك، نؤمن - في هذا الوقت الذي نرجو ونأمل فيه أن نكون أمة عظيمة - بضرورة وضع مناهج ومشاريع مصوغة بعقلية محترفة ومتخصصة، بل - قبل ذلك - بضرورة إعداد أجيال مثالية مستهدفة إنشاء أمة عظيمة. إن تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإن كان في دائرة صغيرة، وظهور نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دورهم وأوطانهم مهاجرين إلى أرجاء الأرض المختلفة، بروح الكفاح الوطني (حرب الاستقلال)، وسعيهم في زرع فسائل «روح الأمة» في كل مكان، ووضعهم اللبنات الأولى لتفور حلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة، وعرضهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلوا، وكدهم من أجل إبراز موقع أمتنا الموروث من أعماق التاريخ لتملأ مقعدها الشاغر اللائق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدر معين.. لهي أمثلة شاخصة ومهمة، ترينا ما يمكن أن تفعله الأجيال التي تعلق قلبها بفكر سام إلى حد العشق.

وإن هذه الكوادر «المحتسبة»، التي قد تجوع أحيانا وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوما بالإيمان والأمل والعزم، وكأنهم المعنيون بوصف محمد عاكف:

«مستعينون بالله، متشبثون بالسعي، مستسلمون للحكمة الإلهية»، هؤلاء يحلون - بحملة وانطلاقة واحدة، وبنفخة

واحدة - معضلات تعجز دول كبيرة أن تحلها بأنشطة «لوبياتها» وصرفها الملايين على إعلاناتها.

فينبغي أن لا يستهان بهذا «التكوين» الباهر، ولا يعلل بسلسلة الصدف، ولا يربط بمكانة الدول المهاجر إليها. بل السر في هذه الحركة الرائعة هو توجه القلوب المخلصة إلى الله تعالى، ومن الله تعالى بزيادة الإحسان على هذه الأمة التي توارثت العز من أعماق تاريخها. نعم، يناط النجاح في هذا العمل - كما في كل نجاح - بالهمة والحمية من الصدور النابضة بالإخلاص، وبالوفاء من الأمة، وبالتوفيق من الله تعالى.

إن الأبناء المضحين اللائقين بهذه الأمة الوفية، يهرعون أفواجا باسم وطن المستقبل الكبير، إلى الغربة والحرمان، وفي أيديهم مشاعل العلم والعرفان، كالذين كانوا يتحدون اليأس والعجز في أشد محن التاريخ، وكالحملات الباهرة المتدفقة في انبعاث فجائي، والمترعرعة بجلوات الغنى والوجود على الرغم من الفقر والعدم، وكالجيوش المتقدمة إلى الموت في سرور وانشراح، على وقع الأناشيد الوطنية، على رغم أنف التضييق والافتراء والاتهام مثلما يحصل اليوم. هؤلاء يؤدون منذ سنوات من غير توان أو فتور، رسالة مهمة لحساب أمتنا وشعبنا وبلدنا، ونبع قوتهم التي لا تنفد هو إيمانهم، ووقود مشاعل عشقهم وحماسهم الذي لا يخمد هو هدفهم السامي وفكرهم وروح الأمة.

إن الذين يجهلون الأهمية الحيوية لهاتين المقومتين، ولا يعقلون القدرة التي يوجدها الإيمان والأهداف السامية في الإنسان، فيتساءلون في شك ممزوج بالحقد والبغض أحيانا، وفي رفض غاضب متشرب بالهذيان أحيانا: «كيف يحصل كل هذا؟ ما مصلحتهم في هذا؟»... هؤلاء بقولهم هذا يفضحون أنفسهم ويظهرون مدى حرمانهم من الأهداف والأفكار السامية.

ومن المسلم به، أن الفكر والهدف السامي نشيد يحرك الأجيال المثالية، ومولد طاقة؛ يشحن طاقتهم الدائمة، ومنبع صاف يمد عشقهم وحماسهم، ومشاعر فياضة متدفقة ترفع إلى السماء نداء مصيرهم. وبفضل هذا الفكر السامي، تصل المساعي الفردية المتوسعة باطراد والمتحولة إلى حركة جماعية، وإلى عمق مختلف وتدفق مختلف وإيقاع مختلف، وبطبيعة الحال- إلى نسق مختلف، فتجد لتيارها مجرى حتى وإن اضطرت إلى اجتياح القمم لمواصلة المسيرة.

ففي عصور تخبط الإنسانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقة من صدر الصحراء هو إيمانهم واعتبارهم تفريغ إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم إلى صدور الآخرين هدفا أسمى؛ فبحملة واحدة بدلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل ونفسه في ثلاث قارات. وكانت المقومات عينها وراء الأمل العثماني الكبير؛ فهي التي استنهضت عشيرة من هضاب آسيا، ودفعتها للسير إلى الأناضول لتقيم دولة عظمى. وأيضا هي التي كانت في عقول أبطال الكفاح الوطني (حرب الاستقلال). وكذلك جموع الهند الذين لم يكن يبدو على سيماهم أمارات الحياة في أواسط القرن العشرين، فحركهم إلى الحرية والاستقلال حماس عظيم؛ كان أساس قوته إيمان ذلك الشعب وأمله، وفكرة أن يحيوا ويبقوا بذاتهم ومقوماتهم.

لكن ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين؛ فإن كنت مهندسا، فعليك أن تعد العدة قبل البدء بإنشاء صرح؛ فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام آحادها فيما بينها ومشاركتها في جمال ذلك الصرح ومظهره. وهل يتحقق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلها!؟ إن الهمم والمبادرات الفردية، إن لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظم تنظيما حسنا، فستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة.. وبالتالي سيختل النظام، وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتنقص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام بعضها في الحساب.

وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تطفأ جذوة الطاقات الفردية بتاتا، باحتساب ضرر قد تسببه، بل على العكس؛ تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجه نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقا، ويزاح خلق المصادمة في النفوس، ويستبدل بروح التوافق، بل يطبع كل إنسان بهذا الطبع مهما أمكن.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا: إن الأديان كلها جاءت لترسيخ هذا الفهم خاصة، ضمن أبعاد تبليغاتها الشاسعة؛ فقد وضع كل دين ضوابط لتنظيم القدرات الفردية، فحولتها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقة الكامنة الموجودة نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبإرشاد الدين يوازن كل فرد حريته وفعالياته الشخصية، مع حركة المجتمع وفعالياته؛ فيتصرف حرا موقيا إرادته حقها من جهة، ومحافظا على تكامل الحركة مع الآخرين من جهة أخرى، فينجح في تحقيق الأمرين معا. كالنجم التابع في موقعه، يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت عينه. ولا يغترن أحد بحيوية الحركات ونشاطها كل على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاء التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا يسند بعضها بعضا في خط المقصود العام، فتولد أحيانا نتائج أشد سوءا من السكون والجمود.

خلاصة القول: إن السكون والجمود، وكذلك الفوضى في الحركة، كلاهما موت. والمحتوم على الأمم التي تضعضعت نفوس أفرادها بمثل هذا الموت أن تغلب وتطرد إلى خارج مسرح التاريخ.

ومن دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان؛ الأنانية، وثقة الإنسان بنفسه،

وقصور فهمه لحدود قدرته، وقصور إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعاليات المشتركة والوفاق والاتفاق فى جلب العناية الإلهية. وكذلك، قد تسبب الشهرة والمنصب والطموحات الشخصية والنوازع الأخرى فى تقدم الملاحظات والنوازع الفردية إلى الصف الأمامي. وقد يظهر بمثل هذه الملاحظات والنوازع منحوسون نسوا أهدافهم ونيتهم تمامًا، وخنعوا لمطالب الأكل والشرب والنوم وطرح الفضلات، بعدما كانوا فى صفوف «الخدمة - الدعوة» يهتفون بأناشيد الخدمة ويبذلون قصارى جهدهم طلبًا لتحقيق مرضاة الله تعالى.

إن من ينسى المقصود ويضيع الغاية المنشودة سيسقط - بالضرورة، كائنًا من كان - فى شباك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق «الخدمة - الخدمة»، وتنطفئ عنده مشاعر «العيش من أجل الآخرين».

من هذه الزاوية، يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التى تفوق كل القضايا هى إلهاب جمرة «الرغبة فى إحياء الآخرين» فى أرواح أفراد الأمة مرة أخرى، وتنقية الأفكار الغريبة المندسة والحائلة بين «الأمة» وأهدافها السامية .. ومن بعده، تحريك طاقتها التى تبدو خامدة، وحثها بتحفيز جيد وبأنشطة وفعاليات منضبطة ومنظمة، على السير نحو هدفها التاريخى كرة أخرى. ومن الضرورى لمثل هذه الحركة تحديد معالم المساحات المشتركة التى ستشكل المحور لحركة المجتمع المشتركة بكل شرائحه

من بدو وحضر، ومثقفين وحرفيين ومعلمين، وطلبة، وخطباء ومستمعين .. ونعنى بالمساحات أو القواسم المشتركة أمورا مثل السعى لجعل أمتنا عنصرًا مهما فى التوازن الدولى .. والعزم والإصرار من كل فرد على أداء هذه الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات .. والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منع حصول الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية أثناء التحرك الجماعى .. واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث وسائل للارتقاء العمودى نحو الله تعالى، وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائمًا.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيحافظون على حماسهم وحيويتهم، وستجرى الفعاليات والأنشطة الجماعية بانسجام ووئام، وسيستفاد من الوقت والإمكانات بأجدى وسائل التحفيز السريعة، وستبقى أبواب التجدد مفتوحة أبدا بفضل السماح للتفكير بالتوسع.

ولتحقيق هذا كله، لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديدًا للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين؛ وإنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهمية الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية. لكن المؤلم حقا أن الأقوال فى هذه المسألة مختلفة اختلافًا بينًا إلى درجة تحير العقول .. فهوى النفس يتقدم العقل ويغتصب مقام الألوهية، والعواطف

تصدر أحكامًا من فوق عرش المنطق .. وكما نرى هذا الانحراف لدى نفر من اللادينيين الذين احترفوا الإنكار والإلحاد والذين تعودوا مهاجمة الدين، فكذلك من الممكن أن نراه أيضا عند بعض المتعصبين المحرومين من الحياة القلبية والروحية، الذين يحسبون أنهم فقط متدينون .. هذان الصنفان قد يبدوان مختلفين فيما بينهما حسب الظاهر، لكنهما كفرسى رهان فى الإضرار بالدين والأمة والوطن.

الصنفان كلاهما لا يوقر روح الدين، وكلاهما لا يتسامح فى التفكير الحر، وكلاهما منغلق أمام فكرة المشاركة والتقاسم. رأس مالهم الأعز هو الفرية والزور والتشويه، وأجود فنونهم هو النميمة واللمز على غير المحسوبين منهم .. لا يهمهم إلام يلجأون، ولا على من يستندون؟ فالمهم أن يبتلعوا ويأكلوا من لا يستسيغون وجوده. والحقيقة أن الفريقين يبذلان فى هذه المسألة جهدا عظيمًا وحثيثًا أظن أنهم لو صرفوه فيما يليق، لعمروا الأرض كلها.

وبدهى أنه فى هذه الأجواء المظلمة الخانقة، وفى ميدان الذين لا يفكرون ولا يبصرون ولا يعلمون، لن توجد الحياة الفكرية والعشق إلى الحقيقة والتحرى فى سبيل العلم والبحث .. وإن وجدت، فلن تنمو وتتطور .. وإن نمت وتطورت، فلن تغادر عالم الأحلام والفانتازيا. وإن حالنا المتكسر البائس شاهد على ما نقول ليس بلسان واحد بل بألف لسان.

لكن الحال يقتضى فى الواقع أن تكون عقلية أمتنا عقلية إعمار وإنشاء، وأن ننجو من هذه الحالة التى نتخبط فيها والتى نعانى فيها من فقر التفكير وغياب الأهداف. ونحن اليوم بحاجة ماسة - قبل كل شيء - إلى هدف سام بعيد المرام، هو انبعاثنا برؤيتنا الحضارية وبثقافتنا الذاتية. ولكى ترتقى أمتنا - كصرح سامق - على أركان القيم التاريخية وقواعدها لابد لها أن تزيد من الصبر على الأوجاع والعذاب وتباطؤ الزمان الذى قد يوصل الإنسان إلى حد الجنون. إن مراعاة سير تطور الأحداث ضمن طبائعها منوطة بسعة المعرفة بهذه الطبيعة. القرآن الكريم يخاطب سيدنا رسول الله ﷺ فيقول:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾

(التوبة: ٤٢).

فيسرى عنه ﷺ ويوبخ المتخلفين المتهاونين فى الطريق.

وحسب المنظور الإسلامي، يعد المقصود حاصلاً بنوال الهدف البدهى لكل حركة أو انطلاقة، وهو رضى الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجة الخدمات المقدمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها فى التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى فى كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية ومجرد وسائل تؤدى إلى الهدف الحقيقي.

قراءة فى كتاب

بقلم/ أ. عادل خفاجة

فى كتاب ربنا العزيز:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وهى دعوة للمسلمين إلى الالتفاف حول دين الله سبحانه وتعالى والاعتصام بحبل الله المتين.

ويحذرنا سبحانه وتعالى من مغبة الخلاف والنزاع فيقول عز من قائل:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

وهذا يدلنا على مبلغ اهتمام الإسلام بالوحدة، والألفة والمودة، لأنه دين الاجتماع والتكاتف، فالإسلام دين قائم على التوحيد والوحدة، ومظاهر الوحدة غالية وواضحة فى شعائر الإسلام بعامة فنلمسها فى صلاة الجماعة حين تنتظم الصفوف خلف إمام واحد، وفى الأعياد وفى الصوم ثم يأتى جماع ذلك كله فى عرفات.

وفى الواقع فإن الحديث عن وحدة المسلمين يملأ بطون الكتب ولا يغيب عن أى من كتب التفسير أو كما يقولون: "إن هذا الموضوع قتل بحثا" ولكن ما يدعو إليه الآن هو ما وصل إليه حال أمتنا من تفتت وتشرذم وهو نفسه الذى دعانا لعرض هذا الكتاب (نحو التوحد الإسلامى الكبير).

مؤلف الكتاب:

هو الأستاذ أشرف عبدالرافع محمد السيد، الشهير بأشرف عبد الرافع الدرفيلى ولد عام ١٩٧٠م بأبى تشت بمحافظة قنا - بمصر.

حصل على ليسانس أصول الدين والدعوة الإسلامية بقسم العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر ثم دبلوم الدراسات الإسلامية، ثم ماجستير الدراسات الاجتماعية حول "الحرية والمعرفة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسى" وهو باحث دكتوراه بكلية الآداب - جامعة المنوفية وأطروحته بعنوان: "البعد الإيمانى فى فلسفة الحضارة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي" - قسم الفلسفة الإسلامية، له العديد من المشاركات العلمية والاجتماعية فهو نائب رئيس مجلس إدارة مجلة عالم البحوث والدراسات الأكاديمية المحكمة، وعضو مجلس إدارة الاتحاد العربى للثقافة والإبداع ويتمتع بعضوية العديد من الجمعيات نذكر منها: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والجمعية الفلسفية المصرية والجمعية الثقافية التركية بالقاهرة ورابطة الأدب الإسلامى العالمية.

وله عدد من الكتب تأليفًا وتحقيقًا نذكر منها:

كتاب "الحرية والمعرفة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسى" (تأليف) بالإضافة إلى كتاب "نحو التوحد الإسلامى الكبير" (تأليف)، وكتاب "التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم" محقق بالمشاركة مع الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح والمستشار توفيق على وهبة وكتاب "تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى" محقق بالمشاركة مع الأستاذة الدكتورة / زينب عفيفى شاكر، وكتاب "النبوات لابن تيمية" محقق بالمشاركة مع المستشار توفيق على وهبة.

أسباب تأليف الكتاب:

يتضح لمن يتصفح الكتاب أن المؤلف محب للإمام النورسى وقد استوعب جل ما كتبه ذلك الإمام الكبير وقد سجل ذلك فى مقدمة كتابه حيث يقول:

"جعلت زادى - فى كتابة هذا الكتاب - رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي، لأننى وجدتها جوهرة ثمينة، ودرة يتيمة، جمعت حلولاً لقضايا شائكة عديدة، وغاص صاحبها فى كتاب الله وسنة نبيه بحكمة ولين، وبفكر مستنير، وعقل ناقد، ومنطق طبيعي، وتدبر واع، وتتبع الأمراض الفاشية فى الأمة فأخرج لها من القرآن والسنة العلاج النافع، بعيدًا عن الإسرائيليات والأساطير، أو التهجم على فريق لنصرة فريق آخر، ولكنه تعامل بحيادية القرآن والسنة، لا يحابى طرفا فى الحق على حساب آخر، بل يحكم بما يستنبطه من القرآن، حتى ولو على نفسه".

الكتاب:

يقع الكتاب فى مائة واثنين وتسعين صفحة من قطع ١٤ X ٢٠ سم وقد صدر فى طبعته الأولى عام ٢٠١١م عن دار سوزلر للنشر بالقاهرة وقد احتوى الكتاب على تقديم ومقدمة وعدد من الموضوعات فأما التقديم فجاء بقلم المستشار توفيق على وهبة رئيس المركز العربى للدراسات والبحوث عضو المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية، الذى أشار إلى عبقرية الإمام النورسى وقناعته بأهمية الوحدة فيذكر للإمام النورسى قوله: إن أهل الإيمان والحقيقة

في زماننا هذا، ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضًا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، دفعًا لعدوهم المشترك الملحد المعتدي.

ويحذر في موضع آخر من إثارة النعرات وإيقاظ الفتن، وذلك بطرح المواضيع المختلف عليها، حتى مع المؤمنين المنسوبين إلى فرق ضالة، لا ينبغي أن نثير معهم نزاعًا وخصامًا في هذا العصر العجيب، بل لا نجعل نقاط اختلاف ونزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى.

وقد أحسن الدكتور وهبة حين وصف حال الأمة الاسلامية قائلا: وبدل أن نكون فاعلين لتقدم أمتنا، أصبحنا ضائعين لأزمتنا وتصلبت شرايين حياتنا، والتجأنا لسياسة المسكنات وترحيل أزماتنا.

أما مقدمة الكتاب فإننا نقف أمام حسن استخدام المؤلف للصورة البلاغية للتعبير عن أهمية الوحدة الإسلامية في قوله: إن قطرات المطر، ولمعات النور، كلما بقيت متفرقة، وظلت متناثرة، جفت بسرعة، وانطفأت حالاً، فينادينا رب العزة سبحانه قائلاً:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ولكن الواقع يؤكد أن هناك خطرًا يهدد هذه الوحدة، مبعثه الدسائس التي تريد تفريق الأمة الإسلامية

أما الموضوعات فجاءت كالتالي: وحدة الأصل الإنساني، المبادئ الإسلامية العامة للعلاقات الإنسانية ،لحظة صدق ونظر وتدبر، أهم الركائز المشتركة بين المسلمين، القرآن يرفض الافتراق والاختلاف، القرآن والمذهبية، تفعيل مقومات الوحدة والتقريب ،رسالة الأخوة، رسالة الإخلاص، حرية الحوار ،التحرر من معوقات تفعيل الوحدة والتقريب، التحرر من الجهل، التحرر من التقليد، التحرر من الأنانية، والعجب والغرور، التحرر من التعصب، التحرر من العنف، منهاج السنة، الصحابة في دائرة بيت النبوة، ذيل رسالة الاجتهاد ، سؤال وجواب، التفكر في الأخبار الغيبية، الفتن الطائفية وآثارها على العالم الإسلامي ومستقبله.

وحدة الأصل الإنساني:

بعد أن قدم المؤلف عددًا من الشواهد المؤيدة لوحدة الأصل الإنساني من الكتاب والسنة خلص إلى أن تلك الأخوة (الأخوة الإنسانية) التي تستند إلى وحدة الأصل الإنساني، تستوجب أن يؤدى حقها، بأن يعيشوا مع بعضهم البعض في حب ووئام وسلام، برغم اختلاف العقائد والأديان، وحتى هذه الاختلافات يمكن أن نتحاور معا حولها، بأسلوب لين وهادئ، دون اللجوء إلى سفك الدماء، وانتهاك الأعراض والحرمات.

وأنه إذا كان الخطاب القرآني والسنة النبوية يؤكدان وحدة الأصل الإنساني، فإن المسلمين هم أحق وأجدر وأحوج إلى تفعيل وتحقيق الوحدة الإسلامية، تبعًا لما يأمر به هدى كتاب ربهم، وتمسكا بتعاليم نبيهم، وتطبيقًا لوحدة قبلتهم.

المبادئ الإسلامية العامة للعلاقات الإنسانية

وتحت هذا العنوان يتكلم عن التكريم الإلهي للإنسان، مطلق الإنسان، بغض النظر عن دينه، أو عرقه، أو جنسه، أو لغته، أو لونه مستشهدًا بقول الحق تبارك وتعالي:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠).

ليترتب على هذا: أن الإنسان مصون، وأن نفسه محترمة لمجرد دخوله الدائرة الإنسانية، ثم يتكلم عن حرية العقيدة ليشير إلى أن الإسلام أرسى مبدأ النهي عن الإكراه في العقيدة، واستنكر فكرة القهر لإدخال الناس في ملة أو نحلة أو دين أو مذهب، أي أنه لايجوز إرغام أحد على الدخول في دين من الأديان أو الخروج منه لأن الإكراه على اعتناق دين من الأديان، ينتج ويفرز منافقين متعصبين، لا مؤمنين متسامحين.

ثم نقف مع المؤلف لحظة صدق وتدبر حين يشير إلى أنه من غير المقبول أن ترى الأمة الإسلامية مصابة بداء التفرق لأن ذلك غير مقبول في الإسلام، ولا يقبله صاحب عقل سليم، ولا تستسيغه نفس سوية، لأن كتابهم وسنة نبيهم واضحة جلية، بأنه لا فرق بين إنسان وإنسان، مهما اختلفت أديانهم ولغاتهم وأماكنهم، فكيف يكون الحال بأصحاب دين واحد، ومقرون بإله واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد ثم يتفرقون من أجل استنباطهم لأمور دينهم الفرعية، تحت مسميات مذهبية لا قيمة لها، إذا قسناها ووازناها بروابط الإسلام العظيمة، فيتهجم هذا على هذا بمسميات تكفيرية وتبديعي، مع أنهم جميعا متفقون على الأصول والأسس والمرتكزات، بل ومتفقون على جوانب فرعية كثيرة لا تعد.

لا يتصور إنسان عاقل أن يتهجم مسلم على مسلم آخر شهد أنه لا إله إلا الله، ثم يصدر حكمه عليه بالتكفير، وإخراجه من دائرة الإسلام.

إذًا فنتاج هذا الخلاف، والتطاحن، والتشاحن، لم يخلق إلا العار، والذل، والهوان، وأصبح أداة للتخلف والتشرذم، وإهدار ثروات الأمة وعزها ومجدها، بل والأهم: أن الأمة الإسلامية المأمورة بالتعمير والاستخلاف أصبحت عالة على غيرها.

أهم الركائز المشتركة بين المسلمين

أما عن الركائز المشتركة بين المسلمين فقد تناول وحدة العقيدة ووحدة المصدر التشريعي (القرآن والسنة) ووحدة العبادة ويتساءل: أية عبادة أبلغ وأعمق في غرس الوحدة من صلاة الجماعة؟ يصلون خلف

إمام واحد، ويناجون ربًا واحدا، ويتلون كتابًا واحدًا، ويتوجهون بوجوههم وقلوبهم لقبلة واحدة، وهي الكعبة البيت الحرام، ويؤدون أعمالاً وحركات واحدة.

وما ذلك إلا لأن الإسلام يكره أن ينحصر الإنسان في نطاق نفسه، ويكره أن ينأى المسلم بمصلحته بعيدًا عن مصلحة الأمة وحياتها وشئونها.

القرآن يرفض الافتراق والاختلاف

ويقدم العديد من الشواهد القرآنية منها:

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(هود: ١١٨، ١١٩).

وهذه الآية يستند البعض إليها كدليل على سنة الاختلاف، ولكن لا يلتفت إلى الآية التي تعقبها، التي تبين أن من خرج عن دائرة الاختلاف، فذلك لفوزه برحمة الله، التي لا تتلاقى مع التنازع والاختلاف، حيث إن رحمة الله لا تنبت في أرض أصابتها ملوحة وتحجر الشقاق والاختلاف، فالاختلاف كله مذموم، ولا تباين بين الفرقة والافتراق، فكلاهما تمزيق للبشرية، وإعاقة لمسيرتها وانحراف عن منهج الله، ذلكم المنهج الذي يجمع بين التوحيد في العقيدة، والوحدة في المجتمع.

لهذا جاء التحذير الإلهي بالابتعاد عن كل موضع أو موطن يؤدي للفرقة أو الاختلاف، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

القرآن والمنهجية

إن الحال التي يجب أن يلازمها كل مؤمن بالله، هي حال الاتباع والطاعة لله ولرسوله كما أمر ربنا تبارك وتعالى، والسير على صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي يلتقي فيه المسلمون - سنة وشيعة - على المحبة والمودة والإخاء، ويفوزون باتباعهم لمنهج الله ورسوله بمحبة الله ومغفرته.

وقال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

قال تعالى:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

(الأعراف: ٣)

وهذه الآيات السابقة، رسخت قناعة تامة عند الإمام النورسي، بأنه لو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه - الناشئة من الحاجة إليه - أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات، نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمنًا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة، ومنفذة كليًا، وما كان

يظل كتابًا يتبرك بتلاوته فحسب.

تفعيل مقومات الوحدة والتقريب

يستهل المؤلف هذا الفصل متسائلاً: ما هي المنهجية الصحيحة، والكيفية المثلى التي نتبعها، لنحكم الإسلام في جميع أمورنا وقضايانا داخليًا وخارجيًا، ويكون هو الفيصل، والحكم العدل، الذي لا يحابي أحدًا على الآخر؟

ثم تأتي الإجابة: أنه لابد من صياغة مجتمعاتنا من جديد، لابد من تغيير المجتمع كله إلى الإسلام، وبعبارة أخرى: أسلمة المجتمع، وأسلمة الأفكار والمفاهيم، وأسلمة القيم والأخلاق، وأسلمة العادات والتقاليد، وأسلمة الأنظمة والقوانين، وأسلمة الثقافة والإعلام، وأسلمة التربية والتعليم، وأسلمة العقل والقلب والجوارح، وأسلمة الوسائل والأدوات والأهداف والغايات.

وما ذلك إلا لأن الإسلام دين عظيم، وهو أفضل دين، وهو منة ونعمة أنعم الله به علينا، ومن علينا بأكرم نبي أرسل، وأعظم كتاب أنزل وهذا قوله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

حرية الحوار

يتناول المؤلف المعنى اللغوي لكل من "الحوار" و"الجدال" ثم يشير المؤلف إلى أن من يطالع كليات "رسائل النور" للإمام النورسي، يجد أن الحوار بجميع مفاهيمه ومعانيه التي ترقى بالإنسان، قد جاءت في مواضيع كثيرة، أهمها:

حوار الإنسان مع نفسه وحوار الإنسان مع الإنسان وهذا يؤدي إلى الالتزام بالقيم، حينما يسعى الإنسان إلى تزكية نفسه والسمو بها، بالإضافة إلى حوار الحضارات، لأن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتقت.

هذا فضلاً عن توجيهات الرسائل لتقويم السلوك الحواري، وكيفية التعامل الحواري مع الآخرين بكياسة وعقلانية وتسامح مستنير

كما يشير المؤلف إلى أن رسائل النور جميعها تتضمن الكثير من المحاورات البناءة والهادفة، والتي من خلالها يريد النورسي أن يرسخ أن المكاشفة والحوار ضرورة حياتية، وتحرير للعقل والفكر من سيطرة التعصب والجهل.

وأن الحوار يصحح المفاهيم ويقرب وجهات النظر، ويولد المحبة والأخوة ويشيع الأمن والاستقرار أما الانغلاق والانكفاء فهو قاتل للإنسانية، والانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء.

وأن العزلة الحضارية والجهل صنوان كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التقدم والتطور.

وأن الحاجة إلى الحوار أصبحت ملحة في أيامنا هذه أكثر من أي وقت مضى، لأجل بناء عالم تسود فيه المحبة المتبادلة والتعاون،

واحترام حقوق الغير.

والأهم هو أن يؤسس الحوار على النقاط التى تلقى التقاءً وقبولاً مشتركًا، والعمل بمنهج القرآن فى الحوار، ثم تصفية الذات من أى أحكام مسبقة قبل بدء الحوار، مع الالتزام بتفعيل ضوابط آداب المناظرة والحوار.

إن حرية الحوار تستدعى تأصيل الحوار المنطلق من السلم، والتعاون، والتفاهم، والتعايش، وهذا المنطلق مصدره القرآن.

لذلك فإن مفهوم الحوار الحضارى فى رسائل النور، يقدم بديلاً موضوعيًا لفكرة صدام الحضارات والثقافات، من خلال عرضه مبدأ (التكامل) بدل (الصراع) و(التعايش) بدل (الإقصاء) شريطة أن يقوم الحوار بين جميع المتحاورين على قدم المساواة، وعلى احترام تعدد الثقافات، وهو ما نستشفه من قول النورسي: (اعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية، ألا تتجافى مع طبقات الإنسان، وأن لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهما)

التحرر من معوقات تفعيل الوحدة والتقريب:

استهل المؤلف هذا الفصل من الكتاب بقول الإمام النورسى: "يا أبناء وطنى وإخوانى، كفاكم نومًا، تيقظوا فلقد أذن الصباح وإلا ستنهيكم الغفلة وأنتم تغطون فى نوم عميق فى صحراء الجهل القاحلة"

وذلك لأن (الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوروبا لتحمل ظنًا خاطئًا من أن الشريعة تعين الاستبداد).


بديع الزمان النورسى

ويبين النورسى أن جهلنا الذى تفشى فينا أدى (إلى جهل الأجانب بالإسلام).

(ثم إن أعداءنا ليسوا الأجانب..

وإنما الذى أردانا إلى هذا الوضع وحال بيننا وبين إعلاء كلمة الله هو مخالفتنا للشريعة الغراء نتيجة جهلنا بها).

(ألا تبًا وسحقًا وبعدًا للجهل).

وبهذا الأسلوب الرائع الذى تبناه المؤلف والذى أظهر فيه عبقرية الإمام النورسى يواصل الحديث عن التحرر من الجهل ومن التقليد، ومن الأنانية، والعجب والغرور، والتعصب، والعنف ويلتزم ذلك الأسلوب حتى نهاية الكتاب.

وبعد.. فقد أصاب المؤلف حين قدم هذا الكتاب لينبه على ضرورة وحدة الأمة الإسلامية والعمل على تحقيقها.. وليقدم للقارئ العربى واحدًا من علماء الأمة الإسلامية الذين عاشوا يحملون هموم أمتهم باحثين عن حلول لعل تأخذ الأمة إلى بر الأمان.

ويجب أن نشير إلى أن المؤلف قد أورد رسالة الأخوة، ورسالة الإخلاص، نصًا لأهميتهما وهاتين الرسالتين للإمام سعيد النورسى ونحن نشاركه الرأى فى ذلك ونرجئ الكلام عنهما لنخصهما بحديث منفصل ولعله يكون قريبا بمشيئة الله تعالى.

حول التصور العقدى فى الإسلام

٢

المستشار طارق البشرى



الإسلام هو الدين الخاتم، فما معنى هذه الكلمة، أى ما علاقة الإسلام بالأديان السابقة عليه، وكيف حال البشرية من بعد؟ أى كيف يسير المسلمون بالإسلام بعد تمام نزول رسالة الإسلام. إن الله سبحانه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، فالإسلام بذلك هو الرسالة الخاتمة، لأنه الرسالة الكاملة. فما معنى كمال الرسالة، وكيف يمكن للرسالة الكاملة التامة أن تنفذ فى بشر ليسوا كاملين ولن يكونوا كاملين أبد الدهر، وهم يتولون ويصيرون من حال إلى حال على الدوام، وعلى مدى تاريخ البشرية فى هذه الحياة الدنيا.

الإسلام اسم عام استخدم فى القرآن الكريم بمعنى الأديان السماوية كلها. وهو اسم للدين الذى نادى به نبى من أنبياء الله. ومما يعنيه الإسلام عامة التوجه لله سبحانه فى خضوع مطمئن ما ورد من عند الله، فهو تسليم النفس لله.

هذا الاسم العام للدين عامة، اختصت به الرسالة التى نزلت على محمد بن عبدالله ﷺ فصار «الإسلام» مخصوصًا بالرسالة المحمدية وصار معناه الخاص أنه مجموع القواعد التى نزلت من الله سبحانه على محمد وأن اختصاص الرسالة المحمدية بالاسم العام فيه معنى الختم والإكمال، بحسبانه الرسالة التى استوعبت ما جاء قبلها ولم يعد ثمة مزيد.

ولكى نراجع هذا الأمر يحسن أن ننظر فى تسلسل دعوات الأنبياء وتعاقبها، ويمكن أن نلحظ من ذلك أن دعوات الأنبياء تشمل الدعوة لعبادة الله مع حض الناس على الإقلاع عن رذيلة فشت فيهم أو حضهم على محمدة تنقصهم. هكذا صنع لوط لما طلب من قومه أن يمتنعوا عن الخبائث، وهكذا صنع شعيب لما أراد أن ينهى قومه على نقص المكيال والميزان، وهكذا صنع صالح مع ثمود وهود مع عاد. تلازمت الدعوة لله المعبود وحده مع الدعوة لمكارم الأخلاق وحميد الخصال، وهذه الدعوة الأخيرة تبدو أحيانا عامة أو تبدو خاصة بآفة محددة قامت فى مجتمع معين.

وكانت الدعوة لعبادة الله وحده تفتق في عقل الإنسان ووعيه هذا المفهوم العام الشامل المطلق للمعنى المجرد للربوبية وللذات الإلهية. وكانت الدعوة لحميد الخصال تهيئ البشر لإمكانية بناء الإنسان الاجتماعي الذى يمكن أن تتكامل له مثل التعامل المتحضر والسلوك الخليق بمن استخلف من الله فى الأرض. هنا نلحظ من تسلسل الدعوات الدينية، معنى متصلًا عبر هذه الدعوات يهدف إلى تكامل الدعوات الدينية، من حيث الترقى بالإنسان والإفساح من قدراته ليصير لديه التهيؤ لإدراك معنى الربوبية على النحو المطلق المجرد الكامل، ولتصير لديه الصلاحية على تقبل قواعد الأخلاق والسلوك الملائمة للحياة المتحضرة. فهى دعوات تلمست طريقها لكل قوم لتصلح فاسدًا وتقوم معوجًا، وهى بهذا تتوجه للبشرية كلها تضيف إليها رصيدًا عامًا يترقى بها فى مدارج الرقي. أى إننا نلمح هنا سلسلة تطور وحركة نمو فى الوعى الدينى المتفتق وفى السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى المتماسك. لذلك نلحظ أن كل نبى كان يصدق بما سبق من دعوات وبمن سبقه من أنبياء ثم يضيف، وهكذا.

إننا إذا نظرنا إلى إدراك الإنسان ونموه وتطوره، نجده ينمو ويتطور من إدراك الملموسات إلى إدراك المجردات، ومن النظر فى الخصوصيات إلى استيعاب العموميات، وكذلك ينمو الإدراك من المحدود إلى المطلق. فهو يدرك الشجر وآحاد الشجر ثم يدرك الغابة، ويدرك أفراد الناس من حوله ثم يدرك الوطن، ويدرك القلم والورق ثم يدرك معنى العلم ـ وهكذا. هذا التطور فى الإنسان لقيته البشرية فى تاريخها العام. ومن هنا تعددت الرسالات الدينية وتتابعت.

لقد كان أبو الأنبياء عليه السلام رسولًا ومعلمًا، ولقد استطاع بما أتاح له الله من قدرة أن يترسم «المنهج العقلي» للوصول إلى الحقيقة الربانية، استطاع ذلك فى عهد بعيد سحيق لم تكن البشرية قد استشرقت إلى هذه القدرة الكبيرة، لذلك فإن «نهج إبراهيم» ظل يتبعه الأنبياء من بعد على مدى السنين حتى أمكن أن يتحقق كاملًا وتستوعبه الجماعة فى خاتمة الرسالات، الرسالة المحمدية.

إن الله سبحانه لا يتنزل برسالته إلا على من عقله مهيأ لتلقى الرسالة، أى تكون لديه القابلية للتلقي. وقد أوضح القرآن الكريم منهج القابلية للتلقي لدى إبراهيم عليه السلام. نظر إبراهيم فى الكون يبحث عن صانع للكون، استبعد الأصنام التى يعبدها قومه، لأنها مصنوعة من البشر، والمصنوع من البشر لا يصنع البشر. وافترض فى الصانع فرضًا يبحث به عنه. فالصانع لابد أن يكون أقوى وأقدر من المصنوع، والمصنوع هو هذا الكون المرئى جميعه. والصانع لابد أن يكون أكثر وجودًا من المصنوع. والفاعل المؤثر يجب أن يكون أعظم من المفعول فى التأثير، وإذا كان المصنوع ذا حضور مستمر فى الكائنات الموجودة فى الحياة، فإن الصانع يتعين أن يكون دائمًا لا يغيب.

وبهذا الافتراض تقدم إلى ظواهر الطبيعة أو الظواهر المحسوسة يختبرها فى ضوء افتراضاته، وأهم المرئيات ذات الأثر فى ذلك هما الشمس والقمر، فاستبعدهما

لأن ما فيهما من علو وقدرة ينقصه الثبات، لأنهما تغيبان. فلما استبعد المحسوسات جميعًا انتظر يتلقى، أى أنه كان بهذا قد تهيأ لديه القابلية للتلقى. إذ استشرف للقوة غير المحسوسة (أى التى لا يدركها الحس) وتوجه بهذا إلى عتبات الغيب. وهكذا تنزلت عليه الرسالة. ثم بعد ذلك أراد أن يطمئن قلبه بأن طلب من الله أن يمكنه من أن يختبر «صواب التنزيل» عليه، فاستأذن الله سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى، واستجاب الله له لا ليطمئن عبده ورسوله فقط، ولكن ليكمل المنهج. منهج البحث العقلى، ثم يختبر صوابه بالتطبيق العملى من جديد.

وإبراهيم عليه السلام رسول ومنهج ورسالة، وهو الحنيفية الأولى، لذلك لما ألقى به الكفار فى النار، كانت عليه بردًا وسلامًا، فالنار لا تحرق رسالة ولا تحرق مبدأ ومنهجًا، وتكون على المبادئ دائمًا بردًا وسلامًا.

***

هذا النهج الإبراهيمى لم تستطع البشرية فى هذا الزمان البعيد أن تتمثله وتستوعبه تمامًا، لذلك كانت العقيدة الصحيحة ما تلبث أن ينحرف بها البشر. ولم يزل الأنبياء يتتابعون برسالاتهم لتصحيح الطريق ولتثبيت النهج. وفى هذا السبيل تجد رسالة موسى ثم المسيح عليهما السلام.

وقصه موسى وبنى إسرائيل فى القرآن الكريم تظهر لنا بوضوح إلى أى حد كانت عقول القوم تجد صعوبة شديدة فى تلقى عقيدة التوحيد فى تصورها المطلق المجرد. ووقائعهم مفصلة فى القرآن، نعرف منها حدود استيعابهم الضيق للفكرة المطلقة، وسرعة عودة الكثيرين إلى الملموسات والمحسوسات، وواقعة السامرى والعجل ذكرها القرآن، كما نعرف إلى أى حد كانوا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، ونعرف إلى أى حد جاهدهم موسى عليه السلام ودار معهم ينذر ويحذر ويهدى ويطلب لهم طعام السماء ونجاة الأرض وغفران الله سبحانه ونعرف أن الله الرءوف الرحيم كان يتوب عليهم ويرحمهم المرة بعد المرة لأنه سبحانه عليم بقدرة العقل البشرى فى هذه الحقبة من حقب نموه فى مدارج الإدراك.

وبعد ذلك يتتابع أنبياء بنى إسرائيل يصححون ويقومون ويعيدون للرسالة نقاءها مما اعتراها. ثم يأتى السيد المسيح مصدقًا لما بين يديه من التوراة ويتنزل عليه الإنجيل. وقد جاء لا لينقض الناموس وإنما يصححه. وبعد المسيح بدأ يظهر أيضا عنصر تجسيد فى التصور المسيحى للذات الإلهية. وكل ذلك يرد فى إطار مجاهدات العقل البشرى وتهيئته لإدراك الموجود المطلق غير الحسى، ولإدراك الوجود المجرد المطلق لله سبحانه وتعالى، ليتحقق من بعد نهج إبراهيم عليه السلام.

أتت رسالة الإسلام فى وقت تهيأت فيه البشرية للإدراك العقلى المجرد لوجود الذات الإلهية، وذلك تتويجًا لكل المجاهدات الماضية التى مرت على البشرية عبر تاريخها الدينى الطويل. أتت رسالة الإسلام فى الضوء الساطع للتاريخ فلم تلتبس بأية أساطير، وقد أتت فى الضوء الساطع للتاريخ بمعنى آخر أيضا إذ هى الرسالة الوحيدة التى سجل

تاريخها وسجلت وقائعها بأدق التفصيلات الممكنة. والقرآن الكريم نزل على الرسول ونطق به وتناوله الحفاظ والكتبة ثم جمع ثم دون، كل ذلك من أوله لآخره جرى في ضوء التاريخ أمام الأعين والأبصار. ووقائع الرسول والرسالة جرى لها كل هذا التوثيق التاريخي. بالرواية وبتحقيق الروايات والتثبت العقلي منها وبالتدوين، لا أخال إنسانًا في التاريخ سجلت وقائعه ودونت بمثل ما حدث مع محمد بن عبدالله ﷺ.

اكتملت للإنسان أدوات التثبت العقلي والتوثيق، كما اكتملت له الأدوات العقلية التي تمكنت من إدراك الوجود المطلق تماما لإطلاق المجرد كل التجريد المتنزه كامل التنزه لله سبحانه. وبهذا بلغ الإنسان رشده واكتمل له تبليغ السماء بالرسالة الخاتمة التي تصاحب الإنسان من بعد، ما دام على ظهر الأرض.

وباكتمال تهيؤ العقل البشري للتقبل والاستيعاب للحقيقة الإلهية في وضعها المطلق المجرد المنزه، بهذا الاكتمال صار الدين متينا على الأرض وفي عقول البشر وقلوبهم، صارت حدود العقيدة ـ عقيدة التوحيد والتنزيه ـ مدعومة راسخة. ومتى قوى الكيان المركز للعقيدة وقويت أطرافها وضوابطها الفاصلة لها عما عداها. متى جرى ذلك أمكن لهذه العقيدة أن تضم داخلها بعضا من التنوع المذهبي تتفاعل أطرافه مع بعضها البعض دون أن يؤثر في أصول العقيدة وحدودها الفاصلة. وهو تنوع يجرى به مزيد من التأكيد على أى من العناصر التي تترابط في إطار التصور العقيدي.

لذلك اتسعت العقيدة الإسلامية لعديد من المذاهب تنوعت بتنوع الأزمان والبلاد على مدى التاريخ، واستطاعت العقيدة أن تطرد بحسم وحزم ما خرج من الفرق عن الأطر المبنية لأصول المعتقد الإسلامي كالبهائية والقاديانية وغيرها، واستطاعت أن تستبقي بهذا الطرد الجماعة الإسلامية كاملة داخل إطار النسق العقيدي الإسلامي الصحيح، واستطاعت من جانب آخر أن تستبقي ما يعتبر من التنوعات المذهبية داخل الإطار الجامع للعقيدة الإسلامية، ومن هذه التنوعات ما تجده من مذاهب السنة والشريعة والصوفية وغيرها ذلك كثير، وهذا كله على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان مما يدل على حيوية الجسم ورسوخ البناء، أدامهما الله.

نقطة أخرى، هي أن الدعوة الإسلامية بصيغتها الخاتمة، قد آلت إلى إنسان مكتمل الرشد، وهي قد انفسحت صياغاتها الفكرية وانفسحت أحكامها لكي تتسع لما يمكن أن يطرأ على الإنسان فردًا أو جماعة من تغيرات الزمان والمكان. وصار الإنسان الرشيد يحملها أمانة يعالج بها شئون دنياه المتغيرة ويتجدد بها. وصار علماء المسلمين وهم رجال من الرجال، ليسوا أصحاب رسالة ولا وحي، صاروا كأنبياء بني إسرائيل في عملهم على حفظ أصول العقيدة وتصويب مسارها وتجديد أحكام الفقه الآخذ عن شريعة الإسلام بما يتمشى مع ما يطرأ على واقع الحياة من أحوال، أي صار لفقه الإسلام القدرة على التجدد الذاتي.

وقد جرى ذلك عن طريق أن العقيدة في

إطارها المتماسك الرصين قد استطاعت أن تستوعب كل ما أتت به العقائد السابقة من تصورات وقيم ومثل. وهي بهذا الاستيعاب أوجدت صيغ التوازن بين كل ذلك.

فمثلًا نجد أن الشريعة اليهودية قد عنيت بوضع المبادئ الأولية للسلوك الإنساني، لا تقتل لا تسرق.. إلخ واتخذت طابع الحقوق العامة. وهي بهذا وضعت ما يمكن تسميته بأسس الضبط الاجتماعي وأسس تنظيم الجماعة. وكانت وسيلتها في ذلك هي الجزاء العقابي، العين بالعين والسن بالسن.. إلخ ولكن بناء الجماعة لا يقوم بهذه القواعد الحاكمة وحدها. ونظامها لا يكفله العقاب المادي فقط. وإنه ما بقي ضمير الإنسان غير منقاد لما لم يعتبر مكارم الأخلاق وغير منضبط على التعامل الاجتماعي الودود وغير متقبل للآخرين كشركاء وأنداد، ما بقي ضمير الإنسان غير متأثر بهذه القيم فلن يصلح العقاب وحده لكفالة نظام المجتمع ولا لكفالة أمن أفراد هذا المجتمع.

لذلك جاءت المسيحية تؤكد على النقيض، فهي تحض الناس على أن يحبوا أعداءهم وأن يباركوا لاعنيهم، وهي بالنسبة للعقاب تحض على التسامح وتطالب المؤمن بألا يرائي وأن يحسن إلى من يسيء إليه، وطالبته بالرحمة والإيثار والإحسان، فصرفت أغلب همها إلى بناء الفرد من داخله وتنمية ضميره.

ثم تجيء شريعة الإسلام لتستوعب كلا الوجهين، وتجد أن صلاح الفرد والجماعة هو في الجمع بين الطريقين، فأقامت الرادع الاجتماعي بالقانون وبالعقاب المادي، وأقامت الرادع النفسي بالمودة والتسامح وأوجدت الصيغة المناسبة لبناء المجتمع وتنظيمه ولبناء الفرد داخل هذا المجتمع. فنجد أن الله يأمر

﴿ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

(النحل : ٩٠)

والمسلم هو من :

﴿ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

(الكهف : ٨٨)

والعبادة صلاة وفعل للخيرات أيضًا. بهذا يستوعب الإسلام كلا من القانون كضابط اجتماعي والأخلاق والوجدان كضابط فردي نفساني، ويقيم توازنا بينهما. وهنا نجد الإسلام جامعًا يجمع حركتين هما الفقه والتصوف، الأولى حركة للظاهر والثانية حركة للباطن، الأولى لضبط القانون والثانية لضبط الأخلاق. فالإسلام في إطاره العقيدي المتماسك يضم أنساقا فكرية فرعية تعمل في داخله ويكتسب من حركتها حيويته وتجدده الفكري في عقول المؤمنين به وقلوبهم. ومن خلال حركة هذه النظم الفكرية الفرعية بداخل الإطار الإسلامي يجرى التأكيد على العنصر أو العناصر التي تلائم متطلبات الظرف الذي تمر به جماعة الإسلام، ففي أوقات الحروب مثلًا يقوى الجانب الصوفي الوجداني الذي يحمس الناس للفداء والنهوض وبذل النفس، وفي أوقات الاستقرار الاجتماعي يزداد التأكيد على الجانب الآخر لتتضح أصول التعامل بين الناس وهكذا... إلخ.

فالإسلام هو الدين الخاتم لأنه الدين الجامع.

النهضة
معناها - وأركانها - واتجاهاتها

للأستاذ الدكتور حسن الشافعي

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى دعاة الحق فى كل حين آمين وبعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها الحضور الكرام

لقد شاء إخوانى فى هذه الدورة السابعة عشرة لهذا المؤتمر العتيد - حسن ظن منهم - أن ألقى المحاضرة الافتتاحية لهذا الملتقى الفكرى السنوى، الذى أصبح - بحمد الله - من معالم النشاط الفكرى لهذه الكلية العريقة ذات الرسالة الحضارية بل لجامعة القاهرة أجمع.

لقد بدأ الأزهر الشريف حركة الفكر المستقبلى بعد ثورة ٢٥ يناير، وتبعته كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة بإيراد المغزى الحضارى للربيع العربى، وجاء دور هذه الكلية، وإن كانت وقفاتها السابقة عند التنوير وبناء الإنسان ليست بعيدة عن هذا الدور الحضارى.

والآن دعونى أيها السادة أتبع منهجًا تقليديًا، فى تناولى لهذا الموضوع - "النهضة معناها - وأركانها - واتجاهاتها" فأقول:

- النهضة لغة:

جاء فى القاموس المحيط: نهض نهضًا ونهوضًا: قام، ونهض النبت استوى.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

(الفتح:٢٩)

ونهض الطائر: بسط جناحيه ليطير، والناهض: فرخ الطائر الذى وفر جناحه

وتهيأ للطيران. والناهض أيضًا: اللحم على عضد الفرس من أعلاها.

وناهضتك: بنو أبيك الذين ينهضون معك، وخدمك القائمون بأمرك، والنهض من البعير: ما بين المنكب والكتف والنواهض: عظام الإبل وشدادها...

وأنهضه: أقامه. وأنهض القربة: دنا من ملئها.

واستنهضه لكذا: أمره بالنهوض له، وناهضه: قاومه.

وتناهضوا فى الحرب: قام كل إلى جناحيه، والنهضة كالنبضة: ضربان العرق.

وهذه المعانى تتقارب أو تتفق مع ما أورده "المعجم الوسيط" الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة مع ملامح منها وإبراز جانب سمة النشاط والقوة والسرعة، إذ يقول: نهض نهضًا ونهوضًا: قام يقظًا نشيطًا، يقال نهض من مكانه إلى كذا: قام وتحرك إليه مسرعا، كنهض إلى العدو: أسرع إلى ملاقاته، والنهضة: النبت، ونهض الطائر بسط جناحيه ليطير، ونهض الشيب إلى الشباب أسرع إليه، وأنهض الحيوان: أقامه وحركه للنهوض، وأنهض فلانًا: أقامه وعمد إليه به، وأنهض فلانًا بالشىء قواه على النهوض به، وأنهضت الريح السحاب: ساقته وحملته والنهضة: الطاقة والقوة، والوثبة فى سبيل التقدم الاجتماعى أو غيره فيقال: فلان كثير النهضات: أى كثير الحركات، ويقال شاب ناهض: يقظ مهتم بواجباته، عامل ناهض: أى ماض فى عمله بعزيمة صادقة، واستنهض فلانًا للأمر: أى دعاه إلى سرعة القيام به والتناهض: السرعة، والنهاض: الدءوب على أن يسلك سبيل التقدم، ومكان نهاض أى مرتفع.

ويمكننا بعد استعراض هذه المادة اللغوية الزاخرة بالدلالات الغنية، أن نستخلص أن معانى هذه المادة تدور حول:

- الحركة، والسرعة، والنشاط.
- والطاقة والقوة، والعلو، والارتفاع.
- والوثبة، والانطلاق فيما يشبه الطفرة الاستثنائية.
- والتعاون الجماعى على المواجهة، والمقاومة للتحديات.
- وبسط الفرخ جناحه- وقد وفر ريشه- لينطلق فى جو السماء.
- واستوى النبات على سوقه، على النحو الرائع الذى وصفه القرآن عن أصحاب محمد ﷺ:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

(الفتح:٢٩)

- والنهضة: الدؤوب على المضى للأمام بعزيمة صادقة ووعى تام.
- والإنهاض والاستنهاض الدعوة إلى القيام بواجب والإعانة عليه.
- والنهضة: البراح من الموضع، ومفارقة الحال المتدنية إلى ما هو أرفع وأسمى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)

– وأخيرًا النهض: النبض في العروق، وتدفق الحياة.

يقول الشاعر العراقي:

لعمرك في الشعب افتقار لنهضة
تهيج منه كل أشام أربد
فإما حياة حرة مستقيمة
تليق بشعب ذي كيان وسؤدد
وإما ممات ينتهي الجهد عنده
فتعذر فاختر أي ثوبيك ترتدي
وإلا فلا يرجى نهوض لأمة
تقوم على هذا الأساس المهدد

– أما النهضة اصطلاحًا: كما تعارف عليها المشتغلون بالفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي المعاصر:

فقد لامسها كُتاب المعجم الوسيط " الذين أخذوا على أنفسهم أن يسجلوا الدلالات المعاصرة للكلمات، من بينهم الشيخ الرئيس إبراهيم بيومي مدكور وغيره من المهتمين بالفكر الفلسفي والاجتماعي حين قالوا " النهضة الوثبة في سبيل التقدم الاجتماعي، وغيره" فقد لاحظوا: الحركة الجماعية، والوثبة الاستثنائية، والغاية الحضارية، وهي عناصر مهمة ثلاث في بنية هذا المفهوم.

وقد يساعدنا في تعرف معنى النهضة في المفاهيم المعاصرة، أن نتعرف إلى المصطلح المقابل لها في الفكر الغربي، وهو مصطلح **renaissance**، الذي يقد[م] " قاموس الفلسفة والدين للبروفسير ريـ – في طبعته الإنجليزية بلندن " مفهومه على النحو التالي: (الرينيسانس: كلمة فرنسية الأصل، تعني: الولادة من جديد أو الإحياء"، ثم استعملت فيما يتعلق بتاريخ أوروبا الغربية مصطلحا يدل على الفترة أو العصر الذي عاشته هذه البلاد، من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر، وشاع هذا المصطلح – بهذا المعنى أي عصر النهضة الأوروبية – بعد منتصف القرن التاسع عشر، واستخدم عصر النهضة الأوروبية – بعد منتصف القرن التاسع عشر، واستخدم في عنوانات بعض الكتب التاريخية في فرنسا أولا ثم في إيطاليا، وأصبح ينظر إلى هذه الفترة بوصفها عصر إحياء الروح الإغريقية والرومانية في أوروبا الحديثة، وتنمية دوافع النقد والبحث والاكتشاف.

وقد تمثلت تجليات هذه النهضة الأوروبية في مظاهر أو حركات أربع:

– أكبرها وأهمها هي " الهيومانزم" أو حركة التوجه الإنساني: التي لم تتوقف فحسب على ترجمة المصادر الإغريقية والرومانية، بل عملت أيضًا على إحياء القيم الإنسانية في الحياة، والتماس أساليب جديدة في كل شيء، ومن ممثلي هذه الحركة بترارك وارسمس.

– والثانية تتمثل في تيار الإعراض عن التقليد الأرسطاليسي الذي غلب على القرون الوسطى، والميل إلى إحياء الأفلاطونية، كما تمثل بوضوح في أكاديمية فلورنسة التي كانت إحدى نتائج هذا التحول، بالإضافة إلى إشعال مشكلة الاتجاه الصوفي من جديد، بما يتصل به من إحياء القبالة التأويلية والفلسفات المتعالية.

– والثالثة تتمثل في تفتح فكر النهضة على العلوم الحديثة التي أخذت عندئذ في التشكل، وشارك في هذا التفتح كثيرون منهم برونو وفرنسيس بيكون، وغيرهما.

– وأخيرا فقد تمثل تيار النهضة في المجال الديني في ضرب من الاحتجاج على المؤسسة الدينية الرئيسية في أوروبا وهي الفاتيكان والبابوية، وعدم الرضا عن أوضاعها المتحكمة في ضمائر المؤمنين فظهر المذهب البروتستانتي في خضم حركة التجديد الديني، والخروج على سلطة البابا، التي بدأت بمحاولة الأمراء وحكام المناطق إدارة الشئون الدينية محليًا في مناطقهم (وخاصة الأمراء الألمان)، وعارضت الكنائس البروتستانتية السلطة الكنسية على نصوص الكتاب المقدس وتفسيرها، ونادت بحق كل مؤمن في فهم الكتاب مباشرة دون وسيط وانتهى النص المترجم.

– وبالرغم مما يمكن أن يلاحظ على هذا التعريف الذي يقدمه المؤلف المذكور للنهضة الأوروبية وأنه أهمل ما يعترف به بعض الكتاب الغربيين من أن فكر النهضة يقوم على قواعد أربع: ميتافيزيقا اليونان، وقوانين الرومان، وأخلاق المسيحية، والروح التجريبية في الحضارة الإسلامية، ومن إغفاله – أيضًا – لدور بعض كبار المفكرين مثل روجر بيكون الذي أبرز من ور بلديه وسميه فرنسيس بيكون وهو الذي كان يقول لمعاصريه: من أراد أن يتعلم العلم فليتعلم العربية) ومعلوم أن "قانون ابن سينا" مثلا ظل هو مرجع دراسات الطب في أكبر جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر، فليس كلام الرجل إلا تقرير الواقع قديمًا إلى بعض المختصين، وعلى كل حال تبدو النهضة بوضوح ذات جوانب: روحية أخلاقية وعلمية تجريبية، وتنظيمية قانونية، وفلسفية ميتافيزيقية، فضلًا عن أنها ليست تحرك فئة محدودة كالنخبة مثلًا قدورها سقفها حتى يسبق النهضة ويواكبها في الوقت نفسه، وإنما تصنعها الجماهير، وليس – أو على الأقل لم يكن ذلك في النموذج الأوروبي – حركة شعب واحد، بل هي حركة شعوب أحست – بعد العودة المهزومة من الحروب الصليبية – بالحاجة إلى قفزة تاريخية لتعويض الضعف إزاء الشرق المتطور، قفزة جماعية تمثلت في وعي جديد، وهمة تدفع إلى الرحلة والاكتشاف والتجريب، وحركة ترجمة نشيطة لعيون الإنتاج العلمي في الرياضة والفلك والطب والهندسة لدى العرب ونشرها بعد سنوات قليلة من اكتشاف المطبعة، وعودة إلى الماضي الإغريقي والروماني لا القطيعة معه، ولا لمجرد تقليده بل لإحيائه في ثوب جديد، وكان لها في الوقت أصداؤها – السلبية والإيجابية – في المجال الديني الذي لم يكن بعيدًا عن المؤثرات الإسلامية كما كشف الباحثون، ولم تقتصر النهضة على تغيير سياسي أو كنسي بل خلقت وعيا جديدًا، وشقت مناهج متفتحة في البحث والنظر، والنقد والمقارنة، والملاحظة

والتجربة، كانت هى أساس الحضارة الغربية المعاصـرة، وهى فى النهاية إحياء أصيل لا مجرد اقتراض من الغير، وإن أفاد منه، وصنع لنموذج حضارى يمثل دورًا تقدميًا فى مسـار الحضارة والإنسانية.

أيها الإخوة الحضور: استخلاصًا من كل الأفكار التى أوردناها آنفا، بدا للفقير الواقف بين أيديكم أن يقترح تعريفًا اصطلاحيا للنهضة بأنها: "الوثبة التاريخية الجماعية الأصيلة لأمة من الأمم لافتتاح دور حضارى جديد" فالوثبة لتسارع الحركة التغييرية ومخالفتها المعهود النمطى القديم، والتاريخية لأنها وضع لأقدام الأمة على درب التاريخ لأول مرة أو عودة إليه من جديد، والجماعية لظروف الوعى العام والجهد العام لكل أفراد المجتمع الحضاري، والأصالة لأن الاقتراض وحده لايجدى والقطيعة مع الماضى وهم من الأوهام.

ودور النخب ريادى أولاً، وإرشادى ثانيًا، وليس بديلاً عن تحرك الأمة أو المجتمع الحضارى على نحو جماعى متناغم وصبور ومتواصل وأما الدور الحضارى فلأن النهضات ليست لتحقيق ازدهار اقتصادى أو تغيير سياسى أو اصلاح إدارى فحسب، بل إنه كما قلنا عودة الأمة إلى درب التاريخ لإنجاز فتح حضارى جديد من خلال وعى إنسانى يحقق من خلال الإنسان الجديد كل الأهداف السابقة وغيرها من جوانب النهضة.

إخوتى الحضور: أعتقد أننى بمحاولتي، هذه المتواضعة لتعريف مفهوم النهضة، وبيان أركانها الأخلاقية والدينية، والتنظيمية والقانونية، والثقافية والفكرية، والعلمية والتجريبية، والوجدانية والفنية. وكذلك بالإشارة إلى محترزات هذا التعريف مما يختزل النهضة فى بعض مظاهرها أو مهامها الجزئية، أو يحرفها عن مسارها التاريخي الحقيقي.

لقد كنت أبغى فى الحقيقة – ولعل من رشحونى لهذا الموقف كانو يتوقعون – أن أتعرض لاتجاهات النهضة المعاصرة، أو ما نعتقد أنه سيشكل النهضة فى منطقتنا ويمنحها وجهتها أو طابعها الخاص، ولا أريد مزيدًا من الإثقال عليكم أو على الباحثين الحقيقيين فى هذا الملتقى الذين هم أولى منى بالوقت، ولكنى أشير سريعًا فى ختام كلمتي – ولا أقول محاضرتى الافتتاحية هذه – إلى أن المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر وربما منذ منتصف الثامن عشر، تموج بتيارات ويتحرك فى رحمها أفكار، وقد تتحقق على أرضها أهداف وإنجازات مبشرة ولكن لا تتحقق النهضة لعدم اكتمال شروط النهضة، كما يرى بعض المفكرين كابن نبى وإقبال، لولا اعتراض الغرب المسيرة التاريخية لقوى المنطقة – كما يرى آخرون كمحمود شاكر وضياء الدين، أو لأثر الاستبداد الداخلى السلبى – كما يرى الكواكبى والأفغانى ومحمود صبحي، أو لنقص التربية لإنسان المنطقة وتسليحه بالوعى والهمة الضرورية للإنجاز – كما يرى محمد عبده وحسن البنا، أو للحاجة الى تغيير جذرى فكرى ثقافى – كما يرى المودودى وسيد قطب، أو لخلل اعتقادى ونقص فى الالتزام العملى كما يرى إخواننا


الكواكبي


محمد إقبال


مالك بن نبي

السلفيون، أو للغفلة عن قوى الروح ودورها فى توجيه التاريخ كما يرى السادة الصوفيون ورجال الدعوة والتبليغ أو لعدم التغيير المنوط من القمة كما يقول التحريريون، أو لعدم الأخذ بسلاح القوة الإرهابية كما تقول القاعدة، وأيا ما كان العنصر المفقود أو الفريضة الغائبة فى تجارب الماضى فعلينا – نحن الذين يعتبرون من النخبة وطائفة كبيرة منهم تملأ هذه القاعة من شيوخ طالت تجربتهم وشباب بحاجة إلى استيعاب التجربة فالأولى بنا ، وقد تعرفنا حقيقة النهضة، وأركانها – أن نختار طريقها ووسائلها منتفعين بكل ما سبق من تجارب فاشلة تمامًا أو ناجحة جزئيًا أو مقبولة أو مرفولة شرعيًا أو عقليًا، محليًا أو دوليًا نظريًا أو علميًا.

وأقول دون تردد أو جمجمة: إن الاتجاه الليبرالى المصرى المحلى الذى مثله لطفى السيد وله الآن ممثلوه الجدد يضيق عن حقيقة مصر الراهنة، وما سبق أن قدمته من شهداء من أجل قضايا الأمة التى بدون نحورها وحركتها الجماعية لن تحقق نهضة أو تسترد حقوقا وهو تقديم لمصر لم يعد مقبولاً الآن، وأن الفكر العربى القومى – كما قال بين البعث وغيره – الخالى من المحتوى الثقافى والحضارى – كما بينه محمود شاكر ومحمد الغزالى وغيرهما – من يحرك همم الأمة أو يبعث طاقتها كما نبه إلى ذلك محمد عبده من قديم ، وأن الاتجاه الإسلامي: ما يقتصر منه على الشعارات أو على المزايدات أو يعمد إلى الانقلابات أو يستخدم الإرهاب، أو يستبيح دماء الأبرياء لن يكون هو الحل.

أما الخيار الماركسى المادي، والخيار الغربى الرأسمالى الاستعمارى والخيار العلمانى فقد استنفدت إمكاناتهما، وانكشفت حقيقتهما بعد جرائم العار التى كشفتها الحوادث والأيام.

إنه الفكر الإسلامى الحضارى التربوي، الذى يصنع إنسانًا جديدًا على صعيد التربية، ونظمًا جديدة على مستوى الحضارة، وخططًا "استراتيجية" لحل مشاكل الأمة، واسترداد حقوقها، ونشر رسالتها فى العالمين.

وأقول لمستر ليبرمان إنها أمانيكم أن الربيع العربى قد استحال إلى صداع عربي.. بل هو فاتحة التاريخ الجديد للمنطقة وربما للعالم، وسيعلم الذين ظلموا – وهم يتزلقون على سفح التاريخ – أى منقلب ينقلبون.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

(القصص: ٥)

من عيون التراث

التعريف بالمؤلف:

هو الإمام العارف بالله القطب أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني المغربي، كنيته أبو العباس. تلقى العلم على أيدى علماء كبار وأئمة أقطاب منهم محمد البوزيدى رضى الله عنه. ترك مؤلفات مفيدة ومصنفات عجيبة فى علوم التصوف، ومن مؤلفاته شرح الحكم العطائية، وشرح المباحث الأصلية، وشرح الآجرومية بالإشارات الصوفية.

عرض الكتاب:

يقع كتاب «معراج التشوف إلى حقائق التصوف» فى (٨٨) صفحة من الحجم المتوسط. ويعتبره علماء التصوف من أنفس كتب التصوف، ولا غناء لطالب العلم الصوفى عن قراءته ودراسته؛ لما يحويه هذا الكتاب من علم قيم ومعارف وحقائق علم التصوف؛ حيث يتناول تعريفات لحقائق المقامات الصوفية.

المفاهيم النفسية التى وردت فى الكتاب:

التصوف: علم يعرف كيفية السلوك فى حضرة ملك الملوك. وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل فأوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة (ص١٥).

التوبة: الرجوع عن كل فعل قبيح إلى كل فعل مليح، وشروطها الندم والإقلاع ونفى الإصرار. والتوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وعدم الإصرار بالجنان، ومهاجرة

معراج التشوف إلى حقائق التصوف

تأليف
الحسني العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة
«القاهرة: مكتبة أم القرى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م»
الطبعة الأولى

سيىء الخلان (ص١٧، ١٨).

الإنابة: وهى أخص من التوبة، لأنها رجوع يصحبه انكسار ونهوض إلى السير. وهى ثلاث مراتب: رجوع من الذنب إلى التوبة، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الفرق إلى الجمع على الله تعالى (ص١٩).

الخوف: انزعاج القلب من لحوق مكروه أو فوات مرغوب وثمرته النهوض إلى الطاعة والهروب من المعصية (ص١٩).

الرجاء: سكون القلب إلى انتظار محبوب بشرط السعى فى أسبابه وإلا فأمنية وغرور. والخوف والرجاء للقلب كجناحى الطير لا يطير إلا بهما (ص١٩).

الصبر: حبس القلب على حكم الرب. وهى حبس القلب على مشاق الطاعات والمجاهدات وحبس الروح والسر فى حضرة المشاهدات والمعاينات (ص٢٠).

الشكر: فرح القلب بحصول النعمة مع صرف الجوارح فى طاعة المنعم والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. ومرجعه ثلاث: شكر باللسان، وشكر بالبدن، وشكر بالقلب. ومرجع الكل إلى ما قاله الجنيد: أن لا يعصى الله بنعمة (ص٢٠).

الورع: كف النفس عما تكره عاقبته (ص٢١).

الزهد: خلو القلب من التعلق بغير الرب أو برودة الدنيا من القلب وعزوف النفس عنها (ص٢٢).

التوكل: ثقة القلب بالله حتى لا يعتمد على شىء سواه، أو التعلق بالله والتعويل عليه فى كل شىء علمًا بأنه عالم بكل شىء وأن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك.

فأدناه أن تكون مع الله كالموكل مع الوكيل الشفيق الملاطف، ووسطه كالطفل مع أمه لا يرجع فى جميع أموره إلا إليها، وأعلاه أن تكون كالميت مع الغاسل (ص٢٢).

الرضى: تلقى المهالك بوجه ضاحك، أو سرور يجده القلب عند حلول القضاء أو ترك الاختيار على الله فيما دبر وأمضى، أو شرح الصدر ورفع الإنكار لما يرد من الواحد القهار (ص٢٣).

التسليم: ترك التدبير والاختيار بالسكون تحت مجارى الأقدار. فيرادف الرضى على الحد الأخير والرضى أعظم منه على الأولين. وقيل الرضى يكون عند النزول والتسليم قبل النزول وهو التفويض بعينه. فبدايتهما بالصبر والمجاهدة ووسطهما بالسكون مع خواطر التبرم والكراهية ونهايتهما بفرح وسكون مع عدم التبرم (ص٢٣).

المراقبة: إدامة علم العبد باطلاع الرب أو القيام بحقوق الله سرًا وجهرًا خالصًا من الأوهام، صادقًا فى الاحترام (ص٢٣).

المحاسبة: عتاب النفس على تضييع الأنفاس والأوقات فى غير أنواع الطاعات وتكون آخر النهار (ص٢٤).

المشارطة: تكون أول النهار يقول لنفسه فى أول نهاره: هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاجتهدى فى تعمير أوقاته بما يقربك إلى الله. ولو مت بالأمس لفاتك الخير الذى تفوزين به فيه.

وكذلك يقول لها عند إقبال الليل ويحاسبها عند إدباره. والمشارطة تكون أولا والمحاسبة آخرًا والمراقبة دائمًا (ص٢٤).

المحبة: ميل دائم بقلب هائم. ويظهر هذا الميل أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة، وثانيًا على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية، وثالثًا على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب (ص٢٤).

المشاهدة: المشاهدة هى رؤية الذات اللطيفة فى مظاهر تجلياتها الكثيفة فترجع إلى تكثيف اللطيف (ص٢٥).

المعاينة: إذا ترقق الوداد ورجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهى المعاينة فترجع إلى تلطيف الكثيف. فالمعاينة أرق من المشاهدة وأتم (ص٢٥).

المعرفة: وهى التمكن من المشاهدة واتصالها، فهى شهود دائم بقلب هائم فلا يشهد إلا مولاه مع إقامة العدل وحفظ مراسم الشريعة، فهذه حدود المقامات قد انتهت فى المعرفة (ص٢٥).

ثم ترجع إلى حقائق أخرى يكثر استعمالها ومنها:

التقوى: وهي امتثال الأوامر واجتناب المناكر في الظواهر والسرائر ومواصلة الطاعات والإعراض عن المخالفات(ص٢٥).

الاستقامة: استعمال العلم بأقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله وأحواله وأخلاقه. وهي في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بترك البدعة، وفي الأحوال بعدم الخروج عن سنة الشريعة(ص٢٦).

الإخلاص: إخراج الخلق عن معاملة الحق. وإفراد الحق تعالى في الطاعة بالقصد أو غيبة القلب من غير الرب(ص٢٦).

الصدق: إسقاط حظوظ النفس في الوجهة إلى الله تعالى تعويلاً على ثلج اليقين أو استواء الظاهر والباطن في الأقوال والأفعال والأحوال(ص٢٧).

التصديق: التصديق بوجود الحق فهو تصديق لا صدق، ويقال لمن عظم تصديقه صديق أيضًا. فالصديق يطلق على من عظم صدقه وتصديقه. والفرق بين الصدق والإخلاص أن الإخلاص ينفي الشرك الجلي والخفي، والصدق ينفي النفاق والمداهنة بالكلية(ص٢٧، ٢٨).

الطمأنينة: سكون القلب إلى الله عاريًا من التقلب والاضطراب ثقة بضمان أو اكتفاء بعلمه أو رسوخًا في معرفته. وتكون من وراء الحجاب بتوالي الطاعة ومجاهدة الرياضة وتكون بعد زوال الحجاب بتمكين النظرة ورسوخ المعرفة(ص٢٨).

الشوق: انزاع القلب إلى لقاء الحبيب(ص٢٨).

الاشتياق: ارتياح القلب إلى دوام الاتصال به. والشوق يزول برؤية الحبيب ولقائه، أما الاشتياق فلا يزول أبدًا لطلب الروح الزيادة في كشف الأسرار والقرب إلى الأبد(ص٢٨).

الغيرة: كراهية رؤية حبيبك عند غيرك فيهيج التنافس في حيازته. قال الشبلي: الغيرة غيرتان فغيرة بشرية على النفوس وغيرة إلهية على القلوب. ومعناه أن الطبع البشري يكره أن يرى محبوبه عند غيره كالزوجة مثلاً. والحق - تعالى - يكره أن يرى قلوب أوليائه متعلقة بغيره. وفي الحديث «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن(ص٢٩).

الفتوة: وهي الإيثار على النفس بما تحب والإحسان إلى الخلق بما يحب. وقيل: أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك: والفتى من لا خصم له: ومرجعها إلى السخاء والتواضع والشجاعة في مواطن الاضطراب(ص٣٠).

الإرادة: قصد الوصول إلى المحبوب بنعت المجاهدة أو التحبب إلى الله بما يرضي، والصبر على مقاساة الأهوال ومنازلات الأحوال(ص٣٠).

المجاهدة: فطم النفس عن المألوفات وحملها على مخالفة هواها في عموم الأوقات وهي ثلاث: مجاهدة الظاهر بدوام الطاعات وكف المنهيات، ومجاهدة البواطن بنفي الخواطر الرديئة ودوام الحضور في الحضرة القدسية، ومجاهدة الأسرار باستدامة الشهود وعدم الالتفات إلى غير المعبود(ص٣١).

الولاية: وهي حصول الأنس بعد المكابدة واعتناق الروح بعد المجاهدة(ص٣٢).

الحرية: وهي تصفية الباطن من حب غير الحق حتى لا تبقى فيه بقية لغير الله عز وجل(ص٣٢).

العبودية: القيام بحق الطاعات بشرط التوقير والنظر إلى ما منك بعين التقصير، وأجمع العبارات هنا ما قاله ابن عطاء: العبودية هي حفظ الحدود والوفاء بالعهود والرضا بالموجود والصبر على المفقود (ص٣٣).

القناعة: الاكتفاء بالقسمة وعدم التشوف للزيادة والاستغناء بالموجود وترك التشوف إلى المفقود(ص٣٤).

العافية: وهي سكون القلب وخلوه من الانزعاج والاضطراب والتقلب. وإن كان بالسكون إلى الله والرضا عنه فهي العافية الكاملة، وإن كان بجريان الأسباب الموافقة فهي العافية العادية (ص٣٥).

اليقين: وهو سكون القلب إلى الله بعلم لا يتغير ولا يتحول ولا يتقلب ولا يزول عند هيجان المحركات وارتفاع الريب في مشاهدة الغيب. وعلامته ثلاث: رفع الهمة عن الخلق عند الحاجة، وترك المدح لهم في العطية، والتنزه عن ذمهم عند المنعة (ص٣٦).

علم اليقين: ما كان ناشئًا عن البرهان (ص٣٧).

عين اليقين: ما نشأ عن الكشف والبيان (ص٣٧).

حق اليقين: ما نشأ عن الشهود والعيان، ومثال ذلك كمن سمع بمكة مثلاً ولم يرها فعنده علم اليقين بوجودها، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فعنده عين اليقين، فإذا دخلها وعرف طرقها وأماكنها فهذا عنده حق اليقين (ص٣٧).

النعمة: هي ملازمة الأفراح ومباعدة الأتراح وإصابة الأغراض ونزاهة الأعراض وهي على قسمين: نعمة ظاهرة كالصحة والعافية والكفاية من الحلال، ونعمة باطنة كالإيمان والهداية والمعرفة (ص٣٨).

الفراسة: وهي خاطر يهجم على القلب أو وارد يتجلى فيه لا يخطىء غالبًا إذا صفا القلب. وهي على حسب قوة القرب والمعرفة فكلما قوى القرب وتمكنت المعرفة صدقت الفراسة. قال الكتاني: هي مكاشفة الحق ومعاينة الغيب (ص٣٨).

الخلق: وهي ملكة تصدر عنها الأفعال بسهولة ثم إن كانت الأفعال حسنة كالحلم والعفو والجود ونحوها سمى خلقًا حسنًا وإن كانت سيئة كالغضب والعجلة والبخل سمى خلقًا سيئًا (ص٣٩).

الجود: من بذل الأكثر ولا يصعب عليه البذل (ص٤٠).

السخاء: من أعطى البعض وأبقى الأكثر (ص٤٠).

الإيثار: من قاسى الضراء وآثر غيرها(ص٤٠)

الفقر: نفض اليد من الدنيا وصيانة القلب من إظهار الشكوى (ص٤٠).

الذكر: وهو إذا أطلق ينصرف لذكر اللسان، وهو ركن قوى في طريق الوصول وهو منشور الولاية (ص٤٢).

الوقت: قد يطلقونه على ما يكون العبد عليه في الحال من قبض أو بسط أو حزن أو

سرور. قال أبو الدقاق: الوقت ما أنت به في الحال، فإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى. ويقولون: الصوفي ابن وقته: يريدون أنه مشتغل بما هو أولى به في الوقت لا يدبر في مستقبل ولا ماض، بل يهمه ما هو فيه. وكل وقت له آداب تطلب فيه وملاءمة الوقت القيام بآدابه، فوقت القهرية آدابه الرضى والتسليم، ووقت النعمة آدابه الشكر (ص٤٣).

الحال: معنى يرد على القلب من غير تعمل ولا اجتلاب ولا تسبب ولا اكتساب من بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج، ويظهر آثاره على الجوارح قبل التمكن من شطح ورقص وسير وهيام، وقيل فيها أولها جنون ووسطها فنون وآخرها سكون (ص٤٣).

المقام: ما يتحققه العبد بمنازلة واجتهاد من الأدب وما يتمكن فيه من مقامات اليقين بتكسب وتطلب. فمقام كل واحد موضع إقامته فالمقامات تكون أولا أحوالا، حيث لا يتمكن المريد منها؛ لأنها تتحول ثم تصير مقامات بعد التمكين، كالتوبة مثلا تحصل ثم تنقض حتى تصير مقاما وهي التوبة النصوح (ص٤٤).

القبض: انكماش وضيق يحصل في القلب يوجب السكون والهدوء (ص٤٥).

البسط: انطلاق وانشراح للقلب يوجب التحرك والانبساط (ص٤٥).

والقبض والبسط حالتان بعد الترقي من حالة الخوف والرجاء. والفرق بين القبض والخوف وبين الرجاء والبسط أن الخوف متعلقه مستقبل: إما فوات محبوب أو هجوم محذور. بخلاف القبض فإنه معنى يحصل في القلب إما بسبب أو لا. وكذلك الرجاء يكون لانتظار محبوب في المستقبل، والبسط بشيء موهوب يحصل في الوقت (ص٤٥).

الخواطر: خطابات ترد على القلوب تكون بإلقاء ملك أو شيطان أو حديث نفس فإن كان من الملك فإلهام أو من الشيطان فوسواس أو من النفس فهواجس (ص٤٦).

الواردات: ما يرد على القلوب من التجليات القوية أو الخواطر المحمودة بما لا يكون للعبد فيه تكسب. والفرق بينهما أن الواردات أعم من الخواطر؛ لأن الخواطر تختص بنوع أو ما يتضمن معناه والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط ووارد شوق ووارد خوف، إلى غير ذلك من المعاني (ص٤٦).

النفس: عبارة عما يذم من أفعال العبد وأخلاقه، وقيل النفس محل الأخلاق المعلولة (ص٤٧). وهي ترويح القلوب بلطائف الغيوب، فصاحب الأنفاس أرفع من صاحب الأحوال ومن صاحب الوقت. فالأوقات لأصحاب القلوب والأحوال لأصحاب الأرواح والأنفاس لأصحاب السرائر. ويرى العارف بالله الحسني أن النفس أدق من الوقت والمراد بحفظ الوقت حضور القلب فيه وبحفظ النفس حضور السر في مشاهدة الحق. يقال فلان طابت أنفاسه إذا صفا مشربه من عين التوحيد من كدورة الأغيار. وقال القشيري: وقالوا أفضل العبادة حفظ الأنفاس أي دوام الفكرة والنظرة (ص٧٣و٧٤).

الروح: عبارة عن محل التجليات الإلهية، وقيل محل الأخلاق المحمودة (ص٤٧).

السر: عبارة عن محل تجليات الأسرار الجبروتية. وهو لطيفة مودعة في القلب كالروح إلا أنه أشرف من الروح لكمال أوصافه (ص٤٧).

النصر: تقوية الجوارح على فعل الخير (ص٤٩).

التأييد: تقوية البصيرة من الداخل فالباعث الداخلي تأييد. والبطش ومساعدة الأسباب من الخارج نصر (ص٤٩).

الهداية: هي تصويب العبد إلى طريق توصله إلى الحق وقد تطلق على بيانها (ص٤٩).

الرشد: هو توجيه القلب إلى طريق السعادة (ص٤٩).

التسديد: هو القدرة على سلوك طريق الخير وتجنب الشر (ص٤٩).

العصمة: وهو وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر (ص٤٩).

الحكمة: إتقان الشيء وإبداعه ففي العلم تحقيقه والعمل به، وفي القول إيجازه وتكثير معانيه، وفي العمل إتقانه وإكماله (ص٥٠).

العقل: نور يميز به بين النافع والضار، ويحجز صاحبه عن ارتكاب الأوزار أو نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية أو قوة مهيئة لقبول العلم؛ سمي عقلا، لأنه يعقل صاحبه عما لا ينبغي، وهو على قسمين: عقل أكبر وعقل أصغر، أما العقل الأكبر فهو أول نور أظهره الله للوجود ويقال له الروح الأعظم ومن نوره يمتد العقل الأصغر، وهو على قسمين: عقل موهوب وعقل مكسوب، فالموهوب هو الذى جعله الله فيه غريزة والمكسوب هو الذى يكتسب بالتجاريب والرياضات وارتكاب المحن (ص٥٠، ٥١).

الفناء: قال أبو المواهب: الفناء محو واضمحلال وذهاب عنك وزوال، وقد يطلق الفناء على الفناء في الأفعال، فلا يرى فاعلا إلا الله تعالى وعلى الفناء في الصفات فلا يرى سميعًا ولا قديرًا إلا الله تعالى، وقد يطلق على التخلي والتحلي فيقال: فني عن أوصافه المذمومة وبقي بالأوصاف المحمودة (ص٥٥).

البقاء: الرجوع إلى شهود الحس بعد الغيبة عنه بشهود المعنى، فالغيبة عن الحس وعن الحكمة وعن الفرق فناء وملاحظتهما معًا بقاء (ص٥٥، ٥٦).

القدرة والحكمة: القدرة عبارة عن إظهار الأشياء على وفق الإرادة، والحكمة عبارة عن تسترها بوجود الأسباب والعلل، فالقدرة تبرز والحكمة تستر، والقدرة لا تنفك عن الحكمة إلا نادرًا في معجزة أو كرامة، وقد تطلق القدرة على الذات بعد تجليها من إطلاق الصفة على الموصوف، والحكمة ما يسترها عن الحس وأوصاف البشرية وأحكام العبودية، فظهوره تعالى بمقتضى اسمه الظاهر يسمى قدرة، وبطونه في ظهوره بمقتضى اسمه الباطن يسمى حكمة (ص٥٦).

الحس: عبارة عن تكثيف الأشياء ظاهرًا (ص٥٨).

المعنى: عبارة عن تلطيفها باطنًا فحس الكائنات أوان حاملة للمعاني، فلا قيام للحس إلا بالمعنى ولا ظهور للمعنى إلا بالحس؛

فظهور المعنى بلا حس محال وشهود الحس بلا معنى جهل وظلمة (ص٥٨).

التواجد: تكلف الوجد واستعماله كاستعمال الرقص والشطح والقيام وغير ذلك (ص٦١).

الوجد: الذى يرد على القلب ويصادمه بلا تأمل ولا تكلف إما شوق مقلق أو خوف مزعج أو هو بعد التواجد (ص٦١، ٦٢).

الوجدان: دوام حلاوة الشهود واتصالها مع غلبة السكر والدهش فإن استمر مع ذلك حتى زالت الدهشة والحيرة وصفت الفكرة والنظرة فهو الوجود. وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر ثم ركب ثم غرق (ص٦٢).

الذوق والشرب والسكر والصحو:

الذوق يكون بعد العلم بالحقيقة، وهو عبارة عن بروق أنوار الذات القديمة على العقل فيغيب عن رؤية الحدوث فى أنوار القدم لكنه لا يدوم ذلك؛ بل يلمع تارة ويخفى أخرى فصاحبه يدخل ويخرج فإذا لمع غاب عن حسه، وإذا خفى رجع إلى حسه ورؤية نفسه، فهذا يسمى عندهم ذوقا، فإن دام له هذا الدور ساعة أو ساعتين فهو الشرب، وإن اتصل ودام فهو السكر ومرجعه إلى فناء الرسوم فى شهود الحى القيوم والغيبة عن الأثر فى شهود المؤثر، ويسمى أيضا الفناء فإن رجع إلى شهود الأثر وقيامها بالله وأنها نور من أنوار الله فهو الصحو، ويسمى أيضا بالرى وبالبقاء لإبقاء الأشياء بالله بعد فنائها ويسمى أيضا فناء الفناء لأنه علم أنه لم يكن ثم شيء يفنيه غير الوهم والجهل وهما لا حقيقة لهما (ص٦٣).

المحو: الغيبة عن الكائنات فناء (ص ٦٤).

الإثبات: يطلق على محو الأوصاف الذميمة، وإثبات الأوصاف الحميدة، وهى ثلاث: محو الزلة عن الظواهر، ومحو الغفلة عن الضمائر، ومحو العلة عن السرائر (ص٦٤).

الستر: غيبة العبد عن ربه ترويحا وتنزلا وشغلاً بشأن من الشئون (ص ٦٤).

التجلى: كشف العبد بعظمة ربه وهذا قبل الرسوخ، وأما بعد الرسوخ فلا غيبة له (ص٦٤).

المحاضرة والمكاشفة والمسامرة:

المحاضرة حضور القلب مع الرب، ويكون من وراء الحجاب، إما بتواتر البرهان أو بفكرة الاعتبار أو باستيلاء سلطان الذكر على القلب ثم بعده المكاشفة وهى حضور القلب مع الرب بنعت البيان غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ويكون أيضا مع الحجاب بنعت القرب فى مقام المراقبة، وبعد المحاضرة والمكاشفة المسامرة وهى ظهور أسرار الذات فيغيب العبد عن وجوده ويغرق فى بحر الأحدية ساعة أو ساعتين ثم يرجع إلى شاهده وحسه كمن يستمر فى عومه تحت الماء ساعة أو أكثر ثم يخرج، وهى من بداية الوجدان ولمعان أنوار المشاهدة، ثم بعدها المشاهدة وهى دوام شهود الحق بلا تعب أو وجود الحق بلا تهمة، وقال الجنيد رضى الله عنه: المشاهدة وجود الحق مع فقدانك، وقد تقدم تفسيرها وإنما أعيدت هنا لترتبها على ما قبلها. قال القشيري: فصاحب المحاضرة يهديه عقله وصاحب المكاشفة يدنيه علمه وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته، وأجمع ما قيل فى المشاهدة أنه توالى أنوار التجلى على القلب من غير أن يتخللها ستر وانقطاع (ص٦٥، ٦٦).

اللوائح واللوامع والطوالع: وهى ألفاظ متقاربة، وهى لأهل البدايات حين تبرق عليهم أنوار الشهود، ثم تستر فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوامع أظهر من اللوائح والطوالع أظهر من اللوامع فقد تبقى اللوامع ساعتين أو ثلاث بخلاف اللوائح فإنها أخف زوالها بسرعة، وأما الطوالع فإنها أبقى وقتا وأقوى سلطانا وأذهب للظلمة وأنفى للتهمة، لكنها على خطر الأفول لم يتمكن صاحبها من طلوع شمس عرفانه، فأوقات حصولها وشيكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال، لكن إذا غربت أنوارها بقيت آثارها، فصاحبها إذا غربت أنوارها يعيش فى بركات آثارها إلى أن تعود ثانية هكذا حتى تطلع شمس نهاره بتمكنه فلا مغيب لها حينئذ (ص٦٦، ٦٧).

البوادة: ما يفجأ القلب من ناحية الغيب على سبيل البغتة إما موجب فرح أو ترح (ص٦٧).

الهجوم: ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع ولا تكسب (ص٦٧).

سادات الوقت: من يكون فوق ما يفجأه حالا وقوة لا تغيره الهواجم ولا تتصرف فيه البواده، ولا تزعجه الهموم، ولا تحركه المخاوف، وهؤلاء هم أهل الرسوخ والتمكين (ص٦٧).

التلوين والتمكين: التلوين هو الانتقال من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام وقد يسقط ويقوم فإذا وصل إلى صريح العرفان وتمكن من الشهود فصاحب تمكين. فصاحب التلوين أبدا فى الزيادة وصاحب التمكين وصل وتمكن فانتهاء سيرهم الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها فقد وصلوا فانخنست أوصاف البشرية واستولى عليها سلطان الحقيقة، فإذا دام ذلك للعبد فهو صاحب تمكين، وقد يكون التلوين بعد التمكين ومعناه النزول فى المقامات كنزول الشمس فى بروجها فيتلون العارف مع المقادير ويدور معها حيث دارت ويتلون بتلون الوقت فيكون بين قبض وبسط وقوة وضعف ومنع وعطاء وسرور وحزن وغير ذلك من تقلبات الأحوال غير أنه مالك غير مملوك لا يتغير بتغير الأحوال ولا يتأثر بالزلازل والأهوال(ص٦٨).

القرب: كناية عن قرب العبد من ربه بطاعته وتوفيقه وهو على ثلاث مراتب: قرب بالطاعة وترك المخالفة، وقرب بالرياضة والمجاهدة، وقرب بالوصول والمشاهدة (ص٦٩)

البعد: أول البعد البعد عن التوفيق، ثم البعد عن سلوك الطريق، ثم البعد عن التحقيق (ص٦٩).

الشريعة والحقيقة والطريقة:

الشريعة: تكليف الظاهر والطريقة تصفية الضمائر والحقيقة شهود الحق فى تجليات المظاهر. فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده. فالشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر

والحقيقة لتزيين السرائر. ويقال الشريعة عين الحقيقة من حيث إنها وجبت بأمره والحقيقة عين الشريعة من حيث إنها مكلف بها من قبل الشريعة، وقد تطلق عندهم الشريعة على كل ما يتوصل به إلى الشيء أو يكون سببًا في إدراكه، فالأسباب كلها شرائع، والمقاصد كلها حقائق، فالحس شريعة المعنى؛ إذ به قبضت والمجاهدة شريعة المشاهدة والذل شريعة العز، وهكذا والحرث والغرس شريعة جنى الثمار؛ ولذلك يقولون من غرس الشرائع أثمرت له الحقائق ومن غرس الحقائق أثمرت له الشرائع (ص٧٠).

الذات والصفات: المراد بالصفات صفات المعاني وسائر أوصاف الكمال فكل ما وقع به التجلي والظهور فهو بين ذات وصفات الذات لا تفارق الصفات، والصفات لا تفارق الذات، وهذا التلازم الذي بينهما في الوجود هو الذي قصد من قال: الذات عين الصفات أي مظهرهما واحد. كما قالوا: الحس عين المعنى اتحد مظهرهما، واعلم أن الذات لا تتجلى إلا في مظاهر أثر الصفات؛ إذ لو تجلت بلا واسطة لاضمحلت المكونات وتلاشت؛ ولذلك يقولون: تجلي الذات جلالي وتجلي الصفات جمالي، لأن تجلي الذات بلا واسطة يمحق ويحرق كما في الحديث وتجلي الصفات يكون بالأثر فيكون معه الشهود والمعرفة فهو جمالي، ثم توسعوا فأطلقوا على كل ما هو جلالي ذات، وعلى كل ما هو جمالي صفات على سبيل التشبيه، فقالوا: الفقر ذات والغنى صفات، الذل ذات والعز صفات، الصمت ذات والكلام صفات وهكذا (ص٧١، ٧٢).

الأنوار: ما ظهر من كثائف التجليات (ص٧٢).

الأسرار: ما بطن فيها من المعاني اللطيفة فالأسرار أرق من الأنوار؛ فالأسرار للذات والأنوار للصفات لأنها أثرها (ص٧٢).

الضمائر والسرائر: فقيل معناهما واحد. وقيل السرائر أرق وأصفى كما أن الروح أرق من القلب؛ لأن الضمائر كل ما خفي في الباطن خيرًا أو شرًا، والسرائر ما كمن فيه من المحاسن، والتحقيق أنهما شيء واحد عبارة عما كمن في الباطن من العقائد والنيات بدليل الآية:

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾

{الطارق: ٩} (ص ٧٣).

الفكرة: جولان القلب في تجليات الرب، وهي سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له وهي سبب الغنى الأكبر وبها يتحقق السير ويحصل الوصول فمن لا فكرة له لا سير له ومن لا سير له لا وصول له، وكان شيخنا البوزيدي رضي الله عنه يقول: الفقير بلا فكرة كالخياط بلا إبرة (ص٧٥).

النظرة: أرق من الفكرة وأرفع لأنها مبدأ الشهود، فالجولان في الأكوان وهدمها وتلطيفها فكرة والنظرة في نفسه أو غيره من التجليات وغيبته عنها بشهود الحق نظرة، فإن تمكن من الشهود ودام فيه سمي العكوف في الحضرة، ولذلك يقال أول المقامات ذكر ثم فكرة ثم نظرة ثم عكوف في الحضرة (ص ٧٥).

الشاهد: ما يكون حاضر قلب الإنسان وما هو غالب ذكره كأنه يراه ويبصره، وإن كان غائبًا عنه، وكل ما يستولي على قلب الإنسان ذكره فهو شاهده. فإن كان الغالب عليه ذكر العلم فهو بشاهد العلم وإن كان الغالب عليه الوجد فهو بشاهد الوجد (ص٧٦).

المريد: الذي تعلقت إرادته بمعرفة الحق ودخل تحت تربية المشايخ وهو من لا إرادة له دون مولاه (ص٧٨).

الفقير: الذي افتقر مما سوى الله ورفض كل ما يشغله عن الله؛ ولذلك قالوا: الفقير لا يملك ولا يُملك، أي لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء، فهو أنهض من المريد وأخص لأن المريد قد يكون من أهل الأسباب، وقيل: الفقير هو الذي لا تقله الأرض ولا تظله السماء أي لا يحصره الكون لرفع همته ونفوذ بصيرته (ص٧٨).

الملامتي: هو الذي لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًا أي هو الذي يخفي ولايته ويظهر من الأحوال ما ينفر الناس عنه (ص٧٨).

المقرب: من كملت أحواله فكان لربه بربه وليس له عن سوى الحق أخبار ولا مع غير الله قرار (ص٧٨).

العباد والزهاد والعارفون: هذه ألفاظ معانيها متقاربة يجمعها معنى التصوف في الجملة الذي هو قصد التوجه إلى الله تعالى، إلا أن من غلب عليه العمل كان عابدًا ومن غلب عليه الترك كان زاهدًا، ومن وصل إلى شهود الحق ورسخ فيه كان عارفًا (ص٧٩).

الصالحون: من صلحت أعمالهم الظاهرة واستقامت أحوالهم الباطنة (ص٧٩).

الأولياء: أهل العلم بالله على نعت العيان من الولي وهو القرب (ص٧٩).

البدلاء: الذين استبدلوا المساوئ بالمحاسن، واستبدلوا صفاتهم بصفات محبوبهم (ص٧٩)

النقباء: الذين نقبوا الكون وخرجوا إلى فضاء شهود المكون (ص٧٩)

النجباء: السابقون إلى الله لنجابتهم، وهم أهل الجد والقريحة من المريدين (ص٧٩).

الأوتاد: الراسخون في معرفة الله وهم أربعة كأنهم أوتاد لأركان الكون الأربعة (ص٧٩).

القطب: القائم بحق الكون والمكون وهو واحد وقد يطلق على من تحقق بمقام وعلى هذا يتعدد في الزمان الواحد أقطاب في المقامات والأحوال والعلوم، يقال: فلان قطب في العلوم أو قطب في الأحوال، قال القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: للقطب خمسة عشرة علامة فمن ادعاها أو شيء منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ومن هذه العلامات أن يكون متخلقًا بأخلاق الرحمة على قدم موروثه ﷺ وأن يمد بمدد العصمة وهي الحفظ الإلهي والعصمة الربانية وأن يكون خليفة الله في أرضه أمينًا على عباده بالخلافة النبوية وأن يكون نائبًا عن الحق في تصريف الأحكام، وأن يطلع على علم البدء والمراد علمه تعالى الأزلي السابق للأشياء قبل أن تكون وهو العلم المحيط بكل علم وبكل معلوم (ص٧٩ - ٨٢).

الخلاصة:

ورد في الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية التالية:

- الخوف.	- الرجاء.
- المراقبة.	- المحاسبة.
- المشارطة.	- المشاهدة.
- المعاينة.	- المعرفة.
- التصديق.	- الطمأنينة.
- الشوق.	- الاشتياق.
- الغيرة.	- الإرادة.
- المجاهدة.	- القناعة.
- اليقين.	- الفراسة.
- الإيثار.	- الخواطر.
- الواردات.	- النفس.
- التأييد.	- التسديد.
- الحكمة.	- العقل.
- القدرة.	- الحس.
- الوجدان.	- الذوق.
- المكاشفة.	- المسامرة.
- التمكين.	- القرب.
- الذات.	- الفكرة.

القائم بالعرض د. مي إدريس

هجرة النبوة من مكة إلى يثرب



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

لم تتسع العربية - على رحب آفاقها - لذلك المعنى الجليل الذى بدأ تاريخًا، وأنهض أمة واستأنف عالمًا، فسمته بأقرب الكلمات إلى معناه، وبما يدل على ظاهره الذى هو انتقال جسمانى - من بلد إلى بلد - كما لم تتسع لمعنى حركة الشمس فى أفلاكها فسمته بأضعف مظاهره وبما تدرك العين منه وقالت: سبح جريان وجاء العلم فشرح ووضح وفسر وتوسع، وهذا شأن اللغة كلما عجزت عباراتها الوضعية عن تأدية معنى عظيم، وضاقت عن تحديده، أطلقت عليه كلمة، ترددها الألسنة، ويتعارفها الناس، وتشير ولا تحدد، وتركت للعقول التوسع فى تصوير الحقيقة، وإبعاد النجعة فى طلبها؛ أما الاسم الذى جعل عنوانًا على الحقيقة فلم يعد أن كان منبهة، كما جعلته اللغة، وهذا شأنها فى الكلمات ذات المدلول الواسع مثل الخير والعلم والحق والجمال، ولغات العالم فى هذا الباب واحدة، لأن عقول الناس فيه واحدة أو متقاربة.

انتهى الحكم فى ذلك المعنى الجليل إلى التاريخ بعد اللغة فسماه الهجرة النبوية المحمدية، وكشف بهذين الوصفين بعض السر، ونبه العقول إلى أنها هجرة من نوع آخر، ومضى يربط سوابقها بلواحقها، ويصف، وفى كل وصف مثار للإحساس، ويقص، وفى كل قصة موضع للعبرة، ويروى الوقائع، وفى كل واقعة جيش لجب من الحماس، ويحكى الأقوال، وفى كل قول مجال للحكمة، ويسلسل الحوادث، وفى كل حادثة مسرح للعقل، ويسمى الأشخاص، وفى كل شخص وقفة للتوسم، ويستعرض الآراء، وتحت كل رأى نسق من التدبير، ثم يبنى النتائج على المقدمات، ويصل الآثار بالمؤثرات، وينتهى وقد كشف عن ذلك المعنى الجليل الذى ضاقت عنه كلمة (هجرة) أتم كشف، وفسره أكمل تفسير.

لا كاشف للحقائق الكونية كالبحث، ولا شارح للأسرار الدينية كالتدبر، ولا

محلل للأحداث الاجتماعية كالتاريخ ، أما اللغة فوظيفتها وضع العنوان ورسم الخطوط ، ومن طلب من اللغة ما هو فوق ذلك فهو لاغ .

***

كانت الهجرة - بهذا المعنى الخاص - وما زالت ، هروبًا من الباطل والمبطلين ، ونجاء بالنفس أو بالعقيدة أو بهما ، فهي في خلاصتها انهزام يعتذر بالضعف إلى أن يجد القوة ، وفرار بعزيز يخاف عليه إلى حيث يؤمن عليه ، لم يخرج عن هذا المعنى حتى هجرة الأنبياء والصديقين كإبراهيم ولوط هاجرا من بابل إلى كنعان ، ولم يرجعا إلى بابل من كنعان ، أما هجرة محمد وأصحابه فكانت هجرة قوة كاثرها الباطل المتهافت ، والشرك المتخافت ، وعاقها عن امتداد العروق ، وبُسوق الأفنان في أرضها التي فيها نبتت ، وجوها الذي فيه تنفست ، وقد طاش ذلك الباطل الطيشة الكبرى ، وبحث عن حتفه بظلفه ، فأخرج تلك القوة إلى حيث تزداد قوة ورسوخًا ، وهذا من عجيب صنع الله لهذا الدين القوي الراسخ .

من اللطائف أن القرآن ذكر قصة الهجرة المحمدية من مكة إلى يثرب بأسلوب ليس من نسق التاريخ فسمّاها إخراجًا من الذين كفروا ولم يسمها هجرة بصريح اللفظ ، وإن سمى الصحابة المهاجرين ، ونوّه بالهجرة ، وحض عليها ، وقرنها بالإيمان ، وجعلها شرطًا في الولاية فقال :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾

(الأنفال: ٧٢)

وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يُذكي الحماس ، ويُبقي الحنين إلى الديار متواصلا ، ويُنمي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر ، وأن إيجاب الهجرة بتلك الأساليب المغرية البديعة ، هو جمع لأنصار الحق في مأرز واحد ، بعد تشتتهم لينجموا ويستعدّوا إلى الرجعة والكرة .

وانظر إلى بدر والحديبية وعمرة القضاء تجدها كلها تعبر عن اتجاه وتحويم ، وعن حنين إلى مكة تدل مظاهره على خفاياه ، ثم انظر أية ثورة تثيرها في النفوس الحرة آية :

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(التوبة : ٤٠)

وآية :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

(الفتح : ٢٥)

إن للإخراج من الديار لشأنًا أي شأن في القرآن ، فهو يبدئ ويعيد في تقبيحه وإنكاره وتحريمه ، وهو يقرنه بالقتل تشويهًا له وتشنيعًا عليه ، وإن له في نفوس الأحرار لأثرًا يتعاصى عن الصفح والعفو ، وإن له في نفس سيد المرسلين لوقعًا مؤلمًا من يوم قال له ورقة : "إذ يخرجك قومك" ، فقال : "أو مخرجي هم؟" إلى يوم أخرجه قومه بغير حق ، إلى يوم أخرجه ربه إلى بدر

بالحق ، إلى يوم صدقه ربه الرؤيا بالحق .

***

ما زلت منذ درست السيرة بعقلي ، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لجي من العبر والمثلات ، ومن بين تلك المقامات حادثة الهجرة ، فلا يكاد عقلي يستثير بواعثها الطبيعية حتى أتلمح العوامل الإلهية فيها فأستجلي من بعض أسرارها التمهيد للجمع بين أصلي العرب اللذين كانا في الجاهلية يتنازعان ملاءة الفخر ، ويورّث الرؤساء والشعراء بينهما نار العصبية ، حتى أضعفتهما العصبية ، وحتى أطمع الضعف فيهما جاريهما القويين : جار الجنوب الحبشي ، وجار الجنب الفارسي ، وكادا يستعبدان هذا الجنس الحر لولا أن قال رأي أبرهة في الفيل ، ومالت رايات فارس في ذي قار .

جاءت النبوة من مكة إلى المدينة تعمل عملها في جمع القوتين اللتين أحالهما التفرق ضعفًا ، فجمعت المهاجرين والأنصار ، وكأنما جمعت عدنان وقحطان في دار ، يتصافحان على العروبة ، ويتآخيان على الإسلام ، ويحييان من الأواصر والروابط ما أماتته عبية الجاهلية ، ويميتان من النعرات المفرقة ما كانت تحييه المنافرات والمفاخرات ، وفي عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار عنوان ذلك ودليله ، ولو دامت للقرآن هيبته في الأفئدة وسلطانه على القلوب لما نبض عرق اليمانية والقيسية في الدولتين الأمويتين بالشرق والأندلس ، ولما نجمت تلك النواجم التي ذهبت بريح العرب ، ولما وجهت الدعوة العباسية وجهتها إلى خراسان ، ولما بقيت هذه العروق الدساسة التي ما برحت تنفث السم في قلب الجزيرة العربية إلى الآن .

***

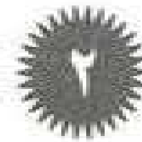
ليت شعري .. وليت يقولها المحزون ، هل تحمل ذكرى الهجرة المتكررة مع كل عام ، أولئك اليمانيين الراكدين وهم جمهرة أنساب قحطان ، وأولئك الحجازيين الراقدين ، وهم منحدر دماء عدنان ، على أن يتداعوا إلى ما تداعى إليه أجدادهم ، وأن يتآخوا على ما تآخوا عليه ؟

هل يرجعون بالذاكرة إلى بيعة العقبة وما جرت للعرب من أخوة وسيادة ، وعزة وسعادة ، فيتبايعون على حماية الحوزة العربية والذب عن حياض العروبة ؟

هل آن لهم أن يعلموا أن هذه المذاهب التي صيرتهم أوزاعًا في الدين والدنيا هي السبل المفرقة عن سبيل الله الواحد ، وهي التي نهى الله عن اتباعها ؟

هل يعلمون أن طلاب الغاز غزاة ، وأن الشركات أشراك ، وأن رؤوس الأموال الأجنبية ذات قرون ناطحة ، وأن الوطن الذي يعمر بمال الأجنبي وبيد الأجنبي وعلم الأجنبي ! محكوم عليه بالخراب ، وإن تعالت في الأفق قبابه ، وكسيت بوشي السماء هضابه ، وسالت بذهب الأرض شعابه ؟

إسلام واحد ورؤى متعددة



أ.د/ محمد شامة

لم يقتصر الأثر السلبى لاختلاف العلماء فى استنباط الأحكام على غير المسلمين، بل تعداه إلى المسلمين، وخاصة الذين لا يملكون القدرة العلمية على فهم فلسفة هذه الظاهرة فهمًا صحيحًا، بل إن العامة من المسلمين لا يتقبلون هذا الاختلاف؛ إذ يحدث عندهم بلبلة فى تقبله، فيقعون فى حيرة من أمرهم، عندما يطلبون الفتوى فى مسألة ما، فيفتيهم أحد المتخصصين برأى، فإن سألوا آخر أعطاهم رأيًا مخالفًا للأول، وقد يسمعون رأيًا ثالثًا من مصدر ثالث.. وهكذا الأمر الذى يصيبهم بالحيرة، فيتساءلون: أى الأجوبة المتعددة هو الصحيح فيتبعونه، وأيها الخطأ فيرفضونه.

ظهر هذا فى المجتمع الإسلامى نتيجة الأمية الدينية التى انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى، وتغلغلت فى جنباته، بحيث أصبح الأمر فى حاجة إلى جهود جبارة لشرح هذا الجانب من الفكر الإسلامى، وإلى بيان عدم وجود آلية تبين أن أحد هذه الآراء صحيح مطلقًا، وما عداه خطأ محض؛ لأن كل عالم استند فى استنباط الحكم الذى ارتآه إلى قواعد مسلم بها فى البحث العلمى، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾

(المائدة: ٦)

فقد اختلف العلماء فى كيفية مسح الرأس إلى ثلاثة آراء:

- الأول: من يرى أن مسح كل الرأس واجب فى الوضوء، مستدلاً على ذلك بأن الباء فى ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ زائدة للتأكيد -وهى قاعدة لغوية- والمعنى: وامسحوا رءوسكم، أى كل الرأس.

- الثانى: من يرى أن الواجب هو مسح بعض الرأس فقط، لأن الباء فى ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ للتبعيض، وأقل البعض عنده هو الربع.

- الثالث: اتفق مع الرأى الثانى فى أن مسح بعض الرأس هو الواجب، ولكنه اختلف معه فى تحديد مساحة البعض، فرأى أن البعض يطلق فى اللغة على أقل جزء من الكل، وعليه يجزئ مسح شعرة واحدة فى المفروض مسحه فى الوضوء، لأنها -أى الشعرة- تعتبر جزءًا من الرأس.

هل يستطيع أحد أن يجزم بأن أحد هذه الآراء الثلاثة صحيح مائة فى المائة، والآخرين باطلان بطلانًا محضًا؟

لا يجرؤ أحد على التصريح بذلك، حتى صاحب الرأى نفسه لم يدع أن رأيه هو الصحيح وما عداه فهو باطل، فلم يخرج الأمر عن دائرة الاحتمال، قال الشافعى: رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب.

أضف إلى ذلك أن فى تعدد الآراء رحمة للمسلمين، وهو لازم من لوازم حياتهم، فقد تعترى الإنسان حالة لا يستطيع معها مسح كل الرأس فيلجأ للرأى الآخر، وقد يرى البعض أن مسح شعرة واحدة سهل التطبيق، فيلتزم به، ولذلك روى فى الأثر أن اختلافهم -أى الفقهاء- رحمة، أى تيسير للمسلمين، حتى لا يصيبهم حرج، لو اتفق الفقهاء على رأى واحد لا يناسب حالة البعض، أو لا يتلاءم مع متطلبات العصر.

وخلاصة القول: أن الإسلام هو نص القرآن الكريم، والسنة العملية، والحديث المتواتر. وهذا هو ما أجمع عليه المسلمون؛ فهو القاعدة الأساسية لكل الآراء والاتجاهات الفكرية فى جميع الأقطار الإسلامية؛ إذ هو بمثابة الدستور التى لا تخرج عن نصوصه -ولا تعارضها- جميع القوانين، رغم اختلافها، وتعددها وتشعبها. فالفكر الإسلامى بمذاهبه الفقهية، ومواقف علمائه من قبول الأحاديث النبوية غير المتواترة، وتعدد مدارسه فى تفسير القرآن الكريم، وتنوع اتجاهاته الفلسفية، هو نتاج بشرى متنوع، يلبى احتياجات كل المجتمعات الإنسانية، ويتناغم فى آرائه مع ما تحتاج إليه مسيرة التقدم الحضارى، وهو بذلك:

- يدحض حجة من يرى أن الإسلام متعدد بتعدد البلاد والأمصار.
- كما يقيم الدليل على أنه -أى الإسلام- صالح لكل الناس، مهما اختلفت نظم حياتهم، وتنوعت درجة تقدمهم الحضارى، وتعاقبت عليهم الأزمان والعصور.
- ويوضح أن آراء العلماء ليست مقدسة، لا يجوز معارضتها، ولهذا يجوز لكل مسلم أن يلتزم برأى دون آخر، حتى ولو كان رأيًا مخالفًا لكل المدارس الإسلامية، ما دام موافقًا لنص القرآن الكريم بأى وجه من وجوه البحث العلمى.

إذا كان النص واحدًا، والتفسير متعددًا -أى أنه ظنى الدلالة- وبالتالى تتعدد الأحكام المستنبطة منه:

- فهل يجوز أن يجيب المستفتى بأى رأى من الآراء المتعددة؟
- وهل يجوز لأى شخص عرف حكمًا من هذه الأحكام المتعددة -وجهل الآراء الأخرى- أن ينصب نفسه مفتيًا يدعى أن هذا الرأى الذى عرفه هو الصحيح الذى لا يجوز للمسلم أن يخالفه، مهما كانت الظروف والأحوال؟
- وهل يصح الإفتاء فى وسائل الإعلام، وخاصة الإذاعة المرئية، على الرغم من اختلاف أحوال الناس؟

تختلف الإجابة على هذه الأسئلة باختلاف أطرافها وملابساتها:

- فإذا كان الأمر يتعلق بالتعليم والتعلم،

فينبغى على المعلم أن يشرح لطلابه ـ وخاصة فى المرحلة الجامعية ـ كل ما قيل فى تفسير النص، وما استنبط منه من أحكام بأدلته المختلفة التى استندت إليها كل مدرسة، وتوجيه ما ذهب إليه كل عالم للتدليل على صحة رأيه.

ولا يقتصر على ما يراه هو صحيحًا، كما لا يكتفى الطالب بدراسة مذهبه فقط، لأنه يُعِدُّ نفسه للإفتاء، وقد يكون حال المستفتى لا يساعده على تنفيذ رأى مذهبه، إذ قد يناسبه حكم استنبطه عالم آخر من مدرسة غير مدرسة مذهبه، ولذا فالحكمة ـ وكذا فلسفة الفكر الإسلامى ـ تقتضى ألا يقتصر أى من الطرفين ـ المعلم والمتعلم ـ على آراء مدرسته، أو ما يراه صحيحًا.

ـ يجب على المفتى أن يراعى حال المستفتى، فيعطيه الجواب الذى يتناسب مع وضعه.. حتى وإن رجح عليه رأيًا آخر؛ فقد غير الشافعى بعض الآراء التى أفتى بها فى العراق، حين جاء إلى مصر، فلما سئل عن ذلك بين للسائلين أن سبب الاختلاف فى الفتوى، هو التفاوت بين حياة الشعبين، وعرف ما أفتى به فى العراق بالمذهب القديم، وما خالفه فى مصر بالمذهب الجديد، وعليه فليس كل من عرف الأحكام المتعددة فى الفقه الإسلامى قادرًا على الفتوى، بل يجب أن يكون لديه القدرة على معرفة التفاوت بين الناس، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، أو فى إطار عادات وتقاليد الشعوب.

ـ قد يترتب على الفتوى عبر وسائل الإعلام ـ وخاصة الإذاعة المرئية ـ نتائج سلبية، تؤدى إلى نفور غير المسلمين من الإسلام، أو تتسبب فى تدمير علاقات أسرية، وتقطيع أواصر المودة والمحبة بين ذوى الأرحام ولبيان هذه الصورة نسوق المثال التالى:

اختلف العلماء فى جواز عقد المرأة نكاحها بنفسها دون ولى، فقال الشافعية والمالكية والحنابلة: لا يجوز للمرأة ذلك، إذ يجب أن ينوب عنها وليها فى عقد الزواج، مستدلين على ذلك بقول رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل». (أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط مرفوعا بلفظ «لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل») وخالفهم فى ذلك أبو حنيفة فأجاز للمرأة، إذا كانت بالغة عاقلة، أن تعقد زواجها بنفسها دون ولى، ورد على الاستدلال بالحديث السابق بأن المقصود به غير البالغة. فإذا أفتى عالم برأى الثلاثة فى وسيلة إعلامية، وسمعه ـ أو قرأ فتواه ـ واحد من الشعوب التى تتولى فيها المرأة مناصب عليا، وتعقد عقودًا بملايين ـ بل بمليارات ـ الدولارات، لصدمته هذه الفتوى، إذ كيف ـ هكذا يتساءل ـ يكون للمرأة القدرة على هذه الأعمال، ثم لا تستطيع أن تعقد عقدًا يتعلق بذاتها ويحدد مستقبلها، وقد يؤدى هذا التساؤل إلى صرف نظره عن التفكير فى الإسلام، لو كانت عنده نية البحث فى هذا الدين، فيصد بذلك عن طريق، كان من المحتمل أن يؤدى به إلى اعتناق الإسلام. ولو أفتى هذا المفتى برأى أبى حنيفة عبر وسائل الإعلام، وسمعته ـ أو قرأت فتواه ـ فتاة فى مجتمع محافظ، فعقدت زواجها بنفسها دون ولى، لأثر ذلك على وضع الأسرة فى المجتمع، إذ يعتبرون ذلك فى المجتمع المحافظ عارًا لأهلها، وسبة فى بيئتهم يعيرهم بها جيرانهم

وأهل مدينتهم، وخاصة سكان القرى، ومن هنا يجب أن تكون الفتوى شخصية، فيفتى المحافظ برأى الثلاثة، ويفتى الآخرون بما يناسب درجة تحضرهم، وبما يتلاءم مع وضع المرأة فى حياتهم. فعلى المسلمين أن يوجهوا بأسئلتهم الدينية إلى أئمة المساجد المنتشرة فى كل أحياء المدن وفى القرى والنجوع، فذلك أسلم الطرق لنشر دين الله ومعرفة أحكام الشريعة الإسلامية.

ـ وثالثة الأثافى التى أنتجت هذه الظاهرة ـ وهى كثرة الجهلة وأنصاف العلماء فى مجال الوعظ والإرشاد ـ أن الإنسان يميل بطبعه إلى أن يكون مركز اهتمام من حوله، يرمقونه بأنظارهم تعجبًا وانبهارًا، ويلتفون حوله إجلالاً وإكبارًا، ويأتمرون بأمره تقربًا واستحسانًا، ينسبون إليه من البطولات ما يعزز مركزه بينهم ويعمق تأثيره فى أكبر دائرة من مجتمعهم، ولذلك نرى كثيرًا من الناس يسلكون كل طريق يعتقدون أنه يوصلهم إلى هذه المكانة بين الناس، ويباشرون من الأنشطة الاجتماعية ما يكسبون عن طريقها عواطف بنى وطنهم، ويؤثرون على عقولهم وأفكارهم.

وتختلف المجالات فى المجتمعات الإنسانية ـ من ناحية التأثير على الناس ـ باختلاف ارتباط الناس بها، فكلما كثر ارتباطهم بمجال ما، كلما كان هذا المجال وسيلة من وسائل الوصول إلى قلوبهم وأفئدتهم، فما عم تأثيره فاتصلت آثاره بجميع أفراد المجتمع، كان أنسب وأصلح للوصول إلى المكانة المرموقة، مما كان خاصًا بطائفة دون أخرى من طوائف المجتمع، لأن من يتناول العام فهو يخاطب كل فرد من أفراد الأمة، أما من حصر نفسه فى مشكلة تهم طائفة معينة، فإن تأثيره لا يتعدى من تهمهم هذه المشكلة.

فإذا نظرنا من هذه الزاوية إلى اهتمامات الناس، لوجدنا أن أكثر المسائل ارتباطًا بهم: السياسة والدين، إذ أن كل إنسان واقع تحت تأثير القرارات السياسية، تصيبه نتائجها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وتتأثر حياته العملية والاقتصادية والاجتماعية بها، سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، إذ سيتوقف نظام حياته على نوع وأسلوب النظام السياسى الذى يعيش تحت ظله، ولذا فكل فرد فى المجتمع يهتم بهذا الجانب على تفاوت فيما بينهم.

ولهذا نجد أن كل من يتطلع إلى الوصول إلى مركز مرموق فى المجتمع، بحيث يلتف الناس حوله ـ وكذلك من يسعى إلى السلطة والسلطان ـ يسير فى هذا الاتجاه، فتراه يتحدث فى شتى الموضوعات التى لها صلة بالحكم: من سياسة واقتصاد، ومؤسسات دستورية، وتنظيمات حزبية ..... و..... و..... وغير ذلك مما يضفى عليه هالة تجذب الناس إليه، وتجمعهم حوله. ولما كان هذا المجال مغريًا لجميع الناس، فقد استخدمه كل من اشرأبت عنقه إلى كراسى الحكم، وخاض فيه كل من رام مركزًا بين أقرانه، ومن هنا رأينا كثرة المتحدثين فى السياسة، وسمعنا العديد من الآراء فى أكثر المشكلات تعقيدًا حتى على من درسوا وتخصصوا فى هذا المجال.

فالحديث عن السياسة، والفتوى فيها كلأ

مباح لكل من يريد، وساحة مفتوحة لكل مدع، لا فرق في ذلك بين أمي وجاهل، ومتخصص بارع في معرفة النظريات السياسية والمعطيات الدولية التي لها تأثير على مجرى الأحداث واتخاذ القرارات، وتؤيد هذه الظاهرة صدق من قال: هناك مجالان يدعي كل واحد - سواء كان أميًا أو أستاذًا جامعيًا - أنه خبير فيهما، وهما: السياسة والدين. فكل إنسان - إذا ما سنحت له الفرصة - ينبري في الحديث عن الدين والسياسة، حتى ولو كان لا يعرف ألفها من يائها، وما ذاك إلا لأنهما مجالان يتعلقان بحياة كل إنسان، فمن يريد كسب قاعدة جماهيرية عريضة فليشتغل بالسياسة أو بالدين.

فالدين هو المجال الثاني الذي يندفع كل الناس في الحديث عنه، لا رغبة - في الغالب الأعم - في الوصول إلى مركز مرموق، ولكن إشباعًا للعاطفة الدينية، وإظهارًا - أو تظاهرًا - لمعالم التقوى، فمن يتصدى للحديث عن المسائل الدينية فإنه - غالبًا - ما تكون رغبته أن يعرف الناس عنه أنه حسن الصلة بالله، فهو يحافظ على تأدية واجباته الدينية، ويبتعد عن المحرمات التي وردت في القرآن الكريم. والحديث في هذه الموضوعات تأكيد للناس بأنه متدين ورع، ولذا يخوض في المسائل الدينية، وكثيرًا ما يفتي في أدق المسائل، ويجزم برأي فيما اختلف فيه الفقهاء، مما يكون له تأثير سيئ على سلوك الناس واتصالهم بالجانب الديني. ومن معالم هذه الظاهرة ما نراه ونسمعه من شباب لا صلة لهم بالدراسات الدينية؛ إذ ينشرون من الآراء والتعاليم باسم الإسلام ما هو بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه، فهم يظنون أنهم يؤدون بذلك خدمة للدعوة الإسلامية، وفي حقيقة الأمر يصورون الإسلام بصورة تنفر كثيرًا من المجتمعات والأفراد من الدين، مما يجعل سلوكهم وسيلة للتنفير من الإسلام، لا أسلوبًا للدعوة إلى الله، وما ذاك إلا لأنهم عاجزون عن فهم حقائق الدين وفقهه. ولذا ينبغي عدم السماح لهم بالخوض في تفسير النصوص الدينية، لأن ما يترتب على خوضهم فيما لا علم لهم به من فساد لا يتناسب مع ما يحدثونه من تأثير روحي في المجتمع، فهم يفسدون أكثر مما يصلحون.

فإذا جاز لكل إنسان أن يتحدث في السياسة - لأنه لا يوجد قانون يحرم ذلك - فإنه لا يجوز دينًا أن يتحدث إنسان في الدين بما لا علم له به، لأن ذلك يوقعه في دائرة عقاب الله. فقد ورد في القرآن الكريم ما يحرم على المتدين أن يخوض في المجالات التي يجهلها، فإن كان ولابد فيجب أن يلتزم بالصدق فيما يتحدث به ولا يدلي برأي إلا فيما يعلم، يقول تعالى:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(يونس: ٣٦)

ويقول:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٤٢)

ويقول:

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾

(الأنعام: ٩٣)

ويقول:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

فمسئولية المسلم عن كل ما يتحدث به في المسائل الدينية كبيرة، لأن الخطأ فيها ليس كالخطأ في مجال السياسة، فلو كان هناك مجال في السياسة لتلافي الأخطاء، أو لفقدان ما يظهر خطأ الحديث فيها بشكل واضح، أو غياب الضمير الذي يؤنب صاحبه عندما يتبين أنه وقع في الخطأ، فإن الأخطاء في مجال الدين تختلف عن ذلك؛ إذ يشعر المرء في المسائل الدينية بحرج كبير، وتأنيب الضمير، لو ظهر له أنه أدلى برأي لا يتفق وتعاليم الإسلام، لأن مكان العقيدة في نفسه يدفعه إلى الحرص على عدم مساسها بسوء من أي نوع، وهي نفسها التي دفعته إلى محاولة الحديث فيها، ظنًا منه أنه يتقرب إلى الله بذلك.

ومن هنا ينبغي على المسلم ألا ينساق وراء عواطفه فيتحدث في المسائل الدينية بما لا علم له فيه، حتى لا يقع فريسة تأنيب الضمير عندما يظهر له خطؤه، وليكرس تلك القوة الناشئة من غيرته الدينية في تقديم خدمات للإسلام في مجال عمله، تاركًا الحديث عن العقيدة والشريعة بفروعها وتفصيلاتها إلى المتخصصين الذين يحسنون القول فيها، بما حصلوه من علم في فقه الكتاب والسنة.

فلو كان وضع الإنسان في هذه الحياة يسمح له بالصولان والجولان في عالم السياسة، فينبغي أن يكبح جماح نفسه، فلا يطلق عنان القول في مجال الدين إلا إذا كان على علم وبينة بما يقول.

وعليه فليس هناك من يجوز له ممارسة الوعظ والإرشاد إلا المؤهل علميًا لهذه المهمة، ومن هنا يمكن أن يفهم المرء ما اشترطه بعض الفقهاء فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من أن يأذن له الإمام أو الحاكم بذلك، فقد استدلوا في هذا إلى أن الإمام يستطيع اختيار من يحسن القيام بهذه الوظيفة، ويقصدون بذلك أنه سوف يعهد بهذا الأمر إلى المؤهل علميًا، حتى لا يحدث ما يؤدي إلى الفساد والفتن بدخول غير المؤهلين إلى هذا الميدان، لأنهم سوف يشيعون - بجهلهم الأحكام - البلبلة بين الناس، ويبذرون بذور الحيرة في قلوبهم بتضارب أقوالهم تضاربًا لا يستند إلى دليل، ولا توجهه حكمة، أو توضحه مصلحة حياتية أو عقدية.

فإطلاق حرية الحديث في المجال الديني لكل الناس له عواقب سيئة في حقل الدعوة إلى الله، فهو، وإن كانت له آثار طيبة من بعض النواحي في المجتمع، إلا ما ينتج عنه من غيوم تحجب سماحة الإسلام - من جراء تشدد الجهلة وتطرفهم - وتخفي عن أنظار غير المسلمين - وكثير من المسلمين أيضًا - فاعليته في مجال العلوم الحديثة وإمكانات إسهام من يتمسك به في الحضارة المعاصرة بجميع فروعها من جراء عدم فهم كثير من الدخلاء على الدعوة الإسلامية فلسفة الإسلام في التشريع التي تجعله ملائمًا لكل العصور، والأزمان، الأمر الذي يجعل مهمة الدعاة المؤهلين ثقيلة ومضاعفة، بسبب تصحيح أخطاء المتطفلين على الدعوة، ومواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام.

«يتبع»

بيان رد الشبهات عن القرآن



الحلقة الأخيرة

لفضيلة الشيخ عبدالمجيد حامد صبح

أتى بضمير الفاعل مع وجود الفاعل

جاء في سورة الأنبياء :

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

(الأنبياء : ٣)

مع حذف ضمير الفاعل في أسروا لوجود الفاعل ظاهرًا وهو ﴿الَّذِينَ﴾ .

تبيين الجواب

وأقول: أولاً قولهم (مع حذف ضمير الفاعل في ﴿وَأَسَرُّوا﴾ لوجود الفاعل ظاهراً وهو الذين) مقصوده - على زعمهم - يلزم حذف الضمير في ﴿وَأَسَرُّوا﴾ لوجود الفاعل وهو ﴿الَّذِينَ﴾ .

ثانياً: أزيدكم آية أخرى في سورة المائدة ٧١ يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾

أقول: ألا ياأضحكوا أيها الناس، من لا يتقن العربية يعيب على القرآن، حجة العربية العليا، ففي من العيب ؟! تجريد الفعل من ضمير التثنية والجمع لوجود الفاعل لغة جاءت في القرآن قال الله في سورة المائدة ٢٣: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ وقال في سورة الفرقان ٨: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ وقال في سورة يوسف ٣٠ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ وذكر الضمير الدال على الجمع أو التثنية مع ذكر الفاعل لغة عربية صحيحة فصيحة عرفت في قبيلتي طيء وأزد شنوءة، حكى نحاة البصريين عنهم نحو (ضربوني قومك) و(ضربتني نسوتك) وإليكم بعض شواهدها

قال عمرو بن ملقط (وهو جاهلي):

أولى فأولى لك ذا واقية
ألفينا عيناك عند القفا

وقال الشاعر:

يلومونني في اشتراء النخيل قومي فكلهم يعذل
وأهل الذي باع يلحونه
كما لحي البائع الأول

وينسبون إلى يزيد بن معاوية هذا البيت:

يدورون بي في ظل كل كنيسة
فينسونني قومي وأهوى الكنائس

وقال الشاعر:

فإن نفين ليبقوا أولائك بعدنا

لذى حرمة في المسلمين حريم

وقال الشاعر:

نصروك قومي فاعتززت بنصرهم
ولو أنهم خذلوك كنت ذليلاً

وقال الفرزدق:

ولكن ديافي (١) أبوه وأمه
بحوران، يعصرن السليط أقاربه

وقال محمد بن عبدالله العُتبي:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي
فأعرضن عني بالخدود النواضر

وقال أبو نواس:

الحمد لله ليس لي نشب
فخف ظهري وقل زواري
وأحسنت نفسي التعزي عن
شيء تولى، ومتن أو طاري

وقال أيضا:

وكان سعدى إذ تودعنا
وقد أشراب الدمع أن يكفا
رشأ تواصين القيان به
حتى عقدن بأذنه شنفا

وقال أبو فراس الحمداني:

نتج الربيع محاسنا
ألقحنها غر السحائب

وقال أيضا:

نهضت وقد قعدن بي الليالي
فلا خيل أعن ولا ركاب

وقال أيضا:

أوذنه أطراف كل فضيلة
شيم تساندها علا ومناقب

وقال البحترى (وهى لغة قبيلته):

شدن ينهبنه العيون سراغا
فيه لو أمكن العيون انتهاب

هذه شواهد أكثرت منها ليعلم من يريد أن يعلم أنها لغة صحيحة وفصيحة تكلم بها الرعيل الأول من فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين ومن تبعهم بإحسان من فحول المحدثين مما يدل على أنها - مع فصاحتها ليست لغة مهجورة، وحسبها أن نطق بها القرآن في موضعين. وكان لا ختيار القرآن لها في موضعيها سر من أسرار التعبير القرآني، فاسألوا عنه أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

ثم أقول: أعرابي لم ينم ليلته فلما أصبح سألوه: لماذا؟ فقال: أكلوني البراغيث، ومن ثم سمى بعض النحاة هذه اللغة (لغة أكلوني البراغيث).

وأنا أسأل الله تعالى أن يرسل براغيث الجهل على مضاجع الجاهلين فيجعلها أطلالا بيد البلي، وداعية الفناء.

الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل إتمام المعنى

جاء في سورة يونس:

﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾

(يونس: ٢٢)

فلماذا التفت عن المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب؟

تبيين الجواب

وأقول: يقولون (والأصح) ومقابل

(١) ديافي نسبة إلى دياف بلدة بالشام.

الأصح (الصحيح) فهذا اعتراف بأن ما يعترضون عليه صحيح. ثم من أين أتيتم بأن (الالتفات) لا يكون إلا بعد تمام المعنى؟ دلونا - إن استطعتم، ولن تستطيعوا - على عالم واحد أو مصدر - أو مرجع واحد يقول ذلك وسنعتبركم أساتذة لنا في هذه المسألة. فالحر من راعى وداد لحظة، وانتمى إلى من أفاده لفظة.

الصحيح أن الالتفات يأتي قبل تمام المعنى وبعده وإذا اختار القرآن أحدهما يكون (الأصح) في موضعه، ويكون متضمنا سرًا من أسرار التعبير، سلوا عنه أهل الذكر.

قال عنترة في معلقته:

حلت بأرض الزائرين فأصبحت
عسرا على طلابك ابنة مخرم

فكان الالتفات هو تمام المعنى.

وقال أبو المنهال عوف الخزاعي:

إن الثمانين - وبلغتها -
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقال الكلابي:

فمن يك لم يغرض فإني وناقتي
بحجر إلى أهل الحمى غرضان

والعرب تلتفت من الغيبة إلى الخطاب، سورة الإنسان:

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

(الإنسان: ٢١-٢٢)

ومن الخطاب إلى الغيبة، قال قيس بن حجر:

لازال مسك وريحان له أرج
على صداك بصافي اللون سلسال
يسقي صداه وممساه ومصبحه
رفها ورمسك محفوف بأظلال

ومنه الآية الكريمة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾

(يونس: ٢٢)

وبذلك يتبين أن استدراكهم على آية سورة يونس لا أساس له من العلم.

أتى بضمير المفرد العائد على المثنى

جاء في سورة التوبة:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾

(التوبة: ٦٢)

فلماذا لم يثن الضمير العائد على الإثنين اسم الجلالة ورسوله فيقول أن يرضوهما؟

تبيين الجواب:

وأقول: سياق الكلام في إيذاء المنافقين للرسول ﷺ فقبل هذه الآية قوله:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾

(التوبة: ٦١)

ويتضح من ذلك أن مرجع الضمير إلى الرسول ﷺ وأما ذكر لفظ الجلالة (الله) فلإفادة معان منها:

أ- أن إيذاء الرسول إيذاء لله. وجاء في الحديث: «من آذى عالما فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله».

ب- بيان منزلة الرسول ﷺ وعظمها عند الله كما قال في سورة آل عمران ٣١:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

وقوله في سورة النساء ٨٠:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

ج- ولبيان ضرورة التزام الحكم الشرعي الصادر عن الرسول ﷺ كقوله تعالى في أول سورة الأنفال ١: ﴿الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

د- ولبيان ضرورة طاعته والالتزام بالرجوع إلى شريعته - مقابل عظم جريمة إيذائه يقول الله في سورة النور:

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾

(النور: ٤٨، ٤٩)

وهنا وحد الضمير العائد ﴿لِيَحْكُمَ﴾ مع تقدم ذكر الله ورسوله.

ولو قال (أن يرضوهما) لكان في جمع الله والرسول في ضمير واحد هو ضمير المثنى تسوية بين الله وعبده، وقد عاب الرسول ﷺ خطيبا فعل ذلك إذا قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى». فقال له ﷺ بئس الخطيب أنت. ولو قلنا إن الضمير المفرد في قوله ﴿يُرْضُوهُ﴾ عائد وهو مفرد على الله ورسوله لكان لغة صحيحة عربية فصيحة مع تجنبها استدراكه ﷺ على ذاك الخطيب، ولا يستدرك عليها فاقه، بله الفقيه، قال رؤبة بن العجاج يصف حمر وحشية:

فيها خطوط من سواد وبلق
كأنه في الجلد توليع البهق

فقال له أبو عبيدة إن أردت (الخطوط) قل: كأنها، وإن أردت (السواد والبلق) فقل: كأنهما فقال له رؤبة: ويلك! أردت (ذلك)، يعني: المذكور.

قلت: وذكر الله عشر وصايا في آيات سورة الأنعام ١٥١- ١٥٣ ثم ختمها بقوله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وحد اسم الإشارة والضمير والوصايا عشر ولو قال (هؤلاء وصاكم بهن) لكان وجها في العربية، ولو قال: (بها) لكان وجها أيضا. ومن ذلك يقول الله في سورة التوبة ٣٤:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

بحسب منطقكم أحسبكم تقولوا: كان يلزم أن يقول (ولا ينفقونهما)! ألا أي هذا الزاجري؟ سل أهل الذكر.

أتى باسم جمع بدل المثنى

جاء في سورة التحريم (٤):

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

والخطاب (كما يقول البيضاوي) موجه لحفصة وعائشة. فلماذا لم يقل صغا قلبا كما إذ أنه ليس للاثنين أكثر من قلبين؟

والقلوب: اسم جمع.

تبيين الجواب

وأقول: في هذا الاعتراض خطأ وخسران:

أما الخطأ فقولهم عن (قلوب) اسم جمع وهي جمع قلب، (واسم الجمع) لفظ مفرد فلا مفرد له مثل (نسوة) واحدتها من غير لفظها. فيقال: في واحدة: امرأة.

وأما الخسران: التعالم بما لا علم فيه والتثنية ظاهرة في النص وأما قول البيضاوي فهو تعيين لمدلول التثنية.

أما الثانية فهي دلالة الاعتراض على عدم

القدرة على ذوق الاستعمالات العربية، من شأن العرب إذا ذكروا (شيئين) مضافين (لاثنين) أن يجمعوا الشيئين ووضعوا لذلك ما يشبه القاعدة فقالوا: كل ما ثبت إضافته مع تثنيته، فجمعه أفضل. فيقولون هشمت رؤوسهما وأشبعت بطونهما. قال الخليل بن أحمد والفراء: كل شيء من خلق الإنسان إذا أضيف إلى اثنين جمع. وعليه قوله تعالى:

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

وقوله تعالى في سورة المائدة ٣٨:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾

وذو الذوق يدرك خفة ذلك عن قولنا (قلباكما) و(يديهما) وذلك للجمع بين تثنيتين في لفظ واحد فالقرآن اختار الخفيف نطقا على ثقيله. ولو قال (قلباكما) و(يديهما) لكان صحيحًا وقد جمع الشاعر بينهما فقال:

ومهمهين قذفين مرتين
ظهراهما مثل ظهور الترسين

وقال سيبويه: قد يجمع المفرد للتنبيه، وحكى عن العرب قولهم (وضعا رحالهما) والمراد رحلى ناقتيهما.

ويجوز الإفراد فيقال قلبكما وفي القرآن الكريم في سورة المائدة ٧٨:

﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

ولو قال على لساني لكان صحيحًا ثقيلاً في النطق. وقال الشاعر:

حمامة بطن الواديين ترنمي

وهنا نكتة دقيقة هي أن (الجمع) يبدأ من الاثنين والكثرة تبدأ من الثلاثة يقول الله في سورة الأنبياء:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

(الأنبياء: ٧٨)

ومن مسائل الميراث أن الأم إذا لم يكن لولدها الميت ولد فلها الثلث، وتحجب من الثلث إلى السدس إن كان له إخوة يقول الله في سورة النساء:

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾

(النساء: ١١)

وتطبيقًا لهذه الآية ترد الأم إلى السدس بأخوين اثنين عملا بقوله تعالى ﴿إِخْوَةٌ﴾.

والخلاصة أن قوله ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ - مع صحته على البيان الذي سبق - هو صحيح لقولنا هذا الأخير، فصح قول القرآن بوجوه واستدلالات غاب عنها المعترضون، وغابت عنهم؛ لأنها لا تذهب إلا إلى المخلصين.

الخاتمة

أما بعد فقد تبين من هذه الاعتراضات والرد عليها أن المعترضين:

- يحاولون تلمس العيب للبرئ، وتخطئة الصواب من غير مؤهلات فكانوا كالأعزل، خاوى القلب في معركة النزال.
- وأنهم لم يعرفوا منزلتهم، وحسبوا أنهم على شيء، فألقوا بأنفسهم في بحر لا يحسنون السباحة فيه.

إن اللغة العربية، بله القرآن، بحر عميقة أغواره، وتتناءى شطآنه. وكم من أناس أفنوا أعمارهم في تحصيلها فما بلغوا، فكيف بمن أغرقه ضحضاحه؟!

إن الخطأ قد يقع في مقياس من مقاييس العلم، فيساوى مخطئه بين الناقص والزائد، ويعادل بين المرجوح والراجح. وربما يعذر هذا المخطىء. أما أن يقع الخطأ في مقياس العلم فيجعل الناقص زائدًا، والمرجوح راجحًا، وأصوب الصواب خطأ ويوجيه - فهذا هو الخطأ الذي يدل على خلل في الفكر، وفساد في المنهج، وربما دل على عوج في الخلق، أو على تعصب يعمى صاحبه عن الشمس في قرنها، ورونق ضحاها.

لقد كان القرآن معجزة خالدة عمت الثقلين. وبقيت ببقاء العصرين، فما استطاع منكروه أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا.

منذ نزول القرآن، وأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، والعلماء من كل صنف، والأدباء في كل فن، أجمعوا على إعجاز القرآن، ثم جهد كل منهم في بيان وجوه إعجازه، وأفرغوا كل علومهم في جهدهم فما استطاعوا أن يأتوا على كل وجوه الإعجاز فيه ويبقى القول: بأن أهم معجزاته عجز الناس عن الإحاطة بسر إعجازه.

لقد ذهب العلماء الأعلام في علومهم ومذاهبهم كل مذهب وسلكوا كل فج ليكشفوا عن سر إعجاز القرآن فما صدروا عن ري، لقد شربوا من معينه علا ونهلا، فما رووا، وما نفد الشراب!!

فكيف بمن يكاد يقتله الظمأ إلى العلم وهو لا يحسن معرفة ألفه من بائه.

ما يضير البحر أمسى زاخرًا
إن رمى فيه غلام بحجر

إن وراء طعنكم في القرآن لخبرا! إن القرآن هو معجزة محمد الخالدة، جمع الإعجاز والمنهج، بينما كانت معجزات الأنبياء قبله (حسية)، موقوتة بزمن وقوعها، ومقصورة على من شاهدوها. ولولا أن الله ذكرها في قرآنه لكانت مجرد خبر تاريخي، يفتقر إلى البرهان. فمن وراء طعنكم في القرآن إنكار نبوة محمد، وإنكار جميع النبوات من قبله!

لقد هممت أن أضرب عنكم الذكر صفحا لما لمست من صغار في العلم، وصغر في المعرفة. بيد أني حملت نفسي على حسن الظن في أن هؤلاء المعترضين قد يكون عندهم بقية من خير فقلت آخذ بأيديهم لعل وعسى.. ثم قد يجب عليّ الجواب لغيرهم ممن تشرئب أعناقهم إلى المعرفة، والتطلع إلى الحق يعلمونه علم اليقين.

وليس هذا مما تسمونه (حرية التعبير والرأى) فالرأى: كلام علمي، يقوم على منهج له منطقه، بحيث يمكن لغير أصحابه دراسته ومناقشته.

أما إصغار الكبير، وعيب السليم، فمسألة أخلاقية يتأبى بنفسه عنها من يعتز بفضائل الأخلاق:

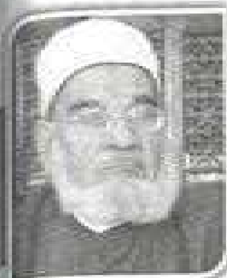
إذا حسناتي التي أدل بها
كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر
أهز بالشعر أقوامًا ذوي وسن
في الجهل لو ضربوا بالسيف ما شعروا
على نحت القوافي من معادنها
ما على إذا لم تفهم البقر

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

والسلام على من اتبع الهدي

أثر الدرس اللغوى فى فهم النص الشرعى (٤)



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو جماعة كبار العلماء، ومجمع البحوث الإسلامية

الأثر المعنوى لمعرفة الموقع الإعرابى

أشرنا فيما سبق إلى أن القارئ أو الدارس للنص الشرعي لابد له بعد أن يدرك المعنى اللغوى للكلمات الواردة فى النص على أساس ما كان مستعملا لدى العرب فى أثناء نزول الوحي - من حيث نزل بلسان عربي مبين - وبعد أن يدرك الصيغة التى وردت عليها تلك الكلمات .. لابد له ان يعرف موقع كل كلمة في هذا النص - من حيث الإسناد والعلاقات التركيبية في الجملة المفيدة - حتي لا ينسب حدث إلى من لم يقم به، فيختلف المعنى المراد للشرع ، وينحرف عن مساره، كما أشرنا إلى أن الذى يتكفل بهذه المعرفة هو علم النحو الذى يحدد الموقع الإعرابي لكل كلمة من خلال قواعده واحتمالاته. والأمثلة الآتية توضح أثر هذه القواعد فى استنباط المعنى والحكم الشرعي:

١-قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾

«البقرة:١٧٨»

اختلف الفقهاء فى وجوب القصاص بين الحر والعبد فيما إذا قتل الحر عبدا هل يقتل فيه أم لا؟ وكان معتمدهم الأساسى فى فهم تركيب هذه الآية.

فمن رأى وجوب ذلك وقف على قوله تعالي:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾

وكلمة ﴿ٱلْقَتْلَى﴾ عامة تشمل الحر والعبد وجعل الجملة التى تليها:

﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾

مستقلة عما قبلها ، حيث تستنكر هذه الجملة على العرب عادة الكبر والتعالى القبلية ، فحين كان يقتل عبد من قبيلة تقتل أمامه حرا من القبيلة القاتلة أخذا بالثأر.

وإذن فهى تقر مبدأ المساواة ، وأول الآية كآخرها وكأنها تقول : دماء البشر متساوية فى الحرمة ، والعدالة تقتضى أن يقتل القاتل بصرف النظر عن مكانته ، فإذا قتل الحر حرا قتل فيه ، وإن قتل العبد عبدا قتل فيه بلا تمييز.

ومن رأى عدم التساوى بين العبد والحر ولم يوجب القصاص على الحر جعل الجملتين جملة واحدة ، واعتبر الثانية مفسرة لكلمة القتلى فى الجملة الأولى .. وكأنه قال : كتب عليكم القصاص فى القتلى إن كان حرا بحر أو عبدا بعبد ، أما إذا اختلفا فلا قصاص على الحر إذا قتل عبدا لأنه أدنى منه مكانة.

٢- قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

«النور: ٤، ٥»

اختلف الفقهاء فى تحديد ما يسقط بالتوبة عن القاذف من العقوبات المفروضة عليه فى هذه الآية ، ويرجع اختلافهم إلى القواعد النحوية التركيبية ، ذلك أن الجملة يمكن أن ينتهى فيها الخبر عن اسم الموصول:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾

عن قوله :

﴿ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾

وتكون العقوبة التى لا مناص منها هى الجلد ، ثم تبدأ جملة جديدة من قوله :

﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

على أساس أن «الواو» للاستئناف . ثم يأتى الاستثناء:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾

فتكون التوبة مسقطة للعقوبتين : عدم قبول الشهادة ووصفهم بالفسق .. فيعود القاذف بالتوبة إلى صفوف المسلمين ، تقبل شهادته ولا يوصف بفسق.

كما أن الأسلوب يحتمل معنى آخر وهو أن تكون الواو فى قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟﴾ عاطفة على قوله ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ فيكون من اللازم جلده ورفض شهادته مطلقا سواء تاب أم لم يتب.

وتكون جملة: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هى المستأنفة ، وبخاصة أنها خبرية ، ويكون الاستثناء منها فقط ، فالتوبة إذن لا تسقط إلا وصفه بالفسق . والمعتمد فى كلا الرأيين على ملحظ نحوى تركيبي هو اعتبار الواو حرف استئناف أو حرف عطف.

٣- قوله تعالي:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

« الأنبياء:٢٢ »

الدارس للغة العربية دراسة سطحية يعلم أن « إلا » لا تأتى إلا للاستثناء مما قبلها أى أن ما بعدها جزء مما قبلها .. وهذا المعنى لو طبق فى هذه الآية لأدى إلى فساد فى العقيدة ، إذ سيكون المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة والله منهم لم تفسدا .. لكن المتعمق فى اللغة يعلم أن « إلا » هنا ليست للاستثناء ولكنها بمعنى « غير » ، وأن المعنى: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا.

٤-قوله تعالي:

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾

« المائدة: ٤ »

لو أخذنا بظاهر اللفظ في تلك الآية لكانت الكلاب المعلمة حلالا أكلها بنص الآية، إذ أحل الله الطيبات، وعطف عليها المعلم من الكلاب. لكن النحو حين يتدخل بقاعدته المشهورة: «قد يحذف المضاف فيقوم المضاف إليه مقامه» ترى الجملة يستقيم معناها المقصود، وتفهم على أن الذي أحل هو صيد الكلاب المعلمة لا نفس الكلاب بدليل آخر الآية:

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾

«المائدة: ٤»

وتقدير الآية على قاعدة النحاة: أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح. أو إعراب ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ خبره.

٥- قوله تعالى:

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

«الأنبياء: ٧٧»

المعهود في اللغة أن فعل النصر يتعدى بحرف الجر «على» لكنه هنا لم يقل: «ونصرناه على القوم» وإنما قال ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ فما السر في ذلك؟ يجيب النحاة بأن الفعل إذا تضمن معنى فعل آخر تعدى تعديته، وهنا ضمن فعل النصر معنى النجاة والانتقام فإن هؤلاء الذين كذبوا «نوحا» بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وسخروا منه وهددوه بالرجم.. لا يستحقون من الله إلا الانتقام بالإغراق في الطوفان، أما هو ومن معه من المؤمنين فلهم النجاة فانظر كيف أدى التضمين هنا معاني النصر والنجاة للمؤمنين والانتقام من الكافرين.

٦- قوله تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾

«الإنسان: ٦»

السطحيون يقولون: إن الباء هنا بمعنى «من» أي يشرب منها عباد الله. ولكن المحققين المتعمقين يقولون: إن القرآن الكريم لم يضع حرفا مكان حرف إلا لعلة وسبب، قد يخفى علينا في زمن، وقد يظهر في زمن آخر، وهذا سر من أسرار الإعجاز، ومن هنا تأتي قاعدة التضمين لتحل هذا الأسلوب إلى معنى جميل: ذلك أن الشارب قد يشرب الشيء وهو مكره كالمريض حين يحتسي الدواء، وقد يشربه ولا يرتوي به بل يزيده عطشا على عطش، لكن الشارب في الجنة يشرب من تلك العين وهو متلذذ مرتو مستمتع بها وعلى هذا فالفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ في الآية متضمن معنى: يرتوي ويتلذذ.

٧- ومن هذا الوادي قوله ﷺ عن الصلاة: «أرحنا بها يا بلال» إذ لم يقل: أرحنا منها. من حيث إن الباء تفيد السببية، فهي التي تحقق الراحة.

٨- ومنه كذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

«الماعون: ٥»

ولم يقل: «الذين هم في صلاتهم ساهون» فالسهو عن الصلاة ترك لها.

٩- كما أن من فوائد التضمين فهم قوله تعالى:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

«الأعراف: ١٦»

من حيث إن الفعل «قعد» يتعدى

بحرف الجر، ولا يتعدى بنفسه. وهو هنا قد تعدى إلى المفعول به بنفسه، فجعل ﴿صِرَاطَكَ﴾ منصوبا به، ولا يتأتى هذا إلا بتضمين «أقعد» معنى «ألزم» أي لألزمن صراطك المستقيم قاعدا فيه أو وسوس لهم أن يتركوه.. ذلك أن القعود من شأنه أن يكون طارئا متجددا، يفارقه المرء إلى المشي، وإلى الوقوف، وإلى النوم، لكن الشيطان لا يفارق الطريق المستقيم ملازما إياه، يصد الناس عنه، ولا ييأس من ذلك ولا يتنقل عنه. والذي أفادنا ذلك هو التضمين.

١٠- من هذا الباب أيضا قولنا حين نرفع من الركوع: «سمع الله لمن حمده» فإن الفعل «سمع» متعد بنفسه إلى المفعول قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾

«المجادلة: ١»

وقال سبحانه وتعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾

«آل عمران: ١٨١»

ولكنه هنا تعدى باللام لملحظ هام، ذلك أن السماع قد يكون لشكوى كما في الآية الأولى، وقد يكون لقول مكروه منكر كما في الثانية.. ولكن السماع هنا تضمن معنى الاستجابة، إذ وعد الله الشاكرين بالمزيد من النعم في قوله سبحانه:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

«إبراهيم: ٧»

فمن يحمد الله يكون طالبا بطريق غير مباشر أن يزيده الله من فضله، ومن هنا كانت اللام في «سمع الله لمن حمده» أي سمع واستجاب له.

١١- قوله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾

«النساء: ٣»

اختلف الفقهاء في اعتبار التعدد للزوجات هل هو الأصل؟ أو الأصل الإفراد؟ ولكل من الرأيين في هذه الآية دليل.. فمن اكتفى بجواب الشرط ورأى أن الجملة قد تمت عند قوله:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾

كانت الآية دالة على الأصل هو ما يرضي الزوج ويعفه، سواء كانت واحدة أو أكثر.. وتكون الجملة الثانية محذوفة العامل وكأنه قال: «لماذا تتمسكون بالزواج من اليتامى وقد أبيحت لكم مثنى وثلاث ورباع والنساء غيرهن كثير».

أما من جعل كلمة ﴿مَثْنَىٰ﴾ وما بعدها حالا من ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ فإنه رأى أن الأصل التعدد، فانبنى كل رأي على وجه نحوي.

١٢- قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

«الأنعام: ١٥١»

لو جعلنا الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلقاً بالفعل ﴿حَرَّمَ﴾ ووقفنا على ذلك وبدأنا تعداد المحرمات من قوله:

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ .. كان عدم الشرك محرما مما قد يفيد أن الشرك هو المطلوب، أما إذا جعلنا الجار والمجرور متعلقا بمحذوف هو الخبر مقدما على المبتدأ وهو المصدر المؤول من قوله :

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾

كان المعنى : عليكم عدم الإشراك. أى أنتم ملزمون بعدم الإشراك ويستقيم المعنى فى كل ما سيأتى بعد ذلك من مثل :

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ .

ويمكن أن تكون ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ اسم فعل أمر بمعنى الزموا عدم الإشراك... إلخ.

الأثر المعنوى لمعرفة السياق

من ذلك :

١- قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾

« البقرة :٢٧٥ »

المعروف فى الأسلوب العربى أن المشبه به أقوى فى وجه الشبه من المشبه، والمفروض أن الثروة الاقتصادية النظيفة تقوم على التجارة فى البيع والشراء، وأن المكسب الناتج من البيع هو الأصل.. لكن الآية هنا تحكى عنهم تشبيها مقلوبا فيشبهون المكسب الناتج عن البيع بربح الربا.. إشارة إلى أن الوضع الاقتصادى عندهم قد انقلب رأسا على عقب، فصار الربا عندهم هو مصدر الثراء، وأن البيع ملحق به، وهذا محل السخرية منهم والعجب من أوضاعهم، حيث يعقب الله على ذلك :

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

« البقرة : ٢٧٥ »

٢- قوله تعالى :

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

« الأنعام : ١٤٥ »

أسلوب الحصر بالنفى والاستثناء أو إنما، أسلوب توكيدى يقصر حكما على شىء أو شيئا على حكم.. وعند هذه الآية وقف بعض الفقهاء الأجلاء أمام هذا الحصر الإلهى للمحرمات فى أربعة أشياء فقط مع أن الحديث النبوى الصحيح أضاف إليها كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير والحمر الأهلية وغير ذلك.. فتساءل كيف يحصر الله ما حرم فى أربعة ثم يضيف النبى إليها ؟.. هل تنسخ السنة القرآن؟ وعلى ذلك رأى أن كل ما حرمه النبى غير هذه الآية يدخل فى باب الكراهة التحريمية.

أما الإمام الشافعى فإنه انتفع بقواعد البلاغة هنا فى تقسيم القصر إلى حقيقى وإضافى.. واستحضر ما كان عليه الجاهليون من اعتراضهم على المسلمين فى تحريم الميتة حيث قالوا : كيف تحلون ما قتلتم وتحرمون ما قتل الله ؟ وفى تحريمهم للدم مع أنه خلاصة الغذاء، بل إنهم كانوا يفصدون الإبل، ويشوون الدم الناتج عن الفصد ويقدمونه للضيوف، والمشهور عن حاتم : هذا فصدى أنه، وفى تحريمهم للخنزير مع لذة لحمه وشبهه بالأنعام، وفى تحريمهم لما ذبح للآلهة مع أنه قربان.. وإذن فقد كان الخلاف بين

المسلمين والكفار حينذاك منصبا على هذه الأربعة، فجاءت الآية ومثيلاتها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾

« البقرة :١٧٣ »

لتقول لهم : إن ما ادعيتم حله هو الحرام بعينه.

فيكون ردا على معتقداتهم وليس حصرا حقيقيا. كما يكون بينك وبين أحد خلاف فى تفضيل عالم على آخر فتقول له : إنما العالم محمد. فأنت هنا لم تنف العلم عن غير محمد، ولكنك حين نظرت إلى علمه وإلى علم غيره وجدت علم غيره كلا شىء بالنسبة لعلم محمد، فادعيت أن محمدا هو العالم.. وكذلك هنا ما حرمه رسول الله ﷺ بالنسبة لما حرمه الله شىء يسير فلا نسخ.

٣- قوله ﷺ : « زكاة الجنين زكاة أمه ».

اختلف الفقهاء فى فهم معنى الحديث ففهمه البعض على أن زكاة أمه زكاة له فيؤكل، فلا تشبيه، وفهمه البعض الآخر على معنى التشبيه أى أنه يزكى مثل زكاة أمه.

الأول أحل الجنين إذا سقط بعد ذبح أمه ميتا، والآخر حرمه..

٤- قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾

« البقرة :١٥٨ »

قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين بعد أن قرأ هذه الآية : إذن فما على أحد جناح فى ألا يطوف بهما. قالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختى. ولو كان كذلك لقال : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما .. ذلك أن المسلمين تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة بعد إسلامهم، لأن الصفا كانت موضع الصنم إساف والمروة كانت موضع نائلة وكان السعى بينهما فى الجاهلية تعظيما لهذين الصنمين، فلما تأثموا من ذلك جاءت الآية ترفع عنهم الحرج والجناح فى الطواف حولهما.

٥- قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« الزمر :٩ »

يستدل بها الكثيرون على فضل العالم على الجاهل مطلقا ويهملون دلالة السياق فيما قبلها، فإن أول الآية يقول :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

« الزمر : ٩ »

بداية الآية ونهايتها تتحدث عن أثر العلم فى سلوك الإنسان، فالعالم الحق هو الذى يخشى ربه، فيظل قانتا وساجدا طول الليل داعيا وراجيا وخائفا، وهو الذى يتذكر حق ربه ويتدبر آياته.

وإذن فكم من عالم كان الجاهل خيرا منه، ذلك الذى لا يعمل بما علم. وهو أول من تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة.

٦- قوله تعالى :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

« الكهف :٢٩ »

يستدل بها المحدثون على حرية العقيدة في الإسلام، فمن اختار الكفر فلا حظر عليه، ويبطلون حد الردة، وذلك من خطل التفكير ومجاراة الحضارة الغربية ولي عنق النصوص لتساير الحاضر.. وقرينة السياق هنا تفيد أن المقصود هو التهديد لمن يكفر بدليل أن ما بعد هذه الجملة قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

«الكهف: ٢٩»

ومن أمثال هذا قوله تعالى:

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

«فصلت: ٤٠»

فهل معنى الأمر هنا إباحة للإنسان أن يفعل ما يشاء دون حساب أو أن ختام الآية يهدده برقابة الله.

٧- قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

«البقرة: ١٨٣»

وقوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾

«البقرة: ١٧٨»

وقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾

«البقرة: ٢١٦»

الإتيان بهذه الأمور الثلاثة بلفظ واحد، وتعبير متماثل، هو الكتابة والإلزام بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يلفت النظر إلى العلاقة بين هذه الأوامر، فكل منها مكتوب وموثق، والأمر به ملزم، وكل منها مكروه، ونحن مكرهون عليه لمصلحة التي لا نعلمها كما يعلمها ربنا.. وإذا كان لنا أن نستنبط العلاقة بينهما فإننا نرى الصيام محققا للأمن النفسي، حيث يعيش الصائم في رقابة ربه، ويشعر باستعلائه على المادة، وأنه مادام مع الله فلا يخاف من شيء ولا على شيء.

والقصاص محقق للأمن الداخلي في المجتمع من حيث إن المجرم حين يرى غيره قد اقتص منه لا يقدم على إجرامه ومن هنا جاءت الآية:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

«البقرة: ١٧٩»

أما الجهاد فإنه يحقق الأمن الخارجي للأمة إذ ما تركت أمة الجهاد إلا أذلها الله. وإذن فمجموع هذه الأوامر هو الذي يحقق الأمن الشامل للفرد وللأمة.

الخاتمة

هذا وللتعمق في اللغة أثره في فهم كل جملة في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وما انحرف بعض شبابنا عن الإسلام الصحيح إلا بجهلهم بمعطيات اللغة العربية، سواء في النصوص الخاصة بالعقيدة أم بالشريعة أم بالقصص القرآني.. وإذا استرسلنا في ذلك فسنجد أنفسنا أمام كلام الله عاجزين عن الوفاء بحقه.. وإن أنس لا أنس ذلك الشاب المتحمس حين قال لي: أنتم تقولون إن الأنبياء معصومون من الشرك

قبل النبوة وأنا آتيك بآية في كتاب الله صريحة في نسبة الشرك لنبي ورسول مشهور.. قلت له: هات الآية يا بني، قال: يقول سيدنا «شعيب»:

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾

«الأعراف: ٨٩»

فهو هنا يعترف أنه كان في ملتهم قبل الرسالة، وبأنه لن يعود إليها. قلت له: ما أجهلك بلغة قومك يا بني.. إذا كان فهمك هذا صحيحا فكل الرسل - وليس شعيبا وحده- كانوا مشركين، ذلك أن الله عز وجل يقول في سورة إبراهيم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾

«إبراهيم: ١٣»

فكل الرسل هددوا بالإخراج من أرضهم، أو الدخول في ملتهم.. فهل كان إبراهيم مثلاً مشركا قبل الرسالة؟ إن الجهل باللغة هو الذي أدى إلى هذا الفهم السقيم فإن اللغة تقول إن الفعل «عاد» إذا تعدى بحرف «إلى» كان بمعنى: رجع أما إذا تعدى بالحرف «في» فإنه «دخل» وإذن فمعنى:

﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

أي تدخلن، ومعنى:

﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾

إن دخلنا فيها بعد إذ نجانا الله من الدخول فيها.. إن النبي ﷺ حين حدد ثلاثة أمور للشعور بلذة الإيمان جعل منها: «وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» فهل معنى ذلك أن المرء لا يدرك لذة الإيمان إلا إذا كان كافرا وأسلم؟!

إن فهم اللغة التي نزل بها الوحي هو السبيل الوحيد لفهم مراد الله عز وجل.. وكم من شبهات بنيت على مغالطات لا يحلها إلا الاستعمال العربي الفصيح..

نصيحتي للشباب المتحمس لدينه المستعد لتبليغ دعوته أن يلتزم بما ألزمنا به الله أن يكون بلاغنا مبينا، وهو لن يكون كذلك إلا إذا فهمنا خصائص هذا البيان، وفهمنا أسلوب نبينا الذي حصره الله عز وجل في قوله:

﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

«المائدة: ٩٢»

فهيا - يا أصحاب الدعوة- إلى فقه ديننا بلغة قرآننا، وسنة نبينا، حتى نكون على بصيرة من أمرنا، وحتى نكون أهلا لتبعيتنا قال تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

«يوسف: ١٠٨»

صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين ومن المقصرين في حق رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم رسله وخير خلقه أجمعين.

المداخل اللغوية لإعجاز القرآن الكريم



أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

«القرآن معجزة لغوية» بهذه الجملة المركزة الكثيفة لخص الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه الماتع: النبأ العظيم وهو لم يكتف بإيرادها في ثنايا الكتاب، وإنما جعلها عنوانا مستقلا هو عمود الصورة في النظر إلى النص العزيز[1]

والقول بالإعجاز اللغوي للكتاب العزيز هو المدخل المنطقي والطبيعي لفحص مقولات الإعجاز جميعا باعتبار النظر إلى حال من نزل فيهم، وباعتبار المخاطبين أول الأمر، وباعتبار من تحداهم ابتداء، كل أولئك الاعتبارات تشهد بمعقولية القول بالإعجاز اللغوي للنص الحكيم، باعتبار قرينة المقام التي تشهد لأهل العربية زمان التنزيل بعلو الكعب في مضمار البيان اللغوي.

ومن هنا فإن تأخير فحص القول بالإعجاز اللغوي، أو تقديم مداخل إعجازية أخرى عليه هو سير في الطريق الاستثنائي الذي ينبغي أن يظل استثنائيا ومؤقتا، وداعما لمدخل الإعجاز اللغوي ولا يصح بحال أن ينفرد مستغنيا أو مهمشا هذا المدخل الأصيل.

إن واحدا من أركان المشهد الفاحص لمقولات الإعجاز القرآني ينبغي أن تتدرع بالبعد عن مواطن التناقض و لو ظاهريا، وأول صمام حام من الوقوع في فخ التناقض هو الدوران مركزيا حول المداخل اللغوية لحقيقة الإعجاز القرآني وهي تتناغم في مسارات يجمعها رحم واحد من علوم اللسان وهي مسارات البلاغة القديمة والجديدة معا ومسارات الدراسة الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية مضموما إليها في مقام أخير وحديث منجزات الحجاج الذي يسعى لهدم المنطلقات المخاصمة لمبادئه وأصوله.

(١) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ص٨٠ وما بعدها.

المدخل اللغوي للإعجاز: حقيقة راسخة في الأدبيات المعاصرة

وإدراك معقولية المدخل اللغوي أو النظمي المفسر لحقيقة الإعجاز كان أمرا ظاهرا جدا عند أكابر العلماء المعاصرين الذين رصدوا في تتبع و تأريخ دقيق لمسألة الإعجاز يقول الأستاذ محمود محمد شاكر -رحمه الله- في كتابه (مداخل إعجاز القرآن في بيان المدخل الأساسي في فحص حقيقة الإعجاز القرآني): إنه ثبت في تلاوة قليل القرآن وكثيره الدليل الذي يطالب العربي بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد هو وجه البيان والنظم الذي هو عمدة ما سميناه بالمدخل اللغوي للإعجاز.

ثم هو يخطو خطوة أخرى أوسع مدى ليجعل من وجوه الإعجاز المختلفة الأخرى توابع لهذا المدخل اللغوي غير متقدمة عليه بحال بل يقرر أنها من لوازمه ونتائج القول به، يقول -رحمه الله-: «وإذا صح أن قليل القرآن و كثيره سواء من هذا الوجه ثبت أن ما في القرآن جملة من حقائق الإخبار عن الأمم السالفة، ومن إنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو أن يستبينوا في نظمه و بيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم من وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين وهاهنا معنى زائد فإنهم إذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء من أخبار الأمم و إنباء الغيب و دقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون هو كله حق لا ريب فيه... وإذن فإقرارهم من وجه النظم و البيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من كل ذلك»[2].

وبهذا الذي أطلنا في نقله عن المرحوم الأستاذ محمود شاكر يتضح لنا وجه أخشى أن يكون مطمورا في تزاحم الطلب على وجوه الإعجاز الأخرى مما سمي بالإعجاز التشريعي والإعجاز بالإنباء بالغيب والإعجاز العلمي وهلم سحبا وجرا - وهو أن الأصل الذي ينبغي أن يظل متصدرا هو وجه الإعجاز البياني والنظمي الذي هو عين المدخل اللغوي ابتداء.

ويصح أن نقرر في ضوئه أن استفراغ الوسع في فحص هذا المدخل الذي عنيناه هنا كاف في تقصير الطريق والجهود معا على من ينشد مطالب إعجازية في أروقة التشريع والتاريخ والجغرافيا والآثار والطب وسائر فنون المعارف الإنسانية، لأنها ستكون تبعا لأساس أصيل مدعوم بطبيعة من أنزل عليهم الكتاب الكريم، وبطبيعة ما كانوا مهرة جبابرة فيه.

وقراءة الأدبيات المعاصرة صالحة في أن هذا المدخل اللغوي لم يغب أبدا باعتباره أساسا وركيزة لدارسي قضية الإعجاز ويوشك أن يكون غيابه اليوم أو زحزحته عن مكان الصدارة التي لطالما شغلها أمرا

(٢) مداخل إعجاز القرآن، لمحمود محمد شاكر، طبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ص١٥١ - ١٥٢.

مغلوطا أو ذا أغراض تستهدف تقديم ما هو تابع وتغييب ما هو أصل لا يصح أن يغيب.

وربما كان كافيا في هذا السياق أن نقف أمام عدد من الإشارات التي وردتنا من لدن أشهر الأدبيات المعاصرة التي تعرضت للقضية استقلالا أو انضواء في سياقات قريبة.

وقد تقدم بين هذا المقال عبارة محمد عبد الله دراز -رحمه الله- في النبأ العظيم من يدعم وجهة نظرنا هذه، ثم جاءت عبارة محمود شاكر مؤكدة الحقيقة ذاتها.

وفيما يلي مدونة نصوصية شديدة الإيجاز هدفها دعم هذه الحقيقة وهي مجموعة نصوص قصيرة من مراحل زمنية مختلفة ولمؤلفين ذوي اهتمامات مختلفة ومن مؤلفات ذات غايات مختلفة.

١- يرى الدكتور تمام حسان مد الله في الخير عمره في كتابيه (البيان في روائع القرآن ١٩٩٣م وما بعده) (خواطر من تأمل لغة القرآن ٢٠٠٦م) أن كل تحليل لساني لغوي وأسلوبي للنص العزيز قاصية وإن لم تقصد إلى الكشف عن بعض وجوه الإعجاز القرآني عندما يقرر محترزا في مقدمة البيان قائلا : ص ٣ «ليست هذه الدراسة محاولة لتفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا أو أدبيا وليست محاولة أخرى للكشف عن إعجاز القرآن إعجازا لغويا، فإذا صادف القارئ في هذه الدراسة... ظاهرة تنم عن الإعجاز اللغوي لأساليب القرآن الكريم فإن المؤلف لم يقصد إلى الكشف عن ذلك قصدا، وهذا الاحتراز فوق ما فيه من الباعث الأخلاقي الكريم من الدكتور تمام حسان دال على أن أي دراسة لإعجازية النص لا يصح إلا أن تتذرع بالمداخل اللسانية لغوية وأسلوبية، وهو المعنى المسكوت عنه في سياق كلام الكريم الدكتور تمام حسان، وهو ذات المعنى الذي عاد إليه بعدما يقرب من عقدين ليقرره مرة أخرى في مفتتح كتابه خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم.

٢- و يرى الدكتور عبدالصبور شاهين في كتابه تاريخ القرآن، الحقيقة نفسها عندما يقرر في المبحثين اللذين عقدهما لمناقشة قضية إعجاز القرآن فيه (ص ٤٥ وما بعدها) حيث يقرر بعد إلماح لمستويات مختلفة من الإعجاز القرآني من خلال تعقيبه على الأستاذ نعيم الحمصي قائلا (ص٧٤) : «غير أن لنا رأيا كنا ذهبنا إليه و نحن ننظر في المشكلة من زاوية لغوية محضة، وكنا لاحظنا أن القرآن يضع اللغة العربية أو اللسان العربي في موقف لم تعرفه لغة من لغات البشر على كثرتها» وقد أجمل الدكتور عبد الصبور شاهين ملامح هذا الموقف ليجعل نواته و عصبه في اللغة التي تنزل بها وها هو ذا يقول: (إننا إذا أردنا إن نفهم الإعجاز القرآني حقا فيجب أن ننظر في النواة التي تتكون منها اللغة المعبرة؛ أي: يجب أن ننظر في الكلمة القرآنية، و ما تتميز به من خصائص ليست لغيرها».

٣- وينطلق الإمام محمد أبو زهرة المنطلق نفسه في كتابه الفذ المعجزة الكبرى (ص٩٦) عندما يقرر أن أول ما ينبغي أن يتصدر قائمة التصنيفات

والتقسيمات المتعلقة بإعجاز الذكر الحكيم هو ما يتعلق بالمنهاج البياني.

وإذا كان شاكر وتمام حسان وعبدالصبور شاهين ينتمون للمجال اللساني بالمفهوم الدقيق فإن دراز وأبا زهرة لا يمكن إدراجهما في علماء اللسانيات بحال، وهو الأمر الذي ينبغي أن يفهم من أهمية تلاقي العلماء جميعا على اختلاف انتماءاتهم المعرفية حول حقيقة المدخل اللغوي بإعجاز الكتاب الكريم.

نماذج تطبيقية

وإذا حاول الدارس أن يلتقط أمثلة تطبيقية تبرهن على جدوى فحص القرآن المعجز من زاوية التحليل اللساني أو اللغوي أو الأسلوبي فإن أعمارا متطاولة وجهودا متضافرة لا يسعها أن تتابع مثل هذا العمل في يسر وسهولة ذلك أن التراث العربي الاسلامي على تنوع اختصاصاته ما هو في النهاية إلا حاشية موسعة على حقيقة الإعجاز القرآني من المداخل اللغوية، بحيث تصير المصنفات والمؤلفات التفسيرية ابتداء بحوار غيرها من مصنفات ومؤلفات الفنون المختلفة الدائرة في فلك الكتاب العزيز - محتوية قصدا أو بغير قصد على أمثلة داعمة لمقولات إعجازه، وتحديه للإنسانية.

ولكننا سنحاول أن نقف أمام نموذج واحد نحاصره بعدد من الأسئلة يمكن أن تضيف جديدا في باب التعامل المعاصر مع قضية الإعجاز أو بيان مدى كون الكتاب العزيز مبهرا من زاوية التوظيف اللغوي في مستويات مختلفة.



أبو زهرة

يقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ «العصر: ١-٢».

وفحص مفردات من مثل العصر ثم الإنسان ثم خسر، ثم فحص التكوين الصوتي المعتمد على بنيات الأصوات الصفيرية ذات القوة الإسماعية المتميزة، ثم فحص البناء التركيبي الأسمى للعبارة، وتوزيع المؤكدات على ركنيها ربما يقود إلى الشعور بشيء من تفرد البناء القرآني من باب لغوي.

إن مفردة العصر داخلة في علاقة ترادف مع مفردات من مثل (الزمن - والوقت - والحين) ومن مثل (الدهر) وفي هذا السبيل تصبح مقولات استبعاد إحدى هذه المفردات أمرا لازما في نطاق الإيمان بتفرد كل استعمال قرآني للمفردات الواردة فيه، ويكون استبعاد استعمال مفردات المجموعة الأولى (الزمن - والوقت - والحين) راجعا إلى إضرارها بنسق بناء الفاصلة القرآنية (السجع) وهو أمر له أبعاد نفسية ووجدانية في المتلقي، هذا جانب، ومن جانب آخر فإن أيا من مفردات هذه المجموعة ضار من جهة أخرى هي التناسق الداخلي مع مفردات الفواصل الأخرى بمعنى أن الزمن و إن احتوى على صوت ذي قمة إسماعية مرتفعة وهي (الراء) فإن غير ساكن العين وهو ما يكسر التناسق الداخلي مع

(خسر) و (صبر) ساكنتي العين؛ فضلا عن أن مفردة (الوقت) و (الحين) لا تحتويان على أصوات صفيرية، وهي أمور لازمة لمقام التحذير والإنذار الذى تنطق به افتتاحية السورة الكريمة، و مقام التحذير والنذارة تقتضى صوتا عاليا مرتفعا على مألوف عادة الناس فى التحذير والإنذار هذا جانب.

صحيح أن مفردة (الدهر) تستجيب لاختبارات موائمة الفواصل باعتبار أن لامها (راء) ومتوائمة مع تناسق بنيات الفواصل باعتبار سكون عينها (الهاء)، و متواءمة مع مقام التحذير و الإنذار باعتبار صوت الدال المجهور الذى يملك قمة إسماعية مرتفعة؛ لكنها غير صالحة بتحكيم سياق النص كله من جانب وباعتبار تحكيم دلالات التركيب حيث ستقع إن حلت محل العصر فى تركيب قسمي، ومن دلالات القسم هنا التعظيم، وهو إن كان ربما أوقع فى تناقض ظاهرى على مستوى بنية النص الموسع؛ إذ إن (الدهر) مفردة سيئة السمعة مذمومة فى سياق آية الجاثية:

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾

(الجاثية: ٢٤)

على لسان الكافرين ويصح احتمالا أن يكون استبعادها دفعا لتوهم التناقض الظاهرى بحيث تكون فى سياق يوحى بالذم (فى الجاثية) وفى سياق إن جاء صريحا فى المدح الذى هو عين المفهوم من وقوعها فى تركيب من (جار ومجرور) و الجار فيه حرف يفيد القسم. هذه واحدة.

وتأمل مفردة الإنسان وهى معرفة بأل ومستعملة فى صورة إفرادية مع أن الإنذار موجه لمجموع البشرية مما كان يقتضى فى التصور العاجل أن ترد المفردة فى صورة جمع لتناسب هذا المقام، و إذا بفحص المفردة فى صورتها الإفرادية يمكن أن يكون قائدا إلى دفع توهم يتعلق بمخاطر تصور الحساب الجماعى إن جاءت الكلمة فى الاستعمال فى صورة جمع، ولما كان القرآن متناسقا مع مستوى بنية النص الموسع والكتاب حريص على تأكيد فكرة الجزاء الفردى والمسئولية الفردية استعمل القرآن الكلمة فى صورة المفرد ثم حقق المعنى الاستغراقى الموجه لمجموع الجنس الإنسانى عن طريق استعمال (أل) التى للجنس استغراقا فعوض بها ما سقط من معنى الجمعية عند استعمال المفردة فى صورة إفرادية وتبقى فضيلة استعمال الإنسان من دون غيرها من المترادفات التامة وشبه التامة من مثل البشر وبنى آدم لتضمنه دلالات إيمانية تتعلق بالأنس والنسيان وهما الأصلان اللذان يزعم الدارسون أن الإنسان مشتق منهما، ويصبح التحذير الإلهى للإنسان من النسيان أو الأنس المطغيين اللذين يوردان صاحبهما إلى الهلكة والخسران أو لم يكن الطرد الإلهى لآدم بسبب من نسيانه وضعف عزيمته، ثم ألم يتكرر التحذير الإلهى فى غير موضع من كتابه من اللهو والأنس الاجتماعى الفاتن لأصحابه المسقط فى العصيان؟ هذا جانب فضلا عن تكونها من بعض حروف صفيرية صالحة فى هذا السياق كما مر بنا ثم تأتى كلمة (فى) بدلالتها الظرفية الاستغراقية لتدل على المصير المؤلم الذى ينتظر الإنسانية؛ لأن صانعه هو الله سبحانه وهل يتصور أن تكون القبضة الإلهية المنذرة غير محكمة سبحانه! و استعمال ﴿خُسْرٍ﴾ وهى مصدر دال على الحدث المجرد الذى هو أشبه شىء بمادة خام للخسران، وقد كان بالإمكان فى غير النص الكريم استعمال المشتق؛ لكنه إن كان مضرا بالنص؛ إذ دلالة المشتق تحمل معاني مؤقتة منقطعة على تفاوت ما بين المشتقات فى تقدير هذا الانقطاع والتوقيت، فضلا عما تتمتع بها من توسط الحرف الصفيرى المفيد فى سياق التحذير والإنسان.

وتأمل بناء الجملة الإسمية بتوزع عنصرى التوكيد (إن) فى المبتدأ و (اللام) فى الخبر قائد إلى تقدير جزئى الجملة وأنه لا يصح إلا حملهما معا على محمل الحقيقة المخوفة التى لا مدخل للمجاز فيها، ثم تأتى الجملة وقد فرغت من الزمن لتوحى بأنه إنذار لا يقطعه مدى زمني، وهو ما يرمى بدرجة ما تحمله من حقائق مرعبة وخطيرة على الإنسانية أن تتدبرها، و تحسن التعامل مع الاستثناء الواقع بعدها الذى علامته (إلا) الواقعة فى مفتتح الآية الخاتمة فى السورة الكريمة.

صحيح أن هذه الوقفات ما هى إلا مدخل تستثيره السؤالات ذوات المنزع اللغوى فى المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية؛ لكنها من دون ادعاء أو تعالم قادرة على تحقيق مستوى من الإبهار لدى المتلقين المعاصرين للنص القرآنى من دون الدخول فى حومة الجدل الذى لم يستقر حول وجوه الإعجاز الأخرى غير اللغوية، وهو الإبهار المفقود الذى يوشك من دون مبالغة، أن يفقد كثيرا من متلقى القرآن الكريم التأثير المنشود، ويفوت عليهم خيرا كثيرا وربما بسبب من غيابه يزج بهم فى قائمة الهاجرين للقرآن الكريم فى مستوى من مستويات هجرانه، نعيذكم بالله تعالى من كل أشكال هجر الكتاب الكريم.



معنى النسخ عند الإمام الشاطبي

(٧٩٠هـ/١٣٨٨م)

وهو الفقيه .. الأصولي .. واضع علم مقاصد الشريعة، في كتابه الفذ (الموافقات) .. لقد عقد الشاطبي - في الجزء الثالث من (الموافقات في أصول الأحكام) - (الفصل الثاني في الأحكام والنسخ) .. وذكر فيه أربع مسائل .. قرر فيها:

١- أن النسخ - في حقيقته - هو: تخصيص للعام، وتقييد للمطلق، وبيان للمبهم، وتأقيت لغير المؤقت من الأحكام.

٢- وأن هذا النسخ لا يرد في الكليات .. ولا في مقاصد الشريعة .. ولا في الأخبار .. وإنما يرد في الجزئيات .. وأن مواطن وروده - في هذه الجزئيات - قليلة.

٣- وأن الأحكام الواردة بعد الإباحة - التي هي الأصل - لا تعد نسخًا لأصل الإباحة.

٤- «وأن غالب ما ادُّعي فيه النسخ إذا تُؤُمِّل وجدته مُتنازعًا فيه، ومحتملاً، وقريبًا من التأويل بالجمع بين الدليلين على وجه من كون الثاني بيانًا لمجمل، أو تخصيصًا لعموم، أو تقييدًا لمطلق، وما أشبه ذلك من وجوه الجمع مع البقاء على الأصل من الأحكام في الأول والثاني».

٥- واستدل الشاطبي على ذلك بما قام به الإمام أبو بكر بن العربي (٤٦٨- ٥٤٣ هـ/ ١٠٧٦ - ١١٤٨م) - محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله، المعافري، الأندلسي، المالكي - من إسقاط كثير - بل ربما كل - ما ادعى فيه النسخ وفق هذه الطريقة والقاعدة - مع إيراد الأمثلة على الجمع بين الأحكام التي ادعى أن النسخ قد وقع بينها - وفي هذه الأمثلة أورد الشاطبي أكثر من عشرين مثالاً.

• وهذا هو نص الشاطبي - كما جاء (في الموافقات):-

الفصل الثاني: في الأحكام والنسخ

وتشتمل على مسائل:

المسألة الأولى

اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والتي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة، وكان أولها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة كالصلاة وإنفاق المال وغير ذلك، ونهى عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر، كالافتراءات التي افتروها من الذبح لغير الله وللشركاء الذين ادعوهم افتراء على الله، وسائر ما حرموه على أنفسهم أو أوجبوه من غير أصل، مما يخدم أصل عبادة غير الله، وأمر مع ذلك بمكارم الأخلاق كلها كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد وأخذ العفو والإعراض عن الجاهل والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوها، ونهى عن مساوئ الأخلاق من الفحشاء والمنكر والبغي والقول بغير علم والتطفيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنى والقتل والوأد وغير ذلك مما كان سائرًا في دين الجاهلية.

وإنما كانت الجزئيات المشروعة بمكة قليلة، والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر.

ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج، كإصلاح ذات البين والوفاء بالعقود وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملها ويحسنها ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص وما أشبه ذلك، كله تكميل للأصول الكلية.

فالنسخ إنما وقع معظمه بالمدينة لما اقتضته الحكمة الإلهية في تمهيد الأحكام، وتأمل كيف تجد معظم النسخ إنما هو لما كان فيه تأنيس أولا للقريب العهد بالإسلام، واستئلاف لهم، مثل كون الصلاة كانت صلاتين ثم صارت خمسًا، وكون إنفاق المال مطلقًا بحسب الخيرة في الجملة ثم صار محدودًا مقدرًا، وأن القبلة كانت بالمدينة بيت المقدس ثم صارت الكعبة، وكحل نكاح المتعة ثم تحريمه، وأن الطلاق كان إلى غير نهاية على قول طائفة ثم صار ثلاثًا، والظهار كان طلاقا ثم صار غير طلاق، إلى غير ذلك مما كان أصل الحكم فيه باقيًا على حاله قبل الإسلام ثم أزيل، أو كان أصل مشروعيته قريبًا خفيفًا ثم أحكم.

•••

المسألة الثانية

لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية، والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعًا وإن أمكن عقلاً.

ويدل على ذلك الاستقراء التام، وأن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها، وإذا كان كذلك لم يثبت نسخ لكلي البتة، ومن استقرأ كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة، وإلى هذا فإن الاستقراء يبين أن الجزئيات الفرعية التي وقع فيها الناسخ والمنسوخ بالنسبة إلى ما بقي محكمًا قليلة، ويقوى هذا في قول من جعل المنسوخ من المتشابه وغير المنسوخ من المحكم، لقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

(آل عمران: ٧).

فدخول النسخ في الفروع المكية قليل، وهي قليلة فالنسخ فيها قليل، فهو إذًا بالنسبة إلى الأحكام المكية نادر.

ووجه آخر، وهو أن الأحكام إذا ثبتت على المكلف فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق، لأن ثبوتها على المكلف أولا محقق، فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق، ولذلك أجمع المحققون على أن خبر

الواحد لا ينسخ القرآن ولا الخبر المتواتر؛ لأنه رفع للمقطوع به بالمظنون، فاقتضى هذا أن ما كان من الأحكام المكية يدعى نسخه لا ينبغي قبول تلك الدعوى فيه إلا مع قاطع بالنسخ، بحيث لا يمكن الجمع بين الدليلين ولا دعوى الإحكام فيهما.

فصل: وهكذا يقال في سائر الأحكام، مكية كانت أو مدنية، ويدل على ذلك الوجهان الأخيران.

ووجه ثالث، وهو أن غالب ما ادعي فيه النسخ إذا تؤمل وجده متنازعًا فيه، ومحتملا، وقريبًا من التأويل بالجمع بين الدليلين على وجه؛ من كون الثاني بيانًا لمجمل، أو تخصيصًا لعموم، أو تقييدًا لمطلق، وما أشبه ذلك من وجوه الجمع مع البقاء على الأصل من الأحكام في الأول والثاني. وقد أسقط ابن العربي من الناسخ والمنسوخ كثيرًا بهذه الطريقة، وقال الطبري: أجمع أهل العلم على أن زكاة الفطر فرضت، ثم اختلفوا في نسخها، قال ابن النحاس: فلما ثبتت بالإجماع، وبالأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ، لم يجز أن تزال إلا بالإجماع أو حديث يزيلها ويبين نسخها، ولم يأت من ذلك شيء. انتهى المقصود منه.

ووجه رابع يدل على قلة النسخ وندوره: أن تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ليس بنسخ عند الأصوليين كالخمر والربا، فإن تحريمهما يعد ما كان على حكم الأصل لا يعد نسخًا لحكم الإباحة الأصلية، ولذلك قالوا في حد النسخ: إنه رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر، ومثله رفع براءة الذمة بدليل، وقد كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضًا إلى أن نزل:

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

(البقرة: ٢٣٨).

وروي أنهم كانوا يلتفتون في الصلاة إلى أن نزل

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

(المؤمنون: ٢).

قالوا: وهذا إنما نسخ أمرًا كانوا عليه، وأكثر القرآن على ذلك، معنى هذا أنهم كانوا يفعلون ذلك بحكم الأصل من الإباحة، فهو مما لا يعد نسخًا، وهكذا كل ما أبطله الشرع من الأحكام الجاهلية، فإذا اجتمعت هذه الأمور ونظرت إلى الأدلة من الكتاب والسنة لم يتخلص في يدك من منسوخها إلا ما هو نادر، على أن هاهنا معنى يجب التنبه له ليفهم اصطلاح القوم في النسخ، وهو:

•••

المسألة الثالثة

وذلك أن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخًا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرًا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به، وهذا المعنى جار في تقييد المطلق، فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده، فلا إعمال له في إطلاقه، بل المعمل هو المقيد، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئًا، فصار مثل الناسخ والمنسوخ، وكذلك العام مع الخاص؛ إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ، فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار، فأشبه الناسخ والمنسوخ، إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص، وبقي السائر على الحكم الأول، والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق، فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد.

ولا بد من أمثلة تبين المراد؛ فقد روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾

(الإسراء: ١٨).

إنه ناسخ لقوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾

(الشورى: ٢٠).

وهذا على التحقيق تقييد لمطلق؛ إذ كان قوله:

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾

مطلقًا ومعناه مقيد بالمشيئة، وهو قوله في الأخرى:

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾

(الإسراء: ١٨).

وإلا فهو إخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ.

وقال في قوله:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

(الشعراء: ٢٢٤).

إلى قوله:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

(الشعراء: ٢٢٦).

هو منسوخ بقوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(الشعراء: ٢٢٧).

قال مكي: وقد ذكر عن ابن عباس في أشياء كثيرة في القرآن فيها حرف الاستثناء أنه قال: منسوخ. قال: وهو مجاز لا حقيقة؛ لأن المستثنى مرتبط بالمستثنى منه، بيّن حرف الاستثناء أنه في بعض الأعيان الذين عمهم اللفظ الأول، والناسخ منفصل عن المنسوخ رافع لحكمه، وهو بغير حرف، هذا ما قال، ومعنى ذلك أنه تخصيص للعموم قبله، ولكنه أطلق عليه لفظ النسخ؛ إذ لم يعتبر فيه الاصطلاح الخاص.

وقال في قوله تعالى:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾

(النور: ٢٧).

إنه منسوخ بقوله:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾

(النور: ٢٩)

وليس من الناسخ والمنسوخ في شيء غير أن قوله:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾

(النور: ٢٩)

يثبت أن البيوت في الآية الأخرى إنما يراد بها المسكونة.

وقال في قوله:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

(التوبة: ٤١).

إنه منسوخ بقوله:

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾

(التوبة: ١٢٢)

والآيتان في معنيين ولكن نبه على أن الحكم بعد غزوة تبوك أن لا يجب النفير على الجميع وقال في قوله تعالى:

﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(الأنفال: ١)

منسوخ بقوله:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾

(الأنفال: ٤١)

وإنما ذلك بيان المبهم في قوله:

﴿ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

وقال في قوله:

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(الأنعام: ٦٩).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ﴾

(النساء: ١٤٠).

وآية الأنعام خبر من الأخبار والأخبار لا تنسخ ولا تُنسخ وقال في قوله:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾

(النساء: ٨)

إنه منسوخ بآية المواريث، وقال مثله الضحاك والسدى وعكرمة، وقال الحسن: منسوخ بالزكاة، وقال ابن المسيب: نسخه الميراث والوصية، والجمع بين الآيتين ممكن، لاحتمال حمل الآية على الندب، والمراد بأولى القربى من لا يرث، بدليل قوله:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ﴾

(النساء: ٨).

حيث قيد الرزق بالحضور، فإن المراد غير الوارثين، وبين الحسن أن المراد الندب أيضا، بدليل آية الوصية والميراث، فهو من بيان المجمل والمبهم.

وقال هو وابن مسعود في قوله:

﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾

(البقرة: ٢٨٤).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦).

بدليل أن ابن عباس فسر الآية بكتمان الشهادة؛ إذ تقدم قوله:

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾

(البقرة: ٢٨٣).

ثم قال:

﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾

فحصل أن ذلك من باب تخصيص العموم، أو بيان المجمل:

وقال في قوله:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(النور: ٣١).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾

(النور: ٦٠).

وليس بنسخ، إنما هو تخصيص لما تقدم من العموم.

وعن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت في قوله تعالى:

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾

(المائدة: ٥).

إنه ناسخ لقوله:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

(الأنعام: ١٢١).

فإن كان المراد أن طعام أهل الكتاب حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه فهو تخصيص للعموم، وإن كان المراد طعامهم حلال بشرط التسمية فهو أيضا من باب التخصيص، لكن آية الأنعام هي آية العموم المخصوص في الوجه الأول، وفي الثاني بالعكس.

وقال عطاء في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾

(الأنفال: ١٦).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(الأنفال: ٦٥).

إلى آخر الآيتين، وإنما هو تخصيص وبيان لقوله:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ ﴾

فكأنه على معنى: ومن يولهم وكانوا مثلي عدد المؤمنين، فلا تعارض ولا نسخ بالإطلاق الأخير.

وقال في قوله:

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾

(النساء: ٢٤)

إنه منسوخ بالنهي عن نكاح المرأة على عمتها أو على خالتها، وهذا من باب تخصيص العموم.

وقال وهب بن منبه في قوله:

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾

(الشورى: ٥).

نسختها الآية التي في الطور:

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(غافر: ٧).

وهذا معناه أن آية غافر مبينة لآية الشورى؛ إذ هو خبر محض، والأخبار لا نسخ فيها.

وقال ابن النحاس: هذا لا يقع فيه ناسخ ولا منسوخ؛ لأنه خبر من الله ولكن يجوز أن يكون وهب بن منبه أراد أن هذه الآية على نسق (١) تلك الآية لا فرق بينهما، يعني أنهما بمعنى واحد وإحداهما تبين الأخرى، قال: وكذا يجب أن يتأول للعلماء ولا يتأولوا عليهم الخطأ العظيم إذا كان لما قالوه وجه، قال: والدليل على ما قلناه ما حدثناه أحمد بن محمد ثم أسند عن قتادة في قوله:

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾

(الشورى: ٥).

قال: للمؤمنين منهم.

وعن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب أن قوله:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(التوبة: ٣٤).

منسوخ بقوله:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

(التوبة: ١٠٣).

وإنما هو بيان لما يسمى كنزًا، وأن المال إذا أديت زكاته لا يسمى كنزًا، وبقي ما لم يزك داخلاً تحت التسمية، فليس من النسخ في شيء.

وقال قتادة في قوله:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾

(آل عمران: ١٠٢).

(١) في المطبوعات «على نسخة».

إنه منسوخ بقوله:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(التغابن: ١٦).

وقاله الربيع بن أنس والسدى وابن زيد، وهذا من الطراز المذكور؛ لأن الآيتين مدنيتان، ولم تنزلا إلا بعد تقرير أن الدين لا حرج فيه وأن التكليف بما لا يستطاع مرفوع، فصار معنى قوله:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾

(آل عمران: ١٠٢).

فيما استطعتم، وهو معنى قوله:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(التغابن: ١٦).

فإنما أرادوا بالنسخ أن إطلاق سورة آل عمران مقيد بسورة التغابن.

وقال قتادة أيضا في قوله:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾

(البقرة: ٢٢٨).

إنه نسخ من ذلك التي لم يدخل بها بقوله:

﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾

(الأحزاب: ٤٩).

والتي يئست من المحيض والتي لم تحض بعد والحامل، بقوله:

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾

(الطلاق: ٤).

إلى قوله:

﴿ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

(الطلاق: ٤).

وقال عبدالملك بن حبيب في قوله:

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾

(فصلت: ٤٠).

وقوله:

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(الكهف: ٢٩).

وقوله:

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾

(التكوير: ٢٨).

إن ذلك منسوخ بقوله:

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

(التكوير: ٢٩).

وهذه الآي إنما جاءت في معرض التهديد والوعيد، وهو معنى لا يصح نسخه، فالمراد أن إسناد المشيئة للعباد ليس على ظاهره، بل هي مقيدة بمشيئة الله سبحانه وقال في قوله:

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

(التوبة: ٩٧).

وقوله:

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾

(التوبة: ٩٨).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(التوبة: ٩٩).

وهذا من الأخبار التي لا يصح نسخها، والمقصود أن عموم الأعراب مخصوص بمن كفر دون من آمن.

وقال أبو عبيدة وغيره: إن قوله:

﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(النور: ٤).

منسوخ بقوله:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

(النور: ٥).

وقد تقدم لابن عباس مثله.

وقيل في قوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(الزمر: ٥٣).

منسوخ بقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾

(النساء: ١١٦).

وهذا من باب تخصيص العموم لا من باب النسخ.

وفي قوله:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

(الأنبياء: ٩٨).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٠١).

وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(مريم: ٧١).

منسوخ بها أيضا، وهو إطلاق النسخ في الأخبار، وهو غير جائز، قال مكي: وأيضا فإن هذا لو نسخ لوجب زوال حكم دخول المعبودين من دون الله كلهم النار؛ لأن النسخ إزالة الحكم الأول وحلول الثاني محله، ولا يجوز زوال الحكم الأول في هذا بكليته، إنما زال بعضه، فهو تخصيص وبيان.

وفي قوله:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾

(النساء: ٢٥).

إنه منسوخ بقوله:

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾

(النساء: ٢٥).

وإنما هو بيان لشرط نكاح الإماء المؤمنات.

والأمثلة هنا كثيرة توضح لك أن مقصود المتقدمين بإطلاق لفظ النسخ بيان ما في تلقي الأحكام من مجرد ظاهرها من إشكال وإيهام لمعنى غير مقصود للشارع، فهو أعم من إطلاق الأصوليين، فليفهم هذا، وبالله التوفيق.

•••

المسألة الرابعة

القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينات لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية، بدليل الاستقراء، فإن كل ما يعود بالحفظ على الأمور الخمسة ثابت، وإن فرض نسخ بعض جزئياتها فذلك لا يكون إلا بوجه آخر من الحفظ، وإن فرض النسخ في بعضها إلى غير بدل فأصل الحفظ باق؛ إذ لا يلزم من رفع بعض أنواع الجنس رفع الجنس، بل زعم الأصوليون أن الضروريات مراعاة في كل ملة وإن اختلفت أوجه الحفظ بحسب كل ملة، وهكذا يقتضي الأمر في الحاجيات والتحسينات، وقد قال الله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣).

وقال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾

(الأحقاف: ٣٥).

وقال بعد ذكر كثر من الأنبياء عليهم السلام:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

(الأنعام: ٩٠).

وقال تعالى:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾

(المائدة: ٤٣).

وكثير من الآيات أخبر فيها بأحكام كلية كانت في الشرائع المتقدمه. وهي في شريعتنا، ولا فرق بينهما وقال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾

(الحج: ٧٨).

وقال في قصة موسى عليه السلام:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

(طه: ١٤).

وقال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

(البقرة: ١٨٣).

وقال:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

(القلم: ١٧).

في منع الإنفاق، وقال:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾

(المائدة: ٤٥).

إلى سائر ما في ذلك من معاني الضروريات، وكذلك الحاجيات، فإنا نعلم أنهم لم يكلفوا بما لا يطاق، هذا، وإن كانوا قد كلفوا بأمور شاقة، بذلك لا يرفع أصل اعتبار الحاجيات، ومثل ذلك التحسينيات فقد قال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾

(العنكبوت: ٢٩).

وقوله:

﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

(الأنعام: ٩٠).

يقتضي بظاهره دخول محاسن العادات من الصبر على الأذى والدفع بالتي هي أحسن وغير ذلك.

وأما قوله:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

(المائدة: ٤٨).

فإنه يصدق على الفروع الجزئية، وبه تجتمع معاني الآيات والأخبار.

فإذا كانت الشرائع قد اتفقت في الأصول مع وقوع النسخ فيها وثبتت ولم تنسخ؛ فهي في الملة الواحدة الجامعة لمحاسن الملل أولي، والله تعالى أعلم (٢).

٢- الشاطبي، الموافقات (٣/ ٧٠- ٨٠) تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بدون تاريخ، وانظر تفاصيل ذلك في: د. محمد عمارة: (حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم) طبعة دار السلام القاهرة ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م.

قصص الأنبياء

معجزة العصا واليد

للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

لما أعضل موسى وأخوه بفرعون ولم يجد السبيل إلى إقرارهما بأنه الإله الحق رجا أن يعجز عن الإتيان بآية تبين صدقهما فيما جاءا به عن إلاهما. فطلب آية من موسى فألقى عصاه من يده فإذا هي ثعبان لا يشك فيه يتحرك ويسعى، ووضع يده في جيبه ثم نزعها فإذا هي بيضاء للناظرين.

رأى فرعون والملأ من قومه ذلك فعمدوا إلى التمادي على تكذيب موسى فيما جاء به من الآيتين وأحالوا ذلك منه على السحر، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكدين أنه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم. فأدت بهم خاتمة المطاف إلى أن أشاروا على فرعون بأن يرجيء موسى وأخاه حتى يأتي بالسحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى. لأن هذه الآية التي أتى بها متى كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها فقد بطلت دعواه، إذ الغرض أن يأتي بشيء لا يقدر غيره على الإتيان بمثله. وإلا فإنه لا يسمى معجزة تدل على صدقة فيما يبلغ عن ربه.

أرسل فرعون في مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسحرة - وكان للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر. يعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه. وهذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه إلى اليوم - فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة كانوا مدلين بأنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف في الأعيان والعيون، وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيامهم بالسحر. فوعدهم الأجر الجزيل. والزلفى لديه وأي زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيدون ربوبيته ويثبتون عرش (ألوهيته) - وطلب السحرة الأجر يدل على أن أمور الفراعنة كانت سخرة.

راود السحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقي هو سحره أولا؟ وكان الجمع حافلا وفي يوم الزينة، ويظن أنه يوم وفاء النيل. فإنه كان أعظم أعيادهم. فقال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون. وكان عتادهم العصي والحبال، فألقوها فامتلأ المكان حيات وثعابين، وخيل إلى موسى من سحرم أنها تسعى.

في تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعلية قومه، وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا، وأن موسى لا يمكنه أن يأتي بشيء أعظم من سحرهم، اذ كل ما في يده عصاه، فإذا قلبت

حية فهي حية واحدة من مئات وآلاف قد غص بها رحب الساحة التي هم فيها.

وفي تلك اللحظة أيضًا هال موسى أمر تلك الحيات وأوجس في نفسه خيفة. فأمره الله أن يلقي عصاه، فإذا هي حية تسعى وإذا هي تبتلع حيات السحرة وتتلقفها. فوقع الحق وبطل سحر السحرة. ودهش آل فرعون والملأ من قومه. وعلم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك. وإنما هي القوة الإلهية صنعت هذا، فخروا ساجدين لله تعالى وآمنوا برب موسى وهارون، مفضلين ذلك على الأجر الذي كانوا يرجونه من فرعون، مستهينين بجزائه الذي سيوقعه بهم.

علم فرعون أنه لم يعجز موسى ولكن موسى أعجزه فأراد أن يستر عواره فقال للسحرة عن موسى: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ولهذا كان أقوى منكم وغلب سحره سحركم).

قال هذا مع علمه بأن موسى لم يعرفهم. ولم يجتمع معهم من قبل بل كان ثاويًا في أهل مدين، ولم يصل بالسحرة بأية صلة. ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يغني «ولا بد للمغلوب من بادر العذر».

ثم أخذ يتجنى على أولئك السحرة ويقول لهم

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾

(طه: ٧١).

موهما أنه يتصرف في وجداناتهم وأنه كان على وشك أن يأذن لهم، ولكنهم أجرموا بالإيمان قبل صدور الإذن، وهددهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب على جذوع النخل، فلم يثنهم ذلك عن الإيمان.

وقد نفذ فيهم ما هددهم به. ولقد هم فرعون أن يقتل موسى خوفًا من أن يبدل دين المصريين أو أن يظهر في أرض مصر الفساد.

ولعله إنما يعني بالفساد إطلاق بني إسرائيل من أسر العبودية، ويفوت بذلك على فرعون وآله المنافع التي تعود عليهم من تسخير بني اسرائيل في الأعمال الشاقة. ولعل الأعمال التي كانت تؤدى إلى فرعون كانت على سبيل السخرة في الأعم الأغلب - كما سبقت لإشارة إلى ذلك.

يرشد إلى هذا أن السحرة استفهموا من فرعون قائلين:

﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

(الشعراء: ٤١).

ولو كانت الأمور سائرة بغير سخرة لما ساغ لهم هذا السؤال.

استنفد فرعون الوسع في أن يثني موسى عن دعوته إلى الله فلم يفلح ولم يقلع، وكلما فتح بابا - للتجني على موسى وأخيه - حول موسى مجرى الجدال إلى شيء آخر فيه فرج.

انظروا إلى قول فرعون:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

(الشعراء: ٢٩).

وإلى لباقة موسى في قوله:

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾

(الشعراء: ٣٠).

وكان موسى لا يترك فرصة للدعوة إلى الله سواء أمام فرعون أو غيره.

انظروا إلى قول موسى لآل فرعون لما اتهموه بالسحر

﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾

(طه: ٦١).

وقوله: لهم

﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾

(يونس: ٧٧)

أي هذه المقالة ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ كانت عصارة هذه الأحوال كلها أن فريقا من بني إسرائيل قد آمنوا لموسى، وهم على خوف من فرعون ومن ملأ بني إسرائيل أن يفتنهم لأنه كان مسرفًا لا يبالي ما يصنع، ويظهر أنهم كانوا شبابًا لقوله تعالي:

﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾

(يونس: ٨٣).

وكان موسى يعتقد أن طغيان فرعون وملئه وآباءهم عن الإيمان به سببه: أن الله تعالى أغدق عليهم الأموال في الحياة الدنيا ومتعهم بلذائذ العيش فقست قلوبهم، وظنوا بقاء ذلك النعيم فتمادوا في طغيانهم ولم يصغوا إلى العظات التي يغاديهم بها موسى ويراوحهم. فحمله ما عناه من العناء في إرشادهم وما تحمل من البلاء والعنف في دعوتهم على أن يدعو عليهم بأن يسد الله تعالى طريق هدايتهم ويقل ما بأيديهم من المال الذي هو سبب طغيانهم وإسرافهم في أمرهم، وأن يشد على قلوبهم ويبعدهم عن طريق الإيمان إلى أن يسلمهم ذلك العذاب الأليم. وقد أجاب الله تعالى دعوته.

(ولما لم يفد العلاج مع فرعون، أمر الله موسى أن يتخذ لبني إسرائيل بيوتًا للعبادة في مصر ويقيم فيها الصلاة لله تعالى.

اقرءوا هذه الآيات:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ
عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ
إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥)
قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ
(١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا
لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم
مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ
ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦-١٢٦)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

جدالهم فى قضية النسخ

ومن الأمور التى اشتد فيها الجدل بين النبى ﷺ وبين اليهود، قضية النسخ، وكان جدالهم فيها يبغون من ورائه إثارة الفتن، والطعن فى شريعة الإسلام.

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية، أو حكمًا بحكم، وقالوا: ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدًا؛ ما هذا من شأن الأنبياء، وما هذا القرآن إلا من كلام محمد ﷺ، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضا.

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون جواب، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيمانًا.

ومن هذه الآيات التى أنزلها الله - تعالى - فى هذا الشأن، قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(البقرة: ١٠٦-١٠٨)

ولما كانت قضية النسخ من القضايا المهمة، التى استمر الجدل فيها قديمًا وحديثًا والتى اتخذها اليهود ذريعة للطعن فى الشريعة الإسلامية، رأينا من الواجب علينا أن نفصل القول فيها قليلا، تجلية للحقائق، ووضعا للأمور فى نصابها:

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾

(الأنفال: ٤٢)

وسنتناول فى كلامنا عنها المباحث الآتية:

- أولا: تفسير الآيات الكريمة.
- ثانيا: أهمية النسخ وحكمة مشروعيته
- ثالثا: أدلة ثبوته جوازًا ووقوعا:
- رابعا: ما أثير حوله من شبهات والرد عليها.
- خامسا: مسالك العلماء فى القول بالنسخ.

قال تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

أولا: تفسير الآيات الكريمة:

قال تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

سُبقت هذه الآية بقوله تعالى:

﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(البقرة: ١٠٥)

وهذه الآية فيها تصريح بأن الكفار بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة، لا يودون أن تكون النبوة فى محمد العربى ﷺ فهم لذلك يجحدون رسالته، ويكذبون دعوته، ويثيرون حولها الشبهات، فرد الله عليهم ردًا إجماليًا بقوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾، ثم أجاب عن أهم الشبهات التى أثاروها للتشكيك فى شريعة الإسلام، وهى النسخ، فقال تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

والنسخ فى اللغة: الإبطال والإزالة.

وفى عرف الشرع: بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا.

وننسها: من أنسى الشئ جعله منسيا.

فمعنى نسخ الآية فى قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ رفع حكمها مع بقائها فى نظم القرآن.

ومعنى إنسائها فى قوله - تعالى - «نُنسها» رفع الآية من نظم القرآن جملة.

وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء؛ لأن شأن ما لا يبقى فى النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به.

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة، بعد أن يقضى الله بنسخها.

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشىء من القرآن، والله يقول:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

ومما يدل على نسخ الآية المنساة، أى انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى:

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها، فيكون قوله تعالى: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ معبرًا عن حالة تعرض فى بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا -.

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص، أن ما ينسى لعدم حضوره فى الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه، فربما يقع فى الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى غناءه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «ننسأها»

بالهمز: من النسيء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ فى قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ على النوعين السابقين وهما نسخ الآية حكما فقط، ونسخها حكما وتلاوة.

ومعنى ﴿ نُنسِهَا ﴾ نؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها، وننزل ما يقوم مقامها فى القيام بالمصلحة.

والخيرية والمماثلة فى قوله تعالى:

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

ترجع إلى ثواب العمل بها، فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها، وقد يكون مماثلا له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها، أقوم على المصلحة من الأخرى.

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

ساق جملة كريمة فى صورة الاستفهام التقريري، مخاطبا بها الأمة الإسلامية فى شخص نبيها ﷺ لتكون دليلا على هذا الثبوت، وهذه الجملة هى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والمعنى: أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر فى وقت بأمر، ثم ينسخه أو يستبدله بآخر تبعًا لمقتضيات الظروف والأحوال.

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته، وشمولها لكل شيء، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

(البقرة: ١٠٧)

والمعنى: أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواه، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله؛ لأن المالك لكل شيء من حقه أن يمحو ما يشاء، ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية الكريمة واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته سبحانه بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتًا لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم، فقال تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(البقرة: ١٠٨)

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم ﷺ مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق، كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم، فقالوا له:

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(النساء: ١٥٣)

وقالوا له: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾

(الأعراف: ١٣٨)

ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم ﷺ.

فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار، وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفى النهى عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

هذا: وقد وردت فى سورة النحل - أيضا - آيتان تدلان على ثبوت النسخ، وهما قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

(النحل: ١٠١، ١٠٢)

ومعنى الآيتين الكريمتين: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ بالنسخ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظا أو حكما ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ من المصالح، فلعل ما يكون مصلحة فى وقت يصير مفسدة بعده وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه، ﴿ قَالُوا ﴾ أى الكفرة لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ، للنبى ﷺ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنتهى عنه، وليس الأمر كما قالوا، بل الحق أن أكثرهم لا يعلمون حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾

أى قل لهم - يا محمد - إن القرآن الكريم قد نزله جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ بالتدريج على حسب الحوادث والمصالح، تنزيلا ملتبسا بالصدق والحكمة، ليثبت الله به الذين آمنوا على الإيمان وليكون ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه، والذين إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة، صح يقينهم، ورسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم، وعرفوا أن الله - تعالى - حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب.

ووجه ثبوت النسخ من هاتين الآيتين الكريمتين، أن التبديل معناه: رفع الشيء ووضع غيره بدله، وتبديل الآية بناء على ذلك معناه رفعها، ووضع غيرها مكانها، وهذا هو النسخ بعينه.

قال صاحب الكشاف: تبديل الآية مكان الآية: هو النسخ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة. والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء بحكمه (١).

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦٣٤

والمراد بالآية - هنا - الآية القرآنية لأمور:

- أولها: قولهم الذى حكاه القرآن عنهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ فإن الإفتراء يستعمل فيما هو من جنس الكلام، ومن المستبعد استعمال فى الآية الكونية، وأسلوب القرآن فى مواضع كثيرة يؤيد ذلك، قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

(الكهف: ١٥)

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

(النحل: ١٠٥)

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ كانوا يقولون: إن محمدًا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق، لأن الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة (٢).

ثانيها: قوله تعالى:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾

لأن روح القدس هو جبريل، أضيف إلى القدس وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود، والمراد: الروح المقدس، وحاتم الجواد، والمقدس: هو المطهر من المآثم. ومن المعروف عن جبريل - عليه السلام - أنه كان ينزل على النبى ﷺ بالآيات القرآنية، لا بالمعجزات الكونية.

- ثالثها: سياق الآية اللاحقة، وهى قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾

(النحل: ١٠٣)

يدل على أن طعن المشركين كان منصبا على القرآن الكريم من حيث مصدره ومقاصده، وأن بشرا هو الذى يعلمه إياه، وهذا يؤيد أن المراد بالآية فى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾

(النحل: ١٠١)

إنما هو الآية القرآنية لا المعجزة الكونية.

- رابعها: سبق للمشركين أن طالبوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزات كونية كتفجير الأرض والرقى فى السماء، وغير ذلك فلم يجابوا إلى مطالبهم، لأنها مطالب متعنتة، وسد القرآن الكريم هذا الباب فى وجوههم، ومن هذا الأسلوب، تستنتج أن تبديل الآيات بمعنى المعجزات، والإتيان بغيرها بدلا منها لم يكن شائعا فى عهد النبى ﷺ مع قومه وإنما الشائع الذى كان محل طعن المشركين واليهود، إنما هو تبديل أحكام الآيات، على حسب ما تقتضيه الحكم والمصالح.

ومن هذا العرض الموجز للآيات الكريمة المثبتة للنسخ، نرى أنها قد دحضت شبهة اليهود وغيرهم فى هذه المسألة، وجاءت للمؤمنين بالبراهين الواضحة، والأدلة الساطعة التى تكشف لهم أن النسخ ليس محالا على الله - تعالى - وأنه - سبحانه - ما شرعه إلا لمصلحتهم ومنفعتهم.

(٢) المصدر السابق.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبد الوهاب

عنوان الفتوى: ماذا علىَّ أن أفعل؟

مصدر الفتوى: www.moriya.co.il مارس ٢٠٠٦ فتوى من: الحاخام موشيه عميئيل

سؤال: تحية طيبة، عندى سؤالان كبيران.. وبعض الأسئلة الصغيرة:

- كنت فى إيطاليا، تلك البلاد النجسة، ولم أكن وقتها متدينًا ودخلت الفاتيكان. لم آت هناك بأى فعل يمكن أن يعتبر عبادة أوثان، وإنما كان هذا من أجل رؤيته فحسب، وأنا أدرك اليوم أنه يحظر فعل هذا حتى لو كلفنى ذلك حياتى.. فماذا علىّ أن أفعل حتى أصحح هذا الفعل القبيح؟.. لم أكن هناك بمفردى وإنما كنت مع والدتى، وقد تجولنا فى كل إيطاليا، واشترت والدتى كل أنواع الصور، ومن بينها صور لعبادة أوثان من صلبان وكنائس وكل رجسهم.. كما التقطنا صورًا داخل المتاحف ودور عبادة الأوثان الخاصة بهم.. والآن بعد توبتى أريد أن أحرق هذه الأشياء.. والمشكلة أن والدتى لا تريد أن أخرج هذه الأشياء من البيت.. ولم يغير حديثى معها من الأمر شيئًا.

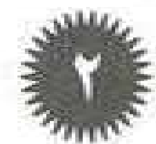
- وهناك سؤال آخر، كان جدى ملحدًا أى كافرًا.. وهو أحيانًا يسب المتدينين ويفعل متعمدًا ما يثير غضبى، وبالفعل قمت فى بعض الأحيان بلعنه وسبه بقسوة شديدة. أنا لا أعرف ما إذا كنت قد أحسنت التصرف لأن هذا كان بدافع الغضب.. إنه جدى، ولكنى من ناحية أخرى حائرة.. حسنًا، أتمنى أن تجيبونى.. شكرًا جزيلا.

جواب: من المهم إصلاح هذا بالتوبة. إن سؤالك فى حد ذاته يدل على صدق ندمك على ما حدث.. من الصحيح أن تعترف فى صلاة الفجر بينك وبين نفسك أمام الرب اعترافا كاملا لطلب العفو.. ولتتخذ من تلاوة المزامير دعمًا لاعترافك وليكن ذلك ذكرى لك تنقذك وتصلح حالك. ومع كل هذا، فأنت بالتأكيد تتحمل المسئولية بشجاعة، وتقرر عدم الوقوع فى هذا الخطأ مرة أخرى. إن التصدق - بأى مبلغ مالى فى وجهه الصحيح - يشتمل على فائدة عظيمة.. ومن المهم أيضًا التعرف على جوهر الأمر من خلال الحوار والدرس وغير ذلك لتقف على خطورة الأمر حسبما ورد شرحه فى المصادر الدينية.

- فى الحقيقة يجب التخلص من كل هذه الأدوات النجسة. وسوف يكون أمرًا طيبًا إذا كان باستطاعتك إقناع، وربما يمكنك فعل ذلك بعون الرب، وإذا لم تستطع فمن المستحسن أن تجد لنفسك مكانًا بديلا طاهرًا، ولكن طالما أن هذا ليس فى استطاعتك فليس أمامك خيار سوى أن تلزم غرفتك وتحافظ عليها طاهرة من كل هذه الأشياء. وبالنسبة لسائر الأماكن فى المنزل، ففى أى مكان ستضطر للبقاء فيه مثل غرفة الطعام وغيرها عليك أن توضح لوالدتك أنه ليس باستطاعتك مطلقا البقاء فيه على هذا الوضع.. وإذا لم يتركوا أمامك خيارا، فمن المستحسن إيجاد مكان بديل، ولكن محرم عليك أن تمكث فى بيت ملىء بالنجاسة.

- غضبك من جدك مفهوم، ولكنه مبالغ فيه. ومن المستحسن ألا تصل إلى مثل هذه الأوضاع السلبية، وكلما كان فى مقدورك الدخول معه فى حوار علنى وجاد فى محاولة للتأثير عليه، فلتفعل ذلك.. ولكن إذا انزلق هذا الحوار إلى حالة الغضب والأفعال التى تثير المزيد من الغضب، فدعه فى غيه. واختبر علاقتك به من خلال جدوى رد فعلك. فإذا ما وجدت أنك لا تجنى فائدة، تجاهله وسر فى طريقك.

تطبيق الشريعة بين البنى "الضبط الاجتماعي" و"الضبط القانوني" وبين "دور الأمة" و"دور السلطة" رؤية إسلامية جديدة



د. يحيى رضا جاد

وفاءً بوعدنا للقارئ الكريم، نأتي على بيان وتأصيل وتفصيل مبدأ "الأمة هي الأصل"، فنقول:

١ - الأمة هي الأصل سواءً من حيث توجه الخطاب الشرعي ابتداءً، أو من حيث العموم، أو من حيث الصلاحيات والمسئوليات، أو من حيث الأولوية والتقديم.. وبذلك تأتي الهيئات والمؤسسات والسلطات والأفراد: تبعًا وضمنًا.

يقول تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣)

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ ﴾

(النساء: ١٣٦)

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

(المائدة: ٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(الحجرات: ١)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾

(آل عمران: ١٣٧)

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(التوبة: ٧١)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾

(الممتحنة: ١٠)

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾

(النور: ٣٢)

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

(النساء: ٣٥)

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(البقرة: ٢٢٩)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

(النساء: ١ - ٢)

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

(النساء: ٤، ٥)

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(المائدة: ٣٨)

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

(النور: ٢)

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾

(النور: ٤)

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾

(النساء: ١٥ - ١٦)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾

(البقرة: ١٧٨)

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٠)

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾

(الأنفال: ٧٢)

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

(الأنفال: ٣٩)

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٤)

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾

(التوبة: ١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾

(الحجرات: ٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾

(الحجرات: ١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾

(الحجرات: ١٢)

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

(البقرة: ١٥٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(النساء: ٣٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾

(البقرة: ٢٧٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

٢ / ١ - فهذه النصوص - وغيرها كثير - الخطاب فيها أساسًا ورأسًا وابتداءً: للأمة، لجماعة المسلمين. ففي هذه النصوص لا يوجد مخاطَب اسمه: الدولة أو السلطة أو الرئيس أو الحكومة أو المجلس الفلاني أو المؤسسة الفلانية، بل الخطاب فيها: للجماعة، للأمة، لعموم المسلمين.

فالنصوص الشرعية - في أكثر تكاليفها - إنما خوطبت بها جماعة المسلمين.. فخطاب الله يتعامل مع الأمة لا مع السلطة، فالأخيرة إنما هي شأن من شئون الأمة؛ فهي - أي السلطة - مخاطَبة من خلال الأمة ومكلَّفة من قِبلها؛ فالسلطة مجرد نظام من أنظمة تدبير المجتمع / الأمة.

الأمة هي محل الخطاب والتكليف الشرعيين بوصفها جماعة متعاضدة متعاونة.. الأمة هي المؤتمَنة على حمل الشريعة، وهي المكلفة بتحقيقها والعمل بمقتضاها، وهي المطالبة - في مجموعها - بفهم الرسالة وفقهها، وبتنزيلها على الواقع المَعيش.. حتى إن القرآن الكريم قد استخدم مفهومي "التمكين" و"الاستخلاف في الأرض" في سياق حديثه عن دور الأمة:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾

(النور: ٥٥)

فالخلافة هي مهمة الأمة أصالة، ومهمة السلطة وكالة - فيما وُكِّلَتْ فيه -.

٢ / ٢ - وعلى هذه الأصالة - أصالة الأمة - ينبني أمران:

الأول: أن توزيع الاختصاصات يكون بقدر ما يريد / يقرر السواد الأعظم من الأمة، وبقدر ما يقتضيه النظام وترشد إليه المصلحة وتمليه الضرورة، وبقدر ما تراه الجماعة - أعني أغلبيتها وسوادها الأعظم - على سبيل الضبط والتنظيم والتحديد والتوكيل، بحسب الصيغ أو الإجراءات أو الآليات أو التفاصيل المتعارف عليها في مثل تلك الأمور.

والثاني: أن فلسفة السلطة في الرؤية المعرفية الإسلامية تقوم على كونها "نظام واجبات" (يقوم على مبدأي "الواجب / التكليف / المطالبة" و"المسئولية") لا "نظام حقوق" (يقوم على مبدأي "الحق / الامتلاك / الاستحواذ" و"التحكم / التسلط"):

* فـ"سلطة الواجب" - في الرؤية المعرفية الإسلامية - مُطالَبةٌ (أو تكليفٌ) يفرضها على الشخص اعتقادُه وإيمانُه - الذي التزم به بمحض اختياره وإرادته - تجاه نفسه وغيره والكون من حوله.

بينما "سلطةُ الحقِّ" - في الفكر الوضعي - من وجهة أولى: سلطةٌ يخوِّلها القانونُ الشخصَ على شيء معين، ومن وجهة ثانية: سلطةٌ تخوِّل شخصًا فرضَ شيءٍ ما على الغير تنفيذًا أو امتناعًا، ومن وجهة ثالثة: مصلحةٌ - أي: معنىً مجرَّدٌ - يحميها القانونُ لا غير، ومن وجهة رابعة: مجردُ مُكنةِ إتيانِ فعلٍ ما؛ أي مجردُ وجهٍ من وجوه الإتاحة والإباحة والإجازة والترخيص.

ففارقٌ ضخمٌ بين:

- "مطالبة" أو "تكليف" تنبُع من الذات، يفرضها إيمان واعتقاد حر، تجاه النفس والغير والكون كله، لا تتقلب بتقلب الأهواء والرغبات.

- و"سلطة" تُفرَضُ من علٍ، بالضغط والترهيب، يمكن للمرء، بل كثيرًا ما يتمنى، أن يتملص منها دون تأنيب ضمير، أو يمكنه أن يقوم بها أو يذرها أنَّى شاء ومتى أحبَّ، أو يمكنها هي ذاتها - أعني ما تبغي السلطةُ فرضَه أو حمايته - أن تتبدل حسب أهواء ورغبات مَن في يده أداة السلطة والتشريع.

وفارقٌ ضخمٌ بين:

- تكليفات تقع على عاتق المرء تجاه نفسه وغيره والكون من حوله.. تكتسب شرعيتها من العقيدة أولاً وقبل كل شيء (والعقيدة في جوهرها منظومةُ قيم وأخلاق ثابتةٌ مطلقة، لا تبديل لها ولا تحويل، مُلزِمة للجميع في كل زمان ومكان، وإن أَمِنَ العقاب السلطوي).. وتؤسس - من حيث المجتمعُ كله مُطالَب بها، ومن حيث هي شبكة تكليفات تشد بنى المجتمع بعضها إلى بعض - لبنية جماعية تكافلية تضامنية تعاضدية رَعويّة شبكية.. تؤسس لمجتمع تراحمي في المقام الأول، إن شئتَ قلتَ.

- ومزايا يتمتع بها المرء في مواجهة غيره.. تكتسب شرعيتها من الدولة/ السلطة/ الحكومة لا غير (بلا ثوابت ولا مطلقات؛ إذ ما قد يُدعى ثبوته وإطلاقه في زمن ما أو ظرف ما، يمكن أن يعصف به زمن أو ظرف آخر. ويمكن للمرء متى تمكن من التملص منها، أو الإخلال بحق الغير فيها، وأمِنَ العقاب السلطوي، أن يخالفها بلا حرج).. وتؤسس - من حيثُ هي متعلقة بالذات لا غير، ومن حيث هي امتيازات لمُعيّنين لا تتعدى لمَن عداهم - لبنية فسيفسائية فردية خاصة يتقلص فيها حُضور الغيرِ متكافلاً متضامنًا مُعضدًا راعيًا.. تؤسس لمجتمع تعاقدى لا غير إن شئتَ قلتَ.

وفارقٌ ضخمٌ بين:

- نظام أُسُسه والسيادةُ فيه للقيم العَقَدية العليا - التي آمنت بها الجماهير واعتنقتها - بوصفها المرجعية العليا الحاكمة؛ فتتشكلُ أُسسُ اجتماعه البشرى - بكل جوانبها وميادينها - في ظل تلك القيم، وتصبحُ السلطةُ فيه: كيانًا خاضعًا للأسس العامة - مثلها مثل الأفراد والجماعات ومختلف مكونات الأمة - لا مُنشئًا لها، مجردَ مُظهِر لها في التشريعات ومُنفذ لها في التطبيق، لا مالكًا لرقبتها تقرر ما يصلُح وما لا يصلح. فتُصبحُ السلطةُ بذلك مسئولةً: تُساءَل وتُحاسَب وتعاقَب وتُنقض. هاهنا: لحدود السلطة سقفٌ!

- ونظام أُسُسه والسيادةُ فيه للسلطة؛ فهي مَن يقرّر ويضع القيم العليا والمرجعية الحاكمة؛ فتتشكل أسس الاجتماع البشرى وفق ما تُقرر السلطةُ، فتصبح السلطةُ: كيانًا مُنشئًا للأسس العامة لا خاضعًا لها، مالكًا لرقبتها لا مجردَ مُظهِر لها في التشريعات ومُنفذ لها في التطبيق. وبذلك تُصبحُ السلطةُ: البقرةَ المقدسة، والإلهَ الأعلي، الذى يقرر للجماهير المسموحَ والممنوع، والمُباح والمُجرَّم، والمرغوبَ فيه والمرغوبَ عنه. وهذا هو ما آل إليه مفهومُ الدولة والسلطة في الغرب، فالحرام ما حرّمتهُ الدولة، والحلال ما أحلّتْهُ! ولا يخفى أنَّ في هذا من الحلولية ما فيه، فقد استبدلوا الدولة بالله، أحلوا الدولة محلّ الله، فوقعوا فيما هربوا منه، إذ هم يقصدون إلى الهروب من فكرة الله/ المطلق، فوقعوا فيها - ولكنْ من الجهة الأخرى - من حيثُ لا يدرون؛ سلبوا - أو توهموا ذلك - مفهومَ الألوهية من الله الخالق المدبر وأخلوه في جهاز السلطة. وهاهنا ليس لحدود السلطة سقفٌ من أى نوع كان، أليستْ إلهًا؟!

- نظام: الطاعةُ فيه لا تكون إلا لله.. وسلطةُ الدولة فيه مقيدةٌ بما آمنت به الأمة من قيم عليا وتابعةٌ منها.

- ونظام: الطاعةُ فيه للسلطة والنظام القانوني لا غير.. وسلطةُ الدولة فيه مطلقة وقاهرةٌ، لا تقييد لها إلا بما تُقيّدُ نفسَها به، خاصةً إذا ما قُورنت بمُكنات الأفراد وإمكانياتهم.

فارقٌ بين:

- أن تتحدث عن: "واجب الإنسان في تحصيل العلم، وواجبه في العمل"؛ فهذا تكليفٌ مُلزمٌ بالأداء، يرتب - على الجميع - التزامات عقدية/ دينية/ إيمانية لا مفر منها ولا مهرب؛ فهو من صميم الإيمان، ويرتبط بأوثق عُرى بمهمة العمران.

فالواجبُ هاهنا تكليفٌ، عليه أن يؤديه، وليس له أن يتخلى عنه.

وهو هاهنا - فوق ذلك - واجبٌ على الفرد تجاه الأمة (فوَجبَ أن يبذل قصارى جهده لأجل القيام بهذا التكليف، ولأجل معاونة الأمة في القيام به)، وواجب على الأمة تجاه الفرد (فوجب أن تُوفّر للفرد - من خلال آليتي الضبط الاجتماعي والقانوني، أو من خلال المجتمع والجهاز الحكومي إن شئتَ قلتَ - ما يُمكنه من القيام بهذا التكليف)، وواجبٌ على الأمة في مجموعها (فوجب أن تسعى في مجموعها لذلك).

- وأن تتحدث عن: "حقّ الإنسان في التعليم والعمل"؛ فهذا امتيازٌ للفرد، له - بعد توفير سُبُله له - أن يؤديه أو أن يذَره، أن يمارسه أو أن يمتنع عنه.

فالحق هاهنا امتيازٌ، لصاحبه أن يستفيد منه أو أن يُمسك عنه.

وهو هاهنا - فوق ذلك - حق للفرد على الدولة/ السلطة، فيقع عبءُ توفير هذا الحق، من ألفه إلى يائه، على كاهل الدولة/ السلطة، دون أى مشاركة واجبة - من أى نوع - للفرد في ذلك.

وبـ "نظام الواجبات" يكون لكل طرف "واجبٌ له" عند الطرف الآخر و"واجبٌ عليه" تجاه هذا الآخر.. ومن ثم، يكون لكل طرف "حقٌ على الآخر" - يفرضه الضمير والاعتقاد والإيمان المشترك المنبثق عن الذات الحرة - يقابله "حقٌ للآخر عليه" - يفرضه ذات الأمر -.. فهذه التبادلية، لا التسلطية، هي الممثّلة لأصالة الأمة، وهي عماد الترابط الجماعي، وهي المحققة للتوازن والسكينة معًا، وهي المُحفّز الكيميائي الأكفأ على الأداء والإبداع والاجتهاد والإتقان.. وبهذا يمكننا الحديثُ:

- عن واجبي نحو الآخر، وواجب الآخر نحوى.

- وعن مجتمع "المُكلّفين" لا "المتسلطين".

- وعن واجب "المُخالقة" قبل واجب "المواطنة"، بل كأساس عَقَدى له، يقوم عليه، ويتقوى به، بل كبديل عنه إن شئتَ ادعيتَ.. وإن شئتَ قلتَ: إن "المواطنة" منضوية تحت جناح "المخالقة"، بل إنها لا تزكو ولا تترقى ولا ترشُد ولا تنضبط ولا تترسخ إلا بهذا الانضواء.

- وعن "وجوب" مساعدة السلطات في عملها، وتعضيدها في قيامها بواجبها، بَلْهَ عدم تعطيلها.

- وعن "وجوب" التصدى للسلطات، ومحاسبتها، وعزلها، إن خرجت عن "الواجب" المُكلّفة به وفق عقد الوكالة.

وبناء عليه، يمكن تعريف السلطة في الإسلام بأنها: البنية الحكومية المنبثقة عن الأمة - أو البنية الحكومية للأمة -، والمكلّفة من قبلها بتحديد الفعل السياسى وتوجيهه وفق الرؤية المعرفية السياسية الإسلامية وقيمها العليا، والمؤتَمنة عليه.

٣ - والخلاصة التي يؤكد عليها ذلك كله: أنَّ الأمة هي الأساس المتين والجسم الممتلئ والمكان الوسيع طولاً وعرضًا وعمقًا.. وأنَّ السلطة بالنسبة للأمة بُرجٌ صغير للمراقبة والتفقد والتوجيه والتنسيق، تشغل مكانًا صغيرًا ولكنه - لأهميته وضرورته - مرتفعٌ ومُشرف.. وأنَّ علاقة الأمة بالسلطة كعلاقة قاعدة الهرم وعامة جسمه بزاويته العلوية الصغيرة.. ومن ناحية: لا وجودَ لقمّة دون وجود لقاعدة، ومن ناحية أخرى: لا يكونُ هرمٌ إلا بقمة.

«يتبع»

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

هنري دي كاستري

(١) «.. وجعلتُ أشاهد حركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله أكبر، الله أكبر، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذًا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين.. وكنت أشعر بأنهم في صلاتهم (تلك) أرفع مني مقامًا وأعزّ نفسًا.. وهم يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقًا وإيمانًا.. فأحسست أنني منجذب بحلاوة الإسلام كأنها أول مرة شاهدت في الصحراء قومًا يعبدون خالق الأكوان..»(١).

(٢) «.. (لا إله إلا الله) ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقا هم المؤمنون.. ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي (ﷺ) من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه. فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته»(٢).

(٣) «إن دين الأنبياء (عليهم السلام) كان كله واحدًا فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد (عليهما السلام) وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلى التوراة كالتوراة بالنسبة إلى الزبور وأن محمد (ﷺ) بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى (عليهما السلام) ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد (ﷺ) ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا. إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد (ﷺ) كعيسى (عليه السلام) قال أنه بعث ليتم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله.. على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد (ﷺ) كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبدوه فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أصوات الدعاء»(٣).

إيتين دينيه

(١) «.. إن الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل إسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون»(٤).

(٢) «إن الإسلام (هو) عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التي تقوم عليها تلك العقيدة.. (ونحن نطلب) من خصومنا أن يدلونا عليها في الإنجيل أو في كتاب مقدس آخر إن كانوا صادقين»(٥).

(٣) «.. إن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا»(٦).

(٤) «كما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات.. وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات.. إذ يهواه ذلك العربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر»(٧).

(٥) «عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام (ﷺ) كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا، وبكل دقة، حتى في أقل تفاصيله شأنا»(٨).

ول ديورانت

(١) «تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعبًا واحدًا، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام»(٩).

(٢) «.. إن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية.. وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام..»(١٠).

(٣) «.. كانت مبادئ (المسلمين) الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين.. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..»(١١).

(٤) «.. أحلّ للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعوا المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة، وتنصح به أجسامهم من جهة أخرى..»(١٢).

(٥) «لفريضة (الحج) العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهي تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين.. فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى والورع يجمع بين (أبناء) الشعوب الإسلامية كافة، يرتدون كلهم ثيابًا بسيطة واحدة، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام..»(١٣).

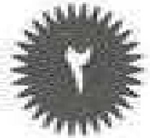
---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص٦ ـ ٣.
(٢) نفسه، ص١٧ ـ ١٨.
(٣) نفسه، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٤) ...فة خاصة بنور الإسلام، ص١٥.
(٥) نفسه، ص١٥
(٦) نفسه، ص١٨.
(٧) نفسه، ص٣٨.
(٨) نفسه، ص٣١٥.
(٩) قصة الحضارة، ١٣/٦٦.
(١٠) نفسه، ١٣/ ٦٧ ـ ٦٨.
(١١) نفسه، ١٣/١١٦.
(١٢) نفسه، ١٣/١٢٣.
(١٣) نفسه، ١٣/١٢٢ ـ ١٢٨.

الاجتهاد فى مقاصد العقائد

مقاصد صفتى المعطى والمانع نموذجًا



د. جاسر عودة
المدير المؤسس لمركز مقاصد الشريعة الإسلامية

العطاء والمنع بقصد الإفهام

المؤمن يعتقد أن من أسماء الله عز وجل الحسنى أنه المعطى المانع، فيعطينا أحيانًا، ويمنعنا أحيانًا أخرى، ويبتلينا بالخير أحياناً وبالشر أحيانًا أخرى، بالسراء أحيانًا وبالضراء أحيانًا أخرى، بالنعمة أحيانًا وبالحرمان منها أحيانًا أخري. ولكن الأمر على حقيقته قد يختلف عن ما أظن أنا أنه خير أو شر أو نعمة أو نقمة يبين العارف بالله الشيخ ابن عطاء الله أن المؤمن فى حاجة لحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى فى عطائه ومنعه، لأن الأمور قد لا تكون كما تبدو ظواهرها، وأن الله عز وجل يقصد إلى أن «نفهم» حين يعطى أو يمنع كتب فيقول:

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك. إن فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء.

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا فى الوصول معصية أورثت ذلا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا.

ونقرأ قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾

(الفجر: ١٥ - ١٧).

﴿كَلَّا﴾: أى أن الله عز وجل يقول إن هذا ليس هو الفهم الصحيح لاتساع الرزق بالعطاء أو ضيق الرزق بالمنع. إن قدر الله على الرزق، فهذا لا يعنى أنه يهيننى، وإن نعمنى وأغدق على بعض الرفاهية فهذا لا يعنى أنه يكرمنى، ولا يعنى بلوغ المكانة الرفيعة، بل العكس قد يكون صحيحًا والسؤال الآن هو: كيف أحكم فى هذا الأمر؟

ينبه الشيخ على مقصود الله تعالي، ألا وهو الفهم، فيقول: (إن فتح الله تعالى لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء).

فإن منعك أو أخذ منك الله عز وجل شيئًا من المال، أو الوظيفة، أو الصحة، أو الأهل، أى أخذ منك شيئًا هامًا وغاليًا، ولكنه فى نفس الوقت قد فتح لك بابًا للفهم، أى بابًا للعبرة والتفكر والنضوج والقرب من الله - إن حدث ذلك فما حدث ليس منعًا، بل المقصود هو العطاء والهدية، وعندها تتحول المحنة إلى منحة! وبالفهم عن الله عز وجل، تعرف أن ما يحدث من بلاء هو عين العطاء، لأنك قبل الفهم كنت تنظر إلى المادة، وإلى الحواس الخمس، وإلى الأرقام، فتقول مثلاً: (قد خسرت عشرة آلاف)، أو (ذهب كذا من أهلى أو صحتى أو من متاع الدنيا)، إلى آخره. ولكن ذلك هو الحساب المادى، والله عز وجل قد يأخذ منك العشرة آلاف ولكنه يعطيك فهمًا، ويعطيك رضا، ويعطيك عملاً صالحًا، ويعطيك همة عالية لتغيير حالك، وقد يعطيك صديقًا وفيًا يقف معك، وقد يعطيك استكانة له سبحانه وتعالى ودعاء وقربًا وتوكلاً عليه سبحانه وتعالى فتكون خسارة هذه العشرة آلاف هى عين العطاء وعين المنحة. بل وقد يعطيك بدلاً منها مائة ألف مثلاً فى وقت لاحق نتيجة مراجعتك لنفسك وتحسينك مسلكك. لابد إذن من أن تحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن تعتدل الموازين حتى نفهم ما هو المنع وما هو العطاء لأنه أحيانًا تتصور أن شيئًا ما منع، ويكون هو عين العطاء. وتتصور أن شيئًا ما عطاء، ويكون هو عين المنع.

العطاء بقصد الإملاء (والعياذ بالله)

والمثال بالعكس صحيح، فقد يعطى الله سبحانه وتعالى إنسانًا عشرة آلاف وهو يقصد الابتلاء له، فلا يشكر الله عليه بالقول ولا بالعمل، ويغتر بالمال، ولعله يصرفه فى الحرام، وتكون العاقبة سيئة، والعياذ بالله ولعل الله عز وجل يقصد أن يملى لهذا الإنسان:

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

(القلم: ٤٥)

والعياذ بالله. فالله عز وجل أحيانًا ما يفتح الأبواب عقوبة،

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

(الأنعام: ٤٤)

والعياذ بالله ولابد للعبد العاقل أن يخاف من هذا.

ويضرب الشيخ هنا مثالاً آخر فى نفس المعنى يقول رحمه الله: (ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا فى الوصول). هنا يعطيك الله تعالى الطاعة أو العبادة أو العمل الصالح، صليت القيام، أو حفظت القرآن، أو تصدقت، أو صمت، أو حججت، وهذا فتح من الله سبحانه وتعالي. لكن احذر! فأحيانًا تتخيل أن العبادة نفسها فى حد ذاتها عطاء وما هى

بعطاء، لماذا؟ مثلا، قد يبطل العبد ثوابه بنفسه بعد أداء العمل. فمثلا، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾

(البقرة: ٢٦٢)

فالمن والأذى يبطل الصدقة ويسد باب القبول والأجر. وقد يكون هناك طاعة ولكن سوء أداء العبد لهذه الطاعة نتج عن رياء مثلا:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء: ١٤٢)

وإذن تؤدى هذه الطاعة إلى عقوبة، والعياذ بالله، لأن المقصود من الطاعة هو الإخلاص فيها والانتفاع بها خلقيًا وروحيًا. فإن حدثت الطاعة ولم يحدث الإخلاص أو لم يتم الانتفاع بها روحيًا وخلقيًا، فلا قيمة لها. ولذلك، ففى الحديث أنه: «من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله فى أن يدع طعامه وشرابه» (صحيح البخارى) أى أن صيامه غير مقبول ومردود عليه، والعياذ بالله.

المنع بقصد تعليم التواضع

ثم يعطينا الشيخ مثلاً آخر فى باب الطاعة والمعصية مما يتطلب دقة فى الفهم. يقول الشيخ: (وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا فى الوصول)، وفى هذا المعنى يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله:

(رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا فأدخلت صاحبها الجنة، ورب طاعة أورثت صاحبها عجبًا وكبرًا فأدخلته النار).

والمعصية فى حد ذاتها لا تدخل أحدًا الجنة طبعًا، ولكنها قد حدثت بالفعل وحدثت التوبة، ويذكر العاصى ذنبه باستمرار ولا ينساه، بل يجتهد ويجد حتى يدخل الجنة. وهذا المعنى من معانى العطاء والمنع. أحيانًا تكون معصية، ولكنها معصية تاب العبد منها وتورث الذل والانكسار لله سبحانه وتعالى، فتصبح منحة وتصبح عطاء.

وهذا لا يعنى أن أذهب وآتى المعاصى ثم أقول: حتى ينكسر القلب ويتوب، هذا فهم خاطيء منحرف انزلق إليه بعض الجهال، وليس هذا هو مقصود الله عز وجل قطعًا، فالله لا يقصد الفحشاء ولا يأمر بها. ولكن الحديث هنا هو عن ما سبق وحدث من المعاصى فى الماضي، أن تورث هذه المعاصى الذل والانكسار لله سبحانه وتعالي. ولعل ذلك أفضل من طاعة تورث العزة والاستكبار: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» (صحيح مسلم) كما قال ﷺ. فإن كانت ثمة طاعة، ولكنها أورثت فاعلها الكبر، فعدمها أفضل. فلابد إذن أن ننظر إلى مدى القرب والبعد من الله عز وجل، وأن يكون هذا هو المعيار.

وقال رسول الله ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له). وهذا الحديث يدل

على أنك أنت الذى تصنع الخير أو الشر لنفسك فى الحقيقة، والأمر بيدك أنت! إن استقبلت السراء بالشكر فهو خير، وإن استقبلت الضراء بالصبر فهو خير، وإن استقبلت السراء بالكبر والمعصية فهو شر، وإن استقبلت الضراء بالضجر والكفر فهو شر، فأنت الذى تحدد: عطاء أم منعاً، حسب رد فعلك أنت.

المنع بقصد تقريب العبد من الله

وهذا مثال آخر خاص بالفهم عن الله تعالى فى عطائه ومنعه، يعلمنا إياه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله ورضى عنه. يقول:

«متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به. ومتى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك».

(متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)، فأحيانًا يأتى البلاء فى صورة أن يستوحش الإنسان أى ينعزل وينفرد، مثلاً بأن يأخذ الله عز وجل الرفيق، كالصاحب أو الزوج أو الأخ أو الصديق، أو أن يسافر العبد لظرف ما ويبقى وحده فى مكان بعيد أو بلد غريب، أو تجد نفسك فجأة وحدك فى سجن أو مستشفي، لا قدر الله.

يبين الشيخ أن هذا قد يكون من العطاء فى صورة المنع، وهذا أيضا مصداق حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه: (إذا أراد الله بعبد خيرًا أوحشه من الناس). فيفتح الله لك فى هذه الوحدة باب الذكر أو باب التفكر أو باب الأنس به، وهذا الأنس لم يكن ليأتى وأنت تختلط بالناس ليل نهار،

فيفتح لك سبحانه وتعالى هذا الباب بأن يحبسك فى مكان ما، ولعلك تظن أن هذا من المنع وإنما هو من العطاء، أوسع عطاء. ومن أساتذتى من يذكر فترات من حياته كان فيها فى السجن أو فى منفي، يذكرها بالخير ويقول: (لولا ذلك السجن لما ألفت كتبى ولا وصلت إلى أفكاري). فكان السجن والوحشة فى الحقيقة سببًا للأنس بالله والنفع للخلق.

المنع بقصد توبة العبد

وأحيانًا ما يضيق الله عز وجل عليك الرزق، ويريد منك أن تتوب، ليس إلا.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(التوبة: ١٢٦)

فالله عز وجل أحيانًا يأخذك ببعض البلاء وبعض الضرر حتى تتوب إليه، وتستكين، وتدعوه وأنت تحس بالاضطرار، وهذا أيضا من صور المنع الذى هو فى حقيقته عطاء، فالبلاء والفتنة اللذان ينتهيان إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى هما نعمة حقيقية.

والمنع والعطاء لا يقاسان بمقاييس البشر، فلن تكون المقاييس الصحيحة هى مقاييس الأرقام ومقاييس اللذات المادية، وإنما المقياس الحقيقى هو علاقتك بالله. فأحيانًا يبتليك الله ابتلاء فتتحسن العلاقة معه سبحانه وتعالي، وهذا هو عين العطاء، وأحيانًا لا تأتى منح من الله تعالى إلا عن هذا الطريق، لأننى مثلا قصرت فى حق الشكر أو حق العبادة، فالله تبارك وتعالى يأخذ

من مليارات النعم التي أعطاني إياها يأخذ مني نعمة أو اثنتين أو ثلاثة، وقد أجزع، ولكنني أعود إليه سبحانه وتعالى، وهذه هي المنحة أي منحة، وعطاء أي عطاء!

المنع بقصد فتح باب الدعاء

ثم يقول الشيخ:

ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار

قد يبتليك الله عز وجل ببلاء لا ترى له حلا إلا أن تسأل وتدعو، فلعلك مقصر لا تسأل ولا تدعو كثيرًا قبل هذا البلاء، ولعلك تتوهم أنك لا تحتاج إلى الدعاء، أو تدعو ولكن لا تكون مضطرًا، ولكن أحيانًا يجد الإنسان نفسه مضطرًا، ويجد الإنسان نفسه في ضيق لا ملاذ له ولا كاشف له إلا الله، وأخيرًا يدعو ويسأل الله عز وجل، ويكون هذا هو مقصود الكريم سبحانه. ولعل هذا السؤال يستمر أيامًا أو أسابيع، ويكون المقصود من هذا أيضًا العطاء وليس المنع لأن «الدعاء مخ العبادة» (سنن الترمذي) حديث غريب كما قال الحبيب ﷺ. وفي رواية: «الدعاء هو العبادة» (سنن أبو داوود) فتظل في عبادة صادقة وصلة دائمة بالمولى عز وجل، ويكون هذا هو عين العطاء وليس هذا من المنع في شيء.

ولكن يقول الشيخ: (إن فتح لك باب السؤال فاعلم أنه يريد أن يعطيك)، فالله عز وجل يثيب على السؤال في حد ذاته، ويعطي كذلك ويجيب السؤال كذلك في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معًا، أو في شيء آخر أفضل في الدنيا أو في الآخرة؛ فالله عز وجل حين يفتح لنا باب الدعاء فإنه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا، لأن العبد الكريم إذا سئل لابد أن يعطي، فما بالك بالله!

فمن مقاصد المنع فتح باب الدعاء، والله عز وجل يسأل الكفار في كتابه العزيز:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾

(النمل: ٦٢)

فالله عز وجل يشهد الكافر على أنهم حين يضطرون في دعائه له سبحانه فإنه يجيبهم! فإذا كان دعاء المضطر الكافر يستجاب من الله سبحانه وتعالى نظرًا لما فيه من الصدق والحرارة والتسليم بالقدرة الإلهية، فما بالك بالمضطر المؤمن؟ الاضطرار إذن يسرع باستجابة الله للدعاء. ولذلك فإن الشيخ يقول أيضًا: (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار). أنت مضطر وترفع يديك لله عز وجل، وتحس بالحاجة الشديدة، ويزيد ذلك انقطاع الأسباب أحيانًا كما مر.

وهذا ينطبق أيضًا على المسائل العبادية، فأنا مضطر إلى مغفرة الله عز وجل ورحمته، وأحس بهذا الاضطرار حين أسأله أن يفتح عليّ من مغفرته ورحمته وفضله. إذن حتى في أبواب العبادات وأبواب المناجاة، ليس هناك شيء أسرع بالطلب مثل أن يشعر المسلم بالاضطرار والفقر والتعلق بمحض الرحمة الإلهية.

ونرى هذا الحال في دعاء المصطفى ﷺ في مواضع كثيرة، ونذكر منها مثلا غزوة بدر، حين رفع يديه ﷺ حتى سقط الرداء عن كتفيه وحتى رؤي بياض إبطيه، أي أنه رفع يديه عاليًا، قائلا: «اللهم أن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم» (صحيح مسلم) ورفع يديه ﷺ ودعا دعاء طويلا! هذا دعاء المضطر، هذا الذي يسرع إليك بالإجابة.

ثم يشرح الشيخ أحوالا أخرى مفيدة في الدعاء. قال: (ولا أسرع إليك بالمواهب مثل الذلة والافتقار)، أي أن تتذلل إلى الله عز وجل، وتحس بالفقر له. قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، قالوا: هذه تنطبق أيضًا على من يحس بالفقر ويطلب من الله تعالى العون، وهو تأويل بعيد، ولكن المعنى صحيح لأنه إذا كان الإنسان الفقير يحق عليك له الصدقة، فما بالك إذا أظهرت لله عز وجل فقرك وهو سبحانه وتعالى الكريم فإذا أظهرت له الفقر وأظهرت الذلة وأظهرت الخشوع فإن الله عز وجل يكرمك ويعطيك ما تسأل أو أفضل مما تسأل. وقوله: (ولا أسرع بالمواهب إليك)، لأن الله عز وجل هو الذي يمنحنا المواهب، دنيوية أو دينية، لكن الشيخ إنما يقصد المواهب الدينية بالأساس، كالحال القلبي والطاعات والقربات.

وصحيح أن للدعاء شروطا وفقها، وهي أن تتوجه إلى القبلة، وألا تدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ويستحب أن ترفع يديك عند الدعاء، وتبدأ بالحمد لله والصلاة على النبي ﷺ، وأفضل منه أن تتوسط وتختم بالصلاة على النبي كذلك، هذا من فقه الدعاء؛ ولكن الحال أبعد من الفقه، فهو يتعلق بالحال القلبي الذي هو أساس للدعاء وليس فقط من (المستحبات) وهو مقصود أيضا.

ومن إجابة الدعاء ما يكون في الآجل ويكون أفضل من العاجل، وفي حديث النبي ﷺ أن العبد يثاب يوم القيامة على دعاء لله لم يستجب، يقول ﷺ: (حتى يتمنى العبد أن لم يستجب له دعاء قط)، يعني: أن تتمنى يوم القيامة أن الله عز وجل لم يستجب لك أبدًا حين ترى أن الذي لم يجبه لك في الدنيا قد أخره لك يوم القيامة في صورة درجات هي أفضل من الدنيا وما فيها.

وحين لا يستجيب لك في الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى يحسن لك الاختيار. وهل عودك إلا حسن الاختيار؟ وهو الذي يقول عن نفسه سبحانه:

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾

(آل عمران: ٢٦)

أي أنه عز وجل دائمًا ما يحسن لنا. فإن دعوت بشيء ولم يستجب لك فاعلم أنه يختار لك الخير، ولا يختار لك الشر أبدًا. ولأنه ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، كما مر. وهذا العطاء يكون إما في هذه الدنيا أو في الآخرة. فلنترك الاختيار له سبحانه وتعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

(القصص: ٦٨)

ودائمًا ما يختار أفضل مما تختار، في العاجل والآجل.

«يتبع»

الوظائف التربوية والدعوية لمقاصد الأحكام الفقهية





د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75 gmail.com

الترشيد في مجال الدعوة الإسلامية:

من الوظائف العامة الهامة للمقاصد الجزئية أنها ترشد الدعوة الإسلامية، والحركة للإسلام، وتعمل - إلى حد كبير - على وحدة الأمة(١)؛ فضلاً عن العاملين في ساحة العمل الإسلامي، وتجعل جميع العاملين متفاهمين متفقين متعاونين، يعذر بعضهم بعضًا في الفروع ما كانت قائمة على أدلة معتبرة من الشرع.

وإذا كانت المقاصد عمومًا أدت دورًا مشكورًا ومقدورًا في ساحة الاجتهاد الفقهي المعاصر، تأصيلاً وتنزيلاً، فإننا ندعو إلى أن تلعب دورًا أكبر في التقريب بين الدعوات المعاصرة ومناهجها المتنوعة؛ إذ إن هذا الدور لم يأخذ مداه حتى الآن، ولم تصدر نداءات تدعو إلى تفعيل المقاصد في التقريب والتوحيد بين الدعاة إلى الله تعالى.

إن معرفة مقاصد الشريعة تظهر أهميتها كذلك في «ترتيب الأولويات بالنسبة للداعية في الدعوة إلى الله تعالى؛ فيقدم الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينيات، ويقدم ما فيه مصلحة عامة على ما فيه مصلحة خاصة، ويقدم الأهم على المهم، كما يحذر الناس من الضرر الأكثر خطورة قبل تحذيره لهم من الضرر الأقل

(١) راجع: تحقيق وحدة الأمة الإسلامية وفق المقاصد الشرعية. د. عبد الرحمن بن جميل بن عبد الرحمن. ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين: مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة. ١/ ٤٧٤-٤٨٧. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. كوالالمبور. (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م). وانظر أيضًا: مقاصد التشريع في القرآن الكريم ودورها في توحيد الأمة الإسلامية. د. إحسان موسى حسن الربيعي. نفس المصدر: ١/ ٤٨٨-٥٠٢.

خطورة، كما يخاطب كل أناس على حسب عقولهم، وبالخطاب الذي يناسب أفهامهم»(٢).

ولا يخفى أن معظم الخلاف بين العاملين للإسلام يكون في فروع الدين وجزئياته، أي في الأحكام الفقهية العملية، ولو تفقه هؤلاء بمقاصد الأحكام الفرعية، وعلموا أنه متى اتضح المقصد فلا بأس من تعدد الصور وتنوعها - لزالت إشكالات كبيرة، وتوفرت طاقات هائلة، ونقلنا معاركنا إلى ساحاتها الحقيقية.

وإذا كانت المقاصد تقرب بين الفقهاء، وتقلل مساحات الخلاف، فلا يستغرب أن يكون لها دور فاعل في تقليل الخلاف بين العاملين والدعاة، والقضاء على الشغب في ساحة العمل للإسلام، وكما قال ابن عاشور: «إن أعظم ما يهم المتفقهين إيجاد ثلة من المقاصد القطعية؛ ليجعلوها أصلاً يصار إليه في الفقه والجدل»(٣).

وسيظل العمل الإسلامي - رموزه وجماهيره - في محنة كبيرة ما لم تتدارك هذا الأمر بنشر ثقافة المقاصد، وتمكين الوعي المقاصدي بينهم؛ لأن هذا ضمانة كبيرة لسلامة البدن الإسلامي، واستعادة العافية للدعوة الإسلامية بكل شرائحها وفصائلها، وأرجى لأن يحقق العمل الإسلامي مقاصده، ويصل لغاياته.

التصحيح والمعيارية والتقييم

ومن أهم الوظائف التي تثمرها رعاية المقاصد وظائف التصحيح والمعيارية والتقييم والتقويم.. فالمعرفة بمقاصد الأحكام الفرعية العملية هو صلب الفقه والفهم والاستيعاب والوضوح، وهذا الفهم والوضوح هو الذي يمكن المكلف من كل ما سبق.

ولنضرب مثالاً في تصحيح المواقف وتقييمها وتقويمها بموقف هارون من موسى حين ترك القوم بعبدون العجل، ولنورد القصة كاملة من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٨-١٥١).

(٢) مقاصد الشريعة وأثرها في الإصلاح والتشريع ووحدة الأمة. د. عبد الله الزبير. ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين: مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة ١/ ٥٢٣. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. كوالالمبور. (١٤-١٦ رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م).
(٣) مقاصد الشريعة: ٣٧.

وقال - عز وجل - في مقام آخر موضحًا نهي هارون لهم عن اتخاذهم العجل، وأن ربهم الرحمن:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾

(طه: ٩٠-٩٤).

فانظر إلى نبي الله موسى - عليه السلام - حين علم وأتى ورأى قومه عاكفين على العجل يعبدونه من دون الله ماذا فعل؟ رجع غضبان أسفًا، ونهر قومه وعنفهم في الخطاب: «بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم؟»، ولم يكتف بذلك بل ألقى الألواح - وهي المقدسة التي فيها التوراة - وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه!!

وما ذلك إلا لأن موسى - عليه السلام - لم يعرف من هارون أهدافه ومقاصده من هذا الفعل، فلما شرح له هارون - عليه السلام - وجه فعله ومقصد تصرفه من أن القوم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، وبين له خشيته من أن يقول له موسى: «فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي» - حين وضح له هارون هذه المقاصد، وكشف له هذه الغايات «سكت عن موسى الغضب» وأخذ الألواح»، وقال:

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(الأعراف: ١٥١)

ومثال آخر من السنة النبوية، وهو حديث الأنصار والمهاجرين الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: «لما أعطى رسول الله - ﷺ - ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم: لقي رسول الله - ﷺ - قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. قال: فخرج سعد، فجمع الناس في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار. قال: فأتاهم رسول الله - ﷺ - فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله - ﷺ - في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله - ﷺ - وتفرقنا»(٤).

هذا مثال يبين مدى ما يمكن أن يصل إليه المسلم حين لا يعلم مقصد الحكم أو غاية التصرف، حتى وصل بالبعض الحال إلى أن يقول: «لقي رسول الله قومه»، وهي قالة قد تقدح في إيمان المسلم.

فلما جمعهم النبي ﷺ وبين لهم مقصد تصرفه، وهو أنه يتألف بالعطايا - وهي لعاعة من الدنيا - قومًا ليسلموا، ووكل الأنصار إلى إيمانهم بكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وطابت نفوسهم، ورضوا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا؛ فضلاً عن أن الطريقة التي اتبعها النبي ﷺ في هذا الموقف تعبر عن منهجية فريدة في التربية.

يقول د. الريسوني معلقًا على ذلك في سياق مقاصدي معبر: «فهؤلاء الأنصار الفضلاء الأخيار حين لم يدركوا مغزى ما فعله رسول الله استاءوا وتشوشوا، وحين بين لهم ﷺ مقاصده ومراميه انشرحوا ورضوا واطمأنوا، ولقد كان من الممكن أن يقال لهم: هذا حكم الله ورسوله، فارضوا به وسلموا تسليمًا، وليس لكم أن تتقدموا ولا أن تتكلموا، وهذا كلام صحيح لا غبار عليه، ولكن حين يكون معززًا ببيان المقاصد والحكم، ولا سيما في موارد الاستشكال والالتباس، يكون أصح وأتم، ويكون التصرف اللازم أنسب وأسلم»(٥).

إذن فمعرفة المقصد من الحكم أو الغاية من التصرف تصحح المواقف، وتعدل التصورات، وتطمئن النفوس، وتطيب الخواطر، وتقوم المسار، وتنزع فتيل الفتنة - والفتنة أشد وأكبر من القتل!! - وبغير معرفة المقصد ووضوحه يضل الإنسان، ويقع في مهاوي الهلاك، وأكل لحوم الناس، ويأخذ ما ليس له، ويترك ما هو له، بل يقترف ما قد يقدح في معتقده وإيمانه؛ فيضل ضلالاً بعيدًا.

وهذا يبين لنا أن استحضار المقصد قبل العمل وأثناءه وبعده يعد - بلا شك - معيارًا يقيس مدى صحة العمل من خطئه، ومدى نجاحه من فشله، ومدى ما حققه من إنجاز

(٤) مسند الإمام أحمد، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (١١٧٤٨)، ٣/٧٦، مؤسسة قرطبة، القاهرة. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٥) مدخل إلى مقاصد الشريعة: ١٨-١٩.

ونفع، كما أننا يمكن أن نقيم أعمالنا وممارساتنا وتصرفاتنا في ضوء المقصد منها، فالمقاصد عمومًا - والجزئية منها خصوصًا - تضبط السلوك وتقيمه، كما أنها تصححه وتقومه.

توسيع الوسائل وتجديدها

وهذه واحدة من أهم الوظائف التي تؤديها المقاصد الجزئية دعويًا، وفي غير مجال الدعوة كذلك، وهي أننا متى ظهر المقصد واتضح فلا يضيرنا بأي الوسائل أقمناه متى كانت الوسيلة مشروعة، غير عائدة على المقصد بالإبطال.

وهذه الوظيفة أو ذلك الأثر تصدق المقاصد فيه على مجالات لا حصر لها تتجاوز المجال الأصولي والفقهي إلى مجالات العلوم كافة، بل مجالات الحياة جميعًا، وكذلك تصدق وسائلها على المجالات نفسها، وليس الأمر محصورًا في الأصول، أو مقصورًا على الفقه والفتوى فحسب.

وهذا من مقومات صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وخلودها وعمومها، يقول ابن عاشور: «معنى صلوحية شريعة الإسلام لكل زمان أن تكون أحكامها كليات ومعاني مشتملة على حكم ومصالح صالحة لأن تتفرع منها أحكام مختلفة الصور متحدة المقصد»(٦).

وربما يختلف الأمر في العبادات عن غيرها، فوسائل العبادات لابد من الإتيان بها على وجهها كما شرعها الله تعالى، أما في غير العبادات فإن الأمر مختلف، فلا يكاد يوجد حكم فيها واضح المقصد إلا وتتعدد وتتنوع صوره ووسائله.

ولا يعني هذا أن الأمر في العبادات هكذا بإطلاق، وإنما هناك من وسائل العبادات ما يتنوع صوره أو وسائله.

وإذا كانت المقاصد ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، فإن الوسائل تمثل عنصر المرونة والتغير والسعة في الشريعة الإسلامية لاستيعاب المستجدات، واحتضان التطورات، وتحقيق الغايات.

وأحوج من يحتاج فقه الوسائل هم الدعاة إلى الله تعالى؛ إذ إن الدعوة مجال خصب ورحب، ويحتاج إلى مرونة في المواقف والوسائل، وإلى سعة أفق، وبخاصة في عصرنا الذي أصبحت سمته التعقيد والتضييق والتشابك.

ولقد سلك سيدنا نوح - عليه السلام - وسائل متعددة ومتنوعة لتحقيق مقصده وهو تبليغ الرسالة مع عناد قومه وإصرارهم على رفض الدعوة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥)
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ٥-١٢).

ونحن نعلم من سيرة النبي ﷺ من تنوع الوسائل وتعددها وتجددها وسعتها ما لا نعلمه عن نبي مع قومه، ولا رسول مع رسالته، والمطالع لسيرته الشريفة لا يخطئه هذا المعنى في مراحلها جميعًا(٧).

ولا تقل حاجة الفقه عن حاجة الدعوة في هذا المعنى، وبخاصة في مجال السياسة الشرعية(٨) الذي يحكمه «فقه المصالح والمفاسد»، بما يحقق مقاصد الشريعة ومصالح الناس، وفي ظل هذا الفقه تتجلى البراعة في استخدام الوسائل وتنوعها وتجددها لتحقيق الأهداف والغايات، وليس هناك باب أرحب في الفقه الإسلامي من باب السياسة الشرعية لابتنائه وقيامه على فقه المصالح والمفاسد، وسعة منطقة العفو فيه.

فلو ضربنا مثلا في هذا السياق باختيار الحاكم، فليس بالضرورة أن يتم اختياره كما تم اختيار الخليفة الأول أبي بكر - رضي الله عنه - في سقيفة بني ساعدة، ولكن يمكن أن يتعدد ويتنوع شكل اختيار الحاكم كالأشكال التي نراها في عصرنا من خلال صناديق الاقتراع، والمهم في هذا أن تتحقق الشورى، وأن يختار الناس حكامهم بكامل إرادتهم وتمام حريتهم؛ ليكون الاختيار صحيحًا تترتب عليه آثاره، وتتحقق به مقتضياته.

ولا مانع كذلك من تعدد وتنوع شكل الحكم نفسه، كما يتنوع ويتعدد في بلاد الغرب، المهم أن يتحقق المقصد من قيام الحكام والحكومات، وهو حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

وإذا كانت المقاصد تعمل على تجديد الوسائل وتنويعها؛ فإنها أيضًا تفيد في اختيار أنسب الوسائل لتحقيق مقصود الشرع، كما تعمل على هدايتنا للواجب منها والمندوب والمباح؛ نظرًا لأن للوسائل حكم المقاصد.

وهكذا فإننا نجد أن وضوح المقصد ووجوده وظهوره يعود على الوسائل بالمرونة والتجدد والتنوع، ويعمل على اختيار أنسبها وأصلحها، وأوفقها حكمًا للمقصود، وفي هذا من العمل على سعة الفقه الإسلامي ومرونته واستيعابه ما لا يمكن معه أن تند حادثة من مستجدات العصور بعيدًا عن مظلة الشريعة.

تبين لنا من خلال هذا الفصل الأهمية البالغة لمقاصد الأحكام الجزئية، وأن وظائفها متنوعة ومتعددة، وأن الآثار المترتبة على العمل بها كثيرة، وربما لو دققنا النظر وأمعنا الفكر لاستخرجنا

(٦) مقاصد الشريعة، ٩٢، طبعة دار السلام.

(٧) راجع في هذا المعنى: الفكر المقاصدي للريسوني ١٠٩، وقد ضرب مثالاً على الوسائل بالديموقراطية.

(٨) انظر: دور مقاصد الشريعة في السياسة الشرعية منهجًا وممارسة، رحيمة بن حمو مخبر الدراسات الشرعية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، العدد الرابع ٢/ ٦٠٠-٦١٥، صفر ١٤٢٦هـ/مارس ٢٠٠٥م، وانظر: دور الاجتهاد المقاصدي في السياسة الشرعية، د. أم نائل بركاني، ضمن الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين: مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة ٢/ ٤٧٤-٤٨٧، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، (١٤-١٦) رجب ١٤٢٧هـ - ٨-١٠ أغسطس ٢٠٠٦م، وعلاقة مقاصد الشريعة بعلم السياسة الشرعية، د. خالد بن إبراهيم بن محمد الحصين، نفس المرجع.

وظائـف أخرى متنوعـة غير مـا أوردناه، تتوزعها المجـالات المختلفـة، التربوية والاجتماعيـة والدعويـة والسياسـية والقانونية، وغيرها من المجالات؛ فضلا عن مجال الأصول والفقه، ولعل فيما سبق ما يعطى الطريقـة والمنهجية التي يمكن أن نستنبط بها وظائف أخرى، والله أعلم.

الخاتمة

إن الشـريعة الإسـلامية وأحكامهـا وتشـريعاتها لن تسـتطيع أن نفقهها حق الفقـه، ونفهمها حق الفهم، ونسـتوعب طبيعتها حق الاستيعاب، إلا إذا وقفنا على أسرارها ومقاصدها وغاياتها التى شرعت من أجل تحقيقها فى واقع الحياة.

ويعـد الفقه بمقاصد الأحـكام الفقهية فى ضوء مقاصدها أهم خطوة لتنزيل تلك الأحـكام فى الواقـع بما يحقـق مصلحته ويوفـى متطلباتـه حـق الوفـاء، وبمـا لا يتعارض مـع أصـول الشـريعة ومقرراتها العامـة ومقاصدهـا العاليـة، وبـدون هذا الفقـه سـتند كثيـر من المسـتجدات عن مظلة الشـريعة الإسـلامية، ونوقع أنفسنا وشـريعتنا فـى تناقضات عجيبـة، وهذا - بحد ذاته - مناقض لمقصـد الله تعالى من وضع الشريعة.

وقـد ظهر من هـذه الدراسـة أن التمثل بأحكام الإسـلام وفـق مقاصدها له فوائده وعوائده على الفرد والمجتمع.

فمـن ناحيـة الفرد يسـهم فـى الإتيان بالأحكام على وجهيهـا الصحيح، ويعمل على سـلامة تطبيقها وإحسـانه، كما أنه يجعـل المؤمن أكثـر اطمئنانـا، ويجعله يقبل على العمل بحب وشوق؛ إذ الإسلام يقـوم عليهمـا، ويزيل أى حـرج من قلب المؤمـن، وفى هذا ما فيه من زيادة الإيمان بربانية الشـريعة، وصلاحيتها الحضارية لقيادة الحياة.

ومن ناحية المجتمع فإنه يرشد حركته وعبادته، ويعزز مـن صحة تدينه، ويجدد حياتـه، ويجعلـه أكثر قدرة على معايشة واقعـه؛ يفعل فيـه فعله وينفعـل به، كما أن تحكيم مقاصد الأحكام يسـهم بشكل فاعل فـى تقييم وتقويـم العمل وتوجيهه الوجهة الصحيحة الرشـيدة، ويقوم بدور فعـال فى رد الشـبهات، وهو أمـر نحتاج إليه بشـدة فى عصرنا فى ظـل الفضاءات الإعلامية الواسـعة والمتقاربة والمفتوحة، كما أن تمثل هذا الفكر يمنحنا مرونة فى التنقل بين الوسـائل المشـروعة لتحقيق الهدف المنشود.

إن لمقاصـد الأحـكام الفقهية وظائف وفوائـد وأدوارًا تتخطـى مجـال العلوم الشـرعية مـن فقه وأصول وفتـوى ودعوة وتربيـة وغيرهـا إلـى مجـالات أوسـع وأعمق، وآفاق أرحب وأشـمل، وإذا نحن حكمنـا هـذا الفكـر فى تلـك المجالات الرحيبـة والعميقة فلا ريب أن هذه العلوم وتلـك المجـالات سـتتجدد وسـتتطور، وتقوم بأداء وظائفها المنوطة بها، وتحقق أهدافهـا المرصـودة؛ فتنتعـش الحيـاة الفكرية، ويترشـد تفكير الإنسانية؛ رقيًا فى الخلق، وسـموًا فى السلوك، وحضارة فى البناء والعمارة.

دور الوقف فى نهضة الأمة



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن الناظر إلى جهود سلف هذه الأمة فى المحافظة على نهوضها وعلى تقدمها، وفى حمايتها من عاديات الزمن، يرى أنهم كانوا يتسابقون على صنائع المعروف اقتداء برسولهم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، حيث كان يصل الرحم ويحمل الكَلّ ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الزمن، كما جاء فى الحديث الصحيح فى الموقف الأول الذى صافح الوحى الإلهى فيه قلبه الشريف بأول آية فى كتاب الله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

(العلق: ١)

وعندما عـاد إلى السـيدة خديجة رضى الله عنهـا وأخبرهـا الخبر قائـلاً: زملونى، زملونى، لقد خشـيت على نفسى، فأجابته السـيدة خديجة - رضى الله عنها - من أول وهلة قائلـة: كلا والله لا يخزيـك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسـب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق.

ولطالما حث رسـول الله ﷺ المسلمين علـى صنائـع المعـروف ومـن أهمهـا: «الوقف» سـواء كان وقفًـا لعقار من الأرض أو حديقة مثلاً أو نحو ذلك من الزروع التى ينتفـع النـاس بها، كما فـى قوله ﷺ: «ما من مسـلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منـه طير أو إنسـان أو بهيمـة إلا كان له به صدقة».

وفـى روايـة للحديـث: «إلا كان لـه بـه صدقة إلى يوم القيامة».

وكان سـلف هذه الأمة يسألون رسولهم ﷺ عـن أفضل الطاعات وأعظـم القربات التى يتقربون بها إلى الله سـبحانه وتعالى، وكان رسـول الله ﷺ يجيب كل سائل بما يليق بالحال والزمان والمكان.

وكان يحثهـم على التعـاون فيما بينهم ويقـول: «مثـل المؤمنيـن فـى توادهـم وتراحمهـم وتعاطفهـم كمثـل الجسـد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

وقـد أمر القـرآن الكريـم بالتعاون على البر والتقوى، حيث قال الله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

(المائدة: ٢)

ومن أهم مجالات التعاون «الوقف» الذى كان يحرص المسلمون عليه، فيقفون كثيرا من أموالهم وعقاراتهم على الفقراء والمساكين، والمرضى والمحتاجين ويقفون الأوقاف على المساجد وطلاب العلم وأهل القرآن، إلى غير ذلك من وجوه الوقف التى تنتفع بها المجتمعات والأفراد.

وكان الوقف يمثل مصدرًا مهمًا من مصادر المجتمع فى إعانة المرضى والمحتاجين، وفى حل كثير من مشكلات المجتمع.

إلا أن الملاحظ فى هذه العصور الأخيرة أن الوقف قل عن ذى قبل، وتراجع بشكل غريب، مع أن المجتمعات الآن فى أمس الحاجة إليه أكثر من أى وقت مضى، خاصة بعد أن تكاثرت البشرية، وتكاثرت معها المشكلات والأمراض والجهل والأمية والفقر والغلاء والبطالة، وأطلت مشكلات الفقر والجهل والمرض وغير ذلك بشكل ملحوظ يستوجب علينا أن ندعو إلى تنشيط الوقف وأن ننادى أصحاب الأموال ورجال الأعمال إلى بذل أقصى ما فى الوسع للنهوض بالوقف والإقبال عليه وتنمية موارده، وتطوير آلياته واستخداماته، ليصبح أمانًا لكل قطاعات الحياة.

والوقف شعيرة من شعائر الإسلام تنهض بالتكافل الاجتماعى ومساعدة المحتاجين، وبذل المال الذى جعلنا الله تعالى خلفاء عليه، حيث قال سبحانه:

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾

(الحديد: ٧)

فنحن خلفاء على المال استخلفنا الله عليه لصرفه فى الوجوه المشروعة ونؤتى المحتاجين منه؛ لأنه مال الله آتانا إياه كما قال الله تعالى:

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

(النور: ٣٣)

وقد أوقف رسول الله ﷺ الأرض التى عنده قبل وفاته، وأمر سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى أرضه بخيبر أن يحبسها، أى يوقفها عندما سأله عمر عن ذلك.

وترى خالد بن الوليد احتبس أسلحته وأدراعه وأعتاده فى سبيل الله، ولقد عرفت أمة الإسلام الوقف من تعاليم دينها ورأت فيه تطبيقًا عمليًا للتكافل الاجتماعى والتعاون على البر والتقوى.

و«الوقف»: هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعتها. وعند الشافعية والحنابلة يعرفون «الوقف» بأنه «حبس الأصل وتسبيل المنافع».

ولأهمية «الوقف» فى الإسلام عرفت الأمة عبر عصورها منزلته حتى إنها أطلقت اسمه على المؤسسة الدينية، بل أطلقت باسمه اسم وزارات فى كثير من بلاد الإسلام وهى: وزارات الأوقاف، لكون الحرص البالغ على تنفيذ مال الوقف وعلى إدارته على أكمل وجه.

و«الوقف»: داخل فى عموم الأمر بالتعاون على البر والتقوى فى قول الله

تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

(المائدة: ٢)

وفى قول رسول الله ﷺ: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم.

وأيضا حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: أصاب عمر بخيبر أرضًا، فأتى النبى ﷺ فقال: أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرنى به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»، فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب ولا يورث، فى الفقراء والقربى والرقاب وفى سبيل الله والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقًا غير متمول فيه» رواه البخارى ومسلم.

ولقد سارع الصحابة إلى الوقف، كما صنع خالد بن الوليد، حيث أوقف أدراعه وأعتاده فى سبيل الله، والأعتاد: هى ما يعده الرجل من المركوب والسلاح وآلة الجهاد.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، قيل: منع ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعباس عم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا، قد احتبس أدراعه وأعتاده فى سبيل الله، وأما العباس فهى علىّ ومثلها معها» رواه البخارى ومسلم.

قال النووى رحمه الله: وفيه دليل على صحة وقف المنقول وبه قالت الأمة بأسرها إلا أبا حنيفة وبعض الكوفيين.

ومما يدل على وقف المنقول والحيوان كالفرس والجمل ونحو ذلك ما روى عن أم معقل جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يارسول الله: إن أبا معقل جعل ناضحه فى سبيل الله وإنى أريد الحج أفأركبه؟ فقال رسول الله ﷺ: اركبيه، فإن الحج والعمرة فى سبيل الله».

وللوقف دوره فى نهضة الأمة، حيث يعمل على تنمية مشروعات الخير التى تدعم رسالة العلم والتعليم وتصون الفقراء والمحتاجين، وترعى المرضى والمعاقين وتنشئ مؤسسات الخير وصنائع المعروف، وتواجه مشكلات الجهل والفقر والمرض، ومن أجل ذلك فإننا نناشد أهل الخير ورجال الأعمال ألا يهملوا مشروعات الوقف فحسبهم أن الذى يقفونه هو صدقة يجرى ثوابها لهم إلى يوم القيامة، وبالله التوفيق.

ooo

علي الغاياتي.. شاعر الإسلام والوطنية



بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود

-٤-

بدأت قصة محاكمة الديوان المثير حين قدم الشيخ علي الغاياتي نسخة هدية منه إلى الشيخ «علي يوسف» (١٨٦٣-١٩١٣م) رئيس حزب «الإصلاح على المبادئ الدستورية»، وكان بينه وبين الحزب الوطني بزعامة «محمد فريد» خلافات سياسية، وكان الشيخ «يوسف» على ولائه للخديوي، أما «محمد فريد» فقد نبذ الخديوي، ونحاه، فوجد «علي يوسف» في ديوان «الغاياتي» فرصة ذهبية للانتقام من الحزب الوطني ومحمد فريد، فكتب مقالا مطولا في «المؤيد» بتاريخ ٤ / ٧ / ١٩١٠م، هاجم فيه ديوان «وطنيتي»، كان بمثابة عريضة اتهام يقدمها للنائب العام ضد الشاعر الوطني لا مقالا أدبيا يعرض الفن الشعري أو يقرظ الديوان، ومما جاء في هذا المقال العريض ما ذكره علي يوسف من قول الشاعر:

يا ليت شعري هل رأيت كما أرى
أن (المؤيد) معهد الهفوات
فنشرت فيه ما نشرت وإنما
هي زلة من أكبر الزلات

«فاستوقفني هذا السباب الموجه إلى المؤيد هنيهة، وقلت لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه لي هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب كما فعل شاعر آخر له وطنيات لا تقل عن وطنية هذا الشيخ» ثم يستعيذ علي يوسف من قانون المطبوعات والقوانين ويقتبس بعضا من شعره الذي ينال من الخديوي عباس والاحتلال والحكومة، وكأن استعاذته من قانون المطبوعات والقوانين الجديدة المقيدة للحريات تذكير لمن بيدهم الأمر أن يطبقوها على الشاعر الغاياتي.

ومن الأبيات التي ذكرها علي يوسف للتحريض وفيها ذكر للخديوي وغورست:

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتاب

رويدك يا عباس لا تبلغ المدى
ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغي (غورست) إلا مكيدة
تحول أقلام السلام حرابا..
وها قد رمى حرية القول رمية
بسهمك تجني للبلاد خرابا

ومنها:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة
ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضي علينا بإثمها
ولكن ستلقى دون ذاك أثاما
وزارة خداه أقامته بيننا
يد الحاكمين الآثمين فقاما

وقد استجابت سلطات الاحتلال الإنجليزية والخديوي والحكومة للتحريض السافر، وبدأت المحاكمة (راجع: مختار الوكيل، خمسة من شعراء الوطنية، ص ٣٠٢ - ٣٠٤، وأنور الجندي، عبد العزيز جاويش، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة أعلام العرب ٤٤، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٩٨ وما بعدها).

وبعد وقت قصير تمت مصادرة جميع نسخ الديوان، وكان قد طبع منه ألفي نسخة، بيع منهم ستمائة وألف، وكان ثمن النسخة قرشين، فارتفع إلى جنيه، وبتاريخ ١٠ / ٧ / ١٩١٠م، وقام القائم مقام (عقيد) «عطوفة محمد سعيد باشا» بنشر صورة الشيخ «علي الغاياتي» على رجال البوليس السري لتساعدهم في البحث عنه وضبطه.

وعلم «الغاياتي» بالأمر بالقبض عليه، فقصد أناسا استدان منهم مالا للسفر، وقال لأهل المنزل: «قولوا للحكومة إذا سألت عني إنني قصدت دمياط»، بينما ركب القطار إلى الأسكندرية، وهرب على النحو الذي سبقت الإشارة إليه إلى الآستانة ومن ثم إلى جنيف.

لقد صدر الحكم يوم ٦ / ٨ / ١٩١٠م بمعاقبة الشيخ «الغاياتي» غيابيًا بالحبس لمدة سنة مع الشغل، وبراءته من تهمة التحريض على القتل، ومعاقبة الشيخ «جاويش» بالحبس لمدة ثلاثة أشهر حبسًا بسيطًا، والباقين بالحبس لمدة شهرين مع إيقاف التنفيذ.

ثم تم استدعاء «محمد فريد» بعد عودته من أوروبا في الرابع من يناير ١٩١١م، وحقق معه «توفيق نسيم» (١٨٧١-١٩٢٩م) رئيس وزراء مصر فيما بعد، وقال «فريد» للمحكمة: إنه كتب المقالة التي وضعت في كتاب «وطنيتي» وسافر بعدها إلى أوربا في ٥ / ٥ / ١٩١٠م، وحكمت المحكمة بحبسه ستة أشهر مع النفاذ، وقد أرسل إليه الخديوي في سجنه يعرض عليه الإفراج مقابل تعهده بعدم مهاجمة الإنجليز فأبى، حيث أدرك وقتها أن القضية ليست قضية شعر ديوان «وطنيتي»، أو تقدمته له، وإنما الغرض تدمير الحزب الوطني وإسكاته عن مقاومة الإنجليز.

سقط الحكم بالحبس الصادر ضد «الغاياتي» بمضي المدة، فحضر إلى مصر في عام ١٩١٥م ليتابع أخبار الحرب العالمية في منطقة السويس، لكن رئيس الوزراء «حسين رشدي» (١٨٦٣-١٩٢٨م) ارتاب في تصرفاته، واعتقل «الغاياتي» في سجن محرم بك، لعدة أيام، وقرر الإفراج عنه وركب السفينة وتوجه عائدًا إلى جنيف، ليستقر هناك وينشئ جريدته «منبر الشرق».

***

كانت الطبعة الأولى من ديوان «وطنيتي»

عام ١٩١٠م وجاءت الطبعة الثانية عام ١٩٣٨م عقب عودة الغاياتي إلى مصر من جنيف، والطبعة الثالثة كانت عام ١٩٤٧م، أما الطبعة الرابعة التي بين أيدينا فكانت عام ٢٠١٠م، وقام بنشرها أحمد حسين الطماوي، وصدرها بدراسة حول الديوان وظروف نشره ومحاكمة صاحبه وموقفه من الحزب الوطني وقيمة شعره. كما أشار إلى القصائد التي كتبها الغاياتي بعد «وطنيتي» وكان ينوي نشرها عقب عودته من جنيف في ديوان جديد تحت عنوان «هجرتي»، وألحق الطماوي عددا منها مرتبا حسب تاريخ النشر.

كما يتعرض لتحولات الغاياتي بالنسبة للقضية الوطنية؛ فيراه قد بدأ في «وطنيتي» متحمسا للقضية الوطنية وشجاعا في الدفاع عنها نظرا لامتلاكه عاطفة جياشة ممتلئة بحب الوطن لكنه بعد هروبه إلى الخارج وجد نفسه في مكان غير المكان، وتراكمت عليه الهموم والأحزان مما أثر على شخصيته فبدأ يغير من مبادئه من أجل الحصول على لقمة العيش، وقد أحس في نفسه أن قادة الحزب الوطني قد غرروا به فراح يكيل لهم الهجاء، وفي المقابل راح يمدح الخديو عباس في قصيدة نشرها عام ١٩١٢م تحمل عنوان «عيد الكنانة» يقول في مطلعها:

مولاي عيدك للكنانة عيد
يحلو به للصادح التغريد
الله حسبك أيها المولى الذى
تعتز مصر بملكه وتسود
أعيادك الفيحاء غر مواسم
تتجدد الآمال حين تعود

وكان «الغاياتي» قد نشر في ديوانه «وطنيتي» قصيدة ملتهبة يهجو سياسات الخديو عباس، يقول فيها:

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن تكون أذلة
تنال إذا رمنا الحياة عقابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا أن تكون غضابا

كما نظم قصيدة يهجو فيها قادة الحزب الوطني الذين كان يمدحهم ويرى فيهم رسل التحرير والاستقلال، فيصفهم بالقرود، وينفي عنهم الوطنية والانتماء لمصر:

أبصرت بعد فراقهم - أن البلاد
تكاد مما يجرمون تميد
إن الحوادث أنبأتني أنكم
وإن اعتزيتم للرجال قرود
ترجون تحرير البلاد وأنتمو
حرب على الإصلاح وهو وليد
لستم بني مصر ولكن عصبة
وجودكم أيام مصر سود

ويذهب «الطماوي» إلى أن مواقف الغاياتي تجاه الحزب الوطني وزعمائه تبدلت في هجرته، واختلفت معاييره، فبعد أن كان يجافي الحكام، صار يتقرب منهم ويهفو إليهم طلبا للعفو والبر، راجيا أن يقبلوا اعتذاره، ولم يلتفت إليه أحد، فكأنه تنازل عن مواقفه السابقة دون مقابل ولهذا فقد أدرك الشيخ الغاياتي مدى الضرر الذى لحق به، جراء نشر هذه القصيدة، فلم يأت على ذكرها ولو لمحا وهو يسرد ذكرياته عام ١٩٥٢م وحمد الله على نسيان الناس لها، إذ كان قد مضى على نشرها حوالي أربعين عاما، ولكن الطماوي أعاد نشر القصيدة كاملة في طبعته الرابعة لديوان «وطنيتي» بعد أن نشرها الغاياتي أول مرة عام ١٩١٢م.

ومهما يكن من أمر، فعلينا أن نضع في الحسبان أن الغاياتي شاعر مرهف الحس والشعور، وكان يتصور وهو في غربته واضطرابه؛ أن يتركز الاهتمام به من جانب الحزب الوطني الذى منحه شبابه وضحى من أجله، ولكن أحوال البلاد شغلت الحزب والأصدقاء، وكان الخديو في كل الظروف هو حاكم البلاد الذى يختلف الناس حوله، فيرضون عنه أحيانا ويختلفون معه في أحيان أخرى، وكانت هناك مصالحات ومخاصمات تنبئ عن تحولات دائمة، ولكنها مألوفة، ويبقى أن الغاياتي كان في بداياته وخواتيمه وطنيا مخلصا، وإن اجتهد أحيانا في مواقفه بالخطأ أو الصواب، فشعره يدل على إخلاصه وحماسته وحبه لدينه ووطنه وشعبه، وهو ما نرى ملامحه من خلال أبياته التي كان فيها صدى لحركة الشعب المصرى ومرآة لهمومه وآماله.

إن الشعر عند الغاياتي - كما يقول مختار الوكيل - قد جعل همه الأول وهدفه الأصيل إحياء الهمم وإشعال النفوس وإيقاظ العزائم، فهو شعر (هادف) بأقوى وأصدق ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معنى (خمسة من شعراء الوطنية، ص ٣٣٠).

لقد تأسى الغاياتي في قصائده بالضابط الفرنسي (روجيه دى ليل) الذى هز ضمير الأمة الفرنسية بنشيده الشهير المارسيليز، الذى خصه باهتمام كبير تعريفا وترجمة في مقدمة ديوانه «وطنيتي»، وقد اشتهر دى ليل أكثر من عباقرة شعراء فرنسا على قلة ما نظمه من الشعر! يشير الغاياتي في مقدمة الديوان إلى أن رئيس الحزب الوطني أشار إلى المارسيليز في كلمته، ولما رأى أن يتبعه بذكر أنشودتين جميلتين ومنظومتين وطنيتين، أولاهما تلقن للأطفال بفرنسا والأخرى تهيج الشجون وتجرى الشئون وتحبب إلى النفوس الجهاد حتى الممات في سبيل الوطن المفدى وهي لرجل فرنسا وشاعرها الكبير «فيكتور هوجو» ليكون ذلك نموذجا يراه شعراؤنا فينسجون على منواله ويربون الأمة من أطفالها إلى كهولها على حب الوطن وتمجيد الوطنيين بجميل أشعارهم وبديع أناشيدهم.

وقبل أن يورد ترجمة للمارسيليز يقدم كلمة مسهبة عن الصراع الذى دار في فرنسا وعليها في أواخر القرن الثامن عشر على عهد لويس السادس عشر، ثم يقدم الترجمة عقب إيراد النص الفرنسي، وفي ختام النشيد تعبير واضح عن حب الوطن والحرية وضرورة النصر على الأعداء:

«أي - يا حب الوطن المقدس اشدد أزرنا وقو سواعدنا المنتقمة.

أيتها الحرية، أيتها الحرية العزيزة، حاربي مع المدافعين عنك.

وليسارع النصر تحت أعلامنا إلى إجابة ندائك العالي وصوتك القوى.

ولينظر أعداؤنا المندحرون انتصارك ومجدنا العظيم».

ويشير مختار الوكيل إلى نقطة مهمة تتعلق بالغاياتي، وهي أنه كان في عنفوان الشباب، ينظم القصيد من حبات قلبه فيصدر صادقا صريحا، معربا أصدق إعراب عن صراحته واستواء خلقه وطباعه، وكان الشعر حينذاك يلقى في المحافل العامة، والشاعر المجيد هو ذلك الذى يستطيع التأثير بإلقائه الفصيح وصوته القوى الجهورى وسمته وبزته وشخصيته جميعا (السابق، ص٣٢٩).

طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

متى يكون العبد محبًا لخالقه؟!

من كلام ابن زهرة الأندلسي: لا يكون العبد محبًا لخالقه حتى يبذل نفسه في مرضاته سرًا وعلانية؛ فيعلم الله من قلبه أنه لا يريده إلاه؛ وسئل ما علامة العارف؟ فقال: عدم الفتور عن ذكره، وعدم الملال من حقه وعدم الأنس بغيره، وقال: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، ولكن العجب من حبك لي وأنت ملك قدير.

لو أحببته.. لما عصيته

دخل هارون على بعض النساك فسلم على أحدهم، فقال: وعليك السلام أيها الملك: أتحب الله؟ قال: نعم، قال: فتعصيه؟ قال: نعم، قال: كذبت والله في حبك إياه، إنك لو أحببته لما عصيته.

ثم أنشد يقول:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة
منه وأنت لشكر ذاك مضيع

لا تحجب عني أحدًا

قال بعض الأكاسرة لحاجبه: لا تحجب عني أحدًا إذا أخذت مجلسي؛ فإن الوالي لا يحجب إلا من ثلاث: عيّ يكره أن يطلع عليه، أو بخل فيكره أن يدخل إليه من يسأله، أو ريبة.

من حسن الأدب

أخي: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تسرع في القول فيما يجب عنه الرجوع بالفعل، قالوا: من حسن الأدب أن لا تغالب أحدًا على كلامه، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه، وإذا حدث بحديث فلا تنازعه إياه، ولا تقتحم عليه فيه، ولا تره أنك تعلمه.

يقال إن هشامًا كتب إلى ملك الروم: من هشام أمير المؤمنين إلى الملك الطاغية، فكتب إليه ما ظننت أن الملوك تسب، وما الذى يؤمنك أن أجيبك: من ملك الروم إلى الملك المذموم.

واعتصموا

يقول الله واعتصموا بحبلي
تفوزوا بالسلام وبالوئام
أبينا ما يريد لنا وهمنا
وربي بالتفرق والخصام
يقاتل بعضنا بعضًا وتمضي
تكيد لبعضنا كيد اللئام
فراعينا لنا نأبى سلامًا
لنا ونهيم بالموت الزؤام

حقيقة

إذا كان الطباع طباع سوء
فلا أدب يفيد ولا أديب

أسباب القبض

قال الصوفي والعارف بالله الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ وهو علي بن عبدالله بن عبدالجبار، شيخ الطريقة الشاذلية المتوفى عام ٦٥٦هـ:

أسباب القبض ـ أي انقباض النفس أو غمها أو حزنها ـ ثلاثة: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو شخص يؤذيك في نفسك أو عرضك..

فإن كنت أذنبت، فاستغفر، وإن كنت ذهبت عنك الدنيا، فارجع إلى ربك.. وإن كنت ظلمت، فاصبر واحتمل هذا دواؤك.. وإن لم يطلعك الله ـ تعالى ـ على سبب القبض، فاسكن تحت جريان الأقدار، فإنها سحابة سائرة.

أخبرنا عن هؤلاء؟

سئل عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

فقال: كان والله خيرًا كله مع الحدة التي كانت فيه.

قالوا: فأخبرنا عن عمر ـ رضوان الله عليه ـ.

قال: كان والله كالطير الحذر الذي نصب له فخ، فهو يخاف أن يقع فيه.

قالوا: فأخبرنا عن عثمان ـ رضوان الله عليه ـ.

فقال: كان والله صوامًا قوامًا.

قالوا: فأخبرنا عن علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ.

قال: كان والله مما حوى علمًا وحلمًا؛ حسبك من رجل أعزته سابقته وقدمته قرابته من رسول الله ﷺ، فقلما أشرف على شيء إلا ناله.

بين خليفة وإمام

كتب الخليفة إلى الإمام جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: لم لا تغشانا كما تغشانا الناس؟!.

فأجابه: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه.. ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له.. ولا أنت في نعمة فنهنئك بها.. ولا تعدها نقمة فنعزيك لها.

فكتب الخليفة إليه:

تصحبنا لتنصحنا..

فكتب إليه الإمام

من يطلب الدنيا لا ينصحك.. ومن يطلب الآخرة لا يصحبك.

ثلاثة أبيات بثلاثمائة ألف

كان معاوية بن أبي سفيان جالسًا يومًا وعنده جمع من الناس فقال لهم: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت قائم بمعناه، فسكتوا، ثم دخل عليهم عبدالله بن الزبير بن العوام فقال معاوية: هذا مقوال العرب وعلامتها، فقال عبدالله: ماذا تريد؟ قال معاوية: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت قائم بمعناه، قال: بثلاثمائة ألف! قال: وتساوي؟! قال: أنت بالخيار، قال: هات، فأنشده للأفوه الأودي:

بلوت الناس قرنًا بعد قرن
فلم أر غير ختال وقال

قال معاوية: صدق ثم ماذا؟

قال:

ولم أر في الخطوب أشد وقعًا
وأصعب من معاداة الرجال

قال معاوية: صدق ثم ماذا؟

قال:

وذقت مرارة الأشياء طرا
فما طعم أمر من السؤال

قال معاوية: صدق، ثم أمر له بثلاثمائة ألف!!

حقا

فلو أنا إذا متنا تركنا
لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا
لنسأل بعدها عن كل شيء

دعاء

اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة وآلائك الجسيمة، حيث أنزلت علينا خير كتبك، وأرسلت إلينا أفضل رسلك، وشرعت لنا أفضل شرائع دينك، وجعلتنا خير أمة أخرجت للناس، تقبل منا يا من تتقبل من المتقين.

تأملات فى السيرة

غزوة بنى المصطلق ٣

فتن ابن سلول تتوالى

لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

كان الأقدار هيأت لابن سلول ومن على شاكلته وأتاحت لهم فرصًا مواتية اهتبلوها بذكاء شيطانى وحقد دفين ليزعزعوا بها ويقطعوا أوصال جيش المسلمين فمن ذلك أن ناقة رسول الله ﷺ ضلّت، فاتخذ أصحاب ابن سلول هذه الواقعة ذريعة للنيل من رسول الله ﷺ وإشاعة الفتنة بين أصحابه وذلك أنهم توهّموا أن الرسول - أيّ رسول - لا بد أن يعلم من أمور الناس كل شيء وإلا فهو لا يكون رسولاً، وإن كنا نعتقد أن الرسول يعلم حقًا من أمور الناس كل شيء لكنّ ذلك لا يكون أمرًا ذا بالا إلا إذا كان له شأن أو داع فى أمور الدعوة - يروى ابن اسحاق والبيهقى وعروة أن محمد بن عمر عن ابن رومان وعاصم بن عمر قالوا: فُقدتْ ناقة رسول الله ﷺ (القصواء) وجعل المسلمون يطلبونها فى كل وجه فقال زيد بن اللُّصَيْت - وكان منافقًا - وهو فى جماعة من الأنصار منهم عبّاد بن بشر وأسيد بن حُضير، قال ساخرًا مستهزئًا يزرع الشك فى نفوس أصحاب رسول الله ﷺ: أين يذهب هؤلاء فى كل وجه؟ فردوا عليه: يطلبون ناقة رسول الله ﷺ قد ضلت، قال مستهزءًا مستنكرًا: أفلا يخبره الله بمكانها؟ فأنكر عليه القوم فقالوا: قاتلك الله، يا عدو الله، نافقت. ثم أقبل عليه أسيد بن حضير فقال: والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق رسول الله ﷺ لأنفذت خصيتك بالرمح يا عدو الله. فلم خرجت معنا وهذا فى نفسك؟ قال فى وقاحة شديدة واعتراف مريب: خرجت لأطلب من عرض الدنيا، ثم قال كأنه يزرع الشك فى نفوس الأصحاب: إن محمدا يخبرنا بأعظم من شأن الناقة يخبرنا عن أمر السماء، ووقعوا به جميعًا - أى هاجموه وكادوا يضربوه - وقالوا: والله لا يكون منك سبيل أبدًا ولا يظلنا وإياك ظل أبدًا ولو علمنا ما فى نفسك ما صحبتنا ساعة من نهار، فخرج هاربًا منهم خشية أن يقعوا به، ونبذوا متاعه.

أيها القارئ الكريم، ماذا تتصور أن يفعل؟ لعلك تقول أن الرجل هرب من القوم يطلب النجاة لكنه بمكر ودهاء شديدين عمد إلى رسول الله ﷺ يلوذ به فجلس معه فرارًا من أصحابه متعوذًا به لكن خاب ظنه وفشل مسعاه فقد جاء رسول الله ﷺ خبر ما قال من السماء فقال رسول الله ﷺ والمنافق يسمع: إن رجلاً من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ وقال: (ألا يخبره الله بمكانها؟ فلعمرى إن محمدًا ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة) ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى فإن الله تعالى أخبرنى بمكانها وإنها فى هذا الشعب مقابلكم، قد تعلق زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها، فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول الله ﷺ.

فلما نظر المنافق إلى الناقة أُسقط فى يده فقام سريعًا إلى رفقائه الذين كان معهم فإذا رحله منبوذ وإذا هم جلوس لم يقم رجل منهم من مجلسه، فقالوا له حين دنا: لا تدْنُ منا! فقال: أريد أن أكلمكم، فدنا، فقال: أنشدكم بالله هل أتى أحد منكم محمدًا فأخبره بالذى قلت؟ قالوا: لا والله وما قمنا من مجلسنا، فقال: فإنى وجدت عند القوم ما تكلمت به وتكلم به رسول الله ﷺ، فأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ وإنه أتى بناقته، ثم قال: إنى كنت فى شك من شأن محمد فأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، فكأنى لم أسلم إلا اليوم، قالوا: فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فذهب إلى رسول الله ﷺ واستغفر له واعترف بذنبه، وقالوا إنه لم يزل رديئًا سيئ الخلق إلى أن مات.

ووسط هذا الجو المحيط المليء بفتن المنافقين أظهر الله سبحانه وتعالى لأصحاب رسول الله ﷺ بشائر مفرحة تؤكد إيمانهم وتوثق يقينهم.

يروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر فلمّا كان قرب المدينة هاجت ريح تكاد تدفن الراكب فقال رسول الله ﷺ: بُعثت هذه الريح لموت منافق فلما قدمنا المدينة أُذّن - أى أشيع خبر بين الناس - بأنه قد مات عظيم من عظماء المنافقين، وفى رواية أخرى أنه لما سرّح الناس ظهرهم أخذتهم ريح شديدة حتى أشفق الناس منها وقالوا: لم تهج هذه الريح إلا لأمر!! فقال رسول الله ﷺ: ليس عليكم منها بأس، ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه وما كان يدخلها عدو حتى تأتوها - أى أن الرسول ﷺ يطمئنهم فليس على المدينة بأس لأنه ما من درب من دروبها إلا وعليه ملك يحرسه ثم قال النبى ﷺ: مات اليوم بالمدينة منافق عظيم النفاق فلذلك عصفت الريح وكان موته للمنافقين غيظًا شديدًا.

يروى عن عبادة بن الصامت أنه قال يومئذ لابن أُبَيّ: يا أبا الحُباب مات خليلك، قال: أى خليل؟ قال: من موته فتح للإسلام وأهله، قال: مَنْ؟ قال: زيد بن رفاعة بن التابوت، قال: يا ويلاه كان والله وكان.! فقال عبادة: اعتصمتَ والله بالذَّنب الأبتر، قال: من أخبرك يا أبا الوليد بموته؟ قال: رسول الله ﷺ أخبرنا إنه مات فى هذه الساعة، فسقط فى يده وانصرف كئيبًا، على أننى قبل أن أترك هذه الحادثة

إلى غيرها مما أثلج صدور المسلمين أود أن أنبهك أيها القارئ الكريم ألا تخلط بين هبوب الريح وأخبار النبي ﷺ بأنها هبت لموت منافق وبين ما قاله النبي ﷺ للناس يوم موت ابنه إبراهيم ﷺ لما قالوا حين انكسفت الشمس إنها انكسفت لموت إبراهيم فقال النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»، (١) أرجوك ألا تخلط بين هذا وبين هبوب الريح حيث إني أفهم أن قول الناس إن الشمس انكسفت لموت إبراهيم أي كان موت إبراهيم، عليه السلام، هو سبب كسوفها فأخبر النبي ﷺ بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فلا تنكسف الشمس ولا ينخسف القمر حزنًا وأسفًا لموت أحد أو حياته بخلاف الريح العاصفة فإنها قد تكون بشارة أو نذارة فهي ليست مسببة عن موت المنافق ولا سببًا في وفاته إنما هما نذارة أو بشارة ورسول الله ﷺ أخبر أنها بشارة بموت منافق كبير وأيضًا فإن المنهي عنه هو تصور أن الشمس والقمر ينخسفان لموت الإنسان أو حياته، أما الريح فإنها ليست سببًا في حصول الموت ولا أثرًا له، إنما هي نذير أو بشير ولذلك فإنها تقع قبل حدوث الشيء أما ثاني البشارات المفرحة وهو ما كان من قدوم الحارث بن أبي ضرار لفداء ابنته ويروى أنه لمّا أسرت السيدة جويرية بنت الحارث جاء أبوها يبغي فداءها وجاء بمائة بعير فلما كان بوادي العقيق نظر إلى إبله التي يفدي بها ابنته فرغب في بعيرين منها كانا من أفضلها فغيبها في شعب من شعاب العقيق ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو لا يعلم بما تم من فك أسر ابنته وزواج رسول الله ﷺ بها فقال: يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها - مشيرًا إلى إبله - فقال رسول الله ﷺ فأين البعيرين اللذين غيّبت بالعقيق بشعب كذا؟! فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله ولقد كان مني ما كان في البعيرين قد خبأتهما وما اطلع على ذلك إلا الله تعالى، ثم أعلن إسلامه، ورغم ما بدى من فرحة الرواة بإسلام الحارث وإسلام زيد بن اللّصيت يوم فقدت ناقة النبي ﷺ لما أخبر النبي ﷺ بمكانها وأن زمامها معلق بشجرة ووجدوها حيث أخبر وإني لا أنكر فرحتي مشاركة للرواة لكني رغم ذلك أرى خفة عقول كفار ومنافقي العرب كيف يدفعهم هذا الإخبار الذي لا يمثل في واقع الأمر دافعًا ليغيّر الإنسان عقيدته وأن المسألة بهذا الشكل تصبح مجالاً للدجالين والمشعوذين وقد يصدق عليهم قول الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾

(الجن: ٦)

وإنه يفتح بابًا للمشعوذين والدجالين في كل عصر وكأني بهذا أثبت خفة عقول المنافقين والمشركين العرب وسفاهة أحلامهم، ولا أحب أن أختم مقالي هذا إلا بقصة كان بطلها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يذكرني بها قول سيدنا عمر حينما أراد أن يضرب عنق عبدالله بن أبي بن سلول فنهاه النبي ﷺ عن ذلك وكأني بسيدنا عمر امتنع عن قتل ابن سلول كاظمًا غيظه لكنه امتثل، ثم حدث أن ابن عبد الله بن أبي بن سلول طلب من النبي ﷺ إن كان يريد أن يقتل أباه أن يأذن له بقتله فنادى رسول الله ﷺ سيدنا عمر فقال له: أرأيت لو أنك قتلته آنذاك لأرغمت له أُنُف هي التي تطالب بقتله الآن. فقال سيدنا عمر: الآن علمت أن أمر رسول الله ﷺ خير وأعظم بركة من أمري.

نعم إن أمر رسول الله ﷺ خير وأعظم بركة من كل أمر، يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع (بني المصطلق) فقلنا: أين رسول الله ﷺ؟ قالوا: تقدم الناس وقد نام. فقال لي عبد الله بن رواحة: يا جابر هل لك في التقدم في الدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحدًا تقدم. فقال ابن رواحة: والله ما نهاني رسول الله ﷺ عن التقدم، فقال جابر: فقلت أما أنا فلست ببارح، فودعني وانطلق إلى المدينة فطرق أهله ليلاً فإذا مصباح في وسط بيته وهناك ظل كأنه إنسان وظن أنه رجل ينام مع أهله وسُقط في يده وتدم على تقدمه فاقتحم البيت رافعًا سيفه وقد جرده من غمده يريد أن يضربهما ثم فكر فغمز امرأته برجله فاستيقظت فصاحت مزعورة يخالطها النوم فقال: أنا عبد الله فمن هذا؟ - مشيرًا إلى الظل الذي رآه - فقالت له رجيلة ماشطتي سمعنا بقدومك فباتت عندي فلما أصبح خرج معتمدًا إلى رسول الله ﷺ فلقيه ببئر أبي عتبة ورسول الله ﷺ يسير بين أبي بكر الصديق وبشير بن سعد فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير قائلاً: يا أبا النعمان إن وجه عبد الله يخبرك أنه قد كره طروق أهله، فلما انتهى ابن رواحة إلى رسول الله ﷺ قال: ما خبرك يا ابن رواحة؟ فأخبره كيف تقدم. فقال رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلاً. قال ابن جابر فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ - يعني أن ابن رواحة لم يخالف أمر رسول الله ﷺ عندما طرق أهله ليلاً، إنما جاء النهي في صباح اليوم التالي.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

٭٭٭

الأدب النبوى فى الحوار



فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ماذا جرى للمسلمين فى أسلوب تخاطبهم وحوارهم مع بعضهم البعض ومع غيرهم!! وماذا أصابهم فى طريقة مجادلتهم عندما يتناقشون ويتحادثون!! وماذا أبعدهم عن المنهج السوى عندما يتناظرون!! وماذا صرفهم عن اتباع الأمر الإلهى فى الحوار الذى حدده الله ـ تعالى ـ فى قوله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل:١٢٥)

لقد صارت لغة الحوار السائدة الآن هى محاولة المحاور الانتصار لرأيه وإن كان باطلا، ودحض رأى خصمه وإن كان حقا وصوابا!!

إننى أصاب بحسرة وحزن وضيق وألم عندما أسمع أو أشاهد ما يجرى فى أسلوب الحوار بين المتحاورين الآن من الانفعال والحدة!! وكيف يَسْوَدّ وجهُ أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه، وكيف يبذل أقصى جهده فى مجاحدته بأقصى قدرته!!

يقول الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: «ما ناظرت أحدًا قط فأحببتُ أن يخطئ، وما كلمتُ أحدًا قط وأنا أبالى أن يُظهر الله الحق على لسانى أو على لسانه، وما أوردتُ الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هِبْتُه واعتقدت محبته، ولا كابرنى أحد على الحق إلا سقط من عينى ورفضته، ووددت لو انتفع الناس بعلمى دون أن ينسب إلىّ منه شىء».

إن الله ـ جلت قدرته ـ علّمنا اللغة لنستعملها فى الوصول إلى العلم والمعرفة، وإلى الحق والصواب، ونستخدمها فى التخاطب والتفاهم فى قضاء المصالح وحل الخلافات والمنازعات.

يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ:(١) نعمة البيان من أجل النعم التى أسبغها الله على الإنسان وكرمه بها على سائر الخلق، يقول الله ـ تعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن:١-٤)

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقها، ويستوجب شكرها، ويستنكر كنودها.

وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام، وأسلوب أدائه، لأن الكلام الصادر عن الإنسان ما يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه، ولأن طرائف الحديث فى جماعة ما، تحكم على مستواها العام، ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها.. إن الأدب من أفضل الصفات التى يتحلى بها المرء فى حياته، ويتصف بها فى سلوكه، فإن حاز هذه الصفة الكريمة، وتلك الخصلة الحميدة فقد حاز الخير الكثير، والفضل العميم، والمنزلة العالية الرفيعة.

ولسمو مكانة الأدب وعلو منزلته ورفعة شأنه وعظيم أثره تولى الله سبحانه وتعالى أدب نبيه محمد ﷺ فأدبه بأحسن الآداب كلها، فكان محمد الإنسان: عفيف اللسان، بليغ البيان، عالى الهمة، متربع القمة، يقول عليه الصلاة والسلام: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

ومحمد ﷺ كان مدده فى حديثه وكلامه القرآن الكريم، الذى أعجز الأولين والآخرين، وأداته البيان الناصع، والبلاغة الآسرة فى مجتمع عرف بالفصاحة، وتزين بالشعر، وتجمّل بالبيان. فكان محمد ﷺ سيد ذلك المجتمع أدبا وحديثا وفضلا قبل المبعث، وفصاحة وبيانا ونقاشا وحوارا وإلهاما بعد نزول الوحى والتكليف بأمانة الدعوة وحمل الرسالة.

كان محمد ﷺ أفصح الفصحاء، وأبين الأنبياء، وكان يعلن ذلك فى قوله الشريف: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد» وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول له: يا رسول الله، ما رأينا من هو أفصح منك!! فكان يجيبه بالقول الشريف: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

لقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ جوامع الكلم فى كتابه المحكم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها فى ثلاث كلمات، فقال جل شأنه:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

(الأعراف:١٩٩)

ففى أخذه العفو صلة من قطعه، والصفح عمن ظلمه، وفى الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب، وفى الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن ممارسة السفيه ومنازعة اللجوج.

ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه: باللين فى عريكته، والرفق بأمته، فقال سبحانه:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(آل عمران:١٥٩)

يقول أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ:(٢) «كان رسول الله ﷺ أكثر الناس أدبا فى الحوار والسلوك، وأشدهم حياء، وأوفرهم مجاملة للآخرين كان هذا سلوكه مع الناس جميعا حتى مع مشركى قريش إذا حادثهم فى غير شئون الدعوة، كانت وفرة أدبه، ورقة مجاملته، من الأمور التى يعرفها عامة الناس وخاصتهم على وجه سواء».

كان أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ خادمًا لرسول الله ﷺ ملازمًا له نحو عشر سنين فى دار الهجرة، ولأنس أخبار كثيرة رواها عن أدب رسول الله ﷺ، وحلمه، وتلطفه مع العام والخاص، وسمته.

يقول أنس ـ رضى الله عنه ـ فى وصف آداب رسول الله ﷺ: «ما شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، قال: ولا تناول أحد

(١) ـ كتاب خلق المسلم ص٢٧.

(٢) ـ كتاب البيان المحمدى ص٣٧ وما بعدها بتصرف.

يده فيتركها حتى يكون هو الذي يتركها، وما أخرج ركبتيه بين يدى جليس قط، وما قعد إلى رسول الله ﷺ رجل قط فقام حتى يقوم».

وعن ابن أبي أوفى يقول: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له حاجته»(٣).

كانت تلك بعض صفات رسول الله ﷺ، ولونًا من ألوان سلوكه عليه الصلاة والسلام، وكان هذا السلوك يتضح في حواره مع غيره من البشر؛ أفرادًا كانوا أم جماعات، حضرًا كانوا أم بدوًا، مشركين كانوا أم مؤمنين، كتابيين كانوا أم مسلمين، أنصارًا كانوا أم مهاجرين.

وحواره ﷺ يأخذ لكل حالة مقتضاها، ولكل موقف لبوسه، في نطاق من فصاحة البيان، وسلامة القول، ورقة الحوار، وسعة الصدر، وجلال التسامح وكظم الغيظ، ويسر الإقناع، ضاربا بذلك الأمثال للمسلمين بل الناس جميعا ـ أن يتمثلوا حلمه، ويحفظوا قوله ويلتزموا سبيله، ويتبعوا سنته، ويقتفوا أثره..

إن نماذج الحوار الذي كان يجرى بين رسول الله ﷺ وبين أهله وعشيرته، وبين صحابته، وبين الوافدين عليه من الناس في مكة والمدينة ملأت كتب السيرة... والمقام لا يسع ذكرها كلها، وإن كان يسمح بذكر بعضها لنحتذى بها ونأخذ منها القدوة.

إن من أنفس نماذج هذا الطراز من الحوار، ذلك الذي جرى بين شاب من جمهرة شباب المسلمين ـ وإن لم يكن من خيارهم ـ وبين رسول الله ﷺ، إن الشاب في غيبة رشده، والانصياع لغريزته، يطلب إلى رسول الله ﷺ ما لم يطلبه أحد قبله، فهو يطلب أن يؤذن له بالزنا.. فلما سمعه الناس صاحوا غضبا، ولكن رسول الله ﷺ معلم البشرية، ومبرئ سقامها، لا يغضب، وإنما يقرب الشاب إليه، ويعالج ما يطلبه من الإذن له بالفاحشة بالحوار الهادئ الذي يشتمل على الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة والنصح الجميل..

إن مجمل الخبر كما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة بإسناد جيد هو: أتى شاب إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟

فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: «قربوه، أدن، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أتحبه لأمك؟»، قال: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟»، قال: لا، جعلني الله فداك قال: «فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم» وزاد الراوي ابن عوف: حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة: لا، جعلني الله فداك، والنبي يقول: «كذلك الناس لا يحبونه»، ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، يا من أدبك ربك، وجمع لك جوامع الكلم، ونظم لك مكارم الأخلاق فسطع ذلك في حديثك وحوارك، فألفك الناس وأحبوك، واستمعوا إليك في أدب وخشوع.

فمتى نتعلم الأدب النبوي في الحوار، ونطبقه في أحاديثنا وحواراتنا؟

(٣) النسائي

فتاوى لها تاريخ

مصافحة المرأة لا تنقض الوضوء



لفضيلة الشيخ محمود شلتوت

يقول الله تعالى في بيان الطهارة التي تجب على المؤمن إذا أراد القيام إلى الصلاة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ (المائدة: ٦)

• وفي قوله تعالى:

﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾

يسأل سائل: هل المراد بالملامسة المصافحة ونحوها أو المراد المخالطة الخاصة؟ والسائل يقصد بهذا السؤال أنه إذا كان المراد بالملامسة المصافحة كان مس المرأة باليد أو نحوها ناقضًا للوضوء، فلا تصح بعده الصلاة حتى يتوضأ الذي لامس. وإن كان المراد بها المخالطة الخاصة كان المس باليد أو نحوها غير ناقض للوضوء وصحت به الصلاة.

•• والجواب: أن بعض الأئمة فسر الملامسة في الآية بمس اليد أو نحوها، وعليه يكون مس المرأة ناقضًا للوضوء. وفسرها آخرون بالمخالطة الخاصة، وعليه لا يكون المس باليد ومنه المصافحة ناقضًا للوضوء. هذا هو الذي نختاره:

أولا: لأن القرآن استعمل المس في المخالطة:

﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾

كما استعمل فيها المباشرة:

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾

والملامسة كالمباشرة والمس.

ثانيا: أنه بتفسير الملامسة بالمخالطة الخاصة تكون الآية استوعبت جميع أنواع الطهارة الواجبة بالنسبة لأسبابها؛ فبينت طهارة الوضوء بقوله «فاغسلوا وجوهكم..إلخ» وبينت طهارة الغسل بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾

ثم بينت الطهارة بالتيمم حين العذر عن استعمال الماء بدلا من الوضوء بقوله:

﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾

وبدلا من الغسل بقوله:

﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾

ثالثا: قد صحت الأحاديث الدالة على بقاء الوضوء بعد المس باليد ونحوها.

رابعا: أن عدم نقض الوضوء بالمصافحة هو ما يقضى به اليسر الذي بنيت عليه الشريعة وختمت به آية الطهارة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

زكاة المال

● السؤال من: ج.ح.د: أرجو إفادتنا عن زكاة المال على شهادات الاستثمار المحددة بمدة عشر أو خمس سنوات؛ فهل تستخرج زكاة المال على قيمة الشهادة والفائدة عندما يحول عليها الحول أم تستخرج على الفائدة فقط وتستخرج الزكاة على أصل الشهادة حين انتهاء مدتها؟

●● الجواب: زكاة المال المودع في البنوك على هيئة ودائع أو شهادات تكون بمقدار ربع العشر على المال المودع في البنك مضافًا إليه الأرباح، إذا حال عليه الحول القمري وكان بالغًا للنصاب.

حكم النذر

● السؤال من: ش.أ.ن: جرت العادة عند تنفيذ أي نذر بذبح ذبيحة ويتم توزيعها على المحتاجين، وحاليًا نظرًا لارتفاع أسعار اللحوم؛ هل يمكن استبدال الذبح بشراء لحم بنفس الكمية المراد توزيعها كنذر؛ وذلك لتوفير أجر الذبح والأشياء التي لا يستفاد منها؛ كالفرو ومخلفات الذبيحة؟

●● الجواب: النذر هو إلزام الإنسان نفسه أمام الله تعالى بشيء حض عليه الشرع؛ أي أن الشرع لم يوجبه ابتداءً، كما أنه لم يحرمه، وقد أثنى الشرع الشريف على الموفين بالنذور؛ فوصف الله تعالى الأبرار بقوله سبحانه:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾

«الإنسان: ٧».

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» متفق عليه.

والواجب على من نذر نذرًا أن يوفي بما ألزم به نفسه دون أن يبدله بغيره؛ فالنذر كالعقد، يلتزم الإنسان أن يوفي بما فيه من ألفاظ دون تصرف؛ فمن ألزم نفسه بعبادة لزمه أن يتعبد بها، ومن ألزم نفسه بصدقة وجب عليه إخراجها ومن ألزم نفسه بذبح وجب عليه الذبح.

وإيجاب الوفاء بالنذر فيه معان ينبغي أن يتفطن الإنسان لها، منها: الخير الذي يعود على الناس من الناذر، ومنها اتقاء شح النفس؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «إنه لا يرد شيئا، وإنما يستخرج به من البخيل» متفق عليه، ومنها: تطويع النفس لله وتدريبها على الالتزام بما التزمته أمامه سبحانه.

ومن ثم فيجب على هذا الشخص الذي التزم بالذبح أن يفي بنذره وفقًا لما التزم به؛ فالذبح في ذاته عبادة مقصودة، فإذا التزم ذبح شيء من الأنعام لزمه ذلك، ولا يجزئه أن يشتريه مذبوحًا؛ لأن شراء اللحم غير الذبح، فإن تيسر له الذبح بعد ذلك ذبح، وإلا كفر عن نذره بكفارة يمين؛ وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام.

حكم البشعة

● السؤال من: ط.ع.غ: ما هو حكم البشعة التي يحتكم إليها القضاء العرفي في فض النزاع ما بين طرفين من المواطنين، وذلك من الناحية الشرعية، مع العلم بأن البشعة هي عبارة عن نار موقدة بالخشب ويوضع عليها إناء نحاسي يتم تسخينه لدرجة الاحمرار ويقوم المتهم - عن طريق الرجل المختص - بلعق هذا الإناء ويعتقدون أنه إن كان بريئًا لا يمس بشيء في لسانه وإن كان مدانًا يصاب في فمه.

●● الجواب: البشعة ليس لها أصل في الشرع في إثبات التهم أو معرفة فاعلها، وإنما يجب أن نعمل بقول النبي ﷺ: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» رواه الدارقطني؛ فهذا الحديث الشريف رسم لنا طريق المطالبة بالحق وإثباته، أو نفي الادعاء الباطل، وهذا ما يجب على المسلمين أن يتمسكوا به دون سواه من الطرق السيئة التي لا أصل لها في الشرع؛ فإن الشرع لم يجعل إثبات التهم منوطًا بغير ما رتبه طريقًا لإثبات ذلك من إقرار أو بينات أو نحوها.

الطلاق الرجعي

● السؤال من: ب.ط.ع: متى يصبح الطلاق الرجعي بائنًا؟

●● الجواب: الطلاق البائن يعني: خروج المطلقة من زوجيتها تمامًا، وانتهاء علاقتها الزوجية بمطلقها، بحيث لا تبقى أية ارتباطات زوجية بينهما، من وجوب نفقتها ووجوب طاعتها له في المعروف وميراث أحدهما من الآخر عند الوفاة، وغير ذلك.

والطلاق الرجعي يتحول إلى طلاق بائن إذا انتهت عدة المطلقة، وهذه العدة تنتهي بعد ثلاثة أشهر هجرية من الطلاق إذا كانت المطلقة قد أيست من الحيض، وتنتهي بوضع الحمل إن كانت حاملًا، أما إن كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاث حيضات عند بعض العلماء، أو ثلاثة أطهار عند بعض، والمعمول به في مصر أن العدة تنتهي بمرور ثلاث حيضات على المطلقة، بحيث تكون بداية أولاها بعد الطلاق، ويُعرف ذلك بإخبار المطلقة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المؤتمر العلمي الدولي السنوي لكلية الإعلام بالأزهر

المهنية الإعلامية والتحول الديمقراطي

متابعة الأستاذين/ سعد فتحي - رمضان ثابت

تحت رعاية فضيلة الأمام الأكبر الأستاذ الدكتور / أحمد الطيب شيخ الأزهر انعقد المؤتمر العلمى الدولى السنوى الأول لكلية الإعلام بجامعة الأزهر وقد تمت جلسات المؤتمر فى قاعة الإمام محمد عبده وكلية إعلام الأزهر بالدراسة- فى الفترة من٤ - ٧ جمادى الأخرة ١٤٣٤هـ الموافق ٤١ - ٧١ أبريل٢٠١٣م.

جلسة الافتتاح

افتتح المؤتمر بتلاوة آيات قرآنية لفضيلة القارئ الدكتور الشيخ عبد الفتاح الطاروطي، وبحضور الأستاذ الدكتور/ الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء نائبًا عن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف (راعى المؤتمر)، والأستاذ الدكتور/ إبراهيم الهدهد نائب رئيس جامعة الأزهر نائبًا عن رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور/ محمد شلبى نائبًا عن فضيلة المفتى السابق الدكتور على جمعة، والمستشار/ فالح المطيرى نائبًا عن الدكتور نبيل العربى أمين عام جامعة الدول العربية، والأستاذ/ صلاح عبد المقصود وزير الإعلام، ومعالى السفير محمد بدر الدين رئيس الهيئة العامة للاستعلامات، والأستاذ الدكتور خزعل الماجدى رئيس جامعة فان هولاند بهولاندا. والأستاذ/ عزت الإمام نائبًا عن الأستاذ/ إسماعيل الشيشتاوى رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون، كما حضره كوكبة من كبار رجال الدولة من المسئولين والوزراء والسفراء والباحثين والإعلاميين.

افتتح الدكتور عبد الصبور فاضل عميد كلية الإعلام جامعة الأزهر الجلسة الافتتاحية وقال: إن مصر شهدت بعد ثورة ٢٥ يناير تحولات إعلامية تشوبها حالة من الفوضى، وفتح باب العشوائية والارتجالية الذى أثر سلبًا على الوطن والمواطن، والذى فتح بابًا أمام وسائل إعلامية أجنبية للتصيد فى الماء العكر.

وأشار أن الصدق هو أهم عوامل ثقة المواطن فى الإعلام والتاريخ يثبت أن الأكاذيب التى واجهت الدعوة الإسلامية لم تثنها عن طريقها.

وطالب "فاضل" الإعلاميين الالتزام بالصدق فى نقل المعلومة، والرأى العام بعدم الانسياق وراء كل ما يسمعه ويشاهده، مؤكدا أن الإسلام

حارب الشائعات، رافضا أى رقابة على وسائل الإعلام أيا كان نوعها ولا عقاب إلا بقانون متطلعا إلى منظومة تشريعية تقنن ذلك، مطالبا وسائل الإعلام بتحسين حال العاملين فيها وتثبيتهم فى عقود متطلعا إلى دور أكبر لنقابة الصحفيين فى الدفاع عن حقوقهم.

وخلال الكلمة التى ألقاها الدكتور الأحمدى أبو النور عضو هيئة كبار العلماء ووزير الأوقاف الأسبق نيابة عن الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر قال: إن قاطرة التحول الديمقراطى لن تتم إلا من خلال مؤسسة شعبية بالانتخاب لإصلاح الثقافة الإسلامية والتحكم فى الأداء الإعلامى والصحفى الهادف.

وأكد فضيلته على أهمية الدور الإعلامى فى المرحلة الانتقالية للسلطة والتى تبعت ثورة يناير، مشيرا إلى أن هناك هجمة شرسة يواجهها الإعلام المصرى بعد تعطش المجتمع للثقافة الحوارية البناءة.

كما أكد فضيلته على أهمية التخلص من حملة التشويه التى لحقت الإعلاميين بعد الثورة تزامنا مع انتشار الإعلام المعارض والحر الذى يعتمد على كوادر بشرية قد ينقص البعض منها عامل الثقافة الحوارية، مركزا على الدور الهام الذى يجب أن يتحلى به جيل الإعلاميين القادم.

ومن جانبه أشار معالى وزير الإعلام صلاح عبدالمقصود إلى أن ثورة ٢٥ يناير المجيدة أحدثت تحولاً ديموقراطيًا كبيرًا لم تشهده مصر من قبل.

وأضاف وزير الإعلام أن أهم ما حققته الثورة هى الحرية التى لا يمكن التراجع عنها، والنظام الحالى يدعم الحرية المسئولة التى لا تسب ولا تُجرِّح أحدا. فقد وجه الرئيس الدكتور/ محمد مرسى بوقف البلاغات التى قدمتها الإدارة القانونية بالرئاسة عندما عُرِض عليه الأمر وكانت الإدارة القانونية قد لجأت للنيابة العامة حفاظًا على مقام منصب الرئيس ومكانة الرئاسة التى تعبر عن الشعب المصرى كما أصدر أول قرار بقانون يلغى عقوبة الحبس الاحتياطى للصحفيين فى جرائم النشر عندما انتقلت إليه سلطة التشريع بعد انتخابه رئيسًا.

كما وعد معالى الوزير طلبة كلية الإعلام بجامعة الأزهر بأن وزارة الإعلام سوف تشارك ببناء استوديو إذاعى وتلفزيونى بالكلية وتوفير أكبر قدر من المنح للطلبة للتدريب بمعهد الإذاعة والتليفزيون، إلتزامًا من وزارة الإعلام نحو الكلية التى تُخرج لنا أبناءً ينشرون الكلمة الطيبة.

البحوث والدراسات

استمع الحاضرون خلال مدة انعقاد المؤتمر إلى عدد من البحوث والدراسات، ألقاها الباحثون وبعض الخبراء فى مجال الإعلام.

مستقبل الإعلام الرسمى فى مصر

وكان مما قدم فى اليوم الأول بحث بعنوان: تقييم الحملات الإعلامية لانتخابات الرئاسة المصرية ٢٠١٢ (دراسة تحليلية وميدانية) للدكتور/ رزق سعد عبد المعطى جامعة مصر الدولية ويتلخص فيما يلي:

فقد شهدت مصر أول انتخابات رئاسية بعد ثورة ٢٥ يناير، رافقها زخم من الأحداث والدعاية السياسية والانتخابية التى تمت وفق ضوابط حددها القانون المصرى بخصوص بداية ونهاية الحملت الانتخابية، وقد تنافس فى هذه الانتخابات عدد ١٣ مرشحا لرئاسة الجمهورية من مختلف

أطياف الاتجاهات السياسية، وقد اتسمت هذه الانتخابات بمجموعة من الخصائص في مقدمتها، تنامي تيار الإسلام السياسي في منافسة للتيار المدني، مع تزايد ظاهرة العنف والبلطجة التي كانت قاسما مشتركا في معظم الأحداث التي جرت خلل تلك الفترة. وبالتبعية فقد أعقبها مرحلة من الانتخابات التشريعية، ورغم قدم التجربة البرلمانية في مصر، إلا أن ملامح النظام السياسي وبالتالي النظام الانتخابي المصري قد شهد الكثير من التغيير، وكل تغيير يصيب النظام السياسي بحالة من عدم الاستقرار، وإذا كان الإعلام المصري يعيش حالة غير مسبوقة من السيولة والانفتاح برزت على السطح في يناير، فقد شهدت وسائل الإعلام طفرة نوعية كمًا وكيفًا، فمن ناحية الكم انطلقت العشرات من القنوات الفضائية الخاصة، والعديد من الصحف الورقية، والإلكترونية، ومواقع الانترنت المتنوعة والتي يتضاعف عددها يوما بعد الآخر، وفي جانب الكيف بدا ملفتًا للنظر

تغيير محتوى ما يقدم في تلك الوسائل بما يتلاءم وطبيعة المرحلة الراهنة.

وقد بدأ الاهتمام بالتسويق السياسي political marketing كمجال معرفي في أدبيات علم التسويق في العقدين الأخيرين من القرن العشرين مع تطور مفهوم التسويق الاجتماعي والذي يركز على تسويق الأفكار والقضايا الاجتماعية؛ بحيث يعتبر أن تلك الأفكار والقضايا تمثل منتجا اجتماعيا في عملية التسويق وأنها تتطلب تصميما خاصا بها ويحتاج إلى استراتيجيات تميزه عن تلك المتبعة في التسويق التجاري.

الإعلام وبناء المؤسسات الديموقراطية

وقد تمت مناقشة بحث الدكتور / زهير عبد اللطيف عابد- أستاذ العلاقات العامة والإعلان المشارك

وعميد كلية الإعلام سابقًا جامعة الأقصى - "الضغوط التي تمارس ضد الصحفي الفلسطيني دراسة استطلاعية" عرض بعض الضغوط والقمع ضد الصحافة الفلسطينية فقال: مارس الاحتلال الإسرائيلي شتى أنواع الضغوطات وأدوات القمع ضد الصحافة في فلسطين، وكان نتيجتها القتل أو السجن، ولم يقتصر هذا على الاحتلال الإسرائيلي بل تعدى ذلك إلى السلطة الفلسطينية وخاصة بعد الحسم العسكري في قطاع غزة من قبل حركة حماس وسيطرتها على قطاع غزة، والسلطة واستفرادها بالضفة، ولهذا وجد الباحث فرصة لتعرف على الضغوطات التي تواجه الصحفي الفلسطيني وتحد من حريته، وكيفية العمل على مواجهتها وتقديم الحلول لها من خلال دراسة استطلاعية لعينة من الصحفيين الفلسطينيين والأجانب

العاملين في قطاع غزة بلغت (٦٠) مفردة، وقد خلصت الدراسة إلى أن الصحافة في فلسطين تعاني من نقص في الحريات الصحفية؛ ناتج عن عدم توفر جو الحرية والديمقراطية، وأن النظام السائد هو السبب الرئيسي وراء هذه الضغوطات.

الفضائيات العربية المعنية بالشأن المصري

وفي اليوم الثالث تمت مناقشة بحث "المهنية العلمية.. حياة الرسول ﷺ والواقع المعاصر" للدكتورة هدى عبد الحميد زكي - جامعة الأزهر كلية البنات بأسيوط جاء فيه: إن المهنية الإعلامية في حقيقتها من أهم

الأعمال، وأشرفها على الإطلاق، حيث إنها في العصر الحاضر من أخطر وأسرع الوسائل المؤثرة على الإنسان وعلى وجه الخصوص القنوات الفضائية، التي ليس لها حصر، من أهم الأسس الإعلامية المؤثرة اليوم.

فالواقع أنها ليس لها ضوابط تحكمها (على الأكثر)، ولا غاية صحيحة واضحة.. إلا: إما الغاية المادية، وهدف الكسب السريع، وإما للفساد الفكري والتجارة فيه، وترويجه في السوق الإعلامي بين الناس؛ ولذلك فالمهنية الإعلامية، من حيث ما يجب عليها، وما يجب فيها، والواقع بين الناس، لمن التناقض الشديد، الذي نراه ونتجرع من مرارته وكل ذلك بحجج الحرية والديمقراطية، التي ليست لها حقيقة لدى هؤلاء، إلا الفوضى ونشر الفساد على الأرض.

فلا يهمهم على الأكثر المتفشي كما ذكرت الالتزام بالقواعد الخلقية، فالواقع المرير الذي نعيشه، ويعيشه عوام الناس (على وجه الخصوص) أن الماسك على صحيح دينه كالماسك على جمرة من النار.

حقا: صدقت يا رسول الله ﷺ كما وصفت، فهي جمرة ملتهبة لا تنطفئ نارها أبدًا ما دامت نفسه لم تأمره بالسوء، وظلت غنية بالله تعالى تعمل لوجهه الكريم.

توصيات المؤتمر:

وكانت من أهم التوصيات والنتائج التي توصل لها المؤتمر ما يلي:

١- التأكيد على استقلالية ومكانة الأزهر الشريف؛ باعتباره قلعة الإسلام والمسلمين، ووضعه في المكانة اللائقة به.

٢- يهيب المشاركون في المؤتمر بالإسراع في إنشاء مبنى خاص لكلية الإعلام جامعة الأزهر، كمقوم أساسي من مقومات نجاحها ونهضتها، بالتعاون مع كل المؤسسات والجهات الداعمة.

٣- التزام وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمرئي بالمعايير والقيم والضوابط التي تحدد قواعد الأداء والممارسة الإعلامية لكافة المشتغلين بالعمل الإعلامي.

٤- وضع ميثاق شرف يشترك في وضعه كافة القوى السياسية والحزبية والأكاديمية والخبراء والإعلاميين، وتفعيله في أقرب وقت ممكن.

٥- التأكيد على احترام الخصوصيات والعقائد الدينية.

٦- على كافة وسائل الإعلام المصرية بكافة انتماءاتها الأيديولوجية الاضطلاع بمسئوليتها الاجتماعية في هذه المرحلة التاريخية، بحيث تكون جزءًا من الحل بدلاً من أن تكون جزءًا من صناعة الأزمة.

٧- الإسراع بتفعيل المجلس الوطني للإعلام المنصوص عليه في الدستور المصري وتفعيله بما يحقق المصلحة الوطنية.

٨- التزام المؤسسات الإعلامية بمراعاة التخصص الإعلامي في اختيار كوادرها عند التعيين، سيما بعد انتشار تخصصات الإعلام في كافة الجامعات الحكومية والخاصة.

٩- العمل على إصدار قوانين تساعد على تحويل توجهات وسائل الإعلام المملوكة للدولة بحيث تصبح صوتًا للشعب بدلاً من أن تكون بوقًا لأحد.

١٠- تفعيل توصيات المؤتمرات الإعلامية التي تعقد في مجال الإعلام، ووضعها موضع التنفيذ..

مكتبة مجلة الأزهر

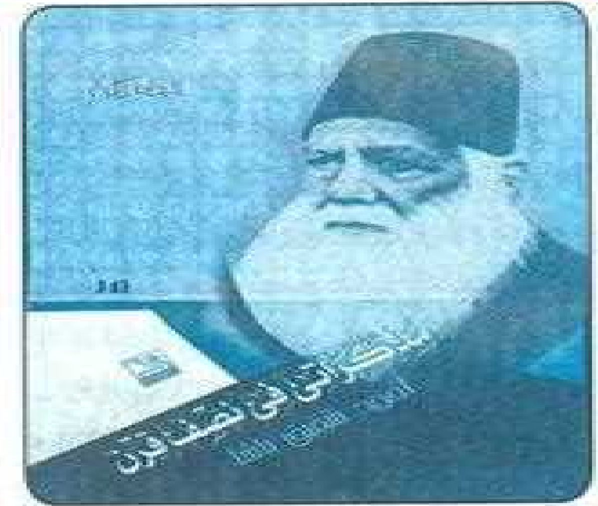
إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يجد قارئ كتاب «معجم تاريخ مصر» للمؤلفة جوان فوتشر كينج ٥٢٦ مدخلاً للأحداث والأشخاص والثورات والأحزاب والجمعيات والأسر الحاكمة منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية عصر السادات... الكتاب الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة راجعه د. عاصم الدسوقي يوضح مترجمه د. عنان على الشهاوى أنه أعاد ترتيبه على الحروف الهجائية العربية تيسيراً على القارئ. تعطى المؤلفة خلال صفحتين عرضا شديد الإيجاز لتاريخ العصور الرومانية والبيزنطية التى سبقت دخول الإسلام مصر مع استعراض موجز لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى حتى وفاة السادات فى ٢٨ صفحة ثم يطالع القارئ ١٠٠ صفحة مجدولة للتسلسل الزمنى للأحداث يليها مباشرة المعجم الذى يبدأ بمادة إبراهيم باشا يعرفه المعجم قائلاً: «إبراهيم باشا هو: الصدر الأعظم للسلطان العثمانى سليمان القانونى وقد أرسله السلطان لمصر لإخماد تمرد قام به الوالى أحمد باشا».

المؤلفة أقامت فى الشرق الأوسط عدة سنوات ودرست فى جامعة كاليفورنيا ثم تقدمت إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لإجراء البحوث والتدريس واستقرت فى المملكة العربية السعودية.



يعد كتاب «مذكراتى فى نصف قرن» لأحمد شفيق باشا من أهم وأوثق المصادر التاريخية وذلك لما احتوته هذه المذكرات من عرض صادق وشيق ويتمتع بحيادية خاصة لأهم الأحداث التاريخية الواقعة ما بين عام ١٨٧٣م وهو بداية زمن المذكرات وحتى عام ١٩٢٣م أى عام نهايتها، بهذه المقدمة عرض طارق هاشم مدير تحرير سلسلة ذاكرة الكتابة التابعة للهيئة العامة لقصور الثقافة كتاب «مذكراتى فى نصف قرن» لأحمد شفيق باشا والتى تقع فى أربع مجلدات ويتناول المجلد الأول بداية الحياة النيابية فى مصر والثورة العرابية والاحتلال البريطانى فى حين يعرض المجلد الثانى عصر عباس الثانى وأحداثه أما المجلد الثالث فيتوقف عند فترة الحروب الأوروبية والتى تسببت فى قيام الحرب العالمية الأولى . المجلد الرابع يبدأ من سنة ١٩١٥م وحتى ١٩٢٣م أى فترة الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩م



يقدم المفكر الأمريكي ولتر ستيس التجربة الصوفية من منظور فلسفي وذلك في كتابه «التصوف والفلسفة» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بترجمة للدكتور إمام عبد الفتاح الذى يوضح فى مقدمة الكتاب «بعد أن أثبت - أى المؤلف - فى كتب أخرى أن الحس الدينى جزء أساسى فى تكوين الإنسان وأنه موجود بدرجات متفاوتة عند الناس جميعا مطمورا عند من يحاول أن يحجبه أو يمنعه من الظهور بل ربما يجحد وجوده عارما وطاغيا عن الصوفى العظيم الذى يرى الفعل الإلهى فى كل حركة كونية من حبة الرمل فى الصحراء إلى السماء المرصعة بالنجوم . نراه فى هذا الكتاب الحالى يتابع المسيرة فيطرح الأسئلة المنطقية المترتبة على الحقيقة التى أثبتها فإذا كان التدين يظهر فى أعلى صوره عند أعلى صوره عند الرجل الصوفى العظيم فما حقيقة التصوف؟ وما التجربة الصوفية التى تظهر فى آداب الأمم المتحضرة فى جميع العصور؟» ويوضح مترجم العمل فى مقدمته للكتاب أن المؤلف يقوم عبر فصول الكتاب الثمانية بتشريح ماهية التصوف بمبضع الفيلسوف الماهر.

المنظمة العربية للترجمة
غنار سكيربك — نلز غيلجي
تاريخ الفكر الغربي
من اليونان القديمة إلى القرن العشرين
ترجمة
د. حيدر حاج إسماعيل
توزيع مركز دراسات الوحدة العربية

عبر ما يزيد على ١٠٠٠ صفحة يقدم غنار سكيربك ونلز غيلجي موسوعة مصغرة تعرض تاريخ الفكر الغربي بعنوان «تاريخ الفكر الغربى من اليونان القديمة إلى القرن العشرين» الكتاب صادر عن المنظمة العربية للترجمة بترجمة الدكتور حيدر حاج إسماعيل.

المترجم يقف فى مقدمته عند حديث المؤلفين عن الثقافة الإسلامية وعلاقتها بالفكر اليونانى حيث يؤكد «أن العرب لم يكونوا مجرد متلقين سلبيين للثقافة والعلم اليونانيين والأصح أن نقول إنهم حصلوا على الإرث من الحقبة الهيلينستية بفعالية وتابعوه بطريقة خلاقة وكان اكتسابهم ذلك الإرث مصدر تقليد علمى جديد ساد النشاط الفكرى إلى زمن الثورة العلمية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» على أن المترجم لا يكتفى بهذه الإشارة فيخصص جزءا موسعا عن دور علماء الحضارة الإسلامية ومفكريها فى المجال العلمى والرياضى.



يؤكد د. بركات محمد مراد فى مقدمة كتابه «المشكلات الفلسفية عند ابن حزم والبصرى وابن رشد» على الأهمية البالغة للفلاسفة والمتكلمين فى الحضارة الإسلامية من خلال اعتماد وتأصيل وتأسيس منهجية الحوار ثم يشير المؤلف إلى أن الإسلام شرع الحوار وسيلة للدفاع عن الحق مشروطا بشرط عام هو أن يكون الحوار بالتى هى أحسن .. يستعرض المؤلف فى الفصل الثانى «آداب الجدل العامة والخاصة عند ابن حزم الأندلسى» كاشفا عن آداب الجدل والمناظرة عند ابن حزم .. فى فصل تال يتحدث عن الحسن البصرى وبلاغته وفصاحته وأسلوبه فى الجدل.. و يخصص الكتاب الجزء الأكبر منه عن ابن رشد ومكانة العقل عنده وجهوده فى التأويل ونقده للمتكلمين وأدلته على وجود الله.

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمد جمعة

٦٥ عامًا على نكبة فلسطين وإنشاء إسرائيل

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / نبيل السهلي المنشور بموقع الجزيرة نت بتاريخ ١٤ / ٥ / ٢٠١٣م جاء فيه :

ثمة أسئلة تطرح فى الذكرى الخامسة والستين للنكبة الفلسطينيين الكبرى وإنشاء إسرائيل ، فى المقدمة منها التحولات الديموغرافية الحاصلة ، ناهيك عما لم تحققه إسرائيل من أهداف عليا رغم احتلالها لفلسطين وطرد شعبها .

لقد اعتمدت الحركة الصهيونية وإسرائيل على ركيزتين أساسيتين لفرض صورة ديموغرافية تجعل من اليهود أكثرية على حساب العرب الفلسطينيين وأرضهم ، تمثلت الركيزة الأولى بارتكاب المجازر لطرد غالبية الفلسطينيين من أرضهم ، واستطاعت العصابات الصهيونية ارتكاب ٤٤ مجزرة فى عام ١٩٤٨ م بدعم بريطاني مطلق ، مما أدى إلى طرد ٨٥٠ ألف فلسطيني من أرضهم حتى الخامس عشر من مايو / أيار من عام ١٩٤٨ م .

ويقدر عدد اللاجئين الفلسطينيين فى بداية عام ٢٠١٣ م بنحو ستة ملايين لاجئ فلسطيني ، منهم نحو خمسة ملايين لاجئ مسجلين فى سجلات الأونروا .

أما الركيزة الثانية لفرض الديموغرافيا الإسرائيلية فتجلت فى القيام بعملية إحلال للمهاجرين اليهود فى المناطق الفلسطينية المحتلة ، وفى هذا السياق استطاعت الحركة الصهيونية جذب ٦٥٠ ألف يهودى من مختلف أنحاء العالم ليصبحوا المادة البشرية لإسرائيل التى أنشئت فى الخامس عشر من مايو / أيار ١٩٤٨ م بعد القيام بعملية تطهير عرقى مبرمجة ومدروسة بشكل محكم .

امتدت حرب التطهير العرقى الصهيونى فى فلسطين من ٣٠ نوفمبر / تشرين الثانى ١٩٤٧ ، وهو تاريخ تصويت مجلس الأمم المتحدة لصالح إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، وخطة الأمم المتحدة للتقسيم ، إلى تاريخ إنهاء الانتداب البريطانى نفسه فى ١٥ مايو / أيار ١٩٤٨ م .

وعند نهاية الانتداب فى سنة ١٩٤٨ م ، لم يكن اليهود يمتلكون سوى ٥,٨٪ تقريبًا من أراضى فلسطين ، وعندما احتل البريطانيون فلسطين عام ١٩١٧ م ، كان عدد اليهود خمسين ألفا ، وعندما غادروها كان العدد قد تضاعف عشر مرات فبلغ نصف مليون .

بدأ الفلسطينيون بتنظيم لجان محلية للدفاع عن النفس وتوجهوا مع نهاية ١٩٤٧ م إلى دمشق وبيروت والقاهرة للتزود بالسلاح والتدرب على استخدامه ، وفى بداية ١٩٤٨ ورغم

الانتداب البريطاني ، كانت الوكالة اليهودية تسيطر عمليًا على فلسطين إداريًا وعسكريًا ، وبلغ تعداد جيش الهاجانا ٣٥ ألفا بالإضافة إلى عشرة آلاف مقاتل من وحدات الكوماندوس البلماح وعصابتى الإرجون وشتيرن .

فى المقابل ، لم يعد هناك بعد سحق الانتداب البريطانى للثورة الفلسطينية سوى ٢٥٠٠ من الثوار وأربعة آلاف متطوع عربى وفلسطينى أطلق عليهم جيش الإنقاذ ، والذين دخلوا على دفعات بقيادة فوزى القاوقجي ، أى أنه حتى ١٥ مايو / أيار ١٩٤٨ م كان أمام كل فلسطينى أو عربى بسلاحه البسيط ستة يهود مزودين بكافة الأسلحة الحديثة البرية والجوية .

فى تل أبيب ، كان الأربعاء العاشر من مارس / آذار يوما حاسما بقيادة الهاجانا ، حيث أنهوا مسودة الخطة التي وضعت فيها التفاصيل النهائية لكيفية طرد الفلسطينيين وأخذ أملاكهم . كتب بن غوريون فى مذكراته "فى كل هجوم يجب إيقاع ضربة حاسمة تؤدى إلى هدم البيوت وطرد السكان" .

اتبعت الحركة الصهيونية ووليدتها إسرائيل سياسات محددة لفرض إستراتيجيتها المتمثلة فى فرض واقع تهويدي ، فمن جهة سعت المنظمات الصهيونية المختلفة وإسرائيل إلى تهيئة الظروف لجذب غالبية يهود العالم إلى فلسطين المحتلة بعد طرد أهلها ومصادرة أرضهم .

وتبقى الإشارة إلى أنه بعد مرور خمسة وستين عاما على إنشاء إسرائيل ونكبة الفلسطينيين الكبرى (١٩٤٨-٢٠١٣) فإن ركائز المشروع لم تكتمل بعد ، سواء فى شقها البشرى أو المادى أى الأرض ، فثمة حلقات مفقودة ولم تكتمل ، فالاستيطان على أشده والموازنات المخصصة لذلك خير دليل ، والإنسان الفلسطينى ملاحق فى أرضه سواء فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، أو المحتلة عام ١٩٦٧ ، من خلال جعل حياته صعبة ، أو جعله هامشيًا فى أرض أجداده وآبائه ، وتبعًا لذلك تسعى المؤسسة الإسرائيلية إلى ترسيخ فكرة يهودية الدولة الصهيونية على الأرض عبر وسائل وسياسات مختلفة .

درس فى الأخلاق السياسية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / فهمى هويدى المنشور بجريدة الشروق الصادرة بتاريخ ٢٣ / ٥ / ٢٠١٣م يقول فيه :

أهل السياسة والإعلام فى تركيا يتداولون القصة التالية التى حظيت بأكبر قدر من القراءة والمتابعة فى وسائل التواصل الاجتماعي ، فى يوم ١٥ / ٥ / ٢٠١٣م عقدت الاشتراكية الدولية مؤتمرا فى بروكسل ، حضره رئيس حزب الشعب الجمهورى السيد كمال قلشدار أوغلو الذى يعتبر حزبه يساريا ، وألقى كلمة ندد فيها بالأوضاع الاقتصادية لبلاده واتهم رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان بأنه لا يختلف كثيرا عن بشار الأسد وصدام حسين ، وشاء حظه أن يطلق هجومه بعد أيام قليلة من الإعلان الرسمى فى أنقرة عن ان تركيا نجحت فى سداد ديونها الخارجية التى بلغت ٨٥ مليار دولار ، وانها تعتزم تقديم قرض لصندوق النقد الدولى بقيمة ٥ ملايين دولار .

كان يجلس إلى جوار السيد كمال قلشدار على المنصة رئيس المجموعة الاشتراكية فى البرلمان الأوروبى حنس سوبودا الذى أدهشه ما سمعه من المعارض التركى الذى بدا متجنيا

ومتحاملا بصورة مكشوفة، فغادر القاعة ولم ينتظر انتهاء كلمته، وقال لمساعديه إن للاشتراكية الدولية قيما وأخلاقا وأعرافا يتعين الالتزام بها، والطريقة التى تكلم بها السيد قليشدار تتعارض مع تلك القيم والأعراف، لذلك فإنه لم يجد سبيلا للتعبير عن الاستياء والاحتجاج سوى مغادرة قاعة الاجتماع فى هدوء، ولم يكن ذلك كل ما فى الأمر، لأن زعيم حزب الشعب الجمهورى كان له موعد للقاء السيد سوبودا بعد ذلك، لكن الأخير قال لمساعديه انه ما لم يعتذر قليشدار عما قاله أو يصححه فإنه لن يكون مستعدا للقائه، وبرر موقفه هذا بقوله ان الزعيم التركى المعارض ضيف ومن احترام تقاليد الضيافة وأعراف الاشتراكية الدولية ان يراعى الضيف شعور مضيفيه وان يتصرف بصدق ومسئولية فيما يعبر عنه، ولما لم يحدث ما طلبه سوبودا فإن الاجتماع لم يتم وجرى إلغاؤه.

أثارت انتباهى القصة من زاوية الحرص على المسئولية الأخلاقية التى ينبغى ان يتحلى بها المعارض السياسى، وهو الدرس الذى أراد رئيس المجموعة الاشتراكية الدولية أن يلقنه للسيد قليشدار، وهو موقف لا يتأتى إلا فى ظل تهم عميق لقيم الديمقراطية وصلتها بالأخلاق السياسية، الأمر الذى تفتقده فى حياتنا السياسية، بحكم حداثة عهدنا بالممارسة الديمقراطية وما تستصحبه من مسئولية أخلاقية فى ممارسة الحرية وفى سلوك المعارضة، إذ المتابع لما يحدث فى مصر يدرك ان هناك تداخلا بين الحرية والفوضى، وان هناك التباسا فى أن فكرة القانون يطلق حريات الناس طالما ان ممارساتهم لا تشكل عدوانا على حريات الآخرين، أو تعطيلا للصالح العام، وبسبب ذلك التداخل فإن قيمة الحرية اقترنت فى التطبيق العملى بمفهوم استباحة الآخرين وممارسة مختلف أشكال تجريحهم والحط من شأنهم وإهدار كراماتهم، وخطورة هذا السلوك تكمن فى انه يتحول بمضى الوقت إلى ثقافة سائدة فى المجتمع، ليس فقط لأنه يهبط بمستوى الحوار ويدفع الفريق الآخر إلى ممارسة هبوط مماثل؛ ولكن أيضا لأنه يعطى الجماهير دروسا فى كيفية إدارة الخلافات بين بعضهم وبعض.

لايعيبنا أن نكون حديثى العهد بالممارسة الديمقراطية، لكن يعيبنا جدا ألا نتعلم من أخطائنا، بحيث نظل نرفع المعاندة شعارا، حتى وإن أدى ذلك إلى غرق السفينة بكل ركابها.

كتاب السياسة الشرعية والفقه الإسلامى

تحت هذا العنوان جاء التقرير المنشور بجريدة الحرية والعدالة بتاريخ: ٢٤/ ٥/ ٢٠١٣م يتضمن مايلى:

نظرًا لكثرة الحديث عن السياسة ووضعها فى الإسلام وطرق استنباط أحكامها ومدى ملامستها للواقع صدر حديثًا وكملحق لمجلة الأزهر كتاب السياسة الشرعية والفقه الإسلامى للإمام الدكتور عبد الرحمن تاج ١٨٩٦ - ١٩٧٥م؛ وهو العالم الأزهر وشيخ الأزهر فى الفترة من ١٩٥٤م وحتى ١٩٥٨م وفى تقديمه يوضح د. محمد عمارة أن هذا الكتاب يعد متميزًا؛ بل فريدًا فى ماهية السياسة الشرعية وعلاقتها بالفقه الإسلامى وفى علاقة السياسة الشرعية بالشريعة الإسلامية أى فى علاقة الثوابت الشرعية بالمتغيرات ويوضح د. عمارة أن السياسة الشرعية فى التدابير والأحكام المتفقة مع روح الشرعية وأصولها الكلية والمحققة لمقاصدها

وأغراضها الاجتماعية.

أما السياسة الوضعية: فهى التدابير المحكومة بالعرف والخبرة والموروث ومطلق المصلحة دون علاقة بالشريعة ودون ضبط للمصلحة بكونها شرعية معتبرة ويضيف أن مرجع السياسة الشرعية إلى قواعد رفع الحرج ودفع الضرر والحكم بالعدل وإلى العمل بمبادئ سد الذرائع والاستصحاب والاستحسان ومراعاة العرف والمصالح المرسلة وفائدة السياسة الشرعية هى مسايرة التطورات الاجتماعية والقدرة على الوفاء بمطالب الحياة وتحقيق مصالح الأمة فى كل حال وزمان على وجه يتفق مع المبادئ العامة فى الإسلام.

وفى خطة الدراسة التى قسمها صاحبها إلى مقدمة وكتابين وخاتمة.

جاء الكتاب الأول فى بابين الأول تحت عنوان فى لزوم الاحتياط وقصد العدالة فى تطبيق أحكام السياسة، حيث رأى الكاتب أن السياسة لا تكون جديرة باسم السياسة الشرعية لتحقق مصالح الأمة وتتمشى مع أسباب نهوضها ومراحل تطورها إلا إذا كانت فى درجة الاعتدال، أى وسطًا، فالوسط هو الاعتدال المحمود.

وجاء الباب الثانى تحت عنوان فى باب وفاء الإسلام فقهه وسياسته بمصالح الناس فى كل حال وزمان وفيه ذكر الكاتب ما يفيد بشرح معنى صلاحية الإسلام وشريعته لكل زمان ومكان وكيف أن الشريعة فى مصدريها القرآن والسنة قد تناولت جميع الأغراض بشكل مباشر أو غير مباشر بأن أرست القواعد العامة والكلية أو دلت على كيفية الاستنباط والقياس.

أما الكتاب الثانى فقد جاء فى ثلاثة أبواب تتحدث حول قواعد السياسة الشرعية، الباب الأول: "فى قاعدة سد الذرائع" حيث أشار إلى أن الذريعة فى اللغة هى الوسيلة التى يتوصل بها إلى الشيء، والمراد هنا ما يتوصل به إلى الشيء، الممنوع المشتمل على مفسدة، وسدها هو الحيلولة دونها والمنع منها، ولأن "سد الذرائع" قاعدة كبيرة فى أصول الفقه عامة، فقد بين الكاتب علاقتها هنا بفقه السياسة الشرعية حيث قال: "إن ولى الأمر إذا أراد شيئًا من المباح قد اتخذه الناس – عن قصد – وسيلة إلى مفسدة، أو أنه – بسبب فساد الزمان – أصبح يفضى إلى مفسدة أرجح مما قد يفضى إليه من المصلحة، كان له أن يحظره ويسد بابه، ويكون ذلك من الشريعة.

وجاء الباب الثانى متحدثًا حول: "فى الكلام على العادة والعرف" وأشار إلى أن العرف هو ما اعتاده الناس وألفوه من قول أو فعل تكرر مرة بعد أخرى، فهى تمكن أثره من نفوسهم، واطمأنت إليه طبائعهم، وصارت تتلقاه عقولهم بالقبول، وليس المراد هنا كل ما عرفه الناس، بل ما عرفه أهل العقول الرشيدة والطباع السليمة، فإن ما اعتاده فريق من الناس مما هو ضرر أو فساد أو عبث، لا خير فيه ولا مصلحة.

وأخيرًا الباب الثالث "فى الاستحسان" وفيه أوضح الكاتب وقوع خلاف كبير بين العلماء حول تعريف "الاستحسان" كقاعدة أصولية، وكذلك اختلفوا فى مدى حجيتها، وحول تعريفها يقول بعض الحنفية: إنه دليل ينقدح فى نفس المجتهد يعسر عليه التعبير عنه".

وقد اختتم الكتاب ببيان بعض من اجتهادات النبى ﷺ واجتهادات أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من بعده فى مجال السياسة الشرعية.

خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

أيا مصرُ.. يا دُرّةً تُبهِـرُ أتِبْرٌ تُرابُكِ.. أم عَنْبَـرُ؟!
أحِبُّكِ يا مِصرُ.. لكنّنـي أغارُ عليكِ.. ومَنْ أغْيَـرُ؟!
أحِبُّكِ يا مِصْرُ ولتشهَدِي وإنْ نازَعُوني.. أنا الأَمْصَرُ

إنّ حُبّ الأوطان طبيعة إلهية مركوزة فى النفس الإنسانية السويّة، من أجل ذلك نرى المواطن الحق، عاشقا لأوطانه، لا يقبل عليها ضيمًا، ولا لأهلها مهانة واستعبادا، فتراه مدافعا عن ترابها بكل ما آتاه الله من قوة، ومضحيا من أجلها بالمال والنفس، فداءً لها وإعزازًا لكرامتها وسلامتها، ولا غرو، فإننا نرى التاريخ البشرى يُمجِّد الأبطال الوطنيين الذين قاموا بأدوار عظيمة، وكانت لهم مواقف مُشَرِّفَةٌ فى خدمة أوطانهم والدفاع عنها، فنرى وقد نحتت لهم التماثيل فى الميادين، وأنشدت لبطولاتهم الأناشيد فى المحافل، وتغنى الشعراء بأمجادهم فى كل مناسبة وطنية، فحبُّ الأوطان كحُبِّ العقائد، فمن لا يحب وطنه لا يحب دينه.

سيناء قدس الله

شعر/ السيد الصديق حافظ – ابن النيل

سيناء قدس الله جل ثناؤها
عز الكنانة أمنها وتماؤها
لما تجلى الله فى عليائه
عم الضياء وبوركت أرجاؤها
جبل التجلى (١) لا يزال كما ترى
شيخ الجبال ولم تزل سيناؤها
أم الجلال تباركت وتعاظمت
كالدر يوزن غاليا حصباؤها
والتين والزيتون (٢) من إحسانها
ومن الجمال (٣) جمالها أو شاؤها (٤)
والتبر مثل ترابها ورمالها
مثل الثريات الحسان نقاؤها
كنز الكنوز رصيدنا وتراثنا
إن عمرت جادت وفاض عطاؤها
وأعز من كل الكنوز رجالها
ونساؤها وشبابها أبناؤها

(١) جبل التجلي: الذي تجلى له الله فجعله دكا، وخر موسى صعقا.
(٢) «والتين والزيتون» - آية أقسم الله بهما لبركتهما.
(٣) من الجمال: «ولكم فيها جمال».
(٤) جمالها أو شاؤها: إبلها وغنمها ومن الشاء والنعم.

من جاهدوا فى الله حق جهاده
أيام داس على الثرى أعداؤها
فى حصن مصر ودرعها وأمانها
ما دام فيها الأمن دام بقاؤها
لا تتركوا الأشرار فى وديانها
يتقلبون فإنهم أدواؤها (٥)
أعداء سيناء اليهود ومثلهم
شر الغلاة (٦) وهمهم إفناؤها
راياتهم سوداء مثل قلوبهم
بعدا لهم وتقطعت سوداؤها (٧)
لا تتركوا سيناء خالية لهم
إن تفعلوه فلن يطيب هواؤها
إن العمار يصير بورا (٨) خلفهم
جيفا على دمن الثرى أشلاؤها
أهل الجهالة والضلالة والعمى
لعنت إذاهم أرضها وسماؤها
قتلوا جنود الله فى رمضانه
وقت الأذان وما ارتوت أمعاؤها
واستأسروا جندا وظنوا أنهم
ند لمصر وأنهم أكفاؤها
فاستنفروا الجيش العظيم وقد رأوا
أن القيالق هيجت هيجاؤها
الفرد فى عصب الكتيبة قيمة
يخشى عليها أن تهون لواؤها
عاد الجنود رءوسهم مرفوعة
ولمصر فى حضن الرئيس دعاؤها
تبكى من الفرح الجليل عيوننا
ولمصر أفراح يطيب بكاؤها (٩)

إرادةُ الحياة

لأبى القاسم الشابى

إذا الشعبُ يومًا أرادَ الحياة
فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدَرْ
ولا بُدَّ لليلِ أنْ ينجلي
ولا بُدَّ للقيْدِ أن ينكسِرْ
ومن لم يُعانقهُ شوقُ الحياة
تبخّرَ في جوِّها، واندثَرْ
فويلٌ لمن لم تشُقْهُ الحياةُ
من صفعةِ العدَمِ المُنتصِرْ
ودمدمتِ الريحُ بينَ الفجاج
وفوقَ الجبالِ، وتحتَ الشجرْ
إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ
ركبتُ المُنى، ونسيتُ الحذَرْ
ولم أتجنَّبْ وعورَ الشعابِ
ولا كُبَّةَ اللهبِ المُستعِرْ
ومن لا يُحبُّ صعودَ الجبالِ
يعشْ أبدَ الدهرِ.. بينَ الحُفَرْ

(٥) أدواؤها: أمراض، جمع داء.
(٦) الغلاة: أي المتطرفون المتأسلفون.
(٧) سوداؤها: قلوبهم.
(٨) إن العمار يصير بورا: المعنى: يصير خرابة ولفظة (بورا) بغير تنوين: علم على المكان المعروف الذي اتخذته القاعدة وكرا إرهابيا.
(٩) أفراح يطيب بكاؤها: يطيب بكاء الفرح عند جيشان المشاعر فى الصدر سرورا وفرحا وابتهاجا فتنزل الدموع كما بكينا عند [illegible] وعند انتصار الثورة وعند عودة جنودنا السبعة.

فعجّت بقلبي دماء الشباب
وضجّت بصدري رياحٌ أُخر
وأطرقتُ أصغي لقصف الرعود
وعزف الرياح، ووقع المطرْ
وقالت لي الأرض لمّا سألتُ:
أيا أُمُّ هل تكرهين البشرْ؟
أُباركُ في الناس أهل الطموح
ومن يستلذّ ركوب الخطرْ
وألعنُ من لا يُماشي الزمانَ
ويقنعُ بالعيش عيش الحجرْ
هو الكونُ حيٌّ، يُحبُّ الحياة
ويحتقرُ الميْتَ، مهما كبُرْ
فلا الأُفقُ يحضنُ مَيْتَ الطيور
ولا النحلُ يلثمُ مَيْتَ الزهرْ
ولولا أمومةُ قلبي الرؤوم
لما ضمّت الميْتَ، تلك الحُفرْ
فويلٌ لمن لم تَشُقْهُ الحياة
من لعنة العدم المنتصرْ
وفي ليلة من ليالي الخريف
مُثَقَّلَةٍ بالأسى والضجرْ
سكرتُ بها من ضياء النجوم
وغنّيتُ للحزن، حتى سكرْ
سألتُ الدُّجى: هل تُعيدُ الحياةُ
لما أذبلتْهُ ربيعَ العُمُرْ؟
فلم تتكلّم شفاهُ الظلام
ولم تترنّم عذارى السَّحَرْ
وقال لي الغابُ في رقّة
مُحَبَّبَةٍ مثل خفق الوترْ
يجيءُ الشتاءُ، شتاءُ الضباب
شتاءُ الثلوج، شتاءُ المطرْ
فينطفئُ السِّحْرُ، سحرُ الغصون
وسحر الزهور، وسحرُ الثمرْ

وسحرُ السماء الشجيّ الوديع
وسحر المروج الشهيّ العطرْ
وتهوي الغصونُ وأوراقُها
وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نضِرْ
وتلهو بها الريحُ في كل وادٍ
ويدفنُها السيلُ، أنّى عبرْ
ويفنى الجميعُ كحُلمٍ بديع
تألّقَ في مهجةٍ، واندثرْ
وتبقى البذورُ التي حُمّلتْ
ذخيرةَ عُمرٍ جميلٍ غبرْ
وذكرى فصولٍ، ورؤيا حياة
وأشباحُ دنيا تلاشتْ زُمَرْ
لطيفُ الحياة الذي لا يُملُّ
وقلبُ الربيع الشذيّ الخضِرْ
وحالمةً بأغاني الطيور
وعطر الزهور، وطعم الثمرْ
ويمشي الزمانُ فتنمو صروف
وتذوي صروفٌ، وتحيا أُخَرْ
وتصبحُ أحلامُها يقظةً
مُوَشَّحةً بغموض السَّحَرْ
تُسائلُ: أين ضبابُ الصباح؟
وسحرُ المساء؟ وضوءُ القمرْ؟
وأسرابُ هذا الفراش الأنيق؟
ونحلٌ يُغنّي؟ وغيمٌ يمُرْ؟
وأين الأشعّةُ والكائناتُ؟
وأين الحياةُ التي أنتظرْ؟
ظمئتُ إلى النور فوق الغصون!
ظمئتُ إلى الظلّ تحت الشجرْ
ظمئتُ إلى النبع بين المروج
يُغنّي ويرقصُ فوق الزَّهَرْ!
ظمئتُ إلى نغمات الطيور
وهمس النسيم، ولحن المطرْ

ظمئتُ إلى الكون، أين الوجودُ
وأنّى أرى العالَمَ المنتظَرْ؟
هو الكونُ، خلفَ سُباتِ الجمود
وفي أُفُق اليقظات الكُبَرْ
وما هو إلا كخفق الجناح
حتى نما شوقُها وانتصرْ
فصدّعت الأرضَ من فوقها
وأبصرت الكونَ عذبَ الصُّوَرْ
وجاء الربيعُ بأنغامه
وأحلامه وصباه العطِرْ
وقبّلها قُبَلاً في الشفاه
تُعيدُ الشبابَ الذي قد غبَرْ
وقال لها قد مُنحتِ الحياة
وخُلِّدتِ في نسلك المُدّخَرْ
وباركَكِ النورُ فاستقبلي
شبابَ الحياة وخِصبَ العُمُرْ
ومن تعبدُ النورَ أحلامُهُ
يُباركُهُ النورُ أنّى ظهرْ
إليكِ الفضاءَ، إليكِ الضياء
إليكِ الثرى الحالمَ المزدهرْ
إليكِ الجمالَ الذي لا يبيدُ!
إليكِ الوجودَ الرحيبَ النضِرْ

فميدي كما شئتِ فوق الحقول
بحلو الثمار وغضّ الزَّهَرْ
وناجي النسيمَ، وناجي الغيوم
وناجي النجومَ، وناجي القمرْ
وناجي الحياةَ وأشواقَها
وفتنةَ هذا الوجود الأغرّْ
وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميق
يشبُّ الخيالَ، ويُذكي الفِكَرْ
ومُدَّ على الكون سحرٌ غريبٌ
يُصرّفُهُ قادرٌ مُقتدرْ
وضاءت شموعُ النجوم الوِضاء
وضاعَ البخورُ، بخورُ الزَّهَرْ
ورفرفَ روحٌ غريبُ الجمال
بأجنحةٍ من ضياء القمرْ
ورنَّ نشيدُ الحياة المقدّسُ
في هيكلٍ حالمٍ، قد سُحِرْ
وأعلنَ في الكون: أنّ الطموحَ
لهيبُ الحياة، وروحُ الظفَرْ
إذا طمحتْ للحياة النفوسُ
فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدَرْ

دين السلام

ومن ديوان [المنار] للشاعر الإسلامي فضيلة الشيخ عبد الغفار الدلاش نقدم أبياتا من أولى قصائده وهي بعنوان: [دين السلام]

من قال: إن الدين صولة معتدٍ
وطبيعة الإسلام حد مُهنّدِ؟
كذبوا وربِّ البيت فيما قرروا!
شاهت أكاذيبُ العدو الحاقد
فمن الذي بدأ النكالَ بقومه
في صولة للباطش المتمرّد؟!

ومن الذي حشد الحشودَ وقادها
في يوم (بدرٍ) كالعنان المُرعد؟!
من كان في (أُحُدٍ) يصولُ مُجهِّزًا
كالبحر يقذف بالعُباب المُزبد؟!
ومن الذي قادَ الجموعَ غفيرةً
فتخندقَ الأنصارُ حول (مُحمّد)!

سل يوم (خيبر) عن سفاسف قومها
كم أسرفوا وتهيأوا للموعد !!
وسل الفوارس يوم (مؤتة) مالذي
أغراهمو بالسير نحو الأبعد !
وسل المعارك كلها ما سرها
هل كان للإسلام بغي مهدد ؟
خابت مآربهم بما قد بيتوا
ساءت طواياهم بسوء المقصد
ولواء (خير الخلق) يرجع ظافرًا
بالنصر من فضل الإله الواحد
هذا هو الإسلام، سرّ ذيوعه
في ذاته.. لا قهرَ فيه لرائد
نورٌ من الله العليّ كأنّه
شمس النهار من الكيان المُهتدي
وإذا أراد الله نشر عقيدة
ملكت زمام النفس دون تردُّد
يا أمة الأمجاد إن عدوكم
ما زال عند غبائه لم يرشد
يشقيه أنكم الأعزة دائما
آل النهي، قومُ التقى والسؤدد
يرميكمو زورًا بكل نقيصة
قد حاكها بضلاله المتعمّد
ويكيلُ بالكيلين في أحكامه
ويجورُ في الميزان غير مُسدَّد
من طول ما كذبوا يُصدِّق بعضُهم
بعضًا - على سفه - بدون تردُّد
سل أرض (أندلس) وما فعلوا بها
و (محاكم التفتيش) سيف الحاصد
و (المسجد الأقصى) وحرب صليبهم
و عن الدماء وقد علت بالمسجد !
أين التسامح والمنايا لم تزل
تنصبُّ منهم بالحمام الأسود

...

يا عُصبة أعمى الضلالُ عيونها
كيف السبيلُ إلى جلال المشهد
هذى عيونكم المريضة لا ترى
أترى ضياء الشمس عينُ الأرمد !
أمجادُنا عبر الوجود شوامخٌ
فيها أريجُ عبيرنا المُتجدِّد
يشدو بها التاريخ عبر عصوره
ليثير وجدان الذى لم يشهد
ما قيمة البرهان فيمن عافهُ
ليعيش في إفك الضلال السرمدي
قولوا ما شئتم فليس لقولككم
وزنٌ وما هو بالمقال الجيِّد
فالحقدُ مهما نُسّقت حلقاتُهُ
يمضي هباء في البيان الراشد

...

الدينُ دينُ الله جلّ جلالُهُ
للعالمينَ وكل ساعٍ يهتدي

رؤيا

للشاعر محمد الفيتورى

خارجًا من دمائك
تبحث عن وطن فيك
مستغرق في الدموع
وطن ربما ضعت خوفًا عليه
وأمعنت في التيه.. كي لا يضيع
أهو تلك الطقوس؟
التي ألبستك طحالبها في عصور الصقيع
أهو تلك المدائن؟

تعشق زوارها، ثم تصلبهم في خشوع
أهو تلك الشموس؟
التي هجعت فيك
حالمة بمجيء الربيع
أهو أنت؟
وقد أبصرتك العيون
وأبصرتها في ضباب الشموع

***

خارجًا من غيابك
لا قمر في الغياب
ولا مطر في الحضور
مثلما أنت في حفلة العُرس والموت
لا شيَ إلا انتظار مرير
وانحناء حزين على حافة الشعر
في ليل هذا الشتاء الكبير
ترقب الأفق المتداخل
في أفق لم يزل عابرًا في الأثير
رُبّما لم تكن
ربما كنت في نحلة الماء
أو يرقات الجذور
ربما كان أجمل
لو أطبقت راحتاك على باقة من زهور

لأنك أنت

وهذه قصيدة مختارة، من ديوان [معارج] للشاعر الأستاذ / أسامة الخرباوى

كبيراتٌ ذنوبي، يا إلهي
ولكنْ عفوُكَ اللهُمَّ أكبرْ
بصدري خافقٌ ما زال يصبو
ويلهو، والهوى حُلْمٌ مُعطَّرْ
تحيَّرَ حينَ لمْ يلزمْ هُداهُ
ومَنْ لمْ يلزَمِ التقوى، تحيَّرْ
وأرخَصَ عُمْرَهُ لهواهُ دهرًا
ورغمَ جُنونِ موجِ التيه.. أبحرْ!
صَحوْتُ أَلُوبُ أسألُ عنهُ يومًا
وعمَّا كانَ قدَّمَهُ.. وأخَّرْ
وعمَّا كان يفعلهُ لأرضى
وعن أشياءَ تَخجلُ، حينَ تُذْكَرْ
وأسرَفَ في الذنوبِ وكم تمادَى
وبَصَّرَ بالمصيرِ.. فما تبصَّرْ
وعُدتُ به إليكَ اليومَ ربّي
عسى يرْتَدُّ إنْ هوَ قد تذَكَّرْ
وقفتُ به على ما كانَ قدْ
فوا أسَفِي عليهِ.. كيفَ قدَّرْ
وفي مرآةِ أيِكَ حينَ لاحتْ
لعينِ النَّفسِ، خِفْتُ، ورُحْتُ أجأرْ
عَجيبٌ أمرُ نفسِ المرءِ كم ذا
يُحذِّرُها العليمُ.. وليس تحذَرْ
وكمْ قد أُنذِرَتْ، وتظلُّ تلهو
وكم ذا خُسِّرَتْ.. وتظلُّ تخسَرْ!
وكم مرَّتْ بها عِبَرٌ.. وتأبى
بغيرِ اللهوِ أنْ تنتهي، وتُؤمَرْ
هيَ الأهواءُ علَّةُ كلِّ نفسٍ
ويا بُشرى لمن منها تطهَّرْ
إلهي في الهوى ضيَّعتُ عمري...
وليس ذنوبُ ذي الأهواءِ تُحصَرْ
ولمَّا أنْ بدا ذنبي كبيرًا
فإنَّ الدمعَ مِنْ عيني تحدَّرْ

إلهي إن تكن كثرت ذنوبي
فعفوك دائمًا يا رب أكبر
لأنك أنت من يُرجى لذنبي
فأحسبه بعفوك سوف يُغفر
جنيتُ الذُّلَّ من ذنبي.. ولمّا
وُعِدتُ بعفوه أصبحتُ أفخر

إلهي إن قلبي قد تذكّر
فلانًا.. وكنتُ أحسبُهُ تحجّر
وثقتُ بعفوك اللهم عني
فبرغم روض آمالي.. وأزهر
قدرتُ على الذي قد كان مني
وأنت على جميل العفو أقدر

كنز الدهور

شعر: محمد عبد الوهاب

ليلة الإسراء يا كنز الدهورْ
في الدياجي صرت مصباحًا يُنيرْ
كنت للمبعوث من ربّ قدير
خيرَ تكريم، وقد ضاقت صدورْ
أسرف الشرك بألوان الشرورْ
وحصار مُحكم حول الثغورْ
للأُلى ضحّوا مع الهادي البشيرْ
وارتضوا بالضنك، والعيش المريرْ
إنّ من يُسلم لله الأمورْ
لا يُبالي عُنْفَ بركان يثورْ
قوّةُ الإيمان في القلب النضيرْ
خيرُ زاد لمعاد، ونشورْ
ليلة إسراء في كل العصورْ
في رفيع الشأن.. جلّت عن نظيرْ
شاهد المبعوث فيها ما يُثيرْ
لطغاة في سعير وثبورْ
و عُصاة بعد إثم وفجورْ
يستغيثون، وقد ساء المصيرْ
كل ما في الغيب من خلف الستورْ
قد تبدّى.. لحصيف مُستنيرْ
بحديث المصطفى عمّا يدورْ
للأُلى انساقوا لبغي مُستطيرْ

ليلة الإسراء يا ضيفًا يزورْ
كلّ عام بسنا العلم الغزيرْ
(رجبٌ) وافي.. وللذكرى بشير
يوقظ الأذهان في دار الغرورْ
قال: يا من تهنا في عالي القصورْ
عن قريب سوف تغدو للقبورْ
قال: يا من بتّ في خزّ الحريرْ
إنما الأكفان من نسج يبورْ
كلّ يوم ينقضي، يُدني المصيرْ
فانتبهْ واغنمْ من الأجر الوفيرْ
قبل أن تندم في اليوم العسيرْ
دون زاد.. دون خدن.. أو نصيرْ
ليلة الإسراء قد فاض الشعورْ
لم أبُحْ بعد بما بين السطورْ
إنّ في (سوريا) نداءً يستجيرْ
وبأرض العُرْب قد مات الضميرْ
صار في الأوطان يبدو كالأسيرْ
آن أن يُنقذ من جُبّ خطيرْ
فاسكبي النور بأنحاء المسيرْ
كي نردّ السلم بالقلب الجسورْ
اللهم ارزقنا رُشْدنا، وألهمنا سبل خيرنا وتقدمنا، وألِّف بين قلوبنا، يا من لا ربّ لنا سواك.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

الأزهر.. شيخه.. والزعامة الروحة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ إبراهيم مسلم التجار - مدير عام تنظيم وإدارة سابق - سندنهور - قليوبية.

لايستطيع أحد أن ينكر مكانة الأزهر الشريف - جامعا وجامعة - وشيخه وزعامته الروحية، ولاشك أن الأزهر كمؤسسة دينية كبرى تتمتع بحب المسلمين في كل بقاع الأرض وله قيمته وأهميته التي أكتسبها من الموقع المصري - تاريخيًا وحضاريًا - وبشريًا وفكريًا - وكذلك أجنحته المتمثلة في كيانه الشريف ومعه دار الافتاء ووزارة الأوقاف .. إلخ .. ورغم أن الأزهر بذلك ليس جهة إدارية تابعة للجهاز الإداري للدولة وإنما هو تلك الهيئة الإسلامية الكبرى التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته ونشره لتمكن من بعث الحضارة الإسلامية والعربية وتزويد العالم الإسلامي والوطن العربي بالمختصين وأصحاب الرأي فيما يتصل بشئون الشريعة الإسلامية والثقافة الدينية ولغة القرآن الكريم.

وإذا كان البعض يتحدث عن المكانة الوظيفية لمشيخة الأزهر وأهمية أدائها فإن صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر هو صاحب الرأي والسلطة في كل ما يتصل بالهيئة الدينية والعاملين بشئون القرآن وعلوم الإسلام بحكم المادة الرابعة من القانون ١٠٣ لـ ١٩٦١م الخاصة بإعادة تنظيم الأزهر فإن


د. أحمد الطيب

هذا الدور لشيخ الأزهر لم يعطه له القانون منحه من عنده أو من الدولة أو من السلطة التشريعية التي وضعته وإنما منحها اختياره للشيخ الكبير مقامه والعظيم تاريخه ليحافظ على الدين وعلومه وليدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة حاملاً لواء وسطية الإسلام عبر أكثر من ألف عام.

لقد منحت هذه المكانة للأزهر من خلال تاريخ ومواقف ونضالات رجاله الإبرار شيوخًا وزعماء بارزين تولوا بإخلاص أمانة الدفاع عن حرمات الدين والوطن بل ومقاومة الغزو الاستعماري العنيد منذ أن وطئت أقدامه أرض الوطن - وفي ذلك مكانة كبرى يتمتع بها

الأزهر بين الحاكمين والمحكومين للدفاع عن الشعب ودينه وعاداته وتقاليده بل وتطهير أرضه من أدناس العاصين والمحتلين.

ولا شك أننا جميعا نذكر ما قام به شيخنا الجليل فضيلة الدكتور أحمد الطيب من التوسط للإفراج عن أكثر من مائة مصرى سجين أو معتقل فى دولة الإمارات العربية وهو مالم تفعله الجهات المختصة بالدولة .. ولا ننسى هنا أيضًا بيت العائلة لتنظيم العلاقة بين عنصرى الأمة وتحقيق مبدأ المواطنة الصحيحة حتى لا تستفحل المشكلات وتتعقد الأمور بين طوائف الشعب .. كذلك تلك المبادرات الطيبة لتذليل عقبات وضع الحلول المناسبة للوصول إلى تحقيق السلام المجتمعى .. وأيضًا دوره العظيم فى حماية ثورة ٢٥ يناير المجيدة وموقفه من حادث تسمم الطلبة فى المدينة الجامعية.

وهذا كله وكثير غيره هو امتداد لعظمة هذه المؤسسة الدينية الكبيرة وزعامتها تاريخيًا وروحيًا فقد زخرت كتب التاريخ ببطولات ومواقف لها أهميتها وجميعنا يذكر موقف الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى موقفه ضد الاستعمار والحكومة المتواطئة معه .. ولذلك سوف يظل الأزهر شامخًا يملأ موقعه فى حماية أهل السنة والجماعة ونردد هنا قول أمير الشعراء:

قم فى فم الدنيا وحى الأزهر
وانثر على سمع الزمان الجوهرا

أدعو الله أن يجعل الأزهر لنا سندا ومددًا ويجمعنا تحت ظله على كلمة سواء. والله ولى التوفيق.

المسجد النبوى بركات وعظات

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ على عبدالعظيم على - واعظ منطقة وعظ القاهرة.

عند مطلع كل عام هجرى جديد يذكر المسلمون ويتذاكرون وقائع الهجرة النبوية، وهم فى خضم بركاتها لا ينسون ذلك العمل الذى استحق أن يكون ضمن أولويات النبى ﷺ ألا وهو بناء المسجد النبوى الشريف. ولهذا المسجد بركات وعظات متعددة أذكر منها.

أولاً: أن البقعة الأولى التى بنى عليها هذا المسجد هى ملك خاص لرسول الله ﷺ اشتراه من ماله وأبى أن يكون تبرعاً من أطفال أيتام عرضوا عليه ذلك طائعين مختارين لكنه اختار أن يدفع لهم الثمن، وكأنه بذلك ينبهنا إلى أن مال الأيتام يجب أن يكون مصانًا ولا تمسه الأيدى وإن كان الهدف ساميًا والغاية نبيلة، ولعل فى ذلك درسًا لمن يأكلون أموال اليتامى والمحتاجين لا لتشييد المساجد وإقامة دور العبادة وإنما لبناء مجدهم الشخصى وتزيدًا فى ثرواتهم الخاصة وتمكينًا لهم من مناصب دنيوية زائفة.

ثانيًا: من بركات المسجد النبوى الشريف أن لبناته الأولى التى شيد بها كان النبى يحملها على كتفه بل كان يحمل ضعف ما يحمل أصحابه مما دفعهم إلى العمل بروح عالية وكانوا ينشدون:

لئن قعدنا والرسول يعمل
إن ذلك منا العمل المضلل

وهو ﷺ يرسى مبدأً مهمًا من مبادئ القدوة، وهو أن القيادة ليست خلودًا إلى الرفاهية والراحة وجنوحًا إلى الكسل والدعة، إنما هى عمل مضاعف يحث المقتدين على العمل، ومن ثم فقد كان رسول الله ﷺ مثالاً عمليًا فى التأسى والقدوة، ولذا جعله الله مناط الأسوة والاتباع، يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب :٢١).

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناجحة؛ لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثرها بالأقوال.

ثالثًا: من بركات المسجد النبوى أنه كان عملاً بسيطًا فى بنائه المادى فقد كانت أرضيته من الحصى والرمال وكانت أعمدته من جذوع النخل وسقفه من الجريد، وكان طوله وعرضه حوالى مائة ذراع فى مائة ذراع. لكن فى هذا المبنى البسيط تخرج ملائكة البشر ومؤدبى الجبابرة وملوك الدار الآخرة، ومن ثم فإن المسلمين يجب عليهم أن تنصرف همتهم إلى بناء المساجد قبل زخرفة المساجد.

يقول الشيخ محمد الغزالى رحمه الله:

«إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبط بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هى لباب الإسلام. لكن الناس لما أعياها بناء النفوس على الأخلاق الجليلة استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة التى تضم مصلين أقزامًا».

رابعًا: من بركات هذا المسجد أنه ضم بين جنباته حادثة لم يشهد التاريخ البشرى مثلها ولا قريبًا منها، حادثة مثلت التسامح الدينى فى أعلى صوره وآبها معانيه، تلكم هى استقبال النبى ﷺ لوفد نصارى نجران ففتح لهم أبواب مسجد النبوة فصلوا فيه صلاة عيد الفصح مولين وجوههم إلى المشرق .. ثم تركهم وما يدينون، واستكمالاً لهذا التسامح فقد عقد معهم عهدًا عامًا تتضاءل عهود الدنيا إلى جواره، ومما جاء فيه:

«ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية، فى شرق الأرض وغربها قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا .. بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتي.»

وفى هذا دلالة واضحة ورد بليغ على من يحاولون النيل من سماحة الإسلام وموقفه من أتباع الديانات الأخري.

تلكم هى بعض البركات والعظات التى اشتمل عليها أول عمل قام به النبى ﷺ وإن كان البعض يحلو له أن يقسم الأعمال النبوية بعد الهجرة إلى ثلاثة أعمال أولها:

المسجد وهو عمل يشير إلى علاقة الإنسان بالله. وثانيها: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهو يرمز إلى علاقة المسلمين بعضهم ببعض. وثالثها: الوثيقة التي أبرمها الرسول ﷺ مع اليهود أو ساكني المدينة من غير المسلمين – إن كان البعض يحلوا له ذلك – فإني أرى أن بناء المسجد – وحده – فيه ما يكفي للتدليل على كل هذه التقسيمات وأكثر من ذلك.

أسأل الله – تعالى – أن يعيد للمسجد في المجتمع الإسلامي دوره ورسالته لكي يعود للمسلم دوره ورسالته في العالم أجمع.

من بريد رئيس التحرير

أخي العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة

رئيس تحرير مجلة الأزهر

القاهرة - جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد،

اطلعت، على العدد الجديد من مجلة الأزهر ، وبدأت ، جرياً على عادتي ، بقراءة الافتتاحية الضافية التي كتبتموها تحت عنوان « الفريضة الغائبة .. المنشودة » ثم قرأت المقال القيم لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب الإمام الأكبر شيخ الأزهر حول « التراث والتجديد». وهذا مقال على درجة كبيرة من الأهمية فيه علم كثير ، بقدر ما فيه من لمحات من السيرة الذاتية لكاتبه، وشذرات من تاريخ مصر المعاصرة. ولذلك قررت، وإن كان بدون استئذان -ليقيني أن الأمر متاح وموضع قبول مسبق - أقول قررت أن أنشر هذا المقال الراقي والمتميز جداً ، في مجلة «الإسلام اليوم » تعميماً للفائدة ، خاصة وأن المجلة تصدر باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية في طبعة واحدة ، كما تعلمون، وتصل إلى دوائر علمية وثقافية وأكاديمية في الشرق والغرب .

وتفضلوا ، الأخ العزيز ، بقبول فائق تقديري وبالغ احترامي وخالص محبتي،

عبدالقادر الإدريسي

أنبـاء الأزهـر

إعداد الأستاذين
محمود الفشني - عبدالموجود أمين

جلالة السلطان قابوس وفضيلة الإمام الأكبر يبحثان التعاون بين سلطنة عمان والأزهر الشريف

استقبل السلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان ببيت البركة بسلطنة عمان فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف. تم خلال المقابلة تبادل الأحاديث الودية وبحث التعاون القائم بين السلطنة والأزهر الشريف في المجالات الدينية. حضر المقابلة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان والشيخ عبدالله بن محمد السالمي وزير الأوقاف والشئون الدينية والوفد المرافق للإمام الأكبر. وفي مؤتمر صحفي عقد بفندق قصر البستان أشاد شيخ الأزهر الشريف بالدعم الذي تقدمه حكومة سلطنة عُمان للأزهر من أجل تأدية رسالته الكاملة، مؤكدا أن السلطنة في مقدمة الدول العربية التي وقفت إلى جانب الأزهر ودعمته دعما قويا من أجل أن يؤدي رسالته كاملة كما ينبغي. وأعرب عن شكره للسلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان والشعب العماني على هذه الدعوة لزيارة السلطنة والجهود التي بذلت في سبيل تقوية العلاقة العلمية والثقافية بين الجانبين. وأشار إلى المؤتمر الذي عقد مؤخرًا وضم علماء عُمان وعلماء الأزهر الشريف، مؤكدا أن هناك الكثير من المشاريع التي يمكن أن تدشن بين الأزهر وبين السلطنة وجئنا لعُمان في هذا السياق.

وقد غادر سلطنة عُمان الدكتور الطيب، بعد زيارة استغرقت يومين رافقه خلالها الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة عضو هيئة كبار العلماء ، والدكتور شوقي عبدالكريم علام مفتي مصر.

الأزهر: الوحدة الوطنية سد منيع لكل التحديات الداخلية والخارجية

التقى عدد من الأئمة والوعاظ والقساوسة تحت شعار "لنتعايشوا" في الدورة الثانية، والتي تأتي بعد الدورة الأولى تحت شعار "لتعارفوا" ، وذلك تحت رعاية بيت العائلة المصرية.

ومن جانبه، أكد الأزهر الشريف في بيانه الصادر يوم ٢٨ / ٥ / ٢٠١٣م أن مشاركته في هذه الفعاليات يهدف إلى توصيل رسالة واضحة وفاعلة لكل أبناء مصر والعالم بأن الخطاب الديني

الوسطى والمواطنة والوحدة الوطنية هما أساس بناء المجتمع وتنميته في مواجهة كل التحديات الداخلية والخارجية، وذلك من خلال نشر التعاليم العليا المشتركة بين الإسلام والمسيحية لإثارة الوعي الإيجابي لدى الشعب المصري من خلال الحوار المتواصل والتعايش المشترك. وقد أوصى اللقاء ببعض التوصيات التي ترفع للجهات المعنية ولمجلس أمناء بيت العائلة لتفعيلها في أرض الواقع.

الأزهر يبحث التعاون مع ساحل العاج لنشر الفكر الإسلامي المعتدل

اقترح فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أن يتم حصر طلاب دولة ساحل العاج الذين يدرسون في جامعة الأزهر، ويعاد تأهيلهم في اللغة العربية والشريعة مع تحمل الأزهر لنفقاتهم؛ على أن يقوم أسامة خليل، سفير مصر الجديد بساحل العاج بالتواصل مع الحكومة العاجية لإيجاد فرص عمل مناسبة لهم، على أن يطبق هذا الأمر بين جميع الوافدين من إفريقيا في قابل الأيام.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلة الإمام الأكبر -يوم ١٨ رجب ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٨ مايو ٢٠١٣- لسفير مصر الجديد بساحل العاج أسامة خليل، أحد أبناء الأزهر الشريف؛ الذين تعلموا فيه ونهلوا من وسطيته، حيث حرص على زيارة الأزهر ولقاء إمامه الأكبر قبل تسلم مهام عمله، لما يعلمه من احترام شعب ساحل العاج - والذي يمثل المسلمون نحو نصف سكانه- للأزهر الشريف، ويتقلد منصب الرئيس هناك ولأول مرة شخصية مسلمة في عام ٢٠١١م.

وقد أبدى السفير احتياج الشعب العاجي لتثبيت عقيدة أهل السنة والجماعة في مواجهة الفكر المنحرف هناك، والذي انتشر في الآونة الأخيرة، وأن المجلس الأعلى للأئمة الذي يرعى أئمة أهل السنة والجماعة يحتاج إلى التعاون مع الأزهر الشريف لتدريب أئمته على سماحة الإسلام ووسطيته التي تنبع من الأزهر، ومساعدتهم في تعلم اللغة العربية لإزالة أي معوقات أمام نشر الدعوة الإسلامية هناك؛ حيث إن اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد.

مفتي كازاخستان في رحاب الأزهر

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، الشيخ/ إيرجان ماميروف، مفتي عام كازاخستان والوفد المرافق لسيادته، حيث نقل لفضيلة الإمام تحيات رئيس دولة كازاخستان الذي هو أحد خريجي الأزهر الشريف، الذين يكنون له ولشيخه كل الاحترام، ويثمنون جهود فضيلة الإمام الأكبر في خدمة طلاب العلم من شتى بقاع العالم، وأن طلاب كازاخستان الذين تعلموا بالأزهر الشريف يتميزون بالسماحة والوسطية، ويشكلون أعضاء فريق الفتوى بدار الإفتاء التي يترأسها شيخ أزهري تعلم في الأزهر ونهل من علومه، وليس أدلّ على تقدير الكازاخستانيين للأزهر وعلمائه من إنشاء جامعة نور الإسلام التي يترأسها عالم مصريّ أزهريّ.

وقدم مفتي كازاخستان الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر باسم أحد عشر مليونًا من مسلمي كازاخستان لزيارة بلدهم. وقد رحب فضيلة الإمام الأكبر بالدعوة ووعد بتلبيتها.

الأزهر يدين اقتحام المسجد الأقصى مجددًا

أبدى الأزهر الشريف استنكاره الشديد لاقتحام مجموعات من الصهاينة باحات المسجد الأقصى الشريف صباح الاثنين ١٧ رجب ١٤٣٤ هجرية الموافق ٢٧ مايو ٢٠١٣ م.

والأزهر الشريف إذ يدين هذه الأحداث وتلك الاعتداءات التي تتم بشكل ممنهج ومستمر؛ فإنه يهيب بالمسئولين في بلاد العرب والمسلمين، وكل حرٍّ في المجتمع الدولي التدخل العاجل لوقف هذه الانتهاكات، ويحثُّ الجميع على احترام مشاعر ملايين المسلمين في العالم الذين يسوؤهم مثل هذه الانتهاكات.

ويحذر الأزهر الشريف من تكرار مثل هذه الأحداث، والتي تتم على مرأى ومسمع من الجميع، دون أن تلقى ردًا حاسمًا يحول دون تكرارها بين الحين والآخر مما ينذر بعواقب وخيمة.

العلم والكفاءة شرطا تمثيل الأزهر بالخارج في شهر رمضان

عقد الأزهر الشريف امتحانات تحريرية وشفوية للمتقدمين من علماء الأزهر للابتعاث خلال شهر رمضان لتمثيل الأزهر الشريف في مختلف دول العالم.

وقد تمت الاختبارات بشفافية ونزاهة، وتم ترتيب المتقدمين طبقًا لدرجاتهم في الاختبارات التحريرية والشفوية، وتم ترشيحهم على هذا الترتيب تلبية للطلبات الواردة للأزهر الشريف من وزارة الخارجية. جدير بالذكر أن المقابلة الشخصية للمتقدمين تمت بالتعاون بين أساتذة من جامعة الأزهر و سفراء من وزارة الخارجية.

دورة تدريبية حول الوسطية والاعتدال لأئمة أفغانستان

تحتضن الرابطة العالمية لخريجي الأزهر وفدًا من أئمة أفغانستان في دورةٍ تدريبية بمقر الرابطة بالتنسيق مع سفارة أفغانستان بالقاهرة.

صرح بذلك أسامة ياسين نائب رئيس مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر.

وقال ياسين إن عقد هذه الدورات يأتي برعايةٍ كريمةٍ من فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، ورئيس مجلس إدارة الرابطة.

من جانبه، أعلن الدكتور محمد عبدالفضيل القوصي وزير الأوقاف الأسبق ونائب رئيس مجلس إدارة الرابطة وعضو هيئة كبار العلماء، أن مثل هذه الدورات يتم تنظيمها من أجل تفعيل أهداف وخطط الرابطة في التعبير عن الإسلام السمح بصورته الوسطية البعيدة عن الغلو في الدين والتطرف

فى الفكر، مشيرًا إلى أن المتدربين يبلغ عددهم ٢٤ متدربًا، يتلقون تدريبا لمدة أسبوع.

وقال القوصى إن برنامج الدورة يتضمن عدة محاضرات فى مجالات مختلفة تشمل الجهاد، والمغالاة فى الدين، والفتوى وضوابطها فى الإطار الإسلامى، والعلاقة بين مقاصد الشريعة وعلم أصول الفقه، وأثر ذلك فى الفروع الفقهية، وملامح الإسلام الوسطى والجماعات والتيارات الإسلامية، وتجديد وإصلاح الفكر الإسلامي، وفقه الأولويات، والإيمان، والتوحيد، والتصوف، وكيف نواجه التشدد الدينى.

الإمام الأكبر: تقدم المجتمع العربى والإسلامى مرهون بنهضة المرأة

أكد فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيِّب، شيخ الأزهر، أن الأزهر هو ملك للأمة كلها ويقف على مسافة واحدة من الجميع ولا ينطوى تحت أى تيار أو فكر معين، فهو مصدرٌ للفكر الإسلامى الذى يعتمد على القرآن والسنة وما اتفق عليه علماء الأمة، وهو المعبر الأمين عن المذاهب الفكرية والفقهية فى المدرسة الإسلامية.

وقال خلال استقباله الدكتورة نوال الفاعورى رئيس لجنة الشئون الاجتماعية الثقافية والمرأة والشباب بالبرلمان العربى والوفد المرافق لها: إن بعض المجتمعات جردت المرأة من كثير من حقوقها تحت مسمى العادات والتقاليد والفقه المغلوط أو الفكر التغريبى المتسيب.

وأضاف: إن الأزهر خطا خطوات كبيرة نحو إطلاق وثيقة حقوق المرأة فى ضوء منطق الفقه الإسلامى، ولكن الوثيقة تأخرت لانشغالنا بأمور كثيرة تقتضيها المرحلة ولا عبرة بمن يقول إننا أخرنا إصدار الوثيقة بفعل ضغوط من هذا الطرف أو ذاك، فالأزهر بحمد الله مستقل يعمل بما يمليه عليه الشرع الحنيف ويحقق المصلحة المعتبرة.

وأوضح أن الوثيقة ستكون -بإذن الله- نبراسًا يُهتدى به، وسيتمّ إعلانها فى وقت قريب، مشيرًا إلى أن نهضة المجتمع العربى والإسلامى مرهونة بنهضة المرأة، والأزهر مستعدٌ للتعاون مع البرلمان العربى والتواصل معه، واتخاذ كل الخطوات الممكنة واللازمة للنهوض بمجتمعاتنا العربية والإسلامية.

ومن جانبها، أكدت د. فاطمة الفاعورى أن خطاب الأزهر أثلج صدورنا جميعًا فى البرلمان العربى، وأصبح لدينا ورقة ضمان لمرجعيتنا الإسلامية فى ظل المرجعيات المتعددة تحت فكر العولمة، مشيرة إلى أنها تتابع كلّ ما يصدر عن الأزهر من فكر ووثائق تعبر عن وسطية واعتدال منهجه الذى هو روح الإسلام.

وقالت: "إننى على ثقة كاملة من أن وثيقة الأزهر لحقوق المرأة ستخرج وفق خطاب إسلامى معاصر، يعلى من قيمة المرأة المسلمة ومكانتها".

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين أحمد رضوان - يحيى سليمان

فى مؤتمر عالمى بمناسبة الذكرى ٥٦ لنكبة فلسطين
علماء الأمة يناقشون الثوابت الفلسطينية فى ضوء الثوابت الإنسانية

افتتحت بالقاهرة فعاليات المؤتمر العالمى الذى تنظمه لجنة القدس بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحت عنوان «الثوابت الفلسطينية فى ضوء الثوابت الإنسانية»، والذى يعقد إحياء للذكرى ٥٦ لنكبة فلسطين.

حضر الجلسة الافتتاحية للمؤتمر نخبة من علماء الأمة ويحاضر فيها مجموعة كبيرة من العلماء بينهم فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر والقيادى الفلسطينى الدكتور محمود الزهار ومفتى مصر الأسبق الدكتور نصر فريد واصل، والدكتور محمد سليم العوا، والدكتور راغب السرجانى، والدكتور محمد محسوب، والدكتور رياض الشعيبى.

من جانبه أكد الدكتور صلاح سلطان أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن المؤتمر يهدف إلى تعريف الرأى العام العالمى خاصة العربى والإسلامى بأن الثوابت الإنسانية والحضارية تحمى الحقوق الفلسطينية والتأكيد على مكانة الحقوق الإنسانية للشعب الفلسطينى فى القانون الدولى وتبنى علماء الأمة ورموزها لمشاريع عملية تساهم فى حماية فلسطين وشعبها.

يذكر أن المؤتمر ناقش فى إطار عنوانه محاور أساسية منها القضية الفلسطينية فى ضوء الثوابت الإنسانية والحضارية والثوابت الإنساية والحقوق الفلسطيتية والكفاح الفلسطينى.

تطبيق «الحرف القرآني» على جميع لغات العالم

بدأت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» خطوات عملية لإطلاق مشروع كتابة لغات الشعوب الإسلامية بدول جنوب شرق آسيا بالحرف القرآني، وذلك بعد القبول الواسع الذي حظي به المشروع في الدول الإسلامية بالقارة الإفريقية، ويهدف المشروع إلى المحافظة على التراث المكتوب بلغات المسلمين بالحرف القرآني، وتوظيفه ليستجيب لحاجات المجتمع المعاصر وإعداد برامج تعليمية حاسوبية باللغات المحلية المكتوبة بالحرف الجاوي، إضافة إلى تطوير برامج معلوماتية سهلة التطبيق في المجالات التعليمية ومجالات النشر الثقافي. وكان المشروع قد بدأ في قارة إفريقيا، حيث شكل محورًا لعدد من الأنشطة والبرامج التربوية والثقافية الموجهة لخدمة المجتمعات، لاسيما في مجال محو الأمية وإصدار النشرات الصحية والتثقيفية والتعليمية باللغات المحلية.

ترميم مركز التراث الإسلامي بالقدس

انتهت وكالة التعاون والتنسيق التركية «تيكا» من أعمال ترميم أرشيف مركز إحياء التراث والبحوث الإسلامية، التابع لوزارة الأوقاف والشئون الدينية الفلسطينية في القدس.

وأكد القنصل التركي لدى فلسطين شاكر توروتلا، أهمية المؤسسة، مشيرًا إلى أنه لا يمكن أن يكون هناك تاريخ إسلامي، أو تركي أو عربي، ما لم يوجد تاريخ القدس وفلسطين مؤكدًا أن الهدف من هذا المشروع هو توصيل الإرث التاريخي المشترك للأجيال القادمة سالماً، وصون الأمانة التي تركها الأجداد، وتوصيلها كما هي للمستقبل وكانت وكالة تيكا قد خصصت ١,٥ مليون دولار لأعمال الترميم التي استمرت لمدة عامين، استخدمت فيها أحدث التقنيات، وتم تركيب خزانات مقاومة للحرائق.

هجمة بوذية جديدة.. ضد خمس قرى مسلمة للروهينجا

ذكرت وكالة أنباء الروهينجا أن شبابًا بوذيين يحملون العصي والسيوف تساندهم قوات عسكرية اعتدوا بالضرب على رجال ونساء قرى لوداينغ، تكفورا، كاساربيل، هاتبا، لمباغونا، وهي تابعة لمسلمي الروهينجا واغتصبوا ثلاث نساء أمام أهاليهن، واعتقلوا ٢٠ رجلا ونهبوا ممتلكاتهم.

وكان بوذيون متطرفون أقدموا على هدم مدرسة إسلامية وإحراق خمسة بيوت للمسلمين في منطقة تاغيدا برانغون يانغون العاصمة. حيث هاجم أكثر من ٣٠٠ بوذي متطرف مدرسة إسلامية في العاصمة.

ويشكل المسلمون أكثر من ١٠٪ من سكان بورما الذين يزيدون على ٦٠ مليون نسمة أي ستة ملايين مسلم ويعيش ما يقدر بنحو ٨٠٠ ألف من الروهينجا المسلمين في بورما لكنهم بلا جنسية، وترفض حكومة ميانمار منحهم الجنسية، على اعتبار أنهم مهاجرون جاءوا بطريقة غير مشروعة من بنجلاديش التي لا تعترف بهم أيضًا.

هذا وقد أجرت وزارة الخارجية المصرية سلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المكثفة في إطار جهود مصر التي تعهدت بها خلال الاجتماع الوزاري الإسلامي بجدة لوقف نزيف الدم المسلم في ميانمار.

وأوضحت الخارجية في بيان لها أن هذه الجهود تضمنت اتصالات مع رؤساء المفوضية الأوربية والمجلس الأوروبي ومجلس حقوق الإنسان، والأمين العام للأمم المتحدة، وأعضاء مجلس الأمن لوضع حد للظروف المأساوية التي يتعرض لها المسلمون في ميانمار.

استمرار الجدل.. حول مشروع بناء أول مسجد باليونان

تواصل الجدل حول مشروع بناء أول مسجد في العاصمة اليونانية أثينا حيث نفى نائب وزير الخارجية اليوناني كونستانتينوس تسياراس إبرام بلاده أي اتفاق مع تركيا حول بناء مسجد في أثينا، وهي العاصمة الوحيدة في الاتحاد الأوروبي التي لا يوجد بها أي دار إسلامية للعبادة.

وذكرت تقارير إعلامية يونانية نقلا عن تسياراس قوله: إن الحكومة اليونانية ستستخدم مواردها المالية الخاصة لبناء مسجد.

وصرح رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، أنه عرض على نظيره اليوناني أنطونيس ساماراس أن تتكفل بلاده ببناء أول مسجد في أثينا.

تعزيز التعاون بين سلطنة عمان ودار الإفتاء المصرية

استقبل فضيلة الأستاذ الدكتور شوقي علام مفتي الديار المصرية بمكتبه السفير الشيخ خليفة بن علي الحارثي سفير سلطنة عمان لدى مصر ومندوبها الدائم لدى جامعة الدول العربية.. جرى خلال المقابلة التباحث حول سبل تعزيز التعاون في المجالات الدينية بين السلطنة ودار الإفتاء المصرية.. وأكد فضيلة مفتي الديار المصرية أن العلاقات الثنائية بين سلطنة عمان ومصر هي علاقات راسخة وعميقة قائلا: نحن نسعى دائما لتعزيز التعاون مع أشقائنا العرب والتعاون سويا من أجل نهضة أمتنا العربية والإسلامية.

من جانبه أكد السفير الشيخ خليفة بن علي الحارثي قدرة مصر على تخطي الأزمات وعبور المرحلة الانتقالية التي تمر بها حاليا معربا عن تقديره لدور دار الإفتاء المصرية في نشر صحيح الدين ومواجهة الفكر المتشدد بالفكر الوسطي والذي تمتاز به مصر لوجود الأزهر الشريف وعلمائه بها.

٧٦ داعية من الأوقاف لإحياء ليالي شهر رمضان في العالم الإسلامي

اختارت وزارة الأوقاف ٧٦ إماما لإيفادهم إلى الخارج لإحياء ليالي شهر رمضان مع المسلمين.. كانت الوزارة قد أجرت مسابقة أسفرت في هذا الشأن عن اختيار ٧٦ إماما اجتازوا الامتحان من بين ٢٠٧٤ إماما من جميع المحافظات.

وأكد الدكتور طارق عبدالحميد مدير عام العلاقات الخارجية أن اختيار الموفدين تم وفقا لضوابط دقيقة ضمنت اختيار أفضل العناصر المؤهلة للقيام بهذه المهمة كسفراء للإسلام الصحيح أهمها الكفاءة العلمية والثقافة العامة والسمات الشخصية.

ومن ناحية أخرى تعقد وزارة الأوقاف قريبا مسابقة عامة بين جميع الدعاة لاختيار أفضل العناصر الدعوية لمرافقة حجاج القرعة لهذا العام. وقال الشيخ أحمد هليل مدير عام الإرشاد الديني: إن الدعاة المختارين سيكون مهمتهم هي شرح مناسك الحج والتيسير على الحجاج في أداء الفريضة دون مشقة خاصة المرضى وكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة. وأوضح هليل أن الوزارة وضعت ضوابط لضمان اختيار الدعاة المناسبين لهذه المهمة وضمان العدالة بين الدعاة أهمها أن يكون قد أمضى عشر سنوات على الأقل كداعية وأن يكون حاصلا على تقدير ممتاز في السنوات الثلاث الأخيرة، وأن يكون سليم الحواس والأطراف وألا يكون قد سبق له الحج على نفقة الوزارة أو مرافق لبعثة القرعة قبل ذلك.

Asli (original) is opposite Fare`y (subsidiary), surplus, substitute, or mimic. The word "Asl" describes the suitable law or rule that applied to the minors as well as the old case. The jurisprudents say that "the origin in apply rulings on things is permission and purity." Usul here means the postulates.

Fundamentalism scholars name some meanings Asl, one of which is evidence "The evidence on a certain matter is the Qur'an and the Sunnah", and the second is "the overall rule", and the third is "the preponderant".[9]

The sciences of the "Fundamentals of Religion" such as theology, Monotheism, Grand jurisprudence, and the fundamentals of jurisprudence, is the science of the rules and researches, by which we deduce the legal rulings from their detailed proofs, and the "fundamentals of Hadith" is the Hadith expression or Mustalahul – Hadith.

In this way, the heritage and civilization of Islam as well as the Arabic dictionaries do not contain the term "Fundamentalism" and the contents known by the West for this term.

Even in our contemporary Islamic thought, whose scholars used the term "Fundamentalism" in the detectives of the fundamentals of jurisprudence, we find its meaning: "The legislative fundamental rules, which are derived by the scholars of the fundamentals of

[9] See – for example – Ibn Manzhur (Lisan Al-`Arab), Dar Al-Ma`aref edition, Cairo; Al-Tahony, Kasshshaf Istalahat Al-Funun", India edition, 1891 A.D.
Abu Al-Baqa'a, Al-Kulliyyny, verified by `Adnan Darwish nd Mohammad Al-Masry, Damascus edition, 1982, Macrothesaurus, formed by the Arabic Language Academy, Cairo edition, 1970 A.D., Qur'an Glossary, formed by the Arabic Language Academy, Cairo edition, 1970 A.D.

jurisprudence from the texts, which determined general legislative principles and overall legislative fundamentals, such as:

1- The general objective of legislation
2- Allah's right and the rights of the person accounted for his deeds.
3- The matter in which Ijtihad can be practiced.
4- Canceling a ruling.
5- Contradiction and preference[10]

None of them has a relation to the contents of the term "Fundamentalism" stated in the Western civilization and its Christian thought.

However, regardless of this naming, Is there any trend or approach in the Islamic heritage that dealt with the sacred texts in the way the Western fundamentalists dealt with them, and considered the literal exegesis of the Qur'an and the Sunnah and rejected all interpretations and metaphors of any text whatever the contradiction is with the evidences of the mind? Can this let us say that the attitude adopted by certain approach from the sacred Islamic texts is the same of the Christian fundamentalist's attitude from the Bible and Al-Ghazaly emphasized that that the Islamic doctrines resorted to interpretation.

[10] Abdul-Wahab Khalaf, the fundamentals of jurisprudence, Kuwait, 1972 A.D., pp 210-232.

When fundamentalism became an independent approach at the beginning of the twentieth century, sayings stemming from the literal exegesis of the Bible were crystallized through its institutions and the writings of its priests, calling for antagonizing the real circumstances and rejecting the development as well as antagonizing the secular societies altogether. For example, they called for direction relation with Allah and resort to separation from the social life and reject interaction with the real life. Also, they antagonize reason, scientific thinking, and scientific inventions. They desert the universities, establish special institutions for their education, as they reject the positive sides of the secular life and their negative sides for a still stronger reason such as abortion, birth control, sexual abnormalities, the claims defending the rights of those who practice it, intoxicants, smoking, and following socialism.

The fundamentalist movement witnessed in the first decades of the twentieth century a number of conferences, which turned into a number of organization, the most remarkable of which in America is "The Association of the Holy Book" in 1902. It issued twelve bulls entitled "Fundamentals" to defense the literal exegesis of the Bible and to attack and criticize its interpretation. This is in addition to "The International Institution for the Christian Fundamentalists" in 1919 A.D. and the "National Union of the Fundamentalists".

This is the meaning of Fundamentalists in the Western terminology or in the Christian concept.[8]

* * *

As for the Arab point of view and the Islamic concept, we do not find in our old linguistic terminology any mention for this term. However, we find the root of the word "Al-Asl (origin", which means the root of a thing. Its plural is "Usul (fundamentals)". In the Noble Qur'an:

{What you (O Muslims) cut down of a palm-tree (of the enemy), or you left it standing on its stem, it was by the Leave of Allâh, and in order that He might disgrace the Fâsiqûn (the rebellious, the disobedient to Allâh).}

[Al-Hashr (The Exile): 5]

Aman who is described as "Assil" is a person of pure origin and a reasonable person, when it describes an opinion; it means an opinion which has a basis. When it describes glory, it means original.

{Verily, it is a tree that springs out of the bottom of Hell-fire}

[Al-Saffat (Those who set the ranks): 64]

{See you not how Allâh sets forth a parable? A goodly word as a goodly tree, whose root is firmly fixed, and its branches (reach) to the sky (i.e. very high).}

[Ibrahim (Abraham): 24]

---

[8] See: Encyclopedia Britannica, Fundamentalism.

* Fundamentalism With Regard to the West and Islam ... !

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

Fundamentalism, with the meaning whose content dominated our contemporary informational, cultural, and political circles, is a Western expression in terms of origin and content. Its Arab origin and Islamic meaning has other concepts and contents different from the Western contents, which are sought by the people concerned.

This different in contents and concepts in spite of having the same expression is a common matter in many terms circulated by the Arabs, Muslims and the West. This is in spite of its changing contents in every civilization. This matter causes much confusion and ambiguity in our contemporary cultural, political, and informational life, in which the means of communication mixed many terms, which have the same word in spite of their different contents, backgrounds, and implications.

The term "Left Wing" – for example – signifies in the Western thought the laborers, poor, and needy people. However, it signifies in the Islamic and Arab contents the rich and luxurious people.

---

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same copy.

The term "Right Wing" – for example – in the Western thought signifies the degraded people, while it signifies in the Arab and Islamic thought the believers and good-doers, who will meet their Creator on the Day of Judgment holding their the accounts of their good deeds with their right hands, i.e., with power, firmness, and repose. Thus, Imam Abdul Hamid Badis (1307-1359 A.H. / 1889 – 1940 A.D.) supplicated to Allah (Glory be to Him) saying: "O Allah, make me in this worldly life from the luxurious people and in the Hereafter from the people who present the accounts of their deeds with their right hands." This is according to the Islamic significance and not in the Western significance of "Ahl-Al-Yamin" and "Ahl Al-Yasar".

Fundamentalism in the West is a protestant movement in terms of the approach and American in origin. It started in the nineteenth century, stemming from a broader movement "The Millennium Movement", which carried belief in the physical return of the Christ to this world to rule it a thousand of years before the Day of Judgment.

The intellectual position, which distinguished this fundamentalism, is: "The literal exegesis of the Bible and all of the inherited religious texts, and complete rejection for any form of interpretation applied to spiritual metaphors and mystic symbols as well as antagonizing the critic studies written for the Bible and the Holy Book." Driven by the literal exegesis of the Bible, the Protestant fundamentalists believe in the physical return of Christ to rule the world a thousand of happy years, as they interpreted the vision of John (the Revelation) [10-1-10] – literally.

formulation as it is in the other books especially after the death of the owner of the text or being inspired by the effect of the environment, historical facts.

The Prophet's (may the blessings and peace of Allah be upon him) role was limited to transmitting the text and informing the people with it exactly as he heard. The Qur'anic text had wonderful methods of authenticating, keeping, and protecting it eternally, the characteristics which were not granted to any other historical, literary, religious texts, or other texts. These great differences let the western people subject these texts, in which the humans interfere to the modern readings.

The owners of these texts died; thus, their reader has the right to shun the certain meaning or understanding meant by those dead people. The Western modernization necessitates severing the ties with the past and its effects, for "The forms of degradation imprinted in their memories in the Medieval period, as they fled from the past – even if it is near past – as if they were fleeing from death.

Although this does not apply to the memory of the Muslims because this period witnessed their civilization, some scholars relied on the opinion that the Islamic nation should follow the footsteps of the West in their relation with their heritage and history. Their interpretations of the Qur'an severed the ties with the previous interpretations, aspiring to make a new interpretation."[5] Moreover, the European real circumstances, which formed this modern approach experienced bitter struggle between the thinkers, authors, and philosophers from one side and religion, the church, and its bishops from the other sides. The struggle revealed landslide victory for the writers and philosophy. They called their philosophy "enlightenment philosophy" in a explicit reference to the philosophy of their opponents from among the clergy and the Church, which is the philosophy of darkness, ignorance, and confusion, which should be removed from the people. Thus, the philosophers of Western enlightenment did not hesitate to say that the modern thought is concerned with the human being and disregard the religion. They think that the human mind is the only reference and nor the divine revelation. They believe that the worldly life is the main concern of the human being and not the Afterlife.[6]

It is obvious that the approach of interpreting the texts is formed by the associations of the Western struggle and its ideological and mental transformations. If it is applied to texts that rely on inviolability and divine revelation, and regard the

[5] The Spirit of Modernization Leading to the Foundation of the Islamic Modernization, written by Taha Abdul Rahman, pp. 175-176, the Western Cultural Center, Morocco, 2006, it is a very important in criticizing the Western modernization and the Arab modernizers with regard to the issue of heritage.
[6] The same reference

worldly life as short line in life, it will an endless line in an infinite life. When this approach is applied by force to different things, it will undoubtedly result in a mistaken reading denied by the text and it does not express the text in any way.

Our research, for which we present this introduction, combines the different approaches, for which we referred. This is far from the principle of removing the inviolability from the original texts in this heritage, by which I mean the Noble Qur'an and the Sunnah. Then, it opens the door to the history of the text and the original material, which mean that the revelation of the Qur'an and the Sunnah responds to the physical circumstances on earth.

In spite of our respect for Dr. Hasan Hanafy, our scientific duty is that we remind the readers that his project and works with their huge volumes came to say: The heritage with its origins and branches can not be completely relied on it in this age and we should produce it once again and employ it through innovation.

At this point, we may agree with him that if the innovation process is based on preserving the origins, the established facts, and all of the decisive texts along with the reasonable Ijtihad in the branches that allow that to be in accordance with the new issues. However, we differ with him in the opinion that the innovation destroys the firmly established facts of the heritage or distorting it, then presenting it to the Muslims as the lifeline for their contemporary life.

This research includes a call, introductions, conclusions, discussions, oppositions, and answers. We bring them to discharge oneself, seeking Allah's Pleasure, and He is the Best to rely on and the Best Supporter[7].

Peace and blessings be upon you.

7 Al-Azhar Written in: Rabi' I, 1434 A.H. Corresponding to 17th of January, 2013.

scientific degrees. We will be truthful if we say that Sheikh Al-Ghazaly was the only one who had the ability of formulating a sublime Islamic culture, from which was very useful the for cultured and the masses alike. Also, it revealed to the readers the greatness of Islam, vitality of the Qur'an and the honorable Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him). Also, it restored to the Muslims confidence in their ability to combine in their lives religion and life without any separation, paradox, and alienation.

We may say the same about ustaz. Sayyid Qutb and his books, which depicted the social justice of Islam, which can not appear in the economic and social systems of Socialism, Communism, and Capitalism.

No one who focuses on the Marxist battle in the Arab world in the sixties of the previous century can neglect the works of Muhammad Baqir Al-Sadr in Iraq, which came to destroy the materialistic philosophy in Capitalism, Socialism, and Communism. Al-Sayyid Al-Sadr elaborated on the social tragedies caused to humanity by the materialistic systems, especially in Capitalism or Socialism. The works of Al-Sadr were characterized by philosophic accuracy and deep analysis of Communism, Socialism, and Capitalism and his logic criticism relying on reasonable pretexts, and philosophical, economic, juristic evidence on the tendencies, which renounced the philosophy of religion and morals. The two books "Our Philosophy" and "Our Economy" are like two lamps that lighten the way to every person, who wants to know the disadvantages of the materialistic philosophy, and the social systems resulting from it. A person may imagine at the very beginning that they are like paradise lost, then they discovered that they are unbearable hell.

When these scientific and philosophic structures collapsed in their countries of origin, after the downfall of the Soviet Union, there began a new movement of delusion and attacking the Islamic sanctities. This attack was against the heritage of the Muslims, which still continue its campaign to this day. There are many theories relevant to this tendency about what some of the authors named as the massacre of heritage.[4]

Great seminars were held to discuss the value if heritage in modernizing the Arab world and whether it is an effective factor in making a project that promote the Islamic and Arab world or a dead frozen factor. In this way, renaissance project – as some people thought – would start from nothing, and we would have the right to direct ourselves to Europe and America to derive from them whatever we want and we may not regard any religion, Shari'ah, or Arab and Islamic culture.

[4] George Tarabishy, the Massacre of Heritage.

We should be impartial and say that some of our leading prudent thinkers viewed heritage in a balanced way, and drew our attention to the fact that the negligence of our traditional and intellectual heritage in the renaissance project is like suicide, cultural destruction, or downfall. No Arab civilization can make progress unless it depended on its heritage in the modernization process, so as to have a distinct entity and character amongst the other civilizations.

Also, we can take from the heritage what is accepted and can be coexisted with and leave what is closely related to its age and is not relevant or valid to our age. These are the mediators who believed in the established facts of heritage and called for preserving them. Also, they considered respectfully its variables, but within the framework of their historical changes and transformations according to the circumstances and the developments occurring in the ages. However, this does not mean that we govern our age with the changes of ages that do not meet the requirements of this age. Thus, we should make some Ijtihad.

However, a group of people exceeded the proper limits in their call for giving the right for Ijtihad to every thinker and cultured person, even if he is not qualified and does not meet the requirements of Ijtihad. They claimed that they deserve reviving the heritage to adapt it to the new circumstances of the age. They were divided into schools and orders: Some of them stripped heritage from its most significant characteristics such as the sacred text, and was substituted by disassembling the sacred text. Others limited heritage to origins and branches in a terminated historical period, and they are the followers of the school of the history of the text.

Others referred heritage entirely to material origins, which regard only the materialistic schools and disregard what is beyond the materialistic world.

Others resorted to applying Hermeneutics in interpreting the Qur'anic text, and said that understanding the text is not something fixed or eternal, and its recitation is open, and there is no difference between a literary text or a religious text. They regard the Noble Qur'an as a linguistic text, which was formed in the culture of its age, its circumstances and history. Also, it can not be separated from its environments and culture, with which it was sent down.

The followers of this trend equalize the Qur'anic text and the historical texts as well as the texts of Torah and the Bible in their subjection to the modern recitations, paying no heed to the decisive differences between the Qur'anic text and these texts. This is in terms of the difference of the nature of the source, as it is divine and sacred in the Qur'an, and in other books, it is written inspirations. The Qur'anic text was not liable to any human interference by narration, summoning events, or

accompanied by Dr. Muhamma Al-Bahay, the General Manager of the Islamic Culture at that time and other scholars.

In this report, we read some paragraphs implying complains from the officers in Egypt who tended to pull the rug from under Al-Azhar and its scholars, stripping Al-Azhar of its power, and granting it to civil authorities, which are so far from the Islamic work. This was when the report referred to the emergence of a new entity called the Islamic Conference to alternate all of the cultural, scientific, and social activities of Al-Azhar through which it communicates with the people of Egypt and the Muslims abroad.

The Islamic Conference in Egypt formed a small mission from its members, which went to Indonesia two weeks before the mission of the Sheikh of Al-Azhar. The sequence of the two missions at that short time stirred inquiries from the official governmental authorities in Indonesia – as the report stated – which revealed that the mission of the Islamic Conference was revealing to the Indonesians that the role of Al-Azhar was limited to the matters of worship only, and the Islamic Conference – in its new status took the social side from Al-Azhar. Thus, the Islamic Conference imposes itself as the authority which establishes the spiritual cultural link between the United Arab Republic and the Islamic countries. Thus, the calls to the United Arab Republic with regard to providing cultural assistance in form of books, teachers, or students should be directed to the Islamic Conference only.

The report comments on the offer presented by the envoy[1] of the Islamic Conference to Indonesia saying: "In addition to that this offer stirs doubts concerning the relation of the United Arab Republic with the Islamic countries, it belittles the status and awe of Al-Azhar in the souls of the Muslims outside the United Arab Republic, and this matter benefits only the opponents of the United Arab Republic.[2]"

" The mission of Al-Azhar headed by the honorable Sheikh of Al-Azhar, Mahmoud Shaltut, was extremely courageous in presenting this report to President Jamal Abdul-Nasir. The honorable Sheikh stated in this report: "I was surprised that the Minister of Religious Affairs received an invitation from the Islamic Conference and the Ministry of Endowments to hold an Islamic seminar in June in this year. I was surprised by this, as Al-Azhar was not informed with this seminar. Keening on the status of Al-Azhar in this country necessitates consulting Al-Azhar first with regard to this invitation. In addition to the fact that this implies non harmony in the Islamic

[1] The report states that one of these envoys was a professor in the Faculty of Agriculture and the other was teacher in this faculty.

[2] See the report of AL-Azhar mission to Indonesia from 17th of January to 17th of February, 1961 "Top Secret", 6, printed by the typewriter in 13 pages.

policy of the United Arab Republic, it gives the Islamic public opinion abroad feeling that there is competition between the Islamic authorities in Cairo, and their treating each other in unsuitable way, especially the place of Al-Azhar, which has history and leaders publicly in the Islamic world."[3]

This report, which contains sorrowful sentences reveal that Al-Azhar in the Socialist Egypt suffered from oppression and removing of power as well as restricting it to worshipping only and depriving it of its loving people in Egypt and the Muslims in general.

We believe that putting Al-Azhar aside at that time politically, socially, and popularly was certainly not easy for the Egyptian Muslims. However, it was the adaptation imposed by the necessities of the political and economic transformation and the necessities of paying no heed to the ideological and philosophical requirements of a certain tendency.

We, the students of Al-Azhar, lived in this era amidst the culturual tendencies coming from the East and West of Europe. We had two ways: Either to respond to them and to suffer from alienation or to be restricted to our heritage and tradition and suffer from alienation also. We were saved by the elite of Egypt's thinkers, who resisted fiercely the thought which came from the East and the West, and their revealed many of its shortcomings and disadvantages. Also, they indicated to many readers and youths the disadvantages and shortcomings of these tendencies and that they are destructive.

The master of the Arabic literature, The Thinker Abbas Al-Aqqad was at the top of these thinkers who acted as the lifeline for us and restored confidence in ourselves, our heritage and culture. This great pioneer is credited with confronting and destroying this tendency. Prof-Dr-Muhammad Al-Bahay followed his footsteps and he dedicated himself after leaving deposed from the Ministry of Endowments to criticizing materialism and proving the weakness of the materialistic thought in the books and the exegesis of parts of the Noble Qur'an. He refuted the materialistic philosophy.

The books, articles, and lectures of the great Islamic thinker Sheikh Muhammad Al-Ghazaly resisted fiercely this tendency, which was about plucking the Islamic roots, making the minds shallow, and forging the awareness. The attempts of this Sheikh were characterized by the simplicity of the style and easiness of presentation as well as the speed of transmission amongst the audience regardless the cultural and

[3] The report, p. 8.

Tradition and Innovation :
Introduction.

By : The Grand Imam Prof – Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar sheikh.

In the Name of Allah, the Most Compassionate, the Most Merciful

I still remember in the sixties of the last century when we were students in the religious institute, about to finish our secondary strudy in Al-Azhar and about to start our study at the university, the scientific Marxist and Socialist philosophies were filling the markets with their books and publications. For the sake of scientific and cultural superiority, the students were repeating the myths of Leninism, Marxism, and Trotskyism, and were speaking about the nuances between these approaches. They indulged in natural and historical debate and laws of evolution in addition to philosophical and social basics, which were sought only by the designing student. While the student who is limited to gaining the traditional knowledge and acquainting oneself with its technical language, which formulated the sentences of the sheikhs in terms of text, explanations, notes, and comments.

It seemed that contemporaneity sought by the ambitious students seeking excellence and distinction necessitates that acquire some of the books of Marxism, Engles, Lenin, and the masters of the Socialist thought, reading about Socialism, and taking it as a material of discussion and debate. Marxism, which was circulated under the banner of Socialism, was not the only approach exerting pressure on the youths' thoughts and minds in the sixties of the last century.

We knew little about the other philosophical schools such as logical positivism, existential philosophy, as well as the other schools which attract the attention of the students longing for renovation culture and to be far from tradition. The movement of writing and publishing books pushed the readers and cultures people to this direction, as the country at this time tended to and thought highly of Socialism as it was moving away from and belittling capitalism. Hence, it facilitated the acquaintance of the socialist and scientific sources for the youths by cheap prices.

The movement of culture, thought, art, and literature tended generally to Socialism with all of its philosophical, economic, social, and artistic tendencies. It sometimes repeats the songs and chants, which are memorized by the children and youths that

the enemy of Socialism betrays the responsibility. This is to the extent that Socialism interfered directly in the religious institutions, evaluate their performance, and check their suitability to the Socialist approach, which represented the economic and cultural tendency of the country at that time.

I remember that I visited at that time one of Al-Azhar professors at his villa, and he was deposed from office as the Minister of Endowments few years preceding this time in spite of his activeness, scientific distinction, and sharp wit as well as combining the traditional culture of Al-Azhar and the modern European culture. He said at that time that he was deposed from office according to the order of the Socialist camp, which fears that religious activity of the Ministry of Endowments hinder the Socialist extension. This Socialist extension reached the extent of interfering in the religious affairs, as the sermons delivered in the mosques in this period subjected to a unified plan, which was linked to the physical reality of the society.

I remember that one of the subject of one of the sermons was "The Week of the Traffic" and abiding by the traffic rules. This was a subject of jokes about the responsibility of the Imam of the mosque and that of the traffic officer.

We realized later on that Socialism, to which Egypt turned at this time was economic in its practical applications in the very meaning of the word. However, it has philosophical and ideological origins and has – in the countries of origin – a public attitude towards religion; any religion, in the way that it is very difficult to separate the economic, social, and ideological dimensions of this tendency or neglecting its integral philosophical side.

Also, any country can not nationalize the heavy industries, control production and its means, foreign trade, education, or medication...etc. without being affected with this tendency in belittling religion. The ideological backgrounds of Socialism which dominated the Egyptian society did not antagonize Islam in public and frankly, because such confrontation may take this tendency outside the country. However, it has negative effect on Al-Azhar and the other religious institutions in Egypt, especially Al-Azhar students, who were acquainted with the traditional and intellectual hereditary sciences.

The evidence of oppressing Al-Azhar and its sheikhs at that time is some of the sentences mentioned in the report of Al-Azhar mission in Indonesia, Malazya, and Philippine in the period extending from 17th of January to 16th of February, 1961 headed by the Grant Imam Sheikh Mahmoud Shaltut, the Sheikh of Al-Azhar,

Fasting in Sha`ban month ...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

It was narrated on the authority of `Aishah "the Mother of the faithfuls" (may Allah be pleased with her): "The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) observed fasting to the extent that we said that he will not breakfast and he broke fast to the extent that we said that he will not observe fast. I did not see the Messenger of Allah completing the fasting of any month other than Ramadan, and the month in which he observed fast much is Sha`ban." (Narrated by Al-Bukhari and Muslim).

In another narration by Muslim:

"He used to observe fast in Sha`ban, and in another narration, he observed fast in Sha`ban with the exception of some days."

Some of the scholars including Ibn Al-Mubarak and others considered that, it is more likely that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) did not complete the fasting of Sha`ban, and he used to fast most of its days. It was mentioned in Sahih Muslim on the authority of `Aishah "the Mother of the faithfuls" (may Allah be pleased with her): "She did not know that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) fasting any month entirely other than Ramadan."

It was narrated in another narration on the authority of `Aishah "the Mother of the faithfuls": "I did not see him fasting in any month entirely since our coming to Medina except in Ramadan."

It was narrated in the two Sahihs on the authority of Ibn `Abbas: "The Messenger of Allah did not fast any month entirely except Ramadan." (Related by Al-Bukhari and Muslim).

Ibn `Abbas disliked the fasting of any month entirely except Ramadan. Ibn hajar (may Allah be merciful with him) about the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "He used to observe voluntary fast in Sha`ban more that in any month else, and he used to fast most of the days of Sha`ban.

It was narrated on the authority of Usamah ibn Zayd (may Allah be pleased with him and his father): "I said: 'O Messenger of Allah, I did not see you fasting in any month more that in Sha`ban.' And the Messenger of Allah said: People are heedless to this month, as it is between Rajab and Ramadan. In which the deeds are raised to the Lord of the Worlds, and I like my deeds to be raised while I am fasting." (Narrated by Al-Nasae'y)

In another narration by Abu Dawud, he said: "The fasting in Sha`ban which was most beloved to the Messenger of Allah, then he would start Ramadan." [Al-Albany regarded it as Sahih).

Ibn Rajab (may Allah be merciful with him) said: "Fasting in Sha`ban is better than fasting in the inviolable month. And the best voluntary deeds were that which before or after Ramadan." Its status with regard to fasting is like the status of Al-Sunan Ar-Rawatib, which are voluntary acts to be done before or after the obligatory acts to complete and perfect them."

Fasting before or after Ramadan is better than fasting in any time else. Also, the Messenger of Allah said: "Sha`ban is a month neglected by people, as it is between Rajab and Ramadan." This indicates that as it is between two inviolable months – Rajab and Ramadan – the people are preoccupied with them. Thus, it is neglected. Many people believe that fasting in Rajab is better than fasting in Sha`ban.

ليون

آراجون

قشتالة

الثغر الأعلى

الثغر الأوسط

قلعة الأرك

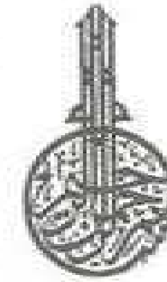
الثغر الأدنى

الأندلـــس

موقعة الأرك بين جيوش الموحدين بقيادة السلطان أبو يعقوب المنصور وبين الجيش القشتالي بقيادة ألفونسو الثامن
9 شعبان 591 هـ - 18 يوليو 1195 م

AL-AZHAR MAGAZINE

Sha`ban, 1434 A.H



ENGLISH SECTION

June, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

مكتبة
الأزهر الشريف









هدية العدد: ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين لفضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى

الافتتاحية

مسيرة قلم

أ.د. محمد عمارة

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية تصدرها مجمع البحوث الإسلامية | رمضان ... هـ يوليو / أغسطس ... م الجزء ... السنة ...

بين نكبة يونيو ونصر العاشر من رمضان

أ.د. يوسف القرضاوي

الجهاد الأكبر

أ.د. نظمي لوقا

في الصيام

أ.د. محمد عبد الله دراز

في عدد شوال

الافتتاحية

فرعون موسى بين المقدس والآثار

أ.د. محمد عمارة

التأليف في معاجم مصطلحات التجويد

أ.د. خالد فهمي

مخطوطات تربوية

أ.د. سعيد إسماعيل علي

بين سيد قطب ومالك بن نبي

أ. راشد الغنوشي



www.Alazharmag.com

هدية رمضان: المدخل إلى السياسة الشرعية

أ.د. عبدالعال أحمد عطوة - أستاذ الفقه الإسلامي

السعر جنيهان



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثاني.



« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي

صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م

وحمل اسم « نور الإسلام »

ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



رئيس التحرير

أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة: عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير: أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير: محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوروبا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق أسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠٠

المراسلات باسم

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

مكتبة الأزهر الشريف

دوريات

الافتتاحية

مسيرة قلم



لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة

قبل ما يقرب من سبعين عاما.. وفي مدينة «دسوق» يوم ٨ أبريل عام ١٩٤٨م وقفت أمام «كشك» لبيع الصحف والمجلات، واشتريت نسخة من صحيفة «مصر الفتاة» الأسبوعية ووجدت بها أول مقال نشرته لي صحيفة من الصحف - وكان عنوانه «جهاد».. وموضوعه عن جهاد الفدائيين العرب الذين دخلوا أرض فلسطين - قبل دخول الجيوش العربية النظامية - دفاعا عن الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين.

لقد رأيت اسمي مكتوبا بالمطبعة لأول مرة في حياتي.. وفي تلك اللحظة غمرني إحساس ملك علي كياني: أن هذا المكان - مكان الكاتب - هو أحب مكان أتمنى أن يوضع اسمي فيه.

وكانت مكتبتي الخاصة والحرة - غير الكتب الدراسية في معهد دسوق الديني - لاتتعدى كتاب «النظرات» للمرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي (١٢٩٣-١٣٤٢هـ-١٨٧٦-١٩٢٤م) الذي اشتريته بتوجيه من المرحوم الشيخ محمد كامل الفقي - الذي كان يدرس لنا علم النحو - في السنة الثانية الابتدائية - والذي أوقد لدى شرارة القراءة الحرة، وجعلني أطالع - في الفصل صفحات من كتاب «النظرات».. فتعلمت فن الخطابة - مع المطالعة - وبدأت أخطب - بالمساجد - عن قضية فلسطين!.

ولأن الطموح إلى أن أكون كاتبا - لا موظفا - قد ملك علي كياني منذ تلك اللحظات، فلقد توجهت إلى عالم القراءة الحرة، وأعطيتها أغلب أوقاتي، حتى أني جعلت الثقافة العامة معينا على اختصار الساعات التي أعطيها للكتب الدراسية المقررة.. فكانت الثقافة الأدبية والقراءات الحرة هي التي تنمي وتدبج وتحسن الإجابات في الامتحانات!

وفي القرية - «صروة» هداني الله إلى مكتبة مهجورة، كان صاحبها - المرحوم الشيخ عبدالتواب الشناوي - قد توفي عام تخرجه في كلية أصول الدين.. ولم يكن بمنزل عائلته من يقرأ أو يكتب.. وكان لي صديق هو ابن أخيه.. فلفت نظري إلى هذه المكتبة، التي ذهبت إليها، فوجدتها كنزا فريدا من كنوز المعرفة، تضم نحوا من أربعة آلاف كتاب، بها عيون التراث العربي والإسلامي، في كل ميادين هذا التراث، كما تضم العديد من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية في الفلسفة والأدب والاجتماع.. بل وتضم - أيضا - نسخا كاملة لأشهر

مجلات العصر - مثل (الأزهر) و(الرسالة).. بل والنسخة الأصلية من أعداد مجلة (العروة الوثقى)!.

ولقد تم الاتفاق بيني وبين أسرة الشناوي على شراء هذه المكتبة - على دفعات - وبسعر قرش للكتاب - كبيرا كان أو صغيرا - وكان الشراء على دفعات؛ لأن أربعين جنيها، في ذلك التاريخ، وفي ظروف الواقع المعيش، كانت ثروة يشتري بها الإنسان عددا من الأفدنة، التي هي أعظم ثروة لدى الفلاح.. وكانت النساء زوجات إخوتي - ينقلن الكتب على رءوسهن «بالقفف» من منزل الشناوي إلى منزلنا.

وبدأت رحلة القراءة في عوالم الفكر العربي والإسلامي، والمترجمات من اللغات الأوروبية.. وكانت شهور الإجازة الصيفية الأربعة ممنوحة كلها للقراءة، نهارا إما بالمنزل أو تحت أشجار الجميز والصفصاف على شاطئ النيل - ومساء بالمنزل على ضوء «لمبة الجاز» نمرة خمسة.. التي ترقت إلى نمرة عشرة.. ثم نمرة خمسة عشر.. وكان البصر حديدا.. فكنت أقرأ حتى تختلط السطور أمام عيني، فأستريح مغمضا عيناي للحظات، ثم أعاود القراءة من جديد.

وبعد استيعاب هذا الكنز المعرفي الثمين والعريض والعميق.. وبعد الحفظ لعديد من دواوين الشعر - الجاهلي والإسلامي - وللعديد من نصوص الأدب العربي المختارة كنماذج للبلاغة والفصاحة - بدأت - على نحو سلس وطبيعي - الرغبة في الكتابة والإبداع.. فكتبت ونشرت - شعرا ونثرا - في عدد من الصحف والمجلات - (مصر الفتاة) و(الاشتراكية) و(منبر الشرق) و(المصري) و(المساء) و(الآداب) البيروتية - ومارست الخطابة بمسجد القرية.. وتعليم الناس فقه العبادات والمعاملات.. وقيم الصدع بالحق في مواجهة الظلم والإقطاع والاستبداد.

أما أول كتاب كتبته ونشرته فكان إبان دراستي بكلية دار العلوم.. وهو كتاب (القومية

العربيـة ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب) - الذى كتبته فى أسـبوع سـنة ١٩٥٧م.. والذى نشر عام ١٩٥٨م - أى بعد عشر سنوات من نشر أول مقال!.. ولقد طبع هذا الكتاب طبعتان، وترجم إلى اللغة الروسـية، لأنه كان أول كتاب ينشر فى مصر عن القومية العربية بعد وحدة مصر وسـوريا عام ١٩٥٨م.. ولقد أعطانى الناشـر - «دار الفكر» - جنيهـان، مكافأة على التأليف.. فكانا فاتحة وبشرى ليكون كدح الفكر ومداد القلم هو مصدر العيش، وليس مرتبات الوظائف - التى اعتبرتها لونا من الرق، دعوت الله أن يحررنى منها وأن يعتقنى من أغلالها؛ لأكون - بكل مـا أملـك من ملكات وطاقات وأوقات - من «أهـل العلم»، كما نذرنى أبي، وأنا لا أزال جنينا فى رحم أمي - عليهما رحمة الله.

ومنذ منتصف عقد السـتينيات - فى القرن الماضى - بدأت التفرغ للعمل الفكرى.

• وكان المـد القومـى العربـى فـى ذروته.. فكتبت - فى ميـدان الفكر القومـى - العديد من الكتب والدراسـات، قدمت فيها رؤية أحسـبها متميزة.. فعلى حين كان الماركسيون ينكرون وجود «أمة عربية»، لأن شرط «الحياة الاقتصادية المشتركة» غير متوفر للعالم العربي.. أكدت علـى أن «الأمة العربية» قد ولدت وتبلورت بظهور الإسـلام.. وأن التجزئـة الحالية لوطنها هى أمر طارئ فرضه الاستعمار.. ومن ثم فإن المطلوب هو التكامل لوطن هذه الأمة الواحدة التى لم تنقطع وحدتها عبر تاريخ الإسلام.

وعلى حين كانت «العروبة» - عند البعثيين - قد شـابتها مقادير من العنصرية التى وفدت إلى بلادنا من الفكر القومى الأوروبي.. فلقد أكدت - فى دراساتى القومية - على أن العروبة هى دائرة لغوية وثقافية، لا تقيم حاجزا بين العرب وبين الشعوب المسلمة الأخري.

• وعلـى حيـن كان جيلـى - من الذين تعلمـوا بالأزهر الشـريف - تغلب عليهـم رؤية تراثنا وحده.. بينما كان الذين تعلموا فى المدارس والجامعات المدنية يغلب عليهم النظر إلى الدنيا والكـون والثقافة والاجتماع بعيون المناهج الغربية.. فلقد تميزت رؤيتى الثقافية بالجمع بين تراثنـا العربى الإسـلامى وبين عطاء الحضارة الغربية.. ولقد بدأت بـذور هذه الرؤية المتميزة بقراءة المترجمات فى المكتبة التى تكون فيها عقلى ووجداني.. ثم نمت هذه البذور وأورقت بسـبب اشتغالى بالسياسـة وبالنضال التقدمي، وبسبب محاولاتى اسـتيعاب الفكر اليسارى - الذى كان «موضة العصر»! والإطلال على أبرز نظريات الفكر الغربي.

الأمر الذى أعاننى - فى مشروعى الفكرى - على محاربة الغزو الثقافي، وعلى محاربة الانغلاق الفكـرى جميعا.. فكتبت كثيرا عن التفاعل الحضاري.. والتمايـز الثقافي.. وانتقدت كثيرا نزعات الغلو الدينى واللا ديني.

• وكان الاسـتقطاب الفكـرى قـد ارتفعت راياته.. فكثيـرون هم الذين يقفـون - بالمفهوم الخاطـيء للسـلفية - عند ظواهر النصوص، ولا يكتفون بالعودة إلى السـلف فـى ثوابت الدين وأصوله، وإنما يريدون العودة إلى السلف فى متغيرات الدنيا أيضا، فيهاجرون من الحاضر إلى

الماضي، ويحلمون بصـب الواقع المعيش فى قوالب تجارب التاريخ القديم!



علي مبارك   عبدالرحمن الكواكبي

وكثيـرون - آخرون - هـم الذيـن جعلـوا - باسـم الحداثـة والتقدمية - من الغـرب الثقافى والحضـارى سـلفهم الذيـن يقلدونـه «حذوك النعـل بالنعـل»!، حتـى ليحسـن الواحد منهم ويجيـد تمثـل تفاصيـل المسـيرة الحضاريـة الغربيـة، والكتابـة مطولا عـن وقائـع التاريخ الغربى ومفردات الثقافة الغربية، مع الجهل الكبير والعجز التام عن صنع شيء من ذلك بالنسبة لتاريخنا وثقافتنا وحضارتنا وإبداع أمتنا!

وهكذا غابت الوسطية الإسلامية الجامعة أمام هذا الفصام النكد والاسـتقطاب الحاد.

ولمواجهة هذه الظاهرة التى أشعلت حربا فكرية وثقافية ضروسا بين أهل الجمود والتقليد وبين أسـرى الغزو الثقافى من المتغربين.. كانت الجهود الفكرية التى أنجزتها - فى مشروعى الفكرى - لبعث تراث مدرسـة الإحياء والتجديد فى تراثنا الحديث.. وهى الجهود التى تمثلت فى الجمع والتحقيق والدراسـة «للأعمال الكاملة» لكوكبة من أعلام علماء الوسـطية والإحياء والتجديـد.. تجديد الفكر والثقافة، وتجديـد الواقع المعيش - رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ، ١٨٠١ - ١٨٧٣م).. وجمـال الديـن الأفغانـي (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، ومحمـد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م).. وعبدالرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م).. وعلى مبارك (١٢٣٩ - ١٣١١هـ ١٨٢٤ - ١٨٩٣م).. وقاسـم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ ١٨٦٣ - ١٩٠٨م).. فعاد تراث مدرسـة الوسـطية والأصالة والتجديد والتفاعل الحضارى إلى الحضور على نحو ملحوظ فى واقعنا الفكرى المعيش، بهذا الإسهام - الذى انضم إلى جهود كثيرة بذلها كثيرون.

وإلـى جانـب الإحياء لعيون هـذا التراث الحديـث، كان التحقيق وكانت الدراسـة لعدد من النصوص التراثية القديمة، لأعلام العقلانية الإسلامية - التى تنكر لها أهل الجمود والتقليد.

• وبسـبب من سـيطرة الغرب والتغريب على قطاع واسـع ومؤثر من ثقافتنا لما يقرب من قرنيـن من الزمان.. وتخليقه للنخبة المتغربة التى ضربت عقولها فى مصانع المناهج الوضعية العلمانيـة الغربيـة، والتى اسـتودعها الاسـتعمار مفاتيح مؤسـسـات الفكر والثقافة والتعليم والإعلام عندما أجبرت الحركة الوطنية جيوشـه على الرحيل.. وبسـبب من اتخاذ هذه النخبة الغرب مثالا ونموذجـا، والنظر بدونية إلـى ثقافتنا وعلمائنـا وتاريخنا.. كان الإسـهام الذى قدمته - فى مشـروعى الفكرى - الكتابة عن عشـرات العلماء والمفكريـن والثوار.. بدءا بجيل الصحابـة - رضـوان الله عليهم - ثم التابعين.. فمن تبعهم حتـى العصر الذى نعيش فيه.. وذلك لنقدم لأجيالنا الحالية والمسـتقبلة نماذج الأسـوة والقدوة التى أبدعت صناعة التاريخ الفكرى

والحضارى فى مواجهة التحديات التى فرضها على أمتنا أعداء كثيرون.. عشرات وعشرات من الأعلام الذين تحولت سيرتهم وإبداعاتهم ونضالاتهم إلى نجوم مضيئة - فى صفحات مشروعى الفكرى - سعيت إلى جعل أنوارها منارات تهدى شبابنا إلى الصراط المستقيم فى خضم التدافع بين الثقافات والحضارات.

● وفى مواجهة روح الهزيمة التى حاول نفر من المستشرقين زرعها فى وجدان الأمة، بتصوير هذه الأمة فى صورة الفراغ الذى يتمدد فيه الغزاة.. كانت الإسهامات التى قدمتها عن معارك هذه الأمة ضد الغزاة.. فالمسلمون الأولون قد فتحوا - فتح تحرير للأوطان والضمائر - فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. والمسلمون - فى عصرنا الوسيط - قد كسروا شوكة الغزوة الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م).. كما كسروا شوكة الغزوة التترية (٦٥٨هـ ١٢٦٠م).. كما دفنوا فى ديار الإسلام كل أحلام وأطماع الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية فى عصرنا الحديث، وذلك دون أن تذوب قطعة من دار الإسلام أو شعب من شعوبه فى حضارة الغزاة - كما حدث فى بلاد أخرى أذابها واحتواها الاستعمار.

ولا تزال أمتنا تسعى بإصرار لاقتلاع الكيان الصهيونى - الذى زرعته الإمبريالية الغربية - كما اقتلعت من قبل الكيانات الصليبية التى زرعتها الكنيسة - الغربية وأمراء الإقطاع والبورجوازيون الأوروبيون.. لقد كان لهذه المعالم ولهذه القضايا ولهذه المعارك نصيب ملحوظ فى مفردات المشروع الفكري، الذى نذرت له حياتي، والذى أنجزته بتوفيق وتسديد من الله - سبحانه وتعالى -.

● ولقد جاهدت أمتنا - عبر تاريخها الطويل - لتكون أمة واحدة - تجمعها: العقيدة.. والشريعة.. والحضارة.. ومنظومة القيم والأخلاق.. وتكامل دار الإسلام - مع فتح الأبواب للتمايز والتنوع والتعدد فى الاجتهادات والمذاهب والفلسفات واللغات.. جاهدت لتكون أمة واحدة، فيها تنوع هو آية من آيات الله.

وكان جهادها هذا فى مواجهة نزعات العنصرية والتشرذم، والتفتيت.. تلك التى بدأت بمسيلمة الكذاب (١٢هـ ٦٣٣م).. فالشعوبية الفارسية - فالشيعة الباطنية.. والفرق الضالة.. وحتى النزعات العنصرية والطائفية والانفصالية التى سقطت فى شباك غواية الاستعمار والصهيونية فى عصرنا الحديث.

وفى مواجهة هذه التحديات، كانت الإسهامات التى قدمتها - فى مشروعى الفكرى - عن الفرق وتيارات الفكر فى تراثنا القديم والحديث.. وكانت الجهود التى قدمتها فى مواجهة النزعات الطائفية العنصرية التى تحلم بإعادة عقارب الزمن قرونا إلى الوراء، على النحو الذى صنعته الصهيونية على أرض فلسطين!

● ولأن التفاعل بين الحضارات هو الذى يجعل المسلم يرى عظمة الإسلام فى ضوء حقيقة الآخر، ويرى حجم الآخر فى ضوء الإسلام، ويلتقط الحكمة أنى وجدها.. كانت الإسهامات التى قدمتها لجلاء أبعاد الاستقلال الحضاري.. والخصوصيات الإسلامية فى العقيدة..

والشريعة.. والروح الحضارية.. وذلك لتسعى أمتنا - وأجيالها الحاضرة والمستقبلة - إلى اتخاذ مكانها ومكانتها بين الأمم الناهضة والحضارات الفاعلة.. فتصافح الدنيا - فى منتدى الحضارات الإنسانية - دون عزلة عن الآخر.. ودون ذوبان فى الآخرين.

● ولأن الإيمان الإسلامى هو أعظم نعم الله على الإنسان المسلم.. وهو أعز ما يطلب هذا الإنسان.. ولأن مؤسسات الهيمنة الدينية الغربية قد تحالفت مع مؤسسات الهيمنة السياسية الإمبريالية لتنصير المسلمين، ولطى صفحة الإسلام من الوجود.. فلقد كان «لملف» التنصير، وكسر شوكة المنصرين، وكشف زيف بضاعتهم، وفضح لا أخلاقية وسائلهم.. نصيب ملحوظ فى المشروع الفكرى الذى تقدمت به إلى أمتي دفاعا عن هذا الدين.

● ولأن الشريعة الإسلامية قد مثلت - مع العقيدة - جماع رئتى الإسلام.. ولأن الغزو العلمانى قد سعى إلى طى صفحة هذه الشريعة - كما سعى المنصرون إلى طى صفحة العقيدة - لإلحاق أمتنا بالمركزية الحضارية الغربية.. فلقد كان الدفاع عن شريعة الإسلام، وعن فقه معاملاتها، وعن تميز ذلك عن القانون الوضعى الغربي، ميدانا لإسهام أعان الله على تقديمه فى هذا المشروع الفكري.

● ولأن القرآن الكريم قد علمنا منهاج

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(آل عمران: ١١٣)

فلقد أوليت هذا المنهاج مكانا ملحوظا فى مشروعى الفكرى - فميزت فى فكر الآخرين بين الإيجابيات والسلبيات.. وميزت فى فكر هؤلاء الآخرين بين ما هو مشترك إنسانى عام وبين ما هو داخل فى الخصوصيات التى تتمايز فيها الثقافات والحضارات.. كما ميزت بين المستشرقين العلماء، الذين سعوا إلى إدراك حقائق الشرق والإسلام، فشهدوا للإسلام شهادات إنصاف يجب على المسلمين التعلم منها، وبين أولئك الذين كانوا طلائع فكرية للجيوش الغربية الغازية، يمهدون لهم الأرض كى يحتلوها، وينهبوا ما فيها من ثروات.. ويعملون على احتلال العقل المسلم، كى يتخذ الغرب «قبلة» يتوجه إليها، ومعبودا يعظمه من دون الله!

● ولأن هذا الصنف من المستشرقين - الذين عملوا فى خدمة مؤسسات الهيمنة الغربية - الدينية والسياسية - والذين رأوا الشرق والإسلام بعيون غربية - ومنهم من عمل فى وزارات المستعمرات - قد سعوا إلى زرع الخصوصيات الفكرية والثقافية للمسيرة الحضارية الغربية داخل العقل المسلم والثقافة الإسلامية - فنظروا للإسلام باعتباره هرطقة يهودية مسيحية.. وإلى الخلافة الإسلامية باعتبارها كهانة كنسية.. وإلى القرآن الكريم باعتباره تلفيقا من التوراة والأناجيل.. كما عملوا - بالنزعة المادية والوضعية والعلمانية الغربية - على نزع القداسة عن مقدسات الإسلام.. لأن هذا الصنف من المستشرقين - ومعهم تلامذتهم من أبناء جلدتنا - قد سلكوا هذا السبيل، فعملوا على نقل مشكلات اللاهوت الكنسى الغربى إلى الإسلام.. وإحلال الحداثة الغربية - التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينى - محل التجديد

الإسلامي.. واستخدام العلمنة والفلسفة الوضعية لنزع القداسة عن الوحي القرآني، وإثارة الشبهات التي ثارت في الغرب ضد اللاهوت اليهودي والمسيحي.. ونزع الخلود عن شرائع الإسلام وقيمه بالتاريخية أو التاريخانية.. لأن هذه المقاصد الاستشراقية الخبيثة كانت بعضا من الزرع الشرير للاستشراق الغربي.. فلقد أعان الله على تقديم إسهامات - في مشروعي الفكري - كسرت شوكة كثير من هذه الشبهات التي آثاروها حول القرآن الكريم.. ومعنى النسخ فيه.. وحول السنة النبوية.. وحول السماحة الإسلامية.. وحول الحرب الدينية.. والتمييز بين معاني الحرب الدينية.. والجهاد.. والقتال.. والإرهاب.. فكانت سلسلة الكتب التي تناولت تفنيد الكثير من الشبهات.. وبيان المذهب الإسلامي في قراءة النصوص الدينية، والذي يتميز عن التأويل الغربي لهذه النصوص.

● ولأن عالم المرأة - وهي إحدى رئتي الأمة - قد كان ميدانا للغزو الفكري الغربي.. ولإشاعة قيم الانحلال التي عرفتها وروجتها الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب.. ولأن هذا الغزو قد استفاد من ضيق الأفق الذي تعامل به بعضنا مع هذه القضية.. كانت هذه القضية موضوعا لإسهام أحمد الله على أن وفقني لإنجازه ضمن مشروعي الفكري، وذلك لتحرير المرأة بالإسلام، وليس - كما يريدون - تحريرها من الإسلام!.. وللرد - كذلك - على شبهات الغلاة من المتدينين.

● ولأن كثيرا من الغبش الفكري، بل والغش الثقافي، قد طال كثيرا من ميادين حياتنا العقلية، بسبب احتلال المفاهيم والمضامين الغربية للكثير من المصطلحات التي نستخدمها نحن والغربيون.. كان التوفيق الإلهي الذي تمثل في الإسهام الذي أنجزته في عالم المصطلحات - تلك التي لا مشاحة في استخدامها، لكن هناك مشاحة أكيدة في مضامينها ومفاهيمها ومحتوياتها، عند المقارنة بين معانيها في ثقافتنا الإسلامية ونظائرها في الثقافة الغربية.. فكان التحرير لمضامين هذه المصطلحات السبيل لإزالة الغبش الفكري والغش الثقافي اللذين أصابا قطاعا كبيرا من حياتنا الفكرية والثقافية.

● ولأن الشيعة الإمامية قد أخرجوا أنفسهم من الأمة وتاريخها وحضارتها، عندما ارتكبوا خطيئة التكفير لصحابة رسول الله ﷺ ومن ثم حكموا بالكفر والردة على الأمة والدولة والفتوحات والثقافة والحضارة عبر تاريخ المسلمين.

فلقد كان للرد على عقائدهم الضالة وشبهاتهم الضارة ولسد المنافذ الباطنية والعرفانية التي يحاولون النفاذ منها إلى العقل السني، نصيب ملحوظ في هذا المشروع الفكري، خصوصا وأن أحقاد الشيعة على أهل السنة والجماعة قد دفعتهم إلى مستنقع الخيانة الوطنية، فتحالفوا - هم والصليبيون - مع هولاكو (٦١٤-٦٦٣هـ ١٢١٧-١٢٦٥م) على تدمير بغداد والمشرق، لإسقاط الخلافة العباسية.. كما تحالفوا مع الصليبيين ضد صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ ١١٣٧-١١٩٣م) الذي استعاد القدس التي فرطوا فيها للصليبيين.. ولقد سقطوا في ذات الخيانات عندما أعانوا الإمبريالية الأمريكية وحلفاءها على احتلال العراق وتدميره سنة

٢٠٠٣م، وعلى احتلال أفغانستان سنة ٢٠٠١م.. ثم هم يقاتلون ضد أهل السنة والجماعة على أرض الشام.

● ولأن المنهاج الوسطي، الذي جعله الله سبحانه وتعالى خصيصة هذه الأمة، كان ولا يزال منهاج التناول في هذا المشروع الفكري، كان نقد الغلو - كل ألوان الغلو - قسمة ملحوظة في مفردات هذا المشروع.. ففيه التمييز بين التصوف الشرعي - طب القلوب وتزكية النفوس - وبين البدع والخرافات والشعوذات التي طالت الكثير من الطرق الصوفية.. وفيه التمييز بين السلفية في الدين، التي تعود بعقائده وعباداته وقيمه إلى منابعها الأولى الجوهرية والنقية، وبين سلفية الجمود والتقليد، التي تحلم بالهجرة من الحاضر إلى الماضي، والتي تخاصم العقل والاستنارة والتقدم والنهوض.

وفيه - كذلك - النقد للغلو الديني، الذي استبدل العنف العشوائي بالإصلاح.. والنقد للغلو اللاديني الذي نحا نحو الزندقة والإلحاد، وإلى تهميش ثوابت الأمة ومقومات هويتها، واستبدال النموذج الغربي بنمطها الحضاري.

● ولأن الوسطية - في مذهب صاحب هذا المشروع - هي «البوصلة».. بل هي «العين اللامة» التي ينظر بها ومن خلالها إلى كل مناحي الفكر والحياة كان احتضان التراث - تراث الأمة - بتياراته المختلفة، وحتى المتناقضة، مع الاختيار والانتقاء منه لأكثر صفحاته إشراقا، ولأكثر هذه الصفحات صلاحية لخدمة الواقع المعيش والإجابة على علامات استفهامه، ولزيادة حدة البصر والبصيرة بالمستقبل المأمول.. فبهذا المنهاج، وبهذه الرؤية، كان التناول - في هذا المشروع - لتراثنا القديم والحديث.. ولتيارات الفكر والفرق التي أسهمت في صنع هذا التراث.

● ولأن التجديد - في ديننا وفكرنا - هو سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، وقانون واجب النفاذ في كل الميادين، كان جلاء مفاهيم التجديد ومبادئه، والإبراز لنماذجه وأعلامه، على مر تاريخنا معلما من معالم هذا المشروع.

ولأن البعض قد حاول - بالغش الثقافي - خلط هذا التجديد الإسلامي - الذي يستصحب الثوابت ويجدد المتغيرات - خلطه بالحداثة الغربية - التي أقامت وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث، والموروث الديني على وجه الخصوص - فلقد حملت مفردات هذا المشروع الفكري معالم التمييز بين التجديد وبين الحداثة.. كما أشارت إلى معايير التمييز بين الثورة وبين الإصلاح، كسبل للتقدم والنهوض.

● ولأن بعضا من أهل الجمود والتقليد قد خاصموا ملكة العقل وهداية العقلانية، إما جهلاً بمكانتها في الأصول الإسلامية، وإما خوفا من تسرب العقلانية الغربية اللادينية إلى الساحة الفكرية الإسلامية.. فلقد تم - في هذا المشروع الفكري - التمييز بين التنوير الإسلامي، النابع من القرآن الكريم وبيانه النبوي، ومن الحكمة.. وبين التنوير العلماني، الذي تحول - بالحداثة - إلى «دين طبيعي» حل محل المسيحية في الفضاء الغربي.. كما تم التمييز بين العقلانية

الإسلامية المؤمنة، النابعة من القرآن الكريم، والتي تدافع عن الإيمان الديني بالعقل، وبين العقلانية اللادينية التي خاصمت فطرة الإيمان الديني التي فطر الله الناس عليها.

كما برزت - في هذا المشروع - الإشارات إلى النتائج الكارثية التي صنعتها الحداثة الغربية والفلسفة الوضعية بالمسيحية، وكيف أصبحت أوروبا فراغا تهمشت فيه المسيحية، وتمدد فيه الإسلام، وذلك ليعتبر ويرعوي الذين لا يزالون يسعون إلى علمنة عالم الإسلام.

● ولأن العدالة الاجتماعية قد غدت - في ظل الإقطاع والرأسمالية المتوحشة - الفريضة الغائبة والمنشودة.. فلقد حملت كثيرا من مفردات هذا المشروع الفكري معالم فلسفة الإسلام في الاستخلاف - استخلاف الأمة، لا الفرد ولا الطبقة - في الثروات والأموال، وتكافل سائر أعضاء جسد هذه الأمة في الاستمتاع بما أودع الله سبحانه وتعالى، في هذه الأرض من خيرات وبما سخر للإنسان - مطلق الإنسان من إمكانات.. وهي معالم إسلامية ميزت النهج الإسلامي في الثروات والأموال.

عن مناهج الفلسفات والحضارات الأخرى، شمولية كانت أو ليبرالية هذه الفلسفات..

● ولأن المفاهيم الغربية - في الوطنية.. والقومية - قد شابتها العنصرية - «الإثنية» - والعصبية الجاهلية ولأن مفاهيم الغرب عن الأممية قد جعلتها طبقية.. ولأن هذه المفاهيم قد تسربت إلى ساحاتنا الفكرية ضمن الغزو الثقافي الذي وعاه الاستعمار.. فلقد أولى هذا المشروع الفكري عناية لإبراز المفاهيم الإسلامية التي تقيم التكامل بين دوائر الانتماء: الوطنية.. والقومية.. والإسلامية.. والإنسانية.. وذلك لترشيد فكرنا نحن.. ولتقديم نموذجنا الإسلامي المتميز إلى العالم الذي ضل طريقه في هذه الميادين.

● ولأن القرآن الكريم - وهو كتاب الدين الأول - قد تفرد بكونه الكتاب الذي يعلم قارئه الجمال، وينمي لدى متدبره حاسة الجمال، عندما يفتح قنوات استشعاره.. ولأن رسول هذا الدين ﷺ قد علمنا أن الله جميل يحب الجمال.. وكانت حياته - البسيطة - آية من آيات العشق لنعمة الجمال التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذا الوجود.. وحتى لا تغيب هذه القسمة عن حياة المؤمنين بهذا الدين، فيقعوا في شرك مخاصمة الجمال، وخشونة التجهم، وسلبيات الرهبنة التي لم يكتبها الله.. كانت إطلالة هذا المشروع الفكري على فقه الجمال في الإسلام.

●●●

تلك إشارات - مجرد إشارات - لبعض معالم هذا المشروع الفكري، الذي بارك الله فيه حتى غدا بناء شامخا اقتربت عناوين كتبه من الثلثمائة عنوان.. والذي ترجمت وتترجم العديد من مفرداته إلى أكثر من عشر لغات شرقية وغربية.. لقد جاء هذا المشروع الفكري توفيقا إلهيا.. واستجابة ربانية لدعاء والدي - عليه رحمة الله - الذي نذرني للعلم، وأنا جنين في رحم أمي - عليها رحمة الله - وثمرة للجهد المخلص، والجهاد الفكري الذي وهبته حياتي.. وللعون الصادق والدائم الذي أمدتني به زوجتي وأسرتي.. ولدعاء العلماء الصالحين الذين تتلمذت على أيديهم:



الشعراوي الغزالي

- مدرس التاريخ الأوروبي - في معهد طنطا الأحمدي - الشيخ الصوفي محمد عبدالوهاب، الذي أوصاني فقال: «يا عمارة، اجعل خير أوقاتك لله».

- والقلب النوراني الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ - ١٩١٧ - ١٩٩٦م) الذي حملني أمانة الدعوة إلى الإسلام وحراسة تعاليمه.

- والشيخ محمد متولي الشعراوي (١٣٢٩ - ١٤١٩هـ - ١٩١١ - ١٩٩٨م) الذي رفع يديه إلى السماء داعيا الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلني عوضا عن العلماء الذين رآهم يودعون هذه الحياة.

- وقبل هؤلاء: الشيخ محمد الجندي، الذي حبب إلى بشاشته حفظ القرآن الكريم.

- والشيخ محمد كامل الفقي، الذي مثل الشرارة التي أوقدت لدىّ حب القراءة، والتبتل في محاريب العلوم والفنون والآداب.. وغيرهم كثيرون كثيرون.

● لقد تعانق وتزامل في حياتي - إبان الشباب - الانخراط في القراءة وتحصيل المعرفة والتكوين العقلي - مع الانخراط في تجربة عميقة من المجاهدات الروحية، كنت أقف فيها - على سبيل المثال - بين يدي الله - سبحانه وتعالى - في الموقف الواحد، بجوف الليل - مصليا - مئات الركعات - ولقد أكرمني الله إبان تلك السنوات - التي تعاون فيها العقل مع القلب على صياغة الذات - أكرمني الله بطمأنينة إيمانية رأيت فيها وبها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. ولما تطلعت روحي للسعادة بليلة القدر، صممت الدعاء القصير، المناسب للحظة النورانية الخاطفة، والمعبر عن مقاصدي في الدنيا والآخرة.. وبه نادى القلب واللسان - في اللحظة النورانية الخاطفة -: «اللهم اغفر لي واجعلني من أهل العلم إنك على كل شيء قدير».

● بهذه المنح الربانية.. وبدعاء هذه القلوب المخلصة الضارعة كانت البداية.. وكانت المسيرة.. وكان هذا الإسهام الفكري الذي أتقرب به إلى الله.

● ولأن كل بني آدم خطاء، فلقد أصاب الغبن الفكري أحيانا ثمرات القلم.. لكن المعية الإلهية كانت - دائما وأبدا - الحبل المتين الذي شدني - دائما وأبدا - لتصحيح المسار، ومراجعة الأخطاء.. وتلك واحدة من النعم الإلهية الكبرى على صاحب القلم - الذي يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا -.

● لقد كانت وصية أستاذي، مدرس التاريخ بمعهد طنطا الديني، الصوفي الشيخ محمد عبدالوهاب: أن أجعل خير أوقاتي لله.. فلما وهبت حياتي للفكر والعلم، غدت كلها لله، وبارك الله فيها، فأصبحت جميعها خير الأوقات!..

تفسير سورة البقرة



للشيخ ـ محمد عبده

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة:٦٢)

أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضرًا ولا غائبًا فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم، وبوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه.. فذلك الله الذي يقول:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

«البقرة: ٦١»

سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله، وانصراف عن العبرة، واستعصاء على الموعظة، وخروج عن حدود الشريعة، واعتداء على أحكامها.. اقترف ذلك سلفهم، وتبعهم عليه خلفهم، فحقت عليهم كلمة ربك.. فلو قر الخطاب عندها، ولم يتلها من رحمته ما بعدها، لحق على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس، بل كان ذلك القنوط لازمًا لكل عاص، قابضًا على نفس كل معتد، لا فرق بين اليهود وغيرهم، فإن سبب ما نزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم، وسنن الله في خلقه لا تتغير، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل، لهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة.. وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمنا لجميع من تمسك بهدى نبي سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية، ليدل على أن الجزاء السابق وإن حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ـ لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته.. فكل من أجرم كما أجرموا، سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهود، بل:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

«البقرة: ٦١»

وأما أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة، فكل ذلك لا أثر له في رضاء الله ولا غضبه، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعته، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان بالله تعالى، بأن يكون التصديق به سطوعًا على النفس من مشرق البرهان، أو جيشانًا في القلب من عين الوجدان، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليًا من شوب التشبيه والتمثيل، واليقين في نسبة الأفعال إليه خالصًا من وساوس الوهم والتخييل، ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهي.. فإذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع، أغضى هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعًا.. وإذا أطلق نظره فيما بين يديه، مما سلطه الله عليه، شعر في نفسه عزة بالله، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه، لا يعدو حدا ضرب له، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل إليها، فيكون عبدًا لله وحده، سيدًا لكل شيء بعده.

أما مسألة أهل الفترة، والخلاف المشهور فيها، فإن جمهور أهل السنة يقول إنهم ناجون لأنه لا تكليف إلا بشرع، وهؤلاء لم تبلغهم دعوة.. ومن قال إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل، عدهم غير ناجين، وهذا رأى المعتزلة وجماعة من الحنفية.. وجمهور الأشاعرة على أنه لا يمكن إدراك ذلك إلا بالشرع.. ثم إن محل النظر في أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئًا من أحكام دينهم خالصًا من الشوائب سالمًا من النزعات الفاسدة.

وأما مثل اليهود، فلا يصح أن يسموا أهل فترة، فإنهم على نسيانهم حظًا مما ذكروا به وتحريفهم بعض ما حفظوا قد بقي جوهر دينهم معروفًا لم يغش أحكامه ما يمنع الاهتداء بها، والله تعالى يقول:

﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾

«المائدة: ٤٣».

وكذلك المسيحيون، لا يسمون أهل فترة، لأن في التوراة ووصايا الأنبياء ما عند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح، وروح الدعوة موجود عندهم، ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا ولا يأخذون بتلك الأحكام، ولا عذر لهم يحول دون العقوبة.

وأما الصابئون، فإن كانوا فرقة من النصارى ـ كما يظهر من الوفاق بينهما في كثير من التقاليد كالعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد ـ فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم، وإن كان الخلط عندهم أكثر، والبعد عن الأصل أشد، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب، وأحاطت بهم البدع من كل جانب. على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى، فإن عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة تؤثر عن المسيح عليه السلام، والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتوا وطمعًا وإسرافًا في حظوظ الدنيا. ويقال إن الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين، ولكن قد اختلط عليهم الأمر كما اختلط على الحنفاء من العرب، إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب. فإن كانوا أقرب إليهم فلهم حكمهم وإلا فهم

كاليهود والنصارى يسألون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب حتى يأتيهم هدى آخر، كان تبلغهم دعوة الإسلام، فإن لم يفعلوا فهم مؤاخذون.

علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر، أو بلغهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل إليهم شىء صحيح من شرائعهم، فهم يؤمنون بهم إيمانًا إجماليًا كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بإبراهيم وإسماعيل ولا يعرفون من دينهما شيئًا خالصًا كما تقدم آنفًا. وحجة الأشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(الإسراء: ١٥)

وقوله:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

(النساء: ١٦٥).

وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أى نبى فى ركنى الدين الركينين، وهما الإيمان بالله وباليوم الآخر، فمن بلغته وجب عليه الإيمان بهذين الأصلين، وإن لم يكن النبى مرسلا إليه.

وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل، فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول، وإنما يجئ الرسل مؤكدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أمورًا لا يستقل بإدراكها كأحوال الآخرة وكيفيات العبادة التى ترضى الله تعالى. وأولوا آية:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

بأن المراد بالتعذيب هو الاستئصال فى الدنيا بإفناء الأمة أو استذلالها، والذهاب باستقلالها. وينافيه ما يدل عليه استعمال ﴿وَمَا كُنَّا﴾ من إرادة نفى الشأن الدال على عموم السلب. ولهم فى كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها.

وعن الإمام الغزالى أن الناس فى شأن بعثة النبى ﷺ أصناف ثلاثة: من لم يعلم بها بالمرة -أى كأهل أمريكا لذلك العهد- وهؤلاء ناجون حتمًا، «أى إن لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة». ومن بلغته الدعوة على وجهها، ولم ينظر فى أدلتها إهمالاً أو عنادًا واستكبارًا، وهؤلاء مؤاخذون حتمًا. ومن بلغته على غير وجهها، أو مع فقد شرطها، وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر، وهؤلاء فى معنى الصنف الأول. هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(البقرة: ٦٣ - ٦٤).

أطمع الله تعالى بالآية السابقة بنى إسرائيل فى رحمته، بعدما قرعهم بالنذر التى تكاد توقع اليأس فى قلوبهم. وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطمع، بل الباب الذى يؤدى إلى هذا الرجاء، هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما الأنبياء عليهم السلام، وهما الإيمان الصحيح اليقينى والعمل الصالح.

وإشراك غير بنى إسرائيل فى هذا الحكم لا يقضى بانتهاء السياق، بل لا يزال الكلام

فى بنى إسرائيل، ولذلك عقب ذلك الإطماع بالتذكير ببعض الوقائع التى استحقوا فيها العقوبة فحالت دون وقوعها الرحمة، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، وهو العهد الذى أخذه عليهم وتقدم الكلام فيه. وأما قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، فقد ذكر المفسرون فيه قصة، وهى أن الله تعالى ظلل بنى إسرائيل بالطور، وهو الجبل المعروف، وخوفهم برفعه فوقهم ليذعنوا ويؤمنوا. ثم اعترض عليه بعضهم بأنه إكراه على الإيمان، وإلجاء إليه، وذلك ينافى التكليف. وأجيب بأجوبة، منها أن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريا بعد زوال ما به الإكراه. ومنها أن مثل هذا الإلجاء والإكراه كان جائزًا فى الأمم السابقة، ويزيد من قال هذا أن نفى الإكراه فى الدين خاص بالإسلام، لقوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦).

وقوله:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس: ٩٩).

ولا حاجة لنا فى فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح. فهو لا يحتاج فى فهمه إلى إضافات ولا ملحقات. وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان، وإنما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم، فقد قال تعالى فى سورة الأعراف:

﴿۞ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(الأعراف: ١٧١)

والنتق: الزعزعة والهز والجذب والنقض. ونتق الشىء ينتقه وينتقه -من بابى ضرب ونصر- نتقًا، جذبه واقتلعه، وقد يكون ذلك فى الآية بضرب من الزلزال، كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة والنقض.

والمفهوم من أخذ الميثاق، أنهم قبلوا الإيمان، وعاهدوا موسى عليه. فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم، من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق، كل لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد، لأن رؤية الآيات تقوى الإيمان، وتحرك الشعور والوجدان، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾

(الأعراف: ١٧١)

أى تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم. ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أى بالمحافظة على العمل به، فإن العمل هو الذى يجعل العلم راسخًا فى النفس مستقرًا عندها. ويؤثر عن أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه أنه قال: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العمل إنما يحضر فى النفس مجملاً غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا. ثم ينقلب النظرى منه بالتكرار والمواظبة بديهيًا ضروريًا، وبذلك يثبت فلا ينسى.

وأما النسيان فإنه حليف الكفر وإنه ليصل بالإنسان إلى حد يساوى فيه من لم تسبق له معرفة بالشىء قط، لأنه لا أثر له فى النفس ولا فى الظاهر، ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها

حتى تسيها، وبين من لم تبلغه البتة، ومن بلغته على وجه غير مقنع فلم يؤمن، إلا بما تكون الحجة به على الأول أظهر، وكونه بالمؤاخذة أجدر، والثاني معذور عند الجماهير، وكذلك الثالث إذا استمر على النظر من غير تقصير، فعلى هذا تكون منزلة الناسي هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند، وهو خليق بأن يحشر يوم القيامة أعمى عن طريق النجاة والسعادة، حتى إذا لقي ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(طه: ١٢٥، ١٢٦).

إن في هذا لعبرة لقراء القرآن الذين ليس لهم منه إلا التغني بألفاظه، وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن، وهذا شر نوعي النسيان، وقد ضرب له الإمام الغزالي مثل عبيد قطعهم سيدهم بستانا وكلفهم بإصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتابًا يبين لهم كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف تكون حياتهم فيه، ووعدهم بمكافأة أجر فوق ما يستفيدون من ثمرات البستان وغلاته، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة، وراء ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم. فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه والتغني بلفظه وتكرار تلاوته، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين، فأهلكوا الحرث والنسل. فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم وقاطع لألسنة العذر منهم؟!

أمرهم بالذكر الذي يثبت بالعمل، ووصله بذكر فائدته، وهي إعداده النفس لتقوى الله عز وجل، فقال:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فإن المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية نقية، راضية مرضية:

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(طه: ١٣٢).

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية، وما اتصل بها من الهداية، ذكرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والإعراض عن القبول، ثم أمتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾

أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثر في القلوب وتستكين لها النفوس.

﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(البقرة: ٦٤)

أي إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا، وهي التمكن في الأرض المقدسة التي تفيض لبنا وعسلا، ثم خسرتم سعادة الآخرة وهي خير ثوابًا وخير أملا. فمن فضله وإحسانه، أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى

موقفه مما اجتهد فيه أصحابه ﷺ في عصره في غيبته وفي حضوره

ما حصل يوم بدر:

١ - قال ابن كثير وابن الأثير: قال ابن إسحاق: خرج ﷺ يوم بدر يبادر قريشًا إلى الماء، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ قال: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة»، قال يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور(١) ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال له: «لقد أشرت بالرأي»، وفعل كما قال.

٢ - ثم إن سعد بن معاذ قال يا رسول الله! ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك؟ ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن أشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، فأثنى عليه ﷺ، ودعا له بخير، وأمر ببناء العريش فبني له.

اجتهاد أبي بكر -رضي الله عنه- في حضرته ﷺ في غزوة حنين:

روى البخاري عن أبي قتادة قال: خرجنا مع النبي ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة(٢)، فرأيت رجلا من المشركين قد علا(٣) رجلا من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع، وأقبل عليَّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس(٤)؟، قال: أمر الله عز وجل، ثم رجعوا وجلس النبي ﷺ، فقال: «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه»، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست فقال النبي ﷺ مثله، فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، قال النبي ﷺ مثله فقمت فقال: «ما لك يا أبا قتادة؟» فأخبرته، فقال رجل: صدق، وسلبه عندي، فأرضه منه(٥)، فقال أبوبكر: لا ها الله إذا لا يعمد(٦) إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، فيعطيك سلبه، فقال النبي ﷺ:

(١) نغور الماء من كل قليب غير الذي نزلنا عنده، والقليب البئر يذكر وقد يؤنث، جمعه قلب بضم أوله وثانيه كثير وقلة.
(٢) جولة: حركة فيها اختلاف، وفي الرواية التي بعدها أن بعضهم انهزموا.
(٣) علا أي ظهر وفي الرواية التي بعدها ما يوضحه.
(٤) يريد بالناس المسلمين عند انهزامهم كما سيأتي في الرواية الأخرى.
(٥) من هنا التبدل أي أعطه شيئا من عندك يا رسول الله بدلا من هذا، وكان ﷺ لا يسأل شيئا إلا أعطاه، لذلك أسرع أبوبكر في الرد على هذا السائل وأشار بإعطاء السلب للقاتل.
(٦) لا يقصد رسول الله ﷺ إلى رجل كأنه أسد.

«صدق. فأعطه» فأعطانيه.

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي قتادة أيضًا قال: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين وآخر من المشركين يختله[٧] من ورائه ليقتله: فأسرعت إلى الذي يختله فرفع يده ليضربني، وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًا شديدًا حتى تخوفت ثم برك فتحلل[٨] ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيل قتله فله سلبه» فقمت لألتمس بينة على قتيلي، فلم أر أحدًا يشهد لي فجلست، ثم بدا لي، فذكرت أمره لرسول الله ﷺ، فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبوبكر: كلا لا يعطه أصيبغ[٩] من قريش، ويدع أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأداه إلي.

إقراره ﷺ من رقى بالفاتحة على أخذ الأجر

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء. فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء؟ فأتوهم فقالوا: إن سيدنا لدغ، فهل عند أحدكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم. ولكن لا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا: فصالحوهم على قطيع من الغنم. فانطلق يقرأ عليه:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
(الفاتحة: ١)

فكأنما أنشط[١٠] من عقال، فانطلق يمشي وما به علة، فأوفوهم جعلهم. فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا، فذكروا ذلك له ﷺ فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا» وضحك ﷺ.

قال الحافظ في رواية إنهم أعطوهم ثلاثين شاة، وكان عدد الركب ثلاثين رجلا، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي فاتحة الكتاب، وقوله: «وما يدريك» زاد في رواية فقلت يا رسول الله: شيء ألقي في روعي. قال الحافظ وهو ظاهر في أنه لم يكن عنده علم متقدم بمشروعية الرقى بالفاتحة، أي فيكون قد فعل ذلك اجتهادًا منه.

لم يقر ﷺ من صلى بصلاته في قيام رمضان خوف مشقة الفرض على أمته

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم ﷺ. فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم وذلك في رمضان..» انتهى الحديث.

فهذا يدل على أنهم صلوا وراءه ﷺ بدون إذن منه بل باجتهاد منهم، ولم يقرهم على ذلك خوف أن يفرض عليهم قيام رمضان وغيره.

سكوته ﷺ على حلف عمر رضي الله عنه على أن «ابن الصياد» هو الدجال

روى البخاري ومسلم بن محمد المنكدر قال: رأيت جابر بن عبدالله يحلف بالله أن ابن الصياد هو الدجال، قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: صحبني ابن الصياد إلى مكة فقال لي: ماذا لقيت من الناس؟! يزعمون أني الدجال، ألست سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه لا يولد له؟» قلت: بلى، قال: فإنه قد ولد لي، قال: أولست سمعته يقول: لا يدخل المدينة ولا مكة! قلت بلى، قال: فقد ولدت بالمدينة، وها أنا ذا أريد مكة، ألم يقل النبي ﷺ: «إن الدجال يهودي؟» وقد أسلمت.

وروى مسلم عن فاطمة بنت قيس حديثًا طويلا جاء فيه قولها: سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء اللاتي تلي ظهور القوم، فلما قضى ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك وقال: «جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيًا فجاء وبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال: حدثني أنه ركب في سفينة مع ثلاثين رجلا.. إلى أن قال: ثم أرفأ[١١] إلى جزيرة في البحر، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر وقالت: أنا الجساسة، ثم قالت: انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فدخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان[١٢] رأيناه قط خلقا وأشده وثاقا، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا ما أنت؟ قال: أخبروني أولا عن كذا وكذا، وسأل كثيرًا ثم قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبروه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال: ذلك خير لهم، وإني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي» قالت فاطمة بنت قيس: قال ﷺ -وطعن بمخصرته[١٣] في المنبر- «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة! ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنه أعجبني حديث تميم، إنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه... الخ».

قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري المتقدم ذكره كأن جابرًا لما سمع عمر يحلف عند رسول الله ﷺ فلم ينكر عليه فهم منه المطابقة. ولكن بقي أن شرط العمل بالتقرير ألا يعارضه التصريح بخلافه.

---

(٧) يختله: أي يريد أن يأخذه على غرة.
(٨) خارت قواه.
(٩) قال ابن حجر: الأصيبغ نوع من الطير أو شبهه بنبات ضعيف يقال له الصبيغاء إذا طلع من الأرض يكون أول ما يلي الشمس منه أصفر. وفي رواية أضيبع بالضاد والعين تصغير الضبع على غير القياس كأنه لما عظم أبا قتادة بأنه أسد صغر خصمه وشبهه بالضبع لضعف افتراسه وعجزه.
(١٠) قال ابن الأثير في النهاية: أنشط من عقال أي حل وكثيرا ما يجيء في الرواية كأنما نشط من عقال وليس بصحيح. قال في المصباح: أنشطت البعير من عقاله أطلقته والأنشوطة بضم الهمزة ربطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت ونشط في عمله من باب تعب خف وأسرع.
(١١) أرفأ: جنح.
(١٢) لما في هذه الجملة من معنى النفي صح ذكر (قط) لأنها لا تستعمل إلا مع النفي، ومعنى الجملة: ما رأينا مثله إلخ.
(١٣) المخصرة كمكنسة اسم ما يتكأ عليه من عصا وعكاز وغيرهما.

قال ابن بطال: فإن قيل ثبت في الصحيح أن عمر قال للنبي ﷺ في قصة ابن الصياد: دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»، فهذا صريح في أنه عليه السلام تردد في أمره، يعني فلا يدل سكوته عن إنكاره عند حلف عمر علي أنه هو - أجيب بأن التردد كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه هو الدجال، فلما أعلمه لم ينكر على عمر حلفه، ثم قال، البيهقي: ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ على حلف عمر، فيحتمل أن يكون النبي عليه السلام كان متوقفا في أمره، ثم جاءه التثبت من الله تعالى بأنه غيره، على ما تقتضيه قصة تميم الداري، وبه تمسك من جزم بأن الدجال غير ابن الصياد.

وكان الذين يجزمون بأن ابن الصياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم، وإلا فالجمع بينهما بعيد جدا. إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في حياته ﷺ شبه المحتلم ويجتمع بالنبي ﷺ ويسلم؟ كيف يكون شيخا كبيرا مسجونا في جزيرة، ويسأل عنه عليه السلام: هل خرج أو لا؟

قال الخطابي: اختلف السلف في أمر ابن الصياد بعد كبره: فروى أنه تاب من ذلك القول ومات بالمدينة، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن وجهه حتى يراه الناس، وقيل لهم: اشهدوا!

وقال ابن دقيق العيد: إذا أخبر بحضرته ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي، فهل يكون سكوته ﷺ دليلا على مطابقة ما في الواقع، كما وقع لعمر في حلفه على أن ابن الصياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى يحلف عليه، ويستند إلى حلف عمر؟ أم لا يدل؟ فيه نظر. والأقرب عندي أنه لا يدل. لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على باطل، وذلك يتوقف على تحقيق البطلان، ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة، إلا أن يدعى مدع أنه يكفي في وجوب البيان عدم تحقق الصحة فيحتاج إلى دليل وهو عاجز عنه. نعم: التقرير يسوغ الحلف على ذلك على غلبة الظن، لعدم توقف ذلك على العلم... هـ.

وقال النووي: قال العلماء: قصة ابن الصياد مشكلة، وأمره مشتبه، لكن لا شك أنه دجال من الدجاجلة.

والظاهر أنه ﷺ لم يوح إليه في أمره بشيء، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال، وكان في ابن الصياد قرائن محتملة.

فلذلك كان ﷺ لا يقطع في أمره بشيء، بل قال لعمر: «لا خير لك في قتله.. الحديث».

ونقل صاحب المنار عن ابن الجوزى أنه قال: كان ﷺ يتكلم بأشياء على سبيل القياس، وهو دليل معمول به.

فكأنه لما نزلت عليه الآية في قرب الساعة كقوله تعالى:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

(النحل: ١)

وقوله:

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾

(النحل: ٧٧)

حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضى قرن واحد، ومن ثم قال في الدجال: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه»، فجوز خروج الدجال في حياته الشريفة عليه السلام.

قال السيد رشيد - معلقا على ذلك -: فابن الجوزى يرى أنه ﷺ كان يقرر في هذه المسائل تقديرا، إذ لم يوح الله تعالى إليه بأخبارها تفصيلا.



التراث والتجديد مناقشات وردود

لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

٣

المدرسةُ المصريةُ في تجديدِ التُّراث[١]

بينَ المَدرسةِ السُّوريَّةِ والمَدرسةِ المَغربيةِ تقعُ المَدرسةُ المِصريَّةُ، وأعني بها - تحديدًا - المَدرسةَ التي أطلقتْ على نفسِها اسمَ (التُّراثِ والتَّجديدِ)، واتَّخذتْ منه عُنوانًا خاصًّا بها، وهي إذْ تُفضِّلُ هذا العُنوانَ لا تُحبِّذُ أنْ يتمَّ مَشروعُها تحتَ عُنوانِ: (تجديدِ التُّراثِ)، وإنَّما تُفضِّلُ أنْ تَقِفَ بالمشروعِ كُلِّه تحتَ لافتةٍ جديدةٍ وتَسميةٍ ذاتِ دَلالةٍ مقصودةٍ هي: (التُّراثُ والتَّجديدُ).

ولا يعدمُ القارئُ - هنا - وجودَ فرقٍ جوهريٍّ - مُنذُ البداية - بينَ هاتَيْنِ التَّسميتَيْنِ. فتجديدُ التُّراث يَعني التعامُلَ مع التُّراث القديم كحقيقةٍ موضوعيَّةٍ قابلةٍ للتجديد، مع المُحافظةِ على بقاءِ الأُصولِ ثابتةً، كما هو الحالُ في كُلِّ عمليَّات التَّجديد، بمعنى: أنْ نُفرِّقَ - في دائرةِ المَوْروثِ - بينَ ثوابتَ وبينَ مُتغيِّرات، نستبقي الأُولى كما هي، ونَنطلِقُ في ضوءِ بقائِها وثباتِها إلى تجديدِ الثانية، ونُحقِّقُ مِن خلالِهما - معًا - حركةَ التطوُّرِ أو ما يُسمَّي: (الأصالة والمعاصرة).

لكنَّ التجديدَ - بهذا المعنى - لا يُحقِّقُ الأهدافَ المقصودةَ لمَدرسةِ (التُّراث والتَّجديد)، لأنَّ (التُّراثَ) في هذه المدرسة: هو نُقطةُ البدء، أمَّا التَّجديدُ: فهو إعادةُ تفسيرِ التُّراثِ حَسْبما تقتضي مُتطلَّباتُ العصرِ وحاجاتُه. فالتُّراثُ هو الوسيلةُ، والتَّجديدُ هو الغايةُ، وهي المساهمةُ في تطويرِ الواقعِ، وحلِّ مُشكلاتِه، والقضاء

١ - التراث والتجديد، لحسن حنفي: ١١.

على أسباب معوّقاته، وفتح مغاليقه التى تمنع أيّ مُحاولة لتطويره) (١).

والتراثُ - فى هذه المدرسة - ليس هدفًا تتحرّكُ فى إطاره حياتُنا المُعاصرة بقدْر ما هو وسيلةٌ خاضعةٌ لإعادة التفسير، أو إعادة البناء من أجل تطوير الواقع وحلّ مُشكلاته، وأمرٌ طبيعيٌ أنْ يتجرّدَ التراثُ - حالتئذ - منْ كلّ قيمة ذاتيّة أو خصائص ثابتة لا على مستوى الأصول ولا على مستوى الفروع، والقيمةُ الوحيدةُ التى ستبقى للتراث فى إطار هذه النظرة، هي: مدى قدرته على تقديم (نظريّة علميّة فى تفسير الواقع والعمل على تطويره)، وإذا كان التراثُ وسيلةً، والتجديدُ غايةً، فالأليقُ بهذا المشروع أنْ يتخذَ له عُنوانَ: (التراث والتجديد)؛ لأنّه: (يُحاولُ تأسيسَ قضايا التغيير الاجتماعيّ على نحو طبيعيّ وفى منظور تاريخيّ يبدأ بالأساس والشرط قبل المُؤسّس والمشروط) (٢).

التراثُ عند مدرسة (التراث والتجديد):

التراثُ - فى منظور هذا الاتّجاه - ليس هو المستوى المادّيّ المتمثّل فى هذه الأكداس من الكُتب المطبوعة والمخطوطة، والتى تشغَلُ مساحات ضخمة على رُفوف المكتبات العامّة والخاصّة ومخازن الأروقة والمساجد.. إلخ.

ولا هو حقائقَ نظريّةً موجودةً على سبيل الاستقلال، أو حقائقَ قبليةً جاءت لتغيّر الواقع، بحيثُ لو شكّل الواقعُ خطرًا عليها، يجبُ أنْ نهبَّ للدفاع عنها فى مواجهة الواقع.

فمثلُ هذا التصوّر للتراث ينبنى على نظرة انفصاليّة مرفوضة من أصحاب هذا المشروع، من هُنا حرَصَ هؤلاء على استبعاد هذيْن المُستويَيْن من مفهوم التراث، فليس التراثُ كتبًا ولا مخطوطات، وليس التراثُ حقائقَ مُجرّدةً مستقلّةً نتلقّاها من مصدر يتعالى على مُستوى واقعنا، بل التراثُ هو: (المُعبّرُ عن الواقع الأوّل الذى هو جزءٌ من مكوّناته).

والتراثُ بهذا المعنى هو: (المخزونُ النفسيّ للجماهير)، ولا يُقصَدُ من الجماهير - هنا - ما يتبادرُ إلى الذهن من معانى هذا اللفظ، مثل: العامّة أو الدهماء قبالة: العُلماء أو أهل الاختصاص، وإنّما تُستعمَلُ هذه الكلمةُ بحيث تشيرُ إلى أنّ الشعبَ هو المُمثّلُ الحقيقيّ للتراث، أو الحاملُ الحقيقيّ لتأثيرات التراث.

ومع هذا الاستعمال يتّسعُ مفهومُ التراث إلى المدى الذى يُساوقُ فيه مفهومَ الثقافة الوطنية أو الثقافة القومية. فالشعوبُ تحفظُ (تراثَها الشعبيّ قدْرَ حفظها تراثَها الدّينيّ، يُغنّى الناسُ للمُطربين، ويطربون لسماع القرآن، ولقد تكوّنَ الوجدانُ القوميّ والمزاجُ الشعبيّ فى كلّ حضارة - كما يظهرُ ذلك بخاصّة فى فنون الغناء والموسيقى، وفنون الرسم والنحت والعمارة - من اجتماع هذيْن الرافديْن: الفنّ الدينيّ، والفنّ الشعبيّ، وكما هو واضحٌ فى تاريخ الفنون فى الغرب) (٣).

ولا تُخطئ عينُ القارئ فى هذا النصّ تسويةً مقصودةً بينَ الدّين والفنون الشعبيّة فى تكوين نفسيّة الجماهير، وأنّ الأغانيّ أو قصصَ (أبو زيد الهلاليّ) - مثلًا - تقفُ جنبًا إلى جنب مع الدّين وراء وَعْي الجماهير المُسلمة وخلفَ سلوكيّاتهم وتوجّهاتهم، فكلٌّ منهما رافدٌ من روافد ثقافة الأمّة، وكلٌّ منهما عُنصرٌ مُكوّنٌ لنسيج هذه الثقافة، وغايةُ ما هنالك أنّ هذا فنٌّ دينيٌّ وذاك فنٌّ شعبيٌّ.

إنّ هذه التسوية تهدفُ إلى تحطيم مُتعمّد للحواجز الفاصلة فى نفوس الجماهير بين جانب مُقدّس، وجانب لا يحظى بأيّة صورة من صُور التقديس، وإنْ حظى باهتمام الجماهير ولَهْوها به ليلَ نهارَ، ومن الغريب - حقًا - أنّ صاحبَ (التراث والتجديد) برغم أنّه لا يكفّ عن دعوى أحقيّته فى الحديث عن الجماهير والدفاع عنها، إلّا أنّه يتناسى أنّ الجماهيرَ التى يتحدّثُ عنها قد صُمّمَ فكرُها وشعورُها ووجدانُها ومخزونُها النفسيُّ على رفض هذا الخلط، وأنّها لا تعرفُ فنًا دينيًا بالمعنى الذى صوّره لنا صاحبُ (التراث والتجديد)، وإنّما تعرفُ دينًا له قُدسيّتُه وحُرمتُه فى القلوب، وتعي الفرْقَ - الذى يتخطّاه صاحبُ التراث والتجديد - بينَ الدّين كحقائق إلهيّة، وبين قصص شعبيّ لا ندرى إنْ كان مصدرُه واقعًا، أو أساطيرَ لا تمتُّ إلى الواقع بأدنى صلة أو سبب.

ومن الغريب غير المفهوم - أيضًا - أنّه بالرغم من تأكيد (التراث والتجديد) على أهميّة الفنون الشعبيّة فى نفوس الأمّة وخطورتها التى تضارعُ خطورةَ الدّين فى وعيها وثقافتها، فإنّه يصمتُ صمتَ القبور عن (الفنون الشعبيّة)، ولا يرى أنّها مسئولةٌ من قريب أو من بعيد عن الواقع المتردّى لجماهير الأمّة، بينما يعودُ بالتأثير كلّه إلى القسم الدّينيّ فقط من هذا التراث، ويُحمّلُه المسئولية كاملةً عن كلّ ما أصاب أُمّتنا فى عصرها الحديث من جهل وفقر وتخلّف، ممّا يؤكّدُ لنا أنّ التنظيرَ بينَ الدّين - أو القرآن الكريم - وبينَ الفنون الشعبيّة فى هذا الموضع لم يكُنْ من التحليل العلميّ الذى يتّسقُ فيه استنباطُ النتائج من مقدّماتها، بقدْر ما كان محاولةً لخلخلة قدسيّة الدّين فى نفوس الجماهير؛ ليُصبحَ مُعطًى تاريخيًا قابلًا - برُمّته - لإعادة التشكيل، لا كمُعطًى إلهيّ فيه الثابتُ الذى لا يتغيّر، والمُتغيّرُ القابلُ للتجديد.

التراثُ والواقعُ عند مدرسة (التراث والتجديد):

تُراثُنا - فى هذا المفهوم الجديد - لا يستمدّ قيمتَه من مصدره المُفارق أو المُتعالى على الواقع، وإنّما يستمدّ قيمتَه من كونه حاكيًا أو عاكسًا لواقع مُعيّن، بل

٢ - م. ن: ١٢.

٣ - الدين والثقافة الوطنية، لحسن حنفي: ٣٠.

من اعتبار الواقع ذاته جزءًا في ماهية هذا التراث، وليس موضوعًا مقابلًا للتراث يتنزّل عليه ويؤثّر فيه، والنتيجة الحتميّة لهذه النظرة هي محدوديّة التراث في فترة تاريخيّة ارتبط بالتعبير عنها والتعامل معها، فإذا ما تخطاها الواقع وجب تغيير محاوره، وإعادةُ تشكيلها حسب أنماط التغيّر الاجتماعيّ الجديد؛ حتى لو أدّى الأمر إلى نشوء محاور تراثيّة جديدة تتناقض مع محاور التراث القديم، فما دام أخصّ وصف للتراث هو انحصاره في قياس نبض الواقع، فلابدّ من أن ينتفي وصف الثبوت أو الاطّراد عن التراث؛ ضرورة تغيّر الواقع وتحوّله وتبدّله.

وقد نفهم من هذا التحليل أنّ قيمة التراث في ارتباطها بالواقع تتمثّل في مدى تأثير الأوّل في الثاني. أي: تأثير التراث في الحياة وربطها - من خلال حركة التجديد - بالمفاهيم الكليّة الثابتة في التراث بعد إعادة تشكيل المفاهيم المرنة وتطويعها؛ لتساهم في حلّ مشكلات الحياة المعاصرة، بيد أنّ صاحب (التراث والتجديد) يرفض صراحة هذا الفهم، ويخشى أن يتسرّب منه شيءٌ إلى ذهن القارئ، ويحرص - كلّ الحرص - على أن تتمّ عمليّة التغيير لصالح الواقع، لا لصالح التراث على حساب الواقع المستقرّ؛ لأنّ الواقع كما يقول: (هو المصدر الأوّل والأخير لكلّ فكر) (٤).

ويحسن أن ننقل هنا نصوصًا تؤكّد لنا هذا الفهم الذي فهمناه من علاقة التراث بالواقع عند صاحب هذا الاتّجاه:

- (ليس التراث موجودًا صوريًّا له استقلال عن الواقع الذي نشأ فيه، ويصرف النظر عن الواقع الذي يهدف إلى تطويره، بل هو تراث يعبّر عن الواقع الأوّل الذي هو جزءٌ من مكوّناته) (٥).

- (التراث إذًا ليس له وجودٌ مستقلّ عن واقع حيّ يتغيّر ويتبدّل، يعبّر عن روح العصر، وتكوين الجيل ومرحلة التطور التاريخيّ) (٦).

- (ليس التراث مجموعة من العقائد النظريّة الثابتة والحقائق الدائمة التي لا تتغيّر، بل هو مجموعة تحقيقات هذه النظريّات في ظرف معيّن، وفي موقف تاريخيّ محدّد، وعند جماعة خاصّة تضع رؤيتها، وتكوّن تصوراتها للعالم) (٧).

- (التراث ليس له قيمةٌ في ذاته إلّا بقدر ما يعطي من نظريّة علميّة في تفسير الواقع، والعمل على تطويره) (٨).

- (فالتراث القديم (....) هو أيضًا جزءٌ من الواقع ومكوّناته النفسيّة) (٩).

- الواقع: (هو المصدر الأوّل والأخير لكلّ فكر، فإنّ القيم القديمة التي حواها التراث جزءٌ من هذا الواقع) (١٠).

هذه النصوص تعكس - في صراحة ووضوح - خطّة تفسير جديد، يعود التراث

٤ - التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٤.
٥ - م ن: ١٣.
٦ - م ن.
٧ - التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٣.
٨ - م ن: ١١.
٩ - م ن: ١٤.
١٠ - م ن.

- في ضوئها - إلى مصدر ماديّ هو الواقع، وقد غامر مؤلّف (التراث والتجديد) بتعميم الحكم أكثر من مرّة.

أوّلًا: في ارتباط التراث الإسلاميّ القديم بواقعه الذي نشأ فيه - زمانًا ومكانًا - ارتباطًا عضويًّا.

ثانيًا: في أنّ الواقع مصدرُ هذا التراث.

ثالثًا: في أنّ التراث جزءٌ من الواقع.

رابعًا: في أنّ التراث ليس حقيقةً موضوعيّةً دائمةً، وإنّما تعبيرٌ عن موقف تاريخيّ محدّد، وعن تصوّر معيّن لجماعة خاصّة.

وطبقًا لهذا التفسير الجديد الذي يقرّر أصالة الواقع وتبعيّة التراث، يصبح من اللازم - وقد تغيّر الواقع مرارًا عديدة - أن يكون لنا الآن تراثٌ مختلفٌ يعبّر عن واقعنا الذي نعيش فيه، وأن يكون تراثنا القديمُ المرتبطُ مرحليًّا بواقعٍ مضى وتولّى، قد ذهب هو الآخر مع واقعه الذي تخطّاه التاريخُ المعاصرُ وخلّفه وراءه، وألّا يكون للتراث القديم هذا التأثيرُ في نفوس جماهيرنا المعاصرة، وإلّا أصبحت أصالةُ الواقع التي يرتكز عليها بناءُ (التراث والتجديد) في مهبّ الريح، وأصبحت النظريّةُ في وادٍ، والتطبيقُ في وادٍ آخر، بيد أنّ النظريّة الجديدة تؤكّد - في أكثر من موضع - على أنّ تراثنا القديمَ بكلّ أبعاده لا يزال يشكّل النسيجَ الداخليّ لأفكارنا وتصوّراتنا ومشاعرنا.

وهكذا لا ندري: هل نصدّق النظريّة حين تجعل من التراث تعبيرًا عن الواقع أو انعكاسًا له؟ وتمتنّد لابدّ من تكذيب القول بأنّنا نعيش واقعنا الحاليّ بتراث قديم، أو نصدّق هذا القول، وفي ضوئه يجب البحثُ عن صيغة أخرى تحكم العلاقة بين التراث والواقع غير الصّيغة التي تبنّتها هذه النظريّة.

إذ في إطار هذه الصّيغة نصبح أمام أمرين لا ثالث لهما، فإمّا أن يكون لنا تراثٌ يعكس واقعنا الحاليّ، يختلف - بطبيعة الحال - عن تراثنا الماضي، أو إذا قبلنا (مزعومة التراث والتجديد) التي تجعل من تراثنا القديم علّةً تامّةً في تخلّفنا، فلا مفرّ - والحالةُ هذه - من قلب النظريّة رأسًا على عقب، والقول بأصالة التراث وتأثيره في الواقع بل وجرّه إلى الوراء، لا تأثير الواقع في التراث أو جعله جزءًا من الواقع.. إلخ ما تفتّق عنه التفسيرُ الجديدُ من أحكام وأوصاف فرضت على التراث القديم فرضًا، وهي أحكامٌ أقلّ ما يقال فيها: إنّها تضادّ حقيقة التراث الإسلاميّ في أصوله التي ما جاءت إلّا لتغيّر من الواقع، وتحوّل به من مسار إلى مسار، ومن توجّه إلى آخر.

ويستند الأستاذُ الكبيرُ في نظرته الجديدة هذه إلى علم (أسباب النزول) وعلم (الناسخ والمنسوخ)، فإنّهما - من وجهة نظره - يؤكّدان تبعيّة التراث للواقع وارتباطه به قوّةً وضعفًا، فإنّ (ما عبّر عنه

١١ - التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٣.
١٢ - قضايا معاصرة لحسن حنفي.

القُدماءُ باسم أسباب النّزول، لهو - في الحقيقة - أسبقيّةُ الواقع على الفكر ومناداتُه له، كما أنّ ما عبّر عنه القُدماءُ باسم الناسخ والمنسوخ، ليَدُلّ على أنّ الفكرَ يتحدّدُ طبقًا لقُدرات الواقع وبناءً على مُتطلّباته؛ إنّ تراخى الواقعُ تراخى الفكرُ، وإن اشتدّ الواقعُ اشتدّ الفكرُ) (١١).

وإذا فقد (نزَل الوَحيُ حسَب مُتطلّبات الواقع، أو كما يقولُ علماءُ الأصول: طبقًا لأسباب النّزول، وتبعًا لإمكانيات تقبّله، وكثيرًا ما كان الوَحيُ يُعدّلُ حسَبَ الواقع كما يقولُ بذلك علماءُ النّسخ) (١٢).

ثمّ يصلُ بنا الأستاذُ إلى الهدف المقصود، فيقولُ: (الوَحيُ ذاتُه مجموعةٌ من الآيات نزلتْ إبّانَ ثلاثة وعشرين عامًا (...) نصوصُ الوَحي ليستْ كتابًا أُنزل مرّةً واحدةً مفروضًا من عقلٍ إلهيٍّ ليتقبّله جميعُ البشر، بل مجموعةٌ من الحُلول لبعض المشكلات اليومية (...)، وكثيرٌ من الحلول لم تكنْ كذلك في بادئ الأمر مُعطاةً من الوَحي، بل كانت مُقترحات من الفرد أو الجماعة، ثمّ أيّدها الوَحيُ وفَرضَها، وهذه الخاصيّةُ توجدُ في الوَحي في آخر مراحله وهو: الوَحيُ الإسلاميُّ، فهو ليس عطاءً من الوحي بقدر ما هو فرضٌ من الواقع وتأييدُ الوَحي له، وهذا هو معنى (أسباب النّزول) (١٣).

لقد كنّا ننتظرُ من الأستاذ ألّا يقفزَ - بسهولة - على معالمَ شديدة الوضوح في هذا التّراث الذى يُريدُ تجديدَه، وأعني بها ما هو معروفٌ من خطإ القول بوجود سبب نزولٍ لكلّ آية من آيات القرآن الكريم، فالذى يعرفه تراثُ المسلمينَ في أسباب النّزول - هو أنّ: (نزول القرآن على قسمَين: قسم نزلَ ابتداءً، وقسم نزلَ عقبَ واقعة أو سؤالٍ) (١٤).

أمّا أنّ القرآنَ نزلَ (طبقًا لأسباب النّزول، وتبعًا لإمكانيات تقبّله)، فهذا ممّا لا يعرفه تراثُ الإسلام، بل هو ممّا يأباه هذا التراثُ ويُنكرُه أشدّ الإنكار، والأستاذُ - نفسُه - لم يستطعْ أن يدعَمَ مقولتَه هذه بشيءٍ ذي بالٍ من أقوال العلماء، بل ظلّت هذه المقولةُ في كتابات الأستاذ - على طولها - أمنيةً عزّ عليه تحقيقُها، لا لشيءٍ إلّا لأنّها نقيضُ الأصل الذى جاء يُحدّثنا عنه، ثمّ إنّ علمَ أسباب النّزول.. علمٌ يعرفُ عنه الأستاذُ - قطعًا - أنّه اختلطتْ فيه الحقائقُ بالأوهام اختلاطًا كثيرًا، وأنّ الصفحاتِ الأُولى من كتاب (أسباب النزول) للسيوطيّ (ت. ٩١١هـ) تُسجّلُ على جمعٍ غفيرٍ من المفسّرين أنّهم كانوا يخلطونَ بينَ تفسير الآية وسبب نزولها، وأنّهم كانوا يذكرون أسبابًا عديدةً - مُتضاربةً أحيانًا - في نزول الآية الواحدة.

وقد عبّر الشيخ: (محمّد رشيد رضا) عن استيائه الشديد من هذه الظاهرة التُّراثيّة غير المُنضبطة، فقال: (ومن عجب شأن

١٣ - التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٥٧.
١٤ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/٨٢.
١٥ - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٢/١١.

رُواة أسباب النزول أنّهم يُمزّقون الطائفة المُلتئمة من الكلام الإلهيّ، ويجعلون القرآنَ عِضينَ مُتفرّقة؛ بما يُفكّكون الآيات ويَفصلُون بعضَها من بعض، وبما يَفصلون بين الجُمل المُوثّقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكلّ جُملة سببًا مُستقلًا، كما يجعلون لكلّ آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببًا مُستقلًا (١٥).

ويُقرّرُ جلالُ الدّين السيوطيّ أنّه لو ذكر أحدُ المفسّرين سببًا لنزول آية، وذكرَ مُفسّرٌ آخرُ في الآية ذاتها سببًا مُخالفًا، فإنّ كلامَ كلٍّ منهما لا يُعدُّ كلامًا في أسباب النّزول، وإنّما يُعدّ كلُّ ذلك من التفسير: (فحقُّ مثل هذا ألّا يُوردَ في تصانيف أسباب النّزول، وإنّما يُذكرُ في تصانيف أحكام القرآن) (١٦).

وحسْبُنا شاهدًا على اختلاط الروايات وتضاربها في أسباب النزول أنّ الجلال السيوطيّ يأخذُ على أبي الحسن الواحديّ (ت. ٤٦٨هـ) - الرائد الأوّل لعلم أسباب النزول - توسّعه في تلمّس أسباب للنزول بحقّ وبغير حقّ، الأمرُ الذى دفعَ السيوطيّ إلى أن يُحدّدَ المفهومَ الصحيحَ لسبب النزول بأنّه: (ما نزلت الآيةُ أيامَ وقوعه؛ ليَخرجَ ما ذكره الواحديّ في سورة الفيل من أنّ سببها قصّةُ قدوم الحبشة، فإنّ ذلك ليس من أسباب النّزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصّة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت، ونحو ذلك، وكذلك ذكرُه في قوله تعالي:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

(النساء: ١٢٥)

سببَ اتّخاذه خليلًا، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفَى) (١٧).

ويُحدّثنا الواحديُّ أنّه: (لا يحلُّ القولُ في أسباب نزول الكتاب إلا بالرّواية والسّماع ممّن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطّلاب) (١٨)، بيدَ أنّ السيوطيّ يُسجّلُ عليه أنّه تارةً: (يُوردُ الحديثَ بإسناده، وفيه مع التطويل عدمُ العلم بمخرج الحديث.. وتارةً يُوردُه مقطوعًا فلا يُدرى هل له إسنادٌ أو لا) (١٩).

ورغم اعترافنا بأنّنا لسنا من المتخصّصين المُتعمّقين في علوم القرآن الكريم، نستطيعُ - وبكلّ تأكيد - أن نزعُمَ أنّ القدْرَ المشتركَ عند القُدامى والمُحدَثين في موضوع أسباب النّزول هو أنّ آراءَ المفسّرين الشخصيّةَ قد أُخذت - في كثير من الأحيان - على أنّها أسبابُ نزولٍ، واختلطتْ بها اختلاطًا شديدًا، وأنّ المُعوّلَ عليه في معرفة الوقائع التي تُعدُّ أسبابًا حقيقيّةً لنزول بعض آيات القرآن الكريم: هو صحّةُ الرّواية وثبوتُها..

«يتبع»

١٦ - أسباب النزول للسيوطي ٧.
١٨ - أسباب نزول القرآن ٥.
١٧ - م. ن. ٦.
١٩ - أسباب النزول ٨.

نظرات فى الإسلام

فى الصيام



الدكتور محمد عبدالله دراز

الصوم فى الإسلام لا يكفى فيه هذا المظهر السلبى المادي، الذي يقوم على اجتناب المفطرات لأى باعث كان، ولأى هدف اتفق.. وإنما هو قبل كل شيء عمل روحى إيجابي، يتحرى فيه العامل الهدف الذى حددته له الشريعة، ويجعل نيته فيه، وفقًا لإرادة ربه منه.. فاعرف إذًا ماذا أراد ربك من صومك، واعمل على أن تكون نيتك وفقًا لإرادته، وليكن أول ما تذكره من ذلك، أن الله الرحيم لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله.. وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ترى فى ألم الجسم مقصدًا يطلب، وترى فى الارتقاء بالطيبات عدوًا يحارب، فليس الإسلام من بين هذه الأديان، كيف وهو الذى يقول:

﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾

(المائدة: ٨٧)

ويقول:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

إنه لو كانت غاية الصوم هى إشعار الصائم بالجوع والعطش، لكان الرجل العادى يكفيه صوم جل اليوم بل صومه كله، ولكان الرجل الفاقد لشهية الطعام، يجب عليه أن يضيف مدة أخرى يشعر فيها بألم المخمصة، ولكننا نعلم، أن الذى يزيد فى مدة الصوم ولا يتحلل من حرماته ولو بالنية عند غروب الشمس، آثم وأن مثله فى الإثم كمثل الذى ينقص من مدة الصوم فيفطر قبل الغروب.. ونعلم من جهة أخرى أن الذى يراعى شرائط الصوم وحدوده، وهو على صومه معان، وله ميسر - مبرور مأجور - كالذى يكابد فيه شيئًا من تغير المزاج.

ليس هدف الصوم إذا هو هذا الألم البدني.. وإن كان هذا الألم قد يقع فى طريقه.. إن الله عز وجل حين قال لنا:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

لم يقل: لعلكم تتألمون.. كما أنه لم يقل: لعلكم تصحون.. أو لعلكم تقصدون.. وإنما قال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

فجعل الصوم اختبارًا روحيًا وتجربة خلقية، وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين، وأداتك فى اكتساب ملكة التقوى.

التقوي.. هذا هو الهدف الحقيقي، الذى إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمرات مكرهة راغمة، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾

(الشورى: ٢٠)

إنك لن تحيط بكنه التقوى، ولن تقدرها حق قدرها، إلا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود.. فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب:

- مرتبة السيادة العظمى، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد، الفرد الصمد.
- ومرتبة العبودية الدنيا، وهذه هى مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة، والتى ليس لها من الحرية نصيب، كالجماد والحيوان.. وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيرًا فى قبضة شهواته.
- المرتبة الثالثة: تجتمع فيها السيادة على الكون، والعبودية لخالق هذا الكون، وتلك هى المنزلة التى يصعد إليها الإنسان، إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه، ثم جعل يلقى هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح.

فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها، فصار قائدًا مطاعًا فى جنده، سيدًا مهيبًا فى مملكته الصغيرة، فقد نال صفة التقوى وأصبح جديرًا بالاستخلاف فى الأرض والتمكين له فيها.. وأكرم بعبودية هى عين السيادة.

تلك هى التقوى، التى أراد الله أن تكون ثمرة صيامك.. وهى فى الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعًا.. غير أن للصوم فى تحصيلها أثرًا أوسع وأعم.. والمنزلة التى يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هى أعلى المراتب وأسماها.

إن منزلة الصيام، هى أسمى مراتب التقوى، وأكرمها عند الله. فلأن فى سائر العبادات جوانب، تحببها إلى النفوس الكريمة، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة، ففى الصلاة مثلا، حلاوة المناجاة، وفى الزكاة أريحية الجود والكرم، وفى الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم، أما الصيام، فإنه ليس فيه معاونة من الطبع، بل على العكس معاندته ومقاومته، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة.. من العشرة إلى السبعمائة، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد، كما جاء فى الحديث القدسي:

(كل عمل بن آدم له، إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزى به).

ومصداقه فى الكتاب العزيز:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(الزمر: ١٠).

هذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا، لمن فقه حكمة الصوم وصحح فيه نيته، وذلك إنما يكون بجعله نهاية الطهر لا بدايته.. فبداية الطهر، طهر الأبرار بترك المحارم، ونهاية الطهر، طهر الأخيار، بالتحرر من عادة الترف والعيش الناعم، حتى إذا جاء الغد، وجد الجد، ودعا الداعي إلى التضحية العظمى.. نكون قد أخذنا للأمر عدته، حيث مارسنا الصبر وشدته.. ويومئذ نرضى بالظمأ، والنصب، والمخمصة، ولا نرضى أبدًا أن نعود إلى الترف والنعيم تحت الذل وفي قبضة الغاصب.. وتلك هي عبرة الساعة من دروس الصيام.

المعاني الإيجابية في الصوم

إن ما في الصوم من كبت وحرمان، ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة.. إنه التدريب على السيادة والقيادة، قيادة النفس وضبط زمامها، وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة على أعلى مراتبها.

إنك بالصوم تملك زمامي شهوتك وغضبك.. وإنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر.. فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعًا مختارًا في وقت الأمن والرخاء، لأنت غدًا أقدر على الصبر والمصابرة، في البأساء والضراء وحين البأس، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك.. وتلك عاقبة التقوى، التي أراد الله أن يرشحك لها بالصيام.

إن هذا الهدف الذي صورناه وحددناه إنما يقوم في منتصف الطريق الذي رسمه الله للصائمين.. وإن في نهاية هذا الطريق، هدفًا آخر، بل أهدافًا أخرى أهم وأعظم.. وفي الحق أنه لو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها، ولم يكن أمامه عمل إيجابي جديد يسد به هذا الفراغ، إذًا لكانت تجربة الصوم، انتقاصًا للطاقة العاملة من ناحية، دون إمداد لها من ناحية أخرى.. وإذًا لكانت على حد تعبير العلماء «تخلية» بلا تحلية «أو تجارة مأمونة الخسارة» ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة.

فهل شريعة الصوم في الإسلام هي تلك الصورة العارية الجرداء؟ كلا إنها عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الثاني.. إنها شجرة جذعها الصبر، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلاً، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصانًا من الشكر، وأن يتوهج هامته بأوراق وثمار من الذكر والفكر.. وإن من تأمل كلمة التقوى، التي عبر بها القرآن الكريم في حكمة الصيام، يجدها منطوية على هذين الشطرين:

فهي في شطرها الأول كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وإذًا فليس الشأن كل الشأن، في أن يغلق الصائم منافذ حسه، ويسكت صوت الهوى في نفسه، فذلك إنما يمثل إغلاق أبواب النيران، ولكن الشأن الأعظم في أن يكون إغلاق منافذ الحس فتحًا لمسالك الروح، وأن يكون إسكات صوت الهوى تمكينًا لكلمة الحق والهدى فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان.. ومن كان في شك من أن هذا الجانب الإيجابي، هو الهدف الأخير لشريعة الصوم، فليقرأ كتاب الله، وسنة رسوله صلوات الله عليه.

والعجب في هذا التوجيه.. أن الإسلام لم يتركه دعوة مرسلة، بل وضع له مناهج معينة، ورسم له خططًا مفصلة، ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق منهما: بابًا إنسانيًا، وبابًا ربانيًا.. فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الإنساني، فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والإدخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.. وهذا هو الصوم كما فهمه إمامنا الأعظم صلوات الله عليه فقد كان أجود ما يكون في رمضان، حتى أنه كان فيه أجود من الريح المرسلة.. وما زكاة الفطر في آخر رمضان، إلا الحلقة الختامية، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية، التي تحولت فيها فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر؛ اتباعًا لإرشاد القرآن الكريم حين يقول:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني، فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة، ورسم لها سبلا ذللا: تسبيح وتحميد، تكبير وتمجيد:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

(البقرة: ١٨٥).

تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

(البقرة: ١٨٦).

«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، إلا نهاية الشوط في هذا السير، إقبالاً على الله وانقطاعًا بالكلية إليه:

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾

(البقرة: ١٨٧).

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني، إنما هو في مناجاة الله بكلامه، وفي مدارسة كتابه، كما كان يفعل الرسول المصطفى من البشر، والرسول المصطفى من الملائكة، إذ كانا يتدارسان القرآن في رمضان في كل عام ولأمر ما، نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن، وجعلها أول المناقب والمزايا التي اختص بها هذا الشهر المعظم.. فقال جلت حكمته:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾

(البقرة: ١٨٥).

فكان ذلك إيماء لنا بأن نجعل لرمضان من القرآن أوفر الحظوظ.

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود

وإذا كان من شأن الأمم الحية التي تعنى بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها، فلم يكن بدعًا من الأمر أن يجعل الإسلام شعار رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي، الذي ختم الله به الشرائع وأتم به مكارم الأخلاق.

***

المظهر الجماعي في صوم رمضان

إن هذا الضرب من الصوم يمتاز عن سائر أنواع الصيام في الإسلام، بأنه لا يخص فردًا دون فرد، ولا فئة دون فئة، كشأن النوافل والكفارات، وأنه لم يترك لأحد الخيرة في تحديد بدايته ونهايته، ولا في جمعه وتفريقه متى شاء وبقدر ما شاء، ولكنه جعل ضريبة الوفاء على الأمة جمعاء، في موسم معين من العام، وفي مقدار معين من الأيام، وفي وقت واحد، وفي نسق واحد.

هذا الطابع الاقتراني الشامل، يكفي وحده للدليل على أن هذه الفريضة السامية لا يراد منها أن تكون مجرد رياضة روحية تصل بين العبد وربه فحسب، ولا مجرد تجربة إنسانية من التعاطف والتراحم في حالات فردية متفرقة، ولكنه يراد منها أن تكون في الوقت نفسه حلقة اتصال بين الأمة كلها، وأن تكون رباطًا من الرحمة بين المؤمنين تصهرهم جميعًا في قالب واحد، وفي جسد واحد.

على أن فريضة الصوم ليست في هذا بدعًا بين فرائض الإسلام الكبرى، وشعائره العملية العظمى.. فكلها – لو تأملنا – تتمثل فيها هذه الطبيعة الثنائية: الروحية الجماعية.. حتى أن الشعائر ذات الطابع الروحي البارزة، كالصلاة والحج، قد أمدتها الشريعة بعناصر، وأحاطتها بمظاهر، وقيدتها بشرائط تجعل جانبها الاجتماعي لا يقل شرفًا وخطرًا عن جانبها الروحي.

ونحن حين ننظر إلى فريضة الصيام، نرى فيها مظهرًا من مظاهر هذا التماسك، وهذه الأخوة، والمساواة الإسلامية، إنهم يصومون معًا، ويفطرون معًا، دون امتياز لأحد.

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى: جعل الله كل واحدة منها قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعًا لمحبتين، لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتين: المحبة لله، والمحبة في الله.

هكذا أراد الله أن يجعل من عبادتنا شعارًا لوحدتنا.. بل أراد أن يتحول هذا الشعار شعورًا، وأن يصبح هذا الشعور نارًا ونورًا: نارًا تفري قلوب الأعداء، ونورًا يسري إلى قلوب الأولياء: تواصلاً وتراحمًا وتساندًا وتعاونًا.. معان تتفتح أبوابها في كل عبادة جماعية، وهي في عبادة الصوم المشترك أجلى وأظهر، وذلك أن تجربة الصوم المشترك زمالة في الجهاد، ورفقة في مكافحة الشدائد، أرأيت الرفيقين في الجهاد إذا كان أحدهما ذا فضل وسعة في زاده وعتاده، هل تطاوعه نفسه أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد أو العتاد؟

كذلك تنصهر القلوب المؤمنة كلها في بوتقة الصيام، فتعود قلبًا واحدًا في جسد واحد.. وهذا هو المثل الأعلى في وحدة الأمة التي يؤهلنا لها صوم رمضان.

بين نكبة يونيو ونصر العاشر من رمضان



أ.د. يوسف القرضاوى
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

> إنه الزلزال المدمر الذى وقع فى المنطقة، فغير من حالها، وقلب موازينها رأسًا على عقب، وما زلنا نعانى آثاره المرة إلى اليوم.
>
> إنه نكبة الخامس من حزيران «يونيو» ١٩٦٧/٦/٥م الذى عرف بـ «حرب الأيام الستة»، والذى هزمت فيه «إسرائيل» مصر وسوريا، هزيمة ثقيلة، واستولت على سيناء فى مصر والجولان فى سوريا، بضربة خاطفة قاضية، حطمت بها الطيران المصرى، بضرب الطيارات وهى رابضة فى مطاراتها، فدمرت الطائرات، وخربت المطارات، وشلت بذلك سلاح الجو المصرى شللا كليًا، لا شللاً نصفيًا.. وأضحت القوات المصرية فى سيناء مكشوفة بلا غطاء جوى، يحميها ويحرسها من الضربات الجوية للعدو المتربص.

استيقظنا في الصباح على هذه القارعة الهائلة، وهذا النبأ المفزع، وأخذنا نتتبع الإذاعات والتلفازات، ونشرات الأخبار، لنعرف المزيد عما حدث.

ولم يكن لقطر – التي كنت أقيم فيها آنئذ – في ذلك الوقت إذاعة ولا تليفزيون، فكنا نفتح إذاعة مصر، وتليفزيون مصر، فإذا هما يقولان كلامًا، وتقول إذاعة لندن وغيرها كلامًا آخر.. ثم عرفنا بعد ذلك أن أكثر البيانات التي كانت تذيعها مصر إنما هي أكاذيب ملفقة، تحاول أن تمسك بها الناس أن يثوروا، فهي تخدعهم بمعسول القول، وأخبار النصر، وإسقاط طائرة في المكان الفلاني، وأخرى في مكان آخر، والناس تصدق هذا الهراء، وتركض من مكان إلى آخر لتبحث عن حطام الطائرة المسقطة، فلا تجد له أثرًا، ولا تسمع له خبرًا.

حتى قال لي الأستاذ صلاح جلال – محرر باب العلوم في «الأهرام» الذي اختير بعد ذلك نقيبًا للصحفيين – وكان يتردد على قطر بين الحين والحين: إننا كنا – ونحن صحفيون في أكبر جريدة في العالم العربي – نجهل الحقيقة، فكنا نجري مع عوام الناس في الشوارع نبحث عن الطائرات التي أسقطها جيشنا الباسل، لنكتب عنها شيئًا، فنعود بخفي حنين، كما يقول العرب، أو بغير خف

أصلاً. اهـ.

وكنا نحن في الخارج أكثر فهمًا لما وقع من أهلينا وأخوتنا في مصر، لأن لنا مصادر أخرى لمعرفة ما حدث غير الإذاعة والتليفزيون المصريين.

ومن أول ما وقعت الحرب، ارتفع نبض الشارع العربي والإسلامي، واتقدت شعلة الحماس للجهاد في صدور الناس من كل جنس ولون، ونادى جمهور الناس: أن حي على الجهاد، لمقاومة الصهاينة، والدفاع عن الأقصى والمقدسات.

واستقبلت منظمة التحرير الفلسطينية بالدوحة آلاف الناس يقفون في طوابير طويلة، يريدون تسجيل أسمائهم في المتطوعين لإنقاذ فلسطين.. وكان أكثر هؤلاء حماسًا: إخواننا من الباكستانيين والأفغانيين وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية، الذين يعيشون في قطر، قائلين: إن المسجد الأقصى ليس ملك الفلسطينيين ولا العرب وحدهم، بل هو ملك المسلمين جميعًا، فعلينا أن نسهم في تحريره وإبعاد العدو عنه.

وأذكر أننا أقمنا مهرجانًا في منظمة التحرير، وكان ممن تكلم فيه العالم القطري الغيور المعروف الشيخ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، فكان مما قاله للشباب الفلسطيني: اعتصموا بحبل الله، وتمسكوا بالدين، ينصركم الله على عدوكم.. فما كان من بعض الشباب الطائش، إلا أن صاحوا وهتفوا في وجه الشيخ: لا دين إلا السلاح!

وكان لهذا الهتاف الجاهل الأهوج: أثر سيئ في جمهور الحاضرين، الذين استنكروا هذا القول كل الاستنكار، الذي يدل على غباء قائله، وفقدان وعيه، بحقيقة هذا الصراع بيننا وبين بني صهيون، وأن الدين هو المحرك الأول لهذه الأمة، وهو الذي يبعث هامدها، ويحرك جامدها، ويشعل خامدها، ويوحد كلمتها، ويصنع بها العجائب، وروائع البطولات، ويعيد إليها أيام خالد وأبي عبيدة وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز.

ولقد قلنا مرارًا: إن إخراج الدين من المعركة هو الذي أضر بهذه القضية أبلغ الضرر، لأننا نجرد أنفسنا من أمضى سلاح يحاول عدونا أن يضربنا به.. فهو يستغل الدين ويوظفه في تعبئة قواه، وتجنيد رجاله، وهو غير مؤمن به.. فكثير من الصهاينة «علمانيون» لا دين لهم، ولكنهم - وإن لم يؤمنوا بالدين - يؤمنون بقوة الدين، وأهمية توظيف الدين في معركتهم.

وكم نادينا قومنا: إننا يجب أن نحاربهم بمثل السلاح الذي يحاربوننا به، فإذا حاربونا باليهودية، حاربناهم بالإسلام، وإذا قاتلونا بالتوراة، قاتلناهم بالقرآن، وإذا قالوا: التلمود، قلنا: البخاري ومسلم، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: المسجد الأقصى.

ولا يفل الحديد إلا الحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم، لأن ديننا أقوى من دينهم، إذ كيف يكون المنسوخ في قوة الناسخ، وكيف يكون المحرف والمبدل في قوة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

كانت الهزيمة ثقيلة، وكان حجم الخسارة ضخمًا من الناحية المادية، ومن الناحية المعنوية، وقد اعترف عبدالناصر بعد ذلك في ٢٣ يوليو وفي توفمبر من نفس العام، بمقدار هول الخسارة وفداحتها، وذكر أعداد المقتولين والمأسورين والمفقودين من الضباط والجنود، وصرح: أن الطريق إلى القاهرة كان مفتوحًا أمام إسرائيل.. ولم يكن هناك جندي واحد يعوق تقدم إسرائيل لو أرادت.

كما أعلن أرقامًا فادحة عن خسارة مصر في هذه المعركة المشئومة، فذكر: أن مصر خسرت في هذه الحرب ٨٠٪ من سلاحها، و١٠,٠٠٠ جندي و١٥٠٠ ضابط، وأسر ٥٠٠٠ جندي و٥٠٠ ضابط لم يعد أكثرهم! هذا حديث عبدالناصر، وقد سمعناه بآذاننا.

وتذكر المراجع أن ضحايا هذه الحرب يبلغون ٣٥,٠٠٠ جندي قتل أكثرهم في ساعات، وخصوصًا في الممرات، لأن شارون - مجرم الحرب الإسرائيلي - كان يسحقهم بالدبابات في الممرات.

أما التدمير الذي حل بمدن القناة، فخسارته أعظم من أن تقدر!

وأما التدمير النفسي والمعنوي، فحدث ولا حرج.

حدثت هذه الخسائر كلها، ولكن الشعب المصري لم يكن يعرف شيئًا من ذلك، نتيجة التضليل الإعلامي، الذي استحل الكذب الصراح على الشعب، حتى بات غائبًا عما يجري على أرضه، وما يدور في ساحة وطنه.

إن الهزائم الكبرى كثيرًا ما تسقط دولاً، وتغير أنظمة، وهذا عندما تتوافر الحريات، ويملك الناس حق المساءلة والحساب.

إن جمهور الشعب المصري لم يكن لديه أدنى معرفة بحجم الكارثة الهائلة، والهزيمة الساحقة والمذلة التي لحقت ببلده وجيشه..

وربما لو عرف الأمر على حقيقته لكان له موقف آخر، وهو موقف الشعوب الحية حين تطالب بمعرفة من المسئول عن هذه النازلة أو القارعة؟ ولابد أن يساءل ويحاكم ويأخذ جزاءه أيا كان موقعه.

أهي نكسة أم نكبة؟

لقد سمى الإعلام وقتها هذه الهزيمة المذلة - التي خسرنا فيها القدس، والضفة الغربية، وغزة، وسيناء، والجولان «النكسة»! كأنهم كانوا في انتصار دائم، ثم انتكسوا هذه المرة.

والواقع أن هذه تسمية خاطئة، وإنما هي «نكبة كبرى» توازي «النكبة الأولى» سنة ١٩٤٨م، التي قامت فيها دولة بني صهيون، وشرد الفلسطينيون من ديارهم، وغرس هذا الكيان المعتدي في قلب بلاد العروبة والإسلام، ليكون خنجرًا مسمومًا في صدورهم.

ولذا سميتها «النكبة الثانية» أي بعد نكبة ١٩٤٨م في كتابي «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟» الذي أصدرته في سنة ١٩٦٨م، أناقش فيه أسباب النكبة الحقيقية، وطريق النصر الذي يجب أن نسلكه.

بل أقول: إن أثر هذه النكبة كان أعظم خطرًا من النكبة الأولى، فقد ظل العرب - بعد النكبة الأولى - متمسكين بأن فلسطين كلها من النهر إلى البحر: وطنهم المغتصب، وبلدهم المسلوب، وحقهم فيه ثابت لا مراء فيه، وأنهم سيظلون يجاهدون بكل ما لديهم من قوة، لطرد العدو الغاصب، واسترداد الوطن الضائع، وإن طال عليهم الأمد، فإن

مضى الزمن لا يسقط الحقوق الثابتة، ولا يبطل حق المواطنين فى المطالبة بوطنهم المنهوب.

هكذا كان العرب جميعًا فى مشارقهم ومغاربهم، ثوريوهم وليبراليوهم، حتى وقعت هذه النكبة، فتغيرت فلسفة العرب، وتغيرت سياستهم، وتغير منطقهم، وتنادى القائمون على الأمر بسياسة «إزالة آثار العدوان»، يعنون بذلك: عدوان ١٩٦٧م، وإعادة الأوضاع إلى ما كان عليه الحال قبل ٥ يونيو ١٩٦٧م.

ومآل هذا ـ واقعيًا وسياسيًا، وكما نسمع الآن فى كل مكان، ولو بتواطؤ خفى على الأمر ـ أن العدوان الجديد ألغى العدوان القديم، بل أضفى الشرعية عليه، أى عدوان ٦٧ أضفى الشرعية على عدوان ٤٨!.

فما أعظم الهول! وما أعظم الفارق بين موقف العرب قبل هذه النكبة المخزية، وبعد هذه النكبة المهينة!



وبعد مرور سنوات، فوجئنا وفوجئ العالم كله، فى رمضان ١٣٩٣هـ، بحدث اهتزت له القلوب طربًا، وابتسمت له الثغور فرحًا، ولهجت به الألسنة ثناء، وسجدت الجباه من أجله لله شكرًا.

إنه الحدث الذى عوضنا عما فوجئنا به من قبل فى الخامس من حزيران «يونيو» ١٩٦٧م، والذى خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به ـ إلى اليوم ـ القدس والضفة والقطاع والجولان، إضافة إلى سيناء التى استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذى أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، هو حرب العاشر من رمضان «١٠ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م».. وأنا أحب دائمًا أن أسميها معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر، لأن «شهر رمضان»، ونفحاته وبركاته وإمداداته التى هبت نسماتها على الجنود والصائمين والمصلين كان له أثره فى تحقيق النصر، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء، أما «أكتوبر» فليس له أى إيحاء، أو دخل فى هذا النصر.

مازلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر فى مسجد الشيخ خليفة، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلنى، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقف، للاتصال بى من هنا وهناك، مهنئة بما وقع، شاكرة لله ـ تعالى ـ الذى صدق وعده، وأعز جنده، وهزم الظالمين وحده.

فى أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين، كما خدع كثيرون أيام نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧م، فقد كانت القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس، وتخدرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات، والحقيقة أن طائراتنا هى التى ضربت فى مدرجاتها، ولم تطر حتى تسقط، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلمًا، وأنه واقع وليس من نسج الخيال.

ألا ما أحلى مذاق النصر، وخصوصًا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل! وللأسف طالت هزائم الأمة فى معارك شتى، وذرفت الدموع كثيرًا على هزائمها، حيث لم تغن الدموع، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن، وأن تضحك بعد طول بكاء.

لقد عبر الجيش المصرى القناة، صنع قناطر أو جسورًا للعبور عليها، مكونة من أجزاء، تركب فى الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسرًا فوق الماء تعبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها منذ سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدريب عليها منذ شهور، فى تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصرى خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب، ولهذا حفظ السر، ولم يبح به أحد.

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح، اقتحمت القوات المصرية ما عرف باسم خط بارليف، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة.

وكان كل شئ مُعدًا بجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شىء مرتجل، وقام كل سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان والمدرعات، وسلاح الطيران، كل قام بما هيئ له، وما كلف به.

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيًا وروحيًا، لما يمد به الجنود من نفحات، وما يعطيهم من شحنة روحية، وكان أكتوبر مناسبًا، من حيث المناخ، وليس فيه حرارة الصيف، ولا برد الشتاء.

وكان الوقت مناسبًا من ناحية أخرى إنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم فى الاحتفال بالعيد، لنفاجئهم بضربتنا، كما فاجئونا بضربتهم فى يونيو ٦٧.

ولا يقال: كيف نباغتهم ولا ننذرهم؟ فمثل هذه الحرب لا تحتاج إلى إنذار ولا إبلاغ، لأنها حرب دفاع للمحتل، وهى مستمرة معه لم تتوقف.

وأهم من هذا كله: الروح المعنوية التى كان يحملها المقاتل المصرى.. إنها روح الإيمان، الإيمان بالله تعالى، وأنه ينصر من نصره، والإيمان بأننا أصحاب الحق، والحق لا بد أن ينتصر، والباطل لا بد أن يزهق:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الإسراء: ٨١).

وفرق كبير بين هذه الحرب وحرب ٦٧، فقد كان العنصر الإيمانى والروحى مغيبًا عنها تمامًا، لذلك لم يحالفها النصر.

كانت كلمة السر فى حرب ٦٧: بر بحر جو، ولكن الواقع يقول: إنهم لم ينتصروا فى بر ولا بحر ولا جو، ولم يكن الذنب ذنب الجيش وجنوده، ولكن ذنب القادة الذين جروهم إلى حرب لم يخططوا لها، ولم يعدوا لها العُدة، ولم يأخذوا لها الحذر، كما أمر الله.

لقد ترك الجنود أسلحتهم، وتركوا دباباتهم ومصفحاتهم، لم يحاولوا أن يشعلوا فيها النار بعد أن تركوها، حتى لا يغنمها العدو ويستفيد منها، لأن هم كل واحد منهم كان هو النجاة بنفسه، واللياذ بالفرار.

لقد اعتمدوا على الآلات، فلم تغن عنهم الآلات، واتكلوا على السلاح فلم ينجدهم السلاح، لأن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يحركها إيمان بهدف، وإيمان برسالة، وهذا لم يعبأ به الجنود.



يقول الطغرائي في لاميته:

وعـادة السـيف أن يُزهى بجوهره
وليس يعمل إلا في يدى بطل

ماذا تجدى خيل بغير خيال، وفرس بغير فارس، وسيف صارم بغير بطل؟!

فلا عجب أن كانت الهزيمة الثقيلة المذلة في ٦٧، فهذه نتيجة منطقية لمقدمتها، كما قال العرب: إنك لا تجنى من الشوك العنب.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

(الأعراف: ٥٨)

وسُئل حسنى مبارك عندما كان نائبًا للرئيس السادات في ٢٧ - ٩ - ١٩٧٥م، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس ٦٧ في الإعداد لقتال ٦ أكتوبر؟ قال: «باختصار.. في ٦٧ لا تخطيط.. لا إعداد.. لا تدريب.. لا تنسيق بين العمل السياسي والعسكري». أ.هـ.

وأهم من ذلك: أننا لم نزود جنودنا بالإيمان، في حين تجتهد إسرائيل أن تزود جيشها بتعاليم التوراة، وتوجيهات التلمود، ونصائح الحاخامات.

وكان من ثمرات محنة ٦٧: أنها أيقظت في الناس المعنى الديني، والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحرص على إقامة الصلاة، وقام وعاظ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة «الله أكبر».

إن الجندى المصرى في ٧٣ هو نفسه في ٦٧ من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يُقاد من داخله لا من خارجه، ولا يقود الناس في بلادنا شيء مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان.

شهر رمضان.. أثر الصوم في النفوس (*)



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

الإسلام دين تربية للملكات والفضائل والكمالات، وهو يعتبر المسلم تلميذًا ملازمًا في مدرسة الحياة، دائمًا فيها، دائبًا عليها؛ يتلقى فيها ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر؛ ومن ثم فهو يأخذه أخذ المربي في مزيج من الرفق والعنف، بامتحانات دورية متكررة، لا يخرج من امتحان منها إلا ليدخل في امتحان؛ وفي هذه الامتحانات من الفوائد للمسلم ما لا يوجد عشره ولا معشاره في الامتحانات المدرسية المعروفة.

وامتحانات الإسلام متجلية في هذه الشعائر المفروضة على المسلم، وما فيها من تكاليف دقيقة، يراها الخلي الفارغ أنواعًا من التعبدات تتلقى بالتسليم؛ ويراها المستبصر المتدبر ضروبًا من التربية شرعت للتزكية والتعليم؛ وما يريد الله ليضيق بها على المسلم، ولا ليجعل عليه في الدين حرجًا؛ ولكن يريد ليطهره بها، وينمي ملكات الخير والرحمة فيه، وليقوي إرادته وعزيمته في الإقدام على الخير، والإقلاع عن الشر، ويروضه على الفضائل الشاقة، كالصبر، والثبات، والحزم، والعزم، والنظام، وليحرره من تعبد الشهوات له وملكها لعنانه؛ وما زالت الشهوات الحيوانية موبقًا للآدمي، منذ أكل أبواه من الشجرة؛ حكمة من الله في تعليق سعادة الإنسان وشقائه بكسبه، ليحيا عن بينة، ويهلك عن بينة.

في كل فريضة من فرائض الإسلام امتحان لإيمان المسلم، ولعقله، وإرادته؛ ودع عنك الأركان الخمسة، فالامتحان فيها واضح المعنى بين الأثر؛ وجاوزها إلى أمهات الفضائل التي هي واجبات تكميلية، لا يكمل إيمان المؤمن إلا بها، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في القول والعمل، والصبر في مواطنه، والشجاعة في ميدانها، والبذل في سبيله؛ فكل

(*) نشرت في العدد ٤٣ من جريدة «البصائر» ١٢ يوليو سنة ١٩٤٨ م.

واحـدة، أو فـي كل واحدة منهـا امتحان تكميلي للإيمان، تعلو فيه قيم، وتهبط قيم، وفي التوحيد امتحـان لليقين، واليقين أسـاس السـعادة، وفي الصـلاة امتحان لـلإرادة، والإرادة أصـل النجاح، وفي الحج امتحان للهمم بالسير في الأرض، وهو منبع العلم، وفي الصـوم امتحان للصبر، والصبر رائد النصـر، ونحن نريد من الامتحـان هنا معناه العصرى الشائع.

غير أن الصوم أعسـرها امتحانـا؛ لأنه مقاومة عنيفـة لسـلطان الشـهوات الجسـمية ومقـاوم الشـهوات في نفسه أو في غيره قلما ينتصر؛ فإن انتصر فقلما يقف به الانتصار عند حد الاعتدال؛ بل كثيرًا ما يجاوزه إلى أنواع من الشذوذ والتنطع تأباهـا الفطرة والعقل؛ وهـذه الروح المقاومة في الصـوم هي التي راعتها الأديـان والنحل، فجعلت الصـوم إحـدى عباداتهـا، تـروض عليـه النفوس المطمئنـة، وتروض به النفوس الجامحة؛ ولكن الصـوم في الإسـلام يزيد عليهـا جميعًا في صورته ومدتـه، وفي تأثيره وشـدته، فمدته شـهر قمرى متتابع الأيام، وصورته الكاملة فطم عن شـهوات البطن والفرج واللسـان والأذن، وكل ما نقص من أجزاء ذلك الفطام فهو نقص فـي حقيقة الصوم، كما جـاءت بذلـك الآثار الصحيحـة عن صاحب الشـريعة، وكمـا تقتضيـه الحكمـة الجامعة من معنـى الصوم فـلا يتوهمن المسـلم أن الصوم هو ما عليه العامة اليوم من إمسـاك تقليدى عن بعض الشـهوات فـي النهـار، يعقبه انهمـاك في جميع الشـهوات بالليل، فإن الذى تشـاهده من آثار هذا الصوم العرفي إجاعة البطن، وإظماء الكبد، وفتور الأعضـاء، وانقباض الأسـارير، وبذاءة اللسـان، وسـرعة الانفعـال، واتخاذ الصوم شـفيعًا فيما لا يحـب الله مـن الجهر بالسـوء من القـول، وعذرًا فيما تبدر به البوادر من اللجاج والخصام والأيمان الفاجـرة!! كلا.. إن الصـوم لا يكمـل، ولا تتم حقيقتـه، ولا تظهـر حكمته ولا آثـاره إلا بالفطام عـن جميـع الشـهوات الموزعـة على الجـوارح، وللأذن شـهوات في الاسـتماع، وللعين شـهوات فـي امتداد النظر وتسـريحه، وللسـان شـهوات فـي الغيبـة والنميمة ولـذات في الكـذب واللغو والتزويق وإن شهوات اللسان لتربو على شهوات الجوارح كلها؛ وإن له لضراوة بتلك الشـهوات لا يسـتطيع حبسـه عنها إلا الموفقون من أصحاب العزائم القوية وإن تلك الضراوة هي التي هونت خطبه حتى على الخواص فلم يعتبروا صوم اللسان من شـروط الصـوم؛ وأعانهم على ذلـك التهوين تقصيـر الفقهاء فـي تعريـف الصـوم، وقصرهم إيـاه علـى الإمسـاك عـن الشـهوتين، وافتتانهم بالتفريعـات المفروضـة، وغفلتهم عمـا جاء في السـنة المطهرة من بيـان لحقيقة الصوم وصفات الصائم.

***

صوم رمضان محك للإرادات النفسـية، وقمع للشـهوات الجسـمية، ورمـز للتعبد فـي صورته العليا، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات، وتدريـب منظـم علـى حمـل المكروه مـن جوع وعطش وسـكوت، ودرس مفيد في سياسة المرء لنفسـه، وتحكمـه فـي أهوائها، وضبطـه بالجد لنـوازع الهزل واللغو والعبث فيها، وتربية عملية لخلـق الرحمة بالعاجز المعدوم؛ فلولا الصوم لما ذاق الأغنياء الواجدون ألم الجوع، ولما تصوروا ما يفعله الجوع بالجائعين؛ وفي الإدراكات النفسية جوانب لا يغني فيها السماع عن الوجدان، ومنها هذا؛ فلو أن جائعًا ظل وبات على الطوى خمسًـا، ووقـف خمسًـا أخرى يصـور للأغنيـاء البطان ما فعـل الجوع بأمعائه وأعصابه، وكان حاله أبلغ في التعبير من مقاله، لما بلغ في التأثير فيهم ما تبلغه جوعة واحدة في نفس غني مترف.

لذلك كان نبينا إمام الأنبياء، وسيد الحكماء، أجود ما يكون في رمضان.

***

ورمضـان نفحة إلهية تهب على العالم الأرضي فـي كل عام قمرى مرة، وصفحة سـماوية تتجلى علـى أهل هـذه الأرض فتجلو لهم مـن صفات الله عطفه وبره، ومن لطائف الإسـلام حكمته وسره؛ فلينظر المسـلمون أين حظهم مـن تلك النفحة، وأين مكانهم في تلك الصفحة.

ورمضان «مستشفى» زماني يجد فيه كل مريض دواء دائه؛ يستشفي فيه مرضى البخل بالإحسان، ومرضى البطنة والنعيم بالجوع والعطش، ومرضى الجوع والخصاصة بالشبع والكفاية.

ورمضان جبار الشهور، فـي الدهور، مرهوب الصولـة والدولة، لا يقبل التسـاهل ولا التجاهل، ومن غرائب شئونه أن معظم صائميه من الأغفال، وأن معظـم جنده من الأطفال، يسـتعجلون صومه وهم صغار، ويسـتقصرون أيامـه وهي طوال، فإذا انتهـك حرمته منتهك بثوا حوله الأرصاد، وكانوا له بالمرصـاد، ورشـقوه وتضحـوه، و(بهدلوه) وفضحـوه؛ لا ينجـو منهـم مختف في خـان، ولا مختبئ في حان، ولا ماكر يغش، ولا آوٍ إلى عش، ولا مستتر بحش[1]؛ ولا من يغير الشكل؛ لأجل الأكل، ولا من يتنكر بحجاب الوجه، ولا بسـفور الرأس، ولا برطانة اللسـان؛ كأنما لكل شيء في خياشـيمهم رائحة، حتى الهيئـات والكلمات؛ وهم قـوم جريحهم جبـار الجـرح، وقتيلهم هدر الدم.

سـبحـان مـن ضـيـق إحـصـاره
وصـيـر الأطـفـال أنـصـاره
وحـرك الـريـحـيـن بـشـرى بـه
رُخـاءه الـهـيـنَ وإعـصـاره

ورمضـان -مـع ذلـك كلـه- مجلى أوصاف للوصاف: حرم أهل المجون مما يرجون، وحبس لهم من مطايبا اللهو ما يزجون؛ وأحال -لقمهم- أيام الدجون، كالليالي الجون؛ ففرحوا لتجليه وفرحـوا بتوليـه، وتظلمـوا وتبرموا، وقالـوا فيـه فأكثروا؛ وأطـل على الشـعراء بالغارة الشـعواء فهامـوا وجنـوا، وقالـوا فافتنـوا؛ قـال إمامهم الحكمـي: إن أفضـل يوم عنده أول شـوال؛ وقال الغالـون منهـم والقالون ما هو أشـبه بهم، ولو لم يكن لآخرهم «شوقي» إلا «رمضان ولى».. لكفته ضلة، ودخنا في اليقين وعلة؛ والرجل جديد، وله في العروبة باع مديد، وفي الإسـلام رأي سـديد، وفي الدفاع عنه لسـان حديد؛ ونحـن نعرفه، فلا نقرفه.

أما المعتدلون والمراءون فمنهم القائل:

شـهـر الـصـيـام مـبـارك
مـا لـم يـكـن فـي شـهـر آب
خـفـت الـعـذاب فـصـمـتـه
فـوقـعـت فـي عـيـن الـعـذاب

ومنهم القائل:

يـا أخـا الـحـارث بـن عـمـرو بـن بكر
أشـهـورًا تـصـوم أم أعـوامـا
طـال هـذا الـشـهـر الـمـبـارك حتى
قـد خـشـيـنـا بـأن يـكـون لـزامـا

أما الوصف العبقري، والوادي الذي طم على القرى، فهو قول الحديث الموحى: «الصوم لي وأنا أجزي بـه»، وحديث الصادق: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، وحديث الصحيح: «للصائم فرحتان»، وقول الكتاب المكنون:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

(١) الحش: الكنيف.

ليلة القدر



الشيخ محمود شلتوت

أفكار الناس عن ليلة القدر

جرت عادة المسلمين فى عهودهم الأخيرة أن يقيموا فى ليلة السابع والعشرين من رمضان احتفالا بليلة القدر، ويرون أنه يحقق معنى القيام الذى رغب فيه الرسول بقوله: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه» (صحيح البخارى) ويجرى على ألسنة كثير من الناس فى خصائص تلك الليلة ما لا يتصل بمكانتها الروحية، التى ربطت بين السماء والأرض وبين عالم الغيب والشهادة، والتى صرح بها أو أشار إليها القرآن، لسان الحكمة وقانون الخلود وعلاج الأدران ووسيلة الطهر، وقد كثر الكلام عليها فى ذلك حتى عند العلماء، كثرة خرجت فى معظم ما قالوا أو كتبوا إلى حد صرف الناس عن تدبر جانبها الروحى إلى الاشتغال بظواهر مادية، ومفاجآت حسية، لا تعنى بها الروح ولا يهتز لها القلب.

حديث فى وقت السحر

وقد أردت أن أتحدث عما أراه وأطمئن إليه فى هذا الشأن، وقد اخترت لهذا الحديث[1] ساعة من ساعات الليل الذى تخضع فيه الأصوات، وتسكن الكائنات، وتنطلق الأرواح، تسبح فى ملكوت الأرض والسموات، وقد زالت من أمامنا العقبات، ورفعت بينها وبين مقصدها الأسمى حجب الماديات، وقصر بينهما شاسع المسافات.. وهناك تتجلى الآيات، وتفيض بحار الرحمات، وتنتعش النفوس بما تتلقى من دروس، تكون لها فى حياتها الرائد الذى لا يضل، والضوء الذى لا يخبو.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

(القدر: ١ - ٥)

فى سكون الليل يتحنث النبى ويتعبد ويسرى به ربه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ويأمره بالتهجد فى الليل عسى أن يبعثه مقامًا محمودًا، وفى الليل يتلقى من ربه وهو فى خلوته يناجيه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١ - ٥)

ويفاجئ محمد الناس بهذا الخطاب الإلهى الكريم، الذى يشعرهم بفضل الله عليهم فى تربيتهم المادية، وتربيتهم العقلية، ويصير هذا الخطاب الذى لا يألفون شغلهم الشاغل، فيصفونه بأنه شعر أو سحر أو كهانة، وتكون مهمة الوحى إذ ذاك تأكيد أنه حقيقة صادرة عن الله لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فينزل:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

(ن: ١ - ٣)

وينزل:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾

(النجم: ٢ - ٥)

وتنزل السور المعروفة فى القرآن باسم «الحواميم» وكلها تؤكد أنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وتزيد سورة الدخان فتذكر الليلة التى نزل فيها وتخلع عليها صفة الخير والبركة، تلك الصفات التى وصف بها القرآن:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾

(الدخان: ٣)

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

(الأنعام: ٩٢)

وفيما بين هذا وذاك تجيء سورتنا، وتذكر الليلة أيضًا، وتخلع عليها صفة القدر والشرف التى هى صفة القرآن عند الله.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

معنى «القدر»

وإذا كان جو الإنزال والتنزيل يتصل كله كما نرى بالقرآن الكريم - فليس من السهل أن يكون المراد بالليلة المباركة غير الليلة التى أنزل فيها القرآن، كما أنه ليس من السهل أن يكون المراد بالقدر غير الشرف الذى اكتسبته الليلة من نزول القرآن فيها، وعلى الرغم من ذلك يقال: إن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شعبان، وإن القدر هو تحديد ما يجريه الله على عباده من الأرزاق والأعمار والأحداث الكونية.. وأين هذا من جو الآيات التى ذكرنا؟ وأين هو من موقف القوم فى شأن

[1] أذيع هذا الحديث فى سحر ليلة من ليالى رمضان

ما فوجئوا به من خطاب الرسالة والوحي؟

إنزال القرآن فى تلك الليلة

وإذا تجاوزنا هذا وقلنا ـ كما هو واضح من القرآن ـ إن الليلة المباركة هى ليلة القدر، وإن الكلام يتعلق بالقرآن وحده ولا علاقة له بالأحداث الكونية، فإنا نجد خلافًا آخر فى المراد بالقرآن الذى أنزل فى تلك الليلة، هل هو أول ما نزل منه؟ يذهب فريق إلى الأول، ويقولون: ليس الحديث عن إنزاله للناس، وإنما هو إنزاله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا التى نزل منها بعد ذلك منجمًا فى مدة الوحي والتشريع، وأن قبول هذا الرأى مع جو آيات النزول والإنزال يعوزه حجة، أقل درجاتها أن تكون نقلا صحيحًا إن لم تكن متواترة يقينية، وإذن فالحديث قطعًا عن القرآن للناس والبدء فى إنزاله من القادر الحكيم مستتبع قطعًا لإنزاله كله، فصح أن يقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾.

أقوال كثيرة فى تشخيصها وتحديد زمنها

وإذا خرجنا من هذه المرحلة بتلك النتيجة فإنا نجد خلافًا ثالثًا واسع المدى فسيح الخيال، يدور هذا الخلاف على تشخيص هذه الليلة: أهى ليلة متميزة بنفسها، لها خصائصها من أصل الخلقة، ومعروفة بشرفها ومزاياها قبل نزول القرآن فيها، وأن الله قد اختارها لفضلها وقتًا لنزول القرآن، أم أن قدرها وشرفها لم يكن إلا بنزول القرآن؟

يذهب فريق إلى الأول، ولعلنا لا نحتاج فى رفضه إلى أكثر من معرفة أن شرف القرآن وعظمته من عظمة مصدره التى تفوق كل عظمة فى الكون.

وإذن يتعين المصير إلى الثاني، وهو أنها كانت بنزول القرآن فيها ذات قدر وشرف.

وإذا واصلنا السير بعد هذا مع القوم نجد خلافًا رابعًا حول شهر هذه الليلة من السنة، وأسبوعها من الشهر، ويومها من الأسبوع وتصل الأقوال فى هذه المرحلة إلى أربعين ونيف من الأقوال.

موقفنا من هذه الأقوال

والذى تشهد له الأحاديث الصحيحة ويدل عليه قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

(البقرة: ١٨٥)

هو أن شهرها رمضان ولا شك، وأن ليلتها إحدى لياليه، ولا شك، وأنها الليلة التى وصفت بالبركة ووصفت بالقدر والشرف، ولا شك، وأنها الليلة التى بدىء فيها بإنزال القرآن.. وليس بلازم أن يكون الرسول على علم بموقعها من الشهر، ولا بالشهر نفسه، فإن اشتغال

روحه وقلبه بمولاه ـ وبانحصار تفكيره فى دائرة المناجاة والتلقى عن الله ـ لا يسمح له بتذكر وقت أو مكان أو مخلوق.. نعم ورد أن الله أعلمه بها بعد، ثم أنساه إياها لحكمة يريدها، وصح أن الرسول وجه أصحابه إلى تحريها والتماسها ليذكروها ويتمثلوا بذكرها نعمة الله عليهم فيها.

وإن ليلة ينزل فيها رب العزة والقدر كتابًا ذا قدر، تحمله سفرة أصحاب قدر على رسول ذى قدر، لأمة ذات قدر، لا شك أنها تكون ليلة من ليالى التجلى الأعظم، إذا ما توجه فيها المؤمن إلى ربه، مستحضرًا ما لها من ذلك الشأن، كان اتصاله الروحى بمولاه أقوى ما يمكن أن يحصل عليه مؤمن من درجات القرب والاتصال، وقد صور الله لنا فى كتابه عظمتها بما يملأ القلب إيمانًا بعظمة القرآن:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

(القدر: ٢، ٣)

صور عظمتها بما يملأ القلب إيمانًا بأن القرآن شمس الهداية الإلهية، التى حملت أشعتها ملائكة الرحمة والبركة والسلام، وأنه حبل الله الممدود بين السماء والأرض ليصعد به الإنسان إلى ربه الذى خلقه وهداه:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

(القدر: ٤، ٥)

أما بعد ـ فهذا هو ما ينبغى أن نقف عنده فى شأن ليلة القدر، ولا نخوض بعده فى غيبى لا سبيل إلى معرفته إلا بنقل صحيح عن الصادق الأمين، وعلينا أن نتذوق من القرآن هدايته، وأن نخلص تفسيره مما شغل الناس عنها، وأن ندعوهم بعد أنفسنا إلى ترسم أخلاقه وأحكامه فى حياتنا ومجتمعنا، فنصل به إلى ما وصل إليه الأولون، وإلى ما يريد الله لنا من عزة ومجد.. فاذكروا ليلة القدر واذكروا نعمة الله عليكم فيها:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٩)



شهر رمضان فى عيون الأدباء

دكتور السيد محمد الديب
sayed.addeeb@hotmail.com

تتيح ليالى رمضان للصائمين جوًا من الإيمان، وحالة من الشفافية، التى يتابعون معها أحاديث الأدباء عن هذا الشهر الكريم، ويشهدون ما فى القطع الأدبية شعرًا ونثرًا من جد ومفاكهة حسب طبيعة كل مبدع، وتوجهه شكلاً ومضمونًا.

وقد كتب أحد الأدباء عن تأثير هذا الشهر الكريم فى حياة المسلمين فقال: "الصوم له أكبر الأثر فى حياة المسلمين، فهو مدرسة روحية، تنمّى فى الإنسان قوة الإرادة، وتعوده على الصبر، وتغرس فيه كل المعانى الفاضلة، وتطهر نفسه من الآثام، فالصوم تطهير للروح وتهذيب للخلق، وتزكية للنفس، وتقويم للسلوك، وتقوية للعزيمة، وشعور بآلام الآخرين، ودافع إلى الحب والعطف والإيثار وتوجيه إلى الخير، وأساس العبادة عند سائر المسلمين"(١).

ولقد استجاب الشعراء لنداء الصوم، فهم ينشدون القصائد والمقطوعات التى يرحبون فيها بهذا الشهر العظيم، ويتحدثون عن أيامه ولياليه، ويذكرون ما فيه من انتصارات.

وقد حرص فريق منهم على تهنئة الحكام والولاة بحلول أيام الصوم المباركة، أو يودعون الشهر بالأسى والحسرة على رحيله، ثم تعلو صيحاتهم وتزغرد قصائدهم بقدوم العيد، الذى تعلو فيه الفرحة، وتعم البهجة وتزداد المحبة خاصة بين الأقارب الذين يتصالحون، ويقتلعون جذور الكراهية من النفوس بمودة ورحمة وحنان، وعلى جانب آخر من حياة الشعر فى رمضان نجد فريقًا من الشعراء يتبرمون بقدومه، ويحزنون على حرمانهم من شهواتهم، كما اشتكى بعضهم من كثرة النفقات فيه، وزيادة التكاليف عن غيره من الشهور، كما اتجه بعضهم إلى الحديث عن الأطعمة المرتبطة بهذا الشهر والتى عرفتها البيئة المصرية منذ أيام الفاطميين، وما زالت حتى الزمن الحاضر علامة مميزة لشهر رمضان مثل (الكنافة، والقطايف، وغيرها) من الأطعمة التى تختلف طعومها

١ – جريدة الأخبار فى ٢٨/٦/١٩٨٤م من مقالة للدكتور / أحمد محمد قاسم بعنوان "رمضان فى الأدب العربى المعاصر"

وأشكالها ومقاديرها من مجتمع لآخر ومن مرحلة زمنية لأخرى، كما غنى الشعراء والمطربون لفانوس رمضان، الذى يحمله الأطفال، ويسيرون به فى شوارع القرى والمدن وكذا (المسحراتي) بأناشيده الشعبية، وابتهالاته الدينية، ودعواته الإيمانية، التى كان يرددها ويتغنى بها فى مروره على البيوت ونداءاته على أصحاب المنازل.

ونؤكد شيئا وهو أن حديث بعض الشعراء عن تضجره بالصوم ليس إلا تصورا معبرًا عن الفكاهة والتسلية، ويكاد يكون صناعة فنية لا تعبر فى ظاهرها عن الواقع، أو عما فى أعماق الشاعر الذى تتجلى سعادته بهذا الشهر، فيتمثل ذلك فى أبيات يقولها، ويتبارى بها، وكأنها خروج عن المألوف، واستجابة لرؤية بعض المارقين الذين يقولون ما لا يفعلون، وصدق الله العظيم إذ قال:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

(الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧)

وأذكر فى ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى الذى وصف صوم رمضان وصفًا بارعًا تجلى فيه صدق إيمانه، وحسن بيانه، وثبات عقيدته، ثم اتجه إلى الشعر فتحدث عن الصيام بما لا يليق، فلو أخذنا الكلام على ظاهره فلا يبقى إلا القول بأن ذلك نوع من التسلية



أحمد شوقى

وإظهار البراعة فى القول، فقال فى بيان الحكمة من الصوم: "حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة ويحض على الصدقة، ويكسر الكبر، ويعلّم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إن جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع، وعرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف آلامه إذا لذع".

فهذا الكلام التحليلى الذى يشف عن نفس ورعة، وروح طيبة وصدق رائع، مع العقيدة قولاً وفعلاً. ولكن إذا انتقلنا إلى مناسبة أخرى لهذا الشاعر نراه قد انقلب إلى النقيض، ونطق بما لا يليق، فقال فى تهنئة الخديوى عباس بعيد الفطر، الذى يأتى فى عقب شهر الصوم قال:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها (٢)
وأقلّه فى طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها
إن كان ثمّ من الذنوب بواق

٢ – الألاف جمع ألف وهو الذى يحب الشىء ويأنس به.

بـالأمـس قـد كـنـا سـجيـنـى طاعة
والـيـوم مَـنَّ العيدُ بـالإطـلاق[٣]

وقريب من ذلك قول الشـاعر أبى نواس الذى قال ما يمكن أن يعد حماقة وتطاولاً، ولكنـا نسـتوعبه على اعتبـار أنه تسـلية وفكاهة فقد قال:

مـــنـع الـــصـــوم الـــعُـــقـــارا
وذوى الـــلـــهـــو فـــخـــارا[٤]
وبـقـيـنـا فـى سـجـون الـصـو
م لـــلـــهـــم أســـارى
غـــيـــر أنـــا ســـنـــدارى
فـيـه مَـن لـيـس يُـدارى
نـشـرب الـلـيـل إلـى الـصـبـ
ـح صـغـارا وكـبـارا[٥]

ونطالـع ديوانـه فـى موضع آخر بباب الزهـد، فنقـرأ له أعظم التضـرع، الذى لم يقل مثله واحد من شعراء عصره، وربما فى كل عصور الشعر العربى قال:

يـا رب إن عظُمت ذنـوبـى كثرة
فلقد علمت بـأن عـفـوك أعظم
إن كـان لا يـرجـوك إلا محسـن
فبمن يلـوذ ويستجير المجرم
أدعـوك ربِّ كـمـا أمـرت تضرعًا
فـإذا رددت يـدى فمن ذا يرحم
مـالـى إلـيـك وسـيـلـةٌ إلا الـرجـا
وجميل عفوك ثم أنى مُسلم[٦]

وهكـذا ينتقـل الشـاعر بموهبتـه مـن النقيـض إلـى النقيـض، أو مـن الإساءة والتطـاول إلـى الخشـوع والتضـرع، مما يؤكـد أن تعامـل الشـعراء المتجاوزين لحدود الأدب مع هذا الشـهر الكريم ليس إلا خروجـا مصطنعـا وتظاهـرًا أجـوف لا يتطابق مع الدلالات الأخرى، التى تكشف عن المخبوء الإيمانى لهذا الشاعر أو ذاك.

من متقلمى الشعراء

١- الفرزدق[٧]

الفرزدق شاعر فى مقدمة الشعراء بعصر بنـى أمية، وقـد دخل فى مناقضـات كثيرة مع صنوه جرير الشـاعر الأموى المعروف، وذكر ابن قتيبـة أنه قيل للفرزدق فى مرض موته: اذكر الله، فسـكت طويلا، ثم قال:

إلـى مَــن تـفـزعـون إذا حشرتم
بـأيـديـكـم عـلـيَّ مـن الـتـراب
ومــن هـــنــا يـقـوم لـكـم مقامـى
إذا مـا الـريـق غُصَّ بـذى الشـراب

فقالت مولاة له:

تفـزع إلـى الله، فقـال: "أخرجـوا هـذه مـن الوصيـة، وكان قـد أوصـى لهـا بمائة درهم"[٨].

وقـد مـدح زيـن العابديـن بن علـى بن الحسـين بشـعر كأنه العسـل المصفى فى حادثة مشـهورة حـول الكعبة كان شـاهد عليها، وقد جاء فى تلك القصيدة قوله:

هـذا الـذى تعرفُ البطحاءُ وطأته
والـبـيـت يـعـرفـه والـحـل والـحـرمُ

وللفرزدق شعر يتبرم فيه بشهر رمضان، مع قرب عهده بعصر النبوة، ويرحب بشهر شوال، حتى يعود إلى حمل كئوس الخمر، حيث يزعـم أنه يسـعد بهـا مـع معاداتها للعقل قال:

إذا ما انقضى عشرون يوما تحركتْ
أراجيفُ بالشهر الـذى أنـا صائمهْ
وطـارت رقـاع بـالـمـواعيد بيننا
لكى يلتقى مظلوم قـوم وظالمه
فإن شـال شـوّال نشل فـى أكفنـا
كئوسًا تُعادى العقل حين تسالمه[٩]

ونؤكد أن هذا الشـعر لا يعبـر عن تمام رؤية صاحبـه، وليس إلا تمـردًا محدودًا لا يطعـن فـى عقيـدة الرجل وصـدق إيمانه، وقـوة عزيمته، ولكنـه يمثل الفـرزدق فى مقدرته على التميز والتفوق فى فن الشعر، مع وضـوح التكلـف فـى صياغـة البيـت الثالث.

٢- أبو الحسين يحيى الجزار [المصرى]

كان الجـزار وبعـض رفاقه من الشـعراء أصحاب حـرف مهنية لجـأوا إليها، حيث أجبرتهم طبيعـة العصـر علـى ممارسـة الأعمـال، التـى تـدرُّ عليهم المـال، الذى يعيشـون منـه، وتسـير بـه حركـة الحياة عندهم، وقـد التحموا بالشـعب وخضعوا لعاداتـه وتقاليده، وقد وظف هذا الشـاعر موهبته للتعبير عن مكنون نفسـه وخلجات فـؤاده، ونذكر نموذجا شـعريا تحدث فيه عـن نوع من الحلوى التـى وفدت إلى مصر مع الفاطميين، أو استحدثوها بعد مجيئهم إليها، وهى (الكنافة)، التى ارتبطت بشـهر رمضان قال:

سَقى اللهُ أكنـافَ الكُنافة بالقَطْر
وجادَ عليها سُكَّراً دائمَ الدَّرِّ[١٠]
وتبًّـا لأوقـات الـمُخـلَّل إنـهـا
تمرُّ بلا نفع وتُحسَبُ من عُمري[١١]

وقال فى نمـوذج آخر عـن الكنافة التى أخـذ يتحدث عنهـا كأنها أنثـى ذات وجه وقـدٍّ ولسـان، وإنهـا تغارُ عليـه وتتهمـه بمصاحبـة (القطايف)، وأسـفر ذلك عن قطيعة أبعدته عنها، وهو نموذج تجسيمى متميز فى ذلك العصر قال:

ومالى أرى وجه الكُنافة مُغضَبًا
ولـولا رضـاهـا لـم أردْ رمضانها
عجبت لها من رِقّة كيف أظهرتْ
علـيَّ جفا قـدْ صَـد عنى جفانَها
تُرى اتهمتنى بالقطايف فاعتدتْ
تـصـدُّ اعـتـقـادًا أن قلبى خانها
ومُـذ قاطعتنى ما سمعت كلامها
لأن لسـانى لم يُخاطب لسانها[١٢]

وقـد عاش الجـزار - كما ذكـرت - فى عصر كان الشـعراء يشـتكون فيه من الفقر وشـدة الحاجة، فكان يرى فى هذا الشـعر

٣- ديوان شوقى ج١ ص ٤٨٧ - طبع دار نهضة مصر.
٤- العقار: الخمر.
٥- وحى الرسالة: لأحمد حسن الزيات ج ٤ - ص ٣٥٩.
٦- ديوان أبى نواس ص ٦١٨ تحقيق أحمد عبد المجيد غزالى.
٧- هو همام بن غالب بن صعصعة، وكان أبوه سيد بادية تميم.
٨- الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ - ص ٤٨٢ تحقيق أحمد محمد شاكر.

٩- وحى الرسالة ج ٤ - ص ٣٥٩.
١٠- أكناف: جوانب.
١١- جريدة الأخبار يوم ٢٨/٦/١٩٨٤م.
١٢- وحى الرسالة ج ٤ - ص ٣٦٠.

تعبيرًا عما بداخله من رغبة فى الطعام، خاصة فى شهر رمضان .

٣- البوصيرى:

تميز البوصيرى بشعره فى مديح النبى ﷺ وتعد الهمزية من أشهر المطولات فى مديح الرسول ﷺ ، وأولها:

كيف ترقى رُقيّك الأنبياءُ
يا سماءً ما طاولتها سماءُ(١٣)

وقال فى البائية:

أزمعوا البينَ وشدوا الرّكابا
فاطلب الصبر وخلِّ العتابا(١٤)

وقال فى بائية أخرى:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ
وتُغتفر الخطايا والذنوب(١٥)

وهو واحد من رواد المديح النبوى فى عصره، ويعد علامة مميزة فى هذا الغرض الشعري، فضلاً عن الموضوعات الأخرى التى أجاد فيها.

وقد كان البوصيرى قليل الحيلة محدود الرزق، كثير الشكوى من حاله، وحال أبنائه خاصة فى شهر رمضان، وذلك لكثرة النفقات، وساق ذلك فى شعر لا يخلو من المبالغات والمداعبات المحببة التى تهش لها النفس ويسعد بها القلب، قال فى قصيدة يداعب بها أحد رجالات عصره وهو بهاء الدين بن على بن محمد بن سليم:

إليك نشكو حالنا إننا
عائلةٌ فى غاية الكثرةْ

أُحدثُ المولى الحديثَ الذي
جرى عليهم بالخيط والإبرةْ
صاموا مع الناس ولكنهم
كانوا لمن يبصرهم عبرةْ
إن شربوا فالبئرُ زيرٌ لهم
ما برحتْ والشربةُ الجرةْ

وقال:

وأقبل العيدُ وما عندهم
قمحٌ ولا خبزٌ ولا فطرةْ
فارحمهمُ إن أبصروا كعكةً
فى يد طفلٍ أو رأوا تمرةْ
تشخصُ أبصارهم نحوها
بشهقةٍ تتبعها زفرةْ(١٦)

والقصيدة طويلة، والشكوى فيها مريرة، والمباشرة طريق الشاعر إلى قلب ممدوحه، الذى يبدو أنه قد كشف مبالغات البوصيري.

وقال فى مناسبة أخرى يستعطف فيها القاضى عماد الدين بن أبى الذى يستمطر البوصيرى كرمه بالكنافة، التى فيما يبدو كانت شديدة الارتباط بشهر رمضان، والناس شديدو التعلق بها إلى الدرجة التى جعلت البوصيرى يذل نفسه هذا الإذلال بسببها ولا يخلو ذلك من مُلَح ومداعبات قال للقاضى عماد الدين يحرضه على كنافة:

ما أكلنا فى ذا الصيام كُنافة
آه وا بُعدها علينا مسافة

قال قومٌ إنّ العمادَ كريمٌ
قلتُ هذا عندى حديثُ خرافةْ
أنا ضيفٌ له وقد متُّ جوعًا
ليتَ شعرى لم لا تُعدّ الضيافةْ

ولعل القارئ يعجب لهذا الشعر، الذى لا يتوافق البتة مع شعره فى مدح الرسول ﷺ .

وقد أفاض الشعراء فى التغنى بأفضال شهر الصوم، وبعث التهانى إلى الآخرين، كما أن منهم من تمنى ألا يكون الصوم فى شهر أغسطس.

الأدب الرمضانى فى العصر الحديث

لقد تحدث الأديب أحمد حسن الزيات فى مقالة له بوحى الرسالة عن عبرة الصوم فى وداع رمضان . وذلك بعد أن استعرض بعض النماذج الشعرية لعدد من الشعراء من الذين ذكرناهم آنفًا ولم يتناول هذه النماذج على أنها مداعبة ومفاكهة وترويح وتسلية تؤخذ من القراء على أنها هزل لا جدّ فيه، وتسلية وترويح عن الصائمين من معاناة الجوع والعطش، ولكن أديبنا الزيات - رحمه الله - قد أخذ الموضوع مأخذ الجد واعتبرهم مُجانًا خارجين عن آداب الصوم فقال: "لا أحب أن أوغل فى حديث هؤلاء المجان فإنهم ليسوا من رمضان، ولا من أهله" ثم قال: "وأعود إلى حديثكم أيها الصائمون القائمون، الذين ودعتموه بالحسرات، وشيعتموه بالدموع، فأسألكم: هل أنتم يوم ودعتموه خيرٌ منكم يوم استقبلتموه؟ هل تشعرون بعد أن أديتم فريضة هذا الركن القوى من أركان الإسلام أن نفوسكم أصبحت أطهر، وأن أخلاقكم صارت أكرم، وأن أهواءكم غدت أرفع؟ وهل تحسون أثر أولئك كله فى دنياكم الخاصة والعامة، فأنتم اليوم أشدّ قربًا من الله وأوثق صلة بالناس، وأطيب نفسًا بالحياة؟"(١٧)


أحمد حسن الزيات

وواصل الزيات حديثه حول حتمية الاستمرار فى الحفاظ على الأخلاق الإسلامية بعد رمضان، فلا يقع الناس فى الإثم ولا يمارسون المنكر، وعدّ من ذلك الإسراف فى شرب المنبهات ومعاقرة الخمر، والتدخين، والحديث باللغو الفارغ وتطفيف الكيل وغش البضاعة، وحجب الصدقات عن السائل والمحروم، ثم ختم مقالته بالحديث عن الأتقياء واعتبرهم الصائمين الحقيقيين الذين يحزنون على وداع شهر الصوم، ويفرحون باستقبال يوم العيد؛ لأنه فرح ببشرى نزول الوحى، وذكرى يوم بدر.

الشعراء:

١- محمود أبو الوفا:

أبو الوفا شاعر بارز، وأديب متميز بين أدباء عصره فى القرن العشرين، وقد كتب عنه الكثيرون منهم عباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، والدكاترة طه

١٣- ديوان البوصيرى - طبع مصطفى الحلبى - ص ٤٩.
١٤- السابق - ص ٧٧.
١٥- السابق - ص ٨٣.
١٦- السابق - ص ١٦٦

١٧- وحى الرسالة ج ٤ - ص ٣٦١

حسين ومحمد حسين هيكل، ومحمد مندور، وأحمد زكي أبو شادى وغيرهم، كما أشاد به أحمد شوقى فى قصيدة عنوانها (البلبل الفرد) محمود أبو الوفا، وجاء فيها:

البلبل الفرد الذى هز الرُّبا
وشجا الغصون، وحرك الأوراقا
خَلَفَ البَهاء على القريض وكأسه
فسقى بعذب نسيبه العشاقا
فى العيد ممتنع الخُطى وخيالُه
يطوى البلادَ وينشرُ الآفاقا
سَبَّاقُ غاياتِ البيان جَرَى بلا
ساقٍ فكيف إذا استردَّ الساقا[18]

وقد كانت هذه القصيدة سببًا فى عناية الحكومة المصرية وقتئذ بالشاعر أبى الوفا، وتسفيره إلى أوروبا، لإعداد وتركيب رِجْلٍ صناعية بدل ساقه المبتورة، وقد قال فى الصوم:

الصوم يزكى أنفسنا
هيا للصوم نزكيها
يزكيها فيحررها
حتى تأبى رقَّ المُتع
ينقيها فيطهِّرُها
من ميل النفس إلى الطمع
وعلاج النفس من الطمع
يَشفى أمراض المجتمع[19]

فهذا الشعر بهذه الرؤية والأداء نشيد فى الأخلاق، ودرس فى القيم والمبادئ إلى الأمة الإسلامية فى حديث عن آداب الصوم والآثار الإيجابية المترتبة عليه.

ومما قاله فى ليلة القدر:

ليلة القدر هذه
ليلةُ الإحسانْ
جوها من صباحه
يمطرُ الغفرانْ
ليلة القدر تجلَّت
بالسنى والسناء فى سماء العالمين
رحمة الله أطلت
من سموات الرضا رحَّبت بالتائبين
فابسطوا كفَّ الإنابة
واسألوا الله الإجابة تائبين خاشعين[20]

وقد تميز شعر أبى الوفا بوضوح الفكرة وسهولة اللفظة، ورقى المعنى.

والحديث عن شهر رمضان حديث موضوعى هادف، وليس كما اتجه الكثيرون إلى المداعبات التى قرأنا الكثير منها فى شعر البوصيرى وغيره من شعراء عصور المماليك والعثمانيين وكثير من شعراء العصر الحديث.

شعراء آخرون:

لقد تنوعت أحاسيس معظم الشعراء فيما يخص شهر رمضان، وتعددت قصائدهم وأناشيدهم حول إحياء هذا الشهر بالطاعة والإقبال على الله، والترحيب به والبهجة بأيامه ولياليه ونذكر منهم: الشعراء: معروف الرصافى، ومحمود حسن إسماعيل، وأحمد مخيمر ومصطفى حمام، والشاعر محمد على

١٨- ديوان شوقى ج ٢ – ص ٦٥.
١٩- محمود أبو الوفا – ديوان شعره – ص ٣٦٩، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٧م.
٢٠- السابق – ص ٣٧٥

السنوسى (سعودي) وغيرهم.

وكان مرور المسحراتى فى الشوارع والحوارى علامة مميزة لهذا الشهر، فكان يسير بطبلته التى يضرب عليها وحوله الأطفال الصغار يحملون الفوانيس المضيئة، والرجل مبتهج بعمله الذى يقوم به فى ليالى هذا الشهر الكريم من كل عام، كما كان الناس فى بيوتهم فرحين بليالى رمضان، وما فيها من أغان وأناشيد يبتهجون فيها بالعبادة والبهجة، والمسحراتى يتغنى وهو يدق على بازاته بشعر فؤاد حداد، ومع أنه من الشعر العامى لكنه عذب ورائق وسهل المأخذ، وصادق العاطفة، ومتعدد التقاسيم، ونختار بعض المقاطع من قصيدة الهلال التى تقول كلماتها:

اصحى يا نايمْ – وحد الدايمْ – وقول نويتْ
بكرة إن حييتْ – الشهر صايم – والفجر قايم
اصحى يا نايم – وحد الرزاق – رمضان كريم[21]

وإذا كانت الحضارة المستحدثة قد تحكمت فى مسيرة الفرحة الرمضانية وما يمتلئ به هذا الشهر الكريم من أغان وأهازيج، وصلاة وطاعة، وقرآن يتلى فى البيوت، وأفراح تمتلئ بها الشوارع فإن روائح هذا الشهر لم تختف من وجدان المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وقد أذن المولى الكريم لى بأن أشهد بعض أيام رمضان ولياليه خارج مصر وكان الواقع الماثل الذى عشته يشهد بأن الطقوس الرمضانية تختلف من بلد إلى آخر حسب الموروث الشعبى الذى تتناقله الأجيال، لكن الأمر على إجماله يشهد بأن أيام هذا الشهر ولياليه تختلف عن غيرها من الأيام والليالى فى الشهور الأخري، مما يجعل المذاق الحاصل لهذا الشهر مختلفا بكل تأكيد عن غيره من الشهور، كما أن هذا المذاق يختلف أيضًا من بلد لآخر.

لقد احتفل الأدب شعرًا ونثرًا بشهر رمضان ولا يكاد شاعر يتخلف عن التعبير والتصوير عما فى هذا الشهر من روحانيات وطاعات متنوعة ومراجعة لسيرة الرسول ﷺ وأصحابه الأجلاء، ومدارسة القرآن الكريم وقراءته فى الليل والنهار، كما أن الأدباء صوروا ترحيبهم وتوديعهم لهذا الشهر، وما فيه من عبادة وطاعة يَعْظُم بها الأجر عند الله تعالي.

وتحدث الأدباء أيضًا شعرًا ونثرًا عما فى شهر رمضان من أطعمة وأشربة مرتبطة بهذا الشهر فى قصص وأشعار تعبر بصدق عن سائر الجوانب التى تشتاق لها النفوس المؤمنة، وتتجاوب معها الغرائز الباحثة عن الشهوات المباحة والمتاحة، وينبغى أيضًا أن نأخذ هذه المفاكهات على أنها مداعبات لا ترقى إلى الجد اعتادها الناس، وحرصوا على التعامل معها، والتعبير عنها؛ استجابة لعواطفهم وابتهاجا بهذا الشهر الكريم.

٢١- معجم رمضان لفؤاد مرسى – ص ١٢٣.

رمضان .. فرصة عظيمة لمراجعة النفس ألا فاغتنموها

أ. د. محمد فتحى فرج
كلية العلوم - جامعة المنوفية

كلما قرأت الآية الكريمة التى يقول الحق - تبارك وتعالى - فيها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

«البقرة: ١٨٣»

أقول: كلما قرأتها سواء فى رمضان أو فى غيره من شهور العام، تتوارد على الفور فى الخاطر عدة ملحوظات جديرة بالتأمل والاعتبار.

● أولها: أن الله تعالى يخاطب فى مفتتحها المؤمنين، ونفهم من هذا أن كل من يوفقه الله تعالى ويمتثل للاستجابة لهذا الأمر الكريم يندرج اسمه تحت طائفة المؤمنين المُخاطبين فى هذه الآية، وفى المقابل فإن الشقى هو كل من يعطى ظهره لهذا الأمر الإلهى، ولا يمتثل لتنفيذه، ومَنْ ثَمّ يخرج من حظيرة الإيمان، أو من زمرة المؤمنين.

● أما الملحوظة الثانية فهى: أن الأمة الإسلامية المُخاطبة في هذه الآية الكريمة، ليست وحدها التى كتب عليها الصيام، ولكن سبقتها أمم أخرى قبلها فالصيام إذن من العبادات التى تشارك فيها الأمة الإسلامية من سبقها من الأمم وهنا تأتى أهمية هذه العبادة التى لابد وأن الخالق جل وعلا جعلها باب خير ورحمة لعباده الطائعين الممتثلين لأمره. لابد وأن الصيام بهذه المثابة "برنامج" عملى، أو قل مدرسة تربوية إلهية تُصلح أحوال الصائم من جميع النواحى، الروحية والخلقية والاجتماعية والنفسية والجسمية، أو أنه الدواء الإلهى لأدواء الإنسان.

● أما الملحوظة الثالثة التى تسترعى الانتباه بشدة فى هذه الآية الكريمة، فهى نهايتها المباركة، وهى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. فإذا كان الصيام عبادة تمتثل فى أدائها لأمر الله تعالى، فإنه أيضا وسيلة شريفة لغاية شريفة أيضا، وثمرة ناضجة حلوة هى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. فالتقوى وإن كانت كلمة بسيطة فى مبناها فإنها عظيمة وهائلة فى

معانيها ومراميها، حيث تندرج تحتها كل القيم التى من شأنها أن تسعد الإنسان فى دنياه وفى أخراه، بل وتسعد المجتمع كله وتوصله إلى بر النجاة.

وقد جاء الأمر بالتقوى فى سياقات كثيرة فى القرآن الكريم، منها: أن التقوى تأتى بعد الإيمان ومرادفة له وثوابها عند الله عظيم، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

«البقرة: ١٠٣»

ونحن نعرف أن الإيمان أعلى درجة من مجرد الإسلام. وفى سياق آخر تكون التقوى سببا فى خير الجزاء يوم القيامة، وهو دخول الجنة بل الجنات، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

«آل عمران: ١٥»

وقوله تعالى:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾

«الزمر: ٧٣»

كما يجمع الله تعالى فى آية واحدة بين الإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان، فى قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

«المائدة: ٩٣»

والتقوى أيضا سبب فى منح بركات الله من السماء والأرض لعباده المتقين، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

«الأعراف: ٩٦»

والتقوى سبب فى أن يكون المرء فى معيّة الله تعالى، وهل ثمة أفضل من هذا؟ تستقرئ هذا من قوله تعالى فى آخر سورة النحل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

«النحل: ١٢٨»

وهى أيضا من أسباب النجاة والفوز والوقاية من السوء والحزن، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

«الزمر، ٦١»

فى معنى الصيام:

أما إذا تفرسنا مليا فى مدلول كلمة الصيام فلن تجد خيرا من كتاب الله تعالى لننظر فيه لاستجلاء معانيه وتوضيح مدلوله، ثم بيان علاقة ذلك بصيام شهر رمضان. فقد ورد الصيام فى القرآن الكريم بمعان متباينة، فالصيام هو لون من الإمساك؛ لأن معنى "صام" هو: "أمسك"، وقد يكون إمساك عن الكلام، كما فى قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام:

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

«مريم : ٢٦»

أما الصوم الشرعى فيعنى الصوم عن شهوتى البطن والفرج من قبل طلوع الفجر وحتى غروب الشمس. فإذا قرنا بينهما أى بين مدلول الصوم بمعنى الإمساك عن الكلام، وبين المعنى التشريعى للصوم قد نجد فى هذا فائدة عظيمة، نحاول مناقشتها فيما يلى إن شاء الله.

ففى بيان الصوم الشرعى المقبول عند الله تعالى، يقول خير من صام وقام - ﷺ -: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه"(١).

إذن، فالصيام الحقيقى الذى يريده الله تعالى ورسوله - ﷺ - منا لا يقتصر فقط على الإمساك عن الطعام والشراب وشهوة الفرج، ولكن أيضا الإمساك والامتناع عن قول الزور والعمل به.

أما معنى "الزُّور" فهو كما يقول ابن منظور فى "لسانه": الكذب والباطل؛ وقيل شهادة الباطل. وقد يوصف الرجل: رجل زُور، والقوم أيضا: وقومٌ زور؛ والكلام المزوَّر والمتزوِّر: أى المُمَوَّه بكذب؛ وقيل المُحسَّن.

وقيل أيضا الزُّور: الكذب والباطل والتهمة، وقد تكرر ذكر شهادة الزور فى حديث للنبى ﷺ، وهى من الكبائر فمنها قوله - ﷺ -: "عدلت شهادة الزور الشرك بالله"(٢) وإنما عادلته لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾

«الفرقان: ٦٨»

ثم قال بعدها:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

«الفرقان: ٧٢»

ومن كل ما تقدم، تتبين أن الصيام الشرعى الحق، الذى يُرادُ به مرضاة الله وعفوه، ويُرجى قبوله لعله يثمر ثمرته المرجوة وهى "التقوى" هو الذى يتطابق لفظه مع معناه أيا كان، أى أنه الإمساك عن الطعام والشراب وشهوة الفرج وقول الزور والعمل به. أما الإمساك عن الطعام والشراب وشهوة الفرج، ففيه تركٌ لأهم مقوم من مقومات بقاء الإنسان وهو الطعام أو شهوة البطن، وفيه أيضا ترك لمقوم بقاء نوعه وهو شهوة الفرج، امتثالا لأمر الله تعالى. هذا، فضلا عن أن تخليه عن كل هذه المُمارسات الإنسانية يُقرِّبه من صفات الملائكية.

إذن فالصيام بهذه المثابة منهج تربوى فيه امتثال لأمر الله، وفيه بُعْدٌ عن كل ما يهين الإنسان ويشينه، من كل صنوف الباطل التى تتمثل فى قول الكذب، أو شهادة الزور، أو حتى تزويق الكلام وترتيبه على النحو الذى يَزوِّرُ به عن الحق، تحت ما يُشيعونه من قيم باطلة، شعارها: "أنا لا أكذب ولكنى أتجمَّل"!

إنه فريضة كتبت علينا، وعلى من قبلنا من الأمم، لتصحيح سلوك الإنسان ووضعه على المعايير التى يريدها الله تعالى؛ لتستقيم حياة المجتمع الإنسانى كله

(١) صحيح البخارى.
(٢) المعجم الكبير للطبرانى.

بهذه المعايير الحقة، والصيام بهذا يشترك مع القرآن الكريم فى الهدف والغاية، وهى تصحيح مسار الإنسان وإمداده بقيم تربوية الهيئة صحيحة، تقوِّمُ المُعوج، وتهدى إلى طراط مستقيم.

ولا يبعدُ عن هذا قول واحد من علمائنا الأجلاء: الصيام عبادة تلتقى فى هدفها مع أهداف القرآن فى تربية العقول والأرواح وتنظيم الحياة، يُوَحِّد بين المسلمين فى أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشراب، ويفرغ عليهم جميعا صبغة الإنابة والرجوع إلى الله، ويرطب ألسنتهم بالتقديس والتسبيح، ويعفها عن الإيذاء والتجريح، ويسد عليهم منافذ الشر والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله، ويغرس فى نفوسهم خلق الصبر الذى هو عُدة الحياة، وهكذا يريد الله أن يكون الصيام للإنسان بابا من أبواب النجاة.

الصيام والقرآن

وعن فيوضات هذه الآية الكريمة، التى صدرنا بها المقال، يُحدثنا فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود - رحمه الله - فيقول: فى هذه الآية، يوضح الحق تبارك وتعالى، أنه كتب علينا الصيام وفرضه؛ لغاية معينة، ذكرها فى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. وعبَّر القرآن بكلمة "لعل" ولم يقطع ولم يجزم بأن ثمرة الصوم لا محالة تحقيق التقوى؛ لأن الصوم: يُعد نفس الصائم للتقوى.

إنه إعداد وتهيئة، إن مثله - بالنسبة للصائم - كمثل زارع، تعد له الأرض وتهيأ وتعطى له محروثة، لا حشائش فيها، مهيأة تمام التهيئة، وما عليه إلا أن يتصرف حسبما يريد، فإن شاء، ألقى فيها البذر، ثم تركه يذبل ويموت،



عبدالحليم محمود

وإن شاء تركها مهملة، تنمو فيها الحشائش الخبيثة من جديد، وتعود تربة غير صالحة، وإن شاء ألقى فيها البذر وتعهده، حتى يترعرع ويستوى على سوقه، ويؤتى أكله.

كل هذا منطو فى جملة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. فإذا ما تعهد الإنسان نفسه التى أعدت بالصوم، وانتهى إلى التقوى كان جزاؤه، حقيقة عند الله، عظيما. ومن هنا مفتاح فهم الأحاديث التى رويت فى الصوم، والتى لا تفهم فهما حقيقيا إلا إذا راعينا أن الصائم، يتعهد نفسه التى مُهدت وأعدت بالصوم.

طلب أبو أمامة من رسول الله ﷺ يوما أن يأمره بعمل ينفعه الله - تعالى - به فقال ﷺ: "عليك بالصوم فإنه لا عدْل له، فكرر له أبو أمامة الطلب، فقال ﷺ: "عليك بالصوم فإنه لا مثْل له" وطلب أبو أمامة، للمرة الثالثة نفس الطلب، فقال عليه الصلاة والسلام، أيضا نفس ما قاله فى المرة الثانية" (سنن النسائى، بنحوه).

ولا شك، أن الصوم، لا عدل له، ولا مثل له، فى تهيئة النفوس للتقوى، ومن انتهى بهذه الهيئة إلى غايتها، و"صام رمضان إيمانا واحتسابا: غفر له ما تقدم من ذنبه" (صحيح البخارى). ومن هنا كان المعنى العميق،

للحديث المشهور: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به"(٣) وقد فهم الناس أن الله يجازى على الصوم باستمرار جزاء يزيد على سبعمائة ضعف، وهذا صحيح، فيما يتعلق بمن تعهد نفسه واتقى، أما من لم يتعهد نفسه، ولم يتق، فتصدق فيه الأحاديث الأخرى، التى لا تفهم فهما صحيحا إلا على ضوء ما قدمنا، يقول الرسول ﷺ: "كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش"(٤). ولا ينتهى الصوم إلى ثمرته التى أرادها الله منه، إلا إذا صدقت النية وقويت العزيمة.

ومن رأى الشيخ أيضا: أن الإنسان إذا ما وطن نفسه على الصلاح والخير، بعد أن مهد له الصوم السبيل إلى ذلك، وأعده ليسير فى سهولة ويسر على الصراط المستقيم: فقد فاز بثمرة الصوم المرجوة وهى التقوى. والتقوى هى تجنب المعصية الكبرى، التى لا يغفرها الله قط وهى الشرك بالله، وكذلك تجنب ما دونها من المعاصى وهذا جانبها السلبى. أما جانبها الإيجابى: فإنه القيام بكل واجب افترضه الله تعالى.

ثم يقول: وإذا ما حقق الإنسان التقوى فقد فاز، ودخل فى نطاق الآية الكريمة:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(يونس: ٦٢-٦٤)

ثم يذكر - فضيلته - الحكمة الثانية التى من أجلها فرض الله الصوم فيقول: تتمثل هذه الحكمة فيما يمكننا أن نلتمسه فى قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

(البقرة: ١٨٥)

فقد أمر الله بالصوم بعد أن ذكر، أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى القرآن، فكان لا بد أن نحتفل به، والاحتفال بشىء ما، إنما يكون بما يتناسب معه، فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن، إنما يكون بما يعد النفس، ويمهدها، لاستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى: وذلك بالصوم. فكأننا بالصوم إيمانا واحتسابا نصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها، فتتنسم هدى السماء وتتشربه، وتمتزج به فرحة مغتبطة، فتفهم فى عمق قول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

أرأيت إلى هذه النظرات الثاقبة، والوقفات الذكية، التى تغوص إلى أدق المعانى، دون أن تفصلها فى الوقت ذاته عن السياق العام، فهى نظرة استشرافية فاحصة مُدققة، فى إطار من الشمولية، مُراعاة للجو العام، المنسجم بعضه مع بعض، سواء فى آى القرآن أو فى الأحاديث النبوية الشريفة، فكلها من لدن حكيم خبير.

(٣) صحيح البخارى
(٤) رواه النسائى وابن ماجه

حرب رمضان



أ.د. محمد سليم العوا
رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار

مما ينبغى على الأمم الراغبة فى الحياة أن تستحضره، فى كل جيل، بل مع ميلاد كل طفل جديد، مشاهد عزتها، وصور انتصاراتها، قديما وحديثا.

وسنتحدث فى هذه المقالة عن مشهد من هذه المشاهد، عن حرب رمضان ١٣٩٣ هـ - أكتوبر ١٩٧٣ م بين المصريين والسوريين، من جانب، وبين العدو الصهيونى من جانب آخر.

إن المعلومات العسكرية والسياسية عما سبق حرب رمضان، وعن الحرب نفسها، وعما وقع بعدها إلى أن أبرمت معاهدة ما يسمى بالسلام بين مصر والعدو الصهيونى، مدونة فى آلاف الكتب باللغات كافة، بحيث يقف المرء بأدنى مراجعة على هذه التفاصيل صحيحة موثقة، من الجانب العربى، أو مكذوبة مزورة من الجانب الصهيونى.

وليس فى طاقة هذه المقالة أن تؤرخ للمعركة ولا أن تأتى بجديد فى الشأن العسكرى أو الشأن السياسى. لكن غاية ما نرجوه هو أن نذكر بالمعانى العظيمة التى أحيتها هذه الحرب فى النفوس، وبالطاقات الجبارة التى فجرتها فى مئات الآلاف من الأفراد العاديين الذين حركتهم الحرب إلى الاهتمام بقضايا وطنهم وأمتهم.

لقد حقق الجيشان المصرى والسورى الأهداف الاستراتيجية التى كانت مرجوة من وراء المباغتة العسكرية الهائلة، التى فوجئ بها العدو الصهيونى على الجبهتين المصرية والسورية، فى لحظة واحدة.

كان هذا اليوم يوم عيد يهودى يسمى «عيد الغفران»، ولذلك سمى الصهاينة هذه الحرب «حرب الغفران».

وكانت الاستعدادات المصرية لهذا اليوم وللمواجهة العسكرية بوجه عام، قد بدأت بعد أيام قليلة من الهزيمة المروعة للجيوش: المصرى والسورى والأردنى، سنة ١٩٦٧م.

لقد احتلت إسرائيل سيناء كلها، وكامل الضفة الغربية لنهر الأردن، أى كامل فلسطين التاريخية، ومرتفعات الجولان السورية، واستقرت بها استقرار من لا يظن - ولو للحظة واحدة - أنه سيتركها ذات يوم.

وفى أثناء مناقشات عسكرية بين قادة الحرب الصهاينة، علق موشيه دايان على

مناقشة احتمال قيام المصريين بالهجوم على القوات الصهيونية عبر قناة السويس، ساخرًا: «لكى تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاحى المهندسين الروسى والأمريكى معا»، وكان يؤيده فى ذلك الجنرال بارليف الذى سميت باسمه التحصينات القوية على الضفة الشرقية من قناة السويس.

يقول المقاتل البطل الفريق سعد الدين الشاذلى، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية فى أثناء حرب رمضان: «إن هذه الشهادة من قادة العدو هى شهادة نعتز بها، لأنها تظهر عظمة التخطيط وروعة الأداء اللذين تم بهما إنجاز هذا العبور العظيم».

لقد حرمت الخطة العسكرية المصرية العدو الصهيونى من استخدام تفوقه فى الأسلحة والعتاد، وحرمته من فرصة إشعال سطح القناة بنيران شديدة الالتهاب يستحيل إطفاؤها بالطرق التقليدية، وأذهبت كل أثر للساتر الترابى الهائل وتحصيناته القوية «خط بارليف».

ولكن الأهم من ذلك كله أن خطة العبور قد نفذت بمنتهى النجاح، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وعبرت القوات المصرية نهارا، واستمر العبور متواصلاً إلى أن أصبحت القوات المقاتلة كلها شرق القناة وكانت النتيجة هى الهزيمة غير المسبوقة بل الهزيمة الأولى للجيش الصهيونى وقعت نتيجة هذا التخطيط المحكم لمهاجمة العدو.

والمعارك التى دارت فى الميدان لم تكن أقل أثرا ولا أعظم خطرا من المعارك التى دارت داخل مدينة السويس، عندما أراد العدو احتلالها، نتيجة العملية التى سميت بعملية «الثغرة» التى تمت بدخول قوات العدو فى نقطة غير مغطاة بقوات مصرية بين مواقع الجيشين الثانى والثالث فى منطقة الدفرسوار.


سعد الشاذلى

وكانت الثغرة مقدمة لمحاولة العدو الصهيونى احتلال مدينة السويس لقد قال الجنرال أهارون ياريف قبيل ذلك بقليل: «إن الوضع ليس سهلا ولا بسيطا، والحرب من شأنها أن تطول. إن الجيش الإسرائيلى فى وضع صعب، وقد اضطر إلى الانسحاب من خطوط وقف القتال «أى الأماكن التى احتلها بعد حرب ١٩٦٧ م» إلا أن ذلك لا ينبغى أن يجعلنا نخاف بالنسبة لشعب إسرائيل أو مستقبله».

أما موشيه دايان فقد قال يوم ٩ أكتوبر: «ليس لدينا فى الوقت الحالى إمكانية رد المصريين إلى ما وراء القناة، لقد دمرت المئات من مدرعاتنا فى المعركة، وفقدنا خمسين طائرة فى ثلاثة أيام ويجب أن ننسحب إلى خط دفاع جديد داخل سيناء.. إن ما يعنينا هو مستقبل دولة إسرائيل ولتذهب البحيرات المرة - كانت خط الدفاع الصهيونى الأول - أو سواها إلى الشيطان».

لقد كانت بداية التسلل الإسرائيلى نحو السويس فى اليوم الحادى عشر من أيام حرب رمضان «٢١ رمضان - ١٧ أكتوبر». وكان الهدف هو احتلال السويس بكل ما تمثله من

قيمة ووزن وتاريخ واسم عالمى واستعدت السويس للمقاومة التى كانت شاملة شارك فيها الأهالى والعسكريون الموجودون فى السويس وأفراد الشرطة وعمال شركات البترول وهيئة القناة وأفراد الجهاز الحكومى ومتطوعو المقاومة الشعبية والدفاع المدنى وبوجه خاص أبطال منظمة سيناء.

وقاد المسجد المقاومة: فكان مسجد الشهداء الذى يؤمه ويرأس مجلس إدارته الشيخ حافظ سلامة، وهو مقر المقاومة، منه تنطلق، وفيه تحفظ إمداداتها، وبما يجرى فيه ترتفع الروح المعنوية للمقاومين جميعًا.

عندما فكرت بعض القيادات التنفيذية المحلية فى التسليم لليهود إنقاذاً للمدينة وسكانها بدا الإباء من الشيخ حافظ سلامة، وشاركه فيه رجال المقاومة الشعبية، وضاعف من قدرتهم على التصميم عليه انضمام قادة القوات المسلحة وضباطها الذين كانوا فى السويس إلى هذا الرأى، وارتفع من مكبرات صوت المسجد نداء بصوت الشيخ حافظ سلامة إلى أهل السويس يقول: «إن اليهود قد أنذروا المدينة بالاستسلام، وإن المدينة قد رفضت هذا الإنذار بإذن الله. وقررت مواصلة القتال إلى آخر قطرة من دمائنا، وعلى كل فرد من أفراد المقاومة أن يدافع عن موقعه إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، وما النصر إلا من عند الله».

لقد فقد اليهود فى مدينة السويس ٦٧ دبابة ومصفحة من الدبابات التى حاولوا أن يحتلوا بها مدينة السويس. هذا غير العربات المصفحة والعادية. وسحب اليهود كل ما استطاعوا سحبه من قتلى الجيش الصهيونى وجرحاه، ومع ذلك فقد تركوا خلفهم ٣٣ جثة لم يستطيعوا سحبها، وصرح الناطق العسكرى للجيش الصهيونى بأن قواته لم تدخل إلى مدينة السويس، ولم تسيطر عليها فى تكذيب صريح لتصريحاتهم السابقة.

لقد انتهت حرب رمضان العظيمة هذه بمعاهدة تسمى بمعاهدة السلام بين مصر والعدو الصهيونى.

ويحلو لبعض أصحاب الأقلام وذوى الألسنة أن يقولوا إنه ليس بيننا وبين الصهاينة عداوة بل صداقة. وهؤلاء يغفلون عن أن أحدا لا يبرم معاهدة سلام مع أصدقائه وإنما يسالم الناس أعداءهم لمدة من الزمن يسعى فيها كل طرف إلى استعادة قوته وترتيب عدته ليوم تقع فيه جولة جديدة من جولات العداء، وهذا واقع آت لا ريب فيه، وقد كذب الحاضر الصهيونى ظن بعض الطيبين أن حرب رمضان هى آخر الحروب، وأن حقن دماء الشباب العربى ممكن مع وجود العدو الصهيونى فى أرضنا، وثبت خطأ القياس على صلح الحديبية إذ كان عملا مداره كله على الوحى، وتبين، وبعد الحرب على لبنان سنة ٢٠٠٦ م، الحرب على غزة سنة ٢٠٠٩ / ٢٠٠٨ م، أن ترك الجهاد مع استمرار الاحتلال لا يجوز.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

«الأنفال: ١٥، ١٦»

والحمد لله رب العالمين.

العاشر من رمضان
وقفات تدبرية ونظرات تأملية ولمحات وأسرار

د. يحيى رضا جاد
طبيب بشري وباحث وكاتب مصري

● إن عبور الموانع المائية – بصفة عامة – هو أشق العمليات العسكرية وأعقدها وأكثرها فداحة في الخسائر، ويزداد الأمر صعوبة لكون قناة السويس مانعًا فريدًا يختلف عن أي حاجز أو فاصل مائي صغير على مستوى الكرة الأرضية، لعدة أسباب، منها:

– ضيق مجرى القناة بالقياس إلى كثير من مثيلاتها، فعرضها يتراوح بين (١٨٠ – ٢٢٠) مترًا، مما يسهل للعدو عملية تغطيتها بنيرانه وقذائفه، فضلاً عن مراصده.

يتراوح عمقها بين (١٦ - ١٧) مترًا، ويصل في بعض المناطق إلى ٢٠ مترًا، مما يجعلها عميقة نسبيًا إذا قورنت بمثيلاتها.

– ينخفض سطح المياه فيها عن حافة الشاطئ بحوالي مترين، مما يجعل القناة صعبة العبور للمعدات التقليدية من آليات ودبابات وسيارات، فلا يمكن العبور عومًا، ولا غوصًا، ولا سيرًا على القاع (انظر القياسات الواردة في رقم ٢)، بل يستدعي طرازًا خاصًا من الجسور والمعابر.

– شدة التيارات المائية، سواء على السطح أو في الأعماق، وسرعتها تبدأ من ثلث متر في الثانية –١٨ مترًا في الدقيقة– في القطاع الشمالي من القناة، وتصل إلى متر ونصف في الثانية –٩٠ مترًا في الدقيقة– في القطاع الجنوبي منها. ويتغير اتجاه التيار دوريًا كل (٦) ساعات من الشمال إلى الجنوب والعكس. وفوق ذلك، تتعاند التيارات المائية على اتجاه موجات العبور، ويمكن [illegible] تعترضها.

– شدة انحدار جوانب القناة، تلك الجوانب المبطنة والمغلفة بالحجارة والدبش، والستائر الأسمنتية والحديدية والتكسيات؛ مما يمنع نزول المركبات البرمائية وصعودها إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة وشاقة. وهذه [illegible] تنفرد بها القناة دونًا عن بقية قنوات [illegible] العالم، عدا قناة بنما.

– المد والجزر الذي يغير منسوب المياه ارتفاعًا وانخفاضًا عدة مرات في اليوم الواحد من (٦) سم في شمال القناة، حتى [illegible] إلى (متر ونصف) أو (مترين) في الجنوب قرب مدينة السويس ولذلك كله كبير [illegible]

على تخطيط العبور والأعمال الخاصة بإقامة المعديات وإنشاء الكباري.

– سلسلة أحواض النابالم، والزيت الحارقة، والوقود، التي رصع بها العدو ضلوع وأجناب الخط والساتر، مخبأة تحت الأرض، وممتدة أنابيبها تحت سطح مياه القناة؛ تنساب فيها لتندفع فوقها؛ بحسب نظرية الأواني المستطرقة؛ لتشعل لحظة العبور، فتحيل مياه القناة إلى نار موقدة، جاعلة إياها سطحًا هائلاً من اللهب، فتتحول القناة إلى شريط من سقر، إلى جحيم يحرق كل ما حوله، فترتفع ألسنة اللهب إلى حوالي المتر، وتزيد درجة الحرارة على (الخمسمائة) بل و(السبعمائة) درجة مئوية. ولقد تم قطع وسد تلك الأنابيب، الحديدية منها والمطاطية، قبيل العبور مباشرة؛ بحيث تم إخراج هذا «السلاح الحارق» من المعركة، بل و«إحراقه» تمامًا بحمد الله.

وقد كان مقدرًا لنا ألا نعبر القناة إلا على جسر من الدماء، فالقواعد العسكرية تقدر لعبور الموانع المائية الخطيرة من الخسائر ما يتراوح بين (٢٠ – ٧٠٪) من قوة الهجوم. وبتوفيق الله والإيمان به، مع التخطيط السليم، والذكاء الإستراتيجي – عبرنا.

● وأما الساتر الترابي، فهو حائط يمتد بطول القناة بكاملها، أقامه الصهاينة من مخلفات حفر القناة قديمًا، وعمليات توسيعها حديثًا (قبل نكبة يونيو) .. وكانت تلك المخلفات الترابية – الناتجة عن الحفر والتوسعة – تتراوح بين (٦ – ١٠) أمتار في ارتفاعها، وكان يتم تجميعها على الضفة الشرقية من القناة فقط؛ لأنها لم تكن مأهولة ولا مزروعة .. فأوحى ذلك للعدو الصهيوني أن يستغله كخط دفاعي، فقام بتعليته حتى تراوح ارتفاعه بين (١٠ و٢٠) مترًا، بل و(٢٥) مترًا في بعض القطاعات .. ويمتد هذا الساتر حتى يكاد يلامس حافة القناة بزاوية ميل ٤٥ درجة تقريبًا، فمن الصعوبة بمكان ارتقاؤه، فضلاً عن تسلقه .. ويصل عمقه في المتوسط إلى عشرات الأمتار، وقد وصل في بعض المناطق إلى مائتي متر .. الأمر الذي يجعل نقبه وفتح ثغرات فيه – بالوسائل التقليدية – بالغ الصعوبة إن لم يكن عبثًا، ولقد أثبتت التجربة استحالة عمل شيء فيه بالتدمير وقوة التفجير بالمدفعية؛ لأن التراب كان يمتص وقع القذائف المتفجرة. حتى إن التقديرات الصهيونية كانت تشير إلى أن إحداث ثغرة واحدة فيه يستغرق (١٢) ساعة عملاً على الأقل. وكانت التقديرات تشير إلى أن مصر تحتاج إلى (٦٠) ثغرة؛ أي إلى (٣٠) يومًا كاملاً على أقل التقديرات!.

ووجد سلاح المهندسين المصريين – بحمد الله وتوفيقه – حلاً مبتكرًا لمعضلة كيفية فتح ثغرات في جسم الساتر الترابي للعدو (والحلول العبقرية لا تنزل من السماء على بني كسلان، فتدبر)؛ حتى يمكن إقامة الجسور وعبور القوات والمعدات البرمائية، استلهمه المقدم/ عبدالباقي (قائد فرع المركبات بالفرقة (١٩) مشاة) من عمله بالسد العالي؛ حيث انتدب للعمل هناك عام ١٩٦٤م، وشاهد عملية تجريف رمال الجبال باستخدام المياه المضغوطة، بواسطة مضخات رفع مياه النيل ودفعها بقوة في خراطيم يتم تسليطها على رمال الجبال

التي يسهل بعد ذلك شقطها. وبعون الله، وجد المصريون الحل في هذه المضخات، مضخات توربينية مائية كمواتير الطائرات (سميت بمدافع المياه)، تضخ المياه عبر خراطيم خاصة تشبه خراطيم إطفاء الحرائق. ومن ثم، طلبت الحكومة المصرية من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالي، فاستجاب الألمان، وتساءلوا في دهشة: «هل هناك حريق في العالم يحتاج إلى كل هذه القوة؟!». وتم في هذه العملية (عملية التجريف المائي) استخدام مياه قناة السويس ذاتها (كما تم استخدام مياه النيل في أسوان عند بناء السد العالي)، فتنهدل آلاف الأمتار المكعبة من التراب الرملي وتتداعى حتى تسوى بالأرض؛ فقوة اندفاع المياه من خراطيم هذه المضخات تكفي للإطاحة بأثقل الدبابات.. فتم قطع الساتر الترابي كما لو كان بالسكين. وكانت مواصفات هذه المضخات - كما حددها سلاح المهندسين المصريين - كالآتي: صغيرة الحجم، تعمل بالوقود، خفيفة الوزن، فائقة الضخ، يمكن حملها باليد وتحميلها على قوارب.

• وأما خط بارليف، فصاحب فكرة إنشائه هو رئيس الأركان الإسرائيلي/ حاييم بارليف، وقد أنفق الصهاينة في إنشائه وتحصينه سنين عددًا (أكثر من ثلاث سنوات)، و(٢٣٨) مليون دولار (نصف تكاليف السد العالي). ويتكون الخط من (٢٢) موقعًا حصينًا، يضم (٣١) نقطة قوية، من رأس خليج السويس وحتى مشارف البحر المتوسط، على طول خط المواجهة، وبعمق يصل إلى (٣٥) كم في سيناء.. وتبلغ مساحة هذا الخط أكثر من (٥) آلاف كم مربع.. محتويًا على نظام متكامل من التحصينات الهندسية وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد.. وقد صمم كل موقع - من هذه المواقع الثنتين وعشرين الحصينة - بحيث يتحمل قذائف زنة ألف رطل، وتحيط به حقول ألغام وأسلاك شائكة وخوازيق حديدية.. إلخ. وتبلغ مساحة كل نقطة - من النقط الحادية والثلاثين القوية - حوالي (٤٠٠٠) مترًا مربعًا، والنقطة الواحدة قلعة حقيقية قائمة بذاتها، ومحصنة بالحديد والأسمنت، تتألف من دشم مدرعة مبنية من الحجر الصلب أو الأسمنت المسلح (وقد زرت الكثير من هذه الدشم بنفسي، وتفقدت بعضًا من دهاليزها وأعماقها)، مصفحة بأبواب من الصلب، ومدعمة بقضبان السكك الحديدية وبعرباتها (التي انتزعها العدو الصهيوني من خط سكك حديد سيناء الذي أقامته مصر).. فهو أشبه بقلاع القرون الوسطي، متعدد الطوابق، مأوى للأفراد، ومخزن للسلاح، ووكر للمدفعية والمدرعات، به مزالق مركبة صاعدة وهابطة للدبابات بحيث تضرب وتختفي ولا ترى (وقد شاهدت بعضًا منها كذلك).. وهذه القلعة غائرة بكاملها تحت السطح، مغروسة في الأرض، مدفونة تحت الرمل كبيوت النمل.. وعندما بدأت ملحمة اقتحام هذا الخط من مجاهدي مصر، قوضوا - بحمد الله - في «ست ساعات» ما بناه الصهاينة في «ثلاث سنوات»، كل سنة بساعتين! حتى أصبح مانعهم الحصين شريحة من الجريب (نوع من الجبن)، به من الثقوب أكثر مما ب... من الجبن، كما صرح وزير دفاعهم/ موشي ديان.

• وقد سبقت حرب رمضان، خطة تمويه وخداع استراتيجي، قامت بها مصر، بنودها الرئيسية كالآتي:

- في ١٦/ ٧/ ١٩٧٠م، قرر السادات طرد جميع الخبراء السوفييت من مصر، وكان عددهم يصل إلى (١٤) ألف، بين خبير ومستشار عسكري، بعضهم كان يتولى إدارة معدات عسكرية حديثة ومعقدة وقتها، بالإضافة إلى تشغيل محطات المراقبة والتشويش الإلكترونية الموجهة إلى العدو الصهيوني، وقد اعتقد الصهاينة بعد قرار طرد السوفييت أن مصر لن تدخل حربًا أبدًا، وأن قرار الحرب لم يعد ممكنًا على المدى القريب في أقل الأحوال.

ولقد كان هذا القرار ضربًا لأكثر من عصفور بحجر واحد: ففيه إيهام العدو بعدم نية مصر دخول حرب على الإطلاق، في المدى القصير على الأقل، وعدم جديتها في الاستعداد للعبور.. وبه أرادت مصر أن تضع السوفييت في حجمهم الطبيعي كدولة معاونة لنا؛ لأنهم ظنوا - في مرحلة من المراحل - أن مصر أصبحت في جيبهم، وأنهم قد أصبحوا ولاة أمورنا، فأرادت مصر أن تؤكد - وقتها - أن إرادتها إنما تنبع من ذاتها، وأن أمرها إنما هو بيدها.. وبه كان السادات يتوقع أن استياء موسكو من هذا القرار سوف يدفعها إلى السعي نحو استعادته إلى جانبها، وأن يصبحوا كرماء مع مصر في التعاون السياسي والعسكري، وبالفعل، وخلال أقل من ثلاثة أشهر من طرد الخبراء، وعدته موسكو بتزويده باثنين من أسراب المقاتلات الحديثة مع صواريخ أرض - أرض يصل مداها إلى (٢٤٠) كم.


أنور السادات

- وفي يوليو ١٩٧٢م، أصدر السادات قرارًا بتسريح (٣٠) ألف جندي مصري وإحالتهم إلى الاحتياط، فرأت إسرائيل في هذا القرار مؤشرًا من مؤشرات اليأس عند المصريين، مما ساعد بقدر كبير على خداع الصهاينة وترسيخ مشاعر الاطمئنان والترهل في وجدانهم ووجدان قادتهم.

ومرة أخرى يضرب السادات عصفورين بحجر واحد: أوهم العدو بعدم وجود نية لدينا لدخول حرب معه.. ووفر أموالاً طائلة للدولة المصرية، كانت تذهب أدراج الرياح؛ لأن معظم المسرحين كانوا «عاطلين في مواقع غير قتالية»، وليس منهم من يشارك في «الوحدات الضاربة»، بل في «مواقع خلفية»؛ حماية وحراسة للعمق ولبعض المنشآت الحيوية، مع «انخفاض القدرة القتالية بالنسبة لكثير منهم»، و«عدم توافر أسلحة تفي باحتياجاتهم»، ومنهم من كان «يكلف بأعمال غير مؤهل لها وغير مدرب عليها».

- وفي الشهور الأولى لعام ١٩٧٣م، تظاهرت الطلعات التدريبية للطيران بالاتجاه نحو الدفاع عن المناطق الحيوية، وركزت على العمل فوق المواقع المصرية غرب القناة.

- بدأت مصر في إنشاء مطارات جديدة، تنتهي في حدود عام أو عامين، مما يشير إلى عدم استعداد مصر للحرب. على سبيل المثال: بدأ بناء مطار النفق الجبلي، في بطن

جبال البحر الأحمر، فى مايو ١٩٧٣م، وجعل القادة يتجهون لزيارته للتأكيد على أهميته .. فى حين أن حرب العاشر من رمضان قد بدأت وانتهت قبل أن يتم الانتهاء من هذا المطار.. وهكذا.

- قامت مصر، فى مايو ١٩٧٣م، بحملة فى الصحف، وفى الدفاع الشعبي، وتم تسريب أخبار بأن مصر ستضرب إسرائيل وتهاجم. فما كان من العدو إلا أن صدق وحشد الجيوش، بينما كانت مصر فى حالة استرخاء تام. وفى أغسطس من نفس العام، تكرر نفس الشيء، وأعلنت إسرائيل التعبئة العامة مرة أخرى، مما كلف إسرائيل (١٠) ملايين دولار فى كل مرة. فلما جاءت المرة الثالثة والحقيقية (أكتوبر ١٩٧٣م) ظن العدو أن مصر غير جادة مثلما حدث فى المرتين السابقتين، فصنف تحركات الجيش ومعداته على أنها تدريبات عادية، أو مناورة «خايبة» كسابقتيها.

- وفى هذا الأغسطس أيضًا، طار السادات إلى السعودية، ثم إلى قطر، وبحث مع قادة قطر سبل التعاون المشترك بصورة تسمح بتسرب معلومات عن تفاقم الأزمة المالية المصرية، وعدم قدرتنا على الحصول على سلاح وقطع غيار، ونقص العملة الصعبة، وتوتر العلاقات مع السوفييت. ثم سافر إلى سوريا، وتم تسريب معلومات حول طلب السادات للوساطة السورية لتحسين العلاقات المصرية السوفيتية .. وفى الوقت الذى كان يجتمع فيه المجلس الأعلى للقوات المصرية السورية فى الإسكندرية لوضع اللمسات النهائية للحرب!.

- وفى سبتمبر ١٩٧٣م، كان وزير خارجية دولة أجنبية فى زيارة للسادات، فقال له السادات: «بلغ رئيس جمهوريتك، بينك وبينه، وما يطلعش السر دا بره، أنى ذاهب إلى الأمم المتحدة فى أكتوبر القادم» .. يقول السادات (فى البحث عن الذات، ص ٢٥٦): «وكنت أعلم أن هذا الخبر، بعد ثوان، سوف يصل إسرائيل، وقد حدث، وبناء عليه، فهمت إسرائيل أنى غير مقدم على الحرب».

- استغرق تجميع قواتنا للهجوم فترة (٣-٤) أشهر، أى بالتدريج الوئيد، بينما لم يتم الدفع بالقوات الرئيسية على الجبهة إلا قبل (٣) أسابيع فقط من الساعة «س» (ساعة الصفر)، وتحت ستار المناورات والتدريبات العسكرية، وهى المعروفة باسم (تحرير ٢٣)، وتم الإعلان عن أن هدفها هو تطوير القدرات التعبوية للجيش المصري، وتدريب القوات على تحرير سيناء، فتم حشد المئات من عربات النقل العسكرى حاملة للجسور وكبارى العبور، واحتشد الجيش بكامل عدته وعتاده. وبعد ذلك صدرت التعليمات برفع خرائط المناورة (تحرير ٢٣) ووضع خرائط معركة العبور (العملية بدر).

- طيلة أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر ١٩٧٣م، كان الجنود المصريون يجلسون على الرمال ويصطادون السمك، ويضعون عى رءوسهم طواقى قطنية خفيفة، ولا يلبسون خوذات القتال، ولا يحملون أية أسلحة على الإطلاق، ويتبادلون الأحاديث والضحكات ويلعبون كرة القدم، ويسبحون على شط القناة. كان هؤلاء الجنود أعضاء «الوحدة الكسول أو الخاملة»، أومهمتهم: الإيحاء للعدو بأن القوات المصرية فى حالة استرخاء، ولا تفكر أبدًا فى الحرب.



- كان للغواصات البحرية دور رئيسي فى خط الخداع .. كان عليها أن توجه ضربات مركزة من البحر إلى مركز قيادة العدو شرق بور فؤاد فى «بالوظة» و«رمانة»، مع تمثيل عملية إنزال من البحر، يكملها هجوم خادع من معبر القنطرة .. وكان ذلك كفيلاً بإيهام العدو بأن هذا هو أحد المحاور الرئيسية للهجوم المصري، والأمر ليس كذلك، فإنما هو تمويه وخداع، وقد كان بحمد الله.

- تم إعداد تمثيلية مشابهة للسابقة شرق البحيرات المرة، بواسطة اللواء البرمائي الذى سيعبر البحيرات ويتجه شرقًا نحو المضايق؛ مما يوحي بوجود محور رئيسي للهجوم .. ومن هذا المحور الوهمي الخادع: تنطلق سريتان، واحدة باتجاه ممر «تلاء»، والأخرى باتجاه «مضيق الجدي»؛ لتبث الذعر فى مواقع العدو، وتضعف سيطرته، وتشتت قواه، ثم تعود السريتان بعد ذلك لتنضمان إلى وحداتهما الرئيسية شرق القناة.

- بثت وكالات الأنباء فى مصر ورومانيا خبرًا عن قيام وزير الدفاع الروماني بزيارة رسمية لمصر فى أوائل أكتوبر ١٩٧٣م، وأنه سيقوم بلقاء نظيره المصرى فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣م!.

- نشرت جريدة الأهرام خبرًا - فى الرابع أو الخامس من أكتوبر ١٩٧٣م- عن وزارة الحربية بشأن إعداد سجل لتسجيل الضباط الراغبين فى أداء العمرة فى رمضان من هذا العام!

- من أول يناير وإلى سبتمبر ١٩٧٣م، تم استدعاء الاحتياط فى الجيش المصرى ثم تسريحهم (٢٠) مرة، وكان رد فعل العدو فى أول الأمر سريعًا، فكان يضع خطط التعبئة ويشرع فى تنفيذها فى بعض الأحيان، وكلفهم ذلك عشرات الملايين من الدولارات، فتوقفوا عنه، ووصفوا ما تفعله مصر بأنه «اللعبة المصرية المفضلة» كما قال موشى ديان، «رقصوا الرقص على أنغام المصريين» كما

قال زائير مدير إدارة المخابرات، ولم يأخذوا ما يجرى فى مصر مأخذ الجد، حتى تم الاستدعاء رقم (٢٣)، وهو استدعاء الحرب، فلم يحرك الصهاينة ساكنًا.

تم اختيار شهر أكتوبر تحديدًا؛ لأنه:

- أنسب طقس سياسى دولي، كان التأييد العالمى للعرب قد وصل ذروته، واكتملت عزلة العدو ومعسكره بدرجة لم يسبق لها مثيل (بفضل جهود الدبلوماسية المصرية وانفتاحها على أفريقيا وآسيا تحديدًا، وتواصلها مع أوربا كذلك).. وبهذا يكون الرأى العام العالمى جاهزًا لتلقى نبأ المعركة - فى حال نشوبها - من غير معارضة لمصر ولا مضادة لها، حيث ذهب السادات إلى منظمة الوحدة الأفريقية فى أديس أبابا، فى مايو ١٩٧٣م، وأدان المؤتمر إسرائيل، وقطعت ٨٠٪ من دول أفريقيا علاقاتها الدبلوماسية مع الصهاينة قبل أكتوبر ٧٣.. وتم طرح قضية العرب والصهاينة على مجلس الأمن، فى أواخر مايو ٧٣ أو أوائل يونيه، واتخذ المجلس أول قرار فى صف مصر بأغلبية (١٤) صوتًا، مقابل الفيتو الأمريكى - الشهير والقبيح دائمًا - الذى منع القرار عن الصدور بالطبع.. وكذلك كانت الأغلبية مع مصر، فى مؤتمر دول عدم الانحياز، فى الجزائر، سبتمبر ٧٣.. وفى ذات الوقت، كان هناك اتفاق شبه تام من كل الدول العربية - أكاد أقول - على دعم مصر والوقوف بجانبها.. وبذلك كان مع مصر، أكثر من مائة دولة تؤيدها، قبل المعركة بثلاثة أسابيع.

- من الشهور التى تجرى فيها «مناورات الخريف العسكرى المعتادة»، وبذلك تتم التحركات تحت ستار المناورات والتدريب.

- من أنسب الطقوس المناخية للنشاط البشرى عامة، فخريف أكتوبر المصري: ربيع تقريبًا وبالنسبة لسوريا: هو أفضل وقت قبل موسم الشتاء والثلوج فى نوفمبر.

- يوافق شهر رمضان، وهو آخر وقت يتوقع فيه العدو هجومًا؛ لأنه شهر صوم، فهو - فى نظر العدو المتغطرس - شهر كسل وتواكل وخمول واسترخاء (كما يظهر من سلوك قطاع من المسلمين للأسف).

- ملىء بالأعياد الدينية اليهودية، (٨) أعياد، تصاب خلالها الحياة فى إسرائيل (فلسطين المحتلة، لا تنس هذا) بشلل تام تقريبًا، فضلاً عن انشغال العدو والرأى العام هناك بالحملات الانتخابية، فيوم التصويت - وقتئذ - كان هو ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣.

● تم اختيار يوم (٦) أكتوبر تحديدًا، لأنه:

«يوم كيبور» (عيد الغفران أو التكفير) عند اليهود، حيث تتوقف فيه عن العمل - وقتئذ - الإذاعة والتلفاز فى إسرائيل، وهذا يعنى استحالة استخدام الإذاعة والتلفاز فى استدعاء قوات الاحتياط؛ لأن الصهاينة جميعًا هناك يعلمون أنهما لا يعملان أصلاً فى هذا اليوم، ولأن الكثير منهم - فوق ذلك - يكون فى المعابد وليس فى المنازل. وإسرائيل حتى يكون بوسعها صد هجوم ما، بحاجة إلى أن يكون جنود الاحتياط على خطوط القتال الأولى (لأن الجيش الأساسى لا يكفى لصد هجوم واسع)، ولكن تعبئته «نصف الاحتياطى تأخذ (٢٤) ساعة، و«كل» الاحتياطى تأخذ من (٤٨-٧٢) ساعة. وفيما عدا هذا، فإنها تعتمد أساسًا على «جهاز مخابراتها» كـ«جهاز إنذار ومنبه مبكر». وهذا النظام يلائم تمامًا أغراض الصهاينة الهجومية والعدوانية، ولكنه على العكس من ذلك إذا ما هوجمت فجأة لأنها تكاد تجد نفسها عارية إلا من بعض قوات أمامية موزعة ومبعثرة، لا يمكن أن تصد هجومًا مفاجئًا شاملاً ضخمًا.

أنسب يوم للعبور، حيث تقل سرعة تيارات القناة، ويصل فيها مدى المد والجزر إلى حده الأدنى، فلا تتم إعاقة العمليات الهندسية وإقامة المعابر.

فى هذا اليوم سيكون ضوء القمر ظاهراً قوياً، قريباً من البدر، «ألسنا فى «العاشر» من الشهر القمرى ؟!»، مما يتيح ضوءًا يستعمله سلاح المهندسين بحيث ينتهى من إنشاء وتركيب الكبارى، وإذ يستمر تدفق العبور بالأفراد والأسلحة تحت ستار الظلام وفى ضوء القمر معاً، فليل أكتوبر بصفة عامة - طويل، حوالى «١٢» ساعة، مما يمنح أطول وقت ممكن لـ«الحركة المستورة».

● الساعة الثانية ظهرا تحديدا - موعدا لبدء الهجوم - هى أنسب ساعة خلال النهار - بالنسبة للجيش المصرى وقتها - حيث تكون الشمس من خلفنا، فتكون عين العدو فى عين شمس، فتغمر عينى العدو بأشعتها فتغشيها وتعاكس رؤيته، على العكس من الموقف قبل الظهر.. ولأن المعتاد فى الهجوم العسكرى المعاصر أن يكون إما بعيد الفجر أو قبيل المغرب، فتم اختيار موعد لا هو هذا ولا هو ذاك، إمعاناً فى الخداع والتمويه، وطلباً لعنصر المفاجأة الذى حرصت مصر على تغييبه.

● لقد انبنت أركان خطتنا وأعمدة قوتنا - لضرب إسرائيل - على: المبادأة بالهجوم «بحيث تكون أنت البادئ به، لا العدو»، والمفاجأة بالهجوم «بحيث يأتى فى وقت لا يتوقعه العدو»، والحرب الشاملة «بالاستخدام الشامل والأمثل لكل أسلحة القوات العسكرية: هجومية ودفاعية، برية وبحرية وجوية، مشاة ومدفعية ومدرعات، صواريخ وقذائف وقنابل، نظامية وخاصة وفدائية».

وذلك بالاعتماد على التنسيق الدقيق والمحكم بين كل هذه الأسلحة بحيث تتكامل وتتناغم فى «سيمفونية نارية متعددة الحركات»، ولكن «موحدة الإيقاع»، والحرب الطويلة؛ لأنها مقتل حقيقى من مقاتل إسرائيل، لأن قوة إسرائيل مركزة فى نفسها الأول والقصير بطبيعته، وعليه تراهن ببقية حياتها، بل وبوجودها كله، فهى تقامر بكل شيء لـ«تكسب كل شيء» أو «تخسر كل شيء».

● لقد اكتسحت حرب رمضان نظرية الطيران سيد حرب الصحراء ونسخت نظرية الدبابات سيدة الأرض فى حرب الصحراء فإذا كان السلاح الجوى هو العمود الفقرى «فى جهاز» الردع الإسرائيلى فإن حرب أكتوبر أكدت أن الدفاع الجوى هو العمود الفقرى لقواتنا فى ردع الردع الإسرائيلى... فلقد كنا جوياً نهاجم بالدفاع، بينما كان العدو يدافع بالهجوم. لقد برهنت حرب رمضان على أن الصواريخ المضادة للطائرات والدبابات يمكنها أن تؤدى دوراً هجومياً رغم كونها سلاحاً دفاعياً أصلاً، حيث إنها مكنت قواتنا

المهاجمة من إقامة وحماية رءوس الجسور، وتدعيمها بقوات المشاة الميكانيكية والمدرعات بعد أن قامت بشل فاعلية طيران العدو ومدرعاته لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع في حرب أكتوبر، تلك الحرب التي أثبتت أن كل سلاح يصلح ويمكن أن يستخدم للغرضين، الدفاع والهجوم، وإنما يتوقف الأمر على «الإطار أو السياق الإستراتيجي» و«المقاصد المبتغاة، والأهداف المراد تحقيقها».

• لقد أكدت حرب رمضان / أكتوبر أن للقوة البشرية جانبين متكافئين في الأهمية، الكم والكيف .. وإن للكيف بدوره جانبين متماثلين: المادي والمعنوي .. فليست القوة البشرية مجرد «كثافة أو حجم أو عدد قوات»، وإنما هي أيضاً «نوعية الرجال» تدريبهم وكفاءتهم وقياداتهم وخططهم، وأولاً وقبل كل شيء: «درجة إيمانهم وروحهم المعنوية»، ودرجة الإقدام والشجاعة والفدائية، ودرجة الاقتناع بالهدف .. وبغير هذا – مجتمعاً – لا يمكن أن تفهم المعنى الصحيح للقوة البشرية.

• كما تجلت في حرب رمضان والإعداد لها عدة أوجه تعاون وتضامن عربي مشتركة وعميقة، فساندت الدول العربية مصر وسوريا بنحو «٤» مليارات دولار طيلة سنوات الإعداد للمعركة، ودفعت الجزائر «١٠٠» مليون دولار فورية للاتحاد السوفيتي للبدء في شحن الأسلحة إلى مصر بعد اندلاع الحرب مباشرة .. وعلى الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائري والليبي، فضلاً عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب .. وعلى الجبهة السورية شاركت قوات رمزية، عراقية ومغربية وسعودية وأردنية، في الحرب مع الجيش السوري ضد القوات الإسرائيلية .. فضلاً عن القوات الفلسطينية الفدائية التي شاركت مع وأمام وخلف القوات السورية، بل وفي قلب أرض إسرائيل – فلسطين المحتلة – نفسها، مما كبد العدو خسائر جسيمة في الأرواح والسلاح والمنشآت.

١٣- كما فرضت الدول العربية حظراً بترولياً على ما يسمى بالدول غير الصديقة حتى وصلت نسبة خفض إنتاج البترول إلى «٢٥ ٪» من رقم الإنتاج السابق على الحرب .. ولقد كان توقيت الظروف الطبيعية المناخية متوافقاً مع توقيت حرب أكتوبر إذ بدأت معركة البترول والشتاء الأوربي على الأبواب، لقد وقف الجنرال شتاء في خدمة الملك بترول بفضل الله تعالى، فأحدثت معركة البترول صدمة كهربائية للغرب كله، أفاق على أثرها من التنويم المغناطيسي الصهيوأمريكي، أو إن شئت الدقة، الاستنامة لهذا التنويم ونتيجة لاستخدام البترول سلاحا ظهرت تحذيرات علنية من أمريكا وبريطانيا بأن على العرب ألا يستبعدوا إمكانية التدخل العسكري المباشر للاستيلاء على مناطق البترول ومنابعه في البلاد العربية .. وقد رد العرب على الفور بأنهم على استعداد للاستغناء عن دخل البترول لسنوات طويلة، بتدمير الآبار والعودة إلى حياة الصحراء إذا لزم الأمر، وأعلنت كل من الكويت والسعودية بأنهما قد قامتا بإحاطة حقول بترولهما بحزام من المتفجرات لنسف الآبار عند أول بادرة غزو غربي معاد.



• لقد جددت حرب رمضان شباب العرب جميعاً، فلأول مرة يخرج العرب – في عصرنا الحديث – وهم «صنعة التاريخ» بعد أن ظلوا طويلاً «ملطشة التاريخ» .. كما كانت أول نصر عسكري حقيقي عصري ضخم ومباشر تسجله «أفريقيا» على الاستخراب «الأبيض» في التاريخ الحديث ويسجله «العرب» و«المسلمون» على «الصهاينة» .. كما جعلت تلك الحرب – بسلاحيها البترولي والعسكري – من العرب «قوة سادسة في العالم» بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وأوروبا الغربية، كما ذكر في حينه التقرير السنوي لمعهد الدراسات الإستراتيجية في لندن ... كما جعلت العالم ينظر إلى وطن العروبة باعتباره «احتياطي نمو العالم» ورصيد المستقبل من وجهة نظر التنمية الاقتصادية والتطور المادي والصناعي .. كما نسخت الماضي بكل سوالبه وسوءاته ونسجت المستقبل بكل آماله المشرقة، وقضت نهائيا على مشاريع التوسع الصهيوني، بل ووضعت العدو الصهيوني في حصار عربي مطبق براً وبحراً، شمالاً وجنوباً أفريقيا وآسيوياً .. كما أصابت إسرائيل بصدمات وشروخ وتصدعات وزلازل إستراتيجية عميقة أحدثت قلقاً عميقاً ضرب البناء السياسي الإسرائيلي برمته.

• إن الإنسان لا يولد وعبرة التاريخ في جوفه، ولكنه يتعلم، فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ إلا إذا قرأه والقارئ الحق للتاريخ هو الذي يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس القريب والبعيد، ليتجنب زلاتهم، ويستفيد من تجاربهم، ويضيف إلى اكتشافاتهم. إن أهمية قراءة التاريخ تكمن في أن تستخلص من الحوادث عبرتها، على أي شيء تدل؟ وفي أي طريق تمضي؟

وكل جيل لا يبدأ من الصفر، ولكنه يضيف إلى ما سبق حذفاً وتطويراً واجتهاداً وتجديداً، وهذا هو التقدم والتزكي والترقي الذي نرجو أن يكون بحثنا هذا خطوة على دربه.

والله أعلى وأعلم

من تراث الهلال

المسلمون فى الهند وشهر رمضان

أ. عاطف مصطفى

حرصت مجلة الهلال دائما على الاحتفال بشهر رمضان، وبمقدمه السعيد، الذي يمثل للمسلمين عامة وللمصريين خاصة فرحة وسعادة بل إنهم يستعدون لهذا الشهر استعدادًا خاصا، حيث يحرصون على الصلوات فى المساجد، وعلى التراحم فيما بينهم، وصيام الشهر كله.

وفى أول يونيو ١٩٨٦م الموافق ٢٤ رمضان ١٤٠٦هـ أصدرت الهلال جزءا خاصا بعنوان «عالم الإسلام» شارك فيه من الكتاب الدكتور أحمد كمال أبوالمجد والأساتذة: فهمى هويدي، أنور الجندي، عبدالرحمن شكرى.

وشارك فضيلة الدكتور عبدالمنعم النمر بمقال عنوانه «المسلمون فى الهند وشهر رمضان».

يقول فضيلة الدكتور النمر: قضيت فى الهند نحو سنتين ونصف سنة مدرسا للغة العربية فى جامعتها الإسلامية فى شمال دلهى «جامعة دار العلوم ديوبند» وهى أكبر جامعة إسلامية عربية ولذلك تسمى هناك «أزهر آسيا» نظرا لأن دراستها تقوم على نسق الدراسة القديمة فى الأزهر للعلوم الدينية والعربية والمنطق والطب العربي، أو اليونانى أو الإسلامي، وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٥٦م وحتى مايو ١٩٥٨م، موفدا من الأزهر والمؤتمر الإسلامى فى ذلك الوقت.

وقد قضيت هناك رمضانين، وأتيح لى أن أزور أكبر مدن وأقاليم الهند.

عدد المسلمون يتزايد ويتضاعف فى الهند

والهند الآن- بعد أن قامت دولة باكستان فى الولايات التى للمسلمين فيها أغلبية- يعتبر المسلمون فيها أكبر أقلية، إذ يبلغ تعدادهم حينذاك فى ١٩٥٦م نحو ستين مليونًا والهندوس نحو الثلاثمائة مليون، ولكن الأعداد زادت الآن، حتى وصل المسلمون نحو المائة مليون مسلم من السنة والشيعة معا.

والهند دولة علمانية، لا تتدخل فى الأديان، ولا تنفق على نشاطها بل تركت كل طائفة تعمل لديها فى الإطار العام. وتنفق على ما تريده من نشاط وتعلم. ولذلك يتولى المسلمون على نفقتهم كل ما يتعلق بأمور دينهم، من مساجد وجمعيات وتعليم دينى وأوقاف وعقود زواج.. إلخ.

ومنذ وضع الإنجليز أيديهم على الهند، وضموها لمستعمرات التاج، وحكموها حكما مباشرا، كانوا يضطهدون المسلمين، ويعملون على القضاء على نشاطهم الديني، وعلى إغلاق مدارسهم الدينية التى تعلم «الجهاد» وتبثه فى نفوس المسلمين.

و«الجهاد» كان (بعبع) الإنجليز الرهيب، فكانوا يتابعون كل مدرسة دينية يدرس فيها «كتاب الجهاد» فى الفقه، ويقبضون على العالم الذى يدرسه، كما انتزعوا الأوقاف التى كانت محبوسة على هذه المدارس والمساجد، من أيام الحكم الإسلامي، حتى تعجز عن الاستمرار فى أداء رسالتها.

دورهم للعلماء المسلمين للدفاع عن إسلامهم

لكن المسلمين اندفعوا بإخلاصهم لدينهم وخوفهم عليه، وبعامل رد الفعل، اندفعوا وبحماس وتحد للحفاظ على هذه المدارس الدينية وعلى المساجد، بالمساهمة فى قيامها، ولو بحفنة قمح وربطة حطب، كما اندفعوا للحفاظ على شعائر دينهم، بل ومقاطعة الإنجليز فى تعليمهم ومدارسهم، وفى ملابسهم وشكلها.

فكان العلماء يعلمون المسلمين كراهة تقليد الإنجليز فى لبس البدلة والبرنيطة، والحذاء بالرباط، ولبس القميص بالياقة، بل والحلاقة على النسق الإنجليزي، محاربة منهم لموجة التقليد للإنجليز واتباعهم فى تقليدهم، خوفا من هذه الموجة الغربية على دينهم وفى ظل الجهود الذاتية للمسلمين تجاه دينهم، وجدنا المساجد يعنى بها وترمم وتفرش، ويوفر لها حتى الماء الساخن فى برد الشتاء، ويحرصون على أن يصلوا فيها الأوقات، ويوفروا لها الإمام والخادم، كارهين الصلاة فى البيوت.

كما وجدنا المدارس الدينية التى تعنى بدراسة الدين واللغة العربية تكثر وتنتشر، وتنمو وتكبر وتتسع بالجهود الذاتية للمسلمين، وتبرعهم بما يستطيعون، بل رأينا جامعات إسلامية مدنية يقيمها المسلمون بجهودهم الذاتية مثل «جامعة عليكرة» عندما أنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر، وظلت إسلامية الطابع والإنفاق، حتى ضمتها حكومة الهند أخيرًا بعد استقلالها ومنذ سنوات.

وكذلك «الجامعة العلية الإسلامية» فى العاصمة دلهي، حيث أقامها المسلمون بجهودهم سنة ١٩٢٠م تحت رعاية شيخ الهند «مولانا محمود الحسن» فى ذلك الوقت، وظلت كذلك حتى ضمت للجامعات الحكومية أخيرًا.

العناية بحفظ القرآن وتجويده

وفى الهند تعنى المدارس الدينية، ويعنى الأهالى بحفظ القرآن الكريم وتجويده، حتى للسيدات، وبدافع الرغبة والطاعة، بل والتشرف بحفظ القرآن، وحمل لقب «قارئ» أو «قارئة» وهو لقب يفضل على لقب العالم

هناك، حتى إن «مدير جامعة دار العلوم ديوبند» مولانـا محمد طيب عليه رحمـة الله، كان يقال عنـه مولانا قارئ الأثرياء، كانوا يحرصون على اسـتقدام قارئة أو قارئ لتحفيـظ بناتهم القرآن في البيوت.

الاستعداد للعبادة في رمضان

أما فـي شـهر رمضـان فهـم يسـتعدون لاسـتقباله قبل قدومه بشـهرين أو أكثر، لا من حيث الطعام أو الياميش أو الكنافة والقطايف، كما تعمـل هنا، بل يسـتعدون للعبادة في هذا الشهر، وتجهيز المساجد وتنظيفها وطلائها، ثـم يعملون على إعداد الإمام الذى يصلى بهم الأوقـات والتراويح ،بحيـث يختـم القرآن كله في ٢٦ أو ٢٧ ليلة، ويجهزون وراءه في الصف حافظًا آخر يمكـن أن «يفتح عليه» أي يرده إذا أخطأ، ويذكره إذا نسي.

وإذا لـم يوجـد فـي البلد اسـتقدموه من أي بلـدة أخـرى، وكل ليلـة يقرأون فـي التراويح جـزءا وبعض جـزء، بحيث يتمـون القرآن كله قبل انتهاء الشـهر بنحو ثـلاث ليال، ويقيمون حفلة الختام، ويحضر الأطفال إلى المسـاجد، والذيـن لـم يشـتركوا فـي الصـلاة، ليأكلـوا الحلوى ويكون مهرجانـا وفرحة، إيذانا بأنهم ختموا القرآن.

ثم في الليالي الباقية يحرص الكثيرون على أن يختمـوا فيهـا القرآن مـرة ثانية فـلا ينتهي رمضان حتـى يكون المصلون قد ختموا القرآن مرتيـن بتوفيق من الله. وهذه عـادة وتقليد عام عند المسـلمين في الهند، كما شاهدت وكما عرفت من رحلاتي وترحالي هناك.

أما من حيث المـأكولات والمشروبات هناك فـي رمضـان، فلا تتميز بشـيء صارخ كما هنا، فإن رمضان يقبـل دون أية عناية بمظاهر الأكل والشـرب فيـه، بل هـو كيفية الشـهور، وربما أحضـروا التمـر الجـاف ليفطروا عليـه عملا بالسنة.

وفـي العيد لم أجدهم يعتـون بعمل الكعك وما يتبعه، بل يقضونه كعادة أيامهم في الطعام، وربمـا زادوا عليـه، حلوى يقدمونهـا من اللبن الحليب بـه جوز الهند المقطـع قطعا صغيرة، وشعرية رفيعة جدا يسـمونها «سفيا» ويتناولها الإنسـان بالملاعق، لأن العـادة الغالية عندهم تناول الطعام باليد دون ملاعق، أو شـوك، حتى الهندوس كما رأيتهم في بيوتهم، أو في مطاعم المحطات.

وفي الهنـد حلوى خاصـة يصنعونها محليا فـي كل مدينة وقرية يوميا وتباع في الأسـواق، ويقدمها صاحب البيت لضيوفه في أي وقت.

وأهـم مـا يعملون يـوم العيـد، هـو العناية بلبـس الملابس الزاهية الجديـدة كمظهر لهم أمـام غيرهـم، ثم التجمـع لصـلاة العيد خارج القريـة، في مكـان متسـع للصلاة، ولمن حضر مـن الأولاد والزوجات للصلاة، أو للفرحة بهذا اليوم السعيد.

ويتأخـر وقت صلاة العيد في القرى والمدن غالبا، حتى يحضر المسـلمون من البلاد الواقعة حولهـا ويكـون التجمـع الكبيـر، والمظهر الضخم الذي يظهر كثرة المسـلمين وإقبالهم علـى العبـادة، ويكـون فرصـة عظيمـة للقاء وتجديـد الصـلات بينهم ويشـعرون فـي هذا التجمع بمعنى العيد.

رمضان يملي دروسه



لفضيلة الشيخ معوض عوض إبراهيم

يجيء رمضان في دورة من دورات الفلك هذا العام ومصر في حالة من الانقسـام الذى أسـأل الله عـز وجـل أن يعصمها منـه، فإن وحـدة الكلمة إيمـان، وإن القـرآن الكريم يذكرنا دائمًا بقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

وإذا كنـا قـد اجتمعنـا على توحيـد الله واجتمعنا فـي إقام الصلاة وشـعرنا بحاجات إخوة لنا إلى أن نقدم لهم الـزكاة المفروضة والصدقـات التـى تشـد العرى وتحكـم بيننا الوثـاق فقد شـرع الله صيام شـهر سـماه الله سبحانه عز وجل في كتابه إعلاء لشأنه وشأن العبادة التي قرنها الله عز وجل به فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

وهو نداء الله عز وجـل للمؤمنين خيرته من خلقه وصفوته من عباده، ورضي الله عن عبدالله بن عمر بن الخطـاب فقد قال: «إذا سـمعت الله تعالى ينادي يا أيها الذين آمنوا فأرعهـا سـمعك فإنه خيـر تؤمر به أو شـر تنهى عنه» ا.هـ.

واستعراض نداء الله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾

فـي القـرآن الكريم يؤكـد حقيقة أن الله عز وجل ما نـادى المؤمنين إلا إلى خير في دينهم ودنياهم وأخراهم ولا نهى المؤمنين إلا عـن كل ما لا تصلح بـه دنيا ولا أخرى، واسمعوا إلى قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

(البقرة: ١٥٣)

وقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾

(الحجرات: ١١)

وهي آية من سـورة الحجـرات التي نادى الله فيها المؤمنين خمس مرات فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(الحجرات: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾

(الحجرات: ٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾

(الحجرات: ٦)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾

(الحجرات: ١١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

(الحجرات: ١٢)

ثم بعد ذلك مباشرة نادى البشر أجمعين فقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

والله عز وجل يناديـنا فـي كتابه فـي ثاني آية بهذا النداء الكريم بأنه تعالى كتب علينا الصيام كما كتبه على الأمم السابقة على نحو قد لا يكون متطابقًا كل المطابقة وموافقًا كل الموافقة لما كتبه الله عز وجل علينا ثم كان فضلًا من الله عز وجل أن يفيض علينا ذلك الصوم حتى لا تسبقنا أمة من الأمم بفضل أو كمال، ويبين الله عز وجل لنا الغاية من الصيام بخير ما أراده الله عز وجل من عباده وهي تقوى الله تعالى التي هي كمال الدين وهي العبادة التي زهت بقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به..»(١).

وقد سعد أوائلنا رضوان الله عليهم وهم السلف الصالح بعد رسول الله والذين آمنوا معه، والاقتداء بهم بعد الأسوة الحسنة صلوات الله عليه هي كمال الدين وحصن الأمان من مكاره الحياة ومن شهوات الأنفس الناكبة عن شرع الله عز وجل، وأعجب ما ينبغي أن نذكره أننا نجد أن الدعوة إلى توحيد الله عز وجل والدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الزكاة والدعوة إلى أن يحج بيت الله من استطاع إليه سبيلا من المؤمنين، نجد ذلك كله آيات بينات وفي سور عديدة من سور القرآن كله، لكن صوم رمضان إيجابًا، وصوم رمضان يعد سبيلًا لتقوى الله عز وجل، وسبيلًا لتربية النفس الخيرة المبصرة المتقبلة من الله عز وجل أوامره ونواهيه.

-هذا الصيام لم يذكر إلا في خمس آيات من سورة البقرة يتبع بعضها بعضًا ابتداء من قوله تعالى:

(١) رواه البخاري

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

إلى أن قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾

ومن عجب أن بعض الناس يظنون أن في فرض الصيام من القسوة ما يصلح أن يكون عذرًا لهم في أن لا يصوموا، بينما الذين لا يدينون بدين الإسلام في بعض بلاد الغرب يجعلون الصوم كما بينه القرآن الكريم وأظهرته على حقيقته السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، يجعلون ذلك وسيلة علاجية ومنهجًا تربويًا للشفاء من أدواء شتى وعلل كثيرة لا يشفى منها إلا دين الله وكتابه الذي يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الإسراء: ٨٢)

إن رمضان شهر العبادة التي تعالج فينا عللًا وأدواء، وهو ينظم لنا ما نأكل وما نشرب ويفرض سلطانه علينا، ونحن في الواقع ننزل على أمر الله عز وجل الذي جعله أيامًا معدودات جمعها سبحانه في قوله:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

ألا ليت الذين تستعبدهم بطونهم والذين نموا بالسفاهة التي تحبب إليهم الإسراف في ذلك الشهر الذي تنفق فيه ما يتسع لشهور كثيرة، أسأل الله أن يهدينا في شهره الكريم من ضلال وأن يشفينا من كلال، وأن يجعلنا بالصوم أملك ما نكون لألسنتنا وجوارحنا حتى لا نقول زورًا أو نأتي نحورًا، وأن يجعلنا أهلًا لارتباط بأولئك الذين يقرأون مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام «ثلاث لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر..»(٢).

وبقول ﷺ: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا فطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»(٣).

هذا رمضان شهر ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والتي كانت ميلاد رسول ورسالته هما سبيل النصر على الأعداء والظفر بالخصوم ورضوان الله عز وجل في عاجل وآجل، وأسأله سبحانه أن يسلم لنا رمضان وأن يجعله والقرآن الكريم شفيعين لنا في يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت والحمد لله رب العالمين.

(٢) رواه الترمذي أواخر كتاب الدعوات وقال حديث حسن.
(٣) رواه البخاري.

الجهـــاد الأكبـــر

د. نظمي لوقا

الجهاد الأكبر جهاد النفس

هو قائلها، وإنه في ذلك الجهاد لفارسه المعلم، وبطله الذي لا يشق له غبار.
رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين،
ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر، بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه.

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتز، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة.

يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم:

– لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدالله، فقولوا: عبدالله ورسوله(١).

ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلاً:

– لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا(٢)!

ويمرض المريض من أدنى الناس فيعوده، ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيعزيه في مصابه، وقد يدعوه عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع، ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم في حجره، ويمازح أصحابه وينبسط في الحديث معهم، يعني نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف، ويؤاكل خدمه ويشاربهم، ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم في البيت وغير البيت.

وكان حفيده الحسن بن علي من فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلي بالناس ساجدًا، فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره!

وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تري

(١) متفق على صحته – أخرجه البخاري – عن الحميدي عن سفيان وهو طرف من حديث السقيفة.
(٢) مسند أحمد بن حنبل – البحر الزخار بمسند البزار ١٠/١٣.

من إكرامهم، كما فعل بوفد نجاشي الحبشة.

ذلك هو الرسول الذي خاطبه الله في القرآن قائلاً:

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الشعراء: ٢١٥)

وأي خفض جناح أكثر من عدله وقصاصه من نفس كلما كان لأحد لديه حق؟

فها هو ذا يوم بدر، والمعركة غير متكافئة بين المسلمين وقريش، وهي بعد أول معركة يخوضها المسلمون، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة كله؛ لأن قريشًا – على حد قول الرسول وهو يتضرع إلى ربه يسأله النصر – (قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك)(٣).

في هذه الموقعة، والموقف متحرج غاية الحرج، أخذ النبي يسوى الناس صفًا صفًا، ليستقبلوا العدو على تعبئة ونظام.. وكان في يده عود يشير به إلى من يأمره فيتقدم أو يتأخر ليستوي الصف.

وخرج رجل من سواد الجند عن الصف، اسمه سواد بن غزية، فدفع النبي بالعود في بطنه ليستوي، فقال له سواد:

– يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل! فاقدني يا رسول الله ومكني من نفسك لأقتص منك!

ووقف النبي متمهلاً كي يقتص منه سواد دفعة في البطن بدفعة في البطن، ولكن الرجل قال:

– إن عليك قميصًا وليس عليّ قميص!

فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهبًا للقصاص من نفسه!

وليس يعنينا أن الرجل لم يقتص من النبي، بل عانقه وقبل بطنه العاري ليكون مس جلده آخر عهده بالدنيا، فما كان الرسول يتوقع هذا، بل كان يتوقع المقاصة التي تهيأ لها عن طيب خاطر.

٠٠٠

وتحضر النبي الوفاة، وقد هدى الناس وأمهم، «وما كان براعي غنم يتبع بها رءوس الجبال بأنصب ولا أداب منه في المسلمين»، كما قال عمه العباس، فلا يعنيه في آخر خطبة له بالمسجد وقد تحامل على نفسه وبرز إلى المسجد إلا أن يقول:

– أيها الناس، ألا من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني؟ ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقًا إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس.

ما أعظم وما أروع(٤).

ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها إلا سرت في جسمي قشعريرة، كأني أنظر من وهدة في الأرض إلى قمة شاهقة تتخلع الرقاب دون ذراها.

أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك

(٣) رواه أبو إسحاق معلقا من طريق الطبري في التاريخ، والبيهقي في الدلائل، وسيرة ابن هشام ٢/٢١٥.
(٤) تاريخ الطبري – والأحاديث الطوال – السنن الكبرى للبيهقي

من الهداية والبر والرحمة والفضل، إذ أخرجتهم من الظلمات إلى النور، تراك بحاجة إلى هذه المقاصة كي تلقى ربك طيب النفس وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.

ولكن العدل عندك مبدأ، العدل عندك خلق، وليس وسيلة.

وعسير بلوغ هاتيك جدا

تلك عليا مراتب الأنبياء.

وزهدك يا محمد؟

زهدك وقد أحلت لأمتك الطيبات، وحبيت إليك؟

هذه أم سلمة زوجك تصف ما وجدته في دارك ليلة عرسها

- نظرت فإذا جرة فيها شيء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وقعب، فأخذت ذلك الشعير فطحنته، ثم عصدت البرمة، وأخذت القعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه.

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج، الصادق فضول غث في التعليق على زهد الرجل الذي لم يؤت أحد في زمانه سلطانًا على أصحابه كما أوتي، لولا أنه يرى برهان ربه رأي العيان، فتصغر في عينه الدنيا وما فيها.. ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة، ولا يدخر لغده شيئًا.

أليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله؟

ومن هو؟

هو السيد غير منازع، وقد أوتي الفتح المبين، وعنت له رءوس المعاندين، ولكنه كان مشغولاً بأن يسود نفسه لا بأن يسود الناس.

لهذا كان ينام على حشية من ليف، ولم يبلغ من طعام حد الشبع، ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين، وجعل طعامه التمر، لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيرًا، وكم من مرة ربط على بطنه حجرًا ليقاوم الجوع حين يشتد عليه.

وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف طعام زوجها العظيم الذي لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل سلطانه على قومه:

(ولم يأكل النبي خبزًا مرققًا ولا أكل خبزًا نقيًا، وقد جاءت إليه فاطمة ابنته يومًا بكسرة خبز فقال:

- ما هذه الكسرة يا فاطمة؟

قالت:

- قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة.

فقال ﷺ:

- أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام)(*).

ودخل أبوبكر بيت النبي ليلاً، فلم يجد سراجًا، فسأل ابنته عائشة:

- أما لكم سراج؟

فقالت:

- لو كان لنا ما نسرج به أكلناه!

وماذا يسرج به؟ الدهن أو الزيت، وذاك ما كان يعوز نبيًا وهو لا يعوز أفقر أتباعه الذين يفدونه بالنفس والنفيس.

(*) الأحاديث المختارة ٢٣٢٤، المعجم الكبير للطبراني - تاريخ الإسلام للذهبي.

قمة شاهقة في الزهد لا يطيقها كثيرون، فلا عجب أن نرى زوجاته يتضجرون بهذا الضيق، وهو الذي يملك خُمس الغنائم بشريعة القرآن، فيهلك ذلك في الصدقات ولا يستبقي لآله من الطيبات شيئًا، حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليأكلنه عسى أن يرد عنهن غائلة الجوع، وهن يرين زوجات أدنى المسلمين شأنًا أوسع منهن رزقًا وأحظى بالرفاهية والزينة.

وصارحنه بما في نفوسهن من الضيق بهذا الضنك، فآلى أن يعتزلهن جميعًا شهرًا من الزمان، حتى تحدث الناس أن النبي طلق أزواجه.

وذهب النبي فعلاً يخيرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه به من المعيشة.

وليس يعنينا ها هنا أنهن جميعًا اخترن الحياة معه على الوجه الذي يريد لنفسه ولهن، فما كان يدري شيئًا من هذا حين خيرهن ذلك الخيار، بل كان موطنًا نفسه على أنهن قد يخترن ما تصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا، وكان مستعدًا لهذا الموقف مؤثرًا زهده على كل شيء!.

وعمر الزاهد المخشوشن ليس في زهده إلا تلميذًا لهذا الزاهد المطبوع، وقد رآه يومًا وقد أثر في جنبه الحصير الذي يفترشه لنومه، فقال له:

- يا رسول الله، قد أثر في جنبك هذا الحصير، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله!؟

فاستوى النبي جالسًا وقال: «أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»(٦)!

ذلكم هو الرجل الذي كان الزهد عنده طبعًا لا ضرورة وغنى نفس لا فقرًا ولا عجزًا.. فإنه كان أقدر القادرين على البذخ، لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدمًا عنده على الاقتدار على المناعم والطيبات.

وفتنة السلطان يا أبا القاسم؟

ما عرفت شيئًا يغير الرجال ويمتحن معادنهم مثل فتنة السلطان، وما رأيت رجلاً - إلا الأقل الأقل - لم تغيره بوادر النفوذ، ولم تدر رأسه خمر السلطة، فإذا خيلاء وصيد تتغنى له النفس، حتى ليصدقني فيهم قول القائل: إنهم ينحطون باطنًا كلما ارتفعوا ظاهرًا، وإن فيهم الفتى الغر الذي لا يحسن من أمر نفسه شيئًا، فضلاً عن أمور الناس، وينتفش بما ألقي إليه من فتات الأمر والنهي كأنه الديك الرومي، أو يتثاقل في خطوه وقد برز صدره ورأسه، كأنه شربة يتأهب للنطاح!

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت في جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم، يالسان السماء، ويا حاكم الدنيا، ويا من لا يعلو سلطانك على أتباعك من بني آدم سلطان، فليس فوقك إلا المهيمن الأحد؟

هباء سلطان أولئك جميعًا مهما علوا واستطالوا إلى جانب سلطانك، أو أوهن من الهباء.

وما فتنك سلطان، وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة، إلى

(٦) مسند أحمد بن حنبل - السنن الكبرى للبيهقي.

النصر المؤزر، والفتح المبين والطاعة العمياء والسؤدد الذى لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد!

يسمع الابن البكر أنك وجدت على أبيه ذى الأيد والبأس فيأتيك يسألك الرخصة أن يضرب عنقه، فهو أولى بذلك من سائر الناس، لتكون لك به قرة عين ثم تأبى أنت وتعفو وتصفح عن ذلك الغادر المتآمر كرامة لولده الطائع.

إلى هذا المدى بلغ سلطانك، وناهيك به من سلطان، فما دار لك رأس، ولا ركبتك خيلاء، ولا أصابك تيه وزهو.. بل كنت تمشى فى الأرض هونًا، وتزداد مع نمو سلطانك تواضعًا لله وخفض جناح للمؤمنين، وكنت تقول وتعيد القول لا تمل من تكريره:

- إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد.

وتذهب مع أبى هريرة إلى السوق فتشترى لنفسك سراويل ويثب البائع إلى يدك ليقبلها، فتجذب يدك من يده مستنكرًا وتقول له:

- هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم «رجل منكم».

وما كان ملك من ملوك الأعاجم أو غير الأعاجم أبعد منك نفوذًا فى قومه، ولا أمضى كلمة وسلطانًا منك فى رعاياه.. ولكنها عصمة الله التى عصمك بها من فتنة ذلك السلطان، وإنه لكبير.

أجل كبير أمر ذلك السلطان، وكبير ما قام عليه من الحق والهدى والفضل العميم، ولكن لباب المسألة كلها أنك كنت أكبر من سلطانك هذا الكبير، ولم يكفك أن ترى نفسك أجل من خيلاء تقبيل اليد، فإذا بك تقول لأبى هريرة وقد تقدم يحمل عنك ما اشتريت:

- صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله[٧].

«رجل منكم»

ذلك ما أردت لنفسك، وما أرادته لك خلة التواضع السمح.

بل أراده لك صدق الإيمان بأن لله الأمر جميعًا، وأن ليس لك من الأمر شيء.

ويأتيك الرجل من الأعراب ليبايعك يوم الفتح الرهيب، وأنت فوق قمة السلطان، فتأخذه الرهبة بين يديك ويرتعد، فتأخذك من ذلك دهشة رائعة فى بساطتها وتقول له:

- «هون عليك، لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»[٨].

إنى والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو بالمنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان، وأنا أتمثلك فى هذا الموقف الذى لا تدانيه فى علوه وقفات العواهل الفاتحين، وإن مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح فى نظرى فتوح الغزاة كافة، وأبهة القياصر أجمعين.

أنت بأجمعك فى هذه الكلمة، وما أضخمها أيها الصادق الأمين.

ثم سلام على الصادقين

(٧) الفوائد المجموعة للشوكانى - المعجم الأوسط للطبرانى.
(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد - تاريخ دمشق لابن عساكر دلائل النبوة للبيهقى.

ما هية قضية المعاصرة



المستشار طارق البشرى

إن أهم ما يواجه العالم العربى الإسلامى، يرد من المواجهة التاريخية بين أصول الحضارة العربية الإسلامية، التى سادت حتى بدايات القرن التاسع عشر دون منازع، وبين الحضارة الغربية التى وفدت مع تغلغل النفوذ الغربى السياسى والاقتصادى والعسكرى منذ خواتيم القرن الثامن عشر. وإن التاريخ العربى الإسلامى خلال القرنين الأخيرين يرتبط بهذه المواجهة من كل جوانبه.

وعلى مدى القرن التاسع عشر، فإن المواجهة السياسية والعسكرية قد شحذت همم المفكرين والقادة السياسيين العرب والمسلمين، يفتشون عن مكامن القوة فى الغرب ويحاولون نقلها، وعن مكامن الضعف فى أنفسهم ليعملوا على تلافيها.

وجرى كل ذلك سواء فى مجال الإنتاج أو الدفاع العسكرى، أو فى النظم والأساليب والأفكار والقيم ومن الطبيعى فى مثل هذا السعى أن تتشعب وجوه النظر مذاهب وقيادات وأن تتنوع التجارب.

ثم كان للقوة العسكرية والسياسية الغربية المؤيدة بالتفوق العلمى والتنظيمى ما اختل به ميزان التقدير فى أيدى هؤلاء المفكرين والقادة، من ناحية مدى ما يختارون أو ما يفرض عليهم الغرب الأخذ به، ومدى ما يتركون من نظمهم وأفكارهم وأصول حضارتهم وعقائدهم. وجاء الاقتحام العسكرى والسياسى فى بلادنا، فاضطربت تماما معايير الانتقاء لما يفيد العرب والمسلمين من منجزات الغرب، وشلت القدرة على التمييز بين النافع وغير النافع، وانطمست الفروق بين التجديد والتقليد للغرب، وبين النهوض وتغيير الأصول التى تقوم عليها جماعاتنا، وبين الإصلاح والإحلال الآخذ من الغرب.

فى هذا السياق التاريخى العام، فإننا نلحظ الآن أن عالمنا العربى والإسلامى يعيد ترتيب الأوضاع ودراسة تجارب الستين

الماضية ، ويعيد البحث فى الصيغ الأنسب لمعالجة ما يفرضه الحاضر والمستقبل من مواجهات سياسية وحضارية ، وإن الوضع الفكرى الراهن يمثل وقفة تاريخية للمراجعة والتدبير وللتفكير فيما طرح من صيغ للنهوض ومدى ما لحق بها من فشل أو نجاح .

وهذا الوضع يدعو الى إعادة الكشف عن المورد الفكرى والحضارى لمواجهة التحديات القائمة ولمشاريع الاستقلال والنهوض .

والسؤال الكبير الذى يطرح ، يتعلق بما نأخذ وبما ندع من فكرنا وحضارتنا الموروثة وما نأخذ وما ندع من الفكر الغربى الوافد وحضارته .

وضع المسألة هنا أنه فى البدء كان الإسلام ، عقيدة ورباطا سياسيا وثقافة شاملة مستوعبة محيطة لمناحى التعبير والنشاط الذهنى وللنظم والسلوك الفردى والاجتماعى .

هذه بداية لتاريخنا الحديث صحيحة من ناحية الواقع التاريخى . وهى ينبغى أن تكون المسلمة الأولى والمشرع الأول . هناك عقيدة تقتضى الانتماء ، وثمة كيان حضارى انبنى عبر السنين والقرون ، وضم فى رحابته العديد من المذاهب والمدارس والنظم والقيم ، ولا يزال بأصوله وكلياته منفتحا لجديد يصدر عنه . وهو بحسبانه كيانا حضاريا لجماعة ممتدة التاريخ ، يشكل هوية وشعورا بالانتماء والتجانس لهذه الجماعة ، ومميزا لها عن غيرها .. ومن ثم فهو الميزان وليس الموزون ، فيما تأخذ الجماعة وما تترك ، وهو معيار الحكم والاختيار وليس المحكوم ولا المختار .

من هذا الأصل تتتابع بعض الفروع ، وهى أن مجمل هذا الكيان الحضارى لا يعدل عنه فى جملته ، لأن العدول عنه يفيد فقد الهوية ، ولا يعدل عن جزء منه ولا أجزاء ، إن كان ذلك يؤدى الى خلخلة الهوية . ثم إن النظر فى إصلاحه يكون بمراعاة صلاح الجماعة ونفعها ونهضتها من خلاله ، وليس انخلاعا عنه . والإصلاح يكون بمادته الحضارية نفسها ، تطويرا وتعديلا وإعادة تركيب كل ذلك ما أمكن وإلا فلا يعدل عن أجزاء منه الى وافد خارج عنه ، إلا إذا تحقق من ذلك وجه نفع للجماعة المشمولة بهذا الكيان ، وبما لا يخل بالتجانس العقيدى والحضارى له وبما ينهضم به هذا الوافد ليشيع فى كلياته ويخضع لأصوله وثوابته.

من هذا الموقف وبهذه المعايير ، يمكن النظر فيما وفد إلينا من الغرب فى القرنين الأخيرين ، ويمكن معالجته فى هذه الوقفة التاريخية التى نتدبر فيها تاريخنا الحديث ، بما أفصح من تجارب النهوض والانتكاس . لقد وفدت إلينا نظم الغرب وفكره وقيمه باسم المعاصرة ، وترادفت مع التقدم والتجديد ، وقامت بها تحت هذا الاسم علاقة التنافى بينها وبين الموروث الحضارى القائم ، الذى ترادف بحكم هذا التصور مع الرجعية والتخلف .

إن ما يتعين الحذر منه بداءة هو هذا الترادف والتلازم بين الوافد والعصرى ، وبين الموروث والرجعى البالى .

وبيانا لوجه الحذر فى الترادف بين الوافد والعصرى ، فلا شبهة فى أن هذا الوافد كانت تفتقت عنه الأوضاع الاجتماعية والتاريخية الأوروبية فى العصور الحديثة ، وهو يتلاءم مع تلك الأوضاع ، وأفسح لها فى مجال النهضة والقوة والاقتدار . ودليل ذلك مرئى ملموس ولا شبهة أيضا فى أن جملة من نظم الأوروبيين والغربيين المعاصرة وقيمهم وأفكارهم ، يمكن لمجتمعات العرب والمسلمين أن تستوعب منها ما يعينها على النهوض . ولكن ليس من الحتم فى إطار المعاصرة أن يكون العصر الحديث الأوروبى ، يتطابق أو يتماثل أو يشبه العصر الحديث لدى العرب والمسلمين ، لأن «العصر» لا ينبغى أن ننظر إليه باعتباره مجرد تواكب زمنى ، أو مجرد تواز فى عدد السنين والحساب ، ولكن يتعين أن ننظر الى «العصر» باعتباره جملة الظروف والأوضاع التاريخية والحضارية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى وقت ما وإن أى عنصر قد تتغير وظيفته بتغير الظروف والأوضاع التى ينشط فيها .

ويمكن إجمال بعض أوجه الاختلاف العامة فى العصر الحديث ، أقصد الزمن الحاضر ، بين الأوضاع الأوروبية الغربية وبين الأوضاع العربية الإسلامية .

فإن ما أفرزته الأوضاع الأوروبية الحديثة من نظم وقيم وأفكار ، إنما انفرز فى إطار الكيان الأوروبى وبتفاعل عناصره الذاتية وقواه الاجتماعية الداخلية ، وما أفاده الأوروبيون من الحضارات الأخرى إنما استجلبوه حسب اختيارهم لما ينفعهم واستوعبوه بهضمه فى كيانهم الحضارى وأنساقهم الفكرية والعقائدية . واستقام لهم بذلك من النظم والأفكار ما ظل مرتبط الأواصر بالسياق التاريخى والاجتماعى لهم وكانوا فيما يفعلون يمثلون قوة ناهضة طامعة ، لا يشغلها قط خطر من الخارج أو احتمال تهديد . ويظهر ذلك أهم عناصر النهوض الأوروبية من الناحية الفكرية والتنظيمية ، وهى الإصلاح الدينى ، النظام الديمقراطى والقومى ، والفكر الاشتراكى كل ذلك انبنى بتفاعل العناصر الذاتية فى الحضارة الأوروبية . ولا نكاد نلتقط فيه أثرا لعنصر أو سبب يتصل بموجب من موجبات تحرر من غزو أو تأمين من خطر خارجى ، إذا كان آخر الأخطار الخارجية التى هددت أوروبا فى القرن السادس عشر عندما توقف التوغل العثمانى فيها وتوجهه إلى الجنوب والشرق الآسيوى والإفريقى . والأوروبيون فيما صنعوا بعد ذلك لم يرد أثر لتهديد عليهم بفقد هويتهم أو تفكك قوة التماسك فى الجماعة إزاء عدو طامع .

بينما الأوضاع العربية الإسلامية فى ذات الزمان ، تبدو بصورة مخالفة ، فالمواجهة مع الغرب تلتصق بهذه الأوضاع وبتاريخنا الحديث التصاقا لا ينفك . وأينما يول

الباحث وجهه في أي من مجالات النشاط الاجتماعي ، يلق أثرا من آثار هذه المواجهة ، ثم لا يلبث أن يراه حاسما ، سواء عناصر الاقتحام الأوروبية لنا ، أو ما تولد فينا من عناصر المقاومة ، ومنها مواقف الجمود والغلو في المحافظة ، سواء في السياسة العامة أو في معيشة القرية ، وسواء في الفكر الديني أو في إنتاج السلع ، أو بين هذا وذاك جميعه من مجالات ومستويات .

والسؤال هو كيف لا يؤثر هذا الوضع فيما يفد من الغرب من نظم وأفكار وقيم ، هي بطبيعتها وحسب ظروف نشأتها لم تخلق في ظرف مماثل ولا أعدت أسلحتها وأنسجتها لمواجهته أو العمل فيه .

والسؤال الثالث هل يصح القول «بالمعاصرة» كظرف زماني مطلق ، يصدق حتى مع الاختلاف البيئي في الظروف الموروثة والاختلاف الذي قد يصل الى حد التضاد في الوظائف المطلوبة في كل من المجتمعين ، وأحدهما غاز والآخر مقاوم .

من جهة أخرى ، فإن الوفود الفكري والتنظيمي قد تواكب مع الوفود السياسي العسكري والاقتصادي .وما لم يفد اختيارًا وفد جبرًا . وبصرف النظر عن التفاصيل ، وعن النافع وغير النافع ، فقد آلت الأوضاع في مجتمعنا جملة ، إلى نوع من الازدواج والانفصام ، شمل معظم المؤسسات الفكرية والتعليمية والسياسية والاقتصادية والإدارية. الفكر الديني قام بجواره الفكر العلماني ، والتعليم الديني قام بجواره التعليم الآخذ من النظم الغربية ، والنظام القانوني الآخذ عن الشريعة الإسلامية قام بجواره وعلى حسابه النظام الآخذ من فرنسا . ونظام الحكم الفردي قام بجواره وبغير مساس به النظام النيابي ، والنظم التقليدية والشخصية في الإدارات قامت بجوارها النظم البيروقراطية، والإنتاج الفردي والعائلي قام إلى جواره نظام الشركات وشركات المساهمة ، وهكذا في الأحياء السكنية والملابس والمآكل .

هذه الملاحظة لا يقوم بها فقط عصر في أوروبا تخالف ظروفه وأوضاعه ظروف عصرنا الحاضر وأوضاعنا في العالم العربي الإسلامي ، ولكن تدل هذه الملاحظة على أننا نحن في مجتمعاتنا العربية الإسلامية نعيش مجتمعين متغايرين ، ونحيا حياة منفصلة بين أنماط متغايرة في الفكر والسلوك والنشاط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والأبنية التنظيمية والمؤسسات . وهذا يقيم شرخا رأسيا في المجتمع يقصم أبنيته وقواه ويضع كل أولئك في تضاد وتعارض مع بعضهم البعض مثل موضوع الولاء والانتماء للجماعة وبها يختل النسق الاجتماعي وتتضارب معايير الاحتكام والشرعية .

وبهذه الملاحظة تتأكد الأسئلة السابقة ، ما أحرانا أن نستبدل بلفظ «العصر» الذي يفيد الزمن وحده ، لفظ «الظرف» الذي يتسع للزمان والمكان ويظهر أوجه الخلاف بين المجتمعات الغربية والإسلامية وإن جمعها عدد واحد من السنين .

إن النفوذ الغربي في مجالاته المختلفة وخاصة في المجال الفكري والتنظيمي قد وفد إلينا باسم وحدة العصر منذ القرن الماضي ، على اعتبار أن أي حاكم أو طامع في حكم بلد آخر لا بد أن يبحث لنفسه عن فكرة جامعة تجمع بينه وبين أهل المجتمع المحكوم ، حتى لا يبدو وجوده بينهم شاذا ولا شائنا ، وحتى لا يثير وجوده بينهم الرغبة الدائبة في التخلص منه بوصفه جسما غريبا غير طبيعي . لذلك حدث الترويج لفكرة العصرية والمعاصرة من دوائر المؤسسات الغازية في التعليم والثقافة والإعلام وغيرها ، لتقوم بدور تسويغ حكم المعتدي ، رسالة الرجل والمصلح الأوروبي ، ولتقيم نوعا من الوحدة بين المعتدي والمعتدى عليه ، ولتعزل ذوي الفكر والمؤسسات التقليدية وتظهرهم كما لو كانوا هم الغرباء رغم كونهم هم أصحاب البلاد الأصلاء بها فكرا وتراثا وحضارة ، وهذا العزل أفاد الغرب من جهة أن من الوسط التقليدي في بلادنا انبعثت القوة الأساسية لمقاومة الغزو ولرد العدوان على مدى القرن التاسع عشر ،.

وفي الحقيقة فإن هذه الوحدة الزمنية التي تجمع بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الشرقية عامة والعربية الإسلامية خاصة ، هي ذاتها التي تفرق بينها ، لأن السمة الرئيسية للزمان الذي نعيش فيه ، ومنذ أكثر من قرنين ، هو أن العالم منقسم قسمين عظيمين ، أحدهما غاز والآخر مغزو ، أولهما معتد والثاني معتدى عليه ، ولهذا يظهر أن عامل التجانس الأساسي وهو الاقتران الزمني هو في جوهره عامل تمييز وليس عامل توحيد ، عامل انقسام وليس عامل مزج.

هذه النقاط السابقة ، لم أقصد أن أجحد بها أهمية أخذ ما نراه صالحا من فكر الغرب ونظمه ، ولكن قصدت فحسب فك التلازم بين الوافد إلينا من الغرب وبين العصرية .

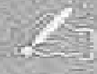
كما قصدت أن أشير إلى وجوه التحدي التي تواجه عالمنا ، بحيث يلزم فيما نختار من نظم غيرنا وأفكاره ، أن نقيس صلاحه لنا في إطار الحاكمية والشرعية للنسق الحضاري والعقائدي العام الذي يجمعنا والذي تقوم عليه جماعتنا . وأن نكون على بصيرة من حسن إعمال ما نختار ، لئلا ننوي منه شيئًا ويسوقه الواقع مساقًا آخر .

وقد يحسن إيراد بعض الأمثلة التطبيقية من التاريخ ، وهي أمثلة تتعلق بالمجموعات الفكرية الرئيسية التي انتقلت من الغرب إلينا على مدى القرنين الأخرين :

الفكر الديمقراطي ، فكر الإصلاح الديني والفكرة القومية ، والفكر الاشتراكي تتكلم عن كل منها بإذن الله في تطبيقاتها في بلادنا ، لنتبين كيف كانت الفكرة ذاتها عند نقلها من بيئتها الينا ، تتخذ وضعا فاسدا وتكون دعوة لإصلاح ضال يفضي في التطبيق الى خلاف ما أراد ناقلوها من فائدة ، أو تتخذ وضعا حميدا وتكون دعوة لإصلاح رشيد يفضي إلى تحقيق النفع لمجتمعاتنا وإلى ما تصير به من أدوات مواجهة التحديات القائمة.

رمضان ١٤٣٤ هـ يوليو أغسطس ٢٠١٣ م

تقرير علمى عن: كتاب «الإسلام وإنسانية الدولة» تأليف الدكتور سعد الدين هلال



أ. د. عبدالرحمن العدوى
عضو هيئة كبار العلماء

هذا هو التقرير الثالث من تقارير اللجنة التى عهد إليها مجمع البحوث الإسلامية فحص كتاب «الإسلام وإنسانية الدولة» للأستاذ الدكتور سعد الدين هلالى.. وهى التقارير التى اعتمدها المجمع، وقرر نشرها بمجلة «الأزهر».

وكانت المجلة قد نشرت ـ فى عدد رجب ـ تقرير للأستاذ الدكتور على جمعة.. ونشرت ـ فى عدد شعبان ـ تقرير الأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى.. وها هى تنشر ـ فى هذا العدد ـ التقرير الذى كتبه الأستاذ الدكتور عبدالرحمن العدوى.. مقدمة بذلك طرفًا من جهود مجمع البحوث الإسلامية ـ بالأزهر الشريف ـ فى تقييم الأفكار التى يراها المجمع منحرفة عن جادة الصواب، وضارة بالمنهج الإسلامى القويم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير علمى عن:

كتاب «الإسلام وإنسانية الدولة» تأليف الدكتور سعد الدين هلال ٥٢٣ صفحة

بعد المقدمة يشتمل الكتاب على أربعة فصول يشتمل على مباحث متعددة تصل فى بعضها إلى عشر مباحث وخاتمة فى خلاصة فكر الكتاب.. وفهرس الموضوعات.

المقدمة:

تكلم فيها المؤلف عن المدة التى استغرقها تأليف الكتاب وأنه انتهى طبعه وإخراجه فى يوم إعلان رئيس مصر المنتخب لأول مرة بديمقراطية حقيقية.. وقد أسلم الكتاب للهيئة المصرية العامة للكتاب لتتولى نشره وجعله من مشاريعها ـ وكان من أخطر مسائل المبارزات وقضايا البرامج الانتخابية ودعاياتها ما طال الشريعة الإسلامية أو الدين الإسلامى بما يستوجب على أهل الفقه المتخصصين النهوض بتبرئتها من أن تكون سلاحًا انتخابيًا لأحد المرشحين أو ضده.

ففى الحديث الشريف «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق».. ومن متانة هذا الدين أن كل إنسان يعيش فى ظله آمنًا من الظلم آمنًا على نفسه وماله ومقدرات حياته ورزقه وأن يتعاون مع الآخرين فى تحقيق ذلك لهم ولو لم يكونوا مسلمين، فقد دفع النبى ﷺ الذين لم يتحملوا ظلم قريش إلى الهجرة للحبشة وقال: «إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد».

وهذا البحث عن العدل الإنسانى هو ما دفع ملايين المسلمين أن يستوطنوا بلادًا غير إسلامية دون أن ينقص ذلك من صفتهم الإسلامية ويزيد تأكيد هذا المعنى أن بعض المسلمين تحصلوا على الجنسية الأمريكية أو الأوروبية دون أن يخدش ذلك فى إسلامهم.. بل إن القرآن الكريم يحث أتباعه على الهجرة ليحصلوا الرزق ويجدوا الأمن فقال تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾

(النساء: ١٠٠)

وتكريم الله للإنسان بتمكينه من الاختيار بدون إكراه أو وصاية من أحد فقال تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

وقال:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وبشر النبي محمد كل مجتهد على قدر استطاعته .. فمن اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .. وقد أعددت هذا الكتاب في العلاقة بين الدولة والدين بما يرفع شبهات التعارض ويحصن من فتنة الوقيعة بينهما ويدعو الناس إلى كلمة سواء باعتبار الإسلام دينا إنسانيا يعتمد في صورته الظاهرة على قول الإنسان واختياره .. ولا أعني بإنسانية الإسلام كونه اختراعا إنسانيا منقطعا عن الوحي الثابت بالنص الشرعي - حاش لله - وقد سلكت في سبيل تلك المعالجة منهج الاستقراء للأحكام الفقهية وبخاصة أبواب المعاملات والولايات على ضوء المقاصد الشرعية معتمدا في ذلك على المراجع الأصلية للشريعة الإسلامية مع التوثيق بالإحالة إلى اسم المرجع لتوفير الأمانة العلمية التي تتقرب بها إلى الله تعالى.

وقد قسمت بحثي هذا إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالدولة ومقوماتها.

الفصل الثاني: التعريف بالدين ومقوماته.

الفصل الثالث: شبهات تعترض الدين والدولة.

الفصل الرابع: الوصايا العشر لفك تعارض الدين والدولة.

الخاتمة: وفيها خلاصة فكرة الكتاب والمبادرة الإسلامية بمشروع الدولة الإنسانية .. والله الموفق.

الفصل الأول: التعريف بالدولة ومقوماتها ووظيفتها في التاريخ الإسلامي في ثلاث مباحث:

المبحث الأول:

- أولا: تعريف الدولة: في اللغة - وفي الاصطلاح القانوني كما عرفها مجمع اللغة العربية - عدد دول العالم المستقلة ١٩٦ دولة طبقا لتقرير وزارة الخارجية الأمريكية عام ٢٠١٢م.

عدد الدول في منظمة الدول الإسلامية ٥٧ دولة إسلامية طبقا للموقع الرسمي لهيئة تنمية الاستثمار الماليزية.

- ثانيا: مقومات الدولة: مكان محدد، زمان محدد، شعب محدد الأشخاص، نظام التعايش بين الشعب.
- ثالثا: العلاقة بين المقومات: إما الغلبة على الآخرين ومنها التدافع، وإما التراحم والتكافل والتناصح.

المبحث الثاني: وظيفة الدولة:

التأمين الخارجي، والأمن الداخلي .. والتمكين العبادي والإعماري - وشرح كل منها مع الدليل الشرعي وقال في ضرورة العدل للدولة، والمتأمل في الآيات القرآنية يجد أن العدل واجب يعرفه أهل الفضل من الناس، ولا دلالة فيها على أن المسلم إن تمكن من الحكم حمل الناس على الالتزام الديني وإلا كان معارضا للنصوص المانعة من الالتزام بالإكراه في الدين، ومبتدعا لأمر لم يفعله الرسول ﷺ ومن هنا لم يكن من وظيفة الدولة الحاضنة للنفس والعرض والمال والعقل والدين أن تلزم الناس بدين معين.

المبحث الثالث: نظام الدولة وتطوره في التاريخ الإسلامي:

النظام يخدم الوظيفة وإذا كانت وظيفة الدولة هي احتضان شعبها وإقامة العدل في المقاصد الخمسة فإن نظام الدولة يجب أن يكون مرنا ومتطورا ليحقق الارتقاء الإنساني في معنى العدل الذي أوكله الله للإنسان بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

(الحديد: ٢٥)

وفي الحديث ما يتفق مع ذلك .. ولعل هذا المعنى وراء ترك الرسول الأمر من بعده لتستقر فكرة العدل والحكم بما يختاره الناس خلافة - إمارة - سلطنة - مملكة - جمهورية .. المهم أن يقوم الناس بالعدل في حق الجميع .. وقد استقر أمر الفقهاء أن الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في الحديث الصحيح - لذلك سنوجز تطور نظام الدولة في تاريخ المسلمين ونكتفي بما ورد في الموسوعة العربية العالمية لأن المقصود هو تأكيد فكرة إنسانية الحكم وعدالته .. وإذا كان حكم المسلمين قد تولاه الرجال غالبا، فإنه ثبت تولي بعض النساء للحكم: شجرة الدر في حكم مصر، وحدث ذلك في إندونيسيا وكوسوفو تولى رئاستها نساء مع الأغلبية الإسلامية، كما تولت النساء رئاسة مجلس الوزراء في كل من تركيا وباكستان وبنجلاديش وعدد المسلمين في هذه الدول له الأغلبية الساحقة، وقد ثبت تولية البعض من غير المسلمين رئاسة مجلس الوزراء في مصر بلد الأزهر ونسبة المسلمين ٩٤،٥٪ ومن هؤلاء نوبار باشا تولى رئاسة الوزراء ثلاث دورات، وبطرس باشا غالي ويوسف باشا وهبه فضلا عن الأعداد الكثيرة من الوزراء المسيحيين.

- أولا: المسلمون قبل الهجرة: وما لاقوه من اضطهاد قريش وأمر الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة ومحاولة قريش إعادة الذين هاجروا ولكنهم أخفقوا فتعاقدوا على مقاطعة التعامل مع المسلمين في صحيفة علقت في الكعبة وتم نقضها ولكن قريشا زادت في كفرها ولجأ الرسول إلى الطائف فلم يكونوا أحسن حالا من قريش .. ثم كان الإذن بالهجرة إلى المدينة المنورة.
- ثانيا: المسلمون في المدينة المنورة: ثم تتابعت الأحداث وهاجر المسلمون إلى المدينة .. والذي تم تغييره فيها فقط هو الأشخاص حيث حل المؤهلون في الإدارة محل غيرهم فظهر نجاحهم بصفة أمانتهم وإخلاصهم وتأهلهم وليس بصفة كونهم مسلمين .. وضرب أمثلة لاستبعاد الرسول غير المؤهلين من المسلمين ومن يطلب الإمارة ص٢٦.

تعقيب:

هل كانت المدينة المنورة «يثرب» لا يتولى أحد إدارة شئونها قبل هجرة المسلمين إليها .. وفيها اليهود والأوس والخزرج؟

وفي سبيل تأصيل فكرة إنسانية الدولة في الإسلام ذكر المؤلف نظام الدولة في الخلافة الراشدة وأنه بدأ ببيعة أبي بكر، وفي الدولة الأموية سعى معاوية إلى توريث الحكم لابنه يزيد وأخذ البيعة له، وبعد سقوط الدولة الأموية قامت الدولة العباسية ثم الدولة العثمانية التي نشأت باستيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية وسماها اسطنبول وصارت العاصمة حتى نقل أتاتورك العاصمة إلى أنقرة .. ثم سقطت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى.

ثم تحدث عن مصر وضمها إلى الدولة المقدونية بعد وفاة الإسكندر الأكبر ثم

صارت من نصيب البطالمة حتى جاء الغزو الروماني.. ثم جاء الفتح الإسلامي ٢٢هـ ٦٤٢م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص.. واستمرت مصر تابعة للخلافة الراشدة ثم الدولة الأموية ثم العباسية ٢٥٤هـ ٨٦٨م ثم أنشأ أحمد بن طولون الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك البحرية ثم الدولة العثمانية «سليم الأول» ٩٢٤هـ ١٥١٧م ثم جاءت الحملة الفرنسية ثم خرجت، وأصدر الخليفة العثماني مرسومًا بتعيين محمد علي باشا واليا على مصر، ثم جاء الاحتلال الإنجليزي ثم زال ومنحت مصر استقلالا مقيدًا وجاء الملك فؤاد وبعده الملك فاروق الذي أطاحت به ثورة ١٩٥٢م وأعلن النظام الجمهوري وتولى رئاسته اللواء محمد نجيب ثم جمال عبدالناصر ثم أنور السادات وبعد مقتله تولى نائبه الفريق محمد حسني مبارك حتى تخليه في ١١ فبراير ٢٠١١م إثر ثورة شعبية في ٢٥ يناير ٢٠١١م وتولى المجلس العسكري إدارة شئون البلاد حتى انتخب الرئيس محمد مرسي وتولى رئاسة الجمهورية كأول رئيس مصري منتخب في يونيه ٢٠١٢ إلى الآن.

الفصل الثاني: «التعريف بالدين ومقوماته والعلاقة بينها» ص٣٥

أولاً: تعريف الدين لغة اسم لجميع ما يتدين به واصطلاحًا عند الفقهاء له أربعة إطلاقات:

١ ـ الشرع.

٢ ـ سنة كل نبي.

٣ ـ كل ملة ولو من غير أهل الكتاب.

٤ ـ ملة الإسلام الخاتم عقيدة وشريعة.

وعند الإطلاق في العرف عند المسلمين يكون المقصود بالدين هو الإسلام الخاتم بجانبيه الإيماني والتشريعي.

وأجمع الفقهاء على إطلاق اسم الإسلام على الدين الخاتم الذي جاء به النبي محمد ﷺ، كما أجمع الفقهاء على إطلاق اسم الإسلام على ملل الأنبياء السابقين ص٣٥ واختلفوا في إطلاقه على أتباعهم على ثلاثة اتجاهات في الجملة: ص٣٦ - ٣٧:

١ ـ الاتجاه الأول: أن الإسلام يطلق على أهل الملل السابقة

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾

(الشورى: ١٣)

٢ ـ الاتجاه الثاني: أن الاسم وصف به الأنبياء السابقون فقط وشرفت هذه الأمة بأن وصفت بما وصف به الأنبياء.

٣ ـ وصف الإسلام له إطلاق عام يتناول كل شريعة بعث الله بها نبيا وإطلاق خاص على الإسلام الذي بعث به محمد بشريعة القرآن.

● ثانيا: مقومات الدين: قوام الدين يعتمد على أمرين: الإنسان لأنه المستهدف، ونصوص الوحي من الكتاب والسنة والعلاقة بينهما تقوم على مبدأين هما: الاختيار وهو حق الإنسان والمشاركة بين صاحب الدين وبين الإنسان.. ويشهد لذلك حديث: «قال الله تعالى قسمت الصلاة بين العبد وربه..» ص٣

المبحث الثاني: وظيفة الدين

١ - هداية الإنسان إلى الله - الإرشاد إلى أوجه التعامل مع الآخرين - التكاليف العبادية التي تربط العبد بربه مثل الإمامة في الصلاة والإنابة في الحج أما أصل التعامل مع الآخر «فيرجع إلى معايير إنسانية من التجارة والاستثمار والإعمار والتداوي ودفع المعتدي أو الظالم أو الغاشم ص٤٢».

وما ورد من أقوال الفقه تجعل صفة الدين معيارا للتعامل بين الناس في غير مسائل العبادات، إنما هي رؤية فقهية غير معصومة ص٤٢، ص٤٣ وص٤٤.

تعقيب:

نظم الإسلام العلاقة بين الآخرين في العبادات والمعاملات ولم يترك المعاملات للمعايير الإنسانية وحدها بل أرشد إلى الواجب فيها لتحقيق العدل ورفع الظلم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩)

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(المطففين: ١ - ٥)

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

(البقرة: ٢٧٥)

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾

(البقرة: ٢٧٦)

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧٩)

وفي دفع المعتدي والظالم:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٤)

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٩)

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾

(الإسراء: ٢٧)

أليست هذه الآيات وغيرها كثير تأمر وتنهى في المعاملات ودفع المعتدي وهي واجبة الامتثال والطاعة وليست رؤية فقهية غير معصومة!!

وفي ص٤٦ اعترف المؤلف بأن القول بأن مسائل الدين تقتصر على علاقة الإنسان بربه من الجهل والوهم عند العامة وقال في نهاية ص٤٦ وبهذا تكون العبادة المطلقة شاملة للإيمان والذكر والطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك مما يرجى أثره في الآخرة ولا ينتظر صاحبه أجره في الدنيا - كما تشمل العقود والتصرفات والجنايات التي تدخل في زمرة المعاملات التي ترتب أثرا مقصودا في الدنيا.

«ألم يناقض المؤلف نفسه ففي ص٤٢ عقود المعاملات رؤية فقهية غير معصومة وفي ص٤٦ تندرج تحت مسمى العبادة وكذلك التصرفات والجنايات التي ترتب أثرا مقصودا في الدنيا» ص٥٦ يقول: «ومراجعة الوحي كان حقا إنسانيا مكفولا ليكون بديلا عن حق الاجتهاد في النص».

وفي ص٥٧ يقول: سبب نزول آية الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

فإنه يدل على صور المراجعة «مع أن المراجعة كانت قبل نزول الآية أما بعدها فكان الامتثال».

تعقيب:

الآية تدل على الخضوع لما يقضى به الله ورسوله ولا حق للمراجعة فيه ولا خيرة في الامتثال له، وجاء المؤلف بأمثلة أخرى كلها تدل على وجوب الامتثال إذا أبرم الله ورسوله أمرا ص٥٧ وص٥٨.

ص٦٤ و٦٥ يقول: ولما كان الخطاب الشرعي له خطابات متعددة والشرع لم يقيد الإنسان بطريقة محددة لفهم الخطاب.

«كان من حق كل مسلم أن يمتثل بالدلالة التي يرتضيها.. وهذا الفهم من الأحكام يستوعب كل ما ورد من آيات الأحكام وأحاديثها».

تعقيب:

هذا في ظني الدلالة كالأمثلة التي ذكرها وليس في قطعي الدلالة مثل:

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

(البقرة: ١٩٦)

ومثل:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾

(النحل: ٢٢)

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

(الإخلاص: ١)

وليس الاجتهاد من حق كل مسلم أقول ولو كان أميا!!

في الإجماع ص٨٨ لم يرتض المؤلف تعريف الفقهاء والأصوليين واستحدث تعريفا آخر قال فيه «اتفاق مجتهدي أمة ﷺ بعد وفاته أو ذوي الشأن من الأمصار على حكم فقهي..» وصرح أنه أراد بهذا التعريف أن يجعل الإجماع شاملا لكل اتفاق بين أهله في المعاملات والعبادات.. وبهذا يشمل تعريف الإجماع اتفاق جماعة المصلين على الالتزام بوجه فقهي معين، واتفاق المتعاقدين على محل العقد، واتفاق الشركاء على محل الشركة، واتفاق رب العمل مع العامل على موضوع العمل، واتفاق فريق العمل على الإنجاز.. ص٨٩.

تعقيب:

ما ذهب إليه المؤلف ليس هو الإجماع المستند إلى دليل من الكتاب أو السنة كما أراده الفقهاء والأصوليون.

وما ذكره المؤلف من أنواع الاتفاق عمل بشرى يجوز تغييره تبعا لما يراه المتعاقدان من المصلحة.. ولا يلزم غير المتفقين عليه وقوله: أو ذوي الشأن: أدخل في الإجماع ما يتفق عليه ذوو الشأن في مصر من الأمصار حتى ولو كان مخالفا للكتاب والسنة حيث لم يقيدهم بذلك وأكد هذا الفهم بالأمثلة التي ذكرها وسماها إجماعا.

وفي صفحة ٩٠ بعد ما ذكر الأقوال في وقوع الإجماع قال: والمتأمل في الأقوال الثلاثة يقتنع باستحالة وقوع الإجماع في الأمة على وجه فقهي للفتوى في أي عصر من العصور لعموم قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(هود: ١١٨-١١٩)

مما يجعل الإجماع دليلا شكليا ونظريا إذا اعترفنا بالإجماع النسبي عند المجتمعين أو المتعاقدين من ذوي الشأن.

تعقيب:

ليس الإجماع مستحيل الوقوع وقد حدث إجماع الأمة على قتال ما نعي الزكاة، وليس الإجماع مجرد دليل شكلي أو نظري لا حقيقة له والآية الكريمة لا تدل على ذلك وإنما تتحدث في اختلاف الناس فمنهم مؤمن ومنهم كافر فالمؤمنون رحمهم الله والكافرون يملأ الله بهم جهنم.. وهذا منطوق الآية في ص٩١ ذكر المؤلف قولين في صحة الإجماع الأول وهو قول الجمهور أن الإجماع حجة شرعية والثاني أن الإجماع لو وقع لم يكن في ذاته حجة وإنما الحجة في مستنده.. وقال: لأن أهل الإجماع ليس لهم الاستقلال بإثبات الأحكام فوجب أن يكون لهم مستند، ولأنه لو انعقد من غير مستند لاقتضى إثبات شرع بعد النبي ﷺ وهو باطل. ص٩٤.

تعقيب:

المؤلف هنا يرجح القول بأن الإجماع لابد له من مستند شرعي وهو بهذا يناقض قوله إنه مقتنع باستحالة وقوع الإجماع في الأمة. ص٩٠

وفي ص٩٤ المؤلف لا يمنع إجماعا مخالفا لإجماع الصحابة ويستدل بنظام الانتخاب وتقسيم السلطات واستقلالها ولم يكن ذلك في عصر الصحابة.

تعقيب:

هذا نظام مدني وكلامنا في الإجماع المستند إلى دليل شرعي وكونه مستحدثا بعد عصر الصحابة لا يكون مخالفا لإجماعهم إذ ليس في عصرهم إجماع يخالفه.

ص١٠٦، ١٠٧ عرض المؤلف خلاصة فكر أبي الأعلى المودودي في حاكمية الله وقال: كانت مطالبات المودودي تتلخص في إخلاص الحاكمية لله وحده واتخاذ الشريعة الإسلامية قانونا أساسيا للبلاد وإبطال كل القوانين المخالفة والالتزام بتحكيم الشريعة الإسلامية في تصرفات الحكومة.

وفي ص١٠٧ تكلم عن فكر الأستاذ سيد قطب وعرض تلخيصا له بقوله: يعتمد فكر الأستاذ سيد قطب على تكفير المجتمع المعاصر لعدم تحكيم الله فيه وأنه لا حرمة لأنظمته ولا جدوى من البحث الفقهي فيه إلا بعد أسلمته من جديد.

وأن الشريعة هي صورة حاكمية الله في الأرض أو «مملكة ألوهيته».. وجاء بنصوص تزيد ذلك في ص١٠٨ وفيها: أنه في خلال القرنين الآخرين خلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وأن هذا المجتمع الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم وأن الطريق الوحيد لإقامة الإسلام من جديد هو دعوة الناس إلى نقطة البداية وهي كلمة التوحيد من جديد والقضاء على الطواغيت ثم إقامة المجتمع المسلم.

وقد ناقش المؤلف هذا الفكر في ص١٠٩ وأثار عدة تساؤلات.

ثم بدأ في ص١١٠ يذكر ستة مواطن لحاكمية الله من تفسير الأستاذ سيد قطب حتى

نتيقن من خطورة الأمر ووجوب اليقظة للدفاع عن أمن المجتمع دون داعية الفتنة المهلكة.

واستغرق نقل هذه المواطن الستة من فكر الأستاذ سيد قطب الصفحات من ١١٠ - ١٢٨ وكلها تفسير لبعض آيات من القرآن الكريم حسب فهمه وطريقته الخاصة وفكره في أنه يخاطب مجتمعا غير مسلم ويحتاج إلى دعوته للإسلام من جديد.

تعقيب:

في رأي الأستاذ سيد قطب الذي نقله المؤلف ما يأتي:-

١- تكفير المجتمع المعاصر لعدم تحكيم الله فيه.

٢- لا جدوى من البحوث الفقهية فيه إلا بعد أسلمته من جديد.

٣- في خلال القرنين الآخرين خلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام.

٤- المجتمع الذي تعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم.

٥- الطريق الوحيد لإقامة الإسلام من جديد هو دعوة الناس إلى نقطة البداية وهي كلمة التوحيد من جديد.

٦- إن المجتمع الذي لا تطبق الأحكام الشرعية إلا فيه والذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به ليس قائما الآن فعلا.

٧- إن وجود المآذن والمساجد والأدعية والشعائر تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين وتوهمهم أنه لا يزال بخير وهو يمحى من الوجود محوا.

٨- إن الجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادات الطواغيت إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة، والذي يبدؤه فرد ثم تتبعه طليعة ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض ثم يدخل الناس في دين الله أفواجا... إلخ

تعقيب:

مع خطورة هذا الفكر الذي يكفر المجتمعات الإسلامية وإن أقامت المساجد والشعائر والذي يدعو إلى قيام فرد بالدعوة إلى عبادة الله وحده ثم تتبعه طليعة تتحرك وتعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها.. إلخ كأنما يريد فردا مؤيدا من الله بالمعجزات والطليعة الصادقة المجاهدة من أجل الدعوة إلى الإسلام من جديد فقد محي محوا من المجتمع الذي صار جاهليا مع وجود المساجد والشعائر التي تخدر مشاعر الناس وتوهمهم أن الإسلام لا يزال بخير والواقع خلاف ذلك.

أقول: مع خطورة هذا الكلام وما يحمله من تكفير وتصوير لجاهلية المجتمع المسلم لم يعقب المؤلف عليه بكلمة واحدة.

المبحث الرابع - القصاص والديات

عنوان ص١٤٩

ص١٤٩ وما بعدها تكلم عن القتل العمد وشبه العمد والخطأ وذكر الآراء في وجوب القصاص من الجماعة إذا قتلوا واحداً وفي وجوبه على الرجل إذا قتل المرأة وفي وجوبه على المكره (الأسير أو المكره المباشر) [...] وجوب الدية في هذه الصور والدية والقصاص حق إنساني لولي الدم له أن يتنازل عنه أو يطلبه. وكل هذا الاختلاف حتى في أصول الدية من الإبل أو الذهب أو البقر والغنم

الثياب - يدل على إنسانية الوجوب والتحديد ونسبه: ص١٥٠.

كل ذلك يسقط التعارض بين أحكام الديات الشرعية وبين نظام الدولة الحديثة التي تجعل السيادة للشعب ص١٥١.

ص١٥٨ أجمع الفقهاء على أن الدية حق إنساني وليس واجبا شرعيا عباديا لعموم قوله تعالى:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾

(النساء: ٩٢).

ذكر اختلاف الفقهاء في الدية ومقدارها وأصنافها ومتى تكون على القاتل ومتى تكون على العاقلة.

وما هي العاقلة؟ أقوال ١ - العصبة. ٢ - أهل الديوان. واختلفوا في مقدار ما يؤخذ من كل واحد.

اجتهادات: (يرى المؤلف أن الأحكام الفقهية الاجتهادية أحكام إنسانية لأنها اجتهادات الإنسان).

ولكن لم يلتفت إلى أن هذا الاجتهاد لا بد وأن يكون مستندا إلى دليل من الكتاب أو السنة أو رأي الصحابة وإجماعهم، وأنه لم يأت من فراغ برأي إنساني مبتدئ غير مستند إلى دليل - واتجاه المؤلف إلى اعتبار الأحكام الفقهية الاجتهادية أحكاما إنسانية هذا رأيه الذي نخالفه فيه فهي أحكام شرعية مستندة إلى نصوص أدلة شرعية وإن اختلفت أفهام المجتهدين في النصوص. ومثل ذلك اختلاف القضاة في تفسير نص أو مادة في القانون أو الدستور واختلاف حكمهم بسبب هذا. فهل ينسب الحكم إلى القاضي وأنه من رأيه - أو ينسب إلى المادة في القانون أو الدستور حسب فهمه لها واجتهاده في معرفة معناها وتطبيقاتها؟!!

المبحث الخامس [الحدود الشرعية]

ص١٦٩ إن الواجب الديني على مرتكبها هو الستر على نفسه.. فلو كانت الحدود إجرامية أو عقوبات لأوجب الإسلام على مرتكبيها الإسراع بالإبلاغ عن نفسه.. إن الواجب الديني على من شاهد وقوع حد شرعي هو الاختيار بين الستر على المتهمين مع نصحهم ورفع دعوى الحسبة كما هو مذهب الحنفية والحنابلة انظر باقي ص ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧٥ - ١٨٠. قال المؤلف: واشتراط الذكورة والعدد في الشهود على الحدود دليل على أنها عبادات تطهيرية وليست عقوبات تجريدية.

ص١٨١ قال المؤلف: واشتراط أداء الحدود عن طريق النظام الحاكم دليل على أنها عبادات تطهيرية لوضعها تحت رعاية المجتمع في نظامه العام نظرًا لمساسها بالجسد الآدمي وكرامته وليست عقوبات تجريدية إذ لو كانت كذلك لما فرضت بتقديرها وضوابطها وكان النظام حرًا في وضع ما يشاء دون قيد شرعي ١٢٠.

ص١٨١ سقوط الحد بالشبهة: كلها أحاديث عن رسول الله. «أبعد ذلك يُقال إن الشرع لا دخل له بها».

ص١٨٧ يمنع التعارض من وجهة نظره بين الردة وبين نظام الدولة الحديثة الذي يفتح باب حرية الاعتقاد فأحكام الردة أحكام فقهية، وليست أحكاما شرعية أو الحكم الفقهي يقبل التحول من وجه إلى وجه بحسب المصلحة.

ص١٨٧ ثم اشتهر مصطلح الزندقة عند

الجميع في إعلان الإساءة لشعائر الإسلام أو بعضها مثل سب أحد الأنبياء أو ازدراء المصحف أو الصلاة أو الصوم ونحو ذلك سواء كان ذلك من مسلم أو غير مسلم.

... ذهب أكثر أهل العلم إلى أن موجب الزندقة القتل حدًّا من اختصاص الإمام أو السلطة الحاكمة فإن بادر إليه أحد المتطوعين كان مفتئتًا على الإمام.. ولعل ذلك دليل على سقوط التعارض بين الدولة الحديثة وبين أحكام الزندقة!! ص١٨٨ يرجع الأصل الشرعي للردة إلى النصوص الواردة عن رسول الله وهي من السنة الثابتة آحادًا.

ص١٨٨ أن معاذ بن جبل أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا فلما قدم وجد يهوديًا أسلم ثم تهود عند أبي موسى الأشعري الذي سبقه إلى اليمن. قال معاذ: لا أجلس حتى يقتل، هذا قضاء الله ورسوله ثلاث مرات فأمر به فقتل.

ص١٨٩ قال المؤلف: وقد عورض هذا الأصل بآيات القرآن الكريم التي فتحت باب حرية الاعتقاد والآيات تعرضت للردة ولم تنص على عقوبة صاحبها في الدنيا وإنما اكتفت ببيان جزائه في الآخرة.

تعقيب

هل ترك تقرير عقوبة المرتد في الدنيا يفيد حرية الاعتقاد؟ وأين تعارضها مع حديث رسول الله: «من بدل دينه فاقتلوه»، وهل كان معاذ على خطأ حين قال عن قتل المرتد هذا قضاء الله ورسوله ثلاث مرات، وهل أخطأ أبو موسى ومن معه حين وافقوه وقتلوا المرتد؟

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

ص١٩٣ ذكر ما فعله أبو بكر الصديق يوم مات رسول الله ﷺ واضطرب الناس وارتد بعضهم ومنع بعضهم الزكاة فكان ثبات أبي بكر وقوة إيمانه ثباتًا وقوة لمن سمعه وهو يقول: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وأنفذ جيش أسامة، وحارب المرتدين، ومانعي الزكاة. وأجمع المسلمون على صواب ما فعل وقال عمر: فعرفت أنه الحق.

ص١٩٥ أتى المؤلف بأدلة تحريم الردة والزندقة ولم يذكر أدلة العقوبة الدنيوية للمرتد والزنديق مثل حديث «من بدل دينه فاقتلوه» ومثل قول معاذ ص١٨٨ «لا أجلس حتى يقتل» وحروب الردة.

وذلك ليمرر قوله: لا تناقض بين الدولة المدنية في حرية العقيدة وبين الشريعة الإسلامية!!

ص١٩٥ التجريم الشرعي خطاب فقهي.. أما الجريمة الدينية العبادية فهي موجبات القصاص والحدود.. إلخ.

تعقيب

(على طريقته في أن ما ذكر له عقوبة في الدنيا فهو جريمة دينية عبادية كالقصاص والحدود وما لم يذكر له عقوبة في الدنيا فهو محرم شرعًا وهو جريمة فقهية يتغير تقديرها حسب الحاجة والمصلحة!!!).

ص١٩٦. الردة حق إنساني!!.. الدليل:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾

يعبر عن ذلك مرارًا بحرية الاعتقاد. النتيجة: من ارتد فهو حر يختار العقيدة التي

تعجبه. وينسى أدلة تحريم الردة وعقوبتها في الدنيا: ومنها: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة» حديث شريف ص٢٠٠ وساق من الأدلة ما يرى أنه يؤيد قوله!! وخالف قول الجمهور في ص١٩٨ القائلين بقتل المرتد.

ص٢٠٠ يقول: أجمع الفقهاء على أن الزندقة ليس فيها تجريم شرعي عبادي فلم يرد بشأنها جزاء محدد في الدنيا بل إن لفظ الزندقة لم يرد له ذكر في الكتاب والسنة. واختلف الفقهاء في استحداث عقوبة للزنديق بما لولي الأمر من حق في تجريم بعض المحظورات الشرعية التي ورد النهي عنها دون بيان لجزاء عقابي لمن خالفها. وذلك بحسب مقتضيات المصالح العامة. وإذا جاز ذلك لولي الأمر فما هي العقوبة المناسبة للزنديق؟ مذهبان للفقهاء انظر ٢٠٠ وما بعدها وقول الجمهور ٢٠١.

ص٢٠٣ تكلم عن الآراء في توبة المرتد والزنديق. ص٢٠٤. إمهال المرتد والزنديق ص٢٠٥ سلطة عقوبتهما.

[المبحث السابع]: الجهاد القتالي وما يتبعه من أحكام المعاهدات والجزية عنوان ص٢٠٨] بعد تعريف الجهاد القتالي وسببه. قال: وكل ذلك يظهر إنسانية الجهاد القتالي وما يترتب عليه من أحكام المعاهدات والجزية بما يرفع التعارض بينها وبين نظام الدولة الحديثة.. ص٢٠٨.

ص٢١٠ - ٢١٧ تكلم عن عقد المعاهدات وطبيعة الجزية ومن تقبل منه ومقدارها وذكر الأقوال في ذلك دون ترجيح أو تعليق.

المبحث الثامن [عنوان ٢١٨]: التحاق غير المسلمين بجيش المسلمين وشرطتهم:

ص٢١٨ صفة الإسلام في جيش المسلمين وشرطتهم. شرط فقهي كانت له ملابسات تاريخية. ولا مانع من الاستعانة بغير المسلمين في الجيش والشرطة كما في الدولة المعاصرة ولا تعارض.

ص٢١٩: أولا استعانة المسلمين بغيرهم في الجيش:

المذهب الأول: جواز الاستعانة بغير المسلمين في الأعمال القتالية ودليل ذلك..

المذهب الثاني: عدم جواز الاستعانة بغير المسلمين في الأعمال ودليل ذلك ص٢٢٠.

ص٢٢٣ ثانيًا: التعاقد النظامي في جيش المسلمين مع غيرهم: على مذهبين:

الأول: مذهب الجمهور: تحريم التعاقد النظامي بصفة الإجارة أو نحوها من التوظيف مع غير المسلمين في جيش المسلمين. وذكر أدلتهم في ذلك.

المذهب الثاني: يرى جواز التعاقد النظامي بصفة الإجارة ونحوها من التوظف والأدلة.

ص٢٢٦ ثالثا: استعانة المسلمين بغيرهم في الشرطة: أو مقاومة بغاة المسلمين، على قولين:

المذهب الأول: تحريم استخدام المسلمين لغيرهم في مقاومة البغاة ونحوهم. وهو مذهب الجمهور. وذكر الأدلة.

المذهب الثاني: يرى جواز الاستعانة بغير المسلمين في مقاومة البغاة بالضوابط العامة من المصلحة. وأمن الخيانة وهو مذهب الحنفية. ولهم أدلتهم على الجواز. والأدلة.

القياس على استعانة الرسول بصفوان واستعارة مائة درع منه في حرب هوازن. وقوله تعالي:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

(المائدة: ٢).

تعقيب

فى الآية: أول الخطاب فى الآية للمؤمنين وذلك قوله تعالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾

(المائدة: ٢)

﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ للمؤمنين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ومن الأدلة التى أعجبت المؤلف: «القياس على الاستعانة بأدوات وأسلحة غير المسلمين التى هى محل اتفاق» ص٢٢٩.

تعقيب:

قياس مع الفارق. ولكن المؤلف حريص على فك التناقض بين الأوامر الشرعية، ونظام الدولة الحديثة. (تعاد قراءة هذه الصفحات ص٢٢٧ - ٢٢٩) عند إبداء الرأي.

المبحث التاسع: شهادة غير المسلمين وإيمانهم على المسلمين [عنوان ص٢٣٠]

١- ابن تيمية وابن القيم يريان أنه لا حرج شرعًا فى شهادة غير المسلمين على المسلم. اختاره المؤلف مع ضعف الأدلة.

٢- جمهور الفقهاء يرى منع شهادة غير المسلم على المسلم مطلقًا ص٢٣٠ والأدلة.

٣- قال بعضهم بجواز شهادة غير المسلمين على المسلم فى الوصية فقط عملاً بقوله تعالي:

﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾

(المائدة: ١٠٦).

المبحث العاشر: شرب الخمر والمسكرات وامتلاكها ص٢٣٥

يقول: قد يبدو التعارض بين أحكام شرب الخمر وامتلاكها فى الفقه الإسلامى وبين مقومات الدولة المعاصرة... ولكن بالتحقيق الفقهي لأحكام شرب الخمر... يسقط هذا التعارض... إلخ ص٢٣٥.

أما طهارة الخمر: ذكر المؤلف أقوال من يقول بطهارتها. وقول الجمهور بنجاسة عين كل ما يسمى خمرًا لمعنى السكر ص٢٣٦.

تعقيب

«المؤلف طريقته أن يترك قول جمهور الأئمة ويميل إلى قول آخر لتأييد قوله بفك التناقض بين أقوال الفقه ونظام الدولة المدنية المعاصرة!! وهل تطهر إذا صارت خلا أم لا؟».

النتيجة عند المؤلف: كل هذه السعة الفقهية تسقط التعارض بين أحكام شرب الخمر والمسكرات وامتلاكها وبين مقومات الدولة المعاصرة التى تترك حرية الاختيار للناس ما لم يكن إضرارًا بالغير فيرفع هذا الضرر ويؤاخذ فاعله «. أهـ ص ٢٣٧.

المؤلف ترك مذهب الجمهور فى أن كل مشروب فيه خاصية السكر ولو بالكثير منه يسمى خمرًا مع وجود الأحاديث، «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»، «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، «الخمر من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل» ص٢٣٧.

الفصل الرابع: الوصايا العشر لفك التعارض بين الدين والدولة ص٢٥٢

ذكر المؤلف الوصايا العشرة ثم أخذ فى شرحها فى عشرة مباحث ص٢٥٥ وما بعدها.

المبحث الأول: فى فضل العلم والعلماء. والاختلاف فى إيمان المقلد على رأيين أدناهما أنه عاص لتقصيره فى طلب الدليل.

المبحث الثاني: إنسانية الإسلام ـ النص الشرعى يفهمه الإنسان ويأخذ الحكم منه وهو حكم فقهى بشرى ودليله النص من الكتاب والسنة. وفهم المجتهدين يتفاوت وتعقد الأحكام الفقهية تبعًا لذلك مما يجعل الحكم الفقهى إنسانيًا.

المبحث الثالث: التعددية الفقهية ترفع الحرج فى اختيار العامة. وهى طريق الإعمار باختيار أحدها: استفت قلبك... حديث.

المبحث الرابع: فهم منهج الصصوبة والمخطئة بما يمنعهم من فرض وصايتهم. اختلف الصحابة هل كل مجتهد مصيب. أو المصيب واحد والمخطئ آثم. أو المصيب واحد والمخطئ غير آثم بل هو مأجور كما فى الحديث؟ وهذا الاختلاف يمنع دعوى البعض أنه على حق دون غيره، ويمنع تكفير أو تأثيم من خالفه ـ حتى لا يؤله أحد نفسه ويكفر من خالفه.

المبحث الخامس: إدراك المقصود بحاكمية الله بما لا يتعارض مع حكم الله ص٢٦١: ليس لأحد أن يدعى فى المسائل الاجتهادية أن قوله هو حكم الله. فحكم الله يعلمه سبحانه وليس لأحد أن يجزم بأنه يعلمه وبخاصة فى الأعمال العادية أما أصول العقيدة وحدانية الله ورسالة محمد والعدل وإقامته والفرائض فإن حكم الله فيها ظاهر وقد نهى الرسول قواد جيشه أن ينزلوا المحاربين على حكم الله فإنهم لا يدرون حكم الله. وإنما ينزلونهم على حكم أنفسهم وصحابتهم. ليس لأحد أن يقهر أحدا على أداء عبادة فرضها الله فالعبادة يفسدها القهر وعدم الاختيار:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

والأحكام العبادية منها ما يمكن تعميمه بقانون أحوال شخصية كالزواج أو الطلاق والميراث وإقامة الحدود ومنها ما لا يخضع للتعميم سعة للناس ودفعًا للحرج وعدم تعدى ضرره إلى الغير كالوضوء والمسح على الجوارب وفطر المسافر ص٢٧٨.

المبحث السادس: تهذيب الشعارات التى تعتم على إنسانية الإسلام. مثل قاعدة الاجتهاد مع النص حيث رأى أن معناه: لا قياس مع وجود النص. وذكر أمثلة الاجتهاد فى مسح الرأس فى الوضوء مع وجود النص ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ والاجتهاد فى عدد الأقراء للمطلقات هل ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار. وبذلك يهدّ قاعدة «الاجتهاد مع النص».

تعقيب:

مراد الأصوليين فى هذه القاعدة: أنه لا اجتهاد مع نص قطعى الدلالة بما لا يسمح بالاجتهاد ومثلوا لذلك بقوله تعالي:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾

(البقرة: ١٩٦)

«فلا اجتهاد فى عدد الأيام ولا فى موقعها فى الحج».

وما ذكره من مسح الرأس وعدد الأقراء ـ الدليل الوارد ليس نصًا قطعى الدلالة فاجتهد المجتهدون فى معرفة المراد منه. والله أعلم.

ثم اقترح المؤلف من وجهة نظره شعار «الإسلام منهج حياة» و«الإسلام هو الحل»، «الإسلام دين ودولة» ص٢٨٧ مع حسن الظن بأصحابه بأن الإسلام بعقيدته وأحكامه وتعاليمه كفيل بأن يؤهل المسلم لعمارة الحياة والنهوض بها حسب اختصاصه وحاجة عصره دون المستقبل الذى لا يعلمه سوى الله.

المبحث السابع: إلغاء العصبية وتحكيم المبادئ الموضوعية الإسلامية ص٢٨٩

ذكر أدلة النهى عن العصبية لذات المسلم أو النسب أو الشخص. وإنما العصبية لدين الإسلام وأحكامه وما أمر الله به ورسوله. وهذا يعنى عدم التمييز بين المسلم وغير المسلم إذا كان عادلاً «هجرة المسلمين إلى الحبشة» لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد «حديث». وبذلك يجب تفسير قاعدة «الولاء والبراء» إلى معنى موضوعى بما يطلبه الإسلام وليس إلى شخص أو جماعة. فالمسلم يوالى العدل وفعل الخير ولو كان من غير مسلم.

وتقبل شهادة العدل غير المسلم على المسلم. فالعبرة بموضوعية القبول والرفض وليس لشخصية من نواليه ومن تبرأ منه.

المبحث الثامن: تصحيح علاقة الإنسان بالدين ومنع المغالين ص٢٩٤

الدين لخدمة الإنسان. ولم يخلق الإنسان من أجل خدمة الدين. من أجل ذلك كانت أحكام الدين مبنية على اليسر

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾

والآيات والأحاديث فى ذلك كثيرة ص٢٩٤، ٢٩٥.

المبحث التاسع: الرد على التوجيه السياسى للدين ص٢٩٦.

استعمال الدين لخدمة فصيل سياسى يستوجب المواجهة بالمثل بتوظيف الدين للرد عليه. لأن الدين حق الجميع ـ والدين ازدوجت دلالاته لتكريم العقل الإنسانى وعدم سيطرة البعض عليه ص٢٩٧. وبهذا يتأكد لكل بصير بالدين أن أحكامه بيد الإنسان المؤتمن عليها بصفته الإيمانية التى لا يزايد عليه أحد ص٢٩٨.

المبحث العاشر: قصر التكاليف الشرعية على الأشخاص الطبيعيين، ولا تكليف للأشخاص الاعتبارية ص٣٠٢.

- الخاتمة فى خلاصة فكرة الكاتب.

والمبادرة الإسلامية بمشروع الدولة الإنسانية ص٣٠٥

العلماء لهم الحرية فى الاجتهاد وقد أمن الله ظهرهم فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر أما العاجزون فقد وسع الله عليهم بسؤال أهل الذكر وليس بالرجوع إلى النصوص

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

والفقيه يقول برؤيته الاجتهادية ويرفع يده عن الناس وجوبًا.... وكما كان الفقيه حرًا فى الاجتهاد فإن عامة المسلمين أحرار، فالاختيار بين «أقوال المجتهدين حتى لا يكونوا عبيدًا لمن يخيفهم إلا باتباعه» ص٣٠٧.

الطبيعة الإنسانية للإسلام: ص٣٠٨:

١ - أحكام الغيب التى لا تعرف إلا بالوحى وهى محل الإيمان بأصل الدين تقوم على اختيار القلب وتصديقه وإذعانه دون سلطة من بشر «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون».

٢ - أحكام الشهادة هذه الأحكام التى تتم بإرادة منفردة كالتصرفات الشخصية التى تتم بإرادة منفردة كالصلاة والصوم أو بإرادتين كالتعاملات المادية. وكلها بالاختيار ص٣٠٩ وتشمل جميع العقود. من ذلك نجد أن الإسلام فى أحكامه فى عالم الغيب والشهادة يحترم الطبيعة الإنسانية الاختيارية ليجعل للإنسان سلطانًا على نفسه دون تسلط غيره عليه ص٣١٠.

السلطة الدينية عدوان على الدين والإنسانية: أجمع الفقهاء على أنه ما من مسألة فقهية إلا وتعتبرها الأحكام التكليفية المختلفة بحسب اختلاف الأوضاع الملابسة فقد يكون الشيء واجبًا وقد يكون مندوبًا أو حرامًا ص٣١١.

ومن ارتكب حدًا فله أن يستره ويتوب ولا يحدث أحدًا به بنص الحديث وفيه «فليستتر بستر الله عليه فإن من يبدى لنا صفحته نقيم عليه كتاب الله» أو كما قال. وبعد الاعتراف يمكنه الرجوع فيه فيحدث شبهة تمنع إقامة الحد وإن ثبت بالشهادة يمكن صاحب الذنب إبداء شبهة تدرأ الحد عنه «ادرءوا الحدود بالشبهات» وهذا لا يناسب وضع الحدود فى العقوبات صونًا لهيبة القضاء وأحكامه. فإن المحدود من حقه أن يدرأ الحد عن نفسه بعد صدور الحكم عليه.. ولهذا ناسب أن توضع الحدود فى باب الأحوال الشخصية وأن يضبط نظام المجتمع بعقوبات تعزيرية ص٣١٣.

دعوة إلى اختيار ما هو أصلح للناس وأنفع فى حياتهم ـ من أوجه الفقه المختلفة مع جواز التغيير إلى وجه آخر إذا دعت أحوال الناس إلى التغيير لتحقيق مصلحتهم. وبذلك يقول المؤلف ما يأتي:

ص٣١٤: وبذلك يعيش الناس فى كنف الفقه بأوجهه المتعددة ويحتكمون فى قضائهم لبعض تلك الأوجه بحسب ما يقع عليه الاختيار فى القانون ويجددون قوانينهم دائمًا بالأوجه الفقهية التى تناسب متغيرات أوضاعهم وأزمنتهم. والفقه عمل بشرى بإذن شرعى وفق ضوابط محكمة يؤكد إنسانية الإسلام. ص٣١٥ دعوة لترك وصف الدولة بالإسلامية لإزالة الحائل فى التقارب مع الدول الأخرى.

الرأي

فيما ذكرنا يعطى صورة واضحة لما يدعو إليه الأستاذ صاحب الكتاب من فك الارتباط بين الإسلام وإنسانية الإنسان وحاجته وهو فى سبيل ذلك تجاوز بعض النصوص مما استوجب التعقيب عليه فى موضعه وغالبًا ما يترك رأى الجمهور وينحاز إلى غيره مما يخدم اتجاهه.

الأخلاق العالمية: مداها وحدودها

د. طه عبدالرحمن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس - المغرب

يقتضي منا النظر في مفهوم «الأخلاق العالمية» - تحليلا وتقويما - أن نمهد له ببيانين مختصرين: أحدهما مفهومي والآخر تاريخي.

ا- البيان المفهومي: يتعلق هذا البيان بالفرق بين مفهوم «الأخلاق العالمية»(١) ومفهوم آخر يدل، هو أيضا، على تناول الأخلاق لأفراد الإنسانية جميعا، وهو: «الأخلاق الكلية»(٢).

فالمقصود بـ«الأخلاق الكلية»، هي الأخلاق التي تولى المفكرون والفلاسفة وضع أصولها وترتيب قواعدها على أساس أنها أخلاق عقلية وموضوعية، بحيث يتعين على كل فرد إنساني الأخذ بها متى أراد الاستقامة في سلوكه أو طلب السعادة في حياته. ولنضرب عليها مثالين هما: «أخلاق الواجب التي أنشأها الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط»(٣) وأخلاق المنفعة التي وضع أركانها الفيلسوف والقانوني الإنجليزي «جيريمي بنتهام»(٤)، ووسعها خلفه الفيلسوف الإنجليزي «جون استورات مل»(٥).

وبهذا، تتصف «الأخلاق الكلية» بصفات ثلاث أساس هي: أولا، أنها أخلاق نظرية في طبيعتها، إذ يتم استنباطها بالنظر العقلي المجرد من مبادئ مسلم بها، وثانيا، أنها أخلاق أحادية في مصدرها، إذ يستقل بها الفيلسوف، حيث إنه لا يتقيد في وضعها بحصول الاتفاق عليها مع غيره، وثالثا، أنها أخلاق علمانية في توجهها، إذ إن واضعها يجتنب أن يبني أحكامه ونتائجه على مسلمات مأخوذة من الدين أخذا مباشرا أو ظاهرا.

أما «الأخلاق العالمية»، فليست بهذه الأوصاف قط، بل إنها تتصف بأضدادها، فهي: أولا أخلاق ذات طبيعة عملية، إذ تستقرأ من التجربة الأخلاقية الحية للإنسان، وثانيا أخلاق ذات مصادر متعددة، حيث تشترك أطراف كثيرة في تحديد قواعدها وأحكامها، وثالثا: أخلاق ذات توجّه ديني، إذ إنها تستقي قيمها ومبادئها من الأديان المختلفة.

ب) البيان التاريخي: يتعلق هذا البيان بالظروف التاريخية التي تبلور فيها مفهوم «الأخلاق العالمية».

لئن تأخر وضع مصطلح «الأخلاق العالمية» إلى سنة ١٩٩٠م(٦)، فقد ظهرت بوادر التفكير في «أخلاق تجمع أمم العالم» في إطار النشاط الحواري الذي مارسته مختلف التيارات الدينية منذ قرن ونيف، أي منذ أن تم عقد المؤتمر العالمي الأول للأديان في «شيكاغو» سنة ١٨٩٣م(٧)، والذي عرف فيما بعد باسم برلمان أديان العالم، وذلك من أجل الاحتفال بالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققته الحداثة والذي اعتبرت «الأخوة الدينية» ثمرة من ثماره.

وقد تجلت مظاهر هذا النشاط في إقامة حوارات دينية ذات مواضيع ومستويات وأهداف مختلفة في شتى بلدان العالم. كما تجلت في إنشاء مؤسسات ومنظمات متعددة، منها مؤسسة «المجمع العالمي للكنائس»(٨) ومنظمة «المؤتمر العالمي للدين والسلام»(٩) ومع وجود هذه الحركة الحوارية النشيطة في مختلف الأوساط الدينية، لم يتم عقد المؤتمر الثاني لـ«برلمان أديان العالم» إلا بعد مضي قرن من الزمن على تاريخ انعقاده لأول مرة، وذلك في سنة ١٩٩٣م بنفس المدينة الأمريكية؛ احتفاء بذكراه المئوية. لكن، في مقابل ذلك، لم تمض سنوات ست حتى انعقد المؤتمر الثالث لهذا البرلمان بمدينة «كاب تاون» في جنوب أفريقيا(١٠) - أي في سنة ١٩٩٩م، ثم انعقد مؤتمره الرابع بمدينة برشلونة في إسبانيا سنة ٢٠٠٤م، ومؤتمره الخامس بمدينة «ميلبورن»(١١) باستراليا سنة ٢٠٠٩م.

وتفرد المؤتمر الثاني لـ«برلمان أديان العالم» بإصدار بيان متميز تحت اسم «إعلان من أجل أخلاق عالمية»(١٢)، وكان منظمو هذا المؤتمر الثاني قد عهدوا إلى عالم اللاهوت الكاثوليكي السويسري الأصل «هانز كونغ»(١٣) أن يضع مسودة هذا الإعلان لسابق اشتغاله بنفس الموضوع ونشره، قبل انعقاد هذا المؤتمر بسنتين، كتابا بعنوان: «مشروع الأخلاق العالمية»

(١) المقابل الإنجليزي Global Ethic، والمقابل الفرنسي Ethique mondiale، والمقابل الألماني Weltethos
(٢) المقابل الإنجليزي Universal Ethic، والمقابل الفرنسي Ethique universelle، والمقابل الألماني Allgemeine Ethik
(٣) Immanuel KANT
(٤) Jeremy BENTHAM
(٥) John Stuart MILL

(٦) ساهم تطور العولمة Globalization، الذي دخل فيه العالم في إيجاد الحاجة إلى مصطلح Global Ethic
(٧) انعقد هذا المؤتمر تحت اسم أول هو «برلمان العالم للأديان».
(٨) World Council of churches
(٩) World Conference on religion and peace (WCRP)
(١٠) دعا المؤتمر الذي انعقد في Cap Town، مؤسسات المجتمع الفاعلة إلى الالتزام بالنتائج الأخلاقية المشتركة التي توصل إليها المؤتمر الثاني والعمل على تطبيقها في الواقع
(١١) Melbourne
(١٢) Declaration toward a Global Ethic
(١٣) Hans KUNG

سنة ١٩٩٠م[١٤]. وبعد أن تبنى هذا المؤتمر الإعلان المذكور، ضاعف هذا العالم جهوده، فتوالت محاضراته ومقالاته ومصنفاته، موضحة معالم مشروعه وأهدافه ومبينة فوائد تطبيقه وآفاقه، منها كتبه الآتية التي ألف بعضها باشتراك مع غيره:

بيان من أجل الأخلاق العالمية (١٩٩٣م)[١٥]

ونعم للأخلاق العالمية (١٩٩٥م)[١٦]

والأخلاق العالمية للسياسة والاقتصاد العالميين (١٩٩٧م)[١٧]

والعلم والأخلاق العالمية (١٩٩٨م)[١٨].

ولم الأخلاق العالمية؟: الدين والأخلاق في زمن العولمة (٢٠٠٢م)[١٩].

كما أنه تولى رئاسة «مؤسسة الأخلاق العالمية» التي تم إنشاؤها في «توبنجن» بألمانيا سنة ١٩٩٥م[٢٠] والتي اتخذت من الإعلان السالف الذكر، المشروع الأساس لعملها، وجعلت من أهدافها تطوير الأبحاث وتنظيم اللقاءات وتوفير التكوين في مجال العلاقات بين الثقافات والديانات.

وقد كان لـ«الإعلان» الذي تولى «كونغ» تحريره، أثره البالغ في تشجيع التوجه إلى تأسيس أخلاقيات عالمية، بحيث توالى صدور تقريرات ونداءات تدخل في هذا المضمار، نذكر منها، على وجه الخصوص، ما يلي:

- «جوارنا العولمي»[٢١] سنة ١٩٩٥م في التقرير المطور لـ«لجنة الحكامة العولمية» التي عينتها هيئة الأمم المتحدة، والذي خصص الفصل الثاني منه لأخلاق العولمة.

- «تنوعنا الخلاق»[٢٢] سنة ١٩٩٥م في التقرير المطول لـ«اللجنة العالمية للثقافة والتنمية» التي عينتها هيئة الأمم المتحدة والمنشور بتعاون بين هذه اللجنة ومنظمة اليونسكو.

- «الإعلان الكلي للأخلاق العالمية» سنة ١٩٩٦م الذي وضعه عالم اللاهوت الأمريكي «ليونارد سويدلر»[٢٣].

- «الإعلان الكلي لمسئوليات الإنسان» سنة ١٩٩٧م الذي وضعه «مجلس العمل المشترك»[٢٤] الذي يضم رؤساء الدول ورؤساء الحكومات السابقين، وتم عرضه على رؤساء الدول والحكومات والأمم المتحدة واليونسكو.

- «مشروع الأخلاق العالمية لليونسكو» الذي تولى وضعه «قسم الفلسفة والأخلاق باليونسكو»، والذي نظم من أجله ندوتين عالميتين كبيرتين، إحداهما بباريس بعنوان: «مقدمات من أجل أخلاق عالمية» سنة ١٩٩٧م، والثانية بـ«نابولي» في السنة نفسها، وقد استدعى لها كبار فلاسفة الأخلاق في العالم.

- «الإعلان عن حقوق وواجبات الإنسان» سنة ١٩٩٩م الذي صدر عن البرلمان الثالث لأديان العالم المنعقد في «كيب تاون»، مجددًا التأكيد على ما توصل إليه المؤتمر الثاني من نتائج وداعيًا المؤسسات المؤثرة إلى ترجمتها على أرض الواقع.

والذي يعنينا هنا بالأساس، هو النظر في الإعلان الذي أصدره المؤتمر الثاني لأديان العالم، أي الإعلان من أجل أخلاق عالمية[٢٥]، والذي حظي بتوقيع عددا كبير من الشخصيات المرموقة التي تنتمي إلى مختلف الأديان منها بعض المسلمين، من أشهرهم العلامة الباكستاني الأصل محمد حميد الله، والمفكر الإيراني الأصل السيد حسين نصر.

تحليل مضمون «إعلان الأخلاق العالمية»

إذا تمهد هذا، فلنأت إلى تحليل مضمون هذا الإعلان الأول، فقد أوردت مقدمته السبب الأساس الذي دعا إلى إصداره، وهو أن العالم يواجه أزمات عدة: أزمة اقتصادية متمثلة في الفقر والمجاعة والبطالة والاستغلال والفروق الفاحشة بين الفقراء والأغنياء والديون الهائلة للدول الفقيرة، وأزمة بيئة متمثلة في انخرام الأنظمة البيئية بسبب الاستنزاف الجنوني للموارد الطبيعية للحياة، وأزمة سياسية متمثلة في تزايد النزاعات العقدية بين أهل الإيمان من مختلف الأديان واشتداد التوترات والاستقطابات بين المتدينين والعلمانيين، فضلا عن الصراعات العنيفة على النفوذ، وأزمة اجتماعية متمثلة في الاستخفاف بالعدالة وانتشار الفوضى وانهيار الأسرة وتهميش المرأة.

ثم يمضي هذا الإعلان إلى بناء مبادئه الأخلاقية على ركائز هي بمنزلة ضرورات أربع:

- ١- وجوب الأخلاق العالمية:

المراد هو أنه لا يمكن بناء نظام عالمي جديد يخرجنا من هذه الأزمة المتعددة بدون أخلاق تأخذ بها كل الأمم، ولما كانت الإنسانية في هذا العالم بمثابة الأسرة الواحدة، صار الجميع يتحمل المسئولية في بناء هذا النظام العالمي الجديد، وتقوم مسئولية المتدينين، على الخصوص، في أن يتفقوا على مجموعة من القيم الملزمة والمعايير الثابتة والسلوكيات الأساس، بحيث يكون هذا الاتفاق بمنزلة الإجماع الأدنى الضروري لقيام «أخلاق عالمية» تتأسس عليها حقوق الإنسان كما جاءت في إعلان الأمم المتحدة.

مطلب المعاملة الإنسانية:

ينبغي أن يعامل كل إنسان معاملة إنسانية، والمقصود بذلك حفظ كرامته، فلا يحرم من ثابت حقوقه، ولا ينزل منزلة الوسيلة لغيره،

(١٤) PROJEKT WELTETHOS. PIPER1990

(١٥) Erklatrung zum Weltethos. Piper 1993

(١٦) Ja zum Weltethos. Piper 1995

(١٧) Weltethos fur Weltpolitik und Weltwirtshaft. Piper 1997

(١٨) Wissenschaft und Weltethos. Piper 1998

(١٩) Wozu Weltethos? Religion und Ethik in Zeiten der Globalisierung

(٢٠) Global Ethic Foundation: Stifung Weltethos: انظر موقع هذه المؤسسة: http://www.weltethos.org

(٢١) Our Global Neighbourhood

(٢٢) Our Creative Diversity

(٢٣) Leonard swidler. A Universal Declaration of Global Ethic.

(٢٤) Interction Council: Universal Declaration to Human Responsabilities

(٢٥) انظر النص الكامل لهذا الإعلان في الموقع: http://www.weltethos.org

ولا تقدر ذاته على أساس العرق أو الجنس أو السن أو اللون أو الدين أو اللغة أو الموطن أو المجتمع، ويتصل بهذا المطلب مبدأ أساس أخذت به الأديان عرف باسم «القاعدة الذهبية»، وصيغته السالبة هي: «لا تعامل غيرك بما لا تريد أن تعامل به»، وصيغته الموجبة هي: «عامل غيرك بما تريد أن تعامل به»، والراجح أنه لا دين من الأديان الكبرى يخلو من صورة أو صور خاصة لهذه القاعدة، ونجد لها صورًا متعددة في الإسلام تفردت عن غيرها بجعل إيمان المرء نفسه موقوفًا على هذه المعاملة، نذكر منها الأحاديث الشريفة التي وردت في شعب الإيمان: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢٦)، وأيضًا «أحب للناس ما تحب لنفسك، تكن مسلمًا»(٢٧) وواضح أن هذه القاعدة تقضي باجتناب كل أشكال الظلم التي تنتج عن الأثرة والأنانية في مختلف مجالات الحياة.

توجيهات أربعة معتبرة

هذه التوجيهات متفرعة على مطلب المعاملة الإنسانية، وواردة، هي كذلك، في صورتين اثنتين: سالبة وموجبة، وهي كالتالي:

أ) الالتزام بثقافة المسالمة واحترام الحياة، صيغة هذا الالتزام السالبة هي: «لا تقتل»، وصيغته الموجبة هي: «احترم الحياة»، يقضي هذا الالتزام بحل الخلافات بالطريق السلمي في إطار من العدل، مع السعي إلى تربية النشء على هذه الروح المسالمة، إذ لا بقاء للإنسانية من غير سلام عالمي، كما يقضي باجتناب تعذيب الإنسان، جسمانيًا أو نفسانيًا، وبالأولى قتله ما لم يضر بحقوق غيره، ويتطلب هذا الالتزام، من جهة أخرى، العناية بالأسباب الطبيعية للحياة التي يضمها كوكب الأرض، نظرًا لأن الموجودات في هذا الكون متعلق بعضها ببعض، ولأن الصلة المطلوبة بالطبيعة ليست هي الفعل فيها، وإنما التفاعل معها.

– ب- الالتزام بثقافة التضامن والنظام الاقتصادي العادل:

صيغة هذا الالتزام السالبة هي: «لا تسرق»، وصيغته الموجبة هي: «كن مستقيمًا وأمينًا»، ويقوم هذا الالتزام الثاني في اعتبار الملكية الخاصة حقا يستلزم أداء واجبات إزاء الآخرين بحيث يصير تدبير المصالح المادية خاصة مراعيًا لحاجات المجتمع، كما يقوم في تنشئة الجيل الصاعد على أخلاق الرحمة والرأفة والعناية بالضعفاء والفقراء، بل ينبغي، بموجب هذا الالتزام، تجاوز تعاطي التكافل المتمثل في الإعانات الظرفية للأفراد المحتاجين وفي مشاريع المساعدات لبعض المجتمعات الفقيرة، إلى مستوى إعادة بناء مؤسسات الاقتصاد العالمي بما يحد من الاستهلاك الجامح والربح الفاحش، وينقل

(٢٦) يروي الشيعة أحاديث وأخبارا كثيرة في هذا الباب. فعن الصادق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه». وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فيما كتبه لمحمد ابن أبي بكر: «أحب لعامة رعيتك ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، فإن ذلك أوجب للحجة وأصلح للرعية».

(٢٧) السيوطي، الجامع الصغير وأيضا في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحب للمسلمين والمؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك تكن مؤمنا، وجاور من جاورت من الناس بإحسان تكن مسلما، وإياك وكثرة الضحك، فإن في كثرة الضحك فساد القلب.

السلطة الاقتصادية من التنافس على السيطرة إلى خدمة الإنسانية، تحقيقًا للعدل بين الأمم، فلا سلام عالمي بغير عدالة عالمية.

– ج- الالتزام بثقافة التسامح وبالصدق في الحياة، صيغة هذا الالتزام السالبة هي:

«لا تكذب»، وصيغته الموجبة هي: «كن في قولك وفعلك صادقًا»، والمراد بهذا الالتزام الثالث، هو أن يترك ممثلو الديانات تحقير العقائد المخالفة وتشويه مقاصدها واختلاق أسباب الحقد والتعصب والعداء ضد معتنقيها، كما أن واجب غيرهم من رجال الإعلام وأهل الفن والكتاب والعلماء ورجال السياسة والحكام، أن يجتنبوا كل أشكال التحريف والتضليل والنفاق والاحتيال والانتهاز والكذب فيما يقولون ويكتبون، هذا مع العمل على تربية الناشئة على الصدق في الفكر والقول والفعل، إذ لا عدالة عالمية بغير تصادق في الأقوال والأفعال بين بني البشر.

– د- الالتزام بثقافة المساواة في الحقوق والشراكة بين الجنسين:

صيغة هذا الالتزام السالبة هي: «لا تزن»، وصيغته الموجبة هي: «احترموا أنفسكم وليحب بعضكم بعضا»، والمقصود بهذا الالتزام الأخير اجتناب أشكال الاستغلال الجنسي والتمييز النوعي والسيطرة الأبوية التي تتعرض لها النساء، بالغات كن أو قاصرات هذا، مع توعية النشء بأن العلاقة الجنسية ليست مناسبة لتدمير الآخر، وإنما للاشتراك معه في أسباب الخلق وإقامة الحياة متى تمت ممارستها في إطار من المسئولية، متمثلة أساسًا في الاعتبار المتبادل والحب والثقة، فلا إنسانية حقة بغير حياة مشتركة تحترم الشريكين.

– الحاجة إلى تحويل الضمائر:

لا يمكن تغيير وجه هذه الأرض إلا إذا تغيرت قلوب الأفراد وضمائر الجماعات نفسها، لذلك، يلزم كل فرد وكل جماعة الشعور بمسئولياتهما في هذا التغيير وبواجبهما في ايقاظ الطاقات الروحية الكامنة في النفوس بالتفكر أو التأمل أو الصلاة(٢٨) أو الفكر الوضعي.

وفي الختام، يقر الإعلان بصعوبة حصول إجماع كلي في بعض المسائل الخاصة بمختلف المجالات مثل «أخلاق الحياة» و«أخلاق الجنس» و«أخلاق العلم» و«أخلاق الاقتصاد والسياسة» و«أخلاق الإعلام»، لكنه يرى أنه بالإمكان الاستفادة من روح المبادئ التي جاءت في الإعلان لاكتشاف حلول مناسبة لها، كما أنه يحث على أن يتولى أصحاب المهن وضع مواثيق أخلاقية خاصة بهم، تتضمن توجيهات ملموسة للنظر في المشاكل العملية التي تواجههم في ميادينهم، وأخيرًا يدعو جماعات المؤمنين، هي الأخرى، أن تتولى صياغة أخلاقها الخاصة، موضحة آراءها في المسائل المصيرية مثل «الحياة» و«الموت» و«الألم» و«الفرح» و«الإخلاص» و«الرحمة».

«يتبع»

(٢٨) يرد لفظ «الصلاة» هنا بمعنى «الدعاء»، المقابل الألماني Gebet، لا بمعناه الاصطلاحي عند المسلمين

من عيون التراث

التعريف بالمؤلف:

ولد أبو العباس أحمد بن العريف بمدينة ألمرية يوم الأحد بعد طلوع فجر الثاني من جمادى الأولى سنة (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) نشأ في بيئة متواضعة أقرب إلى الفاقة والعوز.

واجتهد في طلب العلم، تردد على شيوخ ألمرية ومرسية وقرطبة ينهل من علمهم فكان من شيوخه أبو الحسن البرجي، وأبو محمد عبدالقادر القروي المعروف بابن الحناط وغيرهما. لم يقتصر نشاط ابن العريف العلمي ببلدة ألمرية، فقد أقرأ بسرقسطة وبلنسية، وكان فقيهًا وراويًا مُجرحاً ومجودًا بارعًا. ولابن العريف أسلوب رشيق رقيق وشعر يدل على حساسيته المرهفة، وموهبته العفوية وشعوره الصادق. من كتبه «مطالع الأنوار»، و«منابع الأسرار» مات مسمومًا في صفر (٥٣٦هـ/ ١١٤١م).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في «٢٦٣» صفحة من القطع المتوسط مشتملة على الفهارس. يبدأ بمقدمة وتعريف بعصر ابن العريف: مولده وشيوخه والمناصب التي شغلها، عائلته، صفاته، وشعره، وموقفه من تفضيل الجهاد على الحج، بالإضافة إلى الإشارة إلى تلاميذه وعلاقته بالمرابطين ونكبته.

مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة

تأليف: ابن العريف أبو العباس
جمعه: أبو بكر عتيق بن مؤمن
دراسة وتحقيق: أ.د. عصمت عبداللطيف دندش
بيروت: دار الغرب الإسلامي (١٩٩٣م/ ط١)

يبدأ الكتاب بتصوف ابن العريف ومنهجه، وسنده في التصوف. ثم جاء على ذكر طريقته في تعليم المريد والمتصوف. وهنا جاءت الإشارة إلى أهمية القدوة Model (ص٥٨) في التعلم، وأن الشيخ لازم وضروري لكل سالك لهذا الطريق، وأن الشيخ القدوة يبين للسالك الطريق ويعرفه بما يقرأ.

ويبدأ بعد ذلك في وصف المخطوط وما جاء فيه من أدعية ابن العريف التي جمعها ابن مؤمن وسماها «مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة»، فجاء أول ما جاء بمناجاته ودعائه الذي يتقرب به إلى الله، ثم أتى بما عن كلامه رضي الله عنه، وأشار في فاصل إلى أن الإيمان يرسخ بالتكرار والاستقرار، وأن رسوخ العادة Habit يحدث من خلال التكرار Frequency (ص٦٠)، وهي إشارة لأحد مبادىء التعلم. ثم أتى في فاصل آخر إلى الإخلاص وأهميته لتحل على الإنسان البركة.

وعرض لفاصل ثالث حول أن أهل الجنة، وهم المؤمنون يلازمهم البلاء، وأن المسلم غالبًا ما تصيبه المشاق Stresses (ص٨٨)، وبين لنا أحد الأساليب التي يمكن بها تحمل المشقة والتخلص منها، ألا وهي أسلوب المساندة Supporting (ص٨٩) وذلك باللجوء إلى الله. فحينئذ تثبت القلوب وينهزم الخوف.

ثم عرض رسائله إلى أئمة وشيوخ الصوفية. وبدأ برسائله إلى الفقيه الفاضل أبي الحكم كبيري، ثم أشار إلى رسائله إلى أبي الحسن بن غالب -رضي الله عنهما- ورد على أبي الحسن في هذه الرسائل أخباره المختلفة وما مر بحياته من أحداث.

ثم عرض لرسائله إلى أبي عبدالله محمد بن يوسف الآبار، وذكر في أولى رسائله إلى الخصائص التي يجب أن يتحلى بها معلم الصبيان، وأن عليه أن يشدد عليهم ليتعلموا.

ثم كانت الرسالة التي رد بها أبو عبدالله على ابن العريف. ثم جاء رد أبي العباس بن العريف على هذه الرسالة.

بعدها تناول الرسائل التي بعثها إلى جملة من الإخوان، وكتب فيها توجيهًا لهم ليعملوا به في حياتهم، وأوصى بأمور ليلزموها ومنها صلاة الجمعة وصلاة الجماعة والصيام.

ثم جاءت رسائله إلى جملة الإخوان في قرطبة، ليطمئن عليهم ويطمئنهم على أخبار من يهمونهم، وأوصاهم بالكيفية التي يدعون الناس بها بالرفق والهوادة. ثم كانت رسائله إلى أبي الحسن سيد المالقي.

ثم كتب إلى الفقيه الكاتب أبي محمد بن الحاج اللورقي، كما كتب إلى أبي علي منصور. وشكا في رسالته إلى الأستاذ أبي خالد بن عبدالجبار القرشي ضيق صدره وهمه، وسرد له أسباب ذلك.

وكتب إلى الفقيه أبي بكر عياش ثم أبي محمد عبدالغفور. وكتب إلى أبي الحسن عامر بن الحسن وأشار فيها إلى كيفية تدريب نفوسنا على أسباب التوبة والإيمان وشكر كرم الله عز وجل. كما أشار إلى كتابه لأبي القاسم بن قسي.

وأشار في رسائله إلى أبي الوليد بن المنذر إلى أن النفس تطالب بالاستقواء والاستقامة، وما زادها هذا الطلب إلى غلوًا وفسادًا.

أما آخر رسائله فكانت إلى أبي بكر بن مؤمن وشرح فيها اشتياقه وأن به رغبة في القدوم عليه.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- القدرة Model.
- العادة Habit.
- التكرار Frequency.
- المشاق Stresses.
- المساندة Supporting.

القائم بالعرض

د. نشوة عبدالتواب حسين

دور الإسلام فى تطوير الفكر الحضارى لدى المسلمين



أ. د. محمود حمدى زقزوق

لعله يكون من نافلة القول - ونحن فى رحاب مركز إسهامات المسلمين فى الحضارة أن نحاول فى بداية حديثنا تحديد معنى الحضارة. فهذا المفهوم قد قتل بحثا ولم يعد فى حاجة إلى المزيد. ولكننا بعيدا عن الخوض فى هذا الأمر نميل إلى الأخذ بتعريف قليل الكلمات غزير المعانى قال به أحد فلاسفة الحضارة وهو «ألبرت شفيتسر» فى كتابه «فلسفة الحضارة» [1] حيث يقول: «إن الحضارة هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماعات على السواء» فهذا التعريف هو ما نعتقد أنه المقصود القرآنى فى قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها بالمعنى الشامل للجانبين الروحى والمادي.

وقد قامت الحضارة الإسلامية بالفعل على هذين الأساسين: الأساس الروحى والأساس المادي. وأى حضارة لا تعتمد على هذين الأساسين أو تكتفى بأساس واحد منهما فلا يمكن أن تسمى حضارة. وإذا أطلق عليها مصطلح الحضارة تجاوزا فهى إما أن تكون حضارة عمياء أو حضارة عرجاء.

والحضارة - أى حضارة - لا تنشأ من فراغ فمن الضرورى أن تكون هناك دوافع قوية تحفز البشر إلى العمل بجد ونشاط من أجل تحقيق هذا التقدم المادى والروحى للأمم والشعوب.

ومن المعروف أن العرب قبل الإسلام

١- ترجمه إلى العربية المرحوم الدكتور عبدالرحمن بدوى ونشرته دار الأندلس ١٩٨٠ (انظر ص ٣٥).

يعرفوا الحضارة بالمعنى المشار إليه. فلم يكن لديهم ما يمكن أن يوصف بأنه علم أو فلسفة أو حضارة. صحيح أنه كانت لديهم نظرات فلسفية متناثرة فيما خلفوه لنا من نثر وشعر. ولكنها كانت «من فلتات الطبع وخطرات الفكر» - كما يقول الشهرستانى أيضا (٢).

فلم يكن لديهم اهتمام بالتعليل أو محاربة التقليد والخرافات، والبحث عن العلاقة بين المقدمات والنتائج فيما كان منتشرا لديهم من آراء وأقاصيص: «لقد كانت لديهم معارف فلكية وطبيعية متصلة بمعارف الكلدانيين والصابئة، ومعارف طبية تجريبية مصحوبة بالرقى والعزائم والتمائم وأساطير زاخرة بأخبار الجن والغيلان والشياطين، وأمثال وحكم تدل على منازعهم العقلية، وشعر فى الزهد تغلب عليه العناصر الخلقية والروحية» (٣) ولكن كل ذلك لم يكن كافيا أو مؤهلا أو دافعا إلى بناء حضارى مكتمل الأركان.

دور الإسلام فى تطوير الفكر الحضارى لدى المسلمين:

وبعد ظهور الإسلام تغير الأمر تماما، وتبدلت أحوال العرب بصفة خاصة وأحوال المسلمين فى كل مكان بصفة عامة بشكل غير مسبوق فى التاريخ. فقد بعث الإسلام فيهم حياة جديدة، ونقلهم إلى أفق فسيح من العلم والمعرفة، وجعلهم مؤهلين لإقامة صرح دولة عظمى تمتد من أقصى الصين شرقا إلى أقصى الأندلس غربا.

وفى ظل تعاليم الإسلام ازدهرت العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها، وأسهم المسلمون فى الجهود الحضارية بكل طاقتهم، وأصبحت لهم حضارة تحمل طابعهم وتميزهم عن غيرهم. ولم يكن ذلك كله يمكن أن يحدث إلا إذا كانت تعاليم الإسلام تشتمل على العناصر الأساسية لهذا التحول العظيم.

وقد كان حجر الأساس فى هذا البناء الجديد يتمثل فى نظرة الإسلام إلى الإنسان.

فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله فى الأرض مصداقا لقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠).

وقد فضله الله على كثير من مخلوقاته، وكرمه أعظم تكريم - كما تعبر عن ذلك آيات عديدة فى القرآن الكريم - ومنها قوله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٠).

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام حريته وعقله وفكره وعقيدته فضلا عن دمه وماله وعرضه، وتعنى فى النهاية الحرية الحقيقية، وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

٢- الملل والنحل للشهرستانى جـ ٢ ص ٦٠٠ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢.

٣- تاريخ الفلسفة العربية للدكتور جميل صليبا ص ١٥/١٦ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣.

﴿ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الأحزاب: ٧٢).

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكليف والمسئولية فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون كله ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية والعقلية على السواء.

ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣).

والتفكر الذي تنص عليه هذه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة؛ بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفًا إيجابيًا، وإيجابية تتمثل في تأمل هذا الكون ودراسته والنظر فيه للإفادة منه على جميع المستويات بما يعود على البشرية بالخير. والإفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون لا تكون إلا بالعلم بمختلف أبعاده. والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدي إلى الرقي المادي وإلى الرقي الروحي في الوقت نفسه. (٤)

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣).

وهذا كله من شأنه أن يدفع الإنسان دفعا إلى العمل على بناء حضارة راسخة الأركان شامخة البنيان، وكأنه سيعيش في الدنيا أبدا ولكن في الوقت نفسه لا ينسى العمل من أجل آخرته وكأنه يموت غدا، كما يعبر عن ذلك الأثر الإسلامي المشهور: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداء. فالجهد البشري في نظر الإسلام يجب أن يتوزع بين هذين الجانبين في توازن حقيقي كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

(القصص: ٧٧).

ومن خلال هذه التوجيهات القرآنية يتضح لنا بصفة عامة مدى جوهرية دور الإسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين. فالقرآن الكريم لم يتعامل مع القضية الحضارية على أنها قضية هامشية، بل جعل من الحضارة فريضة إسلامية لا تقل في أهميتها عن أي فريضة أخرى. وهذا ما سنحاول فيما يلي إبرازه في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

أ- عود على بدء:

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسالات الإلهية للبشرية ومن أجل ذلك اقتضت حكمته أن تشتمل تعاليم القرآن الكريم على كل ما يؤهل المسلمين بصفة خاصة ليكونوا روادا حقيقيين في مجالات العلم والحضارة حتى يقدموا للبشرية ثمار ما استلهموه من أصول دينهم في القرآن الكريم والسنة النبوية. ومن هنا كانت بداية الوحي الإلهي على محمد ﷺ عودا على بدء، ومعبرة أصدق تعبير عن هذه الخطة الحضارية المتكاملة. وهذا ما نجده في الآيات الخمس الأولى من الوحي القرآني، والتي تشتمل على الأمر بالقراءة مرتين، والتأكيد على أهمية العلم وتدوينه، ودور الإنسان المكلف بحمل أمانة هذا العلم. وكل ذلك في ارتباط وثيق بخالق الكون والإنسان والعلم جميعًا:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١-٥).

فالقرآن الكريم إذن يخط الطريق بوضوح تام أمام الإنسان لاستخدام كل ملكاته العقلية لقراءة متأنية للكتاب المسطور وهو القرآن الكريم، وقراءة متأنية أيضًا للكتاب المفتوح وهو الكون الذي خلقه الله ليكون الميدان الذي يصول فيه الإنسان ويجول من أجل بناء حضاري يقدم الخير للبشرية جمعاء.

ويلفت القرآن الكريم الأنظار إلى أن الله عندما أراد أن يهبط آدم عليه السلام إلى الأرض سلحه بالعلم الذي يستطيع من خلاله تمهيد الأرض وإعمارها للإنسانية كلها - كما جاء في القرآن الكريم -:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(البقرة: ٣١).

والمقصود هو أن الله قد أعطاه مفاتيح العلم. وعليه عندما يهبط إلى الأرض أن يجتهد هو وذريته إلى يوم القيامة في استخدام هذه المفاتيح لفتح مغاليق هذا العلم. وهذا أمر لن يتحقق إلا باستخدام الإنسان لكل ما منحه الله له من ملكات عقلية وقدرات علمية.

ولم يقتصر القرآن الكريم في دعوته على فتح خزائن العلم والكشف عن أسراره في مجال واحد، بل فتح أمام الإنسان الباب على مصراعيه ليتدبر الكون كله ويفكر ويبحث وينقب حتى يهتدي إلى كل ما ينفعه في دينه ودنياه. فالسموات والأرض وما بينهما مسخرات للإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض، والكون كله ميدان للبحث العلمي بلا قيود ولا سدود.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي سبق أن أشرنا إليها:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

فآيات الله مبثوثة في كل مكان في هذا الكون الكبير. والذين يفلحون في الوصول إلى أهدافهم في الكشف عن بعض هذه الآيات هم هؤلاء الذين يستخدمون كل إمكاناتهم العلمية وقدراتهم العقلية.

ب- الحضارة فريضة إسلامية:

ومن خلال هذه الشواهد القرآنية الواضحة يتضح لنا أن الإسلام قد فتح باب البحث العلمي بلا حدود أمام الإنسان في كل زمان ومكان. فالكون كله ميدان فسيح لكل من يفكر ويبحث وينقب لتحقيق مقصود القرآن الكريم في إعمار الكون وصنع الحضارة فيه. والحضارة المعنية هنا هي الحضارة بكل أبعادها المادية والروحية، - كما سبق أن أشرنا- في تعريف الحضارة. ويتضح لنا أيضا أن الحضارة تعد تكليفا إلهيا وأمرا ربانيا كما جاء في القرآن الكريم:

٤- راجع كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ٣٠ وما بعدها - دار الفكر العربي ٢٠٠٣ القاهرة.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾
(هود: ٦١)

وطلب عمارة الأرض فى الآية صادر من الله للإنسان. ولا يجوز أن يفهم على أنه أمر مندوب إليه فقط أو أمر ثانوى فى منطق الإسلام. فالأمر بإعمار الأرض بمعنى صنع الحضارات فيها مادام تكليفا إلهيا فهو أمر واجب التنفيذ، وبالتالى فهو يندرج تحت مفهوم الفريضة. ومعلوم أن الحضارة أو إعمار الأرض بالتعبير القرآنى لا تقوم إلا على أساس من العلم. والعلم - بنص الحديث الشريف - «فريضة على كل مسلم ومسلمة»(٥). والحضارة التى يتوقف بناؤها على العلم تأخذ الحكم ذاته، وتعد فريضة إسلامية.

ج- مفهوم العلم فى الإسلام:

والإسلام عندما يهتم بالعلم ويرتفع به إلى درجة الفريضة فإنه يعنى العلم بجميع أبعاده وليس العلم الدينى فقط . فالعلم الدينى كما جاء فى القرآن الكريم - تتكفل به طائفة من الأمة، وليس كل الأمة، وذلك فى قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾
(التوبة: ١٢٢).

أما بقية طوائف الأمة فعليهم أن يهتموا بالعلم بجميع أبعاده ليبنوا حضارة تمكن للمسلمين فى الأرض حتى يكونوا قدوة لغيرهم من الأمم.

وعلى المسلمين أن يطلبوا العلم ولو كان فى الصين بمعنى: حتى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا، أو حتى لو كان لدى من لا يدينون بدينكم. فالعلم قسمة مشتركة بين الناس جميعا. وقد حض الإسلام على طلب العلم، وجعل للساعين فى طلبه والحرص عليه ثوابًا عظيما عند الله. كما جاء فى الحديث الشريف: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة»(٦).

وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، كما جعل الإسلام مداد العلماء مساويا لدماء الشهداء، فالشهداء إذا كانوا يدافعون عن أمتهم بدمائهم فالعلماء يدافعون عن أمتهم بعقولهم وفكرهم، ويسهمون فى تنمية وتطوير بلادهم.

وقد أثبت المسلمون فى السابق أنهم لم يكونوا منغلقين إزاء الحضارات السابقة، وإنما كانوا منفتحين، وأفادوا من التراث الإنسانى فى جميع المجالات.

فالتراث الإنسانى أخذ وعطاء، ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من التراث الإنسانى. والقرآن الكريم حثنا على السير فى الأرض ودراسة أحوال الأمم السابقة والإفادة من دروس التاريخ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
(يوسف: ١١١).

وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد يرى أن الاطلاع على كتب السابقين واجب شرعًا، ويقول:

«ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافق للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»(٧).

د- المسلمون والحضارة فى عالم اليوم:

إن العطاء الحضارى الذى قدمه المسلمون إلى العالم أمر لا ينكره إلا جاهل أو جاحد أو مكابر. وقد اعترف العلماء والغربيون المنصفون بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية. وكانت مؤلفات علماء المسلمين التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى وبخاصة فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر - كانت بمثابة الضوء الكاشف الذى أضاء العقول والأفهام فى أوروبا حينذاك، وفتح الطريق إلى عصر النهضة التى بدأت فيه أوروبا تتخلص من العقبات الكأداء التى كانت تعوق حركتها. فانطلقت تبنى حضارتها الحديثة فى الوقت الذى بدأت فيه الحضارة الإسلامية تتراجع عن موقعها الريادى، فتوقف عطاؤها الحضارى وأخلت الميدان لغيرها، ولايزال هذا التراجع الحضارى قائمًا منذ سقوط الأندلس حتى اليوم. وتبدلت المواقف، وأصبح المسلمون عالة على غيرهم من الأمم بعد أن كانت لهم الريادة الحضارية فى غابر الأزمان، وقنعوا حتى اليوم بأن يكونوا مجرد مستهلكين لمنتجات الحضارة الحديثة وزبائن دائمين فى (سوبر ماركت) الآخرين.

وهذا واقع مؤلم لا نستطيع إنكاره، ولكننا فى الوقت نفسه لا نعمل بما فيه الكفاية للخروج من هذا النفق المظلم. وعلينا أن ندرك أن العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا أيضاً لم يعد فيه مكان للضعفاء ولا للمتواكلين، ولم تعد فيه قوة الأمم تقاس بكثرة المال أو العتاد الحربى وإنما بقوة العلم.

فالذى يملك العلم يملك القوة ويحظى بالاحترام والتقدير ويحسب له الآخرون ألف حساب.

فهل من سبيل إلى استعادة المسلمين لأمجادهم التى كانت لهم فى يوم من الأيام أم إن الأمل قد تبدد وبخاصة بعد أن اتسعت الفجوة العلمية والحضارية بيننا وبين من بيدهم اليوم مقاليد العلم والحضارة؟.

إن اليأس ليس من شيم المؤمنين فإنه:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾
(يوسف: ٨٧).

هـ - العطاء القرآنى متواصل:

إن تراجع المسلمين الحضارى وتوقف عطائهم منذ سقوط الأندلس لا يعنى بأى حال من الأحوال أن ذلك أمر حتمى لا مفر منه أو أنه حكم نهائى لا رجعة فيه، وذلك لسبب بسيط وهو أن المنابع التى ألهمت أسلافنا وبعثت فيهم الدوافع القوية لإقامة حضارة شامخة لا تزال قائمة بيننا بما فيها من عطاء لا يتوقف مدده. فالقرآن الكريم والسنة النبوية لا ينقطع مددهما، فعطاؤهما متواصل، وسيظل هذا العطاء موصولاً إلى قيام الساعة.

ولكن هذا أمر يتوقف على المسلمين أنفسهم فعليهم أن يساعدوا أنفسهم أولا ليكونوا مؤهلين لطلب العون الإلهي:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾
(الرعد: ١١).

٥ - المعجم الأوسط للطبراني.
٦- رواه الترمذي (راجع: فيض القدير شرح الجامع الصغير للإمام المناوي) جـ ٦- دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م/ ١٣٩١هـ.
٧- فصل المقال لابن رشد ص ١٧ (ضمن كتاب: فلسفة ابن رشد دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢م

فالله لا يعين الكسالى ولا يساعد المتواكلين، ولكنه دائمًا مع العاملين الصادقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

(النحل: ١٢٨).

وإذا تأملنا الوعود الإلهية القرآنية في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

(النور: ٥٥).

نجد أن هذه الوعود الإلهية الثلاثة قد تحققت للمسلمين في عصور سابقة حين شمروا عن ساعد الجد، وجاهدوا وتنافسوا مع غيرهم في ميادين العلم والحضارة، وكانت لهم إبداعاتهم التي عرفها العالم في كل فروع العلم المختلفة – وبذلك استحقوا أن يمدهم الله بمدد من عنده.

والقضية هي أن تحقيق هذه الوعود الإلهية مرة أخرى يتطلب تحمل ضريبة مستحقة قبل طلب العون الإلهي. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في بدايتها مقترنا بتحقيق هذه الوعود. فالوعد الإلهي للذين آمنوا وعملوا الصالحات. وهذا هو جوهر القضية. فالمشكلة أننا منذ قرون قد توقفنا في فهمنا للإحسان في الآية الأولى وللعمل الصالح في الآية التي معنا الآن على أنهما يعنيان مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج. واعتقد الكثيرون منا أن هذا هو غاية المراد من رب العباد.

ولكن هذا فهم قاصر واختزال للإسلام بشكل يسيء إلى الإسلام ذاته.

فالإحسان يعني من بين ما يعني الإجادة والإتقان في كل الأعمال المطلوبة من الإنسان، والعمل الصالح شامل لكل عمل يقوم به الإنسان، أيا كان هذا العمل دينيا أم دنيويا طالما قصد به الإنسان وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم. ومن هنا فإن بذل الجهد والسعي في تحصيل العلم والتنافس فيه يعد من الأعمال الصالحة ومن قبيل الإحسان، وذلك فضلا عن أن الله يسهل لصاحبه طريقا إلى الجنة – كما جاء في الحديث النبوي الذي سبق أن أشرنا إليه. ولا بد من التأكيد هنا أن الشعائر الدينية المعروفة والالتزام بها من شأنه أن يكون مقدمة لصالح الأعمال في جميع مناحي الحياة. إن المدد القرآني وأنوار السنة النبوية لم ولن يتوقفا عن عطائهما الذي لا حدود له. ولكننا نحن الذين توقفنا عن الوعي بهما والالتفات إلى ما يشتملان عليه من العناصر الدافعة إلى التقدم وترقية الحياة في جميع المجالات، واكتفينا بالتفاخر بما صنعه أسلافنا من أمجاد حضارية في غابر الأزمان.

ورحم الله جمال الدين الأفغاني. فقد زاره شكيب أرسلان حينما كان في الآستانة، وحكى له أن العرب قد عبروا المحيط الأطلنطي قديمًا واكتشفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبوس. فرد الأفغاني قائلاً:

«إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟»، ويضيف: «نعم قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»(٨).


مالك بن نبي — الأفغاني — شكيب أرسلان

ويرفض مالك بن نبي مزاعم خصوم الإسلام الذين يدعون بأن التخلف الحضاري الذي تعاني منه الأمة الإسلامية سببه الإسلام.

ويقول: «إن التخلف الذي تعاني منه الأمة الإسلامية ليس سببه الإسلام وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون».

ونظرا لأن الفجوة الحضارية بين العالم الإسلامي والعالم الغربي قد اتسعت كثيرا لصالح الحضارة الغربية فإن الأمر يتطلب منا نحن المسلمين وقفة مع النفس نراجع فيها أحوالنا وما انتهت إليه، والبحث عن مخرج من هذا المأزق الحضاري الراهن.

و- استعادة الثقة بالنفس:

ونعتقد أن أولى الخطوات التي يجب اتخاذها في هذا الصدد هي ضرورة العمل على استعادة ثقة المسلمين بأنفسهم وبقدراتهم وبتراثهم.

وهذا أمر يتطلب جهودًا مشتركة لأن الأمر يتعلق بمستقبل أمة تعداد سكانها يقترب من ربع سكان العالم.

وإذا كان مركز إسهامات المسلمين في الحضارة قد قام منذ إنشائه ولا يزال بتعريف الغرب بإنجازات المسلمين الحضارية عن طريق ترجمة مؤلفات علماء المسلمين التي تبرز إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية فإن هذا أمر مشكور بلاشك ومطلوب بإلحاح، بل نقول إنه قد تأخر كثيرًا، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

ونعتقد أن هذا العمل يمكن أن يغير ولو على المدى البعيد من نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي الذي يستند إلى ركيزة راسخة من التراث الحضاري الذي كان له شأنه في تاريخ الحضارة الإنسانية.

وفي المقابل، أو بالتوازي مع ذلك نرى أن الأمر في حاجة ماسة أيضًا لتعريف المسلمين بحضارتهم وإنجازات علمائهم ومفكريهم الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية. فالجمهور الأعظم من أبناء المسلمين لا يعرف عن ذلك إلا النذر اليسير، وربما لا يعرف عن ذلك شيئًا على الإطلاق.

ومن أجل ذلك إن من المهم جدًا لكي يستعيد المسلمون ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم في بناء حضارة جديدة أن تشتمل مناهج التعليم في المدارس في العالم الإسلامي على التوعية بالإنجازات الحضارية لعلماء المسلمين. ومن المعلوم أن جهود علماء المسلمين في مختلف بقاع العالم الإسلامي قد أسهمت في بناء

(٨) زعماء الإصلاح في العصر الحديث للأستاذ أحمد أمين ص ١٠٢ – دار الكتاب العربي – بيروت.

الحضارة الإسلامية. والهدف من هذه التوعية هو حفز همم الأجيال الجديدة لمواصلة السير على خطى علماء المسلمين فى شتى الجوانب الحضارية.

كما ينبغى أيضًا أن تشتمل المقررات الجامعية فى الجامعات الإسلامية على مقرر عن الجذور الحضارية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن المهم أيضًا بالإضافة إلى ذلك أن تشتمل البرامج الثقافية فى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية على برامج أسبوعية مشوقة عن الإنجازات الحضارية لعلماء المسلمين فى مختلف التخصصات.

وليس الهدف من ذلك كله الدعوة إلى الجمود على ما تم إنجازه من إبداعات حضارية سابقة، وإنما الهدف هو استعادة ثقة المسلمين بأنفسهم وبقدراتهم لينطلق علماؤهم ومفكروهم مواكبين للتطورات العلمية الجديدة فى جميع جوانب الحياة بعزم أكيد وثقة قوية لا تعرف التراجع وإرادة لاتلين.

وهناك أمر آخر فى منتهى الأهمية لمسيرة الإنجازات العلمية المأمولة وهو ضرورة الاهتمام بالبحث العلمى فى عالمنا الإسلامى وذلك بتوفير الاعتمادات المالية الكافية، وتوفير أحدث الأجهزة والمعدات للباحثين فى عالمنا الإسلامى حتى لا يضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الجامعات والمراكز البحثية فى الغرب. وهناك تنطلق طاقاتهم وقدراتهم العلمية، ونرى إبداعاتهم وابتكاراتهم التى تحظى بالتقدير والاحترام من أرقى الجامعات والمراكز البحثية العالمية. وهناك أمثلة كثيرة فى هذا الصدد.

ويزعم البعض منا أن الاستعمار الجديد يسرق الكفاءات العلمية من الشرق الإسلامي، والحقيقة المرة على عكس من ذلك تمامًا. فالكثيرون من أصحاب الكفاءات العلمية المتميزة فى عالمنا الإسلامى لا تجد فى وطنها دعما ولا تشجيعًا يحفزها على البقاء ويوفر لها الأجواء المناسبة لتحقيق طموحاتها العلمية، وتحويل أحلامها إلى إنجازات تسهم فى التقدم العلمى والحضاري.

إن الموهوبين من شباب الباحثين فى أشد الحاجة إلى رعاية خاصة واهتمام وتشجيع حتى تتحول هذه البراعم الجديدة إلى لبنات صلبة فى بناء صرح جديد للحضارة الإسلامية الجديدة.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

(إبراهيم: ٢٠).

إن مصادر الإلهام الحضارى فى القرآن الكريم والسنة النبوية التى ألهمت علماء المسلمين فى السابق إبداعاتهم الحضارية التى بهرت العالم حينذاك لا تزال أنوارها متوهجة كما كانت دائمًا تضيء الطريق أمام الحائرين وتزيل الغشاوة عن الأبصار والبصائر، وفى أشعة هذه الأنوار تتفجر الطاقات وتنطلق الإبداعات فى منافسة متكافئة مع الآخرين فى كل مجالات التقدم والارتقاء، كما حثنا على ذلك القرآن الكريم فى قول الله تعالى:

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

(البقرة: ١٤٨).

والأمل فى عون الله توفيقه كبير. ولكن الأمر يحتاج إلى جهد بشرى غير عادى. وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١).

تمادى فرعون وقومه فى إصرارهم على الكفر

للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

رأى فرعون الآيات فتمادى فى كفره وأصر على عناده معرضا عن الآيات التى أتى بها موسى، وأغراه قومه بموسى لائمين له منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون فى الأرض بالامتناع عن الأعمال التى سخروا فيها، وأن يذر فرعون وآلهته لا يعبدها ولا يعبد فرعون. لكن فرعون روع القوم واعدا إياهم بأن يقتل قوم موسى ويستحيى نساءهم. معتزًا بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان. ثم أتبع القول بالعمل.

مما هو طبيعى أن يضج بنو إسرائيل بالشكوى إلى موسى مما حاق بهم من الحيف والجور. فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل، وأن يستعينوا بالله على احتماله. ووعدهم حسن العاقبة. فلم يكفكف ذلك دموعهم وقالوا له:

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ (الأعراف: ١٢٩)

فمناهم هلاك عدوهم وإخراجهم من الضيق إلى السعة، وأن يكونوا خلفاء فى الأرض التى وعدوا بها. وأراد فرعون أن يبطش بموسى متحديًا إلهه حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم أو فساد فى أرضهم. ولكن موسى عاذ بالله من شر هذا المتكبر الذى لا يؤمن بحساب، فكان عياذًا.

اقرءوا فى هذا الموقف الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ

(١) يصح أن يعاد الضمير على موسى، إذ كانوا يأتمرون به لقتله، ويمكن أن يعود على مؤمن آل فرعون.

﴿...عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ (الأعراف: ١٢٧ - ١٢٩)

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ (غافر: ٢٣ - ٢٧)

لم تذكر التوراة مسألة إعادة تقتيل أبناء العبرانيين.

الائتمار بموسى لقتله

خلص فرعون والملأ نجيا يأتمرون بموسى لإهلاكه. ولما كان الحق لا يعدم نصيرًا قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى ورب موسى إلى ذلك الحين - ودافع عن موسى دفاعا يشكره الله له. وأبلى في ذلك بلاء حسنا. وبين لهم أنه لا ينبغي أن يقتلوا رجلا يقول «ربي الله» لأن قوله ذلك لا يصلح سببًا للقتل. وبخاصة إذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه. وأنه لو فرض أنه كاذب فيما يقول ما نالهم ضرر من كذبه. ولا يحملون شيئًا من إثمه. ولو فرض أنه كان صادقًا أصابهم بعض الوعيد الذي توعدهم به. وقد عارضه فرعون فيما رأى ووجه أقواله إلى الملأ يستنصر بهم على معارضته قائلاً:

﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ (غافر: ٢٩)

عاد مؤمن آل فرعون إلى الكلام محذرًا قومه بأس الله تعالى ووقعاته في أمم عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، ممن انتقم الله منهم جزاء وفاقا بما صنعت أيديهم. وذكرهم بأن الدعوة التي جاء بها موسى اليوم ليست جديدة. فقد جاء إلى آبائهم وإليهم ضمنا يوسف بالبينات. فلم ينل تصديقهم إياه حتى إذا هلك قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا. وأبان لهم أن ذلك من طبع الله على قلوبهم وإمساكه تعالى عن هدايتهم هداية موصلة بالفعل إلى المقصود وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازى على كل شيء. وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب.

تمادى قومه وجهدوا أن يردوه إلى دين قومه فلامهم على أنه يريد بهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم، فهو يدعوهم إلى الإيمان وهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار، وأن الآلهة التي يدعونه إلى عبادتها لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة، وأن المرد إلى الله تعالى، وأنه سيأتي عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم وأنه يفوض أمره إلى الله. ولقد هموا به كما هموا بموسى فوقاه الله سوء عملهم وكانت عاقبته السعادة وعاقبة فرعون النار. قال تعالى:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩) وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ (غافر: ٢٨ - ٣٥)

لم تذكر التوراة ائتمار القوم بموسى لقتله ولا مسألة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى وتذكيره قومه بيوسف، لأن القوم نسوا حظا مما ذكروا به، ولعل حقدهم على فرعون وقومه صرفهم عن ذكر أحد من المصريين قد آمن بموسى.

فرعون يستخف بموسى

كان موسى بعد أن نصره الله تعالى على سحرة فرعون فآمنوا مستهينين بعذاب الدنيا دائب على دعاء فرعون إلى الإيمان وإطلاقه بني إسرائيل، وتمادى فرعون في دفعه، ورأى عظيمًا أن يلبى دعوة موسى ويتبع دينه، مع ما لفرعون من عزة السلطان ووافر الثروة التي تدرها عليه مصر بسبب نيلها الفياض وماله من الفروع التي تبعث الحياة الرافعة في مصر كأنها الشرايين تمد مصر بالحياة إذ تسرى في أرضها الدانية والقاصية فتسرى فيها الثروة واليسر.

غلبت عليه نفسه المادية التي لا ترى الخير والعز إلا في وفرة المال، ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء فقال:

﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ (الزخرف: ٥٢)

ثم لجأ إلى الإعنات وطلب ما هو أقل مما أتى به موسى من الآيات البينات على صدقه. وقال:

﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ (الزخرف: ٥٣)

كأن هذا الذي يطلبه لا يحال على أنه سحر كما قال عن العصا التي استحالت ثعبانًا، واليد التي اكتست لون البياض بلا مرض بدل لون الأدمة.

كانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه. وإطاعتهم له ميلا منهم عن الحق وزيغًا عن طريق الهدى، لأنهم ألفوا الانقياد له حيث شاء وفي كل وجه أراد، فأفنوا ذاتهم في ذاته، وأماتوا شخصياتهم في شخصه، وأهدروا آدميتهم ابتغاء الزلفى لديه. وجره ذلك إلى أن حشر الناس من آفاق البلاد قائلا:

﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات: ٢٤)

الذى ينبغى أن تخصره بالعبادة دون إله موسى الذى جاءنا به على غير معرفة منا به قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٤)

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (النازعات: ٢٢ - ٢٦)

آيات الله على فرعون وقومه لما كذبوا موسى عليه السلام

لما أخذت فرعون العزة بالإثم وعتا عن أمر الله تعالى وتمادى فى تكذيب موسى واستمر فى إعنات بنى إسرائيل وإيقاع ضروب الإذلال والإهانة بهم، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه وامتناعهم من إطلاق بنى إسرائيل فكانوا كلما وقع بهم عذاب بعد إباء موسى إياهم به وعدوه بالإيمان به تارة، وبإرسال بنى إسرائيل معه تارة أخرى إذا سأل ربه كشف ما وقع بهم من العذاب. فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم، عادوا إلى طغيانهم وغدروا بعهدهم وخاسوا بوعدهم. وهكذا إلى أن كانت الآية الكبرى والبطشة العظمى وهى إغراق فرعون فى اليم ونجاة بنى إسرائيل والآيات هى:

١- (الجدب) بأن قل عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم وستر الجدب يؤرخ بها، فيقال لعام الجدب سنة.. ومنها أسنت القوم أى أصابتهم السنة.

٢- (النقص من الثمرات) بسبب ما يأتى عليها من الجوائح والعاهات.

٣- (الطوفان) ولم يقطع المفسرون بأن هذا الطوفان كان على أى وجه فهل كان بطغيان النيل على الأرض وامتداد زمن بقائه على وجه الأرض حتى عاقهم عن الزرع فى الوقت المناسب؟ أو كان بتتابع المطر على أرض مصر فى وقت كان فيه الزرع ناميا حتى أغرقه وأضربه؟ كل محتمل وقد مال البيضاوى إلى هذا فى تفسيره.

٤- (الجراد) بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد، فأكل الزرع واجتاح الثمار.

٥- (القمل) الذى أقض مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب. وفى التوراة «البعوض» بدل القمل. وفى البيضاوى قيل هو كبار القراد، وقيل صغار الجراد - قبل نبات أجنحتها - وعبارة القاموس: والقمل كسكر صغار الذر والدبا الذى لا أجنحة له أو شىء صغير بجناح أحمر، وشىء يشبه الحلم لا يأكل أكل الجراد، خبيث الرائحة. أو دواب صغار كالقردان واحدتها بهاء - أو قمل الناس وهذا القول مردود اهـ.

٦- (الضفادع) قيل أنها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم.

٧- (الدم) بأن استحال الماء لأهل مصر دما. وقيل الله سلط عليهم الرعاف.

٨- (الطمس على أموالهم) وهو محقها وإهلاكها.

٩- (اليد) إذا كان يضع يده فى جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء.

وبعض المفسرين يعد الآيات على غير هذا الوجه. فيجعل «فلق البحر» من الآيات التسع. وآخرون يجعلون «انبجاس الحجر بالماء لبنى إسرائيل» من الآيات التسع.

ولا يخفى أن فلق البحر إنما كان بعد تمام الآيات. وانبجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون. فلا يصح أن يكون آية له ولقومه. وأنا أعد الآيات هكذا.

(١) السنون.
(٢) نقص الأموال.
(٣) نقص الأنفس (٤) نقص الثمرات.
(٥) الطوفان.
(٦) الجراد.
(٧) القمل.
(٨) الضفادع.
(٩) الدم.

واعلموا أن هذه الآيات التسع وغير الآيات التى أرسل بها موسى إلى بنى إسرائيل وهى المذكورة فى قوله:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ (الإسراء: ١٠١)

المذكورة فى سورة الإسراء: فقد فسرها البيضاوى بأنها آيات أرسل بها موسى إلى بنى إسرائيل، وهى أحكام أمروا بالأخذ بها آيات غير التى عوقب بها فرعون وجنوده وهو أحد وجوه أوردها فى هذه الآية.

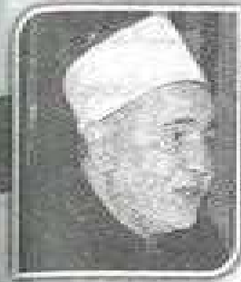
وعبارته بنصها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هى: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفجار الماء من الحجر، وفلق البحر ونتق الطور على بنى إسرائيل. وقيل: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الثلاث الأخيرة. وعن صفوان أن يهوديا سأل النبى ﷺ عنها فقال: «لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولاتزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرئ لدى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا فى السبت» فقبل اليهودى يده ورجله.

فعلى هذا المراد بالآيات: الأحكام العامة للملل الثابتة فى كل الشرائع قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٠ - ١٣٥)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوى

أهمية النسخ وحكمة مشروعيته

موضوع النسخ من الموضوعات التى سلم بوجودها الصحابة والتابعون من أول الأمر فى الشريعة الإسلامية، وحديثهم المستفيض عنه - مهما كان فيه خلاف - كاف فى الدلالة على وجوده فى شريعة الإسلام. وأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من مفسرين وأصوليين فيه، تجعلنا نعتقد أن مسألة النسخ من المسائل التى كانت تكون واقعا مستقرا فى أذهان العلماء المسلمين.

ولقد اهتم العلماء ببحث موضوع النسخ من كل وجوهه، ووضعوا له من الشروط والقواعد ما يميزه عن غيره من المسائل أكمل تمييز، وذلك لأن معرفة الناسخ والمنسوخ تؤدى إلى فهم الأحكام فهما سليما، وتدفع التناقض عن نصوص الشارع، وتزيل اللبس الناتج عن تعارض الأدلة متى عرف صحيحها من سقيمها، ومتقدمها من متأخرها، وكثيرًا ما يؤدى عدم معرفة الناسخ والمنسوخ إلى الوقوع فى الضلال والإضلال - وأيضًا - فإن الإلمام بالناسخ والمنسوخ، يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ويطلع المسلم على حكمة الله - تعالى - فى تربيته للخلق، وسياسته للبشر وابتلائه للناس ويكسب المسلم قدرة على الدفاع عن شريعته إزاء تهجم المتهجمين عليها.

لقد شاء الله - تعالى - أن يكون النسخ واقعًا فى الشريعة الإسلامية لحكم سامية ومقاصد عالية، من أهمها:

(أ) مراعاة مصالح العباد وتربيتهم فى أطوارهم المختلفة بالأدوية الدينية المناسبة لهم وبيان ذلك أن الأمة الإسلامية فى أول عهدها بالإسلام كانت تعانى فترة انتقال شاقة، لانخلاعها عن موروثها وعاداتها فلو كلفت بأوامر هذا الدين ونواهيه دفعة واحدة لشق عليها ذلك مشقة عظمى، وربما نفرت منه، لهذا تدرجت الشريعة الإسلامية فى أوامرها ونواهيها مع أتباعها تدرجًا حسنًا وصعدت بهم على طريق الرقى شيئًا فشيئًا وسارت بهم من الأسهل إلى السهل ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب أحيانًا، وبذلك تم لهم النجاح والفلاح؛ لأن شريعتهم الخالدة - التى مشت بهم على مهل - أعطتهم لكل حالة ما يناسبها من تشريع وتوجيه وألبستهم لكل طور من أطوارهم اللباس الذى يلائمه، وهذا لون من ألوان السمو والكمال فى شريعة الإسلام.

(ب) تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، ورحمته بهم، لرفعه المشقة عنهم فى كثير من الأحكام المنسوخة، وإحلال ما هو أسهل منها محلها، وفى ذلك ما فيه من الإغراء على المبالغة فى شكره والاستجابة لأوامره ونواهيه.

(جـ) الابتلاء والاختبار، فإن المؤمن من شأنه أن يتلقى أوامر الله - تعالى - ونواهيه، بالسمع والطاعة والإذعان والتسليم أما ضعيف الإيمان فإنه يتلقاها بالتشكيك وإثارة الشبهات حولها، وبذلك يتميز الخبيث من الطيب، وقوى الإيمان من ضعيفه.

(د) بيان أن شريعة الإسلام هى أكمل شريعة تفى بحاجات الإنسانية فى مرحلتها التى انتهت إليها بعد أن بلغت أشدها واستوت، وأنها بنسخها لما سبقها من شرائع، استحقت بأن تنعت بأنها الشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان.

أدلة ثبوت النسخ

لقد اتفق أهل الشرائع على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعًا، ولم يخالف من المسلمين فى النسخ سوى (أبى مسلم)(١) فإنه جوزه عقلا وقال بعدم وقوعه شرعا.

وقبل أن نرد على شبهات اليهود، وعلى أبى مسلم، نحب أن نبرهن أولا على ثبوت النسخ فنقول:

(أ) النسخ لا محظور فيه عقلا، وبيان ذلك، أنه تصرف التشريع من الفاعل المختار الحكيم، ومن حقه - سبحانه - أن يأمر عباده بما شاء، وينهاهم عما يشاء وأن يبقى من أحكامه مايريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه تبعا للحكم والمصالح.

وقد استفاضت الآيات القرآنية التى تدل على أن الخالق - عز وجل - قد شرع لعباده ما يصلحهم، وتعبدهم بما يطيقون قال تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٢٨)

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(الحج: ٧٨)

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، التى وردت فى هذا المعنى.

(ب) ثبوت النسخ ووقوعه، يؤيد ثبوت نبوة محمد ﷺ، لأن امتناع ذلك يؤدى إلى بقاء الشرائع السابقة، وهذا يستلزم عدم ثبوت النبوة وحيث إن الأدلة القاطعة قد قامت على ثبوت نبوة محمد ﷺ إذن

(١) أبو مسلم هو محمد بن بحر الأصفهانى توفى سنة ٣٢٢ هـ.

فالشرائع السابقة منسوخة بشريعته، وهذا يؤدى إلى ثبوت النسخ ووقوعه.

(جـ) من الأدلة النقلية الدالة على ثبوت النسخ، تلك الآيات الكريمة التى فسرناها قبل ذلك، وهى قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة: ١٠٦)

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

(النحل: ١٠١، ١٠٢)

(د) الكتب السماوية السابقة أثبتت أن النسخ وقع بشريعة موسى ووقع فيها، واليهود أنفسهم يعترفون بذلك ولا ينكرونه.

فقد جاء فى التوراة: (أن الله - تعالى - قال لنوح عند خروجه من السفينة إنى جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العُشب ما خلا الدم فلا تأكلوه) وقد حرم الله على بنى إسرائيل بعد ذلك كثيرًا من الحيوان، ففى ذلك دليل على أن النسخ وقع بشريعة موسى - عليه السلام - وجاء فيها أيضًا: (أن الله - تعالى - أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد العجل منهم، ثم أمرهم برفع السيف عنهم) وهذا يدل على أن النسخ وقع فى شريعة اليهود نفسها.

وفى ذلك كله دليل على ثبوت النسخ ووقوعه عن طريق العقل والنقل.

الشبهات التى أثيرت حول النسخ

وقد اهتم العلماء بالرد على منكرى النسخ اهتمامًا عظيمًا، والمطالع لكتب التفسير، ولمباحث علم الأصول، يلاحظ عناية كبرى بهذه القضية، ومبعث هذا الاهتمام لم يكن موقف أبى مسلم منه؛ لأن الرد على منكريه وهم اليهود، كان سابقا على وجود أبى مسلم.

فاليهود هم الذين طعنوا فى شريعة الإسلام، وفى نبوة النبى ﷺ من أجل النسخ، واعتبروا وجود الناسخ دليلا على أن القرآن ليس من عند الله - تعالى -، لذلك رأينا اسم اليهود هو الاسم الظاهر على رأس المنكرين للنسخ.

وها هى الشبه التى تعلق بها اليهود لإنكار النسخ نسوقها، ثم نبرهن على بطلانها فنقول:

(أ) قال اليهود: إننا نمنع النسخ؛ لأنه يستلزم البداء - وهو الظهور بعد الخفاء - والبداء محال على الله، وبيان ذلك أن الله - تعالى - إذا أمرنا بشيء كان ذلك الشيء المأمور به حسنا وصالحا، فإذا عاد ونهانا عنه بعد ذلك كان دليلا على أن ذلك الفعل الذى أمرنا به فى الماضى لم يكن حسنا ولا صالحا، وإنما كان قبيحًا وفاسدًا، وإن قبحه وفساده كان خافيًا على الله - تعالى - فى أول الأمر حين أمر بفعله، ثم بدا له من بعد ظهوره قبحه وفساده، فعمد إلى النهى عنه، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

هذه هى الشبهة التى تعلقوا بها لإنكار النسخ، والجواب عليها حاضر وميسور، وهو أن حكمة الناسخ والمنسوخ معلومة لله - تعالى - من قبل فلم يتجدد علمه بها وإن تجددت الحكمة، بأن حصلت بعد أن لم تكن حاصلة وهذا لا يقتضى سبق الجهل بها، وليس من باب البداء، بل هو من باب نقل العباد من حكم آخر، لضرب من المصلحة والمنفعة.

فالنسخ تبديل فى المعلوم لا فى العلم، وكشف لنا وبيان عن بعض ما سبق فى علم الله القديم المحيط بكل شيء، ولا يرتاب عاقل فى أن لاختلاف الأزمان والأحوال أثرا فى حسن الأشياء وقبحها بالنسبة للمكلفين، فقد يكون الشيء حسنًا فى وقت، وقبيحًا فى وقت آخر، ومن تصرفات الناس اليومية، ومن واقعهم المعاش نأخذ الدليل:

فمزاولة بعض الألعاب الرياضية كالمصارعة وحمل الأثقال - مثلا - تفيد الإنسان فى فتوته وشبابه فيؤمر بها، ولكنها تؤذيه فى سن الشيخوخة فينهى عنها، وليس بين أمره ونهيه سبيل إلى إنكار العقول، فكيف إذا صدر الأمر أو النهى من الحكيم الخبير؟! وإذن فأمر الله لعباده بالشيء فى زمن ونهيهم عنه فى زمن آخر لا يستلزم بداء ولا جهلا.

(ب) قالوا: إننا نمنع النسخ؛ لأنه يستلزم العبث، وبيان ذلك: أن الحكم المنسوخ ما دام قد شرع لحكمة فنسخه يكون عبثا، والعبث محال على الله - تعالى - وجوابنا على ذلك: أن الحكم الناسخ والمنسوخ كلاهما شرعه الله لحكمة، وأن كل واحد منهما أنسب ما يكون وأصلح ما يكون للعباد فى الوقت الذى شرع فيه، فقد يكون العمل بالحكم الناسخ أوفر من ثواب العمل بالحكم المنسوخ أو مماثلا له، إلا أن كل واحد من الحكمين أنفع للعباد وأنسب لمصالحهم، بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل به، وبهذا يتضح أنه لا عبث فى النسخ، لأن أحكام الله جميعها تشتمل على الحكمة، والمنفعة التى تعود على الخلق بالفائدة.

(جـ) قالوا: نحن نمنع النسخ لأنه يستلزم اجتماع الضدين واجتماعهما محال وبيان ذلك أن الأمر بالشيء يقتضى أنه حسن، والنهى عنه يقتضى أنه قبيح، فلو أمر بالشيء ثم نهى عنه أو العكس، لاجتمعت هذه الصفات المتضادة فى الفعل الواحد الذى تعلق به الأمر والنهى.

وتدفع هذه الشبهة بأن الاستحالة إنما تكون إذا اجتمع الأمر والنهى على فعل واحد فى زمن واحد، والنسخ بخلاف ذلك؛ لأن من شروطه أن يكون الحكم الناسخ متأخرًا عن الحكم المنسوخ، وإذن فقد ثبت الاختلاف فى الزمان، وما دام الأمر كذلك فلا اجتماع للضدين.

وأيضًا: فإن اجتماع الضدين إنما يتأتى إذا كان الأمر والنهى قد تواردا على حسن لا يقبل حسنه القبح، أو قبيح لا يقبل قبحه الحسن كالإيمان والكفر، ومسائل النسخ ليست من هذا القبيل؛ لأنها إنما تكون فى الأفعال التى حسنها وقبحها يتأتى باعتبار ما يترتب عليها.

(د) قالوا: نمنع النسخ؛ لأنه لو جاز نسخ الحكم لكان ذلك إما مع علم الله - تعالى - باستمراره أبدًا، أو مع علمه بكونه مؤقتًا وكلاهما باطل، لأن الأول يستدعى انقلاب علمه جهلًا، والثاني يقتضى انتهاء الحكم فى الوقت المقرر له، فلا يتأتى النسخ لانتهاء الحكم فى الوقت المقرر له بدون نسخ.

وجوابنا على هذه الشبهة: أن الله - تعالى - يعلم انتهاء الحكم فى وقت معين، ويعلم أيضًا أنه سينسخه فى ذلك الوقت المعين فهو يعلم انتهاءه بسبب نسخه إياه كما يعلم الأسباب ومسبباتها قبل كونها، وإذا كان الله تعالى - يعلم ارتفاع حكم بالنسخ كان ذلك مستلزمًا لوجود نسخ ذلك الحكم، وبذلك يبطل الاستدلال على المنع.

(هـ) قالوا: إن التوراة التى أنزلها الله على موسى قد جاء فيها هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض وجاء فيها: (الزموا السبت أبدًا) وهذا يفيد امتناع النسخ؛ لأن نسخ شىء من أحكام التوراة إبطال لها، وهذا لا يجوز.

وجوابنا على هذه الشبهة: أن التوراة الصحيحة لم يصبح لها وجود، بدليل اختلاف نسخها بين فرق اليهود المختلفة، والتواتر الذى خلعوه عليها غير صحيح، لأنها لو كانت كما يقولون لا احتجوا بها أمام النبى ﷺ ولكن ذلك لم يكن، بل الذى كان أن بعض علمائهم - كعبد الله بن سلام - قد دخل فى الإسلام بعد أن تبين له صدق النبى ﷺ، وبذلك نرى أن تلك النصوص التى نسبوها إلى التوراة لا تصلح حجة، وأن شبهاتهم لا أساس لها من الحق والصحة.

بعد هذا نحب أن نقف وقفة قصيرة مع (أبى مسلم) لمناقشته فيما ذهب إليه فنقول: احتج (أبو مسلم) على إنكار وقوع النسخ فى الشريعة الإسلامية بقوله تعالى:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

(فصلت: ٤٢)

ووجه استدلاله أن أحكام القرآن لا تبطل أبدًا ولا يتأتى نسخها؛ لأن النسخ فيه إبطال لحكم سابق.

وقد رد العلماء: بأن المراد بالباطل فى الآية الكريمة ما خالف الحق - والنسخ حق - ومعنى الآية الكريمة: أن القرآن الكريم لم يتقدمه من الكتب ما يبطله ولا يأتى بعده ما يبطله، ولا يقوم العقل الصحيح على خلافه. بل جميع ما جاء به من المقاصد والعقائد متفق مع جميع ما جاءت به الكتب السماوية ويؤيده العقل السليم.

وأيضًا: فإن النسخ ليس إبطالًا للحكم، وإنما يعرف به بيان أمده الذى لم يكن معروفًا من قبل لحكم ومصالح تعود فائدتها على الناس.

هذا وقد أنكر كثير من العلماء على أبى مسلم مذهبه هذا فى النسخ - وحملوا عليه حملات قاسية، ولكن المحققين من العلماء، فهموا مذهب (أبى مسلم) فى النسخ على وجه يلتقى مع ما يقوله علماء المسلمين، فقالوا: (ومعنى إنكار أبى مسلم لوقوع النسخ، أنه يزعم أن الأحكام التى نسخت من غير شريعتنا كانت مقيدة بظهور أحكام أخرى تناقضها من شريعتنا، وعلى ذلك فالنسخ عنده من باب التخصيص فى الزمان، وبذلك يعود خلافه مع الجمهور إلى اللفظ والتسمية فقط) (٢).

مسالك العلماء فى القول بالنسخ

العلماء المتكلمون فى النسخ أقسام ثلاثة:

(أ) فمنهم المغالون الذين حاولوا التخلص من القول بالنسخ إطلاقًا تبعًا - لأبى مسلم - سالكين فيما ذهبوا إليه مذهب التأويل بالتخصيص ونحوه، وهؤلاء قد أخطأوا الصواب؛ لأنهم بمحاولتهم إنكار النسخ قد سلكوا طرقًا ملتوية، وحملوا الآيات ما لا تحتمل، ومهما لاحظنا أن من المنقول عن المتكلمين فى الناسخ والمنسوخ ما لا ينطبق عليه حد النسخ عند الأصوليين، فإن حديث الصحابة والتابعين عنه كاف، فى الدلالة على وجود مبدأ النسخ، وثبوته فى الشريعة الإسلامية.

(ب) ومنهم المسرفون، وهم الذين أدخلوا فى النسخ ما ليس منه، بسبب خلطهم بين النسخ والتخصيص، أو بين النسخ والبيان، وبسبب توهم التعارض الظاهرى بين الآيات، مع أنه لا تعارض فى الحقيقة ولا نسخ، وفاتهم أن النسخ هو آخر ما يصار إليه فى فهم آيات القرآن الكريم، باتفاق العلماء، وفاتهم - كذلك - أن يعرفوا أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحى له، بل يقصدون به ما هو أعم منه، مما يشمل بيان المجمل، وتقييد المطلق، ونحوهما، ومن هؤلاء المسرفين (أبو جعفر النحاس) فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) (وهبة الله بن سلامة) وغيرهما.

(جـ) ومنهم المعتدلون الذين يقولون بالنسخ فى حدوده المعقولة، فهم لم ينفوه إطلاقًا، ولم يتوسعوا فيه جزافًا، بل يقولون به فى حدود الضرورة، التى يقتضيها وجود التعارض الحقيقى بين الأدلة، مع معرفة المتقدم منها، والمتأخر، ومع وجود النقل الصحيح، الذى يؤيد ما ذهبوا إليه تأييدًا بينًا.

وقد بذل العلماء الأثبات طاقتهم فى بيان أهمية النسخ، وحكمة مشروعيته، وأدلة ثبوته، وفى تمييز النسخ عن غيره، فعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وبينوا طرق معرفته، ووضحوا الأمور التى لا يجوز أن يعتمد عليها فى القول به، وفصلوا أنواعه، ووضعوا شروطه، وتوسعوا فى ذكر الفروق التى بينه وبين غيره من الأحكام، وردوا على الشبهات التى أثيرت حوله، وبذلك يتضح لنا أن ما أثاره اليهود من شبهات حوله لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم، قد أبطلها القرآن الكريم، وتولى علماء الإسلام دحضها بالتفصيل والتدليل (٣).

والله أعلم.

---

(٢) ... القرآن) لفضيلة الشيخ أبو سلامة

(٣) ... [لمعـ]ـرفة ما كتب عن النسخ من جميع الوجوه، راجع - مثلا - كتاب «النسخ فى الشريعة الإسلامية» للأستاذ الدكتور مصطفى ... وكتاب «مناهل العرفان» للمرحوم الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني ومحاضرة مطبوعة عن النسخ لفضيلة الدكتور محمد ... محمد ...

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

شعبان
١٤٣٤ هـ
يونيه يوليه
٢٠١٣م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

عيد ميلاد سعيد

● السؤال من: ر.م.ص: برجاء التكرم بالموافقة على منحي فتوى معتمدة ومختومة تفيد بأن كتابة جملة «عيد ميلاد سعيد» على التورتة يجوز شرعًا أم لا، ووضع الصورة الشخصية على التورتة أو اسم طالبها يجوز شرعًا أم لا؟!

●● الجواب: التحدث بنعمة الله على المرء وإدخال السرور على الناس سنن مستحبة، ندب إليها الشرع الشريف، ونوّه بها، وتذكر الإنسان باليوم الذى أنعم الله فيه بإبرازه للحياة وإقامته لعبادة الله من تذكر النعمة والتحدث بها هو مما ندب إليه الشرع فى نحو قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

(الضحى: ١١).

وقد ورد الأمر الشرعى أيضًا بالتذكير بأيام الله تعالى فى قوله سبحانه:

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾

(إبراهيم: ٥)

ومن ايام الله تعالى أيام الميلاد، ولذلك كان النبى ﷺ يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع شكرًا لله تعالى على نعمة ايجاده ﷺ واحتفالا بيوم ميلاده الشريف، فعن أبى قتادة الأنصارى أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل علىّ فيه» رواه مسلم.

فالاحتفال بأعياد الميلاد جائز شرعًا لما فيه من إشاعة الفرح والسرور بين أفراد العائلة، شريطة أن يتم ذلك فى حدود الأدب والاحترام، والبعد عن الوقوع فى المحرمات والمآثم.

وبناءً على ذلك وفى واقعة السؤال: فإن الطُّرَق التى يطليها بعض الناس من عمل حلوى «التورتة» وتزيينها بكتابة أسمائهم عليها أو كتابة بعض العبارات كـ«عيد ميلاد سعيد» ونحوها أو وَضْع صورهم عليها هو من المُباحات التى لا حرج فيها ولا إثم، غير أننا ننصح بأن تُسَمَّى الأشياء بأسمائها فنقول: «يوم ميلاد سعيد» ونحو ذلك من العبارات، لئلا تتداخل مع الأعياد المنصوص عليها فى الإسلام.

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقى عـــلام
مفتي جمهورية مصر العربية

حكم استضافة ابنى وبنتى

● السؤال من: ص.غ.ف: ما حكم استضافة ابنى وبنتى اللذين هما فى حضانة أمهما؟

●● الجواب: الحضانة وتنظيمها إنما هى وسيلة لحماية المحضون ورعايته، والقيام بحقوقه والعناية بشئونه، حتى إن الحاضنة إذا أرادت إسقاط الحضانة لا تسقط، وكل هذا حتى لا يضيع المحضون، الذى هو الغاية والمقصد من تنظيم شئون الحضانة، فليست الحضانة ساحة لكيد المطلق ضد مطلقته، أو لمكر المطلقة بمطلقها، على حساب مصلحة المحضون، بل هى ولاية للتربية، غرضها الاهتمام بالصغير وضمان مصلحته والقيام على شئونه، وقد أناطها الشرع الشريف بالأمن على المحضون فى شخصه ودينه وخلقه، ومن جهة أخرى فهى مجال جيد لتعويد النفس على العطاء والبذل وإنكار الذات.

والقانون المنظم للحضانة والمُستقى من الشريعة الغراء مقصده تحقيق هذا الغرض، ويدندن حول هذا الهدف، فعندما لا تُسعف حرفية القوانين فى تحقيق هذا المطلوب تبقى رُوحُ القانون مطية للقاضى المتمكن المتشبع بأغراض الشارع ومقاصده للوصول إلى ذلك المطلوب.

وعليه وفى واقعة السؤال: فإنه يجوز للقاضى أن يسمح لك باستضافة ابنك وبنتك فى الأيام المناسبة لذلك، كيوم فى الأسبوع، ومدة مناسبة فى إجازتى نصف العام الدراسى ونهايته وأعياد السنة المختلفة، حسبما يراه محققًا للمصلحة والعدل فى ذلك كله، مع المحافظة على حق الحاضنة فى شعورها بالأمن على محضونيها، وإعطائها الضمانات الكافية، التى تكفل لها عدم انتزاعهما منها من جهة، وحق الأب فى التربية والملاحظة من جهة أخرى، فعند القاضى من الصلاحية المخوّلة له ما يجعله يقضى بذلك وهو مرتاح الضمير مطمئن البال ما دام الهدف من ذلك هو تحقيق المنشود من شريعة الحضانة المحكمة، ورعاية المحضون على الوجه الأكمل.

حكم عقد الزواج

● السؤال من: ز.خ.ش: ما هو حكم عقد الزواج الذى يتم عن طريق وكيل للزوجة، ويقوم القاضى فيه بإرسال شاهدين يتأكدان من أن الزوجة وكلت هذا الشخص وأنها رضيت بالزواج من فلان بمهر كذا، ثم يتمم

الوكيل العقد بعد ذلك أمام القاضي؟

●● الجواب: صحة توكيل المرأة غيرها في الزواج مبنية على أهليتها لإبرامه بنفسها، والراجح من مذهب الأحناف أن المرأة البالغة العاقلة من حقها أن تزوج نفسها وأن النكاح ينعقد بعبارة النساء ويقع صحيحًا، وما جاز للإنسان فعله بنفسه جاز له أن يوكل فيه غيره، فيجوز للمرأة البالغة العاقلة أن توكل غيرها في نكاحها على أن يلتزم الوكيل بحدود الوكالة.

كما أن المقرر شرعًا أن الوكالة تثبت بكافة طرق الإثبات الشرعية ومنها شهادة الشهود.

وفي واقعة السؤال فإن هذا الزواج يقع صحيحًا ما دام أن هذه الوكالة ثبتت صحتها لدى القاضي، وما دام الوكيل قد راعى شروط الوكالة، فزوج المرأة من الشخص الذي حددته هي وبالمهر الذي حددته.

الحج والعمرة بالتقسيط

ما حكم الحج والعمرة بالتقسيط؟

●● الجواب: من المقرر شرعًا أنه يصح بيع الأعيان بثمن حال وبثمن مؤجل إلى أجل معلوم، والزيادة في الثمن نظير الأجل المعلوم جائزة شرعًا على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء؛ لأنها من قبيل المرابحة، وهي نوع من أنواع البيوع الجائزة شرعًا التي يجوز فيها اشتراط الزيادة في الثمن في مقابلة الأجل؛ لأن الأجل وإن لم يكن مالًا حقيقة إلا أنه في باب المرابحة يزاد في الثمن لأجله إذا ذكر الأجل المعلوم في مقابلة زيادة الثمن؛ قصدًا لحصول التراضي بين الطرفين على ذلك، ولعدم وجود موجب للمنع، ولحاجة الناس الماسة إليه بائعين كانوا أو مشترين ولا يعد ذلك من قبيل الربا؛ لأن القاعدة الشرعية أنه إذا توسطت السلعة فلا ربا، والخدمات التي يتعاقد عليها هي في حكم السلعة.

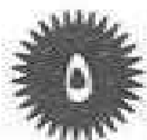
ولا فرق بين المنافع والأعيان في جواز التعاقد عليها وبيعها؛ قال الإمام ابن قدامة الحنبلي في المغني (٥/ ٢٥١، ط. دار إحياء التراث العربي): «والمنافع بمنزلة الأعيان؛ لأنه يصح تمليكها في حال الحياة وبعد الموت، وتضمن باليد والإتلاف، ويكون عوضها عينًا ودينًا، وإنما اختصت باسم كما اختص بعض البيوع باسم، كالصرف والسلم» اهـ.

وقال الفقيه ابن حجر الهيتمي الشافعي في فتاويه (٣/ ٩٣، ط. المكتبة الإسلامية): «المنافع كالأعيان؛ فالقيمة فيها ذاتية، وجد راغب بالفعل أم لا» اهـ.

ورحلات الحج والعمرة المنظمة بالشكل القائم حاليًا والذي تكون فيه تكاليفها: من انتقالات وإقامة ورسوم موانئ وأشباه ذلك محددة سلفًا ويتم الاتفاق فيها بوضوح بين الطرفين: الجهة المتعهدة بالرحلة من جهة والحاج أو المعتمر من جهة أخرى لا تعدو أن تكون نوعًا من الخدمات التي يكون التعاقد عليها من قبيل التعاقد على المنافع أو المنافع والأعيان معًا، وهذا جائز شرعًا وتأخذ هذه الخدمات حكم السلعة في إمكان التعاقد عليها بثمن حال أو مقسط بمقدم أو بغير مقدم وبزيادة في السعر مع التقسيط أو بغير زيادة، ويجوز عندئذ دخول جهة ثالثة أو أكثر للتمويل أو الوكالة أو السمسرة ودفع الجهة المموِّلة للمال حالًا وتحصيله من المستفيد من الرحلة (الحاج أو المعتمر) بزيادة في الثمن مقابل الأجل لا مانع منه شرعًا؛ لتوسط الخدمات المعلومة القدر والوقت القائمة مقام السلعة حينئذ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الميراث والوصية



أ. د. صلاح الدين سلطان
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية



ميراث البنات وبنات الأبناء

أولًا: أدلة ميراثهن:

قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ (النساء: ١١).

وروى الترمذي بسند صحيح عن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك يوم أُحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالًا، ولا تنكحان إلا ولهما مال. قال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما قال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك»(١).

هذه الآية التي نزلت بناء على الواقعة الواردة في الحديث تبين ميراث البنت وبنت الابن؛ لأنها مثل البنت تمامًا.

ثانيًا: مقدار ميراث البنت:

يبدو من الآية والحديث أن فرض البنت كما يبينه الجدول التالي:

الورثة	السهم	الشروط	ملاحظات
البنت	بالتعصيب	المشروط إذا كان معها أخ يعصبها: للذكر مثل حظ الأنثيين	البنت ترث في جميع الأحوال، فلا تحجب حجب حرمان أبدًا، ولا يزيد حظ البنات عن الثلثين مهما كثروا
	١/ ٢	إذا كانت واحدة وليس معها أخ يعصبها	
	٢/ ٣	إذا كانتا اثنتين أو أكثر وليس معهن أخ يعصبهن	

(١) جامع الترمذي - كتاب الفرائض - باب ما جاء في ميراث البنات رقم (٢٠٩٢) وجاء في نيل الأوطار للشوكاني ([illegible]) رواه الخمسة إلا النسائي.

هناك اتفاق على أن ميراث البنت بالتعصيب مع الابن أو الأبناء، سواء كانت البنت واحدة أو أكثر، هو أنها تأخذ نصف الذكر، بناء على قاعدة: للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن لها النصف إذا انفردت ولم يكن معها أخ «ابن المتوفى» معصب. أما الخلاف فهو يتعلق بميراث البنتين؛ حيث يرى ابن عباس أن لهما النصف، وللثلاث فما فوق الثلثان، معتمدًا على ظاهر الآية

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾

(النساء: ١١)

وفوق اثنتين تعني الثلاث وما فوقها، أما الجمهور فيرون أن البنتين لهما الثلثان، استنادًا إلى الأدلة التالية:

١- إن سبب نزول آية المواريث هو شكوى زوجة سعد بن الربيع من أجل البنتين، ونزلت الآيات، وبعدها أمر النبي ﷺ أخا سعد بن الربيع أن يعطي البنتين الثلثين، وهذا الحديث مفسر للآية، ولا يعمل بتفسير ابن عباس إذا وجد النص النبوي المفسر، ويعتذر عن ابن عباس بأن الحديث لم يبلغه فوقف مع ظاهر الآية كما قال ابن حجر العسقلاني(٢).

٢- إننا لو قلنا حكم ما فوق الاثنتين أي الثلاث فما فوقهن الثلثان، فأين حكم البنتين؟ إن قلنا كما قال ابن عباس: لهما النصف كان هذا مخالفًا لظاهر بقية الآية ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، وهو ظاهر في كون النصف للواحدة فقط.

٣- إن من كانت تأخذ النصف منفردة مثل الأخت الشقيقة أو لأب تأخذ الثلثين إذا كن فوق ذلك «اثنتين فصاعدًا» ولا يعقل أن تأخذ الأختان الثلثين وتعطى البنتان النصف مع كونهما أقرب إلى الميت، وزيادة القرابة تزيد في العطاء أو لا تنقصه على الأقل.

٤- إن الله تعالى يقول:

﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾

(الأنفال: ١٢)

والمقصود اضربوا الأعناق، فوق هنا صلة، فيمكن اعتبار فوق هناك كذلك(٣).

ثالثًا: امثلة على ميراث البنت:

(١)

الورثة	زوجة	أب	أم	بنت ابن
الأسهم	١/٨	١/٦	١/٦	ق.ع للذكر مثل حظ الأنثيين
الأصل ٢٤	٣	٤	٤	١٣
السبب	وجود الفرع الوارث			الابن عصبة للبنت

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٢/١٧)
(٣) المغني لابن قدامة (٩/١٢)

(٢)

الورثة	زوج	أب	٤ بنات	ابن
الأسهم الأصل ١٢ السبب	١/٤ ٣	١/٦ ٢	ق.ع للذكر مثل حظ الأنثيين لأن الابن عصبة للبنت	
	وجود الفرع الوارث			

(٣)

الورثة	أب	أم	بنتان
الأسهم الأصل ٦ السبب	١/٦ + ق.ع ١ + ٠ وجود فرع وارث مؤنث	١/٦ ١ وجود فرع وارث	٢/٣ ٤ فرض البنتين حيث لا عاصب لهما

(٤)

الورثة	أب	أم أم	بنت
الأسهم الأصل ٦ السبب	١/٦ + ق.ع ١ + ١ وجود فرع وارث مؤنث	١/٦ ١ لا توجد أم وليست جدة للأب فيحجبها	١/٢ ٣ لأنهما واحدة وليس معهما عاصب

(٥)

الورثة	زوج	أب	٣ بنات	ابنان مرتدان	ملاحظات
الأسهم الأصل ١٢ السبب	١/٤ ٣ وجود فرع وارث	١/٦ + ق.ع ٢ + ٠ وجود فرع مؤنث	٢/٣ ٨ لا يوجد معهن عاصب فيرثن الثلثين	محرومان	اعتبر الابنان بحرمانهما لردتهما غير موجودين، فصار للأب السدس + الباقي تعصيبًا، وللبنتين الثلثان، ولو لم يكونا مرتدين كان الأب يستحق السدس فقط؛ لوجود الفرع الوارث المذكر، ولا تستحق البنات الثلثان، بل تكون عصبة مع الأثنين للذكر مثل حظ الأنثيين.

ثانيًا: ميراث بنات الابن:

أدلـة ميـراث بنات الابن هى أدلة ميراث البنات، فكما أن الجد يحل محل الأب عند عدمه، تحـل بنات الابن محل البنت عند عدمها. يقول ابن رشـد: «وأجمعوا علـى أن بنى البنين «ابن الابـن، بنـت الابن» يقومـون مقام البنين عنـد فقد البنيـن، يرثون كما يرثـون ويحجبون كما يحجبون» (٤).

ويقول ابن قدامة: «أجمع أهل العلم على أن بنات الابن بمنزلة البنات عند عدمهن فى إرثهن وحجبهن لمـن يحجبه البنـات، وفى جعل الأخـوات معهن عصبات، وفى أنهن إذا اسـتكملن الثلثين سـقط من أسفل منهن من بنات الابن. لأن ولد البنين أولاد، يقول تعالى: «يَبَنِيٓ ءَادَمَ» ويخاطب بذلـك أمة محمد ﷺ ويقول: «يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ» يخاطب بذلك من فى عصر النبى ﷺ منهم» (٥).

أمـا إذا اجتمعت مع بنـت الابن فإن ميراثها يوضحه الحديث الـذى رواه البخارى والترمذى وأبو داود وابن ماجه «أن أبا موسـى الأشعرى سـئل عن «ابنة وابنة ابن وأخت» فقال للسـائل: للابنة النصف وللأخت النصف ـ ولم يعط لبنت الابن شيئًا ـ وائت ابن مسعود فإنه سيتابعنى. فسئل ابن مسعود وأُخبر بقول أبى موسى فقال: قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضى فيها بما قضى النبى ﷺ: للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقى للأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم» (٦).

ومن ذلك يبدو ميراث بنت الابن كما يوضحه الجدول التالى:

الورثة	السهم	الشروط	ملاحظات
بنات الابن	بالتعصيب	إذا كان معهـا ابن ابن فى درجتها ولا يوجد أبناء صلبيين ولا بنات.	بنت ابن + ابن ابن بنت ابن ابن + ابن ابن ابن الحـالات الثلاثة الأول مثـل البنت تمامًا.
	١ / ٢	إذا كانـت واحدة وليس معهـا أبناء صلبيون ولا ابن ابن عاصب فى درجتها.	لا يشـترط فـى العاصـب أن يكـون أخاها بـل يمكن أن يكـون ابـن عمهـا.
	٢ / ٣	إذا كانتا اثنتين فأكثر بالشروط السابقة	إذا وجدت العاصب يسـمى هنـا الأخ المشئوم.
	١ / ٦	للواحـدة أو الأكثر مع البنـت الصلبية الواحدة، أو بنـت ابن أقرب منهـا إذا لم يوجد عاصب لها فى درجتها.	
	الحجب	إذا وجـدت بنات صلبيات أو بنتا ابن أعلى درجة إذا لم يوجد من يعصبها.	يسـمى العاصب هنا الأخ المبارك.
	الحجب	إذا وجد فرع وارث مذكر أعلى منها.	

(٤) بداية المجتهد (٢/ ٣٤٠، ٣٤١).
(٥) المغنى لابن قدامة (٩/ ١٠).
(٦) صحيح البخارى، باب ميراث ابنة ابن مع ابنة رقم (٦٧٣٦) ورواه أبو داود ـ كتاب الفرائض ـ باب ما جاء فى الصلب رقم (٢٧٧٠)، والترمذى باب ما جاء فى ميراث بنت الابن مع بنت الصلب رقم (٢١٧٣)، وابن ماجه برقم (٢٧٢١).

ولهذه الحالات الست تفصيل أبينه فيما يلى:

(١) أن ترث بنت الابن بالتعصب إذا كان معها فى درجتها عاصب:

الورثة	زوج	أب	ابن ابن + بنت ابن
الأسهم الأصل ٢٤ السبب	١/ ٤ ٦ لوجود الفرع الوارث	١/ ٦ ٤ لوجود الفرع الوارث المذكر	ق. ع للذكر مثل حظ الأنثيين ١٠ لأن ابن الابن عصبة لها

الورثة	زوجة	أب أب	ابن ابن ابن + بنت ابن ابن
الأسهم الأصل ٢٤	١/ ٨ ٣ وجود فرع وارث	١/ ٦ ٤ وجود فرع وارث مذكر	ق. ع ١٧ للذكر مثل حظ الأنثيين

(٢) وتـرث بنـت الابن النصـف إذا لم يوجد مـن يعصبها وكانت واحدة مثل البنت سـواء بسواء.

مثال:

الورثة	أم	أب	بنت ابن
الأسهم السبب	١/ ٦ لوجود الفرع الوارث	١/ ٦ + ق. ع لعدم وجود الفرع الوارث المذكر	١/ ٢ لأنها واحدة ولا يوجد معها عاصب

(٣) تـرث بنت الابـن الثلثين إذا كانتا اثنتين فأكثر وليس معهن عاصب ولا يوجد أبناء ولا بنات صلبيون:

(١)

الورثة	أم	أب	بنتا ابن
الأسهم الأصل ٦ السبب	١/ ٦ ١ وجود الفرع الوارث	١/ ٦ + ق.ع ١ + ٠ وجود الفرع الوارث المؤنث	٢/ ٣ ٤ لأنهما اثنتان ولا يوجد عاصب ولا أبناء أو بنات صلبيون

(٢)

الورثة	أب	ابن	بنتا ابن	أم
الأسهم الأصل ٦ السبب	١/ ٦ ١ لوجود الفرع الوارث المذكر	ق. ع ٥ لأنه أقرب عصبة	م لوجود الابن	١/ ٦ ١ لوجود الفرع الوارث

ويتضح بالنظر في المسألة الأولى أن بنتي الابن أخذتا الثلثين مع عدم وجود أبناء أو بنات، ولكن لما وجد الابن في المسألة الثانية أخذ الباقي بعد تصيب الأب والأم؛ لأنه أقرب عصبة من الذكور وأولادها، وتحجب بنت الابن عن الإرث ولكن لهما بحكم القانون وصية واجبة.

(٤) تأخذ بنت الابن السدس فقط إذا كان معها بنت واحدة أخذت النصف، فتأخذ السدس تكملة الثلثين وهو حظ النساء، إذا كن اثنتين فأكثر. هذا ما لم يكن بحذاء بنت الابن ابن يعصبها أو بنت ابن ابن معها ابن ابن ابن يعصبها، وهو يسمى القريب المشئوم (٢) أو الأخ المشئوم وإليك الأمثلة.

(١)

الورثة	زوج	أب	أم	بنت	بنت ابن
الأسهم الأصل ١٢ السبب	١/٤ ٣ لوجود فرع وارث	١/٦ + ع ٢+٠ لأن بالمسألة عولا لوجود فرع وارث مؤنث	١/٦ ٢ لوجود فرع وارث	١/٢ ٦ لأنها واحدة ولا عاصب لها	١/٦ ٢ تكملة الثلثين

(٢)

الورثة	زوج	أب	أم	بنت ابن	ابن ابن + بنت ابن
الأسهم	١/٤ لوجود فرع وارث مذكر	١/٦	١/٦	١/٢	ق.ع ولكن لم يبق لهما شيء ولذلك سمي الأخ المشئوم

في هذين المثالين يتضح ما يلي:

١- أن البنت أخذت النصف وأخذت بنت الابن السدس تكملة الثلثين حيث لم يوجد ابن ابن يعصبها.

٢- أن بنت الابن في المسألة الثانية لما وجد معها ابن ابن صارت معه عصبة يرثان ما تبقى بعد أصحاب الفروض؛ ولما لم يتبق شيء من التركة بعد أصحاب الفروض سمي ابن الابن هنا القريب أو الأخ المشئوم؛ إذ لولاه لورثت بنت الابن السدس، وعلى كل لا يكون ابن الابن شؤمًا على بنت الابن دائمًا، ففي الحالة التالية يكون الابن مباركا على أخته أو ابنة عمه.

٥- أن تحجب بنت الابن بالبنتين لأنهما أخذتا نصيب النساء فرضًا، لكن إن وجدت مع بنت الابن من يعصبها أخذت معه الباقي من التركة تعصيبًا، وهو القريب أو الأخ المبارك، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

(١)

الورثة	أم	بنتان	بنت ابن
الأسهم الأصل ٦	١/٦ ١ لوجود فرع وارث	٢/٣ ٤ لعدم وجود من يعصبهما	م هنا تجب لها وصية واجبة بنص القانون

(٢)

الورثة	أم	بنتان	بنت ابن + ابن ابن
الأسهم	١/٦	٢/٣	ق.ع للذكر مثل حظ الأنثيين وهذا هو الأخ المبارك

(٢) سموه القريب المشئوم: لأنه قد يكون ابن عمها وليس أخًا شقيقًا لها مثل بنت ابن محمد وابن ابن علي - ومحمد وعلي أخوان فبنت الابن وابن الابن أولاد عمومة وليسوا أشقاء

يلاحظ هنا أن بنت الابن لم ترث في المثال الأول؛ لأن البنتين أخذتا الثلثين، فلا يوجد للنساء إذا اجتمعن (من نوع واحد) غير ذلك، وليست بنت الابن عصبة تأخذ الباقي، وقد بقي سهم فعلًا في التركة يرد على الأم والبنتين، ولكن إذا وجد مع بنت الابن ابن ابن، أو كانت بنت ابن ابن معها ابن ابن ابن عصبها وورثت الباقي تعصيبًا للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو الأخ أو القريب المبارك.

ولا مانع هنا أن يكون العاصب أنزل منها درجة، فلو كان مع بنت الابن: ابن ابن ابن ورثت معه بالتعصيب، مثل:

الورثة	زوجة	٣ بنات	بنت ابن + ابن ابن ابن
الأسهم السبب	١/٨ وجود فرع وارث	٢/٣	ق.ع للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن ابن ابن الابن عصب بنت الابن وإن كان أنزل منها درجة لحاجتها إليه

(٦) الحالة الأخيرة وهي الحجب المطلق إذا وجد فرع وارث ذكر أعلى منها فتحجب بنت الابن بالابن، وتحجب بنت ابن الابن بابن الابن مثل:

الورثة	زوج	ابن	بنت ابن
الأسهم الأصل ٤	١/٤ ١ لوجود الفرع الوارث	ق.ع ٣ لأنه أقرب عصبة	م لوجود الابن

الورثة	زوج	ابن ابن	بنت ابن ابن
الأسهم الأصل ٤	١/٤ ١	ق.ع ٤	م لوجود ابن الابن

هذه حالات بنت الابن، وهي تشبه في الثلاث الأول البنت وتنفرد بالحالات الثلاث الأخرى، ومن الواضح أنها تختلف عن البنت في كون بنت الابن تحجب أحيانًا، لكن البنت لا تحجب أبدًا.

وفي ميراث البنت وبنت الابن جاء في متن الرحبية ما يلي:

فالنصف فرض خمسة أفراد
الزوج والأنثى على انفراد
وبنت الابن عند فقد البنت
والأخت في مذهب كل مفتي
والثلثان للبنات جمعا
ما زاد عن واحدة فسمعا

وهو كذاك لبنات الابن
فافهم مقالي فهم صافي الذهن
وبنت الابن تأخذ السدس إذا
كانت مع البنت مثالاً يحتذى
ثم بنات الابن يسقطن متى
حاز البنات الثلثين يا فتى
إلا إذا عصبهن الذكر
من ولد الابن على ما ذكروا

امثلة على ميراث بنت الابن:

(١)

الورثة	أربع بنات + ابن	بنات ابن
الأسهم	التعصيب للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن الابن عصب البنات	محجوبة بالابن والبنات

(٢)

الورثة	زوجة	٣ بنات	بنت ابن ابن ابن	أخ ش
الأسهم السبب	١ / ٤ لوجود فرع وارث	٢ / ٣ لأنهما فوق اثنتين	ق.ع للذكر مثل حظ الأنثيين	محجوب بالابن وابن الابن

(٣)

الورثة	بنت ابن	الابن
الأسهم السبب	١ / ٢ البنت واحدة ولا تحتاج إلى ابن ابن الابن	ابن ابن ابن ق.ع لأنه أقرب رجل ذكر

(٤)

الورثة	أم	بنت	بنت ابن	بنت ابن ابن ابن ابن ابن
الأسهم السبب	١ / ٦ لوجود فرع وارث	١ / ٢ لأنها واحدة ولا يوجد لها عاصب في درجتها	١ / ٦ تكملة الثلثين	ق.ع عصبها ابن أخيها وإن كان أنزل منها درجة

(٥)

الورثة	زوج	أب	أم	٤ بنات ابن
الأسهم السبب	١ / ٤ لوجود فرع وارث	١ / ٦ + ق.ع لوجود فرع وارث مؤنث	١ / ٦ لوجود فرع وارث	٢ / ٣ الثلثان وهو فرضهن إذا لم يوجد من يعصبهن

(٦)

الورثة	أب	أب أب	أم أب	بنت ابن
الأسهم الأصل ٦	١ / ٦ + ق.ع ١ + ٢	م محجوب بالأب لأنه يدلي به	م محجوب بالأب لأنها أمه ويدلي بها	١ / ٢ ٣ لأنها واحدة ولا عاصب لها

يتبع

دعوة الإسلام إلى إقامة العدل بين الرعية



فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

العدل اسم من أسماء الله - تعالى ، حث الإسلام على نشره وتعميمه، وأمر بإقامته بين الناس، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل: ٩٠) أي: أن الله - جل شأنه - يأمركم - أيها المسلمون - أمرًا دائمًا وواجبًا، أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - فى كل أحوالكم، لأن دعائم الملك لا تقوم، ولا ينتظم أمره، ولا يلتئم شمله إلا بالعدل، فبالعدل قامت السموات والأرضون، وبالعدل أسست الممالك، وبالعدل تسود المحبة والألفة بين الناس، وبالعدل يعيش أفراد المجتمع فى أمن وأمان، واستقرار واطمئنان.

إن أهم دعائم السعادة التى يسعى البشر إلى تحقيقها أن يطمئن الناس على حقوقهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم، وأن يأخذ كل ذى حق حقه.. وإنا لا نكاد نعرف شيئًا أبعث للشقاء والفتن، وأنفى للهدوء والاطمئنان بين الأفراد والجماعات، من سلب الحقوق، واغتيال الأقوياء حقوق الضعفاء، وتسلط الجبارين على الآمنين المسالمين، واستحواذ فئة أو جماعة على السلطة والنفوذ فى المجتمع يتحكمون فى مقدراته، ويبطشون بمن يخالفهم فى الرأي.. وينكلون بمن يعارضهم فى الفكر.. وليس من ريب فى أن هذه الظواهر - التى ينحرف بها أهلها عن سنن الله ونظامه فى كونه - أشد ما يقطع الصلات، ويورث الأحقاد، ويثير أعاصير الكيد والانتقام، ويهدد المجتمع بالأخطار التى تحمل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد..

ولأن العدل من أمهات الفضائل التى حرص الإسلام على نشرها وتعميمها بين الناس كان أول ما قرره الإسلام حفظًا لكيان المجتمع البشري، مبدأ العدل والدعوة إليه وتحقيقه بين الناس، عنى به القرآن الكريم فى آياته المكية والمدنية، وحذر من مقابله وهو الظلم فى آياته المكية والمدنية، أمر به أمرًا عامًا وخاصًا.

أمر به أمرًا عامًا حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا من الشنآن والبغض ما تنوء بحمله القلوب:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨)

أي: يا أيها الذين آمنوا بالحق إيمانًا صادقًا، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم أن تقوموا لله وحده بالحق فى كل ما يلزمكم القيام به، ومن العمل بطاعته، واجتناب منهياته، وليكن من شأنكم - أيضًا - أن تلتزموا العدل فى شهادتكم، ولا يحملنكم عداوة قوم على عدم العدل معهم، لأن عدم العدل فى الأقوال والأحكام يتنافى مع تعاليم دين الإسلام الذى آمنتم به، ورضيه الله لكم دينًا، والعدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصي، وإلى صيانة النفس عن الوقوع فى المهالك قال صاحب الكشاف فى قوله:

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨)

نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله: ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، أي: العدل أقرب للتقوى، وأدخل فى مناسبتها، وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه(١)

ومن هنا جعل الله العدل واسطة حبات العقد، الذى كون به لرسوله منهج الدعوة الإصلاحية، التى حملها إياه إنقاذًا للبشرية من ظلمات الجهل والبغى والعدوان:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١٥)

أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرًا عامًا، دون تخصيص بنوع دون نوع، ولا بطائفة دون طائفة، لأن العدل نظام الله وشرعه، والناس عباده وخلقه، يستوون - أبيضهم وأسودهم وذكرهم وأنثاهم، مسلمهم وغير مسلمهم - أمام عدله وحكمه.

وأمر الله بالعدل على وجه خاص فى شئون كثيرة يحدث فيها من وجوه الاضطراب والظلم والانحراف عن الحق.

أمر به فى الأسرة، وجعله شرطًا فى الإقدام على تعدد الزوجات:

(١) تفسير الكشاف ج ١

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾

(النساء: ٣)

وقد جعل الله هنا مجرد الخوف من الجور مانعًا إباحة ما أباحه الله وشرعه، وهو تعدد الزوجات، وأرشدنا بهذا إلى أن إباحته لشيء ما مشروطة بسلامته من الضرر والإيذاء، وأنه متى صحبه ضرر أو إيذاء وجب منعه، وخرج عن أن يكون مباحًا، وهذه قاعدة تشريعية، تلقاها أئمة الفقه والتشريع بالقبول فى كل العصور، وكان لها من الآثار الحسنة فى السياسة الشرعية ما استقام به المعوج، وتعبد به السبيل الشائك.

كذلك أمر الله - تعالى - بالعدل أمرًا خاصًا فى كتابة الوثائق التى تحفظ بها الديون وتحدد شروط الالتزام بين المتعاملين، وقد نزلت فيه أطول آية فى القرآن الكريم وهى قوله - تعالى - فى آخر سور البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾

إلى قوله - تعالى -:

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾

(البقرة: ٢٨٢)

كذلك أمر الله - تعالى - بالعدل فى الشهادة، والعدل فيها يتناول أداءها على وجهها دون كتمان أو تحريف:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

(البقرة: ٢٨٣)

وتكرار الأمر فى القرآن الكريم بالعدل فى الشهادة يؤكد على أهمية العدل فيها، لما يترتب عليه من إثبات الحقوق ودفع الضرر، وقد خوف رسول الله ﷺ من التزوير فى الشهادة والكذب فيها، فعن أبى بكرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثًا - قلنا: بلى: قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس.. وكان متكئًا فجلس، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت) (٢)

كذلك أمر الله - تعالى - بالعدل فى الحكم والقضاء، واعتبره نوعًا من أداء الأمانات:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

أي: أن الله - تعالى - يأمركم - أيها المؤمنون - أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق.. سواء أكانت هذه الحقوق لله - تعالى - أم للعباد، وسواء كانت فعلية أم قولية أم اعتقادية، ويأمركم - أيضًا - إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائمًا على الحق والعدل، فإن الله - تعالى - ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا أصابها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

ما أحوجنا اليوم كى نصلح حالنا، ويزول كربنا، ونسترد عافيتنا ويعود إلينا أمننا - إلى نشر العدل بيننا، وأن نطبقه قولاً وعملاً فى جميع جوانب حياتنا، وأن يلتزم بتنفيذه كل واحد منا فى موقعه.

(٢) البخاري

مقاصد الشريعة.. أفق إنسانى لخير البشرية



د. وصفى عاشور أبو زيد
دكتوراه فى مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75@gmail.com

من رحمة الله تعالى بهذه البشرية أنْ أسس أحكام شريعته على مقاصد وغايات، وحكم وأسرار وأهداف، لولاها ما شُرعت الشرائع، وحُلل الحلال، وحرم الحرام، وإن التوتر والقلق والاحتراب الذى يسود عالمنا المعاصر سيظل فى هذا الاحتراب والقلق والاضطراب ما دام يعيش بمعزل عن مقاصد الشريعة الغراء التى تكفل للأفراد والمجتمعات والأمة والعالم كله، قيم الحق والعدل والخير والجمال.

ذلك أن الشريعة الإسلامية - كما قال العلامة المحقق ابن قيم الجوزية فى عبارته الشهيرة التى صارت علمًا يُهتدى به - مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإنْ أُدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله فى أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهى نوره الذى به أبصر المبصرون، وهداه الذى به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذى به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذى من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهى قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح؛ فهى بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير فى الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص فى الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوى العالم، وهى العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله - سبحانه وتعالى - خراب الدنيا وطى العالم رفع إليه ما بقى من رسومها، فالشريعة التى بعث الله بها رسوله هى عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة»(١).

(١) إعلام الموقعين: ٣/٥ دار الحديث.

إن تحكيم مقاصد الشريعة والفكر المقاصدى في الحياة يثمر لنا صلاحا وخيرًا ورشادًا على مستويات عدة، منها:

أولا: مستوى الفرد

فالفرد حين تكفل له حقوقه وتصان كرامته، ويحفظ دينه ونفسه وماله ونسله وعقله وعرضه يعيش - لا شك - في أمن وأمان، وسِلْم وسلام، ويكون هناك اتساق على مستواه الفردى بينه وبين نفسه، وانسجام روحي يشعر بأثره في داخله، ومن هنا ينبعث الأمن النفسى الذى ينبثق من الإيمان بالله وشريعته:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

(الأنعام: ٨٢)

هذا الفرد إذا تحقق له هذا كله فإنه يحيا فردًا صحيحًا سليما نفسيًا وبدنيًا، آمنًا روحيا وقلبيا، ومن ثم يكون قادرًا على العطاء والبذل والإنتاج، والقيام بمقتضيات الخلافة والعمارة والعبادة بمفهومها الواسع، وهو ما ينعكس على الأسرة استقرارًا وبقاء، وتنشأة سوية سليمة صحيحة، كما ينعكس على المجتمع والأمة والعالم: عطاء وخيرية وجمالا وجلالا، وتقدمًا وازدهارًا، وسعيًا لعمل الخير ونفع الغير وخير العمل.

ثانيا: مستوى المجتمع

ينبنى على تحقيق مقاصد الشريعة للفرد تكوين أسر سوية مستقيمة، ومن ثم يُسْهِم هذا كله في إقامة مجتمع متماسك مترابط قوى متعاون، ويضاف لهذا أنه حين تُحقق مقاصد الشريعة الاجتماعية في المجتمع، من أمن اجتماعي، ومساواة، وحرية بضوابطها، وعدالة اجتماعية، وكرامة إنسانية، لا جرم يصبح مجتمعا مثاليًا، متعاونًا يستحق أن يكون مجتمعًا إنسانيا بحق، تتحقق فيه معاني الإنسانية جميعا.

ويناط بمؤسسات الدولة جزء كبير من تحقيق مقاصد الشريعة في المجتمع، ابتداء بالحاكم وانتهاء بأصغر موظف في الدولة، من خلال قيام المؤسسات بواجبها قضاء وتشريعا وتنفيذا؛ فإن الله تعالى - كما أُثر عن عمر وعثمان رضى الله عنهما - يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وقد قال عبدالله بن المبارك:

الله يدفع بالسلطان معضلة
عن ديننا رحمةً منه ودنيانا
لولا الشريعةُ لمْ تأمَنْ لنا سُبُلٌ
وكان أضعفُنا نهْبًا لأقوانا

ثالثا: مستوى التيارات والمدارس

وهذا المستوى ضمن المجتمع بحثنا تفرده بالحديث لأهميته، والحاجة في واقعنا المعاصر، فما تشهده مجتمعاتنا العربية، وبخاصة في بلاد الربيع العربى اليوم يستحق التوقف أمامه: رصدًا أمينًا، وتحليلا عميقًا، وتقديمًا لحلول واقعية مناسبة.

ولن نجد حلولا أفضل من تحكيم مقاصد الشريعة خاصة، والفكر المقاصدى عامة، فحين تتفق التيارات والمدارس السياسية على هدف أو غاية محددة فإننا لن نشهد تنازعًا ولا استقطابًا ولا احترابًا؛ فضلا عن التدمير والتحريق والقتل والتخريب؛ وسوف ينحرف سير المدارس السياسية في مجتمع ما بقدر انحرافها عن المقاصد المشروعة عامة وخاصة، سواء كانت مقاصد للشارع أو مقاصد بمعنى النيات الخالصة الصالحة، والتى يجب أن تنضبط بها وتعمل تحت ظلها..

نعم، قد نختلف في الوسائل والآليات في الوصول للغاية المنشودة، لكن هذا الاختلاف في النهاية سيكون مشمولا بالتقدير والاعتبار، ولن يتجاوزه إلى ما نراه اليوم في بعض بلادنا حديثة العهد بالحريات وممارسة السياسة الحقيقية؛ إذ غياب الهدف أو المقصد يحل محله النزاع والخلاف وسعة الفجوة وبعد الهوة بين التيارات، ويحل محل الهدف الأهواءُ الشخصية، والمآرب الحزبية، والمصالح الذاتية، والفتنة الطائفية، ويدور كل فريق حول تحقيق مصالحه الخاصة دون اعتبار للمصلحة العامة التى يجب أن تقدَّم وتصدَّر ويكون لها الاهتمام وعليها التركيز بعيدا عن تحقيق المآرب الشخصية واتباع الهوى.

رابعا: مستوى الأمة

أما مستوى الأمة وهو المستوى الإسلامي الكبير فمتى تحقق هذا المستوى بمقاصد الأمة وفق منهج الوسطية، فسوف يمكنها من أداء دورها المنشود، وهو دور قيادة العالم وتحقيق الشهود الحضاري:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة: ١٤٣)

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

(الحج: ٧٨)

ولن يتحقق هذا المستوى للأمة من القيادة والريادة والشهادة إلا إذا كانت أمة واحدة:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وإلا إذا أعدت ما يحقق أمنها وردع أعدائها "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ"[٢]، وتحققت بقوله الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

(الأنفال: ٦٠)

وقد لفت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - نظر الأمة إلى أن مجرد الانتساب إلى هذه الأمة وحده لا يكفي، ففى حجة حجها رأى الناس على هيئة غير مرضية، فقرأ قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

ثم قال: "يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها"[٣].

---

(٢) جزء من حديث رواه البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا.
(٣) تفسير الطبري: ٣/ ١٠٢ مؤسسة الرسالة.

يقول د. عبد المجيد النجار: «وهذه الشروط الحضارية التى تخضع لها الأمة الإسلامية ابتداء هى الشروط التى تخضع لها الأمم عامة فى الإنجاز الحضاري، والمتمثلة خاصة فى الفكرة الموجهة إلى غاية عليا فى الحياة، وفى البيئة الجغرافية المساعدة على الفعل الحضاري، وفى الدافعية الحضارية المتمثلة فى الانفعالية النفسية والإرادية بالفكرة والبيئة انفعالية تدفع على النهوض الحضاري... فإذا تخلف شرط من هذه الشروط، فلم يتوفر ابتداء، أو اختفى بعد وجود، كان لذلك أثر فى العجز عن القيام الحضاري، أو فى الغياب بعد الشهود، والكبو بعد النهوض(٤).

إذن فالنظر إلى مقاصد وجود هذه الأمة بمقتضى مسئوليتها نحو الأمم يفضى بنا إلى الأخذ بالتدابير التى تحقق هذه المقاصد، والقيام بالأسباب الممكنة والشروط الواجبة التى توقفنا على الهدف من إيجاد هذه الأمة، وهو إرشاد هذه البشرية لما ينفعها ويسعدها فى المعاش والمعاد.

خامسًا: مستوى أهل الأديان

لا يخفى اليوم ما نراه من اختلاف بين أهل الأديان يولده الصراع السياسى الذى يتبنى – فى مجمله – على أسس دينية، وهذا من أشد ما يمكن أن يهدد أمن المجتمعات، الذى يبدده الصراع الطائفي والفتن الاجتماعية التى تندلع من هذا الصراع.

وقد خلق الله الناس مختلفين فى اللغات والعادات والقيم والعقائد والأفكار والأعراف، استنادًا للآية القرآنية:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(المائدة: ٤٨)

ومن الحق هنا أن نقرر أن حديثنا ليس هدفه الوحدة بين الأديان أو التقريب بين الأديان، فهذا ليس واردا بين المذاهب والطوائف فضلا عن الأديان، وهو ما بذلت فيه محاولات كثيرة ومضنية ولم تثمر نتائج توازى الجهد الذى بذل فيها، وإنما الحديث هنا عن «أهل» الأديان، والاتفاق بينهم جميعا على أسس للعيش المشترك فضلا عن العيش الواحد عبر الأسس الاجتماعية والمقاصد الإنسانية التى تجمع الناس ولا يختلفون فيها، وتوثق الروابط ولا تقطعها، وتحقق قوة النسيج الاجتماعى فى المجتمع، فإن صياغة المجتمعات القوية فى نسيجها وروابطها ووشائجها من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية.

والحق أن إعلاء راية الفكر المقاصدى هنا والعمل تحت مظلتها، وتفعيلها، من شأنه أن يعمل على تقريب العلاقات، وتوسيع المساحات المشتركة والمتفق عليها، وتقليل المساحات المختلف فيها، ما دام هذا كله ينبنى على رعاية الآداب الإنسانية والرقى فى لغة الحوار، ومن هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)،

وقوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

(النحل: ١٢٥)

وليس معنى هذا تمييع القضايا أو تداخل المساحات واختلاط الساحات، وإنما إعلاء راية الفكر المقاصدى هدفه تحقيق العيش المشترك، وتعزيز الأمن الاجتماعي، وتقوية العلاقات والوشائج، ولا يعنى التنازل عن الأصول والثوابت، فالله تعالى قرر أن لكل شرعة ومنهاجًا.

سادسًا: مستوى الإنسانية

إذا كان لتفعيل مقاصد الشريعة أثره وانعكاساته على الفرد والأسرة والمجتمع والأمة وأهل الأديان جميعا؛ فإن لهذا حصاده وانعكاساته على خير البشرية ومصلحة الإنسانية.

ولم يخلق الله تعالى الأمة المسلمة لكى تنغلق على نفسها أو تتقوقع على ذاتها، وتحتكر الخير والنور لنفسها، وإنما أخرج الله هذه الأمة لتنفع الناس وتوصل لهم الخير كله وتمنع عنهم الشر كله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

فانظر إلى قوله تعالى ﴿لِلنَّاسِ﴾! فالأمة المسلمة ليست ملكا لنفسها، وإنما ملك للناس جميعا، تعمل لصالحها ولخيرها ولما فيه سعادتها فى الدارين، فواجب الأمة المسلمة بعد أن اهتدت بنور الله: أن تهدى الآخرين إليه، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم وتدعوها إلى الخير الذى أكرمها الله به(٥).

وللشريعة الإسلامية مقاصد فى مجال الإنسانية، أهمها: التعاون والتعارف والتكامل، وتحقيق الخلافة العامة للإنسان فى الأرض، وتحقيق السلام العالمى القائم على العدل، والحماية الدولية لحقوق الإنسان، ونشر دعوة الإسلام(٦).

***

وهكذا؛ فإن تفعيل مقاصد الشريعة فى مجالات الحياة المختلفة يتيح لنا أفقا إنسانيا رحبًا، على مستويات: الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية جمعاء.. إننا اليوم فى حاجة ماسة لرفع راية الفكر المقاصدى فى مرحلة دقيقة تمر بها الأمة تريد فيها النهوض، وترنو فيها للوحدة والقوة والتماسك واستعادة دورها المنشود.. وتاريخنا كله يخبرنا بأن الفكر المقاصدى كان يُستلهم ويُستنزل فى مثل هذه الفترات؛ فهو أحد الضمانات الكبيرة لخير أمتنا وخير الإنسانية جمعاء.

(٤) عوامل الشهود الحضاري: ٢/٦، دار الغرب الإسلامي.

(٥) مدخل لمعرفة الإسلام: ٢٧٠-٢٧١ د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.

(٦) نحو تفعيل مقاصد الشريعة: ١٦٥-١٧٢ د. جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر بدمشق.

الإعلان العالمى لحقوق العباد[1] فى خطبة الوداع والبلاغ

الدكتور رشيد كهوس
أستاذ بكلية أصول الدين تطوان جامعة القرويين
عضو الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين

فى العام العاشر من الهجرة النبوية (وفق٦٣٢م) حج سيدنا رسول الله ﷺ حجته الوحيدة وفيها خطب الناس "خطبة الوداع" أو "خطبة البلاغ والتمام والكمال"، والتى وضع فيها دعائم ما جاهد فى سبيله ثلاثة وعشرين عامًا، وبيَّن فيها أهم حقوق العباد فى الإسلام.

فصاح فى الأمة بهذه الكلمات الشاملة الجامعة لكثير من حقوق الناس وواجباتهم فى الإسلام، فقال:

(أَيُّهَا النَّاسُ: اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا؛ أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ، قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لا رِبَا، وَإِنَّ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ وَأَنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ

(١) لا نجد في موروثنا الفقهي القديم عبارة "حقوق الإنسان"، وإنما نجد حقوق الآدميين، وحقوق العباد. ومصطلح حقوق العباد – كما يقول الشيخ مصطفى بنحمزة – هو استعمال يجمع بين الإشارة إلى إنسانية الإنسان وما له من حقوق، وبين كونه عبدا لله يجب أن ينضبط بهديه وشريعته، فيظل في مستوى العبودية حتى لا يحيل قضية حقوق الإنسان إلى ذريعة ومطية لاقتراف الظلم والغشم باسم حمايتها، وهو ما تذرع به الاستعمار الفرنجي فعلا، وهو يستولي على بلاد كثيرة زاعما أنه يحمي حقوق الأقليات الدينيـة أو العرقية، ويدافع عن الحقوق الثقافية للمجموعات الإثنية، ولم يكن كل ذلك إلا غطاء حقوقيا ومقدمة لاستنزاف خيرات الشعوب ماديا، ولخلخلة تماسك نسيجها المجتمعي، ولطمس هويتها وتشويه قيمها.

أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ النَّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ.

وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ.

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيِّنًا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ تَعَلَّمُنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ فَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَلا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ فَقَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ)([2]).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ خَارِجَةَ قَالَ بَعَثَنِي عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (فِي حَاجَةٍ وَرَسُولُ اللَّهِ) وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ فَبَلَّغْتُهُ ثُمَّ وَقَفْتُ تَحْتَ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ (وَإِنَّ لُعَامَهَا لَيَقَعُ عَلَى رَأْسِي، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: (أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ وَإِنَّهُ لا تَجُوزُ وَصِيَّةٌ لِوَارِثٍ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا([3]) وَلا عَدْلا([4]))([5]).

قال ﷺ فى خطبته ([6]) العظيمة يوم عرفة فيما رواه عنه جابر بن عبد الله: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟) قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/٤٦٦ وما بعدها، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة، ح٢٩٥٠، سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، ح٣٠٧٤.
(٣) صرفا: التوبة (٤) عدلا: الفداء (٥) سيرة ابن هشام، ٤/٤٦٢.
(٦) لما أحس النبي ﷺ بدنو أجله بعد اكتمال الدين وتبليغ ما أنزل إليه من رب العالمين، خطب في عرفات خطبته هذه الجامعة، وفي يوم النحر بمنى خطب خطبة ثانية، وفي أوسط أيام التشريق خطبة أخرى، وهي تأكيد لبعض ما جاء في الخطبة الأولى، وتكرار الخطبة في هذه الحجة أمر لابد منه لحاجة المسلمين إلى ذلك، وليبلغوا عنه ويحسوا بثقل الأمانة الملقاة على عاتقهم، ويبلغوها إلى من لم يحضر إلى يوم القيامة.

وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا(٧) إِلَى النَّاسِ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)(٨).

وخطب خطبة ثانية يوم النحر فقال: – فيما رواه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَخَذَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ فَقَالَ: (أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟)، قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، فَقَالَ: (أَلَيْسَ بِيَوْمِ النَّحْرِ؟!)، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟)، قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟!)، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟)، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ – قَالَ – حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: (أَلَيْسَ بِالْبَلْدَةِ؟!)، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)، قَالَ: ثُمَّ انْكَفَأَ إِلَى كَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ فَذَبَحَهُمَا وَإِلَى جُزَيْعَةٍ مِنَ الْغَنَمِ فَقَسَمَهَا بَيْنَنَا(٩).

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ (فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى..)(١٠).

لقد قرر النبي ﷺ في هذا المؤتمر العام للمسلمين – الحج الأكبر – بخطبه الثلاث حقوق العباد في الإسلام، والتي تمثل قضية العصر في كثير من مجالات السياسة الدولية، لدرجة أنه لا تكاد تخلو نشرة إخبارية أو وسيلة إعلامية إلا ولموضوع "حقوق الإنسان" نصيب ومساحة فيها، مع العلم أن العالم قد احتفل بالذكرى ٦٤ للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨م.

وهنا نقف مليا مع بنود هذه الخطبة العظيمة نسلط عليها بعض الأضواء لنستضيء بنورها الوضاء، ونبين أهم بنود حقوق العباد التي رسم النبي ﷺ دائرتها العامة.

١ – عبادة الله ومعرفته في قوله ﷺ: (أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ)، (..إِلَّا بِالتَّقْوَى)، (اتقوا الله..)، وهذا من أهم حقوق العباد وأعظمها، ويتجلى هذا الحق في أن يملئوا خواءهم الروحي بعبادة الله وطاعته ومحبته، وينأوا بأنفسهم عن متاهات التردي وغياهب النفس الأمارة بالسوء، ذلك الحق الذي يفتقده الإنسان في العالم المعاصر، حق الإنسان في أن يعبد ربه ويتبع أوامره ويجتنب نواهيه، حق الإنسان في أن يلوذ بربه، ويأنس إلى خالقه، ويحتمي بأمنه ويركن إلى كنفه، ويسأله أن يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

٢ – الحق في الحياة والأمن الفردي بصون الحياة وعصمة الإنسان وتحريم العدوان عليه، وتحريم سفك الدماء، في قوله: (إن

(٧) ينكتها: معناه يقلبها ويرددها إلى الناس مشيرا إليهم. صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/٤٢٣.
(٨) صحيح الإمام مسلم، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة، ح٢٩٥٠، سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، ح٣٠٧٤.
(٩) صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض، ح٤٤٧٨.
(١٠) مسند أحمد بن حنبل، ٥/٤١١. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

دماءكم وأموالكم عليكم حرام..)، ويلحق بحرمة الدماء حرمة الجراح وحرمة التعذيب البدني أو النفسي أو تقييد الحرية، ويلحق بها حرمة ترويع المسلم والقتل والتقاتل والتحريض والفرقة.

كما نص هذا البند على تحريم الثأر والانتقام لما قد وقع قبل الإسلام بقتل أفراد عشيرة القاتل، في قوله: (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ) أي مهدورة لا قيمة لها ولا اعتبار.

٣ – تقرير مبدأ الأخوة والمساواة: (وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ)، (وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ..إلا بالتقوى)، إن المساواة بين البشر هي نقطة البداية في تحقيق المجتمع الأفضل، فلا يفضل أحد على أحد إلا بمعيار واحد وهو التقوى.

٤ – حق الملكية الخاصة للأفراد وحقوق الأمن الاجتماعي في قوله ﷺ: (..وأموالكم..)، (لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)، (لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ)، بهذه الحماية الإسلامية للحقوق تتهيأ عناصر التماسك والاستقرار، وهو ما يكفل للناس الأمن الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين.

٥ – التكافل الاجتماعي: تقرر الوثيقة النبوية أن المسلم أخو المسلم، وهذا مبدأ أصيل في نظام الإسلام، في قوله ﷺ: (كُلُّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ).

٦ – أداء الأمانات في قوله ﷺ: (وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ)(١١).

وتشمل الأمانة بين الإنسان وربه وذلك بالتقيد التام والالتزام بشرع الله وما فرضه من أحكام، كما تشمل الأمانة بين الإنسان وأخيه، وهي قيام الإنسان بما عليه من حقوق تجاه أخيه، سواء كانت حقوقا واجبة بحكم الشرع، أم فرضتها معاهدات ووعود وعقود، وسواء كانت حقوقا مالية كالنفقة والزكاة وثمن البيع.. أم غير مالية كبر الوالدين ورعاية الأبناء وحسن معاشرة الأهل، ورعاية حق الجار والصديق.. وأعظم الأمانات وأشدها خطرا الحقوق الواجبة بين الراعي ورعيته.

٧ – إبطال الربا في قوله ﷺ: (وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ.. قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رِبَا).

٨ – حفظ العرض إن حُرمة الأعراض في الإسلام عظيمةٌ، لذا فمن أعظم الظلم: التجني على أحد من المسلمين، أو التعرُّض له وفق عواطف عمياء، وتبعيَّة بلهاء، فالواجب على من يخاف مقام ربه ويخشى المُثول بين يديه: البعد عن الخوض مع الخائضين بقيل وقال، وألا يُشغل نفسه بما يخدش دينه، ويُعرِّضه لغضب ربه.

ومن الإثم المبين التسارُع في نشر أخبار خالية عن الحقيقة ولا يعضُدها دليل وإشاعات عارية عن الصحة، وترديد أحاديث لا يسنُدها برهان، وسوء الظن بالمسلمين، وحملهم على محامل السوء والشكوك.

وإن إصدار الأحكام على أحد من المسلمين بدون بيان أسباب شرعية، ولا حُجج قطعية، ولا براهين صحيحة، ولا أدلة واضحة أمرٌ قبيحٌ في الإسلام، يُسبِّب الشر

(١١) هذه الزيادة من مسند أحمد في روايته عن أبي حرة الرقاشي عن عمه مسند أحمد بن حنبل، ٣٤/٣٠٠.

الخطير، ويُحدثُ البلاء الكبير، ومن حادَ عن منهاج رسول الله ﷺ، فقد وقع في اللُّجج الباطل، والحمق المحجوج، وصار همّازًا لمّازًا، مُتحاملاً على المسلمين، مُنحرفًا عن الجادة، تاركًا للإنصاف.

وإن الخوض في أعراض المسلمين أو التعدى عليها أو الاستهانة بها حفرة من حُفر النار، يكاد أن يقع المرء فيها، ولهذا قرر الإسلام صون سمعة الإنسان وشرفه ومنع العار عنه ومن كل ما يخدش شرفه وعفته وحرمته، في قوله ﷺ: (..وأعراضكم..).

٩ - حفظ الأنساب وتحريم التبني: (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا).

لقد حرص الإسلام على حفظ الأنساب وصيانتها، وجعلها من مقاصد الشارع الضرورية، فحث على الزواج الشرعي، وحرّم الزنا لما يترتب عليه من اختلاط الأنساب، كما نهى أن يدعى المرء لغير أبيه، وحرم على المسلم أن يلحق بنسبه شخصا ليس من صلبه أو يتبناه، لما فيه من اختلاط النسب والتعدى على حقوق الآخرين من الورثة وغيرهم.

١٠ - حقوق الأسرة: صانت حجة البلاغ والتمام والكمال للمرأة أنوثتها وكرامتها، وحضت على تكريمها ورعايتها، وحفظت لها حقوقها الزوجية، فلا تستجدى في حقوقها، بل عدّت حقوقها واجبات على الزوج وأمانة في عنقه، في قوله ﷺ: (فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ)، (وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًا)، وهذه أهم أسس حقوق المرأة في الإسلام: (أداء حقوقها، ومعاشرتها بالمعروف، والإحسان إليها، والنفقة عليها؛ وتشمل المطعم والملبس والمسكن، وإشراكها في التغيير والبناء..)، وتظل هذه الحقوق حكما تشريعيا ماضيا على مر الأزمان، يسمعه القاصى والدانى، ويعرفه الرجال والنساء، وتظل الخطبة النبوية دعوة مترعة بالشفافية والرحمة والمحبة لحماية حق المرأة، ووضعها في مكانها الكريم..

إن دين الإسلام قد حرر المرأة منذ أكثر من خمسة عشر قرنا فقد حررها أولا من عبوديتها لغير الله تعالى وكفى بها حرية.

ثم حررها من الوأد.. ألم يأت الإسلام ليحرم وأد البنات ودفنهن أحياء خوفا من العار.. وهل يخفى على أحد أن الإسلام قد أعطاها غاية ما يتمناه أى إنسان ألا وهو الحياة!!!!

ألم يحث الإسلام على تربية البنات ورعايتهن والإحسان إليهن.. ألم يعط الإسلام للبنات حقوقهن الكاملة في الإرث والمعاملات المالية؟

ألم يجعل الإسلام للمرأة ذمتها المالية الخاصة، وحقوقها المادية التى لا يجوز لأحد أن ينال منها أو يستبيحها؟ فأعطاها الحق في التملك، وفى إبرام العقود ونقضها، فتبيع وتشترى وتتصدق، وأعطى لها حقها في التعليم، وحقها في المشاركة في الحياة العامة!!!

أضف إلى ذلك ما حققه الإسلام من طموحات المرأة المشروعة؛ فقامت المرأة المسلمة بالمشاركة في تشييد صرح مجتمع العمران الإسلامى وبناء جماعة المسلمين الأولى في ظل النبوة والخلافة الراشدة الأولى.

لكن المرأة المعاصرة اليوم تركت كرامتها تحت الشعارات المزيفة التى لا تمت للحقيقة بشيء، وانجرفت مع تيار كاسح، يكاد يختزل المرأة وقيمتها ووظيفتها في الجسد المزوق والمظهر المنمق المعروض في كل مكان، والمبذول لكل راغب في المتعة الحرام، فأى حق وأى حرية لها في ذلك؟..!!!

إن المرأة اليوم تعيش بين نارين؛ نار الدعوات التغريبية التحررية ونار المخلفات الانحطاطية وهى شقيقة الرجل تعانى من أزمة السكن، والعمل بأجور بخسة، وتعسف الرجل يطلق على هواه ويطرد من البيت الأم والأطفال، والإعلام المهيج المسعور، وشوارع تنشر فيها الرذيلة، وتبرج المترفات يلعنه بؤس البائسات، والبغاء العلنى والسري، والتخلف الحضاري، والانحطاط الأخلاقي، والهزيمة، واستعباد المدنية، والمعاملة المهينة للبدوية، والأمية الأبجدية، والجهل، واستغلال الصبيات في معامل تأكل من عرقهن البطون الحرامية، وإكراه الفتيات على الزواج.

أضف إلى ذلك ما وقع عليها من غبن التقاليد وما يقع عليها من مسخ التغريب، هذا المسخ ما تمكن إلا لمكان ذلك الغبن.

١١ - تحديد الأنصبة في المواريث والوصية في قوله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ وَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ وَصِيَّةٌ لِوَارِثٍ).

إن نظام المواريث والوصية في الإسلام فصلت أحكامه الآيات ١١ و١٢ و١٧٦ من سورة النساء، والآية ٦ من سورة الأحزاب، وأجملت الآيات ١٨٠ و١٨٢ و٢٤٠ من سورة البقرة أحكام الوصية، كما ورد بعضها في الحديث النبوى والإجماع.

وقد بينت الشريعة الإسلامية الغراء أحكام المواريث بيانا محكما بذكر أنصبة أصحاب الفروض بكسورها الحسابية الدقيقة ٢ / ١، و٣ / ١، و٤ / ١، و٦ / ١، و٨ / ١، و٣ / ٢.

كما بين هذا النظام ميراث ذوى الأرحام، وميراث العصبات، وحالات حجب الحرمان وحجب النقصان وقواعد الوصية في الآيات المذكورة في صياغة تشريعية بيانية معجزة، عزّ نظيرها.

والمتأمل في نظام المواريث في الإسلام يلحظ أنه أعدل نظام للتوريث عرفه الإنسان على مر التاريخ، حيث أعطى لكل ذى حق حقه دون زيادة أو نقصان، ولم يحرم المرأة من الميراث كما يجرى في بعض النظم الأخرى في القديم والحديث، ومنها نظم أوروبية تقصر الإرث على الزوجة والأبناء، وتمنع وارثات كثيرات لا يرثن إلا في النظام الإسلامى الذى يبلغ عدد المستفيدين من الإرث فيه ٣٠ شخصا بين نساء ورجال على المعتمد، هذا مع قدرة المورث من حرمان المرأة والرجل معا من الإرث عن طريق الوصية ولو لحيوان.

أما الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل في الإرث، فإنهم جاهلون بنظام المواريث في الإسلام، لأن مطالبتهم توحى بصيغتها بأن المرأة في كل الأوضاع ترث نصف ما يرثه الرجل، وكان هذا هو الحكم المبدئى والنهائى في القضية، وهو ما ييسر الاسترسال في الوهم إلى درجة ادعاء انحياز

الإسلام للرجل في قضية التوريث.

والواقع العملي يفيد أن الحالات التي يفضل فيها الرجل المرأة في الإرث لا تتجاوز في مجموعها ١٦,٣٣٪ من أحوال الإرث، وفي باقي الحالات قد تتساوى المرأة مع الرجل، وقد تفضله، وقد ترث هي ويحرم الرجل.

ففي حالة إرث الأب والأم إذا كان للميت ولد ذكر فإن كلا منهما يرث السدس، ويرث الإخوة لأم بالتساوي ذكورهم كإناثهم، ويرث الإخوة الأشقاء بالتساوي بين ذكورهم وإناثهم في حالة واحدة هي المعروفة بحالة المشتركة، وهي الفرضية التي فيها: زوج وأم أو جدة ومتعدد من الإخوة للأم وأخ شقيق فأكثر، وفيها ينزل الشقيق منزلة الأخ للأم فيشارك الإخوة للأم في الثلث، ويرث معهم بالتساوي بين الذكور والإناث.

وفي حالات أخرى ترث المرأة ويحرم أخوها لو وجد مكانها، كما لو تركت امرأة زوجا وأختا شقيقة وأختا لأب فللزوج نصف التركة، وللأخت نصفها الآخر، لكن الأخت للأب لا يمكن أن تحرم، لأن نصيبها محدد بالسدس فيعاد ترتيب التركة وتقسم على سبعة أجزاء، للزوج ٣ وللأخت الشقيقة ٣ وللأخت للأب ١، ولو كان مكان الأخت لأب أخ لأب فإنه لا يرث شيئا، لأن نصيبه غير مقدر، وهو يرث بالتعصيب إن بقيت بقية فقط.

ولو وجدت في التركة بنت يقابلها ١٠٠ من الإخوة لقسمت التركة على ٢٠٠ ولكان للبنت ١٠٠ جزء، ولكان لكل واحد من الإخوة جزء واحد.

أضف إلى ذلك أن أكبر الفروض في القرآن الكريم هو: (٢ / ٣)، وهذا الفرض لا ترثه إلا المرأة والنصف لا يرثه من الرجال أحد سوى الزوج، وفي حالة قليلة الوقوع، وترثه أربع نساء، والثلث ترثه الأم في حالة والأخوات لأم عند التعدد، ولا يرثه من الرجال سوى الإخوة لأم، وقد تكون معهم أخوات لأم، أما السدس فترثه خمس نساء وثلاثة رجال، والربع للزوج في حالة، وللزوجة في حالة، والثمن لا ترثه إلا الزوجة.

فأي عدل كهذا، ابحث في جميع الأنظمة في السابقين واللاحقين والمعاصرين فلن تجد نظاما أعدل من نظام الإسلام.

وكل هذا يفيد أن الإسلام ليس له موقف مبدئي يمكن تلخيصه في إرث المرأة نصف ما يرث الرجل كما يتوهم ذلك من لا علم له بأحكام الإرث.

وفي جميع الحالات التي يرث وارث أكثر من غيره فإن ذلك لا يجوز أن يؤخذ على أنه تكريم لمن زاد حظه أو إهانة لمن ورث أقل، لأن رؤية الشريعة لتقسيم الإرث تتجه إلى تحقيق مقاصد عليا وحكم سامية، من أبرزها توجه الشريعة إلى توسيع قاعدة المستفيدين مع ما يستتبع ذلك من تفتيت الثروة وعدم تركيزها في أيد قليلة، ومن المستفيدين نساء كثيرات لا حظ لهن من الإرث في كثير من نظم الإرث العالمية.

فليس توزيع العطاء في نظام الإسلام مرتبط بكرامة الأشخاص أو بمكانتهم، فقد كان رسول الله ﷺ يعطي الفرس من الغنيمة سهمين، ويعطي الفارس سهمًا واحدًا، ولم يأخذ الناس ذلك على أن فيه معنى الانحياز للحيوان على حساب الإنسان، وإنما فهم منه أن فيه تشجيعًا على تربية الخيل وعلى العناية بها، وإعانة على مواجهة تكاليفها في التغذية والصيانة - كما يقول الشيخ بنحمزة: - .

١٢ - التحذير من طاعة الشيطان: في قوله ﷺ: (فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ..).

لقد جاء الإسلام لكي يستأصل عبادة الشيطان بصيغها الفاضحة المنكرة ويقضي على سطوته وهيمنته على مقدرات الإنسان وسلوكه ومصيره، ولكن تبقى ثغرات ومسارب صغيرة هنا وهناك قد يعود لكي يتسلل منها مرة أخرى ويبدأ نشاطه من جديد. فهنا يحذرنا سيدنا رسول الله (بألا ندع هذه الفرصة لخصمنا الأبدي "إبليس" وأن نقطع الطريق عليه، بالتآلف بيننا ومحبة بعضنا بعضا، والعض على ديننا بالنواجذ.

١٣ - الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في قوله: (وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيِّنًا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ).

أوصى النبي ﷺ بالاعتصام بالكتاب والسنة وهما المخرج من كل ضيق والدواء لكل داء والأمان من كل تيه وشقاء وضلال وزيغ، إنه تأكيد على ميراث النبوة العظيم الذي سيتركه فيهم، فيمكنهم من مواصلة الحياة الوضيئة التي نقلهم إليها؛ كتاب الله تعالى وسنة حبيبه المصطفى ﷺ شرط أن يعرفوا كيف يكون الالتزام والاعتصام، وإلا فإنه الضياع.

وهكذا كانت هذه الوثيقة النبوية جامعة لمبادئ حقوق العباد في الإسلام، تضمنت الكثير من القيم والمبادئ والممارسات التي جاء الإسلام كي يزرعها في العالم فيحيي بها مواته، ويفجر العيون في صحرائه، ويحيل صحراءه المجدبة إلى حديقة غنّاء يحيا في ظلالها الإنسان سعيدًا متوحدًا مطمئنًا.. وهي السبيل إلى الاستقرار الأسري والتوازن الاقتصادي والتكامل الاجتماعي والتعارف الإنساني، قياما بواجب الدعوة إلى هذا الدين بالتي هي أحسن.

وتعتبر هذه الحقوق إلزامية في ديننا الإسلامي، لأنها من أحكام الشريعة ومبادئها، فهي تكليفات وواجبات لا مجرد توجيهات ونصائح، وهذا قوله ﷺ: (وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَّغْتُ)، أضف إلى هذا أن تلك الحقوق تتصل بمقاصد الشريعة الغراء ومطالبها وأبعادها الغائية، والتي تمثل عناصر الفطرة وبواعثها، فحفظ الدين والحياة والمال والعقل والعرض هي المقاصد الضرورية في النظام الإسلامي، ولذلك وضع الإسلام أحكامًا تفصيلية لحفظ الدين وتحرير الإنسان من كل عبودية غير عبوديته لله تعالى، وأمره بطاعته وحذره من نزغ الشيطان وعداوته، كما وضع أحكاما لحفظ الدماء والأنفس فيما يسمى بأحكام القصاص، وأحكاما أخرى تفصيلية لحفظ المال والملكية، وكذلك فصل في أحكام صون العرض، سواء فيما يتصل بإلحاق العار بالآخرين، أم انتهاك العرض بجريمة الزنى.

تأملات فى السيرة النبوية

بنو المصطلق وحديث الإفك

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

قلت لك كان الأقدار هيأت لابن سلول أن ينفث سمومه وقد اهتبل هذه الفرصة بكل ما يملك من ذكاء شيطانى ، وحقد وكراهية للإسلام والمسلمين ولرسول الله ﷺ . وقد هيأت له الظروف فرصة فاقت أكثر أحلامه جنونًا فبعد أن انتهت المعركة وقفل جيش المسلمين راجعًا إلى المدينة ورسول الله ﷺ قائدًا منتصرًا يحفه المسلمون المظفرون من كل جانب حط الجيش رحاله ليستريح من عناء السفر ومشقة المعركة وقد توزع الرجال كلٌّ يبغى راحة نفسه ، يقضى حاجته ، وأمسى عليهم الليل وألقى الليل عليهم سدوله ، والنساء خرجن لبعض حاجتهن يقضين من شأنهن ما لم يكن يستطعن أن يفعلنه بالنهار ، وكانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها هى من وقع سهمها لتخرج مع رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة ، ولما كانت فى بعض شأنها سقط عقدها فعادت تلتمسه ، ولما رجعت وجدت الجيش قد رحل فأسقط فى يدها ، تقول _ رضى الله عنها _ : فجلست مكانى فغلبنى النوم فنمت فقلت فى نفسي : لعلهم يدركون فقدى فيرجعون إلىّ فى مكاني . وكان من عادة النبى ﷺ أن يجعل رجلًا من الجيش فى مؤخرة الركب علّه أن يجد شيئًا نسيه الجيش أو أحد أفراد الجيش تخلف لسبب وفاته الركبُ ، وتلك حكمة القائد _ قائد الجيش وقائد الركب وزعيم الجماعة . فكان صفوان بن المعطل هو هذا الرجل ، فتفقد مكان الجيش فوجد سوادًا لم يتبينه فى أول الأمر ، ولما اقترب منه أدرك أنها امرأة أخذ يسترجع ويحوقل حولها فتبين أنها السيدة أم المؤمنين عائشة _ رضى الله عنها _ لأنه كان يعرفها قبل نزول آية الحجاب . تقول _ رضى الله عنها _ : ما زال يسترجع ويحوقل حتى انتبهت فقرّب إلىّ راحلته فركبتها وسار حتى أدركنا الجيش ولما يدخل المدينة وكانت هذه فرصة لابن سلول هيأتها له الأقدار فاهتبلها وأشاع ما أشاعه فى الجيش وفى مجتمع المدينة كلها ، وكان لابد أن يسايره فى نزقه وطيشه ضعاف النفوس والأحلام فخاضوا فى الحديث بلا روية أو تقدير لما يترتب على كلامهم وأكاذيب ابن سلول واستسهلوا الأمر ؛ ولذلك جاء تعبير القرآن الكريم بكلمة تدل على منتهى النزق واللامبالاة فى تلقى هذا الأمر ، يقول الله تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وفى هاتين الكلمتين منتهى الدقة والصدق فى التعبير على تلك الحالة التى هوت إليها عقول الخائضين فى الإفك مع أن الذى يتلقى الكلام هما الآذان والعقل ، لكن هؤلاء كأنهم يتحفزون إلى سماع الوشاية ويرددونها بألسنتهم دون وعى ثم يلقونها فى مجتمع الناس دون روية أو حذر أو إدراك لما يترتب عليها من إفساد . ولذلك نجد تناول الحدث فى القرآن الكريم فى منتهى الدقة والأمانة والاعتبار والتحذير ووضع احتمالات الأمر كله فى إطار من الترشيد والتحذير والوعى فى بناء المجتمع المسلم ، وهيا بنا إلى رحاب القرآن الكريم لترى وتسمع كلمات القرآن حيث يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

تصدر الآيات حكمها البات القاطع بأن ذلك إفك وبهتان وافتراء ، ثم ينبه المسلمين منذ هذا الحدث إلى يوم الدين ؛ لأن كل إفك ليس من اللازم أن يكون شرًّا بل فى باطنه الخير ؛ حيث إنه يوجب على المجتمع الإسلامى الوعى والحذر : الوعى بالدُّخلاء المنافقين والحذر من أساليبهم المدمرة ، ثم على المجتمع الإسلامى أن يتلمس أبواب الخير ومواضع القوة فيه وما يجب أن يتبعه المسلمون فى مواجهة مثل هذا القول . فلا تظن أن الإفك شر كله بل هو خير لكم حيث بينت الآيات أبواب الخير وكيف نواجه ذلك الداء المدمر ، يقول الله سبحانه وتعالى موجبًا حسن ظنّ المؤمنين بأنفسهم رافضا ما يمكن أن يشين أى فرد من أفرادهم ، فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا" فتلك آفة لابد من بترها فى مهدها بإحسان الظن بالناس ؛ لأن شرارة سوء الظن وشرّها تسرى فى المجتمع مسرى النار فى الهشيم . حذار أيها المؤمنون .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أنه فى حالة حدوث أو وقوع هذا الأمر لابد أن يكون هناك شهداء أربعة ، وإذا لم يتحقق _ ولا يكاد أن يتحقق _ فالذين جاءوا به هم الكاذبون :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لأنكم تلقيتم الإفك بأحلام مريضة وقلوب مرجفة ، ومن الواجب أن يعرف المؤمن أن جوارحه وحواسه مسئول عنها :

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

فتلقيتم أنباء الفتنة بألسنتكم فهاأنتم رددتموها بألسنتكم قبل أن تصل إلى عقولكم وتحدثتم بأفواهكم باستهتار تحسبون أن الأمر هين وهو عند الله عظيم ، هلا إذا سمعتم هذا الإفك قلتم ليس لنا أن نتكلم بهذا سبحانك يا الله هذا بهتان عظيم . ثم يختم الله هذه الآيات بقوله سبحانه محذرًا متوعدًا منبها :

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وإلى لقاء آخر إن شاء الله .

صبية صحابة.. وصبايا صحابيات.. أثرهم وأثرهن فى المسلمين «٣»

أسماء بنت الصديق وأبناؤها



للدكتور: على الخطيب

«أسماء» من الصبايا اللاتى عاصرن الدعوة: منذ أوحى الله ــ تعالى ــ بها إلى سيدنا رسول الله ﷺ أى أنها عاشت سنيها المكية كلها حتى لحظاتها الأخيرة التى ودعت فيها والدها ــ رضى الله عنه ــ ورسول الله ﷺ منطلقين إلى المدينة المنورة.

و«أسماء» أخت غير شقيقة للسيدة عائشة أم المؤمنين، فأم عائشة هى السيدة «أم رومان» بنت عامر الكنانية، أسلمت مع الصديق، كما أسلمت عائشة ــ رضى الله عنهم ــ.

وأم أسماء هى «قتيلة بنت عبدالعزى» ويبدو ــ والله أعلم ــ أنها أولى نساء الصديق ــ رضى الله عنه ــ تزوجها قبل البعثة.. وعاشت زوجة له زمن ميلاد طفلين: أسماء وعبدالله، ثم اختلفا فطلقها الصديق ــ قبل البعثة ــ كذلك.

وقد أسلم عبدالله وأسلمت أسماء، فأما قتيلة الوالدة فقد ظلت وثنية ــ يقينا ــ إلى ما بعد «عهد الحديبية» الذى كان بين رسول الله ﷺ وقريش، فقد جاء فى «الحديث الصحيح» من رواية البخارى ومسلم(١) ــ أنها أتت زائرة لابنتها «أسماء» فى المدينة بعد هذا العهد الذى كان فى السنة السادسة من الهجرة، ونص على قيام الهدنة بين الفريقين.

وقول السيدة أسماء فى هذا الحديث الصحيح: «قدمت علىّ أمى وهى مشركة» لا يعنى دوام شركها بعد، فقتيلة قرشية، وقد ثبت إسلام القرشيين جميعًا فى غزوة الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة، على أن الغموض يكتنفنا، إذا تساءلنا: هل كانت قتيلة يومئذ فى الأحياء؟ والجواب عسير.

ومع كل هذا الغموض فى السيدة قتيلة نجد الإمام ابن الأثير فى كتابه «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» استفتح «حرف القاف» بالترجمة لها، فهى صاحبة الرقم (٧٢٠٧) فى جزء الصحابيات، وفيه ذكر عن «جعفر»

(١) صحيح البخارى ٢٤١/٤ ط المجلس الأعلى ــ صحيح مسلم ٤٦٢/٣ ط دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٥هـ.

أنه تأخر إسلامها(٢).. وليس ذلك ببعيد.. والله أعلم.

و«أسماء» تِرْبُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولِدَتُها؛ إذ الصحيح ــ فى ميلادها ــ أنها ولدت فى العام الخامس قبل البعثة، وهو نفس العام الذى ولدت فيه الزهراء ــ رضى الله عنهما ــ وقد نص ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ على أن «أسماء» تكبر «عائشة» بعشرة أعوام(٣)، وما ذهب إليه ابن كثير يعتبر أدق تاريخ وأقومه، وأوفقه التئامًا مع سنن العرب يومئذ، وإذا كانت عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنهت ثمانى سنين من عمرها بمكة، فتكون «أسماء» على ثمانى عشرة سنة من عمرها حين نزحوا جميعًا مهاجرين ومهاجرات إلى المدينة المنورة(٤) وهى ــ حينئذ ــ زوج الزبير بن العوام ــ رضى الله عنه ــ وفى بطنها جنينها الأول منه: عبدالله بن الزبير ــ رضى الله عنهم ــ أول مولود للمهاجرين فى السنة الأولى بالمدينة المنورة وقد أدرك هذا الصبى الصحابى ما لا يقل عن سبع سنوات من حياة رسول الله ﷺ واعيا لما رأى أو سمع منه فيها ﷺ.

***

و«عبدالله» أول أبناء أسماء وليس بآخرهم، فله الإخوة والأخوات: أشقاء وشقيقات: عروة والمنذر وعاصم والمهاجر، وخديجة الكبرى وأم الحسن وعائشة.

ولم يتعقب التاريخ منهم ما تعقب من عبدالله.. ولست أشك ــ إطلاقًا ــ أن من هؤلاء الإخوة والأخوات صبيا وصبية من الصحابة، وإلا كنا قاطعين بأن السيدة أسماء ظلت عشر سنين منذ مقدمها المدينة دون إنجاب، وذلك السفه بعينه، ولننظر فى أبنائها من بعد عبدالله ــ رضى الله عنه ــ.

فأما عاصم والمهاجر فقد ثكلتهما صغيرين.. جاء فى «الطبقات»: «وعاصم والمهاجر درجا»(٥) وذكر المصعب الزبيرى أن «المنذر بن الزبير يتلو عبدالله فى السن»(٦) وهى عبارة لا يخطئ معها من يفهم أنه تاليه فى الولادة، ولو اعتبرناه تاليه أو التالى لتاليه لكان صبيا صحابيا بدورة(ه) ــ رضى الله عنه ــ وأما عروة بن الزبير، فقد قال مصعب الزبيري: ولد عروة لست خلون من خلافة عثمان، وكان بين أخيه عبدالله عشرون سنة(٧).. وهذا التاريخ قريب جدًا من قول من قال: ولد فى آخر خلافة عمر.. ويعنى هذا التاريخ أنه ليس بصحابى. بقى ــ كذلك ــ أن نستنتج أن تكون كبرى بنات أسماء صحابية أيضًا.

وفى الحق أن مقاومة عبدالله بن الزبير للحكم المروانى الأموي، تلك المقاومة التى استغرقت تسع سنين كان لها أثرها العنيف فى طرح الغموض الكثيف على تاريخ تلك الأسرة، ليس ذلك فحسب، بل شمل غيمها

ابن الأثير ــ أسد الغابة ــ ٣٣٩/٣ ط الشعب.
ابن كثير ــ البداية والنهاية ٣٥١/٨ ط الريان طبعة أولى ١٤٠٨ هـ.
محمد بن سعد ــ الطبقات الكبرى ــ ٦٢/٨.
نفس المصدر ــ ١٠٠/٣.
أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيرى ــ نسب قريش ص٢٤٤ ط المعارف مصر.
فلقد أمر كائن فى مدى السنين العشر من مقدم أسماء ــ رضى الله عنها ــ المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.
ابن حجر العسقلانى ــ تهذيب التهذيب ــ ١٨٣/٧ ط مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ــ الهند حيدر آباد الدكن ١٣٢٦ هـ.

كثيرًا من النافع المفيد، فهذا هو الإمام «الحسن البصري» الذى اضطر اضطرارًا إلى إخفاء اسم «على بن أبى طالب» من مروياته فى الحديث الشريف، وهو من هو فى هذا العلم المبارك، وإن فى ذلك وحده لعبرة[٨].

٭٭٭

ولأسماء - هذه الصحابية الكريمة - التى التقت فى بيت أبيها يوميًا فى مكة برسول الله ﷺ وظلت تراه يوميًا بغار ثور عند الهجرة مصطحبًا أباها الصديق، ثم ترددت على بيته بالمدينة. لأسماء هذه - رضوان الله عليها - مروياتها فى الحديث الشريف؛ فروت عن رسول الله ﷺ وعن غيره، كما روت عن حوادث جاهلية، وروى عنها فضلاء كثر فى مقدمهم عبدالله بن عباس وابنها عروة وغيرهما، ولها فى «مسند أحمد» أربع وثمانون رواية[٩].

إن أسماء - رضى الله عنها - إحدى ثلاث أو خمس - على الأكثر - احتوشن السنة المكية التى عاصرنها فى صباهن، ورويـن النادرة الفريدة منها إلى حوادث البيئة وتاريخها حتى صرن عيونا علمية يعسر على الباحث الأمين أن يتجاوزها.

روى الإمام البخارى بسنده إلى عروة بن أسماء عن أمه أسماء - رضى الله عنها - قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا، مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول:

«يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري».

وكان يحيى الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[١٠].

وروت أسماء - رضى الله عنها - أرق حديث وأرحمه وأمتعه بالمؤمن - ومثله المؤمنة، إذا هو لقى ربه وثوى ضجيعا فى قبره، والحديث الشريف ساقه الإمام أحمد عن الثقات إلى محمد بن المنكدر قال:

«كانت أسماء تحدث عن النبى ﷺ قالت: قال ﷺ: إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنا حف به عمله: الصلاة والصيام، قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده.. قال: فيناديه: اجلس فيجلس، فيقول: ماذا تقول فى هذا الرجل، يعنى النبى ﷺ - قال: مَنْ؟ قال: محمد.. قال: أنا أشهد أنه رسول الله ﷺ.. قال: يقول: وما يدريك.. أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله.. قال: يقول «أى الملك»: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث.

قال: وإن كان فاجرًا - أو كافرًا - قال: جاء الملك، وليس بينه وبينه شيء يرده، قال: فأجلسه، قال: يقول: اجلس.. الحديث[١١].

والحديث نفسه، رواه بنفس المضمون سيدنا أبو هريرة - رضى الله عنه - وجاء فى صحيح «المستدرك» على شرط الإمام مسلم، وأقره الإمام الذهبي.. قال الإمام الحاكم بسنده إلى أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه -: «عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم - قال:

إن الميت يسمع خفق نعالهم[١٢] إذا ولوا مدبرين؛ فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من: الصدقة والصلاة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يمينه، فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اقعد، فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: ما تقول فى هذا الرجل الذى كان فيكم؟ وما تشهد به؟ فيقول: دعونى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، ولكن أخبرنا عما نسألك عنه، قال: وعم تسألونى عنه؟ فيقولون: أخبرنا عما نسألك عنه فيقول: دعونى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل ولكن أخبرنا عما نسألك عنه.. قال: وعم تسألوني؟ فيقولون: أخبرنا ما تقول فى هذا الرجل الذى كان فيكم، وما تشهد به عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه عبدالله، وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب من قبل النار، فيقال له: انظر إلى منزلك، وإلى ما أعده الله لك لو عصيت، فيزداد غبطة وسرورًا، ثم يفتح له باب من قبل الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك، وإلى ما أعد الله لك، فيزداد غبطة وسرورًا، وذلك قول الله - تبارك وتعالى:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

(إبراهيم: ٢٧)

قال أبو الحكم عن أبى هريرة، فيقال له: ارقد رقدة العروس الذى لا يوقظه إلا أعز أهله إليه - أو أحب أهله إليه.. وإن كان كافرًا.. الحديث[١٣].

٭٭٭

وشاركت أسماء - رضى الله عنها - فى غزوة اليرموك مجاهدة بجوار زوجها - رضى الله عنه -، وماتت أسماء بنت أبى بكر الصديق بعد قتل ابنها عبدالله بليال، وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين هجرية.

قيل: عاشت بعد قتله: عشرة أيام وقيل عشرون، وقيل: بضع وعشرون يومًا.

لقد عاشت وطال عمرها وعميت - رضى الله عنها - فكانت صابرة محتسبة، مثلما

(٨) قال الإمام علي بن المديني: مرسلات الحسن البصري التي رواها عنه الثقات - صحاح، ما أقل ما يسقط منها. وقال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد إنك تقول: قال رسول الله ﷺ وإنك لم تدركه؟ قال: يا ابن أخي لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك عندي ما أخبرتك، إني في زمان كما ترى - وكان في عمل الحجاج - كل شيء سمعتني أقول: قال رسول الله ﷺ فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمن لا أستطيع أن أذكر عليًا ا.هـ تهذيب راجع هامش (خلاصة تهذيب الكمال) للعلامة صفي الدين الخزرجي ص٦٦ ط أولى «الخيرية» ١٣٢٣ هـ.

(٩) انظر مسند أحمد بن حنبل ٦/٣٤٤ «الميمنية» ط١٣١٣هـ.

(١٠) صحيح البخاري ٦/١٦٨ ط المجلس الأعلى، وزارة الأوقاف المصرية.

(١١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٣٥٢.

(١٢) خفق نعال المشيعين.

(١٣) الإمام الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري - المستدرك على الصحيحين ١/٣٧٩ ط بيروت لبنان.

كانت على عقل كبير ودين متين، وقلب صبور.(١٤).

٭٭٭

عبدالله بن الزبير

صبى صحابى مميز، تستطيع أن تؤرخ بوجوده - تمامًا - كما تؤرخ بالهجرة، فهو أول قرشى نشأ بالمدينة المنورة فى بداية الهجرة، فهو والهجرة صنوان إلى أن مات.

تقول السيدة أسماء أمه بعد حملها به فى مكة: «فخرجت (أى مهاجرة) وأنا متم،(١٥) فأتيت المدينة فنزلت بقُباء فولدتُه بقباء، ثم أتيتُ به النبى ﷺ فوضعته فى حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل فى فيه، فكان أول ما دخل فى جوفه ريقُ رسول الله ﷺ، قالت: ثم حنكه بتمرة ثم دعا له، وبَرَّك عليه، وكان أول مولود وُلد فى الإسلام.»(١٦).. تعنى -رضى الله عنها-: فى المدينة للمهاجرين وكان عبدالله يقول: «هاجرت أمى، وأنا حَمْل فى بطنها، فما أصابها من مخمصة ولا وصب إلا قد أصابنى»(١٧).

«وبه كانت تَكَنّي عائشة أم المؤمنين، فقد طلبت إلى رسول الله ﷺ أن يجعل لها كُنية.؛ فقال لها - عليه الصلاة والسلام: تكنّي بابنك عبدالله بن الزبير، فصارت تُكنى. أم عبدالله..»(١٨).

وكان - رضى الله عنه - معاديًا للأموية ووليدتها المروانية، وتنازلهما يعنف حتى إذا مات يزيد بن معاوية(١٩) بويع لعبد الله بالخلافة، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، حتى إذا ولى عبدالملك بن مروان الخلافة سيَّر إليه جيشا بقيادة الحجاج بن يوسف، فنزل مكة وحاصر ابنَ الزبير أول ليلة من ذى الحجة سنة اثنتين وسبعين، وظل يحاصره حتى استطاع غلبته فقتله فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين هجرية(٢٠).

٭٭٭

صحب عبدُ الله السنوات العشر الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ حتى إذا فطن ووعى حمل من علم رسول الله ﷺ وكبار الصحابة والصحابيات ما يسر الله - تعالى - له من علم - ثم كبر - بعد - ووعى، فحمل أكثر وأكثر.

وكان طبيعيًا ألا يشارك - بسبب طفولته فى أى من غزواته - عليه الصلاة والسلام، حتى إذا اشتد عوده قام بنصيبه فى حماية الدولة وإقرار أمنها، بل انفرد فى الدفاع عن الدولة بموقف فريد، فحين اشتد عدوان الرومان - بشمال إفريقية - على المسلمين، أرسله سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بجند يعضد به عبدالله بن سعد بن أبى السَّرْح - حاكم مصر والمنطقة من قبل الخلافة، فذهب ابن الزبير مسرعًا إلى منطقة الواقعة، وكان «جُرجير»(٢١) الحاكم الرومانى يبسط نفوذه على المنطقة من «طرابلس ليبيا» إلى «طنجة» بأقصى الغرب من الشمال الأفريقى، حتى إذا رأى «جرجير» اندفع كالبرق من بين الصفوف، وألقى بنفسه عليه، وأرداه بطعنة قاتلة، وفتح بذلك الطريق إلى طنجة للجيوش الإسلامية، ثم عاد - من بعد - إلى المدينة(٢٢) حتى إن ابنة جرجير التى أهديت إليه تركها، فكانت لرجل من الأنصار.

٭٭٭

كان - رضى الله عنه - ثقة، روى الحديث الشريف، ورُوى عنه، فرَوَى عن رسول الله ﷺ وعن الزبير أبيه، وعن عُمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وغيرهم - رضى الله عنهم.

وروى عنه أخوه عروة، وابناه: عامر وعباد، وعَبيدةَ السَّلمانى وعطاء بن أبى رباح وغيرهم(٢٣).

أثبت الإمام أحمد - رضى الله عنه - بمسنده - ستة وثلاثين حديثًا لسيدنا عبدالله بن الزبير - رضى الله عنه - وهى - على نزارتها - جمعت أحكامًا ذات أهمية ماسة فى التيسير ببعض الأحكام. فقد روى عن النبى ﷺ قوله - فى الرضاع: «لا تُحرِّم المصة والمصتان» فكان فى الحديث فَرَجٌ كبير يعطى الفقيه سعة فى البصر بالأحكام وروى - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ فى فضل الأماكن، فقال: قال رسول الله ﷺ:

«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى هذا» أى فى مسجده ﷺ.

أى فتفضل صلاةُ المسجد الحرام صلاة المسجد النبوى بمائة ألف صلاة.

وروى فى الذكر؛ فعن هشام بن عروة بن الزبير، قال: كان عبدالله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة، حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، وله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

قال: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن «دبر كل صلاة»(٢٤).

وكان - رضى الله عنه - متفانيًا فى نفله من صلاة وصيام، لا يفوته قيام الليل، ولا يجاوز مواصلة الصيام، فإذا أراد مواصلة الصيام أفطر فى الأسبوع مرة، قال عبدالله ابن قطن: رأيت ابن الزبير يواصل من الجمعة إلى الجمعة.(٢٥).

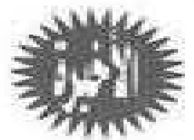
رضى الله - تعالى - عنه.

---

(١٤) ابن الأثير - أسد الغابة ٧/١٠ ط الشعب.
(١٥) الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد ٣٤٧/٦ (متم) على وشك إتمام حملها.
(١٦) الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد.
(١٧) المصعب الزبيري - نسب قريش ص٢٣٧ ط المعارف - مصر.
مخمصة: جوع. وصَبٌ: تعب.
(١٨) المصعب الزبيري - نسب قريش ص ٢٣٧.
(١٩) مات يزيد فى النصف من ربيع الأول بحمص سنة أربع وستين هجرية، وله ثمان وثلاثون سنة. شذرات الذهب للعماد الحنبلي سنة ٦٤هـ.
(٢٠) ابن الأثير - أسد الغابة ٣/٢٤٤ ط الشعب.

(٢١) يبدو - والله أعلم - أن اسمه «جريجوري» وأن العرب خففته هذا التخفيف.
(٢٢) راجع ابن الأثير - أسد الغابة ٣/٢٤٣ - والكامل فى التاريخ ٣/٨٨ - ٩٣ ط بيروت. وتاريخ الطبرى ٤/٢٥٦ ط مصر.
(٢٣) ابن الأثير - أسد الغابة ٣/٢٤٢.
(٢٤) مسند أحمد ٤/٥، ٨.
(٢٥) ابن الأثير - أسد الغابة ٣/٢٤٢.

علي الغاياتي.. شاعر الإسلام والوطنية





بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود

وشعر الغاياتي منغمس في السياسة والوطنية من منظور إسلامي يربط الدين بالوطن، ولذا يراه أحمد حسين الطماوي - محقق الديوان - من الشعر المتخصص بل يعده رائدا في مجال الشعر المتخصص، حيث شاعت في زمنه الدواوين المليئة بشعر الغزل والمدح والرثاء وغيرها من الأغراض الشعرية القديمة إلا أن «وطنيتي» جاء خاصا بشعر الوطنيات أو تغلب الوطنيات عليه حتى لو اشتمل على المديح والرثاء، فمديح محمد فريد ورثاء مصطفى كامل من الشعر الوطني الذي يعبر في ديوانه بمستوياته الفنية المتفاوتة عن شاعر آثر الانخراط في مشكلات عصره، ولم يعتزل عنها، ليحلق بأحلامه الغامضة في الآفاق المترامية، ولم يجعل الشاعر فنه لا يبارح الفن، وإنما رغب في أن يتحرك ويتواصل مع الناس.

(راجع: دراسة المحقق، ص ٣٨، ٤٣).

وبصفة عامة فالديوان مع أنه ديوان سياسي فهو يعد صورة لعصره وانعكاسا لأحداثه لأنه يصور المشاهد الحية في الواقع السياسي ويدون تقلباته، وأصداء ذلك في النفوس، فالغاياتي بحديثه عن تطلع المصريين إلى الدستور، ومصرع بطرس غالي، وعزل السلطان عبد الحميد، وإعدام الورداني، ودنجرا، وهتافه لنواب الشعب وهم يرفضون مشروع مد امتياز قناة السويس، وهجاء روزفلت الذي خيب آمال المصريين ومهاجمة قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة، ورحلات محمد فريد إلى أوربا ودعايته لمصر، وغير ذلك يسجل أحداث عصره، ويدون معطيات السياسة التي عاشتها مصر آبانئذ (السابق، ص٣٦).

العاطفة الدينية لدى الغاياتي تبقى محركة الأساس في شعره السياسي والوطني، بصفة عامة بيد أنه خصص بعض شعره للتعبير عن هذه العاطفة من خلال بعض المناسبات الإسلامية، ففي رحلة إلى الحج عام ١٩٤٧م، كتب قصيدة بعنوان: «في رحاب النبي» يقول فيها:

أنـــا عــاشـــق لـمـحـمـد

ولآلـــــــه وصـحـبـــه

وأحب ما في العيش عنـــدى ساعة في قربه

سر الوجود هو الحبيـــب وقلبه من قلبه

نـــور عـلــى نـــور تجلى

مــن ســمــاء محبه

فاخشع أمـــام بهائه

فـبـهـاؤه مــن ربـــه

لـبـيـتــه لــمـــا دعـا

وإذا دعـــــاك قـلـبـه

فـهـو الـبـشـيـر لـقـومـه

وهـو الـشـفـيـع لـحـزبـه

الـبـر مـــن آيـاتـــه

وهـدى الـــورى مـن دأبــه

هـو رحـمـة لـلـكـون طـرا

شـرقـــه أو غـربـــه

وهذا الحب للنبي - ﷺ - ينطلق من إيمان عميق بالله ورسوله، وثقة في أن الله سبحانه هو الذي يملك كشف الغمة وإزالة العسر، وهو أمر يتضح في شعر الغاياتي منذ بداياته أو شبابه، حيث نراه يتوجه بأبيات يناجي فيها ربه من أجل وطنه رغبة في أن يتداركها بلطفه حتى لا تجرى فيها الدماء:

رب إن البلاد أرهقها الظلـــم وحاقت بأهلها البأساء

رب إن الصدور أحرجها الوجـــد وأودت بحملها الأرزاء

فـتـداركـ لـطـفـكـ الـنـيـل حـتـى

لا تـجــارى حـيـاة مـصـر دمـاء

وإذا كان الشاعر يستغيث بربه من أجل وطنه فهو يشكو إليه ما يشعر به من ضيق ومن تقصير، ويرى أنه هو الذي يملك الأرزاق، ويقدر على العفو، وهو في كل الأحوال يشكو منه إليه. يقول في قصيدة عنوانها: «إلى الله - حرية الشكوى بين العبد وربه»، فيوجه خطابه إلى ربه قائلا:

خـلـقـت الـعـبـاد وأرزاقـهـم

فـمـنـهـم سـعـيـد ومـنـهـم شـقـي

وقـد سـاء حـالـي بـيـن الـورى

كـأنـي يـا رب لـم أخـلـق

فـإن أكـ عـبـدا فـمـن رازقـي

وهـا أنـا لـلآن لـم أرزق

ويطرح الغاياتي شكواه في إطار جدلي ويطمع في عفو ربه وكرمه ويختم قصيدته بقوله:

وشـكـواي مـنـكـ إلـيـكـ ومـا

لـعـبـدكـ غـيـركـ مـن مـعـتـق

والطريف أنه يوقع القصيدة باسم عبد الله الشاكي (ع. غ)، معبرا عن حاله البائسة اليائسة عندما كان في دمياط وطلب للقرعة العسكرية.

بيد أن الغاياتي عندما يتصدى للقضايا الوطنية ينسى أحواله الخاصة وينشد بمنتهى القوة معبرا عن وطنية تعتمد على الإيمان واليقين بانتصار وطنه، ولذا نراه يواجه أعداء الوطن بمشاعره مباشرة كما نرى في بيتيه اللذين كتبهما ضد اللورد «كرومر» الذي ألف كتابا بعنوان «مصر الحديثة» عقب خروجه من مصر وقد حشاه طعنا وقذفا في مصر والمصريين والإسلام والمسلمين، يتحدث على لسان كرومر قائلا:

خرجت من مصر مقهورا ومرذولا وصح أني تركت القصر معزولا

فقمت غيظا وألفت «الكتاب» وفي قلبي لهيب إذا ما أذكر النيلا

وتتجلى عاطفته الوطنية وهو يتناول زعماء الحزب الوطني بالمديح أو الرثاء، ففي مدحة لمصطفى كامل يسبغ على الزعيم الوطني صفات القيادة والقوة واقتحام الصعاب وسلامة المنطق، يقول في مطلعها:

اصــدع بقولك إن أردت مقالا
فالقوم جندك إن دعوت رجالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه
فترى به آلامها آمالا
أقبل على الوطن العزيز بصارم
لا تدرك الأعداء منه كلالا
وانشر به فوق الطروس حمية
تحكي حمية صنوه إن صالا

يوم رثى الغاياتي مصطفى كامل، كانت عاطفته متدفقة بحبه، ومازجة بينه وبين مصر والنيل والشرق، وفي ختام المرثية الطويلة يجعله فتى الشرق وخير أبناء البلاد وروح مصر الذي يفتديه بنفسه:

إنني أرثيك يا خير فتى
عبس الشرق له وابتسما
وبودي لو فدتك النفس يا
خير أبناء البلاد الأكرما
لك نفس لو يشاء الموت أن
يدع الغنم ويرضى المغرما
حكم الله ولا حول ولا
وله ما يرتضي أن يحكما
نم الآن هنيئا بعدما
عشت يقظان وعشنا نُوَّما
رحم الله صباك الغض يا
روح مصر وحباك النعما

وعندما يتعلق الأمر بالاحتلال ومقاومة الإنجليز، فإن نبرة الشاعر تشتد، ويوجه وعيده إلى المحتلين الغزاة كما نرى في قصيدة: نحن والاحتلال، التي يصور فيها ما فعله الانجليز الغزاة بمصر، ويتناول فيها أخلاق المحتلين ونقضهم للإيمان، وبعثهم للجهل. يقول في مطلع القصيدة:

كفكفي يا مصرُ دمعَ الوَجَلِ
وارتقبْ يا نيلَ نَيْلَ الأملِ
جاوزَ الصبرُ المدي، والصدرُ
لم يَبقَ فيه الوجدُ من مُحْتَمَلِ
كم شقاء! كم بلاء كم أذى!
أى حال بعد ذا لم يحل؟
كل يوم حادث مستقبل
ليت شعرى ما حديث المقبل؟

وبعد أن يستعرض الغاياتي حال مصر تحت الاحتلال ولزم الإنجليز، يوجه خطابه إلى الشعب المصرى ليثير حميته داعيا المصريين إلى النهوض واليقظة لمواجهة الشر ودفعه بعيدا:

أيها الشعب أفق ولى الظلا
م ولاح النور للمستبصر
فدع النوم وقف مستخبرا
هل لمصر في الورى من خبر؟
سائل التاريخ عنها إنه
صادق الأخبار جم العبر
فانهض اليوم ولا ترقب غدا
وادفع الشر بسيف الحذر
إنما الآلام آمال وفي
قدرة الشعب مدار القدر

والقصيدة من القصائد القليلة التي تنوعت فيها القافية.. ويلاحظ أن النيل يتردد كثيرًا في ثنايا شعر الغاياتي بوصفه مرادفا لمصر والوطن وكثيرا ما يكون النيل تشخيصا للشعب المصرى في سلمه وحربه وسعده وشقائه، لدرجة أنه يقارن بين النيل في مصر والسين في فرنسا، جاعلا من النهرين رمزين لوطنين الأول وهو النيل ينتحب والآخر وهو السين يضطرب. كان السين قد فاض عام ١٩١٠م فأغرق باريس وألحق بها الحزن والأسف العام، أما النيل فكان يتعرض لاحتلال ظالم ونوائب لا حصر لها بسبب هذا الاحتلال، وفي القصيدة إشادة بباريس وما تمثله من حضارة وثقافة، ولكنه في كل الأحوال لا ينسى وطنه الذى دهته النوائب، وتأتي المقارنة بين النهرين منذ مطلع القصيدة:

ما لقلب السين يضطرب
وأخوه النيل ينتحب؟
بلغت باريس غايتها
فتولى نهرها الطرب
ودهت مصر نوائبها
فأصابت نيلها النوب
إن يفض فالوجد مستعر
أو يفض فالدمع منسكب...

***

إن شعر الغاياتي في مجموعه هو ابن عصره من الناحية الفنية، فهو شعر الإنشاد ومواجهة الجمهور والتأثير فيه، لذا لا نجد فيه صنعة دقيقة، أو تعقيدا جماليا، ولكنه شعر سهل سلس مباشر يعبر عن عاطفة صادقة، يخاطب الناس بلغة بسيطة تتناول الأحداث التى تشغلهم والقضايا التى تهمهم في ذلك الحين.. لا نجد في شعر الغاياتي اهتماما بالصورة الفنية أو المحسنات البديعية اللهم إلا بعض الصور التقليدية المألوفة، واللعب على وتر المقابلات أو الطباقات، مع ميل إلى موسيقى البحور المجزوءة، وهناك بعض التنويع في القوافي كما سبقت الإشارة.. هناك من يرى أن مشكلة الغاياتي أنه لم يحسب بين الشعراء، لأنه لم يكن شاعرا عظيما، ولا بين أعلام الصحافة، أو النقد، لكنه يحسب كروح عابرة ثائرة مرت على أحلام مصر وحلقت بها قليلا لأعلى. وهذا حكم قاس على الرجل، فشعر الرجل يشبه من وجوه عديدة شعر كثير من معاصريه إن لم يتفوق عليهم، أما العظمة أو الضعة فهى مسألة تقديرية بين النقاد وفقا لميولهم ورؤاهم، وهي ليست معيارا لقيمة الشعر بصفة عامة، فالقيمة للقصيدة ومدى ما تحمله من معطيات فنية وجمالية. ويكفى الرجل فخرا أن حكومة بأكملها مع إدارة الاحتلال، كانا من وراء تقديمه إلى محاكمة تاريخية بسبب شعره هذا الذى ينفى عنه بعضهم العظمة ويقلل من قدره وقيمته.

***

وفاته:

عندما عاد الغاياتي إلى القاهرة كانت تصحبه زوجه السويسرية، وبناته الخمس وابنه، فأقام بعمارة في ميدان التحرير، وفي ٦/٥/١٩٣٨م، أعاد إصدار «منبر الشرق» أسبوعيا باللغة العربية، ورأى بلاده تنهض ويتحقق الجلاء عام ١٩٥٤م، ويرحل الاحتلال الذى قاومه منذ صباه، ثم تؤمم قناة السويس عام ١٩٥٦م وتعود ملكيتها خالصة إلى مصر. كانت أمنيته أن يحج إلى بيت الله الحرام فأدى الفريضة عام ١٩٤٦م، ثم أداها مرة أخرى عام ١٩٤٨م، وعاش في الوطن عيشة لا بأس بها، ويقول مختار الوكيل: إنه جعل من شرفة مسكنه حديقة مزهرة يفوح منها عبير الياسمين، وكان يتعهدها بنفسه شخصيا، كما كان يهوى الحمام الزاجل، وجمع لفيفا من أجود أنواعه في شرفة منزله، وكان يعنى بإطلاقه وإعادته، ويجد في هذا اللهو البرىء لذة ومتعة ما بعدهما لذة ومتعة!

وتزوجت بناته من أسر طيبة وسعد بهن، أما ابنه الوحيد فقد سبقه إلى دار الخلود وهو في ريعان الشباب. وقد توقفت منبر الشرق في منتصف أغسطس ١٩٥٦م، وبعد أيام قليلة انتقل إلى رحمة مولاه في ٢٧/٨/١٩٥٦م بالقاهرة ودفن بها. رحمه الله.

طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

هل تعلم؟

- أن شهر رمضان هو الشهر الوحيد الذى ذكر فى القرآن الكريم ذكرًا صريحًا.
- وأن للصائم دعوة عند فطره لا ترد.
- وأن صمت الصائم تسبيح، ودعاءه مستجاب، وعمله مضاعف، وذنبه مغفور.
- وهو الشهر الذى أنزلت فيه الكتب السماوية، ففى أول ليلة منه أنزلت صحف إبراهيم، وفى الليلة السادسة منه أنزلت التوراة على موسى، وفى الليلة الثالثة عشر منه أنزل الإنجيل على عيسى، وفى ليلة القدر منه أنزل القرآن الكريم
- وأن الصيام والقيام يشفعان للعبد يوم القيامة
- وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر.

أشياء سميت بالرحمة

- سمى الإسلام رحمة، فقال - عز وجل -:

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ (الإنسان: ٣١)

- وسمى القرآن الكريم رحمة، فقال - تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)

- وسمى الرسول ﷺ رحمة فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

وسمى المطر رحمة فقال تعالى:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ (الروم: ٥٠)

أفضل العلم

سئل قس بن ساعدة، وهو أحد خطباء العرب وحكمائهم، وواحد من أصحاب الرأى والعقل فيهم:

- ما أفضل المعرفة؟
- •• فقال: معرفة الرجل نفسه.
- قيل له: ما أفضل العلم؟
- •• قال: وقوف المرء عند علمه
- قيل له: فما أفضل المروءة؟
- •• قال: استبقاء الرجل ماء وجهه.

كلمات ثلاث لا تصدر إلا عن حكيم، ولا يعيها ويعرف قدرها إلا بصير بما يعرف العقلاء وما ينكرون، ولو تدبرها الناس حق تدبرها، وقدروها حق قدرها لظفروا منها بكنوز ثمينة تثرى العقل، وتغنى النفس، وتهذب السلوك.

أربع آيات فيهن غنى وغناء

عن المعلى بن زياد الفردوسي: أن عامر ابن عبدالقيس العنبرى كان يقول: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن مساء لم أبال على ما أمسي، وإذا تلوتهن صباحا لم أبال على ما أصبح.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (فاطر: ٢)

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ (يونس: ١٠٧)

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦)

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧)

تربية الولد

- روى أن عتبة بن أبى سفيان أوصى مؤدب ولده فقال:

«ليكن أول إصلاحك بنى إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما فعلت، والقبيح ما تركت.. وعلمهم كتاب الله، ولا تملهم فيتركوا، ولا تدعهم منه فيهجروا.

وروهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى السمع، مضلة للفهم. وهددهم بي. وأدبهم دوني. وكن لهم كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء. وامنعهم من محادثة النساء، وأشغلهم بسير الحكماء. واستزدني بآدابهم أزدك. ولا تتكلن على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك».

- وقال أعرابى لولده وقد سمعه يكذب:

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه، وإنما يدل على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادة، إن قال حقا لم يصدق، وإن أراد خيرا لم يوفق.

فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله. فما صح من صدقه نسب إلى غيره، وما صح من كذب غيره نسب إليه، فهو كما قال الشاعر:

حسب الكذوب من المهانة بعض ما يحكى عليه
فإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

حقيقة

قال الحسن - رضى الله عنه -: من أحسن عبادة الله فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى سنه. وذلك قوله - تعالى -:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص: ١٤)

لعله عقاب من الله

وقف أعرابى مشوه الفم أمام أحد الولاة يلقى قصيدة يمدحه فيها طلبا للمكافأة، ولكن الوالى لم يأمر بها، بل سأله ما بال فمك معوجا؟ فقال الأعرابي: لعله عقاب من الله، فقال الوالي: ولأى شيء عاقبك الله؟ قال الأعرابي: لكثرة ما كذبت عليه بالثناء الباطل على بعض الناس.

اخفض من بصرك

أكل أعرابى على مائدة الحجاج، فكان يأكل بسرعة ونهم؛ فقال له الحجاج: يا هذا أرفق بنفسك، فقال الأعرابي: وأنت اخفض من بصرك.

تهنئة بالعيد

رأى العيد وجهك عيدًا له
وإن كنت زدت عليه جمالا
وكبر حين رآك الهلال
كفعلك حين رأيت الهلالا
رأى منك ما منه أبصرته
هلالا أضاء ووجها تلالا

دعاء

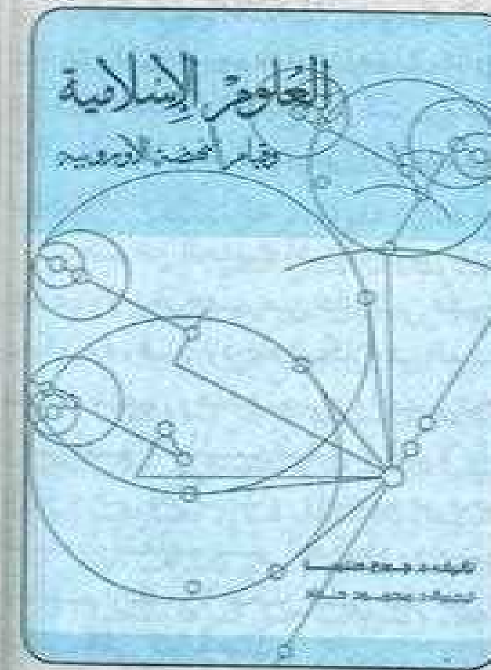
اللهم الطف بنا فى قضائك، وهب لنا ما وهبت لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

رمضان ١٤٣٤ هـ
يوليه أغسطس
٢٠١٣ م

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



هذا كتاب جاد ومهم يقدم خلاله د. جورج صليبا قراءة جديدة لنشأة العلوم في الحضارة الإسلامية. صليبا في كتابه «العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية» عن دار كلمة بالإمارات العربية يعرض تصورا جديدا للنشأة مخالفا للتصور الكلاسيكي الذي يرجع هذا التراث إلى الترجمات التي تمت خلال الدولة العباسية عن الحضارات القديمة وفي مقدمتها الحضارة اليونانية متبنيا تصورا مفاده أن تأسيس علوم الحضارة الإسلامية بدأ منذ الدولة الأموية منذ خلافة عبد الملك بن مروان بالذات التي رعت تعريب الدولة بجميع مؤسساتها.

يوضح الكتاب الذي ترجمه د. محمود حداد أن تعريب الدواوين كان هو الحافز للترجمات العلمية والفلسفية اللاحقة وأن الخلافة العباسية جاءت لتحصد الثمار.

الكتاب أيضا يرفض التصور الشهير الذي يرى الحضارة الإسلامية كانت مجرد ناقلة عن الحضارة اليونانية متسائلا إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يحدث مثل ذلك في الدولة البيزنطية أو الساسانية التي سبقت الحضارة الإسلامية؟ قاصدا تأكيد أن الاعتماد على التراث اليوناني ناتج عن رؤية حضارية إسلامية ولم تكن الترجمة خالقة لهذه الرؤية.



يلقي كتاب «رجب طيب أردوغان... مؤسس تركيا الحديثة» لمؤلفه صلاح عبد الحميد الضوء على قصة رئيس الوزراء التركي عبر استعراض لبيوغرافيا أردوغان.

الكتاب الصادر عن مكتبة جزيرة الورد يتناول المشوار السياسي لأردوغان وتطوره الفكري وجهوده داخل حزب السلامة الوطني وحزب الرفاه انتهاء بحزب الفضيلة. كما يعرض لتجارب رئيس الوزراء التركي في رئاسة بلديات اسطنبول المختلفة.

الفصل الأول في الكتاب يقدم تاريخا موجزا لتركيا من خلال استعراض لتاريخ الشعب والدولة التركية في مختلف الأزمنة... المؤلف يعلل حرص أردوغان على الانضمام للاتحاد الأوروبي بأنه سحب للبساط من تحت أقدام الجنرالات لتعميق الديمقراطية دون فرض وصاية من الجيش على الشعب.



«هذه الصوفية المسلمة هي رابعة العدوية التي قضت عمرها منذ توبتها وهي تحترق بنار الحب الإلهي حتى آلت في آخر حياتها إلى تلك الحال التي وصفنا فكانت شهيدة العشق الإلهي حقا» بهذه العبارة يلخص المفكر الكبير الراحل عبد الرحمن بدوي في دراسته المعمقة «شهيدة العشق الإلهي... رابعة العدوية» الصادرة عن مركز عبد الرحمن بدوي للإبداع الذي يشرف عليه محسن بدوي - نجل شقيق بدوي - ويهتم بنشر كتابات بدوي.

كعادته قدم بدوي دراسة مدعمة بالنصوص العربية والأجنبية لا ليقدم تصورا متكاملا حول رابعة بل حول التصوف الإسلامي والحياة الروحية في الحضارة الإسلامية وعلاقة هذه الحياة بالحضارات الأخرى.

الكتاب - أيضا - يعرض لـ ٢٩ نصا تراثيا حول أخبار رابعة بعض هذه النصوص منشور وبعضها غير منشور... ولعل أطرفها نص ابن تيمية الذي يدافع عن رابعة وينفي عنها شبهة الحلولية وهو ما يعارضه بدوي.



يخوض المفكر الكبير د. طه عبد الرحمن بمهمة مزدوجة في كتابه «روح الحداثة... المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية» حيث ينتقد نوعين من المقلدين الأول مقلدة المتقدمين والثاني مقلدة المتأخرين.

النوع الأول - برأيه - يتعاطون إسقاط المفاهيم الإسلامية التقليدية مثل الشورى ومفهوم الأمة ويسقطونها على المفاهيم الغربية الحديثة كالديمقراطية والدولة ويصف عبد الرحمن المشكلة التي يقع فيها هؤلاء في أنهم بهذه الإسقاطات يتوسلون بخطاب يريدون أن تكون له صبغة عقلية توجيهية ويقعون من حيث لا يشعرون في شراك الخلط المباشر وهكذا يصيرون على التخريج أي رد المفاهيم المنقولة كالديمقراطية إلى المفاهيم المأصولة كالشورى فيشهدون بمحو خصوصية المفاهيم المنقولة و تفقد المفاهيم المنقولة قيمتها وجذورها التي أسست لأجلها.

والنوع الثاني من المقلدين الذين ينتقدهم عبد الرحمن هو مقلدة المتأخرين فهم عكس الفئة الأولى فيتعاطون إسقاط المفاهيم العربية الحديثة على المفاهيم الإسلامية المأصولة كالعلمانية ومفهوم القطيعة على مفهوم العلم بالدنيا «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ومفهوم الجب كما في الحديث النبوي «الإسلام يجب ما قبله» (مسند أحمد) ومفهوم الحرية على مفهوم الفتح ويتوسلون بهذا الخطاب أن تكون له صبغة عقلية استدلالية لكنهم يعثرون على خلاف ما يقصدون في القيام بشروطها وهكذا يصيرون على التخريج أي رد المفاهيم المأصولة إلى المفاهيم المنقولة فيشهدون بمحو خصوصية المفاهيم المأصولة كما انتهى من سبقهم إلى محو خصوصية المفاهيم المنقولة».



يرسم كتاب «إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية» صورة متكاملة للمنطق الذي حكم الخديوي إسماعيل في إدارة شئون الدولة وعبقريته الإدارية والمشروعات التي وضعها بإلهام من طموحه إلى جعل مصر إمبراطورية عظيمة. الكتاب الصادر في طبعة جديدة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ضمن سلسلة ذاكرة الكتابة كان قد صدر عام ١٩٤٥م وفق طلب سابق للملك فؤاد بروالده. الوثائق التي تضمنها الكتاب أخذت ١٥ عاما لترجمتها إلى العربية في وثيقة «العناية بالمساجد خارج مصر»: «نقرأ» فقط المبلغ أربعة وثلاثون ألف ومائتين وتسعة وثمانون قرشا متصرف لأربابه من عهدتنا وبيدنا وبمعرفة السيد عبد الرحمن وهبه كاتب وناظر العمارة المذكورة الواضح اسمه وختمه معنا أدناه على بناء المنارة والتعميرات الأخرى التي صارت بجامع سيدي عمر بن الفاروق المعروف بالجامع الكبير العمري بصيدا».

قراءة فى كتاب

كليات رسائل النور

٣

المكتوبات

تأليف
بديع الزمان
سعيد النورسى

ترجمة
إحسان قاسم الصالحى

بقلم/أ: عادل خفاجة

أشرت فى العدد الماضى إلى أن ما وصل إليه حال أمتنا من تفتت وتشرذم هو الذى دعانى لعرض كتاب (نحو التوحد الإسلامى الكبير) وقد كان هذا الكتاب نافذة على المجدد سعيد النورسي، وقد وجدتنى مشدودا نحو مزيد من التعرف على ذلك الإمام الكبير، ولعل من حسن الحظ أن أجد له هذه الرسالة تحت عنوان: رسالة رمضان، وهى المكتوب التاسع والعشرون من كتاب (المكتوبات) فللإمام إنتاج عريض جمعه محبوه فى تسعة مجلدات كبيرة وهي: الكلمات، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات، إشارات الإعجاز، المثنوى والعربي، النوري، الملاحق، صيقل الإسلام، السيرة الذاتية وهى من قطع ١٧ X ٢٤ صدرت فى طبعتها الخامسة سنة ٢٠٠٨ م عن دار سوزلر للنشر بالقاهرة.

وتعريفًا بهذا الإمام والمؤلف الكبير نقول:

ولد بديع الزمان سعيد النُورسى فى قرية نُورْس الواقعة شرقى الأناضول فى تركيا عام (١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م) فترة الخلافة العثمانية من أبوين صالحين كرديين كانا مضرب المثل فى التقوى والورع والصلاح.

وهو أحد أبرز علماء الإصلاح الدينى والاجتماعي، انتشرت دعوته فى أنحاء العالم عن طريق رسائله المسماة (رسائل النور) والبالغة أكثر من مائة وثلاثين رسالة، وبجماعته (طلاب النور) الذين يتدارسون هذه الرسائل وينشرونها فى آفاق الأرض فتُقرأ فى تركيا، فى مدنها وقراها، كما تُقرأ فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى والإنسانى وقد تُرجمت هذه الرسائل إلى مختلف لغات العالم علاوة على ترجمتها إلى اللغة العربية.

ولعل الكلمات الأكثر دلالة والتى تمس بشكل دقيق سيرة الإمام النورسى هى تلك الكلمات التى قالها عن نفسه وقد سجلها طلابه فى المجلد التاسع الذى أفردوه للحديث عن سيرته الذاتية إذ يقول تحت عنوان: حياتى بذرة لخدمة القرآن...

«لقد تحقق لدى يقينا أن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتدارى وشعورى وتدبيري، إذ أُعطى لها سير معين ووُجِّهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التى تخدم القرآن الحكيم بل كان حياتى العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن بـ (الكلمات) أى كليات رسائل النور، حتى إنه فى غضون هذه السنوات السبع من حياة النفى والاغتراب وعزلى عن الناس - دون سبب أو مبرر وبما يخالف رغبتي - أُمضى أيام حياتى فى قرية نائية خلافا لمشربي، وعازفا عن كثير من الروابط الاجتماعية التى ألفتها سابقا، كل ذلك ولَّد لى قناعة تامة لا يداخلها شك فى أنه تهيئة لى وتحضير للقيام بخدمة القرآن وحده، خدمة صافية لا شائبة فيها، بل إننى على قناعة تامة من أن المضايقات التى يضايقوننى بها فى أغلب الأوقات والعنت الذى أرزح تحته ظلمًا، إنما هو لدفعي - بيد عناية خفية رحيمة - إلى حصر النظر فى أسرار القرآن دون سواها وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك وعلى الرغم من أننى كنت مغرما بالمطالعة، فقد زُجِّت روحى مجانبة وإعراضا عن أى كتاب آخر سوى القرآن الكريم فأدركت أن الذى دفعنى إلى ترك المطالعة -التى كانت تسليتى الوحيدة فى مثل هذه الغربة- ليس إلا كون الآيات القرآنية وحدها أستاذا مطلقا لي.

نعم، إن بذرة شجرة الصنوبر التى هى بحجم حبة الحنطة تكون منشأ لشجرة صنوبر ضخمة؛ فالقدرة الإلهية تخلق تلك الشجرة العجيبة من تلك البذرة، وقد لا توجد للبذرة إلا حصة واحدة من مليون حصة من الخلق، حيث سطّر فيها قلم القدر فهرسا معنويا لتلك الشجرة فلو لم يُسند الأمر إلى القدرة الإلهية للزم وجود مصانع تسع مدينة كاملة كى تتكون تلك الشجرة العجيبة بأغصانها المتشعبة.

وهكذا، فإن إحدى دلائل عظمة الله وقدرته سبحانه هو أنه يخلق من شيء صغير جدا كالذرة، أشياء عظيمة عظمة الجبال وبمثل هذا المثال أُعلنُ باقتناع تام وبخالص نيتى ولا أتكلف التواضع وتكران الذات، فأقول: إن خدماتى وأحداث حياتى قد أصبحت فى حكم بذرة، لكى تكون مبدأ لخدمة إيمانية جليلة، قد منحت العناية الإلهية منها فى هذا الزمان شجرة مثمرة برسائل النور النابعة من القرآن الكريم فأُقسم لكم لتطمئنوا فأقول: إننى ما كنت أجد فى نفسى قابلية ولا مزيةً ولا أهلية فائقة لتلك الخوارق التى مرّت فى حياتي، لذا كنت أتقلب فى حيرة بل ما أجد فى نفسى كفاية لتدبير أمورها وارتباطها بعلاقات المجتمع فكيف لها بدهاء خارق وولاية خارقة!

وهاقد أصبحت موضع توجه الناس بما يفوقنى بألف مرتبة ومرتبة، لذا كنت أتلقى هذا الأمر باعتباره خلافا للحقيقة كليا ولكن بفضل الله وكرمه، وألف حمد وشكر له، إذ قد أنعم على فهم شيء من حكمة ذلك الأمر، فى أواخر أيامى بعد قضاء ما يقرب من ثمانين سنة من العمر.

إننى ضمرت ضمور البذرة النابتة، وأعتقد أن الأهمية والقيمة والحيوية والشرف والمنزلة كلها قد سارت إلى رسائل النور التى نمت من تلك البذرة، ولأجل ذلك أُظهر قيمة رسائل النور وأهميتها إظهارا لإعجاز القرآن».

رسالة رمضان:

يقدم المؤلف فى هذه الرسالة عددا من الحكم

التي تخص صيامَ شهر رمضان المبارك نقدم بعضا منها:

إظهار ربوبية الحق:

يرى المؤلف أنَّ أكثر الحكم المتمخضة عن صوم رمضان تتوجّه إلى إظهار ربوبية الحق تبارك وتعالى، كما تتوجّه إلى حياة الإنسان الاجتماعية وإلى حياته الشخصية، وتتوجه أيضًا إلى تربية النفس وتزكيتها، وإلى القيام بالشكر تجاه النعم الإلهية.

ويشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق وجهَ الأرض مائدةً ممتدة عامرة بالنعم التي لا يحصرها العد، وأعدّها إعدادًا بديعًا من حيث لا يحتسبه الإنسان. فهو سبحانه يبيّن بهذا الوضع، كمالَ ربوبيته ورحمانيته ورحيميته. بَيْدَ أن الإنسان لا يبصر تمامًا – تحت حجاب الغفلة وضمن ستائر الأسباب – الحقيقة الباهرة التي يفيدها ويعبّر عنها هذا الوضع، وقد ينساها.. أما في رمضان المبارك فالمؤمنون يصبحون فورًا في حكم جيش منظَّم، يتقلدون جميعًا وشاح العبودية لله، ويكونون في وضع متأهب قُبيل الإفطار لتلبية أمر القادر الأزلي: (تفضَّلوا) إلى مائدة ضيافته الكريمة.. فيقابلون – بوضعهم هذا – تلك الرحمة الجليلة الكلّية بعبودية واسعة منظمة عظيمة.. ثم يتساءل: تُرى هل يستحق أولئك الذين لم يشتركوا في مثل هذه العبودية السامية، وفي مثل هذه الكرامة الرفيعة أن يُطلق عليهم اسم الإنسان؟

الشكر على النعم

ثم ينتقل المؤلف إلى أنَّ هناك حِكَمًا عدة يجب أن يستشعرها المؤمنون من صيام رمضان المبارك منها الشكر على النِّعم التي أسبغها الباري علينا، ويضرب مثلا فيقول: "إن الأطعمةَ التي يأتي بها خادمٌ من مطبخ سلطانٍ لها ثمنُها ويُعدُّ من البلاهة توهُّمُ الأطعمة النفيسة تافهةً غير ذات قيمة، وعدمُ معرفة مُنعمِها الحقيقي، في الوقت الذي يمنح الخادم هباتٍ وعطايا لأجلها. وكذلك الأطعمة والنعم غير المعدودة التي بثّها الله سبحانه في وجه الأرض فإنه يطلب منّا حتمًا ثمنَها، ألا وهو القيام بالشكر له تجاه تلك النعم. والحال أن المنعم الحقيقي سبحانه يستحق – بيُمْنِه تلك النِّعم – أن نقدّم له غاية الشكر والحمد، ومنتهى الامتنان والرضا.

لذا فإن صيامَ رمضان المبارك هو مفتاحُ شكرٍ حقيقي خالص، وحمدٍ عظيم عامٍّ لله سبحانه. وذلك لأن أغلبَ الناس لا يدركون قيمة نعمٍ كثيرة – لعدم تعرُّضهم لقساوة الجوع الحقيقي وأضراره – فلا يُدرك –مثلاً– درجةَ النعمة الكامنة في كسرة خبز يابس أولئك المُتخمون بالشبع، وبخاصة إن كانوا أثرياء متنعّمين، بينما يدركها المؤمن عند الإفطار أنها نعمةٌ إلهية ثمينة، وتشهد على ذلك قوّتُه الذائقة. لذا ينال الصائمون في رمضان – ابتداءً من السلطان وانتهاءً بأفقر فقير – شكرًا معنويًا لله تعالى منبعثًا من إدراكهم قيمةَ تلك النعم العظيمة.

وبهذه الصورة يُصبح الصوم في حكم مفتاحٍ للشكر من جهات شتى، ذلك الشكر الذي هو الوظيفة الحقيقية للإنسان.

تربية النفس البشرية

ويذهب المؤلف إلى أنَّ صوم رمضان يحوي من جهة تربية النفس البشرية حِكَمًا عدة، إحداها هي أن النفس بطبيعتها ترغب الانفلاتَ من عقالها حرةً طليقة، وتتلقى ذاتها هكذا. حتى إنها تطلب لنفسها ربوبيةً موهومة، وحركة طليقة كيفما تشاء، فهي لا تريد أن تفكر في كونها تنمو وتترعرع وتُربى بنعم إلهية لا حد لها.

ولكن تبدأ نفسُ كُلِّ شخص بالتفطن في ذاتها في رمضان المبارك، ابتداءً من أغنى غني إلى أفقر فقير، فتدرك بأنها ليست مالكة، بل هي مملوكةٌ، وليست حرة طليقة، بل هي عبدة مأمورة، فلا تستطيع أن تمدَّ يدها إلى أدنى عمل من غير أمر، بل حتى لا تستطيع أن تمدها إلى ماء.. وبهذا يتكسر غرورُ ربوبيتها الموهومة، فتتقلد ربقةَ العبودية لله تعالى، وتدخل ضمن وظيفتها الأساس وهي (الشكر).

استحضار وقت نزوله

ويواصل المؤلف استخلاص الحكم الوفيرة في صيام رمضان المبارك من حيث توجيهه إلى نزول القرآن الكريم ومن حيث إنَّ شهر رمضان هو أهمُّ زمان لنزوله، فيشير إلى أنه لما كان القرآن الكريم قد نزل في شهر رمضان المبارك فلابد من التجرُّد عن الحاجيات الدنيئة للنفس، ونبذ سفْساف الأمور وتُرَّهاتها استعدادًا للقيام باستقبال ذلك الخطابِ السماوي استقبالاً طيّبًا يليق به، وذلك باستحضار وقت نزوله في هذا الشهر والتشبه بحالات روحانية ملائكية؛ بترك الأكل والشرب، والقيام بتلاوة ذلك القرآن الكريم تلاوةً كأنَّ الآيات تتنزل مجددًا، والإصغاء إليه بهذا الشعور بخشوع كامل، والاستماع إلى ما فيه من الخطاب الإلهي للسموِّ إلى نيل مقام رفيع وحالة روحية سامية، كأن القارئ يسمعه من الرسول الأكرم ﷺ، بل يشدُّ السمعَ إليه كأنه يسمعه من جبريل عليه السلام، بل من المتكلم الأزلي سبحانه وتعالى، ثم القيام بتبليغ القرآن الكريم وتلاوته للآخرين تبيانًا لحكمة من حكم نزوله.

إنَّ العالم الإسلامي في رمضان المبارك يتحول إلى ما يشبه المسجد، ويا له من مسجد عظيم تعجُّ كلُّ زاوية من زواياه، بل كل ركن من أركانه، بملايين الحفّاظ للقرآن الكريم. يرتلون ذلك الخطابَ السماوي على مسامع الأرضيين، ويظهرون بصورة رائعة برّاقة.

مثبتين بذلك أنَّ شهر رمضان هو حقًا شهرُ القرآن. أما الأفراد الآخرون من تلك الجماعة العظمى فمنهم من يلقي السمعَ إليهم بكل خشوع وهيبة، ومنهم من يرتل تلك الآيات الكريمة لنفسه.

الصوم نوع من أنواع العلاج

إنَّ حكمة من الحكم الكثيرة لصيام رمضان المبارك المتعلقة بالحياة الشخصية للإنسان تتلخص بما يأتي: إنَّ في الصوم نوعًا من أنواع العلاج الناجع للإنسان وهو (الحمية) سواء المادية منها أو المعنوية، فالحمية ثابتة طبًا. إذ إن الإنسان كلّما سلكت نفسُه سلوكًا طليقًا في الأكل والشرب سبّب له أضرارًا مادية في حياته الشخصية. وكذلك الحال في حياته المعنوية، إذ إنه كلما التَهم ما يصادفه دون النظر إلى ما يحل له ويُحرم عليه تسمّمت حياتُه المعنوية وفسدت، حتى يصل به الأمر أن تستعصيَ نفسُه على طاعة القلب والروح فلا تخضعَ لهما. فتأخذ زمامها بيدها وهي طائشة حُرة طليقة، وتسوق الإنسان إلى شهواتها دون أن تكون تحت سيطرة الإنسان

وتسخيره. أما فى رمضان المبارك فإن النفس تعتاد على نوع من الحمية بواسطة الصوم وتسعى بجد فى سبيل التزكية والترويض وتتعلم طاعة الأوامر، فلا تصاب بأمراض ناشئة من امتلاء المعدة وإدخال الطعام على الطعام. وتكتسب قابلية الإصغاء إلى الأوامر الواردة من العقل والشريعة. وتتحاشى الوقوعَ فى الحرام بما أخذت من أمر التخلى عن الحلال. وتجدّ فى عدم الإخلال بالحياة المعنوية وتكدير صفوها. ثم إن الأكثرية المطلقة من البشرية يُبتلون بالجوع فى أغلب الأحيان. فهم بحاجة إلى ترويض، وذلك بالجوع الذى يعوّد الإنسانَ على الصبر والتحمل. وصيام رمضان هو ترويضٌ وتعويد وصبرٌ على الجوع يدوم خمس عشرة ساعة أو أربعًا وعشرين ساعة لمن فاته السحور. فالصوم إذن علاج ناجع لهلع الإنسان وقلة صبره، اللذين يضاعفان من مصيبة الإنسان وبلاياه.

ومن هنا كان كثير من الأولياء الصالحين يعكفون على ترويض أنفسهم على قليل من الأكل والشرب، ليرقوا فى سلّم الكمال.

نعم، إنّ رمضان المبارك يُكسب الصائمَ فى هذه الدنيا الفانية وفى هذا العمر الزائل وفى هذه الحياة القصيرة عمرًا باقيًا وحياةً سرمدية مديدة، فيمكن لشهر رمضان واحد فقط أن يمنحَ الصائم ثمرات عمرٍ يناهز الثمانين سنة. وكون ليلة القدر خيرًا من ألف شهر - بنص القرآن الكريم - حجة قاطعة لهذا السر.

فالكمال فى ذلك الصوم هو جعلُ جميع حواس الإنسان كالعين والأذن والقلب والخيال والفكر على نوع من الصوم، كما تقوم به المعدة. أى تجنيب الحواس تلك من المحرمات والسفاهات وما لا يعنيها من أمور، وسوقها إلى عبودية خاصة لكل منها.

فمثلا: يروّض الإنسان لسانه على الصوم من الكذب والغيبة والعبارات النابية ويمنعه عنها، ويرطّب ذلك اللسان بتلاوة القرآن الكريم وذكر الله سبحانه والتسبيح بحمده والصلوات والسلام على الرسول الكريم ﷺ والاستغفار، وما شابهه من أنواع الأذكار.

ومثلاً: يغضُّ بصره عن المحرّمات، ويسد أذنه عن الكلام البذيء، ويدفع عينَه إلى النظر بعبرة وأذنه إلى سماع الكلام الحق والقرآن الكريم. ويجعل سائر حواسه على نوع من الصيام.

ومن المعلوم أنّ المعدة التى هى مصنع كبير جدًا إن عطّلت أعمالَها بالصيام فإن تعطيل المعامل الصغيرة الأخرى يكون سهلاً ميسورًا.

وبعد.. فإذا كان هذا الموضوع تم اختياره من كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسى ليتناسب مع شهر رمضان الفضيل، فإن هذه الرسائل ما زالت فى حاجة لمن يكشف عن ثرائها وما تحمله من أفكار فذة تتلاءم مع الفكر الأوروبى وبخاصة وقد تُرجمت إلى العديد من اللغات الأوروبية فهى بحق نافذة طيبة وملائمة لعرض سماحة الإسلام على أوروبا.

ولقد أتاحت الترجمة العربية فرصة النظر والاطلاع على ذلك الفكر القيم الذى نأمل أن تتاح الفرصة لعرض المزيد منه للقارئ العربى كما أشرنا سابقا. والثناء واجب لمترجم هذا الكتاب الأستاذ إحسان قاسم الصالحى الذى قام بالإعداد والترجمة لهذه الرسائل فقد بذل فيها جهدًا ملموسًا لا يخفى على القارئ أضاف به كتابًا مهما للمكتبة العربية.

النيل منحة ربانية ليس لأى قوة التحكم فيه



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن النيل منحة ربانية، وليس صناعة بشرية ومن أجل ذلك فليس لأى قوة مهما كانت التحكم فيه، ولقد رآه الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ضمن ما رأى من الآيات.. وعندما سأل جبريل عليه السلام عن الأنهار الأربعة التى رآها قال له جبريل عليه السلام: أما النهران الباطنان فهما نهران فى الجنة وأما النهران الظاهران فهما النيل والفرات ومن هنا تبرز مكانة النيل الدينية والشرعية وأنه منحة إلهية فلا يصح لأحد أن يتحكم فيه، أو أن يمنع أحدًا منه أو أن يحجم مقدار ما تأخذه دولة كمصر أو كغيرها بل لابد أن يعلم الجميع أن الناس شركاء فى الماء لأنه عطاء من رب العالمين، لعباده أجمعين فقد قال رسول الله ﷺ:

«الناس شركاء فى ثلاث: فى الماء والكلأ والنار» رواه أبو داود.

والنيل يجرى بأمر الله ولا يجرى بأمر مخلوق من الناس، وهناك واقعة تاريخية تدل على أن النيل لا يجرى بأمره ولا بأمر دولة أو سلطة بل بأمر الله وحده، هذه الواقعة حدثت بعد الفتح الإسلامى وذلك عندما رأى عمرو بن العاص رضى الله عنه عادة من عادات قدماء المصريين وهى عادة خرافية لا تتمشى مع الدين ولا مع العقل وهى أن قدماء المصريين كانوا يزعمون أن النيل لا يفيض ولا يجرى إلا إذا ألقيت فيه عروس النيل، فلما أرسل عمرو بن العاص إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفض هذه الخرافة وقضى عليها وبين لهم بالحق والدليل والبرهان أن النيل يجرى بأمر الله وليس بأمر أى إنسان، فأمر عمرو بن العاص أن يلقى فى النيل الكتاب الذى كتبه له عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث كتب يقول:

النيل منحة ربانية

«أيها النيل إن كنت تجرى بأمر الله وحده فسر على بركة الله وإذا كنت تجرى بأمرك أو بأمر أى أحد فلا تجري، فإن الأمر لله من قبل ومن بعد». وأمره أن يلقيه فى النيل فسار وفاض ولم يتوقف وقضى على تلك العادة السيئة والخرافة القديمة ووضح للناس بالدليل أن النيل يجرى بأمر الله وحده لا شريك له.

وإذا كان النيل منحة ربانية، ويجرى بأمر رب البرية، فليس لأحد أو لأى قوة مهما كانت أن تتحكم فيه أو أن تتصرف فى مجاريه، ولو فعلت كانت مخطئة وظالمة؛ لأن الأمر لله وحده، وليس للبشر التدخل فى شئون خالق القوى والقدر.

وإن نعمة «الماء» من النعم الإلهية التى خلقها الله سبحانه وتعالى لحياة كل شيء حيث قال الله تعالي:

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾

فبالماء يحيا الإنسان بشربه للماء، ويحيا الحيوان وتحيا الأرض، ويحيا النبات والشجر وسائر المخلوقات، وقد بين القرآن الكريم كيف أن الماء يترك على الأرض الهامدة فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج، قال الله تعالى:

﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾

[سورة الحج: ٥].

ويبين رب العزة سبحانه وتعالى أنه يخرج بالماء الحب والنبات والحدائق الفيحاء، قال الله سبحانه:

﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴿١٤﴾ لنخرج به حبا ونباتا ﴿١٥﴾ وجنات ألفافا﴾

[سورة النبأ: ١٤-١٦].

ويبين رب العزة سبحانه أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة فقال الله جل شأنه:

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾

[سورة البقرة: ١٦٤].

كما بين الله سبحانه أنه أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات فى ألوان مختلفة دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴿٢٧﴾ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾

[سورة فاطر: ٢٧، ٢٨].

ويبين رب العزة سبحانه ما يترتب على نعمة المال من إنبات الأرض حيث قال الله تعالى:

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴿٢٤﴾ أنا صببنا الماء صبا ﴿٢٥﴾ ثم شققنا الأرض شقا ﴿٢٦﴾ فأنبتنا فيها حبا ﴿٢٧﴾ وعنبا وقضبا ﴿٢٨﴾ وزيتونا ونخلا ﴿٢٩﴾ وحدائق غلبا ﴿٣٠﴾ وفاكهة وأبا ﴿٣١﴾ متاعا لكم ولأنعامكم﴾

[سورة عبس: ٢٤-٣٢].

وبين الرسول ﷺ أن البحر ماؤه طهور وأن ميتته حلال، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال عن ماء البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» رواه أبو داود والترمذي.

ويبين رب العزة سبحانه أنه جعل من الماء كل شئ حي، حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

أى كانتا سدًا وفتق الله الأرض فقد كانت لا تنبت فأنبتت، وفتق السماء وكانت لا تمطر فأمطرت، وجعل من الماء كل شيء حى من نبات وغيره، فالماء سبب لحياتنا.

وفي بيان فضل ماء المطر جاء عن أنس رضى الله عنه قال: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه المطر، فقلنا يارسول الله لم صنعت هذا به قال: لأنه حديث عهد بربه تعالى» رواه مسلم وأحمد وأبوداود وما ذلك إلا لأن المطر رحمة وهو قريب العهد بخلق الله له فيتبرك به.

ولما كان الماء منحة ربانية وليس صناعة بشرية، ولما كانت حياة الإنسان، والحيوان، والنبات وغير ذلك إنما بالماء، فقد بين الرسول ﷺ أن الماء للخلق جميعًا ولا يصح أن يمنع منه أحد عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يُمنعن: الماء والكلأ والنار» رواه ابن ماجه.

وحذر الإسلام من منع فضل الماء، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا، فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لايبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه منها لم يف» رواه أحمد والبخارى ومسلم.

ولما كان الماء منحة ربانية ليس لأحد من الخلق يد فيها أوصناعة لها بل هو من عند الله الرزاق ذى القوة المتين، لما كان الماء كذلك يمثل منحة ربانية فقد جعله الله تعالى حقًا شائعًا بين الناس، وجعل حق الانتفاع به مكفولا للجميع بلا احتكار أو غصب وبلا إفساد له أو تعطيل من أحد، قال رسول الله ﷺ: «الناس شركاء فى ثلاث: في الماء والكلأ والنار» رواه أبو داود.

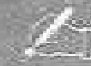
ومعنى قول الرسول ﷺ: «الناس شركاء فى ثلاث..» أن كل إنسان له حق فى الماء، لأنه شريك فيه ومن كان شريكًا كان مالكا مع غيره فى هذا الماء وكان له حق فيه مثل غيره، وليس لأحد أن يجور على حق أحد ولا أن يمنع أحد أحدًا من حقه فى الماء، لأنه ليس ملكا لأحد من الناس ولا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا وليس من حق أحد أن يجور على غيره أو أن يمنعه حقه، وأية إجراءات كبناء السدود أو نحو ذلك مما يترتب عليه عدم وصول الماء إلى البعض أو يجعل حصته فيه قليلة وغير كافية كما يحدث الآن تعتبر هذه الإجراءات وأمثالها إجراءات باطلة ولا تصح بحال من الأحوال.

وإن واجب الحكومات والأنظمة والشعوب أن تتصدى لأى إجراء يحاول التحكم فى النيل أو تقليص حصة أى دولة من الدول.

وواجب الأنظمة العالمية والحكومات والشعوب أن تكون على قلب رجل واحد وأن تتصدى للإجرات التى تهدد حقوق بعض الناس فى ماء النيل.

وما يهدد حق مصر اليوم من النيل أمر لا يصح السكوت عليه، بل يجب على جميع القوى والمنظمات العالمية أن تسعى لقيام الحق، ومنع الباطل، فالحق أحق أن يتبع.

الأنشطة الفنية فى حوض النيل



أ. د. عبدالله نجب محمد
معهد البحوث والدراسات الإفريقية

فى عام ١٩٦٧ م تكونت أول هيئة إقليمية للتعاون الفنى بين دول الحوض باسم (هيدروميت) (Hydromet Survey Project) قامت بقياس هطول الأمطار وتدفقها فى المجارى المغذية لبحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت وبحيرة كيوجا، ما بين الأعوام ١٩٦٧ - ١٩٩٢ م، وأجرت دراسات فنية أخرى.

وفى عام ١٩٩٢ م اجتمع وزراء رى دول حوض النيل وقرروا الاستمرار فى التعاون الفنى بموجب لجنة سميت (اللجنة الفنية للتعاون لتنمية حوض النيل وحماية بيئته) مختصر اسمها (تكونيل) كانت مهمته[١]:

أ- دراسة تنمية البنية الأساسية فى حوض النيل.

ب- التأهيل الفنى والتدريب المطلوب لإدارة الموارد المائية.

ج- العمل على أن تضع كل دول حوض النيل خططا قومية للمياه (Master Plans)، ثم توضع بعد ذلك خطة تنسيق بينها، تسمى خطة عمل لحوض النيل (Action Plan Nile Basin).

هدف الخطة على المدى البعيد هو: تحقيق تعاون بين كافة دول حوض النيل لتطوير الحوض تطويرًا تكامليًا يقوم على توزيع عادل للمياه.

قامت (تكونيل) بمساعدة من العون الكندى بوضع خطة سميت (خطة عمل حوض نهر النيل) (Nrbap) وقامت (تكونيل) بمبادرات إقليمية عديدة، وأسهمت فى عدد كبير من المؤتمرات، وورش العمل، وحلقات النقاش المتعلقة بمياه النيل، وأسهمت فى المؤسسات المتخصصة فى شئون المياه، وأهمها:

- مجلس المياه العالمى W.W.C.
- التجمع العالمى للموارد المائية I.W.R.A.
- الشراكة العالمية للمياه G.W.P.
- الشبكة العالمية لمنظمات الأحواض I.N.B.O.

٤- فى ١٩٩٧ م طلب مجلس وزراء الرى لدول حوض النيل من البنك الدولى تنسيق مساهمات الجهات الخارجية لتمويل وتنفيذ خطة عمل دول حوض نهر النيل، فلبى البنك الطلب مستعينًا ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى ووكالة العون الدولية الكندية.

(١) راجع د. عبدالرحمن إسماعيل الصالحي، حوض النيل، دراسة قانونية، الندوة الدولية لحوض النيل معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة - مارس ١٩٨٧م.

هذه الجهات راجعت خطة العمل ووضعت أولويات للتنفيذ لتقديم توصياتها لمنبر دولى خاص بالتعاون فى حوض النيل.

فى مارس ١٩٩٨ م اطلع مجلس وزراء الرى فى دول حوض النيل على الخطة وأجازها تحت عنوان: رؤية موحدة وعمل موحد لحوض النيل، وقرروا إقامة هيئة جديدة تخلف (تكونيل) سميت مبادرة حوض النيل (Nile Basin Initiative)، تهدف إلى خلق رؤية موحدة لتحقيق تنمية اجتماعية اقتصادية مستدامة عن طريق الاستخدام العادل لمياه النيل والانتفاع المشترك بموارده[٢].



المنظمة المترولوجية العالمية:

تقوم المنظمة المترولوجية العالمية بمهام التعاون فى جمع البيانات عن الموارد المائية وتكوين شبكات من محطات قياس الموارد المائية، تتولى جمع البيانات وتحليلها لقراءة اتجاهات المستقبل، والإنذار المبكر من الجفاف والفيضان، باستخدام التكنولوجيا الحديثة.

وهى تعنى بكل وسائل المراقبة والمتابعة الخاصة بالمياه وبنقل التقنيات والأساليب الحديثة.

أهم وسائل هذه المنظمة برنامج (ويكوس) (Whycos) وهو نظام مراقبة الدورة الهيدرولوجية (الموارد المائية) العالمية، وهو برنامج عالمى هدفه الحصول على معلومات دقيقة عن الموارد المائية وأحوال الطقس فى العواصم المختلفة، والبرنامج يعتمد على شبكة من المحطات التى تحصل على معلومات هيدرولوجية (الموارد المائية) وطقسية عن طريق الأقمار الصناعية على المستوى القطرى والإقليمي، والمعلومات التى تجمع عن الموارد المائية والطقس تبث لكل الجهات المعنية بإدارة المياه أولاً بأول، وشبكة جمع المعلومات تقوم على محطات قطرية تكون شبكة قطرية (NHS) ترتبط مع غيرها من الشبكات القطرية لتكوين

(٢) راجع الصادق المهدي ص ١٢ - ٢٢٦.

شبكة على نطاق الإقليم تسمى نظام المراقبة الإقليمية، ويوجد الآن عدد من هذه النظم الإقليمية في الأقاليم الآتية، البحر المتوسط – جنوب إفريقيا – المنطقة الكاريبية – حوض الكنغو – حوض النيل – القرن الإفريقي.

هذا التقدم الكبير في المجالات الفنية وفي التعاون الفني إقليميًا وعالميًا لم يواكبه تعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية بين دول حوض النيل.

منظمة الأندوجو:

في عام ١٩٨٣ م دعت مصر لتكوين منظمة الأندوجو UNDUGU (الإخاء)(٣) لكي تضم دول حوض النيل بهدف التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وعليها تحضير الدراسات وتكوين الآليات ومراعاة الأحوال السياسية، ومراحل النمو الاقتصادي، واختلاف الهويات الثقافية، وتوحيد رؤيتها لحقوق كل دولة في مياه النيل، بعيدًا عن الصحافة والتصريحات غير المسئولة.

للأندوجو مجلس وزراء مكون من وزراء الخارجية، تدعمه لجنة فنية مكونة من سفراء بلدان حوض النيل، تساعدها سكرتارية.

الآلية وغيرها من آليات التعاون بين دول حوض النيل في المجالات الأوسع من المجال الفني، يشلها غياب إرادة سياسية مشتركة للتصدي لأس الخلاف حول مياه النيل وحسمها، هذا مع إبرام اتفاقية شاملة لمياه النيل، ترضاها وتدعمها وتتعاون على أساسها كل دول الحوض.

ملاحظات:

١ – التعاون بين دول الحوض حتى الآن جزئي ومحاط بكثير من عدم الثقة.

٢ – الدعم الدولي على الصعيد الجماعي والثنائي متوافر بكثرة ولكنه غير متسق، ولا توجد وسيلة لمتابعة دراساته وتوصياته المختلفة.

والمطلوب بإلحاح شديد إبرام اتفاقية شاملة تؤسس تعاونًا جماعيًا، وإيجاد وسيلة لتنسيق الدعم الدولي الجماعي والثنائي، وفي هذا الصدد فإن للأمم المتحددة منظمات متخصصة، مثل منظمات الصحة العالمية واليونسكو وغيرهما، ويجب أن تشارك في التنمية، وفي تكوين هيئة متخصصة تابعة للأمم المتحدة، تعنى بقضية المياه على الصعيد العالمي، بعيدًا عن القطرية، تقوم بتنسيق الجهود في سبيل إدارة أفضل للموارد المائية.

ونحن نرى أنه لا سبيل لتوزيع عادل لمياه النيل ولزيادة تدفقه، ولإقامة بنى تحتية ترفع من الطاقة التخزينية في البحيرات، وترفع من إنتاج الكهرباء لمصلحة الجميع، ولتنفيذ برامج تضبط حركة المياه، وتحافظ على سلامة البيئة الطبيعية، إلا عن طريق التعاون والاعتماد المتبادل بين دول حوض النيل جميعًا.

هذا التعاون يحقق المصالح المشتركة، ويزيد من أمن كل قطر من الأقطار المعنية في المدى الوسيط والمدى البعيد (٤).

لقد نما الوعي بالمسألة نموًا هائلاً في أواخر القرن العشرين، ففي العام الماضي وحده شهدت القاهرة في شهر مارس ثلاثة مؤتمرات مهمة بشأن المياه (٥).

يقول الصادق المهدي: لقد تتبعت أوراق كثير من هذه المؤتمرات وحلقات النقاش، وما جاء في الصحف عنها من أخبار وتعليقات، فأدهشني كيف أن قضايا النيل تراوح مكانها، ففي هذه المنابر يكتفي الساسة بعبارات المجاملة الفضفاضة أو يعبرون عن وجهات نظر متناقضة ليس بينها مجال لحوار، ويقدم الفنيون والخبراء دراسات فنية متخصصة جيدة في مجالها المحدود، ولكن لا يرجى أن يستفاد منها بالقدر المطلوب ما لم تحقق الإرادة السياسة اتفاقًا يفتح أبواب التعاون المغلقة، ويسمح بالاستفادة القصوى من دراسات الفنيين والمتخصصين.

وإذا استمر التنافر الحالي فسوف يكون النزاع حادًا على الموارد الموجودة، ويصاب التعاون في كل المجالات بشلل، ولكن إذا تحقق الوفاق والتعاون المترتب عليه، فإن زيادة كمية المياه سوف يغطي حاجة الجميع.

هذا وقد جاء في دراسة فنية قدمها ثلاثة خبراء من مصر، الآتي: (إذا تعاون المنتفعون من مياه النيل، فمن الممكن زيادة تدفق مياه النيل بمقدار ٥٧,٤٥٣ مليار متر مكعب في السنة (٦)، وهذا ما تؤكده دراسات خبراء عالميين، فقد قال (جيروم دي برسكولي): إن التكنولوجيا تبشرنا الآن بأن كمية المياه في العالم كافية إذا كان التعاون والعمل المشترك هما أساس وسائل تعاملنا مع بعضنا بعضًا (٧).


الصادق المهدي

لا شك أن إبرام اتفاق شامل سوف يفتح أبواب التعاون بين شعوب حوض النيل، ويحقق التنمية والرخاء للكافة، ومع ذلك فمن المحتمل أن تحول النظرة القصيرة دون التعاون، بل تؤدي لنزاع حاد وقد تنفجر الحرب الصامتة، ويصبح حوض النيل بركانًا ونارًا، وقد تستغله دول أجنبية لها مصلحة في تأزيم العلاقات بين دول حوض النيل، الذي يصل إفريقيا شمال الصحراء بجنوبها، بل يشير حوار حضاري، وثقافي، يؤدي إلى إنقاذ الإنسانية من ويلات الصدام، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون فاصلاً بين إفريقيا شمال الصحراء وجنوبها، وتذير صدام حضاري يهدد الإخاء الإنساني، كلا الأمرين وارد (٨) وما سوف يحدث متوقف على الإرادة السياسية في حوض النيل.

ونحن نرى ضرورة أن تقوم مصر خاصة، بجمع كافة المعلومات والدراسات والبحوث حول مياه النيل، ثم إعداد خطط مناسبة قابلة للتنفيذ من قبل جميع دول حوض النيل، تؤدي في النهاية إلى تحقيق الفائدة للجميع، وتمنع الصراع، والتدخلات الأجنبية المتربصة بالجميع.

---

(٣) باللغة السواحيلية.

(٤) الصادق المهدي ص ٢٤.

(٥) المؤتمرات هي: المؤتمر السابع للنيل عام ٢٠٠٢ م في القرن القادم – مارس ١٩٩٩ م، المؤتمر الثامن بمركز الدراسات العربي الإفريقي تحت عنوان الأمن المائي العربي، مؤتمر وزراء الري في حوض النيل.

(٦) جمال علام، فهمي الجمل، منى القاضي – ورقة قدمت لمؤتمر النيل عام ٢٠٠٢ م – القاهرة – ١٥ – ١٩ مارس ١٩٩٩ م.

(٧) القضايا الأخلاقية وإدارة الموارد المائية – لجنة اليونسكو – القاهرة مارس ١٩٩٩ م.

(٨) الصادق المهدي: التعايش والصدام بين الحضارات من منظور إسلامي، المؤتمر العاشر: الإسلام والقرن الحادي والعشرون – وزارة الأوقاف، القاهرة ٢ – ٦ يوليو ١٩٩٨ م.

ندوة: سد النهضة الإثيوبي:

قراءة في أبعاد الأزمة وأسلوب المواجهة

متابعة: رمضان ثابت - سعد فتحي

تحت رعاية رابطة الجامعات الإسلامية برئاسة الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام ومشاركة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر وجمعية الصداقة والتواصل بين مصر ودول حوض النيل عقدت ندوة بعنوان: «سد النهضة الإثيوبي : قراءة في أبعاد الأزمة وأسلوب المواجهة» ، وذلك بمركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي يوم الخميس ٤ شعبان ١٤٣٤ هـ ، الموافق ١٣ يونيه ٢٠١٣م.

في افتتاح الندوة رحب الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام رئيس رابطة الجامعات الإسلامية بالسادة الحضور، وأكد على أهمية الدور الذي تقوم به الرابطة في طرح القضايا الهامة التي تخص العالم الإسلامي كقضية المياه إذ قال:

فوجئنا بإعلان إثيوبيا مبادرة من جانب واحد لتحويل مجرى نهر النيل الأزرق بدعوى الحاجة الماسة إلى الكهرباء ... ماذا يريدون؟».

«إن علاقاتنا بإثيوبيا تبدأ باستضافة النجاشي أول بعثة من المهاجرين وإكرامه ضيافتهم وصولا إلى التعاون المثمر بين البلدين بما في ذلك المنح والدعم الذي يقدمه الأزهر الشريف إلى أبناء إثيوبيا .

وأكد الدكتور جعفر عبدالسلام على ضرورة المواجهة الخاصة بالقوى الناعمة على الصعيدين الداخلي والخارجي قائلا: «لا بد من إدارة الأزمة من خلال رؤية متكاملة تتعامل مع كل أبعادها وجزئياتها ، فنحن في موقف تعثر الآراء فيه وعثرة الرأي تُردي؛ وإننا بالفعل في حالة تمثل عدوانا علينا ؛ والعدوان في القانون الدولي يقابل بالدفاع عن النفس.

هذا وقد استهلت الجلسة الافتتاحية للندوة بحضور كوكبة من كبار الخبراء في الجامعات المصرية والمسئولين وقبل الشروع في عرض وقائع الندوة تجدر الإشارة إلى أن نهر النيل يعد المورد الرئيس للمياه في مصر ، ويمر بإحدى عشرة دولة إفريقية هي: أوغندا ، إثيوبيا ، إريتريا ، السودان ، جنوب السودان ، الكونغو الديمقراطية ، بوروندي ، تنزانيا ، رواندا ، كينيا ، ومصر ، ولما كانت المياه المتدفقة من إثيوبيا وحدها تمد مصر بنسبة حوالي ٨٥٪ من حصتها السنوية البالغة ٥٥,٥ مليار متر مكعب من مياه النيل ، فقد توجس العالم من إعلان إثيوبيا مبادرة من طرف واحد لتحويل مجرى النيل الأزرق تمهيدا لبناء السد ؛ وأعلنت القيادة السياسية أن جميع الخيارات مفتوحة في التعامل مع هذا الملف وأن المصريين جاءوا برسالة سلام إلى العالم، وليسوا دعاة حرب، ولكنهم لن يسمحوا لأحد أن يهدد أمنهم المائي وأن أمن مصر المائي لا يمكن تجاوزه أو المساس به على الإطلاق ؛ نظرا للأضرار البالغة المحتملة والمترتبة على مشروع بناء سد النهضة وأثره على تدفق المياه إلى مصر والسودان وفيما يلي بعض مشاركات الخبراء المشاركين في الندوة والتي انتظمت في جلستين حول الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية لمشروع بناء سد النهضة ، والأضرار الناجمة عنه ووسائل حسم النزاع فقال المستشار عبد العاطي الشافعي الأمين العام لجمعية الصداقة والتواصل بين مصر ودول حوض النيل في كلمته : «يكاد يضيق صدري ولا ينطلق لساني لأني ظللت أنادي وأقول : يا قومنا انتبهوا ، مصر مائيا في خطر ولكن لا حياة لمن تنادي فنحن لا نتحرك إلا إذا طرقت الأزمة بابنا ؛ إذ دخلت مصر دائرة الفقر المائي منذ سنوات وإن استمر الوضع على ما هو عليه فإن مصر مهددة بمجاعة غذائية... ويجب الرجوع لمجلس الأمن والأمم المتحدة لاندراج مشروع هذا السد ضمن الفصل السابع ٧ من ميثاق الأمم المتحدة لأن بناء السد يهدد السلم والأمن الدوليين .

فيما ناقش الأستاذ الدكتور / مغاوري شحاتة خبير المياه العالمي حقوق مصر التاريخية بقوله : «هي حقوق تاريخية لمصر وفق الاتفاقيات الثنائية والاتفاقيات بين دول حوض النيل . والموقع غير مناسب جيولوجيا ، وسبق وانهارت بعض السدود الإثيوبية مثل سد «جيب» الذي افتتحه الإثيوبيون في ١٤ يناير ٢٠١٠ انهار بعد عشرة أيام فقط من افتتاحه وذلك في ٢٤ يناير ٢٠١٠ ، كما حدث انهيار سد تكيزي في أثناء تشييده مما تسبب في تأخر افتتاحه عاما كاملا ، وتصنيف السدود الإثيوبية خطرة جدا .

ثم استعرض الأستاذ الدكتور هشام حمزة مدير الشئون القانونية بقطاع مياه النيل بوزارة الري حجج دول حوض النيل في بناء السد وفندها كحجة التغير الجوهري للظروف: إذ يقول : «هي نظرية في القانون الدولي تستند إليها هذه الدول في إطار حاجتها إلى التنمية وهي في صالح مصر لأن النيل هو مصدر المياه الوحيد لمصر وقد دخلت مصر في نطاق الفقر المائي».

وفي الإطار ذاته أكد الأستاذ الدكتور عبد الله الأشعل أستاذ القانون الدولي أن القانون الدولي في صالح مصر بقوله : «القانون الدولي معنا قلبا وقالبا ، لكن مكانة الدولة وهيبتها هي التي تعطي لها وضعها ، وهي

الفيصل في حماية حقوقها التاريخية ، ولننظر بعين يقظة لمن يساند إثيوبيا في إقامة السد» .

وفيما يتعلق بالاتفاقيات الثنائية بين مصر وإثيوبيا بشأن حصة مصر من مياه النيل قال الأستاذ الدكتور / إبراهيم العناني عميد كلية الحقوق بجامعة عين شمس سابقا : «هناك خمس اتفاقيات تنظم العلاقة بين مصر و إثيوبيا حول نصيب مصر من مياه النيل وهي :

١- بروتوكول روما الموقع في ١٥ إبريل ١٨٩١ بين كل من بريطانيا و إيطاليا التي كانت تحتل إريتريا في ذلك الوقت ـ بشأن تحديد مناطق نفوذ كل من الدولتين في أفريقيا الشرقية ، و تعهدت إيطاليا في المادة الثالثة من الاتفاقية بعدم إقامة أية منشآت لأغراض الري على نهر عطبرة يمكن أن تؤثر على تصرفات النيل .

٢- اتفاقية أديس أبابا الموقعة في ١٥ مايو ١٩٠٢ بين بريطانيا و إثيوبيا ، تعهد فيها الإمبراطور منيليك الثاني (١٨٤٤ - ١٩١٣م) ملك إثيوبيا بعدم إقامة أو السماح بإقامة أي منشآت على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط من شأنها أن تعترض سريان مياه النيل إلا بموافقة الحكومة البريطانية والحكومة السودانية مقدماً .

٣- اتفاقية لندن الموقعة في ١٣ ديسمبر ١٩٠٦ بين كل من بريطانيا و فرنسا وإيطاليا .

وينص البند الرابع منها على أن تعمل هذه الدول معاً على تأمين دخول مياه النيل الأزرق وروافده إلى مصر .

٤- اتفاقية روما وهي عبارة عن مجموعة خطابات متبادلة بين بريطانيا وإيطاليا في ١٩٢٥ ، وتعترف فيها إيطاليا بالحقوق المائية المكتسبة لمصر والسودان في مياه النيل الأزرق والأبيض وروافدهما ، وتتعهد بعدم إجراء أي إشغالات عليهما من شأنها أن تنقص من كمية المياه المتجهة نحو النيل الرئيسي .

٥- إطار التعاون الذي تم توقيعه في القاهرة في الأول من يوليو ١٩٩٣ بين كل من الرئيس المصري آنذاك محمد حسني مبارك ورئيس الوزراء الإثيوبي آنذ ميليس زيناوي (١٩٥٥ - ٢٠١٢) م ، وتضمن هذا الإطار التعاون بين مصر وإثيوبيا فيما يتعلق بالمياه وعدم قيام أي من الدولتين بعمل أي نشاط يتعلق بمياه النيل قد يسبب ضرراً بمصالح الدولة الأخرى وضرورة التشاور بين الدولتين واحترام القوانين الدولية .

وعن الأضرار الناجمة عن سد النهضة وآثارها السلبية على الآثار المصرية قال الدكتور / محمد علي زينهم الأستاذ بكلية الفنون التطبيقية بجامعة حلوان وعضو رابطة الجامعات الإسلامية :

«حضارة ٧ آلاف سنة ، أكثر من ٨٠٠ منطقة ومزار أثري تضم أروع ما ورثته مصر من تراث إنساني يمثل ثلث آثار العالم ، حيث طيبة «الأقصر» أعظم متحف مفتوح في العالم ، كل ذلك مهدد بالانهيار بفعل فاعل هو مشروع بناء سد النهضة غير مكتمل الدراسات ، وذلك لأن عمر السد قصير نظراً لأنه سيتم إنشاؤه في منطقة مكونة من صخور بركانية وبازلتية غير مرنة لا تقبل الاستجابة للهزات الأرضية مما يعرضه للشروخ والانهيارات» .

وفي الجلسة الثانية التي رأسها الأستاذ كمال الهلباوي الرئيس المؤسس للرابطة الإسلامية في بريطانيا قال سيادته : «نحن قوم لا نيأس أبداً مهما كانت الضغوط والتحديات ، ولا بد من الاعتماد على الله أكثر من الاعتماد على المنظمات :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الأعراف : ٩٦]

وتحدث الأستاذ الدكتور مصطفى كامل حول الخطوة الأولى الواجبة على مصر في التعامل مع مشروع السد فقال : «أول خطوة في التفاوض هو الحصول على تقرير علمي من جهة علمية كجامعة كمبردج أو هارفارد أو أكسفورد حول الأضرار المحتملة لمشروع سد النهضة لأن هذا التقرير شرط لقبول التحكيم الدولي ودعم كبير لموقف مصر» .

فيما سرد الأستاذ الدكتور رأفت الشيخ تجربة محمد علي باشا (١٧٦٩ - ١٨٤٩م) والي مصر من قبل الخلافة العثمانية في تأمين مياه النيل عبر العمق الإفريقي وضرورة الاستفادة من ذلك في مواجهة المحاولات الراهنة للتأثير على هذه الحصة فقال في نهاية كلمته : « وقد نجحت سياسة محمد علي في تأمين حصة مصر والسودان من مياه النيل وارتقت البلاد في عهده بما حدا بملك أوغندا آنذاك أن يعلن وضع بلاده تحت الحماية المصرية » .

وفيما يلي أبرز توصيات الندوة :

أولا : اعتبار هذا المشروع المزمع إنشاؤه في إثيوبيا قضية أمن قومي لمصر ، ليس مجالا للمزايدات .

ثانياً : أهمية متابعة تقرير اللجنة الثلاثية المشكلة من مصر والسودان وإثيوبيا والعمل على تفعيل توصياتها .

ثالثًا : النظر بجدية كاملة إلى حقيقة أن إثيوبيا ليس لديها الخبرات الكافية لإقامة مثل هذا السد .

رابعاً : تقوية الروابط المصرية السودانية وتأكيد دور البلدين في التوعية بأخطار هذا المشروع .

خامسا : الوعي بأخطار التواجد الإسرائيلي في منطقة الهضبة الاستوائية والهضبة الحبشية ومناطق المنابع .

سادسا : تكثيف الجهود الدبلوماسية بشقيها الرسمي والشعبي للتواصل مع الأشقاء الأثيوبيين فيما ينفع البلدين . سابعا : التنبيه إلى المخاطر الفنية والتراثية المحدقة بالآثار المصرية الموجودة في منطقة النيل .

ثامنا : مناشدة هيئات ومؤسسات المجتمع المدني والمنظمات الإقليمية بمساندة المبادرات لمواجهة المشروع .

تاسعا : تحسين العلاقات المصرية الإفريقية وتوسيع مجالات المعونة الفنية لإفريقيا .

عاشرا : الاستعانة بقوى الأزهر والكنيسة لتخفيف التوتر بين مصر وإثيوبيا ، ودعم التعاون الثنائي .

حادي عشر : إنشاء فرع لرابطة الجامعات الإسلامية في عاصمة إفريقية ، يضم جامعات دول حوض النيل .

ثاني عشر : إنشاء لجنة لمتابعة ورصد شتى القضايا والتحديات التي تواجه دول حوض النيل وتكوين لجان متخصصة لإيجاد الحلول لها .

خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

تتقدم الخميلة بأسمى وأجمل التهانى للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم ، الذى أنزل الله فيه أول آياته ، فكان القرآن الكريم ـ على مدى الدهر ـ أظهرَ معجزاته ، وموئل دينه وحكمته وبركاته ، وجعله سبحانه خاتم رسالاته بعد أن تخير لحمله أشرف خلقه ، وخاتم أنبيائه ، سيدى وحبيبى (محمد) سلام ربى عليه وصلواته ، فبلغ رسالات ربه بعزيمة دونها أقوى العزائم ، وصبر واحتسب، وواجه عنت الكفار وأذاهم، بمزيد من عظيم خُلقه و طيب طباعه ، ﷺ ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون رمضان هذا العام بداية خير ورفعة شأن ووئام لكافة المصريين وأن يعم الرخاء على كافة الأرجاء ، وأن ينشر الله السلام والأمان على أرض مصر الطيبة وسوريا الشقيقة ، وعلى كل بقاع الأرض ، فجوهر الإسلام هو السلم والسلام

بشريات الصيام

شعر : محمد عبدالوهاب

هالة الحُسْن فى جبين العـام ...
تتبدَّى إشراقـةً للأنـامِ
بهلالٍ تغارُ منه البـدورُ ...
جاءت البُشرى بأيام الصيام
آن أن تهدأ الجوارح حينا ...
بابتعادٍ عن نزوةٍ أو طعام
آن للروح أن تفيءَ لأفـقٍ ...
مُتسامٍ ..أكْرِمْ بهِ من تسام
واحة الخير للنفوس تجلّت ...
بإتناس .. فى صفوة الأيام
بين عبد .. وبين رب عليم ...
بالحنايا .. يجود بالإنعام
يُصلح الصومُ- باستقامة قصدٍ -
كلَّ نفس تروم برّ السلام
كلّ برّ .. لكم يُضاعف حتى ...
يبلغ الغرس شدّة الإعظام
يومَ حشر الأنام يدرك سعدا ...
كل من تاب ، يا لحُسن ختام
أسأل الله للكنانة بُعـدا ...
عن شقاق أوجفوة وانقسام
كى تعود الأمجاد للشعبِ ذُخرا ...
بارتقاء ونهضةٍ .. والتحام

منح الصيام من الرحمن العلام

أ.د. عبدالرحيم محمود زلط – العميد الأسبق لآداب طنطا

الحمد لله هذا الكونُ صنعتُه	الكلُّ فيه لـهُ زمنٌ وعنوانُ
وسيّرَ الخلقَ إنعامًا بقدرته	آجالُنا سُطِّرَتْ فى الكُتْبِ تبيانُ
كلٌّ لـهُ عُمْرَةٌ لا يومَ ينقصُهُ	ولا يزيدُ كفى بالصدقِ حُسبانُ
كذاك أيامُ رمضانَ نعرفُها	ونرقُبُ الخيرَ فيها الصومُ قُربانُ
شهرٌ به فتحَ الرحمنُ جنتَهُ	للصائمين ولا يقربُها ندمانُ
رمضانُ هلَّ وكلُّ الناسِ فى فرحٍ	فخرُ الشهورِ لـهُ فى العامِ تيجانُ
العبدُ يُخطىءُ حين الغدُ نعمتُهُ	ما بالُنا حين يأتى الفضلُ طوفانُ
آياتُ يُسرٍ وفخرٍ حين يغمرُنا	ليلاً نهارًا به الركعاتُ غفرانُ
كم نستعدُّ لـهُ من قبلِ مقدمِهِ	ضيفٌ عزيزٌ لـهُ فى الهدى إعلانُ
تُسلسَلُ الجنُّ والشيطانُ يسبقُهُم	ويصحبُ الناسَ فى الصلواتِ قرآنُ
تصفو القلوبُ كأنَّ الضوءَ يسكنُها	وينمحى الحقدُ والأضغانُ خذلانُ
طهارةُ النفسِ أمرٌ يُستحبُّ لـهُ	صومُ الفريضةِ والزكواتُ ستْرانُ
كفُّ الجوارحِ بالإضرارِ نألفُهُ	فالصومُ صونٌ من النكباتِ هجرانُ
لا أكلَ لا شُربَ لا الشهواتُ نقربُها	ولا بذاءةَ قولٍ فيه هذيانُ
المؤمنُ الحقُّ كلٌّ ليس ينقصُهُ	إلا التجنُّبُ للفحشاءِ إمعانُ
والبعدُ عن دنسٍ يأتى اللسانُ به	وضمُّ أذنيه للبغضاءِ عرفانُ
وهجرُ تفكيرِهِ فى الحقدِ يعرفُهُ	صفاءُ قلبٍ مع الإصلاحِ يقظانُ
الصومُ جُنّةُ ومغتاةُ وقايتِنا	من كُلِّ ما يخذلُ الإنسانَ نقصانُ
إذ الأناملُ بالتسبيحِ هائمةٌ	بذكرِ ربى والإنسانُ ولهانُ
آياتُ ربى بصوتٍ حين نسمعُها	لها الخشوعُ قلوبٌ فيها إيمانُ
السعىُ فى الخيرِ حين الصومِ نألفُهُ	يُضاعفُ الأجرَ يومَ الدينِ ميزانُ
كفُّ الأذى ثم حفظُ العرضِ يتبعُهُ	نعمَ الصنيعُ لكلِّ الخلقِ إحسانُ
وشهوةُ الفرجِ حيثُ المرءُ يذكرُها	فى الصومِ دستورُها للعبدِ حرمانُ
صوموا تصحُّوا كما قال البشيرُ لنا	واللهُ يحفظُ كلَّ الجسمِ بنيانُ
بعدَ العشاءِ قيامُ الليلِ متفقٌ	عليه حيثُ لقاءُ الناسِ إخوانُ
بيوتُ ربى خلايا النحلِ تشبهُها	كلُّ النشاطِ مع الترتيلِ ولدانُ
حتى ننشئُهُم والحبُّ يجمعُهُم	مع الصيامِ خصالُ الدينِ أثمانُ

وصحبة البيت في عمرات قد كتبت … كحجة مع رسول الله سيان
قرآن ربي خلال الشهر يشفعنا … تكراره فوزنا بالشوق نيشان
موائد الزاد في الإفطار ترصدها … ويرشد الضال للإطعام غلمان
كأنهم في جنان الخلد همتهم … طواف خير لدى الصلاح طيران
وقت الفطور توحد حيث يأمرنا … قول النبي لكل الناس برهان
الكل في واحد لا فرق بينهم … هذا غني مع الفقراء خلان
تمر وماء وخير الزاد طعمتهم … بعد الصلاة فطور الصوم إيذان
بدرس دين بعيد الصوم يجمعنا … تصحيح أفكارنا بالسؤل إقران
قض الخصومات شهر الصوم حبذها … وألفة الخلق بالتوحيد أركان
البر فيه من الرحمن يمنحنا … يضاعف الأجر بالحسنات قيعان
أما السحور له الأوقات قد فرجت … إمساكنا قبل نور الفجر تبيان
من صام ذا الشهر إيمانا وتزكية … للنفس فاز بعفو ليس بهتان
وابن السبيل ومن بالآي ذكرهم … لهم حقوق وإن الحق إذعان
أما المسافر أو من كان ذا علل … ترخيص ربي له بالفطر إمكان
فلا تكلف نفس فوق طاقتها … الصوم لله ذي الإحسان إسكان
صوم الصبي له سن تحدده … إن كان ذا قدرة والوعي يقظان
ويحرم الصوم للحائض ومن نفست … حتى التطهر يقضي الأمر فرقان
عمل ابن آدم ملك لا ينازعه … يعيش قد يبتلي في الأرض نقصان
الصوم لله لا أحد يشاركه … منه الجزاء فإن القول قرآن
لا فرق في الصوم بين الخلق كلهم … ساعاته حددت في الحضر أزمان
وبعد شهر الصوم العيد يتبعه … كل السرور مع الإفطار تحنان
من قبل ذاك صيام العيد ترفعه … زكاة فطر لفرض الصوم شطآن
وبعده تأتي أيام تعرفها … بستة بيض فيها الصوم إحسان
من صامها بعد رمضان فعدتها … كما يصوم بعام.. قلب ملآن
منح من الله في رمضان عددها … بشير نور الهدى للناس إمعان
فالصوم يشفع والقرآن منقذنا … عند الحساب وكل فيه سكران
هذي المواقف صدق الصوم يشرها … من فضل ربي لمن يسكنه شكران
هبة الصيام من الرحمن تغمرنا … طوبى لمن يغتنم ما فيه خسران
يا رب فاجعل لنا في شهرنا منحا … وكن معينا فشهر الفضل رنان

السنابل الذهبية

شعر ابن النيل/ السيد الصديق حافظ

((إهداء إلى رئيس مصر الذي زكت حقول القمح مع بزوغ عهده السعيد مبشرة بالنماء والرخاء!)).

أحييت (عيد القمح) بعد مماته
أو بعد طول رقاده وسباته!
يا من بذكر الله قلبك عامر
أبشر بما يعطيك من نفحاته!
القمح زاد بفضل نية مؤمن
لم ينو إلا الخير طول حياته!
والقمح في ذهب السنابل شاكر
لله نعمته وخير ولاته!
الظلم يمحق أنعما ويبيدها
والعدل يحيي الميت من سكراته!

***

يا خادما شعب الكنانة ناصحا
أعطاك هذا الشعب من أصواته
حتى تكون له وليا مخلصا
كالروض ذي المعروف منكر ذاته!
فاجعله قبلتك التي ترنو لها
عند الصلاة ووقفه ركعاته

إن الكنانة في يديك أمانة
فاجذب لها القمر المنير وهاته!
مصر الكنانة قامة ومكانة
هي في حساب الله من حرماته!
من جاءها يخفي جهالة قلبه
كشفت لها الأحداث عن سوءاته
انظر إلى (اللومان) من يمشي به؟!
جبار مصر: العار في خطواته!!

***

يا من نراه مسبحا ومصليا
المصر أدى الشكر في سجداته؟!
وإذا تلا الآيات في خلواته
أيرى لمصر المجد في آياته؟!
سبح بحمد الله واسجد واقترب
واسأل لمصر الخير من بركاته
شرف الرئيس نراه في أعماله
لا طول لحيته ولا ثفناته(١)!

١- الثفنات: بثرات أو كتل سوداء تظهر في موضع السجود عند بعضهم؛ نتيجة احتكاك الجبين بحصير ونحوه.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

خواطر عائد من الحرم

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

ما أن وطئت أقدامي مطار ينبع بالمملكة العربية السعودية حتى هبت على قلبي نسائم عطرة من رحيق صحراء الجزيرة العربية بفضائها اللامحدود والتي تسافر العيون عبر أثيرها الأخاذ إلى الزمن البعيد إلى أيام العهد النبوي، تنفست نفسا عميقاً فيه زفرة ساخنة أحاول بها الخروج مما يحمله صدري من أسى على بلادي التي تركتها تتخبطها فتن الاختلافات السياسية والمعارك الأخلاقية وكأننا مليون شعب في بعض، وليس شعبا واحداً عاش آلاف السنين متوحدا بسيطا راضيا بما قسم الله له، طيبا صبورا مسالما لا يميل إلى العنف ويسارع لفض الشحناء بين المتخاصمين .. حاولت أن أتخلص ما استطعت من تلك الذكريات المؤلمة التي فارقتها من خلال ساعة واحد هي المدة التي قطعت فيها الطائرة المسافة بين القاهرة ومطار ينبع بالسعودية لأستقل السيارة بعد ذلك قاطعا ما تبقى من الصحراء الجميلة في طريقي إلى البلد الحرام، مكة المكرمة لأداء العمرة عسى الله أن يغفر وعسى أن أتخلص من أدران ما تسمع وترى من تشرذم أبناء الوطن الغالي "مصر" في جو مليء بالكراهية التي لم تعهد على المصريين . المهم قطعنا حوالي ثلاث ساعات في الطريق إلى مكة نلبي وأكلم المعتمرين عن فضائل مكة والكعبة والبيت الحرام، وأبين لهم أحكام ومناسك العمرة، حتى وصلنا إلى البيت الحرام وأشرقت على ملامح الجميع أنوار الحرم الآمن، فكادت القلوب أن تطير فرحا وسرورا، ونسي الجميع همومهم وكأننا لسنا قادمين من مصر "المتشرذمة" مصر .. المظاهرات .. الإضرابات .. الحرائق .. الخصومات .. الدجل الإعلامي .. الخ

تلاشت بمجرد رؤيتنا لمآذن البيت الحرام في عيوننا ونفوسنا كل مآسينا الوطنية، وأحزاننا المصرية، ولم يعد لنا هدف واحد سوى أن نحث الخطى نحو المسجد الحرام بتوسعاته المبهرة لنحط رحالنا النفسية والقلبية على عتبات الكعبة المشرفة، ودخلنا إلى ساحة الكعبة فيالهول المشاعر ويا لرقة الأحاسيس التي لا توصف لطائف قادم بجرح عميق من بلاد النيل، لكن ما أسعدني وأراح قلبي هذا المشهد المهيب للطائفين من بلاد الدنيا كل

يلهج بحاجته عند ربه ودعائه فرادى وجماعات بمختلف اللغات والألسن واللهجات، دموع تستدعي دموعك، وضراعة لا تدعك غافلا أو ساهيا أو مشغولا بغير هذا المشهد الجميل، وبدا لي سؤال مر في تلك اللحظات النورانية: إذا كانت أمتنا لا تتوحد وجهتها ولهجتها إلا بالقبلة وبالمناسك والاعتصام بالدين، فلماذا ترتمي في أحضان السياسة الشائكة؟ ولماذا تتوه في دروبها المتشابكة والتي لا تترك اثنين إلا وتركتهم متخاصمين وربما متقاتلين، لكن تولد من السؤال السابق سؤال لاحق، وهو لماذا يختلف الإسلاميون وهم أعرف الناس بمواطن الوحدة والاعتصام، بين إخوان وسلفيين وجماعات وجمعيات، ..

انهمرت في البكاء والدعاء واستأنفت الطواف وأنا أدعو: اللهم أحفظ مصر من شتات الأمر .. وتبعثر الصف .. واجمع أهلها على خير يارب البيت الحرام.

من بريد رئيس التحرير

أخي العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة رئيس تحرير مجلة الأزهر - القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإن الافتتاحية التي كتبتموها للعدد الجديد من مجلة الأزهر حول «الأصولية بين الغرب والإسلام»، بالغة الأهمية عالية المستوى راقية المضمون، وجاءت في الوقت المناسب تماما.

أما موضوع الهدية «الجهاد دفاعا عن الإسلام» للعلامة الهندي مولانا أبو الكلام آزاد، فهو اختيار صائب، ينم عن فهم عميق ووعي رشيد بما يجري اليوم من متغيرات متلاحقة في العالم الإسلامي، ولقد أقبلت على قراءة هذا البحث بنهم، لأن الموضوع له صلة بمؤتمر دولي انعقد يوم ١٢ يونيو في مدينة أقتاو بجمهورية كازاخستان، بدعوة من وكالة الشئون الدينية في هذه الجمهورية، حول «الإسلام والجهاد».

لفت نظري في «أنباء الأزهر» -ص: ١٧٧٠- ما ورد في الخبر عن زيارة مفتي كازاخستان للأزهر، من أن رئيس جمهورية كازاخستان، نور سلطان نزار بايف، هو أحد خريجي الأزهر، وهذا غير صحيح إطلاقا فالرئيس نور سلطان درس في بلاده، وتخصص في الرياضيات والعلوم، ولم يغادر كازاخستان للدراسة.

أما المفتي العام لكازاخستان، الشيخ إيرجان ماميروف، فقد تخرج في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط، في مطلع السبعينيات، وهو شخصية مثقفة واسعة الاطلاع وأعرفه شخصيا.

اهتممت بالحاق القسم الثاني من بحث فضيلة الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب، بالقسم الذي ترجم فعلا إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية للنشر في العدد المقبل من مجلة «الإسلام اليوم». وبذلك يكون البحث قد استوفي.

مع وافر تقديري وبالغ احترامي، وخالص مودتي.

أخوكم:

عبدالقادر الإدريسي

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ/ محمد جمعة

الله أكبر ..

تحت هذا العنوان جاء [رأى القدس] المنشور بجريدة القدس العربى الصادرة بتاريخ: ٢١/ ٦/ ٢٠١٣م يتضمن ما يلى:

أن يردد أى إنسان عبارة "الله اكبر" وأيا كانت ديانته أو هويته، فإن هذه دعوة للقتل، لإطلاق الرصاص فورا، ودون أى تردد.

فقد ردد هذه العبارة زائر يهودى قرب الحائط الغربى للمسجد الأقصى، أو حائط المبكى حسب التسمية اليهودية، فما كان من أحد الحراس إلا أن عاجله بإطلاق عدة رصاصات أردته قتيلا.

القتيل لم يكن مسلحا، ولم يعثروا فى ملابسه على أية أسلحة أو مواد مريبة، ولكن عبارة "الله اكبر" أخطر من كل الأسلحة، بل وأكثرها فتكا عند هؤلاء المذعورين المرتبكين.

لا نعرف الأسباب التى دفعت بهذا اليهودى ضحية القتل بسبب الشبهة، حتى يكبّر بالطريقة التى وصفتها وكالات الأنباء، ومن المؤكد أن الحارس الذى أطلق النار ما كان يفعل ذلك، أى قتله، لو عرف أنه يهودي.

الإنسان الفلسطيني - ابن الأرض وملحها - هو المستهدف دائما، مستهدف فى صلاته، مستهدف فى مقدساته، مستهدف فى بيته، مستهدف فى أطفاله وأفراد أسرته.

بناء المستوطنات على أرضه لا يكفي، واقتحام مسجده الأقصى عدة مرات على أيدى المستوطنين الذين يبحثون عن هيكل مزعوم لا يكفى أيضا، فالمطلوب أكثر من هدم هذا المسجد، المطلوب القتل والتصفية لكل مواطن فلسطيني، والأعذار والمبررات جاهزة.

سفير جنوب أفريقيا السابق لم يتردد لحظة فى رفض تكريم الحكومة الإسرائيلية له بعد انتهاء خدماته؛ لأنه لا يشرفه أن تكرّمه دولة تمارس العنصرية البغيضة بصورة أكثر شراسة من النظام العنصرى فى بلاده. والأكثر من ذلك أن هذا السفير الشجاع طلب اقتلاع عشرين شجرة جرى زرعها باسمه.

العالم ضاق ذرعا بهذا الكيان العنصرى الذى يقتل باسم الديمقراطية والحضارة وحقوق الإنسان.

كم إنسان فلسطيني يستشهد برصاص النظام العنصري؛ لأنه ردد عبارة "الله اكبر" فى مختلف أنحاء الأرض المحتلة!

السلطات الإسرائيلية توزع أقنعة الغاز على مستوطنيها تحسبا لحرب تستخدم فيها أسلحة

كيميائية، ولن نستغرب إذا ما وزعت كمامات لكتم أصوات الفلسطينيين أو أشرطة لاصقة لمنع ترديد عبارة "الله أكبر".

لن نستغرب أيضا إذا وزعت السلطات نفسها تعليمات مكتوبة للسياح اليهود وغير اليهود زوار الأراضى المحتلة بعدم ترديد هذه العبارة إذا كانوا يريدون السلامة وتجنب الرصاصات القاتلة.

هل تغير الأمريكان أم تغيرت طالبان؟!

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ شريف قنديل المنشور بجريدة المدينة الصادرة بتاريخ: ٢٢/ ٦/ ٢٠١٣م يقول:

"الولايات المتحدة الأمريكية" تعلن أمام "مجلس الأمن الدولي" التابع للأمم المتحدة تأييدها لافتتاح مكتب لـ"طالبان" فى الدوحة استعدادا أو تأهبا لبدء المصالحة فى أفغانستان!.

ولأنها أمريكا ولأنه مجلس الأمن يقفز السؤال البديهى على الفور: هل تغيرت أمريكا أم تغيرت طالبان؟! هل تنازلت طالبان أم تنازلت أفغانستان؟!.

الإجابة السهلة تقول: إن السياسة لا تعرف لغة الثوابت والمواقف وحتى المواثيق الدولية كما هو الوضع فى الحالة الفلسطينية، ولأن ذلك كذلك فإن مصلحة الطرفين تقتضى ذلك.. أمريكا وقوات التحالف المنهكة هناك فى جنوب أفغانستان، وطالبان التى تخرج من قائمة إرهاب وتدخل فى أخرى!

والإجابة الشكلية تقول: إن ثمة تغيرات عديدة حدثت فى خطاب طالبان "خطابات العنف والإرهاب والتخلف والرجعية وانتهاك حقوق الإنسان" إلى آخر التهم الجاهزة الحقيقية منها وغير الحقيقية فضلا عن تنامى ضغط جماعات حقوق الإنسان الأمريكية فيما يتعلق بأفغانستان!

الشيء المثير للدهشة أن الرئيس الأمريكي أوباما يقول فى برلين أن المسار السياسى لا يمنع استمرار "القتال" ضد طالبان، وفى المقابل ترد طالبان بقتل ٤ جنود من الأمريكان، ويعلن وزير الدفاع الألمانى من أفغانستان أثناء زيارته لقوات التحالف هناك تأييده لبدء مفاوضات السلام مع طالبان!

امتدادا لذلك أو قريبا منه يقول أوباما: إن قرار التفاوض المباشر والمتواصل جاء بعد أن تعهدت طالبان بعدم السماح لإرهابيين بدخول أفغانستان، وبإشراك حكومة قرضاى فى المفاوضات، وترد طالبان في بيان رسمى أنها "لا تريد أبدا أن تؤذى دولا أخرى داخل أراضيها" فى إشارة واضحة إلى أن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م لن تعود!.

بقى أن نشير إلى أن بدء المفاوضات لا يعنى بحال الحكم بنجاحها، وفى ذلك يكفى أن نقول: إنها مفاوضات بين جهة تدرج الأخرى فى قائمة الإرهاب، وجماعة لا تطيق ذكر مصطلح "ديمقراطية".

الصحف البريطانية تحتفى بفوز روحاني

تحت هذا العنوان جاء التقرير المنشور بموقع الجزيرة نت بتاريخ: ١٥/ ٦/ ٢٠١٣م:

ركزت الصحف البريطانية فى مقالاتها الافتتاحية والتحليلية على فوز حسن روحانى بانتخابات الرئاسة الإيرانية، وذكرت إحداها أن الرئيس الجديد يقدم أملا للمنطقة، وترى أخرى أن إيران قد غيرت مسارها، والآن على

الولايات المتحدة أن تفعل نفس الشيء، وقالت ثالثة: إن فوز روحاني فرصة للغرب لإعادة تشكيل العلاقات مع إيران.

ووصف (جاك سترو) وزير الخارجية البريطاني الأسبق حسن روحاني، في مقال بصحيفة ديلي تلغراف، بأنه رجل ذكي سياسيا وله رؤية لنظام أكثر اعتدالا. ويرى (سترو) أن الخطأ الذي يقع فيه كثيرون في الغرب بشأن إيران هو الحط من قدرها باعتبارها تُدار من قبل رجل واحد، دكتاتورية المرشد الأعلي.

وفي سياق متصل كتبت صحيفة جارديان أن فوز روحاني في انتخابات الرئاسة الإيرانية كان "مذهلا" وأنه يفتح نافذة أمل لتخفيف حدة التوتر بين إيران والغرب بشأن الملف النووي وأيضا للقضية الأكثر إلحاحا وهي معركة التدمير الذاتي بين الشيعة والسنة التي تقتل الآلاف في سوريا والعراق وتهدد منطقة الشرق الأوسط بأكملها.

وختمت الصحيفة بأن تغيير واشنطن مسارها سيرسل إشارة مهمة، ليس فقط بأن إيران يجب أن تكون جزءا من أي حل في سوريا، ولكن أيضا بأن السرطان المعادي لإيران الذي أثر في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط منذ خطاب محور الشر قد تم استئصاله أخيرا.

مصر الرابعة في قائمة التجسس الأمريكية

نشرت جريدة الشروق تحت العنوان [الجارديان: مصر الرابعة في قائمة التجسس الأمريكية] خبرا بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١٣/٦/٩م:

نقلت الصحيفة عن وثائق أمريكية سرية للغاية حصلت عليها، أن وكالة الأمن القومي طورت أداة لتسكين البيانات التي تحصل عليها من مراقبة أجهزة الحاسب الآلي وشبكات الاتصالات حول العالم.

واحتلت إيران المرتبة الأولى بين الدول الأكثر خضوعا للرقابة، حيث جمعت منها الوكالة الأمريكية ١٤ مليار تقرير في ذلك الشهر، ثم باكستان بـ١٣,٥ مليار، فالأردن بـ١٢,٧ مليار، ومصر بـ٧,٦ مليار، فيما جمعت الوكالة ٣ مليارات تقرير من الولايات المتحدة نفسها.

ويأتي ذلك الكشف السري بعد أيام من إزاحة جارديان وواشنطن بوست الأمريكية، النقاب عن برنامج تجسس ضخم يعرف باسم بريزم، وتديره وكالة الأمن القومي لاستخراج بيانات المستخدمين المخزنة ضمن أجهزة خوادم شركات إنترنت أمريكية كبرى مثل جوجل وفيس بوك وأبل وياهو وغيرها.

وبحسب التقارير الصحفية، دشن هذا المشروع عام ٢٠٠٧م خلال حكم الرئيس الجمهوري السابق جورج بوش الابن، وشهد نموا في ظل الرئيس الديمقراطي باراك أوباما، واعتمدت عليه وكالة الأمن القومي بشكل متزايد وجعلته مصدرا للمادة الخام لتقارير المخابرات اليومية للرئيس.

إلا أن مدير المخابرات الوطنية الأمريكية جيمس كلابر نفى أن يكون «بريزم» برنامجا سريا لجمع المعلومات، مؤكدا أنه نظام حاسوبي حكومي داخلي يستخدم «لتسهيل» طريقة معالجة الحكومة للمعلومات التي تجمعها من شركات تقديم خدمات الاتصالات، كما يشير إلى أنه مشروع قانوني لا يستهدف المواطنين الأمريكيين ويهدف لإبقائهم آمنين.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين أحمد رضوان، يحيى سلطان

الجامعة العربية ترحب بدعوة مرسى لعقد قمة حول سوريا

رحبت جامعة الدول العربية بدعوة الرئيس المصري محمد مرسي بعقد قمة عربية مصغرة بشأن سوريا وقال نائب الأمين العام للجامعة السفير أحمد بن حلي إن الجامعة العربية ترحب بأي تجمع عربي أو لقاء إسلامي على هذا المستوى، خاصة وأن التحديات بالنسبة للعالم العربي كثيرة، مؤكدا أنه كلما كان هناك لقاء على مستوى القمة، كان مفيداً.

وأضاف أن الجامعة العربية لم تتلق حتى الآن طلب مصر بشكل رسمي لعقد هذه القمة، وننتظر الطلب، وعندما تبلغنا مصر بشكل رسمي، ستتم بعض المشاورات بشأن ذلك.

وردا على سؤال حول الصعوبات التي يواجهها انعقاد مؤتمر جنيف ٢ بشأن سوريا، أوضح بأنه ما زالت المحاولات تبذل، حيث يجرى الأمين العام للأمم المتحدة اتصالات مع كل من أمريكا وروسيا وبعض الأطراف الأخري، ومع الأمين العام للجامعة العربية الدكتور نبيل العربي لإتمام عقد هذا المؤتمر الذي فتح حيزا صغيرا من الأمل.

«توطيدا للعلاقات.. إثيوبيا تدعو «إسرائيل» لتمويل سد النهضة

عقب إعلانها عن تحويل مسار النيل الأزرق، دعت السفارة الإثيوبية في «إسرائيل» المواطنين والشركات «الإسرائيلية» إلى شراء سندات لتمويل «سد النهضة».

ونشرت السفارة الإثيوبية في «إسرائيل» ملفا عن سد النهضة باللغة العبرية، وتضمن معلومات عن المشروع تحدثت عن أهمية بناء هذا السد الذي سيكون أكبر مولد للطاقة الهيدروليكية في

أفريقيا، والسابع على مستوى العالم. ومن المعروف أن «إسرائيل» حرصت فى الآونة الأخيرة بشدة على بناء علاقات إستراتيجية قوية مع الدول الإفريقية ومنها إثيوبيا حيث تقوم «إسرائيل» بإمداد إثيوبيا بالمساعدات الاقتصادية والطبية لها، بالإضافة لبعض أساتذة الجامعات والعلوم المختلفة.

ولا تقتصر العلاقات بين تل أبيب وأديس أبابا على المساعدات الاقتصادية، بل امتدت لتشمل مساعدات عسكرية، حيث أرسلت «إسرائيل» قوة عسكرية لإثيوبيا قدرت بنحو ١٠٠ فرد، وتعد ثانى أكبر بعثة بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أثارت خطوة إثيوبيا المفاجئة بتحويل مجرى النيل الأزرق غضب مصر خاصة تعجلها باتخاذ هذا القرار دون انتظار نتائج اللجنة الثلاثية لدول حوض النيل حول وضع المياه.

وكان المتحدث باسم شركة الكهرباء الوطنية فى أثيوبيا «أديس تاديلي» قد أكد مؤخراً أنه ينبغى تجفيف مجرى النهر الطبيعى تماما من أجل التمكن من بناء السد.

ومن شأن هذا القرار أن يؤثر سلبا على مصر والسودان بفقدان كمية كبيرة من المياه تتراوح بين خمسة و٢٥ مليارا مكعبا، فضلا عن أن نقص مخزون المياه خلف السد العالى سيؤثر سلبا على الطاقة الكهربائية المتولدة منه بما يتراوح بين ٢٠ و٤٠٪، بحسب خبراء فى مجال المياه.

مسلمو نيو كاسل يرفضون ارتداء القميص الجديد للفريق

بحسب ما أوردته صحيفة «دايلي ميرور» البريطانية، فإن مهاجم الفريق الإنكليزي، الدولى السنغالى بابيس سيسيه قد أبلغ إدارة النادى رفضه ارتداء قميص الفريق للموسم المقبل، لأسباب دينية وأخلاقية.

ولم يقتصر الحال على اللاعب السنغالي، حيث أثار قرار التعاقد مع شركة «ونغا» حفيظة لاعبى الفريق المسلمين على غرار الفرنسى من أصل تونسى حاتم بن عرفة والإيفوارى الشيخ تيوتي، وذلك بحكم أن الدين الإسلامى يمنع التربح من أموال القروض ويتعارض الترويج لهذه الشركة مع مبادئ الدين الإسلامى التى تحظر الفوائد الربوية.

ويأتى هذا القرار بعد أن أصدرت هيئة المسلمين فى بريطانيا فتوى تحرم ارتداء قميص نيو كاسل، فى الوقت الذى حذر فيه الأمين العام المساعد لمجلس مسلمى بريطانيا، الشيخ إبراهيم موجرا، لاعبى نيو كاسل المسلمين من ارتداء قميص الفريق الجديد، الذى يحمل إعلانا للشركة المتخصصة فى تمويل القروض الربوية.

وأشارت صحيفة «الديلي ميل» البريطانية إلى أن مسئولى نيو كاسل يُفكرون فى حلّ جذرى لهذه المعضلة، إذا تمسك لاعبوهم بموقفهم الرافض لارتداء القميص.

وكان نادى نيو كاسل الإنكليزى قد وافق مؤخراً على فكرة إنشاء مصلى داخل مبنى ملعب سان جيمس بارك، معقل الفريق الإنكليزي، للقيام بفريضة الصلاة. وأعلن ديريك لامبياس العضو المنتدب لنادى نيو كاسل عن موافقة ناديه على إنشاء مصلّى داخل مبنى الملعب، الذى يتسع إلى أكثر من ٢٥ ألف مشجع. وأكد لامبياس أن موافقة مجلس إدارة النادى جاءت بناء على رغبة المدير الفنى للنادي، آلان باردو، الذى طالب بإنشاء غرفة خاصة لأداء للصلاة.

تسامح المسلمين فى هولندا يدهش سياسياً معاديا للإسلام

طبّق المسلمون المقيمون فى أحد الأحياء بمدينة لاهاى الهولندية مفهوم التسامح الذى يحثنا عليه ديننا الحنيف مع «خيرد فيلدرز» زعيم حزب الحرية اليمينى المتطرف، والمعادى للمسلمين.

حيث قام القاطنون بحى «شخيلدرز فايك» ذى الأغلبية المسلمة باستقبال نائب رئيس وزراء البلاد، وخيرد فيلدرز بلافتات فى شوارع الحى كتب عليها «نحن نحب خيرد».

وقد جاءت زيارة فيلدرز المعادى للإسلام بعد ادعائه أن المسلمين يمارسون الضغوط على السكان الهولنديين الأصليين فى الحي، لذا قرر أن يزور الحى ليتفقد الأوضاع بنفسه بصحبة نائب رئيس الوزراء ليجد عكس ما اختلق من شائعات عن المسلمين.

حيث أذهلت هذه اللافتات التى كتبها المسلمون المستهدفون منذ سنوات من قبل قادة الأحزاب اليمينية الهولندية اندهاش المسئولين، حيث أظهرت اللافتات مدى تسامح المسلمين وعدم بغضهم أو عدائهم لمن يتحاملون عليهم دون أدنى مبرر.

إلا أن فيلدرز النائب اليمينى المتطرف أكد فى تصريحاته عقب الزيارة القصيرة التى استغرقت ١٠ دقائق سيرا على الأقدام فى الحى الذى يقطنه غالبية مسلمة أن «الهدف من هذه الزيارة هو إثبات أن ذلك الحى بقيمه وثوابته تابع لهولندا».

دعوى قضائية ضد شرطة نيويورك بسبب برنامجها لـ «مراقبة المسلمين»

أقام اتحاد الحريات المدنية فى نيويورك دعوى قضائية، على إدارة شرطة المدينة بسبب مراقبتها للجماعات المسلمة متهما الشرطة بانتهاك الحريات الدينية وضمانات المساواة التى يكفلها الدستور.

وامتدت مراقبة شعبة الاستخبارات فى شرطة نيويورك إلى ٥ أقسام إدارية فى ولاية نيوجيرسى المجاورة وولايات قريبة أخرى. وتقول إدارة الشرطة إن مراقبة المسلمين قانونية بموجب أمر سابق من محكمة اتحادية، والدعوى القضائية هى أحدث حلقة فى المعركة الدائرة بين إدارة شرطة نيويورك والمدافعين عن الحريات المدنية بسبب أساليب متشددة تتبعها الشرطة مثل ممارساتها فى الاستيقاف والتفتيش وهى موضوع لدعوى قضائية اتحادية منفصلة.

وتهدف الدعوى التى أقيمت أمام المحكمة الجزئية الأمريكية للحى الشرقى لنيويورك فى بروكلين إلى إنهاء مراقبة الشرطة للمسلمين وتدمير كل التسجيلات الخاصة بالأفراد التى يجرى الاحتفاظ بها فى إطار برنامج المراقبة وتعيين مراقب مستقل للإشراف على إدارة شرطة نيويورك، وقالت هنا شمسي، مديرة مشروع الأمن القومى فى اتحاد الحريات المدنية الأمريكي: «حين تحول إدارة للشرطة أناسا يتقيدون بالقانون إلى مشتبه بهم لانهم يترددون على مسجد وليس على كنيسة أو معبد يهودى فإنها تنتهك ضمانات المساواة والحرية الدينية التى يكفلها دستورنا، وأقيمت الدعوى القضائية بالنيابة عن مسلمى نيويورك بمن فيهم طالب جامعى من بروكلين ساهم فى تأسيس جماعة خيرية إسلامية قال إنها تعرضت للاختراق من إدارة شرطة نيويورك.

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأساتذة:
محمود القسي - عبدالموجود أمين

الطيب يؤكد على موقف الأزهر الرافض للعنف

جدد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر موقفه الرافض دائمًا للعنف بجميع صوره وأشكاله، مؤكدًا أن الأزهر لا يملّ من دعوته جميع الأوساط على اختلاف اتجاهاتها إلى التوحد والالتفاف حول المصلحة العليا للبلاد.

جاء ذلك خلال لقاء فضيلته بالدكتور سيف عبد الفتاح، المستشار السابق لرئيس الجمهورية، والدكتورة نادية مصطفى، أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة صباح يوم الأربعاء ١٠ شعبان ١٤٣٤ هجرية الموافق ١٩ يونيو ٢٠١٣م.

حيث شكر الضيفان فضيلته لجهوده الساعية لتجميع الفرقاء ولمّ الشمل، وتقريب وجهات النظر بين جميع الأطراف والاتجاهات، وطالباه ببذل كثير من الجهد الوطني والصوت الهادئ الهادف الذي ينصت إليه مختلف الأوساط والهيئات والفئات؛ لنزع فتيل الأزمة.

الإمام الأكبر: العالم العربي يمر بمرحلة انتقالية صعبة

ندعو الله أن يخرجه منها سالما غانما

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، يوم ١٨/٦/٢٠١٣ السيد/ عبد الناصر ضاحي، الأمين العام لاتحاد البرلمان العربي، والوفد المرافق له، والذين أعربوا عن سعادتهم بلقاء فضيلة الإمام الأكبر، مؤكدين أن فضيلته يحتل مكانة عظمى في قلوب الملايين داخل مصر وخارجها، مقدمين لفضيلته دعوة كريمة لحضور جلسة البرلمان العربي بالقاهرة، والذي سيبدأ فعالياته بمحاضرة عن سد إثيوبيا وآثاره، في إطار بحث القضايا العربية المشتركة على الصعيد القومي والدولي، واتخاذ التوصيات والقرارات اللازمة بشأنها.

ومن جانبه رحب فضيلة الإمام الأكبر بانعقاد جلسة اتحاد البرلمان العربي بالقاهرة في هذه الفترة الصعبة من تاريخ مصر والعالم العربي الذي يمر بمرحلة انتقالية ضرورية ولا شك أنها صعبة، وقال: إنني على يقين من أن الله تعالى سيخرج هذه الأمة سالمة - بإذن الله تعالى ولكن يحتاج هذا إلى بذل الجهود والعمل على ترسيخ قيم العدل، وإعلاء قيمة العمل الدءوب من أجل وضع الأسس السليمة لبناء مجتمع عربي فاعل على المستوى الإقليمي والدولي.

الإمام الأكبر يتبرع بهدايا المشيخة دعمًا للاقتصاد وترسيخًا للشفافية

وفي إطار التطبيق العملي لمبدأ الشفافية، ومن منطلق دعم الاقتصاد المصري ليواجه التحديات الحالية، قام فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، بالتبرع بساعتين ثمينتين لوزارة المالية المصرية، وذلك لعرضها في المزاد الذي ستعقده الوزارة لبيع الهدايا التي قُدّمت للمسئولين والوزراء بالحكومة على مدار العام المنصرم.

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن هذا الأمر هو خطوة على طريق النزاهة والشفافية التي أصّلها الشرع الحنيف، وطبقها صحابة النبي ﷺ، والأمة الآن أحوج ما تكون إلى سلوك هذا المسلك، وتمنى فضيلته من الجميع المشاركة في دعم الاقتصاد المصري والعمل على بناء الوطن وتنميته.

قافلة علماء الأزهر في سوهاج

أفاد الدكتور/ محمد مختار جمعة، عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية وعضو المكتب الفني لفضيلة الإمام الأكبر لشئون الدعوة والإعلام الديني بتتابع قوافل علماء الأزهر وتواصلها وأنها في حركة دءوب تجوب أنحاء مصر داعية إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة تعمل على ترسيخ القيم والأخلاق، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وتؤكد على الثوابت الإسلامية، وأن القافلة القادمة ستتوجه إلى محافظة سوهاج يوم الخميس ٢٧/٦/٢٠١٣م لمدة يومين، وتتكون القافلة من نخبة من علماء الأزهر الشريف.

بيان هام من الأزهر الشريف بشأن تكفير المسلمين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد؛؛؛

فإن الأزهر الشريف، الذي يعمل دومًا على جمع الكلمة، ونبذ الخلاف والفُرقة التي توهن من قوتنا، وتذهب بريحنا، يجد نفسه مضطرًا إلى التعقيب على ما نُشر من أقوال وإفتاءات منسوبة لبعض الطارئين على ساحة العلوم الشرعيّة والفتوى.

ومنها أن مَنْ يَخرج على طاعة "وليّ الأمر الشرعيّ" فهو منافقٌ وكافرٌ، وهذا يعني بالضرورة الخروج عن مِلة الإسلام. ويُوضّح الأزهرُ بهذا الشأن عدّة أحكام شرعية:

أولا: أن هذا هو رأي الفِرق المنحرفة عن الطريق الصحيح للإسلام، وهو كلامٌ يرفُضُه صحيحُ الدِّين ويأباه المسلمون جميعًا، ويُجمِعُ فقهاءُ أهل السُّنّة والجماعة على انحرافه وضلاله.

ثانيا: رغم أن الذين خرجوا على الإمام عليّ - رضي الله عنه - قاتلوهُ واتهمُوهُ بالكفر، إلّا أنّ الإمام عليًا وفقهاء الصحابة لم يُكفِّروا هؤلاء الخارجين على الإمام بالعُنف والسّلاح، ولم يعتبروهم من أهل الرِّدّة الخارجين من الملة، وأقصى ما قالوه: إنهم عُصاةٌ وبُغاةٌ تَجبُ مقاومتهم بسبب استخدامهم للسّلاح، وليس بسبب معارضتهم.

ويؤكد الأزهر أنّ المعارضة السِّلميّة لوليّ الأمر الشرعيّ جائزةٌ ومُباحة شرعًا، ولا علاقة لها بالإيمان والكفر، وأن العُنف والخروج المُسلّح معصيةٌ كبيرةٌ ارتكبها الخوارجُ ضدَّ الخُلفاء

الراشدين ولكنَّهم لم يَكفُروا ولم يخرجوا من الإسلام.

هذا هو الحُكمُ الشرعيّ الذي يُجمع عليه أهل السُّنة والجماعة.

والأزهرُ الشريفُ إذ يدعو إلى الوفاق ويُحذِّرُ من العُنف والفتنة، يُحذِّرُ أيضًا من تكفير الخصوم واتهامهم في دينهم.

اللهم إنا نسألك رحمةً تهدي بها قلوبنا، وتَجمع بها شملَنا، وتَردُّ بها الفتن عنّا.

والله ولي التوفيق!!!

تحريرًا في مشيخة الأزهر:

١٠ من شعبان سنة ١٤٣٤هـ

الموافق: ١٩ من يونيو سنة ٢٠١٣م

أحمد الطيب

شيخ الأزهر

الأزهر يؤكد حرمة الخروج المسلح

يُعلن الأزهر الشريف - مع أسفه البالغ لتردِّي أحوال الدعوة الدينية - أنَّ ما ذكره أحد من كانوا يَظهرُون في ميدان التحرير، ويتباهون بالتمسح بالثورة، وشكا عقلاء الميدان حينذاك من تلوُّنه وأنانيته وشقِّه لصف الوطن، والآن يتطاول على فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، في جمعة لا للعنف، ويردد تُرّهات حول شخصه وماضيه الكريم - دون أن يجد من يَردُّه إلى الصواب، أو يستنكر ما يدر منه من خطاب - هو ثمرة خيال سقيم وعقل مريض:

١- نعم؛ لقد نصح فضيلة الإمام الأكبر شباب الميدان في اليوم الأخير وفي الساعات الأخيرة للثورة بعدم النزول إلى الميدان خوفا على دمائهم الزكية من نظام كلنا يعلم طبيعته، وهو ما قدَّره رجل يخشى الله ويرجو رضاه.

وليت من يتاجرون الآن بدماء الجماهير المصرية يحسون بهذا الشعور، ويقدرون هذه المعاني، إذن لحقنوا دماء بريئة، ونالوا أجرًا باقيًا.

٢- الكلُّ يشهد بأنَّ الأزهر الشريف هو أول مؤسسة رسمية وصَفت الذين قُتلوا في الميدان بالشهداء في بيانٍ منشورٍ أيامَ الثورة، خلافًا لما ادَّعاه كذبًا وافتراءً هذا الدَّعيّ من أنَّ مَن مات في ميدان التحرير ليس شهيدًا.

٣- وأمَّا ما يردده المدَّعي وأمثاله ممن لا يبحثون عن الحق حول لجنة «السياسات»، فلا صلة لفضيلة الإمام بها، وإنما هو تشكيل ضُمَّ إليه بحكم منصبه «رئيس جامعة الأزهر» حينذاك، وهو المكتب السياسي برياسة رئيس الجمهورية عندئذ، ولم يحضره الشيخ إلا مرّة واحدة، ثم بادر إلى الاستقالة منه بمجرد تعيينه شيخًا للأزهر؛ شعورًا بأن الأزهر فوق هذه المجالس والتشكيلات، على أن الرجل الذي تُطوول عليه سَفَهًا وافتراءً، ينظر إليه المصريون كافَّة بوصفه بينهم قامةً سامقة ومقامًا رفيعًا، من الطبيعي أنْ يعتزَّ به كلُّ عهد، ويحترمه كل حاكم، وهو بحكم نشأته وتربيته وأخلاقه لا يسعى إلى أبوابهم، ولا يتمسَّح في ركابهم.

ومنذ أيام ثلاثة كان الرئيس الفاضل - الذي تزعُمُ أنك تتظاهر من أجله - يرعى حقوق التكريم والإعزاز لهذا الشيخ الجليل؛ لأنه - بحمد الله - يعرف قيمَ الرجال.

٤- إن شيخ الأزهر لم يدعُ للخروج على رئيس الجمهورية المُنتخب، ولكنَّه - في ظروف احتقان متوتر وحشد مُتبادل، وكل مصري يشفق مما قد يحل بنا من فتن وخسائر - أعلن حرمة الخروج المسلَّح وذكَّر الناس بأنَّ السُّفهاء في الماضي ممن لا يبحثون عن الحقّ، وتدفعهم السفاهة والحماقة، خرجوا على الخلفاء الراشدين أنفسهم، ولكنهم في الوقت نفسه قرر ما يُجمع عليه فقهاءُ الإسلام من النهي عن تكفير الخارجين بالقوة، وهم البغاة العصاة الذين يجب التصدي لهم. أما المعارضة السلمية فلا خلاف بين المسلمين في جوازها أو مشروعيتها، بل هو ما تكفله الآن القوانين والدساتير. فماذا تريده أن يقول؟ هل يغير أحكام الشرع؛ لأن فهمًا مريضًا وعقلاً سقيمًا يفهم من هذا الكلام الدقيق المحكم أنه تحريضٌ على الخروج ودعوة إليه؟

ولا يجدُ الأزهر ما يقوله في هذا المقام إلا ما ختم به بيانه السابق الذي عجز صاحبنا عن فهمه: اللهمّ إنا نسألك رحمة تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وترد بها الفتن عنّا، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء منّا.

تحريرًا في: ١٤ من شعبان ١٤٣٤ هـ، الموافق: ٢٣ من يونيو ٢٠١٣م

الإمام الأكبر: مصر ستتجاوز أزمتها الراهنة بأمان وسلام وهى فى أمان الله وحفظه

أكد فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، أن مصر ستتجاوز - بإذن الله - الأزمة الراهنة بأمان وسلام، وأن اليقين الراسخ فى الله تعالى كبير أن يجنبها كل سوء، لأن مصر معروف عنها منذ القدم أنها محروسة، أى محروسة من الله سبحانه وتعالى، مضيفًا: «لا أشك لحظة أننا سنجتاز هذه المرحلة بسلام» وداعيًا جميع الفرقاء إلى إخلاص النية، ومراعاة المصالح العليا للوطن، فى حوار أخوى يضم الجميع، تطرح من خلاله هموم الوطن.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلته للسفير القطرى بالقاهرة، السيد صالح عبدالله بن مقدم فى ٢٥/٦/٢٠١٣.

كان السفير القطرى قد أبلغ فضيلة الإمام بالتطورات الأخيرة فى دولة قطر وأن صاحب السمو حمد بن خليفة آل ثان قد ألقى بيانًا مهما أعلن فيه نقل السلطة إلى ابنه سمو الأمير تميم بن حمد آل ثان.

من جانبه بارك الإمام الأكبر هذه الخطوة الطيبة، ومهنئًا الأمير الجديد ومتمنيًا لسموه وللشعب القطرى الشقيق مزيدا من التوفيق والتقدم والازدهار.

الأزهر الشريف: أحداث زاوية أبو مسلم غريبة على مصر

لقد فزع الأزهر الشريف وهو يُتابع بقلق شديد الأحداث الدامية التى وقعت فى قرية «زاوية أبو مسلم» بمركز النمرس - محافظة الجيزة والتى أسفرت عن مقتل أربعة من المواطنين والتمثيل بهم فى سابقة خطيرة، مؤكدًا أن هذا العمل الإجرامى الذى وقع من البعض من أكبر الكبائر وأشد

المنكرات التي يُحرمها الشرع الحكيم ويُعاقب عليها القانون ويحرمها الدستور.

ويؤكد الأزهر الشريف على حرمة الدماء وأن الإسلام ومصر والمصريين لا يعرفون القتل بسبب العقيدة أو المذهب أو الفكر وأن تلك الأحداث غريبة عليهم. ويراد بها النيل من استقرار الوطن في هذه اللحظات الحرجة وتجرنا إلى فتن لابد أن ننتبه لها جميعًا حكومة وشعبًا، ويُذكر الأزهر بالحديث الشريف الذي يؤكد أن المسلمين إذا التقيا بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار.

ويُطالب الأزهر الشريف الجهات المعنية بضرورة التحقيق الفوري في هذه الأحداث وإنزال أشد العقوبات بمن يثبت جرمه وبضرورة إعلاء سيادة القانون وترسيخ دولة القانون بالاحتكام إلى العدالة في كل ما يثار من نزاع.

الإمام الأكبر: حان الوقت لتفعيل وثيقة الأزهر لنبذ العنف ولا بديل للحوار إلا الدمار

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب شيخ الأزهر رئيس أساقفة كانتربري جاستن ويلبي، بمشيخة الأزهر، معربًا عن ترحيب الأزهر بيت الأمة العربية والإسلامية بالضيف، ومؤكدًا على الروابط القوية التي تربط الأزهر بالكنيسة الأنجليكانية، قائلا: « إن هذه الكنيسة تقدر معنى الحوار وقيمة التعايش مع الآخر»

وأضاف الإمام: « إن الاختلاف هو القانون الذي قام عليه الكون في كل المجالات، وهو إرادة الله ولا راد لمشيئته، ونحن نعلم من القرآن الكريم أن الله كان قادرًا على أن يخلق الخلق على لون واحد ودين واحد، ولكنه أراد الاختلاف بين الناس، وكل المحاولات التي تتم في بعض الدوائر الدينية الغربية في الغرب من أجل أن يكون الناس على دين واحد، وكذلك المحاولات الثقافية الغربية التي تريد أن تحشد الناس في نمط واحد من الثقافة فيما أطلق عليه « العولمة »، هذا كله ضد إرادة الله في هذا الكون.

وأشاد الإمام بما يقوم به بيت العائلة المصرية من جمع للأئمة والقساوسة في تجربة جديدة أدت إلى تآلف بين رجال الدين الإسلامي والمسيحي على السواء، قائلا: أنه أنموذج ينبغي أن يحتذى في باقي دول العالم في نيجريا والصين وغيرهما.

ومن جانبه قال أسقف كانتربري: « إن حديث فضيلة الإمام الأكبر يمس الواقع مسًا مباشرًا، ونحن في كنيستنا نؤمن بحتمية الاختلاف الذي ينبغي أن تسوده المحبة المتبادلة، وأضاف: إننا يجب أن نفكر في الأمور التي تعمق الحوار.

وعن الوضع الداخلي في مصر قال رئيس الأساقفة: إننا ندعو الله لمصر أن يحفظها لتؤدى دورها المعهود عبر التاريخ.

وفي الموضوع نفسه قال الإمام: إنني متفائل بمستقبل مصر وأعتقد أننا جميعًا موالاة ومعارضة ينبغي أن تجلس إلى مائدة الحوار، فلا بديل للحوار إلا الدمار، وأعتقد أن الحل ميسور إن شاء الله تعالى إذا ما خلصت النيات وجعلت مصلحة مصر نصب أعين الجميع، والأزهر لا يمل من التذكير بوجوب تفعيل مبادرة نبذ العنف، فالمماطلة في تطبيقها على الواقع مضيعة للوقت.

and see the size of the other in the light of Islam, and takes the wisdom wherever it is.

I presented my contributions to reveal the dimensions of cultural independence and the Islamic properties in creed, Shari`ah, and cultural spirit, so that our nation and its current and future generations to occupy its place among the developed and effective civilizations. Thus, it can deal with the other human civilizations without isolation or dissolving in others.

As Islamic faith is the best grace of Allah for a Muslim, and the most honorable thing desired by the human being, and the institutions of the Western religious dominance were allied with the institutions of the imperialistic political dominance to Christianize the Muslims and to eliminate Islam. The topic of Christianization and disclosing their immoral methods have a significant share in the intellectual project, which I presented to my nation to defend this religion.

As the Islamic Shari`ah represented with the creed the lungs of Islam, and as the secular invasion sought to turn the page of Shari`ah, the Christianizers sought to turn the page of creed so that our nation follows the Western cultural centralization. Defending the Shari`ah and jurisprudence of its transactions and the difference between this and the Western positive law are parts of my intellectual project.

As the Noble Qur'an taught us the approach of

{...they are not Equal}

[Al-Imran (The Household of Imran): 113]

I attached this approach the due care in my intellectual project; thus I distinguished between the pros and cons of the others' thought. Also, I distinguished between what is general, humane and common and what is particular to certain cultures and civilizations.

This intellectual attraction was famous, and many people who misunderstood Salafi thought, were limited to the apparent texts, and were not satisfied with resorting to the origins of religion. They wanted to resort to Salafism with regard to the changing aspects of life and were dreaming of putting the life affairs within the frames of the old history.

Others, who talked about modernism, regarded the cultural West their origin, which they copied and imitated. Some of them were completely knowledgeable about the details of the Western civilization and writing about the events of the Western history and the elements of the Western civilization. This is along with complete ignorance and inability to make anything for our history, culture, civilization, and creativity of our nation. Moderation was absent amidst this isolation and sharp attraction to the West.

To confront this phenomenon, which launched fierce intellectual and cultural war between the followers of imitation and the followers of the Western intellectual invasion, my intellectual efforts, which I achieved in my intellectual project, were directed to reviving heritage in the school of reviving and innovation in our new heritage.

These efforts were dedicated to combine, verify, and study the complete works of the remarkable scholars of mediation, reviving, and innovation. This was the innovation of the intellect and culture and the innovation of the state of affairs of life. They include Rifa`ah Rafi` Al-Tahtawy [1216-1290 A.H. / 1802 – 1873 A.D.], Jamal Addin Al-Afghany [1254-1314 A.H. / 1838-1897 A.D.], Muhammad Abdo [1266-1323 A.H. / 1849-1905 A.D.], Abdul Rahman Al-Kawakby [1207-1320 A.H. / 1854-1902 A.D.], Ali Mubarak [1239-1311 A.H. / 1824 – 1893 A.C.], and Qasim Amin [1280-1326 A.H. / 1863-1908 A.D.] Then the heritage of moderation, origination, innovation, and cultural interaction came to being in a significant way in our intellectual state of affairs. This contribution was added to many efforts exerted by many people.

In addition to reviving this modern heritage, there were verifying and studying many hereditary texts of the eminent scholars of the Islamic intellectuality, who were denied by the followers of the school or imitation and sluggishness.

Due to the dominance of the West over a wide and effective sector of our culture for more than two centuries and their formation of mentalities following the Western secular positivism, left by colonialism in the

رمضان ١٤٣٤ هـ
يوليه أغسطس
٢٠١٣ م

intellectual and cultural institutions, education, and media. This took place when the national movement forced it to depart.

As this group took the West as an example to be followed and scorning our culture, scholars, and history, I presented my intellectual project, in which I write about tens of scholars, intellectuals, and revolutionists. They started with the generation of the companions (may Allah be pleased with them), then their follower till our age in which we live.

This is to present to our current and future generations. Also, they eliminated from the Islamic countries all dreams and avarice of the Western colonial empires in our modern age. This took place without any part of the Islamic countries or people getting dissolved into the civilization of the invaders, as what happened with other countries from imperialism.

Our nation seeks continuously to pluck out the Zionist being, which was implanted by the Western imperialism, as it plucked out the crusaders, who were implanted by the Western church and the princes of feudalism and the European bourgeois.

These milestones, issues, and battles were dedicated a significant part in the intellectual project, to which I devoted my life and achieved with Allah's (Glory be to Him) help.

Our nation strived throughout its long history to be a nation united by creed, Shari`ah, civilization, and a system of values and morals. The Islamic countries were integrated after opening the doors for variation, multitude, and diversity of diligences, doctrines, philosophies, and languages. It strived to be one nation, which includes incredible and wonderful diversity.

It strived to face racism, dispersion, and disunion. This started with strife against Musaylamah the liar [12 A.H. – 633 A.D.], then Persian populism, and deluded sects. This is until we reached the racial, sectarian, and separatist tendencies, which fell in the traps of imperialism and Zionism in our modern age.

I presented my contributions in my intellectual project to confront these challenges concerning the intellectual sects and tendencies in our old and modern heritage. The efforts which I presented for the sake of confronting the racial sectarian tendencies, which dream of going back in time in the way adopted by Zionism in Palestine.

As interaction between the civilizations is the matter that enables the Muslim to see the greatness of Islam in the light of the reality of the other,

In Sorwa village, Allah guided me to a deserted liberary, which was owned by the late Shaikh Abdul Tawwab Al-Shennawy, who died in the same year of his graduation from the Faculty of Theology. No one of the members of his family knew either to write or to read. My friend, who was his nephew, directed my attention to this library.

I went to it and found a wonderful treasure of knowledge, as it contained about four thousand books of the Arab and Islamic heritage in all fields. Also, it contained many books translated from the European languages in philosophy, literature, and sociology. Rather, it contained complete issues of the most famous magazines, such as Al-Azhar and Al-Risalah. Also, it contained original copies of Al-`Urwa Al-Wuthqa Magazine.

I agreed with Al-Shinnawy's family to buy this library in installments, paying one piaster in return for any book, whether big or small. I bought the library in this manner of payment, because forty pounds at that time were a wealth which can buy a number of acres: the most important wealth possessed by a farmer. Women, my sisters in law – were carrying the books on their heads using baskets from Al-Shannawy's house to our house.

My reading journey in the Arab and Islamic thought and the translated works from the European languages started. Summer vacation months were entirely devoted to reading, in the morning either at home, under sycamore or willow trees on the shore of the Nile or at night at home using the lamp number five, then no. ten, then no. fifteen, and I had sharp sight. I was reading until the lines get mixed in front of my eyes, then I close my eyes for moments and read again.

After understanding this precious knowledge treasure and memorizing many pre-Islamic and Islamic poetry divans as well as many texts from Arab literature such as rhetoric examples.

My desire to write started smoothly; and I wrote and published poetry and prose in many newspapers and magazines – Misr Al-Fatah, Al-Ishterakiyyah, Minbar Al-Sharq, Al-Masry, Al-Masaa, Al-Adab, which is from Beirut. Also, I delivered sermons in the mosque of the village and taught people the acts of worship and transactions as well as confronting tyranny, feudality, and oppression.

As for the first book I wrote and published after my study in the faculty of Dar-Al-`Ulum was "The Arab Nationalism and Plots of the USA Against the Arab Unity". It was published in two editions, and was translated to Russian, as it was the first book to be published in Egypt about Arab Nationalism after the unity of Egypt and Syria in 1958. The publisher, Dar Al-Fikr, gave me two pounds as reward for writing.

This encouraged me to take writing as a source of earning my living, not the ranks of employment, which I regarded as a type of slavery. I supplicated to Allah to liberate me from its chains so as to use all of my capabilities, powers, and time to be among the scholars, which was the hope of my parents (may Allah be merciful to them) since I had been an embryo.

In the middle of the sixties in the previous century, I devoted my time to intellectual works. The Arab nationality was at its climax, and I wrote in this field many books and studies, in which I presented a distinguishable vision as I think. While the Marxists were denying the existence of the Arab nationalism, as it is a condition for the common economic life which is not available for the Arab world. It stressed that the Arab nationalism was born and crystallized with the emergence of Islam. This current division of its nation is accidental and was imposed by colonialism. Thus, it is required that the integration of the nation, which was united throughout history.

Baathists believed that Arabism was tainted with racism, which came to our countries from the European national thought. I asserted in my national studies that Arabism is a cultural and lingual circle, which does not put a barrier between the Arabs and the other Muslim peoples.

While my generation, from among those who was educated in Al-Azhar, was dominated by our heritage, and those who were educated in the urban schools and universities were dominated by looking to the world, universe, culture, and sociology through the western curriocula, my cultural vision was distinguished with combining the Islamic Arab heritage and the knowledge of the Western civilization.

This remarkable vision was distinguished with reading the translated works in the library, where my reason and conscience were formed, then this vision developed due to my preoccupation with politics and progressive struggle and my attempts to understand the Leftist thought, which was very famous at this time.

Getting acquainted with the most remarkable western intellectual theories helped me in my intellectual project to fight the cultural invasion. I wrote many books about the cultural interaction and cultural difference, and I criticized religious and non-religious excessiveness.

in 595 A.H.) preceded by Aby Bakr Ibn Bagah (died in 533 A.H.), Aby Bakr ibn Tofayl (died in 581 A.H.), and Muhammad ibn Hazm (died in 456 A.H.)

In this school, the Arab mind was split into two parts: oriental theological mind, and its philosophy is based on dialecticism and practical Western mind, whose philosophy was based on logic and math. The eastern school renders to the past by virtue of its theology, while the western school renders to the future by virtue of its secularism.

This analysis of the Arab mind arrives at what we seek nowadays: "We seek innovating the Arab mind and the Islamic thought. This does not only depend on our acquaintance with practical attainment and the contemporary methodology, but most likely, depends on our ability to restore the critical trend of Ibn Hazm, rationalism of Ibn Rushd, Originality of Al-Shatby, and historianism of Ibn Khaldon.

By restoring the critical mentality which started a new discourse in Andalausia and Morocco by Ibn Hazm, Ibn Rushd, Ibn Khaldon, we can found the structure of the Arab mind.[13]

One of the scholars said in this regard : that it is a dual civil war, which occurred to the Islamic Arab culture: First between the rhetoric trend and Gnostic trend, and ended with the victory of Gnosticism. Second: between the absurd East and the rational West, which it ended with the victory of the Eastern absurdism.[14]

---

[13] Structure of the Arab Mind, by Al-Gabry.
[14] Article by George Tarabishy in Al-Hayah newspaper, 10/3/1993 A.D.

* Journey of a Pen...!
By: Dr. Muhammad `Imarah
Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine.

Seventy years ago, in Dosouq, on 8th of April, 1948, I stood in front of a wooden made shop which was selling newspapers and magazines. I bought one copy of Misr Al-Fatah Newspaper, and I found my first article, which was published by a newspaper, entitled Al-Jihad. Its topic handled the Jihad of the Arab volunteers who entered Palestine before the entry of the Arab armies to defend the Sacred Land, which is blessed by Allah.

I saw my name printed by a printing press for the first time in my life. At this moment, I felt that the position of the writer is the most preferable position for me.

My private library which contained some non academic books in Dosouq Religious Institute – such as Al-Nnazarat by the late Mustafa Lotfy Al-Manfaloty [1293-1342 A.H. / 1876-1924 A.D.] which I bought with the directive of the late Sheikh Muhammad Kamel Al-Fiqy, who taught us syntax in the second primary year. He encouraged me to free reading, and incited me to read some pages in a chapter in Al- Nnazarat. Thus, I learnt oratory along with reading. Then, I started to deliver sermons in the mosques about Palestine issue.

As my ambition to be a writer, not an employee, dominated my mind at these moments, I spend most of my time reading, to the extent that I specified a certain time for reading even at the time of studying to help me study.

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same copy.

The literary culture and free reading improved my writing style and my answers in the exams.

starting from Jamaluddin Al-Afghany, Muhammad Abdu, Muhammad Rashid Reda, Abdullah Al-Nadim, Abdul Qader Al-Maghreby, Taher Al-Gaza'ery, Musataf Abdul Razzaq, Mahmoud Shaltut, Abbas Al-Aqqad, Muhammad Al-Bahy, Muhammad Abdullah Deraz, and others. All of them were preoccupied with the relation between the East and the West and dedicated a great part of their personal and intellectual life.

Whatever the matter of the time in which the issue of originality and contemproneity, the innovation of the Arab thought, or heritage and innovation, as it is lately called, there is no doubt that this issue starts to impose itself after 1967 on a group of thinkers, researchers, and university professors who can not be neglected. Their tendencies varied from nationalism, liberalism, Marxism, secularism, and materialism.

We saw that the objective call that regards innovation as one of the attributes, activities, and mechanisms of heritage in going along with progress with regard to affecting and being affected and depending on Ijtihad movement, which is permissible in this heritage.

To facilitate matters for the reader, we can divide the schools of innovation geographically to the Syrian, Moroccan, and Egyptian Schools.

The Syrian School in Innovating Heritage

In a summarized way that is – naturally – not free of the disadvantages of summing up, we say that the prominent trend in the Syrian school is Leninist Marxism. In this school, the historian materialism was a means to discover and analyze heritage, and means to break its bonds.

As we display and analyze the school, Abul Nasr Al-Faraby (died in 339 A.H.) was – in this attempt, a materialist philosopher, as he believed in the succession of images and paradoxes in the chaos, the survival of the category, which is a developed materialistic trend or dialectic perception of nature in their own words. Rather, Al-Faraby was linked with Marx Engles and tended to found materialism.

Ibrahim Al-Nazhzham (died in 238 A.H.) was a pioneer of liberating humanity from the authority of the unseen, merely because Abul Hassan Al-Ash`ary [8]said in his articles that Allah can not be unfair. Also, Ikhwan Al-Safa were pioneer of the philosophy of evolution by Lamark and Darwin.

---

[8]The articles of the authors who adopted Islamic trends and the sentence: "Allah cannot be described with ability to act unjustly)

This emphasizes that most of our old thinkers adopted materialistic and dialectic trend.[9]

As for Islam as a core, it formed the internal structure of their theoretical and practical sciences. Form the point of view of this school, it is merely a trace of metaphysical or idealistic trend[10] caused by historical inability which prevented the crystallization of this trend.[11]

The Moroccan School in Innovating Heritage:

If we look at the direction of Morocco, we will find that it focused on analyzing the structure and formation of the Arab mind. In this regard, the study of our lingual, religious, and philosophical sciences were continued from points:

1- Rhetoric and it means the religious rationalism.

2- Proof and it means the mental rationalism.

3- Gnosticism and it means the mental absurdism. This is called mysticism or religious and philosophic heathenism, which were conveyed from the old heritage such as hermeticism, Gnosticism, Manichaeism, Sabeanism...etc.

The Islamic philosophic mind ended to a very miserable destiny in this school, except for Al-Kindy (died in 256). He was one of the followers of Al-Faraby, although the latter was controlled by the mental absurdism, which dominated the prominent followers of rationalism in the Islamic thought.

The first of these rationalist was Jabir ibn Hayyan (deid in 198 A.H.) who was the pioneer of logic, Abu Bakr Al-Razy (died in 311 A.H.) the prominent physician of the Muslims, Abu `Ali Ibn Sina (died in 428 A.H.), who was described as the first devout of the mythological I thought in Islam[12]. His philosophy killed the reason and logic in the Arab awareness for long centuries.

Abu Hamid Al-Ghazal presented Gnosticism to rhetoric or religious rationalism and founded the crisis of the Arab reason. He left a deep wound in the Arab mind until now. The only category, which was saved from these hallucinations was the Moroccan people such as Al-Walid ibn Rushd (deid

---

[9] Interpositions by `Ali Harb: 219 and 220

[10] M. N

[11] M.N.

[12] Heritage and Us: contemporary readings of our philosophical heritage, by Muhammad Abed Al-Gabry

At the top of these projects is the project of Dr. Al-Tayyib Al-Tziny, which will come in twelve parts. All of them form a new vision of the Arab thought since its beginning till the contemporary phase. Some parts of this project were published, and the first part consists of one Thousand pages. Then we find the works of Dr. Hassan Hanafy, entitled "Heritage and Innovation".

If the works of Dr. Tizny defined its adopted line in the project of the new vision "From Heritage to Revolution", the adopted line defined by Dr. Hanafy was "From Creed to Revolution".

In the last adopted line, the issues of theology were tackled in five parts, which form three thousands and two hundred pages, starting from the theoretical introductions, passing through monotheism, justice, prophecy, the Day of Judgment, and ending at faith, work, and imamate, in addition to other detailed researches entitled: "Religion and Revolution", and other articles and lectures contained in great seminars such as "Heritage and the Challenges of the Age in the Arab Nation: Originality and Contemporaneity[3], "Democracy and the Human Rights in the Arab nation"[4], Philosopby in the Cotemporary Arab Nation"[5], and others.

There are other works handling the theory of heritage that are not less important than the previous works, at the top of which are the works of Zaky Naguib Mahmoud, Abdullah Al-Arwy, Adonis, Muhammad Abed Al-Gabry, Hussein Marwwah, and others.

Scientific fidelity necessitates saying that handling these works from a scientific point of view based on deep reading and investigating vision is difficult, in addition to making a final evaluation for it that reassures the fair researcher.

One of the elements that exhaust the reader of the theories of innovating the heritage two useless things that waster the time:

First: The socialist theories in its Marxist form, as it speaks about heritage: "Represents itself in the Islamic countries in the most complicated ways and writes their analysis in a language that does not convey a clear

[3]It was held in Cairo on 23-27 September 1984, and its works were published in the Arab Unity Studies Center in Beirit, 1985.
[4] An International Seminar that was held by Islam and Democracy Center in cooperation with the Moroccan Center for Human Right, Rebat, on 24th of July, 2009.
[5] A conference organized the Jordan University, and its works were published by the Arab Unity Studies Center, Beirut, November, 1987.

meaning to the large audience, and is completely involved in theorization to the extent of forgetting the relation with the reality. This is in spite of the fact that its philosophy was based on expressing and adhering to the real affairs of life."[6]Rather, it expresses the hopes and pains of the labouring class.

Second: The raised theories relevant to the innovation of the heritage adopted different attitudes towards heritage. It had many contradicting views "not between different contradicting ideologies, but between different trends within the same theory. Sometimes, you find contradiction in the same book with its continuous shifts from different ideologies and letting them be reflected on heritage, without drawing the reader to the shifting and phased nature in building the theory."[7]

We will try within the context of these two difficulties to realize that a critical idea school (Heritage and Innovation) in terms of its relation to heritage, the relation of the heritage to the real affairs of life, and the raised treatment of innovating the heritage.

But, what is the temporal context in which this problem appeared?

Many researchers see that the war of June in 1967 was the beginning of this issue: The issue of acquiring about the Arabs in the past, the present time, and the future.

Other people see that the problems started after the conflict between the Arab and the West during Napoleon Expedition to Egypt.

At this point, when two civilizations contradicted entirely, some inevitable questions were raised:

How can we make use of ways of progress? Or in other words, how can the Arabs bridge the gap between deterioration and progress? Can this occur by following the Western pattern in politics, economics, culture, and others completely? Can this happen by reviving the Islamic heritage as a cultural pattern of development and innovation? Can the solution be the attempt to compromise between the Western pattern and heritage?

I think that the origin of the heritage issue should go back to direct contact between the East and the European West. Within this framework, the great value of the efforts undertaken by the Islamic thought before 1967,

[6] The Islamic Renaissance in the Balance of Reason.
[7] The Massacre of Heritage in the Contemporary Islamic Culture, by George Tarabishy, Marxism, Al-Hayah Newspaper, Wednesday 6/1/1993.

"You must do whatever you can of good deeds, for Allah does not get tired until you get tired. The most beloved of deeds to Allah are those which are continuous, even if they are little. [Related by Ahmad in his Musnad, Abu Dawud, and Al-Nase'y]

Furthermore, a Muslim can equalize between the specified plans and the abilities. Thus, we should realize our plans and know our abilities. Lawtso Tatih King said: "The person who learns from other may be literate, while the person who understands himself is more intelligent. The person who controls others may be strong, while the person who controls himself is stronger."

One of the most important helping elements is getting trained to some of these acts before Ramadan, not to feel alienated, and not to limit these deeds to Ramadan only. Thus, he should start now reciting the Qur'an, for example, and to observe two Rak'ahs of optional Night Prayer, or any other deed. Thus, he will be steadfast in observing these acts of worship and observing these acts of worship in Ramadan will be easier. Also, this will incite him to observe them after Ramadan. The Companions of the Prophet used to get ready for Ramadan six months before it, and to be encouraged to continue their acts of worship by it for other six months. Thus, the whole year for them was Ramadan.

Reading about the righteous predecessors and their perseverance in the acts of worship and good deeds can be like a spiritual supply and a good pattern to follow. This encourages the person to achieve many good deeds. If he loses the good pattern from his real life, he can find in among the righteous predecessors.

Malik (may Allah be merciful with him) used to conclude his learning circles with his students and colleagues and asked their permission saying: I ask your permission to sit with the Companions an hour. This means studying and reading their books. Also, there is nothing wrong with finding the good pattern in a person's deeds not his personality.

Tradition and Innovation:

- 2 -

Trends of Innovation in Heritage...!

By: The Grand Imam Prof - Dr. Ahmad Al-Tayyeb,Al-Azhar Sheikh.

At the beginning of my speech about heritage and innovation, I want to indicate that this topic became in the last years the focus of attention of the cultured researchers, scholars, university professors, and authors, regardless of their cultural and doctrinal interests. However, heritage, as a critical issue that forms a critical juncture in the contemporary history of our Arab and Islamic nation gained detailed and elaborate studies that filled various books, conferences, seminars, and lectures. Rarely, a cultural magazine is issued without handling the issue of "the cultural tradition" in one way or another.

One of the latest articles handling this topic is the ten articles that were published in Al-Hayah Newspaper, entitled "The Massacre of Heritage in the Contemporary Arab Culture."[1] The last article of it was published in last March.[2]

Huge volumes about heritage were issued and regarded heritage as a beginning for renaissance, on the light of which it handled the challenges of the age, or more precisely: it handled the heritage in the light of the challenges. The speech was full of special expressions such as: Al - Salafawiyyah, Al - Madwiyyah, Al -Talfiqwiyyah, Al -Qrostiyyah, Al - Asrawiyyah, Al- Wuthoqiyyah, Al- Markaziyyah, Al-Europiyah, Al - Tahyyidwiyyah, Al- latarikhiyya, Al - latrathiyya , Burgwaziyyah, Al-Eqtai, Al-Jamahir, Al- dialectic, Al- Kabh, Al-Istelab, and other expressions which are ambiguous in their meaning and in their phonetic and morphological structure, which added ambiguity to the raised sayings.

---

[1] By George Tarabishy.

[2] These ten articles were published in the Lebanese Hayah Newspaper in January – March 1993, then in a separate book in Al-Saqi House in London in 1993.

Fasting in Ramadan Changes the Fasting Person to the Better...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Ramadan trains the person to obey Allah and to abide by His Commands. When it ends, the effect of these acts of obedience is reflected in the Muslim's treatment of his Muslim brother. Allah (Glory be to Him) says in the Noble Qur'an:

{O you who believe! As-Saum (the fast) is prescribed for you as it was prescribed for those before you, that you may become {Al-Muttaqūn} piety.

[Al-Baqarah (The Cow): 183)

Piety here means the goodness of A Muslim's sayings and deeds as well as abiding by Allah's Commands and obeying His Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) in everything Allah sent down to him.

The one who contemplates at Ramadan will find that this honorable month accustom the fasting person to punctuality, as everything follows a certain accurate system, as the fasting person eats and drinks at a certain time, and abstains from them at certain time according to Allah's (Glory be to Him) Will. Lets' contemplate at Allah's (Glory be to Him) saying:

{and eat and drink until the white thread (light) of dawn appears to you distinct from the black thread (darkness of night), then complete your Saum (fast) till the nightfall.} [Al-Baqarah (The Cow): 187)

As for easting and drinking, we will find that the Qur'anic verse is clear in indicating the time for eating and drinking, as eating and abstaining from it have certain time accustom the person to accuracy and discipline.

One of scholar expressed the approach of change and reform by perseverance until the fasting person attains his goal by saying: "Whoever is not able to be straightforward should strive to be close to straightness. A person can attain salvation through good deeds, and the good deeds stem from good morals. Thus, every person should contemplate at his attributes and morals and should be preoccupied with treating his faults. The person with strong resolution should be patient in this regard. This will be good for

him in the way weaning is liked by a baby after disliking it, and if he is to come back to breastfeeding, he will not like it.

And whoever knows that life is short in comparison to the Hereafter will bear the hardships of traveling for the sake of attaining the bounties of eternity."

The righteous predecessors were competing with each other in the acts of obedience; Al-Hassan said: "Whoever competes with you in your religion, compete with him; and whoever competes with you in the worldly life, leave him with it."

The clarity of the objective of the person facilitates attaining it. When a person holds a pen and a sheet of paper and asks himself: What do I want to do in Ramadan? What are the wanted objectives that I want to achieve? How can I achieve every one of them? Thinking is the beginning of success, and Islam is the religion of Shari'ah and reason.

For example, whoever wants to complete the recitation of the whole Qur'an once or three times should specify the time when he will recite it and should choose the time, as the best time to recite the Qur'an is either before the sunset or after the dawn or at any other time. The important point is to specify a certain time. Also, he should decide whether he will recite it individually or collectively and how follow up will be. Will this be according to his will or that he will follow another person.

Will his relation with the Qur'an be limited to recitation only or he will revive the worship of listening to it through a certain Qur'an reciter whose voice is preferable to him? What are the times that will be specified to listening to Qur'an?

In this way, he will have a detailed plan that is linked to a clear objective with specified time along with knowing the reward for recitation and the high status of the reciter of the Qur'an. This is what should be done with regard to the other good deeds, which he will do in Ramadan. Also, the Muslim should write down what he does daily to complete what he has done.

Moreover, the person's ability to achieve a certain deed should be measured. He should test his plan and decide whether it exceeds his ability or not. If so, he should decrease the deeds he specified to be done daily. The realization of one's ability is an important element in achieving things.

The Prophet (may the blessing and peace of Allah be upon him) referred to this point in a Hadith narrated by the Mother of the Believers 'Aishah:

AL-AZHAR MAGAZINE

Ramadan, 1434 A.H



ENGLISH SECTION

July, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

مكتبة الأزهر الشريف

مع العدد

المدخل إلى السياسة الشرعية

أ.د. عبد العال أحمد عطوة

الأزهر

الافتتاحية

فرعون موسى بين المقدس والآثار

أ.د. محمد عمارة

الاجتهاد في مقاصد العقائد

أ.د. جاسر عودة

قراءة إيمانية في كتاب الكون والحياة

أ.د. أحمد فؤاد باشا

أ.د. سعد الدين هلالي

يدافع عن كتابه

عيد الفطر



الشيخ محمد عبده



د. محمد إسماعيل علي



المستشار طارق البشري

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية | شوال ١٤٣٤ هـ أغسطس/ سبتمبر ٢٠١٣ م الجزء ١٠ السنة ٨٦

١١
٣٢٢٢٥
دوريات

الأزهر

في عدد ذي القعدة

الافتتاحية

مفهوم التنوير الغربي

أ.د. محمد عمارة

الله الكون الإنسان والنبوة

العلامة فتح الله كولن

نقد كتاب الإسلام منهج حياة

أ.د. موسى شاهين لاشين

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

د. موريس بوكاي

هدية ذي القعدة

بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني

أ.د. صوفي أبو طالب

السعر جنيهان



www.Alazharmag.com

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب فى الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثانى.



﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

فرعون موسى .. بين المقدس والآثار

دراسة نقدية لكتاب «فرعون الخروج»



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

- عنوان هذا الكتاب: (فرعون الخروج - الملف الشائك وحديث الآثار) [١].
- ومؤلفه هو الدكتور جلال نعمان.

وهو يبحث - من أوله إلى آخره - عن حقيقة الفرعون الذى شهد أحداث خروج بنى إسرائيل من مصر على عهد سيدنا موسى - عليه السلام:

ولقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار والمصريات حول هذا الفرعون، فقال جمهورهم: إنه «مرنبتاح» بن «رمسيس الثانى» - الذى حكم حوالى (١٢٢٣-١٢١١ ق.م) [٢] .. وقال المؤرخ «يوسيبيوس القيصارى (٢٧٥-٣٣٩م): بل هو رمسيس الثانى (١٣١٣- ١٢٢٤ق.م).

والمؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج قد استندوا إلى أن تاريخ هذا الفرعون قد دون تفصيلا على الآثار والجداريات التى بقيت وتم اكتشافها، وأن هذا التاريخ المدون لم ترد به أية إشارة إلى الأحداث التى ذكرتها الكتب المقدسة عن بعثة موسى - عليه السلام - إلى فرعون، وما نزل بفرعون وملئه من عقاب إلهي، وما انتهت إليه حياة فرعون من الغرق .. كما استندوا إلى أن رمسيس الثانى قد حكم سبعة وستين عاما - إذ اعتلى العرش ١٢٩٠ق .م- وأن حكمه قد امتد بعد تاريخ الغرق والخروج سنوات طوال .. كما استندوا إلى أن رمسيس الثانى كان مؤمنا بالله الواحد - الذى يرمزله بـ«آمون» - وأنه قد ناجى ربه، وهو يحارب الحيثيين

١- الناشر: دار المعارف - سلسلة «إقرأ» العدد ٦٠٥.

٢- (الموسوعة المصرية) المجلد الأول - الجزء الأول - إشراف د. أحمد فخري. د. محمد جمال الدين مختار - طبعة وزارة الثقافة والإعلام.

فى «قادش» - فقال:

«لقد ناديتك - آمون - وأنا وسط الأعداء..

وأنا وحيد دون أن يكون معى فرد آخر .. لقد تركنى جنودي..

وعندما دعوت وجدت آمون أكثر نفعا من ملايين الجنود..

لقد رأيت الله فى المعركة .. كان أقرب إليّ من جنودى .. هو الذى نصرني..»

وأن إله رمسيس الثانى قد أجابه قائلا: «إلى الأمام يا حبيب آمون، يا رمسيس»..

فتحول رمسيس - وهو وحده وسط جيوش الأعداء - إلى «مارد طائر» .. حتى قال هؤلاء الأعداء: «إن الذى بيننا ليس بشرا»!..

فهذا الفرعون المؤمن لا يمكن أن يكون هو فرعون موسى، الذى أفاضت الكتب المقدسة فى الحديث عن كفره وجحوده بالله..

ثم، إن مومياء رمسيس الثانى هذا موجودة، اكتشفها علماء الآثار، وليس بها أثر للغرق الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة هكذا قال المؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج.



لكن مؤلف هذا الكتاب يقف على الضفة الأخرى، ويتبنى وجهة النظر التى قال بها المؤرخ «يوسيبيوس القيصارى (٢٧٥- ٣٣٩م)، والتى تقول إن فرعون الخروج هو رمسيس الثانى .. ومن ثم يقف هذا الكتاب - وتلك هى المشكلة - مما جاء فى الكتب المقدسة عن أحداث الخروج موقفا يتراوح بين «التأويل»، الخالى من

المنطق، وبين التجاهل لما جاء في هذه الكتب المقدسة - وخاصة القرآن الكريم - من آيات محكمات..

وتلك هي القضية التي نريد عرضها .. والحوار حولها .. في عدد محدد من النقاط:

- أولها: فرعون الخروج بين الكفر والإيمان:

لأن رمسيس الثاني كان مؤمنا بالله .. ولأن المؤلف قد انحاز إلى الرأي القائل بأنه هو فرعون الخروج .. فلقد ذهب المؤلف إلى الإدعاء بأن القرآن الكريم لم يحكم بكفر هذا الفرعون .. فقال: «إن الآيات القرآنية في شأن فرعون لم تصفه قط بالكفر، فقد طغى، أو عصي، أو أفسد .. إلخ .. لكنه ليس كافرا»(٣)

وفي مواجهة هذه الدعوى الخطيرة، نذكر بمعنى الكفر - كما جاء في المصادر الإسلامية - الذي «هو جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة» (٤)

وإذا نحن عرضنا عقيدة فرعون الخروج على هذا المعنى للكفر، وجدناه - بنص الآيات القرآنية المحكمات مستجمعا لكل شرائط الكفر ومعانيه .. فهو لم يكفر بالله الواحد فحسب، بل ادعى أنه الإله الوحيد .. والإله الأعلى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾

(القصص: ٣٨)

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾

(النازعات: ٢٣، ٢٤)

بل لقد خير فرعون نبي الله موسى - عليه السلام - بين أن يتخذه إلها وبين أن يضعه في غياهب السجون:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

(الشعراء: ٢٩)

وإذا كان الكفر يطلق - أيضا - على من يكذب بالآيات المعجزات التي يظهرها الله على يدي الأنبياء والمرسلين، فإن فرعون وملأه قد جحدوا وكذبوا بكل الآيات - العشر - التي جاء بها موسى - عليه السلام:

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا

٣- (فرعون الخروج) ص ١٤٢.

٤- الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) طبعة دار التحرير القاهرة ١٩٩٠م.

هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

(النمل: ١٢-١٤)

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

(القمر: ٤١-٤٢)

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾

(النازعات: ٢٠-٢١)

فوصف الكفر قد أطلقه القرآن الكريم على فرعون الخروج في آيات محكمات كثيرة، اخترنا منها بعض النماذج .. ولقد سلكه القرآن في زمرة الذين كفروا بالوحدانية والنبوات والآيات المعجزات:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾

(البروج: ١٧-٢٠)

وبهذا يسقط ركن ركين من الأساس الذي بنى عليه مؤلف هذا الكتاب في أن رمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

- ثانيها: موقف المؤلف من معجزة فلق البحر:

المعجزة - في الاصطلاح الإسلامي - ليست أمرا خارقا للعقل والمعقولية والسنن الإلهية، وإنما هي أمر خارق للعادة والمعتاد الذي اعتاد عليه الناس ومفارق للواقع وسننه الاجتماعية المعتادة، وهي مقرونة بالتحدي، يظهرها الله على يد الأنبياء والمرسلين، لإثبات صدقهم فيما إليه يدعون .. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م): «فإن المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته .. فإن قيل: إن ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعي، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده» (٥)

٥- (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ٣ ص ٤١٦ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٣م.

وإذا كان هذا هو تعريف المعجزة، ومكانها من العقل والعقلانية، ومن السنن والقوانين الحاكمة للمعتاد وغير المعتاد.. فلقد كان غريبا - بل وعجيبا - موقف مؤلف هذا الكتاب من المعجزات..

لقد اعترف بوجود المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثاني، عندما قاتل - وحده - أعداءه الكثيرين في معركة «قادش»، حتى أنه - بعد أن دعا ربه - جعله الله معجزة «تحول بها إلى مارد طائر» حتى قال عنه أعداؤه: «إن الذى بيننا ليس بشرا».. وأضاف المؤلف: «إنها معجزة أكثر من أن تكون أسطورة.. هذه هي المعجزة..»(٦)

يعترف المؤلف بظهور المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثاني.. ثم يتجاهل الحديث عن المعجزات التى أظهرها الله على يد موسى - عليه السلام - وهي عشر آيات في معجزات - (اليد.. والعصا.. وفلق البحر.. والطوفان.. والجراد.. والقمل.. والدم.. والضفادع.. والسنين.. والطمس) - (٧)

يتجاهل المؤلف أية إشارة إلى أى من هذه المعجزات.. ثم يذهب ليؤول معجزة غرق فرعون - لأن رمسيس الثاني مومياؤه قد اكتشفت وليس بها أثر للغرق - بل لقد عاش حاكما سنين عديدة بعد تاريخ الخروج-.. يذهب المؤلف ليؤول معجزة الغرق على نحو لا علاقة له بأى من مقومات التأويل وشروطه.. بل يذهب إلى جعل ما جاء في القرآن الكريم عن فلق البحر من الأمور المعتادة والطبيعية التى لا علاقة لها بأى لون من ألوان الإعجاز!..

فالقرآن يتحدث عن فلق البحر - والبحر هو كل مكان واسع جامع فيه ماء كثير.. وهو - في الأصل - للماء المالح دون العذب - ولا يسمى العذب بحرا إلا إذا اقترن بالمالح:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾

(الفرقان: ٥٣)

كما يقال للشمس والقمر: قمران.

لكن المؤلف يدعى أن العبور لم يكن للبحر الأحمر.. وإنما كان على أرض يابسة، هى منخفض جنوبى بحيرة المنزلة، كانت تغطيه المياه أثناء المد، وتنحسر عنه أثناء الجزر.. وفوق يابسة هذا المنخفض كان العبور- الذى لا أثر فيه للإعجاز!..

٦- فرعون الخروج ص ١٧٢- ١٧٩.
٧- انظر: القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ١٣ ص ١٦٢، ١٦٣ طبعة دار الكتب المصرية.

وفى هذا الادعاء الخطير والتأويل الفاسد يقول المؤلف - مستندًا إلى الآثار، وضاربا عرض الحائط بآيات القرآن المحكمات: «من الوجهة الأثرية، فإن أمر المعجزات ليس له أى صدى، حتى أحداث انفلاق البحر.. ففى «يم سوف» - أى «بحر البوص» - كان هناك منخفض - برزخ- يقع إلى الشرق من قناة السويس. وهذا البرزخ كان ولا يزال عرضة لعمليات المد والجزر.. وهذا المنخفض كان امتدادًا جنوبيا لبحيرة المنزلة.. وكان هناك اختناق أرضى يربط هذا المنخفض بالبحيرة. وكان هذا الاختناق الأرضى يختفى ويظهر بتأثير حركات المد والجزر البحري، مما يعنى أنه يصلح كمعبر أرضى إلى سيناء فى حالات تراجع المياه عن المعبر أو فى حالات العواصف الشديدة والأعاصير، وهذا يفسر ظاهرة، انفلاق الماء أو البحر وظهور اليابسة وكان الماء على يمين ويسار شعب إسرائيل أثناء عبوره الاختناق الأرضي، وبمعنى أوضح فإن مياه المنخفض كانت على يمين الشعب ومياه بحيرة المنزلة كان على يساره، والمعبر اليابس تحت أقدامهم، وقد يحدث أن تتضافر ظاهرتا المد والجزر مع الرياح العاتية فتحيل منظر المياه إلى جبال عالية». (٨)

هكذا استبدل المؤلف «البرزخ المائي» بـ«البحر»، واستبدل «الممر الأرضي» العادى بـ«قاع البحر»، الذى انكشف طريقا عند انغلاق الماء إلى جبلين كل منهما كالطود العظيم!..

لقد ذهب المؤلف إلى هذا التأويل الفاسد - الذى هو فى الحقيقة إنكار للمعجزة من أساسها، وليس تأويلا لها بأى حال من حالات التأويل.

● ثالثها: موقف المؤلف من معجزة غرق فرعون:

إذا كان المؤلف قد صور إنكاره معجزة فلق البحر فى صورة التأويل الغريب لهذه المعجزة.. فلقد كان موقفه من معجزة غرق فرعون الخروج إنكارًا لها من الأساس!.. فرمسيس الثانى - الذى جعله المؤلف فرعون الخروج - قد عاش وحكم بعد الخروج سنوات طوال.. ومومياؤه قد اكتشفت، وهى قائمة حتى الآن لا أثر فيها للغرق.. وبهذا تجاهل المؤلف آيات القرآن الكريم الشاهدة على حدوث معجزة الغرق لفرعون الخروج.. والتى تقول - ضمن ما تقول -: «وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر- (وليس البرزخ.. والمنخفض.. والمعبر اليابس)- فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق - (أى الرسوب فى الماء):

٨- فرعون الخروج ص ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩.

﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(يونس: ٩٠)

﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ﴾

(البقرة: ٥٠)

﴿ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾

(الشعراء: ٦٥، ٦٦).

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾

(الأعراف: ١٣٦).

(واليم هو البحر).

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

ففرعون الخروج - بنص القرآن - قد (أدركه الغرق) - والدرك: هو أقصى قاع البحر - والإدراك: هو بلوغ أقصى الشيء - .. ولقد نجاه الله ببدنه - والبدن هو الجسد - .. فلا يمكن أن يكن قد نجا حيا، وعاش يحكم مصر بعد حادثة الخروج - كما يدعي المؤلف - ..

•••

مكمن الخلل:

وإذا كانت هذه هي المآخذ الأساسية على دعاوى هذا الكتاب .. فإن مكمن الخلل الذى أدى إلى هذا الأخطاء هو اعتماد المؤلف على المعلومات الآثارية دون ماجاء فى الكتب المقدسة .. صحيح أن الاكتشافات الأثرية هى مصدر معتبر من مصادر كتابة التاريخ، لكن معلوماتها ليست حقائق مطلقة كما هو الحال فى محكم آيات القرآن الكريم .. فهناك آثار قد بادت، ولو أنها بقيت واكتشفت لغيرت - أوحتى عدلت - من المعلومات التى تم اكتشاف آثارها .. وهناك آثار لم تكتشف بعد، ولربما - عند اكتشافها - تتم المراجعة للمعلومات التى أصبحت فى حوزتنا .. كما أن هناك عبثا قد حدث من قبل بعض الفراعين وبعض الأسر الحاكمة بتواريخ من سبقهم

من الملوك، الأمر الذى يدعو إلى التحفظ على المعلومات التى تم اكتشافها وعدم اعتمادها وحدها موثقا لكتابة التاريخ وخاصة فى الأمور الخلافية - ومنها الموضوع الذى يدور حوله هذا الكتاب .. وخاصة عندما يكون هناك مصدر معصوم قد عرض لهذا الموضوع ..

بل إن هذه المآخذ على المدونات الآثارية لا تزال تلاحق التواريخ التى تكتب لحكام عاشوا فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر ..

لقد استجلب الملك فؤاد الأول (١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ ١٨٦٨ - ١٩٣٦م) مؤرخا أوربيا صنع له تاريخه على عينه، وعلى النحو الذى يريد! ..

وكذلك صنع الدكتاتور حافظ الأسد (١٣٤٩ - ١٤٢١هـ ١٩٣٠ - ٢٠٠٠م) فى سوريا - الذى استأجر عدة كتاب أجانب لكتابة تاريخه - منهم «لوسيان بيترلان»، و«أجناس كرسيتكي».

ومعمر القذافي (١٣٦١ - ١٤٣٢هـ ١٩٤٢ - ٢٠١١م) الذى استجلب المؤرخ الأوربى «ميربلابيانكو» الذى كتب عنه كتابا عنوانه (رسول الصحراء)!.

ولقد غيرت الثورة البلشفية أسماء عدد من المدن الروسية .. ثم عادت هذه الأسماء الروسية إلى ذات المدن بعد سقوط الشيوعية! .. وكذلك حدث ويحدث كثيرا لأسماء الميادين والشوارع والمؤسسات - التى تدخل فى عداد الآثار.

• أما الوحى الإلهى - ويعنينا هنا القرآن الكريم - فإنه وإن لم يكن كتاب تاريخ، إلا أنه قد عرض - فى سوره وآياته المحكمات - للكثير من وقائع وحقائق التاريخ .. عرض لأماكن تاريخية .. وأعلام تاريخية .. وحضارات تاريخية .. وأقوام عاشوا فى التاريخ القديم .. بل إن سيرة رسول الإسلام - ﷺ - وهى تاريخ .. وكذلك سير النبوات والرسالات وتواريخها - ستجد أوثق مصادرها فى القرآن الكريم.

لذلك، كان غريبا تنحية المؤلف المصدر القرآنى فى كتابته عن فرعون الخروج، واعتماده - فقط - المعلومات المكتشفة من آثار الفراعين ..

• إن مؤلف هذا الكتاب - وهو خبير آثار - يتحلى بروح وطنية عالية .. وبكراهية محمودة لبنى إسرائيل .. لكن وطنيته قد تجاوزت حدود الموضوعية فجعلته ينحاز للفرعون ضد موسى عليه السلام! .. حتى إنه جعل النجاة - فى حدث الخروج - لرمسيس الثانى - نجاته - على أرض فلسطين - فى قادش - من أعدائه - وليست نجاة نبى الله موسى والذين آمنوا معه من فرعون وجنوده! ..

وهذا تأويل فاسد وعجيب يتجاهل أن حديث القرآن الكريم عن النجاة إنما كان

لموسى ومن معه عند مجاوزة البحر .. وليس حديثنا عن نجاة رمسيس الثاني من حصار أعدائه له في قادش على أرض فلسطين ! .. كما يتجاهل أن رمسيس الثاني - يوم نجاته في قادش - لم يكن مؤمنا بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل .. بينما فرعون الخروج - الذي أغرقه الله في البحر، ونزل به قاع البحر، هو الذي أعلن - وهو على حافة الهلاك :

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

(يونس: ٩٠)

وهي توبة وإياب جاءا بعد فوات الأوان.



ولعل من المفيد - في ختام هذا الدراسة النقدية - لما جاء بهذا الكتاب من تأويلات بالغة الفساد، أن نذكر رأي الإمام محمد عبده في مثل هذه التأويلات .. فلقد قال :

«.. وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر زقاقا إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدًا تيسر للإنسان أن يعبر ماشيا .. ولما اتبعهم فرعون بجنوده، ورآهم قد عبروا تأثرهم، وكان المد تفيض ثوائبه - وهي المياه التي تجري عقيب الجزر - فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد غطى وعلا حتى أغرق المصريين .. كذا قال المتهورون المنكرون للمعجزات.

ولكن يدل على كونه «فلق البحر» آية لموسى وصف كل فرق بأنه كالطود العظيم، وإذا تيسّر تأويل كل القصة من القرآن، فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء :

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

(الشعراء :٦٣).

وهو الموافق لما في التوارة»(٩)

ولقد جاء هذا التهوُّر المنكر للمعجزات إلى بلادنا في صورة الفلسفات المادية والوضعية التي تفسر كل الظواهر تفسيرا ماديا .. ولقد كان خريجوا مدارس الإرساليات الكاثوليكية - في لبنان - الطلائع الذين عملوا على إشاعة هذ المنهاج وإحلاله محل العقلانية الإسلامية المؤمنة .. وتم ذلك تحت رعاية النفوذ الاستعماري لبلادنا .. ولقد كانت مجلة (المقتطف) - ١٨٧٦ - ١٩٥٢م) الميدان الفكري

٩- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

للتبشير بمثل هذه الفلسفات والنزعات والنظريات .. ولقد تحدث عبدالله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ - ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) عن أصحاب هذا النزعة من كتاب هذه المجلة، فوصفهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه، والأجراء الذي أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لايدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق.

وقد سطروا هذه الأباطيل تحت اسم : «فصول علمية» وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»(١٠).

● لقد وصف الأستاذ الإمام هذا التأويل «بالتهور» .. ووصف أصحابه «بالمتهورين الذين لا يحبون المعجزات» ..

أما عبدالله النديم فلقد وصف هذا النهج «بالتفسير الطبيعي والكيماوي للمعجزات» .. وهي أوصاف تنطبق على بعض ما جاء في هذا الكتاب.



ولأن ناشر هذا الكتاب قد أحسن - في التقديم له - عندما أهاب «بكتابات أخرى قد تسير في صف البحث أو تتفق ضده، عملا بالروح الجديدة التي نريد أن نتعلق به مع ثورة يناير، ألا وهو العقل في مقابل العقل»(١١)

فلقد آثرنا تقديم هذه الدراسة النقدية لبعض ما جاء في هذا الكتاب، والتي استندت إلى العقل والنقل العقلاني جميعا .. ذلك أن النقل القرآني هو معجزة عقلية احتكمت إلى العقل والمنطق والسنن الحاكمة للكون والاجتماع، ذلك أن هذا الكتاب قد جاء متجاوزا للمقومات الموضوعية اللازمة لكتابة هذا الفصل من فصول التاريخ .. فتاريخ فرعون الخروج - فرعون موسى - بصرف النظر عن اسمه - هو صفحة في كتاب النبوات والرسالات، لا يمكن أن تكتب بمعزل عن نبأ السماء العظيم .. فضلا عن تكتب في تناقض مع محكمات آيات الذكر الحكيم»(١٢).

١٠- مجلة (الأستاذ) العدد التاسع والثلاثون - ص ٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة ١٣١٠هـ ٢٣ مايو ١٨٩٣م.
١١- فرعون الخروج ص ١١.
١٢- لقد تم فحص هذا الكتاب من قبل مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، وتم نشر هذه الدراسة بناء على توصية المجمع

تفسير سورة البقرة



للأستاذ الإمام الشيخ - محمد عبده

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة: ٦٥-٦٦)

أباح الله تعالى لبني إسرائيل العمل في ستة أيام من الأسبوع، وحظر عليهم العمل في يوم واحد، وهو يوم السبت. وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية، إحياء للشعور الديني في قلوبهم، وإضعافًا لشرههم في جمع الحطام وحبهم للدنيا. فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بآداب الدين. وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني، والتروع في مراتع البهيمية، كالقرد في نزواته، والخنزير في شهواته، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة، وذلك قوله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

أي وأقسم أنكم لقد علمتم نبأ الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الدنيوي يوم السبت. وسيأتي نبؤهم مفصلًا في سورة الأعراف:

﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد، أنه قال: ما مسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(الجمعة: ٥)

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾

(المائدة: ٦٠)

والخسوء هو الطرد والصغار، وإنما يكون للعقلاء. والأمر للتكوين، أي: فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وإخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس، والمعني: أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء، حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلًا لمجالستهم ومعاملتهم. وفي كتب التفسير أن هؤلاء هم أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، كما في سورة الأعراف.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن تلك القرية «أيلة» وقيل «طبرية» أو «مدين».

وقالوا إن ذلك كان في زمن داود عليه السلام. والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات. فالحجة فيما ذكر قائمة على بني إسرائيل ومبينة أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم. ثم إنها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه، فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية. وذهب الجمهور أيضًا إلى أن معنى ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ أن صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين. والآية ليست نصًا فيه، ولم يبق إلا النقل ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان، إذ ليس ذلك من سنته في خلقه. وإنما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه، وتنكب الصراط الذي شرعه له، ينزل عن مرتبة الإنسان، ويلتحق بعجماوات الحيوان.

وسنة الله تعالى واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية، ولذلك قال:

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

أي: جعلنا هذه العقوبة نكالًا، وهو ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره، أي: عبرة ينكل من يعلم بها أي: يمتنع من اعتداء الحدود. ومن هذه المادة «النكل» للقيد أو هو أصلها. ومنها النكول عن اليمين في الشرع وهو الامتناع، وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى.

وأما كونها موعظة للمتقين، فهو أن المتقي يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(البقرة: ١٨٧)

ويعظ بها غيره أيضًا. ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم وتهذيب الطباع.

وذلك ما هو معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر، وحديث المسخ والتحويل وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير، وإنما قصد به التهويل والإغراب، فاختيار ما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة، والأجدر بتحريك الفكرة.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى

اجتهاده عليه السلام وأصحابه فيما يكون به الإعلام للصلاة

روى البخاري (١) عن ابن عمر قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون (٢) الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يومًا في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن(٣) اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة؟، فقال ﷺ: «يا بلال! فناد بالصلاة».

وفي رواية عند ابن ماجة أن النبي ﷺ استشار الناس فيما يجمعهم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى.

وفي رواية أخرى للبخارى عن أنس وعن أبى الشيخ عن خالد – واللفظ لخالد قال: فقالوا: لو اتخذنا ناقوسًا؟ فقال ﷺ: «ذاك للنصارى»، فقالوا لو اتخذنا بوقا؟ فقال: «البوق لليهود»، فقالوا: لو رفعنا نارًا؟ فقال: «النار للمجوس».

وصح عند الترمذى وأبى داود وابن ماجة أن النبي ﷺ استشار أصحابه للصلاة كيف يجمع الناس لها؟ فقال بعضهم: انصب راية عند حضور وقت الصلاة، وذكر بعضهم البوق وبعضهم الناقوس، فانصرف عبدالله بن زيد وهو مهتم، فرأى رؤيا قصها، وقال: طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا في يده: فقلت يا عبدالله: أتبيع الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به للصلاة، فقال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ قلت له: بلي!، قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر: أشهد أن لا إله إلا الله .. إلى آخر الأذان، فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: «إنها رؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتًا منك»، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجر رداءه فقال: يا رسول الله! والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى، فقال ﷺ: «فلله الحمد» قال عياض: فقول عمر في الرواية الأولي: ألا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة، وقوله ﷺ: «يا بلال قم فناد» المراد به الإعلام المحض بحضور وقت الصلاة، لا خصوص الأذان المشروع آخرًا.

وبذلك يجمع بين رواية البخارى ورواية الترمذى ومن معه. قال السهيلي: والحكمة في ابتداء شرع الأذان أثل الغابة (٤) عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ﷺ.

وفي رواية البخارى أيضًا عن أبى حازم بن دينار، قال: إن رجالا أتوا سهل بن سعد الساعدى وقد امتروا في المنبر: مم عوده؟ فسألوه عن ذلك فقال: والله إني لأعرف مم هو؟، ولقد رأيته أول يوم وضع، وأول يوم جلس عليه ﷺ. أرسل عليه السلام إلى فلانة – امرأة من الأنصار قد سماها سهل –: «مرى غلامك النجار أن يعمل لي أعوادًا أجلس عليهن إذا كلمت الناس» فأمرته فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ها هنا.

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس، كان رسول الله ﷺ يخطب إلى خشبة، فلما كثر الناس قيل له: لو كنت جعلت منبرًا! قال: وكان بالمدينة نجار يقال له ميمون، فأرسل إليه ﷺ أن يعمل له أعوادًا يجلس عليها .. الحديث.

وأخرج أبو داود عن نافع عن ابن عمر أن تميما(٥) الدارى قال لرسول الله ﷺ – لما كثر لحمه: ألا نتخذ لك منبرًا يحمل عظامك؟ قال: «بلي»، فاتخذوا له منبرًا.

وروى ابن سعد – في الطبقات – من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ، كان يخطب وهو مستند إلى جذع، فقال: إن القيام قد شق علي، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور النبي ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه.

قال الحافظ ابن حجر في التعليق على ذلك: وقد علم مما تقدم سبب عمل المنبر، وهو أنه: إما كثرة الناس، وإما زيادة جسمه ﷺ في آخر حياته، فصار يشق عليه طول القيام، فيخطب جالسًا كما يستفاد من رواية أبي هريرة المتقدمة (٦).

رأى سلمان الفارسى عمل خندق حول المدينة في غزوة الاحزاب وأقره ﷺ على ذلك.

نقل الحافظ ابن حجر عن أصحاب المغازى قالوا: قال سلمان الفارسى للنبي ﷺ، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر ﷺ بحفر الخندق

١- في الجزء الثاني من كتاب الأذان من فتح الباري على البخاري.
٢- أي يطلبون حينها ويتفرسون في البحث عنه
٣- شيء ينفخ فيه مثل المعروف الآن (بالنفير)

٤- الغابة اسم موضع قرب المدينة وراء جبل أحد على بعد ثمانية أميال من جهة الشام وليس بها الآن شجر ولا زرع
٥- تقدم أنه كان نصرانيا وأسلم
٦- وكان عمل المنبر سنة ثمان من الهجرة، وكان من ثلاث درجات

حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل مجيء المشركين.



صلى بعض أصحابه ﷺ العصر قبل غروب الشمس، وبعضهم بعد الغروب فأقر ﷺ الجميع يوم قريظة

روى البخارى عن ابن عمر قال: قال النبى ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى قريظة»

فأدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي!، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك النبى ﷺ، فلم يعنف أحدًا منهم.

وقال ابن إسحاق: لما انصرف النبى ﷺ من الخندق راجعًا إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال: إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة، فأمر بلالاً فأذن فى الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .. إلخ».

قال الحافظ ابن حجر: وحاصل ما وقع فى القصة، أن بعض الصحابة حملوا النهى على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهى الثانى – الذى هنا – على النهى الأول وهو النهى عن تأخير الصلاة عن وقتها والبعض الآخر حملوا النهى على غير الحقيقة، وقالوا: إنه كناية عن الحث والاستعجال والإسراع إلى بنى قريظة، فبادروا إلى امتثال أمره الثانى. وخصوا وقت الصلاة من ذلك لما تقرر عندهم من تأكيد أمرها، والمحافظة على أدائها فى وقتها، فلا يمتنع أن ينزلوا فيصلوا، ولا يكون فى ذلك منافاة لما أمروا به.

وقال السهيلي: فى هذا الحديث من الفقه: إنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا على من استنبط من النهي معنى يخصصه، وأن كل مختلفين فى الفروع من المجتهدين مصيب.

رأى ﷺ عدم الخروج إلى أحد (٧)، ورأى أصحابه الخروج إليها فنزل على رأيهم.

جاء فى البخارى ومسلم وأحمد والنسائى ما لخصه ابن كثير فى التاريخ عن سبب غزوة أحد بما يأتي: قال:

إن أبا سفيان وتر يوم بدر صار يؤلب القبائل على المسلمين حتى جاء فى شوال من السنة الثالثة الهجرية ونزل بعينين(٨) على شفير الوادى مقابل المدينة. فعلم به عليه السلام وأصحابه، فتحمس للقائه شبان لم يشهدوا بدرًا، ثم إن رسول الله ﷺ رأى ليلة الجمعة رؤيا فلما أصبح قصها

٧- وكانت واقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة.
٨- في القاموس: عينين بكسر العين: جبل بأحد.

على أصحابه، فقال: «رأيت البارحة فى منامى بقرًا تذبح، ورأيت سيفى به فلول فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أنى فى درع حصينة، فأولت البقر التى تذبح نفرًا من أصحابى يقتلون، والثلم الذى فى سيفى رجلا من أهل بيتى يقتل، والدرع الحصينة المدينة، فامكثوا فى داخل المدينة، فإن دخل علينا القوم فى الأزقة قاتلناهم، وارموا من فوق البيوت»، فقال الذين لم يشهدوا بدرًا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه الله إلينا، وقرب المسير فمتى نقاتلهم إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟ وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو. فلما ﷺ الجمعة وعظ الناس وأمرهم بالجهاد، ثم انصرف من صلاته إلى بيته، ودعا بلأمته(٩) فلبسها، ثم أذن فى الناس بالخروج فلما رأى ذلك رجال من ذى الرأى قالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحى من السماء، فقالوا: يارسول الله! امكث كما أمرتنا، فقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو».

وروى البخارى (١٠) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى (١١) إلى اليمامة، (١٢) أو هجر (١٣) فإذا هى المدينة يثرب، ورأيت فيها بقرًا وخيرًا فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير».

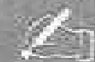
وهذا الحديث الذى رواه البخارى – يدل على أن اجتهاده ﷺ امتد حتى شمل تعبير الرؤيا، وأنه ظهر على خلاف ماظن.



٩- اللأمة درع من حديد يلبس على الرأس.
١٠- فتح البارى جزء ١٢ (كتاب التعبير، باب: إذا رأى بقرا ينحر).
١١- قال النووي: الوهل الوهم والاعتقاد. قال الحافظ ابن حجر: وهل بفتحتين أي ظن. يقال: وهل يهل بالكسر وهلا بالسكون إذا ظن شيئا فتبين خلافه.
١٢- إقليم بينه وبين البحرين عشرة أيام بالإبل قال ياقوت: اليمامة معدودة من نجد، وقاعدتها حجر، فيها ظهر مسيلمة الكذاب.
١٣- هجر بفتحتين بلد من بلاد البحرين ومن مساكن عبد القيس. وقال ياقوت: هجر من بلاد اليمن وقال ابن حجر: وهذا أولى بالتردد بينها وبين اليمامة لأن اليمامة بين مكة واليمن

التراثُ والتَّجديدُ
مناقشاتٌ وردودٌ





لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

٤

ورغم اعترافنا بأننا لسنا من المتخصِّصين المتعمِّقين في علوم القرآن الكريم، نستطيعُ – وبكُلِّ تأكيد – أنْ نزعُمَ أنَّ القدْرَ المشتركَ عندَ القدامى والمُحدثين في موضوع أسباب النُّزولِ هو أنَّ آراءَ المفسِّرين الشخصيَّةَ قد أخذت – في كثيرٍ من الأحيان – على أنها أسبابُ نزولٍ، واختلطتْ بها اختلاطًا شديدًا، وأنَّ المُعوَّلَ عليه في معرفة الوقائع التي تُعدُّ أسبابًا حقيقيَّةً لنزولِ بعضِ آياتِ القرآنِ الكريمِ: هو صِحَّةُ الرِّوايةِ وثبوتُها.. وإذًا:

١ – ليس صحيحًا ما يقالُ من أنَّ أسبابَ النُّزولِ استوعبت الكتابَ الكريمَ وتحكَّمتْ في نزولِه، وأنَّ القرآنَ نزَلَ طبقًا لهذه الأسبابِ وتبعًا لمُتطلَّباتِ الواقع، بل الصحيحُ المُتعارَفُ عليه: هو أنَّ قدْرًا كبيرًا جدًّا من القرآنِ الكريمِ نزَلَ ابتداءً بلا أسبابٍ أو مقتضياتٍ من الواقع، بمعنَى أنَّ هذا القدْرَ الكبيرَ لم يكُنْ إجابةً عن أسئلةٍ، ولا ردودَ فعلٍ لمُثيراتٍ مُعيَّنةٍ أثارَها واقعُ المجتمعِ المكِّيِّ أو المدنيِّ في عصرِ الرسالةِ، وقد وَرَدت (يَسْألُونَكَ) في القرآنِ الكريمِ خمسَ عشْرَةَ مرَّةً.

وإذا كان بعضُ آياتِ الأحكام قد قارنَ نزولَه حوادثُ جزئيَّةٌ، فإنَّ آياتِ التوحيدِ لم ترتبطْ في نزولِها بسببٍ ولا مُقتضٍ ولا باعثٍ من الواقعِ، بل نزَلتْ أساسًا لتُدمِّرَ واقعَ المجتمعِ الجاهليِّ، ولتُنشِئَ على أطلالِه مُجتمعًا من نوعٍ آخرَ، ولعلَّ هذا ما عَناه الإمامُ محمدُ عبده بقولِه: (إنَّ سببَ النُّزولِ إنَّما يُحتاجُ إليه في آياتِ الأحكامِ؛ لأنَّ معرفةَ الوقائعِ والحوادثِ التي نزَلَ فيها الحُكمُ تُعينُ على فهمِه وفقهِ حكمتِه وبِسرِّه.. وأمَّا الآياتُ المُقرِّرةُ للتوحيدِ – وهو المقصودُ الأوَّلُ من الدِّينِ – فلا حاجةَ إلى التماسِ أسبابٍ لنزولِها، بل هي لا تتوقَّفُ على انتظارِ السؤالِ.. وما عساه يكونُ قد قارنَ نزولَها من حادثةٍ أو سؤالٍ، فهو – إنْ صحَّ روايةً – لا يَزيدُنا بيانًا في فهمِ الآيةِ)(١).

٢ – في دائرةِ الآياتِ التي صاحبَ نزولَها، أو سبقَها حَدثٌ مُعيَّنٌ من الأحداثِ، يختلطُ التفسيرُ أو التاريخُ أو الأحكامُ بهذا السببِ أو ذاك من أسبابِ النُّزولِ، وما يزالُ الأمرُ في حاجةٍ إلى أبحاثٍ مُتعمِّقةٍ لنعرفَ على وجهِ اليقينِ هل نحن نتحدَّثُ عن حادثةٍ جاءت الآيةُ تعقيبًا أو ردًّا أو إجابةً عليها، أو عن مدلولٍ من مدلولاتِها، أو عن شيءٍ من تاريخِها؟ وحَسْبُنا دليلاً على ذلك أنَّ كُتُبَ أسبابِ النُّزولِ – وهي لحُسنِ الحظِّ محصورةٌ ومعدودةٌ – لم تُقدِّمْ لنا سببَ نزولٍ لكلِّ آيةٍ، وهذا وحدَه كافٍ في دحضِ المقولةِ التي تُخضِعُ القرآنَ للواقعِ وتربطُه به اشتدادًا وضعفًا، وإمكانًا للقبولِ أو الامتناعِ، وحَسْبُنا دليلاً – أيضًا – الأمثلةُ العديدةُ التي يجدُها قارئُ (أسبابِ نزولِ القرآنِ) لأبي الحسنِ الواحديِّ (ت. ٤٦٨هـ)، والتي يربطُ فيها بين نزولِ آيةٍ من القرآنِ، وبين ما صنعَه قومُ موسى في الأزمانِ الغابرةِ(٢)، أو بين نزولِ الآيةِ وبين ما يُعدُّ من التفسيرِ لا من أسبابِ النُّزولِ، ويدخُلُ تحت هذا النوعِ عشراتُ العشراتِ ممَّا نُسمِّيه أسبابًا للنُّزولِ. فسببُ النُّزولِ – كما يُعبِّرُ الشيخُ محمدُ رشيد رضا – (ليس أكثرَ من فهمٍ للمرويِّ عنه في الآيةِ، ورأيٍ في تفسيرِها يُخطِئُ فيه ويُصيبُ، ولا يُلزِمُ أحدًا أنْ يتَّبعَه فيه، بل لمن ظهرَ له خطؤُه أنْ يردَّه عليه، ولاسيَّما إذا كان ما يتبادَرُ من معنَى الآياتِ يأباهُ)(٣).

٣ – القاعدةُ الأصوليَّةُ التي يعلَمُها الأستاذُ – يقينًا – والتي تُقرِّرُ أنَّ: (العبرةَ بعُمومِ اللفظِ لا بخُصوصِ السببِ)(٤)، تنسِفُ – من الجذورِ – محاولةَ ربطِ القرآنِ بالواقعِ ربطَ معلولٍ بعلَّةٍ؛ إذْ في ضوءِ هذه القاعدةِ لا يصِحُّ الوقوفُ بمحتوى الآيةِ عندَ حُدودِ الحادثةِ التي نزلَت الآيةُ في جوِّها، بل تتخطَّى دلالةُ الآيةِ – بما هي خطابٌ إلهيٌّ – حدودَ المكانِ والزمانِ التي أحاطَتْ بتنزُّلاتِ الآياتِ القرآنيةِ، ونحن لا نشُكُّ لحظةً في أنَّ الأستاذَ يفقهُ كُلَّ ذلك.. وبأدقَّ وأعمقَ ممَّا ألمحْنا إليه، ولكنَّنا نتساءلُ: هل من قواعدِ البحثِ العلميِّ المجرَّدِ أنْ يحملَ الباحثُ حُكمًا مُناقضًا على موضوعِ البحثِ، ثم يروحُ يتلمَّسُ من عنوانٍ عامٍّ أو مفهومٍ فضفاضٍ سَندًا يرتكنُ إليه في تعميمِ الحُكمِ بأنَّ القرآنَ ابنُ الواقعِ وأثرُه ومعلولُه؟!

إنَّ الحقيقةَ البسيطةَ التي يعلمُها الأستاذُ إذا التزمَ بمنطقِ هذا التُّراثِ – أصولاً وفروعًا – هي: أنَّ القرآنَ الكريمَ مُوجِّهٌ للواقعِ ومُؤثِّرٌ فيه وحاكمٌ عليه.. بقطعِ النظرِ عمَّا صاحبَ نزولَ بعضِ الآياتِ أو تقدَّمَ على نزولِها من ظروفٍ ومُلابساتٍ، وأنَّه ليس شيءٌ من الحوادثِ أو الوقائعِ بعلَّةٍ في نزولِ شيءٍ من القرآنِ، بمعنَى أنَّه كلَّما افترضْنا عدمَ حُدوثِ السببِ، فلابُدَّ من أنْ نفترضَ

---

١ – نقلاً عن تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٢/٥٦.
٢ – راجع كلام الواحدي عن الآية الكريمة (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) البقرة/٧٥ في أسباب نزول القرآن ٢٥.
٣ – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٥/٢٦٠.
٤ – انظر المستصفى في علم الأصول للغزالي ١/٢٣٦.

معه ضرورة انقطاع هذه الآية أو تلك، أو احتجابها عن النزول، فمثل هذا التفكير قلبٌ لأبسط قواعد فهم القرآن رأسًا على عقب، ولا يُمكنُ الجمعُ - بحالٍ من الأحوال - بين القول بأنَّ القرآنَ وَحْيٌ من الله تعالى، والقولِ بأنَّ القرآنَ جزءٌ من الواقع أو معلولُه، اللهمَّ إلَّا إذا كان القصدُ الخفيُّ وراءَ هذه التناقضات هو استبعادَ القرآنِ الكريم من أنْ يكونَ عنصرًا مُقوِّمًا في مشروعِ النهضةِ والتجديد!

ونحن لا نجرؤُ أنْ نتَّهِمَ صاحبَ (التراث والتجديد) بشيءٍ من ذلك، ولكنْ نُسجِّلُ من قراءتنا في هذا المشروع أنَّه وقع في التناقضِ الذي لا مفرَّ من الوقوع فيه لأيِّ مُفكِّرٍ أو مُجدِّدٍ يحاولُ أنْ ينسُبَ القرآنَ الكريمَ إلى مصدرٍ إلهيٍّ ومصدرٍ ماديٍّ في وقتٍ واحدٍ، والذي ينبغي للباحثِ - منطقيًا - هو: إمَّا أن يرفضَ - منذ البداية - أنْ يكونَ القرآنُ وحيًا، وللباحثِ أن يُؤسِّسَ بعد ذلك ما يشاءُ من مُعارضاتٍ ومُناقضاتٍ دونَ أن يَفقِدَ الاتِّساقَ المطلوبَ بينَ دعواه وبينَ ما يُرتِّبه عليها من ادِّعاءاتٍ، وهنا يجبُ أنْ تنحصرَ المُناقشةُ معه في دعوى بشريَّةِ القرآنِ الكريمِ أو ماديَّته، لا فيما يُؤسِّسُه على هذه الدَّعْوَى.. وإلَّا كانت المناقشةُ مناقشةً في النتيجة، مع أنَّ المقامَ مقامُ تصحيحِ المقدماتِ وامتحانِها أوَّلًا.

وإمَّا أن ينطلقَ الباحثُ من أنَّ القرآنَ وحيٌ إلهيٌّ، وحينئذٍ لا مفرَّ له من القولِ بتأثيرِ القرآنِ في الواقعِ بتوجيهِه أو تغييرِه أو تصحيحِه، أمَّا الجمعُ بين هذَين الفرضَين، فإنَّه جمعٌ بينَ نقيضَين لا يجتمعان.

وقد نبَّه علماؤُنا القدامى والمُحدَثون إلى خطورةِ هذا الاستغلالِ السيِّئ لرواياتِ أسبابِ النُّزولِ في هدمِ الدِّينِ ونقضِ بُنيانه وأركانه، وأنَّ القولَ باختصاصِ القرآنِ بالواقعِ الذي تنزَّلَ فيه، فوقَ أنَّه افتئاتٌ على الحقيقةِ التي يعرفُها المسلمونَ جميعًا؛ هو قولٌ لا يُمكنُ أنْ يقولَ به عاقلٌ.

يقولُ الإمامُ تقيُّ الدِّين بنُ تيميَّة (٥): (وقد يجيءُ كثيرًا من هذا البابِ قولُهم: هذه الآيةُ نزلت في كذا، لاسيَّما إنْ كان المذكورُ شخصًا.. فالذينَ قالوا ذلك لم يقصدوا أنَّ حُكمَ الآيةِ مُختصٌّ بأولئك الأعيانِ دونَ غيرِهم، فإنَّ هذا لا يقولُه مسلمٌ ولا عاقلٌ على الإطلاق، والناسُ وإن تنازعوا في اللفظِ العامِّ الواردِ على سببٍ، هل يختصُّ بسببه أم لا؟ فلم يقلْ أحدٌ من علماءِ المسلمين إنَّ عموماتِ الكتابِ والسُّنَّةِ تختصُّ بالشخصِ المُعيَّنِ، وإنَّما غايةُ ما يقالُ: إنَّها تختصُّ بنوعِ ذلك الشخصِ فيَعُمُّ ما يُشبِهُه، ولا يكونُ العمومُ فيها بحسبِ اللفظِ، والآيةُ التي لها سببٌ مُعيَّنٌ إنْ كانت أمرًا ونهيًا، فهي مُتناولةٌ لذلك الشخصِ ولغيرِه ممَّن كان بمنزلتِه، وإنْ كانتْ خبرًا بمدحٍ أو ذمٍّ، فهي مُتناولةٌ لذلك الشخصِ وغيرِه ممَّن كان بمنزلته أيضًا).

ويقولُ الشيخ محمد الطاهرُ بنُ عاشور (ت. ١٣٩٣هـ) - أحدُ أئمةِ تفسيرِ القرآنِ الكريمِ في العصرِ الحاضرِ -: (لا أعذرُ أساطينَ المفسِّرين الذين تلقَّفوا الرواياتِ الضعيفةَ وأثبتوها في كتبِهم، ولم يُنبِّهوا على مراتبِها قوَّةً وضعفًا، حتى أوهموا كثيرًا من الناسِ أنَّ القرآنَ لا تنزلُ آياتُه إلَّا لأجلِ حوادثَ تدعو إليها، وبئسَ هذا الوهمُ! فإنَّ القرآنَ جاء هاديًا إلى ما به صلاحُ الأمَّةِ في أصنافِ الصَّلاح، فلا يتوقَّفُ نزولُه على حدوثِ الحوادثِ الدَّاعيةِ إلى تشريعِ الأحكام)(٦).

وقد تصفَّحَ هذا الإمامُ المُعاصرُ كُلَّ أسبابِ النُّزولِ التي صحَّت أسانيدُها، وصنَّفها إلى أنواعٍ خمسة:

• النوعُ الأوَّلُ: ما يتوقَّفُ فَهمُ الآيةِ على العلمِ به، وهذا هو النوعُ الوحيدُ الذي ينطبقُ عليه مفهومُ سببِ النُّزول؛ لأنَّه يُشكِّلُ محورَ الخطابِ الإلهيِّ في الآيةِ النازلة، وهذا النوعُ لابُدَّ للمفسِّرِ من العلمِ به؛ لأنَّه يُفسِّرُ مُبهماتِ القرآن، مثل قوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾

(المجادلة: ١)

ومثل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾

(البقرة: ١٠٤)

ومثل بعضِ الآياتِ التي فيها:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾

• النوعُ الثاني: حوادثُ نزلتْ فيها تشريعاتٌ وأحكامٌ، لكنْ هذه الحوادثُ وأمثالُها (لا تُبيِّنُ مُجملًا، ولا تُخالفُ مدلولَ الآيةِ بوجهِ تخصيصٍ أو تعميمٍ أو تقييد، ولكنَّها إذا ذُكِرتْ أمثالُها، وُجدتْ مُساويةً لمدلولاتِ الآياتِ النازلةِ عند حُدوثِها)(٧)، وذلك مثل: حديثِ عُوَيمرٍ العجلانيِّ الذي نزلتْ عنه آيةُ اللِّعان، وحديثِ كعبِ بنِ عُجرةَ الذي نزلتْ عنه آيةُ:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾

(البقرة: ١٩٦)

ولذلك قال كعبٌ: هيَ لي خاصَّةً ولكم عامَّةً.

وواضحٌ أنَّ هذا النوعَ ليس سببًا مؤثِّرًا في نزولِ القرآن، وإنَّما هو داخلٌ ضمنَ توجيهاتِ الآياتِ النازلةِ بعدَ هذه الحوادث..

ولقد كان تعبيرُ الشيخِ ابنِ عاشورٍ في غايةِ الدِّقَّةِ والتيقُّظِ حين استخدم تعبير: (نزلتْ عنه آيةُ اللِّعان...)، ولم يستخدمْ تعبير: (نزلتْ فيه أو بسببه)، والفرقُ بين التعبيرَين: يعني إعادةَ العلاقةِ بينَ القرآنِ والواقعِ إلى وضعِها الصَّحيحِ بعدَ أنْ كانتْ تمشي على رأسِها في مشروعِ (التراث والتجديد)، ويقولُ الشيخُ: (إنَّ هذا النوعَ لا يُفيدُ البحثُ فيه إلَّا زيادةَ تفهُّمٍ في معنى الآيةِ وتمثيلًا لحُكمِها، ولا يُخشى توهُّمُ تخصيصِ الحُكمِ بتلك الحادثة؛ إذْ قد اتَّفقَ العلماءُ - أو كادوا - على أنَّ سببَ النُّزولِ في مثلِ هذا لا يُخصِّصُ، واتَّفقوا على أنَّ أصلَ التشريعِ ألَّا يكونَ خاصًّا)(٨).

٥ - في مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٣/١٨١-١٨٢، وانظر الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/٨٥.
٦ - التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/٤٦.
٧ - م ن: ١/٤٨.
٨ - م ن: ١/٤٨.

● النوعُ الثالثُ: حوادثُ مُتكرِّرةٌ تختصُّ بشخصٍ مُعيَّنٍ، فتنزلُ الآيةُ لتُعلنَ شأنَها، وتُبيِّنَ أحكامَها، وتتوعَّدَ مَن يقترفُها، ومعظمُ المفسِّرين يقولون عند تفسيرِ هذا النوعِ من الآياتِ: (نزلتْ في كذا)، (وهم يُريدون أنَّ مِن الأحوالِ التي تُشيرُ إليها تلكَ الآيةُ الحالةَ الخاصَّةَ، فكأنَّهم يريدون التمثيلَ.. وهذا القسمُ أكثرَ من ذِكرِه أهلُ القَصَصِ وبعضُ المفسِّرين.. ولا فائدةَ في ذِكرِه، على أنَّ ذِكرَه قد يُوهِمُ بعضَ القاصرين قَصْرَ الآيةِ على تلكَ الحادثةِ لعدمِ ظهورِ العمومِ من ألفاظِ تلكَ الآياتِ) (٩).

● النوعُ الرابعُ: حوادثُ لم يرتبطْ بحدوثِها نزولُ شيءٍ من القرآنِ، ولكنْ في آياتِ القرآنِ الكريمِ السابقةِ أو اللاحقةِ ما يُناسبُ معانيَ هذه الحوادثِ، (فيقعُ في عباراتِ بعضِ السلفِ ما يُوهِمُ أنَّ تلكَ الحوادثَ هي المقصودةُ من تلكَ الآياتِ، مع أنَّ المرادَ أنَّها ممَّا يدخلُ في معنى الآيةِ) (١٠).

● النوعُ الخامسُ: حوادثُ تُبيِّنُ معانيَ مُجملةً في الآيةِ، أو تدفعُ أمرًا مُتشابهًا فيها، أو تُبيِّنُ مناسباتِ الآياتِ، وهي على كلِّ هذه الأحوالِ ليستْ أسبابًا للنُّزولِ.

ثمَّ يُعقِّبُ الشيخُ ابنُ عاشورٍ على هذه الأقسامِ فيقولُ: (هذا وإنَّ القرآنَ كتابٌ جاءَ لهَدْيِ أمَّةٍ والتشريعِ لها، وهذا الهَدْيُ قد يكونُ واردًا قبلَ الحاجةِ، وقد يكونُ مُخاطَبًا به قومٌ على وجهِ الزجرِ أو الثناءِ أو غيرِهما، وقد يكونُ مُخاطَبًا به جميعُ مَن يصلُحُ لخطابِه، وهو في جميعِ ذلكَ قد جاءَ بكلياتٍ تشريعيَّةٍ وتهذيبيَّةٍ) (١١).

ونعتذرُ للقارئِ إنْ كنَّا قد أطلْنا في شيءٍ يعرفُه، ولكنْ أردْنا أنْ ننتهيَ من كلِّ ذلكَ إلى أنَّ (أسبابَ النُّزولِ) في تراثِنا القديمِ لا تعني – كما يقولُ صاحبُ (التراثِ والتجديدِ) – ربطَ الوحْيِ بالواقعِ؛ إنِ اشتدَّ الواقعُ اشتدَّ الوحْيُ، وإنْ تراخى تراخى الوحْيُ معه، كما لا تعني تعديلَ الوحْيِ حسَبَ الواقعِ، بل هي – على العكسِ تمامًا – تعني تعديلَ الواقعِ حسَبَ الوحْيِ، ولا يُفهَمُ من أسبابِ النزولِ: أنَّ الوحْيَ في تراثِنا القديمِ ليسَ مجموعةً من الحقائقِ الثابتةِ الدائمةِ، وإنَّما هو تفسيرٌ في ظرفٍ مُعيَّنٍ، وموقفٍ تاريخيٍّ مُحدَّدٍ، وعند جماعةٍ خاصَّةٍ، بل الذي يُفهَمُ من أسبابِ النزولِ – بعدَ تمحيصِها وتصحيحِ رواياتِها – أنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ.

ومِن غريبِ الأمرِ: أنَّ هذه النظرةَ التي تجعلُ من الوحْيِ تابعًا للواقعِ الذي نزلَ فيه، والتي بذلَ صاحبُ (التراثِ والتجديدِ) جهدًا شاقًّا من أجلِ تمريرِها والتبشيرِ بها – يتنكَّرُ لها المشروعُ نفسُه في مواضعَ أخرى عديدةٍ، بحيثُ يُصابُ القارئُ المتتبِّعُ لعلاقةِ الوحْيِ بالواقعِ بحالةٍ من الدُّوارِ، لا يدري معها هلِ التجديدُ في هذا المشروعِ ينطلقُ من اعتبارِ الوحْيِ مؤثِّرًا في الواقعِ، أو

٩ – م. ن: ١/ ٤٨-٤٩.

١٠ – م. ن: ١/ ٤٩، ويقول الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١-٣٢: (عرف من عادة الصحابة والتابعين أنه إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد أن الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها)، راجع الإتقان: ١/ ٨٣، وأيضًا التحرير والتنوير: ١/ ٥٠.

١١ – التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٥٠.

مِن اعتبارِه متأثِّرًا به؟

لقد انتهتِ النظريةُ السابقةُ التي طالَ الحديثُ عنها إلى نقيضِها تمامًا في حديثٍ آخرَ، لا نقولُ: إنَّها انقلبتْ رأسًا على عقِبٍ في سياقٍ آخرَ، بل نقولُ: إنَّها استقامتْ على قدميْها في موضعٍ آخرَ.. يقولُ فيه الأستاذُ: (لا يهمُّنا في تفسيرِ الآياتِ القرآنيةِ الرجوعُ إلى الوقائعِ التاريخيَّةِ المحدَّدةِ التي كانتْ وراءَ أسبابِ النزولِ، فذلكَ يهدفُ فقط إلى ضبطِ معاني الآياتِ) (١٢).

ثمَّ تتوالى تناقضاتُ الفكرةِ ذاتِها عبرَ نصوصٍ صريحةٍ تُجسِّدُ هذا التناقضَ، فتنفي بعدَ إثباتٍ، ثمَّ تُثبتُ بعدَ نفيٍ، إلى الحدِّ الذي يستحيلُ معه تحديدُ موقفِ الأستاذِ من قضيةِ (علاقةِ الوحْيِ بالواقعِ)، بل نقولُ: إلى الحدِّ الذي تُفرَّغُ فيه هذه القضيةُ من أيِّ معنًى أو مدلولٍ؛ فمرَّةً يُحذِّرُ الأستاذُ من تفسيرِ آياتِ القرآنِ والأحاديثِ وأحكامِ التشريعِ بـ (ظروفٍ ومناسباتٍ طارئةٍ خاضعةٍ لمُجرياتِ الأحداثِ وتقلُّبِ الزمنِ) (١٣)، ومرَّةً يُنادي بضرورةِ أنْ نتجاوزَ علومَ التفسيرِ (التفسيرِ التاريخيِّ الذي وقعَ فيه أغلبُ المفسِّرين، وكأنَّ القرآنَ يتحدَّثُ عن وقائعَ ماديَّةٍ في زمانٍ ومكانٍ مُعيَّنيْنِ عن طريقِ جمعِ أكبرِ قدرٍ ممكنٍ من المعلوماتِ حولَ حوادثَ ماضيةٍ) (١٤)، وثالثةً يعدُّ الظواهرَ الإيجابيَّةَ في علومِنا العقليَّةِ هي تلكَ التي (تصدرُ من النصِّ الدينيِّ بعدَ فهمِه أو تفسيرِه دونَ أنْ يكونَ لها بقايا يرجعُ أصلُها إلى التاريخِ أو إلى بيئةٍ ثقافيَّةٍ أخرى.. أمَّا الظواهرُ السلبيَّةُ فهي الظواهرُ التي لا أصلَ لها في النصوصِ الدينيَّةِ، والتي لا يُمكنُ أنْ ترجعَ إليها، وبتعبيرٍ آخرَ: هي الظواهرُ المتبقِّيةُ التي يرجعُ أصلُها إمَّا إلى التاريخِ أو إلى أصولٍ أخرى) (١٥).

لكنَّه يعودُ فيهدمُ ما أثبتَه هنا؛ ليتبنَّى النقيضَ الذي أوردَه هناكَ، وتظلُّ هذه اللعبةُ التي سمَّاها بعضُ المعلِّقين على مشروعِ (التراثِ والتجديدِ) رقصةَ المتناقضاتِ (١٦) مُسيطرةً على معظمِ ما نتجَ من هذا المشروعِ من فلسفةٍ في التجديدِ، وسوفَ يتجلَّى ذلكَ – أيضًا – بوضوحٍ فيما تبقَّى لنا من فقراتِ هذا المبحثِ.

يتبع

١٢ – في اليسار الإسلامي، لحسن حنفي: ١٠٠، نقلاً عن: المثقفون العرب والتراث، لجورج طرابيشي: ١٠٩.

١٣ – م. ن.

١٤ – م. ن.

١٥ – في اليسار الإسلامي، لحسن حنفي: ٤٣.

١٦ – المثقفون العرب والتراث، لجورج طرابيشي: ١١٤. ويعلق فؤاد زكريا على تناقضات (التراث والتجديد) بالتساؤل التالي: (وإذا فرضنا أن مؤرخًا أراد في المستقبل أن يحدد الموقف العام لحسن حنفي من هذه المسألة، فهل سيظل هذا المؤرخ بقواه العقلية سليمة – بعد أن يتراقص مع كاتبنا في حلقة المتناقضات الجنونية التي تدور فيها معالجته للموضوع؟) راجع الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة: ٥٧.

وقد خصص جورج طرابيشي قسمًا كبيرًا من كتابه (المثقفون العرب والتراث) لتحليل تناقضات (التراث والتجديد) التي يقسمها إلى:

أ- تناقض في الموقف المنهجي — ب- تناقض في الموقف من القضايا — جـ- تناقض في الموقف من الوقائع

د- تناقض في الموقف من النصوص — هـ- تناقض في الموقف من الأشخاص

راجع المصدر السابق ١٠٥- ١٢٧.

نظرات فى الإسلام



الدكتور محمد عبدالله دراز

بين المثالية والواقعية

يمتاز التشريع الإسلامى بأنه تشريع وسط يقوم على أساس من الاعتدال؛ الاعتدال فى كل شىء.

فى التعبد، بحيث لا يتطرف المسلم ولا يتحلل:

«إن الدين متين فأوغل فيه برفق...»(١)

وفى الحياة المعيشية، بحيث لا يسرف ولا يبخل:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾

(الإسراء: ٢٩)

وفى الأكل والشرب، بحيث لا يبالغ الإنسان فيهما مبالغة تصيبه بالتخمة التى تنشأ الأمراض عنها، ولا يقتصد اقتصادًا يلحق به الضعف والهزال.

فى كل شئون الحياة يتطلب الإسلام الاعتدال، ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذى قام عليه بناء الأمة الإسلامية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

هكذا يقف الإسلام دينًا وسطًا..

لا يجنح إلى المثالية الخيالية، لأنها أشبه ما تكون بضرب من ضروب المحال، ولأنها تكليف للنفس فوق طاقتها، وضد غرائزها وطبائعها.

كما لا يميل إلى الواقعية المتزمتة، لأن فيها عزوفًا عن المثل العليا.

ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممجوج..

وإنما يقف وسطًا، فهو يأخذ من المثالية، ما تستوعبه من المثل العليا: ويأخذ من الواقعية، ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم.

إن النفس البشرية جبلت على نزعتى الرضا والغضب، وطبعت على غريزتى الحب والكراهية، والعفو والقصاص، والمثالية تأبى إلا أن تطبع النفس - فحسب - بطابع الرضا والحب والعفو، وهذه هى المثالية الخيالية

(١) من حديث رواه أحمد بن حنبل ٣/١٩٩.

التى لا طاقة للنفس البشرية بها.

فإذا كنا نرضى فى كل حال، فلابد أن نتخلى عن الرجولة والنخوة، وقد كان الرسول - صلوات الله عليه - يغضب إذا انتهكت محارم الله.

وإذا كنا نحب فى كل حال، فلابد أن نغض الطرف عن كل ما هو بغيض، وبذلك لا تظهر قيمة الحب، وقد كان رسول الله، يحب ويبغض فى الله..

وإذا كنا نعفو فى كل حال، فلا بد أن نتخلى عن القوة والشجاعة، ونضرب صفحًا عن قاعدة القصاص، وهذا كتاب الله يقول:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

(البقرة: ١٧٩)

إن الإسلام يرغب فى الواقعية الحازمة تطبيقًا لمبدأ العدل، كما يرغب فى المثالية المعتدلة، تطبيقًا لمبدأ الإحسان، وهذا ما عناه القرآن حين قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

(النحل: ٩٠)

مع آداب القرآن

تصافح وتسامح، تواضع وتنازل، تسابق إلى الفضل والإيثار، قبول للقليل، وبذل للكثير... ذلك هو معنى الإحسان، وذلك هو أدب المعاملة فى القرآن. شرعه الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء، وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة، التى تستحق حمده وثناءه، وتستوجب عنده جميل جزائه..

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية، على عظم قيمتها، وجزالة نفعها، سوف تبقى عملا سطحيا، وعرضًا وقتيًا، لا ثبات له ولا استقرار، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل، ما لم تصدر طوعًا واختيارًا عن نفس راضية مطمئنة، غير كارهة ولا مكرهة. ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم، بل قال لهم:

﴿ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾

(التوبة: ٥٣)

ثم بين الأسباب التى منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان من تلك الأسباب أنهم كانوا:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

(التوبة: ٥٤)

فلكى تكون هذه الفضيلة الاجتماعية: فضيلة حقيقية، لا بد إذا أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية، مركوزة فى نفس العامل، مغروسة فى قرارة قلبه.. تلك هى فضيلة الطهر وسلامة الصدر، فضيلة الصفاء والنقاء الذى لا يشوبه غل ولا دخل، ولا حقد ولا حسد...

فضيلة المحبة الشاملة، والرحمة السابغة، التى تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم، قريبهم وبعيدهم، عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم، بل أقول مؤمنهم وكافرهم.

رحمة تقتبس من رحمة الله الذى وسعت رحمته كل شىء وشملت الكافر والمؤمن على السواء، وتتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، وتهتدى بهدى أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان.

رحمة تتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، الذى كان مضرب المثل فى شفقته على أعدائه، وحرصه علىّ خيرهم، وخشيته من نزول العذاب عليهم. حتى كان يدعو لهم

إذا آذوه، ويستغفر لهم إذا كذبوه، بل كان يبكى إذا سمع قارئًا يقرأ قول الله:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾

(النساء: ٤١)

لا أحدثك فى هذا عن إحسانه إلى فقيرهم، وعيادته لمريضهم، وصلته لجيرانه منهم، وسائر أنواع بره ومواساته لهم، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها، ولسنا بصدد إثباتها وإنما أحدثك عن منبع هذه الفضيلة فى نفسه الشريفة، ومدى تمكن أصلها فى قلبه الكريم.. أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق، السخى الودود، هذا القلب الإنسانى العالمى، الذى استحق به شهادة الله له فى كتابه حين يقول:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾

(التوبة: ١٢٨)

فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع. وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الأكبر، والحظ الأوفر،

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الإنسانية، شهد بها للمؤمنين الأولين، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعداؤهم لا يحبونهم. ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾

(آل عمران: ١١٩)

لا تظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا يحبهم، لا يستقيم فى نسق الآية الكريمة:

﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(آل عمران: ١١٩)

أفتراه يلومنا كذلك على الإيمان بكتابهم ما داموا لا يؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فكذلك لا لوم علينا فى محبتهم.

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حبًا بحب.. هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاهًا واحدًا وتسير فى نظام متناسق، غير ممزق ولا متعاكس، إذ تجعل محط استنكارها فى كلا شطريها آخر جزء من الكلام. على منهاج قوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾

(البقرة: ٤٤)

فليس المستنكر هو أن تأمر الناس بالبر إذا كنا لا نعمل به، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذى نعمله للغير. كذلك المستنكر هاهنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم.

ومهما يكن من أمر فى تأويل هذا النص الكريم، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله فى غير موضع من كتابه المجيد، وهو أن هذه المحبة الشاملة، والرحمة السابقة، خلق من أخلاق النبوة المحمدية، وأن

نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التى نقررها، وهو أن هذه المحبة الشاملة هى الخلق الذى يرضاه الله لسائر المؤمنين. لكأنى بمن يقرأ هذا البحث فى هذه المحبة والرحمة التامة العامة، يظنه حديثًا عن حلم من الأحلام، أو عن شريعة غير شريعة الإسلام، أو عن عالم غير عالم الإنسان...

نعم لكأنى به يهمس الآن فى أذنى قائلا: أليس كل بشر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالى ويعادي. دلنى على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادى أحدًا، أقل لك إنه إذا لا يحب ولا يوالى أحدًا، إنه إذا ليس من البشر... هبه خيرًا محضا، فهو إذا يحب الحق والخير، وبالتالى يحب أهل الحق والخير ويواليهم، وهو إذا يكره الإثم والباطل، وبالتالى يكره أهل الإثم والباطل ويعاديهم. فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هى طبيعة النفس الإنسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسنا تجريدا كاملا عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق، أليست هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا، وتكليفًا لنا بما ليس فى وسعنا، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية، كيف تتفق مع واقعية الإسلام. بل مع وصايا الإسلام؟ أليس من علامة الإيمان الحب فى الله، والبغض فى الله؟

إن فى أدب القرآن، مبدأين متعارضين، أو بعبارة أدق يبدوان متعارضين فى بادئ الرأى؟

المبدأ الأول: مبدأ الفضيلة الإنسانية

والتى تقاضانا أن تشمل الناس جميعًا برحمتنا ومحبتنا تخلقًا بأخلاق الله، الذى وسعت رحمته كل شىء، وتأسيًا برسول الله، الذى كان مضرب المثل فى الشفقة على الجميع، والحرص على خير الجميع، وانتظامًا فى سلك المؤمنين الأولين، الذين كانوا يحبون أهل الديانات السابقة وإن كان هؤلاء لا يحبونهم، وأخيرًا عملا بتوجيه القرآن الكريم الذى عقد بين الناس جميعًا رحمة الأخوة النسبية، ثم جعل التذكرة بهذه الأخوة وسيلة لاستدرار عاطفة الرحمة على كل من يشاركنا فيها فقال عظمت حكمته:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾

(النساء: ١)

فوصى بصلة الأرحام كلها قريبها وبعيدها، رحمة العقيدة، ورحمة الإنسانية الجامعة.

هذه الفضيلة الإنسانية، إذا كانت فضيلة حقيقية، منبعثة عن نفس راضية مطمئنة، فإنها تقتضينا أن نحب فلا نبغض أحدًا وأن نوالى فلا نعادى أحدًا.

هذا هو المبدأ الأول. مبدأ المثالية العليا.

المبدأ الثانى: مبدأ الواقعية العملية

الذى تتسم به وصايا القرآن فى شئون التشريع عامة، وفى شأن الحب والبغض خاصة.. فالقرآن يقرر ويكرر أنه دين الفطرة،

وأنه لا يحمل أحدًا فوق طاقته، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها. ومعلوم أن النفس البشرية - وقد طبعت على نزعتي الرضا والغضب، وجبلت على غريزتي المحبة والكراهية، لا يمكنها أن ترضى عن النقيضين ولا أن تجمع بين محبة الشيء وكراهيته، كما ليس في وسعها أن تتحول من العداوة إلى المودة بمحض اختيارها. ألم يقرر القرآن نفسه أن هذا التحول ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع الله وحده:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾

(الأنفال: ٦٣)

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾

(الممتحنة: ٧)

فانظر كيف اعترف بوجود العداوة بيننا وبين فريق من الناس، ثم لم ينهنا عنها، ولم يأمرنا بالتخلص منها. ولكنه بعث في نفوسنا الأمل بأن عدو اليوم قد يكون حبيب الغد، إذا شاء الله. وأنه قدير، وأنه غفور رحيم.

وتدبر كذلك قول الله تبارك وتعالي:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

(المائدة: ٨)

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٢)

فقرر وجود البغض والشنآن، ولم ينهنا عنه، وإنما نهانا أن نتخذه ذريعة للجور والعدوان، بل هناك ما هو أوضح من ذلك دلالة، ففي هذه الأمثلة نرى القرآن يكتفي بأن يترك نزعة العداوة والبغضاء على سجيتها فلا يأمر بها ولا ينهى عنها، وإنما ينهى عن لواحقها، التي تقع في حدود إرادتنا وقدرتنا، ولكننا نرى القرآن في مواطن أخرى، يأمرنا بعداوة من يستحق العداوة، وينهانا عن موادة من يستحق المودة:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(المجادلة: ٢٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

(الممتحنة: ٤)

وكذلك نرى الرسول - صلوات الله عليه - يجعل من علامة الإيمان: الحب في الله والبغض في الله.

كيف نوفق إذا بين هذه النصوص الصريحة المفصلة، وبين تلك الوصايا العامة التي تناشدنا أن نسبغ ثوب عفونا وصفحنا، وأن ننشر جناح رحمتنا ومحبتنا على الإنسانية كلها برها وفاجرها.

هذه هي المشكلة الأخلاقية التي سنحاول بمشيئة الله حلها.

بطريقة تلتقي بها المثالية والواقعية في

هذه الوصايا المختلفة. مع بقاء المثالية فيها على عمومها وشمولها، دون أن تنقص الواقعية منها جزئية واحدة في أي وضع فرضناه من أوضاع حياتنا الاجتماعية....

فالناس معنا في هذه الحياة على أحد أوضاع ثلاثة:

إما أن يكونوا سلمًا لنا ولمبادئنا، كافين أذاهم عنا وعن أمتنا، وإما أن تبدو منهم بادرة أذى تنال أشخاصًا فحسب، وإما أن ينتهكوا حرمة من حرماتنا المقدسة في حق الله أو في حق الجماعة.

فلنعالج هذه الأوضاع الثلاثة، لننظر كيف نستطيع أن ننطوي على محبة الناس جميعها في كل وضع منها.

لنبدأ من هذه الأوضاع بأيسرها وأطوعها لمبدأ المحبة المثالية العالمية، ألا وهو الوضع الأول، المسالم المحايد!

قدر في نفسك أنك قد استيقظت في الصباح من نومك، وأخذت تستعد لخوض غمار الحياة في يومك.. فسل نفسك إذا: على أي قاعدة تريد أن تخالط الناس وتعاشرهم؟ أتريد أن تتخذهم مقدما عدوًا لك تبدؤهم بالعداوة قبل أن يبدأوك؟ أترتجل عداوتهم ارتجالا؟ أتبيعهم إياها بالمجان؟

ليت شعري كيف ينطوي على هذه النية إنسان؟

اللهم إلا أن يكون أحد رجلين:

«رجل أفسد سوء الظن فكره وخياله، فجعل يتصور نفسه أمام قطيع من الوحوش الكاسرة، فلا بدله أن يأخذهم قبل أن يأخذوه. وأن يرميهم بالشر قبل أن يرموه!

ورجل أعماه الطمع، وأكل قلبه الجشع، فجعل يظن أن كل نعمة في يد الناس إنما هي انتقاص من نعمته، وأن كل حظ ينال أحدًا من الناس إنما هو استلاب من حظه، وأنه لن يكون له نصيب في الحياة إلا باسترداد ما سبقوا إليه من حظ ونعمة.. نظرات مريضة، ترى الإنسانية من خلال منظار أسود قاتم، هذا ينظر إليها نظرة القانص إلى فريسته، وذاك ينظر إليها نظرة الفريسة إلى قانصها.

كلا! ما هكذا ينظر أرباب الطباع الكريمة، ولا أصحاب العقول السليمة وإنما ينظرون اليها نظرة الطير إلى عشه الذي يؤويه، وإلى أجنحته التي يطير بها.

فكذلك فلتكن نظرتنا إلى أفراد أسرتنا الإنسانية، نظرة كل فرد منا في أسرته الخاصة إلى أمه وأبيه، وإخوته وبنيه، نظرة قوامها الحنان والرحمة والاستبشار والتفاؤل، والعطف وحسن الظن، نظرة إن خالطها الحذر حينا، فإنها في انطلاقتها الأولى نقية بريئة، سليمة من كل غل وضغينة.

هذه النظرة المحبة الرحيمة، الشاملة السابغة، ليست داخلة في حدود الإمكان وحسب، ولكنها واقعية عملية تعرفها القلوب الراضية المطمئنة، وإنها عند الله لأفضل من كثير من الصلاة والصيام.

إن رسول الله بشر رجلا من الأنصار بالجنة ثلاث مرات في ثلاثة أيام متواليات. فأخذ عبدالله بن عمرو يحتال لمعرفة سيرة الرجل وعمله الذي استحق به هذه البشارة. فلم يجد له امتيازًا في نوافل العبادات، فسأل الرجل عن شأنه فقال له:

«يا عبد الله.. هو ما قد رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد..!

الأحداث المأساوية

واجب المجتمع فى حماية الوطن والمواطن فى ضوء الإسلام



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن واجب المجتمع أن يحمى أمن البلاد والعباد، وأن يصون حرمة النفس الإنسانية، فالمؤمن بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله.

وإن الذى حدث على أرض الكنانة من إزهاق للأرواح أمر يندى له الجبين، فمهما تكن الدواعى والأسباب، فلا يصح لأحد كائنا من كان أن تمتد يده بالسوء لإزهاق روح إنسان حتى فى القصاص والحدود لم يجعل الله تعالى ذلك بأيدى الناس بل جعله بيد ولىّ الأمر حتى لا تصبح الحياة فوضى فتزهق الأرواح، وتراق الدماء على مذابح الأضغان والأحقاد، دم هنا، ودم هناك فترمّل النساء وييتم الأطفال وتثكل الأمهات، ويقضى على العلاقات الإنسانية والروابط الاجتماعية، ويعود المجتمع إلى ما كان عليه أهل الجاهلية، كما حذر رسول الله ﷺ من ذلك حيث قال: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» أى أن الذى يستحل الرقاب وإزهاق الأرواح ينتكس فى حياته ويعود إلى ما كان عليه أهل الجاهلية، ولا يكون حينئذ من المؤمنين، بل إنه يرجع إلى عهود الكفر ولا يرعى الحرمات التى أمر الإسلام بحمايتها حيث قال رسول الله ﷺ:

«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

وليعلم كل من امتدت يده بالسوء لإزهاق روح إنسان أن له خمس عقوبات قررها القرآن الكريم فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٩٣).

١- فالعقوبة الأولى هى أنه فى جهنم.

٢- والثانية أنه يكون خالدا فى النار، لأن الذى يستحل القتل خرج من حظيرة الإسلام.

٣- وغضب الله عليه لأنه ارتكب أكبر الكبائر.

٤- ولعنه، أى طرده من رحمته، لأنه ليس من أهل الرحمة فأهل الرحمة هم الرحماء بينهم الذين يتراحمون فيستحقون رحمة الله، «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» وقال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

٥- والعقوبة الخامسة: هى أن الله أعد له عذابا عظيما.

وهكذا نرى هذه العقوبات المشدّدة على من ارتكبوا العدوان على حياة الناس، وقد أكد الإسلام على حرمة النفس الإنسانية، وقرّر حقها فى الحياة الآمنة وبين رب العزة سبحانه وتعالى أن العدوان على نفس واحدة هو عدوان على الإنسانية جمعاء، لأنه أشاع الفوضى وأثار أهل الشر والعدوان، ونشر الخوف والاضطراب والعدوان فى الأرض قال الله تعالى:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(المائدة: ٣٢)

وحذّر القرآن أشد التحذير من محاربة الله ورسوله وقرّر عقوبات رادعة لمن يسعون فى الأرض فسادا ويحاربون الله ورسوله ويعتدون على الحرمات فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(المائدة: ٣٣)

وما ذلك إلا لأن الإفساد فى الأرض والعدوان على الأنفس من أبشع الجرائم التى إذا انتشرت فى بيئة أو تفشت فى مجتمع نشرت الرعب والفزع والإحن والفتن وأشعلت نار البغضاء والثأر بين الناس فلا تستقر الحياة ولا يأمن الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم.

ويقرر الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن علامة الإيمان هى الأمان، فلا يكون الإنسان مؤمنا إلا إذا أمنه الناس: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم».

وأن الإنسان المسلم هو الذى يسلم الناس من شر لسانه، ومن شر يده، فقال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده..»

وإن واجب الشعب وجميع الناس بكل أطيافهم وجميع المسئولين أن ينظروا بعين الرعاية والعناية حيال ما حدث من فوضى وجرائم طالت الأنفس والأرواح.

أولا: أن يحدّدوا حجم المشكلة المروّعة الرهيبة.

وثانيا: أن يبحثوا بدقة وعمل وجهاد الأسباب الحقيقية التى كانت وراء هذه الأحداث المأساوية البشعة.

وثالثا: اقتراح الحلول الناجعة حتى لا تتكرر هذه الجرائم مرة أخرى على أرض وطن يسعى جاهدا للبناء والتعمير.

إن الـذى جـرى حيال الأحـداث والجرائم التـى جرت قبل ذلـك مـا كان إلا ردود أفعال لا أكثـر ونحـن لا نريد أن تكـون مواقفنا من الأحـداث والجرائم ردود أفعـال، بل نريد أن تحـدد حجم المشـكلة المروعـة التى جرت علـى أرض الوطـن وضـاع ضحيتهـا شـباب مـن زهرة أبناء مصر فهى مشـكلة تسـتوجب الوقـوف حيالها لحسـمها ومما لا شـك فيه أنه بمعرفة الأسـباب تحل الصعاب فلنتنافس ولنتحاور ولتأخـذ العدالة مجراها بكل صدق وإيجابيـة حتـى نتعرف على الأسـباب وحتى تعالج المشكلة من الجذور.

وعندئذ يكـون العلاج الناجع لهذه الأحداث ولتلك الجرائم التى تكررت على سـاحة الحياة ووقع فريسـتها قتلى قبـل ذلك والآن، ولا يصح أبدا أن نتهاون ولا أن تكون مواقفنا مواقف ردود الأفعال بل لابد من وضع الحلول الناجعة حتى لا تتكرر هذه الأحداث وتلك الجرائم.

وأحب أن أقرر وأؤكد على ما وضحه الإسلام مـن عاقبة المعتدين ومن وراءهم ومن كان سـببا فى هذه الجرائم البشعة.

فقد قال رسول الله ﷺ : «من خرج من الطاعة وفـارق الجماعة فمـات مات ميتـة جاهلية ومن قاتـل تحت رايـة عمية يدعو لعصبـة أو يغضب لعصبـة أو ينصر عصبة فقتـل فقتلة جاهلية ومن خرج على أمتى يضرب برّها وفاجرها لا يتحاشى مـن مؤمنها ولا يفى لـذى عهد عهده فليس منى ولسـت منه».

وهكذا نرى أن رسـول الله ﷺ تبرأ من الذين يعتدون على النفس الإنسـانية حتـى على غير المسـلم من أهـل العهد والأمـان، لأن الله تعالى حرم العدوان على النفس الإنسـانية بصفة عامة حتى لو كان مشركا واستجار بالإنسـان فالواجب عليه أن يجيـره، وأن يبلغه مأمنه، حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾

(التوبة: ٦)

فإذا كان الإسلام يحمى حقوق الإنسان حتى حق المشـرك فما بالنا بأبنائنـا من أرض الكنانة ومن المسلمين ومن أهل العهد والأمان.

إننا ندعو جميع أبناء الوطن أن يحرصوا على استتباب الأمن و الاسـتقرار و الطمأنينة، وعلى الجميع أن يعلم أن أخطر ما يقدم عليه من جريمة نكراء هو العدوان على النفس الإنسانية.

فقد قال رسول الله ﷺ :

«من أمن رجلا على حياته فقتله فأنا من القاتل بريء ولو كان المقتول كافرا»

وفى هذا ما يشير إلى خطورة العدوان على النفس الإنسـانية وأن لها عند الله تعالى مكانة هامـة، حيث طـاف رسـول الله ﷺ بالكعبة وقـال: مـا أعظمك ومـا أعظـم حرمتك ! و ما أطيبـك وأطيب ريحـك ! والمؤمن أعظم عنـد الله حرمة منك دمه ومالـه وعرضه وإنا واجـب أبناء الوطن وأبنـاء الأمة أن يحافظوا علـى حرمـة الأنفـس والأمـوال والأعراض، وأن يتواصـوا بالحق وبالصبر، وأن يسـعوا جاهديـن إلى نشـر الأمـان والاطمئنان، وأن يكونـوا جميعا علـى قلب رجـل واحد وألا يختلفوا وألا يتعصبوا وأن يسـتجيبوا للأمر الرباني:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

والله الموفق

تأملات فى السيرة

نهاية بنى المصطلق وملحمة الخندق

لفضيلة الشيخ الطاهر الجامدى

ختمت آيـات سـورة النور حديـث الإفك بتحذير وتوجيه رشـيد من الله سـبحانه وتعالى لجماعـة المؤمنيـن إذا سـمعوا حديثـا مثـل ذلك وسـار بينهـم قوم بفتنة كهـذه عليهم أن يتحصنوا بحسـن الظن بالمؤمنين والمؤمنات بأن يظنوا بأنفسـهم خيرًا رافضين هذا الكذب والبهتان. يقول الله تعالى:

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

(النور: ١٢)

وفى آية تاليـة ينبه المؤمنين ويحذرهم إذا سمعوا من هذا الإفك شيئًا أن يصونوا ألسنتهم عن هذا الحديث فينقطع دابر البهتان. يقول الله سـبحانه وتعالى فـى تعبير محكم سـديد وتوجيه عالٍ موفق:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾

(النور: ١٦)

وفـى نهاية المطاف تسـتمع إلى السـيدة عائشـة تحكى نهاية مـا حدث وهى خير دليل وأكبر شـاهد تقـول: ثم دخل علىّ رسـول الله ﷺ وعنـدى أبواى وعندى امـرأة من الأنصار وأنـا أبكى وهى تبكى فجلس وحمد الله وأثنى عليـه ثم قـال ﷺ : يا عائشـة إنه قـد كان ما بلغـك مـن قول النـاس فاتقـى الله إن كنت قد قارفت سـوءًا ممـا يقول النـاس فتوبى إلى الله فـإن الله يقبل التوبة عن عبـاده». قاض حكيم واسع الصدر ﷺ يوجه المتهم بأن الله سبحانه وتعالى يقبل توبـة المذنبين وهو بذلك يوطئ لمـا يظـن الناس أنه قـد وقع وأن الله سـبحانه وتعالى لا يضيره ذنـب مذنب ولا تنفعه طاعة طائع. ثم تواصل السـيدة عائشة رضى الله عنها فتقول: «فوالله إن هو إلا أن قال لى ذلك فقلص دمعى حتى ما أحسّ منه شـيئًا وانتظرت أبواى أن يجيبا عني رسـول الله ﷺ فلم يتكلما، ثم تقول رضى الله عنها وهى الطاهرة البريئة وهى تعلم أنهـا بريئة ورغـم علو قدرهـا ومكانتها فهـى أم المؤمنيـن وزوج النبـى ﷺ تقول فى تواضـع حزين: «وايم الله لأنـا كنت أحقر فى نفسـى وأصغر شـأنًا من أن ينـزل الله فىّ قرآنًا يقـرأ به ويصلـى به» ثم تقول فـى رجاء كبير فى الله سـبحانه وتعالـى «لكنى كنت أرجو أن يـرى النبى ﷺ فى نومه شـيئًا يكـذب الله به عنى ويقطع ألسـنة الإفك لما يعلم من براءتى ويخبـر خبرًا. أما أن ينزل الله سـبحانه وتعالى فىّ قرآنـا فـوالله لنفسـى كانت أحقـر عندى

من ذلك، تقول رضي الله عنها: «فلما لم أرَ أبواي يتكلمان قلت لهما ألا تجيبا رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بمَ نجيبه؟ قلت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعجما عليّ استعبرت فبكيت. تقول: لقد خيّم الصمت على أبويّ فلم يحيرا جوابًا حتى خنق الصمت صوتهما، فبكت كأنها قالت لنفسها ممَ أتوب وأنا أعلم أنى بريئة؟ والله لإن أقررت ما يقول الناس فأنا أكذب لأنى أقول ما لم يكن؟ ولإن أنكرت ما يقولون لا يصدقونني. تطايرت من ذاكرتها المعلومات حتى أنها نسيت اسم سيدنا يعقوب تقول رضي الله عنها: «لكني سأقول كما قال أبو يوسف ـ تعني سيدنا يعقوب ـ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، ثم تقول رضي الله عنها: «فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يغشاه فسُجّي بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله ما فزعت وما باليت قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى وأما أبواى فوالذى نفسُ عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى خيل إليّ أن أرواحهما سوف تخرج خوفًا من أن يأتى من الله تحقيق ما قاله الناس. قالت: ثم سرّي عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجُمان فى يوم شات فجعل يمسح العرق عن وجهه وهو يضحك ويقول أبشرى يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك ثم خطب الناس وتلا قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(النور: ١١)

إلى آخر الآيات.

وبهذه البراءة الناصعة وهذا القطع الحاسم من آيات الله سبحانه وتعالى يسدل الستار على فتنة هزّت مجتمع المدينة شهرًا أو قل إنها نارٌ اشتعلت في المدينة اصطلى بنارها من اصطلى ونجى الله منها من نجا وأنزل براءة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وفضح فيها ابن سلول قبحه الله وأمثاله إلى يوم القيامة. هذا وأكثر كتب السيرة تورد غزوة الخندق بعد بني المصطلق وسوف نحزو حزوها ولا داعى أن ندخل فى جدل وخلاف فى ترتيب الغزوات لا طائل تحته فيما نحن بصدده من تأملات فى السيرة والذى يهمني والذى يعنينا هو تناول الغزوات بما يوضح ويؤكد عدالة موقف المسلمين ونبل مواقف الرسول ﷺ فى كل خطواته وإنسانيته التى ترقى بلا حدود حتى تصل إلى قمة الرحمة والسماحة فمواقفه كلها ﷺ وغزواته جميعًا لم يكن ﷺ بادئًا بالقتال ولا محرّضًا عليه إنما كانت الأمور كأنها تدفعه دفعًا إلى دخول حرب وهو لها كارهٌ ومشارك فيها على غير هوى فالرسول ﷺ فلم يكن داعيًا لحرب ولا مشعلًا لها إنما كانت كلها مضطرًا إما لتقرير مبدأ عام للإنسانية تتلمس رشدها فيه وإما دافعًا لهجوم غاشم عليه وعلى صحابته أو ردًا لأطماع باغية وخير مثال لهذا غزوة الخندق فأنت تعلم من تاريخ اليهود وإن كنت لا تعلم فها هى دولة إسرائيل تعلمك كيف تكون المراوغة وكيف يكون الختل ونقض العهد إن لم تكن تعلم. وكذلك فعل

زعماء بنى النضير بعد أن أجلاهم النبى ﷺ من المدينة فقد يتصور البعض أن المسلمين قد أمنوا شرهم لكن صدق الله حيث يقول:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

(آل عمران: ١١٨)

لكن رغم جلائهم فقد اجتمع سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة يؤلبون قريشًا ومن تبعها لحرب النبى ﷺ وخرجوا إلى غطفان فدعوهم لحرب النبى ﷺ وكان على غطفان عُيينه بن حصن بن بدر فاستجابوا لهم فخرجت قريش ومن معها من الأحابيش بزعامة أبي سفيان وانضمت إليهم غطفان وساروا إلى المدينة فلما سمع بهم رسول الله ﷺ جمع أصحابه يستشيرهم فى الأمر فأشار سلمان الفارسى رضى الله عنه بحفر الخندق بينهم وبين العدو ولم يكن ذلك معروفًا عند العرب فعمل فيه الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ ترغيبًا لأصحابه، وكما هى العادة على مر التاريخ تخلف المنافقون وقدموا أعذارًا واهية لكن النبى ﷺ أذن لهم فعدم خروجهم إن كان شرًا فوجودهم وسط الجنود خطره أكبر.

ونشط المسلمون فى الحفر وكانت ملحمة عظيمة رغم قلة زاد المسلمين إلا أن مشاركة النبى ﷺ لهم جعلتهم ينسون آلامهم وجوعهم ويشاركون مع رسول الله ﷺ ويستمدون من همته هممًا عالية وتحول حفر الخندق إلى ملحمة بطولية نادرة فجعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق ويحملون التراب على أكتافهم ويرددون فى جماعية عذبة ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدًا
على الإسلام ما بقينا أبدًا

فيجيبهم النبى ﷺ: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فبارك اللهم فى الأنصار والمهاجرة.

قال البخارى عن براء بن عازب قال: «كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه ويقول:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا.

ويرفع صوته ﷺ بكلمة «أبينا» ويرددها وكأنه ﷺ حاد يحدو إبلًا كريمة أصيلة فيشتد عمل الأصحاب فى الخندق وهم يرددون خلفه أبينا.. أبينا..

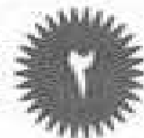
وقد ظهرت فى حفر الخندق آيات وعبر فيها تصديق لرسول الله ﷺ وتحقيق لنبوّته عاينها المسلمون فمن ذلك أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم صخرة فى حفر الخندق فشكوها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ثم نضح الماء على تلك الصخرة ثم ضربها ضربة. يقول من حضر من أصحابه: فوالذى بعثه بالحق إنهالت حتى أصبحت كالكثيب ما ترد فأسًا وخرجت منها شراراتٌ أضاءت قصور فارس.

يقول سلمان رضى الله عنه: فوصف لى رسول الله ﷺ قصور فارس ـ فكأنه عاينها.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

شوال ١٤٣٤ هـ
أغسطس ٢٠١٣ م

تطبيق الشريعة بين آليتي "الضبط الاجتماعي" و"الضبط القانوني" وبين "دور الأمة" و"دور السلطة" رؤية إسلامية جديدة



د. يحيى رضا جاد

٤ - حق إقامة الدين وحمل رسالته والدعوة إليه ونشره:

واجبُ الأمة كلها لا السلطة.. بل هو أول وأَوْلى وأهم الواجبات على الأمة كلها بلا استثناء لأحد منها ولا حصر فيه معًا؛ لأن الاستثناء والحصر إفسادٌ لمعنى الدين ذاته الذى خاطب الله به كافة المسلمين والمؤمنين، وحملهم الأمانة والمسئولية، وجعلهم جميعًا خلفاء فى الأرض، يقول تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف: ١٠٨)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الصف: ١٠ - ١٣)

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾

(الشورى: ١٣)

فإقامة الدين والدعوة إليه وحمل رسالته والتضحية فى سبيله بالأموال والأنفس: وظيفةُ كل «مَن اتبعني»، ووظيفة «الذين آمنوا» بإطلاق وتعميم.

ثم إن أمانة إقامة الدين - حفظًا ونصرةً؛ أى رعاية إن شئت قلت فى كلمة جامعة - أعظم وأخطر وأثقل من أن تحملها مجموعة أو بضع مجموعات من الأمة.. بل إن فُرَص إحسان أداء فرض «إقامة الدين ورعايته» ستكون كثيرة وفيرة واسعة متنوعة عند أداء الأمة كلها له - على تنوع وتعدد الطرق والأساليب -.. ومهما أصاب البعض من محن أو نكبات أو آفات أو انحلال أو اضمحلال أو ضعف أو تقصير، فإن فُرص الإفلات والانبعاث واليقظة ستبقى قائمة دائمة فى هذا الجزء من الأمة أو ذاك، وبذلك يظل الجهاد - بمعناه العام الواسع الشامل - قائمًا إلى يوم القيامة؛ إذ لا تزال وسوف تظل «طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم إلى يوم القيامة (وفى رواية: حتى يأتى أمر الله)»[1]، وهذا فى أسوأ الظروف وأحلكها، فما بالك بما هو أفضل وأحسن؟!

ثم إن تحميل أمانة «إقامة الدين» للسلطة/ القانون/ الدولة، أو حصرها فى ذلك، أو الاستعانة عليها به، كثيرًا ما يؤول - فى كثير من ميادين الحياة وجنباتها - إلى نقص أو تعطيل تحقيق وتحصيل مقصد الإسلام الأسمى والأسنى، مقصد «الهداية» الباطنية والظاهرية للناس، فإن الله سبحانه - كما قلنا مرارًا وتكرارًا - لا يريد «أعناق عبيد» وإنما يريد «قلوب عباد»، وهذا لا يمكن تحقيقه بـ«الوازع السلطاني القهرى»، وإنما بـ«الوازع التربوى التزكوى الأخلاقى الروحى الاجتماعى».

باختصار، وفى جملة واحدة: مهمةُ إقامة الدين وحمل رسالته والدعوة إليه ونشره وتبليغه والتمكين لقيمه بين الناس: مسئوليةُ الأمة ومؤسساتها وهيئاتها وكياناتها الثقافية والفكرية والدينية قاطبةً، لا السلطة التنفيذية.

٥ - وحتى الشعائر التعبدية - كما فى النصوص سابقة الذكر وغيرها - التى تعتمد فى أساسها على النية الباطنية للفرد وتنبعث من ضميره وتتجه إليه: تجد فيها أبعادًا جماعيةً متعددة؛ فالأمر بها يأتى جماعيًا (وقد يأتى فرديًا أيضًا، ولكنّ القيام بها غالبًا ما يكون جماعيًا فى أصله وأساسه)، وإقامتها وأداؤها، بما تتطلبه من إعداد ووسائل وأدوات وشروط وتعاون وتناصح، تتوقف على الجماعة والعمل الجماعى:

- فهذه الصلاة: عمل جماعى.. وكل مسلم - فوق ذلك - يقرأ فيها بضمير الجمع: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ويدعو فيها بضمير الجمع: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[2].. والصلاة ذاتها لا أداء لها بغير وضوء، ولا وضوء بغير ماء يعمل على توفيره لك شبكة ضخمة من العاملين فى مرفق المياه.. والصلاة - فوق ذلك - تلزمها ملابس، ولا ملابس بغير نسيج يوفره لك الفلاح فى مزرعته والعامل فى مصنعه.. إلخ.

- وهذه الزكاة: علاقة أخوية إنسانية بينية؛ بين ذوى المال وذوى الحاجة.. «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»[3].. وكثيرًا - فوق ذلك - ما يقوم على جمعها وتوزيعها جهاز أهلى - «العاملون عليها» - يتقصى أرباب الحاجات ليسدها؛ حتى لا يكون فى المجتمع جائع ولا عريان ولا مديون.. والزكاة - فوق ذلك - لم تجب فى مالك

1 - أخرجه البخارى (٧٣١١) ومسلم (١٩٢٠)، واللفظ للأخير.
2 - أخرجه البخارى (١٢٠٢) ومسلم (٤٠٢).
3 - أخرجه البخارى (١٤٩٦) ومسلم (١٩).

إلا ببلوغه النصاب، وهو لا يبلغه من تلقاء نفسه، وإنما بتوظيفه واستثماره فيما ينفع الناس، فينمو المال؛ فهذا نموه لم يكن إلا من خلال عمل جماعي شارك فيه - بطريق مباشر أو غير مباشر - جماعة من الناس.

- وهذا الصيام: جعله الله موحدًا: في شهره وبدايته ونهايته، وقد ترتب عليه من الأبعاد والآثار الجماعية ما هو مشاهد ومعيش ومعلوم في كافة المجتمعات والتجمعات الإسلامية. ولو كان الصيام الفردي هو المطلوب: لكان لكل فرد أن يختار شهره وتوقيته.

- وهذا الحج: أكثر قوة وأشد وضوحًا في أمر جماعيته، نصوصًا ومقاصدًا، يقول تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾

(الحج: ٢٧)

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾

(آل عمران: ٩٧)(٤)

نعم، في جميع هذه الشعائر وغيرها يمكن أن يكون للسلطات أدوار مساعدة، أو وظائف مكملة، أو مواقف مشجعة، ولكنّ الخطابَ بهذه الشعائر ليس لخصوص السلطة، وليس متوقفًا على تدابيرها ولا على تشجيعها أو مساعدتها، بل كثيرًا ما وضعت بعض الدول المتسلطة المتوحشة عراقيل في سبيل أداء بعض هذه الشعائر، ولكنّ مجتمعات هذه الدول قفزت على تلك العراقيل وتخطتها.. وسواءً كانت الأمة - أو الشعوب المسلمة - على مستوى المسئولية فهمًا وعملاً، أو كانت قاصرةً أو مقصرة، فإن المبادرة إلى حفظ ورعاية وتعظيم الشعائر وتوفير ما يخدمها والقفز على ما يعوقها أو يضر بها: واجبُ الأمة ووظيفتها (من خلال مؤسساتها وتنظيماتها وأعمالها الأهلية)، ساعدت الدولة أم لم تساعد، قصرت أم لم تقصر، تسلطت وتوحشت أم لم تتسلط أو تتوحش.

٦/ ١ - وحتى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاتها، فهي تكليف جماعي، تمارسه الأمة كلها عبر «آليتي الضبط الاجتماعي والقانوني» السابق بيانهما وتفصيلهما.. فلا يجوز، ولا يمكن، تخصيص جماعة معينة أو فئة بعينها لأداء مهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا يجوز؛ لأن الأمة بأسرها - فردًا فردًا، بلا استثناء، وكما سيأتي البيان - مكلفةٌ بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ثم، لا يجوز حصره في هيئة معينة أو تخصيصها به دون غيرها.

ولا يمكن؛ لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفٌ ثقيلٌ واسعٌ شاملٌ يعم كافة ميادين الحياة وأرجائها وشُعبها؛ بما يستحيل معه أن تختص هيئة ما، أو مجموعة ما، أو هيئتان، أو مجموعتان، بالقيام بمختلف أنشطته وأوجهه ومتطلباته، وإنما

٤ - راجع فصل: «من أسرار الحج - دراسة في فقه الدلالات والمقاصد» ضمن كتاب «في فقه الاجتهاد والتجديد - دراسة تأصيلية تطبيقية»، د. يحيى رضا جاد، تقديم د. محمد عمارة، ط ١، ٢٠١٠م، دار السلام - القاهرة.

هو عمل جماعي ومؤسسي منتشر - عبر آليتي الضبط القانوني والاجتماعي - في تضاعيف المجتمع وبنيته.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظلة نظرية مفاهيمية كبرى تظلل كافة أرجاء الحياة؛ ومن ثم، لا يمكن القيام بتنزيل تلك المظلة على مختلف تلك الأرجاء عبر جماعة أو فئة بعينها، وإنما تُنزِل الأمة كلُّها وبنفسها تلك المظلة، وتحققُ مفاهيمها ومضامينها في مختلف شرايين الحياة وأوردتها، من خلال آليتي الضبط الاجتماعي والقانوني.

٦/ ٢ - يقول تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

فهاهنا سبحانه يصف الأمة الإسلامية كلها - لا فئة منها - بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولو كان يجوز أن ينحصر أو يتخصص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فئة أو جماعة أو هيئة معينة، لَمَا وصف سبحانه الأمة كلها بذلك، خاصةً وأن بقية الآية - ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ - أمر مُطالَبٌ به كل فرد مسلم، ولا يجوز قط أن ينحصر في، أو أن تُخصَّص للقيام به، مجموعة ما!.. فإن ادعى أحد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مختص بفئة أو جماعة محددة، فيلزمه - في هذه الآية، كما في بقية الآيات التي سترد هاهنا - أن يخصص أو يحصر الإيمان بالله في فئة أو جماعة محددة (لأن الكلام في الآية واحد، والجهة المتحدث عنها واحدة)، وهذا في غاية البطلان، وما لزم منه باطل فهو باطل!

ويقول سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

فهاهنا يصف سبحانه أنّ من «أصول» رسالة الإسلام «الأساسية» ومقاصده «الكبرى» وكلياته «العظمى»: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهذا يستلزم مستبطنًا ويستبطن مستلزمًا: عدم انحصاره في فئة أو مجموعة معينة.

ويقول تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(التوبة: ٧١)

فهاهنا يتحدث سبحانه عن المؤمنين والمؤمنات - كلهم جميعًا - فيصفهم بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، فإن ادعى أحد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مختص بفئة أو جماعة محددة، فيلزمه - في هذه

الآيـة، كمـا فى بقيـة الآيات الـواردة هاهنا سـابقها ولاحقهـا- أن يخصـص أو يحصر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بفئـة أو جماعة محددة (لأن الكلام فى الآية واحـد، والجهـة المتحدث عنهـا واحدة)، وهـذا فى غاية البطلان، وما لـزم منه باطل فهو باطل!

ويقول سبحانه:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾

(لقمان: ١٧- ١٩)

وهـذه تعليمـات وتعاليـم للمؤمنيـن كلهـم، لا تخص فئة دون فئـة، ولا تنحصر فى مجموعة دون مجموعة.

ويقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾

(الحج: ٤١)

فهاهنـا يصف سـبحانه حـال المؤمنين كلهـم إن مُكنـوا فى الأرض بأنهـم يقيمون الصلاة ويؤتون الـزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإن ادعى أحد أن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر مختص بفئة أو جماعة محـددة، فيلزمه -فى هذه الآية،

كما فى بقيـة الآيات الواردة هاهنا سـابقها ولاحقها- أن يخصص أو يحصر إقامة الصلاة وإيتـاء الـزكاة بفئة أو جماعـة محددة (لأن الكلام فـى الآية واحد، والجهـة المتحدث عنها واحدة)، وهذا فـى غاية البطلان، وما لزم منه باطل فهو باطل!

ويقول سبحانه:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨- ٧٩)

فالذيـن كفروا مـن بنى إسـرائيل كلهم ملعونـون؛ لأنهـم لـم يتناهوا عـن المنكر فيما بينهـم، والتناهى - كما هو بيّن- فعلٌ «تداولى» غير محصـور أو مخصص فى فئة دونـًا عـن الأخـرى، ولذلك شـملت اللعنة الذين كفروا من بنى إسـرائيل جميعًا؛ إذ لم يخصص الله سـبحانه اللعنـة بفئة منهم دون فئة أو مجموعة دون مجموعة.

ويقول تعالى:

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(التوبة: ١١٢)

فهاهنا يصـف سـبحانه المؤمنين كلهم

بذلك.

ويقول سبحانه:

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾

(العصر: ١- ٣)

والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر -بمختلف صوره وأشكاله وأساليبه وآلياته-: من «التواصى» الذى هو صفة الذين سينجون من الخسـران فى الآخرة، وهـو بذلك صفة مطلوبة من الجميع فردًا فردًا، بلا استثناء.

ويقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾

(هود: ١١٧)

فهذا يفيـد أهمية عموم وذيوع وشـيوع صفة «الإصلاح» - والأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر فى المقدمة من المعانى المندرجة تحت هـذه الصفـة- فـى «أهل القرى».

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾

(الأعراف: ١٦٥)

فهاهنـا بيانٌ لكـون «النهى عن السـوء» أحد «أعمدة» أسـباب النجـاة من النار، وهو بذلـك لا يمكن أن ينحصر فى فئة دون فئة، أو أن تُخص به مجموعة دون مجموعة.

ويقول سبحانه:

﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾

(التوبة: ٦٧)

وصفـات «المؤمـن»، كل مؤمـن، هـى «النقيض الموضوعـى» لصفات «المنافق»، فلـزم أن تكون مـن صفـات المؤمنين، كل المؤمنيـن، الأمرُ بالمعـروف والنهـى عن المنكر.

بـل إن القـرآن الكريم، فـوق ذلك كله، يُحمِّل أمة المسلمين عامةً مسئولية الشهادة على الناس:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

والشهادةُ على الناس تحمل فى أحشائها أربعـة أمـور: الحضـور، والعلـم، والبلاغ، والأمانـة والعـدل: الحضـور على السـاحة الإنسـانية بما ينفع ويُغـرى ويُؤثِّر، والعلم بالديـن وبالكون وبالنـاس، والبلاغُ البيانى والدعـوى؛ بيانًا لكلِّ خيـر، ودعوة إلى كل معروف، والعدلُ فى العلاقة بالناس والتعامل معهم؛ معيشـةً وقضاءً، والأمانة فى التعامل معهم والشهادة عليهم. وبيِّنٌ أنّ هذه الأربعة تندرج تحت مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فلزِمَ أن يكون هذا المفهوم من الواجبـات على الأمة كلهـا لأن من عناصره ومكوناته ما ثبت فى حق الجميع وجوبُه بلا استثناء.

يتبع

حول النظام الديمقراطى



المستشار طارق البشرى

إن التاريخ العثمانى ملئ بالعبر من جهة حركات الإصلاح وما أفضت إليه من صلاح أو فساد فى ظروف المواجهة التاريخية مع القوى الغربية، ووجه الاعتبار بالتاريخ العثمانى فى هذا الشأن، أن الدولة العثمانية كانت أهم ميادين المواجهة ولعل أهميتها فى ذلك القرن الماضى تجارب فى الإصلاح وفى الأخذ من النموذج الغربى كثيرة.

وليس صحيحا ما يُقال من أن هذه الدولة ركنت إلى الجمود وعزفت عن الإصلاح والتجديد حتى زالت. ليس ذلك صحيحا؛ لأن تجربتها وتجربة الدولة التركية التى قامت على أنقاضها قد بلغت الذروة فى تقليد النموذج الغربي. وأن اكتمال تقليد هذا النموذج فى عهد الدولة التركية تحت رئاسة كمال أتاتورك وما بعده يجعلها ميدانا فذا للدارسة واستخلاص العبر والدروس.

ويكفينى هنا الإشارة إلى بعض الأمثلة السريعة لبيان كيف يمكن أن يكون الإصلاح «ضالا» أى لا يفضى فى السياق المأخوذ إليه إلى الأثر الذى كان مرجوا منه، وكيف يكون إصلاحا «فاسدا» أى أنه يؤدى إلى إفساد بعض من أركان النسق السياسى والاجتماعى الذى كان قائما قبل إدخاله.

وهناك عديد من الأحداث تُظهر كيف يمكن أن يترتب على إجراء استعير من النظم الغربية وأريد به الإصلاح بحسبان ما أدى إليه من صلاح فى بيئته الغربية، كيف يمكن أن يترتب عليه فى البيئة المنقول إليها من صدع فى بنية الدولة والمجتمع. وقد سرب إلينا الفكر الغربى فيما سرب، مقولة صارت كالمسلمات، وهى أن تدمير القديم يفضى تلقائيا وبذاته إلى فتح طريق الإصلاح والنهوض المرجوين، أو أن إدخال نموذج غربى يفضى حتما فى بيئتنا إلى ذات الأثر الصالح الذى ترتب عليه فى بيئته.

وما أريد أن أؤكده هنا أن هذه التلقينات والحتميات لا تقوم، وأن العبرة دائما فى فاعلية أى إجراء يتخذ بقياس أثره فى السياق السياسى والاجتماعى والاقتصادى القائم، وفقا للأوضاع الموروثة وللتحديات التى يصادفها المجتمع فى العصر المعيش.

فمثلا من المعروف إن أحمد مدحت باشا، الذى تولى الصدارة العظمى فى بعض سنى السبعينيات من القرن الماضى، هو داعية من دعاة الإصلاح والتجديد فى الدولة العثمانية. ناضل من أجل الدستور وضد الحكم الاستبدادى نضالا استحق به على ألسنة المحدثين أن يلقب «بأبى الإصلاح وأبى الدستور». وفى ١٨٧٦م جرى انقلاب مدحت ضد السلطان عبدالعزيز، ونجحت الحركة وخلع السلطان، ثم وجد منتحرا بعد أيام، وتولى بعده السلطة ابن أخيه مراد الخامس شهورا، ثم ظهر اختلال عقله فأقصى، وتولى السلطنة عبدالحميد الثاني.

وفى تلك الأثناء كان سعى الدول الأوروبية إلى التدخل فى شئون الدولة العثمانية قد أدى إلى عقدهم مؤتمر الآستانة فى أكتوبر ١٨٨٦م باسم معالجة المشاكل القائمة فى البلقان. وجرى سعيهم للتآمر على الدولة باسم حماية الأقليات المضطهدة بها. وتولى مدحت الصدارة العظمى وأعلن الدستور الذى يقيد سلطة السلطان وينشئ نظاما نيابيا ويعترف بحقوق الأقليات. ثم ما لبث عبدالحميد أن عزل مدحت ونفاه، ثم أوقف العمل بالدستور.

هذا صراع بين مؤيدى الديمقراطية وحفظة الاستبداد محدد المعالم واضح الأطراف. ولكن وجه الملاحظة أن هذه الحركة الدستورية الديمقراطية، التى بدأها مدحت بخلع عبدالعزيز، إنما جرت بانقلاب قام به ونفذه أربعة من رؤوس الدولة، رشدى باشا الصدر الأعظم، ومدحت باشا الوزير وقتها، وحسين نورى باشا وزير الحربية وحسن خيرالله شيخ الإسلام. جرت قبلها بعض المظاهرات الشعبية، ولكن يُقال إن من كان يؤيد مدحت أقلية ضئيلة من الأحرار، وجماهير تؤيده ولكن لا تعرف السبيل إلى نصرته، لأنها لم تع وعيا كاملا ولم تنظم تنظيما دقيقا، فضلا عن إن الصناعة المواتية لقلب الحكم الإقطاعى بأنظمته الاجتماعية وقيمه الفكرية، لم تكن قد توافرت بعد.

ومن جهة أخرى، فإنه مع اشتداد الصراع بين السلطان عبدالحميد ومدحت، أرسل مدحت أحد رجاله إلى لندن لإبلاغ الخارجية البريطانية، أن الدستور القائم يضمن صوت الأقليات المسيحية، وأن الدولة العثمانية مستعدة لطمأنة الدول الأوروبية بتنفيذ الدستور بمعاهدة دولية، بمعنى إن يرد النظام الأساسى للدولة العثمانية فى صيغة معاهدة بينها وبين الدول الكبرى.

ووجه الملاحظة فيما سبق، أن الديمقراطية وحقوق الأقليات، أنبل الأهداف التى تقضى على الاستبداد والاضطهاد، هذه الديمقراطية ترد هنا فى إطار حركة إنقلابية ذات تأييد شعبى محدود جدا وفى ظروف اجتماعية غير مواتية، ويقود الحركة حفنة من رؤوس الدولة، دولة الاستبداد القائمة المقول عنها، وهم يوجهون جهودهم لتحقيق «هذه الديمقراطية» بالسعى «الانقلابي» وقبل «توعية الجماهير وتنظيمها» أى مع الاستغناء عن مشاركة الجماهير التى تجرى الحركة «باسمهم» ثم بعد ذلك كله يكون ضمان بقاء «الديمقراطية» معاهدة دولية تبرم مع الدول الأوروبية الطامعة فى ارث الدولة العثمانية الساعية للتدخل فى شئونها

الداخلية، الهادفة إلى تفكيك هذه الدولة واقتسام أشلائها. فتصير «الديمقراطية»، على أيدى أبي الدستور مدحت باشا، تصير بابا شرعيا للتدخل الاستعماري في شئون الدولة وتحقيق المآرب. هل تعدو الحقيقة إن قلنا أن هذا «الوافد» الديمقراطي كان ضالا وفاسدا؟ ومثل آخر، فقد قام الانقلاب «الدستوري» ضد الاستبداد «الحميدي» في ١٩٠٨م. قام بحركة من الجيش العثماني الثالث في سالونيك. وقادها ضباط الاتحاد والترقي، ثم تم خلع السلطان عبدالحميد في ١٩٠٩م بتحرك آخر قام به جيش عثماني آت من سالونيك أيضا، وكانت سالونيك مركزا للجمعيات الماسونية وليهود الدونمة في ذلك الوقت. ويصف الواصفون هذا التحرك، بأن خرج الجيش من سالونيك بقيادة شوكت، وكان عدد جنوده يتضاعف في طريقه إلى الآستانة. ثم حوصر عبدالحميد وخلع.

ووجه الملاحظة هنا، يرد من وصف الكاتبة الألمانية آنا وتلن لحركة خلع السلطان، كان الجنود الذين زحفوا تحت أمرته (شوكت) يظنون أنهم يؤدون رسالة عليا، كانوا يعتقدون أنهم زاحفون لحماية الكائن المقدس المقيم في يلدز (السلطان عبدالحميد).. وحتى يوم ٢١ أبريل وجنوده على أقل من ثلاثين ميلا من العاصمة، كان شوكت لا يزال يهتف بحياة السلطان، ولنا أن نتأمل في هذه الخديعة الشنعاء، التي أريد بها قهر الاستبداد، والادعاء بإنشاء تنظيم ديمقراطي حيث يتولى «المخدوعون» حكم أنفسهم بأنفسهم.

هل نعجب بعد ذلك حينما نرى أن هذا الإصلاح كان إصلاحا ضالا وفاسدا، وهل نعجب إذا عرفنا ماذا حدث في أعقابه، لقد اقتطعت إيطاليا ليبيا، وانفصل ما بقي من البلقان، وانشقت الدولة العثمانية إلى أتراك وعرب، ثم دمرت الدولة تماما مع الحرب العالمية الأولى التي خاضها رجال الاتحاد والترقي، وهرب القادة الثلاثة بعد هزيمة الدولة، هربوا من السفين الغارق بأهله ذاهبين إلى ألمانيا وغيرها (طلعت باشا، جمال باشا وأنور باشا، والأولان قتلا في ألمانيا والثالث قتل في حروب آسيا الوسطى ضد السلطة السوفيتية بعد سنوات قليلة).

ونحن نعرف ما آل إليه «الحكم الدستوري» نفسه على أيدى الاتحاديين من تدمير، وما مورس خلال حكمهم «الدستوري» من القمع والمذابح في الشام وبين الأرمن وغيرهم.

لقد زالت الدولة العثمانية من الوجود، بعد أن جرت بها كل محاولات الإصلاح باسم المحافظة عليها والنهوض بها، محاولات نقلت من بيئتها الأوروبية وفرضت على البيئة العثمانية فرضا بالقمع والخديعة. لقد تبنت مفاهيم للإصلاح تتعلق بأنبل وأصدق ما يؤمن به المحدثون، ولكنها كانت أنماطا من الإصلاح ضالة، أفسدت حيث أراد منفذوها بها الإصلاح، أو قالوا ذلك. وأنا عن نفسي لست أجحد أهمية تلك الأهداف، ولكن ما يلزم نكرانه حتى بمعيار المنفعة، أن نموذجا للإصلاح يفيد يكون له من النفع مثل ما له في البيئة الاجتماعية التي تفتقت عنه، وضع من مادتها الحضارية التاريخية والاجتماعية. ثم نقل منها رغم

اختلاف النسق الاجتماعي واختلاف السياق التاريخي والفكري والعقيدي واختلاف التكوين النفسي للمجتمع.

وما يلزم إنكاره أيضا، أن العصر الأوروبي هو نفسه العصر العثماني، مادام شملهما معا القرن التاسع عشر للميلاد، وأن النماذج التنظيمية والفكرية يمكن أن تتجرد من أنساقها ومساقها، لتصير باسم «وحدة العصر» حديثة صالحة في ذاتها أو قديمة بالية في ذاتها. أكاد أتجاسر بالقول أن زوال الدولة العثمانية، إن كان يرجع إلى عوامل كثيرة، فقد أسهمت في هذا الزوال حركات الإصلاح والتجديد، وقد كانت وافدة ضالة فاسدة، بمثل ما أسهمت روح الجمود والمحافظة، لأن التجديد والإصلاح عيق عن أن ينشأ من المؤسسات القائمة، وفرض من الخارج بالاقتحام فرضا.

يمكن القول بأن الأمثلة السابقة تتعلق بحركات سياسية، وهي على أسوأ الفروض تمثل أهدافا صحيحة نافعة استغلت لتحقيق مآرب ضارة، وأن التاريخ مليئ مثلها مما لا يجوز أن يمس صواب الأهداف أو يجرحها. أقول إن الدلالة المطلوبة مما سبق ذكره، لا ترد من الحدث. وما أقصى إليه فقط، ولعل العظة هي أهون الدلالات، ولكن وجه الاستدلال الأخطر، هو أن قسما من مفكرينا وباحثينا يقيمون هذه الأحداث بحسبانها من حركات النهوض والإصلاح، ويضمونها إلى حركات الجهاد وأنماط الصحوة الحديثة، ويصمون معارضيها بالتخلف والجمود والانحطاط.

وينطوى هذا التقييم على عوار في منهج البحث والنظر إذ يقوم لديهم التلازم بين الحداثة والإصلاح وبين القدم والبلى، وإذ يعتبرون المواكبة الزمنية كافية «لوحدة العصر» بين مجتمعات مختلفة بعضها عن بعض في أنساقها الاجتماعية وظروفها المعيشية وما يواجه كل منها من تحديات.

ولا يبالي هذا النفر من الباحثين- وقد صاروا كثرا بسبب الغزو الفكرى القائم، لا يبالون بأثر نقل النموذج في حالة اختلاف الظروف، وأن النمط الإصلاحي الواحد تختلف وظيفته المؤداة بنقله من بيئة إلى بيئة أخرى مختلفة في ظروفها وأوضاعها. وهم يرون أن النماذج الإصلاحية وأنماطها صالحة في ذاتها أو ضارة في ذاتها، دون مبالاة منهم لاختلاف الظروف التي تعمل فيها. وهم في هذا يعانون من شيوع روح الجمود الفكرى وعدم الاجتهاد، مما يتهمون به أصحاب الفكر الموروث وينكرون به فاعلية الفكر الموروث جميعه وترحيبهم بالوافد مطلقا.

****

وفي مواجهة المثل العثماني للديمقراطية الضالة. يمكن إيراد شاهد من التجربة المصرية، لم تضل فيه الديمقراطية لأنها أدخلت عنصر المواجهة مع الاستعمار وضد الاعتداء، أدخلت هذا العنصر لا في أهدافها فقط، ولكن في التكوين الوظيفي لأدواتها. وصار هذا العنصر هو العنصر المجدد لنشاطها، والتصقت به موظفة في خدمته. وبدأ أثر التكوين التنظيمي لها، سواء التكوين النيابي أو الحزبي.

ومع تجنب التفاصيل ما أمكن، فقد

بدأت الديمقراطية فى السبعينيات من القرن الماضى، بشعار «مصر للمصريين» كان انعزال مصر عن الدولة العثمانية قد تقرر بمعاهدة لندن فى ١٨٤٠م، وما لبثت الأطماع الأوروبية أن انفردت بمصر وحيدة مجردة من قوة جيش يحميها، ومن قوة الجماعة الأشمل التى تحيط بها، وتدفق عليها النفوذ الأوروبى السياسى والاقتصادى، وأخذ فى التزايد من خلال القروض ومن خلال العلاقات الأوروبية المتزايدة بالفئة الحاكمة.

لم تكن مصر قد احتلت احتلالا عسكريا بعد، إنما كان النفوذ الأوروبى عليها نفوذا «مدنيا» سياسيا واقتصاديا، مع التهديد بالقوة العسكرية، وتزايد هذا النفوذ «المدني» حتى شارك وزيران انجليزى وفرنسى فى الوزارة المصرية فى ١٨٧٩م. هنا ظهر شعار «مصر للمصريين» كشعار وطنى ديمقراطى فى آن واحد وهو من شأنه أن يؤدى هاتين الوظيفتين فى عملية سياسية واحدة. إنه يفيد تقييد سلطة الفئة الحاكمة وهيمنة الشعب على مقدرات السلطة ومن شأن ذلك فى ذاته وقتها أن يفضى إلى إقصاء النفوذ الأجنبي. ولكن ما لبث الإنجليز أن احتلوا مصر فى ١٨٨٢م.

ومع ثورة ١٩١٩م امتزج مطلب الاستقلال الوطنى وإجلاء الإنجليز عن مصر، بمطلب البناء الديمقراطى، واستلهمت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك صيغة «مصر للمصريين» فى ظروف جديدة. فاعترفت بريطانيا بالاستقلال الشكلى لمصر فى ١٩٢٢م وصدر دستور ١٩٢٣م، وجرى هذان فى عملية سياسية واحدة نتجت عن ثورة ١٩١٩م. واستمر هذا الارتباط من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٢.

أدى هذا الارتباط والتوظيف الوطنى للديمقراطية، إلى أن التنظيمات التى كانت تمثل القوة الديمقراطية كانت هى ذاتها قوى الحركة الوطنية باللزوم وكان التأييد الشعبى الكاسح لها، يتجمع حولها بجامع المطالبة بالاستقلال، بحسبان أن النشاط الديمقراطى فى ظل أوضاع مصر من ١٩٢٢م إلى ١٩٥٢م، كان هو وسيلة المواجهة مع المستعمر المحتل وطريق السعى لإجلائه. لذلك تميزت الحياة الحزبية فى هذه الفترة بعدم التناسب المطلق، بين تنظيم سياسى يحظى بما يشبه الإجماع من التأييد الشعبى، سواء فى الانتخابات أو فى غيرها من أساليب العمل السياسى، وبين أحزاب أخرى متناهية الصغر من حيث القوة الشعبية. وهذه الظاهرة لا تفسرها شعبية المطالب الديمقراطية فى ذاتها، وإنما تجد تفسيرها الأوفى فى الموقف الوطنى العام لجمهور الشعب المصري.

ومن هنا كانت أحزاب الأقلية تجأر بالشكوى مما أسمته «طغيان الأغلبية» وكان تقدير تنظيم الحركة الوطنية بأنه التنظيم «الجامع للأمة» وأن ما عداه خوارج عليها. وأن يقوم مع تعدد الأحزاب تنظيم جامع واحد، لهى سمة لا يبدو لى إمكان توافرها إلا بمراعاة ظروف المواجهة والمكافحة للاحتلال والغزاة. لأنها مواجهة أمة لأعدائها، وليست مواجهة جماعات وطوائف وطبقات وفئات اجتماعية بعضها لبعض فى إطار أمة واحدة مبرأة من الغزو آمنة من خطر العدوان.

وأدى هذا أيضا إلى أن مصر فى تلك الفترة عرفت تنظيمين أساسيين شعبيين، كان لهما من التأييد الواسع ما بوأهما مكان الصدارة فى هذا الشأن، وهما حزبا الوفد، والإخوان المسلمين. ووجه الملاحظة أن كلا منهما لم يطلق على نفسه «حزبا»، بل كان حريصا على نفى هذه الصفة عن نفسه. وأن كلا منهما ارتبط بهدف واحد أساسى هو مواجهة الغزو، سواء الغزو السياسى والعسكرى، أو الغزو العقائدى والحضاري.

وكذلك نلحظ أن التنظيم السياسى فى عهد ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢م فى مصر، ظهر واختلفت أسماؤه من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى إلى الاتحاد الاشتراكى، واختلفت أساليب بنائه التنظيمى بالانتخاب أو التعيين أو غير ذلك، واختلفت أهدافه السياسية فى بعض تفاصيلها المرحلية، ولكنه استمر عبر كل مراحله يؤكد على جامعية التنظيم وصفته التمثيلية العامة للأمة وينكر الحزبية كنظام ويجحد وصف نفسه بها ولم يكن فى ذلك مجانبا للتنظيمات السابقة عليه فى هذه الافكار، ولكن اتت المجانبة فى أنه لم يكن تنظيما شعبيا إنما كان خاضعا لهيمنة الدولة وسلطتها التنفيذية وكان مجالا لاندماج الوظائف السياسية فى المؤسسات والأجهزة الأمنية فى المجتمع وكانت الدولة هى الكيان الفريد لرسم السياسات وتقرير القرارات ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

كل هذه الخصائص، وغيرها مما لا تسمح هذه العجالة بالتفصيل فيه، لانجد أن غالب الفكر السياسى والدستورى والاجتماعى، قد أعارها ما تستحق من أهمية فى التحليل «وعلوم العصر» الوافدة من الغرب تكتفى بالأخذ من العصر الأوروبى الغربى ونقل مفاهيمه وصيغه، وهى مفاهيم وصيغ لا تصور ولا تمثل واقع الحركة عندنا ولا تطابق أشكال العلاقات والتنظيمات والصيغ الفكرية التى تفتق عنها واقعنا، حسبما أملته الموحيات التاريخية والاجتماعية.

إن «علوم العصر» الوافدة، ترتطم بهذا الواقع فلا تستطيع تفسيره، وتصر على محاكمته بالمفاهيم الوافدة، فما وافق هذه المفاهيم كان صوابا «وحقيقيا» وما خالطها كان خطأ وباطلا، والصواب هو ما يعترف به الفكر الوافد ويخضع لأسس شرعيته وتصنيفاته، أما ما يقوم لدينا من واقع بيئتنا ليواجه مشكلاتنا القائمة مصوغا بآرائنا وأفكارنا، فهو مادام لا يتفق مع مفاهيم الوافد يعتبر خطأ أو تراثا رثا باليا.

وهكذا اضطربت على أيدى «علماء العصر» مفاهيم السياسة والنظم الاجتماعية وهم ينقلون ويطبقون ولا يجدون مما فعلوا الأثر الذى يتوقعونه، لا يعترفون باختلاف الظروف من بيئة النقل وبيئة الانتقال. وأساس خطئهم أنهم ظنوا أن المواكبة الزمنية فى حساب الأشهر والسنين بين بيئة الوافد وبيئة الموروث لدينا تلغى كل الظروف المتباينة، سياسية واجتماعية وفكرية. بل تلغى السمة الأساسية للزمن الواحد وهى أنه يقسم البلدان والشعوب إلى غاز ومغزو ومعتد ومعتدى عليه.

فقه الهوية والخصوصية والانفصال فى الأزمنة الحديثة

أصول الرؤية الإسلامية للعالم وفلسفة العلاقة مع الآخر



أ. د. إبراهيم البيومى غانم
أستاذ العلوم السياسية
المركز القومى للبحوث الاجتماعية - مصر

● يقول أهل اللغة : إن « السلام» يدل على الصحة والعافية والبراءة من النقص والعيب. وأقول إن السلام دليل على الحق والخير والجمال؛ فبالسلام تهدأ النفس وتطمئن وتمتلئ بنور الحق. وبالسلام تترسخ علاقات الود والتعاون وتميل كل الأنفس لعمل الخير والتنافس فيه. وبالسلام تفرغ أقطار النفس وتصفو بحار الروح للتأمل والإبداع وإظهار آيات الجمال فى النفس وفى الكون.

السلام اسم من أسماء الله تعالي؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء. ومن لفظ السلام أيضاً اشتق لفظ الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع. والسلام غاية كل عاقل.

وقد ورد لفظ (السلام) فى الكتاب العزيز فى مئة وأربعين موضعًا؛ بصيغ متنوعة. ورد فى مئة واثنى عشر موضعًا منها بصيغة الاسم، من ذلك قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾

(النساء: ٩٤).

وورد فى ثمانية وعشرين موضعًا بصيغة الفعل، منها قوله سبحانه:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾

(النور: ٢٧)

وقد دار معنى السلام فى القرآن على سبع دلالات رئيسة، هى:

١- اسم من أسماء الله.

٢- الإسلام.

٣- التحية المعروفة.

٤- السلامة من الشر.

٥- الثناء الحسن. ٦- الخير.

٧- خلوص الشيء من كل شائبة.

● فى الأصل كان السلام . وفى المنتهى سيكون السلام. هذان هما مبتدأ وخبر رؤية الرؤية الإسلامية للعالم . فى الإشارة إلى المبتدأ ، قال الله تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾

(الحشر: ٢٣).

وفى الإشارة إلى الخبر والمنتهى، قال عز وجل:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

(الأنعام: ١٢٧).

وقال سبحانه:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾

(الحجر: ٤٦).

ومن مقاصد عالمية الإسلام أن يعم السلام؛ وفى هذا خاطب رب العزة رسوله محمد ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(الأعراف: ١٥٨).

وثمة آيات أخرى عديدة تركز على المعنى نفسه الذى تشير إليه هذه الآية، وهو أن الإسلام رسالة عالمية، ليست لجنس دون جنس، ولا لأمة دون أخرى، وأن غايته هى الوصول للعالم بأسره دون إكراه أو إجبار، ليدخل الجميع فى السلام؛ بالحوار، وبالحكمة، والموعظة الحسنة. وإذا لم يستجب بعضهم - قل هذا البعض أو كثر - فلهم مطلق الحرية وكامل الحق فى اختيار ما تطمئن إليه قلوبهم:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

وعند الله تجتمع الخصوم.

٣- من أصول الرؤية العالمية للإسلام أن البشرية بمختلف شعوبها وأممها صائرة - لا محالة - إلى التجمع فى وحدة إنسانية واحدة يظللها «السلام»، وأنه لا بد من السعى للوصول إلى هذه الوحدة التى لا تلغى خصوصيات وفضائل التنوع والتعدد الثقافى والاجتماعى الذى تمثله الأمم والشعوب داخلها.

إن «الوحدة العالمية» من منظور إسلامى لا تقوم على أساس اقتصادى أو سياسى أو دينى بالمعنى الضيق لكلمة دين، وإنما تقوم على أصول اجتماعية مغروسة فى فطرة الإنسان، وأهمها: الآدمية والمساواة: الآدمية التى تنسب البشر جميعاً إلى أب واحد، وأم واحدة (آدم وحواء)، والمساواة التى تعنى أن كل إنسان يقف على قدم المساواة مع أخيه الإنسان بغض النظر عن اختلاف الوطن، أو العرق، أو المذهب.

تلك هى الأصول العامة التى يأمر الإسلام أتباعه أن يبنوا عليها رؤيتهم للعالم، ويمكننا أن نوجزها فى أربع كلمات هى: عالمية الرسالة، والوحدة العالمية، والأخوة الإنسانية، والمساواة بين جميع البشر.

٤- أما بالنسبة لعلاقات المسلمين بغيرهم وبرؤيتهم للآخر المغاير لهم؛ فالأصل فيها هو السلام، والحرب حالة استثنائية هدفها

استعادة السلام. ويجب إنهاء الحرب في أقرب فرصة وبأقل كلفة. وثمة مجموعة من الأسس المنظمة لتلك العلاقة ومن أهمها:

الدعوة للتعارف، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣).

والتعارف لا يكون من جانب واحد، وهو يتضمن الاعتراف المتبادل، وإقرار التعددية الاجتماعية، والدينية، والثقافية، وهو ما نطلق عليه بلغتنا المعاصرة «الحوار» والاعتراف بالآخر.

التعاون، في كافة مجالات الحياة من أجل سعادة البشرية وخيرها، وتبادل المنافع والتعايش الحضاري الخلاق، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

(المائدة: ٢).

السلام، وهو اسم من أسماء الله الحسنى؛ وأصل كبير من الأصول التي دعا إليها الإسلام لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، والوصول إلى «السلام» -أيضًا- هو غاية من غايات الدعوة الإسلامية، أما الحرب فلم تشرع في الإسلام إلا لرد العدوان.

التسامح، وإعلاء الكرامة الإنسانية وصيانتها، فالإسلام يأمر أتباعه بأن يعاملوا غيرهم على أساس أنهم أخوة في الإنسانية. ولا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

الوفاء بالعقود والمعاهدات، وهذه قاعدة عامة أمر بها الإسلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

(المائدة: ١).

ولا تقتصر هذه القاعدة فقط على الجوانب القانونية، وإنما تمتد لتصبح أداة من أدوات بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون على المستوى العالمي فضلاً عن المستويات المحلية والإقليمية.

● إن النظرة المتفحصة في أصول الرؤية الإسلامية للعالم، وفي تلك الأسس التي تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، تكشف لنا عن منظومة متكاملة من القيم الرفيعة، وإنها ليست قيمًا «إسلامية» فقط، بل إنسانية عامة كذلك تجد جذورها في عمق الفطرة البشرية، ولذلك فنحن لا ندعي أنها فقط إسلامية، بل نرى أنها من مكونات التراث الحضاري العالمي، وأنها من أعظم القواسم المشتركة بين الشعوب والأمم كافة، وليس فقط بين العالم الإسلامي مثلا والغرب، ولذلك فيجب أن يتعاون الجميع من أجل إقرارها والعمل بمقتضاها.

● إذا انتقلنا من مستوى الأصول المعرفية والأسس النظرية -التي تحكم النظرة الإسلامية للعالم- إلى مستوى الواقع والممارسات الفعلية التي تجري من خلالها العلاقات بين الأمم والشعوب على مختلف المستويات سنجد أن ثمة فجوة كبيرة تفصل هذا الواقع عن تلك القيم الإسلامية-الإنسانية، التي تحدثنا عنها.

إن وجود فجوة بين «الواقع والمثال» أو بين «النص والممارسة» أمر طبيعي إذا كانت تلك الفجوة في حدود معقولة ومقبولة، أما الفجوة

التي نتحدث عنها هنا فهي كبيرة جداً، وآخذة في الاتساع؛ الأمر الذي يزيد الأوضاع العالمية اختلالاً من منظورنا الإسلامي.

فبدلاً من أن يتم توظيف الثورة الهائلة في نظم الاتصالات ونقل المعلومات في تعميق التعارف بين الشعوب والأمم، نجد أن هناك عدم اكتراث بهذا الأمر، وغالبا ما يتم تسخير هذا «التقدم» في خدمة أغراض سياسية، ومصالح أنانية، وفرض المعرفة بطرف وتجاهل التعرف على الأطراف الأخرى من الشعوب والأمم.

وعوضا عن تنمية علاقات التعاون وتبادل المنافع بالقسط والعدل، ولا زالت أشكال الاستغلال ونزعات الاحتكار والاستئثار هي الغالبة؛ نشهدها على مستويات مختلفة عالمية بين الشمال والجنوب، وإقليمية بين القوى والضعيف، ومحلية بين الغني والفقير. هناك على سبيل المثال في جنوب شرق آسيا والباسفيك يوجد في الهند وحدها ثلث الأطفال تحت سن الخامسة يعانون سوء التغذية **Malnutrition** على مستوى العالم، ٢٤٠ مليون إنسان يعيشون تحت خط الفقر في الهند وحدها أيضًا، أي أن متوسط دخل الفرد من هؤلاء الفقراء أقل من ٣٠ دولاراً في الشهر. وهذا الرقم من إجمالي ١,٢ مليار شخص حول العالم يقل دخل الواحد منهم عن دولار واحد في اليوم وفي ذات الوقت، يتمتع أغنى ٢٠٠ شخص في العالم بثروة يتجاوز مجموعها الألف مليار دولار بحسب تقرير الأمم المتحدة حول التنمية البشرية في العالم.

وبدلاً من أن ينعم العالم بالسلام والأمن والتسامح؛ نجد الحروب مشتعلة، والصراعات متفجرة، والمنازعات الدولية والإقليمية محتدمة؛ تغذيها نزعات أنانية، وانقسامات عرقية ودينية، وطموحات سياسية لا تنتمي إلى عصرنا الراهن وإنما لعصور بائدة، كما تغذيها نزعات للسيطرة والهيمنة الثقافية تحت شعارات متعددة من قبيل النظام العالمي الجديد والعولمة؛ والتي هي ليست أكثر من اتجاه نحو نوع من الاختزال الثقافي وفرض هيمنة القوى على الضعيف.

أما بخصوص مبدأ الوفاء بالعقود والمعاهدات، والاستفادة من ذلك في بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون، فالفجوة هائلة بين المبدأ والتطبيق، وقد شهد عالمنا طيلة هذا القرن -ولا يزال يشهد- كثيرًا من الانتهاكات، والنكث بالعهود، والمواثيق، بدافع من شهوة عدوانية، أو ممارسة لغطرسة القوة.

● بنظرة سريعة على أوضاع العلاقات المتبادلة بين العالم الإسلامي والغرب في التاريخ المعاصر، نجد أنه في إطار الجدل الدائر حاليًا حول أهمية «الإسلام» كعامل أساسي في إمكانية حدوث التوافق -أو الصدام- بين عالمنا الإسلامي وأوروبا والغرب بصفة عامة، فإنه لا بد من تجاوز الأسباب التاريخية التي أدت في السابق إلى المآسي، وجرت إلى الحروب والمنازعات المتبادلة، وذلك لأننا نرى -كمسلمين- أن التحولات العالمية التي اجتاحت كافة المجالات العلمية والسياسية والفكرية، وأسقطت كثيرًا من البنى التقليدية وأدت إلى تراجع مفاهيم كثيرة تنتمي إلى الماضي؛

كل ذلك يعني أنه يجب أن تتجدد العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، على نحو يدفع هذه التحولات العالمية نحو مزيد من الارتقاء بالإنسان وبالقيم النبيلة، وبتحسين نوعية الحياة لكافة الشعوب والأمم.

إن قيم الإسلام ومبادئه تحض - كما سبق أن ذكرنا - على المضي في إقامة علاقات السلام، والتعاون، وتبادل المنافع، والعمل لخير الإنسانية، وبناء ثقافة عالمية أساسها الاحترام المتبادل، وهناك في الواقع ما يدعو إلى هذا الاتجاه وما يؤيده في الوقت نفسه: هناك مشروعات ومبادرات فكرية وثقافية صدرت عن جهات رفيعة المستوى في الغرب تخدم الاتجاه الذي نؤمن به، ومن ذلك حديث ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في مركز الدراسات الإسلامية بجامعة إكسفورد قبل عدة سنوات، والمؤتمر الذي نظمه المعهد الملكي للشئون الدولية بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على تأسيسه، ومبادرة حكومة السويد عام ١٩٩٥م، لتهيئة فرصة للحوار بين أوروبا والعالم الإسلامي، إضافة إلى آراء ومواقف عديد من المفكرين والباحثين والمؤسسات الأكاديمية.

● هناك - كذلك - المصالح الاقتصادية والسياسية المتبادلة، فالبلدان الإسلامية مصدر رئيسي من مصادر الثروة التي لا يستغني عنها الغرب كالبترول والمواد الأولية التي تعتمد عليها الصناعات الغربية، وكمثال على ذلك نجد أن السوق الأوروبية المشتركة هي شريك أساسي لمجلس تعاون دول الخليج العربي؛ إذ يصدر إليها المجلس حوالي ٢٢٪ من جملة صادراته من النفط والمنتجات البتروكيماوية، ويستثمر لديها ما يفيض عنه من بترودولارات، ويستورد منها نسبة كبيرة من منتجاتها من السلع والخدمات بما يقدر بحوالي ١٥ مليار دولار سنوياً، وفي دول المجلس تعمل أكثر من ٤٠٠ شركة أوروبية في مختلف المجالات الاستثمارية والإنتاجية والخدمية، هذا فضلاً عن كثير من أوجه التعاون والمصالح المشتركة في المجالات السياسية، والثقافية، والبعثات التعليمية، التي تحتل فيها بريطانيا مكانة متميزة مع دول مجلس التعاون بصفة عامة، ومع دولة الكويت بصفة خاصة، واسمحوا لي أن أشير هنا إلى علاقة التعاون البناءة بين وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت وبين بعض المؤسسات الخيرية والتطوعية في بريطانيا، فضلا عن دعمها لعديد من البعثات العلمية والطلبة بالدراسات العليا بعدد من الجامعات البريطانية.

● بالنسبة للتصورات والاجتهادات والحوارات الدائرة بين مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية المعاصرة والمتعلقة «بمستقبل العالم» بصفة عامة، نلاحظ أنها إما تصب في خانة التشاؤم، أو في خانة التفاؤل، ونحن نعتقد أن الإسلام يمدنا برؤية شديدة التفاؤل بمستقبل أفضل للبشرية، فهو من ناحية يتضمن إدانة ودحضاً لكافة أطروحات الانقسام، والعنف، والقبح، والظلم وكل ما يؤدي إلى شقاء الإنسان، ومن ناحية أخرى يتضمن دعوة ملحة وصريحة لاحترام كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، ولمد جسور التعارف والتعاون والمحبة والسلام والأمن والرخاء والحرية، والعدالة لبني البشر جميعاً،

وفيما بينهم.

لنأخذ - مثلاً - فكرة «صدام الحضارات» التي يطرحها البعض كحدث قادم في مستقبل النظام العالمي؛ إن هذه الفكرة من منظورنا الإسلامي لا تخدم السعي المشترك نحو مستقبل أفضل للبشرية، إنها - في حقيقة الأمر - تعبير عن أن الغرب في حضارته المعاصرة ليست لديه سوى قابلية محدودة للتعامل مع القيم الإنسانية «الجماعية»، وليست لديه قابلية للاعتراف بحقائق «التعددية الثقافية»، ولا هو مقتنع بثراء تلك القيم والحقائق وفائدتها في بناء مستقبل أفضل للعالم، ومن حسن الحظ أن هناك من يطرح - في المقابل - فكرة «حوار الحضارات»، «وتعايش الثقافات».

ولعل من الأسئلة الكبرى التي تستحق مزيداً من الجهد والتعاون للإجابة عليها هو: كيف يمكن إيجاد أرضية صلبة يقف عليها الحوار بين مختلف الثقافات والحضارات في العالم بصفة عامة، وبين العالم الإسلامي والغرب بصفة خاصة؟ وكيف نضمن لهذا الحوار أن يسهم في إيجاد مساحة جديدة للتعايش الحضاري الخلاق؟.

● إن هذا التحدي يتطلب جهوداً مكثفة ومخلصة من كافة الأطراف، وعلى كافة المستويات ابتداء من أن يكف الإعلام الغربي عن رسم «إسلام كاريكاتوري» لا صلة له بالإسلام الحقيقي، وأن نؤكد نحن في العالم الإسلامي على عالمية الإسلام، وقيمه الخاصة بالعدالة والتراحم، والتسامح، وصولاً إلى وضع استراتيجيات جماعية، وتصورات مستقبلية للانطلاق بها نحو القرن المقبل في إطار فكري يعتمد على الحوار والتعددية، والنقد البناء، والقبول بالآخر من أجل اكتشاف المبادئ الحضارية المشتركة بين بني الإنسان أينما كانوا في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب.

إن الخطوات نحو مستقبل أفضل لا بد أن تمر - من منظورنا الإسلامي - ببلورة القيم الإنسانية المشتركة، والإقرار بالتعددية الثقافية والدينية، والتعاون على إزالة مصادر الصراع، والقضاء على أسباب التوتر والعنف واختلال أوضاع السلم والعدالة، ولابد أن تقوم - كذلك - على بناء ثقافة عالمية مشتركة، وبعيدة عن هيمنة القوة العارية من الأخلاق.

إن الإسلام يضع السلام أولا في ضمير الفرد، ثم في محيط الأسرة، ثم في وسط الجماعة، وأخيراً يضعه في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب، إنه ينشد السلام في علاقة الفرد بربه وفي علاقة الفرد بنفسه وفي علاقة الفرد بالجماعة، ثم ينشده في علاقة الطائفة بالطوائف، وعلاقة الأفراد بالحكومة، ثم ينشده في علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات، وإنه ليسير في تحقيق هذه الغاية الأخيرة في طريق طويل يعبر فيه من سلام الضمير إلى سلام البيت، إلى سلام المجتمع، إلى سلام العالم في نهاية المطاف.

وأخيراً فإن «الإسلام» بشرى للعالمين، وهو يعلمنا أنه بوسعنا - دوماً - أن نتشاور ونتحاور مع الآخرين من أجل اكتشاف الحقول المشتركة بيننا، ومن أجل تحقيق إدراكنا للمثل العليا، ومن أجل الإسهام في إعمار الأرض، وإسعاد الناس، وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

مخطوطات تربوية:

كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون (٢٠٢-٢٥٦هـ)



أ.د. سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

"تمهين" عملية التعليم

شكّل حَملة القرآن الكريم، الرعيل الأول من المعلمين المسلمين، حيث كان رسول الله ﷺ يكلف بعض الصحابة بالذهاب إلى بعض المناطق، وخاصة البعيد منها، كى يُقرئوا الذين اهتدوا إلى الإسلام، كتاب الله عز وجل، ومن ثم يتيحون لهم فرصة تعلم، من خلاله، عقائد الإسلام وشريعته، وأصول وقواعد التعامل بين الناس بعضهم بعضا.

وكانت عمليتا التعلم والتعليم تتمان وفق الفطرة، وجريا على سنة المحاكاة والتقليد، والأعراف الجارية وما يصل إليه اجتهاد كل من قام بهما.

وكان أبرز من دخل ساحة التعليم، ممارسة لمهمة التعليم، بعد ذلك، فريق الفقهاء، ولا غرابة فى ذلك، فالحاجة لدى المسلمين كانت ماسة لتعرف دينهم، بكل ما فيه وما يدعو إليه، وخاصة فيما يقابلونه من مشكلات، يجهلون الرأى الحكيم فيها، وحكم الدين، وهؤلاء المعلمون لم يقتصر الأمر لديهم على حفظ كتاب الله عز وجل، بل راحوا يستنبطون منه الأحكام، ويستقرئون وقائع الحياة الإسلامية، ليطابقوا بين هذا وذاك.

ومع هذا فقد ظلت مهمة التعليم تقوم وفق اجتهادات كل من يقوم به، دون التزام بقواعد عامة، وأصول كلية، حيث لم يكن قد تم التفكير فى أمر مثل هذا.

وما أن انقضى القرن الثانى الهجرى، حيث بدأ نهر المعرفة الإسلامية يغزر، عددا ونوعا، ويكثر المتصدرون لمهمة التعليم، بدأ التفكير لأول مرة فى أن تتجاوز هذه المهمة مرحلة التقليد والمحاكاة، والاعتماد على الأعراف السائدة وحدها، حيث اقتضى الأمر "تمهين" هذه المهمة، وذلك بوضع مجموعة من المبادئ والقواعد التى ترسى ما ينبغى أن تكون عليه عملية التعليم، وما يجب أن يفعله القائم بها، وما ينبغى أن تكون عليه أخلاقه، حيث وضح للرواد الأوائل أن المسألة ليست مجرد كم من المعلومات، يُراد نقلها إلى المتعلم، بل يترافق مع هذا مجموعة قواعد ومبادئ لابد أن يتسم بها سلوك القائم بأمر التعليم.

من هنا تجئ أهمية هذا الكتاب الذى بين أيدينا (كتاب آداب المعلمين) الذى يعد عملا رائدا بكل معنى الكلمة فى عالم الفكر التربوى، وضعه، أحد فقهاء المذهب المالكى، فى القيروان، وهو "محمد بن سحنون".

وأن يكون العمل الرائد فى الفكر التربوى الإسلامى كتاب عن "المعلمين" فهذا يحمل فى طياته وعيا مبكرا بتلك القضية الأساسية فى عالم التعليم؛ من حيث النظر إلى المعلم باعتباره المحور الأساسى لعمليتى التعلم والتعليم، فهو الذى يحدد محتوى التعليم، وطريقة تعليمه، وهو الذى يقوم بنقل هذا المحتوى إلى الطلاب، فضلا عن مسئوليته عن كل ما يتصل بهؤلاء الطلاب أثناء طلبهم للعلم فى المكان المخصص لذلك. بل وكان المعلم فى هذا الزمن المبكر هو القائم بالإدارة، وتحديد الأهداف والوظائف، والقواعد الواجب الالتزام بها.

السياق المجتمعى

كان فتح عمرو بن العاص لمصر هو بداية انتشار الإسلام فى إفريقيا، ولم يكتف عمرو بفتح مصر، بل استطاع عام ٢٢هـ أن يبدأ فى فتح ليبيا، لكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يشجع على استكمال سلسلة الفتوح إلى بلدان إفريقيا، حتى ولى مصر "عبد الله بن أبى سرح"، فى خلافة عثمان ابن عفان، فتقدم ليواصل الفتح ربما فى عام ٢٨، أو ٢٩ للهجرة.

لكن ذروة الفتوح كانت فى عهد عبد الملك بن مروان، الذى كلف حسان بن النعمان الغسانى بغزو إفريقية، حيث دانت بعد ذلك إفريقية للمسلمين.

وكانت مدينة القيروان هى أبرز ما فتح المسلمون، واسم "القيروان" اسم فارسى تم تعريبه، حيث عنى "كاروان" بالفارسية، ومعناه: محط القافلة، وموضع اجتماع الناس فى الحرب، وأصبحت القيروان درة شمال إفريقية الإسلامية (كتاب آداب المعلمين، لابن سحنون، ص٢٧).

وقد سعد شمال إفريقية بزحود عدد وافر من الصحابة والتابعين الذين استقروا فى عدد من مدنها، حيث قام هؤلاء الرواد بجهود ملحوظة من أجل تعليم سكان هذه المناطق أصول الإسلام وقواعده ومبادئه، وكذلك اللغة العربية التى لم تكن لغتهم، من خلال كتاب الله عز وجل، وبالتالى مثل هذا الرعيل الأول، ذروة المعلمين وأبرزهم لتربية أهل المغرب تربية إسلامية أصيلة.

ويذكر "محمود عبد المولى" أن "أسد ابن الفرات" هو أول من نشر المذهب المالكى فى عاصمة الأغالبة معتمدا على موطأ مالك، كما رواه عنه، ويعتبر أول من وضع قواعد المدرسة المالكية، وكان كتابه: الأسدية، مرجع الدارسين لمذهب

الإمام مالك في المغرب إلى أن وضع الإمام "سحنون" كتابه الشهير "بالعمدة" وفرضه على فقهاء إفريقية، وخاصة القيروان، حيث نشأ مؤلف كتاب آداب المعلمين.

المؤلف

هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، المعروف بـ" محمد بن سحنون" ابن الفقيه المالكي "سحنون بن سحنون بن ربيعة التنوخي" (١٦٠-٢٤٠هـ).

وقد ولد بالقيروان عام ٢٠٢، وانتقل إلى رحمة الله في ٢٥٦هـ.

وإذا كان مؤلفنا قد تعلم على يد أبيه، إلا أنه بلغ مبلغا ذا شأن في المعرفة الدينية، مما أتاح له فرصة مناظرة أبيه، كما كان يمارس مهمة التعليم في حياة أبيه، من فرط الثقة في قدرته على التعلم والتعليم، ووضوح ذكائه، ومهارته في الفهم والاستنباط والتحليل، فضلا عن مهارة التبسيط لمن يقوم بتعليمهم.

وكان من عادة علماء المغرب أن ينتهزوا فرصة سفرهم إلى الأراضي الحجازية لتأدية فريضة الحج لينهلوا من علم علماء كل من مكة المكرمة، والمدينة، وكذلك إذ يمرون بمصر، يقبسون كذلك من علوم علمائها الشيء الكثير، ليعودوا إلى بلادهم وقد زادت لديهم الثروة المعرفية الإسلامية، التي لم يبخلوا بدورهم على أهل إفريقية في أن يفيضوا بها عليهم.

ومما رواه المحقق مما له دلالة واضحة على علو كعب محمد بن سحنون في المعرفة الإسلامية، أن صحبه مرة في رحلته إلى الحج رجل يعرف بأبي الفضل ابن حميد، وكان يتعلم منه الفقه، وعلم الكلام، لكنه لم يكن على قدر طيب من مهارة الجدل والحوار، وآية ذلك أنه كان قد خرج مرة يقصد الحج، فمر بمصر، وعندما دخل يوم حماما يديره يهودي، أراد أن يناظر اليهودي بعد فراغه، لكن اليهودي غلبه في المناظرة، مما سبب له حرجا شديدا.

فلما صحب مرة أخرى مؤلفنا، ابن سحنون، إلى الحج، أراد أن يُصدره لمناظرة اليهودي، حيث بدأ هو أولا بالاشتباك مع اليهودي، الذي وضح للمرة الثانية تفوقه على أبي الفضل، وكان ذلك أثناء خروج ابن سحنون، فاشتبك معه في المناظرة، عدة مرات بعد صلوات الظهر والعصر والمغرب.

وجذبت المناظرة جمعا غفيرا من الناس، وكأن المناظرة مجموعة جولات تشبه تلك الجولات التي نشهدها في حلبات المصارعة والملاكمة، حيث انتهت بفوز ابن سحنون. حتى لقد نطق اليهودي أمام الناس بشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، مما أذاع اسم ابن سحنون بين المصريين، مصحوبا بكثير من التقدير والإجلال.

وعرف ابن سحنون بإنفاق معظم وقته في القراءة والتأليف، حتى لقد بلغت مصنفاته عددا كبيرا، كما يتضح لنا من القائمة التالية:

١- كتاب "الجامع"، وكان أشبه بموسوعة شاملة للمعرفة السائدة في عصره.
٢- "المسند" في الحديث.
٣- تحريم المسكر.

٤- "الإمامة".
٥- "الجهاد".
٦- تفسير الموطأ.
٧- الرد على أهل البدع.
٨- كتاب "التاريخ".
٩- طبقات العلماء.
١٠- كتاب الأشربة وغريب الحديث.
١١- كتاب الإيمان والرد على أهل الشرك.
١٢- الحجة على القدرية.
١٣- الحجة على النصارى.
١٤- الرد على الفكرية.
١٥- ما يجب على المتناظرين من حسن الأدب.... إلخ.

وبعض هذه الكتب كان من عدة أجزاء.

المحقق

وقام بتحقيق كتاب ابن سحنون، الدكتور محمود عبد المولى عام ١٩٦٩م، حيث يستطيع القارئ أن يلمس مدى الجهد الطيب الذي بذله، والدقة الملحوظة في التحقيق لمثل هذا الأثر العلمي المتميز، والمعرفة الوفيرة بكثير مما يتصل بالكتاب ومؤلفه، وعصره، والبيئة التي نشأ فيها. وقد نشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر.

منهج التحقيق

وقد ثبت لدى المحقق أن النسخة الخطية الأولى لكتاب آداب المعلمين التي اعتمدها في عملية التحقيق، هي نفسها التي حققها ونشرها لأول مرة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، في تونس عام ١٣٤٨هـ.

وقد قام الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في مصر بإلحاق النسخة التي حققها حسن حسني، برسالته التي قام بها عن التعليم في رأي القابسي، للحصول على الدكتوراه من آداب القاهرة، بإشراف الشيخ مصطفى عبد الرازق، أواسط الأربعينيات على وجه التقريب.

ولابد أن يثور تساؤل عن جدوى إعادة تحقيق الكتاب مرة أخرى، إذا كان هناك من سبق إلى هذا.

يقدم لنا الدكتور عبد المولى تبريرا مقنعا للإجابة عن هذا التساؤل المهم، يتبدى لنا من خلال نقاط أبرزها(ص١٥):

١- أن دراسة عبد المولى النقدية حول كتاب ابن سحنون لم تمثل تكرارا للجهد الذي قام به الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، حيث نلاحظ أن محققنا هنا كانت له طريقة خاصة، وأسلوب خاص، اتبعهما لإنجاز هذا العمل العلمي.

٢- المستقرئ لتحقيق عبد المولى يمكن له أن ينتبه إلى بعض أوجه النقص في تحقيق عبد الوهاب، مما أثبته محققنا في الهوامش.

٣- أكد عبد المولى أن عبد الوهاب، كان أحيانا ما لا يهتم بالإشارة إلى المراجع والمصادر، وإحالة القارئ عليها، كما تقضي بذلك قواعد البحث العلمي.

٤- ولعل أخطر ما أشار إليه عبد المولى في مبرره الرابع أن عبد الوهاب، إما أنه لم يتمكن من القيام بالتحري الكامل في عمليتي النسخ والتحقيق للمخطوطة المذكورة، وإما أنه أوكل التحقيق، أو

النسخ، على الأقل إلى شخص آخر.

لكن عبد المولى يعترف بأنه استفاد من جهود عبد الوهاب، وخاصة فيما يتعلق ببعض التراجم الخاصة بالأعلام والأشخاص التى ورد ذكرها فى الكتاب الأصلى.

وفضلا عن ذلك فقد حرص المحقق على أن يشرح بعض المفردات اللغوية التى يستعصى فهمها.

كما أرجع كل آية من آيات القرآن الكريم إلى سورتها، وتحديد رقمها فى السورة.

وبالنسبة للأحاديث النبوية، فقد حرص المحقق كذلك على تقصى رواية كل حديث ورد ذكره، والإشارة إلى المصدر الذى يحويه.

كذلك اهتم المحقق بعمل فهارس لكل من الأعلام، والبلدان، والأماكن، سواء أكانت بالنص الأصلى للكتاب المحقق أم ما جاء بهوامش المحقق نفسه.

قيمة الكتاب

فى رسالة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى سابق الإشارة إليها، وهى من الرسائل الرائدة فى التربية الإسلامية، يشير إلى كتاب ابن سحنون قائلا: "إن كتاب آداب المعلمين من الرسائل النادرة فى التربية...".

وإذا كان الأهوانى قد أدار رسالته عن إمام آخر من أئمة الفقه فى بلاد المغرب، وهو "القابسى"، وإذا كان قد قرر أن حجم رسالة ابن سحنون يصل حجمها ربع كتاب القابسى، إلا أنه يقرر فى الوقت نفسه: "اعتمد عليه القابسى كثيرا، ونقل عنه واسترشد به، وترسم خطاه".

بل وصل الأمر بالأهوانى أن يعترف، بعد المقارنة بين الكتابين، من حيث المحتوى، أن ما نقله القابسى عن ابن سحنون: "يكاد يكون بلفظه فى بعض المواضع، وباختلاف يسير فى مواضع أخرى".

وأكد رائد آخر من الذين أسسوا للتربية الإسلامية فى العصر الحديث، وهو الدكتور محمد أسعد طلس، فى رسالته لدرجة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس، والتى نشرت عام ١٩٥٧م، وإن كان منظوره لمثل هذه الجهود "عربيا" وليس "إسلاميا"، إن كتاب ابن سحنون، يعتبر "أقدم كتب التربية العربية"، منبها إلى أن الكتاب فى جملته يضم عددا من القواعد الأولية التى كان العرب والمسلمون بصورة عامة يتبعونها فى تعليم أولادهم منذ فجر الإسلام حتى أواسط القرن الثالث للهجرة، وهو قول تعوزه بعض الدقة، إذ لم يكن ابن سحنون فى الحقيقة مجرد راصد لما كان يجرى تربويا، لكنه إذ وضع ما يجرى فى اعتباره، حرص على التأكيد على "ما ينبغى أن يكون"، من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ، وهو ما سوف نكشف عنه، فى النقاط والقضايا التالية.

فضل تعلم القرآن الكريم

لأن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأصل الرئيسى لسلوك المسلمين وتفكيرهم وعقائدهم، كان اهتمام ابن سحنون، منذ صفحات رسالته الأولى، بالتأكيد على ضرورة تعلم وتعليم كتاب الله، وفى هذا الشأن تظهر براعته فى رواية الحديث، وخاصة عن أبيه سحنون، ومن ذلك ما نقله مما هو منسوب لعثمان

بن عفان - رضى الله عنه - نقله عن رسول الله ﷺ قوله: "أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه" -رواه البخارى.

ونلاحظ من هذا الحديث أن رسول الله لا يقتصر على الحث على "تعلم" القرآن الكريم، بل يحث كذلك على "تعليمه"، ويضع من يفعل هذا وذاك فى منزلة أعلى بين المسلمين، مع الأخذ بعين الاعتبار، من خلال مواقف وأحاديث أخرى، أن مسألتى التعلم والتعليم ليستا مجرد حفظ كلمات وآيات فى العقول والصدور، وإنما تزيد على ذلك بإنزالها منزل التطبيق والممارسة، استنادا إلى تعريف الإيمان الإسلامى بأنه يعنى ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

وفى رواية أخرى لحديث آخر، منقول عن طريق على بن أبى طالب -رضى الله عنه- قوله: أن رسول الله ﷺ قال: "يرفع الله بالقرآن أقواما"، رواه مسلم وابن ماجة.

وهذا الحديث يؤكد ما جاء فى سابقه، فكون المسلم الذى يتعلم القرآن ويُعلمه غيره، "أفضل" الناس، فمعناه بالضرورة احتلاله موقعا أعلى فى التقدير والإثابة.

ويزيد رسول الله ﷺ حثا على تعليم القرآن وتعلمه، بما هو أكثر تأكيدا، بقوله، فيما نقل عن أنس بن مالك: "إن لله أهلين من الناس. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم حملة القرآن، هم أهل الله وخاصته"، رواه النسائى، وابن ماجة، وابن حنبل فى مسنده.

فأى منزلة، وأى قدر، يمكن أن يكون لإنسان، مثل أن يُعد من "أهل الله وخاصته؟".

ومثل هذه الأحاديث تكشف عن بصيرة تربوية نافذة لرسول الله ﷺ فى إبرازه لدور "الإثابة" فى التعليم والتعلم، مما أكدته بحوث وتجارب أكثر من أن تعد وتحصى فى الدراسات النفسية والتربوية، حيث يكون التعلم أكثر تحقيقا للهدف، كلما ارتبط بإثابة يتمناها كل من المعلم والمتعلم.

ومعلم ومتعلم القرآن إذ يفعل ما يفعله أملا فى مثل هذه الإثابة، يدرك فى الوقت ذاته، أن هناك فوائد أخرى كثيرة، تأتيه تباعا فى حركة سلوكه مع نفسه ومع الناس، من استقامة سلوك، وخير أفعال، وطيب سيرة.

ولا تقف بصيرة رسول الله عند حد مبدأ الإثابة فى تيسير التعلم والتعليم، بل يمتد إلى مبدأ تربوى ونفسى آخر، هو البصر بالفترة الزمنية الأكثر ملاءمة لتعلم وتعليم القرآن، حيث يشير إلى أن فترة الصبا والشباب، هي الأنسب، بينما فترة الشيبة أقل، وإن اضطر إليها مسلم، فإنها تحتاج جهدا مضاعفا، فضلا عن التعرض أكثر للنسيان، وهو فى هذا يقول، فيما نقله أبو هريرة: "من تعلم القرآن فى شبيبته، اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه فى كبره، وهو يتفلت منه، ولا يتركه، فله أجره مرتين" -رواه مسلم.

فها هنا يبرز مبدأ الإثابة على قدر الجهد، فلأن كبير السن يبذل جهدا أكثر، يكون له أجر مضاعف، وذلك حتى لا يركن كبار السن إلى كبر سنهم، فيهملون تعلم القرآن الكريم. فهو واجب تعلمه وتعليمه، أيا كان عمر الإنسان.

وابن سحنون لا يكتفى بذكر أحاديث رسول الله، وإنما يعزز ذلك بما روى عن

بعض علماء المسلمين وقادتهم، ومن ذلك على سبيل المثال:

– ما تحدث به البعض عن سفيان الثورى، عن علاء بن السائب: قال: قال ابن مسعود: ثلاث لابد للناس منهم: "لابد للناس من أمير يحكم بينهم، ولولا ذلك، لأكل بعضهم بعضا. ولابد للناس من شراء المصاحف وبيعها، ولولا ذلك لقل كتاب الله. ولابد للناس من معلم يعلم أولادهم، ويأخذ علي ذلك أجرا، ولولا ذلك لكان الناس أميين".

– كذلك ثارت مسألة أخذ الأجر عن تعليم القرآن، فى هذا العهد المبكر للإسلام، فعن وهب، عن حفص بن عمر أن سعد بن أبى وقاص قدم برجل من العراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة، ويعطونه الأجر. قال ابن أبى وهب: قال مالك: "لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن، وإن اشترط شيئا كان له حلالا جائزا...".

العدل بين المتعلمين

والمتعلمون هنا عند ابن سحنون، هم "الصبيان"، حيث نلاحظ فى صفحات رسالته كلها أن التعلم والتعليم المُتَحَدث عنهما، هما شأن يخص "الصبيان"، دون البنات. ولا ينبغى أن نسارع فى شجب هذا الموقف، واتهام الرجل بالتخلف التربوى لإغفاله تعليم البنات، لأن هذه القضية لم تكن مما هو مطروح فى هذا الزمان، حيث إن أوضاع المرأة نفسها لم تشكل طلبا على التعلم.

ومن ناحية أخرى، يستحق ابن سحنون أن نسجل له كل التقدير لإعطائه قضية "العدل التربوى" صدارة ضمن جملة ما رآه من آداب يجب الالتزام بها تجاه المتعلمين، وابن سحنون فى هذا يستند إلى بعض الآثار الإسلامية المهمة، فمن ذلك ما هو منسوب لأنس بن مالك، وإن نسبه البعض إلى رسول الله ﷺ، يقول فيه: "أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة، فلم يعلمهم بالسوية، فقيرهم مع غنيهم، وغنيهم مع فقيرهم، حشر يوم القيامة مع الخائنين".

الرفق بالمتعلمين

وهذا "أدب" آخر لابد أن يتأدب به المعلمون، وفى هذا روى ابن سحنون نقلا عن سيف بن محمد، قوله عما سمعه مرة أثناء جلوسه عند سعد الخفّاف، فجاءه ابنه يبكى، فقال: يا بنى: ما يبكيك؟ قال "ضربنى المعلم. قال: أما والله لأحدثنكم اليوم، حيث حدثه عكرمة، عن ابن عباس راويا عن رسول الله ﷺ قوله: "شرار أمتى، معلمو صبيانهم، أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين".

لكن ابن سحنون يبادر إلى نفى ما قد يفهمه البعض من هذا من تحريم ضرب التلاميذ والأبناء، حيث نبه إلى أن المذموم هنا هو أن يضربهم إذا غضب، وليس على منافعهم، لكن لا بأس أن يضربهم على منافعهم، ولا يأذن بالأدب ثلاثا إلا أن يأذن الأب، إذا آذى أحدا. فلما سئل لماذا هذا التحديد؟ أجاب، نقلا عن رسول الله ﷺ قوله: "لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا فى حد"، رواه البخارى ومسلم، وأحمد والبيهقى. وعن بعض المالكية أن مؤدب الصبيان لا يزيد على ثلاثة، فإن زيد

اقتص منه.

ختم القرآن الكريم

كان الانتهاء من حفظ القرآن الكريم، يمثل مناسبة مهمة، تشيع حالة من الرضا النفسى والاطمئنان القلبى، مما كان الحافظ له مستحقا الاحتفاء به. ومن هنا اهتم ابن سحنون وغيره من مؤلفى كتب التربية الإسلامية الرواد، بالحديث فى هذه القضية، وكأنها تماثل ما يحدث فى معاهد التعليم الحديثة من إقامة الاحتفالات للخريجين، بعد انتهاء دراساتهم.

وهنا اشترط ابن سحنون أن يكون الختم للقرآن كله، لا نصفه، ولا ثلثه ولا ربعه، إلا أن يتطوعوا بذلك.

وهنا برزت قضية مهمة، لها وجود فى عصرنا الحاضر، ألا وهى ما قد يقدمه الطلاب من هدايا إلى المعلم، فعندما سئل ابن سحنون فى ذلك فكانت إجابته، ألا يكون ذلك مطلقا، وإنما فقط "فى الختم ونحوه، وفى الأعياد".

وألمح الرجل إلى أن هذه القضية كانت سببا فى جرح قيمة شهادة المعلمين، نظرا لما يحدث فى هذا الشأن من تجاوزات.

وأكد ابن سحنون عدم جواز القضاء بعطية العيد، إلا أن يتطوعوا بها، ولو عاش ابن سحنون زماننا الراهن، لحرّم هذا بالكلية، حيث أن "التطوع" تحول إلى نفاق وتملق، فضلا عن تحوله فى أحوال أخرى إلى ما يشبه "العادة الواجبة"! التى يمكن أن يكون لها أثر سلبى أو إيجابى قياسا إلى وجودها من عدمه– فى نتيجة امتحان الطالب.

وابن سحنون فى هذا يشير إلى ما يتلقاه المعلم من أجر، من حيث عدم جواز أن يأخذ المعلم من تلميذه ما يزيد على ما تم الاتفاق عليه من أجر.

تقدير وقت التعليم

وهو لعمرى من القضايا الملحة فى عصرنا الراهن، حيث ينشغل بعض المعلمين –وخاصة فى الجامعة مع الأسف– عن دروسهم المتفق على أوقاتها، كما أن بعض معلمى التعليم ما قبل الجامعى، يمكن أن يضيعوا بعض الوقت فيما لا صلة له حقيقية بموضوع الدرس، وهو ما أكد ابن سحنون على النهى عنه، من حيث ما كتبه تحت عنوان "ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان".

وفى هذا الشأن أجاز ابن سحنون أن يعلم بعض الصبيان بعضهم بعضا، غير معتبر ذلك تضييعا للوقت، وأثناء ذلك، إذا انشغل بأمر آخر، فلا ينبغى لعينه أن تغفل عن مراقبة التلاميذ للاطمئنان أن عجلة التعلم والتعليم، دائرة على الطريق المقصود.

مواد التعليم والتعلم

وإذا كان التعليم قد تركز أساسا فى أوائل عهد المسلمين، فى القرآن الكريم، وبالتالى كان "الكتاب" هو مؤسسة التعليم البارزة، لكننا نلاحظ أن ابن سحنون أضاف إلى تعليم القرآن الكريم أنساقا معرفية أخرى، وذلك مثل الشعر وتعليم العربية، والقراءة، والنحو. كما ذكر أنه لا بأس من تعليمهم الخطابة، عن طريق استقراء عدد

من الخطب، وفى هذا الشأن رأى أن تعليم الغناء هو أمر "مكروه"، بل إنه استدرك ليقول بضرورة النهى عنه!

وأرشد ابن سحنون إلى شىء من طريقة التعليم المفضلة، فمن ذلك استحسانه ألا ينتقل المتعلم من سورة قرآنية إلى أخرى، حتى يكون قد حفظ الأولى، بل لا يقف عند هذا الحد، ويطالب بمعرفة "إعراب" السورة".

ولأن التعليم لم يكن فى هذه الفترة مجرد اكتساب مجموعة معارف، حتى ولو كانت من خلال تعلم القرآن الكريم، اهتم ابن سحنون بلفت نظر المعلم إلى أن يأمر تلاميذه بالصلاة، إذا كانوا بنى سبع سنوات، كما أمر رسول الله ﷺ، ويضربهم عليها إذا كانوا بنى عشرة، مبررا ذلك بأن هذا "دينهم"، بمعنى أن هذا من أصول الإسلام.

ولا يكون الأمر فقط بالأمر بالصلاة، بل لابد أن يقترن ذلك بالتعليم العملى، بمعنى أن يبين لهم عدد ركعاتها، وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير، وكيفية الجلوس، والإحرام، والسلام، وما يلزمهم فى الصلاة والتشهد، والقنوت فى الصبح.

وطالب ابن سحنون المعلم أن يُعلم تلاميذه الدعاء ليرغبهم إلى الله، ويعرفهم عظمته وجلاله، ليكبروا على ذلك.

وكذلك أوجب مربينا على المعلم أن يعلم تلاميذه سنن الصلاة، مثل ركعتى الفجر والوتر وصلاة العيدين، والاستسقاء والخسوف، حتى يعلمهم دينهم.

علاقة المعلم بتلاميذه

تقوم هذه العلاقة فى نظر مربينا ابن سحنون على أن يبذل المعلم لتلميذه كل ما يكون فى صالحه وصالح تعلمه، ومن ثم فلم يجز للمعلم أن يرسل تلميذا له من أجل تسيير أمر يخصه خارج مكان التعليم.

وقد سئل سحنون عن المعلم: أيأخذ بعين الاعتبار ما يقوله تلميذ على زميله مما هو سىء؟ فكانت الإجابة بالنفى. وفى مقابل ذلك، أوجب أن يُؤدب المعلم تلاميذه، إذا آذى بعضهم بعضا، لكن لا بأس من سماع بعض التلاميذ على ما يفعله زملاؤهم من سوء، إذا كان يعرف عن هؤلاء طيب الخلق، والتمسك بالصدق.

كما أجاز مربينا أن يستأجر الرجل المعلم على أن "يعلم أبناءه بأجرة معلومة"، لفترة يتم الاتفاق عليها، حيث كان أخذ أجرة عن تعليم القرآن أمرًا غير معتاد، لما هو واجب على كل مسلم أن يفيض بما يعلم من كتاب الله على غيره ممن لا يعلمون، وهو فى هذا يستند إلى أن رسول الله ﷺ كان يفادى بالرجل يعلم الخط.

وفى النهاية، قد يرى بعض المحدثين أن ما قدمه ابن سحنون من أفكار وآراء تربوية، هى مما يقع فى دائرة الأمور بسيطة المستوى، لكننا إذا قسناها بما كان عليه المستوى المعرفى التربوى فى هذا الزمن البعيد، أوائل القرن الثالث الهجرى، لقدرناها حق قدرها، وتيقنا أن الرجل قد وضع لبنة تأسيس لتربية إسلامية، يظل من أتى بعده جهده فى استكمالها وتطويرها، وفقا لما تحرزه المستويات المعرفية من تعدد ورقى وتنوع، ووفقا لما يحدث من تطور فى احتياجات الناس، من التعلم والتعليم.

الأخلاق العالمية: مداها وحدودها



د. طه عبدالرحمن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس - المغرب

بعد أن فرغنا من عرض معالم «الأخلاق العالمية» فى الإعلان، يتعين أن نشرع الآن فى إبداء ملاحظاتنا النقدية على هذه الأخلاق.

٢- تقويم «إعلان الأخلاق العالمية»:

ليس من شك فى أن هذه المبادرة التأسيسية التى قام بها «برلمان الأديان» تدل على زيادة الوعى لدى المتدينين المعاصرين بأمرين أساسين:

أحدهما: أن الديانات تحتاج إلى التحاور والتسالم فيما بينها والبحث فيما يجمع بينها، لا سيما أن القائمين على هذا «البرلمان» ما انفكوا يستحضرون فى أذهانهم تاريخ الحروب فى أوروبا، ويحملون الأديان مسئولية إيقاد نارها.

والأمر الثانى: أن الديانات لاتزال قادرة على أن تقوم بدور فعال فى العالم، على تمسكه بالحداثة العلمانية وتوجهه نحو العولمة التى تكاد توحد أطرافه اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، حتى كأن واضعى الإعلان يحضرون لـ«عولمة دينية» قادمة، مبناها على الأخلاق.

وعلى أهمية الوعى الذى يعبر عنه هذا الإعلان، يبقى المجال مفتوحًا لإبداء ملاحظتين فاصلتين:

أولاهما: لا يكفى أن تكون للأخلاق العالمية أصول دينية، بل ينبغى أن تنهض هذه الأخلاق بقيمة «الدين» فى هذا العالم المأزوم نهوضها بالقيم التى حصل الإجماع على أنها ترفع أزماته، وهى: «التسالم» و«التضامن» و«التسامح» و«التساوى»، ولا نهوض بهذه القيمة إلا إذا رفعت هذه الأخلاق مكانة الدين وعززتها، أى إذا حققت - ما أسميه - تمكنًا دينيًا فى العالم، ذلك أن واجب الديانات الأول هو أن تعمل على أن يستمر دورها فى هداية الأمم إلى ما ينفعها ويصلحها، وأن يدوم تأهيلها لأن تنقذ الإنسانية من المهالك التى تتهددها، وليس أن تسعى إلى أن تكون فى الأخلاق المتفق عليها كفاية دونها، بل غناء عنها.

والثانية: لا يكفى أن تحصل الأخلاق العالمية على إجماع الأديان، بل ينبغى أن تكون قادرة على أن ترتقى بـ«الخلقية الإنسانية» إلى رتبة فوق الرتبة التى يمكن أن يوصل إليها أى دين بمفرده، وإلا بطلت فائدة اجتماع الأديان. ولا ارتقاء بهذه الخلقية إلا إذا زادت فى الأخلاق وطورتها، أى إلا إذا حققت - ما أسميه - تقدمًا خلقيًا فى العالم، ذلك أن المطلوب من الأخلاق

العالمية هو تمكين الإنسان من تحصيل قدرة خلقية فائقة تستطيع أن تتصدى لأزمات العالم بما لا تستطيع أخلاق الدين الواحد.

بناء على هاتين الملاحظتين، يحق لنا أن نضع السؤالين التاليين:

- أولهما: هل الإعلان من أجل الأخلاق العالمية يجعل الدين يتمكن في العالم؟
- والثاني: هل الإعلان من أجل الأخلاق العالمية يجعل الخلقية تتقدم في العالم؟

فلنشتغل الآن بالجواب عن السؤال الأول، حتى إذا انتهينا منه، انعطفنا على السؤال الثاني، فوفيناه حقه من الجواب.

الإعلان والإخلال بشرط التمكن الديني

الواقع أننا إذا تأملنا تفاصيل هذا الإعلان، لفتت انتباهنا عدة إجراءات قام بها واضعوه كان فيها صرف صريح لمقومات دينية أساس، بحيث تشكل هذه الإجراءات مظاهر مختلفة لإخلال هذا الإعلان بشرط التمكن الديني في العالم.

مظاهر الإخلال بشرط التمكن الديني:

أولها: حذف التأسيس: يزعم واضعو الإعلان أن إعلانهم يتأسس بوضوح على الدين، وحجتهم في ذلك هو أن أصحابه أناس يؤمنون بأن الحقيقة المطلقة تتعالى على هذا العالم، ويشعرون بأن الأخلاق المتفق عليها موصولة بهذه الحقيقة الروحية والحال أننا إذا دققنا النظر في ركائز هذا الإعلان الأربع، لا نجد فيه ما يجعل هذه الحقيقة الغيبية تدخل في بنية الأخلاق، ولا ما يجعل تخلق الإنسان يتم بالتقرب منها، وكل ما نجده هو الإشارة إلى أن الديانات توصي بهذا الخلق أو ذاك، أو أن روح التراث الديني تحمل الإنسان على أن يتصرف على هذا الوجه أو ذاك، مع استغناء هذا الخلق أو هذا التصرف بنفسه وعليه فلا يمكن أن نعد هذه الإشارة تأسيسًا دينيًا للأخلاق العالمية، لأن مثل هذا التأسيس يقتضي أن تكون هناك مبادئ روحية وحقائق غيبية بعينها تتفرع عليها هذه الأخلاق، بينما يكتفي هذا الإعلان بأن ينسب الأخلاق المتفرعة على «مطلب المعاملة الإنسانية»، وهي: «المسالمة» و«التضامن» و«التسامح» و«المساواة»، إلى الأديان على وجه العموم، وشتان بين النسبة إلى الدين و«التأسيس على الدين».

والثاني، حذف اسم الإله: ارتأى واضعو الإعلان أنه من الحكمة بمكان أن لا يفتتحوا إعلانهم باسم الإله، بحجة أن الأديان لا تتفق عليه، حقًا، لقد ضم مؤتمرهم أربع مجموعات من الديانات سموها على التوالي: «مجموعة الديانات النبوية للشرق الأدنى»، وتشمل اليهودية والمسيحية والإسلام، و«مجموعة الديانات العرفية للهند»، وتتشكل من الهندوسية والبوذية، ثم «مجموعة الديانات الحكمية للشرق الأقصى»، وتتكون من الكونفوشيوسية والطاوية وديانات اليابان، وأخيرا «مجموعة الديانات الطبيعية لشعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا»، ومعلوم أن تصورات هذه المجموعات الدينية للألوهية تبلغ النهاية في التعارض والتضارب، حتى إن من الديانات ما لا يوجد فيه معنى «الذات الإلهية»، ومنها ما يؤمن بآلهة متعددة ليس فيهم واحد هو ذو العرش.

مع هذا، يبقى هذا الحذف غير مسوغ، فإذا تعذر الابتداء بهذا الاسم في الإعلان للعلة المذكورة، فقد لا يتعذر الابتداء بصيغة أخرى تفيد معناه بالنسبة للمؤمنين به نحو «باسم الذى تعبد» أو «باسم الدين الذى تؤمن به»، بل ربما وجب أن تستعمل على الأقل الصيغة الأعم: «باسم الدين الذى تعتقده»، ولكن الإعلان خلا من كل ذلك، فجاء على مساق غيره من الإعلانات غير ذات المصدر الديني كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

والثالث، حذف الإيمان: أراد واضعو الإعلان المذكور أن يقتنع بالأخلاق التي يحصونها غير المتدينين، فضلا عن المتدينين، وإذ ذاك، لا عجب أن يغيب ذكر الإيمان عن لائحة القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإعلان في توجيهاته الأربعة، مع أن هذه القيمة معنى روحي مشترك بين الأديان كلها، فمادامت هذه القيمة الروحية لا تعني الذين ليسوا بمتدينين، لم تعتبر قيمة عالمية كبقية القيم التي جاء ذكرها فيه لكن الإشكال الذي يبرز في هذه الحالة هو أن اتفاق المتدينين يعد غير كاف في تقرير القيم العالمية، بل لابد أيضا من اتفاق غير المتدينين، وعندئذ، يصير المتدينون، في صياغتهم لهذا الإعلان، كما لو أنهم نصبوا أنفسهم وكلاء عن غير المتدينين، فضلا عن تمثيلهم لإخوانهم في الدين.

والرابع، حذف العمل الديني، عندما تناول الإعلان عرض الركائز التي تنبني عليها الأخلاق العالمية، لا نجد حثًا على العمل الديني ولا بالأولى، بيانًا لفائدته في تحصيل هذه الأخلاق، حتى إن الناظر فيه يتوهم أنه بالإمكان اكتسابها بغير طريق هذا العمل، ولا يدفع هذا التوهم كون الإعلان، لما أوشك أن يختم حديثه عن الأخلاق، أشار إلى الصلاة باعتبارها وسيلة توصل إلى تغيير السلوك وتحويل القلوب، ذلك أن هذه الإشارة سرعان ما تفقد قدرًا من أهميتها، إذ جعلت الصلاة -وهي وسيلة التقرب التي تتخذها ديانات الوحي- تالية في الرتبة لـ«التفكر» بوصفه الوسيلة التي تتخذها ديانات الحكمة و«التأمل» بوصفه الوسيلة التي تتخذها ديانات الروح، بل إن أهمية هذه الإشارة لا تلبث أن تتلاشى كليًا، فقد تلاها مباشرة ذكر «الفكر الوضعي» بوصفه، هو الآخر، وسيلة لبلوغ هذا التغيير الخلقي، وبهذا، لا يكون للطريق التعبدي المتغلغل في الإيمان والعمل والذى تمثله الصلاة، أي امتياز على الطريق النظري البعيد عن الإيمان والعمل والذى يمثله الفكر الوضعي، فما توصل إليه الصلاة، وهي التدين بعينه، يمكن الوصول إليه بواسطة الفكر، على وصفه غير التديني.

بناء على ما تقدم من المآخذ على الإعلان من أجل الأخلاق العالمية، وهي: «حذف التأسيس» و«حذف اسم الإله» و«حذف الإيمان» و«حذف العمل الديني»، يتبين أن هذا الإعلان، وإن أصدره أهل الدين، فإنه لا يحقق تمكنًا للدين في العالم: فلا رفع لمكانته ولا تعزيز لها، فالعنصران المكونان للدين، وهما: «الإيمان» و«العمل» وقع تحييدهما في بناء هذه الأخلاق، إذ يقرر هذا الإعلان أن اعتبار الإيمان الديني يحد من عالمية الأخلاق حيث لا يحد منها عدم اعتباره، كما يقرر أن ما يدرك بالعمل الديني قد يدرك بواسطة غيره، بل يدرك بضده.

والنتيجة الغريبة التي تلزم من هذا كله، هي أنه يمكن الاستغناء في إنشاء الأخلاق العالمية عن الدين، وذلك في تناقض صريح مع البواعث الأصلية التي دعت إلى وضع هذا المشروع ومتى تقررت هذه النتيجة، لزمت منها أخرى أشد منها غرابة، وهي: أن العلمانيين أكثر قدرة على وضع الأخلاق العالمية على طريق برلمان الأديان من المتدينين أنفسهم فلنوضح كيف ذلك.

يتبع

قراءة إيمانية في كتاب الكون والحياة



أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة

إن للقرآن الكريم أسلوبه الحكيم فى الدلالة على آيات الله فى الكون، وإن الهداية التى جاء القرآن الكريم من أجلها تقتضى ألا يخاطب الناس عن الكون بما ينكرون أو بما يستعصى على أفهامهم، فيقوم ذلك حجابًا بينهم وبين قبول دعوته، وحاملاً على أن يكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

أيضًا، تقتضى الهداية التى جاء القرآن الكريم من أجلها ألا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية فى عصر نزول الوحى به، فيقوم ذلك حائلاً دون قبول دعوته فى عصور ازدهار العلم الكونى التى علم الله الذى أنزل القرآن أنها سوف تشهد الكشف عن حقائق علمية متعلقة بآياته - سبحانه - فى الآفاق وفى الأنفس.

وتجنب هذين العائقين عن قبول هداية القرآن هو من بدائع إعجاز أسلوبه، ومن أكبر الدلائل على أنه حقًا من عند الله فاطر الناس وفاطر الكون.

فكلمة «السماء» فى اللغة تعنى فى قول الجمهور «المظلة»، وهى أيضًا السماء الزرقاء التى تبدو النجوم كأنها فيها وهى فوقها. ثم هى تطلق أيضًا على السحاب، وعلى ما ينزل من السحاب من أمطار، وهى استعارة حسنة معروفة عند العرب.

قال حسان بن ثابت:

ديار من بنى الحسحاس قفر
تعفيها الروامس والسماء

يعنى ماء السماء، ومنه أيضًا قول معاوية ابن مالك:

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا

وربما توسعوا فأطلقوا لفظ «السماء» على العشب، لأنه يكون عن السماء، أى المطر، ومن ذلك قولهم: «ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم».

والسماء لغة: من السمو وهو العلو والارتفاع، يقال: سما يسمو سموًا وسماء إذا ارتفع وعلا. والسماء: كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، وتجمع على أسمية وسماوات وسُمِيّ.

والسماء فى إطلاق الشرع: هى ما يقابل الأرض، ويراد بها تلك الطبقات السبع التى خلقها الله ورفعها فوق أرضه، وجعل علمها وتفاصيل أخبارها من الغيب الذى لا يُعلم إلا عن طريق الخبر السمعى، قال تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

(فصلت: ١١-١٢)

أما فى العلوم الكونية فإن كلمة «السماء» تعنى سماء الغلاف الجوى للأرض ولغيرها من الأجرام السماوية، وهى تعنى أيضًا سماء الشمس والقمر والشهب والكواكب والنجوم والسدم والمجرات.

والناظر فى آيات السماء كما وردت فى القرآن الكريم، عليه أن يميز بين ما هو خاص بسماء جو الأرض من سحاب، وما إليه من زرقة الطبقات العليا من هوائه، وهو عادة أول ما يفهم من لفظ السماء ومن وصفها، وبين ما هو عام يشمل الكون بما فيه من نجوم وكواكب ومجرات، وبين ما تعنيه الكلمة فى لغة العرب وسياق المعنى.

فقد جاءت السماء فى القرآن الكريم بمعنى سقف البيت، كما فى قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾

(الحج: ١٥)

فالسبب هنا الحبل، والسماء هنا سقف البيت، وشبهه من الأشياء تعلق منها الحبال، والمعنى أن من كان من الكفار يظن أن الله لا ينصر نبيه فليمدد بحبل إلى سقف بيته، ثم ليختنق به وليقدر فى نفسه وينظر، هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله لرسوله؟

كذلك جاءت كلمة السماء فى القرآن الكريم بمعنى السحاب والمطر والغيث، كما فى قوله تعالى:

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾

(نوح: ١١)

والسماء فى قوله تعالى:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾

(القمر: ١١)

ليست هى سماء الكواكب والنجوم، ولكن هى سماء السحاب الذى ينزل الله منه الماء المصرح به فى قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾

(الواقعة: ٦٨-٦٩)

وجاء التعبير القرآنى ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ ليعنى سماء السحاب المعروف عند العرب على سبيل المجاز.

وإذا تجاوزنا السماء الزرقاء بتجاوز

الغلاف الجوى للأرض، فإن السماء عندئذ تبدو كما بدت لملاحى الفضاء سوداء حالكة، تلمع فيها الشمس والنجوم كأجسام مضيئة من غير أن يكون لأضوائها أثر فى تخفيف ذلك الظلام، فلولا ما يحمله الهواء فى جو الأرض من جسيمات ضئيلة، لبدت السماء للناس حالكة السواد حين تكون الشمس ساطعة، ولكانت الظلال على سطحها سوداء مثل ظلال القمر وسمائه، إذ هو قد فقد هواءه «غلافه الجوي» منذ زمن بعيد، فشتان بين نهار الأرض ونهار القمر، وشتان بين سماء الأرض تضيء جوها الشمس فلا يلقى العين منه إلا نور، كما نبه الله إليه بقوله:

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾

(الشمس: ٣)

وبين السماء إذا تجاوزنا جو الأرض وغلافها الهوائى بالنهار، فلا تقع العين منها إلا على ليل مظلم تبدو الشمس فيه قرصًا فيه زرقة، وإلى ليل السماء الكونية هذا وآية الله فيه أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾

(النازعات: ٢٩)

وهذا مثال واضح نسوقه لبيان الإعجاز الإلهى فى القرآن عن حقيقة كونية، قبل أن يهتدى إليها الناس من علم، فيصرف الإنسان النظر عن المعنى الحرفى الذى يجهله إلى أقرب معنى يعرفه، ولو فطن الإنسان ولزم النص وكان منطقيًا معه حسب القاعدة النحوية التى قعدها، لسبق العلم الحديث إلى حقيقة عن السماء لم يكتشفها العلم إلا بعد قرون من نزول القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾

(النازعات: ٢٧-٢٩)

لكن الحق والإنصاف يقتضيان ألا نتوقع من قدامى المفسرين أو من محدثيهم الذين لم يدرسوا جانبًا كافيًا من العلم الكونى أن يتصوروا سماء حالكة والشمس فيها ساطعة لا حجاب دونها، وقد كانوا فيما مضى يظنون نور النهار ممتدًا إلى أقصى الكون الذى يعرفونه، وأقصى الكون عندهم كانت السماء الزرقاء التى تضيئها الشمس نهارًا وتنيرها الكواكب والقمر ليلاً.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن أفلاك السماء نجد أن الفلك لغة: المدار يسبح فيه الجرم السماوى، وجمعه أفلاك وفُلُك، وفَلك كل شيء: مستداره ومعظمه.

والفَلك: التل المستدير من الرمل حوله فضاء.

والفَلك من البحر: موجه المستدير المضطرب.

والفلكة من المغزل: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل فى أعلاه، وتثبت الصنارة من فوقها وعود المغزل من تحتها.

يقول الراغب الأصفهانى: والفَلك مجرى الكواكب، وتسميته بذلك لكونه كالفلك. وفى حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: «تركت فرسى كأنه يدور فى فلك»، شبهه لدورانه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم.

وعلم الفلك: علم يبحث فى الأجرام العلوية وأحوالها، وقد عرف عند العرب باسم «علم الهيئة» لأنه ارتبط بدراسة تركيب الأفلاك وأحوال النجوم السماوية وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعادها. وقد وصفه عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م - ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) فى كتابه «المقدمة» بأنه «صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته، وما أدى إليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع، وغير ذلك، يعرف به مواضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة.

وعرفته دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى بأنه علم مداره الأجرام العلوية، أى الشموس والسيارات والثوابت (فى رأى العين) وتوابعها وذوات الأذناب، وهو قسمان نظرى وعملي: الأول يصف تلك الأجرام ويبين لنا أبعادها وحركتها وفصولها السنوية وهيئاتها، والثانى يبحث عن كيفية رصد تلك الأجرام.

وقد وردت كلمة «فلك» فى القرآن الكريم مرتين: فى قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

(الأنبياء: ٣٣)

وقوله:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

(يس: ٤٠)

وقال أهل التأويل فى معنى الفلك الذى ذكره الله تعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين: إنه كهيئة حديدة الرحى، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن.

ويقول الرازي: الفلك فى كلام العرب كل شيء دائر، وجمعه «أفلاك»، اختلف العقلاء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: بل هى أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، ثم اختلفوا فى كيفيته، فقال بعضهم: الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه، وجاء فى المنتخب أن لكل جرم سماوى مجاله، أو مداره الخاص الذى قدره الله له، وأجرام السماء كلها لا تعرف السكون، كما أنها تتحرك فى مدارات خاصة لا تحيد عنها، هى الأفلاك.

ولقد حثت آيات القرآن الكريم فى مواضع كثيرة على النظر فى ملكوت السماوات والأرض، وكان اهتمام المسلمين بعلم الفلك بالدرجة الأولى - كما سبق أن ذكرنا - بسبب احتياجاتهم لمعرفة الزمن وتحديد مواقيت الصلاة وظهور الهلال ومواعيد الأعياد وتأدية المناسك والعبادات وتحديد اتجاه القبلة ومواقع البلدان، وغير ذلك مما يتعلق بأمور دينهم الحنيف الذى فرض على الناس أن يتفكروا ويعقلوا ويعلموا، مثلما فرض على أتباعه أن يتعبدوا ويذكروا الله تعالى فى جميع الأحوال وعموم الأوقات، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠-١٩١)

وقال أبو عبدالله القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» مسترشدًا بقوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

(ق: ٦)

إن المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر لنا حقائقها، فإنها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الأخروية، وكل من أمعن النظر فيها ازداد من الله هداية ويقينًا، ونورًا وتحقيقًا، ثم يقول: وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحو السماء، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه، ومن لم ير من السماء إلا زرقتها، ومن الأرض إلا غبرتها، فهو مشارك للبهائم في ذلك وأدنى حالاً منها وأشد غفلة، كما قال تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وإذا توقفنا للتأمل في إحدى آيات الله في السماء، المتعلقة بمواقع النجوم في قوله تعالى:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

(الواقعة: ٧٥-٧٦)

نرى أن الخالق جل وعلا في هاتين الآيتين يقسم، وهو الغني عن القسم، بمواقع النجوم، وهو قسم مغلظ جليل وعظيم لمن يعرف قدره ويسعى إلى معرفة حقيقته، ثم يأتي جواب القسم:

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الواقعة: ٧٧-٨٠)

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريانها عبر السماء، وهي محتفظة بعلاقاتها المحددة بغيرها من الأجرام في المجرة الواحدة، وبسرعات جريها ودوراتها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبية الرابطة بينها.

ولقد أثبتت دراسات الفلك والفيزياء الفلكية أن الزمان والمكان شيئان متواصلان، ومن هنا كانت مواقع النجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، والتي تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزليًا، إذ كانت له بداية يحددها العلماء باثنى عشر بليونًا من السنين على أقل تقدير، ومن هنا كان في القسم بمواقع النجوم، إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا في أواخر القرن العشرين.

فقد كان اليونانيون القدماء يصرون على

أن الأرض هي مركز الكون، أو أن الشمس هي مركز الكون، وأن كليهما ثابت لا يتحرك، غير متصورين وجود أية بنية سماوية إلا حول الشمس، وكان غيرهم من أصحاب المدنيات السابقة واللاحقة يؤمنون بديمومة الأرض والنجوم وما بهما من صور المادة والطاقة، بل إن الغربيين قد ظلوا قرونًا عديدة يعتقدون أن النجوم مثبتات بالسماء، وأن السماء بنجومها تتحرك كقطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون في مركزه ثابت غير متحرك، ومكون من عناصر أربعة هي الماء والتراب والهواء والنار، وحول تلك الكرات الأربع الثابتة تتحرك السماوات.

ثم يأتي القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان ليقسم بمواقع النجوم هذا القسم العظيم مؤكدًا ما توصل إليه العلم حديثًا من نسبية تلك المواقع وأهميتها وتعاظمها، وأن الإنسان لا يمكن له رؤية النجوم من فوق الأرض، وكل ما يمكن أن يراه هي مواقع مرت بها النجوم، فسبحان الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته ليكون بكل ما فيه آيات شاهدة على أن هذا القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الرسول الأمي الأمين قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أكمل ما يكون التبليغ والأداء.

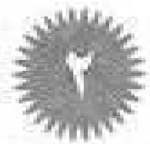
وهذا القسم القرآني العظيم بمواقع النجوم يشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، والتي مؤداها أنه نظرًا للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبدًا، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، أو بالأحرى، يرى النجوم في مواقع مرت بها في أفلاكها ثم غادرتها. وفوق ذلك فإن هذه المواقع كلها نسبية، وليست مطلقة، لأن الضوء، كأي صورة من صور المادة والطاقة، لا يستطيع أن يتحرك في صفحة السماء إلا في مسارات «خطوط» منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلا في خطوط مستقيمة، وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجم من فوق سطح الأرض يرى هذا النجم على استقامة آخر نقطة انحنى ضوؤه إليها، فيرى موقعًا وهميًا للنجم غير الموقع الذي انبثق منه ضوؤه. أي أنه نظرًا لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية.

ليس هذا فقط، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة أثبتت أن نجومًا قديمة قد خبت، أو تلاشت، منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواضع «المواقع» التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى يومنا هذا، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم، وليس بالنجوم ذاتها - على عظم قدر النجوم - التي كشف العلم عنها أنها أفران كونية عجيبة يخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي يبنى منها هذا الكون المدرك.

فما أجمل أن يسهم العلم بحقائقه، إلى جانب اللغة، في تعميق فهمنا لألفاظ القرآن الكريم وآياته، ودحض مزاعم الجاحدين في حق النبي الأمي العربي الصادق الأمين.

الاجتهاد فى مقاصد العقائد

مقاصد صفتى المعطى والمانع نموذجًا



د. جاسر عودة
المدير المؤسس لمركز مقاصد الشريعة الإسلامية بلندن

العطاء والمنع بقصد الإفهام

المؤمن يعتقد أن من أسماء الله عز وجل الحسنى أنه المعطي المانع، فيعطينا أحيانًا، ويمنعنا أحيانًا أخرى، ويبتلينا بالخير وبالشر أحيانًا أخرى، بالسراء أحيانًا وبالضراء أحيانًا أخرى، بالنعمة أحيانًا وبالحرمان منها أحيانًا أخرى. ولكن الأمر على حقيقته قد يختلف عن ما أظن أنا أنه خير أو شر أو نعمة أو نقمة.

يبين العارف بالله الشيخ ابن عطاء الله أن المؤمن فى حاجة لحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى فى عطائه ومنعه، لأن الأمور قد لا تكون كما تبدو ظواهرها، وأن الله عز وجل يقصد إلى أن «نفهم» حين يعطى أو يمنع. كتب فيقول:

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك. إن فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء.

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول. وربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا فى الوصول. معصية أورثت ذلا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.

ونقرأ قوله تعالي:

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا ﴾

(الفجر: ١٥ - ١٧).

﴿ كَلَّا ﴾: أى أن الله عز وجل يقول إن هذا ليس هو الفهم الصحيح لاتساع الرزق بالعطاء أو ضيق الرزق بالمنع. إن قدر الله على الرزق، فهذا لا يعنى أنه يهيننى، وإن نعمنى وأغدق علىّ بعض الرفاهية فهذا لا يعنى أنه يكرمنى، ولا يعنى بلوغ المكانة الرفيعة، بل العكس قد يكون صحيحًا. والسؤال الآن هو: كيف أحكم فى هذا الأمر؟

ينبه الشيخ على مقصود الله تعالى، ألا وهو الفهم، فيقول: (إن فتح الله تعالى لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء).

فإن منعك أو أخذ منك الله عز وجل شيئًا من المال، أو الوظيفة، أو الصحة، أو الأهل، أى أخذ منك شيئًا هامًا وغاليًا، ولكنه فى نفس الوقت قد فتح لك بابًا للفهم، أى بابًا للعبرة والتفكر والنضوج والقرب من الله - إن حدث ذلك فما حدث ليس منعًا، بل المقصود هو العطاء والهدية، وعندها تتحول المحنة إلى منحة! وبالفهم عن الله عز وجل، تعرف أن ما يحدث من بلاء هو عين العطاء، لأنك قبل الفهم كنت تنظر إلى المادة، وإلى الحواس الخمس، وإلى الأرقام، فتقول مثلاً: (قد خسرت عشرة آلاف)، أو (ذهب كذا من أهلى أو صحتى أو من متاع الدنيا)، إلى آخره. ولكن ذلك هو الحساب المادى، والله عز وجل قد يأخذ منك العشرة آلاف ولكنه يعطيك فهمًا، ويعطيك رضًا، ويعطيك عملاً صالحًا، ويعطيك همة عالية لتغيير حالك، وقد يعطيك صديقًا وفيًا يقف معك، وقد يعطيك استكانة له سبحانه وتعالى ودعاء وقربًا وتوكلاً عليه سبحانه وتعالى فتكون خسارة هذه العشرة آلاف هى عين العطاء وعين المنحة. بل وقد يعطيك بدلاً منها مائة ألف مثلاً فى وقت لاحق نتيجة مراجعتك لنفسك وتحسينك لمسلكك. لابد إذن من أن نحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن تعتدل الموازين حتى نفهم ما هو المنع وما هو العطاء. لأنه أحيانًا نتصور أن شيئًا ما منع، ويكون هو عين العطاء. ونتصور أن شيئًا ما عطاء، ويكون هو عين المنع.

العطاء بقصد الإملاء (والعياذ بالله)

والمثال بالعكس صحيح، فقد يعطى الله سبحانه وتعالى إنسانًا عشرة آلاف وهو يقصد الابتلاء له، فلا يشكر الله عليه بالقول ولا بالعمل، ويغتر بالمال، ولعله يصرفه فى الحرام، وتكون العاقبة سيئة، والعياذ بالله. ولعل الله عز وجل يقصد أن يملى لهذا الإنسان:

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

(القلم: ٤٥)

والعياذ بالله. فالله عز وجل أحيانًا ما يفتح الأبواب عقوبة:

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

(الأنعام: ٤٤)

والعياذ بالله. ولابد للعبد العاقل أن يخاف من هذا. ويضرب الشيخ هنا مثالاً آخر فى نفس المعنى. يقول رحمه الله: (ربما فتح لكل باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا فى الوصول). هنا يعطيك الله تعالى الطاعة أو العبادة أو العمل الصالح، صليت القيام، أو حفظت القرآن، أو تصدقت، أو صمت، أو حججت، وهذا فتح من الله سبحانه وتعالي. لكن احذر! فأحيانًا تتخيل أن العبادة نفسها فى حد ذاتها عطاء وما هى بعطاء. لماذا؟ مثلا، قد يبطل العبد ثوابه بنفسه بعد أداء العمل. فمثلا، قال تعالي:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾

(البقرة: ٢٦٢).

فالمن والأذى يبطل الصدقة ويسد باب القبول والأجر. وقد يكون هناك طاعة ولكن سوء أداء العبد لهذه الطاعة نتج عن رياء مثلا:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(النساء: ١٤٢).

وإذن تؤدى هذه الطاعة إلى عقوبة، والعياذ بالله، لأن المقصود من الطاعة هو الإخلاص فيها والانتفاع بها خلقيًا وروحيًا. فإن حدثت الطاعة ولم يحدث الإخلاص أو لم يتم الانتفاع بها روحيًا وخلقيًا، فلا قيمة لها. ولذلك، ففي الحديث أنه: «من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه» (صحيح البخاري) أي أن صيامه غير مقبول ومردود عليه، والعياذ بالله.

المنع بقصد تعليم التواضع

ثم يعطينا الشيخ مثلاً آخر في باب الطاعة والمعصية مما يتطلب دقة في الفهم. يقول الشيخ: (وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا في الوصول)، وفي هذا المعنى يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: (رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا فأدخلت صاحبها الجنة، ورب طاعة أورثت صاحبها عجبًا وكبرًا فأدخلته النار).

والمعصية في حد ذاتها لا تدخل أحدًا الجنة طبعًا، ولكنها قد حدثت بالفعل وحدثت التوبة، ويذكر العاصي ذنبه باستمرار ولا ينساه، بل يجتهد ويجد حتى يدخل الجنة. وهذا المعنى من معاني العطاء والمنع. أحيانًا تكون معصية، ولكنها معصية تاب العبد منها وتورث الذل والانكسار لله سبحانه وتعالى، فتصبح منحة وتصبح عطاء.

وهذا لا يعني أن أذهب وآتي المعاصي ثم أقول: حتى ينكسر القلب ويتوب، هذا فهم خاطئ منحرف انزلق إليه بعض الجهال، وليس هذا هو مقصود الله عز وجل قطعًا، فالله لا يقصد الفحشاء ولا يأمر بها. ولكن الحديث هنا هو عن ما سبق وحدث من المعاصي في الماضي، أن تورث هذه المعاصي الذل والانكسار لله سبحانه وتعالى. ولعل ذلك أفضل من طاعة تورث العزة والاستكبار: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (صحيح مسلم) كما قال ﷺ. فإن كانت ثمة طاعة، ولكنها أورثت فاعلها الكبر، فعدمها أفضل. فلابد إذن أن ننظر إلى مدى القرب والبعد من الله عز وجل، وأن يكون هذا هو المعيار.

وقال رسول الله ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له). وهذا الحديث يدل على أنك أنت الذى تصنع الخير أو الشر لنفسك في الحقيقة، والأمر بيدك أنت! إن استقبلت السراء بالشكر فهو خير، وإن استقبلت الضراء بالصبر فهو خير، وأن استقبلت السراء بالكبر والمعصية فهو شر، وأن استقبلت الضراء بالضجر والكفر فهو شر، فأنت الذى تحدد: عطاء أم منع، حسب رد فعلك أنت.

المنع بقصد تقريب العبد من الله

وهذا مثال آخر خاص بالفهم عن الله تعالى في عطائه ومنعه، يعلمنا إياه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله ورضي عنه. يقول: «متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به. ومتى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك».

(متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)، فأحيانًا يأتي البلاء في صورة أن يستوحش الإنسان أي ينعزل وينفرد، مثلاً بأن يأخذ الله عز وجل الرفيق، كالصاحب أو الزوج أو الأخ أو الصديق، أو أن يسافر العبد لظرف ما ويبقى وحده في مكان بعيد أو بلد غريب، أو تجد نفسك فجأة وحدك في سجن أو مستشفى، لا قدر الله.

يبين الشيخ أن هذا قد يكون من العطاء في صورة المنع، وهذا أيضًا مصداق حديث النبي ﷺ الذى يقول فيه: (إذا أراد الله بعبد خيرًا أوحشه من الناس). فيفتح الله لك في هذه الوحدة باب الذكر أو باب التفكر أو باب الأنس به، وهذا الأنس لم يكن ليأتي وأنت تختلط بالناس ليل نهار، فيفتح لك سبحانه وتعالى هذا الباب بأن يحبسك في مكان ما، ولعلك تظن أن هذا من المنع وإنما هو من العطاء، أوسع عطاء. ومن أساتذتي من يذكر فترات من حياته كان فيها في السجن أو في منفى، يذكرها بالخير ويقول: (لولا ذلك السجن لما ألفت كتبي ولا وصلت إلى أفكاري). فكان السجن والوحشة في الحقيقة سببًا للأنس بالله والنفع للخلق.

المنع بقصد توبة العبد

وأحيانا ما يضيق الله عز وجل عليك الرزق، ويريد منك أن تتوب، ليس إلا:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٦)

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

(المؤمنون: ٧٦)

فالله عز وجل أحيانًا يأخذك ببعض البلاء وبعض الضرر حتى تتوب إليه، وتستكين، وتدعوه وأنت تحس بالاضطرار، وهذا أيضًا من صور المنع الذى هو في حقيقته عطاء، فالبلاء والفتنة اللذان ينتهيان إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى هما نعمة حقيقية.

والمنع والعطاء لا يقاسان بمقاييس البشر، فلن تكون المقاييس الصحيحة هي مقاييس الأرقام ومقاييس اللذات المادية، وإنما المقياس الحقيقي هو علاقتك بالله. فأحيانًا يبتليك الله ابتلاء فتتحسن العلاقة معه سبحانه وتعالى، وهذا هو عين العطاء، وأحيانًا لا تأتي منح من الله تعالى إلا عن هذا الطريق، لأنني مثلاً قصرت في حق الشكر أو حق العبادة، فالله تبارك وتعالى يأخذ من مليارات النعم التي أعطاني إياها يأخذ مني نعمة أو اثنتين أو ثلاثة، وقد أجزع، ولكنني أعود إليه سبحانه وتعالى، وهذه هي المنحة أي منحة، وعطاء أي عطاء!

المنع بقصد فتح باب الدعاء

ثم يقول الشيخ:

ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار

قد يبتليك الله عز وجل بلاء لا ترى له حلا إلا أن تسأل وتدعو. فلعلك مقصر لا تسأل ولا تدعو كثيرًا قبل هذا البلاء، ولعلك تتوهم أنك لا تحتاج إلى الدعاء، أو تدعو ولكن لا تكون مضطرًا، ولكن أحيانًا يجد الإنسان نفسه مضطرًا، ويجد الإنسان نفسه في ضيق لا ملاذ له ولا كاشف له إلا الله، وأخيرًا يدعو يسأل الله عز وجل، ويكون هذا هو مقصود الكريم سبحانه. ولعل هذا السؤال يستمر أيامًا أو أسابيع، ويكون المقصود من هذا أيضًا العطاء وليس المنع، لأن «الدعاء مخ العبادة»، (سنن الترمذي)، حديث غريب كما قال الحبيب ﷺ، وفي رواية: «الدعاء هو العبادة» (سنن أبو داوود) فتظل في عبادة صادقة وصلة دائمة بالمولى عز وجل، ويكون هذا هو عين العطاء وليس هذا من المنع في شيء.

ولكن يقول الشيخ: (إن فتح لك باب السؤال فأعلم أنه يريد أن يعطيك)؛ فالله عز وجل يثيب على السؤال في حد ذاته، ويعطي كذلك ويجيب السؤال كذلك في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معًا، أو في شيء آخر أفضل في الدنيا أو في الآخرة؛ فالله عز وجل حين يفتح لنا باب الدعاء فإنه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا، لأن العبد الكريم إذا سئل لابد أن يعطي، فما بالك بالله!

فمن مقاصد المنع فتح باب الدعاء، والله عز وجل يسأل الكفار في كتابه العزيز:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾

(النمل: ٦٢)

فالله عز وجل يشهد الكفار على أنهم حين يضطرون في دعائه له سبحانه فإنه يجيبهم؛ فإذا كان دعاء المضطر الكافر يستجاب من الله سبحانه وتعالى نظرًا لما فيه من الصدق والحرارة والتسليم بالقدرة الإلهية. فما بالك بالمضطر المؤمن؟ الاضطرار إذن يسرع باستجابة الله للدعاء، ولذلك فإن الشيخ يقول أيضًا: (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار). أنت مضطر وترفع يديك لله عز وجل، وتحس بالحاجة الشديدة، ويؤيد ذلك انقطاع الأسباب أحيانًا كما مر.

وهذا ينطبق أيضًا على المسائل العبادية، فأنا مضطر إلى مغفرة الله عز وجل ورحمته، وأحس بهذا الاضطرار حين أسأله أن يفتح عليّ من مغفرته ورحمته وفضله. إذن حتى في أبواب العبادات وأبواب المناجاة، ليس هناك شيء أسرع بالطلب مثل أن يشعر المسلم بالاضطرار والفقر والتعلق بمحض الرحمة الإلهية.

وترى هذا الحال في دعاء المصطفى ﷺ في مواضع كثيرة، ونذكر منها مثلا غزوة بدر، حين رفع يديه ﷺ حتى سقط الرداء عن كتفيه وحتى رؤي بياض إبطيه، أي أنه رفع يديه عاليًا، قائلاً: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم» (صحيح مسلم) ورفع يديه ﷺ ودعا دعاء طويلا! هذا دعاء المضطر، هذا الذي يسرع إليك بالإجابة.

ثم يشرح الشيخ أحوالاً أخرى مفيدة في الدعاء. قال: (ولا أسرع إليك بالمواهب مثل الذلة والافتقار)، أي أن تتذلل إلى الله عز وجل، وتحس بالفقر له. قال بعض العلماء في قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾

(التوبة: ٦٠)

قالوا: هذه تنطبق أيضًا على من يحس بالفقر ويطلب من الله تعالى العون، وهو تأويل بعيد، ولكن المعنى صحيح لأنه إذا كان الإنسان الفقير يحق عليك له الصدقة، فما بالك إذا أظهرت لله عز وجل فقرك، وهو سبحانه وتعالى الكريم بل الأكرم، فإذا أظهرت له الفقر وأظهرت الذلة وأظهرت الخشوع فإن الله عز وجل يكرمك ويعطيك ما تسأل أو أفضل مما تسأل. وقوله: (ولا أسرع بالمواهب إليك)، لأن الله عز وجل هو الذي يمنحنا المواهب، دنيوية أو دينية، لكن الشيخ إنما يقصد المواهب الدينية بالأساس، كالحال القلبي والطاعات والقربات.

وصحيح أن للدعاء شروطاً وفقهًا، وهي أن تتوجه إلى القبلة، وألا تدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ويستحب أن ترفع يديك عند الدعاء، وتبدأ بالحمد لله والصلاة على النبي ﷺ، والأفضل منه أن تتوسط وتختم بالصلاة على النبي كذلك، هذا من فقه الدعاء؛ ولكن الحال أبعد من الفقه، فهو يتعلق بالحال القلبي الذي هو أساس للدعاء وليس فقط من (المستحبات) وهو مقصود أيضا.

ومن إجابتي الدعاء ما يكون في الآجل ويكون أفضل من العاجل، وفي حديث النبي ﷺ أن العبد يثاب يوم القيامة على دعاء لله لم يستجب، يقول ﷺ: (حتى يتمنى العبد أن لم يستجب له دعاء قط)، يعني: أن تتمنى يوم القيامة أن الله عز وجل لم يستجب لك أبدًا حين ترى أن الذي لم يجبه لك في الدنيا قد أخره لك يوم القيامة في صورة درجات هي أفضل من الدنيا وما فيها.

وحين لا يستجيب لك في الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى يحسن لك الاختيار. وهل عودك إلا حسن الاختيار؟ وهو الذي يقول عن نفسه سبحانه:

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾

(آل عمران: ٢٦)

أي أنه عز وجل دائمًا ما يحسن لنا. فإن دعوت بشيء ولم يستجب لك فاعلم أنه يختار لك الخير، ولا يختار لك الشر أبدًا. ولأنه ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، كما مر. وهذا العطاء يكون إما في هذه الدنيا أو في الآخرة. فلنترك الاختيار له سبحانه وتعالى، في:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

(القصص: ٦٨)

ودائمًا ما يختار أفضل مما نختار، في العاجل والآجل.

يتبع

من عيون التراث

الإحكام في أصول الأحكام

«المجلد الأول»

• تأليف: الآمدي سيف الدين أبي الحسن علي
• ضبطه وكتب حواشيه: الشيخ إبراهيم العجوز
• بيروت: دار الكتب العلمية

عرض الكتاب

يشمل المجلد جزئين «الأول والثاني»، ويقعان في «٥٥٣» صفحة، يشغل الجزء الأول منه (٢٤٣) صفحة من القطع المتوسط، وملخصه كالتالي:

الجزء الأول

*** القاعدة الأولى: مفهوم أصول الفقه ومبادئه:**

يعرف الفقه بأنه الفهم، ويفرق بينه وبين العلم فيقول: كل عالم فهم، وليس كل فهم عالمًا، ويعرف أصول الفقه بأنها أدلة الفقه، وغايتها هي الوصول إلى الأحكام الشرعية، عن طريق ثلاثة: علم الكلام، سواء المنطوق أو المضمر أو المفهوم (ص٩)، وعلم العربية، والأحكام الشرعية، فهذه الثلاثة هي أصول الفقه، ويتناولها المؤلف في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المبادئ الكلامية:

يفرق بين الدليل والنظر والعلم والظن، فالدليل هو الناصب للدليل، أو ما فيه دلالة وإرشاد، سواء كان موصلا إلى علم أو إلى ظن أما النظر فهو الرؤية بالعين، أو الرأفة أو المقابلة أو التفكر والاعتبار كما يعرف الفهم بأنه «التصرف بالعقل في الأمور السابقة بالعلم والظن (ص١١) للمناسبة للمطلوب، بتأليف خاص، قصدا لتحصيل ما ليس حاصلا في العقل»، أما العلم فهو «صفة يحصل بها لنفس المتصف بها التمييز بين حقائق المعاني الكلية؛ حصولاً لا يتطرق إليه احتمال نقيضة. أما الظن فهو ترجح أحد الاحتمالين في النفس على الآخر من غير قطع.

القسم الثاني: المبادئ اللغوية:

خص الله الإنسان دون الحيوان بالمقاطع الصوتية التي عندما تختلف تحدث الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية، وهي موضوعة لمعنى، ويذكر لذلك المعنى أصلين؛ الأول أنواعه، والثاني بداية وضعه.

- الأصل الأول: أنواع اللفظ:

إما أن يكون اللفظ الدال مفردًا أو مركبًا:

النوع الأول: اللفظ المفرد: وفيه ستة فصول:

١- حقيقته: هو ما دل بالوضع على معنى (semantic) (ص ١٦)، ولا جزء يدل على شيء أصلاً.

٢- أقسام دلالته: إما أن تكون دلالته لفظية أو غير لفظية، واللفظية إما دلالة مطابقة أي تدل على المعنى، أو دلالة تضمن بمعنى تدل على ما فيه من صفات متضمنة فيه، وغير اللفظية دلالة التزام أي أن المعنى له لازم من الخارج وينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه.

٣- أقسام المفرد: إما اسم أو فعل أو حرف.

٤- الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه، وهو إما واحد أو متعدد، فإن كان واحدًا فمفهومه منقسم على أربعة وجوه:

- **القسمة الأولى:** إما أن يشترك في مفهومه كثيرون أو لا. وإما أن يكون صفة كالعالم والقادر، أو عينًا كإنسان وفرس، أو يكون معنى كالعلم والجهل، وهو إما اسم عين كأسد، أو اسم معنى كفضل، وقد يكون الاسم مؤلفًا من اسمين. كعبد الله، أو فعلين، كقام قعد، أو حرفين: إنما، أو اسم، وفعل مثل: تأبط شرا، أو حرف واسم: كتسميته بزيد، أو فعل وحرف: قام على، وهذا القسمة لها ثلاث مسائل هي:

أ- كثير من المعاني لم تضع العرب لها ألفاظا تدل عليها (ص٢١).

ب- يكون الاسم متواطئًا عندما يتحد المنسوب مع المنسوب إليه للفظ، مثل خمري، إما أن تعني أنه شبيه بلون الخمر أو أنه بطعم العنب.

جـ- إنه بتعدد الأسماء تتعدد المسميات.

- القسمة الثانية: ينقسم الاسم إلى ظاهر ومضمر وما بينهما، والظاهر إما صحيح أو معتل، أما المضمر فهو إما منفصل أو متصل، وما بينهما هو اسم الإشارة.

- القسمة الثالثة: الاسم إما حقيقة أو مجاز، ومسائل هذه القسمة خمسة هي:

أ- الأسماء الشرعية: كلفظ الصوم والصلاة والقرآن، فالصلاة في اللغة بمعنى الدعاء، وفي الشرع بمعنى الأفعال المخصوصة.

ب- الأسماء المجازية: وهي إما بقرينة أو لا.

جـ- إن كلام الله تعالى حق وليس مجازًا.

د- الرسول ﷺ بعث إلى الكل فهو للناس كافة.

هـ- اختلف في إطلاق الاسم على مسماه المجازي.

- القسمة الرابعة: الاسم إما علم أو صفة، وله مسألتان:

أ- بقاء الصفة المشتق منها حقيقة أم لا؟

ب- هل الأسماء اللغوية تثبت قياسًا أم لا؟

٥- الفعل وأقسامه: الفعل verb ما دل على حدث مقترن بزمان، والحدث Acedent هو اسم الفعل، والزمان Time هو ماض، وحال، ومستقبل، وأمر.

٦- الحرف وأصنافه: الحرف هو ما دل على معنى في غيره، وهو إما للإضافة أو للعطف أو للنداء أو الاستثناء أو الاستفهام.

النوع الثاني: المركب: المركب من مفردات الألفاظ هو الكلام Speech (ص٦٥) ويقصد به معنى الكلام اللساني وليس النفساني، وهو ما يطلق على ما أُلف من حروف وأصوات، والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى.

- الأصل الثاني: مبدأ اللغات وطرق

معرفتها:

ما وضع من الألفاظ الدالة على معانيها هو لمناسبة طبيعية بين اللفظ ومعناه، فإن لم يكن بين اللفظ ومعناه مناسبة طبيعية لما كان اختصاص ذلك المعنى بذلك اللفظ أولى من غيره، وعلم الله ـ تعالى ـ آدم الأسماء كلها وكل ما يمكن التخاطب به «التخاطب Communication» (ص٧٠) وذلك إما بالوحي أو بأن يخلق الله الأصوات والحروف ويسمعها له، ويخلق له العلم الضروري بأنها قصدت للدلالة على المعاني.

القسم الثالث: المبادئ الفقهية والأحكام الشرعية:

الحكم الشرعي يستدعي حاكمًا، ومحكومًا فيه، ومحكومًا عليه، وهي أربعة أصول.

- الأصل الأول: الحاكم:

لا حاكم سوى الله تعالي، ولا حكم إلا ما حكم به، فالعقل Reason (ص٧٢) لا يحسن ولا يقبح، وفيه ثلاث مسائل:

- المسألة الأولي: إن إطلاق الحسن أو القبح Ugliness على الأفعال يتم باعتبارات ثلاثة:

١- الحسن Beaty ما وافق الغرض، والقبيح على ما خالفه.

٢- الحسن هو ما أمر الشارع بالثناء على فاعله وهو الحلال، والقبيح هو ما أمر الشارع بذم فاعله وهو الحرام.

٣- الحسن هو ما لفاعله ـ مع العلم به والقدرة عليه ـ أن يفعله دون حرج.

- المسألة الثانية: شكر المنعم واجب.

- المسألة الثالثة: تنقسم الأفعال إلى ما حسنه العقل، وما قبحه، وما لم يفصل العقل فيه بحسن ولا قبح، كما تنقسم إلى ما هو مباح، وواجب، ومندوب، وحرام، ومكروه.

- الأصل الثاني: حقيقة الحكم الشرعي وأقسامه:

حقيقة الحكم الشرعي هي خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد، وهو ستة فصول:

الفصل الأول: حقيقة الوجوب:

الوجوب في اللغة هو الثبوت والاستقرار، وفي العرف الشرعي هو ما يستحق تاركه العقاب على تركه (ص٨٦) وهو سبع مسائل:

- الأولي: الفرق بين الواجب والفرض: الواجب هو الثابت، أما الفرض فهو التقدير وقد يكونان بالمعنى نفسه.

- الثانية: واجب العين وواجب الكفاية: واجب العين لا يسقط بفعل الغير بخلاف واجب الكفاية Notobligatory if one does it

- الثالثة: الواجب Obligatory due ما لا يجوز تركه مع القدرة عليه.

الرابعة: وقت وجوب الفعل، قبل أنه أوله، وفعل الواجب بعد ذلك يكون قضاء، وقيل إن وقت الوجوب هو آخر الوقت وإلا فهو نفل يسقط به الفرض، وقيل إن الواجب يتعين بالفعل في أي وقت.

الخامسة: فعل الفرض خارج وقته فهو قضاء.

السادسة: تأخير فعل الواجب عن أول

الوقت فيه معصية.

السابعة: ما لا يتم الواجب إلا به ولا يوصف بالوجوب كالطهر للصلاة، فهو شرط لا يتم الواجب إلا به، فشرط الطهر ليس واجبًا وإنما الواجب الصلاة إذا وجد الشرط.

الفصل الثاني: المحظور:

المحظور أو المحرم Forbiden في اللغة هو ما كثرت آفاته، وفي الشرع هو ضد الواجب، ومن أسمائه المحرم والمعصية والذنب، وله ثلاث مسائل:

١- يجوز أن يكون المحرم أحد الأمرين لا واحدًا بعينه.

٢- استحالة الجمع بين المحظور والوجوب في فعل واحد، ويجوز انقسام الفعل الواحد إلى واجب وحرام كالسجود لله والسجود لصنم.

٣- المحرم مضاد للواجب.

الفصل الثالث: المندوب:

المندوب **Preferable but not obligable** وفي اللغة مأخوذ من الندب، وهو الدعاء إلى أمر مهم، وفي الشرع هو ما فعله خير من تركه، أو هو ما يمدح على فعله ولا يذم على تركه، أو هو المطلوب فعله شرعًا من غير ذم على تركه، وفيه مسألتان:

١- المندوب ليس مأمورًا به، ولا يسمى تاركه عاصيًا.

٢- هل المندوب من أحكام التكاليف؟ التكليف فيه كلفة ومشقة، بينما المندوب مساو للمباح في التخيير بين الفعل والترك من غير حرج، مع زيادة الثواب على الفعل.

الفصل الرابع: المكروه:

المكروه في اللغة مأخوذ من الكريهة وهي الشدة في الحرب، وفي الشرع: قد يراد به الحرام، أو ترك ما مصلحته راجحة، أو ما نهي عنه نهي تنزيه لا تحريم.

الفصل الخامس: المباح:

المباح Allawable في اللغة مشتق من الإباحة، وهي الإظهار والإعلان أو الإطلاق والإذن، وفي الشرع وهو ما خير المرء فيه بين فعله وتركه شرعًا، أو هو ما استوى جانباه في عدم الثواب والعقاب، وفيه خمس مسائل:

١- المباح هو ما انتفى الحرج عن فعله وتركه.

٢- المباح غير مأمور به.

٣- هل المباح داخل في مسمى الواجب؟ المحرم جائز الترك.

٤- هل المباح يدخل تحت التكليف؟ التكليف هو: طلب ما فيه كلفة ومشقة، بينما المباح ليس فيه كلفة لكونه مخيرًا بين الفعل والترك.

٥- هل المباح حسن أم لا؟ المباح حسن باعتبار موافقته للغرض، وليس باعتبار أنه مأمور بالثناء على فاعله.

الفصل السادس: الأحكام الثابتة بخطاب الوضع والأخبار:

وهي ستة أصناف:

١- الحكم على الوصف بكونه سببًا، السبب في اللغة هو: ما يمكن التوصل به إلى مقصود ما «السببية أو العلية Causality» (ص١١٠).

٢ـ الحكم على الوصف بكونه مانعًا.
٣ـ الشرط، كالطهارة للصلاة.
٤ـ الحكم بالصحة، الصحة في اللغة مقابل السقم، وفي الشرع هي: العبادات أو عقود المعاملات.
٥ـ الحكم بالبطلان، وهو الفاسد.
٦ـ العزيمة والرخصة، الرخصة ما أبيح فعله مع كونه حرامًا، والعزيمة عقد القلب على أمر ما.

ـ الأصل الثالث: المحكوم فيه:

هو الأفعال المكلف بها، وفيه خمس مسائل:

١ـ يمتنع التكليف Authorization بالجمع بين الضدين، وبالمستحيل، وبما لا يطاق Unability (ص١١٥).
٢ـ لا يشترط في التكليف بالفعل أن يكون شرطه حاصلا حالة التكليف؛ بل لا مانع من ورود التكليف بالمشروط وتقديم شرطه عليه.
٣ـ ممتثل التكليف مطيع، والطاعة حسنة، والحسنة مستلزمة الثواب.
٤ـ يجوز التكليف بالفعل قبل حدوثه ويمتنع بعد حدوثه.
٥ـ تجوز النيابة فيما كُلِّف به العبد من الأفعال البدنية.

الأصل الرابع: المحكوم عليه: وهو المُكلَّف، وفيه خمس مسائل:

١ـ شرط المكلف أن يكون عاقلاً فاهمًا للتكليف «راشد Adult» (ص١٢٩)؛ لأن التكليف خطاب، وخطاب من لا عقل له ولا فهم مُحال كالجماد والبهيمة والمجنون والصبي.
٢ـ جواز تكليف المعدوم؛ لأنه أسوأ حالاً من غير المكلفين السابقين؛ وذلك لعدم تهيئته لفهم الخطاب الموجه إليه.
٣ـ المُلجأ إلى الفعل بالإكراه لا يسعه تركه في جواز تكليفه بهذا الفعل.
٤ـ تكليف الحائض بالصوم واجب، فلو لم يكن واجبًا عليها فلِمَ وجب عليها قضاؤه؟
٥ـ إن المكلف بالفعل أو الترك يعلم كونه مكلفًا قبل التمكن من الامتثال.

***

* القاعدة الثانية: الدليل الشرعي وأقسامه وأحكامه وأصوله:

ينقسم الدليل الشرعي إلى صحيح في نفسه ويجب العمل به، وما ظن أنه دليل صحيح وليس كذلك.

القسم الأول: ما يجب العمل به: وهو ستة أصول:

ـ الأصل الأول: معنى الكتاب:

الكتاب هو: ما نقل إلينا بين دفتي المصحف، وهو القرآن المنزل على نبينا على لسان جبريل، وهو المحتج به شرعًا على الأحكام الشرعية، وهو خمس مسائل:

١ـ إن ما نقل من القرآن متواترًا فهو قرآن، أما ما هو آحاد فليس من القرآن.
٢ـ التسمية: آية من القرآن في سورة النمل، وليست آية في أول كل سورة.
٣ـ القرآن مشتمل على آيات محكمة وأخر متشابهة، والمحكمة هي ما ظهرت معناها، أما المتشابهة فما فيه احتمال.
٤ـ لا يشتمل القرآن على ما لا معنى له؛ لأنه كلام الله تعالى.

٥ـ يحتوي القرآن على ألفاظ مجازية، وعلى كلمات غير عربية.

ـ الأصل الثاني: السنة:

السنة في اللغة هي: الطريقة، وفي الشرع هي: العبادات الناقلة المنقولة عن الرسول ﷺ وتشتمل على مقدمتين وخمس مسائل:

المقدمة الأولى: عصمة الأنبياء:

الأنبياء قبل النبوة لا يمتنع عليهم المعصية كبيرة أو صغيرة، أما بعد النبوة فهم معصومون عن كل ما يخل بصدقهم في تبليغ الرسالة عن الله تعالى.

المقدمة الثانية: معنى التأسي والمتابعة والموافقة والمخالفة:

التأسي «الاقتداء» Modeling يكون بالغير في الفعل أو الترك، المتابعة قد تكون في القول أو في الفعل أو في الترك، والموافقة Agreement هي مشاركة أحد الشخصين للآخر في القول أو في الفعل أو في الترك أو في الاعتقاد، والمخالفة Disagreement قد تكون في القول أو في الفعل. أما المسائل الخمس فهي كالتالي:

١ـ هل أفعال النبي ﷺ دليل لشرع ذلك الفعل لنا؟ البعض يقول إنها محمولة على الوجوب، ومنهم من يقول مندوب أو مباح.
٢ـ اتباع النبي في أفعاله والتأسي به عبادة، وهي حب في الله.
٣ـ إذا فعل شخص فعلا، وسكت عنه النبي، فلا يدل ذلك على جوازه أو إباحته.
٤ـ أفعال الرسول إما متماثلة أو مختلفة.
٥ـ إن أكثر الأحكام مستندها أقوال الرسول وليس أفعاله.

ـ الأصل الثالث: الإجماع:

الإجماع Consensus (ص٢١١): في اللغة هو: العزم على الشيء والتصميم عليه، أو هو الاتفاق، ويتعلق بالإجماع سبع وعشرون مسألة وهي:

١ـ اختلف العلماء في تصور اتفاق أهل الحل والعقد على حكم واحد غير معلوم بالضرورة.
٢ـ من ادعى وجود الإجماع على حكم واحد فهو كاذب، وذلك لكثرة أهل الحل والعقد وتفرقهم في البلاد.
٣ـ الإجماع حجة شرعية، يجب العمل به على كل مسلم.
٤ـ الإجماع حجة على أنه لا اعتبار بموافقة من هو خارج عن الملة، ولا بمخالفته.
٥ـ لا اعتبار بموافقة العامي من أهل الملة في انعقاد الإجماع ولا بمخالفته.
٦ـ المجتهد إذا كان مبتدعًا فإما أن يكفر ببدعته؛ أو لا يكفر، وإذا كان فاسقًا فهو كالكافر والصبي، ولا يجوز تقليده فيما يفتي به.
٧ـ الإجماع ليس هو إجماع الصحابة؛ بل إجماع أهل كل عصر.
٨ـ إن سوغت الجماعة الاجتهاد في مذهب المخالف كان خلافه معتدًا به.
٩ـ التابعي إذا كان من أهل الاجتهاد في عصر الصحابة؛ هل ينعقد إجماع الصحابة مع مخالفته أم لا؟ انقسموا فريقين.
١٠ـ إجماع أهل المدينة لا يكون حجة على من خالفهم في حالة إجماعهم.
١١ـ لا يكفي في انعقاد الإجماع اتفاق

أهل البيت مع مخالفة غيرهم.

١٢ـ لا ينعقد إجماع الأئمة الأربعة مع وجود المخالف لهم من الصحابة.

١٣ـ الإجماع حجة Argumentation بدلالة العقل، وهو أن الجمع الكثير لا يتصور تواطؤهم على الخطأ.

١٤ـ إذا ذهب واحد من أهل الحل والعقد إلى حكم وعُرِف به أهل عصره ولم ينكر عليه منكر؛ يكون ذلك إجماعًا.

١٥ـ إذا ذهب واحد من أهل الحل والعقد إلى حكم في مسألة؛ ولم ينتشر بين أهل عصره لكنه لم يعرف له مخالف؛ فهو ليس بإجماع.

١٦ـ هل انقراض العصر شرط في انعقاد الإجماع أم لا؟ اختلف العلماء.

١٧ـ الأمة لا تجتمع على الحكم إلا عن مأخذ ومستند يوجب اجتماعها.

١٨ـ لا ينعقد الإجماع إلا عن مستند، سواء بالاجتهاد أو بالقياس Reasons.

١٩ـ إذا اختلف أهل العصر في مسألة على قولين؛ هل يجوز لمن بعدهم إحداث قول ثالث؟ ذهب الجمهور إلى المنع من ذلك.

٢٠ـ إذا استدل أهل العصر في مسألة بدليل أو تأولوا تأويلاً؛ فهل يجوز لمن بعدهم إحداث دليل أو تأويل آخر؟ إما أن يؤيدوه، أو يبطلوه، أو يسكتوا عنه.

٢١ـ إذا اختلف أهل عصر في مسألة على قولين؛ واستقر هذا الخلاف؛ فهل ينعقد إجماع من بعدهم على أحد القولين؟ ذهب الجمهور إلى المنع.

٢٢ـ إذا اختلفوا في مسألة على قولين؛ فهل يجوز اتفاقهم على أحد القولين والمنع من جواز المصير إلى القول الآخر؟ اختلفوا.

٢٣ـ هل يمكن وجود خبر أو دليل ولا معارض له وتشترك الأمة في عدم العلم به؟ الأمة غير مكلفة بالعمل بما لم يظهر لهم ولم يبلغهم.

٢٤ـ أمة محمد ﷺ لا يصدق عليهم الاتفاق على الخطأ.

٢٥ـ هل دية اليهودي مثل دية المسلم أم نصفها أم ثلثها؟ ديته الثلث.

٢٦ـ ثبوت الإجماع بخبر الواحد، بمعنى أن ما يثبت بخبر الواحد لا يكون إلا ظنيًا في سنده، وإن كان قطعيًا في متنه.

٢٧ـ إنكار حكم الإجماع الظني غير موجب للتكفير، أي لا يكفر جاحد الحكم المجمع عليه.

إلى هنا انتهى الجزء الأول، من المجلد الأول.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- لغة Language.
- تفكير Thinking.
- معنى Semantic.
- كلام Speech.
- تخاطب Communication.
- عقل Reason.
- عقاب Punishment.
- سببية أو علية Causality.
- قدرة Ability.
- وسع Capacity.
- استدلال Reasoning.

القائم بالعرض

د. صفاء إسماعيل مرسي

من ملامح العناية بالتلاوة

التأليف في معاجم مصطلحات التجويد

(صوتيات القرآن الكريم) أهدافها وخصائصها ومصادرها



أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

من الحقائق المستقرة بين الدارسين في الشرق والغرب القول بنشأة علم الصوتيات عند العرب بسبب خدمة الكتاب العزيز؛ ذلك أن الله تعالى كلف المؤمنين بحياطة كتابه من الوجوه كلها.

ولقد كان الأمر بتلاوته من أول ما أمر الله سبحانه في أكثر من موضع وبصيغ وأفعال مختلفة، جاء منها بصيغة الأمر العام:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾

(الكهف: ٢٧)

و قد جاء الأمر بترتيله في قوله تعالى:

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

(المزمل ٤)

وقد جاء الأمر بقراءته في قوله تعالى:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾

(المزمل ٢٠).

وربما أمكن أن نفهم في بعض ما توحي به هذه الأوامر التي جاءت في الذكر الحكيم الثاني في القراءة، وإحسان أداء القرآن الكريم، وهو المفهوم الذي استقر بما هو تعريف لمصطلح التجويد؛ يقول القرطبي في تفسير (الجامع لأحكام القرآن) (طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب، بالقاهرة سنة ١٩٨٧م) (١٩ / ٣٧)

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان.. والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام..و سمع علقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة؛ فقال: "لقد رتل القرآن"

وقد كان من بعض آثار هذه العناية بترتيله وتلاوته وحسن قراءته على الوجه المبين نشأة علم التجويد، الذي هو في بعض تعاريفه إعطاء كل حرف (صوت) حقه ومستحقه، وهو الأمر الذي تطور وترقى بالمعرفة بالصوتيات في الحضارة العربية الإسلامية.

وقد كان من آثار هذا التطور والترقي في ميدان العلم بالصوتيات -سبب في خدمة أداء الذكر الحكيم، وتلاوته، وترتيله - ظهور جهاز اصطلاحي متميز يعنى بضبط مفاهيم المعرفة الصوتية عند العرب؛ انعكست آثاره وتجلياته في أشكال متنوعة.

الوعي بطبيعة العلاقة بين المعرفة الصوتية العربية وخدمة قضية ترتيل القرآن الكريم

وقد كان الوعي بطبيعة العلاقة التي حكمت المعرفة الصوتية في التراث العربي بخدمة قضية ترتيل الذكر الحكيم واضحة تماما في ميدان التاريخ للدرس الصوتي، ودراساته، وهو الأمر الذي أصاب تواترا فاشيا بين الدارسين في الشرق والغرب على السواء، يقول الدكتور / غانم قدوري الحمد في دراسته الرائدة (الدراسات الصوتية عند علماء التجويد)(طبعة وزارة الأوقاف العراقية، بغداد ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م) (ص٧١): "وأول تلك العلوم التي ترتبط بعلم التجويد هو علم القراءات كلاهما يهتمان بنطق ألفاظ القرآن الكريم، وقد ميز علماء التجويد بشكل واضح بين العلمين من حيث المنهج ومن حيث الموضوع، أما المنهج فقد نصوا على أن كتب القراءات تعتمد على الرواية، وأن كتب التجويد تعتمد على الدراية المبنية على المشافهة ورياضة الألسن، وأما الموضوع فكتب القراءات تعنى برواية وجوه القراءات في نطق "كلمات القرآن" بينما كتب التجويد تعنى بكيفية أداء الألفاظ بإخراج الحروف من مخارجها وإعطائها حقها من صفاتها"، وهذه العلاقة الواضحة بين التجويد والنص العزيز مما تواتر بيانه في كتب القوم الأقدمين.

وفي العصر الحديث كذلك اتضح أمر هذه العلاقة عند المستشرقين الذين درسوا جانبا من عناية العرب في ميدان المعرفة الصوتية، على ما يظهر مثلا في تعليق المستشرق الألماني أرتور شاده في مقالته عن (علم الأصوات عند سيبويه؛ وعندنا) (طبعة الدكتور صبيح التميمي، صنعاء ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م) (ص ٣٠): "وإذا سأل سائل: ما هو الباعث الذي حث العرب على أصوات العربية وعلى إنشاء قواعد نطقها؟ أجبته: يظهر أن الباعث كان القرآن الشريف، فإن العجم الذين . سلموا في القرنين الأولين من قرون الإسلام كان يهمهم

للغاية أن يحسنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا أصواته نطقا عربيا خالصا، ولم يروا إلى ذلك سبيلا إلا بعد تعميق المطالعة لأصوات اللغة العربية وإحكام إنتاجها، فيظهر أن حدوث علم الأصوات عند العرب مقرون بنشوء علم التجويد".

من مجموع هذين النقلين يظهر أن ظهور علم صوتيات القرآن الكريم (الذي هو علم التجويد) يعد مفخرة من مفاخر التقدم العلمي عند العرب بسبب ظاهر ومباشر من إرادة خدمة أداء القرآن الكريم.

مصادر مصطلحات علم صوتيات القرآن الكريم

وقد تنوعت مصادر معرفة مصطلحات علم صوتيات الكتاب الكريم، الذي هو في بعض تصوراته علم صوتيات العربية إجمالا، حتى استقلت في صورة معاجم معاصرة تفرغت لخدمة المصطلح الصوتي العربي، وتقريبه للقارئ المعاصر من دون إخلال بطبيعته العلمية.

وبالإمكان أن نقرر أن عددا كبيرا من المصادر؛ كان قد اعتنى بالمصطلحات الصوتية والتجويدية قبل استقلالها في معجمات مختصة بها في العصور الأخيرة، وهو ما يمكن إجماله فيما يلي:

أولاً – مؤلفات النحو العربي الموسعة؛ ذلك أن أول ظهور في كتب النحو للعناية بالجهاز الاصطلاحي لعلم الصوتيات تمثل في جهود سيبويه تعيينا في كتابه الأشهر، وهو الأمر الذي نقل عنه من قبل من خلفه من النحاة العرب، من أمثال: الزمخشري ت ٥٣٨هـ في المفصل

وفي هذا السياق يمكن اعتبار من فصله ابن جني ت ٣٩٥ هـ في سر صناعة الإعراب من قبيل عناية الأدبيات النحوية بالمعنى الواسع بمعلومات الصوتيات العربية.

وربما أمكن إلحاق بعض المؤلفات البلاغية بما أوردته من عناية بالمعلومات الصوتية تتعلق ببيان بعض مباحثها، من مثل علاقة المخارج الصوتية بتحرير مفاهيم من مثل مفهوم الفصاحة في اللفظ، على ما نرى أمثلة لها في (سر الفصاحة)، لابن سنان الخفاجي ت ٤٤٦هـ، وفي (مفتاح العلوم) للسكاكي ت ٦٢٦هـ.

والحق قاض بأن نقرر أن أفكار سيبويه الصوتية التي هيمنت على كل من جاء بعده من علماء الصوتيات العربية – كانت تطويرا لأفكار أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٥هـ التي قدم بها بين يدي معجمه العين، بما هي واحد من مكونات منهج بناء هذا المعجم

ثانيًا – مصنفات القراءات؛ ذلك أن العلاقة بين علمي الصوتيات القرآنية الذي سُمي باسم علم التجويد، وعلم القراءات واضحة تماما يمثلان معا الوجه الأمثل للأداء القرآني من طريقين؛ أولهما: طريق الرواية عن مقام النبوة الكريم أصالة وابتداء، وهو ما اضطلع به علم القراءات، وآخرهما: طريق الدراية ودربة اللسان، وهو ما كان مشغلة التجويد والتجويديين خلال التاريخ.

وقد ظهرت العناية ببعض المعرفة الصوتية في كثير من أدبيات علم القراءات بسبب من مناقشة مذاهب القراء المختلفة حول عدد من

الظواهر الصوتية؛ كالإدغام، وأحوال نطق أصوات المد واللين، والموقف من نطق بعض الأصوات في المتواليات النطقية، ولا سيما ما يتعلق بنطق صوت الهمزة.

وأنت واجد أمثلة كثيرة على عناية أدبيات القراءات بالمعرفة الصوتية، منها ما يلي:

أ - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القيسي ت ٤٣٧هـ (انظر المواضع التالية: ١ / ٥٥؛ ٦٧؛ ٧٨) وغيرها.

ب - الاستكمال لبيان جميع ما يأتي في كتاب الله عز وجل من مذاهب القراء السبعة في التفخيم والإمالة، لابن غلبون ت ٣٨٩هـ، والعناية بالمصطلح الصوتي ظاهرة من عنوان الكتاب الذي حمل اثنين من مصطلحية الصوتيات القرآنية والعربية؛ وهما: التفخيم والإمالة؛ (انظر: المواضع التالية: ٣٤٥)

ج - حجة القراءات، لأبي زرعة بن زنجلة (انظر: ١٦٧؛ ٢٧٦؛ ٢٩٠؛ ٤٣٧) وغيرها.

ثالثا - مصنفات التجويد، ولعل أهم قائمة يمكن أن تعد مصدرا للعناية بمصطلحية صوتيات العربية عمومًا، وصوتيات الكتاب الكريم خصوصًا - هي قائمة مصنفات علم التجويد، بما هو علم يسعى إلى تحقيق إحسان قراءة الذكر الحكيم، وإتقان تلاوته جملة وتفصيلاً.

وهذه المصنفات - وإن تأخر ظهورها مقارنة بغيرها مما سبق ذكره - كاشفة عن جهود مكثفة متواصلة ممتدة منذ زمن التنزيل الكريم جاءت فجمعت مفرداتها، ونظمت متفرقها، بما واكب ذلك الجمع والتنظيم من اختراع جهاز اصطلاحي خادم لهذا العلم، ومن أشهر ما صدر محققًا من هذه القائمة ما يلي:

أ - كتاب التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، للسعيدي ت ٤٠٠هـ.

ب - اختلاف القراء في اللام والنون، للسعيدي أيضا ت ٤٠٠هـ.

ج - تجويد القراءة ومخارج الحروف، لابن وثيق الأندلسي ت ٦٤٥هـ.

د - التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري ت ٨٣٣هـ.

هـ - الطرازات المعلمة في شرح المقدمة، للأزهري ت ٨٧٠هـ.

و - جهد المقل، لساجقلي زاده ت ١١٥٠هـ.

وثمة عدد آخر من مصنفات التجويد المتأخرة، اتسمت بالإيجاز والغموض في كثير من الأحيان على ما يقرره الدكتور غانم قدوري الحمد في دراساته المهمة في هذا الميدان، وهذا العدد الآخر يأتي في مرتبة تالية لما تقدم من أمثلة كتب التجويد بسبب من هذا الإيجاز والغموض لا غير.

رابعًا - مصنفات صوتيات اللغة، وربما لا يقل أهمية عن القائمة المذكورة في الفقرة السابقة في ميدان خدمة المصطلح التجويدي ما يمكن التقاطه من قائمة ما ظهر عند العرب للعناية بأصوات العربية؛ ذلك أن هذا النوع من المصنفات تمثل مصدرا مهما من مصادر مصطلحية صوتيات العربية، وصوتيات القرآن الكريم بما توافر فيها من حديث عن مخارج أصوات العربية، وصفاتها، وطرق نطقها في أحيان أخرى، ومن أشهر ما وصل إلينا من هذه المصنفات الصوتية ما يلي:

أ - مخارج الحروف وصفاتها، لابن الطحان الإشبيلي ت ٥٦٠هـ.

ب - الدر المرصوف في وصف مخارج الحروف، لأبي المعالي الموصلي ت ٦٢١هـ.

خامسًا - مؤلفات علماء اللغة المعاصرين في مجال الدراسات الصوتية والتجويدية، وهذه القائمة - وهي طويلة - تمثل مصدرا مهما جدا في هذا الباب لأكثر من سبب؛ ذلك أنها تحاول تقريب هذه المفاهيم التجويدية التراثية للقارئ المعاصر، وتقدير حجم الإنجاز المعرفي الذي حققته مقارنة بما أنجزه العلم الحديث في الميدان نفسه، وفيما يلي أهم الدراسات المعاصرة في هذا الميدان:

أ - (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، للدكتور غانم قدوري الحمد.

ب - (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، للدكتور عبد العزيز علام

ج - (١٩٩٢م) فونولوجيا العربية والمصطلحات الصوتية عند علماء التجويد، للدكتور مصطفى التوني.

د - (١٩٩٤م) آليات النطق عند علماء التجويد، للدكتور مصطفى التوني.

هـ - (١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م) المدخل إلى علم أصوات العربية، للدكتور غانم قدوري الحمد وقد أقامه على تقدير منجز علم التجويد لدراسة الصوتيات العربية.

ومن الحق أن نقرر أن ثمة دراسات كثيرة جدا عرفها الدرس المعاصر في هذا الباب شرقا وغربا، وهو ما تواترت العناية بجزئيات فرعية صغيرة تواتر ظهورها في الدوريات اللسانية، وفي مؤلفات قصيرة توجهت نحو درس عدد من الظواهر التجويدية والصوتية، وحولها ظهرت العناية بمجموعة كبيرة من مصطلحات صوتيات العربية وصوتيات القرآن معا، وهو الأمر الذي يمكن معه تقدير أمثال الجهود التالية:

أ - أرتور شاده في (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا)

ب - جان كانتينو في (دروس في علم أصوات العربية)

ج - هنري فليش في (العربية الفصحى)

هذا بالإضافة إلى ما ظهر في كتابات الرواد من اللغويين العرب المعاصرين حول صوتيات اللغة، وإن لم يظهر فيها اعتمادا على مصادره التجويدية، من أمثال: إبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وسعد مصلوح، وكمال بشر، ورمضان عبد التواب، ومحمود السعران، وأحمد مختار عمر، عبد الصبور شاهين، وغانم قدوري الحمد، وغيرهم ولا شك أن ثمة مصادر أخرى من أمثال معاجم المصطلحات المتعددة العلوم، ومؤلفات البيان العربي في باب ما يلزم الخطيب تحصيله، والمؤلفات المعاصرة في علم الإلقاء وغيرها.

مجمل مظاهر العناية بمصطلحية الصوتيات القرآنية

وقارئ هذه المصادر المختلفة لمصطلحية أصوات العربية والقرآن يلمح عناية ظاهرة بعدد من المظاهر يمكن إجمالها فيما يلي:

أ - جمع المصطلحات الصوتية الخاصة بصوتيات اللغة وصوتيات القرآن الكريم.

ب - تصنيف المصطلحات في مجموعات منتظمة في إطار موضوعي، ومعرفي؛ بمعنى

جمع مصطلحات المخارج في إطار تصنيفي متميز من مصطلحات الصفات والسمات، وتصنيف مجموعة مصطلحات المخرج (الشدة والرخاوة والمزج والميوعة والتوسط) في إطار تصنيفي متميز من مصطلحات حالة مؤخرة اللسان مع سقف الحنك (التفخيم والترقيق) وغير ذلك من التصنيفات النوعية المختلفة.

ج - تحرير المصطلحات الصوتية؛ بمعنى ضبط ألفاظها، وتعريفها، وبيان حدودها وتحليل هذه التعريفات.

الجهود المعاصرة في خدمة مصطلحات الصوتيات العربية والقرآنية

[معاجم الصوتيات اللغوية والقرآنية المعاصرة]

ومع توافر ما ذكرناه من مصادر العناية بالجهاز الاصطلاحي الراعي للصوتيات القرآنية واللغوية على ما ظهر في الفقرات الخمسة السابقة؛ فإن ثمة وجها أكثر رونقًا ظهر في العصر الحديث للعناية بمصطلحية الصوتيات اللغوية والقرآنية، تمثلت في عدد مما يمكن أن يعد معاجم لمصطلحات الصوتيات العربية، منها ما يلي:

١ - المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، للدكتور عبد القادر مرعي الخليل، طبعة جامعة مؤتة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٢ - المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، للدكتور عبد العزيز الصيغ، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٣ - معجم الصوتيات، للدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي، طبعة ديوان الوقف السني العراق ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

صحيح أن ما ورد هنا الآن مما حمل عنوان (المصطلح الصوتي) هما في أصلهما دراستان علميتان، ولم يصمما على أنهما معجمان، ولكنهما صالحان لأن يعدا معجمين معاصرين لصوتيات اللغة عموما والقرآن خصوصا.

وقد رتب الدكتور عبد القادر مرعي معجمه ترتيبا موضوعيا تصنيفيا، بمعنى أنه صنع معجمه في صورة أبواب، جاء الأول لمصطلحات جهاز النطق ومخارج الأصوات، والثاني لمصطلحات جهاز السمع، والثالث لمصطلحات صفات الأصوات، والرابع لمصطلحات وظائف الأصوات.

وقريب من هذه المنهجية رتب الدكتور الصيغ كتابه، فصنع الفصل الأول لمصطلحات الجهاز الصوتي ـ أعضاءه ومخارجه ـ والفصل الثاني لصفات الأصوات، والثالث لمصطلحات النطقيات (الفونولوجيا)

وقد فاتهما معا صنع فهرس ألفبائي لمجموع ما حرراه وناقشاه وحللاه من مصطلحات صوتية، وقد كان ذلك لو كان جديرا بالتيسير على من أراد استعمال ما كتباه.

أما الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي، رحمه الله، فقد صمم كتابه ابتداء على ما ظهر من عنوانه في صورة معجم، وهو ما حمله على أن يرتب ما أورده من مصطلحات صوتية وتجويدية على وفاق الترتيب الألفبائي النهائي (أ ب ت ث ج ح...) تيسيرا على المستعملين، وهو المنهجية التي شاعت واطردت منذ زمن بعيد قديم في الصناعة المعجمية العربية حتى فشت، وكادت تلغي غيرها من المنهجيات الترتيبية في العصر الحديث، مضافا إليه عدم تجريد الألفاظ وإنما ترتيبها ألفبائيا وفق أشكالها المستعملة فعلا من دون تجريد أو رد للأصول.

وقد حرصت هذه المحاولات جميعا ولا سيما معجم الصوتيات على بيان ما يلي:

أ - المعنى اللغوي للفظ قبل الخوض في بيان معناه الاصطلاحي في علم التجويد أو الأصوات.

ب - المعنى الاصطلاحي الوارد في كتب القدماء من علماء الأصوات والتجويد العرب المسلمين.

ج - إضافة ما يراه المعاصرون من علماء اللغة والأصوات.

د - تقريب التعريفات والشروح بشكل يجعلها واضحة دون الإخلال بدقتها وانضباطها العلمي.

هـ - الإشارة إلى المجموعات الصوتية التي تندرج تحت مفهوم معين.

ومن أمثلة ذلك (مصطلح الشديدة) حيث يرى الدكتور عبد القادر مرعي والدكتور الصيغ يوردانه تحت مصطلح موضوعي جامع هو صفات الأصوات ثم يقرران أنه - على ما يعرفه القدماء - الصوت الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو تعريف سيبويه الذي هيمن على كل من جاء بعده فنقلوه عنه، ثم يتطرق الدارسان الكريمان فيقرران أن المعاصرين يعرفونه بأنه الصوت الذي ينتج من حبس الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع ما، ثم ينتج عن هذا الحبس انطلاق فجائي للهواء محدثا صوتا انفجاريا. ثم ينطلقان بعدها ليقررا الأصوات الشديدة قديما لتكون (أ، ج، د، ت، ط، ب، ق، ك) وأما في الصوتيات المعاصرة فيضيفون الضاد ويحذفون من القائمة القديمة (الجيم).

وهو الأمر الذي تجده كذلك في معجم الصوتيات للعبيدي في باب الشين.

وظائف معاجم الصوتيات العربية

وقد عكست هذه العناية بمصطلحية الصوتيات القرآنية والعربية عددا من الوظائف بدت ظاهرة تماما في خلفية وجودها، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ - الوظيفة الدينية التعبدية، ذلك أن الله تعالى أمر المؤمنين بترتيل كتابه على ما مر، ومن هنا ظهرت المصطلحات توصلا إلى تيسير الترتيل على الوجه المأثور.

ب - الوظيفة العلمية المعرفية اللسانية، وهو ما تجلى في تعريف المصطلحات وتحريرها، وفك التداخلات بين بعض منها توصلا إلى ضبط كل مصطلح على حدة، وهو ما يؤكد تقدم المعرفة اللغوية الاصطلاحية في الحركة العلمية العربية التراثية.

ج - الوظيفة التعليمية، ذلك أن هذا العلم أساسه التدريب والممارسة، وهو أمر كفيل بضرورة العناية بالجهاز الاصطلاحي تقريبا لمفاهيمه، وسعيا نحو تحديدها.

د - الوظيفة التاريخية، وهو الأمر الذي كان مقصوده بيان التطور الذي أصاب خدمة هذه المصطلحات خلال التاريخ العلمي في رحلة عنايته بعلم التجويد.

هـ - الوظيفة الحضارية، وهي الوظيفة التي تعني إبراز المنجز العلمي الذي قدمه المسلمون بفضل خدمة الكتاب الكريم لحركة العلم الإنساني.

وليس من شك في أن هذه العناية بجمع مصطلحات صوتيات القرآن خاصة، والعربية عموما يعد شكلا من أشكال العناية بأداء كتاب الله العزيز، ليتقرر مع مرور الزمن الأثر الجبار الذي أحدثه الكتاب الكريم في ترقية الحضارة العربية، والإسهام في تقدم المعرفة الإنسانية.

الإمام البخاري فقيهًا



فضيلة الشيخ/ عبدالمجيد صبح

تاريخ الأمم نبراس لبناء حاضرها ونور لمستقبلها، وتاريخ الأمم ينشئه ويعليه ويشيده أعلام نبلاء ـ وهؤلاء ـ عادة ـ قليل، ولكنه قليل يحقق ما لا تحققه الكثرة بما وهبهم الله من عبقرية مبتكرة أو عبقرية متولدة.

وأمتنا الإسلامية حظيت بالكثير من عباقرتها منذ أشرق نور الإسلام، وكان محمد ﷺ جماع هذه العبقريات وتخرج على يديه عباقرة في الدين والسياسة والفقه، والأدب، واللغة، وكان كل واحد منهم أمة وحده.

وعلى كر الغداة، ومر العشي ظهر المئون، بل ألوف من توابغ العلوم على تنوعها: علم الرواية، وعلم الدراية، وعلوم النفس والاجتماع، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية.

ولا تجد هذه الأعداد الوافرة بكثرتها، وتنوعها في أمة أخرى غير أمة المسلمين.

وكان هؤلاء بعلومهم المتنوعة نبراسا أخرج سائر الأمم من غشاوة الجهل، وظلمات التخلف إلى نور العلم بالنفس، والكون، والحياة.

ومن توابغ أمة المسلمين، في علم الرواية الإمام البخاري.

ولا يمتري أحد أنه حافظ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام في علم الرواية.

ومن شيوخه في علم الرواية مكي بن إبراهيم البلخي، وعبدان ابن عثمان المرزوي، وعبدالله ابن موسى العبسي، وأبوعاصم الشيباني، ومحمد بن عبدالله الأنصاري، ومحمد بن يوسف الفرياني، وغير هؤلاء، وكلهم أعلام في علوم الحديث.

فلا غرو إذا هطل الغيث على أرض طيبة خصبة أن تنبت علما كهؤلاء الأعلام، يفوق شيوخه، ويستدرك على بعضهم كما سيتبين في هذا البحث.

وسمع صحيح البخاري تسعون ألف رجل حسبك منهم الإمام أبوالحسين مسلم ابن حجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صاحب صحيح مسلم، والذي عندما التقى بالبخاري في بغداد بهره علمه، ودقة حفظه، أقبل عليه يقبله من رأسه إلى أخمصيه وهو

يقول: يا إمام الأئمة وسيد المحدثين.

والمشهور عند المؤرخين «للرجال» أن البخاري إمام المحدثين. بيد أني رأيته إمامًا في «الفقه» أيضا من «عنوانات صحيحه» ووجدته في بعض هذه العنوانات استدرك على أئمة أعلام، حتى إن صاحب كتاب «رفع الالتباس عن بعض الناس» جمع اثنتي عشرة قضية خالف فيها الإمام البخاري أبا حنيفة.

ومن خصيصة صحيح البخاري، وصحيح تلميذه الإمام مسلم أنهما شرطا على أنفسهما ألا يذكرا في صحيحيهما إلا الصحيح، إلا أن البخاري اشترط عند ذكر راو عن شيخه أن يكون قابله وأخذ منه مباشرة، غير أن الإمام مسلم اكتفى بأن يكون عاصره مع إمكان اللقاء. وهذا يُوجد الطمأنينة عند استشهاد علماء الفقه بحديث من الصحيحين. أما إذا كان غير مسند إليهما لزم توثيق الرواية، فإن كثيرًا من الفقهاء يروون أحاديث غير مسندة أخذ منهم كثيرون الحديث ولو لم يكن السند معتمدًا، مما جعل الإمام أبي داود يجمع الأحاديث التي استدل بها الفقهاء في «سننه» وجمع فيها الصحيح والحسن والصالح للعمل واتفق العلماء على اعتماد ما صححه وحسنه، واتفقوا على أن ما سكت عنه يكون في موضع القبول.

ومن هنا نعلم أن جلة العلماء يتابع بعضهم بعضا لتمحيص الحق، وصحة الرواية وحقيقة المسألة من غير تعصب. وإن كنا نجد قليلاً منهم يتعصبون لمذهبهم، وعلى سبيل المثال نقول: إن الحافظ الذهبي معروف بدقته في ترجمة الرجال ومما كتبه في ذلك ما كتبه عن سنن ابن ماجه، وذكر الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» والسخاوي في «فتح المغيث» أن الذهبي من أهل الاستقراء في نقد الرجال. أما تلميذه تاج الدين السبكي في كتابه «الطبقات» عند ترجمة «أحمد بن صالح المصري» قال: شيخنا الذهبي له علم وديانة غير أنه تحمل على أهل السنة المؤولين، فلا يجوز أن يعتمد عليه في قوله عنهم وغلب عليه «الإثبات» ونفى «التأويل» والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك فيه انحرافا شديدا عن أهل التنزيه وميلا قويا إلى أهل الإثبات.

وأقول: لو طبقنا مبدأ الحافظ الذهبي، في منافرة التأويل، لانطبق نقده على الإمام البخاري، حيث إن البخاري في كتاب التفسير من صحيحه قال في تفسير سورة القصص:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

(القصص: ٨٨)

قال: إلا ملكه، ويقال: ما أريد به وجه الله. قال ابن حزم في «الفصل ٢ ـ ٣٤٦» قوله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾

(الرحمن: ٢٧)

ذهب المجسمة إلى الاحتجاج بهذا في مذهبهم، وقال آخرون: وجه الله تعالى إنما يراد به: الله عز وجل. قال ابن حزم: وهذا هو الحق الذي قام البرهان على صحته لما أبطلنا من التجسيم. وباختيار ابن حزم لهذا الرأي يكون البخاري وابن حزم عند الذهبي موضع النقد. مع ملاحظة أن ابن حزم إمام الظاهرية.

التعريف بالإمام البخاري

هو الإمام القدوة في علوم الحديث واسمه الكامل: أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن

الإمام البخارى فقيهاً

إبراهيم بن المغيرة الجعفى البخارى.

مولده فى شوال سنة مائة وأربعة وتسعين، طلب الحديث منذ كان فى سن العاشرة وورد على بعض مشايخه فى سن الحادية عشرة، قال: جعلت أختلف إلى «الداخلى» وغيره، فقال الداخلى يومًا فيما كان يقرأ للناس: «سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم» فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرنى، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لى: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير عن عدى عن إبراهيم، قال: فأخذ القلم منى وأصلح كتابه .(ر. الموسوعة الإسلامية جـ٦ / ١٦١٦).

صحيح البخارى

واسمه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» وكعادة علماء الحديث من قبله ومن بعده رحل إلى بلدان كثيرة فى طلب الحديث واختار صحيحه من ستمائة ألف وقال: لم أُدخل فيه إلا الصحيح وأحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح. وبلغ من دقته أنه قبل أن يعلن صحيحه رجع إلى أكثر من ألف شيخ يعيشون فى أماكن بينها مئات الأميال مثل بلخ - مرو - نيسابور ومدن ما بين النهرين والحجاز ومصر وسوريا «د. بركات أحمد - محمد واليهود نظرة جديدة صـ٣٤ - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب».

وعدّ الناس عدد أحاديثه فبلغت أكثر من أربعة آلاف ولكن شارحه الأكبر الحافظ ابن حجر العسقلانى قال فى فتح البارى: والبخارى يذهب إلى جواز تقطيع الحديث إذا كان ما يفصله منه لا يتعلق بما قبله ولا بما بعده تعلقًا يفضى إلى فساد المعنى كحديث رأيت النار فإذا أكثر أهلها النساء وأوله خسفت الشمس على عهد رسول الله فذلك يوهم من لا يحفظ الحديث أن الحديث حديثان أو أكثر لاختلاف الابتداء وقد وقع فى ذلك من حكى أن عدته بغير تكرار أربعة آلاف أو نحوها كابن الصلاح والنووى، قال الحافظ: وليس الأمر كذلك بل عدته على التحرير ٢٥١٣ حديثًا.

شهادة العلماء للبخارى

حين قدم البخارى على مهرة محدثى بغداد ركبوا إسناد حديث على متن آخر، وقلبوا عليه ما هو من حديث سالم عن نافع، وما هو من حديث نافع عن سالم، وفعلوا ذلك فى نحو مائة حديث أو يزيد، فلما قرأها رد كل حديث إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، ولم يرج عليه موضع واحد مما قلبوه، وركبوه، فعظم عندهم جدًا، وعرفوا منزلته من هذا الشأن «راجع الباعث الحثيث: الحديث المقلوب تحقيق الشيخ شاكر».

والإمام البخارى مع فقهه بالحديث كان فقيهًا فى رجال صحيحه وإن اختلفوا معه فى المذهب السياسى فقد روى فى صحيحه فى كتاب الدعوات عن خالد بن مخلد وهو كما ذكر الحافظ فى مقدمة فتح البارى صـ٤٢٠: من كبار شيوخ البخارى روى عنه وروى عن واحد عنه، وهو ثقة فيه تشيع.

وقال أحمد بن حنبل له مناكير. قلت: وتعلق بكلمة الإمام أحمد المفرطون فى المذهب وعابوا على البخارى روايته عنه فى حين أن مناكير خالد بن مخلد التى ذكرها «أبو أحمد بن عدى فى الكامل» لم يرو البخارى منها شيئًا فلا صحة للتعلق بها.

وممن روى عنهم البخارى من الشيعة عباد ابن يعقوب فى كتاب التوحيد وهو شيخه المباشر وهو شيعى رافضى، وروى بسنده عن أبى الطفيل فى كتاب العلم باب من خص قومًا بالعلم، وأبو الطفيل شيعى رافضى حضر مع أمير المؤمنين على رضى الله عنه المشاهد كلها وكان يفضله على الشيخين أبى بكر وعمر.

وكما روى البخارى عن الشيعة روى عن الخوارج، فروى عن عمران بن حصين جاء فى كتاب «العباسى ١٠ / ٢٣٨» قال عن أبى داود: ليس فى أهل الأهواء أصح حديث من الخوارج وذكره ابن حبان فى الثقات «الحافظ - تهذيب التهذيب» لعل فى هذا عبرة وعظة لقوم يعيبون كرامًا بررة وعلماء فضلاء لمجرد ظنهم سقطة لأحدهم ويمحون الرجل كله لما زعموه، وأيسر خطيئتهم: «نظرهم جزئيًا وحكمهم كليًا» هذا لو صحت الجزئية فما بالكم إذا كانت غير صحيحة!

الكمال لله وحده

أ - روى البخارى فى كتاب التوحيد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتى وقال للنار: أنت عذابى أصيب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدًا وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ثلاثًا حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قط قط» فقوله ينشئ للنار خلقًا.

قال الحافظ: المحفوظ أن الله ينشئ للجنة خلقًا، وجزم ابن القيم بأنه خطأ وقال فى «حادى الأرواح» ويبقى فى الجنة فضل «يقصد أماكن خالية فيخلق الله لها خلقا» وقال قوم: هو مقلوب فلا يحتج به. ا.هـ.

قلت: ونص القرآن يرده فى قوله:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(هود: ١١٩)

قلت: وقواعد القرآن فى أن الله لا يعذب إلا من فعل موجب العذاب ولم يغفر الله له.

ب - روى البخارى فى كتاب الزكاة «٣ / ٢٢٢» عن عائشة رضى الله عنها: أن بعض أزواج النبى ﷺ قلن للنبى ﷺ: أينا أسرع بك لحوقا؟ قال: «أطولكن يدًا» فأخذن قصبة يذرعون أيديهن بها، فكانت سودة أطولهن يدًا. فعلمن بعد أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لُحوقًا به، وكانت تحب الصدقة.

قلت: الصواب أن من لحقت به إنما هى زينب بنت جحش وليست سودة، وكانت زينب أقصرهن طولاً، ويدًا، فلم يظنوا أنها مراده، ثم لما ماتت وكانت أول من لحقن به ﷺ علمن أن طول اليد لم يكن على ظاهره وإنما كان مجازًا عن العطاء والتصدق. وكانت زينب صناع اليدين وتدبغ وتخرز وتتصدق وهذا سهو فى الرواية. قال الحافظ: الصواب أنها زينب. «فتح البارى وفى الإصابة فى معرفة الصحابة».

وفى كتاب مناقب أمهات المؤمنين ص١٢٨ وقال: بأنها زينب وأيده صحيح مسلم «المختصر ٤ / ١٢٧، وزاد المعاد ١ / ١١٤».

«يتبع»

دلائل الإعجاز فى مقاصد الشريعة



أ. د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ملكة العقل لكل البشر

العقل: وهو الأداة الضابطة لحركة الإنسان، والموجهة لتصرفاته، ومواطن الوعى، والفكر فيه، يلقى الاهتمام الجدير به، مناطه أن الله تعالى خلق الناس، وركب فيهم العقول، والأفئدة لتكون نفوس البشر مهيأة لإدراك الأشياء، ومستعدة لتمييز ما هو صحيح مفيد، وما هو فاسد ضار فيستطيع أن يرشد نظام الحياة وشئون الاجتماع ويرسى القواعد التى تكفل السداد والرشاد، وتعتصم بالمشروعية فى تدبير الأمور، وتسيير حركة الحياة، على أسس رصينة وعادلة.

وبهذه الخاصية المدركة والضابطة للأمور، يصنف الإنسان بأنه كائن عاقل، بالنظر إلى أن هذه القوى الواعية فيه، قد أهلته ليكون خليفة عن مالك الكون بما فيه ومن فيه، وجعلت وجوده فيه ضرورة حياتية، كى يقوم بواجب الخلافة عن الخالق الأعظم، فى العبادة الحقة لله صاحب الملك والملكوت، وفى تنمية الكون وتعميره، وإصلاح شأنه بالعقل الذى زوده به، وأودع فيه من الملكات والإمكانيات التى تؤهله لاكتشاف السنن والنواميس الإلهية، التى تؤهله للتقدم والارتقاء وتجعله يحق سيد هذا الكون.

ويقينًا فإن وجود العقل فى كل فرد أمده الله به بصفته الآدمية، وعلى قدم المساواة فى أصل الخلق، بلا تمييز بين إنسان وآخر، فالكل خلقهم الله تعالى عقلاء، يتمتعون بهذه الملكة المزودة بخاصية العلم والمعرفة، وبها تبوأ الإنسان المنزلة الرفيعة والمكانة العالية على سائر الأجناس والأنواع الأخرى، بلا تفرقة بين الكائنات الحية أو غير الحية.

وبلغ الإنعام الإلهى على الإنسان بأن رفعه على الملائكة بأصولهم النورانية بالرغم أن أصل الناس من تراب، لكنه العقل والعلم والمعرفة الذى أنعم الله سبحانه به عليه.

وقد سجل القرآن هذه الحقيقة التفضيلية لآدم على الملائكة فى قول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة: ٣٠، ٣٣)

وهذا التكريم الذى مناطه العقل أداة العلم والمعرفة، هو الذى رفع الإنسان مكانًا عليا عند الله وبين المخلوقات جميعًا، وسما به إلى الآفاق العالية، مما استوجب عليه أن يقوم بالمهام والتكاليف التى وجد من أجلها فى هذه الحياة، لوجود العقل المفكر، وملكة الفهم لديه.

ومن منطلق أن البشر جميعًا خلق الله، وهم عباده، فإنهم قد رزقوا العقل، وتمتعوا بالقدرة على التفكير، بلا تمييز فى أصل العقل، وبلا تفرقة بينهم على أساس الدين أو الجنس أو اللون أو اللغة أو الهيئة الاجتماعية، وكذلك كانت الأمم على هذا النمط فى الإنعام عليها بلا تميز.

ولا يقدح فى ذلك أن خلق الله القدرات العقلية تختلف من شخص لآخر، إذ تتفاوت الحظوظ، وتتباين العقول فى الإفهام، واستطاعة الإدراك، ودرجة العلم، ومراتب المعرفة، وإنما كان ذلك كذلك من أجل التنافس فى التحصيل، والتسابق على طريق العلم والعمل، فشأن هذا الاختلاف شأن غيره من حظوظ التفاوت فى الإنعامات الأخرى، الكامنة فى الإمكانات الجسدية والروحية فإنها ليست سواء فى كل الناس.

لذلك يلحظ من يتأمل أحوال الناس أنهم ليسوا سواء فى الإمكانات والاستعدادات البشرية، وإن كانوا يتمتعون بها من حيث أصل الخلقة، فإن الذكاء قد يختلف من شخص لآخر، والقوة البدنية قد تكون أقوى لدى الغبى عن الذكى، كما تختلف قوى الحواس المتمثلة فى السمع والبصر واللمس والذوق والشم بين فرد وآخر، فقد جاء هذا التفاوت لحكمة ومشيئة عليا، بغرض التكامل بين الجنس البشرى، والتعاون فيما بين الأفراد بعضهم ببعض وبين الأمم والشعوب.

منزلة العقل فى المقاصد

اهتم الشارع بالعقل، وضمنه فى كليات الشرع، ومقاصده العليا على سند من أن نصوص الشريعة قد نبهت إليه، واستفزت قواه الواعية المدركة وحفزت إلى الفهم العميق، والاستخلاص الدقيق للنصوص والتفكير فى الملكوت، والكون الذى يحيا فيه كل ما خلق الله.

والناظر فى الخطاب القرآنى، يجد فيه التنوع فى الأوجه والأسلوب لإعلاء قيمة العقل واستنهاض القوى الفاعلة فيه، نخص منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(آل عمران: ١٩٠)

فأصحاب العقول الراجحة هم المؤهلون لإدراك الظواهر الكونية.

لذلك قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

(العنكبوت: ٤٣)

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(الحشر: ٢)

وتلك نماذج تدل على وضعية العقل، والاحتفاء به، وهى قليل من كثير، وفيها الدلالة على اعتباره، واستخدامه كوسيلة لمعرفة أحكام الشرع، بل هو مصدر من مصادر الشريعة عند التحقيق، إذ أن أصول الشريعة تنبنى على أصلين نقل وعقل، وهو ما يذهب إليه صاحب المستصفى، فقد جعل الأصل الرابع: دليل العقل والاستصحاب ونص كلامه(١)، وأما العقل فنعنى به مستند النفى الأصلى للأحكام فإن العقل قد دل على نفى الحرج فى الأقوال والأفعال، على تلك الأحكام عنها من صور لا نهاية لها.

إذا ثبت ذلك فلا يجوز أن يقول قائل بأن الشرع لا يشهد للعقل ولا يدل عليه، وأنه لا حاجة إليه، بسبب كفاية المصادر الثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع، فإن هذه المقولة معارضة بالأمر بالنظر والاعتبار بالنصوص التى أشرنا إلى بعضها، وإذا كانت هذه الشريعة حقا وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له"(٢).

فالعقل فى استقامته وفطرته السوية يعضد الشرع ويلتقى معه، والشرع يرشد إلى العقل ويقره ولا ينكره؛ لأنه لا تعارض بين العقل والشرع، وكل ما يبدا خلاف ذلك فإن التوفيق بينهما ممكن، والتلاقى حاصل.

يؤيد ذلك ما قرره محمد عبده بقوله(٣): اتفق أهل الملة إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان، طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى عمله، والطريق الثانية: تأويل العقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ مهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد.

(١) الغزالى: المستصفى فى علم الأصول، ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية.
(٢) ابن رشد: فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ٢٠٠١م، ص ٤٨.
(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ١٩٥٤م، ص ٥٢، ٥٣.

والحق الذى يتعين المصير إليه، على هدى الفاقهين للشريعة ومقاصدها وجوب إحاطة العقل بضمانات تكفل الصحة والسلامة، لكى يعبر عن التوجه الإسلامى فى قضايا الدين والحياة، وهى القضايا التى أجملتها المقاصد فى رعايتها لحقوق الإنسان وما يجب أن تكون عليه شئون الاجتماع البشرى، من الرعاية والحماية اللازمة للحفاظ على حقوق الفرد والجماعة.

إن الاعتراف باستحقاقات العقل ودوره الفاعل فى عملية استنباط الحكم الشرعى، تظهر جلية فى أنه الطريق لفهم النص والتعرف على دلالته القطعية أو الظنية فى القرآن الكريم والسنة، إلى جانب وجود أكثر من مصدر لأحكام الشريعة تعتمد على العقل، مثل القياس والاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف، وهو ما يدل قطعًا على المنزلة التى يتبوأها العقل فى بنيان الشريعة، الأمر الذى جعل المحافظة على العقل من أصول المقاصد العامة للشريعة.

وفى المجال الجزائى، فرضت الشريعة عقوبة على الاعتداء على العقل، والمساس به على نحو يشوش أداءه أو يعطل وظائفه، لما فى ذلك من إخلال بميزان الاعتدال ومعيار الاتزان فى النفس البشرية، لذلك كان انتهاك حرمة قطب الفكر والفهم فى الانسان، بتعاطى الخمر والعقاقير المخدرة. أن جعل المعتدى مرتكبًا لجريمة من جرائم الحدود، وشرع لها الرسول ﷺ عقوبة الجلد، على مقترفها بالسنة الفعلية، وقدرها عمر بن الخطاب بثمانين جلدة.

وفى تصنيف الجريمة على أنها جريمة حدية، ما يعلى قيمة العقل أن فيها انتهاكًا لحق الله تعالى، وتمثل خروجًا على النظام العام فى المجتمع الإسلامى.

وثمة ملحظ آخر، يؤكد على قيمة هذا التقدير للعقل، أن طريق العلم والابتكار الذى أمكن بواسطته بناء النظم والحضارات، وتشييد العديد من المدنيات، خاصة فى عصر التقنية والمعلوماتية التى أفرزتها المدنية الحديثة، بواسطة العقل الجمعى للإنسان المعاصر، الذى أوتى الحظ الأوفر من العلم والمعرفة وهو يفرض على المسلم أن يستنفر عقله، على هدى المقاصد الشرعية، والسبق الحضارى الذى كان عليه فى عصر الريادة الإسلامية.

العرض والنسل

الفضل والشرف والعرض من القيم التى أولاها الإسلام المكانة القدسية، حيث أحاطها بسياج من الرعاية والحصانة، يتأتى فى اهتمام الشريعة بفضيلة العفاف والطهارة، باعتبارها سمة أساسية من سمات المجتمع الإسلامى، وملمحًا من ملامح العلاقة التنظيمية بين الرجل والمرأة، تلك العلاقة القائمة على الاحترام المتبادل فى إطار التصون والتحصين ضد العلاقات غير المشروعة.

وتقطع الشريعة شوطًا واسعًا نحو إعلاء شأن الفضيلة والعفاف، بما لم يسبقها فيها شريعة أو نظام قانونى آخر، وذلك

مرده إلى نموذج علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام، فهي علاقة مبناها الحفاظ على الخصوصية، والتأكيد على التصدي ومكافحة صور الانحراف في العلاقة بينهما، والقيام بواجب حفظ النوع من خلال تقرير المسئولية عن تربية النشء، والحد من ظاهرة أطفال الشوارع.

ولعل الملحظ الذي يكشف عن فلسفة الشريعة في إضفاء القدسية على حق المجتمع، يتجلى في جعله ضمن حقوق الله تعالى، وجعل حماية العرض والشرف واجبًا فرديًا ومجتمعيًا، والعمل على الحفاظ على نقاء النسل، وتفريد العلاقة، وتأصيل نسبة الطفل إلى أبويه الحقيقيين كحتمية ضميرية ومسئولية أسرية تتعلق بالنظام العام في المجتمع الإسلامي، ومغزى هذا الاهتمام الإسلامي تأصيل فكرة شرعية النسل ومسئولية الفرد والجماعة والنظام عن ترسيخ هذا الحق، وأقوى مظهر عليه، منع تلويث الأعراض، وابتذال الشرف، واختلاط الأنساب، والمبادأة بإقرار ضوابط وقيود لبلوغ هذا الهدف، وتهيئة الظروف الداعمة له من غرس القيم الأخلاقية بين أفراد المجتمع، وهي فكرة أصيلة في فقه الشريعة بصفة عامة، وفي فقه المقاصد بصفة خاصة كونها تحول دون الخطأ، وتجهض مفاسده، وتخلق مجتمعًا يغرس الرقابة الذاتية، والحراسة الضميرية، وهو ما تفتقر إليه فلسفة النظم القانونية الوضعية، لغياب وازع الخشية من الله تعالى، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويقظة الضمير والفؤاد النابعة من فقه الدين، وصلاح النظام، وتوزان الصحة العاطفية والجنسية والإنجابية، وغرض الشريعة من الاهتمام بالشرف والفضيلة، أنها تريد إخلاء المجتمع من الفساد وامتهان قيمة الطهارة والعفة، وعدم التعرض لها، بالاعتداء أو خدش للحياء، أو تلصص على مواضع العورات، فضلاً عن التورط في مقدمات جريمة انتهاك حرمة العرض، وبالطبع خطيئة اقتراف جريمة الزنا أو اللواط أو الاغتصاب أو الفعل الفاضح، مما اصطلح على أنه جرائم الشرف والعرض.

فقد أحكم الشارع هذه الدائرة، ووضع ما تنطوي عليه من أفعال أو ممارسات صغرت أو كبرت ووضعها في دائرة التجريم، بسبب الحرص البالغ على إقامة المجتمع الصالح، بدأ من العائلة وأهل البيت النبوي:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

(الأحزاب: ٣٣)

وامتدادا بالبيت والشارع والجماعة في غدوها ورواحها، وهو النمط الذي ينبغي أن يسود على مستوى المجتمع الإسلامي، بغرض تكريس هذا النموذج في كل العلاقات بين الرجل والمرأة، وفي الاجتماع الإنساني.

ولا شك أن تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة، وإضفاء الشرعية الدينية، يأتي اعترافًا وتنظيمًا للغريزة، في نطاق المشروعية الإسلامية، جعل من تقنينها، وإعلام الناس بها، ضمانة لطهارة العلاقات

الفطرية، وإشعارًا بالحفاظ على الملمح الحضاري في تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان وسائر الكائنات الأخرى.

وإظهارًا لخطورة العرض والنسل البشري، وصيانة للشرف والطهارة في النفس الإنسانية، وضمانًا لإقامة صرح مجتمع ومدنية فاضلة، أحاط المشرع الإسلامي هذا المقصد النبيل بضمانات ومصدات تقيه من التعدي عليه، وتوفر له سياجًا حصينًا يحقق لأطرافه عنصر الأمان والأمن الوجداني، والجسدي للمرأة والرجل والأبناء والذرية، مما يكون الأساس المتين لبناء المجتمع النظيف القوي المتماسك.

وتخلص طريقة الشريعة في بلوغ هذه الغاية بتقرير وسائل وتدابير مانعة من الاعتداء على حرمة العرض والنسب، ووسائل فعالة لمعالجة التداعيات الناجمة عن الانزلاق في حمأة الجريمة.

الأساليب والتدابير الواقية للعرض والشرف

تبرز هذه الأساليب في جملة من النواهي التي تتجه إلى سد المنافذ والطرق التي تهيئ الظروف للوقوع في الأعراض أو الاعتداء عليها، منها تحريم النظر، فإنها قد تكون خطوة على طريق التلاقي والاقتراب بين الرجل والمرأة، الأمر الذي قد يجعلها مقدمة للخوض فيما هو أكثر خطرًا، كذلك الخلوة فهي ممنوعة، لما فيها من اقتراب للمحظور، وبالطبع فإن المخالطة الممنوعة تندرج ضمن المحرم، وقد تؤدي إلى المحظور، وتمهد للتورط في الفاحشة.

هذه الأفعال يعدها الشرع من المعاصي بذاتها، متى كانت مقصودة مصحوبة بالنية والعزم المصمم على الاستجابة لدواعيها فهي من الفواحش المنهي عنها:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(الأنعام: ١٥١)

وقد أحاط الشرع حماية العرض بإجراءات ووسائل تحاجز بين أصحاب النفوس المريضة وبين بلوغ مآربهم في التورط في مزالق الجريمة، وغلظ العقاب لردع من تسول له نفسه إشاعة الفاحشة عن طريق تشريع الحدود، وهي زواجر وضعها الله تعالى للردع من ارتكاب ما حظر وترك ما أمر به، لما في الطبع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة فجعل الله من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذرًا من ألم العقوبة، وخيفة من نكال الفضيحة ليكون ما حظر من محارمه ممنوعًا، وما أمر به من فروضه متبوعًا، فتكون المصلحة أعم والتكليف أتم (٤).

ويقينا فإن توقيع عقوبة التعزير أو الحد على من دنس العرض ونال من شرف المعتدى عليه، كفيل بتحقيق الردع العام لكل من تسول له نفسه بالوقوع في أعراض الناس والردع الخاص لمن اجترأ وتورط في

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ١٩٧٣م، ص ٢٢١.

الفاحشة، وهو ما ينتج عنه سلامة العرض وصيانة الشرف وردع هؤلاء الذين يشيعون الفاحشة من منطلق أنه مطلب جوهري، ومقصد من مقاصد الشريعة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

(النور: ١٩)

وتتنامى أهمية الحفاظ على الطهارة والعفاف، بإدراج الجريمة إلى مصاف الحدود، بما يجعل الجاني منتهكا لحق من حقوق الله، وحق المجتمع وهو ما يرتفع بالحق في حماية العرض إلى أقصى مدى، لما في توفير هذه الحماية من تحقيق المقصد الشرعي في الطهر والفضيلة، والوقوف بحزم ضد المنتهكين للأعراض وغرس الوازع الديني لدى كل فرد، وكذا الوصول إلى الهدف الاجتماعي في تحصين العرض وتقوية المناعة، ودعم صرح المجتمع، والنأي به عن الانحلال واختلاط الأنساب.

عمومية الحفاظ على الأعراض

إذا كان الشرف وسلامة العرض لصيقًا بشخصية الإنسان، وكلاً لا يتجزأ، فلا يمكن النظر إلى أن حساسية الشريعة بشأن الاعتداء أو المساس بالعرض على أي شكل من الأشكال، مسألة قاصرة على المرأة المسلمة والرجل المسلم، والأسرة المسلمة، فإن الشريعة ترغب في امتداد هذا النموذج للتطهير والعفاف إلى كل علاقة إنسانية لا فرق بين المسلم، وغير المسلم، فالكل في حق الفضيلة والعفاف سواء.

ومفاد ذلك، تجريم كل اعتداء على غير المسلم، أو المساس بمواضع العورة لديه، إذ هي مصونة وتتمتع بالحصانة؛ لأن حماية عرض غير المسلم واجب معتبر، بسبب أن الحياء خلق إسلامي أصيل، أساسه حديث الرسول ﷺ إن لكل دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء(٥)

والحياء كامن في الطبيعة البشرية لا ينفك عنها، إذ أن لكل إنسان قدرًا من هذا الحياء على قدر دينه وأريحيته ومروءته، يتباين ظهوره وقت الظروف العصيبة والمواقف المخجلة والمربكة، لذلك صح القول: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، إعلاء لقيمة الحياء، واهتمامًا بأمره، واستنفارًا لوجوده، وتعظيمه لدى كل إنسان، إذ الحياء عنوان الأدب الرفيع، والخلق الحسن، ومكون من مكونات الإيمان.

فيما جاء عن الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»(٦)، والعفاف، قرين الحياء وصيانته حق لكل إنسان لا فرق بين شخص وآخر، مما يقتضي حماية ذلك الحق للشخص بغض النظر عن دينه وجنسه ولونه ونوعه ومكان وجوده؛ لأنه من خصوصيات كل إنسان.

(٥) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٢٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، باب الحياء.

(٦) صحيح البخاري، الإيمان، حديث رقم ٩ عن أبي هريرة صحيح مسلم، حديث رقم ١٦١، عن أبي هريرة

تقرير علمي عن كتاب «الإسلام وإنسانية الدولة» تأليف الدكتور سعد الدين هلالي

للأستاذ الدكتور محمد رأفت عثمان

الكتاب مكون من أربعة فصول وخاتمة
الفصل الأول في التعريف بالدولة، ومقوماتها، ووظيفتها، ونظامها في التاريخ الإسلامي.. والفصل الثاني في التعريف بالدين، ومقوماته ووظيفته، وهيكله، ونظامه المرجعي، والفصل الثالث في شبهات تعارض الدين والدولة.. والفصل الرابع في الوصايا العشر لفك تعارض الدين والدولة.. والخاتمة فيها خلاصة فكرة الكتاب، والمبادرة الإسلامية بمشروع الدولة الإسلامية.. ونوجز الملاحظات فيما يأتي:

أولاً: إعطاء المؤلف لعامة الناس حق اختيار الفتاوى:

في ص ٩ يقول المؤلف: «ويبشر النبي ﷺ كل مجتهد على قدر استطاعته، إن كان من أهل الدليل فبالنظر في النصوص ودلالاتها، وإن كان من العامة فبالاختيار من الأقوال الفقهية بحسب المصلحة أو الطمأنينة.

ونلاحظ هنا أن المؤلف قد أعطى الناس حق الاختيار بين الأقوال الفقهية بحسب مصلحتهم، أو بما يطمئنون إليه، وهذا يتنافى مع ما بينه العلماء من أن المقلد يجب عليه أن يأخذ الفتوى ممن وثق بعلمه وورعه، ومذهب المقلد هو مذهب من أفتاه.

ثانيًا: نفي أن تكون الدولة قائمة برسالة دينية:

ويقول المؤلف في ص ١٨: «ويحاول البعض أن يجعل من وظيفة الدولة القيام برسالة دينية معينة، فضلا عن العدل الإنساني، وهذا من أسباب تعقيد العلاقة بين الدين والدولة، فبدلاً من أن يكون الدين رسالة لهداية الإنسان بالحكمة والموعظة الحسنة يتجه البعض إلى جعل الدين سلطانًا قاهرًا».

وفي ص ٢٠ يقول: «والمتأمل في الآيات القرآنية سالفة الذكر يراها مبينة لفضل العدل في الحكم، وأنه لا يستقيم إلا به، وأن إقامة العدل واجب يعرفه أهل الفضل من الناس، ولا دلالة فيها على أن المسلم إن تمكن من الحكم حمل الناس على الالتزام الديني، وإلا كان هذا

معارضًا للنصوص المانعة من الإكراه في الدين مبتدعًا لأمر لم يفعله الرسول ﷺ.

وهذا من المؤلف يتناقض مع ما أمر الله عز وجل به رسوله ﷺ من الحكم بين الناس بما أنزل الله، قال تعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾

«المائدة: ٤٩»

وقال عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

«الأحزاب: ٣٦»

ثالثًا: ادعاؤه أنه ليس من وظيفة الدولة الإسلامية ترجمة وظيفة الرسل إلى برامج إلزامية:

وفي ص ٢١ يقول المؤلف: «ومن هنا لم تكن من وظيفة الدولة الحاضنة للأجساد، والأموال، والأعراض، والعقول، والأديان – وهي المقاصد الشرعية الخمسة – أن تترجم وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية، وتحمل الناس على ما لم يقم به الرسل صلوات الله عليهم أجمعين» ونقول: لو لم يكن من وظيفة الدولة الإسلامية أن تترجم وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية، فلماذا أمر الرسول ﷺ بإقامة الحد في جريمة الزنا، وأمر بقطع يد السارق، وقال: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها، وأمر أن تطبق عقوبة السرقة على المرأة المخزومية، وفي مجال نفقة الزوجة قال ﷺ لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، وفي مجال تقسيم التركات يلزمنا الله عز وجل بنظام في التقسيم لا يجوز العدول عنه.

رابعًا: ادعاؤه أن الدين ليس له حاكمية في الأرض:

يقول المؤلف في ص ٣٩: «ويحاول البعض أن يجعل من وظيفة الدين الحاكمية في الأرض وهذا من أسباب تعقيد العلاقة بين الدين والدولة».

ونقول هذا خطأ لأن الدين ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه إلا لتنظيم كافة أنواع السلوك الإنساني، فهو الحاكم في كل تصرفات الإنسان، فالحكم في الإسلام ليس ضرورة اجتماعية فقط يخضع الناس في ظلها لقواعد تنظم سلوكهم بحسب مصالحهم السياسية والاجتماعية بعيدًا عن الأحكام الشرعية، لأن نظامًا كهذا هو كما يقول ابن خلدون: نظر بغير نور الله:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

«النور: ٤٠»

لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم» «مقدمة ابن خلدون ص ٥٩».

خامسًا: الادعاء بأن فتاوى الفقهاء المختلفة ليست دينية ولا شرعية:

في ص ٦٧ يصرح بأن الأحكام التي اختلف فيها الفقهاء لا توصف بأنها أحكام دينية أو شرعية، وإنما هي في رأيه أحكام فقهية.

ونقول: إذا لم تكن الأحكام التي أبداها الفقهاء توصف بالشرعية، فكيف يجرؤون على إبداء أحكام تتوقف عليها صحة العبادات من صلاة أو زكاة، أو حج، أو معاملات، أو عقوبات، كيف يقول فقيه أن مسح الرأس في الوضوء يكفي فيه البعض، أو يقول آخر لابد من ربع الرأس، ويقول ثالث لا بد من مسح الرأس كلها، أليست هذه أحكامًا شرعية يترتب عليها في ظن الفقيه صحة الوضوء، وكيف يجرؤ فقيه أن يقول لا تصح الصلاة إلا بقراءة الفاتحة، ويقول آخر تصح لو قرأ أي قرآن، أليست هذه أيضًا أحكامًا شرعية؟

إن الرأي الذي يبديه الفقيه لا يجوز له أن يبديه إلا إذا غلب على ظنه أنه الصحيح شرعًا، وسواء أكان ما أفتى به هو الصحيح شرعًا في الواقع أم لم يكن كذلك فإنما ذلك داخل في مجال المسموح به شرعًا، ما دام قد اجتهد في المسألة وبذل ما في وسعه من جهد للتعرف على حكم الشرع، يبين ذلك ويوضحه ما حدث عندما توجه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وقال مخاطبًا الجيش: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، وحان وقت صلاة العصر في الطريق، فصلى البعض صلاة العصر بفهم أن رسول الله ﷺ أراد أن يحثهم على السير، ولم يصل البعض إلا بعد الوصول إلى بني قريظة، ومع ذلك فلم ينكر رسول الله ﷺ على هؤلاء ولا على هؤلاء ونسأل أليس فهم كل فريق لما قاله رسول الله ﷺ فهما لحكم شرعي؟

ونسأل أيضًا أكان الكاساني أحد كبار علماء الحنفية مخطئًا في تسمية كتابه بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع؟

سادسًا: ادعاؤه أن جعل الإجماع حجة شرعية انحراف به:

في ص ٨٠ يتكلم المؤلف عن الإجماع ويقول: «إنه انحرف عن مساره حتى أخذ حجية دينية وصار العامة يفهمونه على أنه الدليل الثالث بعد الكتاب والسنة ثم يقول: ثم جعلوه في الحجية مقدما على الكتاب والسنة.

ونقول إن الإجماع لم ينحرف عن مساره في جعله حجة دينية، فالقول بحجيته هو قول جماهير العلماء، وإذا كان قد حدث الخلاف في حجيته في السابق فقد استقر الآن في علم أصول الفقه أنه الحجة الثالثة بعد الكتاب والسنة، وليس مقدمًا عليهما.

وكيف لا يعتد بالإجماع وكتب الفقه مليئة بالاستناد إليه في الأحكام، والدكتور سعد هلالي نفسه يستند إليه في كتاباته، ففي كتابه أحكام العبادات الذي يدرس لطلاب كلية الشريعة والقانون بالقاهرة يقول في ص ٤٢: أجمع الفقهاء على وجوب مسح الرأس في الوضوء، مع أنه لو اكتفى بالقول بأن دليل مسح الرأس في الوضوء هو قول الله عز وجل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ لكفى في الاستدلال، ويقول في ص ١٢٤-من هذا الكتاب «فقد أجمعت الأمة على جواز التيمم في الجملة منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا».

بل وفي كتابه الذي تكتب التقرير عنه وهو الإسلام وإنسانية الدولة يقول في ص ١٤٧: «أجمع الفقهاء على أنه يحرم على المسلم ممارسة الربا في دار الإسلام».

وفي ص ١٧٠ من هذا الكتاب يقول: «حد الزنا لا يجوز تطبيقه بالإجماع في الجملة على مرتكب الفعل الفاضح دون الزنا».

ويقول: «وقد أجمع الفقهاء على أن من ارتكب ما يستوجب الحد الشرعي فهو بالخيار بين مرتبتين: إحداهما وهو الأولى أن يستتر على نفسه، والثاني أن يجود بنفسه إلى

جهة القضاء».

وفي ص ٨١ يقول: «كما أن المتفقين بالإجماع على الحكم محل الامتثال قد يكون منهم المجتهد المخالف بفقهه، ولكنه أمام الكثرة الكاثرة يعجز عن الصدع بانفراده الفقهي حتى لا يوصف بالضلال والشذوذ، أو قد يرى مصلحة في النزول مؤقتًا على قولهم».

وهذا اتهام لبعض الأئمة أنه يمكن أن يخالف ما يؤيده الدليل بحسب اجتهاده، ويخضع للآخرين خوف اتهامه بالضلال والشذوذ، وهذا اتهام بعيد عن واقع العلماء في الفقه الإسلامي. إذ تجد كثيرًا من مسائل الفقيه الإسلامي ينفرد فيها إمام برأيه ويجهر به، ولا ينكر ذلك عليه، بل إن بعض التلاميذ خالفوا أستاذهم، كما يحدث من أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وفي آرائهما المخالفة لآراء أبي حنيفة، كما أن الادعاء بأن بعض الأئمة يراعون مصلحتهم فيخالفون ما يؤمنون به من أحكام موافقة الغالبية من العلماء اتهام ينزل بقيمة العلماء إلى درجة الإفتاء بغير ما يعتقدون أو يغلب على ظنهم أنه الحق، وهذا اتهام خطير لا يصح أن يقال من أي عالم من علماء الإسلام، ولو كان ذلك صحيحًا لكان على الدكتور سعد هلالي أن يذكر لنا ولو حالة واحدة حدث فيها ذلك، وكتب الفقه الإسلامي مليئة بآراء انفرد بها أصحابها عن جماهير العلماء كبعض آراء ابن تيمية، وابن حزم الظاهري، وغيرهما.

سابعًا: الادعاء بأن شعار الإسلام دين ودولة ليس صحيحًا:

في ص ٢٨٧ يقول المؤلف: إن شعار الإسلام دين ودولة، يشعر بأن الدولة في الإسلام تكليف شرعي كالصلاة والصيام، ثم يقول وليس هذا صحيحًا، إنما يعني من وجهة نظري لحسن الظن بأصحابه أن الإسلام دين يربي صاحبه على معرفة الله وطاعته، وعلى التمسك بأعلى القيم والمبادئ في التعامل مع الآخر، مما يجعل المسلم صالحًا لتكوين نظام دولة تساير عصره، أو المشاركة في تكوينه.

ونقول ردًا على ادعاء أن الدولة في الإسلام ليست تكليفًا شرعيًا: إن الإسلام فعلا دين ودولة وإقامة الدولة واجب شرعي ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ كان بجانب أنه رسول الله حاكمًا لدولة، يخاطب الملوك والحكام، فأرسل إلى قيصر ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط بمصر، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ودولته، وكان هو الذي يعين قادة الجيوش، ويعين القضاة، فأرسل علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري قضاة في اليمن، ويوم وفاة رسول الله ﷺ بادر المسلمون فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار من يرأس الأمة بعد رسول الله ﷺ، وتم اختيار أبي بكر رضي الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ وهو منصب يساوي ما نسميه الآن برئيس الدولة، وتصرف أبوبكر تصرف الرؤساء فأمر بحرب المرتدين، وحرب مانعي الزكاة، ولو لم يكن هناك دولة لما تصرف أبوبكر هذا التصرف.

ولم يقل أحد من علماء المسلمين كما ادعى د. سعد أن المسلم يقف في مكانه لأن عجلة التقدم تسير تلقائيا بمنهج الإسلام، كما يقول الدكتور سعد في نفس الصفحة وهذا الفهم للإسلام فهم قاصر، والتاريخ الإسلامي شاهد على تقدم المسلمين في العصور التي فهم المسلمون فيها الإسلام فهمًا صحيحًا، وما تأخر المسلمون اليوم إلا ببعدهم عما أمر به الإسلام من أن يكونوا أقوياء، ولم يعطوا العلم حقه الواجب شرعًا.

ثامنًا: المطالبة بإلغاء الحدود الشرعية:

يقول الدكتور سعد في ص ٣١٣: «وجب ضبط المجتمع بقانون عقوبات تعزيري في الجرائم المخلة بالأمن، ولو كانت من جرائم الحدود الشرعية، ويبقى تنفيذ الحد خيارًا شرعيًا يطلبه المحدود إذا يئس من توبة نفسه، ثم يقول: ويكون هذا الحق ضمن قانون الأحوال الشخصية، وليس ضمن قانون العقوبات، لما في الحدود من معنى العبادة، ونحن نعجب جدا لهذا الرأي الذي يلغي جانبًا شدد الإسلام فيه تشديدًا كبيرًا، حتى أنكر رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد أن جاء إلى الرسول يشفع في حد السرقة، عندما سرقت امرأة من بني مخزوم، وقال له مستنكرًا: أتشفع في حد من حدود الله، بل قال رسول الله ﷺ: وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها.. ومعنى كلام الدكتور سعد هلالي أنه لو قامت البينة على الزنا أو على السرقة أو شرب الخمر فلا يقام الحد على مرتكب الجريمة، إلا إذا طلب هو نفسه ذلك تطهيرًا لنفسه، وهذا كلام عجيب غريب عن الإسلام، يقترب مما يقوله الرافضون لتطبيق الشريعة من أن الحدود عقوبات لا تلائم التقدم والحضارة.

تاسعًا: الدعوة إلى إلغاء النص في الدستور على أن الإسلام دين الدولة:

طالب الدكتور سعد في ص ٣١٥ و٣١٦، بإلغاء النص على أن دين الدولة هو الإسلام فقال: ولا داعي للنص على أن الإسلام دين الدولة، فهي ليست شخصًا طبيعيًا مكلفًا، وليست نصًا دينيًا مقدسًا، ولم تؤثر عن أحد من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، ثم يقول: «ويكون هذا الدستور نموذجًا يحتذى به في كل دول العالم لا يتضمن من المواد الخاصة سوى مادة واحدة تحمل اسم الدولة ولغتها وذلك تمهيدًا لتوحيد العالم على كلمة الحق وحكم العدل، ثم يكتشفون بعد ذلك أنه ظلم الإسلام قرونًا واتهمه بالإرهاب ويقول وقد يكون هذا هو السبيل لنشر الإسلام بلغة الحضارة المعاصرة بدلاً من لغة العصبية التي تجعل بعض الشعوب تنص في دساتيرها على أن دين دولتهم هو الإسلام، فترد عليها شعوب أخرى بالنص في دساتيرها على أن دين دولتهم هو المسيحية، وهكذا في اليهودية والبوذية وغيرهما.

فنجد الدول قسمت بحسب أسماء الأديان، وهذا ما يعقد الطريق أمام المسلمين في نشر دعوتهم العادلة والحامية لكرامة الإنسان مهما اختلفت عقيدته.

ونقول ردًا على هذه المطالبة الغريبة العجيبة، ما الفرق بين هذه المطالبة ومطالبة العلمانيين واليساريين والليبراليين وغيرهم من رافضي الإسلام؟ وإبعاده عن حياة الناس؟

والإجابة: لا فرق، ولا أدري ما الصلة بين إلغاء ما في الدستور من أن الإسلام دين الدولة ونشر الإسلام بلغة الحضارة المعاصرة.

هذه أهم ملاحظاتي على ما في الكتاب، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كشف لحقيقة التقرير المسئ لكتاب يحتاجه فقهاء الشريعة الإسلامية

رد علمي موثق كتبه الأستاذ الدكتور / سعد الدين هلالي
أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر
الذي يمتثل إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

على إساءة فهم الأستاذ الدكتور علي جمعة أستاذ أصول الفقه المتفرغ
بجامعة الأزهر لكتاب:
«الإسلام وإنسانية الدولة»

نشرت مجلة الأزهر في عددها الصادر في رجب ١٤٣٤هـ مايو / يونيه ٢٠١٣م مقالا بعنوان «كتاب فيه عدوان على الشريعة الإسلامية» مشفوعًا بصورة غلاف لكتابي «الإسلام وإنسانية الدولة». وتضمن هذا المقال أن مجلة الأزهر - بتكليف من مجمع البحوث الإسلامية - تنشر أول التقارير التي كتبت حول هذا الكتاب - والذي كتبه الأستاذ الدكتور علي جمعة - عضو المجمع، وهيئة كبار العلماء، ومفتي الديار المصرية - وقت كتابة التقرير. وتعتزم إدارة المجلة - كما أخبرني أحد مساعدي رئيس تحريرها - استمرار حملة التشهير بالكتاب ومؤلفه على مدار عدة أشهر؛ بحيث ينشر في كل شهر واحد من تلك التقارير، وهي أربعة، دون تمكيني من الرد إلا إذا حصلت بجهودي الذاتية على موافقة مجمع البحوث على نشر ردي. وهذا بعيد المنال؛ لكون المجمع قد نصب نفسه خصمًا للكتاب. فقررت مخاطبة إدارة المجلة رسميًا لنشر ردي المكفول قانونًا باعتبارها إدارة مستقلة بحسب الظاهر، وأنه لا خصومة مباشرة بيني وبين مجمع البحوث الموقر الذي لم يخاطبني إلى الآن.

وفي حال تقاعس إدارة المجلة فسيتم اتخاذ الإجراءات القانونية ونشر الرد في الوسائل المتاحة؛ لتمكين القارئ من معرفة الحقيقة بكل أوجهها؛ خاصة بعد تداعيات نشر مجلة الأزهر للتقرير الأول سالف الذكر، وما أدى


أ.د/ سعد الدين هلالي

إلى اتهامي بالكفر - والعياذ بالله تعالى - في بعض وسائل الإعلام، وهو ما يعرض حياتي للخطر.

وكانت إدارة مجلة الأزهر قد تطوعت تحت عنوان جانبي: «وسيجد القارئ في هذا التقرير» بوضع ملخص مرسل غير محايد في صحيفتين تقريبًا يغفل عبارات المدح والثناء الواردة في التقرير، ويكتفي بجمع عبارات الإساءة والتشويه والتقبيح للكتاب القيم ومسائله الموثقة وأفكاره المرتبة بشهادة أستاذ كاتب التقرير وعضو هيئة كبار العلماء أ. د/ عبد الرحمن العدوي، كما سيأتي نصها بعد، بإذن الله تعالى.

ثم انتهت إدارة المجلة تحت عنوان جانبي: «وهذا هو نص التقرير» إلى نشر التقرير من أول البسملة حتى ذكر اسم كاتب التقرير وعضويته بمجمع البحوث وهيئة كبار العلماء ووظيفته السابقة دون ذكر صفته العلمية، وذلك في ثمان عشرة صحيفة. فأصبح جملة ما وقع فيه التشنيع والتقرير عشرين صحيفة، وبحسب مسلسل صفحات المجلة من صحيفة ١٤٠٠ إلى صحيفة ١٤١٩.

ولا يفوتني التنبيه بأن الاستقواء بصفة عضوية لجان أو صفة منصب إداري ولو كان في أعلى المناصب لا يزيد صاحبه في الجانب العلمي إلا ضعفًا؛ لأنه ارتضى بالإختباء وراء المنصب أو عضوية اللجنة التي تأخذ من صاحبها ولا تعطيه علمًا. والاعتزاز إنما يكون بالتخصص العلمي الذي يرفع شأن صاحبه بين زملائه.

وحتى ينتفع القارئ بالحقائق العلمية والقيم الأدبية في سياق الرد الواجب فإنني أورده في مقدمة وستة عناصر. أما المقدمة فهي بعنوان: «همسة في أذن إدارة المجلة» التي نصبت نفسها خصمًا وتكيل بمكيالين. وأما العناصر الستة فهي بعنوان: «كشف لحقيقة التقرير المسئ لكتاب يحتاجه فقهاء الشريعة».

همسة في أذن إدارة المجلة المخاصمة، والمكيلة بمكيالين

كان الأمل في إدارة المجلة أن تلتزم أصول المهنية بالحيدة والنزاهة في شأن كتابي «الإسلام وإنسانية الدولة» وما ورد فيه من مسائل فقهية دون الدخول طرفًا في النزاع لعدم تخصصها، وإلا فمن يحاسبها على نشر مقالات في العدد نفسه تتضمن مسائل كتابي ومدحًا في شخصيات اشتهرت بالفكر التكفيري دون التعقيب عليها بالتشنيع مما يثر الدهشة لدى القارئ الكريم ويتهمها بالكيل بمكيالين. وتوضح ذلك في العنصرين الآتيين:

[أ] تنصيب المجلة نفسها خصمًا في النزاع الفقهي:

جاء في السطر السادس ص ١٤٠٠ من المقال المسئ للكتاب: «ومجلة الأزهر بتكليف من المجمع تنشر أول التقارير التي كتبت حول هذا الكتاب».

أقول: لماذا لم تكشف المجلة بنشر

التقرير حسب قرار التكليف دون المزايدة أو التطوع بالتقديم لهذا التقرير في صحيفتين تحت عنوان جانبي «سيجد القارئ في هذا التقرير»: وأوردت عبارات مرسلة تسئ لكتاب «الإسلام وإنسانية الدولة» وتشنع عليه مشفوعة بصورة غلاف الكتاب؟ ما شأن المجلة والتعامل مع التقرير، إلا أن تجعل نفسها طرفًا في القضية دون قراءة الكتاب استقلالًا.

[٢] كيل إدارة المجلة بمكيالين:

إذا كانت إدارة المجلة قد اقتنعت دون فحص منها بتقرير أستاذ محكم وتفاعلت بخبر الواحد، وأفادت في السطر الثالث من أول المقال بأنه: «لخطورة الآراء المنشورة بهذا الكتاب فلقد تم عرضه على مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف».

أقول: كيف بإدارة المجلة أن تنشر في العدد نفسه مقالين لأستاذين كبيرين أحدهما ينص صراحة على ما هو أجرأ من أفكار كتابي، والآخر يثني على أحد المفكرين التكفيريين. كما نشرت المجلة توصيات وتنفًا من بحوث ندوة تطور العلوم الفقهية المنعقدة في سلطنة عمان - مسقط - في الفترة من ٦-٩ أبريل ٢٠١٣م وتتضمن كثيرًا من أفكار كتابي. فهل نشرت المجلة ذلك دون فحص، أو أنها سارت على مبدأ أنه إذا تكلم الشريف تركناه، وإذا تكلم الضعيف أقمنا عليه الحد؟

أ- أما المقال الأول فهو للأستاذ الدكتور محمد شامة ص ١٤٢٦- ١٤٣١، تحت عنوان «إسلام واحد ورؤى متعددة». ومما جاء فيه بالنص: «يجوز للمسلم: أن يرجح رأيا على آخر، أو يرفض حديثا غير متواتر، أو يستنبط حكمًا مخالفًا لما عليه المسلمون من اجتهادات سابقة ما دام الرأي الجديد مستندًا على أدلة صحيحة، ولا يناقض القرآن الكريم بشكل لا خلاف عليه».

وقال أيضًا: «إن الاختلاف في الرأي أملته طبيعة النصوص وتكوينها، وأنه أمر لابد منه».

وقال أيضًا: «إن ما كتبه المسلمون حول القرآن والسنة وما استنتجوه منهما من أحكام وآراء هو نتاج بشري يجوز للمسلم أن يختار منه ما يلائم عصره ويتفق مع نظام حياته».

وقال أيضًا: «فالاختلاف في هذا الجانب إيجابي وليس سلبيًا؛ إذ هو يساعد على تحقيق مبدأ العالمية في الإسلام، فيتيح لكل إنسان على وجه الأرض أن يعتنقه دون حرج، ويلتزم بتأدية تشريعاته بسهولة ويسر، ولا يقف عقبة في طريق التقدم والرقي».

وقال أيضًا: «إن الإسلام يحث على أن لا يكون الأمر في المجتمع ديكتاتوريًا، بل ينبغي أن يقوم على أساس الشورى».

أقول: لماذا لم يتهم الدكتور شامة بأنه «تعدى على الشريعة»، وبأن «تصوره علماني» عندما قال بأن الاختلاف الفقهي يساعد على تحقيق مبدأ العالمية. وبأنه «نفى وجود المرجعية الإسلامية» عندما قال بأنه يجوز للمسلم أن يرجح رأيا على آخر، أو يرفض حديثا غير متواتر، أو يستنبط حكمًا مخالفًا لما عليه المسلمون. وبأنه «يسعى إلى أنسنة الدين» عندما قال بأن ما كتبه المسلمون حول القرآن والسنة وما استنتجوه منهما من أحكام وآراء هو نتاج بشري يجوز للمسلم أن يختار منه ما يلائم عصره ويتفق مع نظام حياته.

وبأنه «طعن في ديانة الأمة جميعها» لأنه لم يذكر الإجماع من مصادر الشريعة. وبأنه «ادعى على العلماء بأنهم قد استعبدوا الناس باسم الدين» لأنه قال إن الإسلام يحث على أن لا يكون الأمر في المجتمع ديكتاتوريًا.

ب- وأما المقال الثاني فهو للأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر بعنوان «التراث والتجديد» ص ١٣٥٢-١٣٥٩. ومما جاء فيه بالنص: «ثم كانت مؤلفات المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الشيخ محمد الغزالي، ومقالاته ومحاضراته، «مصدات» قوية وشامخة وقفت في مهب الرياح المادية العاتية.... وقد لا نعدو الحقيقة لو قلنا إن الشيخ محمد الغزالي تفرد بالقدرة على صياغة ثقافة إسلامية رفيعة المستوى، أفاد منها المثقفون والدهماء على السواء، وكشفت للقراء عن عظمة الإسلام وحيوية القرآن والنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وأعادت لكثير من المسلمين الثقة في قدرتهم على أن يجمعوا في حياتهم المعاصرة بين الدين والدنيا، دون أن يتطرق لنفوسهم طوارق الانفصام أو التضاد أو الاغتراب.

وقل مثل ذلك عن الأستاذ سيد قطب وكتبه التي ألفها ليصور عدالة الإسلام الإجتماعية التي تقف دونها الأنظمة الإقتصادية والإجتماعية في الشيوعية والإشتراكية والرأسمالية حسرى كليلة الطرف».

أقول: لماذا لم يتهم الدكتور أحمد الطيب بأنه يروج لصاحب الفكر التكفيري الذي يستبيح كل الأنظمة الإسلامية المعاصرة في حياته عندما وصف شيخ الأزهر الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - بأجمل الصفات المستحقة ثم يقول: «وقل مثل ذلك عن الأستاذ سيد قطب وكتبه التي ألفها ليصور عدالة الإسلام الإجتماعية» أليس في هذا ترويج لفكر الشيخ سيد قطب - رحمه الله - خاصة وأنه قد استصحب صورته وسط صورتي العقاد والغزالي في سياق المدح بالتجديد. أليس الشيخ سيد قطب هو القائل: إنه في خلال القرنين الأخيرين خلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام، وأنه لابد من دعوة الناس إلى نقطة البداية وهي كلمة التوحيد من جديد، والقضاء على الطواغيت؛ لأنه لا جدوى من أسلمة القوانين أو بناء المساجد. وأن العقيدة كالشريعة في تقرير وصف الشرك للمخالف. وغير ذلك مما نشره في كتبه «معالم في الطريق»، و «في ظلال القرآن» بزينة الكلام وسحر البيان، وقد حذرت منه في كتابي المكلوم «الإسلام وإنسانية الدولة». أليس من الواجب حين تقديم مفكر للناس أن تبين وجه التقديم وتستدرك عليه ما يجب التحذير منه عملًا؛ بما أخرجه مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة».

ج- وأما بحوث وتوصيات ندوة تطور العلوم الفقهية فقد أوردتها المجلة ص ١٥١٠-١٥٢١. ومما جاء فيها بالنص: «هذه الخلافات - أي الفقهية - إثراء لساحات إعمال النظر ورفع للحرج عن المقلدين المجتهدين، وبخاصة عند اختيار قانون واحد، سواء في الأحوال الشخصية أو القانون المدني أو الجنائي (الجزائي)».

وجاء في التوصيات: «كون الفقه جسرًا

للتواصل بين أبناء الإسلام وغيرهم، ومنبرًا لإبراز قسمات الإسلام النقية، وصورة ناصعة لعالمية الإسلام وشمولية فقهه للحياة البشرية في شتى مناحيها .....ولذا كانت الحاجة ملحة لإنتاج الأفكار والمفاهيم والنظريات الإبداعية الإجتهادية لمواجهة متطلبات الواقع الحضاري ... اصطلحت المذاهب الإسلامية في رؤيتها للعالم من الناحية الجغرافية من غير وجود نص شرعي وإنما بالاجتهاد على وحدة العالم وتقسيمه قانونيًا إلى دارين: دار إسلام ودار حرب وفقًا للظروف آنذاك .. ولكن على الفقهاء في هذا العصر مراجعة الكثير من التصورات التي بنيت على أساسها مجموعة من الاجتهادات التي لم يعد لها وجود فعلي في الواقع».

أقول: أليست هذه البحوث وتلك التوصيات هي ما يهدف إليها كتابي «الإسلام وإنسانية الدولة». أين موقف إدارة المجلة العدالي تجاهي مما نشرت هي؟!

كشف لحقيقة التقرير المسئ لكتاب يحتاجه فقهاء الشريعة

وقع التقرير في ثمان عشرة صحيفة من القطع الكبير، واتسم بالتكرار والخلط والتناقض في كثير من مسائله، ووقعت فيه أخطاء نحوية(*) برفع ما وجب نصبه، كما كثر فيه السهو بسقط في النقول أوردناها في موضعها، كما وقع فيه عدم اعتناء ببعض الآيات القرآنية في ذات الصحيفة التي اتهم الكتاب المكلوم بذات التهمة، ويعمد التقرير إلى تكريس السلطة الدينية بمصطلح المرجعية الدينية للأزهر، ويأخذ على الكتاب المكلوم مآخذ هي بعينها أوجه تميزه. وحتى نكشف حقيقة التقرير في صلب القضية دون معارك جانبية فإننا سنظهر ذلك من خلال الإجابة عن ستة أسئلة، وهي:

(١) ما الذي سكت عنه التقرير؟.

(٢) ما الذي أثنى عليه التقرير؟.

(٣) ما الذي لم يستوعبه التقرير؟.

(٤) ماذا يطلب التقرير، وبماذا يهدد؟.

(٥) ما هي شهادة بعض كبار هيئة كبار العلماء بحاجة المشتغلين بالفقه لكتاب إنسانية الدولة؟.

(٦) ما هي مآخذ التقرير؟ وما هي الردود عليها؟.

السؤال الأول: ما الذي سكت عنه التقرير في كتاب «الإسلام وإنسانية الدولة»؟

سكت التقرير عن الفكر التكفيري للأستاذ المرحوم سيد قطب، والذي عالجه الكتاب في إحدى وعشرين صحيفة ص ١٠٧-١٢٨، مناشدًا كل قارئ أن يتيقظ للدفاع عن أمن المجتمع دون داعية الفتنة المهلكة. ونقل الكتاب نصوصًا تكفيرية منها: أن المجتمع الذي نعيش فيه ليس هو

(*) توضح مجلة الأزهر أنها تنشر رد فضيلة الأستاذ الدكتور سعدالدين هلالي دون التعرض لما ورد به من أخطاء وتنشره كما هو (مجلة الأزهر)

الإسلام وإنسانية الدولة
د. سعد الدين هلالي

المجتمع المسلم، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي لاستحالته أن يطبق في فراغ، فلا فقه ولا قانون إلا أن يصير المجتمع مسلمًا من جديد. ولن يجعله مسلمًا وجود فقهاء يدرسون المسائل على ضوء أحكام الشريعة؛ لأن المجتمع المسلم هو الذي ينشئ الفقه والقانون من أصول الشريعة الكلية، وليس الفقه أو القانون الإسلامي هو الذي ينشئ المجتمع المسلم. وهذا يستوجب القضاء على الطواغيت، واعتبار الشريعة كالعقيدة في تقرير صفة الشرك للمخالف.

أقول: سكت التقرير عن ذلك، فهل نعد وصف الكتاب الذي يرد على هذا الفكر التكفيري بأنه عدوان على الشريعة دعوةً للفكر التكفيري وإعلاءً من شأنه؟.

السؤال الثاني: ما الذي أثنى عليه التقرير في كتاب «إنسانية الدولة»؟

أثنى التقرير على ثلاث مسائل في الكتاب المكلوم، ولكنه استدرك عليها كالنادم أن يرى فيه شيئًا جميلًا. ونذكر تلك المسائل فيما يلي:

المسألة الأولى: موضوع الكتاب الذي يعالج تعارض الدين والدولة، ورفض السلطة الدينية، والتأكيد على الحرية والاختيار. إلا أنه سرعان ما سحب ثناءه بدعوى وقوع مغالطات تؤثر سلبًا على المفاهيم الإسلامية من وجهة نظره. فقال في أول التقرير: «وعلى الرغم من حاجة المكتبة الإسلامية لمثل تلك الكتابات فقد لاحظنا فيه وقوع مغالطات تتناقض مع ما قرره الإسلام وعلماؤه مما يؤثر سلبًا على المفاهيم الإسلامية».

أقول: إن التقرير يزعم أن الإسلام جعل أهل الذكر في الأزهر ونحوهم مرجعية دينية. وهذا ما ننفيه قطعًا، فليس في الإسلام رجال دين وإنما فيه رجال فقه وعلم، وسيتضح من مناقشة المآخذ أن الكتاب المكلوم يشتمل

على لطائف فقهية يؤتيها الله لمن يشاء، كما قال تعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها». ولا أدل على ذلك مما سبق ذكره في مقدمة هذا الرد عن الدكتور محمد شامة، وندوة تطوير العلوم الفقهية في أبريل الماضي، وما سيأتي من شهادة الدكتور عبد الرحمن العدوي وتوصيته كل من له صلة بالفقه أن يقرأ كتابي «الإسلام وإنسانية الدولة».

المسألة الثانية: منع الشعارات الدينية للحشد العاطفي دون الموضوعية. إلا أن التقرير سرعان ما تراجع ليكابر بتقرير تلك الشعارات موضوعيًا.

فقال التقرير ص ١٤١٩ سطر ٤: «نتفق مع المؤلف تمام الإتفاق في أهمية مواجهة سوء استخدام الشعارات الدينية خاصة في المجال السياسي الحزبي الضيق الذي يعرض الفكرة الإسلامية كلها للخطر إذا فشل مستخدمو تلك الشعارات في تحقيق ما يصبون إليه». وكان هذا تعقيبًا على قوله ص ١٤١٨ سطر ٣٣: «الحقيقة أن كون الإسلام لم يأت بنظام حكم معين لا يعني ولا يستلزم على الإطلاق ألا يكون دين دولة. كما أنه إذا لم يقدم الإسلام لنا الحلول والمناهج لمشكلاتنا فما هو دوره؟ وما هو مفهومنا له كرسالة خاتمة لا يقتصر دورها كبعض الديانات الأخرى على الجانب الروحي».

أقول: إذا كانت الشعارات الدينية المذكورة حق في ذاتها فلماذا يمنع التقرير استخدامها؟ وإذا كان الخوف هو فشل مستخدمو تلك الشعارات في تحقيق ما يصبون إليه وهذا ما يعرض الفكرة الإسلامية كلها للخطر - حسب قوله - فهل إذا نجح مستخدمو تلك الشعارات كان النجاح منسوبًا للإسلام أو منسوبًا للقائمين على الأمر؟ إن الإسلام لا يوصف بالنجاح ولا بالفشل فهذه صفات بشرية. أما الإسلام وهو دين الله تعالى الذي ارتضاه للإنسانية دينًا ووصفه بالكمال فهو كما ذكرت في كتابي ونقله التقرير دون استيعاب: «يؤهل صاحبه لكي يكون رجل دولة ومبرمجًا للمناهج وحلالًا للعقد». بحيث إذا نجح الإنسان أو فشل نسب نجاحه أو فشله لذاته.

المسألة الثالثة: منع فرض الرأي الفقهي على الآخرين بزعم امتلاك الحقيقة الدينية. إلا أنه تراجع واستثنى أهل الذكر، وعجز عن الجهر بالحق عند اختلاف أهل الذكر ماذا يفعل الناس؟ فقال التقرير ص ١٤١٦ سطر ١٨: «وإذا كنا نتفق مع المؤلف في أن الإسلام لا يعرف الكهنوت، ولا يقبل قصر حق التفسير والاجتهاد على طائفة بعينها فإنا نختلف معه في فتح الباب على مصراعيه»، ثم قال: «لأن هناك قواعد وأصولًا وأسسًا وضوابط تحيط بعملية فهم النص واستنباط الأحكام منه... تلك القواعد والأصول والضوابط هي التي تفرق بين أهل الذكر الذين أمرنا الله بسؤالهم، وبين غيرهم الذين لا يعلمون».

وقال التقرير ص ١٤١٧ سطر ٢٧: «إن الهاجس الأكبر للمؤلف وخوفه من تسلط أحد التيارات الدينية المتشددة وذات الأفق الضيق على مقاليد البلاد، وحملها للناس حملًا على فقه واحد وفهم واحد ضيقين جعلت المؤلف يسعى بأية طريقة لسد الباب عليهم... وإذا كنا نتفق مع المؤلف في تخوفه ذلك فإننا لا نتفق معه في أسلوب المعالجة».

أقول: خلط التقرير بين حق الاجتهاد وبين حق الاختيار الفقهي. أما الاجتهاد فلا يقبل إلا من أهله القادرين عليه. وأما الاختيار من بين أقوال المجتهدين فهذا حق للعامة؛ إذ لا يجوز لفقيه أن يسيطر على أحد لمجرد أنه مجتهد. فالاجتهاد لا يعطي لصاحبه حق الولاية أو الوصاية على الغير؛ لأن الإسلام حرر جميع الناس: المجتهد بحسب قناعة نفسه، وغير المجتهد بحسب اطمئنان قلبه من أقوال الفقهاء؛ لحديث وابصة الذي أخرجه أحمد بإسناد حسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك». وهذا يستوجب علينا رفض الأسلوب المقترح في التقرير الذي يجعل جماعة بشرية أخرى يطلق عليها «أهل الذكر» لتكون سلطة دينية، لأنه يلغي الحق الشرعي في الاختيار الفقهي، ويجعل أهل الاختيار أسرى في يد أهل الذكر يتخطفونهم.

السؤال الثالث: ما الذي لم يستوعبه التقرير؟

التقرير لم يستوعب أمرين بدهيين. أحدهما في حق الصياغة والتعبير، والثاني في حق الاختيار الفقهي ما لم يكن إلزام من ولي الأمر. ونوضح ذلك فيما يلي:

[أ] حق الصياغة والتعبير

لم يستوعب التقرير حق الفقيه في التعبير عن الأحكام، والشرح للمصطلحات بأسلوبه التوضيحي، وذهل عندما استخدم المؤلف عبارات لم يستعملها فقيه من قبله، وعجز عن ردها. ومن ذلك:

(١) مصطلح الحكم الإنساني للمباح

جاء في التقرير ص. ١٤١٠ سطر ٢٩ بمناسبة حكم المباح الذي يسمى عند الجمهور بالعفو: «ولا يعرف الفقهاء أصلًا عبارة «حكم إنساني»، فهي من مبتكرات المؤلف».

(٢) مصطلح الحق الإنساني في الردة والعياذ بالله

جاء في التقرير ص. ١٤١٠ سطر ٦: نقلًا عن المؤلف في الكتاب المكلوم: «ذهب بعض السلف... إلى إنكار كون الردة عدوانًا إلى كونها حقًا إنسانيًا مكفولًا». قال التقرير: ولو عبر بالعبارة الشائعة في الكتابات المعاصرة «حرية الاعتقاد - حرية العقيدة»، لكان أكثر قبولًا.

(٣) مصطلح إنسانية الإسلام

جاء في التقرير ص. ١٤١٣ سطر ٢٣: «رغم تفسير المؤلف السابق لمراده من عبارة «إنسانية الإسلام» فإنها تبقى موهمة وموحشة، ولها وقع ثقيل على الأذن والنفس».

أقول: لقد سبق للمؤلف أن كتب كلمة العدد لمجلة دار الإفتاء المصرية الصادر في إبريل ٢٠١١م ربيع الثاني ١٤٣٢هـ، وأوجز فكرة إنسانية الإسلام واضحة، وأخذ موافقة فضيلة المفتي عليها بعد أن قرأها كلمة كلمة قبل طبعها. فما الذي حدث بعد؟ ومما جاء في هذه الكلمة: «يجب أن تتعاون من أجل رفع وصاية المزايدين على العلماء والفقهاء في دينهم، وأن نحمي عوام الناس من سلب عقولهم عندما تزعم فئة أن الحق في اختيارهم الفقهي دون اختيار غيرهم، وأنهم الناجون وغيرهم هالك، ويزينون الكلام بما يسحر البسطاء، فيسلمون عقولهم لسحرة الكلام، ويعادون أهل الحجة والبرهان.

إن الإيمان يقتضي التسليم لله، ولكن بفكرك واختيارك دون وصاية من أحد: قال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾

(الإسراء: ١٣).

وأهل العلم ليسوا أوصياء، وإنما هم مبينون، فإن اختلفوا فلك أن تختار ما تشاء؛ لأنك بهذا الاختيار ممتثل لقوله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٤٣).

وإياك أن تبيع عقلك لغيرك، أو أن تجعل حقك في الاختيار لغيرك إلا عند الضرورة من عجز أو إلزام الجماعة، وذلك لإنسانية الإسلام التي يغفل عنها كثير من الناس، ونذكر دائما أمر الله بالتفكر حتى في أمور التشريع. قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٤٤).

[٢] حق الاختيار الفقهي

لم يستوعب التقرير حق المسلم في الاختيار الفقهي من بين أقوال المجتهدين، وتهكم به فقال ص. ١٤١٥ سطر ٥: «ويرتب المؤلف على فكرته عن مقومات الدين نتيجة عبر عنها بقوله: «إن العلاقة بين هذين من خلال التطبيق العملي تقوم على مبدأين يرجحان حظ الإنسان». قال التقرير مكملا: يعني على حظ النصوص».

وكان التقرير قال قبل ذلك سطر ٣ من الصحيفة ذاتها: «وكأن المؤلف يرد على تيارات بعينها دون ملاحظة المرجعية الدينية الصحيحة كالأزهر الشريف في مصر».

أقول: وهكذا يريد التقرير أن يلغي حق الاختيار الفقهي للمسلم ويجعله لمرجعية دينية، على حد تعبيره.

السؤال الرابع: ما الذي يطلبه التقرير من مؤلف الكتاب المكلوم، وبماذا يهدده؟

يتضح من الهجوم غير المبرر على الكتاب المكلوم «الإسلام وإنسانية الدولة» أن التقرير يهدف إلى حمل المؤلف على أمرين: الإقرار بمرجعية الأزهر الدينية وليست العلمية، والإقرار بشرعية أقوال الفقهاء الدينية. وإلا فإن تهمة العلمانية ستلاحقه. ونوضح ذلك فيما يلي:

المطلب الأول: الإقرار بالمرجعية الدينية للأزهر

يقول التقرير في ص. ١٤١٥ السطر الأول: «لكن المؤلف يسعى بشتى السبل إلى تعظيم الدور الإنساني في الدين، حتى يصل إلى بغيته من أنه لا يوجد تفسير وحيد لنصوص الدين، ولا يملك واحد أو طائفة من أهل الدين حق التفسير وحدهم، وكأن المؤلف يرد على تيارات بعينها دون ملاحظة المرجعية الدينية الصحيحة كالأزهر الشريف في مصر، وإلا انسحب عليها الحكم نفسه فتصل إلى ألا مرجعية».

قلت: إن إثبات المرجعية الدينية للأزهر الشريف أو لغيره نوع من الشرك بالله تعالى، والعياذ بالله؛ لأن الأزهر مرجعية علمية لجميع المذاهب وليس لمذهب واحد. والعبادة الحقة تستلزم الاختيار والقناعة وليس التخويف والإرعاب.

المطلب الثاني: الإقرار بشرعية أقوال الفقهاء الدينية في الأحكام العملية

يقول التقرير ص. ١٤٠٦ سطر ١٧ في تعريف الفقه عند الفقهاء: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية». قال: «وهذا ظاهر واضح لا يستطيع أن ينكره أحد من خلال ما تركوه لنا من مؤلفات جليلة مفيدة، وتزيد في ذلك الأمر تأصيلاً وبيانًا. فنقول: ... قد جاء وصف الأحكام التي موردها الشرع بأنها أحكام شرعية؛ لتمييزها عن التي موردها المصادر الأخرى. كما أن الشرع هو الذي أذن للفقيه أن يجتهد في استنباط الأحكام لما ينزل بالناس من حوادث وقضايا.

أقول: إن توصيف الأحكام الفقهية بالشرعية فيه تسوية بين الحكم الشرعي الذي هو خطاب الله، وبين الحكم الفقهي الذي هو أثر خطاب الله. وقد نهينا عن هذه التسوية فيما أخرجه مسلم عن بريدة، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يوصي أمراءه بقوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

أما الشغب بتعريف الفقه فهو دليل على عدم فهمه؛ لأن المكتسب صفة للعلم، والأحكام الشرعية هي نصوص الأدلة التفصيلية التي هي خطاب الشارع، فيكون المراد منه: العلم المكتسب من الأدلة التفصيلية التي هي الأحكام الشرعية. وهذا العلم المكتسب من الأحكام الشرعية هو ما يعرف بالأحكام الفقهية. ويراجع في ذلك تعريف الحكم الشرعي عند الأصوليين «خطاب الله...» والحكم الفقهي أو المسمى شرعيًا عند العوام: «أثر خطاب الله».

التهديد بالعلمانية

أكثر التقرير من ذكر تهمة العلمانية غير مفهومة الحقيقة التي ستلاحق المؤلف إن لم يستجب للمطالب غير الشرعية سالفة الذكر، ومن ذلك:

(١) ما جاء في التقرير ص. ١٤١٤ سطر ١٥: «نرى أن الفكرة التي طرحها المؤلف ستفضي في نهايتها القول ب «علمانية الدولة» التي لا تتداعى مسئوليتها تجاه الدين إلا أن تكفل فحسب (حرية العقيدة والدين)».

(٢) ما جاء في التقرير ص. ١٤١٥ سطر ٧: «ينزع المؤلف في كثير من الأحيان إلى ما يخشى أن يفهم منه أن للمؤلف اتجاهات علمانية».

(٣) ما جاء في التقرير ص. ١٤١٧ سطر ٥ : «القراءة الكلية لكلام المؤلف لا شك أنها ستخرج بتصور علماني محصن لعلاقة الدين بالدولة، بل ولدور الدين في الأرض».

السؤال الخامس: ما هي شهادة بعض كبار هيئة كبار العلماء لكتاب «إنسانية الدولة»؟

اجتمع فضيلة أ.د/ عبد الرحمن العدوي أستاذ الفقه المقارن المساعد وعضو هيئة كبار العلماء، وشيخ أساتذة الفقه والأصول بجامعة الأزهر مع أ.د/ سعد الدين هلالي في مناقشة رسالة ماجستير في الفقه المقارن بمركز صالح كامل جامعة الأزهر يوم الخميس ٢١ / ٢ / ٢٠١٣م، وبعد أن انتهى أ.د/ سعد هلالي من المناقشة تطوع أ.د/ عبد الرحمن العدوي للتعقيب عليه بالكلمة المصورة بالفيديو والموجودة على موقع: http://www.youtube.com/watch?v=c1vWqc2qB98

وهذا نصها:

«أما كلام الدكتور سعد فهذا منهج محترم ويجب على الدارسين والفقهاء أن يعتنوا بهذا المنهج ويفهموه جيدًا، ولذلك فأنا أنصح كل من له عمل في الفقه وكل من له صلة بالفقه أن يقرأ هذا الفكر المتطور الذي يحكم كل الظواهر والأشياء أن يقرأ كتاب الدكتور سعد «الإسلام والدولة الإنسانية» هذا الكتاب أنا قرأته عدة مرات ووقفت فيه على تفتح وعلى إحاطة لأحوال الناس ومصالحهم ونظرة عامة ليست مقيدة، وكما يقول إن كلام الفقيه كلام غير معصوم ولا تجعل من كلام الفقيه شرعًا، وإنما تجعل كلام الفقيه اجتهادًا قابلًا للمناقشة وقابلًا للفهم وقابلًا لتركه إلى رأي آخر... واحنا شاكرين للدكتور سعد على هذه الإفاضة».

السؤال السادس: ما هي مآخذ التقرير على كتاب «إنسانية الدولة»، وما هي الردود عليها؟

يمكن إجمال مآخذ التقرير على الكتاب في ثلاثة مآخذ، هي نفسها أوجه ما يتميز به الكتاب:

المأخذ الأول: معالجة تعارض الدين والدولة بوسائل فقهية لا ترضيه

لم يذكر التقرير الوسائل التي ترضيه، ولم ينكر صحة نسبة أي من الأقوال الفقهية لأصحابها كما أوردها الكتاب المكلوم. ويرجع الرفض في الجملة إلى عدم استيعاب فقه الكتاب القائم على ضرورة نشر الشريعة الإسلامية في ربوع الأرض وفك أسرها داخل ما يسمى البلاد الإسلامية؛ لقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(الأعراف: ١٥٨)

وقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧).

وإذا كان الكتاب المكلوم قد تناول الرد على عشرة شبهات في تعارض الدين والدولة فإن التقرير قد وقف أمام خمسة منها فقط لمجرد أوهام، ولم يرتب الحديث عنها بحسب ورودها من شدة الذهول، فقدم وأخر، وكرر وأعاد. كما نفدت طاقته في تتبع رد الشبهات الخمس الأخرى، ولم يشأ أن يتركها سالمة بغير إصابة فرماها

في الجملة بتهمة مرسلة هي «تتبع الأقوال الضعيفة أو الشاذة». ونوضح ذلك فيما يلي بحسب ترتيب الكتاب للشبهات العشرة، وليس بحسب ترتيب التقرير الشارد.

أولًا: حاكمية الله

(١) يرى الكتاب المكلوم أن حاكمية الله فرض على كل إنسان في نفسه مع نفسه ومع غيره بحسب اجتهاده إن كان مجتهدًا، وبحسب اختياره الفقهي من بين أقوال المجتهدين إن لم يكن مجتهدًا؛ حتى لا يصير إنسان وصيًا على إنسان آخر في الدين.

وحاكمية الله في الإنسان على نفسه تتمثل في إقامة العبادات والعدل في حقوقها بالوجه الفقهي الذي يطمئن إليه. أما حاكمية الله في الإنسان على غيره فتتمثل في إقامة العدل المأمور به شرعًا في أحكام المعاملات.

(٢) أقول: أولًا: لم يستوعب التقرير هذا الفقه فحط عليه في مواضع شتى بما لا ضابط له، فكان مما قال ص ١٤٠٣ سطر ٢٣: «المؤلف وقف وقفة طويلة أمام قضية «الحاكمية لله تعالى»؛ حيث أفرد ذلك في مبحث مستقل، ولم يستطع بطبيعة الحال نفي حاكمية الله تعالى إلا أنه لم يأل جهدًا في تضييقها خاصة فيما يتعلق بالدولة ونظام الحكم السياسي».

(٣) أقول: ثانيًا: هل كان التقرير يتربص بالمؤلف أن ينفي حاكمية الله تعالى – حاش لله – كيف وقد أورد آيات الحاكمية وأنها أمارة الإيمان؟ ثم ما الذي أغضب التقرير في التضييق على ما ورد في الحاكمية، وهل يجوز التوسع إلا بدليل؟

(٤) أقول: ثالثًا: إن التقرير يعاود الشغب في مسألة الحاكمية مجددًا ص ١٤١٧ سطر ١٩ فيقول: «حكم الله بحسب نظره – أي المؤلف – هو العدل وليس الحكم بتفاصيل الشريعة. ثم يعود ليؤكد على أن الإسلام لا يطلب من الدولة سوى العدل الإنساني...» مؤسسًا رأيه على الفرق بين حكم الله بالعدل وبين الحكم بالدين في تفاصيل الشريعة، وأنه إذا كان التدين أمرًا اختياريًا في حكم الأصل فكيف يكون الدين حاكمًا على الغير – والكلام لا يزال لصاحب التقرير – إن الهاجس الأكبر للمؤلف وخوفه من تسلط أحد التيارات الدينية المتشددة وذات الأفق الضيق على مقاليد البلاد، وحملها للناس حملًا على فقه واحد وفهم واحد ضيقين جعلت المؤلف يسعى بأية طريقة لسد الباب عليهم... وإذا كنا نتفق مع المؤلف في تخوفه ذلك فإننا لا نتفق معه في أسلوب المعالجة.

(٥) أقول: رابعًا: إن التقرير خرج عن الموضوعية إلى شجون وهواجس نفسية. وإذا كان يتفق معنا في الهدف فإنه لم يختلف معنا في الأسلوب إلا عندما فوجئ بدعوتنا الناس إلى التوحيد الخالص بمنع كل واسطة بين العبد وبين ربه، لا جماعات إسلامية متطرفة، ولا ما يسمون في نظره بأهل الذكر. إن التقرير يريد تنصيب أمثال صاحبه وصيًا على الناس في الدين، وهكذا يقع الناس ضحايا الوصاية أو الولاية. هل يريد التقرير أن يتدخل الحاكم في تفاصيل الشريعة بين العبد وبين ربه؟ إن هذا لأمر عجاب.

ثانيًا: وظيفة الحاكم وشروطه

(١) يرى الكتاب أن وظيفة الحاكم فنية في إقامة العدل وتحقيق الأمن، وليست وظيفة دينية في حمل الناس على العبادة وإلا كانت تدخلًا بين العبد وبين ربه، ولذلك جرى العمل مؤخرًا على اختيار الحاكم من غير قريش عملًا بما ورد عن أبي حنيفة وما ذهب إليه الباقلاني ومن وافقهم خلافًا للجمهور. وقال ابن القيم: «إذا ظهرت أمارات العدل فثم شرع الله ودينه».

(٢) أقول: أولًا: لم يستوعب التقرير هذا الفقه فحرفه عن لفظه، وتقول عليه بما يمكنه من النيل منه، فقال ص ١٤٠٤ سطر ١٦: «تشويهه - أي المؤلف - قضية الحاكمية بأنها تدخل الحاكم وحاشيته فيما بين الفرد وربه في التكاليف الشرعية مع التعبير بعبارات توحي بدكتاتورية الحكام وحاشيتهم... فعلى أي وجه فقهي يكون هذا الإلزام، ومن الذي أذن به مع تظاهر الكتاب والسنة على تكريم الإنسان بتخييره بأي وجه فقهي منها، ومن سيقوم بحمل الحاكم وحاشيته على التكاليف الشرعية.. ويلاحظ على ما سبق أنه في خضم حماس المؤلف للوصول إلى فكرته ينسى دائمًا ذكر الحد الوسط بين الإتجاهين اللذين يعقد التناقض بينهما مصورًا أن القسمة في المسألة ثنائية».

(٣) أقول: ثانيًا: لماذا يعمد التقرير إلى الوقيعة بين الكتاب وبين الحكام عندما قال: إن «التعبير بعبارات توحي بدكتاتورية الحكام وحاشيتهم». ولماذا لا يعترف التقرير بأن تدخل الحكام في العلاقة بين العبد وبين ربه نوع من الدكتاتورية، أليس هذا ما فعله المأمون في فتنة خلق القرآن في القرن الثالث الهجري، ولماذا يبحث التقرير عن دور فضولي للحكام في العلاقة بين العبد وبين ربه بإثبات أن هناك طرفًا وسطًا بين الطرفين، وهذا إن صح في الأحكام الحياتية فإنه لا يصح في عبادة الله؛ لأنه أغنى الأغنياء عن الشرك.

ثم عاد التقرير بعد صفحات طويلة ص ١٤١٤ وما بعدها إلى الحديث عن وظيفة الدولة والحاكم من جديد فجعل يكرر الملاحظات وينازع في العبارات كما لو كان ينتقد بحثًا لمبتدئ، ومن ذلك:

- قوله: «من الأفكار التي طرحها المؤلف أنه ليس من وظائف الدولة الرسالة الدينية. نعم من وظائف الدولة الحفاظ على المقاصد الخمسة.. إلا أن ذلك لا يعني أن الدولة تترجم وظيفة الرسل الفكرية إلى برامج إلزامية وتحمل الناس على ما لم يقم به الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. قال التقرير: إن هذا الذي ذكره يتناقض مع ما نقله عن الفقهاء في تعريف الخليفة أو الإمام الأعظم.. كما أن دعوى أن ذلك «لم يقم به الرسل» غير مقبولة على الإطلاق خاصة في حق نبينا صلى الله عليه وسلم الذي أقام دولة كما نشر دينًا».

(٤) أقول: ثالثًا: هذا دليل على عدم استيعاب فقه الكتاب المكلوم؛ لأن تعريف الخليفة كان من أقوال الفقهاء وليس نصًا شرعيًا. وأما القول بإقامة النبي صلى الله عليه وسلم للدولة فهو بصفته بشرًا وليس بصفة النبوة على المختار؛ لعدم وجود نصوص دينية قاطعة في نظام الحكم.

وقال التقرير مجددًا ص ١٤١٤: «يرى - أي المؤلف - أن وظيفة الحاكم أو الخليفة تدور بين تكييفين. الأول: أن الحكم عمل فني في إدارة الشئون العامة على العدل.. الثاني: أن الحكم عمل فني وديني معًا لحراسة الدين وسياسة الدنيا. والتكييف الثاني هو الاحتمال الأشهر على حد تعبير المؤلف، وإن كان قد سعى جهده خلال صفحات هذا المبحث إلى إقناع القارئ بالتكييف الأول».

(٥) أقول: رابعًا: ألم يكن المؤلف أمينًا عندما ذكر التكييفين، وهل يضيره بيان وجاهة أحدهما بقصد فك التعارض بين الإسلام وبين الدولة؛ حتى يتمكن الإسلام من الانتشار.

وقال التقرير أيضًا ص ١٤١٥: «يرى المؤلف أن الإسلام لم يغير من شأن الدولة في المدينة المنورة، فلم يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظمة خاصة لإدارتها بل استمر النظام على ما كان عليه من قبل، والذي تم تغييره فقط هو الأشخاص. قال: وفي هذا جناية على السنة النبوية الشريفة وعلى الحقيقة التاريخية الواضحة التي تؤكد على ما وضعه النبي صلى الله عليه وسلم من أصول للأنظمة والاتفاقات وأصول تطوير في شتى شئون الدولة من قضاء وشرطة وحسبه وجيش واقتصاد ومالية ونواب للحاكم... لكن للأسف سيطرت على المؤلف فكرته وأراد إثباتها بأية طريقة ولو بنفي الحقائق التاريخية. وقد بنى نفيه هذا على مجرد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف، ومن البين أن عدم الاستخلاف لا يعني عدم الدولة».

(٦) أقول: خامسًا: لا زال فقه الكتاب المكلوم بعيدًا عن التقرير الذي يحاول المزايدة على السنة المطهرة التي نأت بنفسها أن تتدخل في تفاصيل سياسية وعسكرية وتعليمية وصحية وتجارية وصناعية دائمة التطوير، وتحتاج إلى الأصول الإنسانية وليس إلى النصوص الدينية، فهذه النصوص تبني الإنسان وهو الذي يقيم الحضارة، وحسبنا ما أخرجه مسلم عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». وكان الواجب على التقرير أن يذكر شيئًا من السنة المطهرة أو التاريخ الذي احتكم إليه في الأنظمة الدينية السياسية بدلًا من تلك المزايدة المرسلة.

ثالثًا: تقسيم الديار إلى إسلامية وغيرها

(١) يرى الكتاب أن الفقه الإستقرائي قسم الدور إلى إسلامية وغير إسلامية، واختلفوا في تقسيم غير الإسلامية فيرى الجمهور أن منها دار الحرب ومنها دار العهد أو الصلح. وذهب الحنفية إلى أن دار العهد أو الصلح تعد من دار الإسلام ولو لم يقم فيها مسلم واحد؛ لأن العهد يقتضي تمكين الأمان للناس وهذا حكم الإسلام، لقوله سبحانه:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

(٢) أقول: لم يستوعب التقرير هذا الفقه فجعل يتشكك فيه، فجاء في ص ١٤٠٤ سطر ١٠: «يلاحظ أن المؤلف لم يقدم بهذا التفسير الذي تكرر منه مرارًا حلًا للمشكلة التي يريد أن يصورها؛ لأن قاعدة «إقامة

العدل، تحتاج إلى تفاصيل وأحكام.... وبناء على ذلك نسأل المؤلف عن عدة أسئلة: ما هي تلك الأنظمة والقوانين، وهل ترجع فيه إلى شريعة الله تعالى أم إلى غير شريعته؟ فالعدل هو مبتغى الجميع ولكن كيف نصل إليه؟ هذا هو المحك».

والإجابة على أسئلة التقرير واضحة في الكتاب، وإنما هي أسئلة شغب بدليل مشاركة صاحب التقرير في ندوة تطوير العلوم الفقهية بمسقط في سلطنة عمان في أبريل ٢٠١٣م، وكان من توصياتها: أن تقسيم المذاهب الإسلامية للعالم إلى دار إسلام ودار حرب إنما كان وفقًا للظروف آنذاك، وعلى الفقهاء المعاصرين مراجعة مثل تلك التصورات (راجع صورة صاحب التقرير وتوصيات الندوة ص ١٥١٣ من المجلة نفسها.

رابعًا: الحدود الشرعية

(١) يرى الكتاب المكلوم أن الحدود الشرعية وردت في جرائم معينة على سبيل الحصر، ولا يجوز إقامتها إلا بضوابط، وأن من أتى شيئًا منها فليستتر بستر الله ثم يتوب، فإنه من يبد صفحته أقيم عليه. وإذا ثبت الحد بإقرار أو بينة فإن المحدود يملك إبداء الشبهة ليدرأ عن نفسه الحد.

ولما كانت هذه الأحكام الشرعية للحدود منصبة في مراعاة حق المتهم، وهذا لا يناسب أمن المجتمع وهيبة القضاء، لذلك أذن الإسلام للمجتمع أن يجرم كل ما يخل بأمنه ولو كان من المباح في المطلق، أو كان من الحدود التي استطاع صاحبها أن يسقطها بالشبهة، وأن يعاقب على ذلك بما يعرف بالتعازير (العقوبات التأديبية)، وهي عقوبات لا يعطلها شبهة، ولا تقتصر على الحدود المحصورة؛ بل يمكن إقامة التعزير على الجرائم غير الحدية مثل خيانة الأمانة وشهادة الزور والنهب والرشوة ونحوها مما لا يحصى. المهم أن تعلن تلك التعازير وأن يتم تطبيقها بالعدل.

(٢) لم يستوعب التقرير هذا الفقه فحط عليه، وكان مما قال ص. ١٤٠٢ سطر ٢٨، وهو يعيب الكتاب المكلوم: «تصوير الحدود على هذه الصورة فيه مغالطة؛ لأن هناك صورًا أخرى تقام فيها الحدود وإن لم يجد الجاني بنفسه كمن ثبت عليه الحد بدليل صريح... كما أنه فيه مخالفة صريحة لأحكام الشرع القطعية حيث أوجب الله تعالى تطبيق الحدود على من يقترفها ويقع فيها بعد تحقق شروطها... نحن نوافق المؤلف أن هناك شروطا يجب أن تستوفى حتى تطبق هذه الحدود».

أقول: عجبًا كيف يقر التقرير بعدم تطبيق الحدود إلا بتوفر شروطها ثم يزايد عليها بإنفاذها بما وصفه بالدليل الصريح في غير حال الإقرار. أليس من تلك الشروط المسلمة تمكين المتهم من الدفاع عن نفسه ودرء الحد بالشبهة التي يبديها دون تكذيبه. ومن تلك الشبهات: التوبة، والتقادم، وانعدام القصد، وغير ذلك مما أوجزناه عن الفقهاء في الكتاب المكلوم.

وهل يجوز تطبيق الحد في غير مورده، وما حكم الجرائم الأشد خطورة من الجرائم الحدية مثل الغصب (السرقة بالإكراه) والنهب، وقد أخرج البيهقي والنسائي والترمذي وقال: «حسن صحيح»، عن جابر، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع». فهل بعد ذلك يمكن احتساب الحدود الشرعية (المحصورة) عقوبات تأمينية زاجرة، أم أنها عقوبات تطهيرية جابرة؟

خامسًا: الردة والزندقة

(١) يرى الكتاب المكلوم أن الردة عدوان على الدين فناسب أن يكون تحريمها أخرويًا، وهو قول سيدنا عمر، وأيضًا النخعي والثوري. واختاره الدكتور يوسف القرضاوي إلا في حال المجاهرة بما يجعلنا – تخريجًا على هذا القول – أن نقول إنها حق إنساني مكفول في الدنيا باعتبارها دار عمل. أما جمهور الفقهاء فيرون الردة عملاً عدوانيًا على الدين وأهله وتستوجب القتل إلا بالتوبة قبل إنفاذ العقوبة. أما الزندقة فهو اسم فارسي لا ذكر له في الكتاب أو السنة أدخله الفقهاء للتعبير عن الإلحاد – كما ذهب الحنفية وبعض الشافعية – أو للتعبير عن النفاق – كما ذهب الجمهور – ثم اشتهر هذا المصطلح للتعبير عن الإساءة لشعائر الدين أو سب أحد الأنبياء أو الملائكة. وهي توجب القتل حدًا ولا توبة فيها عند الجمهور، فهي أسوأ حالاً من الردة.

(٢) لم يستوعب التقرير هذا الفقه فجعل يشغب بوضع بدائل في التعبير، أو بالتهم المرسلة فقال ص. ١٤١٠ سطر ٥: «قرر أن هناك تعارضًا بين أحكام الردة والزندقة في الفقه الإسلامي ومقومات الدولة المعاصرة... بالإضافة إلى ما في العبارة من إيحاش ونكارة حيث حول المؤلف الردة من كونها عدوانًا إلى كونها حقا إنسانيا مكفولا، وكأن الشريعة قد أتت برعاية الردة وكفالتها! ولو عبر بالعبارة الشائعة في الكتابات المعاصرة «حرية الاعتقاد – حرية العقيدة» لكان أكثر قبولاً... وهي – أي نسبة القول بأن الردة حق إنساني إلى بعض السلف – مغالطة واسعة من المؤلف، وليس فيما ذكره من عمومات الكتاب الكريم ومطلقاته ولا في الآثار عن سيدنا عمر وغيره ما يؤيد كلامه غاية ما فيها بيان الاختلاف في عقوبة المرتد».

(٣) أقول: أولاً: كيف ينكر التقرير وجود التعارض بين قول الجمهور بقتل المرتد وبين الدولة الحديثة الملتزمة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨م والموجب إطلاق حرية الاعتقاد. ولماذا يرفض التقرير إبراز حل فقهي مخرج على قول عمر بن الخطاب والنخعي والثوري. أليس هؤلاء السلف ممن يتبع، أم أننا نزايد على دينهم. وأما وصف التقرير عبارة الكتاب بأن الردة حق إنساني في الدنيا بالوحاشة والنكارة والافتئات بعبارة «حرية الاعتقاد – حرية العقيدة» فهذا ضعف في التصرف وفقدان للثقة في النفس التي جمدت على التعبير المسبوق دون الابتكار، مع أن الآيات المحكمات واضحة في مثل قوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقوله تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

هل نزايد على الله في دينه الذي جعل الدنيا دار عمل. قال تعالى:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٦).

(٣) أقول: ثانيًا: العجيب أن التقرير لم يعلق على أحكام الزندقة التي طال الحديث فيها من ص. ١٨٦ - ٢٠٦ من الكتاب المكلوم، مع أنها جريمة دخيلة على الإسلام ولا أصل لها في نصوصه. فلماذا سكت عنها التقرير.

سادسًا: التعارض بين الدولة وبين الدين في باقي الشبهات التي لم يناقشها التقرير

(١) تفقدت الطاقة العلمية للتقرير أن يتتبع رد الكتاب لشبهات التعارض بين الدين وبين الدولة في مسائل القصاص والديات، والجهاد والمعاهدات والجزية، والتحاق غير المسلمين بجيش المسلمين وشرطتهم، وشهادة غير المسلم وأيمانهم على المسلمين، وشرب الخمر والمسكرات وامتلاكهما.

واكتفى التقرير في ص. ١٤١٨ بوضع تهمة عامة لكل تلك الحلول الفقهية والتي قال فيها: إن «الحال المطرد عنده- أي المؤلف - هو البحث في الأقوال والآراء الفقهية المروية عن بعض الأئمة والفقهاء التي تخفف من حدة التعارض أو تبدو ملائمة أو غير معارضة لمفهوم الدولة المعاصرة من وجهة نظره مهما كان هذا الرأي الفقهي شاذًا أو مهجورًا أو غير معمول به، أو داخلا في تتبع رخص العلماء».

(٢) أقول: هل وجد التقرير قولاً غير منسوب لصاحبه، أو وجد قولاً لفقيه غير مشهود له بالورع والعلم، وهل يليق بفقيه أن يصف قول من علمونا بأنه شاذ أو ضعيف، وما الذي يضير التقرير من ذكر أقوال أهل العلم التي تزيل التعارض بين الدين وبين الدولة، وما هو المقصود من بقاء هذا التعارض قائمًا. ثم أين المتندرين بالقول الشاذ أو الضعيف من عمل الأمة اليوم في تولية الحكام من غير قريش، وقبول شهادة غير المسلم على المسلم في القضاء، والحكم بالقصاص من المسلم إذا قتل غير المسلم عمدًا، وغير ذلك من عشرات المسائل التي تركت الأمة مذهب الجمهور فيها، وأخذت بالقول المنعوت بالشذوذ أو الضعف. وأما تنفير الناس من العمل بالرخصة فإنه يناقض فقه المخلصين أمثال سفيان الثوري الذي كان يقول: «إنما العلم الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد».

المأخذ الثاني: توصيف الحكم الفقهي بحقيقته البشرية

ارتعش التقرير في تحقيق الحكم الفقهي لتردده بين الصدع بالحق بأنه نتاج بشري بإذن الشارع، وبين مجاراة لغة العوام بوصفه بأوصاف شرعية أو دينية فوقية بغير اصطلاح العلماء؛ ليخيف هذا الوصف المجتهد والعامي على السواء. أما المجتهد فسيضعف عن الصدع برؤيته الاجتهادية لو ظهر له الدليل بخلاف الحكم الفقهي الشائع؛ خوفًا من الاجتهاد بما يخالف الشرع. وأما العامي فسيهلع إذ انتقل من حكم فقهي إلى آخر؛ خوفًا من ترك الشرع. وانتهى التقرير إلى اختيار لغة العوام وتقديمها على

لغة العلماء في الحكم الفقهي، ولم يكتف التقرير بذلك بل زعم بأن لغة العوام هذه من التعريفات الجامعة المانعة والتي أصبحت من المتواترات المسلمات، وذكر تعليلات ملبسة في ذلك. كما حاول التقرير إثارة الفتنة والوقيعة بين المؤلف وبين العلماء والعامة. ونبين ذلك فيما يلي.

[١] عبارات التقرير التي تعترف ببشرية الحكم الفقهي

قال التقرير ص. ١٤٠٥ سطر ١٠: «لما هو مقرر من كون أحكام الدين الإسلامي تنقسم باعتبار احتمال ثبوت الدليل ودلالته لمعنى واحد أو أكثر إلى نوعين، هما: الأحكام القطعية والأحكام الظنية، وإن كانت الأحكام الظنية هي الغالبة في الوقوع».

وقال التقرير ص. ١٤٠٦ سطر ٥ بعد ذكر نصوص من الكتاب المكلوم تفيد بشرية الأحكام الفقهية: «ولنا على هذه النقول ملاحظات منها: أنه لم يأت بجديد في كون وصف الأحكام التعبدية العملية بأنها فقهية، ولا غرو في ذلك؛ حيث قرر العلماء ذلك. لكن العجب أنه قصر أحكام الدين على الأحكام العملية التي تمثل الفقه، وهذا ظلم بين للدين الإسلامي حيث يشمل الدين الإسلامي على الأحكام العقائدية والفقهية العملية والأخلاقية السلوكية».

أقول: العجب من تناقض التقرير المتردد بين وصف الأحكام الفقهية بالشرعية أو بالبشرية. أم العجب من صرف التقرير الكلام عن وجهه، فمحل النزاع في الأحكام الفقهية العملية وليس في الأحكام الاعتقادية التي لم يتطرق إليها البحث؛ لكونها فارقة بين الإسلام وبين غيره؟ أم العجب من اتخاذ التقرير منهج المزايدة للتلبيس على الحقيقة؟ وإذا كان التقرير قد اعترف بأن الكتاب المكلوم لم يأت بجديد بشأن وصف الأحكام التعبدية العملية بأنها فقهية، أي من استنباط الفقهاء، فهل يستطيع أن يعنون لذلك بما ذكرناه من أن الحكم الفقهي نتاج بشري بإذن الشارع؟. ولماذا انتكس التقرير بعد ذلك لترويج قول العوام بأن الحكم الفقهي حكم شرعي، كما سيأتي بعد بإذن الله تعالى.

(٢) عبارات التقرير التي تجنح إلى اختيار لغة العوام والتي تصف الحكم الفقهي بأنه حكم شرعي، بل وتزايد على العوام بأن وصفهم قد قرره أهل العلم، وصار من التعريفات الجامعة المانعة وأصبحت من المتواترات المسلمات.

وضع التقرير عنوانًا في نقد الكتاب المكلوم يقلب الحقيقة حتى جعل كلام أهل العلم مخالفة، وكلام العوام حقيقة متواترة مسلمة، فقال ص. ١٤٠٥ سطر ١٣: «مخالفة ما قرره أهل العلم من تعريفات جامعة مانعة والتي أصبحت من المتواترات المسلمات ويظهر ذلك من خلال النماذج الآتية: ١- استنكاره لكون أحكام الفقه توصف بالشرعية، وذلك في مواضع عدة، منها... قوله: «إن وصفها الحقيقي أنها أحكام فقهية».

٢- إطلاقه الأحكام الفقهية أحكام لا توصف بكونها من الدين، ومن نماذج ذلك قوله معللا جواز مشاركة غير المسلمين والاستعانة بهم في مهام المسلمين

العسكرية والشرطية (ص. ٢١٨): «حيث يتضح أنه شرط فقهي كانت له ملابسات تاريخية تلحقه بضوابط المهنة، ولم يكن شرطًا دينيًا عباديًا كالصلوات الخمس وصيام رمضان».

أقول: (١) يتضح من تحريف التقرير لعبارة الكتاب المكلوم اللعب بالعواطف الدينية، فعبارة الكتاب التي نقلها هي: «لم يكن شرطًا دينيًا عباديًا كالصلوات الخمس»؛ وهذه عبارة صحيحة لا يختلف في صحتها أحد من أهل العلم أو طلابه، إلا أن التقرير عمد إلى تحريفها بما يثير الحفيظة فنسب إلى الكتاب أنه وصف هذا الشرط ونحوه بأنه «أحكام لا توصف بكونها من الدين». هكذا بإطلاق، حيث لا يخفى - كما ذكر التقرير من قبل ص. ١٤٠٥ - أن أحكام الدين منها ما هو قطعي ومنها ما هو ظني، والأحكام الظنية هي الغالبة. فلماذا يحرف التقرير الكتاب والكلام عن موضعه.

أقول: (٢) ما هو المقرر من التعريفات الجامعة المانعة المتواترة المسلمة للفقه والتي تجعله أحكامًا شرعية كما هو شائع عند العوام؟!. أليس الحكم الشرعي كما يعرفه الأصوليون هو: «خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو الوضع»، كما أن الحكم الفقهي هو: «أثر هذا الخطاب»، والأثر هو فهوم الفقهاء للخطاب. فكيف بتقرير علمي يصدر ممن ينتسب لهيئة كبار العلماء يزعم غير ذلك؟ لقد تناقض التقرير مع نفسه عندما شغب بهذا ثم أورد تعريف الفقه عند الفقهاء حفظًا ص. ١٤٠٦ سطر ١٧ بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية». فتوهم التقرير بأن الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية، والحقيقة أن الفقه هو العلم المكتسب من الأحكام الشرعية التي هي الأدلة التفصيلية، أو العلم المكتسب من الأدلة التفصيلية التي هي الأحكام الشرعية؛ وإلا فما الفرق بين الدليل وبين توجيه الدليل. ولذلك أجمعوا على أن لفظ «المكتسب» صفة للعلم (المذكر) وليس صفة للأحكام (المؤنثة)؛ لتبعية الصفة لموصوفها.

(٣) عبارات التقرير الملبسة لتبرير وصف الأحكام الفقهية بالشرعية، والإيعاز بالفتنة والوقيعة بين مؤلف الكتاب وبين العلماء والعامة.

حاول التقرير أن يبرر اختياره في وصف الأحكام الفقهية بأنها شرعية بمبررين قد يؤديان إلى فساد العقيدة، والعياذ بالله. أحد هذين التبريرين أبداه التقرير، والثاني عالجه الكتاب المكلوم دون جدوى بل استغله التقرير في بث الفتنة بين مؤلف الكتاب وبين العلماء والعامة. ونبين ذلك فيما يلي:

(١) أما ما أبداه التقرير تبريرًا لوصف الحكم الفقهي بأنه شرعي فقيما جاء ص ١٤٠٦ سطر ٢١ من قوله: «جاء وصف الأحكام التي موردها الشرع بأنها أحكام شرعية؛ لتمييزها عن التي موردها المصادر الأخرى».

أقول: إن المصادر الأخرى كالعقل والعادة لا تستقل بالتشريع في دين المسلم الذي ينطلق من فقهه إليهما، وقد يحول فقهه دونهما إما لقصور في فهمه وإما لظهور

تعارض عنده بينهما وبين عملية استنباطه البشري. وهذا لا يخفى على التقرير الذي زايد في ذلك وقال ص ١٤١٥ سطر ٢٩: «ما وضعه النبي صلى الله عليه وسلم من أصول للأنظمة والاتفاقات وأصول تطوير في شتى شئون الدولة من قضاء وشرطة وحسبة وجيش واقتصاد ومالية ونواب للحاكم.. الخ».

(٢) وأما ما عالجه الكتاب من رد شبهة وصف الحكم الفقهي بأنه شرعي دون جدوى في التقرير، بل واستغلاله في بث الفتنة والوقيعة بين المؤلف وبين العلماء والعامة فقيما ذكره التقرير ص ١٤٠٦ سطر ٢٤ من قوله: «كما أن الشرع هو الذي أذن للفقيه أن يجتهد في استنباط الأحكام لما ينزل بالناس من حوادث وقضايا».

أقول: (١) العجب أن التقرير يذكر شبهة إذن الشارع لتوصيف الحكم الفقهي بالشرعي، وكأنه أتى بجديد لم يقرأه في الكتاب المكلوم، بل وتجاهل النصوص التي نقلها منه، معالجة لهذه الشبهة؛ ليتيقن قارئ التقرير من التحامل والظلم. ولهذا فإن الجواب على تلك الشبهة سيكون من نصوص التقرير نفسها عن الكتاب المكلوم؛ حتى يظهر تخبط التقرير واضطرابه، وليس اضطراب الفكرة عند المؤلف، كما ذكره التقرير ص ١٤٠٦ سطر ٢٧.

جاء في التقرير ص ١٤٠٥ سطر ٤ نقلًا عن الكتاب المكلوم (ص٣١٤): «والفقه عمل بشري بإذن شرعي وفق ضوابط محكمة».

وجاء في التقرير ص ١٤١١ سطر ٧ نقلًا عن الكتاب المكلوم (ص٢٦٠): «وإذا كان خطاب الله تعالى.. هو الحكم الشرعي.. فإن أثر هذا الخطاب من الفهم البشري هو الحكم الفقهي.. وهذا ما استقر عليه الفقهاء والأصوليون إلا أنه مع فشو الجهل وعدم الاكتراث بالمصطلحات صار العامة يتهيبون تركه إلى غيره بسبب الوصف الشرعي المقدس في قلوب الناس، واستمرأ أهل الدعوة الإسلامية هذا الخطأ لأنه يطوع الناس لدعوتهم، فتكاسلوا في تجديد أساليب الدعوة والموعظة تواكلًا على سلطة الحسبة التي تحمل الناس قسرًا على الطاعة والإلتزام بالوجه الفقهي الذي يسوده الأولياء والأوصياء، لكن الأمانة تستوجب على الجميع تصحيح هذا الخطأ ووضع الأمور في نصابها بتخصيص الحكم الشرعي لنصوص الكتاب والسنة.. وتسمية أوصاف الأفعال بالحكم الفقهي، وهو حكم متعدد من نتاج بشري يخطئ ويصيب، وقد يعدل عنه صاحبه إلى غيره، بخلاف الحكم الشرعي الذي هو خطاب الله، فإنه حكم ثابت دائم مقدس».

وأقول: (٢) خرج التقرير عن موضوعه العلمي الذي عجز عن مناقشته إلى جانب شخصاني ونفسي وحاول بث الفتنة والوقيعة بين مؤلف الكتاب المكلوم وبين العلماء والعامة فوضع العنوان التالي ص ١٤١١ سطر ٦: «غلطه في العلماء والعامة، ووصفهم بأوصاف لا تليق بهم»، ووضع تحت هذا العنوان نص من الكتاب سالف الذكر قريبًا للرد على شبهة وصف الحكم الفقهي بأنه شرعي. ثم قال سطر ١٩ من

الصحيفة ذاتها: «ونلاحظ في قوله هجومًا شرسًا على الأمة عامتها وعلمائها، فانظر إلى هذا التهجم والطعن في أمانة وديانة علماء الأمة بأنهم تكاسلوا وتواكلوا وتركوا الجهل يفشو، ولم يكترثوا بالمصطلحات الخاطئة. كما أنهم شاركوا في تضليل هذه الأمة بأن حملوا الناس قسرًا على الطاعة، وساعدوا في إيجاد الأولياء والأوصياء عليهم من دون الله، وهذا طعن واتهام عريض لا يمكن إطلاقه بهذه الطريقة».

أقول: (٣) لماذا يحمل التقرير وجه كلام الكتاب المكلوم عن ظاهره في البناء والتصحيح والتنوير إلى تفسير باطني غير مقصود عند المؤلف، وقد أخرج الشيخان عن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى». وهل يوافق التقرير على تسوية حكم الفقيه الاستنباطي بحكم الله النصي في الاسم؟ وهل يوافق على الأثر المترتب على ذلك؟. إن المخلصين من المسلمين علماء وعامة سيفرقون بحكم عقيدتهم الصافية بين الحكم الفقهي وبين الحكم الشرعي، ولن يخيل عليهم هذا الزيف وتلك الفتنة المصطنعة بين المؤلف وبين علماء الأمة وعامتهم.

المأخذ الثالث: توصيف علم أصول الفقه بأنه ابتكار بشري، وتوصيف الإجماع بأنه اتفاق بشري من أهل الذكر، وتوصيف حكم المباح بأنه حكم إنساني تركه الشرع للإنسان وليس حكمًا تكليفيًا

زايد التقرير على نشأة علم أصول الفقه، وعلى حقيقة الإجماع، وحقيقة حكم المباح بما يساهم في تغييب العقل عن الواقع، ويحجب نور العلم عن الناس، فيظل المسلمون أسرى عند من فرضوا أنفسهم أوصياء على الدين. ونوضح ذلك فيما يلي

أولًا: المزايدة في نشأة علم أصول الفقه بجعله وحيًا من السماء

يذكر التقرير ص ١٤١٢ سطر ٢١ من مغالطات الكتاب المكلوم: «ادعاؤه أن علم أصول الفقه ابتكار بشري». ثم يثور التقرير في حماسة ومزايدة على الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول معقبًا على ذلك: «وهذا القول فيه مغالطة تنأى بالمؤلف عن الانزلاق فيها؛ حيث إن كيفية البحث والاستنباط المتمثلة في علم أصول الفقه الذي هو ابتكار بشري لم يخرج عن كونه كاشفًا لمناهج الفهم التي علمها المبلغ المعصوم الذي هو جزء من الوحي لأصحابه، ثم الأصحاب نقلوها للتابعين من بعدهم، وهكذا الأمر إلى الآن. وعليه فإن علم أصول الفقه وغيره هي علوم مأخوذة من الوحي وليس الإنسان منشئًا لها أصالة».

وكان التقرير قد أوجز هذه المغالطة في موضع سابق ص ١٤٠٦ سطر ٢٤ عندما قال: «الشرع هو الذي أذن للفقيه... وفق مناهج محكمة علمها المبلغ للوحي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكشف العلماء عنها وذلك مما هو معلوم ومقرر في الشرع».

أقول: إن هذا الكلام المرسل الذي يلتجئ إليه الحاشدون للدهماء لا يجري على أهل العلم وطلابه، فالمبتدئون يعرفون أن الإمام الشافعي المتوفى ٢٠٤هـ هو أول واضع لعلم الأصول، والمتخصصون يعرفون أن كثيرًا ممن سبقه قد ساهم في وضع بعض مبادئه، ولا أحد - سوى التقرير - يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم مناهج الفهم للنصوص. إنما الذي ورد في السنة هو حديث معاذ بن جبل، الذي أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والبيهقي بسند فيه مقال. قال الترمذي: ليس إسناده بمتصل. وقال ابن حزم: لا يصح. وقال الدارقطني: المرسل أصح. عن معاذ قال: لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لي: «كيف تقضي إن عرض قضاء»؟ قال: قلت: أقضي بما في كتاب الله عز وجل. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله عز وجل»؟ قال: قلت: أقضي بما قضى به رسول صلى الله عليه وسلم. قال: «فإن لم يكن قضى به رسول الله»؟ قال: قلت: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: فضرب صدري وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله». وفي رواية عند ابن أبي شيبة، قال: «فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يقض فيه نبيه ولم يقض فيه الصالحون»؟ قال: أؤم الحق جهدي.

فهل هذا الحديث الذي تكلم في سنده أهل العلم هو مناهج الفهم للنصوص؟. وحتى حديث الصحيحين عن عمرو بن العاص، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»، فهو لا دلالة فيه على مناهج الفهم للنصوص، كما يزايد التقرير. من القائل إن الأمر للوجوب أو للندب أو للإباحة، وإن النهي للتحريم أو للكراهة؟ من الذي قال يحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص؟ وغير ذلك من مباحث علم الأصول؟ هذه هي المناهج التي وضعها الأصوليون ببشريتهم لضبط منظومة الاستنباط عقلًا.

ثانيًا: المزايدة على الإجماع، والخروج عليه منفردًا، والشغب بالتهكم والافتراء.

ضعف التقرير عن الاعتراف بحقيقة الإجماع البشرية، كما عجز عن مناقشتها واكتفى بالمزايدة عليه بالكلام المرسل، والنيل ممن يحكي مسائله بالتهكم والافتراء. وصاحب التقرير هو ممن خرق الإجماع منفردًا، ونبين ذلك فيما يلي:

[أ] التهكم لمجرد طلب إعادة دراسة مسائل الإجماع لبيان جانبه الإنساني.

فجاء في التقرير ص ١٤٠٧ عنوان جانبي: «غلطه في الإجماع»، ونقل تحته نصًا من الكتاب المكلوم دون اعتناء، فسقط من النص سطر مهم لا تستقيم العبارة إلا به، وأنا أنقل هذا النص الوارد في التقرير مع وضع السطر المتروك بين معكوفين. يقول التقرير نقلًا عن الكتاب المكلوم بشأن الإجماع: «وعلى التسليم بحصوله فهو دليل إنساني قائم على استقراء واقع الناس في اختيارهم المذهبي، إلا أنه انحرف عن مساره حتى أخذ حجية دينية، وصار العامة يفهمونه على أنه الدليل الثالث بعد الكتاب والسنة (فله ما لهما من مكانة دينية، ثم جعلوه في الحجية مقدمًا على الكتاب والسنة)؛ لأن نصوصهما تحتمل أوجهًا مختلفة أما الإجماع فلا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، ولذلك

أساء الكثيرون استخدامه وجعلوه سيفًا مسلطًا على الفقهاء المجددين ووصفوهم بأهل الضلال والشذوذ، كما وقع لابن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ بسبب ممارسة حقه الشرعي في الاجتهاد والذي مس ما وصفوه بالإجماع». ثم نقل عن الكتاب أيضًا: «وهذا يتوجب إعادة دراسة الإجماع في علم أصول الفقه حتى تظهر جانبه الإنساني من أكثر الأوجه». ويتهكم التقرير فيقول عقب ذلك: «فيا ترى ما ماهية تلك الدراسة»؟.

أقول: هكذا صارت الدعوة إلى تجديد الدراسة جريمة في نظر التقرير.

[٢]التهكم على تعبير زعامة الإجماع، والعجز أمام تعبير الطحاوى بالحمل على الإجماع.

نقل التقرير ص ١٤٠٨ سطر ١٢ عن الكتاب المكلوم: «وبهذا يتضح أن حكم الإجماع في وجوب الغسل من الإكسال قد تزعمه عمر رضي الله عنه، وحصل على موافقة من حوله».

وقد قدم التقرير هذا النقل بقوله سطر ٨ من الصحيفة نفسها: «ومقتضى تلك الدعوى أن الإجماع يتزعمه أحد الناس ثم يوافق عليه من حوله كأن أمر الموافقة من الذين حول الزعيم الذي يدعو إلى الإجماع قد حصل محاباة له أو مجاملة أو خوفًا».

ثم يعاود التقرير الشغب مرة أخرى تزيدًا بما يزعم من ملاحظات على المغالطات والمخالفات سطر ٢٠، وسطر ٣١ من الصحيفة نفسها، ومنها: «الإجماع يتزعمه أحد من الناس فيوافق عليه من حوله إما مصانعة له أو مجاملة أو خوفًا منه».

أقول: ما هذا الغرور؟ ولماذا المزايدة على إجماعات سيدنا عمر رضي الله عنه؟ ألم يستوقف التقرير ما نقله الكتاب المكلوم عن الإمام الطحاوي في «شرح معاني الآثار» معلقًا على إجماع عمر في الغسل من الإكسال، فقال: «فهذا عمر قد حمل الناس على هذا بحضرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه ذلك منكر». لماذا لم يعلق التقرير على قول الإمام الطحاوي: «فهذا عمر قد حمل الناس»، أليس حمل الناس على فعل شئ يحتمل المصانعة أو المجاملة أو الخوف، كما تهكم التقرير. ولماذا لايحسن التقرير الظن في أن قبول الحمل أو الزعامة من الاقتناع، أو من طبيعة الإدارة في طاعة ولي الأمر وليس من النفاق أو الجبن؟

[٣]التهكم على وصف مسائل الإجماع بالفقهية، وقوله: «لا عزاء للإجماع»، وهو ممن خرق الإجماع فى زكاة الودائع البنكية.

رغم أن التقرير اعترف بأن الكتاب المكلوم يقر بالإجماع حجة، وأنه احتج به «أكثر من عشرين مرة» معددًا الصفحات التي ورد إقرار الكتاب بحجية الإجماع فيها (ص١٤٠٩ سطر ٩ من التقرير بالمجلة) إلا أن التقرير عمد إلى لي الحقائق واتهم الكتاب المكلوم بإنكار الإجماع لتهييج الرأي العام بالباطل، فقال التقرير ص ١٤٠٩ سطر ٥: «على الرغم مما ذكره المؤلف في حديثه عن الإجماع الذي يطعن بوضوح في الإجماع وحجيته ومكانته في الشريعة الإسلامية، ولا يسعنا في هذا المقام، إلا أن نذكر المؤلف بأنه قد احتج بالإجماع». ثم قال في السطر الأخير من الصحيفة السالفة الذكر: «ونجده يذكر أن مسائل الإجماع لا تعد مسائل شرعية دينية بل هي فقهية»، ويعلق على ذلك ص ١٤١٠ سطر ٤ بقوله: «يعني لا عزاء للإجماع».

أقول: (١) العجب من التقرير الذي يناقض نفسه، وليس له مهمة سوى النيل من الكتاب ومؤلفه. كيف يتهم الكتاب بالطعن في الإجماع وحجيته، وفي الوقت ذاته يعترف بأن الكتاب احتج بالإجماع في عشرين موطنًا منه.

إن محل النزاع الذي لم يقف عليه التقرير هو أصل حجية الإجماع، هل هو الاتفاق بين أهل الذكر الذي تأمر النصوص الشرعية بالوفاء به بحيث يمكنهم الاتفاق على تعديله، أو هو الدين والشرع الذي لا يسع العلماء والفقهاء في أي عصر أن يخالفوه؟ لقد أجاب الكتاب المكلوم عن ذلك من أقوال الأصوليين، وانتهى إلى ذكر قول أبي عبد الله البصري، وقال الرازي: هو الأولى. أنه يجوز الإجماع على مخالفة إجماع في عصر سابق. وهذا يدل على أن حجية الإجماع من الاتفاق المشروع وليس الشرع الفوقي. وبهذا يشمل تعريف الإجماع: اتفاق جماعة المصلين على الالتزام بوجه فقهي معين، واتفاق المتعاقدين على محل العقد، واتفاق الشركاء على محل الشركة.. وهكذا مما ذكرناه في الكتاب المكلوم ص ٨٩.

أقول: (٢) الذي يقرأ التقرير ومزايدته على حجية الإجماع، والتخويف من الخروج عليه يعتقد أن صاحبه هو أول الملتزمين بقوله. إلا أن المفاجأة التي تؤكد أن التقرير صناعة مقصودة للإساءة إلى الكتاب المكلوم هي أن صاحب التقرير قد انفرد بفتوى شهرها بحكم منصبه، لم يسبقه فيها أحد، بل أنكرها عليه كل أهل العلم من شيوخه وأقرانه وتلامذته، وهي الفتوى الخاصة بزكاة الودائع البنكية للذين يتمولون منها، فقال بتزكية أرباحها عشرة في المائة دون الأصل. ومع إجلالي شخصيًا لشجاعة صاحبها، وإعجابي بقوة شخصيته العلمية في تأصيله لها إلا أن ذلك يخالف منهجه النقدي والذي يسعى إلى منع الفتوى التي تخالف الإجماع.

[٤]التهكم على قول من يرى عدم وقوع الإجماع واتهامه بتكذيب الأمة

يزعم التقرير بكلام مرسل وقوع الإجماع لمجتهدي الأمة في كل عصر من عصورها، ويعد ما حكي في كتب الفقه إجماعًا حقيقيًا وليس إجماعًا أغلبيًا، ويرتب على ذلك اتهام من ينكره بتكذيب الأمة والطعن في دينها. فقد نقل التقرير ص ١٤٠٩ سطر ٢٥ نصًا من الكتاب المكلوم عن الإجماع، وهو: «ما يجب التنبيه إليه هو أن التعريف بهذا القيد، وهو اتفاق مجتهدي الأمة يجعله ضربًا من الخيال، لو كان هذا الاتفاق لزمن معين أو عصر محدد لطبيعة النفس البشرية المجبولة على التمايز».

يقول التقرير معلقًا على ذلك: «ويلزم من ذلك الطعن فيمن حكى إجماعًا وقع في الأمة في أي فترة من فترات تاريخها، وهو يكاد أن يكون تكذيب (هكذا وقع في التقرير، والصواب: تكذيبًا) للأمة كلها من أولها إلى

آخرها. . وهذا طعن صريح في ديانة الأمة جميعها».

أقول: هل يليق هذا الكلام المرسل بتقرير علمي يقدم لمجمع فقهي متخصص، وماذا يقال للإمام النظام وبعض أئمة الشيعة الإمامية الذين يقولون بعدم إمكان وقوع الإجماع عملا وإن أمكن وقوعه عقلا. وماذا يقال للأصفهاني وقد تبعه للإمام أحمد أن الإجماع لم يقع إلا في عهد الصحابة، وأما بعدهم وانتشار الإسلام وكثرة العلماء فلا مطمع للعلم به. وماذا يقال للجمهور الذين قالوا بوقوع الإجماع عقلًا وعملًا، ولكن أمثلته نادرة وكلها في عهد الصحابة، وتستند إلى نصوص شرعية مثل إجماع الصحابة على جمع القرآن، وقتال مانعي الزكاة؟.

إن إنكار وقوع الإجماع ليس تكذيبًا للأمة في عصر من العصور، وإنما هو إقرار بالإجماع الأغلبي، أو هو إيمان بالإجماع عقلًا لا عملًا، كما ذهب إلى ذلك كثير من الأصوليين.

[٥]التهكم على ذكر الفقهاء لبعض الإجماعات، والافتراء على مؤلف الكتاب المكلوم بأنه الذي جمعها وحكاها.

رغم أن التقرير تزعم المزايدة على الإجماع، وأنكر متهكمًا على الكتاب المكلوم بأنه وصف إجماع المجتهدين في زمن ما بعد الصحابة بالخيال - كما سبق ذكره في البند السابق - إلا أن التقرير تتبع المسائل الإجماعية التي ذكرها الكتاب المكلوم ونفى عنها صفة الإجماع لعدم توفر شروط الإجماع فيها، واتهم مؤلف الكتاب بحكاية هذا الإجماع إفتراءًا منه.

يقول التقرير ص ١٤٠٩ سطر ١٣ بعد ذكره لمواطن الإجماع في الكتاب المكلوم: «نذكره بأن تلك الإجماعات التي حكاها لا تنضبط مع شروط الإجماع، بل هو لم يذكر من حكاها عنه، والواضح أنه هو الذي جمعها، وحكاها من قبيل سعة الإطلاع وطول الباع !».

أقول: (١) ما هذا التضارب في حكاية وقوع الإجماع في التقرير، هل هو مع إنكاره حتى يرفض ما ذكرناه من إجماع بدعوى عدم توفر شروطه، أو هو مع إثباته فيناقض نفسه بهذا الإنكار؟.

أقول: (٢) لماذا الافتراء والتهكم على مؤلف الكتاب بأنه الذي جمع تلك الإجماعات من قبيل سعة الإطلاع وطول الباع؟ ألم يكن الكتاب أمينًا في ذكر من حكى الإجماع؟ فليرجع التقرير إلى المثال الأول في إجماع عمر على وجوب الغسل من الإكسال، ذكر الكتاب ص ٨٢ سطر ٧: أن أكثر أهل العلم حكوا الإجماع على ذلك، ومن هؤلاء: ابن العربي، والنووي، والقسطلاني. والمثال الثاني في إجماع عمر على حصر تكبيرات صلاة الجنازة في أربع. ذكر الكتاب ص ٨٤ السطر الأول: أن أكثر أهل العلم حكوا الإجماع على ذلك، ومنهم الطحاوي، وابن عبد البر، والنووي.

والمثال الثالث في إجماع عمر على جلد شارب الخمر ثمانين، ذكر الكتاب ص ٨٧ السطر الأول: أن كثيرًا من أهل العلم حكوا الإجماع على ذلك، ومنهم الطحاوي.

وأما سائر الإجماعات المذكورة في الكتاب فهي لا تخفى على المتخصصين في الفقه لشيوعها في كتبهم المشهورة.

[٦]عدم الانتفاع بدعوات بعض المصلحين لفهم حقيقة الإجماع الإنسانية كالجويني والقرضاوي:

أصم التقرير عن الاستماع لدعوات بعض المصلحين لفهم حقيقة الإجماع الإنسانية، ممن ورد ذكرهم في الكتاب المكلوم. ومن هؤلاء إمام الحرمين شيخ الشافعية أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد الجويني. (ولد أبو المعالي ٤١٩هـ، ومات ٤٧٨هـ)، وقد أرجع الإجماع إلى العرف، ونقلنا نص كلامه في هامش كتابنا ص ٨٩.

ومن هؤلاء أيضًا الدكتور يوسف القرضاوي الذي قدم ورقة عمل إلى المائدة المستديرة التي نظمها المجلس الأعلى لشئون الأسرة في قطر يوم ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٤م تحت عنوان: «شهر سيف الإجماع وخطورته على الاجتهاد»، وفيها انتهى إلى اختيار قول الأصم وابن عليه في تسوية دية المرأة بالرجل؛ خلافًا لما حكي عن الإجماع في أن دية المرأة المسلمة على النصف من دية الرجل المسلم. وذكر اتهام ابن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ في زمنه بأنه خرق الإجماع الذي استمر عليه العمل من قبله. ونال العلماء منه، وجرحوه، وأدخل السجن. وقد ذكرنا ذلك في كتابنا المكلوم.

ثالثًا: المزايدة في حكم المباح والادعاء بأنه حكم شرعي باتفاق العلماء، والإنكار على الابتكار في المصطلحات.

زايد التقرير على حكم المباح وادعى بأنه حكم شرعي باتفاق العلماء، وأنكر على المؤلف ابتكار مصطلح «الحكم الإنساني» في المباح.

فقال التقرير ص ١٤١٠ سطر ٢٤ بعنوان جانبي «غلطه في المباح»، ونقل نصًا من الكتاب المكلوم، وهو: «أن حكم المباح عند الفقهاء يشغل النسبة الغالبة من المسائل، وهذا الحكم عند أكثر الفقهاء والأصوليين ليس حكمًا تكليفيًا، وإنما هو حكم إنساني تركه الشرع للإنسان».

وعقب التقرير على ذلك فقال: «ونسبة هذا الرأي إلى أكثر الفقهاء والأصوليين من المجازفات البعيدة، بل يمكن الجزم بأن هذا الرأي لا يعرف ولا يكاد يوجد في كتب الأصول والفقه، ولا يعرف الفقهاء أصلًا عبارة «حكم إنساني» فهي من مبتكرات المؤلف. وإذا كان الشارع هو الذي أباح وحظر وأوجب وندب وكره، فالأحكام الخمس كلها شرعية، فالمباح حكم شرعي باتفاق العلماء؛ لأن الشارع هو الذي حكم بإباحته، وإنما اعترض بعضهم على صحة إطلاق «تكليفي» على المباح من جهة أن التكليف إلزام ما فيه مشقة، وليس المباح كذلك، والحاصل أن المباح حكم شرعي».

أقول: (١) لعل هذه أكبر زلة علمية وردت في التقرير؛ لتعلقها بالتخصص الدقيق لواضع التقرير، وقد زعم قوله: «يمكن الجزم بأن هذا الرأي لا يعرف ولا يكاد يوجد في كتب الأصول والفقه»، وقوله: «فالمباح حكم شرعي بإتفاق العلماء».

وقد عالج مؤلف الكتاب المكلوم حكم المباح في مبحث مستقل وبالتوثيق المرجعي في كتاب له بعنوان «المهارة الأصولية وأثرها في إنضاج الفقه وتجديده» - الطبعة الأولى لجامعة الكويت سنة ٢٠٠٤م، والطبعة

الثانية لدار الكتب المصرية سنة ٢٠١١م. وقد حاز الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية سنة ٢٠٠٧م - وحاصل ما فيه بشأن حكم المباح: أن جمهور الأصوليين في المذاهب الأربعة المشهورة قالوا: إن الإباحة من العفو وليست حكمًا تكليفيًا؛ لقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾

(المائدة: ١٠١)

وما أخرجه الترمذي وابن ماجه عن سلمان الفارسي، والدارقطني والبزار عن أبي الدرداء برجال ثقات، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه». قالوا: ولأن تعريف المباح عند الفقهاء هو الفعل الذي لم يطلب الشارع فعله أو تركه، والمكلف فيه بالخيار، ويكون ثوابه وعقابه على حسب النية. وإذا لم يكن المباح من الأحكام التكليفية - بإقرار التقرير - وهو كذلك ليس حكمًا وضعيًا عند أكثر أهل العلم، فكيف يكون حكمًا شرعيًا؟ أليس الحكم الشرعي ينقسم إلى تكليفي ووضعي، فإذا لم يكن المباح من التكليفي أو من الوضعي فكيف يكون شرعيًا؟ ناهيك عن الحكم الفقهي الذي هو أثر الحكم الشرعي.

صحيح لا ننكر ما ذهب إليه بعض الأصوليين من القول بأن حكم المباح من الأحكام التكليفية. ومن هؤلاء أبو اسحاق الكعبي وأبو الفرج المالكي، وأبو بكر الدقاق وأبو اسحاق الإسفراييني الشافعيان، وأبو الفرج الشيرازي الحنبلي، وحجتهم: أن المباح يوصف بالحسن فيحسن طلبه، وهذا من التكليف.

واعترض على ذلك الزركشي بأنه قول غير معقول؛ لأن المباح لو وصف بالحسن لكان مطلوبًا. وأضاف الشاطبي بأن المباح لو كان مطلوبًا للزم الوفاء بنذره.

وذهب الإمام الشاطبي في «الموافقات» إلى أن المباح من حيث هو مباح لا يكون مطلوب الفعل ولا مطلوب الاجتناب، فهو إذن ليس حكمًا تكليفيًا. وهذا إذا نظرنا إلى الجزئية. وأما بالكل فهو إما مطلوب الفعل أو مطلوب الترك. ومرتبة المباح تختلف عن مرتبة العفو التي تتوسط الحلال والحرام. ويتردد الشاطبي في اعتبار العفو حكمًا، وإذا صح كونه حكمًا فهل هو تكليفي أو وضعي؟ قال: كل ذلك محتمل.

أقول: أليست تلك الأقوال للفقهاء والأصوليين تبطل قول التقرير: «فالمباح حكم شرعي باتفاق العلماء»؟ كما تبطل الغرور بالقول: «يمكن الجزم بأن هذا الرأي لا يعرف ولا يكاد يوجد في كتب الأصول والفقه»؟.

ويمكن الرجوع في ذلك إلى: فواتح الرحموت ١/ ١١٣، البرهان ١/ ٢٠٥، ميزان الأصول للسمرقندي ١/ ١٤٩، تيسير التحرير لأمير بادشاه ٢/ ٢٢٥، الإحكام للآمدي ١/ ١٢٤، المسودة لابن تيمية ص ٦، أصول الفقه لابن مفلح ص ٢٠٤.

الفكر
الطريق الصحيح إلى الإيمان

أ. عاطف مصطفى

حرصت مجلة الهلال على الاستفادة من علم الدكتور عبدالعزيز كامل، خصوصًا وقت توليه وزارة الأوقاف، فى فترة فارقة فى حياة مصر، والتى بدأت منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧، وانتهت بانتصارها فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣.

كان من بين مشاركاته فى عدد سبتمبر ١٩٧٢م مقال فى العدد الخاص «فلاسفة الإسلام» وعنوان المقال «الفكر طريق إلى الإيمان».

قال رئيس التحرير فى افتتاحية العدد الخاص: «عندما أنشأ أفلاطون جمهوريته الخيالية الفاضلة، جعل الحكم فيها للفلاسفة، لأنه كان يرى أن الحياة لن يسودها الحب والسلام والرفاهية برسالته العامرة.

ولا أحسب أن أحدًا يختلف معي إذا قلت إن العرب لم يعرفوا الفلسفة، قبل بعث محمد عليه الصلاة والسلام برسالته العامرة.

يومئذ؛ هبط على القوم نور يخرجهم من بداوة الجاهلية، إلى حضارة الإسلام، ويفتح لهم «آفاق التأمل والتفكير والاجتهاد»، ويحضهم على طلب العلم، ويبشر العلماء بأنهم سادة الناس بعد الأنبياء، وينقلهم من عبادة الأحجار إلى سماوات الروح ومرتقيات الفكر.

وهكذا نشأت الفلسفة الإسلامية، فلسفة روحية إنسانية مرنه، لا تقيدها «المادة» بأصفاد الجمود، ولا تدفعها الهرطقة إلى أدغال الشرود.

يبدأ الدكتور عبدالعزيز كامل مقاله بقوله: إذا ما نظرنا إلى ثلاثية: الخرافة والدين والعلم، وجدنا أنه لا مجال للدفاع عن الدين، في عصر كان الدين هو سمته الكبرى، وهو ما يقابل اصطلاحًا «العصور الوسطى» وإنما ينبغي أن يتجه القول، أكثر ما يتجه إلى وضع الدين فيما يسمى بـ «عصر الخرافة»، ثم إلى

وضعه في «عصر العلم» الذي نعيش فيه.

أقول هذا ونحن نبني مجتمعنا على العلم والإيمان.

الإيمان بالإله الواحد

وفي الفكر الديني، كثيرًا ما نقرأ أن الإنسان بدأ بعبادة مظاهر الطبيعة من حوله خوفًا وطمعًا، وهذه الصور تستطيع أن تراها في الحضارات القديمة ومازالت نماذج منها حية في قلب إفريقيا، وارتقى الإنسان إلى عبادة عدد محدود من الآلهة: اثنين وأربعين، كما في فترات من حياة مصر القديمة، وتسعة أحيانًا، وأكثر من هذا وأقل.. وسار إلى ثلاثة، وإلى اثنين يمثلان النور والظلمة، وانتهى به المطاف إلى التوحيد المطلق، الذي نراه في الإسلام، حيث الواحد هو الذي يقوم بنفسه، ما دونه كثور، وما فوقه تعدد.

وغلب الإيمان بالله الواحد على ديارنا، مهبط الأديان السماوية الكبرى، ومع تباين في التصور والتجريد والتجسيد، يؤمن كل من اليهود والنصارى والمسلمين، بإله واحد.

تنص على هذا كتبهم، ولا أريد أن أقف في هذا البحث عند قضايا الذات والصفات، والأقانيم، وربط الإله بشعب من الشعوب.

هذا الخلط الفكري، يذهب إليه الذين يؤمنون بمدرسة التطور، وإن كانت المدرسة الوصفية في الفكر الديني، لا تعنى كثيرًا بخط التطور، الذي استقطب جانبًا كبيرًا من الفكر الإنساني، بعدما نادى به «دارون».

والذي أود أن أقف عنده قليلاً: أن القول بالتعدد عند القبائل الوثنية، خضع لدراسات علمية حديثة، ألقت عليه ضوءًا يكشف جوانب جديدة من الفكر الديني عندهم.

وليس فينا من شهد مولد الحياة البشرية على الأرض، ولا مولد الدين.. وليس أمامنا بعد النصوص الدينية، إلا أن نقرأ في كتاب الحياة المفتوح في هذه الشعوب، التي طالما رميناها بالوثنية، لنرى فيها صورة أقرب ما تكون إلى فجر الحياة.

في قلب إفريقيا

وقد جاء كاتبنا الكبير بنماذج وأمثلة من إفريقيا فقال عن مملكة بنين «١٦٦٨»، وكانت وقتذاك من أعظم دول ساحل غانا «إنهم كانوا شعبًا دمث الأخلاق، يعيشون معا في سلام، وتسودهم عدالة وقوانين صالحة.. وعرفوا حق المعرفة أن هناك إلهًا فطر السموات والأرض وهو حاكمها».

وبعد هذا بنصف قرن، جاء مبشر أمريكي هو «ليتون ولسون» ليقول: «بين الشعوب الوثنية في ساحل غانا، وما بين الرأس الأخضر والكاميرون، يسود إيمان بكائن أعلى، خلق الأشياء جميعًا وحفظها، ولا يشوب هذه الفكرة في أذهانهم غموض أو نقص، بل إن هذه الفكرة محفورة في طبيعتهم الأخلاقية والعقلية، حتى إن الإلحاد في أية صورة من صوره، هو عندهم سخف وانحراف عن الصواب، لا يستحق حتى عناء الأفكار».

الإيمان بوجود الله

وبينما كان «ولسون» يقوم بدراساته في غرب إفريقيا، كان «لفنجستون» يقوم بدراسات في منطقة الزمبيري يقول عنها: «لدى كل الأهالي في هذا الإقليم، فكرة واضحة عن الكائن الأعلي، خالق الأشياء جميعًا، والمهيمن عليها، وهم جميعًا ومن حولهم يؤمنون بوجود الله، وخلود الروح والمجازاة على الخير والشر».

وأضيف إلى هذا تأكيدًا آخر من القرن العشرين، جاء في كتابات العلامة الفرنسي الكبير موريس ديلافوس «١٨٧٠-١٩٢٦م» فهو يذهب إلى أن التصرف الديني عند الإفريقي، لا يسيطر على نظرته إلى الدنيا فقط، وإنما يتعداها إلى عالم الغيب، فكل نشاط فردي أو جماعي، سواء أكان ذا طبيعة اجتماعية أو سياسية، أم اقتصادية، أم دينية، تتحكم فيها أساسًا اعتبارات ذات طبيعة صوفية ودينية.

ويذهب «ديلافوس» إلى أن الزنوج الذين يقال عنهم، إنهم لا دين لهم: في الواقع من أشد شعوب العالم تدينًا.

بل إن الإفريقيين يطلقون على الخالق الأعلي، صفات نراها في الأديان السماوية الكبري: الخالق، الهادي، الحفيظ «على العالم».

ونود أن نقف عند هذا الحد من اعتمادنا على بحث «هانزبري»، وفيه يتابع - في تفصيل - نظرة الإفريقي إلى العلاقة بين الله والإنسان وفكرة الروح... إلخ.

فالذي يعنينا أساسًا هو وجود «الإيمان بالله الكبير المتعال» عندهم هذه النظرة قد لا تتفق مع المدرسة التطورية، ولكن هذه البحوث العلمية تؤكد وجود الإيمان بالله، فيما تعارف كثير من الباحثين على تسميته بعصر الخرافة.

عودة إلى ما جاء به القرآن الكريم

يواصل الدكتور عبدالعزيز كامل مقاله فيقول: وإذا ما عدنا إلى كتاب الله، نسأله تفسير ذلك قرآنا، قوله تعالى عن رسله:

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾

(غافر: ٧٨).

وقوله تعالي:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(فاطر: ٢٤).

وقوله عن الإيمان وإسلام النفس لله:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

(الروم: ٣٠).

- نعم إنها فطرة الله.
- نراها وسط الغابة العذراء.
- نراها في قلب إفريقيا.
- نراها عند شعوب طالما نعتها بعض كتاب الغرب بالتخلف والتأخر، ليتخذ من هذا تبريرًا لاستعمارها، واستنزاف خيراتها!!

إنه يدعي القيام بواجب تطويرها، فهذا عنده عبء الرجل الأبيض، ولكن البحث المنصف، والنظرة المستأنية، تثبت وجود الإيمان، وجذوره الأصيلة في النفس الإنسانية.

قد تشوب هذه النظرة بعض الخرافات، وقد يلحق بها شيء من الزيف، ولكن الحقيقة، التي تستعلي على هذا كله، هي الإيمان بوجود الله الكبير المتعال..

ولا نستطيع - على أساس علمي - أن نجد جماعة بشرية لا دين لها.

فالدين مرتبط بالحياة، والإنسان بهذا كائن مؤمن.. هذه هى الفطرة، وهذه هى النظرة العلمية لهذه الشعوب.

وتستطيع بعد هذا أن تنتقل إلى وضع الدين فى عصر العلم.

عمق الفكر الدينى فى العالم الثالث

والفكر الدينى المعاصر يمر فى تفاعل كبير من أبرز مظاهره:

• انحسار فى المد الدينى فى عدد من الدول أمام الفكر المادي..

ولكن جانبًا من البحوث الحديثة فى هذه الدول، وبخاصة فى مجالات علم النفس أبرزت أمام العلماء ظاهرات وقف أمامها العلم المادى حائرًا، وهذه الظاهرات تؤكد وجود قوى وراء الحس المتعارف عليه.

• عمق الفكر الدينى وبخاصة فى العالم الثالث، وذلك لارتباط الشعور القومى والرغبة فى التحرر من السيطرة الاستعمارية، ببعث كل القوى القومية ومن بينها الدين، لتكون مددًا لمعارك التحرير والتطوير، وليس هذا البعث مقتصرًا على الإسلام، وإنما هو ظاهرة تشمل المسيحية بكنائسها المختلفة، واليهودية والهندوكية والبوذية.

• إن هذا البعث يستهدف ربط الدين بالحياة، بحيث يصبح الدين مددًا لهذه الحياة، لا عقبة فى سبيل تطورها.

وحين أقول الدين فلا جدال فى أن جوهره الصافى يمد الحياة بزاد قوي، وإنما القضية فى موقف بعض رجال الدين ـ أى دين ـ من قضية التنمية، وما يرتبط بها من تغييرات المجتمع.

وليست مهمة الدين هنا أن يبرر أمرًا قائمًا، وإنما أن يكون عونًا على الحياة.

• وفى دول أخرى متقدمة، حاول رجال الدين القيام بهذا الربط، بينما انصرفت طوائف من المجتمع عن الدين انصرافًا جزئيًا، أو كليًا فرحين بما أوتوا من العلم، ومتع الحياة، كأن هذه الحياة هي كل شيء، لا قبل ولا بعد.

وهنا نجد أنفسنا على مفرق طريقين فى البحث:

١ـ طريق مع الذين لا يؤمنون.

٢- طريق مع الذين يؤمنون ولا يعملون، ولا يتطورون.

مع الذين لا يؤمنون

يقول الدكتور عبدالعزيز كامل.. ولنبدأ بالطريق الأول:

وأهل الدين يلجأون عادة إلى براهين إذا كانت محددة المسالك فهى مختلفة الوسائل أو على الأصح متطورة الوسائل.

يتحدثون عن دليل الصانع كل مصنوع له صانع، وعن دليل الغاية.. فلكل عمل غاية وجزاء، وعن دليل الكمال، فنحن نستهدف الدقة والكمال فى كل شيء فلابد من الكمال المطلق.

فالله فى الإسلام هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، هو الذى أحسن كل شيء خلقه.

وينبغى مع تطور العلم أن نتخذ منه أداة لتأكيد الإيمان، دليل الصانع، دليل الكمال،

كل أولئك نستطيع أن نؤكده بكشوف العلم الحديث. وأصبحت المؤتمرات الآن تعقد على الصعيد العالمي، لوضع العلم فى خدمة الدين، وقد لا يتسع المجال لعرض تجارب الأديان الأخرى ولكن أود أن أقول فى إيجاز..

إن علماءهم المختصين يجتمعون ليضع كل منهم خبرة علمه فى خدمة دينه وتعطى هذه المادة العلمية إلى رجال الدين ليحولوها إلى عظات ومؤلفات، ويتابع رجال الدين تطبيق التجربة على الطبيعة وتقييمها وتطويرها.

هذه المسائل لا تعالج فى عالمنا المعاصر بحساسية، وإنما لها مؤتمراتها ومؤلفاتها، ونحن فى أشد الحاجة إلى تطوير وسائلنا على هدى من هذه الوسائل، فهى منهج علمى إنسانى غير متقيد بدين من الأديان.

مطلوب علم كلام جديد

وإذا كان أبناؤنا فى العصر العباسى قد قابلوا التفاعل مع الفكر اليونانى والفارسى والهندى «بعلم الكلام» وبذلوا ما بذلوا من جهد فى تأكيد العقيدة والدفاع عنها، وقام الحوار بينهم خصبا بين الأديان والمذاهب المعاصرة، فمن أجل ذلك ذهبت وفود إلى بلاد الروم، وجاءت كتب ونشطت حركة الترجمة.

وما أحرانا الآن بأن يكون لنا «علم كلام جديد» يقابل مشكلات العصر بفكر العصر، ويضع منجزات العلم فى خدمة الدين، ويكون قريبا من فكر شبابنا وعقله.

ويختم الكاتب بقوله: إذا ما أحسنا معرفة العقيدة والإيمان كان علينا بعد هذا أن نربط بينها وبين واقع الحياة.. إن العقيدة بالنسبة للإنسان دافع إلى العمل، وعاصم من الانحراف، ومعيار للمستوى الأخلاقى الذى تمارس به الحياة.

الدين ليس بديلا للعلم، ولا منافسا لتطوير الحياة.

إنه عصارة حية تسرى فى جسم المجتمع، إنه:

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

أنت تراه فى السياسة والإدارة والاقتصاد والاجتماع تراه على مستوى الفرد وعلى مستوى الأسرة والمجتمع والإنسانية كلها.. هو ترجمة قوية لأهدافنا، وعمل صادق من أجلها.

ما الدين عند الطالب؟ إنه عكوف على عمله وعناية بصحته، وأداء لواجبه نحو وطنه ليكون مددا لكل من الجيش والجبهة الداخلية. ما الدين عند الجندي؟ إنه استعداد متكامل وسلاح قادر على إرهاب الخصم واستيعاب للعلم الحديث، وتعاون، وتلاحم مع قيادته وزملائه وثبات فى المعركة.

نقول هذا عن كل موقع.

وعلينا أن نترجم الدين إلى واجبات وثيقة الصلة بالحياة.. هكذا يفعلون وعلينا أن نفعل.

ولا نكتفى فيه بمجرد الوعظ النظرى ولا مذهب الرقص لكل جديد.. ولا إدانة أى تطوير، وإنما تفاعل صادق مع الحياة، يثريها ويثرى بها على مسيرة مبصرة إلى غد واضح مخطط شعاره: العلم والإيمان.

الإمام المجدد محمد عبد الله دراز وجهوده فى خدمة السنة النبوية

الأخيرة

إعداد:
الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى فضلية



٨.بين منهج صاحب التيسير ومنهج الإمام دراز:

كان صاحب «التيسير» كغيره إذا نسب الحديث إلى مرجع من المراجع اكتفى بذكر اسم من أخرجه، فيقول أخرجه «البخاري» أو رواه «أبوداود» مثلا، من غير تعيين لمواضع إخراجه في أى كتاب، وفى أى باب من أبواب ذلك الكتاب.

أما الإمام دراز فيرى أنه لا غنى للناظر فى الحديث عن معرفة درجته قوة وضعفا، ومعرفة مورده إن كان له مورد خاص يستبين به معناه من مساقه، ومعرفة ما عسى أن يكون فى بعض رواياته من زيادة تفسر ما أجمل فى البعض الآخر، ومعرفة أقوال الناس فيه ليكون على بينة من أمره قبل أن يخوض فيه برأيه.

ويؤكد الإمام دراز أن ذلك لا يتم إلا بالوقوف على الحديث فى مكانه، واستقائه من منبعه وهو مطلب شاق يحتاج إلى صبر وجلد فى البحث والتفتيش، إذ كثيرا ما يكون للحديث الواحد مناسبة لعدة أبواب فيوجد فى بعضها دون بعض، وقد لا يوجد فى شيء من مظانه وإنما يعثر عليه فى مكان لا يظن وروده فيه.

مثال ذلك الحديث الذى رواه صاحب التيسير (ج١ / ص٣٠) عن «سهل بن أبى أمامة» أنه دخل هو وأبوه على «أنس بن مالك» فإذا هو يصلى صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر. فلما سلم قال «أبوأمامة»: يرحمك الله! أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شيء تنفلته؟ قال «أنس»: إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول ﷺ ما أخطأت إلا شيئا سهوت عنه. ثم قال إن رسول الله ﷺ قال: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم».

قال صاحب «التيسير» أخرجه «أبوداود».

ويعلق الإمام دراز بقوله: فأنت إذا أخذت تستقرئ مظان هذا الحديث فيه من «صلاة المسافر» أو «صلاة النافلة» أو تخفيف الصلاة أو «ذم التشدد فى الدين» إلخ لم تجده حيث تظن، ولكنك تجده فى «باب الحسد» من «كتاب الأدب» ذلك أن للحديث بقية تناسب ذلك الباب لم يخرجه صاحب «التيسير» اكتفاء منه بما يناسب مقصده الذى أورد الحديث من أجله، وهو الاقتصاد فى الأعمال.

من أجل ذلك كان أول ما عنى به الإمام دراز عند الدرس استخراج كل حديث نسب إلى الكتب الستة أو بعضها من موضعه الذى ورد فيه منها، ثم تتبع الزيادات المفيدة التى توجد فى بعض رواياته، ثم الرجوع إلى ما تيسر من أقوال الشراح وأهل اللغة فيه، وبيان معناه على وفق ذلك مع ما يفتح الله به من زيادة أو تنقيح وخصوصا فيما يتصل بالمعلومات الدينية العامة التى تعنى طالب أصول الدين[1].

٩.منهج الإمام دراز التربوى فى شرح المختار:

لم يهتم الأستاذ الإمام محمد عبدالله دراز فى اختيار مختاراته من الأحاديث بما فيه تفصيل لكيفية الوضوء والصلاة وأحكام الطلاق والظهار والمواريث والحدود ونحوها من الفروع التى أوسعها الفقهاء بحثا واختلافا، فإن طالب تلك الفروع إن كان من الجمهور فكتب الفقه أدنى إلى تناوله، وإن كان من الخواص، من طلاب الاجتهاد أو الترجيح فى الشريعة، فإنه يجد ضالته عند «ابن تيمية الأكبر» فى «المنتقى» و«ابن حجر» فى «بلوغ المرام» وأمثالها من الكتب التى عنيت بجمع أحاديث الأحكام خاصة وعنيت شروحها ببيان وجوه الاستنباط منها، ووصف معترك الخلاف فيها بين المجتهدين.

يقول الإمام دراز: ولكنك ستجد إن شاء الله فى هذا «المختار» ضربا من الحديث كان متفرقا فى كتب السنة تفرق الذهب فى مناجمه ولا أعلم أحدا أفرده بالتأليف قبل اليوم على شدة حاجة الناس إليه وقلة اختلاف الفقهاء فيه. هذا الضرب من الحديث منه تستمد أصول العقائد الإسلامية وأصول الأحكام العملية والآداب الشخصية والاجتماعية، والسيرة النبوية الصحيحة. ومنه تتجلى عظمة الإسلام فى متانة عقائده، وجماله فى سهولة تعاليمه وسمو مقاصده. وبه تجد الدعوة إلى الدين مساغا فى نفوس جاهلية، وتزداد محبته تمكنًا فى قلوب أهليه وفيه ما يحتاجه العقل من تثقيف، والنفس من تهذيب وإليك نموذجا من هذه المجموعة:

ستسمع الحديث عن «مبدأ الوحى وحقيقته»، وعن: «معنى القدر وعقيدته» وعن «حدود الإيمان وأركانه»، و«الإسلام وشرائعه» و«آداب العلم وفضائله» وسترى «صورة هدى النبى ﷺ فى عبادته، وسيرته فى بيته بين أزواجه»، و«سيرته بين أصحابه وأعدائه» وتقرأ «أخبار غزواته وفضائله ومعجزاته وفضائل أصحابه وإخوانه الأنبياء»، وتجد آدابا عامة فى الطعام واللباس، والطب، والتداوي، والبيع والشراء والكسب واليمين، والصحبة والضيافة، وتقف على شيء من «أحكام العوائد الفاشية»، كالتصوير والغناء واللهو والسحر والكهانة والطيرة والفأل ثم تأخذ ما شئت من أحاديث الأخلاق والحكم والأمثال والمواعظ

١- انظر مقدمة الإمام محمد عبدالله دراز لكتابه - طبعة قطر.

والرقائق، إلى أشباه هذه المعاني[٢].

١٠.بيانه للميزان بين السنة والبدعة في ميزان الشريعة:

أما كتابه الثاني في مجال خدمته للسنة النبوية «الميزان بين السنة والبدعة» والذى طبع منه وريقات معدودة لطلاب أصول الدين واللغة العربية بالجامعة الأزهرية قبل سفره رئيسا لبعثة الأزهر للسوربون عام ١٩٣٦م والذى عثرت عليه مخطوطا في مكتبته وقمت بتحقيقه ونشره حديثا. ففيه يصل الشيخ الإمام بهدوء العالم إلى تحديد أصل البدع ومنشأ الإبتداع في الدين، ويرجع ذلك إلى أربعة أصول:

١ ـ تحكيم العقل في الدين، والأخذ بالرأى المذموم.

٢ ـ واتباع الهوى الذى يضل صاحبه عن سبيل الله.

٣ ـ والجهل بتصاريف اللغة العربية وأساليبها.

٤ ـ والجهل بقواعد الشريعة ومقاصدها.

كل هذا يعلم العالم وعقل الحكيم، يذكر الفروع ليقعد القواعد، ويطرح التساؤلات ليثير الانتباه، ينقد الفكرة بلا تجريح، ويقرر الحق بالدليل بعد الدليل، ويفند الشبهات فيراها المنصف أوهن من بيت العنكبوت[٣].

لقد وفق الأستاذ الإمام في تناول قضيته السنة والبدعة باستقصاء علمى وعقلى لكن الذى يهم الناس أسئلة ثلاث هي:

- هل البدع كلها ضلالات؟
- وهل كل مخالفة للشرع بدعة؟
- وهل تختص البدع بقسم العبادات والشريعة؟

أما السؤال الأول: فإن الإمام دراز ينتهى فيه بعد استعراض مواقف العلماء وتحرير المصطلحات، أن المحدثات أو البدع تنقسم إلى الحسن والسيىء، فكل ما لم يشهد له دليل معتبر شرعا فهو بدعة مذمومة وإن أيده صاحبه بالشبهات والتأويلات وكل ما شهد له دليل من كتاب أو سنة أو إجماع أو استدلال أو قياس أو بغيره من الأدلة التى أرشد إليها الكتاب والسنة فهو حسن وإن لم يكن قد وجد في عهد النبوة.

ويستشهد الإمام دراز بما قاله الإمام الشافعي بأن البدعة بدعتان محمودة ومذمومة فما وافق السنة محمود، وما خالفها فهو مذموم، وقال أيضا المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهو بدعة الضلالة. وما أحدث من الخير ما لا يخالف شيئا من ذلك فهو البدع المحمودة أو قال: فهذه بدعة غير مذمومة.

ويستعرض الإمام دراز ما رواه الشيخ عز الدين بن عبدالسلام وهو شافعي المذهب حول البدعة حيث قسمها إلى خمسة أقسام:

١ ـ واجبة: لجمع المصحف وهو ما اقترحه سيدنا عمر بعد حروب الردة وموت بعض الحفظة.

٢ ـ ومندوب: كجمع المسلمين في صلاة التراويح بعد أن كانوا يصلونها فرادى.

٣ ـ المباح: كالتوسع في ألوان الطعام.

٤ ـ والمكروه: كالمغالاة في زخرفة المساجد أو الإنفاق فيما لا حاجة إلى الإنفاق فيه.

٢ ـ نفس المصدر ـ المقدمة

٣ ـ من تقديم د. محمد محمد أبوسيد أحمد الطبعة الأولى ـ دار القلم بالقاهرة

٥ ـ والحرام: كالرهبنة أى أن يحرم المسلم نفسه من متع الحياة ولا يتزوج ويعتزل الناس متعبدا لله فقط لا يشاركهم في صناعة الحياة.

ويدلل الدكتور دراز على ما انتهى إليه بأحاديث رسول الله ﷺ في قوله: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وفي حديثه عن سؤال هل كل مخالفة للشرع بدعة؟ يقول الإمام دراز: ليس كل مخالفة للشرع بدعة، وإنما البدعة أن تجعل هذه المخالفة دينا فمن وقع في معصية ثم صبغها بصبغة الدين وأدخلها في حدود الشريعة فقد ابتدع.

أما الذى يعمل بالمعصية انقيادا لشهوته أو غضبه وهو مستحل لها فهو عاص غير مبتدع حتى لو فشت المعاصي والمنكرات في الناس وأصبحت عادة فإنها لا تأخذ اسم البدع إلا إذا اعتقد الناس شرعيتها أو اقتضى أمرهم إلى اعتقاد ذلك بأن يعمل بها أهل الاقتداء كالعلماء أو يسكتوا عن إنكارها وهم قادرون على الإنكار فيظنها الجاهل جائزة ويدخل الداخلون في الإسلام وينشأ الناشئون فيه على رؤيتها بغير نكير يزعمونها من الدين فهنالك تسمى بدعة وتأخذ حكمها.

أما السؤال الثالث: فهو هل تختص البدع بقسم العبادات من الشريعة؟

فيقول الإمام دراز: «إن التشريع الإسلامي لم يدع شأنا قط من شئون الإنسان في خاصة نفسه أو في علاقته بالخالق أو المخلوق إلا وضع له قانونا يرجع فيه إليه وأعطاه حكما معينا يحكم به عليه أمرا أو نهيا أو تخييرا. ومعلوم أنه حين أعلى لكل عمل حكمه لم يجعل لأحد الاختيار في نقض ما أبرمه بتحليل ما حرم ولا في إبرام ما نقضه بتحريم ما أحل سواء في ذلك أن يكون عملا للدين أو الدنيا، وبعبارة أخرى سواء أكان هذا العمل من قسم العبادات كالصلاة والصوم أو من قسم العادات كالبيع والشراء والزواج والأطعمة والأشربة فكلاهما قد حددت له الشريعة حدودا واسعة أو ضيقة لا يحل لأحد تغييرها ولا تبديلها.

ولاشك أن كل تغيير يستحدث في هذا القسم أو ذاك يكون داخلا في حقيقة الابتداع في الدين متى ثبت أنه تغيير لتلك الحدود ولا نعنى بالتغيير مجرد المخالفة العملية فقد علمت هذا وحدة واحدة لا يسمى ابتداعا وإنما نعنى به التغيير في التشريع بجعل غير المشروع مشروعا والمشروع غير مشروع أو التغيير في العمل مع اعتقاد مشروعية ذلك وارتكابه باسم الدين نفسه هذا ما نسميه ابتداعا ولا يسع أحد أن يخالف في تسمية ذلك»[٤].

ويختلف الإمام دراز مع الإمام الشاطبى الذى اعتبر كل مخالفة يضعها الحاكم على الناس وضعا يضاهي به المشروعات بأن يلزمهم بها على وجه الاستمرار أو على وجه التوقيت بأوقات محددة كالعبادات كأن يفرض الضرائب بدلا من الزكاة بنظام الزكاة بدعا. يقول الإمام دراز: «نحن لا نتابعه على تسمية هذه التشريعات الوضعية بدعا دينية إلا لو كانت مظنة لأنه يعتقد الناس فيها أنها تشريع سماوى فقط أما دون ذلك معصية.

٤ ـ انظر مقال أ. فريد إبراهيم ـ «البدعة والسنة في ميزان الشريعة» نشر بجريدة الجمهورية القاهرية العدد ٩-٢٠١١.

الإسلام دين اليسر والسماحة



لفضيلة الشيخ / معوض عوض إبراهيم

الإسلام دين اليسر والسماحة فإنه دين الله الذى وسعت رحمته كل شيء ولم يكلف عباده إلا بما يدخل فى وسعهم واحتمالهم فهو الرحمن الرحيم لا يمارى فى أدنى شيء من ذلك عاقل ومن شواهد ذلك يوما عيد الفطر وعيد الأضحى فكل منهما جاء بعد انقضاء ركن من أركان الإسلام الخمس فما يكاد ينتهى رمضان الذى بلغنا الله إياه كما كان يدعو النبى ﷺ حتى نبدأ يومًا بعد تمام الشهر فى عيد نحمد فيه الله الذى أعاننا فصمنا ورزقنا فأفطرنا وغمرتنا فرحة النصر على النفس بصيام أيام رمضان وقيام لياليه والتأهل لأن تستقبل من الله عز وجل قوله:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة ١٨٥).

نشكره لأنه أهل الحمد والثناء والتقين من جزيل عطائه للشاكرين فهو تعالى يقول:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم ٧)

ونحن نقول مع القائل «إن للأتقى مزيدًا» إننا نستروح فى اليوم الأول من شوال نسائم رضوان الله وغفرانه ورحمته بعد أن قضينا ليلة العيد مكبرين مهللين حامدين الله الذى بلغنا رمضان كما كان يدعو النبى ﷺ وهو يستقبل هلال رجب فيقول: «اللهم بارك لنا رجب وشعبان وبلغنا رمضان»(١).

وأكرم بالشهر الذى انقضت أيامه لكن كرم الله ونداه ورحمته وهداه ستبقى فينا ومعنا حتى يأذن الله بذلك الشهر مرة ومرة كلما دار الفلك وانقضى عام وعام والنبى ﷺ يقول: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه»(٢).

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه عند فطره كل يوم يقول: «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله»(٣).

ومن هذا الأجر يوم عيد الفطر الذى نتبادل به التهانى وتتعارض فيه الأمانى وتسر الآباء والأزواج والأبناء وتكون مظهر رحمة ربنا بالفقراء واليتامى والمساكين ومن عرفنا ومن لم تعرف من المسلمين ويرى من يصنعون منا نسيج وطننا من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام أن لهم من فرحتنا نصيبا وحظا صادقا.

(١) مجمع الزوائد للهيثمى.
(٢) متفق عليه.

ويكون عيد الفطر استهلال شهر كريم هو الشهر الذى يليه والشهر الذى يليه مراد الله فى قوله جل شأنه:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ (البقرة ١٩٧).

ونحن مع ما لزمنا من طهر الصوم وبره وصدق طاعتنا لله عز وجل نجد أنفسنا أمام قول الله تعالى فى الحديث القدسى «فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم»(٤).

والله تعالى يقول فى الآية التى ذكرناها قبلا فى الحج:

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ (البقرة ١٩٧).

والحج الذى هو ركن الإسلام الخاتم إنما هو فرض الله لا على كل مسلم بل هو فرضه تعالى على من قال فيهم.

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: ٩٧)

فلابد لمريد الحج من أن يكون مالكا للزاد الذى يكفيه ويكفى أهله حتى يعود إليهم ولابد له من أن يستأذن من له دين عليه ولابد له من الراحلة التى لابد منها لمن أراد الحج من كل فج عميق.. والله عز وجل يقول لخليله إبراهيم بعد أن أقام وابنه إسماعيل القواعد من البيت:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج ٢٧).

ومراد الله من الرجال ههنا هم الذين يأتون للحج مشاة على أقدامهم والضامر الخيول وأمثالها مما يسعف ويجدى فى هذه الرحلة التى نأتيها من قريب ومن بعيد يسوقنا إليها شوق عامر وحنين ملازم وقد خلفنا وراءنا من قصرت بهم وسائلهم:

يا سائرين إلى البيت الحرام لقد
سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر
ومن أقام على عذر فقد راح

ويأتى حجيج بيت الله وضيوفه إلى المدينة أولا أو إلى مكة أولا حاجين إفرادا أو حاجين معتمرين قرانا أو متحللين من العمرة إلى الحج حتى تجمعهم ساحة عرفات فى اليوم التاسع من ذى الحجة فى أية ساعة من ساعاته إلى أن تميل الشمس إلى الغروب والله عز وجل يطل عليهم من فوق سبع سموات ويباهى بهم ملائكته ويقول «يا ملائكتى هؤلاء عبادى جاءونى من كل فج عميق شعثا غبرا ضاحين أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم».

وأكرم برسول الله ﷺ وهو يقول: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر لهم الحاج»(٥).

إن عطاء ربنا فى هذا اليوم لا يحده حد ولا يحصيه عد فى ذلك اليوم وفى الليلة التى يصبحون منها على عيد الأضحى وقد تحللوا التحلل الأصغر أو الأكبر وصاروا بحق أكرم خلق الله بحج تقبله الله عز وجل وردهم منه إلى ديارهم وقد غفر كل ذنب وقبل منهم التوب وجعلهم بالصلاح والتقى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة.

هذان عيدا المسلمين الفطر والأضحى نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يفيض من يومهما على مصر وبلاد الإسلام من الهدى والتقى والرضى ما تبدد به من دنياهم الغواشى والظلمات إنه رب كل ذلك والقادر عليه وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(٣) سنن أبى داود.
(٤) البخارى.
(٥) الجامع الصغير للسيوطى.

فتاوى لها تاريخ

العقاقير المحتوية على شىء من الخنزير



الشيخ محمود شلتوت

من العقاقير المصنوعة فى بلاد غير إسلامية ما يحتوى على غدد أو عصارات مأخوذة من الخنزير. فما حكم الشرع فى تعاطيها؟

الإسلام إنما حرم الخبائث فى حالة الاختيار

حرم الإسلام شرب الخمر حفظًا للعقول، وحرم الدم المسفوح، والميتة والخنزير، حفظًا للصحة. وقد جاء كل ذلك صريحًا واضحًا فى القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(المائدة: ٩٠)

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾

(الأنعام: ١٤٥)

وقد جاء عقب تحريم هذه المطعومات قوله تعالى:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(الأنعام: ١٤٥)

وفى تعبير آخر:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٧٣)

ودل هذا التعقيب، الذى هو بمثابة الاستثناء، على أن تحريم ما حرمه الله من هذه المطعومات إنما هو فى حالة الاختيار، حيث لا ضرورة تلجئ إلى تناول شىء منه. ودل على أنه إذا وجدت الضرورة التى تدعو إلى تناول شىء منه أبيح تناول ما تدعو إليه الضرورة: إبقاء للحياة وحفظًا

للصحة ودفعاً للضرر.

ومن هنا يؤخذ أن الشريعة الإسلامية تبيح للمسلم أن يزيل الغصة بتناول الخمر إذا لم يجد أمامه ما يزيلها سوى الخمر.

التداوى بالمحرمات

وتكلم الفقهاء بمناسبة ذلك على التداوى بالمحرم، والصحيح من آرائهم ما يلتقى مع هذا الاستثناء الذى صرح به القرآن فى آيات التحريم:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

(البقرة: ١٧٣)

ونزولا على حكم قوله:

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾

كانت الإباحة مقصورة على القدر الذى يزول به الضرر وتعود به الصحة ويتم به الصلاح، ومن ذلك اشترطوا شرطين:

أحدهما: فى الطبيب الذى يعالج ويصف الدواء، وهو أن يكون طبيبًا إنسانيًا حاذقًا معروفًا بالصدق والأمانة.

والآخر: ألا يوجد من غير المحرم ما يقوم مقامه فى العلاج ليكون متعينا، ولا يكون فى متناوله أو الإشارة بتناوله بغى على التشريع، ولا عدوان يتجاوز به قدر الضرورة، وهذا هو الصحيح الذى نفتى به، ولا فرق فيه بين محرم ومحرم. فالخمر والميتة والغدد أو العصارات المتخذة من الخمر وهى محل السؤال، كل ذلك سواء فى حل التداوى به متى تعين دواء من مثل الطبيب الذى وصفناه.

يسر الإسلام

ومن هنا: المقرر فى الإسلام أن الضرورات تبيح المحظورات. وقد كان من يسر الإسلام وسماحته- فى الفروض والواجبات- جواز تركها أو تأخيرها عن وقتها إذا ترتب على فعلها للإنسان ضرر أو خيف -بغلبة الظن- آخذًا من التجارب- أن يترتب على ذلك ضرر.

نرى ذلك فى استعمال الماء للطهارة، وفى الصوم، بل وفى الصلاة، إذا خيف الضرر من شىء منها :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(الحج: ٧٨)

وهذا هو أصل من أصول التشريع فى الإسلام يبنى عليه، حينما يحرم ما يحرم، وحينما يبيح ما يبيح.

إسلام واحد ورؤى متعددة

الأخيرة

أ.د/ محمد شامة

ألا يكون كثرة الأحكام الفقهية، وتعدد آراء العلماء في المسألة الواحدة سببًا في انتشار ظاهرة التشدد والتطرف في جميع أنحاء العالم الإسلامي، من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه؟

ليس هذا هو السبب الرئيسي، بل قد يكون عاملاً مساعدًا في تدعيمها وتقويتها، ولكنه يرجع إلى الجهل، وعدم القدرة على استيعاب الآراء المتعددة، وفهم فلسفة هذا الاختلاف. ذلك أن كثيرًا من الذين يسعون إلى جمع المال - وقدرتهم لا تمكنهم من الحصول عليه بالعمل والإنتاج - يلجئون إلى الدين، فيقرءون بعض الكتب الدينية، ويظنون أنهم بذلك بلغوا مبلغًا يؤهلهم للحديث في الشئون الدينية، فيصدرون فتاوى لا تتناسب مع متطلبات العصر، ولا تتفق مع ظروف الحياة. ذلك أنهم لا يعرفون غير ما قرأوه، وغالبًا ما يكون المتاح لقراءة عامة الناس، هو من تأليف أصحاب الآراء المتشددة، والاتجاهات المتطرفة. أضف إلى ذلك أن الوضع الاقتصادي، والحالة الاجتماعية، والمناخ السياسي يدفع الشباب إلى الالتجاء إلى الدين لحمايتهم من ضغط الحياة، لأنهم يظنون أنه هو الذي سيخلصهم مما هم فيه من نكبات الدهر، وظلم الأقوياء، ويحررهم من عنف السلطة، وجبروت الحكام.

ومن سخريات القدر، وعجائب الظواهر التي انتشرت في المجتمع الإسلامي في العقود الأخيرة ما نشاهده من كثرة الحديث عن الخرافات والأساطير باسم الدين، فنرى أدعياء العلم الديني يثرثرون في الفضائيات عن زواج الرجل بجنية، أو جنية برجل، ويفسرون الأمراض النفسية - أو الصرع - بأنه أثر من آثار دخول الجن في جسم الإنسان، ويدعون أنهم قادرون على شفاء الأمراض العضوية بالقرآن الكريم، وغير ذلك من الأمور التي لا صلة لها بالدين (كتفسير الأحلام، والرقية، وكتابة الأحجبة .. وغيرها من الأمور التي يمارسها الطامعون في جمع المال من العامة مستغلين سذاجتهم وتدينهم الفطري)، لأن وظيفة الإسلام الأساسية هي تقويم سلوك الإنسان، وهدايته إلى طريق الله الذي يصلح حاله في الدنيا بالعلم، والإنتاج، والشعور بالمسئولية، وتصفية قلبه ونقاء سريرته من الحقد والغل والطمع والحسد ..... و..... و..... إلخ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الإسراء: ٨٢).

أما الأمراض العضوية فيبحث عن علاجها عند الطبيب المختص، وكذلك الأمراض النفسية، إلا أن قراءة القرآن الكريم قد تساعد على سرعة استجابة الجسم للأدوية التي وصفها الطبيب للعلاج.

إذا أردت أن تقود شعبًا بسلاسة، فلن تجد طريقًا يسهل لك هذه القيادة سوى الدين، وإذا رغبت في شهرة مطلقة لا يستطيع أحد الاقتراب منك لطعنها أو الحط من شأنها، فليس أمامك إلا الحديث باسم الدين، ولو رمت يومًا ثروة، فأقرب طريق إلى جمعها هو الدين؛ ذلك أن الإنسان يضعف أمام من يحدثه باسم الدين، لأنه غريزة فطرية فيه، فالدين ملازم لحياة الإنسان، فقد وجدت أمم بدون حضارة، ولكن لا يوجد فرد أو أمة بدون دين، أيا كان شكل هذا الدين وطبيعته.

وهذا هو مفتاح فهم الظاهرة التي انتشرت في المجتمعات الإسلامية، حيث كثر المتحدثون باسم الإسلام في وسائل الإعلام المختلفة (مكتوبة، ومرئية، ومسموعة)، فتبارت القنوات الفضائية وغيرها في وضع برامج تحمل طابعًا دينيًا مثيرًا، لتجذب أصحاب الإعلانات التجارية، ففي ذلك شهرة وثروة للمتحدث، وتدعيمًا ماديًا للقناة، وعائدًا مجزيًا لأصحاب البضائع المعلن عنها. ولم يفكر أحد في تأثير هذه البرامج على عقل الأمة وثقافتها، وتغاضت كل الأطراف عن توجيه الأمة إلى ما يمكنها من النهوض من كبوتها واللحاق بركب الحضارة الحديثة؛ فمعظم هذه البرامج - وليس الكل - قائم على الإثارة، ويهدف إلى دغدغة العواطف، وتهييج الأحاسيس الدينية، بصرف النظر عما يؤدي إليه هذا الأسلوب من تغييب العقل، وطمس معالم القيم الدينية الخلاقة، التي تنفع الإنسان في دنياه وآخرته.

حدث هذا في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي، حيث انتشرت مجالس القاصين في المساجد، وهم الذين كانوا يجذبون الناس إلى سماع ما يقصونه من خرافات وأساطير في سياق ديني يسيطر على مشاعر المستمعين، لدرجة أن روادهم والمستمعين إليهم كانوا يعدون بالمئات، بينما كانت مجالس العلماء والأئمة الكبار لا يحضرها إلا أعداد قليلة من الناس، وهذا هو ما يحدث اليوم، إذ تجد جماهير غفيرة تستمع إلى غير المتخصصين في الدراسات الدينية ممن يروون القصص والحكايات الدينية التي لا يتعدى تأثيرها لحظة الاستماع إليها، فضلاً عن أنها مليئة بالأخطاء وبلغو القول الذي ليس له تأثير بناء في تكوين ثقافة الأمة الدينية، بل هي أشبه بالفقاعات التي تحدث ضجيجًا، ثم ما يلبث أن يذهب جفاء. ومن الطرائف التي رويت عن هؤلاء القاصين في العصر العباسي: أن الإمام أحمد بن حنبل، والمحدث يحيى بن معين دخلا ذات يوم المسجد، فرأيا واحدًا من هؤلاء يخطب في جمع كبير من الناس، فجلسا ليستمعا إلى ما يقوله، فسمعاه يردد أنه سمع كذا من أحمد بن حنبل وأنه سمع كذا من يحيى بن معين، فلما انتهى من درسه وانصرف

الناس، سألاه عن صحة ما رواه عنهما فأكد لهما ذلك، فأخبراه بأنهما أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وهما لم يقولا ذلك، فقال لهما: ما رأيت أحمق منكما! هل تظنان أنه لا يوجد غير أحمد بن حنبل واحد ويحيى بن معين واحد، لقد قابلت أربعين أحمد بن حنبل وأربعين يحيى بن معين. فانظر كيف كان الرد من أمثال هؤلاء الذين تحدثوا – ومازالوا يتحدثون إلى اليوم – باسم الإسلام ويصدرون الفتاوى والأحكام جزافًا دون روية، ولا تستند إلى قاعدة علمية صحيحة.

كانت هذه الظاهرة من الأسباب الرئيسة فى تخلف الفكر الإسلامي؛ إذ ساعدت على انتشار الخرافات والأساطير، وأحيت عادات وتقاليد فى المجتمع الإسلامي، نهى الإسلام عنها:

- كالعناية بالمظهر دون المخبر.
- والتدين الشكلي.
- والإكثار من النوافل والأدعية بصيغ مختلفة.
- مع التفريط فى القيم الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام.
- والإعراض عما أمر الله به من التدبر والتفكر فى ملكوت الله بالوسائل العلمية – لا بالأدعية فقط ورفع الأيدى إلى السماء – والإمكانات التى سخرها الله للإنسان ليعمر الأرض بالعمل والمثابرة.

لأن هؤلاء المتطفلين على محراب العلماء استولوا بأساليبهم المخدرة للعقول على مشاعر المسلمين، فغرسوا فى وجدانهم أن السبيل الوحيد لنيل رضاء الله هو:

- التعبد فى المساجد.
- والدعاء آناء الليل وأطراف النهار.
- وقراءة القرآن آناء الليل والنهار.
- فإن مرض أحدهم فعلية بالقرآن فإنه شفاء من كل الأمراض العضوية.
- وإن اعتل جهازه النفسي، فعليه الالتجاء إلى المعالجين بالسحر والشعوذة وإخراج الجن من الجسم الممسوس..

وغير ذلك من الممارسات التى لا تعترف بالعقل، ولا تعير انتباهًا إلى ما جاء به الإسلام من الحث على العمل لتعمير الأرض، والتركيز فى كثير من آيات القرآن الكريم على الأخذ بالأسباب، والاهتداء بالعقل إلى ما ينفع الإنسان فى هذه الدنيا.

ومن الأمثلة التى تبين مدى انحدار الفكر فى المجتمع الإسلامى من جراء تأثير ما يلقيه هؤلاء على جمهور المسلمين، وبعده عما فهمه المسلمون الأول من تعاليم الإسلام، ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه احتاج فى قضية مرفوعة أمامه إلى شاهد، فأتى له بشاهد، يحتاج إلى من يزكيه حتى تقبل شهادته، فجيء برجل ليزكى الشاهد، فسأله عمر: هل تسكن بجوار من تزكيه؟ فقال الرجل: لا!، فقال عمر: هل رافقته فى سفر؟، فقال: لا!، فقال: هل كانت بينك وبينه معاملات مالية؟، فقال: لا!، فقال عمر: لعلك رأيته يتمتم بالصلاة فى المسجد!، فقال الرجل: نعم، فالتفت عمر إلى الشاهد قائلاً: إذهب يا رجل! فأتنى بمن يعرفك، فإن هذا لا يعرفك.

فالإسلام يعنى بالعمل والسلوك لا بالتدين الظاهرى فقط، كما أن العبادات ليست غاية فى حد ذاتها، بل هى وسيلة لتقويم سلوك

الإنسان، فإذا اقتصر المسلم على الأداء الصورى لها، فلا فائدة فيها، يقول رسول الله ﷺ: «من لم تنهه صلاته فلا صلاة له».

كذلك النصوص التى ترشد المسلمين إلى الأخذ بالأسباب دون اللجوء إلى الخرافات التى يتحدث بها كثير من المتحدثين باسم الإسلام في هذا العصر قول رسول الله ﷺ: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل معه دواؤه، جهله من جهل، وعلمه من علم.»[1] وقوله: «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا ودع الله له.»[2]، وعن عروة عن أبيه قال: قلت لعائشة: قد أخذت السنن عن رسول الله ﷺ والشعر والعربية عن العرب، فعمن أخذت الطب؟، قالت: إن رسول الله ﷺ كان رجلاً مسقامًا وكان أطباء العرب يأتونه فأتعلم منهم»[3]، أى لم يعالج الرسول ﷺ نفسه بالأساليب التى يمارسها الدجالون باسم الإسلام، بل دعا أطباء العرب ليعالجوه، وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: مرضت فى زمن عمر بن الخطاب مرضًا شديدًا فدعا لى عمى طبيبًا...»[4] أى لم يرسله إلى من يعالج الناس بالقرآن، ولم يقرأ على رأسه آية من القرآن أو يكتب له حجابًا، لأن هذا النوع من التفكير لم يكن موجودًا فى زمن الرعيل الأول، بل انتشر فى عصر متأخر، أى من يوم أن تولى الحديث عن الإسلام دخلاء لم يعرفوا من تعاليمه سوى قشور ممزوجة بأساطير وخرافات غريبة عن الفكر الإسلامى الصحيح.

ولهذا يجب على من لم يتخصص فى العلوم الدينية عدم الخوض فيما ليس له به علم بدافع الغيرة على الدين، والحماس فى مجال الدعوة، فقد يترتب على ذلك آثار تضر بالدعوة أكثر مما تخدمها، وخاصة فيما يتعلق بنظم الحياة الحديثة، بما فيها من تعقيدات حضارية، وما يطفو على سطحها من صور مستحدثة، وأشكال متعددة فى شتى المجالات.

ويمكن أن يخدم دينه، ويحمى عقيدته بالتفوق فى مجال تخصصه، فإن كان مهندسًا، فما يقدمه للإسلام هو إتقانه لعمله وتفوقه فى مجال الهندسة، حتى لا يحتاج المجتمع الإسلامى إلى طلب مساعدة من غير المسلمين فى هذا الميدان، ومثل ذلك الطبيب، والمحاسب، والاقتصادي، والمهندس الزراعى.. و.. و.. إلخ، فإن قوة المسلمين فى هذه الميادين تحميهم من الوقوع فى مجال التأثر بالأجانب الذين يستعينون بهم فى هذه المجالات التى أصبحت حيوية بالنسبة للحياة المعاصرة، فإن أراد بعد ذلك أن يكون له نشاط فى مجال الدعوة إلى الله، فليكن بسلوكه بين العاملين معه، وأخلاقه مع المتعاملين فى حقله، فإن لذلك صدى فى نفوسهم يفوق فى كثير من الأحيان تأثير خطب الوعاظ، ودروس علماء الدين.

١- صحيح ابن حبان جـ ٣١ صـ ٧٢٣ رقم ٦٠٦١
٢- المصدر السابق صـ ٥٠٤، رقم ٦٠٨٦
٣- المستدرك على الصحيحين جـ ٤ صـ ٨١٦ رقم ٦٤٤٧
٤- المصدر السابق صـ ٢٣٠ رقم ٥٦٤٧

بين سيد قطب ومالك بن نبي

للشيخ / راشد الغنوشي

في كل مرحلة من تاريخ أمة من الأمم تسطع في سمائها نجوم تهدى الحائرين وقد تضيء سماءها حتى لكأنها في رائعة النهار إذا كثروا واشتد وهجهم فامتد مخترقا الزمان والمكان ، كأشبه ما يكون بالطاقة المتجددة التي لا تنفد . تقديرنا أن صاحب الظلال سيد قطب، ومجدد الفكر الخلدوني مالك بن نبي رحمهما الله من هذا الصنف .

فكلاهما تعددت اهتماماته ، ولكن عينه كانت لا تتحول عن سؤال النهضة الحارق : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ فكيف أجاب كل منهما ؟ ومن خلال رحلة تتلمذي لهما ، أين استقرت مركبتي منهما ؟

١- ربما يكون المرحوم مالك بن نبي الخليفة الشرعي للعلامة عبدالرحمن بن خلدون رغم أن بن نبي ليس مؤرخاً ، ولكنهما يشتركان في أن كليهما فيلسوف للتاريخ ، وللتاريخ الإسلامي بالذات ، ولك أن تقول إن كليهما مؤرخ حضاري ، أعمل معوله في الحفر والتنقيب عن الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام وبها ازدهرت وآتت ثمارها اليانعة ، ومن أين دخل عليها الصقيع الذي جمدها ؟

ورغم أن ابن خلدون اتجه أكثر إلى العوامل السياسية والاجتماعية والدينية لقيام الدول ، والمسئولة عن قوتها وتلك المتسببة في ضعفها وانهيارها ، فإن بن نبي أعمل فكره ضمن منظور أوسع من هذه الدولة الإسلامية أو تلك ، فهو يبحث في الظاهرة الحضارية ذاتها التي أفرغ لها جهده وشغل بها عمره وهو ما يهبه تفردا في الفكر الإسلامي المعاصر الذي شغل نفسه أكثر في البحث في الإسلام ذاته لينتهي جوابا عن سؤال النهضة المؤرق : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟

إن سبب ذلك ابتعادهم عن حقائق الإسلام وتشوهها في نظرهم ، وهو ما يقتضي نقدا لما هم عليه من تدين ، بما قد ينتهي إلى تبديعهم في نظر كثير من المصلحين أو حتى تكفيرهم في نظر المتشددين ، تمهيدا لدعوتهم مجددا إلى كلمة التوحيد ، كما ظهر ذلك على نحو ما في منظور بعض السلفيين وفي فكر سيد قطب في مرحلته الثانية ، بينما اتجه مالك بن نبي إلى حياة المسلمين وإلى تاريخهم يقلب ، كاشفا عن مواطن « التخلف » فيهما ، مقابل ما يجب أن يكونوا عليه من « تحضر » إذ المسلم من هذا المنظور يمكن أن يكون متخلفاً كما

يمكن أن يكون متحضرًا .. يمكن أن يكون عادلاً عقلانيا في استخدامه لوقته ولكل إمكاناته المادية ، كما يريد له الإسلام ، لكنه وهو المسلم المقيم لشعائره الدينية يمكن أن يكون ظالمًا مستهترًا بالوقت وبالمال وبكل الإمكانات المتاحة .

فالمسلمون حسب القرآن وفي الواقع « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » ، ومقابل ذلك يمكن لغير المؤمن أن يكون عادلاً عقلانياً في حسن استخدامه للوقت وللإمكانات المادية ، فيكون متحضراً ، كما يمكن أن يكون متخلفاً ظالماً مستهتراً .

ولذلك أقر المحققون من العلماء أن الملك - ولك أن تقول الحضارة - لا يقوم إلا على العدل ولو مع الكفر ، ولكنه لا يقوم على الظلم ولو مع الإيمان .

فحساب الإيمان مجاله الآخرة ، رغم تأثيره في الدنيا المحكومة بحساب سنن الأعمال ، من حسن وقبح وعدل وظلم وإتقان وإهمال وجد وكسل ، وشورى واستبداد .. بصرف النظر عن النوايا .. إنها السنن . قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

« هود:١٥ »

٢- لم أحظ بشرف لقاء صاحب الظلال رحمه الله ، ولكني قرأت كل ما كتبه في أول اتجاهي الإسلامي إثر تحولي من الاتجاه القومي وتأثرت به تأثرا بالغا هو وشقيقه محمد ، ومررت على الموطن الذي انتقد فيه سيد « كاتبا » اكتفى بنعته بالجزائري ، وكان موضع النقد هو تمييز « الكاتب الجزائري » بين الإسلام والحضارة على نحو يمكن معه أن يكون المسلم متحضرا كما يمكن أن يكون متخلفا .. انتقد سيد بشدة هذا التمييز ، لأن المسلم عند سيد قطب بالضرورة متحضر ، إذ الإسلام بتعريفه هو الحضارة ، وبالتالي فلا تحضر خارج الإسلام ما دام الإسلام هو الحضارة . وأصابتني الحيرة بعدما قرأت أعمال بن نبي ، ولم يرتفع عني كابوس الشك وتنحل عني عقدة الحيرة حتى قدمت إلى الجزائر وأنا في طريق عودتي من فرنسا عبر إسبانيا أواخر ١٩٦٩م حيث فجرت آثار الأجداد الأندلسيين أعماقي .. كانت تلك هي زيارتي الأولى للجزائر ، ولم يكن عندي فيها مبتغى غير اللقاء بمالك ، وكنت قد مسحت كتبه تقريبًا .

كان بيته متواضعًا مفتوحًا للزائرين .. وكان الحديث معه صعباً لأنه يفرض عليك صرامة عقلية شديدة ، فهو يستوقفك ، حاملًا إياك حملًا على أن تكون متماسكًا في طرحك ، لا تلقي الكلام على عواهنه ، فتفكر وتعيد التفكير قبل أن تجرؤ على صياغة جملة بين يديه .

سألته عن المسألة التي حيرتني مسألة الإسلام والحضارة ؟ فاستفاض في الشرح ، حتى انجلت من نفسي كل شبهة وانقشع كل التباس حول المسألة التي شددت إليه الرحال من أجلها ، فخرجت من عنده وقد امتلأت قناعة بأن هذه المسألة هي قطب الرحى الذي يتحرك حولها فكر الرجل وليست بالجزئية العارضة كما هي عند الكثيرين ، وذلك ضمن رؤية شاملة للحضارة الإسلامية وللواقع المسلمين وللواقع الدولي ، بما يفتح أمامك آفاقا رحبة للتفكير والتفسير ، ويضع في يدك مفتاحًا لما استغلق من كثير من الأسئلة والمعضلات في

التاريخ والواقع .

٣- بعد تفكر طويل وحيرة وتجاذب فى نفسى بين الإمامين ، تجلت فى نفسى كالصبح مكانة الرجلين العظيمين وموقع كل منهما .. أدركت أننى إذا ابتغيت تفسيراً لآى من كتاب الله وبخاصة التفسير البيانى والمنظور الشامل للسورة فى ترابط وتماسك آيها ومحايثتها المستمرة للواقع باعتبارها قوة تغيير له وليس مجرد تشخيص ، فليس أولى من « السيد » صاحب « الظلال » أظفر عنده بمبتغاى ولكن دون اقتصار عليه أو استغناء عنه .

أما إذا رمت بحثا وتفكيكا لظواهر التخلف والتحضر والوقوف على محركاتها فى تاريخنا وواقعنا ، فليس فى الفكر الإسلامى المعاصر ما يسعف وينير الطريق إلى الواقع وإلى كتاب الله خير من مالك بن نبى صاحب سلسلة « الحضارة » فإذا كان الحديث فى الحضارة فلا يفتى ومالك فى المدينة .

جواب سؤال النهضة : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ عند سيد واضح جلى : إن السؤال من أصله خاطئ .. المسلمون تخلفوا لأنهم تركوا الإسلام ، فينبغى دعوتهم إليه من جديد ، فنعلمهم معنى لا إله إلا الله باعتبارها منهج حياة .

أما غيرهم فلم يتقدموا ، بل هم فى جاهلية جهلاء ، لأن الإسلام هو الحضارة .

أما عند بن نبى فالأمر غير ذلك .. ليس الإسلام هو الحضارة ، الإسلام وحى نزل من السماء بينما الحضارة لا تنزل من السماء وإنما يصنعها البشر عندما يحسنون توظيف ملكاتهم فى التعامل مع الزمان والمكان .. الإسلام لا يصنع الحضارة بذاته ، وإنما بالبشر عندما يفهمونه على حقيقته فيتولون التفاعل الجاد به وخلطه بالتراب والزمان والمكان فيصنعون من ذلك حضارة . الحضارة الإسلامية هى هذا التفاعل الجاد بين الإنسان والتراب والوحى .

قد ينجح المسلم فى هذا التفاعل فيصنع الحضارة ، وقد يفشل وهو المسلم وينجح غيره أى غير المسلم فينتج حضارة بقيم ونيات غير إسلامية ، لأنه أحسن التعامل مع سنن الله توظيفًا جيدا لعقله وللوقت وللتراب .

٤- لفكر مالك ارتباط وثيق بالظاهرة الاستعمارية التى ما كان لها أن تفشو فى أمتنا لولا التخلف الذى منحها « قابلية » التمكن فينا . ومالك متميز فى الفكر الإسلامى المعاصر بتحليله للظاهرة الاستعمارية ، وهو ما جعله واحدا من أهم أعلام مفكرى العالم الثالث مثل فرانس فانون والإيرانى على شريعتى .. مدرجا كفاح أمتنا ضمن كفاح الشعوب المستعمرة ، ومبشرا بعالم ثالث متحرر من قوى الهيمنة الشرقية والغربية ، ومنظرا المؤسسات عالم ثالثية مثل الأفروآسيوية ومؤتمر باندونغ ، ومدافعا عن ثوار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ضد الاستعمار الغربى ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين .

هذا البعد العميق فى فكر بن نبى غائب فى الأدبيات الإسلامية المعروفة ، بما يدرجها ضمن التيارات المحافظة التى لا تكاد ترى فى الصراعات الدولية غير وجهها العقدى ، وهو ما يحد من إمكانات لقائها بها وتحاورها معها ، فضلاً عن التعاون والائتلاف والتحالف على أساس رؤية مشتركة جامعة للمقهورين ضد جلاديهم المشتركين الإمبرياليين وعملائهم .

٥- من هنا يأتى وجه آخر لأهمية مالك بن نبى فى فتح آفاق الفكر الإسلامى المعاصر وحركاته على قوى تحررية ثائرة ضد الظلم الدولى ، مثل القوى المناهضة للعولمة وأخطبوطها الاقتصادى والثقافى والعسكرى وكذا القوى المدافعة عن البيئة ، ولكنه منجم لم يستثمر وثروة ظلت معطلة .

إن فكر سيد قطب فى مرحلته الأولى يلتقى تماما مع فكر بن نبى ، فكر « العدالة الاجتماعية » و« صراع الإسلام مع الرأسمالية » ومقالاته الثورية العديدة .. حتى اعتبر أهم منظرى ثورة ١٩٥٢م ، لكن الملابسات التى مرت بها الثورة ومر بها سيد نفسه تكاد تكون أغلقت تلك الأبواب ولم تترك من منظور للصراع يبشر به سيد غير الصراع العقدى أو السياسى ، بينما تضاءل وانكمش حتى كاد يتوارى مكان الصراع الاجتماعى بين قوى الاستكبار والاستضعاف على الصعيد المحلى والدولى ، وهو ما بشرت به بعد ذلك الثورة الإسلامية فى إيران التى أفادت من فكر سيد فى طوره الأول وفكر مالك بن نبى خاصة ، فطرحت انطلاقا من الإسلام منظورًا للصراع الدولى بين قوى مستضعفة وقوى استكبارية ، مزيحة الستار عن آية عظيمة من آى الذكر الحكيم:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

« القصص : ٥ ، ٦ »

٦- ومن هنا تأتى مشروعية تخوف البعض مما اعتبرها عودة التيار القطبى فى الإخوان ليحتل المواقع الأولى .. خشيتهم أن يتمحور النضال فى المجالات العقدية التربوية وأن يتأخر ترتيب القضايا الاجتماعية والسياسية ، قضايا العدل والحرية والانفتاح على القوى الأخرى ، بما يضيق إمكانات التحالف مع القوى غير الإسلامية المناضلة ضد الاستبداد والحيف الاجتماعى والتسلط الدولى على أمتنا ، مع أن الخطاب الافتتاحى للمرشد الجديد للإخوان المنسوب إلى التيار القطبى جاء مبشرا بالانفتاح على القوى الأخرى ، داعيا إلى التعاون معها على خير الأمة ، على أساس فكرة المواطنة.

غير أنه رغم تغطيته لمساحات واسعة مجيبا إجابات مريحة عما أثير حوله من تخوفات ، فإن المسألة الاجتماعية مسألة الفقر التى يتلظى بها عشرات الملايين من المحشورين أحياء فى قبور الأموات وفى العشوائيات ، تنهب أرزاقهم ليل نهار من قبل عصابة الحكم والمال ، لم تنل حظا من اهتمامات مرشد منسوب إلى القطبية وإلى التمركز حول قضايا التربية والعقيدة على أهميتها ، بينما يعلم الجميع - وهو أولهم - أن الجماعة التى هو مرشدها الثامن قد انطلق عمل مرشدها الأول ومؤسسها من فئة العمال وفاقدى الشغل المتكدسين فى مقاهى الإسماعيلية ، إلا أنها مع الزمن وبضغوط من هنا وهناك ارتحلت الجماعة عنهم رغم أنهم كثروا جزئيا صوب نخبة المجتمع وطبقاته الوسطى المتعلمة تاركة وراءها الملايين ، تلك التى كانت هَمّ سيد قطب فى طوره الأول.

٧- وفى مرحلة لا تزال فيها الهجمة الإمبريالية زاحفة على منطقتنا ، تكون الحاجة ماسة لدى أبناء التيار الإسلامى أن ينفضوا

الغبار عن تراث المرحلة الأولى خاصة من فكر سيد، وعن تراث بن نبي الذى لا يزال مغتربا فى الوسط الإسلامى الذى تجتاحه أمواج السلفية المتشددة مبشرة بمنظور عقدى ضيق لا يمكنه بحال أن يستعيد الإجماع الضرورى لأمة مستهدفة من قبل قوى الهيمنة الدولية، فما أحوجها إلى فكر الإجماع لتواجه أعداءها المجتمعين عليها، بينما لا يحمل فكر التشدد فى المحصلة غير نذر التحارب بين المسلمين، وهو أعجز حتى على جمع كلمة المسلمين السنة، وهذا ما ظهر جليا فى العراق وفى غيره وبله أن يجمع الأمة بكل طوائفها لمواجهة العدو المشترك.

إنه يزرع حيثما حل التكفير والتبديع والتنابذ بين صوفى وسلفى وبين سلفى وأشعرى وبين مذهبى ولا مذهبى، فأنى يكون للمذاهب غير السنية من مكان خارج ميدان التقاتل مع أتباعها، فضلا عن الطوائف غير المسلمة التى كانت عبر التاريخ جزءا من الأمة وحضارتها ؟

٨- إن الرؤى القائمة فى الحركة الإسلامية متجهة بفعل الضغط السلفى إلى المزيد من الضيق، بما يجعل بأس الأمة بينها، وهو الحاصل على امتداد عالم الإسلام، والجزائر مثلا أخذت منه حظا وافرا وكأن بن نبي لم يمر من هنا، وأحسب أن تأثيره فى الحركة الإسلامية التونسية والمغربية أشد منه فى الإسلام الجزائرى.

٩- إن فكر مالك بن نبي يلتقى تماما مع فكر سيد فى طور نضاله الاجتماعى الأول، فحرى بالمربين والقائمين على التوجيه الثقافى فى الأمة أن يدركوا الخطر المزدوج على الأمة، خطر ثقافة العولمة والتحلل مما كان قد دعاه فكر سيد فى مرحلته الإسلامية الأولى فى مقال له بديع «مواكب الفراغات»، والذى يجعل من قضية مباراة كرة قضية موت أو حياة تسحب السفراء من أجلها وما بقى غير تحريك الجيوش، بينما القدس تضيع وغزة تختنق والثروات تنهب.. مقابل ذلك وأخطر منه فكر التشدد والتكفير يلتقى فى فكر المحنة القطبى مع التسلف المتشدد يلتقيان فى نقطة الرؤية المثالية العقدية لمشاكل المسلمين، واعتبار الطريق الوحيد للإصلاح والمجال الوحيد للاصطفاف هو التمركز حول تخل العقائد والإعمال فيها بأدق الغرابيل حسب أشد الرؤى تشددا، أى إعمال عمليات الطرح والضرب والقسمة فى التعامل مع اختلافات المسلمين، بدل عملية الجمع والبحث عن المشترك حسب تعبير فهمى هويدى، ذلك بدل وزن الناس والتيارات بأكثر من ميزان: ظالم / عادل، صديق / عدو، مسالم / محارب.

فليس المسلم بالضرورة صادقا أو عادلا أو مسالما، وليس الكافر بالضرورة واقعا دائما فى الخانات المقابلة، لذلك صنف القرآن المؤمنين أصنافا

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾

«فاطر: ٣٢»

كما صنف الكافرين بين صديق يجب بره والتعاون والتحالف معه، وعدو يحذر منه.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

«الممتحنة: ٨»

قراءة فى كتاب



بقلم/ أ: عادل خفاجة

الزكاة واجبة على الحر المسلم البالغ العاقل إذا ملك نصابا ملكا تاما وحال عليه الحول؛ وليس على صبي ولا مجنون ولا مكاتب زكاة، ومن كان عليه دين يحيط بماله فلا زكاة عليه، وإن كان ماله أكثر من الدين زكى الفاضل إذا بلغ نصابا، وليس في دور السكنى، وثياب البدن، وأثاث المنازل، ودواب الركوب، وعبيد الخدمة، وسلاح الاستعمال - زكاة، ولا يجوز أداء الزكاة إلا بنية مقارنة للأداء أو مقارنة لعزل مقدار الواجب(١)

هذه الكلمات برغم وضوحها إلا أن عامة الناس يحتاجون إلى شرح بعض ما ورد بها من مصطلحات وإن كان أغلبهم يميلون إلى الحصول على إجابة مباشرة لتساؤلاتهم مخافة الوقوع في الخطأ، من أجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب «فقه الزكاة» الذي يضم قدرا كبيرا من الفتاوى جميعها تعالج موضوعا واحدا هو زكاة المال وزكاة الفطر.

مؤلف الكتاب:

هو الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي أستاذ أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس.

تولى رئاسة قسم أصول الفقه بالكلية اعتبارا من ٢١ / ٦ / ١٩٩٨م

وله العديد من الأبحاث والمؤلفات نذكر منها:

١ - دراسات أصولية في القرآن الكريم.

٢ - دراسات أصولية في السنة النبوية.

٣ - إرشاد الأنام إلى معرفة الأحكام.

٤ - إتحاف الأنام بتخصيص العام.

٥ - أثر الإجمال والبيان في الفقه الإسلامي.

٦ - تبصير النجباء بحقيقة الاجتهاد والتقليد والإفتاء.

٧ - تذكير الناس بما يحتاجون إليه من

(١) اللباب في شرح الكتاب: ج١ ص ١٣٦.

القياس.
٨ – فقه الصلاة.
٩ – فقه الزكاة.
١٠ – فقه الصيام.
١١ – فقه الحج والعمرة.
١٢ – الموسوعة الفقهية الميسرة – الزواج.
١٣ – الموسوعة الفقهية الميسرة – الطلاق.
١٤ – الرضاع وبنوك اللبن.
١٥ – فتاوى وأحكام.
١٦ – موقف الإسلام من تفضيل بعض الأولاد على بعض في الهبة.
١٧ – النظر بين الرجل والمرأة – حكمه حدوده.
١٨ – نظرات في أدلة التشريع المختلف فيها.
١٩ – الفتح المبين في التعريف بمصطلحات الفقهاء والأصوليين.
٢٠ – التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي.
٢١ – معجم غريب الفقه والأصول.
٢٢ – فتاوى شرعية معاصرة.

كما قام بتحقيق العديد من الكتب منها:
١ – تفسير القرطبي.
٢ – تفصيل الإجمال في تعارض الأقوال والأفعال للحافظ العلائي.
٣ – شرح الكوكب الساطع للحافظ السيوطي.
٤ – فتاوى الخمر والمسكرات لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٥ – الشروط في النكاح لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٦ – إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث لابن الجوزي.
٧ – الناسخ والمنسوخ من الحديث لابن شاهين.
٨ – كتاب الأم للإمام الشافعي.

بالإضافة إلى العديد من البحوث المنشورة في المجلات العلمية.

أسباب تأليف الكتاب:

يشير المؤلف أن من أسباب تأليفه لهذا الكتاب تقديمه لأصحاب الأموال الذين يجهلون أحكام الزكاة ويودون التعرف على أحكامها فيقول: أتشرف بتقديم هذا الكتاب بين أيديهم وهو على صغر حجمه إلا أنه بحمد الله قد استوعب كل أحكام الزكاة بحيث لا تعرض لصاحب المال مسألة من المسائل إلا وجدها في صورة وجيزة بعيدة عن الخلافات المذهبية قدر الإمكان ليسهل على من يريد تطهير نفسه بالتزكية عن ماله إيجاد ضالته والوصول إلى غايته.

الكتاب:

يقع الكتاب في مائة وثمانين وأربع صفحات من مقاس ١٧ X ٢٤ سم.

وقد صدر في طبعته الأولى عن دار الفاروق بالمنصورة – مصر سنة ٢٠١٣.

ويتضمن الكتاب العديد من الموضوعات جاء بعضها كتعريف ببعض أمور الزكاة مثل: الترغيب في أداء الزكاة، والترهيب من منعها، وتعريف الزكاة وحكمها وتاريخ مشروعيتها، وحكم مانع الزكاة، وعلى من تجب؟ ثم جاء أكثر من مائة عنوان للكلام عن أحكام فقهية ليخرج الكتاب في شكل مجموعة من الفتاوى.

فعن حكم مانع الزكاة يقول:

«مانع الزكاة نوعان:

نوع يمنعها إنكارا لها فهو كافر بإجماع المسلمين.

ونوع يمنعها بخلا وهو معتقد وجوبها فهو فاسق.

وقد جاء في الفقه الإسلامي:

من امتنع من الإخراج بخلا أخذت منه الزكاة بالاتفاق ويعزر.

وقال الشافعي رحمة الله عليه في مذهبه القديم: يؤخذ شطر ماله معها.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: يحبس حتى يؤديها، ولا تؤخذ من ماله قهرا».

وعن وجوب الزكاة على الفور يقول:

إذا وجبت الزكاة وتمكن من إخراجها وجب عليه أن يخرجها على الفور، فإن أخرها أثم.

ويشير المؤلف إلى أن هذا الرأي هو ما قاله الشافعية ومالك وأحمد والجمهور ويستشهد بقول الإمام النووي في المجموع:

«الزكاة عندنا يجب إخراجها علي الفور فَإِذَا وَجَبَتْ وَتَمَكَّنَ مِنْ إِخْرَاجِهَا لَمْ يَجُزْ تَأْخِيرُهَا وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ فَلَهُ التَّأْخِيرُ إِلَى التَّمَكُّنِ فَإِنْ أَخَّرَ بَعْدَ التَّمَكُّنِ عَصَى وَصَارَ ضَامِنًا فَلَوْ تَلِفَ الْمَالُ كُلُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَزِمَتْهُ الزَّكَاةُ سَوَاءٌ تَلِفَ بَعْدَ مُطَالَبَةِ السَّاعِي أَوْ الْفُقَرَاءِ أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ وَإِنْ تَلِفَ الْمَالُ بَعْدَ الْحَوْلِ وَقَبْلَ التَّمَكُّنِ فَلَا إِثْمَ وَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ بِلَا خِلَافٍ».

وبرغم أن المؤلف قد حزم أمره وأفتى بوجوب إخراجها على الفور إلا أنه لم يفته أن يعرض الرأي الآخر المخالف وهو رأي الإمام أبي حنيفة رحمه الله الذي يقول إنها على التراخي بمعنى أنها تجب مطلقا بدون تعيين وقت، فإذا أداها في أي وقت جاز. تقول: ولا يخفى على القارئ أن في هذا التنوع خير لمن تأخر فوجود الباب مفتوحا أمام من أثم بتأخير إخراج الزكاة فرصة لتوبته وفيه أيضا حفاظ على حق الفقير.

من مضت عليه سنون ولم يؤد زكاتها:

يقول المؤلف: إذا مضت عليه سنون ولم يؤد زكاتها لزمه إخراج الزكاة عن جميعها سواء أعلم وجوب الزكاة أم لا.

ويستشهد بقول ابن المنذر رحمه الله: «لَوْ غَلَبَ أَهْلُ الْبَغْيِ عَلَى بَلَدٍ وَلَمْ يُؤَدِّ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَلَدِ الزَّكَاةَ أَعْوَامًا ثُمَّ ظَفِرَ بِهِمْ الْإِمَامُ أَخَذَ مِنْهُمْ زَكَاةَ الْمَاضِي».

ثم يسوق المؤلف الرأي المخالف لما فيه من توسعة فيقول:

«وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ لَا زَكَاةَ عَلَيْهِمْ لِمَا مَضَى وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ لَوْ أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَأَقَامُوا سِنِينَ ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ لَا زَكَاةَ عَلَيْهِمْ لِمَا مَضَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

هل يخرج التاجر زكاته من عين السلعة أو من قيمتها؟

بعد أن طرح المؤلف السؤال المتقدم يعرض أقوال الفقهاء وتشير هنا إلى بعضها حيث يقول: يرى أبو حنيفة والشافعي في أحد أقواله: أن التاجر مخير بين إخراج الزكاة من قيمة السلعة وبين الإخراج من عينها.

ثم يقول: وقد أشار ابن تيمية – رحمه الله – إلى مراعاة مصلحة الفقير، فقد تكون النقود أنفع له من عين السلعة وقد تكون السلعة هي الأنفع له.

ويخلص المؤلف إلى أن القيمة هي الأنفع للفقير حيث إنه يستطيع أن يشتري بالقيمة ما يحتاج إليه هو وأولاده بخلاف عين السلعة.

هذا بعض ما قدمه المؤلف عارضا فيه بعض آراء الفقهاء حول الزكاة.

ثم نراه بعد ذلك يقدم العديد من الفتاوى التي تربو على المائة كما أشرنا من قبل، لعلها حصيلة ما أجاب عنه في عدة سنوات حيث يملي عليه موقعه كأستاذ ورئيس قسم أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون أن يجيب عن العديد من الاستفتاءات، غير أننا نعرض اليسير من هذه الفتاوى وعلى من يريد الاستزادة الرجوع إلى الكتاب إذ نتخير منها:

مكافأة نهاية الخدمة

مكافأة نهاية الخدمة واحدة من المفردات العصرية والتي يتساءل عنها الكثير من أجل ذلك جاء جواب المؤلف حيث يقول:

«المكافأة التي يحصل عليها الموظف في نهاية الخدمة حين يحال إلى التقاعد ليست فيها زكاة، حيث إنها تدخل في ملكه التام عند انتهاء الخدمة، وعليه فلو لم يملك من حصل عليها غيرها، فإنه يشترط لوجوب الزكاة بلوغها نصابا مع حولان الحول، وذلك عند جمهور الفقهاء؛ لقوله ﷺ: «لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول» رواه أبوداود، وأحمد.

الاستعانة بمقدار الزكاة في تزويج الأولاد

وعن واحدة أخرى تدور في بعض الأذهان حين تضغط الحاجة يقول المؤلف:

سألني رجل سؤالاً هو:

لقد أنتجت الأرض الزراعية الخاصة بي محصول الأرز هذا العام، وأنا أريد ألا أخرج زكاة الزرع هذه السنة فقط، لأنني عازم على الاستعانة بمقدار الزكاة في تزويج أولادى فهل هذا جائز شرعًا؟

يجيب: إنه لا يجوز لك شرعًا أن تفعل هذا، لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام وقد حدد الشارع الحكيم الأصناف التي تصرف إليهم.

فإن فعلت ما تقوله فقد عصيت الله تعالى، وعرضت نفسك لخطر كبير وهو غضب الله تعالى وعقابه.

فالواجب عليك أن تعطى حق المحتاجين من الأرض التي وضعها الله تعالى في يدك أمانة ووديعة، وإياك أن تبخل بمال الله على فقراء الله.

واذكرك بأنك إن نفذت ما عزمت عليه فلن يبارك الله في زواج أولادك، لأن المهور التي دفعتها لهم في الزواج دخلها مال حرام، وهو حق الفقراء والمحتاجين الذين حرمتهم من زكاة الأرض.

زكاة مزارع الدواجن

يستهل المؤلف فتواه بقوله: إن الزكاة شعيرة فيها معنى التكافل وتطهير المال، ولكنها قبل ذلك عبادة قائمة على الاتباع، فتجب في أموال مخصوصة بشروط مخصوصة بنسب مخصوصة، لتنفق في مصارف مخصوصة.

ثم يقول: وقد أجمعت الأمة على وجوب الزكاة في التجارة ولم يخالف سوى الظاهرية، فالتاجر إذا ملك من عروض التجارة قدر نصاب وهو «٨٥» جرام ذهب عيار «٢١» وحال عليه الحول، فإنه يجب عليه إخراج الزكاة عما يملكه بعد خصم ما عليه من ديون.

ويخلص إلى القول: إن صاحب المزرعة يقوم آخر العام بحصر ما يملكه من دجاج، وأمهات، وكتاكيت، وبيض، ويثمنه ويخصم كل ما صرفه على المزرعة خلال السنة، وكذلك الديون، ثم يخرج ربع العشر من الباقي.

ويزخر الكتاب بالعديد من الفتاوى شديدة الإيجاز نذكر منها هذه الفتاوى..

الصيدلية والزكاة

يجوز لصاحب الصيدلية أن يخرج الزكاة من الأدوية الموجودة في الصيدلية؛ لأنها تعتبر عروض تجارة، لكن عليه أن يراقب الله في هذا، فلا يعط الفقير الطالب للدواء دواء انتهت صلاحيته، أو دواء لا يصلح لعلاجه.

ومعلوم أن زكاة الصيدلية زكاة تجارة، فيقومها آخر العام، ويخرج ربع العشر بعد خصم ما عليه من ديون لشركة الأدوية.

زكاة محل بيع الأخشاب

الأخشاب من عروض التجارة، وعلى صاحب المحل أن يخرج الزكاة عنها كل عام إذا بلغت قيمتها نصابًا بنفسها، أو بضمها إلى ما لديه من مال بعد خصم ما عليه من ديون.

الزكاة والسيارة

السيارة التي يستخدمها صاحبها للاستعمال الخاص لا زكاة فيها، وكذا سيارة الأجرة التي يمتلكها لا زكاة فيها، لكن المال الذى يحصل عليه صاحبها بسبب إجارتها إن بلغ نصابًا وحال عليه الحول ففيه ربع العشر.

تاجر الملابس الجاهزة المشتراه للتجارة

الملابس الجاهزة من عروض التجارة، فعلى من يتاجر فيها أن يقدر قيمتها آخر كل عام بالسعر الموجود في السوق، فإن بلغت النصاب أخرج ربع العشر بعد خصم ما عليه من ديون للمصانع التي يشترى منها.

تأجير جهاز طبي لمستشفى

لو اشترى إنسان جهازًا طبيًا وقام بتأجيره لمستشفى فلا زكاة عن هذا الجهاز، ولكن المال الذى يحصل عليه مقابل تأجيره هو الذى عليه زكاة إن بلغ نصابًا، أو بلغ مع مال عنده نصابًا، وحال عليه الحول.

زكاة الفطر

ونختتم بحديث عن زكاة الفطر حيث يقول:

سميت بذلك لأن وجوبها بدخول الفطر، ويقال لها أيضًا: زكاة الفطرة - بكسر الفاء - كأنها من الفطرة التي هي الخلقة المرادة بقوله تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

«الروم: ٣٠»

كما يقال لها زكاة البدن.

وهذه الزكاة من خصائص هذه الأمة، والمشهور أنها وجبت كصوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

وهي واجبة على كل فرد من المسلمين سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، وذلك للحديث المتفق عليه عن عمر - رضي الله عنه - قال:

- فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين (٢).

وبعد.. فالكتاب يعد إضافة طيبة للمكتبة الإسلامية، كما أنه يعد منهلا ميسرا لطالب الفتوى الذى يبحث عن إجابة مباشرة دون الولوج في تفاصيل فقهية، لما حواه من الفتاوى التي تعالج القضايا المعاصرة في أسلوب بسيط ميسر بعيد عن الخلافات المذهبية.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة: ٣٠-١٥٠٣، ومسلم في الزكاة: (٩٨٤)

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ/ محمد جمعة

السياسة الشرعية.. والفقه الإسلامي

نشرت جريدة الأهرام عرضا لكتاب "السياسة الشرعية.. والفقه الإسلامي" بتاريخ: ٢٠١٣/٦/٢٦م جاء فيه:

أعادت مجلة الأزهر نشر كتاب السياسة الشرعية لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر سابقا (١٣٧٣هـ-١٩٥٤م)، عضو جماعة كبار العلماء وأستاذ الشريعة بجامعة إبراهيم (عين شمس)، وعضو لجنة الفتوى بالأزهر، وعضو البعثة الأزهرية بالسربون، وعضو مجمع اللغة العربية، وعضو مجمع البحوث الإسلامية.

وهو كتاب فريد يوضح ماهية السياسة الشرعية وعلاقتها بالفقه الإسلامي، وفي علاقة السياسة الشرعية بالشريعة الإسلامية، أي في علاقة الثوابت الشرعية بالمتغيرات.

وأوضح الشيخ عبد الرحمن تاج في كتابه معنى كلمة السياسة في لغة العرب، وأنها تطلق بإطلاقات كثيرة ومعناها يدور على تدبير الشيء والتصرف فيه بما يصلحه مثل: ساس الرعية: ولي حكمها وقام فيها بالأمر والنهي وتصرف في شئونها بما يصلحها، ومن ذلك ما ورد في حديث: "كان بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم" أي: يتولون أمورهم كما يصنع الأمراء والولاة بالرعية. أما في الاصطلاح فهي: اسم للأحكام والتصرفات التي تدبر بها شئون الأمة في حكوماتها وتشريعها وقضائها، وفي جميع سلطاتها التنفيذية والإدارية، وفي علاقاتها الخارجية التي تربطها بغيرها من الأمم، ولا شك أن عند الأمة الإسلامية قوانين ونظمًا تصرف بها شئونها، وتدبر على أساسها مرافقها في جميع الوجوه التي عددناها، وهذه القوانين والنظم يمكن أن نطلق عليها اسم السياسة الشرعية إذا أخذنا هذه الكلمة في معناها الواسع الشامل الذي يتناول أحكام الفقه الإسلامي المدون.

فالسياسة الشرعية إذن هي الأحكام التي تنظم بها مرافق الدولة، وتدبر بها شئون الأمة، مع مراعاة أن تكون متفقة مع روح الشريعة، نازلة على أصولها الكلية، محققة أغراضها الاجتماعية ولو لم يدل عليها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب أو السنة، فقاعدة رفع الحرج، وقاعدة سد الذرائع، ومبدأ الشورى والرجوع بمعضلات الأمور إلى أهل الذكر والرأي هي من أصول الشريعة المحكمة ومبادئها العامة التي يجب أن تعتمد عليها السياسة الشرعية، فهي سياسة مبنية على الإيمان بأن أصولها وحي من الله تعالى، وبهذا

يظهر الفرق بين السياسة الشرعية وغيرها من مختلف السياسات الوضعية، من حيث إن الأولى لابد أن يراعى فيها أن تكون معتمدة على مبادئ وأصول أرشدت إليها الشريعة الإسلامية التي جاءت لتكوين أمة تكوينا صالحا تجد فيه سعادتها، ويستقر به العدل والسلام بين أفرادها وجماعاتها، فكل حكم تتطلبه حاجة الأمة، وكل نظام يؤخذ به في تصريف شئونها، فإنه يكون من السياسة الشرعية متى كان قائما على تلك الأصول الكلية التي لم يقصد بها إلا تحصيل المصالح ودفع المفاسد. أما السياسة الوضعية فإنها تستقي من العرف والعادة ومختلف التجارب والأوضاع المتوارثة من غير أن يراعى فيها ارتباطها بالوحي السماوي واعتمادها على مصادر التشريع الإسلامي.

وأوضح المؤلف أن الحكم الذي تقتضيه حاجة الأمة يكون سياسة شرعية معتبرة إذا توافر فيه أمران: الأول: أن يكون متفقا مع روح الشريعة معتمدا على قواعدها الكلية ومبادئها الأساسية، وهي قواعد محكمة لا تقبل التغيير والتبديل، ولا تختلف باختلاف الأمم والعصور، الثاني: ألا يناقض مناقضة حقيقية دليلا من أدلة الشريعة التفصيلية التي تثبت شريعة عامة للناس في جميع الأزمان والأحوال، فإذا لم يكن هناك دليل تفصيلي يدل على شيء في محل الحكم الذي يثبت من طريق السياسة فالأمر ظاهر، من حيث إنه ليس في ذلك مخالفة أصلا، وكذلك إذا كان هناك دليل تفصيلي دل على خلاف محكم السياسة.

وأورد الشيخ تاج أمثلة على السياسة الشرعية مثل: ما أنشأه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- من الدواوين والحبوس، وما فرضه من وظيفة الخراج، وما فعله عثمان بن عفان- رضي الله عنه- من جمع الناس على مصحف واحد وأمره بإحراق ما عداه من المصاحف، وما أنشأه من أذان في يوم الجمعة لم يكن معهودا من قبل... إلخ.

ويتكون الكتاب من مقدمة وكتابين وخاتمة

سوريا المقسمة

تحت عنوان "تصريحات البيت الأبيض ورسالة ديمبسي تحضير للتعايش مع سورية مقسمة" جاء مقال أ/ إبراهيم درويش المنشور بجريدة القدس العربي الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/٧/٢٣م يقول:

يخشى السوريون السُّنَّة الذين يعيشون في مناطق حمص والمناطق التي يتواجد فيها علويون وشيعة في سورية من حملة تطهير يقوم بها النظام السوري تحضيرا لإقامة ما يقولون إنها "دولة علوية" في وسط البلاد تمتد من دمشق العاصمة ومرورا بحمص إلى منطقة الساحل حيث اللاذقية وطرطوس.

ويقول السُّنَّة الذين يعيشون في المناطق الساحلية إن هناك أدلة عن محاولات النظام تشكيل صورة المنطقة، وهي محاولات تتجاوز فكرة تعزيز السيطرة الأمنية على هذه المناطق. وتتركز مظاهر القلق على مدينة حمص، ثالث كبريات المدن السورية والتي تتعرض لهجمات وقصف منذ الشهر الماضي، ويتوقع المراقبون الغربيون أن تسقط بيد النظام السوري وداعميه من حزب الله في نهاية الصيف الحالي، مما سيعتبر إنجازا كبيرا لنظام بشار الأسد الذي حقق إنجازات عدة على حساب المقاتلين السوريين الذين يعملون من

أجل الإطاحة بنظامه. ومما يعزز فكرة التطهير الطائفي حرق وتدمير مكتب سجلات الأراضي والعقارات التي يقول المواطنون إن ضياع السجلات يعني عدم قدرتهم على استعادة أملاكهم أو ادعاء الملكية لها. وينظر لحمص كمنطقة حيوية في أية خطة لإنشاء دولة علوية حالة انهيار النظام الحالي؛ لأنها جغرافيا تصل المناطق العلوية على الساحل ومنطقة البقاع اللبناني التي تعيش فيها غالبية شيعية وتعتبر منطقة سيادة لحزب الله الذي يقاتل إلى جانب القوات السورية. ويربط المراقبون الإنجازات التي حققها النظام بدعم من حزب الله وإيران التي ترى في نظام الأسد حليفًا إستراتيجيًا وبين ما يرونه خططا لتعزيز قوة النظام في وسط البلاد.

وتعيش في منطقة حمص غالبية سنية بالإضافة لأقليات علوية ومسيحية ولكن المنطقة تحولت ومنذ أشهر إلى تجمعات سكانية محصنة حيث أقامت القوات التابعة للنظام جدرانا حول الأحياء العلوية، حيث أصبح من الصعب على المعارضة السورية الوصول إليها، فيما تعيش المناطق الريفية المختلطة السنية - العلوية حالة من التقلب وسجلت فيها العديد من المذابح، في الحولة وبانياس.

ويقول التقرير إن عملية التطهير العرقي ليست سياسة للنظام فقط، فقد تم طرد السكان العلويين من قراهم القريبة من الحدود التركية وذلك في مناطق شمال محافظة اللاذقية، وهي المنطقة التي يسيطر عليها الجهاديون ومقاتلو جبهة النصرة.

ويقول التقرير إن أحياء أخليت من سكانها في مدينة حمص وحل محلهم علويون مثل حي الخضر وكرم الزيتون وباب السباع.

ويشير الناشط أبو رامي إلى أدلة عن عمليات تطهير طائفية في مناطق متعددة من حمص، مضيفا أنه "تطهير طائفي"، وهو جزء من خطة شيعية إيرانية، وهي واضحة من خلال مشاركة حزب الله والميليشيات الإيرانية، وهي أيضا جزء من مشروع الدولة العلوية التي يريد الأسد إقامتها.

ويأتي الحديث عن التطهير الطائفي في الوقت الذي قدمت فيه وزارة الدفاع الأمريكية للكونغرس تفاصيل عن خططها لوقف نزيف الدم السوري".

فقد قدم رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال مارتن ديمبسي لرئيس لجنة الجيش في الكونغرس أول تفاصيل عن التحديات الضخمة التي تواجه الولايات المتحدة حالة قررت التدخل في سورية، وقال: إن قرارًا باستخدام القوة ليس إلا إعلانا للحرب، مضيفا: إننا يمكن عن غير قصد أن نعزز قوة الجماعات المتطرفة ونطلق العنان لاستخدام الأسلحة الكيماوية التي نريد التحكم بها.

تهويد القدس من المنظور الإسرائيلي

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ / نبيل السهلي مقالاً نشر بموقع الجزيرة نت بتاريخ: ١٦/ ٧ / ٢٠١٣ م جاء فيه:

مع احتلال إسرائيل للضفة الغربية بما فيها الجزء الشرقي من مدينة القدس قبل ستة وأربعين عاما (١٩٦٧-٢٠١٣م)، بدأت تظهر مشاريع وأفكار إسرائيلية حول الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتركزت الرؤى على إبقاء القدس الموحدة تحت السيادة الإسرائيلية الكاملة. من أهم المشاريع المطروحة التي تضمنت إبقاء السيطرة الكاملة على القدس:

أولا: مشروع بن غوريون ١٩٦٧: وقد كان أول من طرح أفكارا حول منح السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة حكما ذاتيا يديرون شئون حياتهم في إطاره هو رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق ديفيد بن غوريون، وذلك بعد أن وضعت حرب حزيران أوزارها بأسبوعين تقريبا.

ثانيا: مشروع آلون في يوليو / تموز ١٩٦٧م: أي بعد شهر من عدوان يونيو / حزيران، حيث طرح وزير الخارجية آنذاك يغال آلون على حكومته مشروعا يتعلق بسيناء والجولان، استند فيه إلى أفكار بن غوريون، غير أن مشروع آلون كان أكثر تفصيلا وتحديدا ووضوحا.

وقد صمم مشروعه على أساس التخلص من المناطق ذات الكثافة السكانية الفلسطينية، وضم المناطق الأخرى التي تتسم بقلة ومحدودية السكان أي التخلص من المدن والمراكز الحضرية السكانية، وإعادتها إلى الأردن والتمسك ومواصلة السيطرة على الأراضي الواسعة الخصبة في الأغوار وشمال الضفة الفلسطينية ومناطق واسعة من أرياف المدن الفلسطينية تمهيدا لضمها إلى إسرائيل.

ويلاحظ المتتبع للشأن الإسرائيلي الداخلي والخطاب السياسي للأحزاب الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧م وحتى عام ٢٠١٣م أن كافة المشاريع والتصورات الإسرائيلية التي طرحت إزاء القدس من قبل سياسيين أو أحزاب أو أكاديميين إسرائيليين في ندوات عقدت في الجامعات الإسرائيلية أو مؤتمرات هرتسيليا تمحورت حول الثوابت المشتركة بين الأطياف السياسية الإسرائيلية إزاء مستقبل قضية القدس.

ويلاحظ المتابع أيضا أن النشاط الاستيطاني المحموم في مدينة القدس ما هو إلا إجراءات لترسيخ التصورات والرؤى الإسرائيلية على الأرض.

وتبقى الإشارة إلى أنه رغم وضوح التصورات الإسرائيلية إزاء مستقبل قضية القدس، لم يفلح العرب والمسلمون في وضع تصورات ومخططات محددة لمواجهة عاصفة التهويد التي تجتاح المعالم الجغرافية والتاريخية في مدينة القدس على مدار الساعة.

فارس.. في ميدان «المنهج»

تحت هذا العنوان جاء مقال أ. د/ محمد عمارة المنشور بموقع الإسلام اليوم في ٢٠١٣/٨/١٣م:

لم يفردوا له تآليف خاصة به، ولم يجعلوه علمًا مستقلاً عن غيره من العلوم، ويذكرون في هذا الباب سبق الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ/ ٧٧٥-٨٦٨م) للكتابة في "الشك المنهجي" - كعلم يجب تعلمه - وكيف كانت له الريادة ثم جاء من بعده حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١٣م) الذي صاغ تجربته في الشك ومنهج التعامل معه بكتابه "المنقذ من الضلال" والذي أثر عنه قوله: "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر فقى العمى والضلال". وكلاهما - الجاحظ والغزالي - أسبق من الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" (١٥٩٠-

١٦٥٠م) بعدة قرون.

لكن المتأمل فى تراثنا العربى الإسلامى يلحظ محاولات شبه مكتملة فى "المنهج" - على نحو خاص ومفرد - قبل أن تطرقه الحضارة الأوروبية بعدة قرون. فعالم اللغة وفيلسوفها والناقد الأدبى "ابن جني" (٣٣٠-٢٣٩هـ/ ٩٤٢-١٠٠٢م) له فى كتابه الفذ "الخصائص" صفحات وصفحات تطالعنا بعناصر منهجه فى الدراسات اللغوية. والشهرستانى (٤٧٩-٥٤٨هـ/ ١٠٨٦-١١٥٣م) صاحب كتاب "الملل والنحل" يطالعنا - عن دراسته لانقسام الأمة إلى فرق ومذاهب - بعناصر منهج الموضوع بالذات.

بل إن فى تراثنا العربى الإسلامى ما هو أكثر من هذا، وما هو أقرب إلى إفراد "المنهج" بالتأليف المستقل فيه، وكمثال على ذلك كتاب فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أبو الوليد بن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م) الذى سماه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"؛ ففى هذا الكتاب بيان للمنهج الفلسفى حتى لنكاد - دون مبالغة - أن نقول: إنه كتاب فى "المنهج الرشدي".

ولقد كان ضروريًا لابن رشد أن يصنع ذلك؛ لأنه قد طرق فى الفكر بابًا جديدًا، بل وغريبًا عن الكثير من الفلاسفة فى العديد من الحضارات؛ وذلك عندما اقتحم - فى أصالة وموضوعية - ميدان التوفيق بين "الدين" و"الفلسفة"؛ أى: بين "الشريعة" و"الحكمة". وكان الكثيرون يحسبون أن لا مكان للتوفيق بينهما، وابن رشد بهذا العمل الذى أنجزه فى هذا الميدان قد كان وما يزال - علامة بارزة تلفت النظر إلى الطابع المتوازن فى حضارتنا العربية الإسلامية، والذى يميزها عن حضارات أخرى كثيرة؛ عندما تتخذ الموقف الذى يجمع بين ما تعده حضارات أخرى كنقائض ومتضادات لا يمكن الجمع بينها. ولجدّة المحاولة بالنسبة للكثيرين، ولصعوبة البحث؛ كان لابد لابن رشد من أن يعرض عناصر "منهجه" فى هذه المحاولة الكبرى فكان كتابه "فصل المقال".

وفى هذا الكتاب يتحدث ابن رشد عن موقف الدين من دراسة الفلسفة، وعن أهمية النظر الفلسفى وضرورته للإنسان، وكذلك عن شروط هذا النظر الفلسفي، وعن مستويات الناس الفكرية، وطريق كل مستوى إلى تحصيل المعرفة وبلوغ اليقين، وعن علاقة الحكمة (الفلسفة) بالشريعة والدين، وعن التأويل وقوانينه، ثم يقدم عناصر نظرية متكاملة فى المعرفة، من خلال حديثه عن "العلم الإلهي" و"العلم الإنساني" والفروق بينهما، حتى ليمكن أن تعد رسالته الصغيرة "ضميمة فى العلم الإلهي" رسالة فى المنهج "منهج النظرية الإسلامية فى المعرفة".

فجدير بفيلسوف قرطبة أن يحسب له هذا السبق إلى التأليف المفرد فى المنهج، وجدير بنا أن نمعن النظر فى هذا الميدان؛ فلربما وجدنا تآليف فى المنهج سبقت فى تراثنا مؤلفات ابن رشد فى هذا الميدان، بل إن كتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" هو كتاب فى منهاج فلسفات اختلافات الفقهاء بامتياز، كما أن كتاب الغزالى "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" هو الآخر نموذج فى هذا الميدان.

ندوة «فقه المواطنة»


إعداد:
سعد فتحي - رمضان ثابت

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر انعقدت ندوة "فقه المواطنة" التى طرح من خلالها رؤية علمية وسطية فى هذه القضية وذلك فى يوم الثلاثاء ١٦ من شعبان ١٤٣٤هـ - ٢٥ يونيه ٢٠١٣م فى رحاب مركز الأزهر الشريف للمؤتمرات بمدينة نصر.

حضر الندوة مجموعة من الشخصيات العامة والرموز السياسة وممثلين للكنائس المصرية: الأرثوذكسية والكاثوليكية، والإنجيليكية والمجتمع المدنى.

تدور محاور الندوة حول المواطنة من منظور إسلامى، وكيفية تطبيق هذا المفهوم على أرض الواقع وبيان رؤية مفكرى الإسلام فى فهم هذا المصطلح.

قدم أ.د/ محى الدين عفيفى للندوة وقال: يسرنا أن نرحب بالسادة الحضور وممثلى الكنائس المصرية وجميع الشخصيات الكريمة التى شرفتنا لحضور هذه الندوة فى هذا الموضوع المهم الذى يتزامن مع المرحلة الحاسمة فى تاريخ مصرنا الحبيبة، وهكذا العهد بالأزهر يكون حاضرا فى جميع المشاهد بين الرؤية الوسطية وبين الرؤية التى تستشرف آمان المستقبل وتراعى مصلحة الوطن وتراعى الحقوق والواجبات التى ينبغى أن يتمتع بها كل مواطن وكذلك الحقوق والواجبات التى ينبغى أن يقدمها كل مواطن مصرى

وقام بافتتاح الندوة أ.د محمد عبد الفضيل القوصى عضو هيئة كبار العلماء حيث قال: إن التلاعب بالألفاظ أصبح سوقا رائجة هذه الأيام ولعل من أوائل تلك الكلمات التى يستخدمها الكثير فى مآربهم الشخصية كانت كلمة "الفقه" لذلك فالأزهر الشريف علمنا ضبط المصطلحات، والترخص والاتساع فى المصطلحات أمر تأباه الطبيعة الأزهرية، فالأزهر الذى حفظ منذ الصغر:

إن مبادئ كل فن عشرة
الحد والموضوع ثم الثمرة
ونسبة وفضله والواضع
والاسم واستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى
ومن درى الجميع حاز الشرفا

لذلك فالأزهر الشريف كان ولا يزال يحث على استعمال تلك الكلمات فى مواضعها ووضع لها أصولا وضوابط مضيفا أن كلمة الفقه ملكة وليست اكتسابا تغيره العوامل والمتغيرات البيئية فلابد أن نحتاط فى استعمال كلمة الفقه تعاليم أو

أصول وأدبيات.

وأشار فضيلته أن: المواطنة على وزن مفاعلة أي مفاعلة من الجانبين كالمضاربة والمشاركة فالمواطنة تعتبر علاقة تبادلية بين فرد وفرد وبين جماعة وجماعة أخرى وعلاقتهم جميعا بالوطن حتى يمتزجا في لحمة واحدة، ومن هنا جاءت كلمة المواطنة والتي تعني السكينة والطمأنينة في الوطن.

وبين فضيلته -في ملمح سريع- الجانب التطبيقي لفهم الإسلام للمواطنة من خلال "وثيقة المدينة" التي عقدها النبي ﷺ ذاكرا جزءا من نصها فقال: "وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف"

فاستعمل النبي ﷺ لفظ أمة واحدة مع المؤمنين "وأن مابينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم" فجاءت الوثيقة لتبرز بشكل عملي إجرائي كيف تكون الدولة بشكل نظري فاستطاع النبي ﷺ أن يمزج بين الناس بهذه الوثيقة محافظا على حقوقهم دون أن يظلم أحدا، محققا بذلك مفهوم المواطنة في أعلى درجاتها فاستحق الإسلام أن يكون الدين العام العالمي الخاتم الذي يسع الناس جميعا.

ثم تحدث الدكتور حسن الشافعي رئيس مجمع اللغة العربية وعضو هيئة كبار العلماء حول المدخل التاريخي للمواطنة وانعكاسه على الواقع فقال: المفهوم التاريخي للمواطنة يقوم على الروح الإنسانية في القرآن لأن القرآن يؤكد على الإخوة الإنسانية فعندما أشار إلى كرامة البشر لم يربط ذلك بدين ولا بجنس ولا بلغة ولا بلون ولا بأمة وإنما ربطها فقط بالآدمية:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ولقد أنكر بعضهم على الشيخ محمد الغزالي وهو يتكلم عن الأخوة الإنسانية فقال لهم أن هذا ليس قولي وإنما هو قول الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

(هود: ٥٠)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

(هود: ٦١)

وغير ذلك من الآيات التي تؤكد الإخوة الإنسانية، والقرآن يؤكد على تعدد الأمم:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

(هود: ١١٨)

فتعدد الأمم راجع لحكمة الله عز وجل في خلقه، فالتعدد له هدف يأتي هذا الهدف على صورة أكثر تحديدا في سورة المائدة في قوله تعالى:

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

فالتعدد مقصود به التنافس في كل شيء لمصلحة الوطن، وقد أكدت وثيقة الأزهر الأولى على علاقة الدين بالدولة وعلاقة الفقه الإسلامي بالسلطة وعلاقة المواطنين المصريين بوطنهم، وأحب أن أذكر كلمة

البابا السابق "إن مصر ليست وطنا نسكنه بل هو يسكننا" وهذا المعنى العميق أحب أن أؤكد عليه بشواهد تاريخية: فقد جاء السفير الإنجليزي لبطريرك الكنيسة المصرية بعد أحداث ١٩١٩ وقال له السفير إن جلالة الملك يفكر في أن يطرح عليكم الحماية الإنجليزية فسكت مليا ثم توجه إلى السفير بطريقته الحكيمة وقال له: هل ملككم يموت، فقال: بالطبع نعم. فقال له: (عندما تعود إلى الملك اشكره وقل له نحن في حماية الحي الذي لا يموت). هذه هي مصر وهذا هو التاريخ الناطق في القديم والحديث.

وأشار فضيلته إلى أن الخلافات طبيعة بشرية، وتحدث بين أبناء البيت الواحد وفي القديم قال الشاعر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي
زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

وأكد أن جوهر المواطنة هو المناصحة والرحمة والمودة. وأشار إلى أنه إذا تعرضت مصر لخطر أو أذى فسوف يصيب الجميع، فعلينا بوحدة الرأي وإيثار مصلحة الوطن العليا.

و اختتم الدكتور محمود عزب مستشار شيخ الأزهر وأستاذ الحضارة بجامعة السربون اللقاء بكلمته فقال: بعد أن اتخذ أ.د القوصي المدخل اللغوي المصطلحي واتخذ أ. د. حسن الشافعي المدخل التاريخي، أتخذ أنا المدخل العملي الذي اتخذه الأزهر الشريف بريادة إمامه الأكبر أ.د أحمد الطيب. فالأزهر منبر الوسطية وحامي حمى الشريعة والمدافع عن التعدد والتنوع المنطلق من القرآن الكريم والذى تقرر فيه أيضا حق الاختلاف.

ويعمل الأزهر في دوائر ثلاث الأولى الوطن والثانية العربية الإسلامية والثالثة العالمية.

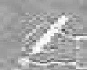
وللأزهر على مر العصور دور بارز في حفظ الوطن والأمة، فالأزهر وقف في وجه نابليون وأخرج الفرنسيين من مصر، وفي ثورة ١٩١٩ خرج الأزهر والكنيسة تحت شعار يحيا الهلال مع الصليب، وفي ثورة يناير خرج الأزهر وثار مع الثوار وكانت أبوابه مفتوحة ليل نهار لشباب الثورة والحوار معهم

فالأزهر يعمل من أجل مصلحة الوطن وسيظل كذلك بإذن الله.

وبذلك يكون قد بين العلماء أن الدين الإسلامي قد احترم فكرة التعددية وطرح أسس الخلاف والتنوع بين البشر فالتعددية لها حكمة وهي التنافس في الخيرات والتعاون لمصلحة الوطن، كما دعوا إلى تأصيل مبدأ المواطنة وأصول التعايش مع الآخر لتحقيق مفهوم المواطنة أي وطن واحد يمزج الجميع في نسيج واحد.

من يفرح بالفطر





فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

انقضى شهر رمضان المبارك، شهر الخير والبركات والرحمات، شهر التوبة والمغفرة، شهر الروحانيات والنفحات الربانية، شهر الصلة والبر والإحسان شهر كبح الشهوات وهجر اللذات، شهر الانتصار على النفس وعلى الغرائز والنزوات، الشهر الذى فضله الله على بقية شهور السنة بأن أنزل فيه القرآن، وجعل أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، الشهر الذى اختصه الله بليلة القدر، الليلة التى أنعم الله بها على أمة حبيبه ونبيه ورسوله ﷺ، الشهر الذى يتجلى الله فيه على عباده الصائمين فيمنحهم من فضله أكثر مما يرجون وأضعاف أضعاف ما يدعون، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبى قبلى: أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا، وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة، وأما الرابعة فإن الله - عز وجل - يأمر جنته فيقول لها: استعدى وتزينى لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعًا، فقال رجل من القوم: أهى ليلة القدر يارسول الله؟ فقال: لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم».(١)

ونستقبل الآن شهر شوال يجنى الصائم فيه ثمرة صيامه وعبادته، ثمرة طاعته لله واجتهاده وإخلاصه فى التقرب إلى الله، يفرح الصائم فيه الفرحة الأولى - الكاملة - فى دنياه، والتى كانت تتكرر مع حلول مغرب كل يوم من أيام شهر رمضان الكريمة، تصديقا لقول الرسول ﷺ: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه».(٢)

ويسعد اليوم صائم شهر رمضان الكريم بفرحة عيد الفطر المبارك، أحد العيدين اللذين شرعهما الله للمسلمين استجماما للأبدان، وراحة للأجساد، وشكرا لله على نعمه، وعاملا فى زيادة روابط التآخى والحب والتآلف والتزاور والتعاون والتلاقى بين المسلمين، فعن أنس - رضى الله عنه - قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟»، قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكما خيرًا منهما: يوم الفطر ويوم الأضحى».(٣)

ولكن من يفرح بالفطر؟ ومن الذى يهنأ ويسعد ويفرح بعيد الفطر؟ ومن الذى يسجل عند الله - تعالى - فى قوائم الفائزين بفرحة الفطر؟ ومن الذى ينال دخول الجنة من باب الريان؟ فعن سهل - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة بابا يقال له الريان يدخل فيه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال أين الصائمون فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد».(٤)

يفرح بالفطر من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، وامتنع فيه عن كل ما حرم الله، وابتعد فيه عن كل ما نهى الله عنه، وراقب الله فى كل أعماله.

يفرح بالفطر من أقبل على طاعة الله فى شهر رمضان بخشوع وخضوع، خال من النفاق والرياء، يرجو مغفرته ويخشى عذابه ويطمع فى جنته.

يفرح بالفطر من شعر بجوع الفقراء، وألم المساكين، وحرمان المحرومين، فبادر إلى مساعدتهم والعطف عليهم وإطعامهم فى السر والخفاء، فى غير نفاق ولا رياء، ولا دعاية ولا إعلان.

يفرح بالفطر من أدى فرائض الصلاة فى أوقاتها، وزاد من سننها، وأكثر من نوافلها، وأقام صلاة القيام، وتهجد بالليل والناس نيام.

يفرح بالفطر من أدى الأمانات فى شهر رمضان.. ومن الأمانات المحافظة على وقت العمل الذى يأخذ عنه أجرا، فلا يتراخى ولا يتكاسل فى أداء ما كلف به من أعمال بحجة الصيام.

يفرح بالفطر من قام بأداء عمله على خير وجه وأتمه فى رمضان، وسارع إلى قضاء مصالح العباد، وراقب الله فى وقت عمله فلم يضيعه فى المجاملات والأحاديث مع المعارف والأصدقاء.

يفرح بالفطر من اهتم بصلة الرحم فبادر إلى صلتها.. فزار المريض، وأعان المحتاج، وسلم على الحاضر، وسأل عن الغائب، وأعان الملهوف، وفرج كرب المكروب، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾

(محمد: ٢٢، ٢٣)

يفرح بالفطر من اتبع صومه بالامتناع عن الأكل والشراب والشهوات، بالامتناع عن الغيبة والنميمة، وهتك أعراض الناس بالقيل والقال.

يفرح بالفطر من اجتهد فى قراءة القرآن الكريم فى هذا الشهر الكريم الذى نزل فيه القرآن، راجيا أن ينال ثواب حسنات التلاوة،

(١) الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح البخارى.

(٣) صحيح البخارى.

(٤) صحيح البخارى.

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».(٥)

يفرح بالفطر من فاز بنفحة الله فى شهر رمضان الذى اختصه الله – تعالى – بالخير الكثير، والفضل العميم .. والذى لو يعلم الناس ما فيه من الخير والفضل والبركة لتمنوا أن تكون السنة كلها رمضانا، ففى الحديث الشريف: «إن لديكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها، فلعل أحدكم تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا». (٦).

يفرح بالفطر من أثر الصوم فيه فتهذبت روحه، وتطهر قلبه، وصفت نفسه، واستقامت جوارحه، وامتثل لخشية ربه، وصار يراقب الله فى أقواله وأفعاله.

يفرح بالفطر من غرس الصوم فيه قوة الإرادة، وصدق العزيمة، والقدرة على التحكم فى العادات، والتغلب على الشهوات، والصبر على الحرمان، والجلد على الآلام.

يفرح بالفطر من اتقى الله فى جوارحه فكف لسانه عن فضول الكلام ولغوه، وشغل لسانه بالذكر والتسبيح والصلاة على رسول الله ﷺ وامتنع عن الدخول فى الجدل الذى لا فائدة فيه، ولا خير يرجى منه.

يفرح بالفطر من جدد التوبة مع الله، فاجتهد فى العبادة، وداوم على الاستغفار، وشغل نفسه بالعلم النافع، وحرص على أن يكون لسانه دائما رطبا بذكر الله.

يفرح بالفطر من أدى حقوق الجار، وراعى مشاعره ومشاعر أهله وأولاده، وقدم له العون والمساعدة إن كان محتاجا، وزاره إن كان مريضا، وواساه إن كان فى مصيبة، ونفذ توجيهات الرسول ﷺ فى قوله «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٧)

يفرح بالفطر من حظى ونال فضل ليلة القدر التى قال الله سبحانه وتعالى – فى شأنها:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾

(القدر: ٣)

فقد شرفت هذه الليلة بنزول القرآن الكريم فيها، وخصها الله بأن العبادة فيها أكثر ثوابا وأعظم قبولا من العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وأن جبريل عليه السلام – ينزل مع الملائكة فى هذه الليلة المباركة إلى الأرض بأمر من الله –تعالى – وإذن ربه لنشر الخير والبركات والأمن والسلام – والنفحات من الله – تعالى – على من يفوزون بفضل هذه الليلة من المؤمنين الذين يحيونها فى طاعة الله وعبادته وذكره وتسبيحه إلى أن يطلع الفجر ففى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه».

يفرح بالفطر من بر والديه وأطاعهما، وتقرب إلى الله بالإحسان إليهما، والتزم بطاعة أمر الله فى قوله – تعالى –:

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾

(النساء: ٣٦).

ونفذ وصية الله فى قوله:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾

(لقمان: ١٤)

فقد قرنت الآية الكريمة طلب شكر الوالدين بطلب شكر الله، بعد أن أشارت إلى ما تحملته الأم من مشقة وتعب فى الحمل والرضاعة، وإلى ما تحمله الأب من جهد وتعب فى النفقة والتربية.

يفرح بالفطر من تجنب الإساءة إلى الوالدين، أو ألحق الأذى بهما، وامتثل لحكم الله فى قوله – تعالى –:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

(الإسراء: ٢٣، ٢٤)

وعن معاوية بن جاهمة السلمى رضى الله عنه – قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله: إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة. قال: «ويحك، أحية أمك؟» قلت: نعم. قال: «ارجع فبرها»، ثم أتيته من الجانب الآخر، فقلت: يارسول الله: إنى أردت الجهاد معك أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة. قال: «ويحك أحية أمك؟» قلت: نعم يارسول الله. قال: «ويحك، الزم رجلها فثم الجنة».(٨)

يفرح بالفطر من أحيا ليلة العيد بطاعة الله – تعالى – بالذكر والدعاء والصلاة وتلاوة القرآن امتثالا لقول الرسول ﷺ: «من أحيا ليلة الفطر، وليلة الأضحى محتسبا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».(٩)

يفرح بالفطر من أخرج صدقة الفطر وأعطاها للفقراء والمساكين والمحتاجين، امتثالا لقول الرسول ﷺ: «أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم».(١٠)

يفرح بالفطر من أدخل البهجة والسرور والفرحة على زوجته وأولاده وأفراد أسرته، وأشرك اليتامى فى إدخال البهجة والسرور والفرحة عليهم بالعطف عليهم فلا يشعرون باليتم والوحدة والحرمان.

أخى المسلم

راجع نفسك وحاسبها، واستعرض أفعالك وأقوالك وتصرفاتك وعلاقتك مع الآخرين فى شهر رمضان الكريم .. فإن كنت ممن يصدق فيهم ما سبق فاحمد الله واشكره على أن وفقك إلى صوم شهر رمضان وإلى عبادة الله وطاعته فيه، ونيل فضل شهر رمضان وخيره، واسعد واهنأ بالفرحة الأولى فى دنياك، فرحة عيد الفطر المبارك، وأبشر بالفرحة الثانية فى أخراك عند لقاء ربك ومولاك.

وإن كنت غير ذلك – والعياذ بالله – فلا تلومن إلا نفسك، فقد أتاك شهر الخير فلم تغتنمه، وأتيحت لك فرصة الطاعة فأعرضت عنها، وفتحت لك أبواب الجنان فلم تدخلها.

ندعو الله ضارعين أن نكون من الفائزين فى شهر رمضان، الموفقين إلى طاعة الله فيه، المستحقين لشفاعة الصيام والقرآن، الذين يسعدون بالفرحتين.

(٥) الترمذى
(٦) مجمع الزوائد . للهيثمى
(٧) مجمع الزوائد . للهيثمى
(٨) صحيح الجامع . الألبانى
(٩) الجامع الصغير . السيوطى
(١٠) الشرح الممتع . ابن عثيمين

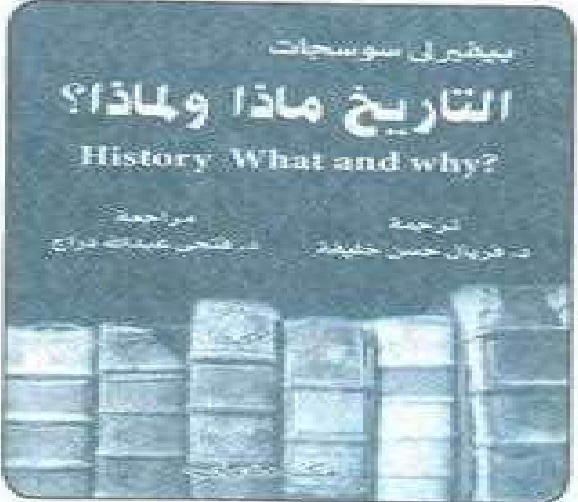
مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



عبر رحلة شائقة وموجزة يستعرض كتاب «حكاية يهود مصر - العصر الأيوبي» - الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة تاريخ اليهود في مصر خلال العصر الأيوبي من مختلف الزوايا السياسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية... رغم حديث المؤلف عمر مصطفى لطفي في الفصل الأول عن القيود التي فرضها صلاح الدين الأيوبي على اليهود والنصارى بسبب تآمر بعضهم مع الصليبيين وبقايا الفاطميين إلا أن المؤلف عاد ليؤكد بعد أن استتب الأمر لصلاح الدين بعد القضاء على أنصار الفاطميين اطمأن صلاح الدين إليهم - أي اليهود والنصارى - واشتركوا معه في غزواته كتابا في جيشه وقام بتقريبهم وأنعم عليهم واستخدمهم في ديوانه فعاد اليهود إلى أرقى مما كانوا عليه وركبوا الخيل والبغال وعلت كلمتهم عند سلطانهم فتحرزوا التواقيع منه والكتب عنه إلى ولاة الأعمال بسرعة بيعهم وما تشبعت من كنائسهم ولبسوا الخفاف والثياب المفرجة، بل يؤكد المؤلف أن الأيوبيين ساروا على نهج الفاطميين في معاملتهم لليهود... في الفصل الثاني والثالث والرابع يتحدث المؤلف عن الوجود الثقافي والعلمي والحياة الاجتماعية والاقتصادية لليهود في هذا العصر



يحلل كتاب «التاريخ ماذا ولماذا» الصادر عن مكتبة مدبولي للمؤلفة بيفيرلي سوسجات ترجمة د. قريال حسن خليفة طبيعة التاريخ وموضوعه وأهدافه والعلاقة بين التاريخ ومختلف العلوم الإنسانية تقول مترجمة الكتاب: «جملة القضايا التي يثيرها التاريخ تؤكد حاجة المؤرخ والدارس إلى نوع من الوعي الذاتي وهو حقا امتياز هذا الكتاب لأنه بدون الوعي الذاتي يستحيل تكوين رؤية أو منظور في الحياة بعامة وفي التاريخ بخاصة ومن المستحيل أن يكتب المؤرخ التاريخ دون منظور معين أو وجهة نظر»... يناقش المؤلف في الفصل الأخير علاقة التاريخ بالمستقبل بعد عرضه للتحديات الداخلية والخارجية التي أفضت إلى إبطال النموذج التقليدي للتاريخ باعتباره تسجيلا موضوعيا للماضي كما كان... ومن ثم يرى المؤلف أن الدراسات التاريخية تجتاز ثورة كوبرنيقية منذ الفترة المبكرة من العصر الحديث».



عبر موسوعته المصغرة يعرض الإمام والعلامة محمد أبو زهرة «لتاريخ المذاهب الإسلامية»... الموسوعة التي تحمل نفس الاسم أعيد نشرها مؤخرا في مكتبة الأسرة ضمن سلسلة «إنسانيات»، يخصص المؤلف الجزء الأول للحديث عن المذاهب السياسية والاعتقادية في حين يتحدث الجزء الثاني عن المذاهب الفقهية

في تمهيده يعرض المؤلف لأسباب الاختلاف الفكري بين الناس في المطلق وعلى عمومهم وأسباب اختلاف المسلمين ويذكر منها... العصبية العربية حيث يرصد ظهورها في عصر عثمان بن عفان مما أثر في الاختلاف بين الأمويين والهاشميين... ثاني أسباب اختلاف المسلمين هو التنازع على الخلافة عقب وفاة النبي ﷺ... السبب الثالث: مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام حيث اعتنق الإسلام يهود ومجوس ونصارى وفي رءوسهم أفكارهم الدينية القديمة... كذلك ترجمة الفلسفة وورود المتشابه في القرآن الكريم كان من أسباب اختلاف المسلمين



«نحن نؤمن بأن حضارتنا هي فعلا الأرقى والأفضل إذا قورنت بالحضارة الغربية المعاصرة التي تقوم على الفلسفة الدنيوية المادية وعلى الاستعلاء العنصري» بهذه الجملة يبدأ المفكر الإسلامي والقومي الراحل عادل حسين كلامه عن النموذج الحضاري الإسلامي وموقع العرب منه في إطار حديثه عن «الاستقلال الوطني والقومي» وهي الدراسة الأخيرة له والتي أعادت سلسلة «مراصد» - تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية نشرها

في مدخل الدراسة يؤكد حسين على أن الاستقلال هو المبدأ الحاكم والجامع لإمكانية النهضة مستعرضا تاريخ مظالم النظام العالمي الدولي التي بدأت منذ خمسة قرون مما أدى إلى أن ٢٠٪ أصبح دخلهم ٨٢ ضعف الأفقر... على أن الاستقلال برأيه «ممكن رغم أنف العولمة في إطار التعدد الحضاري ذلك لأن الاكتساح الذي حققته العولمة أو الأمركة بمكوناتها المختلفة من الأيديولوجيا إلى الاقتصاد بعد الحرب الباردة هو آخذ في الانحسار السريع الآن على مستوى العالم بدرجات مختلفة بعد ظهور النتائج المأساوية لمنهجها في كل الدول المستضعفة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وروسيا بل وفي داخل الدول الصناعية الغربية»



يقدم د. سمير سعيد حجازي في «معجم المصطلحات - عربي - فرنسي» شرحا لمعاني المصطلحات الأساسية في فروع الأدب المعاصرة ونظريات الحضارة

الكتاب الصادر عن مكتبة جزيرة الورد يوضح مؤلفه أنه اتبع طريقة المعاجم الموسوعية حيث عالج وضع معاني ألفاظ اصطلاحات موافقة أو مقاربة لمعانيها الواردة في لغتها الأصلية شارحا مدلولاتها في ضوء النظرية أو النظريات التي أفرزتها ويمضي «ثم اكتف بوضع معاني الاصطلاحات الأساسية في فروع الأدب المعاصرة وشرح مدلولاتها بل مضيت نحو إلقاء الضوء على سياقها الثقافي العام الذي نشأت في رحابه وعلى آثاره لغة العلم ولغة الأدب بعامة ولغة النقد والبلاغة والأسلوبية خاصة». كذلك استعرض المؤلف موقف النقاد والباحثين العرب من هذه المصطلحات ودلالات تطورها في الثقافة المنقول عنها.

طرائف.. ومواقف

للشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حقيقة

يقول رسول الله ﷺ: «ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه» رواه الترمذي

أبواب السعادة

مما قاله الإمام عبدالله بن محمد الأندلسي المالكي المشهور بالقحطاني في نونيته المعروفة:

لا تعص ربك قائلاً أو فاعلاً ... فكلاهما في الصحف مكتوبان
جمل زمانك بالسكوت فإنه ... زين الحليم وسترة الحيران
كن جليس بيتك إن سمعت بفتنة ... وتوق كل منافق فتان

إفحام

وفد عقيل بن أبي طالب، على معاوية بن أبي سفيان، مغاضبًا لأخيه أمير المؤمنين علي، فقال له معاوية، كيف تركت عليًا؟ قال عقيل: تركته مؤثرًا لدينه على دنياه، قال معاوية: وكيف تجدني؟ قال عقيل: أجدك مؤثرًا دنياك على آخرتك، قال معاوية: إني أنفع لك من أخيك، ولولا أنك وافد إلينا لأسمعتك ما يؤلمك!!

قال عقيل: نعم، أنت أنفع لي في دنياي من أخي، وأخي أنفع لنفسه في أخراه، ولقد تعلم يا معاوية أن المال غاد ورائح، وأن فينا القرى والرماح، وأن الله يصرف القلوب، فسكت معاوية ولم يجبه.

كعب بن لؤي كما وصفته أمه

قال لؤي بن غالب «جد النبي ﷺ» لامرأته: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الذي اجتمعت فيه ثمان خلال: لا يخامر عقله جهل، ولا يخالط حلمه سفه، ولا يلوى لسانه عيّ، ولا يفسد يقينه ظن، ولا يغيره عقوق، ولا يقبض يده بخل، ولا يكدر صنعه منّ، ولا يرد إقدامه جبن.

قال: ومن هو؟ قالت: ولدك كعب.

عمر بن عبدالعزيز

• قال مسلمة بن عبدالملك حين توفي عمر بن عبدالعزيز ورآه مسجى.

قال: يرحمك الله لقد لينت لنا قلوبًا قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين، ذكرًا.

• وقال عنه الحسن البصري: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير.

• وقال مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبدالعزيز.

• وقال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما.

• وبكى عليه الرهبان: فعن الأوزاعي، قال: شهدت جنازة عمر بن عبدالعزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين، فمررت على راهب، فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل؟ فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى سجامًا، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ.

لا تتزوج من النساء!!

قال بعض العرب: لا تتزوجوا من النساء سبعًا: الأنانة، والمنانة، والحنانة، والحداقة، والبراقة، والشداقة، والكنانة.

فالأنانة: التي تكثر من الشكوى والأنين، وعصب رأسها تظاهرًا بالمرض.

والمنانة: التي تكثر من المن على من فعلت فيه معروفا.

والحنانة: التي تحن إلى زوجها الأول.

والحداقة: التي تنظر إلى كل شيء وتشتهيه.

والبراقة: التي تقضي أغلب نهارها في صقل وتزيين وجهها.

والشداقة: التي تتشدق بالكلام دائمًا.

والكنانة: التي دائما ما تقول: كان أبي كذا، وكان يعمل كذا.

حقا

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه ... يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

المعتصم بن هارون الرشيد

كان المعتصم بن هارون الرشيد خليفة أعجوبة حقا.. فقد ولد عام ١٨٠ هـ في الشهر الثامن منها، وهو ثامن خليفة عباسي وفتح ثمانية فتوح: وكانت مدة خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وأنجب ثمانية بنين وثماني بنات، وتوفي يوم ١٨ من شهر ربيع الأول، وكان عمره ٤٨ سنة.

أعجبتني نفسي

جلس مقاتل بن سليمان يومًا فأعجبته نفسه، فقال: سلوني عما دون العرش!

فقال له رجل: آدم لما حج من حلق رأسه؟

وقال آخر: أمعاء النملة في مقدمها أو مؤخرها؟

فلم يدر ما يقول.. ثم قال: هذا ليس من علمكم، ولكن أعجبتني نفسي فابتليت.

اسم الذئب

قال دحية القاضي، وكان من مجانين القصاص: كان اسم الذئب الذي أكل سيدنا يوسف – عليه السلام – كذا، فقالوا له: إن الذئب لم يأكل سيدنا يوسف – عليه السلام – فقال: إذن فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف – عليه السلام.

دعاء

اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك.. اللهم صل وسلم وبارك على محمد عبدك عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك.

خميلة الشعر



للأستاذ محمد عبدالوهاب

والشعرُ ألسنةٌ تُفضى الحياة بها   إلى الحياة بما يطويه كتمانُ
لولا القريض لكانت وهى فاتنةٌ   خرساء ليس لها بالقول تبيانُ
ما دام فى الكونِ ركنٌ للحياة يرَى   ففى صحائفه للشعر ديـوانُ

تحت عنوان (أنا والشعر) قال الأستاذ عباس محمود العقاد : " لقد كان كلفى بالشعر أول العهد ولعا لا أعرف سببه، ولكننى الآن أكلف به معتقدًا أنه شاهدٌ من شواهد نهوض الأمم، ومرآةٌ يتصفح فيها الناس صور فنونهم فى كل عصر وطور، فهو التاريخ الصحيح الذى لا تكذب أسانيده ولا تختلف أرقامه، ولست أنا من القائلين بأن الآداب مطلوبة لذاتها فإن هذا القول مبطل للحقيقة المقررة وهى أن لكل شيء سببًا ونتيجة، ولكنى أقول إن الآداب مطلوبة لمنافعها بأوسع معانى المنفعة، وإن كثيرًا من منافعها ينظر بالأعين ويلمس بالأيدي، وليس معنى ذلك أن الناس يقصدون منافع الآداب إذ يشغفون بها، بل هو شغفٌ لدنيٌّ كاشتهاء الجائع للطعام، فهو لا يجوع لأنه يعلم أن فى الطعام قوام بدنه، وإن كان الأمر كذلك فى الحقيقة ". ثم استطرد الأستاذ العقاد فقال: " الشعر يُعمِّق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات: عِشْ ساعةً مفتوح النفس لمؤثرات الكون التى يُعرِضُ عنها سواك، ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما فى وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت! والوقت أيها القارئ أصناف؛ فمنه ما يبخل به إلى الأبد على غير سكان السموات، ومنه ما يطرح للأبقار والحشرات! فإذا قلنا لك أحسب الشعر فكأننا نقول لك: عِشْ، وإذا قلنا إن أمة أخذت تطرب للشعر فكأننا نقول إنها أخذت تطرب للحياة ".

وقد أورد (فيكتور هوجو) فى كتابه "وليم شكسبير" رأيه فى الشعر فقال : "ينادى كثير من الناس فى أيامنا هذه - ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون - بأن الشعر قد أدبر زمانه. فما أغرب هذا القول !.. الشعر أمير زمانه ! لكأن هؤلاء القوم يقولون : إن الورد لن ينبت بعد، وإن الربيع قد أصعد آخر أنفاسه، وإن الشمس كفَّت عن الشروق، وإنك تجول فى مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة. وإن القمر لا يُنظر له ضياء بعد اليوم، والبلبل لا يُغرِّد، والأسد لا يزمجر والنسر لا يحوّم فى الفضاء، وإن تلال الألب والبرانس قد اندكت ... لكأنهم يقولون إنه لا أحد اليوم يبكى على قبر، ولا أم تحب وليدها، وإن أنوار السماء قد خمدت، وقلب الإنسان قد مات".

والحق أنه لا فرق بين القولين؛ إذ الشعر لا يفنى إلا إذا فنيت بواعثه، وما بواعثه إلا محاسن الطبيعة ومخاوفها وخوالج النفس وأمانيها، فإذا حكمنا بانقضاء هذه البواعث فكأنما حكمنا بانقضاء الإنسان، وليس من العجب أن يوجد فى الدنيا أناس لا يهتزون للشعر، وهى مكتظة بمن لا يهتزون للحياة نفسها، خاصة بمن يمرون بها غافلين عن محاسنها وآياتها، كأنهم سيمرون بها ألف مرة، أو كأنهم سيعودون إليها كلما شاءوا الكرَّة.

إشراقة العيد

شعر: كميلة محمد الظاهر

أقبل العيدُ بلألاء السناءْ
يملأ الدنيا بهاءً وصفاءْ
بعد صوم وصلاةٍ وزكاةْ
وامتثالٍ لتعاليم الإلهْ
آن أن نمضى إلى خير اتجاهْ
نحو فعل الخير، مفتاح النجاةْ
إن عمر المرء يمضى لانتهاءْ
ليتنا نلحق ركب الأتقياءْ
ليس معنى العيد فى الثوب الجديد
أو أراجيح بأسواقٍ لعيد
إنما العيد انعطافٌ ليتيمْ
وانتهاجٌ لطريقٍ مستقيمْ
ولقاء الله بالقلب السليمْ
وابتهاجٌ بين جنات النعيمْ
ليس يوم العيد فى دُرّ تضيئْ
إنما العيد.. بأمنٍ لوعيدْ
إيه كم أهفو لأيام الصِّبا !
حين كان الكون يبدو ملعبا
كنت والأصحاب نلهو فى انتشاءْ
فى مراحٍ وانشراحٍ وهناءْ
بين لهوٍ وحبورٍ وصفاءْ
كان يوم العيد دنيا من ضياءْ
يا ترى نلقى الزمان الطيبا
وصباح الدنيا أمسى مغربا ؟!

صلاة الفجر

للشاعرة: جليلة رضا

يارب أعط السائل المحروم أسباب السرور
وامنح لكل مشرَّدٍ رُكنًا مُوشّى بالحرير
أطفئ وقود الحرب فى الدول المؤججة السعير
وامح الضغينة من فؤاد الذئب للحمل الصغير
وعلى جبين الكون ضع قُبَلَ المحبة والضمير
يا رب هب للروض بهجته وللزهر العبير
والعُشَّ للعصفور والهمس المنغم للغدير
وعلى فراش الأم أطلق ضحكة الطفل الصغير

امنح جميع الكون أسباب السعادة والسرور
وأنا؟ وأنا يارب جزء من هواك ومن سناه
ما دمت أنت تحبني.. ماذا أريد من الحياة..؟
يا رب إنك سيدي لك تنحني كل الجباه
عرفتك روحي في الضياء وفي الجمال وفي شذاه
يا رب إنك نبضة.. هي وحدها قلب الحياه
يا رب إن شئت التعاسة لي.. وإن رمت الشقاء
إني على الحالين راضية بما حكم القضاء
دع قلبي البشري يشعر بالتجارب والعناء
فلرب إن أكرمته يأبى القناعة والرضاء
دعني أحس تفاهتي إن الغرور هو البلاء
ماذا يهم إذا أنا أشقى على أرض الفناء
ما دام رأسي قد تطاول خلف سجني في إباء
وراك ظلا قائما حمل التعزي والرجاء
ما دمت أسقي حقل حبك بالدموع وبالبكاء
ما دمت أنشر شعلة الإيمان في أفق السماء
امنح جميع الكون أسباب السعادة والهناء
وأنا؟ أنا يارب جزء من هواك ومن سناه
ما دمت أنت تحبني.. ماذا أريد من الحياة

الإنسان والصبر

للشاعر: محمد عبد الرحمن صان الدين

إن الذي يرصد الحياة، ويستوعب ما يقع أمامه، وما سجله التاريخ من أحداث، لا بد أن تتردد في خاطره ووجدانه أصداء لا تلبث أن تتبلور في أفكار واضحة جلية عن الطبيعة، وعن الإنسان في ذاته، وفي تقلبه في حياته بين الكائنات من حوله، وما يتعاوره من نزعات وتيارات وسمو أو ارتكاس، وعلى هذا السبيل نرى الشاعر المصري فضيلة الشيخ محمد صان الدين يقدم لنا في قصيدته الخماسية (الإنسان والصبر) التي نظمها من مجزوء بحر الرمل، وجعل لكل خماسية قافية مختلفة عن أخواتها وأحيانا غرضا مختلفا، وقد ألزم الشاعر نفسه بانتهاج هذا النهج في باقي قصائد ديوانه الجميل: (الإنسان في الميزان) الذي طبع في دار المعلمي بالرياض عام ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

قلت للورقاء يوما   خبريني يا حمامة
كان بين العش فرخ   منك يستوفي طعامه
تدفعين الشر عنه   بافتداء وصرامة
أين غاب الفرخ عنك الـ   ـيوم؟ قالت مستهامة:
طار في الآفاق يحيا   حيثما شاء الإقامة
هكذا الإنسان حين اشـ   ـتد ولى مستقلا
لا يبالي في صفاء الـ   ـعيش أوشاجا وأهلا
حسبه زوج وأولا   د تراويحا وشغلا
يحسب المغرور بعد الـ   ـأهل ربحا أين حلا
إن أحس القيظ يوما   رام عند الأهل ظلا
شرعة الديان تأبى   هجر مرء والديه
إن يغب كالشمس يوما   عنهما حنا إليه
وهو جلد يتشدان الـ   ـمشتهى من راحتيه
كيف كانا يبر أي   منهما فرض عليه
فليلين للوالدين الـ   ـابن برا جانبيه
أفسد الإنسان أو أو   دى به حب الزعامة
كم طموح مع قصور   يبتغي عرش الإمامة
قد يرى العملاق قزما   كل مغرور أمامه
في الحمى ليث، وعند الر   وع يجري كالنعامة
كل ما يعنيه سلطان   وغنم في سلامة
يا عقيم الفكر ليس الـ   ـمرء كفنا بالمقال
يا قصير الباع إن الـ   ـمجد يبنى بالفعال
اترك الميدان يسعى   فيه أكفاء الرجال
لا يسوس الملك إلا   مبصر في كل حال
يرحم الله الذي لا   يدعي أوج الكمال
للزعيم الحق أوصا   ف بها ترضى النفوس
تنحني حبا وإجلا   لا لمرآه الرؤوس
عدله في حزمه يز   جوه ذو الحق البئوس
صوته في وحشة الأحـ   ـداث للناس أنيس
إنه من غير سلطا   ن، ولا جند، رئيس

هذا والخميلة تتوجه لكم بأجمل التهاني بمناسبة عيد الفطر المبارك، ونسأل الله عز وجل كل الخير لمصر وشعبها.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

فى الصلح والمصالحة !

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

لا يزال صوت الهادى البشير ﷺ، يشق الأجواء الصافية؛ إذ ينادى من فوق الصخرات على جبل الرحمة يوم عرفة؛ وذلك أثناء خطبته الدامعة فى "حجة الوداع" حيث ناداهم فقال: «أيها الناس اسمعوا منى فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا» .. وكان مما أوصى به الأمة وهو يودعها ويستودعها الله تعالى وخواتيم أعمالها قوله عليه السلام: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) وقوله: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» .. أجل - سيدى رسول الله - فكم هو بغيض وكريه لأمتنا أن يصل الخلاف بين الناس فيها إلى حد الخصام، وكم هو نفاق - كذلك - أن تتحول الخصومة إلى فجور تستحل معه الدماء والأعراض والأموال وكل الحرمات، وفى هذه الأجواء المحتقنة تجد (الحالقة) أرضها الخصبة لتغرس بين النفوس (إفساد ذات البين) ؛ ومن ثم تشيع روح التشرذم وسوء الظن والتربص والعنف واسترخاص القتل وسفك الدماء، مما ينذر بشر مستطير ألا وهو تفكيك المجتمع ليكون فى نهاية المطاف أو المأساة لقمة سائغة لشياطين الإنس والجن، ومما لا يستغرب أن المكائد العالمية التى تحاك لتفكيك المجتمعات العربية والإسلامية لم تهدأ يوما ولا خمدت نارها فى أى وقت كما أخبرنا المولى سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

لكن الأخطر هنا أن توجد فى المسلمين (قابلية) واستعداد نفسى لهذا التشرذم والتفرق والتلاشى، وهذا أيضا - ما حذرنا القرآن الكريم منه فقال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾

لذا فإن لأهل الحكمة والبصيرة، وأولى الأحلام والنهى دورا بالغ الأهمية فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تمر بها الأمة لأنهم ينظرون بنور الله تعالى لمآلات الأمور وهم أكثر شعورا واشتماما لرياح الفتن ما ظهر

منها وما بطن، فأهل الحكمة من كل اتجاه يهبون دون تردد إلى رأب الصدع ولم الشمل، ويسعون لتضييق مساحة الخلاف وتقريب وجهات النظر، حتى ولو وصل الخلاف بين المسلمين إلى حد (الاقتتال) كما أمر رب العزة جل جلاله بذلك حيث قال:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾

فلن يصيب المصلحين إذاً يأس أو إحباط من محاولات الإصلاح بين الناس فى أى وقت ولا تحت أى ضغط لأنهم ينطلقون فى سعيهم الطيب من نور قول الحق تبارك وتعالى:

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

وقوله تعالى:

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

فالاستنفار إلى كل محاولة أو مبادرة تحقن الدماء وتوقف نزيف الخصام وترد المجتمع إلى عافيته أمر واجب على كل مسلم حسب طاقته واستطاعته، فنار الفتن والتفرق والتشدد وإعجاب كل ذى رأى برأيه لو شبت أو اشتعلت فلن تبقى ولن تذر، وكم يضحك الشيطان ساخرا من أمة صامت نهار رمضان وأقامت لياليه وأشرقت نفوسها بمعايشة القرآن العظيم، ثم اجتمعت فى ساحات العيد تكبر ربها وتشكره على ما هداها ثم تنصرف من جديد إلى مواطن الزلل والكراهية، وأخيراً: على العقلاء فى مجتمعات المسلمين أن يتخذوا من قاعدة (الإصلاح بين الناس) شرعة ومنهاجاً وليطلقوا دعوة حب من بستان قوله تعالى:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

القرآن منهج إلهى

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ منصور الفقى:

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منهج إلهى يشمل كل مقومات الحياة للإنسان سواء فى العبادات أو المعاملات أو فى العقيدة والله سبحانه وتعالى يقول فى محكم تنزيله:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

(الأنعام: ٣٨)

فالقرآن والسنة النبوية المطهرة دستور ومنهج حياتى للناس إلى أن تقوم الساعة، وقد اصطفى المولى سبحانه وتعالى أمة المسلمين واختارها لتكون أمة وسطا قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة: ١٤٣)

قال ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا عدولا

شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسلي إلى أممها ويكون رسولي محمد ﷺ شهيدا عليكم بإيمانكم به وبما جاء من عندي «جامع البيان ٢ / ٨».

وفي معنى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ قال ابن كثير «لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل».

ونقل البغوي في تفسيره عن الكلبي أنه قال ﴿وَسَطًا﴾ يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين.

والقارئ لكتاب الله عز وجل يجد كثيرا من آياته تحض على التوسط والاعتدال كما في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الفرقان: ٦٧)

أي بين الإسراف والتقتير؛ فالإنفاق يجب أن يكون وسطا بين طرفين، وقوام الشيء ما به يقوم والحياة كلها تقوم على عملية التوسط.

التسمم الغذائي

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة د. يحيى ستيل - دماص - ميت غمر دقهلية - مصر - قال فيها:

التسمم الغذائي هو أحد الثمار المرة للفساد، الفساد الأخلاقي الذي قتل الضمائر، وخرب الذمم، وأطاح بالقيم، وأطلق شهوات الطمع والجشع وجمع الأموال من دماء الفقراء والمحتاجين. والفساد الإداري الذي جعل الرقابة مجرد حبر على ورق، وجعل المصالح الشخصية فوق مصلحة الوطن، وصحة الناس وحياتهم.

التسمم الغذائي له أشكال متعددة، وأسباب متنوعة. ومخاطر كثيرة، وهذا ما نتناوله بشيء من التفصيل في السطور التالية:

البوتيولزم: أخطر أنواع التسمم الغذائي البوتيولزم **Botulism** تسببه بكتيريا «كولستريديوم بوتيولينم» التي تتواجد في التربة والماء في جميع أنحاء العالم، وأحيانا تتواجد في براز الحيوانات، جراثيم هذه البكتيريا تقاوم الحرارة بدرجة كبيرة، وتصمد أمام مائة درجة مئوية لمدة ٣-٥ ساعات على الأقل.

هذه المقاومة للحرارة تقل في الوسط الحامضي أو التركيز المرتفع من الملح. هذه البكتيريا تنمو وتنتج سموما. البكتيريا المسببة للبوتيولزم تتواجد في الأطعمة الغنية بالتوابل، والأطعمة المدخنة، والأطعمة المغلفة مع تفريغ الهواء، والأطعمة القلوية المعلبة، وهي التي تؤكل دون طهي. في الظروف اللاهوائية تتحول جراثيم كولستريديوم بوتيولينم إلى أشكال خضرية تفرز السموم.

يقول الدكتور/ جيو بروكس أستاذ الميكروبيولوجي والمناعة بجامعة كاليفورنيا: البكتيريا التي تسبب البوتيولزم تنتج سمًا قويًا، هناك أنواع متعددة من هذا السم، الأنواع التي ترتبط بصفة شائعة بإصابة الإنسان هي E. B, A، هناك تشابه كبيربين سم البوتيولزم وسم التيتانوس. سم البوتيولزم يتم امتصاصه من الأمعاء ويتحد مع مستقبلات موجودة على الأغشية التي تسبق التماس بين الخلايا العصبية الحركية في الجهاز العصبي الطرفي والأعصاب المخية. في هذا المناطق العصبية تقوم السلسلة الخفيفة من سم البوتيولزم بتكسير البروتينات المستهدفة في الخلايا العصبية، مما يؤدي إلى كبح انطلاق الأستيل كولين «موصل عصبي له أهمية كبيرة» في مناطق التماس «الإلتقاء» بين الخلايا العصبية، مما يؤدي إلى فقدان الانقباض العضلي، والإصابة بالشلل.

تقول الدكتورة/ جانيت بيوتث أستاذ الميكروبيولوجي بكلية طب بايلور: بعد ١٨ إلى ٢٤ ساعة من تناول الطعام المسمم تبدأ أعراض البوتيولزم والتي تتمثل في: اضطرابات الرؤية حيث يحدث عدم تنسيق بين عضلات العين مما يؤدي إلى أذدواج الرؤية، كما يصاب المريض بعدم القدرة على البلع وصعوبة الكلام وتحدث الوفاة من جراء الشلل التنفسي أو توقف القلب. أعراض الجهاز الهضمي لا تكون ظاهرة بصفة منتظمة، ولا توجد حمي، ويظل المريض محتفظا بوعيه إلى وقت قصير قبل الوفاة. معدل الوفيات يكون مرتفعا، والمرضى الذين يبرءون من هذا التسمم لا تتكون من دمائهم أجسام مضادة للسموم.

علاج البوتيولزم: الأمصال المضادة للسموم التي تسبب البوتيولزم تقلل معدل الوفيات من ٥٦٪ إلى أقل من ٥٢٪، هذه الأمصال تقوم بدورها إلى جانب الحفاظ على تهوية رئتي المريض عن طريق التنفس الصناعي إذا اقتضى الأمر ذلك. نحن إذن أمام مرض خطير يتطلب الرقابة الصارمة على الأغذية. ويقظة الضمائر، أفضل بكثير من العلاج.

ooo

أنبــــاء الأزهـــــر

إعداد الأساتذين:
محمود الشبي - وعبدالموجود أمين

بيان للناس من مجمع البحوث الإسلامية

اجتمع مجمع البحوث الإسلامية بجلسته الطارئة المنعقدة بمشيخة الأزهر الشريف الاثنين السادس من رمضان ١٤٣٤هـ، الموافق الخامس عشر من يوليو ٢٠١٣م.

للنظر فيما يلم بالوطن والأمة في هذا الظرف الدقيق الذي تمرُّ به البلاد، ويوضح المجمع أنه بمراجعة بياني فضيلة الإمام الأكبر السابقين، وما يقع من المستجدات في المرحلة الراهنة، ومع الأخذ في الاعتبار الاقتصار على القيم والمبادئ الإسلامية، دون الدخول في السياسة وما قد تدعو إليه من انحيازات تخرج عن الموضوعية والإنصاف، فإنه يرى دعوة كل المصريين من كافة الأطياف الوطنية إلى القيم والمبادئ الإسلامية الآتية وما تستوجبه من مبادئ تخلص فيما يلي:

التأكيد على وثيقة الأزهر التي اجتمعت عليها كلمة الأطياف الوطنية المصرية والسياسية والفكرية والدينية، والتي تتفق مع الدولة التي يريدها الشعب المصري وتقررها الشريعة الإسلامية وهي الدولة الوطنية الديموقراطية الدستورية الحديثة.

أنه وفقًا لقاعدة أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، فإنَّ عوامل تقديرها نسبية، ويدعو المجمع إلى التزامها بكل ما يجب من شفافية واستقامة، وفي خلال فترة انتقالية مؤقتة ومعقولة تنتهي إلى إجراء التعديلات الدستورية المطلوبة، والانتخابات البرلمانية والرئاسية.

يدعو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف إلى ضرورة حماية حياة جميع المواطنين وحرياتهم على السواء، وعدم التعامل فيما يتعلق بالاحتجاز أو القبض أو الحبس الاحتياطي إلا وفق القانون ومن خلال الإجراءات القضائية، ونبذ سياسة الإقصاء فمصر وطن يسع الجميع.

وجوب أن تلتزم كافة وسائل الإعلام بميثاق شرف إعلامي يمنع إثارة الاحتقانات والفتن في البلاد.

لا محل لمساءلة أي شخص ينتمي لأي طيف أو فصيل سياسي عن أفكاره وآرائه طالما التزم بالقنوات الشرعية، ولم يسع إلى تهديد السلام الاجتماعي والمساس بالأمن القومي للبلاد.

لا يجوز بأي حال من الأحوال وتحت أي مبرر، الاعتداء بأي شكل من الأشكال على جنود

الجيش المصري أو الشرطة أو المنشآت العسكرية أو الوطنية أو الممتلكات الخاصة.

يشيد مجمع البحوث الإسلامية التزام القوات المسلحة بعدم الانزلاق إلى السياسة ويبارك حرصها على الاستمرار في ذلك.

يدعو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف إلى سرعة تشكيل لجنة للمصالحة الوطنية، ولمّ الشمل، دون إخلال بحق كل طيف أو فصيل في أن تكون له رؤيته، في إطار الالتزام بمصالح الوطن العُليا.

يجب أن يحرص الجميع على نبذ العنف أو التحريض عليه ووقف كل دعاوى التكفير والتخوين، واحترام الدم المصري حيث لا يجوز المساس به أو الاعتداء عليه بأي صورة ولا لأي ذريعة أو سبب من الأسباب.

وأخيرًا فإن مجمع البحوث الإسلامية لا يفوته في ختام هذا البيان أن يُذكِّر بالدور الوطني والديني الخالص لوجه الله والدين والوطن من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب والذي ينطلق من ثوابت وطنية كان الأزهر الشريف على امتداد تاريخه يقوم بها قبل وجود أي تيارات سياسية أو مذهبية أو حزبية وينظر بقلق شديد إلى تلك الأصوات الشاردة التي تريد أن تشوه دور الأزهر الشريف، وتنال من رسالته في خدمة الدين والوطن.

نسألك اللهم رحمةً تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتردُّ بها الفتن عنَّا.

بيان من الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية
بشأن ما يسمى بـ جبهة علماء الأزهر

لقد تأسست جبهة علماء الأزهر عام ١٩٤٦م كجمعية أهلية، وتم إشهارها لدى وزارة الشئون الاجتماعية، وقد نصّ نظامها الأساسي على أن المقصد العام لهذه الجمعية هو إعزاز الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الأزهر والأزهريين.

وقد ظلت هذه الجبهة تؤدي عملها - كجمعية أهلية - على النحو الصحيح، حتى انحرفت عن الجادة، وخرجت عن أغراضها، وبدلًا من أن تعمل على رفع شأن الأزهر والأزهريين أخذت تنال من الرموز الدينية لهذا المجتمع وكبار علمائه، وغير ذلك من المخالفات، وبناءً على ذلك تمّ حل مجلس إدارة هذه الجمعية وتعيين مجلس مؤقت لها بقرار السيد محافظ القاهرة رقم (٣٨١) لسنة ١٩٩٨م، وقد صدر حكم المحكمة الإدارية العليا بصحة قرار السيد محافظ القاهرة المشار إليه، وهو حكم بات لا يقبل الطعن عليه بأي حال.

ثم تمّ تغيير اسم هذه الجمعية من «جبهة علماء الأزهر» إلى «الجمعية الخيرية للعاملين في هيئات الأزهر» بتاريخ ٨ / ٤ / ١٩٩٨م.

ومن ثم فلا يوجد حاليًا جمعية أهلية باسم «جبهة علماء الأزهر» والذين يدّعون وجود جمعية بهذا الاسم لا يمثلون إلا أنفسهم.

أما الأزهر الشريف - كأكبر مؤسسة دينية إسلامية في العالم - فإن الذي يمثله هو فضيلة

الإمام الأكبر شيخ الأزهر، والهيئات التي يشملها الأزهر الشريف وعلى رأسها هيئة كبار العلماء.

المؤسسات الدينية في مصر تؤكد العمل تحت لواء الأزهر وإمامه الأكبر

في لقاء فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، بقيادات العمل الدعوي والفكري والتربوي الذي حضره كلٌّ من: أ. د/ محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف، وفضيلة المفتي أ. د/ شوقي علام، والدكتور عبدالهادي القصبي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وسماحة السيد محمود الشريف، نقيب الأشراف.

وقد أكد جميع الحاضرين اعتزازهم الكامل بالأزهر الشريف وعملهم تحت لواء إمامه الأكبر الذي يعمل ليل نهار على نشر سماحة الإسلام، والحفاظ على ثوابته، وما فيه مصلحة الوطن وأبنائه بكل تفانٍ وإخلاص.

مؤكدين جميعًا على التعاون الكامل تحت مظلّة الأزهر الشريف وقيادة إمامه الأكبر، كما أكد الجميع دعمهم لبيان الأزهر الشريف الذي دعا إلى مصالحة وطنية تسعُ الجميع، مع ضرورة إعلاء مصلحة الوطن العُليا على أي مصلحة حزبية أو فئوية أو شخصية، والدعوة إلى حقن دماء أبناء الوطن جميعًا، والتأكيد على أن استخدام العنف والتحريض عليه بأيّ صورة من الصور يتنافى مع الإسلام وتعاليمه، وتؤكد جميعًا أنّ الأزهر الشريف هو المرجعية الإسلامية المنوط بها والقائمة فعلًا بكل ما يتّصل بالدعوة والشريعة الإسلامية، وأنّ الإمام الأكبر وجميع علمائه وأبنائه يؤكدون أنهم المسئولون أمام الله وأمام الوطن عن الحفاظ على الإسلام ومبادئه السمحاء وشريعته الغرّاء، والحرص على وسطيّته دون إفراط أو تفريط.

الأزهر الشريف يدعو كل المصريين لإنجاح المصالحة الوطنية التي تشمل الجميع

انطلاقًا من المسئولية الدّينية والثوابت الوطنية للأزهر، وقيامًا بمسئوليته التي ينتظرها منه الشعب المصري؛ تقديرًا لخطورة اللحظة، وأملًا في الخروج بالوطن من هذه الأزمة، يدعم الأزهر الشريف دعمًا كاملًا مبادرة المصالحة الوطنية الشاملة دون إقصاء لأحد، وبما يضمن جمع كلمة المصريين، ولم شملهم حول المصالح العُليا للوطن، وإعلائها على كل ما سواها.

يدعو الأزهر الشريف كلَّ المصريين أن يُساهموا ويُشاركوا جميعًا؛ أحزابًا وقوًى وتيارات سياسية ومجتمعية ومؤسسات، في إنجاح هذه المصالحة الوطنية المرجوّة، والإقبال عليها بروح الصّدق والإخلاص والشفافية والتجرُّد؛ لأجل تحقيق وحدة الشعب وأمنه وسلامته.

لقاء الإمام الأكبر بممثلي حزب النور

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، كلًّا من الأستاذ/ يونس مخيون، والدكتور بسام الزرقا، ممثلا حزب النور، واستمع فضيلته باهتمام إلى رؤاهم فيما يتعلق بالمرحلة الراهنة والمصالحة الوطنية، ودور الأزهر الشريف في المرحلة القادمة.

وأكد فضيلته استعداد الأزهر لبذل كافة الجهود من أجل إنجاح المصالحة، والخروج بالبلاد إلى بر الأمان.

الإمام الأكبر لأوائل الشهادات الأزهرية: ننتظركم روادًا للأزهر في المستقبل

قام فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، بتكريم أوائل طلاب الشهادات الأزهرية، مباركًا للطلاب والطالبات تفوقهم، وناصحًا لهم بالمحافظة على مستوى التفوق الدراسي في دراستهم الجامعية، وأن يبذلوا مجهودًا مضاعفًا في المرحلة القادمة، مضيفًا: «ننتظركم رائدات وروادًا للأزهر في المستقبل».

وفي الإطار ذاته قرر فضيلة الإمام صرف مكافأة للأول والثاني قدرها ٥ آلاف جنيه، وللثاني والثالث ٤ آلاف جنيه، والخامس والسادس ٣ آلاف جنيه.

وفي كلمته أكّد الشيخ / عبد التواب قطب، وكيل الأزهر، أن أوائل الأزهر هم رسل الأزهر التي تدعو إلى الوسطية والاعتدال وإلى سماحة الإسلام، متمنيًا أن يوفقهم الله في قابل أيامهم.

حضر الحفل معالي وزير الأوقاف الدكتور/ محمد مختار جمعة، والشيخ / جعفر عبد الله، رئيس قطاع المعاهد الأزهرية، وذلك بمشاركة لفيف من أولياء أمور الطلاب المتفوقين.

د. الهدهد: ١٧ أغسطس بدء التقديم للمدن الجامعية

تقرر فتح باب التنسيق للمدن الجامعية المرحلة الأولى للعام الجامعي ٢٠١٣ / ٢٠١٤ اعتبارًا من السبت الموافق ١٧ / ٨ / ٢٠١٣ حتى يوم الخميس الموافق ٢٩ / ٨ / ٢٠١٣ ولمدة (١٢ يوما) لاستلام الاستمارات من الطلاب.

صرح بذلك الدكتور إبراهيم الهدهد نائب رئيس جامعة الأزهر لشئون التعليم والطلاب، وأوضح الهدهد أن الطلاب القدامى المقيدين بكليات الجامعة بالقاهرة أو الأقاليم بحري بطنطا وقبلي بأسيوط بالفرق (الأولى بعد الإعدادي أو التمهيدي والثانية والثالثة والرابعة) إضافة للفرق النهائية بكالوريوس الطب، يمكنهم التقدم خلال تلك المدة بعد اعتماد استمارة التقدم من الكليات المختلفة.

الدور الثاني لفرق النقل بطب الأزهر

أعلن الدكتور عصام عبد المحسن عميد كلية طب بنين الأزهر بالقاهرة، أن امتحانات الدور الثاني لفرق النقل وهي (الفرقة الأولى - الثانية - الثالثة - الرابعة) بقطاع كليات الطب البشري بالقاهرة ودمياط وأسيوط تبدأ ١٨ أغسطس ٢٠١٣م.

امتحانات التصفية لمعاهد مقيمي الشعائر

أعلن الدكتور بكر زكي عوض عميد كلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بالقاهرة، أن امتحانات التصفية لطلاب معهد مقيمي الشعائر تبدأ في ٧ سبتمبر ٢٠١٣م.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين أحمد رضوان - يحيى سلطان

تحذير من انهيار جزء من المسجد الأقصى

حذرت الهيئة الإسلامية المسيحية لنصرة القدس والمقدسات من العمق الخطير للحفريات التهويدية أسفل المسجد الأقصى المبارك، مؤكدة أن الفراغات الأرضية خطر حقيقي قد يؤدى لتداعي جزء منه..

وأشارت المؤسسة في بيان لها الأحد ٢١ يونيو ٢٠١٣، إلى وصول الحفريات إلى عمق ٤ أمتار في أقصى الطرف الجنوبي الغربي، محذرة من خطورة ذلك ومطالبة المجتمع الدولي التحرك الفوري والسريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المسجد الأقصى..

وأكدت أن الاعترافات الخطيرة من حكومة الاحتلال الصهيوني بشكل علني وصريح عن هذه الحفريات تأتي في سياق التعنت الصهيوني الرافض لكافة القرارات والمواثيق الدولية من جهة..

وقالت «إن هذه الاعترافات تأتي استمراراً للخطط والمشاريع التهويدية ضد المسجد الأقصى المبارك حتى تحقيق مزاعمهم بإقامة الهيكل على أنقاض المسجد..».

الأسد يمنع وصول المساعدات الإنسانية لحمص

أعلنت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بيان لها أن السلطات السورية تمنعها من الوصول إلى مدينة حمص القديمة حيث يعاني المدنيون المحاصرون هناك من نقص حاد في المواد الغذائية والإمدادات الطبية..

وقال ماغنيه بارث رئيس وفد الصليب الأحمر إلى سورية في البيان: «نحاول منذ قرابة ٢٠ يوما نقل إمدادات طبية ومساعدات أخرى إلى مدينة حمص القديمة»، حسبما نقلت عنه وكالة «رويترز.».

وأضاف بارث أنه «على الرغم من المفاوضات المطولة مع الطرفين وثلاث رحلات ذهابا وإيابا بين دمشق وحمص لم نتلق بعد إذنا من السلطات السورية بالدخول». وحذر الصليب الأحمر من أن استمرار هذا الوضع في حمص سيؤدى إلى عواقب «مأسوية.».

وحسب معطيات الوكالات الدولية الخاصة بالمساعدة الإنسانية، فإن نحو ألفي شخص محاصرون في مدينة حمص، حيث تقوم القوات الحكومية السورية بعمليات عسكرية ضد مقاتلي المعارضة.

مظاهرة في لندن ضد المعادين للإسلام

نظمت «منظمة اتحدوا ضد الفاشية» مظاهرة في حديقة هايد بارك بلندن ضد ازدياد الحملات المعادية للمسلمين في بريطانيا وردا على دعوة «رابطة الدفاع الإنجليزية» المعادية للإسلام لتنظيم مسيرة إلى حي «وولويتش» في لندن لوضع أكاليل زهور في الموقع الذى قتل فيه رجلان مسلمان الجندى البريطاني لي ريغبي.

وأعلنت «رابطة الدفاع الإنجليزية» -التي توصف بالعنصرية- إلغاء مسيرتها قبل أن تعتقل الشرطة البريطانية زعيمها تومي روبسون ظهر اليوم بتهمة عرقلة عمل الشرطة بعد أن حاول الوصول إلى مكان مقتل الجندي..

واحتشد عدد من المناهضين للعنصرية في المكان الذى قتل فيه الجندي، وبينما شارك عدد آخر جنبا إلى جنب مع الشباب المسلم في حماية المساجد من استهدافها من قبل عناصر اليمين المتطرف، شددت الشرطة إجراءاتها الأمنية بعد التصعيد الذى قامت به جماعات اليمين المتطرف في الأيام الأخيرة الماضية..

وألغيت مسيرة لليمين المتطرف بعنوان «مسيرة الشرف»، وكان من المقرر أن يضع ممثلو عدة منظمات عنصرية أوروبية أكاليل الزهور في المكان الذى قتل فيه الجندي، في حين منعت وزيرة الداخلية البريطانية تيريسا ماى أميركيين معاديين للإسلام من دخول البلاد للمشاركة في مسيرة الجماعات اليمينية المتطرفة بلندن..

ضجة في الهند بسبب مقارنة سياسي هندوسي ضحايا العنف المسلمين بالكلاب

أثار السياسي الهندوسي المتشدد ناريندرا مودي، الذى يعد أحد مرشحي المعارضة الأساسيين في انتخابات عام ٢٠١٤، غضبا وضجة كبيرة عبر تصريحات قارن فيها بين المسلمين الذين سقطوا ضحايا أعمال عنف واشتباكات مع الهندوس بالكلاب التي تدهسها سيارة.

وكان مودى يتحدث لأول مرة بشكل مفتوح في مقابلة مع وكالة رويترز عن أحداث

العنف التي استهدفت المسلمين في ولاية غوجارات الغربية عام ٢٠٠٢ وقتل فيها هندوس غاضبون أكثر من ١٠٠٠ من المسلمين.

وقال زعيم حزب بهاراتيا جاناتا المثير للجدل ورئيس الوزراء في ولاية غوجارات الغربية عند وقوع أحداث العنف في المقابلة إنه شعر بالحزن لأحداث العنف كما يشعر المرء عندما تدهس سيارة كلبا صغيرا.

ونقلت صحف هندية تصريحه هذا عنوانا رئيسا في صفحاتها الأولى كما تم تناقله على مواقع التواصل الاجتماعي..

وقالت صحيفة «تايمز أوف إنديا» إن القومي الهندي مودي أثار عاصفة بإشارته إلى الجرو..

وحاول مودي مواجهة الانتقادات الموجهة إليه بوضع تغريدة على موقع تويتر تقول «في ثقافتنا كل أشكال الحياة (المخلوقات) (ومنها الكلاب) تقدر وتعبد.».

بيد أن تصريحاته تلك لم تهدأ منتقديه.

في حال فوزه في الانتخابات
حزب ألماني معارض يعد بإجراءات تجاه المسلمين

يبدو أن وعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المعارض بالقيام بخطوات حيال مسلمي البلاد، سيشكل في حال فوزه بالانتخابات المقبلة بداية جديدة لمسلمي ألمانيا الذين يعانون من الأحكام المسبقة عليهم وعدم معرفة الشعب الألماني بالدين الإسلامي.

ووعد رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المعارض زاغمار غابريال بالتواصل مع مسلمي البلاد سعيا لتأسيس آلية حكومية جديدة للتواصل معهم والتعاطي مع قضاياهم الرئيسية في حال فوزه بالانتخابات البرلمانية القادمة المقررة في ٢٢ سبتمبر / أيلول المقبل بدلا من مؤتمر الإسلام الحكومي الحالي.

واعتبر غابريال خلال زيارته لأحد مساجد العاصمة الألمانية برلين -أن مؤتمر الإسلام الحكومي الذي أسسته حكومة المستشارة الحالية أنجيلا ميركل عام ٢٠٠٦ بهدف تقنين وضع الإسلام ودمج الأقلية المسلمة في المجتمع الألماني- «قد تحول لوسيلة لنشر المخاوف المرضية من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، وتعزيز الأحكام النمطية السلبية تجاه المسلمين، بعد تحوله لمؤتمر أمني يركز على مكافحة الإرهاب الإسلامي».

وخلال زيارته لمسجد بوسني في برلين، دشن السياسي الألماني برنامجا أعده المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا لإقامة حوارات عامة مع سياسيي البلاد.

وأوضح رئيس المجلس أيمن مزايك، أن البرنامج الذي سيحمل اسم «مسلمو ألمانيا يواجهون سياسييها»، سيقام بالتبادل بين المراكز الإسلامية والمساجد في برلين، بهدف تعزيز الحوار الثقافي والديني من خلال فتح قناة مباشرة للحوار بين أفراد المسلمين

والسياسيين الألمان.

في السياق ذاته بين غابريال أن حزبه شكل لجنة خاصة للتعاون مع الأقلية المسلمة، معتقدا أن معلومات مسلمي البلاد عن المسيحية تفوق معلومات عامة الألمان عن الإسلام، وأن قلة من المواطنين الألمان فقط لديها معرفة بالقواسم المشاركة بين الإسلام والمسيحية واليهودية..

دراسة تؤكد فشل حملات التنصير بالعالم العربي

كشفت دراسة صدرت عن مؤسسة «بيو» الأمريكية لأبحاث الأديان والحريات العامة، عن فشل حملات التنصير التي تستهدف عددا من الدول العربية من بينها المغرب منذ عقود من الزمن، رغم نجاحها في دول إفريقية جنوب الصحراء، إذ كشفت ارتفاعا في عدد المسيحيين الكاثوليك بإفريقيا الذين يشكلون حاليا ١٦ في المائة من عدد معتنقيها عبر العالم بعد أن كانت نسبتهم لا تتجاوز ١ في المائة سنة ١٩١٠، بينما ظلت النسبة على حالها في العالم العربي رغم ارتفاع التعداد السكاني بعد مرور مائة سنة.

ومن جهة أخرى، رغم تنامي مخاوف الغرب من الإسلام، وتوجيه أصابع الاتهام إلى المسلمين عند كل حادث «إرهابي» أو فعل «تعصبي»، ما تزال التقارير الصادرة عن مراكز أبحاث غربية ترسم صورة بارزة عن توسع الإسلام جغرافيا وعدديا مقابل تراجع في عدد معتنقي الديانات الأخرى.

وفي هذا الصدد، كشفت الدراسة بعنوان «السكان الكاثوليك في العالم بعد مرور قرن»، تراجع عدد معتنقي الكاثوليكية في أوروبا الذين أصبحوا يشكلون ٢٤ في المائة من معتنقي الديانة بعد أن كانت نسبتهم حوالي ٦٥ في المائة قبل قرن.

ولإبراز التراجع، أكدت الدراسة، أن ارتفاع عدد سكان العالم التي انتقل عددها من ١,٨ مليار سنة ١٩١٠ إلى ٦ مليارات و٩٠٠ مليون سنة ٢٠١٠، لا يوازيه ارتفاع في عدد معتنقي المسيحية خاصة المذهب الكاثوليكي، ففي أوروبا التي تعرف أكبر وجود مسيحي في العالم، يتراجع بها عدد معتنقي المسيحية لصالح الإسلام- بالرغم من جهودها المستمرة لتقويض انتشار الإسلام، حيث انخفض الكاثوليك بنسبة ٩ في المائة بعد أن تراجع عددهم من ٤٤ في المائة إلى ٣٥ في المائة حاليا، وبشكل عام انخفضت نسبة المسيحيين من ٩٥ في المائة قبل مائة عام إلى نسبة ٧٦ في المائة السنة ما قبل الماضية. ومقابل هذا التراجع في ديارها، فإن عدد معتنقي المسيحية تراجع أيضا في الدول العربية، بعد أن أصبح يشكل ٢ في المائة فقط من إجمالي عدد السكان علما بأنه كان يشكل ٣ في المائة.

clear to see, they said: "This is a manifest magic. And they denied them (those Ayāt) wrongfully and arrogantly, though their own selves were convinced thereof [i.e. those (Ayāt) are from Allāh, and Mūsā (Moses) is the Messenger of Allāh in truth, but they disliked to obey Mūsā (Moses), and hated to believe in his Message of Monotheism]. So see what was the end of the Mufsidūn (disbelievers, disobedient to Allāh, evil-doers and liars.)}

[Al-Naml (The Ants): 12-14]

{And indeed, warnings came to the people of Fir'aun (Pharaoh) [through Mūsā (Moses) and Hārūn (Aaron)]. They denied all Our Signs, so We seized them with a Seizure of the All-Mighty, All-Capable (Omnipotent).}

[Al-Qamar (The Moon): 12-14]

{Then [Mūsā (Moses)] showed him the great sign (miracles). But [Fir'aun (Pharaoh)] denied and disobeyed.}

[Al-Nazi`at (Those who drag forth): 20-21]

The Qur'an attributed disbelief to Pharaoh of the Exodus in amny verses, some of which were mentioned. The Qur'an gathered him with those who disbelieved in monotheism, prophecy, and miracles.

{Has the story reached you of the hosts, of Fir'aun (Pharaoh) and Thamūd? Nay! The disbelievers (persisted) in denying (Prophet Muhammad, peace be upon him and his Message of Islāmic Monotheism).}

[Al-Burij (Mansions of the Stars): 17-20]

In this way, a basic element on which the author relied on in his claim that Ramsis II is Pharaoh of the Exodus ruled out.

Second: The author's stance towards the miracle of the separation of the sea:

Miracle in the Islamic expression is not a supernatural phenomenon exceeding reasonability, but it is something that contradicts a matter, to which the people are accustomed. It is combined with challenge. It is revealed by Allah at the hands of the prophets and Messengers to prove that they are truthful regarding what they are

calling for. According to Imam Sheikh Muhammad `Abdo [1266-1321 A.H. / 1849 – 1905 A.C.]: "Miracle is not unreasonable matter, but it is a contradiction to what is normal and not impossible. If it is said that this should follow a normal law, we say that the One Who sets this law is the One Who created all the creatures. It is not impossible that he sets special laws for supernatural matters. However, the matter is that we do not know these laws, but we see its effect on those whom Allah singled out."[12]

If this is the definition of miracle, and its status of with regard to reason and reasonability, and usual and unusual laws, then the stance of the author of this book is regarded as a strange matter.

He confessed the existence of miracles when Ramsis II fought alone many enemies in Qadish Battle, and when he called his Lord, he was turned into a flying giant, to the extent that his enemies said about him: "The one that is among us is not a human being." The author added: "It is a miracle more than a legend. It is a miracle."[13]

The author who confesses the miracle that accompanied Ramsis II neglects the miracles that Allah caused to happen with Musa (peace be upon him). They are ten miracles: [The hand, the stick, the separation of the sea, the flood, the locust, the lice, the blood, the frogs, the years of drought, and the effacement].[14]

The author neglected any reference to these miracles, and he misinterpreted the miracle of the drowning of Pharaoh, as the mummy of Ramsis II was discovered and there is no effect of drowning. He was ruling for many years after the date of the exodus. He interpreted the miracle of drowning in way irrelevant to the elements and conditions of interpretations. He regarded the miracle mentioned in the Noble Qur'an as normal matters that have nothing to do with miracle.

---

[12] The complete works of Imam Muhammad `Abdo, part 3, p. 416, studied and verified by Dr. Muhammad `Imarah, Dar Al-Shoruq edition, Cairo, 1993.

[13] Pharaoh of the Exodus, pp: 177-179.

[14] See Al-Qurtaby, Al-Jami` li Ahkam Al-Qur'an, part 13, pp. 162-163, Dar Al-Kutub.

Also, they depended on the opinion that Ramsis II ruled for sixty seven years, as he succeeded to the throne in 1290 B.C. and that his rule extended after the date of drowning for long years. Also, they depended on the opinion that Ramsis II believed in Allah, Whom the ancient Egyptians symbolized as Amon and he supplicated in secret to his Lord while fighting the Hittites in the Battle of Qadesh saying: "I am supplicating to you, Amon, while I am amidst the enemies. I am alone without any supporter, and my soldiers left me. When I supplicated, I found out that Amon is more beneficial that millions of soldiers. I found that Allah is closer to me in the battle than my soldiers, and He granted me victory."

Ramsis's god replied saying: "Move forward, Amon's beloved, Ramsis." Then, Ramsis turned amidst the soldiers of the enemies to a flying giant to the extent that the enemies said: "The one who is with us is not a human being!"

Thus, it is not possible that this believing Pharaoh is Musa's Pharaoh, whom the Holy Books handled his disbelief in detail. Also, the mummy of Ramsis II, which exists and was discovered by the archeologists, has not traces of the drowning stated in the Holy Books. Thus, they ruled out the idea that Ramsis II is Pharaoh of Exodus.

However, the author of this books adopts the point of view of the historian Usibus Al-Qaisary [275 – 339 A.D.] which states that he is Ramsis II [1313-1224 B.C.] This book adopts a line which ranges from illogic interpretation and negligence of the facts stated in the Holy Books especially the Noble Qur'an with its entirely clear verses.

This is issue, which I will display in certain point:

First: Pharaoh of the Exodus between disbelief and belief:

As Ramsis II believed in Allah, and as the author sided with the opinion stating that he is Pharaoh of the Exodus, the author claimed that the Nobel Qur'an did not state that Pharaoh was a disbeliever. He said: "The Qur'anic verses did not describe Pharaoh as

a disbeliever, but they described him as an oppressor or a tyrant...etc, but not a disbeliever."[10]

In response to this grave claim, we should remind the reader with the meaning of disbelief as stated in the Islamic sources, which is: "Denying monotheism, Shari`ah (Islamic law), or prophecy."[11]

If we presented the creed of Pharaoh of the Exodus with reference to disbelief, we will find that, according to the entirely clear verses, that all of the preconditions of disbelief apply to him. He did not only disbelieve in Allah, the One, but also he claimed that he is the only god.

{'Fir'aun (Pharaoh) said: "O chiefs! I know not that you have an ilâh (a god) other than me.}

[Al-Qasas (The Stories): 38]

{'Then he gathered (his people) and cried aloud, 'Saying: "I am your lord, most high."}

[Al-Nazi`at (Those who drag forth): 23-24]

Also, he gave Musa the choice either to regard him as a god or to throw him in jail.

{[Fir'aun (Pharaoh)] said: "If you choose an ilâh (god) other than me, I will certainly put you among the prisoners."}

[Al-Shu`ara' (The Poets): 29]

If disbelief is attributed to those who deny the miracles granted by Allah to His Prophets, Pharaoh and his followers denied and belied the ten signs and miracles of Musa.

{[These are] among the nine signs (you will take) to Fir'aun (Pharaoh) and his people. Verily, they are a people who are Fâsiqûn (rebellious, disobedient to Allâh). But when Our Ayât (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) came to them,

---

[10] Pharaoh of the Exodus, p. 142.

[11] Al-Raghib Al-Asfahany, Al-Mufradat fi Gharib Al-Qur'an, Dar Al-Tahrir edition, Cairo, 1991 A.D.

the movement of innovation with the whole fixed concepts of tradition after the reformation of the flexible concepts. This is to contribute in solving the contemporary life problems.

The pioneer of "tradition and Innovation" frankly refuses this understanding, and it fears that something flows out to the reader's mind. He is keen that change occurs for the sake of the real state of affairs not for the sake of the tradition not for the sake of stable real state of affairs, as it is – as he says: "The first and last source of every thought."[4]

It is better to quote texts stress this understanding, which we got from the relation between the tradition and the real state of affairs according to the pioneer of this trend:

"Tradition has no existence independent from a live real state of affairs that changes and expresses the soul of the age and forming the generation and the phase of historical progress."[5]

"Tradition is not a set of fixed theoretical creeds and permanent facts that do not change. However, it is a set of confirmations of these theories in a certain circumstance and a definite historical stance for a special group that sets its view and forms its conceptions for the world."[6]

-"Tradition has not value in itself except according to a scientific theory in explaining the real state of affairs and endeavoring to improve it."[7]

---

[4] Tradition and Innovation, by Hassan Hanafy: 14.

[5] M.N: 13

[6] M.N

[7] Tradition and Innovation, by Hassan Hanafy: 14.

*Pharaoh of Musa: Between Sacredness and Archeology...!

[Critical study of the book "Pharaoh of the Exodus"]

By: Dr. Muhammad 'Imarah
Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine

- The title of this book is "Pharaoh of the Exodus.. The Thorny file and Archeology"[8]
- It author is Dr. Jalal Nu`man.

It handles from its beginning to its end the reality of Pharaoh, who witnessed the events of the coming out the Children of Israel from Egypt at the time of Prophet Musa (may the peace of Allah be upon him).

Historians, archeologists, and Egyptologists differed regarding Pharaoh. The majority of them said: "He is Mernptah, the son of Ramsis, who ruled from 1223-1211 B.C.[9] The historian Lusibus Al-Qaisay [275 – 339 A.D.] said that he is Ramsis II [1313-1224 B.C.]

The historians who ruled out that Ramsis II was Pharaoh of the Exodus depended on the opinion that the history of Pharaoh was written in detail on the monuments and the walls that remained and rediscovered. This written history includes no indication about the events stated by the Holy Books about Musa's Mission to Pharaoh, the punishments inflicted upon Pharaoh, the drowning of Pharaoh.

---

*An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is published in Arabic in the same copy.

[8] The publisher: Dar Al-Ma`aref, Iqra' series, issue 605.

[9] The Egyptian Encyclopedia, volume 1, part 1 – supervised by Dr. Ahmad Fakhry and Dr. Muhammad Jamal Mihrez, the edition of the Ministry of Culture and Information – Cairo.

The songs and stories of Abu Zaid Al-Helaly stand side by side with religion behind the consciousness of the Muslim audience, their behaviors and trends. Every one of them is a branch of the culture of the nation and an element forming the structure of this culture. The point is that this one is a religious art and the other is folklore.

This reconciliation aims at destroying intentionally the separating barriers in the souls of the audience between the sacred and the non-sacred, even if the non-sacred attains the interest of the people during night and day. Also, it is strange that the pioneer of "Tradition and Innovation", although he does not cease to claim his right to speak about and defend the audience, he pretends to have forgotten that such the intellect, feeling, conscience, and psychological stock of this audience is designed to refuse this mixture. Also, they do not know religious art in the meaning depicted by the pioneer of "Tradition and Innovation". Rather, they know that religion is sacred and realize the difference overstepped by the pioneer of tradition and innovation between religion as divine facts and the folk stories, we do not know whether the source is the real state of affairs or legends that have nothing to do with the real state of affairs.

It is strange and not understood that "Tradition and Innovation" stresses the importance of folklores with regard to the nation and its danger, which matches the danger if religion in its awareness and culture, it keeps silence with regard to the folklores. Also, it does not regard it responsible in any way for the declining real state of affairs of the audience of this nation. However, the whole effect is of the religious side of the tradition. Also, it regards it responsible for the ignorance, poverty, and retardation that afflicted our nation in the contemporary time.

The match between religion – or the Noble Quran – and the folklores in this regard is not based on the scientific analysis, in which the results are concluded from their introductions, in the way that it is an attempt to dislocate the sacredness of religion in the souls of the audience . Thus, it becomes a historical given information that can be wholly formed. It is not a divine given information that includes the fixed facts and the changeable and renewable things.

The tradition and the real state of affairs according to the school of "Tradition and Innovation".

Our tradition in this new concept does not drive its value from its source which is above the real state of affairs. However, it derives its value from narrating and reflecting a certain real state of affairs. Rather, it regards the real state of affairs a part of the essence of this tradition and not a subject opposite to the tradition which comes along and affects it. The definite result of this view is the limitation of tradition in a historical period, which it expresses and deals with.

If the real state of affairs oversteps it, its axles should be changed and reformed according to the new modes of social change, even if the mater leads to the rise of new traditional axles that contradict with the old axles if tradition. As long as the most special description of tradition is limited to measure the real state of affairs, thus the description of the steadiness of the tradition should be denied, as this is necessary for changing and transferring the real state of affairs.

We understand from this analysis that the value of tradition in connection with the real state of affairs is represented in the extent of the effect of the first in the second, i.e., the effect of tradition on life and linking it through

innovation is the objective and it is a contribution to improve the real state of affairs, and to solve its problems, to eliminate its obstacles, and to open its locks which prevents any attempt to improve it."[1]

Tradition in this school is not an objective that our contemporary life moves within but it is a means subject to re-explanation or re-building for the sake of improving the real state of affairs and solving its problems.

It is normal that traditions gets rid of any personal value or fixed attributes not at the level of the origins or the branches. The only value that remains for the tradition within the framework of this theory is its ability to present "scientific theory in explaining the real state of circumstances and attempting to improve it." If tradition is a means and the innovation is an objective, then it is better in that this project takes a title: "Tradition and Innovation", as "It tries ro establish the social change normally and in a historical respect that starts with the basis and the condition before the one who establishes and the conditioned thing."[2]

Tradition according to the school of "Tradition and Innovation":

Tradition, from the point of view of this trend, is not the material level represented in the heaps of the printed and handwritten books, which occupy a huge space on the shelves of the public and private libraries, porticos, mosques…etc.

It is not also theoretical facts existing by way of independence or advanced facts that aim at changing the real state of affairs. If the real state of affairs represents a danger for it, then we should defend it against the real state of affairs.

[1] Tradition and Innovation, by Hassan Hanafy: 11.

[2] M.N: 12

Such conception of the tradition is based on a schizophrenic view refused by the pioneers of this project. Therefore, they were keen to set aside these two levels of the concept of tradition. Tradition is not just books or manuscripts. Also, it is not merely absolute dependent facts, which we receive from a source which appears to be above the level of our state of affairs. Rather, tradition is "The thing that expresses the first real state of affairs, which is part of its components."

Tradition in this meaning is "The psychological stock of the audience". The term of "audience" here does not refer to what comes to one's mind of the meanings of this term such as the general public or the riffraff versus the scholars and specialized people. However, this is used to refer to the people occupying a certain country, as they are the real representatives of tradition or the real holder of the effects of the tradition.

From this usage, the concept of tradition extends to the extent that harmonized with the concept of the national culture. The peoples maintain "their folklore in the way they maintain their religious heritage. They people repeat what the singers say and delight at listening to the Qur'an. The national conscience and popular temperament are formed in every civilization, as appears with regard to the arts of singing, music, drawing, sculpture, and architecture, from the combination of these two trends: the religious and the popular. This is according to the history of arts in the West."[3]

The reader's eye is not mistaken in this text reconciling intentionally between religion and the folklore in forming the psychology of the audience.

[3] Religion and national culture, Hasan Hanafy: 30.

breaking the fast comes after fasting the month of Ramadan, and the feast of sacrifice comes after Hajj season. Also, it comes after the day of `Arafah on which the Muslims from all over the world gather in one place and at one time.

The word Eid (feast) is not mentioned in the Qur'an except once in the story of `Isa (may the peace of Allah be upon him) with Al-Hawariyyun when they asked him to cause a table to descend from the sky. At the end of the conversation, `Isa addressed his Lord saying:

{'Isâ (Jesus), son of Maryam (Mary), said: "O Allâh, our Lord! Send us from the heaven a table spread (with food) that there may be for us, for the first and the last of us, a festival and a sign from You.}

We, the Muslims, have two Islamic feasts, revealed to us by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

It was narrated on the authority of Anas ibn Malek (may Allah be pleased with him) said: "When the Messenger of Allah went to Al-Madinah, they had two feasts in which they play and enjoy their lives in the pre-Islamic era. He said: ' Allah (Glory be to Him) replaced these two feasts with better feats: the feast of breaking the fast and the feast of sacrifice."

This Hadith indicates that he did not tell the Muslims about the feasts except when he went to Al-Madinah, where he had a nation which observes fast and performs Hajj.

The fast ends with the feast of breaking the fast and the feast of sacrifice comes after the Day of `Arafah. As we already mention the people of Al-Madinah had two feasts in which they rejoice and enjoy their lives before the coming of Islam. It was normal that those who embraced Islam remained celebrating their feasts that are linked to nature such as Al-Nayruz and Al-Mahrajan.

Thus, the Messenger of Allah was keen to cancel the old feasts in his new society and did not leave his society without feasts. However, he replaced these two feasts with two feasts which are closely linked with the Muslim's spiritual life and obligations, by which he draws himself closer to Allah.

The Legislator commanded the people to pay charity of breaking the fast, so that all the people rejoice on this feast, and to reflect the meaning of social solidarity. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Keep them away from the shame of begging." He wanted to let a category of Muslims, who are deprived along the year, feel honorable and to feel the joy of the feast.

Tradition and Innovation:

-3-

The Egyptian school with regard to innovating the tradition.

By : The Grand Imam Prof – Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar sheikh.

The Egyptian school lies in between the Syrian and the Moroccan schools. I mean the school which called itself "Tradition and Innovation" and it had a special title. It prefers this title and does not prefer naming its project "Innovating the Tradition". It prefers that its project has a new title and name which has an intended significance: "Tradition and Innovation".

The reader does not deny the existence of a substantial difference since the beginning between these two names. Innovating the heritage means dealing with the old heritage as a subjective fact, which is renewable along with maintaining the fixed origins. As this is the case with all innovation processes, meaning differentiating between what is fixed and what is changeable with regard to heritage, we keep the first and advance quickly in the light of its steadiness and survival to innovating the second. We attain through both of them improvement movement or what is called "originality and contemporaneity".

However, innovation in this meaning does not attain the intended objectives of the school of "Tradition and Heritage", as tradition in this school is the starting point. However, innovation is the re-explaining tradition according to the requirements of the age and its needs. Tradition is the way and

The fasting Muslim's joy of the feast...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The feast is a day of public joy, as it is not limited to a certain individual, home, country, or region. Rather, it is the joy of all of the Muslims all over the world. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) expressed the joy of the feast saying: "The fasting person has two joys: a joy at the time of breaking fast and a joy at the time of meeting his Lord."

Joy springs from the heart when a desired matter takes place or an objective is attained. This objective may be noble or not. Islam calls the Muslims to rejoice with good matters and deeds. Thus, it prevented them from rejoicing at the transitory joys of life, dominance and tyranny unjustly, or false conceitedness due to their money or influence. He called them to rejoice at Allah's Bounties, Good Pleasure, strife, and martyrdom for the sake of Allah.

They should rejoice at being granted success in performing one of the acts of worship, as the good pious person is the happy one.

The joy felt at the day of feast is like that of the worker who performed his work sincerely and turned to his Lord to present to His the result and outcome of this work. It is the joy of the Mujahid (one who exerts himself for the sake of Allah) who subdued his desires, prevented himself from food and drink, adorned his days with fasting and offering optional night Prayer, adorned his night and day with reciting the Holy Qur'an, saying the remembrance of Allah, and contemplation. Also, he rushed upon the acts that draw him closer to Allah and His Reward.

Every joy has some aspects, and the joy of our feast is represented in the believing crowds, go to the mosques at sunrise and at evening after sha'a prayer to perform traweeh prayer and to thank and praise their Lord, the Creator, saying this wonderful Islamic screaming , said by millions of monotheistic people: " Allah is the Greatest, Allah is the Greatest, Allah is the Greatest."

Also, out of the aspects of the feast is paying charity by those who can afford it to the poor and the needy, and the congratulations exchanged by the Muslims on this blessed and happy day. The Muslims have the right to rejoice at this bounty, or goodness attained in their religion in the worldly life. They rejoice in the way the pious people do, and at the same time they do not deviate from the right path and the acceptable way of rejoicing.

They remember their Lord, Who perfected His Bounties and provided them with many delights. Also, He granted them many means of delight such as rivers, trees, birds, flowers, wonderful gardens full of beauty and delight, and produced in the land every kind of lovely growth (plants and fruits).

People everywhere and at every time search hard for happiness, and they differ in imagining it. However, the slaves of Allah find happiness in knowing one's duties towards his Lord in the way explained by the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him). When one fulfills his duties towards his Lord, he fulfills his duties towards himself, his country, and people. In this way, he feels that he is the happiest person in the world.

In this way, Allah caused the feasts to come after performing the obligations and acts of worship, as the feast of breaking the fast comes after performing the obligation of fasting, and the feast of sacrifice comes after performing the obligation of Hajj.

In this way, a person is entitled to be happy in the feast after performing the obligations of fasting and Hajj.

Allah (Glory be to Him) permitted the delights of food and drink on this day, so that the Muslims do not forget this good meaning of feast, which is praising Allah for His Bounties, and not to bring about hardships for themselves and the other poor people by exaggerating in enjoying food and clothes in a way that exceeds undesirability to prohibition. Thanking Allah necessitates keeping away from the prohibited things.

This is an advice for the people who forget the objective of feasts in Islam and indulge in the prohibited things, and allow for themselves what Allah prevented, including prohibited food and drink. Thus, they turn Allah's bounty to an evil matter, and they subject themselves to Allah's Wrath and punishment. I hope that all the Muslims on the day of feast understand this Divine Command in spite of their various social and intellectual levels. Thus, they should be keen to enjoy the feast without indulging in any saying, action, or behavior that spoils the joy and awe of the feast.

This warning may remind every person who feels or hears. People may indulge in prohibited matters in this day, imitating the Western communities, whose people indulge in prohibited matters. This imitation does not benefit the Muslim, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) called him to maintain his Islamic character and abides by the Islamic behavior, to which the Messenger of Allah called the people to abide by in his saying: "Do not be a yes-man; if the people do well, you do well, and if the people did badly, you do badly. However, if the people do well, you should do well, and if they do badly, you should avoid their misdeeds.

This prophetic advice calls us to realize the meaning of feast in Islam.

In the other nations, the non-Muslims were accustomed to regard the influential days in their history as feasts, as these days may refer to events that occurred on that day, as victory, unity, or any other worldly matter or political or historical events. Also, this day may commemorate the heroism of one of its contemporary figures.

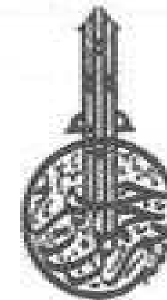
However, the feast in Islam is completely different from the feast in the other nations, as the legislation of feast in Islam after the religious seasons. The feast of

بوابة قصر دولما باهتشة، إسطنبول. 1860-1890



GATE OF DOLMABAHCE PALACE. ISTANBUL. TURKEY. 1860-1890

AL-AZHAR MAGAZINE
Shawwal, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
August, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني أ.د. صوفي أبو طالب

الأزهر

الافتتاحية

مفهوم التنوير الغربي

أ.د. محمد عمارة

الله - الكون - الإنسان - والنبوة

للعلامة محمد فتح الله كولن

الأخلاق العالمية

أ.د. طه عبد الرحمن

التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

أ.د. موريس بوكاي

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية | ذو القعدة ١٤٣٤ هـ سبتمبر/أكتوبر ٢٠١٣ م الجزء "١١" السنة "٨٦"

ذو القعدة



أ.د. أحمد الطيب



الشيخ محمد أبو زهرة



أ.د. محمد عبدالله دراز

الأزهر

في عدد ذي الحجة

الجزء ٢

هدية ذي الحجة:

بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني

أ.د. صوفي أبو طالب

الافتتاحية

ذهاب الشيخ إلى باريس

أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن

الإمام محمد عبده

قصص الأنبياء

الشيخ عبد الوهاب النجار

تأملات في خطبة الوداع

أ.د. محمد فتحي فرج

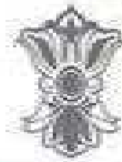


السعر جنيهان



www.Alazharmag.com

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثاني.



﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



مكتبة الأزهر الشريف

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة: عادل رفاعي خفاجة
مدير التحرير: أحمد السيد تقي الدين
سكرتير التحرير: محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٢٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

مفهوم التنوير الغربي



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

التنوير - كمصطلح شائع فى الحياة الفكرية - هو مصطلح أوروبى النشأة والمضمون والإيحاءات.. بل إنه عنوان على نسق فكرى ساد فى مرحلة تاريخية من مراحل الفكر الأوروبى الحديث.. حتى ليقال كثيرًا - فى تقسيم مراحل هذا الفكر: «عصر التنوير».. وهذا المفكر من «عصر التنوير».. وهذا الفكر من أفكار «عصر التنوير» أو ضد أفكار ذلك العصر.

وفى تعريف مجمع اللغة العربية للمصطلح - «تنوير» **Enlightenment** - يقول عنه: «إنه حركة فلسفية، فى القرن الثامن عشر، تعتد بالعقل، والاستقلال بالرأي، وتؤمن بأثر الأخلاق، وتقوم على فكرة التقدم والتحرر من السلطة والتقاليد».

ولما كانت «السلطة» و«التقاليد» التى كانت متحكمة وسائدة، فى أوربا، قبل هذا التاريخ - القرن الثامن عشر الميلادى - هى السلطة الدينية الكهنوتية الكنسية، وتقاليدها التى جمدت واقع الحياة ونظريات العلوم.. فإن «الاستقلال بالرأي» الذى مثله «التنوير الأوربي» كان استقلالاً عن هيمنة الفكر الكنسي، وعقلانية رافضة للكهنوت، وتحررًا من صورة المسيحية التى كانت سائدة يومئذ، وتقدمًا عن الفكرية التى فرضها رجال الدين على أوربا قبل عصر التنوير.. ففى مواجهة «الفعل» - الذى تمثل فى تحالف الكنيسة والإقطاع - كان «رد الفعل» التنويري، والذى أعلن رفضه لسلطان الدين، ورفع شعاره القائل: «لا سلطان على العقل إلا للعقل».

وإذا كانت جذور «التنوير» - بهذا المعنى - يمكن أن تعود إلى «فرنسيس بيكون» (١٥٦١ - ١٦٢٦م) - فى القرن السابع عشر - الذى رفض تدخل الدين فى المعرفة، لأن «الدين يحد من كل ألوان المعرفة» - فإن هذه الجذور قد تميزت، منذ بزوغ فجرها بتعليق الآمال على «العقل والعلم والفلسفة» جاعلة منها - بديلاً عن الدين والتدين - بل وبديلاً من «الله» - «آلهة التنوير»..

أما القرن الثامن عشر الميلادي، فهو الذى شهد صعود موجة الفكر التنويري، وتوالى أعلام التنوير.. من مثل: «فولتير» (١٧٣٤ - ١٧٧٨م)، و«روسو» (١٧١٢ - ١٧٧٨م)، و«مونتسكيو» (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) و «هيردر» و«ليسنج» (١٧٢٩ - ١٧٨١م)، و«شيلر» (١٧٥٩ - ١٨٠٥م) و «جوته» (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) و«كانت» (١٧٢٤ - ١٨٠٤م).. إلخ.. إلخ.. حتى لقد سمى هذا القرن بعصر التنوير.

وإذا كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير الأوروبي، فلقد كان «فولتير» أبرز فلاسفة ومفكرى هذا التنوير فلقد دعا إلى تمجيد العقل، بديلاً عن قداسة الدين، وشن حملة شعواء ضد الدين والكنيسة، وأنكر عالم الغيب، والبعث، والجزاء الأخروي، وقال: إن النفس ليست إلا حياة الجسم، وإنها تفنى بفنائه.. وليس هناك وحي مقدس سوى الطبيعة نفسها.. وكتب كثيرًا فى نقد الدين، الذى اتخذه رجال الكنيسة وسيلة لإرباك أذهان الناس، واستخدمه الملوك لسلب أموالهم.. وجعل مقاييس الفضيلة فى مدى ما تحققه من الخير الاجتماعي، قاطعًا العلاقة بينها وبين طاعة الله، أو الثواب والعقاب بعد الموت.

وحتى فى قضية وجود إله فى هذا الكون، فإن تذبذب «فولتير» - عبر مراحل تطوره الفكرى - إزاء الإيمان بإله، قد ظل فى دائرة الإنكار الكامل والإلحاد التام، أو فى دائرة الاعتراف بوجوده من باب الضرورة لضبط سلوك «العامة».. فالدين مجرد منفعة عامة.

و«إذا كان لديك قرية واحدة، تحكمها فينبغي أن يكون لها دين»!.. و«إذا لم يكن الإله موجودًا، فيجب علينا أن نبتدعه»!.. و«قد يكون ثمة بعض النفع في الدين، ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه لتعزيز الفضيلة»!.

ولما مال في أخريات حياته، إلى التسليم بوجود إله، رآه مختلفًا كل الاختلاف عن إله النصرانية.. فدعا إلى «دين: الله والتسامح.. لأن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلًا.. أما بالنسبة للسيد الابن - (المسيح) - والسيدة أمه - (مريم العذراء) - فتلك مسألة أخرى»؟! على حد تعبيره.

ولقد انتشر فكر التنوير بهذا المعنى - : تمجيد العقل وحده، بل وعبادته، في إنجلترا وفرنسا، ناشرًا معه الكفر والإلحاد والنزعة المادية.. فقال «هوبز» (١٥٨٨ - ١٦٧٩م): «ليس في الوجود إلا ذرات في فراغ».. وبلغ هذا المعنى لـ«التنوير» ذروته إبان الثورة الفرنسية - (١٧٨٩م) - عندما اتخذ الباريسيون معبودة حسناء أطلقوا عليها: «إلهة العقل» وقالوا: إنهم أنزلوا الله من ملكوته، مع إنزالهم أسرة البوربون عن عرشها!!

وحتى نفهم هذا المعنى لـ«التنوير الأوروبي» لابد من فهم الواقع الفكري الذي جاء هذا التنوير رفضًا له وثورة عليه.. كانت الكنيسة قد غرقت في الفساد والاستبداد، وجمدت الحياة الدنيا والمعارف والعلوم عندما قدستها وثبتتها بوضعها في قوالب اللاهوت المقدس والثابت وساد الاضطهاد لا للملاحدة أو المخالفين في الدين فحسب، بل وللمخالفين في المذهب وللعلماء حتى لقد كانت العقوبة على إقامة قداس بروتستانتي، في مجتمع كاثوليكي: سجن النساء مدى الحياة، وإرسال الرجال للتجديف حتى الموت، وإعدام الكهنة!.. وكانت المواكب تسير في ذكرى المذابح الدينية شكرًا لله!.. وكانت القوانين تبيح للآباء إعدام أبنائهم العاقين استنادًا إلى سفر التثنية (الإصحاح ٢١ - الآيات ١٧ - ٢١) وإلى إنجيل متى (الإصحاح ١٥ - الآيات ٤ - ٦).

تلك كانت الملابسات الأوروبية. التي أفرزت هذا المعنى الخاص لـ«التنوير» في أوربا.

أما في المصطلح العربي، فإن «التنوير» هو: وقت بزوغ أشعة نور الصباح - وقت إسفار الصبح.. والقرآن الكريم «نور»

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾

(التغابن: ٨)

والإسلام «نور»

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(البقرة: ٢٥٧).

والرسول ﷺ «نور»

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾

(المائدة: ١٥)

والحكمة «نور».. كما جاء في الحديث - «فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة»[١].. والصلاة «نور» - وفي الحديث: «الصلاة نور المؤمن»[٢].. والتنوير هو وقت صلاة الصبح، وفي الحديث «نوروا بصلاة الفجر»[٣] - فالمؤمن بذلك كله «مستنير»، وله «تنويره الإسلامي» الخاص.

<<<

وإذا كان هذا «التنوير الإسلامي» هو تنوير بـ«الإسلام».. أي النظر بعقل مؤمن في المنابع الجوهرية والنقية للإسلام، لفقه أحكامه، واستلهام إجاباتها على علامات استفهام الواقع المعاصر. بعد فقه هذا الواقع - لعقد القران بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام».. فإن التنوير الغربي - الوضعي - العلماني - قد أقام ويقيم قطيعة مع الموروث الديني، رافضًا استلهامه أو التزامه أو الانطلاق منه.

لقد مثل ويمثل طورا جديدا تجاوز ويتجاوز الإصلاح الديني الغربي.. فهذا الإصلاح البروتستانتي قد حرر العقل من الكهانة دون أن يحرره من الدين.. أما التنوير الغربي فإنه يحرر العقل من الدين، ويقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الديني، وذلك بإقامته التناقض والتضاد بين «العقل» وبين «النقل» ورفضه أن يكون هناك سلطان على العقل إلا لهذا العقل وحده!

وفي شهادة تنويرية على حقيقة هذه القطيعة المعرفية الكبرى، نقرأ لواحد من دعاة هذا التنوير: «كان المسيحي الناتج (أو المتولد) عن حركة الإصلاح البروتستانتي حريصًا - على المستوى الديني - على عدم تقديم الطاعة إلا لله وكتابه، لا لكهنته ولا لخليفته (أي البابا).

وأما الآن - أي مع التنوير - فقد تم اجتياز عتبة ثانية: فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله الذي يستطيع أن يحاكم الأشياء بذاتها.

إن هذه الأيديولوجيا الأم، التي كشفها عصر التنوير للعالم، والتي تضاد المسيحية

(١) رواه مالك. (٢) رواه ابن ماجه. (٣) رواه الدارمي.

عن طريق الخروج منها تحمل اسما رمزيًا، كان مثقلًا بالمعنى ومشحونًا بدلالة الواقع فى القرن الماضي: إنه الليبرالية. وكانت جدتها من القوة حيث إنها قاومت كل محاولات الكاثوليكية للقضاء عليها أو على معارضتها. وكانت سلالتها التالية خصبة وصراعية داخلية، لأنه من رحمها خرجت الاشتراكية.

إن هذه الأيديولوجيا - التنوير - هى الأم، بمعنى أن كل ما يتفرع عنها يتولد عن تطويراتها وتناقضاتها، دون أن ينقض القطيعة الأبستمولوجية (المعرفية) الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة، لقد أصبح الإنسان وحده مقياسًا للإنسان»[4].

ففارق شاسع بين تنوير إسلامي، ينطلق من الدين.. وبين تنوير غربي - وضعي - علماني.. لا ديني - يقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين.. ويمحو «نظام النعمة الإلهية لحساب نظام الطبيعة».. ومن هذا التنوير الغربي ولدت - في الغرب - الليبرالية.. والاشتراكية.. كلاهما!!

>>>

وإذا نحن شئنا إيجاز مقولات التنوير الغربي، فلن نجد أفضل من ذلك الذى صنعه واحد من أكثر أنصاره والمروجين لمقولاته فى واقعنا الفكرى المعاصر - الدكتور مراد وهبة - فلقد لخص «المقولات العشر» لهذا التنوير فقال إنها:

١- «أن الإنسان حيوان طبيعي اجتماعي، فهو جزء من الطبيعة، وهى التى تزوده، فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الله - فليس خليفة لله، خلقه وكرمه بأن نفخ فيه من روحه، وفضله على سائر المخلوقات.. وسعادة هذا الإنسان دنيوية محضة، يجدها فى العاطفة والشهوة وحدهما.

٢- وحصر الاهتمامات الإنسانية بقضايا العالم الراهنة، والطبيعية المحسوسة لا العالم الآخر، أو ما وراء الطبيعة.

٣- والوقوف فى الدين، عند «الدين الطبيعي»، الذى هو إفراز بشرى من صنع العقل، لا «الدين السماوى المتجاوز للطبيعة»، واعتبار الشعور الدينى مزيجًا من الخوف الخرافى

(4) انظر: هشام صالح مجلة (الوحدة) - التي تصدر بالمغرب عدد فبراير - مارس سنة (١٩٩٣م) (ص٢٠، ٢١). والنص لاميل بولا في كتابه «الحرية العلمنة: حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة» منشورات سيرف باريس سنة (١٩٨٧م).

والرغبة فى تغيير ظروف مؤلمة.

٤- وتحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين، وجعل السلطان المطلق للعقل، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل وحده.

٥- وإحلال العلم محل الميتافيزيقا.. وعدم تجاوز الملاحظة والتجربة إلى ما وراءهما من سبل المعرفة «النقلية» والوجدانية.

٦- واعتبار الفكر وظيفة الدماغ.. فالدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء، وليس هناك نفس فى الإنسان.

٧- وإثارة الشكوك فى مشروعية المطلق، فالإنسان هو مقياس المطلق.

٨- واستنباط الأخلاق من الطبيعة الإنسانية.. وحصر علاقتها بالسعادة واللذة، لا بالفضيلة والاحتياجات الروحية.. مع جعل الأولوية للإحساسات الفيزيقية على المفاهيم الأخلاقية والعقلية، فالأخلاق من صنعنا ومن ثمرات خبراتنا، وهى مستندة إلى الحالة الفيزيقية.

٩- وإحلال «الاجتماعية» محل «الدينية» سبيلا لتحقيق السعادة الدنيوية بالعاطفة والشهوة، فالطبيعة هى التى أوجدت الإنسان والمجتمع هو المسئول عن سعادته.

١٠- ورد القوانين إلى أصول فيزيقية وتاريخية.. وتحرير التاريخ من السنن الإلهية، وتفسيره بمفاهيم طبيعية أو مفاهيم خلقية نابعة من الطبيعة الإنسانية»[٥].

فهو تنوير مادى يجعل الإنسان حيوانًا طبيعيًا ويقطع جميع الصلات بينه وبين الله والدين!

٭٭٭

(٥) د مراد وهبة: «مدخل إلى التنوير» (ص٢٥ - ٧٠) ط القاهرة والكويت سنة (١٩٩٤م).

تفسير سورة البقرة

للشيخ محمد عبده

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن
أكون من الجاهلين (٦٧) قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا
بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون (٦٨) قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها
قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين (٦٩) قالوا ادع لنا ربك يبين
لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون (٧٠) قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول
تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا
يفعلون (٧١) وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون (٧٢) فقلنا اضربوه
ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون (٧٣) ثم قست قلوبكم من
بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما
يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾

(البقرة: ٦٧ - ٧٤)

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني إسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها.. من وجود الاعتبار: أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال، مما يقتضي التشديد في الأحكام، فمن شدد شدد عليه. ولذلك، نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم (١٠١) قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾

(المائدة: ١٠١ - ١٠٢)

وفي الحديث الصحيح: «ويكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»

وقد امتثل سلفنا الأمر، فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطريًا ساذجًا وحنيفيًا سمحًا. ولكن من خلفنا من عمد إلى ما عفا الله عنه، فاستخرج له أحكامًا استنبطها باجتهاده، وأكثروا منها حتى صار الدين حملاً ثقيلاً على الأمة، فسئمته وملت، وألفته وتخلت.

جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه، ولم يلحق فيه. فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع، حتى في القصة الواحدة. وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزًا. وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم.

كان في الآيات السابقة يذكر النعمة، فالمخالفة، فالعقوبة فالتوبة، فالرحمة كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق، والإنجاء من آل فرعون، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا، وأوضحنا من قبل وفصلنا. وفي هذه القصة، اختلف النسق، فذكر المخالفة بعد في قوله:

﴿وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها﴾

ثم المنة في الخلاص منها في قوله:

﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ إلخ.

وقدم على ذلك وسيلة الخلاص، وهي ذبح البقرة، بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها، حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة.

فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر، والجدال الذي وقع فيه، يثير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه. إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفية، وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها، لاسيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب.

يقول أهل الشبهات في القرآن: إن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة، إذ لا وجود لها في التوراة، فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول: إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين إنهم نسوا حظا مما ذكروا به، وإنهم لم يؤتوا إلا نصيبًا من الكتاب. على أن هذا الحكم منصوص في التوراة، وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله، فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم، اغفر لشعبك إسرائيل. ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل. ويراد بذلك حقن الدماء. فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة، أو كانت هي السبب فيه. وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره

الله تعالى.

وقد قلت لكم غير مرة: إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين.

فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم، يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار. فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم، ولكننا لا نعول على ذلك، بل ننهى عنه، ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته.

فالأمر بذبح البقرة، كان لفصل النزاع في واقعة قتل. ويروون في قصته روايات منها: أن القاتل كان أخ المقتول، لأجل الإرث، وأنه اتهم أهل الحي بالدم وطالبهم به. ومنها أنه كان ابن أخيه، وغير ذلك مما لا حاجة إليه. وكانوا طلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل. ولما أمرهم بذبح البقرة، استغربوه لما فيه من المباينة لما يطلبون، والبعد بينه وبين ما يريدون فذلك قوله تعالي:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾

أي سخرية يهزأ بنا. وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالي، وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته بادى الرأي. ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك، ولما كان في جوابهم هذا رمي لموسى عليه الصلاة والسلام بالسفه والجهالة:

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

أي ألتجيء إلى الله، وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾

أي: ما الصفات المميزة لها؟ إن السؤال ﴿ مَا هِىَ ﴾ ليس جاريًا هنا على اصطلاح علماء المنطق من جعله سؤالاً عن حقيقة الماهية، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة. والعرب يسألون بـ(ما) عن الصفات التي تميز الشيء في الجملة، كالذي ذكره في الجواب:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ﴾

أي غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ لم تلد بالمرة، والمراد بها التي لم تلد كثيرًا ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾: العوان النصف في السن من النساء والبهائم، أي هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر. فالمشار إليه بكلمة ذلك متعدد في المعنى، وإن كان لفظه مفردًا. و﴿ بَيْنَ ﴾ من الكلم التي تختص بالمتعدد. تقول: جلست بينهم أو بينهما ولا تقول جلست بينه. واستعمال الإشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع، على تقدير التعبير عنه بالمذكور أو «ما ذكر»، كثير في كلامهم، ومنه قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق
كأنه في الجسم توليع البهق

ذكر هذا الوصف المميز للبقرة في الجملة، وقال: ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

وكان يجب عليهم الاكتفاء به، والمبادرة بعده للامتثال ولكنهم أبوا إلا تنطعًا واستقصاء في السؤال:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

الفاقع: الشديد الصفرة في صفاء بحيث لا يخالطه لون آخر، وبعض أهل اللغة لا يخصه بالأصفر بل يجعله وصفًا لكل لون صاف.

وكان يجب أن يكتفوا بهذه المميزات، ولكنهم زادوا تنطعًا، إذ:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز ككونها عاملة أو سائمة ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ سائمة.

﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾

أي غير مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السقي، ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال، ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾، أي ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة. والشية مصدر كالعدة، من وشى الثوب يشيه إذا جعل فيه خطوطًا من غير لونه بنحو تطريز.

ولما استوفى جميع المميزات والشخصيات، ولم يروا سبيلاً إلى سؤال آخر:

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

أي وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم.

روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفًا: «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم» وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعًا مرسلاً.

وههنا يذكر المفسرون قصة في حكمة هذا التشديد، وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان بارًا بوالدته. وقد يكون هذا صحيحًا، غير أنه لا داعي إليه في التفسير وبيان المعنى.

وقد يشتبه بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لا تكون تابعة لأفعال الناس العارضة. ويرد هذه الشبهة أن التكليف كثيرًا ما يكون عقوبة، لأنه تربية للناس.

وقد وردت الأسئلة والأجوبة في هذه القصة مفصولة غير موصولة بالفاء، وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ. فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال، كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جوابًا للسؤال المقدر، مفصولة عما قبله لا يقرن جوابه بالفاء إلا إذا كان للفاء معنى خاص يقتضيه المقام كالتعقيب والجزاء، وليس ذلك موجودًا هنا. فقوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾

يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الأمر، فأجيب عنه بقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾، وهذا يشعر بسؤال أيضًا، كأنه قيل: ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك، فأجاب: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ ﴾ إلخ.

وهكذا ورد غيرها من المراجعات في التنزيل، كما ترى في قصة موسى وفرعون.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ

﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(البقرة: ٧٢-٧٣)

هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة، على ما أشرنا إليه، وهى القتل ثم التنازع فى القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق.

فقوله تعالي:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾

أسند فيه القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحدًا، باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع، فمعناه التدافع، وهو يدل على أنه كان خصام واتهام، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره. وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة:

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

من الإيقاع بقوم براء تتهموتهم بالقتل لإخفاء القاتل، لأنه لا يخفى عليه مكركم.

وأما قوله:

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾

فهو بيان لإخراج ما يكتمون ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(البقرة: ٧٤)

القسوة: الصلابة، وهى من صفات الأجسام، ووصف القلوب والنفوس بالقسوة مجاز، وهو هنا استعارة بالكناية. ويصح فى ﴿أَوْ﴾ الترديد والتشكيك، وهو بالنسبة للمخاطبين لا إلى المتكلم، أو باعتبار ما يعهد فى التخاطب العربي، كأن عربيًا يحدث آخر، ويقول له: إن هذه القلوب فى قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها. ويصح فيها التقسيم، أى أن القسوة عمت قلوبكم، فأقلها قسوة تشبه الحجر الصلد، ومنها ما هو أشد منه قسوة. وأظهر منهما أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة، أي: بل هى أشد قسوة من الحجارة، إذ لا شعور فيها يأتى بخير، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة. والحجارة ليست كذلك، لأن منها ما يفيض بالخيرات، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية.

وصف الحجارة بالثلاث الصفات الآتية، بعد أن شبه القلوب فى الصلابة المطلقة، وفرق بين القلوب وبينها بالإضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة.

وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة فى الحجارة وشدتها فى القلوب، فكان الكلام يشبه أن يكون عذرًا عن الحجارة

دون القلوب. والمراد بالقلوب ما اعتبرت عنوانا له، وهو الوجدان والعقل، وأكثر ما تستعمل فى الأول لأنه سائق الإقناع والإذعان. ويطلق لفظ القلب على النفس الناطقة، لأن من شأن القلب أن يتأثر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح مطلقًا. وفى الكلام من المبالغة، أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال بما يرد عليها من المواعظ والآيات التى هى من خواص الروح الإنساني، حتى كان أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى درجة الجماد كالحجارة، بل نزلوا عن درجة الحجارة أيضًا. وذلك ما أفاده قوله تعالي:

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

التفجر: تفعل من الفجر، وهو الشق الواسع، يكون للمطاوعة كفجرته فتفجر «بالتشديد فيهما»، ويكون لتكرر الفعل وحصوله مرة أخرى، ومثله التشقق إلا أنه أعم. ولما فى التفجر من معنى السعة، عبر به عن خروج الأنهار من الصخور والكبار وهو معهود فى الجبال، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذى يصدق بالقليل منه.

والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فتشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة، فيحيي الأرض وينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب، فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر، فالحكم لا تقوى على شقها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان، وأنوار الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على إنسان. ومن الحجارة ما يشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية، ومنها ما لا يفجره إلا الماء القوى الغمر الذى يسمى نهرًا.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

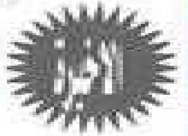
وهو ما ينحط من أعلى الجبل ومن أثنائه بسبب أثر من آثار القهر الإلهى كالبراكين والصواعق التى تهبط بها الصخور وتندك الجبال، وقد جعل هذا شبهًا للآيات الإلهية التى أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام، فهى حوادث عظيمة فى الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله، وتخشع لأمره ونهيه، ولعظمتها وخفاء سر إيجادها، كما تفزع النفوس من حوادث البراكين والصواعق التى تدك الصخور وتدمر الحصون، وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لا تتأثر بها ولا تزداد إيمانًا.

فملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة فى القسوة، بل تزيد فى القساوة عنها، فإن الحجارة الصم تتأثر فى باطنها بالماء اللطيف النافع، بعضها بالقوى منه وبعضها بالضعيف، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التى من شأنها التأثير فى الوجدان والنفوذ إلى الجنان والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التى يحدثها الله فى الكون كالصواعق والزلازل، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية التى تشبهها، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت فى الأحجار، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة. ثم هددهم بقوله:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

أي: فهو سيربيكم بضروب النقم، إذا لم تتربوا بصنوف النعم.

أقسام السنة عند الشيخ عبد الجليل عيسى



اجتهاد أصحابه ﷺ بحضرته في قتال أهل الطائف وإقراره ﷺ لهم

قال صاحب زاد المعاد «١» عن ابن سعد قال: لما طال حصاره ﷺ لأهل الطائف وهم محصنون بداخله، لا يستطيع أحد اقتحامه عليهم، استشار عليه السلام نوفل بن معاوية الديلي فقال: «ما ترى»؟ قال نوفل: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر ﷺ عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال عليه السلام: «فاغدوا على القتال» فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك «٢».

ومما جاء من هذا النوع ما رواه «٣» مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك: أن الرجل «٤» كان يجعل للنبي ﷺ النخلات «٥» من أرضه حتى فتحت عليه قريظة والنضير، فجعل بعد ذلك يرد عليه «٦» ما كان أعطاه، قال أنس: وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله ما كان أعطوه أو بعضه، وكان نبي الله عليه السلام قد أعطاه أم أيمن «٧» فأتيت النبي ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وقالت: والله لا نعطيكهن وقد أعطانيهن- أي رسول الله عليه السلام- فقال ﷺ «يا أم أيمن! أتركيه ولك كذا وكذا» وتقول: كلا! والذي لا إله إلا هو، فجعل ﷺ يقول: «لك كذا وكذا» حتى أعطاها عشرة أمثاله، أو قريباً من عشرة أمثاله.

وفي رواية أخرى لمسلم عن أنس أيضاً بلفظ: لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار «٨»

«١» انظر زاد المعاد في حصار الطائف.

«٢» ومن هذا يعلم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون أنه عليه السلام كان يجتهد فيقول الرأي من نفسه لا عن وحي فكانوا يناقشون ويتخيرون، وقد يظهر فيما بعد أنهم مخطئون أو مصيبون.

«٣» مسلم نسخة المتن المصري جزء ٥ صفحة ١٦٢ في كتاب الجهاد والسير.

«٤» أي من أهل المدينة من الأنصار.

«٥» أي على سبيل العارية كما سيأتي ينتفع بثمارها ويردها إذا استغنى عنها.

«٦» أي على الرجل من الأنصار.

«٧» أم أيمن كانت جارية لعبد الله بن عبدالمطلب والده عليه السلام وكانت من الحبشة ولما ولد ﷺ كانت تحضنه.

«٨» أراد بالعقار هنا النخل. قال الزجاج: العقار كل ماله أصل.

فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمئونة، وكانت أمي- أم أنس وتدعى أم سليم- أعطت رسول الله ﷺ عذاقا «٩» لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد. فلما فرغ ﷺ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم، فرد ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه.

قال النووي في شرحه على مسلم: قال العلماء: لما قدم المهاجرون آثرهم الأنصار بمنائح «١٠» من أشجارهم فمنهم من قبلها منيحة محضة «١١» ومنهم من قبلها بشرط أن يكون له نصف الثمار فقط، نظير أن يعمل في خدمة الأرض والشجر ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة كراهة أن يكون كلاً على غيره. فلما فتحت عليهم خيبر استغنى المهاجرون بأنصبائهم فيها عن تلك المنائح فردوها إلى الأنصار. وقد كان الأنصار أعطوا المهاجرين هذه الأشجار يتصرفون فيها كما يشاءون من أكل وإيثار للغير وصدقة دون البيع، فلهذا آثر النبي عليه السلام أم أيمن. ولو كانت إباحته له خاصة لما أباحها لغيره.

ولما كانت رقاب الأشجار لأصحابها صح إرجاعها لهم، لأنها لو كانت هبة للرقاب لما جاز الرجوع فيها.

*****

أشار عليه ﷺ أصحابه باتخاذ الخاتم فاتخذه

روى البخاري «١٢» عن أنس بن مالك قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرءون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده ونقش عليه: محمد رسول الله.

خاتمة

الآن قد ذكرنا من الأمثلة والشواهد ما يدل على وقوع الاجتهاد منه ﷺ متنوعاً حسب طبيعة الإنسان، فرأيناه اجتهد وعبر عن اجتهاده بالقول مرة والعمل والفعل أخرى، وإقرار رأي بعض صحابته أو عدم إقراره إياه ثالثة.

والاجتهاد منه إذن مؤكد الوقوع، سواء أكان عن طريق القرآن الكريم أو السنة الصحيحة.

وموضوع اجتهاده عليه السلام لم يكن خاصاً بموضوع معين ولا بوقت ومكان، بل تناول عدة أمور من واقع حياته وحياة

«٩» العذاق جمع عذق على وزن حبل وحبال ومعناه نخلات.

«١٠» المنائح جمع منيحة على وزن ذبائح وذبيحة هي كل ما منحته لغيرك لينتفع بغلته ثم يرده إليك عند استغنائه عنه. فمنحة الإبل والغنم ينتفع بلبنها ووبرها وصوفها، ومنحة النخل ينتفع بثمرها.

«١١» أي ينتفع بكل ثمارها لنفسه.

«١٢» في كتاب الجهاد- باب دعوة اليهود والنصارى-

المؤمنين معه، وما لم يكن من واقع حياته وحياة المؤمنين معه كذلك - كما في حديث نسل الممسوخ «١٣» وحديث عذاب القبر «١٤» - وامتد إلى تعبير الرؤيا «١٥» بل رأى بعض العلماء أنه تناول فهم القرآن ونحن لا نقر ذلك الرأى لما فيه من الخطورة «١٦»، وحدث في أزمنة متعددة وأمكنة مختلفة.

كما لم يكن رأيه عليه السلام فيما اجتهد فيه، يمثل الصواب دائما: بل منه ما ظهر أنه لا يمثل الصواب، ومنه ما عاتبه عليه مولاه جل شأنه، ومنه ما وقع التصويب له بعد فترة زمنية تقصر أو تطول.

كما تقدم في تمنيه ﷺ استقبال الكعبة فتراخي الوحي سبعة عشر شهراً، كل ذلك مما لا يدع مجالاً للشك في أن الرسول بشر يجوز عليه - عدا ما خصه به الله - ما يجوز على كل بشر آخر.

***

فالفصول الثلاثة من الباب الثاني تصور في جملتها تنوع اجتهاده ﷺ، وبالتالي تصور وقوع اجتهاد منه، وفي غير أمر واحد وغير زمان واحد، وغير مكان واحد.

وفيما أبداه عليه السلام من رأى في تلقيح النخل «١٧» أظهرت الأيام عدم نفعه لمن أخذوا به - كما لم يجيء وحي بشأنه -. والله سبحانه وتعالى إذ يوافقه على ما رأى وطلب «١٨» بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، لا يوافقه «١٩» على ما رأى وطلب في ناحية أخرى، كما جاء في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

بل قد يعاتبه «٢٠» - وأحياناً يشتد في العتاب - على ما رأى عليه السلام مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾

وفي قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾

وفي قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾

وفي قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾

وفي قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾

«١٣» ص ٦٠، ٦١ من هذا الكتاب.
«١٤» ص ٦٨، ٦٩ من المصدر السابق.
«١٥» ص ١٥٩ من المصدر السابق.
«١٦» ص ١١٨، ١٢٦ من المصدر السابق.
«١٧» ص ١٠٦ من المصدر السابق.
«١٨» ص ٨٧ من المصدر نفسه.
«١٩» ص ٩٠ من المصدر السابق.
«٢٠» صفحات: ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٥، ١١٠، ١٢٧ من المصدر السابق.

وفيما نقل عنه عليه السلام تعديلا لرأيه الأول في حديث التحريق بالنار «٢١» - في رواية البخاري عن أبي هريرة -، وفيما أوحي إليه من الله جل شأنه في أمر عذاب القبر «٢٢» - في رواية مسلم عن عائشة - «وفيما ذكره تعالى اسمه إجابة لما رأى وطلب «٢٣» في شأن القبلة - في سورة البقرة - ما يدل على وجود فترة زمنية لا يعرف مقدارها على وجه الدقة بين الرأى ومجيء الصواب أو بين الطلب وإجابته.

***

١ - فالاجتهاد جاز على الرسول صلوات الله عليه إذن، لأنه وقع منه فعلا.

٢ - وموضوعه متنوع، ديني أو دنيوي، مغيب أو مشاهد، كما يؤخذ من الروايات المذكورة.

٣ - وليس بلازم أن يكون رأيه عن اجتهاد صواباً على الدوام، كما رأينا ذلك فيما مضى غير مرة.

٤ - وليس بلازم أيضاً أن يقع من الله سبحانه، التصحيح للعمل الخطأ فوراً.

٥ - كما يجوز أن لا يرد له تصحيح ما على الإطلاق - كما في حديث تأبير النخل.

٦ - كما يحتمل أن يكون سكوته عليه السلام على رأى بعض صحابته موافقة عليه أو انتظاراً لما يأتي به الوحي - كما في حديث ابن الصياد -

***

ونحن لا نهدف إلا إلى المحافظة على مقام الألوهية من أن يقتحمه أو يدنو منه أحد من خلق الله مهما عظمت منزلته، كما عمل لذلك خاتم الأنبياء وسيد الأبرار محمد ﷺ

مع العلم بأن اجتهاد الرسول ﷺ في غير أمور الدنيا كان أحسن ما تصل إليه عقول البشر البريئة من الغلظة والقسوة، وكانت مصدر رفق ورحمة، وبذلك يبقى مقام النبوة فوق كل مقام. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

فمحمد عليه السلام هو ابن عبدالله بن عبدالمطلب من قريش، وهو رسول الله. هو إنسان أوحي إليه، لم يخرجه الوحي عن إنسانيته، ولم تتعد طبيعته الإنسانية إلى دائرة ما أوحي به إليه. وهو المنزل عليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

«صدق الله العظيم»

والحمد لله رب العالمين

«٢١» ص ١٠١ من المصدر السابق
«٢٢» ص ٨٤ من المصدر السابق
«٢٣» ص ٨٧ من المصدر السابق

ذو القعدة ١٤٣٤هـ
سبتمبر ٢٠١٣م

التُّراثُ والتَّجديدُ مُناقشاتٌ وردودٌ



لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر



التُّراثُ القديمُ وأثرُه فى حياتِنا المُعاصِرة

إنَّ التُّراثَ القديمَ وفى الإطار الذى حدَّده فيه مؤلِّف (التُّراث والتَّجديد) هو – كما يقولُ – رُوحُ الأمَّة، ومصدرُ قوَّتها الأساسية، ومُحرِّكُ جماهيرها بما يمدُّها به من تصوُّرات للعالَم وقيَم للسلوك، هذا التُّراثُ الذى يُعتَبر جزءًا من الواقع (ما زال بأفكاره وتصوُّراته ومُثُله مُوجِّهًا لسلوك الجماهير فى حياتها اليوميَّة) (١)، ولا تزال أصابعه الخفيَّة تُحرِّكُ الناسَ على مسرح الواقع المُعاصر، وليس لنا أنْ نتوقَّع هاهنا تفرقةً حاسمةً بين التُّراث كمبادئ خلَّاقة فى حياة الأمم والشعوب، وبين الممارسات الخاطئة التى تُحسَبُ على أتباع التُّراث لا على التُّراث نفسه، فمثل هذه التفرقة – على أهميتها القُصوى – تختفى تمامًا من اهتمامات هذا المشروع وهو يتحدَّثُ عن التُّراث وتأثيراته فى حياته المُعاصرة، وتَحُل محلَّها علاقةٌ عُضويةٌ مصنوعةٌ بين التُّراث كمحتوى ومضمون، وكقيم ومبادئ مُوجِّهة للسلوك، وبين حالة التخلُّف الحضاريّ التى تعيشُها الأمَّةُ الإسلاميَّةُ الآن.

وقد رصد الأستاذُ طائفةً من السلوكيات غير الحضاريَّة التى تستعلنُ فيها بصمات التُّراث وتأثيراته العميقة فى واقع الناس، ورجع بها إلى أسبابها فى تراثنا العلميّ القديم بكل شُعَبه ومدارسه تقريبًا، وخصوصًا تراثنا العقليّ المُتمثِّل فى علم الكلام والفلسفة والفقه وأصول الفقه.

فهذا التُّراث – فيما يرى الأستاذ – هو العلَّةُ الحقيقيَّةُ لكلِّ مشكلاتنا المُعاصرة التى ظهر فيها عجزُنا وانحطاطُنا وتخلُّفنا، فما نُعانيه – الآن – من لا مبالاة وسلبية وتواكُل هو أثرُ الإيمان بالقضاء والقدر فى التُّراث، وما استقرَّ فى مناهج تفكيرنا

١ – فى اليسار الإسلامي، لحسن حنفي: ٤٣.

المُعاصر من الخلط بين العقل والوجدان (حين نخطب ونظنُّ أننا نُفكِّر، ونَنفعل ونظنُّ أننا نَعقل، فذلك لأنَّ العقلَ فى التُّراث القديم وما ورِثْناه من السَّلف كانت مُهِمَّته تسويغ الدِّين – على الأقل – فى علم أُصول الدِّين وفى علوم الحكمة، وأنَّ العقل لم يستقلَّ على الإطلاق، ولم يُوجَّه نحو الواقع – وهو طرفه الأصيل – إلا فى علم أصول الفقه.. الذى انتهى أيضًا إلى الثبات وتحجير الأصول وتغليبها على الواقع، حتى إنه لم يبق إلا التقليد) (٢).

وما تعارفنا عليه وشاع بيننا من تفضيل الكليات الجامعيَّة النظريَّة على الكليات العمليَّة (٣)، وتفضيل الجامعات على المعاهد العُليا والتعليم الفنيّ المتوسط، وتفضيل العمل الفكريّ على العمل البدويّ، وتفضيل المُثقَّف على الفلاح والعامل – علَّته وجرثومته الأولى كامنتان فى تراثنا القديم؛ حيث تقدَّمُ فيه الفضائل النظرية على الفضائل العملية، حتى ظاهرة خروج الشخص صباحًا من منزله، وتغيُّبه طوال اليوم دون أنْ يعلمَ أحدٌ عنه شيئًا، وازدحام الناس فى سيارات النقل العامَّة سببُها أنَّ الإنسان – كبُعد مُستقلّ – غائبٌ فى تراثنا؛ لأنَّه مُحاصَرٌ بين الإلهيات والطبيعيات (٤).

ومن آثار علم الكلام فى تشكيل الواقع السيئ للمسلمين الآن قبول الإمام بالتعيين، ثم الخضوعُ له والضعفُ أمامه، وانتقاءُ ما يدعم هذا الوضع من التُّراث، وأيضًا تقطيعُ وجودنا إلى جزأين: جزءٌ تحت التراب (الجسم)، وجزءٌ ترفعُه إلى عنان السماء (الرُّوح) (٥).

أمَّا التُّراثُ الفلسفيّ: فقد قذف – فى أعمق أعماقنا – بتصوُّر ثنائيّ للعالَم قدَّمه لنا فلاسفتُنا القدامى. فما زلنا نعيش هذا التصوُّر كما ورِثْناه من الكنديّ، وآثار ذلك على وحدة السلوك وما يترتَّب عنه من تطهير وتسويغ للنَّفس، ونفاق وتغطية وتعمية وازدواجيَّة، كما أنَّنا نسلك طبقًا للتصوُّر الهرميّ للعالَم الذى ورِثْناه من الفارابيّ، خاصَّة فى تصوُّر مجتمعنا ومؤسساته التى يقومُ كلٌّ منها على الرئيس الذى هو وحده المُلهَم والقائدُ والمُعلِّم والكامل والمُقدَّس والمعبود، ثم تقلُّ مراتبُ الشَّرف والكمال حتى نصل إلى المرءوسين الذين عليهم: إمَّا الطاعة والولاء، وإمَّا السجنُ والعقابُ) (٦).

وقد ورثت جماهيرُنا من علوم الفقه الإسلاميّ عللًا عقليَّة، ومناقشات نظريَّة لا تُغيِّر من الواقع شيئًا، وفقهاؤنا لم يكونوا إلا مُحترفى جدلٍ فارغ لا يدلُّ إلا على

٢ – التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٥.
٣ – الواقع يشهد بعكس ذلك تمامًا.
٤ – م. ن: ١٦، ولا يسع الباحث المتأمل فى هذا الكلام إلا أن يقول بصمت قاتم الأعماق حين يعجز تفكيره عن رصد أية علاقة من أى نوع بين الإلهيات والطبيعيات فى التراث وبين ازدحام الناس فى وسائل النقل العامة.
٥ – م. ن: ١٥، ١٤، وانظر أيضًا موقفنا الحضاري لحسن حنفي، ضمن: الفلسفة فى الوطن العربي المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول: ١٥ وما بعدها.
٦ – التراث والتجديد لحسن حنفي: ١٥.

تعصُّب أو ادِّعاء (٧).

أمَّا عن التصوف فحدِّث ولا حرج، فهو - في زعم الأستاذ - مقاومةٌ للانحراف بانحراف آخر، وهو رجوعٌ للوراء؛ لأنه دعوةٌ إلى الفقر والخوف والجوع والصبر والتوكل والتسليم، وهذا التراث أيضًا لا يزال حيًا في وجدان الجماهير يتمثل في ما يعلقه الناس على الجدران من عبارات، مثل: (الصبر مفتاح الفرج) أو (توكلت على الله).

وعلوم الصوفية وتحليلاتهم لأمراض القلب وعلل النفس هروبٌ من عالم العقل، كما أن مقامات الصوفية - وإلى آخر مقام فيها - وَهْمٌ وانفعالٌ ومجردُ إحساسٍ ذاتي (٨).

وينتهي الأستاذ إلي: أن الإنسان في تراثنا القديم محاصرٌ بين الإلهيات والطبيعيات في الفلسفة، ومُبتلَعٌ في علم التوحيد، وفانٍ في علوم التصوف، ومسحوقٌ في علوم التشريع، وأننا (نعمل بالكندي في كل يوم، ونتنفس الفارابي في كل لحظة، ونرى ابن سينا في كل الطرقات، وبالتالي يكون تراثنا القديم حيًا يُرزق.. يُوجِّه حياتنا اليومية) (٩).

وكان المفروض على الأستاذ لو أراد أن يتقيد بضوابط البحث العلمي في أخطر قضية تمس حياة المسلمين، أن يستثني من هذا النقد أصول التراث الذي حمَّله مسئولية تخلف المسلمين، لكن شاء الأستاذ أن يُطلق العنان لعباراته تُقرِّر - صراحة أحيانًا، وضمنًا أحيانًا أخرى - أن الإيمان بالقضاء والقدر، والثنائية الفاصلة بين الله والعالم، والإيمان بالبعث، هي العلل الأولى والجراثيم الحقيقية للأمراض المعاصرة في المجتمع الإسلامي والجماهير المسلمة.

كما شاء الأستاذ - عامدًا أو متغافلًا - أن يزيل الحدود والحواجز في خطة التجديد بين هذه الأصول كثوابت لا تقبل المساومة ولا التأويل، ولا الالتفاف عليها بحال من الأحوال، وبين رؤى شائهة وتفسيرات مغشوشة كانت بمثابة أمراض طفيلية، التصقت بالتراث الإسلامي الحقيقي، وحُسبت عليه ظلمًا وعدوانًا، وهي تفسيرات تنشأ - في العادة - من بُعد العهد بالمصدر الأصلي للفكر أو الفلسفة أو الدين، ولم يخل منها تراث في تاريخ البشرية قديمًا أو حديثًا، وهذا أمرٌ طبيعيٌ ومقررٌ في تاريخ الفكر وتاريخ الأديان، لكن غير الطبيعي أو غير المعقول: هو هذا الخلط بين مبادئ التراث وقيمه، وبين بعض السلوكيات المنحرفة عند البعض من أتباع هذا التراث، واعتبار التراث مسئولاً عن كل ذلك، في تعميم كاسح من شأنه أن يثير في القارئ ريبة وشكًا

٧ - من المؤسف حقًا أن ينتهي التحليل العلمي بالأستاذ الكبير (المجدد) إلى أن هموم فقهائنا وعلمائنا لم تكن فقه الثورة أو فقه العدالة الاجتماعية أو التحرر من الظلم، وإنما كانت همومهم منحصرة في أمور تافهة من قبيل: ما حكم وصية يكتبها رجل بين أنياب الأسد؟ هل يجوز أكل بيضة ولدتها فرخة نكحها إنسان؟ ما حكم رجل أقسم أن امرأته طالق إن هو جامعها في هذا الثوب، وإن لم يجامعها في هذا الثوب؟ ما هي أحكام الاستنجاء والغائط، وما حجم الحجر وشكله واتجاه الغائط وكيفية الجلوس؟ وما هي أحكام حلق عانة الميت؟ انظر: موقفنا الحضاري، لحسن حنفي، ضمن الفلسفة في الوطن العربي المعاصر ١٧. ويقف الناظر عن منهج الأستاذ -المتعمد- في تزييف الحقائق: فإن القارئ المتأمل ليتساءل في دهشة بالغة: هل هذا المستوى من البحث الهازل الساخر جدير بحمل أمانة التجديد في تراث المسلمين؟

٨ - التراث والتجديد، لحسن حنفي، ١٧.

٩ - م. ن ١٦.

في جدية المشروع برمته، وأنه يعتمد على ما يشبه المهارة أو خفة اليد في لعبة الأسماء والمسميات.

وكان على الأستاذ الفاضل: أن يصمد لمناقشة المفاهيم ويحاكمها في إطارها المعرفي والقيمي كما هي مطروحة في التراث، لا أن يخلط الأوراق في أذهاننا إلى الحد الذي يحدثنا فيه عن ممارسات خاطئة لمفاهيم صحيحة، وهو يظن أنه يحدثنا عن عيوب في المفاهيم ذاتها.. على أنه وهو ينحو باللائمة على التراث جملة وتفصيلاً، لم يأتنا بجديد من النقد، ولم يضع أيدينا على مكمن العلة وبؤرة الداء في تخلف مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وإنما كان يردد تهمًا قديمة مستهلكة. وإن كانت الخطورة الجديدة: هي أن الأصول أو الأسس التي نشأ حولها هذا التراث هُوجمت في هذا الترديد الجديد، وانسحب عليها كل ما توجه على التراث من نقد وتشنيع.

وهكذا لم يشأ الأستاذ أن يفرق بين ما هو أصيل وصحيح ومطلوب، وبين ما هو طفيلي وزائف ومطلوبٌ القضاء عليه في تجديده للتراث، والسبب في هذا الخلط: هو أن سيادته لم ير من تراثنا القديم - في هذا الموضع - إلا سلوكيات معاصرة رديئة، ثم راح يحاكم بها التراث نفسه مع أنه أول من يتيقن أنها تطبيقات سيئة للتراث وليست تراثًا، وأن محاكمة المبدأ بتطبيقات تنحرف عن المبدإ نفسه ليست من البحث العلمي المنصف في شيء، اللهم إلا إذا اعتبر (مشروع التجديد) أن المحتوى الداخلي للتراث ليس إلا السلبية والنفاق والخنوع.

غير أن هذا القول هو أصل الدعوى ورأس المسألة ومحل النزاع بيننا وبين صاحب مشروع (التراث والتجديد)، وبعبارة تراثية: إنه مصادرة على المطلوب، وليس استدلالاً عليه.

إن هذه التفرقة - التي قفز عليها الأستاذ - لهي نقطة فاصلة بين مشروع جاد يعلم أبعاد التراث وآفاقه الشاسعة، ويُبصر الفروق الدقيقة بين ثوابته ومتجدداته، وما الذي يجب أن يظل ويبقى، وما الذي يجب أن يُحال إلى متحف الأفكار وتاريخ النظريات، وبين مشروع لا نعود من الركض وراء تخطيطاته إلا بالمزيد من البلبلة والحيرة والاضطراب.

ولا يفيدنا في الدفاع عن تراثنا المنقول ضد اتهامات (التراث والتجديد) أن نردد ما هو معروف ومفهوم لدى الجميع من التفرقة - مثلاً - بين القضاء والقدر كأصل من أصول الإيمان في الإسلام، وبين مفهوم العجز والتواكل والكسل، أو التفرقة بين الإيمان بالبعث، وبين أمراض الازدواجية في المجتمعات المسلمة، أو التفرقة بين نظام الشورى والخلافة في الإسلام، وبين مداهنة بعض المفكرين للحكام ونفاقهم، وتسقط التفسيرات المصنوعة لتسويغ هذا السلوك الذي يرفضه الإسلام شكلاً وموضوعًا. كما لا يفيدنا الدفاع التحليلي عن كل علم من علومنا التي عددها الأستاذ وهو يدين تراثنا العقلي والنقلي جملة وتفصيلاً (١٠)، ولكن يفيدنا كل الفائدة أن يفاجئنا الأستاذ بإنصاف التراث من نفسه بنفسه، ويحدثنا بلهجة

١٠ - فيما يتعلق بنقد الأستاذ للتراث النقلي راجع بحثه: موقفنا الحضاري، ضمن الفلسفة في الوطن العربي المعاصر: ٢٤ - ٢٦.

أخرى مختلفة تمامًا عن التراث ذاته الذى لم يدّخر وُسْعًا فى تنقّصه من كلّ نواحيه؛ حديثًا لا تدرى هل تخلّى فيه عن كلّ أحكامه التى وَصَم بها التراثَ القديم؟ أو أنّه كان وليد موقف شعَرَ فيه بضرورة الدّفاع عن تراثه أمام هجمات المستشرقين على علمائنا وعلومنا؟

وأيًا ما كان الدّافعُ الذى أنطق الأستاذ بكلمات حقّ لصالح التراث القديم، فإنّ ما لا يتمارى فيه القارئ: هو أنّ لصاحب مشروع (التراث والتجديد) تجاه التراث نظرتَيْن متناقضتَيْن أو موقفَيْن متعارضَيْن، وإذا كنّا قد أفضنا قليلاً فى التعرّف على النظرة السلبية، فإنّ نظرة الأستاذ الإيجابية لتراثنا برزتْ من خلال موقفه من التراث الغربيّ، حيث يرى سيادته: ضرورة تحجيم الغرب، وردّه إلى حدوده الطبيعية، والقضاء على أسطورة عالميّته، وبيان محلّيته مثل أيّ تراث آخر[١١].

ويُقرّر الأستاذ: أنّ فترة تعلّمنا من الغرب – والتى زادتْ مُدّتُها على قرنَيْن – قد طالتْ أكثرَ ممّا ينبغي بالمقارنة إلى الفترة التى تعلّمَ فيها أسلافُنا ومفكرونا من الثقافات المُجاورة قائلاً: (لقد تعلّمَ القدماءُ قرنًا واحدًا وهو القرنُ الثاني، وما إنْ أتى القرنُ الثالثُ حتّى ظهرَ الكنديّ – أوّلُ الحكماء – بادئًا علومَ الحكمة)[١٢].

وإذا كانت الدعوةُ إلى التعلّم من الغرب فى أوائل القرن الماضى[١٣] لها ما يُبرّرُها من تخلّفنا عن الغرب – علمًا وصناعةً وحريّةً وديمقراطيةً ونُظُمًا برلمانيّةً – فإنّ طُولَ فترة التعلّم هذه قد حوّلها إلى تقليد وتبعيّة وأسر، أو فى كلمة واحدة (التغريب).

وينتهى الأستاذ: إلى أنّ التراث الغربيّ مُرتبطٌ أشدّ الارتباط بالوعي الأوروبيّ، بل هو لا يُعبّر إلّا عن هذا الوَعْي فى نشأته وتطوّره، وحين يُحلّل الغربيون نشأة (الوَعْي الغربيّ أو الأوروبيّ)، فإنّهم يعودون به إلى أصول ثلاثة لا رابعَ لها، هي: الأصلُ اليونانيّ الرومانيّ، والأصلُ اليهوديّ المسيحيّ، والبيئةُ الأوروبيّةُ نفسُها.

ويبدو أنّ اختصارَ الوَعْي الأوروبيّ فى هذه المصادر الثلاثة قد أثار فى نفس الأستاذ شيئًا من الشعور بتنكّر الأوروبيين للإسلام وأثره فى نهضتهم، وأثر حضارته فى حضارتهم، فطفق يتساءلُ فى مرارة: (وكأنّ الإسلامَ لم يكُنْ تحقّقًا لصدق اليهوديّة والمسيحيّة فى التاريخ، وكأنّ الحضارة الإسلامية – بعد ترجمتها إلى اللاتينية – لم تكُنْ أحدَ روافد النهضة الأوروبيّة الحديثة والفلسفات العقلية، وكأنّ الرُّشديّةَ اللاتينية لم تُساهمْ فى نشأة العلم الحديث فى الغرب)[١٤].

وسؤالُنا الذى يفرضُ نفسَه هنا هو: إذا كان التراثُ الإسلاميّ يُنتجُ مُجتمعًا عاجزًا مُنافقًا، ويتنطّعُ فيه الفردُ فى علم التوحيد، ويفنى فى التصوّف، ويَمْحق فى الشريعة، ويُحاصرُ فى الفلسفة، فكيف غدا – فى فترة لاحقة – عُنصرًا مُكوّنًا من عناصر الحضارة الغربية، ورافدًا من روافدها فى إبداع الفلسفة والعلم؟

١١ – م. ن: ٣٠.
١٢ – م. ن: ٣٠.
١٣ – المقصود هو أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.
١٤ – م. ن: ٣٢.

ألا يعني تأكيدُ الأستاذ على دَور التراث الإسلاميّ فى مُعظم مراحل تطور الوَعْي الغربيّ، بدءًا من مرحلة عصر آباء الكنيسة، وانتهاءً بعصر العلم والتقنية[١٥] – أنّه قد تخلّى عن كلّ ما قاله عن هذا التراث، وأنّ حقيقة التراث شيءٌ، وما قاله الأستاذُ أوّلاً شيءٌ آخَرُ؟

ولا يقلُّ تناقضُ المواقف واضطرابُها حدّةً بالنسبة إلى عُلمائنا وفقهائنا الذين وَصف كلّ نشاطاتهم العلميّة بأنها جَدَلٌ لا يدلّ إلّا على تعصّب أو ادّعاء، ففى الكتاب ذاته الذى أهالَ فيه التراب على رءوس علمائنا، طالعنا بدفاع جادّ عن الفقهاء والمُتكلّمين، بل والصوفيّة – أيضًا – وهو يُواجهُ محاولةَ بعض المستشرقين تفريغَ تراثنا من كلّ عناصر الإبداع والابتكار، وحصرها فى دائرة النقل والتقليد، وهنا يتحدّثُ الأستاذ حديثًا جديدًا عن عُلمائنا من الفُقهاء والأصوليين والمُتكلمين والصُّوفيّة وغيرهم: (كان كلّ منهم مسئولاً فكريًا وحضاريًا – أى قوميًا بلغة عصرنا –[١٦] عن أعمال سابقيه، فطوّرها ناقدًا ومُغيّرًا ومُكمّلاً، بل إنّ كلّ عالم من عُلماء أصول الدّين أو أصول الفقه – كان يضعُ العلمَ ويُعيدُ تأسيسه، ولا يكادُ يذكرُ سابقيه؛ لأنّ العلمَ مُستقلٌ عن واضعيه، ولم يكُنْ موقفُ عُلماء الأصول من بعضهم البعض موقفَ الشرح والعَرْض، بل كان موقفَ النّدّ للنّدّ: الحوار، والجدل، والنقاش، والنقد، والتفنيد، والهدم، وإعادة البناء.. كان الصوفيّ يأخذُ من الصوفيّ السابق ويتمثّله ويزيدُ عليه، ولم يكُنْ مجردَ عارض لآرائه مُحلّلاً لها، بل إنّه حتّى فى عصر الشروح والمُلخّصات كان الشرحُ زيادةً على القديم، وكان التلخيصُ تركيزًا على الأبنية العامّة للقديم دون أطرافها، فكان أيضًا عملاً إيجابيًا، وكان الفقهاءُ يُكمّلُ بعضهم البعض، أو يختلفُ بعضُهم مع البعض الآخر، والجميعُ على نفس المستوى من المسئوليّة الفكريّة والقوميّة.. ومؤلّفاتُ أصول الفقه أبنيةٌ عقليّةٌ خالصةٌ، ومناهجُ تاريخيّةٌ ولغويّةٌ، وعقليّةٌ لا شأنَ لها بالقائلين بها، بل هي تعبيرٌ عن أنساق عقليّة خالصة وكأنّها موضوعة بعقل كليّ شامل)[١٧].

ومرّةً أخرى: تختلطُ الأحكامُ فى أذهاننا اختلاطَ النقيض بنقيضه، فلا نعرفُ من أحاديث الأستاذ هل كان علماؤنا أهلَ جَدَل فارغ ونقاش لا يُغيّر من الواقع شيئًا، أو كانوا – كلّهم – على نفس المُستوى من المسئولية الفكريّة والقوميّة؟ ولكنّ الذى نعرفُه منه: هو أنّ الأستاذ وإنْ كان قد جرّد التراثَ القديمَ من جميع الحسنات، فإنّه فى ميدان المواجهة مع الغربيّين لم يسَعْه إلّا أنْ يفزعَ إلى التراث القيّم وإلى علمائنا القُدامى، ويُسند إليهم ظهرَه وهو يبحثُ عن هُويّته وعن ذاتيته، وأمرٌ طبيعيّ أنْ تنكشفَ له وسطَ هذا الصراع الجوانبُ المُضيئةُ فى التراث، وأنْ يتغيّرَ حديثُه عنه من النقيض إلى النقيض.

(يتبع)

١٥ – م. ن: ٣٣.
١٦ – التفسير بين القوسين للأستاذ حسن حنفي، وهو تفسير له دلالته القوية – عند الأستاذ – على مواكبة التراث لعصره.
١٧ – التراث والتجديد: ٨٩–٩٠ ويقول فى موضع آخر: (فالفقهاء هم القيّمون على التراث، وحماته من الدخلاء، وحارسو الشرع، والمدافعون عن مصالح الأمّة، والذائدون عن حوض الإسلام) نقلاً عن: المثقفون العرب والتراث: ٢٢٥. ويقول أيضًا: (الذى يحزّ فى نفسنا هو أنّ خير أمّة أخرجت للناس تنتهي إلى مثل ما انتهتْ إليه. لا دور لنا فى التاريخ بعد أن كنّا صنّاع حضارة ومعطي البشرية، ومصدر العلم والعرفان. إنّنا لسنا نقلة علوم، لكنّنا مبدعو علوم) نقلاً عن المصدر السابق: ١٥٨.

معنى النسخ عند الشيخ محمد أبو زهرة


الشيخ محمد أبو زهرة

(١٣١٦-١٣٩٤هـ/١٨٩٨-١٩٧٤م)

هو واحد من أئمة التجديد.. والعلماء العاملين.. والذى تتلمذ عليه كثير من العلماء والمفكرين.
ولقد طرق الشيخ أبو زهرة هذا المبحث فى كتابين من كتبه:
أولهما: «أصول الفقه» وفيه عرض لمعنى النسخ.. وآراء العلماء فيه.. ولنسخ الشرائع السابقة على شريعة الإسلام.. ولنسخ الأحكام فى الشريعة الإسلامية.. واختار المذهب الرافض لوقوع النسخ فى الأحكام التى جاء بها القرآن الكريم «لأن النظر العميق لا يمنع التوفيق بينها.. والتوفيق بينها بأى وجه من وجوه التوفيق يقدم على النسخ؛ لأن النسخ يقتضى عدم إعمال النص، وإعمال النص بضرب من ضروب التوفيق أولى من عدم إعماله».

وفى هذا المقام قال الشيخ أبو زهرة:

النسخ

* إذا تعارض نصان من النصوص القرآنية فى ظواهرهما، فإنه لابد من التوفيق بينهما بأى وجه من أوجه التوفيق.

(أ) ومن التوفيق أن يكون أحدهما خاصا، والآخر عاما، فيخصص الخاص العام، ويكون العام غير وارد فيما اشتمل عليه حكم الخاص على النحو الذى بيناه فى تخصيص العام، وبيناه بالنسبة إلى المرتبة التى يكون عليها المخصص من القطعية أو الظنية.

(ب) ومن التوفيق أن يؤول أحد النصين بحيث يتلاقى مع النص الآخر إذا كان أحد النصين يتفق مع أمر مقرر من أمور الشريعة، والآخر يخالف ذلك المقرر، فلابد من أن يطوع النص المعارض للمبادئ المقررة، فإذا لم يمكن التوفيق بينهما بوجه من الوجوه أخذ المجتهد بأقواهما سندا، فإن كان أحد الدليلين آية والآخر خبر آحاد اعتبر خبر الآحاد ضعيف السند، لأنه لا يقوى على معارضة الآية القرآنية ومعاندة حكمها، وإن تساويا فى القوة، ولا يمكن التوفيق بينهما بأى وجه من وجوه الترجيح، بأن يكون أحدهما معاضدًا بغيره حتى يكون أقوى استدلالا من الآخر، فإن لم يكن ذلك، قيل: يقدم المُحرم على المبيح، وقيل: يكون التوقف، وإن عرف تاريخ كل منهما فإن المتأخر ينسخ المتقدم، وهذا موضع النسخ.

* فالنسخ فى اصطلاح الأصوليين، رفع الشارع حكمًا شرعيًا بدليل متراخ، وبذلك يتبين الفرق بين النسخ والتخصيص، فالنسخ يكون فيه النصان الناسخ والمنسوخ غير مقترنين زمانًا، بل يكون الناسخ متأخرًا عن المنسوخ.

وأول من حرر الكلام فى النسخ الإمام الشافعى رضى الله عنه فى رسالة الأصول، ولقد اعتبره من قبيل بيان الأحكام لا من قبيل إلغاء النصوص.

فهو لا يعتبر النسخ إلغاء للنص، ولكنه يعتبره إنهاء لحكم النص، ولقد سار معه فى هذا السبيل ابن حزم، ولذلك عرف النسخ فقال: حد النسخ أنه بيان انتهاء زمان الأمر الأول(١).

وإذا كان النسخ بيان انتهاء العمل بحكم معين فإنه نوع من أنواع البيان المتأخر، وإنه على مقتضى ذلك النظر ينقسم البيان إلى قسمين: بيان فيه تفصيل لمجمل أو تخصيص عام، وهذا يعمل فيه النصان، ويكون أحد النصين خادمًا النص الآخر، والقسم الثانى بيان انتهاء العمل بالحكم بعد العمل به من غير أن يلغى النص.

* ويذهب ابن حزم أبعد من هذا، فيقرر أن النسخ شكل من أشكال التخصيص لا يتناول اللفظ وعموم مؤداه، بل يتناول الحكم فى عموم الأزمنة، ويقول فى ذلك:

«إن النسخ نوع من أنواع الاستثناء، لأنه استثناء زمان وتخصيصه بالعمل دون سائر الأزمان، ويكون حينئذ صواب القول أن كل نسخ استثناء وليس كل استثناء نسخًا»(٢)

ونرى من هذا أن ابن حزم يشير إلى أن اللفظ الذى ينطق بالحكم له عمومان: عموم اللفظ أحيانًا، فيكون تخصيصه بلفظ أو بعمل مع بقاء الحكم فى باقى الأفراد، وعموم يتعلق بالأزمنة، وتخصيصه هو النسخ، فمثلا قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها» فإن النص يبين انتهاء المنع، وهو فى معنى التخصيص الزمانى بالنص الذى أشار إليه النبى ﷺ الذى يمنع الزيارة.

* والنسخ قد وقع بحكم الإسلام، فقد نسخ الإسلام بعض أحكام جاءت فى الديانات السماوية السابقة، فتحريم بعض الأغذية كان قائمًا عند اليهود فأباحها الإسلام، فقد حرم هذه الأطعمة على اليهود لغلظ أكبادهم ولشراهتهم، والتحريم قد يفطم هذه النفوس عن شراهتها، ولذا قال تعالى:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾

(الأنعام: ١٤٦)

ولقد وجدنا فى النصوص اليهودية التى بين أيدينا إباحة الزواج من النساء إلى غير عدد، فإذا كان هذا صحيحا يكون القرآن قد

(١) كتاب الناسخ والمنسوخ لابن حزم على هامش تفسير الجلالين.
(٢) الإحكام لابن حزم الظاهرى (٤/٦٧).

نسخ الإطلاق في العدد وقيده بأربع وبهذا يتبين أن القرآن قد نسخ بعض الأحكام العملية التي جاءت في الشرائع السابقة، وما نسخه القرآن إنما هو من الأحكام التي تختلف باختلاف الزمان والمكان والعصر، أما ما له صفة العموم من الفضائل وما يشتق من الفطرة الإنسانية فإنه غير قابل للنسخ كالعقائد، لأنه شريعة الإنسانية الأبدية، ولذا قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾

(الشورى: ١٣).

وقد ادعى السيوطي النسخ في نحو عشرين نصًا في القرآن الكريم، ولكن النظر العميق لا يمنع التوفيق، وإن أمكن التوفيق بأي وجه من وجوه التوفيق يقدم على النسخ، لأن النسخ يقتضي عدم إعمال النص، وإعمال النص بضرب من ضروب التوفيق أولى من عدم إعماله.

«وقد يقول قائل: لماذا كان النسخ في الشريعة الإسلامية، فإنه إذا جاز في القوانين التي يضعها البشر، وذلك بإلغاء قانون وإحلال قانون محله، فإنه لا يسوغ في الشريعة التي ينزلها علام الغيوب، وذلك لأن قوانين البشر تجارب إنسانية، والإنسان يخطئ ويصيب، أما شرائع السماء فإنها قانون الله الذي لا يجرى الخطأ في فعله ولا قوله. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والجواب عن ذلك أن شرائع السماء إصلاح الله تعالى للبشر، وهي واحدة هي أصلها لا تتعدد، ولكنه سبحانه لم يخلق الناس على شاكلة واحدة، فكان لابد أن تختلف بعض الأحكام التفصيلية في طائفة ولا تصلح في الأخرى، فكان لذلك التناسخ في الشرائع السماوية في الأمور التي تختلف فيها الأجيال الإنسانية، ولا تناسخ فيما هو أصل الفضائل وما به قوام الأمم، وما يتعلق بالتوحيد.

وقد جرى النسخ في الشريعة الإسلامية، لأن النبي ﷺ بعثه الله تعالى في قوم لم يكونوا ذوي دين، ولم يتقيدوا من قبله بقانون ولا نظام، فلو خوطبوا بالأحكام الشرعية دفعة واحدة ما أطاقوها، ولذلك أخذهم الله سبحانه وتعالى بالتدريج، فنزل على الرسول من الأحكام ما يطيقون، حتى إذا ذاقوا بشاشة الإسلام وراضوا أنفسهم على شكائم خلقية فاضلة، خوطبوا بأحكام الشريعة الخالدة التي لا تتقيد فيها، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

أولها: إن المرأة لم تكن عندهم ذات حقوق، ولم يكونوا يستسيغون أن تكون إنسانًا مستقلًا له كل الحقوق، ولم يكن النسب عندهم طريقة الزواج وحده، بل كان السفاح أيضًا طريقًا لثبوت النسب، فلما جاء الإسلام وقد وجدهم يتخذون الأخدان (أي الخلائل) ويعطون لهن بعض حقوق الزوجية، وذلك فيما يسمى بالمتعة، فتركهم على ذلك أمدًا، حتى إذا استأنسوا بمبادئ الإسلام نسخ هذا وتقررت أحكام الأسرة بالزواج الشرعي الذي جعل للمرأة حقوقًا كاملة، كما قاله سبحانه:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ثانيها: أن المشركين كانوا أهل وثنية، يعبدون الأوثان، فمنع النبي ﷺ من زيارة القبور حتى لا تؤدي إلى شيء من ذلك في نفوس بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين، حتى إذا زالت دولة الشرك ويئس الشيطان أن يعبد في هذه الأرض من طريق الأوثان أباح النبي ﷺ زيارة القبور، فقال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها».

ثالثها: أن الميراث في الجاهلية لم يكن يسير على نظام محكم ثابت، فقد كان أكبر الأولاد يأخذ التركة، وأحيانًا يوصي بها لمن يشاء، والمرأة في كل الأحوال ليس لها نصيب، فأوجب أولا أن تكون الوصية في الوالدين والأقربين من غير تعيين، حتى إذا ألفوا ذلك، جاءت آية الميراث المحكمة ووزعت التركة بأحكام الفرائض ذلك التوزيع العادل، قال تعالى:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ﴾

(النساء: ٧)

وجعل لقرابة الأم ميراثًا، كما لقرابة الأب ميراث، وإذا كانت قرابة الأب تأخذ قدرًا كبيرًا.

رابعها: بالنسبة للخمر والميسر، فقد كان العرب يتفاخرون بهما، ويجدون فيهما مزايا، إذ يحملان بعضهم على الشجاعة والبذل، وقد كانت عقولهم قد استرقها ذلك، وآفاقهم الاجتماعية ضيقة، فلم يحرمهما الإسلام في أول الأمر، ولكنه أشار إلى أنهما غير مستحسنين، فأشار إلى عدم استحسان الخمر في قوله تعالى:

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(النحل: ٦٧)

فالمقابلة بين السكر والرزق الحسن يومئ إلى أن السكر ليس أمرا مستحسنا، لأنه ليس رزقا حسنا، ثم بين سبحانه مضار الخمر والميسر بشكل أوضح، فقال تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(البقرة: ٢١٩)

وإن هذا النص تمهيد للتحريم، لأن كل أمر تكون مضاره أكثر من منافعه يكون موضوع النهي، ولكن لم يصرح النص بالنهي - وعندئذ أدرك كبار الأتقياء من الصحابة أن الخمر لا تتفق مع مبادئ الإسلام. ولقد جاء بعد ذلك النهي في أكثر الأوقات فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾

(النساء: ٤٣)

فكان المؤمن يتركها عامة النهار وطرفا من الليل، وعندئذ أدرك المؤمنون أنها محرمة لا محالة، فنزل بالتحريم القاطع قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

(المائدة: ٩٠، ٩١)

فصاح أتقياؤهم: انتهينا، ومن هنا يتبين كيف كان التدرج في سن الأحكام مما اقتضى السكوت على أحكام قائمة، ثم تحريمها من بعد، واقتضى تقرير أحكام تكون علاجا لحال وقتية، ثم أنهاها بالنسخ بعد ذلك، حتى إذا تمت الشريعة نزولا بقيت محكمة إلى يوم القيامة، وقد تمت بنزول قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣).

شروط النسخ

يشترط في النسخ أربعة شروط:

> أولها: أن يكون الحكم المنسوخ غير مقترن بعبارة تفيد أنه حكم أبدي خالد، فإن مثل ذلك الحكم لا ينسخ، وإلا كان في هذا مناقضة لأصل النص، ومنزل الناسخ والمنسوخ واحد، ولذا قال الفقهاء: إن الجهاد لا ينسخ، فقد قال ﷺ: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»، ومن ذلك أيضا عدم قبول شهادة المحدود في قذف قبل توبته، فإن هذا قد اقترن بالتأبيد، فقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾

(النور: ٤).

* الشرط الثاني: ألا يكون الحكم المنسوخ من الأمور التي اتفق العقلاء على حسنها أو قبحها، مثل الإيمان بالله تعالى وبر الوالدين والصدق والعدل، والظلم والكذب، وغير ذلك مما تواضع عليه الناس في كل العصور والأجيال على أنه خير مقبول أو شر مرذول، فإن هذا قد اتفق العلماء على أنه لا ينسخ، وأنه بالاستقراء يثبت أنه لم ينسخ حكم على هذه الشاكلة.

* الشرط الثالث: أن يكون النص الناسخ متأخرًا في النزول عن النص المنسوخ، لأن النسخ إنهاء لحكم النص الذي نسخ حكمه، فكان لابد أن يقع بعده، وأن يكون النصان في قوة واحدة.

* الشرط الرابع: أنه بالنسبة لنسخ الضمني الذي لم يكن النسخ فيه صريحًا لابد أن يكون التوفيق غير ممكن، فإن كان التوفيق ممكنا بأي وجه من وجوه التوفيق، ولو بضرب من التأويل الذي يطيقه اللفظ فإنه لا يصار إلى النسخ، لأن النسخ إنهاء للحكم، وعدم إعمال للنص، ولا يصار إلى ذلك إلا عند تعذر التوفيق كما بيّنا آنفا.

ما لا يقبل النسخ

ومن هذا الكلام يتبين أن في الأحكام التي لا تقبل النسخ ما نص فيه على التأبيد، وما أثبتته العقول واتفقت على أنه غير قابل للتغيير فاتحدت فيه الأحكام في الشرائع السماوية كلها، بل تواضعت عليه الناس في كل الأمصار والأعصار. ومما لا يقبل النسخ أيضًا الأحكام الثابتة بغير النصوص، فالأحكام الثابتة بالإجماع والقياس والرأي بشكل عام لا تقبل النسخ، لأن إلغاء الأحكام بقول الله تعالى أو قول نبيه ﷺ وتقريره، وبعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد استقرت الأحكام وثبتت، وما يذكر بعد النصوص من المصادر الشرعية إنما هو

مبني عليها، مشتق منها، فلا ينسخها ولا يجري الناسخ فيها، لأنها ليست نصوصًا قائمة نص عليها الشرع.

أقسام النسخ

ينقسم النسخ إلى نسخ صريح ونسخ ضمني، والصريح: يصرح فيه بإنهاء الحكم المنسوخ مثل قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، فإن النسخ هنا صريح، ومثله في القوانين الحاضرة أن ينص سن قانون على أن ينتهي العمل بالقوانين السابقة التي في موضوعه، ومن النسخ الصريح قوله في نسخ الاتجاه إلى بيت المقدس:

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

(البقرة: ١٤٢)

ثم قوله بعد:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

(البقرة: ١٤٤)

فنجد هنا تصريحًا بنسخ القبلة الأولى.

والنسخ الضمني: هو أن يتعارض نصان ولا يمكن التوفيق بينهما، بأن يتواردا على موضوع واحد بالسلب والإيجاب، ولا يمكن التوفيق بينهما، وقد علم تاريخهما، فإن المتأخر منها ينهي حكم السابق، ويقول الفقهاء: إن من هذا النسخ الضمني نسخ آية المواريث للوصية للوارث التي اشتملت عليها آية الوصية.

وإن هذا النوع من النسخ الضمني ينقسم إلى قسمين:

* أحدهما نسخ لكل الأحكام التي اشتمل عليها النص المتقدم، وقد ذكروا من ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

(البقرة: ٢٣٤)

فقد ادعى أنها نسخت قوله تعالي:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾

(البقرة: ٢٤٠).

ونحن نرى أنه لا نسخ بينهما: لأن التوفيق ممكن، وحيث أمكن التوفيق، فلا سبيل للنسخ، والتوفيق بأن تكون الأولى خاصة بالواجب على المرأة، وهو الانتظار أربعة أشهر وعشرًا، والثانية موضوعها حق لها، فإن الشارع جعل لها الحق أن تبقى في منزل الزوجية الذي كان يملكه زوجها سنة كاملة لا يخرجها الورثة، وإن خرجت مختارة فلا إثم على الورثة، وذلك واضح بين من النص.

* والقسم الثاني: من النسخ الضمني: هو النسخ الجزئي، وذلك بأن يخرج من عموم النص المتقدم ما يشمله النص المتأخر، وذلك مثل آية حد القذف مع آية اللعان، فإن الأولى بينت حكم القذف عمومًا، وأخرجت منه الثانية ما يكون من قذف الزوج لزوجته وإن في اعتبار هذا نسخًا نظرًا لنص ذلك لأن الفقهاء يعتبرون الخاص

مع العام تخصيصًا ولا يعتبرونه نسخًا أيا كان المتقدم منهما، والحنفية الذين يعتبرون الخاص المتأخر ناسخًا للحكم فى المتقدم العام فى بعض أفراد العام يشترطون التأخر، ونجد آية القذف مقترنة بآية اللعان مما يدل على التخصيص بدل النسخ.

النصوص التى يدخل النسخ أحكامها

اتفق الفقهاء على وقوع النسخ فى السنة، ولم يخالف فى ذلك أحد، فإنه ثبت أن الاتجاه إلى بيت المقدس قد نسخ إلى الكعبة، وثبت أن زيارة القبور كان منهيًا عنها فى السُّنَّة ثم أبيحت، وثبت أن المتعة كانت موضع عفو، ثم جاء النص القاطع بنسخها أما القرآن الكريم فالجمهور على وقوع النسخ فيه، وقد نفى النسخ فى القرآن أبو مسلم الأصفهاني، وقد احتج الجمهور لإثبات النسخ فى القرآن بما يأتي:

* أولا: بقوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

(البقرة: ١٠٦)

فإن هذه الآية تثبت النسخ فى القرآن.

* وثانيا: بوقوع النسخ فعلا كنسخ آيات الميراث لحكم آية الوصية، وقد أحصى السيوطى نحو عشرين آية ادعى النسخ فى أحكامها.

* وثالثا: بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾

(النحل: ١٠١)

فهذه الآية تثبت التبديل، وليس التبديل إلا تبديل الأحكام.

واحتج أبو مسلم بما يأتي:

* أولا: أن النسخ إبطال، فلو نسخ ما اشتمل عليه القرآن لكان فى القرآن ما يجرى عليه الإبطال، والله تعالى يقول:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

(فصلت: ٤٢)

* وثانيا: بأن كل ما اشتمل عليه القرآن شريعة أبدية باقية إلى يوم القيامة، والمناسب لهذه الخاصية القرآنية ألا يكون فيه نسخ.

* وثالثا: أكثر ما اشتمل عليه القرآن كلى عام، لا جزئى خاص، وفى بيان الشريعة كلها بطريق الإجمال لا بطريق التفصيل، والمناسب لذلك ألا يدخله النسخ وما فصله القرآن من أحكام فلأنه يريده مؤيدا لهذا التفصيل كأكثر أحكام الأسرة وما استدل به الجمهور لا يقطع بوقوع النسخ فى القرآن، فقوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾

(البقرة: ١٠٦)

المراد بها المعجزة، وهو أن يأتى الله لنبى بمعجزة لم يأت بها لآخر، ولذلك قال تعالى بعد ذلك:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة: ١٠٦).

وقال سبحانه:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾

(البقرة: ١٠٨)

وهذا يدل على أن الآية المعجزة،

والنسخ إنهاء أمرها وتركها، وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾

(النحل: ١٠١)

والمراد بها المعجزة، وعلى فرض أن المراد من النصين الكريمين الآية القرآنية، فإن الآيتين لا تدلان على وقوع النسخ، بل تدلان على إمكانه، وفرق بين الوقوع والجواز.

والآيات التى ادعى نسخها يمكن التوفيق بينها إما بطريق التأويل القريب، أو التخصيص وإن هذا أولى من الحكم المنسوخ.

وفي الحق أننا قد استعرضنا كل الآيات التى ادُّعى أن النسخ قد جرى فيها، فوجدنا أن التوفيق بينها سهل بضرب من ضروب التخصيص، بل أحيانًا لا يحتاج الأمر إلى تأويل ولا تخصيص كالشأن فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾

(البقرة: ٢٣٤)

مع قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

(البقرة: ٢٤٠)

فإنه لا تعارض مطلقا بين الآيتين حتى يتصور نسخ بينهما، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل [3][4].

***

وفى كتاب الشيخ أبو زهرة (الشافعي) عرض لرأى الإمام الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨٢٠م) رضى الله عنه فى النسخ.. ولرأى أبى مسلم الأصفهانى - الرافض لوقوع النسخ فى القرآن - وفى ذلك قال:

* ولقد أثبت الشافعى أن النسخ يكون فى الكتاب ويكون فى السنة، وأن الكتاب هو الذى ينسخ الكتاب، وأن السنة هى التى تنسخ السنة.

* فى هذه القضية قرر الشافعى أن الأحكام التى جاء بها الكتاب الكريم فيها المنسوخ وفيها المحكم، ولكن من العلماء من يقرر أن القرآن الكريم شريعة محكمة وما من حكم اشتمل عليه إلا وهو ثابت دائم ومن هؤلاء أبو مسلم الأصفهاني، وجمهور العلماء:

(١) يحجونه بقوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

(البقرة: ١٠٦)

(٢) وبثبوت النسخ فعلا فى القرآن كنسخ آية الوصية بآيات المواريث وغيرها من الآيات وقد أحصاها صاحب الإتقان فى نحو عشرين موضعًا.

(٣) وبقوله تعالى:

---

(٣) وفى هذا البحث وافٍ كامل فى كتابنا «الشافعي» عن الكلام فى نسخ القرآن عنده، وقد استعرضنا بعض الآيات التى ادعى نسخها وناقشنا هذا الادعاء.

(٤) الشيخ أبو زهرة، أصول الفقه (ص١٧٠/١٧٩)، طبعة دار الفكر العربي القاهرة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾

(النحل: ١٠١).

وقد احتج أبو مسلم:

(١) أن القرآن لو كان فيه نسخ لكان ذلك إبطالاً لبعض ما اشتمل عليه، والإبطال حكم بأن فيه باطلاً، والله سبحانه وتعالى يقول في وصف الكتاب:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

(فصلت: ٤٢)

وبأن القرآن شريعة أبدية باقية إلى يوم القيامة، وحجة على الناس إلى يوم القيامة، وإنما يناسب ذلك أن لا يكون فيه نسخ، وفي السنة الكريمة متسع للشرائع الوقتية التي تنسخ بغيرها.

(٢) وبأن أكثر أو كل ما اشتمل عليه القرآن كلي عام لا جزئي خاص، وفيه بيان الشريعة كلها بطريق الإجمال لا بطريق التفصيل، والمناسب لهذه الأوصاف في أحكام القرآن ألا يعتريها النسخ، وقد أجيب لأبي مسلم عن أدلة الجمهور بأن قوله تعالى: (ما ننسخ) غير متعينة للدلالة على النسخ، لأنه قد يكون المراد بالآية المعجزة، لا الآية القرآنية، وقد يكون المراد آيات الكتب السابقة التي نسخت المحمدية أحكامها، وقد يكون المراد بالنسخ النقل من اللوح المحفوظ إلى النبي ﷺ ثم كتابته وكلمة النسخ تفيد النقل، وعلى فرض أن المراد بالنسخ رفع الحكم، وأن المراد بالآية، الآية القرآنية - فالآية الكريمة تدل على الجواز لا على الوقوع، ورد الدليل الثاني وهو ثبوت نسخ بعض الآيات القرآنية بأن النسخ ليس متعينًا والتوفيق بين الآيات المدعى نسخها والآيات المدعى أنها ناسخة ممكن بضروب من التأويل قريبة ليست بعيدة، وقد وفق في كل آيتين ادعى النسخ بينهما ورد الدليل الثالث، وهو استشهاد الجمهور بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾

(النحل: ١٠١)

بأن المراد بالآية المعجزة، وهذا هو الذي يتسق مع استنكار الله سبحانه وتعالى لقولهم:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ١٠١)

ذلك لأنهم كانوا يريدون معجزة تكون آية للنبي كآية لوط أو إبراهيم أو موسى وغيرهم مما كانت الآيات لنبوتهم حسية.

والناظر الفاحص لكلام الشافعي في هذا المقام، يراه يبني قصر نسخ القرآن على القرآن، وأن السنة لا يمكن أن تكون ناسخة للقرآن - على مقدمتين:

* إحداهما أن القرآن الكريم من عند الله تعالى بلفظه ومعناه، وهو حجة الله، والنبي هو الذي تحدى به المخالفين أن يأتوا بمثله، فلا مثيل له من كلام البشر.

* (المقدمة الثانية): أن نسخ القرآن يجب أن يكون بمثله أي بما يماثله في الأوصاف التي ثبتت من كونه بلفظه ومعناه من قبل الله تعالى، وأنه يتحدى به، وتنتهي المقدمتان لا محالة إلى نتيجة واحدة متعينة، وهي أن الأحكام القرآنية لا تنسخ إلا بآيات قرآنية.

فالقرآن هو الذي ينسخ القرآن، ولكن السنة تبين نسخ القرآن للقرآن، لأن ذلك من نوع بيان القرآن، والسنة بيان للقرآن، كما قال الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

(النحل: ٤٤)

وكون الناسخ من المنسوخ من بيان القرآن أمر لا مرية فيه، إذ بيان أن حكم الآية باق إلى يوم القيامة أو غير باق من بيان القرآن، ثم إن الناسخ يحتاج إلى بيان المتأخر من الآيتين المتعارضتين في حكمهما، وعلم ذلك إنما يكون عن النبي ﷺ الذي كان ينزل عليه القرآن، ولقد ساق الشافعي طائفة من آيات كريمة دخلها النسخ في رأيه، وبين أن بيان النسخ فيها كان بمعونة من سنة رسول الله ﷺ، دلت على الناسخ والمنسوخ من هذه الآيات الشريفات.

ومما ساقه في ذلك آية الوصية التي شرعت الوصية لوارث.

ولا يرى أبو مسلم الأصفهاني أن آية الوصية وهي قوله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾

(البقرة: ١٨٠)

منسوخة بآيات المواريث، ولقد ذكر الفخر الرازي رأيه في تفسير هذه الآية فقال: منهم من قال: إنها ما صارت منسوخة، وهذا اختيار أبي مسلم الأصفهاني، وتقرير قوله من وجوه:

* (أحدها) أن هذه الآية ما هي مخالفة لآية المواريث، ومعناها: كتب عليكم ما أوصى به الله تعالى من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾

(النساء: ١١)

إذا كتب على المحضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى الله به عليهم، وألا ينقص من أنصبائهم.

* (ثانيها) أنه لا منافاة بين ثبوت الميراث للأقرباء مع ثبوت الوصية بالميراث عطية من الله تعالى، والوصية عطية ممن حضره الموت، فالوارث جمع له الوصية والميراث بحكم الآيتين.

* (ثالثها) لو قدرنا حصول المنافاة لكان يمكن جعل آية المواريث مخصصة لهذه الآية، وذلك لأن هذه الآية توجب الوصية للأقربين، ثم آية المواريث تخرج القريب الوارث، ويبقى القريب الذي لا يكون وارثًا داخلاً تحت هذه الآية، وذلك لأن من الوالدين من يرث ومنهم من لا يرث بسبب اختلاف الدين والرق والقتل، ومن الأقارب الذين لا يسقطون في فريضة من لا يرث بهذه الأسباب الحاجبة، ومنهم من يسقط في حال، ويثبت في حال إذا كان في الواقعة من هو أولى بالميراث منهم، فكل من كان من هؤلاء وارثًا لم تجز الوصية له، ومن لم يكن وارثًا جازت الوصية له لأجل صلة الرحم، فقد أكد الله بقوله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾

(النساء: ١)

وبقوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾

(النحل: ٩٠).

* وقبل أن نختم بيان آراء الشافعي في النسخ نشير إلى أمرين جديرين بالاعتبار يجعلان له المكان الأول في الاجتهاد:

* أحدهما: أن الشافعي في رسالته قد حرر معنى النسخ فيما ساق من أدلة وأمثلة، فميزه عن تقييد المطلق، وتخصيص العام، وجعلهما من نوع البيان، وكثير من المتقدمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يسمون تقييد المطلق نسخاً، وتخصيص العام نسخاً، حتى كان منهم من يجعل الاستثناء نسخاً(٥) وهكذا. فلما جاء الشافعي حرر معنى النسخ، وميزه من بين تلك الإطلاقات الواسعة التي كان بإدماجها فيه غير متميز، وجعل التخصيص والتقييد من باب بيان المراد بالنص، وأما النسخ فهو رفع حكم النص بعد أن يكون ثابتاً، ولا شك أن ذلك سبق للشافعي يذكر له، وهو يتفق مع عقله العلمي ونظرته للمسائل نظرة علمية دقيقة تتجه إلى تمييز الكليات وتخصيصها.

* ثانيهما: أن الشافعي درس النسخ من ناحية وقوعه في الشرع الإسلامي فهو قد استقرى المسائل التي رأى أن فيها نسخاً واستنبط منها أحكام النسخ وضوابطه، فأصل أصوله في هذا الباب على ضوء ذلك الاستقراء.

وإنك لتستبين ذلك في أكثر ما كتب، ولذلك لم يخض في مسائل نظرية كالتي خاض فيها الأشاعرة والمعتزلة من علماء الأصول الذين جاءوا من بعده(٦).

---

(٥) عقد الشاطبي لمعنى النسخ في عبارات المتقدمين فصلاً قيماً وقد قال فيه إن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين. فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم نسخاً، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل متأخر نسخاً، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد. وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخراً، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به. وهذا المعنى جار في تقييد المطلق، فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده فلا إعمال له في إطلاقه بل العمل هو المقيد فكأن المطلق لم يفد مع تقييده شيئاً فصار مثل الناسخ والمنسوخ وكذلك العام الخاص فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد. ولابد من أمثلة تبين المراد فقد روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ (الإسراء: ١٨) إنه ناسخ لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ (الشورى: ٢٠) وهذا على التحقيق تقييد لمطلق إذا كان قوله تعالى: ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ مطلقاً ومعناه مقيداً بالمشيئة، وهو قوله في الأخرى ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فهو خبر والأخبار لا يدخلها النسخ. وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤) إنه منسوخ بالنهي عن زواج المرأة على عمتها أو على خالتها وهذا من باب تخصيص العموم.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨) إنه نسخ من ذلك التي لم يدخل بها بقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ (الأحزاب: ٤٩) والتي يئست من المحيض والتي لم تحض بعد بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ٤) وفي كل هذه الأمثلة ترى أنه أطلق على تقييد المطلق والتخصيص العام اسم النسخ.

٦. الشيخ أبوزهرة. الشافعي (ص ٢٥٤ - ٢٦٦) طبعة دار الفكر العربي القاهرة (١٩٧٨م). وانظر في تفصيل ذلك: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.

نظرات في الإسلام

في الزكاة



الدكتور محمد عبدالله دراز

الزكاة هي ثالث أركان الإسلام الخمسة، وإذا كانت الشهادتان بمثابة غرس للعقيدة، وتثبيت لأصولها في أعماق القلب.

وإذا كانت الصلاة بمثابة رباط متين بين الإنسان وخالقه، وترويض للنفس على النظام والطاعة، وللقلب على الخشوع في غير مذلة، وتهذيب للخلق وصهره في بواتق الديمقراطية الخالصة.

فإن الزكاة لبمثابة الضريبة الإنسانية، يدفعها المقتدر إلى مستحقيها، ليحيي بها نفوساً، ويشبع بها بطوناً، ويمسح بها دموعاً، ويزيل بها آلاماً.

والزكاة غير الصدقة. فالصدقة يدفعها المسلم متطوعاً، وهو حر حين يدفعها، كبيرة كانت أم صغيرة، لا يتقيد بقيود، ولا يخضع لشروط، فهي تنبع من الإحساسات والمشاعر والعواطف وتدفع كلما أحس المسلم نحو المحتاج بمزيج من العاطفة والشفقة، وللصدقة مثوبتها عند الله، وأجرها يبدأ من عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف.. إلى ما شاء الله ويكيف هذا الأجر ظروف الصدقة ودوافعها وأهدافها.

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٦١)

أما الزكاة، فهي أشبه ما تكون بالضريبة الإنسانية، يدفعها من يملكون نصابها إلى بيت مال المسلمين، ليتولى صرفها في أوجهها، وقد روعي في أوجه الصرف هذه أن تمت معظمها إلى الإنسانية بصلة، فالإسلام دين إنساني قبل كل شيء:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠).

وإذا كان المسلم حرًا إزاء الصدقة، له أن يبذلها متى يشاء وأينما أراد، فليس له هذه الحرية إزاء الزكاة، لأنها فرض عين مقدس، ما دام فى الدولة حكومة إسلامية قائمة تنظم سياستها المالية: ولقد فكر بعض المنافقين فى أوائل عهد الخليفة الأول، أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- فكر هذا البعض فى التمرد على الزكاة وامتنع عن دفعها، فلم يتوان الخليفة لحظة فى قتالهم رغم معارضة عمر -رضى الله عنه- ولقد قال الصديق وقتذاك:

«والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم عليه»!

وكيف يتوانى خليفة المسلمين فى مقاتلة المرتدين الذين يريدونها فتنة بتمردهم على الزكاة، لا يعلم خطرها إلا الله وحده؟

وإذا لم يوجد فى الدولة بيت مال للمسلمين، فليس معنى هذا أن يصير المسلم فى حل من دفع ما عليه من الزكاة، بل يجب أن يصرف ما عليه فى تلك المصارف الثمانية التى حددها القرآن أو فى بعضها، والله سائله عن ذلك ومحاسبه عليه حسابًا دقيقًا، وهذا هو الرسول ﷺ يقول كما روى أبو ذر عنه، قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، قال: «والذى نفسى بيده»، أو «والذى لا إله غيره» أو كما حلف «ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها، كلما جازت أخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضى بين الناس» (رواه مسلم).

إن فريضة الزكاة بمثابة رابطة بين الإنسان وربه من ناحية، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى، وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم، حتى يؤدى الزكاة، وإلى أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونًا متساندًا، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

إن الشرائع بأسرها، سماوية كانت أم وضعية، لم تتضمن تشريعًا كتشريع الزكاة الذى تضمنته شريعة الإسلام، هذا التشريع الإنسانى الذى يفرض على المسلم الغنى ضريبة مقدسة، يفيد منها المجتمع الذى يعيش فيه، وتفيد منه الدولة التى ينتسب إليها.

الإسلام يدعو المسلمين جميعاً إلى الوحدة، ويعتبر أن جميعهم تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم، وهذا هو التضامن الجماعى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢).

والإسلام فرض الزكاة، لتكون بمثابة

ضريبة إنسانية مقدسة، يبذلها الغنى، ويفيد منها المجتمع والدولة، حتى لا يعيش مسلم معدمًا محرومًا، ولا يبقى غنى أنانيًا جشعًا، وهذا هو الضمان الاجتماعى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

(المعارج: ٢٤).

زكاة الفطر

إن زكاة الفطر لتضمن جانبًا إنسانيًا، له أهميته فى نظر الإسلام، وأثره فى حياة الأمة الإسلامية، إنه نظام الصدقات والزكوات الذى كتبه الإسلام فى نهاية رمضان. ليكون مخباراً لإيمان الصائم، ومقياساً لمدى تأثر نفسه بالصيام، فالصوم يهدف إلى تنمية الإحساسات والعواطف فى النفس، حتى تحس بآلام غيرها..

وإنه لتشريع فذ فى بابه، لا أقول إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب، بل أقول إنه لا نظير له فى التشريعات الإسلامية نفسها، ذلك أن الزكاة فى العادة إنما تفرض على الأغنياء فى فضول أموالهم، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء، يواسى بها الغنى الفقير، ويواسى بها الفقير من هو أفقر منه، فكما كانت ضريبة الصبر والزهد فى رمضان فرضًا على الجميع، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾

(الطلاق: ٧).

هكذا كما يتساوى المسلمون فى الجوع والعطش، يجب أن يتساووا فى الشبع والرى.

إنى أدعوكم إلى التفكير مليًا فى سر هذا التشريع، لتعلموا أنه تشريع مثالى، يخلق المجتمع المثالى. انظروا إلى هذه التربية العملية على الوحدة والمساواة مرتين. تتنازل الأمة كلها جملة واحدة، لتذوق مع المحرومين طعم العوز والحرمان، ثم تصعد الأمة كلها آخذا بعضها بأيدى بعض، لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان، تتذوق مع المتذوقين طعم الارتقاء الذى يليق بالإنسان.

وهذه هى تعاليم الإسلام فى نصها وروحها. وإنها لتجربة لها ما بعدها.

لقد رسم الإسلام لنا طريق العزة والكرامة. فهل من وسيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمه؟ وهل لجماعات البر فى الإسلام، ولسائر منظماته وحكوماته أن تبذل جهدًا فى تحقيق هذه المثل العليا؟

الله، الكون، الإنسان.. والنبوة



للعلامة: محمد فتح الله كولن

إن قراءة الوجود والأحداث قراءة جيدة وتفسيرها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقة الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ «كل»، والفهم التام لتجلي الأشياء ـ التي بعضها نماذج للبعض الآخر ـ في صورتها العمومية، والقوانين الوحدة التي هي ذات صفة كونية ومحيطة بالموجودات.. كلّ ذلك إنما تيسر للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام ـ عليه أكمل التحايا ـ وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة.

وإذ لازالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروف الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإن الأنبياء وقفوا مليًا ـ وبجد ـ على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها، فبعضهم أجمل وبعضهم فصّل، وذلك بجهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغات المتوالية من «الماورائيات».

ولم يبلّغ الأنبياء هذه الحقائق بطرق البحث العلمية الشائعة في العصر الحالي ولا بالمناهج التجريبية، بل بلغوا هذا العلم والمعرفة بفضل سعة قلوبهم وعلاقتهم الخاصة بالله تعالى، إلى جانب كمال عقلهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم، كمالاً يتعدى حدود التصور الإنساني، فرأوا أن الوجود كله في تصرف قدرة قاهرة، وأطلوا على وحدة العلم والإرادة المهيمنة في كل مكان وكل شيء، وقرءوا وفسروا الشهود والمعالم والإشارات المنادية بالواحد الأحد في سيماء كل الأشياء والأحداث، ثم أعلنوا أنهم دعاة التوحيد في المشاعر والفكر والاعتقاد.

ومن العسير أشد العسر، الادعاء بأن العلم قد أتى بشيء يُذكر حتى الآن في العلاقة بين حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية، تلك الحقيقة التي أخبر بها

الأنبياء منذ مئات القرون.. فالعلم لايزال يحبو في كثير من المواضيع، ويصحح غدًا ما يعده صوابًا اليوم، ويسعى إلى تقويم الغلط المجزوم به بالخطأ المحتمل، بل يراجع نفسه بنفسه باستمرار، ويصون مسلماته النسبية بفرضيات مختلفة، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود تحليل الجزئيات مهما حاول ذلك.. فنستطيع أن نقول: إن العلم لم يضع حتى اليوم حكمًا ثابتًا في هذه الموضوعات التي تطرّقنا إليها بحيث لم يضطر إلى تبديله لاحقًا.. فلم يوفّق العلم في التعبير عن الحقيقة المطلقة البتة، وإن ما بلغه لا يزيد على أنه زاد وذخيرة للمسافرين وقرض حسن للباحثين.

وأنبه هنا إلى أنني لا أقصد بما قلته التهوين من شأن العلم وثمراته، أو الانتقاص من أهمية المباحث العلمية، بل تعتقد أن العلم وثمراته منظومة قيم هامة جدًا وتستحق التوقير والتقدير.. فالمقصود هو التذكير إلى مصدر للعلم لا يلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ في ما يقوله ويرشد إليه.. ألا وهو مصدر «النبوة» التي احتفظت بنداوتها أبدًا، باستثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة.. إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف ـ من منظور كلي وبتقويم شمولي ـ أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نستقبل ذلك بالتقدير والتوقير، لكنّ جمعًا من المجهزين بجهاز خاص، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان ـ ولو بشكل إجمالي ـ هذه المعلومات والتفسيرات التي توصّل إليها العصر باستخدام أعظم التكنولوجيات.. فإذا كان هناك قسم من الجهات العلمية لم يلتفتوا إليها أو لم يوقروها التوقير اللائق، فإننا نرفع عند ذاك أصواتنا ـ في حدود أدبنا ـ فوق أصواتهم، ونجهر بأعلى صوتنا بما نراه حقًا.

فكم من حقيقة أظهرها العلم الحديث، قد بلّغها الأنبياء منذ القدم في صور متنوعة وإن في فذلكات مجملة، بنظر كلي، واستنادًا لدنياتهم الرحيبة المنفتحة للوحي وإلى أعماق الفطانة المتميزة.. فأينما وقعت البحوث المنجزة بالمختبرات الحديثة والتكنولوجيات المتقدمة من الحقائق التي أعلنوها وحيثما وقفت منها، فإن ملايين البشر لا زالوا يقومون الأمور بموازين تبليغاتهم وتفسيراتهم، ويسيرون على خطاهم.. وفي الطرف الآخر، فإن أحدث الفرضيات المطروحة باسم العلم والفلسفة، تتغير كل يوم بنظريات جديدة مختلفة.. ويعني هذا أن رجال العلم الحاليين يناقشون زملاء أمسهم ويضعون ما توصلوا إليه على المحك.. وبدهي أن نظريات بدت ثابتة ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشة والمساءلة لتحل محلها آراء جديدة مختلفة، فترحل مسلمات كانت تصان في حدقات العيون باسم العلم، متهاوية واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسلمات أخرى تحط واحدة بعد أخرى! أما الحقائق التي بلّغها الأنبياء، فما فتئت تحتفظ بجدارتها ـ ما خلا تفسيرات

تعيسة لمنتسبين ضيقى الإدراك ـ باعتبارها أسسًا ثابتة لازالت ترجع إليها أبدًا، وذلك بأنها تستند إلى تبليغات ورسالات أتت من لدن ذات أجل الأجلاء وأعظم العظماء ـ سبحانه ـ الذى نظم الوجود كله كمشهر وكتبه ككتاب وزيّنه كقصر منيف.

لذلك، لابد فى الإدلاء بالمعلومات فى حق الإنسان والوجود والخالق، من ترك المجال لهؤلاء المجهّزين بجهاز خاص «عليهم أفضل الصلاة والتسليمات»، والمرتبطين بروابط خاصة مع صاحب القدرة المطلقة كما أنه ينبغى أن لا يقوم غيرهم بإبداء البيانات حول ماهية ومعنى ما وراء ستار الوجود وما أمامه.

وبدهى أن من أهم وظائف هؤلاء تعيين وتثبيت المناسبات والتوافق والانسجام بين الكائنات والأحداث وبين حياة الإنسان وسلوكياته، وكذلك، إثبات الذات الأحدية ذى القوة، القيوم على هذا التوافق المنسجم، وتعيين مسئوليات الإنسان تجاهه.. فإنهم هم الذين استطاعوا أن يجيبوا ـ على أصدق وجه وبأسلوب مقنع ـ على الأسئلة حول الوجود وبخاصة الإنسان: من أين جاء، وإلى أين راح ويروح، ولم جاء ولم راح؟

ولذلك، لا مناص لنا من اللجوء إلى تبليغات رسل الحق تعالى وحدهم لا غيرهم، لبيان أصح المعلومات وأصوبها فى قضية الغاية والحكمة من وجودنا فى الأرض، وقواعد المسير التى ينبغى أن نلتزم بها فى الطريق ومنتهى هذا الطريق.. فإذا استطعنا ذلك فسنفهم ـ تمامًا ـ القصد والغاية من حركة الكائنات فى دائرتها الوسيعة الرحيبة، وسندرك جيدًا ما وراء ستار الوجود وما ينطوى عليه، والمجىء والرواح المتعاقبين فى الأرض والمذهلين للعقول، فنصل إلى الاطمئنان والراحة والسلامة فى المشاعر والأفكار.. اطمئنان وراحة وسلامة نابعة من العلم والتقويم لظاهر الوجود وباطنه، ولما أمامه ووراءه، ومن إدراك موقعنا ومكانتنا على الأرض باعتبارنا جزءًا مهما من الكائنات، حتى نتوافق مع الانسجام العام السائد فى الأشياء والحوادث، ومن توجهنا إلى الذات العلية الذى أعد الأسباب والوسائل لسعادتنا الدنيوية والأخروية، ومن اعتصامنا به، ومن إيماننا بتحقق رغبات الأبدية التى تحن إليها جوانحنا، وبالتالى توقينا الدائم من الانكسار والخذلان.

إن سبل اكتساب العلم ووسائله الموهوبة للإنسان معينة ومتحصرة.. وجلى أن العلوم المكتسبة بهذه الوسائل المحدودة، محصورة بطبعها وستبقى محصورة.. وأرى أننا سنعجز بهذا القدر من العلوم والمعارف عن فهم الانسجام العام وجوهر النظام الموزون السائد فى الأرض، بله العجز عن إدراك غاية خلقنا وحكمة وجودنا فى الدنيا وأصل النكتة فى مناسباتنا مع الكائنات.. والحال أن الإنسان يحمل على أكتافه مسئولية تنظيم حياته وفاقًا لسنن «نظام الكون» المهيمنة على الوجود كله، وطبقا لغايات علوية بموجب موقعه بين الخلق، كما هو ملزم بتنظيم حياته وفقًا لما يقتضيه موقعه ومكانته فى الوجود.. فما لم يسلم هذا الإنسان زمام أمره إلى دليل هادٍ، عارف بيوم هذا السفر المجهول وغده، وبمقدمته ومؤخرته، فإنه سيقع لا محالة فى أخطاء كثيرة وضنك شديد فى مسيرة حياته فى طريق الصعود والهبوط والمنعطفات والمتاهات ذات مجاهيل وأهوال كثيرة، بل قد لا يبلغ ـ البتة ـ الغاية المقصودة من خلقه.

فنحن الذين نعجز عن التنبؤ الجازم بما يلاقينا من الفجاءات المحتملة إبان سيرتنا فى طريق الحياة، ستخور قوانا وتنقطع بنا السبل، ولا ننجو من التيه والضلال، وسنغلط فى قراءة كتاب الوجود، ولا نطّلع على معرض الكائنات بنظر يرجع بالبركة، ولن نفهم معنى قصر الدنيا المنيف وفحواه وأسرار بواطنه، ما لم نطع المرشدين والرسل الذين أرسلهم خالقنا الرحمن الرحيم الذى جاء بنا من «عوالم أخرى» ليحط بنا هنا فى هذا العالم، ثم يسوقنا من هنا إلى ديار أخرى».. بل زد عليه أننا سنتبط الأشياء والأحداث ـ وكل منها من خوارق القدرة ـ وتظاهرات الحوادث وتحولاتها المختلفة بقوانين الطبيعة، فتتراءى لنا عندئذ تلك الخوارق البديعة أمورًا عادية ويدلهم الظلام فى آفاقنا.

إن رسل الحق الهداة، والمحظوظين المقتدين بهم، هم الذين قرءوا الوجود والحوادث قراءة صحيحة دومًا، وسبروا أغوار الجوهر مخترقين الشكل والصورة، ونفذوا إلى لب الأشياء وشاهدوا المعنى فى المادة، فاطلعوا على بواطن كل شىء مع ظواهرها.. وبتعبير آخر: إنهم ـ فى تفسيرهم للوجود ـ ركزوا على المحتوى باستمرار، واستلهموا إشارات من أشعة التجليات المختلفة الموجات والتى تبدى المؤثر فى كل أثر.. ولأنهم مضوا فى سبيل سياحتهم وتفكرهم الروحى مشدودين إلى الخالق الجليل، فقد طوروا أجزاء العلم التى حصلوا عليها، فحولوها إلى المعرفة الإلهية، وخاضوا فى مناسبات وروابط قلبية قوية مع المعروف ـ سبحانه ـ وفاقًا لأفق العرفان الذى بلغوه، فبلغوا «أنسا» وافيا بكل شىء فى أجواء كالجنان، فتوجهوا إليه تعالى وهم فى شبوب مشاعر كأنهم تحت شلاّل محبة عميقة وذوق روحاني، فى كل آن ولحظة.

فالسعداء هؤلاء، لهم نظر خاص إلى الوجود وما وراء الوجود، فهم يطلعون على كل شىء بأنوار البصيرة، ويقومون الأشياء والأحداث فى الدائرة التى وضعتها فيها قدرة الخالق تعالى، ويتناولون كل شىء بحقيقته فى نفس الأمر «بحقيقة جوهره»، وإذ يفسرون الوجود بفهم شمولى ينتظم كله وجزءه، يعتنون بتوازن كل الأشياء فيما بينها وتناسبها، وبروابطها بالخالق تعالى، فلا يقعون أبدًا فى تناقض داخلي.. ولذلك، هؤلاء وحدهم أفلحوا مدى الدهر فى النظر الصائب والفكر الصائب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية، فهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا التوحيد بجميع ضرورياته ولوازمه، وهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا الموازنات السليمة بين الأسماء الإلهية والصفات السبحانية والشئونات الذاتية مع الذات

الإلهية.. وكذا هم وحدهم عبروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصيات دائرة الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجليات مختلفة لنبع واحد.

ولولا أن تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجزت أخصب الأدمغة - على توالي العصور والدهور ومع أعظم الهمة والجهد - عن تحصيل مثل هذه الحقائق قطعًا وبتاتًا، بل عجزها ظاهر للعيان بواقع الحال!

وإني لا أجزم منذ الآن، بما قد يطرأ من التغيرات على التفسيرات الحالية للجهات العلمية جراء التوسع في وجهات النظر، نتيجة للتطورات العلمية في المستقبل، لكن الظاهر عيانًا هو أن دوام الحال - كما هو الآن - محال! ويا ليت أن البشرية التي عاشت في حيرة وغفلة هائلة حتى اليوم، التفتت هنيهة إلى التبليغات الإلهية وتفسيرات الأنبياء في شئون تتجاوز إدراك البشر مثل حقيقة الوجود وما وراء الوجود، وتخلصت مما تتخبط فيه من الجو الخانق الذي تثيره المعلومات المضللة، وحلقت في سماء الإلهامات النبوية.. فلعل الإنسان عند ذاك كان سينجح في النظر نظرًا أصفى إلى حقيقة الوجود، ويدرك موقعه ومسئولياته في الكون، ويفهم ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ويعي مناسبات الأشياء فيما بينها، والتناسب السائد والانسجام العام في الأوامر التكوينية.. فلعله بذلك كان سيعيش وتيرة الدخول إلى المناسبات مع خالقه تعالى من جهة، ويمتنع عن مخالفة النظام السائد في الكون برمته فلا يتصادم مع الوجود من جهة أخرى لكن بني الإنسان - وبخاصة الأنفس العاصية في عصرنا هذا - لم يحققوا هذا التوجه السائد، بل عَقّوا الله وعصوه، وبقوا متناقضين مع الأشياء والحوادث، فلم ينجوا من العذاب البتة، وما كان لهم أن ينجوا فكيف، ووسائل العلم الممنوحة لهم محدودة، وإمكاناتهم في حل المشكلات التي تواجههم يسيرة؟ فليس لهم أن يكتشفوا بما يملكونه من الوسائل والإمكانات التي هي أسباب العلم إلا النزر اليسير من الوجود، مع التعرض للغلط والتصحيح المستمرين، وهو ما حصل.

وكان ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تمام الكائنات المحيطة به، والعالم الذي يعيش فيه، والنظام الموزون، وانسجام الأشياء عموما فيما بينها.. ينظر إليها حسب سعة الكائنات وتداخل الأحداث، ثم حسب رحاب رغباته وطلباته وآماله، وليس بقدر ضيق أفقه وانحصار علمه وتبدل أفكاره.. حتى لا يخيب رجاؤه في الحياة التي يعيشها، وفي الطريق الذي يسير عليها، وفي آماله التي يترقبها بطبيعته في نهاية الدرب لكنه خاب وخسر مرات ومرات، ولازال..! ولن ينجو من الخيبة والخسران ما دام غير مبال بطريق سيره وبمصيره.

فإن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والذي سيرحل منها إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلى معرفة فوق المعرفة الإنسانية، بل فوق الزمان والمكان، حتى يديم السير بأمان وثقة من غير ضياع وتلكؤ وشدة وقلق، في

هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة. والحال أنه في الغالب مسكين عاجز أشد العجز، وجاهل بما قد يلاقيه بعد خطوتين، حتى في هذه الدنيا التي يزعم أنه يعرفها معرفة مكينة! إذن لا يمكنه البتة أن يبلغ إلى ما يتمنى في هذا الطريق الذي يتطلب برنامجًا وخطة وطيدة فالمسير طويل طويل، والمحطات كثيرة كثيرة، والطريق وعرة، والجبال شاهقة والمهاوي سحيقة فهل من حاجة إلى بيان للاستدلال على ضرورة وجود هداة عارفين بآداب الطريق وأركانه في هذا المسير الشاق إلى المنزل الحق؟

وقد حمل الأنبياء كلهم رسالة الهداية هذه على مر الزمان، فنشروا الأنوار في طريق سير الإنسانية، وكشفوا الغطاء عن أنظار السائرين في الدرب، وأضاؤوا آفاق أتباعهم في حقيقة «الله والكائنات والأشياء»، فأنقذوهم من حزن الوحدة وقلق جهل المصير.

لقد خطت كل حركة نبوية طريقًا مشتركًا في القضايا الأساسية منذ الإنسان الأول الذي هو النبي الأول: فنبهت - بلا فتور - إلى الأساسيات، كالتوحيد والبعث والنشور والنبوة والعبودية والعدل.. وأدامت الإرشاد والتنبيه وأنواع التحذير بشأن المسائل التبعية حسب الزمان والشروط العامة ودرجة النضج الإنساني، ولفتت - دائما - أنظار أتباعها إلى الأهداف السامية أبدًا فخط الاستقامة في الحياة الدينية واحد من حيث الأساسيات، أما التفريعات فثم شيء من الاختلاف الذي هو في ذاته ضروري ولازم.

والقرآن هو النداء الأخير والرسالة الأخيرة للإنسانية التي بلغت أشدها هذه الرسالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسيات المحكمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووعدت باستيعاب متطلبات الأزمنة والأمكنة كافة فختمت كتاب الدين فعلى الإنسانية من بعد أن تستمر في المسيرة على نور هذه الرسالة الأخيرة، وأن تستخدم طاقة التطوير والتغيير مربوطة بنظامها، وأن تحقق كدح الوصول إلى الحقيقة المطلقة تحت وصايتها.

نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة «مفخرة الإنسانية» ﷺ. الآذان تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم! الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص.



الأخلاق العالمية: مداها وحدودها



د. طه عبدالرحمن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس - المغرب

العلمانية والأخلاق العالمية

معلوم أن العلمانية تأخذ بمبادئ ثلاثة أساس هي: «مبدأ تخصيص الدين»، و«مبدأ تعدد الحقيقة»، و«مبدأ سلطة العقل». فيتعين أن تبين كيف أن كل واحد من هذه المبادئ يفيد فى إقامة الأخلاق العالمية.

ا- مبدأ تخصيص الدين: مقتضى هذا المبدأ الأول أن الدين، كما هو معروف، شأن يدخل فى الدائرة الخاصة للفرد، وتمتاز العلمانية على «برلمان الأديان» بكون تعاملها مع هذا التخصيص يأتى متسقًا غير متناقض، فهى تدعو إلى هذا المبدأ وتعمل بمقتضاه، فى حين أن هذا «البرلمان» يدعو إلى نقيضه -أى أن الإيمان الدينى مشترك بين المتدينين كلهم- ولكنه لا يعمل بمقتضاه.

وتترتب على مبدأ تخصيص الدين نتائج تصرف شبهة «الذاتية»(١) عن الأخلاق العالمية التى يتولى العلمانى إنشاءها:

- أولاها، أن الدين لا يتعدى إلى الآخرين، فمن منظور العلمانية، إن وجود المتدينين فى مؤتمر عالمى يقرر وضع وثيقة أخلاقية تشمل غيرهم، هو كعدم وجودهم فيه، إذ بات وجودهم فيه لا يؤثر فى مضمون هذه الوثيقة العالمية إلا كما يؤثر وجود غير المتدينين فيه.
- والثانية: أن الدين لا يقترن بمعاملة، مادامت العلمانية تنكر العمل الديني، فإنها لا تقبل مطلقًا أن يكون لهذا العمل أى امتداد خارج الدائرة الخاصة، بحيث يؤثر فى المعاملات التى تجرى بين المتدين وغيره.
- والثالثة، أن الدين لا يتولد منه خلق عالمي: لما كان الدين، بحسب العلمانية، أمرًا ذاتيًا، فواضح أنه لا يمكن أن يورث إلاَّ خلقًا من جنسه، أى خلقًا ذاتيًا، فى حين أن الخلق العالمى لا يمكن أن تنهض به ذات واحدة، بل ينبغى أن تشترك فى النهوض به ذوات متعددة بفضل ما يقوم بينها من روابط.

ب- مبدأ تعدد الحقيقة: مقتضى هذا المبدأ الثاني، أن الحقيقة ليست لها تجليات متعددة فحسب، بل إنها متعددة فى ذاتها، وتفضُل العلمانية «برلمان الأديان» من جهة أن موقفها من تعدد الحقيقة الدينية، هو الآخر، متماسك غير متضارب، إذ أنها تلاحظ ظاهرة تعدد الديانات، وترى أن مشروعية هذا التعدد لا تقل عن مشروعية تعدد الثقافات؛ فى حين أن «برلمان الأديان» يسلم بواقع التعدد الديني، ولكنه يسكت عن مشروعيته.

تلزم من مبدأ تعدد الحقيقة نتائج تصرف شبهة «الإطلاقية»(٢) عن الأخلاق العالمية التى يتولى العلمانى تأسيسها:

- أولاها، أن الحقيقة متغيرة غير ثابتة، ذلك أن ظروف المكان وصروف الزمان التى لا تفتأ تتقلب تؤثر فى الحقيقة، فتتبدل بتبدلها، وعلى هذا، فإن الأخلاق العالمية التى يأخذ بها العلمانيون، لابد أن تكون أخلاقًا مقترحة تقبل التعديل، ويكون الاتفاق عليها اتفاقًا يقبل المراجعة، بحيث توفر لها هذه الحركية من أسباب الاغتناء والاستمرار ما لا يتأتى لغيرها من الأخلاق التى تجمد على الوجه الواحد، بدعوى استنادها إلى حقائق مطلقة.
- الثانية، أن التعدد يوجب التسامح، لما كان العلمانى يقرر أن الحقائق الدينية متعددة، فهو لا يكتفى بالتسليم بأن للآخر الحق فى أن تكون له حقيقته، بل أيضا يعتقد أن حقيقة الآخر تحمل من الصواب ما تحمله حقيقته، وأن حقيقته تحتمل من الخطأ ما تحتمله حقيقة الآخر، من غير أن يلزم من ذلك ضعفُ اعتقاده فيها.
- الثالثة، أنه لا دين يفضل غيره، ليس اختلاف الأديان، حسب العلمانية، اختلافًا فى الحق، وإنما هو اختلاف فى الباطل، والباطل واحد ولو تعددت أشكاله، ولما اشتركت الأديان المختلفة فى الباطل، بل تساوت فيه، تعيَّن الاجتهاد فى تحصيل الأخلاق العالمية باستقلال عن الأعمال التعبدية المقررة فيها.

ج- مبدأ سلطة العقل: مقتضى هذا المبدأ الثالث أنه لا مرجع يصح الاحتكام إليه للبت فى القضايا سوى العقل، مادام الناس لا يشتركون بالسوية فى شىء اشتراكهم فيه، وتفضُل العلمانية «برلمان الأديان» من جهة أن موقفها من علاقة الأخلاق بالعقل، هو كذلك متسق غير متعارض، على خلاف موقف «برلمان الأديان» منها، فلما كانت الأخلاق المطلوب تحصيلها أخلاقًا مشتركة بين الأمم جميعًا، فقد اعتبرتها العلمانية عقلية، فى حين اعتبرها هذا البرلمان أخلاقًا دينية، مع أن الأديان تختلف باختلاف الأمم.

تتفرع على مبدأ سلطة العقل نتائج تصرف شبهة «اللاعقلانية» (٣) عن الأخلاق العالمية التى يتولى العلمانى وضعها:

أولاها، أن العقل يفصل فى كل شىء: يرفع العلمانى عن العقل كل حد، بحيث لا شىء يمتنع عن إدراكه، دافعًا

(١) المقابل الإنجليزي subjectivism

(٢) المقابل الإنجليزي Absolutism

(٣) المقابل الإنجليزي Irrationalism

كل وسيلة أخرى تقوم مقامه، وبالأولى تجاوز رتبته، ومتى صار رأيه في العقل بهذا الوصف، فإن توسله به في استقراء أخلاق عالمية يجعله يركن إلى صحة وفائدة ما استقرأه، بموجب اعتقاده أن العقل لا يفتأ يصحح نفسه.

الثانية، أن العقل يوجه نفسه: يرى العلماني أن العقل لا يحتاج إلى أن يستمد من خارجه القيم التي تسدد أفعاله وتحدد مقاصده. وعلى هذا، تكون الأخلاق العالمية التي ينشئها موجَّهة بقيم مأخوذة من داخل العقل نفسه، مثلها في ذلك مثل الوسائل التي تمكنه من إنشاء هذه الأخلاق.

الثالثة، أن العقل يسوى بين النصوص الدينية: لا يرى العلماني للنص مكانًا مع العقل إلا أن يكون تابعًا له وخاضعا لحكمه، ولما كانت النصوص الدينية عنده تخالف أكثر من غيرها مقتضيات العقل، فقد تساوت في قيمتها، فالأمر الذي يمكن أن يفاضل بينها ويقدم بعضها على بعض، وهو أسباب العقل، مفقود فيها أصلا بحسب اعتقاده، فإذن «اللاعقل» الذي أنتجها لا يمكن إلا أن يكون شيئًا واحدًا ولو تعددت ألوانه.

وهكذا، نخلص إلى أن العلمانيين أقدر من المتدينين واضعي الإعلان السالف الذكر، على النهوض بالأخلاق العالمية، ذلك أنهم يحافظون على تمام الإتساق في مواقفهم من معاني «الدين» و«الحقيقة» و«العقل» في علاقتها بالأخلاق بما لم يحافظ عليه هؤلاء، كما أنهم يجتنبون الشبهات الثلاث: «الذاتية» و«الإطلاقية» و«اللاعقلانية» التي تدخل على موقف هؤلاء، فإذا اختار المتدينون - كما فعل «برلمان الأديان» - أن يجردوا الأخلاق العالمية من الدين، استرضاءً لمن لا يتدينون، لابد أن يختل منطقهم، وبالتبع، لابد أن يفقدوا مشروعية الكلام فيها.

بعد أن فرغنا من الجواب عن السؤال الأول، وظهر أن الإعلان من أجل الأخلاق العالمية لا يحقق للدين أى تمكين في العالم، بحيث يكون العلمانيون أولى بإصداره من المتدينين، نمضي إلى الجواب عن السؤال الثاني عما إذا كان هذا الإعلان يحقق للأخلاق تقدمًا ما.

«الإعلان» والإخلال بشرط التقدم الخلقي:

الواقع أن هناك مظاهر ثلاثة لإخلال هذا الإعلان بشرط التقدم الأخلاقي:

- أولاها، أن بعض القيم التي طلب الإعلان تحصيلها، لا يستطيع أن يحققها مثل «السلام العالمي».
- والثانية، أن القيم التي حصلها بالفعل هي أقل من اللازم.
- والثالثة، أن القيم التي كان يجب أن يحصلها، لم يحصلها مثل «الإيمان» فلنبسط الكلام فيها واحدًا واحدًا.

مظاهر الإخلال بشرط التقدم الخلقي:

- المظهر الأول لهذا الإخلال، هو أن الإعلان لا يقدر على تحقيق السلام العالمي، إذا رجعنا إلى كتاب «مشروع الأخلاق العالمية» الذي وضعه «هانز كونغ» والذي انبثق عنه الإعلان المذكور، وجدنا أنه وضع له عنوانًا إضافيًا هو: السلام العالمي بواسطة السلام بين الأديان، ثم افتتح مقدمته بمسلمات أربع صرح بثلاث منها وأضمر واحدة، وهذه المسلمات هي:

- «لا سلام في العالم بدون سلام بين الأديان»، (مصرح بها).
- و«لا سلام بين الأديان بدون حوار بينها»، (مصرح بها).
- «لا حوار بين الأديان بدون اتفاق على قيم أخلاقية مشتركة، أى أخلاق عالمية»، (مضمرة).
- و«لا بقاء للإنسانية بدون أخلاق عالمية»، (مصرح بها).

يستفاد من هذه المسلمات أن «كونغ» جعل نصب عينيه الارتقاء بخلقية الإنسان، إذ قصده باد في أنه يسعى إلى أن تحقق الأمم والأفراد قيمة مصيرية غير متحققة إلى حد الآن، وهي «السلام في العالم».

ولئن كان «كونغ» قد أصاب في دعوته إلى السلام باعتباره قيمة عليا ترقى بالإنسانية، فقد دخلت على مسلمته الأولى: «لا سلام في العالم بدون سلام بين الأديان»، شبهة، إذ أن صيغتها الطبيعية العامة النافية تحتمل أن نؤولها، لا بمعنى أن من شروط وجود «السلام العالمي» وجود «السلام الديني»، كما أن منها وجود «السلام الاقتصادي» أو «السلام الاجتماعي»، وإنما بمعنى أن «المانع من وجود السلام في العالم، هو وجود الحرب بين الأديان»، بحيث لو أن هذا المانع يرتفع، لأمكن تحقق السلام العالمي ولا يبعد أن يكون هذا القول لـ كونغ، ترديدًا لصدى مقولة انغرست في العقول لكثرة ما روجت لها الألسن والأقلام منذ زمان بعيدا ومازالت تروج لهذا بقوة كما يتجلى ذلك في الاختراع الأخير لمصطلح «صراع الحضارات»، وهذه المقولة القديمة هي: «الأصل في الحروب هو الدين».

ويطول بنا المقام لو أننا اشتغلنا بالرد على هذه المقولة، وحسبنا أن نذكر اعتراضات ثلاثة عليها تشكك في صحتها:

أ) أن هذه المقولة إن صدقت، فإنها لا تصدق إلا على بعض الأديان، أو بالأحرى، لا تصدق إلا على تدينات بعينها من إمكانات التدين بأى دين من الأديان، وهي بالذات، «التدينات المتشددة»، ولنا في الحروب بين «الكاثوليك» و«البروتستانت»، في قرننا طيلة القرن السادس عشر، مثال على التدينات الظرفية المتشددة التي تصدق في حقها هذه المقولة.

ب) أن هذه المقولة تكاد تحصر أسباب الحروب في العوامل الميتافيزيقية مثل «الإيمان»، و«إرادة الخلاص». والحق أن أسباب الحروب كثيرة ومعقدة تتداخل فيها كل أنواع المصالح الممكنة، ولو أنه قد يغلب في هذه الحرب أو تلك، هذا النوع أو ذاك من الأسباب والمصالح(٤)

(٤) فهناك الأسباب النفسانية نحو حب السلطة، وإرادة القوة، والأسباب الاجتماعية كالدفاع عن الهوية الثقافية وإرادة دفع الظلم، والأسباب الاقتصادية نحو الاستيلاء على الموارد وإرادة الكسب، والأسباب السياسية مثل احتلال الأقطار وإرادة الهيمنة.

الأخلاق العالمية: مداها وحدودها

ويبدو لنا أن الحرب لا تصفو فيها الأسباب الدينية أبدًا(٥).

ج) أن هذه المقولة تتجاهل حقيقة أساسًا، وهي ظاهرة توظيف الدين - فكثيرًا ما تشتعل نار الحرب، لأسباب وأغراض لا صلة لها بالدين، لكنك تجد موقديها يستخدمون الدين وسيلة لإضفاء المشروعية عليها أو كسب المؤيدين لها، فيقع الدين ضحية حروبهم الدنيوية كما لو كانوا يحاربون الدين نفسه، بدل أن يكون، كما يزعمون، هو المثير لهذه الحروب.

إذا بطل أن الأصل في الحروب هو الدين، لزم بطلان الاعتقاد بأن السلام في العالم يتوقف على السلام بين الأديان وحده، لاسيما أن الدين، عند القائلين بهذا الأصل، أصبح ينحصر في جملة من العقائد الغيبية للفرد، ولا دخل له في تنظيم المؤسسات المجتمعية للعالم فإذن كيف يتأتى له هذا السلطان على العالم؟ الصواب أن الحرب في عالم اليوم لا يمكن أن توقد نارها الأديان، وإنما الأديان وقودها، فلا توقد الحرب فيه إلا أسباب القوة الساحقة التي يستأثر بها بعض أقطاب العالم، وقد تسخر فيها قضايا الدين لخدمة المصالح التي من ورائها، فتكون حربًا على الدين بقدر ما هي حرب على العدو.

وإذا صح أن السلام العالمي ليس بيد أهل الدين وحدهم، صح معه أنه لا مطمع في أن يرتقي اتفاق الأديان - كما هو شأن «برلمان الأديان» - بالخلقية الإنسانية عن طريق تحقيق هذه القيمة وكل ما في مستطاع هذا الاتفاق هو أن يكون مناسبة للحث على السلام العالمي من باب الوعظ والنصح، أما السلام من حيث هو قيمة إنسانية عليا - بغض النظر عن كونه عالميًا أو غير عالمي - فما من دين مفرد معتبر إلا ويدعو له بقوة، ساعيًا إلى تحقيقه حيث يجب بالقدر المستطاع، بدءًا من العلاقات بين الشخصين، وانتهاء بالعلاقات بين الأمتين. فحسبك مثالًا على ذلك الأديان السماوية التي جعلت إعلان السلام للآخر فاتحة لكل تواصل وتعامل معه.

- أما المظهر الثاني للإخلال بشرط التقدم الخلقي، فهو أن الإعلان لا يتضمن من الأخلاق إلا الحد الأدنى. يقر «كونغ» بأن «الأخلاق العالمية» تكتفي بأن تتفق الأديان على القدر الأخلاقي المشترك بينها، وهو، كما سبق، مجموعة من القيم الملزمة والمعايير الثابتة والسلوكيات الأساس. واضح أن القدر المشترك لا يمكن أن يكون إلا الحد الأدنى الذي تجتمع عليه الأديان على اختلافها. يلزم من هـ أن العناصر الأخلاقية التي تتكون منه «الأخلاق العالمية» هي أقل من العناص الأخلاقية التي يمكن أن يتكون منها أدنى دين من الأديان، إذ أنه لابد أن يتضمن بالإضافة إلى هذه العناصر المشتركة عناصر أخرى تخصه لا يشاركه فيها غير وإلا كان هو عينه «الأخلاق العالمية» وهذا لا يصح.

ورب معترض يقول: إن «برلمان الأديا ساوى بين الأديان كلها، فليس فيها أعل

(٥) لا شيء تختلط فيه الأسباب ويلتبس بعضها ببعض مثل اختلاطها والتباسها في الحرب.

ولا أدنى، ولا فاضل ولا مفضول والجواب عن هذا الاعتراض هو أن المساواة المسلم بها هي مجرد مساواة في النسبة الإجمالية إلى الدين، وهي حق ثابت لجميع الأديان، ولكنها ليست مساواة في المكونات التفصيلية التي يتركب منها كل دين، معتقدات وقيمًا وقواعد ونماذج، ولا هي بالأحرى مساواة في قيمتها، وإلا دخلت على موقف هذا البرلمان آفة «اللاعقلانية» أو «اللامعنى»، حيث يضطر إلى التخلي عن معيار «الصدق»، بل التخلي عن معيار «الحقيقة» فإذا صدَّق جميع الأديان، على تناقض معتقداتها وتباين مبادئها، وأنزلها منزلة حقائق، فقد وقع في تكذيبها كلها وأنزلها منزلة أباطيل، إذ لم يعد ثمة من سبب يجعله يعتقد في دين دون آخر، بل يجعله يعتقد في الدين من حيث هو كذلك(٦).

وعلى هذا، فلا يمكن لأحد أن ينكر أن الأديان تتفاوت فيما بينها من جهة عدد مكوناتها، بل ليس يمتنع أن تتفاضل فيما بينها من جهة طبيعة هذه المكونات أو قيمتها أو أثرها ولولا وجود الاختلاف بين الأديان في جانب عناصرها التفصيلية، بل لولا وجود امتياز بعضها على بعض، لما دعت الحاجة قط إلى تنظيم لقاءات ومؤتمرات بينها، طلبًا للاتفاق على شيء من هذه العناصر التفصيلية، أو لاستخراج ما يقع الاشتراك فيه.

وإذا تقرر أن الأخلاق العالمية كما جاءت في الإعلان، هي أخلاق دنيا باعتبار عدد عناصرها على الأقل، تبين أنها لا تستطيع أن ترقى بالخلقية الإنسانية فوق ما يترقى بها كل دين على حدة، إذ الإمكانات التخليقية التي تتضمنها هذه العناصر تظل دون نظيرتها التي تتضمنها عناصر الدين الواحد. وليس هذا فحسب، بل أيضًا إن الدين الذي ينزل الرتبة الدنيا بمقدوره أن يرتقي بهذه الخلقية بما لا يرقى بها هذا الإعلان. إذ يجتمع للدين الأدنى أمران لا مكان لهما في هذا الإعلان يفيدان في هذا الارتقاء الخلقي:

- أولهما، أنه يقيم هذه الأخلاق المشتركة على العمل الديني، بحيث يكون حظ المتدين، منها على قدر تغلغله في هذا العمل، فإذا زاد هذا التغلغل زاد تخلقه بها، وإذا نقص نقص، حتى كأنه لا مجال لتحصيل هذه الأخلاق بغير العمل الديني.

- والأمر الثاني، أنه يتضمن قواعد محددة تبين للمتدين كيف يتصرف، على مقتضى الشرط الأخلاقي، في مختلف الأحوال والأوضاع الخاصة التي يوجد فيها، علمًا بأن هذه الأحوال والأوضاع الحية تختبر بها فعالية القيم الأخلاقية التي يأخذ بها الدين.

- وأما المظهر الثالث للإخلال بشرط التقدم الخلقي، فهو أن الإعلان يفتقر إلى الركن الأساس في كل دين، يرفض «كونغ» أن يكون «الإعلان من أجل الأخلاق العالمية مؤسسًا لدين عالمي جامع إلى جانب الأديان الموجودة، أو

(٦) هذه نتيجة تلزم عن القول بالنسبية الدينية المطلقة، ولا شيء أضر بالأديان منها.

لدين تركيبي يتألف من كل الأديان(٧)، لاعتبارين اثنين:

● أحدهما، أنه لا يمكن أن يسد هذا الإعلان مسد الكتب الدينية المقدسة: «توراة اليهود»، أو «خطبة الجبل للسيد المسيح»، أو «قرآن المسلمين»، أو بها غافادجيتا الهنود»، أو «تعاليم بوذا»، أو «حكم كونفوشيوس»، وذلك لأنها هي أساس إيمانها وعملها، بل وسر وجودها وحياتها.

● والثاني هو أن هذه الكتب جاءت بأخلاق كاملة لا يشكل إعلان الأخلاق العالمية بالنسبة إليها إلا مجرد نواة.

لئن سلمنا لـ «كونغ» باستحالة أن يقوم الإعلان مقام الكتب الدينية ويكون هذه الكتب أتت بأخلاق كاملة، فلا نسلم له بأن الإعلان يشكل نواة لهذه الأخلاق، ذلك أن المفروض في النواة أن تتضمن العناصر المركزية للشيء الذى هو نواة له، بحيث لو صارت هذه العناصر إلى الاكتمال، لنشأ عنها هذا الشيء بعينه. والحال أن أخلاق الإعلان لا تتضمن كل العناصر المركزية للأخلاق الدينية، فلا تستحق أن تكون نواة لها. وتوضيح ذلك أن العنصر المركزى الأول الذى لا يكون الدين بدونه دينًا، مفقود في هذا الإعلان، مع أن «كونغ» قد أقر، على أبين وجه، بمركزية هذا العنصر بالنسبة لكل دين، ألا وهو «الإيمان»، لذا لا يجوز لأى بيان أن يشكل نواة لأخلاق الدين، حتى يتضمن عنصر «الإيمان» وينزله المنزلة العليا.

ومن ثم، فقد كان يتحتم على الإعلان، لا أن ينص على الإيمان بوصفه مميزا لـ «برلمان الأديان» فقط، بل أن يجعل منه واحدًا من التوجيهات التى أقام عليها «الأخلاق العالمية» فكما أن هذا الإعلان تأسس على «ثقافة المسالمة» و«ثقافة التضامن» و«ثقافة التسمح» و«ثقافة المساواة»، فكذلك كان ينبغى أن يتأسس على «ثقافة الإيمان»، ولم يكن من الحكمة في شيء - على خلاف ما يعتقد واضعوه - حذف الإيمان، فليس بوسع الإنسان المتخلق أن يستغنى عن الإيمان، لا لأنه واجب في ذاته فحسب، بل لأن الواجب لا يتم إلا به، وهو هنا الأخلاق، فالإيمان إنما هو تلك الروح التى تسمو بأخلاق الإنسان، فتجعلها وكأنها وردت عليه من عالم فوقه، فالصفات الأربع نفسها التى دعا إليها الإعلان، وهي: «المسالمة» و«التضامن» و«التسامح» و«المساواة»، إن كانت بلا إيمان، لا تعدو كونها عبارة عن حساب مصالح، لكن مع وجود الإيمان في أُسها، فإنها تغدو عبارة عن تنزل عطايا، وشتان بين «المصلحة» و«العطية».

بل، أكثر من هذا، كان يتعين على الإعلان أن يقدم التوجيه المتعلق بالإيمان على غيره، على أساس أن الإيمان هو الأصل في الأخلاق العالمية، وأيضا أن يورده بنفس الصيغة التى جاءت عليها التوجيهات الأربعة الأخرى، وذلك كالتالي: الالتزام بثقافة الإيمان واحترام الدين، ولو أنه فعل، لجاء متسقًا مع نفسه، ونهض بواجبه في إقناع

(٧) أنظر ص٦ وص٢٥ من كتاب: H. KUNG ET K.J. KUSCHEL: Manifeste pour une éthique planétaire

غير المؤمنين باحترام الأديان احترامهم لحقوق الآخرين ويقوم دليلًا قويًا على هذا النقص الذى وقع فيه الإعلان ما نراه من انتشار ألوان الاستهزاء بالرسل عليهم السلام والطعن في الأديان التى جاءوا بها، بل من تجرؤ بعضهم على الذات الإلهية نفسها حتى في المجتمعات التى ظلت تنزهها عن كل تشبيه كل ذلك بحجة التمتع بالحق في حرية التعبير كما لو أنه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإلى حد الآن لا وجود لوثيقة صادرة من مؤسسة عالمية معنية توجب هذا الاحترام إيجابها لاحترام حقوق الإنسان، فلو أن الإعلان نص على هذا التوجيه، وأظهرت مركزيته، لكنا اليوم أقرب إلى استصدار قانون دولى يمنع من التطرف المناهض للأديان، لاسيما أن الجهود تبذل بقوة لجعل المؤسسات الدولية مثل «منظمة اليونسكو» و«هيئة الأمم المتحدة» تتبنى هذا الإعلان.

بيد أن حرص «برلمان الأديان» على استرضاء غير المؤمنين، حتى يقبلوا بإعلانه ويتخلقوا بأخلاقه، جعله يضيع حقوقًا للمؤمنين أيما تضييع، ويقطع عنهم أسباب اتقاء ما قد يأتى في المستقبل المنظور من تحديات تواجههم وأحداث تضربهم، وقد تأكد الآن أن هذا الاسترضاء لم يجعل غير المؤمنين - أو العلمانيين - يقبلون عليه اقبالا خاصًا، بل أضعف حجية الإعلان وأخل بفائدته.

وهكذا، يتبين أن الإعلان، بحذفه للإيمان، حال دون التقدم بالخلقية الإنسانية، فهو لم يفلح في مزيد التخليق للمؤمنين، لأن الإيمان أساس تخلقهم، ولا يمكن أن يزدادوا تخلقًا إلا إذا ازدادوا إيمانًا، والإعلان، بهذا الحذف، عمل على نقص إيمانهم، فإذن لا زيادة في أخلاقهم، كما أنه لم يفلح قط في مزيد التخليق للعلمانيين، حتى يكفوا عن التمادى في إيذاء المؤمنين في عقيدتهم، وما كان هؤلاء ليطمئنوا إلى أخلاق قررها أهل عقيدة تضاد عقيدتهم، ولو أنها من جنس أخلاقهم. أليس يستشعرون من أنفسهم قدرة تفوق قدرة المتدينين على اكتشاف هذه الأخلاق الخالية من الإيمان؟

وحاصل الجواب عن السؤال، هو أن إعلان الأخلاق العالمية لم يبلغ غرضه في تحقيق التقدم الأخلاقى الذى كان ينشده، حيث كان يريد أن ترتقى أخلاق الأديان، وهى مجتمعة، بالإنسانية بما لا ترتقى بها، وهى منفردة، بل لقد ظهر أن الدين الواحد أقدر على تحقيق التقدم الأخلاقى من هذا الإعلان المجمع عليه، وذلك بفضل ما يدخره من إمكانات إيمانية وما يمتلكه من وسائل عملية تجاوز إمكانات هذا الإعلان ووسائله. لذا، لزم أن تطلب هذا التقدم في كل دين على حدة.

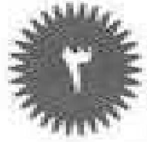
وإذا تقرر هذا، فمن الواجب أن تسأل: هل التقدم الأخلاقى واحد في كل الأديان أم أن لكل دين تقدمه الخاص الذى يزيد على تقدم غيره أو ينقص عنه، بحيث يتعين أن نطلب التقدم الأخلاقي، لا في أى دين، كائنًا ما كان، وإنما في الذى يحقق أعلى قدر من هذا التقدم متى وجد هذا الدين؟

يتبع

الاجتهاد فى مقاصد العقائد

مقاصد صفتى المعطى والمانع نموذجًا

٣



د. جاسر عودة
المدير السابق لمركز مقاصد الشريعة الإسلامية بلندن

العطاء والمنع بقصد فتح باب الرجاء والخوف

ومن مقاصد العطاء والمنع الإلهى الخوف والرجاء البشرى، فقد يلتمس السالك إلى الله قلبه أحيانًا فلا يجده! ويحاول أن يستشعر شيئًا نحو الله فتحول بينه وبين ذلك غفلات القلب وشهوات النفس، والشيخ هنا يدلنا على بابين يمكن أن نفتحهما عن طريق العقل، وهو الآلة التى يمكن أن نستعملها فى أى وقت بفضل الله ورحمته الواسعين. هذان البابان هما باب الرجاء وباب الخوف.

السؤال الذى يجيب عنه الشيخ هنا هو: كيف يمكن أن ينفتح لى باب الرجاء وأن لا أستشعر هذا الرجاء فى قلبى حقيقة؟ وكيف يمكن أن ينفتح لى باب الخوف وأنا لا أستشعر هذا الخوف فى قلبى حقيقة؟

والجواب: إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك. وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه.

أجر إحصاءً وجردًا للنعم التى منَّ الله عليك بها، وإحصاءً وجردًا آخر للطاعات والقربات التى تقدمها إلى حضرته سبحانه. فأما النعم فلا يمكن أن تحصيها على أية حال:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(النحل: ١٨)

ولكنك كلما تذكرت نعمة من نعم الله تعالى عليك، أدركت وشعرت كم هو كريم، وكم هو حليم، وكم هو رحيم، وكم هو جواد. وإذا استغرقتنى هذه المعانى، فسينفتح لى باب الرجاء فى عطاء هذا الإله الكريم المعطى الحليم الجواد الرحيم.

ثم إننى إذا تذكرت ما أقوم به، وتقصيرى، وقصورى عن بلوغ أدنى درجات الشكر الذى يليق بكرمه، أو الذكر الذى يليق بجلاله، أو التعبد الذى يليق بمقامه سبحانه، وإذا استغرقتنى هذه المعانى، فسينفتح لى باب الخوف فى قلبى.

والعبد ينبغى أن يراوح بين هذا وذاك، فيصبح - كما قال ابن القيم فى إحدى تشبيهاته الجميلة - كالطائر الذى له جناحان، جناح رجاء وجناح خوف، وكأنه يطير بهذين الجناحين، والتوازن بين الأضداد

من السنن الإلهية الثابتة، وهنا لابد أن يحدث توازن بين الرجاء والخوف حتى يطير الطائر، لأنه لا يستطيع أن يطير بجناح واحد!

فمن الانحرافات فى هذا الباب أن يتعدى الرجاء إلى (الأمن). وهذا يعنى أن يأمن الإنسان من العقاب:

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(البقرة: ٨٠).

وهذا قد ورد فى شأن بعض الأمم من قبلنا وقد كانوا يظنون أنهم شعب الله المختار أبدًا، بغض النظر عن عملهم، كما يظن بعض المسلمين اليوم أنهم ما داموا مسلمين فمهما فعلوا فلا بهم ولا يضر، وقد قال تعالى:

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٩)

فلا ينبغى للرجاء أن يصبح أمنًا أو توهم وجود ضمان مع الله سبحانه وتعالى ليس هناك ضمان إلا فى الجنة. وعن الانحرافات فى هذا الباب كذلك أن يتعدى الخوف حتى يكون قنوطًا من رحمة الله سبحانه وتعالى! رغم قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

(الزمر: ٥٣).

وقال:

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(يوسف: ٨٧).

والمطلوب هنا هو أن يكون هناك توازن بين الرجاء والخوف، فنتوب إلى الله سبحانه وتعالى ونرجوه من فضله ومنه وكرمه أن يعفو عنا، وفى نفس الوقت نخاف من الله عز وجل ألا يتقبل منا، وألا يمنحنا ذلك العفو بسبب التقصير وبسبب ارتكاب الذنوب. لكن لا ينبغى للذنوب أن تصدنا عن الرجاء فى رحمة الله سبحانه وتعالى، كما لا ينبغى للرجاء أن يصدنا عن الخوف من الله سبحانه وتعالى وأن نفهم أن العطاء والمنع هو بقصد فتح باب الخوف أو الرجاء، وهى نعمة كبرى.

العطاء والمنع بقصد تعليم العبد الشكر

ومن مقاصد العطاء والمنع تعليم العبد الشكر، فمن سنن الله سبحانه وتعالى التى يجرى بها الرزق، كل أنواع الرزق، أن شكر الله على النعمة يزيد النعمة نفسها أو يستبدلها بما هو أفضل منها. قال عز من قائل:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(إبراهيم: ٧)

وهو قانون عام وسنة ماضية. وإننا لن نستطيع أن نعد النعم كلها عددًا فضلاً عن أن نشكرها كلها! والله عز وجل يقول فى محكم كتابه:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(إبراهيم: ٣٤).

ولكن ينبغى على المسلم على أى حال أن يجتهد فى أن يشكر الله سبحانه وتعالى على ما ينعم عليه من نعم. ثم يقول تعالى:

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

(إبراهيم: ٧).

والكفر هنا هو كفر النعمة، وهو ليس الكفر الذى يعنى عدم الإيمان، بل الكفر هنا هو أن يقصر العبد فى الشكر. وهذا عيب آخر يتحدث عنه الشيخ فى هذه الحكمة البليغة.

يقول الشيخ: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومَن شكرها فقد قيدها بعقالها. ومن لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)، فالذى يشكر النعم يقيدها إليه حتمًا لأن وعد الله بالمكافأة على الشكر وعد صادق، وهو كأنه ضمان يأتى مع النعمة، ولكن الضمان هنا يتطلب منك عملاً تؤديه، وهو أن تشكر النعمة. والشكر لا يكون فقط بقول: (الحمد لله)، ولكن الشكر يكون أيضًا عن طريق العمل. قال تعالي:

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾

(سبأ: ١٣).

والشكر بالعمل يقتضى الأسئلة التالية: ماذا فعلت بهذه النعمة؟ هل وضعتها فى حلال؟ هل ساهمت بها أو بجزء منها فى معروف أو غرض صالح؟ أم وضعتها فى حرام واستخدمتها فى حرام أو منكر؟ وفى هذه الحالة، والعياذ بالله، العمل نفسه هو كفر بالنعمة.

ثم يقول الشيخ رحمه الله: (من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)، ذلك أنك إن لم تشكر النعم وتقبل على الله تعالي حتى تصل إلى درجة الإحسان، يمتحنك الله سبحانه وتعالى حتى يمنحك فرصة أخيرة لكى تصل إلى هذه الدرجة. إذن، يمتحنك الله لكى يرقيك ويزكيك، ولكى تتضرع فيتوب عليك قال تعالي:

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

(المؤمنون: ٧٦).

فحين يمتحنك الله بشيء فالأولى بك أن تستكين وأن تتضرع وتدعو. ويقول عن المنافقين:

﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٦).

وحين يمتحنك فهو لا يريد أن يعذبك أو يتعبك، وإنما يريد منك أن تعود إليه، وأن تبدأ فى عد النعم التى أنعمها عليك، وتبدأ فى شكر حقيقى باللسان وبالعمل.

والله سبحانه وتعالى حين يبتليك بفقدان بعض النعم إنما يبتليك بمس من العذاب فكل منا لديه ملايين، لا بل مليارات لا تعد من النعم. أنا عندى مليارات من النعم لا أستطيع حتى أن أعدها، وحين يبتلينى الله بفقد نعمة، أو اثنتين، أو حتى خمسة، أحس وكأننى فى أزمة شديدة، ولكن الحقيقة هى أن عندى ملايين ومليارات من النعم الأخرى التى يغدقها علىّ كل لحظة. ففى كل خلية نعمة، وفى كل ثانية نعمة، وفى كل نفس نعمة، وفى كل نظرة نعمة، وما لا يحصى من النعم. فالله هو المستحق للشكر سبحانه مهما حدث. أضف إلى ذلك أنه حين يبتليك بفقدان نعمة أو اثنتين فهو - بتعبير الشيخ - يقيدك إليه، أى يردك إليه ردًا جميلاً، فيأخذ منك نعمة بسيطة حتى تعود إليه وتتوب إليه، وحتى تتذكر وتتفكر. فإذا تبت إلى الله وتذكرت وعدت فإن الله سبحانه لا يبتليك إلى الأبد.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾

(الشرح: ٥، ٦)

ولاحظ هنا أنه كررها الله سبحانه وتعالي، وفى الآية الأخرى:

﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾

(الطلاق: ٧).

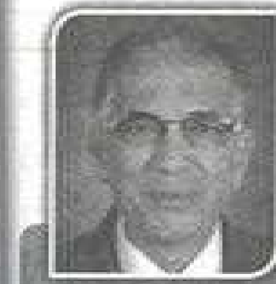
وهذا وعد صادق فأحيانًا تتعسر الأمور، ولكن يأتى الله سبحانه وتعالي باليسر مع العسر، ويأتى باليسر بعد العسر كذلك.

فعندما تحدث مشكلة أو مصيبة يأتى مع المشكلة اليسر، أى فى وسط الأزمة تجد اليسر، بل نفس لحظة العسر يأتى اليسر معه! فإن كان هذا اليسر هو مزيداً من القرب من الله تعالى فهذه نعمة، فربما يعطيك الله سبحانه وتعالى الامتحان فتتقرب منه، ويصير هذا الامتحان لاشئ فى مقابل المكسب الذى حققته بقربك من الله، وبسؤال نفسك: كم عندى من النعم؟! فأعود إلى الله سبحانه وتعالى وأتوب، وأستغفر فى جنب رحمته وفضله ونعمه وآلائه هذه النعمة التى فقدتها، وهذا الكدر الذى أصابنى، وأضع الأشياء فى نصابها الحقيقى، وفى هذه الحالة يرفعك الله سبحانه بهذا الابتلاء ثم يرفع البلاء عنك.

وإن أردنا أن نتجنب هذا كله، فلنقبل على الله عز وجل بالإحسان والشكر. ولكن هذا لن يحدث دائمًا أبدًا لأننا بشر ضعفاء لا نستطيع أن نشكر الله وتعالى على كل شيء، فأحيانا نقصر، بل كثيرًا ما نقصر! «كل ابن آدم خطاء» (سنن الترمذى) ولذلك، فالله عز وجل يجبر كسرنا ويقوى ضعفنا ويصلح من شأننا بالابتلاء الذى دائمًا ما يأتى معه اليسر، وبعده.

إذن، مقاصد الاعتقاد بأن الله عز وجل هو المعطى المانع منها: الإفهام (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك. إن فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء. إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه)، وقد يكون العطاء بقصد الإملاء (والعياذ بالله)، وقد يكون المنع بقصد تعليم التواضع والذل والانكسار لله تعالي، وقد يكون المنع بقصد تقريب العبد من الله والأنس به (متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)، أو بقصد فتح باب الدعاء (متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)، أو بقصد التوبة والإنابة والرجوع إلى الله (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار)، أو بقصد فتح باب الرجاء والخوف (إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك. وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه)، أو بقصد تعليم العبد الشكر (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. ومن لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)، والله تعالى إذن: كما يقول الشيخ فى موضع آخر: (إذا أعطاك أشهدك بره، وإذا حرمك أشهدك قدرته، فهو فى كلا الحالين متعرف عليك). والحمد لله رب العالمين.

العدل.. شرع الله



للأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس

كان مصطلح "العدل" - وما يزال - من أهم المصطلحات فى تاريخ الإنسان، وهو مصطلح شامل يتضمن العدل بين الحاكم والمحكومين، وبين الفرد والجماعة الكبيرة، وهى المجتمع، والجماعة الصغيرة، وهى الأسرة، بل إن الإنسان مطالَب أن يعدل فى حق نفسه ولا يظلم نفسه، وأن يعدل فى حق الله فلا يشرك معه غيرَه:

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(لقمان: ١٣)

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾

(الطلاق: ١)

وفى فقه السياسة الشرعية أن الحاكم العادل - غير التقى - أفضل للأمة من الحاكم المسلم الظالم، وقد علَّل فقهاء السياسة الشرعية ذلك بأن الحاكم العادل للأمة عدل للأمة، وعليه فسقه، وأما الحاكم الظالم، فعلى الأمة ظلمه، وله دينه أو تقواه الشخصية!

والأمة الظالمة يسلط عليها من يهزمها، حتى ولو تظاهرت بالإيمان، بينما يمهل الله الأمة الكافرة العادلة.

والحضارة الحديثة ما ضلَّت إلا عندما نظرت إلى "العدل" نظرة تمزيقية، فقررته فى بلادها وبين مواطنيها؛ إدراكًا منها لأهميته، ولكنها ظلمت الشعوبَ الضعيفة واحتلتها وأذلتها، وفرضت عليها التخلف والتبعية، وحَرَمتها من التعليم والإبداع الكفيلين بتقدمها، بل إنها تظلم - نسبيًا - العناصر الوافدة على بلادها، وتمنعها من تكوين المؤسسات الكفيلة بحماية هويتها، فعدلها عدل مصالح، وليس عدل عقيدة وأخلاق.

لكن "العدل" فى الإسلام ركن من أركان تنظيم الإسلام للحياة، وهو مقصد من المقاصد الشرعية التى يجب أن تدور الأحكام فى فلكها، فحيثما تحقق العدل فهناك شرع الله، ولا يمكن أن تتعارض هذه الأحكام مع هدف كبير من أهداف الحياة، والبشرية بتجاربها النسبية ترى عدلاً نسبيًا لا يضر بمصالحها، لكن الإسلام الذى جاء رحمة للعالمين، والذى يعلن أن الإنسانية فى خسران مبين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فى إقامة الحق، هذا الإسلام يقيم دعائم الحق مع الحب والكره، ومع النفع والضرر، ومع المصلحة وانعدام المصلحة، وبين المرأة والرجل، والفرد والمجتمع، وفى الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حد سواء.

وقد درج الناس على استعمال كلمة "العدل" فى مستواها السياسى والاجتماعي، وكثيرًا ما يقيمون الثورات والنقابات والأحزاب من أجل جانب واحد من العدل، وبالتالى يتم التركيز على هذا الجانب؛ فيقع الظلم فى الجوانب الأخرى.

وانطلاقًا من تجربة العصور الوسطى الأوروبية ركز الغرب على العدل الاقتصادى والاجتماعي، فأخطأ الطريق؛ لأنه تصوَّر أن الفرد هو الذى يظلم المجتمع، فسحق الفرد تحت مظلة الشيوعية، وتصور - مرة من خلال تجاربه النسبية - أن المجتمع هو الذى يظلم الفرد، فسحق المجتمع والأخلاق تحت مظلة الرأسمالية، وأصبح مفهوم "الحرية" كرةً يتداولها الفريقان كأنهما فى ملعب!

بيد أن الإسلام وازَن فى عدله بين جميع القوى الفاعلة فى الحياة، وأعطى كلَّ ذى حق حقه، فأصبح مفهوم "الحرية" منضبطًا متوازنًا لا يطغى فيه المجتمع على الفرد، ولا الفرد على المجتمع، وأصبح مفهوم "المساواة" مفهومًا شرعيًا مرتبطًا بالعدل؛ فالعدل هو الميزان الذى يضبط حركة الحرية وحركة المساواة، وهو أيضًا الضامن لتحقيق إنسانية كل الناس وكرامة البشر كلها.

لقد جاءت تعاليم الإسلام تكرم كل الناس بصفاتهم الإنسانية، بصرف النظر عن أصولهم وألوانهم وأديانهم؛ يقول الله - تعالى - فى القرآن الكريم:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ويقول الله أيضًا:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(التين: ٤)

ويقرر الإسلام فى شريعته العدل لكل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم، ومدى قربهم من الإسلام أو بعدهم عنه؛ يقول الله تعالي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨)

ويقول الله تعالى أيضًا:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته الإنسانية المطلقة المجرَّدة، كما أنه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية، بعيدًا عن النظر إلى

أدياتهم وأجناسهم - فإنه قد قرر أيضًا حرية الإنسان الدينية بصفة خاصة؛ حيث إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحد لا يمكن أن يتناقض؛ يقول الله - تعالى - في القرآن للرسول ﷺ مؤكدًا هذه الحقيقة ومعترفًا بهذه الأديان السماوية الصحيحة السابقة، ومطالبًا كل الأديان: (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل؛ يقول تعالى:

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(فصلت: ٤٣)

ويقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

ويقول:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣)

فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها، ومطهرها مما أصابها من أهواء الناس، والمدافع الأعظم عن كرامة كل الأنبياء - عليهم السلام - ومصداقيتهم، بالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة، يؤكد الإسلام - عبر آيات قرآنية، وأحاديث نبوية كثيرة - حرية العقيدة لكل الناس، فيقول الله في القرآن:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ويقول القرآن أيضًا:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(الكهف: ٢٩)

ويقول:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

(الأنعام: ١٠٧)

ويقول:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)

لقد أخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعًا، وتقوم هذه الحرية الدينية في الإسلام على ثلاثة مبادئ:

١- الحرية في اختيار الدين.

٢- الحرية في المناقشات الدينية.

٣- الإيمان الصحيح، ويكون مبنيًا على إقناع واقتناع.

وبالنسبة للمبدأ الأول، وهو: الحرية في "اختيار الدين" الذي يعتنقه "الإنسان"، فلا يرغم الإسلام أحدًا على ترك دينه واعتناق الدين الإسلامي.

فقد سار المسلمون على هذا المبدأ في حروبهم، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة وما يدينون به؛ بشرط الولاء للحكومة الجديدة، وفي ذلك يقول عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - في كتابه إلى أهل المقدس بعد فتحه: "هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضام أحد منهم".

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين؛ إذ يقول الله - تعالى - في كتابه العزيز:

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

وبالنسبة للمبدأ الثاني، وهو: حرية المناقشات الدينية، فقد أتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون في تلك المناقشات،

ويقول الله في القرآن الكريم:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية:

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(البقرة: ١١١)

ويقول - سبحانه وتعالى -:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

وبالنسبة للمبدأ الثالث، وهو: الإقناع والاقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامي؛ بحيث لا يرغم أحد على ترك دينه؛ لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع؛ فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان، مخلخلَ العقيدة، لا يمكن الاعتماد عليه أو الاعتداد به! فكيف بإرغام غير المسلم؟! إنه لا يجوز بمنطق الإسلام!

ولذلك يحث الإسلام على التفكير العقلي الجاد في مخلوقات الله، والإيمان إيمانًا صحيحًا سليمًا، فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلد غير صحيح.

ويقول الإمام محمد عبده في ذلك: "إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به".

الأمة بين المذهبية وإسلام الوحدة والجماعة الإسلامية



أ. د/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تمهيد:

يعجب كل متابع للحالة الفكرية والمجتمعية في العالم الإسلامي لكل هذا الاختلاف والشقاق بين النخبة والعامة في أمور تتعلق بصميم الدين والمجتمع. إذ تموج الساحة الفكرية بأطروحات وأفكار تتوخى الانفراد بتوجيه مسيرة الدين والوطن في الأحداث التي تواجه المجتمع والأمة باعتبارها من وجهة نظر أصحابها التعبير الصحيح عن الإسلام، بما يكفل للجماعة أن تسير حياتها، وتنظم أمرها وفقًا لرؤيتها وعملاً بمنظورها وتفسيراتها في العلاقة بين الدين والحياة.

أول هذه الفرق تتجه إلى فكر التشدد والتنطع ذلك الذي يعتنق فقه الظاهرية الجديد، في الاعتماد على ظاهر نص بعينه، ويحبس نفسه في حرفية بعض نصوص القرآن والسنة يضعها في دوائر مغلقة، ويفرض عليها سارًا حديديًا ويفصلها عن سياقها فهو يصادر قواعد الاستنباط، ويغيب قواعد التفسير المتعارف عليها، ويتجاهل القواعد التي أرساها الأصوليون، ويتبنى التفسير الضيق الذي يقوم على سجن النص وعزله عن الحكمة والعلل والدلالات التي توخاها الشرع من التشريع بالتعرف على المقاصد والحكم التي يتمكن بها من مواكبة أحداث الحياة، ومجابهة الواقع، والجمع بين النصوص.

وثمة ملامح فارقة يمكن رصدها في فكر هذا الفريق:

- الانغلاق على حرفية النصوص، والتعبد بالمتون لا يفارقها بدعوى أن في الخروج على هذه الحرفية والنصية ضلال في الدين، واتباع الهوي، والتقول على الله بغير علم ولا برهان.

- اختزال الدين في طقوس وشكليات، وحجب مضامينه وغاياته ومقاصده الكبري، إذ الدين عند أصحاب تيار الغلو والتشدد، ينحصر في إطالة اللحية، وتقصير الثياب، والسواك، والنقاب، والتعوذ والحوقلة من هؤلاء الذين لا يسلكون مسلكهم، ولا يصدعون لرأيهم، غافلين عن حديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم». (١)

وينسحب هذا الفكر المتشدد على أمور المعاملات والشئون الحياتية، وحتى في النظر إلى أركان الإسلام، والعبادات.

فبدء صيام رمضان يكون بالرؤية البصرية، تمسكًا بظاهر الحديث: «الشهر هكذا وهكذا وهكذا - ثم عقد إبهامة في الثالثة - فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمي عليكم فاقدروا له ثلاثين» (٢).

ويتعصبون لذلك، حتى لو أدى أن يكون لأكثر من جماعة داخل الدولة. بداية مختلفة عن الأخرى لشهر رمضان مع ما في هذا الصنيع من تفويت لأقوى رابط بين المجتمع والأمة، وحدة الجماعة في ركن من أركان الإسلام.

وما حدث في بداية الشهر من الاختلاف يحدث كذلك عند الانتهاء، في يوم العيد.

وعلى شاكلة هذا النمط المغلوط لأحكام الدين:

إباحة زواج القاصرات، فلا مانع في رأيهم أن تتزوج صبية أقرب إلى أن تكون طفلة برجل بلغ من العمر أرزله حتى وجدنا صبية في التاسعة من عمرها تزوجت أكثر من مرة. وأخرى عمرها ١٧ سنة تزوجت ١٦ ست عشرة مرة.

ويقولون ذلك بحجة وجود العقد الشرعي وتوفر الرضا والشهود على ذلك، كما يستدلون بزواج السيدة عائشة بالرسول ﷺ، وهو قول غير ناهض لأنه لم يثبت أن الرسول تزوجها أو دخل بها في هذه السن المبكرة، والثابت أن زواج الرسول برمته كان مؤسسًا على الخصوصية لأمر الرسالة ونشر الدعوة.

أما الزواج بالقاصرات الحاصل هذه الأيام، فهو عودة لسوق النخاسة الجديد، ووأد للبنات على نحو ما كان يفعله عرب الجاهلية الأولي، واستعباد للنساء، وصورة من صور المتعة أو الزواج المؤقت المحرم شرعًا.

كما أن إخراج زكاة الفطر لا يجوز إلا من البر (القمح) أو الشعير أو التمر، في الأصناف التي نص عليها الحديث لا يجوز إخراج النقود بديلاً عنها، مع كونها تحقق مقصود الشرع من تشريع صدقة الفطر، وأنفع للفقير، وأنسب لظروفه، وتغنيه عن ذل السؤال في هذا اليوم، وهو مطلب إسلامي نبه إليه الرسول ﷺ «أغنوهم عن ذل السؤال في ذلك اليوم» (٣).

ومثل هذا الاختلاف يحصل في ركن الإسلام الخامس وهو الحج إلى بيت الله الحرام، فيما يتعلق في السعي بين الصفا والمروة، فهم يرفضون السعي في التوسعة الجديدة، بحجة أنه لا دليل عليها من قرآن ولا سنة، وأنها تخالف السنة النبوية، غير عابئين ولا مبالين بأرواح المسلمين وآدميتهم وجلال أداء الشعيرة، بسبب الزحام الشديد، والهرج

١- سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ٩ رقم ١٤٨٢٣
٢- رواه مسلم كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يومًا.
٣- من أقوال الفقهاء، والجمهور على استحباب ذلك. ترتيب مسند الشافعي.

الذى يبلغ حد الفوضى.

وفى شئون الحياة ينكرون على المرأة أن تتولى القضاء، واقفين عند ظاهر حديث: «لن يصلح قوم ولوا أمرهم امرأة» (٤).

مع أن القرآن أثنى على صنيع بلقيس وهى حاكمة على قومها، ومتولية لأمرهم:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(النمل: ٢٣).

وأن النهى فى الحديث إنما ينصرف إلى الإمامة العظمى، كحاكمة على جميع أقطار المسلمين. بل إنهم يغالون فى وضعية المرأة فى المجتمع، فيعتبرونها عورة، فى صوتها وفى كيانها، وفى ظهورها فى مناشط الحياة، ومشاركتها فى الشأن العام، ويصوروون ذلك بأنه من التبرج الذى نهى الله عنه:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾

(الأحزاب: ٣٣).

وهم ينكرون بذلك إنسانية المرأة، ومشاركتها وأدوارها مع الرجل فى بناء المجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام فى تأسيس الدولة مع الرسول فى بيعة العقبة الثانية، ٧٣ رجلا وامرأتان.

ومشورة أم سلمة للرسول فى صلح الحديبية، وروايات السيدة عائشة - رضى الله عنها - للأحاديث، وحفظ السيدة حفصة - رضى الله عنها - لنسخة القرآن بعد الجمع الأول إلى الجمع الثالث فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وهم يرفضون الديقراطية الحديثة، ويعتبرونها بمؤسساتها صناعة غربية ينبغى إدانتها والتخلى عنها، مع أنه يجوز اعتبارها إعمالاً للشورى الإسلامية فى ضوء الضوابط والقواعد الشرعية.

الإسراف فى التحريم:

فدنيا المسلم فى نظرهم قائمة من المحرمات والمحظورات والمنهيات، وكأن الإسلام لم يأت إلا بالويل والثبور وعظائم الأمور.

استسهال تكفير المخالفين ورميهم بالفجور والفسق:

إذ ينصبون أنفسهم على أنهم أصحاب الدين وملاك الحقيقة يصدرون صكوك الشرعية ومصائر العباد، ويرمون الفرد والمجتمع والدولة بالتكفير والفسق والفجور.

وهذا يخالف قوله تعالي:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

(النساء: ٤٨)

أيضا مخالفة ذلك لما ذهب إليه المحققون من الفقهاء:

فإنه إذا صدر قول أو عمل من مسلم احتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، واحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل حال المسلم على الإيمان (٥) ترجيحًا لجانب الإيمان على جانب الكفر.

الفريق الثاني: فكر التغريب أو التحلل فهو

٤- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ٨٢.

٥- الإمام محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص ٥٣.

يعتبر الدين قوة روحية، لا يجوز تحكيمها فى شئون الحياة، وأنصاره يشتطون فى فهم الدين وتفسير نصوصه، تحت مسمى الاستنارة والحداثة.

هذا التيار يقوم على عدم التقيد بالنص ولا يأبه بالوقوف عند محددات فهمه، والمعطيات التى جاء بها، وسبب نزوله، وضوابط إعماله وتفسيره أو تأويله.

ونتيجة لذلك فقد أحدثوا فى الدين ما ليس منه، وأضفوا عليه ما لم يكن فيه، بل قد ينتقصون من حقائق الدين، أو يشككون فى ثوابته لمقتضيات عصر العولمة، عن طريق الاجتهاد والتجديد، تحت مسميات براقة كالتنوير أو العصرنة أو الحداثة أو العولمة أو الكوكبة أو ما يراد منها من المصطلحات.

ويتحكم فى نظر أصحاب هذا الاتجاه عوامل شخصية، وتأثيرات أجنبية، أثرت على فكرهم، ومسخت خصوصيتهم، وفعلت بهم الأفاعيل، إلى حد غسل الأدمغة، والدوران فى فلك الغزو الفكرى والافتتان بكل ما هو غربي، والتجرؤ على كل ما هو إسلامي.

ولديهم بجانب ذلك ميول وأهواء تلعب برؤوسهم وترسم توجهاتهم، فهم رواد الفكر، ودعاة التنوير، وصناع التقدم، الذين يجرون قاطرة المجتمع إلى الأمام، وكل منهم يقدم نفسه على أنه قبطان سفينة الإنقاذ للوطن والفكر المستنير الذى بفكره ترقى الأمة، ويتقدم المجتمع.

وهم فى توجههم نحو التحلل والانفلات من النصوص، والنعى على القرآن والسنة، وتفسيرها بما يتفق مع تصوراتهم التحكمية والفردية يسلكون مسلك الشطط والتجاوز عما هو ثابت ومقرر:

فها هو الأستاذ «جمال البنا» من دعاة هذا الفكر يقول عن السنة الشريفة (٦):

«إن ألوف الأحاديث التى وردت فى ذلك وامتلأت بها كتب السنة وأكدها وحققها المحدثون وحكموا بصحتها ووصلوا ببعضها إلى المتواتر أعطت للمجتمع الإسلامى بعضًا من أظهر خصائصه، وهن المعارضة السياسية وغياب المرأة من المجتمع أو حرمانها من العلم والمعرفة والحيلولة دون ظهور الفنون والآداب وبقية تجليات النفس الإنسانية، وأوجدت النفسية النمطية للمسلم والطابع السائد للإسلام الذى تغلب عليه الطقوسية والعبادية والتقليد والاستسلام والسلبية والبعد عن الفعالية والمبادآت الحية والنشطة، واتجاه القرآنيين الذين يحصرون الإسلام فى القرآن وحده وينكرون الاحتجاج بالسنة وأنواعها، ويشتطون فى تفسير القرآن، استنادًا إلى ما ورد فى القرآن الكريم:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنعام: ٣٨).

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(النحل: ٨٩)

فى تغييب وتجاهل لحقائق القرآن الموجبة لاتباع الرسول ﷺ:

٦- قضية الفقه الجديد، دار الفكر الإسلامي، ص ٥٨.

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(الحشر: ٧).

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم: ٣، ٤)

وقد تفرع عن مقولتهم تلك جواز الحج إلى غير الكعبة في البيت الحرام في مكة البلد الحرام، وأن الحج ليس حكرًا على هذا المكان.

ومن قبيل ذلك مقولة «د/ نوال السعداوي» من دعاة فكر التغريب أن الطواف بالكعبة من بقايا الوثنية وعبادة الحجر وفي السياق نفسه تجد أن «الدكتور/ سيد القمني» يقترح أن يبنى بناء على غرار الكعبة يكون مجمعا للأديان على أرض سيناء كي يقصده السياح والزائرون، على أساس أنه يجمع بين الأديان ويكون مزارًا مقدسًا لأتباع الأديان الثلاثة:

الإسلام والمسيحية واليهودية.

وموطن المشكلة اعتبار المبنى كالكعبة، بيت الله الحرام، يتمتع بالقدسية، ومقصد للمسلم وغير المسلم.

وكما هو معلوم فإن زيارة المسلم البيت العتيق، والحج إلى الكعبة، هو الفرض الخامس من فرائض الإسلام.

وعليه فإن محاكاة الكعبة، ونقل قدسيتها إلى أرض سيناء يتنافى مع مكانة الكعبة وجلالها كأول بيت وضع للناس بمكة وهو الموضع المبارك والمقدس في الزمان والمكان تحديدًا، الذي هو بيت عبادة المسلمين ينبغي أن يظل على تفرده وخصوصيته وتميزه دون تعدية هذه الخصوصية والتفرد إلى صرح آخر مهما كان المبرر، بحسبان أنه يجب احترام بيوت العبادة والاحتفاظ لها بطابعها وخصوصيتها لأتباع كل دين.

ومن أراد أن يقيم مبنى أو مزارًا، فلا بأس شريطة ألا يتخذ كمكان لحج المسلمين وألا ينعت بالقدسية أو العبادة كالأمر في الكعبة التي خصتها نصوص القرآن والسنة بالعبادة، وأوجبت الحج إليها، وتشد إليها الرحال مع المسجد النبوي، والمسجد الأقصى، دون سواها كما أخبر بذلك الحديث، وفي القرآن:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(آل عمران: ٩٧).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٦).

والأولى في هذا المقام أن تفتح القدس الشريف لتكون مزارًا ومقصدًا لأتباع الأديان جميعًا الإسلام والمسيحية واليهودية فعلى أرضها توجد مقدسات الأديان الثلاثة بدلا من أعمال الاستيطان والتهويد التي تقوم بها إسرائيل بغية طمس معالمها العربية والإسلامية، وتحويلها إلى تراث يهودي، افتئاتًا على مقدسات الإسلام والمسيحية.

أيضًا معارضة البعض لمشروع قانون منع ازدراء الأديان الذى تسعى مصر لتمريره عبر مجلس حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، فهم يحسبونه قيدًا جديدًا على حرية الرأى والتعبير وسيفًا مسلطًا على رقاب المفكرين والمبدعين، فيعتبره «د/ عبدالمنعم تليمة» بأنه: الأخطر على الإطلاق، ويؤدى إلى خنق الإبداع والفكر الحر(٧).

فيما تقول «د. نوال السعداوي» في رفضها للمشروع(٨): إن الإبداع العلمي والفكرى هو أساس تقدم البشرية، وهو قائم على كسر تابوهات الأديان. أما ما تفعله الحكومات بدعوتها لمثل هذا القانون، إنما هو استخدام الدين كورقة رابحة بهدف ما وصفته بتحجيب العقول وتقسيم الشعوب على أساس الدين وسلامها في ذلك هو تملك القوى الرجعية لتدعيم أركان الاستغلال الطبقي في العالم».

ويمضي أنصار التغريب في مقولتهم بأن الدين يقف ضد حرية الفكر والإبداع والابتكار، وهو حجر عثرة في سبيل الفكر المستنير الخلاق.

وقد أغفلوا بهذا القول منجزات الحضارة الإسلامية في العلوم الإسلامية والعلوم الكونية والعقلية، وفي الفنون والآداب، وإبداعات الحضارات العالمية اليونانية، وكذا العديد من إبداعات الحضارة الحديثة مثل روسو ومونتسكيو ولوك وتوينبي وغيرهم.

فهذه المنجزات الفكرية لم تصادم ثوابت الدين، ولم تتنكر له، ولم تكفر بالمعتقدات الدينية أو تصفها بأنها تخنق الفكر والإبداع.

وبالرغم من ذلك فإن هذا التوجه يبني طرحه ورؤيته من منطلق أن الإسلام ينتقص ويهمش من وضعية المرأة، ويشكله في استجابة الإسلام وتبنيه لفكر حقوق الإنسان، فضلا عن تقديمه الإسلام بأنه يخاصم الحريات على اختلافها حرية المعتقد، حرية التعبير، حرية الإبداع والتفكير.

وفوق ذلك، فإن «الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازي»(٩). يحصر دور الدين داخل جدران المسجد وأما شئون الحياة فلا دور له فيها، وهى مهمة العقل والقوانين والشرائع، وهو وغيره من أصحاب هذا الفكر يقيم قطيعة بين الإسلام والحياة، فلا دور للإسلام في الشئون العامة، ولا شأن له بالقضايا المجتمعية، فهو محصور في المسجد لا ينفك عنه، وهذه هي مهمته كعقيدة تبنى العلاقة بين الله والمسلم، وأن يعبد الله كما أراد وحددت مشيئته، أما المجتمع وقضاياه ومشكلاته فلا شأن له بها.

وكأن الدين في نظر هذا الرأى هو وسيلة للتبرك، حيث يوضع القرآن كزينة في المنازل والسيارات، ويتلى في الجنائز والمساجد وعلى مقابر الأموات وكفى، أما شئون الحياة والمناشط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فلا دور للإسلام فيها.

الإشكاليات الناشئة عن تصادم المذاهب الفكرية:

يمكن إنجازها في أمور من بينها:

تغييب الرؤية الصحيحة النابعة من الوسطية الإسلامية:

خلفت التيارات الفكرية تداعيات وجعلت الرؤية ضبابية في أعين الجماهير والرأى العام، فقد اعتصم كل تيار برأيه الأحادى وتخندق حول الفكر الذى يدعو إليه، واعتبرها الملاذ الكفيل بتحقيق النجاة، واستعادة الإحياء والتجديد في الفكر والممارسة، مما يعود

٧- اليوم السابع شبكة المعلومات الدولية بتاريخ ١/١٢/٢٠٠٩م

٨- اليوم السابع على موقع شبكة المعلومات الدولية بتاريخ ١/١٢/٢٠٠٩م

٩- الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي

بالمجتمع والأمة إلى رشدها، ويصحح لها أمر مسيرتها.

تكريس حالة الاختلاف ورفض الآخر، والعمل على إقصائه

ومكمن الخطر في هذه التوجيهات الفكرية تكريس حالة الاختلاف الحاصلة، ونعي كل فريق على الآخر ورمي المخالف بالخطأ والخطيئة فيما يذهب إليه، واتباع سياسة الإقصاء بل واجتثاثه من طريقه، للانفراد بالساحة مما أحدث خللا في مسيرة الفكر، عم أثره السلبي على تقدم الوطن والأمة، لعدم قبول أفكار الآخر.

ولو عقلت هذه التيارات مصلحة المجتمع والجماهير، لاتخذت من الوسائل النافعة ما يجعلها تلتقي مع بعضها البعض على كلمة سواء وخطة رشد يجدد أمر هذا الدين، ويستعيد دوره في الحياة المعاصرة، ويقدم رؤاه وتصوراته في القضايا والمستجدات، ويعالج المشكلات والإشكاليات الطارئة، ويستنقذ الأمة من أزماتها، ويرسم لها الطريق نحو النهضة، وتبوؤ المكانة اللائقة بها بين مجتمعات الأمم، في عالم يسير في طريق التوحد والتكتل، والعمل بكل سبيل لإحراز الغلب والسبق، ولا يرضى عن الريادة بديلا.

إشاعة الانقسام والمذهبية على حساب فريضة الوحدة والوطن

في حين أن مسلك هذه التيارات بما أورثته من فوضى فكرية، وممارسات تصادمية، واتجاه إلى المذهبية أوجد فرقة وأحدث انقسامًا، فصار الصراع بينها على أشده لا مجال لبلورة قواسم مشتركة فيما بينها، ولا توجه لأعداء مصلحة الدين والوطن فوق كل المصالح الضيقة، والدعاوى الزائفة، المغرقة في مصادرة فكر الآخر ونفيه والرغبة في استئصاله.

لقد فات أصحاب هذا الفكر أن يدركوا أن هذه الفرقة والطائفية هي المعول الذي يهدم حقائق الإسلام ويقوض بنيان الجماعة، ويضرب مصالحها في مقتل، وهو مما نهى عنه الإسلام أشد النهي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٩).

وقوله:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

(الأنفال: ٤٦).

ضرورة صياغة مشروع قومي لنهضة الأمة وتقدمها:

لقد كان حريًا بكل رأي أن يسعى من منطلق ينبع من الهوية ومصلحة الوطن، لأجل أن يجتمعوا على الهدف، ويسلكوا السبيل إليه بدلاً من هذا الخلل والاضطراب والبلبلة والتخبط في مسيرة الحياة، بأن يعملوا صادقين مخلصين نحو صياغة مشروع قومي نابع من هوية الأمة، مستلهمًا مقاصدها وأهدافها في جميع المناشط الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يحقق النهضة والتقدم.

ومن الضروري للتوصل إلى هذا الالتقاء المنشود، صدق التوجه وإخلاص القصد نحو الاجتهاد السديد بلورة فكر رشيد، يعلن عن هوية الأمة وصالح الوطن والمجتمع ولا غضاضة أن تتعدد الوسائل والآليات التي تعلي الهوية وتقدم المجتمع ما دام أن هذه التعددية تتجه صوب الوحدة وتجمع الأطياف والاجتهادات نحو الهدف الواحد.

الاعتصام بأدب الاختلاف وثقافة الحوار في ظل الهوية

ما من شك أن التحلي بأدب الاختلاف وثقافة الحوار، وقيم التفاهم، يضحي مسألة أساسية، ومطلبًا حتميًا لنجاح الحوار، إذ إن الحفاظ على أدب الاختلاف هو ركيزة وقاعدة لكل حوار بوجه عام، وفي الحوار البيني بين أبناء الدين والوطن الواحد، بموجب أنهم شركاء في الدين والوطن، وأصحاب قضية وهدف واحد.

وإلى جانب هذا الحوار البيني المتحلي بأدب الاختلاف والحرص على بلوغ الحقيقة، يلزم احترام كل طرف للآخر، وإتاحة الفرصة له، وتفهم قوله بمقتضى أنه يشكل ضمانة مكملة للأولى، ومرتبطة بها لا تنفك عنها، وأحرى بالفريقين أن يطبقوا ما نبه إليه القرآن عند الاختلاف:

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة: ٨٣).

أن يبدي كل طرف حجته في القضية وفق الأدب القرآني عند المحاجة:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

(فصلت: ٣٤).

وأن يقتفوا طريق الفقهاء في إدارة الاختلاف، فيما قاله أبو حنيفة: «علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه»، وفي مقولة الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

وما لم يحتكم الطرفان إلى هذه الأسس في التعامل مع اختلافاتهم الفكرية ورؤاهم المذهبية، فإن ثغرات الجاهلية ستتفاقم، ونزعات الاختلافات ستتحول إلى خلافات ذميمة وممارسات غير مشروعة، تقود إلى مزيد من الفوضى والانقسام والطائفية، مما يلقي بظلاله على مجمل العلاقات بين فئات المجتمع، ويقوض البنية الأساسية لصرح الوطن والأمة.

التيار الثالث: تيار الوسطية:

ذلك التيار الذي يعتمد منهج الإسلام الصحيح، في التوفيق بين العقل والنقل، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وينطلق من الأصول الإسلامية للوفاء بمتطلبات الحاضر والمستقبل.

هذا الفكر الوسطي، يتخذ من النصوص القطعية في القرآن والسنة، واجتهاد وتجديد المسلمين في الدين والمدنية والحضارة نقطة ارتكاز، لبناء الحاضر واستشراق المستقبل.

فهم لا يبدءون من نقطة الصفر، ولا يصادرون هوية الأمة، ولا يغرقون في الماضي، ولا ينبطحون للحداثة والمعاصرة، إنما يبنون على صحيح الإسلام للدين والدنيا ويعيشون العصر على وعي بمتطلباته ويعملون للمستقبل، بآماله وتطلعاته المرتقبة.

ملامح الفكر الوسطي ومرتكزاته:

يؤسس هذا الفكر منهجه على أصول الإسلام في الجمع بين النص والعقل.

فالنصوص المحكمة القاطعة في دلالتها

على الحكم الشرعي في المسألة أو القضية، يتعين الالتزام بها وعدم التفلت منها وأغلبها كائن في أمور العقيدة والعبادة، وأقلها في شئون الحياة، ومناشطها العامة.

فأمور العقائد، المتعلقة بأصول الإيمان بالله ووحدانيته والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، حق واجب، لا يوجد إسلام بدونها، كونها من قواطع الدين.

ومن الواجب المفروض كذلك أداء العبادات، التي تمثل أركان الإسلام العملية الصلاة والزكاة والصوم والحج، وفاءً بحق الربوبية وشكر الخالق المنعم على العباد.

ومع ذلك، فإن طريقة أداء هذه الفرائض قد تكون للعقل والاجتهاد فيه مساحة ومجال، حرصا على القيام بها، مثل استخدام الحساب الفلكي في تحديد مواقيت الصلاة، ومعرفة بدء شهر الصيام.

واستخدام البوصلة في التعرف على القبلة في الصلاة، والاستعانة بالمراصد وأجهزة المراقبة لتحديد مولد هلال رمضان.

ومثل ذلك معرفة مواقيت الصلاة والصيام في المناطق القطبية واستعمال الحاسبات الآلية في المسائل الخاصة بالزكاة، وتحقيق الأنفع في دفع نصابها للفقراء والمحتاجين، في ضوء ما طرأ على العصر، وطرق تنمية أموال الزكاة.

وفي الحج الاجتهاد لأداء الفريضة مع الحفاظ على النفس من الهلاك، وضمان جلال القيام بالشعائر بالخشية والرهبة، والشعور بالصفاء الروحي والسكينة الإيمانية، والنظام الإسلامي.

وهو ما استدعى التوسعة في الصفا والمروة، وأماكن رمي الجمرات حفاظا على حق الحياة وقدسية الفريضة.

والنظر العقلي أساسي لتحصيل الإيمان، فهو أول أساس وضعه الإسلام كما يقول محمد عبده [10]، وهو وسيلة الإيمان الصحيح.

١- الآيات والأحاديث التي تحض على إعمال العقل، والتفكر في الكون:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(محمد: ٢٤).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾

(الأعراف: ١٨٥).

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

وحديث الرسول ﷺ: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» [11].

وينظم أمر العقل في الدين والشرع، حتى قال بعض العلماء: «إن إيمان المقلد لا يقبل». كما أن القدرة العقلية، والسلامة الذهنية، مناط وأساس للتكليف بأحكام الشرع، إذ لا تكليف على غير عاقل أو من فقد عقله لعارض أو طارئ ألم به.

يقول الرسول ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث:

١٠- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص ٥١.

١١- أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة.

عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق» [12].

٢- الجمع بين ثوابت الدين ومصالح الدنيا:

فالدين والدنيا قرينان متلازمان لا يفترقان، وإذا كان الدين هو أساس الخليقة، وسبب الوجود، وعبادة الله هي واجب ومهمة الإنسان في الكون:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦).

فإن على الإنسان أن يعرف حق الربوبية، وجلال المنعم بأن يعبده ويوحده لا يشرك به شيئا.

فإن تنمية الكون وعمارة الحياة، هو الذي يكفل تحقيق الإيمان والعبادة، فغير الواجد، وغير القادر على الحصول على مقومات حياته واستمرار بقائه لن يستطيع القيام بالفرائض والواجبات ولا يجوز الاستغراق في أركان وفرائض الدين، وهجر أو ترك الدنيا، بل العيش بهما على السواء، فالجمع بينهما مطلوب شرعي.

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(القصص: ٧٧).

وفي الأثر «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» [13].

وإنما كان مقصود الشرع في تحصيل الحياتين الدنيوية والأخروية بموجب أن ذلك لازم للحفاظ على كيان الإنسان ومادته، الروح والبدن، المعاش والمعاد، وأنه لا قوام للإنسان بدونهما، ولا استمرار لوجودها بدونهما.

من أجل ذلك شدد الإسلام على الجمع بين الإيمان والعمل فالصدق والنظافة والإخلاص والنظام من دعائم الإيمان وحفظ النفس والمال والعقل والنسل أو العرض من مقاصد الشرع. والاقتران تحت ظلال عقد الزواج الشرعي الالتزام بالحقوق والواجبات، هي من الثوابت في الدين ومن المصالح التي لا يستقيم نظام مجتمع أو حياة الناس بدونها.

وتحقيق ذلك لكل الناس والأمم بلا تفرقة ولا تمييز فهي متطلب إنساني، غاية الأمر أن منهج الإسلام في الوفاء بهذه الواجبات، يكون بقدر وعلى أساس التوازن بين المصالح الدينية والحياتية، بحسبان أن كلا منهما يتكامل مع الآخر وأصل له لا ينفك عنه.

ولم يكن الدين الإسلامي في المسجد أو للإيمان والعبادة فقط، وإنما هو دين للحياة وللإنسان، والقائل بغير ذلك هو جاهل بطبيعة الإسلام أو غير فاقه لجوهره وأسراره، أو معاند ومغرور، غير حريص أو لا يأبه بمعرفة حقيقة هذا الدين، الذي جاء على مقتضى فطرة الإنسان وطبيعته المركبة:

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم: ٣٠)

١٢- سنن النسائي، كتاب الطلاق، باب ٢١.

١٣- وهذا من قبيل الأثر.

تطبيق الشريعة بين آليتي "الضبط الاجتماعي" و"الضبط القانوني" وبين "دور الأمة" و"دور السلطة" رؤية إسلامية جديدة

الأخيرة

د. يحيى رضا جاد

يقول المولى عز وجل:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

فالدعوة إلى الخير لا تنحصر في فئة دون فئة، ولا تقوم بها مجموعة دون مجموعة، وإنما هي مهمة الأمة كلها فردًا فردًا بلا استثناء (عبر آليتي الضبط الاجتماعي والقانوني، على التفصيل السابق لهما).. ومثلها - لزامًا - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الكلام في الآية واحد، والجهة المتحدث عنها واحدة، فلزم ألا يُخصص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فئة أو جماعة دون غيرها تدعي القيام به.

ثم إن سياق الآيات كالآتي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٠ - ١٠٥)

فالسياق من أوله إلى آخره يوجه حديثه إلى جماعة المسلمين كلهم، لا إلى فئة أو جماعة منهم.

و«مِنكُمْ» هاهنا - بناء على الفقرتين السابقتين، وبناء على التفسير الموضوعي السابق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم، والاستقراء الشامل لنصوصه ومضمونه فيه، أي بناء على هذه القرائن كلها - ليست للتبعيض، وإنما هي للبيان. فـ«مِنْ» هاهنا «بيانية» لا «تبعيضية»؛ أي أنها تُبين جنْسَ القائمين على هذا الأمر، وهم الأمة كلها، لا أنها تحصر أو تخص هذا الأمر بفئة منهم دون فئة.

- فيكون المعنى: ولْتكونوا كلكم - أنتم أيها المسلمون - أمةً تدعو إلى الخير.. فهو أمرٌ للأمة جميعها بأن تكون في مجموعها موصوفةً بأنها تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ فواجبٌ عليها التخلق بهذا الخلق.

- وبتعبير آخر، يكون المعنى: ولتكونوا كلكم أنتم أيها المسلمون أمة يدعو مجموعها إلى الخير ويأمر مجموعها بالمعروف وينهى مجموعها عن المنكر.. ولْتكونوا في مجموعكم أنتم أيها المسلمون أمةً تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. ولتكونوا أنتم أيها المسلمون أمةً، من صفاتها أنها تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. ولْتكونوا أنتم أيها المسلمون أمةً موصوفةً بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ولْتكونوا أمةً داعيةً إلى الخير، آمرةً بالمعروف، ناهيةً عن المنكر.

وفي جميع هذه الأحوال تكون جملة:

﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

في محل رفع نعت لـ«أمة».

وفي جميع هذه الأحوال أيضًا نحن أمام تكليفين اثنين:

الأول: «أن تكُون أمةً». أي أن يكُون لنا - نحن المسلمين - كيان ونظام مؤتلف.

وهذا ما أسميه بـ«فرض تكوين الأمة».

ويمكن أن يتم في عصرنا هذا تحت مظلة «منظمة التعاون الإسلامي» بشرط تطويرها وتحديثها وتوسيع مهامها وبسط أنشطتها. (ملحوظة: تأمل العلاقة بين هذا وبين الآية التالية له مباشرةً والسابقة عليه:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾

(آل عمران ١٠٥)

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران ١٠٣)

والثاني: «أن تكُون أمةً موصوفة بكذا وكذا».

وهذا ما أسميه بـ«فرض تخليق الأمة» - نسبةً إلى الأخلاق لا الخَلق -، وقد سبق تفصيل ذلك قبل قليل.

- وبتعبير ثالث نقول: ساعة أن تأتي لإنسان فتقول له: «ليكن منكَ شُجاعٌ مقدامٌ»؛ فهذا يعني أن يُجرِّدَ هذا الإنسان من نفْسه، ويُخرجَ منها، شخصًا شجاعًا مقدامًا؛ بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يصير هذا الإنسان كذلك. ومثله أيضًا أن تقول لآخر: «ليكن منك كريم سخي»؛ أي اجعل من نفسكَ رجلاً كريمًا سخيًا. وهكذا الآية الكريمة فيما نرى - بناء على ما سقناه من قرائن مضت -؛ فهي تأمر كلَّ جماعة المسلمين بأن تكون أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ أي أنَّ هذه الآية تطالب كلَّ أمة المسلمين بذلك، فلا تختص جماعة منها بذلك، بل الواجب أن تكون الأمة كلها كذلك.

ثم إن سياق الآيات (آل عمران: ١٠٠ - ١٠٥)، وبالأخص ما بعد آيتنا الكريمة، يفيد - كما سبقت الإشارة - أن الخطاب للأمة في مجموعها، تدبر قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

فالنهى هاهنا يتجه رأسًا إلى الأمة بأسرها؛ تحذيرًا لها من أن يأول حالها إلى ما آل إليه أهل الكتاب.. ومثله كذلك بقية الأوامر الواردة فى السياق؛ لاتحاد المساق والمخرج والمُخاطَب، ولأن المعنى - فى السياق كله - لا يناسبه إلا أن يكون خطابًا للأمة بأسرها.

ونقف وقفتين سريعتين قصيرتين مع حديث رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام القائل فيه: «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

- الوقفة الأولى:

التغيير باليد: أى التغيير العملى. والتغيير العملى كما يكون بإزالة عين المنكر، يكون أيضًا ببناء بديل يصرف الناس عنه دون إزالة عين هذا المنكر (وهذا أحد أوجه آلية الضبط الاجتماعى للتصدى للمنكر). فضلاً عن أن اليد من معانيها القوة والسلطان؛ فيكون المقصود: التغيير بآلية الضبط القانونى. فضلاً عن أن من المنكرات ما يقع عدوانًا وبغيًا؛ كمحاولة اغتصاب امرأة، أو قتل رجل، أو سرقة شخص، ومثل تلك الأمور لا يمكن أن يُتصدى لها إلا باستخدام القوة المباشرة من الحضور ضد مرتكب هذه الاعتداءات.

والتغيير باللسان: أى التغيير الفكرى (وهذا يتطلب أسلوبًا حسنًا، وطول بال؛ فإن تغيير الأفكار تتطاول آماده، ولكنّ نتائجه ناجعة تستأصل المنكر من جذوره)، وليس فقط مجرد الأمر والنهى؛ فإن ذلك اختزال فاحش!

والتغيير بالقلب: أى المقاومة السلبية الأدبية بالمقاطعة والمجانبة.

- والوقفة الثانية:

أن «النهى عن المنكر» غيرٌ «تغيير المنكر»؛ فهما مرتبتان مختلفتان. ولكلٍ شروطٌ وضوابط.

وأكتفى بهاتين الوقفتين القصيرتين على أمل فى التوسع فيما بعدُ إن يسر الله ذلك.

٧- ومن جميع ما سبق، نخلص إلى أن الأمة - قبل السلطة وأكثر منها - هى التى تدبر وتدير شئونها الدينية والفكرية والثقافية والأخلاقية - أو هكذا ينبغى أن تكون-، وهى التى تنهض بمشاريعها العلمية والفكرية والعمرانية والحضارية، وهى التى تلبى حاجاتها الاجتماعية وتحل مشاكلها المعيشية.

نعم، السلطة قد تشجع وتساعد وتنظم، ولكنها قد تضعف فتصبح عالة على المجتمع، وقد تنحرف فتصبح عائقًا فى طريقه، ولكن المجتمع (الأمة) إذا كان واعيًا بأنه هو الأصل، وإذا كان قائمًا بما ينبغى أن يقوم به وعليه، فسيبقى حيًا نشيطًا متجددًا فى طاقاته وإبداعاته ومشاركاته وإسهاماته، ولو بالحد الأدنى من الحيوية: الذى يحفظه من «تصلب الشرايين الحضارى» و«البيات الشتوى التاريخى»، والذى يحميه من أن يتحول من «نافورة للحضارة» إلى مجرد «بالوعة» و«مصرف» لها، والذى يُمسكه أن يصبح بيئة إسفنجية ملاربة طاردة «تلد الحضارة بدلاً من أن تلدها»، والذى لا يَفشى فيه «الساقطون أخلاقيًا»: «ناجحين اجتماعيًا»!

إن التمكين للسلطة إنما يكون نتيجةً وفرعًا عن التمكين للأمة.. أما حين يصير التمكين للسلطة على حساب التمكين للأمة؛ وحين يصبح حكرًا على السلطة ممنوعًا على الأمة، حينها: «تلدُ الأمة ربّتها»!

إن الأمة حين تتمكن - عن حق - وحين تكون هى الأصل والمركز - كما هو الوضع الأصلى الطبيعى -: تنطلق حرية المبادرة فى الفكر والقول والعمل من قُمقمها، وتنمو وتزدهر؛ فتتحرك الأمة فى كل اتجاه، وتعطى وتبدع فى كل جانب، دون أن يؤثر ذلك سلبًا أبدًا على السلطة وقيادتها ورعايتها، بل لا يؤثر ذلك على السلطة إلا بمزيد من القوة والعافية والرقى وخفة الحركة وسرعتها؛ فتصبح صغيرة الحجم عالية الكفاءة.

والخلاصة أنّ «الأمة هى الأصل»:

فهى كلها المستخلَفة فى حمل خاتم الرسالات والقيام بمهمة الشهود بعد رسول الله ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة: ١٤٣)

وهى المكلفة بتحقيق تكاليف وحى الرحمن وتطبيقها وتفعيلها فى حياة الناس:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران ١١٠)

وهى المسئولة عن ابتكار وتطوير الآليات والأدوات والسبل والوسائل والروابط والتجمعات والجمعيات والأجهزة والمؤسسات اللازمة للقيام بمختلف الوظائف والمهام المنوطة بها، مثل: الجهاد، والتعليم، والدعوة، والزراعة، والصناعة، والتجارة، ومحاربة الاحتكار، ومنع الغش.. إلخ:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(الأنفال: ٦٠)

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٢)

ومن شأن هذا الخطاب القرآنى - المتوجِّه للأمة بالتكليف - ومقاصده: أن يفرز مجتمعًا ساهرًا على مصالحه، ومستنفرًا كافة خلاياه الحية للتقويم والإصلاح وإقامة دين الله - بالمفهوم العام الواسع الشامل لإقامة الدين-.. وبهذا يتشارك الأفراد جميعًا مسئولية المساهمة فى الإقامة والتقويم والرعاية.

نحن هاهنا بصدد أمة / مجتمع حاضر بأمر الله، لا ينتظر دعوةً من سلطة ولا إذنًا من حكومة، حيث هو الأصل، وهذه السُّلطات والحكومات فرع عنه.. وحيث حضورُه مفروض بمقتضى التكليف الإلهى.. أما «الشكل» الذى يكون به ومن خلاله هذا الحضور: فللناس أن يصوغوه حسب ظروف زمانهم.. المهم أن يظل المجتمع محتفظًا بآليات حركته الذاتية، وألا يقع فريسة اجتياح السلطة وتوغلها وتغولها وتوحشها، وألا ينسحق أمامها.. فالتنظيم من خلال الناس / المجتمع / الأمة، هو الوسيلة الأساسية التى تُحققُ الالتزام بالقيم، وتحفظ للأمة عافيتها وكرامتها.

والله أعلى وأعلم.

نقد كتاب (الإسلام منهج حياة)

تأليف
الدكتور فيليب حتي
نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ
الطبعة الأولى بالعربية في بيروت سنة ١٩٦٢م

الناقد
دكتور موسى شاهين لاشين
أستاذ التفسير والحديث (المساعد) بجامعة الأزهر

يبحث الكتاب في الإسلام من جوانب ثلاثة: الجانب الديني، والجانب السياسي، والجانب الثقافي.

ففي الجانب الديني يتحدث عن أركان الإسلام: الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، ويشرحها - بإيجاز - شرحًا لا يختلف عما هي عليه في الشريعة، ثم يتحدث عن التصوف في الديانات المختلفة بصفة عامة وفي الإسلام بصفة خاصة، ويسهب في تحليله، ويتعرض لشخصيات إسلامية متصوفة، كالسهروردي، وذي النون المصري، ورابعة العدوية، والحلاج، وابن عربي.. وللطرق الصوفية كالقادرية والرفاعية والسنوسية.. وأسهب وأحسن الكلام عن الإمام الغزالي كصوفي وفيلسوف، وإن انحرف عن الحقيقة في بعض أوصافه - كما سنوضحه فيما بعد.

وفي الجانب السياسي يتحدث عن الإسلام كدولة، وعن الفتوحات الإسلامية، ويصفها بأنها حدث مذهل في تاريخ البشرية، ويؤرخ تاريخًا عاديًا للخلافة الأموية، والخلافة العباسية، والخلافة العثمانية.

وفي الجانب الثقافي يتحدث عن التراث العلمي الذي خلفه العرب، في الفلسفة، والفلك، والحكمة، والجغرافيا، والرياضة، والطب، ويتحدث عن العلماء الذين برزوا في هذه العلوم، كالخوارزمي، والبتاني، والمجريطي، والزرقالي، والبلخي، والإدريسي، والرازي، وابن سينا، والكندي، والفارابي، وابن طفيل، وابن رشد.

ويتحدث عن الفرق الإسلامية كأهل السنة والمعتزلة، ثم عن الأدب العربي شعرًا ونثرًا، ثم عن الفن العربي في العمارة والزخرفة والتصوير.

تلك لمحة عن موضوع الكتاب ومباحثه، وقبل الدخول في نقده أحب أن أوضح حقيقة صرح بها المؤلف نفسه في مقدمته، وهذه الحقيقة هي أن الكتاب لم يقصد منه التعمق في بحث موضوعاته، وإنما قصد منه أن يكون نافذة يطل منها الباحث على ميدان الثقافة الإسلامية الفسيح، وبابًا يلج منه إلى الدراسة الجدية التفصيلية، ومادته في أصلها عبارة عن مجموعة محاضرات عامة، ألقيت على جمهور متفاوت، حينما كان المؤلف أستاذًا زائرًا في دائرة لغات الشرق الأوسط بجامعة منسوتا بالولايات المتحدة في ربيع ١٩٦٧م.

وسأقسم النقد إلى خمسة عناصر:

- العنصر الأول: مواقف محمودة من المؤلف، وكلمات حقة، تذكرها له بدافع الحق والنزاهة والتقدير.
- العنصر الثاني: عبارات مريبة نقرؤها بتريث وإمعان وحذر، ونتساءل عما وراءها من دوافع ومقاصد.
- العنصر الثالث: أخطاء علمية، نصححها أداء لأمانة العلم، وإحقاقًا للحق والحقيقة.
- العنصر الرابع: أخطاء كثيرة في الآيات القرآنية.
- العنصر الخامس: همسة نقد وعتب في أذن الدكتور الناقل المترجم إلى العربية..

وإليك البيان:

١ - العنصر الأول: من مواقفه الحميدة، وعباراته السليمة قوله في صحيفة (٢٣) عن الإسلام ورسوله محمد ﷺ: إن شريعته تجمع كل ما في الشرائع، وتكملها، ثم تنسخها كلها، ولقد كان من أسباب ذلك أن اليهود والنصارى - كما جاء في القرآن - قد بدلوا الوحي الذي نزل عليهم في شريعتهم.

وعند الكلام على معركة (بدر) يقول في صحيفة (٣٥) (لا سبيل إلى الجدال في أمر هذه المعركة، معركة بدر، إن الانتصار فيها قد تم بتأييد إلهي.. إن اللقاء الأول بين التوحيد والشرك انتهى بانتصار التوحيد، فكان ذلك رادعًا إلهيًا وضع في يد الإيمان الجديد، يخيف الله به خصوم الإسلام).

وفي النزاع بين اليهود والمسلمين يقول في صحيفة (٤٠): (بعد أن هاجر الرسول بأتباعه إلى المدينة نصب اليهود العداء للإسلام وللمسلمين، وأخذوا يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم وحدهم من نسل إبراهيم.. إن اليهود الذين عاصروا الدعوة الإسلامية هم الذين أعلنوا العداوة للإسلام، وقد كان لموقفهم المعادي في أحوال كثيرة ما برر اتخاذهم أعداء).

وفي وصف الإسلام يقول في صحيفة (٥٣): (الإسلام ليس دينًا محمديًا، ولكن دين التسليم بإرادة الله).

وفي تعدد زوجات رسول الله ﷺ يدافع ويقول في صحيفة (٥٤): (وفي الكتاب المعاصرين لنا نفر يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة - التي حققها محمد رسول الله - أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل، وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم).

وفي المقارنة بين القرآن والكتب المقدسة الأخرى يقول في صحيفة (٦٠): (الكتاب المقدس هو خزانة من الكتب التي ألفت في لغات مختلفة، ألفها رجال مختلفون في أزمنة وأمكنة مختلفة، والزمن الذي ألف الكتاب المقدس في خلاله يمتد ثمانمائة وخمسين عامًا، أما القرآن فقد نزل في سنوات قليلة (ثلاث وعشرين سنة) على رجل واحد، كان يعيش في منطقة معينة، والكتاب المقدس ألهم به كاتبوه. أما القرآن فقد أملي (أو أقرئ) فكل استشهاد بآية من القرآن - إذن - يجب أن يبدأ بالتعبير (قال الله تعالى) ونصوص الكتاب المقدس قد خضعت لعمل من التحرير والتصحيح، أما نصوص القرآن فلم تمسها يد بشر).

تلك المواقف، وهذه العبارات التي نحمدها للمؤلف لم تكن لتلقى اهتمامًا يذكر لو أنها كانت من باحث مسلم، أما وأنها جاءت على لسان الدكتور فيليب حتي، وألقيت على

مسامع جماهير من غير المسلمين فى أمريكا فقد اكتسبت أهمية خاصة، وحازت ما أضفيته عليها من تقدير.

٢- العنصر الثاني: عباراته المريبة: ولن أقوم بحصرها هنا لضيق المقام، ولكن أكتفى بذكر بعضها، فهو يقول فى صحيفة (١١) بعد أن أشار إلى دين الإسلام ودولته وثقافته: (كل هذا بدأه رجل واحد، أما الاسم الذى يجب أن تكون والدة هذا الرجل الواحد قد سمته به فلسنا على بينة منه اليوم.

هل يقصد بهذه العبارة التشكيك فى الاسم الحقيقى للرسول ﷺ ليلقى فى نفس القارئ أن لفظ الحمد (محمد - أحمد) الوارد فى الكتب المقدسة ليس اسمًا لهذا الرجل؛ لأن والدته قد سمته باسم آخر؟

إن ذكر هذه العبارة لا معنى له ولا هدف إن نحن أحسنا الظن، والمؤلف يعلم حق العلم أن المرأة العربية لم تكن التى تسمى ابنها، وإنما كانت التسمية للآباء أو من يقوم مقامهم من الأجداد والأعمام.

وفى صحيفة (١٢) يقول: (ومع أن الحقائق التاريخية المتعلقة بمحمد معروفة، فإن حياة محمد الرجل (قبل البعثة) يخفى علينا منها شيء كثير، إن أقدم إشارة إليه فى القرن السابع للميلاد (وفى المصادر الأجنبية) إشارة عارضة، فى اللغة السريانية، وأما فى اللغة اليونانية - وقد كانت لغة عامة فى بلاد الهلال الخصيب - فإن أول ذكر (لحاكم المسلمين وللمتنبئ) ترد فى كتاب حوليات (كتاب تاريخ مرتب على السنين) مؤلف بعد قرنين كاملين من وفاة الرسول، أما أقدم سيرة له فقد كتبها مؤلف توفى فى بغداد بعد مائة وأربعين عامًا من وفاة محمد، هذه السيرة قد بقى (معظمها) لنا فى نسخة من صنع ابن هشام المتوفى فى الفسطاط (مصر القديمة) عام (٢١٨ هـ) فى ذلك الحين كانت الشخصية التاريخية للرسول قد أحاط بها زهو الخيال، فأصبحت المثل الثابت للإنسان الكامل، وفى جميع ما كتب عن الرسول كانت الحقائق التاريخية تمتزج بالروايات الخيالية امتزاجًا لا يمكن تمييز بعض عناصره من بعض بسهولة، وتألقت حول هامة الرسول هالة وضاءة من نور القدس سايرت التاريخ كله) لا شك أن هذا القول يهز تاريخ النبى ﷺ هزًا عنيفًا، ويجعل ما بين أيدينا من حقائقه موطن شك وريب، ما دام التاريخ غير العربى لم يشر إليه إلا بإشارة عارضة، وبوصف حاكم المسلمين، وبوصف متنبئ، بل هذه الإشارة نفسها جاءت بعد وفاته ﷺ بقرنين، مما يجعلها قليلة الثبوت، وما دام التاريخ العربى لم يكتب عن محمد ﷺ إلا بعد مائة وأربعين عامًا، وما دام هذا المكتوب كتبه مؤلف (مجهول)، وما دام لم يصل إلينا إلا بعضه عن طريق مؤلف مات بعد وفاة الرسول ﷺ بأكثر من قرنين، بعد أن أحاط بالشخصية زهو الخيال، وما دامت جميع الحقائق التاريخية للرسول تمتزج بالروايات الخيالية بحيث لا يمكن تمييز بعضها عن بعض.

إن المؤلف يتجاهل التاريخ الثابت بطريق النقل الشفوى الصحيح، ولا يعتمد غير المكتوب، يتجاهل ما قام به العلماء الثقات من تحرى الأسانيد الصحيحة المتصلة التى نقلت إلينا الشريعة الإسلامية، ومنها السيرة النبوية الشريفة، يتجاهل أن الأمة الإسلامية كانت أمة حافظة ذاكرة أمينة، وأنها كانت تعتمد فى أول أمرها على الحفظ لا على الكتابة، ولو تطرق الشك إلى النقل الشفوى الصحيح فى فترة لا تزيد على قرنين من خير القرون لتطرق مثله وأكثر منه إلى المكتوب من حيث إمكان تغييره بمكتوب آخر، كما حصل للكتب المقدسة باعتراف الدكتور فيليب.

ثم إن المؤلف يشكك فى رسالة محمد ﷺ، ويعزو ظهوره إلى التحول القبلى فى الحياة العربية الجاهلية، فيقول فى صحيفة (١٥): إن العصبية وهى أمر أساسى فى الحياة البدوية وإن الشجاعة وهى أيضًا من الأمور الضرورية للوجاهة والرئاسة فى البيئة الاجتماعية البدوية قد أخلتا مكانيهما للمبادرة الشخصية وللجهد المبذول.. إن هذا التخلخل فى طاعة القبيلة قد أدى إلى قيام طاعات دينية فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، يدلنا على ذلك قيام عدد كبير من المتنبئين أو مدعى النبوة فى أقسام مختلفة من شبة الجزيرة.

ثم يشكك فى أن الرسول ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب فيقول: (إن نفرًا من الباحثين المتأخرين يثيرون جدالا يدور على أن محمدًا رسول الله - وقد عمل فى التجارة زمنًا - يجب أن يكون قد عرف شيئًا من القراءة والكتابة، وأن هذا اللفظ (أمى) فى قوله:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

كما يفهم من القرينة يجب أن يعنى فى الأرجح شخصًا ينتسب إلى جماعة ليس لهم كتاب منزل، أى لا يعرفون الكتب السماوية ولا ما فيها)

لست أفهم من محاولة إثبات أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب إلا أنها للإيحاء بأنه ﷺ جاء بما جاء به من الكتب المقدسة السابقة، كما يشير إلى ذلك المؤلف بقوله: «ولا شك فى أن الرسول كان يدرك كثيرًا من أحوال نصارى الشام والحبشة من تجار وسياح وعبيد أرقاء، ويحتك بنفر أو بجماعات من هؤلاء احتكاكًا شخصيًا أيضًا، وإلى جانب هؤلاء كان ثمة جماعة قديمة من النصارى فى نجران على التخوم الجنوبية للحجاز، كما كان ثمة أيضًا قبيلتان من متنصرة العرب على أطراف شبه الجزيرة فى الشمال الشرقى والشمال الغربى، ثم كان هنالك أيضًا ثلاث قبائل يهودية متعربة فى المدينة وفى ما حولها» صحيفة (١٦).

وكما يصرح فى صحيفة (٧٨) بقوله: «أما النظام الإسلامى المحكم للصلاة، خصوصًا فى التوجه نحو قبلة، وفى الحركات الجسدية، فإنه ينكشف عن تأثير نصرانى».

ويشكك المؤلف فى الرسائل التى أثبت المؤرخون نصوصها إلى ملوك البلاد المجاورة فيقول فى صحيفة (٤٩): «غير أن نفرًا من المؤرخين الغربيين يرون أن من غير المنتظر أن يكون النبى قد بعث برسائل إلى ملوك أجانب قبل أن يكون قومه كلهم قد آمنوا به».

كما عنى المؤلف بإبراز طعن الطاعنين فى القرآن من غير أن يرد هذا الطعن، مما لا يدع مجالا للشك فى أنه يوحى بزعزعته والشك فيه، من ذلك نقله عن توماس كارليل قوله: إن القرآن خليط مشوش ممل فج مضطرب، بل إنه بعد هذه العبارة لم يثبت للقرآن إلا أنه مجموعة أدبية إذ يقول: «فى الحق إن القرآن أثر أدبى لثقافة» انظر صحيفة (٦٤).

ويفرق بين الإسلام وبين أقوال محمد ﷺ فيقول فى صحيفة (٦٤): «عالج الإسلام، فى نطاق التشريع أحوالاً مخصوصة بالتدريج، كلما دعت الحاجة إلى معالجتها، ونجد

لمحمد أحكامًا شرعية منثورة في الحديث بين أقوال تتصل بها أو لا تتصل بها».

وإن القارئ المسلم ليقف متسائلاً عندما يقرأ في صحيفة (٧١) قوله : (والشهادتان : لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا تردان في القرآن معًا)، ما الهدف من هذه العبارة؟ أيقصد أن إحداهما كافية دون الأخرى؟ أو ليس يعلم أن القرآن يجب الإيمان به كله، وحيث قد وردت كل واحدة منهما يجب الإيمان بها؟ أم يريد أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ ويريد أن يتخذ بين ذلك سبيلاً؟

ويحاول المؤلف أن يبعد الغزوات عن هدفها السامي، وهو نشر الإسلام والدعوة إلى الله فيقول: «غير أن التاريخ لم يخبرنا بالغاية من هذه الغزوات، ومن غير المستبعد أن يكون هدفها الاستيلاء التام على طريق القوافل».

ثم يقول في صحيفة (١٦٠) : (وفي الواقع أن الذي انتصر في الفتوح الأولى لم يكن الإسلام الذي هو الدين بقدر ما كان الإسلام الذي هو الأمة الدولة التي أنشأها محمد أي العصبية العربية).

بل يحاول أن يسئ إلى المسلمين الفاتحين في معاملتهم لأهل البلاد المفتوحة، فيقول في صحيفة (١٧٣) : (وأما أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الإسلام فقد عرتهم خيبة أمل لما وجدوا أنفسهم عمليًا أدنى مرتبة في البيئة الاجتماعية من المسلمين العرب).

ولست أشك أن المؤلف يعلم حق العلم أن الغزوات الإسلامية كانت غايتها واضحة راسخة في نفوس المجاهدين وأنها لم تكن سوى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، وأنهم كانوا يتمنون الشهادة ويحرصون عليها أكثر مما يحرصون على الحياة.

ولست أشك أن المؤلف يعلم حق العلم أن الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة كانوا أمام القانون سواء، ويعلم حق العلم أن عمر ابن الخطاب أعطى اليهودي الفقير من بيت المال، كما كان يعطي المسلم الفقير، وأنه غضب أشد الغضب لما ضرب ابن عمرو بن العاص قبطيًا بمصر قائلاً له: أنا ابن الأكرمين، فاستدعاه عمر بن الخطاب وأعطاه الدرة وقال له: أضرب ابن الأكرمين، كما ضربك. ويعلم حق العلم أن حسن معاملة الفاتحين لأهل البلاد كان السبب الأول في إسلام أهلها ودخولهم في دين الله أفواجًا.

ثم يحاول المؤلف مسخ الجهود العربية والإسلامية وأثرها في الثقافة، فيقول في صحيفة (٢٠٦) : (إن المسلمين والنصارى واليهود، وإن الساميين والحاميين والهنود والأوروبيين كل هؤلاء اشتركوا في خلق حركته الثقافية، ثم إن هذا الذي نسميه: الثقافة العربية، أو الحضارة الإسلامية كان عربيًا بمعنى أن اللغة التي دون بها كانت عربية أكثر مما تعني أن الذين أنشأوه كانوا عربًا، وكذلك كان مسلمًا بمعنى أنه تطور في العصر الإسلامي، وأنه تطور إلى حد غير قليل في رعاية دولة الخلافة الإسلامية)، ثم يقول: «وإن المعرفة التي كانت للعرب من النجوم والرياضيات ومداواة الأمراض، وهي الميادين الثلاثة التي برع فيها العرب فيما بعد كانت أقوالاً مأثورة وصلت إليهم من طريق الرواية الشفوية» ثم يقول في صحيفة (٢٠٩) :

«وكذلك كان هناك ما يدعى بالطب النبوي الذي يؤكد منفعة العسل، إن سوء استعمال هذا النوع من الطب (الذي هو في الحقيقة طب شعبي بدوي قام على الاختبار القاصر) يتمثل

في الحكاية التالية التي تذكر «أن بدويًا شكا بطنه، فجاء إلى طبيب من هؤلاء الأطباء، فوصف له ذلك الطبيب أن يشرب شيئًا من العسل، وساءت حالة البدوي المريض، فجاء أخوه إلى الطبيب يخبره بذلك، فقال له الطبيب: صدق رسول الله وكذبت بطن أخيك».

ومع أن هذه الحكاية محرفة، وتتعارض مع قوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾

(النحل : ٦٨، ٦٩)

مع هذا نحس من خلال كلامه عن الطب النبوي بالتهجم على مقام الرسول ﷺ مما يسهل بجواره أن نقرأ هجومه على أفاضل علماء المسلمين كالإمام الغزالي حين يصف انصرافه من الحضارة إلى التصوف بأنه حالة انهيار عصبي، فيقول في صحيفة (١٤٨) : «وحينما شكا الغزالي مما يمكن أن يسمى اليوم بالانهيار العصبي ولى ظهره للحضارة، وفارق أسرته، وأخذ يجول في العالم، ودخل وهو في ثياب الفقراء (الدراويش الصوفية) مدينة دمشق، ثم اعتزل في إحدى مآذن المسجد الأموي، وبعد عشر سنين عاد الغزالي إلى بلده وأسرته بعد أن شفاه الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال».

إن الرد على هذا الهجوم في طيات كلام المؤلف نفسه، فهو يقول بعد سطور عن فترة مرضه هذه ما نصه: (وانصرف إلى الصلاة والتأمل والتأليف ومن أشهر نتاجه - في هذه الفترة- كتابه الرائع (إحياء علوم الدين) وقد قال فيه أحد الفقهاء المتأخرين: لو فقدت جميع كتب الفقه لقام كتاب إحياء علوم الدين مكانها).

كيف أتصور ويتصور القارئ أن فترة يؤلف فيها مثل هذا الكتاب تسمى فترة مرض وانهيار عصبي؟ لئن صح هذا القول لكان المرض خيرًا من السلامة والإنتاج فيه خيرًا من الإنتاج في الصحة واعتدال المزاج.

وأختم هذا العنصر بقولي: لعل المؤلف قصد بهذه الحملة على الإسلام وأهله إرضاء جمهور السامعين والقارئين في أمريكا مما يتعارض والبحث العلمي النزيه.

٣- العنصر الثالث: أخطاؤه العلمية، فهو لا يفرق بين الزواج وبين التسري حين يقول: (وقد تزوج محمد نفسه ماريا القبطية) صحيفة (٤٠) ويخطئ إذ يرى أن هذا الزواج منه ﷺ كان يهدف التقرب من النصارى وتحسين علاقته بهم، صحيفة (٤٤).

ويخطئ في قوله عن غزوة الفتح إنها في ذي القعدة سنة ٩ هـ، والحقيقة أنها كانت في رمضان سنة ٨ هـ، والخلاف بين العلماء في اليوم الذي حصلت فيه من شهر رمضان فقيل: لليلتين خلتا من رمضان، وقيل: لعشر خلون، وقيل لست عشرة، وقيل لثماني عشرة، أو سبع عشرة، وجمع بينها بأن الأقل تاريخ قيامه، والأكثر تاريخ وصوله، فقد مكث في الطريق اثنى عشر يومًا ﷺ.

ويخطئ في قوله عن غزوة الفتح أيضًا: جاء محمد في ألف رجل من المسلمين، ودخل البلدة التي ولد فيها، والصحيح أنه جاء مكة في عشرة آلاف رجل ﷺ ويخطئ في تصوير نظر الإسلام للملائكة صحيفة (٧٢).

٤- العنصر الرابع: أخطاء الآيات القرآنية

وإنى أستبعد أن يكون الخطأ فيها مطبعيًا، حيث إن العناية بالطبع وبالتصحيح عناية فائقة، والتبعة فى هذه الأخطاء تقع أولاً، وبالذات على عاتق الدكتور المترجم، وهذه هى الأخطاء وصحتها:

(أ) فى صحيفة (١٩) (ورسلا قد قصصناهم عليك - ورسل لم نقصصهم عليك)، وصحتها: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

(ب) وفى صحيفة (٤٢) (إلا الذين ظلموا فلا تخشوهم واخشونى) وصحتها ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

(ج) وفى صحيفة (٤٦): (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم أنما هو إله واحد)، وصحتها: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

(د) وفى صحيفة (٤٦): (وإذ قال - يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس)، وصحتها ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾

(هـ) وفى صحيفة (٥٥): (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم - آياته)، وصحتها: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾

(الحج: ٢٥)

(و) وفى صحيفة (٦٦): (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين - والجار الجنب)، وصحتها:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾

{النساء: ٣٦}

(ز) وفى نفس الآية: (إن الله لا يحب كل مختال فخور)، وصحتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

{النساء: ٣٦}

(ح) وفى صحيفة (٦٨): (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم - عن الصلاة)، وصحتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾

{المائدة: ٩١}

(ط) وفى صحيفة (٨٦): (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتشكروا الله على ما هداكم)، وصحتها ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

{البقرة: ١٨٥}

(ي) وفى صحيفة (١١٩) قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات و - الأرض)، وصحتها ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

{آل عمران: ٢٩}

(ك) وفى صحيفة (١١٩): (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله - أولئك هم الكاذبون)، وصحتها: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

{النحل: ١٠٥}

(ل) وفى صحيفة (١١٩) (من كفر بالله - بعد إيمانه)، وصحتها ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾

{النحل: ١٠٦}

٥ - العنصر الخامس: أما الهمسة فى أذن الدكتور المترجم فهى أن هذا الكتاب فى مادته العلمية لم يكن ليستحق مجهود الدكتور عمر فروخ فى نقله إلى العربية، فهو لا يضيف جديدا إلى المكتبة العربية، وهو من حيث اشتماله على غمزات وعبارات مشوهة فى الإسلام ما كان ينبغى أن ينشر بلغة القرآن.

ولو أن هدفًا ما دفع الدكتور عمر فروخ إلى ترجمته فإن الواجب عليه كمسلم كان يقتضيه أن يعلق على أمثال هذه التلويحات والتصريحات والأخطاء بما يحق الحق ويبطل الباطل، كما فعل فى التعليق على مشابهة الصلاة الإسلامية للصلاة المسيحية فى صحيفة (٧٨)، ثم كان عليه أن يرجع إلى المصحف فى نقل الآيات القرآنية الكريمة ليتفادى الأخطاء التى وقع فيها.

وأخيرًا كان عليه أن لا ينساق وراء المؤلف فى مهاجمة إعجاب المسلمين بالنبى ﷺ وأن لا يقول فى صحيفة (١٣) (والواقع أن نفرًا كثيرين من المسلمين الناثرين والشعراء والمؤلفين قد أفاضوا على الرسول من بنات خيالهم ما خرجوا به أحيانًا عن حدود العقل والمنطق حتى إن القرآن الكريم قد عاتب أمثال هؤلاء - وفى أيام الرسول نفسه - على خيالهم هذا فى مثل قوله تعالى، على لسان محمد - ١٧ - ٩٣ سورة الإسراء:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٣)

إن هذه الزلة كبيرة بالنسبة إلى باحث ومؤلف ذائع الصيت كالدكتور عمر فروخ، ولو أنه رجع إلى تفسير الآية، بل لو أنه راجع أولها لعلم أنها لا صلة لها بناثرين أو شعراء أفاضوا على الرسول من بنات خيالهم ما خرجوا به عن حدود العقل والمنطق، بل كانت فى الرد على تعنت الكافرين، وطلبهم منه معجزات حسية للتعجيز وتبرير عدم الإيمان، فهى تقول:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

{الإسراء: ٨٩-٩٣}

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

{آل عمران: ٨}

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم



د. موريس بوكاي

مقدمة

لكل دين من أديان التوحيد الثلاثة كتابه الذى يختص به، وتشكل هذه الوثائق أساس الإيمان لدى كل مؤمن يهوديًا كان أو مسيحيًا أو مسلمًا، وكل مؤمن يعد كتابه تسجيلاً ماديًا لوحى إلهى، وقد يكون هذا الكتاب منزلا بشكل مباشر، كما هو الأمر فيما يتعلق بإبراهيم أو بموسى، فقد تلقيا الوصايا من الله نفسه، وقد يكون منزلا بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختص بالمسيح أو محمد ﷺ، فقد أعلن المسيح أنه يتحدث باسم الأب، وأما محمد ﷺ فقد بلغ الرسالة التى نقلها إليه جبريل.

وإن اعتبارنا على المعطيات الموضعية لتاريخ الأديان، يوجب وضع العهد القديم والأناجيل والقرآن على مستوى واحد، من حيث إنها مجموعات للوحى المكتوب. غير أن هذا الموقف الذى يقول به المسلمون مبدئيًا ليس هو نفس الموقف الذى يقبله مؤمنو بلادنا الغربية، التى تنتشر بها المؤثرات اليهودية المسيحية، والتى تفرض إعطاء القرآن صفة الكتاب المنزل.

وتعرف هذه الأوضاع من الرجوع إلى المواقف التى تتخذها كل جماعة دينية إزاء الجماعتين الأخريين فيما يتعلق بالكتب المقدسة.

فكتاب اليهودية المقدس هو التوراة، وتختلف التوراة عن «العهد القديم المسيحي» لأن هذا الأخير قد أضاف عدة أسفار لم تكن موجودة بالعبرية، غير أن هذا الاختلاف لا يمس شيئًا من العقيدة؛ لكن اليهودية لا تعترف بأى وحى جاء بعدها.

وهكذا فإن المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية؛ ولكنها زادت عليها بعض الإضافات، غير أن المسيحية لم تقبل كل ما انتشر من كتابات تستهدف تعريف الناس برسالة عيسى؛ ولذلك قامت الكنيسة بإجراءات حذف هامة جدًا لعدد كبير من الأسفار، التى كتبت لتعريف الناس بحياة المسيح وتعاليمه. وهكذا فإن الكنيسة لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات، وكان من أهمها الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسيًا. غير أن المسيحية بدورها - لا تعترف بأى وحى جاء بعد المسيح وحوارييه؛ ولذلك فهى تستبعد القرآن.

أما القرآن، وقد أتى بعد المسيح بقرون ستة، فإنه يتناول معطيات عديدة جاءت فى التوراة العبرية والأناجيل؛ ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيرًا، والقرآن يوصى كل مسلم بالإيمان بالكتب السابقة عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾

(النساء: ١٣٦)

وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التى يحتلها رسل الله فى تاريخ التنزيل، مثل: «نوح، وإبراهيم، وموسى، والأنبياء خاصة المسيح الذى يحتل مكانة بارزة بينهم»، والقرآن مثل الأناجيل يقدم ميلاد المسيح كفعل خارق - يفوق الطبيعة -، ويختص بالذكر أيضًا مريم، ويطلق على السورة (١٩) اسمها - «سورة مريم».

والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام، التى ذكرناها مجهولة عمومًا فى بلادنا الغربية، ولا يدهشنا ذلك إذا تذكرنا الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة، فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان، وكيف فرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام، وهكذا فإن الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات، مثل: «الدين المحمدي» و«المحمديون»؛ ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأى الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل، وأنه ليس لله - بالمعنى الذى يدركه المسيحيون - مكان فى تلك المعتقدات..؟ ولنضف أن كثيرًا من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام، دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة كما كان يجب عليهم أن يفعلوه، ويرون من البديهيات أن محمدًا ﷺ قد اعتمد على ما سبقه؛ وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء.

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين، ولقد أخبرت بهذا حين حاولت إقامة حوار، من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة فى القرآن والتوراة معًا فى موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضًا باتًا للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزعومة، كأن الرجوع فى ذلك إلى القرآن يعني: الاعتماد على الشيطان..

ومع ذلك يبدو لنا أن هناك تغيرا جذريا يتحقق اليوم على أعلى مستوى فى العالم المسيحي؛ فالوثيقة التى طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إثر مجمع الفاتيكان الثانى بعنوان: «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين»، والتى طبعت للمرة الثالثة فى عام ١٩٧٠م، تشهد بعمق التحول فى المواقف الرسمية، فقد دعت وثيقة الفاتيكان إلى استبعاد الصورة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها، «تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة»، ثم اهتمت الوثيقة «بالاعتراف بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية فى حق المسلمين»، والوثيقة تنقد أيضًا مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن الحتمية الإسلامية وحرفية الإسلام وتعصبه وغير ذلك. إن الوثيقة تؤكد على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين،

وتذكر كيف أثار الكاردينال كوينج Koenig إعجاب مستمعيه بالجامع الأكبر، حين أعلن ذلك في محاضرته الرسمية التي ألقاها بجامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة عام ١٩٦٩م! والوثيقة تذكر أيضًا بأن سكرتارية الفاتيكان، قد دعت المسيحيين منذ عام ١٩٦٧م إلى تقديم تهانيهم إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر - انتهاء شهر الصوم - فهو يمثل «قيمة دينية أصيلة».

وقد لحقت البوادر المواتية للتقارب بين الهيئة البابوية والإسلام لقاءات واجتماعات، جعلت تلك البوادر للتقارب أمرًا واقعًا. ومع ذلك فقلة قليلة هي التي عرفت هذه الأحداث الهامة - التي حدثت بالعالم الغربي - على الرغم من كثرة وسائل النشر والإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز.

وكذلك فإن الصحف لم تكرس مكانة كبيرة للزيارة الرسمية التي قام بها «الكاردينال بنيودولي Pignedoli» رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين - إلى جلالة «الملك فيصل» عاهل المملكة العربية السعودية في الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٧٤م، ولم تعلق جريدة الموند Le Monde على تلك الزيارة إلا في سطور قلائل في عددها الصادر في ٢٥ أبريل عام ١٩٧٤م، برغم أهمية الخبر، وخاصة عندما تعلم أن الكاردينال قد سلم للعاهل السعودي رسالة من البابا بوليس السادس مدفوعًا إلى ذلك بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامي والمسيحي، اللذين يعبدان إلهًا واحدًا، ومعبرًا فيها - قداسته - عن تقديره لجلالة الملك فيصل باعتباره «الشخصية العليا في العالم الإسلامي».

وبعد ذلك بستة أشهر - أي: في أكتوبر ١٩٧٤م - استقبل البابا رسميًا بالفاتيكان كبار علماء المملكة العربية السعودية، وكانت مناسبة لندوة بين مسيحيين ومسلمين حول حقوق الإنسان الثقافية في الإسلام، وذكرت «أوسر فاتورى رمانو Roman Ossevatore» - جريدة الفاتيكان - في عددها الصادر في ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٧٤م هذا الحدث التاريخي، وكرست له في صحيفتها الأولى مكانًا أكبر من الذي أعطته للتعليق على اليوم الختامي لمجمع الأساقفة المنعقد بروما.

ثم استقبل المجلس المسكوني الأعلى للكنائس بجنيف وغبطة الأسقف «إلشنجر Elchinger» أسقف ستراسبورج كبار علماء المملكة العربية السعودية. ودعا الأسقف العلماء لأداء فريضة الظهر أمامه بكاتدرائيته، وإذا كانت الصحف قد ذكرت الخبر؛ فذلك يرجع على ما يبدو للجانب الاستعراضي أكثر منه للدلالة الدينية الهامة التي مثلها، واتضح لي ممن سألتهم عن أخبار هذه المحافل أن الذين علموا بها هم قلة قليلة جدا.

ولا شك أن تاريخ العلاقات بين الدينين سيسجل روح الانفتاح نحو الإسلام التي عبر عنها البابا السادس في تصريحه: «بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهًا واحدًا»، ولقد رأيت أنه من الأهمية أن أذكر بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية إزاء المسلمين، فكثير من المسيحيين الذين تربوا في ظل روح عدائية صريحة - الأمر الذي رثت له الوثيقة المذكورة أعلاه - هم مبدئيًا أعداء لكل تأمل في الإسلام؛ ولذلك فإنهم يظلون في جهالة لحقيقة الإسلام، وبالتالي فإن مفاهيمهم عن الإسلام هي مفاهيم مغلوطة لا شك فيها.

وأيا كان الأمر يبدو لنا فإنه من الحق علينا عند دراسة جانب من جوانب التنزيل في دين توحيدي، أن نعالجه بالمقارنة مع ما يقدمه الديان الآخران من وجهة النظر في الموضوع نفسه. وإن دراسة شاملة لمشكلة ما هي بالتأكيد أكثر أهمية من دراسة جانب واحد منفصل. إن المواجهة بين حقائق العلم في القرن العشرين وبين بعض الموضوعات التي تعالجها الكتب المقدسة تهم بالتالي الأديان الثلاثة معًا وليس دينًا واحدًا على حدة. هذا ونظرًا لما يتهدد الأديان الثلاثة من طغيان المادية في هذه الأيام، أفلا يجب أن تكون هذه الأديان بحكم جبهة واحدة؟ بل أليس من الواجب أن تتقارب تجاه هذا الطغيان وأن تؤلف كتلة واحدة متماسكة؟ ففي البلاد الإسلامية كما في البلاد ذات المؤثرات اليهودية والمسيحية يقال - وخاصة في الأوساط العلمية -: إن الدين والعلم لا يتفقان، والواقع أن المشكلة لكي تعالج في شمولها تتطلب تطويرات هامة؛ ولكني لن أعالج هنا إلا جانبًا واحدًا من الموضوع وهو دراسة الكتب المقدسة نفسها في ضوء المعارف العلمية الحديثة.

غير أن قصد هذه الدراسة يفرض سؤالاً أوليا؛ لكنه أساسي: ما القيمة الصحيحة لهذه النصوص التي في حوزتنا اليوم..؟ وذلك يعني بالضرورة: أن ندرس الظروف التي سادت تحرير تلك النصوص وانتقالها إلينا.

إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا. ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونهما على ما هم عليه طيلة قرون عديدة، ولم تكن قراءة الكتب المقدسة تؤدي إلا إلى اعتبارات مدحية، وكان مجرد التعبير عن أي روح نقدية إزاء الكتاب المقدس خطيئة لا تغتفر، وكان القساوسة هم الصفوة التي تستطيع بغير عناء أن تكون لديها معرفة إجمالية عن التوراة والإنجيل، أما عامة العلمانيين فلم تكن تتلقى إلا نصوصًا مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر المواعظ.

وبعد أن أصبح نقد النصوص علمًا، فقد كان له الفضل في أن جعلنا نكتشف مشاكل مطروحة وخطيرة في أحيان كثيرة، غير أنه لابد من أن نصاب بخيبة الأمل عندما نقرأ كتبًا كثيرة تدعي أنها نقدية؛ ولكنها لا تقدم في مواجهة الكثير من مشكلات التأويل الحقيقية إلا تفسيرات مديحية، تهدف إلى ستر حرج المؤلف وحيرته. في ظل تلك الظروف، فإن المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق تظل باقية بلا حل في نظر كل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه الموضوعي. وإننا لنأسف حقا لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافا لكل منطق، إن ذلك موقف يسيء كثيرًا إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة، ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادرًا على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر غالبًا من المعارف الأساسية جدًا.

أما الإسلام فعنده في الأحاديث النبوية ما يشبه الأناجيل من حيث إنها مجموعة من الأقوال والأخبار لأفعال محمد ﷺ، وليست الأناجيل بأكثر من هذا فيما يتعلق بعيسى،

فقد كتبت أولى الأحاديث بعد عشرات من السنوات من موت محمد ﷺ، مثلما كتبت الأناجيل بعد عشرات من السنوات من انصراف المسيح، إذن فالأحاديث والأناجيل شهادات بأفعال مضت، وسنرى فيما بعد كيف أن مؤلفى الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسيًا لم يشهدوا الوقائع التى أخبروا بها؟ والأمر نفسه ينطبق على المؤلفات فى الأحاديث المشهورة بصحتها.

وهنا يجب أن تتوقف المقارنة؛ وذلك لأن النقاش إذا كان قد دار ومازال يدور حول صحة هذا الحديث أو ذاك، فإن الكنيسة قد حسمت منذ قرونها الأولى وبشكل نهائى بين الأناجيل المتعددة وأعلنت رسميًا أربعة منها فقط، برغم التناقضات العديدة فيما بين هذه الأناجيل فى كثير من النقاط، وأصدرت الأمر بإخفاء الأناجيل الأخرى، ومن هنا جاء اسم «الأناجيل المزورة».

وهناك فرق آخر جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعنى بذلك: فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية، فى حين أن الإسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معًا.

فالقرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة فى شهر رمضان، وقد رتب فى سور بأمر من محمد ﷺ نفسه، وجمعت هذه السور فور موت النبى ﷺ وفى خلافة عثمان - من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ ذلك لتصبح النص الذى نعرفه اليوم.

أما الكتاب المسيحى المقدس، فإنه يختلف بشكل بين عما حدث بالنسبة للإسلام، فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك مثلاً أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى، وهذا خلافًا لما يتصوره الكثير من المسيحيين، وهكذا إذن طرحت مشكلة صحة نصوص الكتب المقدسة المسيحية - ونصوص الوحى الإسلامى.

ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور، ففى البدء قيل: إن اتفاق العلم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس، وإن «القديس أوغسطين» فى خطابه الثانى والثمانين الذى سنذكره فيما بعد - قد حدد هذا المبدأ بشكل حاسم، ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين. وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذى جعل اليوم مفسرى التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء؛ إذ لا يمكن فى الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة. وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين، وهى عدم قبول صحة المقطع الذى يقول فى التوراة بأمر غير مقبول علميا، ولم يكن هذا الحل طواعية بل بالعكس فقد تعصب بعضهم بشدة للاحتفاظ بتمام النص، وقد كان نتيجة هذا أن اضطر المفسرون إزاء صحة الكتب المقدسة إلى اتخاذ مواقف لا يمكن قبولها من قبل رجل العلم.

وإن الإسلام قد اعتبر دائمًا - كما فعل

(١) ليس صحيحا ما ذهب إليه المؤلف. فقد بدأ تدوين الحديث الشريف مبكرا جدا، وإن تأخر قليلاً عن تدوين وكتابة القرآن الكريم.

«القديس أوغسطين» بالنسبة للتوراة - أن هناك اتفاقًا بين معطيات الكتاب المقدس والواقع العلمي. وأن دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر فى هذا، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهى وقائع كثيرة جدا، خلافًا لقلتها فى التوراة، إذ ليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جدا لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، بين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية. وتلك هى النتيجة الأساسية التى تخرج بها دراستنا. وسنرى فى نهاية هذا الكتاب كيف أن الأمر يختلف تمامًا فيما يتعلق ببعض الأحاديث النبوية غير القطعية والتى تخرج عن نطاق الوحى القرآني، إذ أن هناك بعض الأحاديث ظنية الثبوت لا يمكن قبولها علميًا، غير أن هذه قد خضعت لدراسات جادة اتباعًا لمبادئ القرآن الصريحة، التى تأمر دائمًا بالرجوع إلى العلم والعقل اللذين يسمحان للناقد بنفى صحتها على ضوء حقائق القرآن.

هذه التأملات حول الصفة المقبولة أو غير المقبولة علميا لمقولة فى كتاب مقدس تتطلب منا إيضاحًا دقيقًا، إذ علينا أن نؤكد أننا عندما نتحدث هنا عن حقائق العلم فإننا نعنى بها: كل ما قد ثبت بشكل نهائي، وأن هذا الاعتبار يقضى باستبعاد كل نظريات الشرح والتبرير التى قد تفيد فى عصر ما لشرح ظاهرة، ولكنها قد تلغى بعد ذلك تاركة المكان لنظريات أخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمي. وإن ما أعنيه هنا هو: تلك الأمور التى لا يمكن الرجوع عنها، والتى ثبتت بشكل كاف بحيث يمكن استخدامها دون خوف الوقوع فى مخاطرة الخطأ، حتى وإن يكن العلم قد أتى فيها بمعطيات غير كاملة تمامًا.

وعلى سبيل المثال: فإننا نجهل التاريخ التقريبى لظهور الإنسان على الأرض، غير أنه قد اكتشف آثاره لأعمال بشرية تستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحى دون أن يكون هناك أى مكان للشك، وعليه فإننا لا نستطيع علميا قبول صحة نص سفر التكوين الذى يعطى أنسابًا وتواريخًا تحدد أصل الإنسان - خلق آدم - بحوالى ٣٧ قرنًا قبل المسيح، وربما استطاع العلم فى المستقبل أن يحدد لذلك تواريخ فوق تقديراتنا الحالية، غير أننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه لن يمكن أبدًا إثبات أن الإنسان قد ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة، كما يقول التاريخ العبرى فى ١٩٧٥م، وبناء على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة.

هذه المواجهة مع العلم لا تتناول أية قضية دينية بالمعنى الحقيقى للكلمة، فليس للعلم مثلاً أن يقدم أى شرح لكيفية ظهور الله لموسى، أو أن يحل اللغز الذى يحيط بمجيء المسيح على الأرض دون أن يكون له أب جسدى - بيولوجى -؛ ولذلك فإن الكتب المقدسة لا تقدم أى تعليل مادى لأمور من هذا النوع، وأن الدراسة التى نقدمها الآن تختص بما تنبئنا به الكتب المقدسة فيما يتعلق بالظاهرات الطبيعية المتنوعة الكثيرة، والتى تحيطها تلك الكتب بقليل أو كثير من التعليقات والشروح. ولابد من الملاحظة أن الوحى القرآنى غنى جدا فى تعداد هذه المواضع وذلك على خلاف ندرتها فى العهدين القديم والجديد. لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر

مسبق، وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف قبل هذه الدراسة -وعن طريق الترجمات- أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي به كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول -أي: سفر التكوين- فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا فى عصرنا.

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة تعنى بها: شجرة أنساب المسيح، وذلك أن نص إنجيل «متى» يناقض بشكل جلى إنجيل «لوقا Luc»، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة بقدم الإنسان على الأرض.

غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لا يحتملها التصديق وتلك الأخرى التى لا تتفق والعلم، لا يبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسئولية فيها إلا على البشر، ولا يستطيع أحد أن يقول: كيف كانت النصوص الأصلية؟ وما نصيب الخيال والهوى فى عملية تحريرها؟ أو ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص؟ أو ما نصيب التعديلات غير الواعية التى أدخلت على الكتب المقدسة؟ وأن ما يصدمنا حقا فى أيامنا هذه أن نرى المتخصصين فى دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية، أو يكتشفون عن بعض نقاط الضعف ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين فى ذلك ببهلوانات جدلية، وسنقدم فى هذا الكتاب أمثلة لاستخدام بعض كبار المفسرين لصيغ براقة دفاعا عن إنجيلى «متى ويوحنا»، ومدحا لهما. وإن استخدام هذه الوسائل للتستر على تناقض أو على أمر بعيد التصديق مما يسمونه «صعوبة» استحياء، قد كان ناجحًا فى كثير من الأحيان، وهذا ما يفسر لنا كيف أن كثيرًا من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة فى كثير من المقاطع فى العهد القديم وفى الإنجيل، وسيجد القارئ الجزءين الأول والثانى من هذا الكتاب أمثلة صحيحة فى ذلك.

وسيجد القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان، كما سيجد القارئ فى ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية، التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة، ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان، فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر بها الإسلام، وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية، تلك التى اقتات منها الغرب نفسها قبل عصر النهضة فى أوروبا، وإن التقدم الذى تم اليوم بفضل المعارف العلمية فى شرح بعض ما لم يكن مفهومًا، أو فى شرح بعض ما قد أسيء تفسيره حتى الآن من آيات القرآن؛ لا يشكل قمة المواجهة بين العلم والكتب المقدسة.

«يتبع»

انطلاق بنى إسرائيل

للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

انطلق موسى بقومه بنى إسرائيل فى أرض مصر ذاهبًا إلى أرض فلسطين، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾

(طه: ٧٧)

فهل كان هذا الانطلاق بناء على أمر صدر له من فرعون بعد أن أمضه الله وقومه بالعذاب الشديد فى الآيات التسع؟

تقول التوراة: إن ذلك كان بناء على سماح فرعون لهم بالانطلاق ليتخلص من ضروب العذاب التى حاقت بقومه، أى أن سماح فرعون لهم بالانطلاق للتخلص من شر موسى، لا لأنه آمن برب موسى وهارون. والقرآن ساكت عن هذه النقطة.

ندم فرعون على إرسال بنى إسرائيل. أو أنه رأى أنهم انطلقوا بلا إذن منه، ولعله قد بلغه ما فعلته اليهوديات بالمصريات من استعارة الحلى والزينة وعدم ردها إليهن، فأرسل فى المدائن حاشرين. فجمع جندًا عظيمًا واتبع بنى إسرائيل ليردهم إلى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر -على خليج السويس- واطلع عليهم من شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم. فسكن موسى روعهم وضرب البحر -كما أمره الله تعالى- فانفلق حتى ظهرت أرضه، وأمر بنى إسرائيل بالعبور فيه فعبروا من الشاطئ الغربى إلى الشاطئ الشرقى.

وأشرف فى ذلك الحين فرعون على الموضع الذى عبر منه بنى إسرائيل، فرأى طريقًا فى البحر لا وعورة فيه، وبنى إسرائيل بين فرقى الماء لم يمسهم أذى. فطمع أن يعبر فى أثرهم فيردهم هو وجنوده. فاقتحموا الطريق اليابس فى البحر خلف بنى إسرائيل. فلما جاز بنو إسرائيل البحر -ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة،

وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً. وغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء.

فى ذلك الوقت الذى أدرك فيه فرعون الغرق. قال:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

(يونس: ٩٠)

والذى أعتقده أن فرعون أراد أن يدفع عن نفسه الغرق بهذه الكلمة التى نطق بها دون أن يعتقدها، مقدرا أنه بذلك يخدع موسى وإلهه ويمثل فى هذه المرة الأدوار التى مثلها من قبل لأنه وقومه كانوا يقولون لموسى:

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾

(الأعراف: ١٣٤)

الخ. ويقولون لموسى:

﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

(الزخرف: ٤٩)

فكان الله يكشف عنهم البلاء ثم يعيدون سيرتهم الأولى. فظن أنه ينجو فى هذه المرة بمثل الخديعة التى كان ينجو بها أولاً. ولا يعجبنى قول الجلال الدوانى: «إن فرعون ناج لأنه آمن» والله تعالى يقول:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾

(النساء: ١٨)

وقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾

(الأنعام: ١٥٨)

وفرعون لم يكسب فى إيمانه خيرا بفرض أنه آمن.

رأى فى فرعون صاحب موسى

لقد كتبت فى الطبعة الأولى ما عرفته عن فرعون الذى كان فى زمن موسى عليه السلام. ونقلت ما كتبه المونسنيور لويس ملحمه فى أهرام ٧ مايو سنة ١٩٣٢ عن «فرعون الاضطهاد» و «فرعون الخروج».

ولكنى الآن أردت أن آتى البيوت من أبوابها، عملا بعموم قول الله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(الأنبياء: ٧)

فذهبت إلى دار الآثار وقابلت حضرة الفاضل أحمد يوسف أحمد أفندى المصور بدار الآثار المصرية وقد نقلت من كتاب له عنوانه «كتاب فرعون موسى – قصة الولادة والرسالة – والخروج» ما يأتي:

لم يبق شك فى أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر فى عهد الأسرة السادسة عشرة فى أيام أحد ملوكها المدعو «أبابى الأول» وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم «فوتى فارع» وهو المذكور فى التوراة «فوطيفار – عزيز مصر» كما استدل من بعض آثار عن الأسرة السابعة عشرة على حدوث جدب فى مصر قبل هذه الأسرة. وهو ما ذكر فى القرآن

والتوراة عن سنى القحط.

إذن فدخول يوسف يمكن تحديده قريبا من سنة ١٦٠٠ ق م فى عهد الملك أبابى المذكور. ويكون دخول بنى إسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من ٢٧ عاما، وهى المدة التى أقامها يوسف فى بيت سيده مضموما إليها المدة التى أقامها فى السجن، يضم إلى ذلك مدة الرخاء والخصب ثم بعض مدة الجدب إلى أن قال لإخوته:

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(يوسف: ٩٣)

وإذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة فيما بين هذه الأسرة والأسرة التاسعة عشرة لم نجد أيضا ذكرا يثبت أى اضطهاد حدث لقوم إسرائيل. ولا أى ذكر لهم أثناء ذلك.

ولكن التوراة تذكر أن فرعون مصر الذى اضطهد بنى إسرائيل كان يستخدمهم فى بناء مدينتى: رعمسيس وفيثوم. وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود مدينة باسم «فيثوم» أو «بر – توم» ومعناها بيت الإله توم. ومدينة أخرى باسم «بررعمسيس» أى بيت أو قصر رعمسيس. والأولى اكتشفت بواسطة العالم الفرنسى «نافيل» فى سنة ١٨٨٣ وموضعها تل المسخوطة الآن – فى مديرية الشرقية – والثانية اكتشفت بواسطة العالم المصرى الأستاذ محمود حمزة فى سنة ١٩٢٨ م – وموضعها بلدة «قنتير» – وتسمى بالمصرى القديم «خنت نفر» أو الوسط الجميل. وأيضا «بررعمسيس» وهى التى بناها رعمسيس الثانى لتكون عاصمة لملكه فى مصر فى وسط الوجه البحرى – ليكون بها قريبا من الحدود المصرية لتساعده على صد الأعداء – كما أنه أيضا بنى مدينة «فيثوم» واتضح من وجود بعض آثار الجدران فى المدينة أنها أيضا كانت حصنا مصريا. وتكون التوراة قد أخطأت فى حسبانها مخازن للغلال.

وإذن فرعمسيس الثانى قد يعتبر الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل وولد موسى فى زمنه. ويضاف إلى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الآسيوية التى ظل يحاربها متغيبا عن مصر زهاء تسع سنوات. وقد يكون كرهه لبنى إسرائيل المقيمين فى مصر مترتبا على خشيته من أن يكون حزبا ممالئا لأعدائه المواطنين لهم من قبل، ولا سيما وقد تكاثروا فى عددهم وتناسلوا حتى كانت لهم جالية تشمل جزءا عظيما من مديرية الشرقية.

وحيث إن الملك رعمسيس الثانى قد أشرك ابنه الملك «منفتاح» معه فى الحكم قبل وفاته وكان «منفتاح» الولد الثالث عشر لرعمسيس. وقد بلغ أولاده ١٥١ وكان مسنا حين ولايته للعهد. فيكون قد عاصر موسى فى بيت أبيه. وبحق قال لموسى:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾

(الشعراء: ١٨)

ويكون منفتاح هو فرعون الخروج الذى أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بنى إسرائيل من مصر. وتكون التوراة على صواب عند ما قالت: وفى هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات.

وقد عثر العلامة فلندرس بترى على حجر من الجرانيت القائم ورقمه فى الدار «٥٩٩» وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣

أمتار و ١٤ سم وهو منقوش من الوجهين أحدهما للملك «أمنحتب» الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد آمون.

أما الوجه الآخر فقد استعمل في شأن «منفتاح» بن رعمسيس الثاني من «الأسرة ١٩» وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيها بانتصاره على اللوبيين، ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر وينانوعيم في فلسطين. وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ونصها الحرفي «لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر» وهذا أول نص رسمي في الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل.

وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر.

وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن «منفتاح» لم يكتبه في عهده. وإلا لكانت لهذه الحوادث الهامة التي يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون في أثر خاص، لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل.

ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره، فيقوموا بذلك بواجب التخليد حيث لم يكن منتظرا أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التي مات بها. وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن فرعون قد سحق بني إسرائيل تمويها وقلبا للحقائق، حتى يستروا أمام الشعب المصري الذي كان يحترم دياناتهم خذلانهم وخذلان إلههم أمام موسى، حين كان فرعون يتعقب بني إسرائيل.

ويكون العثور على جثة «منفتاح» ووجودها الآن بالمتحف المصري، مصداقا لقول القرآن الكريم:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾

(يونس: ٩٢)

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث في قبر «أمنحتب الثاني» بالأقصر.

وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله، لأن موته لم يكن منتظرا فلم يهيأ له قبر خاص. اهـ من الكتاب المذكور.

أما موضع العبور فلم يعلم بالضبط. والتوراة تورد أسماء أمكنة مر بها بنو إسرائيل حتى أتوا إلى مكان العبور، وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم. والبحارة في البحر الأحمر يسمون مكانا في خليج السويس «بركة فرعون» ويقولون إن العبور كان بها وهي بعيدة عن السويس كثيرا تمر بها السفن البخارية بعد نصف الليل إذا قامت من السويس في المساء وإني لأستبعد ذلك كثيرا وأعتقد أن خليج السويس كان يمتد من تلك الأزمان إلى البحيرة المرة أو يقرب منها وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم. وبعبارة أخرى إنهم عبروا مكانا شمالي المكان المعروف بـ «عيون موسى» في البر الأسيوي وهي لا تبعد عن السويس كثيرا.

وبين يدي أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت «مساعد مراقب تعليم البنات في وزارة المعارف سنة ١٩٣٦ م» وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسم خطين يدلان على أن خليج السويس كان متصلا بالبحيرة المرة. وأحسب أنه على صواب.

وتقول التوراة: إن الله أرسل ريحا شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة، وعبر بنو إسرائيل فتبعهم فرعون فغرق.

وعلى كل حال. فالآية ظاهرة واضحة، سواء أكان ذلك بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التي شرحتها التوراة. فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل في الخليج مرة أخرى. فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما في علمه.

والذي أريده من ذلك أن الآية واضحة جلية سواء نظر فيها المسلم إلى قرآنه، أو نظر فيها الكتابي إلى توراته - ولا حجة للملاحدة الذين يتعلقون بعبارة التوراة، فيقولون إن السبب هو هبوب الريح المحكي في التوراة فلا معجزة. لأنا نقول إن المعجزة حاصلة مع فرض هبوب الريح، لأنه لم يعهد أن عملت الريح ذلك في كل الدهر - سواء قبل الحادثة أو بعدها. فلم فعلت ذلك حين عبور بني إسرائيل فقط؟

ويذكر المفسرون أن الطرق كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بني إسرائيل. وعبارة القرآن ليست نصا فيما يقولون.

اقرءوا هذه الآيات:-

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

(الأعراف: ١٣٦، ١٣٧)

• طبيعي أن يفهم أن فرح بني إسرائيل كان عظيما جدا بنجاتهم بهذه الأعجوبة وهلاك فرعون وجنوده في اليم، حتى صاروا سلفا ومثلا للآخرين على مر الدهور وتعاقب الحقب.

وقد ذكرت التوراة نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون «وفي الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج» ويلخص في أن بني إسرائيل ضلوا طريق فلسطين، وكان ملك الله يسير أمامهم في عمود دخان نهارا وفي عمود نار ليلا، ليضيء لهم. ثم أمرهم الله بالعودة إلى مكان خاص وغضب فرعون من انطلاقهم، فجمع جنوده وخيله ومركباته قاصدا رد بني إسرائيل إلى العبودية والذل، فلما رأى بنو إسرائيل فرعون وجنوده ذعروا وفزعوا إلى موسى فأوحى الله إليه أنهم ناجون وأن فرعون وجنوده مغرقون.

وحال بين فرعون وبينهم وضرب موسى البحر فأجرى الله تعالى ريحا شرقية قوية طول الليل، حتى جعلت في البحر طريقا يابسة، وسار فيها موسى وبنو إسرائيل على اليبس، والماء كالسور عن يمينهم وعن شمالهم. فساروا فيه حتى عبروا إلى الضفة الأخرى، ورآهم فرعون يسيرون على اليابسة فسار في أثرهم، فلما توسط اليم وعبر بنو إسرائيل جميعا انطبق الماء على فرعون وجنده فأغرقوا جميعا.

ومعلوم أنه إذا تخالف ما في التوراة والقرآن فالمعول على ما جاء في القرآن لأنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

«وفي الإصحاح الخامس عشر» فرح بنو إسرائيل وأعلنوا فرحهم مترنمين بتسبيح الله تعالى. وأخذت مريم أخت هارون الدف وخرج جميع النساء وراءها يدففن ويرقصن لنجاتهم وهلاك عدوهم.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

خامسًا: مسالك العلماء فى القول بالنسخ: العلماء المتكلمون فى النسخ أقسام ثلاثة

[أ] فمنهم المغالون: الذين حاولوا التخلص من القول بالنسخ إطلاقًا تبعًا – لأبى مسلم – سالكين فيما ذهبوا إليه مذهب التأويل بالتخصيص ونحوه، وهؤلاء قد أخطأوا الصواب، لأنهم بمحاولتهم إنكار النسخ قد سلكوا طرقًا ملتوية، وحملوا الآيات ما لا تحتمل، ومهما لاحظنا أن من المنقول عن المتكلمين فى الناسخ والمنسوخ ما لا ينطبق عليه حد النسخ عند الأصوليين، فإن حديث الصحابة والتابعين عنه كاف فى الدلالة على وجود مبدأ النسخ، وثبوته فى الشريعة الإسلامية.

[ب] ومنهم المسرفون: وهم الذين أدخلوا فى النسخ ما ليس منه، بسبب خلطهم بين النسخ والتخصيص أو بين النسخ والبيان، وبسبب توهم التعارض الظاهرى بين الآيات، مع أنه لا تعارض فى الحقيقة ولا نسخ، وفاتهم أن النسخ هو آخر ما يصار إليه فى فهم آيات القرآن الكريم باتفاق العلماء، وفاتهم – كذلك – أن يعرفوا أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحى له، بل يقصدون به ما هو أعم منه، مما يشمل بيان المجمل، وتقييد المطلق، ونحوهما، ومن هؤلاء المسرفين (أبو جعفر النحاس) فى كتابة (الناسخ والمنسوخ) (وهبة الله بن سلامة) وغيرهما.

(جـ) ومنهم المعتدلون الذين يقولون بالنسخ فى حدوده المعقولة، فهم لم ينفوه إطلاقًا، ولم يتوسعوا فيه جزافًا، بل يقولون به فى حدود الضرورة، التى يقتضيها وجود التعارض الحقيقى بين الأدلة، مع معرفة المتقدم منها، والمتأخر، ومع وجود النقل الصحيح، الذى يؤيد ما ذهبوا إليه تأييدًا بينًا.

وقد بذل العلماء الأثبات طاقتهم فى بيان أهمية النسخ، وحكمة مشروعيته، وأدلة ثبوته، وفى تمييز النسخ عن غيره، فعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وبينوا طرق معرفته، ووضحوا الأمور التى لا يجوز أن يعتمد عليها فى القول به، وفصلوا أنواعه، ووضعوا شروطه، وتوسعوا فى ذكر الفروق التى بينه وبين غيره من الأحكام، وردوا على الشبهات التى أثيرت حوله، وبذلك يتضح لنا أن ما أثاره اليهود من شبهات حوله لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم، قد أبطلها القرآن الكريم، وتولى علماء الإسلام دحضها بالتفصيل والتدليل [1]. – والله أعلم –

[د] جدالهم فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام:

من المسائل التى اشتهر فيها الجدل بين النبى ﷺ وبين اليهود: مسألة تحويل القبلة، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكلامنا فى هذا الموضوع يتناول ما يأتي:

أولاً: كيف كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟.

ثانيًا: ما الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟.

ثالثًا: كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل؟.

رابعًا: تفسير الآيات الكريمة التى نزلت بشأن القبلة.

خامسًا: لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة رغم أنها من الأمور الفرعية؟

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة.

أولاً: فرضت الصلاة على النبى ﷺ فى مكة ليلة الإسراء والمعراج: ويرى بعض العلماء أن النبى ﷺ كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدبر الكعبة، بل كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركنين: الأسود واليماني.

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة المسجد الحرام وهذا الرأى هو الذى نرجحه، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم، ولأنه ﷺ عربي، وظهر بين قومه العرب، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر، إذا فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل المسلمون فى صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة.

ومهما يكن من خلاف بين العلماء فى الجهة التى كان النبى ﷺ يستقبلها فى صلاته، وهو بمكة، فإن الأمر الذى لا خلاف فيه، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل فى صلاته سوى بيت المقدس، بأمر من الله – تعالى – وقد وردت أحاديث صحيحة فى ذلك، منها ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله – ﷺ – يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ جهة مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك [2].

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة [3].

1- المعرفة ما كتب عن النسخ من جميع الوجوه، راجع ـ مثلا ـ كتاب [النسخ فى الشريعة الإسلامية] للأستاذ الدكتور مصطفى زيد وكتاب «مناهل العرفان» للمرحوم الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ومحاضرة مطبوعة عن النسخ لفضيلة الدكتور محمد سعاد جلال.

2- البخاري باب «الصلاة من الإيمان» من كتاب الايمان جـ ١ ص ١٧.

3- البخاري باب «ما جاء فى القبلة» من كتاب الصلاة جـ ١ ص ١٠٦.

وبذلك نرى أن النبي ﷺ كان يتوجه في صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام.

ثانيًا: الشبهات التي أثارها اليهود بعد تحول المسلمين في صلاتهم إلى المسجد الحرام.

قلنا إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة استقبل في صلاته بيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفا لقلوب اليهود، لأن بيت المقدس قبلتهم، ورمز وحدتهم، وقد فرحوا لصلاة الرسول ﷺ والمسلمين إليه وكان أمل النبي أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول في الإسلام، ولكنهم عموا وصموا، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبي ﷺ قد اتبع قبلتهم وعما قريب سيتبع ملتهم، واعتبروا اتجاه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس نوعًا من اقتباس الهدى منهم، فتأثر الرسول ﷺ من موقفهم الجحودي، وانبثقت في نفسه أمنية التحول إلى الكعبة، وأكثر من التضرع والابتهال إلى الله؛ كي يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم.

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه ﷺ فولاه القبلة التي يرضاها، ففرح المؤمنون لذلك؛ لأن في توجههم إلى البيت الحرام، تأليفًا لقلوبهم، فهو مثابتهم ومركز تجمعهم، وموطن أمنهم. ومهوى أفئدتهم، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

أما اليهود ومن على شاكلتهم ممن في قلوبهم مرض، فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود، وإثارة الشبهات، لبلبة الأفكار، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم.

ومما قاله المشركون في ذلك: إن محمدًا ﷺ قد تحير في دينه، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

ومما قاله المنافقون: ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟

ومما قاله اليهود - الذين تولوا كبر التشكيك في صحة التوجه إلى البيت الحرام (إن القبلة الأولى - وهي بيت المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق، وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة، ولو كان محمد ﷺ نبيا حقًا ما ترك قبله الأنبياء قبلة، وتحول إلى غيرها، وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غدًا).

ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المرذولة، الطعن في شريعة الإسلام، وفي نبوة النبي - ﷺ -

ثالثًا: ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم، وأحبط مكرهم: فأخبر الله - تعالى - نبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس، ويثبت الإيمان في القلوب ويهيئ الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم، فذكر الله في الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها، لأن القادر على كل شيء، المالك للسموات والأرض تصرفا وتدبيرًا، أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب، ففي أي مكان توجه المصلي فثم وجه الله، ثم نبه - رسوله - ﷺ بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم، إشارة إلى أن المصلحة في التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت. وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصطبغ بهداية الله وتوفيقه.

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعًا للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه. وجعله - أيضًا - حرما آمنا لهم. بينما يتخطف الناس من حولهم.

وأخيرًا - سبحانه - أنه قد عهد في بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والقائمين والركع السجود.

ولقد كانت الآيات الواردة في شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة، كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل، بأن بيتا له هذه القداسة جدير بأن يكون قبلة للناس في صلاتهم، ولكن اليهود ومن في قلوبهم مرض، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة في نفوسهم ينقضها الدليل، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة، وكلاهما يعمي ويصم، فلا غرابة إن نطقوا كفرا، ولاكت ألسنتهم قبحا وسفها.

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة، لم يجد آذانا صاغية من المؤمنين، لأن الله - تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس ولقن نبيه ﷺ الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها، ليكون ذلك أقطع لحجتهم، كما قالوا في الأمثال: (قبل الرمي يراش السهم).

رابعًا: تفسير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام:

١- لقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة(٤) في شأن صرف القبلة إلى البيت الحرام، لقن المؤمنين فيها الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية، وبشرها بإجابة رجاء نبيها ﷺ إذ ولاه القبلة التي يرضاها، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيره من الجاحدين، ولو جاءهم بكل آية، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل، ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان.

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات، في ثلاث آيات، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكرارا في الخطاب ليرسخ في النفوس، ويستقر في المشاعر والقلوب.

هذا، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة من مقاصد، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل، فنقول: قال الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(البقرة: ١٤٢- ١٥٠).

تضمنت هذه الآية الكريمة إعلام النبي - ﷺ والمؤمنين أن فريقًا من الناس الذين خفت أحلامهم، وضعفت عقولهم وعدلوا عما ينفعهم إلى ما يضرهم، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام: أي شيء صرف المؤمنين عن قبلتهم التي كانوا عليها في صلاتهم وهي بيت المقدس؟

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وأرد لشغبه)(٥).

والمراد بالسفهاء: اليهود الذين استنكروا

٤- الآيات من ١٤٢- ١٥٠.

٥- تفسير الكشاف: جـ ١ ص ٢٣٧.

تحويل القبلة، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركي العرب.

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق، وجحدوه، وأنكروا نبوة النبي ﷺ مع علمهم بصدقه في رسالته.

وقد صرح البخاري - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاء: هم اليهود، فقد روى عن البراء بن عازب قال: «كان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله - تعالى -:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

«البقرة: ١٤٤».

فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها»(٦).

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الجواب الذي يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم، فقال تعالى:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

«البقرة: ١٤٢».

أي: قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله ملكا وتصرفا، وهي بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة في الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر، وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لا ترجيحا لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم، فالله هو الذي يهدي من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

٢ - ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة، مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

«البقرة: ١٤٣».

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلتكم - أيها المسلمون - وسطا، لأنها البيت الحرام، الذي هو مثابة للناس وأمنا جعلناكم - أيضا - «أمة وسطا» أي: خيارا عدولا بين الأمم؛ ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة، التي تتوجهون إليها في صلواتكم، وتشهدوا على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكي يشهد الرسول ﷺ عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

أخرج البخاري، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «قال رسول الله ﷺ يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله - جل ذكره:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

«البقرة: ١٤٣»(٧).

ثم بين الله - تعالى - الحكمة في تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾

«البقرة: ١٤٣».

أي: وما شرعنا التوجه إلى القبلة، التي كنت عليها قبل وقتك هذا، وهي بيت المقدس، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر، فنعلم من يتبع الرسول يأتمر بأوامره في كل حال ممن لم يدخل الدين في قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شيء، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبي مشاهدا في العيان، إذ تعلق الشيء واقعا في العيان، هو الذي تقوم عليه الحجة، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال لنعلم ولم يزل عالما بذلك؟ قلت: معناه لنعلمه علما يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجودا حاصلا، ونحوه.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

«آل عمران: ١٤٢».

وقيل: ليعلم رسول الله، والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل معناه: لنميز التابع من الناكص، كما قال تعالى:

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

«الأنفال: ٣٧»

فوضع العلم موضع التمييز، لأن العلم به يقع التمييز به(٨) ا. هـ.

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة في نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى:

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾

«البقرة: ١٤٣».

أي: إنما شرعنا لك - يا محمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة؛ ليظهر حال من يتبعك ويطيعك في كل حالة، ممن لا يطيعك، وإن كانت هذه الفعلة - وهي تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة، إلا على الذين خلق الله الهداية في قلوبهم، فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان، وقالوا: سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

«البقرة: ١٤٣».

بشارة عظيمة للمؤمنين، وجواب لما جاشت به الصدور، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين في الفترة التي سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة.

فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله - تعالى - ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾(٩).

وروى أن حيي بن أخطب، وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه، فقالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على

٦- صحيح البخاري، «باب التوجه إلى القبلة»، جـ١ ص ١٠٤ من كتاب الصلاة.
٧- صحيح البخاري، باب كذلك جعلناكم أمة وسطا، من «كتاب التفسير» جـ٦ ص ٢٦.
٨- تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٣٨.
٩- صحيح البخاري، باب «الصلاة من الإيمان»، من «كتاب الإيمان»، جـ١ ص ١٨.

قبلتنا ؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا ، وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٤٣).

والمعنى : وما كان الله - تعالى - ليذهب ثواب صلاتكم وأعمالكم الصالحة ، التي قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس ، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ، ولا يضيع أجر من أحسن عملا .

٣- ثم خاطب الله - تعالى - نبيه ﷺ ووعده بأن القبلة التي سيؤمر بالتوجه إليها هي التي يحرص عليها ويرغب فيها فقال تعالى :

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

(البقرة: ١٤٤).

قال الإمام ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة ، قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا ، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم ، فكان يدعو الله ، ويتطلع إلى السماء ، فأنزل الله - تعالى :

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

(البقرة: ١٤٤)(١٠).

والمعنى : قد شاهدنا - يا محمد - وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك إلى السماء ، تطلعا إلى نزول الوحي عليك ، وتوقعا لما ألقي في روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيًا منك وراء استمالة العرب إلى الدخول في أحضان الإسلام ، ومخالفة لليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت ، وأعطيناك ما سألت ، ووجهناك إلى قبلة تحبها ، وتميل إليها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ .

أي : فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته .

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها : فقال تعالى :

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

أي : وحيثما كنتم وأينما وجدتم في بر أو بحر ، فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه ، وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة ؛ لدفع توهم أن يكون الخطاب في الأولى خاصًا بالنبي ﷺ ، ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرًا له خطره ، خصهم بخطاب مفرد ؛ ليكون ذلك آكد وأبلغ .

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها ، حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكان المصلي بالمدينة ، أو بمكة ، أو بغيرهما .

وفي ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ، ما يؤذن بكفاية مراعاة جهتها ، ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء في أن الكعبة قبلة كل أفق ، وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ، ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها . فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع .

وقد سقنا في مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة ، التي صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبي ﷺ قد أمر بالتحول إلى الكعبة ، استداروا إليها ، وهم في صلاتهم ، فجعلوها قبلتهم .

ومما يشهد بقوة إيمانهم ، وعظيم امتثالهم لشرع الله ، ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت :

(صلينا الظهر - أو العصر - في مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أي بيت المقدس - فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام . فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال : (أولئك رجال يؤمنون بالغيب)(١١).

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذي لا ريب فيه ، فقال تعالى :

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

أي : وأن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس ، ليعلمون أن استقبالكم للكعبة حق ، لأن الذي أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله ، وأنه يصلي إلى القبلتين ، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم ، وما الله يغافل عن أعمالكم ، بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حسابًا عسيرًا .

٤- ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وعنادهم ، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول ﷺ بكل آية فقال تعالى :

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٤٥).

والمعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة ، بأن الحق هو ما جئتهم به ، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام ، ما صدقوا به ، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل ، وإنما هو عن مكابرة وعناد ، مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين .

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم ، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم ، وتقرير لحقيقة القبلة إلى الكعبة ، بعد أن أشاعوا بأن النبي ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر ، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي ﷺ إلى قبلتهم ، وأخبر بأنه ليس بتابع لها .

١٠- تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٢.

١١- تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٣.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى:

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾

«البقرة: ١٤٥».

أي: ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ فقال تعالى:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

«البقرة: ١٤٥».

أي: لئن اتبعت – يا محمد – قبلتهم على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إليك بإقامتهم على الباطل، إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمري.

فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول ﷺ الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيدا للوعيد والتحذير، فكأنه يقول: لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندي، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه، في الفضل وعلو المنزلة، إن اتبعوا أهواء المبطلين، وهم اليهود، ومن كان على شاكلتهم من المشركين.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟.

قلت: كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة[١٢].

٥- ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق رسول الله ﷺ معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

«البقرة: ١٤٦».

أي: أن أحبار اليهود، وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي ﷺ، ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم، فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية في أن كلا منها يقين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابن كثير: يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبي صغير «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «أما أنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه» ويروى عن عمر أنه قال لعبدالله بن سلام: أتعرف محمدا ﷺ كما تعرف ولدك. قال نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإني لا أدري ما كان من أم ولدي، فقبل عمر – رضي الله عنه – رأسه[١٣].

ثم قال تعالى:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

«البقرة: ١٤٦».

أي: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك على الحق في كل شئونك ليتمادون في إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة.

٦- ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، الذي لا شك فيه فقال تعالى:

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

«البقرة: ١٤٧».

أي: اعلم – يا محمد – أن ما أوحي إليك، وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذي جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به، أو في الحق الذي جاءك من ربك، وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك، ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ، ولذلك قال المفسرون إن النهي موجه إلى الأمة في شخص نبيها ﷺ: إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبها تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير – رحمه الله – هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: أو كان النبي ﷺ شاكا في أن الحق من ربه، أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله – تعالى – حتى نهى عن الشك في ذلك، فقيل له:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

«البقرة: ١٤٧».

قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

«الأحزاب: ١».

ثم قال:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

«الأحزاب: ٢».

فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له. والمراد به أصحابه المؤمنين[١٤].

٧- ثم قال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

«البقرة: ١٤٨».

أي: لكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها في عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التي تكسبكم سعادة الدارين، والتي من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله – تعالى – وعدا لمن يطيع أمره، ووعيدا لمن ينصرف عن الخير، فقال تعالى:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

«البقرة: ١٤٨».

أي: في أي بقعة يدرككم الأجل، وتموتون فيها، يجمعكم الله – تعالى – يوم القيامة، لتقفوا بين يديه للحساب، لأنه – سبحانه –

(١٢) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٣٩.

(١٣) تفسير ابن كثير ج١ ص١٩٤.

(١٤) تفسير ابن جرير ج٢ ص ٢٧.

قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم ، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شيء ، وما دام الأمر كذلك ، فبادروا بالأعمال الصالحة شكرا لربكم ، وحافظوا على قبلتكم ، حتى لا تضلوا كما ضل غيركم من اليهود ومن على طريقتهم في الكفر والعناد.

٨- ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام في حالتي السفر أو الحضر فقال تعالي:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

«البقرة: ١٤٩».

أى : ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت ، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام ،وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذى لا شك فيه عند ربك فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون، وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به ، وينهاكم عنه ، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم ولا بغافل عنها ، ولكنه محصيها عليكم ، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

٩- ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال تعالي:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

«البقرة: ١٥٠».

أى : ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام ، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله ، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

وتلك هى المرة الثالثة التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم ، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى الأمر تأكيده حتى يرسخ فى نفوس المؤمنين ويستقر فى مشاعرهم ، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح ، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها ، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - ﷺ - وللمؤمنين : الزموا هذه القبلة لأنها هى القبلة التى ترضونها وترغبون فيها وطالما تمنيتموها ، والزموها - أيضا - لأنها هى القبلة التى لن تنسخ بعد ذلك .

والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين ، وغيرهم من المعاندين والخاسرين .

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام فى هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث:

أولها : قوله تعالي:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾

«البقرة: ١٥٠»

والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى : عليك - أيها النبى - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة ، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم ، فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس: إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا ؟ إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول .

وقوله تعالي:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

استثناء من الناس ، والمعنى :

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم ، إلا للمعاندين منهم القائلين ، ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حبا لدين قومه ، واشتياقا لمكة ، وهؤلاء لا تخافوا مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ولا تقيموا لما يشاغبون به فى أمر القبلة وغيره وزنا ، فإنى كفيل أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم فأنتم - أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره ففى الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل.

وقد أحسن صاحب الكشاف فى شرحه للجملة الكريمة ، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ استثناء من الناس ، ومعناه : لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم ، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه ، وحبا لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله . فإن قلت : أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة ، ولم يبال بحجة المعاندين؟

قلت : كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة؟ فإن قلت : كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين ؟

قلت : لأنهم يسوقونه سياق الحجة . ويجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى ترككم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم وإسماعيل أبى العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم[١٥].

وثانيها : قوله تعالي:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾

«البقرة: ١٥٠»

أى : ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم ، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

ثالثها : قوله تعالي: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

أى : وكى ترشدوا للصواب فى كل أموركم ، فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه ، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس .

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهى قوله تعالى ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾

وبذلك تكون الآيات الكريمة نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين ، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم فى هذه المسألة.

خامسا : هذا ، وفى ختام هذا المبحث نحب أن تجيب على السؤال الخامس ، وهو

(١٥) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٤٠.

لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة ؟ فنقول :

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان ، وكرر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق ، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره ، وساق وجوها من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها .

والمقتضى لهذه العناية، وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، كان أول نسخ في الإسلام - كما قال بذلك كثير من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، فاقتضى الأمر بسط الحديث في مسألة القبلة ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم.

ولأن هذا التحويل - أيضًا - جاء على خلاف رغبة اليهود، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين في التوجه إلى بيت المقدس، لأنه قبلتهم، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام، اتخذوا منه مادة للطعن في صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة، وسلكوا لبلبلة أفكار المسلمين كل وسيلة.

فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة، ومباين للعقول فلا يقع في الشرائع الإلهية، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة.

ويبدو أن شغبهم هذا، كانت له آثاره عند ذوي النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة، شأنا غير شأن بقية الأحكام الفرعية، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضاً مدعماً بالأدلة والبراهين، وهذا ما رعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة فلقد كرر وقرر، ووعد وتوعد، ووضح وبين، ليدفع كل شبهة، وليجتث كل حجة، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين في العلم، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم في مكان سحيق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

«يتبع»

العلاقة بمدير غير يهودي

د. منصور عبد الوهاب

مصدر الفتوى: WWW. MOriya. org. il ، ديسمبر ٢٠٠٥- فتوى من الحاخام موشيه كاتس

سؤال: أنا أعمل في مكتب خاص، ومديري من الأغيار (مسيحي)، فهل توجد علي قيود شرعية أو غير شرعية في المكتب بشأن الطعام الذي يعده لي المدير من فنجان القهوة إلى الطعام الذي يحضره للمكتب، ثم ماذا عن الأواني، خاصة في عيد الفصح وعن بيع الخبز المختمر وما شابه ذلك؟ لقد كان لهذا الرجل شريك يهودي علماني في المكتب، وما زالت الأواني تخص الاثنين.

جواب: السؤال متشعب وسأحاول إيجاز الرد:

أ- أفتى السلف - رحمهم الله - بحظر الأكل من طعام الأجنبي. ويوجد فصلان كاملان على ذلك في كتاب «شولحان عاروخ» (باب «يوريه ديعا» ١٠- ١١٢ / ١١٣).

١- إن تحريم أطعمة عبدة الأوثان ليس له محل فيما يؤكل حيًا بنفس الصورة، مثل الفواكه المحفوظة واللبن المبستر، أو الشيء الذي لا يقدم على مائدة الملوك، أي لا يقدم للضيف لإكرامه به، مثل القهوة والسردين.

٢- وفي حالة اشتراك اليهودي في إعداد الطعام - فلا يوجد تحريم، وهذا شريطة أن يفعل ذلك قبل أن يصل الطعام إلى درجة النضج «بنسبة ثلث إلى نصف النضج»، وقد اختلف السفارديم والإشكنازيم في هذه النقطة، بشأن ما يعد مشاركة في عملية الطهي، بالنسبة للإشكنازيم: يكفي إشعال النار، وبالنسبة للسفارديم: لا يكفي إشعال النار، بل يجب أن تكون هناك مشاركة حقيقية، مثل وضع القدر على النار أو إدخاله الفرن، «فيما يتعلق بالخبز، اتفق الجميع على الاكتفاء بإشعال النار».

ب- الأواني التي طهى فيها أحد الأغيار «منتجات مباحة حسب الشريعة اليهودية» يجب تطهيرها.

ج- بالطبع، إذا أحضر أحد الأغيار طعامًا لك ليست فيه مشكلة طهي عبدة الأوثان أو غير مطهو على الإطلاق، يكون لزامًا عليك التحقق من كون هذا الطعام حلالاً حسب الشريعة اليهودية.

د- بشأن الأواني أفتى كتاب «شولحان عاروخ» (باب «يوريه ديعا» ١٠ / ١٢٠، ٧٠ / ١١): بأنه إذا اشترك اليهودي وغير اليهودي في شراء إناء لا تكون هناك حاجة لتطهيره، ولكنك تقول إن الأواني مازالت تخص الإثنين، ويجدر أن نتحقق من صحة ذلك.

هـ- لو استخدم يهودي علماني الأواني، فإنها تكون غير طاهرة.

قناة الأزهر الفضائية


أ/ ضياء الدين جمال

جاء في الصفحة ٨٨٠ من عدد شهر ربيع الآخر لسنة ١٤٣٤ هـ، وتحت عنوان «الإمام الأكبر: انطلاق فضائية الأزهر قريبًا»..

١- لا شك أنه خبر في غاية الأهمية لكل مسلم يريد أن يتعرف على دينه ويتعلم ويتبع عقيدته الإسلامية الصحيحة والوسطية، كما جاء بها سيدنا محمد ﷺ، وبعيدًا عن أي تحريف أو تشدد أو تفريط أو إفراط، ولا شك أنه خبر يسعد كل مسلم يحس ثقل الهجمة الشرسة التي يتعرض لها ديننا الحنيف من قبل أعدائه وما أكثرهم، وفي مقدمتهم الشيعة الصفويون واليهود والليبراليون والمسيحيون الجدد وغيرهم، قد يظن الإمام الأكبر ومن خلفه كل هيئات الأزهر الشريف أننا سنشكرهم على أنهم وضعوا هذا الهدف الكبير نصب أعينهم وقرروا إخراجه إلى ميدان الواقع وحيز التأثير.

على العكس من ذلك أنا شخصيًا ألومهم على التأخر في اتخاذ هذا القرار مما أدى إلى تأخير انطلاق هذه الفضائية المهمة جدًا عشرات السنين وبحجج ضعيفة لا تكاد تقنع أحدًا من غير المتخصصين، فكيف ستقنع المفكرين والمهتمين والمتابعين.

٢- يكفيني أن أشير هنا إلى أن عشرات القنوات الفضائية تبث الانحراف وتلوث الفضاء بسمومها في الوقت الذي ظل فيه الأزهر الشريف وهو تلك المؤسسة العظيمة والمؤثرة غائبًا عن الفضاء، ويكفيني أن أشير إلى أن كثيرًا من الأفراد استطاعوا تأسيس قنوات تبث الرقص والردح والفسوق، بينما ظل الأزهر الشريف ذلك الصرح الكبير المنتشر في جميع ربوع مصر وخارجها متأخرًا عن تأسيس قناته التي ستعمل على بث أعظم رسالة أنزلها الله تعالى من السماء إلى الأرض لتكون دينًا يتعبد به الخلق جميعًا ومنهجًا يحيون به أفرادًا ومجتمعات من يوم نزولها إلى أن تقوم الساعة.

٣- ومع ثبات التأخير الذي لا عذر فيه لأحد، لكني أدعو الله العلي القدير لهذه القناة أن تؤدي دورها الكبير بالمستوى الذي يليق بمستوى الإسلام العظيم ورسالته وبالمستوى الذي يتناسب مع مكانة الأزهر واتساع دوره وعمق تأثيره.

٤- ولكي تقوم هذه القناة التي أرجو لها كل النجاح في أداء دورها على الوجه الأكمل.. اقترح على السادة القائمين عليها وبتواضع شديد.. الملحوظات التالية:

أ- أن لا يلبسها القائمون عليها جبة وعمة فيجعلون شبابنا ينفرون منها، كما ينفرون من كثير من القنوات الدينية الأخرى، نعم هي قناة فضائية إسلامية كبرى موضوعها الأساسي والكلي هو الإسلام وهي تمثل الأزهر بكل وقاره ومكانته ولكن عليها أن تتبنى أحدث الوسائل والأساليب والنظريات الإعلامية بما يساعد على جذب الشباب المسلم إليها وجعلهم يتابعون برامجها وبعكسها، فسيعزف الشباب عن متابعتها فتتحول إلى وجه روتيني لا ينظر إليه أحد وكأنها إحدى دوائر وزارة الأوقاف.

ولنا من معركتنا الإعلامية بعد الثورة خير دليل على ذلك، حيث تفوقت قنوات الكذب والنفاق وبدرجة كبيرة فشدت إليها ملايين المشاهدين في الوقت الذي أظهر كثير من القنوات الدينية فشلًا واسعًا لا يحسدها أحد عليه.

ب- ستكون هذه القناة ممثلة للأزهر الشريف ومعبرة عن فهمه للإسلام، لذلك أقترح أن لا تتردد في جميع برامجها عن إظهار الوجه المنير للأزهر وفهمه الصحيح للإسلام الحنيف وبدون التأثر بالمدارس الأخرى وأن يكون لها رأيها المستقل والواضح الذي يمثل رأي الأزهر كما عرفه الناس.

ج- أن تتحلى القناة بالشجاعة وروح التصدي لكل العقائد الهدامة التي تنسب نفسها للإسلام زورًا أو ظاهرًا وهي تعمل على هدمه من وراء الستار مثل التشيع بكل فرقه وأشكاله والأحمدية وغيرها.

د- أن يكون للمرأة وشئونها دور بارز في نشاط القناة بصفتها مذيعة ومقدمة برامج أو معدة برامج، كما ينبغي الاهتمام الكبير بشئون المرأة الفقهية والشرعية وأن تعطى الحيز المناسب لها بين برامج القناة، أسباب ذلك واضحة يمكن أن أجملها فيما يلي:

أولًا: أن المرأة تشكل نصف المجتمع وتلك حقيقة كثيرًا ما يهملها الشيوخ.

ثانيًا: أن المرأة أكثر متابعة للبرامج التليفزيونية على اختلافها بحكم قضائها وقتًا أطول في بيتها.

ثالثًا: أنها أكثر تأثرًا بما تشاهد وأشد تمسكًا بما تعتقد.

رابعًا: دورها الكبير والأساسي في تربية أطفالها وأولادها فإن أعطيناها الاهتمام الكافي في برامج القناة فستنقل كل ذلك لتزرعه في نفوس أولادها فتكسب جيلًا مسلمًا سليم العقيدة وهو دور لا يحسن الرجل أداءه كالمرأة.

خامسًا: أن المرأة تكون أكثر انجذابًا إلى الشاشة عندما تشاهد امرأة مثلها تحاور أو تقدم أو تعرض.

هـ- أن تشكل من خبرة الفقهاء والخبراء لإدارة القناة والإشراف على أداء دورها وإعطائها الاستقلالية التامة والحرية الكاملة بعيدًا عن الحكومة ووزارة الإعلام أو وزارة الأوقاف أو تدخلات الممولين والمتنفذين وأمزجتهم، ولنا من استقلالية مؤسسة (B B C) البريطانية مثال على ذلك مع اختلاف الدور بالطبع.

و- يضطلع الأزهر الشريف بمهمة كبرى وهي تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، لذلك سيكون من مهام هذه القناة وأهدافها بث دروس متخصصة في تعليم اللغة العربية على أن تعد وفق أحدث الأساليب الحديثة وتبث بطريقة وتوقيتات تمكن الدارسين والمتابعين من متابعتها وهم في بيوتهم في بلدانهم.

● هذا ما أردت بيانه من ملحوظات حول قناة الأزهر الفضائية وغايتي خدمة الإسلام ونشره على أوسع نطاق بين العالمين وتعميقه في عقول وصدور معتنقيه. إضافة إلى رفع مكانة الأزهر الشريف وإعلاء شأنه وتمكينه من أداء دور عظيم في نشر الإسلام وتنشئة الأجيال المسلمة وهو قادر على ذلك إن أحسن استثمار إمكانياته وتطويرها.

أشكركم على اهتمامكم وأرجو أن لا أكون قد تجاوزت حدودي والحمد لله رب العالمين.

ملحوظة:

أرجو أن لا يغيب عن ذهن السادة القائمين على القناة أن يستخدموا هذه القناة في توجيه دعاة الأزهر المنتشرين في مختلف أنحاء العالم والتنسيق بينهم وإعطائهم التعليمات التي يحتاجونها لإنجاح مهمتهم.

عبدالرحمن تاج: تاج الأشياخ!

أ. أحمد عبدالرحيم

أما المضاف إليه «الأشياخ»، فجمع قِلّة، يفيد أن المجموع قليل..
وأما المضاف «تاج»، فهو شيخ الأزهر الأسبق الشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج (١٨٩٦ - ١٩٧٥م).

وأعترف: لم تكن لى بهذا التاج الكبير سابقُ صُحبةٍ ولا أُلفة، بخلاف نفرٍ آخر من كبار الأشياخ العظام الذين تواردوا على سُدّة الأزهر الشريف فزادوها شرفًا.. يشرفهم وجليل مواقفهم العلمية والعملية، كما كان الكبار الراحلون: محمد مصطفى المراغى، عبدالمجيد سليم، محمود شلتوت، جاد الحق على جاد الحق.

ولم يكن هذا الانقطاع من جهتى عن أخبار الشيخ تاج «تاج الأشياخ» عن قلى.. لا سمح الله. بل.. هكذا اتفق الأمر: لم يَعلَق بذاكرتى من مواقفه ما يجعله بنظرى فى مصاف أولئك الأشياخ العظام.. ربما لقصر مدة مشيخته (١٩٥٤: ١٩٥٨م) والتى انتهت، بسبب رفض الشيخ العظيم محاولات التدخلَ فى شئون الأزهر.

ثم وقفتُ هذه الأيام على موقف جليل له هزنى هزًا، واستمطر لسانى ترحمًا عليه وأسفًا على أن نموذجه يضن به الزمان الضنين!

فى سيرته الماتعة «أيام مجاور» (دار الهلال ٢٠٠٩م).. يحكى القاص والروائى سليمان فياض فصولاً من حياته الباكرة التى قضاها طالبًا «مجاورًا» بمعهد الزقازيق الدينى فى أربعينيات القرن الماضى.. وفيها جاءت سيرة «الشيخ الدكتور، الجميل الطباع، الشديد التواضع، العالم المتنور بالشريعة الإسلامية، الشيخ عبدالرحمن تاج الذى صار فيما بعد شيخًا أكبر، وإمامًا للجامع الأزهر».. انتقل الشيخ تاج إلى الزقازيق شيخًا (مديرًا) لمعهدها الدينى، أحد بضعة معاهد أزهرية فى أنحاء مصر المعمورة ذلك الزمان..

يحكى فياض:

«رأيته أولَ مرة عصر يوم ما، يمسك بمقشة، وبجانبه سلة وجردل ملىء بالماء، وهو يروح ويجىء.. كانس أرض المعهد بالمقشة بيده التى تمسك بالقلم، وبيده الأخرى التى تمسك بالأوراق. ظننته لأول وهلة ساعيًا جديدًا بالمعهد. وبلغت صدمتى منتهاها حين قيل لى: إنه شيخ المعهد الجديد!

لم ترُقْ لهذا الشيخ حال نظافة المعهد كله: باحاته ملأى بالأوراق والأكياس والأتربة، وجدرانه لطختها الأكف الملوثة ببقايا الطعام، ودورات مياهه مثل كثير من دورات المدارس والمساجد فى الأحياء الشعبية.

لزم الشيخ تاج الصمت حتى انتهت دروس اليوم الأول بالمعهد، ولم يعاتب الوكيل المسئول عن المعهد، وهو «شيخ السكن» المقيم بغرفة نظيفة خاصة به بالمعهد، ولم يدعُ إليه أحدًا من السعاة بالمعهد وفراشيه، ليعاتب أحدًا منهم أو يحاسبه أو يزجره أو يعاقبه متوعدًا ومهددًا.

عند انتهاء اليوم الدراسى.. ذهب الشيخ تاج إلى مخزن أدوات النظافة، وسحب منها ما يلزمه، وملأ الجردل من صنابير حمامات المعهد، ورفع ذيل جلبابه الأبيض، وعقده حول وسطه كأى فلاح، وراح يمارس بتواضع وهمة عملَ غيره.

تصايح عندئذ طلاب السكن، وتنادى المقيمون من السعاة والفراشين إلى حيث الشيخ. حاولوا جاهدين إراحته من هذا العمل، لكنه نهرهم، وواصل العمل.. فسارعوا يعملون مثل ما يعمل، جالبين من المخزن كلَّ أدوات النظافة الوفيرة.

فى ساعات قليلة والشيخ على رأسهم كانت باحات المعهد مكنوسة مرشوشة، وبواكيه تضوى، ومصابيحه عند الغروب تومض بعد خفوت الأضواء، وأحواض الحمامات والمراحيض.. تلمع بالبياض والنقاء، وجدران المبانى الحجرية داخل الفصول وخارجها تبدو (بعد جهد مئات الطلاب بعنابر السكن الداخلية) وكأنها خرجت لتوها من أيدى البنائين.

وكان وكيل المعهد يرقب الأمر كله من الشرفة، ويدخن سيجارة إثر أخرى، ويدهسها فى النهاية بحذائه على أرض ممر مبنى الإدارة، وهو ينفخ ويزفر فى قلق.

وكان الشىء الوحيد الذى لم تمتد إليه أيدى النظافة فى تلك الليلة مطعم المعهد المغلق الباب، وأكوام الزبالة الهائلة وراء الجدار الخلفى للمعهد ترتع فيها الحشرات والهوام.

فى تلك الليلة.. اغتسل الشيخ تاج فى حمّام من حمّامات الطلاب بالمعهد، وغيرّ ثيابه، وطرح «فوطته» على كتفه، وعاد بها إلى غرفته الخاصة بمبنى الإدارة، ورقد إلى الصباح. ومع الضحى.. دعا إليه وكلاء المعهد، وأعلن إعفاء الوكيل المدخّن من مسئوليته كشيخ للسكن وإثر الاجتماع..

تحدث الشيخ تاج فيما تتناقله الأخبار إلى جهة ما بالمديرية، فأقبلت سيارات النظافة وعمال النظافة بالمديرية، وحملوا معهم فى السيارات أكوام الزبالة من وراء المعهد.

وفى ذلك الصباح.. أغلق الشيخ تاج مطعم المعهد على أن ينتهى متعهده من تجديده كله، وتنظيف أدواته ومناضده، وجدرانه العارية الكئيبة. وحمَّله مسئولية التخلص يومياً من زبالته، وتنظيف أدواته كلها وفاءً بتعاقده مع المعهد، وهدده بإلغاء التعاقد معه.

وامتدت من داخل المعهد خراطيم المياه لتغسل كل جدران المعهد الخارجية وأسواره، وشن حملة لكنس سقف المعهد وغسله عصرَ نهار.

نهض كل من بالمعهد فى تلك السنة بواجباته. واعتاد الشيخ أن يفاجئ بحضوره كلَّ مكان بالمعهد فى مواعيد متكررة وغير منتظمة، وأن يسعى مهيبًا بين قاعات الدرس وعنابر السكن، ويتحدث بهدوء بالغ إلى الطلاب والشيوخ والسعاة، وأن يترك بابه مفتوحًا لكل قادم. وفى الليل.. كان الليل له وحده.. مع خواطره أو كتبه أو قلمه وأوراقه».

ooo

انتهى هذا الفصل الآسر من سيرة الشيخ الجليل عبدالرحمن تاج كما حكاها سليمان فياض عن عيان.

ولكنى لا أملك إلا أن أنقل أيضًا تعليقه عليها:

«كلما تذكرتُ حال هذا الشيخ معنا فى تلك السنة.. تذكرتُ حوادثَ أخرى مماثلة يقوم بها أفراد بطولهم، وحين يعفون من هذه المسئولية (بالمعاش، أو بالغضب عليهم!)، ويأتى سواهم، «لترجع ريمة لعادتها القديمة»!. وهذا ما حدث تمامًا مع معهدنا.. حين نقل الشيخ تاج، ولم نعرف حينها أين ذهب! وطوال السنوات التالية التى عشتها بهذا المعهد كان الشيخ تاج هو الشيخ الوحيد الذى حدث فى عهده ما حدث!».

ooo

أما الذى أريد أن أعلق به، فقد ضاقت به المساحة هذه المرة، غير أنى أكتفى بأن أبكى مصرَنا التى ما أعظمَها وأنظفَها وأجملَها.. لو أن لها «تاجًا»! والحق أن لها «بوقات وطبولا» كما قال المتنبى:

إذا كان بعض الناس سيفًا لدولة
ففى الناس بُوقاتٌ لها وطُبولُ!

بل أقول: لا ينبغى لنا، ولا يليق بنا، أن ننتظر «تاجًا» أعلى لكى نبدأ مسيرة «التنظيف» الشاملة: ظاهرةً وباطنةً، روحًا ومادةً، خاصةً وعامةً!

ليكن كلُّ واحدٍ منا «تاجًا» فى محيطه ما استطاع..

لنبادر.. فقد قال الحكيم: لو لم يكن للمبادرين إلى الخير من الفضل سوى الانتصاب بين الأموات، لكفى!

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

أدب الأطفال فى تراثنا القديم

بقلم: أ. د. مصطفى رجب

أدب الطفل، أو أدب الأطفال، هو تلك الأعمال الأدبية المنتجة خصيصًا للأطفال وتشمل الأجناس الأدبية المعروفة فى أدب الكبار من شعر وقصة ومسرحية فهو فى النهاية وجه ثان لأدب الكبار يشترك معه فى الأهداف العامة وهى الإمتاع والتسلية والتهذيب والتثقيف.. ويختلف عنه فى الحجم واللغة، فمن المتعارف عليه أن يكون أدب الأطفال أصغر حجمًا إذ لا قدرة للطفل على متابعة رواية متشابكة طويلة، ولغة الطفل محكومة بنموه اللغوى المحدود فلا يصح أن تكون لغة الأدب للأطفال صعبة المعانى أو مجازية التراكيب.

وإذا كان فنا القصة والمسرح قد وفدا إلى الأدب العربى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين مع الاحتكاك الثقافى بأوروبا، فإن الشعر كان هو الفن الأدبى الأكثر عراقة فى الثقافة العربية.. بل إنه كان ديوان العرب وسجل حياتهم ووسيلتهم الإعلامية والتربوية قديمًا.

وقد ذهب بعض دارسى تاريخ الأدب العربى إلى أن الشعر العربى القديم تضمن كثيرًا من عناصر فنى القصة والمسرحية من حيث الشخصيات والحوار والحبكة الدرامية وكأنهم أرادوا بذلك أن ينفوا أن يكون مولد ذينك الفنين: القصة والمسرحية نتيجة تأثر بالأدب الغربى.

وقياسًا على ذلك يمكن القول بأن أدب الطفل، إذا عددناه فنًا أدبيًا جديدًا، له جذور فى تراثنا الشعرى القديم.. غير أن مثل هذا القياس لا يسلم، لأن لأدب الطفل - بمعناه الحديث - خصائص تميزه عن غيره، وتجعله فنًا ذا طابع خاص، ومن ثم تصبح نسبته إلى الأدب القديم غير شرعية.

غير أن شعرنا العربى القديم إذا لم يكن قد احتوى أدب الأطفال بوصفه فنًا أدبيًا خاصًا، فقد تضمن الكثير من أدب الأطفال بوصفه لونًا شعريًا متميزًا، أو غرضًا شعريًا عرفته القصيدة العربية، فقد روت لنا كتب التراث كثيرًا من الأبيات أو المقطوعات، أو أبعاض القصائد التى تحدث أصحابها فيها عن تربية الأطفال وشئونهم (كما روت لنا كتب التراث كثيرا من تلك الأرجاز

التى كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن، أو يرقصنهم بها).. بل وتسيت كتب التراث ذلك فى بعض الأحيان للرجال، فكأن الرجل العربى القديم لم يكن متجهمًا فظًا غليظ القلب كما تصوره لنا بعض الكتابات.. بل كان يشارك زوجه فى خدمة بيته وحمل أطفاله وترقيصهم وتدليلهم إذا دعت إلى ذلك حاجة.

فقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن الزبير بن العوام كان يرقص ابنًا له وهو ينشد مرتجزًا متفاخرًا بابنه الذى ينتسب إلى أبى بكر الصديق:

أبيض من آل أبى عتيق
مبارك من ولد الصديق
ألذُه كما ألذُ ريقى

وروى الراغب الأصفهانى فى «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء» نموذجًا آخر من بحر الرجز لشاعر يصف وجوه أطفاله بأنها كالأقمار جمالا، وهو يقول إنه لولا هؤلاء الصغار للزم داره ولم يغش قصور الملوك الجبابرة ولكن حاجته إلى المال لرعاية أطفاله ألجأته إلى مدح الملوك:

والله لولا صبية صغار
وجوههم كأنها أقمار
لما رآنى ملك جبار
ببابه، ما طلع النهار

ويروى لنا صاحب: «العقد الفريد» أبياتًا رجزية أخرى مما كان يستخدم فى ترقيص الأطفال لأعرابى خفيف الظل يشبه حبه لطفله بحب بخيل أتاه المال بعد معاناة وفقر شديدين.. فهو يحب ماله حبًا جمًا، وكلما عنّ له أن ينفق شيئًا من ماله ذاك الذى أتاه بعد طول فقر، بدا له شىء عاقه عن بذل ذلك المال.. فهو ضنين بطفله تمامًا كضن ذلك البخيل بماله..

فيقول ذلك الأعرابى وهو يرقص طفله:

أحبه حب الشحيح ماله
قد كان ذاق الفقر، ثم ناله
إذا أراد بذله، بدا له

شاع فى كتب التراث أيضًا ذلك الترقيص الذى تغنت به أعرابية:

يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى فى البلد
أهكذا كل ولد؟
أم لم يلد مثلى أحد؟

فهذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن نحتسبها جذورًا حقيقية لأدب الأطفال فى تراثنا العربى، ويمكن أن نضيف إليها القصص الرمزى الذى رواه لنا الجاحظ فى كتاب الحيوان وكتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب له، أو رواه لنا أبو العلاء فى ثنايا كتابه الضخم «رسالة الصاهل والشاحج» أو ما رواه الأبشيهى فى كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» ومن هذا المصدر الأخير نختار القصة الآتية:

قال الشعبى: مرض الأسد فعادته السباع

ما عدا الثعلب، فأراد الذئب أن يكيد للثعلب عند ملك الحيوانات فقال للأسد: أيها الملك.. لقد مرضت فعادتك السباع جميعا ما عدا الثعلب. قال الأسد: فإذا حضر الثعلب فأخبرنى.. فلما بلغ ذلك الثعلب جاء ليعود الملك فقال له الأسد: يا أبا الحصين مرضت فعادتنى السباع كلهم إلا أنت.. قال الثعلب: بلغنى مرض الملك فخرجت أسعى فى طلب الدواء له. فقال الأسد: فأى شىء أصبت؟ قال الثعلب: قالوا لى: عليك بخرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج فيعالج بها الملك. فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فشقها، وتسلل الثعلب خارج عرين الأسد، وبعد قليل مر عليه الذئب يعرج والدم يسيل من ساقه. فقال له الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان، فانظر ما يخرج من رأسك!!

فمثل هذه القصة وغيرها مما روته لنا كتب التراث يصلح أن يكون مادة طيبة لأدب أطفال حقيقى يشتمل على كل الخصائص التى يمتاز بها أدب الأطفال العصرى، وهذا القصص القديم إلى جانب شعر الترقيص الذى أشرنا إليه، مما نستطيع أن نعده - دون تجوز - أصولا عربية حقيقية لأدب الأطفال.. فإذا انتقلنا إلى لون آخر من ألوان الأدب القديم المتصلة بالأطفال، وجدنا ما يمت إلى الأطفال بصلة ما، مثل الحديث عن تربيتهم وتعليمهم والحديث عن تنكرهم - في بعض الحالات - لآبائهم أو أمهاتهم، والحديث عن رثاء الأطفال الذين ماتوا صغارا فلم تقربهم عيون أهليهم.. إلى آخر تلك الفنون التى نرى أنها تنتمى إلى أدب الكبار أكثر من انتمائها إلى أدب الأطفال، وما نرى فيها إلا لونًا خاصًا من ألوان الفن، أو غرضًا جديدًا من أغراض الشعر لم يلتفت إليه نقادنا قدر التفاتهم إلى تلك الأغراض الشعرية التقليدية من مدح وفخر وهجاء وغزل.. فمن ذلك «القصيدة التائية لأبى العلاء المعرى» فى ديوانه الشهير «لزوم ما لا يلزم» التى ينصح فيها بعدم تعليم البنات إلا فى ظل ظروف مشددة فيقول:

ليأخذن التلاوة من عجوز
من اللائى فغرن مهتمات
سوى من كان مرتعشا يداه
ولمته من المتشغمات

وقوله في موضع آخر من الديوان نفسه عن تعليم البنات:

علموهن الغزل والنسج والردن
وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص
تجزى عن يونس وبراءة

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن أبا العلاء كانت له نظرة خاصة إلى المرأة وإلى مسألة الإنجاب ذاتها، ولا تنفصل نظرته تلك عن رؤيته الفلسفية العامة التى عبر عنها خير تعبير ديوانه «لزوم ما لا يلزم» وهى رؤية

تقوم على إنكار التكاثر والتناسل فهو يقول مثلا مؤيدًا فكرة وأد البنات التي شاعت في الجاهلية وأنكرها الإسلام تمامًا:

إن الأوانس أن تزور قبورها
خير لها من أن يقال: عرائس

ويقول داعيًا إلى عدم الزواج:

خير النساء اللواتي لا يلدن لكم
فإن ولدن فخير النسل ما نفعا
وأكثر النسل يشقى الوالدان به
فليته كان عن آبائه دُفعا

وهي نظرة تشاؤمية تخالف الأديان والطبيعة البشرية.

وقد كانت مسألة وأد البنات في عصر الجاهلية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحرص العرب من وقوع النساء سبايا في أيدي الأعداء، وهو أمر يسبب للقبائل المسبية نساؤها عارا لا يفارقها.

وقد حفظت لنا كتب التراث نماذج من شعر شعراء تحدثوا عن أبنائهم حديث العاطفة الإنسانية الكريمة الجياشة الفياضة بالحب والود. فمن ذلك ما رواه المبرد في كتابه الشهير «الكامل» لبعض الشعراء:

لقد زاد الحياة إلى حبًا
بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي
وأن يشربن رنقًا بعد صاف
وأن يعرين إن كسي الجواري
فتنبو العين عن كَرُم عجاف

وقد تحدث الشعراء عن إنجاب البنات في ظل تلك النظرة الجاهلية الجاهلة إلى المرأة، تلك النظرة التي أنكرها القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

«النحل: ٥٨، ٥٩».

وكان حديث الشعراء عن البنات متناقضا، فبعضهم يتحدث عنهن في رفق وحنو ومحبة وعطف كالمعلى الطائي الذي اشتهر بأبياته التالية واشتهرت به:

لولا بنيات كزغب القطا
حططن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني عن الغمض

فانظر إلى رقة قوله في هذا البيت الأخير: إنه يفقد قدرته على النوم، بل إن عينيه لتتوقفان عن حركتهما إذا ما أحس بأي خطر يحدق ببناته، انظر إلى تلك الرقة، وانظر بعد ذلك في نموذج آخر لشاعر تفيض رقته فتنقلب طريقته في التعبير عن تلك الرقة إلى صورة معاكسة فهو يقول:

أحب بنيتي وودت أني
دفنت بنيتي في قاع لحد
وما بغضي لها غرض ولكن
أحاذر أن تذوق الذل بعدي
فإن زوجتها رجلا فقيرا
أراها عنده والهم عندي
وإن زوجتها رجلا غنيا
يصفع وجهها ويسب جدي
فليت الله أكرمها بقبر
وإن كانت أعز الناس عندي

وفي رأينا أن هذا الشاعر لا يقل تشاؤمًا عن أبي العلاء المعري، فلا يصح في عرف الناس، ولا يستقيم مع الطبيعة البشرية السوية أن يتمنى والد لولده الموت.

إن الحطيئة مع ما جبل عليه من شراسة الطبع، وتبلد المشاعر، وحدة الجفاء، يروون عنه أبياتًا تفيض رقة وعذوبة في مجال حياته الأسرية كقوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سجنه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فقد رووا أن الحطيئة هذا الغليظ القلب أراد سفرا طويلا فهيأ دابته وأخذ متاعه على راحلته وخرجت زوجته وبناته يودعنه فقال مخاطبًا مهددًا إياها بطول الغياب:

عدي السنين إذا رحلت لرحلتي
ودعي الشهور فإنهن قصار

فأجابته زوجته في الحال بقولها:

اذكر تحنننا إليك وشوقنا
واذكر بناتك إنهن صغار

فأخذته العاطفة إلى بناته وقال لمرافقيه:

حطوا - أي أنزلوا أمتعتي من على الرواحل - فو الله لا رحلت أبدًا.

، وهكذا، يجد المتأمل في تراثنا الأدبي القديم ثروة وأصولا طيبة ليس فقط لأدب الأطفال بمعناه العلمي الضيق، بل ولأدب الأطفال بوصفه بابًا واسعًا من أبواب الأدب العربي القديم كما نقول: أدب الكتاب، وأدب الوزراء؟ بمعنى ما قيل لهم وفيهم وعنهم وفي مجالسهم من أشعار وقصص ومساجلات ومسامرات وأحاديث.. فلا جناح علينا إذًا أن نتسع بمفهوم أدب الأطفال في تراثنا ليشمل:

أ- القصص الرمزي على ألسنة الحيوانات والطيور فمثل ذلك القصص يصلح للأطفال في كل زمان ومكان.
ب- مراثي الآباء والأمهات لأبنائهم.
ج- شعر الترقيص.
د- مراسلات الآباء والأبناء.
هـ- عتاب الأبناء العاقين.
و- قضية وأد البنات وما ورد فيها من شعر تأييدًا أو تفنيدًا.
ز- تعليم الأطفال.
ح- نوادر المعلمين مع الأطفال، كما في رسالة المعلمين للجاحظ».

ذو القعدة ١٤٣٤هـ
سبتمبر أكتوبر
٢٠١٣م

فتاوى لها تاريخ

عادات المآتم



الشيخ محمود شلتوت

طلب إلى مسلم كريم أن أبين له وللناس حكم الشريعة فيما اعتاده الناس فى المآتم، وعين على وجه الخصوص:

- أولا: حكم قراءة الصلوات ودلائل الخيرات بالأصوات المرتفعة أمام الجنازة.
- وثانيا: حكم ذبح الحيوانات عند خروج الجثة من المنزل أو عند وصولها إلى المقبرة على مشهد من المشيعين.
- وثالثًا: حكم إقامة المأتم ليلة فأكثر على الوجه المعروف الآن فى القرى والمدن.
- ورابعًا: حكم الاجتماع لإعادة التعزية فيما يعرف باسم الخميس الصغير، والخميس الكبير، وباسم الأربعين والمواسم، وباسم الذكرى السنوية من كل عام.
- وخامسا: حكم إعلان الحزن بلبس الملابس السوداء، وحمل شارات الحزن، وما يتبع ذلك من تحريم أهل الميت وأقاربه على أنفسهم بعض الأطعمة.
- وسادسا: حكم ما يفعله بعض الناس باسم إسقاط الصلاة والصوم عن الميت.
- وأخيرا: عن المعنى المقصود من قول النبى ﷺ: «إياكم والنعى فإن النعى عمل الجاهلية».

الإسلام يقر العادات الحسنة وينكر السيئة

وفى الواقع أن الناس اعتادوا أمورًا كثيرة فى المآتم وغير المآتم، ولم يعتمدوا فى أكثرها إلا على مجرد الاستحسان الشخصى أو الطائفي، وأخذت تنتقل من جيل إلى جيل حتى عمت وصارت تقاليد، يأخذها حاضر الناس عن ماضيهم، غير ناظرين فيها إلى أكثر من أنها سنة الآباء والأجداد، ولم يجدوا من ينكر المنكر منها عليهم، إ علها وجدت من يبيحها أو

يستحسنها ويقرونها!! فعلها واعتادها غير المتفقهين، وسايرهم فيها المتفقهون، واحتملوا إثمها وإثم من ابتكرها وفعلها إلى يوم الدين!!

استقرت هذه العادات فى المجتمعات الإسلامية بلونها الديني، حتى ظن غير المسلمين أنها من شئون الإسلام، والإسلام منها بريء وبذلك ألصق بالدين ما ليس منه، واستطاع الزائرون الأجانب أن يتخذوا لها رسومًا شمسية، صوروا بها الإسلام العملى فى بلادهم، تشويهًا للمجتمع الإسلامي، ومسخًا للإسلام ومن هنا عظمت الجريمة وتضاعفت المسئولية ولكن على من تقع؟ ومن عليها يحاسب؟ أعتقد أن الذين تقع عليهم المسئولية، ويحاسبون عليها يعلمون فى قرارة أنفسهم أنهم المسئولون، المحاسبون!

جاء الإسلام وللناس عادات، بعضها حسن طيب مفيد، فأقرها وقواها وبعضها سيئ، خبيث ضار، فأنكرها وحاربها وألغاها. وكان هذا هو شأن الإسلام فى كل ما جد فى ظله من عادات الحسن يقره ويسميه «سنة حسنة»، والسيئ يدفعه ويسميه «سنة سيئة»، وكان شأن القائمين على أحكام الإسلام وبيانها أن يسيروا مع العادات، حسنها وسيئها، على هذا المبدأ العام الذى قرره الإسلام فى التقرير والإنكار. ولكن..!

الأحكام الشرعية

ولمعرفة حكم الشرع فى عادات المآتم، وهو موضوع فتوانا، ينبغى أن يعرف المسلمون أن الحكمة فى تشييع الجنازة، الذى طلبه الشرع وحث عليه، هى الاتعاظ بالموت، واستحضار جلاله الآخذ بالنفوس، القاضى على غطرستها، المذكر بيوم الحساب والجزاء:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾

(آل عمران: ٣٠)

وقد جاء فى ذلك عن النبى ﷺ ما معناه: «اتباع الجنازة يذكر بالآخرة».

الصمت عند الجنازة

١- وتحصيلا لهذه الحكمة السامية طلب الشارع الصمت من المشيعين حتى تخلص العظة إلى النفس، ويقوى التذكر فى القلب، وفى ذلك ما ورد عن الرسول: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة»(١) ومن هنا علم حكم العادة الأولى، وحرم رفع الصوت فى تشييع الجنازة، ولو بالذكر وقراءة القرآن، وطلب الاستغفار للميت. وقد روى أن أحد المشيعين لجنازة على عهد رسول الله رفع صوته بالاستغفار للميت، فقال له الأصحاب

(١) مجمع الزوائد

بمسمع من النبي ﷺ: «لا يغفر الله لك»، وإذا كان رفع الصوت بطلب الاستغفار، وهو دعاء من الحاضرين للميت، بهذه المثابة من الإنكار، واستحقاق صاحبه المقت والتشنيع والدعاء عليه بالحرمان من مغفرة الله، فما بالنا برفع الأصوات بغيره، كالصياح والنياحة والندب وعزف الموسيقى ذات النغمات المحزنة!

وقد نهى النبي ﷺ عن اتباع الجنائز التي معها «رانّة»، والرانة هي المصوتة، أي ذات الصوت، فتشمل بعمومها النائحة والموسيقي والقارئ والذاكر، فكل ذلك أمام الجنازة حرام ومنهي عنه.

وليس من شك في أن هذه المظاهر - فضلا عن أنها تحول دون التذكر والاتعاظ - تثير الأحزان وتضاعف الأسى، وتخلع القلوب، وتأخذ بها عن جميل الصبر، وفضيلة الرضا بقضاء الله.

وقد سمع عمر بن الخطاب مرة ندبا ونياحة، فدخل مكان الصوت، وأخذ «الحاضرين بدرته حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها، وقال لمن معه: «اضرب، فإنها نائحة ولا حرمة لها، إنها لا تبكي لشجوكم، إنها تريق دموعها على أخذ دراهمكم، وإنها تؤذي موتاكم في قبورهم، وأحياءكم في دورهم، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه».

ولا أدري ماذا كان يفعل عمر لو رأى ما نرى ونسمع ما نسمع: في الشوارع، والمقابر، والنوادي، ماشيات، حافيات، راكبات، قد صبغن وجوههن وملابسهن، وغيرن خلق الله؟

الذبح عادة جاهلية

٢- أما الذبح عند خروج الجثة، أو عند وصولها إلى القبر، فهو عادة جاهلية، وقد نهى النبي عنها بقوله: «لا عقر في الإسلام»(٢) وهو بعد ذلك لون من ألوان المباهاة والفخر في موضع ليس محلا للمباهاة والفخر، وللصدقة مجالها في المكان والزمان والأشخاص.

إقامة المآتم

٣- أما إقامة المآتم - ليلة فأكثر على الوجه المعروف من نصب السرادقات، والإنفاق عليها بما يظهر بهجتها - فهي قطعًا إسراف محرم بنص القرآن، وتشتد حرمتها إذا كان وارث الميت قاصرًا، يحمل كل هذه النفقات، أو كان أهل الميت في حاجة إليها، أو كانوا لا يحصلون عليها إلا عن طريق الربا المحرم، ولم تكن التعزية عند مسمى العصور الأولى إلا عند التشييع أو عند المقابلة الأولى لمن يحضر التشييع.

الخميس والأربعون:

٤- ومن هنا، لم يكن معروفا في الإسلام

(٢) سنن أبي داود.

ما يعرف اليوم من خميس صغير أوْ كبير، فضلا عن «الأربعين والمواسم والأعياد» التي يجدد فيها الناس اليوم الأحزان، ويعيدون بها المآتم، ويشغلون بها الناس عن أعمالهم النافعة في الحياة.

لا حداد إلا لامرأة على زوجها

٥- ومما يضحك الثكلى في عادات المآتم إظهار الحزن بالامتناع عن صنع بعض أنواع الأطعمة أو تناولها، وبالملابس السوداء ولو برباط العنق الأسود، وأن يستمر ذلك مدة قد تبلغ سنة كاملة، وقد نهى النبي ﷺ عن استدامة الحزن وإظهاره فوق ثلاثة أيام إلا لامرأة مات عنها زوجها، فجعل لحزنها مدة عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام.

إسقاط الصلاة والصوم

٦- وإذا كان الناس يتصرفون في أعمالهم الخاصة بحكم التعود الموروث، والتقليد المتبع، ويستبيحون لأنفسهم ما يفعلون من عادات ليست إلا مهزلة من مهازل التوارث الفاسد، فمن ذا الذي أباح لهم التصرف في حقوق الله التي أوجبها على ميتهم في حياته ليزكي بها نفسه من صلاة أو صوم، ثم استخف بها وتركها، أو تلهى عنها ومات وهو مطالب بها؟ أتدري ماذا يفعلون؟ يحسبون لها فدية ويقدمونها للفقراء باسم «إسقاط الصلاة أو الصوم»، ثم يعبثون باحتيال مكشوف لا يخفى على أحد من الناس، فضلا عمن أحاط بكل شيء علما، يعبثون فيشترطون على الفقير لكثرة الفدية أن يردها إليهم بطريق الهبة في مقابلة جزء يسير يأخذه منها فعلى فرض مشروعية إسقاط الصلاة والصوم - والواقع أنه لم يرد بها مصدر تشريعي صحيح ولا ضعيف - فهل يعقل أن تكون تلك الحيلة عملا مشروعا يقبله الله ويسقط به عن ميتهم الصلاة والصوم؟! إنه احتيال من نوع احتيال أهل السبت.

النعي مباح ومحظور

٧- أما النعي، بمعنى الإخبار بالموت فقط، فإنه شأن لا بأس به، بل ربما كان مطلوبا، نظرًا لما فيه من مبادرة الناس إلى شهود الجنازة، ومن مساعدة أهل الميت في التجهيز والدفن، ومن التعزية في وقتها، وفيه بعد هذا كله الإعلان بانقطاع معاملته مع الخلق، وانتقاله إلى الخالق، أما النعي بما وراء ذلك - من طواف النساء ليلا أو نهارًا يندبن ويلطمن، وبكلمات الجاهلية، وبعتاب القضاء والقدر، والسخط والتبرم منهما - فهو محرم ومنهي عنه.

أما بعد:

فهذا ما أردت بيانه للناس من أحكام الله في عادات المآتم وأرجو أن يكون لإيمان المؤمنين عمل حازم برد الناس إلى ما يرضى الله ويحفظ عليهم كرامتهم، وينقي دينهم مما غشاه من بدع ومنكرات، ونسأل الله التوفيق.

لا تنسوا الفضل بينكم



لفضيلة الشيخ معوض عوض إبراهيم

الدنيا لا تطيب ولا تزكو إلا بالإيمان بالله وصالح العمل والمؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف ، وفي معنى ذلك قوله صلوات الله عليه " لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وليس من الأخوة في شيء أن تكيد وتمكر وتحسد وتحقد على إنسان والله تعالى يقول :

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

(فاطر :٤٣)

وإذا كان الكيد والتآمر على ابن أمك وأبيك فإن ذلك من الفحش بمكان ، وقد صنع قابيل بأخيه هابيل ما صنع وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا وهم إخوة لكن الله الذي يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ذكر من أمر هؤلاء وأولئك ما سيبقى إلى آخر الزمان عبرة للمعتبرين وذكرى لقوم يعقلون .

وأكرم بالإنسان الذي يؤنس غيره ويأتنس به على أساس من الأخوة الصادقة فهي الوثاق وحبل التآخي بين الإنسان والإنسان وما أكرمها حين تقوم بين الأخ والأخ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق " أخرجه البزار في مسنده

ورحم الله الذي قال :

فتشت في طول البلاد فلم أجد

ذُخرا يدوم كصالح الأعمال

ولقد كان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه أول من آمن برسالة النبي عليه الصلاة والسلام بعد أم المؤمنين خديجة وورقة بن نوفل وأسلم بإسلامه عدد كريم من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، كُني بالصديق ووصفه القرآن الكريم بالصاحب وهو في الغار مع النبي صلى الله عليه وسلم وهما في الطريق إلى الهجرة :

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ

هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

التوبة : ٤٠

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خلّف عليا لينام على فراشه ليصرف نظر قريش عنه وليؤدي أماناتهم إليهم ، ويا عجب كيف يأتمنونه على ذخائر حياتهم ولا يؤمنون بالدين الحق الذي جاءهم به صلوات الله عليه .

أبو بكر الصديق الذي صدّق النبيّ كما أسلفت قبل غيره من الصحابة ثم صدقه في خبر الإسراء والمعراج ، وعندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزل أبي بكر يُخبره أن الله عزوجل قد أذن له بالهجرة إلى المدينة قال له أبو بكر : " الصحبة يا رسول الله ! فقال له : الصحبة يا أبا بكر " وبكى من شدة الفرح ، وعجبت أسماء كيف يبكي أبوها عندما بُشر بصحبته للنبي ولكنها لم تلبث أن ذكرت أن الإنسان قد يبكي من السرور كما يبكي من الفرح .

ولقد قال الرسول صلوات الله عليه وسلم لأبي بن كعب رضي الله عنه : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ " قال وسمّاني لك ؟ قال : " نعم " فبكى .رواه البخاري ومسلم ..

وكان مصعب بن عمير رضوان الله عليه قبل إسلامه موضع حفاوة أمه واهتمامها به طيلة يومه ، فإذا أوى إلى فراشه وضعت أمه قريبا من رأسه كئوس الشراب الطيب ، وصحاف التمر الجنيّ حتى إذا استيقظ خلال ليلته أخذ من ذلك الرزق الطيب ما شاء ، وكان مصعب أندر شباب مكة وأطيبهم حالا وثيابا فلما أسلم منعت عنه أمه ما كان فيه من سعة وترف سعيدا بالإيمان الذي وقر في قلبه ، وكان له قدم صدق عند رسول الله صلوات الله عليه وقبيل الهجرة إلى المدينة ، وبعد أن جاءت الوفود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فبايعته على الدين العظيم كان مصعب سفير الإسلام الأول إلى المدينة يدعو إلى الله ويؤم المسلمين في صلواتهم عبدالله بن أم مكتوم ، وأطوي صفحات لأرى غزوة بدر وأسرى المشركين ومن بينهم أبو عزيز أخو مصعب في يد صحابي فقال أبو عزيز : " أتلك وصاتك يا مصعب بأخيك ؟ فقال له مصعب : " إن آترك أخي دونك "

إنها أخوة الصدق والحق والإيمان الذي لا يَرْجحُ بدونه ميزان .

الصديق قبل الطريق إنه يبدل الوحشة ويُفسح الأمل في بلوغ الغاية عما قريب ، والصدق منجاة كما قالوا ، وما أصدق ما قالوا : " إن صديقك كالرقعة في ثوبك لا تصلحه إلا إذا شابَهْتَه " ، وقالوا : " صديق لك كلما لقيك ذكرك بعيب فيك خير من صديق كلما لقيك وضع في كفك دينارا " وماذا يُجدي الدينار في مثل أيامنا تلك إذا لم يتبدد ما يعيب ويريب .

وتروي كتب الأدب قصة صديقين أُلفت بينهما نُدرة المال وتعذر الأعمال حتى قال أحدهما :

ألا مــــوت يُبـــاع فـأشـتـريـه
فـهـذا الـعـيـش مـا لا خـيـر فيه
ألا رحـم الـمـهـيـمـن كَـفُ حـر
تـصـدق بـالـوفـاء عـلـى أخيه

وكان في ذلك القائل شيء من الحكمة فترك ذلك البلد وضرب في أرض الله عساه يجد من الشدة مخرجا ، ومن الضيق فرجا وبعد فترة من الزمان غشيته أنعم الله وكثر مالـه واتسعت ممتلكاتـه ومضى زميلـه بعد ذلـك في الطريق الـذي يعرف أوله ولا يعـرف منتهـاه ، فإذا به يصل إلـى بلد رأى فيه زراعة وبساتين وسيارات ومظاهر غنى وثـراء عريض وتبيـن له بعد قليـل أن ذلك كلـه لصاحبـه فتقدم منه وانتظـر فراغه من جلسائه فكتب رسالة وأمضاها إليه وفيها :

ألا قـل لـلـوزيـر بـلا احـتـشـام
مـقـال مُـذكـر مـا قـد نـسـيـه
أتـذكـر إذ تـقـول لـيـوم ضيق
ألا مـــوت يُـبـاع فـأشـتـريـه

فلما قـرأ الوزير هذه الرسـالة أقبل عليه بكل إعزاز وقربه وأدناه وسـاق إليه ما ساق من صنوف النعم والعطاء واستحلفه بالله أن يُلم به ويأتيه كلما أمكن .

تـلـك الـمـكـارم لا قـعـبـان مـن لبن
شـيـبـا بـمـاء فـصـارا بـعـدُ أبـوالا

إنهـا الصداقة وذلك هو الصديق الذي لا يوضـع أمامه في كفة الميـزان من لا يعرف حق الأخـوة الحانيـة البانيـة التي قـال الله تعالى فيها :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(الحجرات : ١٠)

وقـد كان مالك بـن نويرة أخـا لأب وأم لمتمـم ابن نويـرة وكان مالك فـي جيوش المسـلمين في عهد أبي بكـر وعمر ولكنه والعيـاذ بـالله ارتـد عـن دينه وأنكـر بعض أركان الإسـلام وقـال عن الـزكاة إنها جزية فرضهـا صاحبكم- يريد النبي عليه الصلاة والسـلام - فقيل له أو ليس صاحبك ؟ وأمر بـه من ضرب عُنُقه ، وكان حزن متمم كبير على أخيه مالك الذي خسـر الدنيا والآخرة وكان كثيرا ما ينشد :

وقـالـوا أتـبـكي كـل قـبـر رأيـتـه
لقبر ثـوى بين الـلـوى فـالـدكـادك
فقلت لهم إن الشجى يبعث الشجى
فـدعـنـي فـهـذا كـلـه قـبـر مـالـك

ولمـا لقي الله شـهيدا زيد بـن الخطاب قال عمر رضـوان الله عليه يا متمم لو كنتُ شـاعرا لقلت فـي أخي زيد مثل مـا قلته في أخيك ، فقال متمـم لأمير المؤمنين عمر " يـا أميـر المؤمنين لو مات أخـي مالك على مثل ما مات عليه أخوك ما بكيته !!!

وبعـد فقد صـدق الذي قـال : " لا أحب أخـي إلا إذا كان لـي صديقـا " وإن الله لمع المتقين .

الإحساس بقيمة النسيان، وبيان أضراره

أ . د / السيد محمد الديب
كلية اللغة العربية بالزقازيق

يخضع الإنسان فى حياته العامة وعباداته الخاصة إلى درجات من روعة التذكر وما له من فضائل، وقيمة النسيان وما له من فوائد.

وتتجلى صفات عباد الرحمن - فى ظلال الخطاب الإسلامى - صعودًا إلى إكرام الله وإحسانه، وابتلاءً وامتحانًا بالنسيان وآثاره، هذه التى يكرمهم الله بها فلا يؤاخذهم عليها، ما دام سلوكهم غير مرتبط بغفلة أثارها الشيطان الرجيم، الذى ينبغى مقاومته، والتصدى له بكل الوسائل الإيمانية المتاحة.

معنى النسيان، وأهميته، وأثره فى تكوين شخصية المؤمن

النسـيان صفة من الصفات التى تدخل فى التكوين الخلقى للإنسـان حسب الاستعداد الفكـري، الـذى يختلف من شـخص لآخر، ويتجلـى فـى عـدم القـدرة علـى استرجاع المعلومـة المطلوبـة فـى الوقت المناسـب ؛ لعـدم قـدرة الإنسـان على ضبط مـا أودع فى ذاكرته ، وذلك راجع إما لضعفها ، وإما لكثرة الشـواغل التى تحيط بالإنسان ، وإما لإهمال وتقصير فى تنمية الذاكرة وتنشيطها ، وذلك من طبائع البشـر فلم يسـم الإنسـان إنسـانًا إلا لكونـه قابلًا للنسـيان ، وضعـف الذاكرة لأسـباب متعـددة ، ويكاد النسـيان يتلاشـى ويضعف فى زمن القوة والنشـاط عند المرء ، فتقـوى فيـه صفـة التذكـر ، وشـدة الوعى ، وكثرة المخزون من المعارف المكتسبة على مر السـنين ، ذلك أن معنى النسيان هو : فقد التذكـر وعـدم إمكانيـة اسـترجاع المعلومة عند الحاجة إليها ، وقد يكون النسـيان مرضًا عضويًا أو نفسـيًا يأخذ اسـم مصطلح علمى كالزهايمـر ، هذا الذى ينبغـى علاجه علاجًا طبيًا مناسـبًا ، ولا عذر للإنسـان فيما يترتب على هذا المرض من آثار .

والتذكر – ابتداء – فضيلة ينبغى للإنسان أن يشكر الله عليها ، إذ يسترجع سجل حياته ودفاتـر أحواله ، فيبحث عمـا فيها من هموم فيصلحها أو جراحات فيداويها ، أو حسـنات فيزيد منها ، أو سيئات فيندم عليها ، ويواصل مسـيرة حياته مع عبادته لربـه ، فينمو إيمانه ويـزداد وعيـه ، وينتقـل بهـذه الفضيلـة من نطـاق توجيه العبادة لله إلـى خير التعامل بها مع البشر .

ويأتى النسـيان قيمة ونعمـة ، ينتصر فيها

المؤمن على أحزانه، التي تولد لديه كبيرة ثم تصغر، وتتضاءل مع مرور الأيام والليالي، ولذلك فإن النسيان من الفضائل التي أنعم الله بها على الإنسان، الذي يجب عليه أن يدرك أن النسيان في كل أحواله لا يليق بالله، وليس من صفاته قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

(مريم: ٦٤)

وللنسيان أسباب كثيرة يرجع بعضها إلى تزاحم المعلومات في ذاكرة الإنسان، وعدم ترتيبها، فضلاً عن الإرهاق الذي يلحق بالجسم، وكثرة المسئوليات، وعدم ربط المعلومات بقرائنها، مما يجعل المعلومة ضعيفة وهشة في أذهان الناس، وعدم الاستعانة بالكتابة، التي تسهم في ترسيخ المعلومة في ذهن كاتبها. كما تعد مقاومة النسيان مطلبًا مهمًا في حياة المؤمن؛ ذلك أن التحصن بالتقوى والابتعاد عن المعاصي، والحياة في ظلال الإيمان تحمي ذاكرة الإنسان.

وقد أقر ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه، وذلك من خلال نصيحة أستاذه وكيع ابن الجراح له:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأفهمني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

كما أن من صفات رسول الله ﷺ: الفطانة والبلاغة، والفهم، والإدراك، إذ أنه لا ينسى، وإذا تناسى فيكون لحكمة تشريعية تتناسب مع طبائع الدعوة والتبليغ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في مخاطبته:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾

(الأعلى: ٦)

أما النسيان في حق البشر فأمر مختلف وذو أثر متغير في الحياة.

التسامح وعدم المؤاخذة على النسيان

النسيان طبيعة إنسانية، لا يلام المرء عليها، ما دامت غير خاضعة للتعمد والغفلة والتكاسل، وإذا لم ينتقل إلى حالة من التطبع فيصير ذنبًا وإثمًا، تختلف درجاته، حسب مستوى التصور الحاصل من شخص لآخر.

وقد تجلى إنعام الله على عباده، وذلك بعدم مؤاخذتهم على النسيان، الحاصل منهم بلا قصد في العبادات، التي تستلزم الوعي والإدراك فيها، حيث يتجلى فضل الله وكرمه في التسامح مع الناسي في أداء صلاته، ووجب عليه - جبرًا لذلك - أن يجتهد في استكمال ما تحقق غير تام، ثم يسجد في نهاية الصلاة سجدتين للسهو، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحدكم إذا قام يصلي؛ جاءه الشيطان فلبس عليه؛ حتى لا يدرى كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين؛ وهو جالس"(١).

وفي حق الصيام، قال ﷺ: "إذا كان أحدكم صائما، فنسي فأكل وشرب، فليتم صومه"(٢).

(١) رواه البخاري - فتح الباري جـ ٣، ص١٢٥، "حديث ١٢٣٢"

(٢) رواه ابن حنبل

ومن أدعية القرآن في عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان، قول الله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

(البقرة: ٢٨٦)

ويأتي البيان النبوي متواكبًا مع القرآن الكريم في تأكيد التسامح الإلهي مع أمة الإسلام، ذلك ما ذكره الرسول ﷺ في قوله: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان"(٣).

وذكر القرآن الكريم في عرض قصة سيدنا موسى دعاءه بالرغبة في التجاوز عن النسيان قال تعالى:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾

(الكهف: ٧٣)

كما ينبغي العلم بأن النسيان له فوائد وإيجابيات ينبغي للمسلم أن يكون على بصيرة منها، وذلك كالأحقاد والضغائن وبعض أخطاء الآخرين في حق الإنسان الذي يجب عليه أن يتحلى بالعفو والتسامح والتناسي، حتى تستقيم أمور الحياة.

٣- مضار النسيان في حياة الإنسان

إن أخطر ما يكون عليه النسيان هو حدوثه، من خلال سيطرة الشيطان على الإنسان، فيغيب ذهنه ويتشتت فكره، ويغفل عن ذكر الله بدرجات مختلفة، وأخف ما يكون ذلك في حق الأنبياء، كسيدنا آدم إذ قال الله تعالى في شأنه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

(طه: ١١٥)

وكان موسى وفتاه قد نسيا الحوت، وهو الطعام اللازم لهما، وجاء أوانه فتنبه الفتى حسبما ذكره القرآن الكريم على لسانه:

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾

(الكهف: ٦٣)

ويسيطر الشيطان على الإنسان فينسى ما يجب عليه أن ينتبه له، وهو ذكر الله تعالى، قال:

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾

(المجادلة: ١٩).

وعندما تغيب المعالم البارزة في حياة المرء، ويمعن في تخبطه ويضل عن سبيله فإن سفينة إبحاره تحتاج إلى رفع شراع الإيمان، الذي يتمثل في ذكر الله تعالى، حيث يعد الغياب عنه ضلالا مبينا وإثما كبيرًا، ولا علاج له إلا بذكر الله، الذي أكده القرآن في الكثير من الآيات منها قوله تعالى:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

(الكهف: ٢٤).

ومن مخاطر هذه الغفلة نسيان القرآن الكريم - دستور الإسلام، وأعظم المعجزات، وأخلد المقدسات - الذي يجب على المؤمن أن يتعهده بالتلاوة والفهم، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "عرضت عليَّ ذنوب أمتي فلم

(٣) رواه ابن ماجه

أو ذنبًا أعظم من سورة من القرآن، أو آية أوتيها رجل ثم نسيها"(٤).

ومن دعاء ختم القرآن هذه العبارة القيمة: "اللهم ذكرني منه ما نسيت" وقد يكون النسيان سببًا دافعًا للإنسان؛ لكي يحرص على الإكثار من تلاوة القرآن الكريم؛ خوفًا من تفلته منه، وعدم السيطرة عليه؛ لأن النسيان صفة من صفات الإنسان التي تقوى وتضعف؛ خضوعًا لاعتبارات متعددة.

وأما النسيان في حق النبي ﷺ فهو جائز في الأمور العادية والحياتية كما يمكن وقوعه منه ﷺ في الأمور المأمور بتبليغها بعد أن يكون قد تم الإبلاغ عنها.

ويجب على الإنسان أن يكون حريصًا على إصلاح بدنه ومعالجة أدوائه وتنمية ذاكرته بالنوم المستحق للجسم والتغذية المناسبة، وممارسة الرياضة البدنية والذهنية - إن تيسر ذلك - في حدود استطاعته، والاستشفاء من الأمراض التي تؤثر في درجة تركيزه وانتباهه.

ولا تتوقف خطورة النسيان على العبادات الواجبة وإنما تمتد إلى مجال العلاقات الإنسانية التي يجب صيانتها ورعايتها فيتذكر المؤمن ما عليه من واجبات تجاه الآخرين بما فيها من كرم ومودة وفضل وإحسان قال تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

ويتجسد التناقض السلوكي مع بعض الناس، الذين يأمرون الآخرين بالبر، ويحضونهم عليه ثم ينسون أنفسهم، ويغفلون عما يجب عليهم بصورة تكشف عن كسل في صيانة إيمانهم، وذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

(البقرة: ٤٤).

فالاستفهام في الآية معناه النفي والإنكار لما يمكن أن يقع من هذا الصنف من الناس.

فالنسيان نعمة ترتبط بحياة الإنسان، حيث تتلاشى به الأحزان والهموم والمشكلات، في ظل العلاقات الإنسانية، التي لو بقي المؤمن واعيًا ومتذكرًا لكل ما لحق به لعاش في عداوات وهموم، لا أول لها ولا آخر.

ويأتي النسيان إهمالاً وتغافلاً لا يليق بالمؤمن، الذي يتحتم عليه التذكر الفاعل للعبادة، ولسائر المتطلبات المنوطة به في الدين والحياة.

***

(٤) رواه الترمذي وأبو داود - وقد ورد في هامش التاج الجامع للأصول جـ٤ ص٨ قوله: "لا يليق من نسي شيئًا من القرآن أن يقول "نسيت كذا وكذا"؛ لأن النسيان هو الترك" ولا يليق هذا بالقرآن"، بل الأدب أن يقول: أُنسيت كذا وكذا.

تأملات في السيرة

غزوة الخندق «٣»

لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

لما فرغ النبي ﷺ من حفر الخندق استخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسايل هي وأحابيشها كما أقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بجبل أحد وأصبح الخندق حاجزاً بين النبي ﷺ وبين قريش. ويروى أن عدو الله حيي بن أخطب خرج حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عهدهم وكان قد عاهد رسول الله ﷺ . وما زال به حيي حتى نقض عهده فعظم البلاء على المسلمين وفي ذلك انزل الله سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

(الأحزاب: ١٠-١١)

وهناك كانت طائفة من المنافقين أظهروا الشماتة في رسول الله وصحبه وبدأت طوائف منهم تثبط في عزم المسلمين وتفت من عضدهم وتقول:

﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

(الأحزاب: ١٣)

وعلى عكس هذا زاد هذا الموقف المؤمنين صلابة وقوة، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٢٢)

وكان الرسول ﷺ يثبت المؤمنين ويعدهم النصر وكان الرسول ﷺ عندما اشتكى المسلمون من صخرة عرضت لهم في الخندق فجاء النبي ﷺ وطلب إداوة فيها ماء ونفث فيها ثم قال بسم الله ورشها على الصخرة وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت منها برقة خرج منها نور من قبل اليمن فكبر رسول الله ﷺ وقال أعطيت مفاتيح اليمن وإني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر وبرق منها برقة خرج منها نور من قبل الروم فكبر رسول الله ﷺ وقال أعطيت مفاتيح الشام وإني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة ثم ضرب ضربة فقطع بقية الصخرة وبرق برقة خرج منها نور من قبل فارس فكبر رسول الله ﷺ وقال أعطيت مفاتيح فارس وإني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها

أنياب الكلاب من مكاني هذا وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة فأبشروا بالنصر واستبشر المسلمون وقالوا «الحمد لله موعد صادق» وقال أحد المنافقين ساخراً لما رأى موقف المسلمين ظاهره فيه شدة وتكالب من المشركين واليهود «كان محمدٌ يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأموالهم ننفقها في سبيل الله وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

واشتد الأمرُ على المسلمين وكان أكثرهم إحساساً بالموقف رغم يقينه بالنصر هو سيدنا رسول الله ﷺ وكما تروى السيدة عائشة رضى الله عنها تقول: كان رسول الله ﷺ يختلف -يعني يتردد كثيراً- إلى ثلمة في الخندق يحرسها -وكان الليل شديد البرد- حتى إذا آذاه البرد جائني فأدفأته في حضني فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة. ويقول ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها فبينما رسول الله ﷺ قد دفئ وهو يقول يا ليت رجل صالح يحرس هذه الثلمة الليلة إذ سمع صوت السلاح فقال من هذا؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا سعدٌ يا رسول الله فقال ﷺ عليك هذه الثلمة فاحرسها.

ولم تكن ثقة النبي ﷺ في النصر ورغم كل هذه الأجواء المزعجة عبثاً إنما كانت هذه الثقة وليدة صلته ﷺ القوية بالله فرغم هذا الجو المزعج المقلق كان ﷺ يستدر عطف ربه ونصره بالتضرع والصلاة إليه. تروى أم سلمة رضى الله عنها فتقول: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق وكنا في برد شديد فإني لأنظر إليه ﷺ فقام وصلى ما شاء الله أن يصلى ثم خرج فنظر ساعة سمعته يقول وهو يناجي ربه «هذه خيل المشركين تطيف بالخندق» كأنه يرجو ربه ثم نادى عباد بن بشر فقال: يا عباد قال عباد: نعم يا رسول الله لبيك قال: أمعك أحد؟ قال: نعم أنا في نفر من أصحابي حول قبتك قال: انطلق في أصحابك فطف بالخندق فهذه خيل المشركين تطوف بكم.

أرأيت إلى يقظة القائد وحرصه على جنوده ومعركته -يطمعون أن يصيبوا منكم غرة- ثم دعا ﷺ وقال: اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم فلا يغلبهم أحدٌ غيرك.. فخرج عباد في أصحابه في ظل هذه الدعوة يدفعون أذى المشركين فإذا بأبي سفيان بن حرب في خيل المشركين يطوفون بمضيق من الخندق وقد رآهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنبل فردوهم وانكشفوا منهزمين. يقول عباد: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فوجدته قائمٌ يصلى فأخبرته. تقول أم سلمة: رحم الله عباد بن بشر كان الزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبته يحرسها ولما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ انفتحت بذلك جبهات متعددة في مواجهة المسلمين.

وليس أخطر على أي جيش ولا أشد على أي قائد من أن يتنازع جيشه وتتوزع قواه وتتناثر قوته بين عدة جبهات وهذا هو الوصف الدقيق لحال المسلمين كما وصفه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

(الأحزاب: ١١)

فرأى رسول الله ﷺ أن يسد جبهة من هذه الجبهات المفتحة وأن يؤمّن جيشه من ناحية من النواحي فأرسل إلى عُيينه بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وعرض عليهما ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما فقال بل تعطينا نصف تمر المدينة فأبى رسول الله ﷺ إلا الثلث فرضيا بذلك.

فأمر النبي ﷺ بإحضار الصحيفة والدواه وعثمان بن عفان وهو يريد أن يكتب الصلح فأقبل أسيد بن حضير ومعه رُمحُهُ وهو لا يدري بما جرى ورأى عُيينه بن الحصن مادّاً رجليه بين يدي رسول الله ﷺ فقال له اقبض رجليك يا عين الهجرس اتمدها بين يدي رسول الله ﷺ والله لولا رسول الله ﷺ لأنفذت خصيتيك بالرمح ثم أقبل على رسول الله ﷺ وقال كلاماً حازماً رائعاً مجيداً: يا رسول الله إن كان أمر من السماء فامض له وإن كان غير ذلك والله لا نعطيهم إلا السيف متى طمعوا بهذا منا؟ فسكت رسول الله ﷺ فدعى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما في ذلك وأخبرهما الخبر فقالا يا رسول الله إن كان الأمر من السماء فامض له؟ وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فامض له سمعاً وطاعة؟ وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف وأخذ سعد بن معاذ الكتاب وقال رسول الله ﷺ إني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحده وكالبوكم من كل جانب وأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله تعالى ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! مالنا بهذا من حاجه والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ أنت وذاك.

قد يقول قائل لماذا لم يشاور النبي ﷺ صحابته في ما دار بينه وبين غطفان ألم يقل سبحانه وتعالى له وشاورهم في الأمر فلماذا لم يشاور؟ كثير من الناس يعالج أمور البشر والحياة كما يعاملون دمى الشطرنج كأن البشر آلات ليس لها إحساس وكأن الحوادث متشابهة كما قضبان السكك الحديدية لكن دون شك الأمر ليس كذلك. حكمة القيادة وحصافة الزعامة أن تتصرف تبعاً للمواقف والحوادث لا طبقاً لقانون جامد مسبق. قل لي بربك ما هي جدوى المشاورة وقد وصف الله سبحانه وتعالى الموقف بهذا التعبير المهذب الجاد المعجز:

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

(الأحزاب: ١٠)

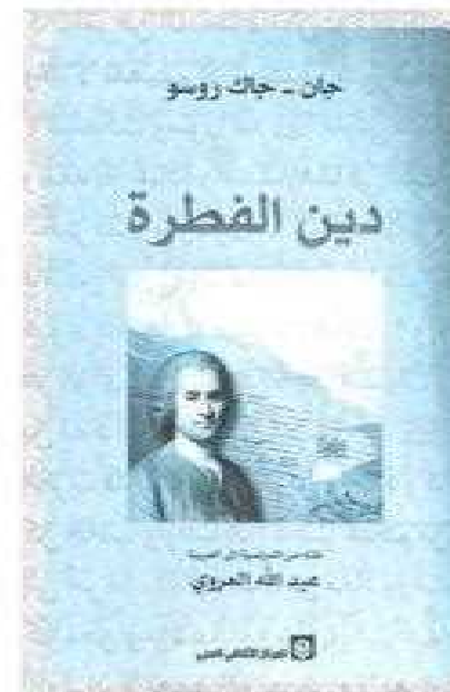
قل لي بربك ما هي جدوى المشاورة وقد زاغت الأبصار فما عادت العيون تستقر في مقلها حتى لا تكاد تستقر على رؤية وكادت القلوب أن تقفز من الأفواه فما عادت تستقر في مكانها وها هي تكاد تقفز كم حناجرها ثم كما قلت هذا التعبير المهذب الحاد المزعج ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ الذي لا يقوى اللسان على النطق بمضمونه ومحتواه. هل من الممكن أن تجدي المشاورة؟ أو أن يهتدي رأي إلى صواب مرجو؟ أو قول فيه السلامة أو الرسو إلى مرفأ آمن؟ أغلب الظن أو قل إن اليقين كله أنك لن تسمع إلا وهناً في أصوات أو خطلاً في الرأي أو صدى كلمات طائشة لا تحمل المعنى وكما يقول المثل العربي الصائب (نسمع جعجعة ولا نرى طحناً) قل وأنت على صواب ويقين أن القائد العظيم ﷺ المبعوث رحمة للعالمين علم أن المشورة لا تجدي في هذا الموقف الرهيب ولن يصل بها إلى صواب مرجو ورأي ناقع فعمد النبي ﷺ إلى ما يثير همة الرجال وعزم الأبطال وما يشعل مصباح الأمل في عزائم الجيش فكان ما كان مما أوصل إلى نتيجة مرجوة.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

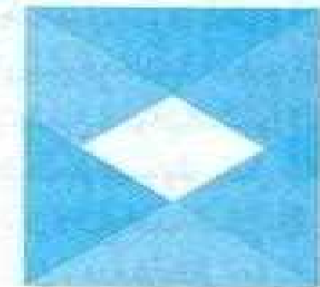
تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

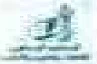


تتعدد أهمية كتاب "دين الفطرة" لجان جاك روسو والصادر عن المركز الثقافي العربي بترجمة المفكر العربي البارز عبد الله العروى فهو من ناحية يسلط الضوء على الفكر الغربي في القرن الثامن عشر وهي اللحظة التي يصفها المترجم في مقدمة الكتاب بأنها لحظة الاقتراب الوحيدة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي ومن ثم يمكن اكتشاف التأثير الحقيقي للفكر الإسلامي في الفكر الغربي.

كذلك يوضح الكتاب مكانة "الدين" لدى رموز التنوير الغربي قبل أن تسيطر النظرة المادية المعادية للدين على الفكر التنويري فضلا في "دين الفطرة" يلاحظ القارئ أو الباحث أهمية "الدين" والمعتقد لدى روسو فضلا عن هجمته الشرسة على النظرة المادية المنكرة للدين والرافضة لوجود إله.

علل العروى ترجمته لـ "عقيدة قس من جبال السافوا" - وهذا هو العنوان الأصلي للكتاب - بقوله: "المفيد بالنسبة لنا هو القيام بتجربة ذهنية تساعدنا في آن على فهم كتاب روسو وكتابات إسلامية شبيهة به" "الديانة التي لا تقبل سوى رسالة واحدة هي الأقدم وتبدو الأوثق - يقصد اليهودية - الديانة التي تقبل ثلاث رسالات هي الخاتمة وتبدو الأكثر اعتدالا واتساقا - يقصد الإسلام - التي تقول برسالتين واقعة الثالثة قد تكون الأفضل لكنها تصدم البديهة وتناقض في معتقدها واضح لكل ناظر - . بهذه النتيجة خرج روسو من مقارنته بين الأديان السماوية الثلاثة



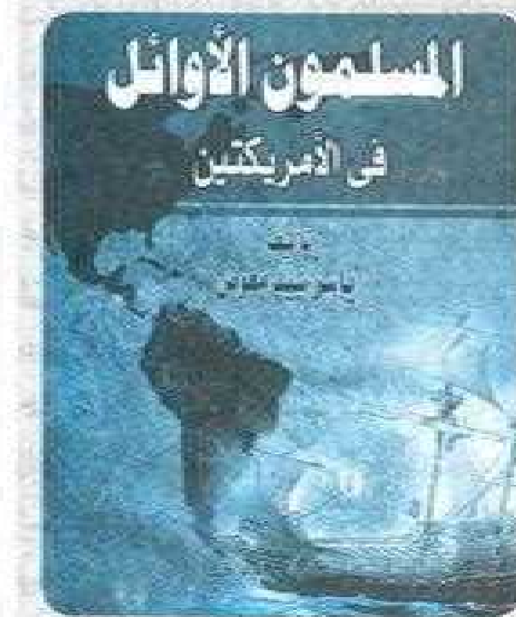


"ينطلق المؤلف ليحكي قصة الحضارة البشرية بدءا من قدماء المصريين ومرورا بالسومريين والبابليين والآشوريين ومن ثم يستعرض كل الحضارات التي تزامنت مع هذه الحضارات الأولية الغابرة أو توالت بعدها" هذه خطة سير كتاب "مختصر تاريخ العالم" الصادر عن عالم المعرفة الكويتي لمؤلفه أي إتش غومبريتش بترجمة د. ابتهال الخطيب ومراجعة د. عبد الله هدية. تكشف المترجمة في مقدمتها جانبا مهما في الكتاب وهو "يلقن المؤلف قارئه الصغير دروسا أخلاقية رفيعة مشيرا إلى شرور البشرية وخيرها مستعرضا التقلبات التاريخية بين أزمنة الإنجازات والابتكارات البشرية وبين تلك الغارقة في الحروب والصراعات الدموية"



يسرد كتاب "بين الدين و العلم" تاريخ الصراع بين الدين والعلم في القرون الوسطى في علوم الفلك والجغرافيا ونظرية النشوء....

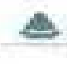
الكتاب الذي أعيدت طباعته في الهيئة المصرية العامة للكتاب من تأليف أندرو ديكسون وايت وترجمة المفكر المصري الراحل إسماعيل مظهر ... الكتاب رغم رصده لمعاناة العلماء في العصور الوسطى الغربية إلا أن المقدمة التي كتبها مظهر حول علاقة الدين بالعلم تكاد تنسى أهميتها مادة الكتاب نفسه.. نقرأ من هذه المقدمة : "إذا كانت حقائق التحليل النفسي والعقلي تدلنا على أنه لا يمكن أن يقوم صراع بين الدين والعلم لأن هذا مستحيل فطرة واجتماعا" ثم يمضي : "لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت في القرون الوسطى وبين أحضان النصرانية فإنك لا تعثر في تاريخ الأديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصراني في قيامها في وجه العلم أزمانا طوالا بل قرونا متعاقبة والسبب في هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة في أن العلم لا يجب مطلقا أن ينشر بشيء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الأسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين ... في الواقع الخصومة كانت بين اللاهوت والعلم وليس بين الدين والعلم"



يرصد ياسر سيد معوض في كتابه "المسلمون الأوائل في الأمريكتين" الصادر عن مكتبة مدبولي، الوجود الإسلامي في الأمريكتين منذ الكشوف الجغرافية وبدء التكالب على شعوب وأراضي القارة الأفريقية ورحلة الأطلنطي التي تم من خلالها نقل ملايين الإفريقيين إلى الأمريكتين ومعاناتهم في هذا العالم الجديد الذي تم بناؤه فوق أكتافهم.

يبدأ الكتاب بتتبع الإمبراطوريات والممالك الإسلامية غرب إفريقيا التي قام المستعمرون بنقل أهلها كعبيد - أغلبهم كانوا مسلمين - ومن ثم يحاول المؤلف في هذا الجزء التأكيد على ثراء أهل هذه الممالك ودورهم الحضاري فاضحا الصورة التي رسمها الاستعمار على أن أهل هذه المناطق كانوا يعيشون حياة بهيمية وليسوا بشرا ثم يقدم المؤلف صورة عن المسلمين الأوائل في الأمريكتين وأنشطتهم ومشاركتهم في هذه البلدان.





أعادت مكتبة الأسرة أخيرا نشر "فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية" هي نص رسالة دكتوراة أعدها الفقيه الدستوري الراحل و الأهم د. عبد الرزاق السنهوري في فرنسا عن إقامة دولة إسلامية موحدة وبتعبير د. توفيق الشاوي مقدم ومراجع الكتاب "لقد قدم السنهوري للفقه والقانون فكرة جديدة تمكن العالم الاسلامي من المحافظة على وحدة الأمة رغم التجزئة الاستعمارية التي فرضت على شعوبها والتي أدت إلى بقاء أغلبها تحت الحكم الاستعماري وفرضت على الأقطار القليلة التي حافظت على استقلالها أن تأخذ دولها الناشئة طابع الحكم الوطني أو القومي الذي يتجاهل الوحدة الاسلامية التي سادت في عهود الخلافة التاريخية.

الشيخ عبدالعزيز جاويش: رائد الإصلاح والعمل الوطني



بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود

-١-

يحكي زكي مبارك أنه دخل على الشيخ عبدالعزيز جاويش فوجد إنسانًا منزويًا في إحدى نواحي مكتبه، والشيخ غضبان يتطاير الشرر من عينيه، وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس صارخًا: " من يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون ألا يزور أوروبا إلا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية؟ إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا في قليل من الأحوال، فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وفي أدب النفس؟ وما الذي يبهرك في الفتاة الأوروبية حتى تنسى بها بنت وطنك؟ ومتى يصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن، وقد حرمكم الله نعمة الوطنية؟ ".

وخرج الشاب وهو آسف، وكانت لحظة صمت ترهمت فيها عينى الشيخ جاويش مغرورقتين بالدمع، فطلب فنجان قهوة ثم تكلف الابتسام وقال: " لا تؤاخذني، فذاك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي وما كنت أحب أن ينسلخ عن وطنه بالزواج من امرأة أجنبية " (انظر: محمد رجب البيومي، النهضة الوطنية في سير أعلامها المعاصرين، ط١، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ١ / ٦٨).

هذه القصة تقدم ملمحًا مهما يفسر إيمان الشيخ عبدالعزيز جاويش بوطنه واعتزازه به، ورفضه أن ينسلخ عنه أبناؤه ولو من خلال الزواج بالفتيات الأجنبيات، كانت ظاهرة الزواج بالأجنبيات في مطلع القرن العشرين محدودة نسبيًا، فكيف لو

كان الشيخ جاويش يعيش بيننا الآن؟

إن الشيخ جاويش نموذج فريد من نماذج الوطنية والدعوة إلى الإسلام، أدى دوره في زمنه بهمة واقتدار، ورفض أن يهادن أعداء الدين والحرية، أو يقبل بالاستبداد أو الاحتلال.

احتلت بريطانيا مصر سنة (١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م) بعد فشل الثورة العرابية والقبض على زعماء الثورة ومحاكماتهم، وبسطت دولة الاحتلال سيطرتها المالية والإدارية على كل مفاصل الوطن، ومدت نفوذها إلى كل شيء، بعد أن ألغت الجيش الوطني، ووضعت على رأس الشرطة ضابطا إنجليزيا، وألغت الدستور والمجلس الوطني، ووضعت في كل وزارة مستشارًا إنجليزيًا يصرفها كيفما شاء.. وأصبح اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني بيده زمام الأمور في مصر، وكان رجلا ماكرا يسعى لتكريس الاحتلال وصنع أجيال جديدة مقطوعة الصلة عن تراثها وماضيها، وقطع في ذلك أشواطًا بعيدة.

بيد أن الأمة لم تقبل بذلك الوضع المذل المهين، فقد كان حرصها على كرامتها وعزتها واستقلالها وحريتها أكبر من سيف المحتل وجبروته، وإسلامها وعروبتها وإباؤها تحرك فيها نخوة المواجهة والرفض لما يفرضه عليها الغزاة المحتلون، وكان تيار اليقظة الإسلامية الذي يحمل لواء الانتماء إلى الوطن والمقاومة والجهاد يجرى هوينا بصوت قوى رخطًا واثقة يهز النفوس هزًا ويبعث الحياة في الأجسام الواهنة ويحرك العقول الجامدة كي تستنهض وتفيق، وكان يقود هذا التيار جيل من الزعماء المجاهدين في مقدمتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد وجدي، ومحمد رشيد رضا، وعلي الغاياتي، وعبدالعزيز جاويش.

تصاعدت روح المقاومة والجهاد بعد احتلال إنجلترا لمصر في كل المجالات سواءً في السياسة أو الخطابة أو الشعر والأدب، وظهر الشيخ عبدالعزيز جاويش عضوًا بارزًا في سياق المقاومة والجهاد، عبر الكلمة المخلصة القوية، فإذا تحدثت عن أدب ذلك العصر وجدته في مقدمة أدبائه، وإذا تحدثت عن العلم والعلماء رأيته في الذروة، وإذا تحدثت عن التربية والتعليم ألفيته المصلح الكبير، وإذا ذكرت المضحّين في سبيل الوطنية وجدته أكبر المضحين، وإذا تحدثت عن الإرشاد الاجتماعي وجدته من ذوى الآراء الناضجة، وإذا تحدثت عن المضطهدين في أوطانهم كان أوضح عنوان لهذا الاضطهاد.

ثم إن الرجل لم يكن مرتبطًا بالكلمة وحدها في مجال المقاومة والجهاد، ولكنه ارتبط بالعمل على الأرض من خلال السياسة الحزبية، فقد تعرف على الزعيم محمد فريد في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، الذي عرّفه بدوره بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية والإسلامية.

إذا من سنة ١٩٠٥ انخرط الشيخ عبدالعزيز جاويش في الحركة الوطنية في

مصر مع أنه تونسي الأصل، فالدفاع عن قضايا المسلمين والإسلام ليس قاصرًا على جنسية دون أخرى، ولا على وطن دون سواه. الدفاع عن الإسلام واجب على كل المسلمين في كل مكان.

وقيل إن الحزب الوطني في ذلك الوقت قد أنشأ عدداً كبيرًا من الجمعيات السرية لمقاومة الانجليز والإعداد لتفجير الثورة الشاملة، وقد لعب الشيخ جاويش دوراً كبيراً مع كل من محمد فريد وإبراهيم الورداني في هذا الصدد كما يقول محمد مورو في مقال له. وفي محاولة من الحزب الوطني للتغطية على الجمعيات السرية، قام الشيخ عبدالعزيز جاويش بإنشاء عدد من الجمعيات العلنية، ليستقطب إليها اهتمام البوليس السياسي الذي تم إنشاؤه خصيصًا لمتابعة الجمعيات السرية، ولتكون غطاء للعمل السري في الوقت نفسه، فأسس الشيخ عبدالعزيز جاويش جمعية "التشجيع على التعليم الحر" وجمعية "حصن اليتامى" وجمعية "الإخلاص الوطنية"، كما قام الشيخ عبدالعزيز جاويش أيضًا بتأليف كتاب عن النظام الإيطالي للفوضويين ونظام للشفرة للتراسل السري في سبتمبر ١٩١٠، وإن كان الشيخ جاويش قد نفى موضوع الجمعيات السرية جملة وتفصيلاً.

كانت سلطات الاحتلال تعدّ الشيخ "عبدالعزيز جاويش" أكثر الجماعة خطرًا وتعصبًا، ووصفته سلطات الاحتلال بأنه داعية سيئ الشهرة، وأن حبسه من قبل لم يقلم أظفاره، وأنه يشكل تهديدًا مستمرًا للنظام العام والأمن العام، وأنه يدبر المؤامرات لتحريض الطلبة والعمال والفلاحين، وأنه يتمتع بجملة من الميزات تجعل منه ثوريا خطيرًا بسبب تعليمه وذكائه وموهبته كاتبا وخطيبا، وأنه ليس من الصعب على داهية مثله أن يقوم بأية أعمال ضارة، ويظل بمنأى عن طائلة القانون.

خاض الرجل العمل في ميادين عديدة: التعليم والدعوة والإصلاح والسياسة والصحافة، وتعرض للمحاكمات والنفي والغربة، وشارك في الدفاع عن الأشقاء العرب المظلومين كما حدث في مشاركته لدعم ثوار ليبيا، كما كانت مشاعره مع دولة الخلافة والتعاطف مع الأشقاء الأتراك.

لقد اتهم بالدعوة إلى العثمانية والخلافة الجامعة الإسلامية ،وقد صحح ذلك بقوله: "لو كان الذين رموني بهذه التهمة ممن يعقلون لعرفوا أن الشرق برمته كتلة واحدة لا يسلم منه جزء إلا بتماسكه هو وغيره ولا يمكن لأمة مهما بلغ عددها أن تفوز إلا إذا اعتصمت بأختها المشاركة لها في خصائصها" (أنور الجندي، عبدالعزيز جاويش رائد من رواد التربية والصحافة والاجتماع ،الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧).

كان الخلاف بينه وبين معاصريه أن الناس كانوا تابعين لجهة ما، إما القصر أو الإنجليز أما هو فلم يكن تابعا لأحد، غير معتمد على أحد ؛ وكان هذا غريبا ومستغربا ولا يتقبله الناس ببساطة "(السابق، ص ٧).

لقد رفض الوظيفة الحكومية ورفض النيشان الحكومي، وقال: "إن الذي يحمل وسام الشعب الذي أهدته إليه الأمة بعد خروجه من السجن لا يتسع صدره لوسام غيره"، كما رفض تقبيل يد الخليفة العثماني، ورفض أن يرسل من سجنه خطاب اعتذار للإفراج عنه. وكان في الحزب الوطني رئيسا لتحرير اللواء أو العلم أو الشعب، ولكن زعامته ومكانته في العالم الاسلامي قائدا ومصلحا.. كانت بلا حدود (راجع: السابق، ص ٨).

لذا حظيت شخصيته باهتمام كبير من الكتاب والباحثين حتى يومنا هذا بوصفه شخصية مهمة ومؤثرة في تاريخنا المعاصر، ومما كتب عنه الدراسات والموضوعات التالية التي تناولته في ثنايا المعاجم وغيرها:

١ - أنور الجندي، عبدالعزيز جاويش: من رواد التربية والصحافة والاجتماع، سلسلة أعلام العرب، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت.

٢ - حسن الشيخة. عبدالعزيز جاويش، القاهرة: المؤسسة العربية للطباعة والنشر، سلسلة الألف كتاب - رقم ٣٥٧، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

٣ - حسن الشيخة. أقلام ثائرة، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، المكتبة الثقافية، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٤ - محمد خير رمضان يوسف. معجم المؤلفين المعاصرين، الجزء الأول، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥ - صلاح زكي أحمد. أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦ - عباس محمود العقاد. رجال عرفتهم. القاهرة: ط ٣، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.

٧ - محمد رجب البيومي، النهضة الوطنية في سير أعلامها المعاصرين (٥ أجزاء)، ط١، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٨ - خير الدين الزركلي. الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٩ - عمر رضا كحالة. معجم المؤلفين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، الجزء الخامس.

١٠ - أنور الجندي: تاريخ الصحافة الإسلامية، القاهرة: دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١ - أنور الجندي: أعلام وأقلام- دار نهضة مصر للطبع والنشر- القاهرة - بدون تاريخ.

١٢ - أنور حجازي: عمالقة ورواد- الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة - بدون تاريخ.


عبدالعزيز جاويش

من تراث الهلال

عالمية الدعوة الإسلامية

عاطف مصطفى

صدر عدد مايو من مجلة الهلال والذى صادف يوم الخامس عشر من شهر رمضان ١٤٠٨ هـ وحرصت على تقديم جزء خاص يعد بمثابة مائدة ثقافية لفكر كبار المثقفين وإبداعاتهم، خاصة أن هذا الشهر الفضيل يعد موسمًا دينيًا أصيلاً، منذ نزل القرآن الكريم على النبى الأمين قبل ١٤٣٤ عامًا.

كان من أبرز من شاركوا في كتابته الدكتور محمد رجب البيومى والدكتور محمد عمارة والدكتور الطاهر أحمد مكى والأستاذ عبدالرحمن شكرى والدكتورة نعمات أحمد فؤاد، والأستاذ أنور الجندي.

ونتوقف عند مقال «عالمية الدعوة الإسلامية تدخل مرحلة جديدة» للمؤرخ أنور الجندى والذى قال فى بدايته: تدخل الدعوة الإسلامية فى نهاية العقد الأول من القرن الخامس عشر مرحلة جديدة قوامها تصحيح المسيرة وتحريرها من العقبات والمعوقات والأشواك التى تعترض طريقها، سواء من ناحية الجمود الذى أصابها فى المرحلة السابقة، أو من جراء محاولات التشويه والتزييف التى قامت بها قوى الاستشراق والتبشير، على مدى أكثر من قرن من الزمان، فى سبيل خدمة النفوذ الأجنبى وتثبيت قبضته وإحكامها فى احتواء عالم الإسلام، عن طريق إخضاعه واحتوائه فى دائرة الفكر البشرى والعالمى والأممي، وعدم تمكينه من تحقيق انطلاقته الحقيقية السمحاء، وقد تزايدت هذه المحاولة فى خلال المرحلة الجديدة التى وصفت بالصحوة الإسلامية.

تصحيح مفهوم الإسلام

ويتحدث عن حركة تصحيح مسيرة الدعوة الإسلامية ويحددها فى أربع قنوات متصلة متكاملة.

القناة الأولي: تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه منهاجًا جامعًا يضم العقيدة والنظام، ويقدم منظومة كاملة لمختلف جوانب الاجتماع والسياسة والاقتصاد.

القناة الثانية: تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه دينًا عالميًا خاتمًا، جاء خاتمًا للرسالات السماوية والبشرية كافة، منذ ظهوره بالنبوة الخاتمة لمحمد ﷺ ونزول القرآن.

القناة الثالثة: تصحيح إسلام المسلمين الجدد الداخلين فيه فى عالم الغرب وحمايتهم من خطر الاحتواء حول مذاهب باطنية أو فلسفية صوفية أو غيرها مما لا يتحقق معه إبلاغهم رسالة التوحيد الخالص.

القناة الرابعة: تصحيح مفهوم علاقة الإسلام بالأديان المنزلة من حيث إنها جميعًا جاءت تدعو إلى عبادة الله تبارك وتعالي، والإيمان به، وإخراج الناس من دائرة الوثنية والشرك والتعدد.

وقد ظلت هذه الأديان مرتبطة ببيئاتها وأممها، حتى إذا بلغت البشرية رشدها، جاء الإسلام مصدقًا لما بين يديه، للناس كافة وإلى أن تقوم الساعة.

وجاء القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتب، ومهيمنا عليها.

وقد قامت الحضارة الإسلامية من عصارة تراث رسالات السماء كلها، التى انصهرت فى بوتقة شاركت فيها جميع العناصر داعية إلى إصلاح النفس البشرية، وإهدائها إلى الخير والرحمة والعدل والإخاء البشري.

ولا ريب أن هذا المفهوم يكشف فساد دعاوى البهائية والقاديانية، ومقولة مدعى النبوة، فقد قدم الإسلام كل الدلائل والأسانيد الدامغة التى تؤكد «عموم الرسالة وختم النبوة»، حيث لم يستطع أى متنبئ خلال أربعة عشر قرنًا أن يقيم هذه الدعوى المدعاة.

ولقد كان تركيز اليقظة الإسلامية واضحًا على شجب هذا التيار القائم على التأويل الباطنى للقرآن، لتسريب مفاهيم الفرق الضالة فى محاولة للاحتيال على بعض النصوص، لخداع الطلائع التى لم يتيسر لها الإلمام بأصول الإسلام، وكذلك شجب مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ، ومذهب النيرفانا والروحية الحديثة، والحذر مما أوردته كتابات بعض دعاة الباطنية والقرامطة، وما تضمنته رسائل إخوان الصفا، وما أورده ابن المقفع فى مقدمة كتاب كليلة ودمنة، وكذلك أفكار ما يتعلق بنظرية الفيض والعقول العشرة والتجسيد وذلك ليظل مفهوم الإسلام الجامع قائمًا، ويظل مفهوم الغيب والنبوة، والبعث والجزاء الأخروى أساسًا لفهم الإسلام.

الإسلام وحل مشكلات العصر

ويواصل الكاتب أنور الجندى قائلاً: ولا ريب أن ما توصل إليه علماء غربيون منصفون من قدرة الإسلام على العطاء، وحل مشكلات العصر، بعد أن تعقدت أمور الأيديولوجيات، وتطلعت النفوس المحبة للخير إلى الإسلام كمنقذ، كل هذا يجب أن يكون موضع تقدير.

ففى كتاب عنوانه «من دين لآخر» اعتناق الإسلام فى الغرب «صدر بالفرنسية لنيربات روني» يقول:

ما برح الإسلام يلاقى صدى طيبًا فى نفوس الغربيين، فيدخلون فيه عن طواعية، بعدما أفلست كل النظريات فى إسعادهم، ولم تعد أديانهم قادرة على إطفاء ظمئهم الروحي».

ويقول إيفادى فتراي: القرآن هو آخر وحي، ومحمد هو خاتم الرسل والقيمة

المتجمعة للإسلام، تجعل الفرد مرتبطًا بمجموعة عالمية، والإسلام يجبر معتنقيه على الاعتراف بكل الرسل السابقين.

إن العقل الأوروبي لا يرفض الإسلام إذا عرف حقيقته، وإذا أتيحت له فرصة النظر دون أن تكرهه قوى أخرى على التعصب لفكره القديم.

ويستشهد الجندي بقول الدكتور عبدالكريم داتون: لقد بهرتني المودة في العالم الإسلامي، كانوا يقدمون العون دون مقابل، والدهم القناعة ورضاء النفس، بينما كنت أنفر من نمط الحضارة الغربية، لما فيها من مادية الجفاف الروحاني والفراغ العقلي.

«وجدت في الإسلام رسالة واقعية، تعترف بغرائز الإنسان ولكنها تسمو بها، فهو الدين الأكثر ارتباطًا بالواقع، وأعمق تأثيرًا في نفوس الناس، وجدت في الإسلام ما كنت أبحث عنه وأي مشكلة يواجهها الإنسان تجد حلها في القرآن الكريم».

والعالم الغربي يدرك اليوم أن الإسلام هو الذي يحل جميع مشاكل البشر.

هذا الذي يقوله بعض المثقفين الغربيين الذين عرفوا طريق الإسلام وتلك ظاهرة شديدة الأهمية، فإن الذين يدخلون الإسلام من الغرب اليوم، ليسوا من عامة الناس، ولكن من خاصتهم، فهم على حظ كبير من الثقافة ومنهم مفكرون وعلماء وفلاسفة.

فهم حقيقة الإسلام وجوهره

ومن هنا فإن هناك ضرورة ملحة للمحافظة على المسلمين الجدد وحمايتهم من أخطار الإذابة في المحيط الغربي، أو أن تتلقفهم قوى تدعي الإسلام لتبعدهم عن مفهوم الإسلام الجامع الصحيح.

ويضيف الكاتب: إن فهم حقيقة الإسلام وجوهره هو الركيزة الحقيقية لهذه المرحلة الجديدة من عالمية الإسلام التي يتسع نطاقها في قارات أوروبا وأمريكا وأستراليا.

لقد جاء الإسلام ليصحح كثيرًا من أخطاء الفكر البشري الوثني والمادي، وأهمها الصلة المباشرة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان بدون وسيط، والارتفاع على التجسيد والتجسيم، ورفض الفلسفات التي نشأت في ظلها فكرة التعدد، كما كشف الإسلام فساد المواريث القديمة للباطنية والمجوسية، وعبادة الفرعون والقيصر، وجدد تراث النبوة، وكشف زيف تراث طفولة البشرية، كذلك فقد رفض الإسلام نزعة اليأس والتشاؤم، وقد أعلن مسئولية كل إنسان عن عمله، وأبرز عطاء الإسلام في هذا العصر سكينة النفس، وطمأنينة القلب والتخلص من أزمات الفكر التي تؤدي بصاحبها إلى القنوط، وهي التي يحلها الإيمان بالله تبارك وتعالى، خالقًا ورازقًا:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

(الفاتحة: ٥)

يضيف المفكر أنور الجندي: ولقد تبين أن أعظم ما جذبهم إلى الإسلام هو روح العدل والمساواة التي يدعو إليها القرآن الكريم، والنظافة التي يتحدث عنها الرسول ﷺ «الطهارة، نظافة اليد والقلب واللسان».

وقد أذهلهم تواضع النبي محمد ﷺ وكرم خلقه وسماحته مع أعدائه ورحمته وتطلعه إلى أن يخلف هؤلاء المتعنتين من يؤمن بالله.

هذه المعاني هي التي هزت نفس الغربي هزًا شديدًا، لأنه لا يجدها في واقع الحياة المعاصرة، صورة من عالم مضيء يستعلي على الأحقاد والخصومات والمادة، ويتطلع إلى أنوار السماء.

ومن أجل هذا يتوقع المراقبون للصورة الإسلامية انطلاقًا واسعًا حتى تنطلق عالمية الإسلام بعد أن نقل المجتمع الإسلامي إلى داخل عشرات من دول الغرب، وبقي ظاهرة طبيعية متجددة.

أكثر من مليار مسلم

ولقد كشف علماء الغرب وقادته عن نواقص الحضارة الغربية المعاصرة واضطرابها وخروجها عن الجادة، وما يصيبها اليوم من عطب من حيث عجز منهجها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، عن إعطاء الإنسان أشواقه ومطامعه الروحية مما يدعوه إلى التطلع إلى الإسلام كمنقذ للحضارة والمجتمعات، ويأتي هذا في الوقت الذي يتنافى فيه تعداد المسلمين متجاوزين الألف مليون، وحيث تقام مجتمعاته الآن في قلب أوروبا «الغرب»، وتنفجر قضايا شرح الإسلام للغرب وتجاوز الصورة القديمة التي حملها الغرب للإسلام قرونًا طويلة، وحماية هذه المجموعات الجديدة من فقدان مقوم وجودهم الحقيقي.

ولعله من الخير أن نوضح هذه الحقائق الثلاث بين أيدي الدارسين لهذه القضية.

أولاً: جدد الإسلام تراث النبوة، وقدم للإنسان في كل عصر وبيئة روح الإيمان بالله تبارك وتعالى، والثقة بقدرته، والتحرر من اليأس والتشاؤم ومن التبعية للموروثات، وقيام الصلة المتحررة من كل وسيط بين الله تبارك وتعالى والإنسان، وهدم عبودية الفرد للفرد، أو عبودية الفرد للوثنية في صورها الحديثة، وبذلك استطاع أن يقدم نفسه للبشرية في هذا العصر، على أنه قادر على حل كل مشكلاتها ومعضلاتها.

ثانيًا: كشفت الأبحاث العلمية واللاهوتية عددًا من الحقائق التي أكدت الأصول الثوابت التي قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا في شأن خلق الكون والإنسان والإعجاز العلمي، مما أكد صدق الفصل القرآني وسلامته على مدى العصور، وقدرته على مظاهرة ما كشفت عنه الحفريات في شأن تاريخ الأمم والحضارات مما يعطي القرآن الكريم اليوم المكانة الأولى في اعتماده كمصدر لحركة الجنس البشري.

ثالثًا: قدرة الإسلام على استيعاب القضايا العالمية التي أحدثت أزمات كبرى من جراء الفصل بين القيم، كقضية الدين، والعلم، والانتماء الديني والقومي، والدنيا والآخرة، والالتقاء بين العقل والوجدان، والتلاقي بين العصور والأجيال، والمرأة والرجل، والآباء والأبناء، على أساس مفهوم التكامل الذي رسمه الإسلام، وقاعدة الثوابت والمتغيرات.

وبذلك أعطى المسلم القدرة على الاستجابة لمتغيرات العصور مع الاحتفاظ بالقيم والثوابت الأصيلة.

استفتاءات القــراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

صدقة الفطر

● من أنشطة جمعيتنا مشروع أصدقاء المرضى، وفيه يتم الإنفاق على المرضى الفقراء، ومشروع كفالة اليتيم، وفيه يتم الصرف على اليتامى نقديًا وعينيًا، ومشروع المساعدات الاجتماعية للفقراء عينيًا ونقديًا.

فهل يجوز لنا الصرف على هذه النشاطات من صدقة الفطر على مدار العام، أم يشترط توزيع حصيلة ما تتلقاه الجمعية من صدقة الفطر خلال شهر رمضان؟

● الجواب: مصارف زكاة الفطر هي مصارف زكاة المال عند الجمهور خلافًا للمالكية والإمام أحمد في رواية، في قصرهم إياها على الفقراء والمساكين، كما أن وقت أدائها هو العمر كله عند السادة الحنفية، مع قولهم بكراهة تأخيرها عن يوم العيد، خلافًا للحسن بن زياد والجمهور في إيجابهم أدائها يوم العيد وتأثيمهم من أخرها عن ذلك.

ولا مانع من تقليد قول السادة الحنفية في الإنفاق منها على الفقراء سائر أيام السنة إذا كانت المنفعة والمصلحة تقتضي ذلك، مع التنبيه على أنه لا ينبغي أن يكون أمرًا عامًا تصرف فيه كل زكوات الفطر حتى لا يكر على مقصودها بالبطلان؛ فإن المقصود الأعظم من زكاة الفطر هو كفاية حاجة الفقراء في يوم العيد والتوسعة عليهم فيه، وهو المعنى الذي حرم من أجله تأخيرها عن يوم العيد عند الجمهور، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «أغنوهم عن طواف هذا اليوم». أخرجه ابن سعد في الطبقات والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما-.

فلا ينبغي العدول عن هذا المقصود التكافلي في العيد إلى غيره من مصارف الزكاة ما دام الناس محتاجين إلى من يغنيهم يوم العيد كما هو ظاهر في كثير من البلدان والمجتمعات الفقيرة التي قد لا يجد الكثير من الناس فيها ما يوسعون به على أنفسهم وأهليهم يوم العيد.

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شــوقي عـــلام
مفتي جمهورية مصر العربية

والله سبحانه وتعالى أعلم

الصلاة منفردا

● هل تصح الصلاة منفردًا خلف الصف إن لم يوجد مكان آخر بالصف الأمامي؟ وهل يجوز أن يسحب المنفرد رجلا من الصف الأمامي ليصلي معه؟

● الجواب: صلاة المنفرد إما أن ترد مطلقة أو مقيدة، فإن وردت مطلقة فإنها تكون في مقابلة صلاة الجماعة كما قال رسول الله - ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ- أي المنفرد- بسبع وعشرين درجة» متفق عليه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -، أما إذا أريد بها ما ذكر بالسؤال فإنها تقيد به فيقال: صلاة المنفرد خلف الصف.

وصلاة المنفرد خلف الصف إذا كانت لعذر- كأن لم يجد من يصف معه - صحيحة، فإذا انتفى العذر فإنها تكون صحيحة مع الكراهة، وذلك لما روى البخاري عن أبي بكرة - رضي الله عنه - «أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: زادك الله حرصًا ولا تعد». فأخذ الفقهاء من ذلك عدم لزوم الإعادة، وأن الأمر الذي ورد في حديث وابصة بن معبد - رضي الله عنه - عند الترمذي - من «أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة» إنما هو على سبيل الاستحباب، جمعا بين الدليلين.

أما الحنابلة فأبطلوا صلاة من صلى خلف الصف وحده ركعة كاملة دون عذر؛ حملا للأمر في حديث وابصة على الوجوب.

ومن لم يجد فرجة ولا سعة في الصف فللفقهاء فيه مذاهب:

١ - فعند المالكية وأحد قولي الشافعية - وهو ما نص عليه الإمام الشافعي في البويطي واختاره القاضي أبو الطيب - أنه يقف منفردًا خلف الصف ولا يجذب أحدًا؛ لئلا يحرم غيره فضيلة الصف السابق، بل زاد المالكية أنه إن جذب أحدًا فلا يطعه المجذوب، وهذا رأي الكمال بن الهمام من الحنفية.

٢ - أما عند الحنفية والصحيح عند الشافعية فإنه يستحب أن يجذب إليه شخصًا من الصف ليصطف معه، لكن مع مراعاة أن المجرور سيوافقه، وإلا فلا يجر أحدًا؛ منعًا للفتنة.

٣- وعند الحنابلة يقف عن يمين الإمام إن أمكنه ذلك؛ لأنه موقف الواحد، فإن لم يمكنه ذلك فله أن ينبه رجلا من الصف ليقف معه، وإلا صلى وحده خلف الصف، ويكره تنبيهه

بجذبه، واستقبحه أحمد وإسحاق؛ لما فيه من التصرف بغير إذنه.

وبناءً على ما سبق؛ فصلاة المنفرد خلف الصف إن لم يمكنه إلا ذلك صحيحة باتفاق الفقهاء، ومن أجاز منهم له أن يجذب رجلا من الصف أمامه فإنما اشترط معرفة موافقة المجرور على ذلك مسبقًا، ولذلك فإنا نرى قصر ذلك على هذه الحالة فقط، أما إن لم يعلم المنفرد خلف الصف هل يوافقه المجذوب أو لا أو علم عدم موافقته على ذلك فليس له أن يجذب أحدًا؛ وذلك تأدبًا مع مذهب المخالف ودرءًا للفتنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قول «بسم الله الرحمن الرحيم»

● هل قول: «بسم الله الرحمن الرحيم» مشروعة في الفاتحة وما بعدها في الصلاة الجهرية؟

● الجواب: مسألة الجهر بالبسملة من المسائل المختلف فيها بين العلماء؛ فالشافعية يرون مشروعية الجهر بها، وغيرهم من العلماء يرون أن الإسرار بها هو الأفضل، وهذا الأمر معدود من هيئات الصلاة التي لا ترقى إلى درجة السنن المؤكدة؛ فالخلاف فيه قريب والشأن فيه واسع، ومن المقرر شرعًا أنه إنما ينكر ترك المتفق على فعله أو فعل المتفق على تركه، ولا ينكر المختلف فيه، فمن جهر بالبسملة فهو حسن ومن أسر بها فهو حسن، ولا يجوز أن تكون أمثال هذه المسائل الخلافية مثار فتنة ونزاع وفرقة بين المسلمين، بل يسعنا فيها ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذي كانوا يتحلون به في خلافاتهم الفقهية واختياراتهم الاجتهادية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

صلاة التهجد

● هل يؤثر تقليب صفحات المصحف أثناء صلاة التهجد على صحتها؟

● الجواب: من مبطلات الصلاة - سواء أكانت فرضا أو نفلا - العمل الكثير المتوالي، والكثير ضابطه العرف، وقد حده الشافعية بثلاث حركات؛ كثلاث خطوات عمدًا أو سهوا، ولو كانت الحركات الثلاث أو الأكثر بأعضاء متعددة؛ كأن حرك المصلي رأسه ويديه، ولو من أجناس أفعال متعددة: كخطوة وضربة وخلع نعل، ويحسب ذهاب اليد وعودها مرة واحدة ما لم يسكن المصلي بينهما، ويحسب رفع الرجل مرة؛ سواء أعادت إلى موضوعها أم لا، أما ذهابها وعودها فمرتان، ومثل العمل الكثير الوثبة الفاحشة - أي القفزة -، وكذا تحريك كل بدنه أو معظمه ولو من غير نقل قدميه، ومحل البطلان بالعمل الكثير إن كان بعضو ثقيل، فإن كان بعضو خفيف فلا بطلان؛ كما لو حرك المصلي أصابعه - من غير تحريك كفه - في سبحة، أو حل أزرارا أو عقدها، أو حرك لسانه أو شفته أو أجفانه ولو مرات متعددة متوالية، فأمثال ذلك لا تبطل به الصلاة؛ إذ لا يخل بهيئة الخشوع والتعظيم؛ فأشبه الفعل القليل، ولو تردد المصلي في فعل: هل هو قليل لا تبطل به الصلاة أو كثير تبطل به: فالمفتى به أنه لا يؤثر، ويشترط في الحركات الثلاث المبطلة أن تكون متوالية؛ بحيث لا يعد العمل الثاني منقطعا عن الأول عرفا، ولا الثالث منقطعا عن الثاني؛ فلا يؤثر غير المتوالي عرفًا ولو كثر جدًا.

وقال الحنابلة: لا يتقدر اليسير بثلاث ولا بغيرها من العدد، بل اليسير ما عده العرف يسيرا؛ لأنه لا توقيف فيه، فيرجع للعرف، كالقبض والحرز، فإن طال عرفا ما فعل فيها وكان ذلك الفعل من غير جنسها غير متفرق أبطلها عمدًا كان أو سهوا أو جهلا ما لم تكن ضرورة، فإن كانت ضرورة، كحالة خوف وهرب من عدو ونحوه كسيل لم تبطل، وعد ابن الجوزي من الضرورة الحكة التي لا يصبر عليها، وأما العمل المتفرق فلا يبطل الصلاة؛ لما ثبت «أن النبي ﷺ أم الناس في المسجد، فكان إذا قام حمل أمامة بنت زينب، وإذا سجد وضعها»، «وصلى النبي - ﷺ - على المنبر وتكرر صعوده ونزوله عنه»، وقول الحنفية والمالكية قريب من قول الحنابلة.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فإن تقليب صفحات المصحف الشريف لا تبطل به الصلاة؛ لأنه عمل يسير عرفا، ولكن على المصلي أن يقتصر في ذلك على أقل حركة يتم بها الغرض من غير مجاوزة أو زيادة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تسوية الصفوف

● ما هو حكم تسوية الصفوف في الصلاة. هل يوجد نص عنها؟

● الجواب: إجابة السؤال الأول:

ورد في السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة في الأمر بتسوية الصفوف منها ما جاء في الصحيحين ومنها ما جاء في غيرهما:

١- فمما جاء في الصحيحين: حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «سووا صفوفكم؛ فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة».

٢- وحديث أنس - رضي الله عنه - أيضا، أن النبي ﷺ قال: «أقيموا الصفوف؛ فإني أراكم خلف ظهري».

٣- وفي الصحيحين أيضًا من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم».

٤- وروى الإمام مسلم من حديث أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

٥- وروى الإمام أبو داود في «سننه» بإسناد صحيح من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخونكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله». وتسوية الصفوف لها معنيان؛ كلاهما وارد في الأحاديث السابقة:

الأول: التسوية الظاهرة: وهي اعتدال القائمين فيها على سمت واحد؛ بحيث لا يتقدم بعض المصلين على بعض.

الثاني: التسوية المعنوية: وهي سد الفرج والخلل فيها؛ بحيث لا يكون فيها فرجة.

وقد اتفق العلماء على أن تسوية الصفوف هي من السنن المؤكدة في صلاة الجماعة؛ بل نص الحنفية وغيرهم على أنها واجبة على الإمام، غير أنه ينبغي أن تكون تسوية الصف بالتأليف والمحبة، خاصة بعد قلة العلم، فالأمر يتطلب مزيد الرفق بالناس لتعليمهم وتفقيههم، ولكن كل هذا لا يكون على حساب المقصود الأصلي من الصلاة؛ وهو حضور القلب وخشوعه، فالأكمل الاستنان بالسنن النبوية الظاهرة والباطنة، وإذا لم يمكن الجمع بينهما فالحفاظ على خضوع القلب للباري سبحانه في الصلاة والتآلف بين المسلمين أولى من الهدى الظاهر الخالي عن هذه الحقائق الأصيلة المقصودة

لذاتها، على أن الهدى الظاهر مقصود لغيره، فما كان مقصودًا لذاته أولى مما هو مقصود لغيره عند التعارض، والكمال بثبوتهما معا.

قال العلامة الكشميري الحنفي في «العرف الشذي شرح سنن الترمذي» (١ / ٢٣٥ط: مؤسسة ضحى):

«تسوية الصفوف واجبة على الإمام كما في «الدر المختار»، وتركها مكروه تحريما، وقال ابن حزم بفرضيتها، والاعتبار في التسوية الكعاب، وأما ما في البخاري من إلزاق الكعب بالكعب فزعمه بعض الناس أنه على الحقيقة، والحال أنه من مبالغة الراوي، والحق عدم التوقيت في هذا بل الأنسب ما يكون أقرب إلى الخشوع» اهـ.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

اصطحاب الأطفال إلى المساجد

● ما هو حكم اصطحاب الأطفال إلى المساجد؟

● إجابة السؤال الثاني: لا مانع شرعًا من اصطحاب الأطفال إلى المسجد، بل ذلك مستحب إذا كانوا مميزين؛ لتعويدهم على الصلاة، وتنشئتهم على حب هذه الأجواء الإيمانية التي يجتمع المسلمون فيها لعبادة الله تعالى؛ حتى يكون ذلك مكونًا من مكونات شخصيتهم بعد ذلك، وذلك مع الحرص على تعليمهم الأدب، ونهيهم عن التشويش على المصلين أو العبث في المسجد، بشرط أن يكون ذلك برفق ورحمة، وأن يُتعامل مع الطفل بمنتهى الحلم وسعة الصدر من غير تخويف أو ترهيب له؛ فإن ردود الأفعال العنيفة التي قد يلقاها الطفل من بعض المصلين ربما تولد عنده صدمة أو خوفًا ورعبًا من هذا المكان، والأصل أن يتربى الطفل على حب هذا المكان ويتعلق قلبه ببيت الله تعالى، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، «ورجل قلبه معلق بالمساجد»، وأن هذا المسجد مليء بالرحمات والنفحات والبركات. وقد استدل العلماء على جواز إحضار الأطفال إلى المساجد بأحاديث منها: ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ وسلم كان يصلي وهو حامل إمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ».

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١ / ٥٩٢ط: دار المعرفة): «واستدل به على جواز إدخال الصبيان في المساجد». اهـ بتصرف.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن بريدة - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحدًا من ذا الشق وواحدًا من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: صدق الله:

﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٢٨).

إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما».

ومن هذين الحديثين وغيرهما أخذ العلماء جواز إحضار الأطفال للمسجد، واستثنوا منهم من كان لا ينتهي عن العبث إذا نهي عنه، ومع ذلك فلا يكون نصحه إلا بالرفق والرحمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

أيام لها تاريخ

صلح الحديبية

أ. عبدالله كمال

الحمد لله الذي شرفنا بهذا الدين، وزكانا من دون الأمم بخاتم الأنبياء والمرسلين؛ أحمده سبحانه جل ذكره، وتقدس اسمه، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل. فهذه نافذة نطل من خلالها على أهم ما حدث في مثل هذا الشهر من أحداث محاولين أخذ العبرة منه والاستفادة بدروس التاريخ فمن لم يعتبر بأمسه لم ينفعه يومه ولا غده وها نحن في شهر من أشهر الله الحرم تطالعنا فيه نفحات الخير فلنغتنم الفرصة امتثالا لقول النبي المختار :"ألا إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها"

فشهر ذي القعدة من الأشهر التي حرم فيها القتال وهو ثاني أشهر الحج بعد شوال ولقد حدثت فيه من الأحداث العظام ما سجله لنا التاريخ على صفحات من ذهب بمداد من نور منها ذلكم الحدث الجليل "صلح الحديبية"

رأى النبي في نومه أنه طاف قصد البيت وطاف به فأخبر بالرؤيا أصحابه فازداد شوقهم للبيت الحرام وتلهفت نفوسهم لقصده فساق النبي هديه وساق الصحابة هُدْيَهم وخرجوا يريدون البيت في شهر ذي القعدة لليلتين خلتا منه حتى لا تتوجس قريش منهم حربا وكانوا عزلا من أي سلاح غير سلاح المسافر - سيف في غمده - مما يدفع به أذى الطريق لا يبغون غير الطواف بالبيت وأداء العمرة .

فلما بلغوا ذي الحليفة ميقات أهل المدينة قلد الرسول الهدي بأن علق في عنقه شيئا وهو نعل ليعلم انه هدي وأشعره أي لطخه بالدم وأحرم الجميع ودوى صوتهم بالتلبية إعلانا عن عمرتهم. وكان ذلك حقا لهم فإن زيارة البيت من حق العرب جميعاً وليس لقريش بحكم العرف العام أن تصد أحدا حتى ولو كان عدوا متى صان حرمته البيت.

لكن قريشا بمجرد علمها أن المسلمين يقصدون مكة أخذت في الاستعداد للحرب ولم يصدقوا أن هدف الرسول العمرة وعقدوا النية علي صد النبي عن مكة مهما كلفهم الأمر وهكذا كان هذا الموقف من قريش دليلا علي عنادها وصلفها وتماديها في الاعتداء على المسلمين ومصادرة حرياتهم و انتهاك حقوقهم.

ومضي ركب الرسول في طريق مكة حتى بلغ عسفان (علي بعد يومين من مكة) ، وهناك لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول

الله هـذه قريش قد سـمعت بمسـيرك فخرجوا يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا.

فقـال رسـول الله ﷺ: يا ويـح قريش لقد أكلتهم الحـرب مـاذا عليهم لو خلـوا بيني وبيـن سـائر العـرب فإن هـم أصابونـي كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وآخرين وإن لم يفعلـوا قاتلوا وبهم قوة فما تظـن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنـي الله به حتى يظهـره الله أو تنفرد هذه السـالفة-أي صفحة العنق.

وبلغ الرسـول أن خالد بن الوليد خرج في خيل لقريش بلغت مائتا فارس طليعة لجيش قريش. ولكـي يتجنب الرسـول الاصطدام بقريـش ومضيا مـع الرغبـة عن القتـال قال رسـول الله ﷺ: من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فسـلك بهم رجل من أسـلم طريقا وعرا غيـر الطريق المعهود حتـى وصل إلـى الحديبية علـي طرف حدود أراضي مكـة، وهناك بركـت ناقته ﷺ فقال الناس: خلأت القصواء فقال النبي: ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسـها حابس الفيل عن مكة والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم ألا أعطيتهم إياها.

ثم قال للناس انزلوا فقيل له يا رسـول الله ما بالطريق ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأعطـاه رجلا مـن أصحابـه فنزل به فـي قليب فغـرزه في جوفـه فجاش بالرواء فمـازال يجيش لهـم بالري حتى صدروا عنه أي رجعوا رواء بعد ورودهـم وعلـم الجيش القرشـي بنـزول النبي بالحديبية فأسـرع إلى مكة لحمايتها وليحولوا بين المسـلمين وبين دخولها وعسـكرت قريش بقواتها على جميع مداخلها.

السفارات بين الطرفين

ولمـا كانـت قريش تعرف حـرج موقفها إن نشب قتال جديد فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة وقد ينتهي القتال بكارثة تودي بكيانها كله ولهذا سـيرت الوسـطاء يفاوضون محمـداً عليهـم ينتهون معه إلى مخـرج من هذه الورطة.

وكان أول من جـاءه بديل بن ورقاء الخزاعي فـي نفر من خزاعة فكلموه وسـألوه عن سـبب مجيئـه فأخبرهم أنـه لم يأت يريـد حربا وإنما جاء زائر للبيت ومعظما لحرمته ومن ثم اقتنعوا بأحقيتـه في زيارة البيـت وتعظيمه فرجعوا إلى قريش فقالوا يا معشـر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت، ولكن قريشـا ركبت رأسـها وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث ذلك عنا العرب.

ثـم تكـررت الوفـود بينهما فبعثت قريش رسـولا آخر هو مكرز بن حفص فعاد بما عاد به بديل الخزاعي.

وبعثوا للرسـول أيضـا الحليس بـن علقمة وكان يومئـذ سـيد الأحابيش فلما رآه الرسـول قال إن هـذا من قوم يتألهـون فابعثوا الهدي في وجهـة حتى يراه، فلما رأي الهدي يسـيل عليه من عرض الوادي – جانبه – رجع إلى قريش دون أن يصـل إلى الرسـول إعظاما لما رأي فقال لهم ذلك فقالوا له: أجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فغضـب الحليس عند ذلك وقال: يا معشـر قريـش والله ما على هـذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصد عـن بيت الله من جاء معظما له والـذي نفس الحليـس بيده لتخلـن بين محمد وبيـن ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له: مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسـنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسـول الله رسولا رابعاً هو عروة بـن مسـعود الثقفي سـيد أهل الطائـف فكلمه الرسول بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً وإنمـا يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقى صاداً ولا راداً.

فقام من عند الرسـول وقـد رأي ما يصنع به أصحابـه لا يتوضأ إلا ابتـدروا وضوءه ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ولا يسـقط من شـعره شئ إلا أخـذوه وكان النبـي ينهاهـم عن ذلـك دوما إلا فـي هذا الموطن لأن عروة كان ممن يدخل على الملوك بفعـل الصحابة ذلك فوقعت هيبة النبي فـي قلبـه وقد كان ذلـك حقا ويتضـح ذلك من قوله:

يـا معشـر قريش إنـي قد جئت كسـري في ملكة وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله مـا رأيـت ملكا في قوم قط مثـل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسـلمونه لشئ أبدا فروا رأيكم.

وطالـت المحادثات علي نحو ما قدمنا فرأى رسـول الله ﷺ أن يبعث هو إلى قريش رسـولا من عنده يوضح موقفه تمشيا مع حرص الرسول علي السـلم وتأكيدا لحلمه الذي بلغ غايته ودعا رسـول الله ﷺ خـراش بن أميـة الخزاعي فبعثه إلـى قريش بمكـة وحمله علـي بعير لـه ليبلغ أشـراف مكة ما أمـره به الرسـول فعقروا جمل الرسـول وأرادوا قتله فمنعتـه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

وتمادت قريش في عنادها وأرسـلت أربعين رجلا منهم أو خمسـين رجلا وأمروهم أن يطيفوا بعسـكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا فأمسك المسـلمون بهم جميعا وأتي بهم إلى رسـول الله فعفـا عنهم وخلى سـبيلهم وقد كانـوا رموا فـي عسـكر رسـول الله بالحجارة والنبل.

وفي فظاظة قريش وسماحة المسلمين وحلم الرسول نزل قوله عز وجل:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

[الفتح: ٢٦]

وكـره الرسـول أن تجـري الأمـور علي هذا النحـو وأن يتصاعد الموقف نحـو القتال فدعا عمـر بن الخطـاب ليبعثـه إلى مكـة فيبلغ عنه أشـراف قريش مـا جاء لـه فقال: يا رسـول الله إني أخاف قريشـاً على نفسـي وليس بمكة من عـدي بن كعب أحد يمنعنـي وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتـي عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان.

فدعـا رسـول الله ﷺ عثمان بن عفـان فبعثه إلى أبي سـفيان و أشـراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنـه إنما جاء زائرا البيت الله معظما لحرمته ودخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد بن العـاص الأموي فانطلـق عثمان حتـى أتي أبا سـفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسـول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسـول الله إن شـئت أن تطوف بالبيـت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وقال عثمان حين رجع وقال له المسـلمون: اشـتفيت يا أبا عبـد الله من الطـواف بالبيت!!

بئس ما ظننتم بي والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت.

بيعة الرضوان

وتعثرت المفاوضات بين عثمان وقريش واحتبست قريش عندها عثمان وراجت إشاعة بأنه قتل فقال الرسول حين بلغه ذلك: لا تبرح حتى تناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وفيها بايع الرسول أصحابه على أن لا يبرحوا مكانهم حتى يقاتلوا المشركين دون أن يفروا إذا ما أصاب عثمان مكروه.

وهذه البيعة هي التي نزل فيها قوله تعالى:

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

«الفتح: ١٨»

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل، وسارعت قريش فبعثت سهيل بن عمرو ليعقد مع محمد صلحا ولم يكن يعنيها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام على أن يعودوا بعد إذا شاءوا وذلك إبقاء على مكانة قريش في العرب فلما رأى الرسول مبعوث قريش قال قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل وتقدم سهيل بن عمرو إلى النبي فتكلما وتناقشا وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

ووسط دهشة الصحابة قبل الرسول شروط الصلح ولم يستشرهم في هذه الشروط أثناء المفاوضات على غير عادته ولم يرق هذا الاتفاق في أعين جمهور الصحابة واعتقدوا أن الرسول سلم لقريش بكل مطالبهم وكان أشدهم نقدا له عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ذهب إلى أبي بكر فقال يا أبا بكر أليس برسول الله؟

قال: بلى

فقال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال عمر: فعلام نعطي الدنيه في ديننا؟!

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه (الزم أمره) فإني أشهد أنه رسول الله

قال عمر: و أنا اشهد أنه رسول الله

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟

قال: بلى

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.

فالموقف إذن ليس موقف شورى أو مناقشة بل كان كما ذكر الرسول ﷺ أمر الله وتوجيه الوحي فتصرف الرسول عليه السلام على ضوء هذا الإلهام الإلهي ولكن الرسول كان يرى ما لا يراه الصحابة. ثم إن الرسول وجد في هذه الشروط التي تم التوصل إليها الخير والبركة للإسلام والمسلمين كما سنناقش هذه الشروط بعد قليل.

شروط صلح الحديبية

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب شروط الصلح فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله: اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فاعترض سهيل وقال: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك و اسم ابيك فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة[1] وإنه لا إسلال[2] ولا إغلال[3].

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

أبو جندل بن سهيل

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب مع سهيل بن عمرو إذ جاءه ابن المفاوض عن قريش نفسه جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو الحديبية ويريد الالتحاق بالمسلمين. فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد قد لجت (تمت) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا! قال: صدقت فجعل يجذب ابنه جذبا شديدا في جفاء ليرده إلى قريش.

وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله: يا أبا جندل أصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا و أعطيناهم على ذلك و أعطونا عهد الله و إنا لا نغدر بهم.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح فريقا من الجانبين وقد جاءت قصة أبي جندل هذا فزادت آلام المسلمين وضاعفت أحزانهم ودخل على المسلمين من ذلك هم عظيم.

وبعد أن انتهى الرسول من أمر الصلح قال لأصحابه: قوموا فانحروا واحلقوا رؤوسكم ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة.

فتباطئوا حتى قال ذلك ثلاث مرات فدخل خيمته وذكر لأم سلمة ما لقي من الناس وأشارت عليه أن يخرج دون أن يكلم أحدا منهم ثم ينحر بُدنه ويحلق رأسه فلما رأى المسلمون ما صنع النبي قاموا عاجلين ينحرون هديهم ويحلقون.

ثم انصرف رسول ﷺ وأصحابه عائدين إلى المدينة وفي طريق عودتهم نزلت سورة الفتح.

(١) عيبة مكفوفة: أي صدور منطوية على ما فيها (٢) إسلال: أي السرقة الخفية (٣) إغلال: أي الخيانة

ظواهر العنف والإرهاب وموقف الإسلام منها



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

دعا الإسلام أتباعه إلى التيسير وعدم التعسير، وإلى الرفق والبعد عن العنف، وإلى التراحم والبعد عن التشدد أو الإرهاب، وصان الإسلام حرمة النفس الإنسانية وحمى حقوق الإنسان: دمه وماله وعرضه.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١).

وحرّم الإسلام الخروج على الحاكم، لأن الخارج على ولي الأمر يعتبر ناكثاً للعهد وباغياً، قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية»(٢).

وحذّر الإسلام من الخروج عن الجماعة، وتوعد من دعا بدعوى الجاهلية، وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند: «آمركم بخمس الله أمرني بهن: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ فقال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم...»(٣).

إن الإسلام يقرر لأتباعه أنه دين اليسر لا العسر حيث قال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»، ووضح رب العزة

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه البخاري ومسلم
(٣) رواه أحمد

سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه يريد من خلقه العسر ولا يريد بهم اليسر فهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، قال جل شأنه:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
(البقرة: ١٨٥).

وما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

وينأى الإسلام بأتباعه عن ظواهر الغلو والتشدد، وعن العنف والإرهاب، ويغرس في قلوبهم الرفق والرحمة والتسامح، ومقابلة السيئة بالحسنة، حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾
(فصلت: ٣٤-٣٥)

ورب العزة سبحانه وتعالى يحب الرفق، وهو جل شأنه موصوف بالرفق فهو رفيق كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق»(٤).

وبين صلوات الله وسلامه عليه ثمرة الرفق وأنه يزين كل شيء فقال ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»(٥).

ووضح أن الذي يحرم الرفق يحرم الخير كله حيث قال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»(٦).

وقد وصف رب العزة سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بالرفق والرحمة واللين، حيث قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾
(آل عمران: ١٥٩).

فنرى أن الإسلام دعا إلى الرفق والتيسير والرحمة، ونهى عن العنف والتشدد، وعن سوء الظن بالناس أو اتهام أحد من الناس بالكفر قال ﷺ: «أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»(٧). وحذر الإسلام من الخروج من الطاعة، ومفارقة الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه»(٨).

فنرى في هذا الحديث تحريم الخروج من الطاعة، ومفارقة الجماعة، والنهي عن العصبية أو القتال تحت راية عمية أو تحت

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود
(٥) رواه مسلم وأبو داود
(٦) رواه مسلم وأبو داود وأحمد
(٧) رواه البخاري
(٨) رواه مسلم

راية عصبية كما دعا الحديث إلى الوفاء بالعهد لمن له عهد أمان وتحريم التعرض للمعاهدين بسوء حتى ولو كان الإنسان فاجرا ففجوره على نفسه وحسابه على الله.

والوفاء بالعهد مع الناس من سمات المؤمن الصادق، وأن خلف الوعد، والغدر في العهد من سمات المنافقين وإن الله تعالى يفضح الغادر على رؤوس الأشهاد يوم القيام كما قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان.

وقد نهى الإسلام عن التشدد والتزمت حتى في العبادة، فلا تستغرق العبادة في الإسلام مساحة كبيرة من الزمن، وإنما حددها رب العزة سبحانه في مواقيت معينة دون إفراط ولا تفريط، ولا مشقة في أدائها ولا حرج:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦).

وقال تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(التغابن: ١٦)

وترى في أداء الصلاة والقراءة فيها، لا يجهر بها، لا يخافت كما قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ١١٠)

وألا يؤدى صلاته بسرعة دون طمأنينة، ولا يطيل بالمصلين إذا كان إماما إطالة تشق عليهم، بل عليه أن يؤدى صلاته بكامل أركانها مطمئنا بها خاشعا لله وألا يطيل بالناس.

وعندما أطال معاذ في صلاته، وشكا منه بعض المسلمين قال له الرسول ﷺ: «أفتان أنت»(٩) قالها ثلاثا ثم قال: «فلو لا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذا الحاجة، وقد وجه الرسول ﷺ بعض الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم بعد أن سمعوا موعظته وجههم إلى الوسطية وعدم المغالاة، عن أنس رضي الله عنه أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١٠).

وقد أمرنا الله تعالى أن نقتدى برسول الله ﷺ حيث قال:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٢١).

وهكذا كان الرسول ﷺ -وهو الأسوة الحسنة، والنبي المعصوم المقتدى به- يحث على الوسطية وينهى عن المغالاة، والتشدد وقد قال رب العزة سبحانه:

(٩) رواه البخاري ومسلم

(١٠) رواه مسلم والبخاري بلفظ مقارب

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

(البقرة: ١٩٥).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون»(١١). وهم المتعمقون الذين يتشددون في غير موضع التشديد.

ومقاومة ظاهرة التطرف والإرهاب واجب كل إنسان مسلم لأن أمثال هذه الظواهر تسئ إلى الإسلام والمسلمين، بل إن ترك شرها يتفاقم في المجتمع يؤثر على الجميع، وإن ما ينجم عن هذه الظواهر من أخطار، وما تئول عقباها إليه من شر مستطير، وخطر كبير، لا يخص من مارسها فحسب بل تشمل جميع أفراد المجتمع، فإن أخذ المجتمع على أيدى أصحابها نجا الجميع وإن تركوهم هلكوا جميعًا ولا يختص الهلاك بمن مارس الخطر والشر فقط فهناك المسئولية الجماعية التي يجب أن يقف فيها الرأى العام موقفًا موحدًا في مقاومة المنكر، وفي الدفاع عن الحق، فيكون له أكبر الأثر.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»(١٢).

وفي طريق مقاومة الإسلام لظواهر العنف والإرهاب يدعو أتباعه إلى الثبات على الشخصية الإسلامية، وعدم التأرجح في اتباع الغير، كما يدعو الإسلام إلى استقلال الشخصية، وألا يحبس الإنسان نفسه بين أسوار التقاليد الموروثة أو اتباع قرناء السوء.

ويتابع الإسلام شخصية الإنسان المسلم في سلوكها بالتقويم والتهذيب، لئلا تتأرجح بين مد وجزر، فتتدهور قواها المعنوية، متابعة كل ناعق، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»(١٣).

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادًا محكمًا، وهيأه لأسباب الحق والفلاح، مما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه، وللشر حتى ينأى عنه، فليس للمسلم أن يكون إمعة، لا رأى له، ولا يصح له أن يعطل ما أودعه الله في حسه ووجدانه، فكيف به يقف على مفترق الطرق، يميل مع الرياح حيث تميل، لقد سوّى الحق نفسه وألهمها فجورها وتقواها، قال الله تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾

(الشمس: ٧-١٠)

(١١) رواه مسلم

(١٢) رواه البخاري

(١٣) رواه الترمذي

شرعية الحكم للشعب



لفضيلة الشيخ/ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يحرص الإسلام على إقامة دولته القوية التى يسودها العدل والأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين أفرادها لا فرق بين الحاكم والمحكومين، ولا بين الغنى والفقير، ولا بين القوى والضعيف، ولا بين الأبيض والأسود.. ولا يتحقق ذلك إلا إذا توفر لكل فرد فيها حق الحرية السياسية، وحق التعبير عن رأيه فى كل أنظمة الحياة السياسية للدولة، وذلك فى نطاق الآداب والأخلاق التى تحترم رأى ومشاعر الآخرين دون طعن أو تجريح أو مصادرة إذا كانت مخالفة لرأيه، وفى الوقت نفسه احترام رأى الأغلبية والامتثال له ولو كان لا يتفق مع رأيه..

ومعنى ذلك أن شرعية الحكم للشعب، فهو الذى يختار الحاكم الذى يريده حاكما له، ويختار الشكل العام لنظام الحكم الذى يعيش فى كنفه، ولكل فرد من أفراده الحق فى هذا الاختيار المطلق..

ومتى كانت شرعية الحكم للشعب فإن حاكمه يكون تحت سلطانه، وهذا هو حقه الذى أعطاه الإسلام له، لم يأخذه منحة من حاكم من حكامها؛ لأنه لو كان منحة من حاكم لم يكن حقا أصيلا له، لأن مَنْ له حق المنحة يكون له حق استردادها، فتكون حريته مهددة بحق الحاكم فى استردادها منه متى أراد..

ولهذا حرص الإسلام على أن يجعل حق الشعب فى حريته السياسية وفى حق اختيار حاكمه حقا طبيعيا له، يستمده من كونه مصدر السلطات فى الحكم..

ويرى أستاذنا المرحوم فضيلة الشيخ / عبدالمتعال الصعيدى فى كتابه «حرية الفكر فى الإسلام» أنه على هذا الأساس قام الحكم فى عهد النبى ﷺ، وقام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين..

وأن النبى ﷺ أثناء فترة تأسيس الدولة الإسلامية فى مراحل نشأتها الأولى بعد الهجرة إلى المدينة كان يتلقى الوحى الذى يحدد معالم نظام الدولة، ويضع الأسس العامة لقيامها، ويرسم العلاقة بين الأمة والحاكم. فكانت فترة عهده عليه الصلاة والسلام فيها التزام بما ينزل به الوحى من أوامر وتكليفات..

ومع هذا كان عليه الصلاة والسلام يشرك الأمة فى بعض أمور الحكم التى لا يكون فيها وحي، والأمثلة كثيرة ومتعددة فى ذلك..

فقد استشار الصحابة رضوان الله عليهم فى غزوة بدر، إذ جمع كبراء جيشه وقال لهم: «أيها الناس، إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم: العير أو النفير» وكانت العير قادمة مع أبى سفيان بتجارتها فى الشام، وكانت النفير قد خرجت من مكة لتمنع المسلمين من هذا العير، فاستشار النبى ﷺ كبراء جيشه فيمن يقصده بالقتال من الطائفتين، وكان قد تبين أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة من الطائفتين وهى العير ليستعينوا بما فيها من الأموال.. فقام المقداد بن الأسود رضى الله عنه فقال له: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

(المائدة - ٢٤)

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد «موضع جنوب المدينة الغربي» لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له النبى ﷺ بخير..

ثم قام سعد بن معاذ - سيد الأوس من الأنصار - فقال للرسول ﷺ: «قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر «البحر الأحمر» فخضته لخضناه معك، وما نكره أن تلقى العدو بنا غدا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله».

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام، وسر بذلك سرورا عظيما؛ لأنه حصل على موافقة كبراء المهاجرين والأنصار، وهو ما كان يريده من اختيار ذات الشوكة من الطائفتين لينال به نصرا حاسما على قريش، أما المال الذى كان مع العير فإنه لا يهمه بشيء لأنه لم يكن يقاتل من أجل المال، وإنما كان يقاتل دفاعا عن الدعوة التى يقوم بها وأمر بتبليغها..

ثم نزل عليه الصلاة والسلام على رأيهم فى هذه الغزوة أيضا، حين سار بجيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر - وكان مشهورا بجودة الرأى: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال الحباب: يا رسول الله، ليس هذا لك بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته، فتنزله ونغور ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون.

فقال له: أشرت بالرأي، ونهض حتى نزل أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغورت، ليقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين وكان يعد هذا له ما كان من ذلك النصر العظيم.

وكتب السيرة مليئة بهذه الاستشارات النبوية فى الأمور التى لم يكن للوحى فيها نص - منها ما كان فى أسرى بدر، ومنها ما كان فى غزوة أحد، ومنها ما كان فى غزوة الأحزاب، وغير ذلك كثير.

وفى هذه الأمثلة ما يكفى لبيان، ما كان يتمتع به المسلمون فى عهد النبوة من الحرية السياسية، ولبيان ما كان لهم من المشاركة

فى أمورهم التى لا شأن لها بالوحي؛ ولأن هذا الوحي سينقطع بعد عهد النبوة، فلابد من أن يعطوا شيئا من السلطة فى بعض أمورهم، ويترك للوحي ما عداه من الأمور، حتى إذا انقضى عهد الوحي كانت السلطات كلها فى أيديهم قياسا على ما أعطاهم الوحي من السلطة فى بعض أمورهم.

وقد عرف جمهور المسلمين هذا الحق لأنفسهم بعد وفاة النبى ﷺ، بل وبادروا إلى استعماله - وبعض أصحابه مشتغل بتكفينه ﷺ وتجهيزه للدفن - حرصا منهم على التمسك بهذا الحق واستعماله وعلى ألا يسلب منهم حتى لا تقوم كسروية أو قيصرية فيهم.

فاجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لينظروا فيمن يتولى أمر المسلمين منهم، وقد ظنوا أنهم أصحاب الدار، وأن المهاجرين طارئون فيها عليهم، فهم أحق بأمر الحكم فى المسلمين منهم، وقد فاتهم أن الإسلام لا يعرف حدود الدار، ولا يعرف حدود القومية، وإنما هى المصلحة العامة للمسلمين جميعا.

ولما علم أبو بكر رضى الله عنه باجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة ذهب إليهم فى نفر يعد على الأصابع من المهاجرين، ودار النقاش بين الفريقين فيمن يولونه على المسلمين فى حرية تامة وفى إخلاص تام حتى اتفق الفريقان على تولية أبى بكر رضى الله عنه، فتمت توليته باختيارهم له، وعلى هذا الأساس كانت شرعية الحكم للشعب.

وقد اعترف سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بهذا الحق فى أول خطبة له عقب توليه الحكم، وأعلن أن حكمه سيكون بتوجيههم له فقال: أيها الناس: إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوى فيكم ضعف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له.

وليس أصرح من هذا الاعتراف فى خطبته رضى الله عنه بأن شرعية الحكم للشعب، وأن الأمة هى مصدر السلطات؛ لأنه اعترف بأن توليه الحكم كان منحة منها له، وبأنه لم يستحقه لفضل له على أفرادها؛ لأنه قد يكون فيهم من هو خير منه. ولهذا طلب منهم أبو بكر مشاركتهم له فى حالتى إحسانه وإساءته فى الحكم لأنه يجتهد فيه برأيه فيصيب ويخطىء مثل كل مجتهد.. ومشاركتهم فى حالة الإحسان فى الحكم بإعانتهم له، ومشاركتهم له فى حالة الإساءة فى الحكم بتقويمهم له، فإذا لم يخضع لتقويمهم فلهم حق عزله، كما لهم حق توليته، لهذا تكون شرعية الحكم للشعب، وأن الأمة هى مصدر السلطات أولا وأخيرا فى الحكم.

إن الولاية مسئولية كبيرة، أعباؤها جسيمة، وأوزارها ثقيلة، وحسابها عند الله عسير.. وإنها أمانة يتحمل الحاكم تبعاتها أمام الله، من فرّط فيها ولم يعطها حقها فويل له من يوم عظيم بأسه شديد، وحسابه عسير:

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

«الحج: ٢»

وأن الحاكم راع وهو مسئول عن رعيته كلها - لا عن فصيل واحد - كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» ولقد أدرك سيدنا عمر بن الخطاب مسئولية الرعية وعرف عموم مسئوليتها فقال كلمته المشهورة: لو أن بغلة عثرت بأرض العراق لسألنى الله عنها يوم القيامة لِمَ لَمْ أسوِّ لها الطريق؟

ويصف لنا رسول الله ﷺ الإمارة فى الحديث الذى يرويه عوف بن مالك رضى الله عنه فيقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة، وما هي؟ فناديت بأعلى صوتي: وما هى يا رسول الله؟ قال: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل، وكيف يعدل مع قريبه».

ولثقل مسئولية الولاية والخوف من عاقبتها عافها كثير من الصحابة وابتعدوا عنها فقد روى عن أبى وائل شقيق أسامة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل بشر بن عاصم رضى الله عنه على صدقات هوازن فتخلف بشر، فلقيه عمر، فقال له: ما خلفك؟ أما لنا سمعا وطاعة؟ قال: بلي، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر «انشق» فهوى فيه سبعين خريفا قال: فخرج عمر رضى الله عنه كئيبا محزونا، فلقيه أبو ذر رضى الله عنه فقال: مالى أراك كئيبا حزينا؟ فقال: مالى لا أكون كئيبا حزينا؟ وقد سمعت بشر بن عاصم يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفا، فقال أبو ذر: أو ما سمعته من رسول الله ﷺ قال عمر: لا فقال أبو ذر أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولى أحد من المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جنهم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفا، وهى «جهنم» سوداء مظلمة فأى الحديثين أوجع لقلبك؟ قال: كلاهما قد أوجع قلبي، فمن يأخذها «الولاية» بما فيها؟ فقال أبو ذر: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، أما إنا لا نعلم إلا خيرا، وعسى إن وليتها من لا يعدل فيها أن لا تنجو من إثمها.

الإسلام يا سادة ليس عبادات تؤدى لا تحقق غايات مقاصدها.

الإسلام يا سادة ليس صلوات تؤدى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فلنتذكر جميعا حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذى يرويه لنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة: عدل ساعة أفضل عند الله تعالى من عبادة ستين سنة: قيام ليلها وصيام نهارها، ويا أبا هريرة: جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله تعالى من معاصى ستين سنة».

طرائف.. ومواقف

الشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حكم نبوية

لعيسى - عليه السلام- في كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين:

«اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل، وكلوا بقل البرية.. واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين».

وقال - عليه السلام- «لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى، فأرحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية».

وقال - عليه السلام - لحوارييه: «عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل».

وقال عليه السلام: «ألا أخبركم بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من تذكركم بالله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقه، ويسوقكم إلى الجنة عمله».

العالِمُ!!

على العالم أن يحفظ علمه وكرامته، وأن يحصن دينه وسمعته وأن يعز نفسه بإعزازه، وأن يكرر النظر في مثل كلام القاضي الجرجاني الذي يقول فيه:

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

سعة الصدر

هجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمي المدني الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو من هو علما وعملا وشرفا، فقال فيه:

له حق وليس عليه حق
ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا
عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة، فأتاه أبو عاصم الأسلمي المذكور، متنكرا في زي الأعراب، وأنشده قوله فيه:

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد
وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل مذ غاب عنها
أبو حسن تعاديها الدهور

هما أبواك من وضعا فضعه
وأنت برفع من رفعا جدير

فقال له الحسن: من أنت؟ فأجابه أنا الأسلمي.

فقال له الحسن: إذن حياك الله، وبسط له رداءه، وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ولم يلمه بكلمة عما قال فيه.

حقا

• وغير تقي يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوي الناس وهو سقيم

• وزاده كلفا بالحب أن منعت
وحب شئ إلى الإنسان ما منعا

• جراحات السنان لها التئام
ولا يلتام ما جرح اللسان

الراعي والرعية

كان الرشيد في بعض غزواته، فألح عليه الثلج ليلة، فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين، أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ووعثاء السفر، والرعية قارة وادعة نائمة.

فقال: اسكت فللرعية المنام وعلينا القيام ولا بد للراعي من حراسة الرعية وتحمل الأذية

الذكرى الطيبة

ثناء الفتى يبقى ويفنى ثراؤه
فلا تكتسب بالمال شيئا سوى الذكر
فقد أبلت الأيام كعبا وحاتما
وذكرهما غض جديد إلى الحشر

السيادة

• نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير، فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه، فسمعته أمه هند، فقالت ثكلته إذا لم يسد غير قومه.

• ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر، وكانت به دمامة شديدة، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

فقال ضمرة: أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإن قال قال ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان

قال النعمان: صدقت وبحق سودك قومك.

حقيقة

حكى الأصمعي قال: مر بي أعرابي سائلا، فقلت له: كيف حالك؟ قال: أسأل الناس إلحافا فيعطوني كرها، فلا يؤجرون على ما يعطوني، ولا يبارك لي فيما آخذ.

ليس مثل أبيه

ذهب ثري كبير إلى أحد الفنادق، وطلب حجز حجرة له، فدهش صاحب الفندق، وقال للثري: إن ابنك عندما ينزل في فندقنا يحجز أفخم جناح بكامله، فهز الثري كتفيه قائلا: إن لابني أبا من أصحاب الملايين، أما أنا فليس لي مثل أبيه.

دعاء

اللهم لا تجعلنا موضع شفقة عبادك، بل اجعلنا موضع شفقتك أنت يارب، ولا تجعلنا محط الإحسان من خلقك، بل موضع الإحسان منك أنت يارب، واجعلنا دائما وأبدا بك ومعك وإليك، فلا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك يارب.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

وطنى لو شُغِلتُ بالخُلدِ عنهُ   لنازعتنى إليه في الخُلدِ نفسى

تشرق الخميلة في هذا العدد الوضيء من مجلتكم (الأزهر) الغراء ، إشراقة الأمل في غد رغد يحدوه السلام والمودة ، على كل ربوع ومسالك وطننا الحبيب مصر ، وفى رفعة شأن لكل المصريين العاشقين لترابها والساعين إلى حفظ استقلالها وسلامة أرضها وشعبها ، بلا تفريق ولا تمييز ، اللهم احفظ مصر ، أم الدنيا .

قصيدة: الخالد الميت أو: خلود الجسد

للأستاذ / عباس محمود العقاد

الموت آفة الحياة ، ومن الناس من يظن أنه إذا تغير جثمانه بحيث يأمن الموت امتدت به لذات الحياة امتدادا لا نهاية له ، وهو خطأ ظاهر لأن جميع لذات الحياة مبنية على خلق الجسد فى هذا التكوين الذى يدور بين النماء والتحول والانحلال ، فإذا بطل هذا النظام فلا موضع فى الحياة لإحساس من تلك الإحساسات التى تتردد فى قلوبنا وخواطرنا لأننا نقف فلا ننمو ولا نتحول ولا نخشى الانحلال بل لا نتأثر بشىء يحيط بنا على الصورة التى يتأثر بها الأحياء ، وهذا هو الموت بعينه ، وهذا موضوع قصيدة الميت الخالد أو الخلود بالجسد :

تودُّ الخلود ولا تحذرُ
أأنت المخيّرُ أم تُجبرُ
تحب الحياةَ ولكنْ ما
تحب هو الموتُ أو أكبرُ
وكم من فتى خالد قد عرفـ
ـتُ ، إذا صح فى الوهم ما يحزرُ
فتى لو تراهُ لألفيتَهُ
يود الفناء وما يشعُرُ

كأهل القبور سوى أنه
بقيد الحياة فلا يقبرُ
له من أمان ومن عزلة
ضريحٌ يسيرُ به مضمرُ
فلا هو حىٌّ ولا ميّتٌ
ولا الكونُ من حوله يعمرُ
إذا الليل أدركه والضحى
تساوى المُحجَّبُ والمُسفرُ

وإن صوّحت روضةٌ أو زكتْ
فقد أشبهَ المُجدبُ المُثمرُ
وإن خطرت حوله الحادثا
تُ ثناها الجمود فلا تخطرُ
كذلك مات ويدعونه
فتى الخلد من حيث لم يصرروا
وكم قد عرفتُ فتى خالدا
إذا شكر الناس لا يشكرُ
مخيفا ولكنه لا يخا
فُ ولا يتمنى ولا يذكرُ
وليس يحب صباحَ الوجو
ه وليس له أمةٌ تنصرُ
وكيف يخاف الذى لا يمو
تُ ؟ وفيم الرجاءُ وما يحذرُ ؟
وهل يألف الذكرَ من أمنُهُ
كأيامه كلها ، مصفرُ
وما الحب إلا ابتغاء الدوا
مِ فمن دام لا يصبه الأحورُ
ويستعمر أمته من له
على جذعها المنبت الأخضرُ
فأما الذى أبواه الزما
ن فهيهات ليس له معشرُ
كذلك كان ربيب الخلو
دِ وكانت تمر به الأعصرُ
تقضت علاقاته كلها
وقالوا تعلّقَ لا يبترُ
ويهلك عدة أنقاسه
وقد حسبوا أنه يُنشَرُ
حياةٌ له مثل عين الضرير
يليها الضياء ولا يظهرُ
مقصرةٌ عن جمال الدنى
وعنها جمال الدنى مقصرُ

كأن النفوس بغير الشيا
ت صخورٌ تضمنها محجرُ
فلا هى صيغت لها طلعة
ولا ما زها اللون والجوهرُ
فيا أيها المرتجى الدوا مَ
، يدوم الجمادُ ولا يفخرُ
وواعجبا كيف تهوَى الخلود
وأنت من اسم الردَى تنفرُ
هل الموتُ إلا فناء الشعور؟
وهذا الخلود الذى تؤثرُ
رويدك إنك أنت الحياةُ
وفيها محيطك والمحورُ
وشاوك منها كما تشتهى
وحظك منها كما تقدرُ
بروج السماوات فى طيها
وما غاب عنها وما يحضرُ
ومن خلف ذلك أغوارها
مذاهب النقص لا تحصرُ
فحسبك هذا وأعظم به
وأصغرْ بمن عنده يصغرُ
إذا أنت لم تدرِ مقدارها
فكيف لما فوقها تنظرُ
وإن رمت يا صاح تكبيرها
فبالعمق لا بالمدى تكبُرُ

قصيدة: على رُبى عرفات

للشاعر / محمد حسن داوّد

شوقى إلى عرفات شوقُ المُغرمِ
كالطائر الظمآن ملهوف الفم
أسفى على العُمْر الذى ولّى ولم
أجمعْ من الخيرات غيرَ الدرهم
يارب هذا الحمْلُ أرهقنى فجُـد
لى بالرضا وأنرْ بصيرةَ مُسلم

حتى أعود إلى الهداية و التقى
وأفرّ من كهف الضياع المُظلم
قد أشرقت روحي بنور غامر
وسبحتُ في الرحمات عبر ترنّم
يا واحة الإيمان جئتك نادماً
ولكم أحنّ لفضلك المستعصم
ما غاب عن حسّي يقينٌ خالدٌ
أن الفضيلة للمكارم تنتمي
روّضتها بالطُهر عبر مراحل
وجنيت بالأخلاق أوفر مغنم
ما كنتُ للشهوات عبداً طائعاً
فالنفس إن أطلقتها لم أسلم
وانسلّ قلبي من براثن غفلة
وأتيتُ أسعى في رحاب المُنعم
لمّا دعاني الله لبيتُ الندا
في فرحة ولبستُ ثوب المُحرم
فالحج فرضٌ واجب في ديننا
إن كنت ميسوراً تعيش بأنعم

من أفضل الأعمال حج طيّبٌ
يمحو الذنوب لكل عاصٍ مُجرم
كان الثوابُ هو الجنان وخلدها
والروح قد نشطت بأطهر بلسم
(لبيك ربي) أصبحت أنشودةً
هتف الحجيج بها ، بأطهر مقدم
وأطوف حول البيت مُبتهلاً على
شوق المحب بقلبه المتضرم
و تعددت تلك المناسك والخُطى
وهرعتُ أشربُ من أطايب (زمزم)
أمل تحقق لا يقاس بمتعة
في صحبة المولى الكريم الأكرم

من قصيدة: (الأعمى!)

للشاعر الأستاذ عبدالحميد السنوسي

أيشكو الورى مثلي عمى يسترقهم
أم الناس منهم مبصرٌ و ضريرُ؟
وهل يُشترى ذاك الضياءُ فأشتري
ضياءً يُريني الكونَ وهْوَ منيرُ
لرُمتُ اجتلاء الشمس وهْي مُضيئةٌ
فأرجعُ والطرفُ الحسيرُ حسيرُ
وما لي وإن طال التعلّل والمُنى
من الشمس إلا لفحةٌ وهجيرُ
تصبّي من الورد الندىّ اشتمامةٌ
وحظّي من حسن الطيور هديرُ
وهيهات لا يُجديك شمٌّ ومسمعٌ
إذا ما خبا بين المحاجر نورُ
وحدثتموني عن بدورٍ وأنجمٍ
تألّقُ في جيد الدُجى وتنيرُ
تزيّنُ أرجاء السماء بهيةً
وتسبحُ في أجوائها وتسيرُ
ويغمرها الفجرُ المضيءُ بنوره
فتفرقُ منه رهبةً وتغورُ
لأن ظلام العين يشتد كلما
تقضّتْ شهورٌ، إثرهُنَّ شهورُ
فمن لي بنجم أهتدى بضيائه
فنجماي غاراً والشباب طريرُ
أديرهما والدمعُ قد جفّ فيهما
وأبكيهما والدمعُ ليس يحورُ
أليس عزيزا أن تُحجبَ عنهما
محاسنُ هذا الكون وهي كثيرُ
وكم مُبصرٍ في الناس قد عاش عُمرهُ
ضريراً، وإنْ قال الأنامُ: بصيرُ!

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ. محمد جمعة

حريق الأقصى مستمر

تحت هذا العنوان جاء "رأى الدستور" المنشور بجريدة الدستور الأردنية الصادرة بتاريخ ٢٢/ ٥/ ٢٠١٣ يقول:

الحريق الذي نفذه اليهودي المتطرف دينيس مايكل روهان في ٢١ أغسطس / آب ١٩٦٩م، وأتى على أكثر من ثلث المسجد، وخاصة منبر صلاح الدين الأيوبي، كان حادثاً متعمداً، ولم يكن حادثاً فردياً ارتكبه مجنون كما صورت ذلك آلة الإعلام الصهيونية ومن لف لفها، ويأتي ضمن النهج الصهيوني القائم على تقويض المسجد وإقامة الهيكل المزعوم مكانه..

وفي هذا السياق، فإن الأحداث التي تعرض لها المسجد طوال السنوات الماضية تؤكد أن العدو بقي وفياً لنهجه، مستغلاً الأوضاع الفلسطينية البائسة والعربية المتردية، والدعم الأميركي اللامحدود، فمضى في شق الأنفاق بحجة البحث عن الآثار، مما أدى إلى تشقق الأساسات والأعمدة القائم عليها المسجد، ما يعني إمكانية انهياره إثر زلزال خفيف، كما يقول المهندس رائف نجم نائب رئيس لجنة إعمار الأقصى.

ولم يتوقف العدو عند هذا الحد، بل مضى في تهويد المنطقة المقام فيها المسجد، فهدم الأبنية الوقفية المحيطة به، وأقام أكثر من "١٦" كنيساً توراتياً، وجرف المقابر، وخاصة مقبرة مأمن الله، وهدم تلة باب المغاربة، وها هو يعمل على إقامة جسر يربط بين ساحة البراق والتي يسميها زورا وبهتانا "المبكى" وباب المغاربة ما يسمح بعبور أعداد كبيرة من الجنود وزرعاع المستوطنين. تدنيس الأقصى والذي يتزامن مع إجراءات العدو لتهويد القدس، وإعلانها عاصمة إسرائيل اليهودية ٢٠٢٠ م تهدف بالدرجة الأولى إلى إرهاب المصلين، وترويعهم لاقتسام المسجد كمرحلة أولى تمهيداً لتقويضه، وإقامة الهيكل بعد أن تم انجاز المخططات الهندسية، امتثالاً لمقولة مؤسس كيان العدو الصهيوني بن غوريون "لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل".

في الذكرى الرابعة والأربعين لحريق الأقصى على يد الصهاينة المجرمين، نجزم أن هذا الحريق مستمر لم يطفيء، بدليل أن العدو ماض في تنفيذ مخططاته لتهويد أولى

القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وها هو يعمل على "شرعنة" تدنيس الأقصى، بتشريع قانون يوافق عليه الكنيست؛ يعطي لليهود الحق في دخول المسجد متى يشاؤون..!!! إن حريق الأقصى سيبقى مشتعلاً حتى تصحو الأمة من سباتها العميق، وتكنس خلافاتها وتوحد صفوفها، وتتصدى لأخطر احتلال عرفه التاريخ.. وعرفته القدس وحينها تفرح القدس والأقصى والمؤمنون بنصر الله.

البيئة الفلسطينية

نشر موقع الإسلام اليوم عرض للأستاذ/ محسن صالح عن كتاب: «معاناة البيئة والفلاح الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي» بتاريخ ٢٠١٣/٨/١٤م جاء فيه:

يحاول كتاب «معاناة البيئة والفلاح الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي» -الذي أعدته فاطمة عيتاني ونظام عطايا- تسليط الضوء على معاناة الفلاح الفلسطيني، بسبب انتهاكات الاحتلال، وتأثير هذه الانتهاكات على البيئة الفلسطينية بشكل عام.

كما يستعرض الكتاب أبرز التشريعات والقوانين الفلسطينية والدولية الخاصة بحماية البيئة، ويتناول الكتاب أثر المستعمرات الإسرائيلية على البيئة الفلسطينية، والتي تعد من أبرز مظاهر التشويه للبيئة الفلسطينية، حيث إنها تسيطر على الموارد الطبيعية، ويستعرض كيف تمارس "إسرائيل" فرض سياسة الأمر الواقع، إلى جانب هذا كله تحتل المياه الفلسطينية موقعاً مهماً من الاستراتيجية الإسرائيلية، فهي ركيزة أساسية من ركائز نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين. ويبين الكتاب أن السيطرة الإسرائيلية على مصادر المياه في المنطقة، وما تستنفذه "إسرائيل" من مياه جوفية وسطحية من الضفة الغربية وقطاع غزة؛ يفوق كمية المياه الواردة والمغذية للخزان الجوفي، الأمر الذي جعل الخزان الجوفي يعاني من العجز والتناقص في كمية المياه التي يحتويها، وهو ما يهدد الحياة الحيوانية والنباتية، ويزيد من ملوحة التربة؛ هذا بالإضافة إلى المعاناة التي سيواجهها السكان الفلسطينيون في حياتهم اليومية.

ويتحدث الكتاب عن الاعتداءات الإسرائيلية على الزراعة الفلسطينية؛ من مصادرة للأراضي، وبناء المستعمرات، وشق الطرق، وإغلاق المناطق الزراعية، لأسباب أمنية أو عسكرية، وتحويل مناطق واسعة لمحميات طبيعية ليتسنى لـ"إسرائيل" إمكانية مصادرتها لاحقاً.

في رحاب طه حسين

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ محمد عبدالمطلب المنشور بمجلة الدوحة عدد ٦٨ يونيه ٢٠١٣م يقول:

وما أرويه اليوم، أرويه عن مصدر ثقة، هو المرحوم الدكتور مصطفى ناصف أحد أهم تلامذة طه حسين الذين لازموه زمناً طويلاً، وفي جلسة لي معه عام ١٩٩٧م فتح ذاكرته على بعض ذكرياته مع أستاذه، وهي ذكريات لم ينشرها في أي من كتبه.

وسوف أختار مما رواه بعض ما أحب أن يطلع عليه القراء.

يروي ناصف أن أحد الأشخاص سأله يوماً: ما الحدث أو الموقف الذي أسفت عليه أشد الأسف؟ فأجاب: (يوم أن ألقيت عمامتي في البحر) والكناية هنا واضحة، إذ المقصود: مرحلة البدايات في مسيرة طه حسين، وهي مرحلة مليئة بالتمرد، وفي إطار هذا التمرد كان رفضه للتراث على نحو مؤقت.

ولا شك أن حبه للتراث قد ارتبط ببدايته التعليمية في الأزهر، وكيف سكن الأزهر عقله ووجدانه، في إحدى المرات كان يلقي محاضرة عن التعليم الجامعي، وكان بين الحضور (لطفي السيد) مدير الجامعة آنذاك، فبدأ المحاضرة بتحيته، ثم انتقل للحديث عن التعليم الجامعي في الأزهر، ولم يعرض له في الجامعة الأهلية التي أصبحت (جامعة فؤاد) حيث كشف عن القيمة العلمية التي قدمها علماء الأزهر، موضحاً أن مؤلفاتهم لا تقل في قيمتها العلمية عن مؤلفات العلماء في جامعات العالم.

وبالرغم من ذلك فقد تكاثرت الطعون في عقيدته حتى رماه البعض بالكفر، ولم تشفع له مؤلفاته الإسلامية، مثل: (مرآة الإسلام وعلى هامش السيرة، والوعد الحق، والشيخان، والفتنة الكبرى)؛ وفي هذا السياق يروي ناصف أنه بعد عودة طه حسين من أداء فريضة الحج، سأله أحد الصحفيين: عن الدعاء الذي توجه به إلى الله في طوافه وفي وقوفه أمام الكعبة، فقال: (عجبت لأناس يريدون أن يدخلوا بين العبد وربه).

وكثيراً ما كان يردد - في حضور ناصف - تقصير علماء الإسلام في شرح الإسلام والدعوة إليه.

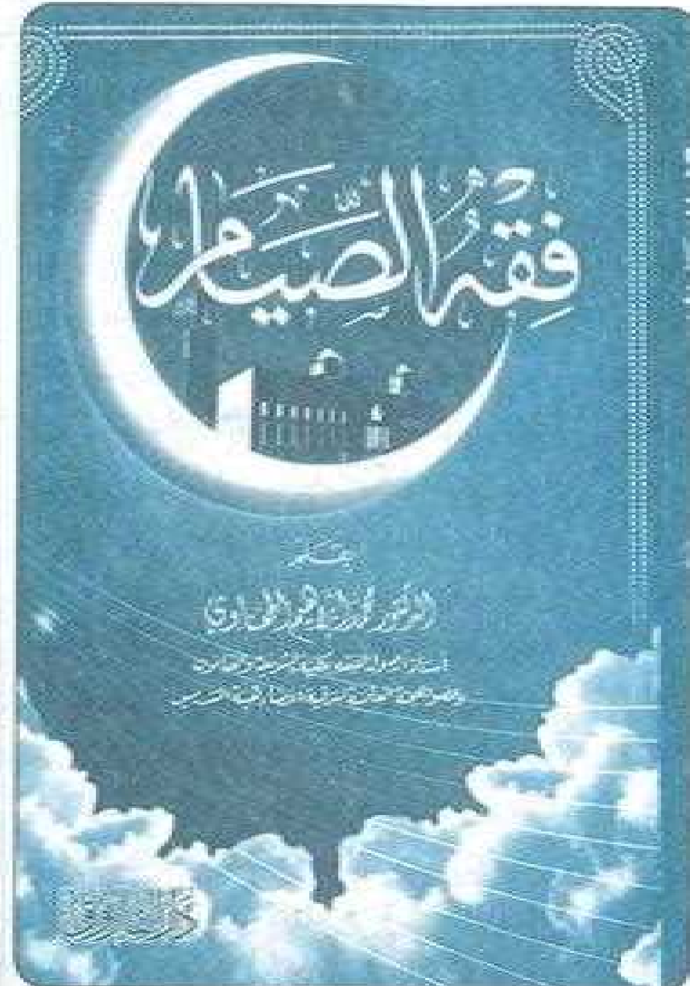
وعلى هدى من عقيدته الدينية والثقافية لم يتقبل أي تزييف للحقائق، أو أن يدعي إنسان ما ليس من حقه، ويذكر ناصف أن أحد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة قدم له طلباً في أمر يخصه، ووقع على الطلب: (الأستاذ الدكتور فلان) وكان صاحب الطلب أستاذاً مساعداً لا أستاذاً، فكتب طه معلقاً على الطلب بموجز من الكلام يغني عن كل تفصيل: (إن هذا احتيال لا يليق بالعلماء).

وهذا الموقف الأخلاقي كان خصيصة غريزية في طه حسين، فعندما كان وزيراً للمعارف في عام ١٩٥٠م جاءه سكرتيره يخبره أن (أحمد مصطفى عمرو باشا) يريد مقابلته في أمر يتعلق بتلميذ يريد إلحاقه بإحدى المدارس الحكومية، فقال له: وما حاجة الباشا إلى مدارس الوزارة، إن في وسعه أن يرسله على نفقته الخاصة إلى أوروبا، واعتذر عن عدم المقابلة.

وبعد قليل جاءه السكرتير يخبره أن أحد الجنود السودانيين يطلب المقابلة من أجل إلحاق ابنه بإحدى المدارس الابتدائية التي رفضت قبوله لكبر سنه، فقال طه للجندي: ولماذا لا تدخله مدرسة روض الفرج، فهي تقبل كبار السن، فقال الجندي في سذاجة: (ودنك منين ياجحا؟ وأجيب أجرة الترماي منين؟)، فإذا بطه يهاتف ناظر مدرسة شبرا ليطلب منه قبول هذا التلميذ استثناء.

لقد كان هذا الخلق الإنساني سليقة في (عميد الأدب العربي)، وهو اللقب الذي عرف به طه حسين، وفي مقابلة لي مع المفكر التونسي الكبير (محمود المسعدي) في بيته بتونس عام ١٩٩٧م، قال لي: لقد ظلمتم طه بهذا اللقب، ذلك أن اللقب الذي يستحقه، هو: (عميد الثقافة العربية).

قراءة فى كتاب



يقـول صاحب اللباب فى شـرح الكتـاب : «الصوم ضربـان : واجب ونفـل ، فالواجـب ضربـان : منه ما يتعلـق بزمان بعينـه كصوم رمضان والنـذر المعيـن..... والضـرب الثانـى ما يثبت فى الذمـة كقضاء رمضان والنذر المطلق والكفارات ، فلا يجـوز إلا بنية من الليل ، والنفل كلـه يجـوز بنيـة قبـل الـزوال . ثم يقـول : وينبغى للناس أن يلتمسـوا الهلال فى اليوم التاسـع والعشرين من شـعبان ، فإن رأوه صامـوا ، وإن غـم عليهـم أكملـوا عـدة شـعبان ثلاثيـن يومًا ثـم صامـوا ، ومن رأى هلال رمضـان وحده صـام ، وإن لم يقبـل الإمـام شـهادته ، وإذا كان بالسـماء علـة قبـل الإمام شـهادة الواحـد العدل فى رؤية الهلال رجلًا كان أو امرأة ,حـرًا كان أو عبدًا ، فإن لم يكن بالسماء علةٌ لم تقبل شهادته حتى يراه جمعٌ كثيـرٌ يقع العلم بخبرهـم" (١) . والمتأمل لهذا النص يعلم أن الأصل بقاء الشـهر ، ولا ينتقل عنه إلا بدليل ، والتماسـا لهذا الدليل يقـدح العلماء زناد أفكارهم ,وهو ما سـتراه فى هذا الكتاب «فقة الصيام»

فـى العدد الماضى قدمنـا للقارئ الكريم قراءة فى كتاب "فقه الـزكاة" وبينا أنه يضم قـدرًا كبيرًا من الفتـاوى جميعها يدور حول موضوع واحد هـو زكاة المال وزكاة الفطر ،

بقلم أ. عادل جناحة

وأوضحنا أن سبب اختيارنا للكتاب هو ميل أغلب القراء إلى الحصول على إجابة مباشرة لتسـاؤلاتهم مخافـة الوقـوع فـى الخطـأ ، ونواصـل فـى هـذا العدد السـير فـى نفس الاتجاه من خلال عرض كتاب "فقه الصيام" .

مؤلف الكتاب

هـو الأسـتاذ الدكتـور محمـد إبراهيـم الحفناوى أستاذ أصول الفقه بكلية الشريعة والقانـون وعضـو اللجنـة العلميـة الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس .

(١) اللباب فى شرح الكتاب ج ١ ص ١٦٨

تولى رئاسـة قسـم أصول الفقـه بالكلية اعتبارا من ٢١ / ٦ /١٩٩٨م

وله العديد من الأبحاث والمؤلفات نذكر منها :

١ - دراسـات أصولية فى القرآن الكريم ، دار الحديث ط (٢) ، دار الإشـعاع ط (٢) ، دار الوفاء ط (٣) .

٢ - دراسـات أصولية فى السـنة النبوية ، دار الحديث ط (١) ، دار الإشـعاع ط (٢) ، دار الوفاء ط (٣) .

٣ - إرشـاد الأنام إلى معرفة الأحكام ، دار البشير ، ط (٢) .

٤ - إتحـاف الأنام بتخصيـص العام ، دار الحديث ط (١) .

٥ - أثـر الإجمـال والبيـان فـى الفقـه الإسـلامى ، دار الوفـاء ط (١) ، دار قريـة ط (٢) .

٦ - تبصيـر النجبـاء بحقيقـة الاجتهـاد والتقليد والافتاء ، دار الحديث ط (١) .

٧ - تذكيـر الناس بمـا يحتاجون إليه من القياس ، دار الحديث ط (١) .

٨ - فقه الصلاة ، دار الحديث ط (١) .

٩ - فقه الزكاة ، دار الحديث ط (١) .

١٠ - فقه الصيام . دار الحديث ط (١) .

١١ - فقـه الحـج والعمـرة ، دار الوفـاء ط (٢) .

ويمكـن للقـارئ الاطـلاع علـى المزيد من مؤلفاته بالرجـوع إلى موضـوع (قراءة فى كتـاب «فقه الـزكاة») المنشـور بالعدد الماضى .

أسباب تأليف الكتاب:

يشير المؤلف إلى أنـه قصد مـن وراء تأليفه لهذا الكتاب تقديم كل ما يحتاج إليه الصائم من أحكام ، ليكون صومه صحيحًا مقبولاً إن شاء الله .

الكتاب:

يقـع الكتاب فى ثلاثمائة وسـبع عشـرة صفحة من مقاس ١٧ X ٢٤ سم

وقد صدر فى طبعته الأولى عن دار الفاروق بالمنصورة - مصر سنة ٢٠١٣ ،

ويتضمن الكتاب العديد من الموضوعات جاء بعضها كتقديم مثل : الصيام فى القرآن ، والصيـام فـى السـنة ، وتعريـف الصيـام ، وحكمة مشروعية الصيام ، ومتى فرض صوم رمضـان ، و مراحـل تشـريع الصيـام ، وهل فـرض على المسـلمين صيام قبـل رمضان ؟ بالإضافة إلى العديد من الموضوعات التى لا غنى عنها لاستكمال الموضوع .

ثم جاء ما يقرب من ثلاثمائة عنوان للكلام عن أحكام فقهية ؛ ليخرج الكتاب فى شكل مجموعـة من الفتاوى يحسـن بطلاب العلم الاطلاع عليها نذكر منها :

حكـم إثبات الهلال بالحسـاب الفلكي ، علـى مسـلمى كل دولـة الالتزام بمـا يقول مفتيها ، حكم المغمى عليه ، لو نوى الصيام ثـم طرأ عليـه الإغمـاء ، انقطاع الـدم أثناء النهـار ، تنـاول حبـوب تؤخـر الحيـض ، ما يفسـد الصـوم ، حكـم الفطر عمدا ، حكـم من أكل ناسـيا ، حكـم من جامـع زوجته فى نهار رمضـان ، هـل الكفارة واجبة على الترتيب ؟ ، الحكمـة من وجـوب الكفارة ، هـل الكفارة علـى الـزوج وحـده ؟ مـا الحكـم إذا عجـز الإنسـان عن خصـال الكفارة ؟ هل يشـترط الإنـزال فى الجماع لكـى تجب الكفارة ؟ ما حكـم من جامـع ناسـيًا أنه فى رمضـان ؟ حكـم

من جامع زوجته في يومين في نهار رمضان؟ أفطر بالأكل قبل أن يجامع، من جامع في نهار رمضان ثم سافر، من جامع ظانا أن الفجر لم يطلع، إخراج المني لأغراض علاجية، حكم القبلة للصائم، من أصبح جنبا وهو صائم، هل يفسد القيء الصيام، السفر بالوسائل الحديثة، مسافة السفر، متى يفطر المسافر، الفطر في الجهاد من غير سفر، السائق والطيار والبحار، المريض والصوم، الصوم والشيخ الكبير، بخاخ الربو، من غلبه الجوع والعطش، فطر الحامل والمرضع بسبب المرض أو السفر، من أفطر لإنقاذ آدمي، من يمتهن الأعمال الشاقة، الحقن والصيام، اللبوس والصيام، الحقنة الشرجية والصيام، منظار المعدة، كشف أمراض النساء، تحليل الدم للصائم، التبرع بالدم، أدوية ما تحت اللسان، خلع الضرس، غسيل الكلى، ابتلاع الريق، مضغ الطعام للطفل، صوم البنت مع عدم الحجاب، الصوم وترك الصلاة، إفطار الطلبة في رمضان، الصوم في المناطق القطبية، نية إبطال الصوم، التشوق والصوم، الرجوع إلى مصر يوم ثلاثين رمضان، صيام تسع ذي الحجة، صوم يوم عرفة، صوم شعبان، صوم ثلاثة أيام من كل شهر، صيام الإثنين والخميس، صوم الأشهر الحرم، إفراد رجب بالصوم، صوم عاشوراء، ما المطلوب يوم عاشوراء؟ التوسعة على الأولاد يوم عاشوراء، بدع عاشوراء، صوم يوم وإفطار يوم، إتمام الصوم المندوب، الصيام المحرم: صيام يومي العيد، صوم أيام التشريق، صيام المرأة تطوعا بغير إذن زوجها، إذا نذر الاعتكاف في مسجد بعينه، خروج المعتكف لأداء الشهادة، اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، فضل ليلة القدر، أي ليلة هي..

ونقدم للقارئ بعضا من هذه الفتاوى التي نرى شدة طلب القارئ لها لاتصالها بأمور ومستجدات العصر.

فعن حكم إثبات رؤية الهلال بالحساب الفلكي يقول المؤلف:

"ذهب بعض الفقهاء إلى عدم الاعتداد بالحساب الفلكي في إثبات الهلال معتمدين في ذلك على قوله ﷺ: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"، وبأن الناس لو كلفوا بذلك لترتب على ذلك مشقة لهم؛ لأنه لا يعرف الحساب الفلكي إلا عدد قليل من الناس.

والحق أن الحديث المذكور لا يجوز الاحتجاج به هنا؛ لأنه يتحدث عن حال الأمة في صدر الإسلام، وهذه الأمية المذكورة في الحديث ليست أمرا لازما مصاحبا الأمة إلى أن تقوم الساعة، وقد اجتهد ﷺ أن يخرجها من أميتها بتعليم الكتابة، وبدأ بذلك منذ غزوة بدر حين لم يجد بعض الأسرى ما يفدون به أنفسهم، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فكان كل من يعلم عشرة من الغلمان القراءة والكتابة يفدي نفسه.

والحساب الفلكي اليوم شيء غير التنجيم أو علم النجوم المذموم في الشرع، ولا يظنن ظان أن المراد بالحساب الفلكي هو حساب التقويم أو النتائج التي تطبع وتوزع على الناس، وفيها مواقيت الصلاة وبدايات الشهور ونهايتها؛ لأن هذه التقاويم تختلف

بين بعضها وبعض، فمنها: ما يجعل شعبان ناقصا، ورمضان كاملا، ومنها العكس، فهي لا تقوم على علم يقيني؛ لأن اليقين لا يعارض بعضه بعضا.

إن المراد بالحساب الفلكي هو الذي يقرره علم الفلك الحديث، القائم على المشاهدة والتجربة والذي غدا يملك من الإمكانات العلمية (التكنولوجية) ما جعله يصل بالإنسان إلى سطح القمر، ويبعث بمراكز فضائية إلى الكواكب الأخرى الأكثر بعدا، وغدت نسبة احتمال الخطأ في تقديراته تصل إلى (١ : ١٠٠٠٠٠) واحد إلى مائة ألف في الثانية، وأصبح من أسهل الأمور عليه أن يخبرنا عن ميلاد الهلال فلكيا وعن إمكان ظهوره في كل أفق بالدقيقة والثانية؛ لذلك رأى بعض الفقهاء كالشيخ أحمد شاكر، والشيخ رشيد رضا، والشيخ مصطفى الزرقا الأخذ بالحساب الفلكي؛ لأن الأمة الآن صارت قادرة بنفسها على إثبات الشهور بالحساب العلمي الدقيق، بل صرح الشيخ أحمد شاكر بأن على الأمة أن تعتمد على الحساب بدل الرؤية.

وقد صرح الشيخ تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) بالاعتماد على الحساب الفلكي في النفي لا في الإثبات بمعنى أن الحساب الفلكي لو نفى رؤية الهلال، وقال إنها غير ممكنة فيجب الأخذ بقوله، وعدم قبول شهادة الشهود بحال؛ لأن الواقع – الذي أثبته العلم الرياضي القطعي – يكذبهم، بل عند نفي الحساب رؤية الهلال لا يطلب من أحد ترائيه، ولا تقبل المحاكم أو دور الفتوى شهادة أحد يقول برؤية الهلال.

أما في الإثبات فلا مانع من الاعتماد عليه وعلى الشهود حينئذ، يقول الشيخ السبكي رحمه الله: "... أن يدل الحساب على عدم إمكان رؤيته، ويدرك ذلك بمقدمات قطعية، ويكون في غاية القرب من الشمس ففي هذه الحالة لا يمكن فرض رؤيتنا له حسا؛ لأنه يستحيل، فلو أخبرنا به مخبر واحد، أو أكثر ممن يحتمل خبره الكذب، أو الغلط، فالذي يتجه عدم قبول هذا الخبر وحمله على الكذب، أو الغلط لو شهد به شاهدان لم تقبل شهادتهما؛ لأن الحساب قطعي والشهادة والخبر ظنيان، والظن لا يعارض القطع فضلا عن أن يقدم عليه".

بخاخ الربو

وعن حكم بخاخ الربو يقول المؤلف:

مرض الربو أحد الأمراض التي تصيب الجهاز التنفسي فيؤدي إلى تضييق المجاري التنفسية وحساسيتها الشديدة وبخاخ الربو عبارة عن آلة يستخدمها مريض الربو بها دواء سائل مصحوب بهواء مضغوط بغاز يدفع الدواء من خلال جرعات هوائية يجذبها المريض عن طريق الفم فيعمل كموسع قصبي تعود معه عملية التنفس لحالها الطبيعي ويعتبر هذا البخاخ من النوازل المستحدثة؛ لذلك اختلف الفقهاء في الفطر به على قولين

القول الأول: بخاخ الربو الذي يستعمله مريض الربو أثناء الصوم يعتبر مفطرا فمن استعمله وهو صائم فسد صومه.. وذلك لأن الصوم هو الإمساك، ولا يتحقق الإمساك بدخول شيء ذي جرم إلى الجوف وإلا كان

ركن الصوم متعمدا، وأداء العبادة بدون ركنها لا يتصور والخارج من البخاخ رذاذ له جرم مؤثر، وليس صحيحًا أنه مجرد هواء وإلا لم يكن علاجًا فإن الهواء المجرد يتنفسه المريض وغيره وهذا قول بعض الفقهاء المعاصرين، وأيدته دار الإفتاء المصرية وقطاع الإفتاء بوزارة الأوقاف الكويتية فى فتوى رقم (٧/ ٤٧٢/ ١٩٩٦) ٢/ ٩٢.

وقالوا: عليه بعد الشفاء القضاء، فإن استمر مرضه أطعم عن كل يوم مسكينًا.

القول الثاني: استعمال بخاخ الربو لا يفطر، وهذا قول بعض الفقهاء منهم الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين -رحمهما الله.

وقد استدل أصحاب هذا القول بعدة أدلة منها ما يلي:

الدليل الأول أن ما يحصل من بخاخ الربو لا يعتبر أكلا ولا شربًا فى العادة فإن ذلك يخرجه عن جملة المفطرات فالعبرة بدخول الجرم للجوف اختياريًا.

الدليل الثاني: أن دخول شيء من بخاخ الربو ليس قطعيًا، فقد يدخل وقد لا يدخل والأصل صحة الصوم ولا يزول هذا اليقين بالشك.

وأجيب عن هذا بأنه ثبت من الناحية الطبية أن الذى يصل إلى المعدة من الدواء يقارب الثمانين بالمائة والباقى يذهب للجهاز التنفسي، فلم يعد وصول الدواء للمعدة مشكوكا فيه وكان المزيل لليقين يقين مثله.

الدليل الثالث: بخاخ الربو يدخل من مخرج التنفس لا مخرج الطعام والشراب وعليه فلا يعد مفطرًا فهو يدخل إلى الرئتين مباشرة دون المرور بالحنجرة والحلق وحيث إن الرئة غير موصلة للمعدة بأى حال من الأحوال فإن مجرد دخول البخاخ إلى الرئتين لا يفسد الصوم.

وأجيب عن هذا بأن الفرق بين المخرجين غير مؤثر فالعبرة بالوصول إلى ما يسمى جوفا دون التفات إلى المخرج هذا هو موقف الفقهاء من بخاخ الربو للصائم فالذى يرى أنه من المفطرات يقول: إن كان المريض بالربو مريضًا مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه وعجز عن الصوم فإنه يفطر وعليه الفدية عند الجمهور وعند بعض الفقهاء لا فدية عليه وإن كان المرض مؤقتا فله الفطر وعليه القضاء بعد الفطر.

والذين لا يرونه من المفطرات يقولون بجواز استعماله أثناء الصيام.. والحق أن بخاخ الربو هذا من المسائل المستحدثة التى اختلف فيها فقهاء العصر والأخذ بأى قول منها جائز ما دام لم يعارض نصًا ولا إجماعًا.

وقد جاء فى الندوة الفقهية الطبية التاسعة التابعة للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، والتى انعقدت فى الرباط عام (١٩٩٧) ما يؤيد عدم الفطر ببخاخ الربو، حيث ذهب إلى ذلك أكثر المجتمعين فى الندوة".

الحقن فى الصيام

وعن حكم الحقن فى الصيام يقول:

الحقن إما تؤخذ فى العضل أو تحت الجلد أو فى الوريد وهى أنواع:

١- نوع يؤخذ للتداوي، كخفض الحرارة، أو خفض الضغط أو السكر وهذا النوع اتفق العلماء على عدم الفطر به.

٢- نوع يؤخذ للتقوية، مثل الحقن المشتملة على الفيتامينات بأنواعها أو الكالسيوم، وهذا النوع من الحقن لا يفطر أيضًا؛ لأنها لا تصل إلى داخل البدن من منفذ مفتوح، وليس فيها غذاء للجسم ينافى حكمة الصوم فى الجوع والحرمان.

٣- نوع من الحقن يؤخذ من طريق الوريد، ويقصد بها التغذية، مثل (الجلوكوز).

وهذا النوع اختلف فيه الفقهاء على قولين:

الأول: هذا النوع من الحقن يفطر؛ لأنه يحمل غذاء يصل إلى داخل الجسم، وينتفع به.

وإذا كان الغذاء عن طريق الفم يفطر بإجماع العلماء فإنه ينبغى أن يفطر هذا النوع من الحقن أيضًا؛ لأنه خلاصة الغذاء، ويصل إلى الدم مباشرة.

وهذا القول اختارة الشيخ محمد بن عثيمين- رحمه الله-.

القول الثاني: هذا النوع من الحقن لا يفطر؛ حيث إنه لم يدخل الجوف من منفذ طبيعي مفتوح، بل لم يدخل إلى الجوف أصلا؛ لأنهم يقصدون بالجوف المعدة.

ثم إنه لا يذهب الجوع والعطش، ولا يحس من تناوله بالشبع والري؛ لأنه لا يدخل المعدة ولا يمر بالجهاز الهضمى للإنسان، صحيح أنه قد يشعر الصائم بعد أخذ الجلوكوز وما شابه بشيء من النشاط والانتعاش ولكن هذا وحده لا يكفى للقول بأنه يفطر؛ لأن هذا النشاط يحصل لمن يغتسل أثناء الصيام بماء بارد ولم يقل أحد بأنه يفطر.

وهذا القول هو الراجح.

وقد اختاره الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية فى زمنه، والشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر الأسبق.

اللبوس والصيام

استعمال اللبوس أو التحاميل - كما يقال عنه - لا يفسد الصوم؛ لأنها - أى التحاميل - لا تدخل الجسم عن طريق الحلق، ولا يقصد بها التغذية، وإنما هى للتداوي.

وقد سئل الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن التحاميل التى تؤخذ فى الشرج فقال: لا بأس أن يستعمل الصائم التحاميل التى تجعل في الدبر إذا كان مريضًا؛ لأن هذا ليس أكلا ولا شربًا، ولا بمعنى الأكل والشرب والشارع إنما حرم علينا الأكل والشرب فما كان قائمًا مقام الأكل والشرب أعطى حكم الأكل والشرب، وما ليس كذلك، فإنه لا يدخل فى الأكل والشرب لفظًا ولا معني، فلا يثبت له حكم الأكل والشرب. ا.هـ.

وإلى هذا ذهب أكثر المجتمعين فى الندوة الفقهية الطبية التاسعة التابعة للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت والمنعقدة بالرباط عام ١٩٩٧م بعدم فساد الصوم بما يدخل الشرج من حقنة شرجية، أو تحاميل (لبوس) أو منظار أو إصبع طبيب فاحص.

الحقنة الشرجية والصيام

يرى كثير من العلماء أن الحقنة فى الشرج تفطر ويرى بعض العلماء أنها لا

تفطر وهو قول داود الظاهري، والحسن بن صالح والإمام مالك في رواية عنه.

والراجح أنه لا يفطر الصائم بها لأنها لا تدخل الجسم عن طريق الحلق ولا يقصد بها التغذية وإنما هي للتداوي، وقد اختار عدم الفطر بها أكثر المجتمعين في الندوة الفقهية الطبية التاسعة التابعة للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، والتي انعقدت في الرباط عام: (١٩٩٧م).

تحليل الدم والتبرع به

وعن حكم تحليل الدم والتبرع به يقول المؤلف:

"لا يفطر الصائم بإخراج الدم منه لأجل التحليل، وهذا أمر متفق عليه؛ إذ ليس من جنس المفطرات المعلومة من الشرع".

ويرى جمهور العلماء أن التبرع بالدم لا يفسد الصوم؛ لأنه عملية مرهقة للمتبرع؛ بسبب سحب كمية كبيرة من دمه.

وممن قال بهذا القول الشيخان: ابن باز، وابن عثيمين - رحمهما الله -

والحق أن القائلين بعدم الفطر من الحجامة يقولون بعدم الفطر بالتبرع بالدم.

أما القائلون بالفطر من الحجامة فيقولون بفساد صوم من يتبرع بالدم".

أدوية ما تحت اللسان

وعن أدوية ما تحت اللسان يقول المؤلف:

"الذبحة الصدرية مصطلح طبي يطلق على الألم الذي يصيب الصدر والناجم عن أمراض الشرايين التاجية، وتحدث الذبحة الصدرية غالبًا أثناء القيام بمجهود يحتاج معه المريض إلى الأكسجين، كالجرى أو أثناء التمرينات الرياضية، بل وأثناء الانفعالات الجامحة، والارتفاع القوى في درجة الحرارة.

كما أن بعض الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات غير سوية في شرايين القلب التاجية قد يتعرضون للذبحة الصدرية أثناء الراحة.

ويتمكن العلاج الدوائي في أكثر حالات الذبحة الصدرية المزمنة من التحكم بها جيدًا.

ومن هذه الأدوية عقاقير النترات المختلفة.

ويتخذ هذا العقار أشكالاً متعددة منها تلك التي تؤخذ تحت اللسان.

وتقوم أدوية اللسان بأداء مهمتها بفاعلية جيدة، حيث إن المادة الدوائية تمتص بسرعة فائقة عبر الأوعية الدموية الموجودة تحت اللسان بدلاً من أن تأخذ طريقها عبر الجهاز الهضمي، وذلك لرقة الغشاء المخاطي في تلك المنطقة، إضافة إلى كثرة انتشار الأوعية الدموية.

أثر هذه الأدوية على الصوم:

هذه الأدوية التي توضع تحت اللسان لا تؤثر في صحة الصوم؛ حيث إنها لا تصل إلى الحلق ولا تأخذ طريقها عبر الجهاز الهضمي، وإنما تقوم الأوعية الدموية الموجودة تحت اللسان بامتصاصها إلا أنه ينبغي أن يمج المريض ما تبقى من أثر الدواء في فمه، ولا يبتلعه مع ريقه حتى لا يفسد صومه بذلك.

وقد ذهب إلى عدم الفطر بهذه الأدوية مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في دورته العاشرة".

غسيل الكلي

وعن حكم غسيل الكلى يقول:

"غسيل الكلى عبارة عن سحب الدم وتنقيته خارج الجسم عبر جهاز خاص، ثم إعادته للجسم مرة أخرى، وهذه العملية تتم عن طريق الأوردة والشرايين، وذلك بدخول جهاز للتنقية، وأخذ الزوائد، وإضافة المواد الناقصة من معادن ومقويات.

هذا الغسيل لا يفطر الصائم، أما بالنسبة لصيام هذا المريض فمرجعه إلى الطبيب المختص، فإن رأى أن الصوم يضره فله الفطر، ولا يجوز له الصيام إن ترتب على الصيام ضرر، قال تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

«البقرة: ١٩٥»

وقد أخبرني بعض الأطباء بأن المريض بعد عملية الغسيل يمر بوقت صعب يحتاج فيه "بروتين" وغيره، حتى يستعيد نشاطه، ولما كان الأمر كذلك فإن المريض يأخذ بالرخصة، ويقضي في أيام أخر إن قدر على الصيام، وإلا أطعم عن كل يوم مسكينًا، فعملية الغسيل نفسها لا تفسد الصيام، ولكن ظروف المريض هي التي تدعونا إلى القول بفطره إن أخبر طبيب بعدم قدرته على الصيام، أو أدرك المريض ذلك بالتجربة".

إفطار الطلبة في رمضان

وعن حكم إفطار الطلبة في رمضان يقول المؤلف:

"مما يستعان به على تحصيل العلم الصيام وتقوى الله، وما أظن أن شابًا مستقيمًا يعرف الله يزعم أن الصوم يؤثر على تحصيله، ومع ذلك نقول: إن الإنسان الذي يعمل في أعمال شاقة ويجهده الصوم له أن يفطر.

ومن أصابه إجهاد بسبب المذاكرة والامتحان فله الفطر حين وجود هذا الإجهاد، لكن عليه أن ينوي الصيام من الليل، ويصبح صائمًا فإن أصابه ما يعجزه عن التركيز فله الفطر، ولا يجوز له شرعًا أن يبدأ نهاره مفطرًا وإلا كان آثمًا.

وكل ما أرجوه ألا يكون عدم تركيزه بسبب عدم تناول السيجار وإلا فلا يجوز له الفطر، ويجب عليه أن يفطم نفسه عن الحرام فإن: "من ملك نفسه ملك، ومن ملكته نفسه هلك".

وبعد فالكتاب يعد إضافة طيبة للمكتبة الإسلامية، كما أنه يعد منهلاً ميسّرًا لطالب الفتوى الذي يبحث عن إجابة مباشرة لما حواه من عدد غير قليل من الفتاوى التي تعالج القضايا المعاصرة، في أسلوب بسيط ميسر يبتعد عن الخلافات المذهبية، بالإضافة إلى نفعه العميم لطلبة العلم لما حواه من تفاصيل فقهية في بعض مسائله سمحت بها صفحات الكتاب التي ناهزت الثلاثمائة صفحة.

ثم أما بعد

فإذا كان المؤلف قد سأل الله - تعالى - أن يجعل ثواب ما كتبه خالصا لوجهه الكريم في صحيفة ابنته - تغمدها الله في الصالحين - فإني أسأل الله الكريم أن يضاعف له الثواب على ما قدم ابتغاء مرضاة الله، وأساله سبحانه ألا يحرمنا الأجر فإنه أكرم من سئل وخير من أجاب...

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

دكتور علي عبد العظيم علي
واعظ بمنطقة وعظ القاهرة

لقد سمعت هذا الجزء من الآية القرآنية يردده الدكتور محمد عمارة في الآونة الأخيرة واصفًا به كم الأراجيف والأكاذيب التي تكال للإسلام ومبادئه ورموزه وأعلامه، وكنت أرقب تطبيقها فيما أسمع وأرى ولكن ما كنت أتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التضليل والاختلاق.

لقد طالعتنا إحدى الصحف الغير مشهورة والتي نشأت منذ فترة وجيزة بمقال لأحد الإعلاميين تحت عنوان «هذه شهادتي عن الشيخ الشعراوي» ونشره في عددين، وعندما قرأت العنوان ظننت لأول وهلة أنني سأجد شهادة موضوعية لا تكيل المديح ولا تتعمد التجريح ولا تختلق الأكاذيب ولكنني كنت واهمًا فقد اشتمل المقالان على جملة من الافتراءات أوجزها فيما يلي:

أولاً: ذكر أن الشيخ الشعراوي أعلن أنه بعد تخرجه عام ١٩٤٠ لم يقرأ أي كتاب على الإطلاق سوى القرآن الكريم أي أن الشيخ - رحمه الله - منذ أن كان عمره تسعة وثلاثين عامًا توقف عن القراءة، وهذا أمر يكذبه ما كان يتمتع به الشيخ من سعة الاطلاع وغزارة المعرفة التي لا يمكن بأي حال أن يكون رافدها الوحيد هو القرآن الكريم.

ثانيًا: كان شأن الشيخ الشعراوي في الشعر - حسب زعمه - كان أشبه بموظفي الحكومة الذين ينتهزون أية فرصة لإلقاء الشعر، مرة لمدح الملك فاروق ومرة أخرى لمدح الثورة التي اقتلعته ومرة ثالثة لذم هذه الثورة، فهو - حسب هذا الافتراء - انتهازي ومنافق.

ثالثًا: وهو يتحدث عن الشيخ ذكر أن تأثيره في الناس كان يعتمد على حركات الجسد وإيماءات الوجه دون أدنى إشارة إلى الفكر والمنهج.

رابعًا: ما كنت أتوقع أن يصل الأمر إلى ذروة الكذب وقمة الافتراء على التاريخ حيث ذكر الصحفي أن الشيخ - رحمه الله - تولى وزارة الأوقاف من نوفمبر عام ١٩٧٦ إلى نهاية عام ١٩٨٧م أي ما يقارب أحد عشر عامًا، وهذا كذب صريح واختلاق محض حيث إن الشيخ مكث في الوزارة أقل من عام، والغريب أن الصحفي راح يبني على هذا الكذب صرحًا من التهكم والسخرية.

خامسًا: راح ينتقد الشيخ الشعراوي بأنه وبالرغم من إعلانه ترك السياسة إلا أنه لا يترك الإدلاء بآراء سياسية، وإنني أتساءل ألا يعلم الصحفي أن هناك فرقًا بين العمل بالسياسة والإدلاء بآراء سياسية؟

لقد كانت آراء الشيخ في السياسة وفي الممارسات السياسية دليلاً على فكر ثاقب وضمير حي، كيف لا؟ ومعظم المصريين يحفظون تلك الكلمات التي قالها للرئيس المخلوع حين نجا من حادث الاغتيال، وكانت كلمات يعجز أي من ناقديه أن يتفوه بمثلها، ليس بما تحمله من بلاغة قوية وعبارات رصينة، وإنما لأنها اندفعت من نفس ثائرة، وقلب مؤمن.

سادسًا: إنني تساءلت بعد قراءة المقالين وقلت: ألستم أنتم الذين تدعون ليلاً ونهارًا إلى تغيير الخطاب الديني؟ فإذا كان خطاب الشعراوي لا يعجبكم فأي خطاب تريدون؟ ثم إنني تساءلت أيضًا؟ ما قيمة هذا الكلام اليوم؟ إنه كلام لا يخدم دين الله ولا ينفع دنيا الناس، اللهم إلا الهجمة الشرسة على كل ما هو إسلامي.

إنني كنت أتمنى أن تكون الشهادة علمية هادفة حتى وإن اشتملت على نقد موضوعي، فالشيخ الشعراوي ليس نبيًا مرسلاً ولا ملكًا مقربًا؛ إنما العيب هو هذا التحامل الذي يعتمد على الغمز واللمز والتشكيك والطعن، ولو كان يتمتع بأدنى درجات المهنية لكان الكلام على غير هذا النحو، فالعلماء مهما اختلفت مناهجهم، والكتاب مهما تباينت آراؤهم إلا أنهم يعرفون ما لدى الآخرين من علم.

ذكر أن الأديب العالمي نجيب محفوظ عقب حصوله على جائزة نوبل في الأدب طُلب منه أن تؤخذ له صورة تذكارية مع كتاب لتوضع في أحد المراكز الثقافية في نيويورك، وكان الكتاب الذي أمسك به نجيب محفوظ هو "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، مع أن الشيخ الغزالي كان يرى أن العقاد أحق بالجائزة من نجيب محفوظ. فلاختلاف حفظ الحقوق وقدر الفكر.

لكني - وبالرغم من ذلك - لست قلقًا من كل هذا التلفيق، فالشيخ وأمثاله من العلماء مكانتهم عند الله عالية، ومنزلتهم في القلوب محفورة مهما ادعى البعض من كذب أو لفقوا من أوهام، وأختم بقول الله تعالى لنبيه قدوة العلماء وأسوة الدعاة:

يمشون في الناس يبغون العيوب لمن
لا عيب فيه لكي يتشرف العطب
إن يعلموا خيراً يخفوه وإن علموا
شراً أذاعوه وإن لم يعلموا كذبوا

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ «الأنعام: ٣٣»

قالوا عن الإسلام



أ. د/ عماد الدين خليل

مكسيم رودنسن

«أصبح الناس – فى الوقت الذى نتكلم عنه – يستطيعون رؤية الدين الذى كان ينافس المسيحية بنظرة محايدة، بل بشيء من التعاطف، ولعلهم كانوا يحشرون فيه بصورة لا شعورية، ويجدون فيه بالطبع نفس قيم الاتجاه العقلانى الجديد الذى كان مخالفًا للمسيحية.

ففى القرن السابع عشر انبرى كثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذى ناله فى العصور الوسطى وضد مجادلات المتنقصين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية .. وانتقل الجيل التالى من الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب .. فكان ينظر إلى الإسلام كدين عقلانى بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل .. ثم أنه وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة فى المجتمع . وخلاصة القول فهو كدين كان قريبًا جدًا من الدين الطبيعى الذى كان يعتقد به معظم «رجال عصر التنوير»..»(١).

«٢» .. ظهر الإسلام لبعض أولئك «اليساريين الأوروبيين» على أنه فى جوهره عامل «تقدمي» بطبيعته، بل اعتنق بعضهم ذلك الدين الإسلامى ..»(٢).

«٣» «فى أكتوبر ١٩٦٥ أشاد مجلس الفاتيكان المسكونى «بالحقائق» التى جاء بها الإسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين «عليهم السلام» .. ولقد أعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحية الدينية الإسلامية وأزعجتهم مواقف الظلم التاريخية التى وقفتها شعوبهم من الإسلام ..»(٣).

فرانز روزنتال

«١» «عندما ظهر الرسول ﷺ كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين فى الجزيرة ولهما آراء متشابهة فى التفسير التاريخى للحياة الإنسانية غير أن الدين الإسلامى الذى بشر به الرسول ﷺ كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدًا ومن غير تعسف . والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمودًا من ناحية العقيدة، ومن مفاهيم اليهود والنصارى الدينية»(٤).

(١) تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث، ١/ ٦٤-٦٦.
(٢) نفسه ١/ ٩٤.
(٣) نفسه ١/ ٩٥.
(٤) علم التاريخ عند المسلمين ص٣٩.

جاك ريسلر

«١» .. إن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور . لقد وقف الرجل الغربى تجاه العالم العربى فى حيرة وكأنه أمام سر غامض، فلم يك مألوفا له رد أى فعل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كل نهج فى وجود هذه الروح وفى الإحساس بها وفى قوتها الدافقة»(٥).

«٢» «كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونيًا حرًا وإداريا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى . وفى تنظيم جماعة «المدينة» اعتمد النبى ﷺ هذا العمل الخير كضريبة شرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين، وسيتحول فيما بعد هذا النظام وستولد عنه هيئة من موظفين وبيت مال .. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت هذا العمل الخير مصدرًا لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظل – بفضل القرآن– فضيلة مارسها المسلمون تلقائيًا بوصفه واجبًا دينيًا . وينبغى أن تزجى الثناء لمحمد ﷺ فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الاجبارية».(٦)

«٣» .. الدين الإسلامى ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين .. وفى المسجد ينبض قلب الإسلام .. وفى أرجائه يحس المرء إحساسًا حيًا أنه بحضرة الله . الحق أنه لا شيء فى المسجد إلا البساطة .. والجمال والتجانس ..»(٧).

«٤» .. على الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التى تشكل الإسلام، كان المسلمون يبيتون سلفا عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو، أغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريبًا مسلكا واحدًا، ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة . وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوى للحياة، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا فى الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق . كما كان تأثير الدين عظيمًا بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعى معمم»(٨).

«٥» .. إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة : المعنى الأول دين، والثانى دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة»(٩).

(٥) الحضارة العربية ص ١، مقدمة الكتاب.
(٦) نفسه ص٣٤.
(٧) نفسه ص٣٦.
(٨) نفسه ص٥٠.
(٩) نفسه ص٩٧.

ذو القعدة ١٤٣٤ هـ
سبتمبر أكتوبر ٢٠١٣ م

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

لا تحسبوه شرا لكم !

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

كلمات أربع تكونت منها تلك الجملة القرآنية البديعة، والتي وردت في سياق قول الله تعالى:

﴿ إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾

(النور : ١١)

وقصة الإفك - كما وردت في السيرة النبوية - هي واحدة من أبرز وأخطر الأزمات التي هزت المجتمع المثالي (النموذج) في حياة الأمة المسلمة الأولى، مجتمع يقوده القرآن الكريم متمثلا في شخص رسول الله ﷺ؛ إذ هو الأسوة والقدوة (المقدورة) بقدر الله عز وجل بما قال مولانا تبارك اسمه:

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾

(الأحزاب : ٢١)

لكن الملاحظ هنا أن فرية الإفك قد حدثت والمجتمع المسلم في أبهى صوره عقيدة وخلقا وحبا وإيثارا وتماسكا، وربما ذلك ما أغاظ المنافقين والذين في قلوبهم مرض فأرادوا أن يضربوا المسلمين في أعز ما يملكون وهو بيوت أمهات المؤمنين وفي الغرة منهم بيت عائشة الصديقة بنت الصديق وأحب أزواج المصطفى ﷺ إليه؛ فأشاعوا عنها ما أشاعوه فرية لا تحتاج إلى كلمة دفاع عن سيدة هي في قمة العفة والطهارة بما لا يقتضي طول نقاش؛ لكن لله في خلقه شئون، وهو فعال لما يريد؛ ومن ثم كانت هذه الخطة الخبيثة والرديئة والتي تدل على مدى ما في نفوس أهل النفاق من خسة ونذالة وحقارة حتى في انتقاء (التهم) التي يرمون بها شرفاء المجتمع وأطهاره، كما قال الله عن أخوانهم من قوم لوط:

﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

(النمل : ٥٦)

ولقد استمرت (محنة) الإفك شهرا كاملا تلوكها ألسنة ضعاف النفوس والذين يتلقون الشائعات بألسنتهم دون أدنى تفكير أو تريث أو تحليل:

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾

(النور : ١٥)

وشاءت إرادة الله تعالى أن تتأخر (البراءة) وانفراج الأزمة وانكشاف الغمة عن المجتمع المسلم شهرا كاملا لتتكشف خلالها معادن الناس، ولتبلغ القلوب الحناجر ولتتحقق سنة من سنن الله الثابتة في الأمم

﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ﴾

(يوسف : ١١٠)

ولتبقى سنة أخرى من سنن الله الدائمة وهي طاقة نور وسط بحار الظلمات واحتقان النفوس وغرق القلوب في أوحال اليأس والإحباط .. اقول هنا يتجلى قول الله جل جلاله من جديد:

﴿ لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ﴾

(النور : ١١)

وكذلك قوله عز من قائل:

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

(البقرة:٢١٦)

« إذن لن يضيعك الله يا مصر »

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ : على محمد حليمة - مدير عام بالمعاش

لقد ساقني القدر لأن أصلي الظهر في مسجد الجامع الأزهر الشريف ، ولقد رأيت فيه ما ملأني فخرا واعتزازا وحبا في بلدي العظيمة العزيزة مصر .

لقد رأيت المسجد مملوءا بالطلاب من جميع أنحاء العالم ، رأيت الأبيض والأسود والأصفر من جميع أنحاء العالم ويمسكون بأيديهم القرآن الكريم يتلونه ويحفظونه في منظر جميل وعظيم . مما دفعني وجعلني أصبح في داخل نفسي وأدعو الله سبحانه وتعالى جزاء حفظها لكتاب الله سبحانه وتعالى بهذه الصورة العظيمة.

مصر العظيمة التي سار على ترابها سيدنا إبراهيم عليه السلام وكذلك السيدة سارة ، وشربا من نيلها وأكلا من خيراتها .

ولقد تربت على ترابها وشربت من نيلها وأكلت من خيراتها الأم العظيمة الشريفة الطاهرة الصابرة السيدة هاجر المصرية وأقولها بكل فخر واعتزاز المصرية .

وكذلك تربى على ترابها وشرب من نيلها وأكل من خيراتها وكرمه المصريون سيدنا يوسف عليه السلام هو وأبوه وأخوته .

وكذلك تربى على ترابها وشرب من نيلها وأكل من خيراتها وعاش في قصر ملوكها وأخوه هارون وأمه وأخته وسيدنا موسى عليه السلام .

وكذلك سيدنا عيسى عليه السلام مشى على ترابها وشرب من نيلها وأكل من خيراتها وكذلك السيدة مريم الطاهرة الشريفة .

هؤلاء كرموا في مصر ، ونالوا أعظم درجات التكريم والاحترام من أبناء مصر .

من أجل ذلك كرمها الله سبحانه وتعالى وحفظها ، وأدعو الله عز وجل أن يحفظها وأن ينصرها وأن يرعاها وأن يبعد عنها الأشرار من أبنائها ، الذين يخربونها ويحرقونها ويدمرونها ويريدون بها سوءا من أجل مصلحة وهدف شخصي ، وأن يحفظها من شر الذين يريدون بها سوءا .

وأنا أقول مثل ما قالت السيدة هاجر المصرية الصابرة عندما تركها سيدنا إبراهيم هي وولدها في صحراء مكة « إذن الله سبحانه وتعالى لن يضيعنا ».

وأقول : إن الله سبحانه وتعالى لن يضيعك يا مصر ، وسيحفظك كما حافظت على كتاب الله سبحانه وتعالى في الأزهر الشريف ، وكما كرمت الأنبياء والمرسلين على أرضك ، وكما شربوا من ماء نيلك وكما أكلوا من خيرات الله سبحانه وتعالى في أرضك .

الوقف.. ودوره.. فى التعاون المجتمعي

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار- سندنهور قليوبية

الوقف في الإسلام.. يعد أحد أنماط السلوك الاجتماعي الراقي الذي يقوم على أخلاق الرحمة والعدل والإيثار والوفاء بالحقوق لأصحابها.. وقد كانت هذه المعاني الراقية في إسلامنا الحنيف تسود المجتمع الإسلامي في عهوده الأولي.

ولأن الوقف شريعة أرادها رب العزة سبحانه وتعالى فإن مخالفة إرادة الواقف تعد جريمة حيث إن هذه الأموال إنما هي موقوفة ومخصصة للإنفاق في أوجه الخير وخصوصا صيانة بيوت الله.. ومن ثم يجب ألا يصرف إلا في الأوجه التي حددها الواقف في حجة الوقف تحقيقا لنشر الخير والحب بين أفراد المجتمع.

وأود أن أسجل هنا موقفين:

أولهما: وأعتبره شبيها بموضعنا في أمر الوقف وهو قصة استيلاء أحد وزراء المالية السابقين قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ على أموال صندوق التأمين والمعاشات وإجابته حين سئل عن ذلك بقوله: «إنها أموال الحكومة ردت إليها» وهو بهذا أضاع حقوقا ثابتة تخص شريحة تشكل أهم وأغلب عناصر المجتمع وهم أصحاب المعاشات ولازالت هذه المشكلة تلقي بتوابعها حتى الآن.

ثانيهما: أنه حدث للأوقاف في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر حين أصدر القانون رقم ١٥٢ لسنة ١٩٥٧ لكي يستبدل أراضي الأوقاف ويضمها للإصلاح الزراعي لتوزيعها على فقراء الفلاحين وهذا اعتداء على أملاك الناس الطيبين الخيرين الذين وقفوا أملاكهم على بيوت الله وعلى الفقراء والمحتاجين وفي تلك الأيام ضجت وزارة الأوقاف بالشكوى من هذا الظلم الذي أعجزها عن صيانة وترميم بيوت الله مع أعمال الخير الأخرى فأصدر الرئيس السادات القانون ٨٠ لسنة ١٩٧١ والقانون ٤٢ لسنة ١٩٧٣ الذي أمر برد ما لم يملك من أملاك الأوقاف إلى وزارة الأوقاف وكان هذا بداية لعمل كبير قامت به هيئة الأوقاف والوزارة مع هيئة الإصلاح الزراعي وبقيت أوقاف أخرى جرى عليها الخلاف لأنه كان بها تفاصيل كثيرة عن أوقاف اغتصبت من مدارس ومستشفيات وأراض.. الخ.

ونحن هنا لا نقلب في الدفاتر القديمة لخلخلة أمور ربما تكون قد استقرت ولكن نحذر فقط من انحرافها ثانية عن الخط المحدد لها خصوصا أعمال الخير والبر ولابد من استمرارها وتدبيرها حتى تستقر معها حياة الفقراء والمعوزين.. ومعالجتها بموضوعية احياء لروح الإسلام في بناء مجتمع الخير والحب وتأكيد التكامل المجتمعي حيث يقول تعالي:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

ليس بالتعاطف المعنوي وإنما بالمادي أيضا فيما يسميه الفقهاء حق القرابة - حق الماعون - حق الضيافة.. الخ. لقوله تعالي:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

(المائدة: ٢)

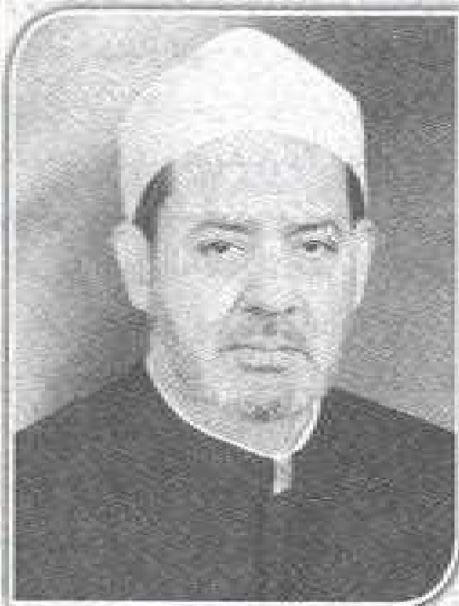
وأيضا يقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» (البخاري ومسلم).

والله ولي التوفيق

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذين:
محمود القسي - وعبدالموجود أمين

كلمة فضيلة الإمام الأكبر للشعب المصري



شعب مصر العظيم:

أتحدثُ إليكم في هذه الأيام العصيبة التي يمرُّ بها الوطن العزيز، وفي هذه الفتنة التي تُكشّر عن أنيابها، وتقومُ عليها أنظمةٌ أجنبيّة، وتتورّط فيها - للأسف - أيادٍ داخليّة مُضلِّلة، وأتقدم بخالص العزاء لأسر الشهداء والضحايا من أبناء مصر جميعًا، متمنيًا للجرحى والمصابين عاجل الشفاء وتمام الصحّة.

أيها المصريون:

لا يزالُ الأزهر الشريف، رغم محاولات استقطابه وتسييسه والتأثير على ضمير عُلمائه، وتشويه دوره الوطني من قِبل البعض، لا يزالُ يتسامى على كل ذلك، ويأمل في أنْ يستمع الجميع إلى رسائله الخالصة والمبرّأة من كل غَرَضٍ أو هوًى أو ميل.

رجال الأمن والقوات المسلحة:

أنتم خيرُ أجناد الأرض، وحفظ الأمن والوطن في الداخلِ والخارج أمانتُكم التي ستُسألون عنها أمامَ الله تعالى، وأنتم على قدرها - بإذن الله - وبدونكم لن يتحقق للبلاد أمن ولا استقرار.

يُناشدكم الأزهر الذي يقفُ خلفكم، أنْ تتوخّوا الحذرَ والدقّة وأنتم تنشُرون الأمن والأمان في رُبوع البلاد، وتُفرّقوا في حَذَرٍ شديد بين مَن يتظاهر سلميًا ومَن يتظاهر للعُنف والتخريب والقتلِ والدمار، فالحفاظ على أرواح المسالمين مسئوليتكم الكبرى.

وإنّا لنُناشدكم التحلّي بالصبر الجميل الذي عهدناه فيكم تجاه انفعالات بعض المتظاهرين، ما داموا لم يعتدوا على مُقدّرات الوطن وأمن المواطنين، فإن خرجوا على كل ذلك فأنتم بهم خير كفيل في إطار القانون.

السادة المصريين من مختلف التيارات والقوى السياسية والحزبية:

إنّ الاختلاف سُنّة الله في الكون وفي الخليقة، لكنه لا يقدح في وطنيّة أحد ولا يصمُه بالعداء والتخوين، وإني أُناشدكم أن تفتحوا أبواب التصالح وأن ترتادوا آفاق التعاون من أجل وحدة البناء واستقرار مصر المستقبل.

أبناء مصر من جماعة الإخوان والمتحالفين معهم:

إنّ مشاهد العُنف لن تُكسِب استحقاقًا لأحد، والشرعية لا تُكتسب بدماء تسيل ولا بفوضى تنتشرُ في البلاد والعباد، ونحن على ثقة كبيرة في أنّه لا تزال هناك فُرصة، ولا يزال هناك أملٌ ومُتّسع للكثيرين منكم ممّن لم يثبت تحريضه على العنف والتخريب أن يجنَح إلى السلم وأن يتداعى إلى الجلوس على مائدة الحلّ السلمي، وأن يُسارع إلى حماية مصر بلدكم ووطنكم الذى وُلدتم فيه وتربّيتُم وتشأتم ودرجتم على أرضه وتُرابه وشربتم من نيله، تُسارعون إلى حماية هذا البلد من الانزلاق إلى نماذج من الفتنة العمياء التي أحدقت ببلاد نعرفها جميعًا وأتت على الأخضر واليابس.

إنّ علينا أن نتفق جميعًا على أنّ مستقبل مصر لن يستقلّ برسمه وصياغته فصيل دون فصيل، وأن من حق الجميع أن يُشارك في صنع هذا المستقبل، وعلينا أيضًا أن نُقرّ جميعًا أن هيبة الدولة وسيادة القانون هما صماما الحفاظ على أمن المواطن وأرواح المواطنين في كلّ أقطار الدنيا، وأنه مع العبث بأيٍّ من هذين الخطين الأحمرين فلا أمل لا في أمن ولا في استقرار.

اقباط مصر ومسيحييها:

لا يدّخر الأزهر جُهدًا في التأكيد على حُرمة كنائسكم، ودور عباداتكم، وأنّ تخريبها أو مسّها بسوء ليس من الإسلام في قليل ولا كثير، والإسلام يبرأ من كل هذه التجاوزات التي ترفضها الأديان والأعراف والقوانين وحضاراتُ الإنسان، ولا يخفى علينا وعليكم أن محاولات جر البلاد إلى فتنة طائفية هي خطة شيطانية وافدة، وهي محكوم عليها بالخيبة والفشل - بإذن الله - فمصر كانت وستبقى دومًا أبيّة على مثل هذه المحاولات الدّنيئة.

أصدقاؤنا في العالم الخارجي:

إنّ مصر برجالها وأبنائها قادرةٌ على تجاوُز هذه المرحلة، وأن إعادة ترتيب شئونها الداخلية أمر يسيرٌ جدًّا إذا ما التزمت دول العالم بقوانين الأمم المتحدة وبمواثيقها وبأعراف العالم، وبخاصة بمبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى، وعليكم أن تعلموا إن لم تكونوا تعلمون أن مصر بحضارتها العريقة التي تعرفونها هي أكبر من أي إملاء أو تآمر كائنًا من كان المملي أو المتآمر، وتذكركم بأن الله أكبر منكم، وأن قدرته غالية، وأن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

نسأل الله سبحانه وتعالى العلي الكريم أن يحفظ مصر وشعبها وأن يقيها كل شر وكل سوء وكل مكروه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شيخ الأزهر

أحمد الطيب

الإمام الأكبر ينعى شقيق خادم الحرمين الشريفين

تقدّم فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف باسمه وباسم الأزهر الشريف، بخالص التعازي في وفاة سمو الأمير مساعد بن عبد العزيز شقيق العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود خادم الحرمين الشريفين، سائلين الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته وأن يلهم آله الصبر والسلوان.

الإمام الأكبر يستنكر الحادث الإرهابي الذى استهدف جنود الأمن المركزي

استنكر فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الحادث الإرهابي والإجرامي الذى استهدف الجنود يوم ٢٠١٣/٨/١٩م، وقدم خالص العزاء لأسر الشهداء ويعزى مصر كلها في جنود الأمن. وقال فضيلة الإمام الأكبر: قتل الجنود يدل على تعرض مصر لحرب حقيقية على أمنها واستقرارها.

شيخ الأزهر: الموقف العربي لملوك ورؤساء الدول العربية العظيم يكشف عن معادن رجال الأمة العربية وقت الشدائد

إن الأزهر الشريف وهو يرى الموقف العربي العظيم والتحرك الدبلوماسي الحكيم الذى تقوده المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك عبدالله بن عبدالعزيز ودولة الإمارات العربية المتحدة ودولة الكويت ومملكة البحرين والمملكة الأردنية الهاشمية على المستوى الدولي للدفاع عن مصر وسيادتها، لا يسعه إلا أن يقدر هذه المواقف التى تكشف عن معادن رجال هذه الأمة وقت الشدائد وقدرة الأمة العربية على التوحد والصمود والتحدى في مواجهة المخاطر التى تواجه أحد أجزاء الجسد العربي، وتبعث في الأمة من جديد روح السادس من أكتوبر المجيد عام ١٩٧٣.

هذا ويتوجه الأزهر للشعب المصرى بأفراده ومؤسساته وأحزابه الآن أن يتكاتفوا ويتوحدوا على قلب رجل واحد فلم يعد الأمر الآن يتعلق بخلاف سياسي وإنما الخيار الآن بين مصر الدولة أو الفوضى فعلى الجميع - كلا بحسب دوره - أن يهبوا لمكافحة هذا الإرهاب الأسود الذى يهدد أمن مصر واستقرارها، ويعلنوا للجميع وللعالم كله أن إرادة الشعب المصرى لن تنكسر مهما كانت التحديات. وستظل مصر والأمة العربية قوية موحدة محفوظة بحفظ الله إن شاء الله.

بيان الأزهر الشريف بخصوص أحداث صعيد مصر

يستهجن الأزهر الشريف أحداث الفتنة التى تطل برأسها في بعض قرى صعيد مصر، والتى لا علاقة لها بالدين.

وينبه الأزهر الشريف المصريين إلى ضرورة مراعاة دقة المرحلة الراهنة ومخاطر الانزلاق لأمور تزيد المشهد تعقيدًا، إضرارًا بمصر وشعبها.

رابطة خريجي الأزهر بالصومال ترعى المهرجان الثقافي للمدارس والجامعات

نظم فرع الرابطة العالمية لخريجي الأزهر في ولاية بونت لاند في الصومال المهرجان الثقافي الثاني للمدارس الثانوية العامة بمنطقة قرضو بمشاركة المدارس الثانوية والمعاهد المهنية والجامعات في الولاية، بالإضافة لجمعيات ومنظمات دعوية وهيئات محلية حكومية، وذلك بحضور رئيس الولاية السابق - عدى موسى، ومحافظ قرضو - عبدالغفار محمد آدم، ورئيس بلدية قرضو - محمد سعيد عيسى، ونائب وزير التعليم - عبدالوهاب محمد أحمد، فضلاً عن أعضاء برلمان ولاية بونت لاند وبعض شيوخ القبائل بالمنطقة.

وتضمنت فعاليات المهرجان تكريم الأوائل في المدارس الثانوية والجامعات، وحفظة القرآن الكريم في ولاية بونت لاند، وكذا الناشطين في مجال التنمية ومنظمات التوعية، كما كُرم مُدراء المدارس والمعاهد والجامعات.

وفي كلمته رحب الرئيس السابق لولاية بونت لاند الجنرال عدى موسى بالحضور وأوضح في كلمته أن دور الأزهر كان ولا يزال هو الحارس الأمين على بقاء الوسطية والاعتدال في الأمة الإسلامية، مشيدًا بدوره في منح طلاب الصومال المنح التعليمية للالتحاق بالجامعة وإرسال البعثات الأزهرية للصومال.

كما أوضح رئيس فرع الرابطة بولاية بونت لاند أهمية دور الرابطة بفروعها حول العالم من نشر قيم التسامح والاعتدال والوسطية ذلك المنهج الذي يتولى الأزهر نشره في جميع أرجاء العالم، وخير دليل على هذا تلك الأنشطة التي يقوم بها فرع الرابطة بالصومال من إقامة دورات تدريبية ومحاضرات دينية وندوات التعليم المفتوح والبرامج التثقيفية للسيدات والفتيات الصوماليات تهدف لترسيخ صحيح الدين.

من ناحية أخرى، عبر رؤساء الجامعات والمعاهد ورؤساء المنظمات الاجتماعية وأعضاء البرلمان والشيوخ عن سعادتهم لتواجد الرابطة على أرض الصومال متمنين تحقيق كامل الاستفادة منها، وأن تكون جسرًا للتواصل بين الصومال والأزهر الشريف جامعًا وجامعة.

واختتم المهرجان بتوزيع شهادات التقدير والهدايا على المتكرمين.

وفي ذات السياق تم تكريم الفائزين بالدورة الرياضية الكروية التي نظمت في المدارس الثانوية بمدينة قرضو والتي نظمها فرع الرابطة بالصومال، حيث فاز بكأس المسابقة مدرسة المنتدى الإسلامي وحصل على المرتبة الثانية مدرسة النووى الثانوية.

قافلة الأزهر إلى الأقصر.. دور الأزهر الوطني وتوقير العلماء أهم محاور الندوات وخطبة الجمعة

علماء الأزهر والأوقاف ينتشرون في ربوع الأقصر..

برعاية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، انطلقت القافلة الدعوية الثانية المشتركة بين الأزهر والأوقاف إلى محافظة الأقصر، بمشاركة ١٤ شخصية من علماء الأزهر والأوقاف.

وقال فضيلة الدكتور/ محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف: إن القافلة ستجوب أنحاء محافظة الأقصر لنشر الفكر الإسلامي الصحيح التزامًا من الأزهر بدوره في نشر الفكر المعتدل في قرى ومدن

مصر، وبين الرجال والنساء والشباب.

وأوضح أن هذا اليوم سيشهد انتشارًا للعلماء في القرى والمدن، لإلقاء محاضرة حول «توقير العالم والكبير» بهدف العودة إلى القيم الإسلامية التي تربينا عليها والتي نعاني مؤخرًا من فقدانها داخل المجتمع التزامًا بالمنهج النبوي الشريف «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

رسائل علماء الأزهر للمصريين من على منابر المنيا

وجه علماء الأزهر الشريف المشاركون في القافلة الدعوية المشتركة بين الأزهر ووزارة الأوقاف بمحافظة المنيا تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر وفضيلة الدكتور محمد مختار جمعه وزير الأوقاف عدة رسائل للشعب المصرى من أجل الخروج من الأزمة التي يمر بها الوطن وطالب العلماء أبناء الشعب المصرى من جميع التيارات والقوى السياسية إلى فتح باب الحوار والتصالح والتعاون من أجل وحدة أبناء الوطن واستقراره وأمنه حتى يتجاوز الوطن الفترة الراهنة بسلام.

وحذر العلماء من محاولات التحريض على العنف أو تبريره أو الترويج له أو الدفاع عنه أو استغلاله بأى صورة، مشددين على حرمة الدماء والاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة

وشدد العلماء على واجب الدولة ومؤسساتها الأمنية في حماية أمن المواطنين وسلامتهم وصيانة حقوقهم وحرياتهم في إطار احترام القانون وحقوق الإنسان.

وأكد العلماء على أن الفتنة لن ترى النور في مصر لأن جميع المصريين سيقفون لها بالمرصاد فالشعب المصرى يدرك جيدا الحالة التي يمر بها وطنه ولن يسمح لأحد أيا كان أن يتدخل في شئونه مشددين على أن الدين الإسلامي يجمع ولا يفرق فلا يوجد فيه طائفية ولا مذهبية ولا تناحر ولا عناد.

وقال العلماء: إن الإسلام يحترم أهل الأديان وجعل لهم حقوقا مثل حقوق المسلمين مطالبين بإصدار قانون يجرم من يثير الطائفية بين أبناء الأمة الواحدة.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين أحمد رضوان - يحيى سليمان

تعرضت للضرب بسبب حجابها

تحولت ستوكهولم ، وليوم واحد ، إلى مدينة مسلمة ، حيث ارتدت النساء الحجاب . وقد نظمت مئات السويديات حملة تحت عنوان "صرخة الحجاب" ، تضامنا مع امرأة مسلمة حامل ، تعرضت للضرب بسبب معتقدها الديني !.

"أمثالك ليس لهم مكان هنا" . . . بهذه الكلمات تعرضت مجموعة من الرجال للمرأة المحجبة الحامل ، وذلك في الحي الجنوبي من ستوكهولم . وعمد هؤلاء الرجال المجهولي الهوية إلى نزع حجاب المرأة وضرب إحدهم رأسها بإحدى السيارات المتوقفة . ونُقلت المرأة المسلمة إلى المستشفى . وسجلت الشرطة حادثة الاعتداء لكن لم يتم توقيف أحد .

إن تقاعس "حماة القانون" قد أغضب النساء السويديات إلى درجة أنهن قررن تنظيم حملة إنترنت دعما للمرأة المسلمة التي تعرضت للاعتداء . وفي طرفة عين انتشرت على شبكات التواصل الاجتماعي صور لنساء سويديات يرتدين الحجاب . "إننا ندعم النساء المسلمات ، اللواتي تعرضن للاعتداء" . "إذا كانت الشرطة لا تفعل شيئا ، فعلينا نحن أن نبادر لفعل شيء" - هذه عينة مما كتبته النسوة اللواتي نشرن صورهن بالحجاب . وبمبادرة غير متوقعة شاركت في الحملة بعض نجمات التلفزيون ونائبات في البرلمان . وكتبت الشخصية السياسية فيرونيكا يالم "لا أحد ينبغي أن يتعرض للتمييز والملاحقة ، بسبب ما يلبس" .

وسميت الحملة "صرخة الحجاب" وأثارت ضجة في التلفزيون . وهذه الحملة لدعم النساء المسلمات لم تنته . ففي ستوكهولم والعديد من المدن السويدية الأخرى ، عبر الكثير من النساء عن رغبتهن بالظهور بمظهر المسلمات ، عن طريق الخروج إلى الشارع وهن يرتدين الحجاب . "إن المعادين للأجانب يمكنهم أن يعتدوا بالضرب على امرأة مسلمة بسبب عقيدتها ، ولكنهم لا يمكنهم أن يعتدوا بالضرب علينا جميعا" . هذا ما قالته إحدى منظمات الحملة ليندا ستيكير .

وعلى المستوى الثقافي كانت ردود الفعل على هذه الحملة مختلفة لدى السويديين . فبعض الرجال عبروا عن الاحترام العميق لقيام النساء غير المسلمات بهذه البادرة غير المعهودة . وبعضهم ، على العكس من ذلك ، اعتبروا أن الحملة هي عبثية . وبعض السويديات اعتبرن ذلك بأنه نوع من موضة الأزياء الجديدة . وكتبت إحداهن على تويتر "أنا الآن أيضا سأرتدي الحجاب - إنه جميل" .

الجنرال "عوزي ديان" يدعو الطلاب الإسرائيليين إلى اقتحام المسجد الأقصى

دعا الجنرال عوزي ديان – نائب القائد العام للجيش الإسرائيلي سابقا ، ورئيس مجلس الأمن القومي سابقا – ، والذي يشغل اليوم ما يسمى بمجلس "المرابحات" ، الطلاب الإسرائيليين إلى اقتحام المسجد الأقصى المبارك ، بل وتكثيف وتخصيص مثل هذه الاقتحامات لهذا الموقع أكثر من غيره ، كما طالب في السياق نفسه إلى تكرار سيناريو المسجد الإبراهيمي في المسجد الأقصى .

من جهتها حذرت "مؤسسة الأقصى" من أقوال الجنرال ديان" معتبرة إياها تغولاً من قبل الاحتلال الإسرائيلي وكل أطيافه التي تصب في نهاية المطاف في مخطط الاحتلال لتقسيم المسجد الأقصى زمانيا ومكانياً .

وأشارت في بيان أن هذه الاقتحامات على اختلاف أنواعها تزرع عملياً بذور تنفيذ مخطط التقسيم والتهويد .

وأشارت "مؤسسة الأقصى" أن الدعوة إلى "زيارة جبل الهيكل" وهي المصطلح الذي نقلته صحيفة معاريف على لسان "ديان" ، أو الدعوة إلى نقل "الترتيبات في المسجد الإبراهيمي" إلى "جبل الهيكل" ، هي في الحقيقة مصطلحات مغلفة يُراد منها رفع وتيرة وتنوع اقتحامات المسجد الأقصى ، وهي بالفعل الممارسة الفعلية الميدانية التي يمارسها الاحتلال ، بمشاركة المجتمع الإسرائيلي وخاصة الطلاب منهم ، وهذا ما يصدقه ويدلل عليه الصور التي توثقها "مؤسسة عمارة الأقصى والمقدسات" بشكل شبه يومي في المسجد الأقصى على مدار العام كله .

هذا ومن المتوقع أن يطرح الجنرال "عوزي ديان" رؤيته هذه في منتدى التربية والتعليم الذي سيعقد في مدينة حولون ، وبحسب ما ذكر الموقع الإلكتروني لصحيفة "معاريف" الإسرائيلية" فإن ديان قال وتحت عنوان "اذهبوا إلى جبل الهيكل وهو المسمى الاحتلالي الباطل للمسجد

الأقصـى- : " إن من المواقع التـي يزورها الطلاب في جهاز التربية والتعليم هي الجدار الغربي- حائط البراق- ، ولهذه الزيارة عندي وجهة نظر ثاقبة ، وحساسة أيضا ، كثير من الطلاب يصلون إلـى الجـدار الغربي ، وهذا يشـبه أن تصل إلى مكان مهم جدا ، ثم لا تـزور إلا الجدار الخارجي ، طـلاب المدارس يجب أن يـزوروا جبل الهيكل ، إذا كانوا يزورون الموقـع الذي يبعد عنه فقط مسافة ١٥٠ مترا عن الموقع الحقيقي ، إذا يجب زيارته" .

وعندما سئل "عزي ديان" ، وهل من الممكن حقيقة ، في ظل الواقع السياسي والأمني صعود طـلاب المـدارس إلى "جبل الهيكل" في جـولات وزارة التربية والتعليم؟ أجـاب : " كما وجدنا طريقة لترتيب الزيارة إلى الحرم الإبراهيمي- مع حساسـية الأمر ، من الواجب إيجاد الترتيبات التي تمكّن الطلاب زيارة الموقع الذي توجد فيه جذور الأمة" - على قوله وزعمه .

رئيس "البيت اليهودي" : اتفاق أسلو انتهى والدولة الفلسطينية فكرة ميتة

قال وزير الاقتصاد في الحكومة الإسـرائيلية ورئيس حزب "البيت اليهودي" نفتالي بينيت ، على صفحته الخاصة في موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" ، إن اتفاق أوسـلو ، الموقع قبل عشـرين عامًا بين إسـرائيل والفلسـطينيين ، انتهى ، وأن فكرة إقامة الدولة الفلسـطينية ، باتت فكرة ميتة .

وقال بينيت في تعليقه على المفاوضات الحالية الجارية بين السـلطة الفلسـطينية وإسرائيل برعاية أمريكية ، إنه لا يصدق أن هذه المفاوضات ستؤدي إلى أي شيء ، وهو ما دفعه إلى البقاء في الحكومة ، مضيفًا أن من واجبه عرض الحقيقة على الإسرائيليين ، وأنه سيفعل كل ما بوسعه لمنع ما أسماه "الكارثة" .

وتابـع قائلاً : "الحقيقة هي أن فكرة الدولة الفلسـطينية داخل إسـرائيل قد ماتت ، والفكرة التي منحها معظم الإسـرائيليين فرصة في التسـعينات أثبتت أنها آلة قتـل ، وعلى النقيض مما يُقال ، هناك القليل من البدائل للدولة الفلسطينية" .

وأضاف بينيت ، الذي يعتبر وحزبه من أهم شركاء الائتلاف الحاكم في إسرائيل ، أنه "أصيب بالصدمة" قبل عشرين عامًا ، عندما كان جنديًا ، لدى سماعه بأن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك ، اسحق رابين ، قام بمصافحة الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات .

وأكد بأن التجربة خلال العقدين الماضيين أثبتت أن رابين ارتكب خطئًا جسيمًا ، مشيرًا إلى أنه بالرغم من أن تصويت حزبه لم يمنع عملية الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين مؤخرًا ، إلا أن هناك المزيد من العمل لتجنب ارتكاب الأخطاء مستقبلاً .

اعتقال جندي فرنسي خطط لمهاجمة مسجد في ليون

أعلنـت وزارة الداخليـة الفرنسـية اعتقـال أحد جنود الجيـش (٢٣ عاما) خـلال محاولته التخطيط لمهاجمة أحد المسـاجد بالقرب من القاعدة الجوية التي يعمل بها في مدينة ليون .

وذكـرت أن الجنـدي يعتنق أفكارا "قريبة من أفكار اليمين الراديكالي المتطرف" وسـبق أن

هاجم مسجدا في منطقة بوردو العام الماضي . و ظهرت في فرنسا مؤخرا أنشطة مكثفة لليمين المسيحي المتطرف حيث يقوم الأخير بنشر دعوات متطرفة ضد المهاجرين و المسلمين .

وحظرت الحكومة أنشـطة سـت جماعات يمينية مسـيحية في يوليو بعـد مقتل طالب من الجناح اليساري في شجار بين جماعات مسيحية متطرفة .

ضوء أخضر صهيوني لبناء ٩٤٢ وحدة استيطانية في القدس الشرقية

وافقت بلدية القدس الصهيونية على بناء ٩٤٢ وحدة استيطانية جديدة في القدس الشرقية المحتلة عشية استئناف المفاوضات الصهيونية-الفلسطينية .

وصرح عضو المجلس البلدي يوسف ببيي علالو بأن "البلدية وافقت على مشروع بناء ٩٤٢ مسكنا في جيلو" الحي الاستيطاني ، ويأتي القرار بعد إعلان الحكومة بناء ١١٨٧ وحدة سكنية في الكتل الاستيطانية بالضفة الغربية والقدس الشرقية ..

ماليزيا ثاني أكبر مركز عالمي لطباعة المصحف الشريف

أعرب رئيس وزراء ماليزيا السـيد نجيب عبد الرزاق ، عقب تدشـين مركز طباعة المصحف الشريف فـي كوالالمبور ، عن أمله فـي أن تصبح بلاده ثانـي أكبر بلد لطباعة القـرآن الكريم فـي العالـم بعد السـعودية ، ونوه بأن هذا الحدث يجـب أن يُنظر إليه في إطـار جهود الحكومة المضاعفة لنشر قيم الإسلام .

في نفس السياق ، حث رئيس الوزراء المسلمين بتمكين الأجيال الناشئة من التشبع بتعاليم القرآن عبر تقدير هذه النعمة الإلهية واستيعاب مضمون كل آياته بالقراءة والتدبر ، ونقلت عنه وكالة الأنباء الوطنية الماليزية قوله بهذه المناسـبة : "لنجعل تلاوة القرآن الكريم ثقافتنا عسى أن تنال بفضلها الهدى والبركات" .

مسلمو بريطانيا يدينون الهجمات على المساجد

طالب المجلس الإسلامي البريطاني برد متسق على المستوى الوطني على سلسلة الهجمات الإرهابية على المسـاجد والمؤسسات الإسلامية في المملكة المتحدة المتكررة منذ شهر مايو الماضي ..

وقال المجلس في رسـالة وجهها إلى وزيرة الداخلية البريطانية تريزا ماي : إن ثلاثة مسـاجد جرى اسـتهدافها من قبل إرهابيين تركوا عبوات ناسـفة حية في كل واحد منها في شهر يوليو ، فيما فجرت عبوة ناسفة بطريقة محكمة في مسجد رابع في مدينة ليفربول بعد إحراق مسجد بصورة متعمدة الشهر الماضي في شمال لندن ..

وأكـد المجلس أن هـذا التصعيد غير المسـبوق من العنف ضد المسـلمين ومصالحهم في المملكة المتحدة يجب أن يقابله رد عاجل ومتسـق على المسـتوى الوطني من قبل السـياسيين والشرطة وأجهزة الأمن المحلية ..

وقـال الأميـن العام للمجلس الإسـلامي البريطاني فـاروق مراد في الرسـالة إن وضع عبوات

ناسفة حية خارج المساجد يجب أن يقلق جميع المسئولين عن سلامة وأمن المجتمعات في المملكة المتحدة كما أنه يتجاوز الخط الأحمر..

إصابة ١٢ في هجوم شنه بوذيون على مسجد بسريلانكا

هاجمت مجموعة من البوذيين مسجدا في العاصمة السريلانكية وأصيب نحو ١٢ شخصا في أحدث هجوم ضمن سلسلة من الهجمات يشنها أفراد من الأغلبية البوذية على الأقلية المسلمة.

وقال سكان لرويترز إن مجموعة من البوذيين رشقوا مسجدا من ثلاثة طوابق ومنازل قريبة بالحجارة في حي بوسط كولومبو أثناء الصلاة.

وقال شهود إن مئات السكان المسلمين خرجوا إلى الشوارع فيما بعد يحملون هراوات لمنع تعرض أبناء طائفتهم لمزيد من الهجمات. وأرسلت تعزيزات من الشرطة وفرضت السلطات حظر تجول حتى الصباح..

وقال عضو كبير في فريق العاملين بأحد مستشفيات المدينة الرئيسية إن ١٢ شخصا أصيبوا منهم رجلا شرطة ونقلوا إلى المستشفى.

وتزايدت أعمال العنف ضد المسلمين في سريلانكا منذ العام الماضي في تكرار لما يحدث في ميانمار ذات الأغلبية البوذية التي شهدت أيضا زيادة في الهجمات التي يشنها البوذيون ضد المسلمين..

ويشكل البوذيون نحو ٧٠ في المئة من سكان سريلانكا البالغ عددهم ٢٠,٣ مليون نسمة.

ويمثل المسلمون نحو تسعة في المئة.

وأقيم المسجد الذي هوجم منذ شهر بعد أن فرض بوذيون متشددون إغلاق مسجد قريب..

وقالت السفارة الأمريكية في كولومبو إن الحادث يثير قلقا شديدا في ضوء عدد الهجمات التي وقعت في الفترة الأخيرة على المسلمين في سريلانكا.

وقال إن.إم أمين رئيس مجلس مسلمي سريلانكا إن إكثر من ٢٠ مسجدا هوجمت منذ العام الماضي.

4- Liberating mind from the dominance of mind, rationalizing things without seeking others' help, giving mind absolute authority, so that nothing can have dominance over mind except only mind.

5- Replacing metaphysics with knowledge, and not surpassing the limits of note and experiment to other methods of scriptural or affective knowledge.

6- Regarding intellect as the work of mind, as the mind secretes thought as the liver secretes bile. Also there is no soul in the human being.

7- Stirring doubts with regard to the permissibility of the absoluteness, as the human being is the criterion of the absoluteness.

8- Deducting morals from the human nature and limiting its relations with happiness and pleasure not with virtue and spiritual needs, in addition to giving priority to the physical feelings over the moral and mental concepts. This is because morals are created by us and are the outcomes of our experiences, and they depend on the physical status.

9- Replacing what is religious with what is social to achieve worldly happiness through passion and desire, as nature is the things that brought about the human being and the society is responsible for his happiness.

10- Returning the laws to their physical and historical origins, liberating history from the Divine laws, and interpreting them through natural or moral concepts stemming from the human nature.[36]

This is material enlightenment that makes the human being a natural animal and breaks all the links between him and Allah and religion

[36] Dr. Murad Wahba, An Introduction to Enlightenment, pp. 25-70, Cairo and Kuwait edition, 1994.

This is the Islamic enlightenment, which means looking in the substantial and pure sources of Islam with a believing mind to the jurisprudence and getting answers for questions relevant to the contemporary state of affairs. After the connection between the jurisprudence of ruling and that of the real state of affairs, the positive secular Western enlightenment stops dealing with the religious heritage, refusing its inspiration, commitment, and relying on it.

It represented a new phase surpassing the Western religious reformation. This Western enlightenment liberated the mind from the priests without liberating it from religion and gets separated from the religious heritage by establishing contradiction between mind and scripture, and refuses any authority over the mind.

One of the callers to the Enlightenment, there is a proof to this great cognitive boycott: "The Christian resulting from the Protestant reform was keen at the religious level not to show obedience except to Allah and His Book not to his Pope or priest."

However, with the Enlightenment, another step is surpassed, as the human being does not submit to anything except his mind, which can judge everything.

This basic ideology, which the age of the Enlightenment exposed to the world and which contradicts with Christianity through coming out holding a nickname, was carrying the meaning and the significance of the real state of affairs in the previous century. It is Liberalism. It resisted all of the catholic attempts to eliminate or contradict it. Its subsequent resulting tendency was fertile with inner conflicts, because socialism resulted from it.

This ideology; the Enlightenment, is the beginning, as what results from it comes from its developments and contradictions without revoking the great Epistemological boycott, which separates between two ages of the human soul: The age of the ideological essence for the St. Thomas Aquinas and the age of

[14] Related by Al-Dariny

encyclopedia of the philosophers of the Enlightenment. From now on, hope in the Kingdom of Allah started to be put aside leaving room for the dominance and improvement of the age of reason. Also, the system of the divine bounty diminishes in front of the system of nature, and the human being became a criterion for the human being...![15]

There is great difference between the Islamic Enlightenment proceeding from religion and the irreligious Western positive Enlightenment. It makes cognitive relation with religion and obliterates the Divine Bounty for the sake of the system of nature. Liberalism and socialism resulted from this Western Enlightenment.

* * *

If we tend to sum up the sayings of the Western Enlightenment, we will not find better than the sayings adopted by one of its best supporters in our contemporary intellectual reality, Dr. Murad Wahbah. He summed up the ten sayings of this Enlightenment according to the following:

1- The human being is a social natural animal, as he is part of the nature, which provides him with things. He is rather closer to the animal than to Allah. He is not successor of Allah, Who created and honored him by blowing into him of His Soul and preferred him to the rest of creatures. The happiness of this human being is merely worldly, which is found in passion and desire only.

2- Limiting the human interests to the current worldly issues and the physical nature not the Afterlife or the metaphysics.

3- Being limited with regard to religion to the natural religion, which is created by the human mind not the heavenly religion transcending nature. This is in addition to regarding the religious feeling as a mixture of a mythological fear and desire in changing the painful circumstances.

[15] See Hisham Saleh, Al-Wihda Magazine issued in Morocco, issue of February – March, 1993 A.C. (pp. 20-21). The text is by Emil Pola in his book [Freedom, Secularism: The war of the Two Parts of France and the Principle of Modernism] – The publications of Cerf, paris, 1987.

the necessity of controlling the behavior of the public. Religion is merely a common interest. "If you have a village, It should be controlled by religion. If this god does not exist, we should create it!" "There are some benefits in religion; however the person does not need it to enhance virtue!"

When Voltaire tended to confess the existence of Allah at the end of his life, he saw Him different from the existence of Allah in Christianity, he called to "Religion: Allah and tolerance, as all of nature cries announcing His existence. As for Christ and his mother Mariam, this is something else." This is according to him.

The thought of Enlightenment spread this meaning: the glorification of reason only, rather worshiping him in England and France, spreading disbelief, apostasy, and materialistic tendency. Hobbs (1588-1679 A.C.) said: "There is nothing in the universe except atoms in the vacuum." This meaning relevant to the Enlightenment reached its climax soon after the French Revolution in 1789 A.C. when the French people worshipped their beautiful idol "the god of reason". They said: "They brought Allah down His Kingdom along with deposing the family of Bourbon from the throne.

To understand this meaning of the Enlightenment, we should understand the intellectual real state of affairs which Enlightenment came to refuse. The Church indulged extremely in corruption and tyranny and froze the worldly life, knowledge, and sciences when it sanctified and fixed it in the forms of theology. Oppression dominated, not only for the apostates and those who differ with in religion only, but for the those differ with them in doctrine. Also, the scholars were punished for making a protestant mass in a catholic society.

The women were imprisoned to the rest of their lives, men were sent to oar to death, and the priests were sentenced to death. The processions marched commemorating the religious massacres to thank Allah?! Laws allowed to the

parents to execute their ungrateful sons according to Deuteronomy (Sanitation 21 – verses 17-21) and Gospel of Matthew (Sanitation 21 – verses 4-6).

These were the European accompanying circumstances which gave this meaning to the Enlightenment in Europe. "Enlightenment" as an Arabic expression means the time of the rise of the sunlight. Also, the Noble Qur'an is light:

{Therefore, believe in Allâh and His Messenger (Muhammad peace be upon him) and in the Light (this Qur'ân) which We have sent down.}

[Al-Taghabun:(The Mutual Disillusion): 8]

Islam is light:

{Allâh is the Wali (Protector or Guardian) of those who believe. He brings them out from darkness into light.}

[Al-Baqarah (The Cow): 257]

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) is a light:

{Indeed, there has come to you from Allâh a light (Prophet Muhammad peace be upon him) and a plain Book (this Qur'ân).}

[Al-Ma'idah (The Table): 15]

Wisdom is light, as it was stated in the Hadith: "Indeed, Allah revives the hearts by the light of wisdom"[12]

Prayer is light, as it was stated in the Hadith: "The prayer is the light of the believer."[13]

The Enlightenment is the time of the Morning Prayer, as it was stated in the Hadith: "Lighten your life with the Fajr Prayer."[14] The believer is enlightened and has special Islamic enlightenment.

[12] Related by Malik
[13] Related by Ibn Majah

*The concept of Western Enlightenment

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

The Enlightenment - as a common expression in the intellectual life - is a European expression in terms of origin, implication, and suggestions. Rather, it is a title of an intellectual approach that prevailed in one of the historical phases of the modern European intellect, to the extent that it is frequently said: "The Age of Enlightenment" or this thinker belongs to "The Age of Enlightenment", and these are the ideas of "the Age of Enlightenment" or against the ideas of this age.

The Arabic language Academy defines the expression Enlightenment" as being: "A philosophical movement in the eighteenth century which depends on reason and independence of opinion, believes in the effect of morals, and is relied on the movement of progress and liberation from authority and traditions."

When "authority" and "traditions" was dominant in Europe before this date in the eighteenth century is a clerical religious authority and its traditions froze the theories of science and state of affairs at that time, the independence of opinion represented by the European Enlightenment was like independence from the dominance of the ecclesiastical thought and rationalism rejecting the priests.

Also, it is a kind of liberation from the Christian form that was dominant at that time and an improvement from the intellect imposed by the clergymen on Europe before the age of Enlightenment. In confronting the "action"

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is Published in Arabic in the same Issue.

represented by the alliance of the Church and feudalism, the reaction represented in the Enlightenment came and refused the dominance of religion, and its slogan was: "Reason has no authority except from reason."

The roots of Enlightenment in this meaning goes back to Fancis Bacon (1561-1626 A.C.) in the seventeenth century who refused the interference of religion in knowledge. This is because religion "limits all types of knowledge". These roots was distinguished since the rise of its dawn with clinging hopes on reason, science, and philosophy instead of religion and religiousness and also instead of Allah.

As for the eighteenth century, it witnessed the rise of the thought of Enlightenment. Then, the pioneers of the Enlightenment followed each other such as Voltaire (1734-1778), Rousseau (1712-1778), Montesquieu (1689-1755), Herder, Leasing (1729-1781), Schiller (1759-1805), Goethe (1749-1832), and Kant (1724-1804)...etc. This age was called the Age of Enlightenment.

As the eighteenth century was the age of the Enlightenment, Voltaire was the most remarkable philosopher and thinker of the Enlightenment. He called for glorifying reason instead of religion and mounted a fierce campaign against religion and Christianity. He denied the Knower of the Unseen, Resurrection, and Reckoning in the Hereafter. He said that the soul is just life for the body and it decays with the death of the body.

Also, there is no Holy Revelation except nature, and he wrote many books on criticizing the religion, which was used by the Church to confuse the people and by the kings to plunder their money. He said that the criteria of virtue lie in the social goodness achieved by you without any relation between the obedience of Allah or reward and punishment after death.

Even in the issue of the Existence of god in this universe, even he hesitated in the phases of his intellectual development regarding belief in Allah, he was completely atheist and apostate. Sometimes he confessed His existence out of

As for the idea that the Qur'an was sent down "according to certain reasons and to the possibility of accepting it," this is not known in the Islamic heritage. Rather, it is what is extremely refused and denied by heritage. The professor himself was not able to support his saying with a definite saying of the scholars. However, his saying remained in the writings of the professor a wish what he could not attain. This is because it contradicts to the origin, which he tells us about.

Also, it is known that the reasons for sending down the verses as a science have many facts mixed with illusions. Also, the first pages of the book entitled "Asbab Al-Nusul (Reasons for Sending Down the Verses) by Al-Siyuty (died in 911 A.H.) record that many of the exegetes mixed between the exegesis of the verse and the reason for its sending down. Also, they were mentioning many reasons – sometimes contradictory – about the reasons for sending a certain verse.

Sheikh Muhammad Rashid Reda expressed his resentment of this false hereditary phenomenon saying: "It is amazing that the narrators of the reasons for sending down the verses tear the Divine Words into pieces, as they separate the verses as well as the sentences in one verse. They give a separate reason for every sentence in a verse, and gibe a separate reason for every verse mentioned in one issue.[7]

Jalal Al-Din Al-Siyuty determined that if one of the exegetes mentioned a reason for the sending down a verse and another exegete mentioned a different reason, then the saying of each of them is not regarded as the reasons for sending down the verses. Rather, he said: "Such saying should not be categorized as reasons for sending down the verses, but should be mentioned in the categories of the rulings of the Qur'an."[8]

It is sufficient as a witness on the mixture and contradiction of the narrations concerning the reasons for sending down the verses that Jalal Al-Siyuty criticized `Ali Abu Hassan Al-Wahedy (died in 478 A.H.), who is the pioneer of the science of

[7] Exegesis of Al-Manar, by Muhammad Rashid Reda: 2/11.
[8] Asbab Al-Nuzul, by Al-Siuty: 7.

the sending down of the verses, for trying to know the reasons for sending down the verses rightly and mistakenly. This caused Al-Siyuty to determine the correct concept of the reason for sending down the verses is that: "The verse was not sent down when the event occurred. Al-Wahidy said that the reason for sending down Surat Al-Fil was the coming of Abraha from Abyssinia. This could not be the reason for sending down the verse. Rather, it is a narration about the past events like mentioning the story of the people of Nuh, `ad, Thamoud, the establishment of the Ka`bah, and the like.

Also, the saying of Allah (Glory be to Him):

{And Allâh did take Ibrâhim (Abraham) as a Khalil (an intimate person)}

[Al-Nisa' (Women): 125]

This is not the reason for regarding him a Khalil, and it is not a reason for sending down the verse, as this is well-known.[9]

Al-Wahedy said: "It is not right to say anything regarding the reasons for sending down the Qur'an except through narration or hearing from those who witnessed the sending down of the verses, knew them, and searched for them."[10]

In this course, Al-Siyuty said about him that he sometimes mentions the Hadith with its chain of narrators and along with elongation non-acquaintance with the one who related the Hadith. Sometimes he mentioned the Hadith without the chain of narrators."[11] in that case it will not be known if the hadith had a chain of narrators or not.

[9] M.N: 6
[10] Reasons for sending down the Qur'an: 5
[11] Asbab A-Nuzul: 8

contemporary history. Also, the old heritage should not have such effect in the souls of the contemporary people; otherwise, the originality of the real state of affairs on which the structure of "Tradition and Innovation" is based will diminish. Also, this may cause the theory to be in a direction and the application to be in another direction, yet the new theory confirms in more than one position that our old heritage with all its dimensions still forms the inner structure of our thoughts, conceptions, and feelings.

In this way, we do not know whether to believe the theory which make heritage an expression and reflection of the real state of affairs or not. Hence, we should belie the saying that we live our current state of affairs in an old heritage or we can believe in this saying. On its light, we should search for another formula that controls the relation between heritage and the real state of affairs, other than the formula adopted by this theory.

Within the framework of this formula, we will face only two matters: either we have heritage that reflects our current state of affairs, which is different normally from our preceding history, or we accept the claim of "Tradition and Innovation" which renders our old heritage a cause of our retardation and lagging behind.

It is inevitable to turn the theory upside down, and to confess the originality of heritage and its effect on the real state of affairs as well as tacking it backward, not the effect of the real state of affairs on heritage and making it part of it (real state of affairs). This is in addition to the rulings and descriptions resulting from the new explanation, which were imposed on the old heritage.

The least that can be said about these rulings is that they contradict with the Islamic heritage in the origins, which came to change the real state of affairs and turn it from a direction to another.

The great professor relies in his new theory on the "reasons for sending down the verses" and "the abrogater and abrogated". From his point of view, they confirm the subordination of the heritage to the real state of affairs and its connection to it in case of weakness and strength, as the jurisprudents.

"What the predecessors called "reasons for sending down the verses" is in fact the precedence of the real state of affairs to thought and its calling for it. Also, it is called by the predecessors "the abrogater and abrogated" to denote that the thought is determined according to the abilities of the real state of affairs and its requirements; when the real state of affairs slackens, the thought slackens, and when the real state of affairs intensify, the thought intensifies.[3]

Hence, the Revelation was sent down according to the requirements of the real state of affairs according to the reasons for sending down the verses, and according to the possibilities of accepting it. The Revelation is often modified according to the real state of affairs as the scholars supporting abrogation say."[4]

Then, the professor takes us to the sought objective, saying: "The Revelation itself is a group of verses, which were sent down in the course of twenty three years. Also, the verses sent with the Revelation is not a book, which was sent down once by a Divine Mind to be accepted by all the people. Rather, it is a group of solutions for some of the daily problems. Many of the solutions were not at the very beginning presented by the Revelation, but they were suggestions of an individual or a group, then supported and enjoined by the Revelation.

This attribute is associated by the Revelation at its last phases: the Islamic Revelation, as it its not sent down by the Revelation in the way that it is something imposed by the real state of affairs and supported by the Revelation. This is the meaning of "the reasons for sending down the verses."[5]

We thought that the professor would not skip so easily to very clear and distinct elements in the heritage, which he wanted to innovate. I mean what is known of the mistake of saying that there is a reason for sending down each verse of the Qur'an. What is known about the heritage of the Muslims with regard to the reasons of sending down the verses is that: "The Nobel Qur'an was sent down in two parts: One was sent as a beginning and the other was sent after an event or a question."[6]

---

[3] Tradition and Innovation, by Hassan Hanafy: 13.
[4] Contemporary issues, by Hassan Hanafy???
[5] Tradition and Innovation, by Hassan hanafy: 157.
[6] Al-Itqan fi 'Ulum Al-Qur'an, by Al-Siyuty: 1/82.

{Say (O Muhammad may the blessings and peace be upon him): "Verily, my Salât (prayer), my sacrifice, my living, and my dying are for Allâh, the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists). He has no partner. And of this I have been commanded}

[Al-An'am (The Cattle): 162-163]

The Muslim should know that without sincerity, Allah will not accept any deed including Hajj, and his efforts will be in vain. Sincerity for the sake of Allah (Glory be to Him) is a necessary condition for Allah to accept the acts of worship.

{And whosoever submits his face (himself) to Allâh, while he is a Muhsin (good-doer i.e. performs good deeds totally for Allâh's sake without any show off or to gain praise or fame and does them in accordance with the Sunnah of Allâh's Messenger Muhammad may the blessings and peace be upon him), then he has grasped the most trustworthy hand-hold [Lâ ilâha illallâh (none has the right to be worshipped but Allâh)]. And to Allâh return all matters for decision.}

[Luqman: 22]

The pilgrim should abide strictly by the rituals of Hajj, as the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever does an act that is not part of the matter of ours (Islam) will be rejected." This is because Islam is a perfect religion that needs no addition.

{This day, I have perfected your religion for you, completed My Favour upon you, and have chosen for you Islam as your religion.}

[Al-Ma'idah (The Table): 3]

Also, obeying and following the pattern of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) is obligatory.

{Say (O Muhammad peace be upon him to mankind): "If you (really) love Allâh then follow me (i.e. accept Islamic Monotheism, follow the Qur'ân and the Sunnah), Allâh will love you and forgive your sins. And Allâh is Oft-Forgiving, Most Merciful.")}

[Al-'Imran (The Household of Imran): 31]

Thus, abiding by the Qur'an and the Sunnah of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) is obligatory, and deviating from any of them is deviation from religion. If this is done out of negligence without denial, then this is regarded as a grave sin and abominable act of disobedience that should be left and repented from. This applies to all matters including the rituals of Hajj.

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah does not accept any deed that is not done sincerely for His sake alone."

Tradition and Innovation:

- 4 -

The old heritage is part of the real state of affairs and its psychological components[1]

By: the Grand Imam Prof-Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

- The real state of affairs is the first and last source of every thought, as the old values included in the heritage are part of the real state of affairs.[2]

These texts reflect frankly and clearly a new explanation plan, on the light of which heritage backs to a material source: the real state of affairs. The author of "Tradition and Innovation" ventured to generalize the ruling more than once.

First: The link between the old Islamic heritage with its real state of affairs in which it rose in terms of time and place.

Second: The real state of affairs is the source of this heritage.

Third: Heritage is part of the real state of affairs.

Fourth: Heritage is not a permanent objective fact, rather an indication of a definite historical stance and a certain conception of a certain group.

According to this new interpretation which establishes the originality of the real state of affairs and the subordination of heritage, it becomes necessary to have a different heritage expressing our real state of affairs, as it has changed many times. Also, our old heritage which is linked in a certain phase with a passed real state of affairs should have passed with its real state of affairs, which is surpassed by the

[1] M.N: 14
[2] M.N.

Pilgrimage (Hajj) as: rituals and behavior ..!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Hajj is the fifth pillar of Islam and the last act of worship enjoined by Allah who set clearly its acts of worship.

Hajj was enjoined in the ninth year after Hijira. During Hajj, the Muslim moves with his body and heart to the Secure Country, Mecca city, to perform the rituals of Hajj in a way that establishes monotheism and the unity of the Muslims.

It was enjoined to perform Hajj once during lifetime. It is prescribed during Hajj to perform Tawaf (Circumambulation of the Ka`bah), and the Ka`bah is the first House established for worshiping Allah. It was built by Prophet Ibrahim and his son Ismail (peace upon them) , and Allah let the Islamic nation be their offspring in response to the supplication of Ibrahim (peace upon them) .

{And (remember) when Ibrâhîm (Abraham) and (his son) Ismâ'il (Ishmael) were raising the foundations of the House (the Ka'bah at Makkah), (saying), "Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower. Our Lord! And make us submissive to You and of our offspring a nation submissive to You, and show us our Manâsik (all the ceremonies of pilgrimage - Hajj and 'Umrah), and accept our repentance. Truly, You are the One Who accepts repentance, the Most Merciful. Our Lord! And send amongst them a Messenger of their own (and indeed Allâh answered their invocation by sending Muhammad peace be upon him), who shall recite to them Your Verses and instruct them in the Book (the Qur'ân) and Al-Hikmah (full knowledge of the Islâmic laws and jurisprudence or wisdom or Prophet's sunnah – legal ways), and purify them. Verily, You are the All-Mighty, the All-Wise.}

[Al-Baqarah (The Cow): 127-129]

Islam is the religion of Ibrahim (may the peace of Allah be upon him) who named the followers of Muhammad (may the blessings and peace be upon him) Muslims. Thus, it is not amazing to find spiritual links between him and the Islamic nation that make them always remember Ibrahim (may peace of Allah be upon him). This is due to his favour over Islam and the Muslims.

{Ibrâhîm (Abraham) was neither a Jew nor a Christian, but he was a true Muslim Hanif (Islâmic Monotheism - to worship none but Allâh Alone) and he was not of Al-Mushrikûn. Verily, among mankind who have the best claim to Ibrâhîm (Abraham) are those who followed him, and this Prophet Muhammad(may the blessings and peace be upon him) and those who have believed (Muslims). And Allâh is the Wali (Protector and Helper) of the believers.}

[Al-Imran (The Household of Imran): 67-68] (peace be upon him)

In the light of these meanings, feelings, and links that connect the Muslims with the Sacred House and its first establisher Ibrahim, Allah enjoined Hajj on every person who can afford it. Also, He regarded the person who leaves or belittles it as disbeliever or apostasy.

{Verily, the first House (of worship) appointed for mankind was that at Bakkah (Makkah), full of blessing, and a guidance for the 'Alamin (mankind and jinn). In it are manifest signs (for example), the Maqâm (place) of Ibrâhîm (Abraham); whosoever enters it, he attains security. And Hajj (pilgrimage to Makkah) to the House (Ka'bah) is a duty that mankind owes to Allâh, those who can afford the expenses (for one's conveyance, provision and residence); and whoever disbelieves [i.e. denies Hajj (pilgrimage to Makkah), then he is a disbeliever of Allâh], then Allâh stands not in need of any of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists).}

[Al-`Imran (The Household of Imran): 96-97]

The spiritual Hajj trip to the pure land, the Sacred Places, and places of mercy contribute in improving our behavior, if Allah wills.

It is obligatory that every person who wants to perform Hajj, hoping for being granted forgiveness:

Repaying his debts before traveling

Removing the effects of any disputes that may occur between him and his Muslim brothers.

To do his best to pay for the expenses of Hajj from his lawful earning, as Hajj is not rewarded except if it is performed by lawful money.

To supply his family with money during his absence, so that he can perform Hajj in a state of tranquility.

His intention should be sincerely for the sake of Allah Alone without seeking worldly fame, Allah (Glory be to Him) says:

{Surely the religion (i.e. the worship and the obedience) is for Allâh only}

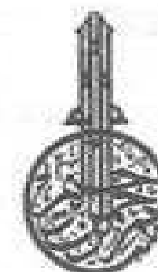
[Al-Zumar: (The Troops): 3]

Allah (Glory be to Him) says:

{So worship Allâh (Alone) by doing religious deeds sincerely for Allâh's sake only.}

The intention should be sincerely for the sake of Allah not only in Hajj but in other acts of worship. Allah (Glory be to Him) says:

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Qaedah, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
September, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

مكتبة
الأزهر الشريف

ذو الحجة

الأزهر

الافتتاحية

ذهاب الشيخ إلى باريس

أ.د. محمد عمارة

من توجيهات الإسلام لحجاج بيت الله الحرام

أ.د. محمد المختار المهدي

هدية العدد: بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني

الجزء الثاني - أ.د. صوفي أبو طالب

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية ذو الحجة ١٤٣٤ هـ أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٣ م الجزء "١٢" السنة "٨٦"

ابن المبارك يحج

أ.د. محمد رجب البيومي

الأبعاد الدعوية لمدونة أحاديث الحج

أ.د. خالد فهمي

وأذن في الناس بالحج



AL AZHAR MAGAZINE



facebook.com/AlAzharMag

www.AlAzharMag.com

المحرم 3

العلمانية بين الغرب والإسلام

أ.د. محمد عمارة

أقسام السنة

أ.د. محمد عبد الله دراز

كلمات ربى وآياته فى القرآن والكون

أ.د. أحمد فؤاد باشا

وجودالله بين الإيمان والإلحاد

د. يحيى رضا جاد

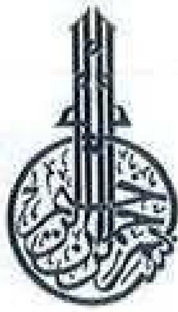
هدية عدد المحرم

وهم الإلحاد

بقلم أ.د. عمرو شريف

تقديم: أ.د. محمد عمارة

السعر



﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم « نور الإسلام »
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



مكتبة الأزهر الشريف

١١
٣٢٢٢٥
دوريات

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

ذهاب الشيخ إلى باريس

لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة



في العصر الحديث .. وبعد قرون من الغفوة والعزلة، أحدثتهما «عسكرة الدولة» بسبب الغزوات الخارجية التي هددت الوجود - الصليبية .. والتترية - استفاقت الأمة على وقع الصدمة التي أحدثتها الحملة الفرنسية - التي قادها «بونابرت» على مصر والشرق (١٢١٣هـ-١٧٩٨م) .. وهي الصدمة التي واجهها رائد التجديد الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٢٥م) بقوله:

«إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»

ولقد أرسل العطار أنجب تلاميذه - الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦-١٢٩٠هـ ١٨٠١- ١٨٧٣م) إماما للبعثة التي ذهبت إلى باريس تطلب التعرف على حضارة أوروبا الحديثة (١٢٤١هـ-١٨٢٦م) .. فكان الطهطاوي أول عين للشرق الحديث على نموذج النهضة الأوربية الحديثة .. وأول من طبق المنهاج الإسلامي في تعارف الحضارات على ما وجده في باريس.

لقد ذهب الطهطاوي إلى باريس وهو عازم على التعرف على الحضارة الأوربية، وكسر حاجز العزلة الحضارية عن مصر والشرق، معلنا»:

«أن مخالطة الأغراب، لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب» (١).

ولأن الطهطاوي قد ذهب إلى باريس بعد أن استوى عوده الفكري بالأزهر

١- الطهطاوي (الأعمال الكاملة) ج١ ص ٢١، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ٢٠١٠م.

الشريف، وانطبعت هويته بالإسلام العقيدة والشريعة والقيم والانتماء للوطن والأمة - فإن الرجل لم ينبهر ولم يندهش بما رأى في باريس من حضارة مزدهرة، كانت يومئذ تخطف أبصار الكثيرين .. ولذلك، ميز الطهطاوي - وهو رائد التعارف على الحضارة الأوربية الحديثة، بين العلوم الدقيقة والمحايدة، التي سماها «علوم التمدن المدني» .. والتي هي شرط في تقدم الوطن - تلك التي لا تختلف حقائقها وقوانينها باختلاف الديانات والفلسفات والأوطان - وهي العلوم التي سبق للأوروبيين - إبان نهضتهم - أن أخذوها عن المسلمين - الذين سبق وأخذوها عن الحضارات القديمة .. ميز الطهطاوي - في التعارف الحضاري - بين هذه العلوم - التي هي مشترك إنساني عام - وبين مالدى أهل باريس وأوربا من فلسفات وضعية لا دينية، تعتمد العقل المجرد من الشرع، والنواميس الطبيعية المعزولة عن نبأ السماء .. والتي تخالف فلسفة الإسلام، التي يتزاوج فيها العقل والنقل، والحكمة والشريعة.

ولقد أدرك الطهطاوي أن هذه الفلسفة الوضعية الأوربية - التي وصفها بأنها «حشوات ضلالية» قد همشت النصرانية، وأفقدتها المصداقية والتأثير على سلوك الأوروبيين.

كما ميز .. في تعارفه وتعرفه على الحضارة الأوروبية - بين التجارب الإنسانية - في النظم الدستورية والنيابية التي تضع مبادئ الحرية وقيمها في الممارسة والتطبيق، وتنظيم شورى الأمة وسلطات أهل الحل والعقد فيها .. ميز بين هذه التجارب وبين خصوصيات أهل باريس في العقائد والفلسفات ومنظومة القيم والأخلاق.

ولم يغفل الطهطاوى عن أنه يتعامل مع حضارة ذات نزعة إمبريالية، تسعى إلى الغزو والاستعمار.. فنبه على ضرورة التمييز – فى التعارف الحضارى.. بين استلهام «علوم التمدن المدنى»، و«الخبرات الإنسانية التى تحققت فوائدها».. وبين النزعة الإمبريالية لهذه الحضارة.. ولقد عبر عن ذلك شعرا ونثر، فقال:

نعم، بيننا جنسية الود والصفا..
ولكننى لم أُلفها علة الضَّم!

ذلك «أن الأمة المصرية أصعب على نفوسها الانقياد للأغراب» (٢)

ولقد نبه الطهطاوى قومه – وهو يتعرف على الحضارة الأوروبية – إلى وقوف المسلمين – يومئذ – بمعنى «العلم» عند علوم النقل.. والآليات.. دون علوم المقاصد، وعلوم التمدن المدنى التى لها مدخل فى عمران الأوطان وتقدمها.. فقال:

«وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور، بمصر القاهرة، وجامع بنى أمية بالشام، وجامع الزيتونة، بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية» (٣)

وكما تعرف الطهطاوى على علوم التمدن المدنى الأوربية، التى هى شرط فى عمران الأرض وتقدم الأوطان.. وعلى التجارب الإنسانية فى النظم الدستورية والنيابية.. كذلك تعرف على إبداعات الفرنسيين فى المسرح – «التياتر» الذى أصبح مدرسة لتعليم الجماهير.. ولقد خلص الطهطاوى – فى هذا التعارف بين الشرق الإسلامى وبين النموذج الحضارى الأوربى – إلى صيغة دعا فيها إلى استلهام علوم التمدن المدنى الأوروبية.. وهى – بعبارته – «العلوم الشريفة، التى ينتفع بها ويحتاج إليها فى الدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعيات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة، والاقتصاد فى المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما له مدخل فى فن أو صناعة» (٤)

٢- المصدر السابق ج ١ ص ١٢١.
٣- المصدر السابق ج ١ ص ١٢٩.
٤- المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٥.

دعا إلى استلهام هذه العلوم «الشريفة» فى ذات الوقت الذى رفض فيه الفلسفة الوضعية اللادينية، التى تقف عند العقل المجرد عن الشرع والدين.. تلك التى همشت النصرانية فى أوروبا.

خلص الطهطاوى إلى هذه المعادلة – فى تعارفه وتعرفه على الحضارة الأوروبية – وصاغها هذه الصياغة الدقيقة والمتوازنة، التى قال فيها:

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا وحقكم عجيب!

فهذه المدينة، كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة، إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية».

وبعد وصف الطهطاوى ورصده لمكونات هذه المعادلة فى النموذج الحضارى الأوربى –:

الحكمة والإحكام فى علوم التمدن المدنى، التى لا تغيب ولا تغرب شموسها فى هذه البلاد.

وتهميش الدين، وتأليه العقل المجرد والنواميس الطبيعية، وتغييب الشرع.. حتى أن ليل الكفر ليس له صباح!.

بعد هذا التصوير للنهضة العلمية فى ظل الفلسفة الوضعية اللادينية – المليئة بالحشوات الضلالية!–.. نبه الطهطاوى على توازن النموذج الحضارى الإسلامى، الجامع بين العقل والشرع.. بين الأمور المعقولة والأمور التعبدية.. والذى جعل السياسة شرعية، لاتحتكم – فقط – إلى الدنيوية العلمانية.. نبه الطهطاوى إلى هذا النموذج الإسلامى المقابل للنموذج الأوروبى – فقال:

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع، والتكاليف الشرعية

والسياسية التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، ومرجعها الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول مع ما اشتمل عليه من السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامه.

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لاتثمر العاقبة الحسنى. ولاعبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولادرء المفاسد، ولاينافى المتجددات التى يخترعها من منحهم الله العقل وألهمهم الصناعة (٥).

ولقد ظل الطهطاوى وفيا لهذا الموقف النقدى من النموذج الحضارى الأوربى يستلهم إيجابياته .. ويعارض سلبياته.

فعندما عاد إلى مصر، ورأس «قلم الترجمة» دفع إلى مطبعة الدولة بقائمتين من الكتب لطباعتها ..

● الأولى بالمترجمات فى علوم التمدن المدني، التى هى شرط عمارة الوطن وتقدمه.

● الثانية خاصة بكتب التراث - الإسلامى التى تجدد حبال التواصل بين العقل المسلم الحديث وبين نموذجه الحضارى الإسلامى الأصيل.

وعندما بدأت بواكير تسلل القوانين الوضعية الأوربية إلى مصر - على عهد الخديوى سعيد باشا (١٢٧٠ - ١٢٧٩ هـ ١٨٥٤ - ١٨٦٣م) - فى المحاكم التجارية - بالموانى - للفصل فى المنازعات بين التجار الأجانب والتجار المصريين .. عارض الطهطاوى هذا التسلل للقانون الوضعى الذى يزيح فقه المعاملات الإسلامية

٥- المصدر السابق جـ ٢/ ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧ طبعة بيروت ١٩٧٣م

عن عرشه الطبيعى .. فكتب معارضا .. ومعللا معارضته .. فقال:

«.. مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع ..» (٦)

●●●

تلك هى الرؤية الإسلامية لقانون العلاقات بين الحضارات .. الرؤية التى:

● ترفض إقامة الأسوار الصينية العازلة بين الحضارات، بالتركيز - فقط - على الخصوصيات التى تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات.

● وترفض التبعية والتقليد والتماهى بين الحضارات، انطلاقا من إبراز ما بين هذه الحضارات من «عموم» وإغفال ما لكل منها من «خصوصيات» .. ذلك الذى يفضى - عمليا - إلى هيمنة الحضارات القوية .. على غيرها من الحضارات، بمنطق الداروينية التى تجعل البقاء للأقوى، زاعمة أن هذا الأقوى هو الأصلح!.

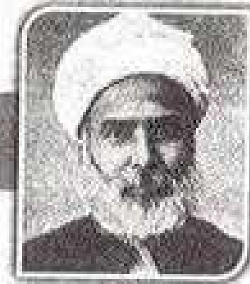
● لتصل هذه الرؤية الإسلامية - فى تعارف الحضارات - إلى تحديد سمات العموم، التى يجب أن تكون ميدانا للتعارف والتفاعل بين الحضارات، مع العناية بقسمات الخصوصيات التى تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات والتى يفضى الاهتمام بها إلى بقاء التنوع والتمايز والتعدد بين الحضارات التى تبدعها الأمم والشعوب.

هكذا كان موقف الحضارة الإسلامية من هذه القضية، التى كانت ولا تزال مثيرة للجدل والخلاف .. وذلك نموذج للتطبيقات التى شهدها التاريخ الإسلامى فى تعارف الحضارات فى عصرنا الحديث.

٦- المصدر السابق ج ١ ص ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٣٣، طبعة بيروت ١٩٧٣م



تفسير سورة البقرة



للشيخ - محمد عبده

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

(البقرة: ٨٠ - ٨٣)

هذا ضرب من ضروب غرورهم عطفه على ما قبله، فقال:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

قيل هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل. والذى عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام؛ لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة. فالإسرائيلى الذى لا تدركه الشفاعة يمكث فى النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة يوم. ومثل هذا الحكم، لا يمكن القول به إلا بعهد من الله تعالى، مالك يوم الدين والجزاء، وإلا كان افتئاتا عليه سبحانه، وقولا عليه بغير علم. وهذا ما رد به عليهم، ولله الحجة البالغة، وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾

أى هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به، فكان حقا لكم عنده؛ لأن الله لا يخلف عهده؟ وقال ابن جرير وبعض المفسرين: معناه هل اتخذتم عند الله عهدًا باتباع شريعته اعتقادًا أو ائتمارًا وانتهاء وتخلقًا فأنتم واثقون بعهد الله فى كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة؟! والاستفهام للإنكار،

أى لستم على عهد من الله تعالى، ولذلك كذبهم بقوله:

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

أى أم تقولون على الله شيئًا ليس لكم به علم، إذ العلم بمثله لا يكون إلا وحيًا منه يبلغه عنه رسله، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به.

والمعنى، أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما: إما اتخاذ عهد عند الله، وإما القول على الله بغير علم. وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل، تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية.

﴿بَلَىٰ﴾ مبطلة لدعواهم. وللسيئة هنا إطلاقها، وخصها مفسرنا «الجلال» وبعض المفسرين بالشرك. ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى:

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ معنى. فإن الشرك أكبر السيئات، وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان. ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجًا منها. يرى نفسه حرًا مطلقًا وهو أسير الشهوات، وسجين الموبقات، ورهين الظلمات!! وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال فى الذنوب، والتمادى على الإصرار، قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(المطففين: ١٤)

أى من الخطايا والسيئات، ففى كلمة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ معنى الاسترسال والاستمرار، وران عليه غطاه وستره، أى أن قلوبهم قد أصبحت فى غلف من ظلمات المعاصى حتى لم يبت منفذ للنور يدخل إليها منه. ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحًا وإقلاقًا صحيحًا، لا تحيط به الخطايا، ولا ترين على قلبه السيئات.

ومن المفسرين من ترك السيئة فى الآية على إطلاقها، فلم يؤولها بالشرك. ولكنهم أولوا جزاءها، فقالوا إن المراد بالخلود طول مدة المكث لأن المؤمن لا يخلد فى النار، وإن استغرقت المعاصى عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته. وأولوا هذا التأويل هروبًا من قول المعتزلة: إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار، وتأييدًا لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة. والقرآن فوق المذاهب، يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمنًا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

(البقرة: ٨٣).

الآيات السابقة كانت تذكيرًا بالنعم التاريخية الملية، وبالتقصير فى الشكر وعواقبه. وذلك كالتفضيل على العالمين الذى يرفع النفس، والإنجاء من آل فرعون ومن الغرق، وإيتاء موسى الكتاب والآيات والبينات، وتسهيل المعيشة عليهم فى التيه بما ساق الله إليهم من المن والسلوى، ثم ما كان منهم فى أثر كل نعمة، وما أعقبه كفر النعم من النقم. ولم يذكر فيما سبق من الأحكام العملية إلا ما جاء على سبيل التبع

لهذه الأصول.

وفي هذه الآية وما بعدها: التذكير بأمهات الأحكام في العبادات والمعاملات، وما كان من إهمالها وترك العمل بها. هذا هو المراد أولًا وبالذات، على أن فيما يأتي إعادة الإشارة إلى بعض ما مضى، قضى بها ما كان عليه اليهود من سوء الفهم وغلظ القلوب وكثرة المشاغبات والمماراة، فالخطاب معهم دائمًا في باب الإطناب.

ولقد لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يطنب ويبدئ ويعيد في خطاب اليهود خاصة، وذلك لما كانت أذهانهم شحنت به مما يسمى علمًا أو فقهًا، فأبعدهم عن أن يصل شعاع الحق إلى ما وراء ذلك من نفوسهم. ويكتفي بالإيجاز بل بالإشارة الدقيقة في خطاب العرب، لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الإحساس لقربهم من السذاجة الفطرية، فالإشارة إلى البرهان، في ضمن تمثيل، يغني عندهم عن الإسهاب والتطويل، ولذلك خاطبهم بمثل قوله في الأصنام:

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

(الحج: ٧٣).

قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

أي واذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل. وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم، ولم يبينه لعلمهم به، وقوله هنا:

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، إلخ بيان له، أي للميثاق، ولا مقول قول محذوف كما قال المفسر. يقال: أخذت عليك عهدًا تفعل كذا، كما تقول: أن تفعل كذا: سواء. وهو خبر بمعنى النهي للمبالغة والتأكيد، يلاحظ فيه أن الأمر والنهي قد امتثل فيخبر بوقوعه، أو أنه لتوثيقه والتشديد في تأكيده سيمتثل حتمًا فيخبر بأنه كائن لا محالة.

قال تعالى:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي وتحسنون بالوالدين إحسانًا. والإحسان: نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية. وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين في التوراة، حتى أنه يوجد فيها الآن أن من يسب والديه يقتل. وقد قرن الأمر بالإحسان بالوالدين إلى الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك، فهو كقوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(الإسراء: ٢٣).

وليست هذه العناية بأمر الوالدين في الكتب السماوية لكونهما سبب وجود الولد، كما يقول الناس، فإنه لا منة لهما على الولد بهذه السببية لأنها لم تكن إكرامًا له ولا عناية به. كيف، وهو لم يكن معروفًا أو موجودًا فيكرم، وإنما كانت باعث الشهوة وإرضاء النفس، ومنهم من لم يكن يخطر بباله الولد إلا بعد الزواج بزمن طويل، ومنهم من كان يود أن لا يولد له، أو أن يكون له ولد واحد أو ولدان فقط، فيكون له أكثر. فإذا كان وجوب الإحسان بالوالدين معلولًا لإرادتهما الولد، فينبغي أن يخص هذا الإحسان بولد لم يكن لهما من الزوجية حظ سواه بعينه، وهو ما لا وجود له. ذلك كلام شعري. والعلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد، هي العناية الصادقة التي بذلاها في تربيته، والقيام بشئونه أيام كان ضعيفًا عاجزًا جاهلًا لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يقدر أن يدفع عنها ضررًا، إذ كانا

يحوطانه بالعناية والرعاية، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه. فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان. وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى، وهما اللذان كانا يساعدانه على كل شيء، أيام كان يتعذر عليه كل شيء؟!

وكذلك حب الوالدين للولد، ليست علته كما يقول الناس كونه جزءًا منهما وفلذة كبدهما، هذا كلام شعري لا حقيقي أيضًا. فإن جسم الإنسان مركب من الأغذية النباتية والحيوانية، فلو كانت العلة صحيحة لكان ينبغي أن يحب الحنطة والغنم أكثر مما يحب والديه. وإنما لحب الوالدين الولد منبعان:

أحدهما: حنان فطري أودعه الله تعالى فيهما لإتمام حكمته.

وثانيهما: ما جرت به سنة البشر من التفاخر بالأولاد، ومن الأمل بالاستفادة منهم في المستقبل، وليست الفائدة محصورة في المال والعون على المعيشة، وإنما تتناول الشرف والجاه أيضًا.

وكم أب قد علا بابن له شرفا
كما علا برسول الله عدنان

ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها، ترك النص على الإحسان بهم، وثنى بالإحسان بمن دونهم في النسب، فقال: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

الإحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة، ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال، والأمة تتألف من البيوت «العائلات»، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة..

وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون، إنما تكونان على أشدهما وأكملهما في الفطرة بين الوالدين والأولاد، ثم بين سائر الأقربين. فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله، فأي خير يرجى منه للبعداء والأبعدين؟! ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أمة، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس، فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءًا منهم يسره ما يسرهم، ويؤلمه ما يؤلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته، ومضرتهم عين مضرته، وهو ما يجب على كل شخص لأمته؟!. قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة وصلتها أمتن من كل صلة، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق، وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص.

ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس، فقال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير، وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة، فعلم أنها مقصودة لذاتها.

أكد الله تعالى الوصية باليتيم. وفي القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا. وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم، وشدد الوعيد على أكل ماله تشديدًا خاصًا. ولو كان السر في ذلك غلبة المسكنة على اليتامى، لاكتفى هنا بذكر المساكين. كلا.. إن السر في ذلك، هو كون اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه، والعناية بأموره الدينية والدنيوية. فإن الأم إن وجدت تكن في الأغلب عاجزة، ولاسيما إذا تزوجت بعد أبيه، فأراد الله تعالى - وهو

أرحم الراحمين ـ بما أكد من الوصية بالأيتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم، يربونهم تربية دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم، فينتشر الفساد في الأمة فتنحل انحلالا. فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد، والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة، فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة.

وأما المساكين، فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملحفون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس. ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فهو كلام جديد له شأن مخصوص، ولذلك تغير فيه الأسلوب، فلم يرد على النسق الذي قبله مع دخوله في الميثاق. فإنه بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالإحسان، ويستحيل أن يحسن الإنسان بالفعل إلى جميع الناس لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس. فالذين لابد له من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربى بينهم، فجاء النص بوجوب الإحسان في معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت. ثم إن اليتامى والمساكين من قومه، هم الذين لا يستغنون عن إحسانه وإحسان أمثاله بالفعل، لأنه لا قيم للأولين، ولا غناء عند الآخرين، ففرض عليه أن يحمل لهم حظا منه. ثم بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين، وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم. بقي بيان حقوق سائر الأمة، وهي النصيحة لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم.. فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب، فالحسن هو النافع في الدين أو الدنيا، وهو لا يخرج عما ذكرنا. فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته، جاء بأسلوب آخر. ولاشك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها.

جاء الأمر بالعبادة مجملا، ليعلم الإنسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها بحسب الطاقة، ولكن من العبادة ما لا يهتدي إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع إقامة الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، وإيتاء الزكاة لإصلاح شئون الاجتماع، لذلك قال تعالى بعد ما تقدم:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

وإنما إقامة الصلاة: بالإخلاص لله والصدق في التوجه إليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعز سلطانه، ولا تكون بمجرد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولي والإعراض عنه، فإنهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذي ذكرهم فيه بهذه الآيات، وإلى هذا اليوم أيضا. وأما الزكاة، فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرابين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم. وليس الأمر كذلك. فإن لهم زكوات مالية، منها مال مخصوص يؤدى لآل هارون، وهو إلى الآن في «اللاويين»، ومنها مال المساكين، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض، ومنها سبت الأرض، وهو تركها في كل سبع سنين مرة لا حرث ولا زرع، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

أي: ثم كان أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له. وقد يتولى الإنسان متصرفا عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شيء معرضا عنه ومهملا له على الدوام. لذلك، كان ذكر هذا القيد ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ لازما لابد منه وليس تكرارا كما يتوهم، وإنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة في الترك المستفاد من التولي. ولا حاجة إلى ما زاده المفسر من قوله: فقبلتم ذلك: ليعطف عليه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، فالمقام مقام وعيد وزجر وتوبيخ. وفي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ نفسها ما يفيد أن التولي لم يكن عقيب أخذ الميثاق.

وقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض، أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه، فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله يحلون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون، ويزيدون في الأحكام والشرائع، ويضعون ما شاءوا من الاحتفالات والشعائر، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله فإن الله هو الذي يضع الدين وحده، وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على ألسنة رسله وقد اتبع سنن اليهود في هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل، وحكم الجميع عند الله تعالى واحد لا يختلف، فهو لا يحابي أحدا:

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

«الكهف: ٤٩»

وكذلك، كانوا قد قطعوا صلات القرابة، وبخلوا بالنفقة الواجبة، وتركوا النهي عن المنكر، وفقدوا روح الصلاة، ومنعوا الزكاة، ولكنهم الآن عادوا إلى بعض ما تركوا، ولم يعد الذين تشبهوا بهم، أو اتبعوا بغير شعور سنتهم، والأمر لله العلي الكبير.

وأما قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام، أو في كل زمن، فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم، والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف.

لو تدبر جهالنا هذه الآية، لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، فلو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة، فإن وجودهم لا يغني عن الأمة شيئا، وقد عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به، فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف ومن لم يعتبر بآيات الله في كتابه، لا يعتبر بآياته وسننه في خلقه فقد فتن المسلمون في دينهم ودنياهم، وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء وهم لا يعتبرون:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

«محمد: ٢٤»

«يتبع»

أقسام السنة عند الدكتور محمد عبدالله دراز

الحمد لله نحمده ونستعينه ونصلي على محمد ﷺ وعلى آله وتابعيه.

معنى البدعة والسنة

١- في أصل اللغة: «البدع» و«البديع» المخترع الجديد الذي لم يسبقه نظير.

و«البدعة» مؤنثة البدع - أو هي الهيئة من الابتداع، وهو الاختراع والاستحداث الأول لصنعه أو مذهب أو سيرة أو غير ذلك من أمور الدين أو الدنيا.

ولما كانت حقيقة الابتداع في اللغة متناولة لاختراع الأمور المستحسنة أو المستهجنة جرت هذه المادة فيها مجرى المدح تارة، كما في قوله تعالى:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾
(الأنعام: ١٠١)

ومجرى الذم تارة أخرى كما في قوله تعالى:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾
(الحديد: ٢٧)

وقد تكون لا مدحا ولا ذما كما في قوله تعالى:

(*)ولد عليه رحمة الله في قرية «محلة دياي» بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤م، وانتسب الى معهد الاسكندرية الديني في عام ١٩٠٥م وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢م، وعلى شهادة العالمية في عام ١٩١٦م، ثم تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص، ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حبا في التظهر، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع، فكان إبان ثورة ١٩١٩م يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ودينه كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة «الطان» الفرنسية.

وفي عام ١٩٢٨م اختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩م، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠م وفي عام ١٩٣٦م سافر الى فرنسا في بعثة أزهرية، واشتغل للتحضير لدرجة الدكتوراه، فكتب رسالتين عن «التعريف بالقرآن» وعن «الأخلاق في القرآن» نال بهما دكتوراة الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧م

وعلى أثر عودته إلى الوطن انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في عام ١٩٤٩م، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم، واللغة العربية بالأزهر، وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية

وفي عام ١٩٥٣م اختير عضوًا في اللجنة العليا لسياسة التعليم كما اختير عضوًا في المجلس الأعلى للإذاعة، إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلاً لمصر والأزهر وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر

وكانت آخر رحلة له رحلته الى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة «لاهور» في يناير عام ١٩٥٨م، وقد ألقى هناك بحثا عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها»، ثم وافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر، فقد العالم الإسلامي بوفاته مثلا فاضلا للعالم الأزهري، الغيور على دينه المحافظ على كرامته، المتصون في مظهره وسمعته، الداعي الى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾
(الأحقاف: ٩)

المعنى: «ما كنت أول رسول من الله إلى البشر حتى تتخذوا رسالتي إليكم عجبًا وتنبذونها بالسحر أو الافتراء، فقد خلت الرسل من قبلي وكانوا كلهم رجالاً يوحى إليهم» فهو كماتري دفع لتعجبهم من دعواه الرسالة ببيان أنها ليست الأولى من نوعها وأنها مسبوقة بالأشباه والنظائر. ومن غير قصد إلى تلك المنفية بمدح أو ذم، ويحتمل أن يكون المعنى: «لم آتكم بجديد في أمر الدين لم يأت به أحد قبلي من الرسل، بل هذا الذي جئتكم به هو ملة أبيكم إبراهيم وهو الذي شرعه الله لنوح ومن بعده من الأنبياء والمرسلين»

فيكون إلى ذلك تبريًا من مذمة الإحداث في الدين.

و«السنة» كاللقمة والأكلة، فعله من السن، وهو انتهاج الطريق والسير فيه، فسنه كل أحد هي طريقته التي يتبعها ومنهجه الذي يسلكه عادة في أمر الدين أو غيره كانت من الأمور الحميدة أو غيرها، ولذا جاء في الحديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة» «ومن سن في الإسلام سنة سيئة» (١) أي سار سيرة محمودة أو مذمومة ووضعها للناس ليقتدوا به فيها.

ومن هنا تعلم أن اللغة كما تسمى الطرائق الجديدة بدعًا من حيث كونها غير مسبوقة بأمثالها تسميها كذلك سننا من حيث أن سلوك الواضع لها وإقامتها في موضع التأسي والاقتداء يجعلها عادة متبعة.

٢- في استعمال الشرع: صارت كلمتا السنة والبدعة في الاستعمال الشرعي إلى معنى أخص من معناهما في الاستعمال اللغوي، فلا تكادان تستعملان بلسان الشريعة في أمر دنيوي محض، وإنما تستعملان في الشئون الدينية خاصة.

بل صارت كل واحدة منهما إذا وردت مطلقة عن القرائن (٢) في لسان النبوة والسلف الصالح اختصت بوصف ثان تباين به الأخرى. فكلمة «السنة» على حقيقتها الشرعية في الصدر الأول لا تتناول من الطرائق الدينية إلا ما كان حقًا وصوابًا، وهو الطريق الذي رسمه لنا كتاب الله وبيان رسوله، نصًا أو استنباطًا كما أن كلمة «البدعة» ما كانت تتناول في حقيقتها إلا ما هو باطل وضلال، وهو تلك الطرائق المخترعة التي ليس لها مستند في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا فيما استنبط منهما بوجه من وجوه الاستنباط المقررة.

ولذلك تكرر ذمها بصيغ العموم والشمول كما في الحديث: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) (٣).

أما علماء الشريعة بعد الصدر الأول فهم فريقان: فريق وقف عند هذا الاستعمال

(١) رواه مسلم عن جرير عن أبيه كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة جـ٨ ص٦١. ورواه مسلم عن جرير بن عبدالله كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة جـ١ ص٨٦

(٢) أما إن قامت القرائن على المراد فإنها تخرجهما عن هذا الاختصاص، حتى يرد لفظ البدعة في معرض المدح كما في قول عمر رضي الله عنه في التراويح «نعمت البدعة هذه» ويرد لفظ السنة في معرض الذم في قوله عليه الصلاة والسلام «ومن سن سنة سيئة» فقرينة التقييد والمقابلة هنا وقرينة المدح هناك رجعت بهما قليلا إلى سعة المعنى اللغوي، فجعلت كل واحدة منهما متناولة للحسن والسيء، وإن لم تخرجهما عن الاختصاص بالأمور المتعلقة بالدين (د دراز)

(٣) رواه الترمذي عن العرباض بن سارية كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع جـ٧ ص٣١٩ (٢٦٧٨). ورواه أبوداود عن العرباض بن سارية كتاب السنة باب في لزوم السنة جـ٥ ص١٣ (٤٦٠٧).

الشرعي كما هو بغير زيادة ولا نقص. وفريق مضى في معنى السنة إلى تخصيص ثالث، ورجع في معنى البدعة إلى تعميم أوسع يقربه من المعنى اللغوي. فالسنة عند هؤلاء هي الطريقة الدينية التي جرى العمل بها نفسها على عهد النبي ﷺ. والبدعة كل أمر جديد لم يعهد بشخصه ولم يسبق بصورته المعينة في عصر النبوة، سواء أكان قد عمل به في زمن الصحابة رضي الله عنهم أم لم يحدث إلا بعدهم وسواء أكان له مستند صحيح من أدلة الشرع أم لم يكن فإذا سألنا سائل:

هل البدع كلها ضلالات مذمومة؟.

قلنا له إن الجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف الاصطلاحين المذكورين.

«فأما على الاصطلاح الأول» فإنه لا يسع مسلما فضلا عن إمام من أئمة المسلمين أن يفصل فيها بين مستحسن وغير مستحسن، إذ لا خفاء أن كل اختراع في الدين لما لا دليل عليه من جهة الشرع إنما هو اغتصاب لمنصب الشارع واستدراك عليه. وهذا إن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بواح، وإلا فأقل ما يقال فيه: إنه باطل مردود على صاحبه:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢)

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٤).

ومن هنا قال الإمام مالك (٥) فيما رواه عنه ابن الماجشون (٦) «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣)

فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا».

وعلى هذا الاصطلاح بنى الإمام أبو إسحاق الشاطبي (٧) المالكي المتوفى ٧٩٠ هـ مذهبه في جعل البدع كلها ضلالات مذمومة، وإن تفاوتت مراتبها في الذم على ما يأتي تفصيله أن شاء الله في بحث «مراتب البدع».

«وأما الاصطلاح الثاني» فلا شك أن المحدثات تنقسم إلى الحسن والسيء: فكل ما لم يشهد له دليل معتبر شرعًا فهو بدعة مذمومة، وإن أيده صاحبه بالشبهات والتأويلات وكل ما شهد له دليل من كتاب أو سنة أو إجماع أو استدلال بالقياس أو بغيره من الأدلة التي أرشد إليها الكتاب والسنة فهو حسن وإن لم يكن قد وجد بنفسه على عهد النبوة.

(٤) الحديث أخرجه البخاري عن عائشة كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود جـ٧ ص٢٣٠. وأخرجه مسلم عن عائشة كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور جـ٥ ص١٣٢.

(٥) الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو إمام دار الهجرة. ولد سنة ٩٣ هـ عام موت أنس بن مالك بن النضر، خادم رسول الله ﷺ وطلب العلم بصدق وإخلاص فكان أحد الأئمة الأربعة توفي عام ١٧٩هـ انظر سير أعلام النبلاء (ج٨/٤٩ - ١٣٥) والبداية والنهاية (١٠/١٧٤) وتهذيب التهذيب (١٠/٥).

(٦) ابن الماجشون: هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن الماجشون من تلاميذ الإمام مالك كان أبوه قرينًا لمالك. كان فقيها فصيحًا دارت عليه الفتيا في زمانه إلى موته. كان ضرير البصر وقيل إنه عمي في آخر حياته (انظر مالك/ الإمام محمد أبوزهرة ص٢٠٢ دار الفكر العربي).

(٧) الشاطبي: هو أبوإسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي فقيه لغوي مفسر اشتهر بالورع والصلاح واتباع السنة وقمع البدعة له مؤلفات مباركة منها الموافقات في الأصول والاعتصام في الحوادث والبدع وغيرها. توفي سنة ٧٩٠هـ (انظر ترجمته في نظرية المقاصد د/ أحمد الريسوني ص٨٩. والأعلام للزركلي ١/٧٥ ومعجم المؤلفين ١/١١٨، والديباج المذهب ص٢٥ والفتح المبين للمراغي ج٢ ص٢١٢/٢١٣).

ومن هنا قال الإمام الشافعي (٨) فيما رواه عنه أبو نعيم (٩) «البدعة بدعتان: محمودة ومذمومة فما وافق السنة فهو محمود، وما خالفها فهو مذموم»، وقال أيضًا فيما رواه البيهقي (١٠) «المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا فهذه بدعة الضلالة وما أحدث من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك فهو البدعة المحمودة (١١)» أو قال: فهذه بدعة غير مذمومة (١٢)».

وعلى هذا الاصطلاح بنى شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام (١٣) الشافعي المتوفى ٦٦٠هـ، وتلميذه الإمام شهاب الدين القرافي (١٤) أحمد بن إدريس المالكي المتوفى ٦٨٤هـ، مذهبهما في تقسيم البدعة إلى الأقسام الخمسة: «الواجب» كجمع المصحف، و«المندوب» كجماعة التراويح، و«المباح» كالتوسع في ألوان الطعام، و«المكروه» كزخرفة المساجد «والحرام» كالرهبانية.

إذا عرفت هذا تبين لك أن اختلاف الفريقين في ذم البدعة إطلاقًا أو تفصيلاً ليس اختلافًا حقيقًا في موضوع واحد وإنما هو خلاف إسمي (١٥) تابع لاختلاف موضوع الحكم. فالمعنى الذي يحكم عليه الفريق الأول بالذم مطلقًا لا يفصل فيه الفريق الثاني، إذ لم يقل أحد منهم (١٦) بتحسن شيء لم يرد بحسنه دليل ولا شاهد شرعي، كما أن المعنى الذي يفصل فيه هذا الفريق لا يطلق الأولون القول بذمه، إذ لم يقل أحد منهم (١٧) بأن كل ما لم يفعل بخصوصه في زمن النبي ﷺ يكون مذمومًا وإن شهدت له الأدلة وأجمع عليه الصحابة وإنما خالفوا في

(٨) الشافعي: هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن هاشم بن عبدالمطلب القرشي المطلبي المكي الثقة الحافظ نسيب رسول الله ﷺ وناصر سنته، صاحب المذهب ولد سنة خمسين ومائة وتوفي سنة أربع ومائتين - رحمه الله - (انظر: تهذيب التهذيب ج٩ ص٢٥ تذكرة الحافظ ج١ ص٣٦١ البداية والنهاية ١٠/٢٥١).

(٩) أبونعيم: هو أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني حافظ مؤرخ ثقة، من كتبه حلية الأولياء، ودلائل النبوة، وكتاب الإمامة في الرد على الرافضة توفي في أصبهان سنة ٤٣٠هـ (انظر البداية والنهاية ١٢/٤٥ وشذرات الذهب ٣/٢٤٥).

(١٠) البيهقي: هو الإمام أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي الحافظ، صاحب التصانيف الكثيرة لزم الحاكم مدة وأخذ عنه وعن غيره. توفي سنة ٤٥٨هـ (البداية والنهاية ١٢/٩٤، شذرات الذهب ٣/٣٠٤، سير أعلام النبلاء ١٨/١٦٣).

(١١) هكذا نقله الفقيه ابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين النووية د. دراز.

(١٢) هكذا نقله المحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري «كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة». د. دراز.

(١٣) العز بن عبدالسلام: هو الإمام عزالدين بن عبدالسلام السلمي الشافعي كان يلقب «بسلطان العلماء» لقوته في الحق وجرأته، وكان له أثر في حشد المسلمين ضد التتار في عين جالوت من آثاره «قواعد الأحكام» «الفتاوى» وتوفي سنة ٦٦٠هـ (انظر ترجمته في طبقات الشافعية ٨/٢٠٩ البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، شذرات الذهب ٥/٣٠١).

(١٤) القرافي: هو الإمام أحمد بن إدريس أبوالعباس شهاب الدين القرافي له مصنفات ذائعة في الفقه والأصول (أنواء البروق والذخيرة، وشرح تنقيح الأصول في الأصول) توفي سنة ٦٨٤هـ (انظر الديباج المذهب لابن فرحون ص٦٢/٦٧).

(١٥) وإذا فلا وجه لتشنيع الشاطبي على القرافي في تقسيم البدع وقوله إنه تبع فيه شيخه من غير تأمل في مرادهم. لأن المسألة كما عرفت مسألة اصطلاح لا تحسن المشاحة فيه ما دام الحكم متفقا عليه بين العلماء. وهما مسبوقان في هذا التقسيم بالشافعي الإمام.

(١٦) وإنما يقول ذلك الجهلاء من أهل الأهواء وأهل بدعة التحسين العقلي.

(١٧) بل لا يقول ذلك إلا غلاة أهل الظاهر الذين يمنعون الاجتهاد والقياس وينكرون حجية الإجماع أولئك الذين يأخذون الدين نصوصا حرفية دون أن يتفقهوا في مقاصده وقواعده الكلية. فلا يعبأ بهم ولا يعتد بخلافهم. بل رأيهم نفسه من البدع المذمومة التي حدثت بعد المائة الثانية والتي خالفوا بها السنة الثابتة التي مضى عليها خير القرون. على أنه يلزمهم في مذهبهم أحد تناقضين: (أما التناقض في رأيهم) إذا عموا بتطبيق النصوص على كل الحوادث. فألجأهم العجز إلى شيء من القياس والاستنباط (وإما التناقض في الشريعة) إذا أبقوها كلها على ظواهرها ولم ينزلوها على مقاصدها المختلفة.

تسمية هذا الفعل سنة نبوية، فسموه بدعة مستحسنة أو سنة صحابية، مثلاً، بينما أهل الاصطلاح الأول لا يأبون أن يسموه نبوية، لأن العبرة باتخاذ طريقة الحكم وأن اختلفت صورة العمل.

وقوله ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» (١٨).

يمكن إجراؤه على كلا الاصطلاحين: فإن سلكت به المسلك الثاني جعلت العطف فيه بين ذاتين متغايرتين وإن سلكت به المسلك الأول جعلت العطف بين صفتين لموصوف واحد، كما تقول فلان كاتب وشاعر.

وكذلك قول عمر بن عبدالعزيز (١٩) رضي الله عنه: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله. ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها، من عمل بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا» فقد عطف ولاة الأمر على الرسول ﷺ وجعل ما سنه الكل سنة.

وقد نقل الحاكم (٢٠) عن يحيى بن معين (٢١) في معنى قول السلف «سنة أبي بكر وعمر» أن المعنى فيه أن يعلم أن النبي ﷺ مات وهو على تلك السنة. وأنه لا يحتاج مع قول النبي ﷺ إلى قول إحداهما.

قال الشاطبي: فلا زائد إذًا على السنة النبوية، إلا أنه قد يخاف أن تكون منسوخة بسنة أخرى، فافتقر العلماء إلى النظر في عمل الخلفاء بعده ليعلموا أن ذلك هو الذي مات عليه النبي ﷺ من غير أن يكون له ناسخ، لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمره. قال وعلى هذا بنى مالك بن أنس مذهبه في احتجاجه بالعمل (٢٢) ورجوعه إليه عند تعارض السنن.

[بقي سؤالان آخران يتم الجواب عنهما لضبط حقيقة البدعة]

● السؤال الأول: «هل كل مخالفة للشرع تسمى بدعة؟»

ليس كل مخالفة للشرع تسمى بدعة، إنما البدعة جعل هذه المخالفة دينًا فمن تمحل لمعصية حتى صبغها بصبغة الدين وأدخلها في حدود الشريعة فقد ابتدع، كما أن كل من عمل عملاً يغير به الأوضاع الشرعية كان مبتدعًا ولو لم يكن ذلك العمل في أصله محرمًا ولا مكروها كأن يعمد إلى مباح

(١٨) الحديث أخرجه الترمذي عن العرباض بن سارية كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدع جـ٧ ص٣١٩ (٢٦٧٨). وأخرجه أبوداود عن العرباض بن سارية كتاب السنة باب في لزوم السنة جـ٥ ص١٣ (٤٦٠٧).

(١٩) عمر بن عبدالعزيز: هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، أمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولد سنة ٦٣هـ وقيل ٦١هـ أرسله والده إلى المدينة ليتفقه في الدين فلما توفي أخذه عمه عبدالملك بن مروان وزوجه ابنته فاطمة، تولى إمارة المدينة ومكة، والطائف في خلافة الوليد بن عبدالملك ثم قدم الشام وبقي بها حتى ولي الخلافة في عام ٩٩هـ وأصلح الله به البلاد والعباد ثم مات مسمومًا في ٢٥/٧/١٠١هـ (انظر البداية والنهاية جـ٩/٩٢، ٩٦) - سير أعلام النبلاء جـ٥ ص١٢٢).

(٢٠) الحاكم: هو الإمام الحافظ أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن حمدون الضبي الطهماني النيسابوري، المشهور بالحاكم ويعرف بابن البيع صاحب المستدرك طلب العلم في الصغر وكتب عن نحو ألفي شيخ توفي سنة ٤٠٥هـ وهو ثقة حجة (انظر البداية والنهاية جـ١١ ص٣٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٧/١٦٢).

(٢١) يحيى بن معين: هو الإمام الناقد سيد الحفاظ يحيى بن معين بن زياد المري بالولاء إمام في الجرح والتعديل قال أحمد: أعلمنا بالرجال ولد سنة ١٥٨هـ وتوفي بالمدينة حاجًا سنة ٢٣٣هـ (انظر سير أعلام النبلاء ١١/٧١ شذرات الذهب ٢/٧٩).

(٢٢) يعني عمل أهل المدينة.

فيجعله قربة، أو إلى قربة مندوبة فيجعلها واجبة، أو إلى مشروع فيضعه في غير موضعه. أما الذي يعمل بالمعصية انقيادًا لشهوته أو غضبه وهو غير مستحل لها فهو عاص غير مبتدع حتى لو فشت المعاصي والمنكرات في الناس وأصبحت عادة فإنها لا تأخذ اسم البدع بمجرد هذا الاشتهار اللهم إلا إذا اعتقد الناس مشروعيتها أو أفضى أمرهم إلى اعتقاد ذلك، بأن يعمل بها من هم أهل للاقتداء في الدين أو يسكتوا عن إنكارها وهم قادرون على الإنكار فيظنها الجاهل جائزة ويدخل الداخلون في الإسلام وينشأ الناشئون فيه على رؤيتها بغير نكير فيزعمونها من الدين. فهنالك يعرض لها اسم البدعة وحكمها.

● السؤال الثاني: «هل تختص البدع بقسم العبادات من الشريعة؟».

معلوم أن التشريع الإسلامي لم يدع شأنًا قط من شئون الإنسان في خاصة نفسه أو في علاقته بالخالق أو المخلوق إلا وضع له قانونًا يرجع فيه إليه، وأعطاه حكمًا معينًا يحكم به عليه أمرًا أو نهيًا أو تخييرًا.

ومعلوم أنه حين أعطى لكل عمل حكمة لم يجعل لأحد الخيرة في نقض ما أبرمه بتحليل ما حرم ولا في إبرام ما نقضه بتحريم ما أحل، سواء في ذلك أن يكون عملاً للدين أو للدنيا، وبعبارة أخرى سواءً أكان هذا العمل من قسم العبادات كالصلاة والصوم، أم من قسم العادات كالبيوع والأنكحة والأطعمة والأشربة، فكلاهما قد حددت له الشريعة حدودًا واسعة أو ضيقة لا يحل لأحد تغييرها ولا تبديلها.

ولا جرم إذًا أن كل تغيير يستحدث في هذا القسم أو ذاك يكون داخلاً في حقيقة الابتداع في الدين متى ثبت أنه تغيير لتلك الحدود.

ولا نعني بالتغيير مجرد المخالفة العملية، فقد علمت أن هذا وحده لا يسمى ابتداعًا وإنما نعني به التغيير في التشريع بجعل غير المشروع مشروعًا، والمشروع غير مشروع، أو التغيير في العمل مع اعتقاد مشروعية ذلك وارتكابه باسم الدين نفسه. هذا هو ما نسميه ابتداعًا ولا يسع أحد أن يخالف في تسميته بذلك(٢٣)(٢٤).

على أن الشاطبي رحمه الله يعد من البدع كل مخالفة يضعها الحاكم على الناس وضعًا تضاهي به المشروعات، بأن يلزمهم بها على وجه الاستمرار أو على وجه التوقيت بأوقات محدودة كالعبادات، وكأنه على هذا القياس يعد من البدع ما حدث منذ زمن في جمهرة الممالك الإسلامية من وضع أحكام غير شرعية يتحاكم إليها الناس في أكثر أبواب معاملاتهم.

ونحن لا نتابعه على تسمية هذه التشريعات الوضعية بدعًا دينية إلا لو كانت مظنة لأن يعتقد الناس فيها أنها تشريع سماوي، أما فيما دون ذلك فإنا نسميها معصية منكرة كبيرة ظاهرة نسأل الله أن يعافي المسلمين عما قريب.

(٢٣) يقول الشاطبي «الأمور المشروعة تارة تكون عبادية، وتارة عادية فكلاهما مشروع من قبل الشارع، فكما تقع المخالفة بالابتداع في أحدهما تقع في الآخر» الاعتصام ٢/٧٤.

(٢٤) يقول الشاطبي (وضع المكوس على الناس حتى تصبح أمرًا محتومًا دائمًا، أو في أوقات محددة على كيفيات مضروبة بحيث تضاهي المشروع كالزكاة) الاعتصام ٢/٨٠.

التراث والتجديد مناقشات وردود



لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر



٦ - تغيير المحاور المركزية في التراث:

يرى الأستاذ: أن الحلَّ الحقيقيَّ لا يكونُ عن طريق التكالب على قيم التُّراث، ولا يكونُ - أيضًا - بنفض اليدَيْن من هذه القيم جُملةً وتفصيلاً، ولكنْ عن طريق (التُّراث والتَّجديد)؛ إذ التُّراثُ والتَّجديدُ هو المشروعُ المُصمَّمُ كعلاجٍ لقضيةِ التخلف في البلاد النامية، وهي قضيةٌ ثلاثيّةُ الأبعاد:

البُعدُ الأوّلُ: التحرُّرُ من كلِّ أشكالِ الاستعمار وصُوره، وهذا البُعدُ يفرضُ على باحثِ اليوم همومًا وأعباءً جديدةً لم يكنْ يعرفُها باحثُ الأمس، فباحثُ الأمسِ: مُؤثِّرٌ في الحضارات الأخرى بما هو شخصيةٌ مُستقلّةٌ، فاتحةٌ للأرضِ، مُكتسبةٌ للعلوم، واضعةٌ للنظريات، بينما باحثُ اليوم: مُحتلٌّ مُستعمَرٌ، فاقدٌ لأرضه، مُتسوِّلٌ في أسواقِ الغرب، وما يقولُه الأستاذُ في تشخيصِ هذه المأساة صحيحٌ - في جُملته على الأقلِّ - ولكنْ لننتبهْ جيّدًا إلى العلاجِ المطروحِ في أدبياتِ هذا المشروعِ للقضاءِ على هذه المأساة:

إنَّ هذا الاختلافَ بينَ باحثِ الأمسِ وباحثِ اليوم يفرضُ على باحثِ اليوم مهمّةً مُحدّدةً تتمثّلُ في (إيثارِ الأرضِ على كلِّ ما عداها)، بحيثُ تتحوّلُ الأرضُ - في شعورِ باحثِ اليوم - إلى ميتافيزيقا وشعرٍ، وروايةٍ وقصّةٍ، إلى حنانٍ وشوقٍ بعدَ أنْ أصبحتْ بُكاءً ودُموعًا، مرارةً وأسى، ذُلًّا وعارًا، فإذا كانَ هناكَ لاهوتٌ فهو لاهوتُ الأرضِ، وإذا كانتْ هناكَ فلسفةٌ فهي فلسفةُ الأرضِ، وإذا كانَ هناكَ تصوُّفٌ فهو تصوُّفُ الأرضِ، وإذا أسّسنا لاهوتًا فهو لاهوتُ التحرُّرِ، وإذا أنشأنا تصوُّفًا فهو تصوُّفُ الثورةِ، وإذا شرّعنا فقهًا فهو فقهُ النِّضالِ، وإذا فسّرنا دينًا فهو دينُ التنميةِ) (١).

البُعدُ الثاني: التخلُّفُ، سواءٌ كانَ على المستوى الماديِّ المُتمثِّلِ في الجهلِ والفقرِ والمرضِ والأُمّيةِ، أو على المستوى المعنويِّ المُتمثِّلِ في تسلُّطِ الأسطورةِ والخُرافةِ، والانفعالِ والخوفِ، والاستكانةِ والقضاءِ والقدرِ. ومهمّةُ التجديدِ تكمُنُ في إسقاطِ مفاهيمِ التخلُّفِ والتنميةِ على مقولاتِ التُّراثِ القديم.

البُعدُ الثالثُ: التقدُّمُ ضدَّ الركودِ، ويُقصدُ من الرُّكودِ: اجترارُ القديمِ، أو الاستيرادُ من فكرِ الغربِ، والعلاجُ المحتومُ - فيما يرى الأستاذُ - هو: (حلُّ طلاسمِ الماضي مرّةً واحدةً إلى الأبدِ) (٢)، وتتعلّقُ بهذا العلاجِ منظومةٌ من الوصفاتِ المساعدةِ نُلخّصُها فيما يلي:

- (فكُّ أسرارِ الموروثِ حتى لا تعودَ إلى الظهورِ أحيانًا على السطحِ، وكثيرًا في القاعِ).

- (ما لم تتغيّرْ جذورُ التخلّفِ النفسيّةُ كالخرافةِ، والأسطورةِ، والانفعالِ، والتأليه.. فإنَّ الواقعَ لن يتغيّرَ).

- (مهمّةُ التُّراثِ والتّجديدِ: هي التحرُّرُ من السُّلطةِ بكلِّ أنواعِها - سُلطةِ الماضي، وسُلطةِ الموروثِ - فلا سُلطانَ إلّا للعقلِ، ولا سُلطةَ إلّا لضرورةِ الواقعِ الذي نعيشُ فيه، وتحريرُ وجدانِنا المعاصرِ من طاعةِ السُّلطةِ، سواءٌ كانتْ سلطةَ الموروثِ أو سلطةَ المنقولِ) (٣).

ولا تُخطئُ العينُ هنا نوعًا من الاستعمالِ المقصودِ لمُصطلحاتٍ مفتوحةٍ، مثل: الموروثِ، الأسطورةِ، التأليهِ، سلطةِ المنقولِ، طلاسمِ الماضي وأسرارِه، والذي يغلبُ على ظنّي: أنَّ هاهنا عنايةً بالغةً واقتدارًا فائقًا في انتقاءِ هذه المصطلحاتِ، وتوظيفِها في إسقاطِ ما يُرادُ إسقاطُه من تحطيمِ الحواجزِ وتداخُلِ الحدودِ بينَ أصولِ التُّراثِ وتراثِ الأصولِ، وإذا كانَ (التُّراثُ والتّجديدُ) يعني تغييرَ الواقعِ، فإنَّ العلاجَ هو عَرْضُ الموروثِ القديمِ على احتياجاتِ العصرِ، فهي التي تبعثُ الحياةَ في التُّراثِ، وتُشكِّلُه بأشكالٍ وصورٍ ومفاهيمَ جديدةٍ، وكلّما تغيّرَ الواقعُ تغيّرَ معه التراثُ أُطرًا ومضامينَ، وأصولًا وفروعًا، وهنا يُفاجئُنا المشروعُ بالنّصِّ التالي: (ابتداءً من علمِ أصولِ الدينِ الذي يُعطي الجماهيرَ الأُسسَ النظريةَ العامّةَ التي تُحدِّدُ تصوُّراتِنا للكونِ، وابتداءً من إعادةِ بناءِ الأصولِ تتغيّرُ أشكالُ الفروعِ بطبيعتِها: الانتقالُ مثلًا من العقلِ إلى الطبيعةِ، ومن الرُّوحِ إلى المادّةِ، ومن اللهِ إلى العالمِ.. ومن وحدةِ العقيدةِ إلى وحدةِ السُّلوكِ) (٤). والنصُّ في وضوحِه العامِّ لا يحتاجُ إلى تعليقٍ.

وإذا فعمليّةُ التّجديدِ تعتمدُ - أوّلَ ما تعتمدُ - على ما يُسمّيه المشروعُ بإعادةِ (تغييرِ المحاورِ المركزيّةِ) التي يرتكزُ عليها التُّراثُ، بمعنى: أنَّ التجديدَ يبدأُ (بتعديلِ هذه المحاورِ وتغييرِ اتجاهاتِها ومراكزِها.. وقد يكونُ لنفسِ المحورِ أسماءٌ عديدةٌ، وقد تنتجُ عنه محاورُ أُخرى مُتداخلةٌ معه) (٥).

فمثلًا إذا كانَ التُّراثُ القديمُ يتمركزُ حولَ (اللهِ)، فالذي يجبُ أن يحدثَ الآنَ هو التمركُزُ حولَ (الإنسانِ)، وذلك عن طريقِ الطرفِ الآخرِ من طرفَي الوَحْيِ؛ لأنَّ الوحيَ هو خطابُ اللهِ للإنسانِ، والأولويةُ في التجديدِ للوحيِ بمعنى مخاطبةِ الإنسانِ لا بمعنى خطابِ اللهِ، أو كما يقولُ - الأستاذُ - علمُ الإنسانِ (Anthropolgy) وليس علمَ اللهِ (Theology) ولا يكتفي (التُّراثُ والتّجديدُ) بهذا اللامعقولِ الذي يَبدَهُنا به؛ إذ لفظُ (الخطابِ) أو (الوحيِ) لا يُمكنُ فهمُه أساسًا إلّا بينَ طرفَيْنِ: مُوحٍ ومُوحًى إليه، أو مُرسِلٍ ومُرسَلٍ إليه، أو مُخاطِبٍ ومُخاطَبٍ، ومادامَ الخطابُ إلهيًّا فإنَّ الجانبَ الإلهيَّ مأخوذ

---

١ - التراث والتجديد لحسن حنفي: ٥٧.

٢ - م. ن: ٥٧. ٣ - م. ن: ٥٧. ٤ - م. ن: ٦٣.

٥ - الدين والثقافة الوطنية، لحسن حنفي: ٣٦.

حتمًا كاملٍ فى عملية الخطاب، بل لا يكتسبُ الخطابُ قيمته وقوّته فى التأثيرِ على الإنسان إلا بارتباطه بهذا المصدر وكونه صادرًا عنه.

نقولُ: لا يكتفى التُّراثُ والتّجديدُ باستئصالِ المصدرِ الإلهىِّ من عملية الخطاب، ولكن يُمعنُ – عبرَ لا معقولٍ جديدٍ – فى تحويلِ مفهومِ (الله) من معناه المعروفِ للقاصى والدّانى إلى معنًى غريب. يقولُ فيه الأستاذُ: (والله هو بُعْدُ: الشّمولِ والعمومُ فى الحياة الإنسانيّة الذى على أساسه يُمكنُ التعاملُ مع الآخرين على قدم المساواة بضمانِ وجودِ معيارٍ شاملٍ للحُكمِ، ومقياسٍ عامٍّ للسلوكِ، وقد تمّ ذلك فى الغرب إبّانَ عصرِ النهضة فى القرنِ السادسَ عشرَ) (٦).

وأكبرُ الظّنِّ أنّ عقلاً غربيًا واحدًا لم يقعْ فى هذا اللامعقولِ الذى يتحدّثُ عنه الأستاذُ، فما نعرفُه هو أنّ الغربَ – ولظروفٍ خاصّة به – ثارَ على المفاهيمِ الدينية، واستبدلَ بها مفاهيمَ أُخرى، وظلّ العقلُ الغربيُّ واعيًا بالفروقِ الفاصلة بين المفاهيمِ الأولى والثانية؛ ذلك لأنّ عملية سكبِ مفهومٍ فى مفهومٍ آخرَ – إنْ صحّ هذا التعبيرُ – هى قضاءٌ على المفهومَيْن معًا، وإلا فعلى نظرية الحدود فى المنطق أن تتوارى إلى الأبد، وعلى المعقولاتِ الذّهنيّة والخارجيّة.. أنْ تخضعَ للعبة السُّوفسطائيين الجُدد.

وإنّنا لنتساءلُ: ماذا يقصدُ الأستاذُ من (الشّمولِ والعمومِ فى الحياةِ الإنسانيّة) كمحورٍ جديدٍ مُتغيّرٍ بدلَ محورِ (الله) فى التُّراث القديم، إنْ كانَ المقصودُ به هو المقصودَ نفسَه من مفهوم (الله)؟ فما الفائدةُ – إذًا – من تغييرِ المحاورِ ما دُمنا سنحافظُ على المفهومِ الدّينيِّ اللاهوتيِّ نفسه؟!

وإنْ كان المقصودُ منه مفهومًا آخرَ مختلفًا عن مفهوم (الله)، فهذا ليس بتجديد، بل تدميرٌ لمفهومٍ قديم، وإحلالٌ لمفهومٍ آخرَ محلّه.

وهناك أمثلةٌ أخرى يضربُها صاحبُ (التُّراث والتّجديد) نماذجَ لتغييرِ المحاور؛ كالانتقالِ من الله إلى الطبيعة، أو من الله إلى الشّعب، ومن الأخرويّاتِ إلى الدّنيويّات، ومن تاريخِ الأنبياء والرُّسلِ فى الماضى إلى أعمالِ القادةِ والأبطالِ فى الحاضر، ولا ينسى الأستاذُ أنْ يُشكّكَ – فى لمحةٍ خاطفةٍ – فى تاريخهم صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين بقوله (فالهدفُ من قصصِ الأنبياء فى الرّافدِ الدّينيِّ للثقافة الوطنيّة هو إعطاءُ نماذجَ للبطولة، وقيادةِ الشّعوب، ومقاومةِ الظلمِ والطغيان: موسى وفرعونُ، محمدٌ (٧) وقريش.. إلخ نماذجِ الماضي، قد لا تكونُ واقعًا بل خيالاً، ليست هدفًا فى ذاته...) (٨).

الإيمانُ والإلحادُ فى التُّراثِ والتّجديد:

غيرَ أنّ صاحبَ التُّراثِ والتّجديد قد شعرَ بأنّ نصوصَه هذه تفتحُ الأبوابَ على مصاريعها للإلحاد، فطفقَ يُبدئُ ويُعيدُ فى إجاباتٍ اعترفَ بأنّها من مستوًى يفوقُ إمكانيّاتِ أيِّ قارئٍ مهما كانت ثقافتُه ومهما كان ذكاؤه، أو أنّ هذه الإجاباتِ تعتمدُ اللامعقولَ طريقًا لمخاطبة القارئ، وإلا فما المقصودُ من القولِ بأنّ: (مقولتَي الإلحادِ والإيمانِ مقولتان نظريّتان لا تُعبّرانِ عن شيءٍ واقعيٍّ؛ لأنّ ما يظنُّه البعضُ على أنّه إلحادٌ، قد يكونُ هو جوهرَ الإيمان، وما يظنُّه البعضُ الآخرُ على أنه إيمانٌ، قد يكونُ هو الإلحادَ بعينه، بالإضافة إلى أنّ مقولاتِ الإلحادِ والعلمانيّة – التى نشأتْ فى حضاراتٍ أُخرى ورفضُها تراثَنا القديمَ – وبعضَ الحركاتِ الإصلاحيّة الحديثة، هى فى صميمها التّجديدُ الذى هو مضمونُ تراثنا القديم، فمعنى الإلحادِ فى الحضارة الغربية يقابلُ معنى الإيمانِ فى تراثنا القديم) (٩).

نفيُ تأثيرِ العقائدِ فى النُّفوسِ والسُّلوك، وقَصْرُه على الحياةِ العمليّةِ والواقعِ فقط:

ثُمّ يقولُ سيادتُه: (ليس للعقائدِ صدقٌ داخليٌّ فى ذاتها، بل صدقُها هو مدى أثرها فى الحياة العمليّة وتغييرها للواقع، فالعقائدُ هى مُوجّهاتٌ للسلوك، وبواعثُ عليه لا أكثر) (١٠).

وفى اعتقادنا: أنّ هذا التذبذبَ الذى وقعَ فيه (التُّراثُ والتّجديدُ) بين الإثباتِ والنّفيِ فى الحقيقةِ الواحدةِ أمرٌ لا مفرَّ منه مع المنهجيّة المتهافتة منطقيًا التى اعتمدَها هذا المشروعُ، وأعنى بها: مُحاكمةَ تراث، خاصّتُه الأولى قيادةُ الواقعِ وتوجيهُه بظروفِ هذا الواقعِ ومُتغيّراته ومُستجدّاته، فالواقعُ – فى هذا المشروع – هو المُقدّسُ الذى لا يُمسُّ، ومتغيراتُه لا يأتيها الباطلُ من بينِ يديْها ولا من خلفها، والتُّراثُ – وما يشتملُ عليه من دينٍ وغيره – هو المُتغيّرُ، سواءٌ كان التغييرُ بمعنى التجديد؛ أى الحفاظ على الأصولِ مع تطويرِ الفروع، أو كانَ التغييرُ بمعنى الإحلالِ والإبدالِ فى الأصولِ والفروعِ معًا.

وفى ضوءِ هذا المقياسِ المتعارضِ منذُ اللحظة الأولى مع تراثنا شكلاً ومضمونًا، أصبحَ الإلحادُ مفهومًا نسبيًا، وليس وصفًا مُحدّدًا كما نعرفُه من تراثنا وتراثِ الأديانِ قاطبةً.

مفهومُ الإلحادِ فى فلسفةِ (التُّراثِ والتّجديد):

فالإلحادُ فى فلسفة (التُّراثِ والتّجديد) وإنْ كان يعنى إنكارَ أصولِ الدّينِ كُلّها أو بعضها، فإنّه إنْ كان مُنبعثًا من عقليّةٍ مُؤثّرة فى الواقع، فهو ليس إلحادًا، أو هو إلحادٌ يتطلّبه مشروعُ التّجديد فى تراثِ المسلمين.

ولسنا ندري: أيّةُ قيمةٍ موضوعيةٍ يُمكنُ أنْ تتصفَ بها العقيدةُ الإسلاميةُ – مثلاً – فى ظلِّ (التُّراثِ والتّجديد)؟ وما لنا نحاولُ التساؤلَ وقد حسمَ الأستاذُ القضيةَ في النّصِّ السابقِ حين قرّرَ أنّه ليس للعقائد صدقٌ داخليٌّ، ونحن نعلمُ أنّ إفراغَ العقيدةِ من صدقها الداخليِّ هو الوجهُ الآخرُ لفلسفةِ الإلحاد؛ تلك التى لا ترى فى الألوهية أو النبوة أو البعث حقائقَ موضوعيةً ثابتةً، وإنّما تفسّرُها على أنّها كوابتُ النفسِ الإنسانيّة، أو ظواهرُ اجتماعيةٌ نشأتْ من تعاملِ الإنسانِ مع البيئةِ أو الواقعِ أو الأوضاعِ الاقتصاديّة.. إلى آخرِ ما هو معروفٌ من التفسيراتِ الماديّة لحقيقة الدِّين.

والأستاذُ الذى انتهضَ لتجديدِ تراثِ المسلمين لا يبتعدُ عن هذه التفسيراتِ ذاتها حين يقولُ عن الوحي مثلاً: إنّه لا يُقصدُ منه إثباتُ موجودٍ مُطلقٍ غنيٍّ لا يحتاجُ إلى الغير، بل المقصودُ منه تطويرُ الواقعِ فى اللحظة التاريخيّة التى نمرُّ بها (١١).

«يتبع»

٦ – م. ن: ٣٦.
٧ – صلى الله عليه وسلم.
٨– الدين والثقافة الوطنية، لحسن حنفي: ٣٨.
٩ – م. ن: ٦٨.
١٠ – م. ن: ٦٨.
١١ – م. ن: ٦٨.

معنى النسخ عند الأستاذ عبدالكريم الخطيب

(١٣٢٨-١٤٠٦هـ/١٩١٠-١٩٨٥م)

هو واحد من علماء الإسلام وكتاب الفكر الإسلامى المعاصرين.

ا ولقد عرض لمعنى النسخ .. ولدعاوى وقوعه فى القرآن الكريم .. ورد هذه الدعاوى .. وذلك فى كتابه: (القرآن: نظمه .. جمعه .. ترتيبه).

وفيه قال - تحت عنوان: (النسخ: ولا نسخ فى القرآن) -:

القضية الثانية

النسخ ولا نسخ فى القرآن

أولاً: النص القرآنى:

قال تعالى:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة :١٠٦)

ثانيا: القضية فى إطارها القرآنى:

مسألة النسخ فى القرآن الكريم من الأمور التى كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين علماء المسلمين، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرص وتقول على القرآن من أعداء الإسلام.

وبكلمة واحدة نخرس أولئك الذين يتربصون بالقرآن وأهله، ثم نتركهم فى غيظهم وكيدهم، لننظر فى هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ.

والكلمة التى نقولها لأعداء هذا الدين هى قوله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر :٩)

فهذا التحدى القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن، هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن، .. فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفا أو يغيروا كلمة، أو يزيلوا آية من كتاب الله عن موضعها - كان لهم أن يقولوا فى هذا الكتاب ما يحلو لهم، من تشنيع عليه، واستهزاء به .. وهيهات هيهات .. فقد ذهبت سدى جميع المحاولات التى بذلها أعداء الإسلام، منذ قام الإسلام إلى يوم الناس هذا، ليشوهوا وجه هذا الدين، بالتشويش على كتابه، والتشكيك فى صحته !.

●●●

اما هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ، فقد وقع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الكريمة:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة :١٠٦)

فالذين قالوا بوجود «النسخ» فى القرآن، واخذوا بمنطوق هذه الآية وحملوا معنى الآية على أنها الآية من كتاب الله - هؤلاء قد دارت أعينهم فى كتاب الله، يلتمسون مصداق هذه الآية، ويستخرجون لها الشواهد لآيات قرآنية منسوخة بآيات قرآنية ناسخة .. وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسر عليها تلك الآية الكريمة .. فكان النسخ عندهم أمرًا لا بد من وقوعه فى القرآن؛ إذ نطقت به آية كريمة من آياته، ثم قامت بين يدى تلك الآية آيات من القرآن الكريم قد نسخت بآيات أخرى .. وإذن، فالقول بوجود النسخ فى القرآن عند القائلين به، قد جاءت آيات القرآن شاهدة له، على المفهوم الذى فهموها عليه.

والذين لم يفهموا الآية على هذا الوجه ولم يروا مع الحتم اللازم أن يكون معنى الآية محمولاً على الآية القرآنية - هؤلاء لم يروا فى القرآن ناسخًا ولا منسوخًا، ثم جعلوا للآيات التى قيل إنها منسوخة، وجهًا من التأويل، بحيث يبقى حكمها كما بقيت تلاوتها.

وكلا القولين بالنسخ لبعض الآيات القرآنية، أو بعدم النسخ، لأية آية - كلا القولين لا يؤثر فى حقيقة القرآن، ولا يغير من صورته أدنى تغيير، فإن هذا الخلاف لا يعدو أن يكون خلافا فى تأويل آية من الكتاب الكريم .. وما أكثر هذا الخلاف بين علماء القرآن .. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

فأولاً: ما هو النسخ؟!

يجىء النسخ بمعنى المحو والإزالة، وذلك كما فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(الحج :٥٢)

فمعنى نسخ الله تعالى ما يلقى الشيطان فى أمنية الرسول، هو إزالته، وإبطال أثره.

ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه: نسخت الكتاب أى نقلت ما فيه إلى كتاب آخر .. قالوا: ولا يقع هذا المعنى من النسخ فى القرآن .. إذ نقل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمى نسخًا بالمعنى الذى يفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها.

ويأتى بمعنى الكتابة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الجاثية :٢٩)

أى نكتب ما عملتم، ويشهد لهذا قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

(يس: ١٢)

ويأتى بمعنى التبديل وتغيير موقع الآية من موضع إلى موضع كما فى قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾

(النحل: ١٠١)

هذا هو النسخ فى لسان الشرع، وهو فى اللغة قريب من هذا، فيقال: تناسخ الشيئان: إذا حل أحدهما محل الآخر، كما يتناسخ الليل والنهار، ويقال: تناسخت الأزمنة: أى تبع بعضها بعضًا، ومنه تناسخ الأرواح، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى بدن، عند من يعتقد هذا المذهب، ومنه: نسخت الشمس الظل، إذا أزالته، وذهبت به، وأقامت ضوءها مكانه.

وثانيا: ما هو المنسوخ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ، فقيل: هو ما رفع تلاوة تنزيله، كما رفع العمل به .. ورد هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل بالقرآن، وهما متلوان.

وقيل: لا يقع النسخ بمعنى رفع التلاوة فى قرآن نزل، وتلى ذلك أن القول بأن من القرآن ما نزل وتلى ثم رفع بالنسخ – فيه تعسف شديد، ومدخل إلى الفتنة والتخرص.

فإذا ساغ أن ينزل قرآن، ويتلى على المسلمين، ثم يرفع، ساغ لكل مبطل أن يقول أى قول، ثم يدعى أنه كان قرآنا ثم نسخ .. وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات، والتلبيسات، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء حمى الله تعالى كتابه الكريم منهما، وتكفل سبحانه وحده بحفظه، كما يقول جل شأنه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

(الحجر: ٩)

ثم من جهة أخرى: ما حكمة هذا القرآن الذى ينزل لأيام أو لشهور ثم يرفع، فلا يتلى، ولا يعرف له وجه بعد هذا؟ أيكون هذا الرفع بقرآن يقول للناس: إن آية كذا رفعت تلاوتها، فلا تجعلوها قرآنا يتلى؟ وهذا غير ممكن الوقوع، لأن معناه – كما ترى – هو إبقاء التلاوة !! أم أن هذا النوع من النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ما قد حفظوا من هذا القرآن المنسوخ؟ وإذا رفع بتلك المعجزة من الصدور، فهل تكون هناك معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدى كتاب الوحى بين يدى النبى، وقد كان النبى ﷺ يملى على كتاب وحيه كل ما ينزل عليه من آيات به، أولاً، فأولاً ..؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات، فما الذى يدل على أن قرآنا كان ثم رفع؟ .. إن هذا القول مسرف فى البعد عن مجال المنطق والعقل! ولكن فتح باب القول بالنسخ – على أية صورة – جعل لأهل المماراة والجدل ولأصحاب الأهواء والبدع، مدخلاً إلى مثل هذه المقولات استكمالاً للصورة المنطقية، واستيفاء

لجميع الاحتمالات والفروض.

وثالثا: هل فى القرآن نسخ؟

أكثر علماء المسلمين على أن فى القرآن نسخًا، وأن هناك آيات ناسخة وأخرى منسوخة بها.

ومعرفة الناسخ والمنسوخ ودراستهما، مما اهتم له العلماء والفقهاء، وجعلوه أصلاً من أصول الدراسات القرآنية، ومجازًا من المجازات التى يدخل بها العالم أو الفقيه فى جماعة العلماء والفقهاء .. فمن لم يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، فلا يدخل فى باب العلماء والفقهاء!!

وقد استند القائلون بالنسخ فى القرآن إلى قوله تعالى:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾

(البقرة: ١٠٦)

وقد أسعفهم النظر فى آيات القرآن الكريم بشواهد تؤيد – من قريب أو من بعيد – ما ذهبوا إليه من القول بالنسخ، ووجدوا لهذا متأولاً لما قالوا بأنه ناسخ أو منسوخ.

ومن أمثلة هذا آية الوصية، وهى قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

(البقرة: ١٨٠)

فهذه الآية، قيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل، بحديث: «ألا لا وصية لوارث» عند من يقول بنسخ القرآن بالسنة، وقيل: منسوخة بالإجماع !!

والقول بنسخ القرآن بالسنة أو بالإجماع، يصادم الآية الكريمة التى هى معتمد القائلين بالنسخ .. ذلك أن الآية الكريمة نص على أنه إذا كان نسخ القرآن – على ما فهمه منها القائلون به – فإن هذا النسخ لا بد أن يكون بقرآن، لا بسنة ولا بإجماع، كما يقول سبحانه:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾

(البقرة: ١٠٦)

وما هو خير من الآية القرآنية أو مثلها، لا يكون إلا آية قرآنية!!

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(البقرة: ٢٤٠)

قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

(البقرة: ٢٣٤)

فقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولاً كاملاً، ونفقتها فى مال زوجها، وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(البقرة: ٢٤٠)

فنسخ ذلك بالآية المشار إليها، وصار

تربصها هو أربعة أشهر وعشرة أيام، ولها نصيبها المعروف فى الميراث، ولا نفقة لها، ولا سكنى، بعد مدة التربص، التى هى أربعة أشهر وعشرة أيام.

وسنعرض لهذه الآية فى مبحث خاص، نعارض به القول بأنها منسوخة.

وهكذا يعدون الآيات المنسوخة والناسخة فى إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم[1].

أما الذين يقولون بألا نسخ فى القرآن، فيتأولون هذه الآيات، ويعطونها الحكم الذى تضمنته .. كما سنرى ذلك بعد قليل.

رابعًا: القول بأن لا نسخ فى القرآن:

«يرى عدد غير قليل من العلماء أن النسخ فى القرآن ليس نسخًا بمعنى إزالة الحكم، كما ذهب إلى ذلك القائلون بالنسخ .. وإنما هو نسأ وتأخير، أو مجمل أخر بيانه، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى فى معنى. وأنواع الخطاب كثيرة، فظنوا - أى القائلون بالنسخ - أن هذا نسخ، وليس به، وأنه - أى القرآن - الكتاب المهيمن على غيره وهو نفسه متعاضد»[2].

أى يعضد بعضه بعضًا، والنسخ من شأنه أن يجعل بعض آيات القرآن - وهى التى قيل بنسخها - غير عاملة، حيث يبطل العمل بها بالآيات الناسخة لها.

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف، من أنها منسوخة بآية السيف، وهو قوله تعالى:

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

(التوبة : ٢٩)

والواقع أنها ليس كذلك، بل هى من النسأ - أى التأخير - بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله فى وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إذ النسخ معناه الإزالة.

وتطبيقًا لهذا الرأى، نجد أن لا تعارض، ولا تناسخ بين الآيات التى تختلف أحكامها فى الأمر الواحد؛ إذ إن لكل حكم محكوم به حال خاصة به، مقدرة له، لعلة تدور معه وجودًا وعدمًا.

وفى الآيات الآمرة بالتخفيف عن المسلمين فى قتال المشركين والكافرين، وآية السيف التى يقال إنها ناسخة لتلك - فى هذا شاهد لما نقول فمثلاً .. قوله تعالى:

١- انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى (٢/٤٤) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى (٢/٤٤).

٢- عبدالكريم الخطيب، القرآن: نظمه، جمعه، ترتيبه (ص ١٣، ٢٩، ٥٠، ٧٥، ٧٦، ٦٨)، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة (١٩٧٢م) وانظر تفاصيل ذلك فى د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم) طبعة دار السلام، القاهرة سنة ١٤٣١ هـ و سنة ٢٠١٠ م

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

(الأنفال : ٦٥)

وقوله تعالى بعد هذا:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٦)

وليس بين الآيتين تعارض، أو تناسخ، وإن عرضا لأمر واحد، واختلف منطوق الحكم فيهما.

فالآية الأولى تفرض على المؤمنين حكمًا فى حال، هم فيها أهل للوفاء بهذا الحكم؛ لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين .. فإذا كانوا على حال هم فيها على درجة من قوة الإيمان وثبات اليقين كتلك الحال - كان واجبًا عليهم إذا التقوا فى ميدان الحرب بأعدائهم من الكافرين - أن يثبت العشرون منهم لمائتين من أعدائهم، وأن تثبت المائة للألف. وهذا يعنى بقاء حكم الآية الأولى قائمًا على المسلمين، إذا لبستهم حال من قوة الإيمان، يجدون معها هذا الرصيد العظيم من الصبر، فيكون واجبًا عليهم فى تلك الحال أن يغلب العشرة منهم مائة، وأن تغلب المائة منهم ألفًا من الذين كفروا .. هذا إذا حملنا الشرط فى الآيتين على أنه فى معنى الأمر.

أما إذا حملنا الشرط فيهما على معنى الخبر، فإنه لا نسخ؛ لأن النسخ لا يقع فى الأخبار، كما يقرر ذلك القائلون بالنسخ .. وكل ما اشترطه الله تعالى من شرط على المسلمين، هو من قبيل الخبر المحقق وقوعه، كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

(محمد : ٣٦)

وكما فى قوله سبحانه:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾

(الطلاق : ٢، ٣)

وكما فى قوله جل شأنه:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(الجن : ٢٣)

وهكذا إلى مئات من الآيات التى حملت شرطًا وجزاء مقيدًا بهذا الشرط.

فلما أن وقع الضعف فى المسلمين، حين كثر عددهم، ودخل فيهم من دخل، وليس فيهم ما فى هؤلاء النفر القليل الكرام، الذين سبقوا إلى الإسلام، من كرم المعدن وصفاء الجوهر، والتعرف على الحق، والبدار إليه - لما أن كان هذا من أمر المسلمين حين عرض لهم عرض من الضعف والوهن، مع كثرة العدد للداخلين فى الإسلام - خفف الله عنهم، وجعل

أمرهم يسرًا، ففرض عليهم ألا تفر المائة من المائتين ولا الألف من الألفين.

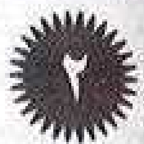
وانظر كيف كانت أعداد المسلمين في الآية الأولى «عشرون»، و«مائة» ثم أصبحت في الآية الثانية هكذا: «مائة» و«ألفا».. وإن ذلك ليكشف عن المعنى الذي أشرت إليه من قبل، وهو أن الضعف الذي عرض للمسلمين في هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية، وعهد النبوة، لم يكن من جهة المسلمين السابقين إلى الإسلام، فهؤلاء كانوا كلما مرت بهم الأيام في الإسلام، وفي صحبة الرسول، ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم ويقينًا إلى يقينهم، ولكن الضعف الذي وقع، كان جاريًا على مجموع المسلمين، حين كثر عدد الداخلين في الإسلام!! ولا شك أن هذه الأعداد الكثيرة التي دخلت في دين الله أفواجًا، لم يكن لها جميعها من وثاقة الإيمان وقوة اليقين، ما كان في هذه الصفوة التي سبقت إلى الإسلام.. فقد دخل في الإسلام - بعد أن ظهر سلطانه، وعزت دولته، كثير من الطامعين في الاستظلال بظل هذه الدعوة التي مكنت لأصحابها في الأرض، ولهذا كانت نظرتهم إلى ظاهر الإسلام أكثر من نظرتهم إلى حقيقته.. وإنه لشتان في هذا المقام بين حال المؤمنين الأولين من المهاجرين والأنصار، وبين الذين دخلوا في الإسلام يوم فتح مكة من سموا بالطلقاء.. فإن كثيرًا منهم دخل الإسلام بكل ما كان في قلبه من ضغينة على الإسلام، وأهله.. وحسبنا أن نشير هنا إلى غزوة حنين، التي كان فيها مع المسلمين من مسلمة الفتح أعداد كثيرة، فقد كانوا عنصرًا من عناصر الهزيمة التي وقعت بالمسلمين أولاً.. حتى لقد انكشف رسول الله ﷺ ولم يثبت معه إلا نفر من صحابته، حتى إذا نادى رسول الله ﷺ: «يا أصحاب الشجرة» خرج هؤلاء الصحب الكرام من بين تلك الصفوف المنهارة المتخاذلة، وأقبلوا تحت راية رسول الله - كان النصر، والغلب.. وحسبنا أن نذكر ما يذكره التاريخ في تلك الوقعة من شماتة أبي سفيان - وهو محسوب في المسلمين يومئذ - بالهزيمة التي واجهت المسلمين في أول الأمر، وقوله عن المسلمين: إنه لا يردهم عن طريق الفرار إلا سيف البحر!

وطبيعي أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التي كانوا عليها قبل هذا الضعف، عاد الحكم الأول، فإذا ضعفوا لزمهم حكم الآية الثانية، الذي لا ينبغي أن ينزلوا عنه أبدًا، حتى في أضعف أحوالهم.. المائة تغلب المائتين، والألف تغلب الألفين.

وفي هذا ما فيه من تكريم الإسلام والمسلمين، ورفع درجة الجماعة الإسلامية بهذا الدين، حتى في أنزل منازلها، وأسوأ أحوالها.. لأن حصيلة ما مع المسلمين من إيمان - مع ضعف إيمانهم - كفيل بأن ترجح معه كفة المؤمنين على الكافرين، الذين ليس معهم من هذا الإيمان شيء.. فالإيمان سلاح إضافي من أسلحة المؤمنين، لا يملك غير المؤمنين شيئًا منه.

يتبع

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم



د. موريس بوكاي



التوراة الكتاب المقدس

من مؤلف العهد القديم؟

كم من قراء العهد القديم الذين قد يطرح عليهم هذا السؤال، ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرأوا في مقدمة كتابهم العهد القديم. كم من هؤلاء القراء سيردد أن مؤلف كل هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم روح القدس..؟

أحيانًا يكتفي مؤلف مقدمة الكتاب المقدس بأن يجيب بهذا الجواب المقتضب على قارئه حتى يسد الطريق على أي تساؤل، وأحيانًا أخرى يضيف إليها تصحيحًا يقول فيه: (إن هناك تفاصيل قد أضافها بشر إلى النص الأول وأن الطابع المشكوك فيه لفقرة ما في هذا النص لا تحرف «الحقيقة العامة» التي تنبع منه) هناك إصرار على هذه الحقيقة التي تتكفل الكنيسة دائمًا بضمان صحتها، يعينها على ذلك روح القدس، والكنيسة هي وحدها القادرة على إيضاح هذه النقاط للمؤمنين، بل لقد نشرت الكنيسة منذ مجامع القرن الرابع المسكونية قائمة بالكتب المقدسة. وأيدت هذه القائمة المجامع المسكونية التي انعقدت بفلورنس (١٤٤١) وترانت (١٥٤٦م) والفاتيكان ١١ (١٨٧م)، بحيث إنها تشكل ما يسمى بالقانون، ومنذ عهد قريب قام آخر مجمع للفاتيكان (١٩٦٢-١٩٦٥م)، بعد كثير من الرسائل البابوية، بنشر نص عن التنزيل الإلهي، وهو نص ذو أهمية كبيرة، عمل المجمع طيلة ثلاث سنوات لإعداده، وقد تم هذا النص وسط صعوبات جمة. وتجد الغالبية العظمى من قراء الكتاب المقدس هذه المعلومات المطمئنة على رأس الطبعات الحديثة، وتكتفي بالضمانات التي أعطتها الكنيسة عبر القرون ولم يرد بذهن هؤلاء القراء أن مسألة الصحة هذه أمر قابل للنقاش.

ولكن إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التي كتبها بعض رجال الدين للخاصة وليس لعامة الجمهور، فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيدًا مما كان يظن بداءة وإذا استوضح طبعة الكتاب المقدس الحديثة التي ترجمت إلى الفرنسية تحت إشراف رئاسة مدرسة الكتاب المقدس(١) فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جدًا، وسيدرك أن العهد

(1) Editions du cerf Paris

القديم، كالعهد الجديد، يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع.

وهناك أيضًا دراسات أكثر إيجازًا وموضوعية فيها معطيات دقيقة، كدراسة «إدموند جاكوب» «العهد القديم»(٢) ويعطى هذا الكتاب رؤية شاملة وكاملة عن المشكلة.

يشير إدموند جاكوب إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط، بل كان هناك تعدد فى النصوص، ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريبًا كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة. كان هناك النص المحقق «الماسورى»، والنص الذى استخدم جزئيًا على الأقل فى الترجمة إلى اليونانية، والنص المعروف «بالسامرى أو أسفار موسى الخمسة»، ثم بعد ذلك فى القرن الأول قبل الميلاد كان هناك اتجاه إلى تدوين نص واحد، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد.

ولو كانت هذه المدونات الثلاث موجودة الآن لأمكن إقامة المقارنات للوصول ربما إلى رأى عما كان عليه النص الأصلى، ولكن يشاء سوء الحظ ألا تكون لدينا أقل فكرة عنه. إن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد، هذا إذا وضعنا جانبًا أسطوانات مغارة قمران التى ترجع إلى ما قبل العصر المسيحى بقليل، وبردية الوصايا العشر التى تختلف طفيفًا عن النص الكلاسيكي، وبعض مخطوطات ناقصة ترجع إلى القرن الخامس بعد الميلاد «كنيسة القاهرة».

وتعد الترجمة السبعية **Septante** أول ترجمة، وهى باللغة اليونانية، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد قام بها يهود الإسكندرية، وعلى نصها اعتمد كتاب العهد الجديد. وقد ظلت معتمدة حتى القرن السابع بعد الميلاد.

والنصوص اليونانية الأصلية التى يستخدمها عمومًا العالم المسيحى هى المخطوطات المحفوظة باسم **odex Vaticanus** فى الفاتيكان و**Codex Sinsiticus** المحفوظة بالمتحف البريطاني، ويرجع تاريخ هذين المخطوطين إلى القرن الرابع بعد الميلاد.

أما فيما يخص توراة «القديس إيرونيمس» اللاتينية، فيحتمل أن يكون قد استخدم وثائق عبرية ترجع إلى السنوات الأولى من القرن الخامس بعد الميلاد، وتلك هى الطبعة التى سميت بـ**Vulgate** بسبب انتشارها الواسع بعد القرن السابع من العصر المسيحى.

ولنذكر أخيرًا المدونات الآرمية والسريانية **Peschitta**، وهى جزئية غير كاملة.

لقد سمحت هذه المخطوطات المختلفة للمتخصصين بأن ينتهوا إلى إعداد النصوص المسماة «بالمتوسطة»، وهى شىء أشبه بحلول وسط بين مختلف النسخ. أيضًا هناك مجموعات تحتوى بين دفتيها وجنبًا إلى جنب، على النسخ

(٢) Presses universitaires de France. Collecion Quesais-je?

المختلفة.. أي: العبرية، واليونانية، واللاتينية، والسريانية، والآرامية وحتى العربية - ذلك هو الكتاب المقدس الشهير بنسخة «والتون»(لندن ١٦٥٧ م). ولنضف حتى نكون كاملين أن الاختلاف بين الكنائس المسيحية حول مفاهيم الكتب المقدسة، كان من شأنه إن لم تقبل كنائس نفس المذاهب نفس الأسفار بالتحديد، كما أن ليس لها حتى الآن رأى واحد فى الترجمة، حتى فى نفس اللغة وتطمح الترجمة المسكونية الجارية للعهد القديم إلى الانتهاء لنص شامل مركب: هى كتاب يهدف إلى توحيد النصوص، يقوم به كثير من الخبراء الكاثوليكيين والبروتستانت.

بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم. وبهذا أيضًا يتبين القارىء التحولات التى أصابت نص العهد القديم الأول من نقل إلى نقل آخر ومن ترجمة إلى أخرى، بكل ما ينجم حتمًا عن ذلك من تصحيحات، جاءت على أكثر من ألفى عام.

أصل الكتاب المقدس

كان الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار، تراثًا شعبيًا لا سند له إلا الذاكرة، وهى العامل الوحيد الذى اعتمد عليه نقل الأفكار وكان هذا التراث يغني. ويقول إدموند جاكوب: «إن كل شعب يغنى فى مراحل تطوره البدائية، وفى إسرائيل كما حدث فى غيرها من البلاد، سبق الشعر النثر، ولقد غنت إسرائيل كثيرًا وكانت تحسن الغناء؛ ولأن الظروف التاريخية كانت قد قادت إسرائيل إلى قمة الحماس كما قادتها إلى مهاوى اليأس، ولأنها ساهمت بكل كيانها فى كل ما حدث لها حيث إنه كان لكل شىء معنى فى نظرها، فإنها قد أعطت أغانيها تعبيرات شديدة التنوع». كان الناس يغنون فى مختلف المناسبات. ويعدد أ. جاكوب هذه المناسبات التى يحتوى العهد القديم على الأغانى المصاحبة لها، ومنها: أغانى الطعام، وأغانى الاحتفال بنهاية الحصاد، وأناشيد العمل مثل: «نشيد البئر» المشهور «سفر العدد. الإصحاح ١٧، ٢١»، وأناشيد الزواج، مثل: «نشيد الإنشاد»، وتراتيل الحداد، وأناشيد الحرب - وهى كثيرة فى العهد القديم - ومن بينها «ترنيمة دبورة»(سفر القضاة. الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣٢)، وفيها تترنم بنصر إسرائيل الذى أراده يهوه فى نهاية حرب مقدسة قادها بنفسه (سفر العدد، الإصحاح العاشر ٣٥): «وعند ارتحال التابوت يقول موسى: قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك».

وهناك أيضًا الحكم والأمثال «سفر الأمثال، وأمثال وحكم الكتب التاريخية المقدسة»، وأقوال البركات واللعنات، والقوانين التى يستنها الأنبياء للبشر بعد أن وكلهم الله لذلك.

ويلاحظ «إدموند جاكوب» أن تناقل هذه الأقوال كان يتم إما عن طريق الأسرة وإما عن طريق المعابد فى شكل روايات لتاريخ شعب الله المختار. وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلى حكاية كمثل يوثام (سفر القضاة، الإصحاح من ٧ إلى ٢١). وفى

هذا المثل «ذهبت الأشجار لتمسح عليها ملكًا فتوجه أولاً إلى الزيتونة ثم إلى شجرة التين ثم إلى الكرمة ثم إلى العوسج»، وهذا ما سمح لإدموند جاكوب بأن يقول: «إن الوظيفة الأسطورية في الرواية لم يعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفًا بشكل سيئ» ويخلص إدموند جاكوب من هذا إلى ما يلي:

«يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن «موسى» والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث. ولكن الرواة كانوا يعرفون، حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي، كيف يضفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين الأحداث المختلفة في شكل حكاية لما حدث في أصل العالم والإنسان، ويستطيع العقل النقدي أن يراها في نهاية الأمر معقولة بشكل كاف».

هناك من الأسباب ما يسمح بالتفكير بأن الكتابة قد استخدمت لنقل التراث والحفاظ عليه، وذلك بعد استقرار الشعب اليهودي، بأرض كنعان - أي: في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ولكن لم يكن هذا بشكل لازم، حتى بالنسبة لما كان يستحق الدوام في نظر الناس - أي: القوانين - ومن القوانين هناك: القانون الذي تنسب كتابته إلى يد الله نفسه - أي: الوصايا العشر - وهي منقولة في العهد القديم في روايتين: الأولى في سفر الخروج (الإصحاح العشرين من ١ إلى ٢١)، والثانية في سفر التثنية (الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣) وروح الوصايا في النصين واحد ولكن الاختلافات النصية واضحة. وكان الاهتمام منصبًا على تدوين الوثائق الهامة من عقود وخطابات وقوائم الشخصيات (القضاة وكبار الموظفين بالمدن) وقوائم الأنساب وقوائم القرابين وقوائم الغنائم. بهذا تكونت الأرشيفات التي أتت بالوثائق التي استخدمت بعد ذلك عند تحرير المؤلفات النهائية التي أدت إلى الكتب التي في حوزتنا اليوم، بهذا الشكل أيضًا تختلط في كل كتاب أنواع أدبية متنوعة: وما على المتخصصين إلا أن يبحثوا في دوافع تجميع هذه الوثائق المتنافرة.

ومن المهم أن نقارب بين عملية تكوين هذا المجموع المتنافر، الذي هو العهد القديم والذي اعتمد أولاً على النقل الشفهي، وبين ما قد يحدث تحت سماوات وأزمنة أخرى عند ميلاد أدب بدائي.

ولنأخذ على سبيل المثال مولد الأدب الفرنسي في عصر مملكة الفرنجة، وإن نفس هذا التراث الشفهي يسود من البداية وحتى حفظ الأحداث الهامة، مثل: الحروب وهي كثيرًا حروب دفاع عن المسيحية ومآس مختلفة يبرز فيها الأبطال، وهي التي ستلهم بعد ذلك بقرون، الرواة والقصاصين وكتاب مختلف الحوليات، بهذا تولد ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي الشعر الملحمي الذي يختلط فيه الواقع بالخرافة، تلك الأغاني التي كونت فيما بعد أول نصوص الآداب الملحمية، ومن أشهر هذه الملاحم: أنشودة رولان وهي أغنية روائية حربية، يبرز فيها رولان قائد مؤخرة جيش الإمبراطور «شرلمان» عند عودته من حملة

إسبانية. وليست تضحية رولان حدثًا اخترع لمقتضى الحكاية، إذ يحدد تاريخها بـ ١٥ أغسطس عام ٧٧٨م، وما حدث فعلاً هو هجمة قام بها سكان الجبل الباسكيون على رولان، وليس المؤلف الأدبي هنا أسطوريًا فقط، فإن له قاعدة تاريخية، ولكن لا يمكن للمؤرخين أن يأخذوا بها حرفيا.

إن الموازنة بين مولد الكتاب المقدس، ومثل هذا الأدب الدنيوي شيء يبدو أنه متفق بشكل دقيق مع الواقع. ولا تهدف هذه الموازنة مثلما يفعل كثير من منكري الله المنهجيين إلى رفض نص الكتاب المقدس في مجموعه، ذلك النص الذي يحتفظ به الناس في متحف الآثار الأسطورية. يمكن عن حق الاعتقاد في حقيقة الخلق، وفي إعطاء الله الوصايا لـ «موسى»، وفي تدخل الله في شئون البشر في عصر الملك «سليمان» على سبيل المثال، كما نستطيع الاعتقاد بأن جوهر هذه الأحداث قد وصل إلينا فعلاً، وفي نفس الوقت نستطيع أن نرى وجوب خضوع تفصيل وصف الأحداث لنقد صارم، ذلك أن مساهمات البشر في تدوين التراث الشفهي الأصلي كبيرة حقًا.

أسفار العهد القديم

يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى في الطول وتختلف في النوع كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة، واعتمادًا على التراث المنقول شفويًا. وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحيانًا.

ويبدو معقولاً أن ازدهار هذا الأدب النثري يقع تاريخيًا في بداية المملكة الإسرائيلية - أي: نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد - ففي هذا العصر ظهرت في البلاط الملكي هيئة الكتبة، التي تتكون من مثقفين لا يقتصر دورهم على مجرد الكتابة والتدوين. وإلى هذا التاريخ يمكن إرجاع أولى المدونات، تلك المدونات الجزئية جدًا التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، والتي كان لها أهمية خاصة حتى تدونت كتابة، وهي بعض الأناشيد المذكورة أعلاه ونبوءات «يعقوب» و«موسى» و«الوصايا العشر» والنصوص التشريعية عامة التي حددت تقليدًا دينيًا قبل سن القوانين، كل هذه النصوص تكون قطعًا متفرقة في مختلف مجموعات العهد القديم.

وبعد ذلك بقليل - أي: ربما في القرن العاشر قبل الميلاد - تم تحرير النص المعروف بـ «الرواية اليهودية»[٣]، التي شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة التي عرفت باسم أسفار «موسى» الخمسة. وقد أضيفت إلى هذا النص بعد ذلك الرواية المعروفة بـ «الألوهيمية»[٤]، والرواية الأخرى المعروفة بـ «الكهنوتية»[٥]، ويعالج النص اليهودي الأول الفترة من أصل العالم، حتى موت «يعقوب»، وهو صادر عن مملكة الجنوب.

ومن نهاية القرن التاسع عشر وحتى

(٣) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها يهوه.
(٤) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها ألوهيم.
(٥) صدرت عن كهنة معبد القدس.

أواسط القرن الثامن قبل الميلاد تكون وذاع النفوذ النبوى مع إليا وإليشع وكتابهما فى حوزتنا. وتلك أيضًا فترة النص الألهيمى الذى يعالج فترة زمنية محددة بالنسبة إلى النص اليهودى، فهذا النص يكتفى برواية الأحداث الخاصة بـ «إبراهيم ويعقوب ويوسف». ويرجع سفرا يشوع والقضاة إلى تلك الفترة.

أما القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الأنبياء «عاموس وهوشع» فى إسرائيل و«أشعيا وميخا» فى مملكة الجنوب.

وبالاستيلاء على سامرة فى ٧٢١ قبل الميلاد انتهت مملكة إسرائيل، واستقبلت مملكة الجنوب ميراثها الديني. ويحتمل أن مجموعة الأمثال تنتمى إلى ذلك العصر، الذى يتسم على وجه خاص باتحاد نصى التوراة اليهوى والألهيمى فى مجلد واحد، وبهذا تشكل ما يعرف بالتوراة، كما يحتمل أن يرجع تاريخ تحرير سفر التثنية إلى هذا العصر أيضًا.

ويلتقى حكم يشوع فى النصف الثانى من القرن السابع قبل الميلاد مع بدايات النبى أرميا؛ ولكن مؤلف هذا الأخير لم يتخذ شكله النهائى إلا بعد ذلك العصر بقرن.

أما رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفى الأول إلى بابل عام ٥٩٨ قبل الميلاد، وكان حزقيال يمارس النبوة أثناء هذا النفى. ثم سقطت القدس فى ٥٨٧ قبل الميلاد هذا الحديث يسبق بداية النفى الثانى الذى امتد حتى ٥٣٨ قبل الميلاد، أما كتاب حزقيال -

وهو آخر نبى كبير ونبى المنفى أيضًا - فإن
لم يدون فى شكله الحالى إلا بعد موته
وقد دونه الكتبة وهم الذين أصبحوا ورثت
الروحيين، وقد قام نفس هؤلاء الكتبة
بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين، واسمها
الرواية الكهنوتية وهى الرواية التى أوردت
الجزء الخاص بالخلق والذى يمتد حتى
موت «يعقوب».

وهكذا إذن أدخل نص ثالث على النصين
اليهوى والألهيمى فى التوراة، وسنرى فيم
بعد مظهرًا من مظاهر تشابك هذا النص م
الكتب التى دونت تقريبًا قبل ذلك بأربع
قرون وبقرنين، فى هذا العصر أيضًا ظهر
سفر المراثى.

وانتهى النفى إلى بابل بأمر سيروس فى
٥٣٨ قبل الميلاد، فعاد اليهود إلى فلسطين
وأعيد بناء معبد القدس، واستؤنف النشاط
النبوى، ومن هنا كانت كتب حجاى
وزكريا وأشعيا الثالث وملاخى ودانيا
وباروك (وقد كتب هذا الأخير باليونانية
والفترة التى تلى النفى هى أيضًا فترة كتب
الحكمة: حررت الأمثال نهائيا فى ٤٨
قبل الميلاد، وحرر سفر أيوب فى القر
الخامس قبل الميلاد تقريبًا، كما يرج
تاريخ سفر الجامعة إلى القرن الثالث
قبل الميلاد، وذلك أيضًا هو عصر نش
الإنشاد، وكتابى أخبار الأيام، وكتب عز
ونحيما، أما كتاب «ابن سيراخ» فقد ظه
فى القرن الثانى قبل الميلاد، وأما سف
الحكمة لسليمان وسفرا المكابيين فق
كتبوا قبل المسيح بقرن، وأسفار راعو
وأستير ويونس فيصعب تاريخها مثل سفر

طوبيا ويهوديت. وكل هذه المعلومات معطاة تحت تحفظات التعديلات اللاحقة؛ لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح، ولم تكتسب شكلها النهائى إلا فى القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون.

وعلى ذلك يبدو العهد القديم صرحًا أدبيًا للشعب اليهودى منذ أصوله وحتى العصر المسيحى. ولقد دونت وأكملت وروجعت الأسفار التى يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد، وليس هذا مطلقًا وجهة نظر شخصية تعطيها عن تاريخ تحرير هذه الأسفار، فالمعطيات الجوهرية لهذه اللمحة التاريخية مستقاة من مقال «التوراة **Bible**» بدائرة معارف أونيفرساليس للكاتب(٦) ج. ب ساندروز، الأستاذ بكليات الدومنيكان بسولشوار؛ ولكى نفهم ما هو العهد القديم يجب أن تكون هذه المعلومات حاضرة فى أذهاننا، وهى معلومات أثبتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة.

إن الوحى يختلط بكل هذه الكتابات؛ ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التى خلفها لنا الكتاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم، وحسب الظروف التى عاشوها والضرورات التى كان عليهم مواجهتها.

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية بتلك التى تكشف عنها مقدمات الكتب المقدسة المخصصة للعامة، ندرك أن هذه المقدمات تسوق الأمور بشكل مختلف، فهى تسكت على الأمور الأساسية الخاصة بتدوين الكتب، كما أنها تحتفظ بغموض يضل القارىء، وتقلل من شأن أمور أخرى إلى درجة أنها تعطى فكرة خاطئة عن الواقع الذى حدث فعلاً. وهكذا تشوه مقدمات كثير من الكتب المقدسة على الحقيقة. بل إذا كانت هناك كتب قد أصابها التعديل برمتها وعدة مرات - مثلما حدث لأسفار «موسى» الخمسة -، يكتفى كتاب هذه المقدمات بالإشارة إلى أن تفاصيل أضيفت بعد تحرير النص، بعضهم يزج بمناقشات تخص فقرة عديمة الأهمية فى هذا السفر أو ذاك ويسكتون عن أمور حيوية جدا تستحق دراسات طويلة. وإنه لمما يؤسف له حقًا أن يحتفظ لعامة القراء بمعلومات عن التوراة يسمها الخطأ لهذا الحد.

يتبع

(٦) Encyclopedia Universais طبعة ١٩٧٤ م، الجزء الثالث، الصفحات من ٢٤٦ إلى ٢٥٣.

كلمات ربى وآياته فى القرآن والكون



أ.د. أحمد فؤاد باشا
نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (سورة الكهف : ١٠٩)

(أبّ)، (أبابيل)، (الإبل)، (اتسق)، (أتينا طائعين)، (أثل)

(أبّ)

الأبُّ هو الكلأ الذى تعتلفه الماشية وترعاه الأنعام ، ويقصد به العشب الرطب واليابس وهو المرعى المتهيئ للرعى والقطع والحش ، وقد تطلق كلمة (أبّ) على كل ما يخرج من الأرض من نبات. وتقول: فلان راعَ له الحبّ، وطاع له الأبّ: زكا زرعه واتسع مرعاه. وقد وردت كلمة (أبّ) مرة واحدة فى القرآن الكريم وذلك فى سياق الأمر الإلهى للإنسان بالنظر إلى طعامه حيث يقول سبحانه :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢)

ويتضح من السياق أن الفاكهة للإنسان أى ما يأكله الإنسان والأبّ للأنعام أى ما تأكله الأنعام ولنتأمل تصدير الآيات بقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ﴾ وختمها بقوله تعالى: ﴿ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ إنما هو حض جميل لأن يكون الإنسان فى كل الأحوال شاكرا ربه على نعمه ، فالإنسان دائما فى حاجة إلى رعاية ربه وعنايته .

ويتمثل الأبّ بالأعشاب التى تنمو فى المواطن المختلفة من الصحارى والسهول والوديان والغابات وهى نباتات ترعاها الحيوانات ، وتمثل المصدر الأساسى لغذائها . وكما يعتمد الإنسان على بعض النباتات مصدرا لغذائه ، فإنه يعتمد على لحوم الحيوانات التى ترعى الأبّ وتتغذى عليه فالنباتات تمثل الحلقة الأولى فى سلسلة الغذاء ولحوم الحيوانات

ومنتجاتها لا تتكون إلا بوجود الأبّ مصدرا لغذائها .

(أبابيل)

يرى أكثر اللغويين أن كلمة (أبابيل) جمع لا مفرد له ويجىء فى موضع التكثير ، ويرى آخرون أن مفردها (إبّالة) (بتشديد الباء وتخفيفها) أو إبّول أو إبّيل وقد وردت هذه الكلمة مرة واحدة وصفا للطير التى أرسلها الله على أصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل : ٣)

أى أرسل عليهم أفواجا وجماعات متتابعة من الطير ، جاءت من نواح شتى وأحاطت بهم من كل ناحية.

ويرتبط بكلمة أبابيل ذكر حيوان الفيل فى سورة باسمه فى القرآن الكريم منسوبا إلى أصحابه الذين هم أصحاب الفيل والمقصود بهم جنود الجيش الذى أعده أمير اليمن أبرهة الحبشى للهجوم على بلاد العرب فى شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام وقد استخدمت الأفيال فى هذا الجيش بدلا من الدواب الأخرى فى حمل الجنود ومئونتهم وعتادهم الحربى. ومن المرجح أن الأعراب فى جاهليتهم لم يكونوا على بينة تامة من أمر تلك الحيوانات الضخمة التى لا تعيش فى الصحراء ، بل فى الغابات والأدغال ولذلك فقد أدركهم الرعب والفزع مما أتاح لهذا القائد الحبشى أن يتغلغل فى بلادهم بجيشه العملاق ويغزو مكة المكرمة ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد فأهلك هذا الجيش بمعجزة من عنده قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ١ - ٥).

والمشهور أن النبى محمدًا ﷺ : ولد عام الفيل.

والمعروف أن الفيل هو أضخم الحيوانات الأرضية (البرية) التى تعيش فى العصر الحاضر إذ يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض ما يقرب من ثلاثة أمتار أو يزيد كما أن جسمه وأرجله واضحة الضخامة عند مقارنته بالحيوانات الأخرى.

وتعيش الأفيال عادة فى قطعان صغيرة العدد وأحيانا توجد منها قطعان تحتوى على عدد كبير وهى تتجول عادة فى الغابات الاستوائية بالقرب من مصادر الماء.

كما أنها تتحاشى أشعة الشمس الساطعة وخصوصا عند ارتفاع الحرارة وهى تلجأ عندئذ إلى الأجزاء الظليلة من الغابة حيث تحتمى هناك بفروع الأشجار المتشابكة وقاية لها من القيظ الشديد.

وتتغذى الأفيال على العشب وأوراق الأشجار وفروعها اللينة ، وأيضا على بعض الثمار وخصوصا ثمار الموز وذلك لأن الأفيال تعتبر من فصيلة آكلات العشب كالأبقار والأغنام والجمال وغيرها من الدواب والأنعام ونظرا لتلك الطبيعة الغذائية فقد تحورت أسنانها بشكل واضح لتتلاءم مع تلك الطبيعة ، فالأنياب صغيرة جدا أو لا توجد على الإطلاق، والضروس كبيرة الحجم ولكل منها سطح طاحن مزود بنتوءات عرضية حادة كالسكين تستخدم فى تقطيع الأعشاب وهرسها.

أما الأسنان المميزة للفيل والتى يطلق عليها اسـم "سن الفيل" فهى عبارة عن القواطع العليا ويوجد منها زوج واحد يمتد أمام الرأس بشكل واضح وهى طويلة جدا ومخروطية الشكل ولها انحناء يسير كما أنها لا تتوقف عن النمو على الإطلاق حيث يستمر نموها طول حياة الفيل ، فكلما كبر الفيل فى العمر ازداد "سن الفيل" طولا وغلا ثمنه. ويتكون سن الفيل من العاج المسمط ولا تغطيه طبقة "المينا" إلا عند نهايته الأمامية، ويصل طوله فى "الفيل الإفريقى" إلى ما يقرب من عشرة أقدام ويزن حوالى مائة وعشرين رطلا.

ولما كانت الأفيال من الحيوانات الثديية كالأبقار والأغنام وغيرها فإن الأنثى تحمل وتلد صغارها مثل بقية تلك الحيوانات الولودة وتحمل الأنثى عادة جنينا واحدا فى كل مرة ونادرا ما يحدث ولادة أثنين من التوائم وتتراوح فترة الحمل بين ٦٠٠ و ٦٣٠ يوما وهى أطول فترة حمل فى عالم الحيوان على الإطلاق.

ولا يوجد من الأفيال فى الوقت الحاضر سوى نوعين اثنين فقط هما الفيل الأفريقى الذى يعيش فى الغابات الأفريقية الممتدة جنوب الصحراء الكبرى ، والفيل الهندى الذى يسكن غابات الهند وبورما وشبه جزيرة الملايو وغيرها من البلاد الآسيوية، ويتراوح عمر الفيل بين ٤٥ و ٦٠ سنة.

ونظرا للتناقص المستمر لأعداد الفيلة والقضاء على مواطنها الطبيعية لجأ دعاة الحفاظ على التنوع البيولوجى وموارد البيئة إلى تخصيص محميات شاسعة تحيا الفيلة وتتكاثر فيها وهى آمنة.

الخرطوم: والأفيال قصيرة العنق ولكن الله عوضها عن ذلك بالخرطوم الذى ينشأ من الشفة العليا والأنف.

والخرطوم فى اللغة الأنف أو مقدم الأنف. وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم مرة واحدة فى الآية التى تتوعد صاحب الأخلاق الخبيثة ، وهى قوله تعالى:

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

(القلم : ١٦).

أى أن الله يسمه فى الآخرة بسمة على خرطومه وهو أنفه يعرف بها كفره وانحطاط قدره.

(الإبل)

الإبل الجمال الكثيرة واللفظ يشمل الجمال والنوق فهو اسم جمع للجنس ولا مفرد له من لفظه (مؤنث) جمعه آبال ويقال للقطيعين من الإبل : إبلان.

وقد وردت كلمة الإبل فى القرآن الكريم مرتين:

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(الأنعام: ١٤٤).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

(الغاشية :١٧)

وهذا التوجيه الإلهى الحكيم فى آية سورة الغاشية بالنظر إلى خلق الإبل نظر الاعتبار والتفكر إنما لأنها نموذج فريد فى الخلق يقصد بذاته.

حقا ، إن فى الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر فى ذلك المتدبرون فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون كما يطلق عليها "سفن الصحراء" بحق. فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف، فضلا عن طبقتين من الأهداب تقيانهما الرمال والقذى، وكذلك شعر المنخرين والأذنين الكثيف للغرض نفسه. فإذا ما هبت العواصف الرملية انقفل المنخران وانثنيت الأذنان -على صغرهما وقلة بروزهما- نحو الجسم. أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق وأما الأقدام فمنبسطة فى صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة. وللجمل كلكل تحت صدره، ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة، كما أن الشعر الموجود على جانبى ذيله الطويل يحمى الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى.

والإبل فى الشتاء لا تطلب الماء، بل إنها قد تعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضا رطبا، أو أسبوعين إذا كان جافا. كما أن الجمل قد يتحمل العطش الكامل فى قيظ الصيف أسبوعا أو أسبوعين، يفقد فى أثنائها أكثر من ثلث وزن جسمه، فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد فى دقائق معدودات. والجمل لا يختزن الماء فى كرشه كما كان يظن، بل إنه يحتفظ به فى أنسجة جسمه ويقتصد فى استهلاكه غاية الاقتصاد. فمن ذلك أنه لا يلهث أبدا ولا يتنفس من فمه ولا يصدر من جلده إلا أدنى العرق، وذلك لأن حرارة جسمه تكون شديدة الانخفاض فى الصباح المبكر، ثم تأخذ فى الارتفاع التدريجى أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر على الرغم من كمية الماء الهائلة التى يفقدها الجسم بعد العطش الطويل، فإن كثافة دمه لا تتأثر إلا فى حدود مناسبة ومن ثم لا يقضى العطش عليه. وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع ولكنه لا يفيد كثيرا فى تدبير الماء اللازم لجسمه.

وما زال العلماء يجدون فى الإبل كلما بحثوا مصداقا لحض الله تعالى لهم على النظر فى خلقها المعجز.

ونذكر من كلمات ربى المتصلة بالإبل ما يأتى :

١- أوبار : واحدتها وبرة والإبل وحدها بين الأنعام هى ذات الوبر والوبر ضرب من الشعر وقد وردت كلمة "أوبار" مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(النحل : ٨٠).

والوبر من عدة الإبل المعينة لها على الاحتفاظ بماء أجسامها وتحمل العطش لأنه يقلل كمية الماء التى يفقدها البعير عرقا إلى حد ملحوظ حتى أنه إذا جز وبر ذلك البعير ازداد طلبه للماء.

٢- البدن: جمع بدنة وهى ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانا وقد تطلق على الذكر والأنثى وسميت بذلك لأنها تُبدّن أى تسمن وإنما تسمى بها الإبل خاصة لعظم بدنها أى جسمها . ومعظم استعمالها فى الأحاديث وكتب الفقه فى الإبل خاصة.

وقد وردت كلمة (البدن) فى القرآن الكريم مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

(الحج :٣٦).

٣- **بعير**: اسم يطلق على الذكر والأنثى من الإبل إذا أجذع أى استكمل أربعة أعوام ودخل فى السنة الخامسة ويكون عندئذ صالحا للركوب والحمل، وقد يعيش البعير إلى الأربعين إذا لم يذبح قبل ذلك وقد وردت كلمة بعير فى القرآن الكريم مرتين (سورة يوسف ٦٥ ، ٧٢) ويسمى البعير جملا إذا بزل ، أى بلغ الثامنة أو التاسعة من عمره.

٤- **جمالات**: مفردها جمالة (مثل: حجر وحجارة) والجمالة. جمع جمل وهو الذكر من الإبل، وردت كلمة جمالات فى القرآن الكريم مرة واحدة فى قوله تعالى فى صفة جهنم :

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾

(المرسلات: ٣٢ - ٣٣)

ووصف الجمالة بالصفر إشارة إلى لون الشرر شبه الشرر حين يأخذ فى الارتفاع والانبساط لانشقاقه وتشعبه عن أعداد غير محصورة، بالجمالة الصفر، فى اللون وسرعة الحركة والكثرة والتتابع والاختلاط وهذا شأن الإبل عند اجتماعها وتزاحمها.

٥- **الجمل**: الذكر من الإبل ومن جموعه أجمال وجمال وجمل وجمالة ومن معانيه الكبير من الإبل وقد يسمى: الجمل الصغير قعودا، وردت كلمة الجمل فى القرآن الكريم مرة واحدة فى قوله تعالى:

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

(الأعراف: ٤٠)

والمعنى أن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها يستحيل أن تفتح لهم أبواب السماء أو أن يدخلوا الجنة مثلما يستحيل مرور الجمل وهو الحيوان الجسيم من ثقب الإبرة، والولوج يحمل معنى الدخول الإرادى

٦- **ناقة**: الأنثى من الإبل وقد تسمى كذلك إذا أجذعت، أى أتمت الرابعة ودخلت الخامسة من العمر - والأنثى الصغيرة من السن قد تسمى قلوصا.

وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم سبع مرات: (الأعراف: ٧٣ ، ٧٧)، (هود ٦٤)، (الإسراء: ٥٩)،(الشعراء: ١٥٥)، (القمر: ٢٧)، (الشمس : ١٣)

والناقة المذكورة فى المواضع السبعة هى المعجزة التى أعطاها الله تعالى لنبيه صالح ورسوله إلى قوم ثمود، وكانت هذه الناقة عظيمة الحجم تشرب الماء كله طيلة اليوم المخصص لها، ثم تدر من اللبن ما يكفى القبيلة كلها، وقد نصح صالح قومه بعبادة الله وحده وألا يعبدوا الأصنام ونهاهم عن التعرض للناقة يوم شربها وعن إيذائها ولكن قومه عصوه واستكبروا عن إطاعة أمر ربهم، ونحروا الناقة فأهلكهم الله بالرجفة، ويطلق على النوق الحوامل العشار وأحدهما عشرًا وعشراء، ووردت الكلمة فى سياق ما يكون من أهوال مبادئ القيامة أو فى العرض والحساب حيث يقول سبحانه:

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾

(التكوير: ٤)

والناقة العشراء هى المتقدمة فى الحمل الذى قد تبلغ مدته أربعة عشر شهرا تقريبا(بين ٣٩٠ ، ٤٢٠ يوما)

٧- **ضامر**: وردت الكلمة مرة واحدة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

(الحج: ٢٧)

والضامر من الإبل ما هزل وقل لحمه والأنثى ضامر وضامرة، والإبل قد تكون ضوامر، لأنها من الرواحل التى ضمرت أجسامها لتعد للركوب وسرعة الانتقال ولأنها أجهدها السفر الطويل، وأخذ الجوع والعطش من شحمها وماء جسمها أكثر مما تفقده من لحمها ولعل هذا هو الأرجح فى حال الإبل المذكورة فى الآية الكريمة بدليل أنها تأتى بركبانها من كل فج عميق أى: طريق بعيد، والبعير المسافر الجائع يستنفد الدهن المختزن فى سنامه حتى يذبل ويميل على جنبه ويذوى حتى يصبح ككيس جلدى خاو، كذلك قد يفقد البعير المسافر الظمآن نحو ربع وزن جسمه أو ثلثه ماء

٨- **الهدى**: مفرده هدية وهو ما يهدى ويساق من النعم للحرم ويكون من الإبل والبقر والغنم على هذا الترتيب فى الأفضلية مستوفية أعمارا محددة لكل منها وقد وردت كلمة الهدى فى القرآن الكريم ست مرات: (البقرة ١٩٦) (المائدة: ٢ ، ٩٧)، (الفتح ٢٥)

وحسب الإبل فضلا أن الله جعلها خير ما يهدى إلى بيته الحرام وجعلها من شعائره، ومن السنة إشعار الهدى وتقليده

وقد وردت كلمة الشعائر فى القرآن الكريم أربعة مرات (البقرة ١٥٨) (المائدة: ٢) (الحج: ٣٢ ، ٣٦) وقد وردت كلمة القلائد مرتين (المائدة: ٢ ، ٩٧)

والشعائر: جمع شعيرة وهى العلامة، وشعائر الله فى هذه المواضع الأربعة لها معنيين:

أ- شعائر الحج: أى: مناسكه، كالتلبية والطواف والسعى والرمى والنحر، أو هى مواضع هذه المناسك ومعالمها كالمطاف والمسعى والمرمى والمنحر.

ب- البدن ونحوها مما يهدى لبيت الله : وتسمى هكذا لأنها تشعر أى تعلم بإحداث جرح فى سنامها، أو تعليق قلادة بها، أو نحو ذلك علامة على إهدائها للبيت وحتى لا يتعرض لها أحد.

أما القلائد جمع قلادة فهى كل ما يجعل حول الرقبة من خيط أو حلى أو نحو ذلك، وتقليد البدن أن يجعل فى عنقها أويعلق على سنامها شعار تعلم به أنها هدى.

٩- **الهيم** الإبل العطاش (هكذا على التخصيص). والأهيم من الإبل العطشان أشد العطش. والإبل الهيم: الإبل التى أصابها الهيام، وهو داء يكسبها العطش، ويدفعها إلى شرب الماء فلا ترتوى.

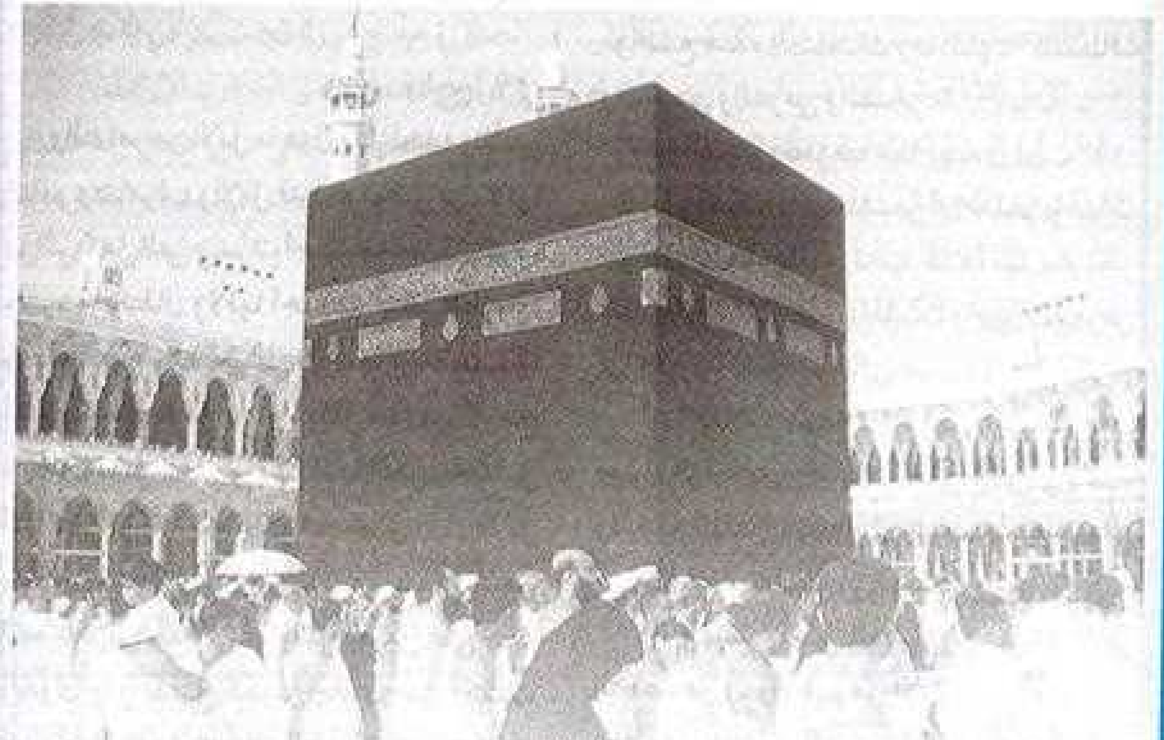
وقد وردت كلمة الهيم مرة واحدة فى هذا السياق القرآنى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾

(الواقعة: ٥١-٥٥)

ولكى ندرك عمق الصورة البلاغية فى "شرب الهيم" نشير إلى ما اختصت به الإبل من قدرة على الصبر الطويل على العطش، حتى إنها قد تفقد نحو ربع وزن جسمها ماء أو ثلثه، ثم استطاعتها أن تعبّ هذا المقدار الهائل من الماء فى دقائق معدودات. ففى إحدى التجارب استطاع جمل أهيم وقد فقد من وزنه مائة كيلو جرام. أن يتجرع من الماء نحو مائة لتر فى عشر دقائق فحسب.

يتبع



من توجيهات الإسلام لحجاج بيت الله الحرام



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن عقيدة الإسلام الصافية من أوشاب الشرك، الخالصة من أوهام الشعوذة والدجل.. تفرض على المسلم أن يفرد ربه بالتعظيم والتقديس والتنزيه، فلا يسأل أحدًا سواه، ولا يذل نفسه لغير الله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، هو الخالق وغيره مخلوق، هو القادر وغيره عاجز، هو المسئول وغيره دائما سائل، وهو المعظم لذاته، المعبود المطاع بلا نقاش ولا تباطؤ، وهو وحده الذى استأثر بهذه الخصائص. فاستحضار عظمة الله واستصحاب أسرار الشعائر من أهم الوسائل المعينة على تنسم روحانيات هذه الرحلة المباركة.

فإذا سمعنا رب العزة يعظم شيئا كنا مطالبين باحترام وتعظيم ما عظمه فى حدود معرفتنا بأنه مخلوق، وأننا نوقره امتثالاً لأمره سبحانه.

إنه مثلا يطلب منا احترام رسول الله وتبجيله ومراعاة حقه وقدره حين يقول:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

(النور: ٦٣)

وينوه بفضل بعض الأيام والشهور كشهر رمضان والأشهر الحرم ويوم عرفات وعشر ذى الحجة وينبه إلى عظمة بعض الأماكن وقدسيتها كالكعبة المشرفة ومقام إبراهيم والمشعر الحرام والصفا والمروة والمسجد الأقصى.. فالإيمان يفرض علينا أن نعظم ما عظمه فى إطار مخلوقيتها لله عز وجل، فلا يصدر منا نحوها إلا ما شرعه الله لنا من آداب وسلوك يليق بكرامة المسلم ويتفق مع عقيدته.

فإذا زرنا المسجد النبوى علينا أن نسلم على رسول الله ونصلى عليه فى احترام متمثلين جهاده وفضله على الأمة فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ونحاول أن نقتدى به ونتأسى بمنهجه.

إذا من الله علينا بمشاهدة الأماكن المباركة التى ربط الله بها مشاعر الحج والعمرة كان علينا أن نكثر فيها من ذكر الله وطاعته واستغفاره ودعائه فإنها مهبط الرحمات.

إن حرمة هذه الأيام المباركة وهذه الأماكن المقدسة تدعو الحاج إلى امتثال السلوك الإسلامى والتخلق بأخلاق النبى ومحاولة السمو بروحه المؤمنة إلى حيث الطهر والصفاء والنقاء ويستلزم ذلك: أن يلقى - فى بشاشة وترحاب - إخوانه المسلمين الذين شدوا الرحال من كل فج عميق، وتحملوا مشقات الطريق ليتموا الحج والعمرة لله، وأن يعاملهم بالخلق الحسن فيقابل السيئة بالحسنة ابتغاء مرضاة الله، ويوفر لهم - بقدر استطاعته - وسائل الراحة والمعيشة قيامًا بواجب الأخوة والضيافة والمروءة، تلك الشيم العظيمة التى كان آباؤه الكرام يحرصون عليها حتى فيما قبل الإسلام، ولنستمع إلى وصايا رسول الله ﷺ فى هذا المجال: «من كان معه فضل ظهر - أى ركوبة - فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» (صحيح مسلم)، وذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل (أى زيادة على ما يحتاج).

إنه موسم حقا لكسب الثواب والحسنات، وكلنا فى حاجة إلى هذا الثواب عندما نقف أمام الميزان العادل:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

(الأنبياء: ٤٧)

ثم إننا أحوج ما نكون إلى هذه الحسنات فى الدنيا أيضا، فليس هناك شىء ضائع «والله في عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»، «والله يحب إغاثة اللهفان» (فتح البارى لابن حجر)، «لا يحقرن أحدكم شيئا من المعروف وإن لم يجد فليلق أخاه بوجه طليق» (سنن الترمذي)، إنه إذا أكرم ذا شيب لسنه، أو امرأة لضعفها أو نقل محتاجا لمعونة فإن الله سيقيض له فى الدنيا من يساعده ويرد معروفه عندما يحتاج إلى المساعدة «صنائع المعروف تقى مصارع السوء» (المعجم الكبير للطبراني)، «كما تدين تُدان، وبالكيل الذى تكيل به تكتال» (صحيح البخاري).

أخى الحاج:

- لا تتمسح بالأحجار ولا بالأستار فإنها لا تضر ولا تنفع، لا تستعمل العنف فى معاملتك

لإخوانك، لا تزاحم على الحجر الأسود ولا عند الجمرات فإنك بالمزاحمة ترتكب إثما وأنت ترجو الثواب، لابد أن تمرن نفسك على التحمل والصبر والمعاملة بالحسنى فى وقت الزحام مع اللطف ولين الجانب على أن تحتسب ما تلاقيه عند من لا تخفى عليه خافية.

ـ تذكر ما قاله أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ عندما جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: «إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يقبلك ما قبلتك» (صحيح البخاري)، إنه الاتباع وحسب.

ـ تمسك بالنظافة فى جسمك وفى ملبسك وفى المكان الذى تمر فيه أو تقيم، فدينك دين النظافة والجمال، وما شرع الغسل عند دخول مكة وعند الإحرام وفى يوم الجمعة وفى يوم العيد إلا احترامًا لمشاعر إخوانك وتأليفًا للقلوب والتزامًا بالمظهر اللائق بالمسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (سنن البيهقي).

ـ لا تلق فضلاتك فى الطريق العام واسمع وصية رسولك الهمام: «اتقوا اللاعنين» ـ أى الأمرين الجالبين للعنة ـ قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: «الذى يتخلى فى طريق الناس أو ظلهم» (سنن أبى داود).

المسلم دائما إيجابى ينفع الناس ويمنع الأذى عنهم فهو حين يسير فى طريقه فيرى شوكا أو أذى أو قذرا يتأذى منه الناس يندفع بمقتضى إيمانه ليسهم فى نظافة الطريق يقول المصطفى ﷺ: «أمط الأذى عن الطريق فهو لك صدقة» (مسند أحمد)؛ وإذا كان ذلك مطلوبا منك وتثاب عليه فى غير الحرم فما بالك به فى أرض البركة والطهر؟ وإذا كان الإهمال فى ذلك عليه وزر فى بلدك فما بالك بمن يرمى فى الطريق أو فى المجلس الذى استراح فيه فترة بمخلفاته وفضلاته؟

وما بالك بمن يفعل ذلك فى بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة؟ أى وزر يتحمله ذلك الذى يسهم فى قذارة الطريق والأماكن التى يأوى إليها إخوانه الحجاج؟

وأى وزر يظل متجددا عليه كلما أصاب غيره أذى منه أو تسبب فى مرض من الأمراض؟ على ضوء ما ورد عن رسول الله ﷺ: «ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (سنن البيهقي). إن أى قاذورات ترميها أيها الحاج يتأذى بها آلاف من إخوانك ويتضررون وقد يمرضون بسببها فهل أنت على استعداد لتحمل كل هذه الأوزار وأنت ما جئت إلا لتحط عن نفسك الأوزار؟

لقد قيل فى الحكم العربية الصائبة: «اترك المكان أفضل مما كان».. أى أن المسلم مطالب بأن يضيف إلى المكان حسنا وجمالا، لا أن يحيل جماله إلى قبح، وحسنه إلى منظر يتأفف منه الجميع، فإن لم يستطع أن يضيف فلا أقل من أن يتركه كما كان نظيفا جميلا ممهدًا لغيره.. إن كل مسلم مطالب أن يكون مصدر نفع للآخرين؛ يقول المصطفى ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس» (المعجم الأوسط للطبراني)، ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (سنن الترمذي)، فتمثل هذه الوصايا النبوية الكريمة فى كل عمل تعمله حتى يتقبل الله منك فتعود كما ولدتك أمك بحج مبرور وذنب مغفور وعمل متقبل مشكور.

ـ استر عورتك وحافظ على عورات الآخرين، والتزم الستر أيضًا عندما تتخلص من فضلاتك الآدمية فلك عورات وحرمات يجب أن تصان، وغض بصرك كما أمرك رب العالمين.

ـ تذكر وأنت فى عرفات يوم الحشر الأكبر، يوم يساق الناس للحساب أمام من يعلم السر وأخفى، تذكر أخوة الإيمان التى جمعت هذه الأرواح المؤمنة فى صعيد واحد وفى لباس واحد وفى هتاف واحد ومن أجل هدف واحد هو إرضاء المنعم الوهاب استشعر حينذاك أخوة الإسلام التى تعلو كل الصلات والعلاقات «المؤمن أخو المؤمن» (سنن البيهقي)، «ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى» (مسند أحمد).

ـ اخلع عنك رداء الجاه والمال والوطن فأنت هناك عبد من عباد الله فى ساحة الاستغفار إنك ستعود حتما حين تبعث إلى مثل هذه الحال أو أكثر، ستجرد هناك من المناصب والألقاب وستسقط عنك النياشين والأوسمة وتظل عبدًا ضعيفًا أمام رب قادر:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٤).

تذكر وصايا الوداع من الحبيب المحبوب ﷺ وهو يقولها فى عرفات وفى منى: «ألا لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» (سنن البيهقي)، «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا كتاب الله وسنتي» (سنن الترمذي)، «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وكحرمة بلدكم هذا» (مسند أحمد)، «اللهم هل بلغت اللهم اشهد»، «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع» (المعجم الكبير للطبراني).

ـ استحضر نعمة الله الكبرى حين منّ على هذه الأمة بنزول آية الكمال فى هذه البقاع الطاهرة وفى هذا التوقيت المبارك فكانت وسامًا على صدرها إلى يوم الدين، وكانت حجة عليها أمام رب العالمين وذلك حيث يقول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)

وفقك الله تعالى وسدد خطاك.

الأدعية المستحبة فى الحج:

(المهم فى الدعاء حتى يستجاب، أن يكون بتضرع وخشوع وخفوت صوت واستحضار لحاجة الإنسان إلى ربه، وإدراكه لما يطلبه من ربه) قال تعالى:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥)

ـ اللهم.. إنى أسألك الرضا بالقضاء وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. (سنن النسائي).

ـ اللهم.. إنى أعوذ بك من الشك بعد اليقين، وأعوذ بك من شر الشيطان الرجيم، وأعوذ بك من عذاب يوم الدين.

ـ اللهم.. إنى أعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم، أو اعتدى أو يعتدى على، أو اكتسب خطيئة أو ذنبا، واغفر لى ذنوبى كلها، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم.

ـ اللهم.. إنى أسألك الفوز فى العطاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على

الأعداء. (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد. (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارض عنا. (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا، ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني.

ـ اللهم.. اجعلني شكورًا، واجعلني صبورًا، واجعلني في عيني صغيرًا وفي أعين الناس كبيرًا.

ـ اللهم.. إني أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكى بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. أعطني إيمانًا ويقينًا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة يا رب العالمين. (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. إنا نستغفرك ونتوب إليك فتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ـ اللهم.. من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، سره وعلانيته، أوله وآخره. «صحيح مسلم».

ـ اللهم.. إني أسألك خير المسألة وخير الدعاء وخير العمل وخير الثواب وخير الحياة وخير الممات، وثبتني، وثقل موازيني، وثبت إيماني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئاتي، وأسألك الدرجات العلا من الجنة آمين. (المعجم الكبير للطبراني).

ـ اللهم.. اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلمًا لأوليائك حربًا لأعدائك نحب بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك. اللهم.. هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان (سنن الترمذي).

ـ اللهم.. إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره وظاهره وباطنه. (المعجم الكبير للطبراني).

ـ اللهم.. نجني من النار (المعجم الكبير للطبراني).

ـ اللهم.. إني أسألك أن تبارك في نفسي وفي سمعي، وفي بصري، وفي روحي، وفي أهلي، وفي محياي، وفي مماتي (المعجم الكبير للطبراني).

ـ اللهم.. تقبل حسناتي واغفر خطيئاتي يا أرحم الراحمين.

دعاء السفر:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر،

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

(الزخرف: ١٣ ـ ١٤)

اللهم.. إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم.. هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل اللهم.. إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد (صحيح مسلم).

بعد الإحرام:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»(متفق عليه).

عند دخول الحرم:

أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم.. اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك (سنن الترمذي، وابن ماجه).

عند رؤية الكعبة:

اللهم.. زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا وبرًا، اللهم.. أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام (معرفة السنن والآثار للبيهقي).

بين الركن والحجر الأسود

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(البقرة: ٢٠١)

عند صعود الصفا والمروة:

يقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٥٨)

ثم يقول بعدها: «أبدأ بما بدأ الله به».

ثم يرقى على الصفا حتى يرى الكعبة فيستقبلها ويرفع يديه كما يرفعها عند الدعاء ويقول: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»(صحيح مسلم)

عند الوقوف بعرفة:

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٤)

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(الأحقاف: ١٥)

اللهم.. بارك لي في أولادي وأهلي واهدهم سواء السبيل، أنبتهم اللهم نباتًا حسنًا، واجعلهم من العلماء العاملين الهادين المهتدين، اللهم.. يسر أمورنا، واشرح صدورنا، وأصلح أحوالنا، واحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل.

اللهم.. استخدمنا ولا تستبدلنا، ولا تجعل لكافر أو ظالم أو منافق علينا سبيلاً، ولا تجعل بأسنا بيننا شديدًا، وعلمنا ما جهلنا، وانفعنا بما علمتنا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، اللهم.. كن لنا جارًا من شر خلقك أجمعين.

اللهم.. إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، اللهم.. أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، واحفظنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم.. متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، ولا تشمت فينا أعداءنا.

عند العودة من السفر:

يقال دعاء السفر، ويزاد عليه: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون (صحيح مسلم).

الأبعاد الدعوية لمدونة أحاديث الحج مقال فى آفاق الاستثمار



أ. د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

استهلال: العبادة منهجية دعوية

عرف تاريخ الفتوحات الإسلامية ولاسيما فى الشرق الأسيوى أمما كثيرة فتحتها أخلاق العابدين المسلمين ، الذين انساحوا فى أرض الله تعالى تدعمهم ما صبغ أفعالهم من آثار العبادة ، وغاياتها الأخلاقية و السلوكية فى أوساط الناس والمجتمعات من التقوى والبشاشة والتسامح مما كان له أثره الفاعل الجبار فى انعتاق أبناء هذه الأمم من أديانهم وتحولهم إلى دين الإسلام وعقيدة التوحيد.

وهو الأمر العملى الذى يفتح بابا واسعا أمام التوظيف الدعوى للعبادات جميعا، وهو مقصد غير خاف لمن تأملها ، وفحص مفرداتها المكونة لها.

والحج فى قمة هذه المنظومة العبادية التى يلمح الفاحص والمتأمل مناسكه، ذلك أن مقصد التعارف ، بما هو مركز الاجتماع الإنسانى منصوص عليه فى النص القرآنى الكريم متضمنا فى مقصد شهود المنافع، كما جاء فى قوله تعالى

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾

(سورة الحج : ٢٧-٢٨).

ومن المهم جدا أن نتأمل افتتاح الآيات الكريمة بالفعل أذن ، وتحليل الفعل والكشف عن مكوناته الدلالية يدخل بنا إلى العمق من قضية هذه الورقة التى تسعى نحو فحص الأبعاد الدعوية لمدونة أحاديث الحج.

يقول ابن فارس فى معجمه مقاييس اللغة(١ / ٧٥) وهو معجم معنى ومهتم بأصول الدلالات التى تسكن جذرا ما من الجذور ، وتفيض على المشتقات المنحدرة منه :إن جذر(أذن) تدور حول معنى العلم، وآلة تلقيه وهو ما يعنى أن المدخل إلى الحج باب واسع مفتوح على مطالب العلم وتجلياته وتحمله وتلقيه ، بالإشارة إلى أظهر آلاته ، ألا وهى السمع و البلاغ.

مدونة أحاديث الحج: مفهومها ومصادرها وميادين استثمارها:

المدونة فى الأساس مصطلح معجمى يتوجه إلى المادة اللغوية المجموعة ، أو إلى متن لغة من اللغات ، وهو لفظ رحال يمكن أن يطلق على كل النصوص الحديثية التى وردت فى موضوع الحج ، أو تعلقت بمناسكه.

ومن هنا فإن مدونة أحاديث الحج هى مجموعة الأحاديث ،والآثار الشريفة التى احتفظت بها الشريعة الإسلامية فى المجالات المعرفية المختلفة.

وهذه الجملة الأخيرة تدخل بنا إلى تعيين مصادر هذه المدونة الجليلة ، التى يتضح أنها موزعة على عدد غير قليل من المصادر بحكم العلوم التى اعتنت بحفظ هذه الأحاديث والآثار ، فيما يلى بيان بما يمكن أن يعد مصادر لها :

اولا- مصنفات السنة النبوية الشريفة المتنوعة:

إن مراجعة كتب السنة الشريفة المتنوعة يقود إلى الوقوع على كتب أو أبواب أو فصول خصصها المصنفون لجمع أحاديث الحج ،وهو الأمر الذى نراه فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم، وجامع الترمذى ،ومجموعات السنن المختلفة وغيرها من كتب السنة الموسعة من المسانيد والمعاجم.

ويضاف إليها كتب السنة التى خصصت للدعاء أو عمل اليوم و الليلة ، وما استقل و انفرد لأذكار الحج وحده على ما نرى مثالا عليها فى كتاب الحافظ محمد ابن عبدالرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ الذى عنوانه (الابتهاج بأذكار المسافر الحاج ، طبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ= ١٩٥٢م)

ثانيا- مصنفات تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة وفضائلهما:

وتاريخ العلم عند المسلمين يعرف قطاعا كبيرا عريقا اتصل مدة بعلم الحديث ، ثم استقل وانفرد وهو علم تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة ،ومناقب كل منهما.

وليس من شك أن هذا التراث وإن اعتنى بتاريخ تأسيس المدينتين ، وجغرافيتهما وآثارهما - فإنه اعتنى كذلك بعدد وافر من الأحاديث المختلفة التى تتعلق بعدد وافر من مناسك الحج والعمرة بحكم طبيعتهما العلمية.

ثالثا- مصنفات الفقه:

وهو فرع علمي ظاهر الأهمية فى هذا السياق لأن الفقه الإسلامى بما هو علم بالأحكام العملية من الأدلة التفصيلية يحشد الأحاديث المتعلقة بالحج وفى كل كتاب فقهى مهما كان منهجه ومستواه باب خاص بأحكام الحج يمتلئ بعدد كبير من أحاديث الحج والعمرة مصحوبة بتوجيهات متنوعة لها بما هى أدلة مما يعين دارسى هذه الأحاديث دلاليا.

رابعا- مصنفات السيرة النبوية

وقد احتفظت مصنفات السيرة ولاسيما

الموضوعات ، كسبل الهدى والرشاد لابن طولون الصالحي بعدد كبير من أحاديث مدونة الحج في سياق أحداث كثيرة من السيرة من مثل: عمرة الحديبية ، وفتح مكة المكرمة، وحجة الوداع وغير ذلك من الأحداث.

ومن جانب آخر فإن هذه المدونة الشريفة تمثل زادا ممتدا أمام أعمال التحليل الدلالي في ميادين مختلفة يمكن استثمارها من زوايا متنوعة.

ولعل أظهر آفاق الاستثمار لهذه المدونة يكمن في الميادين التالية:

أولا- البعد الدعوي ، وهو ما سوف يكون مجال توسع فيما يلي هنا.

ثانيا-البعد الحضاري ، وقد سبق لي أن أفردته بحديث موسع .

ثالثا- البعد التربوي.

وهذه مجرد عينة للآفاق الممكنة الاستثمار.

الأبعاد الدعوية لمدونة أحاديث الحج

ثمة استقرار في مفردات التحليل الدلالي أنه يسعى من خلال النصوص إلى الكشف عن بنية الأفكار الكبرى التي تسكن ثقافة ما ، ولا شك أن السنة بما هي مدونة نصوصية خالقة ومؤسسة للمفاهيم في العقل الإسلامي بحكم موقع النبي ﷺ ووظيفته في الأمة رسولا مبشرا وهاديا ونذيرا.

ورسالة الدعوة هي لب تحقيق هذه الوظائف الجوهرية أو المركزية بنص محكم الدلالة في الذكر الحكيم ، يقول تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾

(يوسف: ١٠٨)

وقد جاء النص على هذه الوظيفة مسندة إلى شخصه الكريم. وجاء ذلك الإسناد مؤكدا دعما لحقائق كثيرة ترقى بهذه الوظيفة، بسبب من هذا الإسناد.

وفيما يلي محاولة لرصد أظهر الأبعاد الدعوية التي تتجلى من خلف قراءة أحاديث مدونة هذه الفريضة الجليلة مما يعين على ترشيد الخطاب الدعوي المعاصر بعد محاولات كثيرة نالت منه، وأصابته بتشوهات كثيرة ، يسعى إلى التعافي منها:

أولا- التلطف في الخطاب ، واللين في الكلام

يظهر من فحص عدد من أحاديث الحج بروز بعد دعوي مهم جدا يتمثل في تليين الكلام ، والحرص على تلطيفه ، لدرجة وصلت ببعض أحاديث الحج أن تجعل نصف بر الحج كامنا في تطييب الكلام، فقد أخرج الحاكم في مستدركه في باب المناسك أن رسول الله ﷺ أجاب عندما سئل عن بر الحج قائلا: بر الحج إطعام الطعام وطيب الكلام.

وطيب الكلام تعبير مرن يتسع ليغطي مساحات دعوية واسعة تتوجه إلى الأنواع والإجراءات التالية:

أ- العناية باختيار الموضوعات ،والقضايا التي تمس جوهر حياة الجماهير.

ب-العناية بطرق عرض هذه القضايا على الجماهير ، و العناية في اختيار التوقيتات المناسبة لذلك العرض ، وما يتعلق بذلك من إجادة فنون الأداء والإلقاء، وإجادة مهارات التواصل ،وتجنب قواطع الاتصال المتعددة.

ج- تقدير عقول المدعوين ،ونفسياتهم، و التأتي إلى أسماعهم، وهو الأمر الذي يلزمه

العناية بتصميم الوعاء الدعوي(الخطبة، و المحاضرة، و الدرس، والخاطرة، والموعظة إلخ) وإتقان أسلوب كل وسيلة دعوية.

د- العناية بالمواقع الدعوية، وخدمتها بصريا، وسمعيا بمحددات جمالية جاذبة ومرغبة.

هـ-العناية بالنشر الدعوي ، وخدمته فكريا، وجماليا بعد انتشار وثقافة الصورة، سواء كان هذا النشر ورقيا أو إذاعيا ، أو تلفزيونيا.

فكل هذه الإجراءات داخلة في إطار ما عبر عنه الحديث الشريف في معرض بيانه لبر الحج بأنه طيب الكلام.

ثانيا- العناية بالمحاضن الدعوية (المساجد):

في عدد من أحاديث الحج ينظر إلى الحجيج على أنهم وفد الله تعالى ،وزواره ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه في باب المناسك (١ / ٦٠١ حديث ١٦١٣) أن رسول الله ﷺ قال: «وفد الله ثلاثة : الغازي و الحاج والمعتمر» ولا شك أن الحديث يريد في بعد ما يرمي إليه أن يرقى بمنزلة الحجيج والمعتمرين من خلال الإخبار عنهم بهذه الطريقة ،وهو الباب الذي ينفتح أمام الدعوة لتتعلم منه في التعامل مع مدعويها ، ذلك أن المساجد بما هي المحاضن الدعوية الأساسية تحتاج على هدى من هذا الحديث أن تبالغ في إكرام روادها من ضيوف الرحمن سبحانه، وهو الأمر الذي يعين على الارتقاء بأثر المضمون الدعوي؛ ذلك أنه استقر أن المضمون الدعوي يلزم تهيئة تعين قبوله والتعامل معه، والتأثر به.

وقد فهمت جماعات دعوية كثيرة هذا المعنى فتوسعت في الوظائف التي يقدمها المسجد بما هو المحضن الدعوي الأبرز في التصور الإسلامي والمأمول أن يربط بين الوظائف التي يقدمها المسجد من خدمات تعليمية ، وطبية وإغاثية بالمؤسسة الدعوية فيه بحيث تسهم هذه الخدمات في دعم تعلق الجماهير بالفكرة الدينية من خلال إكرامهم ،وبرهم ،وقضاء حوائجهم، وتيسير الحياة عليهم.

ثالثا- عناية الخطاب الدعوي بآفاق المباح الرحبة:

إن النفس الإنسانية بطبيعتها تنفر من التكاليف ، وتنفلت من المشقات، تركن عادة إلى طلب الراحة ، وهو أمر مهم ينبغي أن يتنبه إليه الدعاة المعاصرون، بحيث يتوجه خطابهم الدعوي نحو مسارات المباح الرحبة التي تكاد تشمل جنبات الحياة ، مما يسمى في الخطاب اليومي للناس باسم الحلال.

وهذا النمط من الخطاب ماثل في عدد من أحاديث الحج التي تدعو إلى نوع من الاستمتاع ، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الحاكم في المستدرك من باب المناسك (١ / ٦٠٨ حديث ١٦١٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «استمتعوا من هذا البيت فإنه قد هدم مرتين ويرفع الثالثة».

والأمر بالفعل : «استمتعوا» دال على طلب المتعة ، والمتعة نفع كلها وتلذذ كلها، وامتداد وسيع بالخير في جنبات الحياة.

ومن الأبعاد الدعوية التي يفتحها أمثال

الأبعاد الدعوية لمدونة أحاديث الحج

هذا الحديث أمام الناس :

١-دلالة الناس على أن الفكرة الإسلامية لا تخاصم زينة الحياة وأنها تدعو إلى المتعة، وأن التعبد غير مانع من الاستمتاع.

٢-اتساع حدود المتعة الحلال.

٣-التوسع المنضبط في دلالة الناس على مجالات الترفيه، واللعب، وربط ذلك بالنشاط المعين على طاعة الله تعالى.

رابعا- التوسع في تقديم الخدمة الدعوية على مدار اليوم:

المسجد في التصور الإسلامي أكبر من مجرد مكان للصلاة أو السجود و لكنه يتسع لوظائف شديدة التنوع تستغرق أعمال الإسلام كلها تعبدا وتعلما، وتدربا، وإغاثة، وضيافة، إلخ.

وفي أحاديث الحج تفتح الباب أمام إعادة التخطيط في استثمار مؤسسة المسجد بما هي مؤسسة دعوية بامتياز يمكنها أن تسهم في ترقية حياة المسلمين، ففي الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه (١ /٦١٨حديث ١٦٤٥) ورواه جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «لاتمنعوا أحدا طاف بهذا البيت، وصلى أي ساعة أحب من ليل أو نهار».

وهو ما يعني العناية بالأبعاد الدعوية التالية:

١-ضرورة عناية مؤسسات الدولة القائمة على أمر الدعوة بتوفير الأجواء المعينة على الارتباط بالمساجد، وتوفير سبل الراحة وتيسيرها للعباد.

٢-الحديث يفتح الباب أمام التفكير في استثمار المساجد على مدار الساعة، ليمارس دوره العظيم في تربية الجماهير.

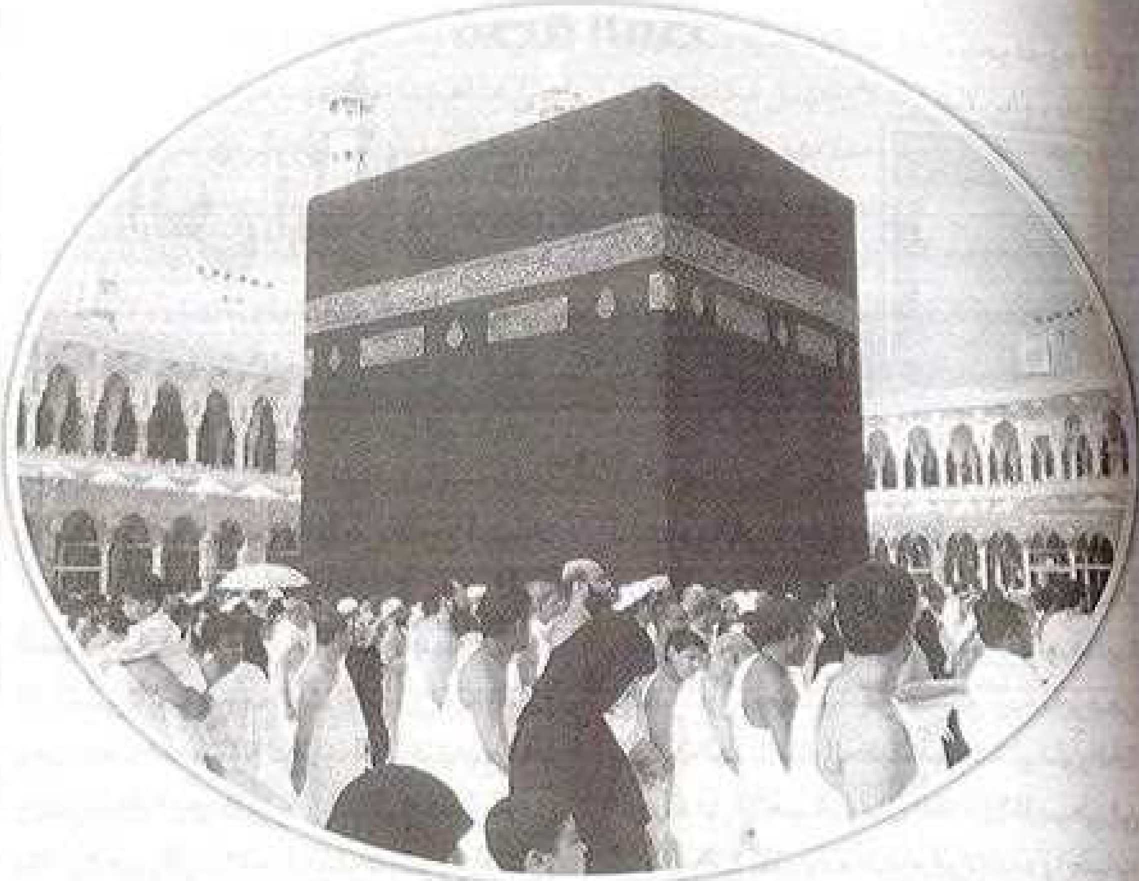
خامسا- تدريب الدعاة على أخلاق مخالطة الجماهير، صبرا وتحملا، وأناة، ورفقا ورحمة بهم:

ففي الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه ١ / ٦٣٩ حديث ١٧١١ عن أسامة رضي الله عنه أنه قال: إن النبي ﷺ أردفني حين أفاض من عرفة، فأفاض بالسكينة، وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة، ليس البر بإيجاف الخيل و الإبل» وفي حديث البخاري ١٦٧١ أنه ﷺ قال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع» أو السرعة ويظهر من هذين الحديثين وأمثالهما أن الحج يسعى إلى تعليم الناس الوقار وأخلاق السكينة، وهو ما ينبغي أن يحرص عليه في برامج الدعوة، وتأكيد قضية الخشوع والإخبات في العبادة، وحفظ حرمات المساجد، وتقدير أنها بيوت الله سبحانه.

سادسا- القيام بمسئولية القدوة من جانب الداعية:

ومن الأبعاد المهمة التي تعكسها مدونة أحاديث الحج بعد مسئولية الداعية نحو مدعويه، وضرورة أن يتحلى بمسئوليات القدوة و المعلم والأب.

ومدونة أحاديث الحج و العمرة والعبادات جميعا تظهر النبي ﷺ في صورة المعلم القدوة والأسوة، بما هو المنصوب شرعا للبلاغ وأداء الرسالة، بموجب قوله ﷺ: «خذوا مناسككم عني» وقد ظهر في الحديث السابق في الفقرة السابقة أنه قبل أن ينادي في الناس بأن يفيضوا، أفاض هو



ﷺ قبلهم بالسكينة، والوقار، وشكلها تهدئة حركة نافذة في إفاضته ﷺ.

سابعا- الدعوة شعارها التيسير على الخلق:

وتفتح مدونة أحاديث الحج الباب مشرعا أمام أصل جامع هو التيسير على الخلق، وقد كشفت هذه الأحاديث على التيسير على الخلق في كل الأبواب التي يظن أنها قد تجلب مشقة أو تعسيرا، ويظهر ذلك في:

١-دخول مكة ليلا أو نهارا.

٢-جواز التعجل و التأخر.

٣-التوسع في ميقات رمي الجمرات.

٤-التوسع في جمع الصلوات.

٥-التوسيع على الناس في استلام الحجر الأسود باليد أو بالعصا (المحجن) أو بالإشارة بكل ما يشعر بالتحية.

٦-إباحة الكلام في الطواف، والتيسير على المريض في الطواف بإباحة الركوب.

٧-التوسع في طرق تقديم الهدي، سوقا مع الحاج، أو شراء في الطريق، أو بتوكيل الغير.

٨-إباحة التجارة أيام الموسم والبيع في أسواق الجاهلية التي كانت منصوبة للبيع أيام الجاهلية كعكاظ وغيرها.

إن السنة الشريفة ما تزال تعطي الدليل بعد الدليل على الإمكانات الرائعة التي تعين على تحسين واقع الناس اليوم.

إن جودة الحياة مرهونة بحسن الفهم عن رسول الله ﷺ.

قصة العدد

ابن المبارك يحج



أ. د/ محمد رجب البيومي

- ١ -

شاع في خراسان أن قافلة عبدالله بن المبارك تتأهب للحج بعد ثلاثة أيام من شوال، فأخذ القوم يستعدون إلى صحبته، فهم يعلمون أنه رئيس القوم، ومحدث الأمة، وفقيه الناس وفي صحبته سرور ولذة، إذ ألف أن يحج عامًا ويترك عامًا آخر للغزو في سبيل الله، مع من يقفون في الرباط يواجهون الروم إذا تأزم موقف، أو احتدم اشتباك، وقد جعل كل قادر على النفقة من الأثرياء يتقدم إليه بما سينفق، ليضمه إلى خازنه رصيدًا للنفقة المنتظرة، أما غير القادر ممن يقف ابن مبارك على كفافهم، فيتقدمون بما يستطيعون، ليأخذه ابن المبارك بيده، فيكتب قيمته، ويدعه في صندوقه الخاص، والقادر وغير القادر سواء في الطعام والشراب، والإناخة والإقامة لأن إدارة القافلة، تقدم الزاد للجميع دون تفضيل، وعند الطعام يتفقد عبدالله الآكلين، ويدور على أماكنهم، ثم يتناول طعامه مما بقي مغتبطا سعيدًا، ولا تسل عن أماكن الاستراحة في الطريق الممتد بين خراسان ومكة، حيث عرف ما يصلح للمبيت والمقيل، وما يحفل بينابيع الماء، فإذا شاءت القافلة أن ترتاح نصبت الخيام، ودوى ذكر الله تلبية وتهليلا. فإذا صليت العشاء، ألقى درس الحديث وانتقل السامعون من الأرض إلى السماء، وهم يسمون كلام رسول الله ﷺ، مفسرًا للقرآن، أو هاديًا للناس، وقد حسب كل سامع أنه تجرد من شئون الدنيا هذه الحقبة الممتدة ليشم رائحة الجنة في الآخرة، ومال الجنة إلا السعي في أداء فريضة الله، ومع التزام فرائضه، واجتناب نواهيه، وصحبة ابن مبارك في جُوده الواسع، وعلمه الناصح وخلقه القويم.

وما كادت القافلة الخراسانية تقبل على مكة حتى تدفق الحجاج من كل صوب يشاهدون محفل عبدالله بن المبارك، ويلتفون بالركب التفافًا لا يبقى معه في البطحاء موضع لقدم، وأصوات التهليل والتكبير ترج الأرض رجًا، فتجمع إليها القاصي والداني بمن يسعدهم أن يكونوا في ركب عبدالله، وكان هارون الرشيد في بعض سنوات حجه يجلس مع حاشيته في قصر الحكم قريبًا من بيت الله، فسمع الضجة الهائلة، ونظر إلى القوم يهرولون إلى موكب عبدالله فرحين مغتبطين، فتذكر أنه كان يطوف بالأمس، وهو أمير المؤمنين فيجد الناس يتباعدون حذرين، ولا يقرب منه غير من يعهد من رجال حاشيته ومستشاريه،

ثم ها هو ذا يجد الحشد الصاخب يسير وراء عبدالله، وابن المبارك لا يجهل مكانه لديه، فهو محدث الأمة ومن أعلامها البارزين، وقد سارت كتبه بين الناس لتؤكد منزلته العلمية في الإسلام، وقرأها الرشيد فيما قرأ من الصحف ذات الفقه والحديث! أفتكون عزة العلم أبهى من عزة الملك؟ هذا ما يؤيده العيان المشاهد، إذ كيف تضاءل موكب الرشيد وانكمش، واتسع موكب ابن المبارك وامتد! ثم سبح هارون الرشيد بخاطره إلى موقف آخر يكاد يراه بأحداثه مرسومًا في خاطره، موكب الحساب في الآخرة، حين تتلاشى الفوارق بين الراعي والرعية، وحين يتقدم في الآخرة من تأخر مكانه في الدنيا، وقد يتأخر من رأس وتقدم، تذكر هذا الموقف، فسأل ربه أن يكون يوم الهول من الناجين!

وكان الموسم موسم جفاف، إذ شحت السماء بمطرها الهاطل، وتطلع الحجاج لكرامة تهبط بها المياه من السحب، فلجئوا إلى صلاة الاستسقاء في ضراعة وخشوع، وأوصى الرشيد أن يؤم الناس عبدالله بن المبارك في الصلاة، فهو بمنزلته من ربه جدير باستجابة الدعاء، ووقف العالم المحدث الفقيه يدعو ربه وخلفه وعن يمينه وشماله في الحرم المكي آلاف الناس يؤمنون ويدعون، وقد سادت الخشية بين النفوس حين جأر عبدالله بدعاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في هذا الموقف، فقال متضرعًا خاشعًا: «اللهم قد يبست جبالنا، واغبرت أرضنا، وهامت دوابنا، وتحيرت في مرابضها، وعجت عجيج الثكالى على أولادها، وملت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها، اللهم فارحم أنين الآنة وحنين الحانة، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها، وأنينها في موالجها، اللهم خرجنا إليك، حين اعتكرت علينا السنون، فكنت الرجاء للمبتئس، والبلاغ للملتمس، ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السوام، ألا تؤاخذنا بأعمالنا، ولا تأخذنا بذنوبنا، اللهم سقيا منك تعشب بها نجانا، وتجرى بها وهادنا، وتخضب بها خبابنا، فإنك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا، وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد» ثم ختم الصلاة آملا راجيًا، فإذا فرغ الناس من حوله، تعاظمه هول الموقف حين يستمر الجفاف، فاتجه وحده إلى مكان يعرفه بين زمزم والمقام، كي يؤدي صلاة منفردة يثني بها ما تقدم من صلاة الجمع، فشاهد شابا أسمر الوجه، داكن السحنة، يقف داعيًا ربه أن يغيث الناس، ويقول في دعائه، اللهم لا أسألك لنفسي، فأنا لا أخشى الموت ظامئًا، ولكن أسألك للطفل الرضيع، والحيوان الجائع، والأرملة البائسة، هم عبادك يارب، وقد قصدوا حرمك، وأموا ساحتك، فاستعبر عبدالله لما سمع، وترقرق الدمع على خده، وأخذ ينظر إلى الشاب مأخوذًا دون أن يراه المصلي المبتهل، وتوقع أن يختم الصلاة فيجلس في الحرم، ليسعد بلقائه، ولكنه فرّ سريعًا إلى حيث ضاع في الحشد المزدحم، وشاءت السماء أن تجود بمائها بعد انقطاع، فاندفع الناس يقولون أجاب الله دعاء ابن المبارك، أجاب الله دعاء ابن المبارك، ففوجىء الشيخ بما سمع، فصاح في القوم: كلا كلا، إنه الشاب الأسمر، وأنا أبحث عنه، فليتني ألقاه!

أخذ عبدالله في طوافه وإقامته بالحرم يتأمل

الوجـوه متفرسًـا، وهو شـديد الشـغف بلقاء صاحبـه، حتى أسـعده الحظ رؤيتـه فى مكانه المعهـود قائمًا يصلي، فقـال لبعض أصحابه: تتبع هذا الشاب إذا انتهى من أمره. وانظر أين يقصد؟ فإذا عرفنا منزله سعينا إليه وقد يكون لنا معه شأن، وما أتم الشاب صلاته حتى انتقل سريعًا إلى خارج البيت، ومن ورائه من يترصد خطـوه حتى انتهى به السـير إلـى دار ميمون الأشـدق، وهو يتاجر فى العبيد، وقد سـارت له شهرة فى هذه التجارة! فرجع المتعقب إلى عبـدالله يخبره بما كان من أمر الشـاب، فعض على شـفته، وقـال لا بد من شـرائه وعتقه إذا كان كما نظن!

وعزم ابن المبارك فى الصباح على زيارة دار ميمون، فتعجب الناس أن يشغل عبدالله نفسه بزورة تاجر من أهل الدنيا يجمع العبيد والقيان، وطار الخبر إلى ميمون فحسب أن الله قد رضى عنـه إذ يجيئـه عالم خراسـان وإمـام الحديث زائرا! والناس من خلفه يتقاطرون متزاحمين، ومـا كاد ابـن المبارك يلج بـاب ميمون، حتى سـاله أين عبيدك؟ فقال الرجل: هم طوع أمر، لك تشترى من تشـاء، قـال فاعرضهم عليّ، فعرضهم واحدًا واحدًا، وعبدالله ينظر فلا يجد رغبته، فقال: هل بقى أحد، قال ميمون: شاب أهوج لا نفع فيه! قال عبدالله: أريد أن أراه فإذا هـو صاحبه، فهش ابن مبارك للشـاب وتهلل، وقال لميمون، هو طلبتى فبأى ثمن تبيع؟ قال ميمون: قلت لك يا سيدى إنه شاب أهوج وذو ريبة، فاختر سـواه، فأنا أدرى بمن لدى، صاح ابن المبارك: قلت: لا أريد سواه، ونظر الشاب إلى ابن المبارك حائـرًا حين دفع الثمن، وقال لـه: قد اعتقتك فانتظرنـى حيث كنت تصلى صلاة الاستقسـاء بالحرم، إذ أن لى معك شأن.

فقال الشاب: إذا كنت قد أعتقتني فدعني حر أنتظر أو لا أنتظـر، فدهش ابن المبارك وقال ما تـراه يا بني، فهيا، وليتنـي ألقاك كما أريد وانطلق الشاب مسرعًا إلى حيث يشاء.

قال ميمون: قلت لك إنه أهوج، وذو ريبة فلم تصدق! فصـاح ابن المبارك: كف يا رجل عنه، فأنا أعرف مكانته من ربه، وقد شاهدت فقلـب التاجـر كفيه، وقـال: إن لـم تصدقني فاسأل زيتونة، فهي تحكى عنه ما تعلم!

سـأل عبدالله: ومن زيتونة؟ قال: جارية هنا بدار الرقيق، فتشـوق ابن المبارك أن يراها مع ميمـون دون أن يصحبهما أحد، فخلا المكان إلا منهمـا، ونادى التاجر فاقبلت زيتونة باكية تنشـج، وقد علمت برحيل الشباب، فسكت ابن المبارك برهة، ثم سأل: ما شأن هذا الشاب معك يـا أمـة الله؟ فقالت زيتونـة: أنا تجنيت عليه وافتريت الباطل، لقد وقع هواه فى قلبي، وعـز عليّ أن أجد الراحـة دون لقائه، وركبني من الشـوق مـا زلـزل الفـؤاد، وحـرم النوم، فانتهـزت فرصـة خلا بهـا فى مـكان معتزل، وهرعـت إليه أقبله دون مقدمة، فصفعنى على وجهـي، وصرخـت من الألـم، ودوى الصوت فتجمع القوم، وحضر سـيدى ميمون، فأردت أن أنقذ نفسـي، وقلـت: إنه راودنـى فأبيت، فلطمني، وسكت الشـاب ولم ينطق، فصدق سـيدى ما زعمت! ولم أزل ناقمة على نفسي، أتلمس الطريق لاسترضائه، حتى فوجئت الآن بعتقه وفراره! وهو برىء وأنا المريبة! قال ابن المبارك: كم ثمن هذه يا ميمون؟ لقد صدقت القول، فلا بد أن تعتق، وعندى من سيتزوجها فى ركب خراسان إذا رضيت، فهيا يا بنيتي.

-٢-

عرف ابن المبارك أن شيخه المحدث حماد ابن زيد قد سـأل عنـه، ويطلب لقـاءه بعد أن يحضر من دار ميمون، وهو مقيم بالحجون مع صفوة مـن تلاميذه، فدهش عبـدالله إذ كان لا يعرف أن أسـتاذه بين حجاج هـذا العام، وقال متحسـرًا، يسـأل عنى شـيخي، ويحضر إلى مخيم خراسـان للقائـي، وأنا غافـل عن تأدية واجبـه، وهـو الشـيخ الكبيـر، وأنـا التلميذ الصغير! كيف هذا، لن أهدأ حتى ألقاه.

ثـم اتجه إلـى الحجون، فى مخيـم الكوفة فوجـد شـيخه حمـادًا يجلـس صامتًـا بيـن تلاميذه، وحين رآه خف إلى لقائه فتعانقا على شـوق، وقال الأسـتاذ للتلميذ مُداعبًا، أحضر إلـى مخيم خراسـان فأجد عبدالله بـن المبارك يترك مناسـك الحج، ويذهب لشراء الجوارى والغلمان، لقد تغيرت بعدى يا بن المبارك!

قال عبدالله: إن أذن شيخي اعترفت له بأني أنشـد شـابًا نشـأ فى عبادة الله، وقد رأيت منه ما أسـعدني، وحاولت شـراءه كـى أعتقه، ثم انصرف عنى بعد أن خيب رجائي!

نظـر حمـاد حائـرًا، وقـال: أى رجـاء لك فيـه، ولن يبلـغ مبلغك من الفقـه والحديث؟ فقال عبدالله: لم أختره لفقه أو حديث، ولكن ليكـون زوج ابنتي، فلن أجد تقيًـا ورعًا أحب إلى الله منه، ومضى يذكر ما كان من أمره، منذ عرفه إلى أن انطلق دون أن يعلم مثواه.

فقـال حمـاد - بعـد أن عجـب وعجـب الحاضـرون مـن حديـث ابـن المبـارك وهـل سـترضى فتاتـك بشـاب أسـود كان رقيقًـا بالأمس، وحرر على يدك، فتبسم ابن المبارك، وقـال: هى تعرف قصة زواج والدى الأجير من ابنة تاجر مرو، ولم يكن يملك درهمًا واحدًا!

تطلـع الحاضـرون إلـى مـا سـيقول ابـن المبـارك، وتبسـم حمـاد وهـو يقـول: زدنى إيضاحًـا، كيف تزوج والدك الفقير بابنة تاجر مرو الموسر، وهو لا يملك الصداق!

قـال عبـدالله كان أبـى (ناطـورًا) يحـرس بسـتان التاجر فى مرو، فجاء صاحب البستان يومًـا فأمـره أن يقطف له رمانـة حلوة، فذهب وجـاء برمانـة فذاقهـا، ثـم رماهـا، وقـال: حامضة، فأحضر سـواها، فذهـب وأتى بثانية فذاقهـا فـإذا بهـا حامضـة، فصـاح بـه: أريد رمانـة حلوة، فقطف ثالثة، وأتـى بها فوجدها كسابقتيها، فصاح به: ويلك: ما تعرف الحلو مـن الحامض؟ فقال أبي: وكيف أعرفه وأنا لم أذقـه، فقلـب كفه، وهـو يقول: بقـى لك فى البسـتان سـت سـنوات، ولم تذق منه شيئًا؟ فقـال أبي: نعـم، لأنك لـم تأذن لـى فى أكل شـيء؟ فجعل أبى يسأل مجاوريه هل شاهدتم الأجير يأكل مرة من فاكهة البستان فقالوا: ما رأيناه يأكل غير كسرة الخبز وبعض الإدام مما يبـاع! وكان للتاجر ابنة كثر خطابها، وكلهم طامعون فى ماله، فقال لوالدي: اسمع يا بني: أهـل الجاهلية كانوا يزوجون للحب، واليهود يزوجـون مـن أجل المـال، والنصـارى للخفة والجمـال، وهـذه الأمـة تـزوج للديـن، وقد رأيتك ذا دين وخشـية، فأنت أحق بها وأجدر، ثـم ذهب بـه إلى منزله، وتم القـران، وواظب أبى على حراسـة البستان، فلم يأكل منه شيئا بـادئ الأمر، فقال والدى ضاحـكا أتمتنع عن مالك؟ فهـل تتأكد من وارث قـادم! قال أبى: لم تـأذن لي بعد، فقال التاجـر: قد أذنت منذ اخترتـك قرينـا لابنتـي، فـكل ما تشـاء قال

حماد : قصة عجيبة ، وأعجب منها أن يرويها ابن المبارك صاحب الجاه الممتد فى العلم والثراء والشجاعة ثم لا ينقص منها حرفا ، يا بن المبارك جئت حين أبدأ مجلس الحديث ، وعليك أن تريحني ، فتجلس مكاني لتحدث التلاميذ : فقال ابن المبارك : معاذ الله أن أحدث وشيخي جالس يستمع ! فقال حماد : أقسمت عليك لتفعلن ، أقسمت عليك لتفعلن ! فقال ابن المبارك سأحدث بكل ما رويته عنك ، وبدأ يقول حدثني شيخي حماد بن زيد عن فلان وفلان ، وهكذا يتابع الأحاديث وكلها عن حماد ! وكان ابن المبارك أراد أن يعلن فضل أستاذه ، وأنه مع شهرته الذائعة فى الحديث ينزل منه المنزلة القديمة حين كان شابًا يستمع ويحفظ ، وتعجب السامعون لكثرة ما روى عن حماد ، فقال الشيخ هكذا أضمن بقاء درسي ، ما بقى ابن المبارك ، فصاح عبدالله ولى فى ذلك أمثال وأمثال !

انتهى مجلس حماد ، فجعل ابن المبارك يدعوه إلى زيارة الخراسانين فى مخيمهم القريب ، ليفرحوا بأستاذ أستاذهم ، فتعلل بضعف الصحة ، وانطلق ابن المبارك ليسأل كاتبه عن أسماء الذين دفعوا النفقة اليسيرة فى مبدأ الرحلة ، فجاءت قائمة الأسماء بين يديه ، فكان يستدعى الواحد بعد الواحد منهم ، فيقول له : هل أوصاك عيالك أن تشترى لهم شيئا من طرف مكة والمدينة فيقول : بلي ، فيقول : وبم أوصوك ؟ يقول : بكذا ، وكذا ، فيقيد ما ذكر ، ويدعو الثانى بعد الأول والثالث بعد الثانى حتى فرغ من أسماء القائمة ، وقد كتب جوار كل اسم وصية أبنائه ، وخف إلى السوق مع ثلاثة من معاونيه ، فاشترى كل ما أوصى به ، وزاد بما رآه ،

فلما بلغ الركب فى رجوعه مشارف مرو ، أوقف القافلة ، وبعث إلي كل منزل من منازل هؤلاء من يقوم بتزيينه وترميمه وإصلاحه ترحيبًا بمقدم الحاج الغائب ، وبعد أن انتهى العمل ، أقام وليمة حافلة أكل فيها الركب بأجمعه ، ودعا بالصناديق المليئة بحاجات الأهل ، فأخذ ينادى كل إنسان ويعطيه ما أوصى به بنوه ، فوزع من الثياب الجديدة ما لا يقف عند حد ، وعم البشر وجوه الناس ، حتى قال الأثرياء : يابن المبارك ليتك أخذت نقودنا واشتريت ما نريد ، لنفرح كما فرح هؤلاء ! فقال عبدالله : إذا كانت المرة القادمة ، وأذن الله باجتماع الشمل ، وسلمت القافلة ، فسأشترى للجميع !

وفى الطريق إلى باب مرو ، نظر عبدالله فشاهد رجلا ، يأتي إلى كناسة ، فيحمل منها طائرًا ميتا فيتعجب وينهض فيسأله عما يفعل ، وقد تفرس فى وجهه ما ينبئ عن الفاقة ، فقال الرجل فى ضراعة ، أحلت لى الميتة وأنا مضطر ، فقد كان أبونا ذا مال فقتل ، وصودر ماله ظلما . وبقيت أتكفف لأسرتى فلا أجد ، فدمعت عينا عبدالله ، وقال لرفاقه الصدقة لهذا أولى من الحج المتكرر ، وصاح بوكيله ، كما بقى لديك من نفقات الرحلة ، فقال : ألف دينار ، قال خذ منها عشرين دينارًا تكفينا حتى نأتى مرو ، وأدفع ما بقى من الألف إلى الرجل . فهذا أفضل من حجنا هذه العام ! وانصرف الرجل ثريا موسعا عليه ، وهو لا يعلم كيف هبطت عليه الثروة ، وكأنها نزلت من السماء !

ثم حانت مرو ، فتمت الرحلة ، واستأنف المسافرون حياتهم التقليدية فرحين بما فى أذهانهم من أعذب الذكريات ، عن الحج وعن عبدالله .

المنهج الإسلامى فى الدعوة إلى الله



للشيخ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

عجيب أمر أدعياء الإسلام الذين ينتمون إلى بعض الجماعات التى تطلق على نفسها اسم إسلامية ، فمنهجهم فى الحياة : إما أن تعتنقوا فكرنا وتتبعونا وإما أن نقتلكم ! !

لقد عانى الشعب المصرى من همجيات وإرهاب واغتيالات هذه الجماعات الكثير والكثير طوال العقود الماضية من القرن الماضى وفى مطلع القرن الحالي ، وللأسف الشديد - والحزن يعتصر قلب الإنسان - أنهم يرتكبون هذا الإجرام والفساد فى الأرض باسم الإسلام ! ! والإسلام برىء من دعوتهم وبرىء من منهجهم وبرىء من إرهابهم وبرىء من سفكهم دماء الأبرياء الآمنين وبرىء من إلحاقهم الدمار والخراب فى منشآت ومؤسسات الدولة .

إن القرآن الكريم يوضح منهج الدعوة إلى الله ، يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢) وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(الجمعة : ٢ - ٣)

إن فضل الله على خلقه لا يعد ولا يحصى ، ونعمه عليهم كثيرة وشاملة ، ومن فضله ونعمه أنه سبحانه وتعالى بعث فى الأميين رسولا منهم ، وحالهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول فيهم ، كانوا فى ضلال واضح لا يخفى أمره على عاقل ، وفى جهالة وظلام فى جميع مجالات حياتهم من حيث : العقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ، والسلوك والعادات . . فكان من رحمة الله بهم أن أرسل فيهم واحدا منهم يشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية ، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان . . متدرجا معهم فى مراحل تبليغ الرسالة .

- أولا : بتلاوة القرآن الكريم - المعجزة - التى يثبت بها لهم أنه رسول من عند الله - لعجزهم عن الإتيان بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة منه ، ثم بتطهير أنفسهم وتنقيتها من كل سوء وقبيح .
- ثانيا : ثم بتعليمهم معانى القرآن الكريم ، وشرح أحكامه وأوامره ونواهيه ،

وبيان مقاصده وغاياته والحكمة من تنزيله، وأنهم بعد الإيمان بالله الواحد، وبالرسول الذى أرسله، وبكتاب الله الذى أنزله، وبتنفيذ ما ورد فيه من تعاليم وأحكام.. فقد تبدل حالهم من ظلام الضلال والشرك إلى نور الهداية والتوحيد.

كما أن نفع هذه الرسالة وفضلها وخيرها ليس مقصورا على المعاصرين للرسول ﷺ منهم، الذين شاهدوه واستمعوا إليه، بل سيعم نفعها وفضلها وخيرها على من سيجيئون من بعدهم.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن رسالة الإسلام عامة وشاملة، وأن دعوة الرسول ﷺ ستبلغ إلى غير المعاصرين له عليه الصلاة والسلام، وأنهم سيتبعونها ويؤمنون بها ويبلغونها ويدافعون عنها.

وقد كلف الله سبحانه وتعالى رسله بأداء هذه المهمة، وتبليغ تلك الرسالة، يقول الله تعالي:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(المائدة: ٦٧)

أمر من الله سبحانه وتعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأن يبلغ الرسالة التى بعث بها، وأن يمضى فى تبليغها بدون خوف من أعدائه الذين يكرهونه ويمكرون به ويدبرون له المؤامرات والمكايد، وأن يبلغ كل ما أنزل عليه من ربه: من الأوامر، والنواهي، والتشريعات والأحكام، والأخبار والوعد والوعيد.. دون أن يترك شيئا منها، وأنه إذا لم يبلغ كل ما أنزل إليه من ربه كان كمن لم يبلغ شيئا مما أوحاه الله إليه، لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها، وذلك لأن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها.

ومن المعلوم الذى لا خفاء فيه عند كل مسلم، أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بلغ ما أمره الله به البلاغ التام، وقام به أتم القيام دون أن يزيد شيئا على ما كلفه به ربه، أو ينقص منه شيئا. عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لمسروق: من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب.

قال ابن كثير: وقد شهدت له عليه الصلاة والسلام أمته بإبلاغ الرسالة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع. فقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسئولون عنى فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت».

ولكى يطمئن الله ـ جلت قدرته ـ الرسول عليه الصلاة والسلام بالأمن والأمان من أعدائه، وأنهم لن يصيبوه بأذى أو مكروه، أخبره سبحانه وتعالى أن الله حافظه وعاصمه من المشركين والمنافقين واليهود ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال والعناد، فعليك يا محمد أن تبلغ

رسالة الله دون أن تخشى أحداً سواه...

والمتتبع لسيرة الرسول ﷺ يؤمن عن يقين أن الله تعالى قد حفظ الرسول ﷺ من أعدائه مهما دبروا له من كيد.

لقد نجاه من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله ليلة هجرته إلى المدينة.

ونجاه من كيد اليهود عندما هموا بالقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم.

ونجاه من مكرهم عندما وضعت إحدى نساء اليهود السم فى طعام قدم إليه.. إلى غير ذلك من الأحداث التى تعرض لها النبى ﷺ من أعدائه، ولكن الله- عظمت قدرته- نجاه منهم..

وهناك آثار تشهد بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يُحرس من بعض أصحابه، فلما نزلت هذه الآية صرفهم عن حراسته، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلا حتى نزلت ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا لقد عصمنى الله».

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

تعليل لعصمة الله لرسوله وتثبيت لقلبه، أى: أن الله- عظمت قوته وقدرته- لا يهدى القوم الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم الغي على الرشد، ولا يوصلهم إلى ما يريدونه من قتلك يا محمد، ومن القضاء على دعوتك، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك.

وقد ألزم الله تعالى رسله- عندما كلفهم بتبليغ الرسالة- بالالتزام بمنهج معين محدد يسيرون عليه فى دعوة الناس إلى التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يقول جل شأنه:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

والخطاب فى قوله تعالي:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾

وإن كان موجها إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فهو عام شامل لكل مسلم يصلح للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أو يكلف بأدائها، ويدخل فى شرف هؤلاء الإخوة الأئمة والدعاة والوعاظ الذين يزاولون الخطابة على المنابر فى المساجد، ويتحدثون فى الندوات فى المناسبات المختلفة، وبصفة أعم كل مَنْ يتحمل مسئولية تفقيه المسلمين وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم وشرح الإسلام لغير المسلمين والدعوة إليه..

أي: ادع- أيها الرسول الكريم- الناس إلى دين ربك وشريعته، وليكن منهجك فى تنفيذ ذلك أن تتبع السبل التالية:

- بالقول المحكم الصحيح، الموضح للحق، المزيل للباطل، الواقع فى النفوس أجمل موقع.

• بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القلوب، وتهذب النفوس، وتقنع العقول بصحة ما تدعوهم إليه، وصدق ما تخبرهم به، وتحببهم فى الخير، وتبغضهم فى الشر، وترغبهم فى طاعة الله، وترهبهم من معصيته.

• بجدال المعارضين المعاندين لدعوتك، بأحسن الطرق وأجملها وأسلمها، المبنية على حسن الإقناع، وعلى الرفق واللين وسعة الصدر، وعلى تحمل حمقهم ومكابرتهم وغلظتهم فى معاملتهم لك وردهم عليك.. فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم، وفى التقليل من عنادهم، وفى إصلاح شأنهم، وفى عودتهم إلى الحق، وإعلان إسلامهم وإيمانهم.

إن هذه الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدعوة إلى الله، وحددت أحكم وسائلها، وأنجحها فى هداية الناس، إنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم خالصة لوجه الله، لانفاق فيها ولا رياء، لا تزمت فيها ولا تطرف، لا تحيد عن الحق ولا تبعد عن الصواب، وأن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس وطباعهم، وسعة صدورهم، وتفاوت مداركهم، وظروف حياتهم، واختلاف ثقافتهم، وتنوع بيئتهم... وأن يخاطبوا كل طائفة بالأسلوب الأمثل المناسب لهم، الذى يؤثر فيهم، وبالقدر الذى تسعه عقولهم، وبالطريقة التى تجذب انتباههم وترضى عواطفهم وتستميل قلوبهم..

وهنا تتضح حاجة الدعاة الضرورية إلى أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية ومعرفتهم بأحكام الشريعة الإسلامية، أن يتزودوا بالمعلومات التاريخية عن سيرة الرسول ﷺ، وتاريخ الصحابة رضى الله عنهم، ومراحل ازدهار الحضارة الإسلامية، وأسباب ضعفها وتأخرها، وأن يتزودوا بألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والاجتماع وتاريخ الأمم وطبائع شعوبها وميولهم.. حتى يتمكنوا من النجاح فى أداء رسالتهم..

وكما أن أمراض الأجسام متنوعة ومختلفة، والطبيب الناجح هو الذى يتمكن من تشخيص المرض وتحديد العلاج المناسب له، فكذلك الداعية الناجح هو الذى يستطيع أن يتفهم أحوال المخاطبين- على النحو السابق- فيستعمل معهم مايناسبهم من أسلوب الدعوة.

قال الألوسى رحمه الله -: وإنما تتفاوت طرق دعوته ﷺ لتفاوت مراتب الناس:-

• فمنهم خواص، وهم أصحاب نفوس مشرقة، قوية الاستعداد لإدراك المعاني، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهم يدعون بالحكمة.

• ومنهم عوام أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد، شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لاعناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة.

• ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل

ليدحض به الحق، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف، ورسخ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيث لاتنفعه المواعظ والعبر، بل لابد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال، لتلين عريكته، وتزول شكيمته، وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتى هى أحسن.

ثم تختم الآية الكريمة بتوجيه إرشاد للرسول ﷺ - وللدعاة - أن عليهم أن يدعو الناس بالطريقة التى بينها سبحانه وتعالى لهم، ثم يتركوا النتائج له سبحانه وتعالى يسيرها كيف يشاء، فهو العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق، وسيجازى كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب.

وما دام الأمر كذلك فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تسلك فى دعوتك إلى سبيل ربك الطرق التى أرشدك إليها: من الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن.

صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله، يامن بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة وهديتها إلى الصراط المستقيم.

هذا هو المنهج الإسلامي فى الدعوة إلى الله، ومن يسلك طريقًا آخر ويفرض منهجًا يخالف ذلك، أو يحاول فرض الرأى والفكر على الآخرين بالقوة والسطوة، والإرهاب والقتل،وقطع الطرق، والاعتداء على حرمات مساجد الله وجعلها مخازن للذخيرة والسلاح والقنابل والمتفجرات، ونشر الدمار والخراب... فقد انحرف وضل السبيل وابتعد عن تعاليم الإسلام الصحيحة وتوجيهاته الرشيدة، وغرق فى مستنقع الغواية والضلال..

لقد استغل قادة وأعضاء هذه الجماعات جهل البعض بحقائق وتعاليم وأحكام الإسلام الصحيحة، لا سيما فى الكفور والنجوع وفى العشوائيات فاستخدموا القول المأثور: إذا أردت أن تخاطب الجهلة غلف خطابك إليهم بالخطاب الدينى فيستمعون إليك ويتجاوبون معك، وقد فعلوا ذلك، للأسف فكان خطابهم الدينى المنحرف عن تعاليم الإسلام الصحيحة ومفاهيمه السليمة لنشر أفكارهم الضالة..

لذلك يتحتم على الأزهر الشريف وعلى وزارة الأوقاف أن يؤديا دورهما الدينى فى شرح حقائق الإسلام السليمة، وتثقيف المسلمين بمفاهيم الإسلام الصحيحة، وأن يكثفا من جهودهما فى أماكن التجمعات العشوائية والمناطق النائية التى تستغلها هذه الجماعات فى نشر الانحراف فى العقائد والمفاهيم الدينية..

نتضرع إلى الله العلى القدير أن يحفظ مصر، وأن يجنبها كل سوء ومكروه، وأن يرفع عنها هذه الغمة، وأن يقيها شر هذه الفتنة، وأن ينصرها على أعدائها.

مشكلتنا الثقافية.. أو الكينونة الذاتية

للعلامة: محمد فتح الله كولن



لا شك أن المعنى الذى نقصده من "الكينونة الذاتية" هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتنا الذاتية، وجعلها "المحور" الذى ندور حوله، فلربما يفهم بعض الأوساط فى أيامنا هذه كلمة "الذاتية" على أنها العروض الفلكلورية التى لا علاقة لها بالجذور "المعنوية" لأمتنا، و"الغرائز" التى تطفح حينما تحس الكتل البشرية بالحاجة إلى إشباع نزواتها "الجسمانية"، والمراسيم التى تقام فى مناسبات الأكل والشرب والأعياد والأعراس.. لكننا نحن نفهم من تعبير "الذات" معنى أوسع وأشمل وأعمق؛ فهى ظاهرة أجرت فاعليتها فى كل شرائح المجتمع، وتغذت من ذاكرة الأمة وشعورها ووجدانها على مر الزمان إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا، وانعكست على مشاعر الأمة وأفكارها ولسانها وتصوراتها الفنية وتمثلت فيها، وعشناها فى أعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، باعتبارها أهم عمق من أعماق الحياة فى كل أوان، فنحن نحس ونشعر بها فى كل وحدة من وحدات الحياة، وفى كل صفحة من صفحاتها وكل مرحلة من مراحلها، وفى كل محطة من محطاتها؛ من الرعاية التى نلقاها فى أحضان أمهاتنا إلى سلوكيات أجدادنا المشبعة بروح الأبوة الحانية التى تعكس طبيعتنا الذاتية.. ومن طبع برامجنا التربوية ومضامينها بروحنا الذاتية إلى نفخ المربى لهذه الروح بأكمل وجه.. ومن أشكال الطهى فى مطابخنا إلى تصرفاتنا فى حقولنا ومزارعنا.. ومن قيامنا وقعودنا فى مكاتبنا إلى أخلاقياتنا المهنية.. ومن أساليب كلامنا وكتابتنا إلى علاقاتنا بالآخرين.

قد لا يدرك البعض، على المدى القريب، الفوائد العملية أو الاجتماعية للعيش فى أجواء "محور الذات"، لكن من الطبيعى والبدهى أنه، على المدى البعيد وبالإصرار عليه، سوف تبدو الأهمية الحيوية له فى مراحل التقدم كلها، وعلينا فى هذا السياق أن نواصل السير فى إطار ديننا وتراثنا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، مع أخذ ما يستجد من تفسيرات الزمان بعين الاعتبار، وبمرور الزمان ستكون قيمنا الذاتية جزءًا

لا يتجزأ من طباعنا، وما نقتبسه من الخارج سيصطبغ بصبغتنا وسنتبناه فيكون لونًا مهما من ألوان الخطوط فى نسيج أطلسنا الذاتى؛ الفكرى والثقافى.

إن تلك الحضارات التى كانت تذهل العقول وتبهر العيون بغناها الثقافى، لم تظهر فى روما وأثينا ومصر وبابل فجأة من غير مقدمات؛ إن الثقافة فى كل مكان إنما ولدت بعد حضانة طويلة فى عالم المشاعر والأفكار للأفراد، وفى السفوح الخصبة للوجدان العام، واستقت من المناهل الداخلية بشكل مباشر، ومن الخارجية بعد الترشيح والتصفية، فترعرعت حتى صارت بعد زمان عمقًا مهمًا لطبائع الشعوب ولونًا ظاهرًا لحياتها، ثم أحاطت بأرجاء الحياة كلها وإن لم تجر الألسن بالكلام عنها دائمًا، فهيمنت على حياتها فى المعبد والمدرسة والشارع والبيت والمقاهى وغرف النوم.. حتى إن الناس لو لم ينصاعوا لها بإرادتهم ووعيهم، فقد كانت تطوعهم بقوة سرية عفوية تأسر إرادتهم.

فأية أمة أرسيت قواعدها بهذه المثابة على أساس ثقافى بهذه الرصانة، فإنها بمرور الوقت ستصل إلى مستوى من النضج، بحيث يكون من الطبيعى لها أن تتخطى كل العقبات التى تعترض طريقها كالجهل والفقر والتشرذم والتسيب والضغوط الخارجية. فكل من حضارة روما وأثينا ومصر والعثمانيين تعتبر، ككونها من حضارات العهد الوسيط، من الأمثلة الجيدة على هذا.. وبالنسبة للتاريخ القريب تعتبر ألمانيا نموذجًا لا بأس به لولا أنها أنهكت نفسها بخوض مغامرات من نوع الحرب العالمية الثانية. فبعد الحرب العالمية الثانية، انقلبت ألمانيا عاليها سافلها، وصار اقتصادها ركامًا، وتسلط الأجانب على سيادتها الوطنية، وتفرق المجتمع إلى معسكرات متنازعة فى الجو النفسى الذى ولدته الهزيمة والبؤس، وصارت تلك البلاد من أدناها إلى أقصاها معسكرًا للأسر.. لكن قلوبهم كانت، فى الوقت ذاته، تنبض بالهمة، ورؤاهم تفوح بحب ألمانيا الكبرى، وكانوا على ثقة تامة بأن قوتهم العضلية وفكرهم كافيان لتحقيق ذلك، وكانوا على يقين بأن ألمانيا إذا كانت لابد وأن تنجو من ميدان الموت هذا، فإنما تنجو بطاقتها الحيوية وثقافتها المستقرة الراسخة، وهذا ما حصل فعلاً.. نعم، إن الشعب الألمانى ولى وجهه شطر جذوره المعنوية، واستفاد بعقلانية من الظروف الاجتماعية، والنفسية الاجتماعية، والاجتماعية الثقافية، وأصبح من الذين قرأوا وفسروا أوضاع النصف الأخير من القرن الماضى فى سبيل مصالحهم، بشكل لم يسبق له مثيل.

نستنبط من هذا الأنموذج، أن اختزال أسباب المعضلات السياسية والاقتصادية والإدارية لأى بلد، وحصرها فى السياسة والاقتصاد والإدارة وإن صح من وجه معين، لكنه معلول بنواقص من أوجه كثيرة؛ فما من شك فى فائدة الجهد والهمة والعلم وابتكار البرامج البديلة فى كل ساحة وميدان، لكن هنا أمر آخر ينبغى صرف الهمة إليه بالضرورة، وهو، على ما أعتقد،

مشكلتنا الثقافية.. أو الكينونة الذاتية

ثقافة الأمة وجذورها المعنوية؛ إذ ينبغي على الأمة ألا تغض البصر عن جذورها المعنوية في جميع فعالياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وألا تنسى البتة الرسالة الهادفة المميزة لثقافتها الذاتية، ما دامت قد قررت أن تتقاضى وتتحاسب مع عصرها.

صحيح أنه كلما دار الحديث حول التغير والتطور في بلادنا حصل التركيز على ثقافتنا الذاتية، ولكننا لا يمكننا الحديث عن مبادرة تتصف بالديمومة والمنهجية في هذا المجال؛ فالمدارس (التقليدية) والزوايا والتكايا التي كانت تربي مهندسي فكرنا وعمال روحنا في الماضي، لم تنتج مشاريع تأخذ بأيدينا إلى المستقبل، وإذ لم تنجح في ذلك، انسحقت تحت ركام أنقاضها، وإذ نقول هذا القول، نواجه مبدأ يكاد يسكتنا ويضرب على أفواهنا، هو: "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم [١]"، ويمنعنا من أن نتفوه بشيء غير هذا، ونحن بدورنا نقول: "إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها، فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروسًا منها"، ومن ثم نوجه الأسئلة عن الماضي إلى أنفسنا في الحاضر، فنقول: إن الذين سبقونا قد انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم، ونحن اليوم في الموقف عينه، فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلاً عن الانشغال بأخطائهم، وإن سلمنا بوقوعها.

لنسلم بأنهم لم يأبهوا بالمنابع التي ينهلون منها، فصاروا وسيلة لجذب أمتنا، لكن قولوا لي، أرجوكم، ما الذي صنعناه نحن؟ هل نستطيع أن ندعي بأننا، كشعوب، وفينا بمسؤولياتنا كلها؟ أو هل نزعم بأننا قمنا بإدارة مؤسسات الدولة كما يتطلبه العصر؟ رجاءً أفيدوني! من يستطيع أن يقول: إن المدارس في كل هذه المدة المديدة قد أثمرت المرتجى؟ صحيح أن كثيرًا من الشباب حصلوا تعليمًا عاليًا في باريس ولندن وميونيخ ونيويورك.. لكن هل صاروا أعضاء نافعين لمجتمعهم؟ بل على العكس؛ فدع عنك كونهم أعضاء نافعين، رجع أكثرهم إلى بلادهم بأحلام (فانتازيات) مختلفة، وجلبوا للوطن معضلات عويصة بتأثير تيارات مثل الأنكلوسكسونية والنازية والسلافية، أو الرأسمالية والليبرالية والشيوعية؟ فزادوا الاضطراب اضطرابًا، وزادوا القطيعة مع الذات شدة.. ولا زلنا نرجو ونأمل ألا يدوم الحال على هذا المنوال.

والحقيقة أن ثمة أسبابًا كثيرة تبعث على الرجاء والتفاؤل، فقبل كل شيء، قد أصبحنا نعي، إبان هذه المدة، ما أصابنا من الغدر والظلم، ويمكن لألبوم الصور المريرة هذه أن تلهمنا صورًا مختلفة منذ الآن.. إن تعلقنا بمد جسور الصداقة مع فرنسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا، وخيبة آمالنا وقلة حيلتنا، والتجارب التي اكتسبناها في خضم محاربة المئات من السلبيات، قد تحولت إلى توتر روحي جاد يمكن أن يولد انفتاحًا على غرار "قوة الطرد المركزي"، لكن استثمار هذا التوتر استثمارًا جيدًا واجب يقع على عاتقنا نحن، المدرسة أعطت ثمارها بمقدار أهميتها، والآن جاء أوان ترويض ما ألهمته المدارس من العلوم والتجارب بعجنها في معجنة أرواحنا نحن، وتغذيتها بأسس ثقافتنا نحن.

ذلك بأننا إن كنا عازمين على المضي قدمًا نحو المستقبل، فلا مناص من أن نكون ذاتيين في المنطق والمحاكمة العقلية والأسلوب، باستثمار تراكمنا العلمي والتجريبي في مواقعه المناسبة، فقد تكسب المدرسة الإنسان تراكمات وتجارب علميةً واجتماعية واقتصادية وسياسية؛ لكن تقبلها من قبل فئات المجتمع كافة ودوامها، مرتبط بامتزاجها وتكاملها مع الجذور المعنوية للمجتمع وبنيانه الفكري.. ولهذا فإن معضلة أمثالنا من الدول المتخلفة إنما هي عجزها عن اكتشاف حقيقة المدرسة بروحها ومعناها، بل، وبالأحرى، إنها معضلة ثقافية في أصلها، ومن الضروري واللازم أن تحل هذه المشكلة في أرضيتها هي.

نعم، هناك أمور كثيرة نحصل عليها وتتشربها أرواحنا ونحن على مقاعد المدرسة، ولكن ثمة أمرًا أشد وقعًا وتأثيرًا، ألا وهو الثقافة.. ومما لا مرية فيه أن الثقافة من الأمور التي تنتجها البيئة والمحيط.

يمكن القول بأن البيئة ظلت مصدر القيم الثقافية في كل الحضارات سابقها وحاضرها. ويمكن أن نسميها "البيئة العامة" التي تتكون من الأحاسيس والأفكار والسلوكيات والأصوات والألوان والأساليب والأداء والخصوصيات الأخرى الحاوية على أعماق متنوعة من طبيعة الأمة، ولا يتعسر علينا التدليل على صحة هذا المقترب بأدلة كثيرة، لكننا نريد الآن أن نركز على أقوى حركية، وهي "شمولية" الثقافة التي تتنفسها جميع شرائح المجتمع كالهواء، وترتشفها كالماء، وتشمها كالزهور، وتصغي إليها كالطبيعة، فالثقافة إنما تتسع وتحوز على قدرة التأثر الدائم بهذه "الشمولية"، وهذا ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن حينما تذكر "الثقافة"، نعم، إنها مؤثرة في راع بعين المقياس الذي تؤثر به على مثقف أو علامة، فما يعنيه التقاء الماء والتراب والهواء والشمس في نقطة واحدة، بالنسبة لوجود أي كائن حي ومواصلته لحياته.. هو الذي تعنيه الثقافة بالنسبة لحاضر أي مجتمع ومستقبله، نعم، إنها من أهم المقومات التي توصل الفرد والمجتمع إلى درجة النضج من الجهة النفسية والأخلاقية.

إن المدرسة بقدر ما تكون متوجهة نحو الهدف ومتسمة بالعمق تصبح ميناء أو مطارًا أو منطلقًا للأمة، بشرط أن تصهر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية، وإلا فمن البدهي أن المدرسة لن تستطيع حل المشاكل الفردية والاجتماعية، إن المدرسة، باعتبارها دائرة تخطيط ومركز مشروع من الممكن أن تعني شيئًا بقدر ما يستمع الوجدان الاجتماعي إلى صوت شيء من برامجها المنسجمة مع الأخلاق العامة وثقافة الأمة.. ولكن من العسير جدًا، بل من المحال، أن نستدل على أنموذج واحد

(١) الترمذي، الجنائز ٣٤، أبوداود الأدب ٥٠.

أنجزته المدرسة بوحدها، لذلك، علينا أن نتقبل المدرسة بواقعها وحقيقتها، ولا نأمل منها إلا ما يمكن أن تمنحنا إياه، ومع حفظ ورعاية حق العلم، إن تعليق الآمال كلها بالمدرسة منطلقٌ مبالغٌ فيه، وتفكيرٌ سطحي وبسيط يجعل إيضاح كثير من البديهيات مستعصيًا، كتحميل الأرض على قرن الثور!

إن المجتمع السليم الواعد بمستقبل مشرق، يتكون من أفراد سليمين هم منه كالجزء من الكل، ولكن، من جانب آخر، وجود أفراد منضبطين وممتازين وتطورهم، لا يتم إلا في مجتمع سليم كهذا، وإن كان هذا المقترب يؤدي بنا إلى نوع من "الدور المحال"، فإن بيئة عامرة بتراثنا الثرى ستؤثر في كل وقت؛ في العالم والجاهل، والشاب والكهل، والبدوي والحضري، والمفكر والسارب في هواه.. وما إن يفتح هؤلاء أعينهم ويرتبطون بما حولهم حتى يوحي المحيط والجو العام إليهم دائمًا بأمور ويحاسبهم ويحاورهم.. وبوارداتها وغناها، أو بفقرها، أو بوسطها النفسي والمادي، قد تغذيهم وتربيهم وتعمرهم، أو تقوض عواطفهم وأفكارهم وتحيل كل شيء إلى خراب.

وقد لا يتسنى للإنسان أن يحس على وجه تام بمدى التأثير الذي يحدثه جو "روح الأمة" على أي مجتمع وعلى أفراده من كل النواحي، ولكن ينبغي أن تستحضر دائمًا أن هناك أمورًا جزئية في العالم النفسي أو المادي، تبدو لأول وهلة وكأنها تافهة وعادية، ولكنها في كثير من الأحيان لفتت الأنظار، وفتحت الأذهان نحو اكتشافات أو محاولات أو إجراءات علمية غاية في الأهمية، فكما أن ترقب قطة لجحر فار ألهب مشاعر بعض النابهين فهناك عقول انكشفت أمامها آفاق واسعة حينما فكرت في التناغم البديع لمجتمعات النمل والنحل، تلك المجتمعات التي لا يضاهي كمالها أكمل الجمهوريات.. فكرت في التناغم البديع لمجتمع النمل والنحل الذي لا يضاهي كماله أعظم الجمهوريات كمالاً.. وكم من أمر مستصغر في عالم المادة أذكى نار أذهان وقادة.

فكم من أمر يبدو للآخرين هينًا ولكنه فتح الأبواب لاستلهام عظائم؛ مثل طاس الحمام لـ"أرخميدس"، وتفاحة "نيوتن"، والتناغم العام لـ"جين"، والقدر المتدحرج في سطح الدار لـ"نصير الدين الطوسي"، وأنغام الموسيقى التي تهدئ المجانين لـ"ابن الهيثم"، وبزوغ شمس صباح آسر لـ"ميخائيل إنجيلو" وماء جرة لـ"دنيس بابن"..!

ومن الحقيقة أن لبنيان المجتمع من حيث صحته أو عطبه، وجوانبه الإيجابية أو السلبية، تأثيرًا بينًا على الأفراد، وإن لم يتمكن العقل، دائمًا، بالنظر الظاهري السطحي من إدراكه والشعور به، فالأفراد هم أبناء المجتمع الذي يوجدون فيه، يحسون بكل شيء ويعيشونه ويتقبلونه في بيئة مجتمعهم، فالواجب على أهل العلم والمعرفة عمومًا، وعلى المسؤولين خاصة، أن ينقوا ويغربلوا الأفكار الغريبة والضارة والمنكرة التي تؤثر على المجتمع

سلبًا، وتضاد العقل والمشاهدة والتجربة والفكر الديني، إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه الغربلة في التاريخ، هم الأنبياء، ثم من بعدهم الأصفياء المتحفزون بالإلهام، ورجال الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني، وللوحي السماوي مع التجربة.

فحينما فتح سيدنا نوح عليه السلام النقاش حول ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر؛ وثار إبراهيم عليه السلام تجاه الأصنام والفكر الوثني المحيط ببيئته؛ ونافح موسى عليه السلام الظلم والاستبداد والطغيان واستغلال الإنسان؛ وأذل المسيح عليه السلام المادية المؤلهة؛ وحارب مفخرة الإنسانية ﷺ العلل الاجتماعية التي ما فتئت تمسك بتلابيب البشر كالجهل والفقر والتنازع والتفرق، إلى جانب جميع الأخطاء الأخرى التي جاهد الأنبياء السابقون ضدها.. ومن بعده إلى يومنا، فسر جميع المجددين والمرشدين الكمل الحياة تفسيرًا جديدًا في إطار أوامر الله تعالى وإرادته ورضائه.. هؤلاء كلهم سعوا جاهدين لتحقيق تلك الغربلة والتنقية.

فمن أجل إنشاء الثقافة وإدامتها، ينبغي تحفيز رد الفعل المشترك ضد الأفكار الماسخة والغريبة المنكرة، إلى جانب استشعارها والإحساس بها بكامل عناصرها من قبل كل فئات المجتمع.. حتى نبقى وندوم بذاتنا وبخصالنا الذاتية من جهة، وحتى نسير إلى المستقبل من غير السقوط في دوامة الباطل والخرافة والتغرب من جهة أخرى.

إن التأثير المتبادل ما بين الثقافات حقيقة لا مراء فيها، لكن نقل الثقافة من مكان إلى آخر مع المحافظة على أصالتها غير ممكن، فالثقافة ليست لباسًا ينزع عن بدن ويلقى على بدن آخر، وكما تحافظ الكائنات الحية على أصالتها باعتبار خصوصياتها البيولوجية، كذلك الثقافة إنما تحافظ على نفسها وتصير بعدًا حيويًا للمجتمع الذي ولدت وترعرعت فيه؛ إذا صارت كالهواء الذي يتنفسونه، والماء الذي يرتشفونه، حتى تصير عمقًا حيويًا لذلك المجتمع، فتحمي وتصان.

إن الثقافة تموت إذا ما نقلت من مكان إلى آخر ما لم تتجهز البيئة الجديدة بما يصلح لوجودها ونمائها، أو، في الأقل، تفقد خصوصياتها الذاتية، فتتهجن ويعدم معناها وتنقلب إلى حقل ثقافي آخر، وكما يعجز الآخرون عن التمثيل التام لصوتنا ونغمنا وخطنا ورسمنا ونمطنا وأسلوبنا بأصالته الذاتية، كذلك يتعذر علينا التمثل العيني لخصوصيات ثقافة الآخرين، ومع ثراء الألوان في ثقافتنا، فإن الآخرين لن يستفيدوا منها معاني كالتي نفهمها نحن، ولن تهيج فيهم المشاعر كما تهيج فينا نحن، ولئن أحدثت فيهم تأثيرًا معينًا فلن تحدثه فيهم بطبيعتها وفطريتها الذاتية، والعكس صحيح إذا أخذنا ثقافة الأمم الأخرى قبل استيعابها وهضمها، ذلك لأن الثقافة ليست بضاعة تشترى من

ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر
٢٠١٣ م

الباعة المتجولين فتؤخذ إلى البيت كلوحة أو صورة أو أسطوانة أو شريط ؛ إنها من حيث كونها ملتقى كل العناصر الزمانية والمكانية للمحيط الذى نشأت وترعرعت فيه "كلّ" لا يتجزأ وخاصةً ببيئتها التى تربت هى فيها، ولابد من تناولها مع كل العناصر التى تقف وراءها، حتى يمكن وضع كل الوحدات التى تكونها وتغذيها فى إطار يربط فيما بينها.. وأول ما يخطر بالبال أثناء نظرتنا هذه، أنها صيغة حياة معينة ذات نمط خاص لأمة معينة، ومنظومة سلوكيات خاصة فريدة من نوعها لأفراد تلك الأمة، ولا شبهة فى أن أول ما يلفت النظر فى هذا التحليل، هو التأثير والتأثر بين فلسفة الحياة لأى مجتمع ونمط سلوكيته، وكلما توطدت فلسفة الحياة وتبناها كل أفراد المجتمع، تكون سلوكياتهم وأنماط حياتهم باقية وواعدة للمستقبل، وكما فى الأحياء البيولوجية؛ "الكل" ، أى الجسم بمجموعه، يعين حركات الخلايا فى خط معين، وتقوم الخلايا المتوجهة باتجاه معين بوظيفة عوامل تنقل الهيئة العمومية "للكل" إلى المستقبل.

منظومة الحركات هذه، التى تجرى وكأنها فى إطار المسئوليات المتبادلة، توجد، من جهة، تنظيمًا من التدرج الوظيفى عندما يتعلق الموضوع بالموجودات الإرادية، ومن جهة أخرى، تفجر سيلاً من التمحيص والاختبار من قبل العقل السليم، والمشاهدة الصحيحة، والتشخيص بالحس الوجدانى.

إن هذه هى الطريقة المثلى لتوحد المجتمع وتطابقه مع فلسفة حياته وأسلوبه الذاتى وطبيعته التاريخية، حتى يصبح مجتمعًا مستقرًا بماضيه وحاضره، ومنفتحًا على العقل والفكر والوحي.. وإلا فإن الأمور الفلكلورية التى لم يكتمل سياق تطورها، والتى تم نسجها من العادات والتقاليد واللهويات وما يشبع الغرائز والأذواق.. حتى المؤلهة منها.. ما هى إلا نماذج خادعة من العدم والعوز الثقافى.

نعم، ثم أخذ وعطاء، وتأثير وتأثر دائم بين فئات المجتمع المتنوعة فى الأمم والحضارات الوطيدة التى سكن تموجها الاجتماعى، وفى الأوساط التى يوجد فيها جو ديمقراطى خاصة، يوجد تأثير وتأثر، وتفاعل مهم ودائم بين قمة هرم المجتمع وعناصر قاعدته، فالمعلم فى المدرسة، والواعظ على الكرسى، والكاتب فى الجريدة والمجلة، والمحلل على شاشة التلفزيون، والأديب بشعره ونثره، والرسام الناقل للموجودات بالمعنى الواسع ولمحيطه بالمعنى الضيق إلى لوحات للعرض.. هؤلاء جميعًا يتحركون دائمًا فى سياق التأثير والتأثر مع جماهيرهم. فالذين فى الأعلى، بصفتهم معطين ومنتجين، يرسلون الإشارات إلى من حولهم باستمرار، يحفزون بها المعنيين بالخطاب، ويجهزونهم للتحرك، ويزيدون من عدد المعطين والمنتجين بتوجيه قابلياتهم واستعداداتهم نحو آفاق "تصوراتهم" المهنية والفنية.. فيحولون كل واحد من المستقبلين الذين قلت أعدادهم بمرور الأيام إلى أناس ذوى آفاق واسعة.

وإذ ينتج الصانعون للأفكار ويقدمونها، يتعاطى المتلقون مع كل ما يقدم لهم من رأس الهرم بنظرة ماحصة متفحصة ونقدية، ويعترضون على أخطاء أولئك أو ما يعتقدون أنه خطأ حسب نظرهم.. ويضغطون على من فى الأعلى فيلجئونهم إلى حلول بديلة، فبذلك يؤكد على كل ما يخص هويتهم، وتتم مراجعة أى فساد فى الأساليب بإمرارها من المرشحات، وتنقى السلوكيات الخاطئة بالتقاضى والمحاسبة، ولا يمكن تبادلٌ وتفاعل من هذا النوع بين طبقات المجتمع إلا بفضل مشاركتهم جميعًا وتقاسمهم لموروث ثقافى مشترك.

فإذا تكاتفت أمة بفئاتها المختلفة وأصبحت كـ"البنيان المرصوص" كما وصفها مفخرة الإنسانية ﷺ، وسخرت قوتها وطاقتها فى سبيل تكوين البناء الداخلى وتناغمه، فإن الحزن سيصير سهلاً، وسيكون من الطبيعى أن تأخذ تلك الأمة طريقها لتكون عنصرًا فاعلاً فى التوازن الدولى، لكن تواجد رابطة اجتماعية مؤثرة على هذا المستوى من القوة، منوطةٌ بثقافة ذاتية، قد استقرت أركانها وعايشتها شرائح المجتمع كافة حتى غدت جزءًا من طبعها وجبلتها.. ثقافة مبنية على قيم أخلاقية تتغذى وتتنفس بها، مستندة بقوة الدين القاهرة ومتخطية بالاستناد إليها كل أشكال "التغريب"، ساندة لتصوراتنا الفنية بحيث تكون ملجأ ومأوى آمنًا لها فى كل مكان، وإلا فأى ثقافة لم يتوضح إطارها ومعالمها بشكل جيد، ولم تحظ بالقبول لدى كل المجتمع، فلا مناص من أنها فى حالة كهذه ستصبح دائمًا مدعاةً للتنازع والتناحر بين معماريى الثقافة وتلاميذهم، ناهيك عن غناء تلك الثقافة وثرائها واحتضانها! وقد يفتح أحيانًا تشاجرٌ كهذا، وبخاصة إذا كان فى موضوع الفن والأخلاق، جروحًا يستعصى دواؤها.. وقد يورث الإفراط والتدقيق الشديد فى مسألة أخلاقية، هيمنةً وتسلطًا على المشاعر والأفكار، حتى يوقع الفرد والمجتمع فى المحل والفقر أحيانًا، وأحيانًا يفتح الباب لتضييع القواعد والأخلاق فى البديعيات، فيتلوث كل شىء بالفوضوية والمستهجنات.

ونحن إذ نتناول قضية الثقافة فبدلاً من تهيئة الأجواء والمناخ، لإشباع الغرائز باللذائذ واللهويات لمن لم تنضبط قدراتهم الروحية بعد.. علينا أن نزيد من نشاطات تكسبهم القوة والمناعة لمواجهة المعضلات التى قد تواجههم فى الحاضر والمستقبل، ونضع فى الأساس توجيههم نحو التفكير الشمولى الذى ينمى لديهم موهبة اختيار الخير والجميل والصحيح.. وبذلك تتهيأ الأجواء لإمكانية ترجيح الأفراد للخيار الأفضل والأنفع بفضل التوجيه الإجبارى، الاختيارى للجو العام، والانسياق وراء التيار الجماهيرى، إلى جانب مساندة العلوم والمعارف..

وهكذا، بفضل التمسك بالقواعد نوعًا ما، وبفضل التوجيه الاختيارى أو الجبرى للبنيان الاجتماعى، سيصبح مركز التقاء "الأخلاقية" و"العلمية" و"الذوق الفنى" مغذيًا لأسلوب حياتنا، وماكنةً ساحبة

لتحر كاتنا وانطلاقاتنا، فتجعلنا ننهل على التوالى لذائذ نشوات الظفر فى ميدان الخير والجمال والصحيح.. ومن المهم هنا أيضًا، كيفية التفسير والتعقل "لتصور" الأخلاق والإيمان والفن ومفهوم الجمال.

إن حصر الأخلاق فى تطبيق بعض قواعد صارمة.. وفهم الإيمان على أنه تصديق أعمى لا يحسب حسابًا للعقل والمشاهدة والحس والوجدان.. وتفسير الجمال بأنه: التقاط لمحة من منظر الأشياء وصبها فى لوحات عارية وتماثيل جامدة.. وحبس الفن فى أطر محددة كالشعر والموسيقى والمسرح.. كل ذلك لا يعنى إلا حبس الجمال وثقافة الجمال فى مساحة ضيقة وجعلها ضحلة وترفًا لبعضهم.

إن انبعاثنا مجددًا بثقافتنا الذاتية، يتطلب رجال قلوب متحفزين بالإيمان.. ومهندسى فكر سائحين فى الغد بأفقهم الفكرى.. وعباقرة يحتضنون الوجود والأحداث بتصوراتهم الفنية، ويتعرفون بتحسساتهم وتفحصاتهم الدقيقة على آفاق جديدة أبعد من الآفاق التى نحن فيها.

إن انفتاح العديد من عشاق الجمال نحو آفاق جمالية جديدة وتفسيراتهم الجديدة لها.. والهمم العالية التى تستحق التقدير للفنانين المهرة فى الفنون وتلاميذهم المجدين.. وألحان ذوى الأصوات الذين يبذلون قصارى جهودهم لترجع موسيقانا إلى روحها الأصلية، ومخزونهم الثرى.. والجهود التى يبذلها الشعراء الفطاحل والناثرون عشاق اللسان فى سبيل تخطى مرحلة التقليد حيث بدؤوا يتشممون الذوق الأدبى.. كل ذلك تبدو لنا وكأنها أمارات بزوغ فجر صادق فى طريق عودتنا إلى الذات، فإن يكن شعاعات فجر كاذب، فلا ريب أن ما يعقبه هو الفجر الصادق!

فإذا سرنا على هذا الخط، فلسوف تكون ثقافتنا الرصينة، وجذورنا المعنوية والروحية، وشخصيتنا ومحتوانا، جزءًا لا يستغنى عنه من الثقافة العالمية حينما يأتى الوقت المناسب. أما إذا بقينا على تخبطنا الذى عرفناه أمس واليوم فى التزود والتغذى من مصادر ثقافة الآخرين، وانغرزنا فى التقليد كلما فكرنا فى الإنشاء، فلن تنجو الأمة من ذلة التبعية، ولن نتحرر من الوصاية فى الشعر والموسيقى والرسم وفروع الفنون الأخرى.. ولن نتمكن من إدامة وجودنا بذاتيتنا الخاصة، ولن نفلح فى الوصول إلى درجة الإنتاج والعطاء.

نعم، إن لم نبدأ من فورنا بشحن أجيالنا الناشئة بشعائر ثقافتنا الذاتية، ولم نبادر بإحياء ما شحناه فى النفوس، فسوف نحكم على الآتين من بعدنا بأن يكابدوا حظنا العاثر فى الحياة، فينبغى أن يستنفر كل من له قول فى الموضوع، ومهندسو عالمنا الفكرى خاصة، بروحية النفير العام إزاء خطب داهم، ويحولوا البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاعل لثقافتنا الذاتية، ومدارس لفلسفة حياتنا الذاتية، ومختبرات تركيب وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتيتين؛ فإن بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا.



الشيخ عبد العزيز جاويش رائد الإصلاح والعمل الوطنى

أ. د. حلمى محمد القاعود

-٢-

اسمه الكامل: عبد العزيز خليل حسن جاويش، ولد بالإسكندرية فى ١٢ من شوال ١٢٩٣ هـ = ٣١ من أكتوبر ١٨٧٦ م، ونشأ فى أسرة كريمة تعمل بالتجارة، لأب من أصل تونسى وأم من أصل تركى، فقد هاجر والده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى الإسكندرية واتخذ فيها متجرا للواردات الليبية، وحاول الأب محاولات شتى لترغيب ولده فى العمل معه بالتجارة، ولكنه فضل العلم على التجارة.

التحق جاويش بالكتاب فحفظ كتاب الله وهو فى الرابعة عشرة، ثم بدأ يطلب العلم بجامع إبراهيم باشا بالإسكندرية، وكان التعليم فيه – مثل مساجد مصر الكبرى – يجرى على نسق التعليم الأزهرى فى القاهرة، وبعد إتمامه الدراسة الابتدائية انتقل إلى القاهرة ليجاور فى الأزهر الشريف وكان فى السادسة عشرة، كان الأزهر فى هذه الفترة يحاول أن ينفض عنه غبار الزمن ويسترد بعضا من عافيته، ويعود سيرته الأولى يقظة ونشاطا، من خلال الإصلاح الذى حمل عبئه الإمام محمد عبده، والشيخ محمد الإمبابى شيخ الجامع الأزهر.

وحين سمع بأن مدرسة دار العلوم – التى أنشأها على مبارك ناظر المعارف فى عهد الخديوى إسماعيل – تجرى اختبارا لطلاب الأزهر ليطلبوا العلم على نهج أكثر مواكبة لمتغيرات العصر؛ سارع لدخول الاختبار ونجح فيه مع ستة عشر طالبا سنة (١٣١٠هـ = ١٨٩٢م) بعد أن اجتاز اختبارًا صعبًا بين يدى لجنة تضم عشرة من كبار رجال العلم تمتحن المتقدمين فى دقائق الفقه والتفسير والنحو والبيان والبديع والإنشاء والتاريخ. وفى المدرسة تفتحت مواهب الطالب النابه فتفوق فى الطبيعة والفلك، ونبغ فى علوم العربية، وشارك فى مواقف القول ومحافل البيان خطيبا مفوها ومتحدثا نبيها، حتى أتم دراسته فى المدرسة وحصل على شهادتها سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م) وهو فى الحادية والعشرين من عمره.

عُيِّن الشيخ مدرسًا للغة العربية بمدرسة

الزراعة، وكان من سُنن وزارة الزراعة أن تُرسل من خريجي دار العلوم بعثة سنوية إلى إنجلترا؛ فاختير الشيخ للبعثة، لكن عمله في الزراعة لم يطل فلم يذهب للبعثة، بعدها وقع عليه الاختيار ليكون مبعوث وزارة المعارف إلى جامعة بروردو في لندن مع زميله عاطف بركات وكيل وزارة المعارف، وكان هذا الاختيار لا يقع إلا على أفضل الخريجين علما وخلقا، التحق الشيخ بالجامعة الإنجليزية، وتلقى هناك علومَ التربية والطرق الحديثة في التدريس، وظل هناك ثلاث سنوات ولهذا فهو يعد واحدا من الأزهريين القلائل الذين طلبوا العلم في أوروبا. أتقن جاويش اللغة الإنجليزية التي أعانته على الاتصال بالأدب الغربي وتذوق آثاره والتعرف على مناهجه واتجاهاته، وهو ما أثرى فكره في كثير من المجالات. عاد إلى القاهرة سنة (١٣١٩هـ = ١٩٠١م) ليعمل مفتشًا في وزارة المعارف ولم يكن همه الأول إحصاء أغلاط المدرسين بل كان همه الأول إصلاح التعليم.

غير أنه لم يمكث في هذه الوظيفة سوى عام ونصف رجع بعدها إلى إنجلترا ليعمل أستاذا للغة العربية في جامعة أكسفورد، وظل هناك في وظيفته خمس سنوات أتيح له خلالها التمكن من الثقافة الإنجليزية، وفهم طبيعة الإنجليز، وتعرف طرائق حياتهم، وفي أثناء إقامته بإنجلترا اختير عضوا في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد بالجزائر سنة (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م)، وفي هذا المؤتمر رد على محاولات بعض المستشرقين في الطعن في القرآن، في لغة بليغة وبرهان قوى، وهو ما أثار إعجاب الحاضرين، ونال تقديرهم وإجلالهم له.

في عام ١٩٠٨ تولى خلافة مصطفى كامل في الحزب الوطني ورئاسة تحرير اللواء، وكانت هذه من أزهى مراحل تألقه الصحفي، وقد استمر في هذه المرحلة نحو خمس سنوات، تعرض فيها إلى العديد من المحاكمات والملاحقات التي ظلت تطارده حتى رحيله.

توج جاويش مسيرته العلمية باختيار جامعة كامبردج بلندن له ليصير أستاذا للغة العربية بناء على توصية من المستشرق مرجليوث الذي تعرف عليه أثناء دراسته في لندن. ولم تقتصر محاولاته على إصلاح التعليم في مصر وحدها بل سعى لإنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ووضع أساسها عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، كما أعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وتولى إدارتها.

عاش جاويش مرحلة اغتراب طويلة امتدت من ١٩١٢ إلى ١٩٢٣ قضى جزءا منها في تركيا الاتحادية وآخر في ألمانيا وثالثا في تركيا الكمالية. وقد اضطر للهجرة والاغتراب في فبراير ١٩١٢ عندما بلغ التضييق عليه غايته من جانب دولة الاحتلال والسلطة المستبدة في مصر، فقد كانت هناك محاولة ضخمة لاتهامه بأمر خطير يتيح لأعداء الوطن أن يتخلصوا منه تماما في محاكمة حاسمة. وكانت بريطانيا تسعى إلى نفيه إلى بعض الجزر مثل مالطة

ولكن حاكمها رفض استقباله اتقاء لمتاعبه. (أنور الجندى، مصدر سابق، ص ١١٩ وما بعدها).

وفي أثناء إقامته بتركيا تزعم مع أنصار الحزب الوطني الذين غادروا مصر إلى تركيا حملة لجمع التبرعات، وإرسال المؤن والذخائر إلى المجاهدين في طرابلس ليبيا لمقاومة الغزو الإيطالي، وسافر كما سبقت الإشارة إلى المدينة المنورة سنة (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م) لإنشاء الجامعة الإسلامية، والقدس لإعادة إصلاح "كلية صلاح الدين" بالقدس، وتولى إدارتها، واشترك سنة (١٣٣٤هـ = ١٩١٥م) مع الحملة العثمانية المتجهة إلى مصر لتخليصها من الاحتلال الإنجليزي.

وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ذهب عبد العزيز جاويش إلى ألمانيا شريكة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى عام (١٣٣٧هـ = ١٩١٨) وكان معه من زعماء الحزب الوطني محمد فريد وعبد الحميد سعيد، وهناك أنشأ مكتبة للدعاية للقضية المصرية، ومجلة إسلامية باللغة الألمانية رغم قسوة الظروف التي كان يحياها في ألمانيا، كما ساعد هو وزملاؤه في ثورة ١٩١٩، ووقف إلى جانب زعمائها.

وفي تركيا الكمالية قضى جاويش نحو ثلاثة عشر شهرا (أكتوبر ١٩٢٢ - نوفمبر ١٩٢٣)، خرج بعدها متخفيا ليعود إلى مصر دون أن يحصل على تصريح رسمي بالعودة. بالطبع كانت آراؤه في فترة وجوده في تركيا الكمالية لاتروق للزعيم التركي كمال أتاتورك ولا سيما ما يتعلق بضرورة بقاء الخلافة.

ويورد أنور الجندى حوارا طويلا جرى بين جاويش وأتاتورك في أزمير حول الخلافة، انتهى إلى قول جاويش بأن العيب ليس في الخلافة بل في تطبيقها، وفي المسلمين وليس في الإسلام، ولكن أتاتورك كان يريد تطبيق العلمانية وموالاة النظام الغربي الخالص. فرأى جاويش أن مصر أحق بجهوده في المجال التربوي والإصلاحي، وقرر العودة إليها (راجع، السابق، ص ١٣٥ - ١٤٣).

-٣-

عاد جاويش بعد بعثته إلى مصر عام ١٣١٩هـ = ١٩٠١م وعين مفتشا بوزارة المعارف وجعل همه الأول إصلاح حرفة التعليم التي كانت تسير على طريقة التلقين وتحفيظ الدروس واستظهارها، وأصدر في هذه المرحلة كتابيه الشهيرين "غنية المؤدبين" و"مرشد المترجم". ويشير هذا التأليف المبكر إلى نضوج فكر جاويش الذي استمده من خبرته العملية في المجالين الذين أتقنهما من دراسته في لندن، فالكتاب الأول كتبه في أصول التربية الحديثة، والثاني في قواعد الترجمة إلى العربية، وهذان الفرعان كانا من أكثر الجوانب أهمية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ مصر.

هدف جاويش من كتابه "غنية المؤدبين"

إلى كتابة مرجع لمدرسى فن التربية، وبهذا الكتاب التربوى كان جاويش أسبق من عالجوا أمراض حرفة التعليم بما وضع من أساليب حديثة تقوم على الاستنتاج بالمحاورة، فكان كتابه هذا فتحا جديدا فى بابه وأغراضه، وطبع عام ١٣٢١هـ=١٩٠٣م.

أما كتاب "مرشد المترجم" فقد ألفه لخريجى مدرستى المعلمين العليا والوسطى، وهم الذين يقصر عليهم تعليم الترجمة، وقد سد جاويش بهذا الكتاب فراغا كان ملحوظا فى تدريس الترجمة.

عرض جاويش فكرته عن إصلاح التعليم فى المؤتمر السنوى للحزب الوطنى ١٣٢٨هـ=١٩١٠م حيث بدأ بالحديث عن البعثات العلمية ورياض الأطفال، ثم أسس مدرسة ليلية أسماها "الإعدادية الليلية" ليتعلم فيها الأزهريون اللغة الفرنسية، كما عقد هو ومعاونوه مؤتمرا كبيرا فى مدينة المنصورة عام ١٣٢٩هـ=١٩١١م وألقى خطبة جامعة فى إصلاح التربية والتعليم.

وبعد عودة جاويش إلى مصر من غربته الطويلة فى تركيا وألمانيا عام ١٩٢٣م رأت الدولة أن تنتفع بخبرته فى التربية والتعليم، فأسندت إليه منصب مدير التعليم الأوّلى سنة (١٣٤٤هـ=١٩٢٥)، وذلك وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع دائرة التعليم، فاستكمل ما كان قد بدأه من طرق الإصلاح فى التربية والتعليم، ويدعو إلى ضرورة العناية بتربية الأطفال قبل تعليمهم، وفرّق بين مفهومى التربية والتعليم. وانكب على عمله المضنى يجوب البلاد وينشئ المدارس ويضع الخطط للنهوض بالتعليم حتى وافاه أجله.

وكان جاويش بحكم ثقافته العربية الإسلامية واتصاله بمناهج التعليم الحديثة الغربية يؤمن بأن الأمم لا تنهض إلا بالتربية والتعليم، ولم يشغله عمله فى جريدة اللواء والكتابة فى الصحف عن الدعوة إلى إصلاح التعليم، فأنشأ المدرسة الإعدادية كنواة صالحة ينسج عليها التعليم الثانوى وليتخلص من سطوة اللورد كرومر على التعليم العام، وكان جاويش يقوم بالتدريس فيها بنفسه، ويفتح أبوابها فى إجازات الصيف للطلاب حتى لا تضيع أوقاتهم فيما لا يفيد. ومضى فى جمع التبرعات وعمل الاكتتابات لفتح المدارس الأولية لتعليم أبناء الأمة ولإكمال النقص فى عدد المدارس الحكومية التى كان الاحتلال حريصا على أن تكون بمصروفات؛ حتى لا يقبل عليها إلا أبناء الأثرياء، ودعا إلى إنشاء مدارس رياض الأطفال، وقال بأنها هى التى تبنى التعليم فى مصر.

وفى دعوته إلى إصلاح مناهج التعليم والعناية بالتربية أساسا للتعليم، ركز على رفع مستوى القائمين بالعملية التعليمية والأخذ بالأساليب الحديثة فى التربية، وهاجم مناهج التعليم القائمة؛ لأن الاحتلال هو الذى وضعها، وأشرف على تنفيذها، كما دعا إلى التوسع فى التعليم الزراعى والصناعى، وعمل على إكمال النقص فى برامج المدارس بالحكومة، وحماية الطلاب من مناهج التعليم الأجنبى بإنشاء عدد من

المدارس تكون تحت رعايته.

وامتدت دعوته إلى إصلاح التعليم فشملت تطوير التعليم بالأزهر، وإدخال العلوم العصرية ضمن مناهجه، وفتح أبواب المدرسة الإعدادية التى أنشأها لطلاب الأزهر، وكان من بين من تعلم فيها طه حسين.

وتطلع جاويش إلى اختيار عدد من الطلاب الأزهريين النابهين الذين يقصدون مدرسته وإرسالهم فى بعثات إلى أوروبا، وكانت البعثات تسافر من كل المدارس ما عدا الأزهر، ونجح جاويش فى جمع التبرعات اللازمة لنفقات أول بعثة أزهرية على نفقة الأمة إلى فرنسا، وتكونت من ثلاثة طلاب سافروا إلى فرنسا فى (٢٦ من صفر ١٣٢٩ هـ= ٢٦ من فبراير ١٩١١م)، وكان معهم جاويش، وكان الهدف من هذه البعثة الوقوف على أساليب التعليم الحديثة ليطبقها هؤلاء المبعوثون فى الجامعة الأزهرية حتى تصبح عصرية، غير أن هذا المشروع توقف بعد سفر جاويش إلى تركيا نتيجة التضييق عليه ومحاربته.

كان جاويش حفيا بأن يذكر النقص الواضح فى مناهج التعليم فى مصر، ولطالما أنحى باللائمة على أن المدارس لا تخرج من ينهضون ببلادهم، وقال إن الصورة التى يهيئها لخريجيه هى صورة الوصوليين الذين لا يلبثون أن يكونوا عبيدا ومتملقين للحكام وأرباب الجاه وأصحاب النفوذ.

ووصل من دراسته إلى نتيجة هى أن المرض الحقيقى الذى يكاد يودى بالأمة المصرية هو خلو البلاد من التربية الحقيقية التى هى مجمع الفضائل ومبعث الكمالات، وقال إن هذه التربية النفسية هى التى تتوقف عليها رفعة الأمم وانحطاطها، بل يتوقف عليها وجودها وتساءل: "ففى أى معهد من المعاهد الليلية القائمة الآن فى مصر تجد الوسائل التى تحمل النابتة على الكرم والجود والأخذ بأسباب الحق ومحاربة الباطل" ثم أجاب «ألا إنه لا شىء من ذلك».

ووصف العلاج فقال: إن الوسيلة إلى تطهير نابتة الأمة من تلك الأمراض النفسية المتفشية فيها هو تأسيس معاهد للعلم والتربية بأقسامها الثلاثة: الحسية والعقلية والنفسية، وهى التى لا يكاد يوجد منها شىء فى المعاهد القائمة الآن.

من أجل هذه المفاهيم حمل جاويش لواء الدعوة إلى تأسيس إدارة معارف أهلية، تبدأ بإنشاء بضع مدارس (أنور الجندى، مصدر سابق، ص ١٦٨ وما بعدها).

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى كان فيه لطفى السيد يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأغنياء والأسر ومقاومة تعليم سواد الأمة ومعارضة الاتجاه إلى المجانية حتى يمكن المحافظة على وجود طبقة معينة تحكم البلاد، فقد كان جاويش حريصا على العمل بكل طاقته فى تشجيع تعليم أبناء مصر كلها من خلال مشروعه، وقد كون اللجان، وجمع التبرعات والاكتتابات، وأنشأ فى القاهرة جمعية تشجيع التعليم الحر (السابق، ص١٦٧ وما بعدها).

حول فكر الإصلاح الدينى



المستشار طارق البشرى

فى مجال الإصلاح الدينى، نجد إصلاحًا دينيًا وافدًا، وفد من الأفكار الأوروبية فى هذا الشأن، عندما كانت أوروبا تعيد ترتيب أوضاعها الفكرية والتنظيمية بما يواتى ما يستهدفه المجتمع الأوروبى من نهوض واستنارة وتقدم. واتخذ الإصلاح الدينى هناك أشكالا وألوانا تتفق مع الأسس الفكرية السائدة وتستجيب لها، وتتخذ من مادتها الفكرية ما يقيم الأود ويصحح الفاسد.

ومارتن لوثر مثلا (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) وجد الكنيسة تقوم كمؤسسة دينية بين الأرض والسماء، وتستلب سلطان الله جل شأنه فى حكم العباد، وتبيع صكوك الغفران، فقامت حركة ضد هذه الممارسات الدينية، وركزت دعوته على العلاقة المباشرة بين الإنسان وربه وأولوية السريرة الداخلية للإنسان، وقللت دعوته من أهمية الطقوس والمظاهر الشكلية ومن أهمية تعليمات الكنيسة التى تقيم من نفسها وسيلة بين العابد والمعبود، وكالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) قامت دعوته على عدم الاعتراف بسلطان البابا وعلى أن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد لشريعة الله.

هاتان الحركتان وإن اختلفتا فيما بينهما حول بعض الأصول والمناهج العقيدية، فقد قامت على أساسهما حركات الإصلاح الدينى فى أوروبا. واستهدفت هذه الحركات فى عمومها هناك القضاء على تحكم الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش، ثم بدأت القوى الاجتماعية الأوروبية تستغل كلا منها سياسيًا، فالأمراء تحالف بعضهم مع لوثر تطلعا للاستقلال عن مركزية الكنيسة والتحرر من سلطة البابا فى روما. وتخفيف سلطة الكنيسة حل محله تقوية سلطة الدولة، وبدأت تظهر الكنائس (القومية) مستقلة من سلطة الفاتيكان وأدت ترجمة الكتاب المقدس إلى نمو اللغات المحلية مما أسهم فى ظهور القوميات بأوروبا، وسهل كل ذلك من نمو الدولة الزمنية.

كان كل ذلك يجرى فى إطار أوروبى خالص، أو شبه خالص. سواء من حيث

الأوضاع الكنسية التى كانت سائدة أو من حيث دعاوى الإصلاح التى قامت على أيدى هؤلاء المصلحين، أو من حيث القوى الاجتماعية المحلية التى تلقفت هذه الدعاوى وولدت منها الآثار السياسية والاجتماعية التى تتفق مع أهداف كل من هذه القوى، سواء من جهة الاستقلال عن الكنيسة المركزية أو من جهة إفساح لاقتصاديات السوق الرأسمالى وللتعامل بالربا.. إلخ.

أما بالنسبة لحركة الإصلاح الدينى فى بلاد المسلمين، فقد جاء فى ظروف تاريخية مختلفة، من حيث التكوين العضوى للأفكار والمؤسسات الدينية السائدة فى الإسلام، ومن حيث ما كانت تعانى منه البيئة الإسلامية من مشاكل، ومن حيث النتائج التى تولدت. وهنا أيضا يمكن تقسيم تيارات الإصلاح إلى ما هو ضال فاسد وما هو مستجيب للمشاكل الحقيقية والتحديات الأساسية للواقع الإسلامى، ونكتفى فى الحديث هنا بذكر الأمثلة.

فمن المعرف أن الإنجليز عندما احتلوا الهند، واجهو مقاومة ومقاطعة، وبقى الهنود أواسط القرن التاسع عشر لا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم ولا يقرءون كتبهم ولا يتكلمون لغتهم، وكان مسلمو الهند وقتها على رأس المكافحة.

وهنا ظهرت بين المسلمين حركات دينية تؤدى دورًا نشيطا فى هذا الشأن، فقام فى ١٨٠٤ م الحاج شريعة الله يؤلف حزبا إصلاحيًا ينادى بأن صلاة الجمعة لا تصلح فى الهند لأنها ليست دار إسلام. ونمت هذه الحركة ودخلها الملايين من مسلمى البنجاب. ثم قام مصلح آخر هو السيد أحمد، ذهب للحج واعتنق مذهب ابن عبدالوهاب وعاد للهند يدعو لتحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء، ودعا إلى أن الهند دار حرب وأن الجهاد فيها واجب على المسلمين، وظهرت حركة الخلافة التى تزعمها السيد أحمد والسيد إسماعيل الشهيدان وجذبت تأييدا واسعا، وأنشأوا دولة إسلامية فى شمال غربى الهند، ثم هزمهم الإنجليز واستشهد الشهيدان فى ١٨٣١م، ولكن استمر العلماء يقودون الجهاد. وفى ١٨٥٧م شبت الثورة الشهيرة التى قادها المسلمون، وأمكن للإنجليز أن يقمعوها.

المهم أنه تولد عن هزيمة هذه الثورة، أن ظهر نوع آخر من الإصلاح الدينى، أو إصلاح الفكر الإسلامى، قاده السيد أحمد خان وهو ما يصلح التعبير عنه باسم «الوافد الضال» ويكفى بيانًا لوجه الضلال وأثره ما ذكره أحد الكتاب الإنجليز فى ترجمة لأحمد خان «كان خير وسيلة لتقريب الهنود من حكامهم» (يقصد حكامهم الإنجليز) وإن أحمد خان ابتلى بغضب كثير من المسلمين عليه. وهكذا كرهه المسلمون لأنه كان يسعى لتذويب الشعوب فى مستعمريهم.

كان أحمد خان (١٨١٧م-١٨٩٨م) صاحب دعوة تجديدية إصلاحية للمسلمين وللفكر الإسلامى، عزا تخلف المسلمين إلى نفورهم من العلوم الحديثة وتجنبهم الأمم الأخرى، ورفع راية الملاءمة بين تعاليم الإسلام وقوانين العلم والطبيعة

مطالبًا باختيار أسس العقيدة فى ضوء الفكر الغربى الحديث، بحسبانه بين البريطانيين والهنود المسلمين، وعاب على المسلمين إساءتهم فهم الحكومة البريطانية، وطالب بصبغ البلاد الهندية بالصبغة الغربية، وإن ذلك يوجد صياغة حديثة لعلم الكلام. وفى هذه الصياغة لعلم الكلام الحديث، التى دعا إليها للتوفيق بين أحكام العقيدة الإسلامية والعلوم الحديثة ومبادئها، بدأ أحمد خان يطالب بإعادة تفسير القرآن حديثًا، ودعا إلى فهمه فهمًا يتفق مع ما يتصوره أحمد خان حكم العقل، وهو حسب سياقه الفكرى خصائص العقلية الأوروبية التى يسميها الفكر المعاصر ثم طالب بالاعتماد فى ذلك على «روح القرآن» لا على حرفيته ثم غلا فقال «إن الوحى بالمعنى دون اللفظ».

ومن جهة الفكر السياسى، بدأ أحمد خان من فكرة التكوين الوطنى للجماعة متعددة الأديان، بين الإسلام والهندوكية والنصرانية، ثم فرع من هذه المقدمة الدعوة إلى حصر الدين فى العقيدة بحسبان أن ذلك يقوم به الشعور بالوطنية، ثم قفز إلى النقطة الهامة التى يقصدها وهى أن تكون «العقائد» عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط وبهذا جعل من أهم ملامح دعوته الإصلاحية بين تلاميذه فى جامعة عاليكرة التى أنشأها، عدم المشاركة فى الحياة السياسية.

بهذا جميعه أخضع أحمد خان الإسلام والقرآن لما أسماه «العقل والعلم الحديث»، وجعله محكومًا بهذين الأمرين وليس حاكمًا لهما، فأبدل الموزون والميزان، جعل الميزان هو العقل الأوروبى والعلم «المعاصر» وجعل الموزون هو الإسلام والقرآن بدل أن يكون العكس وأحال الإسلام إلى عقيدة نفسانية، وحصره فى علاقة ثنائية باطنية بين المخلوق وربه، تبتعد عن مجال نظام الحياة وتنظيم الجماعة وبهذا يصح القول بأن أحمد خان عمل على أن يوقف مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية وهو «الجهاد» وهو يوقف هذا المبدأ فى بلد يحكمه الإنجليز ويحتلونه بعسكرهم.

ووجه «الضلال» فى هذا الإصلاح، أنه يتغافل عن أهم ما يهم من خصائص الدعوة الإسلامية الإصلاحية، وهو أن تكون استجابته لما يواجه الأمة من تحديات، وأن تكون استجابة متناسبة مع نوع التحدى المطلوب ومع حجم التحدى الذى يتهدد الجماعة لقد قامت دعوة أحمد خان تمثل انسحابا فكريا فى مواجهة التحديات المطروحة فى «عصره» على جماعته، وهى تمثل هزيمة فكرية من حيث إنها تحول أصول الدين من كونها حاكمة لغيرها إلى كونها محكومة بأى من شئون ما يسميه «العقل والعلم الحديث»، ومن حيث إضمار الإسلام ليصير مجرد عقيدة نفسانية لا شأن لها بأمور الحياة وتحدياتها، وأسقط بعضا من أهم مبادئ الإسلام وفى كلمة محددة هرب أحمد خان من «عصره» كمسلم هندى مغزو الأرض والجماعة والفكر هرب من عصره باسم المعاصرة وهرب إلى عصر الغرب.

وقد عرفت مصر هذا النوع من الإصلاح الدينى الضال، بعد وفاة أحمد خان بنحو ثلث قرن عرفته على يدى «على عبدالرازق» فى

كتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذى صدر فى عام ١٩٢٥ م وهو من الكتب القليلة ومن الأعمال الفكرية النادرة، التى طرحت فى مصر على ذلك العهد موضوع علمانية الدولة طرحا صريحا، وحاولت أن تجرد الإسلام وأصوله من أية نزعة لشمول أحكام نظام الحياة حاول الكتاب أن يؤكد أن الخلافة ليست من صميم الدين والشريعة، وأنكر أن ثمة حكما فى القرآن أو السنة أو الجماعة يؤكد وجوب تنصيب الخليفة فلما تعرض الكتاب لنظام الحكم فى عصر النبوة، التوى به البرهان والتف به الدليل، أنكر أن كانت هناك حكومة أيام الرسول ﷺ، وقال إنها كانت زعامة الرسالة فقط وذكر أن النبى عليه السلام أنشأ وحدة ليست سياسية وكان هذا الإنكار من جانب المؤلف يجاوز كل حقيقة تاريخية وموضوعية وعلمية فقد حاول أن يزول أمرا ذا وضوح علمى ناصع، وهو أن الإسلام أنشأ وحدة سياسية ضمت المسلمين جميعا وقامت عليها حكومة النبى صلوات الله عليه ثم انتقلت إلى الراشدين، ومنذ عهد النبى وجد الجيش ووجد القضاء ووجد الحكم وقوة التنفيذ.

ما يهمنا عن هذا الكتاب فى هذا المجال، أن على عبدالرازق بإنكاره حكومة الإسلام إنما فصل فصلا حادا بين ولاية الرسول الروحية وبين ولاية الحكومة والسلطة، وبين الهداية الإسلامية وبين نظام الحياة، وفصل بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية التى تستمد أصولها من ثنائية الكنيسة والدولة فى الغرب هذا من الناحية الفكرية الفلسفية، أما من الناحية السياسية، فإن فصله الدولة عن الدين يتضمن تجريدا للدين من إمكانات تنظيم الحياة ومن إمكانات المقاومة ضد الاستعمار وإن تأكيده أن زعامة الرسول كانت موقوته بالرسالة يفيد انتهاء الجهاد بوفاة صاحب الرسالة وانتهاء الجماعة الإسلامية بذلك، أو يبقى المسلمون أفرادا لا تتكون منهم جماعة متميزة.


على عبدالرازق

هنا لا نجد إدراكا صحيحا للعلل ولاسيما فى تحديد وجوه الإصلاح والتجديد نحن نجد أن العصر الذى يتكلم عنه أحمد خان ويدعو للتلاؤم معه هو الأوروبى، عصر الغزاة الفاتحين، وليس عصر الهند والمسلمين المغزوين وإن الحلول التجديدية «العصرية» التى يتطلبها مجتمع الهند لا تكون فى فك الجماعة الهندية والجماعة الإسلامية المكافحة للغزاة، ولا تكون فى إلغاء الجهاد وأرض المسلمين بنظمه وفكره وحكومته إن «بالجون» يشير إلى ذلك فى دائرة المعارف الإسلامية عندما يمتدح أحمد خان بقوله «سما أحمد فوق الهياج السياسى وسعى إلى الارتفاع بأمته متوسلا بالوسائل الروحية المقتبسة من طريقة الغرب فى الحياة أيام القرن التاسع عشر «بمعنى أن أحمد خان ابتعد عن السياسات الوطنية، وأنه استعار وسائل روحية غربية مسيحية صاغ بها نزعته الإصلاحية للإسلام

وبهذا فهو «يسمو» عن مشاكل أمته.

ولجمال الدين الأفغاني قول في أحمد خان، يقول «هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين في أوروبا، فإن من ترك الدين في البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه، ولا تنقضي حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب ويفدي مصلحتها بروحه أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون تحكم الأجنبي فيها ويجتهدون في محو آثار الغيرة الدينية والجنسية هذه الملاحظة الذكية يكشف بها الأفغاني اختلاف الوظائف السياسية والاجتماعية التي تؤديها «الفكرة» نفسها إذا اختلف ظروف أعمالها وخاصة إذا بلغت الاختلافات في ظروف الأعمال اختلاف التضاد بين غاز ومغزو وضارب ومضروب وقاتل ومقتول.

الاتجاه المقابل ينظر للإسلام بحسبانه دينا ليس موجها للفرد فحسب، مهما كثر الأفراد، وإنما هو أيضا دين موجه للجماعة بوصفها الجمعي آية ذلك فرض الزكاة وهي ركن في الإسلام، وهي تعني فيما تعني قيام الرابط الاجتماعي بين الفرد المكلف وبين الجماعة وتعني وجود سلطة أو دولة تقوم بالجباية وإنفاق الزكاة في مصارفها ومصارف الزكاة محددة بالقرآن في إطار خدمة الدعوة الإسلامية والجهاد في سبيل الله وتحقيق العدل الاجتماعي في الأمة وكل ذلك يقتضي التأمل فيها وإدراك أن ثمة جماعة مشخصة تقوم كهيكل واحد.

وآية ذلك أن الجهاد واجب ديني، ويذكر د. محمد البهي «إذا طلب الآن بعض شراح



د. محمد البهي — جمال الدين الأفغاني

الإسلام جعل الجهاد، الذي هو مقاومة الاعتداء، فريضة مؤقتة بوقت الرسالة، أي بوقت الرسول ودعوته إذا طلبوا إنهاء العمل بالجهاد بعد قيام الجماعة الإسلامية واستقرارها منذ فتح مكة فقد طلبوا في واقع الأمر إغفال الحرص على استقلال الجماعة الإسلامية والتنازل عن استمرار بقائها كوحدة في مواجهة الجماعات الأخرى وهذا معناه جعل الإسلام دينا لأفراد وليس دينا لجماعة أو بعبارة أخرى جعله دينا لا دولة بالمعنى المفهوم لدى الغربيين وإذا ساق بعض آخر من شراح الإسلام الجهاد على أنه رياضة نفسية روحية وليس ردا لاعتداء مادي خارجي كان مؤدى هذا التفسير هو نفس مؤدى توقيت الجهاد على النحو السابق، وإذا خرج فريق ثالث بأن الإسلام دين لا دولة، كان هذا التصريح واضحا في قصر الإسلام على الأفراد دون الجماعة، وإلغاء شخصية الجماعة الإسلامية وإلغاء الجهاد».

وآية ذلك قيمة العدل الذي يأمرنا به القرآن الكريم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بما أنزل الله وكل ذلك واجبات توجه إلى الجماعة وإلى الأفراد في علاقتهم بعضهم ببعض ومن ثم فهي واجبات

جماعية تتعلق بقيم جماعية وتحتاج بهذا لضبط وإلزام، فلا يكفي بشأنها الإرشاد والمواعظ، إنما يرد الواجب هنا من حيث كونه نظاما ورباطا جماعيا.

وإن فقهاء الشريعة الإسلامية عندما واجهوا هذه الواجبات والفروض، أقاموا تفرقتهم المعروفة بين فروض الكفاية وفروض العين وفرض الكفاية يؤديه البعض من الجماعة فإن أداه البعض برئت ذمة الجماعة كلها، وإن لم يؤده أي واحد منها أثمت الجماعة كلها وهذا يمثل التضامن الجمعي الذي يقوم ميثاقه بين الله سبحانه وتعالى وبين الجماعة الإسلامية في جمعها والإسلام هنا يتوجه إلى الجماعة بوضعها الجمعي، ويتصل بقيام الدولة لا من حيث أن الدولة تشكيل ديني ولكن من حيث أنها تخضع لشرعية آخذة من الدين وشريعته فهي ليست مؤسسة تصدر قرارات دينية ولكنها مؤسسة تخضع لشريعة الله وتحاسب من الناس على مدى خضوعها والتزامها بشريعته ويشكل الإسلام معيار الاحتكام ومصدر الشرعية لوجودها وبقائها.

وهناك نقطة يحسن إيضاحها فإن مما أتانا من الغرب وافدا، هو تصور أن الفرد هو الوحدة الاجتماعية الأولى، هو لبنة مستقلة يمكن أن توضع في مواجهة غيرها، والمجتمع مجتمع أفراد. وبهذا المنطلق يميل بنا التصور إلى توضيح أن تحرر الفرد هو تحرر من المؤسسات التي ينتمي إليها، أي المؤسسات الجمعية كالأسرة والحرفة والجماعة الدينية والجماعة الإقليمية.. إلخ.

وتوضع حرية الفرد في مواجهة ذلك بدلا من أن توضع قضية الحرية بوصفها قضية حرية الجماعة من سيطرة المعتدين عليها. هذه النظرة الوافدة جعلتنا تنظر إلى الحرية بوصفها في الأساس حقيقة فردية، وهي بهذا الوصف توضع في مواجهة الجماعة ومن هنا تتحول الجماعة إلى أفراد متناثرين، بدلا من أن تتوحد الجماعة في مواجهة الأفكار الخارجية. إن هناك من يميل إلى إثارة قضية الحرية بحسبانها حرية فردية وهو يثيرها في مواجهة الجماعة أو الوحدة الجماعية التي ينتمي لها الفرد، فتكتسب الحرية دلالة تدميرية في البنية الجمعية ويتناثر الناس أفرادا. هكذا وضع الفرد في مواجهة أسرته وفي مواجهة الجماعات التي تحيط به. وهكذا يجري «تحرير» أو تحلل الفرد من مسئولياته وتبعاته الجمعية، وهذا النظر كله فضلا عن ضرره البالغ، فهو خطأ، لأن الفرد لم يوجد فقط إلا في جماعة، والفرد ليس الوحدة الاجتماعية الأولى، إنما الجماعة هي الوحدة الأساسية الأولى، والفرد بداخلها كعضو من تنظيمها وحكوماتها الداخلية. وذلك بالنسبة لأي من المؤسسات الاجتماعية. وتتصاعد الجماعات من الأصغر إلى الأكبر ومن الأضيق إلى الأوسع ومن الأولى والأكثر انحصارا إلى الأعلى والأعظم شمولا.

***

في هذا المجال ترد بعض الأمثلة لأوضاع الإصلاح الديني الرشيد. وهنا يقوم الجهد الأساسي لجمال الدين الأفغاني، سواء في مصر أو في فارس أو استانبول أو غيرها.

قام على أساس اتصال دعوته الإسلامية والتجديدية بمكافحة الغزو الأوروبي والنفوذ الاستعماري الغربي، الذي كان آخذا في التسرب والاقتحام لبلدان العالم الإسلامي جميعه. فنظر إلى القرآن الكريم بحسبانه الأساس الوحيد لتوحيد كفاح المسلمين ضد العدوان الأجنبي عليهم. وكان واحدا من الرواد الذين عناهم د. عفت الشرقاوي بقوله «لقد أدى المفسرون في كثير من البلاد الإسلامية دورا كبيرا في تمثيل القضية الوطنية والتعبير عن موقف الإسلام من مشكلاتها المختلفة، ووضع ذلك في ثلاثة أهداف رئيسية.. وهي الصراع ضد الأجنبي، ومسألة نظام الحكم، وقضية الوحدة...» الأفغاني يمكن أن يكون مضرب المثل بالنسبة للموقف الإسلامي من الحركة السياسية، وهو كدعوة إصلاح تظهر من كيفية توليده الاستجابة النافعة من الفكر الإسلامي في مواجهة تحديات عصر الغزو الاستعماري الشامل الذي تدفقت موجاته منذ أواخر القرن الثامن عشر.

أما على الصعيد الفكري الفلسفي، فنحن نجد أعمال محمد إقبال، الفيلسوف الشاعر الهندي. وهو يعمق جذور الوحدة اللازمة بين الدين والدولة والجماعة، وبين الجسد والروح، على العكس تماماً مما يصنع علي عبدالرازق وأحمد خان. يبدأ إقبال بقوله بأن ليس في الإسلام ثنائية الروح والجسد كحقيقتين متمايزتين منفصلتين، إنما المادة هي الروح مضافة إلى زمان ومكان. ثم ينتقل إلى القول بأن روح التوحيد بوصفه فكرة قابلة للتنفيذ هو المساواة والاتحاد والحرية والدولة في نظر الإسلام هي محاولة تبذل بقصد تحويل هذه المبادئ المثالية إلى قوى مكانية وزمانية هي إلهام لتحقيق هذه المبادئ في نظام إنساني معين».


محمد إقبال

وذكر إقبال أيضاً إن الدولة في الإسلام ليست دولة دينية، مما يمكن للحاكم أن يستر إرادته فيها بعصمة مزعومة، بحسبان هذا الحاكم خليفة لله على الأرض. نفى إقبال ذلك ونفى إمكان استغلال الحاكم المستبد للإسلام في دعم حكمه غير العادل. وذكر أن كل ما هو روحي فرصته في الطبيعي والمادي والدنيوي، وكل دنيوي طاهر وديني في جذوره، وإن النبي عليه الصلاة والسلام قال «جعلت لنا الأرض مسجدا وطهورا» وذكر «أن الدولة في نظر الإسلام ليست إلا محاولة لتحقيق الروحانية في بناء المجتمع الإسلامي» ثم حدد وجوه الخلاف بين هذه النظرة الإسلامية وبين النظم التي قامت في البلدان المسيحية، إذ قامت المسيحية أولا لا كوحدة سياسية، وكانت مفصولة عن الدولة كانت المسيحية «نظاما» للرهبنة في عالم غير طهور فلما صارت الدولة مسيحية وقفت في جانب، ووقفت الكنيسة في جانب آخر، لأنهما قوتان متمايزتان، إحداهما عملها روحي محض، والثانية عملها مادي محض لذلك لم تحفل

الكنيسة ولا المسيحية الأولى بشيء يتعلق بحفظ كيان الدولة، ولا بالتشريع والإنتاج ولا بأحوال المجتمع الإنساني أما الإسلام فقد «كان من أول أمره مجتمعا مدنيا عني بشئون الدنيا».

وفي الجانب الفقهي، نجد مثلا الحركة السلفية التي قام بها ابن عبدالوهاب في نجد في القرن الثامن عشر. كان في بداية حركة التجديد والرشد العقلي في الفقه الإسلامي المعاصر وهو معاصر بالمعنى الذي تتفتق عنه وتصوغه ظروف المسلمين وأوضاعهم ومشاكلهم في زمانهم ومكانهم قامت الدعوة في نجد، تدعو للتوحيد الخالص المطلق، بكل ما يعنيه التوحيد من رفض للتحاكم لغير الله ورفض العبودية لأحد من دون الله، قامت الدعوة أيضًا على رفض الجبرية ورفض فكرة الحلول والاتحاد التي مالت إليها بعض تصورات الصوفية، وأكدت مسئولية الإنسان، وأن التوسل لا يكون لغير الله لأحد في العالمين، فلا واسطة بين العابد والمعبود.

وقامت دعوة ابن عبدالوهاب على فتح باب الاجتهاد، والتماس حلول المشاكل الحاضرة في المصادر الرئيسية للشريعة، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع، مع عدم التقيد بمذهب معين من المذاهب السنية الأربعة ولا من غيرها. وحررت هذه الدعوة المذاهب من القداسة التي ادعاها أنصار كل منها لها لقد قامت الدعوة السلفية في القرن الثامن عشر قبل الغزو الاستعماري، وتوجهت إلى جوانب الضعف والانحراف الفكري والفقهي والعقائدي التي كانت موجودة وإلى ظواهر التخلف التي كانت رانت على المجتمع الإسلامي خلال القرون السابقة، وعملت هذه الدعوة على انتشال الأمة الإسلامية من هذه الظواهر، أخذا بمنهج ابن تيمية الذي أثمرت شجرته الفقهية غالب حركات التجديد الفكري والفقهي فيما تلاه من قرون.

والخلاصة أن تلك وجوه ثلاثة بارزة، لجوانب من الإصلاح الفعال الذي صدر عن الاستجابة الصائبة للتحديات الحقيقية التي كانت تواجه الجماعة الإسلامية. ربط الأفغاني بين الإسلام وحركة مقاومة الغزو الاستعماري، والعدوان الغربي على الأمة الإسلامية. وقرر إقبال وأمثاله واحدية الدين وشئون الدنيا، وواحدية الجماعة والفرد، وعمل في المستوى الفكري الفلسفي أن يجنب الجماعة الإسلامية تلك الثنائية التي تقيم التعارض وتقيم الصراع بين جوانب حياتنا المتعددة وقرر ابن عبدالوهاب وإقبال طريق تجديد الفقه الإسلامي وطريق تحرير الإرادة الإنسانية للمسلم في إطار حاكمية الله والتوحيد الإسلامي الخالص.

وتبدو الفروق واضحة بين الجوانب المختلفة لهذا الموقف الفكري بشعبه الثلاث السابقة وبين ما أسميناه من قبل «الإصلاح الضال» الذي استعار قيمًا ومفاهيم غربية غريبة فرضها على بيئته وهي لا تتيح إلا تفكك الجماعة وانحلال البيئة وفساد قوامها.

قيمة المال فى ضوء المقاصد الشرعية



د. وصفى عاشور أبو زيد

للمال فى الإسلام مكانة فريدة وفلسفة متميزة انفرد بها عن باقى المذاهب والأديان، فالملكية الحقيقية للمال فى الإسلام إنما هى لله جل شأنه، قال تعالى:

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(النور: ٣٣)

وقد أضاف الله تعالى المال إلى نفسه ﴿ مِّن مَّالِ ﴾ وهى إضافة تشريف وتعظيم تعطى دلالة على أهمية هذا المال ومكانته ومدى حرمته.

وفى الوقت ذاته أعطى الله تعالى لعباده حرية التصرف فى هذا المال، ومنحهم إرادة الاختيار فى ضوء الأحكام الشرعية والمقاصد الكلية والقواعد الفقهية التى تضبط التعامل به؛ كى لا يتحول نقمة، أو يكون أداة قهر وظلم للناس بين بعضهم البعض، بل يكون نعمة كما أراد الله تعالى، يتنعم بها الإنسان فى الدنيا، وتدخر له الأجر يوم الحساب، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٨).

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩).

وقال النبى ﷺ: "نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ للرَّجُلِ الصَّالِحِ"(١).

وفى مجال التعامل بين الناس بالأموال نسب الله تعالى المال إلى بنى البشر ﴿ أَمْوَٰلَكُم ﴾ - كما سبق فى الآيات الكريمة - كى يحرصوا عليه ويراعوا حق الله وحق الناس فيه، ويحرصوا عليه من التبذير والهدر الحرام.

وإلى ذلك جعل الله تعالى الناس مستخلفين فى هذا المال ضمن خلافتهم الكبرى فى هذا الكون، قال تعالى:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

(الحديد: ٧).

وسطية نظرة الإسلام للمال

وإذا كان المال مال الله، وكان الناس جميعا عباد الله، وكانت الحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله، هى لله، كان من الضرورى أن يكون المال - وإن رُبط باسم شخص معين - لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع وينتفع به الجميع، وقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩).

فلا يجور شخص بالمال على شخص، ولا يمنع الغنى حق الفقير بل كفل الإسلام للفقير أن يطالب بحقه، ولم يعد ذلك من خوارم المروءة أو مما يذهب بماء الوجه.

حتى ذهب ابن حزم - رحمه الله - مذهبا عجيبا لو علمه فقراء الدنيا لقامت الثورات ولم تقعد، فقرر أن للفقير أن يقاتل دون حقه المفروض شرعا من مال الأغنياء، فقال: "ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضلٌ عن صاحبه لمسلم أو لذمى؛ لأن فرضًا على صاحب الطعام إطعامُ الجائع، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة، ولا إلى لحم الخنزير وبالله تعالى التوفيق، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القَوَدُ، وإن قَتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقًا، وهو طائفة باغية، قال تعالى:

﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

(الحجرات: ٩)

ومانعُ الحقِّ باغٍ على أخيه الذى له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - مانع الزكاة، وبالله تعالى التوفيق"(٢).

وإذا كان المال هو عصب الحياة، وقد أراد الإسلام ألا يكون دُولَةً بين الأغنياء دون الفقراء، فقد فرض الإسلام على الغنى حقا فى ماله يُردُّ إلى الفقير، وفى الوقت ذاته لم يمنع الغنى من تملك المال ما دام يؤدى حق الله فيه.

ولعل بهذا - كما يقول الإمام محمود شلتوت بحق - يظهر معنى "الوسطية" التى حل بها الإسلام المشكلة المالية، تلكم المشكلة التى ظل بها العالم فى أمسه وحاضره، يتردد بين طرفى الإفراط بالطغيان المالى والتفريط بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الإنسانى، وسخر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة، وأفلست دعاوى المدعين الذين يخدمون أنفسهم فى واقع الأمر، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الإنسانى، وما ربك بغافل عما يفعلون.

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء، المجلد الثالث، كتاب ذم البخل وحب المال: حديث: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"، أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ "نعما" وقالا "للمرء".

(٢) المحلى بالآثار: ٦/١٥٩، طبعة دار الفكر.

المال من كليات المقاصد

هذا، ومما يوضح مكانة المال الكبيرة في الإسلام أن علماءنا جعلوه من الكليات الخمسة - أو الستة على خلاف - لمقاصد الشريعة الإسلامية، وهي كليات ليست خاصة بالإسلام فحسب، إنما هي موجودة في كل ديانة وكل ملة، ولا تقوم الحياة إلا بها، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية، والثاني: أن تكون حاجية، والثالث: أن تكون تحسينية. فأما الضرورية، فمعناها: أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين.

والحفظ لها - يتابع الشاطبي - يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم"(٣).

ويعلق الشيخ عبد الله دراز على ذلك قائلا: "مراعاة الضروريات من جانب الوجود تكون بفعل ما به قيامها وثباتها، ومراعاتها من جانب العدم تكون بترك ما به تنعدم، كالجنايات، فلا يقال: إن مراعاتها من جانب الوجود بمثل الصلاة، وتناول المأكولات مثلا هو مراعاة لها من جانب العدم، إذ بفعل هذه الأشياء التي بها الوجود والاستقرار لا تنعدم مبدئيا أو لا يطرأ عليها العدم، فما كان مراعاة لها من جانب الوجود هو أيضا مراعاة لها من جانب العدم بهذا المعنى"(٤).

وسائل حفظ المال من جانب الوجود

ولقد شرع الإسلام وسائل لحفظ المال إيجادا وتحصيلا كما شرع له وسائل لحفظه بقاء واستمرارا(٥)، أو بتعبير الشاطبي: "جانب الوجود، وجانب العدم"، فمن وسائل الحفاظ على المال إيجادا وتحصيلا:

١ - الحث على السعي لكسب الرزق وتحصيل المعاش، فقد حث الإسلام على كسب الأموال باعتبارها قوام الحياة الإنسانية واعتبر السعي لكسب المال - إذا توفرت النية الصالحة وكان من الطرق المباحة - ضربا من ضروب العبادة، وطريقا للتقرب إلى الله قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

(الملك: ١٥).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ١٧-١٨، بتحقيق الشيخ مشهور آل سلمان، طبعة دار عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٤) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ١٨، هامش رقم ٢.

(٥) راجع كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية ضمن برنامج الموسوعة الشاملة على الإنترنت: ٢٨-٣٢.

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

(الجمعة: ١٠).

٢ - أنه رفع منزلة العمل وأعلى من أقدار العمال، قال رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"(٦).

وقرر حق العمل لكل إنسان وجعل من واجب الدولة توفير العمل لمن لا يجده، كما قرر كرامة العامل وأوجب الوفاء بحقوقه المادية والمعنوية، يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا ولم يوفه حقه"(٧).

٣ - إباحة المعاملات العادلة التي لا ظلم فيها ولا اعتداء على حقوق الآخرين، ومن أجل ذلك أقر الإسلام أنواعا من العقود كانت موجودة بعد أن نقاها مما كانت تحمله من الظلم، وذلك كالبيع والإجارة والرهن والشركة وغيرها، وفتح المجال أمام ما تكشف عنه التجارب الاجتماعية من عقود شريطة أن لا تنطوي على الظلم أو الإجحاف بطرف من الأطراف أو تكون من أكل أموال الناس بالباطل.

وسائل حفظ المال من جانب العدم

وكما شرع الإسلام تدابير شرعية لحفظ المال من ناحية الوجود والتحصيل فقد شرع تدابير أيضا لحفظ المال من ناحية البقاء والاستمرار أو من ناحية العدم كما عبر الشاطبي، ومن ذلك:

١ - ضبط التصرف في المال بحدود المصلحة العامة؛ ومن ثم حرم اكتساب المال بالوسائل غير المشروعة والتي تضر بالآخرين، ومنها الربا لما له من آثار تخل بالتوازن الاجتماعي، قال تعالى:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

(البقرة: ٢٧٥).

وقال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾

(البقرة: ١٨٨).

٢ - كما حرم الاعتداء على مال الغير بالسرقة أو السطو أو التحايل، وشرع العقوبة على ذلك قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾

(المائدة: ٣٨).

وأوجب الضمان على من أتلف مال غيره قال ﷺ: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"(٨).

٣ - منع إنفاق المال في الوجوه غير المشروعة، وحث على إنفاقه في سبل الخير، وذلك مبنيٌّ على قاعدة من أهم قواعد النظام الاقتصادي الإسلامي وهي أن المال مال الله، وأن الفرد مستخلف فيه ووكيل، قال تعالى:

(٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده.

(٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: إثم من باع حرا.

(٨) سنن أبي داوود، كتاب الأدب، باب في الغيبة.

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد: ٧).

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾

(النور: ٣٣).

ومن ثم كان على صاحب المال أن يتصرف في ماله في حدود ما رسمه له الشرع، فلا يجوز أن يفتن بالمال فيطغى بسببه؛ لأن ذلك عامل فساد ودمار، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

(الإسراء: ١٦).

ولا يجوز له أن يبذر في غير طائل قال تعالى:

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾

(الإسراء: ٢٦-٢٧).

٤- سنُّ التشريعات الكفيلة بحفظ أموال القُصَّر والذين لا يحسنون التصرف في أموالهم من يتامى وصغار حتى يبلغوا سن الرشد، ومن هنا شرع تنصيب الوصيّ عليه، قال تعالى:

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(النساء: ٦).

وقال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾

(البقرة: ٢٢٠).

ومن ذلك الحجرُ على البالغ إذا كان سيئَ التصرف في ماله، قال تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

(النساء: ٥).

٥- تنظيم التعامل المالي على أساس من الرضا والعدل، ومن ثم قرر الإسلام أن العقود لا تمضي على المتعاقدين إلا إذا كانت عن تراض وعدل؛ ولذلك حرم القمار، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩).

٦- الدعوة إلى تنمية المال واستثماره حتى يؤدي وظيفته الاجتماعية، وبناء على ذلك حرم الإسلام حبس الأموال عن التداول وحارب ظاهرة الكنز قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(التوبة: ٣٤).

المقاصد الشرعية في الأموال

أرجع الإمام محمد الطاهر بن عاشور المقاصد الشرعية في الأموال كلها إلى خمسة أمور: رواجها، ووضوحها، وحفظها، وثباتها، والعدل فيها.

وقال: إن الرواج هو دوران المال بين أيدي أكثر من يمكن من الناس بوجه حق، وهو مقصد عظيم شرعي دل عليه الترغيب في المعاملة بالمال ومشروعية التوثق في انتقال الأموال من يد إلى أخرى.

ومحافظةً على مقصد الرواج شُرعت عقود المعاملات لنقل الحقوق المالية بمعاوضة أو بتبرع.. وتسهيلا للرواج شُرعت عقود مشتملة على شيء من الغرر مثل: المغارسة والسلم والمزارعة والقراض.. ولأجل مقصد الرواج كان الأصل في العقود المالية اللزوم دون التخيير إلا بشرط.. ومن وسائل رواج الثروة القصد إلى استنفاد بعضها وذلك بالنفقات الواجبة على الزوجات والقرابة.. ومن وسائل رواج الثروة تسهيل المعاملات بقدر الإمكان وترجيح جانب ما فيها من المصلحة على ما عسى أن يعترضها من خفيف المفسدة..

وأما وضوح الأموال فذلك إبعادها عن الضرر والتعرض للخصومات بقدر الإمكان، ولذلك شرع الإشهاد والرهن في التداين.

وأما حفظ الأموال فأصله قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

وأما إثبات الأموال فأردت به تقرُّرها لأصحابها بوجه لا خطر فيه ولا منازعة.

وأما العدل فيها فذلك بأن يكون حصولها بوجه غير ظالم، وذلك إما أن تحصل بعمل مكتسبها، وإما بعوض مع مالكها أو تبرع، وإما بإرث(٩).

أما شيخنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوي فقد فصل في مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال تفصيلا لم يُسبق إليه - حسب علمي - على مر التاريخ، وقد تناول مقاصد المال من جهات خمس:

الأولى: مقاصد الشريعة المتعلقة بقيمة المال ومنزلته، وذكر من المقاصد هنا: إيجاب المحافظة على المال، والتحذير من الافتتان بالمال والطغيان بسببه.

الثانية: مقاصد الشريعة فيما يتعلق بإنتاج المال، وذكر: الحث على إنتاج المال وكسبه من طرقه المشروعة، وتحريم الكسب الخبيث، وأن اكتساب المال من الحرام لا تطهره الصدقة، وإيجاب تنمية المال بالطرق المشروعة، وتحريم إنتاج ما يضر، ونوه بمقصدين آخرين: الأول: تحقيق تمام الكفاية للفرد، والثاني: تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة.

الثالثة: مقاصد الشريعة فيما يتعلق باستهلاك المال، وذكر من المقاصد هنا: إباحة الطيبات والإنكار على من حرمها، وترشيد استهلاك المال وإنفاقه، وتحريم الترف والحملة على المترفين، والمحافظة على البيئة ومكوناتها.

الرابعة: مقاصد الشريعة المتعلقة بتداول المال، وذكر: ضبط المعاملات المالية بأحكام الشريعة، ومقاصد الشريعة في الثروة النقدية.

الخامسة: مقاصد الشريعة المتعلقة

(٩) راجع مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن عاشور، ١٧٢-١٨٠، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

بتوزيع المال، وذكر: تحقيق العدل فى توزيع المال بين الفئات والأفراد، وتمليك الفقراء والضعفاء بإيجاب الزكاة واعتبارها ركنا من أركان الإسلام، والتقريب بين الفوارق، واحترام الملكية الخاصة للمال، ومنع الملكية الخاصة فى الأمور الضرورية لعموم الناس، وتقرير قاعدة التكافل المعيشى فى المجتمع، وتحرير الإنسان من نير الفقر والسعى للقضاء عليه، والعناية بالمشكلات أو الحاجات الطارئة.

وفى كل هذه المقاصد يفصِّل الشيخ فى كلامه، ويؤصِّل له من الكتاب والسنة مستبصرا بالواقع، ومعتمدا مقاصد الشريعة، ومراعيا مصالح الناس(١٠).

وأما الدكتور مصطفى قطب سانو - الأستاذ بقسم الفقه وأصوله بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا - فله بحث بعنوان: "مقاصد الشرع فى الاستثمار: عرض وتحليل" تناول فيه منطقة - كما يقول أستاذنا الدكتور محمد كمال إمام - لا تزال بكرا؛ لأن معالجة البعد المقاصدى فى الأساليب الاستثمارية لم يحظ باهتمام الفقهاء القدامى، وهو جهد مطلوب.

ذكر الدكتور قطب سانو أن مقاصد الشرع فى الاستثمار تقع فى ثلاثة مقاصد:

الأول: الحفاظ على استدامة تنمية المال، من خلال: الأمر بالضرب فى الأرض، والأمر بإيتاء الزكاة، وتحريم الاكتناز، وتحريم الربا، وتحريم الإسراف والتبذير والتقتير.

والثانى: الحفاظ على ديمومة تداول المال، وذلك من خلال: فرضية إخراج الزكاة للأصناف المعروفة، والأمر بتوزيع الميراث، وتحريم الاحتكار، وتحريم الاكتناز.

والثالث: تحقيق الرفاهية الشاملة للفرد والمجتمع، وهو مقصد ينبنى على المقصدين السابقين ويتأسس عليهما(١١).

ومن خلال هؤلاء الفقهاء الثلاثة - ابن عاشور، وسانو، والقرضاوى - يتبين أن كلام ابن عاشور كلام رائد، ثم كان كلام قطب سانو تحليلا وتوسيعا له، ثم كان كلام الشيخ القرضاوى تفصيلاً دقيقًا وتأصيلاً عميقًا لمقاصد المال بما لم نر له مثيلاً من قبل.

وبهذه التشريعات كلها التى شرعها الإسلام للمال، وبتلك المقاصد التى وضع الشارعُ الأحكامَ الشرعية لتحقيقها، حفظ الإسلامُ المالَ وصانه عن الفساد والكساد، وضمن له النماء والرواج والبقاء، ولو استحضرنا هذه الأحكام وتلك المقاصد فى ظل أزمتنا المالية والاقتصادية المعاصرة لأدى المال دوره باعتباره قيمة لا غنى عنها فى حفظ نظام الحياة الإنسانية، وتحقيق أهدافها الحضارية والإنسانية.

(١٠) راجع: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال للعلامة الدكتور يوسف القرضاوي، بحث غير منشور، مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس الأوربى للإفتاء والبحوث - دبلن، جمادى الثانية/ رجب ١٤٢٩ هـ / يوليو ٢٠٠٨ م

(١١) مقاصد الشرع فى استثمار المال، د. مصطفى قطب سانو، بحث فى مجلة المسلم المعاصر ١٥٣-١٨٩، عدد (١٠٣)، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤٢٢هـ، المحرم ١٤٢٣هـ/ يناير، فبراير، مارس ٢٠٠٢م. وراجع كلام الدكتور كمال إمام فى مقدمة العدد.

قالوا عن الإسلام



أ. د/ عماد الدين خليل

مونتغمري وات

[١] «منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد ﷺ فى كتابه «الأبطال وعبادة البطل» أدرك الغرب أن هناك أسبابًا وجيهة للاقتناع بصدق محمد؛ إذ إن عزيمته فى تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامى للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيرًا عظمة عمله فى منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التى لا تتزعزع. فاتهام محمد ﷺ بأنه دجال **Imposteur** يثير من المشاكل أكثر مما يحل. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة فى التاريخ حط من قدرها فى الغرب كمحمد ﷺ.

فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد ﷺ وكلما ظهر أى تفسير نقدى لواقعة من الوقائع ممكنًا قبلوه. ولا يكفي، مع ذلك، فى ذكر فضائل محمد أن نكتفى بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضى بصدده فيجب علينا فى كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضًا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنا وأنه فى مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه..»(١٠).

[٢] «هناك - على العكس - أسباب قوية تؤكد صدق «محمد» ﷺ ونستطيع فى مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين، لأن النقاش حول هذه المسألة.. يعتمد على وقائع ولا يمكن أن يتضمن خلافًا فى التقدير حول الأخلاقية..»(٢٠).

[٣] «.. ليس توسع العرب شيئًا محترمًا

١٠» محمد فى مكة، ص٩٤.

٢٠» نفسه، ص٤٩٧- ٤٩٨.

أو آليًا وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذى نجده عند محمد « ﷺ » لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة فى غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدى لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد « ﷺ ». وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد « ﷺ » بأكمله. لقد أوتى أولا موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربى بفضله، أو بفضل الوحى الذى ينزل عليه حسب رأى المسلمين، أساس فكرى «أيديولوجي» حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكرى يتطلب فى نفس الوقت حدساً ينظر فى الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعى فى ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس فى صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانهم.. وكان محمد « ﷺ » ثانيًا رجل دولة حكيمًا. ولم يكن هدف البناء الأساسى الذى نجده فى القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية.

ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبًا على إستراتيجية محمد « ﷺ » السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية ولقد دلّ على بعد نظره فى هذه المسائل الانتشار السريع الذى جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنا. وكان محمد « ﷺ » ثالثًا رجل إدارة بارعًا، فكان ذا بصيرة رائعة فى اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية؛ إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا. وكانت الدولة التى أسسها محمد « ﷺ » عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود فى وجه الصدمة التى أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعًا رائعًا» «٣».


مونتجمري وات

[٤] «كلما فكرنا فى تاريخ محمد « ﷺ » وتاريخ أوائل الإسلام، تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل. ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصًا للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماما. فلو لم يكن نبيًا ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلا مهمًا فى تاريخ الإنسانية. ولى أمل أن هذه الدراسة

«٣» نفسه، ص ٥١٠- ٥١١.

عن حياة محمد « ﷺ » يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو أعظم رجال أبناء آدم» «٤».

ولز «٥»

[١] «.. هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا « ﷺ » أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيمانًا به.

وقد آمنت به خديجة «رضى الله عنها» كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر «رضى الله عنه» شاهد أفضل وهو لم يتردد قط فى إخلاصه. كان يؤمن بالنبى « ﷺ » ومن العسير على أى إنسان يقرأ تلك الأيام ألا يؤمن بأبى بكر «رضى الله عنه»، وكذلك على «رضى الله عنه» فإنه خاطر بحياته من أجل النبى « ﷺ » فى أحلك أيامه سوادا..» «٦».

[٢] «حج محمد « ﷺ » حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إن أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها، الزنجى المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما فى أية جماعة أخرى سبقتها» «٧».


ولز

[٣] «لقد منح «العرب» العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية فى العالم أما الرجل الذى أشعل ذلك القبس العربى فهو محمد « ﷺ »» «٨».

«٤» نفسه، ص ٥١٢.

«٥» هربرت جورج ولز «١٨٦٦- ١٩٤٦م» H.G.Wells الكاتب والأديب البريطانى المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨م، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذى يعتمد الخيال العلمى من مثل «آلة الزمن» و«الرجل الخفي»، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل «ميكافيللى الجديد» و«الزواج». ولم يغفل ولز البحث فى التاريخ فأنجز عام ١٩٢٠م «معالم تاريخ الإنسانية» وأعقبه بـ«موجز تاريخ العالم». وكان آخر كتاب أصدره هو «العقل فى أقصى توتراته» «١٩٤٤م». ولولز كتاب فى السيرة الذاتية بعنوان: «تجربة فى كتابة السيرة الذاتية».

«٦» معالم تاريخ الإنسانية، ٣/ ٦٣٩.

«٧» نفسه ٣/ ٦٤٠- ٦٤١.

«٨» موجز تاريخ العالم ص ٢٠٠- ٢٠١.

ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر ٢٠١٣ م

المسلمون فى إريتريا أغلبية تبحث عن هوية

أ. د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة



تقع جمهورية إريتريا فى منطقة القرن الإفريقى فى شرق إفريقيا، وتساحل إريتريا البحر الأحمر فى جزء مهم من جنوبه، وتشكل مع «جيبوتي» بوابة إفريقيا الجنوبية إلى آسيا، وتملك عددًا من الجزر المهمة والحاكمة على طريق الملاحة البحرية فى البحر الأحمر، فضلاً عن عدد من الموانئ، مثل «عصب» و«مصوع»، كما تشكل إريتريا أهمية خاصة باعتبارها من الأقاليم التى تقع على الحدود الجغرافية والبشرية الفاصلة والواصلة بين البلاد العربية والبلاد الإفريقية [١].

وعلى مدار التاريخ القديم استمر نوع من التبادل والعلاقات بين الساحل العربى والساحل الإريتري، وظهرت آثار هذا التبادل فى عقائد القوم وتقاليدهم الثقافية، ممثلاً فى اعتناق الوثنية اليمنية، كما لم تنقطع الهجرات البشرية عبر ساحل البحر الأحمر من الجزيرة العربية ومن مصر إلى الساحل السودانى والإريترى على مر التاريخ، وتحفل المصادر التاريخية العربية والأجنبية، ومنها المصرية واليونانية القديمة والرومانية بشواهد عديدة على الصلات بين العرب والساحل الإريتري، منها ما ذكره مؤرخ يونانى مجهول الاسم فى كتاب بعنوان «الطواف حول البحر الإريترى» حيث ذكر أن الساحل المواجه لشبه جزيرة العرب على البحر بكامله، كان يعرف منذ القرن الأول الميلادى باسم ساحل عدول [٢] وهو اسم لقبيلة عربية هاجرت من اليمن واستوطنت الساحل.

وعندما تمكنت المسيحية القبطية من مصر، انتقلت منها إلى بلاد النوبة، وإلى الساحل الإريترى منذ القرن الرابع الميلادى وظهرت بعض الكنائس فى بعض المدن الإريترية، متأثرة بالمذهب الكنسى المصري. ثم كانت إريتريا جزءًا من مملكة «أكسوم» القديمة التى نشأت فى الحبشة «إثيوبيا الآن» والتى تدهورت فى أخريات القرن الرابع الميلادي.

(١) راجع الخريطة وقد سماها الإغريق «إريتريا» وسموا البحر الأحمر البحر الإريتري.
(٢) باليونانية «أدوليس» وهو يقع بالقرب من مدينة «زولا» الحالية.

عندما ظهر الإسلام، انتقل إلى إريتريا على يد بعض المهاجرين العرب، ثم كان الانتشار الحقيقى للإسلام فى عهد الدولة الأموية فى أواخر القرن الثامن الميلادي، وامتد إلى منطقة شمال غرب إريتريا فى القرون التالية.

ظلت إريتريا مستقلة أو شبه مستقلة إلى أن طرقها «الأتراك» فى العصر الحديث، بعد حملة «أزدمر» باشا عام ١٥٥٧م، ثم حلت مصر محل الأتراك تدريجيًا، نيابة عن الباب العالى عام ١٨١٨م، وأشرفت على «سواكن» و«مصوع» بعد صدور فرمان عام ١٨٦٦م، حيث حلت الإدارة المصرية محل الإدارة التركية.

قامت إيطاليا بالتوغل فى الساحل الإريترى ابتداء من عام ١٨٨٥م وأعلنوها مستعمرة إيطالية بشكل رسمى عام ١٨٩٠م واستمر الحكم الإيطالى لإريتريا حتى عام ١٩٤١م، حيث تمكنت إنجلترا من إزاحة الإيطاليين، وأعادت الإمبراطور «هيلاسلاسي» للحكم فى إثيوبيا، ووضعت إريتريا تحت الإدارة البريطانية حتى عام ١٩٥٢م، وبقرار الجمعية العامة الذى عرف باسم «القرار الفيدرالي» رقم ٥١٣٩ فى ديسمبر ١٩٥٠م تحت التوصية بأن تكون إريتريا عضوًا ذا حكم ذاتى متحدًا فيدراليا مع إثيوبيا، وبعد رحيل الإدارة البريطانية رسميًا فى ١٥ سبتمبر ١٩٥٢م تسلمت الحكومة الاتحادية «الإثيوبية الإريترية» السلطة، وقامت «إثيوبيا» فى ١٥/ ١١/ ١٩٦٢م بدمج «إريتريا» مع إثيوبيا منتهكة القرار الفيدرالي، ومن ثم بدأت مرحلة كفاح الإريتريين للتخلص من السيادة الإمبراطورية الإثيوبية، وتشكلت جبهة التحرير الإريترية فى القاهرة فى يوليو ١٩٦٠م، ومنها انبثقت قوات التحرير الشعبية عام ٧٠/ ١٩٧١م، ثم الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا عام ١٩٧٧م التى انقسمت بدورها إلى قسمين، ثم دمجت فيما عرف باسم جبهة التحرير الإريترية فى ١٩٨٥م، وطالت مرحلة الكفاح متأثرة بعوامل داخلية وخارجية، وانفردت الجبهة الشعبية لتحرير «إريتريا» بالساحة العسكرية، وشكلت حكومة مؤقتة لإدارة الإقليم الإريترى من العاصمة «أسمرة» عام ١٩٩١م، وتمكنت من الانفصال والاستقلال عن إثيوبيا ١٩٩٢م.

يتكون سكان «إريتريا» من مجموعات عرقية متمايزة تتعدد لغاتها وأديانها وثقافتها بوجه عام، ووفقًا للمعايير الثقافية توجد بإريتريا سبع مجموعات عرقية رئيسية، إضافة إلى عدد آخر من المجموعات الصغيرة وهى على النحو التالي:

١- التجرينة «التيجرينيون Tigrinians» الذين يقطنون الجزء الجنوبى من الهضبة الإريترية المتاخمة لإثيوبيا، والأغلبية الساحقة منهم تدين بالمسيحية القبطية [٣].

٢- التيجرة «التجريون» وهم ثانى أكبر المجموعات العرقية، ويقطنون شمال إريتريا ويدين أغلبهم بالإسلام [٤].

٣- الساهو ويتركزون فى منتصف إريتريا فى المنخفضات الممتدة بحذاء السفوح الشرقية للهضبة، والأغلبية الساحقة منهم يدينون بالإسلام

٤- الدناقل «العفر» وينتشرون فى السهول الساحلية الجنوبية من إريتريا والمناطق الصحراوية المحيطة بها فى كل من إثيوبيا

(٣) وهم امتداد للتجرينة فى إقليم «تيجراي» الإثيوبى المجاور
(٤) ترجع لغتهم إلى أصول جعزية وبعضهم يتكلم العربية

وجيبوتي وكلهم من المسلمين

٥- الكوناما ويسكنون الطرف الأقصى من الأراضي المنخفضة من حوض نهري «القاش» و«ستيت» وبعضهم يدين بديانة إفريقية قديمة وبعضهم مسلمون وآخرون مسيحون.

٦- الباريا ويقطنون المناطق المجاورة لكناما في شرق نهر «القاش» وكلهم يدين بالإسلام.

٧- البلين ويقطنون على الجزء الجنوبي من المرتفعات الشمالية، وبعضهم من المسيحيين والبعض الآخر مسلمون.

أما الجماعات الصغرى، فتنتشر في أنحاء مختلفة من إريتريا، ومنهم «الجبرتية» المتواجدون أساسًا في إقليم «شوا» الإثيوبي، ومنهم أعداد في «أسمرة» وضواحيها وهم مسلمون، ومن هذه الجماعات العرب اليمنيون، وعلى رأسهم قبيلة «الرشايدة» وهم مسلمون.

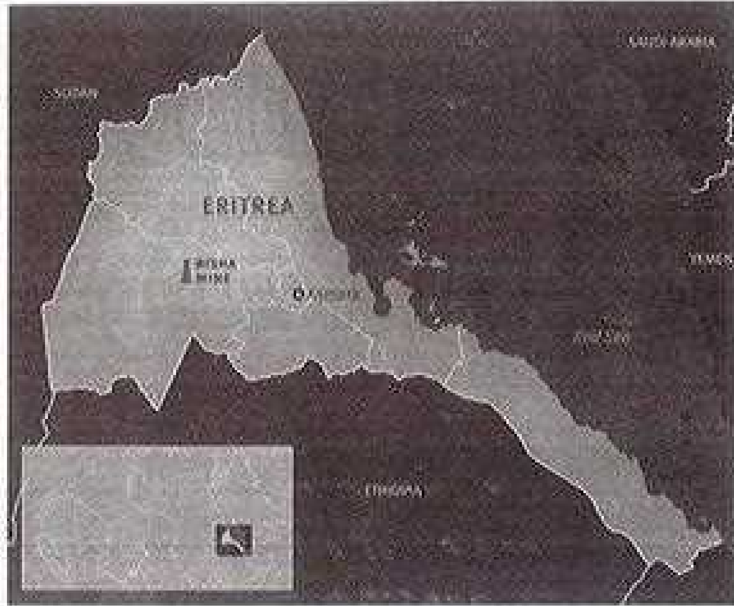
وإريتريا بحكم موقعها الجغرافي تعتبر مسرحًا دائمًا لموجات متتالية من الهجرات البشرية، وكل ذلك قد أدى في النهاية إلى أن أصبح الشعب الإريتري مزيجًا من عناصر مختلفة، ولا يمكن إغفال المصدر العربي للثقافة الإريترية، فهو مصدر ممتد في التربة الإريترية منذ أقدم الأزمنة، وقد انعكس هذا المصدر فيما شاع بين المجموعات العرقية من عناصر ثقافية عامة لا تختلف كثيرًا عن عناصرها العربية بالمعنى الثقافي العام.

ومن جهة أخرى لا يمكن إغفال المصدر الإفريقي الأصيل في التراث الإريتري، الذي ينعكس بدوره في عقائد السكان وتقاليدهم وأعرافهم، وما زال مؤثرًا في قطاعات كبيرة من السكان رغم اختلاف أعراقهم ويمكن تتبع آثار هذا المصدر في الأدب الإريتري الشعبي وفيما شاع بين الناس من تقاليد وأعراف وسلوك يناظر كثيرًا من التقاليد والأعراف الإفريقية، ومن جهة ثالثة، لا يمكن إغفال الأثر الغربي بوجه عام، ممثلاً في كثير من الأفكار والتقاليد الكنسية التي ابتعدت إلى حد ما عن التقاليد الكنسية القبطية القديمة، إذ إنه مع دخول الأوروبيين بدأت البعثات التنصيرية تمارس التعليم وتنشر التعاليم الكاثوليكية منذ القرن الخامس عشر، وتركزت في «أكلي قوازي» ثم لاحقًا في بعض أوساط «البلين» و«المنسج» وبعض القرى في «حماسين» و«القاش».

في العصر الحديث يطرح زعماء المسلمين كون الهوية الإريترية جزءًا من الأمة العربية، وأن الثقافة في إريتريا ينبغي أن تكون ثقافة عربية إسلامية شاملة على أساس أن الأغلبية العددية في إريتريا من المسلمين، كما أن اللغة الجعزية ماهي إلا لغة عربية قديمة، بالإضافة إلى كونها لغة الثقافة والدين لقطاعات كبيرة من السكان.

ومن وجهة نظري فإن عدم الاتفاق العام على هوية ثقافية عامة كان عائقًا في سبيل تدعيم العلاقات العربية الإريترية بوجه عام، كما أن الجبهة الشعبية التي تحكم البلاد حاليًا يهيمن عليها المسيحيون وعلى الرغم من إيمانها بتعدد الأديان والحرية الدينية في إطار الوحدة الوطنية، إلا أنها وبسبب أن التعليم بدأ في إريتريا بتدريس العلوم الدينية المسيحية، حيث قامت الكلية القبطية بتدريس علوم الديانة المسيحية، وبسبب الظروف السياسية، لم يتم تدعيم الهوية الثقافية الإسلامية في البلاد.

وصحيح أن مصر سهلت وصول الطلبة الإريتريين إلى الأزهر الشريف بإرسال بعثات منهم إلى مصر، واستمر هذا الوضع على مر العصور[٥]، كما ساهمت في تدعيم الثورة الإريترية واتحاد الطلاب الإريتريين، إلا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدعم المصري والعربي للمسلمين في إريتريا، دعمًا يشمل التعليم على وجه الخصوص، حيث تفتقد كثير من الجماعات الإريترية المسلمة المدارس والجامعات، التي تقوم بتدريس اللغة العربية والقرآن الكريم والمواد الإسلامية الضرورية لبناء الشخصية الإسلامية الإريترية.



يؤكد الإريتريون المعاصرون في مجملهم انتماءهم العربي- ابتداء من إقرار اللغة العربية في البرلمان الإريتري عام ١٩٥٢م كلغة رسمية للبلاد بجانب اللغة التيجرينية[٦] بالرغم من معارضة إثيوبيا وأنصارها، ثم المطالبة بالحصول على عضوية مراقب في الجامعة العربية في ذات العام.

هذا وقد أكدت الثورة الإريترية في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موقف ارتباطها بحركة الثورة العربية، والإنطلاق من مرتكزات الحضارة العربية، ولكن الأمر في الواقع يحتاج إلى دعم عربي، وإرادة حقيقية لتحويل هذا الأمر إلى واقع ملموس، فالذي لا شك فيه أن العروبة في إريتريا التي هي ثقافة ولغة وعادات وتقاليد، وإرث حضاري وتاريخي مميز- موجودة في إريتريا شعبًا وأرضًا، رغم الاستعمار الأوروبي، الذي لعب دورًا كبيرًا في محاولات طمس اللغة العربية واللغات الوطنية الأخرى، ولا توجد منطقة خارج الوطن العربي، تحمل ثقافتها المحلية الطابع السامي ثم العربي كمنطقة الهضبة الإريترية، حيث تأثرت بمختلف أوجه الحضارة واللغة ومظاهر الحياة في جنوب الجزيرة العربية منذ زمن بعيد قبل الإسلام وبعده، وتدعمت هذه الصلات والمؤثرات عبر العصور المختلفة، واستمر هذا التأثير متواصلاً إلى يومنا هذا.

يتضح أثر العربية حاليًا في جميع اللغات واللهجات الإريترية، كما أن الأدب الشعبي والفنون الإريترية تستمد الكثير من التراث العربي[٧] ومما يثلج الصدر أن النخب من الشباب الإريتري الذي تعلم في مصر والسودان يحاول بشتى الوسائل النهوض بالثقافة العربية ويهتمون بشكل ملحوظ باللغة العربية في التعليم والإعلام[٨] ولكن الأمر يحتاج إلى دعم عربي شامل.

[٥] يقدر عدد الطلاب الذين تعلموا في مصر منذ عهد الخديوية حتى الآن بعدة آلاف تخرجوا في مدارس وجامعات مصر وما زال الكثيرون منهم يتلقون العلم والمعرفة فيها

[٦] اللغتان التيجرينية والتيجرة تنحدران من لغة سامية قديمة وفدت من بلاد اليمن قبل ثلاثة آلاف سنة.

[٧] راجع: محمد عثمان أبوبكر. جذور الثقافة العربية في إريتريا- المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ١٩٩٧م.

[٨] يصدر بالعربية الآن العديد من المطبوعات والنشرات والكتب.

ذو الحجة
١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر
٢٠١٣ م

أصول الرؤية الإسلامية للعالم وفلسفة العلاقة مع الآخر



أ. د. إبراهيم البيومي غانم
أستاذ العلوم السياسية
المركز القومي للبحوث الاجتماعية - مصر

١- يقول أهل اللغة: إن «الإسلام» يدل على الصحة والعافية والبراءة من النقص والعيب، وأقول إن السلام دليل على الحق والخير والجمال؛ فبالسلام تهدأ النفس وتطمئن وتمتلئ بذور الحق، وبالسلام تترسخ علاقات الود والتعاون وتميل كل الأنفس لعمل الخير والتنافس فيه، وبالسلام تفرغ أقطار النفس وتصفو بحار الروح للتأمل والإبداع وإظهار آيات الجمال في النفس وفي الكون.

السلام اسم من أسماء الله تعالى، لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء، ومن لفظ السلام أيضًا اشتق لفظ الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع، والسلام غاية كل عاقل.

وقد ورد لفظ «السلام» في الكتاب العزيز في مئة وأربعين موضعًا، بصيغ متنوعة، ورد في مئة واثني عشر موضعًا منها بصيغة الاسم، من ذلك قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾

(النساء: ٩٤)

وورد في ثمانية وعشرين موضعا بصيغة الفعل، منها قوله سبحانه:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾

(النور: ٢٧)

وقد دار معنى السلام في القرآن عامة على سبع دلالات رئيسية، هي: ١- اسم من أسماء الله، ٢- الإسلام، ٣- التحية المعروفة، ٤- السلامة من الشر، ٥- الثناء الحسن، ٦- الخير، ٧- خلوص الشيء من كل شائبة.

٢- في الأصل كان السلام، وفي المنتهى سيكون السلام، هذان هما مبتدأ وخبر الرؤية الإسلامية للعالم، في الإشارة إلى المبتدأ، قال الله تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾

(الحشر: ٢٣)

وفي الإشارة إلى الخبر والمنتهى، قال عز وجل:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

(الأنعام: ١٢٧)

وقال سبحانه:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾

(الحجر: ٤٦).

ومن مقاصد عالمية الإسلام أن يعم السلام وفي هذا خاطب رب العزة رسوله محمدًا ﷺ:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(الأعراف: ١٥٨)

وثمة آيات أخرى عديدة تركز على المعنى نفسه الذي تشير إليه هذه الآية، وهو أن الإسلام رسالة عالمية، ليست لجنس دون جنس، ولا لأمة دون أخرى، وأن غايته هي الوصول للعالم بأسره دون إكراه أو إجبار، ليدخل الجميع في السلام، بالحوار وبالحكمة، والموعظة الحسنة، وإذا لم يستجب بعضهم، قل هذا البعض أو كثر، فلهم مطلق الحرية وكامل الحق في اختيار ما تطمئن إليه قلوبهم:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

وعند الله تجتمع الخصوم.

٣- من أصول الرؤية العالمية للإسلام أن البشرية بمختلف شعوبها وأممها صائرة - لا محالة - إلى التجمع في وحدة إنسانية واحدة يظللها «السلام»، وأنه لابد من السعي للوصول إلى هذه الوحدة التي لا تلغي خصوصيات وفضائل التنوع والتعدد الثقافي والاجتماعي الذي تمثله الأمم والشعوب داخلها.

إن «الوحدة العالمية» من منظور إسلامي لا تقوم على أساس اقتصادي أو سياسي أو ديني بالمعنى الضيق لكلمة دين، وإنما تقوم على أصول اجتماعية مغروسة في فطرة الإنسان، وأهمها: الآدمية والمساواة؛ الآدمية التي تنسب البشر جميعًا إلى أب واحد، وأم واحدة، «آدم وحواء»، والمساواة التي تعني أن كل إنسان يقف على قدم المساواة مع أخيه الإنسان بغض النظر عن اختلاف الوطن، أو العرق، أو المذهب.

تلك هي الأصول العامة التي يأمر الإسلام أتباعه أن يبنوا عليها رؤيتهم للعالم، ويمكننا أن نوجزها في أربع كلمات هي: عالمية الرسالة، والوحدة العالمية، والأخوة الإنسانية، والمساواة بين جميع البشر.

٤- أما بالنسبة لعلاقات المسلمين بغيرهم وبرؤيتهم للآخر، المغاير لهم؛ فالأصل فيها هو السلام، والحرب حالة استثنائية هدفها استعادة السلام، ويجب إنهاء الحرب في أقرب فرصة وبأقل كلفة، وثمة مجموعة من الأسس المنظمة لتلك العلاقة ومن أهمها:

الدعوة للتعارف، وذلك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

والتعارف لا يكون من جانب واحد، وهو يتضمن الاعتراف المتبادل، وإقرار التعددية الاجتماعية، والدينية، والثقافية، وهو ما نطلق عليه بلغتنا المعاصرة «الحوار» والاعتراف بالآخر.

● التعاون، في كافة مجالات الحياة من أجل سعادة البشرية وخيرها، وتبادل المنافع والتعايش الحضاري الخلاق، يقول الله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

(المائدة: ٢)

● السلام، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وأصل كبير من الأصول التي دعا إليها الإسلام لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، والوصول إلى «السلام» - أيضًا - هو غاية من غايات الدعوة الإسلامية، أما الحرب فلم تشرع في الإسلام إلا لرد العدوان.

● التسامح، وإعلاء الكرامة الإنسانية وصيانتها، فالإسلام يأمر أتباعه بأن يعاملوا غيرهم على أساس أنهم إخوة في الإنسانية، ولا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

● الوفاء بالعقود والمعاهدات، وهذه قاعدة عامة أمر بها الإسلام في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

(المائدة: ١)

ولا تقتصر هذه القاعدة فقط على الجوانب القانونية، وإنما تمتد لتصبح أداة من أدوات بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون على المستوى العالمي فضلاً عن المستويات المحلية والإقليمية.

٥- إن النظرة المتفحصة في أصول الرؤية الإسلامية للعالم، وفي تلك الأسس التي تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، تكشف لنا عن منظومة متكاملة من القيم الرفيعة، وإنها ليست قيمًا «إسلامية» فقط، بل إنسانية عامة كذلك تجد جذورها في عمق الفطرة البشرية، ولذلك فنحن لا ندعي أنها فقط إسلامية، بل نرى أنها من مكونات التراث الحضاري العالمي، وأنها من أعظم القواسم المشتركة بين الشعوب والأمم كافة، وليس فقط بين العالم الإسلامي مثلاً والغرب، ولذلك يجب أن يتعاون الجميع من أجل إقرارها والعمل بمقتضاها.

٦- إذا انتقلنا من مستوى الأصول المعرفية والأسس النظرية - التي تحكم النظرة الإسلامية للعالم - إلى مستوى الواقع والممارسات الفعلية التي تجري من خلالها العلاقات بين الأمم والشعوب على مختلف المستويات، سنجد أن ثمة فجوة كبيرة تفصل هذا الواقع عن تلك القيم الإسلامية - الإنسانية، التي تحدثنا عنها.

إن وجود فجوة بين «الواقع والمثال» أو بين «النص والممارسة» أمر طبيعي إذا كانت تلك الفجوة في حدود معقولة ومقبولة، أما الفجوة التي نتحدث عنها هنا فهي كبيرة جدًا، وآخذة في الاتساع، الأمر الذي يزيد الأوضاع العالمية اختلالاً من منظورنا الإسلامي.

فبدلاً من أن يتم توظيف الثورة الهائلة في نظم الاتصالات ونقل المعلومات في تعميق التعارف بين الشعوب والأمم، نجد أن هناك عدم اكتراث بهذا الأمر، وغالبًا ما يتم تسخير هذا «التقدم» في خدمة أغراض سياسية، ومصالح أنانية، وفرض المعرفة بطرف وتجاهل التعرف على الأطراف الأخرى من الشعوب والأمم.

وعوضًا عن تنمية علاقات التعاون وتبادل المنافع بالقسط والعدل، ولا زالت أشكال الاستغلال ونزعات الاحتكار والاستئثار هي الغالبة، نشهدها على مستويات مختلفة عالمية بين الشمال والجنوب، وإقليمية بين القوي والضعيف، ومحلية بين الغني والفقير، هناك على سبيل المثال في جنوب شرق آسيا والباسفيك يوجد في الهند وحدها ثلث أطفال العالم تحت سن الخامسة يعانون سوء التغذية MALNUTRITION وهناك ٢٤٠ مليون إنسان يعيشون تحت خط الفقر في الهند وحدها أيضًا، أي أن متوسط دخل الفرد من هؤلاء الفقراء أقل من ٣٠ دولارًا في الشهر، وهذا الرقم من إجمالي ١,٢ مليار شخص في العالم يقل دخل الواحد منهم عن دولار واحد في اليوم وفي ذات الوقت، يتمتع أغنى ٢٠٠ شخص في العالم بثروة يتجاوز مجموعها الألف مليار دولار بحسب تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم.

وبدلاً من أن ينعم العالم بالسلام والأمن والتسامح؛ نجد الحروب مشتعلة، والصراعات متفجرة، والمنازعات الدولية والإقليمية محتدمة، تغذيها نزعات أنانية، وانقسامات عرقية ودينية، وطموحات سياسية لا تنتمي إلى عصرنا الراهن وإنما لعصور بائدة، كما تغذيها نزعات للسيطرة والهيمنة الثقافية تحت شعارات متعددة من قبيل النظام العالمي الجديد والعولمة، والتي هي ليست أكثر من اتجاه نحو نوع من الاختزال الثقافي وفرض هيمنة القوى على الضعيف.

أما بخصوص مبدأ الوفاء بالعقود والمعاهدات والاستفادة من ذلك في بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون، فالفجوة هائلة بين المبدأ والتطبيق، وقد شهد عالمنا طيلة القرن الماضي، ولا يزال يشهد، كثيرًا من الانتهاكات، والنكث بالعهود، والمواثيق، بدافع من شهوة عدوانية، أو ممارسة لغطرسة القوة.

٧- بنظرة سريعة على أوضاع العلاقات المتبادلة بين العالم الإسلامي والغرب في التاريخ المعاصر، نجد أنه في إطار الجدل الدائر حاليًا حول أهمية «الإسلام» كعامل أساسي في إمكانية حدوث التوافق، أو الصدام، بين عالمنا الإسلامي وأوروبا والغرب بصفة عامة، فإنه لابد من تجاوز الأسباب التاريخية التي أدت في السابق إلى المآسي، وجرت إلى الحروب والمنازعات المتبادلة، وذلك لأننا نرى، كمسلمين، أن التحولات العالمية التي اجتاحت كافة المجالات العلمية والسياسية والفكرية، وأسقطت كثيرًا من البنى التقليدية وأدت إلى تراجع مفاهيم كثيرة تنتمي إلى الماضي؛ كل ذلك يعني أنه يجب أن تتجدد العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، على

نحو يدفع هذه التحولات العالمية نحو مزيد من الارتقاء بالإنسان وبالقيم النبيلة، وبتحسين نوعية الحياة لكافة الشعوب والأمم.

إن قيم الإسلام ومبادئه تحض - كما سبق أن ذكرنا - على المضى فى إقامة علاقات السلام، والتعاون، وتبادل المنافع والعمل لخير الإنسانية، وبناء ثقافة عالمية أساسها الاحترام المتبادل، وهناك فى الواقع ما يدعو إلى هذا الاتجاه وما يؤيده فى الوقت نفسه، هناك مشروعات ومبادرات فكرية وثقافية صدرت عن جهات رفيعة المستوى فى الغرب تخدم الاتجاه الذى نؤمن به، ومن ذلك حديث ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز فى مركز الدرسات الإسلامية بجامعة أكسفورد قبل عدة سنوات، والمؤتمر الذى نظمه المعهد الملكى للشئون الدولية بمناسبة مرور ٧٥ عامًا على تأسيسه، ومبادرة حكومة السويد عام ١٩٩٥م، لتهيئة فرصة للحوار بين أوروبا والعالم الإسلامي، إضافة إلى آراء ومواقف عديد من المفكرين والباحثين والمؤسسات الأكاديمية.

٨- هناك، كذلك، المصالح الاقتصادية والسياسية المتبادلة، فالبلدان الإسلامية مصدر رئيسى من مصادر الثروة التى لا يستغنى عنها الغرب كالبترول والمواد الأولية التى تعتمد عليها الصناعات الغربية، وكمثال على ذلك نجد أن السوق الأوروبية المشتركة هى شريك أساسى لمجلس تعاون دول الخليج العربي؛ إذ يصدر إليها المجلس حوالى ٢٢٪ من جملة صادراته من النفط والمنتجات البتروكيماوية، ويستثمر لديها ما يفيض عنه من بترودولارات، ويستورد منها نسبة كبيرة من منتجاتها من السلع والخدمات بما يقدر بحوالى ١٥ مليار دولار سنويًا، وفى دول المجلس تعمل أكثر من ٤٠٠ شركة أوروبية فى مختلف المجالات الاستثمارية والإنتاجية والخدمية، هذا فضلاً من كثير من أوجه التعاون والمصالح المشتركة فى المجالات السياسية، والثقافية، والبعثات التعليمية، التى تحتل فيها بريطانيا مكانة متميزة مع دول مجلس التعاون بصفة عامة، ومع دولة الكويت بصفة خاصة.

٩- بالنسبة للتصورات والاجتهادات والحوارات الدائرة بين مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية المعاصرة والمتعلقة بمستقبل العالم بصفة عامة، نلاحظ أنها إما تصب فى خانة التشاؤم، أو فى خانة التفاؤل، ونحن نعتقد أن الإسلام يمدنا برؤية شديدة التفاؤل بمستقبل أفضل للبشرية، فهو من ناحية يتضمن إدانة ودحضا لكافة أطروحات الانقسام، والعنف والقبح والظلم وكل ما يؤدى إلى شقاء الإنسان، ومن ناحية أخرى يتضمن دعوة ملحة وصريحة لاحترام كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، ولمد جسور التعارف والتعاون والمحبة والسلام والأمن والرخاء والحرية والعدالة لبنى البشر جميعًا، وفيما بينهم.

لنأخذ، مثلاً، فكرة صدام الحضارات، التى يطرحها البعض كحدث قادم فى

مستقبل النظام العالمي، إن هذه الفكرة من منظورنا الإسلامى لا تخدم السعى المشترك نحو مستقبل أفضل للبشرية، إنها، فى حقيقة الأمر، تعبير عن أن الغرب فى حضارته المعاصرة ليست لديه سوى قابلية محدودة للتعامل مع القيم الإنسانية الجماعية، وليست لديه قابلية للاعتراف بحقائق التعددية الثقافية، ولا هو مقتنع بثراء تلك القيم والحقائق وفائدتها فى بناء مستقبل أفضل للعالم، ومن حسن الحظ أن هناك من يطرح فى المقابل فكرة حوار الحضارات وتعايش الثقافات.

ولعل من الأسئلة الكبرى التى تستحق مزيدًا من الجهد والتعاون للإجابة عليها هو كيف يمكن إيجاد أرضية صلبة يقف عليها الحوار بين مختلف الثقافات والحضارات فى العالم بصفة عامة، وبين العالم الإسلامى والغرب بصفة خاصة؟ وكيف نضمن لهذا الحوار أن يسهم فى إيجاد مساحة جديدة للتعايش الحضارى الخلاق؟

١٠- إن هذا التحدى يتطلب جهودًا مكثفة ومخلصة من كافة الأطراف، وعلى كافة المستويات؛ ابتداء من أن يكف الإعلام الغربى عن رسم إسلام كاريكاتوري، لا صلة له بالإسلام الحقيقي، وأن نؤكد نحن فى العالم الإسلامى على عالمية الإسلام، وقيمته الخاصة بالعدالة والتراحم، والتسامح، وصولاً إلى وضع استراتيجيات جماعية، وتصورات مستقبلية للانطلاق بها نحو المستقبل فى إطار فكرى يعتمد على الحوار والتعددية، والنقد البناء، والقبول بالآخر من أجل اكتشاف المبادئ الحضارية المشتركة بين بنى الإنسان أينما كانوا فى الشرق أم فى الغرب، فى الشمال أم فى الجنوب.

إن الخطوات نحو مستقبل أفضل لابد أن تمر، من منظورنا الإسلامي، ببلورة القيم الإنسانية المشتركة، والإقرار بالتعددية الثقافية والدينية، والتعاون على إزالة مصادر الصراع والقضاء على أسباب التوتر والعنف واختلال أوضاع السلم والعدالة، ولابد أن تقوم كذلك على بناء ثقافة عالمية مشتركة، وبعيدة عن هيمنة القوة العارية من الأخلاق.

إن الإسلام يصنع السلام أولاً فى ضمير الفرد، ثم فى محيط الأسرة، ثم فى وسط الجماعة، وأخيرًا يصنعه فى الميدان الدولى بين الأمم والشعوب، إنه ينشد السلام فى علاقة الفرد بربه وفى علاقة الفرد بنفسه وفى علاقة الفرد بالجماعة، ثم ينشده فى علاقة الطائفة بالطوائف، وعلاقة الأفراد بالحكومة، ثم ينشده فى علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات، وإنه ليسير فى تحقيق هذه الغاية الأخيرة فى طريق طويل يعبر فيه من سلام الضمير إلى سلام البيت، إلى سلام المجتمع إلى سلام العالم فى نهاية المطاف.

وأخيرًا فإن الإسلام بشرى للعالمين، والإسلام يعلمنا أن بوسعنا، دومًا، أن نتشاور ونتحاور مع الآخرين من أجل اكتشاف الحقول المشتركة بيننا، ومن أجل تعميق إدراكنا للمثل العليا، ومن أجل الإسهام فى إعمار الأرض، وإسعاد الناس، وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر ٢٠١٣ م

قراءة فى فقه العيش مع الآخر من منظور فقه المذاهب الإسلامية

المذهب المالكى نموذجاً


للأستاذ مجدى عاشور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن الإنسان مجبول بفطرته على الاجتماع والعيش مع محيطه الإنسانى والمادى، وهو من حيث طبيعته التى خلقه الله تعالى عليها لا يمكن أن يعيش عيشة سعيدة مستقرة بمفرده، كما لا يمكنه أن يجد للحياة طعمًا أو لذة إذا عاش بمعزل عن الناس، واستغنى بفكره وذاته عن العالم من حوله؛ لأن ما يريد الإنسان أن يحققه لنفسه من الاستقرار والسعادة والأمن فى حياته يتطلب قدرًا عاليًا من التفاعل الإيجابى مع غيره.

والتفاعل الإيجابى البنّاء مع الحياة وما يغشاها من تطورات حثيثة وتغيرات متلاحقة لا يستطيع الفرد أن يقوم بأعبائها وحده؛ مما يستلزم ضرورة شيئين، هما:

- الأول: التعايش الإيجابى والتعاون الفعّال بين بنى البشر فى المقام الأول، وبين ما خلقه الله تعالى فى الكون فى المقام الثانى.
- والثانى: قيام هذا التعايش والتفاعل مع الآخر على منهج مبناه الإيجابيّة والموضوعيّة والعلميّة.

ومفهوم (الآخر) يدخل فيه: الذات الشخصية، أو الذات المذهبية فى إطار الدين الواحد، أو الذات الدينية؛ وحينئذ يختلف (الآخر) باختلاف محور (الذات)، وكذلك تختلف نوعية العلاقة سعةً وضيقًا.

وما أتناوله فى هذا البحث إن شاء الله تعالى هو محور الذات الإسلامية متمثلًا فى مذهب من مذاهبها، وهو مذهب السادة المالكية، وعليه فيكون (الآخر) هو ما عدا المسلمين.

وباعتبار أن الإسلام رسالة عالميّة شاملة للأشخاص والأزمنة والأمكنة، وهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن رسول الإسلام سيدنا محمدا هو رحمة مهداة للخلق كافة، فإن الدين الإسلامى يسع الكون ومن فيه وما فيه بتعاليمه السمحة، كما أنه يرتقى بتشريعاته بالإنسان من الفرديّة إلى الجماعيّة، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن التعصب إلى التسامح، ومن التعسير إلى التيسير، ومن التفاعل السلبى إلى التفاعل الإيجابى الرشيد.

ولئن تناول - قديمًا وحديثًا - عددٌ لا يستهان به من الكتّاب والباحثين والمفكرين مسألة التعايش بين المسلم

(فردًا ومجتمعًا) والآخر (فردًا ومجتمعًا)، فإنّ المتأمل المدقق فيما تزخر به الساحة الفكريّة المعاصرة من مؤلفات وأبحاث ودراسات خاصة فيما يتعرض منها لهذا المجال، يجد أنّه لا تزال ثمة حاجة شديدة إلى مزيد من الدراسات العلميّة الجادّة التى تنطلق من رؤيةٍ منهجيّة موضوعيّة واقعيّة رشيدة، تستند فى منطلقاتها إلى أصول الشرع الشريف، وتعتصم فى مضامينها بالمقاصد الشرعية السَّنيّة، وتنظر إلى المآلات المرعية فيما تتبناه من آراء واجتهادات إزاء مسألة العيش مع الآخر حتى يصل الإسلام إلى الناس كافة بصورة صحيحة لافتة للنظر؛ فما يجدوا من أنفسهم بدًا إلا أن يدخلوا فيه أفواجًا.

ولابد من استنفارهم العلماء والباحثين إلى استنباط طرق ومناهج العيش مع الآخر - سواء كان يعيشٍ مع المسلمين فى مجتمع واحد، أو منفصلًا عنهم فى مجتمع آخر - من واقع فقه المذاهب الإسلامية على مدى تاريخها المشرّف، مما يسهم مساهمة كبيرة فى الارتقاء بمستوى فقه العيش مع الآخر وفق اجتهادات تنضبط بأصول الشرع الشريف ومقاصده المنيفة، وكذلك يساعد فى استجلاء مدى جدية المسلمين فى تعايشهم مع الآخر من واقع الأحكام العملية المتمثل فى فقه المذاهب المختلفة خاصة فتاوى الأئمة؛ إذ فيها فقه وتخريجات لواقعات يومية شهدها المسلم وغير المسلم.

ومن ثَمّ، فإنّ هذا البحث يرنو - منهجيًا - إلى تسليط الضوء على المذهب المالكى وفقهه فى العيش مع الآخر، وهو ما تحقق بصورة إيجابية ولافتة للنظر؛ مما جعل الآخر يستمد منه فى تشريعاته وقوانينه الحاكمة الخاصة بتنظيم شئون حياته ومعاشه.

وقد سميته بـ"قراءة فى العيش مع الآخر من منظور المذاهب الإسلامية: المذهب المالكى نموذجًا"، وانتظم الكلام فيه على أربعة مباحث، وتفصيلها كالتالى:

المبحث الأول: العيش مع الآخر: مفاهيم وأسس، وفيه مطلبان: وضحت فى أولهما مفهوم العيش مع الآخر، ثم ثنّيت بتأصيل أسس العيش مع الآخر فى الإسلام.

المبحث الثانى: المذهب المالكى والعيش مع الآخر، واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقوق الآخر، وفيه تم تناول حقوق الآخر باعتباره جزءا من المجتمع الإسلامى وتم تناول حقوقه العقدية كحرية الاعتقاد، وبناء دور

العبادة. وحقوقه الشخصية كحق الإقامة والتنقل، وحق الأمان على النفس والمال والعرض. ثم الحقوق السياسية كتوليه الولايات، وقبول شهادته ووكالته، وكذلك الحقوق الاقتصادية كالعمل وتكوين الثروة، وإعطائه من القربات المالية للمسلمين.

المطلب الثاني: في بيان حقوق الآخر باعتباره جزءًا منفصلًا عن المجتمع الإسلامي كإبرام المعاهدات، والاستعانة به في الحرب، والحصانة الدبلوماسية لمبتعثيه.

المبحث الثالث: المذهب المالكي وواجبات الآخر، وفيه مطلبان:

الأول: الواجبات المالية، كالجزية والخراج والعشور.

المطلب الثاني: الالتزام بالأحكام والنظم المجتمعية العامة، ومنها الخضوع لولاية القضاء، وعدم إظهاره ما ينكره الإسلام.

المبحث الرابع: ودللت فيه على جذور المذهب المالكي في التشريعات الغربية.

ثم كانت الخاتمة بما توصلت إليه من نتائج.

المبحث الأول: العيش مع الآخر مفاهيم وأسس

المطلب الأول: مفهوم العيش:

أولًا: لغة: يقال: عَاشَ عَيْشًا وعيشة ومعاشا، أي: صَار ذَا حَيَاة، ومنه (تعايشوا)، أي: عاش بعضهم مع بعض على الألفة والمودة[١].

● ثانيًا: اصطلاحًا: راج مصطلح العيش أو التعايش مع الآخر في أواخر القرن العشرين الميلادي، واجتهد الباحثون في تحرير المقصود به؛ فنجد تعريفه في موسوعة المفاهيم الإسلامية أنه: عيش المرء مع الخلق، فيسلم منهم وينصفهم من نفسه، فيلقى الله عز وجلّ وقد أدى إليهم حقوقهم، وسَلِمَ بدينه بين ظهرانيهم[٢].

وعرّفه بعض المعاصرين بأنه: "العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة والمهادنة"[٣].

ويلاحظ أنه يُعبر عن العيش والتعايش بعدة مصطلحات، وهي: التسامح، التقارب، التساكن، التعاون، التكامل، التلاقي، التجانس[٤].

وإذا دققنا في مدلولات مصطلح العيش أو التعايش، نجد أن البحث في مدلول هذا المصطلح يقودنا إلى جملة من المعاني محمّلة بمفاهيم قد تتضارب فيما بينها، ويمكن تصنيفها إلى مستويات ثلاثة:

الأول: سياسي أيديولوجي، ويحمل معنى الحد من الصراع، أو ترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي خاصة فيما قبل الحرب الباردة، أو العمل على احتوائه، أو التحكم في إدارة هذا الصراع بما يفتح قنوات للاتصال وللتعامل الذي تقتضيه ضرورات الحياة خاصة المدنية والعسكرية منها، وهذا المستوى عُرف التعايش به في أول الأمر.

والثاني: اقتصادي، ويرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالقضايا الاقتصادية والتجارية.

والثالث: ديني.. ثقافي.. حضاري، وهو الأحدث، ويشمل - تحديدا- معنى التعايش الديني، أو التعايش الحضاري، والمراد به أن تلتقي إرادة أهل الأديان السماوية في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعًا دون استثناء يقوم على تفرقة أساسها: الدين، أو الجنس، أو العرْق، أو اللون، أو اللغة[٥].

وعلى هذا المستوى الثالث، وعلى ضوء المفهوم المحدد الذي نستخلصه منه، نبيِّن إن شاء الله تعالى كيف تعامل الفقه الإسلامي متمثلًا في فقه مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك رضي الله عنه مع الآخر.

وتأسيسًا على ما ذكر، فإنه يمكن النفاذ من خلال تلك المعاني؛ للتوصل إلى القول بأنّ العيش مع الآخر يراد به جميع أشكال التفاعل والتعاون والتكامل البنّاء المنبثق عن الإحسان والرفق والرعاية والعناية بين المسلم والآخر، على مستوى الفرد والمجتمع.

وذلك بغية الوصول إلى ما فيه مصلحة كلا الطرفين دينًا ودنيا، حالًا ومآلًا، وينتظم هذا التفاعل والتعاون البنّاء جوانب عدة كالفكر، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والثقافة، والتربية، كما تحكم هذا التفاعل جملة من الضوابط الفكرية والموضوعية والمنهجيّة الراسخة المستنبطة من الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة ومقاصد الشريعة الغراء، وما قرره سلف الأمة الصالح رضي الله عنهم على امتداد التاريخ الإسلامي في أحكامهم وفتاويهم.

هذه الضوابط والأسس جاءت لتؤسس عقلية المسلم في عيشه مع الآخر، ومن أبرز معالمها أنها قائمة على قبول الآخر، واحترام حريته وإرادته، وهو ما سيُوضح بشيء من التفصيل في المطلب التالي.

المطلب الثاني:

الإسلام وأسس العيش مع الآخر

نالت البشرية مبدأ أخلاقيًا ما كانت لتعرفه قبل الإسلام، وهو من أعظم المبادئ الإنسانية، ألا وهو التسامح والعيش مع المخالفين في الدين؛ حيث صرح القرآن الكريم بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنن الله تعالى في خلقه؛ فقال تعالى:

١- تاج العروس ط. دار الهداية (مادة: ع ي ش) تهذيب اللغة ط. دار إحياء التراث العربي (باب العين والشين من معتل العين). المصباح المنير ط. المكتبة العلمية (مادة: ع ي ش)، معجم ديوان الأدب للفارابي (ت: ٣٥٠هـ)، ط دار الشعب (٣/٤٦١)، المعجم الوسيط، ط دار الدعوة (باب العين).

٢- راجع في ذلك: موسوعة مفاهيم إسلامية، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (التاء) بتصرف.

٣- راجع في ذلك: مقال بعنوان مفهوم التعايش في الإسلام بقلم د/ عباس الجراري (ص ٢٧) العدد ١٤، عام ١٤١٧هـ، وهو منشور في مجلة تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو.

٤- راجع في ذلك: التعايش بين المسلمين وبين غير المسلمين في أفريقيا من منظور شرعي. للدكتور/ المرتضى الزين أحمد، عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أفريقيا العالمية. السودان. وهو بحث منشور بالعدد التاسع من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية (١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م)

٥- الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين. للأستاذ الدكتور/ عبدالعزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) وهو بحث مقدم للمؤتمر الدولي العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٤١٨هـ =١٩٩٨م

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

[هود: ١١٨، ١١٩]

وقوله:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

[السجدة: ١٣]

وقوله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

[يوسف: ١٠٣]

وقد أقرّ الإسلام الحرية الدينية للناس جميعًا بقوله تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

[البقرة: ٢٥٦]

وقوله سبحانه مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

[يونس: ٩٩]

كما نلاحظ فى محاورة الرسول الأعظم ﷺ سائر الأمم بعمومها وساداتها تارة، وإرسال الرسل إليهم تارة أخرى: دليلًا قويًا واضحًا يقرر أن التعايش يبدأ من الاعتراف بالآخر والعمل على قبوله، ولا يمنع جموده على عقيدته أو مسلكه المخالف لعقيدة الإسلام من الحوار الدائم المستمر المتبادل بين الأطراف وفق الإطار الذى حدده الشرع الشريف الذى يتمثل فى المجادلة بالتى هى أحسن ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول الحق سبحانه معلمًا الأمة فى شخص رسولها الكريم ﷺ:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[النحل: ١٢٤، ١٢٥]

والأدلة فى ذلك كثيرة أكتفى بما ذكرته؛ لثبوته، ووضوح دلالته.

ومما تقدم يظهر أن التعايش بين الدين الإسلامى والآخر يستند إلى أسس تتمثل فى النقاط التالية:

- احترام الإرادة الحرة لدى الأطراف كافة.
- البر والقسط خاصة مع الآخر المسالم.
- التفاهم حول الأهداف والغايات، والعمل على تحقيقها.
- صيانة هذا التعايش بسياج من الاحترام والثقة المتبادلة بين الأطراف.

ولا يعنى ذلك الذوبان في الآخر، ولكن يعنى الإقرار بوجوده؛ فالعيش لا يكون بين الذات وذات تلك الذات؛ وإنما يكون بين ذاتين أو أكثر بينهما تمايز، وحتى يبقى

ذلك العيش قائمًا، فإنه يفترض احترام التمايز والفروق والحياة الخاصة والتطلعات المشروعة، وذلك من كلا الطرفين تجاه بعضهم بعضًا.

وما ذكرته وأسسته قد بيّنه الإمام القرافى المالكى بلا التباس؛ فقال فى الفروق(٦): «اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَ مِنَ التَّوَدُّدِ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾

[الممتحنة: ١]

فَمَنَعَ الْمُوَالَاةَ وَالتَّوَدُّدَ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾

[الممتحنة: ٨]

وَقَالَ فِي حَقِّ الْفَرِيقِ الْآخَرِ:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾

[الممتحنة: ٩]

وَقَالَ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِأَهْلِ الذِّمَّةِ خَيْرًا» وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ «اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا»، فَلَابُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ. وَإِنَّ الْإِحْسَانَ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ مَطْلُوبٌ وَإِنَّ التَّوَدُّدَ وَالْمُوَالَاةَ مَنْهِيٌّ عَنْهُمَا وَالْبَابَانِ مُلْتَبِسَانِ فَيَحْتَاجَانِ إِلَى الْفَرْقِ وَسِرُّ الْفَرْقِ أَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ يُوجِبُ حُقُوقًا عَلَيْنَا لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي جِوَارِنَا وَفِي خَفَارَتِنَا وَذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَدِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ وَلَوْ بِكَلِمَةِ سُوءٍ أَوْ غِيبَةٍ فِي عِرْضِ أَحَدِهِمْ أَوْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى أَوْ أَعَانَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَيَّعَ ذِمَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ﷺ وَذِمَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ» اهـ.

ومن ذلك نلاحظ بوضوح أن الفقه الإسلامى - بمذاهبه المختلفة - استطاع بما له من بُعد علمى ومعرفى، ووفرة مصادره وأصوله وتنوع هذه الأصول والمصادر بين النقل الثابت، وبين الرأى الصحيح المستمد من الشرع الشريف: أن يُرسّخ ما دعا إليه القرآن العظيم والسنة المطهرة من العيش الكريم مع الآخر، والتعامل والتعاون معه على أساس إقامة العدل، واتباع الأخلاق الحميدة.

وبذلك استطاع الفقه الإسلامى بسمو غايته وأهدافه وقابليته للثبات والاستمرار وشمولية التصور والمرونة فى التطبيق بالإضافة إلى تنوعه وثرائه: أن يحقق التعايش بين الأديان المختلفة؛ ليساهم أصالة فى تكوين حضارة فكرية إنسانية أخلاقية إسلامية رائعة، وخير مثال على ذلك تأثير الفقه المالكى على حضارة بلاد الأندلس (الفردوس المفقود) التى مازلنا نفتخر بها إلى اليوم، ولا غرو فإن المذهب المالكى حافل بالأحكام الشرعية التى أتاحت العيش مع الآخر فى سهولة ويسر وفق الشرع الشريف، مما جعل الآخر يستمد منه أصالة فى تشريعاته وقوانينه التى نظمت شئون حياته المختلفة.

(يتبع)

٦- (٣/١٤)

قصص الأنبياء

لصوق الوثنية بقلوب فريق من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام

للعلامة عبدالوهاب النجار

كان بنو إسـرائيل قد ألفـوا وثنية المصريين وقلدوهـم في وثنيتهم شـأن المغلوب فى تقليد الغالب ولم يؤمن بموسى وإلهه إلا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون وشـيوخ بنى إسرائيل أن يفتنهـم عـن دينهم ويردهم إلـى الوثنية كما قال تعالي:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾

باعتبـار الضميـر ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ راجعـا إلى قوم موسـي. ولم تكن العجائـب التى ضرب الله بها فرعون وقومه لتزجرهم عن تلك الوثنية التى طال الفهم لها.

مـا بالكـم بقوم لقـوا مـن المصريـين ألوان العـذاب من الذل والإهانـة، وجاءهم منقذ منهم هـو موسـى. وقد لقـى الأمرين فـي إنقاذهم من العـذاب الأليم، وتحمل فى سـبيل ذلك الإهانة والسـخرية والتهديد بالقتـل والتكذيب، ورُمى بأنه سـاحر مجنـون، وألقى علـى فرعون وقومه الـدروس القاسـية بآياتـه البينـات الدالـة على صدقـه، ورأوا بأعينهـم انفلاق البحـر لهم حتى جـازوه على يبـس قاعه، لـم تبتـل أقدامهم ولا نعالهـم، ولـم يفقدوا نقيـرا ولا قطميـرا - بل خدعوا نسـاء المصريين واستعاروا منهن الحلى من الذهب والفضة وذهبوا بذلك المال كله كما ذهب الأسير بقيده! ولما أراد فرعون أن يدركهم ويردهـم إلى عبوديته وطمـع أن يعبر كما عبروا أطبـق الله عليـه وعلى جنـوده المـاء فكانوا من المغرقين!

كل ذلك يجرى أمام أعينهم وموسى يتخولهم بالنصـح والموعظة. ويقول لهم إن كل الأعمال التى عملها إنما هـى من صنع إلههم وإله آبائهم الواحـد الحـى المنزه عـن الشـريك والمعين، ورمـال البحر الرطبة لا تـزال عالقة بنعالهم! مع هذا كله غلبـت عليهم الوثنية اللاصقة بقلوبهم وغلبت عليهم بلادة الطبع وما ركز فى طبيعتهم مـن السـخف ومـا اسـتولى علـى أنفسـهم من الغثاثـة! أجل غلبـت عليهم كل هـذه الخصال الذميمة ودفعتهم إلى أن يطلبوا من موسى - وقد مروا علـى قوم يعبدون الأصنـام - أن يتخذ لهم إلها كما لهؤلاء القوم آلهة!

لا جـرم كان جـواب موسـى لهـم تجهيـلا ولوما وذما على طلبهم إلها سـوى الله الذى فعل بعدوهم العجائب المدهشة، وأنجاهم من عذابه بأعجوبة الأعاجيب وخصهم بالإكرام. وفضلهم على العالمين. وأن إلها هذه آياته وهذا إحسـانه إليهـم لا يعـدل عن عبادتـه إلى عبـادة غيره إلا من سـفه نفسه وسـجل عليها من الجهل عارا لا يمحى!

ولمـا كان القـوم قد عبروا إلى سـهول شـبه جزيـرة سـيناء والشـمس فيهـا شـديدة - ولا مسـاكن يكتـن فيها القـوم، ولا شـجر يتفيأون ظلاله - شـكوا إلى موسـى ما يلقـون مـن العناء فدعا موسـى ربه فسـاق الغمام إلى ذلك المكان ليظلهم ويقيهم وهج الشمس ودام ذلك لهم!

ولمـا كان زادهـم عرضـة للنفـاد وتاقـت أنفسـهم. إلـى اللحـم - مـع خشـيتهم الجوع والهلاك - أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المن والسـلوى. والمن مادة تتزهـر على أوراق بعض الأشجار مثل الطرفاء وغيرها، يميل طعمها إلى الحلاوة فيها لين وهى سـهلة الهضم. والسـلوى طائـر السـمانى كان يغطـى الأرض فيأخـذ منه كل إنسـان حاجته. وقد أمرهـم أن لا يطغوا فيه بالادخار؛ لأن ذلك من سـوء الظـن بالله فخالف قـوم منهم وادخـروا فداد ما ذخـروه - كما بين ذلك فى سفر الخروج.

ولما جازوا البحر وجاءوا إلى الشاطئ الشرقى لم يجدوا ماء لشـربهم وسـقيا دوابهم، فشكوا إلـى موسـى متذمرين واسـتسـقوه فأمـره الله أن يضرب الحجر بعصاه فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشـرة عينا، لكل من الأسـباط عين تجرى بالماء يشـرب منها. وهذه العيون بالبر الشرقى غير بعيدة من مدينة السـويس شهيرة بـ(عيون موسـى) وقـل اليـوم ماء هـذه العيـون وبعضها طمسـت آثـاره، ويزرع علـى تلك الميـاه بعض النخيـل. والظاهـر أن ضرب الحجر وانبجاسـه بالماء حصل مرات.

اقرءوا هذه الآيات:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

(البقرة: ٦١).

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(الأعراف: ١٣٨، ١٤٠).

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٩، ١٦٠).

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

(طه: ٨٠ - ٨٢).

قد يكون طلبهم البقول والعدس والبصل وأخواتها وسيلة من الله تعالى لتنبيههم إلى أن طلبهم لا يكون إلا إذا نزلوا مصرًا من الأمصار. تجبى إليه ثمرات ريفه. وتجلب إليه خيرات الأرض الزراعية القريبة منه، حتى إذا علموا بذلك كان مغريا لهم بمنازلة أعدائهم ومكاثرتهم حتى يملكوا عليهم مدينتهم للانتفاع بريفها والحاصلات التى تجبى إليها. ولكن ذلك لم يوقظ همتهم التى أخمدها ظلم فرعون وآله وما صب على رؤوسهم من المصائب فى الأحقاب الطويلة التى جعلت الخنوع والذلة خلقا مركزاً فيهم.

وسيأتى لذلك فضل بيان عند طلب موسى إليهم دخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم

ذهاب موسى عن بنى إسرائيل لميقات ربه

أوصى الله موسى أن يصعد إلى الجبل ويمكث فيه ثلاثين ليلة، حتى إذا أتمها أعطاه الله ألواحا وكتب له فيها الوصايا التى يأخذ بها بنو إسرائيل أنفسهم وأعقابهم من بعدهم.

ذكر البيضاوى والنسفى والخطيب والألوسى - وعباراتهم متفاوتة - أن موسى وعد قومه بنى إسرائيل - وهم بمصر - إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا وهى شهر ذى القعدة - فلما أتى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه؛ فاستاك أو أكل بعض النبات فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة.

وأخرج الديلمى عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام نهارهن ولياليهن كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال أى رب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح، قال أوما علمت ياموسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل موسى عليه السلام الذى أمره ربه به ا هـ.

وذلك مصداق قوله تعالي:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون خليفة على بنى إسرائيل وأكد عليه الأمر بالنظر فى مصالحهم وشئونهم واليقظة فى أمرهم.

وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أى مكنى من رؤيتك

أو تجل لى فانظر إليك وأراك: فقال الله تعالى له: ﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾.

وهنا مجال واسع للكلام بين أهل السنة المجوزين لرؤية الله تعالى والمعتزلة المانعين لها

«وهذا مبحث يرى فى موضعه لا هنا».

ويقول المفسرون: كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة؟ ويستدلون بذلك على جوازها، وإلا لما طلبها موسى. كان موسى بمجرد نبوته صار عالما بكل شيء وما دروا وأن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغى أن يعلمها. وإذا كان حاله مع العبد الصالح أن قال له لما شاء صحبته ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أفما كان موسى محتاجًا أن يتعلم من الله وعن الله شيئا حتى يقال إنه يعلم أن الرؤية ممكنة ولولا ذلك ما سألها؟

ويعجبنى ما أورده الألوسى من قول المعتزلة: سلمنا أن سؤال الرؤيا ينافى العلم بالإحالة لكنا نلتزم القول بعدم العلم، وهو غير قادح فى نبوته عليه السلام؛ فإن النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة، أو جميع ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز. بل علمه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة إلى الله تعالى وهو وحدانيته. وتكليف عباده الأوامر والنواهى تحريضًا لهم على النعيم المقيم. وليس امتناع الرؤيا من هذا القبيل.

أعلن الله أنه لن يراه. إما لأن الرؤية غير ممكنة أصلا كما يقول المعتزلة، وإما لأنها غير ممكنة فى هذه النشأة - كما يقول بعض العلماء - أو لأنه لا يقوى على تلك الرؤية. ثم أراد الله أن يعلمه أنه إنما طلب شيئًا عظيمًا لا تتحمله الجبال فتجلى الله للجبل فصار دكا - أى غاص فى الأرض أو تفتت وخر موسى مغشيًا عليه كما يخر من أخذته الصاعقة وذلك لما هاله من صوت ما عرا الجبل صار دكا. ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعظمتك وجلالك.

ويقول بعض المفسرين إن موسى مات ثم أحياه الله تعالى، وهو قول لا يساعد عليه الكتاب، لأن الإفاقة إنما تكون عن غشية، ومن حيى بعد موته لا يقال له أفاق وإنما يقال بعث. وتاب موسى من أن يطلب مثل ذلك الطلب وآمن أنه طلب ما لا يقوى على احتماله، وبأن عظمة الله بالغة الحد الذى لا يطاق. وقد اختلف أهل التفسير فى هل رأى موسى ربه قبل الصعق أو بعده أو لم يره؟

وأنا أريح نفسى من هذا الاختلاف ملتجأ إلى كتاب الله إذ يقول: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ وأقول إن الرؤية لم تحصل قبل الصعق ولا بعده.

بعد أن أفاق موسى من غشيته خاطبه الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالاته «وهى أسفار التوراة»، وبكلامه تعالى بأن يوحى إليه بلا واسطة ملك. بل يسمعه ما يريد أن يبلغه إليه أمره أن يأخذ ما أعطاه من شرف الاصطفاء والكلام شاكرا الله تعالى على ما أعطى.

وكتب الله تعالى ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح - فى ألواح اختلف المفسرون فى عددها بين عشرة واثنين، كما اختلفوا فى حقيقتها بين خشب وحجر وزبرجد وياقوت. وكل هذا لا يعنينا - وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام

وتفصيل لكل شيء بهم بني إسرائيل. وأمره الله تعالى أن يأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها. أي يسيروا على أحسن وأفضل ما رسم فيها، بأن يفعلوا ما هو أدعى إلى الزلفى من الله تعالى. فإذا نص فيها على خصلتين تقربان إلى الله تعالى وإحداهما تستدعي ثوابا أعظم، فعليهم أن يأخذوا بالأفضل- وإن كان في كل فضل- ثم وعده الله بأن يريهم دار الفاسقين.

وقد اختلف المفسرون في دار الفاسقين ما هي؟ فقال فريق: إنها مصر عاد إليها بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنده. وهذا القول عندي ليس بشيء.

وقال الكلبي «منازل عاد وثمود» وهو كلام حاطب ليل. لأن «ديار ثمود» وإن كانت قريبة من بني إسرائيل الموجودين في شبه جزيرة سينا ورؤيتها ممكنة لهم، ولكن «ديار عاد» في جنوب بلاد العرب. ولا يعقل أن بني إسرائيل يجتازون الفيافي والقفار ليروا منازل عاد وقد طمست آثارها. ولم ينقل ناقل إنهم ذهبوا إلى بلاد الأحقاف أصلا. والأقرب ما قاله قتادة من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام. ولا أريد بهذه الرؤية ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنهم دخلوا بلاد الجبارين وهي الأرض التي كتب الله لهم، لأن الله تعالى حرمها على الكبار من بني إسرائيل. وموسى لم يدخلها وإنما رآها فقط. وإنما دخلها بنو إسرائيل مع يوشع بن نون فتى موسى- كما سيمر بنا ولعل المعنى سارى بعضكم وهم الرواد الذين دخلوا البلاد، ثم عادوا إلى بني إسرائيل بخبر أولئك الجبارين فهال بني إسرائيل أمرهم وعصوا عن مقاتلتهم والأقرب أن يكون المراد بالبعض يوشع بن نون وكالب بن يفنه.

اقرءوا هذه الآيات:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾

(الأعراف: ١٤٢، ١٤٧).

من فتاوى الحاخامات

ممرضة أجنبية!!

د. منصور عبد الوهاب

مصدر الفتوى: WWW. MOriya. org. il ، ديسمبر ٢٠٠٥-فتوى من الحاخام موشيه عمينيل

سؤال:

جدتي امرأة طاعنة في السن ومريضة، وخلال العام الأخير تولت عاملة أجنبية رعايتها بتفان شديد، وهي ببساطة تنقذ حياتها، والمشكلة الرئيسية هي أنها تنام مع جدتي في حجرة واحدة وهي مسيحية ورعة وتضايق جدتي عندما تصلي وتقرأ في العهد الجديد، فما قول الشريعة في ذلك؟

جواب:

يحظر على العاملة أن تصلي أو أن تقرأ في كتابها داخل منزل جدتك! رغم تفانيها في رعايتها. ويجب أن يحدد لها مكان مستقل ويجب أن يكون خارج المنزل، أو على الأقل في حجرة خاصة بها، وأن يشترط عليها أن تكون صلاتها وقراءتها في المكان المخصص لذلك، ولا يكون ذلك في المنزل، والأهم من ذلك ألا يكون بجوار الجدة.

ومع كل التقدير لتفانيها في عملها فإن الضرر الناتج عن أفعالها يفوق الفائدة، لأن «الفائدة» للجسم، أما الضرر فهو كبير في الآخرة.

ولا تخشوا من مواجهة صعوبة فيما يتعلق باستعدادها لتقبل ذلك، ومن الأفضل استبدال هذه الممرضة بأخرى يشترط عليها مسبقًا الالتزام بهذا القيد الواضح.

ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر ٢٠١٣ م

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

(و) جدالهم فيما حرم عليهم من الأطعمة، وفى أفضلية البيت الحرام:

ومن الشبهات التى أثارها اليهود، وجادلوا النبى ﷺ فيها شبهتان:

تقرير الشبهة الأولى: أنه عندما نزل قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

(الأنعام: ١٤٦)

قال اليهود: لسنا أول من حرمت عليهم هذه المطاعم، ولم تحرم علينا عقابا لنا أو لظلمنا، بل هى كانت محرمة على إبراهيم، ومن أتى قبله وبعده من الأنبياء.

وتقرير الشبهة الثانية: أنهم قالوا عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام: يا محمد إن بيت المقدس أفضل من الكعبة، وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبلها، وهو أرض المحشر، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويصلون إليه، وقد وعد الله - تعالى - إبراهيم أن تكون البركة فى نسل ولده إسحاق، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا، ولبقيت على استقباله أبدا، دون أن تتحول إلى المسجد الحرام، فإن فى تحولك إليه مخالفة لقبلة الأنبياء من قبلك.

هذا هو تقرير الشبهتين اللتين أوردهما اليهود؛ للطعن فى نبوة النبى ﷺ، وقد أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى الرد على هاتين الشبهتين، وتزييف ما اشتملتا عليه من مغالطات ومكابرات، فقال - تعالى - فى الرد على الشبهة الأولى:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٣ - ٩٥)

وقال سبحانه فى الرد على الشبهة الثانية:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٦ - ٩٧)

ولنبدأ بعد ذلك فى تفسير الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالى:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

تكذيب لليهود فى زعمهم أن ما حرم عليهم من الأطعمة كان محرما على غيرهم قبل نزول التوراة، وأن الله لم يحرم عليهم شيئًا بسبب ظلمهم كما ستفصل ذلك قريبا.

والمعنى: كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبنى إسرائيل، قبل نزول التوراة، إلا شيئًا واحدًا كان محرمًا عليهم - أيضا - قبل نزول التوراة وهو ما حرمه إسرائيل على نفسه منها، فإنهم حرموه على أنفسهم استنانا بأبيهم، فلما أنزل الله - تعالى - التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم، قل لهم - يا محمد - إن جادلوك فيما أخبرناك عنه: جيئوا بالتوراة فاقرؤوها إن كنتم صادقين فى دعواكم أن ما حرمه الله عليكم فيها، كان محرما على نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام.

فالآية الكريمة قد تضمنت أمورا، من أهمها:

أولا: إبطال حجتهم، فيما يتعلق بقضية النسخ: إذ زعموا أن النسخ محال، واتخذوا من كون النسخ مشروعا فى الإسلام، ذريعة للطعن فى نبوة محمد ﷺ فدحض القرآن الكريم مدعاهم، وألزمهم الحجة عن طريق كتابهم، فقد أخبر - سبحانه - أن جميع الأطعمة السابقة على نزول التوراة، كانت حلالا لبنى إسرائيل - سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه - واستمر الأمر على ذلك حتى نزلت التوراة فحرم الله عليهم فيها بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم، وتحريم التوراة لبعض المطاعم التى كانت حلالا لهم قبل نزولها هو النسخ بعينه.

قال الإمام ابن كثير: الآية شروع فى الرد على اليهود، وبيان بأن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله - تعالى - قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا - عليه السلام - لما خرج من السفينة، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وبتحريم أشياء أخرى زيادة على ذلك. وهذا هو النسخ بعينه(١).

وقد صرح ابن كثير وغيره من المفسرين أن ما حرمه إسرائيل على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها، وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبى ﷺ وكان تحريمه لها تعبدا وزهادة وقهرًا للنفس، طلبا لمرضاة الله - تعالى -.

وقيل: إن ما حرمه على نفسه هو العروق، روى ذلك عن ابن عباس، والضحاك والسدى وغيرهم موقوفا عليهم، قالوا: كان يعتريه

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٨٢.

عرق النسا بالليل فيزعجه، فنذر إن عوفي منه لا يأكل عرقا، فلما شفاه الله ترك أكل العروق؛ وفاء بالنذر.

ثانيا: تضمنت - أيضا - تكذيبهم في دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن بسبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم وإنما كان محرما على غيرهم ممن سبقهم من الأمم، وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى بقوله: «وهو - أي ما اشتملت عليه الآية - رد على اليهود، وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

(النساء: ١٦٠ - ١٦١)

وفي قوله تعالى:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

(الأنعام: ١٤٦)

وحيث أرادوا جحود ما غاظهم، واشمأزوا وامتعضوا مما نطق به القرآن، من تحريم بعض الطيبات عليهم؛ لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه، وما هو إلا تحريم قديم، كانت - هذه الأشياء - محرمة على نوح، وعلى إبراهيم، ومن بعده من بني إسرائيل، وهلم جرا، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله، وأكل الربا، وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم»(٢)

ثالثا: تضمنت كذلك أمرا من الله - تعالى - لنبيه ﷺ بأن يتحداهم بالتوراة ويبكتهم بما نطقت به، وذلك بقوله - تعالى - في الآية الكريمة:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

(آل عمران: ٩٣)

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: ما دمتم - يا معشر اليهود - قد زعمتم أن ما حرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم ليس تحريما حادثا، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم، فها هي ذي التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها بإمعان وتدبر إن كنتم صادقين في مدعاكم.

والتعبير «بإن» يشير إلى عدم صدقهم، لأنها تدل على الشك في الشرط أي: هم ليسوا صادقين فيما يزعمون، ولذلك لا يتلون ولا يقرءون، ولو جاءوا بها لكانت مؤيدة لما أخبر به القرآن الكريم، ولذلك لم يجسروا على إخراج التوراة، وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ.

قال الإمام ابن جرير «وأما قوله:

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٣١٤.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

يقول: إن كنتم محقين في دعواكم أن الله أنزل تحريم لحوم الإبل وألبانها - في التوراة فأتونا بها، واتلوا تحريم ذلك علينا منها، وإنما ذلك خبر من الله - تعالى - عن كذبهم، لأنهم لا يجيئون بذلك أبدا على صحته، فأعلم الله بكذبهم عليه نبيه ﷺ وجعل إعلامه إياه ذلك حجة له عليهم، لأن ذلك إذ كان يخفى على كثير من أهل ملتهم، فمحمد ﷺ وهو أمي من غير ملتهم، لولا أن الله أعلمه ذلك بوحي من عنده. كان أحرى ألا يعلمه، فكان في ذلك له ﷺ من أعظم الحجة عليهم بأنه نبي الله إليهم، لأن ذلك من أخبار أوائلهم، وهو من خفي علومهم، التي لا يعلمها إلا خاصتهم».

ثم توعدهم الله - تعالى - على كذبهم وجحودهم للحق فقال تعالى:

﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

أي: فمن تعمد الكذب واستمر عليه، بزعمه أن ما حرم على بني إسرائيل في التوراة من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، كان محرما على غيرهم قبل نزولها،

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

أي: فأولئك هم الكاذبون، الذين تجاوزوا الحدود المشروعة، وقالوا على الله الباطل، من بعد ما تبين لهم الحق.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى اتباع ملة إبراهيم، فقال تعالى:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أي: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ فيما أخبرنا من قوله تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾

وأنتم الكاذبون في دعواكم أن ما حرم عليكم في التوراة، بسبب ظلمكم، كان حراما على غيركم، ممن سبقكم من الأمم، فالجملة الكريمة تعريض بكذبهم وافترائهم.

ثم قال تعالى:

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

أي: فاتبعوا ملة الإسلام، التي عليها محمد ﷺ ومن آمن معه، فإنهم هم المتبعون حقا لإبراهيم - عليه السلام - وهم أولى الناس به، وإبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، أي كان مستقيما مسلما وجهه لله وحده، ثم نفى الله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أي: ما كان إبراهيم في أي أمر من أموره، من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى وإنما كان مخلصا عبادته لله وحده، ولقد أمر الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم، فقال تعالى في سورة النحل:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وفي ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم

من أهل الكفر والضلال.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم شبهتهم الأولى ورد عليهم بما يرشدهم إلى الصواب لو كانوا طلاب هداية، شرع في تفنيد شبهتهم الثانية، وهي زعمهم أن بيت المقدس أفضل من الكعبة، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

المراد بالبيت: البيت الحرام الذي بمكة، والمقصود بكونه أول بيت: أنه أول بيت جعله الله تعالى - متعبدًا للناس.

والمعنى: أن أول بيت وضعه الله - تعالى - للناس في الأرض ليكون متعبدًا لهم هو البيت الحرام الذي بمكة حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم حوله، ففي الصحيحين، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله: «أي مسجد وضع في الأرض أول؟» قال: «المسجد الحرام»، قلت. ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» ثم قال: «حيثما أدركتك الصلاة فصل، والأرض لك مسجدا»(٣)

وإذن: فالبيت الحرام أسبق بناء من بيت المقدس، وأجمع منه للديانات السماوية، وهو - أي البيت الحرام - أول بيت جعل الله - تعالى - حج الناس إليه عبادة، وطوافهم حوله عبادة، ولا يوجد بيت سواه، الحج إليه ركن من أركان الإسلام.

وبذلك ثبت كذب اليهود في دعواهم: أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام، وأن في تحول الرسول ﷺ إلى الكعبة في صلاته، مخالفة للأنبياء قبله.

ثم وصف الله - تعالى - بيته الحرام بأنه «مباركا» أي: كثير الخير، بسبب ما يحصل لمن حجه واعتمره، وعكف عنده، وطاف حوله من الثواب الجزيل. ومضاعفة الأجر، وإجابة الدعاء، وتكفير الخطايا. وهو في الوقت ذاته، وفير البركات المادية والمعنوية.

فمن بركاته المادية: إتيان الناس إليه من كل فج عميق، ومعهم خيرات الأرض، يقدمونها على طريق تبادل المنفعة، أو الصدقة لمن يعيشون حوله، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم:

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

ومن بركاته المعنوية: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين، وهي فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون في صلاتهم، على اختلاف أجناسهم، وألوانهم وأماكنهم.

ووصفه بأنه ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي: هو بذاته مصدر هداية للعالمين؛ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، وفي استقباله توجيه للعقول والقلوب إلى الله - تعالى - ووصفه بأنه أي: فيه دلائل واضحات، وعلامات ظاهرات تدل على شرف منزلته؛ وعلو مكانته.

ثم بين الله - تعالى - بعض هذه الآيات البينات، فقال تعالى: ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي: المقام المعروف بهذا الاسم.

فعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ استلم الركن فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ:

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

فجعل المقام بينه وبين البيت، فصل ركعتين(٤)

فمقام إبراهيم: هو موضع قيامه؛ لعبادة الله تجاه الكعبة، ولا شك أن في المحافظة على مقام إبراهيم، وفي الأمر باتخاذه مصلى، أي: موضعا للصلاة والدعاء، آية على أن محمدا ﷺ ومن معه على ملة إبراهيم، وأن الإسلام هو دين إبراهيم - عليه السلام.

ومعنى أن في البيت مقام إبراهيم: أنه في فنائه، ومتصل به.

وقد رجح ابن جرير أن قوله تعالى: ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ هو بعض الآيات البينات التي في البيت الحرام؛ فقال: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: الآيات البينات منهن: مقام إبراهيم، وهو قول قتادة، ومجاهد، الذي رواه معمر عنهما، فيكون الكلام مرادا فيهن منهن، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليها.

فإن قال قائل: فهذا المقام من الآيات البينات فما سائر الآيات التي من أجلها قيل ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾؟ قيل: منهن المقام، ومنهن الحجر، ومنهن الحطيم»(٥).

ثم ذكر الله - تعالى - آية أخرى من الآيات التي تدل على فضل البيت الحرام وكرامته فقال تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ أي: من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل، قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾

(العنكبوت: ٦٧)

وفي ذلك إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم إذ قال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

(إبراهيم: ٣٥)

ولا شك أن في أمن من دخل هذا البيت، أكبر آية على تعظيمه، وعلى علو مكانته عند الله؛ لأنه موضع أمان الناس، في بيئة تغري بالاعتداء، لخلوها من الزرع والنبات.

وفي الصحيحين، عن أبي شريح العدوي، أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة - يعني لقتال ابن الزبير - ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي، حين تكلم به(٦)، أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص(٧) بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لنبيه، ولم

(٣) صحيح البخاري، باب: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ من كتاب «بدء الخلق» جـ٤ ص١٩٧.

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٧٠.

(٥) تفسير ابن جرير جـ٤ ص١١.

(٦) أراد بقوله (سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي) المبالغة في تحقيق حفظه إياه، وتيقنه من زمانه ومكانه ولفظه.

(٧) ترخص: أي أخذ فيه بالرخصة.

يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح. إن الحرم لا يعيذ عاصيا(٨)، ولا فارًا بدم(٩) ولا فارًا بخربة»(١٠)، (١١).

قال الإمام ابن القيم في «زاد المعاد»(١٢): وقوله: «فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا» هذا التحريم لسفك الدم هو المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها ويحرم فيها لكونها حرما، كما أن تحريم عضد الجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها، هو أمر مختص بها، وهو مباح في غيرها، إذا الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص.

ثم قال ابن القيم -رحمه الله- والمعنى الذي ساق أبو شريح العدوي الحديث لأجله أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل لا سيما إن كان لها تأويل.

كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابن الزبير فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم، وإحلال حرم الله جائزا بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد، الفاسق وشيعته، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال: إن الحرم لا يعيذ عاصيا، فيقال له: هو لا يعيذ عاصيا من عذاب الله، ولو لم يعذه من سفك دمه لم يكن حرما بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرما بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم، وقام الإسلام على ذلك، وإنما لم يعذ مقيس بن صبابة، وابن خطل، ومن سمى معهما لأنه في تلك الساعة لم يكن حرما بل حلا، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه، يوم خلق الله السماوات والأرض. وكانت العرب في جاهليتها، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم فلا يهيجه، وكان ذلك بينهم خاصة الحرم التي صار بها حرما، ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لك، وعلى هذا فمن أتى حدا أو قصاصا خارج الحرم يوجب القتل، ثم لجأ إليه، لم تجز إقامته عليه فيه. وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه!! وذكر عبدالله بن عمر أنه قال: لو وجدت فيه قاتل عمر ما بدهته». وعن ابن عباس أنه قال: «لو لقيت قاتل أبي في الحرم ما هيجته حتى يخرج منه»، وهذا قول جمهور التابعين، ومن بعدهم، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافه.

وإليه ذهب أبو حنيفة -رحمه الله- ومن وافقه من أهل العراق والإمام أحمد، ومن

(٨) لا يعيذ عاصيًا أي: لا يجيره ولا يعصم دمه.

(٩) ولا فارًا بدم: أي ولا يعيذ الحرم إنسانًا هاربًا التجأ إليه بسبب من الأسباب الموجبة للقتل.

(١٠) ولا فارًا بخربة: أي بسبب سرقة أو خيانة.

(١١) أخرجه البخاري في باب «فليبلغ العالم الشاهد الغائب» من «كتاب العلم» جـ١ ص٣٧. وأخرجه مسلم في «كتاب الحج» جـ٢ ص٩٨٧ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

(١٢) راجع الجزء الثاني ص١٧٧ وما بعدها طبعة الحلبي.

وافقه من أهل الحديث.

وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم، كما يستوفى منه في الحل، وهو اختيار ابن المنذر(١٣).

ثم بين الله -تعالى- لزوم الحج على كل قادر عليه، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

أي: أن الله -تعالى- فرض على الناس أن يحجوا بيته في أوقات معينة، وبكيفية مخصوصة، متى استطاعوا أداء هذه الفريضة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: من جحد فرضية الحج وأنكرها، ولم يؤدها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غني عنه، وعن حجه وعن الناس جميعًا.

قال صاحب الكشاف: «وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ يعني: أنه حق واجب لله في رقاب الناس، لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا، وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد، وتكرير له، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين، ومنها: قوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج. ومنها: ذكر الاستغناء عنه، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل عنه، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط»(١٤).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود في دعواهم أن ما حرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيهم، وكذبتهم في دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام.

وقد اشتمل هذا الرد على ما يثبت افتراءهم من واقع التاريخ، فقد أمر الله -تعالى- النبي ﷺ أن يطالبهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين في دعواهم، فبهتوا وانقلبوا صاغرين، وأثبت القرآن الكريم أن البيت الحرام أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله، فهو يسبق بيت المقدس في أولوية الشرف والزمان، وإذن فجدال اليهود للنبي ﷺ في هذه الأمور ما هو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق، والمعاند والجاحد لا ينفع معهما دليل أو برهان، وصدق الله إذ يقول:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

(١٣) زاد المعاد لابن القيم. والخلاصة: أن للعلماء أقوالا فيمن جنى جناية تستوجب القصاص أو ما دونه داخل الحرم أو خارجه. وملخص ما قالوه: أن من كان داخل الحرم وفعل ما يوجب حدًا أو قصاصًا أقام الحاكم عليه الحد أو القصاص. وإن كانت الجناية خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم، فإن كانت هذه الجناية لا تستوجب قتل الجاني أقم عليه الحد في الحرم وإن كانت تستوجب القتل ففيها خلاف بين الفقهاء فالجمهور على أنه لا يقتص منه داخل الحرم حتى يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم كما يستوفى منه في الحل ولله در ابن القيم فقد أفاض في بيانه لأدلة الفريقين بما لا مجال لذكره هنا.

(١٤) تفسير الكشاف جـ١ ص٣١٦.

ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
أكتوبر نوفمبر ٢٠١٣ م

فتاوى لها تاريخ

المحرمات من الطيور والحيوان



الشيخ محمود شلتوت

ما هي المحرمات من الطيور والحيوان في القرآن والسنة، وما أسباب هذا التحريم؟

الأغذية المحرمة في القرآن مكية ومدنية

لم يحرم القرآن شيئًا من الغذاء والحيوان سوى أنواع أربعة :

● أولاً : الميتة : وهي التي ماتت حتف أنفها ، ومنها «المنخنقة» و«الموقوذة» و«المتردية» و«النطيحة» و«أكيلة السبع» التي لم تدرك بالتذكية وبها حياة .

● ثانيا : الدم المسفوح : وهو الدم المصبوب الذي يجرى من المذبوح «وليس منه الدم الباقي في اللحم والعروق» .

● ثالثا : لحم الخنزير : والمراد به كل ما فيه من لحم وشحم .

والسبب في حرمة هذه الثلاثة أنها ـ كما ثبت طبيا ، وأخلاقيا ـ ضارة بالأبدان ، مولدة للأمراض ، مفسدة للأخلاق .

● رابعا : المذبوح الذي ذكر عليه اسم غير الله ، والسبب في تحريم هذا قصد المحافظة على عقيدة التوحيد والإيمان بالله وحده .

وقد جاء تحريم هذه الأنواع أولا في سورتين مكيتين : سورة الأنعام وفيها :

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

(الأنعام: ١٤٥) .

وفي سورة النحل وفيها :

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

(النحل: ١١٥)

ثم جاء ثانيا في سورتين مدنيتين : سورة

البقرة وفيها :

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾

(البقرة: ١٧٣)

وسورة المائدة وهي من أواخر ما نزل من القرآن وفيها قيل : ـ أحلوا حلالها وحرموا حرامها :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

(المائدة: ٣)

ثم فصلت أنواع الميتة المنخنقة وأخواتها .

دلالة الآيات على حل ما عدا الأربعة المذكورة

ويلاحظ أن الآيات كلها جاءت بطريق الحصر الذي يدل على أن هذه الأربعة محرمة ، وعلى أنه لم يحرم غيرها ، كما يلاحظ أن مجيئها في مكي القرآن ومدنيه بصيغة واحدة يدل على أن تحريمها وعدم تحريم غيرها هو شرع الله الدائم المستقر المؤكد ، الذي لا يطرأ عليه نسخ ولا تقييد . وقد روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه قال : «ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه» :

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ...﴾

(الأنعام: ١٤٥)

كما روى مثله عن ابن عمر وعائشة والشعبي حينما سئلوا عن حكم هذه الأربعة من الحيوانات .

وإلى هذا ذهب جمهور من الفقهاء ووقفوا في التحريم عند ما تضمنته هذه الآيات .

أحاديث واردة في الموضوع

نعم .. ورد أن النبي ﷺ نهى أو حرم لحوم الحمر الأهلية ، وأنه نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطيور ، وأنه نهى عن أكل الهرة وأكل ثمنها .. وقد أخذ بهذا جماعة من الفقهاء فحكموا بحرمة ما ورد أن النبي نهى عنه أو حرمه .. وقد أخذ بعضهم من الأمر بقتل بعض الحيوانات ـ كالحية والعقرب والفأر والكلب العقور ـ حرمة أكلها .

الأحاديث تفيد الكراهة لا الحرمة

والحق الذي نراه أن الأمر بقتل الحيوان ليس دليلا على حرمة أكله ، وأن الآيات الواردة في مكي القرآن ومدنيه لا تنهض حكاية النهي أو الحرمة على تغيير معناها ، وأن غاية ما تفيده تلك الأحاديث إنما هو الكراهة لا الحرمة ، وثبوت الحرمة يقتضي أن يكون الدليل قطعيا في وروده ودلالته ، وليس في هذه الأحاديث شيء بهذه المثابة .. وإذن فالحق أن الحرمة قاصرة على ما تضمنته الآيات من الأنواع الأربعة ، وأن ما عداها ـ مما وردت حكاية تحريمه عن النبي ﷺ ليس إلا مكروها على الأكثر .

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم زكاة العسل

● السؤال من: س.ع.ح:

امتلك منحلا ينتج عسلا أبيض، ويدر دخلا ماديًا سنويًا فما حكم الزكاة فيه؟

●● الجواب: اختلف العلماء في زكاة العسل؛ فذهب المالكية والشافعية وغيرهم إلى أنه لا زكاة فيه؛ وذلك لضعف الأحاديث الواردة في ذلك وعدم ثبوت شيء منها عن النبي ﷺ قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه -: «الحديث في أن «في العسل العشر» ضعيف، وفي أن «لا يؤخذ منه العشر» ضعيف إلا عن عمر بن عبدالعزيز، واختياري: أن لا يؤخذ منه؛ لأن السنن والآثار ثابتة فيما يؤخذ منه، وليست فيه ثابتة، فكأنه عفو» اهـ. وقال الإمام البخاري: «ليس في زكاة العسل شيء يصح». اهـ. وقال الإمام أبوبكر بن المنذر: «ليس في وجوب صدقة العسل حديث يثبت عن النبي ﷺ ولا إجماع؛ فلا زكاة فيه». اهـ.

بينما يرى الحنفية والحنابلة وجوب الزكاة في العسل، وأنه يخرج منه العشر، على خلاف بينهم في نصابه، فبينما لم يشترط الإمام أبو حنيفة في ذلك نصابًا وأوجب الزكاة في قليل العسل وكثيره، اشترط صاحبه الإمام محمد بن الحسن أن يبلغ ثمانية فرقان، والفرق ستة وثلاثون رطلا عراقيًا، وقال أبو يوسف: في كل عشرة أزقاق زق، متمسكا بحديث ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «في العسل في كل عشرة أزق زق» رواه الترمذي، وقال: «حديث ابن عمر في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء». اهـ.

والذي تميل إلى الفتوى به هو ما ذهب إليه الجمهور من أنه ليس في العسل زكاة لعدم ورود الدليل الصحيح في ذلك، والأصل براءة ذمة المكلف حتى يدل الدليل على خلاف ذلك، على أن الزكاة وإن لم تكن واجبة فإن صدقة التطوع مندوبة.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فإنه لا زكاة عليك في العسل الذي ينتجه منحلك، أما المال الذي يدره هذاالعسل فإن الزكاة إنما تجب فيه إذا بلغ نصاب زكاة المال، وحال عليه الحول القمري، ونصاب زكاة المال هو قيمة خمسة وثمانين جرامًا من الذهب عيار واحد وعشرين، وما لم يبلغ الدخل المادي ذلك أو لم يحل حوله فلا زكاة فيه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تكبيرات العيد

● السؤال من: أ.ش.ع:

ادعى البعض أن تكبيرات العيد التي اعتاد الناس عليها «الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا» أنها بدعة وأنها مخالفة للسنة. فما حكم الشرع في ذلك؟

●● الجواب: أولاً: التكبير في العيد مندوب، ولم يرد في صيغة التكبير شيء بخصوصه في السنة المطهرة، ولكن درج بعض الصحابة منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على التكبير بصيغة: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد» رواه ابن أبي شيبة في المصنف بسند جيد، والأمر فيه على السعة، لأن النص الوارد في ذلك مطلق وهو قوله تعالى:

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

والمطلق يؤخذ على إطلاقه حتى يأتي ما يقيده في الشرع، ودرج المصريون من قديم الزمان على الصيغة المشهورة وهي: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أنصار سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية سيدنا محمد و سلم تسليمًا كثيرًا»، وهي صيغة شرعية صحيحة قال عنها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «وإن كبر على ما يكبر عليه الناس اليوم

فحسن، وإن زاد تكبيرًا فحسن، وما زاد مع هذا من ذكر الله أحببته» ا هـ.

وزيادة الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته في ختام التكبير أمر مشروع؛ فإن أفضل الذكر ما اجتمع فيه ذكر الله ورسوله ﷺ، كما أن الصلاة والسلام على النبي ﷺ تفتح للعمل باب القبول فإنها مقبولة أبدًا حتى من المنافق كما نص على ذلك أهل العلم؛ لأنها متعلقة بالجناب الأجل ﷺ.

وبناء على ذلك فمن ادعى أن قائل هذه الصيغة المشهورة مبتدع فهو إلى البدعة أقرب؛ حيث تحجر واسعًا وضيق ما وسعه الله تعالى ورسوله ﷺ وقيد المطلق بلا دليل، ويسعنا في ذلك ما وسع سلفنا الصالح من استحسان مثل هذه الصيغ وقبولها وجريان عادة الناس عليها بما يوافق الشرع الشريف ولا يخالفه، ونهي من نهى عن ذلك غير صحيح لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

قنوت الفجر

● السؤال من م.ن.ع: ما حكم المداومة على قنوت الفجر؟

●● الجواب: القنوت في صلاة الفجر سنة نبوية ماضية قال بها أكثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من علماء الأمصار، وجاء فيه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قنت شهرًا يدعو عليهم ثم تركه، وأما في الصبح فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا»، وهو حديث صحيح رواه جماعة من الحفاظ وصححوه - كما قال الإمام النووي وغيره - وبه أخذ الشافعية والمالكية في المشهور عنهم؛ فيستحب عندهم القنوت في الفجر مطلقًا، وحملوا ما روي في نسخ القنوت أو النهي عنه على أن المتروك منه هو الدعاء على أقوام بأعيانهم لا مطلق القنوت.

قال الإمام الحافظ أبو بكر الحازمي في كتابه (الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار) (٣ / ٩٠- ٩١): «وقد اختلف الناس في القنوت في صلاة الصبح؛ فذهب أكثر الناس من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من علماء الأمصار إلى إثبات القنوت:

فممن روينا ذلك عنه من الصحابة: الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - ومن الصحابة: عمار بن ياسر، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبدالله بن عباس، وأبو هريرة، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبو حليمة معاذ بن الحارث الأنصاري، وخفاف بن إيماء بن رحضة، وأهبان بن صيفي، وسهل بن سعد الساعدي، وعرفجة بن شريح الأشجعي، ومعاوية بن أبي سفيان، وعائشة الصديقة.

ومن المخضرمين: أبو رجاء العطاردي، وسويد بن غفلة، وأبو عثمان النهدي، وأبو رافع الصائغ.

ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن سيرين، وأبان بن عثمان، وقتادة، وطاوس، وعبيد بن عمير، والربيع بن خثيم، وأيوب السختياني، وعبيدة السلماني، وعروة بن الزبير، وزياد بن عثمان، وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وعمر بن عبدالعزيز، وحميد الطويل.

ومن الأئمة والفقهاء: أبو إسحاق، وأبو بكر بن محمد، والحكم بن عتيبة، وحماد، ومالك بن أنس، وأهل الحجاز، والأوزاعي، وأكثر أهل الشام، والشافعي وأصحابه، وعن الثوري روايتان، وغير هؤلاء خلق كثير.

وخالفهم في ذلك نفر من أهل العلم ومنعوا من شرعية القنوت في الصبح، وزعم نفر منهم أنه كان مشروعًا ثم نسخ، وتمسكوا في ذلك بأحاديث توهم النسخ».
ا هـ.

والفريق الآخر من العلماء يرى أن القنوت في صلاة الفجر إنما يكون في النوازل التي تقعد بالمسلمين، فإذا لم تكن هناك نازلة تستدعي القنوت فإنه لا يكون حينئذ مشروعًا، وهذا مذهب الحنفية والحنابلة.

فإذا ألمت بالمسلمين نازلة فلا خلاف في مشروعية القنوت في الفجر عند الجميع، وإنما الخلاف في القنوت للنازلة في غير الفجر من الصلوات المكتوبة؛ فمن العلماء من رأى الاقتصار في القنوت على صلاة الفجر كالمالكية، ومنهم من عدى ذلك إلى بقية الصلوات الجهرية وهم الحنفية، والصحيح عند الشافعية تعميم القنوت حينئذ في جميع الصلوات المكتوبة، ومثلوا النازلة بوباء أو قحط أو مطر يضر بالعمران أو الزرع أو خوف عدو أو أسر عالم.

فالحاصل أن العلماء إنما اختلفوا في مشروعية القنوت في صلاة الفجر في غير النوازل أما في النوازل فقد اتفق العلماء على مشروعية القنوت واستحبابه في صلاة الفجر واختلفوا في غيرها من الصلوات المكتوبة، ولا يخفى على الناظر ما تعيشه الأمة الإسلامية من النوازل والنكبات والأوبئة وتداعي الأمم عليها من كل جانب وما يستوجبه ذلك من كثرة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى عسى الله أن يرفع أيدي الأمم عنا ويرد علينا أرضنا وأن يقر عين نبيه المصطفى ﷺ بنصر أمته ورد مقدساتها؛ إنه قريب مجيب.

ومن العلماء من قال بتواصل النوازل وعدم محدوديتها؛ وهذا يقتضي مشروعية قنوت الفجر في هذا العصر، ولا يتأتى عدم القنوت حينئذ إلا على قول من قال بمحدودية النازلة ووقتها بما لا يزيد عن شهر أو أربعين يومًا.

وإذا أخذ المسلم بقول من قصر القنوت على النوازل فقط فليس له أن يبدّع غيره ممن يقنت في الفجر على كل حال؛ ولذلك فعندما ارتضى العلامة ابن القيم الحنبلي القول بقصر القنوت على النوازل فقط وصف القائلين بذلك بأنهم «لا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفا للسنة، كما لا ينكرون على من أنكره عند النوازل، ولا يرون تركه بدعة، ولا تاركه مخالفًا للسنة. بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن». ا هـ. من (زاد المعاد ١ / ٢٧٥، مؤسسة الرسالة).

وبناء على ذلك: فالأمر مبني على أن من قنت في الفجر فقد قلد مذهب أحد الأئمة المجتهدين المتبوعين الذين أمرنا باتباعهم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل :٤٣).

ومن كان مقلدا لمذهب إمام آخر يرى صوابه في هذه المسألة فلا يحق له الإنكار على من يقنت؛ لأنه لا ينكر المختلف فيه؛ ولأنه لا ينقض الاجتهاد بالاجتهاد.

والله سبحانه وتعالى أعلم

رحمة الله للعالمين



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

إنه بشهادة كتاب الله هو محمد بن عبدالله ﷺ ، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء : ١٠٧)

وقال سبحانه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾

(آل عمران : ١٥٩)،

وهو منذ اللحظة الأولى التى شع نور مولده فى جوانب الكون كان يؤذن برحمة الله التى فسرتها أيام حياته، ولقد صح أنه ﷺ كان يقول: (إنما أنا رحمة مهداة)، وأيام حياته ﷺ كلها قامت وما تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وحتى يمنحه الله عز وجل الشفاعة العظمى يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقول ﷺ: (أنا أول شافع وأول مُشفع).

إن أيام رسول الله ﷺ كانت بركة ونعمة ورحمة، وإنه ليتألق منها يومان، هما يوم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

(العلق : ١)

ويوم:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

ورضى الله عن أم المؤمنين عائشة فقد قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالى ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ، قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ، قلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] (العلق : ١، ٥)

ومنذ ذلك اليوم كان محمد بن عبدالله محمداً نبى الله الذى قال له مولاه:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(المزمل: ١، ٢)

ثم كان أمر الله تعالى لرسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)

(١) رواه البخارى فى صحيحه، باب (كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ).

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

(المدثر : ١، ٧)

ومضى سيدنا محمد النبى الرسول بما أمره به ربه، وناداه إليه مولاه:

﴿ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٤٥)

وتتابعت الأيام وهى تميط اللثام عن الرحمة المهداة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ثلاثة عشر عامًا فى مكة، يصدقه الرجل بعد الرجل، والرجلان وما وراء ذلك من الرجال والنساء، آخذين الأسوة الحسنة من الصابر الراضى وهم يقولون بألسنتهم وتطمئن نفوسهم يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب : ٢١)

ولماذا لا يتأسون أصدق التأسى برسول الله ﷺ وما أمرهم إلا بخير ولا نهاهم إلا عن شرك وكفر ومكر، وما كان ﷺ إلا ذلك الرسول الذى أضفى الله عليه وهو سبحانه الرءوف الرحيم هاتين الصفتين كما لم يضفهما على نبى سبق ولا رسول تقدم، وفى قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(التوبة : ١٢٨)

وتتابعت الأيام وكانت ضرورة هجرة المسلمين من بلد الله مكة إلى مملكة ملك لم يكن على الإسلام ولكنه كما قال النبى ﷺ: (لا يظلم أحد عنده)، ثم كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة بعد أن نما فيها نبت التوحيد وغراس الإيثار فى قوم:

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩)

وهاجر النبى ﷺ بعد أصحابه واستقبله أهل البلد الطيب على مختلف أديانهم بما هو أهله من تكريم وإيثار كل ذلك نذكره فى نور يوم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

(العلق : ١)،

ونذكر معه يومًا آخر هو يوم عرفة، ذلك اليوم الذى هو قمة النسك وصفوة الفريضة الخاتمة التى جاء إليها وفد الله عز وجل من كل فج عميق، وكانوا على ساحة عرفات يباهى الله عز وجل بهم ملائكته ويقول: يا ملائكتى هؤلاء عبادى جاءونى من كل فج عميق شعثًا غبرًا ضاحين، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم)[2]

وفى يوم عرفة ذلك الذى كان يوم حجة الوداع للرحمة المهداة ﷺ نزل قول الله تعالى على مصطفاه:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة : ٣)

إنهما يومان مباركان نذكرهما من أيام النبى ﷺ الذى ما ينبغى أن تنسى لحظة من لحظات حياته التى هى النور منذ كان وإلى الآن وإلى آخر الزمان، والله المسئول أن يفيض علينا شيئًا مما أفاضه على رحمته المهداة ونعمته المسداة فى هذه الأيام التى أصاب العالم، وكنانة الله فى أرضه مصر ما أصابهم، وهو بنا أبر وأرحم، وهو حسبنا ونعم الوكيل. ا. هـ.

(٢) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث جابر.

طرائف.. ومواقف

للشيخ: عبدالحميد محمد عبدالحليم

حيوان يتكلم

قال الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ: من سمع القرآن فلم يخشع، وذكر الذنب فلم يحزن، ورأى العبرة فلم يعتبر، وسمع بالكارثة فلم يتألم، وجالس العلماء فلم يتعلم، وصاحب الحكماء فلم يتفهم، وقرأ عن العظماء فلم تتحرك همته، فهو حيوان يأكل ويشرب وإن كان إنساناً ينطق ويتكلم.

لم يقل شعراً فى الإسلام إلا بيتاً

يرون أن لبيدا لم يقل شعراً فى الإسلام إلا بيتاً واحداً:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقيل قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى
حتى اكتسبت من الإسلام سربالا

وقال له عمر: أنشدنى من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة، فزاد عمر فى عطائه.

أنا عبدك

قيل إن الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد، شهد عند أبى يوسف فرد شهادته فعاتبه الخليفة وقال له: لم رددت شهادته قال: لأنى سمعته يوماً يقول للخليفة: «أنا عبدك» فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فكذلك، لأنه إذ لم يبالى فى مجلسك بالكذب، فلا يبالى فى مجلسى، فعذره الخليفة، وإنما رده القاضى أبو يوسف لما فى كلام هذا الوزير من إذلال نفسه، وطاعته لأجل الدنيا.

عتاب

دخل أبو دلف أحد قواد جيوش الدولة العباسية على أمير المؤمنين المأمون، وقد كان عتب عليه ثم أقاله، فقال له وقد خلا مجلسه: قل أبا دلف وما عسيت أن تقول، وقد رضى عنك أمير المؤمنين، وغفر لك ما فعلت؟ فقال أبو دلف:

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسى
ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة
إلى بها فى سالف الدهر تنظر

فقال المأمون: لك بها رجوعك إلى مناصحتك، وإقبالك على طاعتك، ثم عاد له إلى ما كان عليه.

وكيف لا يقل كلامى

سأل العتابى رجلا حاجة، فأقلّ فى كلامه فقال له الرجل: تكلم أليس لك قدرة على ذلك؟ فأجابه العتابى: وكيف لا يقل كلامى ومعى حيرة الطلب وذل المسألة وخوف الرد.

أمثال ثائرة

لابن عبدربه مؤلف: العقد الفريد، شعر جيد منه ما جعل فى كل بيت منه مثلا أو مثلين، مثل قوله:

- قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم
  هل من جديد على كر الجديدين
- فاقطع حبائل خل لا تلائمه
  فربما ضاقت الدنيا باثنين
- فكرت فيك أبحر أنت أم قمر
  فقد تحير فكرى بين هذين

إن قلت بحرا وجدت البحر منحسرًا
وبحر جودك ممتد العبابين
أو قلت بدرا رأيت البدر منتقصا
فقلت شتان ما بين اليزيدين

أريد الحج

وفد رجل على المأمون، وقال له: أنا رجل من الأعراب يا أمير المؤمنين!!

فقال: لا عجب

فقال: أريد الحج!

فقال له: الطريق واسعة!!

فقال له: لقد أتيتك يا أمير المؤمنين مستجديا لا مستفتيا!

فضحك المأمون وأحسن صلته

بين أبى العيناء وشاعرة

عرضت على المتوكل جارية شاعرة، فأمر أبو العيناء الشاعر ليختبرها، فقال أبو العيناء للشاعرة: أتقولين الشعر كما يقولون؟ فقالت الجارية: نعم وأجيده، فقال أبو العيناء: إليك شطراً واحداً من بيت واحد فأكمليه:

الحمد لله كثيراً.

فقالت الجارية:

حيث أنشأك ضريراً.

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد: عبيد الله بن عباس وعبدالله بن جعفر، وسعيد ابن العاص. فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حيا على طعامه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وأنت ربيع لليتامى وعصمة
إذا المحل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة
وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

الذكر.. والأنثى

كان المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ يقول: النساء والرجال أنواع:

- رجل مذكر وامرأة مؤنثة فهو قوام عليها.
- ورجل مؤنث وامرأة مذكرة فهى قوامة عليه.
- ورجل مذكر وامرأة مذكرة فهما كالوعليين ينتطحان.
- ورجل مؤنث وامرأة مؤنثة فهما لا يأتيان بخير ولا يفلحان.

حفظ اللسان

كان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه، وقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان، لو حفظ هذا لسانه ما هلك.

دعاء

اللهم اجعلنا ممن سمع فوعى، وعلم فعمل وأزلْ يا رب قساوة قلوبنا، وأنزل علينا سكينة من عندك حتى نطمئن لوعدك ولا نفرط فى عهدك.

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ. محمد جمعة

مستوطنون وعناصر من «الموساد» يدنسون ساحات الأقصى

تحت هذا العنوان جاء «رأى الدستور» المنشور بجريدة الدستور الأردنية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/٩/١١م جاء فيه:

دنس عشرات المتطرفين اليهود ساحات المسجد الأقصى عبر باب المغاربة تحت حراسة قوات الاحتلال.

وأفاد الشيخ عزام الخطيب مدير دائرة الأوقاف وشئون المسجد الأقصى أن ١٥٠ مستوطنا اقتحموا المسجد الأقصى عبر باب المغاربة على شكل مجموعات متفرقة، لافتا أن معظمهم من طلبة المدارس الدينية.

وأشار الخطيب لوكالة «معا» أن المجموعات المتطرفة قامت بالدخول عبر باب المغاربة، باتجاه السور الشرقي للمسجد، «بالقرب من المصلى المرواني»، ثم عادت للخروج من باب السلسلة. وأفاد شهود عيان أن العشرات من طلبة مصاطب العلم رددوا التكبيرات خلال اقتحامات المستوطنين للأقصى، علما بأن مجموعات كبيرة من المستوطنين قاموا بالتجمع عند باب السلسلة من الخارج، وأدوا الطقوس الدينية، وشكلوا حلقات للرقص والغناء.

وعلمت وكالة «معا» أن ٨٠ من أفراد المخابرات الإسرائيلية «الموساد» اقتحموا باحات الأقصى وقاموا بجولات فى ساحاته.

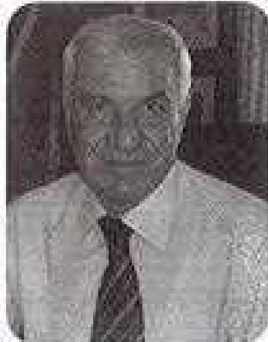
وعقب الشيخ عكرمة صبرى رئيس الهيئة الإسلامية العليا وخطيب المسجد الأقصى بالقول «إن الدعوات اليهودية واضحة منذ عام ١٩٩٤ م، بتقسيم المسجد الأقصى، كما حصل بالمسجد الإبراهيمى فى الخليل، لكننا نحذر من أى مساس بالمسجد الأقصى المبارك، ونحبط أى محاولة تمس به على أرض الواقع وبالميدان. ورفض الشيخ صبرى التصريح الذى صدر عن مفوض شرطة الاحتلال، الذى يدعى فيه بأن اليهودى له الحق فى دخول الأقصى والصلاة فيه.

وقالت مصادر أمنية فلسطينية بأن قوات الاحتلال اعتقلت ١٧ مواطنا من مخيم العروب فى حملة غير مسبوقة، مشيرة إلى أن قوات الاحتلال فتشت العديد من المنازل وعبثت بمحتوياتها وأجرت تمشيطا لقطعة أرض مجاورة للمخيم ومقهى إنترنت. يذكر أن قوات الاحتلال وزعت بيانا تحذيريا لسكان المخيم تهددهم فيه بأشد العواقب إذا استمر إلقاء الحجارة عليهم من المخيم.

ونقلت وكالة «معا» الإخبارية الفلسطينية المستقلة عن مصادر فلسطينية قولها إن «قوة من جنود الاحتلال داهمت المخيم وشرعت فى عملية دهم وتفتيش واعتقال داخل المخيم. وحطم جنود القوات الإسرائيلية خلال عمليات المداهمة عدة منازل. واستنكر أحمد أبو خيران منسق اللجان الشعبية لمخيمات الجنوب "استهداف قوات الاحتلال لمخيم العروب فى الآونة الأخيرة».

وأضاف أن عمليات الاعتقال التى تستهدف طلبة المدارس والجامعات إضافة إلى الوجود المستمر للقوات الإسرائيلية على مداخل المخيم وخاصة ما يسمى «حرس الحدود» الذين يفتشون وينكلون بأهالى المخيم وخاصة النساء هى التى تستفز مشاعر الشباب والأهالى فى مخيم العروب.

وفى هذا الإطار قال تقرير صادر عن وزارة الأسرى والمحررين فى الحكومة المقالة بغزة إن سلطات الاحتلال الإسرائيلى تستخدم حاجز بيت حانون شمال قطاع غزة، مصيدة لاعتقال المواطنين الفلسطينيين الذين يضطرون لاستخدام هذا الحاجز للوصول إلى المستشفيات الفلسطينية فى الضفة الغربية أو فى الداخل المحتل، أو لأغراض إنسانية أخرى كالتجارة

عزام الخطيب — عكرمة صبرى

والسفر.

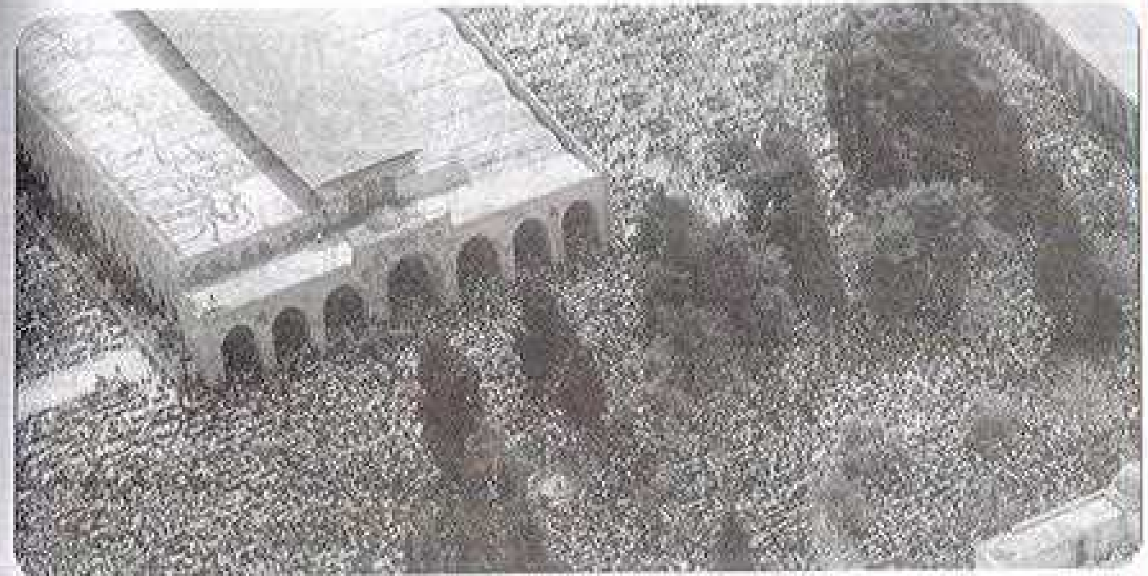
وبين التقرير الذى صدر أن قوات الاحتلال أقدمت منذ بداية العام الحالى على اعتقال ١٠ مواطنين، تشكل الغالبية العظمى منهم مرضى وأصحاب تحويلات للعلاج فى المستشفيات «الإسرائيلية» أو أشخاص يرغبون فى السفر إلى الضفة الغربية، ويستغل الاحتلال حاجتهم الماسة للعلاج والسفر عبر هذا المعبر وتقوم بالإيقاع بهم واعتقالهم بصورة مهينة وغير إنسانية، خاصة أن كثيرا من الذين تم اعتقالهم هم مرضى وبحاجة ماسة إلى علاج فورى وعاجل. وأوضح التقرير أن الاعتقال التعسفى يطاول كافة شرائح المجتمع الفلسطينى ويشمل المرضى ومرافقيهم الذين يضطرون إلى الذهاب لتلقى العلاج فى المستشفيات فى داخل الخط الأخضر، وبلغ عدد المرضى المعتقلين منذ بداية العام ٦ مواطنين.

فلسطين تنتقد صمت المجتمع الدولى إزاء اعتداءات الاحتلال الإسرائيلى على المسجد الأقصى

تحت هذا العنوان جاء التقرير الإخبارى المنشور بجريدة «المغربية» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/٩/١١م جاء فيه:

انتقدت وزارة الخارجية الفلسطينية صمت المجتمع الدولى إزاء الاعتداءات المتكررة لقوات الاحتلال الإسرائيلى على المسجد الأقصى المبارك.

قالت الوزارة فى بيان لها أوردته وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية «وفا» إن غياب ردود الفعل العربية والإسلامية والدولية الجدية تجاه ما يتعرض له المسجد



المسجد الأقصى وقت أن كان عامرا بالمصلين

الأقصى المبارك من عدوان مستمر، يشجع المستوطنين على تصعيد اعتداءاتهم.

وأشارت الوزارة إلى أن عمليات استباحة المسجد الأقصى تتواصل من قبل سلطات الاحتلال، سواء على المستوى الإسرائيلي الرسمي أو المستوطنين المتطرفين، حيث قامت الحكومة الإسرائيلية بتحويل المناسبات والأعياد الدينية واليهودية إلى مناسبات لتشديد الهجوم على المسجد الأقصى واقتحام باحاته والصلاة فيه، على طريق السيطرة عليه وتقسيمه، وتحويل ذلك إلى واقع يومي ومألوف ومعتاد.

وأدان البيان بشدة دعوة بلدية الاحتلال في القدس إلى تنظيم مسيرة مليونية لليهود المتطرفين تجاه الأقصى، كما أدانت دعوة لجنة الداخلية في الكنيست الإسرائيلي لليهود للصعود إلى ما يدعون أنه جبل الهيكل «المسجد الأقصى»، وكذلك دعوة عضو الكنيست عن حزب الليكود موشيه فيغلين إلى طرد جميع موظفي وحراس المسجد الأقصى المبارك.

وحملت الوزارة الحكومة الإسرائيلية المسئولية الكاملة عن هذا العدوان، وتداعياته على الأوضاع برمتها، وطالبت الدول كافة، خاصة اللجنة الرباعية الدولية، بـ «تحمل مسئولياتها السياسية والقانونية والإنسانية تجاه شعبنا عامة، وتجاه القدس والمسجد الأقصى بشكل خاص»، ودعتها لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بوقف العدوان ومحاسبة المجرمين.

كما طالبت وزارة الخارجية المنظمات القانونية والإنسانية، المحلية والإقليمية والدولية، بملاحقة كل من يعتدى على المسجد الأقصى المبارك، وتحضير الملفات القانونية ضدهم، وتقديمهم للمحاكم الدولية، وطالبتها بتحضير ملف بأسماء المسئولين والمستوطنين والجمعيات التى تستهدف المسجد الأقصى لتحقيق هذا الغرض، مشيرة إلى أنها على استعداد تام للتعاون معها فى هذا الموضوع، وتسهيل هذه المهمة الوطنية الإنسانية.

مصانع الموت الإسرائيلية

تحت عنوان: «مصانع الموت الكيماوية الإسرائيلية شمال الضفة الغربية تنشر الأمراض القاتلة فى صفوف الفلسطينيين وتجلب الأموال للإسرائيليين» جاء مقال الأستاذ وليد عوض المنشورة بجريدة «القدس العربى» الصادرة بتاريخ ٢٠١٣/٩/١٣م يقول:

باتت المصانع الإسرائيلية الكيماوية المقامة على أراضى المواطنين غرب مدينة طولكرم مصدر تهديد بالموت لأهالى المنطقة الذين يستنشقون الغازات المنبعثة من تلك المصانع ويتنفسون الهواء الملوث بالدخان المتصاعد منها ويعيشون على الأرض التى يتم تلويثها بمخلفات تلك المصانع التى باتت تعرف فلسطينيا بمصانع «الموت الكيماوي».

وجاءت تلك المصانع الكيماوية الخطيرة لتقام على أراضى المواطنين فى المنطقة الغربية من طولكرم بعد أن أجبرت على الرحيل من داخل الأراضى المحتلة عام ١٩٤٨م التى يسكنها الإسرائيليون بقرار من المحاكم الإسرائيلية لتغلق أبوابها لما تسببه من مخاطر صحية جسيمة على حياة البشر، فرحلت من داخل إسرائيل إلى أراضى الضفة الغربية لتفتك بحياة الفلسطينيين بعيدا عن المحاكم والقوانين الإسرائيلية التى تحرص على الحفاظ على حياة الإسرائيليين بعيدا عن الفلسطينيين.

وتعتبر منطقة المصانع الكيماوية الإسرائيلية غربى مدينة طولكرم التى تضم العديد من المصانع مصدرا للموت، وقد أكدت الدراسات البيئية على خطورة الأوضاع الناجمة عن الأبخرة التى تبث منها مثل تلك التى تخرج عن مصنع «كيشيت بريماء» الإسرائيلي للمبيدات الحشرية المقام على حدود مدينة طولكرم.

ويترتب على تلوث الهواء المزمن بهذه الملوثات إلى ارتفاع نسبة الإصابة بأمراض الجهاز التنفسي، مثل الالتهاب الشعبى المزمن والربو الشعبى وانتفاخ الرئة الامفيزيا وسرطان الرئة والسعال، وكذلك يؤدى هذا التلوث إلى ارتفاع نسبة إصابات العين والأنف وأمراض القلب والشرايين والحساسية، وهو يؤدى إلى تدنى مستوى مقاومة الإنسان للأمراض الميكروبية، بالإضافة إلى الأضرار التى يسببها تلوث الهواء بهذه المواد لصحة الإنسان وهناك أخطار أخرى تشمل الجو والنبات والحيوان والجماد.

وفى إطار السعى الفلسطينى الرسمى لوقف تلك الكارثة الصحية شمال الضفة الغربية شرعت سلطة جودة البيئة بالاتصال مع كافة المنظمات والهيئات الدولية المتخصصة وكل أنصار البيئة وحقوق الإنسان فى العالم للضغط على الاحتلال الإسرائيلى بإخلاء ونقل هذه المصانع الخطرة من الأراضى الفلسطينية.

كيف لم أعد يهوديًا

تحت هذا العنوان عرضت صحيفة "سفير" بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١٣/٨/٢٤م كتابا للكاتب الإسرائيلي شلومو ساند جاء فيه:

صدر مؤخرًا عن دار «فلاماريون» الفرنسية كتابٌ للمؤرِّخ والكاتب الإسرائيلي شلومو ساند يحمل عنوان: «كيف لم أعد يهوديًا»، ترجمه عن العبرية ميشيل بيليس.

يستهلّ شلومو ساند كتابه متخطيًا حدود الديانة اليهوديّة ومتحدثا في المطلق عن الدور البارز الذي أدّته الهويّات الدينية المختلفة في تصنيف البشر، وينتقل إلى مفهوم الهويّات القوميّة الذي برز في القرن التاسع عشر، مشدّدًا على قوّة النزعة القومية في إسرائيل، لا سيّما أنّها تنكر مبدأ الجنسية المدنية وتستعيض عنها بجنسية «يهودية» تحدّد انتماء قوميًا لا انتماء دينيًا. ويشير الكاتب إلى أنّ عرب إسرائيل محرومون من هذا الانتماء، لأنّهم لم يولدوا من أمّ يهودية، ناهيك عن أنّ الحركة الصهيونية تستخدم التوراة كصك ملكيّة لاحتلال فلسطين.

ولأنّ شلومو ساند يرمي في هذا الكتاب إلى دحض مفهوم اليهودية العلمانية الذي كرّسته الصهيونية، وإلى دحض مفهوم الانتماء العرقي الواحد لليهود، يتساءل «هل من ثقافة يهودية علمانية»، ويجيب بـ«لا» نظرًا إلى غياب أي لغة مشتركة أو نمط حياة مشترك بين اليهود العلمانيين، وغياب أي أعمال فنية أو أدبية يهودية علمانية، ثمّ يستعرض ساند أصول الديانة اليهودية والجذور التاريخية لـ«إرهاب اليهود» في أوروبا، قبل أن يتطرّق إلى الممارسات الطائفية والعنصرية في إسرائيل ضدّ العرب على وجه الخصوص، وموجات التهويد التي لا تنبع من إيمان ديني راسخ، بل تهدف إلى الوقوف بوجه الفلسطينيين لأنّ «المرء لكي يكون يهوديًا في إسرائيل، عليه قبل كلّ شيء ألّا يكون عربيًا».

يتحدّث الكاتب في ما بعد عن الصور النمطية التي أحاط اليهود أنفسهم بها، وهي أنّ لهم صفات خاصّة متوارثة لا يتمتّع بها أي شعب آخر. ويقارن اليهودي في إسرائيل بنماذج عنصرية سابقة مثل المستوطن الأوروبي الأبيض في جنوب أفريقيا، مشيرًا إلى مفارقة تكمن في أنّ إسرائيل أصبحت مرجعًا لغالبية التيارات اليمينية المتطرّفة التي كانت تحمل راية معاداة الساميّة سابقًا. ثمّ يندّد ساند بعنصرية إسرائيل قائلًا إنّها «أحد أكثر المجتمعات عنصريّة في العالم الغربي»، وتتبدّى هذه العنصريّة في قوانينها ومدارسها ووسائل إعلامها.

أفق آخر للشيخ محمد رشيد رضا

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ محمد وقيم الله مقالا نشر بمجلة البيان بعددها رقم ٤١٣ لسنة ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م؛ جاء فيه:



مارك سايكس — رشيد رضا

الشيخ الإمام محمد رشيد رضا القلموني، ونسبته الأخيرة هي إلى قرية القلمون من ضواحي مدينة طرابلس اللبنانية، وهو في الأصل عراقي، وفي المولد والنشأة لبناني، لكنه عاش معظم سني نضجه ونضاله وعطائه في مصر، وارتبط من هناك بثورات العرب جميعًا، وساندها بكل وسيلة كانت تحت يديه، فهو بذلك الاعتبار ممثل للعالم العربي أجمع، وإن كان أثره قد جاوز العالم العربي إلى آفاق الهند وإندونيسيا. أصدر مجلة فلسفية نهضوية تدعى «المنار» كانت تصل إلى شتى الآفاق، يحيي بها صيحات جمال الدين الأفغاني، ودعوة الإمام محمد عبده، ثم مارس العمل السياسي الاستشاري بعد وفاة هذا الأخير، والتقى اللورد مارك سايكس، صاحب الشأن في اتفاقية سايكس بيكو المشئومة، حيث زوّده بنصح كثير متجرد لم يتآمر فيه على أحد، ولم يكن فيه محابيًا لشعب عربي على حساب شعب عربي آخر، إنما هدَفَ إلى تحقيق المصالح الكبرى لجميع تلك الشعوب.. ثم عرض الكاتب للوثيقة التي تخص لقاء الشيخ محمد رشيد رضا مع اللورد سايكس قائلا:

إن وثيقة محمد رشيد رضا اتخذت وحدة تحليل كبرى، ونظرة مستقبلية إستراتيجية للشئون العالمية، ولشئون العالم العربي والإسلامي المندرجة في ذلك النطاق. ففي لقائه مع اللورد سايكس قدم محمد رشيد رضا ٥١ قضية متشابكة، جعلها مقدمات للنتيجة التي رتبها عليها، وبيّن فيها غوائل الاستيلاء على العراق وسورية في نظر العالم الإسلامي، ومسألة حماية مصر، ومسألة اتهام إنجلترا بالعزم على إزالة الحكم الإسلامي من الأرض، وسعي ألمانيا للاستفادة من العالم الإسلامي باستمالته إليها وتنفيره من الإنجليز.

النقطة الأخيرة لم تكن قد برزت بعد في ذلك الأوان، لكنها تفاقمت فيما بعد بما أزعج بريطانيا غاية الإزعاج، ويكفي أن نذكر هنا ما حدث من لقاءات وتحالفات بين أقطاب الوطنية العرب الأبطال، من أمثال اللواء عزيز المصري، والشيخ الحاج أمين الحسيني، وبين الألمان، لكن بريطانيا في غمرة زهوها بانتصارها على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، لم تكن ترى ملامح ذلك الخطر ولا بوادره، بل إن اللورد سايكس اتهم الشيخ رضا بالمغالاة في الخيال الجامح وتوقع المستحيلات، ووصفه في وثيقة منفصلة رفعها إلى الحكومة البريطانية بأنه شخص دمث الأخلاق وودود المسلك، لكنه في تفكيره السياسي متغطرس ويستحق أن يردع بقوة!

كان سايكس يريده سياسيًا مساومًا ممن يجيدون أعمال المساومة، لكنه وجده صلبًا صلدًا لا يجامل بريطانيا العظمى، التي ازدادت عظمة ومجدًا بانتصارها في الحرب العالمية الأولى.

إن تراث الأمة العربية، قديمًا وحديثًا، لمملوء بالصور الزاهية مثل هذه، وهي صور أولى بالاهتمام والتدارس من غيرها.

الدولة النبوية النشأة والتأسيس



أ. د/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

هناك أحداثٌ في سيرة الأمم والحضارات تحتاج دوما إلى البحث والتأمل والدراسة لأنها في عمق تأثيرها وقوة إنجازها تبقى معلما خلاقا، ويصدق هذا الوصف على المسيرة النبوية بين مكة ويثرب، إذ تظل الهجرة النبوية علامة فارقة في تاريخ الأمة، فهي ذكرى مضيئة أشعت على العالمين خلقا وقيما وحضارة غير مسبوقة وانتقلت بالمسيرة الإسلامية من مرحلة التمهيد إلى التأسيس ومن الدعوة إلى الدولة، وتوطيد دعامة بناء صرح أمة، قوامها العدل وعمارها الفضيلة والكرامة والحرية، فقد قدمت نموذجا فذا بكل المقاييس على المستوى الديني والإنساني والحضاري فاستوعبت فيها أناسًا مختلفين في الدين والجنس والفكر، وتحولت بهم من التشرذم القبلي، والصراع العرقي إلى أمة تتوافق وتأتلف في كيان موحد يحقق الصالح العام لجماعات رأت فيه طوق النجاة لميلاد جديد لدولة ناشئة شكلت مصير العالم لقرون وأجيال.

وحسب المشككين في هذه الحقيقة أن يقرءوا هذا الحدث غير المسبوق، قراءة موضوعية منصفة، تتجرد للحق والعدل، فإنهم إن فعلوا ذلك ستنجلي أمامهم القيم والمنجزات التي تمخضت عن الهجرة من مكة إلى المدينة، فقد أحدثت تحولا عظيما في الشخصية الإنسانية، وقدمت من العطاءات والمنجزات الدينية والمدنية والحضارية للمنظومة البشرية للفرد والجماعة، والإنسانية ما هو شاهد على عبقرية حدث الهجرة، بما لا يجوز تجاهله من المؤرخين المتابعين لعلم المدنية والحضارة الراصدين لنشأة الدول ومصدر وجودها وعوامل نهضتها وبعثها، الواقفين على أسباب انحطاطها وانكسارها، فلا مجال أمامهم إلا أن يعترفوا بقدر الرسالة الإسلامية ودورها في تشييد صرح الدول والأمم، في مسيرة البشرية، وقيمة الأثر الحضاري الذي

جاءت به في صياغة الشخصية الإنسانية على أصول التربية الإيمانية، وتقديم النموذج البناء لتأسيس العلاقات الإنسانية، والاتجاه بالحياة إلى آفاق رحبة من الرقي والتقدم للناس جميعا، في الشئون الدينية والدنيوية على سواء، وتبصيرهم بما ينفعهم ويصلح أحوالهم، ويرتقي بحياتهم، من حيث إنه هدف وغاية لتنظيم العلاقات بين بني البشر جميعا.

كانت الرسالة الإسلامية دعوة ودولة ومدنية وحضارة للبشرية كافة من منطلق أن الناس جاءوا من أصل واحد وأن حياتهم لا تستقيم إلا بالتفاهم والتعاون على سنة الاختلاف مصداقا لقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾

(الحجرات: ١٣)

ولم يكن هذا النداء العالمي مجرد مطلب نظري، إنما قام على تطبيقها رسول الإسلام وترسخ في الضمير الإيماني للمسلم، كما يتضح فيما عهد به الرسول ﷺ إلى الأمة في خطبة الوداع(١) «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

الهجرة: الملامح والرؤى

على طريق الهجرة، تتجلى وبتجلي تأثيرها على الفرد والحدث معا، بما لها من إسهام عميق في النفوس، وفي صناعة الأمم، وتوجيه مسار الحضارة والانطلاق من بناء دولة في بيئة بدائية، لا عهد بها في بناء الدول والأمم.

وقد وضعت قواعد هذا البناء على إيمان يتغلغل في شخصية المسلم فيفجر طاقاتها الكامنة، ويحيي فيها ملكات وقدرات تواجه بها الشدائد والصعاب ويختط لها الطريق الراشد في الحياة، فتتكون من خلاله أمة ذات رسالة عالمية تجمع ولا تفرق، تبني ولا تهدم، وتقيم بالمنهج السديد الأساس لتحرير الإنسان، وبلوغ النهضة والتقدم.

ولم تكن الرؤى التي جاء بها النبي، وطبقها على أرض الواقع إلا برهانا على إيمان لا يتزعزع بالهدف الذي جاء من أجله صاحب الرسالة وحرصه على أن يكون الإسلام الدين والدولة، السبيل لجمع الناس على الإيمان بالله تعالى المتصف بكل صفات الجلال والجمال والإيمان بالملائكة والرسل والأنبياء والكتب المقدسة والإيمان بالبعث والحشر والمعاد، حتى يلتقي الناس على الدين الخاتم، الذي يحتوي أصول الأديان السماوية، ويصحح التصورات العقائدية، ويجعل رسالته إلى البشرية رسالة أخوة وسلام وتعايش ورحمة لا تنكر دينا من الأديان، ولا تقصي أتباع هذا الدين، ولا تجيز للمسلم أن يفرق بين هذه الأديان أو يؤمن برسول دون رسول، وإنما هم رسل الله إلى الخلق دينهم واحد وشرائعهم شتى، تختلف بحسب الزمان والمكان، والإنسان، فالناس أشبه بأزمانهم فجعلهم نتاج الأحداث الجارية فيه.

ولا يخطئ المحلل لأحداث ووقائع

١- انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٨، ص٧٤.

الهجرة، ببروز طابع المدنية فى بنيان دولة المدينة، والاهتمام بترسيخ التعايش، والالتقاء على كلمة سواء، بما يحفظ للأمة قوتها، ويوحد بين أفراد شعبها، ويصون نسيجها، وفق مرجعية الشريعة.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾

(المؤمنون: ٥٢)

ولم يكن تحقيق متطلبات الاعتراف بالأديان، وتواصلها مع بعضها البعض ووحدة أصولها، إلا تأكيدًا على شمولية الدين الخاتم، وسداد منهجه، وجماع رسالته كرسالة رحبة احتوت الأديان كلها وقدمت كل الأديان فى الإسلام.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

(الشورى: ١٣)

وتمحورت هذه الأليات فى تربية الفرد وإعداده إعدادًا قويما، يؤهله لحمل الأمانة، وترسيخ فكر الأمة الواحدة والدولة العميقة، لتكون نبراسًا ونموذجًا تسير على مبادئها الدول والأجيال القادمة والأمم المستخلفة، ليتم التمكين لها بالإيمان والعمل الصالح، فى كل المجالات الدينية والحياتية، فى كل مكان وزمان.

ومن الأهمية بمكان أن نستجلي ملامح ورؤى البعث الإيمانى والحضارى لهذه الرحلة النبوية العظيمة.

الأسباب والبواعث

نعلم بمقتضى فطرة الإنسان لا يترك أهله وبلده إلا لضرورة ملجئة، وأسباب ضاغطة، وأهداف كبيرة، ونلمس من بين الأسباب التى حملت على الهجرة مالاقاه الرسول وأصحابه من قومه وعشيرته قريش فى مكة من إعراض وصدود واضطهاد وتعذيب ومعاناة بلغت المنتهى، للتخلص من دعوته التى عابت آلهتهم وسفهت أحلامهم مما اضطره إلى الهجرة مع جماعة المؤمنين الذين تحملوا كل صنوف الأذى والمقاطعة.

وقد استحكم الأذى ضد الرسول ﷺ وجماعة المسلمين بغية صرفهم عن دينهم والعودة إلى دين آبائهم، حتى إنهم حاصروا المسلمين فى شعب أبى طالب اقتصاديا واجتماعيا فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يتزوجون ولا يتواصلون معهم بأى حال وإنما عزلوهم عن محيط مكة وضيقوا عليهم رحابها، وعاملوهم على أنهم خارجون عن دين الآباء وتراث العرب، وفخار الجاهلية، وساموهم من الاضطهاد ألوانا، وحرموهم من حقوق العشيرة والجماعة القرشية.

وبلغ أمر هذه المقاطعة والحصار إلى أن كتبوا صحيفة تسجل ذلك، إمعانا فى الإضرار بهم، وإكراههم على الكفر بدينهم، وخذلان نبيهم، والعودة إلى فسطاط الشرك والارتداد عن الإيمان، ووأد الدعوة، واجتثاث دين الإسلام.

وفى مواجهة سياسة التجويع وفرض الاستسلام عمل الرسول - ﷺ - على كسر

الحصار، والخروج من هذا المأزق، فجاهد بالحركة الواعية إلى السعى لفتح آفاق جديدة لتبليغ الدعوة لكل الناس، واتخذ من موسم الحج فرصة لعرض الإسلام على القبائل القاصدة إلى حج البيت الحرام، فكان يتلو عليهم بعض آيات القرآن ويدعوهم إلى الإيمان بالإسلام، الذى جاء برسالة التوحيد ونبذ عبادة الأصنام.

وفى ذلك يحكى ابن سعد(٢) كان رسول الله ﷺ يتبع الحجاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحدًا ينصره. ويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا العرب، وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب «فيردون على الرسول أقبح الرد ويؤذونه».

ولن تجد أبلغ من ذلك برهانا على قوة العزيمة وتصميم الإرادة من أجل إبلاغ دعوة الإسلام، دين الحق، والقيام بالعمل الدءوب لجمع الأنصار المؤمنين بالدين وتهيئة الأجواء لنصرة الدين الجديد، فى مواجهة الصد ومقاومة الدين الجديد.

بيعة العقبة الأولى والسعى لصياغة عقد اجتماعى

توالت مساعى الرسول ﷺ فى إبلاغ دعوته إلى الوافدين على مكة لزيارة البيت الحرام بتجرد وإخلاص، عسى أن يلقى قبولا من بعضهم، ولم يعبأ بموقف الصادين ولا المعرضين عن دعوته، بسبب صدق الدين، ويقين الإيمان.

وأثمرت هذه المساعى المتواصلة، فى ذلك اللقاء الذى حدث فى السنة الحادية عشرة من البعثة، عندما عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل عند العقبة(٣)، على نفر من الخزرج، وفى هذا يروى ابن إسحاق أن الرسول قال(٤) لهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالى يهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. «فلما سمعوا منه: نظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». وأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل.

وبهذه المقابلة تمهد السبيل للتعريف بالإسلام فى يثرب بإخبار أهلها بهذا الدين، وإبلاغهم بما سمعوه من الرسول، فلما كان العام القادم، جاء من الأنصار اثنا عشر رجلا.

يقول عبادة بن الصامت فى خبر هذه البيعة: كنا اثنى عشر رجلا، فقال لنا رسول الله: تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا

٢- الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٠، ٢٠١.
٣- وهى مكان بين مكة ومنى ترمى فيها جمرة العقبة.
٤- انظر سيرة ابن هشام، جـ١، ص ٤٢٨.

ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله...

قال عبادة: فبايعناه على ذلك.

وقد بعث الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن وأصول الإسلام، وما جاء به الدين الجديد.

وبهذه المجاهدة من الرسول ﷺ التي استمرت طيلة ثلاثة عشر عاما لا يألو جهدًا في البحث عن جماعة أو قوم يعتنقون الدين وينصرونه، فإن قريشا حالوا بينه وبين نشر رسالة هذا الدين.

وكان الرسول ﷺ في مسعاه يفكر ويدبر ويتخذ أقوم السبل ليجد مكانا للإسلام خارج مكة التي عاندت دعوته، وأرادت إخراجه من وطنه طالما ظل مصرا على أن يؤمنوا بهذا الدين، واتجه بجهوده لإقناع أناس جدد بالإيمان بالإسلام وعمل على أن يتوطن هذا الدين في قلوب وعقول هؤلاء الناس، وينتقلوا به من مكة مهد الدعوة التي حال زعماؤها بينه وبين أهلها لانتقال الإسلام إلى يثرب لتكون عاصمة الإسلام.

وأيقن الرسول ﷺ ضرورة غرس الإيمان، وتصديق القوم به، فتعاهد على نصرة الدين، ونشره في ربوع يثرب، لإعداد وتجهيز أرض يثرب لتكون موطنا وملاذًا لأتباع الدين الإسلامي.

بيعة العقبة الثانية وتدشين العقد الاجتماعي

قام مبعوث الرسول ﷺ إلى يثرب بمهمته في تعليم المسلمين فيها بأمر الدين، واجتهد في ذلك لإنجاح المهمة، لذلك لما عاد مصعب بن عمير إلى موسم الحج التالي في مكة قدم معه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين.

اجتمع هؤلاء النفر(٥)، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان هما: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي، مع الرسول ﷺ وعرض القوم حالهم، وقالوا له: خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت «فعرض عليهم الرسول أمره، وأخذ منهم العهد والميثاق، عندما قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فبايعه البراء بن معرور على ذلك.

وفي هذه العبارة من معاني الطاعة والنصرة، وقبول ما يأتي به الدين من أوامر ونواه، والتنازل عن بعض الحقوق والحريات الشخصية من أجل بلوغ الهدف، وانجاز المصلحة العامة.

وهذه المعاني تتضمن فكرة عقد اجتماعي من نوع خاص بحسبانه عهدًا وميثاقًا يتنازل فيه الفرد لتأسيس كيان يقوم على الإيمان والعمل لصالح الدين والدولة والأمة(٦)

يتبع

٥- سيرة ابن هشام، جـ١، ص٤٣٠.

٦- قارن ذلك بما يذهب إليه جان جاك روسو، أن أفراد العقد يتنازلون عن حقوقهم كلها، ولكنهم لا يتنازلون عنها لشخص معين أو أشخاص معينين، وإنما هم يتنازلون أفرادًا لمجموعهم كله، وهم لا يتنازلون أنفسهم، ولكنهم يتنازلون بالإرادة الجماعية التي هي إرادة الكل الناشئ عن العقد. د. يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة، ص ٧٠، دار الشروق.

من تراث الهلال

المثقفون والسلطة

للأستاذ/ عاطف مصطفى

تعرضت مجلة الهلال في أعدادها المتعاقبة لكل القضايا التي تهم القاريء؛ وكما أشرت من قبل كان لقمم الفكر والثقافة في مصر إسهامات تجعلنا نتوقف عندها بهدف إلقاء الضوء على ما جاء بها من أفكار تصلح لكل زمان ومكان.

ففي عدد «الهلال» أول أكتوبر ١٩٨٦م الموافق ٢٧ من المحرم ١٤٠٧هـ نشر المفكر الإسلامي الدكتور أحمد كمال أبو المجد مقالاً بعنوان «المثقفون والسلطة» يقول في بدايته: في تراثنا أن أصحاب الحكم والسلطان مسئولون أمام الله عما استرعاهم من أمر الناس، وأن العلماء.. كذلك مسئولون أمامه عما حملهم من أمانة البحث عن الحقيقة ونشرها بين الناس، وفي حديث النبي ﷺ: أن الإمام الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، وفيها أيضًا أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن مدادهم يوزن يوم القيامة بدم الشهداء.

وفي تاريخ الإنسان الثابت والموثق أن الصالحين من الحكام كانوا لا يبرمون أمرًا ولا ينقضونه إلا إذا استرشدوا بعلم العلماء، ورأي أهل الرأي وأصحاب التجربة.

ثمرة التعاون

ويواصل الدكتور أبو المجد: وفي الزمن القديم السحيق يحدثنا القرآن الكريم عن ثمرة التعاون بين أهل «العلم» وأصحاب «السلطان» حين يروي لنا قصة سليمان وملكة سبأ.. فيقول:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾

(النمل: ٤٠)

ويروي لنا على الجانب الآخر من القصة، أن ملكة سبأ وقد كانت وقومها كما يقول القرآن الكريم:

﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(النمل: ٢٤)

كانت تحرص هي الأخرى على أن يكون قرارها مستنيرًا بنور العلم، مهتديًا بنصيحة العلماء..

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ

﴿قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(النمل: ٣٢)

والملأ هم خاصة القوم، وأهل الرأى والمكانة فيهم، وفى تراثنا الإسلامى ـ بعد ذلك كله إشارات واضحة بالدعوة الصريحة وبالتقرير الذى يستفاد منه الرضا والاستحسان ـ إلى ضرورة تعاون العلماء والحكام، فأبو بكر رضى الله عنه، كان إذا عرض له أمر جمع رءوس الناس وخيارهم قال «أشيروا علىَّ أيها الناس».

وعلى رضى الله عنه يفسر العزم فى قوله تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

بأنه مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم.

هذا كله لا خلاف حوله ولا مماراة من أحد فيه.

ولكن هل سار التاريخ على هذا النحو من التعاون الهادئ بين الطائفتين؟ وهل اتسعت صدور الحكام لنصائح العلماء؟.. وهل تجاسر العلماء ـ دائمًا ـ على بذل النصيحة وقول الحق وإعلانه بين يدى السلطان؟!

صدام ومواجهة

ويبرز الدكتور كمال أبو المجد أن شهادة التاريخ تقول فى ذلك إن السلطة كثيرًا ما تكون مفسدة، وأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، وأن أكثر الناس ينسون الحكمة الخالدة عن السلطة، وأنها «لو دامت لغيرك ما وصلت إليك».. وأن مقاعد الحكم تصور لكثير منهم أن لهم على الناس حق الطاعة المطلقة، وأنهم ـ بما يحملون من مسئولية، وما يبذلون من جهد ـ جديرون بأن يسلم الناس لهم قيادهم بغير مناقشة، فلا رأى بعد رأيهم، ولا قرار إلا قرارهم، ولا وجهة للجماعة إلا الوجهة التى يختارونها هم، ويستحسنونها لهم.. وهى حالة يكشف عنها ويصورها أدق تصوير قول القرآن الكريم على لسان فرعون:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

(غافر: ٢٩)

فهذا الفرعون لا يتصور لقومه حقًا فى أن يكون لهم رأى غير رأيه، وهو من جانبه لا يطلعهم إلا على ما يراه هو، مقرر فى ثقة عجيبة أنه بهذا يهديهم سبيل الرشاد.

ويتكرر هذا الموقف ـ على اختلاف المرحلة وتباعد الزمان ـ حين يقول حاكم ينتسب للإسلام ولرعيته: من قال لى اتق الله بعد مقامى هذا ضربت عنقه!

ويتراجع إلى الوراء مع حركة التاريخ قول الذى قال لعمر وهو أمير المؤمنين «والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بهذا» ويشير إلى سيفه وتتكرر فى تاريخ أمتنا كما تكررت فى تاريخ الأمم والشعوب.. مواقف الصدام والمواجهة بين السلطان والعلماء..

فنقرأ عن محنة أبى حنيفة مع الخليفة، وما تعرض له من الأذى حين رفض تولى القضاء.. ونقرأ عن محنة أحمد بن حنبل مع الخليفة العباسى المأمون، حين أعلن فى مسألة خلق القرآن «رأيًا يخالف رأى السلطان» كما نقرأ عن محنة ابن تيمية حين قال فى أمور فقهية اجتهادية أقوالًا لا يرضى عنها علماء السلطان، حتى سجن ومات مسجونًا فى قلعة دمشق عام ٦٢٨هـ، ذلك وأكثر منه بكثير وقع فى أوروبا، حين اصطدمت آراء العلماء مع مصالح الحكام، ملوكًا كانوا أو أباطرة أو بابوات، فسجن من سجن، وشرد من شرد، وآثر الصمت وكتمان الحقيقة، من عجز عن المواجهة، وتحمل تبعات الصدام.

وتعاقبت حلقات التاريخ، ولم تعد القضايا الفقهية أو الفلسفية محورًا لصراع يذكر، أو أزمات حقيقية فى علاقة المثقف بالسلطة، كما نقول هذه الأيام، وإنما صارت القضايا السياسية والاجتماعية هى محور المد والجزر فى علاقة المثقفين بالسلطة.

ومع الثورات السياسية والاجتماعية الحديثة، وتطور وظائف الدولة الحديثة، دخلت العلاقة بين المثقفين و«الحكام» مرحلة جديدة حددتها بشكل أساسى متغيرات أربعة:

ترغيب وترهيب

١ـ إن الحكم فى أكثر دول العالم لم يعد حكمًا «فرديًا» خالصًا، تستقر فيه سلطة الأمر والبت بين يدى حاكم فرد، يرضى عن المثقفين فيأمنون ويسخط عليهم فيخافون، وإنما صار «الحكم» مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات تراجع معها إلى حد كبير الدور الشخصى للحكام.

٢ـ إن مهمة الدولة الحديثة قد تعقدت إلى درجة لم تكن تخطر على بال الحكام الأوائل، وصار الهم الحقيقى الذى يواجه الحكومات المختلفة، هو البحث عن حلول عملية للمشاكل المعقدة التى تواجه المجتمعات، وبذلك عظم الإحساس بالحاجة إلى ترشيد قرارات أجهزة الحكم، كما عظمت المسئولية الملقاة على عاتق العلماء والمثقفين فى المعاونة على هذا الترشيد.

٣ـ إن وسائل الترغيب والترهيب التى يلجأ إليها الحكام لمواجهة المثقفين أو احتوائهم أو إبعادهم عن طريقهم، وقد تعددت واتسع نطاقها، فلم يعد الأمر مقصورًا ـ على تقريب هذا من بلاط الحاكم، أو إبعاد ذلك أو حرمانه من العطاء ـ وإنما صارت «مؤسسات الدولة وأجهزتها وتنظيماتها السياسية» بؤرة جذب وإغراء شديدين لكثير من المثقفين، تستهويهم للاقتراب منها أو الارتباط بها، والإفادة من جاهها ومالها فى الارتفاع بالمستوى الاجتماعى للمثقف، وتأمين حياته الخاصة والأسرية، وهذا منزلق خطير، لأن خطواته الأولى تصل بصاحبها إلى نهاية الطريق... فإذا به يتخلى ـ شيئًا فشيئًا ـ عن أمانة الجهر بالحق وإعلان الرأى، ثم إذا به ـ شيئًا فشيئًا ـ يرى الأمور كلها بعين السلطة ويزنها بميزانها، ويفقد بذلك دوره فى التنبيه إلى الرأى الآخر، والقيام بحق العلم الذى تعلمه، والحكمة التى أوتيها.

وكلما انزلق فريق من المثقفين إلى أن يكونوا جزءًا من حاشية السلطان وأبواقًا من أبواقه، تعرض فريق آخر منهم لمزيد من الضغط والترهيب، وصار من اليسير اتهامهم بأنهم يسرفون فى النقد، ويشتدون فى المعارضة، وأن ولاءهم للحكم القائم ولاء منقوص، وربما حيل بينهم وبين المشاركة بالرأى، وممارسة الاجتهاد، وبذل النصيحة فحرموا بذلك حقًا طبيعيًا لهم، وحرمت

الجماعة من رأيهم وخبراتهم وثمرات علمهم، واستغنت عن ذلك كله بموافقة الموافقين، وتأييد الممالئين، ممن لا يخلصون نصيحة ولا يجهرون برأى.

سلطة الفرد الواحد

يواصل الدكتور أبو المجد قائلاً: إن الحقائق المقدمة تأخذ في عالمنا العربي المعاصر صورة أزمة حقيقية، تحتاج إلى مواجهة عاجلة وذلك لسببين رئيسيين:

- أولهما: أن نظام الحكم في الكثرة الغالبة من الدول العربية ـ لاتزال في جوهرها نظمًا فردية ـ رغم الواجهات الدستورية التي تنسبها إلى الديمقراطية... ومعنى هذا ـ من الناحية العملية ـ أن سلطة البت والتقرير في كبريات المسائل السياسية والاجتماعية، تستقر بين يدى فرد واحد تحيط به ـ في أحسن الفروض ـ حاشية محدودة العدد من الأعوان والمستشارين.

وهذه الصيغة من شأنها أن تجعل مصير الشعب كله معلقًا بمدى الخطأ والصواب في القرارات الفردية التي تعالج بها الأمور.. وفي ظل هذه الأوضاع كلها تشتد الحاجة إلى إسهام المثقفين ومشاركتهم الحقيقية بالرأى والاجتهاد والنصيحة، وتشتد الحاجة تبعًا لذلك إلى خلق الظروف السياسية والاجتماعية، التي تشجع المثقفين والعلماء على ممارسة هذا الدور.

- ثانيهما: أن أسلوب اتخاذ القرار السياسي والاجتماعي، بالإضافة إلى فرديته، لايزال أسلوبًا عشوائيًا في أغلب الأحيان، ولايزال كثير من الحكام غير مستوعبين تمامًا لطبيعة العصر، ودقة المشاكل التي يتصدون لعلاجها، ولايزال بعضهم يتصور أن الفطنة الموروثة وسلامة النظر، تكفيان لمواجهة أعقد المشاكل، وتغنيان عن الدراسات المنهجية التي يقوم بها المتخصصون.. ولهذا قل أن تقوم إلى جوارهم هيئات متخصصة للدراسة والبحث والمشورة، مع أن هذه الهيئات والمراكز قد أصبحت جزءًا أساسيًا من جهاز «الفكر» الذي يرشد أكبر الحكومات وأوفرها حظا من الكفاءات المتخصصة.

لقد كان لهاتين الظاهرتين آثار مؤسفة للغاية على مستوى كفاءة الحكم من ناحية وعلى موقف العلماء والمثقفين من «الحكم والسلطة» من ناحية أخرى:

أ ـ فلقد تراجعت كفاءة أكثر الحكومات العربية، وأعجزتها ضخامة المشاكل، وانتشر في كل مكان إحساس بأنها غير قادرة على الإمساك بزمام الحوادث أو ممارسة التخطيط الضرورى، لإخراج المجتمعات العربية من «عنق الزجاجة» الذى تمر به.. والوصول بها إلى مرحلة الإقلاع الحضارى ـ التي بدت في وقت ما قريبة وعلى مرمى البصر ـ ثم إذا بها تبتعد وتبتعد، ولا يكاد أحد يراها، أو يتوقع حصولها في الغد المنظور.. وتجاوز مظاهر هذا التراجع حدود الأوضاع الداخلية للمجتمعات العربية، لتصل إلى قضايا وأوضاع وثيقة الصلة باستقلال تلك الدول وسيادتها، وسط أطماع دولية تحيط بها من كل جانب، وتهدد أمنها في صميمه، وتوشك أن تردها إلى حالة من الهوان والتبعية والتخلف، تتسع معها الفجوة بينها وبين العالم المتقدم.

البخارى الفقيه ذو الأدب



لفضيلة الشيخ/ عبدالمجيد حامد صبح



> وأخص بالفقه هنا معناه عند السلف: الذي هو فقه الباطن، من التزكية وطهارة القلب.
>
> ونقصد بالأدب هنا: الأدب الأخلاقي الذي يعرف الفضل لأهل الفضل، وبيان ذلك: أن الإمام البخاري خالف الإمام أبي حنيفة في اثنتي عشرة مسألة من مسائل الفقه بمعناه الاصطلاحي الذي هو: علم أحكام الفروع.
>
> والإمام أبو حنيفة مُلقَّب عند كثيرين بالإمام الأعظم، ويبين هذا اللقب كلمة الإمام الشافعي عنه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.
>
> وعندما تكلم الإمام البخاري عن المسائل التي خالفه فيها، كان يقول: «وعند بعض الناس»، أو «بعض الناس يقولون» يذكر رأيه ثم يعقب برأي أبي حنيفة من غير أن يصرح باسمه، وهذا أدب أخلاقي يعبر عن صاحبه.
>
> كما يدل على معرفته بقيمة الرجال وحفظ منزلتهم من أن تمس بنقص.

وحسبك من الإمام البخارى فقيهًا أن يضارع إمام الفقهاء أبا حنيفة ويستدرك عليه والمسائل هي:

المسألة الأولى: الركاز

هو عند الإمام البخارى: دفين الجاهلية فقط.

بينما الركاز عند الحنفية: المال المدفون والمعادن جميعاً «فأدخل المعادن في الركاز» ولما عرض البخارى لرأى أبي حنيفة قال: وعند بعض الناس. ولم يصرح بلفظ الأحناف أو أبى حنيفة أدبا عندما خالفه.

قال البخارى في باب «في الركاز الخمس» فتح البارى جـ٣ / ٢٨٤: بعض الناس قال: المعدن ركاز مثل دفين الجاهلية.

وحجة البخارى قوله ﷺ: «المعدن جبار وفي الركاز الخمس» واحتج أبو حنيفة بعموم قوله ﷺ: «في الركاز الخمس»

وجعل الركاز شاملة للمعدن.

قال ابن حجر في شرح هذا الباب: قول البخاري، وقال بعض الناس: المراد ببعض الناس: أبو حنيفة. وقال ابن حجر: وهذا أول موضع ذكره البخاري بهذه الصفة، ويحتمل أنه يريد أبا حنيفة وغيره من الكوفيين ا.هـ.

المسألة الثانية: قول الرجل: «أخدمتك هذا العبد» هل هو هبة أم عارية؟

اعتبرها أبو حنيفة عارية «أي مستردة» وليست ملكًا، كما قال البخاري.

المسألة الثالثة: قول الرجل لآخر: حملتك على هذا الفرس، هل هو عارية أم هبة؟ وهل يصح الرجوع عنها أم لا؟

رأي البخاري: أنه صدقة ولا يجوز الرجوع فيها، مستشهداً بحديث عمر بن الخطاب، أنه قال: حَملتُ على فرس في سبيل الله، فرأيته يباع، فسألت رسول الله فقال: «لا تشتره ولا تعد في صدقتك».

أما عند الأحناف: فبحسب نية القائل، فإن نوى الهبة، فلا يرد ولا رجوع فيه وإن لم ينو، فهو عارية مستردة.

«حملت على فرس: أي أعطاه لرجل يجاهدُ عليه»

المسألة الرابعة: القاذف، هل تُقبل شهادته إذا تاب أم لا؟

أما أبو حنيفة فيرى عدم قبول شهادته.

والفقه في المسألة مبنى على قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(سورة النور: ٤).

فحكم عليهم بثلاثة ثم قال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

(سورة النور: ٥).

فعلام يعود الاستثناء؟

فعند أبي حنيفة يعود على الفسق فقط، فيرفع عنه الحكم بالفسق، ويجلد ولا تقبل له شهادة.

ولكن الإمام البخاري أعاد الاستثناء إلى الشهادة والفسق، فكما يُرفع عنه لقب الفاسق؛ يرفع عنه عدم قبول الشهادة، وعلى هذا تقبل توبته مع الجلد، ويشهد للإمام البخاري بما رواه في صحيحه (جـ٥ / ١٩٤) قال: جلد عمر جماعة ثم استتابهم، وقال من تاب قبلت شهادته، ونُسب هذا الرأي أيضاً إلى جماعة من التابعين على قبول التوبة منهم عمر بن عبدالعزيز وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم.

قال الحافظ ص١٩٤: وحديث استتابة عمر لمن جلد وصله الشافعي في الأم ونقل الحافظ عن الشافعي أنه قال: سمعت الزهري يقول: زعم أهل العراق أن شهادة المحدود لا تجوز.

قال البخاري في «كتاب الشهادات

ص١٩٦): «وقال بعض الناس لا تجوز شهادة القاذف وإن تاب» ويقصد بعض الناس الإمام أبا حنيفة، قال الحافظ: هذا منقول عن الحنفية واحتجوا بأحاديث في رد شهادة المحدود، قال الحافظ: لا يصح منها شيء.

وبهذا يتبين لنا صحة رأي الإمام البخاري، كما يتبين لنا أدبه في عدم ذكر أبي حنيفة أو الأحناف.

«وهذا الأدب نفتقده في أيامنا فكثير من قليلي البضاعة يتطاولون بألسنة حداد على العلماء العارفين بل إن هناك عالما كبيرا أستغفر الله له سقط في هذه السقطة، وقد أفضى إلى ربه، وكان معدودًا من علماء الحديث وأساتذته، فكان ألزم إنسان بأدب رسول الله ﷺ الذي كان يقول وقد علم خطأ بيقينه وسماعه، فيخطب الناس ويقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا».

ومازلنا إلى اليوم نسمع صيحات من أمثال هذا الإسفاف.

قال ابن العربي «في أحكام القرآن» قال أبو حنيفة: رد الشهادة من جملة الحد؛ ومعنى هذا لزوم عدم قبول الشهادة؛ لأنها من الحد، والحد لا يسقط بالتوبة.

وذكر ابن العربي بأن عدم قبول الشهادة الذي قال به أبو حنيفة؛ هو رأي القاضي شريح. وقال محمد بن الحسن في «الآثار» ٢ / ٦٣٨: حدثنا أبو حنيفة: حدثنا حماد عن إبراهيم قال: إذا جلد القاذف لم يجز شهادته أبدا، وقال في قول الله عز وجل:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

(النور: ٥)

قال: يرفع عنه الفسق، فأما الشهادة فلا تجوز أبدا؛ قال محمد بن حسن: وبه نأخذ؛ وهو قول أبي حنيفة.

وذكرتُ الروايات المؤيدة لرأي الإمام أبي حنيفة إنصافًا له وبيانًا لرأيه وأنه لا يتكلم من فراغ، وإن خالفه جماعة من الثقاة.

قال شيخنا «الشيخ محمد أبو زهرة» في «كتابه الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي»: قال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والثوري بأنه: لا تقبل شهادته وإن تاب، فالتوبة لا ترفع عنه إلا لقب الفسق، أما رد الشهادة فقد سبق البيان بأنها جزء من الحد عند أبي حنيفة.

قال الشيخ: وقد قال بعدم قبول الشهادة جمع من التابعين، منهم سعيد بن المسيب، وشريح، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير.

وقال شيخنا أيضاً: إن الرمي كذب بل هو أعظم الكذب، وأعظم الافتراء، فكان من المناسب له ألا تقبل شهادته.

وقال أيضاً: إن الله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾

(النور: ٤)

فأبّد عدم قبول الشهادة.

وأقول: إذا فسد الزمان وكثر استهتار

الكثيرين بالرمى بالفواحش يكون من الحق أن نأخذ بما فيه الردع؛ لأن أمثال هؤلاء يسهل عليهم أن يقول: تبت. ويجهل أن شرط قبول التوبة أن تكون: نصوحاً، بمعنى خالصة مستوفاة لشروطها:

من الإقلاع عن الذنب والندم القارص على ارتكابه، والعزم الأكيد الذى تبدو علاماته على المذنب بعدم العود.

المسألة الخامسة: إقرار المريض لوارثه بالدين

قال الإمام البخارى: يصح إقرار المريض بالدين مطلقًا سواء كان المقر له وارثًا أجنبيًا واستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾

(النساء: ١٢)

أما الإمام أبو حنيفة قال: لا يصح إقرار المريض مرض الموت لقوله ﷺ: «ألا لا وصية لوارث، ولا إقرار له بدين». والحديث جعله الإمام البخارى عنوانًا لباب من أبواب كتاب الوصايا؛ فقال: «باب لا وصية لوارث» وهذا نوع من فقه العنوان عند الإمام البخارى؛ لأن الحديث الذى لا يصح عنده ويصح عند غيره يجعله عنوانًا لباب كما قال: «باب: الأئمة من قريش» والحديث رواه أبو داود برقم ١٢٨١ وسكت عنه، ورواه الترمذى وحسنه، وربما يتفق هذا مع قاعدة العلماء: أن ما سكت عنه أبو داود يكون عنده فى درجة المقبول.

وقال الحافظ فى الفتح جـ٥ / ٢٨٦: الحديث مرفوع ولكنه لم يثبت على شرط البخارى، وهو مروى برواية إسماعيل عن عياش، وقد قوى حديثه عند الشاميين «جماعة من الأئمة» وذكره الدارقطنى وقال: الصواب إرساله أ. هـ.

وبذلك نخلص إلى أن الحديث «لا وصية لوارث» فيه مقال عند العلماء، فلا غرو ألا يرويه البخارى، وإشارة إلى رأى غيره جعله عنوانًا لباب من أبواب الوصايا، فإذا لم يعتمده فى رأيه، وبأنه يجوز إقرار المريض بالدين لأحد الورثة، فلا غرو ألا يعتمده. وفى الحديث زيادة «ولا إقرار له بدين».

كما قال «صاحب المبسوط» وهو من أعلام الأحناف، اعترف بأنها شاذة وغير مشهورة. «ر. ما تمس إليه الحاجة سنن ابن ماجة ص٢٣٩».

المسألة السادسة: حد الأخرس فى القذف واللعان

قال البخارى: إذا قذف الأخرس امرأته بكتابة أو إشارة أو إيماء معروف فهو كالمتكلم. وقال الأحناف: لا حد على الأخرس ولا لعان.

واحتج البخارى ومعه أهل الحجاز والشافعى بقوله تعالى:

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾

(مريم: ٢٩)

واحتج البخارى خاصة بعموم قوله تعالى ﴿يَرۡمُونَ﴾ فى قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾

(النور: ٦)

لأن الرمى أعم من أن يكون باللفظ أو الإشارة المفهمة، فهو كالمتكلم. وعدم إجازة الأحناف إشارة القاذف يردها عليهم إجازتهم صحة الطلاق بالإشارة المفهمة، كما يشهد عليهم كلام «العينى» وهو من أعلام الأحناف قال: إن الإشارة المعهودة من الأخرس تقوم مقام العبارة وهو عين مذهب الإمام البخارى. ولكن أدب الإمام منعه من التصريح بالمخالفين.

المسألة السابعة: تفسير النبيذ

وفى هذه القضية يوافق الإمام البخارى الإمام أبا حنيفة، وتصويب رأيه لا الرد عليه وهذا دليل على إخلاص الإمام البخارى حيث يخالف أبى حنيفة لأجل مخالفته السنة، ويصوبه أخرى لموافقته إياها، فخلافه مع أبى حنيفة لا لنفسه بل دفاعًا عن السنة حسب فهمه وروايته لها.

قلت: ويؤيد رأى البخارى وأبا حنيفة ما رواه إبراهيم النخعى عن خاله علقمة بن قيس تلميذ ابن مسعود أنه تغدى معه فدعا بنبيذ فشرب منه.

وفى «موسوعة فقه إبراهيم النخعى ص٢٨٥»: شرب المسكر مباح عنده ما لم يسكر من غير عصير العنب.

المسألة الثامنة: بيع المكره

يرى البخارى عدم صحة بيع المكره. وعند الحنفية ينعقد فاسدًا.

وهم يفرقون بين الفساد والبطلان.

فالباطل لا ينعقد به العقد أصلًا، وبالتالى لا ينقل الملكية.

أما الفاسد: فينعقد فيه العقد وينقل الملكية من عدم توفر الشروط.

ورأى البخارى هو رأى الجمهور ويؤيده القرآن الكريم فى قوله:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾

(سورة النساء: ٢٩).

قلت: ورأى البخارى مع رأى الجمهور: هو ما يتفق وكرامة الإنسان، فلا يتفق مع هذه الكرامة أن يكره على بيع شىء من ملكه ويحكم بجواز نقل الملكية مع الحكم بالفساد، قوله تعالى:

﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾

(سورة النساء: ٢٩).

نص صريح فى حرمة أكل المال بالباطل، وأكله بالباطل يكون على إحدى صور ثلاث:

- أولها: أن يكون بغير عوض: كالزيادة الربوية فى نظير الوقت.
- ثانيها: أن يكون بعوض غير صحيح كالغش فى التجارة.
- ثالثها: أن يكون بسرقة: وهى أخذ المال من حرزه المعتاد، أو يكون سلبًا بأن يكون من غير حرزه أو يكون غصبًا مأخوذًا بالقهر والإكراه، ولا مرية فى أن يكون الإكراه على البيع داخلًا فى الوجه الثالث من وجوه البطلان.

يتبع

«التاريخ الهجرى أحداث ومناسبات»

يوم سُرِقَ الحجر الأسود!!

إعداد الأستاذ/ سعد فتحى

في مثل هذا الشهر وبالتحديد يوم التروية الثامن من ذى الحجة سنة ٣١٧هـ هاجم قرامطة البحرين مكة المكرمة في موسم الحج، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه واحتملوه إلى بلادهم، وأعملوا السيوف فى رقاب الحجيج، واستحلوا حرمة البيت الحرام، فخلعوا باب الكعبة، وسلبوا كسوتها الشريفة، وأعملوا السلب والنهب فى البلد الحرام،وقتلوا قرابة ثلاثين ألفا من أهل البلد ومن الحجاج ودفنوا الناس أحياء فى بئر زمزم الطاهرة وسبوا النساء والأولاد، وانقلبوا إلى بلادهم يحملون الحجر الأسود حيث أبقوه عندهم نحو ٢٢ سنة إلى عام ٣٣٩هـ ثم أعادوه إلى مكة..

فضل الحجر الأسود

الحجر الأسود أشرف حجر على وجه الأرض، وهو أشرف أجزاء البيت الحرام، ولذا شرع تقبيله واستلامه، ووضع الخد والجبهة عليه، وقد جاء فى فضل الحجر الأسود أحاديث كثيرة منها: قال رسول الله ﷺ:

- «الحجر الأسود من حجارة الجنة»[١].
- «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم»[٢].
- «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»[٣].

يعنى بالركن ههنا: الحجر الأسود، وسمى ركنا لأنه مبنى فى الركن.

- «إن مسح الحجر الأسود والركن اليمانى يحطان الخطايا حطا»[٤].
- «لولا ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفى وما على الأرض شىء من الجنة غيره»[٥].
- «ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق»[٦].

ويروى أن نبى الله إبراهيم عليه السلام طلب من إسماعيل عليه السلام أن يبحث له عن حجر ليكون بداية الطواف عندما شرعا فى رفع القواعد من البيت لبناء الكعبة من جديد، وأخذ إسماعيل يبحث ولم يجد، خاصة وأن مكة مقامة على كتلة هائلة من الصخور الجرانيتية النارية المتحولة وأغلب جسم الكعبة مبنى من هذه الصخور، فلما تعب إسماعيل رجع لأبيه وقال لم أجد حجرا مختلفا نجعله بداية الطواف فقال له إبراهيم: «لقد أتانى به من هو خير منك، أتانى به جبريل عليه السلام»

وقد اشتهرت مقولة الفاروق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- فى تقبيله للحجر الأسود «لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، ما قبلتك» من حديث أخرجه الجماعة.

قال الحافظ ابن حجر: قال الطبري: إنما قال ذلك عمر، لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام، فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ، لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته، كما كانت تعتقده فى الأوثان». فتح البارى ٣ / ٣٧٠»

شكل الحجر الأسود

هو حجر بيضاوى الشكل، لونه أسود ضارب للحمرة، وبه نقط حمراء وتعاريج صفراء، وقطره حوالى ثلاثين سنتيمترا، ويحيط به إطار من الفضة عرضه عشرة سنتيمترات، يقع فى حائط الكعبة فى الركن الجنوبى الشرقى من بناء الكعبة على ارتفاع متر ونصف متر من الأرض ومنه يبدأ الطواف، وللحجر كساء وأحزمة من فضة تحيط به حماية له من التشقق.

مَن هم القرامطة؟

القرامطة ينسبون إلى مؤسسها حمدان ابن الأشعث الملقب بقرمط وكان قد قدم من خوزستان ونزل بموضع فى الكوفة حوالى سنة ٢٧٣هـ وتظاهر بالزهد والورع والتقشف، وكان ينسج الخوص، ويأكل من كسب يده، ويكثر من الصلاة، وأقام على ذلك زمنا، وكان إذا تردد عليه الناس وجلسوا إليه، حدثهم فى أمر الدين وزهدهم فى الدنيا، وأخبرهم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة فى اليوم والليلة، حتى نشأ ذلك بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، فأقام على الدعاية حتى اجتمع حوله أناس كثيرون.

وينتمى القرامطة إلى الإسماعيلية، وهى طائفة من طوائف الشيعة، وقد أتقن هؤلاء الإسماعيلية فنون الدعوة إلى مذهبهم كل الإتقان، وبثوا دعاتهم فى المناطق المتطرفة وبين الناس الذين يغلب عليهم الجهل وقلة النظر والبحث، فيستميلون الناس إلى مذهبهم.

«١» عن أنس «صحيح» حديث رقم ٣١٧٥ فى صحيح الجامع.
«٢» رواه الترمذى عن ابن عباس «صحيح» حديث رقم ٦٧٥٦ فى صحيح الجامع
«٣» رواه أحمد والترمذى عن ابن عمرو «صحيح» حديث رقم ١٦٣٣ فى صحيح الجامع.
«٤» رواه أحمد عن ابن عمر «صحيح» حديث رقم ٢١٩٤ فى صحيح الجامع.
«٥» سنن البيهقى عن ابن عمرو «صحيح» حديث رقم ٥٣٣٤ فى صحيح الجامع
«٦» الجامع الصغير عن ابن عباس، (صحيح) رقم ٩٤٧٧.

وكان القرامطة يتدرجون فى دعوتهم للناس، فيدعون إلى التشيع وإلى إمام من أهل البيت، ثم يتدرجون شيئاً فشيئاً إلى الغلو والإباحة، وكانوا يسترون عقائدهم فلا يكاشفون العامة بشتم الأنبياء وتعطيل الشرائع، وإنما يخدعون الناس سراً، وينقلونهم عن الإسلام بالحيل والأيمان من حيث لا يشعرون شيئاً فشيئاً، وهم يقصدون بدعوتهم الديلم والأعراب، وكل من يقل بحثه ونظره، وله رغبة بالدنيا، وشغل بها، ثم يقطعونهم عن البحث والنظر بالعهود والأيمان المغلظة.

الحدث المروع

يحكى لنا ابن كثير فى كتابه الماتع «البداية والنهاية ج١٥ ص٣٧» ماحدث فيقول:

خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمى فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافت الركوب هناك من كل مكان وجانب وفج، فما شعروا إلا بالقرمطى قد خرج عليهم فى جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل فى رحاب مكة وشعابها وفى المسجد الحرام وفى جوف الكعبة من الحجاج خلقا كثيرا، وجلس أميرهم أبو طاهر -لعنه الله- على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل فى الناس فى المسجد الحرام فى الشهر الحرام فى يوم التروية، الذى هو من أشرف الأيام، وهو يقول:

أنا الله وبالله، أنا
أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدى ذلك عنهم شيئا ،بل يقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيقتلون فى الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فلما وجب أنشد وهو كذلك:

ترى المحبين صرعى فى ديارهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

فلما قضى القرمطى لعنه الله أمره وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن تدفن القتلى فى بئر زمزم، ودفن كثيرا منهم فى أماكنهم من الحرم، وفى المسجد الحرام.

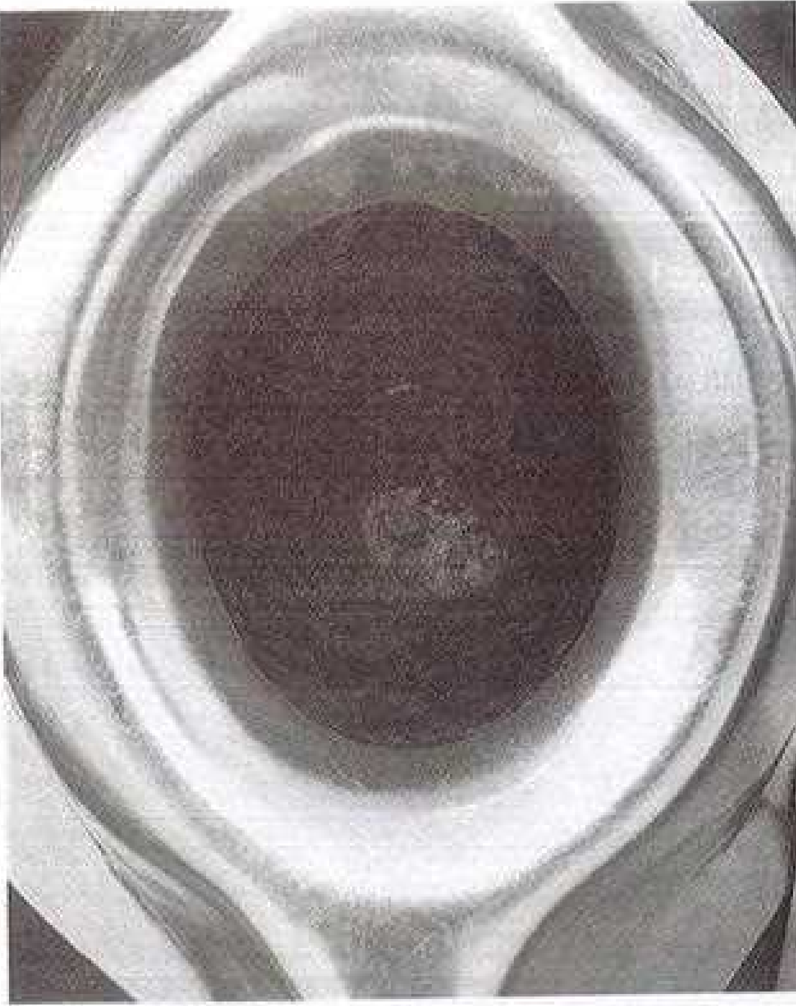
ويا حبذا تلك القتلة وتلك الضجعة، وذلك المدفن والمكان، ومع هذا لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم لأنهم محرمون شهداء فى نفس الأمر.

وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة مصب ماء المطر» فيقتلعه، فسقط هذا الرجل على أم رأسه فمات.

فعند ذلك انكف الخبيث عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود فجاءه رجل فضربه بمثقل فى يده وقال: أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلعوا الحجر الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة.

وأثناء رجوع القرمطى إلى بلاده ومعه الحجر الأسود تبعه أمير مكة «ابن محلب» هو وأهل بيته وجنده وسأله وتشفع إليه أن يرد الحجر الأسود ليوضع فى مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال فلم يلتفت إليه، فقاتله أمير مكة فقتله القرمطى وقتل أكثر أهل بيته، وأهل مكة وجنده واستمر ذاهبا إلى بلاده ومعه الحجر وأموال الحجيج.

وقد ألحد هذا اللعين فى المسجد الحرام إلحادا لم يسبقه إليه أحدٌ ولا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذى لا يعذب عذابه



أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنيع أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا فى هذه السنة ببلاد إفريقية من أرض المغرب، ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح، وقد كان صباغا بسلمية، وكان يهوديا فادعى أنه أسلم ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية، فادعى أنه شريف فاطمي، فصدقه على ذلك طائفة كثيرة من البربر وغيرهم من الجهلة، وصارت له دولة، فملك مدينة سجلماسة، ثم ابتنى مدينة وسماها المهدية، وكان قرار ملكه بها، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويدعون إليه، ويترامون عليه، ويقال إنهم إنما كانوا يفعلون ذلك سياسة ودولة لا حقيقة له.

وذكر ابن الأثير أن المهدى هذا كتب إلى أبى طاهر يلومه على ما فعل بمكة حيث سلط الناس على الكلام فيهم، وانكشفت أسرارهم التى كانوا يبطنونها بما ظهر من صنيعهم هذا القبيح، فكتب إليه رسالة ملؤها التنديد واللعن، يقول له: «أخفقت علينا سعينا، وأشبهت دولتك بالكفر والإلحاد بما فعلت.

متى لم ترد على أهل مكة ما أخذت، وتعد الحجر الأسود إلى مكانه، وتعد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة».

فكتب إليه بالسمع والطاعة، وأنه قد قبل ما أشار إليه من ذلك.

وظل الحجر الأسود عندهم نحو اثنتين وعشرين سنة - كما أشرنا - ثم حملوه وأتوا به إلى الكوفة فنصبوه فى المسجد الجامع حتى يراه الناس، ثم حملوه إلى مكة وردوه فى مكانه فى الكعبة، وقالوا: «أخذناه بأمر ورددناه بأمر».

وكان عدد من ملوك الإسلام قد طلبوا أن يستردوه بأى مبلغ من المال يحدده القرامطة وبذل بعض الملوك والأمراء لهم خمسين ألف دينار، فلم يردوه، وردوه فى سنة ٣٣٩ هـ بغير شيء.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



رغم اتساع رقعة الاتصال والتواصل بين مختلف جنبات عالمنا المعاصر مما يسر وسهل الإطلاع على مختلف ثقافات الشعوب وحضاراتها خاصة العالم العربي والإسلامي -رغم ذلك كله- إلا أنه لا يزال هناك نفر من كتاب الغرب تسيطر روح الاستشراق القديمة على قلوبهم وتتحكم في عقولهم ومازالوا ينظرون للعرب والمسلمين كأنصاف بشر لم تكتمل آدميتهم مثل الإنسان الغربي وفي هذا السياق يأتي كتاب "ما بعد الربيع العربي" للصحفي البريطاني جون آر برادلي .الكتاب الصادر عن دار كلمات عربية للترجمة والنشر وترجمته شيماء عبد الحكيم طه يرفض مؤلفه الاعتراف بأن اندلاع ثورات الربيع العربي من أجل الحريات واختيار نظام سياسي عصري بل يرى أن عدم توفر الوظائف هو الذى أدى إلى حدوث هذه الثورات . . وتأكيدا للروح العنصرية يقول "الشعوب المختلفة ذات الثقافات والديانات واللغات المختلفة لا تترجم بالضرورة رغبتها في الحياة الكريمة إلى حب للنظام البرلماني البريطاني أو النظام الفردى الأمريكي" فالمسألة برأيه اقتصادية لذلك يسخر من وصف الشعوب العربية بأنها "تتحرك إلى الأمام تحت مسمى تحقيق الديمقراطية" . . يتخذ المؤلف موقف غاية في الغرابة حيث يرى أن عدم انفتاح الحركات الإسلامية على قيم الحرية والإيمان بالتعددية -وهو كلام صحيح- يدل على عدم جدوى الثورات في العالم العربي



يزخر كتاب "ذكريات العمر" للدكتور مصطفى طلبة عالم البيئة المصرى والعالمي والمدير السابق للأمم المتحدة بالعديد من الأسرار و الخبايا الخاصة بتاريخ مصر في فترات عبد الناصر والسادات ولعل أبرزها وأغربها كشفه عن وقائع محددة لسيطرة النظام البوليسى فى عهد عبد الناصر على أمور علمية وتقنية كان من الممكن أن تجعل مصر في مصاف البلاد المتقدمة رغم إشادته بالنظام الناصرى خاصة في الجانب الاجتماعى . . أما فيما يتعلق بالرئيس السادات فالرجل أكد أنه شارك مع محمد عثمان إسماعيل مستشار الأمن القومى و بتكليف من الرئيس السادات في الاتصال بأساتذة الجامعات من الإخوان المسلمين المعتدلين لإنشاء جماعات إسلامية في الجامعات لمواجهة تيارات اليسار المتطرفة التى انتشرت في الجامعات وقتها -على حد قوله- . . الكتاب بجانب ذلك يضم عدة مقترحات لمواجهة مشكلة الزيادة السكانية وتطوير التعليم وغيرها من القضايا ذات الطابع العلمى التى تقع فى إطار تخصص المؤلف



يرصد الشيخ عبد المتعال الصعيدى -رحمه الله- في كتابه "تاريخ الإصلاح في الأزهر . . صفحات من الجهاد في الإصلاح" المحاولات الإصلاحية التى شهدها الجامع الأزهر منذ سقوط بغداد وحتى عهد تولى الشيخ عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر . . . الكتاب الذى أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة نشره يقع فى ٢٨٥ صفحة يضم مجموعة من الوثائق الفريدة مثل القوانين الصادرة بحق الأزهر فى مختلف العهود فضلا عن سرد تاريخى لعلاقة رموز التجديد الإسلامى بتطوير وإصلاح الأزهر من حسن العطار وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق.

المؤلف لم يقف عند استعراض تاريخى وفكرى لجهود الإصلاح بالأزهر بل عبر عن رأيه في هذه المسألة وخصص عدة ملاحق لملاحظاته على الكتب التي كانت تدرس في الأزهر حتى وقت قريب مثل "متن الاجرومية" في النحو . . وكذلك كيفية تدريس الأدب وطرق فهم النصوص الأدبية . . . و ينقل الصعيدى رأى ابن خلدون في مناهج الأزهر وقت قدومه إلى مصر وهو رأى رافض للطريقة التى كانت موجودة وقتها

يضم كتاب "سجع المنثور" لأبى منصور الثعالبى ٨٥ مثلا عربيا ومولدا وما يزيد على مئة وخمسين بيتا كاملة للسجع البليغ الذى يثرى الاتجاه الإبداعى والتأليفى الهادف إلى المزج بين النثر والشعر فضلا عن تقريبها إلى أذواق المولعين بحفظ ما اشتهر وذاع وانتشر من أبيات شعرية أو حكم أو أمثال . . د. أسامة محمد البحيرى محقق هذه الرسالة وصف الكتاب بأنه "مزج ماهر بين الكتابة الإبداعية الفنية والكتابة الوظيفية التطبيقية حيث جمع الثعالبى مادة كتابه من كتب المؤلفين ورسائل البلغاء السابقين عليه والمعاصرين له وألف بينها عن طريق السجع لتبدو منسجمة سهلة الحفظ كثيرة الدوران على الألسنة حاضرة فى أذهان من يريد توظيفها في فقرات رسائله من الكتاب المبتدئين" ثم ينقل عن المؤلف قوله "جمعتها على اختصارها من كتب شتى لتعرفها وألفتها بعد تفريقها لتحفظها وتعيها ولتدخلها فى مكاتباتك إذا كاتبت وتستعين بها فى مخاطباتك إذا خاطبت فكن بها سعيدا واحظ بها رشيدا"



تضم الموسوعة الفقهية الميسرة عن الزواج لمؤلفها د. محمد إبراهيم الحفناوى فتاوى تفصيلية لمختلف المسائل الفقهية المتعلقة بالزواج قبل العقد وحتى أنواع الأنكحة المحرمة . . . الكتاب الصادر عن مكتبة الإيمان بالمنصورة يقع في ٤٧١ صفحة يشتمل على مختلف الآراء الفقهية في كل مسألة أو قضية مع ذكر أدلة كل رأى أو مذهب ثم ترجيح المؤلف للرأى الذى يراه صوابا . . . يقول المؤلف في مقدمته "حين تتأمل منهج الإسلام في معالجته لموضوع الأسرة نجد أنه يبدأ بالنظر إلى هذه الأسرة منذ مراحل تكوينها الأولى حيث أوجب ضرورة التحرى الدقيق في اختيار الزوج أو الزوجة ثم ضرورة أن يلتقى كلاهما بالآخر قبل العقد وما يمكن أن يتم في هذا اللقاء من أمور شرعية ثم ما يترتب على هذا اللقاء من خطوات . . حتى دخولهما قفص الزوجية"

قراءة فى كتاب

يقول صاحب اللباب فى شرح الكتاب :

«الحج واجبٌ على الأحرار البالغين العقلاء الأصحاء إذا قدروا على الزاد والراحلة، فاضلاً عن مسكنه وما لا بد منه، وعن نفقة عياله إلى حين عوده، وكان الطريق آمناً، ويعتبر فى المرأة أن يكون لها محرمٌ يحج بها أو زوجٌ، ولا يجوز لها أن تحج بغيرهما إذا كان بينها وبين مكة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها»(١).

ويقول:

«والمواقيت التى لا يجوز أن يتجاوزها الإنسان إلا محرماً: لأهل المدينة ذو الحليفة، ولأهل العراق ذات عرقٍ، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم»(٢).

ثم يقول:

وإذا أراد الإحرام اغتسل أو توضأ - والغسل أفضل - ولبس ثوبين جديدين أو غسيلين إزاراً ورداءً ومس طيباً إن كان له طيبٌ وصلى ركعتين وقال: «اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وتقبله مني، ثم يلبى عقيب صلاته، فإن كان مفرداً فى الحج نوى بتلبيته الحج، والتلبية أن يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة



بقلم/أ: عادل خفاجة

لك والملك، لا شريك لك. ولا ينبغى أن يخل بشيء من هذه الكلمات، فإن زاد فيها جاز»(٣).

نلاحظ أن هذه الكلمات - التى أولاها صاحب اللباب عناية كبيرة حتى يتوفر لها الوضوح الكافى فى سياق موجز - لا تستهوى عامة الناس لأنهم فى الغالب يحتاجون إلى شرح بعض ما ورد بها من مصطلحات؛ ولذلك نراهم يميلون إلى الحصول على الكتب التى تحمل إجابة

(١، ٢، ٣) اللباب فى شرح الكتاب ج١ ص ١٦٥.

مباشرة لتساؤلاتهم، ولعلنا لا نكون قد جاوزنا الحقيقة إذا قلنا: إن السواد الأعظم من الحجاج تثور لديهم العديد من الأسئلة أثناء أدائهم هذه الفريضة المباركة بل وقبل سفرهم، من أجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب «زاد المسافر إلى الحج والعمرة» الذى يضم قدرا كبيرا من الفتاوي؛ إذ به مائة واثنان وتسعون سؤالا أجاب عنها المؤلف جميعا فى أسلوب ميسر بسيط.

مؤلف الكتاب:

هو الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الحفناوى أستاذ أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون و عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس.

تولى رئاسة قسم أصول الفقه بالكلية اعتبارا من ٢١/٦/١٩٩٨م.

وله العديد من الأبحاث والمؤلفات نذكر منها على سبيل المثال :

١ - دراسات أصولية فى القرآن الكريم. دار الحديث ط «٢»، دار الإشعاع ط «٢»، دار الوفاء ط «٣».

٢ - دراسات أصولية فى السنة النبوية. دار الحديث ط «١»، دار الإشعاع ط «٢»، دار الوفاء ط «٣».

٣ - إرشاد الأنام إلى معرفة الأحكام. دار البشير ط «٢».

٤ - إتحاف الأنام بتخصيص العام. دار الحديث ط «١».

٥ - أثر الإجمال والبيان فى الفقه الإسلامي. دار الوفاء ط «١»، دار قرية ط «٢».


أ.د محمد إبراهيم الحفناوى

٦ - تبصير النجباء بحقيقة الاجتهاد والتقليد والافتاء. دار الحديث ط «١».

٧ - تذكير الناس بما يحتاجون إليه من القياس. دار الحديث ط «١».

٨ - فقه الصلاة. دار الحديث ط «١».

٩ - فقه الزكاة. دار الحديث ط «١».

١٠ - فقه الصيام. دار الحديث ط «١».

ويمكن للقارئ الاطلاع على المزيد من مؤلفاته بالرجوع إلى موضوع «قراءة فى كتاب فقه الزكاة» المنشور بعدد شوال.

أسباب تأليف الكتاب:

قصد المؤلف من وراء تأليفه لهذا الكتاب أن يقدم كل ما يحتاج إليه الحاج من أحكام، ليكون حجه صحيحا مقبولا إن شاء الله فيقول :

«الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو عبادة العمر، وختام الأمر، وفريضة جامعة لكل أركان الإسلام فهو عبادة بدنية ومالية وفيه إظهار العبودية الكاملة لله، ولما كان المسلم مطالبًا بالعلم بالعبادة قبل فعلها، لتكون عبادته صحيحة، لأنه سبحانه لا يُتعبد بجهل، لذلك جمعت الأسئلة التى تشغل بال الحجاج والمعتمرين وأجبت عنها بأسلوب سهل وعبارة واضحة مبينًا - فى الغالب - أقوال العلماء فى المسائل

المختلف فيها . . . وقد أختار بعضها وأرجحه لاعتبارات تقتضي ذلك، ولو أراد المُحرم أن يعمل بالقول الآخر المرجوح في نظري فلا لوم عليه».

الكتاب

يقع الكتاب في مائتين وخمس عشرة صفحة من مقاس ١٧ * ٢٤ سم

وقد صدر في طبعته الأولى عن دار فنون – مصر سنة ٢٠١١.

ويتضمن الكتاب العديد من الموضوعات تغطي في مجموعها مناسك الحج و العمرة

يستهل المؤلف كتابه بسؤال مهم، في إجابته تكمن الطمأنينة والراحة النفسية للحاج ألا وهو:

ما الذي يطالب به من يريد السفر لحج أو عمرة؟

الجواب: إذا عزم الإنسان على السفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج أو العمرة فإنه ينبغي عليه مراعاة ما يلي:

١- أن يبادر إلى التوبة الصادقة، ويرد المظالم إلى أهلها، فلا يسافر إلا بعد أن يطهر نفسه بالتوبة، ويعطي كل ذي حق حقه.

٢- أن يكتب ما له من ديون على الغير، وما عليه من ديون محافظة على حقه وحق الآخرين.

٣- أن يسترضي والديه، وشيوخه، ومن يندب إلى برّه واستعطافه.

٤- أن يختار من المال الحلال الطيب ليستعين به على مطالب الحج، ونفقاته، ويعين به الفقراء والمحتاجين.

٥- أن يكتب وصيته قبل السفر، ويستحب أن يوصي بجزء من ماله للفقراء والمحتاجين.

٦- أن يودع رفقاءه المقيمين، وإخوانه ويطلب منهم الدعاء، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إذا خرج أحدكم إلى السفر فليودع إخوانه، فإن الله جاعل في دعائهم البركة.

وجاء في سنن الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني أريد سفرًا فزودني.

فقال: (زودك الله التقوي).

قال: زدني.

قال: (وغفر ذنبك).

قال: زدني.

قال: (ويسر لك الخير حيث ما كنت).

٧- أن يوصي أهله بمراقبة الله تعالي، والتمسك بدينه.

٨- أن يكون حسن الخلق طيب النفس مع كل من يقابله، فلا يؤذي أحدًا، بل يقابل السيئة بالحسنة، ويلين جانبه للجميع، ولا يكون كثير الكلام والاعتراض على من معه.

٩- أن تطيب نفسه إن ضاع منه شيء، فإن الرضا بما أصابه علامة على قبول حجه.

١٠- أن يحافظ على الصلوات الخمسة في الحرمين الشريفين.

١١- أن لا يضيع وقته في الأسواق، بل يجب عليه أن يغتنم الفرصة ليتزود بزاد ينفعه يوم القيامة، فيكثر من الصلاة، والطواف، والصيام، والصدقة، وغير ذلك

من الطاعات.

١٢- أن يقصد بحجته وعمرته وجه الله تعالي، لأنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

١٣- أن يتعلم قبل السفر كيفية أداء الحج والعمرة، وما يجوز له أن يفعله، وما لا يجوز؛ لأن ما وجب على الإنسان عمله وجب عليه العلم به، قال تعالي:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(محمد: ١٩)

لذلك أناشد أصحاب شركات السياحة أن يخصصوا فقهاء لا وعاظ لكي يشرحوا للناس قبل سفرهم أحكام الحج والعمرة، ويكونوا في صحبتهم؛ لأن حاجة الحجاج والمعتمرين إلى الفقهاء أكثر من احتياجهم إلى الطعام والشراب.

١٤- أن يصلي قبل السفر ركعتين في غير أوقات الكراهة بنية سنة السفر وهاتان الركعتان سنة عند إرادة أي سفر.

١٥- يستحب لمن قدم مكة حاجًا أو معتمرًا أن يختم القرآن فيها قبل رجوعه.

ثم تتوالى الإجابات عن أسئلة تدور في أذهان الكثير من الحجيج تشكل فصول هذا الكتاب نذكر منها على سبيل المثال:

الحج والزواج، الحج ومساعدة الابن المحتاج، الحج والعمرة وإذن الوالدين، هل يشترط إذن الزوج لسفر الزوجة للحج؟، هل الحج واجب على الفور أو التراخي؟، الحج والعمرة بالتقسيط، سفر المرأة للحج والعمرة، أداء الحج أثناء عدة الوفاة، خروج المعتدة من وفاة لتأدية الحج عن زوجها المتوفي، حج الفنانات والراقصات، المسافر للحج والتجارة، التاجر وتكرار دخول مكة، الحج عن الميت، من لم يحج حجة الإسلام لا يحج عن غيره، المستطيع لا ينيب أحدًا يحج بدلاً منه، الإحرام من جدة، الغسل عند إرادة الإحرام، المستحب بعد الإحرام، حكم التلبية ووقتها، ارتداء الملابس أثناء الإحرام، إزالة الشعر أثناء الإحرام، أركان الحج، واجبات الحج، سنن الحج، ترك ركن أو واجب، الأطوفة الخاصة بالحج، واجبات الطواف، نقض الوضوء أثناء الطواف، حكم طواف القدوم، وقت طواف الإفاضة، استلام الركنين، السجود على الحجر الأسود، شهادة الحجر الأسود لمن قَبّله، صون النظر أثناء الطواف، الذكر والدعاء أثناء الطواف، طواف الجائع، الطواف أكثر من سبع، الشك في عدد الطواف أو السعي، السعي قبل صلاة ركعتي الطواف السعي بين الصفا والمروة، شروط صحة السعي، السعي قبل الطواف، ترك السعي بين الصفا والمروة، الصلاة بعد السعي، خطبة يوم عرفات، ما يستحب يوم عرفة، الحجاج المقيمون في مكة وقصر الصلاة، صلاة المغرب والعشاء في عرفات، المكث في المزدلفة ساعة من الليل، ترك المبيت بمزدلفة لمرض أو كبر سن، المبيت بمني، ترك المبيت بمني، الحكمة من مشروعية رمي الجمار، وقت الرمي، وقت ذبح هدى التمتع، الأكل من هدى التمتع والقران، المطلوب بعد طواف الوداع، الدعاء عند طواف الوداع، طواف الركن والوداع، البقاء في مكة بعد طواف الوداع، حكم العمرة، كيفية تأدية العمرة،

العمرة وطواف القدوم، دخول الكعبة، لم نص القرآن على أن أيام الصيام عشرة كاملة؟، غسل المحرم رأسه بصابون له رائحة، تغطية المحرم نفسه بلحاف، لبس المحرم عباءة.

وسنلقي الضوء على بعض هذه الأسئلة آملين أن تعطى صورة واضحة للكتاب.

نقول: إذا كان قد استقر لدى الكثير من الناس الآن أن من يحج عن غيره لابد له أن يكون قد حج عن نفسه حجة الإسلام أولا وأصبح ذلك معلوما لديهم، فماذا عن الإنابة فى حج التطوع؟

والسؤال الذى يجيب عنه مؤلف الكتاب هو: لقدأديت فريضة الحج والحمد لله وأتمتع بصحة جيدة، فهل يجوز لى أن أنيب غيرى بدلا منى فى حجة تطوع؟

الجواب: إذا أراد إنسان صحيح غير مريض أن ينيب من يحج عنه حجة تطوع فللفقهاء فى ذلك قولان:

القول الأول: لا يجوز ذلك، لأنه قادر على أداء الحج بنفسه، فلم تجزه الاستنابة فيه، كالفرض، وهذا قول الشافعية.

القول الثاني: يجوز للصحيح القادر أن يستنيب فى حج التطوع، وهذا قول أبى حنيفة وأحمد رحمهما الله.

وأرى أن أى مسألة لم يرد فيها نص ولم يكن فيها إجماع فللسائل أن يأخذ بأى قول فيها عن طريق مفتيه، لأن ديننا قائم على اليسر لا العسر.

الإحرام عن المغمى عليه:

أثناء المرور بالميقات أصيب رجل بالإغماء فهل يجوز لغيره أن يحرم عنه؟

الجواب: يرى أكثر العلماء أنه إذا أغمى على رجل بالغ لم يصح أن يحرم عنه أحد ممن هو معه، وهذا قول الشافعي، وأحمد، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن.

ويرى الإمام أبوحنيفة رحمه الله، أنه يصح ذلك، ويصير المغمى عليه محرمًا بإحرام زميله عنه، وذلك من باب الاستحسان، لأن ذلك معلوم من قصده السفر إلى مكة المكرمة، فهو لم يسافر إلا لحج أو عمرة، ولم يقصد بسفره شيئًا آخر، ومن ثم جاز لغيره أن يحرم عنه.

وما قاله الإمام أبوحنيفة كلام طيب يتفق مع روح الشريعة، وأقول لو أن المغمى عليه مسافر من مصر، وحصل له الإغماء أثناء المرور على الميقات، ثم أفاق بعد ذلك فله أن يحرم من جدة ولا شيء عليه.

التلبية بغير العربية:

وعن التلبية بلغة غير اللغة العربية يقول المؤلف:

يرى الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد أن المحرم لا يلبى بغير العربية إلا إذا عجز عنها، ويرى أبو حنيفة صحة التلبية بغير العربية وإن كان يحسن العربية.

ما يحرم على المحرم فعله

وعن محظورات الإحرام يقول الدكتور الحفناوى:

حرم الشارع الحكيم على المحرم فى حال إحرامه ما يلي:

١- لبس المخيط المحيط.
٢- تغطية بعض الرأس من الرجل.

٣- ستر بعض الوجه من المرأة.
٤- تقليم الأظفار.
٥- تسريح الشعر بالطيب.
٦- حلق الشعر من سائر الجسد.
٧- عقد النكاح.
٨- جماع الزوجة.
٩- قتل الصيد.
١٠- قطع الشجر.

عورات الرجال والنساء

وينتهز المؤلف ورود سؤال عن ظهور عورة النساء لينبه الرجال إلى الاحتراز أيضًا.

س: نشاهد بعض السيدات فى أثناء الطواف يضعن على رءوسهن أشياء شفافة يظهر الشعر من تحتها، كما تظهر رقابهن وآذانهن فما حكم طوافهن؟

الجواب:

لا شك أن شعر المرأة وأذنيها ورقبتها عورات يجب سترها فى الطواف وغيره، لأن جسدها كله عورة ما عدا الوجه والكفين، والذاهبة لبيت الله الحرام ذاهبة لتجدد التوبة وتعلن الإقلاع عن المعصية، فلا يجوز لها فى هذا المكان الطاهر أن تعصى ربها فيه.

فمن طافت مع ظهور شعرها، أو أذنيها، أو رقبتها، أو غيرها لا يصح طوافها، لأن من شروط صحة الطواف ستر العورة عند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله.

ويرى الحنفية أن ستر العورة فى الطواف واجب، فمن ظهر شيء من عورته فى الطواف أعاده ما دام فى مكة المكرمة، فإن خرج منها لزمه أن يذبح شاة.

هذا: وحكم الرجل الذى تظهر سرّته وجزء من تحتها كحكم المرأة التى يظهر شعرها أو شيء من جسدها مما هو عورة، فلينتبه الرجال إلى هذا.

يوميات الحجاج

ونختتم بهذا السؤال الجامع وهذه الإجابة الشاملة.

س: أرجو إعطاءنا صورة موجزة عما يفعله المحرم ابتداءً من اليوم الثامن من ذى الحجة، حتى آخر أيام التشريق؟

الجواب:

اليوم الثامن من ذى الحجة:

يسمى يوم التروية، لأنه مشتق من الرواية لأن الإمام يروى المناسك للحجاج، وقيل: مشتق من الارتواء، لأنهم يرتوون الماء فى ذلك اليوم، لأنه لم يكن بمنى ولا عرفة ماء، فكانوا يأخذون فى هذا اليوم الماء معهم.

ويسمى اليوم الثامن أيضًا يوم النقلة، لانتقالهم فيه إلى مني، وهذا اليوم يسن فيه الذهاب إلى منى للمبيت فيها ليلة عرفة، ومن السنة صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الثامن بمنى وأن يبيت الحجاج بها، ويصلوا الصبح، فإذا ما طلعت الشمس يوم عرفة ساروا من منى متوجهين إلى عرفات.

والفرق بين المبيت بمنى ليلة التاسع، والمبيت بها ليالى التشريق، أن المبيت بها ليلة التاسع سنة، من تركه لا شيء عليه، لكن فاته ثواب السنة، أما المبيت بمنى ليالى التشريق فواجب - عند الجمهور -

يجب تركه بدم.

ما يفعل في اليوم التاسع:

في اليوم التاسع – يوم عرفات – بعد أن يصل الحجيج إلى نمرة يصلون الظهر والعصر جمع تقديم بعد أن يخطب فيهم الإمام مبينًا لهم كل ما يتعلق بالوقوف على عرفات ووقت الانصراف إلى المزدلفة ويحثهم على الإكثار من الدعاء والتهليل والتذلل إلى الله.

ومن السنة ألا يقف الحجاج في عرفات إلا بعد الزوال، وبعد صلاة الظهر والعصر، وعرفات كلها موقف، في أي موضع منها وقف أجزأه، لكن أفضلها عند الصخرات الموجودة أسفل جبل الرحمة، لأنه # وقف عندها، والذي ينبغي ذكره أن وادي عرنة ونمرة ليسا من عرفات، وأن عرفات ليست من الحرم، وبعد غروب الشمس يوم عرفة يتوجه الجميع إلى المزدلفة ويصلون فيه المغرب والعشاء جمع تأخير على أن تصلى العشاء قصرًا.

ما يفعله الحاج في اليوم العاشر:

يرمي الحاج في هذا اليوم جمرة العقبة الكبرى بسبع حصيات، ويحلق شعره – وهو الأفضل – أو يقصره، وبذلك يتحلل التحلل الأصغر، وبه يحل له كل شيء من المحظورات ما عدا الزوجة فإنها تحل له بعد أن يتحلل التحلل الأكبر والذي يكون بطواف الإفاضة، ويرجع الحاج بعد الطواف إلى منى ليبيت فيها ليالي التشريق.

ما يفعله الحاج في اليوم الحادي عشر:

يرمي الحاج في هذا اليوم الجمرات الثلاث: الصغري، والوسطي، والكبري، كل جمرة يرميها بسبع حصيات، يبدأ بالصغري، ثم الوسطي، ثم الكبري.

ما يفعله الحاج في اليوم الثاني عشر:

يرمي الحاج فيه الجمرات الثلاث كما فعل في اليوم الحادي عشر، وإن أراد التعجل انصرف من منى قبل غروب الشمس وإلا فإن جلس في منى لغير حاجة حتى دخل عليه الليل فعليه المبيت ليرمي اليوم الثالث عشر، ويرى السادة الحنفية أن من غربت عليه الشمس في منى لا يلزم بالمبيت بها ليرمي اليوم الثالث، وإنما يلزم برمي اليوم الثالث إن طلع عليه فجره وهو في مني.

وبعد فالكتاب يعد إضافة طيبة للمكتبة الإسلامية، بل هو زاد حقيقي للمسافر إلى الحج والعمرة كما أنه يعد منهلا ميسرا لطالب الفتوى الذي يبحث عن إجابة مباشرة لما حواه من عدد غير قليل من الفتاوى التي تعالج مناسك الحج والعمرة، في أسلوب بسيط ميسر ولا يقترب من الخلافات المذهبية إلا بقدر ما يفيد التيسير، وهو في الوقت ذاته يعد زادا لطلاب العلم لما حواه من تفاصيل فقهية شملتها إجاباته عن مائة واثنين وتسعين سؤالا.

ثم أما بعد

فإن إلحاح المؤلف وسؤاله المتواصل لله – تعالى – أن يجعل ثواب ما كتبه خالصا لوجهه الكريم في صحيفة ابنته – تغمدها الله في الصالحين – لخير دافع لنا أن نسأل الله الكريم أن يضاعف الأجر لفضيلة الأستاذ الدكتور الحفناوي على ما قدم ابتغاء مرضاة الله وألا يحرمنا الأجر فإنه أكرم من سئل وخير من أجاب...

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

هذه تحية إلى كل حاج قاصد بيت الله عز وجل، ودعاء من صميم الفؤاد أن نكون في ركاب الحجيج في العام القادم بإذن الله

«إلى عرفات الله»

أمير الشعراء: أحمد شوقي

إلى عَرَفاتِ اللهِ يا خيرَ زائرٍ
عليكَ سلامُ اللهِ في عرفاتِ
ويومَ تُولّي وُجهةَ البيتِ ناضراً
وسيمَ مَجالي البِشرِ والقَسَماتِ
على كُلِّ أُفقٍ بالحجازِ ملائكٌ
تَزُفُّ تحايا اللهِ والبَرَكاتِ
إذا حُديت عيسُ المُلوكِ فإنَّهم
لعيسكَ في البيداءِ خيرُ حُداةِ
لدى البابِ جبريلُ الأمينُ براحِهِ
رَسائلُ رَحمانيَّةُ النَّفَحاتِ
وفي الكعبةِ الغرّاءِ رُكنٌ مُرحِّبٌ
بكعبةِ قُصّادٍ وَرُكنِ عُفاةِ
وما سَكَبَ الميزابُ ماءً وإنَّما
أفاضَ عليكَ الأجرَ والرَّحَماتِ
وزمزمُ تجري بينَ عينيكَ أعيُناً
مِنَ الكوثرِ المعسولِ مُنفجِراتِ
ويَرمونَ إبليسَ الرَّجيمَ فيَصطلي
وشانيكَ نيراناً مِنَ الجَمَراتِ
يُحَيّيكَ طهَ في مَضاجعِ طُهرِهِ
ويَعلمُ ما عالجتَ مِن عَقَباتِ
ويُثني عليكَ الرّاشدونَ بصالحٍ
وربَّ ثناءٍ مِن لسانِ رُفاتِ
لكَ الدينُ يا ربَّ الحجيجِ جمعتَهُم
لبيتٍ طهورِ السّاحِ والعَرَصاتِ
أرى النّاسَ أصنافاً ومِن كُلِّ بُقعةٍ
إليكَ انتهوا مِن غُربةٍ وشَتاتِ
تساووا فلا الأنسابُ فيها تفاوُتٌ
لديكَ ولا الأقدارُ مُختلفاتِ

غنت لك في الترب المقدس جبهة
يدين لها العاتي من الجبهات
منورة كالبدر شماء كالسها
وتخفض في حق وعند صلاة
ويا رب لو سخرت ناقة صالح
لعبدك ما كانت من السلسات
ويا رب هل سيارة أو مطارة
فيدنو بعيد البيد والفلوات
ويا رب هل تغني عن العبد حجة
وفي العمر ما فيه من الهفوات
وتشهد ما آذيت نفسا ولم أضر
ولم أبغ في جهري ولا خطراتي
ولا غلبتني شقوة أو سعادة
على حكمة آتيتني وأناة
ولا جال إلا الخير بين سرائري
لدى سدة خيرية الرغبات
ولا بت إلا كابن مريم مشفقا
على حسدي مستغفرا لعداتي
ولا حملت نفس هوى لبلادها
كنفسي في فعلي وفي نفثاتي
وإني ولا من عليك بطاعة
أجل وأغلي في الفروض زكاتي
أبلغ فيها وهي عدل ورحمة
ويتركها النساك في الخلوات
وأنت ولي العفو فامح بناصع
من الصفح ما سودت من صفحاتي
ومن تضحك الدنيا إليه فيغتر
يمت كقتيل الغيد بالبسمات
وركب كإقبال الزمان محجل
كريم الحواشي كابر الخطوات
يسير بأرض أخرجت خير أمة
وتحت سماء الوحي والسورات
يفيض عليها اليمن في غدواته
ويضفي عليها الأمن في الروحات
إذا زرت يا مولاي قبر محمد
وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت مع الدمع العيون مهابة
لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية
وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق تنوفة
وباني صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل
أبثك ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم في حالك الظلمات
وذلك ماضي مجدهم وفخارهم
فما ضرهم لو يعملون لآتي
وهذا زمان أرضه وسماؤه
مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم في السماء وأنشئوا
بوارج في الأبراج ممتنعات
فقل رب وفق للعظائم أمتي
وزين لها الأفعال والعزمات

أرج النسيم

«ابن الفارض»

أرج النسيم سرى من الزوراء
سحرا فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عرفه
فالجو منه معنبر الأرجاء
وروى أحاديث الأحبة مسندا
عن إذخر بأذاخر وسخاء
فسكرت من ريا حواشي برده
وسرت حميا البرء في أدوائي
يا راكب الوجناء بلغت المنى
عج بالحمى إن جزت بالجرعاء
متيمما تلعات وادي ضارج
متيامنا عن قاعة الوعساء
وإذا أتيت أثيل سلع فالنقا
فالرقمتين فلعلع فشظاء
وكذا عن العلمين من شرقيه
مل عادلا للحلة الفيحاء
واقر السلام عريب ذياك اللوى
من مغرم دنف كئيب نائي
صب متى قفل الحجيج تصاعدت
زفراته بتنفس الصعداء
كلم السهاد جفونه فتبادرت
عبراته ممزوجة بدماء
يا ساكني البطحاء هل من عودة
أحيا بها يا ساكني البطحاء
إن ينقضي صبري فليس بمنقض
وجدي القديم بكم ولا برحائي
ولئن جفا الوسمي ماحل تربكم
فمدامعي تربي على الأنواء
واحسرتي ضاع الزمان ولم أفز
منكم أهيل مودتي بلقاء
ومتى يؤمل راحة من عمره
يومان يوم قلى ويوم تنائي
وحياتكم يا أهل مكة وهي لي
قسم لقد كلفت بكم أحشائي
حبيكم في الناس أضحى مذهبي
وهواكم ديني وعقد ولائي
يا لائمي في حب من من أجله
قد جد بي وجدي وعز عزائي
هلا نهاك نهاك عن لوم امرئ
لم يلف غير منعم بشقاء
لو تدر فيم عذلتني لعذرتني
خفض عليك وخلني وبلائي
فلنازلي سرح المربع فالشبي
كة فالثنية من شعاب كداء
ولحاضري البيت الحرام وعامري
تلك الخيام وزائري الخثماء
ولفتية الحرم المريع وجيرة ال
حي المنيع تلفتي وعنائي
فهم هم صدوا دنوا وصلوا جفوا
غدروا وفوا هجروا رثوا لضنائي
وهم عياذي حيث لم تغن الرقى
وهم ملاذي إن غدت أعدائي
وهم بقلبي إن تناءت دارهم
عني وسخطي في الهوى ورضائي

وعلى محلي بين ظهرانيهم
بالأخشبين أطوف حول حمائي
وعلى اعتناقي للرفاق مسلماً
عند استلام الركن بالإيماء
وتذكري أجياد وردي في الضحى
وتهجدي في الليلة الليلاء
وعلى مقامي بالمقام أقام في
جسمي السقام ولات حين شفاء
عمري ولو قلبت بطاح مسيله
قلباً لقلبي الري بالحصباء
أسعد أخي وغنني بحديث من
حل الأباطح إن رعيت إخائي
وأعده عند مسامعي فالروح إن
بعد المدى ترتاح للأنباء
وإذا أذى ألم ألم بمهجتي
فشذى أعيشاب الحجاز دوائي
أذاد عن عذب الورود بأرضه
وأحاد عنه وفي نقاه بقائي
وربوعه أربى أجل وربيعه
طربي وصارف أزمة اللأواء
وجباله لي مربع ورماله
لي مرتع وظلاله أفيائي
وشعابه لي جنة وقبابه
لي جنة وعلى صفاه صفائي
حيا الحيا تلك المنازل والربى
وسقى الولي مواطن الآلاء
وسقى المشاعر والمحصب من منى
سحاً وجاد مواقف الأنضاء
ورعى الإله بها أصيحابي الألى
سامرتهم بمجامع الأهواء
ورعى ليالي الخيف ما كانت سوى
حلم مضى مع يقظة الإغفاء
واهاً على ذاك الزمان وما حوى
طيب المكان بغفلة الرقباء
أيام أرتع في ميادين المنى
جذلاً وأرفل في ذيول حباء
ما أعجب الأيام توجب للفتى
منحاً وتمنحه بسلب عطاء
يا هل لماضي عيشنا من عودة
يوماً وأسمح بعده ببقائي
هيهات خاب السعي وانفصمت عرى
حبل المنى وانحل عقد رجائي
وكفى غراماً أن أبيت متيماً
شوقي أمامي والقضاء ورائي

لبيك وحدت اللغات

الشاعر / مصطفى عكرمة

لله سر الله في عرفات
كم فيه من عبر ومن آيات!
ما زال عبر الدهر ينمو حبه
متجددا بتجدد الأوقات
لو قدرت ذراته لسمت على
أضعاف ما في الأرض من ثروات
المؤمنون بكل أرض روحهم
تهفو إليه على مدى الساعات
ويرون رؤيته نعيم حياتهم
مهما رأوا فيه من الإعنات
جنات عدن خلف حر رماله
تدعو أخا الإيمان للجنات
والروح في عرفات تلقى روحها
والذات عند البيت غير الذات
والنفس تسمو كلما نظرت له
عن كل ما في الأرض من رغبات
فهناك في عرفات أمنية المنى
وهنا بمكة غاية الغايات
من كل فج أقبلت حجاجها
ظمأى الحنين .. لهيفة النظرات
جاءت .. وقبل مجيئها طارت بها
أرواحهم لمواطن الرحمات
لا فرق في الأجناس فيما بينها
لا فرق في الأوطان والعادات
بالأمس كان الكل يسعى همه
لو نال ما في الأرض من لذات
واليوم قد هجروا اللذائذ كلها
وتسابقوا للبذل والطاعات
أشقى العذاب يرون فيه عذوبة
ويرون لفح هجيرها نفحات
لكأن كل قلوبهم قلباً غدت
وغدت لهاة سائر اللهوات
الكل للرحمن هلل داعيا
ولكم ترى التهليل بالعبرات
آيات ربك لا تعد .. وكلها
تدعوك للتفكير في الآيات!
لبيك وحدت اللغات كأنها
أصل لما في الأرض من كلمات
لبيك أفئدة تذوب بقولها
لتصوغ من لبيك حبل نجاة
يا فوز من لبى وعاشت روحه
أحلى ثواني العمر في عرفات!

***

يا رب زده حرمة .. ومهابة
واصرف بحقك عنه كل أذاة
أوما رددت الفيل عنه قادرا
وجعلت رد الفيل سفر عظات!
الأمن فيه لمن أتى، ومثابة
للناس تعصمهم من الروعات
يا رب فاقبضني إليك بساحه
متطهرا برضاك من زلاتي
وبحبه يا رب زد قومي هدى
وعليه جمع سائر الأشتات
فلعل ما أودعت فيه قادرا
يحيي إباء الروح بعد سبات!
طالت لبعد هداك رقدة أمتي
حتى لتحسبها من الأموات
كم ذا غفت! ولكم بهديك قد صحت
لتعيد عز الكون بالآيات!
فأعد لها بهداك ربي عزها
لتجنب الدنيا أذى النكبات
ما غير أمتنا بما أكرمتها
أهل لدحر الظلم والظلمات

تأملات فى السيرة

غزوة الخندق (تجليات ربانية)

لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

بعد أن ألهب النبى ﷺ حماسة الأنصار والمهاجرين وأيقظ ﷺ همة أصحابه لما كان بينه وبين غطفان وكان لهمته ﷺ دور أساسى فى إيقاظ همة أصحابه ، ومهما يكن من أمر فإن فعل النبى ﷺ كان أحكم فعل ممكن أن يكون فى مثل هذا الموقف فما كان لأى تصرف أن يولد حماسة جيش المسلمين إلى هذا الحد الذى أظهروه للنبى ﷺ من إبائهم ورفضهم أن يطعموا بنى غطفان من تمر المدينة شيئا نتيجة صلح يتوهمون فيه أنهم انتزعوه من رسول الله ﷺ نتيجة ضعف جيش المسلمين وموقفهم من حرب تكاد تعصف بهم وبعد أن أنهى أصحاب النبى ﷺ كتابة صحيفة الصلح بدأت الحرب بين جيوش الكفر والضلالة وجيوش المسلمين ووقعت أثناء المعركة أمور جديرة بأن تلفت أنظارنا وتخرج عن حدود المعركة وإن كانت تسهم فى إذكائها وتضيف إلى جيش المسلمين قوة وجسارة على الحرب طلبا للنصر أو الشهادة من هذه الأمور أن الرسول ﷺ أقام مرابطا هو وأصحابه يحاصره المشركون بضعًا وعشرين ليلة ولم يكن بينهم قتال لأن الخندق حال بين لقاء الجيشين فلم يكن إلا الرمى بالسهام والحجارة إلا أن رؤساء المشركين أجمعوا أن يغدو لقتال المسلمين فغدا أبوسفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن ود ومعه رجال من غطفان وبنى أسد وجعلوا يطوفون بالخندق يطلبون مضيقا يريدون أن يقتحموا بخيلهم فرأوا مكانا ضيقا أغفله المسلمون فجعلوا يكرهون خيلهم يضربونها حتى اقتحمت فعبر عكرمة ونوفل وضرار بن الخطاب وعمرو بن ود وأقام سائر المشركين

من وراء الخندق فقيل لأبى سفيان ألا تعبر ؟ كأنهم يستنكرون تقاعسه فأجاب بما يؤكد إنكارهم وإن كان لا يريد أن يعترف فقال : قد عبرتم ! فإن احتجتم إلينا عبرنا . فجالت خيل المشركين بعد عبور الخندق يعلنون فرحتهم بعبور الخندق فخرج نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة وكان عمرو بن ود وهو من شجعان المشركين وأبطالهم ممن عبر فوقف يدعو للمبارزة هل من مبارز فقام على كرم الله وجهه فاستأذن رسول الله ﷺ فأذن وأعطاه سيفه وعممه ثم دعا له ﷺ (اللهم أعنه عليه) فمشى كرم الله وجهه مصحوبا بدعوة الرسول ﷺ إلى عمرو بن ود وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك مجيبُ صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدقُ مُنجى كل فائز
إنى لأرجو أن أُقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرُها عند الهزاهز

ثم قال مخاطبا له يا عمرو : إنك كنت تقول فى الجاهلية لا يدعونى أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها ؟ أجاب عمرو قائلا : أجل . فقال على معبرًا عن سماحة الإسلام : إن الإسلام يدعو إلى قتال ولا يريده ، إنما يدفع إليه لرد عدوان الآخرين . قال : فإننى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتسلم لرب العالمين ، فرد عليه عمرو فى صلف وكبرياء وغرور واستهتار كريه : يا بن أخى أخر عنى هذه . قال على : وأخرى ترجع إلى بلادك . ثم أردف فى معالجة صادقة وود غير مكذوب قال : فإن يك محمد صادقًا كنت أسعد الناس به ، وإن يك كاذبًا كان الذى تريد ، فرد عمرو فى كبرياء مرذول هذا ما لا تحدث به نساء قريش أبدًا ، وأردف قائلا هات الثالثة فأجاب على كرم الله وجهه فى تواضع عزيز قال : المبارزة فضحك عمرو فى سخرية فقال : إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أجد من العرب من يرد منى عليها (أى يطلبها منى) ثم قال مستصغرًا عليًا : فمن أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، قال عمرو : يابن أخى فى أعمامك من هو أسن منك فإنى أكره أن أريق دمك ؟ قال على رضى الله عنه صادقا فى غير كبرياء وغرور : والله إنى لأكره أن أريق دمك . فغضب عمرو بن ود وسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو على مغضبا فاستقبله على بدرعه ودنى أحدهما من الآخر ، وصارت بينهما غبرة فضربه عمرو فتلقى على الضربة بالدرع ثم ضربه على على حد عاتقه فسقط وصار العجاج فسقط عمرو بن ود وقطع الصمت تكبير الصحابة فرحا بمقتل عدو الله عمرو بن ود ونجاة على بن أبى طالب فسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن عليا قد قتله فاقبل على بن أبى طالب وهو يرتجز معبرا عن سفاهة عقول عبدة الأصنام :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه
ونصرت رب محمد بصوابى
فصددت حين تركته متجدلا
كالجذع بين دكادك وروابى
لا تحسبن الله خاذل دينه
ونبيه يا معشر الأحزاب

ثم أقبل على رضى الله عنه على رسول الله

ﷺ ووجهه يتهلل من شدة الفرح بالنصر على عدو الله ثم بعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يطلبون جسمان عمرو بن ود بعشرة آلاف فقال رسول الله ﷺ هو لكم لا نطلب ثمنًا للموتى . وروى أبو نعيم أن رجلا من آل المغيرة قال لأقتلن محمدًا فأوثب فرسه في الخندق ووقع فدقت عنقه فمات فقالوا يا محمد ، ادفعوه إلينا نواريه وندفع ديته فقال خذوه فإنه خبيث الدية . ومن التجليات الربانية الرائعة التي لاحظتها في هذه الغزوة ما رواه أبو يعلى وابن عساكر (عن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه رضي الله عنه قال أتيت رسول الله ﷺ يوم الخندق بشاة في مكتل فقال رسول الله ﷺ يا أبا رافع ناولني الذراع يقول أبو رافع فناولته ثم قال صلى الله عليه وسلم ناولني الذراع فناولته ثم قال ﷺ ناولني الذراع فناولته ثم قال ﷺ ناولني الذراع فناولته فقلت : يارسول الله ما للشاة إلا ذراعان !! مع أنه ناوله الأربع فقال ﷺ لو سكت ساعة لناولتني ما سألتك ولك أن تتأمل هذا : مع قوله ﷺ لمن يؤبرون النخل اتركوه فلما تركوه شاص فقال :أنتم أعلم بأمور دنياكم !! لا أحسب أن أحدًا تكلم في المقابلة بين هذين الحديثين وبين هاتين الواقعتين كلامًا ذا بال إلا رجل من رجال الصوفية الأوائل نور الله قلبه وقلوبنا ببركته وهو سيدي عبد العزيز الدباغ في كتاب قيم له بعنوان ذهبي رائع سماه رضي الله عنه (الإبريز) (١) لا أحسب أن ثنايا مقالتي في مجلة الأزهر يحتمل روعة وتحليل المقابلات الرائعة .

ومن التجليات الربانية في غزوة الخندق بركة يده ﷺ ما رواه الطبراني والبغوي أن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال لما جال أخي علي بن الحكم بفرسه فدق جدار الخندق ساقه وأتينا به الرسول ﷺ فمسح صلى الله عليه وسلم ساقه وقال باسم الله فما نزل عنها حتى برئ وكان رسول الله ﷺ كلما اشتد الأمر عليه وعلى المسلمين يرجع إلى ربه يستنصره فنعم اللجأ والمعاذ روى الإمام أحمد وابن سعد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه لما اشتد الأمر على المسلمين أتى رسول الله ﷺ مسجد الأحزاب يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء بين الصلاتين - الظهر والعصر - فوضع رداءه وقام ورفع يديه يدعو عليه قال جابر : فعرفنا البشر في وجهه وروى البخاري وابن سعد عن عبد الله بن أبي بن أوفى -رضي الله عنه- قال دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله السلامة إن لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف - بالله عليك هل في هذا الدعاء دعوة للحرب أو تحريض عليه أم إنه نهى

(١) المصدر طبع بمعرفة مكتبة جوامع الكلم بجوار الشيخ صالح الجعفري (رضي الله عنه) .

عن تمني اللقاء ؟ لكنه مع ذلك يأمر بالصبر والثبات إذا أكره المسلمون عند لقاء الأعداء - ثم قال ﷺ اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم .

ووسط هذا الحصار الخانق والكرب الشديد ماذا يقول أصحاب النبي ﷺ ؟ وبماذا وجه ﷺ صحابته ؟ إنه لا يدعو إلى إبادة ولا تدمير هيروشيما ونجازاكي ولكنه يأمر أصحابه باللجوء إلى الله والتضرع له .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قلنا يارسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وأمن روعاتنا فصرف الله ذلك عنهم .

ومن التجليات الربانية ما رواه الشيخان وغيرهما أن جابرًا -رضي الله عنه- رأى رسول الله ﷺ عاصبًا بطنه يوم الخندق من الجوع وأنهم لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعاما قال جابر فاستأذنت رسول الله ﷺ إلى المنزل فأذن لي فذهبت فقلت لامرأتي ، إني رأيت رسول الله ﷺ خمصًا شديدًا ما في ذلك صبر أعندك شيء ؟ قالت عندي صاع من شعير وعناق فأخرجت إناء فيه صاع من شعير وذبحت العناق وطحنت الشعير فجعلنا اللحم في البرمة فلما انكسر العجين وكادت البرمة أن تنضج قالت : لي لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته - أي حدثته في السر بيني وبينه - فقلت (طعيم) فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان فقال كم هو فذكرت له فقال كثير طيب لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى آتي وصاح رسول الله ﷺ يا أهل الخندق ،إن جابرًا صنع لكم طعاما فأهلا بكم وسار رسول الله ﷺ يقدم الناس فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى جاء الخلق والله إنها لفضيحة على صاع من شعير وعناق فدخلت على امرأتي وقلت ويحك ! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم فقالت : بك وبك وفي رواية أنت دعوتهم أم هو ؟ قلت : بل هو دعاهم قالت : دعهم الله ورسوله أعلم نحن أخبرناهم بما عندنا فخففت عني ما كنت أعانيه من شدة الحياء فدخل رسول الله ﷺ وقال : ادخلوا عشرة عشرة وأخرجت له عجيننا فنفث فيه وباركه ثم عمد إلى برمتنا فنفث فيها وبارك فقال اخبزوا واغرفوا وغطوا البرمة وأخرجوا الخبز من التنور وغطوا الخبز فجعلنا نغرف ونغطي البرمة ثم بقيت وما نراه نقص شيئا ويخرج الخبز من التنور ثم نغطيه فما نراه نقص شيئا وجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويقرب لهم ويقول لأصحابه كلوا فإذا شبع قومًا قاموا ثم دعا غيرهم ثم أكلوا جميعا وهم ألف وانصرفوا وإن برمتنا تغط كما هي وإن عجيننا يخبز كما هو فقال : كلوا واهدوا فإن الناس أصابتهم مجاعة شديدة فلا نزال نأكل ونهدي يومنا ببركته .

وإلى لقاء آخر مع تجليات ربانية أخرى

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

وألف بين قلوبهم!!

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ مصطفى محمد عمارة ـ إمام وخطيب بوزارة الأوقاف ـ قرية شبراهور ـ مركز السنبلاوين ـ محافظة الدقهلية.

إن من أعظم مقاصد الشريعة ومن أجل أهداف الإسلام أن يؤلف بين القلوب وأن يجمع بين الصفوف وأن يوحد الكلمة وأن يزيل أسباب الخلاف والتدابر والتقاطع. وإذا لم يتم ذلك في واقع المسلمين وفي حياة الأمة فينبغي أن نعلم جميعًا ما التزمنا بالإسلام وما اهتدينا بنور القرآن وما تشرفنا بالسير قدمًا على هدى رسول الأنام محمد ﷺ مصداق ذلك قول ربنا:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٣).

ولذلك جاء في الصحيحين البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. ولهذا قال ربنا:

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٣).

ما أجمل تآلف القلوب ووحدتها. ما أجمل أن يلتقي المسلمون على الحب والإخاء والمودة نبذ ما بينهم من خلافات من أجل حرمة الدماء التي حرم الله قتلها إلا بالحق:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

سبحان من ألف بين هذه القلوب وسبحان من وحد بين هذه الأجناس وسبحان من جمع بين هذه الألوان واللغات والعادات.

جمع الله بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وعلى القرشي جمع بينهم في وحدة وألفة وترابط أخوى لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

من هنا لابد أن نمتثل لأمر الله حين أمرنا بالاعتصام بحبله فقال:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣).

وننتهى عما نهانا عنه من الفرقة والتشرذم والتحزب أو التعصب للقبلية أو اللون أو الجنس أو اللغة فكل هذه العصبيات موضوعة في الإسلام قد جعلها المصطفى ﷺ تحت قدميه. يقول ربنا:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾

(آل عمران: ١٠٥).

ويقول ﷺ كما جاء في صحيح مسلم في حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن: يجمع شملنا وأن يوحد صفنا وأن يؤلف بين قلوبنا وأن يصلح ذات بيننا وأن يطهر قلوبنا من الغل والحسد والكراهية والبغضاء وأن يحفظ مصرنا وبلاد الإسلام عامة. إنه ولى ذلك والقادر عليه

الأزهر منارة علمية وعالمية

تحت هذا العنوان جاءت رسالة: الشيخ محمد سعيد أبوهاشم رضوان- إمام وخطيب ومدرس بأوقاف الشرقية- رئيس رابطة أئمة خطباء سعود:

إن الأزهر هو منارة العلم وكعبة التحضر وحمى نهضة المسلمين وحصن العروبة وملاذ الإسلام ومربى الأجيال، والجامع الذى جمع شتات العرب، واحتضن أمة الموحدين، فهو رمز الصمود العربي، والخلود الإسلامي وإشراقة فجر الحضارة الزاحف دائما على ظلمات الرجعية، ومؤامرات الدخلاء والعملاء.

فالناظر في الأحداث الجارية يجد أن عروشًا تتهاوى.. ودولا يسرى فيها الفساد وممالك تتفكك... دسائس هنا، ومؤامرات هناك!

فتن تشمل العالم العربي، وأيد خفية تعبث في الظلام، أيد أجنبية حاقدة كانت تعبث بأقداره وتعمل على تصدع وحدة أبنائه تيارات تتضارب.. وأهواء تتصارع.. وقوى خفية يضرب بعضها البعض الآخر، فتحركت أفاعى الأحقاد، وثارت كوامن البغضاء، وبدأ المغرضون مؤامراتهم الرهيبة.. فها هي الأبواق التى تنال من الأزهر وعلمائه الأجلاء تظهر بين الحين والحين فهؤلاء الذين يتطاولون على الأزهر نقول لهم كم عمركم بجوار الأزهر الشريف؟ إن الأزهر عمره أكثر من ألف عام يؤدى دوره على أكمل وجه منذ إنشائه وافتتاحه على اليد القائد الفاطمى جوهر الصقلى بصلاة أول جمعة به في ٧ من رمضان عام ٣٦١ هـ، ٢١ يونيه ٩٧٢م، في عهد المعز لدين الله الفاطمي.

وفي مجال السياسة كان من الطبيعى أن يكون الأزهر هو موطن المعارضة باعتباره جامعة علمية ومركزا للقيادات الفكرية فهناك مواقف لعلماء الأزهر تذكر فتشكر، من هذه المواقف ما ذكره الحافظ السيوطى في حسن المحاضرة أن قاضى القضاة المعروف بابن دقيق العيد الذى كان يدخل على السلطان «لاجين» فيقوم السلطان له ويقبل يده- أى أن السلطان يقبل يد العلماء وليس العكس، وها هو على بك الكبير إذا قابل الشيخ الأزهرى على الصعيدى فإن على بك يقبل يد الشيخ الصعيدى على مرأى من

الناس ويفتخر بذلك.

فالأزهر كانت له مكانته وما زالت فكان الحكام والأمراء والوزراء يهابون العلماء ويقدرونهم، وكان العامة من الناس إذا حزبهم أمر هرعوا إلى العلماء فثار العلماء في وجه الحكام فكان الأزهر هو صمام الأمان أو هو الوكيل الشرعي عن الأمة في مواجهة استبداد الحكام وهو قيادة الجماهير التي يعمل لها حسابها، بل إن سلاطين العثمانيين في اسطنبول أنفسهم كانوا يحترمون العلماء ويخافون من نفوذهم فكان العلماء يملكون نقض أوامر السلطان أو الحاكم إذا ما خالفت الشرع وهذا يدلنا على مدى نفوذ وتأثير الأزهر – فإليه يلجأ العامة إذا وقع عليهم ظلم وبقيادة علمائه تتحرك الجماهير لرفع ذلك الظلم.

وها هو العلامة أبي البركات سيدي أحمد الدردير في صعيد مصر يقولها قوية يوم زار الوالي العثماني الأزهر ليستميل المشايخ في صفه حتى يمتنعوا عن الثورات ضد الحكام، فنظر الوالي ووجد الشيخ الدردير جالسا مادًا قدميه وهو يقرأ ورده من القرآن الكريم، ولم يقم لاستقباله والترحيب به فغضب الوالي فهدأ أحد أفراد الحاشية من غضبه وقال له هون عليك يا سيدي، فأرسل الوالي إليه صرة نقود مع أحد حراسه فرفضها الشيخ وقال لمن أرسله: «قل لسيدك من مد رجليه فلا يمكن أن يمد يديه».

وظل دور الأزهر يزداد يومًا بعد يوم فهو معقل الثورات فكل الثورات ضد الاستعمار الغاشم كانت تخرج من رحاب الأزهر الشريف، حتى ذكر نابليون في مذكراته: «إن الشعب انتخب ديوانًا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان وأن لجنة الثورة كانت تنعقد في الأزهر».

ووقف علماء الأزهر عبر التاريخ ينظمون حركات المقاومة في كل مكان في مصر في القاهرة والأقاليم، في المدن والأرياف، ضد المستعمرين على مر العصور وبرز العديد من الزعماء مثل «الشيخ حسن طوبار- والشيخ علي العدوي- والزعيم أحمد عرابي- وعبدالله النديم - والشيخ محمد عبدالله عليش- والشيخ حسن العدوي- الشيخ عبدالعزيز جاويش- السيد عمر مكرم» وغيرهم من العلماء والزعماء، وخطباء الثورة الذين وقفوا بكل شجاعة وثبات في وجه الاستعمار الخاسر ونجحوا في صده ورده.

وأخيراً: نرد على أعداء الأزهر في كل مكان ونقول لهم كفاكم حقدا وحسدًا وهجوما على الأزهر ورجاله وعلمائه، وخاصة التطاولات والسفاهات التي صدرت أخيرا من «رئيس وزراء تركيا»- رجب طيب أردوغان- حينما تطاول على إمام وشيخ الأزهر العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب- والرجل كعادته الطيبة وأخلاقه السمحة لم يقابل الإساءة بالإساءة وإنما قابلها بالحسنى- فراح يطمئن طلاب الأزهر الوافدين من تركيا وبين لها أن هذا خلاف سياسي وقال لهم: أنتم أبناؤنا وضيوفنا تتعلمون وتدرسون في رحاب الأزهر الشريف.

حمى الله مصر بلد الكنانة التي صدرت علم الإسلام إلى بلدان الدنيا حتى إلى البلد الذي هبط عليه الوحي المبارك.... فهذه هي مصر بشيوخها وعلمائها... رد الله بهم كيد الكائدين. حفظ الله مصر والمصريين اللهم آمين.

ثرثرة.. فوق جبل عرفات

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

مشهد لا ينساه المرء مادام حياً؛ بينما كنا نؤدي فريضة الحج لأول مرة (حجة الإسلام) وبدأنا في الصعود إلى جبل عرفات، حيث الدعوات الدموع المنهمرة والتجرد من كل شيء وانكشاف المرء أمام نفسه؛ فلا كذب ولا رياء ولا تباهي أوتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد فشمس عرفات التي تلهب بأشعتها الحارقة رؤوس قوم يهرولون نحو قمة الجبل حبا وضراعة وإقبالا وسعيا إلى بلدة طيبة ورب غفور، في مشهد مهيب يخلع الألباب خوفا وطمعا، لا فروق بين الملابس والمظاهر إذ الجميع يتدثرون ملابس الإحرام متجردين فيها قلبا وقالبا وقد هانت الدنيا في العيون وصغر حجمها وذهبت أطماعها ورآها الحجيج من فوق عرفات في حجمها الطبيعي كما قال لهم ربهم جل جلاله:

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾

آل عمران: ١٨٥

ووجدتني ساعتها متأملا في حال بعض من حولي ممن هم على صعيد عرفة حيث ظلال من الأخوة والرحمة والحب والتسامح والبذل والعطاء والإيثار ما يندر أن تراه إذا تفرقت تلك الجموع وعاد كل منهم من حيث جاء، فرأيت مجددا عظمة هذا الدين، وسرى في أوصالي نور قول الحق تباركت أسماؤه:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

الحج: ٣٢

غير أنه ما أن استقر بنا المقام على جناحي الجبل العظيم ترامى بي السمع إلى حوار بدأت رحاه تدور بين بعض الحجيج على ما يحدث في بلدهم من خلافات سياسية فإذا بنبرات الصوت ترتفع وإذا بالوجوه السمحة الوديعة تجهم وتنتشر على صفحاتها خيوط الغضب، وحدث نوع من الهياج المحدود والذي حاولت ومعي آخرون أن يطفئوا هذه النار التي يريد الشيطان بها- وهو في أدحر حالاته- أن تأكل من الحجيج المتجادلين حسنات أتوا ليحصلوها من كل فج عميق.. وهنا أخذ بعض ذوي العلم والسماحة يقبس لنا من أنوار قول الله تعالى:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

البقرة: ١٩٧

وكرهت من وقتها حديثنا في السياسة في أماكن العبادة المحضة التي تجتمع فيها القلوب وتعتصم بحبل الله واستبان لنا من جديد عظمة القرآن العظيم ودعوته أن يحفظ على المسلمين حجهم فيعصمهم من الجدل فيما يفرق ولا يجمع، لا سيما في هذا البلد الحرام والشهر الحرام وعلى صعيد عرفات؛ فالسياسة حمالة أوجه وتتعدد فيها الوجهات وتتباين الآراء وتختلف حولها الأفهام ولها أوقاتها ورجالها وأماكنها، أما فريضة الحج التي يعود بعدها المسلم (لو صحت) - بفضل الله - من ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ إنها لحظات مخاض وولادة جديدة للقلب والروح فلماذا نضيعها في تحليل نشرات الأخبار بدل أن نجتهد في أداء النسك كما بينها رسول

العظيم ﷺ (خذوا عنى مناسككم)، ولماذا لا نبتهل بدموع حارة أن يبدل الله تعالى حال أوطاننا إلى ما فيه خير البلاد والعباد! ألا وإن من عجائب القرآن الكريم أنه أورد في سورة (الحج) نفسها آيات عن خطورة الجدل بغير علم، ومنها ما يتضمن تحذيراً من التفرغ للجدال بأن عمله ذلك تحت المراقبة إذ يقول تعالى:

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (الحج: ٦٨)

كما قال - ﷺ -: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح. إن أمتنا ليست فى حاجة لزيادة فى مساحات الأخبار ولا فى تحليل الأحداث؛ فقد صار العالم (قرية معلوماتية صغيرة) وما يحدث فى أدنى الأرض يعرفه من فى أقصاها فى ثوانٍ معدودات، لكننا نحتاج إلى أن يصح من الحجيج حجهم، وأن يتقبل الله نسكهم، وأن يستجيب منهم صالح دعائهم فرب دعوة صالحة من أشعث أغبر لا يؤبه له يغير الله تعالى به حالنا إلى أحسن الأحوال.

من بريد رئيس التحرير

الأخ العزيز الأستاذ العلامة الدكتور محمد عمارة، سلمه الله

رئيس تحرير مجلة الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

اطلعت على العدد الجديد من مجلة «الأزهر» الزاهرة، وقرأت بإعجاب افتتاحية العدد حول التنوير فى الفكر الغربي. وهو موضوع مهم جدا، وحيوى للغاية، أنتم خير من يكتب فيه.

أما اختياركم كتاب الدكتور صوفى أبو طالب: «بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني»

فهو اختيار مناسب جدا، جاء فى الوقت المناسب، وينطوى على دلالة يدركها أهل العلم وذوو الفطنة. وأنا وإن كنت دون ذلك بأشواط عديدة، فإننى فيما أزعم قد فهمت القصد، وعرفت أن اختيار هذا الكتاب فيه رد على الهجمة المسعورة على الإسلام التى تتورط فيها أطراف عديدة.

بحثت عن مقال المستشار طارق البشرى فى هذا العدد بلهفة فلم أجده. وفاجأنى المقال المنشور عن نقد كتاب الدكتور فيليب حتى: «الإسلام منهج حياة» الصادرة ترجمتها العربية فى بيروت فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضي. لأننى لا أعرف أن لهذا المؤرخ كتابًا بهذا العنوان. إذن، فهذه الصياغة «منهج حياة» له وليست لغيره. وهذا أمر غريب، فالرجل محسوب على التيار التغريبى الأمريكي، يخدم الأهداف الغربية من موقعه الأكاديمى البارز فى الجامعات الأمريكية، ويبتدع هذه الصياغة التى لم يسبقها إليه أحد فيما أعلم. أذكر بالمناسبة أن محمد أسد، اليهودى الذى أسلم، والذى رافق الملك عبدالعزيز فى أدق الفترات، وكان له بمثابة وزير الإعلام ونافذة على الصحافة الغربية، كانت له صياغات مبتكرة فى الدراسات الإسلامية مثل: «الإسلام فى مفترق الطرق»، و«منهاج الحكم فى الإسلام». هذا الموضوع يستحق المتابعة والدراسة.

افتقدت مقالاتكم فى «الأهرام». ولا أتابع جريدة «صوت الأزهر» التى تنشرون فيها، لأننى أكتفى بجريدة واحدة.

مع وافر التقدير وبالغ الاحترام وخالص المحبة.

أخوكم

عبدالقادر الإدريسى

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - وعبدالموجود أمين



الإمام الأكبر يصدر توجيهاته بتأمين الطلاب والمعاهد مع بداية العام الدراسي

أصدر فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر - توجيهاته لفضيلة وكيل الأزهر الشريف الدكتور عباس شومان بتشكيل لجان لبحث تأمين المنشآت والمعاهد الأزهرية وطلاب الأزهر والمدرسين مع بداية العام الدراسى الجديد حرصًا على سير العملية التعليمية ومستقبل أبنائنا الطلاب.

لجان إصلاح التعليم الأزهرى تستأنف عملها

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر - على ضرورة أن تحقق مناهج التعليم الأزهرى الإلمام بالعلوم الإسلامية كأساس لتبليغ رسالة الأزهر الإسلامية، والقرآن الكريم هو جوهر ذلك.

كما أكد فضيلته فى الكلمة التى ألقاها نائبا عنه فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر خلال اجتماع لجنة إصلاح التعليم بالأزهر على ضرورة تطوير المدخلات التعليمية من مناهج ومقررات، وسياسات القبول، والأنشطة والمبانى والتجهيزات؛ لتحقيق الأهداف وحل المشكلات وتعديل المسار نحو طريق النهضة الحضارية المنشودة، وإنشاء مراكز بحوث لتطوير التعليم الأزهري، تقومُ على إعداد وتطوير وتقويم المناهج الدراسية، فى ضوء بحوث علمية رصينة تتفق مع أحدث التوجُّهات العلمية والتربوية فى إعداد المناهج، وذلك فى ضوء رسالة الأزهر.

وشدد فضيلته على أن للأزهر الشريف «رسالة» تحمل التراث فهمًا، وتعليمًا، وتعلمًا؛ فهو الأمين على هذا الكنز العلمى الذى مضى عليه أكثر من ١٠٥٠ عامًا، كما أنه الجهة

الوحيدة المنوط بها الحفاظ على هذا الكنز، وأضاف فضيلته: إنَّ القضية الأساسية الأولى وراء المشاكل التي يُعاني منها التعليم في الأزهر ضعف كفاءة ومهنية المدرس؛ فالتعليم هو نقل المعرفة، والمعرفة إذا لم تكن موجودة فكيف نرتفع بالمستوى! والقضية الثانية الإدارة التعليمية بكل أبعادها.


أ.د. محمد مختار جمعة


أ.د. عباس شومان

وشدد فضيلته على ضرورة الاهتمام بالبحث الميداني، وفتح المجال للدراسة والاستفادة من الخبرات والدراسات العلمية من أجل تحديد الهدف الرئيسي المطلوب من كل مرحلة تعليمية؛ حتى لا ينتقل الطالب إلى مرحلة تعليمية جديدة دون إتقان للمرحلة التي تسبقها. وفى كلمته قال وكيل الأزهر إنه حان وقت العمل من أجل نهضة حقيقية للتعليم الأزهرى تعيد له مكانته ويجب أن تترجم جميع الأفكار المطروحة للتطوير إلى واقع لأننا نواجه تحديًا كبيرًا وعلى الجميع أن يتحمل المسئولية.

وحدد فضيلة الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف أربعة محاور للنهوض بالعملية التعليمية فى الأزهر ومصر كلها وهى المنهج والمعلم والمكان والإدارة التعليمية مؤكدا أننا إذا أردنا النهوض يجب أن نتعامل مع كل محور على حدة حتى يتم الانتهاء منه ثم نبدأ فى الذى يليه.

واتفق المشاركون فى الاجتماع على ضرورة أن يجمع الطالب الأزهرى بين حفظ القرآن الكريم، واستيعاب العلوم العربية والإسلامية، وبين تحصيل المعارف الحديثة، عن طريق دراسة المواد الثقافية؛ بحيث لا ينفصل الطالب الأزهرى عما يدور حوله من ثقافات ومعارف، وليواكب سوق العمل، ويكون عضوًا نافعًا لنفسه ومجتمعه.

وأكد المشاركون على أن إصلاح التعليم فى مصر - وخاصة فى الأزهر - يحتاج إلى جهود صادقة من كافة المسئولين عن التعليم ومن كافة الجهود المخلصة من العلماء المتخصصين فى كافة المجالات لوضع الأسس الصحيحة التى من خلالها تعيد للتعليم الأزهرى مكانته.

الإمام الأكبر يهنئ أبناءه الطلاب والمدرسين ببداية العام الدراسى الجديد

قدم فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، التهنئة للطلاب والمدرسين بالمعاهد الأزهرية وكافة مدارس وجامعات مصر بمناسبة بدء العام الدراسى الجديد.

ووجه فضيلة الإمام لهم رسالة حثهم فيها على السعى فى طلب العلم لأنه لا نهوض لأمة بغير العلم» مذكرًا بقول النبى ﷺ: «مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة»، ومتمنيًا لهم التوفيق والنجاح.

لجنة مشتركة من الأزهر والتربية والتعليم والأوقاف للتنسيق لسد العجز بالمدارس والمعاهد الأزهرية

بحث فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر والدكتور محمود أبو النصر وزير التربية والتعليم والدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف تشكيل لجنة مشتركة بين الأزهر ووزارتى التربية والتعليم والأوقاف لدراسة تحقيق التكامل بين الأزهر والأوقاف والتربية والتعليم والاستفادة من أئمة ووعاظ الأزهر والأوقاف لسد العجز بالمدارس والمعاهد الأزهرية للاستفادة بأعضاء المقارئ من أئمة الأوقاف لسد العجز فى تحفيظ القرآن الكريم بالمعاهد الأزهرية والاستفادة من معلمى الأزهر ووعاظه وأئمة الأوقاف فى سد العجز بمدارس التربية والتعليم لتدريس مواد التربية الدينية واللغة العربية وكذلك الاستفادة من معلمى التربية والتعليم فى سد العجز بالمعاهد لتدريس المواد الثقافية.

كما تم مناقشة تطبيق تجربة «التابلت» على طلاب الأزهر بالمناطق النائية أسوة بالتربية والتعليم خلال العام المقبل.

وكيل الأزهر يقوم بجولة مفاجئة لمتابعة سير الدراسة بالمعاهد الأزهرية

قام الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر الشريف، والأستاذ مؤمن متولى الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر، بجولة مفاجئة لعدد من المعاهد الأزهرية بمدينة نصر لمتابعة سير الدراسة، والاطمئنان على حضور الطلاب والتزام المدرسين بالحضور من بداية اليوم الدراسى حتى نهايته.

وقال وكيل الأزهر: إن تعليمات فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - واضحة بضرورة متابعة المعاهد الأزهرية والتأكد من انتظام الدراسة ومعاقبة كل من يقصر فى عمله، ومنح المتميزين مكافآت تقديرًا لتفانيهم فى العمل.

وأكد وكيل الأزهر خلال مروره على معاهد المنطقة الثامنة والمنطقة السادسة والشيبيني، على أن المرحلة المقبلة فى التعليم الأزهرى لا مكان فيها للإهمال، أو التقصير فالأزهر يمر بمرحلة استثنائية فى تاريخه تحتاج من الجميع الاجتهاد فى العمل حتى تعود للعملية التعليمية بالأزهر مكانتها.

وشدَّد وكيل الأزهر خلال زيارته للمعاهد على اتخاذ الإجراءات القانونية ضد كل من يخالف قواعد العمل أو يتخلف عن الحضور دون إذن، من الإداريين والعمال والمدرسين وشيوخ المعاهد وضد أى تقصير يصدر من الإدارات المشرفة سواء فى التفاتيش والمناطق دون استثناء فلا مكان لمهمل أو فاسد أو صاحب نفوذ.

وحذر فضيلة وكيل الأزهر المسئولين بالمعاهد من جمع أو قبول أى تبرعات نقدية تحت أى مسمي، مشددا على تحويل كل من يخالف ذلك للشئون القانونية.

وقرَّر وكيل الأزهر خلال جولته إحالة ٥٠ من العاملين والمدرسين بمعهد المنطقة الثامنة للتحقيق للتخلف عن العمل أو الخروج من المعهد من دون إذن.

كما قرر إحالة شيخ أحد المعاهد للتحقيق لتراخيه في أداء عمله وإحالة ٨ مدرسين للتحقيق؛ للتخلف عن العمل أو الخروج من المعهد بدون إذن.

كما قرر وكيل الأزهر إنشاء خطوط ساخنة للإبلاغ عن أي مخالفات بالمعاهد على مستوى الجمهورية وصفحة خاصة على الفيس بوك باسم مكتب وكيل الأزهر، وإنشاء جهاز مالي وإداري وعلمي تابع لمكتب وكيل الأزهر لمتابعة المعاهد على مستوى الجمهورية وتلقي شكاوى أولياء الأمور والطلاب والمدرسين والعمل على حلها.

الأزهر يعلن استعداده لتدريب أئمة المساجد ببلجيكا

أكد فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب – شيخ الأزهر – استعداد الأزهر لتقديم كل ما يساعد المسلمين في دول أوروبا لكي يكونوا أحد دعائم تحقيق الاستقرار في الدول التي يعيشون فيها.

وأضاف خلال استقباله السفير البلجيكي بالقاهرة / جل هيفارت أن الأزهر لديه برامج فعالة وملموسة لخدمة هذا الهدف ومنها تدريب أئمة المساجد في بلجيكا وأوروبا ليكونوا أدوات للاستقرار والمودة والسلام، واستقبال أبناء المسلمين للدراسة بالأزهر لمساعدتهم على النهوض ببلادهم من خلال المنهج الإسلامي المعتدل ومحاربة ما يظهر من أفكار متشددة ومتسيبة.

وطالب فضيلته السفير البلجيكي بالعمل على وجود قنوات اتصال مباشرة بين الأزهر وأئمة المساجد ببلجيكا للتدريب خلال المرحلة المقبلة لتحقيق تلك الأهداف.

ومن جانبه رحب السفير بتلك الأفكار ووعد بالعمل على إرسال المزيد من أبناء المسلمين ببلجيكا للدراسة بالأزهر لإعدادهم إعدادًا خاصًا لحمل رسالة الإسلام الصحيحة موضحًا أن مواقف الإمام الأكبر داعمة للسلام والاستقرار.

الأزهر يحذر الكيان الصهيوني من محاولات تهويد القدس والمسجد الأقصى المبارك

يؤكد الأزهر الشريف على رفضه لاستمرار الاحتلال الصهيوني الآثم، في خطواته الإجرامية، نحو تهويد معالم مدينة القدس الشريف، وتهويد المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وتدنيسه بالأقدام الهمجية، و محاولات تقسيم هذا المسجد المبارك على غرار ما تم في مسجد الخليل إبراهيم عليه السلام.

والأزهر يهيب بكل المنظمات والهيئات العربية والإسلامية والعالمية أن تهب لتحمل مسئوليتها التاريخية في التصدي لهذا العدوان الصهيوني على المسجد الأقصى ولتعلن جميعًا استنكارها ومقاومتها لهذه الهمجية ،وهذا الغزو الذي ينافي كل الأعراف والثقافات والحضارات والأديان السماوية.. وليكن غضب العالم المتحضر كله باسم الإنسانية كلها.

ويؤكد الأزهر مرة أخرى أن تهويد القدس، والعدوان على معالم الحرم القدسي الشريف هو خط أحمر، والأزهر ومن ورائه كافة المسلمين في الشرق والغرب يرفض هذه التصرفات الرعناء، ويحذر الكيان الصهيوني من التداعيات التي تهدد سلام المنطقة بل سلام العالم كله.



الإمام الأكبر ينعى اللواء نبيل فراج ويؤكد: استهداف رجال الشرطة ليس من الدين

نعى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، شهيد الواجب الوطني اللواء نبيل فراج، وأكد فضيلته أن استهداف رجال وقوات حفظ الأمن ليس من الدين في شيء، ويجب القضاء على مثل تلك الممارسات الإرهابية السوداء والتعامل معها بتطبيق القانون بكل حزم؛ لتحقيق أمن المواطنين والحفاظ على أرواحهم.

تقدير أردني لجهود الأزهر الشريف

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب – شيخ الأزهر – بشر الخصاونة سفير المملكة الأردنية الهاشمية بمصر والذي أبلغ فضيلة الإمام تقدير جلالة الملك عبدالله الثاني وتقدير الشعب الأردني لمواقف فضيلته المشرفة وللأزهر الشريف ووسطيته وإشعاعه العلمي والذي يشكل قيمة حضارية ومنارة علمية، مؤكدًا تضامن مملكة الأردن حكومة وشعبًا مع مصر ومؤسساتها وعلى رأسه الأزهر الشريف، موجها الدعوة لشيخ الأزهر لزيارة الأردن.

وقد أثنى فضيلة الإمام الأكبر على مواقف جلالة الملك عبدالله الثاني وتقدير الشعب الأردني لمصر وشعب مصر.

تحذير

لقد قيد الله للإسلام الأزهر الشريف الذي يقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن ينال من الإسلام أو يحاول تحريف القرآن بزيادة أو نقصان أو تبديل وقد ظهر على الشبكة العنقودية (النت) نسخ من القرآن الكريم بها تحريف وعلى سبيل المثال الزيادة التي وردت في الآية السابعة من سورة آل عمران فقد تم زيادة كلمة « بالحق » وكرر ثلاث مرات متتالية إذ كتبت كالآتي:

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتب وأخر متشابهات بالحق بالحق بالحق) منه»

والصواب كما هو مرسوم في المصحف قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(آل عمران: ٧)

والأزهر إذ يحذر من وجود آيات محرفة من القرآن الكريم على بعض التطبيقات التكنولوجية الحديثة وفقا لما تداوله بعض المدونين على « فيس بوك » وتناقلته المواقع الالكترونية . . . فإنه يهيب أيضا بكل مرتادى الإنترنت و مواقع التواصل الاجتماعي الاعتماد على المصادر الصحيحة عند قراءة القرآن الكريم وذلك عن طريق المواقع الالكترونية للأزهر ودار الإفتاء المصرية ووزارة الأوقاف على شبكة الانترنت .

كما يهيب أيضا بالشركات المتخصصة في هذا المجال بمراجعة التطبيقات الحديثة الخاصة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وكل ما يتعلق بعلوم الإسلام .

والله ولى التوفيق .

تحرير في : ١٦ من ذي القعدة ١٤٣٤هـ
٢٢ من سبتمبر ٢٠١٣م

الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية
توفيق عبد العزيز عبد السلام

بيان من مجمع البحوث الإسلامية

اجتمع مجمع البحوث الإسلامية بجلسته العادية المنعقدة يوم الخميس ٢٠ من ذي القعدة ١٤٣٤ هـ الموافق ٢٦ من سبتمبر ٢٠١٣ م بمشيخة الأزهر الشريف وبمناسبة الانعقاد الأول للمجمع في دورته الجديدة، فقد استعرض الأحداث التي مرت بالوطن في الشهور الأخيرة، ورأي أن يسجل الآتي :

أولاً : أن الإسلام يحرم الدماء وتدمير الممتلكات العامة والخاصة .

ثانيا : أن الإسلام يدعو إلي إجلال العلماء واحترامهم وأن ما تعرض له فضيلة المفتي الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد - مفتي الديار المصرية السابق - من تطاول يخالف آداب الإسلام وأحكامه والذوق العام .

ثالثا : أن المواقف التي اتخذها الأزهر الشريف وعبر عنها فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر هي المواقف المتفقة مع صحيح الدين، ومع الواجبات الوطنية .

رابعًا : أن الأزهر الشريف، وهو يعبر عن ذلك كله، حريص علي أن يبقي خارج المنازعات والمعارك السياسية، وعلي القيام بدوره الوطني في إطار القيم والمبادىء الإسلامية التي ظل حريصًا علي حفظها لأكثر من ألف عام .

والله سبحانه وتعالي من وراء القصد

تحريرا في ٢٠ من ذي القعدة ١٤٣٤ هـ
الموافق ٢٦ من سبتمبر ٢٠١٣ م

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية
الشيخ / توفيق عبدالعزيز عبدالسلام

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين / أحمد رضوان - يحيى سليمان

الاحتلال الإسرائيلي يغلق الأقصى أمام المصلين ويسمح للمستوطنين باقتحامه

أغلق الاحتلال الإسرائيلي المسجد الأقصى أمام الفلسطينيين ومنع طلاب المدارس وموظفي المسجد من دخوله .

وباغتت الشرطة الإسرائيلية المتواجدين في المسجد وحاولت إخراج المعتكفين بالقوة، واعتقلت ثلاثة منهم، واعتدت على الباقين بقنابل الغاز المسيلة للدموع وغاز الفلفل الحار . وقال المدير العام للأوقاف الإسلامية في القدس عزام الخطيب : إن الوضع متأزم بسبب إغلاق المسجد، مشيرًا إلى أن مجموعات صغيرة ومتتالية من المستوطنين يقتحمون المسجد في هذه الأثناء ويؤدون الصلوات داخله، وتوقع أن يتصاعد الوضع خلال الساعات القليلة المقبلة . يشار إلى أن إسرائيل فرضت إجراءات مشددة على دخول المصلين للمسجد، ومنعت من تقلُّ أعمارهم عن الخامسة والأربعين عاما من دخوله أو دخول البلدة القديمة . ويخشى المواطنون من إغلاق قوات الاحتلال بوابات المسجد أمام المصلين من أجل السماح بحرية اقتحام المسجد من المستوطنين في ظل عيد "العرش اليهودي" .

وجاء اقتحام الأقصى صباح يوم ١٨ سبتمبر ٢٠١٣م، بعد أن فرضت سلطات الاحتلال قيودا على وصول الفلسطينيين ودخولهم الى المسجد، لتمكين المستوطنين من دخول الأقصى بمناسبة "عيد العرش" .

وتصدت مجموعات من المواطنين للمستوطنين ورجال الشرطة الذين كانوا برفقتهم واندلعت مواجهاتٌ رشق خلالها الشبانُ رجالَ الشرطة والمستوطنين بالحجارة، فيما أطلق رجال الشرطة قنابل

غاز الفلفل والمسيل للدموع.

وحسب بيان صادر عن الناطقة باسم الشرطة الإسرائيلية فقد أصيب اثنان من رجال الشرطة بجروح طفيفة خلال المواجهات.

وقالت مصادر إن القوات الإسرائيلية منعت طلبة مدارس الأقصى الشرعية من الدخول إلى الحرم القدسي، فيما يحتشد مئات المقدسيين عند بوابات المسجد، كما أغلقت المسجد القبلي بالسلاسل وبداخله مصلون، وبدأت بقذف غاز الفلفل في المكان.

انتقادات دولية لإسرائيل بعد قرارها بناء مستوطنات جديدة بالضفة والقدس

هذا وقد أثار إعلان إسرائيل عزمها بناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية والقدس الشرقية مجموعة، ردود فعل دولية من الأمم المتحدة وواشنطن وموسكو.

وأعلنت الولايات المتحدة - حسبما أفاد راديو (سوا) الأمريكي أنها تشعر بـ"القلق البالغ" حيال قرار إسرائيل السماح للمستوطنين اليهود بمواصلة البناء على الأراضي الفلسطينية المحتلة برغم بدء جولة جديدة من محادثات السلام.

من جهتها، صرحت المتحدثة باسم الخارجية الأمريكية جينيفر بساكي للصحفيين "سياستنا لم تتغير، نحن لا نقبل بشرعية النشاط الاستيطاني المستمر".

من ناحيتها، وصفت روسيا قرار إسرائيل بأنه "غير بناء"، وقالت وزارة الخارجية الروسية إن موسكو "قلقة للغاية" من هذه الخطوة.

بدورها، اعتبرت الأمم المتحدة الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة غير مشروع، وقال مساعد الناطق باسم الأمم المتحدة إدوارد ديل بوبي إن "موقف الأمين العام بان كي مون حول المستوطنات واضح: (المستوطنات في الأراضي المحتلة غير مشروعة، كانت ولا تزال غير مشروعة)".

يذكر أن صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية أكدت في وقت سابق أن قرار إسرائيل بناء أكثر من ١٠٠٠ وحدة استيطانية جديدة في الضفة الغربية والقدس الشرقية يعرقل مفاوضات السلام بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني، حيث يزيد من حدة التوترات بينهما.

تقرير الأمم المتحدة يؤكد استخدام "السارين" في الغوطة الشرقية

أكد تقرير مفتشي الأمم المتحدة في سوريا أنه ثبت استخدام غاز السارين السام في الهجوم بالأسلحة الكيميائية الذي وقع في الغوطة الشرقية في ٢١ أغسطس الماضي.

وسلم سلستروم كبير محققي الأسلحة الكيماوية التابع للأمم المتحدة التقرير لبان كي مون، وكشفت مصادر دبلوماسية أن التفاصيل الواردة في التقرير وحدها كفيلة بكشف الجهة التي استخدمت هذا السلاح، مشيرين إلى أنه سيتعين بالتالي على المدافعين عن نظام الرئيس بشار الأسد تقديم الأدلة على براءته.

وذكر مسئول في الأمم المتحدة أن روسيا والولايات المتحدة وكل الأطراف، مارسوا ضغوطا على هذا التقرير، مضيفًا أن مكتب بان كي مون انتقى كلمات التقرير كلمة كلمة، وأضاف أن الهدف هو أن يُبرز التقرير كم كان الهجوم خطيرًا لكن في الوقت نفسه أن يدعم المبادرة الروسية الأمريكية.

ومجلس الأمن يفشل في التوصل لقرار

وقد فشل مجلس الأمن في التوصل إلى قرار بشأن سوريا، في أعقاب تأكيد مفتشين دوليين استخدام الأسلحة الكيميائية في هجمات استهدفت المدنيين في الدولة العربية.

وعقد ممثلو الدول الخمسة دائمة العضوية بمجلس الأمن اجتماعًا، لمناقشة مشروع قرار بشأن التخلص من الأسلحة الكيميائية في سوريا، على خلفية اقتراح روسي، لتجنيب سوريا ضربة عسكرية كانت تعد لها الولايات المتحدة.

وناقش الاجتماع مشروع قرار تقدمت به كل من واشنطن وباريس ولندن، يتضمن فرض عقوبات على نظام الرئيس السوري، بشار الأسد، بموجب "البند السابع" من ميثاق الأمم المتحدة، في حالة إذا لم تنفذ دمشق التزاماتها.

وقوبل مشروع القرار بمعارضة شديدة من قبل ممثلي روسيا والصين، حيث تعارض كل من موسكو وبكين أي تدخل عسكري خارجي ضد نظام الأسد، رغم إعلان تأييدهما الاتفاق الخاص بتدمير الأسلحة الكيميائية السورية.

وكان الأمين العام للأمم المتحدة، بان كي مون، قد دعا مجلس الأمن إلى اتخاذ "قرار ملزم"، يضمن تدمير الأسلحة الكيميائية السورية، بموجب الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين واشنطن وموسكو مؤخرًا.

وأضاف كي مون، في تصريحات قبل قليل من بدء الاجتماع المغلق لمجلس الأمن، أن الاتفاق يحظى، من حيث المبدأ، بتأييد جميع الدول الأعضاء بالمجلس، مؤكدًا أنه "ينبغي على مجلس الأمن أن يتخذ خطوات تحمل طابعًا إلزاميًا".

والكونجرس ينتقد أوباما

قالت شبكة (إيه بي سي نيوز) الإخبارية الأمريكية: إن "الاتفاق الروسي الأمريكي بشأن الترسانة الكيميائية السورية لم يكن مرضيا لبعض الأعضاء داخل الكونجرس حيث يرون أن الرئيس الأمريكي باراك أوباما أبرم اتفاقا سيئًا يتطلب المزيد من الثقة من جانب الروس".

وأضافت الشبكة - في تعليق لها بثته على موقعها الإلكتروني - أنه "على الرغم من نجاح وزير الخارجية الأمريكي جون كيري ونظيره الروسي سيرجي لافروف في التوصل لاتفاق بشأن نزع الترسانة الكيميائية السورية، فإن أوباما لا يزال يواجه الكثير من الانتقادات لطريقة تعامله مع الأزمة السورية منذ بدايتها وليس فيما يتعلق بالأزمة الأخيرة، ولا سيما من أعضاء الكونجرس الأمريكي".

مسلمو روسيا يحذرون من حظر ترجمة القرآن

حذر كبار علماء الدين الإسلامي في روسيا زعماء البلاد من احتمال اندلاع اضطرابات في المجتمعات الإسلامية في روسيا ومناطق أخرى إذا لم يتم إلغاء قرار قضائي يحظر تفسيرًا مترجمًا للقرآن الكريم.

وقضت المحكمة في مدينة نوفوروسيسك جنوبي روسيا بحظر النص المترجم الذي يقرأه المسلمون على نطاق واسع بموجب قانون روسي مناهض للتطرف تقول جماعات حقوقية إن السلطات المحلية أساءت استغلاله انطلاقا من التحيز ضد جماعات لا تعجب الكنيسة الأرثوذكسية

الروسية أو تتبرم منها.

وقالت جماعات حقوقية إن هذا القرار - الذي سيسري في كل أنحاء روسيا - إذا لم يتم إلغاؤه في الاستئناف يكاد يرقى لحظر القرآن.

ونبه مجلس الإفتاء الروسي في رسالة مفتوحة للرئيس الروسي فلاديمير بوتين، الذي دعا مرارا للوحدة بين الديانات الكبرى، إلى خطورة الأمر وحذر من أن التوتر العرقي يمكن أن يمزق روسيا.

ونقلت وكالة رويترز عن روشان عباسوف نائب رئيس المجلس الذي تربطه علاقات وثيقة بالكرملين قوله إن "مسلمي روسيا يشعرون بسخط كبير على مثل هذا القرار المشين".

حظر سري للنقاب بمستشفيات بريطانية

كشفت صحيفة تلغراف البريطانية في تقرير لها عن وجود قرار سري بحظر ارتداء النقاب على الموظفات المسلمات في ١٧ مستشفى.

وأضافت الصحيفة أن الحكومة البريطانية أمرت بمراجعة سياسة الزي الموحد في مجال الخدمات الطبية، مع توجيه المشرعين إلى ضرورة التأكيد على إعطاء الأولوية للتواصل بين الطاقم الطبي والمرضى، إذا كان ذلك يتعارض مع حق أفراد الطاقم بارتداء النقاب.

ولفتت الصحيفة إلى عدم وجود قواعد تنظم الزي في المستشفيات حاليًا، مما يترك الأمر بيد الإدارة الخاصة بكل مؤسسة على حدة، وقد عمدت الصحيفة إلى وضع قائمة بأسماء تلك المستشفيات.

بلجيكا: مسلمات يتركن المدارس بسبب منع الحجاب

بدأت عشرات التلميذات في ترك المدارس المحلية في مدينة (فيرفيه) البلجيكية، وذلك عقب منع ارتداء الحجاب فيها بناءً على قرار مجلس البلدية في مايو الماضي، الذي يستهدف المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب.

وقد قررت أسر التلميذات التسجيل في مدارس أخرى تسمح بالحجاب، باستثناء أسرة واحدة قررت التعليم في المنزل، ويشعر الآباء المسلمون دائمًا بالقلق من تعليم أبنائهم، ولكنهم يرفضون أن يكونوا مضطرين للاختيار بين القيم الدينية والنجاح المدرسي..

تقرير فرنسي يركز على تنامي المدارس الدينية بالساحل الإفريقي

حذر تقرير صادر عن البرلمان الفرنسي من خطورة الوضع في منطقة الساحل الإفريقي الغربي إن لم يتم التعامل معه بحزم، بسبب تزايد المدارس الإسلامية خصوصا بعد تمكن الإسلاميين من احتلال الشمال المالي لسنة ونصف، وهو ما جعل بعض السكان ينظر إليهم كخيار منطقي.

وفي هذا الصدد قدر التقرير عدد المدارس القرآنية التي يتم افتتاحها في المنطقة بمدرسة كل أسبوع في حين أن مئات من هذه المدارس أصبحت موجودة بالفعل في موريتانيا والنيجر، ومما يفاقم الوضع التزايد المستمر لسكان المنطقة، حيث يتوقع أن يبلغ تعداد سكان مالي والنيجر بحلول ٢٠٢٠م ما يقرب من ٥٠ مليون نسمة.

التقرير دعا المجتمع الدولي وعلى رأسه فرنسا لاستمرار اليقظة في تعاملها مع المنطقة.

كما اقترح التقرير كذلك أن تكون هناك عملية فصل لإفريقيا الغربية عن المغرب العربي من أجل

إيقاف حركة الإسلاميين بين المنطقتين، وكذلك للسيطرة على عمليات نقل الأسلحة. هذا بالإضافة إلى ضرورة تكثيف التعاون مع الجزائر خصوصا في المجال الاستخباراتي.

التقرير وصل إلى خلاصة مفادها أنه على الرغم من النجاحات التي تحققت على الأرض سواء على المستوى العسكري من خلال نجاح القوات الفرنسية والإفريقية في طرد الجماعات الإسلامية المسلحة من مدن الشمال المالي أو على المستوى الدبلوماسي من خلال التوصل إلى اتفاقية «وغادوغو» بين الحكومة المالية والحركات الأزوادية؛ فإن الأزمة لا تزال بعيدة عن الحل. وأوصى معدوه بضرورة تبني مقاربة قائمة على البعد التنموي من أجل استئصال الإرهاب من جذوره. كما أوصوا بضرورة عدم التغاضي عن المطالب المشروعة لسكان المناطق في شمال النيجر ومالي.

إبادة المسلمين في بورما

يتعرض مسلمو بورما اليوم لمذابح ومجازر لم يشهد لها التاريخ مثيلا حيث يقوم النظام الحالي بالتعاون مع جماعات بوذية متطرفة تعرف باسم «باغ» بعمليات قتل متعمدة وتنكيل في أوساط المسلمين في إقليم أراكان مستخدمة القتل الجماعي والتشريد والاضطهاد بهدف تهجير المسلمين عن قراهم ومنازلهم وهدم مساجدهم ومصادرة أوقافهم وممتلكاتهم.

تفيد التقارير الصحافية من داخل إقليم أراكان بأن قرى المسلمين في بورما تحاصرها أنواع مختلفة من القوات الرسمية وغير الرسمية من عصابات «الماغ» البوذية الإرهابية التي تمارس القتل والسحل والاغتصاب والتصفية في صفوف المسلمين بهدف تطبيق سياسة طرد «المواطن الروهنجي» وإحلال المواطن البوذي مكانه.

اكتشاف مقبرة جماعية لضحايا حرب البوسنة

تم العثور على مقبرة جماعية تضم رفات عشرات الكرواتيين والمسلمين البوسنيين ممن قتلوا في حرب البوسنة (١٩٩٢-١٩٩٥م)، في منطقة بريبدور (شمال غرب)، وفق ما أفادت النيابة العامة البوسنية في بيان.

وقالت النيابة العامة إنه "حسب التقديرات المرئية الأولية، ثمة عشرات الضحايا، إلا أن عددهم بالتحديد سيعرف عند انتهاء أعمال الدفن".

وأشار المصدر نفسه إلى أن المقبرة الجماعية تعتبر من أكبر المقابر التي تم العثور عليها خلال السنوات العشر الأخيرة.

وبعد سيطرة قوات صرب البوسنة على هذه المنطقة في أبريل ١٩٩٢م، تعرض أفراد المجموعات غير الصربية إلى القتل والتهجير. كما تم اقتياد عشرات آلاف الأشخاص إلى معتقلات.

وأثارت الصور الأولى لبقايا عظام عائدة لمعتقلين في منطقة بريبدور في أغسطس ١٩٩٢م صدمة لدى الرأي العام العالمي بسبب حجم "التطهير العرقي" في البوسنة.

وتم اعتبار أكثر من ثلاثة آلاف شخص في عداد المفقودين في منطقة بريبدور. وحتى اليوم، تم العثور على جثث ألفين من هؤلاء والتعرف إلى هوياتهم عبر فحوص الحمض النووي.

وأسفر النزاع بين المجموعات العرقية المختلفة في البوسنة عن سقوط نحو ١٠٠ ألف قتيل.

to approve what is beautified of uglified by reason unless Sha`ri`ah stated its beautification or uglification.

Shari`ah is what guides us to chasten the soul, and its reference is the Qur'an, which is reasonable of everything in addition to the policies required in regulating the people's affairs. This is like the religious laws that lead to keeping religion, minds, lineages, and money, and the religious law of the necessity which leads to obtaining the purpose, such as selling, renting, marriage, and its rulings.

Everything far from Shari`ah will not obtain a good outcome, we cannot follow the example of the people who resorted to their mind and the ideas they beautified and uglified, and thought that that they obtained what they sought by exceeding the limits. People should learn politics within the framework of Shari`ah not with mind only. It is well-known that Shari`ah does not prevent gaining benefits and warding off evil things, and does not conflict with the innovations and inventions of those whom Allah endowed with good mentality and means of industry."[17]

Al-Tahtawy remained abiding to this approach towards the European civilizational model, taking its positive sides and opposing its negative sides.

When he came back to Egypt and presided over the Administration of Translation, he brought to Egypt's library with two lists of books to be printed, the first is concerned with translations in the field of the sciences of civil urbanization, which is a condition of the construction and progress of the nation, and the other is concerned with Islamic heritage books, which innovates the communication between the modern Muslim's mind and his noble Islamic cultural model.

The infiltration of the European positive laws started at the time of Khedive Said Pasha [1270-1279 A.H. / 1854-1863 A.D.] in the commercial courts at the ports to settle the disputes between the foreign and Egyptian merchants. Al-Tahtawy opposed the infiltration of this positive law to the Islamic law, as it puts aside the jurisprudence of the Islamic transactions. He wrote, justifying his opposition in his writings, as follows:

[17] The previous reference, part 2, pp. 159, 160, 32, 477, 386, 387, Beirut edition, 1973.

"If the jurisprudential transactions are applied, there will be no violation of rights, as it proves successful in terms of time and status. Whoever scrutinizes at the Islamic jurisprudential books will notice that they are not void of organizing the beneficial means from the general benefits. There are certain chapters specified for the commercial rulings such as the company, speculation, loan, reconciliation...etc.

The rich Shari`ah, with its ramous projects did not leave any issue, either small or big, without handling, and the political rulings did not go far from the doctrines of Shari`ah, as it is the origin and the other political tendencies are like its branches."[18]

This is regarded as the Islamic vision of the relations law between the civilizations. This vision:

- Refuses isolating the civilizations from each other and focusing only on the special aspects of each civilization.
- Refuses blind imitation that exists between civilizations, proceeding from revealing the common aspects between these civilizations and disregarding the special aspects of each of them. This practically leads to the strong civilizations dominating the other civilizations, proceeding from the Darwinian point of view, which states that the strongest will survive, claiming that the strongest is the fitter.
- This Islamic vision relevant to the acquaintance of the civilizations leads t defining the common aspects, which are concerned with interaction and acquaintance among civilizations. Besides considering the special aspects of each civilization, the matter that leads to diversity of the civilizations created by the nations and people, when this point is taken into consideration.
- This was the attitude of the Islamic civilization towards this issue, which has been and is still a source of dispute and controversy. This is a model of the applications witnessed by the Islamic history with regard to the acquaintance of civilizations in our modern age.

[18] The previous source, part 1, pp. 544, 369, 370, and 533, Beirut edition in 1973.

Yes, there is friendliness and cordiality   but I did not mix both civilizations

He also said:

"The Egyptian nation can hardly yield to foreigners."[14]

Al-Tahtawy drew the attention of his people, while acquainting himself with the European civilization, to the meaning of "science" while dealing with the sciences of the text and the mechanisms, without the sciences of civil urbanization, which are concerned with the progress of the nations. He said:

"You will get that the Christians excelled other people in the sciences, and our country is void of much of these sciences. Also, you will find that Al-Azhar in Cairo, Ibn Umayyah Musque in the Levant, Al-Zaitunah Mosque in Tunisia, Al-Qarwiyyin Mosque in Fas, Al-Bukhari's schools, and the like are full of canon-based sciences and some of noetic sciences such as Arabic, logic, and other modern sciences."[15]

Also, he got acquainted with the European sciences of civil urbanization, which are a condition for the reformation and progress of countries, and with the human experiences in the constitutional and parliamentary systems. He also acquainted himself with the French creativeness on the theatre, which was a school for educating the audience.

Al-Tahtawy shortly reached in his acquaintance with the Islamic East and the European civilization a formula through which he called for acquiring the European sciences of civil urbanization. In his wording, "It is the noble sciences, which are needed and benefited from in our country and nation, such as medicine, engineering, math, astrology, physics, geography history, administration, economics, martial arts, and everything relevant to art and industry."[16]

He called for acquiring these "noble" sciences at the same time when he refused irreligious positivism, which is controlled by reason without any reference to Shari`ah or religion. This led to marginalizing Christianity in Europe.

Al-Tahtawy concluded in his acquaintance with the European civilization to this balanced and accurate wards, in which he said:

[14] The previous reference, part 1, p. 121.
[15] The previous source, p. 1, p. 129.
[16] The previous source, part 1, page. 285

Is there anything like Paris,

Where the sun of knowledge does not rise,

The night of disbelief has no morning,

However, this is strange.

This city, like the other cities in France and the Western countries, is fill of abominable acts, innovations in religion, delusion, although it is one of the most developing countries in the field of sciences.

Most of the inhabitants of this city are not actually Christian in the very sense of the word, as they do not follow the instructions of their religion, and do not feel jealously for it. Rather, they believe in reason only, and say that what is permitted by reason is right. Thus, they do not believe in what is mentioned in the Heavenly Books, as they sometimes go beyond normality. They have some delusions contradicting to all the Heavenly Books.

Then, Al-Tahtawy mentioned the components of this equation in the European civilizational model:

- Wisdom and accuracy of the sciences of civil urbanization, which do not come to an end in this country.
- Marginalizing religion, apotheosizing abstract reason and natural laws, and disregarding Shari`ah, as the night of disbelief does not have any morning.

After this indication about the scientific renaissance under irreligious positivism, which is full of delusion, Al-Tahtawy drew the attention to the balance of the Islamic civilizational model, which combines between reason and Shari`ah, reasonable matters and matters relevant to worship. In this way, politics resorts to Shari`ah and does not resort only to secularism. Al-Tahtawy drew the attention to this Islamic model against the European model, saying:

"Improving the natural laws cannot be regarding unless Shari`h approved it, and the legal and political obligations throughout the world system is based on the correct mental obligations void of impediments and suspicions. This is because Shari`ah and politics are based on reasonable wisdom or worshipping wisdom, which is only known by Allah (Glory be to Him). We are not entitled

*The Sheikh's visit to Paris

By: Dr. Muhammad `Imarah
Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

In the modern age, and after centuries of ignorance and isolation caused by the militarization of the state due to the foreign invasions – such as the crusaders and Tatars, which threatened their existence, the nation woke up, being shocked by the French Campaign led by Bonaparte [1869-1821] heading to Egypt and the East [1213 A.H. – 1798 A.D.]. This was the shock encountered by the pioneer of innovation, Sheikh Hassan Al-`Attar [1180-1250 A.H. / 1766-1852 A.D.] saying:

"Our country should be changed and the sciences and information therein should be innovated."

Al-`Attar sent his most outstanding student Sheikh Refa`ah Al-Tahtawy [1216-1290 A.H. – 1801 – 1873 A.D.] as a leader of the mission sent to Paris to get introduced to the modern European civilization [1241 A.H. – 1826 A.D.]

Refa`ah Al-Tahtawy was the first eye look for warding to the modern European Renaissance, and the first to apply the Islamic approach in the recognition of civilizations to what he found in Paris.

He went to Paris intending to get introduced to the European civilization and breaking the siege of the cultural isolation of Egypt and the East, announcing:

"Mixing with the foreigners, especially when they are enlightened brings about to our homeland the most amazing benefits."[13]

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine which is published in Arabic in the same Issue.

Al-Tahtawy visited Paris after creating a strong intellectual bond with Al-Azhar and his entity was hued with Islam, its creed, Shari`ah, values, belonging to the homeland and nation. He was not as to nished with the civilization he found in Paris, which was flourishing and catching the eyes of many people at this time.

Hence, Al-Tahtawy, who was the pioneer of getting introduced to the modern European civilization, distinguished between the Nano-science and the neutral science, which he called the sciences of civil urbanization. It is also a condition in the progress of the nation. Their facts and laws do not be changed by diversion of differ according to religions, philosophies, and nations. These are the sciences, which were previously acquired from the Muslims, who previously acquired them from the ancient civilizations.

Al-Tahtawy differentiated in the cultural acquaintance between these sciences, which are a general human common thing and the positive and non-religious philosophies the people of Paris and Europe, which depend on reason only apart from Shari`ah and the natural laws, which are isolated from religion. This contradicts with the Islamic philosophy, which reason and the text, wisdom and Shari`ah are combined.

Al-Tahtawy realized that this European positive philosophy, which he described as delusion, marginalized Christianity and deprived it from reliability and affecting the behavior of the Europeans.

While getting introduced to the European civilization, he differentiated between the human experiences in the constitutional and parliamentary system, which subject the values and principles of freedom to practice and organizing the consultancy of the nation and the authorities of the people in charge. He differentiated between these experiences and the peculiarity of the people of Paris with regard to creeds, philosophies, and their set of values and morals.

He did not ignore the fact that he deals with a civilization, which has an imperialistic trend, which seeks to invasion and imperialism. He drew the attention to the necessity of differentiating between acquiring the sciences of civil urbanization and the human experiences, whose benefits are obtained and the imperialistic trend of this civilization. He expressed this in poetry and prose, saying:

[13] - Al-Tahtawy, Complete works, part 1, p. 120, studied and verified by Dr. Muhammad `Imarah, Cairo edition, 2010.

First type: The understanding of the verse depends on knowing it, and it is the only type to which the concept of the reasons for sending down the Qur'an applies, as it is the core of the Divine Speech in the sent verse. This type should be known by the exegete, as it explains the ambiguous matters in the Qur'an. This is true to the saying of Allah:

{Certainly has Allah heard the speech of the one who argues with you, [O Muhammad], concerning her husband and directs her complaint to Allah. And Allah hears your dialogue; indeed, Allah is Hearing and Seeing.}[7]

{O you who have believed, say not [to Allah's Messenger], "Ra'ina" but say, "Unthurna" and listen. And for the disbelievers is a painful punishment.}(Al-Baqarah (the cow) : 104)

Some verses, which contains:

{And some of the people…}

The second type: Incidents, regarding which legislations and rulings were sent down. However, these incidents and the like thereof "do not reveal a general meaning and does not contradict with the significance of the verse in general, in particular, or with limitation. However, if their like thereof are mentioned, they are found equal to the significances of the sent down verses at the time of their sending down.[8]

This is like the speech of `Uwaimir Al-`Agalany in which the verse of Li`an was sent down as well as the speech of Ka`b ibn `Ujrah, about whom the verse:

{And whoever among you is ill or has an ailment of the head [making shaving necessary must offer] a ransom of fasting, or charity or sacrifice.}[9]

Thus, Ka`b said: It is for me in particular and for you in genera.

It is clear that this type is not a reason effecting the sending down of the Qur'an, but it is included in the directives of the verses, which were sent down after this incident. The expression of Sheikh Ibn `Ashur was extremely accurate, when he said: "The verse of Li`an was sent down concerning him," and he did not say: "The verse was sent down because of him."

[7] Surah Al-Mujadalah: 1

[8] M. N: 1/48.
[9] Surah Al-Baqarah: 196.

The difference between the two expressions means restoring the relation between the Qur'an and the real state of affairs to its right position after it was turned upside down in the project of tradition and innovation.

The Sheikh says: "Searching in this type does not benefit except in increasing the understanding of this verse and its ruling. And it is not feared to allocate the ruling to this incident. The scholars agreed, or almost agreed that the reason for sending down the verse in this regard cannot be allocated. And they agreed that the origin of legislation should not be special to anything."[10]

The third type: recurrent incidents concerning a certain person; thus a verse was sent down to elevate its status, reveal its rulings, and warn those who commit it. Most of the exegetes say while explaining this type of verses: "The verse was sent down about so-and-so" and "They want to say that one of the circumstances to which this verse refers is the special case; and it seems that there is assimilation. The exegetes and narrators referred to it frequently, and this is no use in mentioning it, as its mentioning may delude some of the people to limit the verse to this incident due to the disappearance of the general meaning from the wording of these verses."[11]

The fourth type: Incidents, which were not linked to the sending down of any verses. However, the previous and subsequent verses contain something that suits the meaning of these incidents. "Some of the righteous predecessors might say what deludes the people to the point that these incidents were intended by these verses, although what is meant is that they are included in the meaning of the verse."[12]

The fifth type: Incidents that reveal generalized meanings in the verse, reveals a matter that is like it or the incidents of these verses. In all cases, they are not regarded as reasons for sending down the verses.

[10] M.N: 1-/48.
[11] M.N: 1/48-49.
[12] M.N: 1/49: Al-Zarkashy said in Al-Burhan fi `Ulum Al-Qur'an 1/32-32: "He knew from the habit of the Companions and the followers that he said: "the verse was sent down concerning such-and-such, as he means that the verse contains this ruling, not that this was the reason for its sending down." Refer to Al-Itqan: 1/83, and Al-Tahrit wal Tanwir: 1/50.

reason did not take place, we should assume that this verse would not have been sent down. Such way of thinking turns the simplest rules of understanding the Qur'an upside down.

We can never combine the saying that the Qur'an is a Divine Revelation and the saying that the Qur'an is part of the real state of affairs and is affected by it. This is except in the case where the hidden objective behind these contradictions is setting aside the Holy Qur'an from being a basic element in the project of renaissance and innovation.

We do not dare accusing the pioneer of "Tradition and Innovation" with anything like this. However, we write down from our reading of the project that he fell in the contradiction in which any thinker or innovator would fall in when he tries to attribute to the Qur'an that it is a Divine Source and a material source at the same time.

The researcher has the option either to refuse objections and contradictions without losing the coherence required between his claim and the claims entailed by him. Here, discussion with him will be limited to the claim of the Qur'an being created by Allah or a human being, not what is founded on the basis of this claim. Otherwise, the discussion will be regarding the result, although we here correct and test the introductions.

The researcher may either start from the opinion that the Qur'an is a Divine Revelation. Then, he believes inevitably in the effect of the Qur'an on the real state of affairs by directing it, changing it, or correcting it. However, combining these two assumptions is like combining two things that can never be combined.

Our earlier and contemporary scholars drew the attentions to the danger of this bad exploitation of the narrations of the reasons of sending down the Qur'an in destroying the religion and its pillars. The saying that the Qur'an is specialized with the real state of affairs in which it was sent down, it cannot be believed by any same in addition to the fact that it is a lie that all the Muslims know.

Imam Taqiy Al-Din ibn Taymiyah[5] said: "It was much said in this concern that such-and-such verse was sent down concerning such-and-such matter, especially when a certain person was mentioned. Those who said that do not absolutely mean that the ruling of the verse is special to those such-and-such people only.

This cannot be said by a Muslim or a reasonable person. People may argue concerning the general wording that is relevant to a certain reason; is it special to this reason or not? No one of the Muslim scholars said that the general meaning or wording of the Qur'an and the Sunnah are specified to a certain person. However, what can be said at the utmost degree is that it is specified to this type of person, and it includes the like thereof.

The generalization here is not relevant to the wording or the verse that has a certain reason, whether it is a command or a forbidden matter. It concerns this person and others than him who are at his status. If it is praise or dispraise, it deals with this person and others who are at his status."

Sheikh Muhammad Al-Tahir ibn `Ashur (died in 1393 A.H.), who was one of the eminent exegetes of the Qur'an in the recent age, said: "I do not excuse the outstanding exegetes, who stated the weak narrations in their books without giving a hint on their being sound or weak. They deluded many people saying that the verses of the Qur'an were not sent down except for a certain reasons that necessitate their sending down. How bad is this illusion! The Qur'an was sent down to guide to the reformation of the nation. Its sending down is not limited to the occurrence of the incidents demanding the legislation of the rulings.[6]

The contemporary Imam considered reviewed all the reasons for sending down the Qur'an, which have sound narration and classified them to five categories:

[5] Collection of Fatwas by Ibn Taymiyah: 13/181-182, and see Al-Itqan fil 'Ulum Al-Qur'an, by Al-Siyuty: 1/85.

[6] Al-Tahrir wal Tanwir, by Ibn'Ashur: 1/64.

If some of the verses relevant to rulings were associated with partial incidents, the verses relevant to monotheism were not linked to a certain reason, requirement, or motive from the real state of affairs. They were sent down in fact to destroy the Pre-Islamic state of affairs to set up another society. This may be what Imam Muhammad `Abdo meant in his saying: "The reasons for sending down the verse of the Qura'n may be required with regard to the verses of rulings, as knowing the events and incidents, concerning which the ruling was sent down helps one to understand it and its wisdom well. As for the verses relevant to monotheism, which is the main purpose of religion, there is no need for the reasons for sending down the verses, and they do not wait for a question. Also, whatever incident is associated with its sending down – even if the narration is sound – will not increase our understanding of the verse.[1]

2- Concerning the verses, which were associated with a certain incident, the exegesis, history, or rulings are mixed with a certain reason for sending down the verses. The matter is still in need for deep researches to know certainly whether we handle an incident, which caused sending down the verse or not. Fortunately, the books handling the reasons for sending down the verses, which are limited in number, did not present to us a reason for sending down each verse.

This is sufficient for refuting the saying that links the Qur'an to the real state of affairs in cases of weakness and strength. Also, a sufficient evidence is the various examples which are found by the reader of the reasons for sending down the verses of the Qur'an by Abu Al-Hasan Al-Wahidy (died in 468 A.H.), in which he linked the reason for sending down a Qura'nic verse with what the people of Musa did in the old times[2], or between the verse and what is regarded

[1] Cited from Tafsir Al-Manar, by Muhammad Rashid Reda: 2/56.
[2] Refer to the sayings of Al-Wahidy about the noble verse "Do you (faithful believers) covet that they will believe in your religion." [Al-Baqarah (The Cow): 75] regarding the reasons of sending down the Qur'an.

as an interpretation and not reason for sending down the verses of the Qur'an. Tens of reasons for sending down the Qur'an are affiliated with this type. The reason for sending down the Qur'an, as Sheilh Muhammad Rashid Reda said" is not more than understanding for the narrated incident in the verse, and its interpretation may be right or wrong, and no one should follow it. However, the person who found a mistake should reveal it, especially when he cannot accept the meaning he gets from the verses.[3]

3- The Fundamentalist principle, which is well-known by the professor, which states: "What is important is the general meaning of the word not the reason in particular."[4]It eliminates completely the attempt to link the Qur'an with the real state of affairs in which the cause is linked to the caused. In the light of this fundamentalist principle, we should not stop with the content of the verse at the limit of the incident concerning which the verse was sent down. The significance of the verse – as it is a Divine Speech – surpasses the limit of time and place, which encompassed the sending down of the Qur'anic verses.

We do not doubt that the professor knows this in a way deeper than what we hinted at. However, we wonder: "Is it one of the rules of the scientific research that the researcher introduces a contradictory ruling to the subject of the research, then he tries to get from a general title or a flowing concept something to rely on in generalizing the rule that the Qur'an is affected by the real state of affairs?

The simple fact, which is known by the professor if he abided by the logic of this heritage in terms of origin and braches is that the Noble Qur'an addresses and affects the real state of affairs. This is regardless the incidents or circumstances accompanying the sending down of some of the verses. The incidents were not the cause of the sending down of the Qur'an, i.e., whenever we assume that the

[3] Tafsir Al-Manar, by Muhammad Rashid Reda: 3/320.
[4] See Al-Mustasfa in Fundameltalism, by Al-Ghazaly, 1/236.

One of the objectives of Hajj is to establish the Islamic unity, as various Muslim groups from all over the world wear the same uniform, as you can not distinguish between a ruler and a subject or a prince and a poor person.

The Muslims in Hajj wear Ihram garment which cancels the differences, and the unity is established with all its meanings. This teaches and trains the Muslims to get united and not to be separated by prestige or richness. Allah (Glory be to Him) said in Surat Al-Hujurat:

{The believers are nothing else than brothers (in Islâmic religion). So make reconciliation between your brothers, and fear Allâh, that you may receive mercy.} Al-Hujurat (the apartments)

In Hajj, besides all this, there are commercial benefits. Allah (Glory be to Him) said:

{There is no sin on you if you seek the Bounty of your Lord (during pilgrimage by trading). Then when you leave 'Arafât, remember Allâh (by glorifying His Praises, i.e. prayers and invocations) at Al-Mash'ar-il-Harâm. And remember Him (by invoking Allâh for all good.) as He has guided you, and verily, you were, before, of those who were astray.}
[Al-Baqarah (The Cow): 198]

I met an honorable Syrian brother at the airport at one of the times when I performed Hajj and we arrived at Saudi Arabia from two different planes. He called me to help him move a big sack full of pinon in front of the ladder of the plane to a place near it. He told me during a short speech: "I perform Hajj almost every year after I save from the money of my trade a sum enough for Hajj fees and round trip from my country to Saudi Arabia.

I get the rest of the Hajj expenses from selling the pinon to some Saudi merchants. The sum I get is enough for covering the expenses of my stay, and necessary food, drink, etc.

It is well-known that Makkah Al-Mukarrama (Honored) and Al-Madinah Al-Monawwarah (lighted) are full of various markets that become brisk at Hajj season, as the pilgrims are used to get many clothes, electric devices, and presents to their families and friends in their countries.

Tradition and Innovation:

-5-

(Reasons for sending down the verses of the Holy Qur'an and the personal opinions of the exegetes).

By: the Grand Imam Prof-Dr.
Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

Although we admit that we are not specialized in the sciences of the Noble Qur'an, we can certainly claim that the common available material concerning the reasons for sending down the verses of the Qur'an indicate that the personal opinions of the exegetes are considered as the real reasons for sending down the verses, and they are extremely mixed. The thing that can be relied on with regard to knowing the episodes that are regarded as the real reasons for the sending down of some of the Qur'anic verses is the soundness and trueness of the narration.

1- It is not true that the reasons for sending down the verses encompassed the Noble Qur'an and caused its sending down, and that the Qur'an was sent down according to these reasons and the requirements of the real state of affairs. The well-known fact is that the majority of the verses of the Qura'n were sent down without any reasons or incidents causing them to be sent down. This means that this majority of the verses were not answers to questions or reactions to certain incidents happened in the society of Makkah or Madinah at the time of the message. Also, the phrase "they ask you" was mentioned in the Qur'an fifteen times.

Pilgrimage (Hajj) as : Objectives and Rules of conduct...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

One of the most important objectives of Hajj, which requires the pilgrim to go to Saudi Arabia, is to follow the pattern of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) and his honorable followers. This is to perform the same rituals he previously performed, and to pass through the same places he (the Messenger of Allah, may the blessings and peace of Allah be upon him) passed through or stayed at.

It seems that these places exclaims: Welcome to you, O pilgrim. You gaind Allah's great Pleasure. Another objective also is the pilgrim's return from the Hajj trip free of any sins and evil deeds in the same way he was when he was born.

The honorable Companion Abu Hurayrah (May Allah be pleased with him) he narrated that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Which is the best act of worship?" He said: "Belief in Allah and His Messenger." Then he said, then what next? He said: "Strife in the Cause of Allah." Then he said, then what next? He said: "An accepted Hajj." (Sahih Al-Bukhari)

The most remarkable proprieties of Hajj are summed in verse no. 197 in Surat Al-Baqarah.

{The Hajj (pilgrimage) is (in) the well-known (lunar year) months. So whosoever intends to perform Hajj therein (by assuming Ihrâm), then he should not have sexual relations (with his wife), nor commit sin, nor dispute unjustly during the Hajj. And whatever good you do, (be sure) Allâh knows it. And take a provision (with you) for the journey, but the best provision is At-Taqwa (piety, righteousness). So fear Me, O men of understanding!} (Al- Baqarah (Cow): 197)

The rituals, objectives, and proprieties are combined in some of the acts of Hajj such as Talbiyah (devotional expressions chanted at certain times during Hajj and `Umrah), as its words include monotheism and and completely avoiding Shirk (associating others with Allah in His Divinity or worship).

On the authority of Abdullah ibn `Umar ( May Allah be pleased with him and his father) said: "*Labbayka Allahumma labbayk, labbayka la sharika laka labbayk. Inna al-hamda wan-ni`mata laka wal-mulk, la sharika lak* (Here I am, O Allah, here I am. Here I am, You have no partner; here I am. Verily, all praise and blessings are Yours, and all sovereignty, You have no partner)."

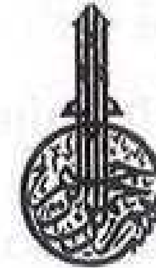
Ibn Kathir said in the exegesis of a verse in Surat Al-Tawbah:

{And a declaration from Allâh and His Messenger (peace be upon him) to mankind on the greatest day (the th of Dhul-Hijjah , the twelfth month of Islâmic calendar) that Allâh is free from (all) obligations to the Mushrikûn (See V.:) and so is His Messenger (peace be upon him). So if you (Mushrikûn) repent, it is better for you, but if you turn away, then know that you cannot escape (from the Punishment of) Allâh. And give tidings (O Muhammad peace be upon him) of a painful torment to those who disbelieve.}

[Al-Tawbah (Repentance): 3]

The first part of this honorable Surah was sent down on the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) while coming back from the Battle of Tabuk and he wanted to perform Hajj. Abu Hurayrah said: "Ali ibn Abu Taleb is with us in Mina On the Day of Sacrifice (i.e. he recited the verse of Al-Tawbah) Then he said: "Non Mushrik (person who associates others with Allah in worship) will perform Hajj with us. And no one will circumambulate the Ka`bah naked (as the Mushriks of Makkah had done before the sending down of the honorable verse).

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Hijjah, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
October, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM AL-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

الفهرس السنوى لعام ١٤٣٤هـ

المحرم

صفـــــــر

ربيـــع الأول

ربيـــع الآخـــر

جمـــادى الأولـــى

الفهرس السنوى

جمادى الآخرة

رجب

شـــــعبان

رمضـــــان

شـــــــوال

ذو القعـــــدة

الفهرس السنوي

ذو الحجة

مكتبة الأزهر الشريف

إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب فى الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثانى.

مواقيت الإحرام

العراق
كويت
المملكة العربية السعودية
المدينة المنورة
ذو الحليفة
الجحفة
ذات عرق
أم القرى
قرن المنازل
يلملم
البحر الأحمر
اليمن
أثيوبيا

الأزهر